وَحْيُ القَلَمْ

وحي القلم

"بيانٌ كأنَّه تنزيلٌ منَ التَّنزيل" أو قبسٌ مِن نورِ الذِّكرِ الحكيم"

سعد باشا زغلول

في تقريظه "إعجاز القرآن" للرافعي

كتبه

مصطفى صادق الرافعي

بعناية

بسّام عبد الوهّاب الجابي

الجفان والجابي للطباعة والنشر

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

ISBN 9953-81-032-X

9789953810324

[ٱلطَّبْعَةُ ٱلأُوْلَىٰ]
(حُقُوْقُ ٱلطَّبْعِ مَحْفُوْظَةٌ)
ٱلْقَاهِرَةُ
مَطْبَعَةُ لَجْنَةِ ٱلتَّأْلِيفِ وَٱلتَّرْجَمَةِ وَٱلنَّشْرِ
١٣٥٥ - ١٩٣٦م

حُقُوقُ ٱلطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

ISBN 9953-81-032-X

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

AL-JAFFAN & AL-JABI
Printers - publishers

JAFFAN TRADERS P.O.Box: 54170 - 3721 Limassol - CYPRUS
Fax: 357 - 5 - 591160 Phone: (05) 583345
http://www.jaffan.com/ - E-mail: hj@jaffan.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِين ، وَأَفْضَلُ ٱلصَّلاةِ وَأَتَمُّ ٱلتَّسْلِيمِ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

هَذَا ٱلْكِتَابُ :

« وَحْيُ ٱلْقَلَمِ » عُنْوَانٌ ٱخْتِيرَ عَلَمًا عَلَىٰ مَجْمُوعَةِ ٱلْمَقَالاتِ ٱلَّتِي نَشَرَهَا ٱلرَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فِي مَجَلَّةِ « ٱلرِّسَالَةِ » أَوَّلًا ، ثُمَّ أُضِيفَ إِلَيْهَا ٱلْمَقَالاتُ ٱلأُخْرَىٰ دُونَ ٱسْتِقْصَاءٍ .

وَقَدْ نَشَرَتْ سِلْسِلَةَ مَقَالاتِ « كَلِمَةٌ وَكُلَيْمَةٌ » ٱلَّتِي نُشِرَتْ فِي « ٱلرِّسَالَةِ » وَلَمْ يَضُمَّهَا كِتَابُ « وَحْيُ ٱلْقَلَمِ » ؛ بِكِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ يَحْمِلُ ٱلْعُنْوَانَ نَفْسَهُ ، ٱحْتَوَتْ مُقَدِّمَتُهُ : « أَقْوَالَ ٱلْعُظَمَاءِ فِي ٱلرافِعِيِّ » ، تَبِعَهَا نَصُّ ثَلاثِ مَقَالاتٍ لِلأُسْتَاذِ ٱلْعُرْيَانِ عَنِ ٱلرَّافِعِيِّ نَشَرَهَا فِي حَيَاةِ ٱلرَّافِعِيِّ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ أَحْمَدُ حَسَنِ ٱلزَّيَّاتِ فِي إِعْلانِ وَفَاةِ ٱلرَّافِعِيِّ ، ثُمَّ كَلامُ ٱلرَّافِعِيِّ عَنِ ٱلْمَوْتِ ؛ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ نَصُّ مَقَالاتِ « كَلِمَة وَكُلَيْمَة » ، ثُمَّ كَانَ مِسْكُ ٱلْخِتَامِ مَا كَتَبَ ٱلأُسْتَاذُ مَحْمُود أَحْمد شَاكِر عَنِ ٱلرَّافِعِيِّ ؛ رَحِمَ ٱللَّهُ ٱلْجَمِيعَ .

وَمَنْ يَعِيشُ مَعَ مَقَالاتِ ٱلرَّافِعِيِّ ، وَيَكُونُ عَلَىٰ مَعْرِفَةٍ بِحَيَاتِهِ ، يَلْفُتُ نَظَرَهُ أَنَّ ٱلَّذِي أَشْرَفَ عَلَىٰ طِبَاعَةِ ٱلْجُزْءِ ٱلأَوَّلِ وَٱلثَّانِي مِنْ « وَحْيِ ٱلْقَلَمِ » هُوَ ٱلأُسْتَاذُ ٱلْعُرْيَانُ ، وَمَا إِنْ صَدَرَ ٱلْكِتَابُ وَوَصَلَتْ نُسْخَةٌ مِنْهُ لِلرَّافِعِيِّ حَتَّى كَانَ ٱلْخِصَامُ بَيْنَهُمَا .

يَقُولُ ٱلْعُرْيَانُ فِي حَاشِيَةٍ لَهُ فِي مُقَدِّمَتِهِ لِكِتَابِهِ « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » : كَانَ بَيْنَنَا مُغَاضَبَةٌ بَاعَدَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ [أَيْ : وَبَيْنَ ٱلرَّافِعِي] بِضْعَةَ أَشْهُرٍ ، بَعْدَ فَرَاغِي مِنْ إِخْرَاجِ ٱلطَّبْعَةِ ٱلأُولَى لِكِتَابِ « وَحْيِ ٱلْقَلَمِ » آخِرَ كُتُبِهِ ..وَقَدْ أَنْكَرَ مِنِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنْ أَجْفُوَهُ ، وَشَكَانِي إِلَى ٱلصَّدِيقَيْنِ أَحْمَد حَسَن ٱلزَّيَّات وَتَوْفِيقِ ٱلْحَكِيمِ ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ لَنَا أَنْ نَلْتَقِي بَعْدَ ٱلْخِصَامِ حَتَّى بَغْتَةُ ٱلْمَوْتِ . ٱنْتَهَىٰ .

وَلِهَذَا ٱلْخِلافِ ٱلنَّاشِئِ بَيْنَهُمَا ، نَشَرْتُ فِي مُقَدِّمَةِ « كَلِمَة وَكُلَيْمَة » مَقَالاتِ ٱلْعُرْيَانِ عَن

ٱلرَّافِعِيِّ ٱلَّتِي نُشِرَتْ فِي حَيَاتِهِ وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا ، بَيْنَمَا كِتَابُ « حَيَاةِ ٱلرَّافِعِي » هُوَ إِعَادَةُ صِيَاغَةٍ وَتَتْمِيمٍ وَزِيَادَةٍ لِهَذِهِ ٱلْمَقَالاتِ ، قَدْ يَعْتَرِضُ ٱلرَّافِعِيُّ عَلَىٰ بَعْضِ فَقَرَاتِهِ لَوْ كَانَ حَيًّا !

وَهُنَا تَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ مَا نَشَرْتُهُ فِي مُقَدِّمَةِ « كَلِمَةٍ وَكُلَيْمَةٍ » ؛ فَهُوَ مَا رَضِيَهُ ٱلرَّافِعِيُّ وَوَافَقَ عَلَيْهِ ، بَلِ ٱلأَوْلَىٰ أَنْ أَقُولَ : وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا ٱلرَّافِعِيُّ .

وَمَا هَذِهِ ٱلطَّبْعَةُ ٱلَّتِي بَيْنَ يَدَيْكَ سِوَىٰ مُحَاوَلَةٌ لاسْتِكْشَافِ سَبَبِ هَذِهِ ٱلْمُغَاضَبَةِ ٱلَّتِي نَشَأَتْ بَيْنَ ٱلرَّافِعِيِّ وَٱلْعُرْيَانِ ، وَهُنَا تَظْهَرُ أَهَمِّيَّةُ ضَبْطِ ٱلْخِلافَاتِ بَيْنَ أُصُولِ ٱلْمَقَالاتِ وَبَيْنَ مَا نُشِرَ فِي « وَحْيِ ٱلْقَلَمِ » .

بَلْ لَعَلَّ ٱلْخِلافَ بَيْنَ ٱلرَّافِعِيِّ وَٱلْعُرْيَانِ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَقَالاتِ .

وَحَتَّى لا أُرْهِقَ عَامَّةَ ٱلْقُرَّاءِ بِٱلدِّرَاسَةِ وَٱلتَّحْلِيلِ ، أَعِدُ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أَنِّي سَأَنْشُرُ ضِمْنَ كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ يَحْمِلُ عُنْوَانَ : « مَقَالاتٌ مَجْهُولَةٌ لِلرَّافِعِيِّ : مِمَّا لَمْ يُنْشَرْ لِلرَّافِعِيِّ فِي كِتَابٍ » هَذِهِ ٱلدِّرَاسَةَ ، وَكَذَلِكَ نُصُوصَ ٱلْمَقَالاتِ ٱلَّتِي ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَصِلَ إِلَيْهَا وَفَاتَتِ ٱلْعُرْيَانَ أَنْ يَنْشُرَهَا ضِمْنَ « وَحْيِ ٱلْقَلَمِ » ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مَعَ أَنَّ مَثِيلاتِهَا وَجَدَتْ مَكَانَهَا فِيهِ .

لِنَعُودَ إِلَىٰ « وَحْيِ ٱلْقَلَمِ » .

قَالَ ٱلرَّافِعِيُّ فِي مَقَالَةِ « دُعَابَةِ إِبْلِيسَ » شَارِحًا كَيْفِيَّةَ كِتَابَتِهِ لِمَقَالاتِ وَفُصُولِ « وَحْيِ ٱلْقَلَمِ » ٱلَّتِي نُشِرَتْ فِي « ٱلرِّسَالَةِ » :

وَمِنْ عَادَتِي فِي كِتَابَةِ هَذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي تَنْشُرُهَا « ٱلرِّسَالَةُ » ، [وَكَانَتِ « ٱلرِّسَالَةُ » تَصْدُرُ يَوْمَ الاثْنَيْنِ] أَنْ أَدَعَ ٱلْفَصْلَ مِنْهَا تُقَلِّبُهُ ٱلْخَوَاطِرُ فِي ذِهْنِي أَيَّامَ ٱلثُّلاثَاءِ وَٱلأَرْبِعَاءِ وَٱلْخَمِيسِ ، وَأَتْرُكَ أَمْرَهُ لِلْقُوَّةِ ٱلَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَتَوَلَّدُ ٱلْمَعَانِي مِنْ كُلِّ مَا أَرَى وَمَا أَقْرَأُ ، وَتَنْثَالُ مِنْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا ، وَيَكُونُ ٱلْكَلامُ كَأَنَّهُ شَيْءٌ حَيٌّ أُرِيدَ لَهُ ٱلْوُجُودُ فَوُجِدَ . ثم أَكْتُبُ نَهَارَ ٱلْجُمُعَةِ ، وَمِن وَرَائِهِ لَيْلَ ٱلسَّبْتِ وَلَيْلَ ٱلأَحَدِ كَٱلْمَدَدِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْجَيْشِ إِذَا نَالَتْنِي فَتْرَةٌ أَوْ كُنْتُ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ قَطَعَنِي عَنِ ٱلْكِتَابَةِ شَيْءٌ يَعْرِضُ . ٱنْتَهَىٰ .

هَذِهِ ٱلطَّبْعَةُ :

رَجَعْتُ إِلَىٰ أُصُولِ ٱلْكِتَابِ بِٱلرُّجُوعِ إِلَى أُصُولِ ٱلْمَقَالاتِ فِي ٱلْمَجَلاَّتِ ٱلَّتِي نُشِرَتْ

فِيهَا ، إِلَّا بَعْضَ مَقَالاتٍ لَمْ أَسْتَطِعِ ٱلْوُصُولَ إِلَىٰ أُصُولِهَا فَلَمْ أُعَيِّنْ صَفَحَاتِ وُرُودِهَا ، وَقَابَلْتُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْمَطْبُوعِ ضِمْنَ ٱلْكِتَابِ ، بَيَّنْتُ ٱلْخِلافَ بَيْنَ مَا وَرَدَ فِي ٱلْمَجَلاَّتِ وَبَيْنَ مَا طُبِعَ فِي ٱلطَّبْعَةِ ٱلأُولَى ٱلَّتِي أَشْرَفَ عَلَيْهَا ٱلأُسْتَاذُ سَعِيدُ ٱلْعُرْيَانِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وَبِخَاصَّةٍ ٱلْجُزْءَ ٱلأَوَّلَ وَٱلثَّانِي .

لَقَدْ تَصَرَّفَ ٱلْعُرْيَانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فِي تَصْحِيحِ نَصِّ ٱلرَّافِعِيِّ ، وَكَأَنَّ ٱلرَّافِعِيَّ تِلْمِيذٌ عَلَىٰ مَقَاعِدِ ٱلدِّرَاسَةِ ٱلإِعْدَادِيَّةِ أَوِ ٱلثَّانَوِيَّةِ ، وَٱلْعُرْيَانُ كَانَ مُعَلِّمًا فِيهِمَا ، بَيْنَمَا ٱلرَّافِعِيُّ لَهُ مَذْهَبٌ فِي ذَلِكَ يُخَالِفُ مَا هُوَ شَائِعٌ وَمُقَرَّرٌ بَيْنَ أَسَاتِذَةِ ٱلْمُقَرَّرَاتِ ٱلْمَدْرَسِيَّةِ مِنْ خَطَإٍ أَوْ صَوَابٍ . وَخَيْرُ مِثَالٍ لِبَيَانِ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي حَاشِيَةِ مَقَالَةِ « قُبْحٌ جَمِيلٌ » ، حَيْثُ يَتَكَلَّمُ عَلَىٰ صِحَّةِ ٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْجَمْعِ ، وَيَأْتِي بِدَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ تَسْمِيَةُ ٱبْنِ جِنِّي لِكِتَابِهِ « ٱلتَّصْرِيفُ ٱلْمُلُوكِيُّ » ، وَلَيْسَ « ٱلتَّصْرِيفُ ٱلْمَلَكِيَّ » . وَهَكَذَا .

وَمِثَالٌ آخَرُ نَجِدُهُ فِي مَقَالَةِ « فَلْسَفَةُ قِصَّةٍ » وَفِي ٱلسَّطْرِ ٱلأَوَّلِ مِنْهَا ، حَيْثُ ٱسْتَعْمَلَ ٱلرَّافِعِيُّ فِعْلَ « هَلَكَ » كَمَا فِي نَصِّ « ٱلرِّسَالَةِ » بَيْنَمَا ٱسْتُبْدِلَ فِي ٱلطَّبْعَةِ ٱلأُولَى بِـ « مَاتَ » وَهُوَ أَوْلَىٰ مِنَ « هَلَكَ » أَدَبًا ؛ لَكِنَّ ٱبْنَ إِسْحَاقَ صَاحِبَ ٱلسِّيرَةِ ٱسْتَعْمَلَ فِي رِوَايَتِهِ لِلْخَبَرِ فِعْلَ « هَلَكَ » .

وَفِي مَقَالَةِ « فَلْسَفَةُ ٱلْقِصَّةِ وَلِمَاذَا لا أَكْتُبُ فِيهَا » ٱلْوَارِدَةِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ ٱلَّذِي نُشِرَ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّافِعِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّه ، حَذَفَ ٱلْعُرْيَانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِقْدَارَ صَفْحَتَيْنِ تَقْرِيبًا لِرَأْيٍ لِلرَّافِعِيِّ يُخَالِفُ رَأْيَهُ ، صَحِيحٌ أَنَّ ٱلرَّافِعِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّه عَدَلَ مِن رَأْيِهِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يُغَيِّرْ حُكْمَهُ ٱلَّذِي أَطْلَقَهُ عَلَى ٱلْقِصَصِ وَٱلرِّوَايَاتِ ٱلْمُتَرْجَمَةِ وَٱلَّتِي تُجَارِيهَا .

ذَكَرْتُ مَا كَانَ يُذَيِّلُ بِهِ ٱلرَّافِعِيُّ مَقَالَهُ مِنْ ذِكْرٍ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي كَتَبَ فِيهِ ٱلْمَقَالَ ، بَلِ ٱلْتَزَمْتُ ذِكْرَ ٱسْمِهِ إِنْ ذَيَّلَ بِهِ ٱلْمَقَالَ ، ٱلَّذِي يَغْفَلُ أَحْيَانًا عَنْ ذِكْرِهِ أَوْ ذِكْرِ ٱلْمَكَانِ ؛ فَأَغْفَلْتُ مَا أَغْفَلَهُ وَذَكَرْتُ مَا ذَكَرَهُ .

وَبِطَبْعَتِي هَذِهِ أَكُونُ قَدْ وَفَّرْتُ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْبَاحِثِينَ صُورَةً عَنِ ٱلْخِلافِ بَيْنَ ٱلأُصُولِ وَبَيْنَ مَا نُشِرَ تَحْتَ ٱسْمِ « وَحْيِ ٱلْقَلَمِ » كَيْ تَكُونَ مَادَّةً ثَرَّةً لِلدِّرَاسَاتِ وَٱلْبُحُوثِ .

وَٱخْتِصَارًا عَلَى ٱلْقَارِئ ، وَلَكِنْ لا أُرْهِقُهُ ، بِٱلتَّنَقُّلِ بَيْنَ أَصْلِ ٱلْكِتَابِ وَهَامِشِهِ ، وَضَعْتُ مَا ٱنْفَرَدَتْ بِهِ ٱلْأُصُولِ ضِمْنَ { } .

وَوَضَعْتُ مَا ٱنْفَرَدَتْ بِهِ ٱلطَّبْعَةُ ٱلأُولَىٰ ضِمْنَ ⟦ ⟧ .

وَمَا أَضَفْتُهُ وَضَعْتُهُ ضِمْنَ [ ] .

وَقَدْ ذَكَرْتُ تَعْلِيقًا عِنْدَ أَوَّلِ كُلِّ مَقَالَةٍ مَكَانَ وَزَمَانَ نَشْرِهَا ، تَوْثِيقًا لَهَا .

وَضَّحْتُ بِٱلتَّعْلِيقِ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلأَلْفَاظِ ٱلَّتِي يَصْعُبُ مَعْرِفَةُ مَعْنَاهَا بِٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْمَعَاجِمِ ، وَكَذَٰلِكَ عَرَّفْتُ بِبَعْضِ ٱلأَعْلَامِ .

هَٰذَا ، وَقَدْ قُمْتُ بِضَبْطِ ٱلنَّصِّ ، وَتَفْصِيلِهِ ، وَتَخْرِيجِ نُصُوصِهِ ، مِنْ أَجْلِ تَوْفِيرِ نَصٍّ يَمْتَازُ عَلَى ٱلطَّبَعَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ لِلْكِتَابِ ٱلَّتِي تَسْتَهْدِفُ تَوْفِيرَ نَصٍّ ، وَفَقَطْ تَوْفِيرَهُ دُونَ ٱلْخِدْمَةِ ٱلْهَادِفَةِ .

وَقَدِ ٱعْتَمَدْتُ عَلَى ٱلطَّبْعَةِ ٱلأُولَىٰ لِلْجُزْءِ ٱلأَوَّلِ وَٱلثَّانِي ، وَٱلَّتِي صَدَرَتْ فِي حَيَاةِ ٱلْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ ٱللهُ ، وَأَمَّا ٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ ، فَقَدْ رَجَعْتُ لِلطَّبْعَةِ ٱلسَّادِسَةِ لَهُ ٱلصَّادِرَةِ عَنِ ٱلْمَكْتَبَةِ ٱلتِّجَارِيَّةِ ٱلْكُبْرَىٰ ، فَهَٰذِهِ ٱلَّتِي تَوَفَّرَتْ بَيْنَ يَدَيَّ .

وَفِي ٱلْخِتَامِ ، آمَلُ أَنْ أَكُونَ وُفِّقْتُ بِٱلاخْتِيَارِ وَٱلْعَمَلِ ، أَسْأَلُهُ تَعَالَىٰ ٱلتَّوْفِيقَ وَٱلإِكْرَامَ ، وَٱلنَّفْعَ عَلَى ٱلدَّوَامِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي مَقْبُولًا ، خَالِصًا لَهُ تَعَالَىٰ ، وَأَنْ يُيَسِّرَنَا لِلْخَيْرِ ، وَيَسْتَعْمِلَنَا صَالِحًا ، وَيَرْحَمَنَا ، وَيَغْفِرَ لَنَا ، وَلِوَالِدِينَا ، وَلِكُلِّ مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْنَا ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ .

دمشق في ٣٠/٦/ ٢٠٠٤م

بسام عبدالوهاب الجابي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ .

[٦ سورة الأنعام/ الآيات : ٨٨ ـ ٩٠]

دَعْوَةُ ٱلأُسْتَاذِ ٱلإِمَامِ

حَكِيمِ ٱلإِسْلَامِ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّد عَبْدُه رَحِمَهُ ٱللهُ

لِمُؤَلِّفِ «وَحْيِ ٱلْقَلَمِ» فِيْ أَوَّلِ عَهْدِهِ بِٱلأَدَبِ

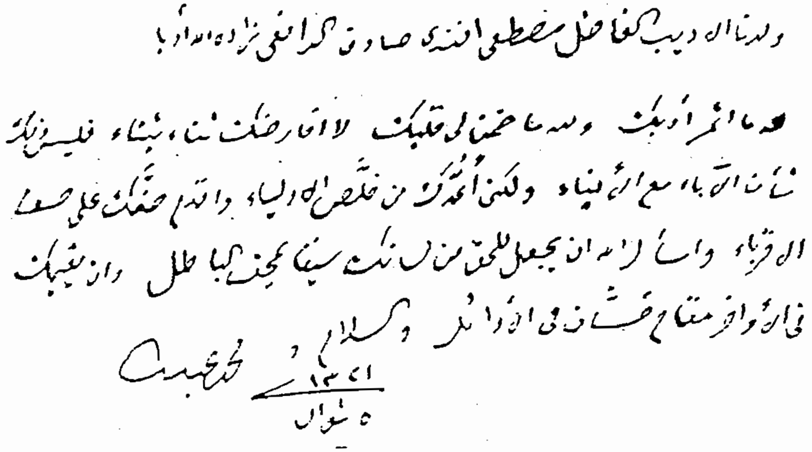
ولدنا الاديب الفاضل مصطفى افندي صادق الرافعي زاده الله ادبا

لله ما اثمر ادبك وللـه ما ضمن لي قلبك لا اقارضك ثناء بثناء فليس ذلك شان الآباء مع الابناء ولكني اعدك من خلص الاولياء واقدم صفك على صف الاقرباء واسأل الله ان يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق الباطل وان يقيمك في الاواخر مقام حسان في الاوائل والسلام

محمد عبده

٥ شوال ١٣٢١

نَصُّ كِتَابِ ٱلأُسْتَاذِ ٱلإِمَامِ

وَلَدُنَا ٱلأَدِيبُ ٱلْفَاضِلُ مُصْطَفَىٰ أَفَنْدِي صَادِقٌ ٱلرَّافِعِيُّ : زَادَهُ ٱللهُ أَدَبًا .

للهِ مَا أَثْمَرَ أَدَبُكَ ، وَللهِ مَا ضَمِنَ لِيْ قَلْبُكَ ، لَا أُقَارِضُكَ ثَنَاءً بِثَنَاءٍ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ شَأْنَ ٱلآبَاءِ مَعَ ٱلأَبْنَاءِ ، وَلَـٰكِنَّيْ أَعُدُّكَ مِنْ خُلَّصِ ٱلأَوْلِيَاءِ ، وَأُقَدِّمُ صَفَّكَ عَلَىٰ صَفِّ ٱلأَقْرِبَاءِ . وَأَسْأَلُ ٱللهَ أَنْ يَجْعَلَ لِلْحَقِّ مِنْ لِسَانِكَ سَيْفًا يَمْحَقُ ٱلْبَاطِلَ ، وَأَنْ يُقِيْمَكَ فِيْ ٱلأَوَاخِرِ مَقَامَ حَسَّانٍ فِيْ ٱلأَوَائِلِ . وَٱلسَّلَامُ .

٥ شَوَّال سَنَةَ ١٣٢١ هـ .

مُحَمَّد عَبْدُه

صَدْرُ ٱلْكِتَابِ
ٱلْبَيَانُ(*)

لَا وُجُوْدَ لِلْمَقَالَةِ ٱلْبَيَانِيَّةِ إِلَّا فِيْ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِيْ ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا ، يُقِيْمُهَا ٱلْكَاتِبُ عَلَىٰ حُدُوْدٍ وَيُدِيْرُهَا عَلَىٰ طَرِيْقَةٍ ، مُصِيْبًا بِأَلْفَاظِهِ مَوَاقِعَ ٱلشُّعُوْرِ ، مُثِيْرًا بِهَا مَكَامِنَ ٱلْخَيَالِ ، آخِذًا بِوَزْنٍ تَارِكًا بِوَزْنٍ لِتَأْخُذَ ٱلنَّفْسَ { كَمَا يَشَاءُ } وَتَتْرُكَ .

وَنَقْلُ حَقَائِقِ ٱلدُّنْيَا نَقْلًا صَحِيْحًا إِلَىٰ ٱلْكِتَابَةِ أَوِ ٱلشِّعْرِ ، هُوَ ٱنْتِزَاعُهَا مِنَ ٱلْحَيَاةِ فِيْ أُسْلُوْبٍ وَإِظْهَارُهَا لِلْحَيَاةِ فِيْ أُسْلُوْبٍ آخَرَ يَكُوْنُ أَوْفَىٰ وَأَدَقَّ وَأَجْمَلَ ، لِوَضْعِهِ كُلَّ شَيْءٍ فِي خَاصِّ مَعْنَاهُ وَكَشْفِهِ حَقَائِقَ ٱلدُّنْيَا كَشْفَةً تَحْتَ ظَاهِرِهَا ٱلْمُلْتَبِسِ ، وَتِلْكَ هِيَ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلْفَنِّيَّةُ ٱلْكَامِلَةُ؛ تَسْتَدْرِكُ ٱلنَّقْصَ فَتُتِمُّهُ ، وَتَتَنَاوَلُ ٱلسِّرَّ فَتُعْلِنُهُ ، وَتَلْمِسُ ٱلْمُقَيَّدَ فَتُطْلِقُهُ ، وَتَأْخُذُ ٱلْمُطْلَقَ فَتَحُدُّهُ ، وَتَكْشِفُ ٱلْجَمَالَ فَتُظْهِرُهُ ، وَتَرْفَعُ ٱلْحَيَاةَ دَرَجَةً فِيْ ٱلْمَعْنَىٰ ، وَتَجْعَلُ ٱلْكَلَامَ كَأَنَّهُ وَجَدَ لِنَفْسِهِ عَقْلًا يَعِيْشُ بِهِ .

فَٱلْكَاتِبُ ٱلْحَقُّ لَا يَكْتُبُ لِيَكْتُبَ ؛ وَلَـٰكِنَّهُ أَدَاةٌ فِيْ يَدِ ٱلْقُوَّةِ ٱلْمُصَوِّرَةِ لِهَـٰذَا ٱلْوُجُوْدِ ، تُصَوِّرُ بِهِ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهَا فَنًّا مِنَ ٱلتَّصْوِيْرِ . ٱلْحِكْمَةُ ٱلْغَامِضَةُ تُرِيْدُهُ عَلَىٰ ٱلتَّفْسِيْرِ ، تَفْسِيْرِ ٱلْحَقِيْقَةِ ؛ وَٱلْخَطَأُ ٱلظَّاهِرُ يُرِيْدُهُ عَلَىٰ ٱلتَّبْيِيْنِ ، تَبْيِيْنِ ٱلصَّوَابِ ؛ وَٱلْفَوْضَىٰ ٱلْمَائِجَةُ تَسْأَلُهُ ٱلْإِقْرَارَ . إِقْرَارَ ٱلتَّنَاسُبِ ؛ وَمَا وَرَاءَ ٱلْحَيَاةِ ، يَتَّخِذُ مِنْ فِكْرِهِ صِلَةً بِٱلْحَيَاةِ ؛ وَٱلدُّنْيَا كُلُّهَا تَنْتَقِلُ فِيْهِ مَرْحَلَةً نَفْسِيَّةً لِتَعْلُوَ بِهِ أَوْ تَنْزِلَ . وَمِنْ ذَلِكَ لَا يُخْلَقُ ٱلْمُلْهَمُ أَبَدًا إِلَّا وَفِيْهِ أَعْصَابُهُ ٱلْكَهْرَبَائِيَّةُ ، وَلَهُ فِيْ قَلْبِهِ ٱلرَّقِيْقِ مَوَاضِعُ مُهَيَّأَةٌ لِلاحْتِرَاقِ تَنْفُذُ إِلَيْهَا ٱلأَشِعَّةُ ٱلرُّوْحَانِيَّةُ وَتَتَسَاقَطُ مِنْهَا { بِٱلْمَعَانِيْ } .

وَإِذَا ٱخْتِيْرَ ٱلْكَاتِبُ لِرِسَالَةٍ مَا ، شَعَرَ بِقُوَّةٍ تَفْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ ؛ مِنْهَا سِنَادُ رَأْيِهِ ، وَمِنْهَا إِقَامَةُ بُرْهَانِهِ ، وَمِنْهَا جَمَالُ مَا يَأْتِيْ بِهِ ؛ فَيَكُوْنُ إِنْسَانًا لِأَعْمَالِهِ وَأَعْمَالِهَا جَمِيْعًا ، لَهُ بِنَفْسِهِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٣ ، ٢١ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ٤ يناير/كانون الآخر ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ١٤ و١٥ .

وُجُودٌ ، وَلَهُ بِهَا وُجُودٌ آخَرُ ؛ وَمِنْ ثَمَّ يُصْبِحُ عَالَمًا بِعَنَاصِرِهِ لِلْخَيْرِ أَوِ ٱلشَّرِّ كَمَا يُوَجَّهُ ؛ وَيُلْقَىٰ فِيهِ مِثْلُ ٱلسِّرِّ ٱلَّذِيْ يُلْقَىٰ فِيْ ٱلشَّجَرَةِ لِإِخْرَاجِ ثَمَرِهَا بِعَمَلٍ طَبِيْعِيٍّ يُرَىٰ سَهْلًا كُلَّ ٱلسَّهْلِ حِيْنَ يَتِمُّ ، وَلَـٰكِنَّهُ صَعْبٌ أَيُّ صَعْبٍ حِيْنَ يَبْدَأُ .

هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ هِيَ ٱلَّتِيْ تَجْعَلُ ٱللَّفْظَةَ ٱلْمُفْرَدَةَ(١) فِيْ ذِهْنِهِ مَعْنًىٰ تَامًّا ، وَتُحَوِّلُ ٱلْجُمْلَةَ ٱلصَّغِيْرَةَ إِلَىٰ قِصَّةٍ ، وَتَنْتَهِيْ(٢) بِٱللَّمْحَةِ ٱلسَّرِيْعَةِ إِلَىٰ كَشْفٍ عَنْ حَقِيْقَةٍ ، وَهِيَ تُخْرِجُهُ مِنْ حُكْمِ أَشْيَاءَ لِيَحْكُمَ عَلَيْهَا ، وَتُدْخِلُهُ فِيْ حُكْمِ أَشْيَاءَ غَيْرِهَا لِتَحْكُمَ عَلَيْهِ ؛ وَهِيَ هِيَ ٱلَّتِيْ تُمَيِّزُ طَرِيْقَتَهُ(٣) وَأُسْلُوْبَهُ ⟦ ، لِأَنَّهَا تَلْتَقِطُ بِمَعَانِيهَا أَلْفَاظَهَا ، وَمَا تُعْطِيهِ هُوَ إِلَّا لِتُعْطِيَ ٱلنَّاسَ مِنْهُ ⟧ ؛ وَكَمَا خُلِقَ ٱلْكَوْنُ مِنَ ٱلْإِشْعَاعِ تَضَعُ ٱلْإِشْعَاعَ فِيْ بَيَانِهِ(٤) .

وَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ فِيْ ٱلطَّبَائِعِ ٱلْمُلْهَمَةِ لِيَتَّسِعَ بِهِ ٱلتَّصَرُّفُ ، إِذِ ٱلْحَقَائِقُ أَسْمَىٰ وَأَدَقُّ مِنْ أَنْ تُعْرَفَ بِيَقِيْنِ ٱلْحَاسَّةِ أَوْ تَنْحَصِرَ فِيْ إِدْرَاكِهَا . فَلَوْ حُدَّتِ ٱلْحَقِيْقَةُ لَمَا بَقِيَتْ حَقِيْقَةً ، وَلَوْ تَلَبَّسَ ٱلْمَلَائِكَةُ بِهَـٰذَا(٥) ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ لَبَطَلَ أَنْ يَكُوْنُوا مَلَائِكَةً ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَكَثْرَةُ ٱلصُّوَرِ ٱلْبَيَانِيَّةِ ٱلْجَمِيْلَةِ لِلْحَقِيْقَةِ ٱلْجَمِيْلَةِ ، هِيَ كُلُّ مَا يُمْكِنُ { أَوْ يَتَسَنَّىٰ } مِنْ طَرِيْقَةِ تَعْرِيْفِهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .

وَأَيُّ بَيَانٍ فِيْ خُضْرَةِ ٱلرَّبِيْعِ عِنْدَ ٱلْحَيَوَانِ مِنْ آكِلِ ٱلْعُشْبِ ، إِلَّا بَيَانُ ٱلصُّوْرَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فِيْ مَعِدَتِهِ ؟ غَيْرَ أَنَّ صُوَرَ ٱلرَّبِيْعِ فِيْ ٱلْبَيَانِ ٱلْإِنْسَانِيِّ عَلَىٰ ٱخْتِلَافِ ٱلْأَرْضِ وَٱلْأُمَمِ ، تَكَادُ تَكُوْنُ بِعَدَدِ أَزْهَارِهِ ، وَيَكَادُ ٱلنَّدَىٰ يُنَضِّرُهَا { حُسْنًا } كَمَا يُنَضِّرُهُ .

وَلِهَـٰذَا سَتَبْقَىٰ كُلُّ حَقِيْقَةٍ مِنَ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْكُبْرَىٰ : كَٱلْإِيْمَانِ ، وَٱلْجَمَالِ ، وَٱلْحُبِّ ، وَٱلْخَيْرِ ، وَٱلْحَقِّ ـ سَتَبْقَىٰ مُحْتَاجَةً فِيْ كُلِّ عَصْرٍ إِلَىٰ كِتَابَةٍ جَدِيْدَةٍ مِنْ أَذْهَانٍ جَدِيْدَةٍ .

* * *

وَفِيْ ٱلْكُتَّابِ ٱلْفُضَلَاءِ بَاحِثُوْنَ مُفَكِّرُوْنَ تَأْتِيْ أَلْفَاظُهُمْ وَمَعَانِيهِمْ فَنًّا عَقْلِيًّا غَايَتُهُ صِحَّةُ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْوَاحِدَةَ » بَدَلًا مِنَ : « ٱلْمُفْرَدَةَ » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « تَنْقَلِبُ » بَدَلًا مِنْ : « تَنْتَهِي » .
(٣) فِي ٱلْأَصْلِ : « لُغَتَهُ » بَدَلًا مِنْ : « طَرِيقَتَهُ » .
(٤) ثَبَتَ أَنَّ ٱلْإِشْعَاعَ هُوَ ٱلْمَادَّةُ ٱلَّتِي صُنِعَ مِنْهَا ٱلْكَوْنُ .
(٥) فِي ٱلْأَصْلِ : « هَذَا » بَدَلًا مِنْ : « بِهَذَا » .

ٱلْأَدَاءِ وَسَلَامَةُ ٱلنَّسْقِ ، فَيَكُوْنُ ٱلْبَيَانُ فِيْ كَلَامِهِمْ عَلَىٰ نَدْرَةٍ كَوَخْزِ ٱلْخُضْرَةِ(١) فِيْ ٱلشَّجَرَةِ ٱلْيَابِسَةِ هُنَا وَهُنَا . وَلَـٰكِنَّ ٱلْفَنَّ ٱلْبَيَانِيَّ يَرْتَفِعُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ غَايَتَهُ قُوَّةُ ٱلْأَدَاءِ مَعَ ٱلصِّحَّةِ ، وَسُمُوُّ ٱلتَّعْبِيْرِ مَعَ ٱلدِّقَّةِ ، وَإِبْدَاعُ ٱلصُّوْرَةِ زَائِدًا جَمَالَ ٱلصُّوْرَةِ . أُوْلَـٰئِكَ فِيْ ٱلْكِتَابَةِ كَٱلطَّيْرِ لَهُ جَنَاحٌ يَجْرِيْ بِهِ وَيَدِفُّ وَلَا يَطِيْرُ ، وَهَـٰؤُلَاءِ كَٱلطَّيْرِ ٱلْآخَرِ لَهُ جَنَاحٌ يَطِيْرُ بِهِ وَيَجْرِيْ . وَلَوْ كَتَبَ ٱلْفَرِيْقَانِ فِيْ مَعْنًى وَاحِدٍ لَرَأَيْتَ ٱلْمَنْطِقَ فِيْ أَحَدِ ٱلْأُسْلُوْبَيْنِ { وَكَأَنَّهُ } يَقُوْلُ : أَنَا هُنَا فِيْ مَعَانٍ وَأَلْفَاظٍ ؛ وَ{ تَرَىٰ } ٱلْإِلْهَامَ فِيْ ٱلْأُسْلُوْبِ ٱلْآخَرِ يُطَالِعُكَ أَنَّهُ(٢) هُنَا فِيْ جَلَالٍ وَجَمَالٍ وَفِيْ صُوَرٍ وَأَلْوَانٍ .

وَدَوْرَةُ ٱلْعِبَارَةِ ٱلْفَنِّيَّةِ فِيْ نَفْسِ ٱلْكَاتِبِ ٱلْبَيَانِيِّ دَوْرَةُ خَلْقٍ وَتَرْكِيْبٍ ، تَخْرُجُ بِهَا ٱلْأَلْفَاظُ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ ، كَأَنَّهَا شَبَّتْ فِيْ نَفْسِهِ شَبَابًا ؛ وَأَقْوَىٰ مِمَّا هِيَ ، كَأَنَّمَا كَسَبَتْ مِنْ رُوْحِهِ قُوَّةً ؛ وَأَدَلَّ مِمَّا هِيَ ، كَأَنَّمَا زَادَ فِيْهَا بِصِنَاعَتِهِ زِيَادَةً . فَٱلْكَاتِبُ ٱلْعِلْمِيُّ تَمُرُّ ٱللُّغَةُ مِنْهُ فِيْ ذَاكِرَةٍ وَتَخْرُجُ كَمَا دَخَلَتْ عَلَيْهَا طَابَعُ وَاضِعِيْهَا ؛ وَلَـٰكِنَّهَا مِنَ ٱلْكَاتِبِ ٱلْبَيَانِيِّ تَمُرُّ فِيْ مَصْنَعٍ وَتَخْرُجُ عَلَيْهَا طَابَعُهُ هُوَ . أُوْلَـٰئِكَ أَزَاحُوا ٱللُّغَةَ عَنْ مَرْتَبَةٍ سَامِيَةٍ ، وَهَـٰؤُلَاءِ عَلَوْا بِهَا إِلَىٰ أَسْمَىٰ مَرَاتِبِهَا ؛ وَأَنْتَ مَعَ ٱلْأَوَّلِيْنَ بِٱلْفِكْرِ ، وَلَا شَيْءَ إِلَّا ٱلْفِكْرُ وَٱلنَّظَرُ وَٱلْحُكْمُ ؛ غَيْرَ أَنَّكَ مَعَ ذِيْ ٱلْحَاسَّةِ ٱلْبَيَانِيَّةِ لَا تَكُوْنُ إِلَّا بِمَجْمُوْعِ مَا فِيْكَ مِنْ قُوَّةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْخَيَالِ وَٱلْإِحْسَاسِ وَٱلْعَاطِفَةِ وَٱلرَّأْيِ(٣) .

وَلِلْكِتَابَةِ ٱلتَّامَّةِ ٱلْمُفِيْدَةِ مَثَلُ ٱلْوَجْهَيْنِ فِيْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ : فَفِيْ كُلِّ ٱلْوُجُوْهِ تَرْكِيْبٌ تَامٌّ تَقُوْمُ بِهِ مَنْفَعَةُ ٱلْحَيَاةِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمُنْفَرِدَ يَجْمَعُ إِلَىٰ تَمَامِ ٱلْخَلْقِ جَمَالَ ٱلْخَلْقِ ، وَيَزِيْدُ عَلَىٰ مَنْفَعَةِ ٱلْحَيَاةِ لَذَّةَ ٱلْحَيَاةِ ؛ وَهُوَ لِذَٰلِكَ { ، وَبِذَٰلِكَ } ، يُرَىٰ وَيُؤَثِّرُ وَيُعْشَقُ .

وَرُبَّمَا عَابُوا ٱلسُّمُوَّ ٱلْأَدَبِيَّ بِأَنَّهُ قَلِيْلٌ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْخَيْرَ كَذَٰلِكَ ؛ وَبِأَنَّهُ مُخَالِفٌ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحَقَّ كَذَٰلِكَ ؛ وَبِأَنَّهُ مُحَيِّرٌ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحُسْنَ كَذَٰلِكَ ؛ وَبِأَنَّهُ كَثِيْرُ ٱلتَّكَالِيْفِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحُرِّيَّةَ كَذَٰلِكَ .

إِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْبَحْرُ فَلَا تَنْتَظِرِ ٱللُّؤْلُؤَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلنَّجْمُ فَلَا تَنْتَظِرِ ٱلشُّعَاعَ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ شَجَرَةُ ٱلْوَرْدِ فَلَا تَنْتَظِرِ ٱلْوَرْدَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْكَاتِبُ ٱلْبَيَانِيُّ فَلَا تَنْتَظِرِ ٱلْأَدَبَ .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « وَيَنْدُرُ ٱلْبَيَانُ فِي كَلَامِهِمْ فَيَكُونُ كَوَخْزِ ٱلْخُضْرَةِ » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « يَقُول : أَنَا » بَدَلًا مِنْ : « يُطَالِعُكَ أَنَّهُ » .
(٣) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلتَّأَثُّرِ » بَدَلًا مِنَ : « ٱلْعَاطِفَةِ وَٱلرَّأْيِ » .

ٱلْيَمَامَتَانِ(*)

جَاءَ فِي «تَارِيخِ ٱلْوَاقِدِيِّ»: «أَنَّ ٱلْمُقَوْقِسَ عَظِيمَ ٱلْقِبْطِ فِي مِصْرَ، زَوَّجَ بِنْتَهُ أَرْمَانُوسَةَ مِنْ قِسْطَنْطِينَ بْنِ هِرَقْلَ وَجَهَّزَهَا بِأَمْوَالِهَا وَحَشَمِهَا لِتَسِيرَ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَبْنِيَ عَلَيْهَا فِي مَدِينَةِ قَيْسَارِيَةَ[1] [«سُورِيَّة»]؛ فَخَرَجَتْ إِلَىٰ بُلْبَيْسَ وَأَقَامَتْ بِهَا.. وَجَاءَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ إِلَىٰ بُلْبَيْسَ فَحَاصَرَهَا حِصَارًا شَدِيدًا، وَقَاتَلَ مَنْ بِهَا، وَقَتَلَ مِنْهُمْ زُهَاءَ أَلْفِ فَارِسٍ، وَٱنْهَزَمَ مَنْ بَقِيَ إِلَى ٱلْمُقَوْقِسِ، وَأُخِذَتْ أَرْمَانُوسَةُ وَجَمِيعُ مَالِهَا، وَأُخِذَ كُلُّ مَا كَانَ لِلْقِبْطِ فِي بُلْبَيْسَ. فَأَحَبَّ عَمْرٌو مُلَاطَفَةَ ٱلْمُقَوْقِسِ، فَسَيَّرَ إِلَيْهِ ٱبْنَتَهُ مُكَرَّمَةً فِي جَمِيعِ مَالِهَا، مَعَ قَيْسِ ٱبْنِ أَبِي ٱلْعَاصِ ٱلسَّهْمِيِّ؛ فَسُرَّ بِقُدُومِهَا ...».

* * *

هَـٰذَا مَا أَثْبَتَهُ ٱلْوَاقِدِيُّ فِي رِوَايَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعْنِيًّا إِلَّا بِأَخْبَارِ ٱلْمَغَازِي وَٱلْفُتُوحِ، فَكَانَ يَقْتَصِرُ عَلَيْهَا فِي ٱلرِّوَايَةِ؛ أَمَّا مَا أَغْفَلَهُ فَهُوَ مَا نَقُصُّهُ نَحْنُ:

كَانَتْ لِأَرْمَانُوسَةَ وَصِيفَةٌ مُوَلَّدَةٌ تُسَمَّىٰ: مَارِيَةَ، ذَاتُ جَمَالٍ يُونَانِيٍّ أَتَمَّتْهُ مِصْرُ وَمَسَحَتْهُ بِسِحْرِهَا، فَزَادَ جَمَالُهَا عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مِصْرِيًّا، وَنَقَصَ ٱلْجَمَالُ ٱلْيُونَانِيُّ أَنْ يَكُونَهُ؛ {فَهُوَ أَجْمَلُ مِنْهُمَا،} وَلِمِصْرَ طَبِيعَةٌ خَاصَّةٌ فِي ٱلْحُسْنِ؛ فَهِيَ قَدْ تُهْمِلُ شَيْئًا فِي جَمَالِ نِسَائِهَا أَوْ تُشَعِّثُ مِنْهُ، وَقَدْ لَا تُوَفِّيهِ جُهْدَ مَحَاسِنِهَا ٱلرَّائِعَةِ؛ وَلَـٰكِنْ مَتَىٰ نَشَأَ فِيهَا جَمَالٌ يَنْزِعُ إِلَىٰ أَصْلٍ أَجْنَبِيٍّ، أَفْرَغَتْ فِيهِ سِحْرَهَا إِفْرَاغًا، وَأَبَتْ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ٱلْغَالِبَةَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَتْهُ آيَتَهَا فِي ٱلْمُقَابَلَةِ بَيْنَهُ فِي طَابَعِهِ ٱلْمِصْرِيِّ، وَبَيْنَ أَصْلِهِ فِي طَبِيعَةِ أَرْضِهِ كَائِنَةً مَا كَانَتْ؛ تَغَارُ عَلَىٰ سِحْرِهَا أَنْ يَكُونَ إِلَّا ٱلْأَعْلَىٰ.

وَكَانَتْ مَارِيَةُ هَـٰذِهِ مَسِيحِيَّةً قَوِيَّةَ ٱلدِّينِ وَٱلْعَقْلِ، ٱتَّخَذَهَا ٱلْمُقَوْقِسُ كَنِيسَةً حَيَّةً لِٱبْنَتِهِ،

(*) «الرسالة» العدد: ٥٩٢ محرم سنة ١٣٥٤ هـ = ٨ أبريل/نيسان ١٩٣٥ م، السنة الثالثة، الصفحات: ٥٢٣ ـ ٥٢٧.

(١) {بَلْدَةٌ بِفِلَسْطِينَ. وَبُلْبَيْسَ هِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلْمَعْرُوفَةُ بِمُدِيرِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ بِمِصْرَ}.

وَهُوَ كَانَ وَالِيًا وَبَطْرِيَرْكًا عَلَىٰ مِصْرَ مِنْ قِبَلِ هِرَقْلَ؛ وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ ٱللهِ أَنَّ ٱلْفَتْحَ ٱلْإِسْلَامِيَّ جَاءَ فِي عَهْدِهِ، فَجَعَلَ ٱللهُ قَلْبَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ مِفْتَاحَ ٱلْقُفْلِ ٱلْقِبْطِيِّ، فَلَمْ تَكُنْ أَبْوَابُهُمْ تُدَافِعُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تُدْفَعُ، تُقَاتِلُ شَيْئًا مِنْ قِتَالٍ غَيْرِ كَبِيرٍ، أَمَّا ٱلْأَبْوَابُ ٱلرُّومِيَّةُ فَبَقِيَتْ مُسْتَغْلِقَةً حَصِينَةً لَا تُذْعِنُ إِلَّا لِلتَّحْطِيمِ، وَوَرَاءَهَا نَحْوُ مِئَةِ أَلْفِ رُومِيٍّ يُقَاتِلُونَ ٱلْمُعْجِزَةَ ٱلْإِسْلَامِيَّةَ ٱلَّتِي جَاءَتْهُمْ مِنْ بِلَادِ ٱلْعَرَبِ أَوَّلَ مَا جَاءَتْ فِي أَرْبَعَةِ آلَافِ رَجُلٍ، ثُمَّ لَمْ يَزِيدُوا آخِرَ مَا زَادُوا عَلَىٰ ٱثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا. كَانَ ٱلرُّومُ مِئَةَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ بِأَسْلِحَتِهِمْ ـ وَلَمْ تَكُنِ ٱلْمَدَافِعُ مَعْرُوفَةً ـ وَلَـٰكِنَّ رُوحَ ٱلْإِسْلَامِ جَعَلَتِ ٱلْجَيْشَ ٱلْعَرَبِيَّ كَأَنَّهُ ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مِدْفَعٍ بِقَنَابِلِهَا، لَا يُقَاتِلُونَ بِقُوَّةِ ٱلْإِنْسَانِ، بَلْ بِقُوَّةِ ٱلرُّوحِ ٱلدِّينِيَّةِ ٱلَّتِي جَعَلَهَا ٱلْإِسْلَامُ مَادَّةً مُنْفَجِرَةً تُشْبِهُ ٱلدِّينَامِيتَ قَبْلَ أَنْ يُعْرَفَ ٱلدِّينَامِيتُ!.

وَلَمَّا نَزَلَ عَمْرٌو بِجَيْشِهِ عَلَىٰ بُلْبَيْسَ، جَزِعَتْ مَارِيَةُ جَزَعًا شَدِيدًا؛ إِذْ كَانَ ٱلرُّومُ قَدْ أَرْجَفُوا أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْعَرَبَ قَوْمٌ جِيَاعٌ يَنْفُضُهُمُ ٱلْجَدْبُ عَلَى ٱلْبِلَادِ نَفْضَ ٱلرِّمَالِ عَلَى ٱلْأَعْيُنِ فِي ٱلرِّيحِ ٱلْعَاصِفِ؛ وَأَنَّهُمْ جَرَادٌ إِنْسَانِيٌّ لَا يَغْزُو إِلَّا لِبَطْنِهِ؛ وَأَنَّهُمْ غِلَاظُ ٱلْأَكْبَادِ كَٱلْإِبِلِ ٱلَّتِي يَمْتَطُونَهَا؛ وَأَنَّ ٱلنِّسَاءَ عِنْدَهُمْ كَٱلدَّوَابِّ يُرْتَبَطْنَ عَلَىٰ خَسْفٍ؛ وَأَنَّهُمْ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا وَفَاءَ، ثَقُلَتْ مَطَامِعُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَتُهُمْ؛ وَأَنَّ قَائِدَهُمْ عَمْرَو بْنَ ٱلْعَاصِ كَانَ جَزَّارًا فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ، فَمَا تَدَعُهُ رُوحُ ٱلْجَزَّارِ وَلَا طَبِيعَتُهُ؛ وَقَدْ جَاءَ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ سَالِخٍ مِنْ أَخْلَاطِ ٱلنَّاسِ وَشُذَّاذِهِمْ، لَا أَرْبَعَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ مِنْ جَيْشٍ لَهُ نِظَامُ ٱلْجَيْشِ!.

وَتَوَهَّمَتْ مَارِيَةُ أَوْهَامَهَا، وَكَانَتْ شَاعِرَةً قَدْ دَرَسَتْ هِيَ وَأَرْمَانُوسَةُ أَدَبَ يُونَانَ وَفَلْسَفَتَهُمْ، وَكَانَ لَهَا خَيَالٌ مَشْبُوبٌ مُتَوَقِّدٌ يُشْعِرُهَا كُلَّ عَاطِفَةٍ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ، وَيُضَاعِفُ ٱلْأَشْيَاءَ فِي نَفْسِهَا، وَيَنْزِعُ إِلَىٰ طَبِيعَتِهِ ٱلْمُؤَنَّثَةِ، فَيُبَالِغُ فِي تَهْوِيلِ ٱلْحُزْنِ خَاصَّةً، وَيَجْعَلُ مِنْ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَقُودًا عَلَى ٱلدَّمِ ...

وَمِنْ ذَلِكَ ٱسْتُطِيرَ قَلْبُ مَارِيَةَ وَأَفْزَعَتْهَا ٱلْوَسَاوِسُ، فَجَعَلَتْ تَنْدُبُ نَفْسَهَا، وَصَنَعَتْ فِي ذَلِكَ شِعْرًا هَـٰذِهِ تَرْجَمَتُهُ:

جَاءَكِ أَرْبَعَةُ آلَافِ جَزَّارٍ أَيَّتُهَا ٱلشَّاةُ ٱلْمِسْكِينَةُ!.

سَتَذُوقُ كُلُّ شَعْرَةٍ مِنْكِ أَلَمَ ٱلذَّبْحِ قَبْلَ أَنْ تُذْبَحِي!.

جَاءَكِ أَرْبَعَةُ آلَافِ خَاطِفٍ أَيَّتُهَا ٱلْعَذْرَاءُ ٱلْمِسْكِيْنَةُ !.

سَتَمُوْتِيْنَ أَرْبَعَةَ آلَافِ مِيْتَةٍ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ !.

قَوِّنِي يَا إِلَـٰهِي ، لِأُغْمِدَ فِي صَدْرِيْ سِكِّيْنًا يَرُدُّ عَنِّيَ ٱلْجَزَّارِيْنَ !.

يَا إِلَـٰهِي ، قَوِّ هَـٰذِهِ ٱلْعَذْرَاءَ ، لِتَتَزَوَّجَ ٱلْمَوْتَ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ٱلْعَرَبِيُّ . . ! .

* * *

وَذَهَبَتْ تَتْلُو شِعْرَهَا عَلَىٰ أَرْمَانُوسَةَ فِي صَوْتٍ حَزِيْنٍ يَتَوَجَّعُ ؛ فَضَحِكَتْ هَـٰذِهِ وَقَالَتْ : أَنْتِ وَاهِمَةٌ يَا مَارِيَةُ ؛ أَنَسِيْتِ أَنَّ أَبِي قَدْ أَهْدَىٰ إِلَىٰ نَبِيِّهِمْ بِنْتَ أَنْصِنَا[1] ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ فِي مَمْلَكَةٍ بَعْضُهَا ٱلسَّمَاءُ وَبَعْضُهَا ٱلْقَلْبُ ؟ لَقَدْ أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّهُ بَعَثَ بِهَا لِتَكْشِفَ لَهُ عَنْ حَقِيْقَةِ هَـٰذَا ٱلدِّيْنِ وَحَقِيْقَةِ هَـٰذَا ٱلنَّبِيِّ ؛ وَأَنَّهَا أَنْفَذَتْ إِلَيْهِ دَسِيْسًا يُعْلِمُهُ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ هُمُ ٱلْعَقْلُ ٱلْجَدِيْدُ ٱلَّذِي سَيَضَعُ فِي ٱلْعَالَمِ تَمْيِيْزَهُ بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ ، وَأَنَّ نَبِيَّهُمْ أَطْهَرُ مِنَ ٱلسَّحَابَةِ فِي سَمَائِهَا ، وَأَنَّهُمْ جَمِيْعًا يَنْبَعِثُوْنَ مِنْ حُدُوْدِ دِيْنِهِمْ { وَفَضَائِلِهِ } ، لَا مِنْ حُدُوْدِ أَنْفُسِهِمْ { وَشَهَوَاتِهَا } ؛ وَإِذَا سَلُّوا ٱلسَّيْفَ سَلُّوْهُ بِقَانُوْنٍ ، وَإِذَا أَغْمَدُوْهُ أَغْمَدُوْهُ بِقَانُوْنٍ .
وَقَالَتْ عَنِ ٱلنِّسَاءِ : لَأَنْ تَخَافَ ٱلْمَرْأَةُ عَلَىٰ عِفَّتِهَا مِنْ أَبِيْهَا أَقْرَبُ مِنْ أَنْ تَخَافَ عَلَيْهَا مِنْ أَصْحَابِ هَـٰذَا ٱلنَّبِيِّ ؛ فَإِنَّهُمْ جَمِيْعًا فِي وَاجِبَاتِ ٱلْقَلْبِ وَوَاجِبَاتِ ٱلْعَقْلِ ، وَيَكَادُ ٱلضَّمِيْرُ ٱلْإِسْلَامِيُّ فِي ٱلرَّجُلِ مِنْهُمْ - يَكُوْنُ حَامِلًا سِلَاحًا يَضْرِبُ [[بِهِ]] صَاحِبَهُ إِذَا هَمَّ بِمُخَالَفَتِهِ .

وَقَالَ أَبِي : إِنَّهُمْ لَا يُغِيْرُوْنَ عَلَىٰ ٱلْأُمَمِ ، وَلَا يُحَارِبُوْنَهَا حَرْبَ ٱلْمُلْكِ ؛ وَإِنَّمَا تِلْكَ طَبِيْعَةُ ٱلْحَرَكَةِ لِلشَّرِيْعَةِ ٱلْجَدِيْدَةِ ، تَتَقَدَّمُ فِي ٱلدُّنْيَا حَامِلَةً ٱلسِّلَاحَ وَٱلْأَخْلَاقَ ، قَوِيَّةً فِي ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا ، فَمِنْ وَرَاءِ أَسْلِحَتِهِمْ أَخْلَاقُهُمْ ؛ وَبِذَلِكَ تَكُوْنُ أَسْلِحَتُهُمْ نَفْسُهَا ذَاتَ أَخْلَاقٍ !.

وَقَالَ أَبِي : إِنَّ هَـٰذَا ٱلدِّيْنَ سَيَنْدَفِعُ بِأَخْلَاقِهِ فِي ٱلْعَالَمِ ٱنْدِفَاعَ ٱلْعُصَارَةِ ٱلْحَيَّةِ فِي ٱلشَّجَرَةِ ٱلْجَرْدَاءِ ؛ طَبِيْعَةٌ تَعْمَلُ فِي طَبِيْعَةٍ ؛ فَلَيْسَ يَمْضِي غَيْرُ بَعِيْدٍ حَتَّىٰ تَخْضَرَّ ٱلدُّنْيَا وَتَرْمِي ظِلَالَهَا ؛ وَهُوَ بِذَلِكَ فَوْقَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي تُشْبِهُ فِي عَمَلِهَا ٱلظَّاهِرِ ٱلْمُلَفَّقِ مَا يُعَدُّ

(١) هِيَ مَارِيَةُ ٱلْقِبْطِيَّةُ ٱلَّتِي أَهْدَاهَا ٱلْمُقَوْقِسُ إِلَىٰ ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَكَانَتْ مِنْ أَنْصِنَا { بِٱلْوَجْهِ ٱلْقِبْلِيِّ } .

كَطِلَاءِ ٱلشَّجَرَةِ ٱلْمَيِّتَةِ ٱلْجَرْدَاءِ بِلَوْنٍ أَخْضَرَ[1] . . . ! شَتَّانَ بَيْنَ عَمَلٍ وَعَمَلٍ ، وَإِنْ كَانَ لَوْنٌ يُشْبِهُ لَوْنًا . . .

فَٱسْتَرْوَحَتْ مَارِيَةُ وَٱطْمَأَنَّتْ بِٱطْمِئْنَانِ أَرْمَانُوسَةَ ، وَقَالَتْ : فَلَا ضَيْرَ عَلَيْنَا إِذَا فَتَحُوا ٱلْبَلَدَ ، وَلَا يَكُوْنُ مَا نَسْتَضِرُّ بِهِ ؟.

قَالَتْ أَرْمَانُوْسَةُ : لَا ضَيْرَ يَا مَارِيَةُ ، وَلَا يَكُوْنُ إِلَّا مَا نُحِبُّ لِأَنْفُسِنَا ؛ فَٱلْمُسْلِمُوْنَ لَيْسُوا كَهَـٰؤُلَاءِ ٱلْعُلُوْجِ مِنَ ٱلرُّوْمِ ، يَفْهَمُوْنَ مَتَاعَ ٱلدُّنْيَا بِفِكْرَةِ ٱلْحِرْصِ { عَلَيْهِ ، } وَٱلْحَاجَةِ إِلَىٰ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، فَهُمُ ٱلْقُسَاةُ ٱلْغِلَاظُ ٱلْمُسْتَكْلِبُوْنَ كَٱلْبَهَائِمِ ؛ وَلَـٰكِنَّهُمْ يَفْهَمُوْنَ مَتَاعَ ٱلدُّنْيَا بِفِكْرَةِ ٱلِاسْتِغْنَاءِ { عَنْهُ } وَٱلتَّمْيِيْزِ بَيْنَ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، فَهُمُ ٱلْإِنْسَانِيُّوْنَ ٱلرُّحَمَاءُ ٱلْمُتَعَفِّفُوْنَ .

قَالَتْ مَارِيَةُ : وَأَبِيْكِ يَا أَرْمَانُوسَةُ إِنَّ هَـٰذَا لَعَجِيْبٌ ! فَقَدْ مَاتَ سُقْرَاطُ وَأَفْلَاطُوْنُ وَأَرِسْطُو وَغَيْرُهُمْ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلْحُكَمَاءِ ، وَمَا ٱسْتَطَاعُوا أَنْ يُؤَدِّبُوا بِحِكْمَتِهِمْ وَفَلْسَفَتِهِمْ إِلَّا ٱلْكُتُبَ ٱلَّتِي كَتَبُوْهَا . . . ! فَلَمْ يُخْرِجُوا لِلدُّنْيَا جَمَاعَةً تَامَّةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، فَضْلًا عَنْ أُمَّةٍ كَمَا وَصَفْتِ أَنْتِ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ؛ فَكَيْفَ ٱسْتَطَاعَ نَبِيُّهُمْ أَنْ يُخْرِجَ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ وَهُمْ يَقُوْلُوْنَ إِنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا ؟ أَفَتَسْخَرُ ٱلْحَقِيْقَةُ مِنْ كِبَارِ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلسِّيَاسَةِ وَٱلتَّدْبِيْرِ ؛ فَتَدَعُهُمْ يَعْمَلُوْنَ عَبَثًا أَوْ كَٱلْعَبَثِ ، ثُمَّ تَسْتَسْلِمُ لِلرَّجُلِ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي لَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَقْرَأْ وَلَمْ يَدْرُسْ وَلَمْ يَتَعَلَّمْ ؟

قَالَتْ أَرْمَانُوْسَةُ : إِنَّ ٱلْعُلَمَاءَ بِهَيْئَةِ ٱلسَّمَاءِ وَأَجْرَامِهَا وَحِسَابِ أَفْلَاكِهَا ، لَيْسُوا هُمُ ٱلَّذِيْنَ يَشُقُّوْنَ ٱلْفَجْرَ وَيُطْلِعُوْنَ ٱلشَّمْسَ ؛ وَأَنَا أَرَىٰ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أُمَّةٍ طَبِيْعِيَّةٍ بِفِطْرَتِهَا يَكُوْنُ عَمَلُهَا فِي ٱلْحَيَاةِ إِيْجَادَ ٱلْأَفْكَارِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ٱلصَّحِيْحَةِ ٱلَّتِي يَسِيْرُ بِهَا ٱلْعَالَمُ ، وَقَدْ دَرَسْتُ ٱلْمَسِيْحَ وَعَمَلَهُ وَزَمَنَهُ ، فَكَانَ طِيْلَةَ عُمُرِهِ يُحَاوِلُ أَنْ يُوْجِدَ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَوْجَدَهَا مُصَغَّرَةً فِي نَفْسِهِ وَحَوَارِيِّيْهِ ، وَكَانَ عَمَلُهُ كَٱلْبَدْءِ فِي تَحْقِيْقِ ٱلشَّيْءِ ٱلْعَسِيْرِ ؛ حَسْبُهُ أَنْ يُثْبِتَ مَعْنَى ٱلْإِمْكَانِ فِيْهِ .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « تُشْبِهُ فِي عَمَلِهَا ٱلْمَيِّتَ مَا يُشْبِهُ طِلَاءَ ٱلشَّجَرَةِ ٱلْجَرْدَاءِ بِلَوْنٍ أَخْضَرَ » .

وَظُهُورُ ٱلْحَقِيقَةِ مِنْ هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ ٱلْأُمِّيِّ هُوَ تَنْبِيهُ ٱلْحَقِيقَةِ إِلَىٰ نَفْسِهَا ؛ وَبُرْهَانُهَا ٱلْقَاطِعُ أَنَّهَا بِذَٰلِكَ فِي مَظْهَرِهَا ٱلْإِلَـٰهِيِّ . وَٱلْعَجِيبُ يَا مَارِيَةُ ، أَنَّ هَـٰذَا ٱلنَّبِيَّ قَدْ خَذَلَهُ قَوْمُهُ وَنَاكَرُوهُ وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ خِلَافِهِ ، فَكَانَ فِي ذَٰلِكَ كَٱلْمَسِيحِ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْمَسِيحَ ٱنْتَهَىٰ عِنْدَ ذَٰلِكَ ؛ أَمَّا هَـٰذَا فَقَدْ ثَبَتَ ثَبَاتَ ٱلْوَاقِعِ حِينَ يَقَعُ ؛ لَا يَرْتَدُّ وَلَا يَتَغَيَّرُ ؛ وَهَاجَرَ مِنْ بَلَدِهِ ، فَكَانَ ذَٰلِكَ أَوَّلَ خُطَا ٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي أَعْلَنَتْ أَنَّهَا سَتَمْشِي فِي ٱلدُّنْيَا ، وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ يَوْمِئِذٍ تَمْشِي[1] . وَلَوْ كَانَتْ حَقِيقَةُ ٱلْمَسِيحِ قَدْ جَاءَتْ لِلدُّنْيَا كُلِّهَا لَهَاجَرَتْ بِهِ { كَذَٰلِكَ } ، فَهَـٰذَا فَرْقٌ آخَرُ بَيْنَهُمَا . وَٱلْفَرْقُ ٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلْمَسِيحَ لَمْ يَأْتِ إِلَّا بِعِبَادَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ عِبَادَةُ ٱلْقَلْبِ ، أَمَّا هَـٰذَا ٱلدِّينُ فَعَلِمْتُ مِنْ أَبِي أَنَّهُ ثَلَاثُ عِبَادَاتٍ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا : إِحْدَاهَا لِلْأَعْضَاءِ ، وَٱلثَّانِيَةُ لِلْقَلْبِ ، وَٱلثَّالِثَةُ لِلنَّفْسِ ؛ فَعِبَادَةُ ٱلْأَعْضَاءِ طَهَارَتُهَا وَٱعْتِيَادُهَا ٱلضَّبْطَ ؛ وَعِبَادَةُ ٱلْقَلْبِ طَهَارَتُهُ وَحُبُّهُ ٱلْخَيْرَ ؛ وَعِبَادَةُ ٱلنَّفْسِ طَهَارَتُهَا وَبَذْلُهَا فِي سَبِيلِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ . وَعِنْدَ أَبِي أَنَّهُمْ بِهَـٰذِهِ ٱلْأَخِيرَةِ سَيَمْلِكُونَ ٱلدُّنْيَا ؛ فَلَنْ تُقْهَرَ أُمَّةٌ عَقِيدَتُهَا أَنَّ ٱلْمَوْتَ أَوْسَعُ ٱلْجَانِبَيْنِ وَأَسْعَدُهُمَا .

قَالَتْ مَارِيَةُ : إِنَّ هَـٰذَا وَٱللهِ لَسِرٌّ إِلَـٰهِيٌّ يَدُلُّ عَلَىٰ نَفْسِهِ ؛ فَمِنْ طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ أَلَّا تَنْبَعِثَ نَفْسُهُ غَيْرَ مُبَالِيَةٍ ٱلْحَيَاةَ وَٱلْمَوْتَ إِلَّا فِي أَحْوَالٍ قَلِيلَةٍ ، تَكُونُ طَبِيعَةُ ٱلْإِنْسَانِ فِيهَا عَمْيَاءَ : كَٱلْغَضَبِ ٱلْأَعْمَىٰ ، وَٱلْحُبِّ ٱلْأَعْمَىٰ ، وَٱلتَّكَبُّرِ ٱلْأَعْمَىٰ . فَإِذَا كَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ ٱلْإِسْلَامِيَّةُ كَمَا قُلْتِ مُنْبَعِثَةً هَـٰذَا ٱلِانْبِعَاثَ ، لَيْسَ فِيهَا إِلَّا ٱلشُّعُورُ بِذَاتِيَّتِهَا ٱلْعَالِيَةِ ـ فَمَا بَعْدَ ذَٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا ٱلدِّينَ هُوَ شُعُورُ ٱلْإِنْسَانِ بِسُمُوِّ ذَاتِيَّتِهِ ، وَهَـٰذِهِ هِيَ نِهَايَةُ ٱلنِّهَايَاتِ فِي ٱلْفَلْسَفَةِ وَٱلْحِكْمَةِ .

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : وَمَا بَعْدَ ذَٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّكِ تَتَهَيَّئِينَ أَنْ تَكُونِي مُسْلِمَةً يَا مَارِيَةُ ! .

فَٱسْتَضْحَكَتَا مَعًا وَقَالَتْ مَارِيَةُ : إِنَّمَا أَلْقَيْتِ كَلَامًا جَارَيْتُكِ فِيهِ بِحَسَبِهِ ، فَأَنَا وَأَنْتِ فِكْرَتَانِ لَا مُسْلِمَتَانِ .

* * *

(١) { ٱنْظُرِ ٱلْمَقَالَاتِ ٱلنَّبَوِيَّةَ فِي صَدْرِ ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي مِنْ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ } .

قَالَ ٱلرَّاوِي : وَٱنْهَزَمَ ٱلرُّومُ عَنْ بِلْبِيسَ ، وَٱرْتَدُّوا إِلَىٰ ٱلْمُقَوْقِسِ فِي مَنْفٍ ، وَكَانَ وَحْيُ أَرْمَانُوسَةَ فِي مَارِيَةَ مُدَّةَ ٱلْحِصَارِ ـ وَهِيَ نَحْوُ ٱلشَّهْرِ ـ كَأَنَّهُ فِكْرٌ سَكَنَ فِكْرًا وَتَمَدَّدَ فِيهِ ؛ فَقَدْ مَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْكَلَامُ بِمَا فِي عَقْلِهَا مِنْ حَقَائِقِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَدَبِ وَٱلْفَلْسَفَةِ ، فَصَنَعَ مَا يَصْنَعُ ٱلْمُؤَلِّفُ بِكِتَابٍ يُنَقِّحُهُ ، وَأَنْشَأَ لَهَا أَخْيِلَةً تُجَادِلُهَا وَتَدْفَعُهَا إِلَىٰ ٱلتَّسْلِيمِ بِٱلصَّحِيحِ لِأَنَّهُ صَحِيحٌ ، وَٱلْمُؤَكَّدِ لِأَنَّهُ مُؤَكَّدٌ .

وَمِنْ طَبِيعَةِ ٱلْكَلَامِ إِذَا أَثَّرَ فِي ٱلنَّفْسِ ، أَنْ يَنْتَظِمَ فِي مِثْلِ ٱلْحَقَائِقِ ٱلصَّغِيرَةِ ٱلَّتِي تُلْقَىٰ لِلْحِفْظِ ؛ فَكَانَ كَلَامُ أَرْمَانُوسَةَ فِي عَقْلِ مَارِيَةَ هَـٰكَذَا : « ٱلْمَسِيحُ بَدْءٌ وَلِلْبَدْءِ تَكْمِلَةٌ ، مَا مِنْ ذَٰلِكَ بُدٌّ . لَا تَكُونُ خِدْمَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا بِذَاتٍ عَالِيَةٍ لَا تُبَالِي غَيْرَ سُمُوِّهَا . ٱلْأُمَّةُ ٱلَّتِي تَبْذُلُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَسْتَمْسِكُ بِٱلْحَيَاةِ { جُبْنًا وَحِرْصًا } لَا تَأْخُذُ شَيْئًا ، وَٱلَّتِي تَبْذُلُ أَرْوَاحَهَا فَقَطْ تَأْخُذُ كُلَّ شَيْءٍ . . . » .

وَجُعِلَتْ هَـٰذِهِ ٱلْحَقَائِقُ ٱلْإِسْلَامِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا تُعَرِّبُ هَـٰذَا ٱلْعَقْلَ ٱلْيُونَانِيَّ ؛ فَلَمَّا أَرَادَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ تَوْجِيهَ أَرْمَانُوسَةَ إِلَىٰ أَبِيهَا ، وَٱنْتَهَىٰ ذَٰلِكَ إِلَىٰ مَارِيَةَ قَالَتْ لَهَا : لَا يَجْمُلُ بِمَنْ كَانَتْ مِثْلَكِ فِي شَرَفِهَا وَعَقْلِهَا أَنْ تَكُونَ كَٱلْأَخِيذَةِ ، تَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُسَارُ بِهَا ؛ وَٱلرَّأْيُ أَنْ تَبْدَئِي هَـٰذَا ٱلْقَائِدَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَكِ ؛ فَأَرْسِلِي إِلَيْهِ فَأَعْلِمِيهِ أَنَّكِ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ أَبِيكِ ، وَٱسْأَلِيهِ أَنْ يُصْحِبَكِ بَعْضَ رِجَالِهِ ؛ فَتَكُونِي ٱلْآمِرَةَ حَتَّىٰ فِي ٱلْأَسْرِ ، وَتَصْنَعِي صُنْعَ بَنَاتِ ٱلْمُلُوكِ ! .

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : فَلَا أَجِدُ لِذَٰلِكَ خَيْرًا مِنْكِ فِي لِسَانِكِ وَدَهَائِكِ ؛ فَٱذْهَبِي إِلَيْهِ مِنْ قِبَلِي ، وَسَيَصْحَبُكِ ٱلرَّاهِبُ شَطَا ، وَخُذِي مَعَكِ كَوْكَبَةً مِنْ فُرْسَانِنَا .

* * *

قَالَتْ مَارِيَةُ وَهِيَ تَقُصُّ عَلَىٰ سَيِّدَتِهَا : لَقَدْ أَدَّيْتُ إِلَيْهِ رِسَالَتَكِ فَقَالَ : كَيْفَ ظَنُّهَا بِنَا ؟ قُلْتُ : ظَنُّهَا بِفِعْلِ رَجُلٍ كَرِيمٍ يَأْمُرُهُ ٱثْنَانِ : كَرَمُهُ ، وَدِينُهُ . فَقَالَ : أَبْلِغِيهَا أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ قَالَ : « ٱسْتَوْصُوا بِٱلْقِبْطِ خَيْرًا ، فَإِنَّ لَهُمْ فِيكُمْ صِهْرًا وَذِمَّةً » . وَأَعْلِمِيهَا أَنَّنَا لَسْنَا عَلَىٰ غَارَةٍ نُغِيرُهَا ، بَلْ عَلَىٰ نُفُوسٍ نُغَيِّرُهَا .

قَالَتْ : فَصِفِيهِ لِي يَا مَارِيَةُ .

قَالَتْ : كَانَ آتِياً فِي جَمَاعَةٍ مِنْ فُرْسَانِهِ عَلَىٰ خُيُولِهِمُ ٱلْعِرَابِ ، كَأَنَّهَا شَيَاطِينُ تَحْمِلُ شَيَاطِينَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ ؛ فَلَمَّا صَارَ بِحَيْثُ أَتَبَيَّنُهُ أَوْمَأَ إِلَيْهِ ٱلتَّرْجُمَانُ ـ وَهُوَ وَرْدَانُ مَوْلَاهُ ـ فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا هُوَ عَلَىٰ فَرَسٍ كُمَيْتٍ أَحَمَّ[1] لَمْ يَخْلُصْ لِلأَسْوَدِ وَلَا لِلأَحْمَرِ ، طَوِيلِ ٱلْعُنُقِ مُشْرِفٍ ، لَهُ ذُؤَابَةٌ أَعْلَىٰ نَاصِيَتِهِ كَطُرَّةِ ٱلْمَرْأَةِ ، ذَيَّالٍ يَتَبَخْتَرُ بِفَارِسِهِ وَيُحَمْحِمُ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ ، مُطَهَّمٍ . . .

فَقَطَعَتْ أَرْمَانُوسَةُ عَلَيْهَا وَقَالَتْ : مَا سَأَلْتُكِ صِفَةَ جَوَادِهِ . . .

قَالَتْ مَارِيَةُ : أَمَّا سِلَاحُهُ . . .

قَالَتْ : وَلَا سِلَاحِهِ ، صِفِيهِ كَيْفَ رَأَيْتِهِ هُوَ ! .

قَالَتْ : رَأَيْتُهُ قَصِيرَ ٱلْقَامَةِ عَلَامَةَ قُوَّةٍ { وَصَلَابَةٍ } ، وَافِرَ ٱلْهَامَةِ عَلَامَةَ عَقْلٍ { وَإِرَادَةٍ } ، أَدْعَجَ ٱلْعَيْنَيْنِ . . .

فَضَحِكَتْ أَرْمَانُوسَةُ وَقَالَتْ : عَلَامَةُ مَاذَا ؟ . . .

. . . أَبْلَجَ يُشْرِقُ وَجْهُهُ كَأَنَّ فِيهِ لأْلَاءَ ٱلذَّهَبِ عَلَى ٱلضَّوْءِ ، أَيِّدًا ٱجْتَمَعَتْ فِيهِ ٱلْقُوَّةُ حَتَّىٰ لَتَكَادُ عَيْنَاهُ تَأْمُرَانِ بِنَظَرِهِمَا أَمْرًا . . . دَاهِيَةٌ كُتِبَ دَهَاؤُهُ عَلَىٰ جَبْهَتِهِ ٱلْعَرِيضَةِ يَجْعَلُ فِيهَا مَعْنًى يَأْخُذُ مَنْ يَرَاهُ ؛ وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أَتَفَرَّسَ فِي وَجْهِهِ رَأَيْتُ وَجْهَهُ لَا يُفَسِّرُهُ إِلَّا تَكْرَارُ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ . . .

وَتَضَرَّجَتْ وَجْنَتَاهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ حَدِيثًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَيْنَيْ أَرْمَانُوسَةَ . . . وَقَالَتْ هَـٰذِهِ : كَذَلِكَ كُلُّ لَذَّةٍ لَا يُفَسِّرُهَا لِلنَّفْسِ إِلَّا تَكْرَارُهَا . . .

فَغَضَّتْ مَارِيَةُ مِنْ طَرْفِهَا وَقَالَتْ : هُوَ وَٱللهِ مَا وَصَفْتِ ، وَإِنِّي مَا مَلَأْتُ عَيْنِي مِنْهُ ، وَقَدْ كِدْتُ أُنْكِرُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ لِمَا ٱعْتَرَانِي مِنْ هَيْبَتِهِ . . .

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : مِنْ هَيْبَتِهِ أَمْ مِنْ عَيْنَيْهِ ٱلدَّعْجَاوَيْنِ . . . ؟

* * *

(١) ٱلْكُمَيْتُ ٱلأَحَمُّ : هُوَ ٱلأَحْمَرُ ٱلضَّارِبُ لِلسَّوَادِ ، لَا يَخْلُصُ لِأَحَدِ ٱللَّوْنَيْنِ ، فَإِذَا كَانَ أَحْمَرَ خَالِصًا قِيلَ فِيهِ : كُمَيْتٌ مُدَمًّى ، بِتَشْدِيدِ ٱلْمِيمِ ٱلثَّانِيَةِ وَفَتْحِهَا .

وَرَجَعَتْ بِنْتُ ٱلْمُقَوْقِسِ إِلَىٰ أَبِيهَا فِي صُحْبَةِ قَيْسٍ ، فَلَمَّا كَانُوا فِي ٱلطَّرِيقِ وَجَبَتِ ٱلظُّهْرُ ، فَنَزَلَ قَيْسٌ يُصَلِّي بِمَنْ مَعَهُ وَٱلْفَتَاتَانِ تَنْظُرَانِ ؛ فَلَمَّا صَاحُوا : « ٱللهُ أَكْبَرُ . . . ! » ٱرْتَعَشَ قَلْبُ مَارِيَةَ ، وَسَأَلَتِ ٱلرَّاهِبَ شَطَا : مَاذَا يَقُولُونَ ؟ قَالَ : إِنَّ هَـٰذِهِ كَلِمَةٌ يَدْخُلُونَ بِهَا صَلَاتَهُمْ ، كَأَنَّمَا يُخَاطِبُونَ بِهَا ٱلزَّمَنَ أَنَّهُمُ ٱلسَّاعَةَ فِي وَقْتٍ لَيْسَ مِنْهُ وَلَا مِنْ دُنْيَاهُمْ ، وَكَأَنَّهُمْ يُعْلِنُونَ أَنَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْوُجُودِ ؛ فَإِذَا أَعْلَنُوا ٱنْصِرَافَهُمْ عَنِ ٱلْوَقْتِ وَنِزَاعِ ٱلْوَقْتِ وَشَهَوَاتِ ٱلْوَقْتِ ، فَذَلِكَ هُوَ دُخُولُهُمْ فِي ٱلصَّلَاةِ ؛ كَأَنَّهُمْ يَمْحُونَ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلنَّفْسِ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ ؛ وَمَحْوُهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ هُوَ ٱرْتِفَاعُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَلَيْهَا ؛ ٱنْظُرِي ، أَلَا تَرَيْنَ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ قَدْ سَحَرَتْهُمْ سِحْرًا فَهُمْ لَا يَلْتَفِتُونَ فِي صَلَاتِهِمْ إِلَىٰ شَيْءٍ ؛ وَقَدْ شَمَلَتْهُمُ ٱلسَّكِينَةُ ، وَرَجَعُوا غَيْرَ مَنْ كَانُوا ، وَخَشَعُوا خُشُوعَ أَعْظَمِ ٱلْفَلَاسِفَةِ فِي تَأَمُّلِهِمْ ؟[1] .

قَالَتْ مَارِيَةُ : مَا أَجْمَلَ هَـٰذِهِ ٱلْفِطْرَةَ ٱلْفَلْسَفِيَّةَ ! لَقَدْ تَعِبَتِ ٱلْكُتُبُ لِتَجْعَلَ أَهْلَ ٱلدُّنْيَا يَسْتَقِرُّونَ سَاعَةً فِي سَكِينَةِ ٱللهِ عَلَيْهِمْ فَمَا أَفْلَحَتْ ، وَجَاءَتِ ٱلْكَنِيسَةُ فَهَوَّلَتْ عَلَى ٱلْمُصَلِّينَ بِٱلزَّخَارِفِ وَٱلصُّوَرِ وَٱلتَّمَاثِيلِ وَٱلأَلْوَانِ ، لِتُوحِيَ إِلَىٰ نُفُوسِهِمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلشُّعُورِ بِسَكِينَةِ ٱلْجَمَالِ وَتَقْدِيسِ ٱلْمَعْنَى ٱلدِّينِيِّ ، وَهِيَ بِذَلِكَ تَحْتَالُ فِي نَقْلِهِمْ مِنْ جَوِّهِمْ إِلَىٰ جَوِّهَا ؛ فَكَانَتْ كَسَاقِي ٱلْخَمْرِ ؛ إِنْ لَمْ يُعْطِكَ ٱلْخَمْرَ عَجَزَ عَنْ إِعْطَائِكَ ٱلنَّشْوَةَ . وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ كَنِيسَةً عَلَىٰ جَوَادٍ أَوْ حِمَارٍ ؟

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : نَعَمْ إِنَّ ٱلْكَنِيسَةَ كَٱلْحَدِيقَةِ ؛ هِيَ حَدِيقَةٌ فِي مَكَانِهَا ، وَقَلَّمَا تُوحِي شَيْئًا إِلَّا فِي مَوْضِعِهَا ؛ فَٱلْكَنِيسَةُ هِيَ ٱلْجُدْرَانُ ٱلأَرْبَعَةُ ، أَمَّا هَـٰؤُلَاءِ فَمَعْبَدُهُمْ بَيْنَ جِهَاتِ ٱلأَرْضِ ٱلأَرْبَعِ .

قَالَ ٱلرَّاهِبُ شَطَا : وَلَـٰكِنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ مَتَىٰ فُتِحَتْ عَلَيْهِمُ ٱلدُّنْيَا وَٱفْتَتَنُوا بِهَا وَٱنْغَمَسُوا فِيهَا ـ فَسَتَكُونُ هَـٰذِهِ ٱلصَّلَاةُ بِعَيْنِهَا لَيْسَ فِيهَا صَلَاةٌ يَوْمَئِذٍ .

قَالَتْ مَارِيَةُ : وَهَلْ تُفْتَحُ عَلَيْهِمُ ٱلدُّنْيَا ، وَهَلْ لَهُمْ قُوَّادٌ كَثِيرُونَ كَعَمْرٍو . . . ؟

(١) { انظر مقالة « حقيقة المسلم » في الجزء الثاني } .

قَالَ : كَيْفَ لَا تُفْتَحُ ٱلدُّنْيَا عَلَىٰ قَوْمٍ لَا يُحَارِبُوْنَ ٱلْأُمَمَ بَلْ يُحَارِبُوْنَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلظُّلْمِ وَٱلْكُفْرِ وَٱلرَّذِيْلَةِ ، وَهُمْ خَارِجُوْنَ مِنَ ٱلصَّحْرَاءِ بِطَبِيْعَةٍ قَوِيَّةٍ كَطَبِيْعَةِ ٱلْمَوْجِ فِيْ ٱلْمَدِّ ٱلْمُرْتَفِعِ ؛ لَيْسَ فِيْ دَاخِلِهَا إِلَّا أَنْفُسٌ مُنْدَفِعَةٌ إِلَىٰ ٱلْخَارِجِ عَنْهَا ؛ ثُمَّ يُقَاتِلُوْنَ بِهَـٰذِهِ ٱلطَّبِيْعَةِ أُمَمًا لَيْسَ فِيْ ٱلدَّاخِلِ مِنْهَا إِلَّا ٱلنُّفُوْسُ ٱلْمُسْتَعِدَّةُ أَنْ تَهْرُبَ إِلَىٰ ٱلدَّاخِلِ . . . !

قَالَتْ مَارِيَةُ : وَٱللهِ لَكَأَنَّنَا ثَلَاثَتَنَا عَلَىٰ دِيْنِ عَمْرٍو . . .

* * *

وَٱنْفَتَلَ قَيْسٌ مِنَ ٱلصَّلَاةِ ، وَأَقْبَلَ يَتَرَحَّلُ ، فَلَمَّا حَاذَىٰ مَارِيَةَ كَانَ عِنْدَهَا كَأَنَّمَا سَافَرَ وَرَجَعَ ؛ وَكَانَتْ مَا تَزَالُ فِيْ أَحْلَامِ قَلْبِهَا ؛ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْحُلْمِ فِيْ عَالَمٍ أَخَذَ يَتَلَاشَىٰ إِلَّا مِنْ عَمْرٍو وَمَا يَتَّصِلُ بِعَمْرٍو . وَفِيْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ أَحْوَالٌ ثَلَاثٌ(١) يَغِيْبُ فِيْهَا ٱلْكَوْنُ بِحَقَائِقِهِ : فَيَغِيْبُ عَنِ ٱلسَّكْرَانِ ، وَٱلْمَخْبُوْلِ ، وَٱلنَّائِمِ ؛ وَفِيْهَا حَالَةٌ رَابِعَةٌ يَتَلَاشَىٰ فِيْهَا ٱلْكَوْنُ إِلَّا مِنْ حَقِيْقَةٍ وَاحِدَةٍ تَتَمَثَّلُ فِيْ إِنْسَانٍ { مَحْبُوْبٍ } .

وَقَالَتْ مَارِيَةُ لِلرَّاهِبِ شَطَا : سَلْهُ : مَا أَرَبُهُمْ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَرْبِ ، وَهَلْ فِيْ سِيَاسَتِهِمْ أَنْ يَكُوْنَ ٱلْقَائِدُ ٱلَّذِيْ يَفْتَحُ بَلَدًا حَاكِمًا عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْبَلَدِ . . . ؟

قَالَ قَيْسٌ : حَسْبُكِ أَنْ تَعْلَمِيْ أَنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْمُسْلِمَ لَيْسَ إِلَّا رَجُلًا عَامِلًا فِيْ تَحْقِيْقِ كَلِمَةِ ٱللهِ ، أَمَّا حَظُّ نَفْسِهِ فَهُوَ فِيْ غَيْرِ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا .

وَتَرْجَمَ ٱلرَّاهِبُ كَلَامَهُ هَـٰكَذَا : أَمَّا ٱلْفَاتِحُ فَهُوَ فِيْ ٱلْأَكْثَرِ ٱلْحَاكِمُ ٱلْمُقِيْمُ ، وَأَمَّا ٱلْحَرْبُ فَهِيَ عِنْدَنَا ٱلْفِكْرَةُ ٱلْمُصْلِحَةُ تُرِيْدُ أَنْ تَضْرِبَ فِيْ ٱلْأَرْضِ وَتَعْمَلَ ، وَلَيْسَ حَظُّ ٱلنَّفْسِ شَيْئًا يَكُوْنُ مِنَ ٱلدُّنْيَا ؛ وَبِهَـٰذَا تَكُوْنُ ٱلنَّفْسُ أَكْبَرَ مِنْ غَرَائِزِهَا ، وَتَنْقَلِبُ مَعَهَا ٱلدُّنْيَا بِرُعُوْنَتِهَا وَحَمَاقَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا كَٱلطِّفْلِ بَيْنَ يَدَيْ رَجُلٍ ، فِيْهِمَا قُوَّةُ ضَبْطِهِ وَتَصْرِيْفِهِ . وَلَوْ كَانَ فِيْ عَقِيْدَتِنَا أَنَّ ثَوَابَ أَعْمَالِنَا فِيْ ٱلدُّنْيَا ، لَٱنْعَكَسَ ٱلْأَمْرُ .

قَالَتْ مَارِيَةُ : فَسَلْهُ : كَيْفَ يَصْنَعُ عَمْرٌو بِهَـٰذِهِ ٱلْقِلَّةِ ٱلَّتِيْ مَعَهُ وَٱلرُّوْمُ لَا يُحْصَىٰ عَدَدُهُمْ ؛ فَإِذَا أَخْفَقَ عَمْرٌو فَمَنْ عَسَىٰ أَنْ يَسْتَبْدِلُوْهُ مِنْهُ ؟ وَهَلْ هُوَ أَكْبَرُ قُوَّادِهِمْ ، أَوْ فِيْهِم

(١) فِيْ ٱلْأَصْلِ : « ثَلَاثَةٌ » بَدَلًا مِنْ : « ثَلَاثٌ » .

أَكْبَرُ مِنْهُ ؟ .

قَالَ ٱلرَّاوِيْ : وَلَـٰكِنَّ فَرَسَ قَيْسٍ تَمَطَّرَ وَأَسْرَعَ فِيْ لِحَاقِ ٱلْخَيْلِ عَلَىٰ ٱلْمُقَدَّمَةِ كَأَنَّهُ يَقُوْلُ : لَسْنَا فِيْ هَـٰذَا . . .

* * *

وَفُتِحَتْ مِصْرُ صُلْحًا بَيْنَ عَمْرٍو وَٱلْقِبْطِ ، وَوَلَّىٰ ٱلرُّوْمُ مُصْعِدِيْنَ إِلَىٰ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَكَانَتْ مَارِيَةُ فِيْ ذَلِكَ تَسْتَقْرِىءُ أَخْبَارَ ٱلْفَاتِحِ تَطُوْفُ مِنْهُمَا عَلَىٰ أَطْلَالٍ مِنْ شَخْصٍ بَعِيْدٍ ؛ وَكَانَ عَمْرٌو مِنْ نَفْسِهَا كَٱلْمَمْلَكَةِ ٱلْحَصِيْنَةِ مِنْ فَاتِحٍ لَا يَمْلِكُ إِلَّا حُبَّهُ أَنْ يَأْخُذَهَا ؛ وَجَعَلَتْ تَذْوِيْ وَشَحَبَ لَوْنُهَا وَبَدَأَتْ تَنْظُرُ ٱلنَّظْرَةَ ٱلتَّائِهَةَ ؛ وَبَانَ عَلَيْهَا أَثَرُ ٱلرُّوْحِ ٱلظَّمْأَىٰ ؛ وَحَاطَهَا ٱلْيَأْسُ بِجَوِّهِ ٱلَّذِيْ يُحْرِقُ ٱلدَّمَ ؛ وَبَدَتْ مَجْرُوْحَةَ ٱلْمَعَانِيْ ؛ إِذْ كَانَ يَتَقَاتَلُ فِيْ نَفْسِهَا ٱلشُّعُوْرَانِ ٱلْعَدُوَّانِ : شُعُوْرُ أَنَّهَا عَاشِقَةٌ ، وَشُعُوْرُ أَنَّهَا يَائِسَةٌ !

وَرَقَّتْ لَهَا أَرْمَانُوْسَةُ ، وَكَانَتْ هِيَ أَيْضًا تَتَعَلَّقُ فَتًى رُوْمَانِيًّا ، فَسَهِرَتَا لَيْلَةً تُدِيْرَانِ ٱلرَّأْيَ فِيْ رِسَالَةٍ تَحْمِلُهَا مَارِيَةُ مِنْ قِبَلِهَا إِلَىٰ عَمْرٍو كَيْ تَصِلَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا وَصَلَتْ بَلَّغَتْ بِعَيْنَيْهَا رِسَالَةَ نَفْسِهَا . . .

وَٱسْتَقَرَّ ٱلْأَمْرُ أَنْ تَكُوْنَ ٱلْمَسْأَلَةُ عَنْ مَارِيَةَ ٱلْقِبْطِيَّةِ وَخَبَرِهَا وَنَسْلِهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِمَّا يَطُوْلُ ٱلْإِخْبَارُ بِهِ إِذَا كَانَ ٱلسُّؤَالُ مِنِ ٱمْرَأَةٍ عَنِ ٱمْرَأَةٍ . فَلَمَّا أَصْبَحَتَا وَقَعَ إِلَيْهَا أَنَّ عَمْرًا قَدْ سَارَ إِلَىٰ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ لِقِتَالِ ٱلرُّوْمِ ، وَشَاعَ ٱلْخَبَرُ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِفُسْطَاطِهِ أَنْ يُقَوَّضَ أَصَابُوْا يَمَامَةً قَدْ بَاضَتْ فِيْ أَعْلَاهُ ، فَأَخْبَرُوْهُ ، فَقَالَ : « قَدْ تَحَرَّمَتْ فِيْ جِوَارِنَا ، أَقِرُّوْا ٱلْفُسْطَاطَ حَتَّىٰ تَطِيْرَ فِرَاخُهَا » . فَأَقَرُّوْهُ !

* * *

وَلَمْ يَمْضِ غَيْرُ طَوِيْلٍ حَتَّىٰ قَضَتْ مَارِيَةُ نَحْبَهَا ، وَحَفِظَتْ عَنْهَا أَرْمَانُوْسَةُ هَـٰذَا ٱلشِّعْرَ ٱلَّذِيْ أَسْمَتْهُ : نَشِيْدُ ٱلْيَمَامَةِ :

عَلَىٰ فُسْطَاطِ ٱلْأَمِيْرِ يَمَامَةٌ جَاثِمَةٌ تَحْضُنُ بَيْضَهَا .

تَرَكَهَا ٱلْأَمِيْرُ تَصْنَعُ ٱلْحَيَاةَ ، وَذَهَبَ هُوَ يَصْنَعُ ٱلْمَوْتَ !

هِيَ كَأَسْعَدِ ٱمْرَأَةٍ ؛ تَرَىٰ وَتَلْمَسُ أَحْلَامَهَا .

إِنَّ سَعَادَةَ ٱلْمَرْأَةِ أَوَّلَهَا وَآخِرَهَا بَعْضُ حَقَائِقَ صَغِيرَةٍ كَهَـٰذَا ٱلْبَيْضِ .

* * *

عَلَىٰ فُسْطَاطِ ٱلأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَاثِمَةٌ تَحْضُنُ بَيْضَهَا .

لَوْ سُئِلَتْ عَنْ هَـٰذَا ٱلْبَيْضِ لَقَالَتْ : هَـٰذَا كَنْزِيَ .

هِيَ كَأَهْنَأِ ٱمْرَأَةٍ ، مَلَكَتْ مُلْكَهَا مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَلَمْ تَفْتَقِرْ .

هَلْ أُكَلِّفُ ٱلْوُجُودَ شَيْئًا كَثِيرًا إِذَا كَلَّفْتُهُ رَجُلًا وَاحِدًا أُحِبُّهُ !

* * *

عَلَىٰ فُسْطَاطِ ٱلأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَاثِمَةٌ تَحْضُنُ بَيْضَهَا .

ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ ، كُلُّهَا أَصْغَرُ فِي عَيْنِهَا مِنْ هَـٰذَا ٱلْبَيْضِ .

هِيَ كَأَرَقِّ ٱمْرَأَةٍ ؛ عَرَفَتِ ٱلرِّقَّةَ مَرَّتَيْنِ : فِي ٱلْحُبِّ ، وَٱلْوِلَادَةِ .

هَلْ أُكَلِّفُ ٱلْوُجُودَ شَيْئًا كَثِيرًا إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ كَهَـٰذِهِ ٱلْيَمَامَةِ !

* * *

عَلَىٰ فُسْطَاطِ ٱلأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَاثِمَةٌ تَحْضُنُ بَيْضَهَا .

تَقُولُ ٱلْيَمَامَةُ : إِنَّ ٱلْوُجُودَ يُحِبُّ أَنْ يُرَىٰ بِلَوْنَيْنِ فِي عَيْنِ ٱلأُنْثَىٰ .

مَرَّةً حَبِيبًا كَبِيرًا فِي رَجُلِهَا ، وَمَرَّةً حَبِيبًا صَغِيرًا فِي أَوْلَادِهَا .

كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لِقَانُونِهِ ؛ وَٱلأُنْثَىٰ لَا تُرِيدُ أَنْ تَخْضَعَ إِلَّا لِقَانُونِهَا .

* * *

أَيَّتُهَا ٱلْيَمَامَةُ ، لَمْ تَعْرِفِي ٱلأَمِيرَ وَتَرَكَ لَكِ فُسْطَاطَهُ !

هَـٰكَذَا ٱلْحَظُّ : عَدْلٌ مُضَاعَفٌ فِي نَاحِيَةٍ ، وَظُلْمٌ مُضَاعَفٌ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ .

ٱحْمَدِيَ ٱللهَ أَيَّتُهَا ٱلْيَمَامَةُ ، أَنْ لَيْسَ عِنْدَكُمْ لُغَاتٌ وَأَدْيَانٌ .

عِنْدَكُمْ فَقَطْ : ٱلْحُبُّ وَٱلطَّبِيعَةُ وَٱلْحَيَاةُ .

* * *

عَلَىٰ فُسْطَاطِ ٱلأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَاثِمَةٌ تَحْضُنُ بَيْضَهَا .

يَمَامَةٌ سَعِيدَةٌ ، سَتَكُونُ فِي ٱلتَّارِيخِ كَهُدْهُدِ سُلَيْمَانَ .

نُسِبَ ٱلْهُدْهُدُ إِلَىٰ سُلَيْمَانَ ، وَسَتُنْسَبُ ٱلْيَمَامَةُ إِلَىٰ عَمْرٍو .

وَاهًا لَكَ يَا عَمْرُو ! مَا ضَرَّ لَوْ عَرَفْتَ ٱلْيَمَامَةَ ٱلأُخْرَىٰ . . . !

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱجْتِلَاءُ ٱلْعِيدِ(*)

جَاءَ يَوْمُ ٱلْعِيدِ ؛ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ مِنَ ٱلزَّمَنِ إِلَىٰ زَمَنٍ وَحْدَهُ لَا يَسْتَمِرُّ أَكْثَرَ مِنْ يَوْمٍ .

زَمَنٌ قَصِيرٌ ظَرِيفٌ ضَاحِكٌ ، تَفْرِضُهُ ٱلْأَدْيَانُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ ، لِيَكُونَ لَهُمْ بَيْنَ ٱلْحِينِ وَٱلْحِينِ يَوْمٌ طَبِيعِيٌّ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِي ٱنْتَقَلَتْ عَنْ طَبِيعَتِهَا .

يَوْمُ ٱلسَّلَامِ ، وَٱلْبِشْرِ ، وَٱلضَّحِكِ ، وَٱلْوَفَاءِ ، وَٱلْإِخَاءِ ، وَقَوْلِ ٱلْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ : وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ .

يَوْمُ ٱلثِّيَابِ ٱلْجَدِيدَةِ عَلَىٰ ٱلْكُلِّ إِشْعَارًا لَهُمْ بِأَنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْإِنْسَانِيَّ جَدِيدٌ فِي هَـٰذَا ٱلْيَوْمِ .

يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ٱلَّتِي لَا يُرَادُ مِنْهَا إِلَّا إِظْهَارُ أَثَرِهَا عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ لِيَكُونَ ٱلنَّاسُ جَمِيعًا فِي يَوْمِ حُبٍّ .

* * *

يَوْمُ ٱلْعِيدِ ؛ يَوْمُ تَقْدِيمِ ٱلْحَلْوَىٰ إِلَىٰ كُلِّ فَمٍ لِتَحْلُوَ ٱلْكَلِمَاتُ فِيهِ . . .

يَوْمٌ تَعُمُّ فِيهِ ٱلنَّاسَ أَلْفَاظُ ٱلدُّعَاءِ وَٱلتَّهْنِئَةِ مُرْتَفِعَةً بِقُوَّةٍ إِلَـٰهِيَّةٍ فَوْقَ مُنَازَعَاتِ ٱلْحَيَاةِ .

ذَلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي يَنْظُرُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ إِلَىٰ نَفْسِهِ نَظْرَةً تَلْمَحُ ٱلسَّعَادَةَ ، وَإِلَىٰ أَهْلِهِ نَظْرَةً تُبْصِرُ ٱلْإِعْزَازَ ، وَإِلَىٰ دَارِهِ نَظْرَةً تُدْرِكُ ٱلْجَمَالَ ، وَإِلَىٰ ٱلنَّاسِ نَظْرَةً تَرَىٰ ٱلصَّدَاقَةَ .

وَمِنْ كُلِّ هَـٰذِهِ ٱلنَّظَرَاتِ تَسْتَوِي لَهُ ٱلنَّظْرَةُ ٱلْجَمِيلَةُ إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْعَالَمِ ؛ فَتَبْتَهِجُ نَفْسُهُ بِٱلْعَالَمِ وَٱلْحَيَاةِ .

وَمَا أَسْمَاهَا نَظْرَةً تَكْشِفُ لِلْإِنْسَانِ أَنَّ ٱلْكُلَّ جَمَالُهُ فِي ٱلْكُلِّ ! .

* * *

(*) «الرسالة» العدد : ١٣١ ، ١١شوال سنة ١٣٥٤ هـ = ٦ يناير/كانون الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات ٣ ـ ٤ .

وَخَرَجْتُ أَجْتَلِي ٱلْعِيدَ فِي مَظْهَرِهِ ٱلْحَقِيقِيِّ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَطْفَالِ ٱلسُّعَدَاءِ .

عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ ٱلنَّضِرَةِ ٱلَّتِي كَبِرَتْ فِيهَا ٱبْتِسَامَاتُ ٱلرَّضَاعِ فَصَارَتْ ضِحِكَاتٍ .

وَهَـٰذِهِ ٱلْعُيُونِ ٱلْحَالِمَةِ ٱلَّتِي إِذَا بَكَتْ بَكَتْ بِدُمُوعٍ لَا ثِقَلَ لَهَا .

وَهَـٰذِهِ ٱلْأَفْوَاهِ ٱلصَّغِيرَةِ ٱلَّتِي تَنْطِقُ بِأَصْوَاتٍ لَا تَزَالُ فِيهَا نَبَرَاتُ ٱلْحَنَانِ مِنْ تَقْلِيدِ لُغَةِ ٱلْأُمِّ .

وَهَـٰذِهِ ٱلْأَجْسَامِ ٱلْغَضَّةِ ٱلْقَرِيبَةِ ٱلْعَهْدِ بِٱلضَّمَّاتِ وَٱللَّثَمَاتِ فَلَا يَزَالُ حَوْلَهَا جَوُّ ٱلْقَلْبِ .

* * *

عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَطْفَالِ ٱلسُّعَدَاءِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ قِيَاسًا لِلزَّمَنِ إِلَّا بِٱلسُّرُورِ .

وَكُلٌّ مِنْهُمْ مَلِكٌ فِي مَمْلَكَةٍ ؛ وَظَرْفُهُمْ هُوَ أَمْرُهُمُ ٱلْمُلُوكِيُّ .

. . . هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُجْتَمِعِينَ فِي ثِيَابِهِمُ ٱلْجَدِيدَةِ ٱلْمُصَبَّغَةِ ٱجْتِمَاعَ قَوْسِ قُزَحٍ فِي أَلْوَانِهِ .

ثِيَابٌ عَمِلَتْ فِيهَا ٱلْمَصَانِعُ وَٱلْقُلُوبُ ، فَلَا يَتِمُّ جَمَالُهَا إِلَّا بِأَنْ يَرَاهَا ٱلْأَبُ وَٱلْأُمُّ عَلَىٰ أَطْفَالِهِمَا .

ثِيَابٌ جَدِيدَةٌ يَلْبَسُونَهَا فَيَكُونُونَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ ثَوْبًا جَدِيدًا عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا .

* * *

. . . هَـٰؤُلَاءِ ٱلسَّحَرَةِ ٱلصِّغَارِ ٱلَّذِينَ يُخْرِجُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَعْنَىٰ ٱلْكَنْزِ ٱلثَّمِينِ مِنْ قِرْشَيْنِ .

وَيَسْحَرُونَ ٱلْعِيدَ فَإِذَا هُوَ يَوْمٌ صَغِيرٌ مِثْلُهُمْ جَاءَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ ٱللَّعِبِ . . .

وَيَنْتَبِهُونَ فِي هَـٰذَا ٱلْيَوْمِ مَعَ ٱلْفَجْرِ ، فَيَبْقَىٰ ٱلْفَجْرُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ غُرُوبِ ٱلشَّمْسِ .

وَيُلْقُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَىٰ ٱلْعَالَمِ ٱلْمَنْظُورِ ، فَيَبْنُونَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَىٰ أَحَدِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ ٱلثَّابِتَيْنِ فِي نَفْسِ ٱلطِّفْلِ : ٱلْحُبِّ ٱلْخَالِصِ ، وَٱللَّهْوِ ٱلْخَالِصِ .

وَيَبْتَعِدُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ عَنْ أَكَاذِيبِ ٱلْحَيَاةِ ، فَيَكُونُ هَـٰذَا بِعَيْنِهِ هُوَ قُرْبَهُمْ مِنْ حَقِيقَتِهَا ٱلسَّعِيدَةِ .

* * *

. . . هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَطْفَالِ ٱلَّذِينَ هُمُ ٱلسُّهُولَةُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَقَّدَ .

وَٱلَّذِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَالَمَ فِي أَوَّلِ مَا يَنْمُو ٱلْخَيَالُ وَيَتَجَاوَزُ وَيَمْتَدُّ .

يُفَتِّشُونَ ٱلْأَقْدَارَ مِنْ ظَاهِرِهَا ؛ وَلَا يَسْتَبْطِنُونَ كَيْ لَا يَتَأَلَّمُوا بِلَا طَائِلٍ .

وَيَأْخُذُونَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ لِأَنْفُسِهِمْ فَيَفْرَحُونَ بِهَا ، وَلَا يَأْخُذُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِلْأَشْيَاءِ كَيْ لَا يُوجِدُوا لَهَا ٱلْهَمَّ .

* * *

قَانِعُونَ يَكْتَفُونَ بِٱلتَّمْرَةِ[1] ، وَلَا يُحَاوِلُونَ ٱقْتِلَاعَ ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي تَحْمِلُهَا .

وَيَعْرِفُونَ كُنْهَ ٱلْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ أَنَّ ٱلْعِبْرَةَ بِرُوحِ ٱلنِّعْمَةِ لَا بِمِقْدَارِهَا . . .

فَيَجِدُونَ مِنَ ٱلْفَرَحِ فِي تَغْيِيرِ ثَوْبٍ لِلْجِسْمِ ، أَكْثَرَ مِمَّا يَجِدُهُ ٱلْقَائِدُ ٱلْفَاتِحُ فِي تَغْيِيرِ ثَوْبٍ لِلْمَمْلَكَةِ .

* * *

. . . هَـٰؤُلَاءِ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلَّذِينَ يُشْبِهُ كُلٌّ مِنْهُمْ آدَمَ أَوَّلَ مَجِيئِهِ إِلَى ٱلدُّنْيَا .

حِينَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ خَلِيقَةٌ ثَالِثَةٌ مُعَقَّدَةٌ مِنْ صُنْعِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْمُتَحَضِّرِ .

حِكْمَتُهُمُ ٱلْعُلْيَا : أَنَّ ٱلْفِكْرَ ٱلسَّامِيَ هُوَ جَعْلُ ٱلسُّرُورِ فِكْرًا وَإِظْهَارُهُ فِي ٱلْعَمَلِ .

وَشِعْرُهُمُ ٱلْبَدِيعُ : أَنَّ ٱلْجَمَالَ وَٱلْحُبَّ لَيْسَا فِي شَيْءٍ إِلَّا فِي تَجْمِيلِ ٱلنَّفْسِ وَإِظْهَارِهَا عَاشِقَةً لِلْفَرَحِ .

* * *

. . . هَـٰؤُلَاءِ ٱلْفَلَاسِفَةِ ٱلَّذِينَ تَقُومُ فَلْسَفَتُهُمْ عَلَى قَاعِدَةٍ عَمَلِيَّةٍ ، وَهِيَ أَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْكَثِيرَةَ لَا تَكْثُرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلْمُطْمَئِنَّةِ .

وَبِذَلِكَ تَعِيشُ ٱلنَّفْسُ هَادِئَةً مُسْتَرِيحَةً كَأَنْ لَيْسَ فِي ٱلدُّنْيَا إِلَّا أَشْيَاؤُهَا ٱلْمُيَسَّرَةُ .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلثَّمَرَةِ » بَدَلًا مِنَ : « ٱلتَّمْرَةِ » .

أَمَّا ٱلنُّفُوسُ ٱلْمُضْطَرِبَةُ بِأَطْمَاعِهَا وَشَهَوَاتِهَا فَهِيَ ٱلَّتِي تُبْتَلَى بِهُمُومِ ٱلْكَثْرَةِ ٱلْخَيَالِيَّةِ .

وَمَثَلُهَا فِي ٱلْهَمِّ مَثَلُ طُفَيْلِيٍّ مُغَفَّلٍ يَحْزَنُ لِأَنَّهُ لَا يَأْكُلُ فِي بَطْنَيْنِ . . .

* * *

وَإِذَا لَمْ تَكْثُرِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ فِي ٱلنَّفْسِ ، كَثُرَتِ ٱلسَّعَادَةُ وَلَوْ مِنْ قِلَّةٍ .

فَٱلطِّفْلُ يُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ فِي نِسَاءٍ كَثِيرَاتٍ ، وَلَـٰكِنَّ أُمَّهُ هِيَ أَجْمَلُهُنَّ وَإِنْ كَانَتْ شَوْهَاءَ .

فَأُمُّهُ وَحْدَهَا هِيَ أُمُّ قَلْبِهِ ، ثُمَّ لَا مَعْنَى لِلْكَثْرَةِ فِي هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ .

. . هَـٰذَا هُوَ ٱلسِّرُّ ؛ خُذُوهُ أَيُّهَا ٱلْحُكَمَاءُ عَنِ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ !

* * *

وَتَأَمَّلْتُ ٱلْأَطْفَالَ وَأَثَرَ ٱلْعِيدِ عَلَى نُفُوسِهِمُ ٱلَّتِي وَسِعَتْ مِنَ ٱلْبَشَاشَةِ فَوْقَ مِلْئِهَا ؛ فَإِذَا لِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولُ لِلْكِبَارِ : أَيَّتُهَا ٱلْبَهَائِمُ ، ٱخْلَعِي أَرْسَانَكِ وَلَوْ يَوْمًا . . .

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ! ٱنْطَلِقُوا فِي ٱلدُّنْيَا ٱنْطِلَاقَ ٱلْأَطْفَالِ يُوجِدُونَ حَقِيقَتَهُمُ ٱلْبَرِيئَةَ ٱلضَّاحِكَةَ .

لَا كَمَا تَصْنَعُونَ إِذْ تَنْطَلِقُونَ ٱنْطِلَاقَ ٱلْوَحْشِ يُوجِدُ حَقِيقَتَهُ ٱلْمُفْتَرِسَةَ .

أَحْرَارٌ حُرِّيَّةَ نَشَاطِ ٱلْكَوْنِ يَنْبَعِثُ كَٱلْفَوْضَى ، وَلَـٰكِنْ فِي أَدَقِّ ٱلنَّوَامِيسِ .

يُثِيرُونَ ٱلسُّخْطَ بِٱلضَّجِيجِ وَٱلْحَرَكَةِ ، فَيَكُونُونَ مَعَ ٱلنَّاسِ عَلَى خِلَافٍ ، لِأَنَّهُمْ عَلَى وِفَاقٍ مَعَ ٱلطَّبِيعَةِ .

وَتَحْتَدِمُ بَيْنَهُمُ ٱلْمَعَارِكُ ، وَلَـٰكِنْ لَا تَتَحَطَّمُ فِيهَا إِلَّا ٱللُّعَبُ . . .

أَمَّا ٱلْكِبَارُ فَيَصْنَعُونَ ٱلْمِدْفَعَ ٱلضَّخْمَ مِنَ ٱلْحَدِيدِ ، لِلْجِسْمِ ٱللَّيِّنِ مِنَ ٱلْعَظْمِ .

أَيَّتُهَا ٱلْبَهَائِمُ ! ٱخْلَعِي أَرْسَانَكِ وَلَوْ يَوْمًا . . .

* * *

لَا يَفْرَحُ أَطْفَالُ ٱلدَّارِ كَفَرَحِهِمْ بِطِفْلٍ يُولَدُ ؛ فَهُمْ يَسْتَقْبِلُونَهُ كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى عُقُولِهِمُ ٱلصَّغِيرَةِ .

وَيَمْلَؤُهُمُ ٱلشُّعُوْرُ بِٱلْفَرَحِ ٱلْحَقِيْقِيِّ ٱلْكَامِنِ فِيْ سِرِّ ٱلْخَلْقِ ، لِقُرْبِهِمْ مِنْ هَـٰذَا ٱلسِّرِّ .

وَكَذَٰلِكَ تَحْمِلُ ٱلسَّنَةُ ثُمَّ تَلِدُ لِلأَطْفَالِ يَوْمَ ٱلْعِيْدِ ؛ فَيَسْتَقْبِلُوْنَهُ كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ لَهْوِهِمِ ٱلطَّبِيْعِيِّ .

وَيَمْلَؤُهُمُ ٱلشُّعُوْرُ بِٱلْفَرَحِ ٱلْحَقِيْقِيِّ ٱلْكَامِنِ فِيْ سِرِّ ٱلْعَالَمِ ، لِقُرْبِهِمْ مِنْ هَـٰذَا ٱلسِّرِّ .

* * *

فَيَا أَسَفًا عَلَيْنَا نَحْنُ ٱلْكِبَارَ ! مَا أَبْعَدَنَا عَنْ سِرِّ ٱلْخَلْقِ بِآثَامِ ٱلْعُمْرِ !

وَمَا أَبْعَدَنَا عَنْ سِرِّ ٱلْعَالَمِ ، بِهَـٰذِهِ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلْكَافِرَةِ ٱلَّتِيْ لَا تُؤْمِنُ إِلَّا بِٱلْمَادَّةِ !

يَا أَسَفًا عَلَيْنَا نَحْنُ ٱلْكِبَارَ ! مَا أَبْعَدَنَا عَنْ حَقِيْقَةِ ٱلْفَرَحِ !

تَكَادُ آثَامُنَا وَٱللهِ تَجْعَلُ لَنَا فِيْ كُلِّ فَرْحَةٍ خَجْلَةً . . .

* * *

أَيَّتُهَا ٱلرِّيَاضُ ٱلْمُنَوَّرَةُ بِأَزْهَارِهَا !

أَيَّتُهَا ٱلطُّيُوْرُ ٱلْمُغَرِّدَةُ بِأَلْحَانِهَا !

أَيَّتُهَا ٱلأَشْجَارُ ٱلْمُصَفِّقَةُ بِأَغْصَانِهَا !

أَيَّتُهَا ٱلنُّجُوْمُ ٱلْمُتَلأْلِئَةُ بِٱلنُّوْرِ ٱلدَّائِمِ !

أَنْتِ شَتَّىٰ ؛ وَلَـٰكِنَّكِ جَمِيْعًا فِيْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلأَطْفَالِ يَوْمَ ٱلْعِيْدِ !

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْمَعْنَىٰ ٱلسِّيَاسِيُّ فِيْ ٱلْعِيْدِ (*)

مَا أَشَدَّ حَاجَتَنَا نَحْنُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ إِلَىٰ أَنْ نَفْهَمَ أَعْيَادَنَا فَهْمًا جَدِيْدًا ، نَتَلَقَّاهَا بِهِ وَنَأْخُذُهَا مِنْ نَاحِيَتِهِ ، فَتَجِيْءُ أَيَّامًا سَعِيْدَةً عَامِلَةً ، تُنَبِّهُ فِيْنَا أَوْصَافَهَا ٱلْقَوِيَّةَ ، وَتُجَدِّدُ نُفُوْسَنَا بِمَعَانِيْهَا ، لَا كَمَا تَجِيْءُ ٱلآنَ كَالِحَةً عَاطِلَةً مَمْسُوْحَةً مِنَ ٱلْمَعْنَىٰ ، أَكْبَرُ عَمَلِهَا تَجْدِيْدُ ٱلثِّيَابِ ، وَتَحْدِيْدُ ٱلْفَرَاغِ ، وَزِيَادَةُ ٱبْتِسَامَةٍ عَلَىٰ ٱلنِّفَاقِ . . .

فَٱلْعِيْدُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِيْ يَكُوْنُ فِي ٱلْيَوْمِ لَا ٱلْيَوْمُ نَفْسُهُ ، وَكَمَا يَفْهَمُ ٱلنَّاسُ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ يَتَلَقَّوْنَ هَـٰذَا ٱلْيَوْمَ ؛ وَكَانَ ٱلْعِيْدُ فِيْ ٱلإِسْلَامِ هُوَ عِيْدَ ٱلْفِكْرَةِ ٱلْعَابِدَةِ ، فَأَصْبَحَ عِيْدَ ٱلْفِكْرَةِ ٱلْعَابِثَةِ ؛ وَكَانَتْ عِبَادَةُ(١) ٱلْفِكْرَةِ جَمْعَهَا ٱلأُمَّةَ فِيْ إِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَىٰ حَقِيْقَةٍ عَمَلِيَّةٍ ، فَأَصْبَحَ عَبَثُ ٱلْفِكْرَةِ جَمْعَهَا ٱلأُمَّةَ عَلَىٰ تَقْلِيْدٍ بِغَيْرِ حَقِيْقَةٍ ؛ لَهُ مَظْهَرُ ٱلْمَنْفَعَةِ وَلَيْسَ لَهُ مَعْنَاهَا .

كَانَ ٱلْعِيْدُ إِثْبَاتَ ٱلأُمَّةِ وُجُوْدَهَا ٱلرُّوْحَانِيَّ فِيْ أَجْمَلِ مَعَانِيْهِ ، فَأَصْبَحَ إِثْبَاتَ ٱلأُمَّةِ وُجُوْدَهَا ٱلْحَيَوَانِيَّ فِيْ أَكْثَرِ مَعَانِيْهِ ؛ وَكَانَ يَوْمَ ٱسْتِرْوَاحِ ٱلْقُوَّةِ مِنْ جِدِّهَا ، فَعَادَ يَوْمَ ٱسْتِرَاحَةِ ٱلضَّعْفِ مِنْ ذُلِّهِ ؛ وَكَانَ يَوْمَ ٱلْمَبْدَأِ ، فَرَجَعَ يَوْمَ ٱلْمَادَّةِ !

* * *

لَيْسَ ٱلْعِيْدُ إِلَّا إِشْعَارَ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ بِأَنَّ فِيْهَا قُوَّةَ تَغْيِيْرِ ٱلأَيَّامِ ، لَا إِشْعَارَهَا بِأَنَّ ٱلأَيَّامَ تَتَغَيَّرُ ؛ وَلَيْسَ ٱلْعِيْدُ لِلأُمَّةِ إِلَّا يَوْمًا تَعْرِضُ فِيْهِ جَمَالَ نِظَامِهَا ٱلاجْتِمَاعِيِّ ، فَيَكُوْنُ يَوْمَ ٱلشُّعُوْرِ ٱلْوَاحِدِ فِيْ نُفُوْسِ ٱلْجَمِيْعِ ، وَٱلْكَلِمَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فِيْ أَلْسِنَةِ ٱلْجَمِيْعِ ؛ يَوْمَ ٱلشُّعُوْرِ بِٱلْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَغْيِيْرِ ٱلأَيَّامِ ، لَا ٱلْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَغْيِيْرِ ٱلثِّيَابِ . . . كَأَنَّمَا ٱلْعِيْدُ هُوَ ٱسْتِرَاحَةُ ٱلأَسْلِحَةِ يَوْمًا فِيْ شَعْبِهَا ٱلْحَرْبِيِّ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٠ ، ١٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٩ مارس/آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « عِيَادَةُ » بَدَلًا مِنْ : « عِبَادَةُ » .

وَلَيْسَ ٱلْعِيدُ إِلَّا تَعْلِيمَ ٱلْأُمَّةِ كَيْفَ تَتَّسِعُ رُوحُ ٱلْجِوَارِ وَتَمْتَدُّ ، حَتَّىٰ يَرْجِعَ ٱلْبَلَدُ ٱلْعَظِيمُ وَكَأَنَّهُ لِأَهْلِهِ دَارٌ وَاحِدَةٌ يَتَحَقَّقُ فِيهَا ٱلْإِخَاءُ بِمَعْنَاهُ ٱلْعَمَلِيِّ ، وَتَظْهَرُ فَضِيلَةُ ٱلْإِخْلَاصِ مُسْتَعْلِنَةً لِلْجَمِيعِ ، وَيُهْدِي ٱلنَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَدَايَا ٱلْقُلُوبِ ٱلْمُخْلِصَةِ ٱلْمُحِبَّةِ ؛ وَكَأَنَّمَا ٱلْعِيدُ هُوَ إِطْلَاقُ رُوحِ ٱلْأُسْرَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فِي ٱلْأُمَّةِ كُلِّهَا .

وَلَيْسَ ٱلْعِيدُ إِلَّا إِظْهَارَ ٱلذَّاتِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ لِلشَّعْبِ مَهْزُوزَةً مِنْ نَشَاطِ ٱلْحَيَاةِ ؛ وَلَا ذَاتِيَّةَ لِلْأُمَمِ ٱلضَّعِيفَةِ ؛ وَلَا نَشَاطَ لِلْأُمَمِ ٱلْمُسْتَعْبَدَةِ . فَٱلْعِيدُ صَوْتُ ٱلْقُوَّةِ يَهْتِفُ بِٱلْأُمَّةِ : أَخْرِجِي يَوْمَ أَفْرَاحِكِ ، أَخْرِجِي يَوْمًا كَأَيَّامِ ٱلنَّصْرِ !

وَلَيْسَ ٱلْعِيدُ إِلَّا إِبْرَازَ ٱلْكُتْلَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْأُمَّةِ مُتَمَيِّزَةً بِطَابَعِهَا ٱلشَّعْبِيِّ ، مَفْصُولَةً مِنَ ٱلْأَجَانِبِ ، لَابِسَةً مِنْ عَمَلِ أَيْدِيهَا ، مُعْلِنَةً بِعِيدِهَا ٱسْتِقْلَالَيْنِ فِي وُجُودِهَا وَصِنَاعَتِهَا ، ظَاهِرَةً بِقُوَّتَيْنِ فِي إِيمَانِهَا وَطَبِيعَتِهَا ، مُبْتَهِجَةً بِفَرَحَيْنِ فِي دُورِهَا وَأَسْوَاقِهَا ؛ فَكَأَنَّ ٱلْعِيدَ يَوْمُ يَفْرَحُ فِيهِ ٱلشَّعْبُ كُلُّهُ بِخَصَائِصِهِ .

وَلَيْسَ ٱلْعِيدُ إِلَّا ٱلْتِقَاءَ ٱلْكِبَارِ وَٱلصِّغَارِ فِي مَعْنَى ٱلْفَرَحِ بِٱلْحَيَاةِ ٱلنَّاجِحَةِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي طَرِيقِهَا ، وَتَرْكَ ٱلصِّغَارِ يُلْقُونَ دَرْسَهُمُ ٱلطَّبِيعِيَّ فِي حَمَاسَةِ ٱلْفَرَحِ وَٱلْبَهْجَةِ ، وَيُعَلِّمُونَ كِبَارَهُمْ كَيْفَ تُوضَعُ ٱلْمَعَانِي فِي بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي فَرَغَتْ عِنْدَهُمْ مِنْ مَعَانِيهَا ، وَيُبَصِّرُونَهُمْ كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلَ ٱلصِّفَاتُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ فِي ٱلْجُمُوعِ عَمَلَ ٱلْحَلِيفِ لِحَلِيفِهِ ، لَا عَمَلَ ٱلْمُنَابِذِ لِمُنَابِذِهِ ؛ فَٱلْعِيدُ يَوْمُ تَسَلُّطِ ٱلْعُنْصُرِ ٱلْحَيِّ عَلَىٰ نَفْسِيَّةِ ٱلشَّعْبِ .

وَلَيْسَ ٱلْعِيدُ إِلَّا تَعْلِيمَ ٱلْأُمَّةِ كَيْفَ تُوَجِّهُ بِقُوَّتِهَا حَرَكَةَ ٱلزَّمَنِ إِلَىٰ مَعْنًى وَاحِدٍ كُلَّمَا شَاءَتْ ؛ فَقَدْ وَضَعَ لَهَا ٱلدِّينُ هَٰذِهِ ٱلْقَاعِدَةَ لِتُخَرِّجَ عَلَيْهَا ٱلْأَمْثِلَةَ ، فَتَجْعَلَ لِلْوَطَنِ عِيدًا مَالِيًّا ٱقْتِصَادِيًّا تَبْتَسِمُ فِيهِ ٱلدَّرَاهِمُ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَتَخْتَرِعُ لِلصِّنَاعَةِ عِيدَهَا ، وَتُوجِدُ لِلْعِلْمِ عِيدَهُ ، وَتَبْتَدِعُ لِلْفَنِّ مَجَالِيَ زِينَتِهِ ؛ وَبِٱلْجُمْلَةِ تُنْشِئُ لِنَفْسِهَا أَيَّامًا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْقُوَّادِ ٱلْعَسْكَرِيِّينَ فِي قِيَادَةِ ٱلشَّعْبِ ، يَقُودُهُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا إِلَىٰ مَعْنًى مِنْ مَعَانِي ٱلنَّصْرِ .

* * *

هَٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلسِّيَاسِيَّةُ ٱلْقَوِيَّةُ هِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا فُرِضَ ٱلْعِيدُ مِيرَاثًا دَهْرِيًّا فِي

ٱلْإِسْلَامِ ، لِيَسْتَخْرِجَ أَهْلُ كُلِّ زَمَنٍ مِنْ مَعَانِي زَمَنِهِمْ فَيُضِيفُوا إِلَى ٱلْمِثَالِ أَمْثِلَةً مِمَّا يُبْدِعُهُ نَشَاطُ ٱلْأُمَّةِ ، وَيُحَقِّقُهُ خَيَالُهَا ، وَتَقْتَضِيهِ مَصَالِحُهَا .

وَمَا أَحْسَبُ ٱلْجُمُعَةَ قَدْ فُرِضَتْ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ عِيدًا أُسْبُوعِيًّا يُشْتَرَطُ فِيهِ ٱلْخَطِيبُ وَٱلْمِنْبَرُ وَٱلْمَسْجِدُ ٱلْجَامِعُ - إِلَّا تَهْيِئَةً لِذَلِكَ ٱلْمَعْنَىٰ وَإِعْدَادًا لَهُ ؛ فَفِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ مُسْلِمَةٍ يَوْمٌ يَجِيءُ فَيُشْعِرُ ٱلنَّاسَ مَعْنَى ٱلْقَائِدِ ٱلْحَرْبِيِّ لِلشَّعْبِ كُلِّهِ .

أَلَا لَيْتَ ٱلْمَنَابِرَ ٱلْإِسْلَامِيَّةَ لَا يَخْطُبُ عَلَيْهَا إِلَّا رِجَالٌ فِيهِمْ أَرْوَاحُ ٱلْمَدَافِعِ ، لَا رِجَالٌ فِي أَيْدِيهِمْ سُيُوفٌ مِنْ خَشَبٍ[1] . . .

(١) { أنظر « قِصَّةَ ٱلْأَيْدِي ٱلْمُتَوَضِّئَةِ » فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي مِنْ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ } .

ٱلرَّبِيعُ(*)

خَرَجْتُ أَشْهَدُ ٱلطَّبِيعَةَ كَيْفَ تُصْبِحُ كَٱلْمَعْشُوقِ ٱلْجَمِيلِ ، لَا يُقَدِّمُ لِعَاشِقِهِ إِلَّا أَسْبَابَ حُبِّهِ!

وَكَيْفَ تَكُونُ كَٱلْحَبِيبِ ، يَزِيدُ فِيْ ٱلْجِسْمِ حَاسَّةً لَمْسِ ٱلْمَعَانِي ٱلْجَمِيلَةِ !

وَكُنْتُ كَٱلْقَلْبِ ٱلْمَهْجُورِ ٱلْحَزِينِ ، وَجَدَ ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِمَا سَمَاءَهُ وَأَرْضَهُ .

أَلَا كَمْ مِنْ آلَافِ ٱلسِّنِينَ وَآلَافِهَا قَدْ مَضَتْ مُنْذُ أُخْرِجَ آدَمُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ !

وَمَعَ ذَلِكَ فَٱلتَّارِيخُ يُعِيدُ نَفْسَهُ فِيْ ٱلْقَلْبِ ؛ لَا يَحْزَنُ هَـٰذَا ٱلْقَلْبُ إِلَّا شَعَرَ كَأَنَّهُ طُرِدَ مِنَ ٱلْجَنَّةِ لِسَاعَتِهِ .

* * *

يَقِفُ ٱلشَّاعِرُ بِإِزَاءِ جَمَالِ ٱلطَّبِيعَةِ ، فَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَتَدَفَّقَ وَيَهْتَزَّ وَيَطْرَبَ .

لِأَنَّ ٱلسِّرَّ ٱلَّذِي ٱنْبَثَقَ هُنَا فِيْ ٱلْأَرْضِ ، يُرِيدُ أَنْ يَنْبَثِقَ هُنَاكَ فِيْ ٱلنَّفْسِ .

وَٱلشَّاعِرُ نَبِيُّ هَـٰذِهِ ٱلدِّيَانَةِ ٱلرَّقِيقَةِ ٱلَّتِي مِنْ شَرِيعَتِهَا إِصْلَاحُ ٱلنَّاسِ بِٱلْجَمَالِ وَٱلْخَيْرِ .

وَكُلُّ حُسْنٍ يَلْتَمِسُ ٱلنَّظْرَةَ ٱلْحَيَّةَ ٱلَّتِي تَرَاهُ جَمِيلًا لِتُعْطِيَهُ مَعْنَاهُ .

وَبِهَـٰذَا تَقِفُ ٱلطَّبِيعَةُ مُحْتَفِلَةً أَمَامَ ٱلشَّاعِرِ ، كَوُقُوفِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْحَسْنَاءِ أَمَامَ ٱلْمُصَوِّرِ .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٧ ، ٦ صفر سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٧ أبريل/ نيسان ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٦٨٣ ـ ٦٨٤ .

لَاحَتْ لِيَ ٱلْأَزْهَارُ كَأَنَّهَا أَلْفَاظُ حُبٍّ رَقِيقَةٌ مُغَشَّاةٌ بِٱسْتِعَارَاتٍ وَمَجَازَاتٍ .

وَٱلنَّسِيمُ حَوْلَهَا كَثَوْبِ ٱلْحَسْنَاءِ عَلَىٰ ٱلْحَسْنَاءِ ، فِيهِ تَعْبِيرٌ مِنْ لَابِسَتِهِ .

وَكُلُّ زَهْرَةٍ كَٱبْتِسَامَةٍ ، تَحْتَهَا أَسْرَارٌ وَأَسْرَارٌ مِنْ مَعَانِي ٱلْقَلْبِ ٱلْمُعَقَّدَةِ .

أَهِيَ لُغَةُ ٱلضَّوْءِ ٱلْمُلَوَّنِ مِنَ ٱلشَّمْسِ ذَاتِ ٱلْأَلْوَانِ ٱلسَّبْعَةِ ؟

أَمْ لُغَةُ ٱلضَّوْءِ ٱلْمُلَوَّنِ مِنَ ٱلْخَدِّ ؛ وَٱلشَّفَةِ ؛ وَٱلصَّدْرِ ؛ وَٱلنَّحْرِ وَٱلدِّيبَاجِ وَٱلْحِلَىٰ ؟

* * *

وَمَاذَا يَفْهَمُ ٱلْعُشَّاقُ مِنْ رُمُوزِ ٱلطَّبِيعَةِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْأَزَاهِرِ ٱلْجَمِيلَةِ ؟

أَتُشِيرُ لَهُمْ بِٱلزَّهْرِ إِلَىٰ أَنَّ عُمْرَ ٱللَّذَّةِ قَصِيرٌ ، كَأَنَّهَا تَقُولُ : عَلَىٰ مِقْدَارِ هَـٰذَا ؟

أَتُعْلِمُهُمْ أَنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَ جَمِيلٍ وَجَمِيلٍ ، كَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱللَّوْنِ وَٱللَّوْنِ ، وَبَيْنَ ٱلرَّائِحَةِ وَٱلرَّائِحَةِ ؟

أَتُنَاجِيهِمْ بِأَنَّ أَيَّامَ ٱلْحُبِّ صُوَرُ أَيَّامٍ لَا حَقَائِقُ أَيَّامٍ ؟

أَمْ تَقُولُ ٱلطَّبِيعَةُ : إِنَّ كُلَّ هَـٰذَا لِأَنَّكِ أَيَّتُهَا ٱلْحَشَرَاتُ لَا تَنْخَدِعِينَ إِلَّا بِكُلِّ هَـٰذَا[1] . . . ؟

* * *

فِيْ ٱلرَّبِيعِ تَظْهَرُ أَلْوَانُ ٱلْأَرْضِ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ ، وَتَظْهَرُ أَلْوَانُ ٱلنَّفْسِ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ .

وَيَصْنَعُ ٱلْمَاءُ صُنْعَهُ فِيْ ٱلطَّبِيعَةِ فَتُخْرِجُ تَهَاوِيلَ ٱلنَّبَاتِ ، وَيَصْنَعُ ٱلدَّمُ صُنْعَهُ فَيُخْرِجُ تَهَاوِيلَ ٱلْأَحْلَامِ .

(١) ثَبَتَ أَنَّ أَلْوَانَ ٱلْأَزْهَارِ وَعِطْرَهَا وَمَا فِي ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا ، كُلَّ ذَلِكَ لِاجْتِذَابِ ٱلْحَشَرَاتِ إِلَيْهَا كَيْ تَنْقُلَ ٱللِّقَاحَ مِنْ زَهْرَةٍ إِلَىٰ زَهْرَةٍ .

وَيَكُونُ ٱلْهَوَاءُ كَأَنَّهُ مِنْ شِفَاهٍ مُتَحَابَّةٍ يَتَنَفَّسُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ .

وَيَعُودُ كُلُّ شَيْءٍ يَلْتَمِعُ لِأَنَّ ٱلْحَيَاةَ كُلَّهَا يَنْبِضُ فِيهَا عِرْقُ ٱلنُّورِ .

وَيَرْجِعُ كُلُّ حَيٍّ يُغَنِّي لِأَنَّ ٱلْحُبَّ يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ .

* * *

وَفِي ٱلرَّبِيعِ لَا يُضِيءُ ٱلنُّورُ فِي ٱلْأَعْيُنِ وَحْدَهَا ، وَلَـٰكِنْ فِي ٱلْقُلُوبِ أَيْضًا .

وَلَا يَنْفُذُ ٱلْهَوَاءُ إِلَى ٱلصُّدُورِ فَقَطْ ، وَلَـٰكِنْ إِلَىٰ عَوَاطِفِهَا كَذَٰلِكَ .

وَيَكُونُ لِلشَّمْسِ حَرَارَتَانِ إِحْدَاهُمَا فِي ٱلدَّمِ .

وَيَطْغَىٰ فَيَضَانُ ٱلْجَمَالِ كَأَنَّمَا يُرَادُ مِنَ ٱلرَّبِيعِ تَجْرِبَةُ مَنْظَرٍ مِنْ مَنَاظِرِ ٱلْجَنَّةِ فِي ٱلْأَرْضِ .

وَٱلْحَيَوَانُ ٱلْأَعْجَمُ نَفْسُهُ تَكُونُ لَهُ لَفَتَاتٌ عَقْلِيَّةٌ فِيهَا إِدْرَاكُ فَلْسَفَةِ ٱلسُّرُورِ وَٱلْمَرَحِ .

* * *

وَكَانَتِ ٱلشَّمْسُ فِي ٱلشِّتَاءِ كَأَنَّهَا صُورَةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي ٱلسَّحَابِ .

وَكَانَ ٱلنَّهَارُ كَأَنَّهُ يُضِيءُ بِٱلْقَمَرِ لَا بِٱلشَّمْسِ .

وَكَانَ ٱلْهَوَاءُ مَعَ ٱلْمَطَرِ كَأَنَّهُ مَطَرٌ غَيْرُ سَائِلٍ .

وَكَانَتِ ٱلْحَيَاةُ تَضَعُ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مَعْنَىٰ عُبُوسِ ٱلْجَوِّ .

فَلَمَّا جَاءَ ٱلرَّبِيعُ كَانَ فَرَحُ جَمِيعِ ٱلْأَحْيَاءِ بِٱلشَّمْسِ كَفَرَحِ ٱلْأَطْفَالِ رَجَعَتْ أُمُّهُمْ مِنَ ٱلسَّفَرِ .

* * *

وَيَنْظُرُ ٱلشَّبَابُ فَتَظْهَرُ لَهُ ٱلْأَرْضُ شَابَّةً .

وَيَشْعُرُ أَنَّهُ { مَوْجُودٌ } فِي مَعَانِي ٱلذَّاتِ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ فِي مَعَانِي ٱلْعَالَمِ .

وَتَمْتَلِئُ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَزْهَارِ ، وَمَعَانِي ٱلْأَزْهَارِ ، وَوَحْيِ ٱلْأَزْهَارِ .

وَتُخْرِجُ لَهُ أَشِعَّةُ ٱلشَّمْسِ رَبِيعًا وَأَشِعَّةُ قَلْبِهِ رَبِيعًا آخَرَ .

وَلَا تَنْسَى ٱلْحَيَاةُ عَجَائِزَهَا ، فَرَبِيعُهُمْ ضَوْءُ ٱلشَّمْسِ . . .

* * *

مَا أَعْجَبَ سِرَّ ٱلْحَيَاةِ ! كُلُّ شَجَرَةٍ فِي ٱلرَّبِيعِ جَمَالٌ هَنْدَسِيٌّ مُسْتَقِلٌّ .

وَمَهْمَا قَطَعْتَ مِنْهَا وَغَيَّرْتَ مِنْ شَكْلِهَا أَبْرَزَتْهَا ٱلْحَيَاةُ فِي جَمَالٍ هَنْدَسِيٍّ جَدِيدٍ كَأَنَّكَ أَصْلَحْتَهَا .

وَلَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا جِذْرٌ حَيٌّ أَسْرَعَتِ ٱلْحَيَاةُ فَجَعَلَتْ لَهُ شَكْلًا مِنْ غُصُونٍ وَأَوْرَاقٍ .

ٱلْحَيَاةُ ٱلْحَيَاةُ . إِذَا أَنْتَ لَمْ تُفْسِدْهَا جَاءَتْكَ دَائِمًا هَدَايَاهَا .

وَإِذَا آمَنْتَ لَمْ تَعُدْ بِمِقْدَارِ نَفْسِكَ ، وَلَـٰكِنْ بِمِقْدَارِ ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي أَنْتَ بِهَا مُؤْمِنٌ .

* * *

« فَٱنْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ ٱللهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » .

وَٱنْظُرْ كَيْفَ يَخْلُقُ فِي ٱلطَّبِيعَةِ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تُبْهِجُ كُلَّ حَيٍّ ، بِٱلطَّرِيقَةِ ٱلَّتِي يَفْهَمُهَا كُلُّ حَيٍّ .

وَٱنْظُرْ كَيْفَ يَجْعَلُ فِي ٱلْأَرْضِ مَعْنَى ٱلسُّرُورِ ، وَفِي ٱلْجَوِّ مَعْنَى ٱلسَّعَادَةِ .

وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلْحَشَرَةِ ٱلصَّغِيرَةِ كَيْفَ تُؤْمِنُ بِٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِي تَمْلَؤُهَا وَتَطْمَئِنُّ ؟

ٱنْظُرْ ٱنْظُرْ ! أَلَيْسَ كُلُّ ذَٰلِكَ رَدًّا عَلَى ٱلْيَأْسِ بِكَلِمَةِ : لَا . . . ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

عَرْشُ ٱلْوَرْدِ (*)

كَانَتْ جَلْوَةُ ٱلْعَرُوسِ كَأَنَّهَا تَصْنِيفٌ مِنْ حُلُمٍ ، تَوَافَتْ عَلَيْهِ أَخْيِلَةُ ٱلسَّعَادَةِ فَأَبْدَعَتْ إِبْدَاعَهَا فِيهِ ، حَتَّىٰ إِذَا ٱتَّسَقَ وَتَمَّ ، نَقَلَتْهُ ٱلسَّعَادَةُ إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهَا ٱلْفَرْدَةِ ٱلَّتِي لَا يَتَّفِقُ مِنْهَا فِي ٱلْعُمْرِ ٱلطَّوِيلِ إِلَّا ٱلْعَدَدُ ٱلْقَلِيلُ ، لِتُحَقِّقَ لِلْحَيِّ وُجُودَ حَيَاتِهِ بِسِحْرِهَا وَجَمَالِهَا ، وَتُعْطِيَهُ فِيمَا يُنْسَىٰ مَا لَا يُنْسَىٰ .

خَرَجَ ٱلْحُلُمُ ٱلسَّعِيدُ مِنْ تَحْتِ ٱلنَّوْمِ إِلَىٰ ٱلْيَقَظَةِ ، وَبَرَزَ مِنَ ٱلْخَيَالِ إِلَىٰ ٱلْعَيْنِ ، وَتَمَثَّلَ قَصِيدَةً بَارِعَةً جَعَلَتْ كُلَّ مَا فِي ٱلْمَكَانِ يَحْيَا حَيَاةَ ٱلشِّعْرِ ؛ فَٱلْأَنْوَارُ نِسَاءٌ ، وَٱلنِّسَاءُ أَنْوَارٌ ، وَٱلْأَزْهَارُ أَنْوَارٌ وَنِسَاءٌ ، وَٱلْمُوسِيقِي بَيْنَ ذَلِكَ تُتَمِّمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ ، وَٱلْمَكَانُ وَمَا فِيهِ ، وَزْنٌ فِي وَزْنٍ ، وَنَغَمٌ فِي نَغَمٍ ، وَسِحْرٌ فِي سِحْرٍ .

* * *

وَرَأَيْتُ كَأَنَّمَا سُحِرَتْ قِطْعَةٌ مِنْ سَمَاءِ ٱللَّيْلِ ، فِيهَا دَارَةُ ٱلْقَمَرِ ، وَفِيهَا نَثْرَةٌ مِنَ ٱلنُّجُومِ ٱلزُّهْرِ ، فَنَزَلَتْ فَحَلَّتْ فِي ٱلدَّارِ ، يَتَوَضَّحْنَ وَيَأْتَلِقْنَ مِنَ ٱلْجَمَالِ وَٱلشُّعَاعِ ، وَفِي حُسْنِ كُلٍّ مِنْهُنَّ مَادَّةُ فَجْرٍ طَالِعٍ ، فَكُنَّ نِسَاءَ ٱلْجَلْوَةِ وَعَرُوسَهَا .

وَرَأَيْتُ كَأَنَّمَا سُحِرَ ٱلرَّبِيعُ ، فَٱجْتَمَعَ فِي عَرْشٍ أَخْضَرَ ، قَدْ رُصِّعَ بِٱلْوَرْدِ ٱلْأَحْمَرِ ، وَأُقِيمَ فِي صَدْرِ ٱلْبَهْوِ لِيَكُونَ مِنَصَّةً لِلْعَرُوسِ ، وَقَدْ نُسِّقَتِ ٱلْأَزْهَارُ فِي سَمَائِهِ وَحَوَاشِيهِ عَلَىٰ نَظْمَيْنِ : مِنْهُمَا مُفَصَّلٌ تَرَىٰ فِيهِ بَيْنَ ٱلزَّهْرَتَيْنِ مِنَ ٱللَّوْنِ ٱلْوَاحِدِ زَهْرَةً تُخَالِفُ لَوْنَهُمَا ؛ وَمِنْهُمَا مُكَدَّسٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، مِنْ لَوْنٍ مُتَشَابِهٍ أَوْ مُتَقَارِبٍ ، فَبَدَا كَأَنَّهُ عُشُّ طَائِرٍ (مَلَكِيٍّ) مِنْ طُيُورِ ٱلْجَنَّةِ أَبْدَعَ فِي نَسْجِهِ وَتَرْصِيعِهِ بِأَشْجَارٍ سَقَىٰ ٱلْكَوْثَرُ أَغْصَانَهَا .

وَقَامَتْ فِي أَرْضِ ٱلْعَرْشِ تَحْتَ أَقْدَامِ ٱلْعَرُوسَيْنِ ، رَبْوَتَانِ مِنْ أَفَانِينِ ٱلزَّهْرِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ أَلْوَانُهُ ، يَحْمِلُهُمَا خَمْلٌ مِنْ نَاعِمِ ٱلنَّسِيجِ ٱلْأَخْضَرِ عَلَىٰ غُصُونِهِ ٱللُّدْنِ تَتَهَافَتُ مِنْ رِقَّتِهَا وَنُعُومَتِهَا .

(*) « الرسالة » العدد : ٥٨ ، ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ١٣ أغسطس/آب سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧ .

وَعُقِدَ فَوْقَ هَـٰذَا ٱلْعَرْشِ تَاجٌ كَبِيرٌ مِنَ ٱلْوَرْدِ ٱلنَّادِرِ ، كَأَنَّمَا نُزِعَ عَنْ مَفْرِقِ مَلِكِ ٱلزَّمَنِ ٱلرَّبِيعِيِّ ؛ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ يَسْطَعُ فِي ٱلنُّورِ بِجَمَالِهِ ٱلسَّاحِرِ ، سُطُوعًا يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَشِعَّةً مِنَ ٱلشَّمْسِ ٱلَّتِي رَبَّتْ هَـٰذَا ٱلْوَرْدَ لَا تَزَالُ عَالِقَةً بِهِ ؛ وَتَرَاهُ يَزْدَهِي جَلَالًا ، كَأَنَّمَا أَدْرَكَ أَنَّهُ فِي مَوْضِعِهِ رَمْزُ مَمْلَكَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ، تَأَلَّفَتْ مِنْ عَرُوسَيْنِ كَرِيمَيْنِ . وَلَاحَ لِي مِرَارًا أَنَّ هَـٰذَا ٱلتَّاجَ يَضْحَكُ وَيَسْتَحِي وَيَتَدَلَّلُ ، كَأَنَّمَا عَرَفَ أَنَّهُ وَحْدَهُ بَيْنَ هَـٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ ٱلْحِسَانِ يُمَثِّلُ وَجْهَ ٱلْوَرْدِ .

وَنُصَّ عَلَىٰ ٱلْعَرْشِ كُرْسِيَّانِ يَتَوَهَّجُ لَوْنُ ٱلذَّهَبِ فَوْقَهُمَا ، وَيَكْسُوهُمَا طِرَازٌ أَخْضَرُ تَلْمَعُ نَضَارَتُهُ بِشْرًا ، حَتَّىٰ لَتَحْسَبُ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا قَدْ نَالَتْهُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ ٱلْفَرِحَةِ لَمْسَةٌ مِنْ فَرَحِهَا ٱلْحَيِّ .

وَتَدَلَّتْ عَلَىٰ ٱلْعَرْشِ قَلَائِدُ ٱلْمَصَابِيحِ ، كَأَنَّهَا لُؤْلُؤٌ تَخَلَّقَ فِي ٱلسَّمَاءِ لَا فِي ٱلْبَحْرِ ، فَجَاءَ مِنَ ٱلنُّورِ لَا مِنَ ٱلدُّرِّ ؛ وَجَاءَ نُورًا مِنْ خَاصَّتِهِ أَنَّهُ مَتَىٰ ٱسْتَضَاءَ فِي جَوِّ ٱلْعَرُوسِ أَضَاءَ ٱلْجَوَّ وَٱلْقُلُوبَ جَمِيعًا .

وَأَتَىٰ ٱلْعَرُوسَانِ إِلَىٰ عَرْشِ ٱلْوَرْدِ ، فَجَلَسَا جِلْسَةَ كَوْكَبَيْنِ حُدُودُهُمَا ٱلنُّورُ وَٱلصَّفَاءُ ؛ وَأَقْبَلَتِ ٱلْعَذَارَىٰ يَتَخَطَّرْنَ فِي ٱلْحَرِيرِ ٱلْأَبْيَضِ كَأَنَّهُ مِنْ نُورِ ٱلصُّبْحِ ، ثُمَّ وَقَفْنَ حَافَّاتٍ حَوْلَ ٱلْعَرْشِ ، حَامِلَاتٍ فِي أَيْدِيهِنَّ طَاقَاتٍ مِنَ ٱلزَّنْبَقِ ، تَرَاهَا عَطِرَةً بَيْضَاءَ نَاضِرَةً حَيِيَّةً ، كَأَنَّهَا عَذَارَىٰ مَعَ عَذَارَىٰ ، وَكَأَنَّمَا يَحْمِلْنَ فِي أَيْدِيهِنَّ مِنْ هَـٰذَا ٱلزَّنْبَقِ ٱلْغَضِّ مَعَانِيَ قُلُوبِهِنَّ ٱلطَّاهِرَةِ ؛ هَـٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ ٱلَّتِي كَانَتْ مَعَ ٱلْمَصَابِيحِ مَصَابِيحَ أُخْرَىٰ فِيهَا نُورُهَا ٱلضَّاحِكُ .

وَٱقْتَعَدَتْ دَرَجَ ٱلْعَرْشِ تَحْتَ رَبْوَتَيِ ٱلزَّهْرِ وَدُونَ أَقْدَامِ ٱلْعَرُوسَيْنِ ـ طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ كَٱلزَّهْرَةِ ٱلْبَيْضَاءِ تَحْمِلُ طُفُولَتَهَا ، فَكَانَتْ مِنَ ٱلْعَرْشِ كُلِّهِ كَٱلْمَاسَةِ ٱلْمُدَلَّاةِ مِنْ وَاسِطَةِ ٱلْعِقْدِ ، وَجَعَلَتْ بِوَجْهِهَا لِلزَّهْرِ كُلِّهِ تَمَامًا وَجَمَالًا ، حَتَّىٰ لَيَظْهَرُ مِنْ دُونِهَا كَأَنَّهُ غَضْبَانُ مُنْزَوٍ لَا يُرِيدُ أَنْ يُرَىٰ .

وَكَانَ يَنْبَعِثُ مِنْ عَيْنَيْهَا فِيمَا حَوْلَهَا تَيَّارٌ مِنْ أَحْلَامِ ٱلطُّفُولَةِ جَعَلَ ٱلْمَكَانَ بِمَنْ فِيهِ كَأَنَّ لَهُ رُوحَ طِفْلٍ بَغَتَتْهُ مَسَرَّةٌ جَدِيدَةٌ .

وَكَانَتْ جَالِسَةً جِلْسَةَ شِعْرٍ تُمَثِّلُ ٱلْحَيَاةَ ٱلْهَنِيئَةَ ٱلْمُبْتَكَرَةَ لِسَاعَتِهَا لَيْسَ لَهَا مَاضٍ فِي دُنْيَانَا .

وَلَوْ أَنَّ مُبْدِعًا ٱفْتَنَّ فِي صُنْعِ تِمْثَالٍ لِلنِّيَّةِ ٱلطَّاهِرَةِ ، وَجِيءَ بِهِ فِي مَكَانِهَا ، وَأُخِذَتْ هِيَ فِي مَكَانِهِ لَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ ٱلْأَمْرُ .

وَكَانَ وُجُودُهَا عَلَى ٱلْعَرْشِ دَعْوَةً لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ تَحْضُرَ ٱلزِّفَافَ وَتُبَارِكَهُ .

وَكَانَتْ بِصِغَرِهَا ٱلظَّرِيفِ ٱلْجَمِيلِ تُعْطِي لِكُلِّ شَيْءٍ تَمَامًا ، فَيُرَى أَكْبَرَ مِمَّا هُوَ ، وَأَكْثَرَ مِمَّا هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ . كَانَتِ ٱلنُّقْطَةَ ٱلَّتِي ٱسْتَعْلَنَتْ فِي مَرْكَزِ ٱلدَّائِرَةِ ، ظُهُورُهَا عَلَى صِغَرِهَا هُوَ ظُهُورُ ٱلْإِحْكَامِ وَٱلْوَزْنِ وَٱلِانْسِجَامِ فِي ٱلْمُحِيطِ كُلِّهِ .

* * *

لَا يَكُونُ ٱلسُّرُورُ دَائِمًا إِلَّا جَدِيدًا عَلَى ٱلنَّفْسِ ، وَلَا سُرُورَ لِلنَّفْسِ إِلَّا مِنْ جَدِيدٍ عَلَى حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهَا ؛ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كُلِّ دِينَارٍ قُوَّةٌ جَدِيدَةٌ غَيْرُ ٱلَّتِي فِي مِثْلِهِ لَمَا سُرَّ بِٱلْمَالِ أَحَدٌ ، وَلَا كَانَ لَهُ ٱلْخَطَرُ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِكُلِّ طَعَامٍ جُوعٌ يُورِدُهُ جَدِيدًا عَلَى ٱلْمَعِدَةِ لَمَا هَنَأَ وَلَا مَرَأَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّيْلُ بَعْدَ نَهَارٍ ، وَٱلنَّهَارُ بَعْدَ لَيْلٍ ، وَٱلْفُصُولُ كُلُّهَا نَقِيضًا عَلَى نَقِيضِهِ ، وَشَيْئًا مُخْتَلِفًا عَلَى شَيْءٍ مُخْتَلِفٍ ـ لَمَا كَانَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ جَمَالٌ ، وَلَا مَنْظَرُ جَمَالٍ ، وَلَا إِحْسَاسٌ بِهِمَا ؛ وَٱلطَّبِيعَةُ ٱلَّتِي لَا تُفْلِحُ فِي جَعْلِكَ مَعَهَا طِفْلًا تَكُونُ جَدِيدًا عَلَى نَفْسِكَ ـ لَنْ تُفْلِحَ فِي جَعْلِكَ مَسْرُورًا بِهَا ، لِتَكُونَ هِيَ جَدِيدَةً عَلَيْكَ .

وَعَرْشُ ٱلْوَرْدِ كَانَ جَدِيدًا عِنْدَ نَفْسِي عَلَى نَفْسِي ، وَفِي عَاطِفَتِي عَلَى عَاطِفَتِي ، وَمِنْ أَيَّامِي عَلَى أَيَّامِي ؛ نَزَلَ صَبَاحُ يَوْمِهِ فِي قَلْبِي بِرُوحِ ٱلشَّمْسِ ، وَجَاءَ مَسَاءُ لَيْلَتِهِ لِقَلْبِي بِرُوحِ ٱلْقَمَرِ ؛ وَكُنْتُ عِنْدَهُ كَٱلسَّمَاءِ أَتَلَأْلَأُ بِأَفْكَارِي[1] كَمَا تَتَلَأْلَأُ بِنُجُومِهَا ؛ وَقَدْ جَعَلَتْنِي[2] أَمْتَدُّ بِسُرُورِي فِي هَٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةِ كُلِّهَا ، إِذْ قَدَرْتُ عَلَى أَنْ أَعِيشَ يَوْمًا فِي نَفْسِي ؛ وَرَأَيْتُ وَأَنَا فِي

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « بِأَفْكَارٍ » بَدَلًا مِنْ : « بِأَفْكَارِي » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « جَعَلَنِي » بَدَلًا مِنْ : « جَعَلَتْنِي » .

نَفْسِي أَنَّ ٱلْفَرَحَ هُوَ سِرُّ ٱلطَّبِيعَةِ كُلِّهَا ، وَأَنَّ كُلَّ مَا خَلَقَ ٱللهُ جَمَالٌ فِي جَمَالٍ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى نُورُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا يَجِيءُ ٱلظَّلَامُ مَعَ نُورِهِ ، وَلَا يَجِيءُ ٱلشَّرُّ مَعَ أَفْرَاحِ ٱلطَّبِيعَةِ إِلَّا مِنْ مُحَاوَلَةِ ٱلْفِكْرِ ٱلْإِنْسَانِيِّ خَلْقَ أَوْهَامِهِ فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَإِخْرَاجَهُ ٱلنَّفْسَ مِنْ طَبَائِعِهَا ، حَتَّى أَصْبَحَ ٱلْإِنْسَانُ كَأَنَّمَا يَعِيشُ بِنَفْسٍ يُحَاوِلُ أَنْ يَصْنَعَهَا صِنَاعَةً ، فَلَا يَصْنَعُ إِلَّا أَنْ يَزِيغَ بِٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي فَطَرَهَا ٱللهُ .

يَا عَجَبًا ! يَنْفِرُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ كَلِمَاتِ ٱلِاسْتِعْبَادِ ، وَٱلضَّعَةِ ، وَٱلذِّلَّةِ ، وَٱلْبُؤْسِ ، وَٱلْهَمِّ ، وَأَمْثَالِهَا ، وَيُنْكِرُهَا وَيَرُدُّهَا ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَبْحَثُ لِنَفْسِهِ فِي ٱلْحَيَاةِ إِلَّا عَنْ مَعَانِيهَا .

* * *

إِنَّ يَوْمًا كَيَوْمِ عَرْشِ ٱلْوَرْدِ لَا يَكُونُ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً ، بَلْ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ فَرَحًا ؛ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْأَيَّامِ ٱلَّتِي تَجْعَلُ ٱلْوَقْتَ يَتَقَدَّمُ فِي ٱلْقَلْبِ لَا فِي ٱلزَّمَنِ ، وَيَكُونُ بِٱلْعَوَاطِفِ لَا بِٱلسَّاعَاتِ ، وَيَتَوَاتَرُ عَلَى ٱلنَّفْسِ بِجَدِيدِهَا لَا بِقَدِيمِهَا .

كَانَ ٱلشَّبَابُ فِي مَوْكِبِ نَصْرِهِ ، وَكَانَتِ ٱلْحَيَاةُ فِي سَاعَةِ صُلْحٍ مَعَ ٱلْقُلُوبِ ، حَتَّى ٱللُّغَةُ نَفْسُهَا لَمْ تَكُنْ تُلْقِي كَلِمَاتِهَا إِلَّا مُمْتَلِئَةً بِٱلطَّرَبِ وَٱلضَّحِكِ وَٱلسَّعَادَةِ ، آتِيَةً مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي دُونَ غَيْرِهَا ، مُصَوَّرَةً عَلَى ٱلْوُجُوهِ إِحْسَاسَهَا وَنَوَازِعَهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ سِحْرُ عَرْشِ ٱلْوَرْدِ ، تِلْكَ ٱلْحَدِيقَةِ ٱلسَّاحِرَةِ ٱلْمَسْحُورَةِ ، ٱلَّتِي كَانَتِ ٱلنَّسَمَاتُ تَأْتِي مِنَ ٱلْجَوِّ تُرَفْرِفُ حَوْلَهَا مُتَحَيِّرَةً كَأَنَّمَا تَتَسَاءَلُ : أَهَـٰذِهِ حَدِيقَةٌ خُلِقَتْ بِطُيُورٍ إِنْسَانِيَّةٍ ؛ أَمْ هِيَ شَجَرَةُ وَرْدٍ هَبَطَتْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ بِمَنْ يَتَفَيَّأْنَ ظِلَّهَا وَيَتَنَسَّمْنَ شَذَاهَا مِنَ ٱلْحُورِ ؛ أَمْ ذَاكَ مَنْبَعٌ وَرْدِيٌّ عِطْرِيٌّ نُورَانِيٌّ لِحَيَاةِ هَـٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْجَالِسَةِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ؟

يَا نَسَمَاتِ ٱللَّيْلِ ٱلصَّافِيَةِ صَفَاءَ ٱلْخَيْرِ ، أَسْأَلُ ٱللهَ أَنْ تَتْبَعَ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلْمُقْبِلَةُ فِي جَمَالِهَا وَأَثَرِهَا وَبَرَكَتِهَا مِنْ مِثْلِ ٱلْوَرْدِ ٱلْمُبْهِجِ ، وَٱلْعِطْرِ ٱلْمُنْعِشِ ، وَٱلضَّوْءِ ٱلْمُحْيِي ؛ فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْعَرُوسَ ٱلْمُعْتَلِيَةَ عَرْشَ ٱلْوَرْدِ :

هِيَ ٱبْنَتِي . . .

أَيُّهَا ٱلْبَحْرُ !(*)(١)

إِذَا ٱحْتَدَمَ ٱلصَّيْفُ ، جَعَلْتَ أَنْتَ أَيُّهَا ٱلْبَحْرُ لِلزَّمَنِ فَصْلًا جَدِيدًا يُسَمَّىٰ « ٱلرَّبِيعَ ٱلْمَائِيَّ » .

وَتَنْتَقِلُ إِلَىٰ أَيَّامِكَ أَرْوَاحُ ٱلْحَدَائِقِ ، فَتَنْبُتُ فِي ٱلزَّمَنِ بَعْضُ ٱلسَّاعَاتِ ٱلشَّهِيَّةِ ، كَأَنَّهَا ٱلثَّمَرُ ٱلْحُلْوُ ٱلنَّاضِجُ عَلَىٰ شَجَرِهِ .

وَيُوحِي لَوْنُكَ ٱلْأَزْرَقُ إِلَىٰ ٱلنُّفُوسِ مَا كَانَ يُوحِيهِ لَوْنُ ٱلرَّبِيعِ ٱلْأَخْضَرِ ، إِلَّا أَنَّهُ أَرَقُّ وَأَلْطَفُ .

وَيَرَىٰ ٱلشُّعَرَاءُ فِي سَاحِلِكَ مِثْلَ مَا يَرَوْنَ فِي أَرْضِ ٱلرَّبِيعِ ، أُنُوثَةً ظَاهِرَةً ، غَيْرَ أَنَّهَا تَلِدُ ٱلْمَعَانِيَ لَا ٱلنَّبَاتَ .

وَيُحِسُّ ٱلْعُشَّاقُ عِنْدَكَ مَا يُحِسُّونَهُ فِي ٱلرَّبِيعِ : أَنَّ ٱلْهَوَاءَ يَتَأَوَّهُ . . .

* * *

فِي ٱلرَّبِيعِ ، يَتَحَرَّكُ فِي ٱلدَّمِ ٱلْبَشَرِيِّ سِرُّ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ؛ وَعِنْدَ « ٱلرَّبِيعِ ٱلْمَائِيِّ » يَتَحَرَّكُ فِي ٱلدَّمِ سِرُّ هَـٰذِهِ ٱلسُّحُبِ .

نَوْعَانِ مِنَ ٱلْخَمْرِ فِي هَوَاءِ ٱلرَّبِيعِ وَهَوَاءِ ٱلْبَحْرِ ، يَكُوْنُ مِنْهُمَا سُكْرٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱلطَّرَبِ .

وَبِٱلرَّبِيعَيْنِ ٱلْأَخْضَرِ وَٱلْأَزْرَقِ يَنْفَتِحُ بَابَانِ لِلْعَالَمِ ٱلسِّحْرِيِّ ٱلْعَجِيبِ : عَالَمِ ٱلْجَمَالِ ٱلْأَرْضِيِّ ٱلَّذِي تَدْخُلُهُ ٱلرُّوحُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ كَمَا يَدْخُلُ ٱلْقَلْبُ ٱلْمُحِبُّ فِي شُعَاعِ ٱبْتِسَامَةٍ وَمَعْنَاهَا .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١١١ ، ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩ أغسطس/آب ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤ .

(١) كَتَبْنَا فِي « أَوْرَاقِ ٱلْوَرْدِ » رِسَالَةً عَنِ ٱلْبَحْرِ وَٱلْحُبِّ فِيهَا أَوْصَافٌ كَثِيرَةٌ لِلْبَحْرِ .

فِي « ٱلرَّبِيعِ ٱلْمَائِيِّ » ، يَجْلِسُ ٱلْمَرْءُ ، وَكَأَنَّهُ جَالِسٌ فِي سَحَابَةٍ لَا فِي ٱلْأَرْضِ .

وَيَشْعُرُ كَأَنَّهُ لَابِسٌ ثِيَابًا مِنَ ٱلظِّلِّ لَا مِنَ ٱلْقُمَاشِ ؛ وَيَجِدُ ٱلْهَوَاءَ قَدْ تَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَكُوْنَ هَوَاءَ ٱلتُّرَابِ .

وَتَخِفُّ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ، كَأَنَّ بَعْضَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَرْضِيَّةِ ٱنْتُزِعَتْ مِنَ ٱلْمَادَّةِ . وَهُنَا يُدْرِكُ ٱلْحَقِيقَةَ : أَنَّ ٱلسُّرُوْرَ إِنْ هُوَ إِلَّا تَنَبُّهُ مَعَانِي ٱلطَّبِيعَةِ فِي ٱلْقَلْبِ .

* * *

وَلِلشَّمْسِ هُنَا مَعْنَىٰ جَدِيدٌ لَيْسَ لَهَا هُنَاكَ فِي « دُنْيَا ٱلرِّزْقِ » .

تُشْرِقُ ٱلشَّمْسُ هُنَا عَلَىٰ ٱلْجِسْمِ ؛ أَمَّا هُنَاكَ فَكَأَنَّمَا تَطْلُعُ وَتَغْرُبُ عَلَىٰ ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي يَعْمَلُ ٱلْجِسْمُ فِيهَا .

تَطْلُعُ هُنَاكَ عَلَىٰ دِيْوَانِ ٱلْمُوَظَّفِ لَا ٱلْمُوَظَّفِ ، وَعَلَىٰ حَانُوْتِ ٱلتَّاجِرِ لَا ٱلتَّاجِرِ ، وَعَلَىٰ مَصْنَعِ ٱلْعَامِلِ ، وَمَدْرَسَةِ ٱلتِّلْمِيذِ ، وَدَارِ ٱلْمَرْأَةِ .

تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ هُنَاكَ بِٱلنُّوْرِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ ـ وَا أَسَفَاهُ ـ يَكُوْنُوْنَ فِي سَاعَاتِهِمُ ٱلْمُظْلِمَةِ . . .

ٱلشَّمْسُ هُنَا جَدِيْدَةٌ، تُثْبِتُ أَنَّ ٱلْجَدِيدَ فِي ٱلطَّبِيعَةِ هُوَ ٱلْجَدِيدُ فِي كَيْفِيَّةِ شُعُوْرِ ٱلنَّفْسِ بِهِ .

* * *

وَٱلْقَمَرُ زَاهٍ رَفَّافٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ ؛ كَأَنَّهُ ٱغْتَسَلَ وَخَرَجَ مِنَ ٱلْبَحْرِ .

أَوْ كَأَنَّهُ لَيْسَ قَمَرًا ، بَلْ هُوَ فَجْرٌ طَلَعَ فِي أَوَائِلِ ٱللَّيْلِ ؛ فَحَصَرَتْهُ ٱلسَّمَاءُ فِي مَكَانِهِ لِيَسْتَمِرَّ ٱللَّيْلُ .

فَجْرٌ لَا يُوقِظُ ٱلْعُيُوْنَ مِنْ أَحْلَامِهَا ، وَلَـٰكِنَّهُ يُوقِظُ ٱلْأَرْوَاحَ لِأَحْلَامِهَا .

وَيُلْقِي مِنْ سِحْرِهِ عَلَىٰ ٱلنُّجُوْمِ فَلَا تَظْهَرُ حَوْلَهُ إِلَّا مُسْتَبْهَمَةً كَأَنَّهَا أَحْلَامٌ مُعَلَّقَةٌ .

لِلْقَمَرِ هُنَا طَرِيْقَةٌ فِي إِبْهَاجِ ٱلنَّفْسِ ٱلشَّاعِرَةِ، كَطَرِيْقَةِ ٱلْوَجْهِ ٱلْمَعْشُوْقِ حِيْنَ تُقَبِّلُهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

* * *

وَ« لِلرَّبِيعِ الْمَائِيِّ » طُيُورُهُ الْمُغَرِّدَةُ وَفَرَاشُهُ الْمُتَنَقِّلُ :

أَمَّا الطُّيُورُ فَنِسَاءٌ يَتَضَاحَكْنَ ، وَأَمَّا الْفَرَاشُ فَأَطْفَالٌ يَتَوَاثَبُونَ .

نِسَاءٌ إِذَا انْغَمَسْنَ فِي الْبَحْرِ ، خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الْأَمْوَاجَ تَتَشَاحَنُ وَتَتَخَاصَمُ عَلَى بَعْضِهِنَّ . . .

رَأَيْتُ مِنْهُنَّ زَهْرَاءَ فَاتِنَةً قَدْ جَلَسَتْ عَلَى الرَّمْلِ جِلْسَةَ حَوَّاءَ قَبْلَ اخْتِرَاعِ الثِّيَابِ ، فَقَالَ الْبَحْرُ : يَا إِلَـٰهِي ! قَدِ انْتَقَلَ مَعْنَى الْغَرَقِ إِلَى الشَّاطِئِ . . .

إِنَّ الْغَرِيقَ مَنْ غَرِقَ فِي مَوْجَةِ الرَّمْلِ هَـٰذِهِ . . .

* * *

وَالْأَطْفَالُ يَلْعَبُونَ وَيَصْرُخُونَ وَيَضِجُّونَ كَأَنَّمَا اتَّسَعَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ وَالدُّنْيَا . . .

وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُمْ أَقْلَقُوا الْبَحْرَ كَمَا يُقْلِقُونَ الدَّارَ ، فَصَاحَ بِهِمْ : وَيْحَكُمْ يَا أَسْمَاكَ التُّرَابِ . . . ! وَرَأَيْتُ طِفْلًا مِنْهُمْ قَدْ جَاءَ فَوَكَزَ الْبَحْرَ بِرِجْلِهِ ! فَضَحِكَ الْبَحْرُ وَقَالَ : انْظُرُوا يَا بَنِي آدَمَ !!

أَعَلَى اللهِ أَنْ يَعْبَأَ بِالْمَغْرُورِ مِنْكُمْ إِذَا كَفَرَ بِهِ ؟ أَعَلَيَّ أَنْ أَعْبَأَ بِهَـٰذَا الطِّفْلِ كَيْ لا يَقُولَ إِنَّهُ رَكَلَنِي بِرِجْلِهِ . . . ؟

* * *

أَيُّهَا الْبَحْرُ ! قَدْ مَلَأَتْكَ قُوَّةُ اللهِ لِتُثْبِتَ فَرَاغَ الْأَرْضِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ .

لَيْسَ فِيكَ مَمَالِكُ وَلَا حُدُودٌ ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ لِهَـٰذَا الْإِنْسَانِ الْمَغْرُورِ .

وَتَجِيشُ بِالنَّاسِ وَبِالسُّفُنِ الْعَظِيمَةِ ، كَأَنَّكَ تَحْمِلُ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ قَشًّا تَرْمِي بِهِ .

وَالِاخْتِرَاعُ الْإِنْسَانِيُّ مَهْمَا عَظُمَ لَا يُغْنِي الْإِنْسَانَ فِيكَ عَنْ إِيمَانِهِ .

وَأَنْتَ تَمْلَأُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ بِالْعَظَمَةِ وَالْهَوْلِ ، رَدًّا عَلَى عَظَمَةِ الْإِنْسَانِ وَهَوْلِهِ فِي الرُّبْعِ الْبَاقِي ؛ مَا أَعْظَمَ الْإِنْسَانَ وَأَصْغَرَهُ !

* * *

يَنْزِلُ النَّاسُ فِي مَائِكَ فَيَتَسَاوَوْنَ حَتَّى لَا يَخْتَلِفَ ظَاهِرٌ عَنْ ظَاهِرٍ .

وَيَرْكَبُونَ ظَهْرَكَ فِي السُّفُنِ فَيَحِنُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى لَا يَخْتَلِفَ بَاطِنٌ عَنْ بَاطِنٍ .

تُشْعِرُهُمْ جَمِيعًا أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَمِنْ أَحْكَامِهَا الْبَاطِلَةِ .

وَتُفْقِرُهُمْ إِلَى الْحُبِّ وَالصَّدَاقَةِ فَقْرًا يُرِيهِمُ النُّجُومَ نَفْسَهَا كَأَنَّهَا أَصْدِقَاءُ ، إِذْ عَرَفُوهَا فِي الْأَرْضِ .

يَا سِحْرَ الْخَوْفِ ، أَنْتَ أَنْتَ فِي اللُّجَّةِ[1] كَمَا أَنْتَ أَنْتَ فِي جَهَنَّمَ .

* * *

وَإِذَا رَكِبَكَ الْمُلْحِدُ أَيُّهَا الْبَحْرُ ، فَرَجَفْتَ مِنْ تَحْتِهِ ، وَهَدَرْتَ عَلَيْهِ وَثُرْتَ بِهِ ، وَأَرَيْتَهُ رَأْيَ الْعَيْنِ كَأَنَّهُ بَيْنَ سَمَاءَيْنِ سَتَنْطَبِقُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَتُقْفَلَانِ عَلَيْهِ ـ تَرَكْتَهُ يَتَطَأْطَأُ وَيَتَوَاضَعُ ، كَأَنَّكَ تَهُزُّهُ وَتَهُزُّ أَفْكَارَهُ مَعًا ، وَتُدَحْرِجُهُ وَتُدَحْرِجُهَا .

وَأَطَرْتَ كُلَّ مَا فِي عَقْلِهِ فَيَلْجَأُ إِلَى اللهِ بِعَقْلِ طِفْلٍ .

وَكَشَفْتَ لَهُ عَنِ الْحَقِيقَةِ : أَنَّ نِسْيَانَ اللهِ لَيْسَ عَمَلَ الْعَقْلِ ، وَلَـٰكِنَّهُ عَمَلُ الْغَفْلَةِ وَالْأَمْنِ وَطُولِ السَّلَامَةِ .

* * *

أَلَا مَا أَشْبَهَ الْإِنْسَانَ فِي الْحَيَاةِ بِالسَّفِينَةِ فِي أَمْوَاجِ هَـٰذَا الْبَحْرِ !

إِنِ ارْتَفَعَتِ السَّفِينَةُ ، أَوِ انْخَفَضَتْ ، أَوْ مَادَتْ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْهَا وَحْدَهَا ، بَلْ مِمَّا حَوْلَهَا .

وَلَنْ تَسْتَطِيعَ هَـٰذِهِ السَّفِينَةُ أَنْ تَمْلِكَ مِنْ قَانُونِ مَا حَوْلَهَا شَيْئًا ، وَلَـٰكِنَّ قَانُونَهَا هِيَ الثَّبَاتُ ، وَالتَّوَازُنُ ، وَالِاهْتِدَاءُ إِلَى قَصْدِهَا ، وَنَجَاتُهَا فِي قَانُونِهَا .

فَلَا يَعْتَبَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَحْكَامِهَا ، وَلَـٰكِنْ فَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَحْكُمَ نَفْسَهُ .

كُتِبَ فِي شَاطِئِ سِيدِي بِشْر ، إِسْكَنْدَرِيَّة — **مصطفى صادق الرافعي**

(١) فِي الْأَصْلِ « الْبَحْرِ » بَدَلًا مِنْ : « اللُّجَّةِ » .

فِي ٱلرَّبِيعِ ٱلْأَزْرَقِ(١)
خَوَاطِرُ مُرْسَلَةٌ(*)

مَا أَجْمَلَ ٱلْأَرْضَ عَلَىٰ حَاشِيَةِ ٱلْأَزْرَقَيْنِ : ٱلْبَحْرِ وَٱلسَّمَاءِ ؛ يَكَادُ ٱلْجَالِسُ هُنَا يَظُنُّ نَفْسَهُ مَرْسُوْمًا فِيْ صُوْرَةٍ إِلَـٰهِيَّةٍ .

* * *

نَظَرْتُ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْعَظِيْمِ بِعَيْنَيْ طِفْلٍ يَتَخَيَّلُ أَنَّ ٱلْبَحْرَ قَدْ مُلِئَ بِٱلْأَمْسِ ، وَأَنَّ ٱلسَّمَاءَ كَانَتْ إِنَاءً لَهُ ، فَٱنْكَفَأَ ٱلْإِنَاءُ فَٱنْدَفَقَ ٱلْبَحْرُ ، وَتَسَرَّحْتُ مَعَ هَـٰذَا ٱلْخَيَالِ ٱلطِّفْلِيِّ ٱلصَّغِيْرِ فَكَأَنَّمَا نَالَنِي رَشَاشٌ مِنَ ٱلْإِنَاءِ . . .

إِنَّنَا لَنْ نُدْرِكَ رَوْعَةَ ٱلْجَمَالِ فِي ٱلطَّبِيْعَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ قَرِيْبَةً مِنْ طُفُوْلَتِهَا ، وَمَرَحِ ٱلطُّفُوْلَةِ ، وَلَعِبِهَا ، وَهَذَيَانِهَا .

* * *

تَبْدُو لَكَ ٱلسَّمَاءُ عَلَىٰ ٱلْبَحْرِ أَعْظَمَ مِمَّا هِيَ ، كَمَا لَوْ كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ سَمَاءٍ أُخْرَىٰ لَا مِنَ ٱلْأَرْضِ .

* * *

إِذَا أَنَا سَافَرْتُ فَجِئْتُ إِلَىٰ ٱلْبَحْرِ ، أَوْ نَزَلْتُ بِٱلصَّحْرَاءِ ، أَوْ حَلَلْتُ بِٱلْجَبَلِ ، شَعَرْتُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ مِنْ دَهْشَةِ ٱلسُّرُوْرِ بِمَا كُنْتُ أَشْعُرُ بِمِثْلِهِ لَوْ أَنَّ ٱلْجَبَلَ أَوِ ٱلصَّحْرَاءَ أَوِ ٱلْبَحْرَ قَدْ سَافَرَتْ هِيَ وَجَاءَتْ إِلَيَّ .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١١٣ ، جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢ سبتمبر/أيلول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤ .

(١) هَـٰذِهِ تَسْمِيَةٌ جَدِيْدَةٌ لِلْمَصِيْفِ عَلَىٰ سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ، { وَقَدْ شَاعَ ٱسْتِعْمَالُهَا بَعْدَ نَشْرِ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ } .

فِيْ جَمَالِ ٱلنَّفْسِ يَكُوْنُ كُلُّ شَيْءٍ جَمِيْلًا ، إِذْ تُلْقِي ٱلنَّفْسُ عَلَيْهِ مِنْ أَلْوَانِهَا ، فَتَنْقَلِبُ ٱلدَّارُ ٱلصَّغِيْرَةُ قَصْرًا لِأَنَّهَا فِيْ سَعَةِ ٱلنَّفْسِ لَا فِيْ مِسَاحَتِهَا { هِيَ } ، وَتَعْرِفُ لِنُوْرِ ٱلنَّهَارِ عُذُوْبَةً كَعُذُوْبَةِ ٱلْمَاءِ عَلَىٰ ٱلظَّمَأِ ، وَيَظْهَرُ ٱللَّيْلُ كَأَنَّهُ مَعْرِضُ جَوَاهِرَ أُقِيْمَ لِلْحُوْرِ ٱلْعِيْنِ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ ، وَيَبْدُو ٱلْفَجْرُ بِأَلْوَانِهِ وَأَنْوَارِهِ وَنَسَمَاتِهِ كَأَنَّهُ جَنَّةٌ سَابِحَةٌ فِي ٱلْهَوَاءِ .

فِيْ جَمَالِ ٱلنَّفْسِ تَرَىٰ ٱلْجَمَالَ ضَرُوْرَةً مِنْ ضَرُوْرَاتِ ٱلْخَلِيْقَةِ ؛ وَيْ ! كَأَنَّ ٱللهَ أَمَرَ ٱلْعَالَمَ أَلَّا يَعْبِسَ لِلْقَلْبِ ٱلْمُبْتَسِمِ .

* * *

أَيَّامُ ٱلْمَصِيْفِ هِيَ ٱلْأَيَّامُ ٱلَّتِيْ يَنْطَلِقُ فِيْهَا ٱلْإِنْسَانُ ٱلطَّبِيْعِيُّ ٱلْمَحْبُوْسُ فِيْ ٱلْإِنْسَانِ ؛ فَيَرْتَدُّ إِلَىٰ دَهْرِهِ ٱلْأَوَّلِ ، دَهْرِ ٱلْغَابَاتِ وَٱلْبِحَارِ وَٱلْجِبَالِ .

إِنْ لَمْ تَكُنْ أَيَّامُ ٱلْمَصِيْفِ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، لَمْ يَكُنْ فِيْهَا مَعْنًى .

* * *

لَيْسَتِ ٱللَّذَّةُ فِي ٱلرَّاحَةِ وَلَا ٱلْفَرَاغِ ، وَلَـٰكِنَّهَا فِي ٱلتَّعَبِ وَٱلْكَدْحِ وَٱلْمَشَقَّةِ حِيْنَ تَتَحَوَّلُ أَيَّامًا إِلَىٰ رَاحَةٍ وَفَرَاغٍ .

* * *

لَا تَتِمُّ فَائِدَةُ ٱلِانْتِقَالِ مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ إِلَّا إِذَا ٱنْتَقَلَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ شُعُوْرٍ إِلَىٰ شُعُوْرٍ ؛ فَإِذَا سَافَرَ مَعَكَ ٱلْهَمُّ فَأَنْتَ مُقِيْمٌ لَمْ تَبْرَحْ .

* * *

ٱلْحَيَاةُ فِي ٱلْمَصِيْفِ تُثْبِتُ لِلْإِنْسَانِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُوْنُ حَيْثُ لَا يُحْفَلُ بِهَا كَثِيْرٌ .

* * *

يَشْعُرُ ٱلْمَرْءُ فِي ٱلْمُدُنِ أَنَّهُ بَيْنَ آثَارِ ٱلْإِنْسَانِ وَأَعْمَالِهِ ، فَهُوَ هُنَاكَ فِيْ رُوْحِ ٱلْعَنَاءِ وَٱلْكَدْحِ وَٱلنِّزَاعِ ؛ أَمَّا فِي ٱلطَّبِيْعَةِ فَيُحِسُّ أَنَّهُ بَيْنَ ٱلْجَمَالِ وَٱلْعَجَائِبِ ٱلْإِلَـٰهِيَّةِ ، فَهُوَ هُنَا فِيْ رُوْحِ ٱللَّذَّةِ وَٱلسُّرُوْرِ وَٱلْجَلَالِ .

* * *

إِذَا كُنْتَ فِيْ أَيَّامِ ٱلطَّبِيْعَةِ فَٱجْعَلْ فِكْرَكَ خَالِيًا وَفَرِّغْهُ لِلنَّبْتِ وَٱلشَّجَرِ ، وَٱلْحَجَرِ وَٱلْمَدَرِ ، وَٱلطَّيْرِ وَٱلْحَيَوَانِ ، وَٱلزَّهْرِ وَٱلْعُشْبِ ، وَٱلْمَاءِ وَٱلسَّمَاءِ ، وَنُوْرِ ٱلنَّهَارِ ، وَظَلَامِ ٱللَّيْلِ ، حِيْنَئِذٍ يَفْتَحُ لَكَ ٱلْعَالَمُ بَابَهُ وَيَقُوْلُ : ٱدْخُلْ . . .

* * *

لُطْفُ ٱلْجَمَالِ صُوْرَةٌ أُخْرَىٰ مِنْ عَظَمَةِ ٱلْجَمَالِ ؛ عَرَفْتُ ذَٰلِكَ حِيْنَمَا أَبْصَرْتُ قَطْرَةً مِنَ ٱلْمَاءِ تَلْمَعُ فِيْ غُصْنٍ ، فَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ لَهَا عَظَمَةَ ٱلْبَحْرِ لَوْ صَغُرَ فَعُلِّقَ عَلَىٰ وَرَقَةٍ .

* * *

فِيْ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ ٱلْجَسَدِ ٱلرُّوْحَانِيَّةِ حِيْنَ يَفُوْرُ شِعْرُ ٱلْجَمَالِ فِيْ ٱلدَّمِ ، أَطَلْتُ ٱلنَّظَرَ إِلَىٰ وَرْدَةٍ فِيْ غُصْنِهَا زَاهِيَةٍ ، عَطِرَةٍ ، مُتَأَنِّقَةٍ ، مُتَأَنِّثَةٍ ؛ فَكِدْتُ أَقُوْلُ لَهَا : أَنْتِ أَيَّتُهَا ٱلْمَرْأَةُ ، أَنْتِ يَا فُلَانَةُ . . .

* * *

أَلَيْسَ عَجِيْبًا أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَىٰ فِيْ ٱلْأَرْضِ بَعْضَ ٱلْأَمْكِنَةِ كَأَنَّهَا أَمْكِنَةٌ لِلرُّوْحِ خَاصَّةً ؛ فَهَلْ يَدُلُّ هَٰذَا عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا أَنَّ خَيَالَ ٱلْجَنَّةِ مُنْذُ آدَمَ وَحَوَّاءَ ، لَا يَزَالُ يَعْمَلُ فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ؟

* * *

ٱلْحَيَاةُ فِيْ ٱلْمَدِيْنَةِ كَشُرْبِ ٱلْمَاءِ فِيْ كُوْبٍ مِنَ ٱلْخَزَفِ ؛ وَٱلْحَيَاةُ فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ كَشُرْبِ ٱلْمَاءِ فِيْ كُوْبٍ مِنَ ٱلْبَلُّوْرِ ٱلسَّاطِعِ ؛ ذَاكَ يَحْتَوِيْ ٱلْمَاءَ وَهَٰذَا يَحْتَوِيْهِ وَيُبْدِيْ جَمَالَهُ لِلْعَيْنِ .

* * *

وَا أَسَفَاهُ ، هَٰذِيْ هِيَ ٱلْحَقِيْقَةُ : إِنَّ دِقَّةَ ٱلْفَهْمِ لِلْحَيَاةِ تُفْسِدُهَا عَلَىٰ صَاحِبِهَا كَدِقَّةِ ٱلْفَهْمِ لِلْحُبِّ ، وَإِنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلصَّغِيْرَ فِيْ فَهْمِهِ لِلْحُبِّ وَٱلْحَيَاةِ ، هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْكَامِلُ فِيْ ٱلتَّلَذُّذِ بِهِمَا .
وَا أَسَفَاهُ ، هَٰذِهِ هِيَ ٱلْحَقِيْقَةُ ! .

* * *

فِيْ هَٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ ٱلطَّبِيْعِيَّةِ ٱلَّتِيْ يَجْعَلُهَا ٱلْمَصِيْفُ أَيَّامَ سُرُوْرٍ وَنِسْيَانٍ ، يَشْعُرُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنَّهُ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَقُوْلَ لِلدُّنْيَا كَلِمَةَ هَزْلٍ وَدُعَابَةٍ . . .

* * *

مَنْ لَمْ يُرْزَقِ ٱلْفِكْرَ ٱلْعَاشِقَ لَمْ يَرَ أَشْيَاءَ ٱلطَّبِيْعَةِ إِلَّا فِيْ أَسْمَائِهَا وَشِيَاتِهَا ، دُوْنَ حَقَائِقِهَا وَمَعَانِيْهَا ، كَٱلرَّجُلِ إِذَا لَمْ يَعْشَقْ رَأَىٰ ٱلنِّسَاءَ كُلَّهُنَّ سَوَاءٌ ، فَإِذَا عَشِقَ رَأَىٰ فِيْهِنَّ نِسَاءً غَيْرَ مَنْ عَرَفَ ، وَأَصْبَحْنَ عِنْدَهُ أَدِلَّةً عَلَىٰ صِفَاتِ ٱلْجَمَالِ ٱلَّذِيْ فِيْ قَلْبِهِ .

* * *

تَقُوْمُ دُنْيَا ٱلرِّزْقِ بِمَا تَحْتَاجُهُ ٱلْحَيَاةُ ، أَمَّا دُنْيَا ٱلْمَصِيْفِ فَقَائِمَةٌ بِمَا تَلَذُّهُ ٱلْحَيَاةُ ، وَهَٰذَا هُوَ ٱلَّذِيْ يُغَيِّرُ ٱلطَّبِيْعَةَ وَيَجْعَلُ ٱلْجَوَّ نَفْسَهُ هُنَاكَ جَوَّ مَائِدَةٍ ظُرَفَاءَ وَظَرِيْفَاتٍ . . .

* * *

تَعْمَلُ أَيَّامُ ٱلْمَصِيْفِ بَعْدَ ٱنْقِضَائِهَا عَمَلًا كَبِيْرًا ، هُوَ إِدْخَالُ بَعْضِ ٱلشِّعْرِ فِيْ حَقَائِقِ ٱلْحَيَاةِ .

* * *

هَٰذِهِ ٱلسَّمَاءُ فَوْقَنَا فِيْ كُلِّ مَكَانٍ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْعَجِيْبَ أَنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ يَرْحَلُوْنَ إِلَىٰ ٱلْمَصَايِفِ لِيَرَوْا أَشْيَاءَ مِنْهَا ٱلسَّمَاءُ . . .

* * *

إِذَا ٱسْتَقْبَلْتَ ٱلْعَالَمَ بِٱلنَّفْسِ ٱلْوَاسِعَةِ رَأَيْتَ حَقَائِقَ ٱلسُّرُوْرِ تَزِيْدُ وَتَتَّسِعُ ، وَحَقَائِقَ ٱلْهُمُوْمِ تَصْغُرُ وَتَضِيْقُ ، وَأَدْرَكْتَ أَنَّ دُنْيَاكَ إِنْ ضَاقَتْ فَأَنْتَ ٱلضَّيِّقُ لَا هِيَ .

* * *

فِيْ ٱلسَّاعَةِ ٱلتَّاسِعَةِ أَذْهَبُ إِلَىٰ عَمَلِيْ ، وَفِيْ ٱلْعَاشِرَةِ أَعْمَلُ كَيْتَ ، وَفِيْ ٱلْحَادِيَةَ عَشْرَةَ أَعْمَلُ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ وَهُنَا فِيْ ٱلْمَصِيْفِ تَفْقِدُ ٱلتَّاسِعَةُ وَأَخَوَاتُهَا مَعَانِيَهَا ٱلزَّمَنِيَّةَ ٱلَّتِيْ كَانَتْ تَضَعُهَا ٱلْأَيَّامُ فِيْهَا ، وَتَسْتَبْدِلُ مِنْهَا ٱلْمَعَانِيَ ٱلَّتِيْ تَضَعُهَا فِيْهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْحُرَّةُ .

هَـٰذِهِ هِيَ ٱلطَّرِيقَةُ ٱلَّتِي تُصْنَعُ بِهَا ٱلسَّعَادَةُ أَحْيَانًا ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ فِي ٱلدُّنْيَا كَصِغَارِ ٱلْأَطْفَالِ .

* * *

إِذَا تَلَاقَى ٱلنَّاسُ فِي مَكَانٍ عَلَىٰ حَالَةٍ مُتَشَابِهَةٍ مِنَ ٱلسُّرُورِ وَتَوَهُّمِهِ وَٱلْفِكْرَةِ فِيهِ ، وَكَانَ هَـٰذَا ٱلْمَكَانُ مُعَدًّا بِطَبِيعَتِهِ ٱلْجَمِيلَةِ لِنِسْيَانِ ٱلْحَيَاةِ وَمَكَارِهِهَا ـ فَتِلْكَ هِيَ ٱلرِّوَايَةُ وَمُمَثِّلُوهَا وَمَسْرَحُهَا[1] ـ ، أَمَّا ٱلْمَوْضُوعُ فَٱلسُّخْرِيَةُ مِنْ إِنْسَانِ ٱلْمَدَنِيَّةِ وَمَدَنِيَّةِ ٱلْإِنْسَانِ .

* * *

مَا أَصْدَقَ مَا قَالُوهُ : إِنَّ ٱلْمَرْئِيَّ فِي ٱلرَّائِي . مَرِضْتُ مُدَّةً فِي ٱلْمَصِيفِ ، فَٱنْقَلَبَتِ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلْعَرُوسُ ٱلَّتِي كَانَتْ تَتَزَيَّنُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ طَبِيعَةٍ عَجُوزٍ تَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى ٱلطَّبِيبِ . . .

شاطئ سيدي بشر ، إسكندرية

مصطفى صادق الرافعي

(١) يَظُنُّ صَدِيقُنَا ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْأَمِيرُ شَكِيب أَرْسَلَان أَنَّ ٱلْمَسْرَحَ لِدَارِ ٱلتَّمْثِيلِ غَيْرُ صَحِيحٍ ، وَأَنَّ صَوَابَهَا ٱلْمِزْرَحُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلصَّاحِبَ بْنَ عَبَّادٍ ٱسْتَعْمَلَهَا فِي قَرِيبٍ مِنْ مَعْنَىٰ دَارِ ٱلتَّمْثِيلِ ، وَأَصْلُهَا مِنْ مُرَادِفَاتِ نَدِيِّ ٱلْقَوْمِ وَمُجْتَمَعِهِمْ .

حَدِيثُ قِطَّيْنِ (*)

جَاءَ فِي ٱمْتِحَانِ شَهَادَةِ إِتْمَامِ ٱلدِّرَاسَةِ ٱلِابْتِدَائِيَّةِ لِهَـٰذَا ٱلْعَامِ { ١٩٣٤ } فِي مَوْضُوعِ ٱلْإِنْشَاءِ مَا يَأْتِي :

« تَقَابَلَ قِطَّانِ : أَحَدُهُمَا سَمِينٌ تَبْدُو عَلَيْهِ آثَارُ ٱلنِّعْمَةِ ، وَٱلْآخَرُ نَحِيفٌ يَدُلُّ مَنْظَرُهُ عَلَىٰ سُوءِ حَالِهِ ؛ فَمَاذَا يَقُولَانِ إِذَا حَدَّثَ كُلٌّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ مَعِيشَتِهِ ؟» .

وَقَدْ حَارَ ٱلتَّلَامِيذُ ٱلصِّغَارُ فِيمَا يَضَعُونَ عَلَىٰ لِسَانِ ٱلْقِطَّيْنِ ، وَلَمْ يَعْرِفُوا كَيْفَ يُوَجِّهُونَ ٱلْكَلَامَ بَيْنَهُمَا ، وَإِلَىٰ أَيِّ غَايَةٍ يَنْصَرِفُ ٱلْقَوْلُ فِي مُحَاوَرَتِهِمَا ؛ وَضَاقُوا جَمِيعًا وَهُمْ أَطْفَالٌ ـ أَنْ تَكُونَ فِي رُؤُوسِهِمْ عُقُولُ ٱلسَّنَانِيرِ ؛ وَأَعْيَاهُمْ أَنْ تَنْزِلَ غَرَائِزُهُمُ ٱلطَّيِّبَةُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ مِنَ ٱلْبَهِيمِيَّةِ وَمِنْ عَيْشِهَا خَاصَّةً ، فَيَكْتَنِهُوا تَدْبِيرَ هَـٰذِهِ ٱلْقِطَاطِ لِحَيَاتِهَا ، وَيَنْفُذُوا إِلَىٰ طَبَائِعِهَا ، وَيَنْدَمِجُوا فِي جُلُودِهَا ، وَيَأْكُلُوا بِأَنْيَابِهَا ، وَيُمَزِّقُوا بِمَخَالِبِهَا .

قَالَ بَعْضُهُمْ : وَسَخِطْنَا عَلَىٰ أَسَاتِذَتِنَا أَشَدَّ ٱلسُّخْطِ ، وَعِبْنَاهُمْ بِأَقْبَحِ ٱلْعَيْبِ ؛ كَيْفَ لَمْ يُعَلِّمُونَا مِنْ قَبْلُ ـ أَنْ نَكُونَ حَمِيرًا ، وَخَيْلًا ، وَبِغَالًا ، وَثِيرَانًا ، وَقِرَدَةً ، وَخَنَازِيرَ ، وَفِئْرَانًا ، وَقِطَطَةً ، وَمَا هَبَّ وَدَبَّ ، وَمَا طَارَ وَدَرَجَ ، وَمَا مَشَىٰ وَٱنْسَاحَ ؛ وَكَيْفَ ـ وَيْحَهُمْ ـ لَمْ يُلَقِّنُونَا مَعَ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْإِنْكِلِيزِيَّةِ لُغَاتِ ٱلنَّهِيقِ ، وَٱلصَّهِيلِ ، وَٱلشَّحِيجِ ، وَٱلْخُوَارِ ، وَضَحِكَ ٱلْقِرْدِ ، وَقُبَاعَ ٱلْخِنْزِيرِ ، وَكَيْفَ نَصِيءُ وَنَمُوءُ ، وَنَلْغَطُ لَغَطَ ٱلطَّيْرِ ، وَنَفُحُّ فَحِيحَ ٱلْأَفْعَىٰ ، وَنَكِشُّ كَشِيشَ ٱلدَّبَّابَاتِ[1] ، إِلَىٰ مَا يَتِمُّ بِهِ هَـٰذَا ٱلْعِلْمُ ٱللُّغَوِيُّ ٱلْجَلِيلُ ، ٱلَّذِي تَقُومُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلْبَهَائِمِ وَٱلطَّيْرِ وَٱلْحَشَرَاتِ وَٱلْهَمَجِ وَأَشْبَاهِهَا . . . ؟

وَقَالَ تِلْمِيذٌ خَبِيثٌ لِأُسْتَاذِهِ : أَمَّا أَنَا فَأَوْجَزْتُ وَأَعْجَزْتُ .

قَالَ أُسْتَاذُهُ : أَجَدْتَ وَأَحْسَنْتَ ، وَلِلَّهِ أَنْتَ ! وَتَٱللَّهِ لَقَدْ أَصَبْتَ ! فَمَاذَا كَتَبْتَ ؟

(*) « الرسالة » العدد : ٥٣ ، ٢٧ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ٩ يوليو/تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١١٢٣ ـ ١١٢٦ .

(١) { هَـٰذِهِ أَصْوَاتُ هَـٰذِهِ ٱلْأَجْنَاسِ فِي ٱللُّغَةِ } .

قَالَ : كَتَبْتُ هَـٰكَذَا :

يَقُولُ ٱلسَّمِينُ : نَاوْ ، نَاوْ ، نَاوْ . . . فَيَقُولُ ٱلنَّحِيفُ : نَوْ ، نَاوْ نَوْ . . . فَيَرُدُّ عَلَيْهِ ٱلسَّمِينُ : نَوْ ، نَاوْ ، نَاوْ . . . فَيَغْضَبُ ٱلنَّحِيفُ ، وَيُكَشِّرُ عَنْ أَسْنَانِهِ ، وَيُحَرِّكُ ذَيْلَهُ وَيَصِيحُ : نَوْ ، نَوْ ، نَوْ . . . فَيَلْطِمُهُ ٱلسَّمِينُ فَيَخْدِشُهُ وَيَصْرُخُ : نَاوْ . . . فَيَثِبُ عَلَيْهِ ٱلنَّحِيفُ وَيَصْطَرِعَانِ ، وَتَخْتَلِطُ « ٱلنَّوْنَوَةُ » لَا يَمْتَازُ صَوْتٌ مِنْ صَوْتٍ ، وَلَا يَبِينُ مَعْنًى مِنْ مَعْنًى ، وَلَا يُمْكِنُ ٱلْفَهْمُ عَنْهُمَا فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ إِلَّا بِتَعَبٍ شَدِيدٍ ، بَعْدَ مُرَاجَعَةِ قَامُوسِ ٱلْقِطَاطِ . . . !

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ : يَا بُنَيَّ ! بَارَكَ ٱللهُ عَلَيْكَ ! لَقَدْ أَبْدَعْتَ ٱلْفَنَّ إِبْدَاعًا ، فَصَنَعْتَ مَا يَصْنَعُ أَكْبَرُ ٱلنَّوَابِغِ ، يُظْهِرُ فَنَّهُ بِإِظْهَارِ ٱلطَّبِيعَةِ وَإِخْفَاءِ نَفْسِهِ ، وَمَا يَنْطِقُ ٱلْقِطُّ بِلُغَتِنَا إِلَّا مُعْجِزَةً لِنَبِيٍّ ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَلَا سَبِيلَ إِلَّا مَا حَكَيْتَ وَوَصَفْتَ ، وَهُوَ مَذْهَبُ ٱلْوَاقِعِ ، وَٱلْوَاقِعُ هُوَ ٱلْجَدِيدُ فِي ٱلْأَدَبِ ؛ وَلَقَدْ أَرَادُوكَ تِلْمِيذًا هِرًّا ، فَكُنْتَ فِي إِجَابَتِكَ هِرًّا أُسْتَاذًا ، وَوَافَقْتَ ٱلسَّنَانِيرَ وَخَالَفْتَ ٱلنَّاسَ ، وَحَقَّقْتَ لِلْمُمْتَحِنِينَ أَرْقَى نَظَرِيَّاتِ ٱلْفَنِّ ٱلْعَالِي ، فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْفَنَّ إِنَّمَا هُوَ فِي طَرِيقَةِ ٱلْمَوْضُوعِ ٱلْفَنِّيَّةِ ، لَا فِي تَلْفِيقِ ٱلْمَوَادِّ لِهَـٰذَا ٱلْمَوْضُوعِ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، وَلَوْ حَفِظُوا حُرْمَةَ ٱلْأَدَبِ ، وَرَعَوْا عَهْدَ ٱلْفَنِّ لَأَدْرَكُوا أَنَّ فِي أَسْطُرِكَ ٱلْقَلِيلَةِ كَلَامًا طَوِيلًا بَارِعًا فِي ٱلنَّادِرَةِ وَٱلتَّهَكُّمِ ، وَغَرَابَةِ ٱلْعَبْقَرِيَّةِ ، وَجَمَالِهَا وَصِدْقِهَا ، وَحُسْنِ تَنَاوُلِهَا ، وَإِحْكَامِ تَأْدِيَتِهَا لِمَا تُؤَدِّي(١) ؛ وَلَـٰكِنْ مَا ٱلْفَرْقُ يَا بُنَيَّ بَيْنَ « نَاوْ » بِٱلْمَدِّ ، وَ« نَوْ » بِغَيْرِ مَدٍّ . . ؟

قَالَ ٱلتِّلْمِيذُ : هَـٰذَا عِنْدَ ٱلسَّنَانِيرِ كَٱلْإِشَارَاتِ ٱلتِّلِغْرَافِيَّةِ : شَرْطَةٌ وَنُقْطَةٌ وَهَـٰكَذَا .

قَالَ : يَا بُنَيَّ ! وَلَـٰكِنَّ وَزَارَةَ ٱلْمَعَارِفِ لَا تُقِرُّ هَـٰذَا وَلَا تَعْرِفُهُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْمُصَحِّحُ أُسْتَاذًا لَا هِرًّا . . . وَٱلِامْتِحَانُ كِتَابِيٌّ لَا شَفَوِيٌّ .

قَالَ ٱلْخَبِيثُ : وَأَنَا لَمْ أَكُنْ هِرًّا بَلْ كُنْتُ إِنْسَانًا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَوْضُوعَ حَدِيثُ قِطَّيْنِ ، وَٱلْحُكْمُ فِي مِثْلِ هَـٰذَا لِأَهْلِهِ ٱلْقَائِمِينَ بِهِ ، لَا ٱلْمُتَكَلِّفِينَ لَهُ ، ٱلْمُتَطَفِّلِينَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنْ هُمْ

(١) { هَـٰذَا كَلَامُ تَهَكُّمٍ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ } .

خَالَفُونِي قُلْتُ لَهُمْ : ٱسْأَلُوا ٱلْقِطَاطَ ؛ أَوْ لَا فَلْيَأْتُوا بِٱلْقِطَّيْنِ : ٱلسَّمِينِ وَٱلنَّحِيفِ ، فَلْيَجْمَعُوا بَيْنَهُمَا ، وَلْيُحَرِّشُوهُمَا ، ثُمَّ لِيُحْضِرُوا ٱلرُّقَبَاءَ هَـٰذَا ٱلِامْتِحَانَ ، وَلْيَكْتُبُوا عَنْهُمَا مَا يَسْمَعُونَهُ ، وَلْيَصِفُوا مِنْهُمَا مَا يَرَوْنَهُ ، فَوَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّنَانِيرَ وَٱلتَّلَامِيذَ وَٱلْمُمْتَحِنِينَ وَٱلْمُصَحِّحِينَ جَمِيعًا ـ مَا يَزِيدُ ٱلْهِرَّانِ عَلَى « نَوْ ، وَنَاوْ » ، وَلَا يَكُونُ ٱلْقَوْلُ بَيْنَهُمَا إِلَّا مِنْ هَـٰذَا ، وَلَا يَقَعُ إِلَّا مَا وَصَفْتُ ، وَمَا بُدٌّ مِنَ ٱلْمُهَارَشَةِ وَٱلْمُوَاثَبَةِ بِمَا فِي طَبِيعَةِ ٱلْقَوِيِّ وَٱلضَّعِيفِ ، ثُمَّ فِرَارِ ٱلضَّعِيفِ مَهْزُومًا ، وَيَنْتَهِي ٱلِامْتِحَانُ !

* * *

إِنَّ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْمَوْضُوعِ يُشْبِهُ تَكْلِيفَ ٱلطَّالِبِ ٱلصَّغِيرِ خَلْقَ هِرَّتَيْنِ لَا ٱلْحَدِيثَ عَنْهُمَا ؛ فَإِنَّ إِجَادَةَ ٱلْإِنْشَاءِ فِي مِثْلِ هَـٰذَا ٱلْبَابِ أُلُوهِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ تَخْلُقُ خَلْقَهَا ٱلسَّوِيَّ ٱلْجَمِيلَ نَابِضًا حَيًّا، كَأَنَّمَا وَضَعَتْ فِي ٱلْكَلَامِ قَلْبَ هِرٍّ ، أَوْ جَاءَتْ بِٱلْهِرِّ لَهُ قَلْبٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ . وَأَيْنَ هَـٰذَا مِنَ ٱلْأَطْفَالِ فِي ٱلْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَٱلثَّانِيَةَ عَشْرَةَ وَمَا حَوْلَهُمَا ؛ وَكَيْفَ لَهُمْ فِي هَـٰذِهِ ٱلسِّنِّ أَنْ يَمْتَزِجُوا بِدَقَائِقِ ٱلْوُجُودِ ، وَيُدَاخِلُوا أَسْرَارَ ٱلْخَلِيقَةِ ، وَيُصْبِحُوا مَعَ كُلِّ شَيْءٍ رَهْنًا بِعِلَلِهِ ، وَعِنْدَ كُلِّ حَقِيقَةٍ مَوْقُوفِينَ عَلَىٰ أَسْبَابِهَا ؟ وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ مِنْ قَبْلُ فِي ٱلسَّنَوَاتِ ٱلْخَالِيَةِ : « كُنْ زَهْرَةً وَصِفْ . وَٱجْعَلْ نَفْسَكَ حَبَّةَ قَمْحٍ وَقُلْ » . وَإِنَّمَا هَـٰذَا وَنَحْوُهُ غَايَةٌ مِنْ أَبْعَدِ غَايَاتِ ٱلنُّبُوَّةِ أَوِ ٱلْحِكْمَةِ ؛ إِذِ ٱلنَّبِيُّ تَعْبِيرٌ إِلَـٰهِيٌّ تَتَّخِذُهُ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلْكَامِلَةُ لِتَنْطِقَ بِهِ كَلِمَتَهَا ٱلَّتِي تُسَمَّىٰ ٱلشَّرِيعَةَ ، وَٱلْحَكِيمُ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلتَّعْبِيرِ ، تَتَّخِذُهُ تِلْكَ ٱلْحَقِيقَةُ لِتُلْقِيَ مِنْهُ ٱلْكَلِمَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّىٰ ٱلْفَنَّ .

وَقَدْ كَانَ فِي ٱلْقَدِيمِ ٱمْتِحَانٌ مِثْلُ هَـٰذَا ، لَمْ يَنْجَحْ فِيهِ إِلَّا وَاحِدٌ فَقَطْ مِنَ آلَافٍ كَثِيرَةٍ ؛ وَكَانَ ٱلْمُمْتَحِنُ هُوَ ٱللهُ جَلَّ جَلَالُهُ ؛ وَٱلْمَوْضُوعُ حَدِيثُ ٱلنَّمْلَةِ مَعَ ٱلنَّمْلِ ؛ وَٱلنَّاجِحُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ . [٢٧ سورة النمل/ الآيتان : ١٨ و١٩] .

إِنَّ ٱلْكَوْنَ كُلَّهُ مُسْتَقِرٌّ بِمَعَانِيهِ ٱلرَّمْزِيَّةِ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلْكَامِلَةِ ؛ إِذْ كَانَتِ ٱلرُّوحُ فِي ذَاتِهَا نُورًا ، وَكَانَ سِرُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ ٱلنُّورِ ، وَٱلشُّعَاعُ يَجْرِي فِي ٱلشُّعَاعِ كَمَا يَجْرِي ٱلْمَاءُ فِي ٱلْمَاءِ ، وَفِي ٱمْتِزَاجِ ٱلْأَشِعَّةِ مِنَ ٱلنَّفْسِ وَٱلْمَادَّةِ تَجَاوُبٌ رُوحَانِيٌّ هُوَ بِذَاتِهِ تَعْبِيرٌ فِي ٱلْبَصِيرَةِ

وَإِدْرَاكٌ فِي ٱلذِّهْنِ ، وَهُوَ أَسَاسُ ٱلْفَنِّ عَلَىٰ ٱخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ : فِي ٱلْكَلِمَةِ وَٱلصُّورَةِ ، وَٱلْمِثَالِ وَٱلنَّغْمَةِ ؛ أَيْ : ٱلْكِتَابَةِ وَٱلشِّعْرِ وَٱلتَّصْوِيرِ وَٱلْحَفْرِ وَٱلْمُوسِيقِي .

وَمِنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ ٱلْبَيَانُ ٱلْعَالِي أَتَمَّ إِشْرَاقًا إِلَّا بِتَمَامِ ٱلنَّفْسِ ٱلْبَلِيغَةِ فِي فَضِيلَتِهَا أَوْ رَذِيلَتِهَا عَلَىٰ ٱلسَّوَاءِ ؛ فَإِنَّ مِنْ عَجَائِبِ ٱلسُّخْرِيَةِ بِهَـٰذَا ٱلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ تَمَامُ ٱلرَّذِيلَةِ فِي أَثَرِهِ عَلَىٰ ٱلْعَمَلِ ٱلْفَنِّيِّ ، هُوَ ٱلْوَجْهَ ٱلآخَرَ لِتَمَامِ ٱلْفَضِيلَةِ فِي أَثَرِهِ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْعَمَلِ ؛ وَٱلنُّقْطَةُ ٱلَّتِي يَنْتَهِي فِيهَا ٱلْعُلُوُّ مِنْ مُحِيطِ ٱلدَّائِرَةِ هِيَ بِعَيْنِهَا ٱلَّتِي يَبْدَأُ مِنْهَا ٱلانْحِدَارُ إِلَىٰ ٱلسُّفْلِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ ٱلْفُنُونُ لَا تُعْتَبَرُ بِٱلأَخْلَاقِ ، حَتَّىٰ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إِنَّ ٱلدِّينَ عَنِ ٱلشِّعْرِ بِمَعْزِلٍ . فَٱلأَصْلُ هُنَاكَ سُمُوُّ ٱلتَّعْبِيرِ وَجَمَالُهُ ، وَبَلَاغَةُ ٱلأَدَاءِ وَرَوْعَتُهَا ؛ وَلَا يَكُونُ ٱلسُّؤَالُ ٱلْفَنِّيُّ مَا هِيَ قِيمَةُ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ ، وَلَـٰكِنْ مَا طَرِيقَتُهَا ٱلْفَنِّيَّةُ ؟ وَأَيُّ عَجِيبٍ فِي ذَلِكَ ؟ أَلَيْسَ لِجَهَنَّمَ حَقٌّ فِي كِبَارِ أَهْلِ ٱلْفَنِّ ، كَمَا لِلْجَنَّةِ حَقٌّ فِي نَوَابِغِهِ ؟ وَإِذَا قَالَتِ ٱلْجَنَّةُ : هَـٰذِهِ فَضَائِلِي ٱلْبَلِيغَةُ . أَفَلَا تَقُولُ ٱلْجَحِيمُ : وَهَـٰذِهِ بَلَاغَةُ رَذَائِلِي ؟ وَكَيْفَ لَعَمْرِي يَسْتَطِيعُ إِبْلِيسُ أَنْ يُؤَدِّيَ عَمَلَهُ ٱلْفَنِّيَّ . . . وَيُصَوِّرَ بَلَاغَتَهُ ٱلْعَالِيَةَ إِلَّا فِي سَاقِطِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفِكْرِ ٱلْجَمِيلِ ، وَسَاقِطَاتٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْجِسْمِ ٱلْجَمِيلِ . . . ؟

* * *

لَقَدْ بَعُدْنَا عَنِ ٱلْقِطَّيْنِ ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُبَ مِنْ حَدِيثِهِمَا وَخَبَرِهِمَا .

كَانَ ٱلْقِطُّ ٱلْهَزِيلُ مُرَابِطًا فِي زُقَاقٍ ، وَقَدْ طَارَدَ فَأْرَةً فَٱنْجَحَرَتْ فِي شَقٍّ ، فَوَقَفَ ٱلْمِسْكِينُ يَتَرَبَّصُ بِهَا أَنْ تَخْرُجَ ، وَيُؤَامِرُ نَفْسَهُ كَيْفَ يُعَالِجُهَا فَيَبْتَزُّهَا ، وَمَا عَقْلُ ٱلْحَيَوَانِ إِلَّا مِنْ حِرْفَةِ عَيْشِهِ لَا مِنْ غَيْرِهَا . وَكَانَ ٱلْقِطُّ ٱلسَّمِينُ قَدْ خَرَجَ مِنْ دَارِ أَصْحَابِهِ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنْ يَكُونَ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ كَٱلْقِطَطَةِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ ، لَا كَأَطْفَالِ ٱلنَّاسِ مَعَ أَهْلِيهِمْ وَذَوِي عِنَايَتِهِمْ ، وَأَبْصَرَ ٱلْهَزِيلَ مِنْ بَعِيدٍ فَأَقْبَلَ يَمْشِي نَحْوَهُ ، وَرَآهُ ٱلْهَزِيلُ وَجَعَلَ يَتَأَمَّلُهُ وَهُوَ يَتَخَلَّعُ تَخَلُّعَ ٱلأَسَدِ فِي مِشْيَتِهِ ، وَقَدْ مَلأَ جِلْدَتَهُ مِنْ كُلِّ أَقْطَارِهَا وَنَوَاحِيهَا ، وَبَسَطَتْهُ ٱلنِّعْمَةُ مِنْ أَطْرَافِهِ ، وَٱنْقَلَبَتْ فِي لَحْمِهِ غِلَظًا ، وَفِي عَصَبِهِ شِدَّةً ، وَفِي شَعْرِهِ بَرِيقًا ، وَهُوَ يَمُوجُ فِي بَدَنِهِ مِنْ قُوَّةٍ وَعَافِيَةٍ ، وَيَكَادُ إِهَابُهُ يَنْشَقُّ سِمَنًا وَكِدْنَةً . فَٱنْكَسَرَتْ نَفْسُ ٱلْهَزِيلِ ، وَدَخَلَتْهُ ٱلْحَسْرَةُ ، وَتَضَعْضَعَ لِمَرْأَىٰ هَـٰذِهِ ٱلنِّعْمَةِ مَرِحَةً مُخْتَالَةً . وَأَقْبَلَ

ٱلسَّمِينُ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَيْهِ ، وَأَدْرَكَتْهُ ٱلرَّحْمَةُ لَهُ ، إِذْ رَآهُ نَحِيفًا مُتَقَبِّضًا ، طَاوِيَ ٱلْبَطْنِ ، بَارِزَ ٱلأَضْلَاعِ ، كَأَنَّمَا هَمَّتْ عِظَامُهُ أَنْ تَتْرُكَ مَسْكَنَهَا مِنْ جِلْدِهِ لِتَجِدَ لَهَا مَأْوَىٰ آخَرَ .

فَقَالَ لَهُ : مَاذَا بِكَ ، وَمَالِي أَرَاكَ مُتَيَبِّسًا كَٱلْمَيْتِ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ أَنَّكَ لَمْ تَمُتْ ، وَمَالَكَ أُعْطِيتَ ٱلْحَيَاةَ غَيْرَ أَنَّكَ لَمْ تَحْيَ ، أَوَلَيْسَ ٱلْهِرُّ مِنَّا صُورَةً مُخْتَزَلَةً مِنَ ٱلأَسَدِ ، فَمَا لَكَ ـ وَيْحَكَ ـ رَجَعْتَ صُورَةً مُخْتَزَلَةً مِنَ ٱلْهِرِّ ؛ أَفَلَا يَسْقُونَكَ ٱللَّبَنَ ، وَيُطْعِمُونَكَ ٱلشَّحْمَةَ وَٱللَّحْمَةَ ، وَيَأْتُونَكَ بِٱلسَّمَكِ ، وَيَقْطَعُونَ لَكَ مِنَ ٱلْجُبْنِ أَبْيَضَ وَأَصْفَرَ ، وَيَفُتُّونَ لَكَ ٱلْخُبْزَ فِي ٱلْمَرَقِ ، وَيُؤْثِرُكَ ٱلطِّفْلُ بِبَعْضِ طَعَامِهِ ، وَتُدَلِّلُكَ ٱلْفَتَاةُ عَلَىٰ صَدْرِهَا ، وَتَمْسَحُكَ ٱلْمَرْأَةُ بِيَدَيْهَا ، وَيَتَنَاوَلُكَ ٱلرَّجُلُ كَمَا يَتَنَاوَلُ ٱبْنَهُ . . . ؟ وَمَا لِجِلْدِكَ هَـٰذَا مُغْبَرًّا كَأَنَّكَ لَا تَلْطَعُهُ بِلُعَابِكَ ، وَلَا تَتَعَهَّدُهُ بِتَنْظِيفٍ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَرَ قَطُّ فَتًى أَوْ فَتَاةً يُجْرِي ٱلدِّهَانَ بَرِيقًا فِي شَعْرِهِ أَوْ شَعْرِهَا ، فَتُحَاوِلُ أَنْ تَصْنَعَ بِلُعَابِكَ لِشَعْرِكَ صَنِيعَهُمَا ؛ وَأَرَاكَ مُتَزَايِلَ ٱلأَعْضَاءِ مُتَفَكِّكًا حَتَّىٰ ضَعُفْتَ وَجَهِدْتَ ، كَأَنَّهُ لَا يَرْكَبُكَ مِنْ حُبِّ ٱلنَّوْمِ عَلَىٰ قَدْرٍ مِنْ كَسَلِكَ وَرَاحَتِكَ ، وَلَا يَرْكَبُكَ مِنْ حُبِّ ٱلْكَسَلِ عَلَىٰ قَدْرٍ مِنْ نَعِيمِكَ وَرَفَاهَتِكَ ، وَكَأَنَّ جَنْبَيْكَ لَمْ يَعْرِفَا طِنْفِسَةً وَلَا حَشِيَّةً وَلَا وِسَادَةً وَلَا بِسَاطًا وَلَا طِرَازًا ، وَمَا أَشْبَهَكَ بِأَسَدٍ أَهْلَكَهُ أَلَّا يَجِدَ إِلَّا ٱلْعُشْبَ ٱلأَخْضَرَ وَٱلْهَشِيمَ ٱلْيَابِسَ ، فَمَا لَهُ لَحْمٌ يَجِيءُ مِنْ لَحْمٍ ، وَلَا دَمٌ يَكُونُ مِنْ دَمٍ ، وَٱنْحَطَّ فِيهِ جِسْمُ ٱلأَسَدِ ، وَسَكَنَتْ فِيهِ رُوحُ ٱلْحِمَارِ !

قَالَ ٱلْهَزِيلُ : وَإِنَّ لَكَ لَحْمَةً وَشَحْمَةً ، وَلَبَنًا وَسَمَكًا ، وَجُبْنًا وَفُتَاتًا ، وَإِنَّكَ لَتَقْضِي يَوْمَكَ تَلْطَعُ جِلْدَكَ مَاسِحًا وَغَاسِلًا ، أَوْ تَتَطَرَّحُ عَلَىٰ ٱلْوَسَائِدِ وَٱلطَّنَافِسِ نَائِمًا وَمُتَمَدِّدًا ؟ أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ جَاءَتْكَ ٱلنِّعْمَةُ وَٱلْبَلَادَةُ مَعًا ، وَصَلُحَتْ لَكَ ٱلْحَيَاةُ وَفَسَدَتْ مِنْكَ ٱلْغَرِيزَةُ ، وَأَحْكَمَتْ طَبْعًا وَنَقَضَتْ طِبَاعًا ، وَرَبِحْتَ شِبَعًا وَخَسِرْتَ لَذَّةً ، عَطَفُوا عَلَيْكَ وَأَفْقَدُوكَ أَنْ تَعْطِفَ عَلَىٰ نَفْسِكَ ، وَحَمَلُوكَ وَأَعْجَزُوكَ أَنْ تَسْتَقِلَّ ، وَقَدْ صِرْتَ مَعَهُمْ كَٱلدَّجَاجَةِ تُسَمَّنُ لِتُذْبَحَ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَذْبَحُونَكَ دَلَالًا وَمَلَالًا .

إِنَّكَ لَتَأْكُلُ مِنْ خِوَانِ أَصْحَابِكَ ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَأْكُلُونَ ، وَتَطْمَعُ فِي مُؤَاكَلَتِهِمْ ، فَتَشْبَعُ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْبَطْنِ وَٱلرَّغْبَةِ ثُمَّ لَا شَيْءَ غَيْرُ هَـٰذَا ، وَكَأَنَّكَ مُرْتَبَطٌ بِحِبَالٍ مِنَ ٱللَّحْمِ تَأْكُلُ مِنْهَا وَتَحْتَبِسُ فِيهَا .

إِنْ كَانَ أَوَّلُ مَا فِي ٱلْحَيَاةِ أَنْ تَأْكُلَ فَأَهْوَنُ مَا فِي ٱلْحَيَاةِ أَنْ تَأْكُلَ ، وَمَا يَقْتُلُكَ شَيْءٌ كَٱسْتِوَاءِ ٱلْحَالِ ، وَلَا يُحْيِيكَ شَيْءٌ كَتَفَاوُتِهَا ؛ وَٱلْبَطْنُ لَا يَتَجَاوَزُ ٱلْبَطْنَ ، وَلَذَّتُهُ لَذَّتُهُ وَحْدَهَا ، وَلَـٰكِنْ أَيْنَ أَنْتَ عَنْ إِرْثِكَ مِنْ أَسْلَافِكَ ، وَعَنِ ٱلْعِلَلِ ٱلْبَاطِنَةِ ٱلَّتِي تُحَرِّكُنَا إِلَىٰ لَذَّاتِ أَعْضَائِنَا ، وَمَتَاعِ أَرْوَاحِنَا ، وَتَهَبُنَا مِنْ كُلِّ ذَٰلِكَ وُجُودَنَا ٱلْأَكْبَرَ ، وَتَجْعَلُنَا نَعِيشُ مِنْ قِبَلِ ٱلْجِسْمِ كُلِّهِ ، لَا مِنْ قِبَلِ ٱلْمَعِدَةِ وَحْدَهَا ؟

قَالَ ٱلسَّمِينُ : تَٱللهِ لَقَدْ أَكْسَبَكَ ٱلْفَقْرُ حِكْمَةً وَحَيَاةً ، وَأَرَانِي بِإِزَائِكَ مَعْدُومًا بِزَوَالِ أَسْلَافِي مِنِّي ، وَأَرَاكَ بِإِزَائِي مَوْجُودًا بِوُجُودِ أَسْلَافِكَ فِيكَ . نَاشَدْتُكَ ٱللهَ إِلَّا مَا وَصَفْتَ لِي هَـٰذِهِ ٱللَّذَّاتِ ٱلَّتِي تَعْلُو بِٱلْحَيَاةِ عَنْ مَرْتَبَةِ ٱلْوُجُودِ ٱلْأَصْغَرِ مِنَ ٱلشِّبَعِ ، وَتَسْتَطِيلُ بِهَا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ ٱلْوُجُودِ ٱلْأَكْبَرِ مِنَ ٱلرِّضَىٰ ؟

فَقَالَ ٱلْهَزِيلُ : إِنَّكَ ضَخْمٌ وَلَـٰكِنَّكَ أَبْلَهُ ، أَمَا عَلِمْتَ ـ وَيْحَكَ ـ أَنَّ ٱلْمِحْنَةَ فِي ٱلْعَيْشِ هِيَ فِكْرَةٌ وَقُوَّةٌ ، وَأَنَّ ٱلْفِكْرَةَ وَٱلْقُوَّةَ هُمَا لَذَّةٌ وَمَنْفَعَةٌ ، وَأَنَّ لَهْفَةَ ٱلْحِرْمَانِ هِيَ ٱلَّتِي تَضَعُ فِي ٱلْكَسْبِ لَذَّةَ ٱلْكَسْبِ ، وَسُعَارَ ٱلْجُوعِ هُوَ ٱلَّذِي يَجْعَلُ فِي ٱلطَّعَامِ مِنَ ٱلْمَادَّةِ طَعَامًا آخَرَ مِنَ ٱلرُّوحِ ، وَأَنَّ مَا عُدِلَ بِهِ عَنْكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا لَا تُعَوِّضُكَ مِنْهُ ٱلشَّحْمَةُ وَٱللَّحْمَةُ ، فَإِنَّ رَغَبَاتِنَا لَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَجُوعَ وَتَغْتَذِيَ كَمَا لَا بُدَّ مِنْ مِثْلِ ذَٰلِكَ لِبُطُونِنَا ، لِيُوجَدَ كُلٌّ مِنْهُمَا حَيَاتَهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ؛ وَٱلْأُمُورُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ كَهَـٰذِهِ ٱلَّتِي أَنْتَ فِيهَا هِيَ لِلْحَيَاةِ أَمْرَاضٌ مُطْمَئِنَّةٌ ، فَإِنْ لَمْ تَنْقُصْ مِنْ لَذَّتِهَا فَهِيَ لَنْ تَزِيدَ فِي لَذَّتِهَا ، وَلَـٰكِنْ مُكَابَدَةُ ٱلْحَيَاةِ زِيَادَةٌ فِي ٱلْحَيَاةِ نَفْسِهَا .

وَسِرُّ ٱلسَّعَادَةِ أَنْ تَكُونَ فِيكَ ٱلْقُوَىٰ ٱلدَّاخِلِيَّةُ ٱلَّتِي تَجْعَلُ ٱلْأَحْسَنَ أَحْسَنَ مِمَّا يَكُونُ ، وَتَمْنَعُ ٱلْأَسْوَأَ أَنْ يَكُونَ أَسْوَأَ مِمَّا هُوَ ، وَكَيْفَ لَكَ بِهَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ وَأَنْتَ وَادِعٌ قَارٌّ مَحْصُورٌ مِنَ ٱلدُّنْيَا بَيْنَ ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَرْجُلِ ؟ إِنَّكَ كَٱلْأَسَدِ فِي ٱلْقَفَصِ ، صَغُرَتْ أَجَمَتُهُ وَلَمْ تَزَلْ تَصْغُرُ حَتَّىٰ رَجَعَتْ قَفَصًا يَحُدُّهُ وَيَحْبِسُهُ ، فَصَغُرَ هُوَ وَلَمْ يَزَلْ يَصْغُرُ حَتَّىٰ أَصْبَحَ حَرَكَةً فِي جِلْدٍ ؛ أَمَّا أَنَا فَأَسَدٌ عَلَىٰ مَخَالِبِي وَوَرَاءَ أَنْيَابِي ، وَغَيْضَتِي أَبَدًا تَتَّسِعُ وَلَا تَزَالُ تَتَّسِعُ أَبَدًا ، وَإِنَّ ٱلْحُرِّيَّةَ لَتَجْعَلُنِي أَتَشَمَّمُ مِنَ ٱلْهَوَاءِ لَذَّةً مِثْلَ لَذَّةِ ٱلطَّعَامِ ، وَأَسْتَرْوِحُ مِنَ ٱلتُّرَابِ لَذَّةً كَلَذَّةِ ٱللَّحْمِ ، وَمَا ٱلشَّقَاءُ إِلَّا خَلَّتَانِ مِنْ خِلَالِ ٱلنَّفْسِ : أَمَّا وَاحِدَةٌ فَأَنْ يَكُونَ فِي شَرَهِكَ مَا يَجْعَلُ ٱلْكَثِيرَ قَلِيلًا ، وَهَـٰذِهِ لَيْسَتْ لِمِثْلِي مَا دُمْتُ عَلَىٰ حَدِّ ٱلْكَفَافِ مِنَ ٱلْعَيْشِ ؛ وَأَمَّا ٱلثَّانِيَةُ فَأَنْ

يَكُونَ فِي طَمَعِكَ مَا يَجْعَلُ ٱلْقَلِيلَ غَيْرَ قَلِيلٍ ، وَهَـٰذِهِ لَيْسَ لَهَا مِثْلِي مَا دُمْتُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ٱلْحَدِّ مِنَ ٱلْكَفَافِ ، وَٱلسَّعَادَةُ وَٱلشَّقَاءُ كَٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ ، كُلُّهَا مِنْ قِبَلِ ٱلذَّاتِ ، لَا مِنْ قِبَلِ ٱلْأَسْبَابِ وَٱلْعِلَلِ ، فَمَنْ جَارَاهَا سَعِدَ بِهَا ، وَمَنْ عَكَسَهَا عَنْ مَجْرَاهَا فَبِهَا يَشْقَىٰ .

وَلَقَدْ كُنْتُ ٱلسَّاعَةَ أَخْتِلُ فَأْرَةً ٱنْجَحَرَتْ فِي هَـٰذَا ٱلشَّقِّ ، فَطَعِمْتُ مِنْهَا لَذَّةً وَإِنْ لَمْ أَطْعَمْ لَحْمًا ، وَبِٱلْأَمْسِ رَمَانِي طِفْلٌ خَبِيثٌ بِحَجَرٍ يُرِيدُ عَقْرِي فَأَحْدَثَ لِي وَجَعًا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْوَجَعَ أَحْدَثَ لِي ٱلِاحْتِرَاسَ ، وَسَأَغْشَىٰ ٱلْآنَ هَـٰذِهِ ٱلدَّارَ ٱلَّتِي بِإِزَائِنَا ، فَأَيَّةُ لَذَّةٍ فِي ٱلسَّلَّةِ وَٱلْخَطْفَةِ وَٱلِاسْتِرَاقِ وَٱلِانْتِهَابِ ثُمَّ ٱلْوَثْبِ شَدًّا بَعْدَ ذَٰلِكَ ؟ هَلْ ذُقْتَ أَنْتَ بِرُوحِكَ لَذَّةَ ٱلْفُرْصَةِ وَٱلنُّهْزَةِ ، أَوْ وَجَدْتَ فِي قَلْبِكَ رَاحَةَ ٱلْمُخَالَسَةِ وَٱسْتِرَاقِ ٱلْغَفْلَةِ مِنْ فَأْرَةٍ أَوْ جُرَذٍ ، أَوْ أَدْرَكْتَ يَوْمًا فَرْحَةَ ٱلنَّجَاةِ بَعْدَ ٱلرَّوَغَانِ مِنْ عَابِثٍ أَوْ بَاغٍ أَوْ ظَالِمٍ ؟ وَهَلْ نَالَتْكَ لَذَّةُ ٱلظَّفَرِ حِينَ هَوَّلَكَ طِفْلٌ بِٱلضَّرْبِ ، فَهَوَّلْتَهُ أَنْتَ بِٱلْعَضِّ وَٱلْعَقْرِ ، فَفَرَّ عَنْكَ مُنْهَزِمًا لَا يَلْوِي ؟

قَالَ ٱلسَّمِينُ : وَفِي ٱلدُّنْيَا هَـٰذِهِ ٱللَّذَّاتُ كُلُّهَا وَأَنَا لَا أَدْرِي ؟ هَلُمَّ أَتَوَحَّشْ مَعَكَ ، لِيَكُونَ لِي مِثْلُ نُكْرِكَ وَدَهَائِكَ وَٱحْتِيَالِكَ ، فَيَكُونَ لِي مِثْلُ رَاحَتِكَ ٱلْمَكْدُودَةِ ، وَلَذَّتِكَ ٱلْمُتْعَبَةِ ، وَعُمْرِكَ ٱلْمَحْكُومِ عَلَيْهِ مِنْكَ وَحْدَكَ . وَسَأَتَصَدَّىٰ مَعَكَ لِلرِّزْقِ أُطَارِدُهُ وَأُوَاثِبُهُ ، وَأُغَادِيهِ وَأُرَاوِحُهُ وَ . . . فَقَطَعَ عَلَيْهِ ٱلْهَزِيلُ وَقَالَ :

يَا صَاحِبِي ! إِنَّ عَلَيْكَ مِنْ لَحْمِكَ وَنِعْمَتِكَ عَلَامَةَ أَسْرِكَ ، فَلَا يَلْقَانَا أَوَّلُ طِفْلٍ إِلَّا أَهْوَىٰ لَكَ فَأَخَذَكَ أَسِيرًا ، وَأَهْوَىٰ عَلَيَّ بِٱلضَّرْبِ لِأَنْطَلِقَ حُرًّا ، فَأَنْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ بَلَاءٌ ، وَأَنْتَ بِنَفْسِكَ بَلَاءٌ عَلَيَّ .

وَكَانَتِ ٱلْفَأْرَةُ ٱلَّتِي ٱنْجَحَرَتْ قَدْ رَأَتْ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمَا ، فَسَرَّهَا ٱشْتِغَالُ ٱلشَّرِّ بِٱلشَّرِّ . . . وَطَالَتْ مُرَاقَبَتُهَا لَهُمَا حَتَّىٰ ظَنَّتِ ٱلْفُرْصَةَ مُمْكِنَةً ، فَوَثَبَتْ وَثْبَةَ مَنْ يَنْجُو بِحَيَاتِهِ ، وَدَخَلَتْ فِي بَابٍ مَفْتُوحٍ ، وَلَمَحَهَا ٱلْهَزِيلُ ، كَمَا تَلْمَحُ ٱلْعَيْنُ بَرْقًا أَوْمَضَ وَٱنْطَفَأَ ، فَقَالَ لِلسَّمِينِ : ٱذْهَبْ رَاشِدًا ، فَحَسْبُكَ ٱلْآنَ مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ بِنَفْسِكَ وَمَوْضِعِهَا مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، أَنَّ ٱلْوُقُوفَ مَعَكَ سَاعَةً هُوَ ضَيَاعُ رِزْقٍ ، وَكَذَٰلِكَ أَمْثَالُكَ فِي ٱلدُّنْيَا ، هُمْ بِأَلْفَاظِهِمْ فِي ٱلْأَعْلَىٰ وَبِمَعَانِيهِمْ فِي ٱلْأَسْفَلِ . . .

مصطفى صادق الرافعي

بَيْنَ خَرُوفَيْنِ (*)

« ٱجْتَمَعَ لَيْلَةَ ٱلْأَضْحَىٰ خَرُوفَانِ مِنْ أَضَاحِيِّ ٱلْعِيدِ ، فَتَكَلَّمَا ؛ فَمَاذَا يَقُولَانِ ؟ » .

هَـٰذَا هُوَ ٱلْمَوْضُوعُ ٱلَّذِي ٱسْتَخْرَجَهُ لِي أَصْغَرُ أَوْلَادِي ٱلْأُسْتَاذُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ، وَسَأَلَنِي أَنْ أَكْتُبَ فِيهِ لِلرِّسَالَةِ ، وَهُوَ أَصْغَرُ قُرَّائِهَا سِنًّا ، تَرِفُّ عَلَيْهِ ٱلنَّسَمَةُ ٱلثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ رَبِيعِ حَيَاتِهِ ـ بَارَكَ ٱللهُ لَهُ فِيهَا حَاضِرَةً وَمُقْبِلَةً .

وَلِأُسْتَاذِنَا هَـٰذَا كَلِمَةٌ هِيَ شِعَارُهُ ٱلْخَاصُّ بِهِ فِي ٱلْحَيَاةِ ، يَحْفَظُهَا لِتَحْفَظَهُ ، فَلَا يَمِيلُ عَنْ مَدْرَجَتِهَا ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ مَعْنَاهَا ؛ وَهِيَ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ : « كَٱلْفَرَسِ ٱلْكَرِيمِ فِي مَيْعَةِ حُضْرِهِ[1] ، كُلَّمَا ذَهَبَ مِنْهُ شَوْطٌ جَاءَ شَوْطٌ » . فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ هَـٰذَا أَنَّ كَرَمَ ٱلْأَصْلِ فِي كَرَمِ ٱلْفِعْلِ ، وَلَا يُغْنِي شَيْءٌ مِنْهُمَا عَنْ شَيْءٍ ؛ وَأَنَّ ٱلدَّمَ ٱلْحُرَّ ٱلْكَرِيمَ يَكُونُ مُضَاعَفَ ٱلْقُوَّةِ بِطَبِيعَتِهِ ، عَظِيمَ ٱلْأَمَلِ بِهَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ ٱلْمُضَاعَفَةِ ، نَزَّاعًا إِلَىٰ ٱلسَّبْقِ بِمِقْدَارِ أَمَلِهِ ٱلْعَظِيمِ ، مُتَرَفِّعًا عَنِ ٱلضَّعْفِ وَٱلْهُوَيْنَا بِهَـٰذَا ٱلنُّزُوعِ ، مُتَمَيِّزًا فِي نُبُوغِ عَمَلِهِ وَإِبْدَاعِهِ بِٱجْتِمَاعِ هَـٰذِهِ ٱلْخِصَالِ فِيهِ عَلَىٰ أَتَمِّهَا وَأَحْسَنِهَا . فَمِنْ ثَمَّ لَا يَرْمِي ٱلْحُرُّ ٱلْكَرِيمُ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَ ٱلْأَمَدَ ٱلْأَبْعَدَ فِي كُلِّ مَا يُحَاوِلُهُ ، فَلَا يَأْلُو أَنْ يَبْذُلَ جُهْدَهُ إِلَىٰ غَايَةِ ٱلطَّاقَةِ وَمَبْلَغِ ٱلْقُدْرَةِ ، مُسْتَمِدًّا قُوَّةً بَعْدَ قُوَّةٍ ، مُحَقِّقًا ٱلسِّحْرَ ٱلْقَادِرَ ٱلَّذِي فِي نَفْسِهِ ، مُتَلَقِّيًا مِنْهُ وَسَائِلَ ٱلْإِعْجَازِ فِي أَعْمَالِهِ ، مُرْسِلًا فِي نُبُوغِهِ مِنْ تَوَهُّجِ دَمِهِ أَضْوَاءً كَأَضْوَاءِ ٱلنَّجْمِ ، تُثْبِتُ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ أَنَّهُ ٱلنَّجْمُ لَا شَيْءَ آخَرَ .

وَلَمَّا قَدَّمَ إِلَيَّ ٱلْأُسْتَاذُ مَوْضُوعَهُ فِي هَـٰذَا ٱلْوَزْنِ ٱلْمَدْرَسِيِّ ـ وَأَظُنُّهُ قَدْ نَزَعَتْهُ حَاجَةٌ مَدْرَسِيَّةٌ إِلَيْهِ ـ قُلْتُ : حُبًّا وَكَرَامَةً . وَهَأَنَذَا أَكْتُبُهُ مُنْبَعِثًا فِيهِ « كَٱلْفَرَسِ ٱلْكَرِيمِ فِي مَيْعَةِ حُضْرِهِ » . . . وَلَعَلَّ ٱلْأُسْتَاذَ حِينَ يَقْرَؤُهُ لَا يُؤَوِّرُ فِيهِ عَلَامَاتٍ كَثِيرَةً بِقَلَمِهِ ٱلْأَحْمَرِ . . . !

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ٩٠ ، ٢٠ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٥ مارس/آذار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٤٤٣ ـ ٤٤٧ .

(١) هَـٰذَا كَمَا يُقَالُ بِٱلْعَامِّيَّةِ : فِي عِزِّ جَرْيِهِ .

ٱجْتَمَعَ لَيْلَةَ ٱلْأَضْحَىٰ خَرُوفَانِ مِنَ ٱلْأَضَاحِيِّ فِي دَارِنَا : أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَبْشٌ أَقْرَنُ ، يَحْمِلُ عَلَىٰ رَأْسِهِ مِنْ قَرْنَيْهِ ٱلْعَظِيمَيْنِ شَجَرَةَ ٱلسِّنِينِ ، وَقَدِ ٱنْتَهَىٰ سِمَنُهُ حَتَّىٰ ضَاقَ جِلْدُهُ بِلَحْمِهِ ، وَسَحَّ بَدَنُهُ بِٱلشَّحْمِ سَحًّا ، فَإِذَا تَحَرَّكَ خِلْتَهُ سَحَابَةً يَضْطَرِبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَيَهْتَزُّ شَيْءٌ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ؛ وَلَهُ وَافِرَةٌ[1] يَجُرُّهَا خَلْفَهُ جَرًّا ، فَإِذَا رَأَيْتَهَا مِنْ بَعِيدٍ حَسِبْتَهَا حَمَلًا يَتْبَعُ أَبَاهُ ؛ وَهُوَ أَصْوَفُ ، قَدْ سَبَغَ صُوفُهُ وَٱسْتَكْثَفَ وَتَرَاكَمَ عَلَيْهِ ؛ فَإِذَا مَشَىٰ تَبَخْتَرَ فِيهِ تَبَخْتُرَ ٱلْغَانِيَةِ فِي حُلَّتِهَا ، كَأَنَّمَا يَشْعُرُ مِثْلَ شُعُورِهَا أَنَّهُ يَلْبَسُ مَسَرَّاتِ جِسْمِهِ لَا ثَوْبَ جِسْمِهِ ؛ وَهُوَ مِنِ ٱجْتِمَاعِ قُوَّتِهِ وَجَبَرُوتِهِ أَشْبَهُ بِٱلْقَلْعَةِ ، يَعْلُوهَا مِنْ هَامَتِهِ كَٱلْبُرْجِ ٱلْحَرْبِيِّ فِيهِ مِدْفَعَانِ بَارِزَانِ . وَتَرَاهُ أَبَدًا مُصَعِّرًا خَدَّهُ كَأَنَّهُ أَمِيرٌ مِنَ ٱلْأَبْطَالِ ، إِذَا جَلَسَ حَيْثُ كَانَ شَعَرَ أَنَّهُ جَالِسٌ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ نَهْيِهِ وَلَا أَمْرِهِ .

وَأَمَّا ٱلْآخَرُ ، فَهُوَ جَذَعٌ فِي رَأْسِ ٱلْحَوْلِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ مَوْلِدِهِ ، لَمْ يُدْرِكْ بَعْدُ أَنْ يُضَحَّىٰ ، وَلَـٰكِنْ جِيءَ بِهِ لِلْقَرَمِ إِلَىٰ لَحْمِهِ ٱلْغَضِّ ؛ فَٱلْأَوَّلُ أُضْحِيَّةٌ وَهَـٰذَا أَكُولَةٌ ؛ وَذَاكَ يُتَصَدَّقُ بِلَحْمِهِ كُلِّهِ عَلَىٰ ٱلْفُقَرَاءِ ، وَهَـٰذَا يُتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْهِ وَيَبْقَىٰ ٱلثُّلُثُ طَعَامًا لِأَهْلِ ٱلدَّارِ .

وَكَانَ فِي لِينِهِ وَتَرَجْرُجِهِ وَظَرْفِ تَكْوِينِهِ وَمَرَحِ طَبْعِهِ ، كَأَنَّمَا يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْمَرْأَةَ آنِسَةً رَقِيقَةً مُتَوَدِّدَةً . أَمَّا ذَاكَ ٱلضَّخْمُ ٱلْعَاتِي ٱلْمُتَجَبِّرُ ٱلشَّامِخُ ، فَهُوَ صُورَةُ ٱلرَّجُلِ ٱلْوَحْشِيِّ أَخْرَجَتْهُ ٱلْغَابَةُ ٱلَّتِي تُخْرِجُ ٱلْأَسَدَ وَٱلْحَيَّةَ وَجُذُوعَ ٱلدَّوْحَةِ ٱلضَّخْمَةِ ، وَجَعَلَتْ فِيهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا شَيْئًا يُخَافُ وَيُتَّقَىٰ .

وَكَانَ ٱلْجَذَعُ يَثْغُو لَا يَنْقَطِعُ ثُغَاؤُهُ ، فَقَدْ أُخِذَ مِنْ قَطِيعِهِ ٱنْتِزَاعًا فَأَحَسَّ ٱلْوَحْشَةَ ، وَتَنَبَّهَتْ فِيهِ غَرِيزَةُ ٱلْخَوْفِ مِنَ ٱلذِّئْبِ ، فَزَادَتْهُ إِلَىٰ ٱلْوَحْشَةِ قَلَقًا وَٱضْطِرَابًا ؛ وَكَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَلِتَ ، فَهُوَ كَأَنَّمَا يَهْرُبُ فِي ٱلصَّوْتِ وَيَعْدُو فِيهِ عَدْوًا .

أَمَّا ٱلْكَبْشُ ، فَيَرَىٰ مِثْلَ هَـٰذَا مَسَبَّةً لِقَرْنَيْهِ ٱلْعَظِيمَيْنِ ، وَهُوَ إِذَا كَانَ فِي ٱلْقَطِيعِ كَانَ كَبْشَهُ وَحَامِيَهُ وَٱلْمُقَدَّمَ فِيهِ ، فَيَكُونُ ٱلْقَطِيعُ مَعَهُ وَفِي كَنَفِهِ وَلَا يَكُونُ هُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ مَعَ ٱلْقَطِيعِ ؛ فَإِذَا فَقَدَ جَمَاعَتَهُ لَمْ يَكُنْ فِي مَنْزِلَةِ ٱلْمُنْتَظِرِ أَنْ يَلْحَقَ بِغَيْرِهِ لِيَحْتَمِيَ بِهِ فَيَقْلَقَ

(١) أَلْيَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَيُقَالُ : كَبْشٌ أَلْيَانُ ، إِذَا كَانَ عَظِيمَ ٱلْأَلْيَةِ .

وَيَضْطَرِب ، وَلَـٰكِنَّهُ فِي مَنْزِلَةِ ٱلْمُرْتَقِبِ أَنْ يَلْحَقَ بِهِ غَيْرُهُ طَلَبًا لِحِمَايَتِهِ وَذِمَارِهِ ، فَهُوَ سَاكِنٌ رَابِطُ ٱلْجَأْشِ مُغْتَبِطُ ٱلنَّفْسِ ، كَأَنَّمَا يَتَصَدَّقُ بِٱلانْتِظَارِ . . .

* * *

فَلَمَّا أَدْبَرَ ٱلنَّهَارُ وَأَقْبَلَ ٱللَّيْلُ ، جِيءَ لِلْخَرُوفَيْنِ بِٱلْكَلأ مِنْ هَـٰذَا ٱلْبِرْسِيمِ يَعْتَلِفَانِهِ ، فَأَحَسَّ ٱلْكَبْشُ أَنَّ فِي ٱلْكَلأ شَيْئًا لَمْ يَدْرِ مَا هُوَ ، وَٱنْقَبَضَتْ نَفْسُهُ لِمَا كَانَتْ تَنْبَسِطُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَعَرَتْهُ كَآبَةٌ مِنْ رُوحِهِ ، كَأَنَّمَا أَدْرَكَتْ هَـٰذِهِ ٱلرُّوحُ أَنَّهُ آخِرُ رِزْقِهِ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ، فَٱنْكَسَرَ وَظَهَرَ عَلَىٰ وَجْهِهِ مَعْنَىٰ ٱلذَّبْحِ قَبْلَ أَنْ يُذْبَحَ ، وَعَافَ أَنْ يَطْعَمَ ، وَرَجَعَ كَأَوَّلِ فِطَامِهِ عَنْ أُمِّهِ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَأْكُلُ ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَكْلِهِ إِلَّا أَدْنَىٰ تَنَاوُلٍ .

وَكَأَنَّمَا جَثَمَ ٱلظَّلَامُ عَلَىٰ شَحْمِهِ وَلَحْمِهِ ؛ فَإِنَّهُ مَتَىٰ ثَقُلَ ٱلْهَمُّ عَلَىٰ نَفْسٍ مِنَ ٱلأَنْفُسِ ، ثَقُلَ عَلَىٰ سَاعَتِهَا ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ، فَتَطُولُ كَآبَتُهَا وَيَطُولُ وَقْتُهَا جَمِيعًا . . . فَأَرَادَ ٱلْكَبْشُ أَنْ يَتَفَرَّجَ مِمَّا بِهِ ، وَيُنَفِّسَ عَنْ صَدْرِهِ شَيْئًا ، وَكَانَ ٱلصَّغِيرُ قَدْ أَنِسَ إِلَىٰ ٱلْمَكَانِ وَٱلظُّلْمَةِ ، وَأَقْبَلَ يَعْتَلِفُ وَيَخْضِمُ ٱلْكَلأ ، فَقَالَ لَهُ ٱلْكَبْشُ : أَرَاكَ فَارِهًا يَا ٱبْنَ أَخِي ، كَأَنَّكَ لَا تَجِدُ مَا أَجِدُ ؛ إِنِّي وَٱللهِ أَعْلَمُ عِلْمًا لَا تَعْلَمُهُ ، وَإِنِّي لأُحِسُّ أَنَّ ٱلْقَدَرَ طَرِيقُهُ عَلَيْنَا فِي هَـٰذِهِ ٱللَّيْلَةِ ، فَهُوَ مُصْبِحُنَا مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ .

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : أَتَعْنِي ٱلذِّئْبَ ؟

قَالَ : لَيْتَهُ هُوَ ، فَأَنَا لَكَ بِهِ لَوْ أَنَّهُ ٱلذِّئْبُ ؛ إِنَّ صُوفِي هَـٰذَا دِرْعٌ مِنْ أَظَافِرِهِ ، وَهُوَ كَٱلشَّبَكَةِ يَنْشَبُ فِيهَا ٱلظُّفْرُ وَلَا يَتَخَلَّصُ ، وَمِنْ قَرْنَيَّ هَـٰذَيْنِ تُرْسٌ وَرُمْحٌ ، فَأَنَا وَاثِقٌ مِنْ إِحْرَازِ نَفْسِي فِي قِتَالِهِ[1] ، وَمَنْ أَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْ عَدُوِّهِ فَذَاكَ قَتْلُ عَدُوِّهِ ، فَإِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ فَقَدْ غَاظَهُ بِٱلْهَزِيمَةِ ، وَذَاكَ عِنْدَ ٱلأَبْطَالِ فَنٌّ مِنَ ٱلْقَتْلِ . وَهَـٰذَا ٱلْقَرْنُ ٱلْمُلْتَفُّ ٱلأَعْقَدُ ٱلْمُذَرَّبُ كَٱلسِّنَانِ ، لَا يَكَادُ يَرَاهُ ٱلذِّئْبُ حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّهُ حَاطِمَةُ عِظَامِهِ ، فَيَحْدُثُ لَهُ مِنَ ٱلْفَزَعِ مَا تَنْحَلُّ بِهِ قُوَّتُهُ ، فَمَا يُوَاثِبُنِي إِلَّا مُتَخَاذِلًا ؛ وَلَا يُقْدِمُ عَلَيَّ إِلَّا تَوَهُّمَ ٱلذِّئْبِيَّةِ لِلْخَرُوفِيَّةِ ، فَإِنَّ أَسَاسَ ٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ كِلَيْهِمَا فِي ٱلسُّوسِ وَٱلطَّبِيعَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنَ ٱلْخَرُوفِيَّةِ

(١) فِي نُسْخَةِ ٱلْعُرْيَانِ : « قَتْلِهِ » بَدَلًا مِنْ : « قِتَالِهِ » .

إِلَىٰ ٱلْجَامُوسِيَّةِ . . . ! فَمَا يُعَلِّمُهُ ذَلِكَ إِلَّا بَقْرُ بَطْنِهِ أَوِ ٱلتَّطْوِيحُ بِهِ مِنْ فَوْقِ هَـٰذَا ٱلْقَرْنِ ، أَقْذِفُهُ قَذْفَةً عَالِيَةً تُلْقِيهِ مِنْ حَالِقٍ ، فَتَدُقُّ عِظَامَهُ وَتُحَطِّمُ قَوَائِمَهُ !

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : فَمَاذَا تَخْشَىٰ بَعْدَ ٱلذِّئْبِ ؟ إِنْ كَانَتِ ٱلْعَصَا فَهِيَ إِنَّمَا تَضْرِبُ مِنْكَ ٱلصُّوفَ لَا ٱلظَّهْرَ .

قَالَ ٱلْكَبْشُ : وَيْحَكَ ! وَأَيُّ خَرُوفٍ يَخْشَىٰ ٱلْعَصَا ؟ وَهِيَ إِنَّمَا تَكُونُ عَصًا مَنْ يَعْلِفُهُ وَيَرْعَاهُ ، فَهِيَ تَنْزِلُ عَلَيْهِ كَمَا تَنْزِلُ عَلَىٰ ٱبْنِ آدَمَ أَقْدَارُ رَبِّهِ ، لَا حَطْمًا وَلَـٰكِنْ تَأْدِيبًا أَوْ إِرْشَادًا أَوْ تَهْوِيلًا ؛ وَمِنْ قَبْلِهَا ٱلنِّعْمَةُ ، وَتَكُونُ مَعَهَا ٱلنِّعْمَةُ ، وَتَجِيءُ بَعْدَهَا ٱلنِّعْمَةُ ؛ أَفَيَبْلُغُ ٱلْكُفْرُ مِنَّا مَا يَبْلُغُ كُفْرُ ٱلإِنْسَانِ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ : إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ٱنْطَلَقَ ذَا صُرَاخٍ عَرِيضٍ ؟

وَكَيْفَ تَرَانِي وَيْحَكَ أَخْشَىٰ ٱلذِّئْبَ أَوِ ٱلْعَصَا ، وَأَنَا مِنْ سُلَالَةِ ٱلْكَبْشِ ٱلأَسَدِيِّ ؟

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : وَمَا ٱلْكَبْشُ ٱلأَسَدِيُّ ، وَكَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّكَ مِنْ نَجْلِهِ ، وَلَا عِلْمَ لِيَ أَنَا إِلَّا هَـٰذَا ٱلْكَلأ وَٱلْعَلَفُ وَٱلْمَاءُ ، وَٱلْمَرَاحُ وَٱلْمَغْدَىٰ ؟

قَالَ ٱلْكَبْشُ : لَقَدْ أَدْرَكْتُ أُمِّي وَهِيَ نَعْجَةٌ قَحْمَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَأَدْرَكْتُ مَعَهَا جَدَّتِي وَقَدْ أَفْرَطَ عَلَيْهَا ٱلْكِبَرُ حَتَّىٰ ذَهَبَ فَمُهَا ، وَأَدْرَكْتُ مَعَهُمَا جَدِّي وَهُوَ كَبْشٌ هَرِمٌ مُتَقَدِّدٌ أَعْجَفُ كَأَنَّهُ عِظَامٌ مُغَطَّاةٌ ، فَعَنْ هَـٰؤُلَاءِ أَخَذْتُ وَرَوَيْتُ وَحَفِظْتُ :

حَدَّثَتْنِي أُمِّي ، عَنْ أَبِيهَا ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَتْ : إِنَّ فَخْرَ جِنْسِنَا مِنَ ٱلْغَنَمِ يَرْجِعُ إِلَىٰ كَبْشِ ٱلْفِدَاءِ ٱلَّذِي فَدَىٰ ٱللهُ بِهِ ٱسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ، وَكَانَ كَبْشًا أَبْيَضَ أَقْرَنَ أَعْيَنَ ، ٱسْمُهُ حَرِيرٌ .

قَالَ : وَٱعْلَمْ يَا ٱبْنَ أَخِي أَنَّ مِمَّا ٱنْفَرَدْتُ أَنَا بِهِ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَلَمْ يُدْرِكْهُ غَيْرِي ، أَنَّ جَدَّنَا هَـٰذَا كَانَ مَكْسُوًّا بِٱلْحَرِيرِ لَا بِٱلصُّوفِ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ حَرِيرًا . . .

قَالَتْ أُمِّي : وَٱلْمَحْفُوظُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا أَنَّ ذَاكَ هُوَ ٱلْكَبْشُ ٱلَّذِي قَرَّبَهُ هَابِيلُ حِينَ قَتَلَ أَخَاهُ ، لِتَتِمَّ ٱلْبَلِيَّةُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلأَرْضِ بِدَمِ ٱلإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ مَعًا .

قَالُوا : فَتُقُبِّلَ مِنْهُ وَأُرْسِلَ ٱلْكَبْشُ إِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ فَبَقِيَ يَرْعَىٰ فِيهَا حَتَّىٰ كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي هَمَّ

فِيهِ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَذْبَحَ ٱبْنَهُ تَحْقِيقًا لِرُؤْيَا ٱلنُّبُوَّةِ ، وَطَاعَةً لِمَا ٱبْتُلِيَ بِهِ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلِامْتِحَانِ ، وَلِيُثْبِتَ أَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ بِٱللهِ إِذَا قَوِيَ إِيمَانُهُ لَمْ يَجْزَعْ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ وَلَوْ جَرَّ ٱلسِّكِّينَ عَلَىٰ عُنُقِ ٱبْنِهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَجُزُّهَا عَلَىٰ ٱبْنِهِ وَعَلَىٰ قَلْبِهِ !

قَالَتْ : فَهَٰذَا هُوَ فَخْرُ جِنْسِنَا كُلِّهِ .

أَمَّا فَخْرُ سُلَالَتِي أَنَا ، فَذَاكَ مَا حَدَّثَتْنِي بِهِ جَدَّتِي ، تَرْوِيهِ عَنْ أَبِيهَا ، عَنْ جَدِّهَا ، وَذَاكَ حِينَ تَوَسَّمَتْ فِيَّ مَخَايِلَ ٱلْبُطُولَةِ ، وَرَجَتْ أَنْ أَحْفَظَ ٱلتَّارِيخَ . قَالَتْ : إِنَّ أَصْلَنَا مِنْ دِمَشْقَ ، وَإِنَّهُ كَانَ فِي هَٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ سَبَّاعٌ ، قَدِ ٱتَّخَذَ شِبْلَ أَسَدٍ فَرَبَّاهُ وَرَاضَهُ حَتَّىٰ كَبِرَ ، وَصَارَ يَطْلُبُ ٱلْخَيْلَ ، وَتَأَذَّىٰ بِهِ ٱلنَّاسُ ، فَقِيلَ لِلْأَمِيرِ[1] : هَٰذَا ٱلسَّبُعُ قَدْ آذَىٰ ٱلنَّاسَ ، وَٱلْخَيْلُ تَنْفِرُ مِنْهُ وَتَجِدُ مِنْ رِيحِهِ رِيحَ ٱلْمَوْتِ ، وَهُوَ مَا يَزَالُ رَابِضًا لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ عَلَىٰ سُدَّةٍ بِٱلْقُرْبِ مِنْ دَارِكَ . فَأَمَرَ فَجَاءَ بِهِ ٱلسَّبَّاعُ وَأَدْخَلَهُ إِلَىٰ ٱلْقَصْرِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِخَرُوفٍ مِمَّا ٱتُّخِذَ فِي مَطْبَخِهِ لِلذَّبْحِ ، وَأَدْخَلُوهُ إِلَىٰ قَاعَةٍ ، وَجَاءَ ٱلسَّبَّاعُ فَأَطْلَقَ ٱلْأَسَدَ عَلَيْهِ ، وَٱجْتَمَعُوا يَرَوْنَ كَيْفَ يَسْطُو بِهِ وَيَفْتَرِسُهُ .

قَالَتْ جَدَّتِي : فَحَدَّثَنِي أَبِي ، قَالَ : حَدَّثَنِي جَدُّكِ : أَنَّ ٱلسَّبَّاعَ أَطْلَقَ ٱلْأَسَدَ مِنْ سَاجُورِهِ[2] وَأَرْسَلَهُ ، فَكَانَتِ ٱلْمُعْجِزَةُ ٱلَّتِي لَمْ يَفُزْ بِهَا خَرُوفٌ وَلَمْ تُؤْثَرْ قَطُّ إِلَّا عَنْ جَدِّنَا ، فَإِنَّهُ حَسِبَ ٱلْأَسَدَ خَرُوفًا أَجَمَّ لَا قُرُونَ لَهُ ، وَرَأَىٰ دِقَّةَ خَصْرِهِ ، وَضُمُورَ جَنْبَيْهِ ، وَرَأَىٰ لَهُ ذَيْلًا كَٱلْأَلْيَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ ٱلْمَيِّتَةِ ، فَظَنَّهُ مِنْ مَهَازِيلِ ٱلْغَنَمِ ٱلَّتِي قَتَلَهَا ٱلْجَدْبُ ، وَكَانَ هُوَ شَبْعَانَ رَيَّانَ ، فَمَا كَذَّبَ أَنْ حَمَلَ عَلَىٰ ٱلْأَسَدِ وَنَطَحَهُ ، فَٱنْهَزَمَ ٱلسَّبُعُ مِمَّا أَذْهَلَهُ مِنْ هَٰذِهِ ٱلْمُفَاجَأَةِ ، وَحَسِبَ جَدَّنَا سَبُعًا قَدْ زَادَهُ ٱللهُ أَسْلِحَةً مِنْ قَرْنَيْهِ ، فَٱعْتَرَاهُ ٱلْخَوْفُ وَأَدْبَرَ لَا يَلْوِي . وَطَمِعَ جَدُّنَا فِيهِ فَٱتَّبَعَهُ ، وَمَا زَالَ يُطَارِدُهُ وَيَنْطَحُهُ ، وَٱلْأَسَدُ يَفِرُّ مِنْ وَجْهِهِ وَيَدُورُ حَوْلَ ٱلْبِرْكَةِ ، وَٱلْقَوْمُ قَدْ غَلَبَهُمُ ٱلضَّحِكُ ، وَٱلْأَمِيرُ مَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ إِعْجَابًا وَفَخْرًا

(١) هَٰذِهِ ٱلْقِصَّةُ شَهِدَهَا ٱلْأَمِيرُ ٱلْأَدِيبُ أُسَامَةُ بْنُ مُنْقِذٍ ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٥٨٤ لِلْهِجْرَةِ ، وَقَصَّهَا فِي كِتَابِهِ «ٱلِاعْتِبَارُ» [صفحة : ١٨٩] ؛ وَٱلْأَمِيرُ ٱلْمَذْكُورُ فِي ٱلْقِصَّةِ هُوَ مُعِينُ ٱلدِّينِ أُنُرُ وَزِيرُ شِهَابِ ٱلدِّينِ مَحْمُودٍ . وَقَدْ تَصَرَّفْنَا فِي عِبَارَةِ ٱلْقِصَّةِ .

(٢) ٱلسَّاجُورُ : سِلْسِلَةُ ٱلْأَسَدِ وَٱلْكَلْبِ وَنَحْوِهِمَا .

بِجَدِّنَا . فَقَالَ : هَٰذَا سَبُعٌ لَئِيمٌ ، خُذُوهُ فَأَخْرِجُوهُ ، ثُمَّ ٱذْبَحُوهُ ، ثُمَّ ٱسْلَخُوهُ . فَأُخِذَ ٱلْأَسَدُ وَذُبِحَ ، وَأُعْتِقَ جَدُّنَا مِنَ ٱلذَّبْحِ ، وَكَانَ لَنَا فِي تَارِيخِ ٱلدُّنْيَا : إِنْسَانِهَا وَحَيَوَانِهَا أَثَرَانِ عَظِيمَانِ ؛ فَجَدُّنَا ٱلْأَوَّلُ كَانَ فِدَاءً لِٱبْنِ نَبِيٍّ ، وَجَدُّنَا ٱلثَّانِي كَانَ ٱلْأَسَدُ فِدَاءَهُ !

* * *

قَالَ ٱلصَّغِيرُ لِلْكَبْشِ : قُلْتَ : ٱلذَّبْحُ ، وَٱلْفِدَاءُ مِنَ ٱلذَّبْحِ ؛ فَمَا ٱلذَّبْحُ ؟

قَالَ ٱلْكَبْشُ : هَٰذِهِ ٱلسُّنَّةُ ٱلْجَارِيَةُ بَعْدَ جَدِّنَا ٱلْأَعْظَمِ ، وَهِيَ ٱلْبَاقِيَةُ آخِرَ ٱلدَّهْرِ ؛ فَيَنْبَغِي لِكُلٍّ مِنَّا أَنْ يَكُونَ فِدَاءً لِٱبْنِ آدَمَ !

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : ٱبْنُ آدَمَ هَٰذَا ٱلَّذِي يَخْدُمُنَا وَيَحْتَزُّ لَنَا ٱلْكَلَأَ ، وَيُقَدِّمُ لَنَا ٱلْعَلَفَ ، وَيَمْشِي وَرَاءَنَا فَنَسْحَبُهُ إِلَىٰ هُنَا وَهَٰهُنَا . . . ؟ تَٱللهِ مَا أَظُنُّ ٱلدُّنْيَا إِلَّا قَدِ ٱنْقَلَبَتْ ، أَوْ لَا ، فَأَنْتَ يَا أَخَا جَدِّي . . . قَدْ كَبِرْتَ وَخَرِفْتَ !

قَالَ ٱلْكَبْشُ : وَيْحَكَ يَا أَبْلَهُ ! مَتَىٰ تَتَحَلَّلُ هَٰذِهِ ٱلْعُقْدَةُ ٱلَّتِي فِي عَقْلِكَ ؟ إِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ مَا أَعْلَمُ لَمَا ٱطْمَأَنَّتْ بِكَ ٱلْأَرْضُ ، وَلَرَجَعْتَ مِنَ ٱلْقَلَقِ وَٱلِاضْطِرَابِ كَحَبَّةِ ٱلْقَمْحِ فِي غِرْبَالٍ يَهْتَزُّ وَيَنْتَفِضُ !

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : أَتَعْنِي ذَٰلِكَ ٱلْغِرْبَالَ وَذَٰلِكَ ٱلْقَمْحَ وَمَا كَانَ فِي ٱلْقَرْيَةِ ، إِذْ تَنَاوَلَتْ رَبَّةُ ٱلدَّارِ غِرْبَالَهَا تَنْفُضُ بِهِ قَمْحَهَا ، فَغَافَلْتُهَا وَنَطَحْتُ ٱلْغِرْبَالَ فَٱنْقَلَبَ عَنْ يَدِهَا وَٱنْتَثَرَ ٱلْحَبُّ ، فَأَسْرَعْتُ فِيهِ ٱلْتِقَاطًا حَتَّىٰ مَلَأْتُ فَمِي قَبْلَ أَنْ تُزِيحَنِي ٱلْمَرْأَةُ عَنْهُ ؟

فَهَزَّ ٱلْكَبْشُ رَأْسَهُ فِعْلَ مَنْ يُرِيدُ ٱلِابْتِسَامَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ ، وَقَالَ : أَرَأَيْتَ حَانُوتَ ٱلْقَصَّابِ ، وَنَحْنُ نَمُرُّ ٱلْيَوْمَ فِي ٱلسُّوقِ ؟

قَالَ : وَمَا حَانُوتُ ٱلْقَصَّابِ ؟

قَالَ : أَرَأَيْتَ ذَٰلِكَ ٱلسَّلِيخَ مِنَ ٱلْغَنَمِ ٱلْبِيضِ ٱلْمُعَلَّقَةِ فِي تِلْكَ ٱلْمَعَالِيقِ ، لَا جِلْدَ عَلَيْهَا وَلَا صُوفَ ، وَلَيْسَ لَهَا أَرْؤُسٌ وَلَا قَوَائِمُ ؟

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : وَمَا ذَاكَ ٱلسَّلِيخُ ؟ إِنَّهُ إِنْ صَحَّ مَا حَدَّثْتَنِي بِهِ عَنْ أُمِّكَ ، فَهَٰذِهِ غَنَمُ ٱلْجَنَّةِ ، تَبِيتُ تَرْعَىٰ هُنَاكَ ثُمَّ تَجِيءُ إِلَى ٱلْأَرْضِ مَعَ ٱلصُّبْحِ ، وَإِنِّي لَمُرْتَقِبٌ شَمْسَ ٱلْغَدِ ،

لِأَذْهَبَ فَأَرَاهَا وَأَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهَا .

قَالَ : ٱسْمَعْ أَيُّهَا ٱلْأَبْلَهُ ! إِنَّ شَمْسَ ٱلْغَدِ سَتَشْعُرُ بِهَا مِنْ تَحْتِكَ لَا مِنْ فَوْقِكَ . . . ! لَقَدْ رَأَيْتُ أَخِي مُذْ كُنْتُ جَذَعًا مِثْلَكَ ؛ وَرَأَيْتُ صَاحِبَنَا ٱلَّذِي كَانَ يَعْلِفُهُ وَيُسَمِّنُهُ قَدْ أَخَذَهُ فَأَضْجَعَهُ ، فَجَثَمَ عَلَىٰ صَدْرِهِ شَرًّا مِنَ ٱلذِّئْبِ ، وَجَاءَ بِشَفْرَةٍ بَيْضَاءَ لَامِعَةٍ ، فَجَرَّهَا عَلَىٰ حَلْقِهِ ، فَإِذَا دَمُهُ يَشْخَبُ وَيَتَفَجَّرُ ، وَجَعَلَ ٱلْمِسْكِينُ يَنْتَفِضُ وَيَدْحَصُ بِرِجْلِهِ ، ثُمَّ سَكَنَ وَبَرَدَ ؛ فَقَامَ ٱلرَّجُلُ فَفَصَلَ عُنُقَهُ ، ثُمَّ نَخَسَ فِي جِلْدِهِ وَنَفَخَهُ حَتَّىٰ تَطَبَّلَ وَرَجَعَ كَٱلْقِرْبَةِ ٱلَّتِي رَأَيْتَهَا فِي ٱلْقَرْيَةِ مَمْلُوءَةً مَاءً فَحَسِبْتَهَا أُمَّكَ ؛ ثُمَّ شَقَّ فِيهِ شَقًّا طَوِيلًا . ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ بَيْنَ ٱلْجِلْدِ وَٱلصِّفَاقِ ، ثُمَّ كَشَطَهُ وَسَحَفَ ٱلشَّحْمَ عَنْ جَنْبَيْهِ ، فَعَادَ ٱلْمِسْكِينُ أَبْيَضَ لَا جِلْدَ لَهُ وَلَا صُوفَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ بَقَرَ بَطْنَهُ وَأَخْرَجَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ حَطَمَ قَوَائِمَهُ ، ثُمَّ شَدَّهُ فَعَلَّقَهُ فَصَارَ سَلِيخًا كَغَنَمِ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي زَعَمْتَ ! وَهَـٰذَا - أَيُّهَا ٱلْأَبْلَهُ - هُوَ ٱلذَّبْحُ وَٱلسَّلْخُ !

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : وَمَا ٱلَّذِي أَحْدَثَ هَـٰذَا كُلَّهُ ؟

قَالَ : ٱلشَّفْرَةُ ٱلْبَيْضَاءُ ٱلَّتِي يُسَمُّونَهَا ٱلسِّكِّينَ !

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : فَقَدْ كَانَتِ ٱلشَّفْرَةُ عِنْدَ حَلْقِهِ حِيَالَ فَمِهِ ؛ فَلِمَاذَا لَمْ يَنْتَزِعْهَا فَيَأْكُلَهَا ؟

قَالَ ٱلْكَبْشُ : أَيُّهَا ٱلْأَبْلَهُ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُ شَيْئًا وَلَا يَحْفَظُ شَيْئًا ، لَوْ كَانَتْ خَضْرَاءَ لَأَكَلَهَا !

قَالَ : وَمَا خَطْبُ أَنْ تَجِيءَ ٱلشَّفْرَةُ عَلَىٰ ٱلْعُنُقِ ، أَفَلَمْ يَكُنِ ٱلْحَبْلُ فِي عُنُقِكَ أَنْتَ فَجَعَلْتَ تُجَاذِبُ فِيهِ ٱلرَّجُلَ حَتَّىٰ أَعْيَيْتَهُ ، وَلَوْلَا أَنِّي مَشَيْتُ أَمَامَكَ لَمَا ٱنْقَدْتَ لَهُ ؟

قَالَ ٱلْكَبْشُ : مَا أَدْرِي وَٱللهِ كَيْفَ أُفْهِمُكَ أَنَّ هَـٰذَا كُلَّهُ سَيَجْرِي عَلَيْكَ ، فَسَتَرَىٰ أُمُورًا تُنْكِرُهَا ، فَتَعْرِفُ مَا ٱلذَّبْحُ وَٱلسَّلْخُ ، ثُمَّ تَصِيرُ أَشْلَاءً فِي ٱلْقُدُورِ تُضْرَمُ عَلَيْهَا ٱلنَّارُ ، فَيَأْكُلُكَ ٱبْنُ آدَمَ كَمَا تَأْكُلُ أَنْتَ هَـٰذَا ٱلْكَلَأَ . . . !

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : وَمَاذَا عَلَيَّ أَنْ يَأْكُلَنِي ٱبْنُ آدَمَ ، أَلَا تَرَانِي آكُلُ ٱلْعُشْبَ ، فَهَلْ سَمِعْتَ عُودًا مِنْهُ يَقُولُ : ٱلرَّجُلُ وَٱلسِّكِّينُ ، وَٱلذَّبْحُ وَٱلسَّلْخُ . . . ؟

قَالَ ٱلْكَبْشُ فِي نَفْسِهِ : لَعَمْرِي إِنَّ قُوَّةَ ٱلشَّبَابِ فِي ٱلشَّبَابِ أَقْوَىٰ مِنْ حِكْمَةِ ٱلشُّيُوخِ فِي

ٱلشُّيُوخِ ، وَمَا نَفْعُ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا رَأْيًا لَيْسَ لَهُ مَا يُمْضِيهِ ، كَرَأْيِ ٱلشَّيْخِ ٱلْفَانِي ؛ يَرَىٰ بِعَقْلِهِ ٱلصَّوَابَ حِينَ يَكُونُ جِسْمُهُ هُوَ ٱلْخَطَأَ مُرَكَّبًا فِي ضَعْفِهِ غَلْطَةً عَلَىٰ غَلْطَةٍ لَا عُضْوًا عَلَىٰ عُضْوٍ . . ؟ وَهَلِ ٱلرَّأْيُ ٱلصَّحِيحُ لِلْعَالَمِ ٱلَّذِي نَعِيشُ فِيهِ إِلَّا بِٱلْجِسْمِ ٱلَّذِي نَعِيشُ بِهِ ؛ وَمَا جَدْوَىٰ أَنْ يَعْرِفَ ٱلْكَبِيرُ حِكْمَةَ ٱلْمَوْتِ ، وَهُوَ مِنَ ٱلضَّعْفِ بِحَيْثُ تَنْكَسِرُ نَفْسُهُ لِلْمَرَضِ ٱلْهَيِّنِ ، فَضْلًا عَنِ ٱلْمَرَضِ ٱلْمُعْضِلِ ، فَضْلًا عَنِ ٱلْمَرَضِ ٱلْمُزْمِنِ ، فَضْلًا عَنِ ٱلْمَوْتِ نَفْسِهِ ؛ وَمَا خَطَرُ أَنْ يَجْهَلَ ٱلشَّبَابُ تِلْكَ ٱلْحِكْمَةَ ، وَهُوَ مِنْ قُوَّةِ ٱلنَّفْسِ بِحَيْثُ لَا يُبَالِي ٱلْمَوْتَ ، فَضْلًا عَنِ ٱلْمَرَضِ ؟

لَوْ أُذِنَ ٱلشَّابُّ مِنَ ٱلْفِتْيَانِ بِيَوْمِ ٱنْقِطَاعِ أَجَلِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مُصْبِحُهُ أَوْ مُمْسِيهِ ، لَأَمَدَّتْهُ نَفْسُهُ بِأَرْوَاحِ ٱلسِّنِينَ ٱلطَّوِيلَةِ ، حَتَّىٰ لَيَرَىٰ أَنَّ صُبْحَ ٱلْغَدِ كَأَنَّمَا يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ؛ فَمَا يَتَبَيَّنُهُ إِلَّا كَٱلْفِكْرِ ٱلْمَنْسِيِّ مَضَىٰ عَلَيْهِ ثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ أَرْبَعُونَ . وَلَوْ أُذِنَ ٱلشَّيْخُ بِيَوْمِ مَصْرَعِهِ ، وَأَيْقَنَ أَنَّ لَهُ مُهْلَةً إِلَىٰ تَمَامِ ٱلْحَوْلِ ، لَطَارَ بِهِ ٱلذُّعْرُ وَٱسْتَفْرَغَهُ ٱلْوَجَلُ مِنْ سَاعَتِهِ ؛ وَرَأَىٰ يَوْمَهُ ٱلْبَعِيدَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلصُّبْحِ ، وَٱبْتَلَتْهُ طَبِيعَةُ جِسْمِهِ ٱلْمُخْتَلِّ بِٱلْوَسَاوِسِ ٱلْكَثِيرَةِ ، تَجْتَلِبُهَا لَهُ كَمَا تَجْتَلِبُ ٱلرِّيَاحُ صُدُوعَ ٱلْمَنْزِلِ ٱلْخَرِبِ . فَذَاكَ بِٱلشَّبَابِ يَقْبِضُ عَلَىٰ ٱلزَّمَنِ ؛ فَيَعِيشُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْقَصِيرِ مِثْلَ ٱلْعَامِ رَخِيًّا مَمْدُودًا ؛ فَهُوَ رَابِطُ جَلْدٌ ؛ وَهَـٰذَا بِٱلْكِبَرِ يَقْبِضُ ٱلزَّمَنُ عَلَيْهِ ، فَيَعِيشُ فِي ٱلْعَامِ ٱلطَّوِيلِ مِثْلَ ٱلْيَوْمِ مُتَلَاحِقًا آخِرُهُ بِأَوَّلِهِ ، فَهُوَ قَلِقٌ طَائِرٌ . وَلَا طَبِيعَةَ لِلزَّمَنِ إِلَّا طَبِيعَةُ ٱلشُّعُورِ بِهِ ، وَلَا حَقِيقَةَ لِلْأَيَّامِ إِلَّا مَا تَضَعُهُ ٱلنَّفْسُ فِي ٱلْأَيَّامِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ ٱلْكَبْشَ نَظَرَ فَرَأَىٰ ٱلصَّغِيرَ قَدْ أَخَذَتْهُ عَيْنُهُ وَٱسْتَثْقَلَ نَوْمًا ، فَقَالَ : هَنِيئًا لِمَنْ كَانَ فِيهِ سِرُّ ٱلْأَيَّامِ ٱلْمَمْدُودَةِ . إِنَّ هَـٰذَا ٱلسِّرَّ هُوَ كَسِرِّ ٱلنَّبَاتِ ٱلْأَخْضَرِ ، لَا يُقْطَعُ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَّا ظَهَرَ مِنْ غَيْرِهَا سَاخِرًا هَازِئًا ، قَائِلًا عَلَىٰ ٱلْمَصَائِبِ : هَـٰأَنَذَا . . .

فَهَـٰذَا ٱلصَّغِيرُ يَنَامُ مِلْءَ عَيْنَيْهِ وَٱلشَّفْرَةُ مَحْدُودَةٌ لَهُ ، وَٱلذَّبْحُ بَعْدَ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ ؛ كَأَنَّمَا هُوَ فِي زَمَنَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا مِنْ نَفْسِهِ ، فَبِهِ يَنَامُ ، وَبِهِ يَلْهُو ، وَبِهِ يَسْخَرُ مِنَ ٱلزَّمَنِ ٱلْآخَرِ وَمَا فِيهِ وَمَا يَجْلِبُهُ .

إِنَّ ٱلْأَلَمَ هُوَ فَهْمُ ٱلْأَلَمِ لَا غَيْرُ . فَمَا أَقْبَحَ عِلْمَ ٱلْعَقْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ جَهْلُ ٱلنَّفْسِ بِهِ وَإِنْكَارُهُ إِيَّاهُ . حَسْبُ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعُلَمَاءِ فِي ٱلسُّخْرِيَةِ بِهِمْ وَبِهِ هَـٰذِهِ ٱلْحَقِيقَةُ مِنَ ٱلنَّفْسِ . أَنَا لَوْ نَاطَحْتُ كَبْشًا مِنْ قُرُومِ ٱلْكِبَاشِ ، وَوَقَفْتُ أُفَكِّرُ وَأُدَبِّرُ وَأَتَأَمَّلُ ، وَأَعْتَبِرُ شَيْئًا بِشَيْءٍ - ذَهَبَ فِكْرِي بِقُوَّتِي ، وَٱسْتَرْخَىٰ عَصَبِي ، وَتَحَلَّلَ غَضَبِي كُلُّهُ ، وَكَانَ ٱلْعِلْمُ وَبَالًا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّ حَاجَتِي حِينَئِذٍ إِلَى ٱلرُّوحِ وَقُوَاهَا وَأَسْبَابِهَا أَضْعَافُ حَاجَتِي إِلَى ٱلْعِلْمِ . وَٱلرُّوحُ لَا تَعْرِفُ شَيْئًا ٱسْمُهُ ٱلْمَوْتُ ، وَلَا شَيْئًا ٱسْمُهُ ٱلْوَجَعُ ؛ وَإِنَّمَا تَعْرِفُ حَظَّهَا مِنَ ٱلْيَقِينِ ، وَهُدُوءَهَا بِهَـٰذَا ٱلْحَظِّ ، وَٱسْتِقْرَارَهَا مُؤْمِنَةً مَا دَامَتْ هَادِئَةً مُسْتَيْقِنَةً .

وَقَدْ وَٱللهِ صَدَقَ هَـٰذَا ٱلْجَذَعُ ٱلصَّغِيرُ ؛ فَمَا عَلَىٰ أَحَدِنَا أَنْ يَأْكُلَهُ ٱلْإِنْسَانُ ؟ وَهَلْ أَكْلُنَا نَحْنُ هَـٰذَا ٱلْعُشْبَ ، وَأَكْلُ ٱلْإِنْسَانِ إِيَّانَا ، وَأَكْلُ ٱلْمَوْتِ لِلْإِنْسَانِ - هَلْ كُلُّ ذَٰلِكَ إِلَّا وَضْعٌ لِلْخَاتِمَةِ فِي شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِهَا ؟

يُشْبِهُ وَٱللهِ إِنْ أَنَا ٱحْتَجَجْتُ عَلَى ٱلذَّبْحِ وَٱغْتَمَمْتُ لَهُ ، أَنْ أَكُونَ كَخَرُوفٍ أَحْمَقَ لَا عَقْلَ لَهُ ، فَظَنَّ إِطْعَامَ ٱلْإِنْسَانِ إِيَّاهُ مِنْ بَابِ إِطْعَامِهِ ٱبْنَهُ وَٱبْنَتَهُ وَٱمْرَأَتَهُ وَمَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَتُهُ ! وَهَلْ أَوْجَبَ نَفَقَتِي عَلَى ٱلْإِنْسَانِ إِلَّا لَحْمِي ؟ فَإِذَا ٱسْتَحَقَّ لَهُ فَلَعَمْرِي مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَزْعُمَ أَنَّهُ ظَلَمَنِي ٱللَّحْمَ إِلَّا إِذَا أَقْرَرْتُ عَلَىٰ نَفْسِي بَدِيًّا أَنِّي أَنَا ظَلَمْتُهُ ٱلْعَلَفَ وَسَرَقْتُهُ مِنْهُ .

كُلُّ حَيٍّ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ لِلْحَيَاةِ أُعْطِيَهَا عَلَىٰ شَرْطِهَا ، وَشَرْطُهَا أَنْ تَنْتَهِيَ ؛ فَسَعَادَتُهُ فِي أَنْ يَعْرِفَ هَـٰذَا وَيُقَرِّرَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِنَهُ ، كَمَا يَسْتَيْقِنُ أَنَّ ٱلْمَطَرَ أَوَّلُ فَصْلِ ٱلْكَلَإِ ٱلْأَخْضَرِ . فَإِذَا فَعَلَ { ذَٰلِكَ } وَأَيْقَنَ وَٱطْمَأَنَّ ، جَاءَتِ ٱلنِّهَايَةُ مُتَمِّمَةً لَهُ لَا نَاقِصَةً إِيَّاهُ ، وَجَرَتْ مَعَ ٱلْعُمْرِ مَجْرًى وَاحِدًا وَكَانَ قَدْ عَرَفَهَا وَأَعَدَّ لَهَا . أَمَّا إِذَا حَسِبَ ٱلْحَيُّ أَنَّهُ شَيْءٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَقَدْ أُعْطِيَهَا عَلَىٰ شَرْطِهِ هُوَ ، مِنْ تَوَهُّمِ ٱلطَّمَعِ فِي ٱلْبَقَاءِ وَٱلنَّعِيمِ ، فَكُلُّ شَقَاءِ ٱلْحَيِّ فِي وَهْمِهِ ذَاكَ ، وَفِي عَمَلِهِ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَهْمِ ؛ إِذْ لَا تَكُونُ ٱلنِّهَايَةُ حِينَئِذٍ فِي مَجِيئِهَا إِلَّا كَٱلْعُقُوبَةِ أُنْزِلَتْ بِٱلْعُمْرِ كُلِّهِ ، وَتَجِيءُ هَادِمَةً مُنَغِّصَةً ، وَيَبْلُغُ مِنْ تَنْكِيدِهَا أَنْ تَسْبِقَهَا آلَامُهَا ، فَتُؤْلِمَ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ ، شَرًّا مِمَّا تُؤْلِمُ حِينَ تَجِيءُ !

لَقَدْ كَانَ جَدِّي وَٱللهِ حَكِيمًا يَوْمَ قَالَ لِي : إِنَّ ٱلَّذِي يَعِيشُ مُتَرَقِّبًا ٱلنِّهَايَةَ يَعِيشُ مُعِدًّا لَهَا ؛ فَإِنْ كَانَ مُعِدًّا لَهَا عَاشَ رَاضِيًا بِهَا ، فَإِنْ عَاشَ رَاضِيًا بِهَا كَانَ عُمْرُهُ فِي حَاضِرٍ

مُسْتَمِرٍّ ، كَأَنَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ يَشْهَدُ أَوَّلَهَا وَيُحِسُّ آخِرَهَا ، فَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلزَّمَنُ أَنْ يُنَغِّصَ عَلَيْهِ مَا دَامَ يَنْقَادُ مَعَهُ وَيَنْسَجِمُ فِيهِ ، غَيْرَ مُحَاوِلٍ فِي ٱللَّيْلِ أَنْ يُبْعِدَ ٱلصُّبْحَ ، وَلَا فِي ٱلصُّبْحِ أَنْ يُبْعِدَ ٱللَّيْلَ . قَالَ لِي جَدِّي : وَٱلْإِنْسَانُ وَحْدَهُ هُوَ ٱلتَّعِسُ ٱلَّذِي يُحَاوِلُ طَرْدَ نِهَايَتِهِ ، فَيَشْقَىٰ شَقَاءَ ٱلْكَبْشِ ٱلْأَخْرَقِ ٱلَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَطْرُدَ ٱللَّيْلَ ، فَيَبِيتُ يَنْطَحُ ٱلظُّلْمَةَ ٱلْمُتَدَجِّيَةَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ لِحُمْقِهِ يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْطَحُ ٱللَّيْلَ بِقَرْنَيْهِ وَيُزَحْزِحُهُ . . . !

وَكَمْ قَالَ لِي ذَٰلِكَ ٱلْجَدُّ ٱلْحَكِيمُ وَهُوَ يَعِظُنِي : إِنَّ ٱلْحَيَوَانَ مِنَّا إِذَا جَمَعَ عَلَىٰ نَفْسِهِ هَمًّا وَاحِدًا ، صَارَ بِهَـٰذَا ٱلْهَمِّ إِنْسَانًا تَعِسًا شَقِيًّا ، يُعْطَى ٱلْحَيَاةَ فَيَقْلِبُهَا بِنَفْسِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ شَيْئًا كَٱلْمَوْتِ ، أَوْ مَوْتًا بِلَا شَيْءٍ . . . !

* * *

وَتَحَرَّكَ ٱلصَّغِيرُ مِنْ نَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُ ٱلْكَبْشُ : إِنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي أَنَّكَ ٱلسَّاعَةَ كُنْتَ فِي شَأْنٍ عَظِيمٍ ، فَمَا بَالُكَ مُنْتَفِخًا وَأَنْتَ هَـٰهُنَا فِي ٱلْمَنْحَرِ لَا فِي ٱلْمَرْعَىٰ !

قَالَ ٱلصَّغِيرُ : يَا أَخَا جَدِّي . . . لَقَدْ تَحَقَّقْتُ أَنَّكَ هَرِمْتَ وَخَرِفْتَ ، وَأَصْبَحْتَ تَمُجُّ ٱللُّعَابَ وَٱلرَّأْيَ . . . !

قَالَ ٱلْكَبْشُ : فَمَا ذَاكَ وَيْلُكَ ؟

قَالَ : إِنَّكَ قُلْتَ : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْإِنْسَانَ غَادٍ عَلَيْنَا بِٱلشَّفْرَةِ ٱلْبَيْضَاءِ ، وَوَصَفْتَ ٱلذَّبْحَ وَٱلسَّلْخَ وَٱلْأَكْلَ ؛ وَأَنَا ٱلسَّاعَةَ قَدْ نِمْتُ فَرَأَيْتُ فِيمَا أَرَىٰ ، أَنَّنِي نَطَحْتُ ذَٰلِكَ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي جَاءَ بِنَا إِلَىٰ هُنَا ، وَهِجْتُ بِهِ حَتَّىٰ صَرَعْتُهُ ، ثُمَّ إِنِّي أَخَذْتُ ٱلشَّفْرَةَ بِأَسْنَانِي ، فَثَلَمْتُهُ فِي نَحْرِهِ حَتَّىٰ ذَبَحْتُهُ ، ثُمَّ ٱقْتَلَذْتُ مِنْهُ مُضْغَةً فَلُكْتُهَا فِي فَمِي ؛ فَمَا عَرَفْتُ وَٱللهِ فِيمَا عَرَفْتُ لَحْمًا وَلَا عَفَنًا فِي ٱلْكَلَإِ هُوَ أَقْبَحُ مَذَاقًا مِنْهُ !

إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ يَسْتَطِيبُ لَحْمَنَا ، وَيَتَغَذَّىٰ بِنَا ، وَيَعِيشُ عَلَيْنَا ؛ فَمَا أَسْعَدَنَا أَنْ نَكُونَ لِغَيْرِنَا فَائِدَةً وَحَيَاةً ، وَإِذَا كَانَ ٱلْفَنَاءُ سَعَادَةً نُعْطِيهَا مِنْ أَنْفُسِنَا ، فَهَـٰذَا ٱلْفَنَاءُ هُوَ سَعَادَةٌ نَأْخُذُهَا لِأَنْفُسِنَا ؛ وَمَا هَلَاكُ ٱلْحَيِّ لِقَاءَ مَنْفَعَةٍ لَهُ أَوْ مَنْفَعَةٍ مِنْهُ إِلَّا ٱنْطِلَاقُ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي جَعَلَتْهُ حَيًّا ، صَارَتْ حُرَّةً فَٱنْطَلَقَتْ تَعْمَلُ أَفْضَلَ أَعْمَالِهَا .

قَالَ ٱلْكَبِيرُ : لَقَدْ صَدَقْتَ وَٱللهِ ، وَنَحْنُ بِهَـٰذَا أَعْقَلُ وَأَشْرَفُ مِنَ ٱلإِنْسَانِ ؛ فَإِنَّهُ يَقْضِي ٱلْعُمُرَ آخِذًا لِنَفْسِهِ ، مُتَكَالِبًا عَلَىٰ حَظِّهَا ، وَلَا يُعْطِي مِنْهَا إِلَّا بِٱلْقَهْرِ وَٱلْغَلَبَةِ وَٱلْخَوْفِ . تَعَالَ أَيُّهَا ٱلذَّابِحُ ، تَعَالَ خُذْ هَـٰذَا ٱللَّحْمَ وَهَـٰذَا ٱلشَّحْمَ ؛ تَعَالَ أَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ لِنُعْطِيَكَ ؛ تَعَالَ أَيُّهَا ٱلشَّحَّاذُ . . . !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

ٱلطُّفُوْلَتَانِ (*)

عِصْمَتُ ٱبْنُ فُلَانٍ بَاشَا طِفْلٌ مُتْرَفٌ يَكَادُ يَنْعَصِرُ لِينًا ، وَتَرَاهُ يَرِفُّ رَفِيفًا مِمَّا نَشَأَ فِي ظِلَالِ ٱلْعِزِّ ، كَأَنَّ لِرُوْحِهِ مِنَ ٱلرِّقَّةِ مِثْلَ ظِلِّ ٱلشَّجَرَةِ حَوْلَ ٱلشَّجَرَةِ . وَهُوَ بَيْنَ لِدَاتِهِ مِنَ ٱلصِّبْيَانِ كَٱلشَّوْكَةِ ٱلْخَضْرَاءِ فِي أُمْلُوْدِهَا ٱلرَّيَّانِ ، لَهَا مَنْظَرُ ٱلشَّوْكَةِ ؛ عَلَىٰ مَجَسَّةٍ لَيِّنَةٍ نَاعِمَةٍ تُكَذِّبُ أَنَّهَا شَوْكَةٌ إِلَّا أَنْ تَيْبَسَ وَتَتَوَقَّحَ .

وَأَبُوْهُ فُلَانٌ ⟦ باشا ⟧ مُدِيْرٌ لِمُدِيْرِيَّةِ كَذَا ، إِذَا سُئِلَ عَنْهُ ٱبْنُهُ قَالَ : إِنَّهُ مُدِيْرُ ٱلْمُدِيْرِيَّةِ . لَا يَكَادُ يَعْدُو هَـٰذَا ٱلتَّرْكِيْبَ ، كَأَنَّهُ مِنْ غُرُوْرِ ٱلنِّعْمَةِ يَأْبَىٰ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ أَبَاهُ مُدِيْرًا مَرَّتَيْنِ . . . وَكَثِيْرًا مَا تَكُوْنُ ٱلنِّعْمَةُ بَذِيْئَةً وَقَاحًا سَيِّئَةَ ٱلأَدَبِ فِي أَوْلَادِ ٱلأَغْنِيَاءِ ، وَكَثِيْرًا مَا يَكُوْنُ ٱلْغِنَىٰ فِي أَهْلِهِ غِنًى مِنَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَا غَيْرُ !

وَفِي رَأْيِ عِصْمَتَ أَنَّ أَبَاهُ مِنْ عُلُوِّ ٱلْمَنْزِلَةِ كَأَنَّهُ عَلَىٰ جَنَاحِ ٱلنَّسْرِ ٱلطَّائِرِ فِي مَسْبَحِهِ إِلَىٰ ٱلنَّجْمِ ، أَمَّا آبَاءُ ٱلأَطْفَالِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهُمْ عِنْدَهُ مِنْ سُقُوْطِ ٱلْمَنْزِلَةِ عَلَىٰ أَجْنِحَةِ ٱلذُّبَابِ وَٱلْبَعُوْضِ !

وَلَا يَغْدُو ٱبْنُ ٱلْمُدِيْرِ إِلَىٰ مَدْرَسَتِهِ وَلَا يَتَرَوَّحُ مِنْهَا إِلَّا وَرَاءَهُ جُنْدِيٌّ يَمْشِي عَلَىٰ إِثْرِهِ فِي ٱلْغَدْوَةِ وَٱلرَّوْحَةِ إِذْ كَانَ ٱبْنَ ٱلْمُدِيْرِ ، أَيْ : ٱبْنَ ٱلْقُوَّةِ ٱلْحَاكِمَةِ ، فَيَكُوْنُ هَـٰذَا ٱلْجُنْدِيُّ وَرَاءَ هَـٰذَا ٱلطِّفْلِ كَٱلْمَنْبَهَةِ لَهُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ ، تُفْصِحُ شَارَتُهُ ٱلْعَسْكَرِيَّةُ بِلُغَاتِ ٱلسَّابِلَةِ جَمْعَاءَ أَنَّ هَـٰذَا هُوَ ٱبْنُ ٱلْمُدِيْرِ . فَإِذَا رَآهُ ٱلْعَرَبِيُّ أَوِ ٱلْيُوْنَانِيُّ ، أَوِ ٱلطِّلْيَانِيُّ أَوِ ٱلْفِرَنْسِيُّ ، أَوِ ٱلإِنْكِلِيْزِيُّ أَوْ كَائِنٌ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلأَلْسِنَةِ ٱلْمُتَنَافِرَةِ ٱلَّتِي لَا يَفْهَمُ لِسَانٌ مِنْهَا عَنْ لِسَانٍ ـ فَهِمُوا جَمِيْعًا مِنْ لُغَةِ هَـٰذِهِ ٱلشَّارَةِ أَنَّ هَـٰذَا هُوَ ٱبْنُ ٱلْمُدِيْرِ ؛ وَأَنَّهُ مِنَ ٱلْجُنْدِيِّ ٱلَّذِي يَتْبَعُهُ كَٱلْمَادَّةِ مِنَ ٱلْقَانُوْنِ وَرَاءَهَا ٱلشَّرْحُ . . . !

وَلَقَدْ كَانَ يَجِبُ لِٱبْنِ ٱلْمُدِيْرِ هَـٰذَا ٱلشَّرَفُ ٱلصِّبْيَانِيُّ . لَوْ أَنَّهُ يَوْمَ وُلِدَ لَمْ يُوْلَدِ ٱبْنَ سَاعَتِهِ

(*) « الرسالة » العدد : ٨٧ ، ٢٨ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ هـ = ٤ مارس/ آذار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٣٢٣ ـ ٣٢٦ .

كَأَطْفَالِ ٱلنَّاسِ ، بَلْ وُلِدَ ٱبْنَ عَشْرِ سِنِينَ كَامِلَةٍ لِتَشْهَدَ لَهُ ٱلطَّبِيعَةُ أَنَّهُ كَبِيرٌ قَدِ ٱنْصَدَعَتْ بِهِ مُعْجِزَةٌ ! وَإِلَّا فَكَيْفَ يَمْشِي ٱلْجُنْدِيُّ مِنْ جُنُودِ ٱلدَّوْلَةِ وَرَاءَ طِفْلٍ فَيَتْبَعُهُ وَيَخْدِمُهُ وَيَنْصَاعُ لِأَمْرِهِ ؛ وَهَـٰذَا ٱلْجُنْدِيُّ لَوْ كَانَ طَرِيدَ هَزِيمَةٍ قَدْ فَرَّ فِي مَعْرَكَةٍ مِنْ مَعَارِكِ ٱلْوَطَنِ ، وَأُرِيدَ تَخْلِيدُهُ فِي هَزِيمَتِهِ وَتَخْلِيدُهَا عَلَيْهِ بِٱلتَّصْوِيرِ ـ لَمَا صُوِّرَ إِلَّا جُنْدِيًّا فِي شَارَتِهِ ٱلْعَسْكَرِيَّةِ مُنْقَادًا لِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ كَٱلْخَادِمِ ؛ فِي صُورَةٍ يُكْتَبُ تَحْتَهَا : « نُفَايَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ !» .

* * *

لَيْسَ لِهَـٰذَا ٱلْمَنْظَرِ ٱلْكَثِيرِ حُدُوثُهُ فِي مِصْرَ إِلَّا تَأْوِيلٌ وَاحِدٌ : هُوَ أَنَّ مَكَانَ ٱلشَّخْصِيَّاتِ فَوْقَ ٱلْمَعَانِي ، وَإِنْ صَغُرَتْ تِلْكَ وَجَلَّتْ هَـٰذِهِ ؛ وَمِنْ هُنَا يَكْذِبُ ٱلرَّجُلُ ذُو ٱلْمَنْصِبِ ، فَيُرْفَعُ شَخْصُهُ فَوْقَ ٱلْفَضَائِلِ كُلِّهَا ؛ فَيَكْبُرُ عَنْ أَنْ يَكْذِبَ فَيَكُونُ كَذِبُهُ هُوَ ٱلصِّدْقَ ، فَلَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ كَذِبُهُ ، أَيْ : صِدْقُهُ . . . ! وَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَقَرَّرَ فِي ٱلْأُمَّةِ أَنَّ كَذِبَ ٱلْقُوَّةِ صِدْقٌ بِٱلْقُوَّةِ !

وَعَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْقَاعِدَةِ يُقَاسُ غَيْرُهَا مِنْ كُلِّ مَا يُخْذَلُ فِيهِ ٱلْحَقُّ . وَمَتَىٰ كَانَتِ ٱلشَّخْصِيَّاتُ فَوْقَ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّامِيَةِ طَفِقَتْ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي تَمُوجُ مَوْجَهَا مُحَاوِلَةً أَنْ تَعْلُوَ ، مُكْرَهَةً عَلَىٰ أَنْ تَنْزِلَ ؛ فَلَا تَسْتَقِيمُ عَلَىٰ جِهَةٍ وَلَا تَنْتَظِمُ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ ؛ وَتُقْبِلُ بِٱلشَّيْءِ عَلَىٰ مَوْضِعِهِ ، ثُمَّ تَكُرُّ كَرَّهَا فَتُدْبِرُ بِهِ إِلَىٰ غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، فَتَصِلُ كُلُّ طَبَقَةٍ مِنَ ٱلْأُمَّةِ بِكُبَرَائِهَا ، وَلَا تَكُونُ ٱلْأُمَّةُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ فِي كُلِّ طَبَقَاتِهَا إِلَّا صِغَارًا فَوْقَهُمْ كِبَارُهُمْ ؛ وَتِلْكَ هِيَ تَهْيِئَةُ ٱلْأُمَّةِ لِلاسْتِعْبَادِ مَتَىٰ ٱبْتُلِيَتْ بِٱلَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كِبَارِهَا ؛ وَمِنْ تِلْكَ تَنْشَأُ فِي ٱلْأُمَّةِ طَبِيعَةُ ٱلنِّفَاقِ يَحْتَمِي بِهِ ٱلصِّغَرُ مِنَ ٱلْكِبَرِ ، وَتَنْتَظِمُ بِهِ أُلْفَةُ ٱلْحَيَاةِ بَيْنَ ٱلذِّلَّةِ وَٱلصَّوْلَةِ !

* * *

وَتَخَلَّفَ ٱلْجُنْدِيُّ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ مَوْعِدِ ٱلرَّوَاحِ مِنَ ٱلْمَدْرَسَةِ ، فَخَرَجَ عِصْمَتُ فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَبَدَا لَهُ أَنْ يَتَسَكَّعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ ٱلْمَدِينَةِ لِيَنْطَلِقَ فِيهِ ٱبْنُ آدَمَ لَا ٱبْنُ ٱلْمُدِيرِ ، وَحَنَّ حَنِينَهُ إِلَىٰ ٱلْمُغَامَرَةِ فِي ٱلطَّبِيعَةِ ، وَلَبِسَتِ ٱلطُّرُقُ فِي خَيَالِهِ ٱلصَّغِيرِ زِينَتَهَا ٱلشِّعْرِيَّةَ بِأَطْفَالِ ٱلْأَزِقَّةِ يَلْعَبُونَ وَيَتَهَوَّشُونَ وَيَتَعَابَثُونَ وَيَتَشَاحَنُونَ ، وَهُمْ شَتَّىٰ وَكَأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ بَيْتٍ وَاحِدٍ مَسَّتْ

بِكُلٍّ مِنْ كُلِّ رَحِمٍ ، إِذْ لَا يَنْتَسِبُونَ فِي ٱللَّهْوِ إِلَّا إِلَىٰ ٱلطُّفُولَةِ وَحْدَهَا .

وَٱنْسَاقَ عِصْمَتُ وَرَاءَ خَيَالِهِ ، وَهَرَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ مِنْ تِلْكَ ٱلصُّورَةِ ٱلَّتِي يَمْشِي فِيهَا ٱلْجُنْدِيُّ وَرَاءَ ٱبْنِ ٱلْمُدِيرِ ، وَتَغَلْغَلَ فِي ٱلْأَزِقَّةِ لَا يُبَالِي مَا يَعْرِفُهُ مِنْهَا وَمَا لَا يَعْرِفُهُ ، إِذْ كَانَ يَسِيرُ فِي طُرُقٍ جَدِيدَةٍ عَلَىٰ عَيْنِهِ كَأَنَّمَا يَحْلُمُ بِهَا فِي مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ ٱلنَّوْمِ .

وَٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ كَبْكَبَةٍ مِنَ ٱلْأَطْفَالِ قَدِ ٱسْتَجْمَعُوا لِشَأْنِهِمُ ٱلصِّبْيَانِيِّ ، فَٱنْتَبَذَ نَاحِيَةً وَوَقَفَ يُصْغِي إِلَيْهِمْ مُتَهَيِّبًا أَنْ يُقْدِمَ ، فَٱتَّصَلَ بِسَمْعِهِ وَنَظَرِهِ كَٱلْجَبَانِ ، وَتَسَمَّعَ فَإِذَا خَبِيثٌ مِنْهُمْ يُعَلِّمُ ٱلْآخَرَ كَيْفَ يَضْرِبُ إِذَا ٱعْتَدَىٰ أَوِ ٱعْتُدِيَ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ لَهُ : ٱضْرِبْ أَيْنَمَا ضَرَبْتَ ، مِنْ رَأْسِهِ ، مِنْ وَجْهِهِ ، مِنَ ٱلْحُلْقُومِ ، مِنْ مَرَاقِّ ٱلْبَطْنِ ؛ قَالَ ٱلْآخَرُ : وَإِذَا مَاتَ ؟ فَقَالَ ٱلْخَبِيثُ : وَإِذَا مَاتَ فَلَا تَقُلْ إِنِّي أَنَا عَلَّمْتُكَ . . . !

وَسَمِعَ طِفْلًا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : أَمَا قُلْتُ لَكَ : إِنَّهُ تَعَلَّمَ ٱلسَّرِقَةَ مِنْ رُؤْيَتِهِ ٱللُّصُوصَ فِي ٱلسِّيمَا ؟ فَأَجَابَهُ صَاحِبُهُ : وَهَلْ قَالَ لَهُ أُولَـٰئِكَ ٱللُّصُوصُ ٱلَّذِينَ فِي ٱلسِّيمَا كُنْ لِصًّا وَٱعْمَلْ مِثْلَنَا ؟

وَقَامَ مِنْهُمْ شَيْطَانٌ فَقَالَ : يَا أَوْلَادَ ٱلْبَلَدِ ، أَنَا ٱلْمُدِيرُ ! تَعَالَوْا وَقُولُوا لِي : « يَا سَعَادَةَ ٱلْبَاشَا ! إِنَّ أَوْلَادَنَا يُرِيدُونَ ٱلذَّهَابَ إِلَىٰ ٱلْمَدَارِسِ ، وَلَـٰكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْفَعَ لَهُمُ ٱلْمَصْرُوفَاتِ . . » فَقَالَ ٱلْأَوْلَادُ فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ : « يَا سَعَادَةَ ٱلْبَاشَا ! إِنَّ أَوْلَادَنَا يُرِيدُونَ ٱلذَّهَابَ إِلَىٰ ٱلْمَدَارِسِ ، وَلَـٰكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْفَعَ لَهُمُ ٱلْمَصْرُوفَاتِ » فَرَدَّ عَلَيْهِمْ سَعَادَتُهُ : ٱشْتَرُوا لِأَوْلَادِكُمْ أَحْذِيَةً وَطَرَابِيشَ وَثِيَابًا نَظِيفَةً ، وَأَنَا أَدْفَعُ لَهُمُ ٱلْمَصْرُوفَاتِ .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ خَبِيثٌ مِنْهُمْ وَقَالَ : يَا سَعَادَةَ ٱلْمُدِيرِ ! وَأَنْتَ فَلِمَاذَا لَمْ يَشْتَرِ لَكَ أَبُوكَ حِذَاءً . . . ؟

وَقَالَ طِفْلٌ صَغِيرٌ : أَنَا ٱبْنُكَ يَا سَعَادَةَ ٱلْمُدِيرِ ، فَأَرْسِلْنِي إِلَىٰ ٱلْمَدْرَسَةِ وَقْتَ ٱلظُّهْرِ فَقَطْ . . . !

* * *

وَكَانَ عِصْمَتُ يَسْمَعُ وَنَفْسُهُ تَهْتَزُّ وَتَرِفُّ بِإِحْسَاسِهَا ، كَٱلْوَرَقَةِ ٱلْخَضْرَاءِ عَلَيْهَا طَلٌّ

النَّدَى ، وَأَخَذَ قَلْبُهُ يَتَفَتَّحُ فِي شُعَاعِ ٱلْكَلَامِ كَٱلزَّهْرَةِ فِي ٱلشَّمْسِ ؛ وَسَكِرَ بِمَا يَسْكَرُ بِهِ ٱلْأَطْفَالُ حِينَ تُقَدِّمُ لَهُمُ ٱلطَّبِيعَةُ مَكَانَ ٱللَّهْوِ مُعَدًّا مُهَيَّأً ، كَٱلْحَانَةِ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَسْبَابُ ٱلسُّكْرِ وَٱلنَّشْوَةِ ، وَتَمَامُ لَذَّتِهَا أَنَّ ٱلزَّمَنَ فِيهَا مَنْسِيٌّ ، وَأَنَّ ٱلْعَقْلَ فِيهَا مُهْمَلٌ . . .

وَأَحَسَّ ٱبْنُ ٱلْمُدِيرِ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةَ حِينَ يَنْطَلِقُ فِيهَا جَمَاعَةُ ٱلْأَطْفَالِ عَلَىٰ سَجِيَّتِهِمْ وَسَجِيَّتِهَا ـ إِنَّمَا هِيَ ٱلْمَدْرَسَةُ ٱلَّتِي لَا جُدْرَانَ لَهَا ، وَهِيَ تَرْبِيَةُ ٱلْوُجُودِ لِلطِّفْلِ تَرْبِيَةً تَتَنَاوَلُهُ مِنْ أَدَقِّ أَعْصَابِهِ فَتُبَدِّدُ قُوَاهُ ثُمَّ تَجْمَعُهَا لَهُ أَقْوَىٰ مَا كَانَتْ ، وَتُفْرِغُهُ مِنْهَا ثُمَّ تَمْلَؤُهُ بِمَا هُوَ أَتَمُّ وَأَزْيَدُ . وَبِذَلِكَ تُكْسِبُهُ نُمُوَّ نَشَاطِهِ ، وَتُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَنْبَعِثُ لِتَحْقِيقِ هَـٰذَا ٱلنَّشَاطِ ، فَتَهْدِيهِ إِلَىٰ أَنْ يُبْدِعَ بِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَظِرَ مَنْ يُبْدِعُ لَهُ ، وَتَجْعَلُ خُطَاهُ دَائِمًا وَرَاءَ أَشْيَاءَ جَدِيدَةٍ ، فَتَسُدُّهُ مِنْ هَـٰذَا كُلِّهِ إِلَىٰ سِرِّ ٱلْإِبْدَاعِ وَٱلِٱبْتِكَارِ ، وَتُلَقِّنُهُ ٱلْعِلْمَ ٱلْأَعْظَمَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ، عِلْمَ نَضْرَةِ نَفْسِهِ وَسُرُورِهَا وَمَرَحِهَا ، وَتَطْبَعُهُ عَلَى ٱلْمِزَاجِ ٱلْمُتَطَلِّقِ ٱلْمُتَهَلِّلِ ٱلْمُتَفَائِلِ ، وَتَتَدَفَّقُ بِهِ عَلَىٰ دُنْيَاهُ كَٱلْفَيَضَانِ فِي ٱلنَّهْرِ ، تَفُورُ ٱلْحَيَاةُ فِيهِ وَتَفُورُ بِهِ ، لَا كَأَطْفَالِ ٱلْمَدَارِسِ ٱلْخَامِدِينَ ، تَعْرِفُ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ شَكْلَ ٱلطِّفْلِ وَلَيْسَ لَهُ وُجُودُهُ وَلَا عَالَمُهُ ، فَيَكُونُ ٱلْمِسْكِينُ فِي ٱلْحَيَاةِ وَلَا يَجِدُهَا ، ثُمَّ تَرَاهُ طِفْلًا صَغِيرًا ، وَقَدْ جَمَعُوا لَهُ هُمُومَ رَجُلٍ كَامِلٍ !

وَدَبَّتْ رُوحُ ٱلْأَرْضِ دَبِيبَهَا فِي عِصْمَتَ ، وَأَوْحَتْ إِلَىٰ قَلْبِهِ بِأَسْرَارِهَا ، فَأَدْرَكَ مِنْ شُعُورِهِ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَغْمَارَ ٱلْأَغْبِيَاءَ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ ، هُمُ ٱلسُّعَدَاءُ بِطُفُولَتِهِمْ ، وَأَنَّهُ هُوَ وَأَمْثَالُهُ هُمُ ٱلْفُقَرَاءُ وَٱلْمَسَاكِينُ فِي ٱلطُّفُولَةِ ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ ٱلْجُنْدِيَّ ٱلَّذِي يَمْشِي وَرَاءَهُ لِتَعْظِيمِهِ إِنَّمَا هُوَ سِجْنٌ ؛ وَأَنَّ ٱلْأَلْعَابَ خَيْرٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ ، إِذْ كَانَتْ هِيَ طِفْلِيَّةَ ٱلطِّفْلِ فِي وَقْتِهَا ، أَمَّا ٱلْعُلُومُ فَرُجُولَةٌ مُلْزَقَةٌ بِهِ قَبْلَ وَقْتِهَا تُوَقِّرُهُ وَتُحَوِّلُهُ عَنْ طِبَاعِهِ ، فَتَقْتُلُ فِيهِ ٱلطُّفُولَةَ وَتَهْدِمُ أَسَاسَ ٱلرُّجُولَةِ ، فَيَنْشَأُ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَـٰذِهِ وَلَا إِلَىٰ هَـٰذِهِ ، وَيَكُونُ فِي ٱلْأَوَّلِ طِفْلًا رَجُلًا ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ٱلْآخِرِ رَجُلًا طِفْلًا .

وَأَحَسَّ مِمَّا رَأَىٰ وَسَمِعَ أَنَّ مَدْرَسَةَ ٱلطِّفْلِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هِيَ بَيْتَهُ ٱلْوَاسِعَ ٱلَّذِي لَا يَتَحَرَّجُ أَنْ يَصْرُخَ فِيهِ صُرَاخَهُ ٱلطَّبِيعِيَّ ، وَيَتَحَرَّكَ حَرَكَتَهُ ٱلطَّبِيعِيَّةَ ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ مُدَرِّسُونَ وَلَا طَلَبَةٌ ، وَلَا حَامِلُو ٱلْعِصِيِّ مِنَ ٱلضُّبَّاطِ ؛ بَلْ حَقُّ ٱلْبَيْتِ ٱلْوَاسِعِ أَنْ تَكُونَ فِيهِ ٱلْأُبُوَّةُ ٱلْوَاسِعَةُ ، وَٱلْأُخُوَّةُ ٱلَّتِي تَنْفَسِحُ لِلْمِئَاتِ ؛ فَيَمُرُّ ٱلطِّفْلُ ٱلْمُتَعَلِّمُ فِي نَشْأَتِهِ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَىٰ مَنْزِلٍ إِلَىٰ مَنْزِلٍ ، عَلَىٰ تَدْرِيجٍ فِي ٱلتَّوَسُّعِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، مِنَ ٱلْبَيْتِ ، إِلَى ٱلْمَدْرَسَةِ ، إِلَى ٱلْعَالَمِ .

* * *

وَكَانَ عِصْمَتُ يَحْلُمُ بِهَـٰذِهِ ٱلْأَحْلَامِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ، وَطُفُولَتُهُ تَشِبُّ وَتَسْتَرْجِلُ ، وَرَخَاوَتُهُ تَشْتَدُّ وَتَتَمَاسَكُ ؛ وَكَانَتْ حَرَكَاتُ ٱلْأَطْفَالِ كَأَنَّهَا تُحَرِّكُهُ مِنْ دَاخِلِهِ ، فَهُوَ مِنْهُمْ كَٱلطِّفْلِ فِي ٱلسِّيمَا حِينَ يَشْهَدُ ٱلْمُتَلَاكِمِينَ وَٱلْمُتَصَارِعِينَ ، يَسْتَطِيرُهُ ٱلْفَرَحُ ، وَيَتَوَثَّبُ فِيهِ ٱلطِّفْلُ ٱلطَّبِيعِيُّ بِمَرَحِهِ وَعُنْفُوَانِهِ ، وَتَتَقَلَّصُ عَضَلَاتُهُ ، وَيَتَكَشَّفُ جِلْدُهُ ، وَتَجْتَمِعُ قُوَّتُهُ ؛ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ سَيُظَاهِرُ أَحَدَ ٱلْخَصْمَيْنِ وَيَلْكُمُ ٱلْآخَرَ فَيُكَوِّرُهُ وَيَصْرَعُهُ ، وَيَفُضُّ مَعْرَكَةَ ٱلضَّرْبِ ٱلْحَدِيدِيِّ بِضَرْبَتِهِ ٱللَّيِّنَةِ ٱلْحَرِيرِيَّةِ . . . !

فَمَا لَبِثَ صَاحِبُنَا ٱلْغَرِيرُ ٱلنَّاعِمُ أَنْ تَخَشَّنَ ، وَمَا كَذَّبَ أَنِ ٱقْتَحَمَ ، وَكَأَنَّمَا أَقْبَلَ عَلَىٰ رُوحِهِ ٱلشَّارِعُ وَٱلْأَطْفَالُ وَلَهْوُهُمْ وَعَبَثُهُمْ ، إِقْبَالَ ٱلْجَوِّ عَلَى ٱلطَّيْرِ ٱلْحَبِيسِ ٱلْمُعَلَّقِ فِي مِسْمَارٍ إِذَا ٱنْفَرَجَ عَنْهُ ٱلْقَفَصُ ؛ وَإِقْبَالَ ٱلْغَابَةِ عَلَى ٱلْوَحْشِ ٱلْقَنِيصِ إِذَا وَثَبَ وَثْبَةَ ٱلْحَيَاةِ فَطَارَ بِهَا ؛ وَإِقْبَالَ ٱلْفَلَاةِ عَلَى ٱلظَّبْيِ ٱلْأَسِيرِ إِذَا نَاوَصَ فَأَفْلَتَ مِنَ ٱلْحِبَالَةِ .

وَتَقَدَّمَ فَٱدَّغَمَ فِي ٱلْجَمَاعَةِ وَقَالَ لَهُمْ : أَنَا ٱبْنُ ٱلْمُدِيرِ . فَنَظَرُوا إِلَيْهِ جَمِيعًا ، ثُمَّ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَسَفَرَتْ أَفْكَارُهُمُ ٱلصَّغِيرَةُ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ ، وَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : إِنَّ حِذَاءَهُ وَثِيَابَهُ وَطَرْبُوشَهُ كُلَّهَا تَقُولُ إِنَّ أَبَاهُ ٱلْمُدِيرُ .

فَقَالَ آخَرُ : وَوَجْهُهُ يَقُولُ إِنَّ أُمَّهُ ٱمْرَأَةُ ٱلْمُدِيرِ . . . !

فَقَالَ ٱلثَّالِثُ : لَيْسَتْ كَأُمِّكَ يَا بَعْطِيطِيُّ وَلَا كَأُمِّ جُعْلُصٍ ![1] .

قَالَ ٱلرَّابِعُ : يَا وَيْلَكَ لَوْ سَمِعَ جُعْلُصٌ ، فَإِنَّ لَكَمَاتِهِ حِينَئِذٍ لَا تَتْرُكُ أُمَّكَ تَعْرِفُ وَجْهَكَ مِنَ ٱلْقَفَا !

قَالَ ٱلْخَامِسُ : وَمَنْ جُعْلُصٌ هَـٰذَا ؟ فَلْيَأْتِ لِأُرِيَكُمْ كَيْفَ أُصَارِعُهُ ، فَأَجْتَذِبُهُ ، فَأَعْصِرُهُ بَيْنَ يَدَيَّ ، فَأَعْتَقِلُ رِجْلَهُ بِرِجْلِي ، فَأَدْفَعُهُ ، فَيَتَخَاذَلُ ، فَأَعْرُكُهُ ، فَيَخِرُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ ؛ فَأُسَمِّرُهُ فِي ٱلْأَرْضِ بِمِسْمَارٍ !

فَقَالَ ٱلسَّادِسُ : هَاهَا ! إِنَّكَ تَصِفُ بِأَدَقِّ ٱلْوَصْفِ مَا يَفْعَلُهُ جُعْلُصٌ لَوْ تَنَاوَلَكَ فِي يَدِهِ . . . !

---

(١) لِلْعَامَّةِ أَسْمَاءٌ وَنُسَبٌ غَرِيبَةٌ ، مِنْهَا هَـٰذِهِ .

فَصَاحَ ٱلسَّابِعُ : وَيْلَكُمْ ! هَا هُوَ ذَا . جُعْلُص ، جُعْلُص ، جُعْلُص !

فَتَطَايَرَ ٱلْبَاقُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا كَٱلْوَرَقِ ٱلْجَافِّ تَحْتَ ٱلشَّجَرِ ضَرَبَتْهُ ٱلرِّيحُ ٱلْعَاصِفُ . وَقَهْقَهَ ٱلصَّبِيُّ مِنْ وَرَائِهِمْ ، فَثَابُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَتَرَاجَعُوا . وَقَالَ ٱلْمُسْتَطِيلُ مِنْهُمْ : أَمَا إِنِّي كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ يَعْدُوَ جُعْلُص وَرَائِي ، فَأَسْتَطْرِدُ إِلَيْهِ قَلِيلًا أُطْمِعُهُ فِي نَفْسِي ، ثُمَّ أَرْتَدُّ عَلَيْهِ فَآخُذُهُ كَمَا فَعَلَ « مَاشِيسْت ٱلْجَبَّار »(١) فِي ذَٰلِكَ ٱلْمَنْظَرِ ٱلَّذِي شَاهَدْنَاهُ .

وَقَهْقَهَ ٱلصِّبْيَانُ جَمِيعًا . . . ! ثُمَّ أَحَاطُوا بِعِصْمَتْ إِحَاطَةَ ٱلْعُشَّاقِ بِمَعْشُوقَةٍ جَمِيلَةٍ ، يُحَاوِلُ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُقَرَّبَ ٱلْمَخْصُوصَ بِٱلْحُظْوَةِ ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ ٱبْنُ ٱلْمُدِيرِ فَحَسْبُ ، وَلَٰكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ٱبْنَ ٱلْمُدِيرِ تَكُونُ مَعَهُ ٱلْقُرُوشُ . . . فَلَوْ وُجِدَتْ هَٰذِهِ ٱلْقُرُوشُ مَعَ ٱبْنِ زَبَّالٍ لَمَا مَنَعَهُ نَسَبُهُ أَنْ يَكُونَ أَمِيرَ ٱلسَّاعَةِ بَيْنَهُمْ إِلَىٰ أَنْ تَنْفَدَ قُرُوشُهُ فَيَعُودَ ٱبْنَ زَبَّالٍ . . . !

وَتَنَافَسُوا فِي عِصْمَتْ وَمُلَاعَبَتِهِ وَٱلِاخْتِصَاصِ بِهِ ، فَلَوْ جَاءَ ٱلْمُدِيرُ نَفْسُهُ يَلْعَبُ مَعَ آبَائِهِمْ وَيَرْكَبُهُمْ وَيَرْكَبُونَهُ ، وَهُمْ بَيْنَ نَجَّارٍ وَحَدَّادٍ ، وَبَنَّاءٍ وَحَمَّالٍ ، وَحُوذِيٍّ وَطَبَّاخٍ ؛ وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ ذَوِي ٱلْمِهْنَةِ وَٱلْمَكْسَبَةِ ٱلضَّئِيلَةِ ـ لَكَانَتْ مَطَامِعُ هَٰؤُلَاءِ ٱلْأَطْفَالِ فِي ٱبْنِ ٱلْمُدِيرِ ، أَكْبَرَ مِنْ مَطَامِعِ ٱلْآبَاءِ فِي ٱلْمُدِيرِ .

وَجَرَتِ ٱلْمُنَافَسَةُ بَيْنَهُمْ مَجْرَاهَا ، فَٱنْقَلَبَتْ إِلَىٰ مُلَاحَاةٍ ، وَرَجَعَتْ هَٰذِهِ ٱلْمُلَاحَاةُ إِلَىٰ مُشَاحَنَةٍ ، وَعَادَ ٱبْنُ ٱلْمُدِيرِ هَدَفًا لِلْجَمِيعِ يُدَافِعُونَ عَنْهُ وَكَأَنَّمَا يَعْتَدُونَ عَلَيْهِ ، إِذْ لَا يَقْصِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا بِٱلْغَيْظِ إِلَّا تَعَمَّدَ غَيْظَ حَبِيبِهِ ، لِيَكُونَ أَنْكَأَ لَهُ وَأَشَدَّ عَلَيْهِ !

وَتَظَاهَرُوا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَنَشَأَتْ بَيْنَهُمُ ٱلطَّوَائِلُ ، وَأَفْسَدَهُمْ هَٰذَا ٱلْغِنَى ٱلْمُتَمَثِّلُ بَيْنَهُمْ . وَيَا مَا أَعْجَبَ إِدْرَاكَ ٱلطُّفُولَةِ وَإِلْهَامَهَا ! فَقَدِ ٱجْتَمَعَتْ نُفُوسُهُمْ عَلَىٰ رَأْيٍ وَاحِدٍ ، فَتَحَوَّلُوا جَمِيعًا إِلَىٰ سَفَاهَةٍ وَاحِدَةٍ أَحَاطَتْ بِٱبْنِ ٱلْمُدِيرِ ، فَخَاطَرَهُ أَحَدُهُمْ فِي ٱللَّعِبِ فَقَمَرَهُ ، فَأَبَىٰ إِلَّا أَنْ يَعْلُوَ ظَهْرَهُ وَيَرْكَبَهُ ؛ وَأَبَىٰ عَلَيْهِ ٱبْنُ ٱلْمُدِيرِ وَدَافَعَهُ ، يَرَىٰ ذَٰلِكَ ثَلْمًا فِي

(١) بَحَّارٌ إِيطَالِيٌّ كَٱلْمَارِدِ ؛ عَرِيضُ ٱلْأَلْوَاحِ ، وَثِيقُ ٱلتَّرْكِيبِ ، يَعْجَبُ ٱلْأَطْفَالُ بِهِ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ ، وَإِذَا شَهِدُوهُ فِي ٱلسِّينَمَا كَادَ تَمْثِيلُهُ يَشُبُّ بِهَٰؤُلَاءِ ٱلْأَطْفَالِ إِلَىٰ سِنِّ ٱلرُّجُولَةِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .

شَرَفِهِ وَنَسَبِهِ وَسَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَلَمْ يَكَدْ يَعْتَلُّ بِهَٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ وَيَذْكُرُ آبَاهُ لِيُعَرِّفَهُمْ آبَاءَهُمْ . . . حَتَّىٰ هَاجَتْ كِبْرِيَاؤُهُمْ ، وَثَارَتْ دَفَائِنُهُمْ ، وَرَقَصَتْ شَيَاطِينُ رُؤُوسِهِمْ ؛ وَبِذَٰلِكَ وَضَعَ ٱلْغَبِيُّ حِقْدَ ٱلْفَقْرِ بِإِزَاءِ سُخْرِيَةِ ٱلْغِنَىٰ ؛ فَأَلْقَىٰ بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةَ ٱلْمَسَائِلِ ٱلْكُبْرَىٰ فِي هَٰذَا ٱلْعَالَمِ ، وَطَرَحَهَا لِلْحَلِّ . . . !

وَتَنَفَّشُوا لِلصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، فَسَخِرَ مِنْهُ أَحَدُهُمْ ، ثُمَّ هَزِئَ بِهِ ٱلْآخَرُ ، وَأَخْرَجَ ٱلثَّالِثُ لِسَانَهُ ؛ وَصَدَمَهُ ٱلرَّابِعُ بِمَنْكِبِهِ ؛ وَأَفْحَشَ عَلَيْهِ ٱلْخَامِسُ ؛ وَلَكَزَهُ ٱلسَّادِسُ ؛ وَحَثَا ٱلسَّابِعُ فِي وَجْهِهِ ٱلتُّرَابَ !

وَجَهَدَ ٱلْمِسْكِينُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ بَيْنِهِمْ فَكَأَنَّمَا أَحَاطُوهُ بِسَبْعَةِ جُدْرَانٍ فَبَطَلَ إِقْدَامُهُ وَإِحْجَامُهُ ، وَوَقَفَ بَيْنَهُمْ كَمَا كَتَبَ ٱللهُ . . . ! ثُمَّ أَخَذَتْهُ أَيْدِيهِمْ فَٱنْجَدَلَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، فَتَجَاذَبُوهُ يُمَرِّغُونَهُ فِي ٱلتُّرَابِ !

وَهُمْ كَذَٰلِكَ إِذِ ٱنْقَلَبَ كَبِيرُهُمْ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، وَٱنْكَفَأَ ٱلَّذِي يَلِيهِ ، وَأُزِيحَ ٱلثَّالِثُ ، وَلُطِمَ ٱلرَّابِعُ ، فَنَظَرُوا ، فَصَاحُوا جَمِيعًا : « جُعْلُص ، جُعْلُص !» وَتَوَاثَبُوا يَشْتَدُّونَ هَرَبًا . وَقَامَ عِصْمَتْ يَنْتَخِلُ ٱلتُّرَابَ مِنْ ثِيَابِهِ وَهُوَ يَبْكِي بِدَمْعِهِ ، وَثِيَابُهُ تَبْكِي بِتُرَابِهَا . . . ! وَوَقَفَ يَنْظُرُ هَٰذَا ٱلَّذِي كَشَفَهُمْ عَنْهُ وَشَرَّدَتْهُمْ صَوْلَتُهُ ، فَإِذَا جُعْلُص وَعَلَيْهِ رَجَفَانٌ مِنَ ٱلْغَضَبِ ، وَقَدْ تَبَرْطَمَتْ شَفَتُهُ ، وَتَقَبَّضَ وَجْهُهُ ، كَمَا يَكُونُ « مَاشِيسْت » فِي مَعَارِكِهِ حِينَ يَدْفَعُ عَنِ ٱلضُّعَفَاءِ .

وَهُوَ طِفْلٌ فِي ٱلْعَاشِرَةِ مِنْ لِدَاتِ عِصْمَتْ ، غَيْرَ أَنَّهُ مُحْتَنِكٌ فِي سِنِّ رَجُلٍ صَغِيرٍ ؛ غَلِيظٌ عَبْلٌ شَدِيدُ ٱلْجِبْلَةِ مُتَرَاكِبٌ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ(١) ، كَأَنَّهُ جِنِّيٌّ مُتَقَاصِرٌ يَهُمُّ أَنْ يَطُولَ مِنْهُ ٱلْمَارِدُ ، فَأَنِسَ بِهِ عِصْمَتْ ، وَٱطْمَأَنَّ إِلَىٰ قُوَّتِهِ ، وَأَقْبَلَ يَشْكُو لَهُ وَيَبْكِي !

قَالَ جُعْلُص : مَا ٱسْمُكَ ؟

قَالَ : أَنَا ٱبْنُ ٱلْمُدِيرِ . . . !

قَالَ جُعْلُص : لَا تَبْكِ يَا ٱبْنَ ٱلْمُدِيرِ . تَعَلَّمْ أَنْ تَكُونَ جَلْدًا ، فَإِنَّ ٱلضَّرْبَ لَيْسَ بِذُلٍّ

(١) { أَيْ : شَدِيدُ فَتْلِ ٱلْعَضَلِ ، مُكْتَنِزُ ٱللَّحْمِ } .

وَلَا عَارٍ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلدُّمُوْعَ هِيَ تَجْعَلُهُ ذُلًّا وَعَارًا ؛ إِنَّ ٱلدُّمُوْعَ لَتَجْعَلُ ٱلرَّجُلَ أُنْثَىٰ . نَحْنُ يَا ٱبْنَ ٱلْمُدِيْرِ نَعِيْشُ طُوْلَ حَيَاتِنَا إِمَّا فِيْ ضَرْبِ ٱلْفَقْرِ أَوْ ضَرْبِ ٱلنَّاسِ ، هَـٰذَا مِنْ هَـٰذَا ؛ وَلَـٰكِنَّكَ غَنِيٌّ يَا ٱبْنَ ٱلْمُدِيْرِ ، فَأَنْتَ كَٱلرَّغِيْفِ ٱلْفِيْنُو(١) ضَخْمٌ مُنْتَفِخٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ يَنْكَسِرُ بِلَمْسَةٍ ، وَحَشْوُهُ مِثْلُ ٱلْقُطْنِ !

مَاذَا تَتَعَلَّمُ فِيْ ٱلْمَدْرَسَةِ يَا ٱبْنَ ٱلْمُدِيْرِ إِذَا لَمْ تُعَلِّمْكَ ٱلْمَدْرَسَةُ أَنْ تَكُوْنَ رَجُلًا يَأْكُلُ مَنْ يُرِيْدُ أَكْلَهُ ؛ وَمَاذَا تَعْرِفُ إِذَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ ٱلشَّرِّ يَوْمَ ٱلشَّرِّ ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ لِلْخَيْرِ يَوْمَ ٱلْخَيْرِ ، فَتَكُوْنَ دَائِمًا عَلَىٰ ٱلْحَالَتَيْنِ فِيْ خَيْرٍ ؟

قَالَ عِصْمَتْ : آهٍ لَوْ كَانَ مَعِيَ ٱلْعَسْكَرِيُّ !

قَالَ جُعْلُصٌ : وَيْحَكَ ! لَوْ ضَرَبُوا عَنْزًا لَمَا قَالَتْ : آهٍ لَوْ كَانَ مَعِيَ ٱلْعَسْكَرِيُّ !

قَالَ عِصْمَتْ : فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ ؟

قَالَ جُعْلُصٌ : مِنْ أَنِّيْ أَعْتَمِلُ بِيَدَيَّ فَأَنَا أَشْتَدُّ ، وَإِذَا جُعْتُ أَكَلْتُ طَعَامِيْ ؛ أَمَّا أَنْتَ فَتَسْتَرْخِيْ ، فَإِذَا جُعْتَ أَكَلَكَ طَعَامُكَ ؛ ثُمَّ مِنْ أَنِّيْ لَيْسَ لِيْ عَسْكَرِيٌّ . . . !

قَالَ عِصْمَتْ : بَلِ ٱلْقُوَّةُ مِنْ أَنَّكَ لَسْتَ مِثْلَنَا فِيْ ٱلْمَدْرَسَةِ ؟

قَالَ جُعْلُصٌ : نَعَمْ ، فَأَنْتَ يَا ٱبْنَ ٱلْمَدْرَسَةِ كَأَنَّكَ طِفْلٌ مِنْ وَرَقٍ وَكَرَّاسَاتٍ لَا مِنْ لَحْمٍ ، وَكَأَنَّ عِظَامَكَ مِنْ طَبَاشِيْرَ ! أَنْتَ يَا ٱبْنَ ٱلْمَدْرَسَةِ هُوَ أَنْتَ ٱلَّذِيْ سَيَكُوْنُ بَعْدَ عِشْرِيْنَ سَنَةٍ ، وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا ٱللهُ كَيْفَ يَكُوْنُ ؛ وَأَمَّا أَنَا ٱبْنُ ٱلْحَيَاةِ ، فَأَنَا مِنَ ٱلْآنِ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَكُوْنَ « أَنَا » مِنَ ٱلْآنِ !

أَنْتَ . . .

* * *

وَهُنَا أَدْرَكَهُمَا ٱلْعَسْكَرِيُّ ٱلْمُسَخَّرُ لِٱبْنِ ٱلْمُدِيْرِ ، وَكَانَ كَٱلْمَجْنُوْنِ يَطِيْرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِيْ ٱلطُّرُقِ يَبْحَثُ عَنْ عِصْمَتْ ، لَا حُبًّا فِيْهِ ، وَلَـٰكِنْ خَوْفًا مِنْ أَبِيْهِ ؛ فَمَا كَادَ يَرَىٰ هَـٰذَا ٱلْعَفَرَ

(١) من الإيطالية ، وتعني : الرَّقيق الدَّقيق الهَش . بسام .

عَلَىٰ أَثْوَابِهِ حَتَّىٰ رَنَّتْ صَفْعَتُهُ عَلَىٰ وَجْهِ ٱلْمِسْكِيْنِ جُعْلُصٍ .

فَصَعَّرَ هَـٰذَا خَدَّهُ ، وَرَشَقَ عِصْمَتْ بِنَظَرِهِ ، وَٱنْطَلَقَ يَعْدُو عَدْوَ ٱلظَّلِيْمِ !

يَا لِلْعَدَالَةِ ! كَانَتِ ٱلصَّفْعَةُ عَلَىٰ وَجْهِ ٱبْنِ ٱلْفَقِيْرِ ، وَكَانَ ٱلْبَاكِيْ مِنْهَا ٱبْنَ ٱلْغَنِيِّ . . . !

* * *

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا ٱلْفُقَرَاءُ ، حَسْبُكُمُ ٱلْبُطُوْلَةُ ؛ فَلَيْسَ غِنَىٰ بَطَلِ ٱلْحَرْبِ فِيْ ٱلْمَالِ وَٱلنَّعِيْمِ ، وَلَـٰكِنْ بِٱلْجِرَاحِ وَٱلْمَشَقَّاتِ فِيْ جِسْمِهِ وَتَارِيْخِهِ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

أَحْلَامٌ فِي ٱلشَّارِعِ (*)(١)

عَلَىٰ عَتَبَةِ ٱلْبَنْكِ نَامَ ٱلْغُلَامُ وَأُخْتُهُ يَفْتَرِشَانِ ٱلرُّخَامَ ٱلْبَارِدَ ، وَيَلْتَحِفَانِ جَوًّا رُخَامِيًّا فِي بَرْدِهِ وَصَلَابَتِهِ عَلَىٰ جِسْمَيْهِمَا .

ٱلطِّفْلُ مُتَكَبْكِبٌ فِي ثَوْبِهِ كَأَنَّهُ جِسْمٌ قُطِّعَ وَرُكِمَتْ أَعْضَاؤُهُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَسُجِّيَتْ بِثَوْبٍ ، وَرُمِيَ ٱلرَّأْسُ مِنْ فَوْقِهَا فَمَالَ عَلَىٰ خَدِّهِ .

وَٱلْفَتَاةُ كَأَنَّهَا مِنَ ٱلْهُزَالِ رَسْمٌ مُخَطَّطٌ لِامْرَأَةٍ ، بَدَأَهَا ٱلْمُصَوِّرُ ثُمَّ أَغْفَلَهَا إِذْ لَمْ تُعْجِبْهُ . كَتَبَ ٱلْفَقْرُ عَلَيْهَا لِلْأَعْيُنِ مَا يَكْتُبُ ٱلذُّبُولُ عَلَى ٱلزَّهْرَةِ : أَنَّهَا صَارَتْ قَشًّا . . .

نَائِمَةٌ فِي صُورَةِ مَيِّتَةٍ ، أَوْ كَمَيِّتَةٍ فِي صُورَةِ نَائِمَةٍ ؛ وَقَدِ ٱنْسَكَبَ ضَوْءُ ٱلْقَمَرِ عَلَىٰ وَجْهِهَا ، وَبَقِيَ وَجْهُ أَخِيهَا فِي ٱلظِّلِّ ؛ كَأَنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ مَلَكًا وَجَّهَ ٱلْمِصْبَاحَ إِلَيْهَا وَحْدَهَا ، إِذْ عَرَفَ أَنَّ ٱلطِّفْلَ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ عَلَامَةُ هَمٍّ ، وَأَنَّ فِي وَجْهِهَا هِيَ كُلَّ هَمِّهَا وَهَمَّ أَخِيهَا .

مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا أُنْثَىٰ قَدْ خُلِقَتْ لِتَلِدَ ، خُلِقَ لَهَا قَلْبٌ يَحْمِلُ ٱلْهُمُومَ وَيَلِدُهَا وَيُرَبِّيهَا .

مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا أُعِدَّتْ لِلْأُمُومَةِ ، تَتَأَلَّمُ دَائِمًا فِي ٱلْحَيَاةِ آلَامًا فِيهَا مَعْنَىٰ ٱنْفِجَارِ ٱلدَّمِ .

مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي تَزِيدُ ٱلْوُجُودَ ، يَزِيدُ هَـٰذَا ٱلْوُجُودُ دَائِمًا فِي أَحْزَانِهَا .

وَإِذَا كَانَتْ بِطَبِيعَتِهَا تُقَاسِي ٱلْأَلَمَ لَا يُطَاقُ حِينَ تَلِدُ فَرَحَهَا ، فَكَيْفَ بِهَا فِي ٱلْحُزْنِ . . . !

* * *

وَكَانَ رَأْسُ ٱلطِّفْلِ إِلَىٰ صَدْرِ أُخْتِهِ ، وَقَدْ نَامَ مُطْمَئِنًّا إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْوُجُودِ ٱلنِّسْوِيِّ ، ٱلَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ لِكُلِّ طِفْلٍ مِثْلِهِ ، مَا دَامَ ٱلطِّفْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ خَرَجَ إِلَى ٱلدُّنْيَا وَإِلَىٰ صَدْرِهَا مَعًا .

(*) « الرسالة » العدد : ٥٦ ، ١٩ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ٣٠ يوليو/ تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٢٤٥ ـ ١٢٤٨ .

(١) مَنْظَرُ طِفْلٍ مُتَشَرِّدٍ كَانَ هُوَ وَأُخْتُهُ نَائِمَيْنِ عَلَىٰ عَتَبَةِ ٱلْبَنْكِ . [البنك Banque : المصرف] .

وَنَامَتْ هِيَ وَيَدُهَا مُرْسَلَةٌ عَلَىٰ أَخِيهَا كَيَدِ ٱلْأُمِّ عَلَىٰ طِفْلِهَا . يَا إِلَـٰهِي ! نَامَتْ وَيَدُهَا مُسْتَيْقِظَةٌ !

أَهُمَا طِفْلَانِ ؟ أَمْ كِلَاهُمَا تِمْثَالٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي شَقِيَتْ بِٱلسُّعَدَاءِ فَعَوَّضَهَا ٱللهُ مِنْ رَحْمَتِهِ أَلَّا تَجِدَ شَقِيًّا مِثْلَهَا إِلَّا تَضَاعَفَتْ سَعَادَتُهَا بِهِ ؟

تِمْثَالَانِ يُصَوِّرَانِ كَيْفَ يَسْرِي قَلْبُ أَحَدِ ٱلْحَبِيبَيْنِ فِي ٱلْجِسْمِ ٱلْآخَرِ ، فَيَجْعَلُ لَهُ وُجُودًا فَوْقَ ٱلدُّنْيَا ، لَا تَصِلُ ٱلدُّنْيَا إِلَيْهِ بِفَقْرِهَا وَغِنَاهَا ، وَلَا سَعَادَتِهَا وَشَقَائِهَا ، لِأَنَّهُ وُجُودُ ٱلْحُبِّ لَا وُجُودُ ٱلْعُمْرِ ؛ وُجُودٌ سِحْرِيٌّ لَيْسَ فِيهِ مَعْنًى لِلْكَلِمَاتِ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ ٱلْمَالِ وَٱلتُّرَابِ ، وَٱلْأَمِيرِ وَٱلصُّعْلُوكِ ؛ إِذِ ٱللُّغَةُ هُنَاكَ إِحْسَاسُ ٱلدَّمِ ، وَإِذِ ٱلْمَعْنَىٰ لَيْسَ فِي أَشْيَاءِ ٱلْمَادَّةِ وَلَـٰكِنْ فِي أَشْيَاءِ ٱلْإِرَادَةِ .

وَهَلْ تَحْيَا ٱلْأَلْفَاظُ مَعَ ٱلْمَوْتِ ، فَيَكُونَ بَعْدَهُ لِلْمَالِ مَعْنًى وَلِلتُّرَابِ مَعْنًى . . . ؟ هِيَ كَذَٰلِكَ فِي ٱلْحُبِّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ شَبِيهًا بِمَا يَفْعَلُهُ ٱلْمَوْتُ فِي نَقْلِهِ ٱلْحَيَاةَ إِلَىٰ عَالَمٍ آخَرَ ، بَيْدَ أَنَّ أَحَدَ ٱلْعَالَمَيْنِ وَرَاءَ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْآخَرَ وَرَاءَ ٱلنَّفْسِ .

* * *

تَحْتَ يَدِ ٱلْأُخْتِ ٱلْمَمْدُودَةِ يَنَامُ ٱلطِّفْلُ ٱلْمِسْكِينُ ، وَمِنْ شُعُورِهِ بِهَـٰذِهِ ٱلْيَدِ ، خَفَّ ثِقَلُ ٱلدُّنْيَا عَلَىٰ قَلْبِهِ .

لَمْ يُبَالِ أَنْ نَبَذَهُ ٱلْعَالَمُ كُلُّهُ ، مَا دَامَ يَجِدُ فِي أُخْتِهِ عَالَمَ قَلْبِهِ ٱلصَّغِيرِ . وَكَأَنَّهُ فَرْخٌ مِنْ فِرَاخِ ٱلطَّيْرِ فِي عُشِّهِ ٱلْمُعَلَّقِ ، وَقَدْ جَمَعَ لَحْمَهُ ٱلْغَضَّ ٱلْأَحْمَرَ تَحْتَ جَنَاحِ أُمِّهِ ، فَأَحَسَّ أَهْنَأَ ٱلسَّعَادَةِ حِينَ ضَيَّقَ فِي نَفْسِهِ ٱلْكَوْنَ ٱلْعَظِيمَ ، وَجَعَلَهُ وُجُودًا مِنَ ٱلرِّيشِ .

وَكَذَٰلِكَ يَسْعَدُ كُلُّ مَنْ يَمْلِكُ قُوَّةَ تَغْيِيرِ ٱلْحَقَائِقِ وَتَبْدِيلِهَا ، وَفِي هَـٰذَا تَفْعَلُ ٱلطُّفُولَةُ فِي نَشْأَةِ عُمْرِهَا مَا لَا تَفْعَلُ بَعْضَهُ مُعْجِزَاتُ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلْعُلْيَا فِي جُمْلَةِ أَعْمَارِ ٱلْفَلَاسِفَةِ .

وَمَا صَنَعَ ٱلَّذِينَ جُنُّوا بِٱلذَّهَبِ ، وَلَا ٱلَّذِينَ فُتِنُوا بِٱلسُّلْطَةِ ، وَلَا ٱلَّذِينَ هَلَكُوا بِٱلْحُبِّ ، وَلَا ٱلَّذِينَ تَحَطَّمُوا بِٱلشَّهَوَاتِ ـ إِلَّا أَنَّهُمْ حَاوَلُوا عَبَثًا أَنْ يَرْشُوا رَحْمَةَ ٱللهِ لِتُعْطِيَهُمْ فِي ٱلذَّهَبِ وَٱلسُّلْطَةِ وَٱلْحُبِّ وَٱلشَّهَوَاتِ مَا نَوَّلَتْهُ هَـٰذَا ٱلطِّفْلَ ٱلْمِسْكِينَ ٱلنَّائِمَ فِي أَشِعَّةِ ٱلْكَوَاكِبِ تَحْتَ

ذِرَاعِ كَوْكَبِ رُوْحِهِ ٱلْأَرْضِيِّ .

أَلَا إِنَّ أَعْظَمَ ٱلْمُلُوْكِ لَنْ يَسْتَطِيْعَ بِكُلِّ مُلْكِهِ أَنْ يَشْتَرِيَ ٱلطَّرِيْقَةَ ٱلْهَنِيْئَةَ ٱلَّتِيْ يَنْبِضُ بِهَا ٱلسَّاعَةَ قَلْبُ هَـٰذَا ٱلطِّفْلِ .

* * *

وَقَفْتُ أَشْهَدُ ٱلطِّفْلَيْنِ وَأَنَا مُسْتَيْقِنٌ أَنَّ حَوْلَهُمَا مَلَائِكَةً تَصْعَدُ وَمَلَائِكَةً تَنْزِلُ ؛ وَقُلْتُ : هَـٰذَا مَوْضِعٌ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلرَّحْمَةِ ، فَإِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُنْكَسِرَةِ قُلُوْبُهُمْ ، وَلَعَلِّيْ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِنَفْحَةٍ مِنْ نَفَحَاتِهَا ، وَلَعَلَّ مَلَكًا كَرِيْمًا يَقُوْلُ : وَهَـٰذَا بَائِسٌ آخَرُ ، فَيَرُفُّنِيْ بِجَنَاحِهِ رَفَّةً مَا أَحْوَجَ نَفْسِيْ إِلَيْهَا ، تَجِدُ بِهَا فِيْ ٱلْأَرْضِ لَمْسَةً مِنْ ذَلِكَ ٱلنُّوْرِ ٱلْمُتَلَأْلِئِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ .

وَظَهَرَ لِيْ بِنَاءُ ٱلْبَنْكِ فِيْ ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ مِنْ مَرْأَىٰ ٱلْغُلَامَيْنِ ـ أَسْوَدَ كَالِحًا ، كَأَنَّهُ سِجْنٌ أُقْفِلَ عَلَىٰ شَيْطَانٍ يُمْسِكُهُ إِلَىٰ ٱلصُّبْحِ ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ لِيَنْطَلِقَ مُعَمِّرًا ، أَيْ : مُخَرِّبًا . . . أَوْ هُوَ جِسْمُ جَبَّارٍ كَفَرَ بِٱللهِ وَبِٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَلَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا بِنَفْسِهِ وَحُظُوْظِ نَفْسِهِ فَمَسَخَهُ ٱللهُ بِنَاءً ، وَأَحَاطَهُ مِنْ هَـٰذَا ٱلظَّلَامِ ٱلْأَسْوَدِ بِمَعَانِيْ آثَامِهِ وَكُفْرِهِ . . .

يَا عَجَبًا ! بَطْنَانِ جَائِعَانِ فِيْ أَطْمَارٍ بَالِيَةٍ يَبِيْتَانِ عَلَىٰ ٱلطَّوَىٰ وَٱلْهَمِّ ، ثُمَّ لَا يَكُوْنُ وِسَادُهُمَا إِلَّا عَتَبَةَ ٱلْبَنْكِ ! تُرَىٰ مَنِ ٱلَّذِيْ لَعَنَ ٱلْبَنْكَ بِهَـٰذِهِ ٱللَّعْنَةِ ٱلْحَيَّةِ ؟ وَمَنِ ٱلَّذِيْ وَضَعَ هَـٰذَيْنِ ٱلْقَلْبَيْنِ ٱلْفَارِغَيْنِ مَوْضِعَهُمَا ذَلِكَ لِيُثْبِتَ لِلنَّاسِ أَنْ لَيْسَ ٱلْبَنْكُ خَزَائِنَ حَدِيْدِيَّةً يَمْلَؤُهَا ٱلذَّهَبُ ، وَلَـٰكِنَّهُ خَزَائِنُ قَلْبِيَّةٌ يَمْلَؤُهَا ٱلْحُبُّ . . . ؟

* * *

وَقَفْتُ أَرَىٰ ٱلطِّفْلَيْنِ رُؤْيَةَ فِكْرٍ وَرُؤْيَةَ شِعْرٍ مَعًا ، فَإِذَا ٱلْفِكْرُ وَٱلشِّعْرُ يَمْتَدَّانِ بَيْنِيْ وَبَيْنَ أَحْلَامِهِمَا ، وَدَخَلْتُ فِيْ نَفْسَيْنِ مَضَّهُمَا ٱلْهَمُّ وَٱشْتَدَّ عَلَيْهِمَا ٱلْفَقْرُ ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ فِيْ ٱلْحَيَاةِ إِلَّا كَادَهُمَا وَعَاسَرَهُمَا ؛ وَنِمْتُ نَوْمَتِيْ ٱلشِّعْرِيَّةَ . . .

قَالَ ٱلطِّفْلُ لِأُخْتِهِ : هَلُمِّيْ فَلْنَذْهَبْ مِنْ هُنَا فَنَقِفَ عَلَىٰ بَابِ ٱلسِّيْنِمَا نَتَفَرَّجُ مِمَّا بِنَا ، فَنَرَىٰ أَوْلَادَ ٱلْأَغْنِيَاءِ ٱلَّذِيْنَ لَهُمْ أَبٌ وَأُمٌّ .

ٱنْظُرِيْ هَا هُمْ أُوْلَاءِ يُرَىٰ عَلَيْهِمْ أَثَرُ ٱلْغِنَىٰ ، وَتُعْرَفُ فِيْهِمْ رُوْحُ ٱلنِّعْمَةِ ؛ وَقَدْ

شَبِعُوا . . . إِنَّهُمْ يَلْبَسُوْنَ لَحْمًا عَلَىٰ عِظَامِهِمْ ؛ أَمَّا نَحْنُ فَنَلْبَسُ عَلَىٰ عِظَامِنَا جِلْدًا كَجِلْدِ ٱلْحِذَاءِ ؛ إِنَّهُمْ أَوْلَادُ أَهْلِيْهِمْ ؛ أَمَّا نَحْنُ فَأَوْلَادُ ٱلْأَرْضِ ؛ هُمْ أَطْفَالٌ ، وَنَحْنُ حَطَبٌ إِنْسَانِيٌّ يَابِسٌ ؛ يَعِيْشُوْنَ فِيْ ٱلْحَيَاةِ ثُمَّ يَمُوْتُوْنَ ؛ أَمَّا نَحْنُ فَعَيْشُنَا هُوَ سَكَرَاتُ ٱلْمَوْتِ ، إِلَىٰ أَنْ نَمُوْتَ ؛ لَهُمْ عَيْشٌ وَمَوْتٌ ، وَلَنَا ٱلْمَوْتُ مُكَرَّرًا .

وَيْلِيْ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلطِّفْلِ ٱلْأَبْيَضِ ٱلسَّمِيْنِ ، ٱلْحَسَنِ ٱلْبِزَّةِ ، ٱلْأَنِيْقِ ٱلشَّارَةِ ، ذَاكَ ٱلَّذِيْ يَأْكُلُ ٱلْحَلْوَىٰ أَكْلَ لِصٍّ قَدْ سَرَقَ طَعَامًا فَأَسْرَعَ يَحْدُرُ فِيْ جَوْفِهِ مَا سَرَقَ ؛ هُوَ ٱلْغِنَىٰ ٱلَّذِيْ جَعَلَهُ يَبْتَلِعُ بِهَـٰذِهِ ٱلشَّرَاهَةِ ، كَأَنَّمَا يَشْرَبُ مَا يَأْكُلُ ، أَوْ لَهُ حَلْقٌ غَيْرُ ٱلْحُلُوْقِ ؛ وَنَحْنُ ـ إِذَا أَكَلْنَا ـ نَغَصُّ بِٱلْخُبْزِ لَا أُدْمَ مَعَهُ ، وَإِذَا ٱرْتَفَعْنَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ لَمْ نَجِدْ إِلَّا ٱلْبَشِيْعَ مِنَ ٱلطَّعَامِ ، وَأَصَبْنَاهُ عَفِنًا أَوْ فَاسِدًا لَا يَسُوْغُ فِيْ ٱلْحَلْقِ ، فَإِذَا ٱنْخَفَضْنَا فَلَيْسَ إِلَّا مَا نَتَقَمَّمُ مِنْ قُشُوْرِ ٱلْأَرْضِ وَمِنْ حُتَاتِ ٱلْخُبْزِ كَالدَّوَابِّ وَٱلْكِلَابِ ؛ وَإِنْ لَمْ نَجِدْ وَمَسَّنَا ٱلْعُدْمُ وَقَفْنَا نَتَحَيَّنُ طَعَامَ قَوْمٍ فِيْ دَارٍ أَوْ نُزُلٍ ، فَنَرَاهُمْ يَأْكُلُوْنَ فَنَأْكُلُ مَعَهُمْ بِأَعْيُنِنَا ، وَلَا نَطْمَعُ أَنْ نَسْتَطْعِمَهُمْ وَإِلَّا أَطْعَمُوْنَا ضَرْبًا فَنَكُوْنُ قَدْ جِئْنَاهُمْ بِأَلَمٍ وَاحِدٍ فَرَدُّوْنَا بِأَلَمَيْنِ ، وَنَفْقِدُ بِٱلضَّرْبِ مَا كَانَ يُمْسِكُ رَمَقَنَا مِنَ ٱلِاحْتِمَالِ وَٱلصَّبْرِ .

هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَطْفَالُ يَتَضَوَّرُوْنَ شَهْوَةً كُلَّمَا أَكَلُوْا ، لِيَعُوْدُوْا فَيَأْكُلُوْا ؛ وَنَحْنُ نَتَضَوَّرُ جُوْعًا وَلَا نَأْكُلُ ، لِنَعُوْدَ فَنَجُوْعَ وَلَا نَأْكُلَ ؛ وَهُمْ بَيْنَ سَمْعِ أَهْلِيْهِمْ وَبَصَرِهِمْ ؛ مَا مِنْ أَنَّةٍ إِلَّا وَقَعَتْ فِيْ قَلْبٍ ، وَمَا مِنْ كَلِمَةٍ إِلَّا وَجَدَتْ إِجَابَةً ؛ وَنَحْنُ بَيْنَ سَمْعِ ٱلشَّوَارِعِ وَبَصَرِهَا ، أَنِيْنٌ ضَائِعٌ ، وَدُمُوْعٌ غَيْرُ مَرْحُوْمَةٍ !

آهٍ لَوْ كَبِرْتُ فَصِرْتُ رَجُلًا طَوِيْلًا عَرِيْضًا ؟ أَتَدْرِيْنَ مَاذَا أَصْنَعُ ؟

ـ مَاذَا تَصْنَعُ يَا أَحْمَدُ ؟

ـ إِنَّنِيْ أَخْنُقُ بِيَدَيَّ كُلَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَطْفَالِ !

ـ سَوْأَةً لَكَ يَا أَحْمَدُ ، كُلُّ طِفْلٍ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ لَهُ أُمٌّ مِثْلُ أُمِّنَا ٱلَّتِيْ مَاتَتْ ، وَلَهُ أُخْتٌ مِثْلِيْ ؛ فَمَا عَسَىٰ يَنْزِلُ بِيْ لَوْ ثَكِلْتُكَ إِذَا خَنَقَكَ رَجُلٌ طَوِيْلٌ عَرِيْضٌ ؟

ـ لَا ، لَا أَخْنُقُهُمْ ؛ بَلْ سَأُرْضِيْهِمْ مِنْ نَفْسِيْ ؛ أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَصِيْرَ رَجُلًا مِثْلَ ٱلْمُدِيْرِ ٱلَّذِيْ

رَأَيْنَاهُ فِي سَيَّارَتِهِ ٱلْيَوْمَ عَلَىٰ حَالٍ مِنَ ٱلسَّطْوَةِ تُعْلِنُ أَنَّهُ ٱلْمُدِيرُ . . . أَتَدْرِينَ مَاذَا أَصْنَعُ ؟

ـ مَاذَا تَصْنَعُ يَا أَحْمَدُ ؟

ـ أَرَأَيْتِ عَرَبَةَ ٱلإِسْعَافِ ٱلَّتِي جَاءَتْ عِنْدَ ٱلظُّهْرِ فَٱنْقَلَبَتْ نَعْشًا لِلرَّجُلِ ٱلْهَرِمِ ٱلْمُحَطَّمِ ٱلَّذِي أُغْمِيَ عَلَيْهِ فِي ٱلطَّرِيقِ ؟. سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ ٱلْمُدِيرَ هُوَ ٱلَّذِي أَمَرَ بِٱتِّخَاذِ هَـٰذِهِ ٱلْعَرَبَةِ ، وَلَـٰكِنَّهُ رَجُلٌ غُفْلٌ لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنَ ٱلْحَيَاةِ مِثْلَنَا ، وَلَمْ تُحَكِّمْهُ تَجَارِبُ ٱلدُّنْيَا ؛ فَٱلَّذِي يَمُوتُ بِٱلْفُجَاءَةِ أَوْ غَيْرِهَا لَا يُحْيِيهِ ٱلْمُدِيرُ وَلَا غَيْرُ ٱلْمُدِيرِ ، وَٱلَّذِي يَقَعُ فِي ٱلطَّرِيقِ يَجِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَبْتَدِرُونَهُ لِنَجْدَتِهِ وَإِسْعَافِهِ بِقُلُوبٍ إِنْسَانِيَّةٍ رَحِيمَةٍ ، لَا بِقَلْبِ سَوَّاقِ عَرَبَةٍ يَنْتَظِرُ ٱلْمُصِيبَةَ عَلَىٰ أَنَّهَا رِزْقٌ وَعَيْشٌ .

إِنَّ عَرَبَاتِ ٱلإِسْعَافِ هَـٰذِهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا أَكْلٌ . . . وَيَجِبُ أَنْ تَحْمِلَ أَمْثَالَنَا مِنَ ٱلطُّرُقِ وَٱلشَّوَارِعِ إِلَى ٱلْبُيُوتِ وَٱلْمَدَارِسِ ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلطِّفْلِ أُمٌّ تُطْعِمُهُ وَتُؤْوِيهِ فَلْتَصْنَعْ لَهُ أُمٌّ .

كُلُّ شَيْءٍ أَرَاهُ لَا أَرَاهُ إِلَّا عَلَى ٱلْغَلَطِ ، كَأَنَّ ٱلدُّنْيَا مُنْقَلِبَةٌ أَوْ مُدْبِرَةٌ إِدْبَارَهَا ، وَمَا قَطُّ رَأَيْتُ ٱلأُمُورَ فِي بِلَادِنَا جَارِيَةً عَلَىٰ مَجَارِيهَا ؛ فَهَـٰؤُلَاءِ ٱلْحُكَّامُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا إِلَّا مِنْ أَوْلَادِ صَالِحِي ٱلْفُقَرَاءِ ، لِيَحْكُمُوا بِقَانُونِ ٱلْفَقْرِ وَٱلرَّحْمَةِ ، لَا بِقَانُونِ ٱلْغِنَىٰ وَٱلْقَسْوَةِ ، وَلِيَقْتَحِمُوا ٱلأُمُورَ ٱلْعَظِيمَةَ ٱلْمُشْتَبِهَةَ بِنُفُوسٍ عَظِيمَةٍ صَرِيحَةٍ قَدْ نَبَتَتْ عَلَىٰ صَلَابَةٍ وَبَأْسٍ ، وَخُلُقٍ وَدِينٍ وَرَحْمَةٍ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْهَزِمُ فِي مَعْرَكَةِ ٱلْحَوَادِثِ إِلَّا رُوحُ ٱلنَّعْمَةِ فِي أَهْلِ ٱلنَّعْمَةِ ، وَأَخْلَاقُ ٱللِّينِ فِي أَهْلِ ٱللِّينِ ؛ وَبِهَـٰؤُلَاءِ لَمْ يَبْرَحِ ٱلشَّرْقُ مِنْ هَزِيمَةٍ سِيَاسِيَّةٍ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ سِيَاسِيَّةٍ .

إِنَّ لِلْحُكْمِ لَحْمًا وَدَمًا هُوَ لَحْمُ ٱلْحَاكِمِ وَدَمُهُ ؛ فَإِنْ كَانَ صُلْبًا خَشِنًا فِيهِ رُوحُ ٱلأَرْضِ وَرُوحُ ٱلسَّمَاءِ فَذَاكَ ، وَإِلَّا قَتَلَ ٱللِّينُ وَٱلتَّرَفُ ٱلْحُكْمَ وَٱلْحَاكِمَ جَمِيعًا . وَهَـٰؤُلَاءِ ٱلْحُكَّامُ مِنْ أَوْلَادِ ٱلأَغْنِيَاءِ لَا يَكُونُ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْ يَرْفَعُوا مِنْ شَأْنِ أَنْفُسِهِمْ ، إِذِ ٱلسُّلْطَةُ دَرَجَةٌ فَوْقَ ٱلْغِنَىٰ ، وَمَنْ نَالَ هَـٰذِهِ ٱسْتَشْرَفَ لِتِلْكَ ، فَإِذَا جَمَعُوهُمَا كَانَ مِنْهُمَا ٱلْخُلُقُ ٱلظَّالِمُ ٱلَّذِي يُصَوِّرُ لَهُمُ ٱلاعْتِدَاءَ قُوَّةً وَسَطْوَةً وَعُلُوًّا ، مِنْ حَيْثُ عَدِمُوا ٱلْخُلُقَ ٱلرَّحِيمَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُ لَهُمْ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ ضَعْفًا وَجُبْنًا وَنَذَالَةً . إِنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا حَكَمَ وَتَسَلَّطَ أَرَادَ أَنْ يَضْرِبَ ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ

ضَرْبَتُهُ ٱلأُولَىٰ إِلَّا فِي ٱلْمَبْدَإِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ لِلأُمَّةِ ، أَوْ فِي ٱلأَصْلِ ٱلأَدَبِيِّ لِلإِنْسَانِيَّةِ . وَيَحْرِصُونَ عَلَىٰ مَا بِهِ تَمَامُهُمْ ، أَيْ : عَلَى ٱلسُّلْطَةِ ، أَيْ : عَلَى ٱلْحُكْمِ ؛ فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ يَتَكَلَّفُوا لِلْحِرْصِ أَخْلَاقَهُ ، وَأَنْ يَجْمَعُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَسْبَابَهُ ؛ مِنَ ٱلْمُدَارَاةِ وَٱلْمُصَانَعَةِ وَٱلْمُهَاوَنَةِ ، نَازِلًا فَنَازِلًا إِلَىٰ دَرْكٍ بَعِيدٍ ، فَيَنْشُرُونَ أَسْوَأَ ٱلأَخْلَاقِ بِقُوَّةِ ٱلْقَانُونِ مَا دَامُوا هُمُ ٱلْقُوَّةَ .

ـ وَمَاذَا تُرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ أَوْلَادُ ٱلأَغْنِيَاءِ يَا أَحْمَدُ ؟

ـ أَمَّا أَوْلَادُ ٱلأَغْنِيَاءِ فَيَجِبُ أَنْ يُبَاشِرُوا ٱلصِّنَاعَةَ وَٱلتِّجَارَةَ ، لِيَجِدُوا عَمَلًا شَرِيفًا يُصِيبُونَ مِنْهُ رِزْقَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ لَا بِأَيْدِي آبَائِهِمْ ، فَإِنَّهُ وَٱللهِ لَوْلَا ٱلْعَمَىٰ ٱلاجْتِمَاعِيُّ لَمَا كَانَ فَرْقٌ بَيْنَ ٱبْنِ أَمِيرٍ مُتَبَطِّلٍ فِي أَمْلَاكِ أَبِيهِ مِنَ ٱلْقُصُورِ وَٱلضِّيَاعِ ، وَٱبْنِ فَقِيرٍ مُتَبَطِّلٍ فِي أَمْلَاكِ ٱلْمَجْلِسِ ٱلْبَلَدِيِّ مِنَ ٱلأَزِقَّةِ وَٱلشَّوَارِعِ .

وَٱبْنُ ٱلأَمِيرِ إِذَا كَانَ نَجَّارًا أَوْ حَدَّادًا أَصْلَحَ ٱلسُّوقَ وَٱلشَّارِعَ بِأَخْلَاقِهِ ٱلطَّيِّبَةِ ٱللَّيِّنَةِ ، وَتَعَفُّفِهِ وَكَرَمِهِ ، فَيَتَعَلَّمُ سَوَادُ ٱلنَّاسِ مِنْهُ ٱلأَمَانَةَ وَٱلصِّدْقَ ، إِذْ هُوَ لَا يَكْذِبُ وَلَا يَسْرِقُ مَا دَامَ فَوْقَ ٱلاضْطِرَارِ ، وَلَا كَذَلِكَ ٱبْنُ ٱلْفَقِيرِ ٱلَّذِي يَضْطَرُّهُ ٱلْعَيْشُ أَنْ يَكُونَ تَاجِرًا أَوْ صَانِعًا ، فَتَكُونَ حِرْفَتُهُ ٱلتِّجَارَةَ وَهِيَ ٱلسَّرِقَةُ ، أَوِ ٱلصِّنَاعَةَ وَهِيَ ٱلْغِشُّ ، وَيَكُونَ فِي ٱلنَّاسِ أَكْثَرَ عُمُرِهِ مَادَّةَ كَذِبٍ وَإِثْمٍ وَلُصُوصِيَّةٍ .

آهٍ لَوْ صِرْتُ مُدِيرًا ! أَتَدْرِينَ مَاذَا أَصْنَعُ ؟

ـ مَاذَا تَصْنَعُ يَا أَحْمَدُ ؟

ـ أَعْمَدُ إِلَى ٱلأَغْنِيَاءِ فَأَرُدُّهُمْ بِٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَحْمِلُهُمْ عَلَيْهَا حَمْلًا ، وَأُصْلِحُ فِيهِمْ صِفَاتِهَا ٱلَّتِي أَفْسَدَهَا ٱلتَّرَفُ وَٱللِّينُ وَٱلنَّعْمَةُ ، ثُمَّ أُصْلِحُ مَا أَخَلَّ بِهِ ٱلْفَقْرُ مِنْ صِفَاتِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ بِٱلْفُقَرَاءِ ، وَأَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ حَمْلًا ، فَيَسْتَوِي هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ ، وَيَتَقَارَبُونَ عَلَىٰ أَصْلٍ فِي ٱلدَّمِ إِنْ لَمْ يَلِدْهُ آبَاؤُهُمْ وَلَدَهُ ٱلْقَانُونُ . أَلَا إِنَّ سُقُوطَ أُمَّتِنَا هَـٰذِهِ لَمْ يَأْتِ إِلَّا مِنْ تَعَادِي ٱلصِّفَاتِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ فِي أَفْرَادِهَا ، فَتَقَطَّعَ مَا بَيْنَهُمْ ، فَهُمْ أَعْدَاءٌ فِي وَطَنِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ ٱسْمُهُمْ أَهْلَ وَطَنِهِمْ .

وَمَتَىٰ أُحْكِمَتِ ٱلصِّفَاتُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ فِي ٱلأُمَّةِ كُلِّهَا وَدَانَىٰ بَعْضُهَا بَعْضًا ـ صَارَ قَانُوْنُ كُلِّ فَرْدٍ كَلِمَتَيْنِ ، لَا كَلِمَةً وَاحِدَةً كَمَا هُوَ ٱلآنَ . ٱلْقَانُوْنُ ٱلآنَ : حَقِّيٌّ ، وَنَحْنُ نُرِيْدُ أَنْ يَكُوْنَ : حَقِّيٌّ وَوَاجِبِيٌّ ، وَمَا أَهْلَكَ ٱلْفُقَرَاءَ بِالأَغْنِيَاءِ ، وَلَا ٱلأَغْنِيَاءَ بِٱلْفُقَرَاءِ ، وَلَا ٱلْمَحْكُوْمِيْنَ بِٱلْحُكَّامِ ـ إِلَّا قَانُوْنُ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْوَاحِدَة .

* * *

أَنَا أَحْمَدُ ٱلْمُدِيْرُ . . . لَسْتُ ٱلْمُدِيْرَ بِمَا فِي نَفْسِ أَحْمَدَ ، وَلَا بِمَعِدَتِهِ وَبَطْنِهِ ، وَلَا بِمَا يُرِيْدُ أَحْمَدُ لِنَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ . . . كَلَّا ، أَنَا عَمَلٌ ٱجْتِمَاعِيٌّ مُنَظَّمٌ يَحْكُمُ أَعْمَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْعَدْلِ ، أَنَا خُلُقٌ ثَابِتٌ يُوَجِّهُ أَخْلَاقَهُمْ بِٱلْقُوَّةِ ، أَنَا ٱلْحَيَاةُ ٱلأُمُّ مَعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلأَطْفَالِ ٱلإِخْوَةِ فِي هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يُسَمَّىٰ ٱلْوَطَنَ ، أَنَا ٱلرَّحْمَةُ ، عِنْدِيَ ٱلْجَنَّةُ وَلَـٰكِنْ عِنْدِي جَهَنَّمُ أَيْضًا مَا دَامَ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْصِيْ ، أَنَا بِكُلِّ ذَلِكَ لَسْتُ أَحْمَدَ ، لَـٰكِنَّنِي ٱلإِصْلَاحُ .

هَـٰأَنَذَا قَدْ صِرْتُ مُدِيْرًا أَعُسُّ فِي ٱلطَّرِيْقِ بِٱللَّيْلِ وَأَتَفَقَّدُ ٱلنَّاسَ وَنَوَائِبَهُمْ .

مَنْ أَرَىٰ ؟ هَـٰذَا طِفْلٌ وَأُخْتُهُ نَائِمَانِ عَلَىٰ عَتَبَةِ ٱلْبَنْكِ فِي حَيَاةٍ كَأَهْدَامِهِمَا ٱلْمُرَقَّعَةِ ، فِي دُنْيَا تَمَزَّقَتْ عَلَيْهِمَا ، قُمْ يَا بُنَيَّ ، لَا تُرَعْ إِنَّمَا أَنَا كَأَبِيْكَ ، تَقُوْلُ : ٱسْمُكَ أَحْمَدُ ، وَٱسْمُ أُخْتِكَ أَمِيْنَةُ ؟

تَقُوْلُ : إِنَّكَ مَا نِمْتَ مِنَ ٱلْجُوْعِ ، وَلَـٰكِنْ مَضْمَضْتَ عَيْنَكَ بِشُعَاعِ ٱلنَّوْمِ ؟

يَا وَلَدَيَّ ٱلْمِسْكِيْنَيْنِ . بِأَيِّ ذَنْبٍ مِنْ ذُنُوْبِكُمَا دَقَّتْكُمَا ٱلأَيَّامُ دَقًّا وَطَحَنَتْكُمَا طَحْنًا ، وَبِأَيِّ فَضِيْلَةٍ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ يَكُوْنُ ٱبْنُ فُلَانٍ بَاشَا ، وَبِنْتُ فُلَانٍ بَاشَا فِي هَـٰذَا ٱلْعَيْشِ ٱللَّيِّنِ يَخْتَارَانِ مِنْهُ وَيَتَأَنَّقَانِ فِيْهِ ، مَا ٱلَّذِي ضَرَّ ٱلْوَطَنَ مِنْكُمَا فَتَمُوْتَا ، وَمَا ٱلَّذِي نَفَعَ ٱلْوَطَنَ مِنْهُمَا فَيَعِيْشَا ؟

إِنْ كُنْتَ يَا بُنَيَّ لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِكَ ٱلانْتِصَارَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلظَّلِيْمَةِ فَأَنَا أَمْلِكُهَا لَكَ ، وَإِنَّمَا أَنَا ٱلْمَظْلُوْمُ إِلَىٰ أَنْ تَنْتَصِرَ ، وَإِنَّمَا أَنَا ٱلضَّعِيْفُ إِلَىٰ أَنْ آخُذَ لَكَ ٱلْحَقَّ .

إِلَيَّ يَا ٱبْنَ فُلَانٍ بَاشَا وَبِنْتَ فُلَانٍ بَاشَا .

يَا هَـٰذَا عَلَيْكَ أَخَاكَ أَحْمَدَ وَلْتَكُنْ بِهِ حَفِيًّا ، وَيَا هَـٰذِهِ ، عَلَيْكِ أُخْتَكِ ٱلآنِسَةَ أَمِيْنَةَ . . .

أَتَأْبَيَانِ ، أَنَفْرَةً مِنَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَمَرُّدًا عَلَىٰ ٱلْفَضِيْلَةِ ، أَحَقًّا بِلَا وَاجِبٍ ، دَائِمًا قَانُوْنُ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْوَاحِدَةِ !؟ خُلِقْتُمَا أَبْيَضَيْنِ سُخْرِيَةً مِنَ ٱلْقَدَرِ وَأَنْتُمَا فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ أُحْبُوْشَةِ ٱلزَّنْجِ وَمَنَاكِيْدِ ٱلْعَبِيْدِ .

وَرَفَعَ أَحْمَدُ يَدَهُ . . .

وَكَانَ ٱلشُّرْطِيُّ ٱلَّذِي يَقُوْمُ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلشَّارِعِ ، وَإِلَيْهِ حِرَاسَةُ ٱلْبَنْكِ ، قَدْ تَوَسَّنَهُمَا[1] وَدَخَلَتْهُ ٱلرِّيْبَةُ ، فَٱنْتَهَىٰ إِلَيْهِمَا فِي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ ، وَقَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ يَدُ سَعَادَةِ ٱلْمُدِيْرِ بِٱلصَّفْعَةِ عَلَىٰ وَجْهِ ٱبْنِ ٱلْبَاشَا وَبِنْتِ ٱلْبَاشَا كَانَ هَـٰذَا ٱلشُّرْطِيُّ قَدْ رَكَلَهُ بِرِجْلِهِ ، فَوَثَبَ قَائِمًا وَٱجْتَذَبَ أُخْتَهُ وَٱنْطَلَقَا عَدْوَ ٱلْخَيْلِ مِنْ أُلْهُوبِ ٱلسَّوْطِ .

. . . .

وَتَمَجَّدَتِ ٱلْفَضِيْلَةُ كَعَادَتِهَا . . ! . . أَنَّ مِسْكِيْنَنَا حَلَمَ بِهَا . .

مصطفى صادق الرافعي

(١) تَوَسَّنَهُمَا : أَتَاهُمَا نَائِمَيْنِ .

أَحْلَامٌ فِي قَصْرٍ (*)(١)

كَانَ فُلَانُ ٱبْنُ ٱلْأَمِيرِ فُلَانٍ يَتَنَبَّلُ فِي نَفْسِهِ بِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِمَّنْ يَضَعُ ٱلْقَوَانِينَ لَا مِمَّنْ يَخْضَعُ لَهَا ، فَكَانَ تَيَّاهًا صَلِفًا يَشْمَخُ عَلَىٰ قَوْمِهِ بِأَنَّهُ ٱبْنُ أَمِيرٍ ، وَيَخْتَالُ فِي ٱلنَّاسِ بِأَنَّ لَهُ جَدًّا مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ ، وَيَرَىٰ مِنْ تَجَبُّرِهِ أَنَّ ثِيَابَهُ عَلَىٰ أَعْطَافِهِ كَحُدُودِ ٱلْمَمْلَكَةِ عَلَى ٱلْمَمْلَكَةِ لِأَنَّ لَهُ أَصْلًا فِي ٱلْمُلُوكِ .

وَكَانَ أَبُوهُ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ ٱلَّذِينَ وُلِدُوا وَفِي دَمِهِمْ شُعَاعُ ٱلسَّيْفِ ، وَبَرِيقُ ٱلتَّاجِ ، وَنَخْوَةُ ٱلظَّفَرِ ، وَعِزُّ ٱلْقَهْرِ وَٱلْغَلَبَةِ ؛ وَلَـٰكِنَّ زَمَنَهُ ضَرَبَ ٱلْحِصَارَ عَلَيْهِ ، وَأَفْضَتِ ٱلدَّوْلَةُ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، فَتَرَاجَعَتْ فِيهِ مَلَكَاتُ ٱلْحَرْبِ مِنْ فَتْحِ ٱلْأَرْضِ إِلَىٰ شِرَاءِ ٱلْأَرْضِ ، وَمِنْ تَشْيِيدِ ٱلْإِمَارَاتِ إِلَىٰ تَشْيِيدِ ٱلْعِمَارَاتِ ، وَمِنْ إِدَارَةِ مَعْرَكَةِ ٱلْأَبْطَالِ إِلَىٰ إِدَارَةِ مَعْرَكَةِ ٱلْمَالِ ؛ وَغَبَرَ دَهْرَهُ يَمْلِكُ وَيَجْمَعُ حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ دَفَاتِرُ حِسَابِهِ كَأَنَّهَا خَرِيطَةُ مَمْلَكَةٍ صَغِيرَةٍ .

وَبَعْضُ أَوْلَادِ ٱلْأُمَرَاءِ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ أَوْلَادُ أُمَرَاءَ ، فَيَكُونُونَ مِنَ ٱلتَّكَبُّرِ وَٱلْغُرُورِ كَأَنَّمَا رَضُوا مِنَ ٱللهِ أَنْ يُرْسِلَهُمْ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَلَـٰكِنْ بِشُرُوطٍ . . .

* * *

وَٱنْتَقَلَ ٱلْأَمِيرُ ٱلْبَخِيلُ إِلَىٰ رَحْمَةِ ٱللهِ ، وَتَرَكَ ٱلْمَالَ وَأَخَذَ مَعَهُ ٱلْأَرْقَامَ وَحْدَهَا يُحَاسَبُ عَنْهَا ، فَوَرِثَهُ ٱبْنُهُ وَأَمَرَّ يَدَهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْمَالِ يُبَعْثِرُهُ ؛ وَكَانَتِ ٱلْأَقْدَارُ قَدْ كَتَبَتْ عَلَيْهِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ : غَيْرُ قَابِلٍ لِلْإِحْسَانِ . فَمَحَتْهَا بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، وَكَتَبَتْ فِي مَكَانِهَا هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ : جُمِعَ لِلشَّيْطَانِ .

أَمَّا ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ لَهُ عَمَلٌ خَاصٌّ فِي خِدْمَةِ هَـٰذَا ٱلشَّابِّ ، كَعَمَلِ خَازِنِ ٱلثِّيَابِ لِسَيِّدِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُلْبِسُهُ ثِيَابًا بَلْ أَفْكَارًا وَآرَاءً وَأَخْيِلَةً . وَكَانَ يَجْهَدُ أَنْ يُدْخِلَ ٱلدُّنْيَا كُلَّهَا

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٩ ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٠ يوليو/تموز ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١١٦٣ ـ ١١٦٥ .

(١) [كتبنا مقالة « أحلامٌ في الشارع »] وهي السابقة لهذه . بسّام .

إِلَىٰ أَعْصَابِهِ لِيُخْرِجَ مِنْهَا دُنْيَا جَدِيدَةً مَصْنُوعَةً لِهَـٰذِهِ ٱلْأَعْصَابِ خَاصَّةً ، وَهِيَ أَعْصَابٌ مَرِيضَةٌ ثَائِرَةٌ مُتَلَهِّبَةٌ لَا يَكْفِيهَا مَا يَكْفِي غَيْرَهَا فَلَا تَبْرَحُ تَسْأَلُ ٱلشَّيْطَانَ بَيْنَ ٱلْحِينِ وَٱلْحِينِ : أَلَا تُوجَدُ لَذَّةٌ جَدِيدَةٌ غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ ؟ أَلَا يَسْتَطِيعُ إِبْلِيسُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ أَنْ يَخْتَرِعَ لَذَّةً مُبْتَكَرَةً ؟ أَلَا تَكُونُ ٱلْحَيَاةُ إِلَّا عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْوَتِيرَةِ مِنْ صُبْحِهَا لِصُبْحِهَا ؟

كَانَ ٱلشَّابُّ كَٱلَّذِي يُرِيدُ مِنْ إِبْلِيسَ أَنْ يَخْتَرِعَ لَهُ كَأْسًا تَسَعُ نَهَرًا مِنَ ٱلْخَمْرِ ، أَوْ يَجِدَ لَهُ ٱمْرَأَةً وَاحِدَةً وَفِيهَا كُلُّ فُنُونِ ٱلنِّسَاءِ وَٱخْتِلَافِهِنَّ . وَكَانَ يُرِيدُ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ أَنْ يُعِينَهُ فِي ٱللَّذَّةِ عَلَى ٱلِاسْتِغْرَاقِ ٱلرُّوحَانِيِّ وَيَغْمُرَهُ بِمِثْلِ ٱلتَّجَلِّيَاتِ ٱلْقُدْسِيَّةِ ٱلَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا ٱلنَّفْسُ مِنْ حِدَّةِ ٱلطَّرَبِ وَحِدَّةِ ٱلشَّوْقِ ؛ وَذَلِكَ فَوْقَ طَاقَةِ إِبْلِيسَ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ مَعَهُ فِي جُهْدٍ عَظِيمٍ حَتَّىٰ ضَجِرَ مِنْهُ ذَاتَ مَرَّةٍ فَهَمَّ أَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ عَنْهُ وَيَدَعَهُ يَدْخُلُ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ فَيُصَلِّي مَعَ بَعْضِ ٱلْأُمَرَاءِ ٱلصَّالِحِينَ . . .

وَهَـٰؤُلَاءِ ٱلْفُسَّاقُ ٱلْكَثِيرُو ٱلْمَالِ إِنَّمَا يَعِيشُونَ بِٱلِاسْتِطْرَافِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ؛ فَهَمُّهُمْ دَائِمًا ٱلْأَلَذُّ وَٱلْأَجْمَلُ وَٱلْأَغْلَىٰ ؛ وَمَتَىٰ ٱنْتَهَتْ فِيهِمُ ٱللَّذَّةُ مُنْتَهَاهَا وَلَمْ تَجِدْ عَاطِفَتُهُمْ مِنَ ٱللَّذَّاتِ ٱلْجَدِيدَةِ مَا يُسْعِدُهَا ، ضَاقَتْ بِهِمْ فَظَهَرَتْ مَظْهَرَ ٱلَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يَنْتَحِرَ ، وَذَلِكَ هُوَ ٱلْمَلَلُ ٱلَّذِي يُبْتَلَوْنَ بِهِ . وَٱلْفَاسِقُ ٱلْغَنِيُّ حِينَ يَمَلُّ مِنْ لَذَّاتِهِ يُصْبِحُ شَأْنُهُ مَعَ نَفْسِهِ كَٱلَّذِي يَكُونُ فِي نَفَقٍ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَيُرِيدُ هُنَاكَ سَمَاءً وَجَوًّا يَطِيرُ فِيهِمَا بِٱلطَّيَّارَةِ . . .

* * *

قَالُوا : وَٱعْتَرَضَ ٱبْنَ ٱلْأَمِيرِ ذَاتَ يَوْمٍ شَحَّاذٌ مَرِيضٌ قَدْ أَسَنَّ وَعَجَزَ يَتَحَامَلُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِ وَذَكَرَ عَوَزَهُ وَٱخْتِلَالَهُ ، وَجَعَلَ يَبُثُّهُ مِنْ دُمُوعِهِ وَأَلْفَاظِهِ . وَكَانَ إِبْلِيسُ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ قَدْ صَرَفَ خَوَاطِرَ ٱلشَّابِّ إِلَىٰ إِحْدَى ٱلْغَانِيَاتِ ٱلْمُمْتَنِعَاتِ عَلَيْهِ ، وَقَدِ ٱبْتَاعَ لَهَا حِلْيَةً ثَمِينَةً ٱشْتَطَّ بَائِعُهَا فِي ٱلثَّمَنِ حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِ عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَيْهَا كَأَنَّهَا قَدَرٌ مِنْ قَادِرٍ . . . وَقَطَعَ عَلَيْهِ ٱلشَّحَّاذُ ٱلْمِسْكِينُ أَفْكَارَهُ ٱلْمُضِيئَةَ فِي ٱلشَّخْصِ ٱلْمُضِيءِ ، فَكَانَ إِهَانَةً لِخَيَالِهِ ٱلسَّامِي . . . وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً مِنْ رُؤْيَةِ وَجْهِهِ ، وَٱشْمَأَزَّ فِي عُرُوقِهِ دَمُ ٱلْإِمَارَةِ ، وَتَحَرَّكَتِ ٱلْوِرَاثَةُ ٱلْحَرْبِيَّةُ فِي هَـٰذَا ٱلدَّمِ . . .

ثُمَّ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ إِلْقَاءَهُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ يَرَىٰ صَاحِبَ ٱلْوَجْهِ ٱلْقَذِرِ كَأَنَّمَا يَتَهَكَّمُ بِهِ يَقُولُ

لَهُ : أَنْتَ أَمِيرٌ يَبْحَثُ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلأَمِيرِ ٱلَّذِيْ فِيْهِ فَلَا يَجِدُوْنَ إِلَّا ٱلشَّيْطَانَ ٱلَّذِيْ فِيْهِ . وَلَيْسَ فِيْكَ مِنَ ٱلإِمَارَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَكُوْنُ مِنَ ٱلتَّارِيخِ فِيْ ٱلْمَوْضِعِ ٱلأَثَرِيِّ ٱلْخَرِبِ . وَلَنْ تَكُوْنَ أَمِيْرًا بِشَهَادَةِ عَشَرَةِ آلَافِ دِيْنَارٍ عِنْدَ مُوْمِسٍ ، وَلَـٰكِنْ بِشَهَادَةِ هَـٰذَا ٱلْمَالِ عِنْدَ عَشَرَةِ آلَافِ فَقِيْرٍ .

أَنْتَ أَمِيْرٌ ، فَهَلْ تُثْبِتُ ٱلْحَيَاةُ أَنَّكَ أَمِيْرٌ ، أَوْ هَـٰذَا مَعْنًى فِيْ كَلِمَةٍ مِنَ ٱللُّغَةِ ؟ إِنْ كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ فَأَيْنَ أَعْمَالُكَ ، وَإِنْ [كانتِ] ٱللُّغَةُ فَهَـٰذِهِ لَفْظَةٌ بَائِدَةٌ تَدُلُّ فِيْ عُصُوْرِ الانْحِطَاطِ عَلَىٰ قِسْطِ حَامِلِهَا مِنَ الاسْتِبْدَادِ وَٱلطُّغْيَانِ وَٱلْجَبَرُوْتِ ، كَأَنَّ الاسْتِبْدَادَ بِٱلشَّعْبِ غَنِيْمَةٌ يَتَنَاهَبُهَا عُظَمَاؤُهُ ، فَقِسْمٌ مِنْهَا فِيْ ٱلْحَاكِمِ ، وَقِسْمٌ فِيْ شِبْهِ ٱلْحَاكِمِ يُتَرْجَمُ عَنْهُ فِيْ ٱللُّغَةِ بِلَقَبِ أَمِيْرٍ .

أَلَا قُلْ لِلنَّاسِ أَيُّهَا ٱلأَمِيْرُ : إِنَّ لَقَبِيْ هَـٰذَا إِنَّمَا هُوَ تَعْبِيْرُ ٱلزَّمَنِ عَمَّا كَانَ لِأَجْدَادِيْ مِنَ ٱلْحَقِّ فِيْ قَتْلِ ٱلنَّاسِ وَٱمْتِهَانِهِمْ . . .

* * *

وَكَانَ هَـٰذَا كَلَامًا بَيْنَ وَجْهِ ٱلشَّحَّاذِ وَبَيْنَ نَفْسِ ٱبْنِ ٱلأَمِيْرِ فِيْ حَالَةٍ بِخُصُوْصِهَا مِنْ أَحْوَالِ ٱلنَّفْسِ ، فَلَا جَرَمَ أُهِيْنَ ٱلشَّحَّاذُ وَطُرِدَ وَمَضَىٰ يَدْعُو بِمَا يَدْعُو .

وَنَامَ ٱبْنُ ٱلأَمِيْرِ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ فَكَانَ خَيَالَتُهُ(١) مِنْ دُنْيَا ضَمِيْرِهِ وَضَمِيْرِ ٱلشَّحَّاذِ : فَرَأَىٰ فِيْمَا يَرَىٰ ٱلنَّائِمُ أَنَّ مَلَكًا مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ يَهْتِفُ بِهِ :

وَيْلَكَ ! لَقَدْ طَرَدْتَ ٱلْمِسْكِيْنَ تَخْشَىٰ أَنْ تَنَالَكَ مِنْهُ جَرَاثِيْمُ تَمْرَضُ بِهَا ، وَمَا عَلِمْتَ أَنَّ فِيْ كُلِّ سَائِلٍ فَقِيْرٍ جَرَاثِيْمَ أُخْرَىٰ تَمْرَضُ بِهَا ٱلنِّعْمَةُ ؛ فَإِنْ أَكْرَمْتَهُ بَقِيَتْ فِيْهِ ، وَإِنْ أَهَنْتَهُ نَفَضَهَا عَلَيْكَ . لَقَدْ هَلَكَتِ ٱلْيَوْمَ نِعْمَتُكَ أَيُّهَا ٱلأَمِيْرُ ، وَٱسْتَرَدَّ ٱلْعَارِيَةَ صَاحِبُهَا ، وَأَكَلَتِ ٱلْحَوَادِثُ مَالَكَ فَأَصْبَحْتَ فَقِيْرًا مُحْتَاجًا تَرُوْمُ ٱلْكِسْرَةَ مِنَ ٱلْخُبْزِ فَلَا تَتَهَيَّأُ لَكَ إِلَّا بِجُهْدٍ وَعَمَلٍ وَمَشَقَّةٍ ؛ فَٱذْهَبْ فَٱكْدَحْ لِعَيْشِكَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ، فَمَا لِأَبِيْكَ حَقٌّ عَلَىٰ ٱللهِ أَنْ تَكُوْنَ عِنْدَ ٱللهِ أَمِيْرًا .

قَالُوا : وَيَنْظُرُ ٱبْنُ ٱلأَمِيْرِ فَإِذَا كُلُّ مَا كَانَ لِنَفْسِهِ قَدْ تَرَكَهُ حِيْنَ تَرَكَهُ ٱلْمَالُ ، وَإِذَا ٱلإِمَارَةُ كَانَتْ وَهْمًا فَرَضَهُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ قَانُوْنُ ٱلْعَادَةِ ، وَإِذَا ٱلتَّعَاظُمُ وَٱلْكِبْرِيَاءُ وَٱلتَّجَبُّرُ وَنَحْوُهَا إِنَّمَا

(١) ٱلْخَيَالَةُ : مَا يَتَرَاءَىٰ لِلنَّائِمِ مِنَ ٱلأَشْبَاحِ فِيْ نَوْمِهِ .

كَانَتْ مَكْرًا مِنَ ٱلْمَكْرِ لِإِثْبَاتِ هَـٰذَا ٱلظَّاهِرِ وَٱلتَّعَزُّزِ بِهِ . وَيَنْظُرُ ٱبْنُ ٱلأَمِيْرِ ، فَإِذَا هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ صُعْلُوْكٌ أَبْتَرُ مُعْدِمٌ رَثُّ ٱلْهَيْئَةِ كَذَلِكَ ٱلشَّحَّاذُ ، فَيَصِيْحُ مُغْتَاظًا : كَيْفَ أَهْمَلَتْنِيْ ٱلأَقْدَارُ وَأَنَا ٱبْنُ ٱلأَمِيْرِ ؟

قَالُوا : وَيَهْتِفُ بِهِ ذَلِكَ ٱلْمَلَكُ : وَيْحَكَ ! إِنَّ ٱلأَقْدَارَ لَا تُدَلِّلُ أَحَدًا ، لَا مَلِكًا وَلَا ٱبْنَ مَلِكٍ ، وَلَا سُوْقِيًّا وَلَا ٱبْنَ سُوْقِيٍّ ، وَمَتَىٰ صِرْتُمْ جَمِيْعًا إِلَىٰ ٱلتُّرَابِ فَلَيْسَ فِيْ ٱلتُّرَابِ عَظْمٌ يَقُوْلُ لِعَظْمٍ آخَرَ : أَيُّهَا ٱلأَمِيْرُ . . .

* * *

قَالُوا : وَفَكَّرَ ٱلشَّابُّ ٱلْمِسْكِيْنُ فِيْ صَوَاحِبِهِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ، وَعِنْدَهُنَّ شَبَابُهُ وَإِسْرَافُهُ ، وَنَفَقَاتُهُ ٱلْوَاسِعَةُ ، فَقَالَ فِيْ نَفْسِهِ : أَذْهَبُ لِإِحْدَاهُنَّ ؛ وَأَخَذَ سَمْتَهُ إِلَيْهَا ، فَمَا كَادَتْ تَعْرِفُهُ عَيْنَاهَا فِيْ أَسْمَالِهِ وَبَذَاذَتِهِ وَفَقْرِهِ حَتَّىٰ أَمَرَتْ بِهِ فَجُرَّ بِيَدَيْهِ وَدُفِعَ فِيْ قَفَاهُ . وَلَـٰكِنَّ دَمَ ٱلإِمَارَةِ نَزَا فِيْ وَجْهِهِ غَضَبًا ، وَتَحَرَّكَتْ فِيْهِ ٱلْوِرَاثَةُ ٱلْحَرْبِيَّةُ ، فَصَاحَ وَأَجْلَبَ وَٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ وَٱضْطَرَبُوا ، وَمَاجَ بَعْضُهُمْ فِيْ بَعْضٍ . فَبَيْنَا هُوَ فِيْ شَأْنِهِ حَانَتْ مِنْهُ ٱلْتِفَاتَةٌ فَأَبْصَرَ غُلَامًا قَدْ دَخَلَ فِيْ غِمَارِ ٱلنَّاسِ ، فَدَسَّ يَدَهُ فِيْ جَيْبِ أَحَدِهِمْ فَنَشَلَ كِيْسَهُ وَمَضَىٰ .

قَالُوا : وَجَرَىٰ فِيْ وَهْمِ ٱبْنِ ٱلأَمِيْرِ أَنْ يَلْحَقَ بِٱلْغُلَامِ فَيَكْبِسَهُ كَبْسَةَ ٱلشُّرْطِيِّ وَيَنْتَزِعَ مِنْهُ ٱلْكِيْسَ وَيَنْتَفِعَ بِمَا فِيْهِ ، فَتَسَلَّلَ مِنَ ٱلزِّحَامِ وَتَبِعَ ٱلصَّبِيَّ حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ ، ثُمَّ كَبَسَهُ وَأَخَذَ ٱلْكِيْسَ مِنْهُ وَأَخْرَجَ ٱلْكَنْزَ ، فَإِذَا لَيْسَ فِيْهِ إِلَّا خَاتَمٌ وَحِجَابٌ وَبَعْضُ خَرَزَاتٍ مِمَّا يَتَبَرَّكُ ٱلْعَامَّةُ بِحَمْلِهِ ، وَمِفْتَاحٌ صَغِيْرٌ . . .

فَٱمْتَلأَ غَيْظًا وَفَارَ دَمُ ٱلإِمَارَةِ وَتَحَرَّكَتِ ٱلْوِرَاثَةُ ٱلْحَرْبِيَّةُ ٱلَّتِيْ فِيْهِ . وَأَلَمَّ ٱلصَّبِيُّ بِمَا فِيْ نَفْسِهِ ، وَحَدَسَ عَلَىٰ أَنَّهُ رَجُلٌ أَفَّاقٌ مُتَبَطِّلٌ ، لَا نَفَاذَ لَهُ فِيْ صِنَاعَةٍ يَرْتَزِقُ مِنْهَا ، فَرَثَىٰ لِفَقْرِهِ وَجَهْلِهِ وَدَعَاهُ إِلَىٰ أَنْ يُعَلِّمَهُ ٱلسَّرِقَةَ وَأَنْ يَأْخُذَهُ إِلَىٰ مَدْرَسَتِهَا . وَقَالَ : إِنَّ لَنَا مَدْرَسَةً ، فَإِذَا دَخَلْتَ ٱلْقِسْمَ ٱلإِعْدَادِيَّ مِنْهَا تَعَلَّمْتَ كَيْفَ تَحْمِلُ ٱلْمِكْتَلَ(١) فَتَذْهَبُ كَأَنَّكَ تَجْمَعُ فِيْهِ ٱلْخِرَقَ ٱلْبَالِيَةَ مِنَ ٱلدُّوْرِ حَتَّىٰ إِذَا سَنَحَتْ لَكَ غَفْلَةٌ ٱنْسَلَلْتَ إِلَىٰ دَارٍ مِنْهَا ، فَسَرَقْتَ مَا تَنَالُهُ يَدُكَ مِنْ

(١) هُوَ كَالْقُفَّةِ يُعْمَلُ مِنَ ٱلْخُوْصِ .

ثَوْبٍ أَوْ مَتَاعٍ ، وَلَا تَزَالُ فِي هَـٰذَا ٱلْبَابِ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ حَتَّىٰ تُحْكِمَهُ ، وَمَتَىٰ حَذِقْتَهُ وَمَهَرْتَ فِيهِ ٱنْتَقَلْتَ إِلَىٰ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانَوِيِّ . . .

فَصَاحَ ٱبْنُ ٱلْأَمِيرِ : أُغْرُبْ عَنِّي ، عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ ، أَخْزَاكَ ٱللهُ ! وَلَعَنَ ٱللهُ ٱلْإِعْدَادِيَّ وَٱلثَّانَوِيَّ مَعًا .

ثُمَّ إِنَّهُ رَمَىٰ ٱلْكِيسَ فِي وَجْهِ ٱلْغُلَامِ وَٱنْطَلَقَ ، فَبَيْنَا هُوَ يَمْشِي وَقَدْ تَوَزَّعَتْهُ ٱلْهُمُومُ ، أَنْشَأَ يُفَكِّرُ فِيمَا كَانَ يَرَاهُ مِنَ ٱلْمُكَدِّينَ ، وَتِلْكَ ٱلْعِلَلُ ٱلَّتِي يَنْتَحِلُونَهَا لِلْكُدْيَةِ كَٱلَّذِي يَتَعَامَىٰ وَٱلَّذِي يَتَعَارَجُ وَٱلَّذِي يُحْدِثُ فِي جِسْمِهِ ٱلْآفَةَ ؛ وَلَـٰكِنَّ دَمَ ٱلْإِمَارَةِ ٱشْمَأَزَّ فِي عُرُوقِهِ وَتَحَرَّكَتْ فِيهِ ٱلْوِرَاثَةُ ٱلْحَرْبِيَّةُ ! وَبَصُرَ بِشَابٍّ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلْأَغْنِيَاءِ تَنْطَلِقُ عَلَيْهِ ٱلنِّعْمَةُ فَتَعَرَّضَ لِمَعْرُوفِهِ ، وَأَفْضَىٰ إِلَيْهِ بِهَمِّهِ ، وَشَكَا مَا نَزَلَ بِهِ ثُمَّ قَالَ : وَإِنِّي قَدْ أَمَّلْتُكَ وَظَنِّي بِكَ أَنْ تَصْطَفِيَنِي لِمُنَادَمَتِكَ أَوْ تُلْحِقَنِي بِخِدْمَتِكَ ، وَمَا أُرِيدُ إِلَّا ٱلْكَفَافَ مِنَ ٱلْعَيْشِ ، فَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ بِي ، فَٱلْقَلِيلُ ٱلَّذِي يَعِيشُ بِهِ ٱلْمُقِلُّ . وَصَعَّدَ فِيهِ ٱلشَّابُّ وَصَوَّبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَتُحْسِنُ أَنْ تَلْطُفَ فِي حَاجَتِي ؟ قَالَ : سَأَبْلُغُ فِي حَاجَتِكَ مَا تُحِبُّ . قَالَ ٱلشَّابُّ : أَلَكَ سَابِقَةٌ فِي هَـٰذَا ؟ أَكُنْتَ قَوَّادًا ؟ أَتَعْرِفُ كَثِيرَاتٍ مِنْهُنَّ . . . ؟

فَٱنْتَفَضَ غَضَبًا وَهَمَّ أَنْ يَبْطِشَ بِٱلْفَتَىٰ لَوْلَا خَوْفُهُ عَاقِبَةَ ٱلْجَرِيمَةِ ، فَٱسْتَخْذَىٰ وَمَضَىٰ لِوَجْهِهِ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ سُوقًا فَأَمَّلَ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا فِي بَعْضِ ٱلْحَوَانِيتِ ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَهَا جَعَلُوا يَزْجُرُونَهُ مَرَّةً وَيَطْرُدُونَهُ مَرَّةً ، إِذْ وَقَعَتْ بِهِ ظِنَّةُ ٱلتَّلَصُّصِ ، وَكَادُوا يُسْلِمُونَهُ إِلَىٰ ٱلشُّرْطِيِّ فَمَضَىٰ هَارِبًا ؛ وَقَدْ أَجْمَعَ أَنْ يَنْتَحِرَ لِيَقْتُلَ نَفْسَهُ وَدَهْرَهُ وَإِمَارَتَهُ وَبُؤْسَهُ جَمِيعًا .

قَالُوا : وَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ مَصْرَعِهِ بِٱمْرَأَةٍ تَبِيعُ ٱلْفُجْلَ وَٱلْبَصَلَ وَٱلْكُرَّاثَ ، وَهِيَ بَادِنَةٌ وَضِيئَةٌ مُمْتَلِئَةُ ٱلْأَعْلَىٰ وَٱلْأَسْفَلِ ، وَعَلَىٰ وَجْهِهَا مَسْحَةُ إِغْرَاءٍ ، فَذَكَرَ غَزَلَهُ وَفِتْنَتَهُ وَٱسْتِغْوَاءَهُ لِلنِّسَاءِ ، وَنَازَعَتْهُ ٱلنَّفْسُ ، وَحَسِبَ ٱلْمَرْأَةَ تَكُونُ لَهُ مَعَاشًا وَلَهْوًا ، وَظَنَّهَا لَا تُعْجِزُهُ وَلَا تَفُوتُهُ وَهُوَ فِي هَـٰذَا ٱلْبَابِ خَرَّاجٌ وَلَّاجٌ مُنْذُ نَشَأَ . . . غَيْرَ أَنَّهُ مَا كَادَ يُرَاوِدُهَا حَتَّىٰ ٱبْتَدَرَتْهُ بِلَطْمَةٍ أَظْلَمَ لَهَا ٱلْجَوُّ فِي عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ هَرَّتْ فِي وَجْهِهِ هَرِيرًا مُنْكَرًا وَٱسْتَعْدَتْ عَلَيْهِ ٱلسَّابِلَةَ فَأَطَافُوا بِهِ وَأَخَذَهُ ٱلصَّفْعُ بِمَا قَدُمَ وَمَا حَدُثَ ، وَمَا زَالُوا يَتَعَاوَرُونَهُ ضَرْبًا حَتَّىٰ وَقَعَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ .

وَرَأَىٰ فِي غَشْيَتِهِ مَا رَأَىٰ مِنْ تَمَامِ هَـٰذَا ٱلْكَرْبِ ، فَضُرِبَ وَحُبِسَ وَٱبْتُلِيَ بِٱلْجُنُونِ وَأُرْسِلَ إِلَىٰ ٱلْمَارِسْتَانِ ، وَسَاحَ فِي مَصَائِبِ ٱلْعَالَمِ ، وَطَافَ عَلَىٰ نَكَبَاتِ ٱلْأُمَرَاءِ وَٱلسُّوقَةِ بِمَا يَعِي وَمَا لَا يَعِي ، ثُمَّ رَأَىٰ أَنَّهُ قَدْ أَفَاقَ مِنَ ٱلْإِغْمَاءِ فَإِذَا هُوَ قَدِ ٱسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ عَلَىٰ فِرَاشِهِ ٱلْوَثِيرِ .

* * *

وَيَا لَيْتَ مَنْ يَدْرِي بَعْدَ هَـٰذَا ! أَغَدَا ٱبْنُ ٱلْأَمِيرِ عَلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ وَأَقْبَلَ عَلَىٰ ٱلْفُقَرَاءِ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ ، أَمْ غَدَا عَلَىٰ صَاحِبَتِهِ ٱلَّتِي ٱمْتَنَعَتْ عَلَيْهِ فَٱبْتَاعَ لَهَا ٱلْحِلْيَةَ بِعَشَرَةِ ٱلْآفِ دِينَارٍ ؟

يَا لَيْتَ مَنْ يَدْرِي ! فَإِنَّ ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِي نَقَلْنَا ٱلْقِصَّةَ عَنْهُ لَمْ يَذْكُرْ مِنْ هَـٰذَا شَيْئًا بَلْ قَطَعَ ٱلْخَبَرَ عِنْدَمَا ٱنْقَطَعَ ٱلصَّفْعُ . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

بِنْتُ ٱلْبَاشَا(*)(١) . . .

كَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ وَضَّاحَةَ ٱلْوَجْهِ ، زَهْرَاءَ ٱللَّوْنِ كَٱلْقَمَرِ ٱلطَّالِعِ ، تَحْسَبُهَا لِجَمَالِهَا [قَدْ] غَذَّتْهَا ٱلْمَلَائِكَةُ بِنُوْرِ ٱلنَّهَارِ ، وَرَوَّتْهَا مِنْ ضَوْءِ ٱلْكَوَاكِبِ .

وَكَانَتْ بَضَّةً مُقَسَّمَةً أَبْدَعَ ٱلتَّقْسِيْمِ ، يَلْتَفُّ جِسْمُهَا شَيْئًا عَلَىٰ شَيْءٍ ٱلْتِفَافًا هَنْدَسِيًّا بَدِيْعًا ، يَرْتَفِعُ عَنْ أَجْسَامِ ٱلْغِيْدِ ٱلْحِسَانِ ؛ أُفْرِغَ فِيْهَا ٱلْجَمَالُ بِقَدْرِ مَا يُمْكِنُ ـ إِلَىٰ أَجْسَامِ ٱلدُّمَىٰ ٱلْعَبْقَرِيَّةِ ٱلَّتِي أُفْرِغَ فِيْهَا ٱلْجَمَالُ وَٱلْفَنُّ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِيْلُ .

وَكَانَتْ بَاسِمَةً أَبَدًا كَأَوَّلِ مَا يَتَلَأْلَأُ ٱلْفَجْرُ ، حَتَّىٰ كَأَنَّ دَمَهَا ٱلْغَزَلِيَّ ٱلشَّاعِرَ يَصْنَعُ لِثَغْرِهَا ٱبْتِسَامَتَهَا ، كَمَا يَصْنَعُ لِخَدَّيْهَا حُمْرَتَهُمَا .

مَا لَهَا جَلَسَتِ ٱلْآنَ تَحْتَ ٱللَّيْلِ مُطْرِقَةً كَاسِفَةً ذَابِلَةً ، تَأْخُذُهَا ٱلْعَيْنُ فَمَا تَشُكُّ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْوَجْهَ قَدْ كَانَ فِيْهِ مَنْبَعُ نُوْرٍ وَغَاضَ ! وَأَنَّ هَـٰذَا ٱلْجِسْمَ ٱلظَّمْآنَ ٱلْمَعْرُوْقَ هُوَ بُقْعَةٌ مِنَ ٱلْحَيَاةِ أُقِيْمَ فِيْهَا مَأْتَمٌ !

مَا لِهَـٰذِهِ ٱلْعَيْنِ ٱلْكَحِيْلَةِ تُذْرِي ٱلدَّمْعَ وَتَسْتَرْسِلُ فِي ٱلْبُكَاءِ وَتَلِجُّ فِيْهِ ، كَأَنَّ ٱلْغَادَةَ ٱلْمِسْكِيْنَةَ تُبْصِرُ بَيْنَ ٱلدُّمُوْعِ طَرِيْقًا تُفْضِي مِنْهُ نَفْسُهَا إِلَىٰ ٱلْحَبِيْبِ ٱلَّذِي لَمْ يَعُدْ فِي ٱلدُّنْيَا ؛ إِلَىٰ وَحِيْدِهَا ٱلَّذِي أَصْبَحَتْ تَرَاهُ وَلَا تَلْمَسُهُ ، وَتُكَلِّمُهُ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا ؛ إِلَىٰ طِفْلِهَا ٱلنَّاعِمِ ٱلظَّرِيْفِ ٱلَّذِي ٱنْتَقَلَ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ وَلَنْ يَرْجِعَ ، وَتَتَمَثَّلُهُ أَبَدًا يُرِيْدُ أَنْ يَجِيْءَ إِلَيْهَا وَلَا يَسْتَطِيْعُ ، وَتَتَخَيَّلُهُ أَبَدًا يَصِيْحُ فِي ٱلْقَبْرِ يُنَادِيْهَا : « يَا أُمِّي ! يَا أُمِّي ! . . . » .

قَلْبُهَا ٱلْحَزِيْنُ يُقَطِّعُ فِيْهَا وَيُمَزِّقُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ؛ لِأَنَّهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ يُرِيْدُ مِنْهَا أَنْ تَضُمَّ ٱلطِّفْلَ إِلَىٰ صَدْرِهَا ، لِيَسْتَشْعِرَهُ ٱلْقَلْبُ فَيَفْرَحَ وَيَتَهَنَّأَ إِذْ يَمَسُّ ٱلْحَيَاةَ ٱلصَّغِيْرَةَ ٱلْخَارِجَةَ مِنْهُ .

(*) « الرسالة » العدد : ٧١ ، ٤ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ١٢ نوفمبر/تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٨٤٢ ـ ١٨٤٥ .

(١) [ٱنْظُرْ خَبَرَ هَذِهِ ٱلْقِصَّةِ وَحَدِيثَ : « ٱلزَّبَّالِ ٱلْفَيْلَسُوفِ » في : « عَوْدٌ عَلَىٰ بَدْءٍ » مِنْ كِتَابِنَا : « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ ٱلْعُرْيَان] .

وَلَـٰكِنْ أَيْنَ ٱلطِّفْلُ ؟ أَيْنَ حَيَاةُ ٱلْقَلْبِ ٱلْخَارِجَةُ مِنَ ٱلْقَلْبِ ؟

لَا طَاقَةَ لِلْمِسْكِيْنَةِ أَنْ تُجِيْبَ قَلْبَهَا إِلَىٰ مَا يَطْلُبُ ، وَلَا طَاقَةَ لِقَلْبِهَا أَنْ يَهْدَأَ عَمَّا يَطْلُبُ ؛ فَهُوَ مِنَ ٱلْغَيْظِ وَٱلْقَهْرِ يُحَاوِلُ أَنْ يُفَجِّرَ صَدْرَهَا ، وَيُرِيْدُ أَنْ يَدُقَّ ضُلُوْعَهَا ، لِيَخْرُجَ فَيَبْحَثَ بِنَفْسِهِ عَنْ حَبِيْبِهِ !

مِسْكِيْنَةٌ تَتَرَنَّحُ وَتَتَلَوَّىٰ تَحْتَ ضَرَبَاتٍ مُهْلِكَةٍ مِنْ قَلْبِهَا ، وَضَرَبَاتٍ أُخْرَىٰ مِنْ خَيَالِهَا ، وَقَدْ بَاتَتْ مِنْ هَـٰذِهِ وَتِلْكَ تَعِيْشُ فِي مِثْلِ ٱللَّحْظَةِ ٱلَّتِي تَكُوْنُ فِيْهَا ٱلذَّبِيْحَةُ تَحْتَ ٱلسِّكِّيْنِ . وَلَـٰكِنَّهَا لَحْظَةٌ ٱمْتَدَّتْ إِلَىٰ يَوْمٍ ، وَيَوْمٌ ٱمْتَدَّ إِلَىٰ شَهْرٍ . يَا وَيْلَهَا مِنْ طُوْلِ حَيَاةٍ لَمْ تَعُدْ فِي آلَامِهَا وَأَوْجَاعِهَا إِلَّا طُوْلَ مُدَّةِ ٱلذَّبْحِ لِلْمَذْبُوْحِ .

وَلَوْ كَانَ لِلْمَوْتِ قِطَارٌ يَقِفُ عَلَىٰ مَحَطَّةٍ فِي ٱلدُّنْيَا ، لِيَحْمِلَ ٱلْأَحْبَابَ إِلَىٰ ٱلْأَحْبَابِ ، وَيُسَافِرَ مِنْ وُجُوْدٍ إِلَىٰ وُجُوْدٍ ، وَكَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْأُمُّ جَالِسَةً فِي تِلْكَ ٱلْمَحَطَّةِ مُنْتَظِرَةً تَتَرَبَّصُ ، وَقَدْ ذُهِلَتْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَجَرَّدَتْ مِنْ كُلِّ مَعَانِي ٱلْحَيَاةِ ، وَجَمُدَتْ جُمُوْدَ ٱلِانْتِقَالِ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ ـ لِمَا كَانَتْ إِلَّا بِهَـٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ فِي مَجْلِسِهَا ٱلْآنَ فِي شُرْفَتِهَا مِنْ قَصْرِهَا ؛ تُطِلُّ عَلَىٰ ٱللَّيْلِ ٱلْمُظْلِمِ وَعَلَىٰ أَحْزَانِهَا . . . !

* * *

هِيَ فُلَانَةُ بِنْتُ فُلَانٍ بَاشَا وَزَوْجَةُ فُلَانٍ بِكْ . تَرَادَفَتِ ٱلنِّعَمُ عَلَىٰ أَبِيْهَا فِيْمَا يَطْلُبُ وَمَا لَا يَطْلُبُ ، وَكَأَنَّمَا فَرَغَ مِنِ ٱقْتِرَاحِهِ عَلَىٰ ٱلزَّمَانِ وَٱكْتَفَىٰ مِنَ ٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ ، فَلَمْ يُعْجِبِ ٱلزَّمَانَ { ذَلِكَ } ، فَأَخَذَ يَقْتَرِحُ لَهُ وَيَصْنَعُ مَا يَقْتَرِحُ ، وَيَزِيْدُهُ عَلَىٰ رَغْمِهِ نِعَمًا تَتَوَالَىٰ !

وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَىٰ خِطْبَةِ ٱبْنَتِهِ شَابٌّ مُهَذَّبٌ ، يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ ٱلشَّبَابَ وَٱلْهِمَّةَ وَٱلْعِلْمَ ، وَمِنْ أَسْلَافِهِ ٱلْعُنْصُرَ ٱلْكَرِيْمَ وَٱلشَّرَفَ ٱلْمَوْرُوْثَ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ مَا يُكَاثِرُ بِهِ ٱلرِّجَالَ وَيُفَاخِرُ . بَيْدَ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ عَيْشِهِ إِلَّا ٱلْكَفَافَ وَٱلْقِلَّةَ ، وَأَمَلًا بَعِيْدًا كَٱلْفَجْرِ وَرَاءَ لَيْلٍ لَا بُدَّ مِنْ مُصَابَرَتِهِ إِلَىٰ حِيْنِ يَنْبَثِقُ ٱلنُّوْرُ .

وَتَقَدَّمَ صَاحِبُنَا إِلَىٰ ٱلْبَاشَا فَجَاءَهُ كَٱلنَّجْمِ عَارِيًا ؛ أَيْ فِي أَزْهَىٰ نُوْرَانِيَّتِهِ وَأَضْوَئِهَا . وَكَانَ قَدْ عَلِقَ ٱلْفَتَاةَ وَعُلِّقَتْهُ ، فَظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّ ٱلْحُبَّ هُوَ مَالُ ٱلْحُبِّ ، وَأَنَّ ٱلرُّجُوْلَةَ هِيَ مَالُ ٱلْأُنُوْثَةِ ، وَأَنَّ ٱلْقُلُوْبَ تَتَعَامَلُ بِٱلْمَسَرَّاتِ لَا بِٱلْأَمْوَالِ ، وَنَسِيَ أَنَّهُ يَتَقَدَّمُ إِلَىٰ رَجُلٍ مَالِيٍّ

جَعَلَتْهُ حَقَارَةُ ٱلِاجْتِمَاعِ رُتْبَةً ، أَوْ إِلَىٰ رُتْبَةٍ مَالِيَّةٍ جَعَلَتْهَا حَقَارَةُ ٱلِاجْتِمَاعِ رَجُلًا . . وَأَنَّ كَلِمَةَ « بَاشَا » وَأَمْثَالَهَا ، إِنَّمَا تَخَلَّفَتْ عَنْ ذَٰلِكَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْقَدِيمِ : مَذْهَبِ ٱلْأُلُوهِيَّةِ ٱلْكَاذِبَةِ ٱلَّتِي ٱنْتَحَلَهَا فِرْعَوْنُ وَأَمْثَالُهُ ، لِيَتَعَبَّدُوا ٱلنَّاسَ مِنْهَا بِأَلْفَاظِ قُلُوبِهِمُ ٱلْمُؤْمِنَةِ ؛ فَإِذَا قِيلَ : « إِلَـٰهٌ » كَانَ جَوَابُ ٱلْقَلْبِ : « عَزَّ وَجَلَّ » ، « سُبْحَانَهُ » . . .

وَلَمَّا ٱرْتَقَى ٱلنَّاسُ عَنْ عِبَادَةِ ٱلنَّاسِ ، تَلَطَّفَتْ تِلْكَ ٱلْأُلُوهِيَّةُ وَنَزَلَتْ إِلَىٰ دَرَجَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ ، لِتَتَعَبَّدَ ٱلنَّاسَ بِأَلْفَاظِ عُقُولِهِمُ ٱلسَّاذَجَةِ ؛ فَإِنْ قِيلَ : « بَاشَا » كَانَ جَوَابُ ٱلْعَقْلِ ٱلصَّغِيرِ : « سَعَادَتْلُو أَفَنْدِمْ[1] » !

نَسِيَ ٱلشَّابُّ أَنَّهُ « أَفَنْدِي » سَيَتَقَدَّمُ إِلَىٰ « بَاشَا » وَأَعْمَاهُ ٱلْحُبُّ عَنْ فَرْقِ بَيْنِهِمَا ؛ وَكَانَ سَامِيَ ٱلنَّفْسِ ، فَلَمْ يُدْرِكْ أَنَّ صَغَائِرَ ٱلْأُمَمِ ٱلصَّغِيرَةِ لَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَنْتَحِلَ ٱلسُّمُوَّ ٱنْتِحَالًا ، وَأَنَّ ٱلشَّعْبَ ٱلَّذِي لَا يَجِدُ أَعْمَالًا كَبِيرَةً يَتَمَجَّدُ بِهَا ، هُوَ ٱلَّذِي تُخْتَرَعُ لَهُ ٱلْأَلْفَاظُ ٱلْكَبِيرَةُ لِيَتَلَهَّىٰ بِهَا ؛ وَأَنَّهُ مَتَىٰ ضَعُفَ إِدْرَاكُ ٱلْأُمَّةِ ، لَمْ يَكُنِ ٱلتَّفَاوُتُ بَيْنَ ٱلرِّجَالِ بِفَضَائِلِ ٱلرُّجُولَةِ وَمَعَانِيهَا ، بَلْ بِمَوْضِعِ ٱلرُّجُولَةِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَلْفَاظِ ؛ فَإِنْ قِيلَ : « بَاشَا » ، فَهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ هِيَ ٱلِاخْتِرَاعُ ٱلِاجْتِمَاعِيُّ ٱلْعَظِيمُ فِي أُمَمِ ٱلْأَلْفَاظِ ، وَمَعْنَاهَا ٱلْعِلْمِيُّ : قُوَّةُ أَلْفِ فَدَانٍ أَوْ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ ؛ وَيُقَابِلُهَا مَثَلًا فِي أُمَمِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْكَبِيرَةِ لَفْظُ : « ٱلْآلَةِ ٱلْبُخَارِيَّةِ » ، وَمَعْنَاهَا ٱلْعِلْمِيُّ : قُوَّةُ كَذَا وَكَذَا حِصَانًا أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ[2] !

نَسِيَ هَـٰذَا ٱلشَّابُّ أَنَّ « أُمَمَ ٱلْأَكْلِ وَٱلشُّرْبِ » فِي هَـٰذَا ٱلشَّرْقِ ٱلْمِسْكِينِ ، لَا تَتِمُّ عَظَمَتُهَا إِلَّا بِأَنْ تَضَعَ لِأَصْحَابِ ٱلْمَالِ ٱلْكَثِيرِ أَلْقَابًا هِيَ فِي ٱلْوَاقِعِ أَوْصَافٌ ٱجْتِمَاعِيَّةٌ لِلْمِعْدَةِ ٱلَّتِي تَأْكُلُ ٱلْأَكْثَرَ وَٱلْأَطْيَبَ وَٱلْأَلَذَّ ، وَتَمْلِكُ أَسْبَابَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْأَلَذِّ وَٱلْأَطْيَبِ وَٱلْأَكْثَرِ .

وَتَقَدَّمَ ٱلْأَفَنْدِيُّ يَتَوَدَّدُ إِلَى ٱلْبَاشَا مَا ٱسْتَطَاعَ ، وَيَتَوَاضَعُ وَيَنْكَمِشُ ، وَلَا يَأْلُوهُ تَمْجِيدًا وَتَعْظِيمًا ؛ وَلَـٰكِنْ أَيْنَ هُوَ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ ؟ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ ٱلْبَاشَا إِلَّا أَحْمَقَ ؛ إِذْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ

(١) هَـٰذِهِ أَلْقَابٌ وَضَعَتْهَا ٱلدَّوْلَةُ ٱلْعُثْمَانِيَّةُ ٱلْبَائِدَةُ . فَأَفْسَدَتِ ٱلنَّاسَ بِكِبْرِيَاءِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْفَارِغَةِ . وَقَدْ أَرَادَتْ بِهَا رَفْعَ ٱلْأَعْلَىٰ ، فَٱنْتَهَىٰ أَمْرُهَا إِلَىٰ سُقُوطِ ٱلْأَعْلَىٰ وَٱلْأَسْفَلِ .

(٢) [ٱنْظُرْ مَقَالَةَ « ٱلْبِكْ وَٱلْبَاشَا » فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي] .

تَقَدُّمُهُ إِلَىٰ ذَٰلِكَ ٱلْعَظِيمِ كَانَ أَوَّلَ مَعَانِيهِ أَنَّ كَلِمَةَ « أَفَنْدِي » تَطَاوَلَتْ إِلَىٰ كَلِمَةِ « بَاشَا » بِٱلسَّبِّ عَلَنًا . . . !

* * *

وَٱنْقَبَضُوا عَنِ ٱلْأَفَنْدِيِّ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا كَانَ مَعْنَاهُ ٱلطَّرْدَ ؛ ثُمَّ جَاءَ ٱلْبِكُ يَخْطُبُ ٱلْفَتَاةَ .

وَ« بِكْ » مُنَبِّهَةٌ لِلِاسْمِ ٱلْخَاطِبِ ، وَشَرَفٌ وَقَدْرٌ وَثَنَاءٌ ٱجْتِمَاعِيٌّ ، وَذِكْرٌ شَهِيرٌ ، وَإِرْغَامٌ عَلَى ٱلتَّعْظِيمِ بِقُوَّةِ ٱلْكَلِمَةِ ، وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلْحُرُمَاتِ ٱللَّازِمَةِ لِلِاسْمِ لُزُومَ ٱلسَّوَادِ لِلْعَيْنِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ تَحْتَ بِكْ رَجُلٌ ، فَإِنَّ تَحْتَهَا عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ بِكْ . . . ! وَأَنْعَمَ لَهُ ٱلْبَاشَا ، وَوَصَلَ يَدَهُ بِيَدِ ٱبْنَتِهِ فَأَلْبَسَهَا وَأَلْبَسَتْهُ ، وَأَعْلَمَهَا أَبُوهَا أَنَّهُ قَدْ فَحَصَ عَنِ ٱلْبِكِ فَإِذَا هُوَ بِكْ قُوَّةُ مِئَتَيْ فَدَانٍ . . . ! أَمَّا ٱلْأَفَنْدِيُّ فَظَهَرَ مِنَ ٱلْفَحْصِ ٱلْهَنْدَسِيِّ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ أَنَّهُ أَفَنْدِيٌّ قُوَّةُ خَمْسَةَ عَشَرَ جُنَيْهًا فِي ٱلشَّهْرِ . . !

وَخَنَسَ ٱلْأَفَنْدِيُّ وَتَرَاجَعَ مُنْخَزِلًا ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ ٱلْبَاشَا إِنَّمَا زَوَّجَ لَقَبَهُ قَبْلَ أَنْ يُزَوِّجَ ٱبْنَتَهُ ، وَأَنَّهُ هُوَ لَنْ يَمْلِكَ مَهْرَ هَـٰذَا ٱللَّقَبِ إِلَّا إِذَا مَلَكَ أَنْ يُبَدِّلَ أَسْبَابَ ٱلتَّارِيخِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ فِي ٱلْأُمَمِ ٱلضَّعِيفَةِ ، فَيَنْقُلَ إِلَى ٱلْعَقْلِ أَوِ ٱلنَّفْسِ مَا جَعَلَتْهُ « أُمَمُ ٱلْأَكْلِ وَٱلشُّرْبِ » مِنْ حَقِّ ٱلْمِعْدَةِ ، فَلَا يَكُونُ بَاشَا إِلَّا مُخْتَرِعٌ شَرْقِيٌّ مُفْلِسٌ ، أَوْ أَدِيبٌ عَظِيمٌ فَقِيرٌ ، أَوْ مَنْ جَرَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَجْرَىٰ فِي سُمُوِّ ٱلْمَعْنَىٰ لَا فِي سُمُوِّ ٱلْمَالِ .

وَقَدَّمَتْ مِئَتَا ٱلْفَدَانِ مَهْرَهَا « ٱلطِّينِيَّ » ٱلْعَظِيمَ بِمَا تَعْبِيرُهُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلطِّينِيَّةِ : ثَمَنُ عِشْرِينَ ثَوْرًا ، وَمِثْلِهَا جَامُوسًا ، وَمِثْلِهَا بِغَالًا وَأَحْمِرَةً ، وَفَوْقَهَا مِئَةُ قِنْطَارٍ قُطْنًا ، وَمِئَةُ أَرْدُبٍّ قَمْحًا ، ثُمَّ ذُرَةً ، ثُمَّ شَعِيرًا . وَٱلْمَجْمُوعُ ٱلطِّينِيُّ لِذَٰلِكَ أَلْفُ جُنَيْهٍ ، وَعَزَّى ٱلْبَاشَا أَنَّهُ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : إِنَّهَا خَمْسَةُ آلَافٍ ، ٱخْتَزَلَتْهَا ٱلْأَزْمَةُ قَبَّحَهَا ٱللهُ . . . . !

ثُمَّ زُفَّتْ « بِنْتُ ٱلْبَاشَا » زِفَافًا طِينِيًّا بِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ أَيْضًا ، كَانَ تَعْبِيرُهُ : أَنَّهُ أُنْفِقَ عَلَيْهِ ثَمَنُ أَلْفِ قِنْطَارٍ بَصَلًا ، وَمِئَةِ غِرَارَةٍ مِنَ ٱلسَّمَادِ ٱلْكِيمَاوِيِّ ، كَأَنَّمَا فُرِشَ بِهَا ٱلطَّرِيقُ . . . . !

وَطَفِقَ ٱلْبَاشَا يُفَاخِرُ وَيَتَمَدَّحُ ، وَيَتَبَذَّخُ عَلَى ٱلْأَفَنْدِيِّ وَأَمْثَالِ ٱلْأَفَنْدِيِّ بِٱلطِّينِ وَمَعَانِي

ٱلطِّينِ ؛ فَرَدَّتِ ٱلأَقْدَارُ كَلَامَهُ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَتْ مَرْجِعَهُ فِيْ قَلْبِهِ ، وَهَيَّأَتْ لِبِنْتِ ٱلْبَاشَا مَعِيشَةً « طِينِيَّةً » بِمَعْنًى غَيْرِ ذَلِكَ ٱلْمَعْنَىٰ . . .

* * *

وَمَاتَ ٱلطِّفْلُ ؛ فَرَدَّتْ هَـٰذِهِ ٱلنَّكْبَةُ بِنْتَ ٱلْبَاشَا إِلَىٰ مَعَانِيْ ٱنْفِرَادِهَا بِنَفْسِهَا قَبْلَ ٱلزَّوَاجِ ، وَزَادَتْهَا عَلَىٰ ٱنْفِرَادِهَا ٱلْحُزْنَ وَٱلأَلَمَ ؛ وَأَلْقَتِ ٱلأَقْدَارُ بِذَلِكَ فِيْ أَيَّامِهَا وَلَيَالِيهَا ٱلتُّرَابَ وَٱلطِّينَ .

وَلَجَّ ٱلْحُزْنُ بِبِنْتِ ٱلْبَاشَا فَجَعَلَتْ لَا تَرَىٰ إِلَّا ٱلْقَبْرَ ، وَلَا تَتَمَنَّىٰ إِلَّا ٱلْقَبْرَ ، تَلْحَقُ فِيهِ بِوَلَدِهَا ؛ فَوَضَعَتِ ٱلأَقْدَارُ مِن ذَلِكَ فِيْ رُوحِهَا مَعْنَىٰ ٱلطِّينِ وَٱلتُّرَابِ .

وَأَسْقَمَ ٱلْهَمُّ بِنْتَ ٱلْبَاشَا وَأَذَابَهَا ؛ فَنَقَلَتِ ٱلأَقْدَارُ إِلَىٰ لَحْمِهَا عَمَلَ ٱلطِّينِ ، فِيْ تَحْلِيلِهِ ٱلأَجْسَامَ وَإِذَابَتِهَا تَحْتَ ٱلْبِلَىٰ .

* * *

وَكَانَ وَرَاءَ قَصْرِهَا حِوَاءٌ[1] يَأْوِي إِلَيْهِ قَوْمٌ مِنْ « طِينِ ٱلنَّاسِ » بِنِسَائِهِمْ وَعِيَالِهِمْ ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ « زَبَّالٌ » لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ ، يَرَاهُمْ أَعْظَمَ مَفَاخِرِهِ وَأَجْمَلَ آثَارِهِ ، وَلَا يَزَالُ يَرْفَعُ صَوْتَهُ مُتَمَدِّحًا بِهِمْ ، وَيَخْتَرِعُ لِذَلِكَ أَسْبَابًا كَثِيرَةً لِكَيْ يَسْمَعَهُ جِيرَانُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ مُفَاخِرًا ، مَرَّةً بِأَحْمَدَ ، وَمَرَّةً بِحَسَنٍ ، وَمَرَّةً بِعَلِيٍّ ، وَأَعْجَبُ أَمْرِهِ أَنَّهُ يَرَىٰ أَوْلَادَهُ هَـٰؤُلَاءِ مُتَمِّمِينَ فِيْ ٱلطَّبِيعَةِ لِأَوْلَادِ « ٱلْبَاشَوَاتِ » . . . وَهُوَ يُحِبُّهُمْ حُبَّ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْمُفْتَرِسِ لِصِغَارِهِ ؛ يَرَىٰ ٱلأَسَدُ أَشْبَالَهُ هُمْ صَنْعَةَ قُوَّتِهِ ، فَلَا يَزَالُ يَحُوطُهُمْ وَيُتَمِّمُهُمْ وَيَرْعَاهُمْ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيُقَاتِلُ ٱلْوُجُودَ مِنْ أَجْلِهِمْ ؛ إِذْ يَشْعُرُ بِٱلْفِطْرَةِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهُ هُوَ وُجُودُهُمْ ، وَأَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ وَهَبَتْ لَهُ مِنْهُمْ مَسَرَّاتِ قَلْبِهِ ، ذَلِكَ ٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي ٱنْحَصَرَتْ مَسَرَّاتُهُ فِيْ ٱلنَّسْلِ وَحْدَهُ ، فَصَارَ ٱلشُّعُورُ بِٱلنَّسْلِ عِنْدَهُ هُوَ ٱلْحُبَّ إِلَىٰ نِهَايَةِ ٱلْحُبِّ . وَكَذَلِكَ ٱلزَّبَّالُ ٱلأَسَدُ[2] .

(١) ٱلْحِوَاءُ : جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْبُيُوتِ كَهَـٰذِهِ ٱلْعُشُشِ ٱلَّتِيْ يَسْكُنُهَا ٱلصَّعَايِدَةُ فِيْ بَعْضِ ٱلأَحْيَاءِ .

(٢) هَـٰذَا ٱلزَّبَّالُ شَخْصِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ ، لَوْ قُلْنَا بِمَذْهَبِ ٱلرَّجْعَةِ لَكَانَ « أَرِسْطُو » رَجَعَ زَبَّالًا لِيُتَمِّمَ فَلْسَفَتَهُ . وَٱلْكَاتِبُ يَعْرِفُ ٱلرَّجُلَ وَيَبَرُّهُ أَحْيَانًا وَكَانَ حَضْرَتُهُ قَدْ طَلَبَ إِلَيْنَا أَنْ نَصْنَعَ لَهُ مَوَّالًا يَتَغَنَّىٰ بِهِ فِيْ أَوْقَاتِ =

وَمِنْ سُخْرِيَةِ ٱلْقَدَرِ أَنَّ زَبَّالَنَا هَـٰذَا لَمْ يَسْكُنِ ٱلْحِوَاءَ إِلَّا فِيْ تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ ٱلَّتِيْ جَلَسَتْ فِيهَا بِنْتُ ٱلْبَاشَا عَلَىٰ مَا وَصَفْنَا ، وَفِيْ ضُلُوعِهَا قَلْبٌ يُفَتِّتُ مِنْ كَبِدِهَا ، وَيُمَزِّقُ مِنْ أَحْشَائِهَا .

وَبَيْنَا تُنَاجِيْ نَفْسَهَا وَتَعْجَبُ مِنْ سُخْرِيَةِ ٱلأَقْدَارِ بِٱلْبَاشَا وَٱلْبِكْ ، وَتَسْتَحْمِقُ أَبَاهَا فِيمَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنْ نَبْذِ كُفْئِهَا لِعَجْزِهِ عَنْ مَهْرِ بَاشَا ، وَإِيْثَارِ هَـٰذَا ٱلْمَهْرِ ٱلطِّينِيِّ ، وَتَبَاهِيهِ بِهِ أَمَامَ ٱلنَّاسِ ، وَٱنْدِرَائِهِ بِٱلطَّعْنِ عَلَىٰ مَنْ لَيْسَ لَهُ لَقَبٌ مِنْ أَلْقَابِ ٱلطِّينِ ـ بَيْنَا هِيَ كَذَلِكَ إِذَا بِٱلزَّبَّالِ ؛ كَانِسِ ٱلتُّرَابِ وَٱلطِّينِ يَهْتُفُ فِيْ جَوْفِ ٱللَّيْلِ وَيَتَغَنَّىٰ :

يَا لِيلْ ، يَا لِيلْ ، يَا لِيلْ   مَا تِنْجِلِي يَا لِيلْ

* * *

ٱلْقَلْبْ أَهُو رَاضِي   لَكْ حَمْدِيْ يَا رَبِّي
مِنَ ٱلْهُمُومْ فَاضِي   إِفْرَحْ لِيْ يَا قَلْبِي

* * *

يَا دُوبْ كِدَا يَا دُوبْ   زَيِّ ٱلْحَمَامْ عَايِشْ
مَا يِمْتِلِكْ غِيرْ تُوبْ   طُولْ عُمْرُه فِيهْ نَافِشْ
يَا لِيلْ ، يَا لِيلْ ، يَا لِيلْ   مَا تِنْجِلِي يَا لِيلْ

* * *

إِنْ قُلْتْ أَنَا فَرْحَانْ   دَا مِينْ يِكَدِّبْنِي
وَأَكْتَرْ مِنَ ٱلسُّلْطَانْ   فَرْحَانْ أَنَا بِٱبْنِي

* * *

بِينِ ٱلسُّيُوفْ يَا نَاسْ   لَمِ ٱنْكَسَرْ سِيفِي
وَٱبْنِ ٱلْغِنَىٰ مِحْتَاسْ   وَانَا عَلَىٰ كِيفِي . . .

= ٱلصَّفَاءِ ، فَوَضَعْنَا لَهُ ٱلأُغْنِيَةَ ٱلَّتِيْ يَرَاهَا ٱلْقَارِئُ بَعْدُ ، وَهُوَ يَصْدَحُ بِهَا فِيْ لَيَالِيهِ . وَسَنُفْرِدُ لِزَبَّالِنَا هَـٰذَا مَقَالًا خَاصًّا إِنْ شَاءَ ٱللهُ .

يَـا لِيـلْ ، يَـا لِيـلْ ، يَـا لِيـلْ   مَـــا تِنجِلـــي يَـــا لِيــلْ

* * *

وَٱبْـــنِ ٱلْغِنَـــى فِ هُمُـــومْ   وَٱلْخَـالِـي خَـالِـي ٱلْبَـالْ
وَٱلْفَقْـــرْ مَـــا بِيْــدُومْ   وتْـدُومْ هُمُـومِ ٱلْمَـالْ

* * *

يَـا طِيـرْ يَـا طِيـرْ ، يَـا طِيـرْ   ٱلْحُـــرّ فَـــوْقِ ٱللُّـــومْ
وَٱلْخِيـــرْ ، جَمِيـــعِ ٱلْخِيــرْ   لُقْمَـــهْ ، وعَـــافْيَـــةْ ، ونُـــومْ
يَـا لِيـلْ ، يَـا لِيـلْ ، يَـا لِيـلْ   مَـا تِنجِلـي يَـا لِيـلْ

* * *

وَلَمْ تَخْتَرِ ٱلْأَقْدَارُ إِلَّا زَبَّالًا تُرْسِلُ فِي لِسَانِهِ سُخْرِيَّتَهَا بِذَلِكَ ٱلْبَاشَا وَبِنْتِ ذَلِكَ ٱلْبَاشَا . . . ! [من مخلّع البسيط] :

وَكَسْـرُ قَلْـبٍ بِكَسْـرِ قَلْـبِ   وَحَطْـمُ نَفْـسٍ بِحَطْـمِ نَفْـسِ
وَرُبَّ عِـزٍّ تَـرَاهُ أَمْسَـى   كُنَـاسَـةً هُيِّئَـتْ لِكَنْـسِ . . !

طنطا   **مصطفى صادق الرافعي**

وَرَقَةُ وَرْدٍ (*)

« وَضَعْنَا كِتَابَنَا « أَوْرَاقَ ٱلْوَرْدِ » فِي نَوْعٍ مِنَ ٱلتَّرَسُّلِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْءٌ فِي ٱلْأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ٱلَّتِي كَتَبْنَاهُ بِهَا ، فِي ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي أَفْرَدْنَاهُ لَهَا ؛ وَهُوَ رَسَائِلُ غَرَامِيَّةٌ تَطَارَحَهَا شَاعِرٌ فَيْلَسُوفٌ وَشَاعِرَةٌ فَيْلَسُوفَةٌ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي مُقَدِّمَةِ ٱلْكِتَابِ . وَكَانَتْ قَدْ ضَاعَتْ « وَرَقَةُ وَرْدٍ » وَهِيَ رِسَالَةٌ كَتَبَهَا ذَلِكَ ٱلْعَاشِقُ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ ، يَصِفُ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ صَاحِبَتِهِ ، وَيُصَوِّرُ لَهُ فِيهَا سِحْرَ ٱلْحُبِّ كَمَا لَمَسَهُ وَكَمَا تَرَكَهُ . وَقَدْ عَثَرْنَا عَلَيْهَا بَعْدَ طَبْعِ ٱلْكِتَابِ ، فَرَأَيْنَا أَلَّا نَنْفَرِدَ بِهَا . وَهِيَ هَذِهِ : »

. . . كَانَتْ لَهَا نَفْسٌ شَاعِرَةٌ ، مِنْ هَذِهِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلَّتِي تَأْخُذُ ٱلضِّدَّيْنِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ أَحْيَانًا ؛ فَيَسُرُّهَا مَرَّةً أَنْ تُحْزِنَهَا وَتَسْتَدْعِيَ غَضَبَهَا ، وَيُحْزِنُهَا مَرَّةً أَنْ تَسُرَّهَا وَتَبْلُغَ رِضَاهَا ، كَأَنْ لَيْسَ فِي ٱلسُّرُورِ وَلَا فِي ٱلْحُزْنِ مَعَانٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ وَلَكِنْ مِنْ نَفْسِهَا وَمَشِيئَتِهَا .

وَكَانَ خَيَالُهَا مَشْبُوبًا ، يُلْقِي فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمَعَانَ ٱلنُّورِ وَٱنْطِفَاءَهُ ؛ فَٱلدُّنْيَا فِي خَيَالِهَا كَٱلسَّمَاءِ ٱلَّتِي أُلْبِسَهَا ٱللَّيْلُ ، مُلِئَتْ بِأَشْيَائِهَا مُبَعْثَرَةً مُضِيئَةً خَافِتَةً كَٱلنُّجُومِ .

وَلَهَا شُعُورٌ دَقِيقٌ ، يَجْعَلُهَا أَحْيَانًا مِنْ بَلَاغَةِ حِسِّهَا وَإِرْهَافِهِ كَأَنَّ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ عَقْلِهَا ؛ وَيَجْعَلُهَا فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ مِنْ دِقَّةِ هَذَا ٱلْحِسِّ وَٱهْتِيَاجِهِ كَأَنَّهَا بِغَيْرِ عَقْلٍ . . .

وَهِيَ تَرَى أَسْمَى ٱلْفِكْرِ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهَا أَلَّا يَكُونَ لَهَا فِكْرٌ [ٱلْبَتَّةَ] ؛ فَتَتْرُكُ مِنْ أُمُورِهَا أَشْيَاءَ لِلْمُصَادَفَةِ ، كَأَنَّهَا وَاثِقَةٌ أَنَّ ٱلْحَظَّ بَعْضُ عُشَّاقِهَا . عَلَى أَنَّ لَهَا ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ ٱلذَّكَاءِ ، فِي عَقْلِهَا وَرُوحِهَا وَجِسْمِهَا : فَٱلذَّكَاءُ فِي عَقْلِهَا فَهْمٌ ، وَفِي رُوحِهَا فِتْنَةٌ ، وَفِي جِسْمِهَا . . . خَلَاعَةٌ .

وَكُنْتُ أَرَاهَا مَرِحَةً مُسْتَطَارَةً مِمَّا تَطْرَبُ وَتَتَفَاءَلُ ، حَتَّى لَأَحْسَبُهَا تَوَدُّ أَنْ يَخْرُجَ ٱلْكَوْنُ مِنْ قَوَانِينِهِ وَيَطِيشَ . . . ؛ ثُمَّ أَرَاهَا بَعْدُ مُتَضَوِّرَةً مَهْمُومَةً تَحْزَنُ وَتَتَشَاءَمُ ، حَتَّى لَأَظُنُّهَا سَتَزِيدُ ٱلْكَوْنَ هَمًّا لَيْسَ فِيهِ !

(*) « الرسالة » العدد : ١٠١ ، ٩ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ١٠ يونيو/حزيران ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٩٢٣ ـ ٩٢٥ .

وَكَانَتْ عَلَىٰ كُلِّ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمُتَنَافِرَةِ ـ جَمِيلَةً ظَرِيفَةً ، قَدْ تَمَّتْ لَهَا ٱلصُّورَةُ ٱلَّتِي تَخْلُقُ ٱلْحُبَّ ، وَٱلْأَسْرَارُ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْفِتْنَةَ ؛ وَٱلسِّحْرُ ٱلَّذِي يُمَيِّزُ رُوحَهَا بِشَخْصِيَّتِهَا ٱلْفَاتِنَةِ كَمَا تَمَيَّزُ هِيَ بِوَجْهِهَا ٱلْفَاتِنِ .

* * *

وَكَانَ حُبِّي إِيَّاهَا حَرِيقًا مِنَ ٱلْحُبِّ . فَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ جِسْمًا تَنَاوَلَ جِلْدَهُ مَسٌّ مِنْ لَهَبٍ ، فَتَسَلَّعَ هَـٰذَا ٱلْجِلْدُ[١] هُنَا وَهُنَاكَ مِنْ سَلْخِ ٱلنَّارِ ، وَظَهَرَ فِيهِ مِنْ آثَارِ ٱلْحُرُوقِ لَهَبٌ يَابِسٌ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ عُرُوقٌ مِنَ ٱلْجَمْرِ ٱنْتَشَرَتْ فِي هَـٰذَا ٱلْجِسْمِ . إِنَّكَ إِنْ تَمَثَّلْتَ هَـٰذَا ٱلْوَصْفَ ثُمَّ نَقَلْتَهُ مِنَ ٱلْجِلْدِ إِلَى ٱلدَّمِ ـ كَانَ هُوَ حَرِيقَ ذَلِكَ ٱلْحُبِّ فِي دَمِي !

وَٱلْحُبُّ ـ إِنْ كَانَ حُبًّا ـ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَذَابًا ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا تَقْدِيمُ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلْعَاشِقِ عَلَىٰ قُوَّةِ فِعْلِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي فِي ٱلْمَعْشُوقِ ، لَيْسَ حَالٌ مِنْهُ فِي عَذَابِهِ ، إِلَّا وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا فِي جَبَرُوتِهَا .

وَلَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلْغَرَامَ إِنَّمَا هُوَ جُنُونُ شَخْصِيَّةِ ٱلْمُحِبِّ بِشَخْصِيَّةِ مَحْبُوبِهِ ، فَيَسْقُطُ ٱلْعَالَمُ وَأَحْكَامُهُ وَمَذَاهِبُهُ مِمَّا بَيْنَ ٱلشَّخْصِيَّتَيْنِ ؛ وَيَنْتَفِي ٱلْوَاقِعُ ٱلَّذِي يَجْرِي ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ ، وَتَعُودُ ٱلْحَقَائِقُ لَا تَأْتِي مِنْ شَيْءٍ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمُرَّ عَلَى ٱلْمَحْبُوبِ لِتَجِيءَ مِنْهُ ، وَيُصْبِحُ هَـٰذَا ٱلْكَوْنُ ٱلْعَظِيمُ كَأَنَّهُ إِطَارٌ فِي عَيْنِ مَجْنُونٍ لَا يَحْمِلُ شَيْئًا إِلَّا ٱلصُّورَةَ ٱلَّتِي جُنَّ بِهَا !

وَتَٱللهِ لَكَأَنَّ قَانُونَ ٱلطَّبِيعَةِ أَلَّا تُحِبَّ ٱلْمَرْأَةُ رَجُلًا يُسَمَّىٰ رَجُلًا ، وَأَلَّا تَكُونَ جَدِيرَةً بِمُحِبِّهَا ، إِلَّا إِذَا جَرَتْ بَيْنَهُمَا أَهْوَالٌ مِنَ ٱلْغَرَامِ تَتْرُكُهَا مَعَهُ كَأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ فِي ٱلْحَرْبِ . . . تِلْكَ ٱلْأَهْوَالُ يُمَثِّلُهَا ٱلْحَيَوَانُ ٱلْمُتَوَحِّشُ عَمَلًا جِسْمِيًّا بِٱلْقِتَالِ عَلَى ٱلْأُنْثَىٰ ، ثُمَّ تَرِقُّ فِي ٱلْإِنْسَانِ ٱلْمُتَحَضِّرِ فَيُمَثِّلُهَا عَمَلًا قَلْبِيًّا بِٱلْحُبِّ . . .

* * *

أَحْبَبْتُهَا جُهْدَ ٱلْهَوَىٰ حَتَّىٰ لَا مَزِيدَ فِيهِ وَلَا مَطْمَعَ فِي مَزِيدٍ ، وَلَـٰكِنَّ أَسْرَارَ فِتْنَتِهَا ٱسْتَمَرَّتْ تَتَعَدَّدُ فَتَدْفَعُنِي أَنْ يَكُونَ حُبِّي أَشَدَّ مِنْ هَـٰذَا ؛ وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ يُمْكِنُ فِي ٱلْحُبِّ

(١) { أَيْ : تَشَقَّقَ وَتَسَلَّخَ } .

أَشَدُّ مِنْ هَـٰذَا ؟

وَلَقَدْ كُنْتُ فِي ٱسْتِغَاثَتِي بِهَا مِنَ ٱلْحُبِّ كَٱلَّذِي رَأَىٰ نَفْسَهُ فِي طَرِيقِ ٱلسَّيْلِ فَفَرَّ إِلَىٰ رَبْوَةٍ عَالِيَةٍ فِي رَأْسِهَا عَقْلٌ لِهَـٰذَا ٱلسَّيْلِ ٱلْأَحْمَقِ ، أَوْ كَٱلَّذِي فَاجَأَهُ ٱلْبُرْكَانُ بِجُنُونِهِ وَغِلْظَتِهِ فَهَرَبَ فِي رِقَّةِ ٱلْمَاءِ وَحِلْمِهِ ؛ وَلَا سَيْلَ وَلَا بُرْكَانَ إِلَّا حُرْقَتِي بِٱلْهَوَىٰ وَٱرْتِمَاضِي مِنَ ٱلْحُبِّ .

أَمَا وَٱللهِ إِنَّهُ لَيْسَ ٱلْعَاشِقُ هُوَ ٱلْعَاشِقَ ، وَلَـٰكِنْ هِيَ ٱلطَّبِيعَةُ ، هِيَ ٱلطَّبِيعَةُ فِي ٱلْعَاشِقِ .

هِيَ ٱلطَّبِيعَةُ ، بِجَبَرُوتِهَا ، وَعَسْفِهَا ، وَتَعَنُّتِهَا . إِذَا ٱسْتَرَاحَ ٱلنَّاسُ جَمِيعًا قَالَتْ لِلْعَاشِقِ : إِلَّا أَنْتَ . . . !

إِذَا عَقَلَ ٱلنَّاسُ جَمِيعًا قَالَتْ فِي ٱلْعَاشِقِ : إِلَّا هَـٰذَا . . . !

إِذَا بَرَأَتْ جِرَاحُ ٱلْحَيَاةِ كُلُّهَا قَالَتْ : إِلَّا جُرْحَ ٱلْحُبِّ . . . !

إِذَا تَشَابَهَتِ ٱلْهُمُومُ كَٱلدَّمْعَةِ وَٱلدَّمْعَةِ ، قَالَتْ : إِلَّا هَمَّ ٱلْعِشْقِ . . . !

إِذَا تَغَيَّرَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْحَالَةِ بَعْدَ ٱلْحَالَةِ ، قَالَتْ فِي ٱلْحَبِيبِ : إِلَّا هُوَ . . . !

إِذَا ٱنْكَشَفَ سِرُّ كُلِّ شَيْءٍ ، قَالَتْ : إِلَّا ٱلْمَعْشُوقَ ؛ إِلَّا هَـٰذَا ٱلْمُحَجَّبَ بِأَسْرَارِ ٱلْقَلْبِ . . . !

* * *

وَلَمَّا رَأَيْتُهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلَمَسَنِي ٱلْحُبُّ لَمْسَةَ سَاحِرٍ ، جَلَسْتُ إِلَيْهَا أَتَأَمَّلُهَا وَأَحْتَسِي مِنْ جَمَالِهَا ذَلِكَ ٱلضِّيَاءَ ٱلْمُسْكِرَ ، ٱلَّذِي تُعَرْبِدُ لَهُ ٱلرُّوحُ عَرْبَدَةً كُلُّهَا وَقَارٌ ظَاهِرٌ . . . فَرَأَيْتُنِي يَوْمَئِذٍ فِي حَالَةٍ كَغَشْيَةِ ٱلْوَحْيِ ، فَوْقَهَا ٱلْآدَمِيَّةُ سَاكِنَةً ، وَتَحْتَهَا تَيَّارُ ٱلْمَلَائِكَةِ يَعُبُّ وَيَجْرِي .

وَكُنْتُ أُلْقِي خَوَاطِرَ كَثِيرَةً ، جَعَلَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا وَمِمَّا حَوْلَهَا يَتَكَلَّمُ فِي نَفْسِي ، كَأَنَّ ٱلْحَيَاةَ قَدْ فَاضَتْ وَٱزْدَحَمَتْ فِي ذَلِكَ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي تَجْلِسُ فِيهِ ، فَمَا شَيْءٌ يَمُرُّ بِهِ إِلَّا مَسَّتْهُ فَجَعَلَتْهُ حَيًّا يَرْتَعِشُ ، حَتَّى ٱلْكَلِمَاتُ .

وَشَعَرْتُ أَوَّلَ مَا شَعَرْتُ أَنَّ ٱلْهَوَاءَ ٱلَّذِي تَتَنَفَّسُ فِيهِ يَرِقُّ رِقَّةَ نَسِيمِ ٱلسَّحَرِ ، كَأَنَّمَا ٱنْخَدَعَ فِيهَا[١] فَحَسِبَ وَجْهَهَا نُورَ ٱلْفَجْرِ !

وَأَحْسَسْتُ فِي ٱلْمَكَانِ قُوَّةً عَجِيبَةً فِي قُدْرَتِهَا عَلَى ٱلْجَذْبِ ، جَعَلَتْنِي مُبَعْثَرًا حَوْلَ هَـٰذِهِ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « بها » بدلًا من : « فيها » .

ٱلْفَتَّانَةِ ، كَأَنَّهَا مَحْدُودَةٌ بِي مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ ٱلنَّوَامِيسَ ٱلطَّبِيعِيَّةَ قَدِ ٱخْتَلَّتْ فِي جِسْمِي إِمَّا بِزِيَادَةٍ وَإِمَّا بِنَقْصٍ ؛ فَأَنَا لِذَلِكَ أَعْظُمُ أَمَامَهَا مَرَّةً ، وَأَصْغُرُ مَرَّةً .

وَظَنَنْتُ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْجَمِيلَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا صُورَةٌ مِنَ ٱلْوُجُودِ ٱلنِّسَائِيِّ ٱلشَّاذِّ ، وَقَعَ فِيهَا تَنْقِيحٌ إِلَـٰهِيٌّ لِتُظْهِرَ لِلدُّنْيَا كَيْفَ كَانَ جَمَالُ حَوَّاءَ فِي ٱلْجَنَّةِ .

وَرَأَيْتُ هَـٰذَا ٱلْحُسْنَ ٱلْفَاتِنَ يُشْعِرُنِي بِأَنَّهُ فَوْقَ ٱلْحُسْنِ ، لِأَنَّهُ فِيهَا هِيَ ؛ وَأَنَّهُ فَوْقَ ٱلْجَمَالِ وَٱلنَّضْرَةِ وَٱلْمَرَحِ ، لِأَنَّ ٱللهَ وَضَعَهُ فِي هَـٰذَا ٱلسُّرُورِ ٱلْحَيِّ ٱلْمَخْلُوقِ ٱمْرَأَةً .

وَٱلْتَمَسْتُ فِي مَحَاسِنِهَا عَيْبًا ، فَبَعْدَ ٱلْجُهْدِ قُلْتُ مَعَ ٱلشَّاعِرِ [قيس بن المُلَوَّح أو قيس بن ذُرَيْح ، من الطويل] :

« إِذَا عِبْتُهَا شَبَّهْتُهَا ٱلْبَدْرَ طَالِعًا . . . ! » .

* * *

وَرَأَيْتُهَا تَضْحَكُ ٱلضَّحِكَ ٱلْمُسْتَحِي ؛ فَيَخْرُجُ مِنْ فَمِهَا ٱلْجَمِيلِ كَأَنَّمَا هُوَ شَاعِرٌ أَنَّهُ تَجَرَّأَ عَلَىٰ قَانُونٍ . . .

وَتَبَسَّمُ ٱبْتِسَامَاتٍ تَقُولُ كُلٌّ مِنْهَا لِلْجَالِسِينَ : ٱنْظُرُوهَا ! ٱنْظُرُوهَا . . . !

وَيَغْمُرُهَا ضَحِكُ ٱلْعَيْنِ وَٱلْوَجْهِ وَٱلْفَمِ وَضَحِكُ ٱلْجِسْمِ أَيْضًا بِٱهْتِزَازِهِ وَتَرَجْرُجِهِ فِي حَرَكَاتٍ كَأَنَّمَا يَبْسِمُ بَعْضُهَا وَيُقَهْقِهُ بَعْضُهَا . . .

وَتُلْقِي نَظَرَاتٍ جَعَلَ ٱللهُ مَعَهَا ذَلِكَ ٱلْإِغْضَاءَ وَذَلِكَ ٱلْحَيَاءَ لِيَضَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلْوِقَايَةِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ ٱلنِّسْوِيَّةِ ، قُوَّةِ تَدْمِيرِ ٱلْقَلْبِ .

وَهِيَ عَلَىٰ ذَلِكَ مُتَسَامِيَةٌ فِي جَمَالِهَا حَتَّىٰ لَا يَتَكَلَّمَ جِسْمُهَا فِي وَسَاوِسِ ٱلنَّفْسِ كَلَامَ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ ، وَكَأَنَّهُ جِسْمٌ مَلَائِكِيٌّ لَيْسَ لَهُ إِلَّا ٱلْجَلَالُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .

جِسْمٌ كَٱلْمَعْبَدِ ، لَا يَعْرِفُ مَنْ جَاءَهُ أَنَّهُ جَاءَهُ إِلَّا لِيَبْتَهِلَ وَيَخْشَعَ .

وَتُطَالِعُكَ مِنْ حَيْثُ تَأَمَّلْتَ فِكْرَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلْمُنْسَجِمَةِ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْجِسْمِ ، تَطْلُبُ مِنْكَ ٱلْفَهْمَ وَهِيَ لَا تُفْهَمُ أَبَدًا ؛ أَيْ : تُرِيدُ ٱلْفَهْمَ ٱلَّذِي لَا يَنْتَهِي ؛ أَيْ : تَطْلُبُ ٱلْحُبَّ ٱلَّذِي لَا يَنْقَطِعُ .

وَهِيَ أَبَدًا فِي زِينَةِ حُسْنِهَا كَأَنَّهَا عَرُوسٌ فِي مَعْرِضِ جَلْوَتِهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ لِلْعَرُوسِ سَاعَةً ، وَلَهَا هِيَ كُلُّ سَاعَةٍ .

* * *

أَمَّا طَرْفُهَا فَيَكَادُ يَصِيحُ تَحْتَ ٱلنَّظَرَاتِ : أَنَا خَائِفٌ ، أَنَا خَائِفٌ !

وَوَجْهُهَا تَتَغَالَبُ عَلَيْهِ ٱلرَّزَانَةُ وَٱلْخِفَّةُ ، لِتَقْرَأَ فِيهِ ٱلْعَيْنُ عَقْلَهَا وَقَلْبَهَا .

وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّعْرِ ، تُطْرِبُ ٱلْقَلْبَ بِٱلْأَلَمِ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي بَعْضِ ٱلسُّرُورِ ، وَبِٱلسُّرُورِ ٱلَّذِي يُحَسُّ فِي بَعْضِ ٱلْأَلَمِ .

وَهِيَ مِثْلُ ٱلْخَمْرِ ، تَحْسَبُ ٱلشَّيْطَانَ مُتَرَقْرِقًا فِيهَا بِكُلِّ إِغْرَائِهِ !

وَكُلَّمَا تَنَاوَلَتْ أَمَامِي شَيْئًا أَوْ صَنَعَتْ شَيْئًا خَلَقَتْ مَعَهُ شَيْئًا ؛ أَشْيَاؤُهَا لَا تَزِيدُ بِهَا ٱلطَّبِيعَةُ ، وَلَـٰكِنْ تَزِيدُ بِهَا ٱلنَّفْسُ .

فَيَا كَبِدًا طَارَتْ صُدُوعًا مِنَ ٱلْأَسَىٰ . . . !

* * *

وَرَأَيْتَنِي يَوْمَئِذٍ فِي حَالَةٍ كَغَشْيَةِ ٱلْوَحْيِ ، فَوْقَهَا ٱلْآدَمِيَّةُ سَاكِنَةً ، وَتَحْتَهَا تَيَّارُ ٱلْمَلَائِكَةِ يَعُبُّ وَيَجْرِي .

* * *

يَا سِحْرَ ٱلْحُبِّ ! تَرَكْتَنِي أَرَىٰ وَجْهَهَا مِنْ بَعْدُ هُوَ ٱلْوَجْهَ ٱلَّذِي تَضْحَكُ بِهِ ٱلدُّنْيَا ، وَتَعْبِسُ وَتَتَغَيَّظُ وَتَتَحَامَقُ أَيْضًا . . .

وَجَعَلْتَنِي أَرَىٰ تِلْكَ ٱلِابْتِسَامَةَ ٱلْجَمِيلَةَ هِيَ أَقْوَىٰ حُكُومَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ . . . !

وَجَعَلْتَنِي يَا سِحْرَ ٱلْحُبِّ ؛ وَجَعَلْتَنِي يَا سِحْرَ ٱلْحُبِّ مَجْنُونًا . . . !

سُمُوُّ ٱلْحُبِّ (*)

صَاحَ ٱلْمُنَادِي فِي مَوْسِمِ ٱلْحَجِّ : « لَا يُفْتِي ٱلنَّاسَ إِلَّا عَطَاءُ ٱبْنُ أَبِي رَبَاحٍ »(١) وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ خُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةَ ؛ يَأْمُرُونَ صَائِحَهُمْ فِي ٱلْمَوْسِمِ ، أَنْ يَدُلَّ ٱلنَّاسَ عَلَى مُفْتِي مَكَّةَ وَإِمَامِهَا وَعَالِمِهَا ، لِيَلْقَوْهُ بِمَسَائِلِهِمْ فِي ٱلدِّينِ ، ثُمَّ لِيُمْسِكَ غَيْرُهُ عَنِ ٱلْفَتْوَى ، إِذْ هُوَ ٱلْحُجَّةُ ٱلْقَاطِعَةُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعَهَا غَيْرُهَا مِمَّا يَخْتَلِفُ عَلَيْهَا أَوْ يُعَارِضُهَا ، وَلَيْسَ لِلْحُجَجِ إِلَّا أَنْ تُظَاهِرَهَا وَتَتَرَادَفَ عَلَى مَعْنَاهَا .

وَجَلَسَ عَطَاءٌ يَتَحَيَّنُ ٱلصَّلَاةَ فِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! أَنْتَ أَفْتَيْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ [من الطويل] :

سَلِ ٱلْمُفْتِيَ ٱلْمَكِّيَّ : هَلْ فِي تَزَاوُرٍ ... وَضَمَّةِ مُشْتَاقِ ٱلْفُؤَادِ جُنَاحُ ؟
فَقَالَ : مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ يُذْهِبَ ٱلتُّقَى ... تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ !

فَرَفَعَ ٱلشَّيْخُ رَأْسَهُ وَقَالَ : وَٱللهِ مَا قُلْتُ شَيْئًا مِنْ هَٰذَا ، وَلَٰكِنَّ ٱلشَّاعِرَ هُوَ نَحَلَنِي هَٰذَا ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي نَفَثَهُ ٱلشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَإِنِّي لَأَخَافُ أَنْ تَشِيعَ ٱلْقَالَةُ فِي ٱلنَّاسِ ، فَإِذَا كَانَ غَدٌ وَجَلَسْتُ فِي حَلْقَتِي فَٱغْدُ عَلَيَّ ، فَإِنِّي قَائِلٌ شَيْئًا .

وَذَهَبَ ٱلْخَبَرُ يَؤُجُّ كَمَا تَؤُجُّ ٱلنَّارُ ، وَتَعَالَمَ ٱلنَّاسُ أَنَّ عَطَاءً سَيَتَكَلَّمُ فِي ٱلْحُبِّ ، وَعَجِبُوا كَيْفَ يَدْرِي ٱلْحُبَّ أَوْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ فِيهِ مَنْ غَبَرَ عِشْرِينَ سَنَةً فِرَاشُهُ ٱلْمَسْجِدُ ، وَقَدْ سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ أُمِّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ صَاحِبِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، وَٱبْنِ عَبَّاسٍ بَحْرِ ٱلْعِلْمِ !

وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ : هَٰذَا رَجُلٌ صَامِتٌ أَكْثَرَ وَقْتِهِ ، وَمَا تَكَلَّمَ إِلَّا خُيِّلَ إِلَى ٱلنَّاسِ أَنَّهُ

(*) « الرسالة » العدد : ٧٧ ، ١٧ شهر رمضان سنة ١٣٥٣هـ = ٢٤ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٩٣٤م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٢٠٨٣ ـ ٢٠٨٨ .

(١) وُلِدَ هَٰذَا ٱلْإِمَامُ سَنَةَ ٢٧هـ وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١١٥هـ ، قَالُوا : وَمَاتَ يَوْمَ مَاتَ وَهُوَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ أَرْضَى أَهْلِ ٱلدُّنْيَا .

يُؤَيَّدُ بِمِثْلِ ٱلْوَحْيِ ، فَكَأَنَّمَا هُوَ نَجِيُّ مَلَائِكَةٍ يَسْمَعُ وَيَقُولُ ، فَلَعَلَّ ٱلسَّمَاءَ مُوحِيَةٌ إِلَى ٱلْأَرْضِ بِلِسَانِهِ وَحْيًا فِي هَٰذِهِ ٱلضَّلَالَةِ ٱلَّتِي عَمَّتِ ٱلنَّاسَ وَفَتَنَتْهُمْ بِٱلنِّسَاءِ وَٱلْغِنَاءِ .

وَلَمَّا كَانَ غَدٌ جَاءَ ٱلنَّاسُ أَرْسَالًا إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ، حَتَّى ٱجْتَمَعَ مِنْهُمُ ٱلْجَمْعُ ٱلْكَثِيرُ . قَالَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَٰنِ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنُ أَبِي عَمَّارٍ : وَكُنْتُ رَجُلًا شَابًّا مِنْ فِتْيَانِ ٱلْمَدِينَةِ ، وَفِي نَفْسِي مِنَ ٱلدُّنْيَا وَمِنْ هَوَى ٱلشَّبَابِ ، فَغَدَوْتُ مَعَ ٱلنَّاسِ ، وَجِئْتُ وَقَدْ تَكَلَّمَ أَبُو مُحَمَّدٍ وَأَفَاضَ ، وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ فِي مَجْلِسِهِ كَأَنَّهُ غُرَابٌ أَسْوَدُ ، إِذْ كَانَ ٱبْنَ أَمَةٍ سَوْدَاءَ تُسَمَّى « بَرَكَةَ » ، وَرَأَيْتُهُ مَعَ سَوَادِهِ أَعْوَرَ(١) أَفْطَسَ أَشَلَّ أَعْرَجَ مُفَلْفَلَ ٱلشَّعْرِ ، لَا يَتَأَمَّلُ ٱلْمَرْءُ مِنْهُ طَائِلًا ، وَلَٰكِنَّكَ تَسْمَعُهُ يَتَكَلَّمُ فَتَظُنُّ مِنْهُ وَمِنْ سَوَادِهِ ـ وَٱللهِ ـ أَنَّ هَٰذِهِ قِطْعَةُ لَيْلٍ تَسْطَعُ فِيهَا ٱلنُّجُومُ ، وَتَصْعَدُ مِنْ حَوْلِهَا ٱلْمَلَائِكَةُ وَتَنْزِلُ .

قَالَ : وَكَانَ مَجْلِسُهُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وَوَافَقْتُهُ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ . [١٢ سورة يوسف/الآيتان : ٢٣ و٢٤] .

قَالَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَٰنِ : فَسَمِعْتُ كَلَامًا قُدْسِيًّا تَضَعُ لَهُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا مِنْ رِضًى وَإِعْجَابٍ بِفَقِيهِ ٱلْحِجَازِ . حَفِظْتُ مِنْهُ قَوْلَهُ :

عَجَبًا لِلْحُبِّ ! هَٰذِهِ مَلِكَةٌ تَعْشَقُ فَتَاهَا ٱلَّذِي ٱبْتَاعَهُ زَوْجُهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ ؛ وَلَٰكِنْ أَيْنَ مُلْكُهَا وَسَطْوَةُ مُلْكِهَا فِي تَصْوِيرِ ٱلْآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ؟ لَمْ تَزِدِ ٱلْآيَةُ عَلَى أَنْ قَالَتْ : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي ﴾ ، وَ﴿ ٱلَّتِي ﴾ هَٰذِهِ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى كُلِّ ٱمْرَأَةٍ كَائِنَةً مَنْ كَانَتْ ؛ فَلَمْ يَبْقَ عَلَى ٱلْحُبِّ مُلْكٌ وَلَا مَنْزِلَةٌ ؛ وَزَالَتِ ٱلْمَلِكَةُ مِنَ ٱلْأُنْثَى !

وَأَعْجَبُ مِنْ هَٰذَا كَلِمَةُ ﴿ رَٰوَدَتْهُ ﴾ وَهِيَ بِصِيغَتِهَا ٱلْمُفْرَدَةِ حِكَايَةٌ طَوِيلَةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَٰذِهِ ٱلْمَرْأَةَ جَعَلَتْ تَعْتَرِضُ يُوسُفَ بِأَلْوَانٍ مِنْ أُنُوثَتِهَا ، لَوْنٍ بَعْدَ لَوْنٍ ؛ ذَاهِبَةً إِلَى فَنٍّ ، رَاجِعَةً مِنْ فَنٍّ ؛ لِأَنَّ { ٱلْكَلِمَةَ مَأْخُوذَةٌ } مِنْ رَوَدَانِ ٱلْإِبِلِ فِي مِشْيَتِهَا ؛ تَذْهَبُ وَتَجِيءُ فِي

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « وَرَأَيْتُهُ أَسْوَدَ أَعْوَرَ » بَدَلًا مِنْ : « وَرَأَيْتُهُ مَعَ سَوَادِهِ أَعْوَرَ » .

رِفْقٍ . وَهَـٰذَا يُصَوِّرُ حَيْرَةَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَاشِقَةِ ؛ وَٱضْطِرَابَهَا فِيْ حُبِّهَا ؛ وَمُحَاوَلَتَهَا أَنْ تَنْفُذَ إِلَىٰ غَايَتِهَا ؛ كَمَا يُصَوِّرُ كِبْرِيَاءَ ٱلْأُنْثَىٰ ، إِذْ تَخْتَالُ وَتَتَرَفَّقُ فِيْ عَرْضِ ضَعْفِهَا ٱلطَّبِيْعِيِّ ، كَأَنَّمَا ٱلْكِبْرِيَاءُ شَيْءٌ آخَرُ(١) غَيْرُ طَبِيْعَتِهَا ؛ فَمَهْمَا تَتَهَالَكْ عَلَىٰ مَنْ تُحِبُّ وَجَبَ أَنْ يَكُوْنَ لِهَـٰذَا « ٱلشَّيْءِ ٱلْآخَرِ » مَظْهَرُ ٱمْتِنَاعٍ أَوْ مَظْهَرُ تَحَيُّرٍ ، أَوْ مَظْهَرُ ٱضْطِرَابٍ ، وَإِنْ كَانَتِ ٱلطَّبِيْعَةُ مِنْ وَرَاءِ ذَٰلِكَ مُنْدَفِعَةً مَاضِيَةً مُصَمِّمَةً .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّهَا لَا تَطْمَعُ فِيْهِ ، وَلَـٰكِنْ فِيْ طَبِيْعَتِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ، فَهِيَ تَعْرِضُ مَا تَعْرِضُ لِهَـٰذِهِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَحْدَهَا ، وَكَأَنَّ ٱلْآيَةَ مُصَرِّحَةٌ فِيْ أَدَبٍ سَامٍ كُلَّ ٱلسُّمُوِّ ، مُنَزَّهٍ غَايَةَ ٱلتَّنْزِيْهِ بِمَا مَعْنَاهُ : « إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ بَذَلَتْ كُلَّ مَا تَسْتَطِيْعُ فِيْ إِغْوَائِهِ وَتَصَبِّيْهِ ، مُقْبِلَةً عَلَيْهِ وَمُتَدَلِّلَةً وَمُتَبَذِّلَةً وَمُنْصَبَّةً مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، بِمَا فِيْ جِسْمِهَا وَجَمَالِهَا عَلَىٰ طَبِيْعَتِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ، وَعَارِضَةً كُلَّ ذَٰلِكَ عَرْضَ ٱمْرَأَةٍ خَلَعَتْ ـ أَوَّلَ مَا خَلَعَتْ ـ أَمَامَ عَيْنَيْهِ ثَوْبَ ٱلْمُلْكِ » .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : « أَغْلَقَتْ » وَهَـٰذَا يُشْعِرُ أَنَّهَا لَمَّا يَئِسَتْ ، وَرَأَتْ مِنْهُ مُحَاوَلَةَ ٱلِانْصِرَافِ ، أَسْرَعَتْ فِيْ ثَوْرَةِ نَفْسِهَا مُهْتَاجَةً تَتَخَيَّلُ ٱلْقُفْلَ ٱلْوَاحِدَ أَقْفَالًا عِدَّةً ، وَتَجْرِيْ مِنْ بَابٍ إِلَىٰ بَابٍ ، وَتَضْطَرِبُ يَدُهَا فِيْ ٱلْأَغْلَاقِ ، كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ سَدَّ ٱلْأَبْوَابِ لَا إِغْلَاقَهَا فَقَطْ .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ وَمَعْنَاهَا فِيْ هَـٰذَا ٱلْمَوْقِفِ أَنَّ ٱلْيَأْسَ قَدْ دَفَعَ بِهَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ إِلَىٰ آخِرِ حُدُوْدِهِ ، فَٱنْتَهَتْ إِلَىٰ حَالَةٍ مِنَ ٱلْجُنُوْنِ بِفِكْرَتِهَا ٱلشَّهْوَانِيَّةِ ، وَلَمْ تَعُدْ لَا مَلِكَةً وَلَا ٱمْرَأَةً ، بَلْ أُنُوْثَةً حَيَوَانِيَّةً صِرْفَةً ، مُتَكَشِّفَةً مُصَرِّحَةً ، كَمَا تَكُوْنُ أُنْثَىٰ ٱلْحَيَوَانِ فِيْ أَشَدِّ ٱهْتِيَاجِهَا وَغَلَيَانِهَا !

هَـٰذِهِ ثَلَاثَةُ أَطْوَارٍ يَتَرَقَّىٰ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَفِيْهَا طَبِيْعَةُ ٱلْأُنُوْثَةِ نَازِلَةً مِنْ أَعْلَاهَا إِلَىٰ أَسْفَلِهَا . فَإِذَا ٱنْتَهَتِ ٱلْمَرْأَةُ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا وَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ ذَٰلِكَ شَيْءٌ تَسْتَطِيْعُهُ أَوْ تَعْرِضُهُ بَدَأَتْ مِنْ ثَمَّ عَظَمَةُ ٱلرُّجُوْلَةِ ٱلسَّامِيَةِ ٱلْمُتَمَكِّنَةِ فِيْ مَعَانِيْهَا ، فَقَالَ يُوْسُفُ : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ :

(١) فِيْ ٱلْأَصْلِ : « كَأَنَّمَا هِيَ شَيْءٌ آخَرُ » بَدَلًا مِنْ : « كَأَنَّمَا ٱلْكِبْرِيَاءُ شَيْءٌ آخَرُ » .

﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ . وَهَـٰذِهِ أَسْمَىٰ طَرِيْقَةٍ إِلَىٰ تَنْبِيْهِ ضَمِيْرِ ٱلْمَرْأَةِ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ ، إِذْ كَانَ أَسَاسُ ضَمِيْرِهَا فِيْ كُلِّ عَصْرٍ هُوَ ٱلْيَقِيْنَ بِٱللهِ ، وَمَعْرِفَةَ ٱلْجَمِيْلِ ، وَكَرَاهَةَ ٱلظُّلْمِ . وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا ٱلتَّنْبِيْهَ ٱلْمُتَرَادِفَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَكْسِرْ مِنْ نَزْوَتِهَا ، وَلَمْ يَفْثَأْ تِلْكَ ٱلْحِدَّةَ ، فَإِنَّ حُبَّهَا كَانَ قَدِ ٱنْحَصَرَ فِيْ فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ ٱجْتَمَعَتْ بِكُلِّ أَسْبَابِهَا فِيْ زَمَنٍ فِيْ مَكَانٍ فِيْ رَجُلٍ ، فَهِيَ فِكْرَةٌ مُحْتَبَسَةٌ كَأَنَّ ٱلْأَبْوَابَ مُغَلَّقَةٌ عَلَيْهَا أَيْضًا ؛ وَلِذَا بَقِيَتِ ٱلْمَرْأَةُ ثَائِرَةً ثَوْرَةَ نَفْسِهَا . وَهُنَا يَعُوْدُ ٱلْأَدَبُ ٱلْإِلَـٰهِيُّ ٱلسَّامِيْ إِلَىٰ تَعْبِيْرِهِ ٱلْمُعْجِزِ فَيَقُوْلُ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ كَأَنَّمَا يُوْمِئُ بِهَـٰذِهِ ٱلْعِبَارَةِ إِلَىٰ أَنَّهَا تَرَامَتْ عَلَيْهِ ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ ، وَٱلْتَجَأَتْ إِلَىٰ وَسِيْلَتِهَا ٱلْأَخِيْرَةِ ، وَهِيَ لَمْسُ ٱلطَّبِيْعَةِ بِٱلطَّبِيْعَةِ لِإِلْقَاءِ ٱلْجَمْرَةِ فِيْ ٱلْهَشِيْمِ . . . !

جَاءَتِ ٱلْعَاشِقَةُ فِيْ قَضِيَّتِهَا بِبُرْهَانِ ٱلشَّيْطَانِ ٱلَّذِيْ يَقْذِفُ بِهِ فِيْ آخِرِ مُحَاوَلَتِهِ . وَهُنَا يَقَعُ لِيُوْسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بُرْهَانُ رَبِّهِ كَمَا وَقَعَ لَهَا هِيَ بُرْهَانُ شَيْطَانِهَا . فَلَوْلَا بُرْهَانُ رَبِّهِ لَكَانَ هَمَّ بِهَا ، وَلَكَانَ رَجُلًا مِنَ ٱلْبَشَرِ فِيْ ضَعْفِهِ ٱلطَّبِيْعِيِّ .

قَالَ أَبُوْ مُحَمَّدٍ : وَهَـٰهُنَا هَـٰهُنَا ٱلْمُعْجِزَةُ ٱلْكُبْرَىٰ ، لِأَنَّ ٱلْآيَةَ ٱلْكَرِيْمَةَ تُرِيْدُ أَلَّا تَنْفِيَ عَنْ يُوْسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فُحُوْلَةَ ٱلرُّجُوْلَةِ ، حَتَّىٰ لَا يُظَنَّ بِهِ ، ثُمَّ هِيَ تُرِيْدُ مِنْ ذَٰلِكَ أَنْ يَتَعَلَّمَ ٱلرِّجَالُ ، وَخَاصَّةً ٱلشُّبَّانَ مِنْهُمْ ، كَيْفَ يَتَسَامَوْنَ بِهَـٰذِهِ ٱلرُّجُوْلَةِ فَوْقَ ٱلشَّهَوَاتِ ، حَتَّىٰ فِيْ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِيْ هِيَ نِهَايَةُ قُدْرَةِ ٱلطَّبِيْعَةِ ؛ حَالَةِ مَلِكَةٍ مُطَاعَةٍ فَاتِنَةٍ عَاشِقَةٍ مُخْتَلِيَةٍ مُتَعَرِّضَةٍ مُتَكَشِّفَةٍ مُتَهَالِكَةٍ . هُنَا لَا يَنْبَغِيْ أَنْ يَيْئَسَ ٱلرَّجُلُ ، فَإِنَّ ٱلْوَسِيْلَةَ ٱلَّتِيْ تَجْعَلُهُ لَا يَرَىٰ شَيْئًا مِنْ هَـٰذَا ـ هِيَ أَنْ يَرَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .

وَهَـٰذَا ٱلْبُرْهَانُ يُؤَوِّلُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَا شَاءَ ، فَهُوَ كَٱلْمِفْتَاحِ ٱلَّذِيْ يُوْضَعُ فِيْ ٱلْأَقْفَالِ كُلِّهَا فَيَفُضُّهَا كُلَّهَا ؛ فَإِذَا مَثَّلَ ٱلرَّجُلُ لِنَفْسِهِ فِيْ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَنَّهُ هُوَ وَهَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ مُنْتَصِبَانِ أَمَامَ ٱللهِ يَرَاهُمَا ، وَأَنَّ أَمَانِيَّ ٱلْقَلْبِ ٱلَّتِيْ تَهْجِسُ فِيْهِ وَيَظُنُّهَا خَافِيَةً ، إِنَّمَا هِيَ صَوْتٌ عَالٍ يَسْمَعُهُ ٱللهُ ؛ وَإِذَا تَذَكَّرَ أَنَّهُ سَيَمُوْتُ وَيُقْبَرُ ، وَفَكَّرَ فِيْمَا يَصْنَعُ ٱلثَّرَىٰ فِيْ جِسْمِهِ هَـٰذَا ، أَوْ فَكَّرَ فِيْ مَوْقِفِهِ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِ أَعْضَاؤُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ ، أَوْ فَكَّرَ فِيْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْإِثْمَ ٱلَّذِيْ يَقْتَرِفُهُ ٱلْآنَ سَيَكُوْنُ مَرْجِعُهُ عَلَيْهِ فِيْ أُخْتِهِ أَوْ بِنْتِهِ ـ إِذَا فَكَّرَ فِيْ هَـٰذَا وَنَحْوِهِ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ يُطَالِعُهُ فَجْأَةً ، كَمَا يَكُوْنُ ٱلسَّائِرُ فِيْ ٱلطَّرِيْقِ غَافِلًا مُنْدَفِعًا إِلَىٰ هَاوِيَةٍ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَجْأَةً فَيَرَىٰ بُرْهَانَ عَيْنِهِ ؛

أَتَرَوْنَهُ يَتَرَدَّىٰ فِي ٱلْهَاوِيَةِ حِينَئِذٍ ، أَمْ يَقِفُ دُونَهَا وَيَنْجُو ؟ ٱحْفَظُوا هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْوَاحِدَةَ ٱلَّتِي فِيهَا أَكْثَرُ ٱلْكَلَامِ ، وَأَكْثَرُ ٱلْمَوْعِظَةِ ، وَأَكْثَرُ ٱلتَّرْبِيَةِ ، وَٱلَّتِي هِيَ كَٱلدِّرْعِ فِي ٱلْمَعْرَكَةِ بَيْنَ ٱلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ وَٱلشَّيْطَانِ ، كَلِمَةَ ﴿ رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ .

* * *

قَالَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ إِلَىٰ صَاحِبِهِ سُهَيْلِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَـٰنِ : وَلَزِمْتُ ٱلْإِمَامَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَجْمَعْتُ أَنْ أَتَشَبَّهَ بِهِ ، وَأَسْلُكَ فِي طَرِيقِهِ مِنَ ٱلزُّهْدِ وَٱلْمَعْرِفَةِ ؛ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ وَقَدْ حَفِظْتُ ٱلرَّجُلَ فِي نَفْسِي كَمَا أَحْفَظُ ٱلْكَلَامَ ، وَجَعَلْتُ شِعَارِي فِي كُلِّ نَزْعَةٍ مِنْ نَزَعَاتِ ٱلنَّفْسِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْعَظِيمَةَ : ﴿ رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ، فَمَا أَلْمَمْتُ بِإِثْمٍ قَطُّ ، وَلَا دَانَيْتُ مَعْصِيَةً ، وَلَا رَهِقَنِي مَطْلَبٌ مِنْ مَطَالِبِ ٱلنَّفْسِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلنَّاسِ هَـٰذَا ، وَأَرْجُو أَنْ يَعْصِمَنِي ٱللهُ فِيمَا بَقِيَ ، فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ لَيْسَتْ كَلِمَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ كَأَمْرٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ تَحْمِلُهُ ، تَمُرُّ بِهِ آمِنًا عَلَىٰ كُلِّ مَعَاصِي ٱلْأَرْضِ ، فَمَا يَعْتَرِضُكَ شَيْءٌ مِنْهَا ، كَأَنَّ مَعَكَ خَاتَمَ ٱلْمَلِكِ تَجُوزُ بِهِ .

قَالَ سُهَيْلٌ : فَلِهَـٰذَا لَقَّبَكَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ « بِٱلْقَسِّ » لِعِبَادَتِكَ وَزُهْدِكَ وَعُزُوفِكَ عَنِ ٱلنِّسَاءِ ، وَقَلِيلٌ لَكَ - وَٱللهِ - يَا أَبَا عَبْدِ ٱللهِ ، فَلَوْ قَالُوا : مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ ، لَصَدَقُوا .

* * *

قَالَتْ سَلَّامَةُ جَارِيَةُ سُهَيْلِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلْمُغَنِّيَةُ ، ٱلْحَاذِقَةُ ٱلظَّرِيفَةُ ، ٱلْجَمِيلَةُ ٱلْفَاتِنَةُ ، ٱلشَّاعِرَةُ ٱلْقَارِئَةُ ، ٱلْمُؤَرِّخَةُ ٱلْمُتَحَدِّثَةُ ، ٱلَّتِي لَمْ يَجْتَمِعْ فِي ٱمْرَأَةٍ مِثْلُهَا حُسْنُ وَجْهِهَا ، وَحُسْنُ غِنَائِهَا ، وَحُسْنُ شِعْرِهَا - قَالَتْ : وَٱشْتَرَانِي أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ « عَشَرَةِ آلَافِ جُنَيْهٍ » وَكَانَ يَقُولُ : مَا يُقِرُّ عَيْنِي مَا أُوتِيتُ مِنَ ٱلْخِلَافَةِ حَتَّىٰ أَشْتَرِيَ سَلَّامَةَ ؛ ثُمَّ قَالَ حِينَ مَلَكَنِي : مَا شَاءَ بَعْدُ مِنْ أَمْرِ ٱلدُّنْيَا فَلْيَفُتْنِي ! قَالَتْ : فَلَمَّا عُرِضْتُ عَلَيْهِ أَمَرَنِي أَنْ أُغَنِّيَهُ ، وَكُنْتُ كَٱلْمَخْبُولَةِ مِنْ حُبِّ عَبْدِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلْقَسِّ ، حُبًّا أَرَاهُ فَالِقًا كَبِدِي ، آتِيًا عَلَىٰ حُشَاشَتِي ؛ فَذَهَبَ عَنِّي وَٱللهِ كُلُّ مَا أَحْفَظُهُ مِنْ أَصْوَاتِ ٱلْغِنَاءِ ، كَمَا يُمْسَحُ ٱللَّوْحُ مِمَّا كُتِبَ فِيهِ ، وَأُنْسِيتُ ٱلْخَلِيفَةَ وَأَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَمْ أَرَ

إِلَّا عَبْدَ ٱلرَّحْمَـٰنِ وَمَجْلِسَهُ مِنِّي يَوْمَ سَأَلَنِي أَنْ أُغَنِّيَهُ بِشِعْرِهِ فِيَّ ، وَقَوْلِي لَهُ يَوْمَئِذٍ : حُبًّا وَكَرَامَةً وَعَزَازَةً لِوَجْهِكَ ٱلْجَمِيلِ . وَتَنَاوَلْتُ ٱلْعُودَ وَجَسَسْتُهُ بِقَلْبِي قَبْلَ يَدِي ، وَضَرَبْتُ عَلَيْهِ كَأَنِّي أَضْرِبُ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ، بِيَدٍ أَرَىٰ فِيهَا عَقْلًا يَحْتَالُ حِيلَةَ ٱمْرَأَةٍ عَاشِقَةٍ . ثُمَّ ٱنْدَفَعْتُ أُغَنِّي بِشِعْرِ حَبِيبِي [من الكامل] :

إِنَّ ٱلَّتِي طَرَقَتْكَ بَيْنَ رَكَائِبٍ ... تَمْشِي بِمِزْهَرِهَا وَأَنْتَ حَرَامُ
لِتَصِيدَ قَلْبَكَ ، أَوْ جَزَاءَ مَوَدَّةٍ ... إِنَّ ٱلرَّفِيقَ لَهُ عَلَيْكَ ذِمَامُ
بَاتَتْ تُعَلِّلُنَا وَتَحْسَبُ أَنَّنَا ... فِي ذَاكَ أَيْقَاظٌ ، وَنَحْنُ نِيَامُ

وَغَنَّيْتُهُ وَٱللهِ غِنَاءَ وَالِهَةٍ ذَاهِبَةِ ٱلْعَقْلِ كَاسِفَةِ ٱلْبَالِ ، وَرَدَّدْتُهُ كَمَا رَدَّدْتُهُ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ، وَأَنَا إِذْ ذَاكَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَٱلْوَرْدَةِ أَوَّلَ مَا تَتَفَتَّحُ . وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَتَبَيَّنُ لِصَوْتِي فِي مِسْمَعَيْهِ صَوْتًا آخَرَ ... وَقَطَّعْتُهُ ذَلِكَ ٱلتَّقْطِيعَ ، وَمَدَّدْتُهُ ذَلِكَ ٱلتَّمْدِيدَ ، وَصِحْتُ فِيهِ صَيْحَةَ قَلْبِي وَنَفْسِي وَجَوَارِحِي كُلِّهَا كَمَا غَنَّيْتُ عَبْدَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ، لِكَيْمَا أُؤَدِّيَ إِلَىٰ قَلْبِهِ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي فِي ٱللَّفْظِ ، وَٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي فِي ٱلنَّفْسِ جَمِيعًا ، وَلِكَيْمَا أُسْكِرَهُ - وَهُوَ ٱلزَّاهِدُ ٱلْعَابِدُ - سُكْرَ ٱلْخَمْرِ بِشَيْءٍ غَيْرِ ٱلْخَمْرِ !

وَمَا أَفَقْتُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْغَشْيَةِ إِلَّا حِينَ قَطَعْتُ ٱلصَّوْتَ ، فَإِذَا ٱلْخَلِيفَةُ كَأَنَّمَا يَسْمَعُ مِنْ قَلْبِي لَا مِنْ فَمِي وَقَدْ زَلْزَلَهُ ٱلطَّرَبُ ، وَمَا خَفِيَ عَلَيَّ أَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ أَلَمَّ بِشَأْنِ ٱمْرَأَةٍ ، وَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ قَدِ ٱفْتَضَحْتُ عِنْدَهُ ؛ وَلَـٰكِنْ غَلَبَتْهُ شَهْوَتُهُ ، وَكَانَ جَسَدًا بِمَا فِيهِ ، يُرِيدُ جَسَدًا لِمَا فِيهِ ، فَمِنْ ثَمَّ لَمْ يُنْكِرْ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ .

وَٱشْتَرَانِي وَصِرْتُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا خَلَوْنَا سَأَلَنِي أَنْ أُغَنِّيَ ، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَأَنَا أُغَنِّيهِ بِشِعْرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَـٰنِ [من الطويل] :

أَلَا قُلْ لِهَـٰذَا ٱلْقَلْبِ : هَلْ أَنْتَ مُبْصِرٌ ... وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلَّامَةَ ٱلْيَوْمَ مُقْصِرُ
إِذَا أَخَذَتْ فِي ٱلصَّوْتِ كَادَ جَلِيسُهَا ... يَطِيرُ إِلَيْهَا قَلْبُهُ حِينَ تَنْظُرُ

وَأَدَّيْتُهُ عَلَىٰ مَا كَانَ يَسْتَحْسِنُهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ وَيَطْرَبُ لَهُ ، إِذْ يَسْمَعُ فِيهِ هَمْسًا مِنْ بُكَائِي ، وَلَهْفَةً مِمَّا أَجِدُ بِهِ ، وَحَسْرَةً عَلَىٰ أَنَّهُ يَنْسَكِبُ فِي قَلْبِي وَهُوَ يَصُدُّ عَنِّي وَيَتَحَامَانِي ،

وَمَا غَنَّيْتُ : « وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلَّامَةَ الْيَوْمَ مُقْصِرُ » إِلَّا فِي صَوْتٍ تَنُوحُ بِهِ سَلَّامَةُ عَلَىٰ نَفْسِهَا وَتَنْدُبُ وَتَتَفَجَّعُ !

فَقَالَ لِي يَزِيدُ وَقَدْ فَضَحْتُ نَفْسِي عِنْدَهُ فَضِيحَةً مَكْشُوفَةً : يَا حَبِيبَتِي ! مَنْ قَائِلُ هَـٰذَا الشِّعْرِ ؟

قُلْتُ : أُحَدِّثُكَ بِالْقِصَّةِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

قَالَ : حَدِّثِينِي .

قُلْتُ : هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ ابْنُ أَبِي عَمَّارٍ الَّذِي يُلَقِّبُونَهُ بِالْقَسِّ لِعِبَادَتِهِ وَنُسُكِهِ ، وَهُوَ فِي الْمَدِينَةِ يُشْبِهُ عَطَاءَ ابْنَ أَبِي رَبَاحٍ ، وَكَانَ صَدِيقًا لِمَوْلَايَ سُهَيْلٍ ، فَمَرَّ بِدَارِنَا يَوْمًا وَأَنَا أُغَنِّي فَوَقَفَ يَسْمَعُ ، وَدَخَلَ عَلَيْنَا « الْأَحْوَصُ »(١) ، فَقَالَ : وَيْحَكُمْ ؟ لَكَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَاللهِ تَتْلُو مَزَامِيرَهَا بِحَلْقِ سَلَّامَةَ ، فَهَـٰذَا عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ الْقَسُّ قَدْ شُغِلَ بِمَا يَسْمَعُ مِنْهَا ، وَهُوَ وَاقِفٌ خَارِجَ الدَّارِ ، فَتَسَارَعَ مَوْلَايَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَدَعَاهُ إِلَىٰ أَنْ يَدْخُلَ فَيَسْمَعَ مِنِّي ، فَأَبَىٰ ! فَقَالَ لَهُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَعْفَرٍ ، وَهُوَ مَنْ هُوَ فِي مَحَلِّهِ وَبَيْتِهِ وَعِلْمِهِ قَدْ مَشَىٰ إِلَىٰ جَمِيلَةَ أُسْتَاذَةِ سَلَّامَةَ حِينَ عَلِمَ أَنَّهَا آلَتْ أَلِيَّةً أَلَّا تُغَنِّيَ أَحَدًا إِلَّا فِي مَنْزِلِهَا ؛ فَجَاءَهَا فَسَمِعَ مِنْهَا ، وَقَدْ هَيَّأَتْ لَهُ مَجْلِسَهَا ، وَجَعَلَتْ عَلَىٰ رُؤُوسِ جَوَارِيهَا شُعُورًا مُسْدَلَةً كَالْعَنَاقِيدِ ، وَأَلْبَسَتْهُنَّ أَنْوَاعَ الثِّيَابِ الْمُصَبَّغَةِ ، وَوَضَعَتْ فَوْقَ الشُّعُورِ التِّيجَانَ ، وَزَيَّنَتْهُنَّ بِأَنْوَاعِ الْحُلِيِّ ، وَقَامَتْ هِيَ عَلَىٰ رَأْسِهِ ، وَقَامَ الْجَوَارِي صَفَّيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، حَتَّىٰ أَقْسَمَ عَلَيْهَا فَجَلَسَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ ، وَأَمَرَتِ الْجَوَارِيَ فَجَلَسْنَ ، وَمَعَ كُلِّ جَارِيَةٍ عُودُهَا ؛ ثُمَّ ضَرَبْنَ جَمِيعًا وَغَنَّتْ عَلَيْهِنَّ ، وَغَنَّى الْجَوَارِي عَلَىٰ غِنَائِهَا ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ : مَا ظَنَنْتُ أَنَّ مِثْلَ هَـٰذَا يَكُونُ !

وَأَنَا أُقْعِدُكَ فِي مَكَانٍ تَسْمَعُ مِنْ سَلَّامَةَ وَلَا تَرَاهَا ، إِنْ كُنْتَ { عِنْدَ نَفْسِكَ } بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَمْ يَبْلُغْهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ !

قَالَتْ سَلَّامَةُ : وَكَانَتْ هَـٰذِهِ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - رُقْيَةٌ مِنْ رُقَى إِبْلِيسَ ؛ فَقَالَ

(١) هُوَ الْأَحْوَصُ الشَّاعِرُ الْمَعْرُوفُ .

عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ : أَمَّا هَـٰذِهِ فَنَعَمْ . وَدَخَلَ الدَّارَ وَجَلَسَ حَيْثُ يَسْمَعُ ، ثُمَّ أَمَرَنِي مَوْلَايَ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ خُرُوجَ الْقَمَرِ مَشْبُوبًا مِنْ سَحَابَةٍ كَانَتْ تُغَطِّيهِ ؛ { فَأَمَّا هُوَ } فَمَا رَآنِي حَتَّىٰ عَلِقْتُ بِقَلْبِهِ ، وَسَبَّحَ طَوِيلًا طَوِيلًا ؛ وَ{ أَمَّا أَنَا فَـ }ـمَا رَأَيْتُهُ حَتَّىٰ رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالْمَلَائِكَةَ ، وَمُتُّ عَنِ الدُّنْيَا وَانْتَقَلْتُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ . . .

* * *

قَالَتْ سَلَّامَةُ : وَافْتَضَحْتُ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، فَتَنَحْنَحَ يَزِيدُ . . . فَضَحِكْتُ وَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أُحَدِّثُكَ أَمْ حَسْبُكَ ؟ قَالَ : حَدِّثِينِي وَيْحَكِ ! فَوَاللهِ لَوْ كُنْتِ فِي الْجَنَّةِ كَمَا أَنْتِ لَأَعَدْتِ قِصَّةَ آدَمَ مَعَ وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا حَتَّىٰ يُطْرَدُوا جَمِيعًا مِنْ حُسْنِهَا إِلَىٰ حُسْنِكِ ! فَمَا فَعَلَ الْقَسُّ وَيْحَكِ ؟

قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! إِنَّهُ يُدْعَىٰ الْقَسُّ قَبْلَ أَنْ يَهْوَانِي .

فَقَالَ يَزِيدُ : وَهَلْ عَجَبٌ وَقَدْ فَتَنْتِهِ أَنْ يَطْرُدَهُ « الْبَطْرِيقُ » ؟

قُلْتُ : بَلِ الْعَجَبُ وَقَدْ فَتَنْتُهُ أَنْ يَصِيرَ هُوَ الْبَطْرِيقُ . . . !

فَضَحِكَ يَزِيدُ وَقَالَ : إِيهِ ، مَا أَحْسَبُ الرَّجُلَ إِلَّا قَدْ دُهِيَ مِنْكِ بِدَاهِيَةٍ ! فَحَدِّثِينِي فَقَدْ رَفَعْتُ الْغَيْرَةَ ؛ إِنِّي وَاللهِ مَا أَرَىٰ هَـٰذَا الرَّجُلَ فِي أَمْرِهِ وَأَمْرِكِ إِلَّا كَالْفَحْلِ مِنَ الْإِبِلِ ، قَدْ تُرِكَ مِنَ الرُّكُوبِ وَالْعَمَلِ ، وَنُعِّمَ وَسُمِّنَ لِلْفِحْلَةِ ، فَنَدَّ { يَوْمًا } ، فَذَهَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، فَأَقْحَمَ فِي مَفَازَةٍ ، وَأَصَابَ مَرْتَعًا فَتَوَحَّشَ وَاسْتَأْسَدَ ، وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ أَثَرُ وَحْشِيَّتِهِ ، وَأَقْبَلَ إِقْبَالَ الْجِنِّ مِنْ قُوَّةٍ وَنَشَاطٍ وَبَأْسٍ شَدِيدٍ ؛ فَلَمَّا طَالَ انْفِرَادُهُ وَتَأَبُّدُهُ عَرَضَتْ لَهُ فِي الْبَرِّ نَاقَةٌ كَانَتْ قَدْ نَدَّتْ مِنْ عَطَنِهَا ، وَكَانَتْ فَارِهَةً جَسِيمَةً قَدِ انْتَهَتْ سِمَنًا ، وَغَطَّاهَا الشَّحْمُ وَاللَّحْمُ ، فَرَآهَا الْبَازِلُ الصَّؤُولُ ، فَهَاجَ وَصَالَ وَهَدَرَ ، يَخْبِطُ بِيَدِهِ وَرِجْلِهِ ، وَيُسْمَعُ لِجَوْفِهِ دَوِيٌّ مِنَ الْغَلَيَانِ ، وَإِذَا هِيَ قَدْ أَلْقَتْ نَفْسَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ !

أَمَا وَاللهِ لَوْ جَعَلَ الشَّيْطَانُ فِي يَمِينِهِ رَجُلًا فَحْلًا { قَوِيًّا } جَمِيلًا ، وَفِي شِمَالِهِ امْرَأَةً جَمِيلَةً عَاشِقَةً تَهْوَاهُ ؛ ثُمَّ تَمَطَّىٰ مُتَدَافِعًا وَمَدَّ ذِرَاعَيْهِ فَابْتَعَدَا ؛ ثُمَّ تَرَاجَعَ مُتَدَاخِلًا وَضَمَّ ذِرَاعَيْهِ فَالْتَقَيَا ؛ لَكَانَ هَـٰذَا شَأْنَ مَا بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْقَسِّ !

قُلْتُ : لَا وَٱللهِ يَا أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ؛ مَا كَانَ صَاحِبِيْ فِيْ ٱلرِّجَالِ خَلًّا وَلَا خَمْرًا ، وَمَا كَانَ ٱلْفَحْلَ إِلَّا ٱلنَّاقَةُ . . . ! وَمَا أَحْسَبُ ٱلشَّيْطَانَ يَعْرِفُ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ ، وَهَلْ كَانَ لِلشَّيْطَانِ عَمَلٌ مَعَ رَجُلٍ يَقُوْلُ : إِنِّيْ أَعْرِفُ دَائِمًا فِكْرَتِيْ ، وَهِيَ دَائِمًا فِكْرَتِيْ لَا تَتَغَيَّرُ . ذَاكَ رَجُلٌ أَسَاسُهُ كَمَا يَقُوْلُ : ﴿ بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ وَلَقَدْ تَصَنَّعْتُ لَهُ مَرَّةً يَا أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ، وَتَشَكَّلْتُ وَتَحَلَّيْتُ وَتَبَرَّجْتُ ، وَحَدَّثْتُ نَفْسِيْ مِنْهُ بِكَثِيْرٍ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ رَجُلٌ قَدْ غَبَرَ شَبَابُهُ فِيْ وُجُوْدٍ فَارِغٍ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ ، ثُمَّ وَجَدَ ٱلْمَرْأَةَ فِيَّ { وَحْدِيْ } . وَغَنَّيْتُهُ يَا أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ غِنَاءَ جَوَارِحِيْ كُلِّهَا ، وَكُنْتُ لَهُ كَأَنِّيْ حَرِيْرٌ نَاعِمٌ يَتَرَجْرَجُ وَيُنْشَرُ أَمَامَهُ وَيُطْوَىٰ . . . وَجَلَسْتُ كَٱلنَّائِمَةِ فِيْ فِرَاشِهَا وَقَدْ خَلَا ٱلْمَجْلِسُ ، وَكُنْتُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَٱلْفَاكِهَةِ ٱلنَّاضِجَةِ ٱلْحُلْوَةِ تَقُوْلُ لِمَنْ يَرَاهَا : « كُلْنِيْ . . . ! »

قَالَ يَزِيْدُ : وَيْحَكِ وَيْحَكِ ! وَبَعْدَ هَـٰذَا ؟

قُلْتُ : بَعْدَ هَـٰذَا يَا أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ، وَهُوَ يَهْوَانِيْ ٱلْهَوَىٰ ٱلْبَرْحَ ، وَيَعْشَقُنِيْ ٱلْعِشْقَ ٱلْمُضْنِي ـ لَمْ يَرَ فِيْ جَمَالِيْ وَفِتْنَتِيْ وَٱسْتِسْلَامِيْ إِلَّا أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ جَاءَ يَرْشُوْهُ بِٱلذَّهَبِ . . . بِٱلذَّهَبِ ٱلَّذِيْ يَتَعَامَلُ بِهِ !

فَضَحِكَ يَزِيْدُ وَقَالَ : لَا وَٱللهِ ، لَقَدْ عَرَضَ ٱلشَّيْطَانُ مِنْكَ ذَهَبَهُ وَلُؤْلُؤَهُ وَجَوَاهِرَهُ كُلَّهَا ، فَكَيْفَ لَعَمْرِيْ لَمْ يُفْلِحْ ؛ وَهُوَ لَوْ رَشَانِيْ مِنْ هَـٰذَا كُلِّهِ بِدِرْهَمٍ لَوَجَدَ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ شَاهِدَ زُوْرٍ . . . !

قُلْتُ : وَلَـٰكِنِّيْ لَمْ أَيْئَسْ يَا أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَظْهَرَ ٱمْرَأَةً فَلَمْ أُفْلِحْ ، وَعَمِلْتُ أَنْ أَظْهَرَ شَيْطَانَةً فَٱنْخَذَلْتُ ، وَجَهَدْتُ أَنْ يَرَىٰ طَبِيْعَتِيْ فَلَمْ يَرَنِيْ إِلَّا بِغَيْرِ طَبِيْعَةٍ ، وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أَنْزِلَ بِهِ عَنْ سَكِيْنَتِهِ وَوَقَارِهِ رَأَيْتُ فِيْ عَيْنَيْهِ مَا لَا يَتَغَيَّرُ كَنُوْرِ ٱلنَّجْمِ ، وَكَانَتْ بَعْضُ نَظَرَاتِهِ [لِي] وَٱللهِ كَأَنَّهَا عَصَا ٱلْمُؤَدِّبِ ، وَكَأَنَّهُ يَرَىٰ فِيْ جَمَالِيْ حَقِيْقَةً مِنَ ٱلْعِبَادَةِ ، وَيَرَىٰ فِيْ جِسْمِيْ خُرَافَةَ ٱلصَّنَمِ ، فَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَيَّ جَمِيْلَةً ، وَلَـٰكِنَّهُ مُنْصَرِفٌ عَنِّيْ ٱمْرَأَةً .

لَمْ أَيْئَسْ عَلَىٰ كُلِّ ذَلِكَ يَا أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ ٱلْحُبِّ يَطْلُبُ آخِرَهُ أَبَدًا إِلَىٰ أَنْ يَمُوْتَ . وَكَانَ يُكْثِرُ مِنْ زِيَارَتِيْ ، بَلْ كَانَتْ إِلَيَّ ٱلْغَدْوَةُ وَٱلرَّوْحَةُ ، مِنْ حُبِّهِ إِيَّايَ وَتَعَلُّقِهِ بِيْ ؛ فَوَاعَدْتُهُ يَوْمًا أَنْ يَجِيْءَ مَتَىٰ وَارَىٰ ٱللَّيْلُ أَهْلَهُ لِأُغَنِّيَهِ : « أَلَا قُلْ لِهَـٰذَا ٱلْقَلْبِ . . . » وَكُنْتُ لَحَّنْتُهُ وَلَمْ يَسْمَعْهُ بَعْدُ . وَلَبِثْتُ نَهَارِيْ كُلَّهُ أَسْتَرْوِحُ فِيْ ٱلْهَوَاءِ رَائِحَةَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ مِمَّا أَتَلَهَّفُ عَلَيْهِ ، وَأَتَمَثَّلُ ظَلَامَ ٱللَّيْلِ كَٱلطَّرِيْقِ ٱلْمُمْتَدِّ إِلَىٰ شَيْءٍ مَخْبُوْءٍ أُعَلِّلُ ٱلنَّفْسَ بِهِ . وَبَلَغْتُ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ فِيْ زِيْنَةِ نَفْسِيْ وَإِصْلَاحِ شَأْنِيْ ، وَتَشَكَّلْتُ فِيْ صُنُوْفٍ مِنَ ٱلزَّهْرِ ، وَقُلْتُ لِأَجْمَلِهِنَّ وَهِيَ ٱلْوَرْدَةُ ٱلَّتِيْ وَضَعْتُهَا بَيْنَ نَهْدَيَّ : يَا أُخْتِيْ ، ٱجْذِبِيْ عَيْنَهُ إِلَيْكِ ، حَتَّىٰ إِذَا وَقَفَ نَظَرُهُ عَلَيْكِ فَأَنْزِلِيْ بِهِ قَلِيْلًا أَوِ ٱصْعَدِيْ بِهِ قَلِيْلًا . . .

قَالَ يَزِيْدُ وَهُوَ كَٱلْمَحْمُوْمِ : ثُمَّ ثُمَّ ثُمَّ ؟

قُلْتُ : يَا أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ! ثُمَّ جَاءَ مَعَ ٱللَّيْلِ ، وَإِنَّ ٱلْمَجْلِسَ لَخَالٍ مَا فِيْهِ غَيْرِيْ وَغَيْرُهُ ، بِمَا أُكَابِدُ مِنْهُ وَمَا يُعَانِيْ مِنِّيْ . فَغَنَّيْتُهُ أَحَرَّ غِنَاءٍ وَأَشْجَاهُ ، وَكَانَ ٱلْعَاشِقُ فِيْهِ يَطْرَبُ لِصَوْتِيْ ، ثُمَّ يَطْرَبُ ٱلزَّاهِدُ فِيْهِ مِنْ أَنَّهُ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَطْرَبَ ، كَمَا يَطِيْشُ ٱلطِّفْلُ سَاعَةَ يَنْطَلِقُ مِنْ حَبْسِ ٱلْمُؤَدِّبِ .

وَمَا كَانَ يَسُوْءُنِيْ إِلَّا أَنَّهُ يُمَارِسُ فِيَّ ٱلزُّهْدَ مُمَارَسَةً ، كَأَنَّمَا أَنَا صُعُوْبَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ فَهُوَ يُرِيْدُ أَنْ يَغْلِبَهَا ، وَهُوَ يُجَرِّبُ قُوَىٰ نَفْسِهِ وَطَبِيْعَتِهِ عَلَيْهَا ؛ أَوْ كَأَنَّهُ يَرَانِيْ خَيَالَ ٱمْرَأَةٍ فِيْ مِرْآةٍ ، لَا ٱمْرَأَةً مَائِلَةً(١) لَهُ بِهَوَاهَا وَشَبَابِهَا وَحُسْنِهَا وَفِتْنَتِهَا ، أَوْ أَنَا عِنْدَهُ كَٱلْحُوْرِيَّةِ مِنْ حُوْرِ ٱلْجَنَّةِ فِيْ خَيَالِ مَنْ هِيَ ثَوَابُهُ ، تَكُوْنُ مَعَهُ ، وَإِنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ مِنَ ٱلْبُعْدِ مَا بَيْنَ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ؛ فَأَجْمَعْتُ أَنْ أَحْطِمَ ٱلْمِرْآةَ لِيَرَانِيْ أَنَا نَفْسِيْ لَا خَيَالِيْ ، وَٱسْتَنْجَدْتُ كُلَّ فِتْنَتِيْ أَنْ تَجْعَلَهُ يَفِرُّ إِلَيَّ كُلَّمَا حَاوَلَ أَنْ يَفِرَّ مِنِّيْ .

فَلَمَّا ظَنَنْتُنِيْ مَلَأْتُ عَيْنَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَنَفْسَهُ وَٱنْصَبَبْتُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَوَارِحِهِ ، وَهِجْتُ ٱلتَّيَّارَ ٱلَّذِيْ فِيْ دَمِهِ وَدَفَعْتُهُ دَفْعًا ـ قُلْتُ لَهُ : « أَنْتَ يَا خَلِيْلِيْ شَيْءٌ لَا يُعْرَفُ ، أَنْتَ شَيْءٌ مُتَلَفِّفٌ بِإِنْسَانٍ ، وَمَنِ ٱلَّتِيْ تَعْشَقُ ثَوْبَ رَجُلٍ لَيْسَ فِيْهِ لَابِسُهُ(٢) ؟» .

---

(١) فِيْ ٱلأَصْلِ : « مَاثِلَةً » بَدَلًا مِنْ : « مَائِلَةً » .
(٢) فِيْ ٱلأَصْلِ : « وَمَنِ ٱلَّتِيْ تَعْشَقُ ثَوْبًا لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ ؟ » بَدَلًا مِنْ : « وَمَنْ ٱلَّتِيْ تَعْشَقُ ثَوْبَ رَجُلٍ لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ ؟ » .

وَرَأَيْتُهُ وَٱللهِ يَطُوفُ عِنْدَ ذَلِكَ بِفِكْرِهِ ، كَمَا أَطُوفُ أَنَا بِفِكْرِي حَوْلَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي أَرَدْتُهُ . فَمِلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ(١) : « أَنَا وَٱللهِ أُحِبُّكَ ! » .

فَقَالَ : « وَأَنَا وَٱللهِ ٱلَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ . . . » .

قُلْتُ : « وَأَشْتَهِي أَنْ أُعَانِقَكَ وَأُقَبِّلَكَ ! » .

قَالَ : « وَأَنَا وَٱللهِ ! » .

قُلْتُ : « فَمَا يَمْنَعُكَ ؟ فَوَٱللهِ إِنَّ ٱلْمَوْضِعَ لَخَالٍ ! » .

قَالَ : « يَمْنَعُنِي قَوْلُ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [٤٣ سورة الزخرف/الآية : ٦٧] فَأَكْرَهُ أَنْ تَحُولَ مَوَدَّتِي لَكِ عَدَاوَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » .

إِنِّي أَرَىٰ ﴿ بُرْهَانَ رَبِّي ﴾ يَا حَبِيبَتِي ، وَهُوَ يَمْنَعُنِي أَنْ أَكُونَ مِنْ سَيِّئَاتِكِ وَأَنْ تَكُونِي مِنْ سَيِّئَاتِي ، وَلَوْ أَحْبَبْتُ ٱلْأُنْثَىٰ لَوَجَدْتُكِ فِي كُلِّ أُنْثَىٰ ، وَلَـٰكِنِّي أُحِبُّ مَا فِيكِ أَنْتِ بِخَاصَّتِكِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي لَا أَعْرِفُهُ وَلَا أَنْتِ تَعْرِفِينَهُ ، هُوَ مَعْنَاكِ يَا سَلَّامَةُ لَا شَخْصُكِ .

ثُمَّ قَامَ وَهُوَ يَبْكِي ، فَمَا عَادَ بَعْدَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، مَا عَادَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتَرَكَ لِي نَدَامَتِي وَكَلَامَ دُمُوعِهِ ! وَلَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ ، لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ ، فَقَدْ رَأَىٰ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ (ـ فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا ـ) تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِلرَّجُلِ(٢) ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تُلْقِ حِجَابَهَا بَلْ أَلْقَتْ ثِيَابَهَا .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) هَـٰذَا نَصُّ كَلَامِهِمَا كَمَا رَوَاهُ صَاحِبُ « ٱلْأَغَانِي » ـ إِلَىٰ قَوْلِهِ : « يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » ؛ وَهُوَ كُلُّ ٱلْقِصَّةِ فِي كِتَابِهِ .

(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « فَقَدْ رَأَىٰ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِلرَّجُلِ أَحْيَانًا » بَدَلًا مِنْ : « فَقَدْ رَأَىٰ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ ـ فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا ـ تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِلرَّجُلِ » .

قِصَّةُ زَوَاجٍ وَفَلْسَفَةُ ٱلْمَهْرِ (*)(١)

قَالَ رَسُولُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ : وَيْحَكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! لَكَأَنَّ دَمَكَ وَٱللهِ مِنْ عَدُوِّكَ ؛ فَهُوَ يَفُورُ بِكَ لِتَلَجَّ فِي ٱلْعِنَادِ فَتُقْتَلَ ، وَكَأَنِّي بِكَ وَٱللهِ بَيْنَ سَبُعَيْنِ قَدْ فَغَرَا عَلَيْكَ ؛ هَـٰذَا عَنْ يَمِينِكَ وَهَـٰذَا عَنْ يَسَارِكَ ، مَا تَفِرُّ مِنْ حَتْفٍ إِلَّا إِلَىٰ حَتْفٍ ، وَلَا تَرْحَمُكَ ٱلْأَنْيَابُ إِلَّا بِمَخَالِبِهَا .

هَـٰهُنَا هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَامِلُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ دَخَلَتْهُ ٱلرَّحْمَةُ لَكَ ٱسْتَوْثَقَ مِنْكَ فِي ٱلْحَدِيدِ ، وَرَمَىٰ بِكَ إِلَىٰ دِمَشْقَ ؛ وَهُنَاكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا هُوَ وَٱللهِ إِلَّا أَنْ يُطْعِمَ لَحْمَكَ ٱلسَّيْفَ يَعَضُّ بِكَ عَضَّ ٱلْحَيَّةِ فِي أَنْيَابِهَا ٱلسُّمُّ ؛ وَكَأَنِّي بِهَـٰذَا ٱلْجَنْبِ مَصْرُوعًا لِمَضْجَعِهِ ، وَبِهَـٰذَا ٱلْوَجْهِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ ، وَبِهَـٰذِهِ ٱللِّحْيَةِ مُعَفَّرَةً بِتُرَابِهَا ، وَبِهَـٰذَا ٱلرَّأْسِ مُحْتَزًّا فِي يَدِ أَبِي ٱلزُّعَيْزِعَةِ جَلَّادِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، يُلْقِيهِ مِنْ سَيْفِهِ رَمْيَ ٱلْغُصْنِ بِٱلثَّمَرَةِ قَدْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ .

وَأَنْتَ يَا سَعِيدُ فَقِيهُ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَعَالِمُهَا وَزَاهِدُهَا ، وَقَدْ عَلِمَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ عَبْدَ ٱللهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ فِيكَ لِأَصْحَابِهِ : « لَوْ رَأَىٰ هَـٰذَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ لَسَرَّهُ » فَإِنْ لَمْ تَكْرُمْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ فَلْيَكْرُمْ عَلَىٰ نَفْسِكَ ٱلْمُسْلِمُونَ ؛ إِنَّكَ إِنْ هَلَكْتَ رَجَعَ ٱلْفِقْهُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَمْصَارِ إِلَىٰ ٱلْمَوَالِي ؛ فَفَقِيهُ مَكَّةَ عَطَاءٌ ، وَفَقِيهُ ٱلْيَمَنِ طَاوُوسٌ ، وَفَقِيهُ ٱلْيَمَامَةِ يَحْيَىٰ ٱبْنُ أَبِي كَثِيرٍ ، وَفَقِيهُ ٱلْبَصْرَةِ ٱلْحَسَنُ ، وَفَقِيهُ ٱلْكُوفَةِ إِبْرَاهِيمُ ٱلنَّخَعِيُّ ، وَفَقِيهُ ٱلشَّامِ مَكْحُولٌ ، وَفَقِيهُ خُرَاسَانَ عَطَاءٌ ٱلْخُرَاسَانِيُّ . وَإِنَّمَا يَتَحَدَّثُ ٱلنَّاسُ أَنَّ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ دُونِ ٱلْأَمْصَارِ قَدْ حَرَسَهَا ٱللهُ بِفَقِيهِهَا ٱلْقُرَشِيِّ ٱلْعَرَبِيِّ أَبِي مُحَمَّدٍ ٱبْنِ ٱلْمُسَيَّبِ كَرَامَةً لِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ . وَقَدْ عَلِمَ أَهْلُ ٱلْأَرْضِ أَنَّكَ حَجَجْتَ نَيِّفًا وَثَلَاثِينَ حِجَّةً ، وَمَا فَاتَتْكَ ٱلتَّكْبِيرَةُ ٱلْأُولَىٰ فِي ٱلْمَسْجِدِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَا قُمْتَ إِلَّا فِي مَوْضِعِكَ مِنَ ٱلصَّفِّ ٱلْأَوَّلِ ، فَلَمْ تَنْظُرْ قَطُّ إِلَىٰ قَفَا رَجُلٍ فِي

(*) « الرسالة » العدد : ٦٧ ، ٦ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ١٥ أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٦٨٥ ـ ١٦٨٩ .

(١) [أَنْظُرْ « قِصَصُ ٱلرَّافِعِي » فِي « عَوْدٍ عَلَى بَدْءٍ » مِنْ كِتَابِ « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِي » . سَعِيدُ ٱلْعُرْيَانُ] .

ٱلصَّلَاةِ ؛ وَلَا وَجَدَ ٱلشَّيْطَانُ مَا يَعْرِضُ لَكَ مِنْ قِبَلِهِ فِي صَلَاتِكَ وَلَا قَفَا رَجُلٍ ؛ فَٱللهَ ٱللهَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، إِنِّيْ وَٱللهِ مَا أَغُشُّكَ فِيْ ٱلنَّصِيْحَةِ ؛ وَلَا أَخْدَعُكَ عَنِ ٱلرَّأْيِ ، وَلَا أَنْظُرُ لَكَ إِلَّا خَيْرَ مَا أَنْظُرُ لِنَفْسِيْ ؛ وَإِنَّ عَبْدَ ٱلْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ مَنْ عَلِمْتَ ؛ رَجُلٌ قَدْ عَمَّ ٱلنَّاسَ تَرْغِيْبُهُ وَتَرْهِيْبُهُ ، فَهُوَ آخِذُكَ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ إِنْ لَمْ تَأْخُذْهُ أَنْتَ عَلَىٰ مَا يُحِبُّ ؛ وَإِنَّهُ وَٱللهِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، مَا طَلَبَ إِلَيْكَ أَمِيْرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ إِلَّا وَأَنْتَ عِنْدَهُ ٱلأَعْلَىٰ ، وَلَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ إِلَّا وَكَأَنَّهُ يَسْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْكَ ، رِعَايَةً لِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَهُ ، وَإِكْبَارًا لِحَقِّكَ عَلَيْهِ ؛ وَمَا أَرْسَلَنِيْ أَخْطُبُ إِلَيْكَ ٱبْنَتَكَ لِوَلِيِّ عَهْدِهِ إِلَّا وَهُوَ يَبْتَذِلُ نَفْسَهُ إِلَيْكَ ٱبْتِذَالًا لِيَصِلَ بِكَ رَحِمَهُ ، وَيُوَثِّقَ آصِرَتَهُ ؛ وَإِنْ يَكُنِ ٱللهُ قَدْ أَغْنَاكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِهِ وَبِمُلْكِهِ وَرَعًا وَزَهَادَةً ، فَمَا أَحْوَجَ أَهْلَ مَدِيْنَةِ رَسُوْلِ ٱللهِ ﷺ أَنْ يَنْتَفِعُوا بِكَ عِنْدَهُ ، وَأَنْ يَكُوْنُوا أَصْهَارَ ٱلْوَلِيْدِ فَيَسْتَدْفِعُوا شَرًّا مَا بِهِ عَنْهُمْ غِنًى ، وَيَجْتَلِبُوا خَيْرًا مَا بِهِمْ غِنًى عَنْهُ ؛ وَلَسْتَ تَدْرِيْ مَا يَكُوْنُ مِنْ مَصَادِرِ ٱلأُمُوْرِ وَمَوَارِدِهَا . وَإِنَّكَ وَٱللهِ إِنْ لَجَجْتَ فِيْ عِنَادِكَ وَأَصْرَرْتَ أَنْ تَرُدَّنِيْ إِلَيْهِ خَائِبًا ، لَتَهِيْجَنَّ قَرَمَ سُيُوْفِ ٱلشَّامِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱللُّحُوْمِ وَلَحْمُكَ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَطْيَبِهَا ، وَلِأَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ تَارَتَانِ : لِيْنٌ وَشِدَّةٌ ؛ وَأَنَا إِلَيْكَ رَسُوْلُ ٱلأُوْلَىٰ ، فَلَا تَجْعَلْنِيْ رَسُوْلَ ٱلثَّانِيَةِ . . .

* * *

وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَسْمَعُ هَـٰذَا ٱلْكَلَامَ وَكَأَنَّ ٱلْكَلَامَ[1] لَا يَخْلُصُ إِلَىٰ نَفْسِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَتَسَاقَطَ مَعَانِيْهِ فِيْ ٱلأَرْضِ ، هَيْبَةً مِنْهُ وَفَرَقًا مِنْ إِقْدَامِهَا عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ لَانَ رَسُوْلُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ فِيْ دَهَائِهِ حَتَّىٰ ظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَاغَ مِنَ ٱلرَّجُلِ مَسَاغَ ٱلْمَاءِ ٱلْعَذْبِ فِيْ ٱلْحَلْقِ ٱلظَّامِئِ ، وَٱشْتَدَّ فِيْ وَعِيْدِهِ حَتَّىٰ مَا يَشُكُّ أَنَّهُ قَدْ سَقَاهُ مَاءً حَمِيْمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُ ؛ وَٱلرَّجُلُ فِيْ كُلِّ ذَلِكَ مِنْ فَوْقِهِ كَٱلسَّمَاءِ فَوْقَ ٱلأَرْضِ ، لَوْ تَحَوَّلَ ٱلنَّاسُ جَمِيْعًا كَنَّاسِيْنَ يُثِيْرُوْنَ مِنْ غُبَارِ هَـٰذِهِ عَلَىٰ تِلْكَ لَمَا كَانَ مَرْجِعُ ٱلْغُبَارِ إِلَّا عَلَيْهِمْ ، وَبَقِيَتِ ٱلسَّمَاءُ ضَاحِكَةً صَافِيَةً تَتَلَأْلَأُ .

وَقَلَّبَ ٱلرَّسُوْلُ نَظَرَهُ فِيْ وَجْهِ ٱلشَّيْخِ ، فَإِذَا هُوَ هُوَ لَيْسَ فِيْهِ مَعْنَىٰ رَغْبَةٍ وَلَا رَهْبَةٍ ، كَأَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ ٱلأَرْضَ ذَهَبًا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فِيْ حَالَةٍ ، وَلَمْ يَمْلَأِ ٱلْجَوَّ سُيُوْفًا عَلَىٰ رَأْسِهِ فِيْ ٱلْحَالَةِ

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « كَأَنَّهُ » بدلًا من : « كَأَنَّ الكلام » .

ٱلأُخْرَىٰ ؛ وَأَيْقَنَ أَنَّهُ مِنَ ٱلشَّيْخِ { ٱلْعَظِيْمِ } كَٱلصَّبِيِّ ٱلْغِرِّ قَدْ رَأَىٰ ٱلطَّائِرَ فِيْ أَعْلَىٰ ٱلشَّجَرَةِ فَطَمِعَ فِيْهِ ، فَجَاءَ مِنْ تَحْتِهَا يُنَادِيْهِ : أَنِ ٱنْزِلْ إِلَيَّ حَتَّىٰ آخُذَكَ وَأَلْعَبَ بِكَ . . .

وَبَعْدَ قَلِيْلٍ تَكَلَّمَ أَبُو مُحَمَّدٍ فَقَالَ :

يَا هَـٰذَا ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ سَمِعْتُ ، وَأَمَّا أَنْتَ فَقَدْ رَأَيْتَ ، وَقَدْ رُوِّيْنَا أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَا تَعْدِلُ عِنْدَ ٱللهِ جَنَاحَ بَعُوْضَةٍ ، فَٱنْظُرْ مَا جِئْتَنِيْ أَنْتَ بِهِ ، وَقِسْهُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا كُلِّهَا ، فَكَمْ ـ رَحِمَكَ ٱللهُ ـ تَكُوْنُ قَدْ قَسَمْتَ لِيْ مِنْ جَنَاحِ ٱلْبَعُوْضَةِ . . ؟ وَقَدْ دُعِيْتُ مِنْ قَبْلُ إِلَىٰ نَيِّفٍ وَثَلَاثِيْنَ أَلْفًا لِآخُذَهَا ، فَقُلْتُ : لَا حَاجَةَ لِيْ فِيْهَا وَلَا فِيْ بَنِيْ مَرْوَانَ ، حَتَّىٰ أَلْقَىٰ ٱللهَ فَيَحْكُمَ بَيْنِيْ وَبَيْنَهُمْ . وَهَـٰأَنَذَا ٱلْيَوْمَ أُدْعَىٰ إِلَىٰ أَضْعَافِهَا وَإِلَىٰ ٱلْمَزِيْدِ مَعَهَا ؛ أَفَأَقْبِضُ يَدِيْ عَنْ جَمْرَةٍ ، ثُمَّ أَمُدُّهَا لِأَمْلَأَهَا جَمْرًا ؟ لَا وَٱللهِ مَا رَغِبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِابْنِهِ فِيْ ٱبْنَتِيْ ، وَلَـٰكِنَّهُ رَجُلٌ مِنْ سِيَاسَتِهِ إِلْصَاقُ ٱلْحَاجَةِ بِٱلنَّاسِ لِيَجْعَلَهَا مَقَادَةً لَهُمْ فَيُصَرِّفَهُمْ بِهَا ؛ وَقَدْ أَعْجَزَهُ أَنْ أُبَايِعَهُ ، لِأَنَّ رَسُوْلَ ٱللهِ ﷺ نَهَىٰ عَنْ بَيْعَتَيْنِ ، وَمَا عَبْدُ ٱلْمَلِكِ عِنْدَنَا إِلَّا بَاطِلٌ كَٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ ، وَلَا ٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ إِلَّا بَاطِلٌ كَعَبْدِ ٱلْمَلِكِ ، فَٱنْظُرْ فَإِنَّكَ مَا جِئْتَ لِابْنَتِيْ وَٱبْنِهِ ، وَلَـٰكِنْ جِئْتَ تَخْطُبُنِيْ أَنَا لِبَيْعَتِهِ . . .

قَالَ ٱلرَّسُوْلُ : أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ! دَعْ عَنْكَ ٱلْبَيْعَةَ وَحَدِيْثَهَا ، وَلَـٰكِنْ مَنْ عَسَىٰ أَنْ تَجِدَ لِكَرِيْمَتِكَ خَيْرًا مِنْ هَـٰذَا ٱلَّذِيْ سَاقَهُ ٱللهُ إِلَيْكَ ؟ إِنَّكَ لَرَاعٍ وَإِنَّهَا لَرَعِيَّةٌ وَسَتُسْأَلُ عَنْهَا ، وَمَا كَانَ ٱلظَّنُّ بِكَ أَنْ تُسِيْءَ رِعَيَتَهَا وَتَبْخَسَ حَقَّهَا ، وَأَنْ تَعْضِلَهَا وَقَدْ خَطَبَهَا فَارِسُ بَنِيْ مَرْوَانَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَارِسَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّ عَهْدِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَـٰذَا وَلَا ذَاكَ فَهُوَ ٱلْوَلِيْدُ ٱبْنُ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ؛ وَأَدْنَىٰ ٱلثَّلَاثِ أَرْفَعُ ٱلشَّرَفِ فَكَيْفَ بِهِنَّ جَمِيْعًا ، وَهُنَّ جَمِيْعًا فِيْ ٱلْوَلِيْدِ ؟

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَمَّا إِنِّيْ مَسْؤُوْلٌ عَنِ ٱبْنَتِيْ ، فَمَا رَغِبْتُ عَنْ صَاحِبِكَ إِلَّا لِأَنِّيْ مَسْؤُوْلٌ عَنِ ٱبْنَتِيْ . وَقَدْ عَلِمْتَ أَنْتَ أَنَّ ٱللهَ يَسْأَلُنِيْ عَنْهَا فِيْ يَوْمٍ لَعَلَّ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَٱبْنَ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَأَلْفَافَهُمَا لَا يَكُوْنُوْنَ فِيْهِ إِلَّا وَرَاءَ عَبِيْدِهَا وَأَوْبَاشِهَا وَدُعَّارِهَا وَفُجَّارِهَا[1] . يُخْرَجُوْنَ مِنْ حِسَابِ ٱلْفَجَرَةِ إِلَىٰ حِسَابِ ٱلْقَتَلَةِ ، وَمِنْ حِسَابِ هَـٰؤُلَاءِ إِلَىٰ ٱلْحِسَابِ عَلَىٰ ٱلسَّرِقَةِ

(١) { ٱلضَّمِيْرُ رَاجِعٌ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا } .

وَٱلْغَصْبِ ، إِلَىٰ حِسَابِ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ ، إِلَىٰ حِسَابِ ٱلتَّفْرِيطِ فِي حُقُوقِ ٱلْمُسْلِمِينَ . وَيَخِفُّ يَوْمَئِذٍ عَبِيدُهَا وَأَوْبَاشُهَا وَدُعَّارُهَا وَفُجَّارُهَا فِي زِحَامِ ٱلْحَشْرِ ، وَيَمْشِي أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱبْنُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَنِ ٱتَّصَلَ بِهِمَا ، وَعَلَيْهِمْ أَمْثَالُ ٱلْجِبَالِ مِنْ أَثْقَالِ ٱلذُّنُوبِ وَحُقُوقِ ٱلْعِبَادِ .

فَهَـٰذَا مَا نَظَرْتُ فِي حُسْنِ ٱلرِّعَايَةِ لِٱبْنَتِي ، لَوْ لَمْ أَضِنَّ بِهَا عَلَىٰ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱبْنِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَأَوْبَقْتُ نَفْسِي . لَا وَٱللهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَمَلٌ ، وَقَدْ فَرَغْتُ مِمَّا عَلَى ٱلْأَرْضِ فَلَا يَمُرُّ ٱلسَّيْفُ مِنِّي فِي لَحْمٍ حَيٍّ .

* * *

وَلَمَّا كَانَ غَدَاةُ غَدٍ جَلَسَ ٱلشَّيْخُ فِي حَلْقَتِهِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ لِلْحَدِيثِ وَٱلتَّأْوِيلِ ، فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنْ عُرْضِ ٱلْمَجْلِسِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! إِنَّ رَجُلًا يُلَاحِينِي فِي صَدَاقِ ٱبْنَتِهِ وَيُكَلِّفُنِي مَا لَا أُطِيقُ . فَمَا أَكْثَرُ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ صَدَاقُ أَزْوَاجِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَصَدَاقُ بَنَاتِهِ ؟

قَالَ ٱلشَّيْخُ : رَوَيْنَا أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ كَانَ يَنْهَىٰ عَنِ ٱلْمُغَالَاةِ فِي ٱلصَّدَاقِ وَيَقُولُ : « مَا تَزَوَّجَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ، وَلَا زَوَّجَ بَنَاتِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ مِئَةِ دِرْهَمٍ[1] » [الترمذي ، رقم : ١١١٤ ؛ النسائي ، رقم : ٣٣٤٩ ؛ أبو داود ، رقم : ٢١٠٦ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٨٨٧ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٨٧ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٢٠٠] ، وَلَوْ كَانَتِ ٱلْمُغَالَاةُ بِمُهُورِ ٱلنِّسَاءِ مَكْرُمَةً لَسَبَقَ إِلَيْهَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ .

وَرَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « خَيْرُ ٱلنِّسَاءِ أَحْسَنُهُنَّ وُجُوهًا وَأَرْخَصُهُنَّ مُهُورًا » . [ابن حبان رقم : ٤٠٣٤] .

فَصَاحَ ٱلسَّائِلُ : يَرْحَمُكَ ٱللهُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، كَيْفَ يَأْتِي أَنْ تَكُونَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْحَسْنَاءُ رَخِيصَةَ ٱلْمَهْرِ ، وَحُسْنُهَا هُوَ يُغْلِيهَا عَلَى ٱلنَّاسِ ؛ تَكْثُرُ رَغْبَتُهُمْ فِيهَا فَيَتَنَافَسُونَ عَلَيْهَا ؟

قَالَ ٱلشَّيْخُ : ٱنْظُرْ كَيْفَ قُلْتَ . أَهُمْ يُسَاوِمُونَ فِي بَهِيمَةٍ لَا تَعْقِلُ ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ أَمْرِهَا شَيْءٌ إِلَّا أَنَّهَا بِضَاعَةٌ مِنْ مَطَامِعِ صَاحِبِهَا ، يُغْلِيهَا عَلَىٰ مَطَامِعِ ٱلنَّاسِ ؟ إِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ أَنَّ خَيْرَ ٱلنِّسَاءِ مَنْ كَانَتْ عَلَىٰ جَمَالِ وَجْهِهَا ، فِي أَخْلَاقٍ كَجَمَالِ وَجْهِهَا ،

(١) ٱلدِّرْهَمُ : خَمْسَةُ قُرُوشٍ . [يُعَادِلُ ٱلدِّرْهَمُ ٢,٨ غرام مِنَ ٱلفِضَّةِ] .

وَكَانَ عَقْلُهَا جَمَالًا ثَالِثًا ؛ فَهَـٰذِهِ إِنْ أَصَابَتِ ٱلرَّجُلَ ٱلْكُفْءَ ، يَسَّرَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَسَّرَتْ ، ثُمَّ يَسَّرَتْ ؛ إِذْ تَعْتَبِرُ نَفْسَهَا إِنْسَانًا يُرِيدُ إِنْسَانًا ، لَا مَتَاعًا يَطْلُبُ شَارِيًا ، وَهَـٰذِهِ[1] لَا يَكُونُ رُخْصُ ٱلْقِيمَةِ فِي مَهْرِهَا ، إِلَّا دَلِيلًا عَلَى ٱرْتِفَاعِ ٱلْقِيمَةِ فِي عَقْلِهَا وَدِينِهَا ؛ أَمَّا ٱلْحَمْقَاءُ فَجَمَالُهَا يَأْبَىٰ إِلَّا مُضَاعَفَةَ ٱلثَّمَنِ لِحُسْنِهَا ، أَيْ : لِحُمْقِهَا ؟ وَهِيَ بِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ مِنْ شِرَارِ ٱلنِّسَاءِ ، وَلَيْسَتْ مِنْ خِيَارِهِنَّ .

وَلَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ عَلَىٰ عَشَرَةِ دَرَاهِمَ وَأَثَاثِ بَيْتٍ ، وَكَانَ ٱلْأَثَاثُ : رَحَىٰ يَدٍ ، وَجَرَّةَ مَاءٍ ، وَوِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ . وَأَوْلَمَ عَلَىٰ بَعْضِ نِسَائِهِ بِمُدَّيْنِ مِنْ شَعِيرٍ ، وَعَلَىٰ أُخْرَىٰ بِمُدَّيْنِ مِنْ تَمْرٍ وَمُدَّيْنِ مِنْ سَوِيقٍ . وَمَا كَانَ بِهِ ﷺ ٱلْفَقْرُ ، وَلَـٰكِنَّهُ يَشْرَعُ بِسُنَّتِهِ لِيُعَلِّمَ ٱلنَّاسَ مِنْ عَمَلِهِ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ لِلرَّجُلِ نَفْسٌ لِنَفْسٍ ، لَا مَتَاعٌ لِشَارِيهِ ؛ وَٱلْمَتَاعُ يُقَوَّمُ بِمَا بُذِلَ فِيهِ إِنْ غَالِيًا وَإِنْ رَخِيصًا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلرَّجُلَ يُقَوَّمُ عِنْدَ ٱلْمَرْأَةِ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ ؛ فَمَهْرُهَا ٱلصَّحِيحُ لَيْسَ هَـٰذَا ٱلَّذِي تَأْخُذُهُ قَبْلَ أَنْ تُحْمَلَ إِلَىٰ دَارِهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ ٱلَّذِي تَجِدُهُ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ تُحْمَلَ إِلَىٰ دَارِهِ ؛ مَهْرُهَا مُعَامَلَتُهَا ، تَأْخُذُ مِنْهُ يَوْمًا فَيَوْمًا ، فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ عَرُوسًا عَلَىٰ نَفْسِ رَجُلِهَا مَا دَامَتْ فِي مُعَاشَرَتِهِ . أَمَّا ذَلِكَ ٱلصَّدَاقُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، فَهُوَ صَدَاقُ ٱلْعَرُوسِ ٱلدَّاخِلَةِ عَلَى ٱلْجِسْمِ لَا عَلَى ٱلنَّفْسِ ؛ أَفَلَا تَرَاهُ كَٱلْجِسْمِ يَهْلِكُ وَيَبْلَىٰ ، أَفَلَا تَرَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْغَالِيَةَ ـ إِنْ لَمْ تَجِدِ ٱلنَّفْسَ { فِي رَجُلِهَا } ـ قَدْ تَكُونُ عَرُوسَ ٱلْيَوْمِ وَمُطَلَّقَةَ ٱلْغَدِ ؟!

وَمَا ٱلصَّدَاقُ فِي قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، إِلَّا كَٱلْإِيمَاءِ إِلَى ٱلرُّجُولَةِ وَقُدْرَتِهَا ، فَهُوَ إِيمَاءٌ ، وَلَـٰكِنِ ٱلرَّجُلَ قَبْلُ[، ولكنَّ ٱلرَّجُلَ قَبْلُ] . إِنْ كَانَ ٱمْرَأً يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ سَيْفًا ، وَٱلسَّيْفُ إِيمَاءٌ إِلَى ٱلْقُوَّةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ ذَوِي ٱلسُّيُوفِ سَوَاءً ، وَقَدْ يَحْمِلُ ٱلْجَبَانُ فِي كُلِّ يَدٍ سَيْفًا ، وَيَمْلِكُ فِي دَارِهِ مِئَةَ سَيْفٍ ؛ فَهُوَ إِيمَاءٌ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْبَطَلَ قَبْلُ ، وَلَـٰكِنِ ٱلْبَطَلَ قَبْلُ .

مِئَةُ سَيْفٍ يَمْهَرُ بِهَا ٱلْجَبَانُ[2] قُوَّتُهُ ٱلْخَائِبَةُ ، لَا تُغْنِي قُوَّتُهُ شَيْئًا ، وَلَـٰكِنَّهَا كَٱلتَّدْلِيسِ عَلَىٰ مَنْ كَانَ جَبَانًا مِثْلَهُ . وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْرُ ٱلْغَالِي كَٱلتَّدْلِيسِ عَلَى ٱلنَّاسِ وَعَلَى ٱلْمَرْأَةِ ، كَيْ لَا تَعْلَمَ وَلَا يَعْلَمَ ٱلنَّاسُ أَنَّهُ ثَمَنُ خَيْبَتِهَا ؛ فَلَوْ عَقَلَتِ ٱلْمَرْأَةُ لَبَاهَتِ ٱلنِّسَاءَ بِيُسْرِ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « فَهَذِهِ » بَدَلًا مِنْ : « وَهَذِهِ » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « يَمْهَرُ ٱلْجَبَانُ بِهَا » بَدَلًا مِنْ : « يَمْهَرُ بِهَا ٱلْجَبَانُ » .

مَهْرِهَا ، فَإِنَّهَا بِذَٰلِكَ تَكُونُ قَدْ تَرَكَتْ عَقْلَهَا يَعْمَلُ عَمَلَهُ ، وَكَفَّتْ حَمَاقَتَهَا أَنْ تُفْسِدَ عَلَيْهِ .

فَصَاحَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، أَفِي هَٰذَا مِنْ دَلِيلٍ أَوْ أَثَرٍ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : نَعَمْ ؛ أَمَّا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [٤ سورة النساء/الآية : ١] فَهِيَ زَوْجُهُ حِينَ تَجِدُهُ هُوَ لَا حِينَ تَجِدُ مَالَهُ ؛ وَهِيَ زَوْجُهُ حِينَ تُتَمِّمُهُ لَا حِينَ تَنْقُصُهُ ، وَحِينَ تُلَائِمُهُ لَا حِينَ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ ؛ فَمَصْلَحَةُ الْمَرْأَةِ زَوْجَةً مَا يَجْعَلُهَا مِنْ زَوْجِهَا ، فَيَكُونَانِ مَعًا كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ ، عَلَىٰ مَا تَرَىٰ لِلْعُضْوِ مِنْ جِسْمِهِ ؛ يُرِيدُ مِنْ جِسْمِهِ الْحَيَاةَ لَا غَيْرَهَا .

وَأَمَّا مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَدْ رَوَيْنَا : « إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَزَوِّجُوهُ ؛ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ » [رواه الترمذي ، رقم : ١٠٨٤ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٩٦٧] .

فَقَدِ اشْتَرَطَ الدِّينَ ، عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مَرْضِيًّا لَا أَيَّ الدِّينِ كَانَ(١) ؛ ثُمَّ اشْتَرَطَ الْأَمَانَةَ ، وَهِيَ مَظْهَرُ الدِّينِ كُلِّهِ بِجَمِيعِ حَسَنَاتِهِ ؛ وَأَيْسَرُهَا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ لِلْمَرْأَةِ أَمِينًا ، وَعَلَىٰ حُقُوقِهَا أَمِينًا ، وَفِي مُعَامَلَتِهَا أَمِينًا ؛ فَلَا يَبْخَسُهَا ، وَلَا يُعْنِتُهَا ، وَلَا يُسِيءُ إِلَيْهَا ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَٰلِكَ ثَلْمٌ فِي أَمَانَتِهِ ؛ فَإِنْ رَدَّتِ الْمَرْأَةُ مَنْ هَٰذِهِ حَالُهُ وَصِفَتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَهْرِ - تَقَدَّمَ إِلَيْهَا بِالْمَهْرِ مَنْ لَيْسَتْ هَٰذِهِ حَالَهُ وَصِفَتَهُ ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ ، وَفَسَدَتِ الْمَرْأَةُ بِالرَّجُلِ ، وَفَسَدَ هُوَ بِهَا ، وَفَسَدَ النَّسْلُ بِهِمَا جَمِيعًا ، وَأُهْمِلَ مَنْ لَا يَمْلِكُ ، وَتَعَنَّسَتْ مَنْ لَا تَجِدُ ، وَيَرْجِعُ الْمَهْرُ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الزَّوَاجِ سَبَبًا فِي مَنْعِهِ ، وَيَتَقَارَبُ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ عَلَىٰ رَغْمِ الْمَهْرِ وَالدِّينِ وَالْأَمَانَةِ ؛ فَيَقَعُ مَعْنَى الزَّوَاجِ ، وَيَبْقَى الْمُعَطَّلُ مِنْهُ هُوَ اللَّفْظُ وَالشَّرْعُ .

هَلْ عَلِمَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّهَا لَا تَدْخُلُ بَيْتَ رَجُلِهَا إِلَّا لِتُجَاهِدَ فِيهِ جِهَادَهَا ، وَتَبْلُوَ فِيهِ بَلَاءَهَا ؟ وَهَلْ يَقُومُ مَالُ الدُّنْيَا بِحَقِّهَا فِيمَا تَعْمَلُ وَمَا تُجَاهِدُ ، وَهِيَ أُمُّ الْحَيَاةِ وَمُنْشِئَتُهَا وَحَافِظَتُهَا ؟ فَأَيْنَ يَكُونُ مَوْضِعُ الْمَالِ وَمَكَانُ التَّفْرِقَةِ فِي كَثِيرِهِ وَقَلِيلِهِ ، وَالْمَالُ كُلُّهُ دُونَ حَقِّهَا ؟ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَيَّ ذَٰلِكَ كَانَ » بَدَلًا مِنْ : « أَيَّ الدِّينِ كَانَ » .

وَلَنْ يَتَفَاوَتَ النَّاسُ بِالْمَالِ تَخْتَلِفُ دَرَجَاتُهُمْ بِهِ ، وَتَكُونُ مَرَاتِبُهُمْ عَلَىٰ مِقْدَارِهِ ، تَكْثُرُ بِهِ مَرَّةً وَتَقِلُّ مَرَّةً - إِلَّا إِذَا فَسَدَ الزَّمَانُ ، وَبَطَلَتْ قَضِيَّةُ الْعَقْلِ ، وَتَعَطَّلَ مُوجَبُ الشَّرْعِ ، وَأَصْبَحَتِ السَّجَايَا تَتَحَوَّلُ ، يَمْلِكُهَا مَنْ يَمْلِكُ الْمَالَ ، وَيَخْسَرُهَا مَنْ يَخْسَرُهُ ؛ فَيَكُونُ الدِّينُ عَلَى النُّفُوسِ كَالدَّخِيلِ الْمُزَاحِمِ لِمَوْضِعِهِ ، وَالْمُتَدَلِّي فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَبِهَٰذَا يَرْجِعُ بَاطِلُ الْغَنِيِّ دِينًا يَتَعَامَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَدِينُ الْفَقِيرِ بَهْرَجًا لَا يَرُوجُ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَيْسَ هَٰذَا مِنْ دِينِنَا ، دِينِ النَّفْسِ وَالْخُلُقِ ، وَإِنَّ أَلْفَ بَعِيرٍ يَقْنُوهَا الرَّجُلُ خَالِصَةً عَلَيْهِ ، ثَابِتَةً لَهُ ، لَا تَزِيدُ فِي مَنْزِلَةِ دِينِهِ قَدْرَ نَمْلَةٍ وَلَا مَا دُونَهَا . وَالْحَجَرَانِ : الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ - قَدْ يَكُونُ شُعَاعُهُمَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا أَضْوَأَ مِنْ شَمْسِهَا وَقَمَرِهَا ، وَلَٰكِنَّهُمَا فِي نُورِ النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ كَحَصَاتَيْنِ يَأْخُذُهُمَا الرَّجُلُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ ، وَيَذْهَبُ يَزْعُمُ لَكَ أَنَّهُمَا فِي قَدْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

وَهَلَاكُ النَّاسِ إِنَّمَا يُقْضَىٰ بِمُحَاوَلَتِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أُنَاسًا بِعُيُوبِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ ، فَهَٰذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْمُدْبِرُ عَنِ اللهِ وَعَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ جِنْسِهِ ؛ لَا يَكُونُ أَبُوهُ أَبًا فِي عَطْفِهِ ، وَلَا أُمُّهُ أُمًّا فِي مَحَبَّتِهَا ، وَلَا ابْنُهُ ابْنًا فِي بِرِّهِ ، وَلَا زَوْجَتُهُ زَوْجَةً فِي وَفَائِهَا ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُونَ لَهُ مَهَالِكَ ، كَمَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَىٰ يَدِ زَوْجَتِهِ وَأَبَوَيْهِ وَوَلَدِهِ ؛ يُعَيِّرُونَهُ بِالْفَقْرِ ، وَيُكَلِّفُونَهُ مَا لَا يُطِيقُ ؛ فَيَدْخُلُ الْمَدَاخِلَ الَّتِي يَذْهَبُ فِيهَا دِينُهُ فَيَهْلِكُ » [قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » : أخرجه الخطابي في « العزلة » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه نحوه ، وللبيهقي في « الزهد » نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ؛ وكلاهما ضعيف . انتهى] .

* * *

وَصَاحَ الْمُؤَذِّنُ ، فَقَطَعَ الشَّيْخُ مَجْلِسَهُ وَقَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ دَارِهِ ، فَتَلَقَّتْهُ ابْنَتُهُ وَعَلَىٰ وَجْهِهَا مِثْلُ نُورِهِ ، قَالَتْ : يَا أَبَتِ ! كُنْتُ أَتْلُو السَّاعَةَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ٢٠١] . فَمَا حَسَنَةُ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : يَا بُنَيَّةُ ! هِيَ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تُذْكَرَ مَعَ حَسَنَةِ الْآخِرَةِ ، وَمَا أَرَاهَا لِلرَّجُلِ إِلَّا الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ ، وَلَا لِلْمَرْأَةِ . . .

وَطُرِقَ ٱلْبَابُ، فَذَهَبَ ٱلشَّيْخُ يَفْتَحُ، فَإِذَا ٱلطَّارِقُ عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ أَبِي وَدَاعَةَ؛ وَكَانَ يُجَالِسُهُ وَيَأْخُذُ عَنْهُ وَيَلْزَمُ حَلْقَتَهُ، وَلَـٰكِنَّهُ فَقَدَهُ أَيَّامًا ؛ فَدَخَلَ فَجَلَسَ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : « أَيْنَ كُنْتَ؟» .

قَالَ : « تُوُفِّيَتْ أَهْلِي فَٱشْتَغَلْتُ بِهَا » .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : « هَلَّا أَخْبَرْتَنَا فَشَهِدْنَاهَا » . ثُمَّ أَخَذَ يُفِيضُ فِي ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ؛ وَشَعَرَ ٱبْنُ أَبِي وَدَاعَةَ أَنَّ ٱلْقَبْرَ مَا يَزَالُ فِي قَلْبِهِ حَتَّىٰ فِي مَجْلِسِ ٱلشَّيْخِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَقُومَ ؛ فَقَالَ سَعِيدٌ :

« هَلِ ٱسْتَحْدَثْتَ ٱمْرَأَةً غَيْرَهَا ؟» .

قَالَ : « يَرْحَمُكَ ٱللهُ ، أَيْنَ نَحْنُ مِنَ ٱلدُّنْيَا ٱلْيَوْمَ ، وَمَنْ يُزَوِّجُنِي وَمَا أَمْلِكُ إِلَّا دِرْهَمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً ؟» .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : « أَنَا . . . . » .

* * *

أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . دَوَّىٰ ٱلْجَوُّ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ فِي أُذُنِ طَالِبِ ٱلْعِلْمِ ٱلْفَقِيرِ ، فَحَسِبَ كَأَنَّ ٱلْمَلَائِكَةَ تُنْشِدُ نَشِيدًا فِي تَسْبِيحِ ٱللهِ يَطِنُّ لَحْنُهُ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . » .

وَخَرَجَتِ ٱلْكَلِمَةُ مِنْ فَمِ ٱلشَّيْخِ وَمِنَ ٱلسَّمَاءِ لِهَـٰذَا ٱلْمِسْكِينِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَكَأَنَّهَا كَلِمَةٌ زَوَّجَتْهُ إِحْدَىٰ ٱلْحُورِ ٱلْعِينِ .

فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ غَشْيَةِ أُذُنِهِ . . . قَالَ : « وَتَفْعَلُ ؟» .

قَالَ سَعِيدٌ : « نَعَمْ » وَفَسَّرَ نَعَمْ بِأَحْسَنِ تَفْسِيرِهَا وَأَبْلَغِهِ ؛ { فَقَالَ : قُمْ فَٱدْعُ لِي نَفَرًا مِنَ ٱلْأَنْصَارِ . فَلَمَّا جَاؤُوا } حَمِدَ[1] ٱللهَ وَصَلَّىٰ عَلَىٰ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، وَزَوَّجَهُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ (خَمْسَةَ عَشَرَ قِرْشًا) .

ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ مَهْرُ ٱلزَّوْجَةِ ٱلَّتِي أَرْسَلَ يَخْطُبُهَا ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْعَظِيمُ لِوَلِيِّ عَهْدِهِ بِثِقَلِهَا ذَهَبًا لَوْ شَاءَتْ .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « فَحَمِدَ » بَدَلًا مِنْ : « حَمِدَ » .

وَغَشَّىٰ ٱلْفَرَحُ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ عَيْنَيِ ٱلرَّجُلِ وَأُذُنَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ يَسْمَعُ نَشِيدَ ٱلْمَلَائِكَةِ يَطِنُّ لَحْنُهُ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . » .

وَلَمْ يَشْعُرْ أَنَّهُ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ ، فَقَامَ يَطِيرُ ، وَلَيْسَ يَدْرِي مِنْ فَرَحِهِ مَا يَصْنَعُ ، وَكَأَنَّهُ فِي يَوْمٍ جَاءَهُ مِنْ غَيْرِ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا يَتَعَرَّفُ إِلَيْهَا بِهَـٰذَا ٱلصَّوْتِ ٱلَّذِي لَا يَزَالُ يَطِنُّ فِي أُذُنَيْهِ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . » .

وَصَارَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ وَجَعَلَ يُفَكِّرُ : مِمَّنْ يَأْخُذُ ، مِمَّنْ يَسْتَدِينُ ؟ فَظَهَرَتْ لَهُ ٱلْأَرْضُ خَلَاءً مِنَ ٱلْإِنْسَانِ ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا ٱلرَّجُلُ ٱلْوَاحِدُ ٱلَّذِي يَضْطَرِبُ صَوْتُهُ فِي أُذُنَيْهِ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . » .

وَصَلَّىٰ ٱلْمَغْرِبَ وَكَانَ صَائِمًا ، ثُمَّ قَامَ فَأَسْرَجَ ، فَإِذَا سِرَاجُهُ ٱلْخَافِتُ ٱلضَّئِيلُ يَسْطَعُ لِعَيْنَيْهِ سُطُوعَ ٱلْقَمَرِ ، وَكَأَنَّ فِي نُورِهِ وَجْهَ عَرُوسٍ تَقُولُ لَهُ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . » .

وَقَدَّمَ عَشَاءَهُ لِيُفْطِرَ ، وَكَانَ خُبْزًا وَزَيْتًا ، فَإِذَا ٱلْبَابُ يُقْرَعُ ؛ قَالَ : مَنْ هَـٰذَا ؟ قَالَ ٱلطَّارِقُ : سَعِيدٌ . . .

سَعِيدٌ ؟ سَعِيدٌ ! مَنْ سَعِيدٌ ؟ أَهُوَ أَبُو عُثْمَانَ ؛ أَبُو عَلِيٍّ ؛ أَبُو ٱلْحَسَنِ ؟ فَكَّرَ ٱلرَّجُلُ فِي كُلِّ مَنِ ٱسْمُهُ سَعِيدٌ إِلَّا سَعِيدَ بْنَ ٱلْمُسَيَّبِ ؛ إِلَّا ٱلَّذِي قَالَ لَهُ : « أَنَا . . . » .

لَمْ يُخَالِجْهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلطَّارِقَ ، فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْإِمَامَ لَمْ يَطْرُقْ بَابَ أَحَدٍ قَطُّ ، وَلَمْ يُرَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا بَيْنَ دَارِهِ وَٱلْمَسْجِدِ .

ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا بِهِ سَعِيدُ بْنُ ٱلْمُسَيَّبِ ، فَلَمْ تَأْخُذْهُ عَيْنُهُ حَتَّىٰ رَجَعَ ٱلْقَبْرُ فَهَبَطَ فَجْأَةً بِظَلَامِهِ وَأَمْوَاتِهِ فِي قَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ ، وَظَنَّ أَنَّ ٱلشَّيْخَ قَدْ بَدَا لَهُ ، فَنَدِمَ ، فَجَاءَهُ لِلطَّلَاقِ قَبْلَ أَنْ يَشِيعَ ٱلْخَبَرُ ، وَيَتَعَذَّرَ إِصْلَاحُ ٱلْغَلْطَةِ ! فَقَالَ : « يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، لَوْ . . . لَوْ . . . لَوْ ـ لَوْ أَرْسَلْتَ إِلَيَّ لَأَتَيْتُكَ !» .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : « لَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ تُؤْتَىٰ » .

فَمَا صَكَّتِ ٱلْكَلِمَةُ سَمْعَ ٱلْمِسْكِينِ حَتَّىٰ أَبْلَسَ ٱلْوُجُودُ فِي نَظَرِهِ ، وَغَشِيَ ٱلدُّنْيَا صَمْتٌ كَصَمْتِ ٱلْمَوْتِ ، وَأَحَسَّ كَأَنَّ ٱلْقَبْرَ يَتَمَدَّدُ فِي قَلْبِهِ بِعُرُوقِ ٱلْأَرْضِ كُلِّهَا ! ثُمَّ فَاءَ لِنَفْسِهِ ،

وَقَدَّرَ أَنْ لَيْسَ مَحَلُّ شَيْخِهِ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَ ، وَلَيْسَ مَحَلُّهُ هُوَ إِلَّا أَنْ يُطِيعَ ، وَأَنَّ مِنَ ٱلرُّجُوْلَةِ أَلَّا يَكُوْنَ مَعَرَّةٌ عَلَىٰ ٱلرُّجُوْلَةِ ، ثُمَّ نَكَسَ وَتَنَكَّسَ ، وَقَالَ بِذِلَّةٍ وَمَسْكَنَةٍ : « مَا تَأْمُرُنِي ؟» .

تَفَتَّحَتِ ٱلسَّمَاءُ مَرَّةً ثَالِثَةً ، وَقَالَ ٱلشَّيْخُ : « إِنَّكَ كُنْتَ رَجُلًا عَزَبًا ، فَتَزَوَّجْتَ ، فَكَرِهْتُ أَنْ تَبِيْتَ ٱللَّيْلَةَ وَحْدَكَ ؛ وَهَـٰذِهِ ٱمْرَأَتُكَ !» .

وَٱنْحَرَفَ شَيْئًا ، فَإِذَا ٱلْعَرُوْسُ قَائِمَةٌ خَلْفَهُ مُسْتَتِرَةٌ بِهِ ، وَدَفَعَهَا إِلَىٰ ٱلْبَابِ وَسَلَّمَ وَٱنْصَرَفَ .

وَٱنْبَعَثَ ٱلْوُجُوْدُ فَجْأَةً ، وَطَنَّ لَحْنُ ٱلْمَلَائِكَةِ فِي أُذُنِ أَبِي وَدَاعَةَ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . » .

* * *

دَخَلَتِ ٱلْعَرُوْسُ ٱلْبَابَ وَسَقَطَتْ مِنَ ٱلْحَيَاءِ ، فَتَرَكَهَا ٱلرَّجُلُ مَكَانَهَا ، وَٱسْتَوْثَقَ مِنْ بَابِهِ ، ثُمَّ خَطَا إِلَىٰ ٱلْقَصْعَةِ ٱلَّتِي فِيهَا ٱلْخُبْزُ وَٱلزَّيْتُ ، فَوَضَعَهَا فِي ظِلِّ ٱلسِّرَاجِ كَيْ لَا تَرَاهَا ؛ وَأَغْمَضَ ٱلسِّرَاجُ عَيْنَهُ وَنَشَرَ ٱلظِّلَّ . . .

ثُمَّ صَعِدَ إِلَىٰ ٱلسَّطْحِ وَرَمَىٰ ٱلْجِيرَانَ بِحُصَيَّاتٍ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ لَهُ شَأْنًا ٱعْتَرَاهُ ، وَأَنْ قَدْ وَجَبَ حَقُّ ٱلْجَارِ عَلَىٰ ٱلْجَارِ ، وَكَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْحُصَيَّاتُ يَوْمَئِذٍ كَأَجْرَاسِ ٱلتِّلِفُوْنِ ٱلْيَوْمَ ، فَجَاؤُوْهُ عَلَىٰ سُطُوْحِهِمْ وَقَالُوا : « مَا شَأْنُكَ ؟» .

قَالَ : « وَيْحَكُمْ ! زَوَّجَنِي سَعِيْدُ بْنُ ٱلْمُسَيَّبِ ٱبْنَتَهُ ٱلْيَوْمَ ؛ وَقَدْ جَاءَ بِهَا ٱللَّيْلَةَ عَلَىٰ غَفْلَةٍ » .

قَالُوا : « وَسَعِيْدٌ زَوَّجَكَ ! أَهُوَ سَعِيْدٌ ٱلَّذِي زَوَّجَكَ ! أَزَوَّجَكَ سَعِيْدٌ ؟» .

قَالَ : « نَعَمْ » .

قَالُوا : « وَهِيَ فِي ٱلدَّارِ ؟ أَتَقُوْلُ إِنَّهَا فِي ٱلدَّارِ ؟» .

قَالَ : « نَعَمْ » .

فَٱنْثَالَ ٱلنِّسَاءُ عَلَيْهِ مِنْ هُنَا وَهَـٰهُنَا حَتَّىٰ ٱمْتَلَأَتْ بِهِنَّ ٱلدَّارُ . وَغَشِيَتِ ٱلرَّجُلَ غَشْيَةٌ أُخْرَىٰ ، فَحَسِبَ دَارَهُ تَتِيْهُ عَلَىٰ قَصْرِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَكَأَنَّمَا يَسْمَعُهَا تَقُوْلُ :

« أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . »

* * *

قَالَ { عَبْدُ ٱللهِ بْنُ } أَبِي وَدَاعَةَ[1] : « ثُمَّ دَخَلْتُ بِهَا ، فَإِذَا هِيَ مِنْ أَجْمَلِ ٱلنَّاسِ وَأَحْفَظِهِمْ لِكِتَابِ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَأَعْلَمِهِمْ بِسُنَّةِ رَسُوْلِ ٱللهِ ﷺ ، وَأَعْرَفِهِمْ بِحَقِّ ٱلزَّوْجِ . { لَقَدْ كَانَتِ ٱلْمَسْأَلَةُ ٱلْمُعْضِلَةُ تُعْيِي ٱلْفُقَهَاءَ فَأَسْأَلُهَا عَنْهَا فَأَجِدُ عِنْدَهَا مِنْهَا عِلْمًا } » .

قَالَ : « وَمَكَثْتُ شَهْرًا لَا يَأْتِيْنِي سَعِيْدٌ وَلَا آتِيْهِ ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ٱلشَّهْرِ أَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي حَلْقَتِهِ فَسَلَّمْتُ ، فَرَدَّ عَلَيَّ ٱلسَّلَامَ ، وَلَمْ يُكَلِّمْنِي حَتَّىٰ تَفَرَّقَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْمَجْلِسِ وَخَلَا وَجْهُهُ ، فَنَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ :

« مَا حَالُ ذَلِكَ ٱلْإِنْسَانِ . . . . ؟» .

* * *

أَمَّا ذَلِكَ ٱلْإِنْسَانُ فَلَمْ يَعْرِفْ مِنَ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ قَصْرِ وَلِيِّ ٱلْعَهْدِ ٱبْنِ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ، وَبَيْنَ حُجْرَةِ { ٱبْنِ } أَبِي وَدَاعَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّىٰ دَارًا . . . ! إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ مُضَاعَفَةَ ٱلْهَمِّ ، وَهُنَا مُضَاعَفَةَ ٱلْحُبِّ .

وَمَا بَيْنَ هُنَاكَ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ مُدَّةَ ٱلْحَيَاةِ - سَتَخْفُتُ ٱلرُّوْحُ مِنْ نُوْرٍ بَعْدَ نُوْرٍ ، إِلَىٰ أَنْ تَنْطَفِىءَ فِي ٱلسَّمَاءِ مِنْ فَضَائِلِهَا .

وَمَا بَيْنَ هُنَا إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ مُدَّةَ ٱلْحَيَاةِ - تَسْطَعُ ٱلرُّوْحُ بِنُوْرٍ عَلَىٰ نُوْرٍ ، إِلَىٰ أَنْ تَشْتَعِلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بِفَضَائِلِهَا .

وَمَا عِنْدَ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ لَا يَبْقَىٰ ، وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ .

* * *

وَلَمْ يَزَلْ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ يَحْتَالُ لِسَعِيْدٍ وَيَرْصُدُ غَوَائِلَهُ حَتَّىٰ وَقَعَتْ بِهِ ٱلْمِحْنَةُ ، فَضَرَبَهُ عَامِلُهُ عَلَىٰ ٱلْمَدِيْنَةِ خَمْسِيْنَ سَوْطًا فِي يَوْمٍ بَارِدٍ ، وَصَبَّ عَلَيْهِ جَرَّةَ مَاءٍ ، وَعَرَضَهُ عَلَىٰ

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « أَبُو وَدَاعَةَ » بَدَلًا مِنْ : « عَبْدِ ٱللهِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ » .

ٱلسَّيفِ ، وَطَافَ بِهِ ٱلْأَسْوَاقَ عَارِيًا فِي تُبَّانٍ(١) مِنَ ٱلشَّعْرِ ، وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُجَالِسُوْهُ أَوْ يُخَاطِبُوْهُ . وَبِهَـٰذِهِ ٱلْوَقَاحَةِ ، وَبِهَـٰذِهِ ٱلرَّذِيلَةِ ، وَبِهَـٰذِهِ ٱلْمَخْزَاةِ ، قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : « أَنَا . . . . ؟» .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

* * *

قصة زواج
ذَيْلُ ٱلْقِصَّةِ وَفَلْسَفَةُ ٱلْمَالِ(*)

ذَهَبَ ٱلنَّاسُ يَمِينًا وَشِمَالًا فِيمَا كَتَبْنَاهُ مِنْ خَبَرِ ٱلْإِمَامِ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمُسَيَّبِ وَتَزْوِيجِهِ ٱبْنَتَهُ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَقِيرٍ ، بَعْدَ إِذْ ضَنَّ بِهَا أَنْ تَكُوْنَ زَوْجًا لِوَلِيِّ عَهْدِ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ؛ وَقَدْ جَعَلَتْ قُلُوْبُ بَعْضِ ٱلنِّسَاءِ ٱلْعَصْرِيَّاتِ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ تَصِيحُ وَتُوَلْوِلُ . . . وَحَدَّثَنَا أَدِيبٌ ظَرِيفٌ أَنَّ إِحْدَاهُنَّ سَأَلَتْ عَنْ عُنْوَانِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ . . . . . !

أَفَتَرَاهَا سَتَكْتُبُ إِلَيْهِ أَنَّهَا تَقْبَلُ ٱلزَّوَاجَ مِنْ وَلِيِّ عَهْدِهِ ؟

عَلَىٰ أَنَّ لِلْقِصَّةِ ذَيْلًا ، فَإِنَّ ٱلطَّبِيعَةَ ٱلْآدَمِيَّةَ لَا عَصْرَ لَهَا ، بَلْ هِيَ طَبِيعَةُ كُلِّ عَصْرٍ ؛ وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ يَبْدَأُ تَارِيخُهَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ، فَهِيَ هِيَ لَا تَتَجَدَّدُ وَلَا تَزَالُ تَلُوحُ وَتَخْتَفِي ؛ أَمَّا ٱلرَّذِيلَةُ فَأَوَّلُ تَارِيخِهَا مِنَ ٱلطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا ، فَهِيَ هِيَ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَزَالُ تَظْهَرُ وَتَسْتَتِرُ .

* * *

(١) ٱلتُّبَّانُ : مَا يُسَمَّىٰ ٱلْيَوْمَ ٱلْمَايُو أَوْ لِبَاسُ ٱلْبَحْرِ . ذَكَرَهُ ٱلْجَاحِظُ وَقَالَ : هُوَ سَرَاوِيلُ قَصِيرٌ يَلْبَسُهُ ٱلْمَلَّاحُوْنَ .

(*) « الرسالة » العدد : ٧٠ ، ٢٧ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ٥ نوفمبر/تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٨٠٥ ـ ١٨٠٩ .

لَمَّا زَوَّجَ ٱلْإِمَامُ ٱبْنَتَهُ مِنِ ٱبْنِ أَبِي وَدَاعَةَ ، وَأَخَذَهَا بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ فِي يَوْمِ زَوَّجَهَا مِنْهُ ، وَمَشَىٰ بِهَا فِي طَرِيقٍ حَصَاهُ عِنْدَهُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلدُّرِّ ، وَتُرَابُهُ أَكْرَمُ مِنَ ٱلذَّهَبِ ؛ طَارَتِ ٱلْحَادِثَةُ فِي ٱلنَّاسِ ، وَٱسْتَفَاضَ لَهُمْ قَوْلٌ كَثِيرٌ ؛ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ . [٩ سورة التوبة/الآية : ١٢٤] وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ : تَٱللهِ لَئِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلْوَحْيُ ، إِنَّ(١) فِي مَعَانِيهِ بَقِيَّةً مَا تَزَالُ تَنْزِلُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْقُلُوْبِ ٱلَّتِي تُشْبِهُ فِي عَظَمَتِهَا قُلُوْبَ ٱلْأَنْبِيَاءِ ؛ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَادِثَةُ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا إِلَّا فِي مَعْنَىٰ سُورَةٍ مِنَ ٱلسُّوَرِ قَدِ ٱنْشَقَّتْ لَهَا ٱلسَّمَاءُ ، وَنَزَلَ بِهَا جِبْرِيلُ يَخْفُقُ عَلَىٰ أَفْئِدَةِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ خَفْقَةَ إِيمَانٍ .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [٩ سورة التوبة/الآية: ١٢٥] وَقَالَ أُنَاسٌ مِنْهُمْ : أَمَا وَٱللهِ لَوْ تَهَيَّأَ لِأَحَدِنَا أَنْ يَكُوْنَ لِصًّا يَسْرِقُ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ، أَوِ ٱبْنَ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ، لَرَكِبَ رَأْسَهُ فِي ذَٰلِكَ ، مَا يَرُدُّهُ عَنِ ٱلسَّرِقَةِ شَيْءٌ ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ تَهَيَّأَ لَهُ ٱلصِّهْرُ وَٱلْحَسَبُ ، وَجَاءَهُ ٱلْغِنَىٰ يَطْرُقُ بَابَهُ ـ مَا بَالُهُ يَرُدُّ كُلَّ ذَٰلِكَ وَيُخْزِي ٱبْنَتَهُ بِرَجُلٍ فَقِيرٍ تَعِيشُ فِي دَارِهِ بِأَسْوَإِ حَالٍ ؛ وَكَيْفَ تَثْقُلُ هِمَّتُهُ وَتَبْطُؤُ وَتَمُوْتُ ، إِذَا كَانَ ٱلدُّرُّ وَٱلْجَوْهَرُ وَٱلذَّهَبُ وَٱلْخِلَافَةُ ؛ ثُمَّ يَنْبَعِثُ وَيَمْضِي لَا يَتَلَكَّأُ عَزْمُهُ ، إِذَا كَانَ ٱلْعِلْمُ وَٱلْفَقْرُ وَٱلدِّيْنُ وَٱلتَّقْوَىٰ ؟

وَٱنْتَهَىٰ كَلَامُ ٱلنَّاسِ إِلَىٰ ٱلْإِمَامِ ٱلْعَظِيمِ ، فَلَمْ يَجِئْهُ إِلَّا مِنَ ٱلظَّنِّ خَفِيًّا خَفِيًّا ، كَأَنَّمَا هِيَ أَقْوَالٌ حَسِبَهَا تُقَالُ عَنْهُ بَعْدَ خَمْسِيْنَ وَثَلَاثِ مِئَةٍ وَأَلْفِ سَنَةٍ فِي زَمَانِنَا هَـٰذَا حِيْنَ يَكُوْنُ هُوَ فِي مَعَانِي ٱلسَّمَاءِ ، وَيَكُوْنُ ٱلْقَائِلُوْنَ فِي مَعَانِي ٱلتُّرَابِ ٱلنَّجِسِ ٱلَّذِي نَفَضَتْهُ عَلَىٰ ٱلشَّرْقِ نِعَالُ ٱلْأُوْرُبِّيِّيْنَ . . . . !

قَالَ ٱلرَّاوِي : وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ أَنْ يُوَاجِهَ ٱلْإِمَامَ بِشَفَةٍ أَوْ بِنْتِ شَفَةٍ ، لَا مُضَيِّقًا عَلَيْهِ مِنْ قَلْبِهِ وَلَا مُوَسِّعًا ، حَتَّىٰ كَانَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ ٱلْجُمُعَةِ ، وَقَدْ مَالَ ٱلنَّاسُ بَعْدَ ٱلصَّلَاةِ إِلَىٰ حَلْقَةِ ٱلشَّيْخِ ، وَتَقَصَّفُوا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، فَغَصَّ بِهِمُ ٱلْمَسْجِدُ ، وَكَانَ إِمَامُنَا يُفَسِّرُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ . [١٤ سورة إبراهيم/الآية : ١٢] .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « فَإِنَّ » بَدَلًا مِنْ : « إِنَّ » .

قَالَ ٱلرَّاوِي : فَكَانَ فِيمَا قَالَهُ ٱلشَّيْخُ :

إِذَا هُدِيَ ٱلْمَرْءُ سَبِيلَهُ كَانَتِ ٱلسُّبُلُ ٱلْأُخْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ إِمَّا عِدَاءً لَهُ ، وَإِمَّا مُعَارَضَةً ، وَإِمَّا رَدًّا ؛ فَهُوَ مِنْهَا فِي ٱلْأَذَىٰ ، أَوْ فِي مَعْنَىٰ ٱلْأَذَىٰ ، أَوْ عُرْضَةٌ لِلْأَذَىٰ . لَقَدْ وَجَدَ ٱلطَّرِيقَ وَلَـٰكِنَّهُ أَصَابَ ٱلْعَقَبَاتِ أَيْضًا ، وَهَـٰذِهِ حَالَةٌ لَا يَمْضِي فِيهَا ٱلْمُوَفَّقُ إِلَىٰ غَايَتِهِ ، إِلَّا إِذَا أَعَانَهُ ٱللهُ بِطَبِيعَتَيْنِ : أُولَاهُمَا ٱلْعَزْمُ ٱلثَّابِتُ ، وَهَـٰذَا هُوَ ٱلتَّوَكُّلُ عَلَىٰ ٱللهِ ؛ وَٱلْأُخْرَىٰ ٱلْيَقِينُ ٱلْمُسْتَبْصِرُ ، وَهَـٰذَا هُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَىٰ ٱلْأَذَىٰ .

وَمَتَىٰ عَزَمَ ٱلْإِنْسَانُ ذَلِكَ ٱلْعَزْمَ ، وَأَيْقَنَ ذَلِكَ ٱلْيَقِينَ - تَحَوَّلَتِ ٱلْعَقَبَاتُ ٱلَّتِي تَصُدُّهُ عَنْ غَايَتِهِ ، فَآلَ مَعْنَاهَا أَنْ تَكُونَ زِيَادَةً فِي عَزْمِهِ وَيَقِينِهِ ، بَعْدَ أَنْ وُضِعْنَ لِيَكُنَّ نَقْصًا مِنْهُمَا ؛ فَتَرْجِعُ ٱلْعَقَبَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِنَّهَا لَوَسَائِلُ تُعِينُ عَلَىٰ ٱلْغَايَةِ . وَبِهَـٰذَا يَبْسُطُ ٱلْمُؤْمِنُ رُوحَهُ عَلَىٰ ٱلطَّرِيقِ ، فَمَا بُدٌّ أَنْ يَغْلِبَ عَلَىٰ ٱلطَّرِيقِ وَمَا فِيهَا . يَنْظُرُ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا بِنُورِ ٱللهِ فَلَا يَجِدُ ٱلدُّنْيَا شَيْئًا - عَلَىٰ سَعَتِهَا وَتَنَاقُضِهَا - إِلَّا سَبِيلَهُ وَمَا حَوْلَ سَبِيلِهِ ، فَهُوَ مَاضٍ قُدُمًا لَا يَتَرَادُّ وَلَا يَفْتُرُ وَلَا يَكِلُّ ، وَهَـٰذِهِ حَقِيقَةُ ٱلْعَزْمِ وَحَقِيقَةُ ٱلصَّبْرِ جَمِيعًا .

وَمِنْ ثَمَّ لَا تَكُونُ ٱلْحَيَاةُ لِهَـٰذَا ٱلْمُؤْمِنِ مَهْمَا تَقَلَّبَتْ وَٱخْتَلَفَتْ - إِلَّا نَفَاذًا مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ دُونَ ٱلتَّخَبُّطِ فِي ٱلطُّرُقِ ٱلْأُخْرَىٰ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ ٱلْعُمُرُ مَهْمَا طَالَ إِلَّا مُدَّةَ صَبْرٍ فِي رَأْيِ ٱلْمُؤْمِنِ .

وَعَزِيمَةُ ٱلنَّفَاذِ وَعَزِيمَةُ ٱلصَّبْرِ ، هُمَا ٱلضَّوْءُ ٱلرُّوحَانِيُّ ٱلْقَوِيُّ ، ٱلَّذِي يَكْتَسِحُ ظُلُمَاتِ ٱلنَّفْسِ ، مِمَّا يُسَمِّيهِ ٱلنَّاسُ خُمُولًا وَدَعَةً وَتَهَاوُنًا وَغَفْلَةً وَضَجَرًا وَنَحْوَهَا .

قَالَ : وَلَـٰكِنْ كَيْفَ يُعَانُ ٱلْمُؤْمِنُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمُعْجِزَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ؟ هُنَا يَتَبَيَّنُ إِعْجَازُ ٱلْآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ؛ فَقَدْ ذُكِرَ فِيهَا ٱلتَّوَكُّلُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَٱفْتُتِحَتْ بِهِ وَخُتِمَتْ ؛ وَٱلتَّوَكُّلُ هُوَ ٱلْعَزْمُ ٱلثَّابِتُ كَمَا أَوْضَحْنَا . وَذُكِرَتْ فِي ٱلْآيَةِ بَيْنَ ذَلِكَ هِدَايَةُ ٱلْمَرْءِ سَبِيلَهُ ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلْإِضَافَةُ ﴿ سُبُلَنَا ﴾ تُعَيِّنُ أَنَّهَا هِدَايَةُ ٱلْإِنْسَانِ إِلَىٰ سَبِيلِ نَفْسِهِ ؛ أَيْ : سَبِيلِهِ ٱلْبَاطِنِيِّ ٱلَّذِي هُوَ مَنَاطُ سَعَادَتِهِ فِي ٱلشُّعُورِ بِٱلسَّعَادَةِ(١) . ثُمَّ ذُكِرَ ٱلصَّبْرُ عَلَىٰ أَذَى ٱلنَّاسِ ، وَٱلْأَذَىٰ لَا يَقَعُ إِلَّا فِي

(١) سَيَأْتِي فِي كَلَامِ ٱلْإِمَامِ بَسْطٌ لِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ .

حَيَوَانِيَّةِ ٱلْإِنْسَانِ ، وَلَا يُؤَثِّرُ إِلَّا فِيهَا . فَكَأَنَّ ٱلْآيَةَ مُصَرِّحَةٌ أَنَّ نَجَاحَ ٱلْمُؤْمِنِ وَنَفَاذَهُ فِي ٱلْحَيَاةِ لَا يَكُونَانِ أَوَّلَ ٱلْأَشْيَاءِ وَآخِرَهَا إِلَّا بِثَلَاثٍ : ٱلْعَزْمُ ٱلثَّابِتُ ، ثُمَّ ٱلْعَزْمُ ٱلثَّابِتُ ، ثُمَّ ٱلْعَزْمُ ٱلثَّابِتُ . وَأَنَّ ٱلصَّبْرَ لَيْسَ شَيْئًا يُذْكَرُ ، أَوْ شَيْئًا يُجْدِي ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَبْرًا عَلَىٰ أَذَىٰ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فِي أَفْظَعِ وَحْشِيَّتِهَا ؛ فَٱلرُّوحُ لَا تُؤْذِي ٱلرُّوحَ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحَيَوَانَ يُؤْذِي ٱلْحَيَوَانَ . وَأَنَّ مَا يَقَعُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فَيُسَمَّىٰ ٱعْتِدَاءً مِنْ غَيْرِكَ ، وَيُسَمَّىٰ أَذًى لَكَ ، هُوَ شَيْءٌ يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَهُ ٱلْعَزْمُ فَخْرًا لِقُوَّةِ ٱلِاحْتِمَالِ فِيكَ ، كَمَا جَعَلَهُ ٱلْبَطْشُ فَخْرًا لِلْقُدْرَةِ عِنْدَ ٱلْمُعْتَدِي .

وَبِهَـٰذَا يَكُونُ ٱلْعَزْمُ قَدْ فَصَلَ بَيْنَ نَفْسِكَ ٱلرُّوحِيَّةِ وَبَيْنَ شَخْصِكَ ٱلْحَيَوَانِيِّ ، وَوَهَبَكَ حَقِيقَةَ ٱلشُّعُورِ ، وَصَحَّحَ بِمَعَانِي رُوحِيَّتِكَ مَعَانِيَ حَيَوَانِيَّتِكَ ؛ وَحِينَئِذٍ تَرَىٰ ٱلسَّعَادَةَ حَقَّ ٱلسَّعَادَةِ مَا كَانَ هِدَايَةً لِنَفْسِكَ أَوْ هِدَايَةً بِهَا ، وَلَوِ ٱنْقَلَبَ فِي ٱلشَّخْصِ ٱلْحَيَوَانِيِّ مِنْكَ أَذًى وَأَلَمًا . ذَلِكَ صَبْرُ أُولِي ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي : وَعِنْدَ ذَلِكَ صَاحَ رَجُلٌ كَانَ فِي ٱلْمَجْلِسِ دَسَّهُ عَامِلُ ٱلْخَلِيفَةِ ، لِيَسْأَلَ ٱلشَّيْخَ سُؤَالًا عَلَىٰ مَلَإِ ٱلنَّاسِ ، يَكُونُ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَيْهِ وَٱلتَّشْهِيرِ بِهِ ؛ وَقَدْ مَكَرَ ٱلْعَامِلُ فَٱخْتَارَهُ شَيْخًا كَبِيرًا أَعْقَفَ ، لِيَرْحَمَ ٱلنَّاسُ رِقَّةَ عَظْمِهِ وَكِبَرَ سِنِّهِ فَلَا يَعْرِضُونَ لَهُ بِأَذًى ، ثُمَّ لِيَكُونَ صَوْتُهُ كَأَنَّهُ صَوْتُ ٱلدَّهْرِ مِنْ بَعِيدٍ . قَالَ ٱلصَّائِحُ : ذَلِكَ أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ صَبْرُ أُولِي ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ، أَوْ صَبْرُ ٱبْنَتِكَ عَلَىٰ مَكَارِهِ ٱلْعَيْشِ مَعَ ٱبْنِ أَبِي وَدَاعَةَ(١) ، لَا يَجِدُ إِلَّا رُمْقَةً يُمْسِكُ بِهَا ٱلرَّمَقَ عَلَيْهَا ، وَقَدْ كَانَتِ ٱلنِّعْمَةُ لَهَا مُعْرِضَةً ، فَدَفَعْتَهَا إِلَيْهِ - زَعَمْتَ - لِتُهْلِكَ بِهِ شَخْصَهَا ٱلْحَيَوَانِيَّ ، وَتَوَكَّلْتَ عَلَىٰ ٱللهِ وَأَلْقَيْتَ ٱبْنَتَكَ فِي ٱلْيَمِّ . . . ؟

فَتَرَبَّدَ وَجْهُ ٱلشَّيْخِ وَأَطْرَقَ هُنَيَّاتٍ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَيْنَ ٱلْمُتَكَلِّمُ آنِفًا ؟ فَٱرْتَفَعَ ٱلصَّوْتُ : هَـٰأَنَذَا . قَالَ : ٱدْنُ مِنِّي . فَتَقَاعَسَ ٱلرَّجُلُ كَأَنَّمَا تَهَيَّبَ مَا فَرَطَ مِنْهُ . فَٱسْتَدْنَاهُ ٱلثَّانِيَةَ ؛ فَقَامَ يَتَخَطَّىٰ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ وَقَفَ بِإِزَائِهِ ثُمَّ جَلَسَ ؛ فَقَرَأَ ٱلشَّيْخُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « أَبِي وَدَاعَةَ » بَدَلًا مِنْ : « ٱبْنِ أَبِي وَدَاعَةَ » .

ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ ! [١٤ سورة إبراهيم/الآية : ٢١] .

ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ! لَا تَسْمَعْنِي بِأُذُنِكَ وَحْدَهَا . أَرَأَيْتَكَ(١) لَوْ سَمِعْتَ خَبَرًا لَيْسَ فِي نَفْسِكَ أَصْلٌ مِنْ مَعْنَاهُ ، أَوْ وَرَدَ عَلَيْكَ ٱلْخَبَرُ وَنَفْسُكَ عَنْهُ فِي شُغُلٍ قَدْ أَهَمَّهَا ؛ أَفَكُنْتَ تَنْشَطُ لَهُ نَشَاطَكَ لِلْخَبَرِ ٱحْتَفَلَتْ لَهُ نَفْسُكَ أَوْ أَصَابَ هَوًى مِنْكَ أَوْ رَأَيْتَهُ مَوْضِعَ ٱعْتِبَارٍ ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَإِذَا سَمِعْتَ بِأُذُنِكَ وَحْدَهَا فَإِنَّمَا سَمِعْتَ كَلَامًا يَمُرُّ بِأُذُنِكَ مَرًّا ، وَإِذَا أَرَدْتَ ٱلْكَلَامَ لِنَفْسِكَ سَمِعْتَ بِأُذُنِكَ وَنَفْسِكَ مَعًا ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَكُلُّ مَا لَا تَنْفَرِدُ بِهِ حَاسَّةٌ وَاحِدَةٌ ، بَلْ تُشَارِكُ فِيهِ ٱلْحَوَاسُّ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا ـ لَا يَكُونُ إِلَّا مَوْضِعَ ٱهْتِمَامٍ لِلنَّفْسِ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَمِنْ هُنَا يَكْثُرُ ٱلْفَرَحُ وَٱلْحُزْنُ كِلَاهُمَا إِذَا شَارَكَتْ فِيهِمَا ٱلْحَوَاسُّ ، فَيَأْتِي كُلٌّ مِنْهُمَا كَثِيرًا مَهْمَا قَلَّ ، وَتَزِيدُ كُلُّ حَاسَّةٍ فِي ٱللَّذَّةِ لَذَّةً وَفِي ٱلْأَلَمِ أَلَمًا ، فَتَعْمَلُ ٱلنَّفْسُ فِي ذَلِكَ أَعْمَالًا تَسْحَرُ بِهَا ، فَيَكُونُ ٱلشَّيْءُ لِصَاحِبِهِ غَيْرَ مَا هُوَ لِلنَّاسِ ، كَٱلصَّوْتِ ٱلْبَاكِي أَوِ ٱلضَّاحِكِ فِي لِسَانِ طِفْلِكَ ، تَسْمَعُهُ أَنْتَ مِنْهُ بِكُلِّ حَوَاسِّكَ ، فَإِذَا أَنْتَ سَمِعْتَ ٱلصَّوْتَ عَيْنَهُ مِنْ لِسَانِ رَجُلٍ فِي ٱلنَّاسِ رَأَيْتَهُ غَيْرَ ذَاكَ . أَكَذَلِكَ هُوَ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَفَيَكُونُ ٱلسُّرُورُ بَالِغًا عَجِيبًا أَكْثَرَ مَا هُوَ بَالِغٌ ، حِينَ يَجِدُ ٱلْمَالَ وَٱلْغِنَى فِي ٱلْإِنْسَانِ ، أَمْ حِينَ يَجِدُ ٱلْقُوَّةَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَطَبِيعَةَ ٱلْمَرَحِ وَٱلرِّضَى ؟

(١) { أَرَأَيْتَكَ : بِمَعْنَى أَخْبِرْنِي ، تَبْقَى تَاؤُهُ عَلَى حَالِهَا فِي ٱلْإِفْرَادِ وَٱلتَّثْنِيَةِ وَٱلْجَمْعِ وَيُسَلَّطُ ٱلتَّغْيِيرُ عَلَى ٱلْكَافِ : أَرَأَيْتَكَ أَرَأَيْتَكُمَا ، أَرَأَيْتَكُمْ . . . إِلَخ } .

قَالَ : بَلْ حِينَ يَجِدُ فِي ٱلنَّفْسِ . . .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَرَأَيْتَ ٱلْإِنْسَانَ يَكُونُ سَعِيدًا بِمَا يَتَوَهَّمُ ٱلنَّاسُ أَنَّهُ بِهِ غَنِيٌّ سَعِيدٌ ، أَمْ بِشُعُورِهِ هُوَ وَإِنْ كَانَ بَعْدُ فِيمَا لَا يَتَوَهَّمُ ٱلنَّاسُ فِيهِ ٱلْغِنَى وَٱلسَّعَادَةَ ؟

قَالَ : بَلْ بِشُعُورِهِ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَفَلَا تُوجَدُ فِي ٱلدُّنْيَا أَشْيَاءُ مِنَ ٱلنَّفْسِ تَكُونُ فَوْقَ ٱلدُّنْيَا وَفَوْقَ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمَطَامِعِ ؛ كَٱلطِّفْلِ عِنْدَ أُمِّهِ ، كُلُّ مَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ وُزِنَ بِهِ هُوَ لَا بِغَيْرِهِ ، وَكَانَ ٱلِاعْتِبَارُ عَلَيْهِ لَا عَلَى سِوَاهُ ، أَتَعْرِفُ أُمًّا تَرْضَى أَنْ يُذْبَحَ ٱبْنُهَا فِي حِجْرِهَا لِقَاءَ أَنْ يُمْلَأَ حِجْرُهَا ذَهَبًا { وَإِنْ كَانَتْ فَقِيرَةً مُعْدِمَةً } ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَإِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ تَشْعُرُ أَكْثَرَ مِمَّا تَرَى ؛ أَفَيَذْهَبُ مَا تَرَاهُ فِيمَا تَشْعُرُ بِهِ ، وَيَكُونُ شُعُورُهَا هُوَ وَحْدَهُ ٱلَّذِي يَلْبَسُ مَا حَوْلَهَا وَيُصَوِّرُهُ وَيُصَرِّفُهُ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَفَتَعْرِفُ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ قَوِيَّةٍ مِنْ هَٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلَّذِي نَعِيشُ فِيهِ عَالَمًا آخَرَ هُوَ عَالَمُ أَفْكَارِهَا وَإِحْسَاسِهَا ، وَفِيهِ وَحْدَهُ لَذَّاتُ إِحْسَاسِهَا وَأَفْكَارِهَا ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَفَرَأَيْتَ ٱلْمَرْأَةَ إِذَا صَحَّ حُبُّهَا أَوْ فَرَحُهَا أَوْ عَزْمُهَا ، أَرَأَيْتَهَا تَكُونُ إِلَّا فِي عَالَمِ أَفْكَارِهَا ؟ أَرَأَيْتَ كُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِرَغْبَتِهَا حِينَئِذٍ يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَشْيَاءِ قَلْبِهَا لَا مِنْ أَشْيَاءِ ٱلدُّنْيَا ؟ أَرَأَيْتَهَا لَا تَعِيشُ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَالَةِ إِلَّا بِٱلْمُعَامَلَةِ مَعَ قَلْبِهَا ٱلَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَلْبَسُ وَلَا يَجْمَعُ ٱلْمَالَ وَلَا يُرِيدُ إِلَّا ٱلشُّعُورَ فَقَطْ ؟

قَالَ : نَعَمْ هُوَ ذَاكَ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ٱلْإِيمَانُ قَدْ وُلِدَ وَنَشَأَ وَتَرَعْرَعَ فِي قَلْبِ ٱلْمَرْأَةِ ، أَلَا يَكُونُ هُوَ طِفْلَ قَلْبِهَا ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَتِ ٱلْخَمْرُ عِنْدَ مُدْمِنِهَا شَيْئًا عَظِيمًا ، وَكَانَتْ ضَرُورَةً مِنْ ضَرُورَاتِ وُجُودِهِ ٱلضَّعِيفِ ٱلْمُخْتَلِّ ، فَلَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ وَلَا سَفَهُ وُجُودِهِ إِلَّا بِهَا ؛ أَفَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ ٱلْخَمْرُ مِنْ ضَرُورَاتِ صَاحِبِ ٱلْوُجُودِ ٱلْقَوِيِّ ٱلْمُنْتَظِمِ ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَفَمُوقِنٌ أَنْتَ أَنْ لَا بُدَّ مِنْ آخِرٍ لِأَيَّامِ ٱلْإِنْسَانِ وَلَيَالِيهِ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا فَيَنْقَطِعُ بِهِ ٱلْعَيْشُ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أَفَيُؤَرِّخُ ٱلْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِتَارِيخِ مَعِدَتِهِ وَمَا حَوْلَهَا ، أَمْ بِتَارِيخِ نَفْسِهِ وَمَا فِيهَا ؟

قَالَ : بَلْ بِتَارِيخِ نَفْسِهِ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَإِذَا كُنْتَ صَاحِبَ حَرْبٍ ، وَكُنْتَ بَطَلًا مِنَ ٱلْأَبْطَالِ ، وَمِسْعَرًا مِنَ ٱلْمَسَاعِيرِ ، وَأَيْقَنْتَ ٱلْمَوْتَ فِي ٱلْمَعْرَكَةِ ؛ أَيَكُونُ ٱلْحَقِيقِيُّ عِنْدَكَ فِي هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ هُوَ ٱلْمَوْتَ أَمِ ٱلْحَيَاةَ ؟

قَالَ : بَلِ ٱلْحَيَاةُ عِنْدَئِذٍ وَهْمٌ وَبَاطِلٌ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَتَفِرُّ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ إِلَى ٱلْحَيَاةِ وَلَذَّاتِهَا فِي خَيَالِكَ ، أَمْ تَفِرُّ مِنْهَا وَمِنْ لَذَّاتِهَا ؟

قَالَ : بَلِ ٱلْفِرَارُ مِنْهَا ، فَإِنَّ خَيَالَهَا يَكُونُ خَبَالًا .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَفِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ ٱلَّتِي هِيَ عُمْرُ نَفْسِكَ ، وَعَمَلُ نَفْسِكَ ، وَرَجَاءُ نَفْسِكَ ؛ تَسْتَشْعِرُ ٱللَّذَّةَ فِي مَوْتِكَ بَطَلًا مَذْكُورًا ، أَمْ تُحِسُّ ٱلْكَرْبَ وَٱلْمَقْتَ مِنْ ذَلِكَ ؟

قَالَ : بَلْ أَسْتَشْعِرُ ٱللَّذَّةَ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : إِذًا فَهِيَ كِبْرِيَاءُ ٱلرُّوحِ ٱلْعَظِيمَةِ عَلَى مَادَّةِ ٱلتُّرَابِ وَٱلطِّينِ فِي أَيِّ أَشْكَالِهَا وَلَوْ فِي ٱلذَّهَبِ .

قَالَ : هِيَ تِلْكَ ؟

قَالَ ٱلشَّيْخُ : إِذًا فَبَعْضُ أَشْيَاءِ ٱلنَّفْسِ تَمْحُو فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ كُلَّ أَشْيَاءِ ٱلدُّنْيَا ، أَوِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْكَثِيرَةَ مِنَ ٱلدُّنْيَا .

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ ٱلْإِمَامُ : يَرْحَمُكَ ٱللهُ ؛ كَذَلِكَ مُحِيَ عِنْدَنَا أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱبْنُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَمُحِيَ ٱلْمَالُ وَٱلْغِنَىٰ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدَنَا إِلَّا سَعَادَةً ؛ وَمِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ أَنَّ كُلَّ مَنْ هُدِيَ سَبِيلَهُ بِٱلدِّينِ أَوِ ٱلْحِكْمَةِ ، ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَصْنَعَ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ سَعَادَتَهَا فِي ٱلدُّنْيَا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا لُقَيْمَاتٌ ؛ فَإِنَّ ٱلسَّعَةَ سَعَةُ ٱلْخُلُقِ لَا ٱلْمَالِ ، وَإِنَّ ٱلْفَقْرَ فَقْرُ ٱلْخُلُقِ لَا ٱلْعَيْشِ .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي : ثُمَّ إِنَّ ٱلْإِمَامَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْتَفَتَ إِلَى ٱلنَّاسِ وَقَالَ : أَمَا إِنِّي ـ عَلِمَ ٱللهُ ـ مَا زَوَّجْتُ ٱبْنَتِي رَجُلًا أَعْرِفُهُ فَقِيرًا أَوْ غَنِيًّا ، بَلْ رَجُلًا أَعْرِفُهُ بَطَلًا مِنْ أَبْطَالِ ٱلْحَيَاةِ ، يَمْلِكُ أَقْوَىٰ أَسْلِحَتِهِ مِنَ ٱلدِّينِ وَٱلْفَضِيلَةِ . وَقَدْ أَيْقَنْتُ حِينَ زَوَّجْتُهَا مِنْهُ أَنَّهَا سَتَعْرِفُ بِفَضِيلَةِ نَفْسِهَا فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ، فَيَتَجَانَسُ ٱلطَّبْعُ وَٱلطَّبْعُ ؛ وَلَا مَهْنَأَ لِرَجُلٍ وَٱمْرَأَةٍ إِلَّا أَنْ يُجَانِسَ طَبْعُهُ طَبْعَهَا ، وَقَدْ عَلِمْتُ وَعَلِمَ ٱلنَّاسُ أَنْ لَيْسَ فِي مَالِ ٱلدُّنْيَا مَا يَشْتَرِي هَـٰذِهِ ٱلْمُجَانَسَةَ ، وَأَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا هَدِيَّةَ قَلْبٍ لِقَلْبٍ يَأْتَلِفَانِ وَيَتَحَابَّانِ .

ثُمَّ قَالَ ٱلْإِمَامُ : وَأَنَا فَقَدْ دَخَلْتُ عَلَىٰ أَزْوَاجِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ[1] ، وَرَأَيْتُهُنَّ فِي دُورِهِنَّ يُقَاسِينَ ٱلْحَيَاةَ ، وَيُعَانِينَ مِنَ ٱلرِّزْقِ مَا شَحَّ دَرُّهُ فَلَا يَجِيءُ إِلَّا كَٱلْقَطْرَةِ بَعْدَ ٱلْقَطْرَةِ ، وَهُنَّ عَلَىٰ ذَلِكَ ، مَا وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا هِيَ مَلِكَةٌ مِنْ مَلِكَاتِ ٱلْآدَمِيَّةِ كُلِّهَا ، وَمَا فَقْرُهُنَّ وَٱللهِ إِلَّا كِبْرِيَاءُ ٱلْجَنَّةِ ، نَظَرَتْ إِلَى ٱلْأَرْضِ فَقَالَتْ : لَا . . . ![2] .

(١) تُوُفِّيَ سَعِيدُ بْنُ ٱلْمُسَيِّبِ سَنَةَ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ أَوْ حَوْلَهَا ، وَكَانَ قَدْ لَقِيَ جَمَاعَةً مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَسَمِعَ مِنْهُمْ ، وَدَخَلَ عَلَىٰ أَزْوَاجِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَأَخَذَ عَنْهُنَّ ، وَكَانَ مُتَزَوِّجًا ٱبْنَةَ أَبِي هُرَيْرَةَ ٱلصَّحَابِيِّ ٱلْجَلِيلِ ، وَعَنْهُ أَكْثَرُ رِوَايَتِهِ .

(٢) { ٱنْظُرْ مَقَالَةَ : (دَرْسٌ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ) فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي مِنْ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ } .

يُجَاهِدْنَ مُجَاهَدَةَ كُلِّ شَرِيْفٍ عَظِيْمِ ٱلنَّفْسِ ، هَمُّهُ أَنْ يَكُوْنَ ٱلشَّرَفُ أَوْ لَا يَكُوْنَ شَيْءٌ ؛ وَيَرَىٰ ٱلْغَافِلُ أَنَّ مِثْلَهُنَّ { هَالِكَاتٌ } فِيْ تَعَبِ ٱلْجِهَادِ ، وَيَعْلَمْنَ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ غَيْرَ مَا يَرَىٰ ذَلِكَ ٱلْمِسْكِيْنُ ـ يَعْلَمْنَ أَنَّ ذَلِكَ ٱلتَّعَبَ هُوَ لَذَّةُ ٱلنَّصْرِ بِعَيْنِهَا .

كَانَتْ أُنُوْثَتُهُنَّ أَبَدًا صَاعِدَةً مُتَسَامِيَةً فَوْقَ مَوْضِعِهَا بِهَـٰذِهِ ٱلْقَنَاعَةِ وَبِهَـٰذِهِ ٱلتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَزَالُ مُتَسَامِيَةً صَاعِدَةً ، عَلَىٰ حِيْنِ تَنْزِلُ ٱلْمَطَامِعُ بِأُنُوْثَةِ ٱلْمَرْأَةِ دُوْنَ مَوْضِعِهَا ، وَلَا تَزَالُ أُنُوْثَتُهَا تَنْحَدِرُ مَا بَقِيَتِ ٱلْمَرْأَةُ تَطْمَعُ ؛ وَرُبَّ مَلَكَةٍ جَعَلَتْهَا مَطَامِعُ ٱلْحَيَاةِ فِيْ ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ ، وَهِيَ بِٱسْمِهَا فِيْ ٱلْوَهْمِ ٱلْأَعْلَىٰ . . . !

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « ٱطَّلَعْتُ فِيْ ٱلْجَنَّةِ فَإِذَا أَقَلُّ أَهْلِهَا ٱلنِّسَاءُ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ ٱلنِّسَاءَ ؟ قَالَ : شَغَلَهُنَّ ٱلْأَحْمَرَانِ : ٱلذَّهَبُ وَٱلزَّعْفَرَانُ(١) » [راجع « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٧٢٩ ؛ حيث قال : « الحرير » بدل : « الزعفران » .] . أَيْ : ٱلطَّمَعُ فِيْ ٱلْغِنَىٰ وَٱلْعَمَلُ لَهُ ، وَٱلْمَيْلُ إِلَىٰ ٱلتَّبَرُّجِ وَٱلْحِرْصُ عَلَيْهِ .

وَنَفْسُ ٱلْأُنْثَىٰ لَيْسَتْ أُنْثَىٰ ، وَلَـٰكِنَّ شَغْلَهَا بِذَلِكَ ٱلتَّبَرُّجِ وَذَلِكَ ٱلْحِرْصِ وَذَلِكَ ٱلطَّمَعِ ـ هُوَ يُخَصِّصُهَا بِخَصَائِصِ ٱلْجَسَدِ ، وَيُعْطِيْهَا مِنْ حُكْمِهِ ، وَيُنْزِلُهَا عَلَىٰ إِرَادَتِهِ ؛ وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْمَزَلَّةُ ، فَتَهْبِطُ ٱلْمَرْأَةُ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْلُو ، وَتَضْعُفُ أَكْثَرَ مِمَّا تَقْوَىٰ ، وَتَفْسُدُ أَكْثَرَ مِمَّا تَصْلُحُ .

إِنَّ نَفْسَ ٱلْأُنْثَىٰ أُنْثَىٰ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ ، لِزَوْجِهَا وَحْدَهُ .

(١) هَـٰذَانِ هُمَا فِتْنَةُ ٱلنِّسَاءِ فِيْ كُلِّ دَهْرٍ ، وَهَـٰذَا ٱلْحَدِيْثُ مِنَ ٱلْمُعْجِزَاتِ ، فَٱلذَّهَبُ كِنَايَةٌ عَنِ ٱلْمَالِ وَٱلْحُلِيِّ وَمَا كَانَ مِنْ بَابِهِمَا ، أَمَّا ٱلزَّعْفَرَانُ فَفِيْهَا ٱلْمُعْجِزَةُ ، لِأَنَّهَا كِنَايَةٌ مُطْلَقَةٌ فَهِمَهَا ٱلْعَرَبُ دَلَالَةً عَلَىٰ ٱلثِّيَابِ ٱلْمُصْبَغَةِ ، وَنَفْهَمُ مِنْهَا نَحْنُ كُلَّ أَنْوَاعِ زِيْنَةِ ٱلنِّسَاءِ ، مِنَ ٱلْمَسَاحِيْقِ وَٱلْعُطُوْرِ ، إِلَىٰ ٱلْمُوْدَةِ * ٱلَّتِيْ هِيَ أَصْبَاغٌ مَعْنَوِيَّةٌ لِأَشْكَالِ ٱلثِّيَابِ . وَقَدْ كَانَ ٱلْعَرَبُ يَقُوْلُوْنَ : غَمَرَتِ ٱلْمَرْأَةُ وَجْهَهَا ، إِذَا طَلَتْهُ بِٱلزَّعْفَرَانِ لِيَصْفُوَ لَوْنُهَا . وَيَقُوْلُوْنَ مِنْ ذَلِكَ : ٱمْرَأَةٌ مُغْمَرَةٌ ، وَتَغَمَّرَتْ ، أَيْ : فَعَلَتْ ذَلِكَ . فَٱلزَّعْفَرَانُ كَمَا تَرَىٰ ، كِنَايَةٌ تَدْخُلُ فِيْهَا ٱلْبُوْدْرَةُ [أَي : ٱلْمَسَاحِيْقُ] وَٱلْأَدْهَانُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ ، وَكُلُّ مَا أَفْسَدَ وَجْهَ ٱلْمَرْأَةِ لِيُفْسِدَ حَيَاتَهَا ٱلِاجْتِمَاعِيَّةَ . . .

* [المودة أو الموضة، من الكلمة الإيطالية Moda، وتعني: آخر طريقة أو أسلوب أو زيّ تمّ ابتكاره كي يتداوله الناس ، ويهدف منه عادة التجديد والتحديث ، أولاً لترويج ما هو متوفر في مستودعات المنتجين ، وثانياً لتوفير الراحة وسهولة الاستعمال ، أو البذخ والتفاخر والتعالي] .

رَأَيْتُ أَزْوَاجَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ فَقِيْرَاتٍ مَقْتُوْرًا عَلَيْهِنَّ ٱلرِّزْقُ ، غَيْرَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُنَّ تَعِيْشُ بِمَعَانِيْ قَلْبِهَا ٱلْمُؤْمِنِ ٱلْقَوِيِّ ، فِيْ دَارٍ صَغِيْرَةٍ فَرَشَتْهَا ٱلْأَرْضُ . . . وَلَـٰكِنَّهَا مِنْ مَعَانِيْ ذَلِكَ ٱلْقَلْبِ كَأَنَّهَا سَمَاءٌ صَغِيْرَةٌ مُخْتَبِئَةٌ بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُدْرَانٍ . إِنَّهُنَّ لَمْ يَبْتَعِدْنَ عَنِ ٱلْغِنَىٰ إِلَّا لِيَبْعُدْنَ عَنْ حَمَاقَةِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِيْ لَا تَكُوْنُ إِلَّا فِيْ ٱلْغِنَىٰ .

* * *

أُفٍّ أُفٍّ ! أَتُرِيْدُوْنَ أَنْ أُزَوِّجَ ٱبْنَتِيْ مِنِ ٱبْنِ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ فَيُخْزِيَهَا ٱللهُ عَلَىٰ يَدَيَّ ، وَأَدْفَعُهَا إِلَىٰ ٱلْقَصْرِ وَهُوَ ذَلِكَ ٱلْمَكَانُ ٱلَّذِيْ جَمَعَ كُلَّ أَقْذَارِ ٱلنَّفْسِ وَدَنَسِ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِيْ ؛ أَأُزَوِّجُهَا رَجُلًا تَعْرِفُ مِنْ فَضِيْلَةِ نَفْسِهَا سُقُوْطَ نَفْسِهِ ، فَتَكُوْنَ زَوْجَةَ جِسْمِهِ وَمُطَلَّقَةَ رُوْحِهِ فِيْ وَقْتٍ مَعًا ؟

أَلَا كَمْ مِنْ قَصْرٍ هُوَ فِيْ مَعْنَاهُ مَقْبَرَةٌ ، لَيْسَ فِيْهَا مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَغْنِيَاءِ رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ إِلَّا جِيَفٌ يُبْلِيْ بَعْضُهَا بَعْضًا !

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِيْ : وَضَجَّ ٱلنَّاسُ لِحَمَامَةٍ صَغِيْرَةٍ قَدْ جَنَحَتْ مِنَ ٱلْهَوَاءِ ، فَوَقَعَتْ فِيْ حِجْرِ ٱلشَّيْخِ لَائِذَةً بِهِ مِنْ مَخَافَةٍ ، وَجَعَلَتْ تَدِفُّ بِجَنَاحَيْهَا وَتَضْطَرِبُ مِنَ ٱلْفَزَعِ ، وَمَرَّ ٱلصَّقْرُ عَلَىٰ أَثَرِهَا وَقَدْ أَهْوَىٰ لَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ تَمَطَّرَ وَمَرَقَ فِيْ ٱلْهَوَاءِ إِذْ رَأَىٰ ٱلنَّاسَ . . .

وَتَنَاوَلَهَا ٱلْإِمَامُ فِيْ يَدِهِ وَهِيَ فِيْ رَجْفَتِهَا مِنْ زَلْزَلَةِ ٱلْهَوَاءِ ، وَكَانَتْ كَٱلْعَرُوْسِ مُسَرْوَلَةً قَدْ غَابَتْ سَاقَاهَا فِيْ ٱلرِّيْشِ ، وَعَلَىٰ جِسْمِهَا مِنَ ٱلْأَلْوَانِ نَمْنَمَةٌ وَتَحْبِيْرٌ ، وَلَهَا رُوْحُ ٱلْعَرُوْسِ ٱلشَّابَّةِ يُهْدُوْنَهَا إِلَىٰ مَنْ تَكْرَهُ ، وَيَزُفُّوْنَهَا عَلَىٰ قَاتِلِهَا ٱلَّذِيْ يُسَمَّىٰ زَوْجَهَا .

وَأَدْنَاهَا ٱلشَّيْخُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَمَسَحَ عَلَيْهَا بِيَدِهِ ، وَنَظَرَ فِيْ ٱلْهَوَاءِ نَظْرَةً . . . وَهُوَ يَقُوْلُ : نَجَوْتِ نَجَوْتِ يَا مِسْكِيْنَةُ !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

زَوْجَةُ إِمَامٍ(*)

جَلَسَ جَمَاعَةُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ شَيْخِهِمُ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ[1] لِيَسْمَعُوا مِنْهُ الْحَدِيثَ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ ؛ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : هَلُمُّوا نَتَحَدَّثْ عَنِ الشَّيْخِ فَنَكُونَ مَعَهُ وَلَيْسَ مَعَنَا ؛ فَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا وَلَسْنَا مَعَهُ . ! فَخَطَرَتِ ابْتِسَامَةٌ ضَعِيفَةٌ تَهْتَزُّ عَلَىٰ أَفْوَاهِ الْجَمَاعَةِ ، لَمْ تَبْلُغِ الضَّحِكَ ، وَمَرَّتْ لَمْ تُسْمَعْ ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تُرَ ، وَانْطَلَقَتْ مِنَ الْمُبَاحِ الْمَعْفُوِّ عَنْهُ . وَلَكِنْ أَكْبَرَهَا أَبُو عَتَّابٍ مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ ، فَقَالَ : وَيْلَكَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! أَتَتَنَدَّرُ بِالشَّيْخِ وَهُوَ مُنْذُ السِّتِّينَ سَنَةً لَمْ تَفُتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ فِي هَٰذَا الْمَسْجِدِ ، وَعَلَىٰ أَنَّهُ مُحَدِّثُ الْكُوفَةِ وَعَالِمُهَا ، وَأَقْرَأُ النَّاسِ لِكِتَابِ اللهِ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْفَرَائِضِ ، وَمَا عَرَفَتِ الْكُوفَةُ أَعْبَدَ مِنْهُ وَلَا أَفْقَهَ فِي الْعِبَادَةِ ؟

فَقَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ جُحَادَةَ[2] : أَنْتَ يَا أَبَا عَتَّابٍ ، رَجُلٌ وَحْدَكَ ، تُوَاصِلُ الصَّوْمَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَقَدْ يَبِسْتَ عَلَى الدَّهْرِ ، وَأَصْبَحَ الدَّهْرُ جَائِعًا مِنْكَ ، وَمَا بَرِحْتَ تَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، كَأَنَّمَا اطَّلَعْتَ عَلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَتَوَاقَعُونَ فِيهَا وَهِيَ لَهَبٌ أَحْمَرُ يَلْتَفُّ عَلَىٰ لَهَبٍ أَحْمَرَ ، تَحْتَ دُخَانٍ أَسْوَدَ يَتَضَرَّبُ فِي دُخَانٍ أَسْوَدَ ؛ يَتَغَامَسُ الْإِنْسَانُ فِيهَا وَهِيَ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا كَالذُّبَابَةِ أَوْقَدُوا لَهَا جَبَلًا مُمْتَدًّا مِنَ النَّارِ ، يَنْطَادُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَقَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَهُمَا جَمْرًا وَشُعَلًا وَحُمَمًا وَدُخَانًا ، حَتَّىٰ لَتَتَهَارَبُ السُّحُبُ فِي أَعْلَى السَّمَاءِ مِنْ حَرِّهِ ، وَهُوَ عَلَىٰ هَوْلِهِ وَجَسَامَتِهِ لِحَرْقِ ذُبَابَةٍ لَا غَيْرِهَا ، بَيْدَ أَنَّهَا ذُبَابَةٌ تُحْرَقُ أَبَدًا وَلَا تَمُوتُ أَبَدًا ، فَلَا تَزَالُ وَلَا يَزَالُ الْجَبَلُ !

فَصَاحَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : وَيْحَكَ يَا مُحَمَّدُ ! دَعِ الرَّجُلَ وَشَأْنَهُ ؛ إِنَّ لِلهِ عِبَادًا مَتَاعُهُمْ

(*) «الرسالة» العدد : ٨٥ ، ١٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٨ فبراير/شباط ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات ٢٤٣ ـ ٢٤٧ .

(١) وُلِدَ هَٰذَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ سَنَةَ ٦١ لِلْهِجْرَةِ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١٤٨ .

(٢) الْجُحَادَةُ هِيَ الْغِرَارَةُ الْمُمْتَلِئَةُ ، فَكَانَتْ أُمُّهُ تُشَبِّهُهُ بِهَا لِضَخَامَتِهَا .

مِمَّا لَا نَعْرِفُ ، كَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فِي النَّوْمِ ، فَحَيَاتُهُمْ مِنْ وَرَاءِ حَيَاتِنَا ، وَأَبُو عَتَّابٍ فِي دُنْيَانَا هَٰذِهِ لَيْسَ هُوَ الرَّجُلَ الَّذِي اسْمُهُ مَنْصُورٌ ، وَلَٰكِنَّهُ الْعَمَلُ الَّذِي يَعْمَلُهُ مَنْصُورٌ . هَلْ أَتَاكُمْ خَبَرُ قَارِئِ الْمَدِينَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الزَّاهِدِ؟

قَالَ الْجَمَاعَةُ : مَا خَبَرُهُ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ؟

قَالَ : لَقَدْ تُوُفِّيَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَرُئِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَىٰ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ ؛ وَسَتَرَوْنَ أَبَا عَتَّابٍ ـ إِذَا مَاتَ ـ عَلَىٰ مَنَارَةِ هَٰذَا الْمَسْجِدِ !

فَصَاحَ أَبُو عَتَّابٍ : تَخَلَّلْ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ؛ أَمَا حَفِظْتَ خَبَرَ ابْنِ مَسْعُودٍ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ رَجُلٌ ، فَوَقَعَ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « تَخَلَّلْ » قَالَ : مِمَّ أَتَخَلَّلُ ؟ مَا أَكَلْتُ لَحْمًا ؟ قَالَ : « إِنَّكَ أَكَلْتَ لَحْمَ أَخِيكَ ! » . [« مجمع الزوائد » ، رقم : ١٣١٤٥] .

فَتَقَلْقَلَ الضَّرِيرُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَتَنَحْنَحَ ، وَهَمْهَمَ أَصْوَاتًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، وَأَحَسَّ الْجَمَاعَةُ شَأْنَهُ ، وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّ لَهُ شَرًّا مُبْصِرًا ، كَالَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ الْمَزْحِ وَالدُّعَابَةِ ، وَشَرًّا أَعْمَىٰ هَٰذِهِ بَوَادِرُهُ ؛ فَاسْتَلَبَ ابْنُ جُحَادَةَ الْحَدِيثَ مِمَّا بَيْنَهُمَا ، وَقَالَ : يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! أَنْتَ شَيْخُنَا وَبَرَكَتُنَا وَحَافِظُنَا ، وَأَقْرَبُنَا إِلَى الْإِمَامِ ، وَأَمَسُّنَا بِهِ ؛ فَحَدِّثْنَا حَدِيثَ الشَّيْخِ كَيْفَ صَنَعَ فِي رَدِّهِ عَلَىٰ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ[1] ، وَمَا كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّيْخِ فِي ذَٰلِكَ ؛ فَإِنَّ هَٰذَا مِمَّا انْفَرَدْتَ أَنْتَ بِهِ دُونَ النَّاسِ جَمِيعًا ، إِذْ لَمْ يَسْمَعْهُ غَيْرُ أُذُنَيْكَ ، فَلَمْ يَحْفَظْهُ غَيْرُكَ وَغَيْرُ الْمَلَائِكَةِ .

فَاسْفَرَّ وَجْهُ أَبِي مُعَاوِيَةَ ، وَسُرِّيَ عَنْهُ ، وَاهْتَزَّ عِطْفَاهُ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِعَفْوِ الْقَادِرِ . . . وَأَنْشَأَ يُحَدِّثُهُمْ . قَالَ :

إِنَّ هِشَامًا ـ قَاتَلَهُ اللهُ ـ بَعَثَ إِلَى الشَّيْخِ : أَنِ اكْتُبْ لِي مَنَاقِبَ عُثْمَانَ وَمَسَاوِئَ عَلِيٍّ . فَلَمَّا قَرَأَ كِتَابَهُ كَانَتْ دَاجِنَةٌ إِلَىٰ جَانِبِهِ ، فَأَخَذَ الْقِرْطَاسَ وَأَلْقَمَهُ الشَّاةَ ، فَلَاكَتْهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ فِي جَوْفِهَا ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ الْخَلِيفَةِ : قُلْ لَهُ : هَٰذَا جَوَابُكَ ! فَخَشِيَ الرَّسُولُ أَنْ يَرْجِعَ

(١) بُويِعَ هِشَامٌ سَنَةَ ١٠٥ لِلْهِجْرَةِ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١٢٥ .

خَائِبًا فَيَقْتُلَهُ هِشَامٌ ، فَمَا زَالَ يَتَحَمَّلُ بِنَا ، فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! نَجِّهِ مِنَ ٱلْقَتْلِ . فَلَمَّا أَلْحَحْنَا عَلَيْهِ كَتَبَ : « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ . أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! فَلَوْ كَانَتْ لِعُثْمَانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مَنَاقِبُ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ مَا نَفَعَتْكَ ، وَلَوْ كَانَتْ لِعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مَسَاوِئُ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ مَا ضَرَّتْكَ ؛ فَعَلَيْكَ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِكَ ، وَٱلسَّلَامُ » .

فَلَمَّا فَصَلَ ٱلرَّسُولُ ، قَالَ لِيَ ٱلشَّيْخُ : إِنَّهُ كَانَ فِي خُرَاسَانَ مُحَدِّثٌ ٱسْمُهُ ٱلضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ ٱلْهِلَالِيُّ وَكَانَ فَقِيهَ مَكْتَبٍ عَظِيمٍ فِيهِ ثَلَاثَةُ آلَافِ صَبِيٍّ يَتَعَلَّمُونَ ؛ فَكَانَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ إِذَا تَعِبَ رَكِبَ حِمَارًا وَدَارَ بِهِ فِي ٱلْمَكْتَبِ عَلَيْهِمْ ، فَيَكُونُ إِقْبَالُ ٱلْحِمَارِ عَلَى ٱلصَّبِيِّ هَمًّا وَإِدْبَارُهُ عَنْهُ سُرُورًا . وَمَا أَرَى ٱلشَّيْطَانَ إِلَّا قَدْ تَعِبَ فِي مَكْتَبِهِ وَأَعْيَا ، فَرَكِبَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . لِيَدُورَ عَلَيْنَا نَحْنُ يَسْأَلُنَا : مَاذَا حَفِظْنَا مِنْ مَسَاوِئِ عَلِيٍّ ؟

قُلْتُ : فَلِمَاذَا أَلْقَمْتَ كِتَابَهُ ٱلشَّاةَ ؟ وَلَوْ غَسَلْتَهُ أَوْ أَحْرَقْتَهُ كَانَ أَفْهَمَ لَهُ وَكَانَ هَـٰذَا أَشْبَهَ بِكَ .

فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا أَبْلَهُ ! لَقَدْ شَابَتِ ٱلْبَلَاهَةُ فِي عَارِضَيْكَ ؛ إِنَّ هِشَامًا سَيَتَقَطَّعُ مِنْهَا غَيْظًا ، فَمَا يُخْفِي عَنْهُ رَسُولُهُ أَنِّي أَطْعَمْتُ كِتَابَهُ ٱلشَّاةَ ، وَمَا يُخْفِي عَنْهُ دَهَاؤُهُ أَنَّ ٱلشَّاةَ سَتَبْعَرُهُ مِنْ بَعْدُ . . . !

قُلْتُ : أَفَلَا تَخْشَى أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟

قَالَ : وَيْحَكَ ! هَـٰذَا ٱلْأَحْوَلُ عِنْدَكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ أَبِمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنْ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ؟ فَهَبْهَا وَلَدَتْهُ مِنْ حَائِكٍ أَوْ حَجَّامٍ ! إِنَّ إِمَارَةَ ٱلْمُؤْمِنِينَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، هِيَ ٱرْتِفَاعُ نَفْسٍ مِنَ ٱلنُّفُوسِ ٱلْعَظِيمَةِ إِلَى أَثَرِ ٱلنُّبُوَّةِ ؛ كَأَنَّ ٱلْقُرْآنَ عَرَضَ ٱلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا ثُمَّ رَضِيَ مِنْهُمْ رَجُلًا لِلزَّمَنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَمَتَى أُصِيبَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ ٱلْقُرْآنِيُّ ، فَذَاكَ وَارِثُ ٱلنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ وَخَلِيفَتُهُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، لَا مِنْ إِمَارَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلتَّرَفِ ، بَلْ مِنْ إِمَارَةِ ٱلشَّرْعِ وَٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْعَمَلِ وَٱلسِّيَاسَةِ .

هَـٰذَا ٱلْأَحْوَلُ ٱلَّذِي ٱلْتَفَّ كَدُودَةِ ٱلْحَرِيرِ فِي ٱلْحَرِيرِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى ٱلْخَيْلِ لَا لِلْجِهَادِ وَٱلْحَرْبِ ، وَلَـٰكِنْ لِلَّهْوِ وَٱلْحَلْبَةِ ، حَتَّى ٱجْتَمَعَ لَهُ مِنْ جِيَادِ ٱلْخَيْلِ أَرْبَعَةُ آلَافِ فَرَسٍ لَمْ

يَجْتَمِعْ مِثْلُهَا لِأَحَدٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَعَمِلَ ٱلْخَزَّ وَقُطُفَ ٱلْخَزِّ ، وَٱسْتَجَادَ ٱلْفُرُشَ وَٱلْكُسْوَةَ ، وَبَالَغَ فِي ذَٰلِكَ وَأَنْفَقَ فِيهِ ٱلنَّفَقَاتِ ٱلْوَاسِعَةَ ، وَأَفْسَدَ ٱلرُّجُولَةَ بِٱلنَّعِيمِ وَٱلتَّرَفِ ، حَتَّى سَلَكَ ٱلنَّاسُ فِي ذَٰلِكَ سُنَّتَهُ ، فَأَقْبَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَلَى لَهْوِ أَنْفُسِهِمْ ، وَصَنَعُوا ٱلْخَيْرَ صَنْعَةً جَدِيدَةً بِصَرْفِهِ إِلَى حُظُوظِهِمْ ، وَتَرَكُوا ٱلشَّرَّ عَلَى مَا هُوَ فِي ٱلنَّاسِ ، فَزَادُوا ٱلشَّرَّ وَأَفْسَدُوا ٱلْخَيْرَ ، وَلَمْ يَعُدِ ٱلْفُقَرَاءُ وَٱلْمَسَاكِينُ عِنْدَهُمْ هُمُ ٱلْفُقَرَاءَ وَٱلْمَسَاكِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ ، بَلْ بُطُونُهُمْ وَشَهَوَاتُهُمْ . . . ! وَلَقَدْ كَانَ ٱلرَّجُلُ مِنْ أَغْنِيَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ يَقْتَصِدُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ لِيَسَعَ بِبِرِّهِ مِئَةً أَوْ مِئَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ إِخْوَانِهِ وَذَوِي حَاجَتِهِ ، فَعَادَ هَـٰذَا ٱلْغَنِيُّ يَتَّسِعُ لِنَفْسِهِ ثُمَّ يَتَّسِعُ ، حَتَّى لَا يَكْفِيَهُ أَنْ يَأْكُلَ رِزْقَهُ مِئَةً أَوْ مِئَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ !

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْإِسْلَامَ يَجْعَلُ أَحْسَنَ ٱلْمَسَرَّاتِ أَحْسَنَهَا فِي بَذْلِهَا لِلْمُحْتَاجِينَ ، لَا فِي أَخْذِهَا وَٱلِاسْتِئْثَارِ بِهَا ، فَهِيَ لَا تَضِيعُ عَلَى صَاحِبِهَا إِلَّا لِتَكُونَ لَهُ عِنْدَ ٱللهِ ، وَكَأَنَّ ٱلْفَقْرَ وَٱلْحَاجَةَ وَٱلْمَسْكَنَةَ وَٱلْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ـ كَأَنَّ هَـٰذِهِ أَرَضُونَ يُغْرَسُ فِيهَا ٱلذَّهَبُ وَٱلْفِضَّةُ غَرْسًا لَا يُؤْتِي ثَمَرَهُ إِلَّا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِي يَنْقَلِبُ فِيهِ أَغْنَى ٱلْأَغْنِيَاءِ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، وَإِنَّهُ لَأَفْقَرُ ٱلنَّاسِ إِلَى دِرْهَمٍ مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ وَإِلَى مَا دُونَ ٱلدِّرْهَمِ ؛ فَيُقَالُ لَهُ حِينَئِذٍ : خُذْ مِنْ ثِمَارِ عَمَلِكَ ، وَخُذْ مِلْءَ يَدَيْكَ !

وَٱلسُّلْطَانُ فِي ٱلْإِسْلَامِ هُوَ ٱلشَّرْعُ مَرْئِيًّا يُتَابِعُهُ ٱلنَّاسُ ، مُتَكَلِّمًا يَفْهَمُهُ ٱلنَّاسُ ، آمِرًا نَاهِيًا يُطِيعُهُ ٱلنَّاسُ . وَلَقَدْ رَأَى ٱلْمُسْلِمُونَ هَـٰذَا ٱلْأَحْوَلَ ، وَتَابَعُوهُ وَسَمِعُوا لَهُ وَأَطَاعُوا ؛ فَمَنَعُوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، فَٱنْقَطَعَ ٱلرِّفْدُ ، وَقَلَّ ٱلْخَيْرُ ، وَشَحَّتِ ٱلْأَنْفُسُ ، وَأَصْبَحَ خَيْرُهُمْ خَيْرَهُمْ لِبَطْنِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، وَصَارَ ٱلزَّمَانُ أَشْبَهَ بِنَاسِهِ ، وَٱلنَّاسُ أَشْبَهَ بِمَلِكِهِمْ ، وَمَلِكُهُمْ فِي شَهَوَاتِهِ « فَقِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ » لَا أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ !

إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْإِمَارَةَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، إِنَّمَا تَكُونُ فِي قُرْبِ ٱلشَّبَهِ بَيْنَ ٱلنَّبِيِّ وَمَنْ يَخْتَارُهُ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِلْبَيْعَةِ . وَلِلنَّبِيِّ جِهَتَانِ : إِحْدَاهُمَا إِلَى رَبِّهِ ، وَهَـٰذِهِ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ أَنْ يَبْلُغَ مَبْلَغَهُ فِيهَا ؛ وَٱلْأُخْرَى إِلَى ٱلنَّاسِ ، وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُقَاسُ عَلَيْهَا . وَهِيَ كُلُّهَا رِفْقٌ وَرَحْمَةٌ وَعَمَلٌ ، وَتَدْبِيرٌ وَحِيَاطَةٌ وَقُوَّةٌ ، إِلَى غَيْرِهَا مِمَّا يَقُومُ بِهِ أَمْرُ ٱلنَّاسِ ؛ وَهِيَ حُقُوقٌ وَتَبِعَاتٌ ثَقِيلَةٌ تَنْصَرِفُ بِصَاحِبِهَا عَنْ حَظِّ نَفْسِهِ ، وَبِهَـٰذَا ٱلِانْصِرَافِ تَجْذِبُ ٱلنَّاسَ إِلَى صَاحِبِهَا .

فَإِمَارَةُ ٱلْمُؤْمِنِينَ هِيَ بَقَاءُ مَادَّةِ ٱلنُّورِ ٱلنَّبَوِيِّ فِي ٱلْمِصْبَاحِ ٱلَّذِي يُضِيءُ لِلْإِسْلَامِ ، بِإِمْدَادِهِ بِٱلْقَدْرِ بَعْدَ ٱلْقَدْرِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْمُضِيئَةِ . فَإِنْ صَلُحَ ٱلتُّرَابُ أَوِ ٱلْمَاءُ مَكَانَ ٱلزَّيْتِ فِي ٱلاسْتِضَاءَةِ ، صَلُحَ هِشَامٌ وَأَمْثَالُهُ لِإِمَارَةِ ٱلْمُؤْمِنِينَ !

وَيْلٌ لِلْمُسْلِمِينَ فِي حِينٍ يَنْظُرُونَ فَيَجِدُونَ ٱلسُّلْطَانَ عَلَيْهِمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلنَّبِيِّ مِثْلُ مَا بَيْنَ دِينَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُسْلِمِينَ ! وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُسْلِمِينَ !

* * *

فَلَمَّا أَتَمَّ ٱلضَّرِيرُ حَدِيثَهُ قَالَ ٱبْنُ جُحَادَةَ : إِنَّ شَيْخَنَا عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْجِدِّ لِيَمْزَحُ ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ غَيْرَ حَدِيثِ أَبِي مُعَاوِيَةَ ، فَقَدْ رَأَيْتُ ٱلدُّنْيَا كَأَنَّمَا عَرَفَتِ ٱلشَّيْخَ وَوَقَفَتْ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ فَقَالَتْ لَهُ : ٱضْحَكْ مِنِّي وَمِنْ أَهْلِي . وَلَـٰكِنَّ وَقَارَهُ وَدِينَهُ ٱرْتَفَعَا بِهِ أَنْ يَضْحَكَ بِفَمِهِ ضَحِكَ ٱلْجُهَلَاءِ وَٱلْفَارِغِينَ ، فَضَحِكَ بِٱلْكَلِمَةِ بَعْدَ ٱلْكَلِمَةِ مِنْ نَوَادِرِهِ .

لَقَدْ كُنْتُ عِنْدَهُ فِي مَرْضَتِهِ ، فَعَادَهُ أَبُو حَنِيفَةَ صَاحِبُ ٱلرَّأْيِ ، وَهُوَ جَبَلُ عِلْمٍ شَامِخٌ ، فَطَوَّلَ ٱلْقُعُودَ مِمَّا يُحِبُّهُ وَيَأْنَسُ بِهِ ، إِذْ كَانَتِ ٱلْأَرْوَاحُ لَا تَعْرِفُ مَعَ أَحْبَابِهَا زَمَنًا يَطُولُ أَوْ يَقْصُرُ . فَلَمَّا أَرَادَ ٱلْقِيَامَ قَالَ لَهُ : مَا كَأَنِّي إِلَّا ثَقُلْتُ عَلَيْكَ . فَقَالَ ٱلشَّيْخُ : إِنَّكَ لَثَقِيلٌ عَلَيَّ وَأَنْتَ فِي بَيْتِكَ . . . ! وَضَحِكَ أَبُو حَنِيفَةَ كَأَنَّهُ طِفْلٌ يُلَاغِيهِ أَبُوهُ بِكَلِمَةٍ لَيْسَ فِيهَا مَعْنَاهَا ، أَوْ أَبٌ دَاعَبَهُ طِفْلُهُ بِكَلِمَةٍ فِيهَا غَيْرُ مَعْنَاهَا .

وَجَاءَهُ فِي ٱلْغَدَاةِ قَوْمٌ يَعُودُونَهُ ، فَلَمَّا أَطَالُوا ٱلْجُلُوسَ عِنْدَهُ أَخَذَ ٱلشَّيْخُ وِسَادَتَهُ وَقَامَ مُنْصَرِفًا ، وَقَالَ لَهُمْ : قَدْ شَفَى ٱللهُ مَرِيضَكُمْ . . . !

فَقَالَ ٱلضَّرِيرُ : تِلْكَ رَوْحَةٌ مِنْ هَوَاءِ دُنْبَاوَنْدَ[1] ، فَإِنَّ أَبَا ٱلشَّيْخِ كَانَ مِنْ تِلْكَ ٱلْجِبَالِ ، وَقَدِمَ إِلَى ٱلْكُوفَةِ وَأُمُّهُ حَامِلٌ ؛ فَوُلِدَ هُنَا ؛ فَكَأَنَّ فِي دَمِهِ ذَلِكَ ٱلنَّسِيمَ تَهُبُّ مِنْهُ ٱلنَّفْحَةُ بَعْدَ ٱلنَّفْحَةِ فِي مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْمُتَنَسِّمَةِ ؛ ثُمَّ هِيَ رُوحُهُ ٱلظَّرِيفَةُ ٱلطَّيِّبَةُ تَلْمِسُ بَعْضَ كَلَامِهِ أَحْيَانًا ، كَمَا تَلْمِسُ رُوحُ ٱلشَّاعِرِ بَعْضَ كَلَامِ ٱلشَّاعِرِ ؛ وَمَا رَأَيْتُ أَدَقَّ ٱلنَّوَادِرِ ٱلسَّاخِرَةِ وَأَبْلَغَهَا وَأَعْجَبَهَا يَجِيءُ إِلَّا مِنْ ذَوِي ٱلْأَرْوَاحِ ٱلشَّاعِرَةِ ٱلْكَبِيرَةِ ٱلْبَعِيدَةِ ٱلْغَوْرِ ، كَأَنَّمَا تَأْتِي

(١) نَاحِيَةٌ مِنْ رُسْتَاقِ ٱلرَّيِّ فِي ٱلْجِبَالِ ٱلثَّلْجِيَّةِ ، وَهِيَ مِنْ بِلَادِ ٱلْعَجَمِ .

ٱلنَّادِرَةُ مِنْ رُؤْيَةِ ٱلنَّفْسِ حَقِيقَتَيْنِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ . وَٱلْإِمَامُ فِي ذَلِكَ لَا يَسْخَرُ مِنْ أَحَدٍ ، إِلَّا إِذَا كَانَتِ ٱلْأَرْضُ حِينَ تُخْرِجُ ٱلثَّمَرَةَ ٱلْحُلْوَةَ تَسْخَرُ بِهَا مِنَ ٱلثَّمَرَةِ ٱلْمُرَّةِ .

وَٱلْعَجِيبُ أَنَّ ٱلنَّادِرَةَ ٱلْبَارِعَةَ ٱلَّتِي لَا تَتَّفِقُ إِلَّا لِأَقْوَى ٱلْأَرْوَاحِ ، يَتَّفِقُ مِثْلُهَا لِأَضْعَفِ ٱلْأَرْوَاحِ ؛ كَأَنَّهَا تَسْخَرُ مِنَ ٱلنَّاسِ كَمَا يَسْخَرُونَ بِهَا . فَهَـٰذَا أَبُو حَسَنٍ مُعَلِّمُ ٱلْكُتَّابِ ، جَاءَهُ غُلَامَانِ مِنْ صِبْيَتِهِ قَدْ تَعَلَّقَ أَحَدُهُمَا بِٱلآخَرِ ؛ فَقَالَ : يَا مُعَلِّمُ ! هَـٰذَا عَضَّ أُذُنِيَ . فَقَالَ ٱلآخَرُ : مَا عَضَضْتُهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ عَضَّ أُذُنَ نَفْسِهِ . . . فَقَالَ ٱلْمُعَلِّمُ : وَتَمْكُرُ بِي أَيْضًا يَا ٱبْنَ ٱلْخَبِيثَةِ ؟ أَهُوَ جَمَلٌ طَوِيلُ ٱلْعُنُقِ حَتَّىٰ يَنَالَ أُذُنَ نَفْسِهِ فَيَعُضَّهَا . . . !

* * *

وَطَلَعَ ٱلشَّيْخُ عَلَيْهِمْ وَكَأَنَّمَا قَرَأَ نَفْسَ أَبِي مُعَاوِيَةَ فِي وَجْهِهِ ٱلْمُتَفَتِّحِ . وَمِنْ عَجَائِبِ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَلْمَحُ فِي عَيْنَيِ ٱلْمُبْصِرِ مِنْ خَوَالِجِ نَفْسِهِ ، يَلْمَحُ عَلَىٰ وَجْهِ ٱلضَّرِيرِ مُكَبَّرًا مُجَسَّمًا . وَكَانَ ٱلشَّيْخُ لَا يَأْنَسُ بِأَحَدٍ أُنْسَهُ بِأَبِي مُعَاوِيَةَ ، لِذَكَائِهِ وَحِفْظِهِ وَضَبْطِهِ ، وَلِمُشَاكَلَةِ ٱلظَّرْفِ ٱلرُّوحِيِّ بَيْنَهُمَا ؛ فَقَالَ لَهُ :

- « فِيمَ كَانَ أَبُو مُعَاوِيَةَ ؟» .
- « كَانَ أَبُو مُعَاوِيَةَ فِي ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ !» .
- « وَمَا ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ ؟» .
- « هُوَ مَا تَسْأَلُ عَنْهُ !» .
- « فَأَجِبْنِي عَمَّا أَسْأَلُ عَنْهُ » .
- « قَدْ أَجَبْتُكَ !» .
- « بِمَاذَا أَجَبْتَ ؟» .
- « بِمَا سَمِعْتَ !» .

فَقَبَّضَ وَجْهُ ٱلشَّيْخِ وَقَالَ : « أَهَـٰهُنَا وَهُنَاكَ مَعًا ؟ لَوْ أَنَّ هَـٰذَا مِنَ ٱمْرَأَةٍ غَضْبَىٰ عَلَىٰ زَوْجِهَا لَكَانَ لَهُ مَعْنًىٰ ، بَلْ لَا مَعْنَىٰ لَهُ وَلَا مِنَ ٱمْرَأَةٍ غَضْبَىٰ عَلَىٰ زَوْجِهَا . أَحْسَبُ لَوْلَا أَنَّ فِي مَنْزِلِي مَنْ هُوَ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْكُمْ مَا خَرَجْتُ ؟» .

فَقَالَ ٱلضَّرِيرُ : « يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! كَأَنَّنَا زَوْجَاتُ ٱلْعِلْمِ ؛ فَأَيَّتُنَا ٱلَّتِي حَظِيَتْ وَبَظِيَتْ . . . » .

فَغَطَّى ٱلْجَمَاعَةُ أَفْوَاهَهُمْ يَضْحَكُونَ ، وَتَبَسَّمَ ٱلشَّيْخُ ، ثُمَّ شَرَعَ يُحَدِّثُ فَأَفْضَى مِنْ خَبَرٍ إِلَىٰ خَبَرٍ ، وَتَسَرَّحَ فِي ٱلرِّوَايَةِ حَتَّىٰ مَرَّ بِهِ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثُ :

عَنْ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ هَلَاكَ ٱلرِّجَالِ طَاعَتُهُمْ لِنِسَائِهِمْ » . [راجع « مسند أحمد » ، رقم : ١٩٩٤٢] .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : كَانَ ٱلْحَدِيثُ بِهَـٰذَا ٱللَّفْظِ ، وَلَمْ يَقُلِ ٱلنَّبِيُّ ﷺ : « هَلَاكُ ٱلرَّجُلِ طَاعَتُهُ لِٱمْرَأَتِهِ » ؛ فَإِنَّ هَـٰذَا لَا يَسْتَقِيمُ ؛ إِذْ يَكُونُ بَعْضُ ٱلنِّسَاءِ أَحْيَانًا أَكْمَلَ مِنْ بَعْضِ ٱلرِّجَالِ ، وَأَوْفَرَ عَقْلًا وَأَسَدَّ رَأْيًا ، وَقَدْ تَكُونُ ٱلْمَرْأَةُ هِيَ ٱلرَّجُلَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ عَزْمًا وَتَدْبِيرًا وَقُوَّةَ نَفْسٍ ، وَيَتَلَيَّنُ ٱلرَّجُلُ مَعَهَا كَأَنَّهُ ٱمْرَأَةٌ . وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنِّسَاءِ يَكُنَّ نِسَاءً بِٱلْحِلْيَةِ وَٱلشَّكْلِ دُونَ مَا وَرَاءَهُمَا ؛ كَأَنَّمَا هُيِّئْنَ رِجَالًا فِي ٱلْأَصْلِ ثُمَّ خُلِقْنَ نِسَاءً بَعْدُ ، لِإِحْدَاثِ مَا يُرِيدُ ٱللهُ أَنْ يُحْدِثَ بِهِنَّ ، مِمَّا يَكُونُ فِي مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْعَجِيبَةِ عَمَلًا ذَا حَقِيقَتَيْنِ فِي ٱلْخَيْرِ أَوِ ٱلشَّرِّ .

وَإِنَّمَا عَمَّ ٱلْحَدِيثُ لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا أَنْ تَسْتَقِيمَ أُمُورُ ٱلتَّدْبِيرِ بِٱلرِّجَالِ ؛ فَإِنَّ ٱلْبَأْسَ وَٱلْعَقْلَ يَكُونَانِ فِيهِمْ خِلْقَةً وَطَبِيعَةً أَكْثَرَ مِمَّا يَكُونَانِ فِي ٱلنِّسَاءِ ؛ كَمَا أَنَّ ٱلرِّقَّةَ وَٱلرَّحْمَةَ فِي خِلْقَةِ ٱلنِّسَاءِ وَطَبِيعَتِهِنَّ أَكْثَرُ مِمَّا هُمَا فِي ٱلرِّجَالِ ، فَإِذَا غَلَبَتْ طَاعَةُ ٱلنِّسَاءِ فِي أُمَّةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ ، فَتِلْكَ حَيَاةٌ مَعْنَاهَا هَلَاكُ ٱلرِّجَالِ ، وَلَيْسَ ٱلْمُرَادُ هَلَاكَ أَنْفُسِهِمْ ، بَلْ هَلَاكَ مَا هُمْ رِجَالٌ بِهِ ، وَٱلْحَدِيدُ حَدِيدٌ بِقُوَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ ، وَٱلْحَجَرُ حَجَرٌ بِشِدَّتِهِ وَٱجْتِمَاعِهِ ؛ فَإِنْ ذَابَ ٱلْأَوَّلُ أَوْ تَفَلَّلَ ، وَتَنَاثَرَ ٱلْآخَرُ أَوْ تَفَتَّتَ ، فَذَاكَ هَلَاكُهُمَا فِي ٱلْحَقِيقَةِ ، وَهُمَا بَعْدُ لَا يَزَالَانِ مِنَ ٱلْحَجَرِ وَٱلْحَدِيدِ .

وَٱلْمَرْأَةُ ضَعِيفَةٌ بِفِطْرَتِهَا وَتَرْكِيبِهَا ، وَهِيَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ تَأْبَىٰ أَنْ تَكُونَ ضَعِيفَةً أَوْ تُقِرَّ بِٱلضَّعْفِ ، إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ رَجُلَهَا ٱلْكَامِلَ ، رَجُلَهَا ٱلَّذِي يَكُونُ مَعَهَا بِقُوَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَفِتْنَتِهِ لَهَا وَحُبِّهَا إِيَّاهُ ، كَمَا يَكُونُ مِثَالٌ مَعَ مِثَالٍ . ضَعْ مِئَةَ دِينَارٍ بِجَانِبِ عَشَرَةِ دَنَانِيرَ ، ثُمَّ ٱتْرُكْ لِلْعَشَرَةِ أَنْ تَتَكَلَّمَ وَتَدَّعِيَ وَتَسْتَطِيلَ ؛ قَدْ تَقُولُ : إِنَّهَا أَكْثَرُ إِشْرَاقًا ، أَوْ أَظْرَفُ شَكْلًا ، أَوْ أَحْسَنُ وَضْعًا وَتَصْفِيفًا ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْمُحَرَّمَةَ هُنَا أَنْ تَزْعُمَ أَنَّهَا أَكْبَرُ قِيمَةً فِي ٱلسُّوقِ . . . !

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَمَنْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ تُصِيبُ رَجُلَهَا ٱلْكَامِلَ أَوِ ٱلْقَرِيبَ مِنْ كَمَالِهِ عِنْدَهَا ، أَيْ : كَمَالِ طَبِيعَتِهِ بِٱلْقِيَاسِ إِلَىٰ طَبِيعَتِهَا ، كَمَالِ جِسْمٍ مُفَصَّلٍ لِجِسْمٍ ، تَفْصِيلَ ٱلثَّوْبِ ٱلَّذِي يَلْبَسُهُ وَيَخْتَالُ فِيهِ ؟ أَمَا إِنَّ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱللهِ وَحْدَهُ ؛ كَمَا يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، يَبْسُطُ مِثْلَ ذَٰلِكَ لِلنِّسَاءِ فِي رِجَالِهِنَّ وَيَقْدِرُ .

فَإِذَا لَمْ تُصِبِ ٱلْمَرْأَةُ رَجُلَهَا ٱلْقَوِيَّ ـ وَهُوَ ٱلْأَعَمُّ ٱلْأَغْلَبُ ـ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ فِي حَقِيقَةِ ضَعْفِهَا ٱلْجَمِيلِ ، وَعَمِلَتْ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ ٱلرَّجُلُ هُوَ ٱلضَّعِيفُ ، لِتَكُونَ مَعَهُ فِي تَزْوِيرِ ٱلْقُوَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ حَيَاتِهِ ، وَبِهَـٰذَا تَخْرُجُ مِنْ حَيِّزِهَا ؛ وَمَا أَوَّلُ خُرُوجِ ٱلنِّسَاءِ إِلَى ٱلطُّرُقَاتِ إِلَّا هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ؛ فَإِنْ كَثُرَ خُرُوجُهُنَّ فِي ٱلطَّرِيقِ ، وَتَسَكُّعُهُنَّ هَـٰهُنَا وَهَـٰهُنَا ، فَإِنَّمَا تِلْكَ صُورَةٌ مِنْ فَسَادِ ٱلطَّبِيعَةِ فِيهِنَّ وَمِنْ إِمْلَاقِهَا أَيْضًا . .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَكَأَنَّ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ إِيمَاءً إِلَىٰ أَنَّ مِنْ بَعْضِ ٱلْحَقِّ عَلَى ٱلنِّسَاءِ أَنْ يَتَنَزَّلْنَ عَنْ بَعْضِ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي لَهُنَّ ، إِبْقَاءً عَلَىٰ نِظَامِ ٱلْأُمَّةِ ، وَتَيْسِيرًا لِلْحَيَاةِ فِي مَجْرَاهَا ؛ كَمَا يَتَنَزَّلُ ٱلرَّجُلُ عَنْ حَقِّهِ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا إِذَا حَارَبَ فِي سَبِيلِ أُمَّتِهِ ، إِبْقَاءً عَلَيْهَا وَتَيْسِيرًا لِحَيَاتِهَا فِي مَجْرَاهَا . فَصَبْرُ ٱلْمَرْأَةِ عَلَىٰ مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ هُوَ نَفْسُهُ جِهَادُهَا وَحَرْبُهَا فِي سَبِيلِ ٱلْأُمَّةِ ، وَلَهَا عَلَيْهِ مِنْ ثَوَابِ ٱللهِ مِثْلُ مَا لِلرَّجُلِ يُقْتَلُ أَوْ يُجْرَحُ فِي جِهَادِهِ .

أَلَا وَإِنَّ حَيَاةَ بَعْضِ ٱلنِّسَاءِ مَعَ بَعْضِ ٱلرِّجَالِ تَكُونُ أَحْيَانًا مِثْلَ ٱلْقَتْلِ ، أَوْ مِثْلَ ٱلْجَرْحِ ، وَقَدْ تَكُونُ مِثْلَ ٱلْمَوْتِ صَبْرًا عَلَى ٱلْعَذَابِ ! وَلِهَـٰذَا قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ لِمُزَوَّجَةٍ يَسْأَلُهَا عَنْ حَالِهَا وَطَاعَتِهَا وَصَبْرِهَا مَعَ رَجُلِهَا : « فَأَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ ؟ » قَالَتْ : مَا آلُوهُ إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ ! قَالَ : « فَكَيْفَ أَنْتِ لَهُ ؟ فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ » . [« المستدرك على الصحيحين » ، رقم : ٩٨/٢٧٦٩ ؛ « مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٦٣٧ ؛ وراجع « مسند أحمد » ، رقم : ١٨٥٢٤ و٢٦٨٠٦] .

آهِ ! آهِ ! حَتَّىٰ زَوَاجُ ٱلْمَرْأَةِ بِٱلرَّجُلِ هُوَ فِي مَعْنَاهُ مُرُورُ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمِسْكِينَةِ فِي دُنْيَا أُخْرَىٰ إِلَىٰ مَوْتٍ آخَرَ ، سَتُحَاسَبُ عِنْدَهُ بِٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ ، فَحِسَابُهَا عِنْدَ ٱللهِ نَوْعَانِ : مَاذَا صَنَعْتِ بِدُنْيَاكِ وَنَعِيمِهَا وَبُؤْسِهَا عَلَيْكِ ؛ ثُمَّ مَاذَا صَنَعْتِ بِزَوْجِكِ وَنَعِيمِهِ وَبُؤْسِهِ فِيكِ ؟

وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ ٱمْرَأَةً جَاءَتِ ٱلنَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ، إِنِّي وَافِدَةُ ٱلنِّسَاءِ إِلَيْكَ ، ثُمَّ ذَكَرَتْ مَا لِلرِّجَالِ فِي ٱلْجِهَادِ مِنَ ٱلْأَجْرِ وَٱلْغَنِيمَةِ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : فَمَا لَنَا مِنْ ذَٰلِكَ ؟

فَقَالَ ﷺ : « أَبْلِغِي مَنْ لَقِيتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ أَنَّ طَاعَةً لِلزَّوْجِ ، وَٱعْتِرَافًا بِحَقِّهِ ـ يَعْدِلُ ذَٰلِكَ ؛ وَقَلِيلٌ مِنكُنَّ مَنْ يَفْعَلُهُ !» . [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٦٣١ و٧٦٣٣] .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : تَأَمَّلُوا وَٱعْجَبُوا مِنْ حِكْمَةِ ٱلنُّبُوَّةِ وَدِقَّتِهَا وَبَلَاغَتِهَا ؛ أَيُقَالُ فِي ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُحِبَّةِ لِزَوْجِهَا ٱلْمُفْتَتِنَةِ بِهِ ٱلْمُعْجَبَةِ بِكَمَالِهِ : إِنَّهَا أَطَاعَتْهُ وَٱعْتَرَفَتْ بِحَقِّهِ ؟ أَوَلَيْسَ ذَٰلِكَ طَبِيعَةَ ٱلْحُبِّ إِذَا كَانَ حُبًّا ؟ فَلَمْ يَبْقَ إِذًا إِلَّا ٱلْمَعْنَى ٱلآخَرُ ، حِينَ لَا تُصِيبُ ٱلْمَرْأَةُ رَجُلَهَا ٱلْمُفَصَّلَ لَهَا ، بَلْ رَجُلًا يُسَمَّىٰ زَوْجًا ؛ وَهُنَا يَظْهَرُ كَرَمُ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ، وَهَا هُنَا جِهَادُ ٱلْمَرْأَةِ وَصَبْرُهَا ، وَهَا هُنَا بَذْلُهَا لَا أَخْذُهَا ؛ وَمِنْ كُلِّ ذَٰلِكَ هَا هُنَا عَمَلُهَا لِجَنَّتِهَا أَوْ نَارِهَا .

فَإِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلرَّجُلُ كَامِلًا بِمَا فِيهِ لِلْمَرْأَةِ ، فَلْتَبْقَ هِيَ رَجُلًا بِنُزُولِهَا عَنْ بَعْضِ حَقِّهَا لَهُ ، وَتَرْكِهَا ٱلْحَيَاةَ تَجْرِي فِي مَجْرَاهَا ، وَإِيثَارِهَا ٱلآخِرَةَ عَلَى ٱلدُّنْيَا ، وَقِيَامِهَا بِفَرِيضَةِ كَمَالِهَا وَرَحْمَتِهَا ، فَيَبْقَى ٱلرَّجُلُ رَجُلًا فِي عَمَلِهِ لِلدُّنْيَا ، وَلَا يُمْسَخُ طَبْعُهُ وَلَا يَنْتَكِسُ بِهَا وَلَا يَذِلُّ ، فَإِنْ هِيَ بَدَأَتْ وَتَسَلَّطَتْ وَغَلَبَتْ وَصَرَّفَتِ ٱلرَّجُلَ فِي يَدِهَا ، فَأَكْثَرُ مَا يَظْهَرُ حِينَئِذٍ فِي أَعْمَالِ ٱلرِّجَالِ مِنْ طَاعَتِهِمْ لِنِسَائِهِمْ ـ إِنَّمَا هُوَ طَيْشُ ذَٰلِكَ ٱلْعَقْلِ ٱلصَّغِيرِ وَجُرْأَتُهُ ، وَأَحْيَانًا وَقَاحَتُهُ ؛ وَفِي كُلِّ ذَٰلِكَ هَلَاكُ مَعَانِي ٱلرُّجُولَةِ ، وَفِي هَلَاكِ مَعَانِي ٱلرُّجُولَةِ هَلَاكُ ٱلأُمَّةِ !

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَٱلْقُلُوبُ فِي ٱلرِّجَالِ لَيْسَتْ حَقِيقَةً أَبَدًا ، بِطَبِيعَةِ أَعْمَالِهِمْ فِي ٱلْحَيَاةِ وَأَمْكِنَتِهِمْ مِنْهَا ، وَلَٰكِنَّ ٱلْقَلْبَ ٱلْحَقِيقِيَّ هُوَ فِي ٱلْمَرْأَةِ ، وَلِذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ ٱلسُّمُوُّ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا وَاجِبَ ٱلرَّحْمَةِ ؛ ذَٰلِكَ ٱلْوَاجِبُ ٱلَّذِي يَتَّجِهُ إِلَى ٱلْقَوِيِّ فَيَكُونُ حُبًّا ، وَيَتَّجِهُ إِلَى ٱلضَّعِيفِ فَيَكُونُ حَنَانًا وَرِقَّةً ، ذَٰلِكَ ٱلْوَاجِبُ هُوَ ٱللُّطْفُ ؛ ذَٰلِكَ ٱللُّطْفُ هُوَ ٱلَّذِي يُثْبِتُ أَنَّهَا ٱمْرَأَةٌ .

* * *

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَٱنْفَضَّ ٱلْمَجْلِسُ ، وَمَنَعَنِي ٱلشَّيْخُ أَنْ أَقُومَ مَعَ ٱلنَّاسِ ، وَصَرَفَ قَائِدِي ؛ فَلَمَّا خَلَا وَجْهُهُ قَالَ : يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! قُمْ مَعِي إِلَى ٱلدَّارِ .

قُلْتُ : مَا شَأْنُ فِي ٱلدَّارِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟

قَالَ : إِنَّ (تِلْكَ) غَاضِبَةٌ عَلَيَّ ، وَقَدْ ضَاقَتِ ٱلْحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، وَأَخْشَىٰ أَنْ تَتَبَاعَدَ ، فَأُرِيدُ أَنْ تُصْلِحَ بَيْنَنَا صُلْحًا .

قُلْتُ : فَمِمَّ غَضَبُهَا ؟

قَالَ : لَا تُسْأَلُ ٱلْمَرْأَةُ مِمَّ تَغْضَبُ ، فَكَثِيرًا مَا يَكُونُ هَٰذَا ٱلْغَضَبُ حَرَكَةً فِي طِبَاعِهَا ، كَمَا تَكُونُ جَالِسَةً وَتُرِيدُ أَنْ تَقُومَ فَتَقُومَ ، وَتُرِيدُ أَنْ تَمْشِيَ فَتَمْشِي !

قُلْتُ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! هَٰذَا آخِرُ أَرْبَعِ مَرَّاتٍ[1] تَغْضَبُ عَلَيْكَ غَضَبَ ٱلطَّلَاقِ ، فَمَا يَحْبِسُكَ عَلَيْهَا وَٱلنِّسَاءُ غَيْرُهَا كَثِيرٌ .

قَالَ : وَيْحَكَ يَا رَجُلُ ! أَبَائِعُ نِسَاءٍ أَنَا ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلَّذِي يُطَلِّقُ ٱمْرَأَةً لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ مُلْجِئَةٍ ، هُوَ كَٱلَّذِي يَبِيعُهَا لِمَنْ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَكُونُ مَعَهَا وَكَيْفَ تَكُونُ مَعَهُ ؟ إِنَّ عُمْرَ ٱلزَّوْجَةِ لَوْ كَانَ رَقَبَةً وَضُرِبَتْ بِسَيْفٍ قَاطِعٍ لَكَانَ هَٰذَا ٱلسَّيْفُ هُوَ ٱلطَّلَاقَ !

وَهَلْ تَعِيشُ ٱلْمُطَلَّقَةُ إِلَّا فِي أَيَّامٍ مَيِّتَةٍ ؟ وَهَلْ قَاتِلُ أَيَّامِهَا إِلَّا مُطَلِّقُهَا ؟

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَقُمْنَا إِلَى ٱلدَّارِ ، وَٱسْتَأْذَنْتُ وَدَخَلْتُ عَلَىٰ (تِلْكَ) . . .

(لها بقية) طنطا مصطفى صادق الرافعي

زَوْجَةُ إِمَامٍ
بَقِيَّةُ ٱلْخَبَرِ (*)

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ ٱلضَّرِيرُ : وَكُنْتُ فِي ٱلطَّرِيقِ إِلَىٰ دَارِ ٱلشَّيْخِ ، أُرَوِّئُ فِي ٱلأَمْرِ ، وَأَمْتَحِنُ مَذَاهِبَ ٱلرَّأْيِ ، وَأُقَلِّبُهَا عَلَىٰ وُجُوهِهَا ، وَأَنْظُرُ كَيْفَ أَحْتَالُ فِي تَأْلِيفِ مَا تَنَافَرَ مِنَ ٱلشَّيْخِ وَزَوْجَتِهِ ؛ فَإِنَّ ٱلَّذِي يَسْفُرُ بَيْنَ رَجُلٍ وَٱمْرَأَتِهِ إِنَّمَا يَمْشِي بِفِكْرِهِ بَيْنَ قَلْبَيْنِ ، فَهُوَ

(١) هَٰذَا هُوَ ٱلتَّعْبِيرُ ٱلصَّحِيحُ لِمِثْلِ قَوْلِ ٱلنَّاسِ « هَٰذِهِ رَابِعُ مَرَّةٍ » .

(*) « الرسالة » العدد : ٨٦ ، ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٥ فبراير/شباط ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٢٨٣ ـ ٢٨٦ .

مُطْفِيءُ نَائِرَةٍ(١) أَوْ مُسْعِرُهَا ، إِذْ لَا يَضَعُ بَيْنَ ٱلْقَلْبَيْنِ إِلَّا حُمْقَهُ أَوْ كِيَاسَتَهُ ، وَهُوَ لَنْ يَرُدَّ ٱلْمَرْأَةَ إِلَىٰ ٱلرَّأْيِ إِلَّا إِذَا طَافَ عَلَىٰ وَجْهِهَا بِٱلضَّحِكِ ، وَعَلَىٰ قَلْبِهَا بِٱلْخَجَلِ ، وَعَلَىٰ نَفْسِهَا بِٱلرِّقَّةِ ، وَكَانَ حَكِيمًا فِي كُلِّ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ عَقْلَ ٱلْمَرْأَةِ مَعَ ٱلرَّجُلِ عَقْلٌ بَعِيدٌ ، يَجِيءُ مِنْ وَرَاءِ نَفْسِهَا ، مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهَا .

وَجَعَلْتُ أَنْظُرُ مَا ٱلَّذِي يُفْسِدُ مَحَلَّ ٱلشَّيْخِ مِنْ زَوْجَتِهِ ، وَمَثَّلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَمَا أَخْرَجَ لِيَ ٱلتَّفْكِيرُ إِلَّا أَنَّ حُسْنَ خُلُقِهِ مَعَهَا دَائِمًا هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَدْعِي مِنْهَا سُوءَ ٱلْخُلُقِ أَحْيَانًا ؛ فَإِنَّ ٱلشَّيْخَ كَمَا وَرَدَ فِي وَصْفِ ٱلْمُؤْمِنِ: «هَيِّنٌ لَيِّنٌ كَٱلْجَمَلِ ٱلْأَنِفِ(٢)، إِنْ قِيدَ ٱنْقَادَ، وَإِنْ أُنِيخَ عَلَىٰ صَخْرَةٍ ٱسْتَنَاخَ» [راجع ابن ماجه ، رقم: ٤٤؛ «مسند أحمد»، رقم: ١٦٦٩٢؛ «الجامع الصغير»، رقم: ٩١٦٣؛ «كنز العمال»، رقم: ٦٩٣] ، وَٱلْمَرْأَةُ لَا تَكُونُ ٱمْرَأَةً حَتَّىٰ تَطْلُبَ فِي ٱلرَّجُلِ أَشْيَاءَ : مِنْهَا أَنْ تُحِبَّهُ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْحُبِّ؛ وَمِنْهَا أَنْ تَخَافَهُ بِأَسْبَابٍ يَسِيرَةٍ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْخَوْفِ . فَإِذَا هِيَ أَحَبَّتْهُ ٱلْحُبَّ كُلَّهُ ، وَلَمْ تَخَفْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَطَالَ سُكُونُهُ وَسُكُونُهَا ، نَفَرَتْ طَبِيعَتُهَا نَفْرَةً كَأَنَّهَا تُنَحِّيهِ وَتُذَمِّرُهُ ، لِيَكُونَ مَعَهَا رَجُلًا فَيُخِيفُهَا ٱلْخَوْفَ ٱلَّذِي تَسْتَكْمِلُ بِهِ لَذَّةَ حُبِّهَا ، إِذْ كَانَ ضَعْفُهَا يُحِبُّ فِيمَا يُحِبُّهُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ، أَنْ يَقْسُوَ عَلَيْهِ ٱلرَّجُلُ فِي ٱلْوَقْتِ بَعْدَ ٱلْوَقْتِ ، لَا لِيُؤْذِيَهُ وَلَٰكِنْ لِيُخْضِعَهُ ؛ وَٱلْآمِرُ ٱلَّذِي لَا يُخَافُ إِذَا عُصِيَ أَمْرُهُ ، هُوَ ٱلَّذِي لَا يُعْبَأُ بِهِ إِذَا أُطِيعَ أَمْرُهُ .

وَكَأَنَّ ٱلْمَرْأَةَ تَحْتَاجُ طَبِيعَتُهَا أَحْيَانًا إِلَىٰ مَصَائِبَ خَفِيفَةٍ ، تُؤْذِي بِرِقَّةٍ أَوْ تَمُرُّ بِٱلْأَذَىٰ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْمَسَهَا بِهِ ، لِتَتَحَرَّكَ فِي طَبِيعَتِهَا مَعَانِي دُمُوعِهَا مِنْ غَيْرِ دُمُوعِهَا ؛ فَإِنْ طَالَ رُكُودُ هَٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةِ ، أَوْجَدَتْ هِيَ لِنَفْسِهَا مَصَائِبَهَا ٱلْخَفِيفَةَ ، فَكَانَ ٱلزَّوْجُ إِحْدَاهَا . . .

وَهَٰذَا كُلُّهُ غَيْرُ ٱلْجُرْأَةِ أَوِ ٱلْبَذَاءِ فِيمَنْ يُبْغِضْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ، فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ إِذَا فَرِكَتْ زَوْجَهَا لِمُنَافَرَةِ ٱلطَّبِيعَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ، مَاتَ ضَعْفُهَا ٱلْأُنْثَوِيُّ ٱلَّذِي يَتِمُّ بِهِ جَمَالُهَا وَٱسْتِمْتَاعُهَا وَٱلِاسْتِمْتَاعُ بِهَا ، وَتَعَقَّدَ بِذَلِكَ لِينُهَا أَوْ تَصَلَّبَ أَوِ ٱسْتَحْجَرَ ، فَتَكُونُ مَعَ ٱلرَّجُلِ بِخِلَافِ طَبِيعَتِهَا ، فَيَنْقَلِبُ سُكْرُهَا ٱلنِّسَائِيُّ بِأُنُوثَتِهَا ٱلْجَمِيلَةِ عَرْبَدَةً وَخِلَافًا وَشَرًّا وَصَخَبًا ، وَيَخْرُجُ

(١) ٱلنَّائِرَةُ : ٱلْغَضَبُ .

(١) أَيْ : ٱلْمَأْنُوفُ ، وَيُسَمِّيهِ ٱلْعَامَّةُ : ٱلْمَخْزُومُ ، وَهُوَ ٱلَّذِي عُقِرَ أَنْفُهُ بِٱلْخَشَاشِ ، فَيُقَادُ مِنْهُ ، فَيَكُونُ ذَلُولًا سَمْحًا .

كَلَامُهَا لِلرَّجُلِ وَهُوَ مِنَ ٱلْبُغْضِ كَأَنَّهُ فِي صَوْتَيْنِ لَا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ . وَلَعَلَّ هَٰذَا هُوَ ٱلَّذِي أَحَسَّهُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْعَرَبِيُّ بِفِطْرَتِهِ - مِنْ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلصَّخَّابَةِ ٱلشَّدِيدَةِ ٱلصَّوْتِ ٱلْبَادِيَةِ ٱلْغَيْظِ ، فَضَاعَفَ لَهَا فِي تَرْكِيبِ ٱللَّفْظِ حِينَ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ [من الرجز] :

صُلْبَّةُ ٱلصَّيْحَةِ صَهْصَلِيقُهَا(١)

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَٱسْتَأْذَنْتُ عَلَىٰ تِلْكَ ، وَدَخَلْتُ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَوْثَقْتُ أَنَّ عِنْدَهَا بَعْضَ مَحَارِمِهَا ؛ فَقُلْتُ : أَنْعَمَ ٱللهُ مَسَاءَكِ يَا أُمَّ مُحَمَّدٍ . قَالَتْ : وَأَنْتَ فَأَنْعَمَ ٱللهُ مَسَاءَكَ .

فَأَصْغَيْتُ لِلصَّوْتِ ، فَإِذَا هُوَ كَٱلنَّائِمِ قَدِ ٱنْتَبَهَ يَتَمَطَّىٰ فِي ٱسْتِرْخَاءٍ ، وَكَأَنَّهَا تَقْبَلُنِي بِهِ وَتَرُدُّنِي مَعًا ، لَا هُوَ خَالِصٌ لِلْغَضَبِ وَلَا هُوَ خَالِصٌ لِلرِّضَىٰ .

فَقُلْتُ : يَا أُمَّ مُحَمَّدٍ ! إِنِّي جَائِعٌ لَمْ أَلُمَّ ٱلْيَوْمَ بِمَنْزِلِي . فَقَامَتْ فَقَرَّبَتْ مَا حَضَرَ ؛ وَقَالَتْ : مَعْذِرَةً يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، فَإِنَّمَا هُوَ جُهْدُ ٱلْمُقِلِّ ، وَلَيْسَ يَعْدُو إِمْسَاكَ ٱلرَّمَقِ . فَقُلْتُ : إِنَّ ٱلْجَوْعَانَ غَيْرُ ٱلشَّهْوَانِ ؛ وَٱلْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ(٢) ، وَلَمْ يَخْلُقِ ٱللهُ قَمْحًا لِلْمُلُوكِ وَقَمْحًا غَيْرَهُ لِلْفُقَرَاءِ .

ثُمَّ سَمَّيْتُ وَمَدَدْتُ يَدِي أَتَحَسَّسُ مَا عَلَىٰ ٱلطَّبَقِ ، فَإِذَا كِسَرٌ مِنَ ٱلْخُبْزِ ، مَعَهَا شَيْءٌ مِنَ ٱلْجَزَرِ ٱلْمَسْلُوقِ ، فِيهِ قَلِيلٌ مِنَ ٱلْخَلِّ وَٱلزَّيْتِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : هَٰذَا بَعْضُ أَسْبَابِ ٱلشَّرِّ ؛ وَمَا كَانَ بِي ٱلْجُوعُ وَلَا سَدُّهُ ، غَيْرَ أَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ حَاضِرَ ٱلرِّزْقِ فِي دَارِ ٱلشَّيْخِ ، فَإِنَّ مِثْلَ هَٰذِهِ ٱلْقِلَّةِ فِي طَعَامِ ٱلرَّجُلِ هِيَ عِنْدَ ٱلْمَرْأَةِ قِلَّةٌ مِنَ ٱلرَّجُلِ نَفْسِهِ ؛ وَكُلُّ مَا تَفْقِدُهُ مِنْ حَاجَاتِهَا وَشَهَوَاتِ نَفْسِهَا ، فَهُوَ عِنْدَهَا فَقْرٌ بِمَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ، وَٱلْآخَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ . كُلَّمَا أَكْثَرَ ٱلرَّجُلُ مِنْ إِتْحَافِهَا كَثُرَ عِنْدَهَا ، وَإِنْ أَقَلَّ قَلَّ . وَإِنَّمَا خُلِقَتِ ٱلْمَرْأَةُ بَطْنًا يَلِدُ ، فَبَطْنُهَا هُوَ أَكْبَرُ حَقِيقَتِهَا ، وَهَٰذِهِ غَايَتُهَا وَغَايَةُ ٱلْحِكْمَةِ فِيهَا ؛ لَا جَرَمَ كَانَ

(١) هَٰذَا مِنْ عَجَائِبِ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، إِذَا زَادَ ٱلْمَعْنَىٰ زَادُوا لَهُ فِي ٱللَّفْظِ ، وَرِوَايَةُ « لِسَانِ ٱلْعَرَبِ » : « شَدِيدَةُ ٱلصَّيْحَةِ » وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، فَلْيُصَحِّحْهَا مَنْ يَقْتَنِي « ٱللِّسَانَ » مِنَ ٱلْقُرَّاءِ .

(٢) فِي بَعْضِ ٱلْأَثَرِ : « ٱلْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَٱلْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ » . [البخاري ، رقم : ٥٣٩٣ ؛ مسلم ، رقم : ٢٠٦٠] . وَهَٰذَا ٱلْحَدِيثُ رَمْزٌ عَجِيبٌ لِبَهِيمِيَّةِ مَنْ لَا يَرَى ٱلدُّنْيَا إِلَّا ٱلدُّنْيَا فَقَطْ .

لَهَا فِيْ عَقْلِهَا مَعِدَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ ؛ وَلَيْسَ حُبُّهَا لِلْحُلِيِّ وَٱلثِّيَابِ وَٱلزِّيْنَةِ وَٱلْمَالِ ، وَطِمَاحُهَا إِلَيْهَا وَٱسْتِهْلَاكُهَا فِيْ ٱلْحِرْصِ عَلَيْهَا وَٱلاسْتِشْرَافُ لَهَا - إِلَّا مَظْهَرًا مِنْ حُكْمِ ٱلْبَطْنِ وَسُلْطَانِهِ ؛ فَذَلِكَ كُلُّهُ إِذَا حَقَّقْتَهُ فِيْ ٱلرَّجُلِ لَمْ تَجِدْهُ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلسُّلْطَةِ ، وَكَانَ فَقْدُهُ مِنْ ذَرَائِعِ ٱلضَّعْفِ وَٱلْقِلَّةِ ؛ فَإِذَا حَقَّقْتَهُ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ أَلْفَيْتَهُ عِنْدَهَا مِنْ مَعَانِيْ ٱلشِّبَعِ وَٱلْبَطَرِ ، وَكَانَ فَقْدُهُ عِنْدَهَا كَأَنَّهُ فَنٌّ مِنَ ٱلْجُوْعِ ، وَكَانَتْ شَهْوَتُهَا لَهُ كَٱلْقَرَمِ إِلَىٰ ٱللَّحْمِ عِنْدَ مَنْ حُرِمَ ٱللَّحْمَ ؛ وَهَـٰذَا بَعْضُ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ ؛ فَلَنْ يَكُوْنَ عَقْلُ ٱلْمَرْأَةِ كَعَقْلِ ٱلرَّجُلِ لِمَكَانِ ٱلزِّيَادَةِ فِيْ مَعَانِيْهَا « ٱلْبَطْنِيَّةِ » فَحُسِبَتْ لَهَا ٱلزِّيَادَةُ هَـٰهُنَا بِٱلنَّقْصِ هُنَاكَ ؛ فَهُنَّ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِيْنٍ كَمَا وَرَدَ فِيْ ٱلْحَدِيْثِ : أَمَّا نَقْصُ ٱلْعَقْلِ فَهَـٰذِهِ عِلَّتُهُ ؛ وَأَمَّا ٱلدِّيْنُ فَلِغَلَبَةِ تِلْكَ ٱلْمَعَانِيْ عَلَىٰ طَبِيْعَتِهَا كَمَا تَغْلِبُ عَلَىٰ عَقْلِهَا ؛ فَلَيْسَ نَقْصُ ٱلدِّيْنِ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ نَقْصًا فِيْ ٱلْيَقِيْنِ أَوِ ٱلإِيْمَانِ ، فَإِنَّهَا فِيْ هَـٰذَيْنِ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلرَّجُلِ ؛ وَإِنَّمَا ذَاكَ هُوَ ٱلنَّقْصُ فِيْ ٱلْمَعَانِيْ ٱلشَّدِيْدَةِ ٱلَّتِيْ لَا يَكْمُلُ ٱلدِّيْنُ إِلَّا بِهَا ؛ مَعَانِيْ ٱلْجُوْعِ مِنْ نَعِيْمِ ٱلدُّنْيَا وَزِيْنَتِهَا ، وَٱمْتِدَادِ ٱلْعَيْنِ إِلَيْهَا ، وَٱسْتِشْرَافِ ٱلنَّفْسِ لَهَا ؛ فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ فِيْ هَـٰذَا أَقَلُّ مِنَ ٱلرَّجُلِ ؛ وَهِيَ لِهَـٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ مَا بَرِحَتْ تُؤْثِرُ دَائِمًا جَمَالَ ٱلظَّاهِرِ وَزِيْنَتَهُ فِيْ ٱلرِّجَالِ وَٱلأَشْيَاءِ ، دُوْنَ ٱلنَّظَرِ إِلَىٰ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَقِيْقَةِ ٱلْمَنْفَعَةِ .

* * *

قَالَ أَبُوْ مُعَاوِيَةَ : وَأَرَيْتُهَا أَنِّيْ جَائِعٌ ، فَنَهَشْتُ نَهْشَ ٱلأَعْرَابِيِّ ، كَيْلَا تَفْطَنَ إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ مِنْ زَعْمِ ٱلْجُوْعِ ؛ ثُمَّ أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْتَدْعِيَ كَلَامَهَا وَأَسْتَمِيْلَهَا لِأَنْ تَضْحَكَ وَتُسَرَّ ، فَأُغَيِّرَ بِذَلِكَ مَا فِيْ نَفْسِهَا ، فَيَجِدُ كَلَامِيْ إِلَىٰ نَفْسِهَا مَذْهَبًا ؛ فَقُلْتُ : يَا أُمَّ مُحَمَّدٍ ! قَدْ تَحَرَّمْتُ بِطَعَامِكِ ، وَوَجَبَ حَقِّيْ عَلَيْكِ ، فَأَشِيْرِيْ عَلَيَّ بِرَأْيِكِ فِيمَا أَسْتَصْلِحُ بِهِ زَوْجَتِيْ ، فَإِنَّهَا غَاضِبَةٌ عَلَيَّ ، وَهِيَ تَقُوْلُ لِيْ : وَٱللهِ مَا يُقِيْمُ ٱلْفَأْرُ فِيْ بَيْتِكَ إِلَّا لِحُبِّ ٱلْوَطَنِ . . . وَإِلَّا فَهُوَ يَسْتَرْزِقُ مِنْ بُيُوْتِ ٱلْجِيْرَانِ .

قَالَتْ : وَقَدْ أَعْدَمَتْ حَتَّىٰ مِنْ كِسَرِ ٱلْخُبْزِ وَٱلْجَزَرِ ٱلْمَسْلُوْقِ ؟ ٱللهَ مِنْكَ ! لَقَدِ ٱسْتَأْصَلْتَهَا مِنْ جُذُوْرِهَا ؛ إِنَّ فِيْ أَمْرَاضِ ٱلنِّسَاءِ ٱلْحُمَّىٰ ٱلَّتِيْ ٱسْمُهَا ٱلْحُمَّىٰ ، وَٱلْحُمَّىٰ ٱلَّتِيْ ٱسْمُهَا ٱلزَّوْجُ . . .

فَقُلْتُ : ٱللهَ ٱللهَ يَا أُمَّ مُحَمَّدٍ ! لَقَدْ أَيْسَرْتِ بَعْدَنَا ، حَتَّىٰ كَأَنَّ ٱلْخُبْزَ وَٱلْجَزَرَ ٱلْمَسْلُوْقَ شَيْءٌ قَلِيْلٌ عِنْدَكِ مِنْ فَرْطِ مَا يَتَيَسَّرُ ؛ أَوَ مَا عَلِمْتِ أَنَّ رِزْقَ ٱلصَّالِحِيْنَ كَٱلصَّالِحِيْنَ أَنْفُسِهِمْ ، يَصُوْمُ عَنْ أَصْحَابِهِ ٱلْيَوْمَ وَٱلْيَوْمَيْنِ . . . وَكَأَنَّكِ مَا سَمِعْتِ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ أُمَّهَاتِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ، أَزْوَاجِ رَسُوْلِ ٱللهِ ﷺ وَنِسَاءِ أَصْحَابِهِ رِضْوَانُ ٱللهِ عَلَيْهِمْ ؛ فَمَا خَيْرُ ٱمْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ لَا تَكُوْنُ بِأَدَبِهَا وَخُلُقِهَا ٱلإِسْلَامِيِّ كَأَنَّهَا بِنْتُ إِحْدَىٰ أُمَّهَاتِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ؟

أَفَرَأَيْتِ لَوْ كُنْتِ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ أَفَكَانَ يَنْقُلُكِ هَـٰذَا إِلَىٰ أَحْسَنَ مِمَّا أَنْتِ فِيْهِ مِنَ ٱلْعَيْشِ ؛ وَهَلْ كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتَ مَلِكٍ تَعِيْشُ فِيْ أَحْلَامِ نَفْسِهَا ، أَوْ بِنْتَ نَبِيٍّ تَعِيْشُ فِيْ حَقَائِقِ نَفْسِهَا ٱلْعَظِيْمَةِ ؟

تَقُوْلِيْنَ : إِنَّنِيْ ٱسْتَأْصَلْتُ أُمَّ مُعَاوِيَةَ مِنْ جُذُوْرِهَا ؛ فَمَا أُمُّ مُعَاوِيَةَ وَمَا جُذُوْرُهَا ؟ أَهِيَ خَيْرٌ مِنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِيْ بَكْرٍ صَاحِبِ رَسُوْلِ ٱللهِ ﷺ ، وَقَدْ قَالَتْ عَنْ زَوْجِهَا ٱلْبَطَلِ ٱلْعَظِيْمِ : تَزَوَّجَنِيْ وَمَا لَهُ فِيْ ٱلأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوْكٍ ، وَلَا شَيْءٍ غَيْرُ فَرَسِهِ وَنَاضِحِهِ(١) ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَكْفِيْهِ مُؤْنَتَهُ وَأَسُوْسُهُ ، وَأَدُقُّ ٱلنَّوَىٰ لِنَاضِحِهِ وَأَعْلِفُهُ ، وَأَسْتَقِيْ ٱلْمَاءَ وَأَخْرِزُ غَرْبَهُ(٢) وَأَعْجِنُ ؛ وَكُنْتُ أَنْقُلُ ٱلنَّوَىٰ عَلَىٰ رَأْسِيْ مِنْ ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ ، حَتَّىٰ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُوْ بَكْرٍ بِجَارِيَةٍ ، فَكَفَتْنِيْ سِيَاسَةَ ٱلْفَرَسِ ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِيْ .

هَـٰكَذَا يَنْبَغِيْ لِنِسَاءِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ فِيْ ٱلصَّبْرِ وَٱلإِبَاءِ وَٱلْقُوَّةِ ، وَٱلْكِبْرِيَاءِ بِٱلنَّفْسِ عَلَىٰ ٱلْحَيَاةِ كَائِنَةً مَا كَانَتْ ، وَٱلرِّضَا وَٱلْقَنَاعَةِ وَمُؤَازَرَةِ ٱلزَّوْجِ وَطَاعَتِهِ ، وَٱعْتِبَارِ مَا لَهُنَّ عِنْدَ ٱللهِ لَا مَا لَهُنَّ عِنْدَ ٱلرَّجُلِ ، وَبِذَلِكَ يَرْتَفِعْنَ عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلْمُلُوْكِ فِيْ أَنْفُسِهِنَّ ، وَتَكُوْنُ ٱلْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ وَمَا فِيْ دَارِهَا شَيْءٌ ، وَعِنْدَهَا أَنَّ فِيْ دَارِهَا ٱلْجَنَّةَ . وَهَلِ ٱلإِسْلَامُ إِلَّا هَـٰذِهِ ٱلرُّوْحُ ٱلسَّمَاوِيَّةُ ٱلَّتِيْ لَا تَهْزِمُهَا ٱلأَرْضُ أَبَدًا ، وَلَا تُذِلُّهَا أَبَدًا ، مَا دَامَ يَأْسُهَا وَطَمَعُهَا مُعَلَّقَيْنِ بِأَعْمَالِ ٱلنَّفْسِ فِيْ ٱلدُّنْيَا ، لَا بِشَهَوَاتِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلدُّنْيَا ؟

هَلِ ٱلرَّجُلُ ٱلْمُسْلِمُ ٱلصَّحِيْحُ ٱلإِسْلَامِ ، إِلَّا مِثْلُ ٱلْحَرْبِ يَثُوْرُ حَوْلَهَا غُبَارُهَا ، وَيَكُوْنُ

---

(١) ٱلنَّوَاضِحُ : ٱلإِبِلُ يُسْتَقَىٰ عَلَيْهَا ، وَاحِدُهَا نَاضِحٌ ، وَسَائِقُهَا ٱلنَّضَّاحُ .
(٢) ٱلْغَرْبُ : ٱلدَّلْوُ ٱلْعَظِيْمَةُ تُتَّخَذُ مِنْ جِلْدِ ٱلثَّوْرِ .

مَعَهَا ٱلشَّظَفُ وَٱلْبَأْسُ وَٱلْقُوَّةُ وَٱلِاحْتِمَالُ وَٱلصَّبْرُ ، إِذْ كَانَ مَفْرُوضًا عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ ٱلْقُوَّةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ لَا ٱلضَّعْفَ ، وَأَنْ يَكُونَ ٱلْيَقِينَ ٱلْإِنْسَانِيَّ لَا ٱلشَّكَّ ، وَأَنْ يَكُونَ ٱلْحَقَّ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ لَا ٱلْبَاطِلَ ؟

وَهَلِ ٱمْرَأَةُ ٱلْمُسْلِمِ إِلَّا تِلْكَ ٱلْمَفْرُوضُ عَلَيْهَا أَنْ تُمِدَّ هَـٰذِهِ ٱلْحَرْبَ بِأَبْطَالِهَا ، وَعَتَادِ أَبْطَالِهَا ، وَأَخْلَاقِ أَبْطَالِهَا ؛ ثُمَّ أَلَّا تَكُونَ دَائِمًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ أَبْطَالِهَا ؟ وَكَيْفَ تَلِدُ ٱلْبَطَلَ إِذَا كَانَ فِي أَخْلَاقِهَا ٱلضَّعَةُ وَٱلْمَطَامِعُ ٱلذَّلِيلَةُ ، وَٱلضَّجَرُ وَٱلْكَسَلُ وَٱلْبَلَادَةُ ؟ أَلَا إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ كَٱلدَّارِ ٱلْمَبْنِيَّةِ ، لَا يَسْهُلُ تَغْيِيرُ حُدُودِهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ خَرَابًا .

فَٱعْتَرَضَتْهُ ٱمْرَأَةُ ٱلشَّيْخِ وَقَالَتْ : وَهَلْ بَأْسٌ بِٱلدَّارِ إِذَا وُسِّعَتْ حُدُودُهَا مِنْ ضِيقٍ ؟ أَتَكُونُ ٱلدَّارُ فِي هَـٰذَا إِلَىٰ نَقْصِهَا أَوْ تَمَامِهَا ؟

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : فَكِدْتُ أَنْقَطِعُ فِي يَدِهَا ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَمْضِيَ فِي ٱسْتِمَالَتِهَا ، فَتَرَكْتُهَا هُنَيْهَةً ظَافِرَةً بِي ، وَأَرَيْتُهَا أَنَّهَا شَدَّتْنِي وَثَاقًا ، وَأَطْرَقْتُ كَٱلْمُفَكِّرِ ؛ ثُمَّ قُلْتُ لَهَا : إِنَّمَا أُحَدِّثُكِ عَنْ أُمِّ مُعَاوِيَةَ لِأَبِي مُعَاوِيَةَ ؛ وَتِلْكَ دَارٌ لَا تَمْلِكُ غَيْرَ أَحْجَارِهَا وَأَرْضِهَا فَبِأَيِّ شَيْءٍ تَتَّسِعُ ؟

زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ رَجُلٌ عَامِلٌ يَمْلِكُ دُوَيْرَةً قَدِ ٱلْتَصَقَتْ بِهَا مَسَاكِنُ جِيرَانِهِ ، وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ حَمْقَاءُ ، مَا تَزَالُ ضَيِّقَةَ ٱلنَّفْسِ بِٱلدَّارِ وَصِغَرِهَا ، كَأَنَّ فِي ٱلْبِنَاءِ بِنَاءً حَوْلَ قَلْبِهَا ؛ وَكَانَا فَقِيرَيْنِ ، كَأُمِّ مُعَاوِيَةَ وَأَبِي مُعَاوِيَةَ ؛ فَقَالَتْ لَهُ يَوْمًا : أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ! أَلَا تُوَسِّعُ دَارَكَ هَـٰذِهِ ، لِيَعْلَمَ ٱلنَّاسُ أَنَّكَ أَيْسَرْتَ وَذَهَبَ عَنْكَ ٱلضُّرُّ وَٱلْفَقْرُ ؟ قَالَ : فَبِمَاذَا أُوَسِّعُهَا وَمَا أَمْلِكُ شَيْئًا ، أَوَأُمْسِكُ بِيَمِينِي حَائِطًا وَبِشِمَالِي حَائِطًا فَأَمُدُّهُمَا أُبَاعِدُ بَيْنَهُمَا . . . ؟ وَهَبِينِي مَلَكْتُ ٱلتَّوْسِعَةَ وَنَفَقَتَهَا ، فَكَيْفَ لِي بِدُورِ ٱلْجِيرَانِ وَهِيَ مُلَاصِقَةٌ لَنَا بَيْتَ بَيْتَ ؟

قَالَتِ ٱلْحَمْقَاءُ : فَإِنَّنَا لَا نُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَالَمَ ٱلنَّاسُ أَنَّنَا أَيْسَرْنَا ؛ فَٱهْدِمْ أَنْتَ ٱلدَّارَ ، فَإِنَّهُمْ سَيَقُولُونَ : لَوْلَا أَنَّهُمْ وَجَدُوا وَٱتَّسَعُوا وَأَصْبَحَ ٱلْمَالُ فِي يَدِهِمْ لَمَا هَدَمُوا . . . . !

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَغَاظَتْنِي زَوْجَةُ ٱلشَّيْخِ فَلَمْ أَسْمَعْ لَهَا هَمْسَةً مِنَ ٱلضَّحِكِ لِمَثَلِ ٱلْحَمْقَاءِ ، وَمَا ٱخْتَرَعْتُهُ إِلَّا مِنْ أَجْلِهَا ، كَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ عَمَلِي بَاطِلًا ؛ فَقُلْتُ : وَهَلْ

تَتَّسِعُ أُمُّ مُعَاوِيَةَ مِنْ فَقْرِهَا إِلَّا كَمَا ٱتَّسَعَ ذَلِكَ ٱلْأَعْرَابِيُّ فِي صَلَاحِهِ ؟

قَالَتْ : وَمَا خَبَرُ ٱلْأَعْرَابِيِّ ؟

قُلْتُ : دَخَلَ عَلَيْنَا ٱلْمَسْجِدَ يَوْمًا أَعْرَابِيٌّ جَاءَ مِنَ ٱلْبَادِيَةِ ، وَقَامَ يُصَلِّي فَأَطَالَ ٱلْقِيَامَ وَٱلنَّاسُ يَرْمُقُونَهُ ، ثُمَّ جَعَلُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ ، ثُمَّ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ يَمْدَحُونَهُ وَيَصِفُونَهُ بِٱلصَّلَاحِ ؛ فَقَطَعَ ٱلْأَعْرَابِيُّ صَلَاتَهُ وَقَالَ لَهُمْ : مَعَ هَـٰذَا إِنِّي صَائِمٌ . . .

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : فَمَا تَمَالَكَتْ أَنْ ضَحِكَتْ ، وَسَمِعْتُ صَوْتَ نَفْسِهَا ، وَمَيَّزْتُ فِيهِ ٱلرِّضَىٰ مُقْبِلًا عَلَىٰ ٱلصُّلْحِ ٱلَّذِي أَتَسَبَّبُ لَهُ . ثُمَّ قُلْتُ :

وَإِذَا ضَاقَتِ ٱلدَّارُ فَلِمَ لَا تَتَّسِعُ ٱلنَّفْسُ ٱلَّتِي فِيهَا ؟ ٱلْمَرْأَةُ وَحْدَهَا { هِيَ } ٱلْجَوُّ ٱلْإِنْسَانِيُّ لِدَارِ زَوْجِهَا ، فَوَاحِدَةٌ تَدْخُلُ ٱلدَّارَ فَتَجْعَلُ فِيهَا ٱلرَّوْضَةَ نَاضِرَةً مُتَرَوِّحَةً بَاسِمَةً ، وَإِنْ كَانَتِ ٱلدَّارُ قَحِطَةً مَسْحُوتَةً لَيْسَ فِيهَا كَبِيرُ شَيْءٍ ؛ وَٱمْرَأَةٌ تَدْخُلُ ٱلدَّارَ فَتَجْعَلُ فِيهَا مِثْلَ ٱلصَّحْرَاءِ بِرِمَالِهَا وَقَيْظِهَا وَعَوَاصِفِهَا ، وَإِنْ كَانَتِ ٱلدَّارُ فِي رِيَاشِهَا وَمَتَاعِهَا كَٱلْجَنَّةِ ٱلسُّنْدُسِيَّةِ ؛ وَوَاحِدَةٌ تَجْعَلُ ٱلدَّارَ هِيَ ٱلْقَبْرَ . وَٱلْمَرْأَةُ حَقُّ ٱلْمَرْأَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَتْرُكُ قَلْبَهَا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ عَلَىٰ طَبِيعَتِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، فَلَا تَجْعَلُ هَـٰذَا ٱلْقَلْبَ لِزَوْجِهَا مِنْ جِنْسِ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ عِيشَةٍ : مَرَّةً ذَهَبًا ، وَمَرَّةً فِضَّةً ، وَمَرَّةً نُحَاسًا أَوْ خَشَبًا أَوْ تُرَابًا ، فَإِنَّمَا تَكُونُ ٱلْمَرْأَةُ مَعَ رَجُلِهَا مِنْ أَجْلِهِ وَمِنْ أَجْلِ ٱلْأُمَّةِ مَعًا ؛ فَعَلَيْهَا حَقَّانِ لَا حَقٌّ وَاحِدٌ ، أَصْغَرُهُمَا كَبِيرٌ . وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهَا إِذَا تَزَوَّجَتْ أَنْ تَسْتَشْعِرَ ٱلذَّاتَ ٱلْكَبِيرَةَ مَعَ ذَاتِهَا ، فَإِنْ أَغْضَبَهَا ٱلرَّجُلُ بِهَفْوَةٍ مِنْهُ ، تَجَافَتْ لَهُ عَنْهَا ، وَصَفَحَتْ مِنْ أَجْلِ نِظَامِ ٱلْجَمَاعَةِ ٱلْكُبْرَىٰ ؛ وَعَلَيْهَا أَنْ تَحْكُمَ حِينَئِذٍ بِطَبِيعَةِ ٱلْأُمَّةِ لَا بِطَبِيعَةِ نَفْسِهَا ، وَهِيَ طَبِيعَةٌ تَأْبَىٰ ٱلتَّفَرُّقَ وَٱلِانْفِرَادَ ، وَتَقُومُ عَلَىٰ ٱلْوَاجِبِ ، وَتُضَاعِفُ هَـٰذَا ٱلْوَاجِبَ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ بِخَاصَّةٍ .

وَٱلْإِسْلَامُ يَضَعُ ٱلْأُمَّةَ مُمَثَّلَةً فِي ٱلنَّسْلِ بَيْنَ كُلِّ رَجُلٍ وَٱمْرَأَتِهِ ، وَيُوجِبُ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ إِيجَابًا ، لِيَكُونَ فِي ٱلرَّجُلِ وَٱمْرَأَتِهِ شَيْءٌ غَيْرُ ٱلذُّكُورَةِ وَٱلْأُنُوثَةِ ، يَجْمَعُهُمَا وَيُقَيِّدُ أَحَدَهُمَا بِٱلْآخَرِ ، وَيَضَعُ فِي بَهِيمِيَّتِهِمَا ٱلَّتِي مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تَتَّفِقَ وَتَخْتَلِفَ ، إِنْسَانِيَّةً مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تَتَّفِقَ وَلَا تَخْتَلِفَ .

وَمَتَىٰ كَانَ ٱلدِّيْنُ بَيْنَ كُلِّ زَوْجٍ وَزَوْجَتِهِ ، فَمَهْمَا ٱخْتَلَفَا وَتَدَابَرَا وَتَعَقَّدَتْ نَفْسَاهُمَا ، فَإِنَّ كُلَّ عُقْدَةٍ لَا تَجِيْءُ إِلَّا وَمَعَهَا طَرِيْقَةُ حَلِّهَا ، وَلَنْ يُشَادَّ ٱلدِّيْنَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، وَهُوَ ٱلْيُسْرُ وَٱلْمُسَاهَلَةُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلْمَغْفِرَةُ وَلِيْنُ ٱلْقَلْبِ وَخَشْيَةُ ٱللهِ ؛ وَهُوَ ٱلْعَهْدُ وَٱلْوَفَاءُ وَٱلْكَرَمُ وَٱلْمُؤَاخَاةُ وَٱلإِنْسَانِيَّةُ ؛ وَهُوَ ٱتِّسَاعُ ٱلذَّاتِ وَٱرْتِفَاعُهَا فَوْقَ كُلِّ مَا تَكُوْنُ بِهِ مُنْحَطَّةً أَوْ ضَيِّقَةً .

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : فَحَقُّ ٱلرَّجُلِ ٱلْمُسْلِمِ عَلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ ٱلْمُسْلِمَةِ هُوَ حَقٌّ مِنَ ٱللهِ ، ثُمَّ مِنَ ٱلأُمَّةِ ، ثُمَّ مِنَ ٱلرَّجُلِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ مِنْ لُطْفِ ٱلْمَرْأَةِ وَكَرَمِهَا ، ثُمَّ مِمَّا بَيْنَهُمَا مَعًا . وَلَيْسَ عَجِيْبًا بَعْدَ هَـٰذَا مَا رَوَيْنَا عَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ : « لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ ، لَأَمَرْتُ ٱلنِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ ، لِمَا جَعَلَ ٱللهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ ٱلْحَقِّ » . [أبو داود ، رقم : ٢١٤٠ ؛ الدارمي ، رقم : ١٤٦٣] .

وَهَـٰذِهِ عَائِشَةُ أُمُّ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ قَالَتْ : يَا مَعْشَرَ ٱلنِّسَاءِ ! لَوْ تَعْلَمْنَ بِحَقِّ أَزْوَاجِكُنَّ عَلَيْكُنَّ ، لَجَعَلَتِ ٱلْمَرْأَةُ مِنْكُنَّ تَمْسَحُ ٱلْغُبَارَ عَنْ قَدَمَيْ زَوْجِهَا بِحُرِّ وَجْهِهَا .

* * *

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَكَأَنَّ ٱلشَّيْخَ قَدِ ٱسْتَبْطَأَنِي وَقَدْ تَرَكْتُهُ فِيْ فِنَاءِ ٱلدَّارِ ، وَكُنْتُ زَوَّرْتُ فِيْ نَفْسِي كَلَامًا طَوِيْلًا عَنْ فَرْوَتِهِ ٱلْحَقِيْرَةِ ٱلَّتِي يَلْبَسُهَا ، فَيَكُوْنُ فِيْهَا مِنْ بَذَاذَةِ ٱلْهَيْئَةِ كَالأَجِيْرِ ٱلَّذِي لَمْ يَجِدْ مَنْ يَسْتَأْجِرُهُ ، فَظَهَرَ ٱلْجُوْعُ حَتَّىٰ عَلَىٰ ثِيَابِهِ . . . وَقَدْ مَرَّ بِٱلشَّيْخِ رَجُلٌ مِنَ ٱلْمُسَوِّدَةِ(1) وَكَانَ ٱلشَّيْخُ فِيْ فَرْوَتِهِ هَـٰذِهِ جَالِسًا فِيْ مَوْضِعٍ فِيْهِ خَلِيْجٌ مِنَ ٱلْمَطَرِ ، فَجَاءَهُ ٱلْمُسَوِّدُ فَقَالَ : قُمْ فَٱعْبُرْ بِي هَـٰذَا ٱلْخَلِيْجَ . وَجَذَبَهُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ وَرَكِبَهُ وَٱلشَّيْخُ يَضْحَكُ .

وَكُنْتُ أُرِيْدُ أَنْ أَقُوْلَ لِأُمِّ مُحَمَّدٍ : إِنَّ ٱلصَّحْوَ فِي ٱلسَّمَاءِ لَا يَكُوْنُ فَقْرًا فِي ٱلسَّمَاءِ ، وَإِنَّ فَرْوَةَ ٱلشَّيْخِ تَعْرِفُ ٱلشَّيْخَ أَكْثَرَ مِنْ زَوْجَتِهِ ، وَإِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ فِيْ لَذَّاتِ ٱلدُّنْيَا ، كَالرَّجُلِ ٱلَّذِي يَضَعُ قَدَمَيْهِ فِي ٱلطِّيْنِ لِيَمْشِيَ ، أَكْبَرُ هَمِّهِ أَلَّا يُجَاوِزَ ٱلطِّيْنُ قَدَمَيْهِ .

(1) ٱلَّذِيْنَ يَلْبَسُوْنَ ٱلسَّوَادَ ، وَهُمْ شِيْعَةُ ٱلعَبَّاسِيِّيْنَ .

وَلَـٰكِنَّ صَوْتَ ٱلشَّيْخِ ٱرْتَفَعَ : هَلْ عَلَيْكُمْ إِذْنٌ ؟

قَالَ [أَبُو] مُعَاوِيَةَ : فَبَدَرْتُ وَقُلْتُ : بِسْمِ ٱللهِ ٱدْخُلْ ؛ كَأَنِّي أَنَا ٱلزَّوْجَةُ . . . وَسَمِعْتُ هَمْسًا مِنَ ٱلضَّحِكِ ؛ وَدَخَلَ أَبُو مُحَمَّدٍ فَجَلَسَ إِلَىٰ جَانِبِي ، وَغَمَزَنِي فِيْ ظَهْرِي غَمْزَةً ؛ فَقُلْتُ : يَا أُمَّ مُحَمَّدٍ ! إِنَّ شَيْخَكِ فِيْ وَرَعِهِ وَزُهْدِهِ لَيُشْبِعُهُ مَا يُشْبِعُ ٱلْهُدْهُدَ ، وَيَرْوِيْهِ مَا يَرْوِي ٱلْعُصْفُوْرَ ، وَلَئِنْ كَانَ مُتَهَدِّمًا فَإِنَّهُ جَبَلُ عِلْمٍ ، « وَلَا تَنْظُرِيْ إِلَىٰ عَمَشِ عَيْنَيْهِ ، وَحُمُوْشَةِ سَاقَيْهِ ، فَإِنَّهُ إِمَامٌ وَلَهُ قَدْرٌ »(1) .

فَصَاحَ ٱلشَّيْخُ : قُمْ أَخْزَاكَ ٱللهُ ، مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ تُعَرِّفَهَا عُيُوْبِي !

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَلَـٰكِنِّي لَمْ أَقُمْ ، بَلْ قَامَتْ زَوْجَةُ ٱلشَّيْخِ فَقَبَّلَتْ يَدَهُ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(1) مَا بَيْنَ ٱلقَوْسَيْنِ هُوَ ٱلوَارِدُ فِي ٱلتَّارِيْخِ ، وَعَلَيْهِ بَنَيْنَا هَـٰذِهِ ٱلقِصَّةَ .

قُبْحٌ جَمِيلٌ(*)

دَخَلَ أَحْمَدُ بْنُ أَيْمَنَ ، كَاتِبُ ٱبْنِ طُولُونَ ٱلْبَصْرَةَ ، فَصَنَعَ لَهُ مُسْلِمُ بْنُ عِمْرَانَ ٱلتَّاجِرُ ٱلْمُتَأَدِّبُ ، صَنِيعًا دَعَا إِلَيْهِ جَمَاعَةً مِنْ وُجُوهِ ٱلتُّجَّارِ وَأَعْيَانِ ٱلْأُدَبَاءِ ، فَجَاءَ ٱبْنَا صَاحِبِ ٱلدَّعْوَةِ ، وَهُمَا غُلَامَانِ ، فَوَقَفَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِيهِمَا ، وَجَعَلَ ٱبْنُ أَيْمَنَ يُطِيلُ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِمَا ، وَيَعْجَبُ مِنْ حُسْنِهِمَا وَبَزَّتِهِمَا وَرُوَائِهِمَا ، حَتَّىٰ كَأَنَّمَا أُفْرِغَا فِي ٱلْجَمَالِ وَزِينَتِهِ إِفْرَاغًا ، أَوْ كَأَنَّمَا جَاءَا مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ لَا مِنْ أَبَوَيْنِ مِنَ ٱلنَّاسِ ، أَوْ هُمَا قَدْ نَبَتَا فِي مِثْلِ تَهَاوِيلِ ٱلزَّهْرِ مِنْ زِينَتِهِ ٱلَّتِي تُبْدِعُهَا ٱلشَّمْسُ ، وَيَصْقُلُهَا ٱلْفَجْرُ ، وَيَتَنَدَّىٰ بِهَا رُوحُ ٱلْمَاءِ ٱلْعَذْبِ ؛ وَكَانَ لَا يَصْرِفُ نَظَرَهُ عَنْهُمَا إِلَّا رَجَعَ بِهِ ٱلنَّظَرُ ، كَأَنَّ جَمَالَهُمَا لَا يَنْتَهِي فَمَا يَنْتَهِي ٱلْإِعْجَابُ بِهِ .

وَجَعَلَ أَبُوهُمَا يُسَارِقُهُ ٱلنَّظَرَ مُسَارَقَةً ، وَيَبْدُو كَٱلْمُتَشَاغِلِ عَنْهُ ، لِيَدَعَ لَهُ أَنْ يَتَوَسَّمَ وَيَتَأَمَّلَ مَا شَاءَ ، وَأَنْ يَمْلأَ عَيْنَيْهِ مِمَّا أَعْجَبَهُ مِنْ لُؤْلُؤَتَيْهِ وَمَخَايِلِهِمَا ؛ بَيْدَ أَنَّ ٱلْحُسْنَ ٱلْفَاتِنَ يَأْبَىٰ دَائِمًا إِلَّا أَنْ يَسْمَعَ مِنْ نَاظِرِهِ كَلِمَةَ ٱلْإِعْجَابِ بِهِ ، حَتَّىٰ لَيَنْطِقُ ٱلْمَرْءُ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ أَحْيَانًا ، وَكَأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ لِسَانِهِ أَخْذًا ، وَحَتَّىٰ لَيُحِسُّ أَنَّ غَرِيزَةً فِي دَاخِلِهِ كَلَّمَهَا ٱلْحُسْنُ مِنْ كَلَامِهِ فَرَدَّتْ عَلَيْهِ مِنْ كَلَامِهَا .

قَالَ ٱبْنُ أَيْمَنَ : سُبْحَانَ ٱللهِ ؛ مَا رَأَيْتُ كَٱلْيَوْمِ قَطُّ دُمْيَتَيْنِ لَا تُفْتَحُ ٱلْأَعْيُنُ عَلَىٰ أَجْمَلَ مِنْهُمَا ؛ وَلَوْ نَزَلَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَأَلْبَسَتْهُمَا ٱلْمَلَائِكَةُ ثِيَابًا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ، مَا حَسِبْتُ أَنْ تَصْنَعَ ٱلْمَلَائِكَةُ أَظْرَفَ وَلَا أَحْسَنَ مِمَّا صَنَعَتْ أُمُّهُمَا .

فَٱلْتَفَتَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ ، وَقَالَ : أُحِبُّ أَنْ تُعَوِّذَهُمَا . فَمَدَّ ٱلرَّجُلُ يَدَهُ وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا ، وَعَوَّذَهُمَا بِٱلْحَدِيثِ ٱلْمَأْثُورِ ، وَدَعَا لَهُمَا ، ثُمَّ قَالَ : مَا أَرَاكَ إِلَّا ٱسْتَجَدْتَ ٱلْأُمَّ فَحَسُنَ نَسْلُكَ ، وَجَاءَ كَٱللُّؤْلُؤِ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، صِغَارُهُ مِنْ كِبَارِهِ ؛ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا تَكُونَ قَدْ

(*) «الرسالة» العدد : ٦٨ ، ١٣ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٢ أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٧٢٣ ـ ١٧٢٧ .

تَزَوَّجْتَ ٱبْنَةَ قَيْصَرَ فَأَوْلَدْتَهَا هَـٰذَيْنِ ، وَأَخْرَجَتْهُمَا هِيَ لَكَ فِي صِيغَتِهَا ٱلْمُلُوكِيَّةِ(١) مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْأَدَبِ وَٱلرَّوْنَقِ ، وَمَا أَرَىٰ مِثْلَهُمَا يَكُونَانِ فِي مَوْضِعٍ إِلَّا كَانَ حَوْلَهُمَا جَلَالُ ٱلْمُلْكِ وَوَقَارُهُ ، مِمَّا يَكُونُ حَوْلَهُمَا مِنْ نُورِ تِلْكَ ٱلْأُمِّ .

فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَأَنْتَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ غَيْرُ مُصَدِّقٍ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنِّي لَا أُحِبُّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلَّتِي تَصِفُ ، وَلَيْسَ بِي هَوًى إِلَّا فِي ٱمْرَأَةٍ دَمِيمَةٍ هِيَ بِدَمَامَتِهَا أَحَبُّ ٱلنِّسَاءِ إِلَيَّ ، وَأَخَفُّهُنَّ عَلَىٰ قَلْبِي ، وَأَصْلَحُهُنَّ لِي ، مَا أَعْدِلُ بِهَا ٱبْنَةَ قَيْصَرَ وَلَا ٱبْنَةَ كِسْرَىٰ .

فَبَقِيَ ٱبْنُ أَيْمَنَ كَٱلْمَشْدُوهِ مِنْ غَرَابَةِ مَا يَسْمَعُ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَأْكُلُ ٱلطِّينَ وَيَسْتَطِيبُهُ لِفَسَادٍ فِي طَبْعِهِ ، فَلَا يَحْلُو ٱلسُّكَّرُ فِي فَمِهِ وَإِنْ كَانَ مُكَرَّرًا خَالِصَ ٱلْحَلَاوَةِ ؛ وَرَثَىٰ أَشَدَّ ٱلرِّثَاءِ لِأُمِّ ٱلْغُلَامَيْنِ أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ ٱلْجِلْفُ قَدْ ضَارَّهَا(٢) بِتِلْكَ ٱلدَّمِيمَةِ أَوْ تَسَرَّىٰ بِهَا عَلَيْهَا ؛ فَقَالَ وَمَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ : أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ كَفَرْتَ ٱلنِّعْمَةَ ، وَغَدَرْتَ وَجَحَدْتَ وَبَالَغْتَ فِي ٱلضُّرِّ ، وَإِنَّ أُمَّ هَـٰذَيْنِ ٱلْغُلَامَيْنِ لَٱمْرَأَةٌ فَوْقَ ٱلنِّسَاءِ ، إِذْ لَمْ يَتَبَيَّنْ فِي وَلَدَيْهَا أَثَرٌ مِنْ تَغَيُّرِ طَبْعِهَا وَكُدُورِ(٣) نَفْسِهَا ، وَقَدْ كَانَ يَسَعُهَا ٱلْعُذْرُ لَوْ جَعَلَتْهُمَا سَخْنَةَ عَيْنٍ لَكَ ، وَأَخْرَجَتْهُمَا لِلنَّاسِ فِي مَسَاوِئِكَ لَا فِي مَحَاسِنِكَ ، وَمَا أَدْرِي كَيْفَ لَا تَنِدُّ عَلَيْكَ ، وَلَا كَيْفَ صَلُحَتْ بِمِقْدَارِ مَا فَسَدْتَ أَنْتَ ، وَٱسْتَقَامَتْ بِمِقْدَارِ مَا ٱلْتَوَيْتَ ، وَعَجِيبٌ وَٱللهِ شَأْنُكُمَا ! إِنَّهَا لَتَغْلُو فِي كَرَمِ ٱلْأَصْلِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَٱلْخُلُقِ ، كَمَا تَغْلُو أَنْتَ فِي ٱلْبَهِيمِيَّةِ وَٱلنَّزَقِ وَٱلْغَدْرِ وَسُوءِ ٱلْمُكَافَأَةِ .

قَالَ مُسْلِمٌ : فَهُوَ وَٱللهِ مَا قُلْتُ لَكَ ، وَمَا أُحِبُّ إِلَّا ٱمْرَأَةً دَمِيمَةً قَدْ ذَهَبَتْ بِي كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَأَنْسَتْنِي كُلَّ جَمِيلَةٍ فِي ٱلنِّسَاءِ ، وَلَئِنْ أَخَذْتُ أَصِفُهَا لَكَ لَمَا جَاءَتِ ٱلْأَلْفَاظُ إِلَّا مِنَ ٱلْقُبْحِ وَٱلشَّوْهَةِ وَٱلدَّمَامَةِ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَا تَجِيءُ إِلَّا دَالَّةً عَلَىٰ أَجْمَلِ مَعَانِي ٱلْمَرْأَةِ عِنْدَ رَجُلِهَا فِي ٱلْحَظْوَةِ وَٱلرِّضَىٰ وَجَمَالِ ٱلطَّبْعِ ؛ وَٱنْظُرْ كَيْفَ يَلْتَئِمُ أَنْ تَكُونَ ٱلزِّيَادَةُ فِي

(١) تَجِيءُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ فِي كُتُبِ ٱلْأَدَبِ وَٱلتَّارِيخِ عَلَىٰ غَيْرِ قَاعِدَةِ ٱلنَّسَبِ ، وَهُوَ ٱلْأَفْصَحُ فِي رَأْيِنَا ، وَمِنْ ذَلِكَ تَسْمِيَةُ ٱلْإِمَامِ ٱبْنِ جِنِّيٍّ كِتَابَهُ : «ٱلتَّصْرِيفُ ٱلْمُلُوكِيُّ» .

(٢) ٱلْمُضَارَّةُ : ٱتِّخَاذُ ٱلضَّرَّةِ عَلَى ٱلزَّوْجَةِ .

(٣) في الأصل : «كدر» بدلًا من : «كدور» .

ٱلْقُبْحِ هِيَ زِيَادَةٌ فِيْ ٱلْحُسْنِ وَزِيَادَةٌ فِيْ ٱلْحُبِّ ، وَكَيْفَ يَكُوْنُ ٱللَّفْظُ ٱلشَّائِهُ ، وَمَا فِيْهِ لِنَفْسِيْ إِلَّا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْجَمِيْلُ ، وَإِلَّا ٱلْحِسُّ ٱلصَّادِقُ بِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، وَإِلَّا ٱلاهْتِزَازُ وَٱلطَّرَبُ لِهَـٰذَا ٱلْحِسِّ ؟

قَالَ ٱبْنُ أَيْمَنَ : وَٱللهِ إِنْ أَرَاكَ إِلَّا شَيْطَانًا مِنَ ٱلشَّيَاطِيْنِ ، وَقَدْ عَجَّلَ ٱللهُ لَكَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلدَّمِيْمَةِ زَوْجَتِكَ ٱلَّتِيْ كَانَتْ لَكَ فِيْ ٱلْجَحِيْمِ ، لِتَجْتَمِعَا مَعًا عَلَىٰ تَعْذِيْبِ تِلْكَ ٱلْحَوْرَاءِ ٱلْمَلَائِكِيَّةِ أُمِّ هَـٰذَيْنِ ٱلصَّغِيْرَيْنِ ، وَمَا أَدْرِيْ كَيْفَ يَتَّصِلُ مَا بَيْنَكُمَا بَعْدَ هَـٰذَا ٱلَّذِيْ أَدْخَلْتَ مِنَ ٱلْقُبْحِ وَٱلدَّمَامَةِ فِيْ مُعَاشَرَتِهَا وَمُعَايَشَتِهَا ، وَبَعْدَ أَنْ جَعَلْتَهَا لَا تَنْظُرُ إِلَيْكَ إِلَّا بِنَظْرَتِهَا إِلَىٰ تِلْكَ . أَفَبَهِيْمَةٌ هِيَ لَا تَعْقِلُ ، أَمْ أَنْتَ رَجُلٌ سَاحِرٌ ، أَمْ فِيْكَ مَا لَيْسَ فِيْ ٱلنَّاسِ ، أَمْ أَنَا لَا أَفْقَهُ شَيْئًا ؟

فَضَحِكَ مُسْلِمٌ وَقَالَ : إِنَّ لِيْ خَبَرًا عَجِيْبًا : كُنْتُ أَنْزِلُ ٱلأُبُلَّةَ وَأَنَا مُتَعَيِّشٌ(١) ، فَحَمَلْتُ مِنْهَا تِجَارَةً إِلَىٰ ٱلْبَصْرَةِ فَرَبِحْتُ، وَلَمْ أَزَلْ أَحْمِلُ مِنْ هَـٰذِهِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ فَأَرْبَحُ وَلَا أَخْسَرُ، حَتَّىٰ كَثُرَ مَالِيْ ، ثُمَّ بَدَا لِيْ أَنْ أَتَّسِعَ فِيْ ٱلآفَاقِ ٱلْبَعِيْدَةِ لِأَجْمَعَ ٱلتِّجَارَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَأَبْسُطَ يَدِيْ لِلْمَالِ حَيْثُ يَكْثُرُ وَحَيْثُ يَقِلُّ ، وَكُنْتُ فِيْ مَيْعَةِ ٱلشَّبَابِ وَغُلَوَائِهِ ، وَأَوَّلِ هَجْمَةِ ٱلْفُتُوَّةِ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا، وَقُلْتُ: إِنَّ فِيْ ذَلِكَ خِلَالًا ؛ فَأَرَىٰ ٱلأُمَمَ فِيْ بِلَادِهَا وَمَعَايِشِهَا، وَأَتَقَلَّبُ فِيْ ٱلتِّجَارَةِ، وَأَجْمَعُ ٱلْمَالَ وَٱلطَّرَائِفَ ، وَأُفِيْدُ عِظَةً وَعِبْرَةً ، وَأَعْلَمُ عِلْمًا جَدِيْدًا ، وَلَعَلَّنِيْ أُصِيْبُ ٱلزَّوْجَةَ ٱلَّتِيْ ٱشْتَهَيْتُهَا(٢) وَأُصَوِّرُ لَهَا فِيْ نَفْسِيْ ٱلتَّصَاوِيْرَ ، فَإِنَّ أَمْرِيْ مِنْ أَوَّلِهِ كَانَ إِلَىٰ عُلُوٍّ فَلَا أُرِيْدُ إِلَّا ٱلْغَايَةَ ، وَلَا أَرْمِيْ إِلَّا لِلسَّبَقِ ، وَلَا أَرْضَىٰ أَنْ أَتَخَلَّفَ فِيْ جَمَاعَةِ ٱلنَّاسِ . وَكَأَنِّيْ لَمْ أَرَ فِيْ ٱلأُبُلَّةِ وَلَا فِيْ ٱلْبَصْرَةِ ٱمْرَأَةً بِتِلْكَ ٱلتَّصَاوِيْرِ ٱلَّتِيْ فِيْ نَفْسِيْ ، فَتَأْخُذَهَا عَيْنِيْ ، فَتُعْجِبَنِيْ ، فَتَصْلُحَ لِيْ ، فَأَتَزَوَّجَ بِهَا ؛ وَطَمِعْتُ أَنْ أَسْتَنْزِلَ نَجْمًا مِنْ تِلْكَ ٱلآفَاقِ أُحْرِزُهُ فِيْ دَارِيْ ؛ فَمَا زِلْتُ أَرْمِيْ مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ حَتَّىٰ دَخَلْتُ بَلْخَ(٣) مِنْ أَجَلِّ مُدُنِ خُرَاسَانَ

---

(١) { أَيْ : مُتَكَسِّبٌ لِيَعِيْشَ لَا لِيَغْتَنِيَ ؛ وَهَـٰذَا يُسَمِّيْهِ ٱلْعَامَّةُ : ٱلْمُتَسَبِّبُ } .
(٢) فِيْ ٱلأَصْلِ : « أَشْتَهِيهَا » بَدَلًا من : « ٱشْتَهَيْتُهَا » .
(٣) مَوْقِعُهَا ٱلْيَوْمَ فِيْ بِلَادِ ٱلأَفْغَانِ . [وَهِيَ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا ٱلْيَوْمَ : مَزَارُ شَرِيف ؛ وَبَلْخُ تَقَعُ بِٱلْقُرْبِ مِنْهَا ، وَأَصْبَحَ مَزَارُ شَرِيف هُوَ ٱلْعَلَمُ عَلَى هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ، وَسَبَبُ ٱلتَّسْمِيَةِ أَنَّ بَعْضَ ٱلشِّيْعَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ٱلإِمَامَ عَلِيًّا كَرَّمَ ٱللهُ وَجْهَهُ مَدْفُونٌ هُنَاكَ] .

وَأَوْسَعِهَا غَلَّةً ؛ تُحْمَلُ غَلَّتُهَا إِلَىٰ جَمِيْعِ خُرَاسَانَ وَإِلَىٰ خُوَارِزْمَ ؛ وَفِيْهَا يَوْمَئِذٍ ـ كَانَ ـ عَالِمُهَا وَإِمَامُهَا أَبُوْ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْبَلْخِيُّ ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ٱسْمَهُ فِيْ ٱلْبَصْرَةِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ نَزَلَهَا فِيْ رِحْلَتِهِ وَأَكْثَرَ ٱلْكِتَابَةَ بِهَا عَنِ ٱلرُّوَاةِ وَٱلْعُلَمَاءِ ؛ فَٱسْتَخَفَّتْنِيْ إِلَيْهِ نَزِيَّةٌ مِنْ شَوْقِيْ إِلَىٰ ٱلْوَطَنِ ، كَأَنَّ فِيْهِ بَلَدِيْ وَأَهْلِيْ ؛ فَذَهَبْتُ إِلَىٰ حَلْقَتِهِ ، وَسَمِعْتُهُ يُفَسِّرُ قَوْلَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ : « سَوْدَاءُ وَلُوْدٌ خَيْرٌ مِنْ حَسْنَاءَ لَا تَلِدُ » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٣٤١] . فَمَا كَانَ ٱلشَّيْخُ إِلَّا فِيْ سَحَابَةٍ ، وَمَا كَانَ كَلَامُهُ إِلَّا وَحْيًا يُوْحَىٰ إِلَيْهِ . سَمِعْتُ وَٱللهِ كَلَامًا لَا عَهْدَ لِيْ بِمِثْلِهِ ، وَأَنَا مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِيْ أَجْلِسُ إِلَىٰ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلأُدَبَاءِ ، وَأُدَاخِلُهُمْ فِيْ فُنُوْنٍ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ ، فَمَا سَمِعْتُ وَلَا قَرَأْتُ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْبَلْخِيِّ ، وَلَقَدْ حَفِظْتُهُ حَتَّىٰ مَا تَفُوْتُنِيْ لَفْظَةٌ مِنْهُ ، وَبَقِيَ هَـٰذَا ٱلْكَلَامُ يَعْمَلُ فِيْ نَفْسِيْ عَمَلَهُ ، وَيَدْفَعُنِيْ إِلَىٰ مَعَانِيْهِ دَفْعًا ، حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَيَّ مَا سَأُحَدِّثُكَ بِهِ ، إِنَّ ٱلْكَلِمَةَ فِيْ ٱلذِّهْنِ لَتُوْجِدُ ٱلْحَادِثَةَ فِيْ ٱلدُّنْيَا .

قَالَ ٱبْنُ أَيْمَنَ : ٱطْوِ خَبَرَكَ إِنْ شِئْتَ ، وَلَـٰكِنِ ٱذْكُرْ لِيْ كَلَامَ ٱلْبَلْخِيِّ ، فَقَدْ تَعَلَّقَتْ نَفْسِيْ بِهِ .

قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ ٱللهِ يَقُوْلُ فِيْ تَأْوِيْلِ ذَلِكَ ٱلْحَدِيْثِ : أَمَّا فِيْ لَفْظِ ٱلْحَدِيْثِ فَهُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِ بَلَاغَةِ نَبِيِّنَا ﷺ ، وَهُوَ مِنْ أَعْجَبِ ٱلأَدَبِ وَأَبْرَعِهِ ، مَا عَلِمْتُ أَحَدًا تَنَبَّهَ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ ﷺ لَا يُرِيْدُ ٱلسَّوْدَاءَ بِخُصُوْصِهَا ، وَلَـٰكِنَّهُ كَنَىٰ بِهَا عَمَّا تَحْتَ ٱلسَّوَادِ ، وَمَا فَوْقَ ٱلسَّوَادِ ، وَمَا هُوَ إِلَىٰ ٱلسَّوَادِ مِنَ ٱلصِّفَاتِ ٱلَّتِيْ يَتَقَبَّحُهَا ٱلرِّجَالُ فِيْ خِلْقَةِ ٱلنِّسَاءِ وَصُوَرِهِنَّ ؛ فَأَلْطَفَ ٱلتَّعْبِيْرَ وَرَقَّ بِهِ ، رَفْعًا لِشَأْنِ ٱلنِّسَاءِ أَنْ يَصِفَ ٱمْرَأَةً مِنْهُنَّ بِٱلْقُبْحِ وَٱلدَّمَامَةِ ، وَتَنْزِيْهًا لِهَـٰذَا ٱلْجِنْسِ ٱلْكَرِيْمِ ، وَتَنْزِيْهًا لِلِسَانِهِ ٱلنَّبَوِيِّ ؛ كَأَنَّهُ ﷺ يَقُوْلُ : إِنَّ ذِكْرَ قُبْحِ ٱلْمَرْأَةِ هُوَ فِيْ نَفْسِهِ قَبِيْحٌ فِيْ ٱلأَدَبِ ، فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ أُمٌّ أَوْ فِيْ سَبِيْلِ ٱلأُمُوْمَةِ ؛ وَ« ٱلْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ ٱلأُمَّهَاتِ » [« الجامع الصغير » ، رقم : ٣٦٤٢] ؛ فَكَيْفَ تَكُوْنُ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ مَا يُتَخَيَّلُ فِيْ ٱلْحُسْنِ تَحْتَ قَدَمَيْ ٱمْرَأَةٍ ، ثُمَّ يَجُوْزُ أَدَبًا أَوْ عَقْلًا أَنْ تُوْصَفَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ بِٱلْقُبْحِ .

أَمَا إِنَّ ٱلْحَدِيْثَ كَٱلنَّصِّ عَلَىٰ أَنَّ مِنْ كَمَالِ أَدَبِ ٱلرَّجُلِ إِذَا كَانَ رَجُلًا أَلَّا يَصِفَ ٱمْرَأَةً بِقُبْحِ ٱلصُّوْرَةِ ٱلْبَتَّةَ ، وَأَلَّا يَجْرِيَ فِيْ لِسَانِهِ لَفْظُ ٱلْقُبْحِ وَمَا فِيْ مَعْنَاهُ ، مَوْصُوْفًا بِهِ هَـٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِيْ مِنْهُ أُمُّهُ : أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُمَزِّقَ وَجْهَ أُمِّهِ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْجَارِحَةِ ؟

وَقَدْ كَانَ ٱلْعَرَبُ يُفَصِّلُوْنَ لِمَعَانِي ٱلدَّمَامَةِ فِي ٱلنِّسَاءِ أَلْفَاظًا كَثِيْرَةً ؛ إِذْ كَانُوا لَا يَرْفَعُوْنَ ٱلْمَرْأَةَ عَنِ ٱلسَّائِمَةِ وَٱلْمَاشِيَةِ ؛ أَمَّا أَكْمَلُ ٱلْخَلْقِ ﷺ ، فَمَا زَالَ يُوصِيْ بِٱلنِّسَاءِ وَيَرْفَعُ شَأْنَهُنَّ حَتَّىٰ كَانَ آخِرُ مَا وَصَّىٰ بِهِ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ ، إِلَىٰ أَنْ تَلَجْلَجَ لِسَانُهُ وَخَفِيَ كَلَامُهُ ؛ جَعَلَ يَقُوْلُ : « ٱلصَّلَاةَ ... ٱلصَّلَاةَ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، لَا تُكَلِّفُوْهُمْ مَا لَا يُطِيْقُوْنَ ؛ ٱللهَ ٱللهَ فِيْ ٱلنِّسَاءِ » . [قال العراقي رحمه الله في « تخريج أحاديث الإحياء » : أخرجه النسائي في « الكبرى » أنتهى . وراجع آبن ماجه، رقم: ٢٦٩٧؛ «مسند أحمد» رقم: ١١٧٥٩؛ وأبو داود، رقم: ٥١٥٦؛ آبن ماجه، رقم: ٢٦٩٨؛ «مسند أحمد»، رقم: ٥٨٦] .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : كَأَنَّ ٱلْمَرْأَةَ مِنْ حَيْثُ هِيَ إِنَّمَا هِيَ صَلَاةٌ تَتَعَبَّدُ بِهَا ٱلْفَضَائِلُ ، فَوَجَبَتْ رِعَايَتُهَا وَتَلَقِّيْهَا بِحَقِّهَا ؛ وَقَدْ ذَكَرَهَا بَعْدَ ٱلرَّقِيْقِ ، لِأَنَّ ٱلزَّوَاجَ بِطَبِيْعَتِهِ نَوْعُ رِقٍّ ؛ وَلَـٰكِنَّهُ خَتَمَ بِهَا وَقَدْ بَدَأَ بِٱلصَّلَاةِ ، لِأَنَّ ٱلزَّوَاجَ فِيْ حَقِيْقَتِهِ نَوْعُ عِبَادَةٍ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَلَوْ أَنَّ أُمًّا كَانَتْ دَمِيْمَةً شَوْهَاءَ فِيْ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ، لَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ فِيْ عَيْنِ أَطْفَالِهَا أَجْمَلَ مِنْ مَلِكَةٍ عَلَىٰ عَرْشِهَا ؛ فَفِيْ ٱلدُّنْيَا مَنْ يَصِفُهَا بِٱلْجَمَالِ صَادِقًا فِيْ حِسِّهِ وَلَفْظِهِ، لَمْ يَكْذِبْ فِيْ أَحَدِهِمَا ؛ فَقَدِ ٱنْتَفَىٰ ٱلْقُبْحُ إِذًا، وَصَارَ وَصْفُهَا بِهِ فِيْ رَأْيِ ٱلْعَيْنِ تَكْذِيبًا لِوَصْفِهَا فِيْ رَأْيِ ٱلنَّفْسِ، وَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ ٱلْوَصْفَانِ قَدْ تَعَارَضَا، فَلَا جَمَالَ وَلَا دَمَامَةَ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَأَمَّا فِيْ مَعْنَىٰ ٱلْحَدِيْثِ ، فَهُوَ ﷺ يُقَرِّرُ لِلنَّاسِ أَنَّ كَرَمَ ٱلْمَرْأَةِ بِأُمُوْمَتِهَا ، فَإِذَا قِيْلَ : إِنَّ فِيْ صُوْرَتِهَا قُبْحًا ، فَٱلْحَسْنَاءُ ٱلَّتِيْ لَا تَلِدُ أَقْبَحُ مِنْهَا فِيْ ٱلْمَعْنَىٰ . وَٱنْظُرْ أَنْتَ كَيْفَ يَكُوْنُ ٱلْقُبْحُ ٱلَّذِيْ يُقَالُ إِنَّ ٱلْحُسْنَ أَقْبَحُ مِنْهُ . . . !

فَمِنْ أَيْنَ تَنَاوَلْتَ ٱلْحَدِيْثَ رَأَيْتَهُ دَائِرًا عَلَىٰ تَقْدِيْرِ أَنْ لَا قُبْحَ فِيْ صُوْرَةِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَأَنَّهَا مُنَزَّهَةٌ فِيْ لِسَانِ ٱلْمُؤْمِنِ أَنْ تُوْصَفَ بِهَـٰذَا ٱلْوَصْفِ ، فَإِنَّ كَلِمَاتِ ٱلْقُبْحِ وَٱلْحُسْنِ لُغَةٌ بَهِيْمِيَّةٌ تَجْعَلُ حُبَّ ٱلْمَرْأَةِ حُبًّا عَلَىٰ طَرِيْقَةِ ٱلْبَهَائِمِ ، مِنْ حَيْثُ تُفَضِّلُهَا طَرِيْقَةُ ٱلْبَهَائِمِ بِأَنَّ ٱلْحَيَوَانَ عَلَىٰ ٱحْتِبَاسِهِ فِيْ غَرَائِزِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، لَا يَتَكَذَّبُ فِيْ ٱلْغَرِيْزَةِ وَلَا فِيْ ٱلشَّهْوَةِ بِتَلْوِيْنِهِمَا أَلْوَانًا مِنْ خَيَالِهِ ، وَوَضْعِهِمَا مَرَّةً فَوْقَ ٱلْحَدِّ ، وَمَرَّةً دُوْنَ ٱلْحَدِّ[1] .

(١) { بَسَطْنَا هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِيْ كِتَابِنَا « ٱلسَّحَابُ ٱلْأَحْمَرُ » } .

فَأَكْبَرُ ٱلشَّأْنِ هُوَ لِلْمَرْأَةِ ٱلَّتِيْ تَجْعَلُ ٱلْإِنْسَانَ كَبِيْرًا فِيْ إِنْسَانِيَّتِهِ ، لَا ٱلَّتِيْ تَجْعَلُهُ كَبِيْرًا فِيْ حَيْوَانِيَّتِهِ ، فَلَوْ كَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلثَّانِيَةُ هِيَ ٱلَّتِيْ يَصْطَلِحُ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ وَصْفِهَا بِٱلْجَمَالِ فَهِيَ ٱلْقَبِيْحَةُ لَا ٱلْجَمِيْلَةُ ، إِذْ يَجِبُ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِ ٱلصَّحِيْحِ ٱلْإِيْمَانِ أَنْ يَعِيْشَ فِيْمَا يَصْلُحُ بِهِ ٱلنَّاسُ ، لَا فِيْمَا يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ ؛ فَإِنَّ ٱلْخُرُوْجَ مِنَ ٱلْحُدُوْدِ ٱلضَّيِّقَةِ لِلْأَلْفَاظِ ، إِلَىٰ ٱلْحَقَائِقِ ٱلشَّامِلَةِ ، هُوَ ٱلِاسْتِقَامَةُ بِٱلْحَيَاةِ عَلَىٰ طَرِيْقِهَا ٱلْمُؤَدِّيْ إِلَىٰ نَعِيْمِ ٱلْآخِرَةِ وَثَوَابِهَا .

وَهُنَاكَ ذَاتَانِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ : إِحْدَاهُمَا غَائِبَةٌ عَنْهُ ، وَٱلْأُخْرَىٰ حَاضِرَةٌ فِيْهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَصِلُ مِنْ هَـٰذِهِ إِلَىٰ تِلْكَ ، فَلَا يَنْبَغِيْ أَنْ يَحْصُرَ ٱلسَّمَاوِيَّةَ ٱلْوَاسِعَةَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلتُّرَابِيَّةِ ٱلضَّيِّقَةِ ؛ وَٱلْقُبْحُ إِنَّمَا هُوَ لَفْظٌ تُرَابِيٌّ يُشَارُ بِهِ إِلَىٰ صُوْرَةٍ وَقَعَ فِيْهَا مِنَ ٱلتَّشْوِيْهِ مِثْلُ مَعَانِيْ ٱلتُّرَابِ ، وَٱلصُّوْرَةُ فَانِيَةٌ زَائِلَةٌ ، وَلَـٰكِنَّ عَمَلَهَا بَاقٍ ؛ فَٱلنَّظَرُ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ إِلَىٰ ٱلْعَمَلِ ؛ فَٱلْعَمَلُ هُوَ لَا غَيْرُهُ ٱلَّذِيْ تَتَعَاوَرُهُ أَلْفَاظُ ٱلْحُسْنِ وَٱلْقُبْحِ .

وَبِهَـٰذَا ٱلْكَمَالِ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَهَـٰذَا ٱلْأَدَبِ ، قَدْ يَنْظُرُ ٱلرَّجُلُ ٱلْفَاضِلُ مِنْ وَجْهِ زَوْجَتِهِ ٱلشَّوْهَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ ، لَا إِلَىٰ ٱلشَّوْهَاءِ ، وَلَـٰكِنْ إِلَىٰ ٱلْحُوْرِ ٱلْعِيْنِ . إِنَّهُمَا فِيْ رَأْيِ ٱلْعَيْنِ رَجُلٌ وَٱمْرَأَةٌ فِيْ صُوْرَتَيْنِ مُتَنَافِرَتَيْنِ جَمَالًا وَقُبْحًا ؛ أَمَّا فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ وَٱلْعَمَلِ وَكَمَالِ ٱلْإِيْمَانِ ٱلرُّوْحِيِّ ، فَهُمَا إِرَادَتَانِ مُتَّحِدَتَانِ تَجْذُبُ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ جَاذِبِيَّةَ عِشْقٍ ، وَتَلْتَقِيَانِ مَعًا فِيْ ٱلنَّفْسَيْنِ ٱلْوَاسِعَتَيْنِ ، ٱلْمُرَادِ بِهِمَا ٱلْفَضِيْلَةُ وَثَوَابُ ٱللهِ وَٱلْإِنْسَانِيَّةُ ؛ وَلِذَلِكَ ٱخْتَارَ ٱلْإِمَامُ أَحْمَدُ ٱبْنُ حَنْبَلٍ عَوْرَاءَ عَلَىٰ أُخْتِهَا ، وَكَانَتْ أُخْتُهَا جَمِيْلَةً ، فَسَأَلَ : مَنْ أَعْقَلُهُمَا ؟ فَقِيْلَ : ٱلْعَوْرَاءُ . فَقَالَ : زَوِّجُوْنِيْ إِيَّاهَا . فَكَانَتِ ٱلْعَوْرَاءُ فِيْ رَأْيِ ٱلْإِمَامِ وَإِرَادَتِهِ هِيَ ذَاتَ ٱلْعَيْنَيْنِ ٱلْكَحِيْلَتَيْنِ ، لِوُفُوْرِ عَقْلِهِ وَكَمَالِ إِيْمَانِهِ .

قَالَ أَبُوْ عَبْدِ ٱللهِ : وَٱلْحَدِيْثُ ٱلشَّرِيْفُ بَعْدَ كُلِّ هَـٰذَا ٱلَّذِيْ حَكَيْنَاهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْحُبَّ مَتَىٰ كَانَ إِنْسَانِيًّا جَارِيًا عَلَىٰ قَوَاعِدِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْعَامَّةِ ، مُتَّسِعًا لَهَا غَيْرَ مَحْصُوْرٍ فِيْ ٱلْخُصُوْصِ مِنْهَا ـ كَانَ بِذَلِكَ عِلَاجًا مِنْ أَمْرَاضِ ٱلْخَيَالِ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَٱسْتَطَاعَ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يَجْعَلَ حُبَّهُ يَتَنَاوَلُ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَلِفَةَ ، وَيَرُدُّ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ لَذَّاتِهَا ، فَإِنْ لَمْ يُسْعِدْهُ شَيْءٌ بِخُصُوْصِهِ ، وَجَدَ أَشْيَاءَ كَثِيْرَةً تُسْعِدُهُ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ، وَإِنْ وَقَعَ فِيْ صُوْرَةِ ٱمْرَأَتِهِ مَا لَا يُعَدُّ جَمَالًا ، رَأَىٰ ٱلْجَمَالَ فِيْ أَشْيَاءَ مِنْهَا غَيْرِ ٱلصُّوْرَةِ ، وَتَعَرَّفَ إِلَىٰ مَا لَا يَخْفَىٰ ، فَظَهَرَ لَهُ مَا يَخْفَىٰ .

وَلَيْسَتِ الْعَيْنُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تُؤَامِرُ فِي أَيِّ الشَّيْئَيْنِ أَجْمَلُ ، بَلْ هُنَاكَ الْعَقْلُ وَالْقَلْبُ ، فَجَوَابُ الْعَيْنِ وَحْدَهَا إِنَّمَا هُوَ ثُلُثُ الْحَقِّ . وَمَتَىٰ قِيلَ : « ثُلُثُ الْحَقِّ » فَضَيَاعُ الثُّلُثَيْنِ يَجْعَلُهُ فِي الْأَقَلِّ حَقًّا غَيْرَ كَامِلٍ .

فَمَا نَكْرَهُهُ مِنْ وَجْهٍ ، قَدْ يَكُونُ هُوَ الَّذِي نُحِبُّهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ ، إِذَا نَحْنُ تَرَكْنَا الْإِرَادَةَ السَّلِيمَةَ تَعْمَلُ عَمَلَهَا الْإِنْسَانِيَّ بِالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ ، وَبِأَوْسَعِ النَّظَرَيْنِ دُونَ أَضْيَقِهِمَا[1] ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ١٩] .

* * *

فَوَثَبَ ابْنُ أَيْمَنَ ، وَأَقْبَلَ يَدُورُ فِي الْمَجْلِسِ مِمَّا دَخَلَهُ مِنْ طَرَبِ الْحَدِيثِ وَيَقُولُ : مَا هَٰذَا إِلَّا كَلَامُ الْمَلَائِكَةِ سَمِعْنَاهُ مِنْكَ يَا ابْنَ عِمْرَانَ . قَالَ مُسْلِمٌ : فَكَيْفَ بِكَ لَوْ سَمِعْتَهُ مِنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ ؛ إِنَّهُ وَاللهِ قَدْ حَبَّبَ إِلَيَّ السَّوْدَاءَ وَالْقَبِيحَةَ وَالدَّمِيمَةَ ، وَنَظَرْتُ لِنَفْسِي بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ ، وَقُلْتُ : إِنْ تَزَوَّجْتُ يَوْمًا فَمَا أُبَالِي جَمَالًا وَلَا قُبْحًا ، إِنَّمَا أُرِيدُ إِنْسَانِيَّةً كَامِلَةً مِنِّي وَمِنْهَا وَمِنْ أَوْلَادِنَا ، وَالْمَرْأَةُ فِي كُلِّ امْرَأَةٍ ، وَلَٰكِنْ لَيْسَ الْعَقْلُ فِي كُلِّ امْرَأَةٍ .

قَالَ : ثُمَّ إِنِّي رَجَعْتُ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَآثَرْتُ السُّكْنَىٰ بِهَا ، وَتَعَالَمَ النَّاسُ إِقْبَالِي ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَحْسُنُ بِي الْمُقَامُ بِغَيْرِ زَوْجَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ بِهَا أَجَلُّ قَدْرًا مِنْ جَدِّ هَٰذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ ، وَكَانَتْ لَهُ بِنْتٌ قَدْ عَضَلَهَا وَتَعَرَّضَ بِذَلِكَ لِعَدَاوَةِ خُطَّابِهَا ؛ فَقُلْتُ : مَا لِهَٰذِهِ الْبِنْتِ بُدٌّ مِنْ شَأْنٍ ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ أَكْمَلَ النِّسَاءِ وَأَجْمَلَهُنَّ ، مَا ضَنَّ بِهَا أَبُوهَا رَجَاوَةَ أَنْ يَأْتِيَهُ مَنْ هُوَ أَعْلَىٰ . فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِي بِلِقَائِهِ فِيهَا ، فَجِئْتُهُ عَلَىٰ خَلْوَةٍ . . .

فَقَطَعَ عَلَيْهِ ابْنُ أَيْمَنَ وَقَالَ : قَدْ عَلِمْنَا خَبَرَهَا مِنْ مَنْظَرِ هَٰذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ مِنْ خَبَرِ تِلْكَ الدَّمِيمَةِ الَّتِي تَعَشَّقْتَهَا .

قَالَ : مَهْلًا فَسَتَنْتَهِي الْقِصَّةُ إِلَيْهَا . ثُمَّ إِنِّي قُلْتُ : يَا عَمُّ ! أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ التَّاجِرُ . قَالَ : مَا خَفِيَ عَنِّي مَحَلُّكَ وَمَحَلُّ أَبِيكَ . فَقُلْتُ : جِئْتُ خَاطِبًا لِابْنَتِكَ . قَالَ : وَاللهِ مَا بِي عَنْكَ رَغْبَةٌ ، وَلَقَدْ خَطَبَهَا إِلَيَّ جَمَاعَةٌ مِنْ وُجُوهِ الْبَصْرَةِ وَمَا أَجَبْتُهُمْ ، وَإِنِّي لَكَارِهٌ

(١) فِي الْمَطْبُوعِ : « دون أن أضيقهما » بدلًا من : « دون أضيقهما » .

إِخْرَاجَهَا[1] عَنْ حِضْنِي إِلَىٰ مَنْ يُقَوِّمُهَا تَقْوِيمَ الْعَبِيدِ . فَقُلْتُ : قَدْ رَفَعَهَا اللهُ عَنْ هَٰذَا الْمَوْضِعِ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَنْ تُدْخِلَنِي فِي عَدَدِكَ ، وَتَخْلِطَنِي بِشَمْلِكَ .

فَقَالَ : وَلَا بُدَّ مِنْ هَٰذَا ؟ قُلْتُ : لَا بُدَّ . قَالَ : اغْدُ عَلَيَّ بِرِجَالِكَ .

فَانْصَرَفْتُ عَنْهُ إِلَىٰ مَلَإٍ مِنَ التُّجَّارِ ذَوِي أَخْطَارٍ ، فَسَأَلْتُهُمُ الْحُضُورَ فِي غَدٍ ؛ فَقَالُوا : هَٰذَا رَجُلٌ قَدْ رَدَّ مَنْ هُوَ أَثْرَىٰ مِنْكَ ، وَإِنَّكَ لَتُحَرِّكُنَا إِلَىٰ سَعْيٍ ضَائِعٍ .

قُلْتُ : لَا بُدَّ مِنْ رُكُوبِكُمْ مَعِي . فَرَكِبُوا عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُمْ .

فَصَاحَ ابْنُ أَيْمَنَ وَقَدْ كَادَتْ رُوحُهُ تَخْرُجُ : فَذَهَبْتَ ، فَزَوَّجَكَ بِالْجَمِيلَةِ الرَّائِعَةِ أُمِّ هَٰذَيْنِ ؟ فَمَا خَبَرُ تِلْكَ الدَّمِيمَةِ ؟

قَالَ مُسْلِمٌ : يَا سَيِّدِي قَدْ صَبَرْتَ إِلَى الْآنَ ، أَفَلَا تَصْبِرُ عَلَىٰ كَلِمَاتٍ تُنَبِّئُكَ مِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ خَبَرُ الدَّمِيمَةِ ، فَإِنِّي مَا عَرَفْتُهَا إِلَّا فِي الْعُرْسِ . . . !

قَالَ : وَغَدَوْنَا عَلَيْهِ فَأَحْسَنَ الْإِجَابَةَ وَزَوَّجَنِي ، وَأَطْعَمَ الْقَوْمَ وَنَحَرَ لَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ شِئْتَ أَنْ تَبِيتَ بِأَهْلِكَ فَافْعَلْ ، فَلَيْسَ لَهَا مَا يُحْتَاجُ إِلَى التَّلَوُّمِ عَلَيْهِ وَانْتِظَارِهِ .

فَقُلْتُ : هَٰذَا يَا سَيِّدِي مَا أُحِبُّهُ . فَلَمْ يَزَلْ يُحَدِّثُنِي بِكُلِّ حَسَنٍ حَتَّىٰ كَانَتِ الْمَغْرِبُ ، فَصَلَّاهَا بِي ، ثُمَّ سَبَّحَ وَسَبَّحْتُ ، وَدَعَا وَدَعَوْتُ ، وَبَقِيَ مُقْبِلًا عَلَىٰ دُعَائِهِ وَتَسْبِيحِهِ مَا يَلْتَفِتُ لِغَيْرِ ذَلِكَ ، فَأَمَضَّنِي - عَلِمَ اللهُ - كَأَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّ ابْنَتَهُ مُقْبِلَةٌ مِنِّي عَلَىٰ مُصِيبَةٍ ، فَهُوَ يَتَضَرَّعُ وَيَدْعُو . . . !

ثُمَّ كَانَتِ الْعَتَمَةُ فَصَلَّاهَا بِي ، وَأَخَذَ بِيَدِي فَأَدْخَلَنِي إِلَىٰ دَارٍ قَدْ فُرِشَتْ بِأَحْسَنِ فَرْشٍ ، وَبِهَا خَدَمٌ وَجَوَارٍ فِي نِهَايَةٍ مِنَ النَّظَافَةِ ؛ فَمَا اسْتَقَرَّ بِي الْجُلُوسُ حَتَّىٰ نَهَضَ وَقَالَ : أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ ، وَقَدَّمَ اللهُ لَكُمَا الْخَيْرَ وَأَحْرَزَ التَّوْفِيقَ .

وَاكْتَنَفَتْنِي عَجَائِزُ مِنْ شَمْلِهِ ، لَيْسَ فِيهِنَّ شَابَّةٌ إِلَّا مَنْ كَانَتْ فِي السِّتِّينَ . . . فَنَظَرْتُ فَإِذَا وُجُوهٌ كَوُجُوهِ الْمَوْتَىٰ ، وَإِذَا أَجْسَامٌ بَالِيَةٌ يَتَضَامُّ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ ، كَأَنَّهَا أَطْلَالُ زَمَنٍ قَدِ انْقَضَّ بَيْنَ يَدَيَّ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « لَكَارِهٌ مِنْ إِخْرَاجِهَا » بَدَلًا مِنْ : « لَكَارِهٌ إِخْرَاجَهَا » .

فَصَاحَ ٱبْنُ أَيْمَنَ : وَإِنَّ دَمِيْمَتَكَ لَعَجُوْزٌ أَيْضًا . . . ؟ مَا أَرَاكَ يَا ٱبْنَ عِمْرَانَ إِلَّا قَتَلْتَ أُمَّ ٱلْغُلَامَيْنِ . . . !

قَالَ مُسْلِمٌ : ثُمَّ جَلَوْنَ ٱبْنَتَهُ عَلَيَّ وَقَدْ مَلأْنَ عَيْنَيَّ هَرَمًا وَمَوْتًا وَأَخْيِلَةَ شَيَاطِيْنٍ وَظِلَالَ قُرُوْدٍ ؛ فَمَا كِدْتُ أَسْتَفِيْقُ لِأَرَىٰ زَوْجَتِيْ ، حَتَّىٰ أَسْرَعْنَ فَأَرْخَيْنَ ٱلسُّتُوْرَ عَلَيْنَا ؛ فَحَمِدْتُ ٱللهَ لِذَهَابِهِنَّ ، وَنَظَرْتُ . . .

وَصَاحَ ٱبْنُ أَيْمَنَ وَقَدْ أَكَلَهُ ٱلْغَيْظُ : لَقَدْ أَطَلْتَ عَلَيْنَا ، فَسَتَحْكِيْ لَنَا قِصَّتَكَ إِلَىٰ ٱلصَّبَاحِ ، قَدْ عَلِمْنَاهَا { وَيْلَكَ } ، فَمَا خَبَرُ ٱلدَّمِيْمَةِ ٱلشَّوْهَاءِ ؟

قَالَ مُسْلِمٌ : لَمْ تَكُنِ ٱلدَّمِيْمَةُ ٱلشَّوْهَاءُ إِلَّا ٱلْعَرُوْسُ . . .

* * *

فَزَاغَتْ أَعْيُنُ ٱلْجَمِيْعِ ، وَأَطْرَقَ ٱبْنُ أَيْمَنَ إِطْرَاقَةَ مَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ مَا حَيَّرَهُ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلرَّجُلَ مَضَىٰ يَقُوْلُ :

وَلَمَّا نَظَرْتُهَا لَمْ أَرَ إِلَّا مَا كُنْتُ حَفِظْتُهُ عَنْ أَبِيْ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْبَلْخِيِّ ، وَقُلْتُ : هِيَ نَفْسِيْ جَاءَتْ بِيْ إِلَيْهَا ، وَكَأَنَّ كَلَامَ ٱلشَّيْخِ إِنَّمَا كَانَ عَمَلًا يَعْمَلُ فِيَّ وَيُدِيْرُنِي وَيُصَرِّفُنِيْ ؛ وَمَا أَسْرَعَ مَا قَامَتِ ٱلْمِسْكِيْنَةُ فَأَكَبَّتْ عَلَىٰ يَدِيْ وَقَالَتْ :

« يَا سَيِّدِيْ ، إِنِّيْ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ وَالِدِيْ ، كَتَمَهُ عَنِ ٱلنَّاسِ وَأَفْضَىٰ بِهِ إِلَيْكَ ، إِذْ رَآكَ أَهْلًا لِسَتْرِهِ عَلَيْهِ ، فَلَا تَخْفِرْ ظَنَّهُ فِيْكَ ، وَلَوْ كَانَ ٱلَّذِيْ يُطْلَبُ مِنَ ٱلزَّوْجَةِ حُسْنُ صُوْرَتِهَا دُوْنَ حُسْنِ تَدْبِيْرِهَا وَعَفَافِهَا لَعَظُمَتْ مِحْنَتِيْ ، وَأَرْجُوْ أَنْ يَكُوْنَ مَعِيْ مِنْهُمَا أَكْثَرُ مِمَّا قَصَّرَ بِيْ فِيْ حُسْنِ ٱلصُّوْرَةِ ؛ وَسَأَبْلُغُ مَحَبَّتَكَ فِيْ كُلِّ مَا تَأْمُرُنِيْ ؛ وَلَوْ أَنَّكَ آذَيْتَنِيْ لَعَدَدْتُ ٱلأَذَىٰ مِنْكَ نِعْمَةً ، فَكَيْفَ إِنْ وَسِعَنِيْ كَرَمُكَ وَسَتْرُكَ ؟ إِنَّكَ لَا تُعَامِلُ ٱللهَ بِأَفْضَلَ مِنْ أَنْ تَكُوْنَ سَبَبًا فِيْ سَعَادَةِ بَائِسَةٍ مِثْلِيْ . أَفَلَا تَحْرِصُ يَا سَيِّدِيْ ، عَلَىٰ أَنْ تَكُوْنَ هَـٰذَا ٱلسَّبَبَ ٱلشَّرِيْفَ . . . » .

ثُمَّ إِنَّهَا وَثَبَتْ فَجَاءَتْ بِمَالٍ فِيْ كِيْسٍ ، وَقَالَتْ : يَا سَيِّدِيْ ، قَدْ أَحَلَّ ٱللهُ لَكَ مَعِيَ ثَلَاثَ حَرَائِرَ ، وَمَا آثَرْتَهُ مِنَ ٱلإِمَاءِ ؛ وَقَدْ سَوَّغْتُكَ تَزْوِيْجَ ٱلثَّلَاثِ وَٱبْتِيَاعَ ٱلْجَوَارِيْ مِنْ مَالِ

هَـٰذَا ٱلْكِيْسِ ، فَقَدْ وَقَفْتُهُ عَلَىٰ شَهَوَاتِكَ ، وَلَسْتُ أَطْلُبُ مِنْكَ إِلَّا سَتْرِيْ فَقَطْ !

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَيْمَنَ : فَحَلَفَ لِيْ ٱلتَّاجِرُ : إِنَّهَا مَلَكَتْ قَلْبِيْ مُلْكًا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ حَسْنَاءُ بِحُسْنِهَا ؛ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ جَزَاءَ مَا قَدَّمْتِ مَا تَسْمَعِيْنَهُ مِنِّيْ : « وَٱللهِ لَأَجْعَلَنَّكِ حَظِّيْ مِنْ دُنْيَايَ فِيْمَا يُؤْثِرُهُ ٱلرَّجُلُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ ، وَلَأَضْرِبَنَّ عَلَىٰ نَفْسِيْ ٱلْحِجَابَ ، مَا تَنْظُرُ نَفْسِيْ إِلَىٰ أُنْثَىٰ غَيْرِكِ أَبَدًا » . ثُمَّ أَتْمَمْتُ سُرُوْرَهَا ، فَحَدَّثْتُهَا بِمَا حَفِظْتُهُ عَنْ أَبِيْ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْبَلْخِيِّ . فَأَيْقَنْتُ ـ وَٱللهِ يَا أَحْمَدُ ـ أَنَّهَا نَزَلَتْ مِنِّيْ فِيْ أَرْفَعِ مَنَازِلِهَا وَجَعَلَتْ تَحْسُنُ وَتَحْسُنُ ، كَٱلْغُصْنِ ٱلَّذِيْ كَانَ مَجْرُوْدًا ، ثُمَّ وَخَزَتْهُ ٱلْخُضْرَةُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا .

وَعَاشَرْتُهَا ، فَإِذَا هِيَ أَضْبَطُ ٱلنِّسَاءِ ، وَأَحْسَنُهُنَّ تَدْبِيْرًا ، وَأَشْفَقُهُنَّ عَلَيَّ ، وَأَحَبُّهُنَّ لِيْ ؛ وَإِذَا رَاحَتِيْ وَطَاعَتِيْ أَوَّلُ أَمْرِهَا وَآخِرُهُ ؛ وَإِذَا عَقْلُهَا وَذَكَاؤُهَا يُظْهِرَانِ لِيْ مِنْ جَمَالِ مَعَانِيْهَا مَا لَا يَزَالُ يَكْثُرُ وَيَكْثُرُ ، فَجَعَلَ ٱلْقُبْحُ يَقِلُّ وَيَقِلُّ ، وَزَالَ ٱلْقُبْحُ بِٱعْتِيَادِيْ رُؤْيَتَهُ ، وَبَقِيَتِ ٱلْمَعَانِيْ عَلَىٰ جَمَالِهَا ؛ وَصَارَتْ لِيْ هَـٰذِهِ ٱلزَّوْجَةُ هِيَ ٱلْمَرْأَةَ وَفَوْقَ ٱلْمَرْأَةِ .

وَلَمَّا وَلَدَتْ لِيْ ، جَاءَ ٱبْنُهَا رَائِعَ ٱلصُّوْرَةِ ؛ فَحَدَّثَتْنِيْ أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَزَالُ تَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ كَرَمِ ٱللهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ تَتَزَوَّجَ وَتَلِدَ أَجْمَلَ ٱلأَوْلَادِ ، وَلَمْ تَدَعْ ذَلِكَ مِنْ فِكْرِهَا قَطُّ ، وَأَلَّفَ لَهَا عَقْلُهَا صُوْرَةَ أَجْمَلِ غُلَامٍ تَتَمَثَّلُهُ وَمَا بَرِحَتْ تَتَمَثَّلُهُ ؛ فَإِذَا هِيَ أَيْضًا كَانَ لَهَا شَأْنٌ كَشَأْنِيْ ، وَكَانَ فِكْرُهَا عَمَلًا يَعْمَلُ فِيْ نَفْسِهَا ، وَيُدِيْرُهَا وَيُصَرِّفُهَا .

وَرَزَقَنِيْ ٱللهُ مِنْهَا هَـٰذَيْنِ ٱلابْنَيْنِ ٱلرَّائِعَيْنِ لَكَ ، فَٱنْظُرْ ؛ أَيُّ مُعْجِزَتَيْنِ مِنْ مُعْجِزَاتِ ٱلإِيْمَانِ . . . !

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

الطَّائِشَةُ (*)
١

قَالَ صَاحِبُهَا وَهُوَ يُحَدِّثُنِي مِنْ حَدِيثِهَا :

كَانَتْ فَتَاةً مُتَعَلِّمَةً ، حُلْوَةَ الْمَنْظَرِ ، حُلْوَةَ الْكَلَامِ ، رَقِيقَةَ الْعَاطِفَةِ ، مُرْهَفَةَ الْحِسِّ ، فِي لِسَانِهَا بَيَانٌ ، وَلِوَجْهِهَا بَيَانٌ غَيْرُ الَّذِي فِي لِسَانِهَا ، تَعْرِفُ فِيهِ الْكَلَامَ الَّذِي لَا تَتَكَلَّمُ بِهِ . . .

وَلَهَا طَبْعٌ شَدِيدُ الطَّرَبِ لِلْحَيَاةِ ، مُسْتَرْسِلٌ فِي مَرَحِهِ ، خَفِيفٌ طَيَّاشٌ ، لَوْ أَثْقَلْتَهُ بِجَبَلٍ لَخَفَّ بِالْجَبَلِ ؛ تَحْسَبُهَا دَائِمًا سَكْرَى تَتَمَايَلُ مِنْ طَرَبِهَا ، كَأَنَّ أَفْكَارَهَا الْمَرِحَةَ هِيَ فِي رَأْسِهَا أَفْكَارٌ وَفِي دَمِهَا خَمْرٌ . . .

وَكَانَ هَـٰذَا الطَّبْعُ السَّكْرَانُ بِالشَّبَابِ وَالْجَمَالِ وَالطَّرَبِ[1] ـ يَعْمَلُ عَمَلَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ ؛ فَهُوَ دَلَالٌ مُتَرَاجِعٌ مُنْهَزِمٌ ، وَهُوَ أَيْضًا جُرْأَةٌ مُنْدَفِعَةٌ مُتَهَجِّمَةٌ .

وَهَزِيمَةُ الدَّلَالِ فِي الْمَرْأَةِ إِنْ هِيَ إِلَّا عَمَلٌ حَرْبِيٌّ ، مُضْمَرَةٌ فِيهِ الْكَرَّةُ وَالْهُجُومُ ؛ وَكَثِيرًا مَا تَرَى فِيهَا النَّظْرَةَ ذَاتَ الْمَعْنَيَيْنِ : نَظْرَةً وَاحِدَةً ؛ { بِهَا } تُؤَنِّبُكَ الْمَرْأَةُ عَلَى جَرَاءَتِكَ مَعَهَا ، وَبِهَا أَيْضًا تَعْذِلُكَ[2] عَلَى أَنَّكَ لَسْتَ مَعَهَا أَجْرَأَ مِمَّا أَنْتَ . . . !

* * *

قُلْتُ : وَيْحَكَ يَا هَـٰذَا ! أَتَعْرِفُ مَا تَقُولُ ؟

قَالَ : فَمَنْ يَعْرِفُ مَا يَقُولُ إِذَا أَنَا لَمْ أَعْرِفْ ؟ لَقَدْ أَحْبَبْتُ خَمْسَ عَشْرَةَ فَتَاةً ؛ بَلْ هُنَّ أَحْبَبْنَنِي وَفَرَّغْنَ قُلُوبَهُنَّ لِي ، مَا اعْتَزَّتْ عَلَيَّ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ ، وَقَدْ ذَهَبْنَ بِي مَذْهَبًا ، وَلَـٰكِنِّي

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٢ ، ١٦ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ١٧ يونيو/حزيران ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٩٦٣ ـ ٩٦٧ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « شَبَابًا وَجَمَالًا وَطَرَبًا » بَدَلًا مِنْ : « بِالشَّبَابِ وَالْجَمَالِ وَالطَّرَبِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَتَعْذِلُكَ بِهَا أَيْضًا » بَدَلًا مِنْ : « وَبِهَا أَيْضًا تَعْذِلُكَ » .

ذَهَبْتُ بِهِنَّ خَمْسَةَ عَشَرَ !

قُلْتُ : فَلَا رَيْبَ أَنَّكَ تَحْمِلُ الْوِسَامَ الْإِبْلِيسِيَّ الْأَوَّلَ مِنْ رُتْبَةِ الْجَمْرَةِ . . . فَكَيْفَ اسْتَهَامَ بِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ فَتَاةً ؛ أَجَاهِلَاتٌ هُنَّ ، أَعَمْيَاوَاتٌ هُنَّ . . . ؟

قَالَ : بَلْ مُتَعَلِّمَاتٌ مُبْصِرَاتٌ يَرَيْنَ وَيُدْرِكْنَ ، وَلَا تُخْطِئُ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فِي فَهْمِ أَنَّ رَجُلًا وَامْرَأَةً قِصَّةُ حُبٍّ . . . وَمَا خَمْسَ عَشْرَةَ فَتَاةً ؟ وَمَا عِشْرُونَ وَثَلَاثُونَ مِنْ فَتَيَاتِ هَـٰذَا الزَّمَنِ { الْحَائِرِ } الْبَائِرِ ، الَّذِي كَسَدَ فِيهِ الزَّوَاجُ ، وَرَقَّ فِيهِ الدِّينُ ، { وَسَقَطَ الْحَيَاءُ ، } وَالْتَهَبَتِ الْعَاطِفَةُ ، { وَانْتَشَرَ اللَّهْوُ ، } وَكَثُرَتْ فُنُونُ الْإِغْرَاءِ ، وَاصْطَلَحَ فِيهِ إِبْلِيسُ وَالْعِلْمُ يَعْمَلَانِ مَعًا . . ؛ وَأُطْلِقَتِ الْحُرِّيَّةُ لِلْمَرْأَةِ ، وَتَوَسَّعَتِ الْمَدَارِسُ فِيمَا تُقَدِّمُ لِلْفَتَيَاتِ ، وَأَظْهَرَتْ مِنَ الْحَفَاوَةِ بِهِنَّ أَمْرًا مُفْرِطًا حَتَّى أَخَذْنَ { مِنْهَا } رُبُعَ الْعِلْمِ . . . ؟

قُلْتُ : وَثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْعِلْمِ الْبَاقِيَةِ ؟

قَالَ : سَيَأْخُذْنَهَا مِنَ الرِّوَايَاتِ وَالسِّينَمَا .

عِلْمُ الْمَدَارِسِ ، مَا عِلْمُ الْمَدَارِسِ ؟ إِنَّهُنَّ لَا يَصْنَعْنَ بِهِ شَيْئًا إِلَّا شَهَادَاتٍ هِيَ مُكَافَأَةُ الْحِفْظِ وَإِجَازَةُ النِّسْيَانِ مِنْ بَعْدُ ؛ أَمَّا عِلْمُ السِّينَمَا وَالرِّوَايَاتِ فَيَصْنَعْنَ بِهِ تَارِيخَهُنَّ . . . وَرُبَّ مَنْظَرٍ يَشْهَدُهُ فِي السِّينَمَا أَلْفُ فَتَاةٍ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِذَا اسْتَقَرَّ فِي وَعْيِهِنَّ ، وَطَافَتْ بِهِ الْخَوَاطِرُ وَالْأَحْلَامُ ـ سَلَبَهُنَّ الْقَرَارَ وَالْوَقَارَ ، فَمَثَّلْنَهُ أَلْفَ مَرَّةٍ بِأَلْفِ طَرِيقَةٍ فِي أَلْفِ حَادِثَةٍ !

يَظُنُّونَ أَنَّنَا فِي زَمَنِ إِزَاحَةِ الْعَقَبَاتِ النِّسَائِيَّةِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ ، مِنْ حُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ وَعِلْمِهَا ؛ أَمَّا أَنَا فَأَرَى حُرِّيَّةَ الْمَرْأَةِ وَعِلْمَهَا لَا يُوجِدَانِ إِلَّا الْعَقَبَاتِ النِّسَائِيَّةَ عَقَبَةً بَعْدَ عَقَبَةٍ . وَقَدْ كَانَ عَيْبُ الْجَاهِلَةِ الْمَقْصُورَةِ فِي دَارِهَا أَنَّ الرَّجُلَ يَحْتَالُ عَلَيْهَا ، فَصَارَ عَيْبُ الْمُتَعَلِّمَةِ الْمَفْتُوحِ لَهَا الْبَابُ أَنَّهَا هِيَ تَحْتَالُ عَلَى الرَّجُلِ ؛ فَمَرَّةً بِإِبْدَاعِ الْحِيلَةِ عَلَيْهِ ، وَمَرَّةً بِتَلْقِينِهِ الْحِيلَةَ عَلَيْهَا . وَالْغَرِيبُ فِي أَمْرِ هَـٰذَا الْعِلْمِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْفَتَاةَ تَبْدَأُ الطَّرِيقَ الْمَجْهُولَ بِجَهْلٍ . . . !

قُلْتُ : وَمَا الطَّرِيقُ الْمَجْهُولُ ؟

قَالَ : الطَّرِيقُ الْمَجْهُولُ هُوَ الرَّجُلُ ، وَإِطْلَاقُ الْحُرِّيَّةِ لِلْفَتَاةِ أَطْلَقَ ثَلَاثَ حُرِّيَّاتٍ :

حُرِّيَّةُ ٱلْفَتَاةِ ، وَحُرِّيَّةُ ٱلْحُبِّ ؛ وَٱلْأُخْرَىٰ حُرِّيَّةُ ٱلزَّوَاجِ ؛ وَلَمَّا ٱنْطَلَقَ ثَلَاثَتُهُنَّ مَعًا تَغَيَّرَ ثَلَاثَتُهُنَّ جَمِيعًا إِلَىٰ فَسَادٍ وَٱخْتِلَالٍ .

أَمَّا ٱلْفَتَاةُ فَكَانَتْ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِلزَّوَاجِ ، فَعَادَتْ لِلزَّوَاجِ فِي ٱلْأَقَلِّ ، وَفِي ٱلْأَكْثَرِ لِلَّهْوِ وَٱلْغَزَلِ ؛ وَكَانَ لَهَا فِي ٱلنُّفُوسِ وَقَارُ ٱلْأُمِّ وَحُرْمَةُ ٱلزَّوْجَةِ ، فَٱجْتَرَأَ عَلَيْهَا ٱلشُّبَّانُ ٱجْتِرَاءَهُمْ عَلَى ٱلْخَلِيعَةِ وَٱلسَّاقِطَةِ ؛ وَكَانَتْ مَقْصُورَةً لَا تُنَالُ بِعَيْبٍ وَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهَا ذَمٌّ ، فَمَشَتْ إِلَىٰ عُيُوبِهَا بِقَدَمَيْهَا ، وَمَشَتْ إِلَيْهَا ٱلْعُيُوبُ بِأَقْدَامٍ كَثِيرَةٍ . . . وَكَانَتْ بِجُمْلَتِهَا ٱمْرَأَةً وَاحِدَةً ، فَعَادَتْ مِمَّا تَرَىٰ وَتَعْرِفُ وَتُكَابِدُ كَأَنَّ جِسْمَهَا ٱمْرَأَةٌ ، وَقَلْبَهَا ٱمْرَأَةٌ أُخْرَىٰ ، وَأَعْصَابَهَا ٱمْرَأَةٌ ثَالِثَةٌ . . .

وَأَمَّا ٱلْحُبُّ ، فَكَانَ حُبًّا تَتَعَرَّفُ بِهِ ٱلرُّجُولَةُ إِلَى ٱلْأُنُوثَةِ فِي قُيُودٍ وَشُرُوطٍ ، فَلَمَّا صَارَ حُرًّا بَيْنَ ٱلرُّجُولَةِ وَٱلْأُنُوثَةِ ، ٱنْقَلَبَ حِيلَةً تَغْتَرُّ بِهَا إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ؛ وَمَتَىٰ صَارَ ٱلْأَمْرُ إِلَىٰ قَانُونِ ٱلْحِيلَةِ، فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَانُونِ ٱلشَّرَفِ، وَيَرْجِعُ(١) هَـٰذَا ٱلشَّرَفُ نَفْسُهُ { كَمَا نَرَاهُ } ، لَيْسَ إِلَّا كَلِمَةً يُحْتَالُ بِهَا .

وَأَمَّا ٱلزَّوَاجُ ، فَلَمَّا صَارَ حُرًّا جَاءَ ٱلْفَتَاةَ بِشِبْهِ ٱلزَّوْجِ لَا بِٱلزَّوْجِ . . . وَضَعُفَتْ مَنْزِلَتُهُ ، وَقَلَّ ٱتِّفَاقُهُ ، وَطَالَ ٱرْتِقَابُ ٱلْفَتَيَاتِ لَهُ ، فَضَعُفَ أَثَرُهُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلْمُؤَنَّثَةِ ؛ وَكَانَتْ { مِنْ قَبْلُ } لَفْظَتَا ٱلشَّابِّ وَٱلزَّوْجِ شَيْئًا وَاحِدًا عِنْدَ ٱلْفَتَاةِ وَبِمَعْنًى وَاحِدٍ ، فَأَصْبَحَتَا كَلِمَتَيْنِ مُتَمَيِّزَتَيْنِ : فِي إِحْدَاهُمَا ٱلْقُوَّةُ وَٱلْكَثْرَةُ وَٱلسُّهُولَةُ ، وَفِي ٱلْأُخْرَىٰ ٱلضَّعْفُ وَٱلْقِلَّةُ وَٱلتَّعَذُّرُ ؛ فَٱلْكُلُّ شُبَّانٌ وَقَلِيلٌ مِنْهُمُ ٱلْأَزْوَاجُ ؛ وَبِهَـٰذَا أَصْبَحَ تَأْثِيرُ ٱلشَّابِّ عَلَى ٱلْفَتَاةِ أَقْوَىٰ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلشَّرَفِ ، وَعَادَ يُقْنِعُهَا مِنْهُ أَخَسُّ بُرْهَانَاتِهِ(٢) ، لَا بِأَنَّهُ هُوَ مُقْنِعٌ ، وَلَـٰكِنْ بِأَنَّهَا هِيَ مُهَيَّأَةٌ لِلِاقْتِنَاعِ . . .

وَفِي تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ لَا يَكُونُ ٱلرَّجُلُ إِلَّا مُغَفَّلًا فِي رَأْيِ ٱلْمَرْأَةِ ـ إِذَا هُوَ أَحَبَّهَا وَلَمْ يَكُنْ مُحْتَالًا حِيلَةَ مِثْلِهِ عَلَىٰ مِثْلِهَا ، وَيَظَلُّ فِي رَأْيِهَا مُغَفَّلًا حَتَّىٰ يَخْدَعَهَا وَيَسْتَزِلَّهَا ؛ فَإِذَا فَعَلَ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « عَادَ » بَدَلًا مِنْ : « يَرْجِعُ » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « بَرَاهِينِهِ » بَدَلًا مِنْ : « بُرْهَانَاتِهِ » .

كَانَ عِنْدَهَا نَذْلًا لِأَنَّهُ فَعَلَ . . . وَهَـٰذِهِ حُرِّيَّةٌ رَابِعَةٌ فِي لُغَةِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْحُرَّةِ وَٱلزَّوَاجِ ٱلْحُرِّ وَٱلْحُبِّ ٱلْحُرِّ !

وَٱنْظُرْ ـ بِعَيْشِكَ ـ مَا فَعَلَتِ ٱلْحُرِّيَّةُ بِكَلِمَةِ ٱلتَّقَالِيدِ ، وَكَيْفَ أَصْبَحَتْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ ٱلسَّامِيَةُ مِنْ مَنْبُوذِ ٱلْكَلَامِ وَمَكْرُوهِهِ حَتَّىٰ صَارَتْ غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَضَارَةِ ، ثُمَّ كَيْفَ أَحَالَتْهَا فَجَعَلَتْهَا فِي هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ أَشْهَرَ كَلِمَةٍ فِي ٱلْأَلْسِنَةِ ، يُتَهَكَّمُ بِهَا عَلَى ٱلدِّينِ وَٱلشَّرَفِ وَقَانُونِ ٱلْعُرْفِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ فِي خَوْفِ ٱلْمَعَرَّةِ وَٱلدَّنِيَّةِ وَٱلتَّصَاوُنِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ وَٱلْمُبَالَاةِ بِٱلْفَضَائِلِ ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ تَقَالِيدُ . . .

وَقَدْ أَخَذَتِ ٱلْفَتَيَاتُ ٱلْمُتَعَلِّمَاتُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ بِمَعَانِيهَا تِلْكَ ، وَأَجْرَيْنَهَا فِي ٱعْتِبَارِهِنَّ مَكْرُوهَةً وَحْشِيَّةً ، وَأَضَفْنَ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْمَعَانِي حَوَاشِيَ أُخْرَىٰ ، حَتَّىٰ لَيَكَادُ ٱلْأَبُ وَٱلْأُمُّ يَكُونَانِ عِنْدَ أَكْثَرِ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ مِنَ « ٱلتَّقَالِيدِ » . . . أَهِيَ كَلِمَةٌ أَبْدَعَتْهَا ٱلْحُرِّيَّةُ ، أَمْ أَبْدَعَهَا جَهْلُ ٱلْعَصْرِ وَحَمَاقَتُهُ ، وَفُجُورُهُ وَإِلْحَادُهُ ؟ أَهِيَ كَلِمَةٌ تَعَلَّقَهَا ٱلْفَتَيَاتُ ٱلْمُتَعَلِّمَاتُ لِأَنَّهَا لُغَةٌ مِنَ ٱللُّغَةِ ، أَمْ لِأَنَّهَا مِنْ لُغَةِ مَا يُحْبِبْنَ . . ؟

« تَقَالِيدُ » . . . ؟ فَمَا هِيَ ٱلْمَرْأَةُ بِدُونِ ٱلتَّقَالِيدِ . . . ؟ إِنَّهَا ٱلْبِلَادُ ٱلْجَمِيلَةُ بِغَيْرِ جَيْشٍ ، إِنَّهَا ٱلْكَنْزُ ٱلْمَخْبُوءُ مُعَرَّضًا لِأَعْيُنِ ٱللُّصُوصِ ، تَحُوطُهُ ٱلْغَفْلَةُ لَا ٱلْمُرَاقَبَةُ . هَبِ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا شُرَفَاءَ مُتَعَفِّفِينَ { مُتَصَاوِنِينَ } ؛ فَإِنَّ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ « كَنْزٍ » مَتَىٰ تَرَكَتْ لَهُ ٱلْحُرِّيَّةُ وَأُغْفِلَ مِنْ تَقَالِيدِ ٱلْحِرَاسَةِ ، أَوْجَدَتْ حُرِّيَّتُهُ هَـٰذِهِ بِنَفْسِهَا مَعْنَىٰ كَلِمَةِ « لِصٍّ » .

* * *

قَالَ صَاحِبُنَا : أَمَّا ٱلْفَتَاةُ ٱلْمُحَرَّرَةُ مِنَ ٱلتَّقَالِيدِ . . كَمَا عَرَفْتُهَا فَهِيَ هَـٰذِهِ ٱلَّتِي أَقُصُّ عَلَيْكَ قِصَّتَهَا ، وَهِيَ ٱلَّتِي جَعَلَتْنِي أَعْتَقِدُ أَنَّ لِكُلِّ فَتَاةٍ رُشْدَيْنِ : يَثْبُتُ أَحَدُهُمَا بِٱلسِّنِّ ، وَيَثْبُتُ ٱلْآخَرُ بِٱلزَّوَاجِ . وَلَوْ أَنَّ عَانِسًا مَاتَتْ فِي سِنِّ ٱلْخَمْسِينَ أَوِ ٱلسِّتِّينَ لَوَجَبَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهَا مَاتَتْ نِصْفَ قَاصِرٍ ! وَلَعَلَّ هَـٰذَا مِنْ حِكْمَةِ ٱلشَّرِيعَةِ فِي ٱعْتِبَارِ ٱلْمَرْأَةِ نِصْفَ ٱلرَّجُلِ ، إِذْ تَمَامُ شَرَفِهَا ٱلِاجْتِمَاعِيِّ أَنْ يَكُونَ ٱلرَّجُلُ مَضْمُومًا إِلَيْهَا فِي نِظَامِ ٱلِاجْتِمَاعِ وَقَوَانِينِهِ ؛ فَٱلزَّوْجُ عَلَىٰ هَـٰذَا هُوَ تَمَامُ رُشْدِ ٱلْفَتَاةِ بَالِغَةً مَا بَلَغَتْ .

وَأَسَاسُ ٱلْمَرْأَةِ فِي ٱلطَّبِيعَةِ أَسَاسٌ بَدَنِيٌّ لَا عَقْلِيٌّ ، وَمِنْ هَـٰذَا كَانَتْ هِيَ ٱلْمَصْنَعَ ٱلَّذِي

تُصْنَعُ فِيْهِ ٱلْحَيَاةُ ، وَكَانَتْ دَائِمًا نَاقِصَةً لَا تَتِمُّ إِلَّا بِٱلآخَرِ ٱلَّذِيْ أَسَاسُهُ فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ شَأْنُ عَقْلِهِ وَشَأْنُ قُوَّتِهِ . . .

وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ بِٱلْمَرْأَةِ تَدْرُسُ وَتَتَعَلَّمُ وَتَنْبُغُ ، فَلَوْ أَنَّكَ ذَهَبْتَ تَمْدَحُهَا بِوُفُوْرِ عَقْلِهَا وَذَكَائِهَا ، وَتُقَرِّظُهَا بِنُبُوْغِهَا وَعَبْقَرِيَّتِهَا ، ثُمَّ رَأَتْكَ لَمْ تُلْقِ كَلِمَةً وَلَا إِشَارَةً وَلَا نَظْرَةً عَلَىٰ جِسْمِهَا وَمَحَاسِنِهَا - لَتَحَوَّلَ عِنْدَهَا كُلُّ مَدْحِكَ ذَمًّا ، وَكُلُّ ثَنَائِكَ سُخْرِيَةً ؛ فَإِنَّ ٱلنُّبُوْغَ هَا هُنَا فِيْ أَعْصَابِ ٱمْرَأَةٍ تُرِيْدُ أَنْ تَعْرِفَ مَعَ أَسْرَارِ ٱلْكَوْنِ أَسْرَارَ كَوْنِهَا هِيَ ، هَـٰذَا ٱلْكَوْنَ ٱلْبَدَنِيَّ ٱلْفَاتِنَ ، أَوِ ٱلَّذِيْ تَزْعُمُهُ هِيَ فَاتِنًا ، أَوِ ٱلَّذِيْ لَا تَرْضَاهُ وَلَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُوْنَ صَاحِبَتَهُ إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ مَنْ يَزْعُمُ لَهَا أَنَّهُ كَوْنٌ فَاتِنٌ بَدِيْعٌ ، مُزَيَّنٌ بِشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ وَطَبِيْعَتِهِ ٱلْمُتَنَضِّرَةِ ٱلَّتِيْ تَجْعَلُ مَسَّهُ مَسَّ وَرَقِ ٱلزَّهْرِ .

مِثْلُ هَـٰذِهِ إِنَّمَا يَكُوْنُ ٱلثَّنَاءُ عَلَيْهَا ثَنَاءً عِنْدَهَا حِيْنَمَا يَكُوْنُ أَقَلُّهُ بِٱللِّسَانِ ٱلْعِلْمِيِّ وَلُغَتِهِ ، وَأَكْثَرُهُ بِٱلنَّظَرِ ٱلْفَنِّيِّ وَلُغَتِهِ . وَهَـٰذَا عَلَىٰ أَنَّهَا عَالِمَةُ ٱلْجِنْسِ وَنَابِغَتُهُ ، وَدَلِيْلُ شُذُوْذِهِ ٱلْعَقْلِيِّ ، وَٱلْوَاحِدَةُ ٱلَّتِيْ تَجِيْءُ كَٱلْفَلْتَةِ ٱلْمُفْرَدَةِ بَيْنَ ٱلْمَلَايِيْنِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ دُوْنَهَا ، وَكَيْفَ بِٱلنِّسَاءِ فِيْمَا هُنَّ نِسَاءٌ بِهِ ؟

دَعْ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ يَمْتَحِنُوْنَ هَـٰذَا ٱلَّذِيْ بَيَّنْتُ لَكَ ، فَيَأْتُوْنَ بِٱمْرَأَةٍ جَمِيْلَةٍ نَابِغَةٍ ، فَيَضَعُوْنَهَا بَيْنَ رِجَالٍ لَا تَسْمَعُ مِنْ جَمِيْعِهِمْ إِلَّا : مَا أَعْقَلَهَا ، مَا أَعْقَلَهَا ، مَا أَعْقَلَهَا ! وَلَا تَرَىٰ فِيْ عَيْنَيْ كُلٍّ مِنْهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلنَّظَرِ وَفُنُوْنِهِ إِلَّا نَظَرَ ٱلتِّلْمِيْذِ لِمُعَلِّمَةٍ فِيْ سِنِّ جَدَّتِهِ . . . فَهَـٰذِهِ لَنْ تَكُوْنَ بَعْدَ قَرِيْبٍ إِلَّا فِيْ حَالَةٍ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَخْرُجَ عَقْلُهَا مِنْ رَأْسِهَا ، أَوْ . . . أَوْ تَخْرُجَ فِيْ وَجْهِهَا لِحْيَةٌ . . . ! .

(مَا أَعْقَلَهَا !) كَلِمَةٌ حَسَنَةٌ عِنْدَ ٱلنِّسَاءِ لَا يَأْبَيْنَهَا وَلَا يَذْمُمْنَهَا ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْبَلِيْغَةَ ٱلْعَبْقَرِيَّةَ ٱلسَّاحِرَةَ ، هِيَ عِنْدَهُنَّ كَلِمَةٌ أُخْرَىٰ ، هِيَ : (مَا أَجْمَلَهَا !) ؛ إِنَّ تِلْكَ تُشْبِهُ ٱلْخُبْزَ ٱلْقَفَارَ لَا شَيْءَ مَعَهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ ، أَمَّا هَـٰذِهِ فَهِيَ ٱلْمَائِدَةُ مُزَيَّنَةً كَامِلَةً بِطَعَامِهَا وَشَرَابِهَا وَأَزْهَارِهَا وَفُكَاهَتِهَا وَضَحِكِهَا أَيْضًا .

وَكَأَنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلإِنْسَانِيَّ قَدْ غَضِبَ لِمَهَانَةِ كَلِمَتِهِ وَمَا عَرَّهَا بِهِ ٱلنِّسَاءُ ، فَأَرَادَ أَنْ يُثْبِتَ أَنَّهُ عَقْلٌ ، فَٱسْتَطَاعَ بِحِيْلَتِهِ ٱلْعَجِيْبَةِ أَنْ يَجْعَلَ لِكَلِمَةِ : (مَا أَعْقَلَهَا) كُلَّ ٱلشَّأْنِ وَٱلْخَطَرِ ، وَكُلَّ

ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلسِّحْرِ ، عِنْدَ . . . عِنْدَ ٱلطِّفْلَةِ . . . تَفْرَحُ ٱلطِّفْلَةُ أَشَدَّ ٱلْفَرَحِ ، إِذَا قِيْلَ : مَا أَعْقَلَهَا . . . !

* * *

فَقُلْتُ لِمُحَدِّثِيْ : كَأَنَّكَ صَادِقٌ يَا فَتَىٰ ! لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ إِلَىٰ ٱمْرَأَةٍ أَدِيْبَةٍ لَهَا ظَرْفٌ وَجَمَالٌ ، وَجَاءَتْ كِبْرِيَائِيْ فَجَلَسَتْ مَعَنَا . . . وَكَانَتِ (ٱلتَّقَالِيْدُ) كَٱلْحَاشِيَةِ لِيْ ؛ فَعَلِمْتُ بَعْدُ أَنَّهَا قَالَتْ لِصَاحِبَةٍ لَهَا : « لَا أَدْرِيْ كَيْفَ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَنْسَىٰ جِسْمِيْ وَأَنَا إِلَىٰ جَانِبِهِ ، أُذَكِّرُهُ أَنِّيْ إِلَىٰ جَانِبِهِ ! لَكَأَنَّمَا كَانَتْ لِقَلْبِهِ أَبْوَابٌ يَفْتَحُ مَا شَاءَ مِنْهَا وَيُغْلِقُ » .

قَالَ مُحَدِّثِيْ : فَهَـٰذَا هَـٰذَا ؛ إِنَّ إِحْسَاسَ ٱلْمَرْأَةِ بِٱلْعَالَمِ وَمَا فِيْهِ مِنْ حَقَائِقِ ٱلْجَمَالِ وَٱلسُّرُوْرِ ، إِنَّمَا هُوَ فِيْ إِحْسَاسِهَا بِٱلرَّجُلِ ٱلَّذِيْ ٱخْتَارَتْهُ لِقَلْبِهَا ، أَوْ تَهُمُّ أَنْ تَخْتَارَهُ ، أَوْ تَوَدُّ أَنْ تَخْتَارَهُ ؛ ثُمَّ إِحْسَاسِهَا بَعْدَ ذَٰلِكَ بِٱلصُّوَرِ ٱلأُخْرَىٰ مِنْ رَجُلِهَا فِيْ أَوْلَادِهَا . وَحَيَاةُ ٱلْمَرْأَةِ لَا أَسْرَارَ فِيْهَا ٱلْبَتَّةَ ، حَتَّىٰ إِذَا دَخَلَهَا ٱلرَّجُلُ عَرَفَتْ بِذَٰلِكَ أَنَّ فِيْهَا أَسْرَارًا ، وَتَبَيَّنَتْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْجِسْمَ ٱلآخَرَ هُوَ فَلْسَفَةٌ عَمِيْقَةٌ لِجِسْمِهَا وَعَقْلِهَا .

قَالَ : وَقَدْ جَلَسْتُ مَرَّةً مَعَ صَاحِبَةِ ٱلْقِصَّةِ ، وَأَنَا مُغْضَبٌ أَوْ كَٱلْمُغْضَبِ . . . ثُمَّ تَلَاحَيْنَا وَطَالَ بَيْنَنَا ٱلتَّلَاحِيْ ؛ فَقَالَتْ لِيْ : أَنْتَ بِجَانِبِيْ وَأَنَا أَسْأَلُ : أَيْنَ أَنْتَ ؟ فَإِنَّكَ لَسْتَ كُلُّكَ ٱلَّذِيْ بِجَانِبِيْ !

قَالَ : وَمَذْهَبِيْ فِيْ ٱلْحُبِّ ، ٱلْكِبْرِيَاءُ ، كَمَا قُلْتَ أَنْتَ ، غَيْرَ أَنَّهَا ٱلْكِبْرِيَاءُ ٱلَّتِيْ تُدْرِكُ ٱلْمَرْأَةُ مِنْهَا أَنِّيْ قَوِيٌّ لَا أَنِّيْ مُتَكَبِّرٌ ؛ كِبْرِيَاءُ ٱلرَّجُلِ إِمَّا مَهِيْبٌ مَرِحٌ يَمْلِكُ أَفْرَاحَ قَلْبِهَا ، وَإِمَّا حَزِيْنٌ مَهِيْبٌ يَمْلِكُ أَحْزَانَ هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ .

إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ لَا تُحِبُّ إِلَّا رَجُلًا يَكُوْنُ أَوَّلُ ٱلْحُسْنِ فِيْهِ حُسْنَ فَهْمِهَا لَهُ ، وَأَوَّلُ ٱلْقُوَّةِ فِيْهِ قُوَّةَ إِعْجَابِهَا بِهِ ، وَأَوَّلُ ٱلْكِبْرِيَاءِ فِيْهِ كِبْرِيَاءَهَا هِيَ بِحُبِّهِ وَكِبْرِيَاءَهَا بِأَنَّهُ رَجُلٌ . هَـٰذَا هُوَ ٱلَّذِيْ يَجْتَمِعُ فِيْهِ لِلْمَرْأَةِ ٱثْنَانِ : إِنْسَانُهَا ٱلظَّرِيْفُ ، وَوَحْشُهَا ٱلظَّرِيْفُ !

* * *

قُلْتُ : لَقَدْ بَعُدْنَا عَنِ ٱلْقِصَّةِ ، فَمَا كَانَ خَبَرُ صَاحِبَتِكَ تِلْكَ ؟

قَالَ : كَانَتْ صَاحِبَتِي تِلْكَ تَعْلَمُ أَنِّي مُتَزَوِّجٌ ، وَلَـٰكِنْ إِحْدَىٰ صَدِيقَاتِهَا أَنْبَأَتْهَا بِكِبْرِيَائِي فِي ٱلْحُبِّ ، وَوَصَفَتْنِي لَهَا صِفَةَ ٱلإِحْسَاسِ لَا وَصْفَ ٱلْكَلَامِ ؛ فَكَأَنَّمَا تَنَبَّهَتْ فِيهَا طَبِيعَةُ زَهْوِ ٱلْفَتَاةِ بِأَنَّهَا فَتَاةٌ ، وَغَرِيزَةُ ٱفْتِتَانِ ٱلأُنْثَىٰ بِأَنْ تَكُونَ فَاتِنَةً ؛ فَرَأَتْ فِي إِخْضَاعِي لِجَمَالِهَا عَمَلًا تَعْمَلُهُ بِجَمَالِهَا .

وَمَتَىٰ كَانَتِ ٱلْفَتَاةُ مُسْتَخِفَّةً « بِٱلتَّقَالِيدِ » كَهَـٰذِهِ ٱلأَدِيبَةِ ٱلْمُتَعَلِّمَةِ - رَأَتْ كَلِمَةَ (ٱلزَّوْجِ) لَفْظًا عَلَىٰ رَجُلٍ كَلَفْظِ ٱلْحُبِّ عَلَيْهِ ، فَهُمَا سَوَاءٌ عِنْدَهَا فِي ٱلْمَعْنَىٰ ، وَلَا يَخْتَلِفَانِ إِلَّا فِي (ٱلتَّقَالِيدِ) . . .

وَعَرَضَتْ لِي كَمَا يَعْرِضُ ٱلْمُصَارِعُ لِلْمُصَارِعِ ؛ إِذْ كَانَتْ مِنَ ٱلْفَتَيَاتِ ٱلْمَغْرُورَاتِ ، ٱللَّوَاتِي يَحْسَبْنَ أَنَّ فِي قُوَّتِهِنَّ ٱلْعِلْمِيَّةِ تَيَّارًا زَاخِرًا لِنَهْرِنَا ٱلاجْتِمَاعِيِّ ٱلرَّاكِدِ ؛ فَتَاةٌ تَخَرَّجَتْ فِي مَدْرَسَةٍ أَوْ كُلِّيَّةٍ ، أَوْ جَاءَتْ مِنْ أُورُبَّةَ بِٱلْعَالِمِيَّةِ . . . أَفَتَدْرِي أَيَّةُ مُعْجِزَةٍ مِصْرِيَّةٍ فِي هَـٰذَا تُبَاهِي بِهَا مِصْرُ ؟

إِنَّ ٱلْمُعْجِزَةَ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْفَتَاةَ صَارَتْ مُدَرِّسَةً ، أَوْ مُفَتِّشَةً ، أَوْ نَاظِرَةً فِي وَزَارَةِ ٱلْمَعَارِفِ ؛ أَوْ مُؤَلِّفَةَ كُتُبٍ وَرِوَايَاتٍ ، أَوْ مُحَرِّرَةً فِي صَحِيفَةٍ مِنَ ٱلصُّحُفِ . وَلَا يَصْغُرَنَّ عِنْدَكَ شَأْنُ هَـٰذِهِ ٱلْمُعْجِزَةِ ، فَهِيَ وَٱللهِ مُعْجِزَةٌ مَا دَامَ يَتَحَقَّقُ بِهَا خُرُوجُ ٱلْفَتَاةِ مِنْ حُكْمِ ٱلطَّبِيعَةِ عَلَيْهَا ، وَبَقَاؤُهَا فِي ٱلاجْتِمَاعِ ٱلْمِصْرِيِّ ٱمْرَأَةً بِلَا تَأْنِيثٍ ، أَوِ ٱنْقِلَابُهَا فِيهِ رَجُلًا بِلَا تَذْكِيرٍ !

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ مِنَ ٱلْمُعْجِزَاتِ أَنَّ تَأْلِيفَ رِوَايَةٍ قَدْ أَغْنَىٰ عَنْ تَأْلِيفِ أُسْرَةٍ ؛ وَأَنَّ فَتَاةً تَعِيشُ وَتَمُوتُ وَمَا وَلَدَتْ لِلأُمَّةِ إِلَّا مَقَالَاتٍ . . . ؟

فَقُلْتُ : يَا صَاحِبِي ! دَعْ هَـٰؤُلَاءِ وَخُذِ ٱلآنَ فِي حَدِيثِ ٱلطَّائِشَةِ ٱلْخَارِجَةِ عَلَىٰ ٱلتَّقَالِيدِ ، وَقَدْ قُلْتَ إِنَّهَا عَرَضَتْ لَكَ كَمَا يَعْرِضُ ٱلْمُصَارِعُ لِلْمُصَارِعِ .

قَالَ : عَرَضَتْ لِيَ تُرِيدُ أَنْ تُصَرِّفَنِي كَيْفَ شَاءَتْ ، فَنَبَوْتُ فِي يَدِهَا ؛ فَزَادَتْ إِلَىٰ رَغْبَتِهَا إِصْرَارَهَا عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلرَّغْبَةِ ، فَٱلْتَوَيْتُ عَلَيْهَا ؛ فَزَادَتْ إِلَيْهِمَا خَشْيَةَ ٱلْيَأْسِ وَٱلْخَيْبَةِ ، فَتَعَسَّرْتُ مَعَهَا ؛ فَزَادَتْ إِلَىٰ هَـٰذِهِ كُلِّهَا ثَوْرَةَ كِبْرِيَائِهَا ، فَلَمْ أَتَسَهَّلْ ؛ فَٱنْتَهَتْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ

بَعْدَ ٱلرَّغْبَةِ ٱلْخَيَالِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ أَوَّلُ ٱلْعَبَثِ وَٱلدَّلَالِ ، إِلَىٰ ٱلرَّغْبَةِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ أَوَّلُ ٱلْحُبِّ وَٱلْهَوَىٰ : رَغْبَةِ تَعْذِيبِي بِهَا لِأَنَّهَا مُتَعَذِّبَةٌ بِي .

ثُمَّ رَدَّتْهَا ٱلطَّبِيعَةُ صَاغِرَةً إِلَىٰ حَقَائِقِهَا ٱلسَّلْبِيَّةِ ، فَإِذَا ٱلْكِبْرِيَاءُ فِيهَا إِنَّمَا كَانَتْ خُضُوعًا يَتَرَاءَىٰ بِٱلْعِصْيَانِ ، وَإِذَا ٱلرَّغْبَةُ فِي تَعْذِيبِ ٱلرَّجُلِ إِنَّمَا كَانَتِ ٱلْتِمَاسًا لِأَنْ تَنْعَمَ بِهِ ، وَإِذَا ٱلإِصْرَارُ عَلَىٰ إِخْضَاعِ ٱلرَّجُلِ وَإِذْلَالِهِ إِنَّمَا كَانَ إِصْرَارًا عَلَىٰ تَجْرِبَتِهِ وَدَفْعِهِ أَنْ يَسْتَبِدَّ وَيَمْلِكَ ؛ وَرَدَّتْهَا ٱلطَّبِيعَةُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلنِّسْوِيَّةِ ٱلصَّرِيحَةِ ، ٱلَّتِي بُنِيَتِ ٱلْمَرْأَةُ عَلَيْهَا شَاءَتْ أَمْ أَبَتْ ، وَهِيَ أَنْ تُعَانِيَ وَتَصْبِرَ عَلَىٰ مَا تُعَانِي !

أَمَّا أَنَا فَأَحْبَبْتُهَا حُبًّا عَقْلِيًّا ، وَكَانَ هَـٰذَا يَشْتَدُّ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُ إِشْفَاقٌ لَا حُبٌّ ؛ وَكَانَتْ إِذَا سَأَلَتْنِي عَنْ أَمْرٍ تَرْتَابُ فِيهِ ، قَالَتْ : أَجِبْنِي بِلِسَانِ ٱلصِّدْقِ لَا بِلِسَانِ ٱلشَّفَقَةِ . وَكَانَتْ تَقُولُ : إِنَّ فِي عَيْنَيْهَا بُكَاءً لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُذِيلَهُ مَعَ ٱلدَّمْعِ ، وَسَيَقْتُلُهَا هَـٰذَا ٱلْبُكَاءُ ٱلَّذِي لَا يُبْكَىٰ ، وَقَدِ ٱتَّخَذَتْ لَهَا فِي دَارِهَا خَلْوَةً سَمَّتْهَا : مِحْرَابَ ٱلدَّمْعِ ! ، قَالَتْ : لِأَنَّهَا تَبْكِي فِيهَا بُكَاءَ صَلَاةٍ وَحُبٍّ ، لَا بُكَاءَ حُبٍّ فَقَطْ !

ثُمَّ طَاشَتِ ٱلطَّيْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ . . . . !

* * *

قُلْتُ : وَمَا ٱلطَّيْشَةُ ٱلْكُبْرَىٰ ؟

قَالَ : إِنَّهَا كَتَبَتْ إِلَيَّ هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةَ :

« عَزِيزِي رَغْمَ أَنْفِي . . .

« لَقَدْ أَذْلَلْتَنِي بِشَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّكَ لَمْ تَذِلَّ لِي ، وَجَعَلْتَنِي - عَلَىٰ تَعْلِيمِي - أَشَدَّ جَهْلًا مِنَ ٱلْجَاهِلَةِ ؛ وَقَدْ نَسِيتُ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْمُتَعَلِّمَةَ تَعْرِفُ ثُمَّ تَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ : تَعْرِفُ كَيْفَ تُخْطِئُ إِذَا وَجَبَ أَنْ تُخْطِئَ ، وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْمَعْرِفَةُ ٱلأُوْلَىٰ ؛ أَمَّا ٱلْمَعْرِفَةُ ٱلثَّانِيَةُ فَتَوَهَّمْهَا أَنْتَ ، فَكَأَنِّي قُلْتُهَا لَكَ . . . .

« أَعْلَمُ - يَا عَزِيزِي رَغْمَ أَنْفِي - أَنِّي إِذَا لَمْ أَكُنْ عَزِيزَتَكَ رَغْمَ أَنْفِكَ ، فَسَآتِي مَا يَجْعَلُكَ

سَلَفًا وَمَثَلًا ، وَسَتَكْتُبُ ٱلصُّحُفُ عَنْكَ أَوَّلَ حَادِثٍ يَقَعُ فِي مِصْرَ عَنْ أَوَّلِ رَجُلٍ ٱخْتَطَفَتْهُ فَتَاةٌ . . . !

« وَبَعْدُ ، فَقَدْ أَرْسَلْتُ رُوحِي تُعَانِقُ رُوحَكَ ، فَهَلْ تَشْعُرُ بِهَا ؟ » .

قَالَ : فَوَجَمْتُ سَاعَةً وَتَبَيَّنَتْ لِي خِفَّتُهَا ، وَظَهَرَ لِي سَفَاهُهَا وَطَيْشُهَا ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهَا فَجِئْتُهَا فَأَجِدُهَا كَٱلْقَاضِي فِي مَحْكَمَتِهِ ، لَا عَقْلَ لَهُ إِلَّا عَقْلُ ٱلْحُكْمِ ٱلْقَانُونِيِّ ٱلَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ ، وَلَا إِنْسَانَ فِيهِ إِلَّا ٱلْإِنْسَانُ ٱلْمُقَيَّدُ بِمَادَّةِ كَذَا إِذَا حَدَثَ كَذَا ، وَٱلْمَادَّةِ كَذَا حِينَ يَكُونُ وَصْفُ ٱلْمُجْرِمِ كَذَا . . . !

فَقُلْتُ لَهَا : أَهَـٰذَا هُوَ ٱلْعِلْمُ ٱلَّذِي تَعَلَّمْتِهِ ؟ أَلَا يَكُونُ عِلْمُ ٱلْمَرْأَةِ خَلِيقًا أَنْ يَجْعَلَ صَاحِبَتَهُ ذَاتَ عَقْلَيْنِ إِذَا كَانَتِ ٱلْجَاهِلَةُ بِعَقْلٍ وَاحِدٍ ؟

قَالَتْ : ٱلْعِلْمُ ؟

قُلْتُ : نَعَمْ ، ٱلْعِلْمُ .

قَالَتْ : يَا حَبِيبِي ، إِنَّ هَـٰذَا ٱلْعِلْمَ هُوَ ٱلَّذِي وَضَعَ ٱلْمُسَدَّسَ فِي يَدِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْأُورُبِّيَّةِ لِعَاشِقِهَا ، أَوْ مَعْشُوقِهَا ! ثُمَّ أَطْرَقَتْ قَلِيلًا وَتَنَهَّدَتْ وَقَالَتْ : وَٱلْعِلْمُ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلْفَتَاةَ هُنَاكَ تَتَزَوَّجُ بِإِرْشَادِ ٱلرِّوَايَةِ ٱلَّتِي تَقْرَؤُهَا وَلَوِ ٱنْقَلَبَ ٱلزَّوَاجُ رِوَايَةً . . . وَٱلْعِلْمُ هُوَ ٱلَّذِي كَشَفَ حِجَابَ ٱلْفَتَاةِ عَنْ وَجْهِهَا ، ثُمَّ عَادَ فَكَشَفَ حَيَاءَ وَجْهِهَا ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تُوَاجِهَ حَقَائِقَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَتَعْرِفَهَا مَعْرِفَةً عِلْمِيَّةً . . . وَٱلْعِلْمُ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ خَطَأَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْجِنْسِيَّ مَعْفُوًّا عَنْهُ مَا دَامَ فِي سَبِيلِ مُوَاجَهَةِ ٱلْحَقَائِقِ لَا فِي سَبِيلِ ٱلْهَرَبِ مِنْهَا . . . وَٱلْعِلْمُ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلْمَرْأَةَ مُسَاوِيَةً لِلرَّجُلِ ، وَأَكَّدَ لَهَا أَنَّ وَاحِدًا وَوَاحِدًا هُمَا وَاحِدٌ وَكِلَاهُمَا أَوَّلُ . . . وَٱلْعِلْمُ هُوَ ٱلَّذِي عَرَّى أَجْسَامَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ بِبُرْهَانِ أَشِعَّةِ ٱلشَّمْسِ . . . وَٱلْعِلْمُ يَا عَزِيزِي هُوَ ٱلْعِلْمُ ٱلَّذِي مَحَا مِنَ ٱلْعَالَمِ لَفْظَةَ (أَمْسِ) لَا يَعْرِفُهَا وَإِنْ كَانَتْ فِيهَا ٱلْأَدْيَانُ وَٱلتَّقَالِيدُ . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُهَا : فَقُلْتُ لَهَا : كَأَنَّ ٱلْعِلْمَ إِفْسَادٌ لِلْمَرْأَةِ ! وَكَأَنَّهُ تَعْلِيمُ مَعَرَّاتِهَا وَنَقَائِصِهَا ، لَا تَعْلِيمُ فَضَائِلِهَا وَمَحَاسِنِهَا . . .

قَالَتْ : لَا ، وَلَـٰكِنَّ عَقْلَ ٱلْمَرْأَةِ هُوَ عَقْلُ أُنْثَى دَائِمًا ، وَدَائِمًا عَقْلُ أُنْثَى ؛ وَفِي رَأْسِهَا دَائِمًا جَوُّ قَلْبِهَا ، وَجَوُّ قَلْبِهَا دَائِمًا فِي رَأْسِهَا ؛ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مَدْرَسَتُهَا مُتَمِّمَةً لِدَارِهَا وَمَا فِي دَارِهَا ، تَمَّمَتْ فِيهَا ٱلشَّارِعَ وَمَا فِي ٱلشَّارِعِ .

ٱلْعِلْمُ لِلْمَرْأَةِ ؛ وَلَـٰكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَبُ وَهَيْبَةُ ٱلْأَبِ أَمْرًا مُقَرَّرًا فِي ٱلْعِلْمِ ، وَٱلْأَخُ وَطَاعَةُ ٱلْأَخِ حَقِيقَةً مِنْ حَقَائِقِ ٱلْعِلْمِ ؛ وَٱلزَّوْجُ وَسِيَادَةُ ٱلزَّوْجِ شَيْئًا ثَابِتًا فِي ٱلْعِلْمِ ، وَٱلِاجْتِمَاعُ وَزَوَاجِرُهُ ٱلدِّينِيَّةُ وَٱلِاجْتِمَاعِيَّةُ قَضَايَا لَا يَنْسَخُهَا ٱلْعِلْمُ . بِهَـٰذَا وَحْدَهُ يَكُونُ ٱلنِّسَاءُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ مَصَانِعَ عِلْمِيَّةً لِلْفَضِيلَةِ وَٱلْكَمَالِ وَٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَبْدَأُ تَارِيخُ ٱلطِّفْلِ بِأَسْبَابِ ٱلرُّجُولَةِ ٱلتَّامَّةِ ، لِأَنَّهُ يَبْدَأُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلتَّامَّةِ .

أَمَّا بِغَيْرِ هَـٰذَا ٱلشَّرْطِ ، فَٱلْمَرْأَةُ ٱلْفَلَّاحَةُ فِي حِجْرِهَا طِفْلٌ قَذِرٌ ، هِيَ خَيْرٌ لِلْأُمَّةِ مِنْ أَكْبَرِ أَدِيبَةٍ تُخْرِجُ ذُرِّيَّةً مِنَ ٱلْكُتُبِ . . .

ٱنْظُرْ يَا عَزِيزِي رَغْمَ أَنْفِي ، هَـٰذِهِ رِسَالَةٌ جَاءَتْنِي ٱلْيَوْمَ مِنْ صَدِيقَتِي فُلَانَةَ ٱلْأَدِيبَةِ الـ . . . فَٱسْمَعْ قَوْلَهَا :

« . . . وَأَنَا أَعِيشُ ٱلْيَوْمَ فِي ٱلْجَمَالِ ، لِأَنِّي أَعِيشُ فِي بَعْضِ خَفَايَا ٱلْحَبِيبِ . . . » .

« وَفِي ٱلْحَيَاةِ مَوْتٌ حُلْوٌ لَذِيذٌ ؛ عَرَفْتُ ذَلِكَ حِينَمَا نَسِيتُ نَفْسِي عَلَىٰ صَدْرِهِ ٱلْقَوِيِّ ، وَحِينَمَا نَسِيتُ عَلَىٰ صَدْرِهِ ٱلْقَوِيِّ صَدْرِي . . . » .

أَسَمِعْتَ يَا عَزِيزِي ؟ إِنْ كُنْتَ لَمَّا تَعْلَمْ أَنَّ هَـٰذَا هُوَ عِلْمُ أَكْثَرِ ٱلْفَتَيَاتِ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ حِينَ يَكْسُدُ ٱلزَّوَاجُ ـ فَٱعْلَمْهُ . وَمَتَىٰ عَمِيَ ٱلشَّعْبُ وَٱلْحُكُومَةُ هَـٰذَا ٱلْعَمَىٰ ، فَإِنَّ حُرِّيَّةَ ٱلْمَرْأَةِ لَا تَكُونُ أَبَدًا إِلَّا حُرِّيَّةَ ٱلْفِكْرَةِ ٱلْمُحَرَّمَةِ !

* * *

قُلْتُ لِصَاحِبِنَا : ثُمَّ مَاذَا ؟

قَالَ : ثُمَّ هَـٰذَا . . . وَدَسَّ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَأَخْرَجَ أَوْرَاقًا كَتَبَ فِيهَا رِوَايَةً صَغِيرَةً أَسْمَاهَا « ٱلطَّائِشَةُ » .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلطَّائِشَةُ(*)
٢

وَهَـٰذَا مُحَصَّلُ رِوَايَةِ « ٱلطَّائِشَةِ » ، نَقَلْنَاهُ مِنْ خَطِّ ٱلْكَاتِبِ عَلَىٰ مَسَاقِ مَا دَوَّنَهُ فِي أَوْرَاقِهِ ، وَعَلَىٰ سَرْدِهِ ٱلَّذِي قَصَّ بِهِ ٱلْخَبَرَ ؛ وَقَدْ أَعْطَانَا مِنَ ٱلْبُرْهَانِ مَا نَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ أَنَّ هَـٰذِهِ « ٱلطَّائِشَةَ » هِيَ مِنْ تَأْلِيفِ ٱلْحَيَاةِ لَا مِنْ تَأْلِيفِهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَرِعْ مِنْهَا حَادِثَةً ، وَلَمْ يَأْتَنِفْ حَدِيثًا ، وَلَمْ يَزِدْهَا بِفَضِيلَةٍ ، وَلَمْ يَنْقُصْهَا بِمَعَرَّةٍ ؛ ثُمَّ أَشْهَدَ(١) عَلَىٰ قَوْلِهِ كُتُبَ صَاحِبَتِهِ ٱلأَدِيبَةِ ٱلْمُسْتَهْتِرَةِ ٱلَّتِي لَا تُبَالِي مَا قَالَتْ وَلَا مَا قِيلَ فِيهَا ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلْكُتُبُ رَسَائِلُ : مِنْهَا ٱلْمُوجَزُ وَمِنْهَا ٱلْمُسْتَفِيضُ ، وَهِيَ بِجُمْلَتِهَا تَنْزِلُ مِنَ ٱلرِّوَايَةِ مَنْزِلَةَ ٱلشُّرُوحِ ٱلْمُفَنَّنَةِ ، وَتَنْزِلُ ٱلرِّوَايَةُ مِنْهَا مَنْزِلَةَ ٱللُّمَعِ ٱلْمُقْتَضَبَةِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَكُلُّ ذَلِكَ بَعْضُهُ شَاهِدٌ عَلَىٰ بَعْضٍ .

قَالَ كَاتِبُ (ٱلطَّائِشَةِ) :

كُنْتُ رَجُلًا غَزِلًا وَلَمْ أَكُنْ فَاسِقًا ، وَلَسْتُ كَهَـٰؤُلَاءِ ٱلشُّبَّانِ ٱلَّذِينَ أُصِيبُوا فِي إِيمَانِهِمْ بِٱللَّهِ فَأُصِيبُوا فِي إِيمَانِهِمْ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ ، وَذَهَبُوا يُحَقِّقُونَ ٱلْمَدَنِيَّةَ فَحَقَّقُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا ٱلْمَدَنِيَّةَ .

تَرَىٰ أَحَدَهُمْ شَرِيفًا يَأْنَفُ أَنْ يَكُونَ لِصًّا وَأَنْ يُسَمَّىٰ لِصًّا ، ثُمَّ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلَ ٱللِّصِّ فِي ٱسْتِلَابِ ٱلْعَفَافِ وَسَرِقَةِ ٱلْفَتَيَاتِ مِنْ تَارِيخِهِنَّ { ٱلاجْتِمَاعِيِّ } ؛ وَتَرَاهُ نَجْدًا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَكُونَ فِي أَوْصَافِ قَاطِعِ ٱلطَّرِيقِ ، ثُمَّ يَأْبَىٰ إِلَّا أَنْ يَقْطَعَ ٱلطَّرِيقَ فِي حَيَاةِ ٱلْعَذَارَىٰ وَشَرَفِ ٱلنِّسَاءِ .

أَكْثَرُ أُولَـٰئِكَ ٱلشُّبَّانِ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ يَعْرِضُونَ لِلْفَتَيَاتِ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ بِوُجُوهٍ مَصْقُولَةٍ تَحْتَمِلُ

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٣ ، ٢٣ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٤ يونيو/حزيران ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٠٠٣ ـ ١٠٠٦ .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « وَأَشْهَدَ » بَدَلًا مِنْ : « ثُمَّ أَشْهَدَ » .

شَيْئَيْنِ : ٱلْحُبَّ وَٱلصَّفْعَ . . . وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ يَضَعْنَ ٱلْقُبْلَةَ فِي مَكَانِ ٱلصَّفْعَةِ ، إِذْ كَانَ ٱلْعِلْمُ قَدْ حَلَّلَ ٱلْغَرِيزَةَ ٱلَّتِي فِيهِنَّ فَعَادَتْ بَقَايَا لَا تَسْتَمْسِكُ ؛ وَبَصَّرَهُنَّ بِأَشْيَاءَ تَزِيدُ قُوَّةَ ٱلْحَيَاةِ فِيهِنَّ خَطَرًا ، وَتُوحِي إِلَيْهِنَّ وَحْيَهَا مِنْ حَيْثُ يَشْعُرْنَ وَلَا يَشْعُرْنَ ؛ وَصَوَّرَ فِي أَوْهَامِهِنَّ صُوَرًا مَحَتِ ٱلصُّوَرَ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي عَقَائِدِهِنَّ ؛ وَأَخْرَجَهُنَّ مِنَ ٱلسَّلْبِ ٱلطَّبِيعِيِّ ٱلَّذِي حَمَاهُنَّ ٱللَّهُ بِهِ ، فَلَهُنَّ ٱلْعِفَّةُ وَٱلْحَيَاءُ ، وَلَـٰكِنْ لَيْسَ لَهُنَّ ذَلِكَ ٱلْعَقْلُ ٱلْغَرِيزِيُّ ٱلَّذِي يَجِيءُ مِنَ ٱلْحَيَاءِ وَٱلْعِفَّةِ ؛ وَكَثِيرَاتٌ مِنْهُنَّ يَخْشَيْنَ ٱلْعَارَ وَسِمَتَهُ ٱلاجْتِمَاعِيَّةَ وَلَـٰكِنْ خَشْيَةَ فُقَهَاءِ ٱلْحِيَلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ، قَدْ أَرْصَدُوا لِكُلِّ وَجْهٍ مِنَ ٱلتَّحْرِيمِ وَجْهًا مِنَ ٱلتَّحْلِيلِ ، فَأَصْبَحَ ٱمْتِنَاعُ ٱلإِثْمِ هُوَ أَلَّا تَكُونَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ . . . .

وَٱلْعَقْلُ ٱلَّذِي بِهِ ٱلتَّفْكِيرُ يَكُونُ أَحْيَانًا غَيْرَ ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِي بِهِ ٱلْعَمَلُ ؛ فَفِي بَعْضِ ٱلْجَاهِلَاتِ يَكُونُ عَقْلُ ٱلْحَيَاءِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلشَّرَفِ وَٱلدِّينِ ـ غَرِيزَةً كَغَرَائِزِ ٱلْوَحْشِ ، هِيَ ٱلْفِكْرَةُ وَهِيَ ٱلْعَمَلُ جَمِيعًا ، وَهِيَ أَبَدًا ٱلْفِكْرَةُ وَٱلْعَمَلُ جَمِيعًا لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ ، وَلَا يَقَعُ فِيهَا ٱلتَّنْقِيحُ ٱلشِّعْرِيُّ وَلَا ٱلْفَلْسَفِيُّ . . . وَمَا غَرِيزَةُ ٱلْوَحْشِ إِلَّا إِيمَانُهُ بِمَنْ خَلَقَهُ وَحْشًا ؛ وَكَذَلِكَ غَرِيزَةُ ٱلشَّرَفِ فِي ٱلأُنْثَىٰ هِيَ عِنْدِي حَقِيقَةُ إِيمَانِهَا بِمَنْ خَلَقَهَا أُنْثَىٰ .

وَشَرَفُ ٱلْمَرْأَةِ رَأْسُ مَالٍ لِلْمَرْأَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ لَهُ فِي أَوْهَامِ ٱلْعِلْمِ ٱشْتِرَاكِيَّةٌ بِحَسَبِهِ تَنْظُرُ فِيهِ نَظَرَهَا وَتَزِيغُ زَيْغَهَا وَتَقْضِي حُكْمَهَا ؛ وَأَكْثَرُ مَنْ عَرَفْتُ مِنَ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَٱلْمُتَعَلِّمَاتِ قَدِ ٱنْتَهَوْا بِطَبِيعَتِهِمُ ٱلْعِلْمِيَّةِ إِلَى ٱلرِّضَىٰ بِهَـٰذِهِ ٱلاشْتِرَاكِيَّةِ ، وَإِلَى ٱلتَّسَامُحِ فِي كَثِيرٍ ، وَإِلَىٰ وَضْعِ ٱلاعْتِذَارِ فِيمَا لَا يَقْبَلُ عُذْرًا ، وَمِنْ هَا هُنَا كَانَ بَعْضُ ٱلْجَاهِلَاتِ كَٱلْحِصْنِ ٱلْمُغْلَقِ فِي قِمَّةِ ٱلْجَبَلِ ٱلْوَعْرِ ، وَكَانَ بَعْضُ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ دُونَ ٱلْحِصْنِ ، وَدُونَ ٱلْقِمَّةِ ، وَدُونَ ٱلْجَبَلِ ، حَتَّىٰ تَنْزِلَ إِلَى ٱلسَّهْلِ فَتَرَاهُنَّ ثَمَّةَ .

لَقَدْ غَفَلَتِ ٱلْحُكُومَاتُ عَنْ مَعْنَى ٱلدِّينِ وَحَقِيقَتِهِ ، فَلَوْ عَرَفَتْ لَعَرَفَتْ أَنَّ ٱلإِنْسَانِيَّةَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِٱلدِّينِ وَٱلْعِلْمِ كِلَيْهِمَا ؛ فَإِنَّ فِي ٱلرَّجُلِ إِنْسَانًا عَامًّا وَنَوْعًا خَاصًّا مُذَكَّرًا ، وَفِي ٱلْمَرْأَةِ إِنْسَانٌ عَامٌّ كَذَلِكَ ، وَنَوْعٌ خَاصٌّ مُؤَنَّثٌ . وَٱلدِّينُ وَحْدَهُ هُوَ ٱلَّذِي يُصْلِحُ ٱلنَّوْعَ بِتَحْقِيقِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَقْرِيرِ ٱلْغَايَةِ ٱلأَخْلَاقِيَّةِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي يُحَاجِزُ بَيْنَ ٱلْغَرِيزَتَيْنِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي يَضَعُ ٱلْقُوَّةَ ٱلزَّوْجِيَّةَ فِي طَبِيعَةِ ٱلْمُتَعَلِّمِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ طَبِيعَةُ ٱلتَّعْلِيمِ قَوِيَّةً ، كَانَتِ ٱلزَّوْجِيَّةُ

زِيَادَةً فِي ٱلْقُوَّةِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ ضَعِيفَةً كَمَا هِيَ ٱلْحَالُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ، لَمْ تَجْمَعِ ٱلزَّوْجِيَّةُ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِ ضَعْفَيْنِ ، يَبْتَلِي كِلَاهُمَا ٱلْآخَرَ وَيَزِيدُهُ .

* * *

فُلَانٌ وَفُلَانٌ تَعَلَّقَا فَتَاتَيْنِ جَاهِلَةً وَمُتَعَلِّمَةً ؛ وَكِلْتَاهُمَا قَدْ صَدَّتْ صَاحِبَهَا وَٱمْتَنَعَتْ مِنْهُ ؛ فَأَمَّا ٱلْجَاهِلَةُ فَيَقُولُ (فُلَانُهَا) : إِنَّهَا كَٱلْوَحْشِ ، وَإِنَّ صُدُودَهَا لَيْسَ صُدُودًا حَسْبُ ، بَلْ هُوَ ثَوْرَةٌ مِنْ فَضِيلَتِهَا وَإِيمَانِهَا ، فِيهَا ٱلْمَعْنَى ٱلْحَرْبِيُّ مُجَاهِدًا مُتَحَفِّزًا لِلْقَتْلِ . . .

وَأَمَّا ٱلْمُتَعَلِّمَةُ فَيَقُولُ (فُلَانُهَا) : إِنَّهَا كَكُلِّ ٱمْرَأَةٍ ، وَإِنَّ صُدُودَهَا ثَوْرَةٌ ، وَلَـٰكِنْ مِنْ دَلَالِهَا تُرْضِي بِهِ أَوَّلَ مَا تُرْضِي وَآخِرَ مَا تُرْضِي - كِبْرِيَاءَ ٱلْجَمَالِ فِيهَا لَا ٱلْإِيمَانَ وَلَا ٱلْفَضِيلَةَ . فَكَأَنَّهَا إِيحَاءٌ لِلطَّامِعِ أَنْ يَزِيدَ طَمَعًا أَوْ يَزِيدَ ٱحْتِيَالًا . . .

وَفُلَانٌ هَـٰذَا يَقُولُ لِي : إِنَّ ضُعَفَاءَ ٱلْإِيمَانِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ - وَأَكْثَرُهُمْ ضُعَفَاءُ ٱلْإِيمَانِ - لَوْ حَقَّقْتَ أَمْرَهُمْ وَبَلَوْتَ سَرَائِرَهُمْ ، لَتَبَيَّنْتَ أَنَّهُمْ جَمِيعًا لَا يَرَوْنَ قَلْبَ ٱلْفَتَاةِ ٱلْمُتَعَلِّمَةِ إِلَّا كَٱلدَّارِ ٱلْخَالِيَةِ كُتِبَ عَلَيْهَا : (لِلْإِيجَارِ) . . . !

* * *

يَقُولُ كَاتِبُ « ٱلطَّائِشَةِ » :

أَمَّا أَنَا فَقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّ سِيَاسَةَ أَكْثَرِ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ هِيَ سِيَاسَةُ فَتْحِ ٱلْعَيْنِ حَذَرًا مِنَ ٱلشُّبَّانِ جَمِيعًا ؛ وَإِغْمَاضِ ٱلْعَيْنِ لِوَاحِدٍ فَقَطْ . . .

وَهَـٰذَا ٱلْوَاحِدُ هُوَ ٱلْبَلَاءُ كُلُّهُ عَلَى ٱلْفَتَاةِ ، فَإِنَّهَا بِطَبِيعَتِهَا تَتَقَيَّدُ وَلَا تَنْفَصِلُ إِلَّا مُكْرَهَةً ، وَهُوَ بِطَبِيعَتِهِ قَيْدُهُ لَذَّتُهُ ، فَيَتَّصِلُ وَيَنْفَصِلُ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ هَـٰذَا ٱلْوَاحِدِ ، فَفِكْرُهَا ٱلْمُتَعَلِّمُ يُوحِي إِلَيْهَا بِٱلْحَيَاةِ لَا يَجْعَلُ فِي ذَلِكَ مَوْضِعًا لِلنَّكِيرِ عِنْدَهَا ، وَٱلْحَيَاةُ نِصْفُ مَعَانِيهَا ٱلنَّفْسِيَّةِ فِي ٱلصَّدِيقِ ؛ فَٱلْأُنُوثَةُ بِغَيْرِهِ مُظْلِمَةٌ فِي حَيَاتِهَا ، رَاكِدَةٌ فِي طِبَاعِهَا ، ثَقِيلَةٌ عَلَى نَفْسِهَا ، مَا دَامَ « ٱلشُّعَاعُ » لَا يَلْمَسُهَا . . .

وَٱلدِّينُ يَأْبَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ٱلصَّدِيقُ إِلَّا ٱلزَّوْجَ فِي شُرُوطِهِ وَعُهُودِهِ ، كَيْلَا تَتَقَيَّدَ ٱلْمَرْأَةُ إِلَّا بِمَنْ يَتَقَيَّدُ بِهَا ؛ وَٱلْعِلْمُ لَا يَأْبَى أَنْ يَكُونَ ٱلصَّدِيقُ هُوَ ٱلْحُبُّ ؛ وَٱلْفَنُّ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ

هُوَ ٱلْحُبُّ ؛ وَلَيْسَ فِي ٱلْحُبِّ شُرُوطٌ وَلَا عُهُودٌ ، إِلَّا وَسَائِلَ تُخْتَلَقُ لِوَقْتِهَا ، وَأَكْثَرُهَا مِنَ ٱلْكَذِبِ وَٱلنِّفَاقِ وَٱلْخَدِيعَةِ ؛ وَلَفْظُ ٱلْحُبِّ نَفْسُهُ لِصٌّ لُغَوِيٌّ خَبِيثٌ ، يَسْرِقُ ٱلْمَعَانِيَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ لَهُ وَيُنْفِقُ مِمَّا يَسْرِقُ . وَلَيْسَ مِنِ ٱمْرَأَةٍ يَخْتَدِعُهَا عَاشِقٌ إِلَّا ٱنْكَشَفَ لَهَا حُبُّهُ كَمَا يَنْكَشِفُ ٱللِّصُّ ﴿ حِينَ يُمْسَكُ ﴾ .

* * *

يَقُولُ كَاتِبُ « ٱلطَّائِشَةِ » :

تِلْكَ فَلْسَفَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي ٱلتَّوْطِئَةِ لِلْكِتَابَةِ عَنْ (عَزِيزَتِي رَغْمَ أَنْفِي) . وَمَنْ كَانَتْ مِثْلَهَا فِي أَفْكَارِهَا وَٱسْتِدْلَالِهَا وَحُجَجِهَا وَطَرِيقَتِهَا ـ كَانَ خَلِيقًا بِمَنْ يَكْتُبُ قِصَّتَهَا أَنْ يَجْعَلَ ٱلْقِصَّةَ مِنْ أَوَّلِهَا مُسَلَّحَةً . . .

لَقَدْ تَكَارَهْتُ عَلَى بَعْضِ مَا أَرَادَتْ مِنِّي مَا دَامَ ٱلْحُبُّ (رَغْمَ أَنْفِي) ، وَمَا دَامَتِ ٱلسِّيَاسَةُ أَنْ أُدَارِيَهَا وَأَتَّبِعَ مَحَبَّتَهَا ؛ غَيْرَ أَنِّي صَارَحْتُهَا بِكَلِمَةٍ شَمْسِيَّةٍ تَلْمَعُ تَحْتَ ٱلشَّمْسِ ، أَنَّهَا ٱلصَّدَاقَةُ لَا ٱلْحُبُّ ، وَأَنَّمَا هُوَ ٱللَّهْوُ ٱلْبَرِيءُ لَا غَيْرُهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ جُهْدُ مَا أَنَا قَوِيٌّ عَلَيْهِ وَفِيٌّ بِهِ .

قَالَتْ : فَلْيَكُنْ ، وَلَـٰكِنْ صَدَاقَةٌ أَعْلَى قَلِيلًا مِنَ ٱلصَّدَاقَةِ . . . وَلَوْ مِنْ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ ٱلْمُتَكَبِّرِ ٱلَّذِي لَا يَصْدُقُ كَيْلَا يَكْذِبَ . . . إِنَّ هَـٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْحُبِّ يَطِيشُ بِعَقْلِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَلَـٰكِنَّهُ هُوَ أَوَّلُ مَا يَسْتَهِيمُهَا وَيُعْجِبُهَا وَيُورِثُهَا ٱلْتِيَاعَ ٱلْحَنِينِ ﴿ وَٱلشَّوْقِ ﴾ .

* * *

كَتَبَتْ لِي : « أَنَا لَا أَتَأَلَّمُ فِي هَوَاكَ بِٱلْأَلَمِ ، وَلَـٰكِنْ بِأَشْيَاءَ مِنْكَ أَقَلُّهَا ٱلْأَلَمُ ؛ وَلَا أَحْزَنُ بِٱلْحُزْنِ ، وَلَـٰكِنْ بِهُمُومٍ بَعْضُهَا ٱلْحُزْنُ .

إِنَّكَ صَنَعْتَ لِي بُكَاءً وَدُمُوعًا وَتَنَهُّدَاتٍ ، وَجَعَلْتَ لِي ظَلَامًا مِنْكَ وَنُورًا مِنْكَ ، يَا نَهَارِي وَلَيْلِي . تُرَى مَا ٱسْمُ هَـٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلصَّدَاقَةِ ؟

ٱسْمُهُ ٱلْحُبُّ ؟ لَا .

ٱسْمُهُ ٱلْكِبْرِيَاءُ ؟ لَا .

أَسْمُهُ ٱلْحَنَانُ ؟ لَا .

أَسْمُهُ حُبُّكَ أَنْتَ ، أَنْتَ أَيُّهَا ٱلْغَامِضُ ٱلْمُتَقَلِّبُ . أَلَا تَرَىٰ أَلْفَاظِي تَبْكِي ، أَلَا تَسْمَعُ قَلْبِي يَصْرُخُ ، بِأَيِّ عَذْلِكَ أَوْ بِأَيِّ عَذْلِ ٱلنَّاسِ تُرِيْدُ أَنْ أَحْيَا فِي عَالَمٍ شَمْسُهُ بَارِدَةٌ . . . هَـٰذَا قَتْلٌ ، هَـٰذَا قَتْلٌ .

فَكَتَبْتُ إِلَيْهَا : « إِنْ لَمْ يَكُنْ هَـٰذَا جُنُوْنًا فَإِنَّهُ[١] لَقَرِيْبٌ مِنْهُ » .

فَرَدَّتْ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةِ :

أَتُكَاتِبُنِي بِأُسْلُوْبِ ٱلتِّلِغْرَافِ[٢] . . . ؟ لَوْ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ عِقْدًا مِنَ ٱلزُّمُرُّدِ حَبَّاتُهُ بِعَدَدِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ لَكُنْتَ بَخِيْلًا ، فَكَيْفَ وَهِيَ أَلْفَاظٌ ؟ إِنِّي لأَبْكِي فِي غَمْضَةٍ وَاحِدَةٍ بِدُمُوْعٍ أَكْثَرَ عَدَدًا مِنْ كَلِمَاتِكَ ، وَهِيَ دُمُوْعٌ مِنْ آلَامِي وَأَحْزَانِي ؛ وَتِلْكَ أَلْفَاظٌ مِنْ لَهْوِكَ وَعَبَثِكَ !

مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ كَتَبْتَ لِي بِضْعَةَ أَسْطُرٍ تَنْسَخُهَا مِنْ تِلِغْرَافَاتِ رُوْيْتَرْ[٣] . . . مَا دُمْتَ تَسْخَرُ مِنِّي ؟ أَأَنْتَ ٱلشَّبَابُ وَأَنَا ٱلْكُهُوْلَةُ ، فَلَيْسَ لَكَ بِٱلطَّبِيْعَةِ إِلَّا الانْصِرَافُ عَنِّي ، وَلَيْسَ لِي بِٱلطَّبِيْعَةِ إِلَّا ٱلْحَنِيْنُ إِلَيْكَ ؟ .

* * *

لَا أَدْرِي كَيْفَ أَحْبَبْتُهَا ، وَلَا كَيْفَ دَعَتْنِي إِلَيْهَا نَفْسِي ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِي أَعْلَمُهُ أَنِّي تَخَادَعْتُ لَهَا وَقُلْتُ : إِنَّ ٱلْمُسْتَحِيْلَ هُوَ مَنْعُ هَـٰذَا ٱلشَّرِّ ، وَٱلْمُمْكِنَ هُوَ تَخْفِيْفُهُ ؛ ثُمَّ أَقْبَلْتُ

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « إِنَّهُ » بِدَلًا مِنْ : « فَإِنَّهُ » .

(٢) هو ما عرف أخيرًا بالبَرْقية ، Telegraphe أو Telegrame ، يُقْصَرُ استعمالُ هذا الرسم على التَّراسُلِ الكَهْربيِّ ، واستعمل قديمًا ليدلّ على طُرُقِ إرسال الإشارات بالصوت أو النظر خارج نطاق الصوت الإنساني . بسّام .

(٣) Reuters ، وكالة أنباء عالمية ، تاسّسَتْ عام ١٨٥١ م على يد اليهودي الإنكليزي الألماني الأصل بول يوليوس رويتر في لندن ، حيث بدأ عام ١٨٤٩ مستخدماً الحمام الزاجل في نقل أسعار الأسهم بين مدينة آخن وبروكسيل ليسد فجوة في سلك التلغراف الواصل بين برلين وباريس ، ثم أسس وكالته التلغرافية في لندن عام ١٨٥١ م ، وبدأ بنشر مكاتبه في مختلف أنحاء العالم عام ١٨٥٨ م ، ومازالت هذه المؤسسة حيّة لغاية تاريخه ، وهي من أكبر المؤسسات العالمية التي تنقل أحدث الأنباء والبيانات والأسعار . بسّام .

أَرْثِي لَهَا ، وَأُخَفِّفُ عَنْهَا ، وَأَقْبَلَتْ هِيَ تُضَاعِفُ لِي مَكْرَهَا وَخَدِيْعَتَهَا ، وَكَانَ ٱلأَمْرُ بَيْنَنَا كَمَا قَالَتْ : « فِي ٱلْحُبِّ وَٱلْحَرْبِ لَا يَكُوْنُ ٱلْهُجُوْمُ هُجُوْمًا وَفِيْهِ رِفْقٌ أَوْ تَرَاجُعٌ » .

إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ وَحْدَهَا هِيَ ٱلَّتِي تَعْرِفُ كَيْفَ تُقَاتِلُ بِٱلصَّبْرِ وَٱلأَنَاةِ ؛ وَلَا يُشْبِهُهَا فِي ذَلِكَ إِلَّا دُهَاةُ ٱلْمُسْتَبِدِّيْنَ .

* * *

سَأَلَتْنِي أَنْ أُهْدِيَ إِلَيْهَا رَسْمِي ؛ فَٱعْتَلَلْتُ عَلَيْهَا بِأَنْ قُلْتُ لَهَا : إِنَّ هَـٰذَا ٱلرَّسْمَ سَيَكُوْنُ تَحْتَ عَيْنَيْكِ أَنْتِ رَسْمَ حَبِيْبٍ ، وَلَـٰكِنَّهُ تَحْتَ ٱلأَعْيُنِ ٱلأُخْرَىٰ سَيَكُوْنُ رَسْمَ مُتَّهَمٍ .

وَظَنَّتْنِي أَبْلَغْتُ فِي ٱلْحُجَّةِ وَقَطَعْتُهَا عَنِّي ؛ فَجَاءَتْنِي مِنَ ٱلْغَدِ بِٱلرَّدِّ ٱلْمُفْحِمِ ، جَاءَتْنِي بِإِحْدَىٰ صَدِيْقَاتِهَا لِتَظْهَرَ فِي ٱلرَّسْمِ إِلَىٰ جَانِبِي كَأَنَّنِي مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهَا . . . فَيَكُوْنُ ٱلرَّسْمُ رَسْمَ صَدِيْقَتِهَا ، وَيَكُوْنُ مُهْدًى مِنْهَا لَا مِنِّي ، وَكَأَنَّنِي فِيْهِ حَاشِيَةٌ جَاءَتْ مِنْ عَمَّةٍ أَوْ خَالَةٍ . . .

وَأَصْرَرْتُ عَلَىٰ ٱلإِبَاءِ ، وَنَافَرَتْنِي ٱلْقَوْلَ فِي ذَلِكَ ، تَرُدُّ عَلَيَّ وَأَرُدُّ عَلَيْهَا ، وَتَغَاضَبْنَا وَٱنْكَسَرَتْ حُزْنًا وَذَهَبَتْ بَاكِيَةً ؛ ثُمَّ تَسَبَّبَتْ إِلَىٰ رِضَايَ فَرَضِيْتُ .

* * *

حَدَّثَتْنِي أَنَّ صَدِيْقَتَهَا فُلَانَةَ ٱلأَدِيْبَةَ ٱسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسْتَزِيْرَ صَاحِبَهَا فُلَانًا فِي مَخْدَعِهَا ، فِي دَارِهَا ، بَيْنَ أَهْلِهَا ، مُنْتَصَفَ ٱللَّيْلِ . قُلْتُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَتْ : إِنَّهَا تَحْمِلُ شَهَادَةً . . . وَهِيَ تَلْتَمِسُ عَمَلًا وَقَدْ طَالَ عَلَيْهَا ؛ فَزَعَمَتْ لِذَوِيْهَا أَنَّهَا عَثَرَتْ فِي كِتَابِ كَذَا عَلَىٰ رُقْيَةٍ مِنْ رُقَىٰ ٱلسِّحْرِ ، فَتُرِيْدُ أَنْ تَتَعَاطَىٰ تَجْرِبَتَهَا بَعْدَ نِصْفِ ٱللَّيْلِ إِذَا مُحِقَ ٱلْقَمَرُ ؛ وَأَنَّهَا سَتُطْلِقُ ٱلْبَخُوْرَ وَتَبْقَىٰ تَحْتَ ضَبَابَتِهِ إِلَىٰ ٱلْفَجْرِ تُهَمْهِمُ بِٱلأَسْمَاءِ وَٱلْكَلِمَاتِ . . .

ثُمَّ إِنَّهَا ٱتَّعَدَتْ وَصَاحِبَهَا لِيَوْمٍ ، وَأَجَافَتْ بَابَ دَارِهَا وَلَمْ تُغْلِقْهُ ، وَأَطْلَقَتِ ٱلْبَخُوْرَ فِي مِجْمَرٍ كَبِيْرٍ أَثَارَ عَاصِفَةً مِنَ ٱلدُّخَانِ ٱلْمُعَطَّرِ ، وَجَعَلَ مَخْدَعَهَا كَمَخْدَعِ عَرُوْسٍ مِنْ مَلِكَاتِ ٱلتَّارِيْخِ ٱلْقَدِيْمِ ؛ وَبَقِيَ صَاحِبُهَا تَحْتَ ٱلضَّبَابَةِ يُهَمْهِمُ وَتُهَمْهِمُ . . . ثُمَّ خَرَجَ فِي أَغْبَاشِ ٱلسَّحَرِ .

هَـٰكَذَا قَالَتْ ؛ وَمَا أَدْرِي أَهُوَ خَبَرٌ عَنْ تِلْكَ ٱلصَّدِيقَةِ وَفُلَانِهَا ، أَمْ هُوَ ٱقْتِرَاحٌ عَلَيَّ أَنَا مِنْ « فُلَانَتِي » لِأَكُونَ لَهَا عِفْرِيتَ ٱلصَّبَابَةِ . . . ؟

* * *

لَمْ يَخْفَ عَلَيْهَا أَنَّ لَذْعَةَ حُبِّهَا وَقَعَتْ فِي قَلْبِي ، وَأَنَّ صَبْرَهَا قَدْ غَلَبَ كِبْرِيَائِي ، وَأَنَّ كَثْرَةَ ٱلتَّلَاقِي بَيْنَ رَجُلٍ وَٱمْرَأَةٍ يَطْمَعُ أَحَدُهُمَا فِي ٱلْآخَرِ ـ لَا بُدَّ أَنْ يَنْقُلَ رِوَايَتَهُمَا إِلَىٰ فَصْلِهَا ٱلثَّانِي ، وَيَجْعَلَ فِي ٱلتَّأْلِيفِ شَيْئًا مُنْتَظَرًا بِطَبِيعَةِ ٱلسِّيَاقِ . . . وَإِلْحَاحُ ٱمْرَأَةٍ عَلَىٰ رَجُلٍ قَدْ خَلَبَهَا وَجَفَا عَنْ صِلَتِهَا ، إِنَّمَا هُوَ تَعَرُّضُهَا لِلتَّعْقِيدِ ٱلَّذِي فِي طَبِيعَتِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ؛ فَإِنْ هِيَ صَابَرَتْهُ وَأَمْعَنَتْ ، فَقَلَّمَا يَدَعُهَا هَـٰذَا ٱلتَّعْقِيدُ مِنْ حَلٍّ لِمُعْضِلَتِهَا . وَبِمِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْعَجِيبَةِ كَانَ تَعْقِيدًا وَكَانَ غَيْرَ مَفْهُومٍ وَلَا وَاضِحٍ ؛ وَقَدْ يَنْقَلِبُ فِيهِ أَشَدُّ ٱلْبُغْضِ إِلَىٰ أَشَدِّ ٱلْحُبِّ ، وَقَدْ تَعْمَلُ فِيهِ حَالَةٌ مِنْ حَالَاتِ ٱلنَّفْسِ مَا لَا يَعْمَلُ ٱلسِّحْرُ ؛ وَكَذَٰلِكَ يَقَعُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَحَبَّ ٱلْمَرْأَةَ فَنَبَتْ عَنْ مَوَدَّتِهِ فَعَرَضَ لِلتَّعْقِيدِ ٱلَّذِي فِي طَبِيعَتِهَا وَأَمْعَنَ وَثَبَتَ { وَصَابَرَ } .

رَأَتِ ٱلْجَمْرَةَ ٱلْأُولَىٰ فِي قَلْبِي فَأَضْرَمَتْ فِيهِ ٱلثَّانِيَةَ ، حِينَ جَاءَتْنِي ٱلْيَوْمَ بِكِتَابٍ زَعَمَتْ أَنَّ فُلَانًا أَرْسَلَهُ إِلَيْهَا يُطَارِحُهَا ٱلْهَوَىٰ وَيَبُثُّهَا وَلَهَ ٱلْحَنِينِ وَٱلْتِيَاعَ ٱلْحُبِّ .

وَيَقُولُ لَهَا فِي هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ : « أَنَا لَمْ أَشْرَبْ خَمْرًا قَطُّ ، وَلَـٰكِنِّي لَا أَرَانِي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَفَاتِنِكِ وَمَحَاسِنِكِ إِلَّا وَفِي عَيْنَيَّ ٱلْخَمْرُ ، وَفِي عَقْلِيَ ٱلسُّكْرُ ، وَفِي قَلْبِيَ ٱلْعَرْبَدَةُ . جَعَلْتِ لِي { وَيْحَكِ } نَظْرَةَ سِكِّيرٍ فِيهَا نِسْيَانُ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَا عَدَا ٱلزُّجَاجَةَ . . . » .

وَيَخْتِمُهُ بِهَـٰذِهِ ٱلْعِبَارَةِ :

« آهِ لَوِ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَجْعَلَ كَلَامِي فِي نَفْسِكِ نَاعِمًا ، سَاحِرًا ، مُسْكِرًا ، مِثْلَ كَلَامِ ٱلشَّفَةِ لِلشَّفَةِ حِينَ تُقَبِّلُهَا . . . ! » .

عِنْدَ هَـٰذَا وَقَعَ ٱلشَّيْءُ ٱلْمُنْتَظَرُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلرِّوَايَةِ ، وَخُتِمَ هَـٰذَا ٱلْفَصْلُ بِأَوَّلِ قُبْلَةٍ عَلَىٰ شَفَتَيَّ (ٱلْمُمَثِّلَةِ) .

* * *

قَالَتْ : هَـٰذِهِ ٱلْقُبْلَةُ كَانَتْ (غَلْطَةً مَطْبَعِيَّةً) ، وَمَضَتْ تُسَمِّيهَا كَذَٰلِكَ ، وَٱسْتَمَرَّتِ

ٱلْمَطْبَعَةُ تَغْلَطُ . . . وَمَا عَلِمْتُ إِلَّا مِنْ بَعْدُ أَنَّ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَتْ بِهِ غَيْرَتِي ، إِنَّمَا كَانَ مِنْ عَمَلِهَا وَمَكْرِهَا .

* * *

وَجَاءَتْنِي ٱلْيَوْمَ بِآبِدَةٍ مِنْ أَوَابِدِهَا ، قَالَتْ :

أَنْتَ رَجْعِيٌّ مُحَافِظٌ عَلَى ٱلتَّقَالِيدِ . قُلْتُ : لِأَنِّي أَرَىٰ هَـٰذِهِ ٱلتَّقَالِيدَ كَٱلْمِصْبَاحِ ٱلَّذِي يَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَهُوَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ضِيَاءٌ وَنُورٌ .

قَالَتْ : أَوْ كَٱلْمَسَاءِ ٱلَّذِي يَتَكَرَّرُ وَهُوَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ظَلَامٌ وَسَوَادٌ !

قُلْتُ : لَيْسَ هَـٰذَا إِلَيَّ وَلَا إِلَيْكِ ، بَلِ ٱلْحُكْمُ فِيهِ لِلنَّفْعِ أَوِ ٱلضَّرَرِ .

قَالَتْ : بَلْ هُوَ إِلَى ٱلْحَيَاةِ ، وَٱلْحَيَاةُ ٱلْيَوْمَ عِلْمِيَّةٌ أُورُبِّيَّةٌ ، وَٱلزَّمَنُ حَثِيثٌ فِي تَقَدُّمِهِ ، وَأَصْحَابُ « ٱلتَّقَالِيدِ » جَامِدُونَ فِي مَوْضِعِهِمْ قَدْ فَاتَهُمُ ٱلزَّمَنُ ، وَلِذَٰلِكَ يُسَمُّونَهُمْ (مُتَأَخِّرِينَ) . أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي أُورُبَّةَ زِيًّا قَدِيمًا ، فَأَخَذَ ٱلْمِقَصُّ يَعْمَلُ فِي تَهْذِيبِهَا ، يَقْطَعُ مِنْ هُنَا وَيَشُقُّ مِنْ هُنَا . . . ؟

ٱسْمَعْ أَيُّهَا « ٱلْمُتَأَخِّرُ » ، وَتَأَمَّلْ هَـٰذَا ٱلْبُرْهَانَ(١) ٱلْأُورُبِّيَّ ٱلْعَصْرِيَّ :

أَخْبَرَتْنِي صَدِيقَتِي فُلَانَةُ حَامِلَةُ شَهَادَةِ . . . أَنَّهَا كَانَتْ فِي ٱلْقِطَارِ بَيْنَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَٱلْقَاهِرَةِ ، وَكَانَتْ مَعَهَا فَتَاةٌ مِنْ جِيرَتِهَا تَحْمِلُ ٱلشَّهَادَةَ ٱلِابْتِدَائِيَّةَ ؛ فَجَمَعَهُمَا ٱلسَّفَرُ بِشَابٍّ وَسِيمٍ ظَرِيفٍ يُشَارِكُ فِي ٱلْأَدَبِ ، غَيْرَ أَنَّهُ رَجْعِيٌّ (مُتَأَخِّرٌ) ، وَصَدِيقَتِي تَعْرِفُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئًا ، وَتَأْخُذُ مِنْ كُلِّ فَنٍّ بِطَرَفٍ ؛ فَجَرَى ٱلْحَدِيثُ بَيْنَهُمَا مَجْرَاهُ ، وَتَرَكَتِ ٱلصَّدِيقَةُ نَفْسَهَا لِدَوَاعِيهَا ، وَٱنْطَلَقَتْ عَلَىٰ سَجِيَّتِهَا ٱلظَّرِيفَةِ ، وَوَضَعَتْ فَنَّ لِسَانِهَا فِي ٱلْكَلَامِ فَجَعَلَتْ فِيهِ رُوحَ ٱلتَّقْبِيلِ . . . !

وَلَمْ تَبْلُغْ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ حَتَّىٰ كَانَتْ قَدْ سَحَرَتْ ذَٰلِكَ (ٱلْمُتَأَخِّرَ) وَوَقَعَتْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَدَفَعَتْهُ إِلَى ٱلزَّمَنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ . فَلَمَّا هَمَّتْ بِوَدَاعِهِ سَأَلَهُمَا : أَيْنَ تَذْهَبَانِ ؟

---

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلرِّهَانَ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْبُرْهَانِ » .

فَأَغْضَتْ صَاحِبَةُ ٱلشَّهَادَةِ ٱلِابْتِدَائِيَّةِ ، وَأَطْرَقَتْ حَيَاءً ، وَرَأَتْ فِي ٱلسُّؤَالِ تُهَمَةً وَرِيبَةً ، فَأَنَّبَتْهَا ٱلصَّدِيقَةُ وَأَيْقَظَتْهَا مِنْ حَيَائِهَا ، وَقَالَتْ لَهَا : أَلَا تَزَالِينَ شَرْقِيَّةً مُتَأَخِّرَةً ؟ إِنْ لَمْ يُسْعِدْنَا ٱلْحَظُّ أَنْ تَكُونَ لَنَا حُرِّيَّةُ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْأُورُبِّيَّةِ فِي ٱلْمُجْتَمَعِ وَفِي أَنْفُسِنَا ؛ أَفَلَا يَسَعُنَا أَنْ تَكُونَ لَنَا هَـٰذِهِ ٱلْحُرِّيَّةُ وَلَوْ فِي أَنْفُسِنَا ؟

ثُمَّ رَدَّتْ عَلَى ٱلشَّابِّ فَأَنْبَأَتْهُ بِمَكَانِهَا وَعُنْوَانِهَا ، فَأَطْمَعَهُ رَدُّهَا ، فَسَأَلَهَا أَنْ تَتَنَزَّهَ مَعَهُ فِي بَعْضِ ٱلْحَدَائِقِ ، فَأَبَتْ صَاحِبَةُ ٱلِابْتِدَائِيَّةِ وَلَجَّتْ عَمَايَتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ٱلْمُتَأَخِّرَةُ ، وَرَأَتْ فِي ذَلِكَ مَسْقَطَةً لَهَا ، فَلَوَتْ إِلَى دَارِهَا وَتَرَكَتْهُمَا إِنْسَانًا وَإِنْسَانًا لَا فَتًى وَفَتَاةً ؛ وَتَنَزَّهَا مَعًا ، وَعَرَفَ ٱلشَّابُّ ٱلرَّجْعِيُّ ٱلْحُبَّ ، وَٱلْخَمْرَ ٱلَّتِي هِيَ تَحِيَّةُ ٱلْحُبِّ !

وَلَمْ تَسْتَطِعِ ٱلْفَتَاةُ ٱلْمَاكِرَةُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى دَارِهَا وَهِيَ سَكْرَى { كَمَا زَعَمَتْ لِلشَّابِّ ـ } فَأَوَتْ إِلَى فُنْدُقٍ ، وَخُتِمَتْ رِوَايَتُهُمَا بِإِعْرَاضٍ مِنَ ٱلشَّابِّ أَجَابَتْ هِيَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهَا : أَلَا زِلْتَ (مُتَأَخِّرًا) . . . ؟

قَالَتْ « ٱلطَّائِشَةُ » :

نَعَمْ يَا عَزِيزِي (ٱلْمُتَأَخِّرُ) ، إِنَّ مَذْهَبَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْحُرَّةِ . . . فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلزَّوْجِ وَغَيْرِ ٱلزَّوْجِ ، أَنَّ ٱلْأَوَّلَ رَجُلٌ ثَابِتٌ ، وَٱلْآخَرَ رَجُلٌ طَارِئٌ . وَٱلثَّابِتُ ثَابِتٌ مَعَهَا بِحَقِّهِ هُوَ ؛ وَٱلطَّارِئُ طَارِئٌ عَلَيْهَا بِحَقِّهَا هِيَ . . . فَإِنْ كَانَتْ حُرَّةً فَلَهَا حَقُّهَا . . .

قَالَ كَاتِبُ ٱلطَّائِشَةِ : وَهُنَا ، { هُنَا ، هُنَا ، هُنَا ، } كَادَ ٱلشَّيْطَانُ يَرْفَعُ ٱلسِّتَارَ عَنْ فَصْلٍ ثَالِثٍ فِي هَـٰذِهِ ٱلرِّوَايَةِ ، رِوَايَةِ « ٱلطَّائِشَةِ » . . .

* * *

نَقُولُ نَحْنُ : وَإِلَى هُنَا يَنْتَهِي نِصْفُ ٱلرِّوَايَةِ ؛ أَمَّا ٱلنِّصْفُ ٱلْآخَرُ فَيَكَادُ يَكُونُ قِصَّةً أُخْرَى ٱسْمُهَا : « ٱلطَّائِشُ وَٱلطَّائِشَةُ » . . .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

دُمُوعٌ

مِنْ رَسَائِلِ « ٱلطَّائِشَةِ »(*)(١)

وَرَسَائِلُ هَـٰذِهِ ٱلطَّائِشَةِ إِلَى صَاحِبِهَا ، تُقْرَأُ فِي ظَاهِرِهَا عَلَى أَنَّهَا رَسَائِلُ حُبٍّ ، قَدْ كُتِبَتْ فِي ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي يَتَرَسَّلُ بِهَا ٱلْعُشَّاقُ ؛ وَلَـٰكِنَّ وَرَاءَ كَلَامِهَا كَلَامًا آخَرَ ، تُقْرَأُ بِهِ عَلَى أَنَّهَا تَارِيخُ نَفْسٍ مُلْتَاعَةٍ لَا تَزَالُ شُعْلَةُ ٱلنَّارِ فِيهَا تَتَنَمَّى وَتَرْتَفِعُ ؛ وَقَدْ فَدَحَتْهَا { بِظُلْمِهَا } ٱلْحَيَاةُ إِذْ حَصَرَتْهَا فِي فَنٍّ وَاحِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَأَوْقَعَتْهَا تَحْتَ شَرْطٍ وَاحِدٍ لَا يَتَحَقَّقُ ، وَصَرَّفَتْهَا بِفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَزَالُ تَخِيبُ .

وَأَشَدُّ سُجُونِ ٱلْحَيَاةِ فِكْرَةٌ خَائِبَةٌ يُسْجَنُ ٱلْحَيُّ فِيهَا ، لَا هُوَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَدَعَهَا ، وَلَا هُوَ قَادِرٌ أَنْ يُحَقِّقَهَا ؛ فَهَـٰذَا يَمْتَدُّ شَقَاؤُهُ مَا يَمْتَدُّ وَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ عَلَى أَوَّلِهِ لَا يَتَقَدَّمُ إِلَى نِهَايَةٍ ؛ وَيَتَأَلَّمُ مَا يَتَأَلَّمُ وَلَا تَزَالُ تُشْعِرُهُ ٱلْحَيَاةُ أَنَّ كُلَّ مَا فَاتَ مِنَ ٱلْعَذَابِ إِنَّمَا هُوَ بَدْءُ ٱلْعَذَابِ .

وَٱلسَّعَادَةُ فِي جُمْلَتِهَا وَتَفْصِيلِهَا أَنْ يَكُونَ لَكَ فِكْرٌ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِمَعْنًى تَتَأَلَّمُ مِنْهُ ، وَلَا بِمَعْنًى تَخَافُ مِنْهُ ، وَلَا بِمَعْنًى تَحْذَرُ مِنْهُ ؛ وَٱلشَّقَاءُ فِي تَفْصِيلِهِ وَجُمْلَتِهِ ٱنْحِبَاسُ ٱلْفِكْرِ فِي مَعَانِي ٱلْأَلَمِ وَٱلْخَوْفِ وَٱلِاضْطِرَابِ .

وَقَدِ ٱخْتَرْنَا مِنْ رَسَائِلِ « ٱلطَّائِشَةِ » هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةَ ٱلْمُصَوَّرَةَ ٱلَّتِي يَبْرُقُ شُعَاعُهَا وَتَكَادُ تَقُومُ بِإِزَاءِ نَفْسِهَا كَٱلْمِرْآةِ بِإِزَاءِ ٱلْوَجْهِ ؛ وَهِيَ فِيهَا عَذْبَةُ ٱلْكَلَامِ مِنْ أَنَّهَا مُرَّةُ ٱلشُّعُورِ ، مُتَّسِقَةُ ٱلْفِكْرِ مِنْ أَنَّهَا مُخْتَلَّةُ ٱلْقَلْبِ ، مُسَدَّدَةُ ٱلْمَنْطِقِ مِنْ أَنَّهَا طَائِشَةُ ٱلنَّفْسِ ؛ وَتِلْكَ إِحْدَى عَجَائِبِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٤ ، ٣٠ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ١ يوليو/ تموز ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٠٤٣ ـ ١٠٤٥ .

(١) نَحْنُ لَمْ نَخْتَرِعِ ٱلطَّائِشَةَ ، فَهِيَ فَتَاةٌ مُتَعَلِّمَةٌ أَدِيبَةٌ ، [تَكْتُبُ كِتَابَةً بَلِيغَةً ،] وَقَدْ أَحَبَّتْ رَجُلًا مُتَزَوِّجًا فَطَاشَ بِهَا ٱلْحُبُّ طَيْشَ ٱلطِّفْلِ إِذَا مُنِعَ مَا يَطْمَعُ فِيهِ ، وَتَرَكَهَا ٱلْحُبُّ عَلِيلَةً لِمَا بِهَا ثُمَّ قَضَتْ . وَكَانَ بَعْضُ صَوَاحِبِهَا يَعْذِلْنَهَا وَيَرْمِينَهَا بِٱلتُّهَمَةِ ، فَكَانَتْ تَقُولُ : إِنَّهَا مِنْهُنَّ كَٱلْغَائِبِ ٱلْمَحْكُومِ عَلَيْهِ ، لَا هُوَ يَمْلِكُ دِفَاعَ ٱلذَّنْبِ ، وَلَا ٱلْحَاكِمُ عَلَيْهِ يَمْلِكُ إِثْبَاتَ ٱلذَّنْبِ .

ٱلْحُبّ ؛ كُلَّمَا كَانَ فَقْرًا مُمْحِلًا ٱخْضَرَّتْ فِيهِ ٱلْبَلَاغَةُ وَتَفَنَّنَتْ وَٱلْتَفَّتْ ؛ وَعَلَىٰ قِلَّةِ ٱلْمُتْعَةِ مِنْ لَذَّاتِهِ تَزِيدُ فِيهِ ٱلْمُتْعَةُ مِنْ أَوْصَافِهِ ؛ وَلَكَأَنَّ هَـٰذَا ٱلْحُبَّ طَبِيعَةٌ غَرِيبَةٌ تُرْوَىٰ بِٱلنَّارِ فَتُخْصِبُ عَلَيْهَا وَتَتَفَتَّقُ بِمَعَانِيهَا ، كَمَا تُرْوَىٰ ٱلْأَرْضُ بِٱلْمَاءِ فَتُخْصِبُ وَتَتَغَطَّىٰ بِنَبَاتِهَا ؛ فَإِنْ رَوِيَ ٱلْحُبُّ مِنْ لَذَّاتِهِ وَبَرَدَ عَلَيْهَا ، لَمْ يُنْبِتْ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَّا أَخَفَّهَا وَزْنًا وَأَقَلَّهَا مَعَانِيَ ، كَأَوَّلِ مَا يَبْدُو ٱلنَّبَاتُ حِينَ يَتَفَطَّرُ ٱلثَّرَىٰ عَنْهُ ، تَرَاهُ فَتَحْسَبُهُ عَلَى ٱلْأَرْضِ مَسْحَةَ لَوْنٍ أَخْضَرَ ؛ أَوْ لَمْ يُنْبِتْ إِلَّا ٱلْقَلِيلَ ٱلْقَلِيلَ كَٱلتَّعَاشِيبِ[1] فِي ٱلْأَرْضِ ٱلسَّبِخَةِ . . .

إِنَّ قِصَّةَ ٱلْحُبِّ كَٱلرِّوَايَةِ ٱلتَّمْثِيلِيَّةِ ، أَبْلَغُ مَا فِيهَا وَأَحْسَنُهُ وَأَعْجَبُهُ مَا كَانَ قَبْلَ « ٱلْعُقْدَةِ » ، فَإِذَا ٱنْحَلَّتْ هَـٰذِهِ ٱلْعُقْدَةُ فَأَنْتَ فِي بَقَايَا مُفَسَّرَةٍ مَشْرُوحَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَنْتَهِيَ ، وَلَا تَحْتَمِلُ مِنَ ٱلْفَنِّ إِلَّا ذَٰلِكَ ٱلْقَلِيلَ ٱلَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلنِّهَايَةِ .

* * *

وَهَـٰذِهِ هِيَ رِسَالَةُ ٱلطَّائِشَةِ إِلَىٰ صَاحِبِهَا :

« . . .

مَاذَا أَكْتُبُ لَكَ غَيْرَ أَلْفَاظِ حَقِيقَتِي وَحَقِيقَتِكَ ؟

يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ أَلْفَاظَ خُضُوعِي وَتَضَرُّعِي مَتَىٰ ٱنْتَهَتْ إِلَيْكَ ٱنْقَلَبَتْ إِلَىٰ أَلْفَاظِ شِجَارٍ وَنِزَاعٍ !

أَيُّ عَدْلٍ أَنْ تَلْمَسَكَ حَيَاتِي لَمْسَةَ ٱلزَّهْرَةِ ٱلنَّاعِمَةِ بِأَطْرَافِ ٱلْبَنَانِ ، وَتَقْذِفُنِي أَنْتَ قَذْفَ ٱلْحَجَرِ بِمِلْءِ ٱلْيَدِ ٱلصُّلْبَةِ مُتَمَطِّيَةً فِيهَا قُوَّةُ ٱلْجِسْمِ ؟

جَعَلْتَنِي فِي ٱلْحُبِّ كَآلَةٍ خَاضِعَةٍ تُدَارُ فَتَدُورُ ، ثُمَّ عَبِثْتَ بِهَا فَصَارَتْ مُتَمَرِّدَةً تُوَقَّفُ وَلَا تَقِفُ ؛ وَٱلنِّهَايَةُ ـ لَا رَيْبَ فِيهَا ـ ٱخْتِلَالٌ أَوْ تَحْطِيمٌ !

وَجَعَلْتَ لِي عَالَمًا ؛ أَمَّا لَيْلُهُ فَأَنْتَ وَٱلظَّلَامُ وَٱلْبُكَاءُ ، وَأَمَّا نَهَارُهُ فَأَنْتَ وَٱلضِّيَاءُ وَٱلْأَمَلُ ٱلْخَائِبُ . هَـٰذَا هُوَ عَالَمِي : أَنْتَ أَنْتَ . . . !

(١) أَعْشَابٌ قَلِيلَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ (هُنَا وَهُنَاكَ) .

سَمَائِي كَأَنَّهَا رُقْعَةٌ أُطْبِقَتْ عَلَيْهَا كُلُّ غُيُومِ ٱلسَّمَاءِ ، وَأَرْضِي كَأَنَّهَا بُقْعَةٌ ٱجْتَمَعَتْ فِيهَا كُلُّ زَلَازِلِ ٱلْأَرْضِ ! لِأَنَّكَ غَيْمَةٌ فِي حَيَاتِي ، وَزَلْزَلَةٌ فِي أَيَّامِي .

يَا بُعْدَ مَا بَيْنَ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي حَوْلِي وَبَيْنَ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي فِي قَلْبِي !

* * *

مَا يَجْمُلُ مِنْكَ أَنْ تُلْزِمَنِي لَوْمَ خَطَأٍ أَنْتَ ٱلْمُخْطِئُ فِيهِ .

سَلْنِي عَنْ حُبِّي أُجِبْكَ عَنْ تَكَبُّرِي ، وَسَلْنِي عَنْ تَكَبُّرِي أُجِبْكَ عَنْ حُبِّي !

كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِيَ ٱلْكِبْرِيَاءُ فِي ٱلْحُبِّ ، وَلَـٰكِنْ مَاذَا أَصْنَعُ وَأَنْتَ مُنْصَرِفٌ عَنِّي ؟ وَيْلَاهُ مِنْ هَـٰذَا ٱلِانْصِرَافِ ٱلَّذِي يَجْعَلُ كِبْرِيَائِي رِضًى مِنِّي بِأَنْ تَنْسَىٰ ! (فَتَنْسَىٰ . . .)

لَيْسَ لِي مِنْ وَسِيلَةٍ تَعْطِفُكَ إِلَّا هَـٰذَا ٱلْحُبُّ ٱلشَّدِيدُ ٱلَّذِي هُوَ يَصُدُّكَ ، فَكَأَنَّ ٱلْأَسْبَابَ مَقْلُوبَةٌ مَعِي مُنْذُ ٱنْقَلَبْتَ أَنْتَ .

وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ مِنْ طُغْيَانِ آلَامِي أَنَّ كُلَّ ذِي حُزْنٍ فَعِنْدِي أَنَا تَمَامُ حُزْنِهِ !

وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِآهٍ !

عَذَابِي عَذَابُ ٱلصَّادِقِ ٱلَّذِي لَا يَعْرِفُ ٱلْكَذِبَ (أَبَدًا أَبَدًا) ، بِٱلْكَاذِبِ ٱلَّذِي لَا يَعْرِفُ ٱلصِّدْقَ (أَبَدًا أَبَدًا !) .

كَمْ يَقُولُ ٱلرِّجَالُ فِي ٱلنِّسَاءِ ، وَكَمْ يَصِفُونَهُنَّ بِٱلْكَيْدِ وَٱلْغَدْرِ وَٱلْمَكْرِ ؛ فَهَلْ جِئْتَ أَنْتَ لِتُعَاقِبَ ٱلْجِنْسَ كُلَّهُ فِيَّ أَنَا وَحْدِي . . . ؟

مَا لِكَلَامِي يَتَقَطَّعُ كَأَنَّمَا هُوَ أَيْضًا مُخْتَنِقٌ ؟

* * *

لَشَدَّ مَا أَتَمَنَّىٰ أَنْ أَشْتَرِيَ ٱنْتِصَارِي ، وَلَـٰكِنَّ ٱنْتِصَارِي عَلَيْكَ هُوَ عِنْدِي أَنْ تَنْتَصِرَ أَنْتَ .

إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ تَطْلُبُ ٱلْحُرِّيَّةَ وَتَلِجُّ فِي طَلَبِهَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحَيَاةَ تَنْتَهِي بِهَا إِلَىٰ يَقِينٍ لَا شَكَّ فِيهِ ، هُوَ أَنَّ أَلْطَفَ أَنْوَاعِ حُرِّيَّتِهَا فِي أَلْطَفِ أَنْوَاعِ ٱسْتِعْبَادِهَا !

حَتَّىٰ فِي خَيَالِي أَرَىٰ لَكَ هَيْئَةَ ٱلْآمِرِ ٱلنَّاهِي أَيُّهَا ٱلْقَاسِي . لَا أُحِبُّ مِنْكَ هَـٰذَا ، وَلَـٰكِنْ

لَا يُعْجِبُنِي مِنْكَ إِلَّا هَـٰذَا . . . !

وَيَزِيدُكَ رِفْعَةً فِي عَيْنِي أَنَّكَ لَمْ تُحَاوِلْ قَطُّ أَنْ تَزِيدَ رِفْعَةً فِي عَيْنِي .

فَٱلْمَرْأَةُ لَا تُحِبُّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي يَعْمَلُ عَلَىٰ أَنْ يَلْفِتَهَا دَائِمًا لِيَرْفَعَ مِنْ شَأْنِهِ عِنْدَهَا .

إِنَّ ٱلطَّبِيعَةَ قَدْ جَعَلَتِ ٱلْأُنُوثَةَ فِي ٱلْإِنْسَانِ هِيَ ٱلَّتِي تَلْفِتُ إِلَىٰ نَفْسِهَا بِٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّزَيُّدِ ، وَعَرْضِ مَا فِيهَا وَتَكَلُّفِ مَا لَيْسَ فِيهَا ؛ فَإِنْ يَصْنَعِ ٱلرَّجُلُ صَنِيعَهَا فَمَا هُوَ فِي شَيْءٍ إِلَّا تَزْيِينَ ٱحْتِقَارِهِ !

ٱلتَّزَيُّدُ فِي ٱلْأُنُوثَةِ زِيَادَةٌ فِي ٱلْأُنْثَىٰ عِنْدَ ٱلرَّجُلِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلتَّزَيُّدَ فِي ٱلرُّجُولَةِ نَقْصٌ فِي ٱلرَّجُلِ عِنْدَ ٱلْأُنْثَىٰ !

* * *

ٱرْفَعْ صَوْتَكَ بِكَلِمَاتِي تَسْمَعْ فِيهَا ٱثْنَيْنِ : صَوْتَكَ وَقَلْبِي .

لَيْسَتْ هِيَ كَلِمَاتِي لَدَيْكَ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ أَعْمَالُكَ لَدَيَّ .

وَلَيْسَ هُوَ حُبِّي لَكَ أَكْبَرَ مِمَّا هُوَ ظُلْمُكَ لِي !

مَا أَشَدَّ تَعْسِي إِذَا كُنْتُ أُخَاطِبُ مِنْكَ نَائِمًا يَسْمَعُ أَحْلَامَهُ وَلَا يَسْمَعُنِي !

مَا أَتْعَسَ مَنْ تُبْكِيهِ ٱلْحَيَاةُ بُكَاءَهَا ٱلْمُفَاجِئَ عَلَىٰ مَيِّتٍ لَا يَرْجِعُ ، أَوْ بُكَاءَهَا ٱلْمَأْلُوفَ عَلَىٰ حَبِيبٍ لَا يُنَالُ !

* * *

وَلَـٰكِنْ فَلْأَصْبِرْ وَلْأَصْبِرْ عَلَىٰ ٱلْأَيَّامِ ٱلَّتِي لَا طَعْمَ لَهَا ، لِأَنَّ فِيهَا ٱلْحَبِيبَ ٱلَّذِي لَا وَفَاءَ لَهُ !

إِنَّ ٱلْمُصَابَ بِٱلْعَمَىٰ ٱللَّوْنِيِّ يَرَىٰ ٱلْأَحْمَرَ أَخْضَرَ ، وَٱلْمُصَابُ بِعَمَىٰ ٱلْحُبِّ يَرَىٰ ٱلشَّخْصَ ٱلْقَفْرَ كُلَّهُ أَزْهَارٌ .

عَمًى مُرَكَّبٌ ، أَنْ تَكُونَ أَزْهَارًا مِنَ ٱلْأَوْهَامِ وَلَهَا مَعَ ذَلِكَ رَائِحَةٌ تَعْبَقُ .

وَعَمًى فِي ٱلزَّمَنِ أَيْضًا ، أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ ٱلسَّاعَةِ ٱلْأُولَىٰ مِنْ سَاعَاتِ ٱلْحُبِّ ، فَيَرَىٰ

ٱلْأَيَّامَ كُلَّهَا فِي حُكْمِ هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ .

وَعَمًى فِي ٱلدَّمِ ، أَنْ يَشْعُرَ بِٱلْحَبِيبِ يَوْمًا فَلَا يَزَالُ مِنْ بَعْدِهَا يُحْيِي خَيَالَهُ وَيُغَذِّيهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُحْيِي جِسْمَ صَاحِبِهِ .

وَعَمًى فِي ٱلْعَقْلِ ، أَنْ يَجْعَلَ وَجْهَ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ كَوَجْهِ ٱلنَّهَارِ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا ، تَظْهَرُ ٱلْأَشْيَاءُ فِي لَوْنِهِ ، وَبِغَيْرِ لَوْنِهِ تَنْطَفِىءُ ٱلْأَشْيَاءُ .

وَعَمًى فِي قَلْبِي أَنَا ، هَـٰذَا ٱلْحُبُّ ٱلَّذِي فِي قَلْبِي !

* * *

لَيْسَ ٱلظَّلَامُ إِلَّا فِقْدَانَ ٱلنُّورِ ، وَلَيْسَ ٱلظُّلْمُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا فُقْدَانَ ٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَهُمْ .

وَظُلْمُ ٱلرِّجَالِ لِلنِّسَاءِ عَمَلُ فِقْدَانِ ٱلْمُسَاوَاةِ لَا عَمَلُ ٱلرِّجَالِ .

كَيْفَ تَسْخَرُ ٱلدُّنْيَا مِنْ مُتَعَلِّمَةٍ مِثْلِي ، فَتَضَعُهَا مَوْضِعًا مِنَ ٱلْهَوَانِ وَٱلضَّعْفِ بِحَيْثُ لَوْ سُئِلَتْ أَنْ تَكْتُبَ (وَظِيفَتَهَا) عَلَىٰ بِطَاقَةٍ ، لَمَا كَتَبَتْ تَحْتَ ٱسْمِهَا إِلَّا هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ : (عَاشِقَةُ فُلَانٍ) . . . ؟

وَحَتَّىٰ فِي ضَعْفِ ٱلْمَرْأَةِ لَا مُسَاوَاةَ بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ فِي ٱلِاجْتِمَاعِ ، فَكُلُّ مُتَزَوِّجَةٍ وَظِيفَتُهَا ٱلِاجْتِمَاعِيَّةُ أَنَّهَا زَوْجَةٌ ؛ وَلَـٰكِنْ لَيْسَ لِعَاشِقَةٍ أَنْ تَقُولَ إِنَّ عِشْقَهَا وَظِيفَتُهَا . . .

وَحَتَّىٰ فِي ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلْحُبِّ لَا مُسَاوَاةَ ، فَهَـٰذِهِ فَتَاةٌ تُحِبُّ فَتَتَكَلَّمُ عَنْ حُبِّهَا فَيُقَالُ : فَاجِرَةٌ وَطَائِشَةٌ . وَلَا ذَنْبَ لَهَا غَيْرَ أَنَّهَا تَكَلَّمَتْ ؛ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّ وَتَكْتُمُ ، فَيُقَالُ : طَاهِرَةٌ عَفِيفَةٌ . وَلَا فَضِيلَةَ فِيهَا إِلَّا أَنَّهَا سَكَتَتْ .

أَوَّلُ ٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ أَنْ يَتَسَاوَىٰ ٱلْكُلُّ فِي حُرِّيَّةِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْمَخْبُوءَةِ . .

لَا ، لَا ، قَدْ رَجَعْتُ عَنْ هَـٰذَا ٱلرَّأْيِ . . .

* * *

إِنَّ ٱلْقَلَقَ إِذَا ٱسْتَمَرَّ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ ٱنْتَهَىٰ بِهَا آخِرَ ٱلْأَمْرِ إِلَىٰ ٱلْأَخْذِ بِٱلشَّاذِّ مِنْ قَوَانِينِ ٱلْحَيَاةِ .

وَٱلنِّسَاءُ يُقْلِقْنَ ٱلْكَوْنَ ٱلآنَ مِمَّا ٱسْتَقَرَّ فِيْ نُفُوْسِهِنَّ مِنَ ٱلاضْطِرَابِ ، وَسَيُخَرِّبْنَهُ أَشْنَعَ تَخْرِيْبٍ .

وَيْلٌ لِلاجْتِمَاعِ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَصْرِيَّةِ ٱلَّتِيْ أَنْشَأَهَا ضَعْفُ ٱلرَّجُلِ ! إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَوْ خُيِّرَ فِيْ غَيْرِ شَكْلِهِ لَمَا ٱخْتَارَ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ ٱمْرَأَةً حُرَّةً مُتَعَلِّمَةً خَيَالِيَّةً كَاسِدَةً لَا تَجِدُ ٱلزَّوْجَ . . . !

وَيْلٌ لِلاجْتِمَاعِ مِنْ عَذْرَاءَ بَائِرَةٍ خَيَالِيَّةٍ ، تُرِيْدُ أَنْ تَفِرَّ مِنْ أَنَّهَا عَذْرَاءُ ! لَقَدِ ٱمْتَلأَتِ ٱلأَرْضُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَنَابِلِ . . . وَلَـٰكِنْ مَا مِنِ ٱمْرَأَةٍ تُفَرِّطُ فِيْ فَضِيْلَتِهَا إِلَّا وَهِيَ ذَنْبُ رَجُلٍ قَدْ أَهْمَلَ فِيْ وَاجِبِهِ .

* * *

هَلْ تَمْلِكُ ٱلْفَتَاةُ عِرْضَهَا أَوْ لَا تَمْلِكُ ؟ هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْمَسْأَلَةُ . . .

إِنْ كَانَتْ تَمْلِكُ ، فَلَهَا أَنْ تَتَصَرَّفَ وَتُعْطِيَ ؛ أَوْ لَا ، فَلِمَاذَا لَا يَتَقَدَّمُ ٱلْمَالِكُ . . . ؟

هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةُ سَتَنْقَلِبُ إِلَىٰ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ بِعَيْنِهَا ؛ فَٱلْحَيَوَانُ ٱلَّذِيْ لَا يَعْرِفُ ٱلنَّسَبَ لَا تَعْرِفُ أُنْثَاهُ ٱلْعِرْضَ . . . !

وَهَلْ كَانَ عَبَثًا أَنْ يَفْرِضَ ٱلدِّيْنُ فِيْ ٱلزَّوَاجِ شُرُوْطًا وَحُقُوْقًا لِلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ وَٱلنَّسْلِ ؟

وَلَـٰكِنْ أَيْنَ ٱلدِّيْنُ ؟ وَا أَسَفَاهُ ! لَقَدْ مَدَنُوْهُ هُوَ أَيْضًا . . . !

* * *

طَالَتْ رِسَالَتِيْ إِلَيْكَ يَا عَزِيْزِيْ ، بَلْ طَاشَتْ ، فَإِنِّيْ حِيْنَ أَجِدُكَ أَفْقِدُ ٱللُّغَةَ ، وَحِيْنَ أَفْقِدُكَ أَجِدُهَا .

وَلَقَدْ تَكَلَّمْتُ عَنِ ٱلدِّيْنِ لِأَنِّيْ أَرَاكَ أَنْتَ بِنِصْفِ دِيْنٍ . . .

فَلَوْ كُنْتَ ذَا دِيْنٍ كَامِلٍ لَتَزَوَّجْتَ ٱثْنَتَيْنِ . . . !

لَا لَا ، قَدْ رَجَعْتُ عَنِ ٱلرَّأْيِ . . . » .

(طِبْقُ ٱلأَصْلِ) .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

فَلْسَفَةُ ٱلطَّائِشَةِ (*)

. . . وَهَـٰذَا مَجْلِسٌ مِنْ مَجَالِسِ ٱلطَّائِشَةِ مَعَ صَاحِبِهَا ، مِمَّا تَسَقَّطَهُ مِنْ حَدِيْثِهَا ؛ فَقَدْ كَانَ يَكْتُبُ عَنْهَا مَا تُصِيْبُ فِيْهِ وَمَا تُخْطِىءُ ، كَمَا يَكْتُبُ أَهْلُ ٱلسِّيَاسَةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ إِذَا فَاوَضَ ٱلْحَلِيْفُ حَلِيْفَهُ ، أَوْ نَاكَرَ ٱلْخَصْمُ خَصْمَهُ ؛ فَإِنَّ كَلَامَ ٱلْحَبِيْبِ وَٱلسِّيَاسِيِّ ٱلدَّاهِيَةِ لَيْسَ كَلَامَ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَحْدَهُ ، بَلْ فِيْهِ نُطْقُ ٱلدَّوْلَةِ . . . وَفِيْهِ ٱلزَّمَنُ يُقْبِلُ أَوْ يُدْبِرُ .

وَصَاحِبُ ٱلطَّائِشَةِ كَانَ يَرَاهَا ٱمْرَأَةً سِيَاسِيَّةً كَهَـٰذِهِ ٱلدُّوَلِ ٱلَّتِيْ تُرْغِمُ صَدِيْقًا عَلَىٰ ٱلصَّدَاقَةِ، لِأَنَّهُ فِيْ طَرِيْقِهَا أَوْ طَرِيْقِ حَوَادِثِهَا ؛ وَكَانَ يُسَمِّيْهَا « جَيْشَ ٱحْتِلَالٍ » إِذْ حَطَّتْ فِيْ أَيَّامِهِ وَٱحْتَلَّتْهَا فَتَبَوَّأَتْ مِنْهَا مَا شَاءَتْ عَلَىٰ رَغْمِهِ، وَٱسْتَبَاحَتْ مَا أَرَادَتْ مِمَّا كَانَ يَحْمِيْهِ أَوْ يَمْنَعُهُ. وَقَدْ كَانَ فِيْ مُدَافَعَتِهِ حُبَّهَا وَٱسْتِمْسَاكِهِ بِصَدَاقَتِهَا كَٱلَّذِيْ رَأَىٰ ظِلَّ شَيْءٍ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ فَيُحَاوِلُ غَسْلَهُ أَوْ كَنْسَهُ أَوْ تَغْطِيَتَهُ . . فَهَـٰذَا لَيْسَ مِمَّا يُغْسَلُ بِٱلْمَاءِ، وَلَا يُكْنَسُ بِٱلْمِكْنَسَةِ ، وَلَا يُغَطَّى بِٱلأَغْطِيَةِ ؛ إِنَّمَا إِزَالَتُهُ فِيْ إِزَالَةِ ٱلشَّبَحِ ٱلَّذِيْ هُوَ يُلْقِيْهِ ، أَوْ إِطْفَاءِ ٱلنُّوْرِ ٱلَّذِيْ هُوَ يُثْبِتُهُ .

فِيْ كُلِّ شَيْءٍ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلأَرْضِ سُخْرِيَةٌ ، وَٱلسُّخْرِيَةُ مِنَ ٱلْحُسْنِ ٱلْفَاتِنِ ٱلَّذِيْ تُقَدِّسُهُ ، تَأْتِيْ مِنِ ٱشْتِهَاءِ هَـٰذَا ٱلْحُسْنِ ؛ فَذَاكَ إِسْقَاطُهُ سُقُوْطًا مُقَدَّسًا . . . أَوْ ذَاكَ تَقْدِيْسُهُ إِلَىٰ أَنْ يَسْقُطَ ، أَوْ هُوَ جَعْلُ تَقْدِيْسِهِ بَابًا مِنَ ٱلْحِيْلَةِ فِيْ إِسْقَاطِهِ . لَا بُدَّ مِنْ سُفْلٍ مَعَ ٱلْعُلُوِّ يَكُوْنُ أَحَدُهُمَا كَٱلسُّخْرِيَةِ مِنَ ٱلآخَرِ ؛ فَإِذَا قَالَ رَجُلٌ لِامْرَأَةٍ قَدْ فَتَنَتْهُ أَوْ وَقَعَتْ مِنْ نَفْسِهِ : « أُحِبُّكِ » . أَوْ قَالَتْهَا ٱلْمَرْأَةُ لِرَجُلٍ وَقَعَ مِنْ نَفْسِهَا أَوِ ٱسْتَهَامَهَا ، فَفِيْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلنَّاعِمَةِ ٱللَّطِيْفَةِ كُلُّ مَعَانِيْ ٱلْوَقَاحَةِ ٱلْجِنْسِيَّةِ ، وَكُلُّ ٱلسُّخْرِيَةِ بِٱلْمَحْبُوْبِ سُخْرِيَةٌ بِإِجْلَالٍ عَظِيْمٍ . . . وَهِيَ كَلِمَةُ شَاعِرٍ فِيْ تَقْدِيْسِ ٱلْجَمَالِ وَٱلإِعْجَابِ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا هِيَ بِعَيْنِهَا كَلِمَةُ ٱلْجَزَّارِ ٱلَّذِيْ يَرَىٰ ٱلْخَرُوْفَ فِيْ جَمَالِهِ ٱللَّحْمِيِّ ٱلدُّهْنِيِّ ، فَيَقُوْلُ : « سَمِيْنٌ . . . ! » .

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٦ ، ١٤ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ هـ = ١٥ يوليو/ تموز ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١١٢٣ ـ ١١٢٦ .

لِهَـٰذَا يَمْنَعُ ٱلدِّيْنُ خَلْوَةَ ٱلرَّجُلِ بِٱلْمَرْأَةِ ، وَيُحَرِّمُ إِظْهَارَ ٱلْفِتْنَةِ مِنَ ٱلْجِنْسِ لِلْجِنْسِ ، وَيَفْصِلُ بِمَعَانِي ٱلْحِجَابِ بَيْنَ ٱلسَّالِبِ وَٱلْمُوْجِبِ ، ثُمَّ يَضَعُ لِأَعْيُنِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ حِجَابًا آخَرَ مِنَ ٱلْأَمْرِ بِغَضِّ ٱلْبَصَرِ ، إِذْ لَا يَكْفِي [في ذلك] حِجَابٌ وَاحِدٌ ، فَإِنَّ ٱلطَّبِيْعَةَ ٱلْجِنْسِيَّةَ تَنْظُرُ بِٱلدَّاخِلِ وَٱلْخَارِجِ مَعًا ؛ ثُمَّ يَطْرُدُ عَنِ ٱلْمَرْأَةِ كَلِمَةَ ٱلْحُبِّ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ مِنْ زَوْجِهَا ، وَعَنِ ٱلرَّجُلِ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ مِنْ زَوْجَتِهِ ؛ إِذْ هِيَ كَلِمَةُ حِيْلَةٍ فِي ٱلطَّبِيْعَةِ أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ كَلِمَةُ صِدْقٍ فِي ٱلاجْتِمَاعِ ، وَلَا يُؤَكِّدُ فِي ٱلدِّيْنِ صِدْقَهَا ٱلاجْتِمَاعِيَّ إِلَّا ٱلْعَقْدُ وَٱلشُّهُوْدُ لِرَبْطِ ٱلْحُقُوْقِ بِهَا ، وَجَعْلِهَا فِي حِيَاطَةِ ٱلْقُوَّةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلتَّشْرِيْعِيَّةِ ، وَإِقْرَارِهَا فِي مَوْضِعِهَا مِنَ ٱلنِّظَامِ ٱلإِنْسَانِيِّ ؛ فَلَيْسَ مَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُوْنَ ٱلْعَاشِقُ مِنْ مَعَانِي ٱلزَّوْجِ ، أَمَّا أَنْ يَكُوْنَ مِنْ مَعْنًى آخَرَ أَوْ يَكُوْنَ بِلَا مَعْنًى فَلَا ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِصِيَانَةِ ٱلْمَرْأَةِ ، مَا دَامَتْ هِيَ وَحْدَهَا ٱلَّتِي تَلِدُ ، وَمَا دَامَتْ لَا تَلِدُ لِلْبَيْعِ . . .

وَفَلْسَفَةُ هَـٰذِهِ ٱلطَّائِشَةِ فَلْسَفَةُ ٱمْرَأَةٍ ذَكِيَّةٍ مُطَّلِعَةٍ مُحِيْطَةٍ مُفَكِّرَةٍ ، تُبْصِرُ بِٱلْكُتُبِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْحَوَادِثِ جَمِيْعًا ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ بَعْدَ سَقْطَةِ حُبِّهَا تَرَىٰ ٱلصَّوَابَ فِي شَكْلَيْنِ لَا شَكْلٍ وَاحِدٍ : فَتَرَاهُ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ ، وَكَمَا هُوَ فِي أَغْلَاطِهَا .

وَقَدْ أَسْقَطْنَا فِي رِوَايَةِ مَجْلِسِهَا مَا كَانَ مِنْ مُطَارَحَاتِ ٱلْعَاشِقَةِ ، وَٱقْتَصَرْنَا عَلَىٰ مَا هُوَ كَٱلإِمْلَاءِ مِنَ ٱلأُسْتَاذَةِ . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلطَّائِشَةِ : ذَكَرْتُ لَهَا « قَاسِمْ أَمِيْن »(١) وَقُلْتُ : إِنَّهَا خَيْرُ تَلَامِيْذِهِ { وَتِلْمِيْذَاتِهِ } . . . حَتَّىٰ لَكَأَنَّهَا تَجْرِبَةُ ثَلَاثِيْنَ سَنَةً لِآرَائِهِ فِي تَحْرِيْرِ ٱلْمَرْأَةِ . فَقَالَتْ : إِنَّمَا كَانَ قَاسِمٌ تِلْمِيْذَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلأُوْرُبِّيَّةِ ، وَهَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ بِأَعْيُنِنَا ، فَمَا حَاجَتُنَا نَحْنُ إِلَىٰ تِلْمِيْذِهَا ٱلْقَدِيْمِ ؟

(١) إن أردتَ معرفة المزيد عن حقيقة قاسم أمين وواقعه راجع « قولي في المرأة » لمصطفى صبري ، النسخة التي طبعتها لدى الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ليماسول ـ قبرص ؛ حيث أوردتُ في مقدّمته ما يفيد معرفته . بسّام .

قَالَتْ : وَأَبْلَغُ مَنْ يَرُدُّ عَلَىٰ قَاسِمٍ ٱلْيَوْمَ هِيَ أُسْتَاذَتُهُ ٱلَّتِي شَبَّتْ بِهَا أَطْوَارُ ٱلْحَيَاةِ بَعْدَهُ ، فَقَدْ أَثْبَتَ قَاسِمٌ ـ غَفَرَ ٱللهُ لَهُ ـ أَنَّهُ ٱنْحَصَرَ فِي عَهْدٍ بِعَيْنِهِ وَلَمْ يُتْبِعِ ٱلأَيَّامَ نَظَرَهُ ، وَلَمْ يَسْتَقْرِئْ أَطْوَارَ ٱلْمَدَنِيَّةِ ؛ فَلَمْ يُقَدِّرْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلزَّمَنَ ٱلْمُتَمَدِّنَ سَيَتَقَدَّمُ فِي رَذَائِلِهِ بِحُكْمِ ٱلطَّبِيْعَةِ أَسْرَعَ وَأَقْوَىٰ مِمَّا يَتَقَدَّمُ فِي فَضَائِلِهِ ، وَأَنَّ ٱلْعِلْمَ لَا يَسْتَطِيْعُ إِلَّا أَنْ يَخْدِمَ ٱلْجِهَتَيْنِ بِقُوَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَقْوَاهُمَا بِٱلطَّبِيْعَةِ أَقْوَاهُمَا بِٱلْعِلْمِ ، وَكَأَنَّ ٱلرَّجُلَ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَيْسَ تَحْتَ ٱلأَرْضِ زَلَازِلُ وَلَا تَحْتَ ٱلْحَيَاةِ مِثْلُهَا .

مَزَّقَ ٱلْبُرْقُعَ وَقَالَ : « إِنَّهُ مِمَّا يَزِيْدُ فِي ٱلْفِتْنَةِ ، وَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ لَوْ كَانَتْ مَكْشُوْفَةَ ٱلْوَجْهِ لَكَانَ فِي مَجْمُوْعِ خَلْقِهَا ـ عَلَىٰ ٱلْغَالِبِ ـ مَا يَرُدُّ ٱلْبَصَرَ عَنْهَا » . فَقَدْ زَالَ ٱلْبُرْقُعُ ، وَلَـٰكِنْ هَلْ قَدَّرَ قَاسِمٌ أَنَّ طَبِيْعَةَ ٱلْمَرْأَةِ مُنْتَصِرَةٌ دَائِمًا فِي ٱلْمَيْدَانِ ٱلْجِنْسِيِّ بِٱلْبُرْقُعِ وَبِغَيْرِ ٱلْبُرْقُعِ ، وَأَنَّهَا تَخْتَرِعُ لِكُلِّ مَعْرَكَةٍ أَسْلِحَتَهَا ، وَأَنَّهَا إِنْ كَشَفَتْ بُرْقُعَ ٱلْخَزِّ فَسَتَضَعُ فِي مَكَانِهِ بُرْقُعَ ٱلأَبْيَضِ وَٱلأَحْمَرِ . . . ؟

وَزَعَمَ أَنَّ « ٱلنِّقَابَ وَٱلْبُرْقُعَ مِنْ أَشَدِّ أَعْوَانِ ٱلْمَرْأَةِ عَلَىٰ إِظْهَارِ مَا تُظْهِرُ وَعَمَلِ مَا تَعْمَلُ لِتَحْرِيْكِ ٱلرَّغْبَةِ ، لِأَنَّهُمَا يُخْفِيَانِ شَخْصِيَّتَهَا فَلَا تَخَافُ أَنْ يَعْرِفَهَا قَرِيْبٌ أَوْ بَعِيْدٌ فَيَقُوْلُ : فُلَانَةٌ ، أَوْ بِنْتُ فُلَانٍ ، أَوْ زَوْجُ فُلَانٍ كَانَتْ تَفْعَلُ كَذَا ؛ فَهِيَ تَأْتِي كُلَّ مَا تَشْتَهِيْهِ مِنْ ذَلِكَ تَحْتَ حِمَايَةِ ٱلْبُرْقُعِ وَٱلنِّقَابِ » . فَقَدْ زَالَ ٱلْبُرْقُعُ وَٱلنِّقَابُ ، وَلَـٰكِنْ هَلْ قَدَّرَ قَاسِمٌ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلسَّافِرَةَ سَتَلْجَأُ إِلَىٰ حِمَايَةٍ أُخْرَىٰ ، فَتَجْعَلُ ثِيَابَهَا تَعْبِيْرًا دَقِيْقًا عَنْ أَعْضَائِهَا ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ تُلْبِسَ جِسْمَهَا ثَوْبًا يَكْسُوْهُ ، تُلْبِسُهُ ٱلثَّوْبَ ٱلَّذِي يَكْسُوْهُ وَيُزَيِّنُهُ وَيُظْهِرُهُ وَيُحَرِّكُهُ فِي وَقْتٍ مَعًا ، حَتَّىٰ لَيَكَادُ ٱلثَّوْبُ يَقُوْلُ لِلنَّاظِرِ : هَـٰذَا ٱلْمَوْضِعُ ٱسْمُهُ . . . وَهَـٰذَا ٱلْمَوْضِعُ ٱسْمُهُ . . . وَٱنْظُرْ هُنَا ، وَٱنْظُرْ هَا هُنَا . . . مَا زَادَتِ ٱلْمَدَنِيَّةُ عَلَىٰ أَنْ فَكَّكَتِ ٱلْمَرْأَةَ ٱلطَّيِّبَةَ ثُمَّ رَكَّبَتْهَا فِي هَـٰذِهِ ٱلْهَنْدَسَةِ ٱلْفَاحِشَةِ !

وَأَرَادَ قَاسِمٌ أَنْ يُعَلِّمَنَا ٱلْحُبَّ لِتَرْتَبِطَ بِهِ ٱلزَّوْجَ مَعَنَا ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَىٰ أَنْ جَرَّأَنَا عَلَىٰ ٱلْحُبِّ ٱلَّذِي فَرَّ بِهِ ٱلزَّوْجُ مِنَّا ، وَقَدْ نَسِيَ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلَّتِي تُخَالِطُ ٱلرَّجُلَ لِيُعْجِبَهَا وَتُعْجِبَهُ فَيَصِيْرَا زَوْجَيْنِ ـ إِنَّمَا تُخَالِطُ فِي هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ غَرَائِزَهُ قَبْلَ إِنْسَانِيَّتِهِ ، فَتَكُوْنُ طَبِيْعَتُهُ وَطَبِيْعَتُهَا هِيَ مَحَلَّ ٱلْمُخَالَطَةِ قَبْلَ شَخْصَيْهِمَا ، أَوْ تَحْتَ سِتَارِ شَخْصَيْهِمَا ؛ وَهُوَ رَجُلٌ وَهِيَ ٱمْرَأَةٌ ،

وَبَيْنَهُمَا مُصَارَعَةُ ٱلدَّمِ . . . وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ ٱلْمِسْكِينَةُ هِيَ ٱلْمَذْبُوحَةُ . وَقَدِ ٱنْتَهَيْنَا إِلَىٰ دَهْرٍ يُصْنَعُ حُبُّهُ وَمَجَالِسُ أَحْبَابِهِ فِي « هُولِيُودْ »(١) وَغَيْرِهَا مِنْ مُدُنِ ٱلسِّينَمَا ، فَإِنْ رَأَىٰ ٱلشَّابُّ عَلَى ٱلْفَتَاةِ مَظْهَرَ ٱلْعِفَّةِ وَٱلْوَقَارِ قَالَ : بَلَادَةٌ فِي ٱلدَّمِ ، وَبَلَاهَةٌ فِي ٱلْعَقْلِ ، وَثِقَلٌ أَيُّ ثِقَلٍ ؛ وَإِنْ رَأَىٰ غَيْرَ ذَٰلِكَ قَالَ : فُجُورٌ وَطَيْشٌ ، وَٱسْتِهْتَارٌ أَيُّ ٱسْتِهْتَارٍ . فَأَيْنَ تَسْتَقِرُّ ٱلْمَرْأَةُ وَلَا مَكَانَ لَهَا بَيْنَ ٱلضِّدَّيْنِ ؟

أَخْطَأَ قَاسِمٌ فِي إِغْفَالِ عَمَلِ ٱلزَّمَنِ مِنْ حِسَابِهِ ، وَهَاجَمَ ٱلدِّينَ بِٱلْعُرْفِ ؛ وَكَانَ مِنْ أَفْحَشِ غَلَطِهِ ظَنُّهُ ٱلْعُرْفَ مَقْصُورًا عَلَىٰ زَمَنِهِ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَ ٱلدِّينِ وَبَيْنَ ٱلْعُرْفِ ، هُوَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْأَخِيرَ دَائِمُ ٱلاضْطِرَابِ ، فَهُوَ دَائِمُ ٱلتَّغَيُّرِ ، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ أَبَدًا قَاعِدَةً لِلْفَضِيلَةِ ؛ وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ قَدِ ٱنْتَهَيْنَا إِلَىٰ زَمَنِ ٱلْعُرْيِ ، وَأَصْبَحْنَا نَجِدُ لَفِيفًا مِنَ ٱلْأُورُبِّيِّينَ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ ، رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، إِذَا رَأَوْا فِي جَزِيرَتِهِمْ أَوْ مَحَلَّتِهِمْ أَوْ نَادِيهِمْ رَجُلًا يَلْبَسُ فِي حِقْوَيْهِ تُبَّانًا قَصِيرًا كَأَنَّهُ وَرَقُ ٱلشَّجَرِ عَلَىٰ مَوْضِعِهِ ذَاكَ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ ـ إِذَا رَأَوْا هَـٰذَا ٱلْمُتَعَفِّفَ بِخِرْقَةٍ . . . أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ . مَنْ ؛ مَنْ هَـٰذَا ٱلرَّاهِبُ . . . ؟

وَنَسِيَ قَاسِمٌ ـ غَفَرَ ٱللهُ لَهُ ـ أَنَّ لِلثِّيَابِ أَخْلَاقًا تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِهَا ، فَٱلَّتِي تُفْرِغُ ٱلثَّوْبَ عَلَىٰ أَعْضَائِهَا إِفْرَاغَ ٱلْهَنْدَسَةِ ، وَتُلْبِسُ وَجْهَهَا أَلْوَانَ ٱلتَّصْوِيرِ ـ لَا تَفْعَلُ ذَٰلِكَ إِلَّا وَهِيَ قَدْ تَغَيَّرَ فَهْمُهَا لِلْفَضَائِلِ ، فَتَغَيَّرَتْ بِذَٰلِكَ فَضَائِلُهَا ، وَتَحَوَّلَتْ مِنْ آيَاتٍ دِينِيَّةٍ إِلَىٰ آيَاتٍ شِعْرِيَّةٍ . وَرُوحُ ٱلْمَسْجِدِ غَيْرُ رُوحِ ٱلْحَانَةِ ، وَهَـٰذِهِ غَيْرُ رُوحِ ٱلْمَرْقَصِ ، وَهَـٰذِهِ غَيْرُ رُوحِ ٱلْمَخْدَعِ ، وَلِكُلِّ حَالَةٍ تَلْبَسُ ٱلْمَرْأَةُ لِبْسًا فَتُخْفِي مِنْهَا وَتُبْدِي . وَتَحْرِيكُ ٱلْبِيئَةِ لِتَتَقَلَّبَ ، هُوَ بِعَيْنِهِ تَحْرِيكُ ٱلنَّفْسِ لِتَتَغَيَّرَ صِفَاتُهَا . وَأَيْنَ أَخْلَاقُ ٱلثِّيَابِ ٱلْعَصْرِيَّةِ فِي ٱمْرَأَةِ ٱلْيَوْمِ ، مِنْ تِلْكَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلَّتِي كَانَتْ لَهَا مِنَ ٱلْحِجَابِ ؟ تَبَدَّلَتْ بِمَشَاعِرِ ٱلطَّاعَةِ ، وَٱلصَّبْرِ ، وَٱلِاسْتِقْرَارِ ، وَٱلْعِنَايَةِ بِٱلنَّسْلِ ، وَٱلتَّفَرُّغِ لِإِسْعَادِ أَهْلِهَا وَذَوِيهَا ـ مَشَاعِرَ أُخْرَىٰ ، أَوَّلُهَا كَرَاهِيَةُ ٱلدَّارِ وَٱلطَّاعَةِ وَٱلنَّسْلِ ؛ وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ هَـٰذَا أَوَّلُهُ وَأَخَفُّهُ !

(١) هوليود Holly wood جزء من مدينة لوس أنجلوس Los Angeles جنوب ولاية كاليفورنية California بالولايات المتحدة الأميركية ، ترجع شهرتها إلى أنها أكبر مركز لصناعة السينما وموطن لممثليها في العالم كله . بسّام .

كَانَ قَاسِمٌ كَٱلْمَخْدُوعِ ٱلْمُغْتَرِّ بِآرَائِهِ ، وَكَانَ مُصْلِحًا فِيهِ رُوحُ ٱلْقَاضِي ، وَٱلْقَاضِي بِحُكْمِ عَمَلِهِ مُقَلِّدٌ مُتَّبِعٌ ، أَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُسْنِدَ رَأْيَهُ دَائِمًا إِلَىٰ نَصٍّ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ شَأْنٌ وَلَا عَمَلٌ ؟ مِنْ ثَمَّ كَثُرَتْ أَغْلَاطُ ٱلرَّجُلِ حَتَّىٰ جَعَلَ ٱلْفَرْقَ بَيْنَ فَسَادِ ٱلْجَاهِلَةِ وَفَسَادِ ٱلْمُتَعَلِّمَةِ ، أَنَّ ٱلْأُولَىٰ « لَا تُكَلِّفُ نَفْسَهَا عَنَاءَ ٱلْبَحْثِ عَنْ صِفَاتِ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي تُرِيدُ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُ أَفْضَلَ شَيْءٍ لَدَيْهَا وَهُوَ نَفْسُهَا ، وَعَلَىٰ خِلَافِ ذَٰلِكَ يَكُونُ ٱلنِّسَاءُ ٱلْمُتَعَلِّمَاتُ ، إِذَا جَرَىٰ ٱلْقَدَرُ عَلَيْهِنَّ بِأَمْرٍ مِمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ ، لَمْ يَكُنْ ذَٰلِكَ إِلَّا بَعْدَ مَحَبَّةٍ شَدِيدَةٍ يَسْبِقُهَا عِلْمٌ تَامٌّ بِأَحْوَالِ ٱلْمَحْبُوبِ (. . . .) وَشَمَائِلِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَتَخْتَارُهُ مِنْ بَيْنِ مِئَاتٍ وَأُلُوفٍ مِمَّنْ تَرَاهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ (!!!!) وَهِيَ تُحَاذِرُ أَنْ تَضَعَ ثِقَتَهَا فِي شَخْصٍ لَا يَكُونُ أَهْلًا لَهَا ، وَلَا تُسَلِّمُ نَفْسَهَا إِلَّا بَعْدَ مُنَاضَلَةٍ يَخْتَلِفُ زَمَنُهَا وَقُوَّةُ ٱلدِّفَاعِ فِيهَا حَسَبَ ٱلْأَمْزِجَةِ (؟؟؟؟) وَهِيَ فِي كُلِّ حَالٍ تَسْتَتِرُ بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ (؟؟؟؟) . . . »(١) .

أَلَيْسَ هَـٰذَا كَلَامَ قَاضٍ مِنَ ٱلْقُضَاةِ ٱلْمَدَنِيِّينَ ٱلْمُتَفَلْسِفِينَ عَلَىٰ مَذْهَبِ (لَمْبَرُوزُو) يَقُولُ لِإِحْدَى ٱلْفَاجِرَتَيْنِ : أَيَّتُهَا ٱلْجَاهِلَةُ ٱلْحَمْقَاءُ ! كَيْفَ لَمْ تَتَحَاشَيْ وَلَمْ تَتَسَتَّرِي فَلَا يَكُونَ لِلْقَانُونِ عَلَيْكِ سَبِيلٌ ؟

وَحَتَّىٰ فِي هَـٰذَا قَدْ أَثْبَتَ قَاسِمٌ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ ٱلْأَرْنَبَ وَأُذُنَيْهَا(٢) ، وَإِلَّا فَمَتَىٰ كَانَ فِي ٱلْحُبِّ ٱخْتِيَارٌ ، وَمَتَىٰ كَانَ ٱلِاخْتِيَارُ يَقَعُ « فِيمَا يَجْرِي بِهِ ٱلْقَدَرُ » ، وَمَتَىٰ كَانَ نَظَرُ ٱلْعَاشِقَةِ إِلَى ٱلرِّجَالِ نَظَرًا سِيكُولُوجِيًّا(٣) كَنَظَرِ ٱلْمُعَلِّمَةِ إِلَىٰ صِبْيَانِهَا . . . فَتَدْرُسُ ٱلصِّفَاتِ وَٱلشَّمَائِلَ فِي مِئَاتٍ وَأُلُوفٍ مِمَّنْ تَرَاهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ لِتُصَفِّيَهَا كُلَّهَا فِي وَاحِدٍ تَخْتَارُهُ مِنْ بَيْنِهِمْ ؟ هَـٰذَا مُضْحِكٌ ! هَـٰذَا مُضْحِكٌ !

(١) ص٥١ مِنْ كِتَابِ « تَحْرِيرِ ٱلْمَرْأَةِ » ، وَهُوَ كَلَامُ قَاسِمٍ بِنَصِّهِ ، وَأَكْثَرُ مَا فِي هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ هُوَ فِي رَأْيِنَا خَلْطٌ وَخَبْطٌ .

(٢) يَقُولُ ٱلْعَرَبُ : « فُلَانٌ يَعْرِفُ ٱلْأَرْنَبَ وَأُذُنَيْهَا » أَيْ : يَعْرِفُ ٱلشَّيْءَ بِٱلْعَلَامَةِ ٱلَّتِي تُثْبِتُهُ وَلَا تَتَخَلَّفُ .

(٣) سيكولوجية Psychologia ، علم النفس ، هو علم السلوك بمظهريه الحركي والذهني . وله فروع كثيرة : علم النفس التربوي ، والاجتماعي ، والجنائي ، والصناعي ، والمهني و . . . الخ . بسّام .

إِلَيْكَ خَبَرًا وَاحِدًا مِمَّنْ تَنْشُرُهُ ٱلصُّحُفُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ : كَفِرَارِ بِنْتِ فُلَانٍ بَاشَا خِرِّيجَةِ مَدْرَسَةِ كَذَا مَعَ سَائِقِ سَيَّارَتِهَا ؛ فَفَسِّرْ لِي أَنْتَ كَلَامَ قَاسِمٍ ، وَأَفْهِمْنِي كَيْفَ تَكُوْنُ ٱثْنَانِ وَٱثْنَانِ خَمْسَةً وَعِشْرِيْنَ ؟ وَكَيْفَ يَكُوْنُ فِرَارُ مُتَعَلِّمَةٍ أَصِيْلَةٍ مَعَ سَائِقِ سَيَّارَةٍ هُوَ مُحَاذَرَةَ وَضْعِ ٱلثِّقَةِ فِيْمَنْ لَا يَكُوْنُ أَهْلًا لَهَا ؟

لَقَدْ أَغْفَلَ قَاسِمٌ حِسَابَ ٱلزَّمَنِ فِي هَـٰذَا أَيْضًا ، فَكَثِيْرٌ مِنَ ٱلْمُنْكَرَاتِ وَٱلْآثَامِ قَدِ ٱنْحَلَّ مِنْهَا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلدِّيْنِيُّ ، وَثَبَتَ فِي مَكَانِهِ مَعْنًى ٱجْتِمَاعِيٌّ مُقَرَّرٌ ، فَأَصْبَحَتِ ٱلْمُتَعَلِّمَةُ لَا تَتَخَوَّفُ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِهَا شَيْئًا ، بَلْ هِيَ تُقَارِفُهُ وَتَسْتَأْثِرُ بِهِ دُوْنَ ٱلْجَاهِلَةِ ، وَتَلْبَسُ لَهُ (ٱلسُّوَارِيه)(١) ، وَتُقَدِّمُ فِيْهِ لِلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبِيْنَ مَرَّةً ذِرَاعَهَا ، وَمَرَّةً خَصْرَهَا . . .

أَقَرَأْتَ « شَهْرَزَاد » ؟ إِنَّ فِيْهَا سَطْرًا يَجْعَلُ كِتَابَ قَاسِمٍ كُلَّهُ وَرَقًا أَبْيَضَ مَغْسُوْلًا لَيْسَ فِيْهِ شَيْءٌ يُقْرَأُ :

قَالَتْ شَهْرَزَادُ ٱلْمُتَعَلِّمَةُ ، ٱلْمُتَفَلْسِفَةُ ، ٱلْبَيْضَاءُ ، ٱلْبَضَّةُ ، ٱلرَّشِيْقَةُ ، ٱلْجَمِيْلَةُ ؛ لِلْعَبْدِ ٱلْأَسْوَدِ ٱلْفَظِيْعِ ٱلدَّمِيْمِ ٱلَّذِي تَهْوَاهُ : « يَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ أَسْوَدَ ٱللَّوْنِ ؛ وَضِيْعَ ٱلْأَصْلِ ؛ قَبِيْحَ ٱلصُّوْرَةِ ؛ تِلْكَ صِفَاتُكَ ٱلْخَالِدَةُ ٱلَّتِي أُحِبُّهَا . . . »(٢) .

فَهَـٰذَا كَلَامُ ٱلطَّبِيْعَةِ نَفْسِهَا لَا كَلَامُ ٱلتَّأْلِيْفِ وَٱلتَّلْفِيْقِ وَٱلتَّزْوِيْرِ عَلَىٰ ٱلطَّبِيْعَةِ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلطَّائِشَةِ :

فَقُلْتُ لَهَا : فَإِذَا كَانَ قَاسِمٌ لَا يُرْضِيْكِ ، وَكَانَ ٱلرَّجُلُ مُصْلِحًا دَخَلَتْهُ رُوْحُ ٱلْقَاضِي ، فَخَلَطَ رَأْيًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، فَلَعَلَّ « مُصْطَفَىٰ كَمَال »(٣) هَمُّكِ مِنْ رَجُلٍ فِي

(١) السواريه : Soiree السهرة ، والمقصود هنا اللِّباس الذي يُرتدَىٰ في الحفلات الساهرة ، وعادة ما يكونُ عاريَ الصَّدْرِ والْيدَيْنِ والظهر .. بسام .

(٢) ص١٠٦ مِنْ « شَهْرَزَاد » لِلْكَاتِبِ ٱلدَّقِيْقِ صَدِيْقِنَا ٱلْأُسْتَاذِ تَوْفِيْقِ ٱلْحَكِيْمِ ، وَقَدْ كَتَبْنَا نَحْنُ فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ وَكَشَفْنَا عَنْ سِرِّهِ فِي كِتَابِ « أَوْرَاقِ ٱلْوَرْدِ » ص٥١ ـ ٥٢ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ كُتُبِنَا .

(٣) مصطفى كمال ، أو كمال أتاتورك Kamal Ataturk (١٨٨١ ـ ١٩٣٨ م) قائد وزعيم تركي ، مؤسِّس تركية الحديثة العِلْمانية ، كان رئيسًا للجمهورية التركية . (١٩٢٣ ـ ١٩٣٨) ، ألغى =

تَحْرِيْرِ ٱلْمَرْأَةِ تَحْرِيْرًا مَزَّقَ ٱلْحِجَابَ وَٱلْـ . . . ؟

قَالَتْ : إِنَّ مُصْطَفَىٰ كَمَالَ هَـٰذَا رَجُلٌ ثَائِرٌ ، يَسُوْقُ بَيْنَ يَدَيْهِ ٱلْخَطَأَ وَٱلصَّوَابَ بِعَصًا وَاحِدَةٍ ، وَلَا يُمْكِنُ فِي طَبِيْعَةِ ٱلثَّوْرَةِ إِلَّا هَـٰذَا ، وَلَا يَبْرَحُ ثَائِرًا حَتَّىٰ يَتِمَّ ٱنْسِلَاخُ أُمَّتِهِ . وَلَهُ عَقْلٌ عَسْكَرِيٌّ كَانَ يَمْكُرُ بِهِ مَكْرَ ٱلْأَلْمَانِ ، حِيْنَ أَكْرَهَهُمُ ٱلْحُلَفَاءُ عَلَىٰ تَحْوِيْلِ مَصَانِعِ (كُرُوب)(١) ، فَحَوَّلُوْهَا تَحْوِيْلًا يَرُدُّهَا بِأَيْسَرِ ٱلتَّغْيِيْرِ إِلَىٰ صُنْعِ ٱلْمَدَافِعِ وَٱلْمُهْلِكَاتِ . وَلَيْسَ ٱلرَّجُلُ مُصْلِحًا ٱلْبَتَّةَ ، بَلْ هُوَ قَائِدٌ زَهَاهُ ٱلنَّصْرُ ٱلَّذِي ٱتَّفَقَ لَهُ ، فَخَرَجَ مِنْ تِلْكَ ٱلْحَرْبِ ٱلصَّغِيْرَةِ وَعَلَىٰ شَفَتَيْهِ كَلِمَةٌ : « أُرِيْدُ . . . » وَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا غَلِطَ غَلْطَةً أَرَادَهَا مُنْتَصِرَةً ، فَيَفْرِضُهَا قَانُوْنًا عَلَىٰ ٱلْمَسَاكِيْنِ ٱلَّذِيْنَ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَفْرِضَ عَلَيْهِمْ ، ⟦ وَهُمُ ٱلْيَوْمَ لَا يَمْلَؤُوْنَ قَبْضَةَ دَوْلَتِهِ ⟧ فَيَقْهَرُهُمْ عَلَيْهَا وَلَا يُنَاظِرُهُمْ فِيْهَا ، وَيَأْخُذُهُمْ كَيْفَ شَاءَ ، وَيَدَعُهُمْ كَيْفَ أَحَبَّ ؛ وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : وَهُوَ مُؤَلِّفُ ٱلرِّوَايَةِ ، وَٱلْقَانُوْنُ نَفْسُهُ أَحَدُ ٱلْمُمَثِّلِيْنَ . . .

وَحِقْدُهُ عَلَىٰ ٱلدِّيْنِ وَأَهْلِ ٱلدِّيْنِ هُوَ ٱلدَّلِيْلُ عَلَىٰ أَنَّهُ ثَائِرٌ لَا مُصْلِحٌ ؛ فَإِنَّ أَخَصَّ أَخْلَاقِ ٱلثَّوْرَةِ حِقْدُ ٱلثَّائِرِيْنَ ، وَهَـٰذَا ٱلْحِقْدُ فِي قُوَّةِ حَرْبٍ وَحْدَهَا ، فَلَا يَكُوْنُ إِلَّا مَادَّةً لِلْأَفْعَالِ ٱلْكَثِيْرَةِ ٱلْمَذْمُوْمَةِ . وَٱلرَّجُلُ يَحْتَذِي أُوْرُبَّةَ وَيَعْمَلُ عَلَىٰ أَعْمَالِ ٱلْأُوْرُبِّيِّيْنَ فِي خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَيَجْعَلُ رَذَائِلَهُمْ مِنْ فَضَائِلِهِمْ عَلَىٰ رَغْمِ أَنْفِهِمْ ، يَتَبَرَّؤُوْنَ هُمْ مِنْهَا وَيُلْحِقُهَا هُوَ بِقَوْمِهِ ، فَكَأَنَّهُ يَعْتَنِفُ ٱلْآرَاءَ وَيَأْخُذُهَا أَخْذًا عَسْكَرِيًّا ، لَيْسَ فِي ٱلْأَمْرِ إِلَّا قَوْلُهُ : « أُرِيْدُ » . فَيَكُوْنُ مَا يُرِيْدُ . هُوَ لَمْ يَحْكُمْ عَلَىٰ شِبْرٍ مِنْ أُوْرُبَّةَ يَجْعَلُهُ تُرْكِيًّا ، وَلَـٰكِنَّهُ جَعَلَ رَذَائِلَ

= الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ، واستبدل الحرف اللاتيني بالحرف العربي الذي كان تكتب به التركية . حاول جعل تركية أوربيّة ، وفي وَهْمِهِ أنَّ ذلك هو السبيل الوحيد لتمكينها من اللحاق برَكْبِ الحضارة الحديثة .

فكان كما قال الشاعر :

كَمِثْلِ حِمَارٍ كَانَ لِلْقَرْنِ طَالِبًا ... فَآبَ بِلا أُذْنٍ لَيْسَ لَهُ قَرْنُ

بسّام .

(١) مصانع كروب Krupp ، نسبة لأسرة كروب Krupp الألمانية ، التي اشتهرت بامتلاكها أكبر المصانع لصنع الأسلحة الحربية . كانت هذه المصانع مركزًا لإعادة تسلّح ألمانية في عهد هتلر Hitler . بسام .

أُورُبَّةَ تَتَجَنَّسُ بِٱلْجِنْسِيَّةِ ٱلتُّرْكِيَّةِ . . .

وَتَٱللهِ إِنَّهُ لَأَيْسَرُ عَلَيْهِ أَنْ يَجِيءَ بِمَلَائِكَةٍ أَوْ شَيَاطِينَ مِنَ ٱلْمَرَدَةِ ، يَنْفُخُونَ أَرْضَ تُرْكِيَّةَ فَيَمُطُّونَهَا مَطًّا فَيَجْعَلُونَهَا قَارَّةً ، مِنْ أَنْ يُكْرِهَ أُورُبَّةَ عَلَىٰ ٱعْتِبَارِ قَوْمِهِ أُورُبِّيِّينَ بِلُبْسِ قُبَّعَةٍ وَهَدْمِ مَسْجِدٍ . إِنَّهُ لَا يَزَالُ فِي أَوَّلِ ٱلتَّارِيخِ ، وَهَـٰذَا ٱلشَّعْبُ ٱلَّذِي ٱنْتَصَرَ بِهِ لَمْ تَلِدْهُ مَبَادِئُهُ ، وَلَا أَنْشَأَهُ هَدْمُ ٱلْمَسَاجِدِ وَشَنْقُ ٱلْعُلَمَاءِ ؛ بَلْ هُوَ هُوَ ٱلَّذِي وَلَدَتْهُ تِلْكَ ٱلْأُمَّهَاتُ ، وَأَخْرَجَهُ أُولَـٰئِكَ ٱلْآبَاءُ ، وَمَا كَانَ يُعْوِزُهُ إِلَّا ٱلْقَائِدُ ٱلْحَازِمُ ٱلْمُصَمِّمُ ، فَلَمَّا ظَفِرَ بِقَائِدِهِ جَاءَ بِٱلْمُعْجِزَةِ ؛ فَإِذَا فُتِنَ ٱلْقَائِدُ بِنَفْسِهِ وَأَبَىٰ إِلَّا أَنْ يَتَحَوَّلَ نَبِيًّا ، فَهَـٰذَا شَيْءٌ آخَرُ لَهُ ٱسْمٌ آخَرُ .

وَلْنَفْرِضِ « ٱلْأَثِيرَ » كَمَا يَقُولُ ٱلْعُلَمَاءُ ، لِنَسْتَطِيعَ أَنْ نَجْعَلَ مَسْأَلَتَنَا هَـٰذِهِ عِلْمِيَّةً ، وَأَنْ نَبْحَثَهَا بَحْثًا عِلْمِيًّا ، فَلْيَكُنْ مُصْطَفَىٰ كَمَالُ هُوَ ٱللُّورْد كِتْشِنَر Kitchener[1] فِي إِنْكِلْتِرَة ؛ فَيَكْسِبُ ٱللُّورْد كِتْشِنَرْ Kitchener تِلْكَ ٱلْحَرْبَ ٱلْعُظْمَىٰ لَا حَرْبَ ٱلدُّوَيْلَةِ ٱلصَّغِيرَةِ ، وَيَنْتَصِرُ عَلَىٰ ٱلْبَرَاكِينِ مِنَ ٱلْجُيُوشِ لَا عَلَىٰ مِثْلِ بَرَامِيلِ ٱلنَّبِيذِ . . . ثُمَّ يَسْتَعِزُّ ٱلرَّجُلُ بِدَالَّتِهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، وَيَدْخُلُهُ ٱلْغُرُورُ ، فَيَتَصَنَّعُ لَهُمْ مَرَّةً ، وَيَتَزَيَّنُ لَهُمْ مَرَّةً ، ثُمَّ يَأْتِيهِمْ بِٱلْآبِدَةِ فَيَسْفَهُ دِينَهُمْ ، وَيُرِيدُهُمْ عَلَىٰ تَعْطِيلِ شَعَائِرِهِمْ وَهَدْمِ كَنَائِسِهِمْ ، لِأَنَّ هَـٰذَا هُوَ ٱلْإِصْلَاحُ فِي رَأْيِهِ . أَفَتَرَىٰ ٱلْإِنْكِلِيزَ حِينَئِذٍ يَضْوُونَ إِلَيْهِ وَيَلْتَفُّونَ حَوْلَهُ وَيَقُولُونَ : قَائِدُنَا فِي ٱلْحَرْبِ ، وَمُصْلِحُنَا فِي ٱلسِّلْمِ ، وَقَدِ ٱنْتَصَرْنَا بِهِ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ فَسَنَنْتَصِرُ بِهِ عَلَىٰ ٱللهِ ، وَظَفِرْنَا مَعَهُ بِيَوْمٍ مِنَ ٱلتَّارِيخِ فَسَنَظْفَرُ مَعَهُ بِٱلتَّارِيخِ كُلِّهِ . . . ؟ أَمْ تَحْسَبُ كِتْشِنَرْ Kitchener كَانَ يَجْسُرُ عَلَىٰ هَـٰذَا وَهُوَ كِتْشِنَرْ Kitchener لَمْ يَتَغَيَّرْ عَقْلُهُ ؟

إِنَّهُ وَٱللهِ مَا يَتَدَافَعُ ٱثْنَانِ أَنَّ هَدْمَ كَنِيسَةٍ وَاحِدَةٍ يَوْمَئِذٍ لَا يَكُونُ إِلَّا هَدْمَ كِتْشِنَرْ Kitchener وَتَارِيخِ كِتْشِنَرْ Kitchener ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَجْزَ مُمَهَّدٌ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وَٱلْأَرْضُ ٱلْمُنْخَسِفَةُ هِيَ ٱلَّتِي يَسْتَنْقِعُ فِيهَا ٱلْمَاءُ ، فَلَهُ فِيهَا ٱسْمٌ وَرَسْمٌ ؛ أَمَّا ٱلْجَبَلُ ٱلصَّخْرِيُّ ٱلْأَشَمُّ ، فَإِذَا صُبَّ

(١) اللـورد كتشنـر Kitchener هـو هـوراتيـو هـربـرت كتشنـر Horatio Herbert Kitchener (١٨٥٠ ـ ١٩١٧) قائد وسياسي بريطاني . عُيِّن وزيرًا للحربية البريطانية عند نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وكانت له شعبية كبيرة لدى الجمهور الإنكليزي . بسام .

هَـٰذَا ٱلْمَاءُ عَلَيْهِ أَرْسَلَهُ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ ، وَأَفَاضَهُ إِلَىٰ أَسْفَلَ[1] . . . !

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلطَّائِشَةِ : فَأَقُولُ لَهَا : إِذَا كَانَ هَـٰذَا رَأْيَكِ لِلنِّسَاءِ ، فَكَيْفَ لَا تَرَيْنَ مِثْلَ هَـٰذَا لِنَفْسِكِ ؟

فَتَضَعْضَعَتْ لِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ، وَلَجْلَجَتْ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَتْ : أَنْتَ سَلَبْتَنِي ٱلرَّأْيَ لِنَفْسِي ، وَوَضَعْتَنِي فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي لَا تَتَقَيَّدُ بِقَانُونِ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ .

قُلْتُ : فَإِذَا كَانَتْ كُلُّ ٱمْرَأَةٍ تَغْلَطُ لِنَفْسِهَا فِي ٱلرَّأْيِ ، وَتَنْصَحُ بِٱلرَّأْيِ ٱلصَّائِبِ غَيْرَهَا ، فَيُوشِكُ أَلَّا يَبْقَىٰ فِي نِسَاءِ ٱلْأَرْضِ فَضِيلَةٌ وَلَا يَعُودَ فِي ٱلْمَدْرَسَةِ كُلِّهَا عَاقِلٌ إِلَّا ٱلْكِتَابُ . . .

فَتَضَاحَكَتْ وَقَالَتْ : لِهَـٰذَا يَشْتَدُّ دِينُنَا ٱلْإِسْلَامِيُّ مَعَ ٱلْمَرْأَةِ ، فَهُوَ يَخْلُقُ طَبَائِعَ ٱلْمُقَاوَمَةِ فِي ٱلْمَرْأَةِ ، وَيَخْلُقُهَا فِيمَا حَوْلَهَا ، حَتَّىٰ لَيُخَيِّلُ إِلَيْهَا أَنَّ ٱلسَّمَاءَ عُيُونٌ تَرَاهَا ، وَأَنَّ ٱلْأَرْضَ عُقُولٌ تُحْصِي عَلَيْهَا ؛ وَهَلْ أَعْجَبُ مِنْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلدِّينَ يَقْضِي قَضَاءً مُبْرَمًا أَنْ تَكُونَ ثِيَابُ ٱلْمَرْأَةِ أُسْلُوبَ دِفَاعٍ لَا أُسْلُوبَ إِغْرَاءٍ ، وَأَنْ يَضَعَهَا مِنَ ٱلنُّفُوسِ مَوْضِعًا يَكُونُ فِيهِ حَدِيثُهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا كَٱلْحَدِيثِ فِي (ٱلرَّادْيُو)[2] لَهُ دَوِيٌّ فِي ٱلدُّنْيَا ، فَيُقِيمُ عَلَيْهَا ٱلْحِجَابَ ، وَغَيْرَةَ ٱلرَّجُلِ ، وَشَرَفَ ٱلْأَصْلِ[3] ؛ وَيُؤَاخِذُهَا بِرُوحِ طَبِيعَتِهَا ، فَيَجْعَلُ ٱلْهَفْوَةَ مِنْهَا كَأَنَّهَا جَنِينٌ يَكْبَرُ وَلَا يَزَالُ يَكْبَرُ حَتَّىٰ يَكُونَ عَارَ مَاضِيهَا وَخِزْيَ مُسْتَقْبَلِهَا .

هَـٰذِهِ كُلُّهَا حُجُبٌ مَضْرُوبَةٌ لَا حِجَابٌ وَاحِدٌ ، وَهِيَ كُلُّهَا لِخَلْقِ طَبَائِعِ ٱلْمُقَاوَمَةِ ، وَلِتَيْسِيرِ ٱلْمُقَاوَمَةِ ؛ وَمَتَىٰ جَاءَ ٱلْعِلْمُ مَعَ هَـٰذِهِ لَمْ يَكُنْ أَبَدًا إِطْلَاقًا ، وَلَمْ يَكُنْ أَبَدًا إِلَّا ٱلْحِجَابَ ٱلْأَخِيرَ كَٱلسُّورِ حَوْلَ ٱلْقَلْعَةِ ؛ وَلَـٰكِنْ قَبَّحَ ٱللهُ ٱلْمَدَنِيَّةَ وَفَنَّهَا ؛ إِنَّهَا أَطْلَقَتِ ٱلْمَرْأَةَ حُرَّةً ، ثُمَّ حَاطَتْهَا بِمَا يَجْعَلُ حُرِّيَّتَهَا هِيَ ٱلْحُرِّيَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ أَثْقَلِ قُيُودِهَا لَا غَيْرُ . أَنْتَ مُحَمَّلٌ

(١) أَفْرَدْنَا مَقَالًا خَاصًّا لِهَـٰذَا ٱلْإِلْحَادِ ٱلتُّرْكِيِّ ٱلذُّبَابِيِّ . . . فَقَدْ عَثَرْنَا فِي ٱلنُّسْخَةِ ٱلْخَطِّيَّةِ ٱلَّتِي عِنْدَنَا « كَلِيلَة وَدِمْنَة » عَلَىٰ فَصْلٍ بَدِيعٍ عُنْوَانُهُ : « كُفْرُ ٱلذُّبَابَةِ » ، تَقْرَؤُهُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي مِنْ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ .

(٢) الراديو Radio ، هذا الاسم الأعجمي لما عَمَّ استعماله اليوم تحت اسم المذياع . بسام .

(٣) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْأَهْلِ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْأَصْلِ » .

بِٱلذَّهَبِ ، وَأَنْتَ حُرٌّ وَلَـٰكِنْ بَيْنَ ٱللُّصُوصِ ؛ كَأَنَّكَ فِيْ هَـٰذَا لَسْتَ حُرًّا إِلَّا فِيْ ٱخْتِيَارِ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ . . . !

لَمْ تَعُدِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْعَصْرِيَّةُ ٱنْتِصَارَ ٱلْأُمُومَةِ ، وَلَا ٱنْتِصَارَ ٱلْخُلُقِ ٱلْفَاضِلِ ، وَلَا ٱنْتِصَارَ ٱلتَّعْزِيَةِ فِيْ هُمُوْمِ ٱلْحَيَاةِ ؛ وَلَـٰكِنِ ٱنْتِصَارَ ٱلْفَنِّ ، وَٱنْتِصَارَ ٱللَّهْوِ ، وَٱنْتِصَارَ ٱلْخَلَاعَةِ .

قَالَ صَاحِبُ ٱلطَّائِشَةِ : فَضَحِكْتُ وَقُلْتُ : وَٱنْتِصَارِيْ . . . !

(طِبْقَ ٱلْأَصْلِ) .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

« تَنْبِيْهٌ » :

لَيْسَتِ ٱلطَّائِشَةُ كُلَّ ٱلنِّسَاءِ وَلَا كُلَّ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَرْوِيْ قِصَّةً هِيَ فِيْ ٱلدُّنْيَا ، لَيْسَ فِيْهَا كَلِمَةٌ مِنَ ٱلْمِرِّيْخِ وَلَا مِنْ زُحَلَ ؛ فَأَمَّا ٱلصَّالِحُ فَيَرَىٰ وَيَفْهَمُ ، وَلَعَلَّهُ يَصُوْنُ بِهَا نَفْسَهُ ؛ وَأَمَّا ٱلْفَاسِدُ فَيَرَىٰ وَيَعْتَبِرُ ، وَلَعَلَّهُ يَرُدُّ بِهَا نَفْسَهُ . وَمَذْهَبُنَا دَائِمًا وُجُوْبُ كَشْفِ ٱلْحَقِيْقَةِ ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ ٱلصَّوَابَ فَخُذْهُ عَمَّنْ أَخْطَأَ .

تَرْبِيَةٌ لُؤْلُؤِيَّةٌ(*)

كَتَبَتْ إِلَيَّ سَيِّدَةٌ فَاضِلَةٌ بِمَا هَـٰذِهِ تَرْجَمَتُهُ مَنْقُوْلًا إِلَىٰ أُسْلُوْبِيْ وَطَرِيْقَتِيْ :

. . . أَمَّا بَعْدُ ؛ فَهَـٰذَا ٱلَّذِي كُنَّا ظَنَنَّا وَظَنَّتْ ، فَاقْرَأِ ٱلْفَصْلَ ٱلَّذِيْ ٱنْتَزَعْتُهُ لَكَ مِنْ مَجَلَّةٍ . . . وَسَتَعْرِفُ مِنْهُ وَتُنْكِرُ ، وَتَرَىٰ فِيْهِ ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا وَٱللَّيْلَ أَعْمَىٰ . . . وَتَجِدُ فَتَاةَ ٱلْيَوْمِ عَلَىٰ مَا وَقَعَ بِهَا مِنَ ٱلظِّنَّةِ ، وَكَثُرَ فِيْهَا مِنْ أَقْوَالِ ٱلسُّوْءِ ـ لَا تَشْمَسُ عَلَىٰ ٱلرِّيْبَةِ وَلَا تُرِيْدُ أَنْ تَنْتَفِيَ مِنْهَا ، بَلْ هِيَ تَعْمَلُ لِتَحْقِيْقِهَا ، وَتَبْغِيْ مَعَ تَحْقِيْقِهَا أَنْ يَتَعَالَمَ ٱلنَّاسُ ذَٰلِكَ مِنْهَا ، وَتُرِيْدُ مَعَ هَـٰذَيْنِ أَنْ يُطْلِقُوا لَهَا مَا شَاءَتْ ، وَيُسَوِّغُوْهَا مُقَارَفَةَ ٱلإِثْمِ ، وَيُقِرُّوْهَا عَلَىٰ مُنْكَرَاتِهَا .

أَمَا إِنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّهَاتُنَا ٱلْجَاهِلَاتُ هُنَّ أَمْسَنَا ٱلذَّاهِبَ بِلَا فَائِدَةٍ ، فَإِنَّ فَتَيَاتِنَا ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ هُنَّ يَوْمُنَا ٱلضَّائِعُ بِلَا فَائِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْجَاهِلَةَ لَمْ تَكُنْ تَكْسُدُ وَمَعَهَا ٱلْفَضِيْلَةُ ، فَأَصْبَحَتِ ٱلْمُتَعَلِّمَةُ لَمْ تَكَدْ تَنْفُقُ وَمَعَهَا ٱلرَّذِيْلَةُ ، وَلَتَاجِرٌ أُمِّيٌّ طَاهِرُ ٱلاسْمِ تَتَحَرَّكُ سُوْقُهُ وَتَحْيَا ، خَيْرٌ مِنْ تَاجِرٍ مُتَعَلِّمٍ نَجِسِ ٱلاسْمِ قَدْ مَاتَتْ سُوْقُهُ وَخَمَدَتْ ، فَمَا تَتَنَفَّسُ مِنْ دِرْهَمٍ وَلَا دِيْنَارٍ .

لَقَدِ ٱحْتَذَيْنَا عَلَىٰ مِثَالِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْأُورُبِّيَّةِ ، فَلَمَّا أَحْكَمَتْهُ ٱلْمُتَعَلِّمَاتُ مِنَّا ، كُنَّ بَيْنَ ٱلشَّرْقِ وَٱلْغَرْبِ كَٱلسَّبَخَةِ ٱلنَّشَّاشَةِ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، طَرَفٌ لَهَا بِٱلْفَلَاةِ وَطَرَفٌ بِٱلْبَحْرِ ؛ فَهِيَ رَمْلٌ فِيْ مَاءٍ فِيْ مِلْحٍ ، لَا تَخْلُصُ لِفَسَادٍ وَلَا صِحَّةٍ ، فَٱعْتَبِرْ هَـٰذِهِ وَهَـٰذِهِ فَسَتَجِدُهُمَا بِحِكَايَةٍ وَاحِدَةٍ ، أَصْلًا وَطِبْقَ ٱلْأَصْلِ .

* * *

وَقَرَأْتُ ٱلْفَصْلَ ٱلَّذِيْ أَوْمَأَتْ إِلَيْهِ ٱلسَّيِّدَةُ ، وَكَانَ فِيْ كِتَابِهَا ، فَإِذَا هُوَ لِكَاتِبَةٍ تَزْعُمُ (أَنَّهَا مِمَّنْ رَفَعْنَ عَلَمَ ٱلْجِهَادِ لِحُرِّيَّةِ ٱلْمَرْأَةِ) ، وَإِذَا فِيْ أَوَّلِهِ :

« كَتَبَتْ آنِسَةٌ أَدِيْبَةٌ فِيْ عَدَدٍ سَابِقٍ مِنَ . . . ٱلْأَغَرِّ تَقُوْلُ : « أَجَلْ ، لِنُفَتِّشْ عَنْ هَـٰذَا

(*) « الرسالة » العدد : ٦١ ، ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ٣ سبتمبر/ إيلول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٤٣٤ ـ ١٤٤٦ .

ٱلرَّجُلِ كَمَا يُفَتِّشُوْنَ هُمْ عَنِ ٱلْمَرْأَةِ ، فَإِنْ أَخْطَأْنَاهُمْ أَزْوَاجًا فَلَنْ نُخْطِئَهُمْ أَصْدِقَاءَ !!! » وَكَتَبَ بَعْدَ هَـٰذَا أَدِيْبٌ فَاضِلٌ ، كَمَا كَتَبَتْ آنِسَةٌ فَاضِلَةٌ يَنْحِيَانِ (كَذَا) هَـٰذَا ٱلْمَنْحَىٰ ، وَيَطْرُقَانِ نَفْسَ ٱلسَّبِيْلِ (كَذَا) ٱلَّتِيْ ٱخْتَطَّتْهَا ٱلآنِسَةُ ٱلْجَرِيْئَةُ فِيْ غَيْرِ حَقٍّ ، ٱلثَّائِرَةُ فِيْ نَزَقٍ . ثُمَّ قَالَتْ بَعْدَ ذَلِكَ : « قَرَأْتُ مَقَالَ ٱلآنِسَةِ ٱلثَّائِرَةِ فِيْ حَيَوِيَّةٍ صَارِخَةٍ !!!! فَجَزِعْتُ ، لِأَنَّ قَاسِمْ أَمِين عِنْدَمَا رَفَعَ عَلَمَ ٱلْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ حُرِّيَّةِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَوَلِيُّ ٱلدِّيْنِ يَكُنْ عِنْدَمَا جَاهَرَ بَعْدَهُ فِيْ سَبِيْلِ ٱلسُّفُوْرِ ، وَهُدَىٰ شَعْرَاوِيْ عِنْدَمَا رَفَعَتْ صَوْتَهَا عَالِيًا تُطَالِبُ بِحُرِّيَّةِ ٱلْمَرْأَةِ ـ مَا ظَنَّتْ وَمَا ظَنَّ وَاحِدٌ مِنْ هَـٰذَيْنِ ٱلرَّجُلَيْنِ أَنَّ ثَوْرَةَ ٱلْمَرْأَةِ سَتَتَطَوَّرُ إِلَىٰ حَدٍّ أَنْ تَقِفَ آنِسَةٌ مُهَذَّبَةٌ ، تَكْشِفُ عَنْ رَأْسِهَا تَبْكِيْ وَتَسْتَبْكِيْ سِوَاهَا مَعَهَا ، مِنْ أَجْلِ ٱلزَّوَاجِ . . . » .

* * *

وَأَنَا فَلَسْتُ أَدْرِيْ وَٱللهِ مِمَّ تَعْجَبُ هَـٰذِهِ ٱلْكَاتِبَةُ ، وَإِنِّيْ لَأَعْجَبُ مِنْ عَجَبِهَا ، وَأَرَاهَا كَالَّتِيْ تَكْتُبُ عَبَثًا وَهَزْلًا وَهُوَيْنَىٰ ، مُظْهِرَةً ٱلْجِدَّ وَٱلْقَصْدَ وَٱلْغَضَبَ . أَيْنَ أُطْلِقَ لِلنِّسَاءِ أَنْ يَثُرْنَ كَمَا تَقُوْلُ ٱلْكَاتِبَةُ ، وَجَاهَدَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلثَّوْرَةِ فَأَخَذَتْ مَأْخَذَهَا ، فَٱنْطَلَقَتْ لِشَأْنِهَا ، فَأَوْغَلَتْ فِيْ حُرِّيَّتِهَا ، فَٱمْتَدَّ بِهَا أَمَدُهَا شَوْطًا بَعْدَ شَوْطٍ ـ ثُمَّ جَاءَ خُلُقٌ مِنْ أَخْلَاقِ ٱلْمَرْأَةِ يُسْفِرُ سُفُوْرَهُ وَيَرْفَعُ ٱلْحِجَابَ عَنْ طَبِيْعَتِهِ ثَائِرًا هُوَ أَيْضًا فِيْ غَيْرِ مُدَارَاةٍ وَلَا حِذْقٍ وَلَا كِيَاسَةٍ ، يُرِيْدُ أَنْ يَقْتَحِمَ طَرِيْقَهُ وَيَسْلُكَ سَبِيْلَهُ ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَىٰ رَغْمِهِ فِيْ ٱلطَّرِيْقِ مُنْكَسِرًا مِمَّا بِهِ مِنَ ٱللَّقَّةِ(١) وَٱلْوَثْبَةِ يَتَوَجَّعُ ، يَتَنَهَّدُ ، يَتَلَذَّعُ بِهَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ وَهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ـ أَيْنَ وَقَعَ ذَلِكَ جَاءَتْ كَاتِبَةٌ مِنْ كَاتِبَاتِ ٱلسُّفُوْرِ تَقُوْلُ لِلْمَرْأَةِ : جَرَىٰ عَلَيْكِ وَكُنْتِ حُرَّةً ، وَتَزَعْزَعْتِ وَكُنْتِ ثَابِتَةً ، وَأَفْحَشْتِ وَكُنْتِ عَفِيْفَةً ، وَتَعَهَّرْتِ وَكُنْتِ طَاهِرَةً ؟

أَفَلَا تَقُوْلُ لَهَا : سَفَرَتْ أَخْلَاقُكِ إِذْ كُنْتِ سَافِرَةً بَارِزَةً ، وَضَاعَ حَيَاؤُكِ إِذْ كُنْتِ مُخَلَّاةً مُهْمَلَةً ، وَغَلَوْتِ إِذْ كُنْتِ فِيْ ٱلْمُبَالَغَةِ مِنَ ٱلْبَدْءِ ؟

أَفَلَا تَقُوْلُ لَهَا : لَقَدْ تَلَطَّفْتِ فَجِئْتِ بِٱلْمَعْنَىٰ ٱلْمَجَازِيِّ لِكَلِمَةِ (ٱلْعُرْيِ) ، وَلَقَدْ أَبْدَعْتِ فَكُنْتِ ٱمْرَأَةً ظَرِيْفَةً ٱجْتِمَاعِيَّةً مَخِيْلَةً لِلشِّعْرِ وَٱلْفَنِّ ، وَحَقَّقْتِ أَنَّ وَاجِبَ ٱلظَّرِيْفَةِ ٱلْجَمِيْلَةِ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱللَّهْفَةِ » بَدَلًا مِنْ : « ٱللَّقَّةِ » .

إِعْطَاءُ ٱلْفَنِّ غِذَاءً مِنْ . . . . ، وَمِنْ . . . ؛ وَمِنْ لَحْمِهَا . . . ؟

نَعَمْ إِنَّ قَاسِم أَمِين رَحِمَهُ ٱللهُ لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ . . . وَلَـٰكِنْ أَمَا كَانَ يَنْبَغِيْ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ بَعْضَ ٱلصَّوَابِ فِيْ ٱلْخَطَإِ لَا يَجْعَلُ ٱلْخَطَأَ صَوَابًا ؟ بَلْ هُوَ أَحْرَىٰ أَنْ يُلَبِّسَهُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ فَيُشَبِّهَهُ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَقِّ وَمَا هُوَ بِهِ ، وَيَجْعَلَهُمْ يَسْكُنُوْنَ إِلَيْهِ وَيَأْمَنُوْنَ جَانِبَهُ فَيَنْتَهِيَ بِهِمْ يَوْمًا إِلَىٰ أَنْ يَنْتَسِفَ خَطَؤُهُ صَوَابَهُ ، وَيُغَطِّيَ بَاطِلُهُ عَلَىٰ حَقِّهِ ، ثُمَّ تَسْتَطْرِقُ إِلَيْهِ عَوَامِلُ لَمْ تَكُنْ فِيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَا كَانَتْ تَجِدُ إِلَيْهِ ٱلسَّبِيْلَ وَهُوَ خَطَأٌ مَحْضٌ ، فَتَمُدُّ لَهُ فِيْ ٱلْغَيِّ مَدًّا . ثُمَّ تَنْتَهِيْ هِيَ أَيْضًا إِلَىٰ نِهَايَتِهَا ، وَتَؤُوْلُ إِلَىٰ حَقَائِقِهَا ؛ فَإِذَا كُلُّ ذَلِكَ قَدْ دَاخَلَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَإِذَا ٱلشَّرُّ لَا يَقِفُ عِنْدَمَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا ٱلْبَلَاءُ لَيْسَ فِيْ نَوْعٍ وَاحِدٍ بَلْ أَنْوَاعٍ .

مَا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِيْ نِيَّةِ قَاسِمِ أَمِينِ ، وَلَا نَزْعُمُ أَنَّ لَهُ خَفِيَّةَ سُوْءٍ أَوْ مُضْمَرَ شَرٍّ فِيْمَا دَعَا إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ ٱلدَّعْوَةِ ، وَلَـٰكِنِّيْ أَنَا أَرْتَابُ فِيْ كِفَايَتِهِ لِمَا كَانَ أَخَذَ نَفْسَهُ بِهِ ، وَأَرَاهُ قَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا يُحْسِنُ ، وَذَهَبَ يَقُوْلُ فِيْ تَأْوِيْلِ ٱلْقُرْآنِ وَهُوَ لَا يَنْفُذُ إِلَىٰ حَقَائِقِهِ ، وَلَا يَسْتَبْطِنُ أَسْرَارَ عَرَبِيَّتِهِ ، وَكَانَ مُنَاظِرُوْهُ فِيْ عَصْرِهِ قَوْمًا ضُعَفَاءَ ، فَٱسْتَعْلَاهُمْ بِضَعْفِهِمْ لَا بِقُوَّتِهِ ، وَكَانَتْ كَلِمَةُ ٱلْحِجَابِ قَدِ ٱنْتَفَخَتْ فِيْ ذِهْنِهِ بَعْدَ أَنْ أَفْرَغَتْ مَعَانِيَهَا ٱلدَّقِيْقَةَ ، فَأَخَذَهَا مُمْتَلِئَةً وَجَاءَ بِهَا فَارِغَةً ، وَقَالَ لِلنِّسَاءِ : غَيِّرْنَ وَبَدِّلْنَ . فَلَمَّا أَطَعْنَهُ وَبَدَّلْنَ وَغَيَّرْنَ ، وَجَاءَ ٱلزَّمَنُ بِمَا يُفَسِّرُ ٱلْكَلِمَةَ مِنْ حَقَائِقِهِ وَتَصَارِيْفِهِ لَا مِنْ خَيَالَاتِ ٱلْمُتَخَيِّلِ أَوِ ٱلْمُتَشَيِّعِ ـ إِذَا مَعْنَىٰ ٱلتَّغْيِيْرِ وَٱلتَّبْدِيْلِ هُوَ مَا رَأَيْتَ ، وَإِذا ٱلْحِجَابُ ٱلْأَوَّلُ عَلَىٰ ضَلَالِهِ كَانَ نِصْفَ ٱلشَّرِّ ، وَإِذَا ٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِيْ رَبِحَتِ ٱلشَّارِعَ هِيَ ٱلَّتِيْ خَسِرَتِ ٱلزَّوْجَ ! وَإِذا تِلْكَ ٱلدَّعْوَةُ لَمْ تَكُنْ نَفْيًا لِلْحِجَابِ عَنِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَلَـٰكِنْ نَفْيًا لِلْمَرْأَةِ ذَاتِهَا وَرَاءَ حُدُوْدِ ٱلْأُسْرَةِ ، كَأَنَّهَا مُجْرِمَةٌ عُوْقِبَتْ عَلَىٰ فَسَادِ سِيَاسَتِهَا ؛ وَهِيَ ﴿ قَارَّةٌ ﴾ فِيْ بَيْتِهَا وَلَـٰكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ مَنْفِيَّةٌ مِنْ مُسْتَقْبَلِهَا .

كَانُوا يَحْتَجُّوْنَ لِنَفْيِ ٱلْحِجَابِ بِٱلْفَلَّاحَاتِ فِيْ سُفُوْرِهِنَّ ؛ وَغَفَلُوا أَقْبَحَ ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلطَّبِيْعِيِّ فِيْ ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ ٱلسُّفُوْرَ إِنَّمَا عَمَّهُنَّ مِنْ كَوْنِهِنَّ لَسْنَ فِيْ ٱلْمَنْزِلَةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ بَهَائِمَ إِنْسَانِيَّةٍ مُؤَنَّثَةٍ ؛ وَمِثْلُ هَـٰذَا ٱلسُّفُوْرِ لَا يَكُوْنُ عَلَىٰ طَبِيْعَتِهِ تِلْكَ إِلَّا فِيْ ٱجْتِمَاعٍ طَبِيْعِيٍّ فِطْرِيٍّ أَسَاسُهُ ٱلْخَلْطُ فِيْ ٱلْأَعْمَالِ لَا ٱلتَّمْيِيْزُ بَيْنَهَا ، وَٱلاشْتِرَاكُ فِيْ شَيْءٍ

وَاحِدٍ هُوَ كَسْبُ ٱلْقُوْتِ[١] لَا ٱلانْفِرَادُ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ أَشْيَاءِ ٱلنَّفْسِ .

وَلَسْتُ أَرَىٰ هَـٰذِهِ ٱللَّجَاجَةَ ، أَوِ « ٱلْحَيَوِيَّةَ ٱلصَّارِخَةَ » ٱلَّتِيْ ثَارَتْ بِفَتَيَاتِنَا ـ إِلَّا تَمَرُّدًا مِنْ طَبِيْعَتِهِنَّ عَلَىٰ ٱلأَحْوَالِ ٱلظَّالِمَةِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بِهَا ؛ وَيَحْسَبْنَهُ تَوَسُّعًا مِنَ ٱلطَّبِيْعَةِ فِيْ ٱلْحُرِّيَّةِ ، وَطَلَبًا لِلْعَالَمِ كُلِّهِ بَعْدَ ٱلشَّارِعِ ، وَلِلْحُقُوْقِ كُلِّهَا بَعْدَ نَبْذِ ٱلْحِجَابِ ؛ وَهُوَ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ لَيْسَ إِلَّا ثَوْرَةَ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلنِّسْوِيَّةِ عَلَىٰ خَيْبَتِهَا مِمَّا أَصَابَتْ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ وَٱلشَّارِعِ وَٱلْعَالَمِ وَٱلْحُقُوْقِ ، وَرَغْبَةً مِنْهَا فِيْ أَنْ تُحَدَّ بِحُدُوْدِهَا وَيُؤْخَذَ مِنْهَا ٱلْعَالَمُ كُلُّهُ بِمَا فِيْهِ ، وَتُعْطَىٰ ٱلْبَيْتَ وَحْدَهُ بِمَا فِيْهِ .

إِذَا أَنْتَ كَشَفْتَ جُذُوْرَ ٱلشَّجَرَةِ لِتُطْلِقَهَا بِزَعْمِكَ مِنْ حِجَابِهَا ، وَتُخْرِجَهَا إِلَىٰ ٱلنُّوْرِ وَٱلْحُرِّيَّةِ ، فَإِنَّمَا أَعْطَيْتَهَا ٱلنُّوْرَ ، وَلَـٰكِنَّ مَعَهُ ٱلضَّعْفَ ؛ وَٱلْحُرِّيَّةَ ، وَمَعَهَا ٱلانْتِقَاضَ ؛ وَتَكُوْنُ قَدْ أَخْرَجْتَهَا مِنْ حِجَابِهَا وَمِنْ طَبِيْعَتِهَا مَعًا ؛ فَخُذْهَا بَعْدَ ذَلِكَ خَشَبًا لَا ثَمَرًا ، وَمَنْظَرَ شَجَرَةٍ لَا شَجَرَةً ، لَقَدْ أَعْطَيْتَهَا مِنْ عِلْمِكَ لَا مِنْ حَيَاتِهَا ، وَجَهِلْتَ أَنَّهَا مِنْ أَطْبَاقِ ٱلثَّرَىٰ فِيْ قَانُوْنِ حَيَاتِهَا ، لَا فِيْ قَانُوْنِ حِجَابِهَا . أَفَلَيْسَتْ كَذَلِكَ جُذُوْرُ ٱلشَّجَرَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ؟

كُلُّ مَا يَتَغَيَّرُ يَسْهُلُ تَغْيِيْرُهُ عَلَىٰ مَنْ شَاءَ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّتَائِجَ ٱلآتِيَةَ مِنَ ٱلتَّغْيِيْرِ لَا تَكُوْنُ إِلَّا حَتْمًا مَقْضِيًّا كَمَا يُقْضَىٰ ، فَلَنْ يَسْهُلَ تَبْدِيْلُهَا وَلَا تَحْوِيْلُهَا وَلَا رَدُّهَا أَنْ تَقَعَ . وَقَدْ أَخْطَأَ جَمَاعَةُ ٱلسُّفُوْرِ ، بَلْ أَنَا أَقُوْلُ : إِنَّهُمْ جَاؤُوْنَا بِٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلثَّانِيَةِ ، وَإِنَّهُمْ طَبُّوْا لِلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ كَذَلِكَ ٱلطِّبَّ ٱلَّذِيْ أَسَاسُهُ ٱلرَّائِحَةُ ٱلذَّكِيَّةُ فِيْ ٱلْبَخُوْرِ . . . ![٢]

* * *

وَمَا هُوَ ٱلْحِجَابُ إِلَّا حِفْظُ رُوْحَانِيَّةِ ٱلْمَرْأَةِ لِلْمَرْأَةِ ، وَإِغْلَاءُ سِعْرِهَا فِيْ ٱلاجْتِمَاعِ ، وَصَوْنُهَا مِنَ ٱلتَّبَذُّلِ ٱلْمَمْقُوْتِ ، لِضَبْطِهَا فِيْ حُدُوْدٍ كَحُدُوْدِ ٱلرِّبْحِ مِنْ هَـٰذَا ٱلْقَانُوْنِ ٱلصَّارِمِ ، قَانُوْنِ ٱلْعَرْضِ وَٱلطَّلَبِ ؛ وَٱلارْتِفَاعُ بِهَا أَنْ تَكُوْنَ سِلْعَةً بَائِرَةً يُنَادَىٰ عَلَيْهَا فِيْ

(١) { وَلِهَـٰذَا لَا يَكَادُ يَغْتَنِيْ ٱلْفَلَّاحُ وَلَوْ أَيْسَرَ ٱلْغِنَىٰ ، حَتَّىٰ يَصُوْنَ ٱمْرَأَتَهُ وَيَحْجُبَهَا وَيَرْتَفِعَ بِمَعْنَاهَا عَنْ نَفْسِهِ } .

(٢) { أَيْ : طِبُّ ٱلدَّجَّالِيْنَ } .

مَدَارِجِ ٱلطُّرُقِ وَٱلأَسْوَاقِ : ٱلْعُيُوْنُ ٱلْكَحِيْلَةُ ، ٱلْخُدُوْدُ ٱلْوَرْدِيَّةُ ، ٱلشِّفَاهُ ٱلْيَاقُوْتِيَّةُ ، ٱلثُّغُوْرُ ٱللُّؤْلُؤِيَّةُ ، ٱلأَعْطَافُ ٱلْمُرْتَجَّةُ ، ٱلنُّهُوْدُ ٱلْـ . . . ٱلْـ . . . أَوَ لَيْسَ فَتَيَاتُنَا قَدِ ٱنْتَهَيْنَ مِنَ ٱلْكَسَادِ بَعْدَ نَبْذِ ٱلْحِجَابِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْغَايَةِ ، وَأَصْبَحْنَ إِنْ لَمْ يُنَادِيْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِنَّ بِمِثْلِ هَـٰذَا فَإِنَّهُنَّ لَا يَظْهَرْنَ فِيْ ٱلطُّرُقِ إِلَّا لِتُنَادِيْ أَجْسَامُهُنَّ بِمِثْلِ هَـٰذَا ؟

وَهَـٰذِهِ ٱلَّتِيْ كَتَبَتِ ٱلْيَوْمَ تَطْلُبُهُمْ مُخَادِنِيْنَ إِنْ أَخْطَأَتْهُمْ أَزْوَاجًا ، وَتُفَتِّشُ عَلَيْهِمْ تَفْتِيْشًا بَيْنَ ٱلزَّوْجَاتِ وَٱلأُمَّهَاتِ وَٱلأَخَوَاتِ ! هَلْ تُرِيْدُ إِلَّا أَنْ تَثِبَ دَرَجَةً أُخْرَىٰ فِيْ مُخْزِيَاتِ هَـٰذَا ٱلتَّطَوُّرِ ، فَتَمْشِيَ فِيْ ٱلطَّرِيْقِ مَشْيَ ٱلأُنْثَىٰ مِنَ ٱلْبَهَائِمِ طَمُوْحًا مَطْرُوْفَةً ، تَذْهَبُ عَيْنَاهَا هُنَا وَهَـٰهُنَا تَلْتَمِسُ مَنْ يَخْطُوْ إِلَيْهَا ٱلْخَطْوَةَ ٱلْمُقَابِلَةَ . . . ؟

مَا هُوَ ٱلْحِجَابُ ٱلشَّرْعِيُّ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ تَرْبِيَةً عَمَلِيَّةً عَلَىٰ طَرِيْقَةِ ٱسْتِحْكَامِ ٱلْعَادَةِ لِأَسْمَىٰ طِبَاعِ ٱلْمَرْأَةِ وَأَخَصُّهَا ٱلرَّحْمَةُ ؟ هَـٰذِهِ ٱلصِّفَةُ ٱلنَّادِرَةُ ٱلَّتِيْ يَقُوْمُ ٱلاجْتِمَاعُ ٱلإِنْسَانِيُّ عَلَىٰ نَزْعِهَا وَٱلْمُنَازَعَةِ فِيْهَا مَا دَامَتْ سُنَّةُ ٱلْحَيَاةِ نِزَاعَ ٱلْبَقَاءِ ، فَيَكُوْنُ ٱلْبَيْتُ ٱجْتِمَاعًا خَاصًّا مُسَالِمًا لِلْفَرْدِ تَحْفَظُ ٱلْمَرْأَةُ بِهِ مَنْزِلَتَهَا ، وَتُؤَدِّيْ فِيْهِ عَمَلَهَا ، وَتَكُوْنُ مَغْرِسًا لِلإِنْسَانِيَّةِ وَغَارِسَةً لِصِفَاتِهَا مَعًا .

لَقَدْ رَأَيْنَا مَوَالِيْدَ ٱلْحَيْوَانِ تُوْلَدُ كُلُّهَا : إِمَّا سَاعِيَةً كَاسِبَةً لِوَقْتِهَا ، وَإِمَّا مُحْتَاجَةً إِلَىٰ ٱلْحَضَانَةِ وَقْتًا قَلِيْلًا لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْقَضِيَ فَتَكْدَحَ لِعَيْشِهَا ؛ إِذْ كَانَتْ غَايَةُ ٱلْحَيْوَانِ هِيَ ٱلْوُجُوْدَ فِيْ ذَاتِهِ لَا فِيْ نَوْعِهِ ، وَكَانَ بِذَلِكَ فِيْ ٱلأَسْفَلِ لَا فِيْ ٱلأَعْلَىٰ . غَيْرَ أَنَّ طِفْلَ ٱلْمَرْأَةِ يَكُوْنُ فِيْ بَطْنِهَا جَنِيْنًا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ يُوْلَدُ لِيَكُوْنَ مَعَهَا جَنِيْنًا فِيْ صِفَاتِهَا وَأَخْلَاقِهَا وَرَحْمَتِهَا أَضْعَافَ ذَلِكَ ، سَنَةً بِكُلِّ شَهْرٍ . فَهَلِ ٱلْحِجَابُ إِلَّا قَصْرُ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ عَلَىٰ عَمَلِهَا ، لِتَجْوِيْدِهِ وَإِتْقَانِهِ وَإِخْرَاجِهِ كَامِلًا مَا ٱسْتَطَاعَتْ ؟ وَهَلْ قَصْرُهَا فِيْ حِجَابِهَا إِلَّا تَرْبِيَةٌ طَبِيْعِيَّةٌ لِرَحْمَتِهَا وَصَبْرِهَا ، ثُمَّ تَرْبِيَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَنْ حَوْلَهَا بِرَحْمَتِهَا وَصَبْرِهَا ؟

أَعْرِفُ مُعَلِّمَةً ذَاتَ وَلَدٍ ، تَتْرُكُ ٱبْنَهَا فِيْ أَيْدِيْ ٱلْخَدَمِ بَعْدَ وَصَاةٍ عِلْمِيَّةٍ سِيْكُوْلُوْجِيَّةٍ . . . وَتَمْضِيْ ذَاهِبَةً عَنْ يَمِيْنِ ٱلصَّبَاحِ ، وَيَمْضِيْ زَوْجُهَا عَنْ شِمَالِهِ . . . وَقَدْ رَأَيْتُ هَـٰذَا ٱلطِّفْلَ مَرَّةً ، فَرَأَيْتُهُ شَيْئًا جَدِيْدًا غَيْرَ ٱلأَطْفَالِ ، لَهُ سِمَةٌ رُوْحَانِيَّةٌ غَيْرُ سِمَاتِهِمْ ، كَأَنَّمَا يَقُوْلُ لِيْ : إِنَّهُ لَيْسَ لِيْ أَبٌ وَأُمٌّ ، وَلَـٰكِنْ أَبٌ رَقْمُ (١) ، وَأَبٌ رَقْمُ (٢) . . . !

* * *

وَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ كَلِمَةً عَنِ ٱلْحِجَابِ ٱلإِسْلَامِيِّ قُلْتُ فِيْهَا : « مَا كَانَ ٱلْحِجَابُ مَضْرُوْبًا عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ نَفْسِهَا ، بَلْ عَلَىٰ حُدُوْدٍ مِنَ ٱلأَخْلَاقِ أَنْ تُجَاوِزَ مِقْدَارَهَا أَوْ يُخَالِطَهَا ٱلسُّوْءُ أَوْ يَتَدَسَّسَ إِلَيْهَا ؛ فَكُلُّ مَا أَدَّىٰ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْغَايَةِ فَهُوَ حِجَابٌ ، وَلَيْسَ يُؤَدِّيْ { إِلَيْهَا } شَيْءٌ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ ٱلْمَرْأَةُ ٱمْرَأَةً فِيْ دَائِرَةِ بَيْتِهَا ، ثُمَّ إِنْسَانًا فَقَطْ فِيْمَا وَرَاءَ هَـٰذِهِ ٱلدَّائِرَةِ إِلَىٰ آخِرِ حُدُوْدِ ٱلْمَعَانِيْ » .

وَهَـٰذَا هُوَ ٱلرَّأْيُ ٱلَّذِيْ لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، فَلَيْسَ ٱلْحِجَابُ إِلَّا كَٱلرَّمْزِ لِمَا وَرَاءَهُ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَمَعَانِيْهِ وَرُوْحِهِ ٱلدِّيْنِيَّةِ ٱلْمَعْبَدِيَّةِ ، وَهُوَ كَٱلصَّدَفَةِ لَا تَحْجُبُ ٱللُّؤْلُؤَةَ وَلَـٰكِنْ تُرَبِّيْهَا فِيْ ٱلْحِجَابِ تَرْبِيَةً لُؤْلُئِيَّةً ؛ فَوَرَاءَ ٱلْحِجَابِ ٱلشَّرْعِيِّ ٱلصَّحِيْحِ مَعَانِيْ ٱلتَّوَازُنِ وَٱلاسْتِقْرَارِ وَٱلْهُدُوْءِ وَٱلاضْطِرَادِ ، وَأَخْلَاقُ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ وَرُوْحُهَا ٱلدِّيْنِيُّ ٱلْقَوِيُّ ، ٱلَّذِيْ يُنْشِئُ عَجِيْبَةَ ٱلأَخْلَاقِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا ؛ أَيْ : صَبْرَ ٱلْمَرْأَةِ وَإِيْثَارَهَا . وَعَلَىٰ هَـٰذَيْنِ تَقُوْمُ قُوَّةُ ٱلْمُدَافَعَةِ ، وَهَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ هِيَ تَمَامُ ٱلأَخْلَاقِ ٱلأَدَبِيَّةِ كُلِّهَا ، وَهِيَ سِرُّ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْكَامِلَةِ ؛ فَلَنْ تَجِدَ ٱلأَخْلَاقَ عَلَىٰ أَتَمِّهَا وَأَحْسَنِهَا وَأَقْوَاهَا إِلَّا فِيْ ٱلْمَرْأَةِ ذَاتِ ٱلدِّيْنِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلْمُدَافَعَةِ . إِنَّهَا فِيْهَا تُشْبِهُ أَخْلَاقَ نَبِيٍّ مِنَ ٱلأَنْبِيَاءِ .

وَقَدْ مُحِقَ ٱلدِّيْنُ وَٱلصَّبْرُ ، وَتَرَاخَتْ قُوَّةُ ٱلْمُدَافَعَةِ فِيْ أَكْثَرِ ٱلْفَتَيَاتِ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ ، فَٱبْتُلِيْنَ مِنْ ذَلِكَ بِٱلضَّجَرِ وَٱلْمَلَلِ ، وَتَشْوِيْهِ ٱلنَّفْسِ ؛ وَوَقَعَ فِيْهِنَّ مَعْنًى كَمَعْنَىٰ ٱلْعَفَنِ فِيْ ٱلثَّمَرَةِ ٱلنَّاضِجَةِ ؛ وَجَهِلْنَ بِٱلْعِلْمِ حَتَّىٰ طَبِيْعَتَهُنَّ ، فَمَا مِنْهُنَّ مَنْ عَرَفَتْ أَنَّ طَبِيْعَتَهَا سَلْبِيَّةٌ فِيْ ذَاتِهَا ، وَأَنَّهُ لَا يَشُدُّهَا وَيُقِيْمُهَا إِلَّا ٱلصِّفَاتُ ٱلسَّلْبِيَّةُ ، وَمِلَاكُهَا ٱلصَّبْرُ فُرُوْعُهُ وَأُصُوْلُهُ ، وَجَمَالُهَا ٱلْحَيَاءُ وَٱلْعِفَّةُ ، وَرَمْزُهَا وَحَارِسُهَا وَٱلْمُعِيْنُ عَلَيْهَا هُوَ ٱلْحِجَابُ وَحْدَهُ . إِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ هَـٰذَا فَلَيْسَتِ ٱلْمَرْأَةُ إِلَّا بِهَـٰذَا .

وَمَا تُخْطِئُ ٱلْمَرْأَةُ فِيْ شَيْءٍ خَطَأَهَا فِيْ مُحَاوَلَةِ تَبْدِيْلِ طَبِيْعَتِهَا وَجَعْلِهَا إِيْجَابِيَّةً ، وَٱنْتِحَالِهَا صِفَاتِ ٱلإِيْجَابِ ، وَتَمَرُّدِهَا عَلَىٰ صِفَاتِ ٱلسَّلْبِ ، كَمَا يَقَعُ لِعَهْدِنَا ؛ فَإِنَّ هَـٰذَا لَنْ يَتِمَّ لِلْمَرْأَةِ ، وَلَنْ يَكُوْنَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ تَعْتَبِرَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ نَقَائِضَ أَخْلَاقِهَا مِنْ أَخْلَاقِهَا ، كَمَا نَرَىٰ فِيْ أُوْرُبَّةَ ، وَفِيْ ٱلشَّرْقِ مِنْ أَثَرِ أُوْرُبَّةَ ؛ فَمِنْ هَـٰذَا تُلْقِيْ ٱلْفَتَاةُ حَيَاءَهَا وَتَبْذُؤُ وَتُفْحِشُ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِٱلأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِيْ جَمِيْعًا فَبِٱلْمَعَانِيْ وَحْدَهَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهَـٰذِهِ وَلَا بِتِلْكَ

فَبِٱلْفِكْرِ فِيْ هَـٰذِهِ وَتِلْكَ ؛ وَكَانَتِ ٱلاسْتِجَابَةُ لِهَـٰذَا مَا فَشَا مِنَ ٱلرِّوَايَاتِ ٱلسَّاقِطَةِ ، وَٱلْمَجَلَّاتِ ٱلْعَارِيَةِ ؛ فَإِنَّ هَـٰذِهِ وَهَـٰذِهِ لَيْسَتْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ عِلْمَ ٱلْفِكْرِ ٱلسَّاقِطِ .

وَعَادَتِ ٱلْفَتَاةُ مِنْ ذَلِكَ لَا تَبْتَغِيْ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ ٱمْرَأَةَ رِوَايَةٍ : إِمَّا فَوْقَ ٱلْحَيَاةِ ، وَإِمَّا فِيْ حَقَائِقَ جَمِيْلَةٍ تَخْتَارُهَا ٱخْتِيَارًا وَتَفْرِضُهَا فَرْضًا عَلَىٰ ٱلْقَدَرِ ! وَتَنْسَىٰ ٱلْحَمْقَاءُ أَنَّهَا أَحَدُ ٱلطَّرَفَيْنِ ، وَلَيْسَتِ ٱلطَّرَفَيْنِ جَمِيْعًا ؛ فَتُحَاوِلُ أَنْ تُقَرِّرَ لِلْحَيَاةِ ٱلْجَدِيْدَةِ تَأْوِيْلًا جَدِيْدًا لِمَعَانِيْ ٱلشَّرَفِ وَٱلْكَرَامَةِ وَٱلْعِرْضِ وَٱلنَّسَبِ وَمَا إِلَيْهَا ؛ فَٱنْسَلَخَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ثُمَّ لَمَّا أَعْجَزَهَا أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ غَرِيْزَةِ ٱلأُنُوْثَةِ طَاشَتْ طَيْشَهَا ٱلأَخِيْرَ ، فَٱنْسَلَخَتْ مِنْ إِنْسَانِيَّةِ ٱلْغَرِيْزَةِ .

* * *

أَمَا إِنَّ غَلْطَةَ ٱلرَّجُلِ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ لَا تَكُوْنُ إِلَّا مِنْ غَلْطَةِ ٱلْمَرْأَةِ فِيْ نَفْسِهَا . وَهِيَ قَدْ أُعْطِيَتْ فِيْ طَبِيْعَتِهَا كُلَّ مَعَانِيْ حِجَابِهَا ؛ فَإِحْسَاسُهَا مُحْتَجِبٌ مُخْتَبِئٌ أَبَدًا كَأَنَّهُ فِيْ إِتْبٍ(١) وَمُلَاءَةٍ وَبُرْقُعٍ ، وَأَفْكَارُهَا طَوِيْلَةُ ٱلْمُلَازَمَةِ لَهَا لَا تَكَادُ تَتْرُكُهَا ، كَأَنَّهَا مِنْهَا فِيْ بَيْتٍ ؛ وَطَبِيْعَةُ ٱلْحَذَرِ لَا تَبْرَحُهَا كَأَنَّهَا ٱلْحَارِسُ ٱلثَّابِتُ فِيْ مَوْضِعِهِ ، ٱلْقَائِمُ بِسِلَاحِهِ عَلَىٰ حِفْظِ هَـٰذَا ٱلْجِسْمِ ٱلْجَمِيْلِ ؛ وَطُوْلُ ٱلتَّأَمُّلِ مُوَكَّلٌ بِهَا كَأَنَّ عَمَلَهُ مُصَاحَبَةُ وَحْدَتِهَا لِتَخْفِيْفِهَا عَلَىٰ نَفْسِهَا وَٱلتَّرْفِيْهِ مِنْهَا ؛ وَٱلدُّنْيَا حَوْلَ ٱلْمَرْأَةِ بِمَذَاهِبِ أَقْدَارِهَا ، وَلَـٰكِنَّ لَهَا دُنْيَا فِيْ دَاخِلِهَا هِيَ قَلْبُهَا تَذْهَبُ ٱلأَقْدَارُ فِيْهِ مَذَاهِبَ أُخْرَىٰ ؛ وَضَغْطَةُ ٱلْحَيَاةِ طَبِيْعِيَّةٌ فِيْهَا ، حَتَّىٰ لَا يُسَاوِرَهَا هَمٌّ مِنَ ٱلْهُمُوْمِ إِلَّا صَارَ كَأَنَّهُ مِنْ عَادَتِهَا . وَٱلَّتِيْ تُمَزِّقُهَا ٱلْحَيَاةُ كُلَّمَا وَلَدَتْ لَا تَكُوْنُ ٱلْحَيَاةُ إِلَّا رَحِيْمَةً بِهَا إِذَا ضَغَطَتْهَا !

فَخُرُوْجُ ٱلْمَرْأَةِ مِنْ حِجَابِهَا خُرُوْجٌ مِنْ صِفَاتِهَا ، فَهُوَ إِضْعَافٌ لَهَا ، وَتَضْرِيَةٌ لِلرِّجَالِ بِهَا . وَمَاذَا تُجْدِيْ عَادَةُ ٱلْحَذَرِ إِذَا أَفْسَدَتْهَا عَادَةُ ٱلاسْتِرْسَالِ وَٱلانْدِفَاعِ ؟ فَيَكُوْنُ حَذَرًا لِيَكُوْنَ إِغْفَالًا ، ثُمَّ يَكُوْنُ إِغْفَالًا لِيَعُوْدَ ٱلزَّلَّةَ وَٱلْغَلْطَةَ ؛ وَمَتَىٰ رَجَعَ غَلْطَةً فَهَـٰذَا أَوَّلُ ٱلسُّقُوْطِ ، وَمَبْدَأُ ٱلانْقِلَابِ وَٱلتَّحَوُّلِ . وَلَيْسَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱمْرَأَةٍ نَفُوْرٍ مِنَ ٱلرِّيْبَةِ ، شَمُوْسٍ لَا تُطَالِعُ ٱلرِّجَالَ وَلَا تُطْمِعُهُمْ ؛ وَبَيْنَ ٱمْرَأَةٍ قَرُوْرٍ عَلَىٰ ٱلرِّيْبَةِ ، هَلُوْكٍ فَاجِرَةٍ ـ { لَيْسَ

---

(١) ٱلإِتْبُ ، هُوَ : بُرْدَةٌ تُشَقُّ فَتُلْبَسُ مِنْ غَيْرِ كُمَّيْنِ ، وَتُسَمِّيْهِ ٱلرِّيْفِيَّاتُ ٱلْمَلَسُ .

ٱلْفَرْقُ ﴾ إِلَّا حِجَابَ ٱلْحَذَرِ أُسْدِلَ عَلَىٰ وَاحِدَةٍ ، وَٱنْكَشَفَ عَنْ أُخْرَىٰ .

وَإِذَا قَرَّتِ ٱلْمَرْأَةُ فِيْ فَضَائِلِهَا ، فَإِنَّمَا هِيَ فِيْ حِجَابِهَا وَدِيْنِهَا ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ ٱلْحِجَابُ ضَابِطُ حُرِّيَّتِهَا ٱلصَّحِيْحَةِ ، بِٱعْتِبَارِهَا ٱمْرَأَةً غَيْرَ ٱلرَّجُلِ ؛ فَهُوَ مُسَمًّى بِٱلْحِجَابِ لِاتِّصَالِهِ بِٱلْحُرِّيَّةِ وَضَبْطِهِ لَهَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلضُّعَفَاءَ ٱلَّذِيْنَ يَعْرِفُوْنَ ظَاهِرًا مِنَ ٱلرَّأْيِ لَا يُدْرِكُوْنَ مَذْهَبَهُ ، وَلَا يُحَقِّقُوْنَ مَا يَنْتَهِيْ إِلَيْهِ ، وَيَنْفُذُوْنَ فِيْ حُكْمِهِمْ عَلَىٰ ٱلظَّاهِرِ لَا عَلَىٰ ٱلْبَصِيْرَةِ ـ هَـٰؤُلَاءِ لَا يَعْرِفُوْنَ مَعْنَىٰ ٱلْحِجَابِ إِلَّا فِيْ ٱلْقُمَاشِ وَٱلْكِسَاءِ وَٱلْأَبْنِيَةِ ، كَأَنَّ حِجَابَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلنِّسْوِيَّةِ شَيْءٌ يَصْنَعُهُ ٱلْحَائِكُ وَٱلْبَانِيْ وَٱلْمُسْتَعْبِدُ ، وَلَا تَصْنَعُهُ ٱلشَّرِيْعَةُ وَٱلْأَدَبُ وَٱلْحَيَاةُ ٱلاجْتِمَاعِيَّةُ ؛ فَهُمْ كَمَا تَرَىٰ حِيْنَ يَأْتُوْنَ بِنِصْفِ ٱلْعِلْمِ ، يَأْتُوْنَ بِنِصْفِ ٱلْجَهْلِ .

لَمْ يَخْلُقِ ٱللهُ ٱلْمَرْأَةَ قُوَّةَ عَقْلٍ فَتَكُوْنَ قُوَّةَ إِيْجَابٍ ، وَلَـٰكِنَّهُ أَبْدَعَهَا قُوَّةَ عَاطِفَةٍ لِتَكُوْنَ قُوَّةَ سَلْبٍ ؛ فَهِيَ بِخَصَائِصِهَا وَٱلرَّجُلُ بِخَصَائِصِهِ ؛ وَٱلسَّلْبُ بِطَبِيْعَتِهِ مُتَحَجِّبٌ صَابِرٌ هَادِئٌ مُنْتَظِرٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ بِذَلِكَ قَانُوْنٌ طَبِيْعِيٌّ تَتِمُّ بِهِ ٱلطَّبِيْعَةُ .

وَيَنْبَغِيْ أَنْ يَكُوْنَ ٱلْعِلْمُ قُوَّةً لِصِفَاتِ ٱلْمَرْأَةِ لَا ضَعْفًا ، وَزِيَادَةً لَا نَقْصًا ؛ فَمَا يَحْتَاجُ ٱلْعَالَمُ إِذَا خَرَجَ صَوْتُهَا فِيْ مَشَاكِلِهِ أَنْ يَكُوْنَ كَصَوْتِ ٱلرَّجُلِ صَيْحَةً فِيْ مَعْرَكَةٍ ، بَلْ تَحْتَاجُ هَـٰذِهِ ٱلْمَشَاكِلُ صَوْتًا رَقِيْقًا مُؤَثِّرًا مَحْبُوْبًا مُجْمَعًا عَلَىٰ طَاعَتِهِ ، كَصَوْتِ ٱلْأُمِّ فِيْ بَيْتِهَا .

* * *

أَيَّتُهَا ٱلْفَتَاةُ ! إِنَّ صِدْقَ ٱلْحَيَاةِ تَحْتَ مَظَاهِرِهَا لَا فِيْ مَظَاهِرِهَا ٱلَّتِيْ تَكْذِبُ أَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ؛ فَسَاعِدِيْ ٱلطَّبِيْعَةَ وَٱحْجُبِيْ أَخْلَاقَكِ عَنِ ٱلرَّجُلِ ، لِتَعْمَلَ هَـٰذِهِ ٱلطَّبِيْعَةُ فِيْهِ بِقُوَّتَيْنِ دَافِعَتَيْنِ : مِنْهَا وَمِنْكِ ، فَيُسْرِعُ ٱنْقِلَابُهُ إِلَيْكِ وَبَحْثُهُ عَنْكِ ؛ وَقَدْ يَجِدُ ٱلْفَاسِقُ فَاسِقَاتٍ وَبَغَايَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلصَّحِيْحَ ٱلرُّجُوْلَةِ لَنْ يَجِدَ غَيْرَكِ .

وَإِنَّمَا سُفُوْرُكِ وَسُفُوْرُ أَخْلَاقِكِ إِفْسَادٌ لِتَدْبِيْرِ ٱلطَّبِيْعَةِ ، وَتَمْكِيْنٌ لِلرَّجُلِ نَفْسِهِ أَنْ يُرْجِفَ بِكِ ٱلظَّنَّ ، وَيُسِيْءَ فِيْكِ ٱلرَّأْيَ ؛ وَعِقَابُكِ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا أَنْتِ فِيْهِ مِنَ ٱلْكَسَادِ وَٱلْبَوَارِ ؛ عِقَابُ ٱلطَّبِيْعَةِ لِمُسْتَقْبَلِكِ بِٱلْحِرْمَانِ ، وَعِقَابُ أَفْكَارِكِ لِنَفْسِكِ بِٱلْأَلَمِ !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

س . ا . ع (*)(١)

هَـٰؤُلَاءِ ثَلَاثَةٌ مِنَ ٱلْأُدَبَاءِ تَجْمَعُهُمْ صِفَةُ ٱلْعُزُوْبَةِ ، وَيُحِبُّوْنَ ٱلْمَرْأَةَ حُبًّا خَائِفًا يُقَدِّمُ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ ؛ فَلَا يُقْبِلُ إِلَّا أَدْبَرَ ، وَلَا يَعْزِمُ إِلَّا ٱنْحَلَّ عَزْمُهُ . بَلَغُوا ٱلرُّجُوْلَةَ وَكَأَنْ لَيْسَتْ فِيْهِمْ ؛ وَتَمُرُّ بِهِمُ ٱلْحَيَاةُ مُرُوْرَهَا بِٱلتَّمَاثِيْلِ ٱلْمَنْصُوْبَةِ ، لَا هَـٰذِهِ قَدْ وُلِدَ لَهَا وَلَا أُوْلَـٰئِكَ ؛ وَمَا بَرِحُوا يُجَاهِدُوْنَ لِيَحْتَمِلُوا مَعَانِيَ وُجُوْدِهِمْ ، لَا لِيَطْلُبُوا سَعَادَةَ وُجُوْدِهِمْ ، وَيُمَخْرِقُوْنَ فِيْ شَعْوَذَةِ ٱلْحَيَاةِ بِٱلنَّهَارِ عَلَىٰ ٱللَّيْلِ ، وَبِٱللَّيْلِ عَلَىٰ ٱلنَّهَارِ ؛ يُحَاوِلُوْنَ أَنْ يَجِدُوْا كَٱلنَّاسِ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ ، إِذْ لَا يَعْرِفُوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلْعُزُوْبَةِ إِلَّا نَهَارًا وَاحِدًا ، نِصْفُهُ أَسْوَدُ مُقْفِرٌ مُظْلِمٌ . . . !

فَأَمَّا « س » فَرَجُلٌ « كَشَيْخِ ٱلْمَسْجِدِ » يَكَادُ يَرَىٰ حَصِيْرَ ٱلْمَسْجِدِ حَيْثُ وَطِئَتْ قَدَمَاهُ مِنَ ٱلْأَرْضِ . . . ذُوْ دِيْنٍ وَتَقْوَىٰ ، مَا يَزَالُ بِهِمَا يَنْقَبِضُ وَيَنْكَمِشُ وَيَتَزَايَلُ حَتَّىٰ يَرْجِعَ طِفْلًا فِيْ ٱلثَّلَاثِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ . . . وَهُوَ حَائِرٌ بَائِرٌ لَا يَتَّجِهُ لِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَقَدْ فَقَدَ مِنْهَا مَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ ، وَلَا جُرْأَةَ لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ ، فَلَا جُرْأَةَ لَهُ عَلَىٰ ٱلْمُوْبِقَاتِ ، وَلَا يُزَيِّنُ لَهُ ٱلشَّيْطَانُ وَرْطَةً مِنْهَا إِلَّا ٱمَّلَسَ مِنْهُ ، فَإِنَّ لَهُ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ مَفْتُوْحَةٍ لِلْهَرَبِ : إِذْ يَخْشَىٰ ٱللهَ ، وَيَتَوَقَّىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَيَسْتَحْيِي مِنْ ضَمِيْرِهِ .

وَأَمَّا « ا » فَرَجُلٌ مِعْزَابَةٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ كَٱلْإِسْفَنْجَةِ ، ٱمْتَلَأَتْ حَتَّىٰ لَيْسَ فِيْهَا خَلَاءٌ لِقَطْرَةٍ ، ثُمَّ عُصِرَتْ حَتَّىٰ لَيْسَ فِيْهَا بَلَالٌ مِنْ قَطْرَةٍ ؛ وَقَدْ بَلَغَ مَا فِيْ نَفْسِهِ وَقَضَىٰ نَهْمَتَهُ حَتَّىٰ ٱشْتَفَىٰ مِمَّا أَرَادَ ؛ ثُمَّ قَلَبَ ٱلثَّوْبَ . . . فَإِذَا لَهُ دَاخِلَةٌ نَاعِمَةٌ مِنَ ٱلْخَزِّ وَٱلدِّيْبَاجِ ، وَإِذَا هُوَ « ٱلرَّجُلُ ٱلصَّالِحُ » ٱلْعَفِيْفُ ٱلدِّخْلَةُ ، مَا تَنْطَلِقُ لَهُ نَفْسٌ إِلَىٰ مَأْثَمٍ ، وَلَا يَعْرِفُ ٱلشَّيْطَانُ كَيْفَ يَتَسَبَّبُ لِصُلْحِهِ وَمُرَاجَعَتِهِ ٱلْوُدَّ . . .

(*) « الرسالة » العدد : ٦٣ ، ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ =١٧ سبتمبر/ أيلول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٥٢٣ ـ ١٥٢٦ .

(١) هُمُ ٱلْأَصْدِقَاءُ : سَعِيْدٌ [ٱلْعُرْيَان] ، وَأَمِيْنٌ [حَافِظ شَرَف] ، وَ[عَبْدُ ٱللهِ] عَمَّارُ .

وَأَمَّا « ع » فَهُوَ كَٱلأَعْرَجِ ؛ إِذَا مَشَىٰ إِلَىٰ ٱلْخَيْرِ أَوِ ٱلشَّرِّ مَشَىٰ بَطِيْئًا بِرِجْلٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَـٰكِنَّهُ يَمْشِيْ . . . وَهُوَ « مَلِكُ ٱلشَّوَارِعِ » لَا يَزَالُ فِيْهَا مُقْبِلًا مُدْبِرًا طَرَفًا مِنَ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ ٱللَّيْلِ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيْ ٱلشَّارِعِ نِسَاءٌ ظَنَّ ٱلشَّارِعَ قَدْ هَرَبَ مِنَ ٱلْمَدِيْنَةِ وَخَرَجَ مِنْ طَاعَتِهِ . . . وَلِهَـٰذِهِ ٱلشَّوَارِعِ أَسْمَاءٌ عِنْدَهُ غَيْرُ أَسْمَائِهَا ٱلَّتِيْ يَتَعَارَفُهَا ٱلنَّاسُ وَيَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا . فَقَدْ يَكُوْنُ ٱسْمُ ٱلشَّارِعِ مَثَلًا : « شَارِعْ طَهَ ٱلْحَكِيْمْ »[1] وَيُسَمِّيْهِ هُوَ « شَارِعُ مَارِيْ » . . . وَيَكُوْنُ ٱسْمُ ٱلآخَرِ : « شَارِعُ كَتْشْنَرْ Kitchener » فَيُسَمِّيْهِ « شَارِعُ ٱلطَّوِيْلَةِ » . . . وَدَرْبٌ ٱسْمُهُ « دَرْبُ ٱلْمَلَّاحِ » وَٱسْمُهُ عِنْدَهُ « دَرْبُ ٱلْمَلِيْحَةِ » . . . وَهَلُمَّ جَرًّا وَمَسْخًا .

وَإِذَا أَرَادَ صَاحِبُنَا هَـٰذَا أَنْ يَسْخَرَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ دَخَلَ ٱلْمَسْجِدَ فَصَلَّىٰ ، وَإِذَا أَرَادَ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يَسْخَرَ مِنْهُ دَحْرَجَهُ فِيْ ٱلشَّوَارِعِ . . . !

* * *

وَافَيْتُ هَـٰؤُلَاءِ ٱلثَّلَاثَةَ مُجْتَمِعِيْنَ يَتَدَارَسُوْنَ مَقَالَةَ : « تَرْبِيَةٍ لُؤْلُؤِيَّةٍ »[2] ، يُنَاقِشُوْنَهَا بِثَلَاثَةِ عُقُوْلٍ ، وَيُفَتِّشُوْنَهَا بِسِتِّ عُيُوْنٍ ؛ فَأَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلسَّافِرَةَ ٱلَّتِيْ نَبَذَتْ « حِجَابَ طَبِيْعَتِهَا » عَلَىٰ مَا بَيَّنْتُهُ فِيْ تِلْكَ ٱلْمَقَالَةِ ـ إِنْ هِيَ إِلَّا ٱمْرَأَةٌ مَجْهُوْلَةٌ عِنْدَ طَالِبِيْ ٱلزَّوَاجِ ، بِقَدْرِ مَا بَالَغَتْ أَنْ تَكُوْنَ مَعْرُوْفَةً ، وَأَنَّهَا ٱبْتَعَدَتْ مِنْ حَقِيْقَتِهَا ٱلصَّحِيْحَةِ ، قَدْرَ مَا ٱقْتَرَبَتْ مِنْ خَيَالِهَا ٱلْفَاسِدِ ؛ وَأَتْقَنَتِ ٱلْغَلَطَ لِيُصَدِّقَهَا فِيْهِ ٱلرَّجُلُ ، فَلَمْ يُكَذِّبْهَا فِيْهِ إِلَّا ٱلرَّجُلُ ؛ وَجَعَلَتْ أَحْسَنَ مَعَانِيْهَا مَا ظَهَرَتْ بِهِ فَارِغَةً مِنْ أَحْسَنِ مَعَانِيْهَا . . . !

وَأَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ كَيْفَ تَنْتَصِفُ ٱلطَّبِيْعَةُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَزَبِ لِلْمَرْأَةِ ٱلَّتِيْ أَهْمَلَهَا أَوْ تَرَكَهَا مُهْمَلَةً . . . وَأَيْنَ تَبْلُغُ ضَرَبَاتُهَا فِيْ عَيْشِهِ ، وَكَيْفَ يَكُوْنُ أَثَرُهَا فِيْ نَفْسِهِ ، وَكَيْفَ تَكُوْنُ ٱلْمَرْأَةُ فِيْ خَائِنَةِ ٱلأَعْيُنِ ؛ فَتَسَرَّحْتُ مَعَ أَصْحَابِنَا فِيْ ٱلْكَلَامِ فَنًّا بَعْدَ فَنٍّ ، وَأَزَلْتُ حِذَارَهُمُ ٱلَّذِيْ يَحْذَرُوْنَ ، حَتَّىٰ أَفْضَوْا إِلَيَّ بِفَلْسَفَةِ عُقُوْلِهِمْ وَصُدُوْرِهِمْ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ .

قَالَ « س » : حَسْبِيْ وَٱللهِ مِنَ ٱلآلَامِ وَآلَامٍ مَعَهَا ـ شُعُوْرِيْ بِحِرْمَانِيْ ٱلْمَرْأَةَ ؛ فَهُوَ بَلَاءٌ

(١) فِيْ ٱلأَصْلِ : « شَارِعُ عَلِيٍّ ٱلْحَكِيْمِ » بَدَلًا مِنْ : « شَارِعُ طَهَ ٱلْحَكِيْمِ » .
(٢) وهي المقالة السابقة لهذه ، راجع الصفحات : ٢٠١ ـ ٢٠٨ .

مَنَعَنِيْ ٱلْقَرَارَ ، وَسَلَبَنِيْ ٱلسَّكِيْنَةَ ؛ وَكَأَنَّهُ شُعُوْرٌ بِمِثْلِ ٱلْوَحْدَةِ ٱلَّتِيْ يُعَاقَبُ ٱلسَّجِيْنُ بِهَا مَصْرُوْفًا عَنِ ٱلْحَيَاةِ مَصْرُوْفَةً عَنْهُ ٱلْحَيَاةُ ؛ تَجْعَلُهُ جُدْرَانُ سِجْنِهِ يَتَمَنَّىٰ لَوْ كَانَ حَجَرًا فِيْهَا فَيَنْجُوَ مِنْ عَذَابِ إِنْسَانِيَّتِهِ ٱلذَّلِيْلَةِ ٱلْمُجْرِمَةِ ، ٱلْمُخَلَّىٰ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ تُوْسِعُهُ مِمَّا يَكْرَهُ ؛ شُعُوْرٌ بِٱلْوَحْدَةِ وَٱلْعُزْلَةِ حَتَّىٰ مَعَ ٱلنَّاسِ وَبَيْنَ ٱلأَهْلِ فَمَا فِيَّ إِلَّا عَوَاطِفُ خُرْسٌ لَا تَسْتَجِيْبُ لِأَحَدٍ وَلَا يُجَاوِبُهَا أَحَدٌ فِيْ « ذَلِكَ ٱلْمَعْنَىٰ » .

وَتَمَامُ ٱلذِّلَّةِ أَنْ يَجِدَ ٱلْعَزَبُ نَفْسَهُ أَبَدًا مُكْرَهًا عَلَىٰ ٱلْحَدِيْثِ عَنْ آلَامِهِ لِكُلٍّ[1] مَنْ يُخَالِطُهُ أَوْ يَجْلِسُ إِلَيْهِ ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مُصِيْبَةً لَا يُنَفِّسُ مِنْهَا إِلَّا كَلَامُهُ عَنْهَا . وَهَـٰذَا هُوَ ٱلسِّرُّ فِيْ أَنَّكَ لَا تَجِدُ عَزَبًا إِلَّا عَرَفْتَهُ ثَرْثَارًا لَا تَزَالُ فِيْ لِسَانِهِ مَقَالَةٌ عَنْ مَعْنًى أَوْ رَجُلٍ أَوِ ٱمْرَأَةٍ ، وَأَصَبْتَهُ كَٱلذُّبَابِ لَا يَطِيْرُ عَنْ مَوْضِعٍ إِلَّا لِيَقَعَ عَلَىٰ مَوْضِعٍ .

وَمَعَ جَهْدِ ٱلْحِرْمَانِ جَهْدٌ شَرٌّ مِنْهُ فِيْ ٱلْمُقَاوَمَةِ وَكَفِّ ٱلنَّفْسِ ؛ فَذَلِكَ تَعَبٌ يَهْلِكُ بِهِ ٱلآدَمِيُّ ، إِذْ لَا يَدَعُهُ يَتَقَارُّ عَلَىٰ حَالَةٍ مِنَ ٱلضَّجَرِ فِيْمَا تُنَازِعُهُ ٱلطَّبِيْعَةُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ كَٱلْمَزْعِ فِيْ أَعْصَابِهِ ، يُحِسُّهَا تُشَدُّ لِتُقْطَعَ ، وَدَائِمًا تُشَدُّ لِتُقْطَعَ .

وَقَدْ رَهِقَنِيْ مِنْ ذَلِكَ ٱلضَّنَىٰ ٱلنِّسْوِيِّ مَا عِيْلَ بِهِ صَبْرِيْ وَضَعُفَ لَهُ ٱحْتِمَالِيْ ؛ فَمَا أَرَانِيْ يَوْمًا عَلَىٰ جِمَامٍ مِنَ ٱلنَّفْسِ ، وَلَا ٱرْتِيَاحٍ مِنَ ٱلطَّبْعِ ؛ وَكَيْفَ وَفِيْ ٱلْقَلْبِ مَادَّةُ هَمِّهِ ، وَفِيْ ٱلنَّفْسِ عِلَّةُ ٱنْقِبَاضِهَا ، وَفِيْ ٱلْفِكْرِ أَسْبَابُ مَشْغَلَتِهِ ؟ وَقَدْ أَوْقَدَتْ سَوْرَةُ ٱلشَّبَابِ نَارَهَا عَلَىٰ ٱلدَّمِ ، تَلْتَعِجُ فِيْ ٱلأَحْشَاءِ ؛ وَتَطِيْرُ فِيْ ٱلرَّأْسِ ، وَتَصْبُغُ ٱلدُّنْيَا بِلَوْنِ دُخَانِهَا ، وَفِيْ كُلِّ يَوْمٍ يَتَخَلَّفُ مِنْهَا رَمَادٌ هُوَ هَـٰذَا ٱلسَّوَادُ ٱلَّذِيْ رَانَ عَلَىٰ قَلْبِيْ .

وَمَا حَالُ رَجُلٍ عَذَابُهُ أَنَّهُ رَجُلٌ ، وَذُلُّهُ أَنَّهُ رَجُلٌ ؟ يَلْبَسُ ثِيَابَهُ ٱلإِنْسَانِيَّةَ عَلَىٰ مِثْلِ ٱلْوَحْشِ فِيْ سَلَاسِلِهِ وَأَغْلَالِهِ ، وَيَحْمِلُ عَقْلًا تَسُبُّهُ ٱلْغَرِيْزَةُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَتَرَاهُ مِنَ ٱلْعُقُوْلِ ٱلزُّيُوْفِ لَا أَثَرَ لِلْفَضِيْلَةِ فِيْهِ ، إِذْ هُوَ مَجْنُوْنُ ٱلْمَرْأَةِ جُنُوْنَ ٱلْفِكْرَةِ ٱلثَّابِتَةِ ، فَمَا يَخْلُوْ إِلَىٰ نَفْسِهِ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ إِلَّا أَخَذَتْهُ ٱلْغَرِيْزَةُ مُجْتَرِحًا جَرِيْمَةَ فِكْرٍ . . .

وَفِيْ دُوْنِ هَـٰذَا يُنْكِرُ ٱلْمَرْءُ عَقْلَهُ ؛ وَأَيُّ عَقْلٍ تُرَاهُ فِيْ رَجُلٍ عَزَبٍ يَقَعُ فِيْ خَيَالِهِ أَنَّهُ

(١) فِيْ ٱلأَصْلِ : « بِكُلٍّ » بَدَلًا مِنْ : « لِكُلٍّ » .

مُتَزَوِّجٌ ، وَأَنَّهُ يَأْوِي إِلَىٰ « فُلَانَةَ » ، وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَىٰ إِصْلَاحِ شَأْنِهِ وَنِظَامِ بَيْتِهِ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَجْلِهَا كَانَ عَزُوفًا عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ ، بَعِيدًا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ؛ وَفَاءً لَهَا ، وَحِفْظًا لِعَهْدِ ٱللهِ فِيهَا ، وَقَدْ دَلَّهَتْهُ بِفُنُونِهَا ٱلَّتِي يَبْتَدِعُهَا فِكْرُهُ ؛ وَهِيَ سَاعَةً تُؤَاكِلُهُ عَلَىٰ ٱلْخِوَانِ ، وَسَاعَةً تُضَاحِكُهُ ، وَمَرَّةً تُعَابِثُهُ ، وَتَارَةً تُجَافِيهِ ، وَفِي كُلِّ ذَٰلِكَ هُوَ نَاعِمٌ بِهَا ، يُحَدِّثُهَا فِي نَفْسِهِ ، وَيَسْمُرُ مَعَهَا ، وَيَتَصَنَّعُ لَهَا وَتَتَصَنَّعُ لَهُ ؛ وَيُعَاتِبُهَا أَحْيَانًا فِي رِقَّةٍ ، وَأَحْيَانًا فِي جَفَاءٍ وَغِلْظَةٍ ؛ وَقَدْ ضَرَبَهَا ذَاتَ مَرَّةٍ . . . ؟

أَلَا إِنَّ { فِكْرَةَ } ٱلْمَرْأَةِ عِنْدِي هِيَ هَـٰذَا ٱلْجُنُونُ ٱلَّذِي يَرْجِعُ بِي إِلَىٰ عَشَرَةِ ٱلْآفِ سَنَةٍ مِنْ تَارِيخِ ٱلدُّنْيَا ، فَيَرْمِي بِي فِي كَهْفٍ أَوْ غَابَةٍ ، { فَأَرَانِي مِنْ وَرَاءِ ٱلدُّهُورِ كَأَنِّي أَبْدَأُ ٱلْحَيَاةَ مُنْفَرِدًا ، وَأَجِدُنِي } رَجُلًا عَارِيًا مُتَوَحِّشًا مُتَأَبِّدًا لَيْسَ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَلَا مِنَ ٱلْإِنْسِ ، دُنْيَاهُ أَحْجَارٌ وَأَشْجَارٌ ، وَهُوَ حَجَرٌ لَهُ نُمُوُّ ٱلشَّجَرِ .

لَقَدْ تَوَزَّعَتِ ٱلْمَرْأَةُ عَقْلِي فَهُوَ مُتَفَرِّقٌ عَلَيْهَا ، وَهِيَ مُتَفَرِّقَةٌ فِيهِ ، لَا أَسْتَطِيعُ وَٱللهِ أَنْ أَتَصَوَّرَهَا كَامِلَةً ، بَلْ هِيَ فِي خَيَالِي أَجْزَاءٌ لَا يَجْمَعُهَا كُلٌّ ؛ هِيَ ٱبْتِسَامَةٌ ، هِيَ نَظْرَةٌ ، هِيَ ضِحْكَةٌ ، هِيَ أُغْنِيَّةٌ ، هِيَ جِسْمٌ ، هِيَ شَيْءٌ ، هِيَ هِيَ هِيَ .

أَكُلُّ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي هِيَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِي يَعْرِفُهَا ٱلنَّاسُ ، أَمْ أَنَا لِيَ ٱمْرَأَةٌ وَحْدِي ؟

وَإِنِّي عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَأَتَخَوَّفُ ٱلزَّوَاجَ وَأَتَحَامَاهُ ؛ إِذْ أَرَىٰ ٱلشَّارِعَ قَدْ فَضَحَ ٱلنِّسَاءَ وَكَشَفَهُنَّ ؛ فَمَا يُرِينِي مِنْهُنَّ إِلَّا ٱمْرَأَةً تَزْهَىٰ بِثِيَابِهَا وَصَنْعَةِ جَمَالِهَا ، أَوِ ٱمْرَأَةً كَٱلْهَارِبَةِ مِنْ فَضَائِلِهَا ؛ وَٱلْبَيْتُ إِنَّمَا يَطْلُبُ ٱلزَّوْجَةَ ٱلْفَاضِلَةَ ٱلصَّنَاعَ ، تَخِيطُ ثَوْبَهَا بِيَدِهَا فَتُبَاهِي بِصَنْعَتِهِ قَبْلَ أَنْ تُبَاهِيَ بِلُبْسِهِ ، وَتَزْهَىٰ بِأَثَرِ وَجْهِهَا فِيَّ ، لَا بِأَثَرِ ٱلْمَسَاحِيقِ فِي وَجْهِهَا . وَإِنَّ مُكَابَدَةَ ٱلْعِفَّةِ ، وَمُصَارَعَةَ ٱلشَّيْطَانِ ، وَتَوَهُّجَ ٱلْقَلْبِ بِنَارِهِ ٱلْحَامِيَةِ ، وَإِلْمَامَ ٱلطَّيْرَةِ ٱلْجُنُونِيَّةِ بِٱلْعَقْلِ ـ كُلُّ ذَٰلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ أَهْوَنُ مِنْ مُكَابَدَةِ زَوْجَةٍ فَاسِدَةِ ٱلْعِلْمِ أَوْ فَاسِدَةِ ٱلْجَهْلِ ، أُبْتَلَىٰ مِنْهَا فِي صَدِيقِ ٱلْعُمْرِ بِعَدُوِّ ٱلْعُمْرِ .

إِنَّ أَثَرَ ٱلشَّارِعِ فِي ٱلْمَرْأَةِ هُوَ سُوءُ ٱلظَّنِّ بِهَا ، فَهِيَ تَحْسَبُ نَفْسَهَا مُعْلِنَةً فِيهِ أُنُوثَتَهَا ، وَجَمَالَهَا ، وَزِينَتَهَا ؛ وَنَحْنُ نَرَاهَا مُعْلِنَةً فِيهِ سُوءَ أَدَبٍ ، وَفَسَادَ خُلُقٍ ، وَٱنْحِطَاطَ غَرِيزَةٍ . وَمَنْ كَانَ فَاسِقًا أَسَاءَ ٱلظَّنَّ بِكُلِّ ٱلْفَتَيَاتِ ، وَوَجَدَ ٱلسَّبِيلَ مِنْ وَاحِدَةٍ إِلَىٰ قَوْلٍ يَقُولُهُ فِي كُلِّ

وَاحِدَةٍ[1] ؛ وَمَنْ كَانَ عَفِيفًا سَمِعَ مِنَ ٱلْفَاسِقِ فَوَجَدَ مِنْ ذَٰلِكَ مُتَعَلَّقًا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَقِيَاسًا يَقِيسُ عَلَيْهِ ؛ وَٱلْفِتْنَةُ لَا تُصِيبُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا خَاصَّةً ، { بَلْ تَعُمُّ } .

آهٍ لَوِ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أُوقِظَ ٱمْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَحْلَامِي . . . !

* * *

وَقَالَ « ا » : لَقَدْ كَانَتْ مَعَانِي ٱلْمَرْأَةِ فِي ذِهْنِي صُوَرًا بَدِيعَةً مِنَ ٱلشِّعْرِ تَسْتَخِفُّنِي إِلَيْهَا ٱلْعَاطِفَةُ ، وَلَا يَزَالُ مِنْهَا فِي قَلْبِي لِكُلِّ يَوْمٍ نَازِيَةٌ تَنْزُو . وَكَانَتِ ٱلْمَرْأَةُ بِذَٰلِكَ حَدِيثَ أَحْلَامِي وَنَجِيَّ وَسَاوِسِي ، وَكُنْتُ عَفِيفَ ٱلْبَنْطَلُونِ[2] ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلنِّسَاءَ أَيْقَظْنَنِي مِنَ ٱلْحُلْمِ ، وَفَجَعْنَنِي فِيهِ بِٱلْحَقِيقَةِ ، وَوَضَعْنَ يَدِي عَلَىٰ مَا تَحْتَ مَلْمَسِ ٱلْحَيَّةِ . وَلَوْ حَدَّثْتُكَ بِجُمْلَةِ أَخْبَارِهِنَّ ، وَمَا مَارَسْتُ مِنْهُنَّ لَتَكَرَّهْتَ وَتَسَخَّطْتَ ، وَلَأَيْقَنْتَ أَنَّ كَلِمَةَ (تَحْرِيرِ ٱلْمَرْأَةِ) إِنَّمَا كَانَتْ خَطَأً مَطْبَعِيًّا ، وَصَوَابُهَا : (تَجْرِيرُ ٱلْمَرْأَةِ) . . . فَهَـٰؤُلَاءِ ٱلنِّسَاءُ أَوْ كَثْرَتُهُنَّ ـ لَمْ يُذِلْنَ ٱلْحِجَابَ إِلَّا لِتَخْرُجَ وَاحِدَةٌ مِمَّا تَجْهَلُ إِلَىٰ مَا تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ ، وَتَخْرُجَ ٱلْأُخْرَىٰ مِمَّا تَعْرِفُ إِلَىٰ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُهُ ، وَتَخْرُجَ بَعْضُهُنَّ مِنْ إِنْسَانَةٍ إِلَىٰ بَهِيمَةٍ . . .

لَقَدْ عَرَفْتُ فِيمَنْ عَرَفْتُ مِنْهُنَّ ٱلْخَفِيفَةَ ٱلطَّيَّاشَةَ ، وَٱلْحَمْقَاءَ ٱلْمُتَسَاقِطَةَ ، وَٱلْفَاحِشَةَ ذَاتَ ٱلرِّيبَةِ ؛ وَكُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ تَحْرِيرُهُنَّ ، أَيْ : تَجْرِيرُهُنَّ ـ تَقْلِيدًا لِلْمَرْأَةِ ٱلْأُورُبِّيَّةِ ؛ تَهَالَكْنَ عَلَىٰ رَذَائِلِهَا دُونَ فَضَائِلِهَا ، وَٱشْتَدَّ حِرْصُهُنَّ عَلَىٰ خَيَالِهَا ٱلرِّوَائِيِّ دُونَ حَقِيقَتِهَا ٱلْعِلْمِيَّةِ ، وَمِنْ مَصَائِبِنَا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّينَ أَنَّنَا لَا نَأْخُذُ ٱلرَّذَائِلَ كَمَا هِيَ ، بَلْ نَزِيدُ عَلَيْهَا ضَعْفَنَا فَإِذَا هِيَ رَذَائِلُ مُضَاعَفَةٌ .

كَانَ ٱلْحُلْمُ ٱلْجَمِيلُ فِي ٱلْحِجَابِ وَحْدَهُ ، وَهُوَ كَانَ يُسَعِّرُ أَنْفَاسِي وَيَسْتَطِيرُ قَلْبِي ، وَيُرْغِمُنِي مَعَ ذَٰلِكَ عَلَىٰ ٱلِاعْتِقَادِ أَنَّ هَـٰهُنَا عَلَامَةَ ٱلتَّكَرُّمِ ، وَرَمْزَ ٱلْأَدَبِ ، وَشَارَةَ ٱلْعِفَّةِ ،

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « فِي ٱلْأُخْرَىٰ » بَدَلًا مِنْ : « فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ » .
(٢) يَقُولُ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْكِنَايَةِ عَنِ ٱلْعِفَّةِ : وَهُوَ عَفِيفُ ٱلْإِزَارِ ، وَتَرْجَمَتُهَا فِي عَصْرِنَا مَا رَأَيْتَ .
[والبنطلون من الفرنسية Pantalon ، يُعرَّبُ عادة : بنطال ، سِرْوال . وهو في الأصل من الملابس الداخلية ، والذي يعدّ الظهور بها أمام الملأ من الخلاعة التي هي من معاني اسمه ؛ لكنه في عصرنا هو من الملابس الرسمية ، به يظهر معظم البشر على الملأ !] .

وَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْمُحْصَنَةَ ٱلْمُخَدَّرَةَ ـ عَذْرَاءَ أَوِ ٱمْرَأَةً ـ لَمْ تُلْقِ ٱلْحِجَابَ عَلَيْهَا إِلَّا إِيذَانًا بِأَنَّهَا فِي قَانُوْنِ عَاطِفَةِ ٱلْأُمُوْمَةِ لَا غَيْرِهَا ؛ فَهِيَ تَحْتَ ٱلْحِجَابِ لِأَنَّهُ رَمْزُ ٱلْأَمَانَةِ لِمُسْتَقْبَلِهَا ، وَرَمْزُ ٱلْفَصْلِ بَيْنَ مَا يَحْسُنُ وَمَا لَا يَحْسُنُ ، وَلِأَنَّ وَرَاءَهُ صَفَاءَ رُوحِهَا ٱلَّذِي تَخْشَىٰ أَنْ يُكَدَّرَ ، وَثَبَاتَ كِيَانِهَا ٱلَّذِي تَخْشَىٰ أَنْ يُزَعْزَعَ .

قَالَ حَكِيْمٌ لِأُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِيْنَ يَسْتَمِيْلُوْنَ ٱلنِّسَاءَ بِأَنْوَاعِ ٱلْحُلِيِّ وَصُنُوْفِ ٱلزِّيْنَةِ وَٱلْكُسْوَةِ ٱلْحَسَنَةِ : « يَا هَـٰؤُلَاءِ ! إِنَّكُمْ إِنَّمَا تُعَلِّمُوْنَهُنَّ مَحَبَّةَ ٱلْأَغْنِيَاءِ لَا مَحَبَّةَ ٱلْأَزْوَاجِ » ، وَأَحْكَمُ مِنْ هَـٰذَا قَوْلُ ذَٰلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلْإِلَـٰهِيِّ ٱلصَّارِمِ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : « ٱضْرِبُوْهُنَّ بِٱلْعُرْيِ » فَقَدْ عُرِفَ مِنْ أَلْفٍ وَثَلَاثِ مِئَةِ سَنَةٍ أَنَّ تَحْرِيرَ ٱلْمَرْأَةِ هُوَ تَجْرِيْزُهَا ، وَأَنَّهَا لَا تَخْرُجُ لِمَصْلَحَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا تَخْرُجُ لِإِظْهَارِ زِيْنَتِهَا . فَلَوْ مُنِعَتِ ٱلثِّيَابَ ٱلْجَمِيْلَةَ حَبَسَتْهَا طَبِيْعَتُهَا فِي بَيْتِهَا . فَمَاذَا تَقُوْلُ ٱلشَّوَارِعُ لَوْ نَطَقَتْ ؟ إِنَّهَا تَقُوْلُ : يَا هَـٰؤُلَاءِ ! إِنَّمَا تُعَلِّمُوْنَهُنَّ مَعْرِفَةَ ٱلْكَثِيْرِ لَا مَعْرِفَةَ ٱلْوَاحِدِ . . . !

لَقَدْ وَٱللهِ أَنْكَرْتُ أَكْثَرَ مَا قَرَأْتُ وَسَمِعْتُ مِنْ مَحَاسِنِهِنَّ وَفَضَائِلِهِنَّ وَحَيَائِهِنَّ ، وَلَقَدْ كَانَ ٱلْحِجَابُ مَعْنًى لِصُعُوْبَةِ ٱلْمَرْأَةِ وَٱعْتِزَازِهَا ، فَصَارَ ٱلشَّارِعُ مَعْنًى لِسُهُوْلَتِهَا وَرُخْصِهَا ؛ وَكَانَ مَعَ تَحَقُّقِ ٱلصُّعُوْبَةِ أَوْ تَوَهُّمِهَا أَخْلَاقٌ وَطِبَاعٌ فِي ٱلرَّجُلِ ، فَصَارَ مَعَ تَوَهُّمِ ٱلسُّهُوْلَةِ أَوْ تَحَقُّقِهَا أَخْلَاقٌ وَطِبَاعٌ أُخْرَىٰ عَلَىٰ ٱلْعَكْسِ مِنْ تِلْكَ ؛ مَا زَالَتْ تَنْمِي وَتَتَحَوَّلُ حَتَّىٰ ٱلْجَأَتِ ٱلْقَانُوْنَ أَخِيْرًا أَنْ يَتَرَقَّىٰ بِمَنْ لَمَسَ ٱلْمَرْأَةَ فِي ٱلطَّرِيْقِ مِنَ « ٱلْجُنْحَةِ » إِلَىٰ « ٱلْجِنَايَةِ » .

وَتَخَنَّثَ ٱلشُّبَّانُ وَٱلرِّجَالُ ، ضُرُوْبًا مِنَ ٱلتَّخَنُّثِ بِهَـٰذَا ٱلِاخْتِلَاطِ وَهَـٰذَا ٱلِابْتِذَالِ ، وَتَحَلَّلَتْ فِيْهِمْ طِبَاعُ ٱلْغَيْرَةِ ، فَكَانَ هَـٰذَا سَرِيْعًا فِي تَغْيِيْرِ نَظْرَتِهِمْ إِلَىٰ ٱلنِّسَاءِ ، وَسَرِيْعًا فِي إِفْسَادِ ٱعْتِقَادِهِمْ ، وَفِي نَقْصِ ٱحْتِرَامِهِمْ ، فَأَقْبَلُوا بِٱلْجِسْمِ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ، وَأَعْرَضُوا عَنْهَا بِٱلْقَلْبِ ؛ وَأَخَذُوْهَا بِمَعْنَىٰ ٱلْأُنُوْثَةِ ، وَتَرَكُوْهَا بِمَعْنَىٰ ٱلْأُمُوْمَةِ ؛ وَمِنْ هَـٰذَا قَلَّ طُلَّابُ ٱلزَّوَاجِ ، وَكَثُرَ رُوَّادُ ٱلْخَنَا .

وَلَقَدْ جَاءَتْ إِلَىٰ مِصْرَ كَاتِبَةٌ إِنْكِلِيْزِيَّةٌ ، وَأَقَامَتْ شَهْرًا تُخَالِطُ ٱلنِّسَاءَ ٱلْمُتَحَجِّبَاتِ وَتَدْرُسُ مَعَانِيَ ٱلْحِجَابِ ، فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَىٰ بِلَادِهَا كَتَبَتْ مَقَالًا عُنْوَانُهُ : « سُؤَالٌ أَحْمِلُهُ مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ » قَالَتْ فِي آخِرِهِ : « إِذَا كَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْحُرِّيَّةُ ٱلَّتِي كَسَبْنَاهَا أَخِيْرًا ،

وَهَـٰذَا ٱلتَّنَافُسُ ٱلْجِنْسِيُّ ، وَتَجْرِيْدُ ٱلْجِنْسَيْنِ مِنَ ٱلْحُجُبِ ٱلْمُتَشَوِّقَةِ ٱلْبَاعِثَةِ ٱلَّتِي أَقَامَتْهَا ٱلطَّبِيْعَةُ بَيْنَهُمَا ـ إِذَا كَانَ هَـٰذَا سَيُصْبِحُ كُلُّ أَثَرِهِ أَنْ يَتَوَلَّىٰ ٱلرِّجَالُ عَنِ ٱلنِّسَاءِ ، وَأَنْ يَزُوْلَ مِنَ ٱلْقُلُوْبِ كُلُّ مَا يُحَرِّكُ فِيْهَا أَوْتَارَ ٱلْحُبِّ ٱلزَّوْجِيِّ ، فَمَا ٱلَّذِي نَكُوْنُ قَدْ رَبِحْنَاهُ ؟ لَقَدْ وَٱللهِ تَضْطَرُّنَا هَـٰذِهِ ٱلْحَالُ إِلَىٰ تَغْيِيْرِ خُطَطِنَا بَلْ قَدْ نَسْتَقِرُّ طَوْعًا وَرَاءَ ٱلْحِجَابِ ٱلشَّرْقِيِّ ، لِنَتَعَلَّمَ مِنْ جَدِيْدٍ فَنَّ ٱلْحُبِّ ٱلْحَقِيْقِيِّ » .

* * *

وَقَالَ « ع » : لَسْتُ فَيْلَسُوْفًا ، وَلَـٰكِنَّ فِي يَدَيَّ حَقَائِقَ مِنْ عِلْمِ ٱلْحَيَاةِ لَا تَأْتِي ٱلْفَلْسَفَةُ بِمِثْلِهَا ، وَكِتَابِي ٱلَّذِي أَقْرَأُ فِيْهِ هُوَ ٱلشَّارِعُ .

فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعُزَّابَ مِنَ ٱلرِّجَالِ يَتَعَلَّمُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَهُمْ كَٱللُّصُوْصِ لَا يَجْتَمِعُ هَـٰؤُلَاءِ وَلَا هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا عَلَىٰ رَذِيْلَةٍ أَوْ جَرِيْمَةٍ . وَحَيَاةُ ٱللِّصِّ مَعْنَاهَا وُجُوْدُ ٱلسَّرِقَةِ ، وَحَيَاةُ ٱلْعَزَبِ مَعْنَاهَا وُجُوْدُ ٱلْبِغَاءِ وَٱلْفِسْقِ .

وَمِنْ حُكْمِ ٱلطَّبِيْعَةِ عَلَىٰ ٱلْجِنْسَيْنِ أَنَّ ٱلْفَاسِقَ يُبَاهِي بِإِظْهَارِ فِسْقِهِ قَدْرَ مَا تَخَافُ ٱلْفَاسِقَةُ مِنْ ظُهُوْرِ أَمْرِهَا ؛ وَهَـٰذِهِ إِشَارَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيْعَةِ إِلَىٰ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ مِسْكِيْنَةٌ مَظْلُوْمَةٌ . فَمَا ٱبْتِذَالُ ٱلْحِجَابِ ، وَلَا ٱسْتِهْتَاكُ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا جَوَابٌ عَلَىٰ ٱنْتِشَارِ ٱلْعُزُوْبَةِ فِي ٱلرِّجَالِ ، وَكَيْفَ يَتَحَوَّلُ ٱلْمَاءُ ثَلْجًا لَوْلَا ٱلضَّغْطُ نَازِلًا فَنَازِلًا إِلَىٰ مَا دُوْنَ ٱلصِّفْرِ ؟ فَهَـٰذَا ٱلثَّلْجُ مَاءٌ يَعْتَذِرُ مِنْ تَحَوُّلِهِ وَٱنْقِلَابِهِ بِعُذْرٍ طَبِيْعِيٍّ قَاهِرٍ ، لَهُ قُوَّةُ ٱلضَّرُوْرَةِ ٱلْمُلْجِئَةِ ، وَكَذَٰلِكَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْمُذَالَةُ أَوِ ٱلطَّامِحَةُ أَوِ ٱلْمُتَبَذِّلَةُ أَوِ ٱلْمُتَهَتِّكَةُ ـ مَا صِفَاتُهُنَّ إِلَّا تَوْكِيْدٌ لِأَعْذَارِهِنَّ .

وَكَانَ عَلَىٰ ٱلْحُكُوْمَةِ أَنْ تَضْرِبَ ٱلْعُزُوْبَةَ ضَرْبَةَ قَانُوْنٍ صَارِمٍ ، فَٱلْعَزَبُ وَإِنْ كَانَ رَجُلًا حُرًّا فِي نَفْسِهِ ، وَلَـٰكِنَّ رُجُوْلَتَهُ تَفْرِضُ لِلْأُنُوْثَةِ حَقَّهَا فِيْهِ ؛ فَمَتَىٰ جَحَدَ هَـٰذَا ٱلْحَقَّ ، وَٱسْتَكْبَرَ عَلَيْهِ ، رَجَعَ حَالُهُ مَعَ ٱلْمَرْأَةِ إِلَىٰ مِثْلِ شَأْنِ ٱلْغَرِيْمِ مَعَ غَرِيْمِهِ ؛ لَيْسَ لِلْفَصْلِ فِيْهِ إِلَّا ٱلدَّوْلَةُ وَأَحْكَامُهَا وَقُوَّتُهَا ٱلتَّنْفِيْذِيَّةُ .

وَإِذَا أُطْلِقَتِ ٱلْحُرِّيَّةُ لِلرِّجَالِ فَصَارُوا كُلُّهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَعْزَابًا ، فَمَاذَا يَكُوْنُ إِلَّا أَنْ تُمْحَىٰ ٱلدَّوْلَةُ ، وَتَسْقُطَ ٱلْأُمَّةُ ، وَتَتَلَاشَىٰ ٱلْفَضَائِلُ ؟ فَٱلْعُزُوْبَةُ مِنْ هَـٰذَا جَرِيْمَةٌ بِنَفْسِهَا ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَرَبَّصَ بِهَا ٱلْحُكُوْمَةُ حَتَّىٰ تَعُمَّ ، بَلْ يَجِبُ ٱعْتِبَارُهَا بِٱعْتِبَارِ ٱلْجَرَائِمِ مِنْ حَيْثُ هِيَ ،

وَيَجِبُ تَفْسِيرُ كَلِمَةِ « ٱلْعَزَبِ » فِي ٱللُّغَةِ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ : إِنَّهَا شَخْصِيَّةٌ مُذَكَّرَةٌ سَاخِطَةٌ مُتَمَرِّدَةٌ عَلَىٰ حُقُوقٍ مُخْتَلِفَةٍ لِلْمَرْأَةِ وَٱلنَّسْلِ وَٱلْأُمَّةِ وَٱلْوَطَنِ .

وَمَا سَاءَ رَأْيُ ٱلْعُزَّابِ فِي ٱلنِّسَاءِ وَٱلْفَتَيَاتِ إِلَّا مِنْ كَوْنِهِمْ بِطَبِيعَةِ حَيَاتِهِمُ ٱلْمُضْطَرِبَةِ لَا يَعْرِفُونَ ٱلْمَرْأَةَ إِلَّا فِي أَسْوَإِ أَحْوَالِهَا وَأَقْبَحِ صِفَاتِهَا ، وَهُمْ وَحْدَهُمْ جَعَلُوهَا كَذَٰلِكَ .

إِنَّ لَهُمْ وُجُودًا مُخْزِيًا يَسْتَمْتِعُونَ فِيهِ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ يَهْلِكُونَ وَيُهْلِكُونَ بِهِ . هُمْ وَٱللهِ أَسَاتِذَةُ ٱلدُّرُوسِ ٱلسَّافِلَةِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، وَهُمْ وَٱللهِ بُغَاةٌ مِنَ ٱلرِّجَالِ فِي حُكْمِ ٱلْبَغَايَا مِنَ ٱلنِّسَاءِ ، يَجْرُونَ جَمِيعًا مَجْرًى وَاحِدًا . وَمَنْ هِيَ ٱلْبَغِيُّ فِي ٱلْأَكْثَرِ إِلَّا ٱمْرَأَةٌ فَاجِرَةٌ لَا زَوْجَ لَهَا ؟ وَمَنْ هُوَ ٱلْعَزَبُ فِي ٱلْأَكْثَرِ إِلَّا رَجُلٌ فَاسِقٌ لَا زَوْجَةَ لَهُ ؟ عَلَىٰ أَنَّ مَعَ ٱلْمَرْأَةِ عُذْرَ ضَعْفِهَا أَوْ حَاجَتِهَا ، وَلَـٰكِنْ مَا عُذْرُ ٱلرَّجُلِ ؟

مَاذَا تُفِيدُ ٱلدَّوْلَةُ أَوِ ٱلْأُمَّةُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْعَزَبِ ٱلَّذِي ٱعْتَادَ فَوْضَىٰ ٱلْحَيَاةِ ، وَسَيْرَهَا عَلَىٰ نِظَامِهَا ، وَتَحَقُّقَهَا عَلَىٰ أَسْخَفِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلْخَيَالِ وَٱلْحَقِيقَةِ ؛ وَأَيُّ عَزَبٍ يَجِدُ ٱلِاسْتِقْرَارَ ، أَوْ تَجْتَمِعُ لَهُ أَسْبَابُ ٱلْحَيَاةِ ٱلْفَاضِلَةِ ؛ وَهُوَ قَدْ فَقَدَ تِلْكَ ٱلرُّوحَ ٱلَّتِي تُتَمِّمُ رُوحَهُ ، وَتُنَقِّحُهَا ، وَتُمْسِكُهَا فِي دَائِرَتِهَا ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ عَلَىٰ وَاجِبَاتِهَا وَحُقُوقِهَا ، وَتَجِيئُهُ بِٱلْأَرْوَاحِ ٱلصَّغِيرَةِ ٱلَّتِي تُشْعِرُهُ ٱلتَّبِعَةَ وَٱلسِّيَادَةَ مَعًا ، وَتَمْتَدُّ بِهِ وَيَمْتَدُّ بِهَا فِي تَارِيخِ ٱلْوَطَنِ ؟

كَيْفَ يُعْتَبَرُ مِثْلُ هَـٰذَا مَوْجُودًا ٱجْتِمَاعِيًّا صَحِيحًا وَهُوَ حَيٌّ مُخْتَلٌّ فِي وُجُودٍ مُسْتَعَارٍ ، يَقْضِي ٱللَّيْلَ هَارِبًا مِنْ حَيَاةِ ٱلنَّهَارِ ، وَيَقْضِي ٱلنَّهَارَ نَافِرًا مِنْ حَيَاةِ ٱللَّيْلِ ؛ فَيَقْضِي عُمْرَهُ كُلَّهُ هَارِبًا مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعِيشُ بِرُوحِهِ كَامِلَةً ، بَلْ بِبَعْضِهَا ، بَلْ بِٱلْمُمْكِنِ مِنْ بَعْضِهَا . . . !

أَيَّةُ أُسْرَةٍ شَرِيفَةٍ تَقْبَلُ أَنْ يُسَاكِنَهَا رَجُلٌ عَزَبٌ ، وَأَيَّةُ خَادِمٍ عَفِيفَةٍ تَطْمَئِنُّ أَنْ تَخْدُمَ رَجُلًا عَزَبًا ؟ هَـٰذِهِ هِيَ لَعْنَةُ ٱلشَّرَفِ وَٱلْعِفَّةِ لِهَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَعْزَابِ مِنَ ٱلرِّجَالِ !

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي : وَهُنَا ٱنْتَفَضَ « س » وَ« أ » وَحَاوَلَا أَنْ يَقْبِضَا عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱللَّعْنَةِ وَيَرُدَّاهَا إِلَىٰ حَلْقِ « ع » . ثُمَّ سَأَلَنِي ثَلَاثَتُهُمْ أَنْ أُسْقِطَهَا مِنَ ٱلْمَقَالِ ، بَيْدَ أَنِّي رَأَيْتُ أَنَّ خَيْرًا مِنْ حَذْفِهَا أَنْ تَكُونَ ٱللَّعْنَةُ لِأَعْزَابِ ٱلرِّجَالِ إِلَّا « س » وَ« أ » وَ« ع » . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱسْتَنْوَقَ ٱلْجَمَلُ(*) . . .

قَالَ ٱلشَّابُّ : لَا قِبَلَ لِي بِهَـٰذَا ٱلتَّعَبِ ٱلْمُعَنِّي ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ « ٱلزَّوَاجَ » ، فَمَا هُوَ إِلَّا بَيْتٌ ثِقْلُهُ عَلَىٰ شَيْئَيْنِ : عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ ، وَعَلَىٰ نَفْسِي ؛ وَٱمْرَأَةٌ هَمُّهَا عَلَىٰ مَوْضِعَيْنِ : فِي دَارِهَا ، وَفِي قَلْبِي ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا أَطْفَالٌ يُلْزِمُونَنِي عَمَلَ ٱلْأَيْدِي ٱلْكَثِيرَةِ مِنْ حَيْثُ لَا أَمْلِكُ إِلَّا يَدَيْنِ ٱثْنَتَيْنِ ، وَأَتَحَمَّلُ فِيهِمْ رَهَقًا شَدِيدًا كَأَنَّمَا أَبْنِيهِمْ بِأَيَّامِي ، وَأَجْمَعُ هُمُومَ رُؤُوسِهِمْ كُلِّهَا فِي رَأْسٍ وَاحِدٍ هُوَ رَأْسِي أَنَا .

يُولَدُ كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَعِدَةٍ تَهْضِمُ لِتَوِّهَا وَسَاعَتِهَا ، ثُمَّ لَا شَيْءَ مَعَهَا مِنْ يَدٍ أَوْ رِجْلٍ أَوْ عَقْلٍ إِلَّا هُوَ عَاجِزٌ لَا يَسْتَقِلُّ ، مُتَخَاذِلٌ لَا يُطِيقُ وَلَا يَقْدِرُ .

قَالَ : وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ ٱلزَّوَاجِ ، أَيْ : عَسَلُهُ وَحَلْوَاهُ ، أَنَّهُ ٱمْرَأَةٌ(١) تُذْهِبُ عُزُوبَتِي . فَأَنَا وَأَمْثَالِي مَا نَزَالُ فِي عَسَلٍ وَحَلْوَىٰ . . . وَلِكُلِّ وَقْتٍ زَوَاجٌ ، وَلِكُلِّ عَصْرٍ أَفْكَارٌ ، وَمَا أَسْخَفَ ٱللَّيَالِي إِذَا هِيَ تَرَادَفَتْ عَلَىٰ ضَرْبٍ وَاحِدٍ مِنْ أَحْلَامِهَا ، فَهَـٰذَا يَجْعَلُ ٱلنَّوْمَ حُكْمًا بِٱلسِّجْنِ عَشْرَ سَاعَاتٍ . . . !

قَالَ : وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَكْشِفَ ٱلْقِصَّةَ فَٱعْلَمْ أَنَّنَا نَحْنُ ٱلْعُزَّابَ قَوْمٌ كَرِجَالِ ٱلْفَنِّ ؛ رَذِيلَتُهُمْ فَنِّيَّةٌ ، وَفَضِيلَتُهُمْ فَنِّيَّةٌ ، فَتِلْكَ وَهَـٰذِهِ بِسَبِيلٍ ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي ٱلْفَنِّ هُوَ لِمَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْفَنِّ(٢) لَا مِنْ غَيْرِهِ ؛ فَإِذَا قُلْتَ : هَـٰذَا خَالٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ، عَارٍ مِنَ ٱلْأَدَبِ ، وَعِبْتَ ٱلْفَنَّ لِذَٰلِكَ ـ فَمَا هُوَ إِلَّا كَعَيْبِكَ وَجْهَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْجَمِيلَةِ لِأَنَّهُ خَالٍ مِنْ لِحْيَةٍ . . ! هَاتِ ٱلظَّلَامَ وَسَوَادَهُ ، فَإِنَّهُ لَوْنٌ كَٱلنُّورِ وَإِشْرَاقِهِ ، لَا بُدَّ مِنْ كِلَيْهِمَا ؛ إِذِ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْفَنِّيُّ { إِنَّمَا يَكُونُ } فِي تَنَاسُبِ ٱلْأَشْيَاءِ لَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ذَاتِهَا ؛ وَيَدُ ٱلْفَنِّيِّ كَيَدِ ٱلْغَنِيِّ ؛ هَـٰذِهِ لَا يَقَعُ فِيهَا ٱلذَّهَبُ إِلَّا لِيَتَعَدَّدَ ثُمَّ يَتَعَدَّدَ ، وَتِلْكَ لَا تَقَعُ فِيهَا ٱلْمَرْأَةُ إِلَّا لِتَتَعَدَّدَ ثُمَّ تَتَعَدَّدَ ؛ وَفِي كُلِّ دِينَارٍ قُوَّةٌ

(*) « الرسالة » العدد : ٦٤ ، ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣هـ = ٢٤ سبتمبر/ أيلول سنة ١٩٣٤م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٥٦٣ ـ ١٥٦٥ .

(١) كَذَا ٱلْأَصْلُ وَٱلطَّبْعَةُ ٱلْأُولَىٰ ، وَفِي ٱلطَّبَعَاتِ ٱلتَّالِيَةِ : « أَيَّةُ ٱمْرَأَةٍ » .

(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « لِمَوْضِعِهِ مِنْهُ » بَدَلًا مِنْ : « لِمَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْفَنِّ » .

جَدِيدَةٌ ، وَفِي كُلِّ ٱمْرَأَةٍ فَنٌّ جَدِيدٌ . . . .

قَالَ : وَمَذْهَبُنَا فِي ٱلْحَيَاةِ أَنْ نَسْتَمْتِعَ بِهَا ضُرُوبًا وَأَفَانِينَ ؛ مَنْ أَطَاقَ أَنْوَاعًا لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ لَمْ يَرْضَ ٱلْوَاحِدَ ؛ وَلَوْ أَنَّ زَوْجَةً كَانَتْ مِنْ أَشِعَّةِ ٱلْكَوَاكِبِ أَوْ مِنْ قَطَرَاتِ ٱلنَّدَىٰ ، لَثَقُلَ مِنْهَا عَلَىٰ حَيَاتِنَا مَا يَثْقُلُ مِنَ ٱلْحَدِيدِ وَٱلصَّوَّانِ ؛ إِذْ هِيَ لَا تَلِدُ أَشِعَّةَ كَوَاكِبَ ، وَلَا قَطَرَاتِ نَدًى ؛ وَحَسْبُ ٱلْجَسَدِ بِرَأْسٍ وَاحِدٍ حِمْلًا .

قَالَ : وَمَنِ ٱلَّذِي تَعْرِضُ عَلَيْهِ ٱلْحَيَاةُ سَلَامَهَا وَتَحِيَّاتِهَا وَأَشْوَاقَهَا فِي مِثْلِ رِسَالَةِ غَرَامٍ ، ثُمَّ يَدَعُ هَـٰذَا وَيَسْأَلُهَا غَضَبَهَا وَخِصَامَهَا وَلَجَاجَتَهَا فِي مِثْلِ قَضِيَّةٍ مِنْ قَضَايَا ٱلْمَحَاكِمِ ، كُلُّ وَرَقَةٍ فِيهَا تِلْكَ وَرَقَةٌ . . ؟

ثُمَّ قَالَ ٱلشَّابُّ : لَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ هِيَ ٱلسَّافِرَةُ عِنْدَنَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱللَّذَّةَ هِيَ ٱلسَّافِرَةُ ؛ وَمَا أَحْكَمَ ٱلشَّرْعَ ! أَقُولُ لَكَ وَأَنَا مُحَامٍ يُقَرِّرُ ٱلْحَقِيقَةَ : مَا أَحْكَمَ ٱلشَّرْعَ ٱلَّذِي لَمْ يُرَخِّصْ فِي كَشْفِ وَجْهِ ٱلْمَرْأَةِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ ، فَإِنَّ ٱلْوَاقِعَ فِي ٱلْحَيَاةِ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْكَشْفَ كَثِيرًا مَا يَكُونُ كَنَقْبِ ٱللِّصِّ عَلَىٰ مَا وَرَاءَ ٱلنَّقْبِ ؛ وَإِذَا كُسِرَ مَا فَوْقَ ٱلْقُفْلِ مِنَ ٱلْخِزَانَةِ ٱلْمُكْتَنِزِ فِيهَا ٱلذَّهَبُ وَٱلْجَوْهَرُ ، فَٱلْبَابُ ٱلْحَدِيدُ كُلُّهُ سُخْرِيَةٌ وَهُزْؤٌ مِنْ بَعْدُ . . !

* * *

هَـٰذِهِ عَقْلِيَّةُ شَابٍّ مُحَامٍ طُوِيَ عَقْلُهُ عَلَىٰ ٱلْكُتُبِ ٱلْقَانُونِيَّةِ ، وَطُوِيَ قَلْبُهُ عَلَىٰ مِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ ٱلْقَانُونِيَّةِ . . . وَلَيْسَ يَمْتَرِي أَحَدٌ فِي أَنَّهَا عَقْلِيَّةُ ٱلسَّوَادِ مِنْ شَبَابِنَا ٱلْمُثَقَّفِ ٱلَّذِي لَبِسَ ٱلْجِلْدَ ٱلْأُورُبِّيَّ . وَمِنَ ٱلْبَلَاءِ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلشَّرْقِ أَنَّهُ مَا بَرِحَ يُنَاهِضُ ٱلْمُسْتَعْمِرِينَ وَيُوَاثِبُهُمْ ، غَافِلًا عَنْ مَعَانِيهِمِ ٱلِاسْتِعْمَارِيَّةِ ٱلَّتِي تُنَاهِضُهُ وَتُوَاثِبُهُ ، جَاهِلًا أَنَّ أُورُبَّةَ تَسْتَعْمِرُ بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلْعِلْمِيَّةِ كَمَا تَسْتَعْمِرُ بِٱلْوَسَائِلِ ٱلْحَرْبِيَّةِ ؛ وَتَسُوقُ ٱلْأُسْطُولَ وَٱلْجَيْشَ ، وَٱلْكِتَابَ وَٱلْأُسْتَاذَ ، وَٱللَّذَّةَ وَٱلِاسْتِمْتَاعَ ، وَٱلْمَرْأَةَ وَٱلْحُبَّ .

وَلَوْ أَنَّ عَدُوًّا رَمَاكَ بِٱلنَّارِ فَٱسْتَطَارَتْ فِي ثِيَابِكَ أَوْ مَتَاعِكَ لَمَا دَاخَلَكَ ٱلشَّكُّ أَنَّ عَدُوَّكَ هُوَ ٱلنَّارُ حَتَّىٰ تَفْرُغَ مِنْ أَمْرِهَا . فَكَيْفَ ـ لَعَمْرِي ـ غَفَلَ ٱلشَّرْقِيُّونَ عَنْ أَخْلَاقٍ نَارِيَّةٍ حَمْرَاءَ يَأْكُلُهُمْ بِهَا ٱلْمُسْتَعْمِرُونَ أَكْلًا كَأَنَّمَا يُنْضِجُونَهُمْ عَلَيْهَا لِيَكُونُوا أَسْهَلَ مَسَاغًا ، وَأَلْيَنَ أَخْذًا ، وَأَسْرَعَ فِي ٱلْهَضْمِ . . . !

لَمْ أَفْهَمْ أَنَا مِنْ كَلَامِ صَاحِبِنَا ٱلشَّابِّ وَمَعَانِيهِ إِلَّا أَنَّ أُورُبَّةَ فِي أَعْصَابِهِ ؛ وَأَمَّا مِصْرُ وَنِسَاؤُهَا وَرِجَالُهَا فَعَلَىٰ طَرَفِ لِسَانِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا صَيْحَةً ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا فِي ٱلْحَيَاةِ عَمَلٌ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ لَذَّتِهِ بِهَا ، لَا مِنْ نَاحِيَةِ فَائِدَتِهَا مِنْهُ .

وَتِلْكَ ٱلْمَعَانِي كُلُّهَا مُشْتَقٌّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَمَرْجِعُهَا إِلَىٰ أَصْلٍ وَاحِدٍ ، كَٱلْأَمْرَاضِ ٱلَّتِي تَبْتَلِي ٱلْجِسْمَ يُمَهِّدُ شَيْءٌ مِنْهَا لِشَيْءٍ ، مَا دَامَتْ طَبِيعَةُ هَـٰذَا ٱلْجِسْمِ زَائِغَةً أَوْ مُخْتَلَّةً ، أَوْ مُتَرَاجِعَةً إِلَىٰ ٱلضَّعْفِ ، أَوْ ذَاهِبَةً إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ .

وَأُولَـٰئِكَ شُبَّانٌ وَقَفَ بِهِمُ ٱلشَّبَابُ مَوْقِفَ بَلَادَةٍ ، فَلَا يَخْطُو إِلَىٰ ٱلرُّجُولَةِ ، وَلَا يَكْمُلُ بِنُمُوِّهِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ كَمَا يَكْمُلُ ٱلرَّجُلُ ٱلْوَطَنِيُّ ؛ فَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ خَوَّارًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِ ، وَيَسْتَوْطِئُ ٱلْعَجْزَ وَٱلْخُمُولَ ؛ فَلَا يَكُونُ إِلَّا قَاعِدَ ٱلْهِمَّةِ ، رِخْوَ ٱلْعَزِيمَةِ ، قَدِ ٱسْتَنَامَ إِلَىٰ أَسْبَابِ عَجْزِهِ وَتَخَاذُلِهِ ؛ وَلَا يَكُونُ فِي بَعْضِ ٱلِاعْتِبَارِ إِلَّا كَٱلْمَرِيضِ يَعِيشُ بِمَرَضِهِ حَمِيلَةً عَلَىٰ ذَوِيهِ ، ضُجَعَةً لَا يَمْشِي ، نُوَمَةً لَا يَنْتَهِضُ ، مُسْتَرِيحًا لَا يَعْمَلُ .

وَبِهَـٰذِهِ ٱلْمَكْسَلَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ فِي ٱلشُّبَّانِ يَبْدَأُ ٱلشَّعْبُ يَتَحَوَّلُ مِنْ دَاخِلِهِ فَيَنْصَرِفُ عَنْ فَضَائِلِهِ ، وَيَتَّخِذُ فِي مَكَانِهَا فَضَائِلَ ٱسْتِعَارَةٍ يُقَلِّدُ فِيهَا قَوْمًا غَيْرَ قَوْمِهِ ، وَيَجْلِبُهَا لِبِيئَةٍ غَيْرِ بِيئَتِهِ ، وَيَقْسِرُهَا عَلَىٰ أَنْ تَصْلُحَ لَهُ وَهِيَ فَسَادٌ ، وَيُكْرِهُهَا عَلَىٰ أَنْ تَنْفَعَهُ وَهِيَ ضَرَرٌ ، وَتِلْكَ حَالَةٌ يُغَامِرُ فِيهَا ٱلشَّعْبُ بِكِيَانِهِ فَلَا تَلْبَثُ أَنْ تُصَدِّعَهُ وَتُفَرِّقَهُ .

وَلَوْ أَنَّ فِي ٱلسَّحَابِ مَطَرًا وَغَيْثًا لَمَا كَانَ لَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لَوْنٌ مَصْبُوغٌ ، وَلَوْ أَنَّ فِي ٱلشَّبَابِ دِينًا لَمَا صَبَغَتْهُ تِلْكَ ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْفَاسِدَةُ ، وَمَا ذَهَابُ ٱلْحَارِسِ عَنْ مَكَانٍ إِلَّا دَعْوَةٌ لِلُّصُوصِ إِلَيْهِ ، وَهَلْ كَانَ ٱلدِّينُ إِلَّا وَاجِبَاتٍ وَتَبِعَاتٍ وَقُيُودًا يُرَادُ مِنْ جَمِيعِهَا إِعْدَادُ ٱلْإِنْسَانِ لِأَمْثَالِهَا فِي ٱلِاجْتِمَاعِ ، حَتَّىٰ يَقَرَّ فِي إِنْسَانِيَّتِهِ ٱلصَّحِيحَةِ عَلَىٰ ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي يَصْلُحُ لَهُ مُنْفَرِدًا وَيَصْلُحُ لَهُ مُجْتَمِعًا ؟ فَلَيْسَتِ ٱلزَّوْجَةُ وَحْدَهَا هِيَ ٱلَّتِي خَسِرَتِ ٱلشَّابَّ بَلْ خَسِرَهُ مَعَهَا ٱلْوَطَنُ وَٱلدِّينُ وَٱلْفَضِيلَةُ جَمِيعًا ، وَبِهَـٰذَا ٱنْعَكَسَ وَضْعُهُ مِنَ ٱلْجَمَاعَةِ ، فَوَجَبَ فِي رَأْيِهِ أَنْ تُسَخَّرَ ٱلْجَمَاعَةُ لَهُ ، وَأَنْ يَسْتَقِلَّ هُوَ بِنَفْسِهِ ، وَبِهَـٰذَا ٱلْعَكْسِ ، وَهَـٰذَا ٱلسُّقُوطِ ، وَهَـٰذَا ٱلِاسْتِمْتَاعِ ٱلَّذِي يَجِدُ سَعَادَتَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ أَصْبَحَ أُولَـٰئِكَ ٱلشُّبَّانُ كَأَنَّمَا حَقُّهُمْ عَلَىٰ ٱلْمُجْتَمَعِ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُمْ

بَغَايَا لَا زَوْجَاتِ . . . بَغَايَا حَتَّىٰ مِنَ ٱلزَّوْجَاتِ . . . !

قَبَّحَ ٱللهُ عَصْرًا يَجْهَلُ ٱلشَّابُّ فِيهِ أَنَّ ٱلرَّجُلَ وَٱلْمَرْأَةَ فِي ٱلْوَطَنِ كَلِمَتَانِ تُفَسِّرُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ إِحْدَاهُمَا بِٱلْأُخْرَىٰ تَفْسِيرًا إِنْسَانِيًّا دِينِيًّا بِٱلْوَاجِبَاتِ وَٱلْقُيُودِ وَٱلْأَحْمَالِ ، لَا بِٱلْأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِانْطِلَاقِ كَمَا تُفَسِّرُ ٱلْحَيَوَانِيَّةُ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنْثَىٰ .

وَٱلنَّفْسُ ٱلدَّنِيئَةُ أَوِ ٱلْمُنْحَطَّةُ فِي أَخْلَاقِهَا وَمَنَازِعِهَا مِنَ ٱلْحَيَاةِ لَا تَكُونُ إِلَّا دَنِيئَةً أَوْ مُنْحَطَّةً فِي أَحْلَامِهَا وَأَخْيِلَتِهَا ٱلزَّوْجِيَّةِ ، دَنِيئَةً كَذَٰلِكَ فِي طَاعَتِهَا إِنْ قَضَتْ عَلَيْهَا ٱلْحَيَاةُ بِمَوْضِعِ ٱلْخُضُوعِ ، دَنِيئَةً فِي حُكْمِهَا إِنْ قَضَتْ لَهَا ٱلْحَيَاةُ بِمَنْزِلَةٍ مِنَ ٱلسُّلْطَةِ . وَلَوْ تَنَبَّهَتِ ٱلْحُكُومَةُ لَطَرَدَتْ مِنْ عَمَلِهَا كُلَّ مُوَظَّفٍ غَيْرِ مُتَأَهِّلٍ ، فَإِنَّهَا إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ شَرًّا لَا رَجُلًا يَمْنَعُ ٱلشَّرَّ ، وَكُلُّ شَابٍّ تِلْكَ حَالُهُ هُوَ حَادِثَةٌ تَرْتَدِفُ ٱلْحَوَادِثَ وَتَسْتَلْزِمُهَا ، وَمَا يَأْتِي ٱلسُّوءُ إِلَّا بِمِثْلِهِ أَوْ بِأَسْوَأَ مِنْهُ .

* * *

لَيْسَ لِلزَّوَاجِ مَعْنًى إِلَّا إِقْرَارَ طَبِيعَةِ ٱلرَّجُلِ وَطَبِيعَةِ ٱلْمَرْأَةِ فِي طَبِيعَةٍ ثَالِثَةٍ تَقُومُ بِٱلِاثْنَتَيْنِ مَعًا ، وَهِيَ طَبِيعَةُ ٱلشَّعْبِ . فَمِنْ سُقُوطِ ٱلنَّفْسِ وَلُؤْمِهَا وَدَنَاءَتِهَا أَنْ يَفِرَّ ٱلشَّابُّ ٱلْقَوِيُّ مِنْ تَبِعَةِ ٱلرُّجُولَةِ ، فَلَا يَحْمِلَ مَا حَمَلَ أَبُوهُ مِنْ وَاجِبَاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَلَا يُقِيمُ لِوَطَنِهِ جَانِبًا مِنْ بِنَاءِ ٱلْحَيَاةِ فِي نَفْسِهِ وَزَوْجِهِ وَوَلَدِهِ ، بَلْ يَذْهَبُ يَجْعَلُ حَظَّ نَفْسِهِ فَوْقَ نَفْسِهِ ، وَفَوْقَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَٱلْوَطَنِ جَمِيعًا ؛ وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ ٱنْفِلَاتَهُ مِنْ وَاجِبَاتِ ٱلزَّوَاجِ هُوَ إِضْعَافٌ فِي طَبِيعَتِهِ لِمَعْنَى ٱلْإِخْلَاصِ ٱلثَّابِتِ ، وَٱلصَّبْرِ ٱلدَّائِبِ ، وَٱلْعَطْفِ ٱلْجَمِيلِ فِي أَيِّ أَسْبَابِهَا عَرَضَتْ .

وَمِنْ فُسُولَةِ ٱلطَّبْعِ وَلُؤْمِهِ وَدَنَاءَتِهِ أَنْ يَهْرُبَ هَٰذَا ٱلْجُنْدِيُّ مِنْ مَيْدَانِهِ ٱلَّذِي فَرَضَتْ عَلَيْهِ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلْفَاضِلَةُ أَنْ يُجَاهِدَ فِيهِ لِأَدَاءِ وَاجِبِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ مُتَعَلِّلًا لِفِرَارِهِ ٱلْمُخْزِي بِمَشَقَّةِ هَٰذَا ٱلْوَاجِبِ وَمَا عَسَىٰ أَنْ يُعَانِيَ فِيهِ ، كَمَا يَحْتَجُّ ٱلْجَبَانُ بِخَوْفِ ٱلْهَلَاكِ وَعَنَاءِ ٱلْحَرْبِ .

وَمِنْ سُقُوطِ ٱلنَّفْسِ أَنْ يَرْضَى ٱلشُّبَّانُ كَسَادَ ٱلْفَتَيَاتِ ، وَبَوَارَهُنَّ عَلَى ٱلْوَطَنِ ؛ وَأَنْ يَتَوَاطَؤُوا عَلَىٰ نَبْذِ هَٰذِهِ ٱلْأَحْمَالِ ، وَإِلْقَائِهَا فِي طُرُقِ ٱلْحَيَاةِ ، وَتَرْكِهَا لِمَقَادِيرِهَا ٱلْمَجْهُولَةِ . كَأَنَّهُمْ أَصْلَحَهُمُ ٱللهُ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَٰلِكَ يَضِيعُ بِأَخَوَاتِهِمْ بَيْنَ ٱلْفَتَيَاتِ ، وَيَضِيعُ

بِوَطَنِهِمْ فِي أُمَّهَاتِ ٱلْجِيلِ ٱلْمُقْبِلِ ، وَيَضِيعُ بِٱلْفَضِيلَةِ فِي تَرْكِهِمْ حِمَايَتَهَا وَتَخَلِّيهِمْ عَنْ حَمْلِ وَاجِبَاتِهَا وَهُمُومِهَا ٱلسَّامِيَةِ .

إِنَّ ٱلْجَمَلَ إِذَا ٱسْتَنْوَقَ تَخَنَّثَ وَلَانَ وَخَضَعَ ، وَلَٰكِنَّهُ يَحْمِلُ ؛ وَهَٰؤُلَاءِ إِذَا ٱسْتَنْوَقُوا تَخَنَّثُوا وَلَانُوا وَخَضَعُوا وَأَبَوْا أَنْ يَحْمِلُوا . . .

وَمِنْ سُقُوطِ ٱلنَّفْسِ فِي ٱلرَّجُلِ ٱلنِّكْسِ ٱلْعَاجِزِ ٱلْمُقَصِّرِ أَنْ يَحْتَجَّ لِعُزُوبَتِهِ بِعِلْمِهِ وَجَهْلِ ٱلْفَتَيَاتِ ؛ أَوْ تَمَدُّنِهِ وَزَعْمِهِ أَنَّهُنَّ لَمْ يَبْلُغْنَ مَبْلَغَ ٱلْأُورُبِّيَّةِ ، وَلَا يَدْرِي هَٰذَا ٱلْمُنْحَطُّ ٱلنَّفْسِ أَنَّ ٱلزَّوَاجَ فِي مَعْنَاهُ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ هُوَ ٱلشَّكْلُ ٱلْآخَرُ لِلِاقْتِرَاعِ ٱلْعَسْكَرِيِّ ، كِلَاهُمَا وَاجِبٌ حَتْمٌ لَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ إِلَّا بِأَعْذَارٍ مُعَيَّنَةٍ ، وَمَا عَدَاهَا فَجُبْنٌ وَسُقُوطٌ وَٱنْخِذَالٌ وَلَعْنَةٌ عَلَى ٱلرُّجُولَةِ .

وَمِنْ سُقُوطِ ٱلنَّفْسِ أَنْ يَغْنَىٰ ٱلشَّابُّ عَنِ ٱلزَّوَاجِ لِفُجُورِهِ فَيُقِرَّهُ ، وَيُمَكِّنَ لَهُ ؛ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ بِذَٰلِكَ يَحْطِمُ نَفْسَيْنِ ، وَيُحْدِثُ جَرِيمَتَيْنِ ، وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلدُّنْيَا لَعْنَتَيْنِ .

وَمِنْ سُقُوطِ ٱلنَّفْسِ أَنْ يَغْتَرَّ ٱلشَّابُّ فَتَاةً حَتَّىٰ إِذَا وَافَقَ غِرَّتَهَا مَكَرَ بِهَا وَتَرَكَهَا بَعْدَ أَنْ يُلْبِسَهَا عَارَهَا ٱلْأَبَدِيَّ ؛ فَمَا يَحْمِلُ هَٰذَا ٱلشَّابُّ إِلَّا نَفْسَ لِصٍّ خَبِيثٍ فَاتِكٍ ، هُوَ أَبَدًا عِنْدَ مَنْ يَسْرِقُهُمْ فِي بَابِ ٱلْخَسَائِرِ وَٱلنَّكَبَاتِ ، لَا فِي بَابِ ٱلرِّبْحِ وَٱلْمَكْسَبِ ؛ وَعِنْدَ ٱلْمُجْتَمَعِ فِي بَابِ ٱلْفَسَادِ وَٱلشَّرِّ ، لَا فِي بَابِ ٱلْمَصْلَحَةِ وَٱلْخَيْرِ ؛ وَعِنْدَ نَفْسِهِ فِي بَابِ ٱلْجَرِيمَةِ وَٱلسَّرِقَةِ ، لَا فِي بَابِ ٱلْعَمَلِ وَٱلشَّرَفِ .

* * *

فَسُقُوطُ ٱلنَّفْسِ وَٱنْحِطَاطُهَا هُوَ وَحْدَهُ نَكْبَةُ ٱلزَّوَاجِ فِي أَصْلِهَا وَفُرُوعِهَا ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي مِنْهَا ٱلْمُغَالَاةُ وَٱلشَّطَطُ فِي ٱلْمُهُورِ ، وَمِنْهَا بَحْثُ ٱلشَّابِّ عَنِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلْغَنِيَّةِ ، وَإِهْمَالُ ذَاتِ ٱلدِّينِ وَٱلْأَصْلِ ٱلْكَرِيمِ لِفَقْرِهَا ، وَمِنْهَا ٱبْتِغَاءُ ٱلزَّوْجَةِ رَجُلًا ذَا جَاهٍ أَوْ ثَرَاءٍ ، وَعُزُوفُهَا عَنِ ٱلْفَاضِلِ ذِي ٱلْكَفَافِ أَوِ ٱلْيَسِيرِ عَلَىٰ غِنًى فِي رُجُولَتِهِ وَفَضَائِلِهِ ، كَأَنَّمَا هُوَ زَوَاجُ ٱلدِّينَارِ بِٱلسَّبِيكَةِ ، وَٱلسَّبِيكَةِ بِٱلدِّينَارِ ، وَكَأَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ قَدِ ٱبْتُلِيَتْ هِيَ أَيْضًا بِٱلسُّقُوطِ ، فَأَصْبَحَتْ تَعْتَبِرُ ٱلْغِنَىٰ وَٱلْفَقْرَ ، فَتَجْعَلُ فِي دَمِ أَوْلَادِ ٱلْأَغْنِيَاءِ رُوحَ ٱلذَّهَبِ وَٱللُّؤْلُؤِ وَٱلْمَاسِ ، وَتُلْقِي فِي دَمِ أَوْلَادِ ٱلْفُقَرَاءِ رُوحَ ٱلنُّحَاسِ وَٱلْخَشَبِ وَٱلْحِجَارَةِ . . . عَلَىٰ حِينِ أَنَّ ٱلْجَمِيعَ مُسْتَيْقِنُونَ لَا يَتَدَافَعُ

ٱثْنَانِ مِنهُمْ فِيْ أَنَّ ٱلطَّبِيْعَةَ لَا تُبَالِيْ إِلَّا بِوِرَاثَةِ ٱلآدَابِ وَٱلطِّبَاعِ .

وَأَعْظَمُ أَسْبَابِ هَـٰذَا ٱلسُّقُوْطِ فِيْ رَأْيِيْ هُوَ ضَعْفُ ٱلتَّرْبِيَةِ ٱلدِّيْنِيَّةِ فِيْ ٱلجِنْسَيْنِ ، وَخَاصَّةً ٱلشُّبَّانُ ؛ ظَنًّا مِنَ ٱلنَّاسِ أَنَّ ٱلدِّيْنَ شَأْنٌ زَائِدٌ عَلَىٰ ٱلحَيَاةِ ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ لَا غَيْرُهُ نِظَامُ هَـٰذِهِ ٱلحَيَاةِ وَقِوَامُهَا فِيْ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ مِنْهَا بِٱلنَّفْسِ . وَلَيْسَتِ ٱلمَدَنِيَّةُ ٱلصَّحِيْحَةُ ـ كَمَا يَحْسَبُ ٱلمَفْتُوْنُوْنَ ـ هِيَ نَوْعَ ٱلمَعِيْشَةِ لِلْحَيَاةِ وَمَادَّتِهَا ، بَلْ نَوْعَ ٱلعَقِيْدَةِ بِٱلحَيَاةِ وَمَعَانِيْهَا ؛ وَإِلَىٰ هَـٰذَا تَرْمِيْ كُلُّ مَبَادِئِ ٱلإِسْلَامِ . فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلدِّيْنَ ٱلقَوِيَّ ٱلإِنْسَانِيَّ لَا يَعْبَأُ بِزَخَارِفَ كَهَـٰذِهِ ٱلَّتِيْ تَتَلَبَّسُ بِهَا ٱلمَدَنِيَّةُ ٱلأُوْرُبِّيَّةُ ٱلقَائِمَةُ عَلَىٰ ٱلاسْتِمْتَاعِ ، وَفُنُوْنِ ٱللَّذَّاتِ ، وَٱنْطِلَاقِ ٱلحُرِّيَّةِ بَيْنَ ٱلجِنْسَيْنِ ؛ فَهَـٰذَا بِعَيْنِهِ هُوَ ٱلتَّحْطِيْمُ ٱلإِنْسَانِيُّ ٱلَّذِيْ يَنْتَهِيْ بِتَهَدُّمِ تِلْكَ ٱلمَدَنِيَّةِ وَخَرَابِهَا ؛ وَإِنَّمَا يَعْبَأُ ٱلإِسْلَامُ بِٱلعَقِيْدَةِ ٱلَّتِيْ تُنَظِّمُ ٱلحَيَاةَ تَنْظِيْمًا صَحِيْحًا مُتَسَاوِقًا وَافِيًا بِٱلمَنْفَعَةِ ، قَائِمًا بِٱلفَضِيْلَةِ ، بَعِيْدًا مِنَ ٱلخَلْطِ وَٱلفَوْضَىٰ .

وَيُقَابِلُ ضَعْفَ ٱلتَّرْبِيَةِ ٱلدِّيْنِيَّةِ مَظْهَرٌ آخَرُ هُوَ سَبَبٌ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ ٱلسُّقُوْطِ ، وَهُوَ ضَعْفُ ٱلتَّرْبِيَةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ فِيْ ٱلمَدْرَسَةِ ؛ وَإِلَىٰ هَـٰذَا ٱلضَّعْفِ يَرْجِعُ سَبَبٌ آخَرُ هُوَ تَخَنُّثُ ٱلطِّبَاعِ وَٱسْتِرْسَالُهَا إِلَىٰ ٱلدَّعَةِ وَٱلرَّاحَةِ ، وَفِرَارُهَا مِنْ حَمْلِ ٱلتَّبِعَةِ « ٱلمَسْؤُوْلِيَّةِ » ٱلَّتِيْ هِيَ دَائِمًا أَسَاسُ كُلِّ شَخْصِيَّةٍ قَائِمَةٍ فِيْ مَوْضِعِهَا ٱلاجْتِمَاعِيِّ .

وَبِذَلِكَ ٱلضَّعْفِ وَذَلِكَ ٱلسُّقُوْطِ وُضِعَتِ ٱلمَرْأَةُ ٱلبَغِيُّ ٱلعَاهِرَةُ فِيْ ٱلمَوْضِعِ ٱلطَّبِيْعِيِّ لِلأُمِّ ، وَنَزَلَ ٱلرَّجُلُ ٱلسَّافِلُ ٱلمُنْحَطُّ فِيْ ٱلمَكَانِ ٱلطَّبِيْعِيِّ لِلأَبِ ، وَتَحَلَّلَتْ قُوَىٰ ٱلوَطَنِ بِٱنْحِرَافِ عُنْصُرَيْهِ ٱلعَظِيْمَيْنِ عَنْ طَبِيْعَتِهِمَا ، وَجَعَلَتْ فَضِيْلَةُ ٱلفَتَيَاتِ ٱلمِسْكِيْنَاتِ تَتَآكَلُ مِنْ طُوْلِ مَا أُهْمِلَتْ ، وَأَخَذَ سُوْسُ ٱلدَّمِ يَتْرُكُهَا فَضَائِلَ نَخِرَةً .

وَلَا عَاصِمَ وَلَا دَافِعَ إِلَّا قُوَّةُ ٱلقَانُوْنِ وَسَطْوَتُهُ ، مَا دَامَتِ ٱلفَضِيْلَةُ فِيْ حُكْمِ ٱلنَّاسِ وَتَصْرِيْفِهِمْ قَدْ تَرَكَتْ مَكَانَهَا لِلْقَوَانِيْنِ ، وَمَا دَامَتْ قُوَّةُ ٱلنَّفْسِ قَدْ أَخْلَتْ مَوْضِعَهَا لِلْقُوَّةِ ٱلتَّنْفِيْذِيَّةِ .

لَقَدْ قُتِلَتْ زَوْجِيَّةُ ٱلزَّوَاجِ ، وَهِيَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ جَرِيْمَةُ قَتْلٍ ، فَمَنِ ٱلقَاتِلُ يَا صَاحِبَنَا ٱلمُحَامِيْ ؟

قَالَ ٱلشَّابُّ : هُوَ كُلُّ رَجُلٍ عَزَبٍ .

قُلْتُ : فَمَا عِقَابُهُ ؟

فَسَكَتَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ جَوَابًا .

قُلْتُ : كَأَنِّيْ بِكَ قَدْ تَأَهَّلْتَ وَخَلَاكَ ذَمٌّ . . فَمَا عِقَابُهُ ؟

قَالَ : إِلَىٰ أَنْ تَبْلُغَ ٱلحُكُوْمَةُ أَوْ أَنْ تُعَاقِبَ هَـٰؤُلَاءِ ٱلعُزَّابَ ، فَلْيُعَاقِبْهُمُ ٱلشَّعْبُ بِتَسْمِيَتِهِمْ « أَرَامِلَ ٱلحُكُوْمَةِ » . . . وَاحِدُهُمْ : رَجُلٌ أَرْمَلَةُ حُكُوْمَةٍ . . .

ثُمَّ قَالَ : ٱللَّهُمَّ يَسِّرْهَا وَلَا تَجْعَلْنِيْ رَجُلًا بِغَلْطَتَيْنِ : غَلْطَةٍ فِيْ نِسَاءِ ٱلأُمَّةِ ، وَغَلْطَةٍ فِيْ أَلْفَاظِ ٱللُّغَةِ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

أَرْمَلَةُ حُكُوْمَةٍ(*) . . .

(أَرْمَلَةُ ٱلْحُكُوْمَةِ) فِيْمَا تَوَاضَعْنَا عَلَيْهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قُرَّائِنَا[1] هُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلْعَزَبُ ، يَكُوْنُ مُطِيْقًا لِلزَّوَاجِ ، قَادِرًا عَلَيْهِ ، وَلَا يَتَزَوَّجُ ؛ بَلْ يَرْكَبُ رَأْسَهُ فِيْ ٱلْحَيَاةِ ، وَيَذْهَبُ يُمَوِّهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ كَذِبًا وَتَدْلِيْسًا ، وَيَنْتَحِلُ لَهَا ٱلْمَعَاذِيْرَ ٱلْوَاهِيَةَ ، وَيَمْتَلِقُ ٱلْعِلَلَ ٱلْبَاطِلَةَ ، يُحَاوِلُ أَنْ يُلْحِقَ نَفْسَهُ بِمَرْتَبَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلْمُتَزَوِّجِ مِنْ حَيْثُ يَحُطُّ ٱلرَّجُلَ ٱلْمُتَزَوِّجَ إِلَىٰ مَرْتَبَتِهِ هُوَ ؛ وَيُضِيْفُ شُؤْمَهُ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ٱلنِّسَاءِ ٱلْمِسْكِيْنَاتِ ، يَزِيْدُهُنَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ شَرَّ نَفْسِهِ ، وَيَرْمِيْهِنَّ بِٱلسُّوْءِ وَهُوَ ٱلسُّوْءُ عَلَيْهِنَّ ، وَيَتَنَقَّصُهُنَّ وَمِنْهُ جَاءَ ٱلنَّقْصُ ، وَيَعِيْبُهُنَّ وَهُوَ أَكْبَرُ ٱلْعَيْبِ ؛ لَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا ٱلَّذِيْ لَهُ ، وَلَا يَتَنَاسَىٰ إِلَّا ٱلَّذِيْ عَلَيْهِ ، كَأَنَّمَا ٱنْقَلَبَتْ أَوْضَاعُ ٱلدُّنْيَا ، وَتَبَدَّلَتْ رُسُوْمُ ٱلْحَيَاةِ ، فَزَالَتِ ٱلرُّجُوْلَةُ بِتَبِعَاتِهَا عَنِ ٱلرَّجُلِ إِلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ، وَٱنْفَصَلَتِ ٱلْأُنُوْثَةُ بِحُقُوْقِهَا مِنَ ٱلْمَرْأَةِ إِلَىٰ ٱلرَّجُلِ ، فَوَجَبَ أَنْ تَحْمِلَ تِلْكَ مَا كَانَ يَحْمِلُ هَـٰذَا ، فَتُقْدِمَ وَيَقَرَّ وَادِعًا ، وَتَتْعَبَ وَيَسْتَرِيْحَ ، وَتُعَانِيَ ٱلْهُمُوْمَ ٱلسَّامِيَةَ فِيْ ٱلْحَيَاةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَيُعَانِيَ ٱلْمُخَنَّثُ ٱبْتِسَامَاتِهِ وَدُمُوْعَهُ ، مُتَّكِئًا فِيْ مَجْلِسِهِ ٱلنَّسِيْمِيِّ تَحْتَ جَنَاحِ ٱلْمِرْوَحَةِ . . . فَأَمَّا ٱلْمَرْأَةُ فَتُشْرِفُ عَلَىٰ هَلَكَتِهَا ، وَتُخَاطِرُ بِحَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا ، وَأَمَّا هُوَ فَيَبْقَىٰ مِنْ ثِيَابِهِ فِيْ مِثْلِ ٱلْخِدْرِ ٱلْمَصُوْنِ . . . !

(أَرْمَلَةُ ٱلْحُكُوْمَةِ) هُوَ ذَلِكَ ٱلشَّابُّ ٱلزَّائِفُ ٱلْمُبَهْرَجُ ، يُحْسَبُ فِيْ ٱلرِّجَالِ كَذِبًا وَزُوْرًا ؛ إِذْ لَا تَكْمُلُ ٱلرُّجُوْلَةُ بِتَكْوِيْنِهَا حَتَّىٰ تَكْمُلَ بِمَعَانِيْ تَكْوِيْنِهَا ؛ وَأَخَصُّ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ إِنْشَاءُ ٱلْأُسْرَةِ وَٱلْقِيَامُ عَلَيْهَا ، أَيْ : مُغَامَرَةُ ٱلرَّجُلِ فِيْ زَمَنِهِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ وَوُجُوْدِهِ ٱلْقَوْمِيِّ ، فَلَا

(*) « الرسالة » العدد : ٦٦ ، ٢٩ جمادى الاخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٦٤٣ ـ ١٦٤٤ و١٦٧٩ .

(١) ٱنْظُرْ مَقَالَةَ « ٱسْتَنْوَقَ ٱلْجَمَلُ » . وَٱلتَّاءُ فِيْ « أَرْمَلَةُ ٱلْحُكُوْمَةِ » لَيْسَتْ لِلتَّأْنِيْثِ ، بَلْ هِيَ تَاءٌ جَدِيْدَةٌ فِيْ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، تُزَادُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ خَاصَّةً وَٱسْمُهَا تَاءُ ٱلْهُزُؤِ . . . وَيَا حَبَّذَا لَوِ ٱصْطَلَحَ ٱلنِّسَاءُ وَٱلْفَتَيَاتُ وَٱلْمُتَزَوِّجُوْنَ جَمِيْعًا عَلَىٰ تَسْمِيَةِ كُلِّ رَجُلٍ عَزَبٍ « أَرْمَلَةُ ٱلْحُكُوْمَةِ » فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلاسْمَ إِذَا عَمَّ وَشَاعَ كَانَ فِيْ مَعْنَاهُ وَفِعْلِهِ ٱلْمُطَهِّرِ ، حَامِضاً لُغَوِيّاً كَحَامِضِ ٱلْفُنِيْكِ . . . !

يَعِيْشُ غَرِيْبًا عَنْهُ وَهُوَ مَعْدُوْدٌ فِيْهِ ، وَلَا طُفَيْلِيًّا فِيْهِ وَهُوَ كَٱلْمَنْفِيِّ مِنْهُ ، وَلَا يَكُوْنُ مَظْهَرًا لِقُوَّةِ ٱلْجِنْسِ ٱلْقَوِيِّ هَارِبَةً هُرُوْبَ ٱلْجُبْنِ مِنْ حَمْلِ ضَعْفِ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ ٱلْمُحْتَمِيْ بِهَا ، وَلَا لِمُرُوْءَةِ ٱلْعَشِيْرِ مُتَبَرِّئَةً تَبَرُّؤَ ٱلنَّذَالَةِ مِنْ مُؤَازَرَةِ ٱلْعَشِيْرِ ٱلْآخَرِ ٱلْمُحْتَاجِ إِلَيْهَا ؛ وَلَا يَرْضَىٰ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُوْنَ هُوَ وَٱلذُّلُّ يَعْمَلَانِ فِيْ نِسَاءِ أُمَّتِهِ عَمَلًا وَاحِدًا ، وَأَنْ يُصْبِحَ هُوَ وَٱلْكَسَادُ لَا يَأْتِيْ مِنْهُمَا إِلَّا أَثَرٌ مُتَشَابِهٌ ، وَأَنْ يَبِيْتَ هُوَ وَٱلْفَنَاءُ فِيْ ظُلْمَةٍ وَاحِدَةٍ كَظُلُمَاتِ ٱلْقَبْرِ ، تَنْقُلُ ٱلْأَجْدَاثَ إِلَىٰ ٱلدُّوْرِ ، فَتَجْعَلُ ٱلْبَيْتَ ٱلَّذِيْ كَانَ يَقْتَضِيْهِ ٱلْوَطَنُ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ أَبٌ وَأُمٌّ وَأَطْفَالٌ ـ بَيْتًا خَاوِيًا كَأَنَّمَا ثَكِلَ ٱلْأُمَّ وَٱلْأَطْفَالَ ، وَبَقِيَتْ فِيْهِ ٱلْبَقِيَّةُ مِنْ هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ ٱلْعَزَبِ ٱلْمَيِّتِ أَكْثَرَ تَارِيْخِهِ . . . !

لَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنَيَّ أَدَاةَ ٱلْعَزَبِ وَأَثَاثَهُ ٱلْمُبَعْثَرَ فِيْ بَيْتِهِ ، كَأَنَّمَا يَقُصُّ عَلَيْهِ كُلُّ ذَلِكَ قِصَّةَ شُؤْمِهِ وَوَحْدَتِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ ٱلْفَرْشُ وَٱلنَّجْدُ وَٱلطِّرَازُ : « بِعْنِيْ يَا رَجُلُ وَرُدَّنِيْ إِلَىٰ ٱلسُّوْقِ ؛ فَإِنِّيْ هُنَالِكَ أَطْمَعُ أَنْ يَكُوْنَ مَصِيْرِيْ إِلَىٰ أَبٍ وَأُمٍّ وَأَوْلَادٍ ، أَجِدُ بِهِمْ فَرْحَةَ وُجُوْدِيْ ، وَأُصِيْبُ مِنْ مُعَاشَرَتِهِمْ بَعْضَ ثَوَابِيْ ، وَأَبْلَىٰ تَحْتَ أَيْدِيْهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ فَأَكُوْنُ قَدْ عَمِلْتُ عَمَلًا إِنْسَانِيًّا . أَمَّا عِنْدَكَ ، فَأَنْتَ خَشَبَةٌ مَعَ ٱلْخَشَبِ ، وَأَنْتَ خِرْقَةٌ بَيْنَ ٱلْخِرَقِ . وَٱسْمَعِ ٱلْكُرْسِيَّ إِنَّهُ يَقُوْلُ : أُفٌّ . وَأَصْغِ إِلَىٰ فِرَاشِكَ إِنَّهُ يَقُوْلُ : تُفٌّ . . » .

شَهِدَ ٱلْعَزَبُ وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ مُبْتَلًى بِٱلْعَافِيَةِ ، مُسْتَعْبَدٌ بِٱلْحُرِّيَّةِ ، مَجْنُوْنٌ بِٱلْعَقْلِ ، مَغْلُوْبٌ بِٱلْقُوَّةِ ، شَقِيٌّ بِٱلسَّعَادَةِ . وَشَهِدَتِ ٱلْحَيَاةُ عَلَيْهِ وَرَبِّ ٱلْبَيْتِ أَنَّهُ فِيْ ٱلرُّجُوْلَةِ قَاطِعُ طَرِيْقٍ ؛ يَقْطَعُ تَارِيْخَهَا وَلَا يُؤَمِّنُهُ ، وَيَسْرِقُ لَذَّاتِهَا وَلَا يَكْسَبُهَا ، وَيَخْرُجُ عَلَىٰ شَرْعِهَا وَلَا يَدْخُلُ فِيْهِ ، وَيَعْصِيْ وَاجِبَاتِهَا وَلَا يَنْقَادُ لَهَا . وَشَهِدَ ٱلْوَطَنُ ـ وَٱللهِ ـ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَخْلُوْقٌ فَارِغٌ كَٱلْوَاغِلِ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا ؛ إِنْ كَانَ نِعْمَةً بِصَلَاحِهِ ، ٱنْتَهَتِ ٱلنِّعْمَةُ فِيْ نَفْسِهَا لَا تَمْتَدُّ ؛ وَإِنْ كَانَ بِفَسَادِهِ مُصِيْبَةً ٱمْتَدَّتْ فِيْ غَيْرِهَا لَا تَنْقَطِعُ . وَأَنَّهُ شَحَّاذُ ٱلْحَيَاةِ ، أَحْسَنَ بِهِ ٱلْأَجْدَادُ نَسْلًا بَاقِيًا ، وَلَا يُحْسِنُ هُوَ بِنَسْلٍ يَبْقَىٰ . وَأَنَّهُ فِيْ بِلَادِهِ كَٱلْأَجْنَبِيِّ ، مَهْبِطُهُ عَلَىٰ مَنْفَعَةٍ وَعَيْشٍ لَا غَيْرِهِمَا ؛ ثُمَّ يَمُوْتُ وُجُوْدُ ٱلْأَجْنَبِيِّ بِٱلنَّقْلَةِ إِلَىٰ وَطَنِهِ ، وَيَمُوْتُ وُجُوْدُ ٱلْعَزَبِ بِٱلانْتِقَالِ إِلَىٰ رَبِّهِ ؛ فَيَسْتَوِيَانِ جَمِيْعًا فِيْ ٱنْقِطَاعِ ٱلْأَثَرِ ٱلْوَطَنِيِّ ، وَيَتَّفِقَانِ جَمِيْعًا فِيْ ٱنْتِهَابِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْوَطَنِيَّةِ ؛ وَأَنَّ كِلَيْهِمَا خَرَجَ مِنَ ٱلْوَطَنِ أَبْتَرَ لَا عَقِبَ لَهُ ، وَيَذْهَبَانِ مَعًا فِيْ

لُجَجِ ٱلنِّسْيَانِ : أَحَدُهُمَا عَلَىٰ بَاخِرَةٍ ، وَٱلآخَرُ عَلَى ٱلنَّعْشِ !

* * *

جَاءَنِي بِٱلأَمْسِ « أَرْمَلَةُ حُكُومَةٍ » وَهُوَ مُهَنْدِسٌ مُوَظَّفٌ . وَمَعْنَى ٱلْهَنْدَسَةِ ٱلدِّقَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فِي ٱلرَّقْمِ وَٱلْخَطِّ وَٱلنُّقْطَةِ وَمَا ٱحْتَمَلَ ٱلتَّدْقِيقَ ؛ ثُمَّ ٱلْحَذَرُ ٱلْبَالِغُ أَنْ يَخْتَلَّ شَيْءٌ أَوْ يَنْحَرِفَ ، أَوْ يَتَقَاصَرَ أَوْ يَطُولَ ، أَوْ يَزِيدَ أَوْ يَنْقُصَ ، أَوْ يَدْخُلَهُ ٱلسَّهْوُ ، أَوْ يَقَعَ فِيهِ ٱلْخَطَأُ ؛ إِذْ كَانَ ٱلْحَاضِرُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلْهَنْدَسِيِّ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَاقِبَةِ ، وَكَانَ ٱلْخَيَالُ لِلْحَقِيقَةِ ؛ وَكَانَ ٱلْخَرْقُ هُنَا لَا يَقْبَلُ ٱلرُّقْعَةَ . وَمَتَىٰ فَصَلَتِ ٱلأَرْقَامُ ٱلْهَنْدَسِيَّةُ مِنَ ٱلْوَرَقِ إِلَى ٱلْبِنَاءِ مَاتَ ٱلْجَمْعُ وَٱلطَّرْحُ وَٱلضَّرْبُ وَٱلْقِسْمَةُ ، وَرَجَعَ ٱلْحِسَابُ حِينَئِذٍ وَهُوَ حِسَابُ عَقْلِ ٱلْمُهَنْدِسِ ؛ فَإِمَّا عَقْلٌ دَقِيقٌ مُنْتَظِمٌ ، أَوْ عَقْلٌ مَأْفُونٌ مُخْتَلٌّ .

بَيْدَ أَنَّ ٱلْمُهَنْدِسَ ـ عَلَىٰ مَا ظَهَرَ لِي ـ قَدْ خَلَتْ حَيَاتُهُ مِنَ ٱلْهَنْدَسَةِ . . . وَٱنْتَهَىٰ فِيهَا مِنَ ٱلتَّحْرِيفِ ٱلْمُضْحِكِ ـ حَتَّىٰ فِيمَا لَا يُخْطِئُ ٱلصِّغَارُ فِيهِ ـ إِلَىٰ مِثْلِ ٱلتَّحْرِيفِ ٱلَّذِي قَالُوا إِنَّهُ وَقَعَ فِي ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فَقَدْ رَوَوْا أَنَّ إِمَامَ قَرْيَةٍ مِنَ ٱلْقُرَىٰ فِي ٱلزَّمَنِ ٱلْقَدِيمِ كَانَ يَخْطُبُ أَهْلَ قَرْيَتِهِ وَيُصَلِّي بِهِمْ فِي مَسْجِدِهَا ، فَنَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ، فَقَالَ لَهُ ٱلْخَطِيبُ : إِنَّ لِي مَسَائِلَ فِي ٱلدِّينِ لَمْ يَتَوَجَّهْ لِي وَجْهُ ٱلْحَقِّ فِيهَا ، وَلَا أَزَالُ مُتَحَيِّرَ ٱلرَّأْيِ ، وَكُنْتُ مِنْ زَمَنٍ أَتَمَنَّىٰ أَنْ أَلْقَىٰ بِهَا ٱلأَئِمَّةَ ، فَأُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهَا .

قَالَ ٱلْعَالِمُ : سَلْ مَا أَحْبَبْتَ .

قَالَ ٱلْخَطِيبُ : أَشْكَلَ عَلَيَّ فِي ٱلْقُرْآنِ بَعْضُ مَوَاضِعَ ، مِنْهَا فِي سُورَةِ ٱلْحَمْدِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ ﴾ . . . أَيُّ شَيْءٍ بَعْدَهُ . « تِسْعِينَ أَوْ سَبْعِينَ » . . ؟ أَشْكَلَتْ عَلَيَّ هَـٰذِهِ فَأَنَا أَقْرَؤُهَا : تِسْعِينَ . أَخْذًا بِٱلاحْتِيَاطِ . . . !

كَذَٰلِكَ مُهَنْدِسُنَا فِيمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْ حِسَابِهِ لِلْحَيَاةِ ، فَهُوَ عَزَبٌ أَخْذًا بِٱلاحْتِيَاطِ . قَالَ وَهُوَ يُحَاوِرُنِي :

كَيْفَ تُكَلِّفُنِي ٱلزَّوَاجَ وَتُكْرِهُنِي عَلَيْهِ ، وَتُعَنِّفُنِي عَلَى ٱلْعُزُوبَةِ وَتُعَيِّبُنِي بِهَا ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ كَٱلَّذِي يَقُولُ : دَعِ ٱلْمُمْكِنَ وَخُذِ ٱلْمُسْتَحِيلَ . إِنَّ ٱسْتِحَالَةَ ٱلزَّوَاجِ هِيَ جَعَلَتْنِي عَزَبًا ،

وَٱلْعُزُوبَةُ هِيَ جَعَلَتْنِي فَاسِدًا ، وَفِي هَـٰذَا ٱلْجَوِّ ٱلْفَاسِدِ مِنْ حَيَاةِ ٱلشَّبَابِ ، إِمَّا أَنْ تَكْسَدَ ٱلْفَتَاةُ ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّصِلَ بِهَا ٱلْعَدْوَىٰ . وَٱلْعَزَبُ لَا يَأْبَىٰ أَنْ يُقَالَ فِيهِ إِنَّهُ لِلنِّسَاءِ طَاعُونٌ أَحْمَرُ أَوْ هَوَاءٌ أَصْفَرُ ؛ فَهُوَ وَٱللهِ مَعَ ذَلِكَ مَوْتٌ أَسْوَدُ وَبَلَاءٌ أَزْرَقُ .

قُلْتُ : لَقَدْ هَوَّلْتَ عَلَيَّ ؛ فَمَا مُسْتَحِيلُكَ يَا هَـٰذَا ، وَلِمَ ٱسْتَحَالَ عَلَيْكَ مَا أَمْكَنَ غَيْرَكَ ، وَكَيْفَ بَلَغَتْ مِصْرُ خَمْسَةَ عَشَرَ مِلْيُونًا ؟ أَمِنْ غَيْرِ آبَاءٍ خُلِقُوا ، أَمْ زُرِعُوا زَرْعًا فِي أَرْضِ ٱلْحُكُومَةِ ؟ ٱسْمَعْ ـ وَيْحَكَ ـ أَلَا يَكُونُ ٱلرِّجَالُ قَدْ أَقْبَلُوا وَتَرَاجَعَتْ ، وَتَجَلَّدُوا وَتَوَجَّعَتْ ، أَوْ أَقْدَمُوا وَخَنَسَتْ ، وَٱسْتَرْجَلُوا وَتَأَنَّثَتْ ؟

قَالَ : لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ هَـٰذَا .

قُلْتُ : فَإِنَّ ٱلْمَسْأَلَةَ هِيَ كَيْفَ تَرَى ٱلْفِكْرَةَ ، لَا ٱلْفِكْرَةُ نَفْسُهَا ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ٱلْعُزُوبَةِ وَأَنْتَ مُوَظَّفٌ ، وَظِيفَتُكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا ، وَأَنْتَ مُهَنْدِسٌ يَصْدُقُ عَلَيْكَ مَا قَالُوهُ فِي ٱلرَّجُلِ ٱلْمَجْدُودِ : لَوْ عَمَدَ إِلَىٰ حَجَرٍ لَانْفَلَقَ لَهُ عَنْ رِزْقٍ .

قَالَ : أَلَيْسَ مُسْتَحِيلًا ثُمَّ مُسْتَحِيلًا أَنْ يَجْمَعَ مِثْلِي يَدَهُ عَلَىٰ مِئَةِ جُنَيْهٍ يَدْفَعُهَا مَهْرًا ؛ وَمَا طَرَقْتُ ـ عَلِمَ ٱللهُ ـ بَابًا إِلَّا ٱسْتَقْبَلُونِي بِمَا مَعْنَاهُ : هَلْ أَنْتَ مُعْجِزَةٌ مَالِيَّةٌ ؟ هَلْ أَنْتَ مِئَةُ جُنَيْهٍ ؟

قُلْتُ : فَإِنَّ عَمَلَكَ فِي ٱلْحُكُومَةِ يُغِلُّ عَلَيْكَ فِي ٱلسَّنَةِ مِئَةً وَثَمَانِينَ دِينَارًا ، فَلِمَ لَا تَعِيشُ سَنَةً وَاحِدَةً بِثَمَانِينَ فَتَقَعُ ٱلْمُعْجِزَةُ ؟

قَالَ : « بِكُلِّ أَسَفٍ » لَا يَسْتَطِيعُ ٱلرَّجُلُ ٱلْعَزَبُ أَنْ يَدَّخِرَ أَبَدًا ؛ فَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مُبَدَّدٌ ضَائِعٌ مُتَفَرِّقٌ .

قُلْتُ : فَهَـٰذِهِ شَهَادَتُكَ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِٱلسَّفَهِ وَٱلْخُرْقِ وَٱلتَّبْذِيرِ ؛ تُنْفِقُ مَا يَكْفِي عَدَدًا وَتَضِيقُ بِوَاحِدَةٍ ، وَمَاذَا يَرْتَئِي مِثْلُكَ فِي ٱلْحَيَاةِ ؟ أَعِنْدَ نَفْسِهِ وَفِي يَقِينِهِ أَنْ يَتَأَبَّدَ فَيَبْقَىٰ عَزَبًا فَهُوَ يُنْفِقُ مَا جَمَعَ فِي شَهَوَاتِ حَيَاتِهِ ، وَيَتَوَسَّعُ فِيهَا ضُرُوبًا وَأَلْوَانًا لِيَكُونَ وَهُوَ فَرْدٌ كَأَنَّهُ وَهُوَ فِي إِنْفَاقِهِ جَمَاعَةٌ ، كُلٌّ مِنْهُمْ فِي مَوْضِعِ رَذِيلَةٍ أَوْ مَكَانِ لَهْوٍ ؛ وَكَأَنَّ مِنْهُ رِجَالًا هُوَ كَاسِبُهُمْ وَعَائِلُهُمْ ، يُنْفِقُ عَلَىٰ هَـٰذَا فِي ٱلْقَهْوَةِ ، وَعَلَىٰ هَـٰذَا فِي ٱلْحَانَةِ ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ فِي ٱلْمَلَاهِي ،

وَعَلَىٰ ٱلرَّابِعِ فِيْ ٱلْمَوَاخِيْرِ ، وَعَلَىٰ ٱلْخَامِسِ فِيْ ٱلْمُسْتَشْفَىٰ . . . ؟ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ أَصْلَ ٱلرَّأْيِ عِنْدَ ٱلْعَزَبِ ، فَٱلْعَزَبُ سَفِيْهٌ مُجْرِمٌ ، وَهُوَ إِنْسَانٌ خَرِبٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ ، وَهُوَ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ لَيْسَ ٱلْمُتَّسِعَ لِنَفَقَاتِ خَمْسَةٍ ، بَلْ كَأَنَّهُ قَاتِلُ خَمْسَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ وَطَنِهِ ؛ إِذْ كَانَ بِهَـٰذَا مُطِيْقًا أَنْ يَكُوْنَ أَبًا يُنْفِقُ عَلَىٰ أَبْنَائِهِ ، لَا سَفِيْهًا يُنْفِقُ عَلَىٰ شَيَاطِيْنِهِ .

فَإِنْ كَانَ قَدْ بَنَىٰ رَأْيَهُ عَلَىٰ أَنْ يَتَعَزَّبَ مُدَّةً ثُمَّ يَتَأَهَّلَ ، فَهَـٰذَا أَحْرَىٰ أَنْ يُعِيْنَهُ عَلَىٰ حُسْنِ ٱلتَّدْبِيْرِ ، وَهُوَ مَضْرَاةٌ لَهُ عَلَىٰ شَهْوَةِ ٱلْجَمْعِ وَٱلادِّخَارِ ؛ إِذْ يَكُوْنُ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّمَا يَكْدَحُ لِعِيَالِهِ وَهُوَ فِيْ سَعَةٍ مِنْهُمْ بَعْدُ ، وَهُمْ لَا يَزَالُوْنَ فِيْ صُلْبِهِ عَلَىٰ ٱلْحَالِ ٱلَّتِيْ لَا يَسْأَلُوْنَهُ فِيْهَا شَيْئًا إِلَّا أَخْلَاقًا طَيِّبَةً وَهِمَمًا وَعَزَائِمَ يَرِثُوْنَهَا مِنْ دَمِهِ فَتَجِيْءُ مَعَهُمْ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا مَتَىٰ جَاؤُوْا .

إِنَّمَا ٱلْعَزَبُ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : رَجُلٍ قَدْ خَرَجَ عَلَىٰ وَطَنِهِ وَقَوْمِهِ وَفَضَائِلِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، قَاعِدَتُهُ : جُرَّ ٱلْحَبْلَ مَا ٱنْجَرَّ لَكَ . وَهَـٰذَا دَاعِرٌ فَاسِقٌ ، مُبَذِّرٌ مِتْلَافٌ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَيَاسِيْرِ ، أَوْ مُرِيْبٌ دَنِيْءٌ حَقِيْرُ ٱلنَّفْسِ إِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ . . . وَرَجُلٍ غَيْرِ ذَلِكَ ، فَهُوَ فِيْ وَثَاقِ ٱلضَّرُوْرَةِ إِلَىٰ أَنْ تُطْلِقَهُ ٱلأَسْبَابُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ يَعْمَلُ أَبَدًا لِلأَسْبَابِ ٱلَّتِيْ تُطْلِقُهُ ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ آهِلًا فَلَا تَزَالُ ذِمَّتُهُ فِيْ حَقِّ زَوْجَةٍ سَيَعُوْلُهَا ، وَفِيْ حُقُوْقِ أَطْفَالٍ يَأْبُوْهُمْ ، وَوَاجِبَاتِ وَطَنٍ يَخْدِمُهُ بِإِنْشَاءِ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلصَّغِيْرَةِ مِنْ وُجُوْدِهِ ، وَٱلْقِيَامِ عَلَىٰ سِيَاسَتِهَا ، وَٱلنُّهُوْضِ بِأَعْبَائِهَا . فَٱنْظُرْ وَيْحَكَ أَيُّ ٱلرَّجُلَيْنِ أَنْتَ ؟

قَالَ : فَتُرِيْدُنِيْ أَنْ أُقَامِرَ بِتَعَبِ سَنَةٍ وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا يُقْدَرُ لِيْ ، وَقَدْ أَشْتَرِيْ بِتَعَبِ سَنَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ تَعَبَ ٱلْعُمْرِ كُلِّهِ ؟

قُلْتُ : فَهَـٰذِهِ هِيَ خِسَّةُ ٱلْفَرْدِيَّةِ ، وَدَنَاءَتُهَا ٱلْوَحْشِيَّةُ فِيْ جِنَايَتِهَا عَلَىٰ أَهْلِهَا ، وَسُوْءِ أَثَرِهَا فِيْ طِبَاعِهِمْ وَعَزَائِمِهِمْ ؛ فَهِيَ فَرْدِيَّةٌ تَضْرِبُ فِيْهِمُ ٱلْعَاطِفَةَ ٱلاجْتِمَاعِيَّةَ ضَرْبَ ٱلتَّلَفِ[1] ، وَتَبْتَلِيْهِمْ بِٱلْخَوْفِ مِنَ ٱلتَّبِعَاتِ حَتَّىٰ لَيَتَوَهَّمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ إِنْ تَزَوَّجَ لَمْ يَدْخُلْ عَلَىٰ ٱمْرَأَةٍ ، وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ مَعْرَكَةٍ . وَهِيَ تُصِيْبُهُمْ بِٱلْقَسْوَةِ وَٱلْغِلْظَةِ ؛ فَمَا دَامَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَاحِدًا لِنَفْسِهِ ، فَهُوَ فِيْ تَصْرِيْفِ حُكْمِ ٱلأَثَرَةِ ، وَفِيْ قَانُوْنِ ٱلْفِتْنَةِ بِأَهْوَاءِ ٱلنَّفْسِ وَمَنَافِعِهَا ؛ كَأَنَّمَا

(١) { يُقَالُ ضَرَبَهُ ضَرْبَ ٱلتَّلَفِ ، أَيْ : ٱلضَّرْبَ ٱلَّذِيْ يَقْتُلُهُ وَيُتْلِفُهُ } .

يُعَامِلُهُ ٱلنَّاسُ رَجُلًا كُلُّهُ مَعِدَةٌ ، أَوْ هُوَ فِيْهِمْ قُوَّةُ هَضْمٍ لَيْسَ غَيْرَ .

قَالَ : وَلَـٰكِنَّ ٱلزَّوَاجَ عِنْدَنَا حَظٌّ مَخْبُوْءٌ « لُوتَرِيَّةٍ »[1] ، وَٱلنِّسَاءُ كَأَوْرَاقِ ٱلسَّحْبِ ، مِنْهُنَّ وَرَقَةٌ هِيَ ٱلتَّوْفِيْقُ وَٱلْغِنَىٰ بَيْنَ آلَافٍ هُنَّ ٱلْفَقْرُ وَٱلْخَيْبَةُ ٱلْمُحَقَّقَةُ .

قُلْتُ : هَلِ ٱعْتَدْتَ أَنْ تَتَكَلَّمَ وَأَنْتَ نَائِمٌ ؟ فَلَعَلَّكَ ٱلآنَ فِيْ نَوْمَةِ عَقْلٍ ، أَوْ لَا فَأَنْتَ ٱلآنَ فِيْ غَفْلَةِ عَقْلٍ .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْمِسْكِيْنَ ٱلَّذِيْ يَمْسَحُ ٱلأَحْذِيَةَ وَيَشْتَرِيْ مِنْ تِلْكَ ٱلأَوْرَاقِ لَا يَخْلُوْ مِنْهَا ؛ يَعْلَمُ عِلْمًا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْيَقِيْنِ أَنَّ عَيْشَهُ هُوَ مِنْ مَسْحِ ٱلأَحْذِيَةِ لَا مِنَ ٱلأَخْيِلَةِ ٱلَّتِيْ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلأَوْرَاقِ ؛ فَهُوَ لَا يَعْتَدُّ بِهَا فِيْ كَبِيْرِ أَمْرٍ وَلَا صَغِيْرِهِ ، وَمَا يُنْزِلُهَا فِيْ حِسَابِ رَغِيْفِهِ وَثَوْبِهِ إِلَّا يَوْمَ يُخَالَطُ فِيْ عَقْلِهِ فَيَتَنَزَّهُ أَنْ يَمْسَحَ أَحْذِيَةَ ٱلنَّاسِ ، وَيَرَىٰ أَنَّ عَظِيْمًا مِثْلَهُ لَا يَمْسَحُ إِلَّا أَحْذِيَةَ ٱلْمَلَائِكَةِ . . .

أَنْتَ يَا هَـٰذَا مُهَنْدِسٌ ، وَلَكَ بَعْضُ ٱلشَّأْنِ وَبَعْضُ ٱلْمَنْزِلَةِ ، فَهَبْكَ ٱرْتَأَيْتَ أَنَّهُ لَا يَحْسُنُ بِكَ أَوْ لَا يَحْسُنُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَتَزَوَّجَ بِنْتَ مَلِكٍ مِنَ ٱلْمُلُوْكِ ، فَهَـٰذِهِ وَحْدَهَا هِيَ عِنْدَكَ « ٱلنِّمْرَةُ ٱلرَّابِحَةُ »[2] ، وَسَائِرُ ٱلنِّسَاءِ فَقْرٌ وَخَيْبَةٌ ، مَا دَامَ ٱلأَمْرُ أَمْرَ رَأْيِكَ وَهَوَاكَ ؛ غَيْرَ أَنَّكَ إِذَا عَرَضْتَ لِتِلْكَ « ٱلنِّمْرَةِ ٱلرَّابِحَةِ » لَمْ تَعْرِفْكَ هِيَ إِلَّا صُعْلُوْكًا فِيْ ٱلصَّعَالِيْكِ ، وَأَحْمَقَ بَيْنَ ٱلْحَمْقَىٰ .

إِنَّ تِلْكَ ٱلأَوْرَاقِ تُصْنَعُ صَنْعَتُهَا عَلَىٰ أَنْ تَكُوْنَ جُمْلَتُهَا خَاسِرَةً إِلَّا عَدَدًا قَلِيْلًا مِنْهَا ؛ فَإِذَا تَعَاطَيْتَ شِرَاءَهَا فَأَنْتَ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلأَصْلِ تَأْخُذُهَا ، وَبِهَـٰذَا ٱلشَّرْطِ تَبْذُلُ فِيْهَا ؛ وَمَا تَمْتَرِيْ أَنْتَ وَلَا غَيْرُكَ أَنَّ ٱلْقَاعِدَةَ هَـٰهُنَا هِيَ ٱلْخَيْبَةُ ، وَشُذُوْذَهَا هُوَ ٱلرِّبْحُ ؛ وَلَيْسَ فِيْ ٱلاحْتِمَالِ غَيْرُ ذَلِكَ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ بَرِىءَ إِلَيْكَ ٱلْحَظُّ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ شَيْءٌ مِنْهُ ؛ وَأَيْنَ هَـٰذَا وَأَيْنَ

(١) لوترية من الكلمة الفرنسية Loterie . وتعني : اليانصيب . بسام .
(٢) النمرة الرابحة ، أي : الرقم الرابح ، ونمرة من Nombre والذي يعني : العدد ، ولعل أصل الكلمة من العربية ، فالنُّمْرَةُ : النكتة من أي لون كان ، وبعبارة أخرى : العلامة من أي شكل كانت ، بل ٱلنَّمِرُ الحيوان المعروف سمي كذلك للنُّمَرِ التي في جلده ، أي : العلامات التي في جلده . بسّام .

ٱلنِّسَاءُ ، وَمَا مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ إِلَّا وَفِيهَا مَنْفَعَةٌ تَكْثُرُ أَوْ تَقِلُّ ، بَلِ ٱلرِّجَالُ لِلنِّسَاءِ هُمْ أَوْرَاقُ ٱلسَّحْبِ فِيْ ٱعْتِبَارَاتٍ كَثِيْرَةٍ ، مَا دَامَتْ طَبِيْعَةُ ٱتِّصَالِهِمَا تَجْعَلُ ٱلْمَرْأَةَ هِيَ فِيْ قَوَانِيْنِ ٱلرَّجُلِ أَكْثَرَ مِمَّا تَجْعَلُ ٱلرَّجُلَ فِيْ قَوَانِيْنِهَا ، وَهَلْ ضَاعَتِ ٱمْرَأَةٌ إِلَّا مِنْ غَفْلَةِ رَجُلٍ أَوْ قَسْوَتِهِ أَوْ فُسُوْلَتِهِ أَوْ فُجُوْرِهِ ؟

قَالَ ٱلْمُهَنْدِسُ : فَإِنِّيْ أَعْلَمُ ٱلْآنَ ـ وَكُنْتُ أَعْلَمُ ـ أَنْ لَا صَلَاحَ لِيْ إِلَّا بِٱلزَّوَاجِ ، وَأَنَّ طَرِيْقِيْ إِلَى ٱلزَّوْجَةِ هُوَ كَذَٰلِكَ طَرِيْقِيْ إِلَىٰ فَضِيْلَتِيْ وَإِلَىٰ عَقْلِيْ . وَتَٱللهِ مَا شَيْءٌ أَسْوَأُ عِنْدَ ٱلْعَزَبِ وَلَا أَكْرَهُ إِلَيْهِ مِنْ بَقَائِهِ عَزَبًا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يُكَابِرُ فِيْ ٱلْمُمَارَاةِ كُلَّمَا تَحَاقَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَكُلَّمَا رَأَىٰ أَنَّ لَهُ حَالًا يَنْفَرِدُ بِهَا فِيْ سَخَطِ ٱللهِ وَسَخَطِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ . وَلَا مَكْذَبَةَ ، فَقَدْ وَٱللهِ أَنْفَقْتُ فِيْ رَذَائِلِيْ مَا يَجْتَمِعُ مِنْهُ مَهْرُ زَوْجَةٍ سَرِيَّةٍ تَشْتَطُّ فِيْ ٱلْمَهْرِ وَتَغْلُوْ فِيْ ٱلطَّلَبِ ؛ وَلَـٰكِنْ كَيْفَ بِيْ ٱلْآنَ وَمَا جَبَرَنِيْ مِنْ قَبْلُ إِصْلَاحٌ ، وَلَا أَعَانَنِيْ ٱقْتِصَادٌ ، وَمَنْ لِيْ بِفَتَاةٍ مِنْ طَبَقَتِيْ بِمَهْرٍ لَا أَتَحَمَّلُ مِنْهُ رَهَقًا ، وَلَا تَتَقَاصَرُ مَعَهُ أُمُوْرِيْ ، وَلَا تَخْتَلُّ مَعِيْشَتِيْ ؟

قُلْتُ : فَإِذَا لَمْ يَحْمِلْكَ ٱلْحِمَارُ مِنَ ٱلْقَاهِرَةِ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ؛ فَإِنَّهُ يَحْمِلُكَ إِلَىٰ قَلْيُوْبَ أَوْ طُوْخٍ . وَفِيْ ٱلنِّسَاءِ ٱسْكَنْدَرِيَّةٌ ، وَفِيْهِنَّ شِبْرَا ، وَقَلْيُوْبُ ، وَطُوْخٌ ؛ وَمَا قَرُبَ وَبَعُدَ ، وَمَا رَخُصَ وَغَلَا .

قَالَ : وَلَـٰكِنْ بَلَدِيْ ٱسْكَنْدَرِيَّةُ . . .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنَّكَ لَا تَمْلِكُ إِلَّا حِمَارًا . . . وَلِلْمَرْأَةِ مِنْ كُلِّ طَبَقَةٍ سِعْرُهَا فِيْ هَـٰذَا ٱلِاجْتِمَاعِ ٱلْفَاسِدِ ؛ وَلَوْ تَعَاوَنَ ٱلنَّاسُ وَصَلَحُوْا وَأَدْرَكُوْا ٱلْحَقِيْقَةَ كَمَا هِيَ ، لَمَا رَأَيْنَا ٱلزَّوَاجَ مِنْ فَقْرِ ٱلْمُهُوْرِ كَأَنَّمَا يَرْكَبُ سُلَحْفَاةً يَمْشِيْ بِهَا . . . وَنَحْنُ فِيْ عَصْرِ ٱلْقِطَارِ وَٱلطَّيَّارَةِ ، وَقَدْ كَانَ هَـٰذَا ٱلزَّوَاجُ عَلَىٰ عَهْدِ أَجْدَادِنَا فِيْ عَصْرِ ٱلْحِمَارِ وَٱلْجَمَلِ ـ كَأَنَّهُ وَحْدَهُ مِنَ ٱلسُّرْعَةِ فِيْ طَيَّارَةٍ أَوْ قِطَارٍ .

* * *

حِيْنَ يَفْسُدُ ٱلنَّاسُ لَا يَكُوْنُ ٱلِاعْتِبَارُ فِيْهِمْ إِلَّا بِٱلْمَالِ ، إِذْ تَنْزِلُ قِيْمَتُهُمُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ وَيَبْقَى ٱلْمَالُ وَحْدَهُ هُوَ ٱلصَّالِحَ ٱلَّذِيْ لَا تَتَغَيَّرُ قِيْمَتُهُ . فَإِذَا صَلَحُوْا كَانَ ٱلِاعْتِبَارُ فِيْهِمْ بِأَخْلَاقِهِمْ

وَنُفُوْسِهِمْ ، إِذْ تَنْحَطُّ قِيْمَةُ ٱلْمَالِ فِيْ ٱلِاعْتِبَارِ ، فَلَا يَغْلِبُ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُسَخِّرُهَا .

وَإِلَىٰ هَـٰذَا أَشَارَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ فِيْ قَوْلِهِ لِطَالِبِ ٱلزَّوَاجِ : « ٱلْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيْدٍ[١] » [البخاري ، رقم : ٥١٢١ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٢٥] . يُرِيْدُ بِذَٰلِكَ نَفْيَ ٱلْمَادِّيَّةِ عَنِ ٱلزَّوَاجِ ، وَإِحْيَاءَ ٱلزَّوْجِيَّةِ فِيْهِ ، وَإِقْرَارَهُ فِيْ مَعَانِيْهِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلدَّقِيْقَةِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُوْلُ : إِنَّ كِفَايَةَ ٱلرَّجُلِ فِيْ أَشْيَاءَ إِنْ يَكُنْ مِنْهَا ٱلْمَالُ فَهُوَ أَقَلُّهَا وَآخِرُهَا ، حَتَّىٰ إِنَّ ٱلْأَخَسَّ ٱلْأَقَلَّ فِيْهِ لَيُجْزِئُ مِنْهُ كَخَاتَمِ ٱلْحَدِيْدِ ؛ إِذِ ٱلرَّجُلُ هُوَ ٱلرُّجُوْلَةُ بِعَظَمَتِهَا وَجَلَالِهَا وَقُوَّتِهَا وَطِبَاعِهَا ، وَلَنْ يُجْزِئَ مِنْهُ ٱلْأَقَلُّ وَلَا ٱلْأَخَسُّ مَعَ ٱلْمَالِ ، وَإِنَّ مِلْءَ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا لَا يُكَمِّلُ لِلْمَرْأَةِ رَجُلًا نَاقِصًا ؛ وَهَلْ تُتِمُّ ٱلْأَسْنَانُ ٱلذَّهَبِيَّةُ ٱللَّامِعَةُ ، يَحْمِلُهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْهَرِمُ فِيْ فَمِهِ ، شَيْئًا مِمَّا ذَهَبَ مِنْهُ ؟ وَمَا عَسَىٰ أَنْ تَصْنَعَ قَوَاطِعُ ٱلذَّهَبِ ٱلْخَالِصِ وَطَوَاحِنُهُ لِهَـٰذَا ٱلْمِسْكِيْنِ بَعْدَ أَنْ نَطَقَ تَحَاتُّ أَسْنَانِهِ ٱلْعَظْمِيَّةِ وَتَنَاثُرُهَا أَنَّهُ رَجُلٌ حَلَّ ٱلْبِلَىٰ فِيْ عِظَامِهِ . . . ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) ٱنْظُرْ « قِصَّةُ زَوَاجٍ ، وَفَلْسَفَةُ ٱلْمَهْرِ » .

رُؤْيَا فِي ٱلسَّمَاءِ(*)

قَالَ أَبُو خَالِدٍ ٱلْأَحْوَلُ ٱلزَّاهِدُ: لَمَّا مَاتَتِ ٱمْرَأَةُ شَيْخِنَا أَبِي رَبِيعَةَ ٱلْفَقِيهِ ٱلصُّوفِيِّ، ذَهَبْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَشَهِدْنَا أَمْرَهَا ؛ فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ دَفْنِهَا وَسُوِّيَ عَلَيْهَا ، قَامَ شَيْخُنَا عَلَىٰ قَبْرِهَا وَقَالَ : يَرْحَمُكِ ٱللهُ يَا فُلَانَةُ ! ٱلآنَ قَدْ شُفِيتِ أَنْتِ وَمَرِضْتُ أَنَا ، وَعُوفِيتِ وَٱبْتُلِيتُ ، وَتَرَكْتِنِي ذَاكِرًا ، وَذَهَبْتِ نَاسِيَةً ، وَكَانَ لِلدُّنْيَا بِكِ مَعْنًى ، فَسَتَكُونُ بَعْدَكِ بِلَا مَعْنًى ؛ وَكَانَتْ حَيَاتُكِ لِي نِصْفَ ٱلْقُوَّةِ ، فَعَادَ مَوْتُكِ لِي نِصْفَ ٱلضَّعْفِ ؛ وَكُنْتُ أَرَى ٱلْهُمُومَ بِمُوَاسَاتِكِ هُمُومًا فِي صُوَرِهَا ٱلْمُخَفَّفَةِ ، فَسَتَأْتِينِي بَعْدَ ٱلْيَوْمِ فِي صُوَرِهَا ٱلْمُضَاعَفَةِ ؟ وَكَانَ وُجُودُكِ مَعِي حِجَابًا بَيْنِي وَبَيْنَ مَشَقَّاتٍ كَثِيرَةٍ ، فَسَتَخْلُصُ كُلُّ هَـٰذِهِ ٱلْمَشَاقِّ إِلَىٰ نَفْسِي ؛ وَكَانَتِ ٱلْأَيَّامُ تَمُرُّ أَكْثَرَ مَا تَمُرُّ فِي رِقَّتِكِ وَحَنَانِكِ ، فَسَتَأْتِينِي أَكْثَرَ مَا تَأْتِي مُتَجَرِّدَةً فِي قَسْوَتِهَا وَغِلْظَتِهَا . أَمَا إِنِّي ـ وَٱللهِ ـ لَمْ أُرْزَأْ مِنْكِ فِي ٱمْرَأَةٍ كَٱلنِّسَاءِ ، وَلَـٰكِنِّي رُزِئْتُ فِي ٱلْمَخْلُوقَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ٱلَّتِي أَحْسَسْتُ مَعَهَا أَنَّ ٱلْخَلِيقَةَ كَانَتْ تَتَلَطَّفُ بِي مِنْ أَجْلِهَا !

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : ثُمَّ ٱسْتَدْمَعَ ٱلشَّيْخُ ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ وَرَجَعْنَا إِلَىٰ دَارِهِ ، وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ بِمَا يُعَزِّي ٱلنَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَأَحْفَظَ لِمَا وَرَدَ فِي ذَٰلِكَ ؛ غَيْرَ أَنَّ لِلْكَلَامِ سَاعَاتٍ تَبْطُلُ فِيهَا مَعَانِيهِ أَوْ تَضْعُفُ ، إِذْ تَكُونُ ٱلنَّفْسُ مُسْتَغْرِقَةَ ٱلْهَمِّ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ قَدِ ٱنْحَصَرَتْ فِيهِ ، إِمَّا مِنْ هَوْلِ ٱلْمَوْتِ ، أَوْ حُبٍّ وَقَعَ فِيهِ مِنَ ٱلْهَوْلِ ظِلُّ ٱلْمَوْتِ ، أَوْ رَغْبَةٍ وَقَعَ فِيهَا ظِلُّ ٱلْحُبِّ ، أَوْ لَجَاجَةٍ وَقَعَ فِيهَا ظِلُّ ٱلرَّغْبَةِ . فَكُنْتُ أُحَدِّثُهُ وَأُعَزِّيهِ ، وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ حَدِيثِي وَتَعْزِيَتِي ؛ حَتَّىٰ ٱنْتَهَيْنَا إِلَى ٱلدَّارِ فَدَخَلْنَا وَمَا فِيهَا أَحَدٌ ؛ فَنَظَرَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَقَلَّبَ عَيْنَيْهِ هَـٰهُنَا وَهَـٰهُنَا ، وَحَوْقَلَ وَٱسْتَرْجَعَ ، ثُمَّ قَالَ : ٱلآنَ مَاتَتِ ٱلدَّارُ أَيْضًا يَا أَبَا خَالِدٍ ! إِنَّ ٱلْبِنَاءَ كَأَنَّمَا يَحْيَا بِرُوحِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّتِي تَتَحَرَّكُ فِي دَاخِلِهِ ؛ وَمَا دَامَ هُوَ ٱلَّذِي يَحْفَظُهَا لِلرَّجُلِ ، فَهُوَ فِي

(*) « الرسالة » العدد : ٦٩ ، ٢٠ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٧٦٣ ـ ١٧٦٦ .

عَيْنِ ٱلرَّجُلِ كَٱلْمُطْرَفِ(١) تَلْبَسُهُ فَوْقَ ثِيَابِهَا مِنْ فَوْقِ جِسْمِهَا : وَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ أَنْ تَرَىٰ عَيْنَاكَ ثَوْبَ ٱمْرَأَةٍ فِي يَدِ ٱلدَّلَّالِ فِي ٱلسُّوقِ ، وَبَيْنَ أَنْ تَرَاهُ عَيْنَاكَ يَلْبَسُهَا وَتَلْبَسُهُ ! وَلَـٰكِنَّكَ يَا أَبَا خَالِدٍ لَا تَفْقَهُ مِنْ هَـٰذَا شَيْئًا ، فَأَنْتَ رَجُلٌ آلَيْتَ لَا تَقْرَبُ ٱلنِّسَاءَ وَلَا يَقْرَبْنَكَ ، وَنَجَوْتَ بِنَفْسِكَ مِنْهُنَّ وَٱنْقَطَعْتَ بِهَا لِلهِ ؛ وَكَأَنَّ كُلَّ نِسَاءِ ٱلْأَرْضِ قَدْ شَارَكْنَ فِي وِلَادَتِكَ فَحَرُمْنَ عَلَيْكَ ! وَهَـٰذَا مَا لَا أُفْهِمُهُ أَنَا إِلَّا أَلْفَاظًا ، كَمَا لَا تَفْهَمُ أَنْتَ مَا أَجِدُ(٢) ٱلسَّاعَةَ إِلَّا أَلْفَاظًا ؛ وَشَتَّانَ بَيْنَ قَائِلٍ يَتَكَلَّمُ مِنَ ٱلطَّبْعِ ، وَبَيْنَ سَامِعٍ يَفْهَمُ بِٱلتَّكَلُّفِ .

فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا رَبِيعَةَ ! وَمَا يَمْنَعُكَ ٱلآنَ وَقَدِ ٱطَّرَحَتْ أَثْقَالَكَ وَٱنْبَتَّتْ أَسْبَابُكَ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ـ أَنْ تَعِيشَ خَفِيفَ ٱلظَّهْرِ ، وَتَفْرُغَ لِلنُّسُكِ وَٱلْعِبَادَةِ ، وَتَجْعَلَ قَلْبَكَ كَٱلسَّمَاءِ ٱنْقَشَعَ غَيْمُهَا فَسَطَعَتْ فِيهَا ٱلشَّمْسُ ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ وَلَوْ كَانَتْ صَالِحَةً قَانِتَةً ـ فَهِيَ فِي مَنْزِلِ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَابِدِ مَدْخَلُ ٱلشَّيْطَانِ إِلَيْهِ ، وَلَوْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْعَابِدَ كَانَ يَسْكُنُ فِي حَسَنَاتِهِ لَا فِي دَارٍ مِنَ ٱلطُّوبِ وَٱلْحِجَارَةِ لَكَانَتِ ٱمْرَأَتُهُ كُوَّةً يَقْتَحِمُ ٱلشَّيْطَانُ مِنْهَا . وَلَقَدْ كَانَ آدَمُ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْأَرْضِ سَمَوَاتٌ وَأَفْلَاكٌ ، فَمَا مَنَعَ ذَٰلِكَ أَنْ تَتَعَلَّقَ رُوحُ ٱلْأَرْضِ بِٱلشَّيْطَانِ ، فَيَتَعَلَّقَ ٱلشَّيْطَانُ بِحَوَّاءَ ، وَتَتَعَلَّقَ هِيَ بِآدَمَ ؛ وَمَكَرَ ٱلشَّيْطَانُ فَصَوَّرَهَا لَهُمَا فِي صِيغَةِ مَسْأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ ، وَمَكَرَتْ حَوَّاءُ فَوَضَعَتْ فِيهَا جَاذِبِيَّةَ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ ، فَلَمْ تَعُدْ مَسْأَلَةَ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ ، بَلْ مَسْأَلَةَ طَبْعٍ وَلَجَاجَةٍ . فَأَكَلَا مِنْهَا ، فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .

وَهَلِ ٱجْتَمَعَ ٱلرَّجُلُ وَٱلْمَرْأَةُ مِنْ بَعْدِهَا عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا كَانَا مِنْ نَصَبِ ٱلْحَيَاةِ وَهُمُومِهَا ، وَشَهَوَاتِهَا وَمَطَامِعِهَا ، وَمَضَارِّهَا وَمَعَايِبِهَا ـ فِي مَعْنَىٰ ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ [٧ سورة الأعراف/الآية : ٢٢] . . . ؟

كِلَانَا يَا أَبَا رَبِيعَةَ ، مِمَّنْ لَهُمْ سَيْرٌ بِٱلْبَاطِنِ فِي هَـٰذَا ٱلْوُجُودِ غَيْرُ ٱلسَّيْرِ بِٱلظَّاهِرِ ، وَمِمَّنْ لَهُمْ حَرَكَةٌ بِٱلْفِكْرِ غَيْرُ ٱلْحَرَكَةِ بِٱلْجِسْمِ ؛ فَقَبِيحٌ بِنَا أَنْ نَتَعَلَّقَ أَدْنَىٰ مُتَعَلَّقٍ بِنَوَامِيسِ هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ ٱللَّحْمِيِّ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْمَرْأَةَ ، فَهُوَ تَدَلٍّ وَإِسْفَافٌ مِنَّا .

(١) ٱلْمُطْرَفُ: رِدَاءٌ مِنْ خَزٍّ فِيهِ نُقُوشٌ تَلْبَسُهُ ٱلْمَرْأَةُ فِي دَارِهَا، وَهُوَ ٱلْمُسَمَّىٰ: ٱلرَّوْبُ [Robe أو Robe de chambre].

(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « مَا أَجِدُهُ » بَدَلًا مِنْ : « مَا أَجِدُ » .

وَلَعَلَّكَ تَقُولُ : « ٱلنَّسْلُ وَتَكْثِيرُ ٱلآدَمِيَّةِ » فَهَـٰذَا إِنَّمَا كُتِبَ عَلَىٰ إِنْسَانِ ٱلْجَوَارِحِ وَٱلْأَعْضَاءِ ، أَمَّا إِنْسَانُ ٱلْقَلْبِ فَلَهُ مَعْنَاهُ وَحُكْمُ مَعْنَاهُ ؛ إِذْ يَعِيشُ بِبَاطِنِهِ ، فَيَعِيشُ ظَاهِرُهُ فِي قَوَانِينِ هَـٰذَا ٱلْبَاطِنِ ، لَا فِي قَوَانِينِ ظَاهِرِ ٱلنَّاسِ . وَإِنَّهُ لَشَرٌّ كُلُّ مَا نَقَلَكَ إِلَىٰ طَبْعِ أَهْلِ ٱلْجَوَارِحِ وَشَهَوَاتِهِمْ ، فَزَيَّنَ لَكَ مَا يُزَيِّنُ لَهُمْ ، وَشَغَلَكَ بِمَا يَشْغَلُهُمْ ؛ فَهَـٰذَا عِنْدَنَا ـ يَرْحَمُكَ ٱللهُ ـ بَابٌ كَأَنَّهُ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْمُجُونِ ٱلَّذِي يَنْقُلُ ٱلرَّجُلَ إِلَىٰ طَبْعِ ٱلصَّبِيِّ .

فَٱطْمِسْ يَا أَخِي عَلَىٰ مَوْضِعِهَا مِنْ قَلْبِكَ ، وَأَلْقِ ٱلنُّورَ عَلَىٰ ظِلِّهَا ؛ فَٱلنُّورُ فِي قَلْبِ ٱلْعَابِدِ نُورُ ٱلتَّحْوِيلِ إِنْ شَاءَ ، وَنُورُ ٱلرُّؤْيَةِ إِنْ شَاءَ ؛ يَرَىٰ بِهِ ٱلْمَادَّةَ كَمَا يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ لَا كَمَا تَكُونُ . وَأَنْتَ قَدْ كَانَتْ فِيكَ ٱمْرَأَةٌ ، فَحَوِّلْهَا صَلَاةً ، وَٱعْمَلْ بِنُورِكَ عَكْسَ مَا يَعْمَلُ أَهْلُ ٱلْجَوَارِحِ بِظَلَامِهِمْ ، فَقَدْ تَكُونُ فِي أَحَدِهِمُ ٱلصَّلَاةُ فَيُحَوِّلُهَا ٱمْرَأَةً . . .

قَالَ أَبُو رَبِيعَةَ : تَٱللهِ إِنَّهُ لَرَأْيٌ ؛ وَٱلْوَحْدَةُ بَعْدَ ٱلآنَ أَرْوَحُ لِقَلْبِي ، وَأَجْمَعُ لِهِمَّتِي ؛ وَقَدْ خَلَعَنِي ٱللهُ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، وَأَخَذَ ٱلْقَبْرُ ٱمْرَأَتِي وَشَهَوَاتِي مَعًا ، فَسَأَعِيشُ مَا بَقِيَ لِي فِيمَا بَقِيَ مِنِّي . وَزَوَالُ شَيْءٍ فِي ٱلنَّفْسِ هُوَ وُجُودُ شَيْءٍ آخَرَ . وَلَقَدِ ٱنْتَهَيْتُ بِٱلْمَرْأَةِ وَمَعَانِيهَا وَأَيَّامِهَا إِلَى ٱلْقَبْرِ ، فَٱلْبَدْءُ ٱلآنَ مِنَ ٱلْقَبْرِ وَمَعَانِيهِ وَأَيَّامِهِ .

* * *

وَتَوَاثَقَا عَلَىٰ أَنْ يَسِيرَا مَعًا فِي (بَاطِنِ) ٱلْوُجُودِ . . . ! وَأَنْ يَعِيشَا فِي عُمْرٍ هُوَ سَاعَةٌ مَعْدُودَةُ ٱللَّحَظَاتِ ، وَحَيَاةٍ هِيَ فِكْرَةٌ مَرْسُومَةٌ مُصَوَّرَةٌ .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَرَأَيْتُ أَنْ أَبِيتَ عِنْدَهُ وَفَاءً بِحَقِّ خِدْمَتِهِ ، وَدَفْعًا لِلْوَحْشَةِ أَنْ تُعَاوِدَهُ فَتَدْخُلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِأَفْكَارِهَا وَوَسَاوِسِهَا . وَكَانَ قَدْ غَمَرَنَا تَعَبُ يَوْمِنَا ، وَأَعْيَا أَبُو رَبِيعَةَ ، وَخَذَلَتْهُ ٱلْقُوَّةُ ؛ فَلَمَّا صَلَّيْنَا ٱلْعِشَاءَ قُلْتُ : يَا أَبَا رَبِيعَةَ ! أُحِبُّ لَكَ أَنْ تَنْعَسَ فَتُرِيحَ نَفْسَكَ لِيَذْهَبَ مَا بِكَ ، فَإِذَا ٱسْتَجْمَمْتَ أَيْقَظْتُكَ فَقُمْنَا سَائِرَ ٱللَّيْلِ .

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنِ ٱضْطَجَعَ حَتَّىٰ غَلَبَهُ ٱلنُّعَاسُ . وَجَلَسْتُ أُفَكِّرُ فِي حَالِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَمَا ٱجْتَهَدْتُ لَهُ مِنَ ٱلرَّأْيِ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَعَلَّنِي أَغْرَيْتُهُ بِمَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ ، وَأَشَرْتُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ مَا كَانَ يَحْسُنُ بِمِثْلِهِ ، فَأَكُونُ قَدْ غَشَشْتُهُ . وَخَامَرَنِي ٱلشَّكُّ فِي حَالِي أَنَا أَيْضًا ،

وَجَعَلْتُ أُقَابِلُ بَيْنَ ٱلرَّجُلِ مُتَزَوِّجًا عَابِدًا ، وَبَيْنَ ٱلرَّجُلِ عَابِدًا لَمْ يَتَزَوَّجْ ؛ وَأَنْظُرُ فِي ٱرْتِيَاضِ أَحَدِهِمَا بِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ ، وَٱرْتِيَاضِ ٱلآخَرِ بِنَفْسِهِ وَحْدَهَا ؛ وَأَخَذْتُ أَذْهَبُ وَأَجِيءُ مِنْ فِكْرٍ إِلَىٰ فِكْرٍ ، وَقَدْ هَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلِي كَأَنَّ ٱلْمَكَانَ قَدْ نَامَ ، فَلَمْ أَلْبَثْ حَتَّىٰ أَخَذَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَٱسْتَثْقَلْتُ كَأَنَّمَا شُدِدْتُ شَدًّا بِحِبَالٍ مِنَ ٱلنَّوْمِ لَمْ يَجِئْ مَنْ يَقْطَعُهَا .

وَرَأَيْتُ فِي نَوْمِي كَأَنَّهَا ٱلْقِيَامَةُ وَقَدْ بُعِثَ ٱلنَّاسُ ، وَضَاقَ بِهِمُ ٱلْمَحْشَرُ ، وَأَنَا فِي جُمْلَةِ ٱلْخَلَائِقِ ، وَكَأَنَّنَا مِنَ ٱلضَّغْطَةِ حَبٌّ مَبْثُوثٌ بَيْنَ حَجَرَيِ ٱلرَّحَىٰ . هَـٰذَا وَٱلْمَوْقِفُ يَغْلِي بِنَا غَلَيَانَ ٱلْقِدْرِ بِمَا فِيهَا ، وَقَدِ ٱشْتَدَّ ٱلْكَرْبُ وَجَهَدَنَا ٱلْعَطَشُ ، حَتَّىٰ مَا مِنَّا ذُو كَبِدٍ إِلَّا وَكَأَنَّ ٱلْجَحِيمَ تَتَنَفَّسُ عَلَىٰ كَبِدِهِ ، فَمَا هُوَ ٱلْعَطَشُ بَلْ هُوَ ٱلسُّعَارُ وَٱللَّهَبُ يَحْتَدِمُ بِهِمَا ٱلْجَوْفُ وَيَتَأَجَّجُ .

فَنَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا وِلْدَانٌ يَتَخَلَّلُونَ ٱلْجَمْعَ ٱلْحَاشِدَ ، عَلَيْهِمْ مَنَادِيلُ مِنْ نُورٍ ، وَبِأَيْدِيهِمْ أَبَارِيقُ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٌ مِنْ ذَهَبٍ ، يَمْلَؤُونَ هَـٰذِهِ مِنْ هَـٰذِهِ بِسَلْسَالٍ بَرُودٍ عَذْبٍ ، رُؤْيَتُهُ عَطَشٌ مَعَ ٱلْعَطَشِ ، حَتَّىٰ لَيَتَلَوَّىٰ مَنْ رَآهُ مِنَ ٱلْأَلَمِ ، وَيَتَلَعْلَعُ كَأَنَّمَا كُوِيَ بِهِ عَلَىٰ أَحْشَائِهِ .

وَجَعَلَ ٱلْوِلْدَانُ يَسْقُونَ ٱلْوَاحِدَ بَعْدَ ٱلْوَاحِدِ ، وَيَتَجَاوَزُونَ مَنْ بَيْنَهُمَا ، وَهُمْ كَثْرَةٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ؛ وَكَأَنَّمَا يَتَخَلَّلُونَ ٱلْجَمْعَ فِي ٱلْبَحْثِ عَنْ أُنَاسٍ بِأَعْيَانِهِمْ ، يَنْضَحُونَ غَلِيلَ أَكْبَادِهِمْ بِمَا فِي تِلْكَ ٱلأَبَارِيقِ مِنْ رَوْحِ ٱلْجَنَّةِ وَمَائِهَا وَنَسِيمِهَا .

وَمَرَّ بِي أَحَدُهُمْ ، فَمَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدِي وَقُلْتُ : « ٱسْقِنِي فَقَدْ يَبِسْتُ وَٱحْتَرَقْتُ مِنَ ٱلْعَطَشِ ! » .

قَالَ : « وَمَنْ أَنْتَ ؟ » .

قُلْتُ : « أَبُو خَالِدٍ ٱلأَحْوَلُ ٱلزَّاهِدُ . . » .

قَالَ : « أَلَكَ فِي أَطْفَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَلَدٌ ٱفْتَرَطْتَهُ صَغِيرًا فَٱحْتَسَبْتَهُ عِنْدَ ٱللهِ ؟ » .

قُلْتُ : « لَا . . . » .

قَالَ : « أَلَكَ وَلَدٌ كَبِرَ فِي طَاعَةِ ٱللهِ ؟ » .

قُلْتُ : « لَا . . . » .

قَالَ : « أَلَكَ وَلَدٌ نَالَتْكَ مِنْهُ دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ جَزَاءَ حَقِّكَ عَلَيْهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِلَى ٱلدُّنْيَا ؟ » .

قُلْتُ : « لَا . . . » .

قَالَ : « أَلَكَ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ هَـٰؤُلَاءِ وَلَـٰكِنَّكَ تَعِبْتَ فِي تَقْوِيمِهِ ، وَقُمْتَ بِحَقِّ ٱللهِ فِيهِ ؟ » .

قُلْتُ : « يَرْحَمُكَ ٱللهُ ، إِنِّي كُلَّمَا قُلْتُ « لَا » أَحْسَسْتُ « لَا » هَـٰذِهِ تَمُرُّ عَلَىٰ لِسَانِي كَالْمِكْوَاةِ ٱلْحَامِيَةِ . . . » .

قَالَ : « فَنَحْنُ لَا نَسْقِي إِلَّا آبَاءَنَا ؛ تَعِبُوا لَنَا فِي ٱلدُّنْيَا ، فَٱلْيَوْمَ نَتْعَبُ لَهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ ، وَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِمُ ٱلطُّفُولَةَ ، وَإِنَّمَا قَدَّمُوا أَلْسِنَةً طَاهِرَةً لِلدِّفَاعِ عَنْهُمْ فِي هَـٰذَا ٱلْمَوْقِفِ ٱلَّذِي قَامَتْ فِيهِ مَحْكَمَةُ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلسَّيِّئَةِ . وَلَيْسَ هُنَا بَعْدَ أَلْسِنَةِ ٱلأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ طَلَاقَةً مِنْ أَلْسِنَةِ ٱلأَطْفَالِ ، فَمَا لِلطِّفْلِ مَعْنًى مِنْ مَعَانِي آثَامِكُمْ يَحْتَبِسُ فِيهِ لِسَانُهُ أَوْ يُلَجْلِجُ بِهِ » .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : فَجُنَّ جُنُونِي ، وَجَعَلْتُ أَبْحَثُ فِي نَفْسِي عَنْ لَفْظَةِ « ٱبْنِي » فَكَأَنَّمَا مُسِحَتِ ٱلْكَلِمَةُ مِنْ حِفْظِي كَمَا مُسِحَتْ مِنْ وُجُودِي ؛ وَذَكَرْتُ صَلَاتِي وَصِيَامِي وَعِبَادَتِي ، فَمَا خَطَرَتْ فِي قَلْبِي حَتَّىٰ ضَحِكَ ٱلْوَلِيدُ ضَحِكًا وَجَدْتُ فِي مَعْنَاهُ بُكَائِي وَنَدَمِي وَخَيْبَتِي .

وَقَالَ : يَا وَيْلَكَ ! أَمَا سَمِعْتَ : « إِنَّ مِنَ ٱلذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا تُكَفِّرُهَا ٱلصَّلَاةُ وَلَا ٱلصِّيَامُ ، وَيُكَفِّرُهَا ٱلْغَمُّ بِٱلْعِيَالِ » [راجع « مجمع الزوائد » ، رقم : ٣٧٣٥] . أَتَعْرِفُ مَنْ أَنَا يَا أَبَا خَالِدٍ ؟

قُلْتُ : مَنْ أَنْتَ يَرْحَمُنَا ٱللهُ بِكَ ؟

قَالَ : أَنَا ٱبْنُ ذَاكَ ٱلرَّجُلِ ٱلْفَقِيرِ ٱلْمُعِيلِ ، ٱلَّذِي قَالَ لِشَيْخِكَ ٱبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ ٱلْعَابِدِ ٱلزَّاهِدِ : « طُوبَىٰ لَكَ ! فَقَدْ تَفَرَّغْتَ لِلْعِبَادَةِ بِٱلْعُزُوبَةِ » . فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : « لَرَوْعَةٌ تَنَالُكَ بِسَبَبِ ٱلْعِيَالِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ مَا أَنَا فِيهِ . . . » ، وَقَدْ جَاهَدَ أَبِي جِهَادَ قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ وَبَدَنِهِ ، وَحَمَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ مُقَاسَاةِ ٱلأَهْلِ وَٱلْوَلَدِ حَمْلَهَا ٱلإِنْسَانِيَّ ٱلْعَظِيمَ ، وَفَكَّرَ لِغَيْرِ نَفْسِهِ ، وَٱغْتَمَّ لِغَيْرِ نَفْسِهِ ، وَعَمِلَ لِغَيْرِ نَفْسِهِ ، وَآمَنَ وَصَبَرَ ، وَوَثِقَ بِوِلَايَةِ ٱللهِ حِينَ تَزَوَّجَ فَقِيرًا ، وَبِضَمَانِ ٱللهِ حِينَ أَعْقَبَ فَقِيرًا ؛ فَهُوَ مُجَاهِدٌ فِي سُبُلٍ كَثِيرَةٍ لَا فِي سَبِيلٍ وَاحِدَةٍ كَمَا يُجَاهِدُ

ٱلْغُزَاةُ ؛ هَـٰؤُلَاءِ يُسْتَشْهَدُونَ مَرَّةً وَاحِدَةً ، أَمَّا هُوَ فَيُسْتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً فِي هُمُومِهِ بِنَا ، وَٱلْيَوْمَ يَرْحَمُهُ ٱللهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّانَا فِي ٱلدُّنْيَا .

أَمَا بَلَغَكَ قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُبَارَكِ وَهُوَ مَعَ إِخْوَانِهِ فِي ٱلْغَزْوِ : « أَتَعْلَمُونَ عَمَلًا أَفْضَلَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ ؟ قَالُوا : مَا نَعْلَمُ ذَلِكَ . قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ . قَالُوا فَمَا هُوَ ؟ قَالَ : رَجُلٌ مُتَعَفِّفٌ عَلَىٰ فَقْرِهِ ، ذُو عَائِلَةٍ قَدْ قَامَ مِنَ ٱللَّيْلِ ، فَنَظَرَ إِلَىٰ صِبْيَانِهِ نِيَامًا مُتَكَشِّفِينَ ، فَسَتَرَهُمْ وَغَطَّاهُمْ بِثَوْبِهِ ؛ فَعَمَلُهُ أَفْضَلُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ . . . » .

يَخْلَعُ ٱلأَبُ ٱلْمِسْكِينُ ثَوْبَهُ عَلَىٰ صِبْيَتِهِ لِيُدْفِئَهُمْ بِهِ وَيَتَلَقَّىٰ بِجِلْدِهِ ٱلْبَرْدَ فِي ٱللَّيْلِ ، إِنَّ هَـٰذَا ٱلْبَرْدَ - يَا أَبَا خَالِدٍ - تَحْفَظُهُ لَهُ ٱلْجَنَّةُ هُنَا فِي حَرِّ هَـٰذَا ٱلْمَوْقِفِ كَأَنَّهَا مُؤْتَمَنَةٌ عَلَيْهِ إِلَىٰ أَنْ تُؤَدِّيَهُ . وَإِنَّ ذَلِكَ ٱلدِّفْءَ ٱلَّذِي شَمِلَ أَوْلَادَهُ يَا أَبَا خَالِدٍ - هُوَ هُنَا يُقَاتِلُ جَهَنَّمَ وَيَدْفَعُهَا عَنْ هَـٰذَا ٱلأَبِ ٱلْمِسْكِينِ .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَيَهُمُّ ٱلْوَلِيدُ أَنْ يَمْضِيَ وَيَدَعَنِي ، فَمَا أَمْلِكُ نَفْسِي ، فَأَمُدُّ يَدِي إِلَى ٱلإِبْرِيقِ فَأَنْشَطُهُ مِنْ يَدِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ عَظْمٍ ضَخْمٍ قَدْ نَشِبَ فِي كَفِّي وَمَا يَلِيهَا مِنْ أَسَلَةِ ٱلذِّرَاعِ(١) . فَغَابَتْ فِيهِ أَصَابِعِي ، فَلَا أَصَابِعَ لِي وَلَا كَفَّ . وَأَبَى ٱلإِبْرِيقُ أَنْ يَسْقِيَنِي وَصَارَ مُثْلَةً بِي ، وَتَجَسَّدَتْ هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيمَةُ لِتَشْهَدَ عَلَيَّ ، فَأَخَذَنِي ٱلْهَوْلُ وَٱلْفَزَعُ ، وَجَاءَ إِبْرِيقٌ مِنَ ٱلْهَوَاءِ ، فَوَقَعَ فِي يَدِ ٱلْوَلِيدِ ، فَتَرَكَنِي وَمَضَىٰ .

وَقُلْتُ لِنَفْسِي : وَيْحَكَ يَا أَبَا خَالِدٍ ! مَا أَرَاكَ إِلَّا مُحَاسَبًا عَلَىٰ حَسَنَاتِكَ كَمَا يُحَاسَبُ ٱلْمُذْنِبُونَ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِمْ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ !

وَبَلَغَتْنِي ٱلصَّيْحَةُ ٱلرَّهِيبَةُ : أَيْنَ أَبُو خَالِدٍ ٱلأَحْوَلُ ٱلزَّاهِدُ ٱلْعَابِدُ ؟

قُلْتُ : هَـٰأَنَذَا .

قِيلَ : طَاوُوسٌ مِنْ طَوَاوِيسِ ٱلْجَنَّةِ قَدْ حُصَّ(٢) ذَيْلُهُ فَضَاعَ أَحْسَنُ مَا فِيهِ ! أَيْنَ ذَيْلُكَ

(١) ٱلأَسَلَةُ : مَا يَلِي ٱلْكَفَّ مِنَ ٱلذِّرَاعِ إِلَى ٱلْقِسْمِ ٱلْمُسْتَغْلَظِ مِنْهَا . فَٱلأَسَلَةُ هِيَ ٱلْعَظَمَةُ ٱلَّتِي تُشَدُّ عَلَيْهَا سَاعَةُ ٱلْيَدِ .

(٢) حُصَّ ذَيْلُهُ : قُطِعَ وَجُذَّ .

مِنْ أَوْلَادِكَ ، وَأَيْنَ مَحَاسِنُكَ فِيهِمْ ؟ أَخُلِقَتْ لَكَ ٱلْمَرْأَةُ لِتَتَجَنَّبَهَا ، وَجُعِلَتْ نَسْلَ أَبَوَيْكَ لِتَتَبَرَّأَ أَنْتَ مِنَ ٱلنَّسْلِ ؟

جِئْتَ مِنَ ٱلْحَيَاةِ بِأَشْيَاءَ لَيْسَ فِيهَا حَيَاةٌ ؛ فَمَا صَنَعْتَ لِلْحَيَاةِ نَفْسِهَا إِلَّا أَنْ هَرَبْتَ مِنْهَا ، وَٱنْهَزَمْتَ عَنْ مُلَاقَاتِهَا ؛ ثُمَّ أَنْتَ تَأْمُلُ جَائِزَةَ ٱلنَّصْرِ عَلَىٰ هَزِيمَةٍ . . . !

عَمِلَتِ ٱلْفَضِيلَةُ فِي نَفْسِكَ وَنَشْأَتِكَ ، وَلَـٰكِنَّهَا عَقِمَتْ فَلَمْ تَعْمَلْ بِكَ . لَكَ أَلْفُ أَلْفِ رَكْعَةٍ وَمِثْلُهَا سَجَدَاتٌ مِنَ ٱلنَّوَافِلِ ، وَلَخَيْرٌ مِنْهَا كُلِّهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ صُلْبِكَ أَعْضَاءٌ تَرْكَعُ وَتَسْجُدُ .

قَتَلْتَ رُجُولَتَكَ ، وَوَأَدْتَ فِيهَا ٱلنَّسْلَ ، وَلَبِثْتَ طَوَالَ عُمْرِكَ وَلَدًا كَبِيرًا لَمْ تَبْلُغْ رُتْبَةَ ٱلْأَبِ ! فَلَئِنْ أَقَمْتَ ٱلشَّرِيعَةَ ، لَقَدْ عَطَّلْتَ ٱلْحَقِيقَةَ ، وَلَئِنْ . . .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَوَقَعَتْ غُنَّةُ ٱلنُّونِ ٱلثَّانِيَةِ فِي مِسْمَعِيَّ مِنْ هَوْلِ مَا خِفْتُ مِمَّا بَعْدَهَا كَٱلنَّفْخِ فِي ٱلصُّورِ ؛ فَطَارَ نَوْمِي وَقُمْتُ فَزِعًا مُشَتَّتَ ٱلْقَلْبِ ، كَمَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ بَعْدَ غَشْيَةٍ ، فَرَأَىٰ نَفْسَهُ فِي كَفَنٍ فِي قَبْرٍ سُدَّ عَلَيْهِ . . . !

وَمَا كِدْتُ أَعِي وَأَنْظُرُ حَوْلِي وَقَدْ بَرَقَ ٱلصُّبْحُ فِي ٱلدَّارِ حَتَّىٰ رَأَيْتُ أَبَا رَبِيعَةَ يَتَقَلَّبُ كَأَنَّمَا دَحْرَجَتْهُ يَدٌ ، ثُمَّ نَهَضَ مُسْتَطَارَ ٱلْقَلْبِ مِنْ فَزَعِهِ وَقَالَ : أَهْلَكْتَنِي يَا أَبَا خَالِدٍ ، أَهْلَكْتَنِي وَٱللهِ .

* * *

قُلْتُ : مَا بَالُكَ يَرْحَمُكَ ٱللهُ !

قَالَ : إِنِّي نِمْتُ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلنِّيَّةِ ٱلَّتِي عَرَفْتَ : أَنْ أَجْمَعَ قَلْبِي لِلْعِبَادَةِ ، وَأَخْلُصَ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ وَٱلْوَلَدِ ، وَمِنَ ٱلْمُعَانَاةِ لَهُمَا فِي مَرَمَّةِ ٱلْمَعَاشِ وَٱلتَّلْفِيقِ بَيْنَ رَغِيفٍ وَرَغِيفٍ ، وَأَنْ أُعْفِيَ نَفْسِي مِنْ لَأْوَائِهِمْ وَضَرَّائِهِمْ وَبَلَائِهِمْ ، لِأَفْرُغَ إِلَى ٱللهِ وَأُقْبِلَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ . وَسَأَلْتُ ٱللهَ أَنْ يَخِيرَ لِي فِي نَوْمِي ؛ فَرَأَيْتُ كَأَنَّ أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ قَدْ فُتِحَتْ ، وَكَأَنَّ رِجَالًا يَنْزِلُونَ وَيَسِيرُونَ فِي ٱلْهَوَاءِ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، أَجْنِحَةً وَرَاءَ أَجْنِحَةٍ ؛ فَكُلَّمَا نَزَلَ وَاحِدٌ نَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ لِمَنْ وَرَاءَهُ : هَـٰذَا هُوَ ٱلْمَشْؤُومُ !

فَيَقُولُ ٱلْآخَرُ : نَعَمْ هُوَ ٱلْمَشْؤُومُ !

وَيَنْظُرُ هَـٰذَا ٱلْآخَرُ إِلَيَّ ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِمَنْ وَرَاءَهُ وَيَقُولُ لَهُ : هَـٰذَا هُوَ ٱلْمَشْؤُومُ !

فَيَقُولُ ٱلْآخَرُ : نَعَمْ هُوَ ٱلْمَشْؤُومُ !

وَيَنْظُرُ هَـٰذَا ٱلْآخَرُ إِلَيَّ ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِمَنْ وَرَاءَهُ وَيَقُولُ لَهُ : هَـٰذَا هُوَ ٱلْمَشْؤُومُ !

فَيَقُولُ ٱلْآخَرُ : نَعَمْ هُوَ ٱلْمَشْؤُومُ !

وَمَا زَالَتِ « ٱلْمَشْؤُومُ ، ٱلْمَشْؤُومُ » حَتَّىٰ مَرُّوا ؛ لَا يَقُولُونَ غَيْرَهَا وَلَا أَسْمَعُ غَيْرَهَا ، وَأَنَا فِي ذَلِكَ أَخَافُ أَنْ أَسْأَلَهُمْ ، هَيْبَةً مِنَ ٱلشُّؤْمِ ، وَرَجَاءَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَشْؤُومُ إِنْسَانًا وَرَائِي يُبْصِرُونَهُ وَلَا أُبْصِرُهُ . ثُمَّ مَرَّ بِي آخِرُهُمْ ، وَكَانَ غُلَامًا ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَـٰذَا ! مَنْ هُوَ ٱلْمَشْؤُومُ ٱلَّذِي تُومِئُونَ إِلَيْهِ ؟

قَالَ : أَنْتَ !

فَقُلْتُ : وَلِمَ ذَاكَ ؟

قَالَ : كُنَّا نَرْفَعُ عَمَلَكَ فِي أَعْمَالِ ٱلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، ثُمَّ مَاتَتِ ٱمْرَأَتُكَ وَتَحَزَّنْتَ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِحَقِّهَا ، فَرَفَعْنَا عَمَلَكَ دَرَجَةً أُخْرَىٰ ؛ ثُمَّ أُمِرْنَا ٱللَّيْلَةَ أَنْ نَضَعَ عَمَلَكَ مَعَ ٱلْخَالِفِينَ ٱلَّذِينَ فَرُّوا وَجَبُنُوا ! . . .

* * *

إِنَّ سُمُوَّ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عَنِ ٱلزَّوْجَةِ وَٱلْوَلَدِ طَيَرَانٌ إِلَى ٱلْأَعْلَىٰ . . . وَلَـٰكِنَّهُ طَيَرَانٌ عَلَىٰ أَجْنِحَةِ ٱلشَّيَاطِينِ !

طَيَرَانٌ بِٱلرَّجُلِ إِلَىٰ فُوَهَةِ ٱلْبُرْكَانِ ٱلَّذِي فِي ٱلْأَعْلَىٰ . . . !

طنطا مصطفى صادق الرافعي

بِنْتُهُ ٱلصَّغِيرَةُ(*)

١

فَرَغَ أَبُوْ يَحْيَىٰ مَالِكُ بْنُ دِيْنَارٍ ، زَاهِدُ ٱلْبَصْرَةِ وَعَالِمُهَا ، مِنْ كِتَابَةِ ٱلْمُصْحَفِ ؛ وَكَانَ يَكْتُبُ ٱلْمَصَاحِفَ لِلنَّاسِ ، وَيَعِيْشُ مِمَّا يَأْخُذُ مِنْ أُجْرَةِ كِتَابَتِهِ ؛ تَعَفُّفًا أَنْ يَطْعَمَ إِلَّا مِنْ كَسْبِ يَدِهِ ـ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ دَارِهِ وَجْهُهُ ٱلْمَسْجِدُ ، فَأَتَاهُ فَصَلَّىٰ بِٱلنَّاسِ صَلَاةَ ٱلْعَصْرِ ، وَجَلَسُوْا يَنْتَظِرُوْنَهُ ، وَٱسْتَوَىٰ هُوَ قَائِمًا ، فَرَكَعَ وَسَجَدَ مَا شَاءَ ٱللهُ حَتَّىٰ قَضَىٰ نَافِلَتَهُ ، ثُمَّ ٱنْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ فَقَامَ إِلَىٰ أُسْطُوَانَتِهِ(١) ٱلَّتِيْ يَسْتَنِدُ إِلَيْهَا ، وَتَحَلَّقَ ٱلنَّاسُ حَوْلَهُ جُمُوْعًا خَلْفَ جُمُوْعٍ خَلْفَ جُمُوْعٍ ، يَذْهَبُ فِيْهِمْ ٱلْبَصَرُ مَرَّةً هُنَا وَمَرَّةً هُنَا مِنْ كَثْرَتِهِمْ وَٱمْتِدَادِهِمْ ، حَتَّىٰ تَغَطَّىٰ بِهِمُ ٱلْمَسْجِدُ عَلَىٰ رُحْبِهِ . وَمَدَّ ٱلإِمَامُ عَيْنَهُ فِيْهِمْ ثُمَّ أَطْرَقَ إِطْرَاقَةً طَوِيْلَةً ، وَٱلنَّاسُ كَأَنَّ عَلَيْهِمُ ٱلطَّيْرَ مِمَّا سَكَنُوْا لِهَيْبَتِهِ ، وَمِمَّا عَجِبُوْا لِخُشُوْعِهِ ؛ ثُمَّ رَفَعَ ٱلشَّيْخُ رَأْسَهُ وَقَدْ تَنَدَّتْ عَيْنَاهُ ، فَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا ٱطَّلَعَ عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ فَجْرٌ رَطْبٌ مِنْ سِحْرِ ذَلِكَ ٱلنَّدَىٰ .

وَبَدَرَ شَابٌّ حَدَثٌ فَسَأَلَهُ : مَا بُكَاءُ ٱلشَّيْخِ ؟ وَكَانَ قَرِيْبًا يَجْلِسُ مِنَ ٱلإِمَامِ فِيْ سَمْتِ بَصَرِهِ(٢) ، فَتَأَمَّلَهُ ٱلشَّيْخُ طَوِيْلًا يُقَلِّبُ فِيْهِ ٱلطَّرْفَ كَٱلْمُتَعَجِّبِ ، وَلَبِثَ لَا يُجِيْبُهُ كَأَنَّمَا عَقَدَ لِسَانَهُ أَوْ أَخَذَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ حَالٌ ، فَمَا يُثْبِتُ شَيْئًا مِمَّا يَرَىٰ .

وَٱزْدَادَ ٱلنَّاسُ عَجَبًا ؛ فَمَا جَرَّبُوْا عَلَىٰ ٱلشَّيْخِ مِنْ قَبْلِهَا حَصَرًا وَلَا عِيًّا ، وَلَا قَطَعَهُ سُؤَالٌ قَطُّ ، وَلَا تَخَلَّفَ قَطُّ عَنْ جَوَابٍ ؛ وَقَالُوْا : إِنَّ لَهُ لَشَأْنًا ، وَمَا بُدٌّ أَنْ تَكُوْنَ مِنْ وَرَاءِ حُبْسَتِهِ شِعَابٌ فِيْ نَفْسِهِ تَهْدِرُ بِسَيْلِهَا وَتَعْتَلِجُ ؛ فَمَا أَسْرَعَ مَا يَلْتَقِيْ ٱلسَّيْلُ ، فَيَجْتَمِعُ ، فَيُصَوَّبُ إِلَىٰ مَجْرَاهُ ، فَيَتَقَاذَفُ .

(*) « الرسالة » العدد : ٨٢ ، ٢٣ شوال سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٨ يناير/كانون الآخر ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٢٣ ـ ١٢٦ .

(١) كَانَ ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلرُّوَاةُ يَجْلِسُوْنَ إِلَىٰ أَسَاطِيْنِ ٱلْمَسْجِدِ ، وَهِيَ أَعْمِدَتُهُ ، كَمَا كَانَ بِٱلأَزْهَرِ إِلَىٰ عَهْدٍ قَرِيْبٍ .

(٢) { أَيْ : أَمَامَهُ ، فِيْ ٱلْخَطِّ ٱلَّذِيْ يَمْتَدُّ فِيْهِ ٱلْبَصَرُ } .

وَتَبَسَّمَ ٱلإِمَامُ وَقَالَ : أَمَا إِنِّيْ قَدْ ذَكَرْتُ ذِكْرَىٰ فَبَكَيْتُ لَهَا ، وَرَأَيْتُ رُؤْيَا فَتَبَسَّمْتُ لَهَا ؛ أَمَّا ٱلذِّكْرَىٰ ، فَهَلْ تَعْلَمُوْنَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْمَسْجِدَ ٱلَّذِيْ يَفْهَقُ بِهَـٰذَا ٱلْحَشْدِ ٱلْعَظِيْمِ ، وَتَقَعُ فِيْهِ ٱلْمَدِيْنَةُ لِكُلِّ أَذَانٍ وَتَطِيْرُ ـ هَلْ تَعْلَمُوْنَ أَنَّهُ خَلَا قَطُّ مِنَ ٱلنَّاسِ وَقَدْ وَجَبَتِ ٱلْفَرِيْضَةُ ؟

قَالُوْا : مَا نَعْلَمُهُ .

قَالَ : فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ لِعِشْرِيْنَ سَنَةً خَلَتْ فِيْ مَوْتِ ٱلْحَسَنِ(١) ، فَقَدْ مَاتَ عَشِيَّةَ ٱلْخَمِيْسِ ، وَأَصْبَحْنَا يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ فَفَرَغْنَا مِنْ أَمْرِهِ ، وَحَمَلْنَاهُ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلْجُمُعَةِ ، فَتَبِعَ أَهْلُ ٱلْبَصْرَةِ كُلُّهُمْ جَنَازَتَهُ وَٱشْتَغَلُوْا بِهِ ، فَلَمْ تُقَمْ صَلَاةُ ٱلْعَصْرِ بِهَـٰذَا ٱلْمَسْجِدِ ، وَمَا تُرِكَتْ مُنْذُ كَانَ ٱلإِسْلَامُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ ؛ وَمِثْلُ ٱلْحَسَنِ لَا تَمُوْتُ سَاعَةُ مَوْتِهِ مِنْ عُمْرِ مَنْ شَهِدَهَا ، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَجِيْبٌ قَدْ لَفَّ نَهَارُهُ ٱلْبَصْرَةَ كُلَّهَا فِيْ كَفَنٍ أَبْيَضَ ، فَمَا بَقِيَتْ فِيْ نَفْسِ رَجُلٍ وَلَا ٱمْرَأَةٍ شَهْوَةٌ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا ، وَفَرَغَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَاطِلِهِ ، كَمَا يَفْرُغُ مَنْ أَيْقَنَ أَنْ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَبْرِهِ إِلَّا سَاعَةٌ ؛ وَظَهَرَ لَهُمُ ٱلْمَوْتُ فِيْ حَقِيْقَةٍ جَدِيْدَةٍ بَالِغَةِ ٱلرَّوْعِ لَا يَرَاهَا ٱلأَبْنَاءُ فِيْ مَوْتِ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَلَا ٱلآبَاءُ وَٱلأُمَّهَاتُ فِيْ مَوْتِ مَنْ وَلَدُوْا ، وَلَا ٱلْمُحِبُّ فِيْ مَوْتِ حَبِيْبِهِ ، وَلَا ٱلْحَمِيْمُ فِيْ مَوْتِ حَمِيْمِهِ ؛ فَإِنَّ ٱلْجَمِيْعَ فَقَدُوْا ٱلْوَاحِدَ ٱلَّذِيْ لَيْسَ غَيْرُهُ فِيْ ٱلْجَمِيْعِ ؛ وَكَمَا يَمُوْتُ ٱلْعَزِيْزُ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ فَيَكُوْنُ ٱلْمَوْتُ وَاحِدًا وَتَتَعَدَّدُ فِيْهِمْ مَعَانِيْهِ ، كَذَلِكَ كَانَ مَوْتُ ٱلْحَسَنِ مَوْتًا بِعَدَدِ أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ !

ذَاكَ يَوْمٌ ٱمْتَدَّ فِيْهِ ٱلْمَوْتُ وَكَبُرَ ، وَٱنْكَمَشَتْ فِيْهِ ٱلْحَيَاةُ وَصَغُرَتْ ، وَتَحَاقَرَتِ ٱلدُّنْيَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، حَتَّىٰ رَجَعَتْ بِمِقْدَارِ هَـٰذِهِ ٱلْحُفْرَةِ ٱلَّتِيْ يُلْقَىٰ فِيْهَا ٱلْمُلُوْكُ وَٱلصَّعَالِيْكُ ، وَٱلأَخْلَاطُ بَيْنَ هَـٰؤُلَاءِ وَأُوْلَـٰئِكَ ، لَا يَصْغُرُ عَنْهَا ٱلصَّغِيْرُ ، وَلَا يَكْبُرُ عَنْهَا ٱلْكَبِيْرُ ؛ لَا بَلْ دُوْنَ ذَلِكَ ، حَتَّىٰ رَجَعَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَىٰ قَدْرِ جِيْفَةِ حَيَوَانٍ بِٱلْعَرَاءِ ، تَنْكَشِفُ لِلأَبْصَارِ عَنْ شَوْهَاءَ نَجِسَةٍ قَدْ أَرِمَتْ(٢) ، لَا تُطَاقُ عَلَىٰ ٱلنَّظَرِ ، وَلَا عَلَىٰ ٱلشَّمِّ ، وَلَا عَلَىٰ ٱللَّمْسِ ؛ وَمَا تَتَفَجَّرُ إِلَّا عَنْ آفَةٍ ، وَمَا تَتَفَجَّرُ إِلَّا لِهَوَامِّ ٱلأَرْضِ .

تِلْكَ هِيَ ٱلذِّكْرَىٰ ، وَأَمَّا ٱلرُّؤْيَا فَقَدْ طَالَعَتْنِيْ نَفْسِيْ مِنْ وَجْهِ هَـٰذَا ٱلْفَتَىٰ ، فَأَبْصَرْتُنِيْ

---

(١) هُوَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ وَٱلإِمَامُ ٱلْعَظِيْمُ ، وَسَيَأْتِيْ وَصْفُهُ ، وُلِدَ سَنَةَ ١٥ لِلْهِجْرَةِ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١١٠ ، وَقَدْ تُوُفِّيَ مَالِكُ بْنُ دِيْنَارٍ شَيْخُ هَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ فِيْ سَنَةِ ١٣١ ، فَيَكُوْنُ تَارِيْخُ ٱلْقِصَّةِ فِيْ سَنَةِ ١٣٠ .

(٢) أَرِمَتْ : بَدَأَتْ تَتَعَفَّنُ وَتَبْلَىٰ .

حِيْنَ كُنْتُ مِثْلَهُ يَافِعًا مُتَرَعْرِعًا دَاخِلًا فِيْ عَصْرِ شَبَابِيْ ، فَكَأَنَّمَا ٱنْتَبَهَتْ عَيْنِيْ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ عَلَىٰ فَاتِكٍ خَبِيْثٍ كَانَ فِيْ جِنَايَاتِهِ فِيْ أَغْلَالِهِ فِيْ سِجْنِهِ ، وَمَاتَ طَوِيْلًا ثُمَّ بُعِثَ !

إِنِّيْ مُخْبِرُكُمْ عَنِّيْ بِمَا لَمْ تُحِيْطُوْا بِهِ ، فَأَرْعُوْهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَحْضِرُوْهُ أَفْهَامَكُمْ ، وَٱسْتَجْمِعُوْا لَهُ ، فَإِنَّهُ كَانَ غَيْبَ شَيْخِكُمْ ، وَأَنَا مُحَدِّثُكُمْ بِهِ كَيْلَا يَيْئَسَ ضَعِيْفٌ ، وَلَا يَقْنَطَ يَائِسٌ ، فَإِنَّ رَحْمَةَ ٱللهِ قَرِيْبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِيْنَ .

* * *

لَقَدْ كُنْتُ فِيْ صَدْرِ أَيَّامِيْ شُرْطِيًّا، وَكُنْتُ فِيْ آنِفَةِ ٱلْحَدَاثَةِ مِنْ قَبْلِهَا أَتَفَتَّىٰ وَأَتَشَطَّرُ، وَكُنْتُ قَوِيًّا مَعْصُوْبًا فِيْ مِثْلِ جِبْلَةِ ٱلْجَبَلِ مِنْ غِلَظٍ وَشِدَّةٍ ، وَكُنْتُ قَاسِيًا كَأَنَّ فِيْ أَضْلَاعِيْ جَنْدَلَةً لَا قَلْبًا ، فَلَا أَتَذَمَّمُ وَلَا أَتَأَثَّمُ ؛ وَكُنْتُ مُدْمِنًا عَلَىٰ ٱلْخَمْرِ ، لِأَنَّهَا رُوْحَانِيَّةُ مَنْ عَجَزَ أَنْ تَكُوْنَ فِيْهِ رُوْحَانِيَّةٌ، وَكَأَنَّهَا إِلَـٰهِيَّةٌ يُزَوِّرُهَا ٱلشَّيْطَانُ ـ لَعَنَهُ ٱللهُ ـ فَيَخْلُقُ بِهَا لِلنَّفْسِ مَا تُحِبُّ مِمَّا تَكْرَهُ ، وَيُثِيْبُهَا ثَوَابَ سَاعَةٍ لَيْسَتْ فِيْ ٱلزَّمَنِ بَلْ فِيْ خَيَالِ شَارِبِهَا . وَكَأَنَّ جَهْلَ ٱلْعَقْلِ نَفْسَهُ فِيْ بَعْضِ سَاعَاتِ ٱلْحَيَاةِ ، هُوَ ـ فِيْ عِلْمِ ٱلشَّيْطَانِ وَتَعْلِيْمِهِ ـ مَعْرِفَةُ ٱلْعَقْلِ نَفْسَهُ فِيْ ٱلْحَيَاةِ !

فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ أَجُوْلُ فِيْ ٱلسُّوْقِ ، وَٱلنَّاسُ يَفُوْرُوْنَ فِيْ بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ ، وَأَنَا أَرْقُبُ ٱلسَّارِقَ ، وَأُعِدُّ لِلْجَانِيْ ، وَأَتَهَيَّأُ لِلنِّزَاعِ ـ إِذْ رَأَيْتُ ٱثْنَيْنِ يَتَلَاحَيَانِ ، وَقَدْ لَبَّبَ أَحَدُهُمَا ٱلْآخَرَ ؛ فَأَخَذْتُ إِلَيْهِمَا ، فَسَمِعْتُ ٱلْمَظْلُوْمَ يَقُوْلُ لِلظَّالِمِ : لَقَدْ سَلَبْتَنِيْ فَرَحَ بُنَيَّاتِيْ ، فَسَيَدْعُوْنَ ٱللهَ عَلَيْكَ فَلَا تُصِيْبُ مِنْ بَعْدِهَا خَيْرًا ، فَإِنِّيْ مَا خَرَجْتُ إِلَّا ٱتِّبَاعًا لِقَوْلِ رَسُوْلِ ٱللهِ ﷺ : « مَنْ خَرَجَ إِلَىٰ سُوْقٍ مِنْ أَسْوَاقِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ، فَٱشْتَرَىٰ شَيْئًا ، فَحَمَلَهُ إِلَىٰ بَيْتِهِ ، فَخَصَّ بِهِ ٱلْإِنَاثَ دُوْنَ ٱلذُّكُوْرِ ؛ نَظَرَ ٱللهُ إِلَيْهِ » . [قال الحافظ العراقي رحمه الله تعالى في « تخريج أحاديث الإحياء » : أخرجه الخرائطي بسند ضعيف] .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَكُنْتُ عَزَبًا لَا زَوْجَةَ لِيْ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْآدَمِيَّةَ ٱنْتَبَهَتْ فِيَّ ، وَطَمِعْتُ فِيْ دَعْوَةٍ صَالِحَةٍ مِنَ ٱلْبُنَيَّاتِ ٱلْمِسْكِيْنَاتِ ، إِذَا أَنَا فَرَّحْتُهُنَّ ؛ وَدَخَلَتْنِيْ لَهُنَّ رِقَّةٌ شَدِيْدَةٌ ، فَأَخَذْتُ لِلرَّجُلِ مِنْ غَرِيْمِهِ حَتَّىٰ رَضِيَ ، وَأَضْعَفْتُ لَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِيْ لِأَزِيْدَ فِيْ فَرَحِ بَنَاتِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ وَهُوَ يَنْصَرِفُ : عَهْدٌ يُحَاسِبُكَ ٱللهُ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَوْفِيْهِ لِيْ مِنْكَ ، أَنْ تَجْعَلَ بَنَاتِكَ يَدْعُوْنَ لِيْ إِذَا رَأَيْتَ فَرَحَهُنَّ بِمَا تَحْمِلُ إِلَيْهِنَّ ، وَقُلْ لَهُنَّ : مَالِكُ بْنُ دِيْنَارٍ .

وَبِتُّ لَيْلَتِيْ أَتَقَلَّبُ مُفَكِّرًا فِيْ قَوْلِ رَسُوْلِ ٱللهِ ﷺ وَمَعَانِيْهِ ٱلْكَثِيْرَةِ ، وَحَثِّهِ عَلَىٰ إِكْرَامِ ٱلْبَنَاتِ ، وَأَنَّ مَنْ أَكْرَمَ بَنَاتِهِ كَرُمَ عَلَىٰ ٱللهِ ، وَحِرْصِهِ أَنْ يَنْشَأْنَ كَرِيْمَاتٍ فَرِحَاتٍ ؛ وَحَدَّثَنِيْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيْثَ لَيْلَتِيْ تِلْكَ إِلَىٰ ٱلصُّبْحِ ، وَفَكَّرْتُ حِيْنَئِذٍ فِيْ ٱلزَّوَاجِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ ٱلنَّاسَ لَا يُزَوِّجُوْنَنِيْ مِنْ طَيِّبَاتِهِمْ مَا دُمْتُ فِيْ ٱلْخَبِيْثِيْنَ ؛ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَىٰ سُوْقِ ٱلْجَوَارِيْ ، فَٱشْتَرَيْتُ جَارِيَةً نَفِيْسَةً ، وَوَقَعَتْ مِنِّيْ أَحْسَنَ مَوْقِعٍ ، وَوَلَدَتْ لِيَ بِنْتًا فَشُغِفْتُ بِهَا ، وَظَهَرَتْ لِيْ فِيْهَا ٱلْإِنْسَانِيَّةُ ٱلْكَبِيْرَةُ ٱلَّتِيْ لَيْسَتْ فِيَّ ، فَرَأَيْتُ بُعْدَ مَا بَيْنِيْ وَبَيْنَ صُوْرَتِيْ ٱلْأُوْلَىٰ ؛ وَرَأَيْتُهَا سَمَاوِيَّةً لَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَتَمْلِكُ أَبَاهَا وَأُمَّهَا ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ ٱلدُّنْيَا إِلَّا شِبَعُ بَطْنِهَا وَمَا أَيْسَرَهُ ، ثُمَّ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ سُرُوْرُ نَفْسِهَا كَامِلًا تَشُبُّ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا تَشُبُّ عَلَىٰ ٱلرَّضَاعِ ؛ فَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ٱلَّذِيْ تَكْتَنِفُهُ رَحْمَةُ ٱللهِ يَمْلِكُ بِهَا دُنْيَا نَفْسِهِ ، فَمَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَفُوْتَهُ دُنْيَا غَيْرِهِ ؛ وَأَنَّ ٱلَّذِيْ يَجِدُ طَهَارَةَ قَلْبِهِ يَجِدُ سُرُوْرَ قَلْبِهِ ، وَتَكُوْنُ نَفْسُهُ دَائِمًا جَدِيْدَةً عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا ؛ وَأَنَّ ٱلَّذِيْ يَحْيَا بِٱلثِّقَةِ تُحْيِيْهِ ٱلثِّقَةُ ؛ وَٱلَّذِيْ لَا يُبَالِيْ ٱلْهَمَّ لَا يُبَالِيْ ٱلْهَمُّ بِهِ ؛ وَأَنَّ زِيْنَةَ ٱلدُّنْيَا وَمَتَاعَهَا وَغُرُوْرَهَا وَمَا تَجْلِبُ مِنَ ٱلْهَمِّ ـ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ صِغَرِ ٱلْعَقْلِ فِيْ ٱلْإِيْمَانِ حِيْنَ يَكْبُرُ ٱلْعَقْلُ فِيْ ٱلْعِلْمِ !

كَانَتِ ٱلْبُنَيَّةُ بَدْءَ حَيَاةٍ فِيْ بَيْتِيْ وَبَدْءَ حَيَاةٍ فِيْ نَفْسِيْ ، فَلَمَّا دَبَّتْ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ ٱزْدَدْتُ لَهَا حُبًّا ، وَأَلِفَتْنِيْ وَأَلِفْتُهَا ، فَرُزِقَتْ رُوْحِيْ مِنْهَا أَطْهَرَ صَدَاقَةٍ فِيْ صَدِيْقٍ ، تَتَجَدَّدُ لِلْقَلْبِ كُلَّ يَوْمٍ ، بَلْ كُلَّ سَاعَةٍ ، وَلَا تَكُوْنُ إِلَّا لِمَحْضِ سُرُوْرِ ٱلْقَلْبِ دُوْنَ مَطَامِعِهِ ، فَتُمِدُّهُ بِٱلْحَيَاةِ نَفْسِهَا لَا بِأَشْيَاءِ ٱلْحَيَاةِ ، فَلَا تَزِيْدُ ٱلْأَشْيَاءُ فِيْ ٱلْمَحَبَّةِ وَلَا تَنْقُصُ مِنْهَا ، عَلَىٰ خِلَافِ مَا يَكُوْنُ فِيْ ٱلْأَصْدِقَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ وَٱخْتِلَافِهِمْ عَلَىٰ ٱلْمَضَرَّةِ وَٱلْمَنْفَعَةِ .

* * *

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَجَهَدْتُ أَنْ أَتْرُكَ ٱلْخَمْرَ ، فَلَمْ يَأْتِ لِيْ وَلَمْ أَسْتَطِعْهُ ؛ إِذْ كُنْتُ مُنْهَمِكًا عَلَىٰ شُرْبِهَا ، وَلَـٰكِنَّ حُبَّ ٱبْنَتِيْ وَضَعَ فِيْ ٱلْخَمْرِ إِثْمَهَا ٱلَّذِيْ وَضَعَتْهُ فِيْهَا ٱلشَّرِيْعَةُ ، فَكَرِهْتُهَا كُرْهًا شَدِيْدًا ، وَأَصْبَحْتُ كَٱلْمُكْرَهِ عَلَيْهَا ، وَلَمْ تَعُدْ فِيْهَا نَشْوَتُهَا وَلَا رِيُّهَا ؛ وَكَانَتِ ٱلصَّغِيْرَةُ فِيْ تَمْزِيْقِ أَخْيِلَتِهَا أَبْرَعَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ فِيْ حَوْكِ هَـٰذِهِ ٱلْأَخْيِلَةِ ، وَكَأَنَّمَا جَرَّتْنِيْ يَدُهَا جَرًّا حَتَّىٰ أَبْعَدَتْنِيْ عَنِ ٱلْمَنْزِلَةِ ٱلْخَمْرِيَّةِ ٱلَّتِيْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ وَضَعَنِيْ فِيْهَا ، فَٱنْتَقَلْتُ مِنَ

ٱلاسْتِهْتَارِ وَٱلْمُكَابَرَةِ وَعَدَمِ ٱلْمُبَالَاةِ إِلَىٰ ٱلنَّدَمِ وَٱلتَّحَوُّبِ وَٱلتَّأَثُّمِ ، وَكُنْتُ مِنْ بَعْدِهَا كُلَّمَا وَضَعْتُ ٱلْمُسْكِرَ وَهَمَمْتُ بِهِ ، دَبَّتِ ٱبْنَتِي إِلَىٰ مَجْلِسِي ؛ فَأَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْتَشِرُ عَلَيْهَا نَفْسِي مِنْ رِقَّةٍ وَرَحْمَةٍ ، فَأَرْقُبُ مَا تَصْنَعُ ، فَتَجِيءُ فَتُجَاذِبُنِي ٱلْكَأْسَ حَتَّىٰ تُهَرِقَهَا عَلَىٰ ثَوْبِي ، وَأَرَانِي لَا أَغْضَبُ ، إِذَا كَانَ هَـٰذَا يَسُرُّهَا وَيُضْحِكُهَا ، فَأَسُرُّ لَهَا وَأَضْحَكُ .

وَدَامَ هَـٰذَا مِنِّي وَمِنْهَا ، فَأَصْبَحْتُ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ بَيْنَ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ ؛ أَشْرَبُ مَرَّةً وَأَتْرُكُ مِرَارًا ، وَجَعَلْتُ أَسْتَقِيمُ عَلَىٰ ذَلِكَ ، إِذْ كَانَتِ ٱلنَّشْوَةُ بِٱبْنَتِي أَكْبَرَ مِنَ ٱلنَّشْوَةِ بِٱلزُّجَاجَةِ ، وَإِذْ كُنْتُ كُلَّمَا رَجَعْتُ إِلَىٰ نَفْسِي وَتَدَبَّرْتُ أَمْرِي ، أَسْتَعِيذُ بِٱللهِ أَنْ تَعْقِلَ ٱبْنَتِي مَعْنَىٰ ٱلْخَمْرِ يَوْمًا فَأَكُونَ قَدْ نَجَّسْتُ أَيَّامَهَا ، ثُمَّ أَتَقَدَّمُ إِلَىٰ ٱللهِ وَعَلَيَّ ذُنُوبُهَا فَوْقَ ذُنُوبِي ، وَيَتَرَحَّمُ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ آبَائِهِمْ وَتَلْعَنُنِي إِذْ لَمْ أَكُنْ لَهَا كَٱلآبَاءِ ، فَأَكُونُ قَدْ وُجِدْتُ فِي ٱلدُّنْيَا مَرَّةً وَاحِدَةً وَهَلَكْتُ مَرَّتَيْنِ .

وَمَضَيْتُ عَلَىٰ ذَلِكَ وَأَنَا أَصْلُحُ بِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا وَكُلَّمَا كَبِرَتْ كَبِرَتْ فَضِيلَتِي ، فَلَمَّا تَمَّ لَهَا سَنَتَانِ ، مَاتَتْ !

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي : وَسَكَتَ ٱلشَّيْخُ ، فَعَلِقَتْ بِهِ ٱلأَبْصَارُ ، وَوَقَفَتْ أَنْفَاسُ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ شِفَاهِهِمْ ، وَكَأَنَّمَا مَاتَتْ لَحَظَاتٌ مِنَ ٱلزَّمَنِ لِذِكْرِ مَوْتِ ٱلطِّفْلَةِ ، وَخَامَرَ ٱلْمَجْلِسَ مِثْلُ ٱلسُّكْرِ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَأْسِ ٱلْمُذْهِلَةِ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلطُّفُولَةَ دَبَّتْ مِنْ عَالَمِ ٱلْغَيْبِ كَمَا كَانَتْ تَصْنَعُ ، وَجَذَبَتِ ٱلْكَأْسَ وَأَهْرَقَتْهَا ، فَٱنْتَبَهَ ٱلنَّاسُ وَصَاحُوا : مَاتَتْ فَكَانَ مَاذَا ؟

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَأَكْمَدَنِي ٱلْحُزْنُ عَلَيْهَا ، وَوَهَنَ جَأْشِي ، وَلَمْ يَكُنْ لِي مِنْ قُوَّةِ ٱلرُّوحِ وَٱلإِيمَانِ مَا أَتَأَسَّىٰ بِهِ ، فَضَاعَفَ ٱلْجَهْلُ أَحْزَانِي ، وَجَعَلَ مُصِيبَتِي مَصَائِبَ . وَٱلإِيمَانُ وَحْدَهُ هُوَ أَكْبَرُ عُلُومِ ٱلْحَيَاةِ ، يُبَصِّرُكَ إِنْ عَمِيتَ فِي ٱلْحَادِثَةِ ، وَيَهْدِيكَ إِنْ ضَلَلْتَ عَنِ ٱلسَّكِينَةِ ، وَيَجْعَلُكَ صَدِيقَ نَفْسِكَ تَكُونُ وَإِيَّاهَا عَلَىٰ ٱلْمُصِيبَةِ ، لَا عَدُوَّهَا تَكُونُ ٱلْمُصِيبَةُ وَإِيَّاهَا عَلَيْكَ ، وَإِذَا أَخْرَجَتِ ٱللَّيَالِي مِنَ ٱلأَحْزَانِ وَٱلْهُمُومِ عَسْكَرَ ظَلَامِهَا لِقِتَالِ نَفْسٍ أَوْ مُحَاصَرَتِهَا ، فَمَا يَدْفَعُ ٱلْمَالُ وَلَا تَرُدُّ ٱلْقُوَّةُ وَلَا يَمْنَعُ ٱلسُّلْطَانُ ، وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ حِينَئِذٍ أَضْعَفَ مِنْ قُوَّةِ ٱلْقَوِيِّ ، وَلَا أَضْيَعَ مِنْ حِيلَةِ ٱلْمُحْتَالِ ، وَلَا أَفْقَرَ مِنْ غِنَىٰ ٱلْغَنِيِّ ، وَلَا

أَجْهَلَ مِنْ عِلْمِ ٱلْعَالِمِ ، وَيَبْقَىٰ ٱلْجُهْدُ وَٱلْحِيلَةُ وَٱلْقُوَّةُ وَٱلْعِلْمُ وَٱلْغِنَىٰ وَٱلسُّلْطَانُ ـ لِلإِيمَانِ وَحْدَهُ ؛ فَهُوَ يَكْسِرُ ٱلْحَادِثَ وَيُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِهِ ، وَيُؤَيِّدُ ٱلنَّفْسَ وَيُضَاعِفُ مِنْ قُوَّتِهَا ، وَيَرُدُّ قَدَرَ ٱللهِ إِلَىٰ حِكْمَةِ ٱللهِ ؛ فَلَا يَلْبَثُ مَا جَاءَ أَنْ يَرْجِعَ ، وَتَعُودُ ٱلنَّفْسُ مِنَ ٱلرِّضَىٰ بِٱلْقَدَرِ وَٱلإِيمَانِ بِهِ ، كَأَنَّمَا تَشْهَدُ مَا يَقَعُ أَمَامَهَا لَا مَا يَقَعُ فِيهَا .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَرَجَعْتُ بِجَهْلِي إِلَىٰ شَرٍّ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، وَكَانَتْ أَحْزَانِي أَفْرَاحَ ٱلشَّيْطَانِ ؛ وَأَرَادَ ـ أَخْزَاهُ ٱللهُ ـ أَنْ يَفْتَنَّ فِي أَسَالِيبِ فَرَحِهِ ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ ٱلنِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ـ وَكَانَتْ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ ، وَكَانَتْ كَأَوَّلِ نُورِ ٱلْفَجْرِ مِنْ أَنْوَارِ رَمَضَانَ ـ سَوَّلَ لِي ٱلشَّيْطَانُ أَنْ أَسْكَرَ سَكْرَةً مَا مِثْلُهَا ؛ فَبِتُّ كَٱلْمَيِّتِ مِمَّا ثَمِلْتُ ، وَقَذَفَتْنِي أَحْلَامٌ إِلَىٰ أَحْلَامٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُ ٱلْقِيَامَةَ وَٱلْحَشْرَ ، وَقَدْ وَلَدَتِ ٱلْقُبُورُ مَنْ فِيهَا ، وَسِيقَ ٱلنَّاسُ وَأَنَا مَعَهُمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ مَا بِي مِنَ ٱلْكَرْبِ غَايَةٌ ؛ وَسَمِعْتُ خَلْفِي زَفِيرًا كَفَحِيحِ ٱلأَفْعَىٰ ، فَٱلْتَفَتُّ فَإِذَا بِتِنِّينٍ عَظِيمٍ مَا يَكُونُ أَعْظَمُ مِنْهُ ؛ طَوِيلٌ كَٱلنَّخْلَةِ ٱلسَّحُوقِ ، أَسْوَدُ أَزْرَقُ ، يُرْسِلُ ٱلْمَوْتَ مِنْ عَيْنَيْهِ ٱلْحَمْرَاوَيْنِ كَٱلدَّمِ ، وَفِي فَمِهِ مِثْلُ ٱلرِّمَاحِ مِنْ أَنْيَابِهِ ، وَلِجَوْفِهِ حَرٌّ شَدِيدٌ لَوْ زَفَرَ بِهِ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ مَا نَبَتَتْ فِي ٱلأَرْضِ خَضْرَاءُ ، وَقَدْ فَتَحَ فَاهُ وَنَفَخَ جَوْفَهُ وَجَاءَ مُسْرِعًا يُرِيدُ أَنْ يَلْتَقِمَنِي ، فَمَرَرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ هَارِبًا فَزِعًا ؛ فَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ هَرِمٍ يَكَادُ يَمُوتُ ضَعْفًا ، فَعُذْتُ بِهِ وَقُلْتُ : أَجِرْنِي وَأَغِثْنِي . فَقَالَ : أَنَا ضَعِيفٌ كَمَا تَرَىٰ ، وَمَا أَقْدِرُ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْجَبَّارِ ، وَلَـٰكِنْ مُرَّ وَأَسْرِعْ ، فَلَعَلَّ ٱللهَ أَنْ يُسَبِّبَ لَكَ أَسْبَابًا لِلنَّجَاةِ .

فَوَلَّيْتُ هَارِبًا وَأَشْرَفْتُ عَلَىٰ ٱلنَّارِ وَهِيَ ٱلْهَوْلُ ٱلأَكْبَرُ ، فَرَجَعْتُ أَشْتَدُّ هَرَبًا وَٱلتِّنِّينُ عَلَىٰ إِثْرِي ؛ وَلَقِيتُ ذَلِكَ ٱلشَّيْخَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، فَٱسْتَجَرْتُ بِهِ ، فَبَكَىٰ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ لِي وَقَالَ : أَنَا ضَعِيفٌ كَمَا تَرَىٰ ، وَمَا أَقْدِرُ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْجَبَّارِ ، وَلَـٰكِنِ ٱهْرُبْ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْجَبَلِ ، فَلَعَلَّ ٱللهَ يُحْدِثُ أَمْرًا .

فَنَظَرْتُ فَإِذَا جَبَلٌ كَٱلدَّارِ ٱلْعَظِيمَةِ ، لَهُ كُوًى عَلَيْهَا سُتُورٌ ، وَهُوَ يَبْرُقُ كَشُعَاعِ ٱلْجَوْهَرِ ؛ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ وَٱلتِّنِّينُ مِنْ وَرَائِي ، فَلَمَّا شَارَفْتُ ٱلْجَبَلَ فُتِحَتِ ٱلْكُوَىٰ وَرُفِعَتِ ٱلسُّتُورُ ، وَأَشْرَفَتْ عَلَيَّ وُجُوهُ أَطْفَالٍ كَٱلأَقْمَارِ ، وَقَرُبَ ٱلتِّنِّينُ مِنِّي ، وَصِرْتُ فِي هَوَاءِ جَوْفِهِ وَهُوَ يَتَضَرَّمُ عَلَيَّ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَنِي ؛ فَتَصَايَحَ ٱلأَطْفَالُ جَمِيعًا : يَا فَاطِمَةُ ! يَا فَاطِمَةُ !

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَإِذَا ٱبْنَتِي ٱلَّتِي مَاتَتْ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَيَّ ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا أَنَا فِيهِ صَاحَتْ وَبَكَتْ ، ثُمَّ

وَثَبَتْ كَرَمْيَةِ ٱلسَّهْمِ ، فَجَاءَتْ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَمَدَّتْ إِلَيَّ شِمَالَهَا فَتَعَلَّقْتُ بِهَا ، وَمَدَّتْ يَمِينَهَا إِلَى ٱلتِّنِّينِ فَوَلَّى هَارِبًا ، وَأَجْلَسَتْنِي وَأَنَا كَالْمَيِّتِ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْفَزَعِ ، وَقَعَدَتْ فِي حِجْرِي كَمَا كَانَتْ تَصْنَعُ فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَضَرَبَتْ بِيَدِهَا إِلَى لِحْيَتِي وَقَالَتْ : يَا أَبَتِ ! ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ؟﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٦] .

فَبَكَيْتُ وَقُلْتُ : يَا بُنَيَّةُ ! أَخْبِرِينِي عَنْ هَٰذَا ٱلتِّنِّينِ ٱلَّذِي أَرَادَ هَلَاكِي . قَالَتْ : ذَاكَ عَمَلُكَ ٱلسُّوءُ ٱلْخَبِيثُ ، أَنْتَ قَوَّيْتَهُ حَتَّى بَلَغَ هَٰذَا ٱلْهَوْلَ ٱلْهَائِلَ ، وَٱلْأَعْمَالُ تَرْجِعُ هُنَا أَجْسَامًا كَمَا رَأَيْتَ . قُلْتُ : فَذَاكَ ٱلشَّيْخُ ٱلضَّعِيفُ ٱلَّذِي ٱسْتَجَرْتُ بِهِ وَلَمْ يُجِرْنِي ؟ قَالَتْ : يَا أَبَتِ ! ذَاكَ عَمَلُكَ ٱلصَّالِحُ ، أَنْتَ أَضْعَفْتَهُ فَضَعُفَ حَتَّى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَاقَةٌ أَنْ يُغِيثَكَ مِنْ عَمَلِكَ ٱلسَّيِّئِ ؛ وَلَوْ لَمْ أَكُنْ لَكَ هُنَا ، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ ٱتَّبَعْتَ قَوْلَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ فِيمَنْ فَرَّحَ بَنَاتِهِ ٱلْمِسْكِينَاتِ ٱلضَّعِيفَاتِ ـ لَمَّا كَانَتْ لَكَ هُنَا شِمَالٌ تَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَيَمِينٌ تَطْرُدُ عَنْكَ .

* * *

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَٱنْتَبَهْتُ مِنْ نَوْمِي فَزِعًا أَلْعَنُ مَا أَنَا فِيهِ ، وَلَا أَرَانِي أَسْتَقِرُّ ، كَأَنِّي طَرِيدَةُ عَمَلِي ٱلسَّيِّئِ ؛ كُلَّمَا هَرَبْتُ مِنْهُ هَرَبْتُ بِهِ ؛ وَأَيْنَ ٱلْمَهْرَبُ مِنَ ٱلنَّدَمِ ٱلَّذِي كَانَ نَائِمًا فِي ٱلْقَلْبِ وَٱسْتَيْقَظَ لِلْقَلْبِ ؟

وَأَمَّلْتُ فِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ أَنْ أَرْبَحَ مِنْ رَأْسِ مَالٍ خَاسِرٍ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّ يَوْمًا بَاقِيًا مِنَ ٱلْعُمْرِ هُوَ لِلْمُؤْمِنِ عُمْرٌ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَهَانَ بِهِ ؛ وَصَحَّحْتُ ٱلنِّيَّةَ عَلَى ٱلتَّوْبَةِ ، لِأُرْجِعَ ٱلشَّبَابَ إِلَى ذَلِكَ ٱلشَّيْخِ ٱلضَّعِيفِ ، وَأُسَمِّنَ عِظَامَهُ ، حَتَّى إِذَا ٱسْتَجَرْتُ بِهِ أَجَارَنِي وَلَمْ يَقُلْ : « أَنَا ضَعِيفٌ كَمَا تَرَى ! » .

وَسَأَلْتُ فَدُلِلْتُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ ٱلْحَسَنِ ٱبْنِ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ ، سَيِّدِ ٱلْبَقِيَّةِ مِنَ ٱلتَّابِعِينَ ؛ وَقِيلَ لِي : إِنَّهُ جَمَعَ كُلَّ عِلْمٍ وَفَنٍّ إِلَى ٱلزُّهْدِ وَٱلْوَرَعِ وَٱلْعِبَادَةِ ، وَإِنَّ لِسَانَهُ ٱلسِّحْرُ ، وَإِنَّ شَخْصَهُ ٱلْمِغْنَاطِيسُ ، وَإِنَّهُ يَنْطِقُ بِٱلْحِكْمَةِ كَأَنَّ فِي صَدْرِهِ إِنْجِيلًا لَمْ يُنَزَّلْ ، وَإِنَّ أُمَّهُ كَانَتْ مَوْلَاةً لِأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، فَكَانَتْ رُبَّمَا غَابَتْ أُمُّهُ فِي حَاجَةٍ فَيَبْكِي ، فَتُرْضِعُهُ أُمُّ سَلَمَةَ تُعَلِّلُهُ بِثَدْيِهَا فَيَدِرُّ عَلَيْهِ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَرَكَةِ ٱلنُّبُوَّةِ صِلَةٌ .

وَغَدَوْتُ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ وَٱلْحَسَنُ فِي حَلْقَتِهِ يَقُصُّ وَيَتَكَلَّمُ ، فَجَلَسْتُ حَيْثُ ٱنْتَهَى بِيَ

ٱلْمَجْلِسُ ، وَمَا كَانَ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى عَرَتْنِي نَفْضَةٌ كَنَفْضَةِ ٱلْحُمَّى ، إِذْ قَرَأَ ٱلشَّيْخُ هَٰذِهِ ٱلْآيَةَ : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٦] ؛ فَلَوْ لَفَظَتْنِي ٱلْأَرْضُ مِنْ بَطْنِهَا ، وَٱنْشَقَّ عَنِّي ٱلْقَبْرُ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ ـ مَا رَأَيْتُ ٱلدُّنْيَا أَعْجَبَ مِمَّا طَالَعَتْنِي فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ ؛ وَأَخَذَ ٱلشَّيْخُ يُفَسِّرُ ٱلْآيَةَ ، فَصَنَعَ بِي كَلَامُهُ مَا لَوْ بُعِثَ نَبِيٌّ مِنْ أَجْلِي خَاصَّةً لَمَا صَنَعَ أَكْثَرَ مِنْهُ .

وَكَلَامُ ٱلْحَسَنِ غَيْرُ كَلَامِ ٱلنَّاسِ ، وَغَيْرُ كَلَامِ ٱلْعُلَمَاءِ ؛ فَإِنَّهُ يَتَكَلَّمُ مِنْ قَلْبِهِ وَمِنْ رُوحِهِ ، وَمِنْ وَجْهِهِ وَلِسَانِهِ ، وَنَاهِيكُمْ مِنْ رَجُلٍ خَاشِعٍ مُتَصَدِّعٍ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ، لَمْ يَكُنْ يُرَى مُقْبِلًا [إِلَّا وَكَأَنَّهُ أَقْبَلَ مِنْ دَفْنِ حَمِيمٍ قَدْ أَنْزَلَهُ فِي قَبْرِهِ بِيَدِهِ ، وَلَا يُرَى جَالِسًا] إِلَّا وَكَأَنَّهُ أَسِيرٌ أُمِرُوا بِضَرْبِ عُنُقِهِ ، وَإِذَا ذُكِرَتِ ٱلنَّارُ فَكَأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ ؛ رَجُلٌ كَانَ فِي ٱلْحَيَاةِ لِتَتَكَلَّمَ ٱلْحَيَاةُ بِلِسَانِهِ أَصْدَقَ كَلِمَاتِهَا .

فَصَاحَ صَائِحٌ : يَا أَبَا يَحْيَى ! ٱلتَّفْسِيرَ ٱلتَّفْسِيرَ ! وَصَاحَ ٱلْمُؤَذِّنُ : ٱللَّهُ أَكْبَرُ . فَقَطَعَ ٱلشَّيْخُ وَقَالَ : ٱلتَّفْسِيرُ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ فِي ٱلْمَجْلِسِ ٱلْآتِي .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

بِنْتُهُ ٱلصَّغِيرَةُ (*)
٢

... وَجَاءَ مِنَ ٱلْغَدِ أَبُو يَحْيَى مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ، فَصَلَّى بِٱلنَّاسِ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى مَجْلِسِ دَرْسِهِ وَتَعَكَّفُوا حَوْلَهُ ؛ وَكَانُوا إِلَى بَقِيَّةِ خَبَرِهِ فِي لَهْفَةٍ كَأَنَّ لَهَا عُمْرًا طَوِيلًا فِي قُلُوبِهِمْ ، لَا ظَمَأَ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ .

(*) « الرسالة » العدد : ٨٣ ، ٣٠ شوال سنة ١٣٥٣ هـ = ٤ فبراير/ شباط ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٦٣ ـ ١٦٦ .

وَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ! جُعِلْتُ فِدَاكَ ، مَا كَانَ تَأْوِيْلُ ٱلْحَسَنِ لِتِلْكَ ٱلآيَةِ مِنْ كَلَامِ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَكَيْفَ رَجَعَ ٱلْكَلَامُ فِيْ نَفْسِكَ مَرْجِعَ ٱلْفِكْرِ تَتَّبِعُهُ ، وَأَصْبَحَ ٱلْفِكْرُ عِنْدَكَ عَمَلًا تَحْذُوْ عَلَيْهِ ، وَٱتَّصَلَ هَـٰذَا ٱلْعَمَلُ فَكَانَ مَا أَنْتَ فِيْ وَرَعِكَ وَ . . . ؟

فَقَطَعَ ٱلإِمَامُ عَلَيْهِ وَقَالَ : هَوِّنْ عَلَيْكَ يَا هَـٰذَا ؛ إِنَّ شَيْخَكَ لَأَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَذْهَبَ فِيْ وَصْفِهِ يَمِيْنًا أَوْ شِمَالًا ، وَقَدْ رَوَىٰ لَنَا ٱلْحَسَنُ يَوْمًا ذَلِكَ ٱلْخَبَرَ ٱلْوَارِدَ فِيْمَنْ يُعَذَّبُ فِيْ ٱلنَّارِ أَلْفَ عَامٍ مِنْ أَعْوَامِ ٱلْقِيَامَةِ ، ثُمَّ يُدْرِكُهُ عَفْوُ ٱللهِ فَيَخْرُجُ مِنْهَا ، فَبَكَىٰ ٱلْحَسَنُ وَقَالَ : « يَا لَيْتَنِيْ كُنْتُ ذَلِكَ ٱلرَّجُلَ ! » وَهُوَ ٱلْحَسَنُ يَا بُنَيَّ ؛ هُوَ ٱلْحَسَنُ . . . !

فَضَجَّ ٱلنَّاسُ وَصَاحَ مِنْهُمْ صَائِحُوْنَ : يَا أَبَا يَحْيَىٰ ! قَتَلْتَنَا يَأْسًا . وَقَالَ ٱلأَوَّلُ : إِذَا كَانَ هَـٰذَا فَأَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّنَا ٱلْيَأْسُ وَٱلْقُنُوْطُ ، فَلَا يَنْفَعُنَا عَمَلٌ ، وَلَا نَأْتِيْ عَمَلًا يَنْفَعُ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : هَوِّنُوْا عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ لِلْمُؤْمِنِ ظَنَّيْنِ : ظَنًّا بِنَفْسِهِ ، وَظَنًّا بِرَبِّهِ ؛ فَأَمَّا ظَنُّهُ بِٱلنَّفْسِ فَيَنْبَغِيْ أَنْ يَنْزِلَ بِهَا دُوْنَ جَمَحَاتِهَا وَلَا يَفْتَأُ يَنْزِلُ ؛ فَإِذَا رَأَىٰ لِنَفْسِهِ أَنَّهَا لَمْ تَعْمَلْ شَيْئًا وَجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَ ، فَلَا يَزَالُ دَائِمًا يَدْفَعُهَا ؛ وَكُلَّمَا أَكْثَرَتْ مِنَ ٱلْخَيْرِ قَالَ لَهَا : أَكْثِرِيْ . وَكُلَّمَا أَقَلَّتْ مِنَ ٱلشَّرِّ قَالَ لَهَا : أَقِلِّيْ . وَلَا يَزَالُ هَـٰذَا دَأْبَهُ وَدَأْبَهَا مَا بَقِيْ ؛ وَأَمَّا ٱلظَّنُّ بِٱللهِ فَيَنْبَغِيْ أَنْ يَعْلُوَ بِهِ فَوْقَ ٱلْفَتَرَاتِ وَٱلْعِلَلِ وَٱلآثَامِ ، وَلَا يَزَالُ يَعْلُو ؛ فَإِنَّ ٱللهَ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ بِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَلَهُ وَإِنْ شَرًّا فَلَهُ . [راجع «مسند أحمد»، رقم: ٨٨٣٣] وَلَقَدْ رَوَيْنَا هَـٰذَا ٱلْخَبَرَ : « كَانَ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِيْنَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ ٱلأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَىٰ رَاهِبٍ فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِيْنَ نَفْسًا ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : لَا ! فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً ! ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ ٱلأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَىٰ رَجُلٍ عَالِمٍ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ . فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ وَمَنْ يَحُوْلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلتَّوْبَةِ ؟ ٱنْطَلِقْ إِلَىٰ أَرْضِ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُوْنَ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فَٱعْبُدِ ٱللهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَىٰ أَرْضِكَ ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ .

فَٱنْطَلَقَ ، حَتَّىٰ إِذَا نَصَّفَ ٱلطَّرِيْقَ أَتَاهُ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ، فَٱخْتَصَمَتْ فِيْهِ مَلَائِكَةُ ٱلرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ ٱلْعَذَابِ ؛ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ ٱلرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَىٰ ٱللهِ . وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ ٱلْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ . فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِيْ صُوْرَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوْهُ حَكَمًا بَيْنَهُمْ ،

فَقَالَ : قِيْسُوْا مَا بَيْنَ ٱلأَرْضَيْنِ ، فَإِلَىٰ أَيِّهِمَا كَانَ أَدْنَىٰ فَهُوَ لَهُ . فَقَاسُوْا فَوَجَدُوْهُ أَدْنَىٰ إِلَىٰ ٱلأَرْضِ ٱلَّتِيْ أَرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ ٱلرَّحْمَةِ ! [البخاري ، رقم : ٣٤٧٠ ؛ مسلم ، رقم : ٢٧٦٦].

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَهَـٰذَا رَجُلٌ لَمَّا مَشَىٰ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ ٱللهِ حُسِبَتْ لَهُ ٱلْخُطْوَةُ ٱلْوَاحِدَةُ ، بَلِ ٱلشِّبْرُ ٱلْوَاحِدُ ؛ وَلَوْ أَنَّهُ طَوَّفَ ٱلدُّنْيَا بِقَدَمَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ٱلْقَلْبُ ، لَكَانَ كَٱلْعِظَامِ ٱلْمَحْمُوْلَةِ فِيْ نَعْشٍ ؛ قَبْرُهَا فِيْ ٱلْمَشْرِقِ هُوَ قَبْرُهَا فِيْ ٱلْمَغْرِبِ ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ ٱلأَرْضِ وَلَا لِلأَرْضِ مِنْهَا إِلَّا مَعْنًى وَاحِدٌ لَا يَتَغَيَّرُ ؛ هُوَ أَنَّهُ بِجُمْلَتِهِ مَيِّتٌ ، وَأَنَّهَا بِجُمْلَتِهَا حُفْرَةٌ .

وَٱلإِنْسَانُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ بِهَيْئَةِ وَجْهِهِ وَحِلْيَتِهِ ٱلَّتِيْ تَبْدُوْ عَلَيْهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ عِنْدَ ٱللهِ بِهَيْئَةِ قَلْبِهِ وَظَنِّهِ ٱلَّذِيْ يَظُنُّ بِهِ ؛ وَمَا هَـٰذَا ٱلْجِسْمُ مِنَ ٱلْقَلْبِ إِلَّا كَقِشْرَةِ ٱلْبَيْضَةِ[1] مِمَّا تَحْتَهَا . فَيَا لَهَا سُخْرِيَةً أَنْ تَزْعُمَ ٱلْقِشْرَةُ لِنَفْسِهَا أَنَّ بِهَا هِيَ ٱلاعْتِبَارَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ لَا بِمَا فِيْهَا ، إِذْ كَانَ مَا تَحْوِيْهِ لَا يَكُوْنُ إِلَّا فِيْهَا هِيَ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تُبْعِدُ فِيْ حَمَاقَتِهَا فَتَسْأَلُ : لِمَاذَا يَرْمِيْنِيْ ٱلنَّاسُ وَلَا يَأْكُلُوْنَنِيْ . . . ؟

إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلأَخْلَاقَ ٱلْفَاضِلَةَ فِيْ هَـٰذَا ٱلإِنْسَانِ لَا تَجِدُ تَمَامَ مَعْنَاهَا إِلَّا فِيْ حَالَةٍ بِعَيْنِهَا مِنْ أَحْوَالِ ٱلْقَلْبِ ، وَهِيَ حَالَةُ خُشُوْعِهِ عَلَىٰ وَصْفِهَا ٱلَّذِيْ شَرَحَتْهُ ٱلآيَةُ ٱلْكَرِيْمَةُ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ؟﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٦] .

فَٱلأَخْلَاقُ ٱلْفَاضِلَةُ مَحْدُوْدَةٌ بِٱللهِ وَٱلْحَقِّ مَعًا ، وَهِيَ كُلُّهَا فِيْ خُشُوْعِ ٱلْقَلْبِ لِهَـٰذَيْنِ ؛ فَإِنَّ مِنَ ٱلْقَلْبِ مَخَارِجَ ٱلْحَيَاةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ كُلِّهَا .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَأَنَا مُنْذُ حَفِظْتُ عَنِ ٱلْحَسَنِ تَأْوِيْلَ هَـٰذِهِ ٱلآيَةِ ، وَٱسْتَنَنْتُ بِهَا ، مَضَيْتُ أَعِيْشُ مِنَ ٱلدُّنْيَا فِيْ تَارِيْخِ قَلْبِيْ لَا فِيْ تَارِيْخِ ٱلدُّنْيَا ، وَأَدْرَكْتُ مِنْ يَوْمِئِذٍ أَنْ لَيْسَ حِفْظُ ٱلْقُرْآنِ حِفْظَهُ فِيْ ٱلْعَقْلِ ، بَلْ حِفْظُهُ فِيْ ٱلْعَمَلِ بِهِ ؛ فَإِنْ أَنْتَ أَثْبَتَّ ٱلآيَةَ مِنْهُ ، وَكُنْتَ تَعْمَلُ بِغَيْرِ مَعْنَاهَا ، وَتَعِيْشُ فِيْ غَيْرِ فَضِيْلَتِهَا ، فَهَـٰذَا ـ وَيْحَكَ ـ نِسْيَانُهَا لَا حِفْظُهَا . وَقَدْ كَانَ قَوْمُنَا ٱلأَوَّلُوْنَ بِمَعَانِيْهِ كَٱلشَّجَرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ٱلنَّامِيَةِ ؛ فِيْهَا وَرَقُهَا ٱلأَخْضَرُ وَزَهْرُهَا وَثَمَرُهَا ، وَعَلَىٰ

---

(١) قِشْرَةُ ٱلْبَيْضَةِ ٱلْعُلْيَا ٱلْيَابِسَةِ تُسَمَّىٰ : ٱلْقَيْضَ ، بِفَتْحِ ٱلْقَافِ وَسُكُوْنِ ٱلْيَاءِ ، وَٱلْقِشْرَةُ ٱلدَّاخِلَةُ ٱلْمُلْتَزِقَةُ بِٱلْبَيَاضِ تُسَمَّىٰ : ٱلْغِرْقِئُ ، بِكَسْرِ ٱلْغَيْنِ وَٱلْقَافِ .

ظَاهِرِهَا حَيَاةُ بَاطِنِهَا ، فَلَمَّا ثَبَتَ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ ٱلشَّكْلِ وَحْدَهُ ، وَلَمْ يُبَالُوا ٱلْقَلْبَ وَأَحْوَالَهُ ، أَصْبَحُوا كَٱلشَّجَرَةِ ٱلْيَابِسَةِ ، عَلَيْهَا وَرَقُهَا ٱلْجَافُّ ، لَيْسَ فِي بَقَائِهِ وَلَا سُقُوطِهِ طَائِلٌ .

مَا أَصْبَحْتُ وَلَا أَمْسَيْتُ مُنْذُ حَفِظْتُ تَفْسِيرَ ٱلْآيَةِ إِلَّا فِي حَيَاةٍ مِنْهَا ، وَهَـٰذِهِ ٱلْآيَةُ هِيَ دَلَّتْنِي بِمَعَانِيهَا أَنْ لَيْسَتِ ٱلْحَيَاةُ ٱلْأَرْضِيَّةُ شَيْئًا إِلَّا ثَوْرَةَ ٱلْحَيِّ عَلَىٰ ظُلْمِ نَفْسِهِ ، يَسْتَكِفُّ عَنْهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَجِرُّ لَهَا ، وَٱلنَّاسُ مِنْ شَقَائِهِمْ عَلَىٰ ٱلْعَكْسِ ، يَسْتَجِرُّونَ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَكِفُّونَ ، وَإِنَّمَا ٱلسَّعِيدُ مَنْ وَجَدَ كَلِمَاتٍ رُوحَانِيَّةً إِلَـٰهِيَّةً يَعِيشُ قَلْبُهُ فِيهِنَّ ، فَذَاكَ لَا يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ كَمَا يَأْتِي وَيَتَّفِقُ ، بَلْ يَحْذُو عَلَىٰ أَصْلٍ ثَابِتٍ فِي نَفْسِهِ ، وَيَخْتَارُ فِيمَا يَعْمَلُ أَحْسَنَ مَا يَعْمَلُ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكُونُ جِهَادُهُ مُرَاغَمَةً أَوْ خُضُوعًا فِي سَبِيلِ ٱلْوُجُودِ كَٱلْحَيَوَانِ ، بَلْ فِي سَبِيلِ صِحَّةِ وُجُودِهِ ؛ وَلَا يَكُونُ غَرَضُهُ أَنْ يُلَابِسَ ٱلْحَيَاةَ كَمَا تَأْخُذُهُ هِيَ وَتَدَعُهُ ، بَلْ أَنْ يَحْيَا فِي شَرَفِ ٱلْحَيَاةِ عَلَىٰ مَا يَأْخُذُهَا هُوَ وَيَدَعُهَا .

إِنَّ ٱلشَّقَاءَ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا إِنَّمَا يَجُرُّهُ عَلَىٰ ٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَ فِي دَفْعِ ٱلْأَحْزَانِ عَنْ نَفْسِهِ بِمُقَارَفَتِهِ ٱلشَّهَوَاتِ ، وَبِإِحْسَاسِهِ غُرُورَ ٱلْقَلْبِ ؛ وَبِهَـٰذَا يُبْعِدُ ٱلْأَحْزَانَ { عَنْ نَفْسِهِ } لِيَجْلِبَهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي صُوَرٍ أُخْرَىٰ !

* * *

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَكَانَ مِمَّا حَفِظْتُهُ مِنْ تَفْسِيرِ ٱلْحَسَنِ قَوْلُهُ :

إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ فِي ٱلْآيَةِ تَكَادُ تَكُونُ آيَةً ، وَلَيْسَتِ ٱلْكَلِمَةُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَمَا تَكُونُ فِي غَيْرِهِ ، بَلِ ٱلسُّمُوُّ فِيهَا عَلَىٰ ٱلْكَلَامِ ، أَنَّهَا تَحْمِلُ مَعْنًى ، وَتُومِئُ إِلَىٰ مَعْنًى ، وَتَسْتَتْبِعُ مَعْنًى ؛ وَهَـٰذَا مَا لَيْسَ فِي ٱلطَّاقَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ، وَهُوَ ٱلدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهُ ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾(١) [١١سورة هود/الآية : ١] .

(١) طَرِيقَتُنَا فِي ٱكْتِنَاهِ إِعْجَازِ ٱلْقُرْآنِ ، أَنَّ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْوَاحِدَةَ مِنْ كَلِمَاتِهِ لَهَا جِهَاتٌ عِدَّةٌ ؛ كَمَا تَرَىٰ فِيمَا نَشْرَحُهُ مِنْ تَفْسِيرِ هَـٰذِهِ ٱلْآيَةِ ، وَفِيمَا جِئْنَا بِهِ مِنْ تَفْسِيرِ آيَاتٍ سَبَقَتْ فِي ٱلْمَقَالَاتِ ٱلْأُخْرَىٰ ؛ فَٱلْبَحْثُ فِي فَهْمِ ٱلْقُرْآنِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي ٱللَّفْظَةِ ، وَوَجْهِ ٱخْتِيَارِهَا ، وَسِيَاقِ تَرْكِيبِهَا ، وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، وَمَا يَدُلُّ كُلُّ ذَلِكَ بِهَا . وَقَدْ بَسَطْنَا هَـٰذَا فِي كِتَابِنَا « إِعْجَازِ ٱلْقُرْآنِ » .

يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٦] .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ حَثٌّ ، وَإِطْمَاعٌ ، وَجِدَالٌ ، وَحُجَّةٌ ؛ وَهِيَ فِي ٱلْآيَةِ تُصَرِّحُ أَنَّ خُشُوعَ ٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي تِلْكَ صِفَتُهُ هُوَ كَمَالٌ لِلْإِيمَانِ ، وَأَنَّ وَقْتَ هَـٰذَا ٱلْخُشُوعِ هُوَ كَمَالُ ٱلْعُمُرِ ، وَكَيْفَ يَعْرِفُ ٱلْمُؤْمِنُ أَنَّهُ (سَيَأْنِي) لَهُ أَنْ يَعِيشَ سَاعَةً أَوْ مَا دُونَهَا ؟ إِذًا فَٱلْكَلِمَةُ صَارِخَةٌ تَقُولُ : ٱلْآنَ ٱلْآنَ قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ آنٌ . أَيْ : ٱلْبِدَارَ ٱلْبِدَارَ مَا دُمْتَ فِي نَفَسٍ مِنَ ٱلْعُمُرِ ؛ فَإِنَّ لَحْظَةً بَعْدَ (ٱلْآنَ) لَا يَضْمَنُهَا ٱلْحَيُّ . وَإِذَا فَنِيَ وَقْتُ ٱلْإِنْسَانِ ٱنْتَهَىٰ زَمَنُ عَمَلِهِ فَبَقِيَ ٱلْأَبَدُ كُلُّهُ عَلَىٰ مَا هُوَ ؛ وَمَعْنَىٰ هَـٰذَا أَنَّ ٱلْأَبَدَ لِلْمُؤْمِنِ ٱلَّذِي يُدْرِكُ ٱلْحَقِيقَةَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ٱللَّحْظَةُ ٱلرَّاهِنَةُ مِنْ عُمُرِهِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْآنُ) . فَٱنْظُرْ ـ وَيْحَكَ ـ وَقَدْ جَعَلَ ٱلْأَبَدَ فِي يَدِكَ ؛ ٱنْظُرْ كَيْفَ تَصْنَعُ بِهِ ؟

تِلْكَ هِيَ حِكْمَةُ ٱخْتِيَارِ ٱللَّفْظَةِ مِنْ مَعْنَىٰ (ٱلْآنِ) دُونَ غَيْرِهِ ، عَلَىٰ كَثْرَةِ ٱلْمَعَانِي .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ وَهَـٰذَا كَٱلنَّصِّ عَلَىٰ أَنَّ غَيْرَ هَـٰؤُلَاءِ لَا تَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللهِ وَلَا لِلْحَقِّ ، فَلَا تَقُومُ بِهِمُ ٱلْفَضِيلَةُ ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِمُ ٱلشَّرِيعَةُ ، وَعَالِمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ سَوَاءٌ ؛ لَا يَخْشَعَانِ إِلَّا لِلْمَادَّةِ ؛ وَكَأَنَّ إِنْسَانَهُمْ إِنْسَانٌ تُرَابِيٌّ ، لَا يَزَالُ يَضْطَرِبُ عَلَىٰ مَكْرِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ : عَيْشِهِ وَمَوْتِهِ ؛ وَمَا تَقْسُو ٱلْحَيَاةُ قَسْوَتَهَا عَلَىٰ ٱلنَّاسِ إِلَّا بِهِمْ ، وَمَا تَرِقُّ رِقَّتَهَا إِلَّا بِٱلْمُؤْمِنِينَ .

وَجَعَلَ ٱلْخُشُوعَ لِلْقُلُوبِ خَاصَّةً ، إِذْ كَانَ خُشُوعُ ٱلْقَلْبِ غَيْرَ خُشُوعِ ٱلْجِسْمِ ، فَهَـٰذَا ٱلْأَخِيرُ لَا يَكُونُ خُشُوعًا ، بَلْ ذُلًّا ، أَوْ ضَعَةً ، أَوْ رِيَاءً ، أَوْ نِفَاقًا ، أَوْ مَا كَانَ . أَمَّا خُشُوعُ ٱلْقَلْبِ فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا خَالِصًا مُخْلَصًا مَحْضَ ٱلْإِرَادَةِ .

وَٱشْتَرَطَ « ٱلْقَلْبَ » كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّمَا ٱلْقَلْبُ أَسَاسُ ٱلْمُؤْمِنِ ، وَإِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يَنْبُعُ مِنْ قَلْبِهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ ، مَتَىٰ كَانَ هَـٰذَا ٱلْقَلْبُ خَاشِعًا للهِ وَلِلْحَقِّ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْحَالِ ، نَبَعَ مِنْهُ ٱلْفَاسِقُ وَٱلظَّالِمُ ٱلطَّاغِيَةُ وَكُلُّ ذِي شَرٍّ . مَا أَشْبَهَ ٱلْقَلْبَ تَتَفَرَّعُ مِنْهُ مَعَانِي ٱلْخُلُقِ ، بِٱلْحَبَّةِ تَنْسَرِحُ مِنْهَا ٱلشَّجَرَةُ ؛ فَخُذْ نَفْسَكَ مِنْ قَلْبِكَ كَمَا شِئْتَ ؛ حُلْوًا مِنْ حُلْوٍ ، وَمُرًّا مِنْ مُرٍّ .

وَخُشُوْعُ ٱلْقَلْبِ للهِ وَلِلْحَقِّ ، مَعْنَاهُ ٱلسُّمُوُّ فَوْقَ حُبِّ ٱلذَّاتِ ، وَفَوْقَ ٱلأَثَرَةِ وَٱلْمَطَامِعِ ٱلْفَاسِدَةِ ؛ وَهَـٰذَا يَضَعُ لِلْمُؤْمِنِ قَاعِدَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلصَّحِيْحَةِ ، وَيَجْعَلُهَا فِيْ قَانُوْنَيْنِ لَا قَانُوْنٍ وَاحِدٍ ؛ وَمَتَىٰ خَشَعَ ٱلْقَلْبُ للهِ وَلِلْحَقِّ ، عَظُمَتْ فِيْهِ ٱلصَّغَائِرُ مِنْ قُوَّةِ إِحْسَاسِهِ بِهَا ، فَيَرَاهَا كَبِيْرَةً كَبِيْرَةً وَإِنْ عَمِيَ ٱلنَّاسُ عَنْهَا ، وَيَرَاهَا وَهِيَ بَعِيْدَةٌ مِنْهُ بِمِثْلِ عَيْنِ ٱلْعُقَابِ : يَكُوْنُ فِيْ لَوْحِ ٱلْجَوِّ وَلَا يَغِيْبُ عَنْ عَيْنِهِ مَا فِيْ ٱلثَّرَىٰ .

وَقَدْ تَخْشَعُ ٱلْقُلُوْبُ لِبَعْضِ ٱلأَهْوَاءِ خُشُوْعًا هُوَ شَرٌّ مِنَ ٱلطُّغْيَانِ وَٱلْقَسْوَةِ ؛ فَتَقْيِيْدُ خُشُوْعِ ٱلْقَلْبِ « بِذِكْرِ ٱللهِ » ، هُوَ فِيْ نَفْسِهِ نَفْيٌ لِعِبَادَةِ ٱلْهَوَىٰ ، وَعِبَادَةِ ٱلذَّاتِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ فِيْ شَهَوَاتِهَا . وَمَا ٱلشَّهْوَةُ عِنْدَ ٱلْمَخْلُوْقِ ٱلضَّعِيْفِ إِلَّا إِلَـٰهُ سَاعَتِهَا . فَيَامَا أَحْكَمَ وَأَعْجَبَ قَوْلَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ : « لَا يَزْنِيْ ٱلزَّانِيْ حِيْنَ يَزْنِيْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ ٱلسَّارِقُ حِيْنَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ ٱلْخَمْرَ حِيْنَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » [البخاري ، رقم : ٢٤٧٥ ؛ مسلم ، رقم : ٥٧] . جَعَلَ نَزْعَ ٱلإِيْمَانِ مَوْقُوْتًا « بِٱلْحِيْنِ » ٱلَّذِيْ تُقْتَرَفُ فِيْهِ ٱلْمَعْصِيَةُ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنِ ٱللهُ عِنْدَ هَـٰذَا ٱلشَّقِيِّ هُوَ إِلَـٰهَ ذَلِكَ « ٱلْحِيْنِ » .

وَٱلْخُشُوْعُ لِمَا « نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ » هُوَ فِيْ مَعْنَاهُ نَفْيٌ آخَرُ لِلْكِبْرِيَاءِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلَّتِيْ تُفْسِدُ عَلَىٰ ٱلْمَرْءِ كُلَّ حَقِيْقَةٍ ، وَتَخْرُجُ بِهِ مِنْ كُلِّ قَانُوْنٍ ؛ إِذْ تَجْعَلُ ٱلْحَقَائِقَ ٱلْعَامَّةَ مَحْدُوْدَةً بِٱلإِنْسَانِ وَشَهَوَاتِهِ ، لَا بِحُدُوْدِهَا هِيَ مِنَ ٱلْحُقُوْقِ وَٱلْفَضَائِلِ .

وَيَخْرُجُ مِنْ هَـٰذَا وَذَلِكَ تَقْرِيْرُ ٱلإِرَادَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَإِلْزَامُهَا ٱلْخَيْرَ وَٱلْحَقَّ دُوْنَ غَيْرِهِمَا ، وَقَهْرُهَا لِلَذَّاتِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَجَعْلُهَا ٱلْكِبْرِيَاءَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ كِبْرِيَاءَ عَلَىٰ ٱلدَّنَايَا وَٱلْخَسَائِسِ ، لَا عَلَىٰ ٱلْحُقُوْقِ وَٱلْفَضَائِلِ ؛ وَإِذَا تَقَرَّرَ كُلُّ ذَلِكَ ٱنْتَهَىٰ بِطَبِيْعَتِهِ إِلَىٰ إِقْرَارِ ٱلسَّكِيْنَةِ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَمَحْوِ ٱلْفَوْضَىٰ مِنْهَا ، وَجَعْلِ نِظَامِهَا فِيْ إِحْسَاسِ ٱلْقَلْبِ وَحْدَهُ ؛ فَيَحْيَا ٱلْقَلْبُ فِيْ ٱلْمُؤْمِنِ حَيَاةَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلسَّامِيْ ، وَيَكُوْنُ نَبْضُهُ عَلَامَةَ ٱلْحَيَاةِ فِيْ ذَاتِهَا ، وَخُشُوْعُهُ للهِ وَلِلْحَقِّ عَلَامَةَ ٱلْحَيَاةِ فِيْ كَمَالِهَا .

وَقَالَ : « مَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ » كَأَنَّهُ يَقُوْلُ : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْحَقَّ لَا يَكُوْنُ بِطَبِيْعَتِهِ وَلَا بِطَبِيْعَةِ ٱلإِنْسَانِ أَرْضِيًّا ، فَإِذَا هُوَ ٱرْتَفَعَ مِنَ ٱلأَرْضِ ، وَقَرَّرَهُ ٱلنَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، لَمْ يُجَاوِزْ فِيْ ٱرْتِفَاعِهِ رَأْسَ ٱلإِنْسَانِ ، وَأَفْسَدَتْهُ ٱلْعُقُوْلُ ؛ إِذْ كَانَ ٱلإِنْسَانُ ظَالِمًا مُتَمَرِّدًا بِٱلطَّبِيْعَةِ ، لَا تَحْكُمُهُ مِنْ أَوَّلِ تَارِيْخِهِ إِلَّا ٱلسَّمَاءُ وَمَعَانِيْهَا ، وَمَا كَانَ شَبِيْهًا بِذَلِكَ مِمَّا يَجِيْئُهُ مِنْ أَعْلَىٰ ؛ أَيْ بِٱلسُّلْطَانِ وَٱلْقُوَّةِ ؛ فَيَكُوْنُ حَقًّا « نَازِلًا » مُتَدَفِّعًا كَمَا يَتَصَوَّبُ ٱلثِّقْلُ مِنْ عَالٍ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَنْفُذَ شَيْءٌ .

وَٱلْخُشُوْعُ لِمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ يَنْفِيْ خُشُوْعًا آخَرَ هُوَ ٱلَّذِيْ أَفْسَدَ ذَاتَ ٱلْبَيْنِ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَهُوَ ٱلْخُشُوْعُ لِمَا قَامَ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَٱنْصِرَافُ ٱلْقَلْبِ إِلَيْهَا بِإِيْمَانِ ٱلطَّمَعِ لَا ٱلْحَقِّ .

وَبِحَمْلِ(١) ٱلآيَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلْوَجْهِ يَتَحَقَّقُ ٱلْعَدْلُ وَٱلنَّصَفَةُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ؛ فَيَكُوْنُ ٱلْعَدْلُ فِيْ كُلِّ مُؤْمِنٍ شُعُوْرًا قَلْبِيًّا ، جَارِيًا فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ لَا مُتَكَلَّفًا مِنَ ٱلْعَقْلِ ؛ وَبِهَـٰذَا وَحْدَهُ يَكُوْنُ لِلإِنْسَانِ إِرَادَةٌ ثَابِتَةٌ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ فِيْ كُلِّ طَرِيْقٍ ، لَا إِرَادَةٌ لِكُلِّ طَرِيْقٍ ، وَتَسْتَمِرُّ هَـٰذِهِ ٱلإِرَادَةُ مُتَّسِقَةً فِيْ نِظَامِهَا مَعَ إِرَادَةِ ٱللهِ ، لَا نَافِرَةً مِنْهَا وَلَا مُتَمَرِّدَةً عَلَيْهَا ؛ وَهَـٰذَا وَذَلِكَ(٢) يُثَبِّتُ ٱلْقَلْبَ مَهْمَا ٱخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَحْوَالُ ٱلدُّنْيَا ، فَلَا يَكُوْنُ مِنْ إِيْمَانِهِ إِلَّا سُمُوُّهُ وَقُوَّتُهُ وَثَبَاتُهُ ، وَيَنْزِلُ ٱلْعُمُرُ عِنْدَ مَنْزِلَةَ ٱللَّحْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ، وَمَا أَيْسَرَ ٱلصَّبْرَ عَلَىٰ لَحْظَةٍ ! مَا أَهْوَنَ شَرَّ « ٱلآنَ » إِنْ كَانَ ٱلْخَيْرُ فِيْمَا بَعْدَهُ .

أَلَمْ يَأْنِ ؛ أَلَمْ يَأْنِ ؛ أَلَمْ يَأْنِ . . .

* * *

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَكَانَ ٱلْحَسَنُ فِيْ مَعَانِيْهِ ٱلْفَاضِلَةِ هُوَ هَـٰذِهِ ٱلآيَةَ بِعَيْنِهَا ؛ فَمَا كَانَتْ حَيَاتُهُ إِلَّا إِسْلَامِيَّةً كَهَـٰذَا ٱلْكَلَامِ ٱلأَبْيَضِ ٱلْمُشْرِقِ ٱلَّذِيْ سَمِعْتُهُ مِنْهُ ؛ شِعَارُهُ أَبَدًا : « ٱلآنَ قَبْلَ أَلَّا يَكُوْنَ آنٌ » وَإِمَامُهُ: «خُذْ نَفْسَكَ مِنْ قَلْبِكَ» وَطَرِيْقَتُهُ: «شَرَفُ ٱلْحَيَاةِ لَا ٱلْحَيَاةُ نَفْسُهَا» .

وَكَانَ يَرَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ كَوَقْعَةِ ٱلطَّائِرِ ؛ هِيَ عَمَلُ جَنَاحَيْنِ مُسْتَوْفِزَيْنِ أَبَدًا لِعَمَلٍ آخَرَ هُوَ ٱلأَقْوَىٰ وَٱلأَشَدُّ ، فَلَا يَنْزِلَانِ بِطَائِرِهِمَا عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا مَطْوِيَّيْنِ عَلَىٰ قُدْرَةِ ٱلارْتِفَاعِ بِهِ ، وَلَا يَكُوْنَانِ أَبَدًا إِلَّا هَفْهَافَيْنِ خَفِيْفَيْنِ عَلَىٰ ٱلطَّيَرَانِ ؛ إِذْ كَانَا فِيْ حُكْمِ ٱلْجَوِّ لَا فِيْ حُكْمِ ٱلأَرْضِ .

---

(١) فِيْ ٱلأَصْلِ : « وَبِحَمْلِهِ » بَدَلًا مِنْ : « وَبِحَمْلِ » .
(٢) فِيْ ٱلأَصْلِ : « وَهَذَا وَذَاكَ وَذَلِكَ » بَدَلًا مِنْ : « وَهَذَا وَذَلِكَ » .

وَآلَةُ ٱلْوُقُوعِ وَٱلطَّيَرَانِ بِٱلْإِنسَانِ شَهَوَاتُهُ وَرَغَبَاتُهُ ؛ فَإِنْ حَطَّتْهُ شَهْوَةٌ لَا تَرْفَعُهُ ، فَقَدْ أَوْبَقَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ وَقَذَفَتْ بِهِ لِيُؤْخَذَ .

لَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ : « لَا يَبْلُغُ ٱلْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ حَتَّىٰ يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ » [الترمذي ، رقم : ٢٤٥١ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٤٢١٥] ، وَهَـٰذَا ضَرْبٌ مِنْ خُشُوعِ ٱلْقَلْبِ ٱلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَحِلُّ لَهُ : يَدَعُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً لَا بَأْسَ عَلَيْهِ فِيهَا لَوْ أَتَاهَا ؛ لِيَقْوَىٰ عَلَىٰ أَنْ يَدَعَ مَا فِيهِ بَأْسٌ ، فَإِنَّ ٱلَّذِي يَتْرُكُ مَا { هُوَ } لَهُ يَكُونُ أَقْوَىٰ عَلَىٰ تَرْكِ مَا لَيْسَ لَهُ .

وَٱلنَّفْسُ لَا بُدَّ رَاجِعَةٌ يَوْمًا إِلَى ٱلْآخِرَةِ ، وَتَارِكَةٌ أَدَاتَهَا ؛ فَقِوَامُ نِظَامِهَا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلصَّحِيحَةِ أَنْ تَكُونَ كُلَّ يَوْمٍ كَأَنَّهَا ذَهَبَتْ إِلَى ٱلْآخِرَةِ وَجَاءَتْ . وَتِلْكَ هِيَ ٱلْحِكْمَةُ فِيمَا فَرَضَتْهُ ٱلشَّرِيعَةُ ٱلْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ عِبَادَةٍ رَاتِبَةٍ تَكُونُ جُزْءًا مِنْ عَمَلِ ٱلْحَيَاةِ فِي يَوْمِهَا وَلَيْلَتِهَا . فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلنَّفْسُ فِي حَيَاتِهَا كَأَنَّهَا دَائِمًا تَذْهَبُ إِلَىٰ مَصِيرِهَا وَتَرْجِعُ مِنْهُ ، طَمَسَهَا ٱلْجِسْمُ وَحَبَسَهَا فِي إِحْدَى ٱلْجِهَتَيْنِ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا فِيهِ إِلَّا أَثَرٌ ضَئِيلٌ لَا يَتَجَاوَزُ ٱلنُّصْحَ ، كَٱعْتِرَاضِ ٱلْمَقْتُولِ عَلَىٰ قَاتِلِهِ : يُحَاوِلُ أَنْ يَرُدَّ ٱلسَّيْفَ بِكَلِمَةٍ . . . ! وَبِذَلِكَ يَتَضَاعَفُ ٱلْجِسْمُ فِي قُوَّتِهِ ، وَيَشْتَدُّ فِي صَوْلَتِهِ ، وَيَتَصَرَّفُ فِي شَهَوَاتِهِ ، كَأَنَّ لَهُ بَطْنَيْنِ يَجُوعَانِ مَعًا . . . فَتَسْتَهْلِكُ شَهَوَاتُ ٱلْمَرْءِ دِينَهُ ، وَتَقْذِفُ بِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا ، عَلَىٰ قَصْدٍ وَعَلَىٰ غَيْرِ قَصْدٍ ، وَتَمْضِي بِهِ كَمَا شَاءَتْ فِي مَدْرَجَةٍ مَدْرَجَةٍ مِنَ ٱلشَّرِّ .

وَمِثْلُ هَـٰذَا ٱلْمُسْرِفِ عَلَىٰ نَفْسِهِ لَا يَكُونُ تَمْيِيزُهُ فِي ٱلدِّينِ ، وَلَا إِحْسَاسُهُ بِٱلْخَيْرِ ، إِلَّا كَذَلِكَ ٱلسِّكِّيرِ ٱلَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ أَرَادَ ٱلتَّوْبَةَ ، وَكَانَتْ لَهُ جَرَّتَانِ مِنَ ٱلْخَمْرِ ، فَلَمَّا ٱتَّعَظَ وَبَلَغَ فِي ٱلنَّظَرِ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَحَظِّ إِيمَانِهِ ، وَأَرَادَ أَنْ يُطِيعَ ٱللهَ وَيَتُوبَ . نَظَرَ إِلَى ٱلْجَرَّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : أَتُوبُ عَنِ ٱلشُّرْبِ مِنْ هَـٰذِهِ حَتَّىٰ تَفْرُغَ هَـٰذِهِ . . . !

* * *

قَالَ ٱلشَّيْخُ : ثُمَّ إِنِّي تُبْتُ عَلَىٰ يَدِ ٱلْحَسَنِ ، وَأَخْلَصْتُ فِي ٱلتَّوْبَةِ وَصَحَّحْتُهَا ، وَعَلِمْتُ مِنْ فِعْلِهِ وَقَوْلِهِ أَنَّ حَقِيقَةَ ٱلدِّينِ هِيَ كِبْرِيَاءُ ٱلنَّفْسِ عَلَىٰ شَرِّهَا وَظُلْمِهَا وَشَهَوَاتِهَا ، وَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْكِبْرِيَاءَ ٱلْقَاتِلَةَ لِلْإِثْمِ ، هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ أُخْتُ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلْقَاتِلَةِ لِلْعَدُوِّ ٱلْبَاغِي : يَفْخَرُ ٱلْبَطَلُ

ٱلشُّجَاعُ بِمَبْلَغِهِ مِنْ هَـٰذِهِ ، وَيَفْخَرُ ٱلرَّجُلُ ٱلْمُؤْمِنُ بِمَبْلَغِهِ مِنْ تِلْكَ ؛ وَأَنَّ خُشُوعَ ٱلْقَلْبِ هُوَ فِي مَعْنَاهُ حَقِيقَةُ هَـٰذِهِ ٱلْكِبْرِيَاءِ بِعَيْنِهَا .

وَحَدَّثْتُ ٱلْحَسَنَ يَوْمًا حَدِيثَ رُؤْيَايَ(١) ، وَمَا شُبِّهَ لِي مِنْ عَمَلِيَ ٱلسَّيِّئِ وَعَمَلِيَ ٱلصَّالِحِ ، فَٱسْتَدْمَعَتْ عَيْنَاهُ ، وَقَالَ :

إِنَّ ٱلْبِنْتَ ٱلطَّاهِرَةَ هِيَ جِهَادُ أَبِيهَا وَأُمِّهَا فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ، كَٱلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، وَإِنَّهَا فَوْزٌ لَهُمَا فِي مَعْرَكَةٍ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، يَكُونَانِ هُمَا وَٱلصَّبْرُ وَٱلْإِيمَانُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا قَبِيلًا ، وَيَكُونُ ٱلشَّيْطَانُ وَٱلْهَمُّ وَٱلْحُزْنُ فِي ٱلْجِهَةِ ٱلْمُنَاوِحَةِ قَبِيلًا آخَرَ .

إِنَّ ٱلْبِنْتَ هِيَ أُمٌّ وَدَارٌ ، وَأَبَوَاهَا فِيمَا يُكَابِدَانِ مِنْ إِحْسَانِ تَرْبِيَتِهَا وَتَأْدِيبِهَا وَحِيَاطَتِهَا وَٱلصَّبْرِ عَلَيْهَا وَٱلْيَقَظَةِ لَهَا ـ كَأَنَّمَا يَحْمِلَانِ ٱلْأَحْجَارَ عَلَىٰ ظَهْرَيْهِمَا حَجَرًا حَجَرًا ، لِيَبْتَنِيَا تِلْكَ ٱلدَّارَ فِي يَوْمٍ يَوْمٍ إِلَىٰ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ ، مَا صَحِبَتْهُ وَمَا بَقِيَتْ فِي بَيْتِهِ .

فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ ٱلْأَبُ إِلَىٰ بِنْتِهِ إِلَّا عَلَىٰ أَنَّهَا بِنْتُهُ ، ثُمَّ أُمُّ أَوْلَادِهَا ، ثُمَّ أُمُّ أَحْفَادِهِ ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ أَكْبَرُ مِنْ نَفْسِهَا ، وَحَقُّهَا عَلَيْهِ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْحَقِّ ، فِيهِ حُرْمَتُهَا وَحُرْمَةُ ٱلْإِنسَانِيَّةِ مَعًا ؛ وَٱلْأَبُ فِي ذَلِكَ يُقْرِضُ ٱللهَ إِحْسَانًا وَحَنَانًا وَرَحْمَةً ، فَحَقٌّ عَلَى ٱللهِ أَنْ يُوَفِّيَهُ مِنْ مِثْلِهَا ، وَأَنْ يُضْعِفَ لَهُ .

وَٱلْبِنْتُ تَرَىٰ نَفْسَهَا فِي بَيْتِ أَهْلِهَا ـ ضَعِيفَةً كَٱلْمُنْقَطِعَةِ وَكَٱلْعَالَةِ ، وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا ٱللهُ وَرَحْمَةُ أَبَوَيْهَا ؛ فَإِنْ رَحِمَاهَا ، وَأَكْرَمَاهَا فَوْقَ ٱلرَّحْمَةِ ، وَسَرَّاهَا فَوْقَ ٱلْكَرَامَةِ ، وَقَامَا بِحَقِّ تَأْدِيبِهَا وَتَعْلِيمِهَا وَتَفْقِيهِهَا فِي ٱلدِّينِ ، وَحَفِظَا نَفْسَهَا طَاهِرَةً كَرِيمَةً مَسْرُورَةً مُؤَدَّبَةً ـ فَقَدْ وَضَعَا بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ عَمَلًا كَامِلًا مِنْ أَعْمَالِهِمَا ٱلصَّالِحَةِ ، كَمَا وَضَعَاهُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْإِنسَانِيَّةِ . فَإِذَا صَارَا إِلَى ٱللهِ كَانَ حَقًّا لَهُمَا أَنْ يَجِدَا فِي ٱلْآخِرَةِ يَمِينًا وَشِمَالًا يَذْهَبَانِ بَيْنَهُمَا إِلَىٰ عَفْوِ ٱللهِ وَكَرَمِهِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « مَنْ كَانَ لَهُ ٱبْنَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، وَغَذَاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلنِّعْمَةِ ٱلَّتِي أَسْبَغَ ٱللهُ عَلَيْهِ ـ كَانَتْ لَهُ مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً مِنَ

(١) ذَكَرْتُ ٱلرُّؤْيَا فِي ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ . [أي : في المقالة السابقة : «بنته الصغيرة : ١»] .

ٱلنَّارِ إِلَى ٱلْجَنَّةِ » [رواه الطبراني في « الكبير » ؛ والخرائطي في « مكارم الأخلاق »] .

فَهَـٰذِهِ ثَلَاثٌ لَا بُدَّ مِنْهَا مَعًا ، وَلَا تُجْزِئُ وَاحِدَةٌ عَنْ وَاحِدَةٍ فِي ثَوَابِ ٱلْبِنْتِ : تَرْبِيَةُ عَقْلِهَا تَرْبِيَةَ إِحْسَانٍ ، وَتَرْبِيَةُ جِسْمِهَا تَرْبِيَةَ إِحْسَانٍ وَإِلْطَافٍ ، وَتَرْبِيَةُ رُوحِهَا تَرْبِيَةَ إِكْرَامٍ وَإِلْطَافٍ وَإِحْسَانٍ .

* * *

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَٱللهُ أَرْحَمُ أَنْ تَضِيعَ عِنْدَهُ ٱلرَّحْمَةُ ؛ وَٱللهُ أَكْرَمُ أَنْ يَضِيعَ ٱلإِحْسَانُ عِنْدَهُ ، وَٱللهُ أَكْبَرُ . . .

وَهُنَا صَاحَ ٱلْمُؤَذِّنُ : ٱللهُ أَكْبَرُ .

فَتَبَسَّمَ ٱلشَّيْخُ وَقَامَ إِلَى ٱلصَّلَاةِ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلأَجْنَبِيَّةُ(*)

أَحَبَّهَا وَأَحَبَّتْهُ ، حَتَّىٰ ذَهَبَ بِهَا فِي ٱلْحُبِّ مَذْهَبًا قَالَتْ لَهُ فِيهِ : « لَوْ جَاءَنِي قَلْبِي فِي صُورَةٍ بَشَرِيَّةٍ لأَرَاهُ كَمَا أُحِسُّهُ ، لَمَا ٱخْتَارَ غَيْرَ صُورَتِكَ أَنْتَ فِي رِقَّتِكَ وَعَطْفِكَ وَحَنَانِكَ » .

وَحَتَّىٰ ذَهَبَتْ بِهِ فِي ٱلْحُبِّ مَذْهَبًا قَالَ لَهَا فِيهِ : « إِنَّ ٱلْجَنَّةَ لَا تَكُونُ أَبْدَعَ فَنًّا ، وَلَا أَحْسَنَ جَمَالًا ، وَلَا أَكْثَرَ إِمْتَاعًا ـ لَوْ خُلِقَتِ ٱمْرَأَةً يَهْوَاهَا رَجُلٌ ـ إِلَّا أَنْ تَكُونَ هِيَ أَنْتِ ! » فَقَالَتْ لَهُ : « وَيَكُونَ هُوَ أَنْتَ . . . ! » .

وَتَدَلَّهَتْ فِيهِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّمَا خَلَبَهَا عَقْلَهَا وَوَضَعَ لَهَا عَقْلًا مِنْ هَوَاهُ ؛ فَكَانَتْ تَقُولُ لَهُ فِيمَا تَبُثُّهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا : « إِنَّ حُبَّ ٱلْمَرْأَةِ هُوَ ظُهُورُ إِرَادَتِهَا مُتَبَرِّئَةً مِنْ أَنَّهَا إِرَادَةٌ ، مُقِرَّةً أَنَّهَا مَعَ ٱلْحَبِيبِ طَاعَةٌ مَعَ أَمْرٍ ، مُذْعِنَةً أَنَّهَا قَدْ سَلَّمَتْ كِبْرِيَاءَهَا لِهَـٰذَا ٱلْحَبِيبِ ، لِتَرَاهُ فِي قُوَّتِهِ ذَا كِبْرِيَاءَيْنِ » .

وَٱفْتَتَنَ بِهَا حَتَّىٰ أَخَذَتْ مِنْهُ كُلَّ مَأْخَذٍ ، فَمَلَأَتْ نَفْسَهُ بِأَشْيَاءَ ، وَمَلَأَتْ عَيْنَهُ مِنْ أَشْيَاءَ ؛ فَكَانَ يَقُولُ لَهَا فِي نَجْوَاهُ : « إِنِّي أَرَى ٱلزَّمَنَ قَدِ ٱنْتَسَخَ مِمَّا بَيْنِي وَبَيْنَكِ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِٱلْحُبِّ فِي زَمَنٍ مِنْ نَفْسَيْنَا ٱلْعَاشِقَتَيْنِ ، لَا يُسَمَّىٰ ٱلْوَقْتَ وَلَـٰكِنْ يُسَمَّىٰ ٱلسُّرُورَ ؛ وَإِنَّمَا نَعِيشُ فِي أَيَّامٍ قَلْبِيَّةٍ ، لَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَوْقَاتِهَا ٱلسَّاعَةُ بِدَقَائِقِهَا وَثَوَانِيهَا ، وَلَـٰكِنِ ٱلسَّعَادَةُ بِحَقَائِقِهَا وَلَذَّاتِهَا » .

وَتَحَابَّا ذَلِكَ ٱلْحُبَّ ٱلْفَنِّيَّ ٱلْعَجِيبَ ، ٱلَّذِي يَكُونُ مُمْتَلِئًا مِنَ ٱلرُّوحَيْنِ يَكَادُ يَفِيضُ وَيَنْسَكِبُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَبْرَحُ يَطْلُبُ ٱلزِّيَادَةَ ، لِيَتَخَيَّلَ مِنْ لَذَّتِهَا مَا يَتَخَيَّلُ ٱلسِّكِّيرُ فِي نَشْوَتِهِ إِذَا طَفَحَتِ ٱلْكَأْسُ ، فَيَرَىٰ بِعَيْنَيْهِ أَنَّهَا سَتَتَّسِعُ لِأَكْثَرَ مِمَّا ٱمْتَلَأَتْ بِهِ ، فَيَكُونُ لَهُ بِٱلْكَأْسِ وَزِيَادَتِهَا ، سُكْرُ ٱلْخَمْرِ وَسُكْرُ ٱلْوَهْمِ .

تَحَابَّا ذَلِكَ ٱلْحُبَّ ٱلْفَوَّارَ فِي ٱلدَّمِ ، كَأَنَّ فِيهِ مِنْ دَوْرَتِهِ طَبِيعَةَ ٱلْفِرَاقِ وَٱلتَّلَاقِي بِغَيْرِ تَلَاقٍ

(*) « الرسالة » العدد : ٧٣ ، ١٨ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٦ نوفمبر/ تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٩٢٣ ـ ١٩٢٧ .

وَلَا فِرَاقٍ ؛ فَيَكُونَانِ مَعًا فِي مَجْلِسِهِمَا ٱلْغَزَلِيِّ ، جَنْبُهُ إِلَىٰ جَنْبِهَا وَفَاهَا إِلَىٰ فِيهِ[1] وَكَأَنَّمَا هَرَبَتْ ثُمَّ أَدْرَكَهَا ، وَكَأَنَّمَا فَرَّتْ ثُمَّ أَمْسَكَهَا . وَبَيْنَ ٱلْقُبْلَةِ وَٱلْقُبْلَةِ هِجْرَانٌ وَصُلْحٌ ، وَبَيْنَ ٱللَّفْتَةِ وَٱللَّفْتَةِ غَضَبٌ وَرِضًى .

وَهَـٰذَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْحُبِّ يَكُونُ فِي بَعْضِ ٱلطَّبَائِعِ ٱلشَّاذَّةِ ٱلْمُسْرِفَةِ ، ٱلَّتِي أَفْرَطَتْ عَلَيْهَا ٱلْحَيَاةُ إِفْرَاطَهَا فَيَلُفُّ ٱلْحَيَوَانِيَّةَ بِٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَجْعَلُ ٱلرَّجُلَ وَٱلْمَرْأَةَ كَبَعْضِ ٱلْأَحْمَاضِ ٱلْكِيمَاوِيَّةِ مَعَ بَعْضِهَا ؛ لَا تَلْتَقِي إِلَّا لِتَتَمَازَجَ ، وَلَا تَتَمَازَجُ إِلَّا لِتَتَّحِدَ ، وَلَا تَتَّحِدُ إِلَّا لِيَبْتَلِعَ وُجُودُ هَـٰذَا وُجُودَ ذَاكَ .

* * *

وَضَرَبَ ٱلدَّهْرُ مِنْ ضَرَبَاتِهِ { فِي أَحْدَاثٍ وَأَحْدَاثٍ } ؛ فَأَبْغَضَتْهُ وَأَبْغَضَهَا ، وَفَسَدَتْ ذَاتُ بَيْنِهِمَا ، وَأَدْبَرَ مِنْهَا مَا كَانَ مُقْبِلًا ؛ فَوَثَبَ كِلَاهُمَا مِنْ وُجُودِ ٱلْآخَرِ وَثْبَةَ فَزِعٍ هَارِبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ . أَمَّا هُوَ فَسَخِطَهَا لِعُيُوبِ نَفْسِهَا ، وَأَمَّا هِيَ . . . وَأَمَّا هِيَ فَتَكَرَّهَتْهُ لِمَحَاسِنِ غَيْرِهِ !

وَٱنْسَرَبَتْ أَيَّامُ ذَلِكَ ٱلْحُبِّ فِي مَسَارِبِهَا تَحْتَ ٱلزَّمَنِ ٱلْعَمِيقِ ٱلَّذِي طَوَىٰ وَلَا يَزَالُ يَطْوِي وَلَا يَبْرَحُ بَعْدَ ذَلِكَ يَطْوِي ؛ كَمَا يَغُورُ ٱلْمَاءُ فِي طِبَاقِ ٱلْأَرْضِ . فَأَصْبَحَ ٱلرَّجُلُ ٱلْمِسْكِينُ وَقَدْ نَزَلَتْ تِلْكَ ٱلْأَيَّامُ مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ أَقَارِبَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَحِبَّاءَ مَاتُوا بَعْضُهُمْ وَرَاءَ بَعْضٍ ، وَتَرَكُوهُ وَلَـٰكِنَّهُمْ لَمْ يَبْرَحُوا فِكْرَهُ ، فَكَانُوا لَهُ مَادَّةَ حَسْرَةٍ وَلَهْفَةٍ . أَمَّا هِيَ . . . أَمَّا هِيَ فَٱنْشَقَّ ٱلزَّمَنُ فِي فِكْرِهَا بِرَجَّةِ زَلْزَلَةٍ ، وَٱبْتَلَعَ تِلْكَ ٱلْأَيَّامَ ثُمَّ ٱلْتَأَمَ . . . !

* * *

فَحَدَّثَنَا « ٱلدُّكْتُورُ مُحَمَّد » رَئِيسُ جَمَاعَةِ ٱلطَّلَبَةِ ٱلْمِصْرِيِّينَ فِي مَدِينَةِ . . . بِفَرَنْسَةَ ، قَالَ : وَٱنْتَهَىٰ إِلَيَّ أَنَّ صَاحِبَنَا هَـٰذَا جَاءَ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ، وَأَنَّهُ قَادِمٌ مِنْ مِصْرَ ، فَتَخَالَجَنِي ٱلشَّوْقُ إِلَيْهِ ، وَنَزَعَتْ إِلَىٰ لِقَائِهِ نَفْسِي ، وَمَا بَيْنَنَا إِلَّا مَعْرِفَتِي أَنَّهُ مِصْرِيٌّ قَدِمَ مِنْ مِصْرَ ؛ وَخُيِّلَ إِلَيَّ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ مِمَّا ٱهْتَاجَنِي مِنَ ٱلْحَنِينِ إِلَىٰ بِلَادِي ٱلْعَزِيزَةِ ، أَنْ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ مِصْرَ إِلَّا شَارِعَانِ أَقْطَعُهُمَا فِي دَقَائِقَ ؛ فَخَفَفْتُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْرَبِ ٱلطُّرُقِ إِلَىٰ مَثْوَاهُ ، كَمَا يَصْنَعُ

(١) تَأْوِيلُ هَـٰذَا فِي بَابِ (ٱلْحَالِ) عِنْدَ ظُرَفَاءِ ٱلنَّحْوِيِّينَ : مُتَلَاصِقَيْنِ مُتَعَانِقَيْنِ .

ٱلطَّيْرُ إِذَا تَرَامَىٰ إِلَىٰ عُشِّهِ فَٱبْتَدَرَهُ مِنْ قُطْرِ ٱلْجَوِّ .

قَالَ : وَأَصَبْتُهُ وَاجِمًا يَعْلُوهُ ٱلْحُزْنُ ، فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا مَلَأَ مِنْ نَفْسِي وَمَا مَلَأْتُ مِنْ نَفْسِهِ . وَكَمَا يَمْحِي ٱلزَّمَانُ بَيْنَ ٱلْحَبِيبَيْنِ إِذَا ٱلْتَقَيَا بَعْدَ فُرْقَةٍ ـ يَتَلَاشَى ٱلْمَكَانُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْوَطَنِ ٱلْوَاحِدِ إِذَا تَلَاقَوْا فِي ٱلْغُرْبَةِ . فَذَابَتِ ٱلْمَدِينَةُ ٱلْكَبِيرَةُ ٱلَّتِي نَحْنُ فِيهَا ، كَأَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا ؛ وَتَجَلَّىٰ سِحْرُ مِصْرَ فِي أَقْوَىٰ سَطْوَتِهِ وَأَشَدِّهَا فَأَخَذَنَا كِلَيْنَا ، فَمَا ٱسْتَشْعَرْنَا سَاعَتَئِذٍ إِلَّا أَنَّ أُورُوبَّةَ ٱلْعَظِيمَةَ كَأَنَّمَا كَانَتْ مَرْسُومَةً عَلَىٰ وَرَقَةٍ ، فَطَوَيْنَاهَا وَأَحْلَلْنَا مِصْرَ فِي مَحَلِّهَا .

وَطَغَىٰ عَلَيْنَا نَازِعُ ٱلطَّرَبِ طُغْيَانًا شَدِيدًا ، فَأَرْسَلْتُ مَنْ يَجْمَعُ ٱلْإِخْوَانَ ٱلْمِصْرِيِّينَ ، وَٱخْتَرْتُ لِذَلِكَ صَدِيقًا شَاعِرَ ٱلْفِطْرَةِ ، فَنَزَا بِهِ ٱلطَّرَبُ ، فَكَانَ يَدْعُوهُمْ وَكَأَنَّهُ يُؤَذِّنُ فِيهِمْ لِإِقَامَةِ ٱلصَّلَاةِ . وَجَاؤُوا يُهَرْوِلُونَ هَرْوَلَةَ ٱلْحَجِيجِ ، فَلَوْ نَطَقَتِ ٱلْأَرْضُ ٱلْفَرَنْسِيَّةُ ٱلَّتِي مَشَوْا عَلَيْهَا تِلْكَ ٱلْمِشْيَةَ لَقَالَتْ : هَـٰذِهِ وَطْأَةُ أُسُودٍ تَتَخَيَّلُ خُيَلَاءَهَا مِنْ بَغْيِ ٱلنَّشَاطِ وَٱلْقُوَّةِ .

أَلَا مَا أَعْظَمَكِ يَا مِصْرُ ، وَمَا أَعْظَمَ تَعَنُّتَكِ فِي هَـٰذَا ٱلسِّحْرِ ٱلْفَاتِنِ ! أَيَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرِبَ كُلُّ أَهْلِكِ حَتَّىٰ يُدْرِكُوا مَعْنَىٰ ذَلِكَ ٱلْحَدِيثِ ٱلنَّبَوِيِّ ٱلْعَظِيمِ : « مِصْرُ كِنَانَةُ ٱللهِ فِي أَرْضِهِ » [راجع « كشف الخفا » ، رقم : ٢٣٠٩ ؛ و« المقاصد الحسنة » ، رقم : ١٠٢٩] . فَيَعْرِفُوا أَنَّكِ مِنْ عِزَّتِكِ مُعَلَّقَةٌ فِي هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ تَعْلِيقَ ٱلْكِنَانَةِ فِي دَارِ ٱلْبَطَلِ ٱلْأَرْوَعِ ؟

قَالَ « ٱلدُّكْتُور مُحَمَّد » : وَٱجْتَمَعْنَا فِي ٱلدَّارِ ٱلَّتِي أَنْزِلُ فِيهَا ، فَرَاعَ ذَلِكَ صَاحِبَةَ مَثْوَايَ[1] ، فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ هَـٰهُنَا لَيْلَةً مِصْرِيَّةً سَتَحْتَلُّ لَيْلَتَكُمْ هَـٰذِهِ فِي مَدِينَتِكُمْ هَـٰذِهِ ، فَلَا تَجْزَعُوا . ثُمَّ دَعَوْتُهَا إِلَىٰ مَجْلِسِنَا لِتَشْهَدَ كَيْفَ تَسْتَعْلِنُ ٱلرُّوحُ ٱلْمِصْرِيَّةُ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةُ بِرِقَّتِهَا وَظَرْفِهَا وَحَمَاسَتِهَا ، وَكَيْفَ تُفَسِّرُ هَـٰذِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْمِصْرِيَّةُ كُلَّ جَمِيلٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْجَمِيلَةِ بِشَوْقٍ مِنْ أَشْوَاقِهَا ٱلْحَنَّانَةِ ، وَكَيْفَ تَكُونُ هَـٰذِهِ ٱلرُّوحُ فِي جَوِّ مُوسِيقِيَّتِهَا ٱلطَّبِيعِيَّةِ حِينَ تُنَاجِي أَحْبَابَهَا ، فَيَجِيءُ حَدِيثُهَا بِطَبِيعَتِهِ كَأَنَّهُ دِيبَاجَةُ شَاعِرٍ فِي صَفَائِهَا وَحَلَاوَتِهَا وَرَنِينِ أَلْفَاظِهَا ؟

(١) صَاحِبَةُ ٱلْمَثْوَىٰ هِيَ رَبَّةُ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يَنْزِلُ فِيهِ ٱلضَّيْفُ وَمَنْ كَانَ فِي حُكْمِهِ ، يَقُولُ ٱلْعَرَبِيُّ : مَنْ كَانَتْ صَاحِبَةُ مَثْوَاكَ ؟ فَتُطْلَقُ عَلَىٰ صَاحِبَةِ ٱلْبَنْسِيُونِ Pension [والـ Pension : نزل يُدفعُ فيه أجرُ سكنٍ وطعامٍ بشكل دوري، يوميًا ، أو أسبوعيًا ، أو شهريًا] .

وَقَالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلظَّرِيْفَةُ : يَا لَهَا سَعَادَةً ! سَأَتَّخِذُ زِيْنَتِيْ ، وَأُصْلِحُ مِنْ شَأْنِيْ ، وَأَكُوْنُ بَعْدَ خَمْسِ دَقَائِقَ فِيْ مِصْرَ !

قَالَ ٱلدُّكْتُوْرُ : وَأَخَذْنَا فِيْ شَأْنِنَا ، وَكَانَ مَعَنَا طَالِبٌ حَسَنُ ٱلصَّوْتِ ، فَقَامَ إِلَى ٱلْبِيَانَةِ[1] وَغَنَّى مَقْطُوْعَةً « طَقْطُوْقَةً » مِصْرِيَّةً مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَاطِيْعِ ٱلَّتِيْ تُطَقْطِقُ فِيْهَا ٱلنَّفْسُ ، فَجَعَلَ يَمْطُلُ صَوْتَهُ بِآهٍ ، وَآهٍ ، وَدَارَ ٱللَّحْنُ دَوْرَةً تَأَوَّهَتْ فِيْهَا ٱلْكَلِمَاتُ كُلُّهَا . ثُمَّ ٱعْتَوَرَ ٱلْبِيَانَةَ طَالِبٌ آخَرُ فَمَا شَذَّ عَنْ هَـٰذِهِ ٱلسُّنَّةِ ، وَكَانَ بَعْدَ ٱلأَوَّلِ كَالنَّائِحَةِ تُجَاوِبُ ٱلنَّائِحَةَ ! فَمَالَتْ عَلَيَّ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلْفَرَنْسِيَّةُ وَأَسَرَّتْ إِلَيَّ : أَهَاتَانِ ٱمْرَأَتَانِ أَمْ رَجُلَانِ . . . ؟ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ هَـٰذَا لَحْنٌ تَارِيْخِيٌّ ذُوْ مَقْطُوْعَتَيْنِ ، كَانَتْ تَتَطَارَحُهُ كِلِيُوْبَاتْرَةُ[2] وَأَنْطُوْنِيُو ، وَأَنْطُوْنِيُو وَكِلِيُوْبَاتْرَةُ . . . فَأُعْجِبَتِ ٱلْمَرْأَةُ أَشَدَّ ٱلإِعْجَابِ ، وَأَكْبَرَتْ مِنَّا هَـٰذَا ٱلذَّوْقَ ٱلْمِصْرِيَّ أَنْ نُكْرِمَهَا لِوُجُوْدِهَا فِيْ مَجْلِسِنَا بِأَلْحَانِ ٱلْمَلِكَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ٱلْجَمِيْلَةِ ، وَطَرِبَتْ لِذَلِكَ أَشَدَّ ٱلطَّرَبِ ، وَمَلَكَهَا غُرُوْرُ ٱلْمَرْأَةِ ، فَجَعَلَتْ تَسْتَعِيْدُ : « يَا لَوْعَتِيْ ، يَا شَقَايَ ، يَا ضَنَى حَالِيْ . . . » وَتَقُوْلُ : مَا كَانَ أَرَقَّ كِلِيُوْبَاتْرَةَ ! مَا كَانَ أَرَقَّ أَنْطُوْنِيُو ! يَا لَفِتْنَةِ ٱلْحُبِّ ٱلْمَلَكِيِّ . . . !

قَالَ « ٱلدُّكْتُوْر مُحَمَّد » : ثُمَّ خَجِلْتُ وَٱللهِ مِنْ هَـٰذَا ٱلْكَلَامِ ٱلْمُخَنَّثِ ، وَمِنْ تَلْفِيْقِيَ ٱلَّذِيْ لَفَّقْتُهُ لِلْمَرْأَةِ ٱلْمَخْدُوْعَةِ ؛ فَٱنْتَفَضْتُ ٱنْتِفَاضَةَ مَنْ يَمْلَؤُهُ ٱلْغَضَبُ ، وَقَدْ حَمِيَ دَمُهُ ، وَفِيْ يَدِهِ ٱلسَّيْفُ ٱلْبَاتِرُ ، وَأَمَامَهُ ٱلْعَدُوُّ ٱلْوَقِحُ ؛ وَثُرْتُ إِلَى ٱلْبِيَانَةِ فَأَجْرَيْتُ عَلَيْهَا أَصَابِعِيْ ، وَكَأَنَّ فِيْ يَدَيَّ عَشَرَةَ شَيَاطِيْنَ لَا عَشْرَ أَصَابِعَ ، وَدَوَّى فِيْ ٱلْمَكَانِ لَحْنُ : « ٱسْلَمِيْ يَا مِصْرُ » ، وَجَلْجَلَ كَالرَّعْدِ فِيْ قُبَّةِ ٱلدُّنْيَا ، تَحْتَ طِبَاقِ ٱلْغَيْمِ ، بَيْنَ شَرَارِ ٱلْبَرْقِ . فَكَأَنَّمَا تَزَلْزَلَ ٱلْمَكَانُ عَلَى ٱلسَّيِّدَةِ ٱلْفَرَنْسِيَّةِ وَعَلَيْنَا جَمِيْعًا ، وَصَرَخَ أَجْدَادُنَا يَزْأَرُوْنَ مِنْ أَعْمَاقِ ٱلتَّارِيْخِ : « ٱسْلَمِيْ يَا مِصْرُ . . . »[3] .

---

(١) ٱلْبِيَانَةُ : كَلِمَةٌ ٱسْتَعْمَلْنَاهَا فِيْ كِتَابِنَا « ٱلسَّحَابُ ٱلأَحْمَرُ » لِلْبِيَانُو Piano ، وَتَجْمَعُ عَلَى بَيَانَاتٍ .

(٢) في الأصول : « كيلوباترة » وهي Cléopatra (٦٩ ـ ٣٠ ق . م) ملكة مصر (٥١ ـ ٤٩ ق . م) و(٤٨ ـ ٣٠ ق . م) اشتهرت بجمالها . بسّام .

(٣) { هَـٰذَا هُوَ ٱلنَّشِيْدُ ٱلَّذِيْ وَضَعْنَاهُ عَلَى لِسَانِ سَعْدِ بَاشَا زُغْلُول ، وَهُوَ ٱلْيَوْمَ ٱلنَّشِيْدُ ٱلْوَطَنِيُّ لِمِصْرَ =

وَلَمَّا قَطَعْتُ ٱلْتَفَتُّ إِلَيْهَا فِيْ كِبْرِيَاءِ تِلْكَ ٱلْمُوْسِيْقَى وَعَظَمَتِهَا ، وَقُلْتُ لَهَا : هَـٰذَا هُوَ غِنَاؤُنَا نَحْنُ ٱلشُّبَّانَ ٱلْمِصْرِيِّيْنَ .

ثُمَّ رَاجَعْنَا صَاحِبَنَا ٱلضَّيْفَ ، وَأَحْفَيْنَاهُ بِٱلْمَسْأَلَةِ ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ دَافَعَنَا طَوِيْلًا : إِنَّهُ يُحْسِنُ شَيْئًا مِنَ ٱلْمُوْسِيْقَى ، وَإِنَّ لَهُ لَحْنًا سَيُطَارِحُنَا بِهِ لِنَأْخُذَهُ عَنْهُ . فَطِرْنَا بِلَحْنِهِ قَبْلَ أَنْ نَسْمَعَهُ ، وَقُلْنَا لَهُ : ٱفْعَلْ مُتَفَضِّلًا مَشْكُوْرًا . وَمَا زِلْنَا حَتَّى نَهَضَ مُتَثَاقِلًا ، فَجَلَسَ إِلَى ٱلْبِيَانَةِ وَأَطْرَقَ شَيْئًا ، كَأَنَّهُ يُسَوِّيْ أَوْتَارًا فِيْ قَلْبِهِ ، ثُمَّ دَقَّ يَتَشَاجَى بِهَـٰذَا ٱلصَّوْتِ [من الطويل] :

أَضَاعَ غَدِيْ مَنْ كَانَ فِيْ يَدِهِ غَدِيْ ... وَحَطَّمَنِيْ مَنْ كَانَ يَجْهَدُ فِيْ سَبْكِيْ !
فَإِنْ كُنْتُ لَا آسَى لِنَفْسِيْ فَمَنْ إِذًا ؟ ... وَإِنْ كُنْتُ لَا أَبْكِيْ لِنَفْسِيْ فَمَنْ يَبْكِيْ[1] ؟

قَالَ « ٱلدُّكْتُوْر مُحَمَّد » : فَكَانَ ٱلْغِنَاءُ يَعْتَلِجُ فِيْ قَلْبِهِ ٱعْتِلَاجًا ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَبْكِيْ فِيْهِ بُكَاءَهَا وَتَغَصُّ مِنْ غُصَّتِهَا ، وَكَأَنَّ فِيْ ٱلصَّوْتِ فِكْرًا حَزِيْنًا يَسْتَعْلِنُ فِيْ هَمٍّ مُوْسِيْقِيٍّ ؛ وَخُيِّلَ إِلَيْنَا بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ ٱلْبِيَانَةَ ٱنْقَلَبَتِ ٱمْرَأَةً مُغَنِّيَةً تُطَارِحُ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ عَوَاطِفَهَا وَأَحْزَانَهَا ، فَٱجْتَمَعَ مِنْ صَوْتِهِمَا أَكْمَلُ صَوْتٍ إِنْسَانِيٍّ وَأَجْمَلُهُ وَأَشْجَاهُ وَأَرَقُّهُ .

فَأَطَفْنَا بِهِ وَقُلْنَا لَهُ : لَقَدْ كَتَمْتَنَا نَفْسَكَ حَتَّى نَمَّ عَلَيْهَا مَا سَمِعْنَا ، وَمَا هَـٰذَا بِغِنَاءٍ ، وَلَـٰكِنَّهُ هُمُوْمٌ مُلَحَّنَةٌ تَلْحِيْنًا ، فَلَنْ نَدَعَكَ أَوْ تُخْبِرَنَا مَا كَانَ شَأْنُكَ وَشَأْنُهَا .

فَٱعْتَلَّ عَلَيْنَا وَدَافَعَنَا جُهْدَهُ ، فَقُلْنَا لَهُ : هَيْهَاتَ ! وَٱللهِ لَنْ نُفْلِتَكَ وَقَدْ صِرْتَ فِيْ أَيْدِيْنَا ، وَإِنَّكَ مَا تَزِيْدُ عَلَى أَنْ تَعِظَنَا بِهَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ ؛ فَإِنْ أَمْسَكْتَ عَنْهَا فَقَدْ أَمْسَكْتَ عَنْ مَوْعِظَتِنَا ، وَإِنْ بَخِلْتَ فَمَا بَخِلْتَ بِقِصَّتِكَ بَلْ بِعِلْمٍ مِنْ عِلْمِ ٱلْحَيَاةِ نُفِيْدُهُ مِنْكَ ؛ وَأَنْتَ تَرَانَا نَعِيْشُ هَا هُنَا فِيْ ٱجْتِمَاعٍ فَاسِدٍ كُلُّهُ قِصَصٌ قَلْبِيَّةٌ ، بَيْنَ نِسَاءٍ لَا يَلْبَسْنَ إِلَّا مَا يُعَرِّيْ جَمَالَهُنَّ ، وَفِيْ رِجَالٍ أَفْرَطَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْحُرِّيَّةُ ، حَتَّى دَخَلَ فِيْهَا مَخْدَعُ ٱلزَّوْجَةِ . . . !

قَالَ ٱلدُّكْتُوْرُ : وَنَظَرْتُ فَإِذَا ٱلرَّجُلُ كَاسِفٌ قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وَتَبَيَّنَ ٱلِانْكِسَارُ فِيْ وَجْهِهِ ،

= كُلِّهَا ، يَحْفَظُهُ جَمِيْعُ ٱلطَّلَبَةِ ، وَٱلْكَشَّافَةِ ، وَٱلأَنْدِيَةِ ٱلرِّيَاضِيَّةِ ، وَغَيْرِهَا } .

(١) وَضَعْنَا هَـٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ لِبَطَلِ ٱلْقِصَّةِ ، وَكَمْ لِهَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ مِنْ أَبْطَالٍ . . . !

فَأَلْمَمْتُ بِمَا فِي نَفْسِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ دُهِيَ فِي زَوْجَةٍ مِنْ هَٰؤُلَاءِ ٱلْأُورُبِّيَّاتِ ، ٱللَّوَاتِي يَتَزَوَّجْنَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مَخْدَعُ ٱلْمَرْأَةِ مِنْهُنَّ حُرًّا أَنْ يَأْخُذَ وَيَدَعَ ، وَيُغَيِّرَ وَيُبَدِّلَ ، وَيَقْسِمَ كَلِمَةَ « زَوْجٍ » قِسْمَيْنِ وَثَلَاثَةً وَأَرْبَعَةً وَمَا شَاءَ . .

وَكَأَنَّمَا مَسَسْتُ ٱلْبَارُودَ بِتِلْكَ ٱلشَّرَارَةِ ، فَٱنْفَجَرَتْ نَفْسُ ٱلرَّجُلِ عَنْ قِصَّةٍ مَا أَفْظَعَهَا !

* * *

قَالَ : يَا إِخْوَانِي ٱلْمِصْرِيِّينَ ! قَبْلَ أَنْ أَنْفُضَ لَكُمْ ذَٰلِكَ ٱلْخَبَرَ ، أُسْدِيكُمْ هَٰذِهِ ٱلنَّصِيحَةَ ٱلَّتِي لَمْ يَضَعْهَا مُؤَلِّفٌ تَارِيخِيٌّ لِسُوءِ ٱلْحَظِّ ، إِلَّا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ رِوَايَةِ شَقَائِي :

إِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَغْتَرُّوا بِمَعَانِي ٱلْمَرْأَةِ ، تَحْسَبُونَهَا مَعَانِيَ ٱلزَّوْجَةِ ؛ وَفَرِّقُوا بَيْنَ ٱلزَّوْجَةِ بِخَصَائِصِهَا ، وَبَيْنَ ٱلْمَرْأَةِ بِمَعَانِيهَا ؛ فَإِنَّ فِي كُلِّ زَوْجَةٍ ٱمْرَأَةً ، وَلَٰكِنْ لَيْسَ فِي كُلِّ ٱمْرَأَةٍ زَوْجَةٌ .

وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ فِي أُنُوثَتِهَا وَفُنُونِهَا ٱلنِّسَائِيَّةِ ٱلْفَرْدِيَّةِ ، كَهَٰذَا ٱلسَّحَابِ ٱلْمُلَوَّنِ فِي ٱلشَّفَقِ حِينَ يَبْدُو ؛ لَهُ وَقْتٌ مَحْدُودٌ ثُمَّ يُمْسَخُ مَسْخًا ؛ وَلَٰكِنَّ ٱلزَّوْجَةَ فِي نِسَائِيَّتِهَا ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ كَٱلشَّمْسِ ؛ قَدْ يَحْجُبُهَا ذَٰلِكَ ٱلسَّحَابُ ، بَيْدَ أَنَّ ٱلْبَقَاءَ لَهَا وَحْدَهَا ، وَٱلِاعْتِبَارَ لَهَا وَحْدَهَا ، وَلَهَا وَحْدَهَا ٱلْوَقْتُ كُلُّهُ .

لَا تَتَزَوَّجُوا يَا إِخْوَانِي ٱلْمِصْرِيِّينَ بِأَجْنَبِيَّةٍ ؛ إِنَّ أَجْنَبِيَّةً يَتَزَوَّجُ بِهَا مِصْرِيٌّ ، هِيَ مُسَدَّسُ جَرَائِمَ فِيهِ سِتُّ قَذَائِفَ :

ٱلْأُولَىٰ : بَوَارُ ٱمْرَأَةٍ مِصْرِيَّةٍ وَضَيَاعُهَا بِضَيَاعِ حَقِّهَا فِي هَٰذَا ٱلزَّوْجِ ؛ وَتِلْكَ جَرِيمَةٌ وَطَنِيَّةٌ . فَهَٰذِهِ وَاحِدَةٌ .

وَٱلثَّانِيَةُ : إِقْحَامُ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ عَنْ طِبَاعِنَا وَفَضَائِلِنَا ـ فِي هَٰذَا ٱلِاجْتِمَاعِ ٱلشَّرْقِيِّ ، وَتَوْهِينُهُ بِهَا وَصَدْعُهُ ؛ وَهِيَ جَرِيمَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ .

وَٱلثَّالِثَةُ : دَسُّ ٱلْعُرُوقِ ٱلزَّائِغَةِ فِي دِمَائِنَا وَنَسْلِنَا ؛ وَهِيَ جَرِيمَةٌ ٱجْتِمَاعِيَّةٌ .

وَٱلرَّابِعَةُ : ٱلتَّمْكِينُ لِلْأَجْنَبِيِّ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، يَمْلِكُهُ وَيَحْكُمُهُ وَيُصَرِّفُهُ عَلَىٰ مَا شَاءَ ؛ وَهِيَ جَرِيمَةٌ سِيَاسِيَّةٌ .

وَٱلْخَامِسَةُ : لِلْمُسْلِمِ مِنَّا إِيثَارُهُ غَيْرَ أُخْتِهِ ٱلْمُسْلِمَةِ ، ثُمَّ تَحْكِيمُهُ ٱلْهَوَىٰ فِي ٱلدِّينِ ، مَا يُعْجِبُهُ وَمَا لَا يُعْجِبُهُ ؛ ثُمَّ إِلْقَاؤُهُ ٱلسُّمَّ ٱلدِّينِيَّ فِي نَبْعِ ذُرِّيَّتِهِ ٱلْمُقْبِلَةِ ، ثُمَّ صَيْرُورَتُهُ خِزْيًا لِأَجْدَادِهِ ٱلْفَاتِحِينَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَأْخُذُونَهُنَّ سَبَايَا ، وَيَجْعَلُونَهُنَّ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ ٱلثَّانِيَةِ أَوِ ٱلثَّالِثَةِ بَعْدَ ٱلزَّوْجَةِ ؛ فَأَخَذَتْهُ هِيَ رَقِيقًا لَهَا ، وَصَارَ مَعَهَا فِي ٱلْمَنْزِلَةِ ٱلثَّانِيَةِ أَوِ ٱلثَّالِثَةِ بَعْدُ(١) . . .
وَهَٰذِهِ جَرِيمَةٌ دِينِيَّةٌ .

وَٱلسَّادِسَةُ : بَعْدَ ذَٰلِكَ كُلِّهِ ، أَنَّ هَٰذَا ٱلْمِسْكِينَ يُؤْثِرُ أَسْفَلَهُ عَلَىٰ أَعْلَاهُ . . . وَلَا يُبَالِي فِي ذَٰلِكَ خَمْسَ جَرَائِمَ فَظِيعَةً .

وَهَٰذِهِ ٱلسَّادِسَةُ جَرِيمَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ !

* * *

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ يَا إِخْوَانِي ، وَقَدْ رَجَعْتُ بِزَوْجَتِي ٱلْأُورُبِّيَّةِ إِلَىٰ مِصْرَ ، أَنِّي أَحْضَرْتُ مَعِي مِنْ أُورُبَّةَ آلَةً تَصْنَعُ أَحْزَانِي وَمَصَائِبِي ! وَلَمْ يَكُنْ وَعَظَنِي أَحَدٌ بِمَا أَعِظُكُمْ بِهِ ٱلْآنَ ، وَلَا تَنَبَّهْتُ بِذَكَائِي إِلَىٰ أَنَّ ٱلزَّوْجَةَ ٱلْأَجْنَبِيَّةَ تُثْبِتُ لِي غُرْبَتِي فِي بِلَادِي ! وَتُثْبِتُ عَلَيَّ أَنِّي غَيْرُ وَطَنِيٍّ أَوْ غَيْرُ تَامِّ ٱلْوَطَنِيَّةِ ، ثُمَّ تَكُونُ مِنِّي حَمَاقَةٌ تُثْبِتُ لِلنَّاسِ أَنِّي أَحْمَقُ فِيمَا ٱخْتَرْتُ ؛ ثُمَّ تَعُودُ مُشْكِلَةً دَوْلِيَّةً فِي بَيْتِي ، يَزُورُهَا أَبْنَاءُ جِنْسِهَا وَيَسْتَزِيرُونَهَا رَغْمَ أَنْفِي وَفَمِي وَوَجْهِي كُلِّهِ ! وَيَسْتَطِيلُونَ بِٱلْحِمَايَةِ ، وَيَسْتَتِرُونَ بِٱلِامْتِيَازَاتِ ، وَيَرْفَعُونَ سِتَارًا عَنْ فَصْلٍ ، وَيُرْخُونَ سِتَارًا عَلَىٰ فَصْلٍ(٢) . . . وَأَنَا وَحْدِي أَشْهَدُ ٱلرِّوَايَةَ . . . !

إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ فِي أُورُبَّةَ شَيْطَانٌ عَالِمٌ مُخْتَرِعٌ . فَقَدْ زَيَّنَ لِي مِنْ تِلْكَ ٱلزَّوْجَةِ ثَلَاثَ نِسَاءٍ مَعًا : زَوْجَةً عَقْلِيَّةً ، وَزَوْجَةً قَلْبِيَّةً ، وَزَوْجَةً نَفْسِيَّةً ؛ ثُمَّ نَفَثَ ٱللَّعِينُ فِي رُوعِي أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلشَّرْقِيَّةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ مَعَ ذَٰلِكَ لَيْسَتْ مِنْ هَٰؤُلَاءِ ٱلثَّلَاثِ وَلَا وَاحِدَةٌ . قَالَ ٱلْخَبِيثُ : لِأَنَّهَا زَوْجَةُ ٱلْجِسْمِ وَحْدَهُ ، فَلَا تَسْمُو إِلَى ٱلْعَقْلِ ، وَلَا تَتَّصِلُ بِٱلْقَلْبِ ، وَلَا تَمْتَزِجُ بِٱلنَّفْسِ ؛ وَأَنَّهَا بِذَٰلِكَ جَاهِلَةٌ ، غَلِيظَةُ ٱلْحِسِّ ، خَشِنَةُ ٱلطَّبْعِ ، لَا تَكُونُ مَعَ ٱلْمِصْرِيِّ

(١) { يُرِيدُ : بَعْدَ عَشِيقِهَا } .

(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « عَنْ فَصْلٍ » بَدَلًا مِنْ : « عَلَىٰ فَصْلٍ » .

إِلَّا كَمَا تَكُوْنُ ٱلأَرْضُ ٱلْمِصْرِيَّةُ مَعَ فَلَّاحِهَا . . .

لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيْمِ ٱلْعَالِمِ ٱلْمُخْتَرِعِ ! مَا عَلِمْتُ إِلَّا مِنْ بَعْدُ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلشَّرْقِيَّةَ ٱلْجَاهِلَةَ ٱلْخَشِنَةَ ٱلْجَافِيَةَ ، هِيَ كَٱلْمَنْجَمِ ٱلَّذِيْ تِبْرُهُ فِيْ تُرَابِهِ ، وَمَاسُهُ فِيْ فَحْمِهِ ، وَجَوْهَرُهُ فِيْ مَعْدَنِهِ ؛ وَأَنَّ صُعُوْبَتَهَا مِنْ صُعُوْبَةِ ٱلْعِفَّةِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ ، وَأَنَّ خُشُوْنَتَهَا مِنْ خُشُوْنَةِ ٱلْحُبِّ ٱلْمُعْتَزِّ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّ جَفَاءَهَا مِنْ جَفَاءِ ٱلدِّيْنِ ٱلْمُتَسَامِي عَلَىٰ ٱلْمَادَّةِ ؛ وَأَنَّهَا بِمَجْمُوْعِ ذَلِكَ كَانَ لَهَا ٱلصَّبْرُ ٱلَّذِيْ لَا يَدْخُلُهُ ٱلْعَجْزُ ، وَكَانَ لَهَا ٱلْوَفَاءُ ٱلَّذِيْ لَا تَلْحَقُهُ ٱلشُّبْهَةُ ، وَكَانَ لَهَا ٱلإِيْثَارُ ٱلَّذِيْ لَا يُفْسِدُهُ ٱلطَّمَعُ .

هِيَ جَاهِلَةٌ ، وَلَهَا عَقْلُ ٱلْحَيَاةِ فِيْ دَارِهَا ؛ وَغَلِيْظَةُ ٱلْحِسِّ ، وَلَهَا أَرَقُّ مَا فِيْ ٱلزَّوْجَةِ لِزَوْجِهَا وَحْدَهُ؛ وَخَشِنَةُ ٱلطَّبْعِ ، لِأَنَّهَا تَتَنَزَّهُ أَنْ تَكُوْنَ مَلْمَسًا نَاعِمًا لِهَـٰذَا وَذَاكَ وَهَـٰؤُلَاءِ وَأُوْلَـٰئِكَ . . . لَا كَٱمْرَأَةِ ٱلْحُبِّ ٱلأُوْرُبِّيَّةِ ، ٱلَّتِيْ تَجْعَلُ نَفْسَهَا أُنْثَىٰ ٱلْفَنِّ ، وَتُرِيْدُ أَنْ تَعِيْشَ دَائِمًا مَعَ زَوْجِهَا ٱلشَّرْقِيِّ مِنَ ٱلتَّفْضِيْلِ وَٱلإِيْثَارِ وَٱلإِجْلَالِ وَٱلإِبَاحَةِ ـ فِيْ كَلِمَةِ « أَنَا » قَبْلَ كَلِمَةِ « أَنْتَ » . . . ٱمْرَأَةٌ أَنْشَأَتْهَا ٱلْحَرْبُ ٱلْعُظْمَىٰ بِأَخْلَاقٍ مُخَرِّبَةٍ مُدَمِّرَةٍ تَنْفَجِرُ بَيْنَ ٱلْوَقْتِ وَٱلْوَقْتِ .

عِنْدَنَا يَا إِخْوَانِيْ تَعَدُّدُ ٱلزَّوْجَاتِ ، يَتَّهِمُوْنَنَا بِهِ مِنْ عَمًى وَجَهْلٍ وَسَخَافَةٍ . ٱنْظُرُوا ، هَلْ هُوَ إِلَّا إِعْلَانٌ لِشَرْعِيَّةِ ٱلرُّجُوْلَةِ وَٱلأُنُوْثَةِ ، وَدِيْنِيَّةِ ٱلْحَيَاةِ ٱلزَّوْجِيَّةِ فِيْ أَيِّ أَشْكَالِهَا ؛ وَهَلْ هُوَ إِلَّا إِعْلَانُ بُطُوْلَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلشَّرْقِيِّ ٱلأَنُوْفِ ٱلْغَيُوْرِ ، أَنَّ ٱلزَّوْجَةَ تَتَعَدَّدُ عِنْدَ ٱلرَّجُلِ وَلَـٰكِنْ . . . وَلَـٰكِنْ لَيْسَ كَمَا يَقَعُ فِيْ أُوْرُبَّةَ مِنْ أَنَّ ٱلزَّوْجَ يَتَعَدَّدُ عِنْدَ ٱلْمَرْأَةِ . . . !

يَتَّهِمُوْنَنَا بِتَعَدُّدِ ٱلْمَرْأَةِ عَلَىٰ أَنْ تَكُوْنَ زَوْجَةً لَهَا حُقُوْقُهَا وَوَاجِبَاتُهَا ـ بِقُوَّةِ ٱلشَّرْعِ وَٱلْقَانُوْنِ ـ نَافِذَةً مُؤَدَّاةً ؛ ثُمَّ لَا يَتَّهِمُوْنَ أَنْفُسَهُمْ بِتَعَدُّدِ ٱلْمَرْأَةِ خَلِيْلَةً مُخَادِنَةً لَيْسَ لَهَا حَقٌّ عَلَىٰ أَحَدٍ ، وَلَا وَاجِبٌ مِنْ أَحَدٍ ، بَلْ هِيَ تَتَقَاذَفُهَا ٱلْحَيَاةُ مِنْ رَجُلٍ إِلَىٰ رَجُلٍ ، كَٱلسِّكِّيْرِ يَتَقَاذَفُهُ ٱلشَّارِعُ مِنْ جِدَارٍ إِلَىٰ جِدَارٍ .

لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَىٰ شَيْطَانِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلْعَالِمِ ٱلْمُخْتَرِعِ ٱلْمُخَنَّثِ ، ٱلَّذِيْ يَجْعَلُ لِلْمَرْأَةِ ٱلأُوْرُبِّيَّةِ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ٱلرَّجُلُ ٱلشَّرْقِيُّ ، أَصَابِعَ « أُوْتُوْمَاتِيْكِيَّةً »[1] ، مَا أَسْرَعَ مَا تَمْتَدُّ فِيْ نَزْوَةٍ مِنْ

(١) [أتوماتيكية ، من Automatique ، أي : آلية] .

حَمَاقَاتِهَا إِلَىٰ رَجُلِهَا بِٱلْمُسَدَّسِ ، فَإِذَا ٱلرَّصَاصُ وَٱلْقَتْلُ ؛ وَمَا أَسْرَعَ مَا تَمْتَدُّ فِيْ نَزْوَةٍ مِنْ عَوَاطِفِهَا إِلَىٰ عَاشِقِهَا بِمِفْتَاحِ ٱلدَّارِ ، فَإِذَا ٱلْخِيَانَةُ وَٱلْعُهْرُ !

مَاذَا تَتَوَقَّعُوْنَ يَا إِخْوَانِيْ مِنْ تِلْكَ ٱلرَّقِيْقَةِ ٱلنَّاعِمَةِ ، ٱلْمُتَأَنِّثَةِ بِكُلِّ مَا فِيْهَا أُنُوْثَةً تَكْفِيْ رِجَالًا لَا رَجُلًا وَاحِدًا ، وَقَدْ ضَعُفَتْ رُوْحِيَّةُ ٱلأُسْرَةِ فِيْ رَأْيِهَا ، وَٱبْتُذِلَتِ ٱلزُّوْجِيَّةُ فِيْ مُجْتَمَعِهَا ٱبْتِذَالًا ، فَأَصْبَحَ عِنْدَهَا ٱلزَّوَاجُ لِلزَّوَاجِ عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ ، لَا لِتَكُوْنَ ٱمْرَأَةً وَاحِدَةً لِرَجُلٍ وَاحِدٍ مَقْصُوْرَةً عَلَيْهِ ؛ وَبِذَلِكَ عَادَ ٱلزَّوَاجُ حَقًّا فِيْ جِسْمِ ٱلْمَرْأَةِ دُوْنَ قَلْبِهَا وَرُوْحِهَا ؛ فَإِنْ كَانَ ٱلزَّوْجُ مَشْؤُوْمًا مَنْكُوْبًا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكُوْنَ رَجُلَ قَلْبِهَا ـ فَعَلَيْهِ أَنْ يَدَعَ لَهَا ٱلْحُرِّيَّةَ لِتَخْتَارَ زَوْجَ قَلْبِهَا . . . ! وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنْ تَكُوْنَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ مَعَ ٱلزَّوْجِ ٱلشَّرْعِيِّ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَرْأَةِ مَعَ فَاسِقٍ ؛ وَمَعَ ٱلْفَاسِقِ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَرْأَةِ مَعَ ٱلزَّوْجِ ٱلشَّرْعِيِّ . . . ! وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ مَنْحُوْسًا مُخَيَّبًا ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ إِلَىٰ قَلْبِهَا زَمَنًا ثُمَّ مَلَّهُ قَلْبُهَا ـ فَعَلَيْهِ أَنْ يَدَعَ لَهَا ٱلْحُرِّيَّةَ لِتَتَنَقَّلَ وَتَلَذَّ بِلَذَّاتِ ٱلْهَوَىٰ ، وَيَقُوْلَ لَهَا : شَأْنَكِ بِمَنْ أَحْبَبْتِ ! فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْمَنْحُوْسَ ٱلْمُخَيَّبَ لَيْسَ عِنْدَهَا إِنْسَانًا ، وَلَـٰكِنَّهُ رِوَايَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ ٱنْتَهَىٰ ٱلْفَصْلُ ٱلْجَمِيْلُ مِنْهَا بِمَنَاظِرِهِ ٱلْجَمِيْلَةِ ، وَبَدَأَ فَصْلٌ آخَرُ بِحَوَادِثَ غَيْرِ تِلْكَ . فَلِمَنْ يَشْهَدُ ٱلرِّوَايَةَ أَنْ يَتَبَرَّمَ مَا شَاءَ ، وَيَسْتَثْقِلَ كَمَا يَشَاءُ ، وَمَتَىٰ شَاءَ ٱنْصَرَفَ مِنَ ٱلْبَابِ . . . !

ٱمْرَأَةُ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ هِيَ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَاطِفَةِ ؛ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ حِيْنَ تُلْبِسُهُ ٱلْعَاطِفَةُ مِنْ زِيْنَتِهَا ، وَإِنْ ضَاعَ فِيْهِ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْكَبِيْرُ مِنْ مَعَانِيْ ٱلْعَقْلِ ، وَإِنْ فَاتَتْ بِهِ ٱلنِّعْمَةُ ٱلْكَبِيْرَةُ مِنْ نِعَمِ ٱلْحَيَاةِ .

تَقْوَىٰ ٱلْعَاطِفَةُ فَتَجِيْءُ بِهَا إِلَىٰ رَجُلٍ ، ثُمَّ تَقْوَىٰ ٱلثَّانِيَةَ فَتَذْهَبُ بِهَا مَعَ رَجُلٍ آخَرَ . . . ! وَتُقَيِّدُ نَفْسَهَا إِنْ شَاءَتْ ، وَتُسَرِّحُ نَفْسَهَا إِنْ شَاءَتْ ؛ وَمَا بُدٌّ مِنْ أَنْ تَبْلُوَ ٱلْحَيَاةَ كَمَا يَبْلُوْهَا ٱلرَّجُلُ ، وَأَنْ تَخُوْضَ فِيْ مَشَاكِلِهَا ؛ وَإِذَا شَاءَتْ جَعَلَتْ نَفْسَهَا إِحْدَىٰ مَشَاكِلِهَا . . . ! وَلَا مَنْدُوْحَةَ مِنْ أَنْ تَتَوَلَّىٰ شَأْنَ نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا ، فَإِذَا خَاسَتْ أَوْ غَدَرَتْ فَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدَهَا مِنْ أَحْكَامِ نَفْسِهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ رَأْيٌ وَحَقٌّ ، إِذْ كَانَ مِحْوَرُهَا ٱلَّذِيْ تَدُوْرُ عَلَيْهِ هُوَ عَاطِفَتَهَا وَحُرِّيَّةَ هَـٰذِهِ ٱلْعَاطِفَةِ ، فَمَنْ هَـٰذَا يُقَرِّرُ لَهَا خُطَّتَهَا ، وَيُمْلِيْ عَلَيْهَا وَاجِبَاتِهَا ، وَيُزَوِّرُ لَهَا ٱلأَسْمَاءَ عَلَىٰ إِرَادَتِهِ دُوْنَ إِرَادَتِهَا ، فَيُسَمِّيْ لَهَا نَكَدَ قَلْبِهَا بِٱسْمِ فَضِيْلَةِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَحِرْمَانَ عَاطِفَتِهَا بِٱسْمِ وَاجِبِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلشَّرِيْفَةِ ؟

وَمَنْ ذَا خَوَّلَهُ ٱلْحَقَّ أَنْ يُقَرِّرَ وَأَنْ يُمْلِيَ ؟

وَهَـٰذَا ٱلشَّرْقِيُّ ٱلْعَتِيْقُ ٱلْمَأْفُوْنُ ٱلَّذِيْ قَبِلَهَا سَافِرَةً لَا تَعْرِفُ رُوْحُهَا وَلَا جِسْمُهَا

ٱلْحِجَابَ ؛ مَا بَالُهُ يُرِيْدُ أَنْ يَضْرِبَ ٱلْحِجَابَ عَلَىٰ عَاطِفَتِهَا ، وَيَتْرُكَهَا مَحْبُوْسَةً فِيْ شَرَفِهِ وَحُقُوْقِهِ وَوَاجِبَاتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَحْجُوْبَةً فِيْ ٱلدَّارِ ؟

مَا عَلِمْتُ يَا إِخْوَانِي إِلَّا مِنْ بَعْدُ ، أَنَّ ٱلزَّوْجَةَ ٱلْغَرْبِيَّةَ قَدْ تَكُوْنُ مَعَ زَوْجِهَا ٱلشَّرْقِيِّ كَٱلسَّائِحَةِ مَعَ دَلِيْلِهَا . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ، إِنَّهُ لَنْ يُمْسِكَهَا عَلَيْهِ ، وَلَنْ يُكْرِهَهَا عَلَىٰ ٱلْوَفَاءِ لَهُ ، إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ حُثَالَةً يَزْهَدُ فِيهَا حَتَّىٰ ذُبَابُ ٱلنَّاسِ ؛ فَيَأْسُهَا هُوَ يَجْعَلُ هَـٰذَا ٱلْمِسْكِيْنَ مَطْمَعَهَا ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَوْ خَلَطَتْهُ بِنَفْسِهَا لَبَقِيَتْ مِنْهَا نَاحِيَةٌ لَا تَخْتَلِطُ ، إِذْ تَرَىٰ أُمَّتَهُ دُوْنَ أُمَّتِهَا ، وَجِنْسَهُ دُوْنَ جِنْسِهَا ؛ فَمَا تَسُبُّ أُمَّةَ زَوْجِهَا وَبِلَادَهُ بِأَقْبَحَ مِنْ هَـٰذَا !

أَمَا وَٱللهِ إِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلشَّرْقِيَّ حِيْنَ يَأْتِي بِٱلأَجْنَبِيَّةِ لِتَلْوِيْنِ حَيَاتِهِ بِأَلْوَانِ ٱلأُنْثَىٰ . . . لَا يَكُوْنُ ٱخْتَارَ أَزْهَىٰ ٱلأَلْوَانِ إِلَّا لِتَلْوِيْنِ مَصَائِبِ حَيَاتِهِ ! وَقَدْ يَكُوْنُ هُنَاكَ مَا يَشِذُّ ، وَلَـٰكِنْ هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْقَاعِدَةُ .

* * *

أَمَّا قِصَّتِيْ يَا إِخْوَانِي . . . .

قَالَ ٱلدُّكْتُوْر مُحَمَّد : قَدْ حَكَيْتَهَا « يَرْحَمُكَ ٱللهُ » .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

قَصِيْدَةٌ مُتَرْجَمَةٌ { عَنِ ٱلشَّيْطَانِ }

لُحُوْمُ ٱلْبَحْرِ (*) . . .

لَكَأَنَّمَا وَٱللهِ قَدْ تَمَدَّدَ عَلَىٰ سِيْفِ ٱلْبَحْرِ فِيْ ٱسْكَنْدَرِيَّةَ شَيْطَانٌ مَارِدٌ مِنْ شَيَاطِيْنِ مَا بَيْنَ ٱلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ ، يَخْدَعُ ٱلنَّاسَ عَنْ جَهَنَّمَ بِتَبْرِيْدِ مَعَانِيْهَا . . . وَقَدِ ٱمْتَلأَ بِهِ ٱلزَّمَانُ وَٱلْمَكَانُ ؛ فَهُوَ يُرْعِشُ ذَلِكَ ٱلرَّمْلَ بِذَلِكَ ٱلْهَوَاءِ رَعْشَةَ أَعْصَابٍ حَيَّةٍ ؛ وَيُرْسِلُ فِيْ ٱلْجَوِّ نَفَخَاتٍ مِنْ جُرْأَةِ ٱلْخَمْرِ فِيْ شَارِبِهَا ثَارَ فَعَرْبَدَ ، وَيُطْلِعُ ٱلشَّمْسَ لِلأَعْيُنِ فِيْ مَنْظَرِ حَسْنَاءَ عُرْيَانَةٍ أَلْقَتْ ثِيَابَهَا وَحَيَاءَهَا مَعًا ؛ وَيُرْخِيْ ٱللَّيْلَ لِيُغَطِّيَ بِهِ ٱلْمَخَازِيَ ٱلَّتِي خَجِلَ ٱلنَّهَارُ أَنْ تَكُوْنَ فِيْهِ .

وَلَعَمْرِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ هَـٰذَا ٱلْمَارِدَ ، مَا أَحْسَبُهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَانَ ٱلْخَبِيْثَ ٱلَّذِيْ ٱبْتَدَعَ فِكْرَةَ عَرْضِ ٱلآثَامِ مَكْشُوْفَةً فِيْ أَجْسَامِهَا تَحْتَ عَيْنَ ٱلتَّقِيِّ وَٱلْفَاجِرِ ، لِتَعْمَلَ عَمَلَهَا فِيْ ٱلطِّبَاعِ وَٱلأَخْلَاقِ ؛ فَسَوَّلَ لِلنِّسَاءِ وَٱلرِّجَالِ أَنَّ ذَلِكَ ٱلشَّاطِئَ عِلَاجُ ٱلْمَلَلِ مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلتَّعَبِ ، حَتَّىٰ إِذَا ٱجْتَمَعُوا ، فَتَقَارَبُوا ، فَتَشَابَكُوا ، سَوَّلَ لَهُمُ ٱلأُخْرَىٰ أَنَّ ٱلشَّاطِئَ هُوَ كَذَلِكَ عِلَاجُ ٱلْمَلَلِ مِنَ ٱلْفَضِيْلَةِ وَٱلدِّيْنِ !

وَإِنْ[1] لَمْ يَكُنِ ٱللَّعِيْنَانِ فَهُوَ ٱلرَّجِيْمُ ٱلثَّالِثُ ، ذَلِكَ ٱلَّذِيْ تَأَلَّىٰ أَنْ يُفْسِدَ ٱلآدَابَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا بِفَسَادِ[2] خُلُقٍ وَاحِدٍ ، هُوَ حَيَاءُ ٱلْمَرْأَةِ ؛ فَبَدَأَ يَكْشِفُهَا لِلرِّجَالِ مِنْ وَجْهِهَا ، وَلَـٰكِنَّهُ ٱسْتَمَرَّ يَكْشِفُ . . . وَكَانَتْ تَظُنُّهُ نَزْعَ حِجَابِهَا فَإِذَا هُوَ أَوَّلُ عُرْيِهَا . . . وَزَادَتِ ٱلْمَرْأَةُ ، وَلَـٰكِنْ بِمَا زَادَ فُجُوْرَ ٱلرِّجَالِ ؛ وَنَقَصَتْ ، وَلَـٰكِنْ بِمَا نَقَصَ فَضَائِلَهُمْ ؛ وَتَغَيَّرَتِ ٱلدُّنْيَا وَفَسَدَتِ ٱلطِّبَاعُ ؛ فَإِذَا تِلْكَ ٱلْمَرْأَةُ مِمَّنْ يُقِرُّوْنَهَا عَلَىٰ تَبَذُّلِهَا بَيْنَ رُجُلَيْنِ لَا ثَالِثَ

(*) « الرسالة » العدد : ٦٢ ، ١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٠ سبتمبر/أيلول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٤٨٥ ـ ١٤٨٧ .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « وَلأَنْ » بَدَلًا مِنْ : « وَإِنْ » .

(٢) فِي ٱلأَصْلِ : « لِفَسَادِ » بَدَلًا مِنْ : « بِفَسَادِ » .

لَهُمَا : رَجُلٍ فَجَرَ ، وَرَجُلٍ تَخَنَّثَ . . .

* * *

هُنَاكَ فِكْرَةٌ مِنْ شَرِيعَةِ ٱلطَّبِيعَةِ هِيَ عَقْلُ ٱلْبَحْرِ فِي هَـٰؤُلَاءِ ٱلنَّاسِ ، وَعَقْلُ هَـٰؤُلَاءِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْبَحْرِ ؛ إِذَا أَنْتَ ٱعْتَرَضْتَهَا فَتَبَيَّنْتَهَا فَتَعَقَّبْتَهَا ، رَأَيْتَهَا بَلَاغَةً مِنْ بَلَاغَةِ ٱلشَّيْطَانِ فِي تَزْيِينِهِ وَتَطْوِيعِهِ ، وَأَصَبْتَ فِكْرَةً مُسْتَقِرًّا فِيهَا ٱسْتِقْرَارَ ٱلْمَعْنَىٰ فِي عِبَارَتِهِ ، آخِذًا بِمَدَاخِلِهَا وَمَخَارِجِهَا . وَمَا كَانَ ٱلشَّيْطَانُ عَيِيًّا وَلَا غَبِيًّا ، بَلْ هُوَ أَذْكَىٰ شُعَرَاءِ ٱلْكَوْنِ فِي خَيَالِهِ ، وَأَبْلَغُهُمْ فِي فِطْنَتِهِ ، وَأَدَقُّهُمْ فِي مَنْطِقِهِ ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى ٱلْفِتْنَةِ وَٱلسِّحْرِ ؛ وَبِتَمَامِهِ فِي هَـٰذَا كُلِّهِ كَانَ شَيْطَانًا لَمْ تَسَعْهُ ٱلْجَنَّةُ إِذْ لَيْسَ فِيهَا ٱلنَّارُ ، وَلَمْ تُرْضِهِ ٱلرَّحْمَةُ إِذْ لَيْسَ مَعَهَا ٱلْغَضَبُ ، وَلَمْ يُعْجِبْهُ ٱلْخُضُوعُ ٱلْمَلَائِكِيُّ إِذْ لَيْسَ فِيهِ ٱلْكِبْرِيَاءُ ، وَلَمْ يَخْلُصْ إِلَى ٱلْحَقِيقَةِ إِذْ لَا تَحْمِلُ ٱلْحَقِيقَةُ شِعْرَ أَحْلَامِهِ .

وَمَا أَتَى ٱلشَّيْطَانُ أَحَدًا ، وَلَا وَسْوَسَ فِي قَلْبٍ ، وَلَا سَوَّلَ لِنَفْسٍ ، وَلَا أَغْوَىٰ مَنْ يُغْوِيهِ ـ إِلَّا بِأُسْلُوبٍ شِعْرِيٍّ مُلْتَبِسٍ دَقِيقٍ ، يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ يَعْتَقِدُ أَنَّ ٱطِّرَاحَ ٱلْعَقْلِ سَاعَةً هُوَ عَقْلُ ٱلسَّاعَةِ ، وَيُفْسِدُ بُرْهَانَهُ مَهْمَا كَانَ قَوِيًّا ؛ إِذْ يَرْتَدُّ بِهِ مِنَ ٱلنَّفْسِ إِلَىٰ أَخْيِلَةٍ لَا تَقْبَلُ ٱلْبُرْهَانَاتِ[١] ، وَيَقْطَعُ حُجَّتَهُ مَهْمَا كَانَتْ دَامِغَةً ؛ إِذْ يَعْتَرِضُهَا بِنَزْعَةٍ مِنَ ٱلنَّزَعَاتِ تُوَجِّهُهَا كَيْفَ دَارَ بِهَا ٱلدَّمُ لَا كَيْفَ دَارَ بِهَا ٱلْمَنْطِقُ .

فِكْرَةٌ مِنْ شَرِيعَةِ ٱلطَّبِيعَةِ ، ظَاهِرُهَا لِبَعْضِ ٱلْأَمْرِ مِنَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْهَوَاءِ وَٱلْبَحْرِ وَمَا لَا أَدْرِي ، وَبَاطِنُهَا لِبَعْضِ ٱلْأَمْرِ مِنْ فَنِّ ٱلشَّيْطَانِ وَبَلَاغَتِهِ وَشِعْرِهِ وَمَا لَا أَدْرِي ؛ وَمَا كَانَتِ ٱلشَّرَائِعُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ وَٱلْوَضْعِيَّةُ إِلَّا لِإِقْرَارِ ٱلْعَقْلِ فِي شَرِيعَةِ ٱلطَّبِيعَةِ كَيْ تَكُونَ إِنْسَانِيَّةً لِإِنْسَانِهَا كَمَا هِيَ ٱلْحَيَوَانِيَّةُ لِحَيَوَانِهَا ، وَلِيَجِدَ ٱلْإِنْسَانُ مَا يَحْفَظُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ ٱلَّتِي هِيَ دَائِمًا فَوْضَىٰ ، وَلَا غَايَةَ لَهَا لَوْلَا ذَٰلِكَ ٱلْعَقْلُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ دَائِمًا فَوْضَىٰ . . .

وَبِٱلشَّرَائِعِ وَٱلْآدَابِ ٱسْتَطَاعَ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يَضَعَ لِكَلِمَةِ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلنَّافِذَةِ عَلَيْهِ { جَوَابًا } ، وَأَنْ يَرَىٰ فِي هَـٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةِ أَثَرَ جَوَابِهِ ؛ فَكَلِمَتُهَا هِيَ : أَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ ! أَنْتَ خَاضِعٌ لِي

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْبَرَاهِين » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْبُرْهَانَات » .

بِٱلْحَيَوَانِيِّ فِيكَ . وَكَلِمَتُهُ هُوَ : أَيَّتُهَا ٱلطَّبِيعَةُ ! وَأَنْتِ لِيَ خَاضِعَةٌ بِٱلْإِلَـٰهِيِّ فِيَّ .

* * *

وَٱلْآنَ سَأَقْرَأُ لَكَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلْفَنِّيَّةَ ٱلَّتِي نَظَمَهَا ٱلشَّيْطَانُ عَلَىٰ رَمْلِ ٱلشَّاطِئِ فِي ٱسْكَنْدَرِيَّةَ ؛ وَقَدْ نَقَلْتُهَا أُتَرْجِمُهَا فَصْلًا بَعْدَ فَصْلٍ عَنْ تِلْكَ ٱلْأَجْسَامِ عَارِيَةً وَكَاسِيَةً ، وَعَنْ مَعَانِيهَا مَكْشُوفَةً وَمُغَطَّاةً ، وَعَنْ طِبَاعِهَا بَرِيئَةً وَمُتَّهَمَةً ، حَتَّىٰ ٱتَّسَقَتِ ٱلتَّرْجَمَةُ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ :

قَالَ ٱلشَّيْطَانُ :

أَلَا إِنَّ ٱلْبَهِيمَةَ[١] وَٱلْعَقْلِيَّةَ فِي هَـٰذَا ٱلْإِنْسَانِ ؛ مَجْمُوعُهُمَا شَيْطَانِيَّةٌ . . .

أَلَا وَإِنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ جَمِيلٍ أَوْ عَظِيمٍ إِلَّا وَفِيهِ مَعْنَى ٱلسُّخْرِيَةِ بِهِ .

هُنَا تَتَعَرَّىٰ ٱلْمَرْأَةُ مِنْ ثَوْبِهَا ، فَتَتَعَرَّىٰ مِنْ فَضِيلَتِهَا .

هُنَا يَخْلَعُ ٱلرَّجُلُ ثَوْبَهُ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِ فَيَلْبَسُ فِيهِ ٱلْأَدَبَ ٱلَّذِي خَلَعَهُ . . .

رُؤْيَةُ ٱلرَّجُلِ لَحْمَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُحَرَّمَةِ نَظَرٌ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْعَاطِفَةِ .

يَرْمِي بِبَصَرِهِ ٱلْجَائِعِ كَمَا يَنْظُرُ ٱلصَّقْرُ إِلَىٰ لَحْمِ ٱلصَّيْدِ .

وَنَظَرُ ٱلْمَرْأَةِ لَحْمَ ٱلرَّجُلِ رُؤْيَةُ فِكْرٍ فَقَطْ . . .

تُحَوِّلُ بَصَرَهَا أَوْ تَخْفِضُهُ ، وَهِيَ مِنْ قَلْبِهَا تَنْظُرُ . . .

يَا لُحُومَ ٱلْبَحْرِ ! سَلَخَكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَّارٌ . . .

* * *

يَا لُحُومَ ٱلْبَحْرِ ! سَلَخَكِ جَزَّارٌ مِنْ ثِيَابِكِ .

جَزَّارٌ لَا يَذْبَحُ بِأَلَمٍ وَلَـٰكِنْ بِلَذَّةٍ . . .

وَلَا يَحُزُّ بِٱلسِّكِّينِ وَلَـٰكِنْ بِٱلْعَاطِفَةِ . . .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْبَهِيمِيَّة » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْبَهِيمَة » .

وَلَا يُمِيتُ ٱلْحَيَّ إِلَّا مَوْتًا أَدَبِيًّا . . .

إِلَى ٱلْهَيْجَاءِ يَا أَبْطَالَ مَعْرَكَةِ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ .

فَهُنَا تَلْتَحِمُ نَوَامِيسُ ٱلطَّبِيعَةِ وَنَوَامِيسُ ٱلأَخْلَاقِ .

لِلطَّبِيعَةِ أَسْلِحَةُ ٱلْعُرْيِ ، وَٱلْمُخَالَطَةِ ، وَٱلنَّظَرِ ، وَٱلأُنْسِ ، وَٱلتَّضَاحُكِ ، وَنُزُوعِ ٱلْمَعْنَىٰ إِلَى ٱلْمَعْنَىٰ . . .

وَلِلأَخْلَاقِ ٱلْمَهْزُومَةِ سِلَاحٌ مِنَ ٱلدِّينِ قَدْ صَدِئَ ؛ وَسِلَاحٌ مِنَ ٱلْحَيَاءِ مَكْسُورٌ !

يَا لُحُومَ ٱلْبَحْرِ ! سَلَخَكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَّارٌ . . .

* * *

ٱلشَّاطِئُ كَبِيرٌ كَبِيرٌ ، يَسَعُ ٱلآلَافَ وَٱلآلَافَ .

وَلَـٰكِنَّهُ لِلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ صَغِيرٌ صَغِيرٌ ، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ إِلَّا خَلْوَةً . . .

وَتَقْضِي ٱلْفَتَاةُ سَنَتَهَا تَتَعَلَّمُ ، ثُمَّ تَأْتِي هُنَا تَتَذَكَّرُ جَهْلَهَا وَتَعْرِفُ مَا هُوَ . . .

وَتُمْضِي ٱلْمَرْأَةُ عَامَهَا كَرِيمَةً ، ثُمَّ تَجِيءُ لِتَجِدَ هُنَا مَادَّةَ ٱللُّؤْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ . . .

لَوْ كَانَتْ حَجَّاجَةً صَوَّامَةً ، لَلَعَنَتْهَا ٱلْكَعْبَةُ لِوُجُودِهَا فِي « ٱسْتَانْلِي »(١) .

ٱلْفَتَاةُ تَرَىٰ فِي ٱلرِّجَالِ ٱلْعُرْيَانِينَ أَشْبَاحَ أَحْلَامِهَا ، وَهَـٰذَا مَعْنًى مِنَ ٱلسُّقُوطِ .

وَٱلْمَرْأَةُ تُسَارِقُهُمُ ٱلنَّظَرَ تَنْوِيعًا لِرَجُلِهَا ٱلْوَاحِدِ ، وَهَـٰذَا مَعْنًى مِنَ ٱلْمَوَاخِيرِ . . .

أَيْنَ تَكُونُ ٱلنِّيَّةُ ٱلصَّالِحَةُ لِفَتَاةٍ أَوِ ٱمْرَأَةٍ بَيْنَ رِجَالٍ عُرْيَانِينَ ؟

يَا لُحُومَ ٱلْبَحْرِ ! سَلَخَكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَّارٌ . . .

* * *

(١) استانلي ، أو استانلي باي Stanley by : اسم شاطئ مشهور في زمن المؤلف ، كان عَلَمًا على عدم مراعاة أيٍّ من الآداب ناهيك عن الدين والخلق .
ولهذا وضعه المؤلِّف لاحقًا بـ« مزبلة إسكندرية » مضيفه كَمَعْلَم من معالِمِها .
وقد ذكره كذلك الشيخ مصطفى صبري في كتابه « قولي في المرأة » فراجعه ، وهو من مطبوعات الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ليماسول ، قبرص . بسام .

هُنَاكَ ٱلتَّرْبِيَةُ ، وَهُنَا إِعْلَانُ ٱلإِغْفَالِ وَٱلطَّيْشِ .

وَهُنَاكَ ٱلدِّينُ ، وَهُنَا أَسْبَابُ ٱلإِغْرَاءِ وَٱلزَّلَلِ .

هُنَاكَ تَكَلُّفُ(١) ٱلأَخْلَاقِ ، وَهُنَا طَبِيعَةُ ٱلْحُرِّيَّةِ مِنْهَا .

وَهُنَاكَ ٱلْعَزِيمَةُ(٢) بِٱلْقَهْرِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَهُنَا إِفْسَادُهَا بِٱلتَّرَخُّصِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

وَٱلْبَحْرُ يُعَلِّمُ ٱللَّائِي وَٱلَّذِينَ يَسْبَحُونَ فِيهِ كَيْفَ يَغْرَقُونَ فِي ٱلْبَرِّ . . .

لَوْ دَرَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مَعَرَّةَ ٱغْتِسَالِهِمْ مَعًا فِي ٱلْبَحْرِ ، لَٱغْتَسَلُوا مِنَ ٱلْبَحْرِ .

فَقَطْرَةُ ٱلْمَاءِ ٱلَّتِي نَجَّسَتْهَا ٱلشَّهَوَاتُ قَدِ ٱنْسَكَبَتْ فِي دِمَائِهِمْ .

وَذَرَّةُ ٱلرَّمْلِ ٱلنَّجِسَةُ فِي ٱلشَّاطِئِ ، سَتَكْبَرُ حَتَّىٰ تَصِيرَ بَيْتًا نَجِسًا لِأَبٍ وَأُمٍّ . . .

يَا لُحُومَ ٱلْبَحْرِ ! سَلَخَكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَّارٌ . . .

* * *

يَجِيئُونَ لِلشَّمْسِ ٱلَّتِي تَقْوَىٰ بِهَا صِفَاتُ ٱلْجِسْمِ .

لِيَجِدَ كُلٌّ مِنَ ٱلْجِنْسَيْنِ شَمْسَهُ ٱلَّتِي تَضْعُفُ بِهَا صِفَاتُ ٱلْقَلْبِ .

يَجِيئُونَ لِلْهَوَاءِ ٱلَّذِي تَتَجَدَّدُ بِهِ عَنَاصِرُ ٱلدَّمِ .

لِيَجِدُوا ٱلْهَوَاءَ ٱلآخَرَ ٱلَّذِي تَفْسُدُ بِهِ مَعَانِي ٱلدَّمِ .

يَجِيئُونَ لِلْبَحْرِ ٱلَّذِي يَأْخُذُونَ مِنْهُ ٱلْقُوَّةَ وَٱلْعَافِيَةَ .

لِيَأْخُذُوا عَنْهُ أَيْضًا شَرِيعَتَهُ ٱلطَّبِيعِيَّةَ : سَمَكَةٌ تُطَارِدُ سَمَكَةً . . .

وَيَقُولُونَ : لَيْسَ عَلَى ٱلْمُصَيِّفِ حَرَجٌ .

أَيْ لِأَنَّهُ أَعْمَىٰ ٱلأَدَبِ ، وَلَيْسَ عَلَى ٱلأَعْمَىٰ حَرَجٌ .

يَا لُحُومَ ٱلْبَحْرِ ! سَلَخَكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَّارٌ . . .

* * *

(١) في الأصل : « وتكلّف » بدلًا من : « هناك تكلّف » .

(٢) في الأصل : « والعزيمة » بدلًا من : « وهناك العزيمة » .

ٱلْمَدَارِسُ ، وَٱلْمَسَاجِدُ ، وَٱلْبِيَعُ ، وَٱلْكَنَائِسُ ، وَوَزَارَةُ ٱلدَّاخِلِيَّةِ ؛ هَـٰذِهِ كُلُّهَا لَنْ تَهْزِمَ ٱلشَّاطِئَ .

فَأَمْوَاجُ ٱلنَّفْسِ ٱلْبَشَرِيَّةِ كَأَمْوَاجِ ٱلْبَحْرِ ٱلصَّاخِبِ ، تَنْهَزِمُ أَبَدًا لِتَرْجِعَ أَبَدًا .

لَا يَهْزِمُ ٱلشَّاطِئَ إِلَّا ذَلِكَ « ٱلْجَامِعُ ٱلْأَزْهَرُ » ، لَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُسِخَ مَدْرَسَةً !

فَصَرْخَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ قَلْبِ ٱلْأَزْهَرِ ٱلْقَدِيمِ ، تَجْعَلُ هَدِيرَ ٱلْبَحْرِ كَأَنَّهُ تَسْبِيحٌ .

وَتَرُدُّ ٱلْأَمْوَاجَ نَقِيَّةً بَيْضَاءَ[1] ، كَأَنَّهَا عَمَائِمُ ٱلْعُلَمَاءِ .

وَتَأْتِي إِلَىٰ ٱلْبَحْرِ بِأَعْمِدَةِ ٱلْأَزْهَرِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ .

وَلَـٰكِنِّيْ أَرَىٰ زَمَنًا قَدْ نَقَلَ حَتَّىٰ إِلَىٰ ٱلْمَدَارِسِ رُوحَ « ٱلْكَازِينُو »[2] . . . !

يَا لُحُوْمَ ٱلْبَحْرِ ! سَلَخَكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَّارٌ . . . !

* * *

هُنَا عَلَىٰ رَغْمِ ٱلْآدَابِ ، مَمْلَكَةٌ لِلصَّيْفِ وَٱلْقَيْظِ ، سُلْطَانُهَا ٱلْجِسْمُ ٱلْمُؤَنَّثُ ٱلْعَارِيْ .

أَجْسَامٌ تَعْرِضُ مَفَاتِنَهَا عَرْضَ ٱلْبَضَائِعِ ؛ فَٱلشَّاطِئُ حَانُوتٌ لِلزَّوَاجِ !

وَأَجْسَامٌ تَعْرِضُ أَوْضَاعَهَا كَأَنَّهَا فِيْ غُرْفَةِ نَوْمِهَا لَا فِيْ ٱلشَّاطِئِ . . .

وَأَجْسَامٌ جَالِسَةٌ لِغَيْرِهَا ، تُحِيطُ بِهَا مَعَانِيهَا مُلْتَمِسَةً مَعَانِيَهُ؛ فَٱلشَّاطِئُ سُوقٌ لِلرَّقِيقِ . . .

وَأَجْسَامٌ خَفِرَةٌ جَالِسَةٌ لِلشَّمْسِ وَٱلْهَوَاءِ ؛ فَٱلشَّاطِئُ كَدَارِ ٱلْكُفْرِ لِمَنْ أُكْرِهَ[3] .

وَأَجْسَامٌ عَلِيلَةٌ تَقْتَحِمُهَا ٱلْأَعْيُنُ فَتَزْدَرِيهَا ، لِأَنَّهَا جَعَلَتِ ٱلشَّاطِئَ مُسْتَشْفًى . . . !

وَأَجْسَامٌ خَلِيعَةٌ أَضَافَتْ مِنْ (ٱسْتَانْلِيْ) وَأَخَوَاتِهَا إِلَىٰ مَنَارَةِ ٱسْكَنْدَرِيَّةَ ، وَمَكْتَبَةِ ٱسْكَنْدَرِيَّةَ ـ مَزْبَلَةَ ٱسْكَنْدَرِيَّةَ . . .

(١) يَرَىٰ بَعْضُهُمْ أَنَّ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْوَصْفِ خَطَأٌ ، وَأَنَّ ٱلصَّوَابَ أَنْ يُقَالَ « بِيْضٌ » ، وَلَسْنَا مِنْ هَـٰذَا ٱلرَّأْيِ ، وَقَدْ غَلِطَ فِيهِ ٱلْمُبَرِّدُ وَمَنْ تَابَعُوْهُ ، لِغَفْلَتِهِمْ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيْ بَلَاغَةِ ٱلِاسْتِعْمَالِ مَرَّةً فِيْ ٱلْوَصْفِ بِٱلْمُفْرَدِ ، وَمَرَّةً فِيْ ٱلْوَصْفِ بِٱلْجَمْعِ .

(٢) الكازينو Casino : منتدى عام للترفيه والقمار . بسام .

(٣) إِشَارَةً إِلَىٰ ٱلْآيَةِ ٱلْكَرِيْمَةِ : ﴿ . . . إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [١٦ سورة النحل/ الآية : ١٠٦] .

كَانَ جِدَالُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ فِيْ ٱلسُّفُوْرِ ، فَأَصْبَحَ ٱلْآنَ فِيْ ٱلْعُرْيِ .

فَإِذَا تَطَوَّرَ ، فَمَاذَا بَقِيَ مِنْ تَقْلِيْدِ أُوْرُبَّه إِلَّا ٱلْجِدَالُ فِيْ شَرْعِيَّةِ جَمْعِ ٱلْمَرْأَةِ بَيْنَ ٱلزَّوْجِ وَشِبْهِ ٱلزَّوْجِ[1] ؟ .

* * *

ٱنْتَهَىٰ مَا ٱسْتَطَعْتُ تَرْجَمَتَهُ ، بَعْدَ ٱلرُّجُوْعِ فِيْ مَوَاضِعَ مِنَ ٱلْقَصِيْدَةِ إِلَىٰ بَعْضِ ٱلْقَوَامِيْسِ ٱلْحَيَّةِ . . . إِلَىٰ بَعْضِ شُبَّانِ ٱلشَّاطِئِ .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

قَصِيْدَةٌ مُتَرْجَمَةٌ { عَنِ ٱلْمَلَكِ } :

أَحْذَرِيْ[*] . . . !

تَرْجَمْنَا عَنِ ٱلشَّيْطَانِ قَصِيْدَةَ « لُحُوْمِ ٱلْبَحْرِ » . وَهَـٰذِهِ تَرْجَمَةٌ عَنْ أَحَدِ ٱلْمَلَائِكَةِ ؛ رَآنِيْ جَالِسًا تَحْتَ ٱللَّيْلِ وَقَدْ أَجْمَعْتُ أَنْ أَضَعَ كَلِمَةً لِلْمَرْأَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ فِيْمَا تُحَاذِرُهُ أَوْ تَتَوَجَّسُ مِنْهُ ٱلشَّرَّ ؛ فَتَخَايَلَ ٱلْمَلَكُ بِأَضْوَائِهِ فِيْ ٱلضَّوْءِ ، وَسَنَحَ لِيْ بِرُوْحِهِ ، وَبَثَّ فِيَّ مِنْ سِرِّهِ

(١) يُسَمَّىٰ هَـٰذَا فِيْ ٱللُّغَةِ ٱلضَّمَدُ بِفَتْحِ ٱلضَّادِ وَٱلْمِيْمِ ، وَهُوَ أَنْ يُخَالَّ ٱلرَّجُلُ ٱلْمَرْأَةَ وَلَهَا زَوْجٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ [أَبِي ذُؤَيْبٍ ٱلْهُذَلِي من الطويل] :

تُرِيْدِيْنَ كَيْمَا تَضْمَدِيْنِي وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ ٱلسَّيْفَانِ وَيْحَكِ فِيْ غِمْدِ

وَمِنْ هَـٰذَا يُقَالُ فِيْ ٱلرَّجُلِ : ذَاقَ ٱلضِّمَادَ (بِكَسْرِ ٱلضَّادِ) أَيْ : ذَاقَ ٱلطَّعْمَ ٱلَّذِيْ وَصَفَهُ أَنَاتُوْلُ فرانس [Anatole France (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤) . . . الروائي والشاعر الفرنسي ، غلب على أدبه التهكم اللاذع ، وتميَّز بيانه بالنصاعة والوضوح . منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٢١] .

(*) « الرسالة » العدد : ٧٢ ، ١١ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ١٩ نوفمبر/ تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٨٨٣ ـ ١٨٨٥ .

ٱلإِلَـٰهِيِّ ؛ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي قَلْبِي إِلَىٰ فَجْرٍ مِنْ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ يَنْبُعُ كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَيُشْرِقُ مَعْنًى مَعْنًى ، وَيَسْتَطِيرُ جُمْلَةً جُمْلَةً ، حَتَّىٰ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْقَصِيدَةُ وَكَأَنَّمَا سَافَرْتُ فِي حُلْمٍ مِنَ ٱلأَحْلَامِ فَجِئْتُ بِهَا .

وَٱنْطَلَقَ ذَلِكَ ٱلْمَلَكُ وَتَرَكَهَا فِي يَدِي لُغَةً مِنْ طَهَارَتِهِ لِلْمَرْأَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ فِي مَلَائِكِيَّتِهَا :

* * *

ٱحْذَرِي . . . !

ٱحْذَرِي أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ وَبَالِغِي فِي ٱلْحَذَرِ ، وَٱجْعَلِي أَخَصَّ طِبَاعِكِ ٱلْحَذَرَ وَحْدَهُ .

ٱحْذَرِي تَمَدُّنَ أُورُبَّةَ أَنْ يَجْعَلَ فَضِيلَتَكِ ثَوْبًا يُوَسَّعُ وَيُضَيَّقُ ؛ فَلُبْسُ ٱلْفَضِيلَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ هُوَ لُبْسُهَا وَخَلْعُهَا . . .

ٱحْذَرِي فَنَّهُمُ ٱلاجْتِمَاعِيَّ ٱلْخَبِيثَ ٱلَّذِي يَفْرِضُ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ فِي مَجَالِسِ ٱلرِّجَالِ أَنْ تُؤَدِّيَ أَجْسَامُهُنَّ ضَرِيبَةَ ٱلْفَنِّ . . .

ٱحْذَرِي تِلْكَ ٱلأُنُوثَةَ ٱلاجْتِمَاعِيَّةَ ٱلظَّرِيفَةَ ؛ إِنَّهَا ٱنْتِهَاءُ ٱلْمَرْأَةِ بِغَايَةِ ٱلظَّرْفِ وَٱلرِّقَّةِ إِلَىٰ . . . إِلَىٰ ٱلْفَضِيحَةِ .

ٱحْذَرِي تِلْكَ ٱلنِّسَائِيَّةَ[١] ٱلْغَزَلِيَّةَ ؛ إِنَّهَا فِي جُمْلَتِهَا تَرْخِيصٌ ٱجْتِمَاعِيٌّ لِلْحُرَّةِ أَنْ . . . أَنْ تُشَارِكَ ٱلْبَغِيَّ فِي نِصْفِ عَمَلِهَا .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

* * *

ٱحْذَرِي ٱلتَّمَدُّنَ ٱلَّذِي ٱخْتَرَعَ لِقَتْلِ لَقَبِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلْمُقَدَّسِ ، لَقَبَ « ٱلْمَرْأَةِ ٱلثَّانِيَةِ » . . .

وَٱخْتَرَعَ لِقَتْلِ لَقَبِ ٱلْعَذْرَاءِ ٱلْمُقَدَّسِ ، لَقَبَ « نِصْفِ عَذْرَاءَ » . . .

(١) نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ : ٱلنِّسَائِيَّةَ وَٱلنِّسْوِيَّةَ ، وَكِلَاهُمَا عِنْدَنَا صَحِيحٌ ، وَٱلاخْتِيَارُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلأَفْصَحِ فِي مَوْقِعِهِ .

وَٱخْتَرَعَ لِقَتْلِ دِينِيَّةِ مَعَانِي ٱلْمَرْأَةِ ، كَلِمَةَ « ٱلأَدَبِ ٱلْمَكْشُوفِ » . . .

وَٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ ٱخْتِرَاعِ ٱلسُّرْعَةِ فِي ٱلْحُبِّ . . . فَٱكْتَفَىٰ ٱلرَّجُلُ بِزَوْجَةِ سَاعَةٍ . . .

وَإِلَىٰ ٱخْتِرَاعِ ٱسْتِقْلَالِ ٱلْمَرْأَةِ ، فَجَاءَ بِٱلَّذِي ٱسْمُهُ (ٱلأَبُ) مِنَ ٱلشَّارِعِ ، لِتُلْقِيَ بِٱلَّذِي ٱسْمُهُ (ٱلابْنُ) إِلَىٰ ٱلشَّارِعِ . . .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

* * *

ٱحْذَرِي وَأَنْتِ ٱلنَّجْمُ ٱلَّذِي أَضَاءَ مُنْذُ ٱلنُّبُوَّةِ ، أَنْ تُقَلِّدِي هَـٰذِهِ ٱلشَّمْعَةَ ٱلَّتِي أَضَاءَتْ مُنْذُ قَلِيلٍ .

إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلشَّرْقِيَّةَ هِيَ ٱسْتِمْرَارٌ مُتَّصِلٌ لآدَابِ دِينِهَا ٱلإِنْسَانِيِّ ٱلْعَظِيمِ .

هِيَ دَائِمًا شَدِيدَةُ ٱلْحِفَاظِ حَارِسَةٌ لِحَوْزَتِهَا ؛ فَإِنَّ قَانُونَ حَيَاتِهَا دَائِمًا هُوَ قَانُونُ ٱلأُمُومَةِ ٱلْمُقَدَّسُ .

هِيَ ٱلطُّهْرُ وَٱلْعِفَّةُ ، هِيَ ٱلْوَفَاءُ وَٱلأَنَفَةُ ، هِيَ ٱلصَّبْرُ وَٱلْعَزِيمَةُ ، هِيَ كُلُّ فَضَائِلِ ٱلأُمِّ .

فَمَا هُوَ طَرِيقُهَا ٱلْجَدِيدُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلْفَاضِلَةِ ، إِلَّا طَرِيقُهَا ٱلْقَدِيمُ بِعَيْنِهِ ؟

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

* * *

ٱحْذَرِي (وَيْحَكِ) تَقْلِيدَ ٱلأُورُبِّيَّةِ ٱلَّتِي تَعِيشُ فِي دُنْيَا أَعْصَابِهَا مَحْكُومَةً بِقَانُونِ أَحْلَامِهَا . . .

لَمْ تَعُدْ أُنُوثَتُهَا حَالَةً طَبِيعِيَّةً نَفْسِيَّةً فَقَطْ ، بَلْ حَالَةً عَقْلِيَّةً أَيْضًا تَشُكُّ وَتُجَادِلُ . . .

أُنُوثَةٌ تَفَلْسَفَتْ فَرَأَتِ ٱلزَّوَاجَ نِصْفَ ٱلْكَلِمَةِ فَقَطْ . . . وَٱلأُمَّ نِصْفَ ٱلْمَرْأَةِ فَقَطْ . . .

وَيَا وَيْلَ ٱلْمَرْأَةِ حِينَ تَنْفَجِرُ أُنُوثَتُهَا بِٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ، فَتَنْفَجِرُ بِٱلدَّوَاهِي عَلَىٰ ٱلْفَضِيلَةِ . . .

إِنَّهَا بِذَلِكَ حُرَّةٌ مُسَاوِيَةٌ لِلرَّجُلِ ، وَلَـٰكِنَّهَا بِذَلِكَ لَيْسَتِ ٱلأُنْثَىٰ ٱلْمَحْدُودَةَ بِفَضِيلَتِهَا . . .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

❋ ❋ ❋

ٱحْذَرِي خَجَلَ ٱلْأُورُبِّيَّةِ ٱلْمُتَرَجِّلَةِ مِنَ ٱلْإِقْرَارِ بِأُنُوثَتِهَا .

إِنَّ خَجَلَ ٱلْأُنْثَىٰ مِنْ أَنَّهَا أُنْثَىٰ يَجْعَلُ فَضِيلَتَهَا تَخْجَلُ مِنْهَا . . .

إِنَّهُ يُسْقِطُ حَيَاءَهَا وَيَكْسُو مَعَانِيَهَا رُجُولَةً غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ .

إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْأُنْثَىٰ ٱلْمُتَرَجِّلَةَ تَنْظُرُ إِلَىٰ ٱلرَّجُلِ نَظْرَةَ رَجُلٍ إِلَىٰ أُنْثَىٰ . . .

وَٱلْمَرْأَةُ تَعْلُو بِٱلزَّوَاجِ دَرَجَةً إِنْسَانِيَّةً ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْمَكْذُوبَةَ تَنْحَطُّ دَرَجَةً إِنْسَانِيَّةً بِٱلزَّوَاجِ .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

❋ ❋ ❋

ٱحْذَرِي تَهَوُّسَ ٱلْأُورُبِّيَّةِ فِي طَلَبِ ٱلْمُسَاوَاةِ بِٱلرَّجُلِ .

لَقَدْ سَاوَتْهُ فِي ٱلذَّهَابِ إِلَىٰ ٱلْحَلَّاقِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحَلَّاقَ لَمْ يَجِدْ فِي وَجْهِهَا ٱللِّحْيَةَ . . .

إِنَّهَا خُلِقَتْ لِتَحْبِيبِ ٱلدُّنْيَا إِلَىٰ ٱلرَّجُلِ ، فَكَانَتْ بِمُسَاوَاتِهَا مَادَّةَ تَبْغِيضٍ .

ٱلْعَجِيبُ أَنَّ سِرَّ ٱلْحَيَاةِ يَأْبَىٰ أَبَدًا أَنْ تَتَسَاوَىٰ ٱلْمَرْأَةُ بِٱلرَّجُلِ إِلَّا إِذَا خَسِرَتْهُ .

وَٱلْأَعْجَبُ أَنَّهَا حِينَ تَخْضَعُ ، يَرْفَعُهَا هَـٰذَا ٱلسِّرُّ ذَاتُهُ عَنِ ٱلْمُسَاوَاةِ بِٱلرَّجُلِ إِلَىٰ ٱلسِّيَادَةِ عَلَيْهِ .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

❋ ❋ ❋

ٱحْذَرِي أَنْ تَخْسَرِي ٱلطِّبَاعَ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْأَلْيَقُ بِأُمٍّ أَنْجَبَتِ ٱلْأَنْبِيَاءَ فِي ٱلشَّرْقِ .

أُمٌّ عَلَيْهَا طَابَعُ ٱلنَّفْسِ ٱلْجَمِيلَةِ ، تَنْشُرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ جَوَّ نَفْسِهَا ٱلْعَالِيَةِ .

فَلَوْ صَارَتِ ٱلْحَيَاةُ غَيْمًا وَرَعْدًا وَبَرْقًا ، لَكَانَتْ هِيَ فِيهَا ٱلشَّمْسَ ٱلطَّالِعَةَ .

وَلَوْ صَارَتِ ٱلْحَيَاةُ قَيْظًا وَحَرُورًا وَٱخْتِنَاقًا ، لَكَانَتْ هِيَ فِيهَا ٱلنَّسِيمَ يَتَخَطَّرُ .

أُمٌّ لَا تُبَالِي إِلَّا أَخْلَاقَ ٱلْبُطُولَةِ وَعَزَائِمَهَا ، لِأَنَّ جِدَّاتِهَا وَلَدْنَ ٱلْأَبْطَالَ .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

❋ ❋ ❋

ٱحْذَرِي هَـٰؤُلَاءِ ٱلشُّبَّانَ ٱلْمُتَمَدِّنِينَ بِأَكْثَرَ مِنَ ٱلتَّمَدُّنِ . . .

يُبَالِغُ ٱلْخَبِيثُ فِي زِينَتِهِ ، وَمَا يَدْرِي أَنَّ زِينَتَهُ مُعْلِنَةٌ أَنَّهُ إِنْسَانٌ مِنَ ٱلظَّاهِرِ .

وَيُبَالِغُ فِي عَرْضِ رُجُولَتِهِ عَلَىٰ ٱلْفَتَيَاتِ ، يُحَاوِلُ إِيقَاظَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلرَّاقِدَةِ فِي ٱلْعَذْرَاءِ ٱلْمِسْكِينَةِ !

لَيْسَ لِٱمْرَأَةٍ فَاضِلَةٍ إِلَّا رَجُلُهَا ٱلْوَاحِدُ ؛ فَٱلرِّجَالُ جَمِيعًا هُمْ مَصَائِبُهَا إِلَّا وَاحِدًا .

وَإِذَا هِيَ خَالَطَتِ ٱلرِّجَالَ ، فَٱلطَّبِيعِيُّ أَنَّهَا تُخَالِطُ شَهَوَاتٍ ، وَيَجِبُ أَنْ تَحْذَرَ وَتُبَالِغَ .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

❋ ❋ ❋

ٱحْذَرِي ! فَإِنَّ فِي كُلِّ ٱمْرَأَةٍ طَبَائِعَ شَرِيفَةً مُتَهَوِّرَةً ؛ وَفِي ٱلرِّجَالِ طَبَائِعُ خَسِيسَةٌ مُتَهَوِّرَةٌ .

وَحَقِيقَةُ ٱلْحِجَابِ أَنَّهُ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلشَّرَفِ فِيهِ ٱلْمَيْلُ إِلَىٰ ٱلنُّزُولِ ، وَبَيْنَ ٱلْخِسَّةِ فِيهَا ٱلْمَيْلُ إِلَىٰ ٱلصُّعُودِ .

فِيكِ طَبَائِعُ ٱلْحُبِّ ، وَٱلْحَنَانِ ، وَٱلْإِيثَارِ ، وَٱلْإِخْلَاصِ ، كُلَّمَا كَبِرْتِ كَبِرَتْ .

طَبَائِعُ خَطِرَةٌ ، إِنْ عَمِلَتْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا . . . جَاءَتْ بِعَكْسِ مَا تَعْمَلُهُ فِي مَوْضِعِهَا .

فِيهَا كُلُّ ٱلشَّرَفِ مَا لَمْ تَنْخَدِعْ ، فَإِذَا ٱنْخَدَعَتْ فَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا كُلُّ ٱلْعَارِ .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

❋ ❋ ❋

ٱحْذَرِي كَلِمَةً شَيْطَانِيَّةً تَسْمَعِينَهَا : هِيَ فَنِّيَّةُ ٱلْجَمَالِ أَوْ فَنِّيَّةُ ٱلْأُنُوثَةِ[١] .

وَٱفْهَمِيهَا أَنْتِ هَـٰكَذَا : وَاجِبَاتُ ٱلْأُنُوثَةِ وَوَاجِبَاتُ ٱلْجَمَالِ .

بِكَلِمَةٍ يَكُونُ ٱلْإِحْسَاسُ فَاسِدًا ، وَبِكَلِمَةٍ يَكُونُ شَرِيفًا .

وَلَا يَتَسَقَّطُ ٱلرَّجُلُ ٱمْرَأَةً إِلَّا فِي كَلِمَاتٍ مُزَيَّنَةٍ مِثْلِهَا . . .

يَجِبُ أَنْ تَتَسَلَّحَ ٱلْمَرْأَةُ مَعَ نَظَرَاتِهَا ، بِنَظْرَةِ غَضَبٍ وَنَظْرَةِ ٱحْتِقَارٍ .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

* * *

ٱحْذَرِي أَنْ تُخْدَعِي عَنْ نَفْسِكِ ؛ إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ أَشَدُّ ٱفْتِقَارًا إِلَىٰ ٱلشَّرَفِ مِنْهَا إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ .

إِنَّ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْخَادِعَةَ إِذْ تُقَالُ لَكِ ، هِيَ أُخْتُ ٱلْكَلِمَةِ ٱلَّتِي تُقَالُ سَاعَةَ إِنْفَاذِ ٱلْحُكْمِ لِلْمَحْكُومِ عَلَيْهِ بِٱلشَّنْقِ . . .

يَغْتَرُّونَكِ بِكَلِمَاتِ ٱلْحُبِّ وَٱلزَّوَاجِ وَٱلْمَالِ ، كَمَا يُقَالُ لِلصَّاعِدِ إِلَىٰ ٱلشَّنَّاقَةِ[٢] : مَاذَا تَشْتَهِي ؟ مَاذَا تُرِيدُ ؟

ٱلْحُبُّ ؟ ٱلزَّوَاجُ ؟ ٱلْمَالُ ؟ هَـٰذِهِ صَلَاةُ ٱلثَّعْلَبِ حِينَ يَتَظَاهَرُ بِٱلتَّقْوَىٰ أَمَامَ ٱلدَّجَاجَةِ . . .

ٱلْحُبُّ ؟ ٱلزَّوَاجُ ؟ ٱلْمَالُ ؟ يَا لَحْمَ ٱلدَّجَاجَةِ ! بَعْضُ كَلِمَاتِ ٱلثَّعْلَبِ هِيَ أَنْيَابُ ٱلثَّعْلَبِ . . .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي .

* * *

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « قِيمَةُ ٱلْجَمَالِ أَوْ قِيمَةُ ٱلْأُنُوثَةِ » بَدَلًا مِنْ : « فَنِّيَّةُ ٱلْجَمَالِ أَوْ فَنِّيَّةُ ٱلْأُنُوثَةِ » .

(٢) كَلِمَةُ « ٱلْمِشْنَقَةِ » لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً ، وَلَـٰكِنْ لَهَا وَجْهًا فِي ٱلاشْتِقَاقِ ، غَيْرَ أَنَّ كَسْرَةَ مِيمِهَا تَجْعَلُهَا ثَقِيلَةً ، وَكَانَ ٱسْمُهَا قَدِيمًا « ٱلشَّنَّاقَةُ » ، ذَكَرَهَا يَاقُوتُ فِي « مُعْجَمِ ٱلْأُدَبَاءِ » ، وَهِيَ أَفْصَحُ وَأَخَفُّ ، فَلَعَلَّ ٱلشَّنَّاقَةَ بَعْدَ هَـٰذَا تَشْنُقُ ٱلْمِشْنَقَةَ . . .

ٱحْذَرِي ٱلسُّقُوطَ ! إِنَّ سُقُوطَ ٱلْمَرْأَةِ لِهَوْلِهِ وَشِدَّتِهِ ثَلَاثُ مَصَائِبَ فِي مُصِيبَةٍ : سُقُوطُهَا هِيَ ، وَسُقُوطُ مَنْ أَوْجَدُوهَا ، وَسُقُوطُ مَنْ تُوجِدُهُمْ !

نَوَائِبُ ٱلْأُسْرَةِ كُلُّهَا قَدْ يَسْتُرُهَا ٱلْبَيْتُ ، إِلَّا عَارَ ٱلْمَرْأَةِ .

فَيَدُ ٱلْعَارِ تَقْلِبُ ٱلْحِيطَانَ كَمَا تَقْلِبُ ٱلْيَدُ ٱلثَّوْبَ فَتَجْعَلُ مَا لَا يُرَىٰ هُوَ مَا يُرَىٰ .

وَٱلْعَارُ حُكْمٌ يُنَفِّذُهُ ٱلْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ ، فَهُوَ نَفْيٌ مِنَ ٱلاحْتِرَامِ ٱلْإِنْسَانِيِّ .

أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي !

* * *

لَوْ كَانَ ٱلْعَارُ فِي بِئْرٍ عَمِيقَةٍ لَقَلَبَهَا ٱلشَّيْطَانُ مِئْذَنَةً وَوَقَفَ يُؤَذِّنُ عَلَيْهَا .

يَفْرَحُ ٱللَّعِينُ بِفَضِيحَةِ ٱلْمَرْأَةِ خَاصَّةً ، كَمَا يَفْرَحُ أَبٌ غَنِيٌّ بِمَوْلُودٍ جَدِيدٍ فِي بَيْتِهِ . . .

وَٱللِّصُّ ، وَٱلْقَاتِلُ ، وَٱلسِّكِّيرُ ، وَٱلْفَاسِقُ ، كُلُّ هَـٰؤُلَاءِ عَلَىٰ ظَاهِرِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ كَٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ .

أَمَّا ٱلْمَرْأَةُ حِينَ تَسْقُطُ ، فَهَـٰذِهِ مِنْ تَحْتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ ٱلزَّلْزَلَةُ .

لَيْسَ أَفْظَعَ مِنَ ٱلزَّلْزَلَةِ ٱلْمُرْتَجَّةِ تَشُقُّ ٱلْأَرْضَ ، إِلَّا عَارَ ٱلْمَرْأَةِ حِينَ يَشُقُّ ٱلْأُسْرَةَ .

{ أَيَّتُهَا ٱلشَّرْقِيَّةُ ! ٱحْذَرِي ٱحْذَرِي ! } .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

ٱلْجَمَالُ ٱلْبَائِسُ (*)

١

« وَكَيْفَ يُشْعَبُ صَدْعُ ٱلْحُبِّ فِيْ كَبِدِيْ » ، كَيْفَ يُشْعِبُ صَدْعُ ٱلْحُبِّ ؟

لَعَمْرِيْ مَا رَأَيْتُ ٱلْجَمَالَ مَرَّةً إِلَّا كَانَ عِنْدِيْ هُوَ ٱلأَلَمَ فِيْ أَجْمَلِ صُوَرِهِ وَأَبْدَعِهَا ؛ أَتُرَانِيْ مَخْلُوْقًا بِجُرْحٍ فِيْ ٱلْقَلْبِ ؟

وَلَا تَكُوْنُ ٱلْمَرْأَةُ جَمِيْلَةً فِيْ عَيْنَيَّ ، إِلَّا إِذَا أَحْسَسْتُ حِيْنَ أَنْظُرُ إِلَيْهَا أَنَّ فِيْ نَفْسِيْ شَيْئًا قَدْ عَرَفَهَا ، وَأَنَّ فِيْ عَيْنَيْهَا لَحَظَاتٍ مُوَجَّهَةً إِلَيَّ ، وَإِنْ لَمْ تَنْظُرْ هِيَ إِلَيَّ .

فَإِثْبَاتُ ٱلْجَمَالِ نَفْسَهُ لِعَيْنِيْ ، أَنْ يُثْبِتَ صَدَاقَتَهُ لِرُوْحِيْ بِٱللَّمْحَةِ ٱلَّتِيْ تَدُلُّ وَتَتَكَلَّمُ : تَدُلُّ نَفْسِيْ وَتَتَكَلَّمُ فِيْ قَلْبِيْ .

* * *

كُنْتُ أَجْلِسُ فِيْ (إِسْكَنْدَرِيَّةَ) بَيْنَ ٱلضُّحَىٰ وَٱلظُّهْرِ ، فِيْ مَكَانٍ عَلَىٰ شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ ، وَمَعِيَ صَدِيْقِي ٱلأُسْتَاذُ (ح)[1] مِنْ أَفَاضِلِ رِجَالِ ٱلسِّلْكِ ٱلسِّيَاسِيِّ ، وَهُوَ كَاتِبٌ مِنْ ذَوِي ٱلرَّأْيِ ، لَهُ أَدَبٌ غَضٌّ وَنَوَادِرُ وَطَرَائِفُ ؛ وَفِيْ قَلْبِهِ إِيْمَانٌ لَا أَعْرِفُ مِثْلَهُ فِيْ مِثْلِهِ ، قَدْ بَلَغَ مَا شَاءَ ٱللهُ قُوَّةً وَتَمَكُّنًا ، حَتَّىٰ لَأَحْسَبُ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ ٱللهِ قَدْ عُوْقِبَ فَحُكِمَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُوْنَ مُحَامِيًا ، ثُمَّ زِيْدَ فِيْ ٱلْحُكْمِ فَجُعِلَ قَاضِيًا ، ثُمَّ ضُوْعِفَتِ ٱلْعُقُوْبَةُ فَجُعِلَ سِيَاسِيًّا . . .

وَهَـٰذَا ٱلْمَكَانُ يَنْقَلِبُ فِيْ ٱللَّيْلِ مَسْرَحًا وَمَرْقَصًا وَمَا بَيْنَهُمَا . . . فَيَتَغَاوَىٰ فِيْهِ ٱلْجَمَالُ وَٱلْحُبُّ ، وَيَعْرِضُ ٱلشَّيْطَانُ مَصْنُوْعَاتِهِ فِيْ ٱلْهَزْلِ وَٱلرَّقْصِ وَٱلْغِنَاءِ[2] ، فَإِذَا دَخَلْتَهُ فِيْ ٱلنَّهَارِ رَأَيْتَ نُوْرَ ٱلنَّهَارِ كَأَنَّهُ يَغْسِلُهُ وَيَغْسِلُكَ مَعَهُ ، فَتُحِسُّ لِلنُّوْرِ هُنَاكَ عَمَلًا فِيْ نَفْسِكَ .

(*) « الرسالة » العدد : ١١٦ ، ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٣ سبتمبر/أيلول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٥٢٣ ـ ١٥٢٦ .

(١) [هو حافظ عامر] .

(٢) { ٱنْظُرْ مَقَالَةَ (لَوْ . . .) فِيْ ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِيْ ، فَقَدْ كُتِبَتْ عَنْ هَـٰذَا ٱلْمَسْرَحِ بِعَيْنِهِ } .

وَيُرَىٰ ٱلْمَكَانُ صَدْرًا مِنَ ٱلنَّهَارِ كَأَنَّهُ نَائِمٌ بَعْدَ سَهَرِ ٱللَّيْلِ ، فَمَا تَجِيْئُهُ مِنْ سَاعَةٍ بَيْنَ ٱلصُّبْحِ وَٱلظُّهْرِ ، إِلَّا وَجَدْتَهُ سَاكِنًا هَادِئًا كَٱلْجِسْمِ ٱلْمُسْتَثْقِلِ نَوْمًا ؛ وَلِهَـٰذَا كُنْتُ كَثِيْرًا مَا أَكْتُبُ فِيْهِ ، بَلْ لَا أَذْهَبُ إِلَيْهِ إِلَّا لِلْكِتَابَةِ .

فَإِذَا كَانَ ٱلظُّهْرُ أَقْبَلَ نِسَاءُ ٱلْمَسْرَحِ وَمَعَهُنَّ مَنْ يُطَارِحُهُنَّ ٱلأَنَاشِيْدَ وَأَلْحَانَهَا ، وَمَنْ يُثَقِّفُهُنَّ فِيْ ٱلرَّقْصِ ، وَمَنْ يُرَوِّيْهِنَّ مَا يُمَثِّلْنَ ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَٰلِكَ مِمَّا ٱبْتَلَتْهُنَّ بِهِ ٱلْحَيَاةُ لِتُسَاقِطَ عَلَيْهِنَّ ٱللَّيَالِيَ بِٱلْمَوْتِ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ .

وَكُنَّ إِذَا جِئْنَ رَأَيْنَنِيْ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِتَابَةِ وَٱلتَّفْكِيْرِ ، فَيَنْصَرِفْنَ إِلَىٰ شَأْنِهِنَّ ، إِلَّا وَاحِدَةً كَانَتْ أَجْمَلَهُنَّ . وَأَكْثَرُ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمِسْكِيْنَاتِ يَظْهَرْنَ لِعَيْنِ ٱلْمُتَأَمِّلِ ، كَأَنَّ ٱلْمَرْأَةَ مِنْهُنَّ مِثْلُ ٱلْعَنْزِ ٱلَّتِيْ كُسِرَ أَحَدُ قَرْنَيْهَا ، فَهِيَ تَحْمِلُ عَلَىٰ رَأْسِهَا عَلَامَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱلذِّلَّةِ وَٱلنَّقْصِ وَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأَةً تَتَبَدَّدُ حِيْنًا فَلَا تَكُوْنُ شَيْئًا ، وَتَجْتَمِعُ حِيْنًا فَتَكُوْنُ مَرَّةً شَيْئًا مَقْلُوْبًا ، وَأُخْرَىٰ شَكْلًا نَاقِصًا ، وَتَارَةً هَيْئَةً مُشَوَّهَةً ؛ لَكَانَتْ هِيَ كُلَّ ٱمْرَأَةٍ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمِسْكِيْنَاتِ ٱللَّوَاتِيْ يَمْشِيْنَ فِيْ ٱلْمَسَرَّاتِ إِلَىٰ ٱلْمَخَاوِفِ ، وَيَعِشْنَ { وَلَـٰكِنْ } بِمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَوْتِ ، وَيَجِدْنَ فِيْ ٱلْمَالِ مَعْنَىٰ ٱلْفَقْرِ ، وَيَتَلَقَّيْنَ ٱلْكَرَامَةَ فِيْهَا ٱلاسْتِهْزَاءُ ، ثُمَّ لَا يَعْرِفْنَ شَابًّا وَلَا رَجُلًا إِلَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَجْلِهِ لَعْنَةُ أَبٍ أَوْ أُمٍّ أَوْ زَوْجَةٍ .

* * *

وَتِلْكَ ٱلْوَاحِدَةُ ٱلَّتِيْ أَوْمَأْتُ إِلَيْهَا كَانَتْ حَزِيْنَةً مُتَسَلِّبَةً[1] فَكَأَنَّمَا جَذَبَهَا حُزْنُهَا إِلَيَّ ، وَكَانَتْ مُفَكِّرَةً فَكَأَنَّمَا هَدَاهَا إِلَيَّ فِكْرُهَا ، وَكَانَتْ جَمِيْلَةً فَدَلَّهَا عَلَيَّ ٱلْحُبُّ ، وَمَا أَدْرِيْ وَٱللهِ أَيُّ نَفْسَيْنَا بَدَأَتْ فَقَالَتْ لِلأُخْرَىٰ أَهْلًا . . .

وَرَأَيْتُهَا لَا تَصْرِفُ نَظَرَهَا عَنِّيْ إِلَّا لِتَرُدَّهُ إِلَيَّ ، وَلَا تَرُدُّهُ إِلَّا لِتَصْرِفَهُ ؛ ثُمَّ رَأَيْتُهَا قَدْ جَالَ بِهَا ٱلْغَزَلُ جَوْلَةً فِيْ مَعْرَكَتِهِ . . . فَتَشَاغَلْتُ عَنْهَا لَا أُرِيْهَا أَنِّيْ أَنَا ٱلْخَصْمُ ٱلآخَرُ فِيْ ٱلْمَعْرَكَةِ . . .

بَيْدَ أَنِّيْ جَعَلْتُ آخُذُهَا فِيْ مَطَارِحِ ٱلنَّظَرِ ، وَأَتَأَمَّلُهَا خُلْسَةً بَعْدَ خُلْسَةٍ فِيْ ثَوْبِهَا ٱلْحَرِيْرِيِّ

(١) يُقَالُ : تَسَلَّبَتِ ٱلْمَرْأَةُ . إِذَا أَحَدَّتْ ، أَيْ : لَبِسَتْ ثِيَابَ ٱلْحِدَادِ .

ٱلْأَسْوَدِ ، فَإِذَا هُوَ يَشُبُّ لَوْنَهَا[١] فَيَجْعَلُهُ يَتَلَأْلَأُ ، وَيُظْهِرُ وَجْهَهَا بِلَوْنِ ٱلْبَدْرِ فِي تَمِّهِ ، وَيُبْدِيهِ لِعَيْنَيَّ أَرَقَّ مِنَ ٱلْوَرْدِ تَحْتَ نُورِ ٱلْفَجْرِ .

وَرَأَيْتُ لَهَا وَجْهًا فِيهِ ٱلْمَرْأَةُ كُلُّهَا بِٱخْتِصَارٍ ، يُشْرِقُ عَلَىٰ جِسْمٍ بَضٍّ أَلْيَنَ مِنْ خَمْلِ ٱلنَّعَامِ ، تَعْرِضُ فِيهِ ٱلْأُنُوثَةُ فَنَّهَا ٱلْكَامِلَ ؛ فَلَوْ خُلِقَ ٱلدَّلَالُ ٱمْرَأَةً لَكَانَتْهَا .

وَتَلُوحُ لِلرَّائِي مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهَا وَضَعَتْ فِي فَمِهَا (زِرَّ وَرْدٍ) أَحْمَرَ مُنْضَمًّا عَلَىٰ نَفْسِهِ : شَفَتَانِ تَكَادُ ٱبْتِسَامَتُهُمَا تَكُونُ نِدَاءً لِشَفَتَيْ مُحِبٍّ ظَمْآنَ . . . !

أَمَّا عَيْنَاهَا فَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُمَا عَيْنَيْ ٱمْرَأَةٍ وَلَا ظَبْيَةٍ ؛ سَوَادُهُمَا أَشَدُّ سَوَادًا مِنْ عُيُونِ ٱلظِّبَاءِ ؛ وَقَدْ خُلِقَتَا فِي هَيْئَةٍ تُثْبِتُ وُجُودَ ٱلسِّحْرِ وَفِعْلَهُ فِي ٱلنَّفْسِ ؛ فِيهِمَا ٱلْقُوَّةُ ٱلْوَاثِقَةُ أَنَّهَا ٱلنَّافِذَةُ ٱلْأَمْرِ ، يُمَازِجُهَا حَنَانٌ أَكْثَرُ مِمَّا فِي صَدْرِ أُمٍّ عَلَىٰ طِفْلِهَا ؛ وَتَمَامُ ٱلْمَلَاحَةِ أَنَّهُمَا هُمَا ، بِهَـٰذَا ٱلتَّكْحِيلِ ، فِي هَـٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ ، فِي هَـٰذَا ٱلْوَجْهِ ٱلْقَمَرِيِّ .

يَا خَالِقَ هَاتَيْنِ ٱلْعَيْنَيْنِ ! سُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ !

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي :

وَأَتَغَافَلُ عَنْهَا أَيَّامًا ؛ وَطَالَ ذَٰلِكَ مِنِّي وَشَقَّ عَلَيْهَا ، وَكَأَنِّي صَغَّرْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا ، وَأَرْهَقْتُهَا بِمَعْنَى ٱلْخُضُوعِ ، بَيْدَ أَنَّ كِبْرِيَاءَهَا ٱلَّتِي أَبَتْ لَهَا أَنْ تُقْدِمَ ، أَبَتْ عَلَيْهَا كَذَٰلِكَ أَنْ تَنْهَزِمَ .

وَأَنَا عَلَىٰ كُلِّ أَحْوَالِي إِنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى ٱلْجَمَالِ كَمَا أَسْتَنْشِي ٱلْعِطْرَ يَكُونُ مُتَضَوِّعًا فِي ٱلْهَوَاءِ : لَا أَنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمَسَّهُ وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ أَخَذْتَ مِنِّي . ثُمَّ لَا تَدْفَعُنِي إِلَيْهِ إِلَّا فِطْرَةُ ٱلشِّعْرِ وَٱلْإِحْسَاسِ ٱلرُّوحَانِيِّ ، دُونَ فِطْرَةِ ٱلشَّرِّ وَٱلْحَيَوَانِيَّةِ[٢] ، وَمَتَىٰ أَحْسَسْتُ جَمَالَ ٱلْمَرْأَةِ أَحْسَسْتُ فِيهِ بِمَعْنًى أَكْبَرَ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ ، أَكْبَرَ مِنْهَا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مِنْهَا .

(١) أَيْ : يَزِيدُهُ وَيُظْهِرُهُ وَيَجْعَلُهُ أَحْفَلَ بِٱلْجَمَالِ .
(٢) بَسَطْنَا هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ ٱلثَّانِيَةِ لِكِتَابِنَا : «أَوْرَاقُ ٱلْوَرْدِ» وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ ، فَلَمْ نَتَوَسَّعْ فِيهِ هُنَا .

قَالَ ٱلرَّاوِي :

فَإِنِّي لَجَالِسٌ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَىٰ شَأْنِي مِنَ ٱلْكِتَابَةِ ، وَبِإِزَائِي فَتًى رَيِّقُ ٱلشَّبَابِ ، فِي ٱلْعُمْرِ ٱلَّذِي تَرَىٰ فِيهِ ٱلْأَعْيُنُ بِٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْعَاطِفَةِ، أَكْثَرَ مِمَّا تَرَىٰ بِٱلْعَقْلِ وَٱلْبَصِيرَةِ، نَاعِمٌ أَمْلَدُ تَمَّ شَبَابُهُ وَلَمْ تَتِمَّ قُوَّتُهُ ، كَأَنَّمَا نَكَصَتِ ٱلرُّجُولَةُ عَنْهُ إِذْ وَافَتْهُ فَلَمْ تَجِدْهُ رَجُلًا . . . أَوْ تِلْكَ هِيَ شِيمَةُ أَهْلِ ٱلظَّرْفِ وَٱلْقَصْفِ مِنْ شُبَّانِ ٱلْيَوْمِ : تَرَى ٱلْوَاحِدَ مِنْهُمْ فَتَعْرِفُ ٱلنُّضْجَ فِي ثِيَابِهِ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُهُ فِي جِسْمِهِ ، وَتَأْبَى ٱلطَّبِيعَةُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ أُنْثَىٰ فَيُجَاهِدُ لِيَكُونَ ضَرْبًا مِنَ ٱلْأُنْثَىٰ . . . !إِنِّي لَجَالِسٌ إِذْ وَافَتِ ٱلْحَسْنَاءُ فَأَوْمَأَتْ إِلَى ٱلْفَتَىٰ بِتَحِيَّتِهَا ، ثُمَّ ذَهَبَتْ فَٱعْتَلَتِ ٱلْمِنَصَّةَ مَعَ ٱلْبَاقِيَاتِ ، وَرَقَصَتْ فَأَحْسَنَتْ مَا شَاءَتْ ، وَكَأَنَّ فِي رَقْصِهَا تَعْبِيرًا عَنْ أَهْوَاءٍ وَنَزَعَاتٍ تُرِيدُ إِثَارَتَهَا فِي رَجُلٍ مَا . . . فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا ٱلْأُسْتَاذِ (ح) : إِنَّ كَلِمَةَ ٱلرَّقْصِ إِنَّمَا هِيَ ٱسْتِعَارَةٌ عَلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا ، كَمَا يَسْتَعِرْنَ كَلِمَةَ ٱلْحُبِّ لِجَمْعِ ٱلْمَالِ ؛ وَلَا رَقْصَ وَلَا حُبَّ إِلَّا فُجُورٌ وَطَمَعٌ .

ثُمَّ إِنَّهَا فَرَغَتْ مِنْ شَأْنِهَا فَمَرَّتْ تَتَهَادَىٰ حَتَّىٰ جَاءَتْ فَجَلَسَتْ إِلَى ٱلْفَتَىٰ . . . فَقَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (ح) وَكَانَ قَدْ أَلَمَّ بِمَا فِي نَفْسِهَا : أَتُرَاهَا جَعَلَتْهُ هَـٰهُنَا مَحَطَّةً . . . ؟

قَالَ ٱلرَّاوِي : أَمَّا أَنَا فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَقَدْ جَاءَ ٱلْمَوْضُوعُ . . . وَإِنِّي لَفِي حَاجَةٍ ، أَشَدَّ ٱلْحَاجَةِ ، إِلَىٰ مَقَالَةٍ مِنَ ٱلْمَكْحُولَاتِ ، فَتَفَرَّغْتُ لَهَا أَنْظُرُ مَاذَا تَصْنَعُ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مِثْلَ هَـٰذِهِ قَلِيلًا مَا يَكُونُ لَهَا فِكْرٌ أَوْ فَلْسَفَةٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ ٱلْفِكْرَ وَٱلْفَلْسَفَةَ وَٱلْمَعَانِيَ كُلَّهَا تَكُونُ فِي نَظَرِهَا وَٱبْتِسَامَاتِهَا وَعَلَىٰ جِسْمِهَا كُلِّهِ .

* * *

وَكَانَ فَتَاهَا قَدْ وَضَعَ طُرْبُوشَهُ عَلَىٰ يَدِهِ ؛ فَقَدِ ٱنْتَهَيْنَا إِلَىٰ عَهْدٍ رَجَعَ حُكْمُ ٱلطُّرْبُوشِ فِيهِ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلشَّابِّ ٱلْجَمِيلِ ، كَحُكْمِ ٱلْبُرْقُعِ عَلَىٰ وَجْهِ ٱلْفَتَاةِ ٱلْجَمِيلَةِ . . . فَأَسْفَرَ ذَاكَ مِنْ طُرْبُوشِهِ ، وَأَسْفَرَتْ هَـٰذِهِ مِنْ نِقَابِهَا - قَالَ ٱلرَّاوِي : فَمَا جَلَسَتْ إِلَى ٱلْفَتَىٰ حَتَّىٰ أَدْنَتْ رَأْسَهَا مِنَ ٱلطُّرْبُوشِ ، فَٱسْتَنَامَتْ إِلَيْهِ ، فَأَلْصَقَتْ بِهِ خَدَّهَا . . .

ثُمَّ ٱلتَفَتَتْ إِلَيْنَا ٱلتِفَاتَةَ ٱلْخِشْفِ ٱلْمَذْعُورِ ٱسْتَرْوَحَ ٱلسَّبُعَ[١] وَوَجَدَ مُقَدِّمَاتِهِ فِي ٱلْهَوَاءِ ، ثُمَّ أَرْخَتْ عَيْنَيْهَا فِي حَيَاءٍ لَا يَسْتَحِي . . .

وَأَنْشَأَتْ تَتَكَلَّمُ وَهِيَ فِي ذَلِكَ تُسَارِقُنَا ٱلنَّظَرَ ، كَأَنَّ فِي نَاحِيَتِنَا بَعْضَ مَعَانِي كَلَامِهَا . . .

ثُمَّ لَا أَدْرِي مَا ٱلَّذِي تَضَاحَكَتْ لَهُ ، غَيْرَ أَنَّ ضِحْكَتَهَا ٱنْشَقَّتْ نِصْفَيْنِ ، رَأَيْنَا نَحْنُ أَجْمَلَهُمَا فِي ثَغْرِهَا . . .

ثُمَّ تَزَعْزَعَتْ فِي كُرْسِيِّهَا كَأَنَّمَا تَهُمُّ أَنْ تَنْقَلِبَ ، لِتَمْتَدَّ إِلَيْهَا يَدٌ فَتُمْسِكَهَا أَنْ تَنْقَلِبَ . . .

ثُمَّ تَسَانَدَتْ عَلَىٰ نَفْسِهَا ، كَالْمَرِيضَةِ ٱلنَّائِمَةِ تَتَنَاهَضُ مِنْ فِرَاشِهَا فَيَكَادُ يَئِنُّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ[٢] ، وَقَامَتْ فَمَشَتْ ، فَحَاذَتْنَا ، وَتَجَاوَزَتْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَىٰ مَوْضِعِهَا مُتَكَسِّرَةً مُتَخَاذِلَةً كَأَنَّ فِيهَا قُوَّةً تُعْلِنُ أَنَّهَا ٱنْتَهَتْ . . .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي :

وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةَ حُزْنٍ ؛ فَتَغَضَّبَتْ وَٱغْتَاظَتْ ، وَشَاجَرَتْ هَـٰذِهِ ٱلنَّظْرَةَ مِنْ عَيْنَيْهَا ٱلدَّعْجَاوَيْنِ بِنَظَرَاتٍ مُتَهَكِّمَةٍ ، لَا أَدْرِي أَهِيَ تُوَبِّخُنَا بِهَا ، أَمْ تَتَّهِمُنَا بِأَنَّنَا أَخَذْنَا مِنْ حُسْنِهَا مَجَّانًا . . . ؟

فَقُلْتُ لِلأُسْتَاذِ (ح) ، وَأَنَا أَجْهَرُ بِالْكَلَامِ لِيَبْلُغَهَا :

أَمَا تَرَىٰ أَنَّ ٱلدُّنْيَا قَدِ ٱنْتَكَسَتْ فِي ٱنْتِكَاسِهَا ، وَأَنَّ ٱلدَّهْرَ قَدْ فَسَدَ فِي فَسَادِهِ ، وَأَنَّ ٱلْبَلَاءَ قَدْ ضُوعِفَ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ ، وَأَنَّ بَقِيَّةً مِنَ ٱلْخَيْرِ كَانَتْ فِي ٱلشَّرِّ ٱلْقَدِيمِ فَٱنْتُزِعَتْ ؟

قَالَ : وَهَلْ كَانَ فِي ٱلشَّرِّ ٱلْقَدِيمِ بَقِيَّةُ خَيْرٍ وَلَيْسَ مِثْلُهَا فِي ٱلشَّرِّ ٱلْحَدِيثِ ؟

قُلْتُ : هَـٰهُنَا فِي هَـٰذَا ٱلْمَسْرَحِ قِيَانٌ لَوْ كَانَتْ إِحْدَاهُنَّ . . . فِي ٱلزَّمَنِ ٱلْقَدِيمِ ، لَتَنَافَسَ

---

(١) ٱلْخِشْفُ : وَلَدُ ٱلْغَزَالِ ، يُطْلَقُ عَلَىٰ ٱلذَّكَرِ وَٱلْأُنْثَىٰ . وَٱسْتَرْوَحَ ٱلسَّبُعَ : أَيْ : وَجَدَ رِيحَهُ فِي ٱلْهَوَاءِ قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ، وَكَذَلِكَ طَبِيعَةُ ٱلْحَيَوَانِ .

(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : «مِنْ بَعْضِهَا» بَدَلًا مِنْ : «مِنْ بَعْضٍ» .

فِي شِرَائِهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأُمَرَاءُ وَسَرَاةُ ٱلنَّاسِ وَأَعْيَانُهُمْ ، فَكَانَ لَهَا فِي عَمَارَةِ ٱلزَّمَنِ صَوْنٌ وَكَرَامَةٌ ، وَتَتَقَلَّبُ فِي ٱلْقُصُورِ فَتَجْعَلُ لَهَا ٱلْقُصُورُ حُرْمَةً تَمْنَعُهَا ٱبْتِذَالَ فَنِّهَا لِكُلِّ مَنْ يَدْفَعُ خَمْسَةَ قُرُوشٍ ، حَتَّىٰ لِرُذَالِ ٱلنَّاسِ وَغَوْغَائِهِمْ وَسَفَلَتِهِمْ ؛ ثُمَّ هِيَ حِينَ يُدْبِرُ شَبَابُهَا تَكُونُ فِي دَارِ مَوْلَاهَا حَمِيلَةً عَلَىٰ كَرَمٍ يَحْمِلُهَا ، وَعَلَىٰ مُرُوءَةٍ تَعِيشُ بِهَا .

وَقَدِيمًا أَخَذَتْ سَلَّامَةُ ٱلزَّرْقَاءُ فِي قُبْلَتِهَا لُؤْلُؤَتَيْنِ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، تَبْلُغُ أَلْفَيْ جُنَيْهٍ . فَهَلْ تَأْخُذُ ٱلْقَيْنَةُ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا دَخِينَةً[١] بِمِلِّيمَيْنِ . . . ؟

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (ح) : مَا أَبْعَدَكَ يَا أَخِي عَنْ (بُورْصَةِ)[٢] ٱلْقُبْلَةِ وَأَسْعَارِهَا . . . وَلَـٰكِنْ مَا خَبَرُ ٱللُّؤْلُؤَتَيْنِ ؟

قَالَ ٱلرَّاوِي :

كَانَتْ سَلَّامَةُ هَـٰذِهِ جَارِيَةً لِٱبْنِ رَامِينَ[٣] ، وَكَانَتْ مِنَ ٱلْجَمَالِ بِحَيْثُ قِيلَ فِي وَصْفِهَا : كَأَنَّ ٱلشَّمْسَ طَالِعَةٌ مِنْ بَيْنِ رَأْسِهَا وَكَتِفَيْهَا ؛ فَٱسْتَأْذَنَ عَلَيْهَا فِي مَجْلِسِ غِنَائِهَا ٱلصَّيْرَفِيُّ ٱلْمُلَقَّبُ بِٱلْمَاجِنِ ، فَلَمَّا أَذِنَتْ لَهُ ، دَخَلَ فَأَقْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْهَا ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي ثَوْبِهِ فَأَخْرَجَ لُؤْلُؤَتَيْنِ ، وَقَالَ : ٱنْظُرِي يَا زَرْقَاءُ جُعِلْتُ فِدَاكِ . ثُمَّ حَلَفَ أَنَّهُ نَقَدَ فِيهِمَا بِٱلْأَمْسِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . قَالَتْ : فَمَا أَصْنَعُ بِذَاكَ ؟ قَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمِي . . .

ثُمَّ غَنَّتْ صَوْتًا وَقَالَتْ : يَا مَاجِنُ هَبْهُمَا لِي وَيْحَكَ . قَالَ : إِنْ شِئْتِ وَٱللهِ فَعَلْتُ . قَالَتْ : قَدْ شِئْتُ . قَالَ : وَٱلْيَمِينُ ٱلَّتِي حَلَفْتُ بِهَا لَازِمَةٌ لِي إِنْ أَخَذْتِهِمَا إِلَّا بِشَفَتَيْكِ مِنْ شَفَتَيَّ . . .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي :

---

(١) ٱلدَّخِينَةُ وَضَعْنَاهَا لِلسِّيجَارَةِ ، وَجَمْعُهَا ٱلدَّخَائِنُ .

(٢) البورصة Bourse عَلَمٌ على سوق المال والأسهم والبضائع ، حيث يعقد فيها البيع والشراء على العملات الورقية وأسهم الشركات ، وسندات القروض التجارية والحكومية والبضائع .

(٣) سَلَّامَةُ هَـٰذِهِ ٱشْتَرَاهَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ بِثَمَانِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ (٤٠٠٠ جُنَيْهٍ) ، كَمَا ٱشْتَرَىٰ جَارِيَةً أُخْرَىٰ يُقَالُ لَهَا : رُبَيْحَةُ ، بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

وَرَأَيْتُهَا قَدْ أَذِنَتْ لِي، وَأَنْصَتَتْ لِكَلَامِي، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تَسْمَعُنِي أَعْتَذِرُ إِلَيْهَا، وَاسْتَيْقَنَتْ أَنْ لَيْسَ بِيَ إِلَّا الْحُزْنُ عَلَيْهَا وَالرِّثَاءُ لَهَا ، فَبَدَتْ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي أَيَّامِ الْخِدْرِ . . .

ثُمَّ قُلْتُ : نَعَمْ كَانَ ذَلِكَ الزَّمَنُ سَفِيهًا ، وَلَـٰكِنَّهَا سَفَاهَةُ فَنٍّ . . . لَا سَفَاهَةُ عَرْبَدَةٍ وَتَصَعْلُكٍ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ .

فَنَظَرَتْ إِلَيَّ نَظْرَةً لَنْ أَنْسَاهَا ؛ نَظْرَةً كَأَنَّهَا تَدْمَعُ ، نَظْرَةً تَقُولُ بِهَا : أَلَسْتُ إِنْسَانَةً ؟ فَلَمْ أَمْلِكْ أَنْ قُلْتُ لَهَا : تَعَالَيْ تَعَالَيْ .

وَجَاءَتْ أَحْلَىٰ مِنَ الْأَمَلِ الْمُعْتَرِضِ سَنَحَتْ بِهِ الْفُرْصَةُ ، وَلَـٰكِنْ مَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

الْجَمَالُ الْبَائِسُ (*)
٢

جَاءَتْ أَحْلَىٰ مِنَ الْأَمَلِ الْمُعْتَرِضِ سَنَحَتْ بِهِ فُرْصَةٌ ؛ وَعَلَىٰ أَنَّهَا لَمْ تَخْطُ إِلَيْنَا إِلَّا خُطْوَةً وَتَمَامَهَا ، فَقَدْ كَانَتْ تَجِدُ فِي نَفْسِهَا مَا تَجِدُهُ لَوْ أَنَّهَا سَافَرَتْ مِنْ أَرْضٍ إِلَىٰ أَرْضٍ ، وَنَقَلَهَا الْبُعْدُ النَّازِحُ مِنْ أُمَّةٍ إِلَىٰ أُمَّةٍ .

يَا عَجَبًا ! إِنَّ جُلُوسَ إِنْسَانٍ إِلَىٰ إِنْسَانٍ بِإِزَائِهِ ، قَدْ يَكُونُ أَحْيَانًا سَفَرًا طَوِيلًا فِي عَالَمِ النَّفْسِ ؛ فَهَـٰذِهِ الْحَسْنَاءُ تَعِيشُ فِي دُنْيَا فَارِغَةٍ مِنْ خِلَالٍ كَثِيرَةٍ : كَالتَّقْوَىٰ ، وَالْحَيَاءِ ، وَالْكَرَامَةِ ، وَسُمُوِّ الرُّوحِ ، وَغَيْرِهَا ؛ فَإِذَا عَرَضَ لَهَا مَنْ يُشْعِرُهَا بَعْضَ هَـٰذِهِ الْخِلَالِ ، وَيَنْتَزِعُهَا مِنْ دُنْيَا اضْطِرَارِهَا وَأَخْلَاقِ عَيْشِهَا وَلَوْ سَاعَةً ـ فَمَا تَكُونُ قَدْ وَجَدَتْ شَخْصًا ، بَلْ كَشَفَتْ عَالَمًا تَدْخُلُهُ بِنَفْسٍ غَيْرِ النَّفْسِ الَّتِي تُدَبِّرُهَا فِي عَالَمِ رِزْقِهَا . . .

(*) « الرسالة » العدد : ١١٧ ، ٢ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ٣٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٥٦٥ ـ ١٥٦٨ .

وَلَا أَعْجَبَ مِنْ سِحْرِ الْحُبِّ فِي هَـٰذَا الْمَعْنَىٰ ؛ فَإِنَّ الْعَاشِقَ لَيَكُونُ حَبِيبُهُ إِلَىٰ جَانِبِهِ ، ثُمَّ لَا يُحِسُّ إِلَّا أَنَّهُ طَوَى الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ وَدَخَلَ جَنَّةَ الْخُلْدِ فِي قُبْلَةٍ . . .

* * *

جَلَسَتْ إِلَيْنَا كَمَا تَجْلِسُ الْمَرْأَةُ الْكَرِيمَةُ الْخَفِرَةُ : تُعْطِيكَ وَجْهَهَا وَتَبْتَعِدُ عَنْكَ بِسَائِرِهَا ، وَتُرِيكَ الْغُصْنَ وَتَخْبَأُ عَنْكَ أَزْهَارَهُ . فَرَأَيْنَاهَا لَمْ تَسْتَقْبِلِ الرَّجُلَ مِنَّا بِالْأُنْثَىٰ مِنْهَا كَمَا اعْتَادَتْ ؛ بَلِ اسْتَقْبَلَتْ وَاجِبًا بِرِعَايَةٍ ، وَتَلَطُّفًا بِحَنَانٍ ، وَأَدَبًا مِنْ فَنٍّ بِأَدَبٍ مِنْ فَنٍّ آخَرَ ؛ وَكَانَ هَـٰذَا عَجِيبًا مِنْهَا ؛ فَكَلَّمَهَا فِي ذَلِكَ الْأُسْتَاذُ (ح) ، فَقَالَتْ : أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنَّنَا نَتْبَعُ دَائِمًا مَحَبَّةَ مَنْ نُجَالِسُهُمْ ، وَهَـٰذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ . وَأَمَّا الثَّانِيَةُ ، فَإِنَّنَا لَا نَجِدُ الرَّجُلَ إِلَّا فِي النُّدْرَةِ ؛ وَإِنَّمَا نَحْنُ مَعَ هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَسَوَّمُونَ بِسِيمَا الرِّجَالِ ، كَحِيلَةِ الْمُحْتَالِ عَلَىٰ غَفْلَةِ الْمُغَفَّلِ ؛ وَهُمْ مَعَنَا كَالْقُدْرَةِ بِالثَّمَنِ عَلَىٰ مَا يَشْتَرِيهِ الثَّمَنُ ؛ لَيْسُوا عَلَيْنَا إِلَّا قَهْرًا مِنَ الْقَهْرِ ؛ وَلَسْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا سَلْبًا مِنَ السَّلْبِ ، مَادَّةٌ مَعَ مَادَّةٍ ، وَشَرٌّ عَلَىٰ شَرٍّ ؛ أَمَّا الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَّا وَمِنْهُمْ فَقَدْ ذَهَبَتْ أَوْ هِيَ ذَاهِبَةٌ .

قَالَ (ح) : وَلَـٰكِنْ . . .

فَلَمْ تَدَعْهُ يَسْتَدْرِكُ ، بَلْ قَالَتْ : إِنَّ « لَـٰكِنْ » هَـٰذِهِ غَائِبَةٌ الْآنَ . . . فَلَا تَجِيءُ فِي كَلَامِنَا . أَتُرِيدُ دَلِيلًا عَلَىٰ هَـٰذَا الِانْقِلَابِ ؟ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ أَقْرَبُ مَسَافَةٍ بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ ؛ وَلَـٰكِنَّ كُلَّ امْرَأَةٍ مِنَّا تَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ الْمُعْوَجَّ هُوَ وَحْدَهُ أَقْرَبُ مَسَافَةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّجُلِ . . .

قَالَتْ : فَإِذَا وَجَدَتْ إِحْدَانَا رَجُلًا بِأَخْلَاقِهِ لَا بِأَخْلَاقِهَا . . . رَدَّتْهَا أَخْلَاقُهُ إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا مِنْ قَبْلُ ، وَزَادَتْهَا طَبِيعَتُهَا الزَّهْوَ بِهَـٰذَا الرَّجُلِ النَّادِرِ ، فَتَكُونُ مَعَهُ فِي حَالَةٍ كَحَالَةِ أَكْمَلِ امْرَأَةٍ ، بَيْدَ أَنَّهُ كَمَالُ الْحُلْمِ الَّذِي يَسْتَيْقِظُ وَشِيكًا ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ الْكَامِلَ يَكْمُلُ بِأَشْيَاءَ ، مِنْهَا وَا أَسَفَا . . . ! مِنْهَا ابْتِعَادُهُ عَنَّا .

ثُمَّ قَالَتْ : وَصَاحِبُكَ هَـٰذَا مُنْذُ رَأَيْتُهُ ، رَأَيْتُهُ كَالْكِتَابِ يَشْغَلُ قَارِئَهُ عَنْ مَعَانِي نَفْسِهِ بِمَعَانِيهِ هُوَ . . .

وَضَحِكْتُ أَنَا لِهَـٰذَا ٱلتَّشْبِيهِ ، فَمَتَىٰ كَانَ ٱلْكِتَابُ عِنْدَ هَـٰذِهِ كِتَابًا يَشْغَلُ بِمَعَانِيهِ ؟ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُهَا قَدْ تَكَلَّمَتْ وَٱحْتَفَلَتْ ، وَأَحْسَنَتْ وَأَصَابَتْ ؛ فَتَرَكْتُهَا تَتَحَدَّثُ مَعَ ٱلْأُسْتَاذِ (ح) ، وَغِبْتُ عَنْهُمَا غَيْبَةَ فِكْرٍ ؛ وَأَنَا إِذَا فَكَّرْتُ ٱنْطَبَقَ عَلَيَّ قَوْلُهُمْ : خَلِّ رَجُلًا وَشَأْنَهُ . فَلَا يَتَّصِلُ بِي شَيْءٌ مِمَّا حَوْلِي . وَكَانَ كَلَامُهَا يَسْطَعُ لِي كَالْمِصْبَاحِ ٱلْكَهْرَبَائِيِّ ٱلْمُتَوَقِّدِ ، فَقَدَّمَهَا فِكْرُهَا إِلَيَّ غَيْرَ مَا قَدَّمَتْهَا إِلَيَّ نَفْسُهَا ، وَرَأَيْتُ لَهَا صُورَتَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعًا ، إِحْدَاهُمَا تَعْتَذِرُ مِنَ ٱلْأُخْرَىٰ . . .

وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَاعَةٍ قَدْ كَتَبْتُ فِي تَذْكِرَةِ خَوَاطِرِي هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ ٱلَّتِي ٱسْتَوْحَيْتُهَا مِنْهَا ؛ لِأَضَعَهَا فِي مَقَالَةٍ عَنْهَا وَعَنْ أَمْثَالِهَا ، وَهِيَ [هذه ٱلْكَلِمَةُ] :

« إِذَا خَرَجَتِ ٱلْمَرْأَةُ مِنْ حُدُودِ ٱلْأُسْرَةِ وَشَرِيعَتِهَا ، فَهَلْ بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا ٱلْأُنْثَىٰ مُجَرَّدَةً تَجْرِيدَهَا ٱلْحَيَوَانِيَّ ٱلْمُتَكَشِّفَ ، ٱلْمُتَعَرِّضَ لِلْقُوَّةِ ٱلَّتِي تَنَالُهُ أَوْ تَرْغَبُ فِيهِ ؟ وَهَلْ تَعْمَلُ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَالَ هَـٰذِهِ ٱلْأُنْثَىٰ ؟

« وَمَا ٱلَّذِي ٱسْتَرْعَاهَا ٱلِاجْتِمَاعُ حِينَئِذٍ فَتَرْعَاهُ مِنْهُ وَتَحْفَظُهُ لَهُ ، إِلَّا مَا ٱسْتَرْعَىٰ أَهْلُ ٱلْمَالِ أَهْلَ ٱلسَّرِقَةِ ؟ إِنَّ ٱللَّيْلَ يَنْطَوِي عَلَىٰ آفَتَيْنِ : أُولَـٰئِكَ ٱللُّصُوصِ ، وَهَـٰؤُلَاءِ ٱلنِّسَاءِ .

وَكَيْفَ تَرَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ نَفْسَهَا إِلَّا مُشَوَّهَةً مَا دَامَتْ رَذَائِلُهَا دَائِمًا وَرَاءَ عَيْنَيْهَا ، وَمَا دَامَ بِإِزَاءِ عَيْنَيْهَا دَائِمًا ٱلْأُمَّهَاتُ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ، وَلَيْسَ شَأْنُهَا مِنْ شَأْنِهِنَّ ؟ إِنَّ خَيَالَهَا يُحْرِزُ فِي وَعْيِهِ صُورَتَهَا ٱلْمَاضِيَةَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَزِلَّ ، فَإِذَا خَلَتْ إِلَىٰ نَفْسِهَا كَانَتْ فِيهَا ٱثْنَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا تَلْعَنُ ٱلْأُخْرَىٰ ، فَتَرَىٰ نَفْسَهَا مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ .

وَهِيَ حِينَ تُطَالِعُ مِرْآتَهَا لِتَتَبَرَّجَ وَتَحْتَفِلَ فِي زِينَتِهَا ، تَنْظُرُ إِلَىٰ خَيَالِهَا فِي ٱلْمِرْآةِ بِأَهْوَاءِ ٱلرِّجَالِ لَا بِعَيْنَيْ نَفْسِهَا ، وَلِهَـٰذَا تُبَالِغُ أَشَدَّ ٱلْمُبَالَغَةِ ؛ فَلَا تُعْنَىٰ بِأَنْ تَظْهَرَ جَمِيلَةً كَالْمَرْأَةِ ، بَلْ مُثْمِرَةً كَالتَّاجِرِ . . . وَتَكَسُّبُهَا بِجَمَالِهَا يَكُونُ أَوَّلَ مَا تُفَكِّرُ فِيهِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ سُرُورُهَا بِهَـٰذَا ٱلْجَمَالِ إِلَّا عَلَىٰ قَدْرِ مَا تَكْسِبُ مِنْهُ ؛ بِخِلَافِ ٱلطَّبْعِ ٱلَّذِي فِي ٱلْمَرْأَةِ ، فَإِنَّ سُرُورَهَا بِمَسْحَةِ ٱلْجَمَالِ عَلَيْهَا هُوَ أَوَّلُ فِكْرِهَا وَآخِرُهُ .

إِنَّ ٱلسَّاقِطَةَ لَا تَنْظُرُ فِي ٱلْمِرْآةِ ـ أَكْثَرَ مَا تَنْظُرُ ـ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ أَنْ تَتَعَهَّدَ مِنْ جَمَالِهَا وَمِنْ

جِسْمِهَا مَوَاقِعَ نَظَرَاتِ ٱلْفُجُورِ وَأَسْبَابَ ٱلْفِتْنَةِ ، وَمَا يَسْتَهْوِي ٱلرَّجُلَ وَمَا يُفْسِدُ ٱلْعِفَّةَ عَلَيْهِ ؛ فَكَأَنَّ ٱلسَّاقِطَةَ وَخَيَالَهَا فِي ٱلْمِرْآةِ ، رَجُلٌ فَاسِقٌ يَنْظُرُ إِلَىٰ ٱمْرَأَةٍ ، لَا ٱمْرَأَةٌ تَنْظُرُ إِلَىٰ نَفْسِهَا . . . »

* * *

ذَهَبْتُ أُفَكِّرُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلَّتِي كَتَبْتُهَا قَبْلَ سَاعَةٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَلْبَسَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ وَجْهَ ٱلْقَاضِي ؛ فَدَخَلَتْنِي رِقَّةٌ شَدِيدَةٌ لِهَـٰذَا ٱلْجَمَالِ ٱلْفَاتِنِ ، ٱلَّذِي أَرَاهُ يَبْتَسِمُ وَحَوْلَهُ ٱلْأَقْدَارُ ٱلْعَابِسَةُ ؛ وَيَلْهُو وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَيَّامُ ٱلدُّمُوعِ ؛ وَيَجْتَهِدُ فِي ٱجْتِذَابِ ٱلرِّجَالِ { وَٱلشُّبَّانِ } إِلَىٰ نَفْسِهِ ، وَٱلْوَقْتُ آتٍ بِٱلرِّجَالِ { وَٱلشُّبَّانِ } ٱلَّذِينَ سَيَجْتَهِدُونَ فِي طَرْدِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ .

وَتَغَشَّانِي ٱلْحُزْنُ ، وَرَأَتْ هِيَ ذَلِكَ وَعَرَفَتْهُ ؛ فَأَخْرَجَتْ مِنْدِيلَهَا ٱلْمُعَطَّرَ وَمَسَحَتْ وَجْهَهَا بِهِ ، ثُمَّ هَزَّتْهُ فِي ٱلْهَوَاءِ ، فَإِذَا ٱلْهَوَاءُ مِنْدِيلٌ مُعَطَّرٌ آخَرُ مَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي . . .

وَقَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (ح) : آهٍ مِنَ ٱلْعِطْرِ ! إِنَّ مِنْهُ نَوْعًا لَا أَسْتَنْشِيهِ مَرَّةً إِلَّا رَدَّنِي إِلَىٰ حَيْثُ كُنْتُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً خَلَتْ ، كَأَنَّمَا هُوَ مُسَجِّلٌ بِزَمَانِهِ وَمَكَانِهِ فِي دِمَاغِي . . .

فَضَحِكَتْ هِيَ وَقَالَتْ : إِنَّ عِطْرَنَا نَحْنُ ٱلنِّسَاءَ لَيْسَ عِطْرًا ، بَلْ هُوَ شُعُورٌ نُثْبِتُهُ فِي شُعُورٍ آخَرَ . . .

فَقُلْتُ أَنَا : لَا رَيْبَ أَنَّ لِهَـٰذِهِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَجْهًا غَيْرَ هَـٰذَا .

قَالَتْ : وَمَا هُوَ ؟

قُلْتُ : إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْمُعَطَّرَةَ ٱلْمُتَزَيِّنَةَ ، هِيَ ٱمْرَأَةٌ مُسَلَّحَةٌ بِأَسْلِحَتِهَا . أَفِي ذَلِكَ رَيْبٌ ؟

قَالَتْ : لَا .

قُلْتُ : فَلِمَاذَا لَا يُسَمَّىٰ هَـٰذَا ٱلْعِطْرُ بِٱلْغَازَاتِ ٱلْخَانِقَةِ ٱلْغَرَامِيَّةِ . . . ؟

فَضَحِكَتْ فُنُونًا ؛ ثُمَّ قَالَتْ : وَتُسَمَّىٰ (ٱلْبُودْرَةُ)(١) بِٱلدِّينَامِيتِ(٢) ٱلْغَرَامِيِّ .

(١) البودرة : Poudre : المسحوق ، وتطلق عادة على مسحوق الطِلْق Talc : سيليكات المغنسيوم المائية ، يستعمل في مواد التجميل . بسام .

(٢) الديناميت Dynamite : مادة متفجّرة مصنوعة من النتروغليسرين ومادة مسامّية ؛ اكتشفه ألفريد =

وَنَقَلَنِي ذَلِكَ إِلَىٰ نَفْسِي مَرَّةً أُخْرَىٰ ، فَأَطْرَقْتُ إِطْرَاقَةً ؛ فَقَالَتْ : مَا بِكَ ؟

قُلْتُ : بِيْ كَلِمَةُ ٱلْأُسْتَاذِ (ح) ، إِنَّهَا أَلْهَبَتْ فِيْ قَلْبِيْ جَمْرَةً كَانَتْ خَامِدَةً .

قَالَتْ : أَوْ حَرَّكَتْ نُقْطَةَ عِطْرٍ كَانَتْ سَاكِنَةً . . . !

فَقُلْتُ : إِنَّ ٱلْحُبَّ يَضَعُ رُوْحَانِيَّتَهُ فِيْ كُلِّ أَشْيَائِهِ ، وَهُوَ يُغَيِّرُ ٱلْحَالَةَ ٱلنَّفْسِيَّةَ لِلإِنْسَانِ ، فَتَتَغَيَّرُ بِذَلِكَ ٱلْحَالَةُ ٱلْعَقْلِيَّةُ لِلْأَشْيَاءِ فِيْ وَهْمِ ٱلْمُحِبِّ . (فَعِطْرُ كَذَا) مَثَلًا . . . هُوَ نَوْعٌ شَذِيٌّ مِنَ ٱلْعِطْرِ ، طَيِّبُ ٱلشَّمِيْمِ ، عَاصِفُ ٱلنَّشْوَةِ ، حَادُّ ٱلرَّائِحَةِ ؛ لَكَأَنَّهُ يَنْشُرُ فِيْ ٱلْجَوِّ رَوْضَةً قَدْ مُلِئَتْ بِأَزْهَارِهِ تُشَمُّ وَلَا تُرَىٰ ؟ وَإِنَّهُ لَيَجْعَلُ ٱلزَّمَنَ نَفْسَهُ عَبِقًا بِرِيْحِهِ ، وَإِنَّهُ لَيُفْعِمُ كُلَّ مَا حَوْلَهُ طِيْبًا ، وَإِنَّهُ لَيَسْحَرُ ٱلنَّفْسَ فَيَتَحَوَّلُ فِيْهَا . . .

وَهُنَا ضَحِكَتْ وَقَطَعَتْ عَلَيَّ ٱلْكَلَامَ قَائِلَةً : يَظْهَرُ لِيْ أَنَّ (عِطْرَ كَذَا) هَاجِرٌ أَوْ مُخَاصِمٌ . . .

قُلْتُ : كَلَّا ، بَلْ خَرَجَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱنْتَشَقْتُ أَرَجَهُ مَرَّةً إِلَّا حَسِبْتُهُ يَنْفَحُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ .

فَمَا أَسْرَعَ مَا تَلَاشَىٰ مِنْ وَجْهِهَا ٱلضَّحِكُ وَهَيْئَتُهُ ، وَجَاءَتْ دَمْعَةٌ وَهَيْئَتُهَا . وَلَمَحْتُ فِيْ وَجْهِهَا مَعْنًى بَكَيْتُ لَهُ بُكَاءَ قَلْبِيْ .

جَمَالُهَا ، فِتْنَتُهَا ، سِحْرُهَا ، حَدِيْثُهَا ، لَهْوُهَا ؛ آهِ حِيْنَ لَا يَبْقَىٰ لِهَـٰذَا كُلِّهِ عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ ، آهِ حِيْنَ لَا يَبْقَىٰ مِنْ هَـٰذَا كُلِّهِ إِلَّا ذُنُوْبٌ ، وَذُنُوْبٌ ، وَذُنُوْبٌ !

* * *

وَأَرَدْنَا أَنَا وَ(ح) بِكَلَامِنَا عَنِ ٱلْحُبِّ وَمَا إِلَيْهِ ، أَلَّا نُوْحِشَهَا مِنْ إِنْسَانِيَّتِنَا ، وَأَنْ نَبُلَّ شَوْقَهَا إِلَىٰ مَا حُرِمَتْهُ مِنْ قَدْرِهَا قَدْرَ إِنْسَانَةٍ فِيْمَا نَتَعَاطَاهُ بَيْنَنَا . وَٱلْمَرْأَةُ مِنْ هَـٰذَا ٱلنَّوْعِ إِذَا طَمِعَتْ فِيْمَا هُوَ أَغْلَىٰ عِنْدَهَا مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْجَوْهَرِ وَٱلْمَتَاعِ ـ طَمِعَتْ فِيْ ٱلاحْتِرَامِ مِنْ رَجُلٍ شَرِيْفٍ مُتَعَفِّفٍ ، وَلَوِ ٱحْتِرَامَ نَظْرَةٍ ، أَوْ كَلِمَةٍ . تَقْنَعُ بِأَقَلِّ ذَلِكَ وَتَرْضَىٰ بِهِ ؛ فَٱلْقَلِيْلُ مِمَّا

= نوبل Alfred Nobel عام ١٨٦٦ م ، الذي أوصى بثروته التي كسبها من هذا الاختراع لتمويل جائزة تساهم على تشجيع العلوم التي تخدم السلام من أدب وطب وكيمياء وفيزياء وخدمة السلام والاقتصاد ؛ تكفيرًا عن هذا الاختراع المدمّر ! بسّام .

لَا يُدْرَكُ قَلِيْلُهُ ، هُوَ عِنْدَ ٱلنَّفْسِ أَكْثَرُ مِنَ ٱلْكَثِيْرِ ٱلَّذِيْ يُنَالُ كَثِيْرُهُ .

وَمِثْلُ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ، لَا تَدْرِيْ أَنْتَ : أَطَافَتْ بِٱلذَّنْبِ أَمْ طَافَ ٱلذَّنْبُ بِهَا ؟ فَٱحْتِرَامُهَا عِنْدَنَا لَيْسَ ٱحْتِرَامًا بِمَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَٱلْوُجُوْمِ أَمَامَ ٱلْمُصِيْبَةِ فِيْ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ رَهْبَةِ ٱلْقَدَرِ وَخُشُوْعِ ٱلْإِيْمَانِ .

وَلَيْسَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا وَفِيْ نَفْسِهَا ٱلتَّنَدُّمُ وَٱلْحَسْرَةُ وَٱللَّهْفَةُ مِمَّا هِيَ فِيْهِ ، وَهَـٰذَا هُوَ جَانِبُهُنَّ ٱلْإِنْسَانِيُّ ٱلَّذِيْ يُنْظَرُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلنَّفْسِ ٱلرَّقِيْقَةِ بِلَهْفَةٍ أُخْرَىٰ ، وَحَسْرَةٍ أُخْرَىٰ ، وَنَدَمٍ آخَرَ . كَمْ يَرْحَمُ ٱلْإِنْسَانُ تِلْكَ ٱلزَّوْجَةَ ٱلْكَارِهَةَ ٱلْمُرْغَمَةَ عَلَىٰ أَنْ تُعَاشِرَ مَنْ تَكْرَهُهُ ، فَلَا يَزَالُ يَغْلِيْ دَمُهَا بِوَسَاوِسَ وَآلَامٍ مِنَ ٱلْبُغْضِ لَا تَنْقَطِعُ ! وَكَمْ يَرْثِيْ ٱلْإِنْسَانُ لِلزَّوْجَةِ ٱلْغَيُوْرِ ، يَغْلِيْ دَمُهَا أَيْضًا وَلَـٰكِنْ بِوَسَاوِسَ وَآلَامٍ مِنَ ٱلْحُبِّ ! أَلَا فَٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ ٱمْرَأَةٍ مِنْ مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْحَسْنَاءِ تَحْمِلُ عَلَىٰ قَلْبِهَا مِثْلَ هَمِّ مِئَةِ زَوْجَةٍ كَارِهَةٍ مُرْغَمَةٍ مُسْتَعْبَدَةٍ ، يُخَالِطُهُ مِثْلُ هَمِّ مِئَةِ زَوْجَةٍ غَيُوْرٍ مُكَابِدَةٍ مُنَافِسَةٍ ؛ وَلَقَدْ تَكُوْنُ ٱلْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ فِيْ ٱلْعِشْرِيْنَ مِنْ سِنِّهَا وَهِيَ مِمَّا يُكَابِدُ قَلْبُهَا فِيْ ٱلسَّبْعِيْنَ مِنْ عُمْرِ قَلْبِهَا { أَوْ أَكْثَرَ } .

وَهَـٰذِهِ ٱلَّتِيْ جَاءَتْنَا إِنَّمَا جَاءَتْنَا فِيْ سَاعَةٍ مِنَّا نَحْنُ لَا مِنْهَا هِيَ ، وَلَمْ تَكُنْ مَعَنَا لَا فِيْ زَمَانِهَا وَلَا فِيْ مَكَانِهَا وَلَا فِيْ أَسْبَابِهَا ، وَقَدْ فَتَحَتِ ٱلْبَابَ ٱلَّذِيْ كَانَ مُغْلَقًا فِيْ قَلْبِهَا عَلَىٰ ٱلْخَفَرِ وَٱلْحَيَاءِ ، وَحَوَّلَتْ جَمَالَهَا مِنْ جَمَالٍ طَابَعُهُ ٱلرَّذِيْلَةُ ، إِلَىٰ جَمَالٍ طَابَعُهُ ٱلْفَنُّ ، وَأَشْعَرَتْ أَفْرَاحَهَا ٱلَّتِيْ ٱعْتَادَتْهَا رُوْحَ ٱلْحُزْنِ مِنْ أَجْلِنَا ، فَأَدْخَلَتْ بِذَلِكَ عَلَىٰ أَحْزَانِهَا ٱلَّتِيْ ٱعْتَادَتْهَا رُوْحَ ٱلْفَرَحِ بِنَا .

مَنْ ذَا ٱلَّذِيْ يَعْرِفُ أَنَّ أَدَبَهُ يَكُوْنُ إِحْسَانًا عَلَىٰ نَفْسٍ مِثْلِ هَـٰذِهِ ثُمَّ لَا يُحْسِنُ بِهِ[1] ؟

* * *

تَتَجَدَّدُ ٱلْحَيَاةُ مَتَىٰ وَجَدَ ٱلْمَرْءُ حَالَةً نَفْسِيَّةً تَكُوْنُ جَدِيْدَةً فِيْ سُرُوْرِهَا . وَهَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ

(١) فِيْ كِتَابِنَا « ٱلسَّحَابُ ٱلْأَحْمَرُ » فَصْلٌ طَوِيْلٌ عُنْوَانُهُ « ٱلرَّبِيْطَةُ » ، كَتَبْنَاهُ فِيْ مِثْلِ مَوْضُوْعِ « ٱلْجَمَالِ ٱلْبَائِسِ » ، غَيْرَ أَنَّهُ بِمَنْحًى آخَرَ وَمَعَانٍ أُخْرَىٰ . وَٱلرَّبِيْطَةُ هِيَ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ٱلَّتِيْ تُقَابِلُ كَلِمَةَ Maitresse يُرِيْدُ بِهَا ٱلْأُوْرُوبِيُّوْنَ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْبَغِيَّ تَرْتَبِطُ بِأَجْرٍ فِيْ دَارِ ٱلرَّجُلِ لِتَحِلَّ مَحَلَّ ٱلزَّوْجَةِ . . .

ٱلْمِسْكِينَةُ ٱلَّتِي لَا يَعْنِيهَا مِنَ ٱلرَّجُلِ مَنْ هُوَ ؟ وَلَـٰكِنْ كَمْ هُوَ . . . ؟ لَمْ تَرَ فِينَا نَحْنُ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي هُوَ « كَمْ » ، بَلِ ٱلَّذِي هُوَ « مَنْ » . وَقَدْ كَانَتْ مِنْ نَفْسِهَا ٱلْأُولَىٰ عَلَىٰ بُعْدٍ قَصِيٍّ كَٱلَّذِي يَمُدُّ يَدَهُ فِي بِئْرٍ عَمِيقَةٍ لِيَتَنَاوَلَ شَيْئًا قَدْ سَقَطَ مِنْهُ ؛ فَلَمَّا جَلَسَتْ إِلَيْنَا ، ٱتَّصَلَتْ بِتِلْكَ ٱلنَّفْسِ مِنْ قُرْبٍ ؛ إِذْ وَجَدَتْ فِي زَمَنِهَا ٱلسَّاعَةَ ٱلَّتِي تَصْلُحُ جِسْرًا عَلَىٰ ٱلزَّمَنِ .

قَالَ ٱلرَّاوِي :

كَذَلِكَ رَأَيْتُهَا جَدِيدَةً بَعْدَ قَلِيلٍ ، فَقُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (ح) : أَمَا تَرَىٰ مَا أَرَاهُ ؟

قَالَ : وَمَاذَا تَرَىٰ ؟ فَأَوْمَأْتُ إِلَيْهَا وَقُلْتُ : هَـٰذِهِ ٱلَّتِي جَاءَتْ مِنْ هَـٰذِهِ . إِنَّ قَلْبَهَا يَنْشُرُ ٱلْآنَ حَوْلَهَا نُورًا كَٱلْمِصْبَاحِ إِذَا أُضِيءَ ، وَأَرَاهَا كَٱلزَّهْرَةِ ٱلَّتِي تَفَتَّحَتْ ؛ هِيَ هِيَ ٱلَّتِي كَانَتْ ، وَلَـٰكِنَّهَا بِغَيْرِ مَا كَانَتْ .

فَقَالَتْ هِيَ : إِنِّي أَحْسَبُكَ تُحِبُّنِي ؛ بَلْ أَرَاكَ تُحِبُّنِي ؛ بَلْ أَنْتَ تُحِبُّنِي . . . لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مُنْذُ رَأَيْتُكَ وَرَأَيْتَنِي .

قُلْتُ : هَبِيهِ صَحِيحًا ، فَكَيْفَ عَرَفْتِهِ وَلَمْ أُصَانِعْكِ ، وَلَمْ أَتَمَلَّقْ لَكِ ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَىٰ أَنْ أَجِيءَ إِلَىٰ هُنَا لِأَكْتُبَ ؟

قَالَتْ : عَرَفْتُهُ مِنْ أَنَّكَ لَمْ تُصَانِعْنِي ، وَلَمْ تَتَمَلَّقْ لِي ، وَلَمْ تَزِدْ عَلَىٰ أَنْ تَجِيءَ إِلَىٰ هُنَا لِتَكْتُبَ . . .

قُلْتُ : وَيْحَكِ ! لَوْ كُحِلَتْ عَيْنُ (ٱلْمِكْرُسْكُوبِ)[1] لَكَانَتْ عَيْنَيْكِ . وَضَحِكْنَا جَمِيعًا ؛ ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَىٰ ٱلْأُسْتَاذِ (ح) فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ ٱلْقَضَايَا إِذَا كَثُرَ وُرُودُهَا عَلَىٰ ٱلْقَاضِي جَعَلَتْ لَهُ عَيْنًا بَاحِثَةً .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي :

وَأَنْظُرُ إِلَيْهَا ، فَإِذَا وَجْهُهَا ٱلْقَمَرِيُّ ٱلْأَزْهَرُ قَدْ شَرِقَ لَوْنُهُ ، وَظَهَرَ فِيهِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ مَا يَظْهَرُ

(١) المكرسكوب Microscope ، واشتهر اليوم بالعربية بالمِجْهَر ، يمكن بواسطة الجمع بين عدساته المكبِّرة أن تُرى الأشياء أكبر من حجمها الطبيعي . بسام .

مِثْلُهُ عَلَىٰ وَجْهِ ٱلْعَذْرَاءِ ٱلْمُخَدَّرَةِ إِذَا أَنْتَ مَسَسْتَهَا بِرِيبَةٍ[1] ؛ فَمَا شَكَكْتُ أَنَّهَا ٱلسَّاعَةَ ٱمْرَأَةٌ جَدِيدَةٌ قَدِ ٱصْطَلَحَ وَجْهُهَا وَحَيَاؤُهَا ، وَهُمَا أَبَدًا مُتَعَادِيَانِ فِي كُلِّ ٱمْرَأَةٍ مَكْشُوفَةِ ٱلْعِفَّةِ . . .

وَذَهَبْتُ أَسْتَدْرِكُ وَأَتَأَوَّلُ ، فَقُلْتُ لَهَا : مَا ذَلِكَ أَرَدْتُ ، وَلَا حَدَسْتُ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلظَّنِّ ، وَإِنَّمَا أَنَا مُشْفِقٌ عَلَيْكِ مُتَأَلِّمٌ بِكِ ، وَهَلْ يَعْرِضُ لَكِ إِلَّا ٱلطَّبَقَةُ ٱلنَّظِيفَةُ . . . مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَٱلْخُبَثَاءِ وَأَهْلِ ٱلشَّرِّ ؛ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَعَالِيهِمْ فِي دُورِ ٱلْخَلَاعَةِ وَٱلْمَسَارِحِ ، وَأَسَافِلُهُمْ فِي دُورِ ٱلْقَضَاءِ وَٱلسُّجُونِ ؟

فَقَالَتْ : أَعْتَرِفُ بِأَنَّكَ لَمْ تُحْسِنْ قَلْبَ ٱلثَّوْبِ ، فَظَهَرَ لِكُلِّ عَيْنٍ أَنَّهُ مَقْلُوبٌ ؛ لَـٰكِنَّكَ تُحِبُّنِي . . . وَهَـٰذَا كَافٍ أَنْ يَنْهَضَ مِنْهُ عُذْرٌ !

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (ح) : إِنَّهُ يُحِبُّكِ ، وَلَـٰكِنْ أَتَعْرِفِينَ كَيْفَ حُبُّهُ ؟ هَـٰذَا بَابٌ يَضَعُ عَلَيْهِ دَائِمًا عِدَّةً مِنَ ٱلْأَقْفَالِ .

قَالَتْ : فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَجِدَ ٱلْمَرْأَةُ عِدَّةً مِنَ ٱلْمَفَاتِيحِ . . .

قَالَ : وَلَـٰكِنَّهُ عَاشِقٌ يُنِيرُ ٱلْعِشْقُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَكَأَنَّهُ هُوَ وَحَبِيبَتُهُ تَحْتَ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ : مَا تَطْمَعُ إِلَّا أَنْ تَرَاهُ ، وَمَا يَطْمَعُ إِلَّا أَنْ يَرَاهَا ، وَلَا شَيْءَ غَيْرَ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَا يَزَالُ حُسْنُهَا عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ هَوَاهُ إِلَيْهَا ، وَلَيْسَ إِلَّا هَـٰذَا .

قَالَتْ : إِنَّ هَـٰذَا لَعَجِيبٌ .

قَالَ : وَٱلَّذِي هُوَ أَعْجَبُ أَنْ لَيْسَ فِي حُبِّهِ شَيْءٌ نِهَائِيٌّ ، فَلَا هَجْرٌ وَلَا وَصْلٌ ؛ يَنْسَاكِ بَعْدَ سَاعَةٍ ، وَلَـٰكِنَّكِ أَبَدًا بَاقِيَةٌ بِكُلِّ جَمَالِكِ فِي نَفْسِهِ . وَٱلصَّغَائِرُ ٱلَّتِي تُبْكِي ٱلنَّاسَ وَتَتَلَذَّعُ فِي قُلُوبِهِمْ كَٱلنَّارِ لِيَجْعَلُوهَا كَبِيرَةً فِي هَمِّهِمْ وَيُطْفِئُوهَا وَيَنْتَهُوا مِنْهَا كَكُلِّ شَهَوَاتِ ٱلْحُبِّ - تُبْكِيهِ هُوَ أَيْضًا وَتَعْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ ، وَلَـٰكِنَّهَا تَظَلُّ عِنْدَهُ صَغَائِرَ وَلَا يَعْرِفُهَا إِلَّا صَغَائِرَ ؛ وَهَـٰذَا هُوَ تَجَبُّرُهُ عَلَىٰ جَبَّارِ ٱلْحُبِّ .

* * *

(١) { أَيْ : لِأَنَّهَا ظَنَّتْ أَنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا ٱعْتَادَتِ ٱلرِّجَالَ } .

قَالَ ٱلرَّاوِي :

وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا وَنَظَرَتْ ، وَعَاتَبَتْ نَفْسٌ نَفْسًا فِيْ أَعْيُنِهِمَا ، وَسَأَلَتِ ٱلسَّائِلَةُ وَأَجَابَتِ ٱلْمُجِيْبَةُ ، وَلَـٰكِنْ مَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ . . .

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

ٱلْجَمَالُ ٱلْبَائِسُ (*)
٣

قَالَ ٱلرَّاوِي :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَنَظَرَتْ : أَمَّا هِيَ ، فَرَنَتْ إِلَيَّ فِيْ سُكُوْنٍ ، وَكَانَتْ نَظْرَتُهَا مُعَاتَبَةً طَوِيْلَةً فِيْهَا ٱلتَّمَلُّقُ وَٱلتَّوَجُّعُ ، وَفِيْهَا ٱلانْكِسَارُ وَٱلْفُتُوْرُ ، وَفِيْهَا ٱلاسْتِرْخَاءُ وَٱلدَّلَالُ .

وَبَيْنَا كَانَ طَرْفُهَا سَاجِيًا فَاتِرًا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ أَحْلَامَهُ ، إِذْ حَدَّدَتْهُ إِلَيَّ فَجْأَةً وَنَظَرَتْ نَظْرَةَ مَدْهُوْشٍ ، فَبَدَتْ عَيْنَاهَا فَزِعَتَيْنِ وَلَـٰكِنْ فِيْ وَجْهٍ مُطْمَئِنٍّ .

ثُمَّ لَمْ تَكَدْ تَفْعَلُ حَتَّىٰ ضَيَّقَتْ أَجْفَانَهَا وَحَدَّقَتِ ٱلنَّظَرَ مُتَلَأْلِئًا بِمَعَانِيْهِ ، فَبَدَتْ عَيْنَاهَا ضَاحِكَتَيْنِ وَلَـٰكِنْ فِيْ وَجْهٍ مُتَأَلِّمٍ .

ثُمَّ ٱبْتَسَمَتْ بِوَجْهِهَا وَعَيْنَيْهَا مَعًا ، وَأَتَمَّتْ بِذَٰلِكَ أَجْمَلَ أَسَالِيْبِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْجَمِيْلَةِ ٱلْمَحْبُوْبَةِ فِيْ ٱعْتِرَاضِهَا عَلَىٰ مَنْ تُحِبُّهُ ، وَجِدَالِهَا مَعَ فِكْرِهِ ، وَكَسْرِ حُجَّتِهِ فِيْ كِبْرِيَائِهِ ، وَٱنْتِزَاعِ ٱلْفِكْرَةِ ٱلْمُسْتَقِلَّةِ مِنْ نَفْسِهِ .

وَأَمَّا أَنَا ؛ فَكَانَ نَظَرِيْ إِلَيْهَا سَاكِنًا مُتَأَلِّمًا يُقِرُّ أَنَّهُ عَجَزَ عَنْ جَوَابِ عَيْنَيْهَا ، وَسَيَبْقَىٰ عَاجِزًا عَنْ جَوَابِ عَيْنَيْهَا . . .

(*) « الرسالة » العدد : ١١٨ ، ٩ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٦٠٣ ـ ١٦٠٦ .

إِنَّ وَجْهَهَا هُوَ ٱلابْتِسَامُ وَرُوْحُ ٱلابْتِسَامِ ، وَجِسْمَهَا هُوَ ٱلإِغْرَاءُ وَرُوْحُ ٱلإِغْرَاءِ ، وَفَنَّهَا هُوَ ٱلْفِتْنَةُ وَرُوْحُ ٱلْفِتْنَةِ ؛ وَهِيَ بِهَـٰذَا كُلِّهِ ، هِيَ ٱلْحُبُّ وَرُوْحُ ٱلْحُبِّ ؛ غَيْرَ أَنَّ فَهْمَهَا عَلَىٰ حَقِيْقَتِهَا فِيْ ٱلنَّاسِ يَجْعَلُ ٱبْتِسَامَهَا عَدَاوَةً مِنْ وَجْهِهَا ، وَإِغْرَاءَهَا جَرِيْمَةً لِجِسْمِهَا ، وَفَنَّهَا رَذِيْلَةً فِيْ جَمَالِهَا ؛ وَهِيَ بِهَـٰذَا كُلِّهِ ، هِيَ ٱلشَّقَاءُ وَرُوْحُ ٱلشَّقَاءِ .

* * *

أَمَّا أَنِّيْ أُحِبُّ فَنَعَمْ وَنِعِمَّا ، بَلْ أَرَاهُ حُبًّا فَالِقًا كَبِدِيْ ، وَلَيْسَ يَخْلُو فُؤَادِيْ أَبَدًا مِنْ سَوَالِفِ حُبٍّ مَضَىٰ ؛ وَأَمَّا أَنِّيْ أَسْتَرْذِلُ فِيْ ٱلْحُبِّ وَأَمْتَهِنُ فَضِيْلَتِيْ وَأَنْزِلُ بِهَا ، فَلَا وَأَبَدًا .

إِنَّ ذَٰلِكَ ٱلْحُبَّ هُوَ عِنْدِيْ عَمَلٌ فَنِّيٌّ مِنْ أَعْمَالِ ٱلنَّفْسِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْفَضِيْلَةَ هِيَ ٱلنَّفْسُ ذَاتُهَا ؛ وَٱلْحُبُّ أَيَّامٌ جَمِيْلَةٌ عَابِرَةٌ فِيْ زَمَنِيْ ؛ أَمَّا ٱلْفَضِيْلَةُ فَهِيَ زَمَنِيْ كُلُّهُ ؛ وَذَٰلِكَ ٱلْجَمَالُ هُوَ قُوَّةٌ مِنْ جَاذِبِيَّةِ ٱلأَرْضِ فِيْ مُدَّتِهَا ٱلْقَصِيْرَةِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْفَضِيْلَةَ جَاذِبِيَّةُ ٱلسَّمَاءِ فِيْ خُلُوْدِهَا ٱلأَبَدِيِّ .

عَلَىٰ أَنَّهُ لَا مُنَافَرَةَ بَيْنَ ٱلْحُبِّ وَٱلْفَضِيْلَةِ فِيْ رَأْيِيْ ، فَإِنَّ أَقْوَىٰ ٱلْحُبِّ وَأَمْلَأَهُ بِفَلْسَفَةِ ٱلْفَرَحِ وَٱلْحُزْنِ ، لَا يَكُوْنُ إِلَّا فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلْفَاضِلَةِ ٱلْمُتَوَرِّعَةِ عَنْ مُقَارَفَةِ ٱلإِثْمِ . وَهَـٰهُنَا يَتَحَوَّلُ ٱلْحُبُّ إِلَىٰ مَلَكَةٍ سَامِيَةٍ فِيْ إِدْرَاكِ مَعَانِيْ ٱلْجَمَالِ ، فَيَكُوْنُ ٱلْوَجْهُ ٱلْمَعْشُوْقُ مَصْدَرَ وَحْيٍ لِلنَّفْسِ ٱلْعَاشِقَةِ ؛ وَبِهَـٰذَا ٱلْوَحْيِ وَٱلاسْتِمْدَادِ مِنْهُ يَنْزِلُ ٱلْمُحِبُّ مِنَ ٱلْمَحْبُوْبِ مَنْزِلَةَ مَنْ يَرْتَفِعُ بِٱلآدَمِيَّةِ إِلَىٰ ٱلْمَلَائِكِيَّةِ(١) ، لِيَتَلَقَّىٰ ٱلنُّوْرَ مِنْهَا فَنًّا بَعْدَ فَنٍّ ، وَٱلْفَرَحُ مَعْنًى بَعْدَ مَعْنًى ، وَٱلْحُزْنُ ٱلسَّمَاوِيُّ فَضِيْلَةً بَعْدَ فَضِيْلَةٍ .

فَهَـٰذَا ٱلْحُبُّ هُوَ طَرِيْقَةٌ نَفْسِيَّةٌ لِاتِّسَاعِ بَعْضِ ٱلْعُقُوْلِ ٱلْمُهَيَّأَةِ لِلإِلْهَامِ ، كَيْ تُحِيْطَ بِأَفْرَاحِ ٱلْحَيَاةِ وَأَحْزَانِهَا ، فَتُبْدِعَ لِلدُّنْيَا صُوْرَةً مِنْ صُوَرِ ٱلتَّعْبِيْرِ ٱلْجَمِيْلَةِ ٱلَّتِيْ تُثِيْرُ أَشْوَاقَ ٱلنَّفْسِ ؛ كَأَنَّ كُلَّ مُحِبٍّ وَحَبِيْبَتَهُ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُلْهَمِيْنَ ، هُمَا صُوْرَةٌ جَدِيْدَةٌ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ ، فِيْ حَالَةٍ جَدِيْدَةٍ مِنْ مَعْنَىٰ تَرْكِ ٱلْجَنَّةِ ، لِإِيْجَادِ ٱلصُّوْرَةِ ٱلْجَدِيْدَةِ مِنَ ٱلْفَرَحِ ٱلأَرْضِيِّ وَٱلْحُزْنِ ٱلسَّمَاوِيِّ .

(١) نَحْنُ لَا نَنْسُبُ لِلْمَلَائِكَةِ إِلَّا عَلَىٰ خِلَافِ ٱلْقَاعِدَةِ ٱلْمُقَرَّرَةِ فِيْ عِلْمِ ٱلصَّرْفِ ، وَنَرَىٰ أَنَّ مُخَالَفَةَ ٱلْقَاعِدَةِ [في الأصل : « أنّ مخالفته »] هِيَ ٱلْقَاعِدَةُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱللَّفْظَةِ { وَفِيْ أَلْفَاظٍ أُخْرَىٰ } .

وَٱلْخَطَرُ فِيْ ٱلْحُبِّ أَلَّا يَكُوْنَ فِيْهِ خَطَرٌ . . . فَهُوَ حِيْنَئِذٍ نِدَاءُ ٱلْجِنْسِ ، لَا يَكُوْنُ إِلَّا دَنِيْئًا سَاقِطًا مَبْذُوْلًا ، فَلَا قِيْمَةَ لَهُ وَلَا وَحْيَ فِيْهِ ؛ إِذْ يَكُوْنُ ٱحْتِيَالًا مِنْ عَمَلِ ٱلْغَرِيْزَةِ جَاءَتْ فِيْهِ لَابِسَةً ثَوْبَهَا ٱلنُّوْرَانِيَّ مِنْ شَوْقِ ٱلرُّوْحِ لِتَخْدَعَ ٱلنَّفْسَ ٱلْأُخْرَىٰ فَيَتَّصِلَ بَيْنَهُمَا ، حَتَّىٰ إِذَا ٱتَّصَلَ بَيْنَهُمَا خَلَعَتِ ٱلْغَرِيْزَةُ هَـٰذَا ٱلثَّوْبَ وَٱسْتَعْلَنَتْ أَنَّهَا ٱلْغَرِيْزَةُ ، فَٱنْحَصَرَ ٱلْحُبُّ فِيْ حَيْوَانِيَّتِهِ ، وَبَطَلَتْ أَشْوَاقُهُ ٱلْخَيَالِيَّةُ أَجْمَعُ .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِيْ :

وَعَرَفَتِ ٱلْحَسْنَاءُ هَـٰذَا كُلَّهُ مِنْ عَرْضِهَا نَظْرَةً وَتَلَقِّيْهَا نَظْرَةَ غَيْرِهَا ، فَقَالَتْ لِلْأُسْتَاذِ (ح) : أَمَّا أَنْ يَكُوْنَ مَعَ أَثَرِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْفِكْرِ فِيْ ٱلْجَمَالِ وَدَعْوَىٰ ٱلْحُبِّ ، أَثَرُ ٱلزُّهْدِ فِيْ ٱلْجِسْمِ ٱلْجَمِيْلِ وَٱدِّعَاءُ ٱلْفَضِيْلَةِ ـ فَإِنَّ بَعِيْدًا أَنْ يَجْتَمِعَا .

قَالَ (ح) : وَأَيْنَ تُبْعِدِيْنَهُ وَيْحَكِ عَنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ ؟ إِنِّيْ لَأَعْرِفُ مَنْ هُوَ أَعْجَبُ مِنْ هَـٰذَا !

قَالَتْ : وَمَاذَا بَقِيَ مِنَ ٱلْعَجَبِ فَتَعْرِفَهُ ؟

قَالَ : أَعْرِفُ رَجُلًا مُتَزَوِّجًا ، أَحَبَّ أَشَدَّ ٱلْحُبِّ وَأَمَضَّهُ ، حَتَّىٰ ٱسْتُهَامَ وَتَدَلَّهَ ، فَكَانَ مَعَ هَـٰذَا لَا يَكْتُبُ رِسَالَةً إِلَىٰ حَبِيْبَتِهِ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنَ فِيْهَا زَوْجَتَهُ ، كَيْلَا يَعْتَدِيَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ حَقِّهَا . وَزَوْجَتُهُ كَانَتْ أَعْرَفَ بِقَلْبِهِ وَبِحُبِّ هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ ، وَهِيَ كَانَتْ أَعْلَمَ أَنَّ حُبَّهُ وَسُلْوَانَهُ إِنَّمَا هُمَا طَرِيْقَتَانِ فِيْ ٱلْأَخْذِ وَٱلتَّرْكِ بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ ٱلْمَعَانِيْ ، تَارَةً مِنْ سَبِيْلِ ٱلْمَرْأَةِ وَجَمَالِهَا ، وَتَارَةً مِنْ سَبِيْلِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَمَحَاسِنِهَا .

فَتَنَهَّدَتْ وَقَالَتْ : يَا عَجَبًا ! وَفِيْ ٱلدُّنْيَا مِثْلُ هَـٰذَا ٱلزَّوْجِ ٱلطَّاهِرِ ، وَفِيْ ٱلدُّنْيَا مِثْلُ هَـٰذِهِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلْكَرِيْمَةِ ؟

ثُمَّ إِنَّهَا وَجَمَتْ هُنَيْهَةً تَجْتَمِعُ فِيْ نَفْسِهَا ٱجْتِمَاعَ ٱلسَّحَابَةِ ، ثُمَّ ٱسْتَدْمَعَتْ ، ثُمَّ أَرْسَلَتْ عَيْنَيْهَا تَبْكِيْ ؛ فَبَدَرْتُ أَنَا أُرَفِّهُ عَنْهَا حَتَّىٰ كَفْكَفَتْ مِنْ دَمْعِهَا ، وَكَأَنَّ (ح) قَدْ وَخَزَهَا فِيْ قَلْبِهَا وَخْزَةَ ٱلْأَيِّمَةِ بِذِكْرِهِ لَهَا ٱلزَّوْجَةَ ، ثُمَّ ٱلزَّوْجَةَ ٱلطَّاهِرَةَ ، ثُمَّ ٱلطَّاهِرَةَ حَتَّىٰ فِيْ وَسْوَسَةِ

شَيْطَانِ ٱلْغَيْرَةِ . ٱرْتَفَعَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِٱلزَّوْجَةِ ، لِتَرَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمِسْكِيْنَةُ أَنَّهَا سُلَافَةٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ؛ وَكَأَنَّهُ بِهَـٰذَا لَمْ يُكَلِّمْهَا ، بَلْ رَسَمَ لَهَا صُوْرَتَهَا فِيْ عَيْشِهَا ٱلْمُخْزِيْ وَقَالَ لَهَا : ٱنْظُرِيْ . . . . . .

* * *

وَيَامَا كَانَ أَجْمَلَهَا يَتَرَقْرَقُ ٱلدَّمْعُ فِيْ عَيْنَيْهَا ٱلْفَاتِنَتَيْنِ ٱلْكَحِيْلَتَيْنِ ، فَيَبُثُّ مِنْهُمَا حُزْنًا يُخَيِّلُ لِمَنْ رَآهُ ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِهَا سَيَحْزَنُ ٱلْوُجُوْدُ كُلُّهُ !

لَيْسَ ٱلْبُكَاءُ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْعَيْنَيْنِ بُكَاءً عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ إِذَا كَانَ مِنَ ٱلْعَاشِقِيْنَ ، بَلْ هُوَ فَنُّ ٱلْحُزْنِ يَضَعُ جَمَالًا جَدِيْدًا فِيْ فَنِّ ٱلْحُسْنِ . وَأَكَادُ أُعْجَبُ كَيْفَ وَجَدَ ٱلدَّمْعُ مَكَانًا بَيْنَ ٱلْمَعَانِيْ ٱلضَّاحِكَةِ فِيْ وَجْهِهَا ، لَوْ لَمْ يَكُنْ هَـٰذَا ٱلدَّمْعُ قَدْ جَاءَ لِيُظْهِرَ عَلَىٰ وَجْهِهَا ٱلْفَنَّ ٱلْآخَرَ مِنْ جَمَالِ ٱلْمَعَانِيْ ٱلْبَاكِيَةِ .

* * *

وَسَأَلْتُهَا : مَا ٱلَّذِيْ خَامَرَ قَلْبَكِ مِنْ كَلَامِ ٱلْأُسْتَاذِ (ح) فَأَبْكَاكِ ، وَأَنْتِ كَمَا أَرَىٰ يَتَأَلَّقُ ٱلنُّوْرُ عَلَىٰ جُدْرَانِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِيْ تَحُلِّيْنَ بِهِ ، فَيَظْهَرُ ٱلْمَكَانُ وَكَأَنَّهُ يَضْحَكُ لَكِ ؟

فَتَشَكَّكَتْ لَحْظَةً ثُمَّ قَالَتْ : أَبِكَ مَا تَقُوْلُ أَمْ أَنْتَ تَتَهَكَّمُ بِيْ ؟

قُلْتُ : كَيْفَ يَخْطُرُ لَكِ هَـٰذَا وَأَنَا أَحْتَرِمُ فِيْكِ ثَلَاثَ حَقَائِقَ : ٱلْجَمَالُ ، وَٱلْحُبُّ ، وَٱلْأَلَمُ ٱلْإِنْسَانِيُّ ؟

قَالَتْ : لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكَ[1] ، وَلَـٰكِنْ صَوِّرْ لِيْ بِبَلَاغَتِكَ كَيْفَ أَحْبَبْتُكَ وَأَنْتَ غَيْرُ مُتَحَبِّبٍ إِلَيَّ ، وَكَيْفَ جَادَلْتُ نَفْسِيْ فِيْكَ وَدَاوَرْتُهَا عَنْكَ ، وَكُلَّمَا عَزَمْتُ ٱنْحَلَّ عَزْمِيْ ؟ فَهَـٰذَا مَا لَا أَكَادُ أَعْرِفُ كَيْفَ وَقَعَ ، وَلَـٰكِنَّهُ وَقَعَ . هَـٰذِهِ قَطْرَةٌ مِنَ ٱلْمَاءِ ٱلصَّافِيْ ٱلْعَذْبِ ، فَضَعْ عَلَيْهَا (ٱلْمِكْرُوسْكُوب) يَا سَيِّدِيْ ، وَقُلْ لِيْ مَاذَا تَرَىٰ ؟

قُلْتُ : إِنَّكِ تُخْرِجِيْنَ مِنَ ٱلسُّؤَالِ سُؤَالًا . فَمَا ٱلَّذِيْ خَامَرَ قَلْبَكِ مِنْ كَلَامِ (ح) فَبَكَيْتِ لَهُ ؟

---

(١) أَيْ : لَا عَتَبَ عَلَيْكَ .

قَالَتْ : إِذًا فَلَيْسَتْ هِيَ قَطْرَةً مِنَ ٱلْمَاءِ ، بَلْ تِلْكَ دَمْعَةٌ مِنْ دُمُوعِي ، فَضَعْ عَلَيْهَا ٱلْمِكْرُوسكُوب يَا سَيِّدِي !

قَالَ ٱلرَّاوِي :

وَكَانَتْ حَزِينَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَسْكُتْ عَنِ ٱلْبُكَاءِ إِلَّا بِوَجْهِهَا ، وَبَقِيَتْ رُوحُهَا تَبْكِي فِي دَاخِلِهَا . فَأَرَادَ ٱلْأُسْتَاذُ (ح) أَنْ يَسْتَدْرِكَ لِغَلْطَتِهِ ٱلْأُولَىٰ فَقَالَ : إِنَّكِ ٱلآنَ تَسْأَلِينَهُ حَقًّا مِنْ حُقُوقِكِ عَلَيْهِ، فَكُلُّ ٱمْرَأَةٍ يُحِبُّهَا هِيَ عَرُوسُ قَلَمِهِ وَلَهَا عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْقَلَمِ حَقُّ ٱلنَّفَقَةِ . . .

فَضَحِكَتْ نَوْعًا ظَرِيفًا مِنَ ٱلضَّحِكِ ٱلْفَاتِرِ ، كَأَنَّمَا ٱبْتَكَرَهُ ثَغْرُهَا ٱلْجَمِيلُ لِسَاعَةِ حُزْنِهَا ؛ وَنَظَرَتْ إِلَيَّ ، فَقُلْتُ : إِنْ كَانَ ٱلأَمْرُ مِنْ نَفَقَةِ ٱلْعَرُوسِ عَلَىٰ ٱلْقَلَمِ فَمَا أَشْبَهَ هَـٰذَا (بِلَا شَيْءِ) جُحَا .

فَضَحِكَتْ أَظْرَفَ مِنْ قَبْلُ ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ ثَغْرَهَا ٱنْطَبَقَ بَعْدَ ٱفْتِرَارِهِ عَلَىٰ قُبْلَةٍ أَفْلَتَتْ مِنْهُ فَأَمْسَكَهَا مِنْ آخِرِهَا . . .

ثُمَّ قَالَتْ : مَا هُوَ (لَا شَيْءَ) جُحَا ؟

قُلْتُ : زَعَمُوا أَنَّ جُحَا ذَهَبَ يَحْتَطِبُ ، وَحَمَلَ فَوْقَ مَا يُطِيقُ ، فَبَهَظَهُ ٱلْحِمْلُ وَبَلَغَ بِهِ ٱلْمَشَقَّةَ ، ثُمَّ رَأَىٰ فِي طَرِيقِهِ رَجُلًا أَبْلَهَ فَٱسْتَعَانَ بِهِ ، فَقَالَ ٱلرَّجُلُ : كَمْ تُعْطِينِي إِذَا أَنَا حَمَلْتُ عَنْكَ ؟ قَالَ : أُعْطِيكَ (لَا شَيْءَ) . قَالَ : رَضِيتُ .

ثُمَّ حَمَلَ ٱلأَبْلَهُ وَٱنْطَلَقَ مَعَهُ حَتَّىٰ بَلَغَا ٱلدَّارَ ، فَقَالَ : أَعْطِنِي أَجْرِي . قَالَ جُحَا : لَقَدْ أَخَذْتَهُ . وَٱخْتَلَفَا : هَـٰذَا يَقُولُ أَعْطِنِي ، وَهَـٰذَا يَقُولُ أَخَذْتَ ؛ فَلَبَّبَهُ[1] ٱلرَّجُلُ وَمَضَىٰ يَرْفَعُهُ إِلَىٰ ٱلْقَاضِي ، وَكَانَ بِٱلْقَاضِي لُوثَةٌ ، وَعَلَىٰ وَجْهِهِ رَوْعَةُ ٱلْحُمْقِ[2] تُخْبِرُكَ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَكَ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَمَّا سَمِعَ ٱلدَّعْوَىٰ قَالَ لِجُحَا : أَنْتَ فِي ٱلْحَبْسِ أَوْ تُعْطِيهِ (ٱللَّا شَيْءَ) . . .

(١) أَخَذَ بِتَلابِيبِهِ .
(٢) اللُّوثَةُ (بِضَمِّ اللَّامِ) : مَسٌّ مِنَ الْجُنُونِ ، وَتَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنَى الْحُمْقِ ، وَرَوْعَةُ الْحُمْقِ : عَلامَاتُهُ ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي عِلْمِ الْفِرَاسَةِ .

قَالَ جُحَا فِي نَفْسِهِ : لَقَدِ ٱحْتَجْتُ لِعَقْلِي بَيْنَ هَـٰذَيْنِ ٱلأَبْلَهَيْنِ ؛ ثُمَّ إِنَّهُ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ وَأَخْرَجَهَا مُطْبَقَةً ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ : تَقَدَّمْ وَٱفْتَحْ يَدِي . فَتَقَدَّمَ وَفَتَحَهَا . قَالَ جُحَا : مَاذَا فِيهَا ؟ قَالَ ٱلرَّجُلُ : (لَا شَيْءَ) .

فَقَالَ لَهُ جُحَا : خُذْ (لَا شَيْئَكَ) وَٱمْضِ فَقَدْ بَرِئَتْ ذِمَّتِي .

قَالُوا : فَذَهَبَ ٱلرَّجُلُ يَحْتَجُّ ، فَقَالَ لَهُ ٱلْقَاضِي : مَهْ ! أَنْتَ أَقْرَرْتَ أَنَّكَ رَأَيْتَ فِي يَدِهِ (لَا شَيْءَ) ، وَهُوَ أَجْرُكَ ؛ فَخُذْهُ وَلَا تَطْمَعْ فِي أَزْيَدَ مِنْ حَقِّكَ . . . !

* * *

وَضَحِكَتْ وَضَحِكْنَا ، ثُمَّ قَالَتْ : أَنَا رَاضِيَةٌ أَنْ أَكُونَ عَرُوسَ ٱلْقَلَمِ ، فَلْيُجْرِ عَلَيَّ ٱلْقَلَمُ نَفَقَتِي ، وَلْيُصَوِّرْ لِي كَيْفَ أَحْبَبْتُ ، وَكَيْفَ آمَرْتُ نَفْسِي وَجَادَلْتُهَا ؟

قُلْتُ : لَا أَتَكَلَّمُ عَنْكِ أَنْتِ وَلَا أَسْتَطِيعُهُ . بَيْدَ أَنَّنِي لَوْ صَنَّفْتُ رِوَايَةً يَكُونُ فِيهَا هَـٰذَا ٱلْمَوْقِفُ ، لَوَضَعْتُ عَلَىٰ لِسَانِ ٱلْعَاشِقَةِ هَـٰذَا ٱلْكَلَامَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَهَا .

تَقُولُ : كَيْفَ كُنْتُ وَكَيْفَ صِرْتُ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنِي أُعَاشِرُ مِئَةَ رَجُلٍ فَأُخَالِطُهُمْ فِي شَتَّىٰ أَحْوَالِهِمْ ، وَأُصَرِّفُهُمْ فِي هَوَايَ ، وَكُلُّهُمْ يَجْهَدُ جُهْدَهُ فِي ٱسْتِمَالَتِي ، وَكُلُّهُمْ أَهْلُ مَوَدَّةٍ وَبَذْلٍ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيلٌ مُخْلِصٌ ، قَدْ أَنِقَ وَتَجَمَّلَ وَرَاعَ حُسْنُهُ ؛ كَأَنَّمَا هَرَبَ إِلَيَّ فِي ثِيَابِ عُرْسِهِ لَيْلَةَ زِفَافِهِ ، وَتَرَكَ مِنْ أَجْلِي عَرُوسًا تَبْكِي وَتَصِيحُ بِوَيْلِهَا . ثُمَّ أَنَا مَعَ ذَلِكَ مُغْلَقَةُ ٱلْقَلْبِ دُونَهُمْ جَمِيعًا : أَصْدُقُهُمُ ٱلْمَوَدَّةَ وَٱلصُّحْبَةَ ، وَأَكْذِبُهُمُ ٱلْحُبَّ وَٱلْهَوَىٰ ؛ فَلَسْتُ أُحِبُّهُمْ إِلَّا بِمَا أَنَالُ مِنْهُمْ ، وَلَسْتُ أَتَحَبَّبُ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَا أُنَوِّلُهُمْ مِنِّي ، وَهُمْ بَيْنَ عَقْلِي وَحِيلَتِي رِجَالٌ لَا عُقُولَ لَهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَهْوَائِهِمْ وَحَمَاقَاتِهِمْ ٱمْرَأَةٌ لَا ذَاتَ لَهَا .

ثُمَّ أَرَىٰ بَغْتَةً رَجُلًا فَرْدًا فَلَا أَكَادُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيَّ حَتَّىٰ يَضَعَ فِي قَلْبِي مَسْأَلَةً تَحْتَاجُ إِلَىٰ ٱلْحَلِّ . . .

وَأَرْتَاعُ لِذَلِكَ فَأُحَاوِلُ تَنَاسِيَهُ وَٱلإِغْضَاءَ عَنْهُ ، فَتَلِجُّ ٱلْمَسْأَلَةُ فِي طَلَبِ حَلِّهَا ، وَتَشْغَلُ خَاطِرِي ، وَتَتَمَدَّدُ فِي قَلْبِي ؛ وَهُوَ هُوَ ٱلْمَسْأَلَةُ . . .

فَأَفْزَعُ لِذَلِكَ وَأَهْتَمُّ لَهُ ، وَأَجْهَدُ جَهْدِي أَنْ أَكُونَ مَرَّةً حَازِمَةً بَصِيرَةً : كَرِجَالِ ٱلْمَالِ فِي

حَقِّ ٱلثَّرْوَةِ عَلَيْهِمْ ؛ وَمَرَّةً قَاسِيَةً عَنِيْدَةً ، كَرِجَالِ ٱلْحَرْبِ فِيْ وَاجِبِهَا عِنْدَهُمْ ؛ وَمَرَّةً خَبِيْثَةً مُنْكَرَةً ، كَرِجَالِ ٱلسِّيَاسَةِ فِيْ عَمَلِهَا بِهِمْ ؛ وَلَـٰكِنِّيْ أَرَىٰ ٱلْمَسْأَلَةَ تَلِيْنُ لِيْ وَتَتَشَكَّلُ مَعِيْ وَتَحْتَمِلُ هَـٰذِهِ ٱلْوُجُوْهَ كُلَّهَا ، لِتَبْقَىٰ حَيْثُ هِيَ فِيْ قَلْبِيْ ؛ فَإِنَّهُ هُوَ هُوَ ٱلْمَسْأَلَةُ . . .

وَأَغْتَمُّ لِذَلِكَ غَمًّا شَدِيْدًا ، وَأَرَانِيْ سَأَسْقُطُ بَعْدَ سُقُوْطِيَ ٱلأَوَّلِ وَأَقْبَحَ مِنْهُ ؛ إِذِ ٱلْحَيَاةُ عِنْدَنَا قَائِمَةٌ بِٱلْخِدَاعِ ، وَهَـٰذَا يُفْسِدُهُ ٱلإِخْلَاصُ ؛ وَبِٱلْمَكْرِ ، وَهَـٰذَا يُعَطِّلُهُ ٱلْوَفَاءُ ؛ وَبِٱلنِّسْيَانِ ، وَهَـٰذَا يُبْطِلُهُ ٱلْحُبُّ ؛ وَإِذْ عَوَاطِفُنَا كُلُّهَا مُتَجَرِّدَةٌ لِغَرَضٍ وَاحِدٍ ، هُوَ كَسْبُ ٱلْمَالِ وَجَمْعُهُ وَٱدِّخَارُهُ ؛ وَفَضِيْلَتُنَا عَمَلِيَّةٌ لَا تَخَيَّلُ ، حِسَابِيَّةٌ لَا تَخْتَلُّ ؛ فَيَسْتَوِي عِنْدَنَا ٱلرَّجُلُ بَلَغَ جَمَالُهُ ٱلْقَمَرَ فِيْ سَمَائِهِ ، وَٱلرَّجُلُ بَلَغَتْ دَمَامَتُهُ ٱلذُّبَابَ فِيْ أَقْذَارِهِ ؛ وَٱلْحُبُّ مَعَنَا هُوَ : كَمْ فِيْ كَمْ وَيَبْقَىٰ مَاذَا . . . أَوْ كَمَا يَقُوْلُ أَهْلُ ٱلسِّيَاسَةِ : هُوَ « ٱلنُّقْطَةُ ٱلْعَمَلِيَّةُ فِيْ ٱلْمَسْأَلَةِ » . وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَسْأَلَةَ ٱلَّتِيْ فِيْ قَلْبِيْ لَا تَرَىٰ هَـٰذَا حَلًّا لَهَا ؛ لِأَنَّهُ هُوَ هُوَ ٱلْمَسْأَلَةُ . . .

فَيَزِيْدُ بِيْ ٱلْكَرْبُ ، وَيَشْتَدُّ عَلَيَّ ٱلْبَلَاءُ ، وَأَحْتَالُ لِقَلْبِيْ وَأُدَبِّرُ فِيْ خَنْقِهِ ، وَأَذْهَبُ أُقْنِعُهُ أَنَّ ٱلرَّجُلَ إِذَا كَانَ شَرِيْفًا لَمْ يُحِبَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلسَّاقِطَةَ ، إِذْ يُعَابُ بِصُحْبَتِهَا وَٱلِاخْتِلَافِ إِلَيْهَا ، فَإِذَا كَانَ سَاقِطًا لَمْ تُحِبَّهُ هِيَ ، فَإِنَّمَا هُوَ صَيْدُهَا وَفَرِيْسَتُهَا ، وَمَوْضِعُ نِقْمَتِهَا مِنْ هَـٰذَا ٱلْجِنْسِ ؛ وَأُسْرِفُ عَلَىٰ قَلْبِيْ فِيْ ٱلْمَلَامَةِ وَٱلتَّعْذِيْلِ فَأَقُوْلُ لَهُ : وَيْحَكَ يَا قَلْبِيْ ! إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ مِنَّا إِذَا تَفَتَّحَ قَلْبُهَا لِحَبِيْبٍ ، تَفَتَّحَ كَٱلْجُرْحِ لِيَنْزِفَ دِمَاءَهُ لَا غَيْرُ . فَيَقْتَنِعُ ٱلْقَلْبُ وَيُجْمِعُ عَلَىٰ أَنْ يَنْسَىٰ ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَنْ طَلَبِهِ ٱلْحُبَّ ؛ وَأَرَىٰ ٱلْمَسْأَلَةَ قَدْ بَطَلَتْ وَكَانَ بُطْلَانُهَا أَحْسَنَ حَلٍّ لَهَا ، وَأَنَامُ وَادِعَةً مُطْمَئِنَّةً ، فَيَأْتِيْ هُوَ فِيْ نَوْمِيْ وَيَدْخُلُ فِيْ قَلْبِيْ ، وَيُعِيْدُ ٱلْمَسْأَلَةَ إِلَىٰ وَضْعِهَا ٱلأَوَّلِ ، فَمَا أَسْتَيْقِظُ إِلَّا رَأَيْتُهُ هُوَ هُوَ ٱلْمَسْأَلَةُ . . .

فَأَتَنَاهَىٰ فِيْ ٱلْخَوْفِ عَلَىٰ نَفْسِيْ مِنْ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ ، وَأَرَاهُ سِجْنَهَا وَعِقَابَهَا ، وَقَهْرَهَا وَإِذْلَالَهَا ، فَأَقُوْلُ لَهَا : وَيْلَكِ يَا نَفْسِيْ ! إِنَّمَا هَمُّكِ فِيْ ٱلْحَيَاةِ وَسَائِلُ ٱلْفَوْزِ وَٱلْغَلَبِ ، فَأَنْتِ بِهَـٰذَا عَدُوَّةٌ مُسَمَّاةٌ فِيْ غَفْلَةِ ٱلرِّجَالِ صَدِيْقَةً ، وَقَدْ وُضِعْتِ فِيْ مَوْضِعِ تَعِيْشِيْنَ فِيْهِ بِإِهَانَاتٍ مِنَ ٱلرِّجَالِ ، يُسَمُّوْنَهَا فِيْ نَذَالَتِهِمْ بِٱلْحُبِّ ؛ فَأَنْتِ عَدُوَّةُ ٱلرِّجَالِ بِمَعْنًى مِنَ ٱلدَّهَاءِ وَٱلْخُبْثِ ، وَعَدُوَّةُ ٱلزَّوْجَاتِ بِمَعْنًى مِنَ ٱلْحِقْدِ وَٱلضَّغِيْنَةِ ، وَعَدُوَّةُ ٱلْبَغَايَا أَيْضًا بِمَعْنًى مِنَ ٱلْمُغَالَبَةِ وَٱلْمُنَافَسَةِ ، وَكُلُّ مَا يَسْتَطِيْعُ ٱلدَّهَاءُ أَنْ يَعْمَلَهُ فَهُوَ ٱلَّذِيْ عَلَيَّ أَنَا أَنْ أَعْمَلَهُ ، فَمَاذَا

أَصْنَعُ وَأَنَا أُحِبُّ ؟ وَكَيْفَ أَنْجَحُ وَأَنَا أُحِبُّ ؟ وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّفْسَ تُجِيْبُنِيْ عَلَىٰ كُلِّ هَـٰذَا بِأَنَّ هَـٰذَا كُلَّهُ بَعِيْدٌ عَنِ ٱلْمَسْأَلَةِ مَا دَامَ هُوَ هُوَ ٱلْمَسْأَلَةَ . . .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِيْ :

وَكَانَتْ كَٱلذَّاهِلَةِ مِمَّا سَمِعَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ : أَلَكَ شَيْطَانٌ فِيْ قَلْبِيْ ؟ فَهَـٰذَا كُلُّهُ هُوَ ٱلَّذِيْ حَدَثَ فِيْ سَبْعَةِ أَيَّامٍ .

قَالَ (ح) : وَلَـٰكِنْ كَيْفَ يَقَعُ هَـٰذَا ٱلْحُبُّ ؟ وَهَبْكَ صَنَّفْتَ تِلْكَ ٱلرِّوَايَةَ ، وَوَضَعْتَ عَلَىٰ لِسَانِ ٱلْعَاشِقَةِ ذَلِكَ ٱلْكَلَامَ ، فَبِمَاذَا كُنْتَ تُنْطِقُهَا فِيْ وَصْفِ حُبِّهَا وَمَا ٱجْتَذَبَهَا مِنْ رَجُلٍ فَازَ بِقَلْبِهَا وَلَمْ يُدَاوِرْهَا ، بَعْدَ مِئَةِ رَجُلٍ كُلُّهُمْ دَاوَرَهَا وَلَمْ يَفُزْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ؟ أَتَكُوْنُ فِيْ وَجْهِ هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ أَنْوَارٌ كَتَبَاشِيْرِ ٱلصُّبْحِ تَدُلُّ عَلَىٰ ٱلنَّهَارِ ٱلْكَامِنِ فِيْهِ ؟

قَالَتْ هِيَ : نَعَمْ نَعَمْ . بِمَاذَا كُنْتَ تُنْطِقُهَا ؟

قُلْتُ : كُنْتُ أَضَعُ فِيْ لِسَانِهَا هَـٰذَا ٱلْكَلَامَ تُجِيْبُ بِهِ عَاذِلَةً تَعْذُلُهَا :

تَقُوْلُ : لَا أَدْرِيْ كَيْفَ أَحْبَبْتُهُ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذِهِ ٱلشَّخْصِيَّةَ ٱلْبَارِزَةَ مِنْهُ جَذَبَتْنِيْ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَتِ ٱلْهَوَاءَ فِيْمَا بَيْنِيْ وَبَيْنَهُ مُفْعَمًا بِٱلْمِغْنَاطِيْسِ[1] مَصْدَرُهُ هُوَ ، وَمَعْنَاهُ هُوَ ، وَلَا شَيْءَ فِيْهِ إِلَّا هُوَ .

عَرَضَتْهُ لِيْ شَخْصِيَّتُهُ ظَاهِرًا لِأَنَّ جَوَابَ شَخْصِيَّتِهِ فِيَّ ، وَأَصْبَحَ فِيْ عَيْنَيَّ كَبِيْرًا لِأَنَّ جَوَابَ شَخْصِيَّتِيْ فِيْهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ صَارَتْ أَفْكَارِيْ نَفْسُهَا تَزِيْدُهُ كُلَّ يَوْمٍ ظُهُوْرًا ، وَتَزِيْدُنِيْ كُلَّ يَوْمٍ بَصَرًا ، وَأَعْطَاهُ حَقَّهُ فِيْ ٱلْكَمَالِ عِنْدِيْ حَقَّهُ فِيْ ٱلْحُبِّ مِنِّيْ ؛ وَبِتِلْكَ ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلَّتِيْ جَوَابُهَا فِيْ نَفْسِيْ ، أَصْبَحَ ضَرُوْرَةً مِنْ ضَرُوْرَاتِ نَفْسِيْ .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِيْ :

(١) المغناطيس Magnetism : خاصية جذب الحديد لمواد معيّنة . بسام .

وَلَمَّا رَأَيْتُهَا فِيْ جَوِّيْ نَسِيْمِهِ وَعَاصِفَتِهِ ، أَرَدْتُهَا عَلَىٰ قِصَّتِهَا وَشَأْنِهَا ، فَمَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

الْجَمَالُ الْبَائِسُ (*)
٤

قُلْتُ لَهَا : إِنَّ قَلْبِي وَقَلْبَكِ يَتَجَالَيَانِ(١) فِي هَـٰذِهِ السَّاعَةِ وَيَتَبَاكَيَانِ ؛ أَتَدْرِينَ مَاذَا يَقُولُ لَكِ قَلْبِي ؟

إِنَّهُ لَيَقُولُ عَنِّي : أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنْ تَكُونِي هَـٰهُنَا ، وَأَنْ تَتَأَلَّفَ مِنْكِ هَـٰذِهِ الْقِصَّةُ الَّتِي تَبْدَأُ بِالْوَصْمَةِ وَتَنْتَهِي بِالاسْتِخْذَاءِ ، فَتَنْطَلِقُ الْمَرْأَةُ فِي مَتَالِفِهَا وَمَهَاوِيهَا لِيَبْلُغَ بِهَا الْقَدَرُ مَا هُوَ بَالِغٌ ؛ وَلَيْسَ إِلَّا الضَّرُورَةُ وَسَطْوَتُهَا بِهَا ، وَالإِذْلَالُ وَمَهَانَتُهُ لَهَا ، وَالاجْتِمَاعُ وَتَهَكُّمُهُ عَلَيْهَا ، وَالابْتِذَالُ وَاسْتِعْبَادُهُ إِيَّاهَا ؛ وَمَهْمَا يَأْتِ فِي الْقِصَّةِ مِنْ مَعْنًى فَلَيْسَ فِيهَا مَعْنَى الشَّرَفِ ؛ وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ مَوْقِفٍ فَلَيْسَ فِيهَا مَوْقِفُ الْحَيَاءِ ؛ وَمَهْمَا يَجْرِ مِنْ كَلَامٍ فَلَيْسَ فِيهَا كَلِمَةُ الزَّوْجَةِ . وَأَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَى الْمِصْبَاحَ الْجَمِيلَ الْمَشْبُوبَ الَّذِي وُضِعَ لِيُضِيءَ مَا حَوْلَهُ ، قَدِ انْقَلَبَ فَجَعَلَ يُحْرِقُ مَا حَوْلَهُ ؛ وَكَانَ يَتَلَأْلَأُ وَيَتَوَقَّدُ ، فَارْتَدَّ يَتَسَعَّرُ وَيَتَضَرَّمُ وَيَجْنِي عَلَىٰ مَا يَتَّصِلُ بِهِ ، وَسَقَطَ بِذَلِكَ سَقْطَةً حَمْرَاءَ . . .

أَفَتَدْرِينَ مَاذَا يَقُولُ لِي قَلْبُكِ ؟

إِنَّهُ يَقُولُ عَنْكِ : يَا بُؤْسَنَا مِنْ نِسَاءٍ ! لَقَدْ وُضِعْنَا وَضْعًا مَقْلُوبًا ، فَلَا تَسْتَقِيمُ الإِنْسَانِيَّةُ مَعَنَا أَبَدًا ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُنْقَلِبٌ لَنَا مُتَنَكِّرٌ ؛ وَالشَّفَقَةُ عَلَيْنَا تَنْقَلِبُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا تَهَكُّمًا بِنَا ؛

(*) «الرسالة» العدد : ١١٩ ، ١٦ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٦٤٣ ـ ١٦٤٦ .

(١) أَيْ : يَتَكَاشَفَانِ ، وَيَجْلُو كِلَاهُمَا لِلآخَرِ وَيُوَضِّحُ .

فَنَبْكِي مِنْ شَفَقَةِ بَعْضِ النَّاسِ ، كَمَا نَبْكِي مِنِ ازْدِرَاءِ بَعْضِ النَّاسِ . يَا بُؤْسَنَا مِنْ نِسَاءٍ !

* * *

قَالَتْ : صَدَقْتَ ، وَكَذَلِكَ تَنْقَلِبُ أَسْبَابُ الْحَيَاةِ مَعَنَا أَسْبَابًا لِلْمَرَضِ وَالْمَوْتِ ؛ فَالْيَقَظَةُ لَيْسَ لَهَا عِنْدَنَا النَّهَارُ بَلِ اللَّيْلُ ، وَالصَّحْوُ لَا يَكُونُ فِينَا بِالْوَعْيِ بَلْ بِالسُّكْرِ ، وَالرَّاحَةُ لَا تَكُونُ لَنَا فِي السُّكُونِ وَالانْفِرَادِ ، بَلْ فِي الاجْتِمَاعِ وَالتَّبَذُّلِ ؛ وَمَاذَا يَرُدُّ الْعَيْشُ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ وَاجِبَاتِهَا السَّهَرُ ، وَالسُّكْرُ(١) ، وَالْعَرْبَدَةُ ، وَالتَّبَذُّلُ ، وَتَدْرِيبُ الطِّبَاعِ بِالْوَقَاحَةِ ، وَتَضْرِيَةُ النَّفْسِ عَلَى الاسْتِغْوَاءِ ، وَالتَّصَدِّي بِالْجَمَالِ لِلْكَسْبِ مِنْ رَذَائِلِ الْفُسَّاقِ وَأَمْرَاضِهِمْ ، وَالتَّعَرُّضُ لِمَعْرُوفِهِمْ بِأَسَالِيبَ آخِرُهَا الْهَوَانُ وَالْمَذَلَّةُ ، وَاسْتِمَاحَتُهُمْ بِأَسَالِيبَ أَوَّلُهَا الْخِدَاعُ وَالْمَكْرُ ؟

إِنَّ حَيَاةً هَـٰذِهِ هِيَ وَاجِبَاتُهَا ، لَا يَكُونُ الْبُكَاءُ وَالْهَمُّ إِلَّا مِنْ طَبِيعَةِ مَنْ يَحْيَاهَا ، وَكَثِيرًا مَا نُعَالِجُ الضَّحِكَ لِنَفْتَحَ لِأَنْفُسِنَا طُرُقًا تَتَهَارَبُ فِيهَا مَعَانِي الْبُكَاءِ ؛ فَإِذَا أَثْقَلَنَا الْهَمُّ وَجَلَّ عَنِ الضَّحِكِ وَعَجَزْنَا عَنْ تَكَلُّفِ السُّرُورِ ، خَتَلْنَا الْعَقْلَ نَفْسَهُ بِالْخَمْرِ ؛ فَمَا تَسْكَرُ الْمَرْأَةُ مِنَّا لِلسُّكْرِ أَوِ النَّشْوَةِ ، بَلْ لِلنِّسْيَانِ ، وَلِلْقُدْرَةِ عَلَى الْمَرَحِ وَالضَّحِكِ ، وَلِإِمْدَادِ مَحَاسِنِهَا بِالأَخْلَاقِ الْفَاجِرَةِ ، مِنَ الطَّيْشِ وَالْخَلَاعَةِ وَالسَّفَهِ وَهَذَيَانِ الْجَمَالِ الَّذِي هُوَ شِعْرُهُ الْبَلِيغُ . . . عِنْدَ بُلَغَاءِ الْفُسَّاقِ .

قَالَ الأُسْتَاذُ (ح) : أَهَـٰذَا وَحَاضِرُ الْغَادَةِ مِنْكُنَّ هُوَ الشَّبَابُ وَالصِّبَىٰ وَالْجَمَالُ وَإِقْبَالُ الْعَيْشِ ، فَكَيْفَ بِهَا فِيمَا تَسْتَقْبِلُ ؟

قَالَتْ : إِنَّ الْمُسْتَقْبَلَ هُوَ أَخْوَفُ مَا نَخَافُهُ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ، وَلَيْسَ مِنِ امْرَأَةٍ فِي هَـٰذِهِ الصِّنَاعَةِ إِلَّا وَهِيَ مُعِدَّةٌ لِمُسْتَقْبَلِهَا : إِمَّا نَوْعًا مِنَ الانْتِحَارِ ، وَإِمَّا ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ الاحْتِمَالِ لِلذُّلِّ وَالْخَسْفِ ؛ وَلَيْسَ مُسْتَقْبَلُنَا هَـٰذَا إِلَّا كَمُسْتَقْبَلِ الثِّمَارِ النَّضِرَةِ إِذَا بَقِيَتْ بَعْدَ أَوَانِهَا ، فَهُوَ الأَيَّامُ الْعَفِنَةُ بِطَبِيعَةِ مَا مَضَىٰ . . . بَلَىٰ إِنَّ مُسْتَقْبَلَ الْمَرْأَةِ الْبَغِيِّ هُوَ عِقَابُ الشَّرِّ .

* * *

(١) فِي الأَصْلِ : «السَّكْرَةُ» بَدَلًا مِنْ : «السُّكْرُ» .

قَالَ (ح) : هَـٰذَا كَلَامٌ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَهُ ٱلزَّوْجَاتُ ؛ فَٱلْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ قَدْ تَتَبَرَّمُ بِزَوْجِهَا وَتَضْجَرُ وَتَغْتَمُّ ، وَتَزْعُمُ أَنَّهَا مُعَذَّبَةٌ ؛ فَتَتَسَخَّطُ ٱلْحَيَاةَ ، وَتَنْدُبُ نَفْسَهَا ؛ ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّهُ عَذَابٌ وَاحِدٌ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ ، تَأْلَفُهُ ، فَتَعْتَادُهُ ، فَتُرْزَقُ مِنِ ٱعْتِيَادِهِ ٱلصَّبْرَ عَلَيْهِ ، فَيَسْكُنُ بِهَـٰذَا نِفَارُهَا ؛ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ وَاجِبُهَا أَنْ تَحْمَدَ ٱللهَ عَلَيْهَا ، مَا دَامَ فِي ٱلنِّسَاءِ مِثْلُ ٱلشَّهِيدَاتِ ، تَتَعَذَّبُ ٱلْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ فُنُونًا مِنَ ٱلْعَذَابِ بِمِئَةِ رَجُلٍ ، وَبِأَلْفِ رَجُلٍ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَبْتَلُونَ رُوحَهَا بِعَدَدِهِمْ مِنَ ٱلذُّنُوبِ وَٱلآثَامِ .

وَقَدْ تَسْتَثْقِلُ ٱلزَّوْجَةُ وَاجِبَاتِهَا بَيْنَ ٱلزَّوْجِ وَٱلنَّسْلِ وَٱلدَّارِ ، فَتَغْتَاظُ وَتَشْكُو مِنْ هَـٰذِهِ ٱلرَّجْرَجَةِ ٱلْيَوْمِيَّةِ فِي ٱلْحَيَاةِ ؛ ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءً غَيْرَهَا قَدِ ٱنْقَلَبَتْ بِهِنَّ ٱلْحَيَاةُ فِي مِثْلِ ٱلْخَسْفِ بِٱلْأَرْضِ .

وَقَدْ تَجْزَعُ لِلْمُسْتَقْبَلِ وَتَنْسَىٰ أَنَّهَا فِي أَمَانِ شَرَفِهَا ، ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءً يَتَرَقَّبْنَ هَـٰذَا ٱلْآتِيَ كَمَا يَتَرَقَّبُ ٱلْمُجْرِمُ غَدَ ٱلْجَرِيمَةِ ، مِنْ يَوْمٍ فِيهِ ٱلشُّرْطَةُ وَٱلنِّيَابَةُ وَٱلْمَحْكَمَةُ وَمَا وَرَاءَ هَـٰذَا كُلِّهِ .

فَقُلْتُ : وَهُنَاكَ حَقِيقَةٌ أُخْرَىٰ فِيهَا ٱلْعَزَاءُ كُلُّ ٱلْعَزَاءِ لِلزَّوْجَاتِ ، وَهِيَ أَنَّ ٱلزَّوْجَةَ ٱمْرَأَةٌ شَاعِرَةٌ بِوُجُودِ ذَاتِهَا ، وَٱلْأُخْرَىٰ لَا تَشْعُرُ إِلَّا بِضَيَاعِ ذَاتِهَا .

وَٱلزَّوْجَةُ ٱمْرَأَةٌ تَجِدُ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَتَوَزَّعُ حُبَّهَا وَحَنَانَ قَلْبِهَا ، فَلَا يَزَالُ قَلْبُهَا إِنْسَانِيًّا عَلَىٰ طَبِيعَتِهِ ، يَفِيضُ بِٱلْحُبِّ ، وَيَسْتَمِدُّ مِنَ ٱلْحُبِّ ؛ وَٱلْأُخْرَىٰ لَا تَجِدُ مِنْ هَـٰذَا شَيْئًا ، فَتَنْقَلِبُ وَحْشِيَّةَ ٱلْقَلْبِ ، يَفِيضُ قَلْبُهَا بِرَذَائِلَ ، وَيَسْتَمِدُّ مِنْ رَذَائِلَ ؛ إِذْ كَانَ لَا يَجِدُ شَيْئًا مِمَّا هَيَّأَتْهُ ٱلطَّبِيعَةُ لِيَتَعَلَّقَ بِهِ مِنَ ٱلزَّوْجِ وَٱلدَّارِ وَٱلنَّسْلِ .

وَٱلزَّوْجَةُ ٱمْرَأَةٌ هِيَ ٱمْرَأَةٌ خَالِصَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، أَمَّا ٱلْأُخْرَىٰ فَمِنِ ٱمْرَأَةٍ وَمِنْ حَيَوَانٍ وَمِنْ مَادَّةٍ مُهْلِكَةٍ .

وَتَمَامُ ٱلسَّعَادَةِ أَنَّ ٱلنَّسْلَ لَا يَكُونُ طَبِيعِيًّا مُسْتَقِرًّا فِي قَانُونِهِ إِلَّا لِلزَّوْجَاتِ وَحْدَهُنَّ ؛ فَهُوَ نِعْمَتُهُنَّ ٱلْكُبْرَىٰ ، وَثَوَابُ مُسْتَقْبَلِهِنَّ وَمَاضِيهِنَّ ، وَبَرَكَتُهُنَّ عَلَى ٱلدُّنْيَا ؛ وَمَهْمَا تَكُنِ ٱلزَّوْجَةُ شَقِيَّةً بِزَوْجِهَا ، فَإِنَّ زَوْجَهَا قَدْ أَوْلَدَهَا سَعَادَتَهَا ، وَهَـٰذِهِ وَحْدَهَا مَزِيَّةٌ وَنِعْمَةٌ ؛ أَمَّا

أُولَـٰئِكَ فَلَيْسَ لَهُنَّ عَاقِبَةٌ[1] ؛ إِذِ ٱلنَّسْلُ قَلْبٌ لِحَالَتِهِنَّ كُلِّهَا ؛ وَهُوَ غِنًى إِنْسَانِيٌّ ، وَلَـٰكِنَّهُ عِنْدَهُنَّ لَا يَكُونُ إِلَّا فَقْرًا ؛ وَهُوَ رَحْمَةٌ ، وَلَـٰكِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لَعْنَةً عَلَيْهِنَّ وَعَلَىٰ مَاضِيهِنَّ .

وَقَدْ وَضَعَتِ ٱلطَّبِيعَةُ فِي مَوْضِعِ حُبِّ ٱلْوَلَدِ ٱلْجَدِيدِ مِنْ قُلُوبِهِنَّ ، حُبَّ ٱلرَّجُلِ ٱلْجَدِيدِ ، فَكَانَتْ هَـٰذِهِ نِقْمَةً أُخْرَىٰ .

قَالَ (ح) : أَتُرِيدُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْجَدِيدِ مَنْ يَكُونُ عِنْدَهُنَّ ٱلثَّانِيَ بَعْدَ ٱلْأَوَّلِ ، أَوِ ٱلثَّالِثَ بَعْدَ ٱلثَّانِي ، أَوِ ٱلرَّابِعَ بَعْدَ ٱلثَّالِثِ ؟

قُلْتُ : لَيْسَ ٱلْجَدِيدُ عَلَيْهِنَّ هُوَ ٱلْوَاحِدَ بَعْدَ ٱلْوَاحِدِ إِلَىٰ آخِرِ ٱلْعَدَدِ ، وَلَـٰكِنَّهُ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي يَكُونُ وَحْدَهُ بِٱلْعَدَدِ جَمِيعًا ؛ إِذْ هُوَ عِنْدَهُنَّ يُشْبِهُ ٱلزَّوْجَ فِي ٱلِاخْتِصَاصِ وَفِي شَرَفِ ٱلْحُبِّ ، فَهُوَ ٱلْحَبِيبُ ٱلشَّرِيفُ ٱلَّذِي تَتَعَلَّقُهُ إِحْدَاهُنَّ وَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ شَرِيفَةً ؛ وَلَـٰكِنْ مِنْ نِقْمَةِ ٱلطَّبِيعَةِ أَنَّ مَنْ وَجَدَتْهُ مِنْهُنَّ لَا تَجِدُهُ إِلَّا لِتُعَانِيَ أَلَمَ فَقْدِهِ .

يَا عَجَبًا ! كُلُّ شَيْءٍ فِي ٱلْحَيَاةِ يُلْقِي شَيْئًا مِنَ ٱلْهَمِّ أَوِ ٱلنَّكَدِ أَوِ ٱلْبُؤْسِ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمِسْكِينَاتِ ، كَأَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ كُلَّهَا تَرْجُمُهُنَّ بِٱلْحِجَارَةِ . . .

قَالَتْ هِيَ : وَلَيْسَتِ ٱلْحِجَارَةُ هِيَ ٱلْحِجَارَةَ فَقَطْ ، بَلْ مِنْهَا أَلْفَاظٌ تُرْجَمُ بِهَا ٱلْمِسْكِينَةُ كَأَلْفَاظِكَ هَـٰذِهِ . . . وَكَتَسْمِيَةِ ٱلنَّاسِ لَهَا « بِٱلسَّاقِطَةِ » ؛ فَهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ وَحْدَهَا صَخْرَةٌ لَا حَجَرٌ .

* * *

ثُمَّ تَنَهَّدَتْ وَقَالَتْ : مَنْ عَسَىٰ يَعْرِفُ خَطَرَ ٱلْأُسْرَةِ وَٱلنَّسْلِ وَٱلْفَضِيلَةِ كَمَا تَعْرِفُهَا ٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِي فَقَدَتْهَا ؟ إِنَّنَا نُحِسُّهَا بِطَبِيعَةِ ٱلْمَرْأَةِ ، ثُمَّ بِٱلْحَنِينِ إِلَيْهَا ، ثُمَّ بِٱلْحَسْرَةِ عَلَىٰ فَقْدِهَا ، ثُمَّ بِرُؤْيَتِهَا فِي غَيْرِنَا ؛ نَعْرِفُهَا أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ إِذَا عَرَفَتْهَا ٱلزَّوْجَةُ نَوْعًا وَاحِدًا وَلَـٰكِنْ هَلْ يُنْصِفُنَا ٱلرِّجَالُ وَهُمْ يَتَدَافَعُونَنَا ؟ هَلْ يَرْضَوْنَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا مِنَّا ؟

قُلْتُ : وَلَـٰكِنَّ ٱلْأُسْرَةَ لَا تَقُومُ عَلَىٰ سَوَادِ عَيْنَيِ ٱلْمَرْأَةِ وَحُمْرَةِ خَدَّيْهَا ، بَلْ عَلَىٰ أَخْلَاقِهَا وَطِبَاعِهَا ؛ فَهَـٰذَا هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي بَقَاءِ ٱلْمَرْأَةِ { ٱلسَّاقِطَةِ } حَيْثُ ٱرْتَطَمَتْ ؛ وَهِيَ

(١) يُقَالُ : لَيْسَ لَهُ عَاقِبَةٌ ، أَيْ : لَيْسَ لَهُ نَسْلٌ وَعَقِبٌ .

مَتَىٰ سَقَطَتْ كَانَ أَوَّلُ أَعْدَائِهَا قَانُونَ ٱلنَّسْلِ .

وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ ٱلزَّلَّةُ ٱلْأُولَىٰ مُمْتَدَّةً مُتَسَحِّبَةً إِلَى ٱلْآخِرِ ؛ إِذِ ٱلْفَتَاةُ لَيْسَتْ شَخْصًا إِلَّا فِي ٱعْتِبَارِهَا هِيَ ، أَمَّا فِي ٱعْتِبَارِ غَيْرِهَا فَهِيَ تَارِيخٌ لِلنَّسْلِ ، إِنْ وَقَعَتْ فِيهِ غَلْطَةٌ فَسَدَ كُلُّهُ وَكَذَبَ كُلُّهُ فَلَا يُوثَقُ بِهِ .

وَهَـٰذِهِ ٱلزَّلَّةُ ٱلْأُولَىٰ هِيَ بَدْءُ ٱلانْهِيَارِ فِي طِبَاعٍ رَقِيقَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ مُتَسَانِدَةٍ ، لَا يُقِيمُهَا إِلَّا تَمَاسُكُهَا جُمْلَةً ؛ وَمَا لَمْ يَتَمَاسَكْ إِلَّا بِجُمْلَتِهِ فَأَوَّلُ ٱلسُّقُوطِ فِيهِ هُوَ ٱسْتِمْرَارُ ٱلسُّقُوطِ فِيهِ ؛ وَلِهَـٰذَا لَا يَعْرِفُ ٱلنَّاسُ جَرِيمَةً وَاحِدَةً تُعَدُّ سِلْسِلَةَ جَرَائِمَ لَا تَنْتَهِي ، إِلَّا سَقْطَةَ ٱلْمَرْأَةِ ؛ فَهِيَ جَرِيمَةٌ مَجْنُونَةٌ كَٱلْإِعْصَارِ ٱلثَّائِرِ يَلِفُّهَا[1] لَفًّا ؛ إِذْ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْأَةَ فِي ذَاتِهَا ، وَتَرْجِعُ عَلَىٰ أَهْلِهَا وَذَوِيهَا ، وَتَرْتَمِي إِلَىٰ مُسْتَقْبَلِهَا وَنَسْلِهَا ؛ فَيَهْتِكُهَا ٱلنَّاسُ هِيَ وَسَائِرَ أَهْلِهَا ، مَنْ جَاءَتْ مِنْهُمْ وَمَنْ جَاؤُوا مِنْهَا .

وَٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِي لَا يَحْمِيهَا ٱلشَّرَفُ لَا يَحْمِيهَا شَيْءٌ ، وَكُلُّ شَرِيفَةٍ تَعْرِفُ أَنَّ لَهَا حَيَاتَيْنِ إِحْدَاهُمَا ٱلْعِفَّةُ ، وَكَمَا تُدَافِعُ عَنْ حَيَاتِهَا ٱلْهَلَاكَ ، تُدَافِعُ ٱلسُّقُوطَ عَنْ عِفَّتِهَا ؛ إِذْ هُوَ هَلَاكُ حَقِيقَتِهَا ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ وَكُلُّ عَاقِلَةٍ تَعْرِفُ أَنَّ لَهَا عَقْلَيْنِ تَحْتَمِي بِأَحَدِهِمَا مِنْ نَزَوَاتِ ٱلْآخَرِ ، وَمَا عَقْلُهَا ٱلثَّانِي إِلَّا شَرَفُ عِرْضِهَا .

* * *

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (ح) : إِنَّ هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْحَقِيقَةُ ، فَمَا تَسَامَحَ ٱلرِّجَالُ فِي شَرَفِ ٱلْعِرْضِ إِلَّا جَعَلُوا ٱلْمَرْأَةَ كَأَنَّهَا بِنِصْفِ عَقْلٍ ، فَٱنْدَفَعَتْ إِلَى ٱلطَّيْشِ وَٱلْفُجُورِ وَٱلْخَلَاعَةِ ، أَرَادُوا ذَلِكَ أَمْ لَمْ يُرِيدُوهُ .

قُلْتُ : وَهَـٰذَا هُوَ مَعْنَى ٱلْحَدِيثِ : «عِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ» [«الجامع الصغير»، رقم : ٥٤٤٢ ؛ «مجمع الزوائد»، رقم : ١٣٠٦٣] . فَإِنَّ عَفَافَ ٱلْمَرْأَةِ لَا تَحْفَظُهُ ٱلْمَرْأَةُ بِنَفْسِهَا ، مَا لَمْ تَتَهَيَّأْ لَهَا ٱلْوَسَائِلُ وَٱلْأَحْوَالُ ٱلَّتِي تُعِينُ نَفْسَهَا عَلَىٰ ذَلِكَ ؛ وَأَهَمُّ وَسَائِلِهَا وَأَقْوَاهَا وَأَعْظَمُهَا ، تَشَدُّدُ ٱلرِّجَالِ فِي قَانُونِ ٱلْعِرْضِ وَٱلشَّرَفِ .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : «يَلُفُّ» بَدَلًا مِنْ : «يَلِفُّهَا» .

فَإِذَا تَرَاخَى ٱلرِّجَالُ ضَعُفَتِ ٱلْوَسَائِلُ ، وَمِنْ بَيْنِ هَـٰذَا ٱلتَّرَاخِي وَهَـٰذَا ٱلضَّعْفِ تَنْبَثِقُ حُرِّيَّةُ ٱلْمَرْأَةِ مُتَوَجِّهَةً بِٱلْمَرْأَةِ إِلَى ٱلْخَيْرِ أَوِ ٱلشَّرِّ ، عَلَىٰ مَا تَكُونُ أَحْوَالُهَا وَأَسْبَابُهَا فِي ٱلْحَيَاةِ . وَهَـٰذِهِ ٱلْحُرِّيَّةُ فِي ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلْأُورُبِّيَّةِ قَدْ عَوَّدَتِ ٱلرِّجَالَ أَنْ يَغُضُّوا وَيَتَسَمَّحُوا ، فَتَهَافَتَ ٱلنِّسَاءُ عِنْدَهُمْ ، تَنَالُ كُلٌّ مِنْهُنَّ حُكْمَ قَلْبِهَا وَيَخْضَعُ ٱلرَّجُلُ . . . . . .

عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ ٱلْقَوْمُ حُرِّيَّةَ ٱلْمَرْأَةِ ، لَيْسَ حُرِّيَّةً إِلَّا فِي ٱلتَّسْمِيَةِ ، أَمَّا فِي ٱلْمَعْنَىٰ فَهُوَ كَمَا تَرَىٰ :

إِمَّا شُرُودُ ٱلْمَرْأَةِ فِي ٱلْتِمَاسِ ٱلرِّزْقِ حِينَ لَمْ تَجِدِ ٱلزَّوْجَ ٱلَّذِي يَعُولُهَا أَوْ يَكْفِيهَا وَيُقِيمُ لَهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَمِثْلُ هَـٰذِهِ هِيَ حُرَّةٌ حُرِّيَّةَ ٱلنَّكَدِ فِي عَيْشِهَا ؛ وَلَيْسَ بِهَا ٱلْحُرِّيَّةُ ، بَلْ هِيَ مُسْتَعْبَدَةٌ لِلْعَمَلِ شَرَّ مَا تُسْتَعْبَدُ ٱمْرَأَةٌ .

وَإِمَّا ٱنْطِلَاقُ ٱلْمَرْأَةِ فِي عَبَثَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا مُسْتَجِيبَةً ، بِذَلِكَ إِلَىٰ ٱنْطِلَاقِ حُرِّيَّةِ ٱلاسْتِمْتَاعِ فِي ٱلرِّجَالِ ، بِمِقْدَارِ مَا يَشْتَرِيهِ ٱلْمَالُ ، أَوْ تُعِينُ عَلَيْهِ ٱلْقُوَّةُ ، أَوْ يُسَوِّغُهُ ٱلطَّيْشُ ، أَوْ يَجْلِبُهُ ٱلتَّهَتُّكُ ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ ٱلْفُنُونُ ؛ فَمِثْلُ هَـٰذِهِ هِيَ حُرَّةٌ حُرِّيَّةَ سُقُوطِهَا ؛ وَمَا بِهَا ٱلْحُرِّيَّةُ ، بَلْ يَسْتَعْبِدُهَا ٱلتَّمَتُّعُ .

وَٱلثَّالِثَةُ حُرِّيَّةُ ٱلْمَرْأَةِ فِي ٱنْسِلَاخِهَا مِنَ ٱلدِّينِ وَفَضَائِلِهِ ، فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةَ قَدْ نَسَخَتْ حَرَامَ ٱلْأَدْيَانِ وَحَلَالَهَا بِحَرَامٍ قَانُونِيٍّ وَحَلَالٍ قَانُونِيٍّ ، فَلَا مَسْقَطَةَ لِلْمَرْأَةِ وَلَا غَضَاضَةَ عَلَيْهَا قَانُونًا . . . فِيمَا كَانَ يُعَدُّ مِنْ قَبْلُ خِزْيًا أَقْبَحَ ٱلْخِزْيِ وَعَارًا أَشَدَّ ٱلْعَارِ ؛ فَمِثْلُ هَـٰذِهِ هِيَ حُرَّةٌ حُرِّيَّةَ فَسَادِهَا ، وَلَيْسَ بِهَا ٱلْحُرِّيَّةُ ، وَلَـٰكِنْ تَسْتَعْبِدُهَا ٱلْفَوْضَىٰ .

وَٱلرَّابِعَةُ غَطْرَسَةُ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُتَعَلِّمَةِ ، وَكِبْرِيَاؤُهَا عَلَى ٱلْأُنُوثَةِ وَٱلذُّكُورَةِ مَعًا ؛ فَتَرَىٰ أَنَّ ٱلرَّجُلَ لَمْ يَبْلُغْ بَعْدُ أَنْ يَكُونَ ٱلزَّوْجَ ٱلنَّاعِمَ كَقُفَّازِ ٱلْحَرِيرِ فِي يَدِهَا ، وَلَا ٱلزَّوْجَ ٱلْمُؤَنَّثَ ٱلَّذِي يَقُولُ لَهَا نَحْنُ ٱمْرَأَتَانِ . . . فَهِيَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مُطْلَقَةٌ مُخَلَّاةٌ كَيْلَا يَكُونَ عَلَيْهَا سُلْطَانٌ وَلَا إِمْرَةٌ ؛ فَمِثْلُ هَـٰذِهِ حُرَّةٌ بِٱنْقِلَابِ طَبِيعَتِهَا وَزَيْغِهَا ، وَهِيَ مُسْتَعْبَدَةٌ لِهَوَسِهَا وَشُذُوذِهَا وَضَلَالَتِهَا .

حُرِّيَّةُ ٱلْمَرْأَةِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ أَوَّلُهَا مَا شِئْتَ مِنْ أَوْصَافٍ وَأَسْمَاءٍ ، وَلَـٰكِنَّ آخِرَهَا دَائِمًا

إِمَّا ضَيَاعُ ٱلْمَرْأَةِ وَإِمَّا فَسَادُ ٱلْمَرْأَةِ .

وَٱلدَّلِيلُ عَلَىٰ ٱلْتِوَاءِ ٱلطَّبِيعَةِ فِي ٱلْمَدَنِيَّةِ ، ٱسْتِوَاءُ ٱلطَّبِيعَةِ فِي ٱلْبَادِيَةِ ؛ فَٱلرِّجَالُ هُنَاكَ قَوَّامُونَ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ ، وَٱلنِّسَاءُ بِهَـٰذَا قَوَّامَاتٌ عَلَىٰ أَنْفُسِهِنَّ ؛ إِذْ يَنْتَقِمُونَ لِلْمُنْكَرِ ٱنْتِقَامًا يَفُورُ دَمًا ؛ وَبِهَـٰذِهِ ٱلْوَحْشِيَّةِ يُقَرِّرُونَ شَرَفَ ٱلْعِرْضِ فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَجْعَلُونَهُ فِيهَا كَٱلْغَرِيزَةِ ، فَيُحَاجِزُونَ بَيْنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ أَوَّلَ شَيْءٍ بِٱلضَّمِيرِ ٱلشَّرِيفِ ٱلَّذِي يَجِدُ وَسَائِلَهُ قَائِمَةً مِنْ حَوْلِهِ .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي :

وَغَطَّتْ وَجْهَهَا بِيَدَيْهَا وَقَالَتْ : إِنَّكَ لَا تَزَالُ تَرْجُمُ بِٱلْحِجَارَةِ . . . إِنَّ فِيكَ مُتَوَحِّشًا .

قُلْتُ : بَلْ مُتَوَحِّشَةٌ . . .

إِنَّكِ أَنْتِ قَدْ تَكَلَّمْتِ فِيَّ ، فَجَمَالُكِ ٱلَّذِي يَضَعُ ٱلْإِنْسَانَ فِي سَاعَةٍ مَجْنُونَةٍ لِيُمَتِّعَهُ بِطَيْشِهَا ، قَدْ وَضَعَنَا نَحْنُ فِي سَاعَةٍ مُفَكِّرَةٍ وَأَمْتَعَنَا بِعَقْلِهَا ؛ وَإِذَا قُلْتُ جَمَالُكِ ، فَقَدْ قُلْتُ وَحْيُكِ ، إِذْ لَا جَمَالَ عِنْدِي إِلَّا مَا فِيهِ وَحْيٌ .

أَمَا قُلْتِ : إِنَّكَ لَوْ خُيِّرْتِ فِي وُجُودِكِ لَمَا ٱخْتَرْتِ إِلَّا أَنْ تَكُونِي رَجُلًا نَابِغَةً يَكْتُبُ وَيُفَكِّرُ وَيَتَلَقَّىٰ ٱلْوَحْيَ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْجَمِيلَةِ ؟

فَدَقَّتْ صَدْرَهَا بِيَدِهَا وَقَالَتْ : أَنَا ؟ أَنَا لَمْ أَقُلْ هَـٰذَا . ثُمَّ أَفْكَرَتْ لَحْظَةً وَقَالَتْ : إِذَا كُنْتَ أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّنِي قُلْتُهُ ، فَأَظُنُّ أَنَّنِي قُلْتُهُ . . .

قَالَ (ح) : رَجُلٌ ؛ وَيَكْتُبُ ؛ وَيُفَكِّرُ ؛ وَلَمْ تَقُلْ هِيَ شَيْئًا مِنْ هَـٰذَا ؟ أَرْبَعُ غَلَطَاتٍ شَنِيعَةٍ مِنْ فَسَادِ ٱلذَّوْقِ .

قَالَتْ : بَلْ قُلْ : أَرْبَعُ غَلَطَاتٍ جَمِيلَةٍ مِنْ فَنِّ ٱلذَّوْقِ ؛ إِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلظَّرِيفَ ٱلْقَوِيَّ ٱلرُّجُولَةِ ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَغْلَطَ إِذَا حَدَّثَ ٱلْمَرْأَةَ . . .

قَالَ (ح) : لِتَضْحَكَ مِنْهُ ؟

قَالَتْ : لَا ، بَلْ لِتَضْحَكَ لَهُ . . .

قُلْتُ : فَلِيَ إِلَيْكِ رَجَاءٌ .

قَالَتْ : إِنَّ صَوْتَكَ يَأْمُرُ ، فَقُلْ .

* * *

فَمَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْجَمَالُ ٱلْبَائِسُ (*)

٥

قُلْتُ لَهَا : إِنَّ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ لَا تَكُونُ كَافِرَةً إِذَا أُكْرِهَ عَلَيْهَا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَانِ ، وَكَلِمَةُ ٱلْفُجُورِ أَهْوَنُ مِنْهَا وَأَخَفُّ وَزْنًا وَشَأْنًا ، ثُمَّ لَا تَكُونُ إِلَّا فَاجِرَةً أَبَدًا ، إِذْ لَا إِكْرَاهَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلدَّعَارَةِ إِكْرَاهًا لَا خِيَارَ فِيهِ . وَمَا أَوَّلُ ٱلدَّعَارَةِ إِلَّا أَنْ تَمُدَّ ٱلْمَرْأَةُ طَرْفَهَا مِنْ غَيْرِ حَيَاءٍ ، كَمَا يَمُدُّ ٱللِّصُّ يَدَهُ مِنْ غَيْرِ أَمَانَةٍ .

وَمَنِ ٱضْطُرَّ إِلَىٰ ٱلْكُفْرِ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يُخَبِّئَ مِحْرَابَ ٱلْمَسْجِدِ فِي أَعْمَاقِهِ فَيُصَلِّيَ ثَمَّةَ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْفُجُورَ لَا يَتْرُكُ فِي ٱلنَّفْسِ مَوْضِعًا لِدِينٍ وَلَا إِيمَانٍ ؛ إِذْ هُوَ دَائِبٌ فِي إِثَارَةِ ٱلْغَرَائِزِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلْمُسْتَرْسِلَةِ بِلَا ضَابِطٍ ، لِدِينٍ وَلَا إِيمَانٍ ؛ إِذْ هُوَ دَائِبٌ فِي إِثَارَةِ ٱلْغَرَائِزِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلْمُسْتَرْسِلَةِ بِلَا ضَابِطٍ ، فَيَجْعَلُ ٱلْمَرْأَةَ تَحْيَا بَعِيدَةً عَنْ ضَمِيرِهَا ، فَيُضْعِفُ مِنْهَا أَوَّلَ مَا يُضْعِفُ آثَارَ ٱلْآدَابِ وَٱلْأَخْلَاقِ ، فَيُهْلِكُ فِيهَا أَوَّلَ مَا يُهْلِكُ إِحْسَاسَهَا بِمَعْنَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَشُعُورَهَا بِمَجْدِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ .

(*) «الرسالة» العدد : ١٢٠ ، ٢٣ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ٢١ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٦٨٣ ـ ١٦٨٧ .

فَإِذَا ٱنْتَهَتِ ٱلْمَرْأَةُ إِلَىٰ هَـٰذَا ، لَمْ يَكُنْ لَهَا مَبْدَأٌ وَلَا عَقِيدَةٌ إِلَّا أَنَّ عَلَىٰ غَيْرِهَا أَنْ يَتَحَمَّلَ عَوَاقِبَ أَعْمَالِهَا ، وَهَـٰذِهِ بِعَيْنِهَا هِيَ حَالَةُ ٱلْمَجْنُوْنِ جُنُوْنَ عَقْلِهِ ؛ أَفَلَا تَكُوْنُ ٱلْمَرْأَةُ حِيْنَئِذٍ مَجْنُوْنَةً جُنُوْنَ جِسْمِهَا . . . ؟

* * *

فَسَاءَهَا ذَلِكَ وَبَانَ فِيْهَا ، وَلَـٰكِنَّهَا أَمْسَكَتْ عَلَىٰ مَا فِيْ نَفْسِهَا ؛ وَٱلْمَرْأَةُ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ لَا يَمْشِيْ أَمْرُهَا فِيْ ٱلنَّاسِ وَلَا يَتَّصِلُ عَيْشُهَا ، إِلَّا إِذَا كَثُرَتْ طِبَاعُهَا كَثْرَةَ ثِيَابِهَا ، فَهِيَ تَخْلَعُ وَتَلْبَسُ مِنْ هَـٰذِهِ وَتِلْكَ لِكُلِّ يَوْمٍ وَلِكُلِّ حَالَةٍ وَلِكُلِّ رَجُلٍ ؛ فَيَنْبَعِثُ مِنْهَا ٱلْغَضَبُ وَهِيَ فِيْ أَنْعَمِ ٱلرِّضَىٰ ، كَمَا يَنْبَعِثُ ٱلرِّضَىٰ وَهِيَ فِيْ أَشَدِّ ٱلْغَيْظِ ، وَكَأَنْ لَمْ تَغْضَبْ وَلَمْ تَرْضَ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ وَلَا لِنَفْسِهَا .

وَتَسَايَرَ غَضَبُهَا ثُمَّ قَالَتْ : كَانَ كَلَامُكَ أَنَّ لَكَ رَجَاءً إِلَيَّ ، فَأَنَا أُحِبُّ . . . أُحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ .

قُلْتُ : وَأَنَا كَذَلِكَ أُحِبُّ . . . أُحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ .

فَضَحِكَتْ وَسُرِّيَ عَنْهَا ، وَثَبَتَتْ عَلَىٰ شَفَتَيْهَا ٱبْتِسَامَةٌ لَوْ جَاءَ مَلَكٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ لِيَضَعَ فِيْ ثَغْرِهَا ٱبْتِسَامَةً أَجْمَلَ مِنْهَا ، لَمَا وَجَدَ أَجْمَلَ مِنْهَا .

ثُمَّ قَالَتْ : تُحِبُّ أَنْ تَعْلَمَ مَاذَا ؟

قُلْتُ : أُحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ مِنْكِ قِصَّةَ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ مَا كَانَ أَوَّلُهَا ؟

قَالَتْ : لَقَدْ قَضَيْتَ مِنْ حُكْمِكَ فِيْنَا ، وَلَـٰكِنَّكَ أَخْطَأْتَ ، فَلِكُلِّ لَيْلٍ مُظْلِمٍ كَوْكَبُهُ ؛ وَٱلْكَوْكَبُ ٱلْوَقَّادُ ٱلْمُعَلَّقُ فَوْقَ لَيْلِ ٱلْمَرْأَةِ مِنَّا هُوَ إِيْمَانُهَا ؛ نَعَمْ إِنَّهُ لَيْسَ كَإِيْمَانِ ٱلنَّاسِ فِيْ وَاجِبَاتِهِ ، لَـٰكِنَّهُ كَإِيْمَانِ ٱلنَّاسِ فِيْ تَعْزِيَتِهِ ، وَٱللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ !

قُلْتُ : لَوْ أُطِيْعَ ٱللهُ بِمَعْصِيَتِهِ لَاسْتَقَامَ لَكِ هَـٰذَا ؛ وَإِنَّمَا أَنْتِ تَصِفِيْنَ ٱلْأَيْمَانَ ٱلْأَوَّلَ ٱلَّذِيْ كَانَ عَمَلًا ، فَصَارَ ذِكْرَىٰ ، فَصَارَتِ ٱلذِّكْرَىٰ أَمَلًا ، فَظَنَنْتِ ٱلأَمَلَ هُوَ ٱلإِيْمَانَ .

قَالَتْ : ثُمَّ إِنَّنَا جَمِيْعًا مُكْرَهَاتٌ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ، فَمَا نَحْنُ إِلَّا صَرْعَىٰ ٱلْمُصَادَمَةِ بَيْنَ ٱلإِرَادَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ وَبَيْنَ ٱلْقَدَرِ .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنْ لَمْ تَهْفُ وَاحِدَةٌ مِنْكُنَّ فِيْ غَلْطَتِهَا ٱلْأُوْلَىٰ وَهِيَ مُسْتَكْرَهَةٌ عَلَىٰ غَلْطَةٍ ؛ بَلْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ فِيْ لَذَّةٍ ، أَوْ مُبَادِرَةٌ لِشَهْوَةٍ ، أَوْ طَالِبَةٌ لِمَنْفَعَةٍ .

قَالَتْ : هَـٰذَا أَحَدُ ٱلْوَجْهَيْنِ ؛ أَمَّا ٱلآخَرُ فَٱلْتِمَاسُ ٱلرِّزْقِ وَصَلَاحُ ٱلْعَيْشِ ؛ فَٱلرَّجُلُ مَعَ ٱلرَّجُلِ ، رَأْسُ مَالِهِ قُوَّتُهُ ، وَعَمَلُهُ بِقُوَّتِهِ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَرْأَةَ مَعَ ٱلرَّجُلِ رَأْسُ مَالِهَا أُنُوْثَتُهَا ، وَعَمَلُ أُنُوْثَتِهَا . وَفِيْ ٱلْوَجْهِ ٱلأَوَّلِ - وَجْهِ ٱللَّذَّةِ وَٱلْمَنْفَعَةِ - تَحْتَالُ كَلِمَةُ ٱلْفُجُوْرِ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ بِكَلِمَاتٍ رَقِيْقَةٍ سَاحِرَةٍ ، مِنْهَا ٱلْحُبُّ وَٱلزَّوَاجُ وَٱلسَّعَادَةُ ، فَتَسْتَسْلِمُ ٱلْمَرْأَةُ مُضْطَرَّةً لِيَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَـٰذَا . وَفِيْ ٱلْوَجْهِ ٱلثَّانِيْ - وَجْهِ ٱلرِّزْقِ وَٱلْعَيْشِ - تَحْتَالُ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْخَبِيْثَةُ ٱلْفَاجِرَةُ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمِسْكِيْنَةِ ٱلْمُسْتَضْعَفَةِ بِكَلِمَاتٍ رَهِيْبَةٍ قَاتِلَةٍ ، مِنْهَا ٱلْجُوْعُ وَٱلْفَقْرُ وَٱلشَّقَاءُ ، فَتَسْقُطُ ٱلْمَرْأَةُ مُضْطَرَّةً خِيْفَةَ أَنْ يَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَـٰذَا ؛ وَفِيْ أَحَدِ ٱلْوَجْهَيْنِ يَكُوْنُ ٱلرَّجُلُ هُوَ ٱلْفَاجِرَ لِفَسَادِ آدَابِهِ ، وَفِيْ ٱلْوَجْهِ ٱلآخَرِ يَكُوْنُ ٱلْفَاجِرُ هُوَ ٱلْمُجْتَمَعَ لِفَسَادِ مَبَادِئِهِ .

* * *

قُلْتُ : أَنَا لَا أُنْكِرُ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ إِذَا سَقَطَتْ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ، لَمْ تَقَعْ أَبَدًا إِلَّا فِيْ مَوْضِعِ غَلْطَةٍ مِنْ غَلَطَاتِ ٱلْقَوَانِيْنِ ؛ وَآفَةُ هَـٰذِهِ ٱلْقَوَانِيْنِ أَنَّهَا لَمْ تُسَنَّ لِمَنْعِ ٱلْجَرِيْمَةِ أَنْ تَقَعَ ، وَلَـٰكِنْ لِلْعِقَابِ عَلَيْهَا بَعْدَ وُقُوْعِهَا ؛ وَبِهَـٰذَا عَجَزَتْ عَنْ صِيَانَةِ ٱلْمَرْأَةِ وَحِفْظِهَا ، وَتَرَكَتْهَا لِقَانُوْنِ ٱلْغَرِيْزَةِ ٱلْوَحْشِيِّ فِيْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْوُحُوْشِ ٱلآدَمِيِّيْنَ ، ٱلَّذِيْنَ يَأْخُذُهُمُ ٱلسُّعَارُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلرَّائِحَةِ ٱلَّتِيْ لَا يَعْرِفُوْنَهَا إِلَّا فِيْ ٱثْنَيْنِ : ٱلْمَرْأَةِ ٱلْجَمِيْلَةِ وَٱلذَّهَبِ . فَلَمَّا أَلْجَأَتِ ٱمْرَأَةً حَاجَتُهَا أَوْ فَقْرُهَا إِلَىٰ أَحَدِهِمْ وَرَأَىٰ عَلَيْهَا جَمَالًا ، إِلَّا ضَرَبَهُ ذَلِكَ ٱلسُّعَارُ ؛ فَإِنِ ٱسْتَخَفَّتْ بِنَزَوَاتِهِ وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ ، طَرَدَهَا إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ ، وَمَنَعَهَا أَنْ تَعِيْشَ مِنْ قِبَلِهِ ؛ وَإِنْ صَلَحَتْ لَهُ وَتَيَسَّرَتْ ، آوَاهَا هِيَ وَطَرَدَ شَرَفَهَا . . .

وَبِخِلَافِ ذَلِكَ ٱلدِّيْنُ ؛ فَإِنَّهُ قَائِمٌ عَلَىٰ مَنْعِ ٱلْجَرِيْمَةِ وَإِبْطَالِ أَسْبَابِهَا ، فَهُوَ فِيْ أَمْرِ ٱلْمَرْأَةِ يُلْزِمُ ٱلرَّجُلَ وَاجِبَاتٍ ، وَيُلْزِمُ ٱلْمُجْتَمَعَ وَاجِبَاتٍ غَيْرَهَا ، وَيُلْزِمُ ٱلْحُكُوْمَةَ وَاجِبَاتٍ أُخْرَىٰ :

أَمَّا ٱلرَّجُلُ فَيَنْبَغِيْ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ ، وَيَتَحَصَّنَ ، وَيَغَارَ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ، وَيَعْمَلَ لَهَا ؛ وَأَمَّا

ٱلْمُجْتَمَعُ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَدَّبَ ، وَيَسْتَقِيمَ ، وَيُعِينَ ٱلْفَرْدَ عَلَىٰ وَاجِبَاتِ ٱلْفَضِيلَةِ ، وَيَتَدَامَجَ وَيَشُدَّ بَعْضُهُ بَعْضًا ؛ وَأَمَّا ٱلْحُكُومَةُ فَعَلَيْهَا أَنْ تَحْمِيَ ٱلْمَرْأَةَ ، فَتُعَاقِبَ عَلَىٰ إِسْقَاطِهَا عِقَابَ ٱلْمَوْتِ وَٱلْأَلَمِ وَٱلتَّشْهِيرِ ؛ لِتُقِيمَ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ حُرَّاسًا جَبَابِرَةً ، مَنْ لَا يَخْشَ ٱللهَ خَشِيَهَا ؛ فَلَيْسَ يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يَكُونَ فِي دِينِنَا مَوْضِعُ غَلْطَةٍ تَسْقُطُ فِيهِ ٱلْمَرْأَةُ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (ح) : صَدَقْتَ ، فَٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي لَا مِرَاءَ فِيهَا ، أَنَّ فِكْرَةَ ٱلْفُجُورِ فِكْرَةٌ قَانُونِيَّةٌ ؛ وَمَا دَامَ ٱلْقَانُونُ هُوَ أَبَاحَهَا بِشُرُوطٍ ، فَهُوَ هُوَ ٱلَّذِي قَرَّرَهَا فِي ٱلْمُجْتَمَعِ بِهَـٰذِهِ ٱلشُّرُوطِ ؛ وَمِنْ هَـٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ يُقْدِمُ عَلَيْهَا ٱلرَّجُلُ وَٱلْمَرْأَةُ كِلَاهُمَا عَلَىٰ ثِقَةٍ وَٱطْمِئْنَانٍ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَأْتِي ٱلْجُرْأَةُ عَلَىٰ ٱنْدِفَاعِ ٱلنَّاسِ إِلَىٰ مَا وَرَاءَ حُدُودِ ٱلْقَانُونِ ، وَمِنْ هَـٰذَا ٱلِاندِفَاعِ تَأْتِي ٱلسَّاقِطَةُ بِآخِرِ مَعَانِيهَا وَأَقْبَحِ مَعَانِيهَا .

وَتَقْرِيرُ سِيَادَةِ ٱلْمَرْأَةِ فِي ٱلِاجْتِمَاعِ ٱلْأُورُبِّيِّ ، وَتَقْدِيمُهَا عَلَىٰ ٱلرِّجَالِ ، وَٱلتَّأَدُّبُ مَعَهَا ؛ كُلُّ ذَٰلِكَ يَجْعَلُ جَرَاءَةَ ٱلسُّفَهَاءِ عَلَيْهَا جَرَاءَةً مُتَأَدِّبَةً ، حَتَّىٰ كَأَنَّ ٱلْمُتَحَكِّكَ مِنْهُمْ فِي ٱمْرَأَةٍ يَقُولُ لَهَا : مِنْ فَضْلِكِ كُونِي سَاقِطَةً . . . أَمَّا هُنَا فَجَرَاءَةُ ٱلسُّفَهَاءِ جَرَاءَةٌ وَوَقَاحَةٌ مَعًا ، وَذَٰلِكَ هُوَ سِرُّهَا .

ٱلْقَانُونُ كَأَنَّمَا يَقُولُ لِلرِّجَالِ : ٱحْتَالُوا عَلَىٰ رِضَىٰ ٱلنِّسَاءِ ، فَإِنْ رَضِينَ ٱلْجَرِيمَةَ فَلَا جَرِيمَةَ ؛ وَمِنْ هَـٰذَا فَكَأَنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ بَرَاعَةَ ٱلرَّجُلِ ٱلْفَاسِقِ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْحِيلَةِ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ وَإِيقَاظِ ٱلْفِطْرَةِ فِي نَفْسِهَا ، بِأَسَالِيبَ مِنَ ٱلْمَلَقِ وَٱلرِّيَاءِ وَٱلْمَكْرِ ، تَتْرُكُهَا عَاجِزَةً لَا تَمْلِكُ إِلَّا أَنْ تُذْعِنَ وَتَرْضَىٰ ؛ وَبِهَـٰذَا يَنْصَرِفُ كُلُّ فَاجِرٍ إِلَىٰ إِبْدَاعِ هَـٰذِهِ ٱلْأَسَالِيبِ ٱلَّتِي تُطْلِقُ تِلْكَ ٱلْفِطْرَةَ مِنْ حَيَائِهَا ، وَتُخْرِجُهَا مِنْ عِفَّتِهَا ، « تَطْبِيقًا لِلْقَانُونِ » . . .

وَلَا سِيَادَةَ فِي ٱجْتِمَاعِنَا لِلْمَرْأَةِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْقَانُونَ جَعَلَهَا سَيِّدَةَ نَفْسِهَا ، وَجَعَلَهَا فَوْقَ ٱلْآدَابِ كُلِّهَا ، وَفَوْقَ عُقُوبَةِ ٱلْقَانُونِ نَفْسِهِ إِذَا رَضِيَتْ ؛ إِذَا رَضِيَتْ مَاذَا . . . ؟

* * *

قُلْتُ : فَإِذَا كَانَ ٱلْقَانُونُ هُنَا فِي مَسْأَلَتِنَا هَـٰذِهِ يَعْدِلُ بِٱلظُّلْمِ ، وَيَحْمِي ٱلْفَضِيلَةَ بِإِطْلَاقِ حُرِّيَّةِ ٱلرَّذِيلَةِ ؛ فَهُوَ إِنَّمَا يُفْسِدُ ٱلدِّينَ ، وَيَصْرِفُ ٱلنَّاسَ عَنْ خَوْفِ ٱللهِ إِلَىٰ خَوْفِ مَا يُخَافُ

مِنَ ٱلْحُكُومَةِ وَحْدَهَا ؛ وَبِهَـٰذَا لَا يَكُونُ عَمَلُهُ إِلَّا فِي تَصْحِيحِ ٱلظَّاهِرِ مِنَ ٱلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ ، وَيَدَعُ ٱلْبَاطِنَ يُسِرُّ مَا شَاءَ مِنْ خُبْثِهِ وَحِيلَتِهِ وَفَسَادِهِ ؛ فَكَأَنَّهُ لَيْسَ قَانُونًا إِلَّا لِتَنْظِيمِ ٱلنِّفَاقِ وَإِحْكَامِ ٱلْخَدِيعَةِ ؛ فَلَا جَرَمَ كَانَ قَانُونًا لِحَالَةِ ٱلْجَرِيمَةِ لَا لِلْجَرِيمَةِ نَفْسِهَا ؛ فَإِذَا أُخِذَتِ ٱلْمَرْأَةُ مُلَايَنَةً وَرِضًىٰ فَهَـٰذَا فُجُورٌ قَانُونِيٌّ . . . وَإِنْ كَانَتِ ٱلْمُلَايَنَةُ هِيَ عَمَلَ ٱلْحِيلَةِ وَٱلتَّدْبِيرِ ، وَإِنْ كَانَ ٱلرِّضَىٰ هُوَ أَثَرَ ٱلْخِدَاعِ وَٱلْمَكْرِ ، وَإِنْ ضَاعَتِ ٱلْمَرْأَةُ وَسَقَطَتْ ، وَذَهَبَ شَرَفُهَا بَاطِلًا ، وَأَلْحَقَهُ ٱلنَّاسُ بِمَا لَا يَكُونُ مِنْ تَوْبَةِ إِبْلِيسَ فَلَا يَكُونُ أَبَدًا . أَمَّا إِذَا أُخِذَتِ ٱلْمَرْأَةُ مُكَارَهَةً وَغَصْبًا ، فَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْجَرِيمَةُ فِي ٱلْقَانُونِ ؛ وَيُسَمِّيهَا ٱلْقَانُونُ جَرِيمَةَ ٱلِاعْتِدَاءِ عَلَىٰ ٱلْعِرْضِ ، وَهِيَ بِأَنْ تُسَمَّىٰ جَرِيمَةَ ٱلْعَجْزِ عَنْ إِرْضَاءِ ٱلْمَرْأَةِ ، أَحَقُّ وَأَوْلَىٰ .

عَلَىٰ أَنَّ ٱلْمِسْكِينَةَ لَمْ تُؤْخَذْ فِي ٱلْحَالَتَيْنِ إِلَّا غَصْبًا ، وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفَتْ طَرِيقَةُ ٱلرَّجُلِ ٱلْغَاصِبِ ؛ فَإِنَّ كِلْتَا ٱلْحَالَتَيْنِ لَمْ تَتَأَدَّ بِٱلْمَرْأَةِ إِلَّا إِلَىٰ نَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ ، هِيَ إِخْرَاجُهَا مِنْ شَرَفِهَا ، وَحِرْمَانُهَا حُقُوقَ إِنْسَانِيَّتِهَا فِي ٱلْأُسْرَةِ ، وَطَرْدُهَا وَرَاءَ حُدُودِ ٱلِاعْتِبَارِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ ، وَتَرْكُهَا ثَمَّةَ مُخَلَّاةً لِمَجَارِي أُمُورِهَا ، فَلَا يَتَيَسَّرُ لَهَا ٱلْعَيْشُ إِلَّا مِنْ مِثْلِ ذَٰلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلْفَاجِرِ ، فَلَا تَكُونُ لَهَا بِيئَةٌ إِلَّا مِنْ أَمْثَالِهِ وَأَمْثَالِهَا ، كَمَا يَجْتَمِعُ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلْوَاحِدِ ، أَهْلُ ٱلْمَصِيرِ ٱلْوَاحِدِ ، عَلَىٰ طَرِيقَةِ ٱلْقَطِيعِ فِي ٱلْمَجْزَرَةِ . . .

* * *

فَقَالَتْ هِيَ : ٱلْحَقُّ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيمَةَ أَوَّلُهَا ٱلْحُبُّ ؛ وَهِيَ لَا تَقَعُ إِلَّا مِنْ بَيْنِ نَقِيضَيْنِ يَجْتَمِعَانِ فِي ٱلْمَرْأَةِ مَعًا : كِبَرُ حُبِّهَا إِلَىٰ مَا يَفُوتُ ٱلْعَقْلَ ، وَصِغَرُ عَقْلِهَا إِلَىٰ مَا يَنْزِلُ عَنِ ٱلْحُبِّ . وَٱلْمَرْأَةُ تَظَلُّ هَادِئَةً سَاكِنَةً رَزِينَةً ، حَتَّىٰ تُصَادِفَهَا ٱللِّحَاظُ ٱلنَّارِيَّةُ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلْمُقَدَّرَةِ لَهَا فَلَا يَكُونُ إِلَّا أَنْ تَمْلَأَهَا نَارًا وَلَهَبًا ؛ وَلْتَكُنِ ٱلْمَرْأَةُ مَنْ هِيَ كَائِنَةً ، فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ كَمُسْتَوْدَعِ ٱلْبَارُودِ ، يَهُولُ عِظَمُهُ وَكِبَرُهُ ، وَهُوَ لَا شَيْءَ إِذَا ٱتَّصَلَتْ بِهِ تِلْكَ ٱلشَّرَارَةُ ٱلْمُهَاجِمَةُ .

وَلَيْسَتْ حِرَاسَةُ ٱلْمَرْأَةِ شَيْئًا يُؤْبَهُ لَهُ أَوْ يُعْتَدُّ بِهِ أَوْ يُسَمَّىٰ حِرَاسَةً ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ كَٱلتَّحَفُّظِ عَلَىٰ مُسْتَوْدَعِ ٱلْبَارُودِ مِنَ ٱلنَّارِ ؛ فَيَسْتَوِي فِي وَسَائِلِهَا ٱلْخَوْفُ مِنَ ٱلشَّرَارَةِ ٱلصَّغِيرَةِ ، وَٱلْفَزَعُ مِنَ ٱلْحَرِيقِ ٱلْأَعْظَمِ ؛ فَيُحْتَاطُ لِٱثْنَيْهِمَا بِوَسَائِلَ وَاحِدَةٍ فِي قَدْرٍ وَاحِدٍ وَٱعْتِبَارٍ وَاحِدٍ .

وَإِذَا تُرِكَتِ ٱلْمَرْأَةُ لِنَفْسِهَا تَحْرُسُهَا بِعَقْلِهَا وَأَدَبِهَا وَفَضْلِهَا وَحُرِّيَّتِهَا ، فَقَدْ تُرِكَ لِنَفْسِهِ مُسْتَوْدَعُ ٱلْبَارُودِ تَحْرُسُهُ جُدْرَانُهُ ٱلْأَرْبَعَةُ ٱلْقَوِيَّةُ . . .

وَٱلرِّجَالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْمَرْأَةِ مَظَاهِرَ طَبِيعِيَّةً ، مِنَ ٱلْخُيَلَاءِ وَٱلْكِبْرِيَاءِ وَٱلِاعْتِدَادِ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِٱلْعِفَّةِ ؛ وَلَٰكِنَّ هَٰؤُلَاءِ ٱلرِّجَالَ أَنْفُسَهُمْ يَعْلَمُونَ كَذَٰلِكَ ، أَنَّ هَٰذَا ٱلظَّاهِرَ مَخْلُوقٌ مَعَ ٱلْمَرْأَةِ كَجِلْدِ جِسْمِهَا ٱلنَّاعِمِ ، وَأَنَّ تَحْتَهُ أَشْيَاءَ غَيْرَ هَٰذِهِ تَعْمَلُ عَمَلَهَا وَتَصْنَعُ ٱلْبَارُودَ ٱلنِّسَائِيَّ ٱلَّذِي سَيَنْفَجِرُ . . .

* * *

قُلْتُ : إِذَا كَانَ هَٰذَا فَقَبَّحَ ٱللهُ هَٰذِهِ ٱلْحُرِّيَّةَ ٱلَّتِي يُرِيدُونَهَا لِلْمَرْأَةِ . هَلْ تَعِيشُ ٱلْمَرْأَةُ إِلَّا فِي ٱنْتِظَارِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلَّتِي تَحْكُمُهَا بِلُطْفٍ ، وَفِي ٱنْتِظَارِ صَاحِبِ هَٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ؟

قَالَتْ : إِنَّ هَٰذَا حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَأَوْسَعُ ٱلنِّسَاءِ حُرِّيَّةً أَضْيَعُهُنَّ فِي ٱلنَّاسِ ؛ وَهَلْ كَٱلْمُومِسِ فِي حُرِّيَّتِهَا فِي نَفْسِهَا ؟

وَلَٰكِنْ يَا شُؤْمَهَا عَلَى ٱلدُّنْيَا ! إِنَّهَا هِيَ بِعَيْنِهَا كَمَا قُلْتَ أَنْتَ : حُرِّيَّةُ ٱلْمَخْلُوقِ ٱلَّذِي يُتْرَكُ حُرًّا كَٱلشَّرِيدِ ، لِتُجَرِّبَ فِيهِ ٱلْحَيَاةُ تَجَارِيبَهَا ٱلْمُؤْلِمَةَ . وَمَاذَا فِي يَدِ ٱلْمَرْأَةِ مِنْ حُرِّيَّةٍ هِيَ حُرِّيَّةُ ٱلْقَدَرِ فِيهَا ؟

قُلْتُ : وَلِهَٰذَا لَا أَرْجِعُ عَنْ رَأْيِي أَبَدًا : وَهُوَ أَنَّهُ لَا حُرِّيَّةَ لِلْمَرْأَةِ فِي أُمَّةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ ، إِلَّا إِذَا شَعَرَ كُلُّ رَجُلٍ فِي هَٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ بِكَرَامَةِ كُلِّ ٱمْرَأَةٍ فِيهَا ، بِحَيْثُ لَوْ أُهِينَتْ وَاحِدَةٌ ثَارَ ٱلْكُلُّ فَٱسْتَقَادُوا لَهَا ، كَأَنَّ كَرَامَاتِ ٱلرِّجَالِ أَجْمَعِينَ قَدْ أُهِينَتْ فِي هَٰذِهِ ٱلْوَاحِدَةِ ؛ يَوْمَئِذٍ تُصْبِحُ ٱلْمَرْأَةُ حُرَّةً ، لَا بِحُرِّيَّتِهَا هِيَ ، وَلَٰكِنْ بِأَنَّهَا مَحْرُوسَةٌ بِمَلَايِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ . . .

فَضَحِكَتْ وَقَالَتْ : (يَوْمَئِذٍ) ! هَٰذَا ٱسْمُ زَمَانٍ أَوِ ٱسْمُ مَكَانٍ . . . ؟

* * *

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (ح) : وَلَٰكِنَّنَا أَبْعَدْنَا عَنْ قِصَّةِ هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ، مَا كَانَ أَوَّلُهَا ؟

قَالَتْ : إِنَّ ٱلشُّبَّانَ وَٱلرِّجَالَ عِلْمٌ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَهُ ٱلْفَتَاةُ قَبْلَ أَوَانِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَقَرَّ فِي ذِهْنِ كُلِّ فَتَاةٍ ، أَنَّ هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَيْسَتْ كَٱلدَّارِ فِيهَا ٱلْحُبُّ ، وَلَا كَٱلْمَدْرَسَةِ فِيهَا

ٱلصَّدَاقَةُ ، وَلَا كَٱلْمَحَلِّ ٱلَّذِي تَبْتَاعُ مِنْهُ مِنْدِيلًا مِنَ ٱلْحَرِيرِ أَوْ زُجَاجَةً مِنَ ٱلْعِطْرِ ، فِيهِ إِكْرَامُهَا وَخِدْمَتُهَا .

وَأَسَاسُ ٱلْفَضِيلَةِ فِي ٱلْأُنُوثَةِ ٱلْحَيَاءُ ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ ٱلْفَتَاةُ أَنَّ ٱلْأُنْثَى مَتَى خَرَجَتْ مِنْ حَيَائِهَا وَتَهَجَّمَتْ ، أَيْ : تَوَقَّحَتْ ، أَيْ : تَبَذَّلَتْ ، ٱسْتَوَى عِنْدَهَا أَنْ تَذْهَبَ يَمِينًا أَوْ تَذْهَبَ شِمَالًا ، وَتَهَيَّأَتْ لِكُلٍّ مِنْهُمَا وَلِأَيِّهِمَا ٱتَّفَقَ : وَصَاحِبَاتُ ٱلْيَمِينِ فِي كَنَفِ ٱلزَّوْجِ وَظِلِّ ٱلْأُسْرَةِ وَشَرَفِ ٱلْحَيَاةِ ، وَصَاحِبَاتُ ٱلشِّمَالِ مَا صَاحِبَاتُ ٱلشِّمَالِ . . . ؟

قُلْتُ : هَٰذَا هَٰذَا ؛ إِنَّهُ ٱلْحَيَاءُ ، ٱلْحَيَاءُ لَا غَيْرُهُ ؛ فَهَلْ هُوَ إِلَّا وَسِيلَةٌ أَعَانَتِ ٱلطَّبِيعَةُ بِهَا ٱلْمَرْأَةَ لِتَسْمُوَ عَلَى غَرِيزَتِهَا مَتَى وَجَبَ أَنْ تَسْمُوَ ، فَلَا تَلْقَى رَجُلًا إِلَّا وَفِي دَمِهَا حَارِسٌ لَا يَغْفُلُ . وَهَلْ هُوَ إِلَّا سَلْبٌ جَمَعَتْهُ ٱلطَّبِيعَةُ إِلَى ذَٰلِكَ ٱلْإِيجَابِ ٱلَّذِي لَوِ ٱنْطَلَقَ وَحْدَهُ فِي نَفْسِ ٱلْمَرْأَةِ لَٱنْدَفَعَتْ فِي ٱلتَّبَرُّجِ وَٱلْإِغْرَاءِ وَعَرْضِ أَسْرَارِ أُنُوثَتِهَا فِي ٱلْمَعْرِضِ ٱلْعَامِّ . . . ؟

قَالَتْ : ذَاكَ أَرَدْتُ ، فَكُلُّ مَا تَرَاهُ مِنْ أَسَالِيبِ ٱلتَّجْمِيلِ وَٱلزِّينَةِ عَلَى وُجُوهِ ٱلْفَتَيَاتِ وَأَجْسَامِهِنَّ فِي ٱلطُّرُقِ ، فَلَا تَعُدَّنَّهُ مِنْ فَرْطِ ٱلْجَمَالِ ، بَلْ مِنْ قِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ .

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ لَا تَخْضَعُ حَقَّ ٱلْخُضُوعِ فِي نَفْسِهَا إِلَّا لِشَيْئَيْنِ : حَيَائِهَا وَغَرِيزَتِهَا .

قُلْتُ : يَا عَجَبًا ! هَٰذَا أَدَقُّ تَفْسِيرٍ لِقَوْلِ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ : « تَجُوعُ ٱلْحُرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا » . فَإِنِ ٱخْتَضَعَتِ ٱلْمَرْأَةُ لِلْحَيَاءِ كَفَّتْ غَرِيزَتَهَا . . .

قَالَتْ : . . . وَجَعَلَهَا ٱلْحَيَاءُ صَادِقَةً فِي نَفْسِهَا وَفِي ضَمِيرِهَا ، فَكَانَتْ هِيَ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ ٱلْجَدِيرَةَ بِٱلزَّوْجِ وَٱلنَّسْلِ وَتَوْرِيثِ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْكَرِيمَةِ وَحِفْظِهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .

قُلْتُ : وَمِنْ هَٰذَا يَكُونُ ٱلْإِسْرَافُ فِي ٱلْأُنُوثَةِ وَٱلتَّبَرُّجِ أَمَامَ ٱلرِّجَالِ كَذِبًا مِنْ ضَمِيرِ ٱلْمَرْأَةِ .

قَالَتْ : وَمِنْ أَخْلَاقِهَا أَيْضًا ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ أَشَدَّ ٱلْإِسْرَافِ فِي هَٰذِهِ ٱلْأُنُوثَةِ وَفِي هَٰذَا ٱلتَّبَرُّجِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَامَّةِ . . . ؟

قُلْتُ : وَٱلْمَرْأَةُ ٱلْعَامَّةُ ٱمْرَأَةٌ تِجَارِيَّةُ ٱلْقَلْبِ . فَكَأَنَّ ٱلْمُسْرِفَةَ فِي أُنُوثَتِهَا وَتَبَرُّجِهَا ، هَٰذِهِ سَبِيلُهَا ، فَهِيَ لَا تُؤْمَنُ عَلَى نَفْسِهَا .

قَالَتْ : قَدْ تُؤْمَنُ عَلَىٰ نَفْسِهَا ، وَلَـٰكِنَّهَا أَبَدًا مُوْمِسُ ٱلْفِكْرِ فِي ٱلرِّجَالِ ، فَيُوشِكُ أَلَّا تُؤْمَنَ ؛ وَهِيَ رَهْنٌ بِأَحْوَالِهَا وَبِمَا يَقَعُ لَهَا ، فَقَدْ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهَا ٱلْجَرِيْءُ وَقَدْ لَا يَتَقَدَّمُ ، وَلَـٰكِنَّهَا بِذَٰلِكَ كَأَنَّهَا مُعْلِنَةٌ عَنْ نَفْسِهَا أَنَّهَا « مُسْتَعِدَّةٌ أَلَّا تُؤْمَنَ » . . .

قَالَ (ح) : لَـٰكِنْ يُقَالُ إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ قَدْ تَتَبَرَّجُ وَتَتَأَنَّثُ لِتَرَىٰ نَفْسَهَا جَمِيلَةً فَاتِنَةً ، فَيُعْجِبُهَا حُسْنُهَا ، فَيَسُرُّهَا إِعْجَابُهَا .

قَالَتْ : هَـٰذَا كَٱلْقَوْلِ إِنَّ أُسْتَاذَ ٱلرَّقْصِ ٱلَّذِي رَأَيْتَهُ هُنَا ، يَنْظُرُ إِلَىٰ نَفْسِهِ كَمَا يَنْظُرُ رَجُلٌ إِلَىٰ رَاقِصَةٍ تَتَأَوَّدُ وَتَهْتَزُّ وَتَتَرَجْرَجُ . إِنَّ هَـٰذَا ٱلرَّقَّاصَ فِيهِ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْفَنِّيَّةُ كَمَا هِيَ حَرَكَةٌ لَيْسَ غَيْرُ ؛ فَهُوَ كَٱلْمِيزَانِ أَوِ ٱلْقِيَاسِ أَوْ أَيِّ آلَاتِ ٱلضَّبْطِ ؛ أَمَّا فِتْنَةُ ٱلْحَرَكَةِ وَسِحْرُهَا وَمَعْنَاهَا مِنَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْفَاتِنَةِ فِي وَهْمِ ٱلرَّجُلِ ٱلْمَفْتُونِ بِهَا ؛ فَهَـٰذَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي أُسْتَاذِ ٱلرَّقْصِ ، وَإِنْ كَانَ أُسْتَاذَ ٱلرَّقْصِ .

إِنَّ أَجْمَلَ ٱمْرَأَةٍ تَبْصُقُ بِفَمِهَا عَلَىٰ وَجْهِهَا فِي ٱلْمِرْآةِ ، إِذَا مُحِيَ ٱلرَّجُلُ مِنْ ذِهْنِهَا ، أَوْ لَمْ يُطِلَّ بِعَيْنَيْهِ مِنْ وَرَاءِ عَيْنَيْهَا ، أَوْ لَمْ تَكُنْ مُمْتَلِئَةَ ٱلْحَوَاسِّ بِهِ ، أَوْ بِإِعْجَابِهِ ، أَوْ بِٱلرَّغْبَةِ فِي إِعْجَابِهِ ؛ فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ جَمَالِ هَـٰذِهِ فَإِنَّهَا لَا تَرَىٰ وَجْهَهَا حِينَئِذٍ إِلَّا كَٱلدُّنْيَا إِذَا خَلَتْ مِنَ ٱلْعَدْلِ . . .

* * *

قُلْتُ : وَلَـٰكِنَّنَا أَبْعَدْنَا عَنْ « قِصَّةِ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ، مَا كَانَ أَوَّلُهَا ! »

قَالَتْ : سَأَفْعَلُ ذَٰلِكَ لِمَوْضِعِكَ عِنْدِي : إِنَّ قِصَّتِي فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ مِنْهَا هِيَ قِصَّةُ جَمَالِي ؛ وَفِي ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي هِيَ قِصَّةُ مَرَضِ ٱلْعَذْرَاءِ ؛ وَفِي ٱلْفَصْلِ ٱلثَّالِثِ هِيَ قِصَّةُ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلتَّهَاوُنِ فِي ٱلْحِرَاسَةِ ؛ وَفِي ٱلْفَصْلِ ٱلرَّابِعِ هِيَ قِصَّةُ ٱنْخِدَاعِ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلنِّسْوِيَّةِ ٱلْمَبْنِيَّةِ عَلَىٰ ٱلرِّقَّةِ وَإِيجَادِ ٱلْحُبِّ وَتَلَقِّيهِ وَٱلرَّغْبَةِ فِي تَنْوِيعِهِ أَنْوَاعًا لِلْأَهْلِ وَٱلزَّوْجِ وَٱلْوَلَدِ ؛ ثُمَّ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْخَامِسِ هِيَ قِصَّةُ لُؤْمِ ٱلرَّجُلِ : كَانَ مُحِبًّا شَرِيفًا يُقْسِمُ بِٱللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِ ، فَإِذَا هُوَ كَٱلْمُزَوِّرِ وَٱلْمُحْتَالِ وَٱللِّصِّ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ لَا يُعْرَفُونَ إِلَّا بَعْدَ وُقُوعِ ٱلْجَرِيمَةِ .

ثُمَّ سَكَتَتْ هُنَيْهَةً ، فَكَانَ سُكُوتُهَا يُتِمُّ كَلَامَهَا . . .

وَقَالَ (ح) : فَمَا هُوَ مَرَضُ ٱلْعَذْرَاءِ ٱلَّذِي كَانَ مِنْهُ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي فِي ٱلرِّوَايَةِ .

قَالَتْ : كُلُّ عَذْرَاءَ فَهِيَ مَرِيضَةٌ إِلَىٰ أَنْ تَتَزَوَّجَ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُعْلِمَهَا أَهْلُهَا أَنَّ ٱلْعِلَاجَ قَدْ يَكُونُ مَسْمُومًا ؛ وَيَنْبَغِي أَنْ يَحُوطُوهَا بِقَرِيبٍ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ ٱلَّتِي يُحَاطُ ٱلْمَرِيضُ بِهَا ، فَلَا يُجْعَلُ مَا حَوْلَهُ إِلَّا مُلَائِمًا لَهُ ، وَيُمْنَعُ أَشْيَاءَ وَإِنْ أَحَبَّهَا وَرَغِبَ فِيهَا ، وَيُكْرَهُ عَلَىٰ أَشْيَاءَ وَإِنْ عَافَهَا وَصَدَفَ عَنْهَا .

قَالَ (ح) : فَيَكُونُ ٱلْقَانُونُ ٱلِاجْتِمَاعِيُّ تَصْدِيقًا لِلْقَانُونِ ٱلدِّينِيِّ مِنْ أَنَّ ٱلذُّكُورَةَ هِيَ فِي نَفْسِهَا عَدَاوَةٌ لِلْأُنُوثَةِ ، وَأَنَّ كُلَّ رَجُلٍ لَيْسَ ذَا رَحِمٍ مَحْرَمٍ[1] يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوضًا إِلَّا فِي ٱلْحَالَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ٱلْمَشْرُوعَةِ ، وَهِيَ ٱلزَّوَاجُ .

قَالَتْ : فَتَكُونُ ٱلْمُشْكِلَةُ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةُ هِيَ : مَنْ ذَا يُرْغِمُ ٱلذُّكُورَةَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ٱلْمَشْرُوعَةِ كَيْلَا تَضِيعَ ٱلْأُنُوثَةُ ؟

قَالَ : وَلَـٰكِنْ إِذَا كَانَ سُقُوطُ ٱلْفَتَاةِ هُوَ جِنَايَةَ « ٱلزَّوَاجِ ٱلْمُزَوَّرِ » ، فَمَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ سُقُوطُ بَعْضِ ٱلْمُتَزَوِّجَاتِ ؟

قَالَتْ : هُوَ جِنَايَةُ « ٱلزَّوَاجِ ٱلْمُنَقَّحِ » . . . تُرِيدُ أَنْفُسُهُنَّ ٱلْخَبِيثَةُ تَنْقِيحَ ٱلزَّوْجِ ؛ وَٱلْمُومِسَاتُ أَشْرَفُ مِنْهُنَّ ، إِذْ لَا يَعْتَدِينَ عَلَىٰ حَقٍّ وَلَا يَخُنَّ أَمَانَةً .

* * *

وَرَفَّ عَلَىٰ وَجْهِهَا فِي هَـٰذِهِ ٱللَّحْظَةِ شُعَاعٌ مِنَ ٱلشَّمْسِ كَانَ عَلَىٰ جَبِينِهَا كَصَفَاءِ ٱللُّؤْلُؤِ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ عَلَىٰ خَدِّهَا كَإِشْرَاقِ ٱلْيَاقُوتِ ؛ وَرَأَتْنِي أَتَأَمَّلُهُ ، فَقَالَتْ : أَنَا مُنْتَشِيَةٌ بِحَظِّي فِي هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَاتِ ؛ وَهَـٰذَا ٱلشُّعَاعُ إِنَّمَا جَاءَ يَخْتِمُ نُورَهَا .

ثُمَّ كَانَتِ ٱلسُّخْرِيَةُ ٱلْعَجِيبَةُ أَنَّهَا لَمْ تُتِمَّ كَلِمَةَ ٱلنُّورِ حَتَّىٰ جَاءَ حَظُّهَا ٱلْحَقِيقِيُّ مِنْ حَيَاتِهَا . . . وَهُوَ رَجُلٌ يَتَحَظَّاهَا ؛ فَلَمَّا أَخَذَتْهُ عَيْنُهَا ٱبْتَسَمَتْ لَهُ ٱبْتِسَامًا مِنَ ٱلذُّلِّ ، لَوْ لَمْ تَجْعَلْهُ هِيَ ٱبْتِسَامًا لَكَانَ دُمُوعًا ؛ ثُمَّ وَقَفَتْ وَمَا تَتَمَاسَكُ مِنَ ٱلْهَمِّ ، كَأَنَّهَا « تِمْثَالٌ » لِلْجَمَالِ

(١) يُقَالُ : ذُو رَحِمٍ مَحْرَمٍ ، أَيْ : لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ ، كَأَبِيهَا وَأَخِيهَا . . . إلخ .

ٱلْبَائِسِ » ؛ ثُمَّ حَيَّتْ وَسَلَّمَتْ وَوَدَّعَتْ ؛ وَبَعْدَ « وَاوَاتٍ » أُخرَى . . . مَشَتْ سَاكِنَةً وَمَرْآهَا يَضِجُّ وَيَبْكِي .

فَوَدَاعًا يَا أَوْهَامَ ٱلذَّكَاءِ ٱلَّتِي تَلْمِسُ ٱلْحَقَائِقَ بِقُوَّةٍ خَالِقَةٍ تَزِيدُ فِيهَا !

وَوَدَاعًا يَا أَحْلَامَ ٱلْفِكْرِ ٱلَّتِي تَضَعُ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئًا يُغَيِّرُهُ !

وَوَدَاعًا يَا حُبَّهَا . . . . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

عَرَبَةُ ٱللُّقَطَاءِ(*) . . .

جَلَسْتُ عَلَىٰ سَاحِلِ ٱلشَّاطِبِيِّ فِيْ (إِسْكَنْدَرِيَّةَ) أَتَأَمَّلُ ٱلْبَحْرَ ، وَقَدِ ٱرْتَفَعَ ٱلضُّحَىٰ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّهَارَ لَدْنٌ نَاعِمٌ رَطِيبٌ كَأَنَّ ٱلْفَجْرَ مُمْتَدٌّ فِيهِ إِلَىٰ ٱلظُّهْرِ .

وَجَاءَتْ عَرَبَةُ ٱللُّقَطَاءِ فَأَشْرَفَتْ عَلَىٰ ٱلسَّاحِلِ ، وَكَأَنَّهَا فِيْ مَنْظَرِهَا غَمَامَةٌ تَتَحَرَّكُ ، إِذْ تَعْلُوهَا ظُلَّةٌ كَبِيرَةٌ فِيْ لَوْنِ ٱلْغَيْمِ . وَهِيَ كَعَرَبَاتِ ٱلنَّقْلِ ، غَيْرَ أَنَّهَا مُسَوَّرَةٌ بِأَلْوَاحٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ كَجَوَانِبِ ٱلنَّعْشِ تُمْسِكُ مَنْ فِيهَا مِنَ ٱلصِّغَارِ أَنْ يَتَدَحْرَجُوا مِنْهَا إِذْ هِيَ تَدْرُجُ وَتَتَقَلْقَلُ .

وَوَقَفَتْ فِيْ ٱلشَّارِعِ لِتُنْزِلَ رَكْبَهَا إِلَىٰ شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ ؛ أُولَـٰئِكَ ثَلَاثُونَ صَغِيرًا مِنْ كُلِّ سَفِيحٍ وَلَقِيطٍ وَمَنْبُوذٍ ، وَقَدِ ٱنْكَمَشُوا وَتَضَاغَطُوا إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُمَطَّ ٱلْعَرَبَةُ فَتَسَعَهُمْ ، وَلَـٰكِنْ يُمْكِنُ أَنْ يُكْبَسُوا وَيَتَدَاخَلُوا حَتَّىٰ يَشْغَلَ ٱلثَّلَاثَةُ أَوِ ٱلْأَرْبَعَةُ مِنْهُمْ حَيِّزَ ٱثْنَيْنِ . وَمَنْ مِنْهُمْ إِذَا تَأَلَّمَ سَيَذْهَبُ فَيَشْكُو لِأَبِيهِ . . . ؟

وَتَرَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمَسَاكِينَ خَلِيطًا مُلْتَبِسًا يُشْعِرُكَ ٱجْتِمَاعُهُمْ أَنَّهُمْ صَيْدٌ فِيْ شَبَكَةٍ لَا أَطْفَالٌ فِيْ عَرَبَةٍ ، وَيَدُلُّكَ مَنْظَرُهُمُ ٱلْبَائِسُ ٱلذَّلِيلُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَوْلَادَ أُمَّهَاتٍ وَآبَاءٍ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ كَانُوا وَسَاوِسَ آبَاءٍ وَأُمَّهَاتٍ . . .

* * *

هَـٰذِهِ ٱلْعَرَبَةُ يَجُرُّهَا جَوَادَانِ أَحَدُهُمَا أَدْهَمُ وَٱلْآخَرُ كُمَيْتٌ(١) . فَلَمَّا وَقَفَتْ لَوَىٰ ٱلْأَدْهَمُ عُنُقَهُ وَٱلْتَفَتَ يَنْظُرُ : أَيُفْرِغُونَ ٱلْعَرَبَةَ أَمْ يَزِيدُونَ عَلَيْهَا . . . ؟ أَمَّا ٱلْكُمَيْتُ فَحَرَّكَ رَأْسَهُ وَعَلَكَ لِجَامَهُ كَأَنَّهُ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : إِنَّ ٱلْفِكْرَ فِيْ تَخْفِيفِ ٱلْعِبْءِ ٱلَّذِي تَحْمِلُهُ يَجْعَلُهُ أَثْقَلَ عَلَيْكَ مِمَّا هُوَ ، إِذْ يُضِيفُ إِلَيْهِ ٱلْهَمَّ ، وَٱلْهَمُّ أَثْقَلُ مَا حَمَلَتْ نَفْسٌ ؛ فَمَا دُمْتَ فِيْ ٱلْعَمَلِ فَلَا تَتَوَهَّمَنَّ ٱلرَّاحَةَ ، فَإِنَّ هَـٰذَا يُوهِنُ ٱلْقُوَّةَ ، وَيَخْذُلُ ٱلنَّشَاطَ ، وَيَجْلِبُ ٱلسَّأَمَ ؛ وَإِنَّمَا

(*) « الرسالة » العدد ١١٤ ، ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ٩ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٤٤٣ ـ ١١٤٦ .

(١) { ٱلْأَدْهَمُ : ٱلْأَسْوَدُ . وَٱلْكُمَيْتُ : ٱلْأَحْمَرُ } .

رُوحُ الْعَمَلِ الصَّبْرُ ، وَإِنَّمَا رُوحُ الصَّبْرِ الْعَزْمُ .

وَرَآهُمُ الْأَدْهَمُ يُنْزِلُونَ اللُّقَطَاءَ ، فَاسْتَخَفَّهُ الطَّرَبُ ، وَحَرَّكَ رَأْسَهُ كَأَنَّمَا يَسْخَرُ بِالْكُمَيْتِ وَفَلْسَفَتِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ : إِنَّمَا هُوَ النُّزُوعُ إِلَى الْحُرِّيَّةِ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ فِي ذَاتِهَا ، فَلْتَكُنْ لَكَ فِي ذَاتِكَ ، وَإِذَا تَعَذَّرَتِ اللَّذَّةُ عَلَيْكَ ، فَاحْتَفِظْ بِخَيَالِهَا ، فَإِنَّهُ وُصْلَتُكَ بِهَا إِلَى أَنْ تُمْكِنَ وَتَتَسَهَّلَ ؛ وَلَا تَجْعَلَنَّ كُلَّ طِبَاعِكَ طِبَاعًا عَامِلَةً كَادِحَةً ، وَإِلَّا فَأَنْتَ أَدَاةٌ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُكَ ، وَلْيَكُنْ لَكَ طَبْعٌ شَاعِرٌ مَعَ هَٰذِهِ الطِّبَاعِ الْعَامِلَةِ ، فَتَكُونَ لَكَ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُكَ وَكَمَا تُرِيدُهَا .

إِنَّ الدُّنْيَا شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي الْوَاقِعِ ؛ وَلَٰكِنَّ هَٰذَا الشَّيْءَ الْوَاحِدَ هُوَ فِي كُلِّ خَيَالٍ دُنْيَا وَحْدَهَا .

* * *

وَفِي الْعَرَبَةِ امْرَأَتَانِ تَقُومَانِ عَلَى اللُّقَطَاءِ ؛ وَكِلْتَاهُمَا تَزْوِيرٌ لِلْأُمِّ عَلَى هَٰؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ الْمَسَاكِينِ ؛ فَلَمَّا سَكَنَتِ الْعَرَبَةُ انْحَدَرَتْ مِنْهُمَا وَاحِدَةٌ وَقَامَتِ الْأُخْرَى تُنَاوِلُهَا الصِّغَارَ قَائِلَةً : وَاحِدٌ ، اثْنَانِ ، ثَلَاثَةٌ ، أَرْبَعَةٌ ... إِلَى أَنْ تَمَّ الْعَدَدُ وَخَلَا قَفَصُ الدَّجَاجِ مِنَ الدَّجَاجِ ... !

وَمَشَى الْأَطْفَالُ بِوُجُوهٍ يَتِيمَةٍ ، يَقْرَأُ مَنْ يَقْرَأُ فِيهَا أَنَّهَا مُسْتَسْلِمَةٌ ، مُسْتَكِينَةٌ ، مُعْتَرِفَةٌ أَنْ لَا حَقَّ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ هَٰذَا الْعَالَمِ ، إِلَّا هَٰذَا الْإِحْسَانَ الْبَخْسَ الْقَلِيلَ .

وَجَاؤُوا بِهِمْ لِيَنْظُرُوا الطَّبِيعَةَ وَالْبَحْرَ وَالشَّمْسَ ، فَغَفَلَ الصِّغَارُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ وَصَرَفُوا أَعْيُنَهُمْ إِلَى الْأَطْفَالِ الَّذِينَ لَهُمْ آبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ ...

* * *

وَاكَبِدِي ! أَضْنَى الْأَسَى كَبِدِي ؛ فَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي بَعْدَ انْفِسَاحِهِ ، وَنَالَنِي وَجَعُ الْفِكْرِ فِي هَٰؤُلَاءِ التُّعَسَاءِ ، وَعَرَتْنِي مِنْهُمْ عِلَّةٌ كَدَسِّ الْحُمَّى فِي الدَّمِ ؛ وَانْقَلَبْتُ إِلَى مَثْوَايَ ، وَالْعَرَبَةُ وَأَهْلُهَا وَمَكَانُهَا وَزَمَانُهَا فِي رَأْسِي .

فَلَمَّا طَافَ بِيَ النَّوْمُ طَافَ كُلُّ ذَلِكَ بِي ، فَرَأَيْتُنِي فِي مَوْضِعِي ذَاكَ ، وَأَبْصَرْتُ الْعَرَبَةَ قَدْ

وَقَفَتْ ، وَتَحَاوَرَ الْأَدْهَمُ وَالْكُمَيْتُ ؛ فَلَمَّا أَفْرَغُوهَا وَشَعَرَ الْجَوَادَانِ بِخِفَّتِهَا الْتَفَتَا مَعًا ، ثُمَّ جَمَعَا رَأْسَيْهِمَا يَتَحَدَّثَانِ !

قَالَ الْكُمَيْتُ : كُنْتُ قَبْلَ هَٰذَا أَجُرُّ عَرَبَةَ الْكِلَابِ الَّتِي يَقْتُلُهَا الشُّرْطَةُ بِالسُّمِّ ، فَآخُذُ الْمَوْتَ لِهَٰذِهِ الْكِلَابِ الْمِسْكِينَةِ ، ثُمَّ أَرْجِعُ بِهَا مَوْتَى ؛ وَكُنْتُ أَذْهَبُ وَأَجِيءُ فِي كُلِّ مَرَادٍ وَمُضْطَرَبٍ مِنْ شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَأَزِقَّتِهَا وَسِكَكِهَا ، وَلَا أَشْعُرُ بِغَيْرِ الثِّقْلِ الَّذِي أَجُرُّهُ ؛ فَلَمَّا ابْتُلِيتُ بِعَرَبَةِ هَٰؤُلَاءِ الصِّغَارِ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمُ اللُّقَطَاءَ ، أَحْسَسْتُ ثِقْلًا آخَرَ وَقَعَ فِي نَفْسِي وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ ؟ وَلَٰكِنْ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ ظِلَّ كُلِّ طِفْلٍ مِنْهُمْ يُثْقِلُ وَحْدَهُ عَرَبَةً .

قَالَ الْأَدْهَمُ : وَأَنَا فَقَدْ كُنْتُ أَجُرُّ عَرَبَةَ الْقُمَامَةِ وَالْأَقْذَارِ ، وَمَا كَانَ أَقْذَرَهَا وَأَنْتَنَهَا ، وَلَٰكِنَّهَا عَلَى نَفْسِي كَانَتْ أَطْهَرَ مِنْ هَٰؤُلَاءِ وَأَنْظَفَ ؛ كُنْتُ أَجِدُ رِيحَهَا الْخَبِيثَةَ مَا دُمْتُ أَجُرُّهَا ؛ فَإِذَا أَنَا تَرَكْتُ الْعَرَبَةَ اسْتَرْوَحْتُ النَّسِيمَ وَاسْتَطْعَمْتُ الْجَوَّ ، أَمَّا الْآنَ فَالرِّيحُ الْخَبِيثَةُ فِي الزَّمَنِ نَفْسِهِ ، كَأَنَّ هَٰذَا الزَّمَنَ قَدْ أَرْوَحَ وَأَنْتَنَ مُنْذُ قُرِنْتُ بِهَٰؤُلَاءِ وَعَرَبَتِهِمْ .

قَالَ الْكُمَيْتُ : إِنَّ ابْنَ الْحَيَوَانِ يَسْتَقْبِلُ الْوُجُودَ بِأُمِّهِ ، إِذْ يَكُونُ وَرَاءَهَا كَالْقِطْعَةِ الْمُتَمِّمَةِ لَهَا ، وَلَا تَقْبَلُ أُمُّهُ إِلَّا هَٰذَا ، وَلَا يَصْرِفُهَا عَنْهُ صَارِفٌ ، فَتُرْغِمُ الْوُجُودَ عَلَى أَنْ يَتَقَبَّلَ ابْنَهَا ، وَعَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ قَوَانِينَهُ ؛ أَمَّا هَٰؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ فَقَدْ طَرَدَهُمُ الْوُجُودُ مِنْهُ كَمَا طَرَدَ اللهُ آبَاءَهُمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَقَدْ هُدِيتُ الْآنَ إِلَى أَنَّ هَٰذَا هُوَ سِرُّ مَا نَشْعُرُ بِهِ ؛ فَلَسْنَا نَجُرُّ لِلنَّاسِ وَلَٰكِنْ لِلشَّيَاطِينِ ...

* * *

وَهُنَا وَقَفَ عَلَى حُوذِيِّ الْعَرَبَةِ صَدِيقٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ فَقَالَ : مَنْ هَٰؤُلَاءِ يَا أَبَا عَلِيٍّ ؟

قَالَ الْحُوذِيُّ : هَٰؤُلَاءِ هَٰؤُلَاءِ يَا أَبَا هَاشِمٍ !

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : سُبْحَانَ اللهِ ، أَمَا تَتْرُكُ طَبْعَكَ فِي النُّكْتَةِ يَا شَيْخُ ؟

قَالَ الْحُوذِيُّ : وَهَلْ أَعْرِفُهُمْ أَنَا ؟ هُمْ بِضَاعَةُ الْعَرَبَةِ وَالسَّلَامُ : ارْكَبُوا يَا أَوْلَادُ ، انْزِلُوا يَا أَوْلَادُ . هَٰذَا كُلُّ مَا أَسْمَعُ .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : وَلَٰكِنْ مَا بَالُكَ سَاخِطًا عَلَيْهِمْ ، كَأَنَّهُمْ أَوْلَادُ أَعْدَائِكَ ؟

قَالَ ٱلْحُوذِيُّ : لَيْتَ شِعْرِي مَنْ يَدْرِي أَيُّ رَجُلٍ سَيَخْرُجُ مِنْ هَـٰذَا ٱلطِّفْلِ ، وَأَيَّةُ ٱمْرَأَةٍ سَتَكُونُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلطِّفْلَةِ ؟

أَنْظُرْ كَيْفَ تَعَلَّقَتْ هَـٰذِهِ ٱلْبِنْتُ وَعُمْرُهَا سَنَتَانِ ، فِي عُنُقِ هَـٰذَا ٱلْوَلَدِ ٱلَّذِي كَانَ مِنْ سَنَتَيْنِ ٱبْنَ سَنَتَيْنِ[1] . . . لَا أَرَانِي أَحْمِلُ فِي عَرَبَتِي أَطْفَالًا كَٱلْأَطْفَالِ ٱلَّذِينَ تَحْمِلُهُمُ ٱلْعَرَبَاتُ إِلَىٰ أَبْوَابِ دُورِهِمْ ؛ فَإِنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱللُّقَطَاءَ يُحْمَلُونَ إِلَىٰ بَابِ ٱلْمَلْجَإِ ، وَهُوَ بَابٌ لِلْحَارَاتِ وَٱلسِّكَكِ لَا يَأْخُذُ إِلَّا مِنْهَا ، فَلَا يُرْسِلُ إِلَّا إِلَيْهَا .

أَنَا وَٱللهِ يَا أَبَا هَاشِمٍ ، ضَيِّقُ ٱلصَّدْرِ ، كَاسِفُ ٱلْبَالِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمِهْنَةِ ؛ وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي لَا أَحْمِلُ فِي عَرَبَتِي إِلَّا ٱلْجُنُونَ وَٱلْفُجُورَ وَٱلسَّرِقَةَ وَٱلْقَتْلَ وَٱلدَّعَارَةَ وَٱلسُّكْرَ وَعَوَاصِفَ وَزَوَابِعَ . . .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : وَلَـٰكِنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَطْفَالَ مَسَاكِينُ ، وَلَا ذَنْبَ لَهُمْ .

قَالَ ٱلْحُوذِيُّ : نَعَمْ لَا ذَنْبَ لَهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ذُنُوبٌ ؛ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ إِنْ هُوَ إِلَّا جَرِيمَةٌ تُثْبِتُ ٱمْتِدَادَ ٱلْإِثْمِ وَٱلشَّرِّ فِي ٱلدُّنْيَا ؛ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ لِغَيَّةٍ[2] .

فَقَطَعَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : وَهَلْ وَلَدْنَهُمْ إِلَّا كَمَا تَلِدُ سَائِرُ ٱلْأُمَّهَاتِ أَوْلَادَهُنَّ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، إِنَّهُ عَمَلٌ وَاحِدٌ ، غَيْرَ أَنَّ أَحْوَالَهُ فِي ٱلْجِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَةٌ لَا تَتَكَافَأُ ؛ وَهَلْ تَسْتَوِي حَالُ مَنْ يَشْتَرِي ٱلْمَتَاعَ ، وَمَنْ يَسْرِقُ ٱلْمَتَاعَ ؟

هَـٰهُنَا بَاعِثٌ مِنَ ٱلشَّهْوَةِ قَدْ عَجَزَ أَنْ يَسْمُوَ سُمُوَّهُ ـ وَمَا سُمُوُّهُ إِلَّا ٱلزَّوَاجُ ـ فَتَسَفَّلَ وَٱنْحَطَّ ، وَرَجَعَ فِسْقًا ، وَعَادَ أَوَّلُهُ عَلَىٰ آخِرِهِ : كَانَ أَوَّلُهُ جُرْمًا فَلَا يَزَالُ إِلَىٰ آخِرِهِ جُرْمًا ، وَلَا يَزَالُ أَبَدًا يَعُودُ أَوَّلُهُ عَلَىٰ آخِرِهِ ؛ فَلَمَّا حَمَلَتِ ٱلْمَرْأَةُ وَفَاءَتْ إِلَىٰ أَمْرِهَا ، وَذَهَبَ عَنْهَا جُنُونُ ٱلرَّجُلِ وَٱلرَّجُلُ مَعًا ؛ ٱنْطَوَتْ لِلرِّجَالِ عَلَى ٱلثَّأْرِ وَٱلْحِقْدِ وَٱلضَّغِينَةِ ؛ فَلَا يَكُونُ ٱبْنُ ٱلْعَارِ إِلَّا ٱبْنَ هَـٰذِهِ ٱلشُّرُورِ أَيْضًا .

(١) تَعْبِيرٌ بِٱلنُّكْتَةِ عَلَىٰ طَرِيقَةِ ظُرَفَاءِ ٱلْبَلَدِيِّينَ مِنْ أَمْثَالِ (أَبِي عَلِيٍّ) ، وَٱلْمُرَادُ أَنَّهُ ٱبْنُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ .
(٢) وَلَدَتْهُ لِغَيَّةٍ ، أَيْ : مِنْ سِفَاحٍ . وَضِدُّهُ لِرِشْدَةٍ بِفَتْحِ ٱلرَّاءِ .

وَٱلْأُمَّهَاتُ يُعْدِدْنَ لِأَجِنَّتِهِنَّ ٱلثِّيَابَ وَٱلْأَكْسِيَةَ قَبْلَ أَنْ يُولَدُوا ، وَيُهَيِّئْنَ لَهُمْ بِٱلْفِكْرِ آمَالًا وَأَحْلَامًا فِي ٱلْحَيَاةِ ، فَيُكْسِبْنَهُمْ فِي بُطُونِهِنَّ شُعُورَ ٱلْفَرَحِ وَٱلِابْتِهَاجِ وَٱرْتِقَابَ ٱلْحَيَاةِ ٱلْهَنِيئَةِ وَٱلرَّغْبَةَ فِي ٱلسُّمُوِّ بِهَا ؛ وَلَـٰكِنَّ أُمَّهَاتِ هَـٰؤُلَاءِ يُعْدِدْنَ لَهُمُ ٱلشَّوَارِعَ وَٱلْأَزِقَّةَ مُنْذُ ٱلْبَدْءِ ، وَلَا تَتَرَقَّبُ إِحْدَاهُنَّ طُولَ أَشْهُرِ حَمْلِهَا أَنْ يَجِيئَهَا ٱلْوَلِيدُ ، بَلْ أَنْ يَتْرُكَهَا حَيًّا أَوْ مَقْتُولًا ؛ فَيُورِثْنَهُمْ بِذَلِكَ وَهُمْ أَجِنَّةٌ شُعُورَ ٱللَّهْفَةِ وَٱلْحَسْرَةِ وَٱلْبُغْضِ وَٱلْمَقْتِ ، وَيَطْبَعْنَهُمْ عَلَىٰ فِكْرَةِ ٱلْخَطِيئَةِ وَٱلرَّغْبَةِ فِي ٱلْقَتْلِ ، فَلَا يَكُونُ ٱبْنُ ٱلْعَارِ إِلَّا ٱبْنَ هَـٰذِهِ ٱلرَّذَائِلِ أَيْضًا .

وَتَظَلُّ ٱلْفَاسِقَةُ مُدَّةَ حَمْلِهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فِي إِحْسَاسٍ خَائِفٍ ، مُتَرَقِّبٍ ، مُنْفَرِدٍ بِنَفْسِهِ ، مُنْعَزِلٍ عَنِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، نَاقِمٍ ، مُتَبَرِّمٍ ، مُتَسَتِّرٍ ، مُنَافِقٍ ؛ فَلَوْ كَانَ ٱلسَّفِيحُ مِنْ أَبَوَيْنِ كَرِيمَيْنِ لَجَاءَ ثُعْبَانًا آدَمِيًّا فِيهِ سُمُّهُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْإِحْسَاسِ ٱلْعَنِيفِ . وَمَتَىٰ أَلْقَتِ ٱلْفَاسِقَةُ ذَا بَطْنِهَا[1] قَطَعَتْهُ لِتَوِّهِ مِنْ رَوَابِطِ أَهْلِهِ وَزَمَنِهِ وَتَارِيخِهِ وَرَمَتْ بِهِ لِيَمُوتَ ؛ فَإِنْ هَلَكَ فَقَدْ هَلَكَ ، وَإِنْ عَاشَ لِمِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ فَهُوَ مَوْتٌ آخَرُ شَرٌّ مِنْ ذَاكَ ؛ وَمَهْمَا يَتَوَلَّهُ ٱلنَّاسُ وَٱلْمُحْسِنُونَ ، فَلَا يَزَالُ أَوَّلُهُ يَعُودُ عَلَىٰ آخِرِهِ ؛ مِمَّا فِي دَمِهِ وَطِبَاعِهِ ٱلْمَوْرُوثَةِ ؛ وَلَا يَبْرَحُ جَرِيمَةً مُمْتَدَّةً مُتَطَاوِلَةً ، وَلَا يَنْفَكُّ قِصَّةً فِيهَا زَانٍ وَزَانِيَةٌ ، وَفِيهَا خَطِيئَةٌ وَلَعْنَةٌ .

فَهَـٰؤُلَاءِ كَمَا رَأَيْتَ أَوْلَادُ ٱلْجُرْأَةِ عَلَى ٱللهِ ، وَٱلتَّعَدِّي عَلَى ٱلنَّاسِ ، وَٱلِاسْتِخْفَافِ بِٱلشَّرَائِعِ ، وَٱلِاسْتِهْزَاءِ بِٱلْفَضَائِلِ ؛ وَهُمُ ٱلْبُغْضُ ٱلْخَارِجُ مِنَ ٱلْحُبِّ ، وَٱلْوَقَاحَةُ ٱلْآتِيَةُ مِنَ ٱلْخَجَلِ ، وَٱلِاسْتِهْتَارُ ٱلْمُنْبَعِثُ مِنَ ٱلنَّدَامَةِ ؛ وَكُلٌّ مِنْهُمْ مَسْأَلَةُ شَرٍّ تَطْلُبُ حَلَّهَا أَوْ تَعْقِيدَهَا مِنَ ٱلدُّنْيَا ، وَفِيهِمْ دِمَاءٌ فَوَّارَةٌ تَجْمَعُ سُمُومَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّمَا كَبِرُوا سَنَةً فَسَنَةً .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلْفَاسِقِ ٱلَّذِي ٱغْتَرَّ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةَ فَٱسْتَزَلَّهَا وَهَوَّرَهَا فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَهْوَاةِ . أَكَانَ حَقُّ ٱلشَّهْوَةِ عَلَيْهِ أَعْظَمَ مِنْ حَقِّ هَـٰذَا ٱلْآدَمِيِّ . أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا ٱلْآخِرُ هُوَ ٱلْأَوَّلَ فِي ٱلِاعْتِبَارِ ، فَيَعْلَمَ أَنَّ هَـٰذَا ٱللَّقِيطَ ٱلْمِسْكِينَ هُوَ سَبِيلُهُ إِلَىٰ صَاحِبَتِهِ ، وَهُوَ ٱلْبَلَاغُ إِلَىٰ مَا يُحَاوِلُهُ مِنْهَا ؛ فَيَكُونَ كَأَنَّمَا دَخَلَ بَيْنَ ٱلِاثْنَيْنِ ثَالِثٌ يَرَاهُمَا . . . فَلَعَلَّهُمَا يَسْتَحِيَانِ .

(١) أَيْ : وَضَعَتْ وَوَلَدَتْ ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَرَبِيٌّ بَلِيغٌ .

قَالَ ٱلْحُوذِيُّ ٱلْفَيْلَسُوفُ : لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ، وَلَعَنَاتُ ٱللهِ كُلُّهَا ، وَلَعَنَاتُ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّتِيْ ٱنْقَادَتْ لَهُ وَٱغْتَرَّتْ بِهِ . إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيْسَ شَيْئًا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيمَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ بَصْقَةٌ وَاحِدَةٌ تُغْرِقُهُ ، وَكَانَتْ صَفْعَةٌ وَاحِدَةٌ تَهْزِمُهُ ، وَكَانَ مَعَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْحُكُومَةُ وَٱلشَّرَائِعُ وَٱلْفَضَائِلُ ، وَمَعَهَا جَهَنَّمُ أَيْضًا .

أَلَمْ تَعْلَمِ ٱلْحَمْقَاءُ أَنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِيْ لَيْسَ زَوْجًا لَهَا لَيْسَ رَجُلًا مَعَهَا ، وَأَنَّ ٱلشَّرِيعَةَ لَوْ أَيْقَنَتْ أَنَّهُ رَجُلٌ لَمَا حَرَّمَتْ عَلَيْهَا أَنْ تُخَالِطَهُ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ ٱلرَّجُلُ هُوَ ٱلَّذِي سَاوَرَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةَ ، بَلْ هِيَ مَادَّةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِيْ رَأَتْ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ مُسْتَوْدَعَهَا ، فَتُرِيْدُ أَنْ تَقْتَحِمَ إِلَىٰ مَقَرِّهَا عَنْوَةً أَوْ خِدَاعًا أَوْ رِضًى أَوْ كَمَا يَتَّفِقُ ؛ إِذْ كَانَ قَانُوْنُ هَـٰذِهِ ٱلْمَادَّةِ أَنْ تُوْجَدَ ، وَلَا شَيْءَ إِلَّا أَنْ تُوْجَدَ ؛ فَلَا تَعْرِفُ خَيْرًا وَلَا شَرًّا ، وَلَا فَضِيلَةَ وَلَا رَذِيلَةَ .

لِأَيِّهِمَا يَجِبُ ٱلتَّحْصِينُ : أَلِلصَّاعِقَةِ ٱلْمُنْقَضَّةِ ، أَمْ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِيْ يُخْشَىٰ أَنْ تَنْقَضَّ عَلَيْهِ ؟ لَقَدْ أَجَابَتِ ٱلشَّرِيعَةُ ٱلْإِسْلَامِيَّةُ : حَصِّنُوا ٱلْمَكَانَ . وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَدَنِيَّةَ أَجَابَتْ : حَصِّنُوا ٱلصَّاعِقَةَ . . . !

* * *

وَكَانَتِ ٱلْمَرْأَتَانِ ٱلْمُصَاحِبَتَانِ لِجَمَاعَةِ ٱللُّقَطَاءِ تَتَنَاجَيَانِ ، فَقَالَتِ ٱلْكُبْرَىٰ مِنْهُمَا :

يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ٱلصِّغَارِ ٱلْمَسَاكِيْنِ ! إِنَّ حَيَاةَ ٱلْأَطْفَالِ فِيمَا فَوْقَ مَادَّةِ ٱلْحَيَاةِ ، أَيْ فِيْ سُرُوْرِهِمْ وَأَفْرَاحِهِمْ ؛ وَحَيَاةُ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْبَائِسِيْنَ فِيْمَا هُوَ دُوْنَ مَادَّةِ ٱلْحَيَاةِ ، أَيْ فِيْ وُجُوْدِهِمْ فَقَطْ .

وَكِبَرُ ٱلْأَطْفَالِ يَكُوْنُ مِنْهُ إِدْخَالُهُمْ فِيْ نِظَامِ ٱلدُّنْيَا ، وَكِبَرُ هَـٰؤُلَاءِ إِخْرَاجُهُمْ مِنَ « ٱلْمَلْجَإِ » وَهُوَ كُلُّ ٱلنِّظَامِ فِيْ دُنْيَاهُمْ ، لَيْسَ بَعْدَهُ إِلَّا ٱلتَّشْرِيْدُ وَٱلْفَقْرُ وَٱبْتِدَاءُ ٱلْقِصَّةِ ٱلْمُحْزِنَةِ .

فَقَالَتِ ٱلصُّغْرَىٰ : وَلِمَ لَا يَفْرَحُوْنَ كَأَوْلَادِ ٱلنَّاسِ ، أَلَيْسَتِ ٱلطَّبِيعَةُ لَهُمْ جَمِيعًا ، وَهَلْ تَجْمَعُ ٱلشَّمْسُ أَشِعَّتَهَا عَنْ هَـٰؤُلَاءِ لِتُضَاعِفَهَا لِأُولَـٰئِكَ ؟

قَالَتِ ٱلْأُخْرَىٰ : ٱلطَّبِيعَةُ ؟ تَقُوْلِيْنَ ٱلطَّبِيعَةُ ؟ إِنَّكِ يَا ٱبْنَتِيْ عَذْرَاءُ لَمْ تَبْدَأْ فِيْ حَيَاتِكِ

حَيَاةٌ بَعْدُ ، وَلَمْ تُجَاوِبِيْ بِقَلْبِكِ ٱلْقَلْبَ ٱلصَّغِيْرَ ٱلَّذِيْ كَانَ تَحْتَ قَلْبِكِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتِ مَعَ هَـٰؤُلَاءِ (مُوَظَّفَةٌ) لَا تَعْرِفِيْنَ مِنْهُمْ إِلَّا جَانِبَ ٱلنِّظَامِ وَقَانُوْنَ ٱلْمَلْجَإِ .

لَقَدْ وَلَدْتُ يَا ٱبْنَتِيْ خَمْسَةَ أَطْفَالٍ ، وَبِٱلْعَيْنِ ٱلْبَلِيْغَةِ ٱلَّتِيْ أَنْظُرُ بِهَا إِلَيْهِمْ أَنْظُرُ إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ؛ فَمَا أَرَاهُمْ إِلَّا مُنْقَطِعِيْنَ مِنْ صِلَةِ ٱلْقَلْبِ ٱلْإِنْسَانِيِّ : يَعْبِسُ لَهُمْ حَتَّىٰ ٱلْجَوُّ ، وَيُظْلِمُ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ ٱلنُّوْرُ ؛ وَيَبْدُو ٱلطِّفْلُ مِنْهُمْ عَلَىٰ صِغَرِهِ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ ٱلْغَمَّ ٱلْمُقْبِلَ عَلَيْهِ طُوْلَ عُمْرِهِ .

يَا لَهْفِيْ عَلَىٰ عُوْدٍ أَخْضَرَ نَاعِمٍ رَيَّانَ كَانَ لِلثَّمَرِ فَقِيْلَ لَهُ : كُنْ لِلْحَطَبِ !

ٱلْفَرَحُ يَا ٱبْنَتِيْ هُوَ شُعُوْرُ ٱلْحَيِّ بِأَنَّهُ حَيٌّ كَمَا يَهْوَىٰ ، وَرُؤْيَتُهُ نَفْسَهُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ فِيْ ٱلْحَيَاةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ . وَهَـٰؤُلَاءِ ٱللُّقَطَاءُ فِيْ حَيَاةٍ عَامَّةٍ قَدْ نُزِعَتْ مِنْهَا ٱلْأُمُّ وَٱلْأَبُ وَٱلدَّارُ ، فَلَيْسَ لَهُمْ مَاضٍ كَٱلْأَطْفَالِ ، وَكَأَنَّهُمْ يَبْدَؤُوْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَا مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأُمَّهَاتِ .

قَالَتِ ٱلصَّغِيْرَةُ : وَلَـٰكِنَّهُمْ أَطْفَالٌ .

قَالَتْ تِلْكَ : نَعَمْ يَا ٱبْنَتِيْ هُمْ أَطْفَالٌ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ طُرِدُوا مِنْ حُقُوْقِ ٱلطُّفُوْلَةِ كَمَا طُرِدُوا مِنْ حُقُوْقِ ٱلْأَهْلِ . وَحَسْبُكِ بِشَقَاءِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِيْ لَمْ يَعْرِفْ مِنْ حَنَانِ أُمِّهِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقْتُلْهُ ، وَلَا مِنْ شَفَقَتِهَا إِلَّا أَنَّهَا طَرَحَتْهُ فِيْ ٱلطَّرِيْقِ .

إِنَّ ٱلطَّبِيْعَةَ كُلَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تُعْطِيَ أَحَدَهُمْ مَكَانًا كَٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِيْ كَانَ يَتَبَوَّؤُهُ بَيْنَ أُمِّهِ وَأَبِيْهِ .

لَيْسَ ٱلْأَطْفَالُ يَا ٱبْنَتِيْ إِلَّا صُوَرًا مُبْهَمَةً صَغِيْرَةً مِنْ كُلِّ جَمَالِ ٱلْعَالَمِ ، تُفَسِّرُهَا أَعْيُنُ ذَوِيْهِمْ بِكُلِّ ٱلتَّفَاسِيْرِ ٱلْقَلْبِيَّةِ ٱلْجَمِيْلَةِ ؛ فَأَيْنَ أَيْنَ ٱلْعُيُوْنُ ٱلَّتِيْ فِيْهَا تَفْسِيْرُ هَـٰذِهِ ٱلصُّوَرِ ٱللَّقِيْطَةِ ؟

أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ عَلَىٰ أُولَـٰئِكَ ٱلرِّجَالِ ٱلْأَنْذَالِ ٱلطَّغَامِ ٱلَّذِيْنَ أَوْلَدُوا ٱلنِّسَاءَ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمَنْبُوْذِيْنَ ! يَزْعُمُوْنَ لِأَنْفُسِهِمُ ٱلرُّجُوْلَةَ ، فَهَـٰذِهِ هِيَ رُجُوْلَتُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيْنَا ، هَـٰذِهِ هِيَ شَهَامَتُهُمْ ، هَـٰذِهِ هِيَ عُقُوْلُهُمْ ، هَـٰذِهِ هِيَ آدَابُهُمْ . . . !

عَجَبًا ، إِنَّ سَيِّئَاتِ ٱللُّصُوْصِ وَٱلْقَتَلَةِ كُلَّهَا يُنْسَىٰ وَيَتَلَاشَىٰ ، وَلَـٰكِنَّ سَيِّئَاتِ ٱلْعُشَّاقِ

وَٱلْمُحِبِّينَ تَعِيشُ وَتَكْبُرُ . . .

أَكَانَ ذَنْبُ ٱلْمَرْأَةِ أَنَّهَا صَادِقَةٌ فَصَدَّقَتْ ، وَأَنَّهَا مُخْلِصَةٌ فَأَخْلَصَتْ ، وَأَنَّهَا رَقِيقَةٌ فَلَانَتْ ، وَأَنَّهَا مُحْسِنَةٌ فَرَحِمَتْ ، وَأَنَّهَا سَلِيمَةُ ٱلْقَلْبِ فَٱنْخَدَعَتْ ؟

وَاكَبِدِي لِلْمِسْكِينَةِ ! هَلِ ٱنْخَدَعَتْ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْأُمُومَةِ ٱلَّتِي خُلِقَتْ لَهَا ؟ هَلِ ٱنْخَدَعَتْ إِلَّا ٱلْأُمُّ ٱلَّتِي فِيهَا ؟ وَهَلْ خَدَعَهَا مِنْ ذَلِكَ ٱللَّئِيمِ إِلَّا ٱلْأَبُ ٱلَّذِي فِيهِ ؟

وَاكَبِدِي لِمَنْ تُفْجَعُ بِٱلنَّكْبَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ثَلَاثَ فَجَائِعَ : فِي كَرَامَتِهَا ٱلَّتِي ٱبْتُذِلَتْ ، وَفِي ٱلْحَبِيبِ ٱلَّذِي تَبَرَّأَ مِنْهَا ، وَفِي طِفْلِهَا ٱلَّذِي قَطَعَتْهُ بِيَدِهَا مِنْ قَلْبِهَا وَتَرَكَتْهُ لِمَا كُتِبَ عَلَيْهِ . . . !

إِنَّ هَـٰذَا لَا يُعَوِّضُهُ فِي ٱلطَّبِيعَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْ أُولَـٰئِكَ ٱلْأَنْذَالِ ثَلَاثُ أَرْوَاحٍ ، فَيُقْتَلُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : وَاحِدَةً بِٱلشَّنْقِ ، وَٱلثَّانِيَةَ بِٱلْحَرْقِ ، وَٱلثَّالِثَةَ بِٱلرَّجْمِ بِٱلْحِجَارَةِ .

* * *

وَكَانَ ٱللُّقَطَاءُ قَدْ تَبَعْثَرُوا عَلَىٰ ٱلسَّاحِلِ جَمَاعَاتٍ وَشَتَّىٰ ، فَوَقَفَ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ طِفْلٍ صَغِيرٍ يَلْعَبُ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأُمُّهُ عَلَىٰ كَثَبٍ مِنْهُ ، وَهِيَ تَتَلَهَّىٰ بِٱلْمُخَرَّمِ تَتَلَوَّىٰ فِيهِ أَصَابِعُهَا .

فَنَظَرَ ٱلطِّفْلُ إِلَىٰ ٱللَّقِيطِ وَأَوْمَأَ إِلَىٰ جَمَاعَتِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَأَنْتُمْ جَمِيعًا أَوْلَادُ هَاتَيْنِ ٱلْمَرْأَتَيْنِ أَمْ إِحْدَاهُمَا ؟

قَالَ ٱللَّقِيطُ : هُمَا ٱلْمُرَاقِبَتَانِ ؛ وَأَنْتَ أَفَلَيْسَتْ هَـٰذِهِ ٱلَّتِي مَعَكَ مُرَاقِبَةً ؟

قَالَ ٱلطِّفْلُ : مَا مَعْنَىٰ مُرَاقِبَةٌ ؟ هَـٰذِهِ مَامَا !

قَالَ ٱلْآخَرُ : فَمَا مَعْنَىٰ مَامَا ؟ هَـٰذِهِ مُرَاقِبَةٌ .

قَالَ ٱلطِّفْلُ : وَكُلُّكُمْ أَهْلُ دَارٍ وَاحِدَةٍ ؟

قَالَ : نَحْنُ فِي ٱلْمَلْجَأِ ، وَمَتَىٰ كَبِرْنَا أَخَذُونَا إِلَىٰ دُورِنَا .

فَقَالَ ٱلطِّفْلُ : وَهَلْ تَبْكِي فِي ٱلْمَلْجَأِ إِذَا أَرَدْتَ شَيْئًا لِيُعْطُوكَ ؛ ثُمَّ تَغْضَبُ إِذَا أَعْطُوكَ

لِيَزِيدُوكَ ؟ وَهَلْ يُسْكِتُونَكَ بِٱلْقِرْشِ وَٱلْحَلْوَىٰ ؟ وَٱلْقُبْلَةِ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْخَدِّ وَعَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْخَدِّ ؟ إِنْ كَانَ هَـٰذَا فَأَنَا أَذْهَبُ مَعَكُمْ إِلَىٰ ٱلْمَلْجَأِ ؛ فَإِنَّ أَبِي قَدْ ضَرَبَنِي ٱلْيَوْمَ ، وَقَدْ أَمَرَ (مَامَا) أَنْ لَا تُعْطِيَنِي شَيْئًا إِذَا بَكَيْتُ ، وَلَا تَزِيدَنِي إِذَا غَضِبْتُ ، وَلَا . . . .

وَهُنَا صَاحَتِ ٱلْمُرَاقِبَةُ ٱلصَّغِيرَةُ : تَعَالَ يَا رَقْمَ عَشَرَةَ . . . فَلَوَىٰ ٱللَّقِيطُ ٱلْمِسْكِينُ وَجْهَهُ ، وَٱنْصَاعَ وَأَدْبَرَ .

« وَمَشَىٰ ٱلْأَطْفَالُ بِوُجُوهٍ يَتِيمَةٍ ، يَقْرَأُ مَنْ يَقْرَأُ فِيهَا أَنَّهَا مُسْتَسْلِمَةٌ ، مُسْتَكِينَةٌ ، مُعْتَرِفَةٌ أَنْ لَا حَقَّ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ هَـٰذَا ٱلْعَالَمِ إِلَّا هَـٰذَا ٱلْإِحْسَانَ ٱلْبَخْسَ ٱلْقَلِيلَ » . . .

إسكندرية — مصطفى صادق الرافعي

ٱللهُ أَكْبَرُ ! (*)

جَلَسْتُ وَقَدْ مَضَىٰ هَزِيعٌ مِنَ ٱللَّيْلِ ، أُهَيِّئُ فِي نَفْسِي بِنَاءَ قِصَّةٍ أُدِيرُهَا عَلَىٰ فَتًى كَمَا أُحِبُّ . . . خَبِيثٍ دَاعِرٍ ، وَفَتَاةٍ كَمَا أُحِبُّ . . . عَذْرَاءَ مُتَمَاجِنَةٍ ؛ كِلَاهُمَا قَدْ دَرَسَ وَتَخَرَّجَ فِي ثَلَاثَةِ مَعَاهِدَ : ٱلْمَدْرَسَةِ ، وَٱلرِّوَايَاتِ ٱلْغَرَامِيَّةِ ، وَٱلسِّينِمَا . وَهُوَ مِصْرِيٌّ مُسْلِمٌ ، وَهِيَ مِصْرِيَّةٌ مَسِيحِيَّةٌ . وَلِلْفَتَىٰ هَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ لَا يَتَنَزَّهُ وَلَا يَتَوَرَّعُ ؛ وَهُوَ مِنْ شَبَابِهِ كَٱلْمَاءِ يَغْلِي ، وَمِنْ أَنَاقَتِهِ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَلْحَقَهُ تَاءُ ٱلتَّأْنِيثِ . . . وَقَدْ تَشَعَّبَتْ بِهِ فُنُونُ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ، فَرَفَعَ ٱللهُ يَدَهُ عَنْ قَلْبِهِ لَا يُبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ ؛ وَهُوَ طَلَبُ نِسَاءٍ ، دَأْبُهُ ٱلتَّجْوَالُ فِي طُرُقِهِنَّ ، يَتَبَعُهُنَّ وَيَتَعَرَّضُ لَهُنَّ ، وَقَدْ أَلِفَتْهُ ٱلطُّرُقُ حَتَّىٰ لَوْ تَكَلَّمَتْ لَقَالَتْ : هَـٰذَا ضَرْبٌ عَجِيبٌ مِنْ عَرَبَاتِ ٱلْكَنْسِ . . . !

وَلِلْفَتَاةِ تَبَرُّجٌ وَتَهَتُّكٌ ، يَعْبَثُ بِهَا ٱلْعَبَثُ نَفْسُهُ ، وَقَدْ أَخْرَجَتْهَا فُنُونُ هَـٰذَا ٱلتَّأَنُّثِ ٱلْأُورُبِّيِّ ٱلْقَائِمِ عَلَىٰ فَلْسَفَةِ ٱلْغَرِيزَةِ ، وَمَا يُسَمُّونَهُ « ٱلْأَدَبَ ٱلْمَكْشُوفَ » كَمَا يُصَوِّرُهُ أُولَـٰئِكَ ٱلْكُتَّابُ ٱلَّذِينَ نَقَلُوا إِلَى ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فَلْسَفَةَ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلْحُرَّةِ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ ٱلْحُرَّةِ . . . فَهِيَ تَبْرُزُ حِينَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا ، لَا إِلَى ٱلطَّرِيقِ ، وَلَـٰكِنْ إِلَىٰ نَظَرَاتِ ٱلرِّجَالِ ؛ وَتَظْهَرُ حِينَ تَظْهَرُ ، مُصَوَّرَةً لَا بِتَلْوِينِ نَفْسِهَا مِمَّا يَجُوزُ وَمَا لَا يَجُوزُ ، وَلَـٰكِنْ بِتَلْوِينِ مِرْآتِهَا مِمَّا يُعْجِبُ وَمَا لَا يُعْجِبُ .

وَكِلَا ٱثْنَيْهِمَا لَا يُقِيمُ وَزْنًا لِلدِّينِ ، وَٱلْمُسْلِمُ وَٱلْمَسِيحِيُّ مِنْهُمَا هُوَ ٱلِٱسْمُ وَحْدَهُ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ وَضْعِ ٱلْوَالِدَيْنِ (رَحِمَهُمَا ٱللهُ !) ؛ وَٱلدِّينُ حُرِّيَّةُ ٱلْقَيْدِ لَا حُرِّيَّةُ ٱلْحُرِّيَّةِ ؛ فَأَنْتَ بَعْدَ أَنْ تُقَيِّدَ رَذَائِلَكَ وَضَرَاوَاتِكَ وَشَرَّكَ وَحَيَوَانِيَّتَكَ ـ أَنْتَ مِنْ بَعْدِ هَـٰذَا حُرٌّ مَا وَسِعَتْكَ ٱلْأَرْضُ وَٱلسَّمَاءُ وَٱلْفِكْرُ ؛ لِأَنَّكَ مِنْ بَعْدِ هَـٰذَا مُكَمَّلٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، مُسْتَقِيمٌ عَلَىٰ طَرِيقَتِهَا ؛ وَلَـٰكِنْ هَبْ حِمَارًا تَفَلْسَفَ وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ حُرًّا بِعَقْلِهِ ٱلْحِمَارِيِّ ؛ أَيْ تَقْرِيرِ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْفَلْسَفِيِّ

(*) « الرسالة » العدد ٧٩ ، ٢ شوال سنة ١٣٥٣ هـ = ٧ يناير/كانون الآخر ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٣ ـ ٦ .

ٱلْحِمَارِيِّ فِي ٱلْأَدَبِ . . . فَهَـٰذَا إِنَّمَا يَبْتَغِي إِطْلَاقَ حُرِّيَّتِهِ ، أَيْ : تَسْلِيطَ حِمَارِيَّتِهِ ٱلْكَامِلَةِ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ ٱلْوُجُودِ .

وَتَمْضِي قِصَّتِي فِي أَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ تَمْتَحِنُ بِهَا فُنُونُ هَـٰذِهِ ٱلْفَتَاةِ شَهَوَاتِ هَـٰذَا ٱلْفَتَىٰ ، فَلَا يَزَالُ يَمْشِي مِنْ حَيْثُ لَا يَصِلُ ، وَلَا تَزَالُ تَمْنَعُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُدُّهُ ؛ وَمَا ذَلِكَ مِنْ فَضِيلَةٍ وَلَا ٱمْتِنَاعٍ ، وَلَـٰكِنَّهَا غَرِيزَةُ ٱلْأُنُوثَةِ فِي ٱلِٱسْتِمْتَاعِ بِسُلْطَانِهَا ، وَإِثْبَاتِهَا لِلرَّجُلِ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ هِيَ قُوَّةُ ٱلِٱنْتِظَارِ ، وَقُوَّةُ ٱلصَّبْرِ ؛ وَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلَّتِي تَحْمِلُ جَنِينَهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فِي جَوْفِهَا ، تُمْسِكُ رَغْبَتَهَا فِي نَفْسِهَا مُدَّةَ حَمْلٍ فِكْرِيٍّ إِذَا هِيَ أَرَادَتِ ٱلْحَيَاةَ لِرَغْبَتِهَا ، لِيَكُونَ لِوُقُوعِهَا وَتَحَقُّقِهَا مِثْلُ ٱلْمِيلَادِ { ٱلْمُفْرِحِ } .

وَلَـٰكِنَّ ٱلْمِيلَادَ فِي قِصَّتِي لَا يَكُونُ لِرَذِيلَةِ هَـٰذِهِ ٱلْفَتَاةِ ، بَلْ لِفَضِيلَتِهَا ؛ فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ فِي رَأْيِي ـ وَلَوْ كَانَتْ حَيَاتُهَا مَحْدُودَةً مِنْ جِهَاتِهَا ٱلْأَرْبَعِ بِكَبَائِرِ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَاحِشَةِ ـ لَا يَزَالُ فِيهَا مِنْ وَرَاءِ هَـٰذِهِ ٱلْحُدُودِ كُلِّهَا قَلْبُ طَبِيعَتِهُ ٱلْأُمُومَةُ ، أَيْ : ٱلِٱتِّصَالُ بِمَصْدَرِ ٱلْخَلْقِ ، أَيْ : كُلُّ فَضَائِلِ ٱلْعَقِيدَةِ وَٱلدِّينِ ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَتَنَبَّهَ هَـٰذَا ٱلْقَلْبُ بِحَادِثٍ يَتَّصِلُ بِهِ فَيَبْلُغُ مِنْهُ ، حَتَّىٰ تَتَحَوَّلَ ٱلْمَرْأَةُ تَحَوُّلَ ٱلْأَرْضِ مِنْ فَصْلِهَا ٱلْمُقْشَعِرِّ ٱلْمُجْدِبِ ، إِلَىٰ فَصْلِهَا ٱلنَّضِرِ ٱلْأَخْضَرِ .

فَفِي قِصَّتِي تُذْعِنُ ٱلْفَتَاةُ لِصَاحِبِهَا فِي يَوْمٍ قَدِ ٱعْتَرَتْهَا فِيهِ مَخَافَةٌ ، وَنَزَلَ بِهَا هَمٌّ ، وَكَادَتْهَا ٱلْحَيَاةُ مِنْ كَيْدِهَا ؛ فَكَانَتْ ضَعِيفَةَ ٱلنَّفْسِ بِمَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ . وَتَخْلُو بِٱلْفَتَىٰ وَفِكْرُهَا مُنْصَرِفٌ إِلَىٰ مَصْدَرِ ٱلْغَيْبِ ، مُؤَمِّلٌ فِي رَحْمَةِ ٱلْقَدَرِ ؛ وَيَخْلُبُهَا ٱلشَّابُّ خِلَابَةَ رُعُونَتِهِ وَحُبِّهِ وَلِسَانِهِ ، فَيُعْطِيهَا ٱلْأَلْفَاظَ كُلَّهَا فَارِغَةً مِنَ ٱلْمَعَانِي ، وَيُقِرُّ بِٱلزَّوَاجِ وَهُوَ مُنْطَوٍ عَلَى ٱلطَّلَاقِ بَعْدَ سَاعَةٍ ؛ فَإِذَا أَوْشَكَتِ ٱلْفَتَاةُ أَنْ تُصْرَعَ تِلْكَ ٱلصَّرْعَةَ دَوَّىٰ فِي ٱلْجَوِّ صَوْتُ ٱلْمُؤَذِّنِ : « ٱللهُ أَكْبَرُ ! » .

وَتُلْسَعُ ٱلْفَتَاةُ فِي قَلْبِهَا ، وَتَتَّصِلُ بِهَـٰذَا ٱلْقَلْبِ رُوحَانِيَّةُ ٱلْكَلِمَةِ ، فَتَقَعُ ٱلْحَيَاةُ ٱلسَّمَاوِيَّةُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلْأَرْضِيَّةِ ، وَتَنْتَبِهُ ٱلْعَذْرَاءُ إِلَىٰ أَنَّ ٱللهَ يَشْهَدُ عَارَهَا ، وَيَفْجَؤُهَا أَنَّهَا مُقْدِمَةٌ عَلَىٰ أَنْ تُفْسِدَ مِنْ نَفْسِهَا مَا لَا يُصْلِحُهُ ٱلْمُسْتَحِيلُ فَضْلًا عَنِ ٱلْمُمْكِنِ ، وَتَرْنُو بِعَيْنِ ٱلْفَتَاةِ ٱلطَّاهِرَةِ مِنْ نَفْسِهَا إِلَىٰ جِسْمٍ بَغِيٍّ لَيْسَتْ هِيَ تِلْكَ ٱلَّتِي هِيَ ؛ وَتَنْظُرُ بِعَيْنِ ٱلزَّوْجَةِ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَىٰ فَاسِقٍ

لَيْسَ هُوَ ذَاكَ ٱلَّذِي هُوَ ؛ وَيَحْكِي لَهَا ٱلْمَكَانُ فِي قَلْبِهَا ٱلْمَفْطُورِ عَلَىٰ ٱلْأُمُومَةِ ـ حِكَايَةً تَثُورُ مِنْهَا وَتَشْمَئِزُّ ؛ وَيَصْرُخُ ٱلطِّفْلُ ٱلْمِسْكِينُ صَرْخَتَهُ فِي أُذُنِهَا قَبْلَ أَنْ يُولَدَ وَيُلْقَىٰ فِي ٱلشَّارِعِ . . . !

ٱللهُ أَكْبَرُ ! صَوْتٌ رَهِيبٌ لَيْسَ مِن لُغَةِ صَاحِبِهَا وَلَا مِن صَوْتِهِ وَلَا مِن خِسَّتِهِ ، كَأَنَّمَا تُفْرِغُ ٱلسَّمَاءُ فِيهِ مِلْءَ سَحَابَةٍ عَلَىٰ رِجْسِ قَلْبِهَا فَتُنَقِّيهِ حَتَّىٰ لَيْسَ بِهِ ذَرَّةٌ مِن دَنَسِهِ ٱلَّذِي رَكِبَهُ ٱلسَّاعَةَ . كَانَ لِصَاحِبِهَا فِي حِسِّ أَعْصَابِهَا ذَلِكَ ٱلصَّوْتُ ٱلْأَسْوَدُ ، ٱلْمُنْطَفِئُ ، ٱلْمُبْهَمُ ، ٱلْمُتَلَجْلِجُ مِمَّا فِيهِ مِن قُوَّةِ شَهَوَاتِهِ ؛ وَكَانَ لِلْمُؤَذِّنِ صَوْتٌ آخَرُ فِي رُوحِهَا ؛ صَوْتٌ أَحْمَرُ ، مُشْتَعِلٌ كَمَعْمَعَةِ ٱلْحَرِيقِ ، مُجَلْجِلٌ كَٱلرَّعْدِ ، وَاضِحٌ كَٱلْحَقِيقَةِ فِيهِ قُوَّةُ ٱللهِ !

سَمِعَتْ صَوْتَ ٱلسِّلْسِلَةِ وَقَعْقَعَتَهَا تُلْوَىٰ وَتُشَدُّ عَلَيْهَا ، ثُمَّ سَمِعَتْ صَوْتَ ٱلسِّلْسِلَةِ بِعَيْنِهَا يُكَسَّرُ حَدِيدُهَا وَيَتَحَطَّمُ .

كَانَتْ طَهَارَتُهَا تَخْتَنِقُ فَنَفَذَتْ إِلَيْهَا ٱلنَّسَمَاتُ ؛ وَطَارَتِ ٱلْحَمَامَةُ حِينَ دَعَاهَا صَوْتُ ٱلْجَوِّ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أَسَفَّتْ حِينَ دَعَاهَا صَوْتُ ٱلْأَرْضِ . طَارَتِ ٱلْحَمَامَةُ ، لِأَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ ٱلْتَفَتَتْ فِيهَا لَفْتَةً أُخْرَىٰ .

وَيُكَرِّرُ ٱلْمُؤَذِّنُ فِي خِتَامِ أَذَانِهِ : « ٱللهُ أَكْبَرُ ٱللهُ أَكْبَرُ ! » فَإِذَا . . .

* * *

وَتَبَلَّدَ خَاطِرِي ، فَوَقَفْتُ فِي بِنَاءِ ٱلْقِصَّةِ عِندَ هَـٰذَا ٱلْحَدِّ ، وَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ يَكُونُ جَوَابُ « إِذَا . . . » فَتَرَكْتُ فِكْرِي يَعْمَلُ عَمَلَهُ كَمَا تُلْهِمُهُ ٱلْوَاعِيَةُ ٱلْبَاطِنَةُ ، وَنِمْتُ . . .

وَرَأَيْتُ فِي نَوْمِي أَنِّي أَدْخُلُ ٱلْمَسْجِدَ لِصَلَاةِ ٱلْعِيدِ وَهُوَ يَعُجُّ بِتَكْبِيرِ ٱلْمُصَلِّينَ : « ٱللهُ أَكْبَرُ ٱللهُ أَكْبَرُ ! » وَلَهُمْ هَدِيرٌ كَهَدِيرِ ٱلْبَحْرِ فِي تَلَاطُمِهِ . وَأَرَىٰ ٱلْمَسْجِدَ قَدْ غَصَّ بِٱلنَّاسِ فَٱتَّصَلُوا وَتَلَاحَمُوا ؛ تَجِدُ ٱلصَّفَّ مِنْهُمْ عَلَىٰ ٱسْتِوَائِهِ كَمَا تَجِدُ ٱلسَّطْرَ فِي ٱلْكِتَابِ : مَمْدُودًا مُحْتَبِكًا يَنْتَظِمُهُ وَضْعٌ وَاحِدٌ ، وَأَرَاهُمْ تَتَابَعُوا صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ ، وَنَسَقًا عَلَىٰ نَسَقٍ ، فَٱلْمَسْجِدُ بِهِمْ كَٱلسُّنْبُلَةِ مُلِئَتْ حَبًّا مَا بَيْنَ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا ؛ كُلُّ حَبَّةٍ هِيَ فِي لِفٍّ مِنْ أَهْلِهَا وَشَمْلِهَا ، فَلَيْسَ فِيهِنَّ عَلَىٰ ٱلْكَثْرَةِ حَبَّةٌ وَاحِدَةٌ تُمَيِّزُهَا ٱلسُّنْبُلَةُ فَضْلَ تَمْيِيزٍ ، لَا فِي ٱلْأَعْلَىٰ

وَلَا فِي ٱلْأَسْفَلِ .

وَأَقِفُ مُتَحَيِّرًا مُتَلَدِّدًا أَلْتَفِتُ هَـٰهُنَا وَهَـٰهُنَا ، لَا أَدْرِي كَيْفَ أَخْلُصُ إِلَىٰ مَوْضِعٍ أَجْلِسُ فِيهِ ؛ ثُمَّ أَمْضِي أَتَخَطَّىٰ ٱلرِّقَابَ أَطْمَعُ فِي فُرْجَةٍ أَقْتَحِمُهَا وَمَا تَنْفَرِجُ ، حَتَّىٰ أَنْتَهِيَ إِلَىٰ ٱلصَّفِّ ٱلْأَوَّلِ ؛ وَأَنْظُرُ إِلَىٰ جَانِبِ ٱلْمِحْرَابِ شَيْخًا بَادِنًا يَمْلَأُ مَوْضِعَ رَجُلَيْنِ ، وَقَدْ نَفَحَ مِنْهُ رِيحُ ٱلْمِسْكِ ، وَهُوَ فِي ثِيَابٍ مِن سُنْدُسٍ خُضْرٍ ؛ فَلَمَّا حَاذَيْتُهُ جَمَعَ نَفْسَهُ وَٱنْكَمَشَ ، فَكَأَنَّمَا هُوَ يُطْوَىٰ طَيًّا ، وَرَأَيْتُ مَكَانًا وَسِعَنِي فَحَطَطْتُ فِيهِ إِلَىٰ جَانِبِهِ ، وَأَنَا أَعْجَبُ لِلرَّجُلِ كَيْفَ ضَاقَ وَلَمْ أُضَيِّقْ عَلَيْهِ ، وَأَيْنَ ذَهَبَ نِصْفُهُ ٱلضَّخْمُ وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضِهِ زِيَمًا عَلَىٰ زِيَمٍ(١) وَٱمْتِلَاءً عَلَىٰ ٱمْتِلَاءٍ .

وَجَعَلْتُ أَحْدُسُ عَلَيْهِ ظَنِّي ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهُ مَلَكٌ مِن مَلَائِكَةِ ٱللهِ قَدْ تَمَثَّلَ فِي ٱلصُّورَةِ ٱلْآدَمِيَّةِ فَٱكْتَتَمَ فِيهَا لِأَمْرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ .

وَضَجَّ ٱلنَّاسُ : « ٱللهُ أَكْبَرُ ٱللهُ أَكْبَرُ ! » فِي صَوْتٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلنَّاسَ مِمَّا أَلِفُوا ٱلْكَلِمَةَ وَمِمَّا جَهِلُوا مِن مَعْنَاهَا ـ لَا يَسْمَعُونَهَا إِلَّا كَمَا يَسْمَعُونَ ٱلْكَلَامَ ؛ أَمَّا ٱلَّذِي إِلَىٰ جَانِبِي فَكَانَ يَنْتَفِضُ لَهَا ٱنْتِفَاضَةً رَجَّتْنِي مَعَهُ رَجًّا ، إِذْ كُنْتُ مُلْتَصِقًا بِهِ مُنَاكِبًا لَهُ ؛ وَكَأَنَّ ٱلْمَسْجِدَ فِي نَفْضِهِ إِيَّانَا كَانَ قِطَارًا يَجْرِي بِنَا فِي سُرْعَةِ ٱلسَّحَابِ ، فَكُلُّ مَا فِيهِ يَرْتَجُّ وَيَهْتَزُّ . وَرَأَيْتُ صَاحِبِي يَذْهَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَتَلَأْلَأُ عَلَىٰ وَجْهِهِ نُورٌ لِكُلِّ تَكْبِيرَةٍ ، كَأَنَّ هُنَاكَ مِصْبَاحًا لَا يَزَالُ يَنْطَفِئُ وَيَشْتَعِلُ ؛ فَقَطَعْتُ ٱلرَّأْيَ أَنَّهُ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ .

ثُمَّ أُقِيمَتِ ٱلصَّلَاةُ وَكَبَّرَ ٱلْإِمَامُ وَكَبَّرَ أَهْلُ ٱلْمَسْجِدِ ، وَكُنْتُ قَرَأْتُ أَنَّ بَعْضَهُمْ صَلَّىٰ خَلْفَ رَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ ٱلنُّفُوسِ ٱلَّذِينَ يَعْرِفُونَ ٱللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ؛ قَالَ : فَلَمَّا كَبَّرَ قَالَ : « ٱللهُ . . . » ثُمَّ بُهِتَ وَبَقِيَ كَأَنَّهُ جَسَدٌ لَيْسَ بِهِ رُوحٌ مِنْ إِجْلَالِهِ للهِ تَعَالَىٰ ؛ ثُمَّ قَالَ : « أَكْبَرُ » يَعْزِمُ بِهَا عَزْمًا ، فَظَنَنْتُ أَنَّ قَلْبِي قَدِ ٱنْقَطَعَ مِنْ هَيْبَةِ تَكْبِيرِهِ .

قُلْتُ أَنَا : أَمَّا ٱلَّذِي إِلَىٰ جَانِبِي ، فَلَمَّا كَبَّرَ مَدَّ صَوْتَهُ مَدًّا يَنْبَثِقُ مِنْ رُوحِهِ وَيَسْتَطِيرُ ،

---

(١) { أَيْ : كُتَلًا عَلَىٰ كُتَلٍ ، وَٱلزِّيَمُ : ٱلْمُتَفَرِّقُ مِنَ ٱللَّحْمِ } .

فَلَوْ كَانَ ٱلصَّوْتُ نُورًا لَمَلأَ مَا بَيْنَ ٱلْفَجْرِ وَٱلضُّحَىٰ .

* * *

وَعَرَفْتُ وَٱللهِ مِنْ مَعْنَى ٱلْمَسْجِدِ مَا لَمْ أَعْرِفْ ، حَتَّىٰ كَأَنِّي لَمْ أَدْخُلْهُ مِنْ قَبْلُ ، فَكَانَ هَـٰذَا ٱلْجَالِسُ إِلَىٰ جَانِبِي كَضَوْءِ ٱلْمِصْبَاحِ فِي ٱلْمِصْبَاحِ ؛ فَٱنْكَشَفَ لِيَ ٱلْمَسْجِدُ فِي نُورِهِ ٱلرُّوحِيِّ عَنْ مَعَانٍ أَدْخَلَتْنِي مِنَ ٱلدُّنْيَا فِي دُنْيَا عَلَىٰ حِدَةٍ . فَمَا ٱلْمَسْجِدُ بِنَاءً وَلَا مَكَانًا كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْبِنَاءِ وَٱلْمَكَانِ ، بَلْ هُوَ تَصْحِيحٌ لِلْعَالَمِ ٱلَّذِي يَمُوجُ مِنْ حَوْلِهِ وَيَضْطَرِبُ ؛ فَإِنَّ فِي ٱلْحَيَاةِ أَسْبَابَ ٱلزَّيْغِ وَٱلْبَاطِلِ وَٱلْمُنَافَسَةِ وَٱلْعَدَاوَةِ وَٱلْكَيْدِ وَنَحْوِهَا ، وَهَـٰذِهِ كُلُّهَا يَمْحُوهَا ٱلْمَسْجِدُ إِذْ يَجْمَعُ ٱلنَّاسَ مِرَارًا فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَىٰ سَلَامَةِ ٱلصَّدْرِ ، وَبَرَاءَةِ ٱلْقَلْبِ ، وَرُوحَانِيَّةِ ٱلنَّفْسِ ؛ وَلَا تَدْخُلُهُ إِنْسَانِيَّةُ ٱلْإِنْسَانِ إِلَّا طَاهِرَةً مُنَزَّهَةً مُسْبِغَةً عَلَىٰ حُدُودِ جِسْمِهَا مِنْ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ شِعَارَ ٱلطُّهْرِ ٱلَّذِي يُسَمَّىٰ ٱلْوُضُوءَ ، كَأَنَّمَا يَغْسِلُ ٱلْإِنْسَانُ آثَارَ ٱلدُّنْيَا عَنْ أَعْضَائِهِ قَبْلَ دُخُولِهِ ٱلْمَسْجِدَ .

ثُمَّ يَسْتَوِي ٱلْجَمِيعُ فِي هَـٰذَا ٱلْمَسْجِدِ ٱسْتِوَاءً وَاحِدًا ، وَيَقِفُونَ مَوْقِفًا وَاحِدًا ، وَيَخْشَعُونَ خُشُوعًا وَاحِدًا ، وَيَكُونُونَ جَمِيعًا فِي نَفْسِيَّةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَلَيْسَ هَـٰذَا وَحْدَهُ ، بَلْ يَخِرُّونَ إِلَى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا سَاجِدِينَ للهِ ؛ فَلَيْسَ لِرَأْسٍ عَلَىٰ رَأْسٍ ٱرْتِفَاعٌ ، وَلَا لِوَجْهٍ عَلَىٰ وَجْهٍ تَمْيِيزٌ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَلَيْسَ لِذَاتٍ عَلَىٰ ذَاتٍ سُلْطَانٌ . وَهَلْ تُحَقِّقُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ وَحْدَتَهَا فِي ٱلنَّاسِ بِأَبْدَعَ مِنْ هَـٰذَا ؟ وَلَعَمْرِي أَيْنَ يَجِدُ ٱلْعَالَمُ صَوَابَهُ إِلَّا هَـٰهُنَا ؟

فَٱلْمَسْجِدُ هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ مَوْضِعُ ٱلْفِكْرَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ٱلطَّاهِرَةِ ٱلْمُصَحِّحَةِ لِكُلِّ مَا يَزِيغُ بِهِ ٱلِاجْتِمَاعُ . هُوَ فِكْرٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ ٱلرُّؤُوسِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ حَلٌّ وَاحِدٌ لِكُلِّ ٱلْمَشَاكِلِ ، وَكَمَا يَشُقُّ ٱلنَّهْرُ فَتَقِفُ ٱلْأَرْضُ عِنْدَ شَاطِئَيْهِ لَا تَتَقَدَّمُ ، يُقَامُ ٱلْمَسْجِدُ فَتَقِفُ ٱلْأَرْضُ بِمَعَانِيهَا ٱلتُّرَابِيَّةِ خَلْفَ جُدْرَانِهِ لَا تَدْخُلُهُ .

* * *

وَمَا حَرَكَةٌ فِي ٱلصَّلَاةِ إِلَّا أَوَّلُهَا : « ٱللهُ أَكْبَرُ » وَآخِرُهَا : « ٱللهُ أَكْبَرُ » ؛ فَفِي رَكْعَتَيْنِ مِنْ كُلِّ صَلَاةٍ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ تَكْبِيرَةً يَجْهَرُ ٱلْمُصَلُّونَ بِهَا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ ؛ وَكَأَنِّي لَمْ أَفْطَنْ لِهَـٰذَا مِنْ

قَبْلُ ، فَأَيُّ زِمَامٍ سِيَاسِيٍّ لِلْجَمَاهِيرِ وَرُوحَانِيَّتِهَا أَشَدُّ وَأَوْثَقُ مِنْ زِمَامِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ { ٱلَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مَا فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْإِنْسَانِيِّ } ؟

* * *

وَلَمَّا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ سَلَّمْتُ عَلَى ٱلْمَلَكِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ، وَرَأَيْتُهُ مُقْبِلًا مُخْتَفِيًا ، وَرَأَيْتُنِي أَثِيرًا فِي نَفْسِهِ ، وَجَالَتْ فِي رَأْسِي ٱلْخَوَاطِرُ فَتَذَكَّرْتُ ٱلْقِصَّةَ ٱلَّتِي أُرِيدُ أَنْ أَكْتُبَهَا ؛ وَأَنَّ ٱلْمُؤَذِّنَ يُكَرِّرُ فِي خَاتِمَةِ أَذَانِهِ : « ٱللهُ أَكْبَرُ ٱللهُ أَكْبَرُ » فَإِذَا . . .

وَقُلْتُ : لَأَسْأَلَنَّهُ ، وَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ فِي مَقَالَتِي أَسْطُرٌ يُلْهِمُهَا مَلَكٌ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ ! وَلَمْ أَكَدْ أَرْفَعُ وَجْهِي إِلَيْهِ حَتَّىٰ قَالَ :

« . . . فَإِذَا لَطْمَتَانِ عَلَىٰ وَجْهِ ٱلشَّيْطَانِ ، فَوَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ؛ وَوَضَعَتِ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ مَعْنَاهَا فِي مَوْضِعِهِ مِنْ قَلْبِ ٱلْفَتَاةِ ، فَلَأْيًا بِلَأْيٍ مَا نَجَتْ .

إِنَّ ٱلدِّينَ فِي نَفْسِ ٱلْمَرْأَةِ شُعُورٌ رَقِيقٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ هُوَ ٱلْفُولَاذُ ٱلسَّمِيكُ ٱلصُّلْبُ ٱلَّذِي تُصَفَّحُ بِهِ أَخْلَاقُهَا ٱلْمُدَافِعَةُ .

ٱللهُ أَكْبَرُ ! أَتَدْرِي مَاذَا تَقُولُ ٱلْمَلَائِكَةُ إِذَا سَمِعَتِ ٱلتَّكْبِيرَ ؟ إِنَّهَا تُنْشِدُ هَـٰذَا ٱلنَّشِيدَ :

* * *

بَيْنَ ٱلْوَقْتِ وَٱلْوَقْتِ مِنَ ٱلْيَوْمِ تَدُقُّ سَاعَةُ ٱلْإِسْلَامِ بِهَـٰذَا ٱلرَّنِينِ : ٱللهُ أَكْبَرُ ٱللهُ أَكْبَرُ ، كَمَا تَدُقُّ ٱلسَّاعَةُ فِي مَوْضِعٍ لِيَتَكَلَّمَ ٱلْوَقْتُ بِرَنِينِهَا .

* * *

ٱللهُ أَكْبَرُ ! بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِنَ ٱلْيَوْمِ تُرْسِلُ ٱلْحَيَاةُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ نِدَاءَهَا تَهْتِفُ : أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُ ! إِنْ كُنْتَ أَصَبْتَ فِي ٱلسَّاعَاتِ ٱلَّتِي مَضَتْ ، فَٱجْتَهِدْ لِلسَّاعَاتِ ٱلَّتِي تَتْلُو ؛ وَإِنْ كُنْتَ أَخْطَأْتَ ، فَكَفِّرْ وَٱمْحُ سَاعَةً بِسَاعَةٍ ؛ ٱلزَّمَنُ يَمْحُو ٱلزَّمَنَ ، وَٱلْعَمَلُ يُغَيِّرُ ٱلْعَمَلَ ، وَدَقِيقَةٌ بَاقِيَةٌ فِي ٱلْعُمُرِ هِيَ أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي رَحْمَةِ ٱللهِ .

* * *

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ ، يَتَنَاوَلُ ٱلْمُؤْمِنُ مِيزَانَ نَفْسِهِ حِينَ يَسْمَعُ : ٱللهُ أَكْبَرُ ، لِيَعْرِفَ ٱلصِّحَّةَ وَٱلْمَرَضَ مِنْ نِيَّتِهِ ؛ كَمَا يَضَعُ ٱلطَّبِيبُ لِمَرِيضِهِ بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِيزَانَ ٱلْحَرَارَةِ .

* * *

ٱلْيَوْمُ ٱلْوَاحِدُ فِي طَبِيعَةِ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ عُمْرٌ طَوِيلٌ لِلشَّرِّ ، تَكَادُ كُلُّ دَقِيقَةٍ بِشَرِّهَا تَكُونُ يَوْمًا مَخْتُومًا بِلَيْلٍ أَسْوَدَ ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَقْسِمَ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ يَوْمَهَا بِعَدَدِ قَارَّاتِ ٱلدُّنْيَا ٱلْخَمْسِ ، لِأَنَّ يَوْمَ ٱلْأَرْضِ صُورَةٌ مِنَ ٱلْأَرْضِ ؛ وَعِنْدَ كُلِّ قِسْمٍ : مِنَ ٱلْفَجْرِ ، وَٱلظُّهْرِ ، وَٱلْعَصْرِ ، وَٱلْمَغْرِبِ ، وَٱلْعِشَاءِ ـ تَصِيحُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ ٱلْمُؤْمِنَةُ مُنَبِّهَةً نَفْسَهَا : ٱللهُ أَكْبَرُ ، ٱللهُ أَكْبَرُ !

* * *

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِنَ ٱلْيَوْمِ يَعْرِضُ كُلُّ مُؤْمِنٍ حِسَابَهُ ، فَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ وَيَرْفَعُهُ إِلَيْهِ . وَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ لَا يَزَالُ يَنْتَظِرُ طُولَ عُمْرِهِ فِيمَا بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ ـ ٱللهُ أَكْبَرُ . . . ؟

* * *

بَيْنَ ٱلْوَقْتِ وَٱلْوَقْتِ مِنَ ٱلنَّهَارِ وَٱللَّيْلِ تُدَوِّي كَلِمَةُ ٱلرُّوحِ : ٱللهُ أَكْبَرُ . وَيُجِيبُهَا ٱلنَّاسُ : ٱللهُ أَكْبَرُ . لِيَعْتَادَ ٱلْجَمَاهِيرُ كَيْفَ يُقَادُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ بِسُهُولَةٍ ، وَكَيْفَ يُحَقِّقُونَ فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ مَعْنَى ٱجْتِمَاعِ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ ؛ فَتَكُونُ ٱلاسْتِجَابَةُ إِلَى كُلِّ نِدَاءٍ ٱجْتِمَاعِيٍّ مَغْرُوسَةً فِي طَبِيعَتِهِمْ بِغَيْرِ ٱسْتِكْرَاهٍ .

* * *

ٱلنَّفْسُ أَسْمَى مِنَ ٱلْمَادَّةِ ٱلدَّنِيئَةِ ، وَأَقْوَى مِنَ ٱلزَّمَنِ ٱلْمُخَرِّبِ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا تَشْمَئِزُّ نَفْسُهُ مِنَ ٱلدَّنَاءَةِ بِأَنَفَةٍ طَبِيعِيَّةٍ ، وَتَحْمِلُ هُمُومَ ٱلْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ ثَابِتَةٍ .

لَا تَضْطَرِبُوا ؛ هَـٰذَا هُوَ ٱلنِّظَامُ . لَا تَنْحَرِفُوا ؛ هَـٰذَا هُوَ ٱلنَّهْجُ . لَا تَتَرَاجَعُوا ؛ هَـٰذَا هُوَ ٱلنِّدَاءُ . لَنْ يَكْبُرَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مَا دَامَتْ كَلِمَتُكُمْ : ٱللهُ أَكْبَرُ . . . !

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

فِي ٱللَّهَبِ وَلَا تَحْتَرِقُ (*)

أَفِي ٱلْمُمْكِنِ هَـٰذَا ؟

لَعُوبٌ حَسَنَةُ ٱلدَّلِّ ، مُفَاكِهَةٌ مُدَاعِبَةٌ ، تُحْيِي لَيْلَهَا رَاقِصَةً مُغَنِّيَةً ؛ حَتَّىٰ إِذَا ٱعْتَدَلَ ٱللَّيْلُ لِيَمْضِيَ ، وَٱنْتَبَهَ ٱلْفَجْرُ لِيُقْبِلَ ـ ٱنْكَفَأَتْ إِلَىٰ دَارِهَا فَنَضَّتْ وَشْيَهَا ، وَخَرَجَتْ مِنْ زِينَتِهَا ، وَخَلَعَتْ رُوحًا وَلَبِسَتْ رُوحًا ، وَقَالَتْ : ٱللَّهُمَّ إِلَيْكَ ، وَلَبَّيْكَ ٱللَّهُمَّ لَبَّيْكَ . ثُمَّ ذَهَبَتْ فَتَوَضَّأَتْ وَأَفَاضَتِ ٱلنُّورَ عَلَيْهَا ، وَقَامَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا تُصَلِّي . . . !

* * *

هِيَ حَسْنَاءُ فَاتِنَةٌ ، لَوْ سَطَعَ نُورُ ٱلْقَمَرِ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ لَسَطَعَ مِنْ وَجْهِهَا . وَمَا تَرَاهَا فِي يَوْمٍ إِلَّا ظَهَرَتْ لَكَ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَتْ ، حَتَّىٰ لَتَظُنَّ أَنَّ ٱلشَّمْسَ تَزِيدُ وَجْهَهَا فِي كُلِّ نَهَارٍ شُعَاعَةً سَاحِرَةً ، وَأَنَّ كُلَّ فَجْرٍ يَتْرُكُ لَهَا فِي ٱلصُّبْحِ بَرِيقًا وَنَضْرَةً مِنْ قَطَرَاتِ ٱلنَّدَىٰ .

وَتَحْسَبُ أَنَّ لَهَا دَمًا يَطْعَمُ فِيمَا يَطْعَمُ أَنْوَارَ ٱلْكَوَاكِبِ ، وَيَشْرَبُ فِيمَا يَشْرَبُ نَسَمَاتِ ٱللَّيْلِ .

وَإِذَا كَانَتْ فِي وَشْيِهَا وَتَطَارِيفِهَا وَأَصْبَاغِهَا وَحِلَاهَا لَمْ تَجِدْهَا ٱمْرَأَةً ، وَلَـٰكِنْ جَمْرَةً فِي صُورَةِ ٱمْرَأَةٍ ؛ فَلَهَا نُورٌ وَبَصِيصٌ وَلَهَبٌ ، وَفِيهَا طَبِيعَةُ ٱلْإِحْرَاقِ . . . إِنَّ ٱلَّذِي وَضَعَ عَلَىٰ كُلِّ جَمَالٍ سَاحِرٍ فِي ٱلطَّبِيعَةِ خَاتَمَ رَهْبَةٍ ، وَضَعَ عَلَىٰ جَمَالِهَا خَاتَمَ قُرْصِ ٱلشَّمْسِ .

فَإِذَا رَأَيْتَهَا بِتِلْكَ ٱلزِّينَةِ فِي رَقْصِهَا وَتَثَنِّيهَا ، قُلْتَ : هَـٰذِهِ رَوْضَةٌ مُفَتَّنَةٌ ٱشْتَهَتْ أَنْ تَكُونَ ٱمْرَأَةً فَكَانَتْ ، وَهَـٰذَا ٱلرَّقْصُ هُوَ فَنُّ ٱلنَّسِيمِ عَلَىٰ أَغْصَانِهَا .

وَهِيَ مَتَىٰ نَفَذَتْ إِلَى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُجْدِبَةِ مِنْ نَفْسِكَ أَنْشَأَتْ فِي نَفْسِكَ ٱلرَّبِيعَ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ .

(*) « الرسالة » العدد : ٥٧ ، ٢٥ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ٦ أغسطس/آب سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٢٨٣ ـ ١٢٨٥ .

وَتَنْسَجِمُ أَنْغَامُ ٱلْمُوسِيقَىٰ فِي رَشَاقَتِهَا نَغْمَةً إِلَىٰ حَرَكَةٍ ؛ لِأَنَّ جِسْمَهَا ٱلْفَاتِنَ ٱلْجَمِيلَ هُوَ نَفْسُهُ أَنْغَامٌ صَامِتَةٌ تُسْمَعُ وَتُرَىٰ فِي وَقْتٍ مَعًا .

وَتَنْسَكِبُ رُوحُهَا ٱلظَّرِيفَةُ بَيْنَ ٱلرَّقْصِ وَٱلْمُوسِيقِي ، لِتُخْرِجَ لَكَ بِظَرْفِهَا صَرَاحَةَ ٱلْفَنِّ مِنْ إِبْهَامَيْنِ ، كِلَاهُمَا يُعَاوِنُ ٱلْآخَرَ .

وَهِيَ فِي رَقْصِهَا إِنَّمَا تُفَسِّرُ بِحَرَكَاتِ أَعْضَائِهَا أَشْوَاقَ ٱلْحَيَاةِ وَأَفْرَاحَهَا وَأَحْزَانَهَا ، وَتَزِيدُ فِي لُغَةِ ٱلطَّبِيعَةِ لُغَةَ جِسْمِ ٱلْمَرْأَةِ .

وَكَأَنَّ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ فِي قَلْبِهَا ؛ فَهِيَ تَبْعَثُ لِلْقُلُوبِ مَا شَاءَتْ ضَوْءًا وَظُلْمَةً .

وَهِيَ إِلَىٰ ٱلْقِصَرِ ، غَيْرَ أَنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ جَمَالَهَا وَتَمَامَهَا ، حَسِبْتَهَا طَالَتْ لِسَاعَتِهَا .

وَإِلَىٰ ٱلنَّحَافَةِ ، غَيْرَ أَنَّكَ تَنْظُرُ فَإِذَا هِيَ رَابِيَةٌ كَأَنَّ بَعْضَهَا كَانَ مُخْتَبِئًا فِي بَعْضٍ .

وَيُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَحْيَانًا فِي فَنٍّ مِنْ فُنُونِ رَقْصِهَا أَنَّ جِسْمَهَا يَتَثَاءَبُ بِرَعْشَةٍ مِنَ ٱلطَّرَبِ ، فَإِذَا جِسْمُكَ يَهْتَزُّ بِجَوَابِ هَـٰذِهِ ٱلرَّعْشَةِ ، لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَتَثَاءَبَ . . .

وَيُجَنُّ رَقْصُهَا أَحْيَانًا ، وَلَـٰكِنْ لِتُحَقِّقَ بِجُنُونِ ٱلْحَرَكَةِ أَنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْمُوسِيقِيَّ يُصَرِّفُ كُلَّ أَعْضَاءِ جِسْمِهَا .

وَمَهْمَا يَكُنْ طَيْشُ ٱلْفَنِّ فِي تَأَوُّدِهَا وَلَفْتَتِهَا وَنَظْرَتِهَا وَٱبْتِسَامِهَا وَضَحِكِهَا ـ فَفِي وَجْهِهَا دَائِمًا عَلَامَةٌ وَقَارٍ عَابِسَةٌ تَقُولُ لِلنَّاسِ : ٱفْهَمُونِي .

* * *

وَلَمَّا رَأَيْتُهَا شَهِدَ قَلْبِي لَهَا بِأَنَّ عَلَىٰ وَجْهِهَا مَعَ نُورِ ٱلْجَمَالِ نُورَ ٱلْوُضُوءِ ؛ وَأَنَّهَا مُتَحَرِّزَةٌ مُمْتَنِعَةٌ فِي حِصْنٍ مِنْ قَلْبِهَا ٱلْمُؤْمِنِ ، يَبْسُطُ ٱلْأَمْنَ وَٱلسَّلَامَةَ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا ؛ وَأَنَّ لَهَا عَيْنًا عَذْرَاءَ لَا تُحَاوِلُ ٱلتَّعْبِيرَ ، لَا سُؤَالًا وَلَا جَوَابًا وَلَا ٱعْتِرَاضًا بَيْنَهُمَا ؛ وَأَنَّ قُوَّةَ جَمَالِهَا تَسْتَظْهِرُ بِقُوَّةِ نَفْسِهَا ، فَيَكُونُ مَا فِي جَمَالِهَا شَيْئًا غَيْرَ مَا فِي ٱلنِّسَاءِ ـ شَيْئًا عَبْقَرِيًّا بَالِغَ ٱلْقُوَّةِ ، يَكُفُّ ٱلدَّوَاعِيَ ، وَيَحْسِمُ ٱلْخَوَاطِرَ ، وَيُرْغِمُ ٱلْإِعْجَابَ أَنْ يَكُونَ ذُهُولًا وَحَيْرَةً ، وَيُكْرِهُ ٱلْحُبَّ أَنْ يَرْجِعَ مَهَابَةً وَٱحْتِشَامًا .

وَٱلرِّوَايَةُ كُلُّهَا فِي بَاطِنِهَا تَظْهَرُ عَلَىٰ ضَوْءٍ مِنْ مِصْبَاحِ قَلْبِهَا ، وَمَا وَجْهُهَا إِلَّا ٱلشَّاشَةُ ٱلْبَيْضَاءُ لِهَـٰذِهِ « ٱلسِّيمَا » ، وَهَلْ يَكُونُ عَلَىٰ ٱلْوَجْهِ إِلَّا أَخِيلَةُ ٱلْقَلْبِ أَوِ ٱلْفِكْرِ ؟

وَعِنْدِي أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ إِذَا كَانَ لَهَا رَأْيٌ دِينِيٌّ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَمْرُهَا مُجْتَمِعًا فِي هَـٰذَا ٱلرَّأْيِ ، وَكَانَتْ أَخْلَاقُهَا مَحْشُودَةً لَهُ ، مُتَحَفِّلَةً بِهِ ـ فَتِلْكَ هِيَ ٱلْيَاقُوتَةُ ٱلَّتِي تُرْمَىٰ فِي ٱللَّهَبِ وَلَا تَحْتَرِقُ ، وَتَظَلُّ مَعَ كُلِّ تَجْرِبَةٍ عَلَىٰ أَوَّلِ مُجَاهَدَتِهَا ؛ إِذْ يَكُونُ لَهَا فِي طَبِيعَةِ تَرْكِيبِهَا ٱلْيَاقُوتِيِّ مَا تَهْزِمُ بِهِ طَبِيعَةَ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلنَّارِيِّ .

وَلَيْسَ مِنِ ٱمْرَأَةٍ إِلَّا وَقَدْ خَلَقَ ٱللهُ لَهَا طَبِيعَةً يَاقُوتِيَّةً ، هِيَ فِطْرَتُهَا ٱلدِّينِيَّةُ ٱلَّتِي فِيهَا : إِنْ بَقِيَتْ لَهَا هَـٰذِهِ بَقِيَتْ مَعَهَا تِلْكَ ؛ وَلَـٰكِنَّهَا حِينَ تَنْخَلِعُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْفِطْرَةِ تَخْذُلُهَا ٱلْفِطْرَةُ وَٱلطَّبِيعَةُ مَعًا ؛ فَيَجْعَلُ ٱللهُ عِقَابَهَا فِي عَمَلِهَا ، وَيَكِلُهَا إِلَىٰ نَفْسِهَا ؛ فَإِذَا هِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَىٰ أَغْلَاطِهَا وَمَسَاوِئِهَا بِطُرُقٍ عَقْلِيَّةٍ إِنْ كَانَتْ عَالِمَةً ، وَبِطُرُقٍ مَفْضُوحَةٍ إِنْ كَانَتْ جَاهِلَةً . وَمَا بُدٌّ أَنْ تَسْتَسِرَّ بِطِبَاعٍ إِمَّا فَاسِدَةٍ وَإِمَّا فِيهَا قُوَّةُ ٱلِاسْتِحَالَةِ إِلَىٰ ٱلْفَسَادِ ؛ وَيَرْجِعُ ضَمِيرُهَا ٱلْخَالِي مُحَاوِلًا أَنْ يَمْتَلِئَ مِنْ ظَاهِرِهَا ، بَعْدَ أَنْ كَانَ ظَاهِرُهَا هُوَ يَمْتَلِئُ مِنْ ضَمِيرِهَا ، وَتُصْبِحُ ٱلْمَرْأَةُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي حُكْمِ أَسْبَابِ حَيَاتِهَا ، مُصَرَّفَةً بِهَـٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ ، خَاضِعَةً لِمَا يُصَرِّفُهَا ؛ وَيَذْهَبُ ٱلدِّينُ وَيَنْزِلُ فِي مَكَانِهِ ٱلشَّيْطَانُ ؛ وَيَزُولُ ٱلِاسْتِقْرَارُ وَيَحِلُّ فِي مَحَلِّهِ ٱلِاضْطِرَابُ ، وَتَنْطَفِئُ ٱلْأَشِعَّةُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُذِيبُ ٱلْغُيُومَ وَتَمْنَعُهَا أَنْ تَتَرَاكَمَ ، فَإِذَا ٱلْغُيُومُ مُلْتَفٌّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ ؛ وَتُخْذَلُ ٱلْقُوَّةُ ٱلسَّامِيَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ تَنْصُرُ ٱلْمَرْأَةَ عَلَىٰ ضَعْفِهَا فَتَنْصُرُهَا بِذَلِكَ عَلَىٰ أَقْوَىٰ ٱلرِّجَالِ ؛ فَإِذَا ٱلْمَرْأَةُ مِنَ ٱلضَّعْفِ إِلَىٰ تَهَافُتٍ ، تَغْلِبُهَا ٱلْكَلِمَةُ ٱلرَّقِيقَةُ ، وَتَغْتَرُّهَا ٱلْحِيلَةُ ٱلْوَاهِنَةُ ، وَتُوَافِقُ ٱنْخِدَاعَهَا كُلُّ رَغْبَةٍ مُزَيَّنَةٍ ، وَيَسْتَذِلُّهَا طَمَعُهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَذِلَّهَا ٱلطَّامِعُ فِيهَا ؛ وَلْتَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْ هِيَ كَائِنَةً أَصْلًا وَحَسَبًا وَتَهْذِيبًا وَعَقْلًا وَأَدَبًا وَعِلْمًا وَفَلْسَفَةً ، فَلَوْ أَنَّهَا ٱمْرَأَةٌ مِنَ « ٱلْإِسْمِنْتِ ٱلْمُسَلَّحِ » لَتَفَتَّتَتْ بِٱلطَّبِيعَةِ ٱلَّتِي فِي دَاخِلِهَا ، مَا دَامَتِ ٱلطَّبِيعَةُ مُتَوَجِّهَةً إِلَىٰ ٱلْهَدْمِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَتْ مَا كَانَ يُمْسِكُهَا أَنْ تَهْدِمَ وَأَنْ تَنْهَدِمَ .

لَقَدْ رَقَّ ٱلدِّينُ فِي نِسَائِنَا وَرِجَالِنَا . فَهَلْ كَانَتْ عَلَامَةُ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كَلِمَةَ : « حَرَام ، وَحَلَال » قَدْ تَحَوَّلَتْ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ وَأَكْثَرِهِنَّ إِلَىٰ « لَائِقٍ ، وَغَيْرِ لَائِقٍ » ثُمَّ نَزَلَتْ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلشُّبَّانِ وَٱلْفَتَيَاتِ إِلَىٰ « مُعَاقَبٍ عَلَيْهِ قَانُونًا ، وَمُبَاحٍ قَانُونًا . . . » ثُمَّ ٱنْحَطَّتْ آخِرًا عِنْدَ

ٱلسَّوَادِ وَٱلدَّهْمَاءِ إِلَىٰ « مُمْكِنٍ ، وَغَيْرِ مُمْكِنٍ . . . » ؟

* * *

قَالَتِ ٱلْيَاقُوتَةُ ، أَعْنِي ٱلرَّاقِصَةَ :

ـ أَخَذَنِي أَبِي مِنْ عَهْدِ ٱلطُّفُولَةِ بِٱلصَّلَاةِ ، وَأَثْبَتَ فِي نَفْسِي أَنَّ ٱلصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ بِٱلْأَعْضَاءِ إِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْفِكْرُ نَفْسُهُ طَاهِرًا يُصَلِّي لِلهِ مَعَ ٱلْجِسْمِ ، فَإِنْ كَانَتِ ٱلصَّلَاةُ بِٱلْجِسْمِ وَحْدَهُ لَمْ يَزْدَدِ ٱلْمَرْءُ مِنْ رُوحِ ٱلصَّلَاةِ إِلَّا بُعْدًا . وَقَرَّ هَـٰذَا فِي نَفْسِي وَٱعْتَدْتُهُ ، إِذْ كُنْتُ أَتَعَبَّدُ عَلَىٰ مَذْهَبِ ٱلْإِمَامِ ٱلشَّافِعِيِّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، فَأُصَحِّحُ ٱلْفِكْرَ ، وَأَسْتَحْضِرُ ٱلنِّيَّةَ فِي قَلْبِي ، وَأَنْحَصِرُ بِكُلِّي فِي هَـٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلطَّاهِرِ قَبْلَ أَنْ أَقُولَ : « ٱللهُ أَكْبَرُ » ؛ وَبِذَٰلِكَ أَصْبَحَ فِكْرِي قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَخْلَعَ ٱلدُّنْيَا مَتَىٰ شَاءَ وَيَلْبَسَهَا ، وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا ثُمَّ يَعُودَ إِلَيْهَا ؛ وَنَشَأَتْ فِيهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلْمُصَمِّمَةُ ٱلَّتِي تَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَنْصَرِفَ بِي عَمَّا يُفْسِدُ رُوحَ ٱلصَّلَاةِ فِي نَفْسِي ، وَهِيَ سِرُّ ٱلدِّينِ وَعِمَادُهُ .

وَيَا لَهَا حِكْمَةً أَنْ فَرَضَ ٱللهُ عَلَيْنَا هَـٰذِهِ ٱلصَّلَوَاتِ بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ ، لِتَبْقَى ٱلرُّوحُ أَبَدًا إِمَّا مُتَّصِلَةً أَوْ مُهَيَّأَةً لِتَتَّصِلَ . وَلَنْ يَعْجِزَ أَضْعَفُ ٱلنَّاسِ مَعَ رُوحِ ٱلدِّينِ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ بِضْعَ سَاعَاتٍ ، مَتَىٰ هُوَ أَقَرَّ ٱلْيَقِينَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مُتَوَجِّهٌ بَعْدَهَا إِلَىٰ رَبِّهِ ، فَخَافَ أَنْ يَقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُخْطِئًا أَوْ آثِمًا ؛ ثُمَّ هُوَ إِذَا مَلَكَ نَفْسَهُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْفَرِيضَةِ ذَكَرَ أَنَّ بَعْدَهَا ٱلْفَرِيضَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ، وَأَنَّهَا بِضْعُ سَاعَاتٍ كَذَٰلِكَ ، فَلَا يَزَالُ مِنْ عَزِيمَةِ ٱلنَّفْسِ وَطَهَارَتِهَا فِي عُمُرٍ عَلَىٰ صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ ، كَأَنَّهُ بِجُمْلَتِهِ ـ مَهْمَا طَالَ ـ عَمَلُ بِضْعِ سَاعَاتٍ .

قَالَتِ ٱلْيَاقُوتَةُ : وَرَأَيْتُ أَبِي يُصَلِّي ، وَكَذَٰلِكَ رَأَيْتُ أُمِّي ، فَلَا تَكَادُ تُلِمُّ بِي فِكْرَةٌ آثِمَةٌ إِلَّا ٱنْتَصَبَا أَمَامِي ، فَأَكْرَهُ أَنْ أَسْتَلِمَ إِلَيْهِمَا فَأَكُونَ ٱلْفَاسِدَةَ وَهُمَا ٱلصَّالِحَانِ ، وَٱللَّئِيمَةَ وَهُمَا ٱلْكَرِيمَانِ ؛ فَدَمِي نَفْسُهُ ـ بِبَرَكَةِ ٱلدِّينِ ـ يَحْرُسُنِي كَمَا تَرَىٰ .

قُلْتُ : فَهَـٰذَا ٱلرَّقْصُ . . . ؟

قَالَتْ : نَعَمْ ، إِنَّهُ قُضِيَ عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ رَاقِصَةً ، وَأَنْ أَلْتَمِسَ ٱلْعَيْشَ مِنْ أَسْهَلِ ثَلَاثِ طُرُقٍ وَأَلْيَنِهَا وَأَبْعَدِهَا عَنِ ٱلْفَسَادِ ، وَإِنْ كَانَ ٱلْفَسَادُ ظَاهِرَهَا ؛ أُرِيدُ : ٱلرَّقْصَ ، أَوِ ٱلْخِدْمَةَ

فِي ٱلْبَيْتِ ، أَوِ ٱلْعَمَلَ فِي ٱلسُّوقِ . وَأَنَا مُطِيقَةٌ لِحُرِّيَّتِي فِي ٱلْأُولَىٰ ، وَلَـٰكِنِّي لَنْ أَمْلِكَهَا فِي ٱلْأَخِيرَتَيْنِ مَا دَامَ عَلَيَّ هَـٰذَا ٱلْمِيسَمُ مِنَ ٱلْحُسْنِ ؛ وَكَمْ مِنِ ٱمْرَأَةٍ مُتَحَجِّبَةٍ وَهِيَ عَارِيَةُ ٱلرُّوحِ ، وَكَمْ مِنْ سَافِرَةٍ وَرُوحُهَا مُتَحَجِّبَةٌ ؛ إِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ هَـٰذَا فَٱعْلَمْهُ ؛ وَلَيْسَ ٱلسُّؤَالُ مَا سَأَلْتَ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَضْعُهُ هَـٰكَذَا : هَلْ مَا تَرَىٰ هُوَ فِي ثِيَابِي فَقَطْ ، أَوْ هُوَ فِي ثِيَابِي وَنَفْسِي ؟

هَا أَنْتَ ذَا تُغَلْغِلُ نَظْرَتَكَ فِي عَيْنَيَّ إِلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْبَعِيدَةِ ، فَهَلْ تَرَىٰ عَيْنَيْ رَاقِصَةٍ ؟

قُلْتُ : لَا وَٱللهِ ، مَا أَرَىٰ عَيْنَيْ رَاقِصَةٍ ، وَلَـٰكِنْ عَيْنَيْ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ ٱللهِ . . . !
فَٱسْتَضْحَكَتْ وَقَالَتْ : بَلْ قُلْ : عَيْنَيْ مُجَاهِدٍ يَهْزِمُ كُلَّ يَوْمٍ شَيْطَانًا أَوْ شَيْطَانَيْنِ .

إِنِّي لَأَرْقُصُ وَأُغَنِّي ، وَلَـٰكِنْ أَتَدْرِي مَا ٱلَّذِي يُحْرِزُنِي مِنَ ٱلْعَاقِبَةِ ، وَيَحْمِينِي مِنْ وَبَاءِ هَـٰذَا ٱلْجُمْهُورِ ٱلْمَرِيضِ ٱلنَّفْسِ ؟ فَٱعْلَمْ أَنِّي لَا أَشْعُرُ بِٱلْجُمْهُورِ وَلَا بِرُوحِ ٱلْمَسْرَحِ ، إِلَّا كَمَا أَشْعُرُ بِرُوحِ ٱلْمَقْبَرَةِ وَٱلْمُشَيِّعِينَ إِلَيْهَا ؛ فَهَيْهَاتَ بَعْدَ ذَٰلِكَ هَيْهَاتَ ! وَمِنْ هَـٰذَا لَا أُحِسُّ بِقُلُوبِهِمْ وَلَا بِشَهَوَاتِهِمْ ، وَمَا أَنَا بَيْنَهُمْ إِلَّا كَٱلَّتِي تُؤَدِّي عَمَلًا فَنِّيًّا عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ ٱلْأَسَاتِذَةِ ٱلْمُمْتَحِنِينَ ، وَٱلنَّظَّارَةُ يَحْكُمُونَ لَهَا أَوْ عَلَيْهَا ؛ فَهِيَ فِي فِكْرَةِ ٱلِٱمْتِحَانِ ، وَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ فِيمَا شَاؤُوا . . .

وَلَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ ، بَلْ جَمِيعَهُمْ ، يُخْطِئُ فِي طَرِيقَةِ تَنَاوُلِهِ ٱلسَّيَّالَ ٱلْكَهْرَبَائِيَّ ٱلْمُنْبَعِثَ مِنْ نَفْسِي ، وَلَـٰكِنْ لَا عَلَيَّ ، فَهَـٰذَا ٱلسَّيَّالُ نَفْسُهُ يَنْبَعِثُ مِثْلُهُ مِنَ ٱلزَّهْرِ ، وَمِنَ ٱلْقَمَرِ وَٱلْكَوَاكِبِ ، وَمِنْ كُلِّ ٱمْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ تَمْشِي فِي ٱلطَّرِيقِ ، وَمِنْ كُلِّ جَمِيلٍ فِي ٱلطَّبِيعَةِ ، وَحَتَّىٰ مِنَ ٱلْأَمْكِنَةِ وَٱلْبِقَاعِ إِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا ذِكْرَيَاتٌ قَدِيمَةٌ ، أَوْ نَبَّهَتْ بِبَعْضِ مَعَانِيهَا بَعْضَ مَعَانِيهِ ؟

قَالَتِ ٱلْيَاقُوتَةُ : فَأَنَا كَمَا تَرَىٰ ؛ أَضْطَرِبُ وُجُوهًا مِنَ ٱلِٱضْطِرَابِ فِي جَذْبِ ٱلنَّاسِ وَدَفْعِهِمْ مَعًا . وَإِذَا سَلِمَتِ ٱلْمَرْأَةُ مِنْ أَنْ يَغْلِبَهَا ٱلطَّمَعُ عَلَىٰ فِكْرِهَا ، سَلِمَتْ مِنْ أَنْ يَغْلِبَهَا ٱلرَّجُلُ عَلَىٰ فَضِيلَتِهَا . وَفِي ٱلنِّسَاءِ حَوَاسُّ مِغْنَاطِيسِيَّةٌ كَاشِفَةٌ مُنَبِّهَةٌ خُلِقَتْ فِيهِنَّ كَٱلْوِقَايَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ ، لِتَسْلَمَ بِهَا ٱلْمَرْأَةُ مِنْ أَنْ تُخْطِرَ عِفَّتَهَا لِغَرَضٍ ، أَوْ تُغَرِّرَ بِنَفْسِهَا لِإِنْسَانٍ ؛ فَإِنَّكَ لَتُكَلِّمُ ٱلْمَرْأَةَ ، وَتُزَيِّنُ لَهَا مَا تُزَيِّنُ ، وَهِيَ شَاعِرَةٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ ، وَكَأَنَّهَا تَرَىٰ مَا فِي قَلْبِكَ

يَنْشَأُ وَيَتَدَرَّجُ تَحْتَ عَيْنَيْهَا ، وَكَأَنَّهُ فِيْ وِعَاءٍ مِنَ ٱلزُّجَاجِ ٱلرَّقِيْقِ ٱلصَّافِيْ تَحْمِلُهُ عَلَىٰ كَفِّكَ يَشِفُّ وَيَفْضَحُ ، لَا فِيْ قَلْبٍ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ تُخْفِيْهِ بَيْنَ جَنْبَيْكَ فَيُطْوَىٰ وَيُكْتَمُ .

وَلَيْسَ يُبْطِلُ هِدَايَةَ هَـٰذِهِ ٱلْحَاسَّةِ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ إِلَّا طَمَعُهَا ٱلْمَادِّيُّ فِيْ ٱلْمَالِ وَٱلْمَتَاعِ وَٱلزِّيْنَةِ ؛ فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلطَّمَعَ هُوَ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِيْ يَغْلِبُ بِهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَرْأَةَ ، فَبِنَفْسِهَا غَلَبَهَا ! وَإِذَا تَبَذَّلَ طَمَعُ ٱمْرَأَةٍ فِيْ رَجُلٍ فَهِيَ مُوْمِسٌ ، وَإِنْ كَانَتْ عَذْرَاءُ فِيْ خِدْرِهَا .

وَيَا عَجَبًا ! إِنَّ وُجُوْدَ ٱلطَّبِيْعَةِ فِيْ ٱلنَّفْسِ غَيْرُ ٱلشُّعُوْرِ بِهَا ؛ فَلَيْسَ يُشْعِرُ ٱلْمَرْأَةَ بِتَمَامِ طَبِيْعَتِهَا ٱلنِّسَائِيَّةِ إِلَّا ٱلزِّيْنَةُ وَٱلْمَتَاعُ وَمَا بِهِ ٱلْمَتَاعُ وَٱلزِّيْنَةُ ؛ فَكَأَنَّ ٱلْحِكْمَةَ قَدْ وَقَتَهَا وَعَرَّضَتْهَا فِيْ وَقْتٍ مَعًا ، لِتَكُوْنَ هِيَ ٱلْوَاقِيَةَ أَوِ ٱلْمُخْطِرَةَ لِنَفْسِهَا ، فَبِعَمَلِهَا تُجْزَىٰ ، وَمِنْ عَمَلِهَا مَا تَضْحَكُ وَتَبْكِيْ .

قَالَتِ ٱلْيَاقُوْتَةُ : وَلِذَا أَخَذْتُ نَفْسِيْ أَلَّا أَطْمَعَ فِيْ شَيْءٍ مِنْ أَشْيَاءِ ٱلنَّاسِ ، وَسَخَوْتُ عَنْ كُلِّ مَا فِيْ أَيْدِيْهِمْ ؛ فَمَا يَتَكَرَّمُوْنَ عَلَيَّ إِلَّا بِهَلَاكِيْ ، وَحَسْبِيْ أَنْ يَبْقَىٰ لِعَيْنَيَّ قَلْبِيْ ضَوْءُهُمَا ٱلْمُبْصِرُ . وَأَنَا أَعْتَمِدُ عَلَىٰ شَهَامَةِ ٱلرَّجُلِ ، فَإِنْ لَمْ أَجِدْهَا عَلِمْتُ أَنِّيْ بِإِزَاءِ حَيَوَانٍ إِنْسَانِيٍّ ، فَأَتَحَذَّرُهُ حَذَرِيْ مِنْ مُصِيْبَةٍ مُقْبِلَةٍ . وَإِذَا جَاءَنِيْ وَقِحٌ خَلَقَ ٱللهُ وَجْهَهُ ٱلْحَسَنَ مَسَبَّةً لَهُ ، أَوْ خَلَقَهُ هُوَ مَسَبَّةً لِوَجْهِهِ ٱلْقَبِيْحِ ، ذَكَرْتُ أَنِّيْ بَعْدَ سَاعَةٍ أَوْ سَاعَاتٍ أَقُوْمُ إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ ، فَلَا يَزْدَادُ مِنِّيْ إِلَّا بُعْدًا وَإِنْ كَانَ بِإِزَائِيْ ، فَأُغْلِظُ لَهُ وَأَتَسَخَّطُ ، وَأُظْهِرُ ٱلْغَضَبَ وَأَصْفَعُهُ صَفْعَتِيْ .

قُلْتُ : وَمَا صَفْعَتُكِ ؟

قَالَتْ : إِنَّهَا صَفْعَةٌ لَا تَضْرِبُ ٱلْوَجْهَ وَلَـٰكِنْ تُخْجِلُهُ .

قُلْتُ : وَمَا هِيَ ؟

قَالَتِ ٱلْيَاقُوْتَةُ : هِيَ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ ؛ أَمَا تَعْرِفُ يَا سَيِّدِيْ أَنِّيْ أُصَلِّيْ وَأَقُوْلُ « ٱللهُ أَكْبَرُ » فَهَلْ أَنْتَ أَكْبَرُ . . . ؟ أَوَأُقِيْمُ لَكَ ٱلْبُرْهَانَ عَلَىٰ صَغَارِكَ وَحَقَارَتِكَ ، أَوَأُنَادِيْ ٱلشُّرْطِيَّ . . . ؟!

* * *

تَخْتَنِقُ بِٱلرَّقْصِ وَتَنْتَعِشُ بِٱلصَّلَاةِ ، وَفِيْ كُلِّ يَوْمٍ تَخْتَنِقُ وَتَنْتَعِشُ .

وَلَـٰكِنَّنِيْ لَا أَزَالُ أَقُوْلُ :

أَفِيْ ٱلْمُمْكِنِ هَـٰذَا ؟

أَفِيْ ٱلْمُتَرَادِفِ شَرْعًا : رَقَصَتْ وَصَلَّتْ . . . ؟

مصطفى صادق الرافعي

ٱلْمُشْكِلَةُ(*)

١

قَالَتْ لِي صَاحِبَةُ « ٱلْجَمَالِ ٱلْبَائِسِ »(١) فِيمَا قَالَتْ : إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْجَمِيلَةَ تُخَاطِبُ فِي ٱلرَّجُلِ ٱلْوَاحِدِ ثَلَاثَةً : ٱلرَّجُلَ ، وَشَيْطَانَهُ ، وَحَيَوَانَهُ . فَأَمَّا ٱلشَّيْطَانُ فَهُوَ مَعَنَا وَإِنْ لَمْ نَكُنْ مَعَهُ . . . وَأَمَّا ٱلْحَيَوَانُ فَلَهُ فِي أَيْدِينَا مَقَادَةٌ مِنَ ٱلْغَبَاوَةِ ، وَمَقَادَةٌ مِنَ ٱلْغَرِيزَةِ ، إِذَا شَمَسَ فِي وَاحِدَةٍ أَصْحَبَ فِي ٱلْأُخْرَىٰ وَٱنْقَادَ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُشْكِلَةَ هِيَ ٱلرَّجُلُ تَكُونُ فِيهِ رُجُولَةٌ .

* * *

نَعَمْ إِنَّ ٱلْمُشْكِلَةَ ٱلَّتِي أَعْضَلَتْ عَلَى ٱلْفَسَادِ هِيَ فِي ٱلرَّجُلِ ٱلْقَوِيِّ ٱلرُّجُولَةِ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ وُجُودِهِ وَشَرَفَ مَنْزِلَتِهِ ، وَلِهَـٰذَا أَوْجَبَ ٱلْإِسْلَامُ عَلَى ٱلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْوَقْتِ وَٱلْوَقْتِ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْوَاحِدِ خَارِجًا مِنْ صَلَاةٍ .

وَإِنَّمَا ٱلرُّجُولَةُ فِي خِلَالٍ ثَلَاثٍ : عَمَلُ ٱلرَّجُلِ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْوَاجِبَاتِ كُلِّهَا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي هَوَاهُ ؛ وَقَبُولُهُ ذَٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ بِقَبُولِ ٱلْعَامِلِ ٱلْوَاثِقِ مِنْ أَجْرِهِ ٱلْعَظِيمِ ؛ وَٱلثَّالِثَةُ : قُدْرَتُهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَبُولِ إِلَى ٱلنِّهَايَةِ .

وَلَنْ تَقُومَ هَـٰذِهِ ٱلْخِلَالُ إِلَّا بِثَلَاثٍ أُخْرَىٰ : ٱلْإِدْرَاكُ ٱلصَّحِيحُ لِلْغَايَةِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ؛ وَجَعْلُ مَا يُحِبُّهُ ٱلْإِنْسَانُ وَمَا يَكْرَهُهُ مُوَافِقًا لِمَا أَدْرَكَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْغَايَةِ ؛ وَٱلثَّالِثَةُ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ مَعَانِي ٱلسُّرُورِ مِنْ مَعَانِي ٱلْأَلَمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ عَلَى ٱلسَّوَاءِ .

فَٱلرُّجُولَةُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ هِيَ إِفْرَاغُ ٱلنَّفْسِ فِي أُسْلُوبٍ قَوِيٍّ جَزْلٍ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، مُتَسَاوِقٍ فِي نَمَطِ ٱلِاجْتِمَاعِ ، بَلِيغٍ بِمَعَانِي ٱلدِّينِ ، مَصْقُولٍ بِجَمَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، مُسْتَرْسِلٍ بِبَلَاغَةٍ وَقُوَّةٍ

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٣ ، ١٤ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ = ١١ نوفمبر/تشرين الآخر ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٨٠٥ ـ ١٨٠٨ .

(١) { مَرَّتْ مَقَالَاتُ « ٱلْجَمَالِ ٱلْبَائِسِ » فِي هَـٰذَا ٱلْجُزْءِ } .

وَجَمَالٍ إِلَىٰ غَايَتِهِ ٱلسَّامِيَةِ .

وَلِهَـٰذِهِ ٱلْحِكْمَةِ أَسْقَطَتِ ٱلْأَدْيَانُ مِنْ فَضَائِلِهَا مَبْدَأَ إِرْضَاءِ ٱلنَّفْسِ فِي هَوَاهَا ، فَلَا مُعَامَلَةَ بِهِ مَعَ ٱللهِ إِلَّا فِي إِثْمٍ أَوْ شَرٍّ ؛ وَأَسْقَطَهُ ٱلنَّاسُ مِنْ قَوَاعِدِ مُعَامَلَتِهِمْ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ ، فَلَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا ٱلْغِشُّ وَٱلْمَكْرُ وَٱلْخَدِيعَةُ ، وَكُلُّ خَارِجٍ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ أَوْ فَضِيلَةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ ٱجْتِمَاعِيَّةٍ ، فَإِنَّمَا يَنْزِعُ إِلَىٰ ذَٰلِكَ إِرْضَاءً لِنَفْسِهِ وَإِيثَارًا لَهَا وَمُوَافَقَةً لِمَحَبَّتِهَا وَتَوْفِيَةً لِحَظِّهَا ؛ وَعَمَلُهُ هَـٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُلْبِسُهُ ٱلْوَصْفَ ٱلِاجْتِمَاعِيَّ ٱلسَّاقِطَ وَيُسَمِّيهِ بِٱسْمِهِ فِي ٱللُّغَةِ ، كَٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي يُرْضِي نَفْسَهُ أَنْ يَسْرِقَ لِيَغْتَنِيَ ، فَإِذَا أَعْطَىٰ نَفْسَهُ(١) رِضَاهَا فَهُوَ ٱللِّصُّ ؛ وَكَٱلتَّاجِرِ فِي إِرْضَاءِ طَمَعِهِ هُوَ ٱلْغَاشُّ ، وَكَٱلْجُنْدِيِّ فِي إِرْضَاءِ جُبْنِهِ هُوَ ٱلْخَائِنُ ، وَكَٱلشَّابِّ فِي إِرْضَاءِ رَذِيلَتِهِ هُوَ ٱلْفَاسِقُ ، وَهَلُمَّ جَرًّا وَهَلُمَّ جَرْجَرَةً . . .

* * *

وَأَمَّا بَعْدُ ، فَٱلْقِصَّةُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْفَلْسَفَةِ قِصَّةُ رَجُلٍ فَاضِلٍ مُهَذَّبٍ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلشَّبَابِ وَٱلْمَالِ ، ثُمَّ ٱمْتَحَنَتْهُ ٱلْحَيَاةُ بِمُشْكِلَةٍ ذَهَبَ فِيهَا نَوْمُ لَيْلِهِ وَهُدُوءُ نَهَارِهِ حَتَّىٰ كَسَفَتْ بَالَهُ ، وَفَرَّقَتْ رَأْيَهُ ، وَكَابَدَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِٱلْمَوْتِ ، وَعَاشَ بِٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِٱلْحَيَاةِ .

قَالَ : فَقَدْتُ أُمِّي وَأَنَا غُلَامٌ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ ٱلْقَلْبُ إِلَى ٱلْأُمِّ ، فَخَشِيَ عَلَيَّ أَبِي أَنْ أَسْتَكِينَ لِذِلَّةِ فَقْدِهَا فَيَكُونَ فِي نَشْأَتِي ٱلذُّلُّ وَٱلضَّرَاعَةُ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ أَنْ أُحِسَّ فَقْدَهَا إِحْسَاسَ ٱلطِّفْلِ تَمُوتُ أُمُّهُ فَيَحْمِلُ فِي ضَيَاعِهَا مِثْلَ حُزْنِهَا لَوْ ضَاعَ هُوَ مِنْهَا ؛ فَعَلَّمَنِي هَـٰذَا ٱلْأَبُ ٱلشَّفِيقُ أَنَّ ٱلرَّجُلَ إِذَا فَقَدَ أُمَّهُ كَانَ شَأْنُهُ غَيْرَ شَأْنِ ٱلصَّبِيِّ ، لِأَنَّ لَهُ قُوَّةً وَكِبْرِيَاءَ ؛ وَأَلْقَىٰ فِي رُوعِي أَنِّي رَجُلٌ مِثْلُهُ ، وَأَنَّ أُمَّهُ قَدْ مَاتَتْ عَنْهُ صَغِيرًا فَكَانَ رَجُلًا مِثْلِي ٱلْآنَ . . .

وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا إِذَا دَعَانِي قَالَ : أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ . وَإِذَا أَعْطَانِي شَيْئًا قَالَ : خُذْ يَا رَجُلُ . وَإِذَا سَأَلَنِي عَنْ شَأْنِي قَالَ : كَيْفَ ٱلرَّجُلُ ؟ وَقَلَّ يَوْمٌ يَمُرُّ إِلَّا أَسْمَعَنِيهَا مِرَارًا ، حَتَّىٰ تَوَهَّمْتُ أَنَّ مَعِي رَجُلًا فِي عَقْلِي خَلَقَتْهُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ . وَتَمَامُ ٱلرَّجُلِ بِشَيْئَيْنِ : ٱللِّحْيَةُ فِي وَجْهِهِ ،

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « لِنَفْسِهِ » بَدَلًا مِنْ : « نَفْسَهُ » .

وَٱلزَّوْجَةُ فِي دَارِهِ ، فَتَجِيءُ ٱلزَّوْجَةُ بَعْدَ أَنْ تَظْهَرَ ٱللِّحْيَةُ لِتَكُونَ كِلْتَاهُمَا قُوَّةً لَهُ ، أَوْ وَقَارًا أَوْ جَمَالًا ، أَوْ تَكُونَ كِلْتَاهُمَا خُشُونَةً ، أَوْ لِتَكُونَا مَعًا سَوَادَيْنِ فِي ٱلْوَجْهِ وَٱلْحَيَاةِ . . .

أَمَّا ٱللِّحْيَةُ لِي أَنَا أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ٱلصَّغِيرُ فَلَيْسَ فِي يَدِ أَبِي وَلَا فِي حِيلَتِهِ أَنْ يَجِيءَ بِهَا ، وَلَٰكِنَّ ٱلْأُخْرَىٰ فِي يَدِهِ وَحِيلَتِهِ ؛ فَجَاءَنِي ذَاتَ نَهَارٍ وَقَالَ لِي : أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ! إِنَّ فُلَانَةَ مُسَمَّاةٌ عَلَيْكَ[1] مُنْذُ ٱلْيَوْمِ فَهِيَ ٱمْرَأَتُكَ فَاذْهَبْ لِتَرَىٰ فِيكَ رَجُلَهَا .

وَفُلَانَةُ هَٰذِهِ طِفْلَةٌ مِنْ ذَوَاتِ ٱلْقُرْبَىٰ ، فَأَفْرَحَنِي ذَٰلِكَ وَأَبْهَجَنِي ؛ وَقُلْتُ لِلرَّجُلِ ٱلَّذِي فِي عَقْلِي : أَصْبَحْتَ زَوْجًا أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ . . .

وَكَانَ هَٰذَا ٱلرَّجُلُ ٱلْجَاثِمُ فِي عَقْلِي هُوَ غُرُورِي يَوْمَئِذٍ وَكِبْرِيَائِي ، فَكُنْتُ أَقَعُ فِي ٱلْخَطَإِ بَعْدَ ٱلْخَطَإِ وَآتِي ٱلْحَمَاقَةَ بَعْدَ ٱلْحَمَاقَةِ ، وَكُنْتُ طِفْلًا وَلَٰكِنَّ غُرُورِي ذُو لِحْيَةٍ طَوِيلَةٍ . . .

* * *

وَنَشَأْتُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ : صُلْبَ ٱلرَّأْيِ مُعْتَدًّا بِنَفْسِي ، إِذَا هَمَمْتُ مَضَيْتُ ، وَإِذَا مَضَيْتُ لَا أَلْوِي ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَخْطُرَ لِيَ ٱلْخَاطِرُ فَأَرْكَبَ رَأْسِي فِيهِ ، وَلَأَنْ تُكْسَرَ لِي يَدٌ أَوْ رِجْلٌ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ أَنْ يُكْسَرَ لِي رَأْيٌ أَوْ حُكْمٌ ؛ وَأَكْسَبَنِي ذَٰلِكَ خَيَالًا أَكْذَبَ خَيَالٍ وَأَبْعَدَهُ ، يَخْلِطُ عَلَيَّ ٱلدُّنْيَا خَلْطًا فَيَدَعُنِي كَٱلَّذِي يَنْظُرُ فِي ٱلسَّاعَةِ وَهِيَ ٱثْنَا عَشَرَ رَقْمًا لِنِصْفِ ٱلْيَوْمِ ٱلْوَاحِدِ ، فَيُطَالِعُهَا ٱثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا لِلسَّنَةِ . . .

وَتَرَامَتْ حُرِّيَّتِي بِهَٰذَا ٱلْخَيَالِ فَجَاوَزَتْ حُدُودَهَا ٱلْمَعْقُولَةَ ، وَبِهَٰذِهِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلْحَمْقَاءِ وَذَٰلِكَ ٱلْخَيَالِ ٱلْفَاسِدِ ، كَذَبَتْ عَلَيَّ ٱلْفِكْرَةُ وَٱلطَّبِيعَةُ .

وَلَسْتُ جَمِيلَ ٱلطَّلْعَةِ إِذَا طَالَعْتُ وَجْهِي ، وَلَٰكِنَّنِي مَعَ ذَٰلِكَ مُعْتَقِدٌ أَنَّ ٱلْخَطَأَ فِي ٱلْمِرْآةِ . . . إِذْ هِيَ لَا تُظْهِرُ ٱلرَّجُلَ ٱلْوَضِيءَ ٱلْجَمِيلَ ٱلَّذِي فِي عَقْلِي ؛ وَلَسْتُ نَابِغَةً ، وَلَٰكِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي فِي عَقْلِي رَجُلٌ عَبْقَرِيٌّ ؛ وَهَٰذَا ٱلَّذِي فِي عَقْلِي رَجُلٌ مُتَزَوِّجٌ ؛ فَيَجِبُ عَلَيَّ أَنَا ٱلطِّفْلِ أَنْ أَكُونَ رَزِينًا رَزِينًا كَوَالِدِ عَشَرَةِ أَوْلَادٍ فِي ٱلْمَدَارِسِ ٱلْعُلْيَا . . .

(١) هَٰذَا هُوَ ٱلتَّعْبِيرُ ٱلْعَرَبِيُّ ٱلصَّحِيحُ لِقَوْلِهِمْ قَبْلَ ٱلْعَقْدِ : « مَخْطُوبَةٌ لِفُلَانٍ » .

وَذَهَبْتُ بِكُلِّ ذَٰلِكَ أَرَىٰ { فُلَانَةَ } زَوْجَتِي ، فَأَغْلَقَتِ ٱلْبَابَ فِي وَجْهِي وَٱخْتَبَأَتْ مِنِّي ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ، إِنَّ هَٰذَا نُشُوزٌ وَعِصْيَانٌ ، لَا طَاعَةٌ وَحُبٌّ . وَسَاءَنِي ذَٰلِكَ وَغَمَّنِي وَكَبُرَ عَلَيَّ ، فَأَضْمَرْتُ لَهَا ٱلْغَدْرَ ، فَثَبَتَتْ بِذَٰلِكَ فِي ذِهْنِي صُورَةُ (ٱلْبَابِ ٱلْمُغْلَقِ) ، وَكَأَنَّهُ طَلَاقٌ بَيْنَنَا لَا بَابٌ . . .

* * *

قَالَ : ثُمَّ شَبَّ ٱلرَّجُلُ فَكَانَ بِطَبِيعَةِ مَا فِي نَفْسِهِ كَٱلزَّوْجِ ٱلَّذِي يَتَرَقَّبُ زَوْجَتَهُ ٱلْغَائِبَةَ غَيْبَةً طَوِيلَةً : كُلُّ أَيَّامِهِ ظَمَأٌ عَلَىٰ ظَمَإٍ ، وَكُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ بِهِ هُوَ زِيَادَةُ سَنَةٍ فِي عُمْرِ شَيْطَانِهِ . . .

وَكَانَ قَدِ ٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ مَدْرَسَتِهِ ٱلْعَالِيَةِ ، وَأَصْبَحَ رَجُلَ كُتُبٍ وَعُلُومٍ وَفِكْرٍ وَخَيَالٍ ؛ فَعَرَضَتْ لَهُ فَتَاةٌ كَٱللَّوَاتِي يَعْرِضْنَ لِلطَّلَبَةِ فِي ٱلْمَدَارِسِ ٱلْعُلْيَا ، مَا مِنْهُنَّ عَلَىٰ صَاحِبِهَا إِلَّا كَٱلْخَيْبَةِ فِي ٱمْتِحَانٍ . . . بَيْدَ أَنَّ (ٱلرَّجُلَ) لَمْ يَعْرِفْ مِنْ هَٰذِهِ ٱلْفَتَاةِ إِلَّا أَوَائِلَ ٱلْمَرْأَةِ . . . وَلَمْ يَكَدْ يَسْتَشْرِفُ لِأَوَاخِرِهَا حَتَّىٰ سُمِّيَتْ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، فَخُطِبَتْ ، فَزُفَّتْ ؛ زُفَّتْ بَعْدَ نِصْفِ زَوْجٍ إِلَىٰ زَوْجٍ . . . .

وَعَرَفَ ٱلرَّجُلُ مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي دَرَسَهَا أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حُرًّا بِأَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَطِيعُ ، وَبِأَكْثَرَ مِنْ هَٰذَا ٱلْأَكْثَرِ . . . فَقَالَهَا بِمِلْءِ فِيهِ ، وَقَالَ لِلْحُرِّيَّةِ : أَنَا لَكِ وَأَنْتِ لِي .

قَالَهَا لِلْحُرِّيَّةِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا رَدَّتْ عَلَيْهِ ٱلْحُرِّيَّةُ بِفَتَاةٍ أُخْرَىٰ . . .

* * *

نَقُولُ نَحْنُ : وَكَانَ قَدْ مَضَىٰ عَلَىٰ (ٱلْبَابِ ٱلْمُغْلَقِ) تِسْعُ سَنَوَاتٍ ، فَصَارَ مِنْهُنَّ بَيْنَ ٱلشَّابِّ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ ٱلْعَقْلِيَّةِ تِسْعَةُ أَبْوَابٍ مُغْلَقَةٍ ؛ وَلَٰكِنَّهَا مَعَ ذَٰلِكَ مُسَمَّاةٌ لَهُ ، يَقُولُ أَهْلُهُ وَأَهْلُهَا : (فُلَانٌ وَفُلَانَةُ) . وَلَيْسَ (ٱلْبَابُ ٱلْمُغْلَقُ) عِنْدَهُمْ إِلَّا ٱلْحَيَاءَ وَٱلصِّيَانَةَ ؛ وَلَيْسَتِ ٱلْفَتَاةُ مِنْ وَرَائِهِ إِلَّا ٱلْعَفَافَ ٱلْمُنْتَظِرَ ؛ وَلَيْسَ ٱلْفَتَىٰ إِلَّا ٱبْنَ ٱلْأَبِ ٱلَّذِي سَمَّى ٱلْفَتَاةَ لَهُ وَحَبَسَهَا عَلَىٰ ٱسْمِهِ ؛ وَلَيْسَتِ ٱلْقُرْبَىٰ إِلَّا شَرِيعَةً وَاجِبَةَ ٱلْحَقِّ نَافِذَةَ ٱلْحُكْمِ .

وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلشَّرَفِ ، أَنَّهُ مَهْمَا يَبْلُغْ مِنْ حُرِّيَّةِ ٱلْمَرْءِ فِي هَٰذَا ٱلْعَصْرِ فَٱلشَّرَفُ مُقَيَّدٌ .

وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلدِّينِ ، أَنَّ ٱلزَّوَاجَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَزَوَاجِ هَٰذَا ٱلْعَصْرِ قَائِمًا مِنْ أَوَّلِهِ عَلَىٰ

مَعَانِيْ ٱلْفَاحِشَةِ .

وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْفَضِيْلَةِ ، أَنَّ ٱلزَّوْجَةَ إِنَّمَا هِيَ لِبِنَاءِ ٱلْأُسْرَةِ ؛ فَإِنْ بَلَغَ وَجْهُهَا ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلْحُسْنِ أَوْ لَمْ يَبْلُغْ ، فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ وَجْهٌ ذُوْ سُلْطَةٍ وَحُقُوْقٍ (رَسْمِيَّةٍ) فِيْ ٱلاحْتِرَامِ ؛ لَا تَقُوْمُ ٱلْأُسْرَةُ إِلَّا بِذَٰلِكَ ، وَلَا تَقُوْمُ إِلَّا عَلَىٰ ذَٰلِكَ .

وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْكَمَالِ وَٱلضَّمِيْرِ ، أَنَّ ٱلزَّوْجَةَ ٱلطَّاهِرَةَ ٱلْمُخْلِصَةَ ٱلْحُبِّ لِزَوْجِهَا ، إِنَّمَا هِيَ مُعَامَلَةٌ بَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ رَبِّهِ ؛ فَحَيْثُمَا وَضَعَهَا مِنْ نَفْسِهِ فِيْ كَرَامَةٍ أَوْ مَهَانَةٍ ، وَضَعَ نَفْسَهُ عِنْدَ ٱللهِ فِيْ مِثْلِ هَٰذَا ٱلْمَوْضِعِ .

وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْعَقْلِ وَٱلرَّأْيِ ، أَنَّ كُلَّ زَوْجَةٍ فَاضِلَةٍ ، هِيَ جَمِيْلَةٌ جَمَالَ ٱلْحَقِّ ؛ فَإِنْ لَمْ تُوجِبِ ٱلْحُبَّ ، وَجَبَتْ لَهَا ٱلْمَوَدَّةُ وَٱلرَّحْمَةُ .

وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْمُرُوْءَةِ وَٱلْكَرَمِ ، أَنَّ زَوْجَةَ ٱلرَّجُلِ إِنَّمَا هِيَ إِنْسَانِيَّتُهُ وَمُرُوْءَتُهُ ؛ فَإِنِ ٱحْتَمَلَهَا أَعْلَنَ أَنَّهُ رَجُلٌ كَرِيْمٌ ، وَإِنْ نَبَذَهَا أَعْلَنَ أَنَّهُ رَجُلٌ لَيْسَ فِيْهِ كَرَامَةٌ .

أَمَّا عِنْدَ ٱلشَّيْطَانِ لَعَنَهُ ٱللهُ ، فَشُرُوْطُ ٱلزَّوْجَةِ ٱلْكَامِلَةِ مَا تَشْتَرِطُهُ ٱلْغَرِيْزَةُ : ٱلْحُبُّ ، ٱلْحُبُّ ، ٱلْحُبُّ !

* * *

قَالَ ٱلشَّابُّ : وَإِذَا أَنَا لَمْ أَتَزَوَّجِ ٱمْرَأَةً تَكُوْنُ كَمَا أَشْتَهِيْ جَمَالًا ، وَكَمَا يَشْتَهِيْ فِكْرِيْ عِلْمًا ، كُنْتُ أَنَا ٱلْمُتَزَوِّجُ وَحْدِيْ وَبَقِيَ فِكْرِيْ عَزَبًا . . . وَقَدْ عَرَفْتُ ٱلَّتِيْ تَصْلُحُ لِيْ بِجَمَالِهَا وَفِكْرِهَا مَعًا ، وَتَبَوَّأَتْ فِيْ قَلْبِيْ وَأَقَمْتُ فِيْ قَلْبِهَا ؛ ثُمَّ دَاخَلْتُ أَهْلَهَا ، فَخَلَطُوْنِيْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَقَالُوا : شَابٌّ وَعَزَبٌ . . . وَمُتَعَلِّمٌ وَسَرِيٌّ . . . فَلَمْ يَكُنْ لِدَارِهِمْ (بَابٌ مُغْلَقٌ) ، حَتَّىٰ لَوْ شِئْتُ أَنْ أَصِلَ إِلَىٰ كَرِيْمَتِهِمْ فِيْ حَرَامٍ وَصَلْتُ ، وَلَـٰكِنَّنِيْ رَجُلٌ يَحْمِلُ أَمَانَةَ ٱلرُّجُوْلَةِ . . .

أَمَّا ٱلْفَتَاةُ فَلَسْتُ أَدْرِيْ وَٱللهِ : أَفِيْهَا جَاذِبِيَّةُ نَجْمٍ ، أَمْ جَاذِبِيَّةُ ٱمْرَأَةٍ ! وَهَلْ هِيَ أُنْثَىٰ فِيْ جَمَالِهَا ، أَوْ هِيَ ٱلْجَمَالُ ٱلسَّمَاوِيُّ أَتَىٰ يُنَقِّحُ ٱلْفُنُوْنَ ٱلْأَرْضِيَّةَ لِأَهْلِ ٱلْفَنِّ ؟

إِذَا ٱلْتَقَيْنَا قَالَتْ لِيْ بِعَيْنَيْهَا : هَاأَنَا ذِيْ قَدْ أَرْخَيْتُ لَكَ ٱلزِّمَامَ ، فَهَلْ تَسْتَطِيْعُ فِرَارًا

مِنِّيْ ؟ وَنَلْتَصِقُ فَتَقُوْلُ لِيْ بِجِسْمِهَا : أَلَيْسَتِ ٱلدُّنْيَا كُلُّهَا هُنَا ، فَهَلْ فِيْ ٱلْمَكَانِ مَكَانٌ إِلَّا هُنَا ؟ وَنَفْتَرِقُ فَتَحْصُرُ لِيْ ٱلزَّمَنَ كُلَّهُ فِيْ كَلِمَةٍ حِيْنَ تَقُوْلُ : غَدًا نَلْتَقِيْ .

كَلَامُهَا كَلَامٌ مُتَأَدِّبٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ فِيْ ٱلْوَقْتِ نَفْسِهِ طَرِيْقَةٌ مِنَ ٱلْخَلَاعَةِ ، تَلْفِتُكَ إِلَىٰ فَمِهَا ٱلْحُلْوِ ؛ وَٱلْحَرَكَةُ عَلَىٰ جِسْمِهَا حَرَكَةٌ مُسْتَحِيَةٌ ، وَلَـٰكِنَّهَا فِيْ ٱلْوَقْتِ عَيْنِهِ كَٱلتَّعْبِيْرِ ٱلْفَنِّيِّ ٱلْمُتَجَسِّمِ فِيْ ٱلتِّمْثَالِ ٱلْعَارِيْ .

إِنَّهَا وَٱللهِ قَدْ جَعَلَتْ شَيْطَانِيْ هُوَ عَقْلِيْ ؛ أَمَّا هَـٰذَا ٱلْعَقْلُ ٱلَّذِيْ يَنْصَحُ وَيَعِظُ وَيَقُوْلُ : هَـٰذَا خَيْرٌ وَهَـٰذَا شَرٌّ . فَهُوَ ٱلشَّيْطَانُ ٱلَّذِيْ يَجِبُ أَنْ أَتَبَرَّأَ مِنْهُ . . .

* * *

قَالَ : وَأَلَمَّ ٱلْأَبُ بِقِصَّةِ فَتَاهُ ، وَيَحْسَبُهَا نَزْوَةً مِنَ ٱلشَّبَابِ يُخْمِدُهَا ٱلزَّوَاجُ ، فَيَقُوْلُ فِيْ نَفْسِهِ : إِنَّ لِلرَّجُلِ نَظْرَتَيْنِ إِلَىٰ ٱلنِّسَاءِ : نَظْرَةً إِلَيْهِنَّ مِنْ حَيْثُ يَخْتَلِفْنَ ، فَتَكُوْنُ كُلُّ ٱمْرَأَةٍ غَيْرَ ٱلْأُخْرَىٰ فِيْ ٱلْخَيَالِ وَٱلْوَهْمِ وَٱلْمِزَاجِ ٱلشِّعْرِيِّ ؛ وَنَظْرَةً إِلَيْهِنَّ مِنْ حَيْثُ يَتَسَاوَيْنَ فِيْ حَقِيْقَةِ ٱلْأُنُوْثَةِ وَطَبِيْعَةِ ٱلاحْتِرَامِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ، فَتَكُوْنُ كُلُّ ٱمْرَأَةٍ كَٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَتَفَاوَتْنَ إِلَّا بِٱلْفَضِيْلَةِ وَٱلْمَنْفَعَةِ . وَيُقَرِّرُ لِنَفْسِهِ أَنَّ ٱبْنَهُ رَجُلٌ مُتَعَلِّمٌ ذُوْ دِيْنٍ وَبَصَرٍ ، فَلَا يَنْظُرُ ٱلنَّظْرَةَ ٱلْخَيَالِيَّةَ ٱلَّتِيْ لَا تَقْنَعُ بِٱمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ لَا تَزَالُ تَلْتَمِسُ مَحَاسِنَ ٱلْجِنْسِ وَمَفَاتِنَهُ ، وَهِيَ ٱلنَّظْرَةُ ٱلَّتِيْ لَا يَقُوْمُ بِهَا إِلَّا بِنَاءُ ٱلشِّعْرِ دُوْنَ بِنَاءِ ٱلْأُسْرَةِ ، وَلَا تَصْلُحُ عَلَيْهَا ٱلْمَرْأَةُ تَلِدُ أَوْلَادًا لِزَوْجِهَا ، بَلِ ٱلْمَرْأَةُ تَلِدُ ٱلْمَعَانِيَ لِشَاعِرِهَا .

ثُمَّ ٱحْتَاطَ فِيْ رَأْيِهِ ، فَقَدَّرَ أَنَّ ٱبْنَهُ رُبَّمَا كَانَ عَاشِقًا مَفْتُوْنًا مَسْحُوْرًا ، ذَا بَصِيْرَةٍ مَدْخُوْلَةٍ وَقَلْبٍ هَوَاءٍ وَعَقْلٍ مُلْتَاثٍ ، فَيَتَمَرَّدُ عَلَىٰ أَبِيْهِ وَيَخْرُجُ عَنْ طَاعَتِهِ ، وَيُحَارِبُ أَهْلَهُ وَرَبَّهُ مِنْ أَجْلِ ٱمْرَأَةٍ ، بَيْدَ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّهُ هُوَ وَالِدُهُ ، وَهُوَ رَبَّاهُ وَأَنْشَأَهُ فِيْ بَيْتٍ فِيْهِ ٱلدِّيْنُ وَٱلْخُلُقُ وَٱلشَّهَامَةُ وَٱلنَّجْدَةُ ، وَأَنَّ مُحَارَبَةَ ٱللهِ بِٱمْرَأَةٍ لَا تَكُوْنُ إِلَّا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ ٱلْبِيْئَةِ ٱلْفَاسِدَةِ ٱلْمُسْتَهْتِرَةِ ، حِيْنَ تَجْمَعُ كُلَّ مَعَانِيْ ٱلْفَسَادِ وَٱلْإِبَاحَةِ وَٱلاسْتِهْتَارِ فِيْ كَلِمَةِ (ٱلْحُرِّيَّةِ) .

وَقَالَ : إِنَّ ٱلْبِيْئَةَ فِيْ ٱلْعَهْدِ ٱلَّذِيْ كَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ ٱلشَّرَفُ وَٱلدِّيْنُ وَٱلْمُرُوْءَةُ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَىٰ ٱلْعِرْضِ ، لَمْ يَكُنْ فِيْهَا شَيْءٌ مِنْ هَـٰذَا ، وَلَمْ يَكُنِ ٱلْأَبْنَاءُ يَوْمَئِذٍ يَعْتَرِضُوْنَ آبَاءَهُمْ فِيْمَنِ ٱخْتَارُوْهُنَّ ، إِذِ ٱلنَّسْلُ هُوَ ٱمْتِدَادُ تَارِيْخِ ٱلْأَبِ وَٱلِابْنِ مَعًا ، وَٱلْأَبُ أَعْرَفُ بِدُنْيَاهُ وَأَجْدَرُ أَنْ

يَكُوْنَ مُبَرَّأً مِنِ ٱخْتِلَاطِ ٱلنَّظْرَةِ ، فَيَخْتَارُ لِلدِّيْنِ وَٱلْحَسَبِ وَٱلْكَمَالِ ، لَا لِلشَّهْوَةِ وَٱلْحُبِّ وَفُنُوْنِ ٱلْخَلَاعَةِ ؛ وَلَا مَحَلَّ لِلاعْتِرَاضِ بِٱلْعِشْقِ فِيْ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ ٱلأَخْلَاقِ ، بَلْ مَحَلُّهُ فِيْ بَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَحْدَهَا .

ثُمَّ جَزَمَ ٱلأَبُ أَنَّ ٱلْوَلَدَ ٱلَّذِيْ يَجِيْءُ مِنْ عَاشِقَيْنِ ، حَرِيٌّ أَنْ يَرِثَ فِيْ أَعْصَابِهِ جُنُوْنَ ٱثْنَيْنِ وَأَمْرَاضَهُمَا ٱلنَّفْسِيَّةِ وَشَهَوَاتِهِمَا ٱلْمُلْتَهِبَةِ ؛ وَلِهَـٰذَا وَقَفَ ٱلشَّرْعُ فِيْ سَبِيْلِ ٱلْحُبِّ قَبْلَ ٱلزَّوَاجِ لِوِقَايَةِ ٱلأُمَّةِ فِيْ أَوَّلِهَا ؛ وَلِهَـٰذَا يَكْثُرُ ٱلضَّعْفُ ٱلْعَصَبِيُّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلأُوْرُبِّيَّةِ وَيَنْتَشِرُ بِهَا ٱلْفَسَادُ ، فَلَا يَأْتِيْ جِيْلٌ إِلَّا وَهُوَ أَشَدُّ مَيْلًا إِلَىٰ ٱلْفَسَادِ مِنَ ٱلْجِيْلِ ٱلَّذِيْ أَعْقَبَهُ .

وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِيْ ٱلأَبُ إِلَىٰ حَيْثُ ٱنْتَهَىٰ ٱلرَّأْيُ بِهِ ، حَتَّىٰ أَسْرَعَ إِلَىٰ (ٱلْبَابِ ٱلْمُغْلَقِ) يُهَيِّئُ لِلزِّفَافِ وَيَتَعَجَّلُ لِابْنِهِ ٱلْمُطِيْعِ . . . نَكْبَةً سَتَجِيْءُ فِيْ ٱحْتِفَالٍ عَظِيْمٍ . . .

* * *

قَالَ ٱلشَّابُّ : وَجُنَّ جُنُوْنِيْ ؛ وَقَدْ كَانَ أَبِيْ مِنِ ٱحْتِرَامِيْ بِٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِيْ لَا يُلْقَىٰ مِنْهُ ، فَلَجَأْتُ إِلَىٰ عَمِّيْ أَسْتَدْفِعُ بِهِ ٱلنَّكْبَةَ ، وَأَتَأَيَّدُ بِمَكَانِهِ عِنْدَ أَبِيْ ؛ وَبَثَثْتُهُ حُزْنِيْ وَأَفْضَيْتُ إِلَيْهِ بِشَأْنِيْ ، وَقُلْتُ لَهُ فِيْمَا قُلْتُ : ٱفْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا شَيْئًا يَنْتَهِيْ بِيْ إِلَىٰ تِلْكَ ٱلْفَتَاةِ ، أَوْ يَنْتَهِيْ بِهَا إِلَيَّ ؛ وَمَا أُنْكِرُ أَنَّهَا مِنْ ذَوَاتِ ٱلْقُرْبَىٰ ، وَأَنَّ فِيْ ٱحْتِمَالِيْ إِيَّاهَا وَاجِبًا وَرُجُوْلَةً ، وَفِيْ سَتْرِيْ لَهَا ثَوَابًا وَمُرُوْءَةً ، وَخَاصَّةً فِيْ هَـٰذَا ٱلزَّمَنِ ٱلْكَاسِدِ ٱلَّذِيْ بَلَغَتْ فِيْهِ ٱلْعَذَارَىٰ سِنَّ ٱلْجَدَّاتِ . . . وَلَـٰكِنَّ ٱلْقَلْبَ ٱلْعَاشِقَ كَافِرٌ بِٱلْوَاجِبِ وَٱلرُّجُوْلَةِ ، وَٱلثَّوَابِ وَٱلْمُرُوْءَةِ ، وَبِٱلأُمِّ وَٱلأَبِ ؛ فَهُوَ يَمْلِكُ ٱلنِّعْمَةَ وَيُرِيْدُ أَنْ يَمْلِكَ ٱلتَّنَعُّمَ بِهَا ؛ وَكُلُّ مَنِ ٱعْتَرَضَهُ دُوْنَهَا كَانَ { عِنْدَهُ } كَٱللِّصِّ . . . . . .

قَالَ : قَبَّحَ ٱللهُ حُبًّا يَجْعَلُ أَبَاكَ فِيْ قَلْبِكَ لِصًّا أَوْ كَٱللِّصِّ .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنِّيْ حُرٌّ أَخْتَارُ مَنْ أَشَاءُ لِنَفْسِيْ . . . . . .

قَالَ : إِنْ كُنْتَ حُرًّا كَمَا تَزْعُمُ ، فَهَلْ تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَخْتَارَ غَيْرَ ٱلَّتِيْ أَحْبَبْتَهَا ؟ أَلَا تَكُوْنُ حُرًّا إِلَّا فِيْنَا نَحْنُ وَفِيْ هَدْمِ أُسْرَتِنَا ؟

قُلْتُ : وَلَـٰكِنِّيْ مُتَعَلِّمٌ ، فَلَا أُرِيْدُ ٱلزَّوَاجَ إِلَّا بِمَنْ . . . . . .

فَقَطَعَ عَلَيَّ وَقَالَ : لَيْتَكَ لَمْ تَتَعَلَّمْ ، فَلَوْ كُنْتَ نَجَّارًا أَوْ حَدَّادًا أَوْ حُوْذِيًّا ، لَأَدْرَكْتَ بِطَبِيْعَةِ ٱلْحَيَاةِ أَنَّ ٱلَّذِيْنَ يَتَخَضَّعُوْنَ لِلْحُبِّ وَلِلْمَرْأَةِ هَذِهِ[1] ٱلْخُضُوْعَ ، هُمُ ٱلْفَارِغُوْنَ ٱلَّذِيْنَ يَسْتَطِيْعُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يَقْضِيَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ كُلَّ أَوْقَاتِ فَرَاغِهِ . . . . . .

أَمَّا ٱلْعَامِلُوْنَ فِيْ ٱلدِّيْنِ ، وَٱلْمُغَامِرُوْنَ فِيْ ٱلْحَيَاةِ ، وَٱلْعَارِفُوْنَ بِحَقَائِقِ ٱلأُمُوْرِ ، وَٱلطَّامِعُوْنَ فِيْ ٱلْكَمَالِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، فَهَـٰؤُلَاءِ جَمِيْعًا فِيْ شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ تَرْبِيَةِ أَوْهَامِهِمْ ، وَعَنِ ٱلْبُكَاءِ لِلْمَرْأَةِ وَٱلْبُكَاءِ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ؛ وَنَظْرَتُهُمْ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ أَعْلَىٰ وَأَوْسَعُ ؛ وَغَرَضُهُمْ مِنْهَا أَجَلُّ وَأَسْمَىٰ ؛ وَقَدْ قَالَ نَبِيُّنَا ﷺ : « ٱتَّقُوا ٱللهَ فِيْ ٱلنِّسَاءِ » [مسلم ، رقم : ١٢١٨ ؛ أبو داود ، رقم : ١٩٠٥ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٠٧٤] . أَيْ ٱنْظُرُوا إِلَيْهِنَّ مِنْ جَانِبِ تَقْوَىٰ ٱللهِ ؛ فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ تُقْدِمُ مِنْ رَجُلِهَا عَلَىٰ قَلْبٍ فِيْهِ ٱلْحُبُّ وَٱلْكَرَاهَةُ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَلَا تَدْرِيْ أَيُّ ذَلِكَ هُوَ حَظُّهَا ؛ وَلَوْ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ ٱمْرَأَةً نَبَذَ زَوْجَةً ، لَخَرِبَتِ ٱلدُّنْيَا وَلَفَسَدَ ٱلرِّجَالُ وَٱلنِّسَاءُ جَمِيْعًا . وَهَـٰذِهِ يَا بُنَيَّ أَوْهَامُ وَقْتِهَا وَعَمَلُ أَسْبَابِهَا ، وَسَيَمْضِيْ ٱلْوَقْتُ وَتَتَغَيَّرُ ٱلأَسْبَابُ ، وَرُبَّمَا كَانَ ٱلنَّاضِجُ ٱلْيَوْمَ هُوَ ٱلْمُتَعَفِّنَ غَدًا ، وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْفَجُّ هُوَ ٱلنَّاضِجَ بَعْدُ ؟

وَهَبْكَ لَا تُحِبُّ ذَاتَ رَحِمِكَ ثُمَّ أَكْرَمْتَهَا وَأَحْسَنْتَ إِلَيْهَا وَسَتَرْتَهَا ، أَفَيَكُوْنُ عِنْدَكَ أَجْمَلَ مِنْ شُعُوْرِهَا أَنَّكَ ذُوْ ٱلْفَضْلِ عَلَيْهَا ؟ وَهَلْ أَكْرَمُ ٱلْكَرَمِ عِنْدَ ٱلنَّفْسِ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ لَهَا هَـٰذَا ٱلشُّعُوْرُ فِيْ نَفْسٍ أُخْرَىٰ ؟ إِنَّ هَـٰذَا يَا بُنَيَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ حُبًّا فِيْهِ ٱلشَّهْوَةُ ، فَهُوَ حُبٌّ إِنْسَانِيٌّ فِيْهِ ٱلْمَجْدُ .

* * *

وَوَقَعَتِ ٱلْمُشْكِلَةُ وَزُفَّتِ ٱلْمِسْكِيْنَةُ ؛ فَكَيْفَ يَصْنَعُ ٱلرَّجُلُ بَيْنَ ٱلْمَحْبُوْبَةِ وَٱلْمَكْرُوْهَةِ[2] ؟

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

---

(١) فِيْ ٱلأَصْلِ : « هذا » بدلًا من : « هذه » .

(٢) (رَجَاءٌ إِلَىٰ ٱلْقُرَّاءِ) : هَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةُ وَاقِعَةٌ ، وَقَدْ بَنَىٰ ٱلرَّجُلُ بِٱمْرَأَتِهِ ، وَهُوَ فِيْ ٱلشَّهْرِ ٱلَّذِيْ لَا ٱسْمَ لَهُ عِنْدَهُ وَإِنْ كَانَ ٱسْمُهُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ « شَهْرُ ٱلْعَسَلِ » . فَمَاذَا يَرَىٰ لَهُ ٱلْقَارِئُ مِنَ ٱلرَّأْيِ ؟ وَمَاذَا تَرَىٰ ٱلْقَارِئَةُ لِهَـٰذِهِ ٱلْعَرُوْسِ ٱللَّابِسَةِ أَكْفَانَهَا فِيْ عَيْنِ ٱلرَّجُلِ ؟

ٱلْمُشْكِلَة(*)
٢

لَمَّا فَرَغْتُ مِنْ مَقَالَاتِ « ٱلْمَجْنُوْنِ »(١) وَأَرْسَلْتُ ٱلْأَخِيْرَةَ مِنْهَا ، قُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ : هَـٰذَا ٱلْآخِرُ هُوَ ٱلْآخِرُ مِنَ ٱلْمَجْنُوْنِ وَجُنُوْنِهِ ، وَمِنَ ٱلْفِكْرِ فِيْ تَخْلِيْطِهِ وَنَوَادِرِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ عَادَ إِلَيَّ أَخْلَاطًا وَأَضْغَاثًا فَكَأَنِّيْ رَأَيْتُهُ فِيْ ٱلنَّوْمِ يَقُوْلُ لِيْ : ٱكْتُبْ مَقَالًا فِيْ ٱلسِّيَاسَةِ . قُلْتُ : مَالِيْ وَلِلسِّيَاسَةِ وَأَنَا « مُوَظَّفٌ » فِيْ ٱلْحُكُوْمَةِ ، وَقَدْ أَخَذَتِ ٱلْحُكُوْمَةُ مِيْثَاقَ ٱلْمُوَظَّفِيْنَ : لِمَا عَرَفُوا مِنْ نَقْدٍ أَوْ غَمِيْزَةٍ لَيَكْتُمُنَّهُ وَلَا يُبَيِّنُوْنَهُ ؟ فَقَالَ : هَـٰذِهِ لَيْسَتْ مُشْكِلَةً ، وَلَيْسَ هَـٰذَا يَصْلُحُ عُذْرًا ، وَٱلْمَخْرَجُ سَهْلٌ وَٱلتَّدْبِيْرُ يَسِيْرٌ وَٱلْحَلُّ مُمْكِنٌ . قُلْتُ : فَمَا هُوَ ؟

قَالَ : ٱكْتُبْ مَا شِئْتَ فِيْ سِيَاسَةِ ٱلْحُكُوْمَةِ ، ثُمَّ ٱجْعَلْ تَوْقِيْعَكَ فِيْ آخِرِ ٱلْمَقَالِ هَـٰكَذَا : « مُصْطَفَىٰ صَادِقٌ ٱلرَّافِعِيُّ ؛ غَيْرُ مُوَظَّفٍ بِٱلْحُكُوْمَةِ » . . .

فَهَـٰذِهِ طَرِيْقَةٌ مِنْ طُرُقِ ٱلْمَجَانِيْنَ فِيْ حَلِّ ٱلْمَشَاكِلِ ٱلْمُعَقَّدَةِ ، لَا يَكُوْنُ ٱلْحَلُّ إِلَّا عُقْدَةً جَدِيْدَةً يَتِمُّ بِهَا ٱلْيَأْسُ وَيَتَعَذَّرُ ٱلْإِمْكَانُ ، وَهِيَ بِعَيْنِهَا طَرِيْقَةُ ذَلِكَ ٱلطَّائِرِ ٱلْأَبْلَهِ ٱلَّذِيْ يَرَىٰ ٱلصَّائِدَ فَيُغَمِّضُ عَيْنَهُ وَيَلْوِيْ عُنُقَهُ وَيُخَبِّىءُ رَأْسَهُ فِيْ جَنَاحِهِ ظَنًّا عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَرَ ٱلصَّائِدَ لَمْ يَرَهُ ٱلصَّائِدُ ، وَإِذَا تَوَهَّمَ أَنَّهُ ٱخْتَفَىٰ تَحَقَّقَ أَنَّهُ ٱخْتَفَىٰ ؛ وَمَا عَمَلُهُ ذَاكَ إِلَّا كَقَوْلِهِ لِلصَّيَّادِ : إِنِّيْ غَيْرُ مَوْجُوْدٍ هُنَا . . . عَلَىٰ قِيَاسِ « غَيْرِ مُوَظَّفٍ » . . .

* * *

وَقَدْ كُنْتُ ٱسْتَفْتَيْتُ ٱلْقُرَّاءَ فِيْ « ٱلْمُشْكِلَةِ » ، وَكَيْفَ يَتَّقِيْ صَاحِبُهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَكَيْفَ تَصْنَعُ صَاحِبَتُهَا ؛ فَتَلَقَّيْتُ كُتُبًا كَثِيْرَةً أَهْدَتْ إِلَيَّ عُقُوْلًا مُخْتَلِفَةً ؛ وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ ٱلْمَقَادِيْرِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٣٢ ، ١٨ شوال سنة ١٣٥٤ هـ = ١٣ يناير/كانون الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٤٥ ـ ٤٨ .

(١) { بَعْدَ أَنْ كَتَبْنَا ٱلْفَصْلَ ٱلْأَوَّلَ مِنَ « ٱلْمُشْكِلَةِ » وَٱسْتَفْتَيْنَا ٱلْقُرَّاءَ فِيْ آخِرِهِ ، ٱنْتَظَرْنَا مُدَّةً ، وَكَتَبْنَا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ مَقَالَاتِ « ٱلْمَجْنُوْنِ » فَٱنْظُرْهَا فِيْ ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِيْ } .

أَنَّ أَوَّلَ كِتَابٍ أُلْقِيَ إِلَيَّ مِنْهَا ـ كِتَابُ مَجْنُوْنٍ « نَابِغَةٍ » كَنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ ، بَعَثَ بِهِ مِنَ ٱلْقَاهِرَةِ ، وَسَمَّىٰ نَفْسَهُ فِيْهِ (ٱلْمُصْلِحَ ٱلْمُنْتَظَرَ) وَهَـٰذِهِ عِبَارَتُهُ بِحَرْفِهَا وَرَسْمِهَا كَمَا كُتِبَتْ وَكَمَا تُقْرَأُ ؛ فَإِنَّ نَشْرَ هَـٰذَا ٱلنَّصِّ كَمَا هُوَ ، يَكُوْنُ أَيْضًا نَصًّا عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلْعَقْلِ كَيْفَ هُوَ . . .

قَالَ : « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْكَوْنَ تَعبَث فِيْهِ آرَاءُ ٱلْمُصْلِحِيْنَ ، وَكُتُبُ ٱلْأَنْبِيَاءِ زُهَاءَ قُرُوْنٍ عَدِيْدَةٍ ، وَدَائِمًا نَرَىٰ ٱلطَّبِيْعَةَ تَنْتَصِرُ . وَلَقَدْ نَرَىٰ ٱلْحَيَوَانَ يَعْلَمُ كَيْفَ يَعِيْشُ بِجِوَارِ أَلِيْفِهِ ، وَٱلطَّيْرَ كَيْفَ يَرْكُنُ إِلَىٰ عُشِّ حَبِيْبَتِهِ ، إِلَّا ٱلْإِنْسَانَ . وَلَقَدْ تَفَنَّنَ ٱلْمُشَرِّعُوْنَ فِيْ أَسْمَاءِ : ٱلْعَادَاتِ وَٱلتَّقَالِيْدِ وَٱلْحَمِيَّةِ وَٱلشَّرَفِ وَٱلْعِرْضِ ، وَإِنَّ جَمِيْعَ هَـٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تَزُوْلُ أَمَامَ سُلْطَانِ ٱلْمَادَّةِ فَمَا بَالُكُمْ بِسُلْطَانِ ٱلرُّوْحِ ؟

وَرَأْيِيْ لِهَـٰذَا ٱلشَّابِّ أَلَّا يُطِيْعَ أَبَاهُ وَلَوْ ذَهَبَ إِلَىٰ مَا يُسَمُّوْهُ ٱلْجَحِيْمَ (كَذَا) إِذَا كَانَ بَعْدَ أَنْ يَعِيْشَ ٱلْحَيَاةَ ٱلْوَاحِدَةَ ٱلَّتِيْ يَحْيَاهَا وَيَتَمَتَّعَ بِٱلْحُبِّ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمُقَدَّرِ لَهُ ، مَا دَامَ قَلْبُهُ ٱصْطَفَاهَا وَرُوْحُهُ تَهْوَاهَا ؛ وَلَوْ تَرَكْتَهُ بَعْدَ سِنِيْنَ قَلِيْلَةٍ لِأَيِّ دَاعٍ مِنْ دَوَاعِ ٱلِانْفِصَالِ . (كَذَا) .

وَهَـٰذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ رَأْيٍ مُجَرَّبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ رَأْيُ أَكْبَرِ عَقْلٍ أَنْجَبَتْهُ ٱلطَّبِيْعَةُ حَتَّىٰ ٱلْآنَ . . . ! وَسَيَنْتَصِرُ عَلَىٰ جَمِيْعِ مَنْ يَقِفُوْنَ أَمَامَهُ ، وَٱلدَّلِيْلُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْمَقَالَ سَيُشَارُ إِلَيْهِ فِيْ مَجَلَّةِ (ٱلرِّسَالَةِ) ، وَهَـٰذَا ٱلرَّأْيُ سَيُعْمَلُ بِهِ ، وَصَاحِبُ هَـٰذَا ٱلرَّأْيِ سَيَخْلُدُ فِيْ ٱلدُّنْيَا ، وَسَيَضَعُ ٱلْأُسُسَ وَٱلْقَوَانِيْنَ ٱلَّتِيْ تَصْلُحُ لِبَنِيْ ٱلْإِنْسَانِ مَعَ سُمُوِّ ٱلرُّوْحِ بَعْدَ أَنْ أَفْسَدَتْ أَخْلَاقَهُ عِبَادَةُ ٱلْمَالِ .

إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ يَحْيَا حَيَاةً وَاحِدَةً فَلْيَجْعَلْهَا بِأَحْسَنِ مَا تَكُوْنُ ، وَلْيُمَتِّعْ رُوْحَهُ بِمَا تُمَتِّعُ بِهِ جَمِيْعُ ٱلْمَخْلُوْقَاتِ سِوَاهُ . وَإِلَىٰ ٱلْمُلْتَقَىٰ فِيْ مِيْدَانِ ٱلْجِهَادِ » .

(ٱلْمُصْلِحُ ٱلْمُنْتَظَرُ) ٱنْتَهَىٰ . .

وَهَـٰذَا ٱلْكِتَابُ يَحُلُّ (ٱلْمُشْكِلَةَ) عَلَىٰ طَرِيْقَةِ « غَيْرِ مُوَظَّفٍ » . . . فَلْيَعْتَقِدِ ٱلْعَاشِقُ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَزَوِّجٍ فَإِذَا هُوَ غَيْرُ مُتَزَوِّجٍ ، وَإِذَا هُوَ يَتَقَلَّبُ فِيْمَا شَاءَ ؛ وَتَسْأَلُ ٱلْكَاتِبَ ثُمَّ مَاذَا ؟ فَيَقُوْلُ لَكَ : ثُمَّ ٱلْجَحِيْمُ . . . .

وإنما أوردنا الكتاب بطوله وعرضه لأننا قرأناه على وجهين ، فقد نبهتنا عبارة « أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن » إلى أن في الكلام إشارة من قوة خفية في الغيب ، فقرأناه على وحي هذه الإشارة وهديها ، فإذا ترجمة لغة الغيب فيه :

« ويحك يا صاحب المشكلة ، إذا أردت أن تكون مجنونا أو كافرا بالله وبالآخرة فهذا هو الرأي . كن حيوانا تنتصر فيه الطبيعة والسلام ! » .

* * *

تلك إحدى عجائب المقادير في أول كتاب ألقي إلي ؛ أما العجيبة الثانية فإن آخر كتاب تلقيته كان من صاحبة المشكلة نفسها ؛ وهو كتاب آية في الظرف وجمال التعبير وإشراق النفس في أسرارها ، يمور مور الضباب الرقيق من ورائه الأشعة ، فهو يحجب جمالا ليظهر منه جمالا آخر ؛ وكأنه يعرض بذلك رأيا للنظر ورأيا للتصور ، ويأتي بكلام يقرأ بالعين قراءة وبالفكر قراءة غيرها ؛ ولفظها سهل سهل ، قريب قريب ، حتى كأن وجهها هو يحدثك لا لفظها ؛ ومادة معانيها من قلبها لا من فكرها ، وهو قلب سليم مقفل على خواطره وأحزانه ، مسترسل إلى الإيمان بما كتب عليه استرساله إلى الإيمان بما كتب له ، فما به غرور ولا كبرياء ولا حقد ولا غضب ، ولا يكرثه ما هو فيه .

ومن نكد الدنيا أن مثل هذا القلب لا يخلق بفضائله إلا ليعاقب على فضائله ؛ فغلظة الناس عقاب لرقته ، وغدرهم نكاية لوفائه ، وتهورهم رد على أناته ، وحمقهم تكدير لسكونه ، وكذبهم تكذيب للصدق فيه .

وما أرى هذا القلب مأخوذا بحب ذلك الشاب ولا مستهاما به لذاته ، وإنما هو يتعلق صورا عقلية جميلة كان من عجائب الاتفاق أن عرضت له في هذا الشاب أول ما عرضت على مقدار ما ؛ وسيكون من عجائب الاتفاق أيضا أن يزول هذا الحب زوال الواحد إذا وجدت العشرة ، وزوال العشرة إذا وجدت المئة ، وزوال المئة إذا وجد الألف .

وبعد هذا كله فصاحبة المشكلة في كتابها كأنما تكتب في نقد الحكومة على طريقة جعل التوقيع : « فلان غير موظف بالحكومة » . . . وهي فيما كتبت كالنهر الذي يتحدر

بين شاطئيه مدعيا أنه هارب من الشاطئين مع أنه بينهما يجري : تحب صاحبها وتلقاه ؛ ثم هي عند نفسها غير جانية عليه ولا على زوجته . . . فليت شعري عنها ، ما عسى أن تكون الجناية بعد زواج الرجل غير هذا الحب وهذا اللقاء ؟

ونحن معا كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال له : هبنا نقدر على محاباتك في ألا نقول إنك ظالم ؛ هل تقدر أنت على ألا تعلم أنك ظالم ؟

ورأيها في (المشكلة) أن ليس من أحد يستطيع حلها إلا صاحبها ، ثم هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقة من طريقتين : فإما أن تكون ضحية أبيها وأبيه ـ تعني زوجته ـ ضحيته هو أيضا ، ويستهدف لما يناله من أهله وأهلها ، فيكون البلاء عن يمينه وشماله ، ويكابد من نفسه ومنهم ما إن أقله ليذهب براحته وينغص عليه الحب والعيش ، (قالت) : وإما أن يضحي بقلبه وعقله وبي . . . . . .

وهذا كلام كأنها تقول فيه : إن أحدا لا يستطيع حل المشكلة إلا صاحبها ، ⟦ وأن صاحبها ⟧ غير مستطيع حلها إلا بجناية يذهب فيها نعيمه ، أو بجنون يذهب فيه عقله . فإن حلها بعد ذلك فهو أحد اثنين : إما أحمق أو مجنون ما منهما بد . . .

ولسان الغيب ناطق في كلامها بأن أحسن حل للمشكلة هو أن تبقى بلا حل ، فإن بعض الشر أهون من بعض .

* * *

والعجيبة الثالثة أن « نابغة القرن العشرين »(1) جاء زائرا بعد أن قرأ مقالات (المجنون) ، فرأى بين يدي هذه الكتب التي تلقيتها وأنا أعرضها وأنظر فيها لأتخير منها ، فسأل فخبرته الخبر ؛ فقال : إن صاحب هذه المشكلة مجنون . . . لو امتحنوه في الجغرافيا وقالوا له : ما هي أشهر صناعة في باريس Paris ؟ لأجابهم : أشهر ما تعرف به باريس Paris أنها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتي . . .

قلت : فكيف يرتد هذا المجنون عاقلا ؟ وما علاجه عندك ؟

(1) هو لقب المجنون ، فانظر مقالاته في الجزء الثاني .

قَالَ : وَجِّهْ فِيْ طَلَبِ (ا . ش)[1] لِيَجِيْءَ ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ ٱكْتُبْ : جَلَسَ « نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنِ » مَجْلِسَهُ لِلإِفْتَاءِ فِيْ حَلِّ ٱلْمُشْكِلَةِ فَأَفْتَىٰ مُرْتَجِلًا :

« إِنَّ مَنْطِقَ ٱلْأَشْيَاءِ وَعَقْلِيَّةَ ٱلْأَشْيَاءِ صَرِيْحَانِ فِيْ أَنَّ مُشْكِلَةَ ٱلْحُبِّ ٱلَّتِيْ يَعْسُرُ حَلُّهَا وَيَتَعَذَّرُ مَجَازُ ٱلْعَقْلِ فِيْهَا ، لَيْسَتْ هِيَ مُشْكِلَةَ هَـٰذَا ٱلْعَاشِقِ أَكْرَهُوْهُ عَلَىٰ ٱلزَّوَاجِ بِٱمْرَأَةٍ يَحْمِلُهَا ٱلْقَلْبُ أَوْ لَا يَحْمِلُهَا ، وَإِنَّمَا تِلْكَ هِيَ مُشْكِلَةُ أَمْبَرَاطُوْرِ ٱلْحَبَشَةِ يُرِيْدُوْنَ إِرْغَامَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ إِيْطَالْيَا ، وَيَذْهَبُوْنَ يَزُفُّوْنَهَا إِلَيْهِ بِٱلدَّبَّابَاتِ وَٱلرَّشَّاشَاتِ وَٱلْغَازَاتِ ٱلسَّامَّةِ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ رَأْسُ هَـٰذَا ٱلْعَاشِقِ ٱلْمَجْنُوْنِ فَارِغًا مِنَ ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِيْ يَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْعَقْلِ ، إِذًا لَكَانَتْ مَجَارِيْ عَقْلِهِ مُطَّرِدَةً فِيْ رَأْسِهِ ، فَٱنْحَلَّتْ مُشْكِلَتُهُ بِأَسْبَابٍ تَأْتِيْ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا أَوْ ذَاتِ نَفْسِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّ فِيْ رَأْسِهِ عَقْلَ بَطْنِهِ لَا عَقْلَ ٱلرَّأْسِ ، كَذَلِكَ ٱلشَّرِهُ ٱلْبَخِيْلُ ٱلَّذِيْ طَبَخَ قِدْرًا وَقَعَدَ هُوَ وَٱمْرَأَتُهُ يَأْكُلَانِ ، فَقَالَ : مَا أَطْيَبَ هَـٰذِهِ ٱلْقِدْرَ لَوْلَا ٱلزِّحَامُ . . . قَالَتِ ٱمْرَأَتُهُ : أَيُّ زِحَامٍ هَـٰهُنَا ؟ إِنَّمَا أَنَا وَأَنْتَ . قَالَ : كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ أَنَا وَٱلْقِدْرُ فَقَطْ . . .

فَعَقْلُ ٱلنَّهِمِ فِيْ رَأْسِ هَـٰذَا كَعَقْلِ ٱلشَّهْوَةِ فِيْ رَأْسِ ذَاكَ : كِلَاهُمَا فَاسِدُ ٱلتَّقْدِيْرِ لَا يَعْمَلُ أَعْمَالَ ٱلْعُقُوْلِ ٱلسَّلِيْمَةِ ؛ وَيُرِيْدُ أَحَدُهُمَا أَنْ تَبْطُلَ ٱلزَّوْجَةُ مِنْ أَجْلِ رِطْلٍ مِنَ ٱللَّحْمِ ، وَيُرِيْدُ ٱلْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ فِيْ رِطْلٍ مِنَ ٱلْحُبِّ . . .

وَإِذَا فَسَدَ ٱلْعَقْلُ هَـٰذَا ٱلْفَسَادَ ٱبْتَلَىٰ صَاحِبَهُ بِٱلْمَشَاكِلِ ٱلصِّبْيَانِيَّةِ ٱلْمُضْحِكَةِ : لَا تَكُوْنُ مِنْ شَيْءٍ كَبِيْرٍ ، وَلَا يَكُوْنُ مِنْهَا شَيْءٌ كَبِيْرٌ ؛ وَهِيَ عِنْدَ صَاحِبِهَا لَوْ وُزِنَتْ كَانَتْ قَنَاطِيْرَ مِنَ ٱلتَّعْقِيْدِ؛ وَلَوْ كِيْلَتْ بَلَغَتْ أَرَادِبَّ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ؛ وَلَوْ قِيْسَتِ ٱمْتَدَّتْ إِلَىٰ فَرَاسِخَ مِنَ ٱلْغُمُوْضِ.

هَاتَانِ ٱلْمَرْأَتَانِ : (ٱلْحَبِيْبَةُ وَٱلزَّوْجَةُ) ، إِمَّا أَنْ تَكُوْنَا جَمِيْعًا ٱمْرَأَتَيْنِ ، فَٱلْمَعْنَىٰ وَاحِدٌ فَلَا مُشْكِلَةَ ؛ وَإِمَّا أَلَّا تَكُوْنَا ٱمْرَأَتَيْنِ ، فَٱلْمَعْنَىٰ كَذَلِكَ وَاحِدٌ فَلَا مُشْكِلَةَ ؛ وَإِمَّا أَنْ تَكُوْنَ إِحْدَاهُمَا ٱمْرَأَةٌ وَٱلْأُخْرَىٰ قِرْدَةٌ أَوْ هِرْدَةٌ ، وَهَـٰهُنَا ٱلْمُشْكِلَةُ . (حَاشِيَةٌ : ٱلْهِرْدَةُ مِنْ أَوْضَاعِ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنِ فِيْ ٱللُّغَةِ ، وَمَعْنَاهَا ٱلْأُنْثَىٰ لَيْسَتْ مِنْ إِنَاثِ ٱلْأَنَاسِيِّ وَلَا ٱلْبَهَائِمِ . . .) .

فَإِنْ زَعَمَ ٱلْعَاشِقُ أَنَّ زَوْجَتَهُ قِرْدَةٌ فَهُوَ كَاذِبٌ ، وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهَا ٱلْهِرْدَةُ فَهُوَ أَكْذَبُ ؛

(١) هو أمين حافظ شرف . بسّام .

وَٱلْمُشْكِلَةُ هُنَا مُشْكِلَةُ كُلِّ ٱلْمَجَانِيْنِ ، فَفِيْ مُخِّهِ مَوْضِعٌ أَفْرَطَ عَلَيْهِ ٱلشُّعُوْرُ فَأَفْسَدَهُ ، وَأَوْقَعَ بِفَسَادِهِ ٱلْخَطَأَ فِيْ ٱلرَّأْيِ ، وَٱبْتَلَاهُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْخَطَأِ بِٱلْعَمَىٰ عَنِ ٱلْحَقِيْقَةِ ، وَجَعَلَ زَوْجَتَهُ ٱلْمِسْكِيْنَةَ هِيَ مَعْرِضَ هَـٰذَا ٱلْعَمَىٰ وَهَـٰذَا ٱلْخَطَأَ وَهَـٰذَا ٱلْفَسَادَ ؛ وَلَا عَيْبَ فِيْهَا ، لِأَنَّهَا مِنْ زَوْجِهَا كَٱلْحَقِيْقَةِ ٱلَّتِيْ يَتَخَبَّطُ فِيْهَا ٱلْمَجْنُوْنُ مُدَّةَ جُنُوْنِهِ ، فَتَكُوْنُ مَجْلَىٰ هَذَيَانِهِ وَمَعْرِضَ حَمَاقَاتِهِ ، وَهِيَ ٱلْحَقِيْقَةُ غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ ٱلْمَجْنُوْنُ .

فَإِنْ كَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْحَقِيْقَةُ مَسْأَلَةً حِسَابِيَّةً ٱسْتَمَرَّ ٱلْمَجْنُوْنُ مُدَّةَ جُنُوْنِهِ يَقُوْلُ لِلنَّاسِ : خَمْسُوْنَ وَخَمْسُوْنَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، وَلَا يُصَدِّقُ أَبَدًا أَنَّهَا مِئَةٌ كَامِلَةٌ ؛ وَإِنْ كَانَتْ مَسْأَلَةً عِلْمِيَّةً قَضَىٰ ٱلْمَجْنُوْنُ أَيَّامَهُ يُشْعِلُ ٱلتُّرَابَ لِيَجْعَلَهُ بَارُوْدًا يَنْفَجِرُ وَيَتَفَرْقَعُ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيْ عَقْلِهِ أَبَدًا أَنَّ هَـٰذَا تُرَابٌ مُنْطَفِئٌ بِٱلطَّبِيْعَةِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ مَسْأَلَةً قَلْبِيَّةً ٱسْتَمَرَّ ٱلْمَجْنُوْنُ يَزْعُمُ أَنَّ زَوْجَتَهُ قِرْدَةٌ أَوْ هِرْدَةٌ ، وَلَا يَشْعُرُ أَبَدًا أَنَّهَا ٱمْرَأَةٌ .

فَإِنْ صَحَّ أَنَّ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ مَجْنُوْنٌ فَعِلَاجُهُ أَنْ يُرْبَطَ فِيْ ٱلْمَارِسْتَانِ ، ثُمَّ يَجِيْءُ أَهْلُهُ كُلَّ يَوْمٍ بِزَوْجَتِهِ فَيَسْأَلُوْنَهُ : أَهَـٰذِهِ ٱمْرَأَةٌ أَمْ قِرْدَةٌ أَمْ هِرْدَةٌ ؟ ثُمَّ لَا يَزَالُوْنَ وَلَا يَزَالُ حَتَّىٰ يَرَاهَا ٱمْرَأَةً ، وَيَعْرِفَهَا ٱمْرَأَتَهُ ، فَيُقَالُ لَهُ حِيْنَئِذٍ : إِنْ كُنْتَ رَجُلًا فَتَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِ ٱلرِّجَالِ .

أَمَّا إِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ عَاقِلًا مُمَيِّزًا صَحِيْحَ ٱلتَّفْكِيْرِ وَلَـٰكِنَّهُ مَرِيْضٌ مَرَضَ ٱلْحُبِّ ، فَلَا يَرَىٰ (ٱلنَّابِغَةُ) أَشْفَىٰ لِدَائِهِ وَلَا أَنْجَعَ فِيْهِ مِنْ أَنْ يَسْتَطِبَّ بِهَـٰذِهِ ٱلْأَشْفِيَةِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّىٰ يَذْهَبَ سَقَامُهُ بِوَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ بِهَا كُلِّهَا :

ٱلدَّوَاءُ ٱلْأَوَّلُ : أَنْ يَجْمَعَ فِكْرَهُ قَبْلَ نَوْمِهِ فَيَحْصُرَهُ فِيْ زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَقُوْلُ : زَوْجَتِيْ ، زَوْجَتِيْ . حَتَّىٰ يَنَامَ . فَإِنْ لَمْ يَذْهَبْ مَا بِهِ فِيْ أَيَّامٍ قَلِيْلَةٍ فَٱلدَّوَاءُ ٱلثَّانِيْ .

ٱلدَّوَاءُ ٱلثَّانِيْ : أَنْ يَتَجَرَّعَ شَرْبَةً مِنْ زَيْتِ ٱلْخِرْوَعِ كُلَّ أُسْبُوْعٍ . . . وَيَتَوَهَّمَ كُلَّ مَرَّةٍ أَنَّهُ يَتَجَرَّعُهَا مِنْ يَدِ حَبِيْبَتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ هَـٰذَا فَٱلدَّوَاءُ ٱلثَّالِثُ .

ٱلدَّوَاءُ ٱلثَّالِثُ : أَنْ يَذْهَبَ فَيَبِيْتَ لَيْلَةً فِيْ ٱلْمَقَابِرِ ، ثُمَّ يَنْظُرَ نَظَرَهُ فِيْ أَيِّ ٱلْمَرْأَتَيْنِ يُرِيْدُ أَنْ يَلْقَىٰ ٱللهَ بِهَا وَبِرِضَاهَا عَنْهُ وَبِثَوَابِهِ فِيْهَا ؛ وَأَيَّتُهُمَا هِيَ مَوْضِعُ ذَلِكَ عِنْدَ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، فَإِنْ لَمْ يُبْصِرْ رُشْدَهُ بَعْدَ هَـٰذَا فَٱلدَّوَاءُ ٱلرَّابِعُ .

الدَّوَاءُ الرَّابِعُ : أَنْ يَخْرُجَ فِي (مُظَاهَرَةٍ) . . . فَإِذَا فُقِئَتْ لَهُ عَيْنٌ أَوْ كُسِرَتْ لَهُ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ ، ثُمَّ لَمْ تَحُلَّ حَبِيبَتُهُ الْمُشْكِلَةَ بِنَفْسِهَا . . . فَالدَّوَاءُ الْخَامِسُ .

الدَّوَاءُ الْخَامِسُ : أَنْ يَصْنَعَ صَنِيعَ الْمُبْتَلَى بِالْحَشِيشِ وَالْكُوكَايِينِ ، فَيَذْهَبَ فَيُسَلِّمَ نَفْسَهُ إِلَى السِّجْنِ لِيَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ فَيَنْسَى هَـٰذَا التَّرَفَ الْعَقْلِيَّ ، ثُمَّ لِيَعْرِفَ مِنْ أَعْمَالِ السِّجْنِ جِدَّ الْحَيَاةِ وَهَزْلَهَا ، فَإِنْ لَمْ يَنْزِعْ عَنْ جَهْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَالدَّوَاءُ السَّادِسُ .

الدَّوَاءُ السَّادِسُ : أَنَّهُ كُلَّمَا تَحَرَّكَ دَمُهُ وَشَاعَتْ فِيهِ حَرَارَةُ الْحُبِّ ، لَا يَذْهَبُ إِلَى مَنْ يُحِبُّهَا ، وَلَا يَتَوَخَّى نَاحِيَتَهَا ، بَلْ يَذْهَبُ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى حَجَّامٍ يَحْجُمُهُ . . . لِيُطْفِيءَ عَنْهُ الدَّمَ بِإِخْرَاجِ الدَّمِ ؛ وَهَـٰذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَصْلُحُ بِهَا مَجَانِينُ الْعُشَّاقِ ، وَلَوْ تَبَدَّلُوا بِهَا مِنَ الانْتِحَارِ لَعَاشُوا هُمْ وَانْتَحَرَ الْحُبُّ » .

قَالَ « نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » : « فَإِنْ بَطَلَتْ هَـٰذِهِ الأَشْفِيَةُ السِّتَّةُ ، وَبَقِيَ الرَّجُلُ جَمُوحًا لَا يُرَدُّ عَنْ هَوَاهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدَّوَاءُ السَّابِعُ .

الدَّوَاءُ السَّابِعُ : أَنْ يُضْرَبَ صَاحِبُ الْمُشْكِلَةِ خَمْسِينَ قَنَاةً يُصَكُّ بِهَا[1] وَاقِعَةً مِنْهُ حَيْثُ تَقَعُ مِنْ رَأْسِهِ وَصَدْرِهِ وَظَهْرِهِ وَأَطْرَافِهِ ، حَتَّى يَنْهَشِمَ عَظْمُهُ ، وَيَنْقَصِفَ صُلْبُهُ ، وَيَنْشَدِخَ رَأْسُهُ ، وَيَتَفَرَّى جِلْدُهُ ؛ ثُمَّ تُطْلَى جِرَاحُهُ وَكُسُورُهُ بِالأَطْلِيَةِ وَالْمَرَاهِمِ ، وَتُوضَعُ لَهُ الأَضْمِدَةُ وَالْعَصَائِبُ ، وَيُتْرَكُ حَتَّى يَبْرَأَ عَلَى ذَلِكَ : أَعْرَجَ مُتَخَلِّعًا مُبَعْثَرَ الْخَلْقِ مَكْسُورَ الأَعْلَى وَالأَسْفَلِ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ شِفَاءَهُ التَّامَّ مِنْ دَاءِ الْحُبِّ إِنْ شَاءَ اللهُ . . . . . . » .

قُلْنَا : فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ ذَلِكَ وَلَمْ يَصْرِفْ عَنْهُ غَائِلَةَ الْحُبِّ ؟

قَالَ : فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ ذَلِكَ فَالدَّوَاءُ الثَّامِنُ .

الدَّوَاءُ الثَّامِنُ : أَنْ يُعَادَ عِلَاجُهُ بِالدَّوَاءِ السَّابِعِ . . . . . .

مصطفى صادق الرافعي

(١) الْقَنَاةُ : هِيَ الْعَصَا الْغَلِيظَةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا « الشُّومَة » . وَالصَّكُّ خَاصٌّ فِي ضَرْبِ الرَّأْسِ ، وَلَـٰكِنْ لَمَّا كَانَتْ عِظَامُ صَاحِبِ الْمُشْكِلَةِ مَقْصُودَةً فِي هَـٰذَا الْعِلَاجِ . . . فَقَدْ جَازَ اسْتِعْمَالُ الصَّكِّ فِي الْجِسْمِ كُلِّهِ كَمَا رَأَيْتَ .

الْمُشْكِلَةُ
٣

أَمَّا الْبَقِيَّةُ مِنْ هَـٰذِهِ الآرَاءِ الَّتِي تَلَقَّيْتُهَا فَكُلُّ أَصْحَابِهَا مُتَوَافِقُونَ عَلَى مِثْلِ الرَّأْيِ الْوَاحِدِ ، مِنْ وُجُوبِ إِمْسَاكِ الزَّوْجَةِ وَالإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِرْسَالِ « تِلْكَ » وَالانْصِرَافِ عَنْهَا ، وَأَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ فِي ذَلِكَ عَزْمٌ لَا يَتَقَلْقَلُ وَمَضَاءٌ لَا يَنْثَنِي ، وَأَنْ يَصْبِرَ لِلنُّفْرَةِ حَتَّى يَسْتَأْنِسَ مِنْهَا فَإِنَّهَا سَتَتَحَوَّلُ ، وَيَجْعَلَ الأَنَاةَ بِإِزَاءِ الضَّجَرِ فَإِنَّهَا تُصْلِحُهُ ، وَالْمُرُوءَةَ بِإِزَاءِ الْكُرْهِ فَإِنَّهَا تَحْمِلُهُ ، وَلْيَتْرُكِ الأَيَّامَ تَعْمَلُ عَمَلَهَا فَإِنَّهُ الآنَ يَعْتَرِضُ هَـٰذَا الْعَمَلَ وَيُعَطِّلُهُ ، وَإِنَّ الأَيَّامَ إِذَا عَمِلَتْ فَسَتَغَيَّرُ وَتَبَدَّلُ ؛ وَلَا يُسْتَقَلُّ الْقَلِيلُ تَكُونُ الأَيَّامُ مَعَهُ ، وَلَا يُسْتَكْثَرُ الْكَثِيرُ تَكُونُ الأَيَّامُ عَلَيْهِ .

وَالْعَدِيدُ الأَكْبَرُ مِمَّنْ كَتَبُوا إِلَيَّ ، يَحْفَظُونَ عَلَى صَاحِبِ الْمُشْكِلَةِ ذَلِكَ الْبَيَانَ الَّذِي وَضَعْنَاهُ عَلَى لِسَانِهِ فِي الْمَقَالِ الأَوَّلِ ، وَيُحَاسِبُونَهُ بِهِ ، وَيُقِيمُونَ مِنْهُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ ، وَيَقُولُونَ لَهُ : أَنْتَ اعْتَرَفْتَ ، وَأَنْتَ أَنْكَرْتَ ، وَأَنْتَ رَدَدْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَأَنْتَ نَصَبْتَ الْمِيزَانَ فَكَيْفَ لَا تَقْبَلُ الْوَزْنَ بِهِ ؟ وَقَدْ غَفَلُوا عَنْ أَنَّ الْمَقَالَ مِنْ كَلَامِنَا نَحْنُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ أُسْلُوبٌ مِنَ الْقَوْلِ أَرَدْنَاهُ وَنَحَلْنَاهُ ذَلِكَ الشَّابَّ ، لِيَكُونَ فِيهِ الاعْتِرَاضُ وَجَوَابُهُ ، وَالْخَطَأُ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ ؛ وَلِنُظْهِرَ بِهِ الرَّجُلَ كَالأَبْلَهِ فِي حَيْرَتِهِ وَمُشْكِلَتِهِ ، تَنْفِيرًا لِغَيْرِهِ عَنْ مِثْلِ مَوْقِفِهِ ، ثُمَّ لِنُحَرِّكَ بِهِ الْعِلَلَ الْبَاطِنَةَ فِي نَفْسِهِ هُوَ ، فَنَصْرِفَهُ عَنِ الْهَوَى شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الرَّأْيِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى إِذَا قَرَأَ قِصَّةَ نَفْسِهِ قَرَأَهَا بِتَعْبِيرٍ مِنْ قَلْبِهِ وَتَعْبِيرٍ آخَرَ مِنَ الْعَقْلِ ، وَتَلَمَّحَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِ فِيمَا ظَهَرَ لَهُ ، وَاهْتَدَى مِنَ التَّقْيِيدِ إِلَى سَبِيلِ الإِطْلَاقِ ، وَعَرَفَ كَيْفَ يُخَلِّصُ بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْحُبِّ اللَّذَيْنِ اخْتَلَطَا عَلَيْهِ وَامْتَزَجَا لَهُ امْتِزَاجَ الْمَاءِ وَالْخَمْرِ . وَبِذَلِكَ الأُسْلُوبِ جَاءَتِ الْمُشْكِلَةُ مُعَقَّدَةً مُنْحَلَّةً فِي لِسَانِ صَاحِبِهَا ، وَبَقِيَ أَنْ يُدْفَعَ صَاحِبُهَا بِكَلَامٍ آخَرَ إِلَى مَوْضِعِ الرَّأْيِ .

وَكَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ لَمْ يَزِيدُوا عَلَى أَنْ نَبَّهُوا الرَّجُلَ إِلَى حَقِّ زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ يَدْعُونَ اللهَ أَنْ

يَرْزُقَهُ عَقْلًا . . . وَقَدْ أَصَابَ هَـٰؤُلَاءِ أَحْسَنَ ٱلتَّوْفِيْقِ فِيْمَا أُلْهِمُوا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلدَّعْوَةِ ، فَإِنَّمَا جَاءَتِ ٱلْمُشْكِلَةُ مِنْ أَنَّ ٱلرَّجُلَ قَدْ فَقَدَ ٱلتَّمْيِيْزَ وَجُنَّ بِجُنُوْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا فِيْ ٱلدَّاخِلِ مِنْ عَقْلِهِ ، وَٱلثَّانِيْ فِيْ ٱلْخَارِجِ مِنْهُ ؛ فَأَصْبَحَ لَا يُبَالِيْ ٱلإِثْمَ وَٱلْبُغْضَ عِنْدَ زَوْجَتِهِ إِذَا هُوَ أَصَابَ ٱلْحُظْوَةَ وَٱلسُّرُوْرَ عِنْدَ ٱلأُخْرَىٰ ؛ فَتَعَدَّىٰ طَوْرَهُ مَعَ ٱلْمَرْأَتَيْنِ جَمِيْعًا ، وَظَلَمَ ٱلزَّوْجَةَ بِأَنِ ٱسْتَلَبَ حَقَّهَا فِيْهِ ، وَظَلَمَ ٱلأُخْرَىٰ بِأَنْ زَادَهَا ذَٰلِكَ ٱلْحَقَّ فَجَعَلَهَا كَٱلسَّارِقَةِ وَٱلْمُعْتَدِيَةِ .

وَقَدْ تَمَنَّىٰ أَحَدُ ٱلْقُرَّاءِ مِنْ فِلَسْطِيْنَ[1] أَنْ يَرْزُقَهُ ٱللهُ مِثْلَ هَـٰذِهِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلْمَكْرُوْهَةِ كَرَاهَةَ حُبٍّ ، وَيَضَعَهُ مَوْضِعَ صَاحِبِ ٱلْمُشْكِلَةِ ، لِيُثْبِتَ أَنَّهُ رَجُلٌ يَحْكُمُ ٱلْكُرْهَ وَيُصَرِّفُهُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ ، وَلَا يَرْضَىٰ أَنْ يَحْكُمَهُ ٱلْحُبُّ وَإِنْ كَانَ هُوَ ٱلْحُبَّ .

وَهَـٰذَا رَأْيٌ حَصِيْفٌ جَيِّدٌ ، فَإِنَّ ٱلْعَاشِقَ ٱلَّذِيْ يَتَلَعَّبُ ٱلْحُبُّ بِهِ وَيَصُدُّهُ عَنْ زَوْجَتِهِ ، لَا يَكُوْنُ رَجُلًا صَحِيْحَ ٱلرُّجُوْلَةِ ، بَلْ هُوَ أَسْخَفُ ٱلأَمْثِلَةِ فِيْ ٱلأَزْوَاجِ ، بَلْ هُوَ مُجْرِمٌ أَخْلَاقِيٌّ يَنْصِبُ لِزَوْجَتِهِ مِنْ نَفْسِهِ مِثَالَ ٱلْعَاهِرِ ٱلْفَاسِقِ ، لِيَدْفَعَهَا إِلَىٰ ٱلدَّعَارَةِ وَٱلْفِسْقِ مِنْ حَيْثُ يَدْرِيْ أَوْ لَا يَدْرِيْ ؛ بَلْ هُوَ غَبِيٌّ ، إِذْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ ٱنْفِرَادَ زَوْجَتِهِ وَتَرَاجُعَهَا إِلَىٰ نَفْسِهَا ٱلْحَزِيْنَةِ يُنْشِىءُ فِيْ نَفْسِهَا ٱلْحَنِيْنَ إِلَىٰ رَجُلٍ آخَرَ ؛ بَلْ هُوَ مُغَفَّلٌ ، إِذْ لَا يُدْرِكُ أَنَّ شَرِيْعَةَ ٱلسِّنِّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ، هِيَ بِنَفْسِهَا عِنْدَ ٱلْمَرْأَةِ شَرِيْعَةُ ٱلرَّجُلِ بِٱلرَّجُلِ . . . . . .

وَٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِيْ تَجِدُ مِنْ زَوْجِهَا ٱلْكَرَاهِيَةَ لَا تَعْرِفُهَا أَنَّهَا ٱلْكَرَاهَةُ إِلَّا أَوَّلَ أَوَّلَ ؛ ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا ٱلْكَرَاهَةُ هِيَ ٱحْتِقَارُهَا وَإِهَانَتُهَا فِيْ أَخَصِّ خَصَائِصِهَا ٱلنِّسْوِيَّةِ ، ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا هِيَ إِثَارَةُ كِبْرِيَائِهَا وَتَحَدِّيْهَا ، ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا هِيَ دَفْعُ غَرِيْزَتِهَا أَنْ تَعْمَلَ عَلَىٰ إِثْبَاتِ أَنَّهَا جَدِيْرَةٌ بِٱلْحُبِّ ، وَأَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَىٰ ٱلنِّقْمَةِ وَٱلْمُجَازَاةِ ؛ ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا بُرْهَانُ كُلِّ ذَٰلِكَ لَا يَجِيْءُ مِنْ عَقْلٍ وَلَا مَنْطِقٍ وَلَا فَضِيْلَةٍ ، وَإِنَّمَا يَأْتِيْ مِنْ رَجُلٍ . . . رَجُلٍ يُحَقِّقُ لَهَا هِيَ أَنَّ زَوْجَهَا مُغَفَّلٌ وَأَنَّهَا جَدِيْرَةٌ بِٱلْحُبِّ .

* * *

(١) هَـٰذِهِ ٱلآرَاءُ ٱلَّتِيْ سَنَنْقُلُهَا قَدْ تَصَرَّفْنَا فِيْ جَمِيْعِهَا بِٱلْعِبَارَةِ ، وَلَـٰكِنَّا لَمْ نَخْرُجْ عَمَّا يَرْمِيْ إِلَيْهِ صَاحِبُ ٱلرَّأْيِ وَمَا أَقَامَ رَأْيَهُ عَلَيْهِ .

وَكَأَنَّ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ هُوَ ٱلَّذِيْ أَشَارَتْ إِلَيْهِ ٱلأَدِيْبَةُ (ف . ز) وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تَبْسُطْهُ ، فَقَدْ قَالَتْ : إِنَّ صَاحِبَ هَـٰذِهِ ٱلْمُشْكِلَةِ غَبِيٌّ ، وَلَا يَكُوْنُ إِلَّا رَجُلًا مَرِيْضَ ٱلنَّفْسِ مَرِيْضَ ٱلْخُلُقِ ، وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ ٱلرَّجُلِ . . . وَمِثْلُ هَـٰذَا هُوَ فِيْ نَفْسِهِ مُشْكِلَةٌ فَكَيْفَ تُحَلُّ مُشْكِلَتُهُ ؟ إِنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ زَوْجَتِهِ مُغَفَّلٌ ، لَا وَصْفَ لَهُ عِنْدَهَا إِلَّا هَـٰذَا ؛ وَمِنْ جِهَةِ حَبِيْبَتِهِ خَائِنٌ ، وَٱلْخِيَانَةُ أَوَّلُ أَوْصَافِهِ عِنْدَهَا .

وَهَـٰذَا ٱلزَّوْجُ يُسَمِّمُ ٱلآنَ أَخْلَاقَ زَوْجَتِهِ وَيُفْسِدُ طِبَاعَهَا ، وَيُنْشِىءُ لَهَا قِصَّةً فِيْ أَوَّلِهَا غَبَاوَتُهُ وَإِثْمُهُ ، وَسَيَتْرُكُهَا تُتِمُّ ٱلرِّوَايَةَ فَلَا يَعْلَمُ إِلَّا ٱللهُ مَا يَكُوْنُ آخِرُهَا . وَبِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ أَصْبَحَ ٱلْمُتَعَلِّمَاتُ يَعْتَقِدْنَ أَنَّ أَكْثَرَ ٱلشُّبَّانِ إِنْ لَمْ يَكُوْنُوا جَمِيْعًا ، هُمْ كَاذِبُوْنَ فِيْ ٱدِّعَاءِ ٱلْحُبِّ ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا ٱلْغَوَايَةُ ؛ أَوْ هُمْ مُحِبُّوْنَ يَكْذِبُ ٱلأَمَلُ بِهِمْ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا ٱلْخَيْبَةُ .

قَالَتْ : وَخَيْرُ مَا تَفْعَلُهُ صَاحِبَةُ ٱلْمُشْكِلَةِ أَنْ تَصْنَعَ مَا صَنَعَتْهُ أُخْرَىٰ ، لَهَا مِثْلُ قِصَّتِهَا : فَهَـٰذِهِ حِيْنَ عَلِمَتْ بِزَوَاجِ صَاحِبِهَا قَذَفَتْ بِهِ مِنْ طَرِيْقِ آمَالِهَا إِلَىٰ ٱلطَّرِيْقِ ٱلَّذِيْ جَاءَ مِنْهُ ، وَأَنْزَلَتْهُ مِنْ دَرَجَةِ أَنَّهُ كُلُّ ٱلنَّاسِ إِلَىٰ مَنْزِلَةِ أَنَّهُ كَكُلِّ ٱلنَّاسِ ، وَنَبَّهَتْ حَزْمَهَا وَعَزِيْمَتَهَا وَكِبْرِيَاءَهَا ، فَرَأَتْهُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَهْوَنَ عَلَىٰ نَفْسِهَا مِنْ أَنْ يَكُوْنَ سَبَبًا لِشَقَاءٍ أَوْ حَسْرَةٍ أَوْ هَمٍّ ، وَٱبْتَعَدَتْ بِفَضَائِلِهَا عَنْ طَرِيْقِ ٱلْحُبِّ ٱلَّذِيْ تَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيْمُ إِلَّا لِزَوْجَةٍ وَزَوْجِهَا ، فَإِذَا مَشَتْ فِيْهِ ٱمْرَأَةٌ إِلَىٰ غَيْرِ زَوَاجٍ ، ٱنْحَرَفَ بِهَا مِنْ هُنَا ، وَٱعْوَجَّ لَهَا مِنْ هُنَا ، فَلَمْ يَنْتَهِ بِهَا فِيْ ٱلْغَايَةِ إِلَّا أَنْ تَعُوْدَ إِلَىٰ نَفْسِهَا وَعَلَيْهَا غُبَارُهُ، وَمَا غُبَارُ هَـٰذَا ٱلطَّرِيْقِ إِلَّا سَوَادُ وَجْهِ ٱلْمَرْأَةِ . . .

وَقَدْ جَهَدَ ٱلرَّجُلُ بِصَاحِبَتِهِ أَنْ تَتَّخِذَهُ صَدِيْقًا ، فَأَبَتْ أَنْ تَتَقَبَّلَ مِنْهُ بُرْهَانَ خَيْبَتِهَا . . . وَأَظْهَرَتْ لَهُ جَفْوَةً فِيْهَا ٱحْتِقَارٌ ، وَأَعْلَمَتْهُ أَنَّ نَكْثَ ٱلْعَهْدِ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ عَهْدٌ ، وَأَنَّ ٱلصَّدَاقَةَ إِذَا بَدَأَتْ مِنْ آخِرِ ٱلْحُبِّ تَغَيَّرَ ٱسْمُهَا وَرُوْحُهَا وَمَعْنَاهَا ، فَإِمَّا أَنْ تَكُوْنَ حِيْنَئِذٍ أَسْقَطَ مَا فِيْ ٱلْحُبِّ ، أَوْ أَكْذَبَ مَا فِيْ ٱلصَّدَاقَةِ .

ثُمَّ قَالَتِ ٱلأَدِيْبَةُ : وَهِيَ كَانَتْ تُحِبُّهُ ، بَلْ كَانَتْ مُسْتَهَامَةً بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ أَيْضًا طَاهِرَةَ ٱلْقَلْبِ ، لَا تُرِيْدُ فِيْ ٱلْحَبِيْبِ رَجُلًا هُوَ رَجُلُ ٱلْحِيْلَةِ عَلَيْهَا فَتُخْدَعُ بِهِ ، وَلَا رَجُلُ ٱلْعَارِ فَتُسَبُّ بِهِ ؛ وَفِيْ طَهَارَةِ ٱلْمَرْأَةِ جَزَاءُ نَفْسِهَا مِنْ قُوَّةِ ٱلثِّقَةِ وَٱلاطْمِئْنَانِ وَحُسْنِ ٱلتَّمَكُّنِ ؛

وَهَـٰذَا ٱلْقَلْبُ ٱلطَّاهِرُ إِذَا فَقَدَ ٱلْحُبَّ لَمْ يَفْقِدِ ٱلطُّمَأْنِينَةَ ، كَٱلتَّاجِرِ ٱلْحَاذِقِ إِنْ خَسِرَ ٱلرِّبْحَ لَمْ يُفْلِسْ ، لِأَنَّ مَهَارَتَهُ مِنْ بَعْضِ خَصَائِصِهَا ٱلْقُدْرَةُ عَلَىٰ ٱلاحْتِمَالِ ، وَٱلصَّبْرُ لِلْمُجَاهَدَةِ .

قَالَتْ : فَعَلَىٰ صَاحِبَةِ ٱلْمُشْكِلَةِ ٱلَّتِي عَرَفَتْ كَيْفَ تُحِبُّ وَتُجِلُّ ، أَنْ تَعْرِفَ ٱلآنَ كَيْفَ تَحْتَقِرُ وَتَزْدَرِيْ .

* * *

وَلِلأَدِيْبَةِ (ف . ع) رَأْيٌ جَزْلٌ مُسَدَّدٌ ؛ قَالَتْ : إِنَّهَا هِيَ قَدْ كَانَتْ يَوْمًا بِٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِيْ فِيهِ صَاحِبَةُ ٱلْمُشْكِلَةِ ، فَلَمَّا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ أَنِفَتْ أَنْ تَكُوْنَ لِصَّةَ قُلُوْبٍ ، وَقَالَتْ فِيْ نَفْسِهَا : إِذَا لَمْ يُقْدَرْ لِيْ ، فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلَّذِي أَرَادَ ، وَإِنِّيْ أَسْتَحِيْ مِنَ ٱللهِ أَنْ أُحَارِبَهُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلْمِسْكِيْنَةِ ! وَلَئِنْ كُنْتُ قَادِرَةً عَلَىٰ ٱلْفَوْزِ ، إِنَّ ٱنْتِصَارِيْ عَلَيْهَا عِنْدَ حَبِيْبِيْ هُوَ ٱنْتِصَارُهَا عَلَيَّ عِنْدَ رَبِّيْ ، فَلأَخْسَرْ هَـٰذَا ٱلْحُبَّ لِأُرَابِحَ ٱللهَ بِرَأْسِ مَالٍ عَزِيْزٍ خَسِرْتُهُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلأُبْقِ عَلَىٰ أَخْلَاقِ ٱلرَّجُلِ لِيَبْقَىٰ رَجُلًا لِامْرَأَتِهِ ، فَمَا يَسُرُّنِي أَنْ أَنَالَ ٱلدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَهْدِمَ بَيْتًا عَلَىٰ قَلْبٍ ، وَلَا مَعْنَىٰ لِحُبٍّ سَيَكُوْنُ فِيهِ ٱللُّؤْمُ بَلْ سَيَكُوْنُ أَلأَمَ ٱللُّؤْمِ .

قَالَتْ : وَعَلِمْتُ أَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ قَدْ جَعَلَنِي أَنَا ٱلسَّعَادَةَ وَٱلشَّقَاءَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْوَضْعِ لِيَرَىٰ كَيْفَ أَصْنَعُ ، وَأَيْقَنْتُ أَنْ لَيْسَ بَيْنَ هَـٰذَيْنِ ٱلضِّدَّيْنِ إِلَّا حِكْمَتِي أَوْ حُمْقِيْ ، وَصَحَّ عِنْدِيْ أَنَّ حُسْنَ ٱلْمُدَاخَلَةِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمُشْكِلَةِ هُوَ ٱلْحَلُّ ٱلْحَقِيْقِيُّ لِلْمُشْكِلَةِ .

قَالَتْ : فَتَغَيَّرْتُ لِصَاحِبِيْ تَغَيُّرًا صِنَاعِيًّا ، وَكَانَتْ نِيَّتِيْ لَهُ هِيَ أَكْبَرَ أَعْوَانِيْ عَلَيْهِ ، فَمَا لَبِثَ هَـٰذَا ٱلانْقِلَابُ أَنْ صَارَ طَبِيْعِيًّا بَعْدَ قَلِيْلٍ ؛ وَكُنْتُ أَسْتَمِدُّ مِنْ قَلْبِ ٱمْرَأَتِهِ إِذَا ٱخْتَانَنِيَ ٱلضَّعْفُ أَوْ نَالَنِيْ ٱلْجَزَعُ ، فَأَشْعُرُ أَنَّ لِيْ قُوَّةَ قَلْبَيْنِ . وَزِدْتُ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلنُّصْحَ لِصَاحِبِيْ نُصْحًا مُيَسَّرًا قَائِمًا عَلَىٰ ٱلإِقْنَاعِ وَإِثَارَةِ ٱلنَّخْوَةِ فِيْهِ وَتَبْصِيْرِهِ بِوَاجِبَاتِ ٱلرَّجُلِ ، وَتَرَفَّقْتُ فِيْ ٱلتَّوَصُّلِ إِلَىٰ ضَمِيْرِهِ لِأُثْبِتَ لَهُ أَنَّ عِزَّةَ ٱلْوَفَاءِ لَا تَكُوْنُ بِٱلْخِيَانَةِ ، وَبَيَّنْتُ لَهُ أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ مِنْ أَجْلِيْ فَمَا يَصْنَعُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُقِيْمَ ٱلْبُرْهَانَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِيْ زَوْجًا ؛ ثُمَّ دَلَلْتُهُ بِرِفْقٍ عَلَىٰ أَنَّ خَيْرَ مَا يَصْنَعُ وَخَيْرَ مَا هُوَ صَانِعٌ لِإِرْضَائِيْ أَنْ يُقَلِّدَنِيْ فِيْ ٱلإِيْثَارِ وَكَرَمِ ٱلنَّفْسِ ، وَيَحْتَذِيَنِيْ فِيْ ٱلْخَيْرِ وَٱلْفَضِيْلَةِ ، وَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ دُمُوْعَ ٱلْمَظْلُوْمِيْنَ هِيَ فِيْ أَعْيُنِهِمْ دُمُوْعٌ ، وَلَـٰكِنَّهَا فِيْ يَدِ ٱللهِ صَوَاعِقُ يُضْرَبُ بِهَا ٱلظَّالِمُ .

قَالَتْ : وَبِهَـٰذَا وَبَعْدَ هَـٰذَا ٱنْقَلَبَ حُبُّهُ لِيْ إِكْبَارًا وَإِعْظَامًا ، وَسَمَا فَوْقَ أَنْ يَكُوْنَ حُبًّا كَٱلْحُبِّ ؛ وَصَارَ يَجِدُنِيْ فِيْ ذَاتِ نَفْسِهِ وَفِيْ ضَمِيْرِهِ كَٱلتَّوْبِيْخِ لَهُ كُلَّمَا أَرَادَ بِٱمْرَأَتِهِ سُوْءًا أَوْ حَاوَلَ أَنْ يَغُضَّ مِنْهَا فِيْ نَفْسِهِ . وَٱعْتَادَ أَنْ يُكْرِمَهَا فَأَكْرَمَهَا ، وَصَلُحَتْ لَهُ نِيَّتُهُ فَٱتَّصَلَ بَيْنَهُمَا ٱلسَّبَبُ ، وَكَبُرَتْ هَـٰذِهِ ٱلنِّيَّةُ ٱلطَّيِّبَةُ فَصَارَتْ وِدًّا ، وَكَبُرَ هَـٰذَا ٱلْوِدُّ فَعَادَ حُبًّا ، وَقَامَتْ حَيَاتُهُمَا عَلَىٰ ٱلأَسَاسِ ٱلَّذِيْ وَضَعْتُهُ أَنَا بِيَدِيْ ، أَنَا بِيَدِيْ . . .

أَمَّا أَنَا . . . ؟ .

* * *

وَكَتَبَ فَاضِلٌ مِنْ حُلْوَانَ : إِنَّ لَهُ صَدِيْقًا ٱبْتُلِيَ بِمِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْمُشْكِلَةِ فَرَكِبَ رَأْسَهُ فَمَا رَدَّهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلزَّوَاجِ بِحَبِيْبَتِهِ ، وَزُفَّ إِلَيْهَا كَأَنَّهُ مَلِكٌ يَدْخُلُ إِلَىٰ قَصْرِ خَيَالِهِ ؛ وَكَانَ أَهْلُهُ يَعْذِلُوْنَهُ وَيَلُوْمُوْنَهُ وَيُخْلِصُوْنَ لَهُ ٱلنُّصْحَ وَيَجْتَهِدُوْنَ فِيْ أَمْرِهِ جُهْدَهُمْ ، إِذْ يَرَوْنَ بِأَعْيُنِهِمْ مَا لَا يَرَىٰ بِعَيْنِهِ ، فَكَانَ ٱلنُّصْحُ يَنْتَهِيْ إِلَيْهِ فَيَظُنُّهُ غِشًّا وَتَلْبِيْسًا ، وَكَانَ ٱللَّوْمُ يَبْلُغُهُ فَيَرَاهُ ظُلْمًا وَتَحَامُلًا ، وَكَانَ قَلْبُهُ يُتَرْجِمُ لَهُ كُلَّ كَلِمَةٍ فِيْ حَبِيْبَتِهِ بِمَعْنًى مِنْهَا هِيَ لَا مِنَ ٱلْحَقَائِقِ ، إِذْ غَلَبَتْ عَلَىٰ عَقْلِهِ فَبِهَا يَعْقِلُ ، وَذَهَبَتْ بِقَلْبِهِ فَبِهَا يُحِسُّ ، وَٱسْتَبَدَّتْ بِإِرَادَتِهِ فَلَهَا يَنْقَادُ ؛ وَعَادَتْ خَوَاطِرُهُ وَأَفْكَارُهُ تَدُوْرُ عَلَيْهَا كَٱلْحَوَاشِيْ عَلَىٰ ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمُغْلَقَةِ فِيْ كِتَابٍ ؛ وَٱسْتَقَرَّتْ لَهُ فِيْهَا قُوَّةٌ مِنَ ٱلْحُبِّ ، أَمْرُهَا إِذَا أَرَادَتْ شَيْئًا أَنْ تَقُوْلَ لَهُ كُنْ . . .

ثُمَّ مَضَتِ ٱللَّيْلَةُ بَعْدَ ٱللَّيْلَةِ ، وَجَاءَ ٱلْيَوْمُ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ ، وَٱلْمَوْجُ يَأْخُذُ مِنَ ٱلسَّاحِلِ ٱلذَّرَّةَ بَعْدَ ٱلذَّرَّةِ وَٱلسَّاحِلُ لَا يَشْعُرُ ، إِلَىٰ أَنْ تَصَرَّمَتْ أَشْهُرٌ قَلِيْلَةٌ ، فَلَمْ تَلْبَثِ ٱلطَّبِيْعَةُ ٱلَّتِي أَلَّفَتِ ٱلرِّوَايَةَ وَجَعَلَتْهَا قَبْلَ ٱلزَّوَاجِ رِوَايَةَ ٱلْمَلِكِ وَٱلْمَلِكَةِ ، وَقِصَّةَ ٱلتَّاجِ وَٱلْعَرْشِ ، وَحَدِيْثَ ٱلدُّنْيَا وَمُلْكِ ٱلدُّنْيَا ـ لَمْ تَلْبَثْ أَنِ ٱنْتَقَلَتْ عَلَيَّ فَجْأَةً فَأَدَارَتِ ٱلرِّوَايَةَ إِلَىٰ فَصْلِ ٱلسُّخْرِيَةِ وَمَنْظَرِ ٱلتَّهَكُّمِ ، وَكَشَفَتْ عَنْ غَرَضِهَا ٱلْخَفِيِّ وَحَلَّتِ ٱلْعُقْدَةَ { ٱلرِّوَائِيَّةَ } .

قَالَ : فَفَرَغَ قَلْبُ ٱلْمَرْأَةِ مِنَ ٱلْحُبِّ ، وَظَمِئَ إِلَىٰ ٱلسُّكْرِ وَٱلنَّشْوَةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ مِنْ غَيْرِ هَـٰذِهِ ٱلزُّجَاجَةِ ٱلْفَارِغَةِ . . . وَبَرَدَ قَلْبُ ٱلرَّجُلِ ، وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ ٱلَّذِيْ يَتَسَعَّرُ فِيْهِ نَارًا شَيْطَانًا خَبِيْثًا ، فَتَحَوَّلَ إِلَىٰ لَوْحٍ مِنَ ٱلثَّلْجِ لَهُ طُوْلٌ وَعَرْضٌ . . .

وَجَدَّتِ ٱلْحَيَاةُ وَهَزَلَ ٱلشَّيْطَانُ ، فَٱسْتَحْمَقَ ٱلرَّجُلُ نَفْسَهُ أَنْ يَكُوْنَ ٱخْتَارَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةَ لَهُ

زَوْجَةٌ ، وَاسْتَجْهَلَتِ الْمَرْأَةُ عَقْلَهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ رَضِيَتْ هَـٰذَا الرَّجُلَ زَوْجًا ، وَأَنْكَرَهَا إِنْكَارًا أَوَّلُهُ الْمَلَالَةُ ، وَأَنْكَرَتْهُ إِنْكَارًا آخَرَ أَوَّلُهُ التَّبَرُّمُ ؛ وَعَادَ كِلَاهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ كَإِنْسَانٍ يُكَلِّفُ إِنْسَانًا أَنْ يَخْلُقَ لَهُ الْأَمْسَ الَّذِي مَضَىٰ !

وَضَرَبَتِ الْحَيَاةُ ضَرْبَةً أَوْ ضَرْبَتَيْنِ فَإِذَا أَبْنِيَةُ الْخَيَالِ كُلُّهَا هَدْمٌ هَدْمٌ ، وَإِذَا الطَّبِيعَةُ مُؤَلِّفَةُ الرِّوَايَةِ . . . قَدْ خَتَمَتْ رِوَايَتَهَا وَقَوَّضَتِ الْمَسْرَحَ ، وَإِذَا الْأَحْلَامُ مُفَسَّرَةٌ بِالْعَكْسِ : فَالْحُبُّ تَأْوِيلُهُ الْبُغْضُ ، وَاللَّذَّةُ تَفْسِيرُهَا الْأَلَمُ ، وَ« الْبُودْرَةُ » مَعْنَاهَا الْجِيرُ . . . وَتَغَيَّرَ كُلُّ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا الشَّيْطَانَ الَّذِي بَيْنَهُمَا ، فَهُوَ الَّذِي زَوَّجَ وَهُوَ بِعَيْنِهِ الَّذِي طَلَّقَ . . . .

* * *

وَكَتَبَ أَدِيبٌ مِنْ بَغْدَادَ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ فِي هَـٰذَا الْمَوْضِعِ الْقَلِقِ مَوْضِعِ صَاحِبِ الْمُشْكِلَةِ ، وَإِنَّ ذَاتَ قُرْبَاهُ الَّتِي سُمِّيَتْ عَلَيْهِ كَانَتْ مُلَفَّقَةً لَهُ فِي حُجُبٍ عِدَّةٍ لَا فِي حِجَابٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ وُصِفَتْ لَهُ بِاللُّغَةِ . . . وَفِي اللُّغَةِ : مَا أَحْسَنَ وَمَا أَجْمَلَ وَمَا أَظْرَفَ ، وَكَأَنَّهَا ظَبْيٌ يَتَلَفَّتُ ، وَكَأَنَّهَا غُصْنٌ يَمِيلُ ، وَكَأَنَّ سَنَةَ وَجْهِهَا الْبَدْرُ !

قَالَ : وَشُبِّهَتْ لَهُ بِكُلِّ أَدَوَاتِ التَّشْبِيهِ ، وَجَاوَزُوا فِي أَوْصَافِهَا بِمَذَاهِبِ الِاسْتِعَارَةِ وَالْمَجَازِ ، فَأَخَذَهَا قَصِيدَةً قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهَا امْرَأَةً ؛ وَكَانَ لَمْ يَرَ مِنْهَا شَيْئًا ، وَكَانَتْ لُغَةُ ذَوِي قَرَابَتِهِ وَقَرَابَتِهَا كَلُغَةِ التِّجَارَةِ فِي أَلْسِنَةِ حُذَّاقِ السَّمَاسِرَةِ : مَا بِهِمْ إِلَّا تَنْفِيقُ السِّلْعَةِ ثُمَّ يُخَلُّونَ بَيْنَ الْمُشْتَرِي وَحَظِّهِ .

قَالَ : فَرَسَخَ كَلَامُهُمْ فِي قَلْبِي ، فَعَقَدْتُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَعْرَسْتُ بِهَا ، وَنَظَرْتُ فَإِذَا هِيَ لَيْسَتْ فِي الْكَلِمَةِ الْأُولَىٰ وَلَا الْأَخِيرَةِ مِمَّا قَالُوا وَلَا فِيمَا بَيْنَهُمَا . . . ثُمَّ تَعَرَّفْتُ فَإِذَا هِيَ تَكْبُرُنِي بِخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً . . . وَرَأَيْتُ اتِّضَاعَ حَالِهَا عِنْدِي فَأَشْفَقْتُ عَلَيْهَا ، وَبِتُّ اللَّيْلَةَ الْأُولَىٰ مُقْبِلًا عَلَىٰ نَفْسِي أُوَامِرُهَا وَأُنَاجِيهَا ، وَأَنْظُرُ فِي أَيِّ مَوْضِعِ رَأْيٍ[1] أَنَا ؛ وَتَأَمَّلْتُ الْقِصَّةَ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ بَيْنَ رَحْمَةِ اللهِ وَرَحْمَتِي ، فَقُلْتُ : إِنْ أَنَا نَزَعْتُ رَحْمَتِي عَنْهَا لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَنْزِعَ رَحْمَتَهُ عَنِّي ، وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَعْمَالِي ؛ وَقُلْتُ : يَا نَفْسِي ، ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « رَأْيِي » بَدَلًا مِنْ : « رَأْيٍ » .

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ [٣١ سورة لقمان/الآية : ١٦] . وَإِنَّمَا أَتَقَدَّمُ إِلَىٰ عَفْوِ اللهِ بِآثَامٍ وَذُنُوبٍ وَغَلَطَاتٍ ، فَلْأَجْعَلْ هَـٰذِهِ الْمَرْأَةَ حَسَنَتِي عِنْدَهُ ، وَمَا عَلَيَّ مِنْ عُمُرٍ سَيَمْضِي ، وَتَبْقَىٰ مِنْهُ هَـٰذِهِ الْحَسَنَةُ خَالِدَةً مُخَلَّدَةً .

إِنَّهَا كَانَتْ حَاجَةَ النَّفْسِ إِلَى الْمَتَاعِ فَانْقَلَبَتْ حَاجَةً إِلَى الثَّوَابِ ، وَكَانَتْ شَهْوَةً فَرَجَعَتْ حِكْمَةً ، وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَبْلُغَ مَا أُحِبُّ فَسَأَبْلُغُ مَا يَجِبُ . ثُمَّ قُلْتُ : اللَّهُمَّ إِنَّ هَـٰذِهِ امْرَأَةٌ تَنْتَظِرُهَا أَلْسِنَةُ النَّاسِ إِمَّا بِالْخَيْرِ إِذَا أَمْسَكْتُهَا ، وَإِمَّا بِالشَّرِّ إِذَا طَلَّقْتُهَا ، وَقَدِ احْتَمَتْ بِي ؛ اللَّهُمَّ سَأَكْفِيهَا كُلَّ هَـٰذَا لِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ !

قَالَ : وَرَأَيْتُنِي أَكُونُ أَلْأَمَ النَّاسِ لَوْ أَنِّي كَشَفْتُهَا لِلنَّاسِ وَقُلْتُ انْظُرُوا . . . فَكَأَنَّمَا كُنْتُ أَسَأْتُ إِلَيْهَا فَأَقْبَلْتُ أَتَرَضَّاهَا ، وَجَعَلْتُ أُمَاسِحُهَا وَأُلَايِنُهَا فِي الْقَوْلِ ، وَعَدَلْتُ عَنْ حَظِّ نَفْسِي إِلَىٰ حَظِّ نَفْسِهَا[1] ، وَاسْتَظْهَرْتُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [٤ سورة النساء/الآية : ١٩] ؛ وَاعْتَقَدْتُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَصَحَّ اعْتِقَادٍ وَأَتَمَّهُ ، وَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مِنْ تَفْسِيرِهَا .

قَالَ : فَلَمْ تَمْضِ أَشْهُرٌ حَتَّىٰ ظَهَرَ الْحَمْلُ عَلَيْهَا ، فَأَلْقَى اللهُ فِي نَفْسِي مِنَ الْفَرَحِ مَا لَا تَعْدِلُهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا ، وَأَحْسَسْتُ لَهَا الْحُبَّ الَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ جَمِيلٌ وَلَا قَبِيحٌ ، لِأَنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ النَّفْسِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي فِي نَفْسِهَا (الطِّفْلُ) . وَجَعَلْتُ أَرَىٰ لَهَا فِي قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ مَدَاخِلَ وَمَخَارِجَ دُونَهَا الْعِشْقُ فِي كُلِّ مَدَاخِلِهِ وَمَخَارِجِهِ ، وَصَارَ الْجَنِينُ الَّذِي فِي بَطْنِهَا يَتَلَأْلَأُ نُورُهُ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى النُّورِ ، وَأَصْبَحَتِ الْأَيَّامُ مَعَهَا رِبْحًا مِنَ الزَّمَنِ فِيهِ الْأَمَلُ الْحُلْوُ الْمُنْتَظَرُ .

قَالَ : وَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ، وَطَرَّقَتْ بِغُلَامٍ ؛ وَسَمِعْتُ الْأَصْوَاتَ تَرْتَفِعُ مِنْ حُجْرَتِهَا : وَلَدٌ ! وَلَدٌ ! بَشِّرُوا أَبَاهُ . فَوَاللهِ لَكَأَنَّ سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِ الْخُلْدِ وَقَعَتْ فِي زَمَنِي أَنَا مِنْ دُونِ الْخَلْقِ جَمِيعًا وَجَاءَتْنِي بِكُلِّ نَعِيمِ الْجَنَّةِ ؛ وَمَا كَانَ مُلْكُ الْعَالَمِ ـ لَوْ مَلَكْتُهُ ـ مُسْتَطِيعًا أَنْ يَهَبَنِي مَا وَهَبَتْنِي امْرَأَتِي مِنْ فَرَحِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ إِنَّهُ فَرَحٌ إِلَـٰهِيٌّ أَحْسَسْتُ بِقَلْبِي أَنَّ فِيهِ سَلَامَ

(١) اسْتَوْفَيْنَا بَيَانَ هَـٰذِهِ الْمَعَانِي فِي مَقَالَةِ « قُبْحٌ جَمِيلٌ » السَّابِقَةِ .

ٱللهِ وَرَحْمَتهُ وَبَرَكَتهُ . وَمِنْ يَوْمِئِذٍ نَطَقَ لِسَانُ جَمَالِهَا فِيْ صَوْتِ هَـٰذَا ٱلطِّفْلِ . ثُمَّ جَاءَ أَخُوهُ فِيْ ٱلْعَامِ ٱلثَّانِي ، ثُمَّ جَاءَ أَخُوهُمَا فِيْ ٱلْعَامِ ٱلثَّالِثِ ؛ وَعَرَفْتُ بَرَكَةَ ٱلإِحْسَانِ مِنَ ٱللُّطْفِ ٱلرَّبَّانِيِّ فِيْ حَوَادِثَ كَثِيْرَةٍ ، وَتَنَفَّسَتْ عَلَيَّ أَنْفَاسُ ٱلْجَنَّةِ وَفَسَّرَتِ ٱلآيَةُ ٱلْكَرِيْمَةُ نَفْسَهَا بِهَـٰؤُلَاءِ ٱلأَوْلَادِ ، فَكَانَ تَفْسِيْرُهَا ٱلأَفْرَاحَ ، وَٱلأَفْرَاحَ ، وَٱلأَفْرَاحَ .

* * *

وَيَرَىٰ صَدِيْقُنَا ٱلأُسْتَاذُ (م . ح . ج)[1] أَنَّ صَاحِبَ ٱلْمُشْكِلَةِ فِيْ مُشْكِلَةٍ مِنْ رُجُوْلَتِهِ لَا مِنْ حُبِّهِ ؛ فَلَوْ أَنَّ لَهُ أَلْفَ رُوْحٍ لَمَا ٱسْتَطَاعَ أَنْ يُعَاشِرَ زَوْجَتَهُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا ، إِذْ هِيَ كُلُّهَا أَرْوَاحٌ صِبْيَانِيَّةٌ تَبْكِي عَلَىٰ قِطْعَةٍ مِنَ ٱلْحَلْوَىٰ مُمَثَّلَةٍ فِيْ ٱلْحَبِيْبَةِ . . . وَلَوْ عَرَفَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ فَلْسَفَةَ ٱلْحُبِّ وَٱلْكُرْهِ ، لَعَرَفَ أَنَّهُ يَصْنَعُ دُمُوْعَهُ بِإِحْسَاسِهِ ٱلطِّفْلِيِّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمُشْكِلَةِ ؛ وَلَوْ أَدْرَكَ شَيْئًا لأَدْرَكَ أَنَّ ٱلْفَاصِلَ بَيْنَ ٱلْحُبِّ وَٱلْكُرْهِ مَنْزُوْعٌ مِنْ نَفْسِهِ ، إِذِ ٱلْفَاصِلُ فِيْ ٱلرَّجُلِ هُوَ ٱلْحَزْمُ ٱلَّذِيْ يُوْضَعُ بَيْنَ مَا يَجِبُ وَمَا لَا يَجِبُ .

إِنَّهُ مَا دَامَ بِهَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ ٱلصَّغِيْرَةِ فَكُلُّ حَلٍّ لِمُشْكِلَتِهِ هُوَ مُشْكِلَةٌ جَدِيْدَةٌ ، وَمِثْلُهُ بَلَاءٌ عَلَىٰ ٱلزَّوْجَةِ وَٱلْحَبِيْبَةِ مَعًا ، وَكِلْتَاهُمَا بَلَاءٌ عَلَيْهِ ، وَهُوَ بِهَـٰذِهِ وَهَـٰذِهِ كَمَحْكُوْمٍ عَلَيْهِ أَنْ يُشْنَقَ بِٱمْرَأَةٍ لَا بِمِشْنَقَةٍ . . .

هَـٰذَا عِنْدِيْ لَيْسَ بِٱلرَّجُلِ وَلَا بِٱلطِّفْلِ إِلَىٰ أَنْ يُثْبِتَ أَنَّهُ أَحَدُهُمَا ؛ فَإِنْ كَانَ طِفْلًا فَمِنَ ٱلسُّخْرِيَةِ بِهِ أَنْ يَكُوْنَ مُتَزَوِّجًا ، وَإِنْ كَانَ رَجُلًا فَلْيَحُلَّ هُوَ ٱلْمُشْكِلَةَ بِنَفْسِهِ ، وَحَلُّهَا أَيْسَرُ شَيْءٍ : حَلُّهَا تَغْيِيْرُ حَالَتِهِ ٱلْعَقْلِيَّةِ .

* * *

وَنَحْنُ نَعْتَذِرُ لِلْبَاقِيْنَ مِنَ ٱلأُدَبَاءِ وَٱلْفُضَلَاءِ ٱلَّذِيْنَ لَمْ نَذْكُرْ آرَاءَهُمْ ، إِذْ كَانَ ٱلْغَرَضُ مِنَ ٱلاسْتِفْتَاءِ أَنْ نَظْفَرَ بِٱلأَحْوَالِ ٱلَّتِيْ تُشْبِهُ هَـٰذِهِ ٱلْحَادِثَةَ ، لَا بِٱلآرَاءِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلنَّصَائِحِ . أَمَّا رَأْيُنَا فَفِيْ ٱلْبَقِيَّةِ ٱلآتِيَةِ .

طنطا — **مصطفى صادق الرافعي**

(١) في الأصل : « محمد حسين جيره » بدلًا من : « م . ح . ج . » .

ٱلْمُشْكِلَةُ(*)
٤

صَاحِبُ هَـٰذِهِ ٱلْمُشْكِلَةِ رَجُلٌ أَعْوَرُ ٱلْعَقْلِ . . . يَرَىٰ عَقْلُهُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَدْ غَابَ عَنْهُ نِصْفُ ٱلْوُجُوْدِ فِيْ مُشْكِلَتِهِ ؛ وَلَوْ أَنَّ عَقْلَهُ أَبْصَرَ مِنَ ٱلنَّاحِيَتَيْنِ لَمَا رَأَىٰ ٱلْمُشْكِلَةَ خَالِصَةً فِيْ إِشْكَالِهَا ، وَلَوَجَدَ فِيْ نَاحِيَتِهَا ٱلأُخْرَىٰ حَظًّا لِنَفْسِهِ قَدْ أَصَابَهُ ، وَمَذْهَبًا فِيْ ٱلسَّلَامَةِ لَمْ يُخْطِئْهُ ؛ وَكَانَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ عَذَابُ ٱلْجُنُوْنِ لَوْ عَذَّبَهُ ٱللهُ بِهِ ، وَكَانَ يُصْبِحُ أَشْقَىٰ ٱلْخَلْقِ لَوْ رَمَاهُ ٱللهُ فِيْ ٱلْجِهَةِ ٱلَّتِيْ أَنْقَذَهُ مِنْهَا ، فَتَهَيَّأَتْ لَهُ ٱلْمُشْكِلَةُ عَلَىٰ وَجْهِهَا ٱلثَّانِي .

مَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ يَا صَاحِبَ ٱلْمُشْكِلَةِ لَوْ أَنَّ زَوْجَتَكَ هَـٰذِهِ ٱلْمِسْكِيْنَةَ ٱلْمَظْلُوْمَةَ ٱلَّتِيْ بَنَيْتَ بِهَا ، كَانَتْ هِيَ ٱلَّتِيْ أُكْرِهَتْ عَلَىٰ ٱلرِّضَىٰ بِكَ ، وَحُمِلَتْ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَبِيْهَا ، ثُمَّ كُنْتَ أَنْتَ لَهَا عَاشِقًا ، وَبِهَا صَبًّا ، وَفِيْهَا مُتَدَلِّهًا ؛ ثُمَّ كَانَتْ هِيَ تُحِبُّ رَجُلًا غَيْرَكَ ، وَتَصْبُوْ إِلَيْهِ ، وَتَفْتَتِنُ بِهِ ، وَقَدِ ٱحْتَرَقَتْ عِشْقًا لَهُ ؛ فَإِذَا جَلَوْهَا عَلَيْكَ رَأَتْكَ ٱلْبَغِيْضَ ٱلْمَقِيْتَ ، وَرَأَتْكَ ٱلدَّمِيْمَ ٱلْكَرِيْهَ ، وَفَزِعَتْ مِنْكَ فَزَعَهَا مِنَ ٱللِّصِّ وَٱلْقَاتِلِ ؛ وَتَمُدُّ لَهَا يَدَكَ فَتَتَحَامَاهَا تَحَامِيْهَا ٱلْمَجْذُوْمَ أَوِ ٱلأَبْرَصَ ، وَتُكَلِّمُهَا فَتَحُمُّ بَرْدًا مِنْ ثِقَلِ كَلَامِكَ ، وَتَفْتَحُ لَهَا ذِرَاعَيْكَ فَتَحْسَبُهُمَا حَبْلَيْنِ مِنْ مِشْنَقَتَيْنِ ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيْهَا فَإِذَا أَنْتَ أَسْمَجُ خَلْقِ ٱللهِ عِنْدَهَا ، إِذْ تُحَاوِلُ فِيْ ذَلِكَ أَنْ تَحِلَّ مِنْهَا مَحَلَّ حَبِيْبِهَا ؛ وَتُقْبِلُ عَلَيْهَا بِوَجْهِكَ فَتَرَاهُ مِنْ تَقَذُّرِهَا إِيَّاكَ ، وَٱشْمِئْزَازِهَا مِنْكَ ، وَجْهَ ٱلذُّبَابَةِ مُكَبَّرًا بِفَظَاعَةٍ وَشَنَاعَةٍ فِيْ قَدْرِ صُوْرَةِ وَجْهِ ٱلرَّجُلِ ، لِيَتَجَاوَزَ حَدَّ ٱلْقُبْحِ إِلَىٰ حَدِّ ٱلْغَثَاثَةِ ، إِلَىٰ حَدِّ ٱنْقِلَابِ ٱلنَّفْسِ مِنْ رُؤْيَتِهِ ، إِلَىٰ حَدِّ ٱلْقَيْءِ إِذَا دَنَا وَجْهُكَ مِنْ وَجْهِهَا . . . ؟!

مَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ يَا صَاحِبَ ٱلْمُشْكِلَةِ لَوْ أَنَّ مُشْكِلَتَكَ هَـٰذِهِ جَاءَتْ مِنْ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ زَوْجَتِكَ (ٱلرَّجُلَ ٱلثَّانِيَ) لَا ٱلْمَرْأَةَ ٱلثَّانِيَةَ ؟ أَلَسْتَ ٱلآنَ فِيْ رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ بِكَ ، وَفِيْ نِعْمَةٍ

(*) « الرسالة » العدد : ١٣٤ ، ٣ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٧ يناير/كانون الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٢٣ ـ ١٢٦ .

كَفَّتْ عَنْكَ مُصِيبَةً ، وَفِي مَوْقِفٍ بَيْنَ ٱلرَّحْمَةِ وَٱلنِّعْمَةِ يَقْتَضِيكَ أَنْ تَرْقُبَ فِي حُكْمِكَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلْمِسْكِينَةِ حُكْمَ ٱللهِ عَلَيْكَ ؟

* * *

تَقُوْلُ : ٱلْحُبُّ وَٱلْخَيَالُ وَٱلْفَنُّ . وَتَذْهَبُ فِي مَذَاهِبِهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ « ٱلْمُشْكِلَةَ » قَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّكَ بَعِيْدٌ مِنْ فَهْمِ هَـٰذِهِ ٱلْحَقَائِقِ ، وَلَوْ أَنْتَ فَهِمْتَهَا لَمَا كَانَتْ لَكَ مُشْكِلَةٌ ، وَلَا حَسِبْتَ نَفْسَكَ مَنْحُوسَ ٱلْحَظِّ مَحْرُوْمًا ، وَلَا جَهِلْتَ أَنَّ فِي دَاخِلِ ٱلْعَيْنِ مِنْ كُلِّ ذِي فَنٍّ عَيْنًا خَاصَّةً بِٱلأَحْلَامِ كَيْلَا تَعْمَىٰ عَيْنُهُ عَنِ ٱلْحَقَائِقِ .

ٱلْحُبُّ لَفْظٌ وَهْمِيٌّ مَوْضُوعٌ عَلَىٰ أَضْدَادٍ مُخْتَلِفَةٍ : عَلَىٰ بُرْكَانٍ وَرَوْضَةٍ ، وَعَلَىٰ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ ، وَعَلَىٰ بُكَاءٍ وَضَحِكٍ ، وَعَلَىٰ هُمُوْمٍ كَثِيْرَةٍ كُلُّهَا هُمُوْمٌ ، وَعَلَىٰ أَفْرَاحٍ قَلِيلَةٍ لَيْسَتْ كُلُّهَا أَفْرَاحًا ؛ وَهُوَ خِدَاعٌ مِنَ ٱلنَّفْسِ يَضَعُ كُلَّ ذَكَائِهِ فِي ٱلْمَحْبُوْبِ ، وَيَجْعَلُ كُلَّ بَلَاهَتِهِ فِي ٱلْمُحِبِّ ، فَلَا يَكُوْنُ ٱلْمَحْبُوْبُ عِنْدَ مُحِبِّهِ إِلَّا شَخْصًا خَيَالِيًّا ذَا صِفَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ ٱلْكَمَالُ ٱلْمُطْلَقُ ، فَكَأَنَّهُ فَوْقَ ٱلْبَشَرِيَّةِ فِي وُجُوْدٍ تَامِّ ٱلْجَمَالِ وَلَا عَيْبَ فِيهِ ، وَٱلنَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ مَوْجُوْدُوْنَ فِي ٱلْعُيُوْبِ وَٱلْمَحَاسِنِ .

وَذَلِكَ وَهْمٌ لَا تَقُوْمُ عَلَيْهِ ٱلْحَيَاةُ وَلَا تَصْلُحُ بِهِ ، فَإِنَّمَا تَقُوْمُ ٱلْحَيَاةُ عَلَى ٱلرُّوحِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ٱلَّتِي تَضَعُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ ٱلصَّحِيحَ ٱلثَّابِتَ ؛ فَٱلْحُبُّ عَلَىٰ هَـٰذَا شَيْءٌ غَيْرُ ٱلزَّوَاجِ ، وَبَيْنَهُمَا مِثْلُ مَا بَيْنَ ٱلاضْطِرَابِ وَٱلنِّظَامِ ؛ وَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ هَـٰذَا ٱلْحُبُّ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ حُبًّا لَا غَيْرَ ، فَقَدْ يَكُوْنُ أَقْوَىٰ حُبٍّ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ إِذَا تَحَابَّا هُوَ أَسْخَفَ زَوَاجٍ بَيْنَهُمَا إِذَا تَزَوَّجَا .

وَذُو ٱلْفَنِّ لَا يُفِيْدُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ فَائِدَتَهُ ٱلصَّحِيحَةَ إِلَّا إِذَا جَعَلَهُ تَحْتَ عَقْلِهِ لَا فَوْقَ عَقْلِهِ ، فَيَكُوْنُ فِي حُبِّهِ عَاقِلًا بِجُنُوْنٍ لَطِيفٍ . . . وَيَتْرُكُ ٱلْعَاطِفَةَ تَدْخُلُ فِي ٱلتَّفْكِيرِ وَتَضَعُ فِيهِ جَمَالَهَا وَنُوْرَهَا وَقُوَّتَهَا ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَرَىٰ مُجَاهَدَةَ ٱللَّذَّةِ فِي ٱلْحُبِّ هِيَ أَسْمَىٰ لَذَّاتِهِ ٱلْفِكْرِيَّةِ ، وَيَعْرِفُ بِهَا فِي نَفْسِهِ ضَرْبًا إِلَـٰهِيًّا مِنَ ٱلسَّكِيْنَةِ يُوْلِيهِ ٱلْقُدْرَةَ عَلَىٰ أَنْ يَقْهَرَ ٱلطَّبِيعَةَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ وَيُصَرِّفَهَا وَيُبْدِعَ مِنْهَا عَمَلَهُ ٱلْفَنِّيَّ ٱلْعَجِيْبَ .

وَهَـٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلسُّمُوِّ لَا يَبْلُغُهُ إِلَّا ٱلْفِكْرُ ٱلْقَوِيُّ ٱلَّذِي فَازَ عَلَىٰ شَهَوَاتِهِ وَكَبَحَهَا وَتَحَمَّلَهَا تَغْلِي فِيهِ غَلَيَانَ ٱلْمَاءِ فِي ٱلْمِرْجَلِ لِيُخْرِجَ مِنْهَا أَلْطَفَ مَا فِيهَا ، وَيُحَوِّلَهَا حَرَكَةً فِي ٱلرُّوْحِ تَنْشَأُ مِنْهَا حَيَاةُ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلْفَنِّيَّةِ ؛ وَمَا أَشْبَهَ ذَا ٱلْفَنِّ بِٱلشَّجَرَةِ ٱلْحَيَّةِ : إِنْ لَمْ تَضْبِطْ مَا فِي دَاخِلِهَا أَصَحَّ ٱلضَّبْطِ ، لَمْ يَكُنْ فِي ظَاهِرِهَا إِلَّا أَضْعَفُ عَمَلِهَا .

وَمِثْلُ هَـٰذَا ٱلْفِكْرِ ٱلْعَاشِقِ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلزَّوْجَةِ حَاجَتَهُ إِلَى ٱلْحَبِيْبَةِ ، وَهُوَ فِي قُوَّتِهِ يَجْمَعُ بَيْنَ كَرَامَةِ هَـٰذِهِ وَقُدْسِيَّةِ هَـٰذِهِ ، لِأَنَّ إِحْدَاهُمَا تُوَازِنُ ٱلأُخْرَىٰ ، وَتُعَدِّلُهَا فِي ٱلطَّبْعِ ، وَتُخَفِّفُ مِنْ طُغْيَانِهَا عَلَى ٱلْغَرِيْزَةِ ، وَتُمْسِكُ ٱلْقَلْبَ أَنْ يَتَبَدَّدَ فِي جَوِّهِ ٱلْخَيَالِيِّ .

* * *

وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَامِلُ ٱلْمُفَكِّرُ ٱلْمُتَخَيِّلُ إِذَا كَانَ زَوْجًا وَعَشِقَ ، أَوْ كَانَ عَاشِقًا وَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ مَنْ يَهْوَاهَا ، ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَبْتَدِعَ لِنَفْسِهِ فَنًّا جَمِيلًا مِنْ مَسَرَّاتِ ٱلْفِكْرِ لَا يَجِدُهُ ٱلْعَاشِقُ وَلَا يَنَالُهُ ٱلْمُتَزَوِّجُ ؛ وَإِنَّهُ لَيَرَىٰ زَوْجَتَهُ مِنَ ٱلْحَبِيْبَةِ كَٱلتِّمْثَالِ جَمَدَ عَلَىٰ هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُغْفِلُ أَنَّ هَـٰذَا هُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ ٱلإِبْدَاعِ فِي ٱلتِّمْثَالِ ، إِذْ تِلْكَ هَيْئَةُ ٱسْتِقْرَارِ ٱلأَسْمَىٰ فِي سُمُوِّهِ ؛ فَإِنَّ ٱلزَّوْجَةَ أُمُوْمَةٌ عَلَىٰ قَاعِدَتِهَا ، وَحَيَاةٌ عَلَىٰ قَاعِدَتِهَا ؛ أَمَّا ٱلْحَبِيْبَةُ فَلَا قَاعِدَةَ لَهَا ، وَهِيَ مَعَانٍ شَارِدَةٌ لَا تَسْتَقِرُّ ، وَزَائِلَةٌ لَا تَثْبُتُ ، وَفَنُّهَا كُلُّهُ فِي أَنْ تَبْقَىٰ حَيْثُ هِيَ كَمَا هِيَ ، فَجَمَالُهَا يَحْيَا كُلَّ يَوْمٍ حَيَاةً جَدِيْدَةً مَا دَامَتْ فَنًّا مَحْضًا ، وَمَا دَامَ سِرُّ أُنُوْثَتِهَا فِي حِجَابِهِ .

وَمَتَىٰ تَزَوَّجَ ٱلرَّجُلُ بِمَنْ يُحِبُّهَا ٱنْهَتَكَ لَهُ حِجَابُ أُنُوْثَتِهَا فَبَطَلَ أَنْ يَكُوْنَ فِيهَا سِرٌّ ، وَعَادَتْ لَهُ غَيْرَ مَنْ كَانَتْ ، وَعَادَ لَهَا غَيْرَ مَنْ كَانَ ؛ وَهَـٰذَا ٱلتَّحَوُّلُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا هُوَ زَوَالُ كُلٍّ مِنْهُمَا مِنْ خَيَالِ صَاحِبِهِ ؛ فَلَيْسَ يَصْلُحُ ٱلْحُبُّ أَسَاسًا لِلسَّعَادَةِ فِي ٱلزَّوَاجِ ، بَلْ أَحْرِ بِهِ إِذَا كَانَ وَجْدًا وَٱحْتِرَاقًا أَنْ يَكُوْنَ أَسَاسًا لِلشُّؤْمِ فِيهِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ وَضَعَ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ حَدًّا يُعَيِّنُ لَهُمَا دَرَجَةً مِنْ دَرَجَةٍ فِي ٱلشَّغَفِ وَٱلصَّبَابَةِ وَٱلْخَيَالِ ، وَهُمَا بَعْدَ ٱلزَّوَاجِ مُتَرَاجِعَانِ وَرَاءَ هَـٰذَا ٱلْحَدِّ مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلزَّوْجُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ رَجُلًا تَامَّ ٱلرُّجُوْلَةِ ، أَفْسَدَتِ ٱلْحَيَاةَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ زَوْجَتِهِ صِبْيَانِيَّةُ رُوْحِهِ فَٱلْتَمَسَ فِي ٱلزَّوْجَةِ مَا لَمْ يَعُدْ فِيهَا ، فَإِذَا ٱنْكَشَفَ لَهُ فَرَاغُهَا ذَهَبَ يَلْتَمِسُهُ فِي غَيْرِهَا ، وَكَانَ بَلَاءً عَلَيْهَا وَعَلَىٰ نَفْسِهِ وَعَلَىٰ أَوْلَادِهِ قَبْلَ أَنْ يُوْلَدُوا ؛ إِذْ يَضَعُ أَمَامَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ أَسْوَأَ ٱلأَمْثِلَةِ لِأَبِي أَوْلَادِهَا ، وَيُفْسِدُ إِحْسَاسَهَا فَيُفْسِدُ

تَكْوِينَهَا ٱلنَّفْسِيَّ ؛ وَمَا ٱلْمَرْأَةُ إِلَّا حِسُّهَا وَشُعُورُهَا[1] .

* * *

فَٱلشَّأْنُ هُوَ فِي تَمَامِ ٱلرُّجُولَةِ وَقُوَّتِهَا وَشَهَامَتِهَا وَفُحُولَتِهَا ، إِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ عَاشِقًا أَوْ لَمْ يَكُنْهُ . وَمَا مِنْ رَجُلٍ قَوِيِّ ٱلرُّجُولَةِ إِلَّا وَأَسَاسُهُ دِيَانَتُهُ وَكَرَامَتُهُ ؛ وَمَا مِنْ ذِي دِينٍ أَوْ كَرَامَةٍ يَقَعُ فِي مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْمُشْكِلَةِ ثُمَّ تُظْلَمُ بِهِ ٱلزَّوْجَةُ أَوْ يَحِيفُ عَلَيْهَا أَوْ يُفْسِدُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنَ ٱلْمُدَاخَلَةِ وَحُسْنِ ٱلْعِشْرَةِ ، بَلْهَ أَنْ يَرَاهَا كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ ٱلْمُشْكِلَةِ (مُصِيبَةً) فَيُجَافِيهَا وَيُبَالِغَ فِي إِعْنَاتِهَا وَيَشْفِيَ غَيْظَهُ بِإِذْلَالِهَا وَٱحْتِقَارِهَا .

وَأَيُّ ذِي دِينٍ يَأْمَنُ عَلَىٰ دِينِهِ أَنْ يَهْلِكَ فِي بَعْضِ ذَٰلِكَ فَضْلًا عَنْ كُلِّ ذَٰلِكَ ؟ وَأَيُّ ذِي كَرَامَةٍ يَرْضَىٰ لِكَرَامَتِهِ أَنْ تَنْقَلِبَ خِسَّةً وَدَنَاءَةً وَنَذَالَةً فِي مُعَامَلَةِ ٱمْرَأَةٍ هُوَ لَا غَيْرُهُ ذَنْبُهَا ؟

إِنَّ أَسَاسَ ٱلدِّينِ وَٱلْكَرَامَةِ أَلَّا يَخْرُجَ إِنْسَانٌ عَنْ قَاعِدَةِ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ فِي حَلِّ مُشْكِلَتِهِ إِنْ تَوَرَّطَ فِي مُشْكِلَةٍ ؛ فَمَنْ كَانَ فَقِيرًا لَا يَسْرِقُ بِحُجَّةِ أَنَّهُ فَقِيرٌ ، بَلْ يَكِدُّ وَيَعْمَلُ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ مَا يُعَانِيهِ مِنْ ذَٰلِكَ ؛ وَمَنْ كَانَ مُحِبًّا لَا يَسْتَزِلُّ ٱلْمَرْأَةَ فَيُسْقِطُهَا بِحُجَّةِ أَنَّهُ عَاشِقٌ ؛ وَمَنْ كَانَ كَصَاحِبِ ٱلْمُشْكِلَةِ لَا يَظْلِمُ ٱمْرَأَتَهُ فَيَمْقُتُهَا بِحُجَّةِ أَنَّهُ يَعْشَقُ غَيْرَهَا ؛ وَإِنَّمَا ٱلْإِنْسَانُ مَنْ أَظْهَرَ فِي كُلِّ ذَٰلِكَ وَنَحْوِ ذَٰلِكَ أَثَرَهُ ٱلْإِنْسَانِيَّ لَا أَثَرَهُ ٱلْوَحْشِيَّ ، وَٱعْتَبَرَ أُمُورَهُ ٱلْخَاصَّةَ بِقَاعِدَةِ ٱلْجَمَاعَةِ لَا بِقَاعِدَةِ ٱلْفَرْدِ . وَإِنَّمَا ٱلدِّينُ فِي ٱلسُّمُوِّ عَلَىٰ أَهْوَاءِ ٱلنَّفْسِ ؛ وَلَا يَتَسَامَىٰ ٱمْرُؤٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَأَهْوَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا بِإِنْزَالِهَا عَلَىٰ حُكْمِ ٱلْقَاعِدَةِ ٱلْعَامَّةِ ، فَمِنْ هُنَاكَ يَتَسَامَىٰ ، وَمِنْ هُنَاكَ يَبْدُو عُلُوُّهُ فِيمَا يَبْلُغُ إِلَيْهِ . . . . .

وَإِذَا حَلَّ ٱللِّصُّ مُشْكِلَتَهُ عَلَىٰ قَاعِدَتِهِ هُوَ فَقَدْ حَلَّهَا ، وَلَـٰكِنَّهُ حَلٌّ يَجْعَلُهُ هُوَ بِجُمْلَتِهِ مُشْكِلَةً لِلنَّاسِ جَمِيعًا ، حَتَّىٰ لَيَرَى ٱلشَّرْعُ فِي نَظْرَتِهِ إِلَىٰ إِنْسَانِيَّةِ هَـٰذَا ٱللِّصِّ أَنَّهُ غَيْرُ حَقِيقٍ بِٱلْيَدِ ٱلْعَامِلَةِ ٱلَّتِي خُلِقَتْ لَهُ فَيَأْمُرُ بِقَطْعِهَا .

(١) هَـٰذَا كُلُّهُ مِنْ بَعْضِ ٱلْحِكْمَةِ فِي أَنَّ ٱلْإِسْلَامَ لَا يُبِيحُ ٱخْتِلَاطَ ٱلزَّوْجَيْنِ قَبْلَ ٱلْعَقْدِ ، إِذْ لَا يَعْرِفُ ٱلدِّينُ ٱلْإِسْلَامِيُّ مِنَ ٱلزَّوْجَيْنِ إِلَّا أُسْرَةً يَجِبُ أَنْ تُبْنَىٰ بِمَا يَبْنِيهَا ، وَتُصَانَ بِمَا يَصُونُهَا . وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَىٰ حِكْمَةٍ أُخْرَىٰ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلْأُولَىٰ مِنَ ٱلْمُشْكِلَةِ .

وَعَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْقَاعِدَةِ فَٱلْجِنْسُ ٱلْبَشَرِيُّ كُلُّهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ ٱلْأَبِ فِي مُنَاصَرَتِهِ لِزَوْجَةِ صَاحِبِ ٱلْمُشْكِلَةِ وَٱلِاسْتِظْهَارِ لَهَا وَٱلدِّفَاعِ عَنْهَا ، مَا دَامَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهَا ٱلظُّلْمُ مِنْ صَاحِبِهَا ، وَهَـٰذَا هُوَ حُكْمُهَا فِي ٱلضَّمِيرِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلْأَكْبَرِ ، وَإِنْ خَالَفَ ضَمِيرَ زَوْجِهَا ٱلْعَدُوِّ ٱلثَّائِرِ ٱلَّذِي قَطَعَهَا مِنْ مَصَادِرِ نَفْسِهِ وَمَوَارِدِهَا . أَمَّا حُكْمُ ٱلْحَبِيبَةِ فِي هَـٰذَا ٱلضَّمِيرِ ٱلْإِنْسَانِيِّ فَهُوَ أَنَّهَا فِي هَـٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لَيْسَتْ حَبِيبَةً وَلَـٰكِنَّهَا شَحَّاذَةُ رِجَالٍ . . . .

* * *

لَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّ صَاحِبَ هَـٰذِهِ ٱلْمُشْكِلَةِ يَتَأَلَّمُ مِنْهَا وَيَتَلَذَّعُ بِهَا مِنَ ٱلْوَقْدَةِ ٱلَّتِي فِي قَلْبِهِ ؛ بَيْدَ أَنَّنَا نَعْرِفُ أَنَّ أَلَمَ ٱلْعَاقِلِ غَيْرُ أَلَمِ ٱلْمَجْنُونِ ، وَحُزْنَ ٱلْحَكِيمِ غَيْرُ حُزْنِ ٱلطَّائِشِ ؛ وَٱلْقَلْبُ ٱلْإِنْسَانِيُّ يَكَادُ يَكُونُ آلَةً مَخْلُوقَةً مَعَ ٱلْإِنْسَانِ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُ أَوْ إِفْسَادِهَا ؛ فَٱلْحَكِيمُ مَنْ عَرَفَ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهَـٰذَا ٱلْقَلْبِ فِي آلَامِهِ وَأَوْجَاعِهِ ، فَلَا يَصْنَعُ مِنْ أَلَمِهِ أَلَمًا جَدِيدًا يَزِيدُهُ فِيهِ ، وَلَا يُخْرِجُ مِنَ ٱلشَّرِّ شَرًّا آخَرَ يَجْعَلُهُ أَسْوَأَ مِمَّا كَانَ . وَإِذَا لَمْ يَجِدِ ٱلْحَكِيمُ مَا يَشْتَهِي ، أَوْ أَصَابَ مَا لَا يَشْتَهِي ، ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَخْلُقَ مِنْ قَلْبِهِ خَلْقًا مَعْنَوِيًّا يُوجِدُهُ ٱلْغِنَىٰ عَنْ ذَٰلِكَ ٱلْمَحْبُوبِ ٱلْمَعْدُومِ ، أَوْ يُوجِدُهُ ٱلصَّبْرَ عَنْ هَـٰذَا ٱلْمَوْجُودِ ٱلْمَكْرُوهِ ؛ فَتَتَوَازَنُ ٱلْأَحْوَالُ فِي نَفْسِهِ وَتَعْتَدِلُ ٱلْمَعَانِي عَلَىٰ فِكْرِهِ وَقَلْبِهِ ؛ وَبِهَـٰذَا ٱلْخَلْقِ ٱلْمَعْنَوِيِّ يَسْتَطِيعُ ذُو ٱلْفَنِّ أَنْ يَجْعَلَ آلَامَهُ كُلَّهَا بَدَائِعَ فَنٍّ[1] . وَمَا هُوَ فِكْرُ ٱلْحُكَمَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَصْنَعًا تُرْسَلُ إِلَيْهِ ٱلْمَعَانِي بِصُورَةٍ فِيهَا ٱلْفَوْضَىٰ وَٱلنَّقْصُ وَٱلْأَلَمُ ، لِتَخْرُجَ مِنْهُ فِي صُورَةٍ فِيهَا ٱلنِّظَامُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّذَّةُ ٱلرُّوحِيَّةُ .

يَعْشَقُ ٱلرَّجُلُ ٱلْعَامِّيُّ ٱلْمُتَزَوِّجُ ، فَإِذَا ٱلسَّاعَةُ ٱلَّتِي أَوْبَقَتْهُ فِي ٱلْمُشْكِلَةِ قَدْ جَاءَتْهُ مَعَهَا بِطَرِيقَةِ حَلِّهَا : فَإِمَّا ضَرَبَ ٱمْرَأَتَهُ بِٱلطَّلَاقِ ، وَإِمَّا أَهْلَكَهَا بِٱتِّخَاذِ ٱلضَّرَّةِ عَلَيْهَا ، وَإِمَّا عَذَّبَهَا بِٱلْخِيَانَةِ وَٱلْفُجُورِ ، لِأَنَّ بَعْضَ ٱلْعَبَثِ مِنَ ٱلطَّبِيعَةِ فِي نَفْسِ هَـٰذَا ٱلْجَاهِلِ هُوَ بِعَيْنِهِ عَبَثُ ٱلطَّبِيعَةِ بِهَـٰذَا ٱلْجَاهِلِ فِي غَيْرِهِ ، كَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةَ تُطْلِقُ مَدَافِعَهَا ٱلضَّخْمَةَ عَلَى ٱلْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْفَارِغَةِ . . .

(١) ٱسْتَوْفَيْنَا هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا كَتَبْنَا ، وَبَعْضُهَا فِي مَقَالَاتِ « ٱلْجَمَالِ ٱلْبَائِسِ » . . .

وَلَيْسَ أَسْهَلُ عَلَىٰ ٱلذَّكَرِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ أَنْ يَحُلَّ مُشْكِلَةَ ٱلْأُنْثَىٰ حَلًّا حَيَوَانِيًّا كَحَلِّ هَـٰذَا ٱلْعَامِّيِّ ، فَهُوَ ظَافِرٌ بِالْأُنْثَىٰ أَوْ مَقْتُولٌ دُونَهَا مَا دَامَ مُطْلَقًا مُخَلًّى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ؛ وَٱلْحَقِيقَةُ هُنَا حَقِيقَتُهُ هُوَ ، وَٱلْكَوْنُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا مَنْفَعَةً شَهْوَانِيَّةً ؛ وَأَسْمَىٰ فَضَائِلِهِ أَلَّا يَعْجِزَ عَنْ نَيْلِ هَـٰذِهِ ٱلْمَنْفَعَةِ .

ثُمَّ يَعْشَقُ ٱلرَّجُلُ ٱلْحَكِيمُ ٱلْمُتَزَوِّجُ فَإِذَا لِمُشْكِلَتِهِ وَجْهٌ آخَرُ ، إِذْ كَانَ مِنْ أَصْعَبِ ٱلصَّعْبِ وُجُودُ رَجُلٍ يَحُلُّ هَـٰذِهِ ٱلْمُشْكِلَةَ بِرُجُولَةٍ ، فَإِنَّ فِيهَا كَرَامَةَ ٱلزَّوْجَةِ وَوَاجِبَ ٱلدِّينِ وَفِيهَا حَقُّ ٱلْمُرُوءَةِ ، وَفِيهَا مَعَ ذَلِكَ عَبَثُ ٱلطَّبِيعَةِ وَخِدَاعُهَا وَهَزْلُهَا ٱلَّذِي هُوَ أَشَدُّ ٱلْجِدِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْغَرِيزَةِ ؛ وَبِهَـٰذَا كُلِّهِ تَنْقَلِبُ ٱلْمُشْكِلَةُ إِلَىٰ مَعْرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ لَا يَحْسِمُهَا إِلَّا ٱلظَّفَرُ ، وَلَا يُعِينُ عَلَيْهَا إِلَّا ٱلصَّبْرُ ، وَلَا يُفْلِحُ فِي سِيَاسَتِهَا إِلَّا تَحَمُّلُ آلَامِهَا ؛ فَإِذَا رُزِقَ ٱلْعَاشِقُ صَبْرًا وَقُوَّةً عَلَىٰ ٱلِاحْتِمَالِ فَقَدْ هَانَ ٱلْبَاقِي وَتَيَسَّرَتْ لَذَّةُ ٱلظَّفَرِ ٱلْحَاسِمِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ ٱلظَّفَرُ بِالْحَبِيبَةِ ؛ فَإِنَّ فِي نَفْسِ ٱلْإِنْسَانِ مَوَاقِعَ مُخْتَلِفَةً وَآثَارًا مُتَبَايِنَةً لِلَّذَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ ، وَمَوْقِعٌ أَرْفَعُ مِنْ مَوْقِعٍ ، وَأَثَرٌ أَبْهَجُ مِنْ أَثَرٍ ؛ وَأَلَذُّ مِنَ ٱلظَّفَرِ بِالْحَبِيبَةِ نَفْسِهَا عِنْدَ ٱلرَّجُلِ ٱلْحَكِيمِ ٱلظَّفَرُ بِمَعَانِيهَا ، وَأَكْرَمُ مِنْهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ كَرَامَةُ نَفْسِهِ . وَإِذَا ٱنْتَصَرَ ٱلدِّينُ وَٱلْفَضِيلَةُ وَٱلْكَرَامَةُ وَٱلْعَقْلُ وَٱلْفَنُّ ، لَمْ يَبْقَ لِخَيْبَةِ ٱلْحُبِّ كَبِيرُ مَعْنًى وَلَا عَظِيمُ أَثَرٍ ، وَيَتَوَغَّلُ ٱلْعَاشِقُ فِي حُبِّهِ وَقَدْ لَبِسَتْهُ حَالَةٌ أُخْرَىٰ كَمَا يَكْظِمُ ٱلرَّجُلُ ٱلْحَلِيمُ عَلَىٰ ٱلْغَيْظِ : فَذَلِكَ يُحِبُّ وَلَا يَطِيشُ ، وَهَـٰذَا يَغْتَاظُ وَلَا يَغْضَبُ . وَٱلْبَطَلُ ٱلشَّدِيدُ ٱلْبَأْسِ لَا يَنْبُغُ إِلَّا مِنَ ٱلشَّدَائِدِ ٱلْقَوِيَّةِ ، وَٱلدَّاهِيَةُ ٱلْأَرِيبُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنَ ٱلْمُشْكِلَاتِ ٱلْمُعَقَّدَةِ ، وَٱلتَّقِيُّ ٱلْفَاضِلُ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بَيْنَ ٱلْأَهْوَاءِ ٱلْمُسْتَحْكِمَةِ . وَلَعَمْرِي إِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلْحَكِيمُ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَىٰ شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ ، أَوْ يُبْطِلَ حَاجَةً مِنْ حَاجَاتِهَا ، فَمَاذَا فِيهِ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ، وَمَاذَا فِيهِ مِنَ ٱلنَّفْسِ ؟

* * *

وَمَا عَقَّدَ (ٱلْمُشْكِلَةَ) عَلَىٰ صَاحِبِهَا بَيْنَ زَوْجَتِهِ وَحَبِيبَتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ بِخَيَالِهِ ٱلْفَاسِدِ قَدْ أَفْسَدَ ٱلْقُوَّةَ ٱلْمُصْلِحَةَ فِيهِ ، فَهُوَ لَمْ يَتَزَوَّجِ ٱمْرَأَتَهُ كُلَّهَا . . . وَكَأَنَّهُ لَا يَرَاهَا أُنْثَىٰ كَالنِّسَاءِ ، وَلَا يُبْصِرُ عِنْدَهَا إِلَّا فُرُوقًا بَيْنَ ٱمْرَأَتَيْنِ : مَحْبُوبَةٍ وَمَكْرُوهَةٍ ؛ وَبِهَـٰذَا أَفْسَدَ عَيْنَهُ كَمَا أَفْسَدَ خَيَالَهُ ؛ فَلَوْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يَرَاهَا لَرَآهَا ، وَلَوْ تَعَوَّدَهَا لَأَحَبَّهَا .

إِنَّهُ مِنْ وَهْمِهِ كَالْجَوَادِ ٱلَّذِي يَشْعُرُ بِالْمَقَادَةِ فِي عُنُقِهِ ؛ فَشُعُورُهُ بِمَعْنَىٰ ٱلْحَبْلِ وَإِنْ كَانَ مَعْنًى ضَئِيلًا عَطَّلَ فِيهِ كُلَّ مَعَانِي قُوَّتِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيَ كَثِيرَةً . وَمَا أَقْدَرَكَ أَيُّهَا ٱلْحُبُّ عَلَىٰ وَضْعِ حِبَالِ ٱلْخَيْلِ وَٱلْبِغَالِ وَٱلْحَمِيرِ فِي أَعْنَاقِ ٱلنَّاسِ !

* * *

وَقَدْ بَقِيَ أَنْ نَذْكُرَ ، تَوْفِيَةً لِلْفَائِدَةِ ، أَنَّهُ قَدْ يَقَعُ فِي مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْمُشْكِلَةِ مَنْ نَقَصَتْ فُحُولَتُهُ مِنَ ٱلرِّجَالِ ، فَيُدَلِّسُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ ، وَيُبَالِغُ فِيهِ ، وَيَتَجَرَّمُ عَلَىٰ زَوْجَتِهِ ٱلْمِسْكِينَةِ ٱلَّتِي ٱبْتُلِيَتْ بِهِ ، وَيَخْتَلِقُ لَهَا ٱلْعِلَلَ ٱلْوَاهِيَةَ ٱلْمَكْذُوبَةَ ، وَيُبْغِضُهَا كَأَنَّهُ هُوَ ٱلَّذِي ٱبْتُلِيَ بِهَا ، وَكَأَنَّ ٱلْمُصِيبَةَ مِنْ قِبَلِهَا لَا مِنْ قِبَلِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّ غَرِيزَتَهُ تَحَوَّلَتْ إِلَىٰ فِكْرِهِ[1] ، فَلَمْ تَعُدْ إِلَّا صُوَرًا خَيَالِيَّةً لَا تَعْرِفُ إِلَّا ٱلْكَذِبَ . وَقَدْ قَرَّرَ عُلَمَاءُ ٱلنَّفْسِ أَنَّ مِنَ ٱلرِّجَالِ مَنْ يَكْرَهُ زَوْجَتَهُ أَشَدَّ ٱلْكُرْهِ إِذَا شَعَرَ فِي نَفْسِهِ بِالْمَهَانَةِ وَٱلنَّقْصِ مِنْ عَجْزِهِ عَنْهَا . . . فَهَـٰذَا لَا يَكُونُ رَجُلًا لِامْرَأَتِهِ إِلَّا فِي ٱلْعَدَاوَةِ وَٱلنِّقْمَةِ وَٱلْكَرَاهِيَةِ وَمَا كَانَ مِنْ بَابِ شِفَاءِ ٱلْغَيْظِ ، وَٱمْرَأَتُهُ مَعَهُ كَالْمُعَاهَدَةِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ : لَا قِيمَةَ وَلَا حُرْمَةَ ؛ وَإِذَا أَحَبَّ هَـٰذَا كَانَ حُبُّهُ خَيَالِيًّا شَدِيدًا ، لِأَنَّهُ مِنْ جِهَةٍ يَكُونُ كَالتَّعْزِيَةِ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ يَكُونُ غَيْظًا لِزَوْجَتِهِ ، وَرَدًّا بِامْرَأَةٍ عَلَىٰ ٱمْرَأَةٍ . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « فِكْرَةٍ » بَدَلًا مِنْ : « فِكْرِهِ » .

وحي القلم

"بيانٌ كأنّه تنزيلٌ مِنَ التّنزيل" أو قبسٌ مِن نورِ الذِّكرِ الحكيم"

سعد باشا زغلول

في تقريظه "إعجاز القرآن" للرّافعي

كتبه

مصطفى صادق الرافعي

بعناية

بسّام عبد الوهّاب الجابي

الجزء الثالث

ٱلإِشْرَاقُ ٱلإِلَـٰهِيُّ وَفَلْسَفَةُ ٱلإِسْلَامِ (*)

كَمَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ بِأَنْوَارِهَا فَتُفَجِّرُ يَنْبُوْعَ ٱلضَّوْءِ ٱلْمُسَمَّىٰ ٱلنَّهَارَ ، يُوْلَدُ ٱلنَّبِيُّ فَيُوْجِدُ فِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ يَنْبُوْعَ ٱلنُّوْرِ ٱلْمُسَمَّىٰ بِٱلدِّيْنِ . وَلَيْسَ ٱلنَّهَارُ إِلَّا يَقَظَةَ ٱلْحَيَاةِ تُحَقِّقُ أَعْمَالَهَا ، وَلَيْسَ ٱلدِّيْنُ إِلَّا يَقَظَةَ ٱلنَّفْسِ تُحَقِّقُ فَضَائِلَهَا .

وَٱلشَّمْسُ خَلَقَهَا ٱللهُ حَامِلَةً طَابَعَهُ ٱلإِلَـٰهِيَّ ، فِيْ عَمَلِهَا لِلْمَادَّةِ تُحَوِّلُ بِهِ وَتُغَيِّرُ ؛ وَٱلنَّبِيُّ يُرْسِلُهُ ٱللهُ حَامِلًا مِثْلَ ذَلِكَ ٱلطَّابَعِ فِيْ عَمَلِهِ لِلرُّوْحِ تَتَرَقَّىٰ فِيْهِ وَتَسْمُو .

وَرَعَشَاتُ ٱلضَّوْءِ مِنَ ٱلشَّمْسِ هِيَ قِصَّةُ ٱلْهِدَايَةِ لِلْكَوْنِ فِيْ كَلَامٍ مِنَ ٱلنُّوْرِ ، وَأَشِعَّةُ ٱلْوَحْيِ فِيْ ٱلنَّبِيِّ هِيَ قِصَّةُ ٱلْهِدَايَةِ لإِنْسَانِ ٱلْكَوْنِ فِيْ نُوْرٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ .

وَٱلْعَامِلُ ٱلإِلَـٰهِيُّ ٱلْعَظِيْمُ يَعْمَلُ فِيْ نِظَامِ ٱلنَّفْسِ وَٱلأَرْضِ بِأَدَاتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ : أَجْرَامِ ٱلنُّوْرِ مِنَ ٱلشُّمُوْسِ وَٱلْكَوَاكِبِ ، وَأَجْرَامِ ٱلْعَقْلِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَٱلأَنْبِيَاءِ .

فَلَيْسَ ٱلنَّبِيُّ إِنْسَانًا مِنَ ٱلْعُظَمَاءِ يُقْرَأُ تَارِيْخُهُ بِٱلْفِكْرِ مَعَهُ ٱلْمَنْطِقُ ، وَمَعَ ٱلْمَنْطِقِ ٱلشَّكُّ ، ثُمَّ يُدْرَسُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَىٰ أُصُوْلِ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱلْعَامَّةِ ؛ وَلَـٰكِنَّهُ إِنْسَانٌ نَجْمِيٌّ يُقْرَأُ بِمِثْلِ « ٱلتِّلِّسْكُوْبِ »(١) فِيْ ٱلدِّقَّةِ ، مَعَهُ ٱلْعِلْمُ ، وَمَعَ ٱلْعِلْمِ ٱلإِيْمَانُ ؛ ثُمَّ يُدْرَسُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَىٰ أُصُوْلِ طَبِيْعَتِهِ ٱلنُّوْرَانِيَّةِ وَحْدَهَا .

(*) « الرسالة » العدد : ٥١ ، ١٣ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٥ يونيو/ حزيران سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٠٤٣ ـ ١٠٤٥ .
هذه المقالة هي ثاني مقالات الرافعي في الرسالة بعد أن دعاه أحمد حسن الزيات إلى العمل معه ، يقول محمد سعيد العريان في « حياة الرافعي » صفحة : ٢٣٤ : وأحسبه اختار هذا الموضوع على انقطاع الصلة بينه وبين الموضوع السابق [له « لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على فَنِّيَّتِهِ »] احتفاءً بالمولد النبوي ؛ إذا كان هذا موسمه . بسّام .

(١) التلسكوب Telescope ، هو : المِنْظَارُ أو ٱلْمِجْهَرُ . بسّام .

وَٱلْحَيَاةُ تُنْشِئُ عِلْمَ ٱلتَّارِيْخِ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةَ فِيْ دَرْسِ ٱلْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِمْ ، تَجْعَلُ ٱلتَّارِيْخَ هُوَ يُنْشِئُ عِلْمَ ٱلْحَيَاةِ ؛ فَإِنَّمَا ٱلنَّبِيُّ إِشْرَاقٌ إِلَـٰهِيٌّ عَلَىٰ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، يُقَوِّمُهَا فِي فَلَكِهَا ٱلْأَخْلَاقِيِّ ، وَيَجْذِبُهَا إِلَىٰ ٱلْكَمَالِ فِي نِظَامٍ هُوَ بِعَيْنِهِ صُوْرَةٌ لِقَانُوْنِ ٱلْجَاذِبِيَّةِ فِيْ ٱلْكَوَاكِبِ .

وَيَجِيْءُ ٱلنَّبِيُّ فَتَجِيْءُ ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ مَعَهُ فِيْ مِثْلِ بَلَاغَةِ ٱلْفَنِّ ٱلْبَيَانِيِّ ، لِتَكُوْنَ أَقْوَىٰ أَثَراً ، وَأَيْسَرَ فَهْمًا ، وَأَبْدَعَ تَمْثِيْلًا ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا خِلَافٌ مِنَ ٱلْحِسِّ . وَهَـٰذَا هُوَ ٱلْأُسْلُوْبُ ٱلَّذِيْ يَجْعَلُ إِنْسَانًا وَاحِدًا فَنَّ ٱلنَّاسِ جَمِيْعًا ، كَمَا تَكُوْنُ ٱلْبَلَاغَةُ فَنَّ لُغَةٍ بِأَكْمَلِهَا ؛ هُوَ ٱلشَّخْصُ ٱلْمُفَسِّرُ إِذَا تَعَسَّفَ ٱلنَّاسُ ٱلْحَيَاةَ لَا يَدْرُوْنَ أَيْنَ يَؤُمُّوْنَ مِنْهَا ، وَلَا كَيْفَ يَتَهَدَّوْنَ فِيْهَا ، فَتَضْطَرِبُ ٱلْمَلَايِيْنُ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱضْطِرَابَهَا فِيْمَا تَنْقَبِضُ عَنْهُ وَتَتَهَالَكُ فِيْهِ مِنْ أَطْمَاعِ ٱلدُّنْيَا ؛ ثُمَّ يُخْلَقُ رَجُلٌ وَاحِدٌ لِيَكُوْنَ هُوَ ٱلتَّفْسِيْرَ لِمَا مَضَىٰ وَمَا يَأْتِيْ ، فَتَظْهَرُ بِهِ حَقَائِقُ ٱلْآدَابِ ٱلْعَالِيَةِ فِيْ قَالَبٍ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْعَامِلِ ٱلْمَرْئِيِّ ، أَبْلَغَ مِمَّا تَظْهَرُ فِيْ قِصَّةٍ مُتَكَلَّمَةٍ مَرْوِيَّةٍ .

وَمَا ٱلشَّهَادَةُ لِلنُّبُوَّةِ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ نَفْسُ ٱلنَّبِيِّ أَبْلَغَ نُفُوْسِ قَوْمِهِ ، حَتَّىٰ لَهُوَ فِيْ طِبَاعِهِ وَشَمَائِلِهِ طَبِيْعَةٌ قَائِمَةٌ وَحْدَهَا ، كَأَنَّهَا ٱلْوَضْعُ ٱلنَّفْسَانِيُّ ٱلدَّقِيْقُ ٱلَّذِيْ يُنْصَبُ لِتَصْحِيْحِ ٱلْوَضْعِ ٱلْمَغْلُوْطِ لِلْبَشَرِيَّةِ فِيْ عَالَمِ ٱلْمَادَّةِ وَتَنَازُعِ ٱلْبَقَاءِ . وَكَأَنَّ ٱلْحَقِيْقَةَ ٱلسَّامِيَةَ فِيْ هَـٰذَا ٱلنَّبِيِّ تُنَادِيْ ٱلنَّاسَ : أَنْ قَابِلُوا عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْأَصْلِ وَصَحِّحُوا مَا ٱعْتَرَىٰ أَنْفُسَكُمْ مِنْ غَلَطِ ٱلْحَيَاةِ وَتَحْرِيْفِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ .

* * *

وَمِنْ ثَمَّ فَنَبِيُّ ٱلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا مَنْ بُعِثَ بِٱلدِّيْنِ أَعْمَالًا مُفَصَّلَةً عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ أَدَقَّ تَفْصِيْلٍ وَأَوْفَاهُ بِمَصْلَحَتِهَا ، فَهُوَ يُعْطِيْ ٱلْحَيَاةَ فِيْ كُلِّ عَصْرٍ عَقْلَهَا ٱلْعَمَلِيَّ ٱلثَّابِتَ ٱلْمُسْتَقِرَّ تَنْتَظِمُ بِهِ أَحْوَالُ ٱلنَّفْسِ عَلَىٰ مَيْزَةٍ وَبَصِيْرَةٍ ، وَيَدَعُ لِلْحَيَاةِ عَقْلَهَا ٱلْعِلْمِيَّ ٱلْمُتَجَدِّدَ ٱلْمُتَغَيِّرَ تَنْتَظِمُ بِهِ أَحْوَالُ ٱلطَّبِيْعَةِ عَلَىٰ قَصْدٍ وَهُدًىٰ ؛ وَهَـٰذِهِ هِيَ حَقِيْقَةُ ٱلْإِسْلَامِ فِيْ أَخَصِّ مَعَانِيْهِ ، لَا يُغْنِيْ عَنْهُ فِيْ ذَلِكَ دِيْنٌ آخَرُ ، وَلَا يُؤَدِّيْ تَأْدِيَتَهُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْحَاجَةِ أَدَبٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا فَلْسَفَةٌ ، كَأَنَّمَا هُوَ نَبْعٌ فِيْ ٱلْأَرْضِ لِمَعَانِيْ ٱلنُّوْرِ ، بِإِزَاءِ ٱلشَّمْسِ نَبْعِ ٱلنُّوْرِ فِيْ ٱلسَّمَاءِ .

وَكُلُّ ذَلِكَ تَرَاهُ فِيْ نَفْسِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَهِيَ فِيْ مَجْمُوْعِهَا أَبْلَغُ ٱلْأَنْفُسِ قَاطِبَةً ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْرِفَ ٱلْأَرْضُ أَكْمَلَ مِنْهَا ؛ وَلَوِ ٱجْتَمَعَتْ فَضَائِلُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلْمُتَأَلِّهِيْنَ وَجُعِلَتْ فِيْ نِصَابٍ وَاحِدٍ ـ مَا بَلَغَتْ أَنْ يَجِيْءَ مِنْهَا مِثْلُ نَفْسِهِ ﷺ . وَلَكَأَنَّمَا خَرَجَتْ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسُ مِنْ صِيْغَةٍ كَصِيْغَةِ ٱلدُّرَّةِ فِيْ مَحَارَتِهَا ، أَوْ تَرْكِيْبٍ كَتَرْكِيْبِ ٱلْمَاسِ فِيْ مَنْجَمِهِ ، أَوْ صِفَةٍ كَصِفَةِ ٱلذَّهَبِ فِيْ عِرْقِهِ . وَهِيَ ٱلنَّفْسُ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ، مِنْ أَيْنَ تَدَبَّرْتَهَا رَأَيْتَهَا عَلَىٰ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ كَٱلشَّمْسِ فِيْ ٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ تَنْبَسِطُ وَتَضْحَىٰ .

وَتِلْكَ هِيَ ٱلشَّهَادَةُ لَهُ ﷺ بِأَنَّهُ خَاتَمُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ دِيْنَهُ هُوَ دِيْنُ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْأَخِيْرُ ؛ فَهَـٰذَا ٱلدِّيْنُ فِيْ مَجْمُوْعِهِ إِنْ هُوَ إِلَّا صُوْرَةُ تِلْكَ ٱلنَّفْسِ ٱلْعَظِيْمَةِ فِيْ مَجْمُوْعِهَا : صَلَابَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَقِّ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلثَّابِتِ ، لَا بِمِقْدَارِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْمُتَغَيِّرِ ٱلَّذِيْ يَكُوْنُ عِنْدَ سَبَبٍ جَبَلًا صَلْدًا يَشْمَخُ ، وَعِنْدَ سَبَبٍ آخَرَ مَاءً عَذْبًا يَجْرِيْ .

وَهُوَ دِيْنٌ يَعْلُو بِٱلْقُوَّةِ وَيَدْعُو إِلَيْهَا ، وَيُرِيْدُ إِخْضَاعَ ٱلدُّنْيَا وَحُكْمَ ٱلْعَالَمِ ، وَيَسْتَفْرِغُ هَمَّهُ فِيْ ذَلِكَ ، لَا لِإِعْزَازِ ٱلْأَقْوَىٰ وَإِذْلَالِ ٱلْأَضْعَفِ ، وَلَـٰكِنْ لِلِارْتِفَاعِ بِٱلْأَضْعَفِ إِلَىٰ ٱلْأَقْوَىٰ ؛ وَفَرْقُ مَا بَيْنَ شَرِيْعَتِهِ وَشَرَائِعِ ٱلْقُوَّةِ ، أَنَّ هَـٰذِهِ إِنَّمَا هِيَ قُوَّةُ سِيَادَةِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَتَحَكُّمِهَا ، أَمَّا هُوَ فَقُوَّةُ سِيَادَةِ ٱلْفَضِيْلَةِ وَتَغَلُّبِهَا ؛ وَتِلْكَ تَعْمَلُ لِلتَّفْرِيْقِ ، وَهُوَ يَعْمَلُ لِلْمُسَاوَاةِ ؛ وَسِيَادَةُ ٱلطَّبِيْعَةِ وَعَمَلُهَا لِلتَّفْرِيْقِ هُمَا أَسَاسُ ٱلْعُبُوْدِيَّةِ ، وَغَلَبَةُ ٱلْفَضِيْلَةِ وَعَمَلُهَا لِلْمُسَاوَاةِ هُمَا أَعْظَمُ وَسَائِلِ ٱلْحُرِّيَّةِ .

وَمِنْ هُنَا كَانَ طَبِيْعِيًّا فِيْ ٱلْإِسْلَامِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ لَا فَضِيْلَةَ إِلَّا وَهُوَ يَطْبَعُ عَلَيْهَا صُوْرَةَ ٱلْجَنَّةِ بِنَعِيْمِهَا ٱلْخَالِدِ ، وَلَا رَذِيْلَةَ إِلَّا وَهُوَ يَضَعُ عَلَيْهَا صُوْرَةَ ٱلنَّارِ ٱلْأَبَدِيَّةِ وَقُوْدُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ؛ فَلَا تَنْظُرُ ٱلْعَيْنُ ٱلْمُسْلِمَةُ إِلَىٰ أَسْبَابِ ٱلْحَيَاةِ نَظْرَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُنَازِعِ : يَحْرِصُ عَلَىٰ مَا يَكُوْنُ لَهُ ، وَيَشْرَهُ إِلَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ ، وَيَمْكُرُ ٱلْحِيْلَةَ ، وَيُبْدِعُ وَسَائِلَ ٱلْخِدَاعِ ، وَيَزِيْدُ بِكُلِّ ذَلِكَ فِيْ تَعْقِيْدِ ٱلدُّنْيَا ـ بَلْ نَظْرَةَ ٱلْقَلْبِ ٱلْمُسَالِمِ : يَخْلَعُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخُو بِكُلِّ مَضْنُوْنٍ فِيْهَا ، فَيَعِفُّ عَنْ كَثِيْرٍ ؛ وَيَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ وَيَطْمَعُ فِيْ غَايَاتِهَا ٱلْعُلْيَا ، فَيَعْفُو عَنْ كَثِيْرٍ ؛ وَيُدْرِكُ أَنَّ ٱلْحَلَالَ وَإِنْ حَلَّ فَوَرَاءَهُ حِسَابُهُ ، وَأَنَّ ٱلْحَرَامَ وَإِنْ غَرَّ لَيْسَ إِلَّا تَعَلُّلَ سَاعَةٍ ذَاهِبَةٍ ثُمَّ مِنْ وَرَائِهِ عِقَابُ ٱلْأَبَدِ .

وَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَرُ أَغْرَاضِ ٱلْإِسْلَامِ هُوَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ تَعَالَىٰ قَانُونَ وُجُودِ ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، فَمِنْ أَيِّ عِطْفَيْهِ ٱلْتَفَتَ هَـٰذَا ٱلْإِنْسَانُ وَجَدَ عَلَىٰ يَمْنَتِهِ وَيَسْرَتِهِ مَلَكَيْنِ مِنْ مَلَائِكَةِ ٱللهِ يَكْتُبَانِ أَعْمَالَهُ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، فَهُوَ كَٱلْمُتَّهَمِ ٱلْمُسْتَرَابِ بِهِ فِي سِيَاسَةِ ٱلنَّفْسِ : لَا يَمْشِي خُطْوَةً إِلَّا بَيْنَ جَاسُوسَيْنِ يُحْصِيَانِ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَسْبَابَ ٱلنِّيَّةِ ، وَيَجْمَعَانِ مِنْهُ حَتَّىٰ نَزَوَاتِ ٱلْكَبِدِ ، وَيُتَرْجِمَانِ عَنْهُ حَتَّىٰ مَعَانِيَ ٱلنَّظَرِ .

وَإِذَا قَامَتْ هَـٰذِهِ ٱلْمَحْكَمَةُ ٱلْمَلَائِكِيَّةُ وَتَقَرَّرَتْ فِي ٱعْتِبَارِ ٱلنَّفْسِ ، قَامَ مِنْهَا عَلَى ٱلنَّفْسِ شَرْعٌ نَافِذٌ هُوَ قَانُونُ ٱلْإِرَادَةِ ٱلْمُمَيِّزَةِ ، تُرِيدُ ٱلْحَسَنَاتِ وَتَعْمَلُ لَهَا ، وَتَخْشَى ٱلسَّيِّئَاتِ وَتَنْفِرُ مِنْهَا ، فَإِذَا مَعَانِي ٱلْجَسَدِ يَحْكُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، لَا لِتَحْقِيقِ ٱلْحُكُومَةِ وَٱلسُّلْطَةِ ، وَلَـٰكِنْ لِتَحْقِيقِ ٱلْخَيْرِ وَٱلْمَصْلَحَةِ ؛ وَإِذَا نَوَامِيسُ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْمَجْنُونَةِ فِي هَـٰذَا ٱلْحَيَوَانِ ، قَدْ نَهَضَتْ إِلَىٰ جَانِبِهَا نَوَامِيسُ ٱلْإِرَادَةِ ٱلْحَكِيمَةِ فِي ٱلْإِنْسَانِ ، وَإِذَا كُلُّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي ٱلنَّفْسِ هِيَ مِنْ صَاحِبِهَا مَادَّةُ تُهْمَةٍ عِنْدَ قَاضِيهَا فِي مَحْكَمَتِهَا ، وَإِذَا كُلُّ مَا فِي ٱلْإِنْسَانِ وَمَا حَوْلَ ٱلْإِنْسَانِ ، لَا يُرَادُ مِنْهُ إِلَّا سَلَامُ ٱلنَّفْسِ فِي عَاقِبَتِهَا ؛ وَإِذَا مَعْنَى ٱلسَّلَامِ هُوَ ٱلْمَعْنَى ٱلْغَالِبُ ٱلْمُتَصَرِّفُ بِٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِي دُنْيَاهَا .

وَكُلُّ أَعْمَالِ ٱلْإِسْلَامِ وَأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ ، فَتِلْكَ هِيَ غَايَتُهَا ، وَهَـٰذِهِ هِيَ فَلْسَفَتُهَا ؛ لَا يُقَرِّرُهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ حَسْبُ ، بَلْ يَغْرِسُهَا فِي ٱلْوِرَاثَةِ غَرْسًا بِٱلِاعْتِيَادِ وَٱلْمِرَانِ ٱلدَّائِمِ ، لِتَكُونَ عِلْمًا وَعَمَلًا ، فَتُمَكِّنَ لِسَلَامِ ٱلنَّفْسِ بَيْنَ ٱلْأَسْلِحَةِ ٱلْمُسَدَّدَةِ إِلَيْهَا مِنْ ضَرُورَاتِ ٱلْحَيَاةِ ، فِي أَيْدِي ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُتَأَلِّبَةِ عَلَيْهَا مِنْ شَهَوَاتِ ٱلْغَرِيزَةِ .

فَلَيْسَ يَعُمُّ ٱلسَّلَامُ إِلَّا إِذَا عَمَّ هَـٰذَا ٱلدِّينُ بِأَخْلَاقِهِ فَشَمِلَ ٱلْأَرْضَ أَوْ أَكْثَرَهَا ؛ فَإِنَّ قَانُونَ ٱلْعَالَمِ حِينَئِذٍ يُصْبِحُ مُنْتَزَعًا مِنْ طَبِيعَةِ ٱلتَّرَاحُمِ ، فَإِمَّا ٱنْتَسَخَ بِهِ قَانُونُ ٱلتَّنَازُعِ ٱلطَّبِيعِيِّ ، وَإِمَّا كَسَرَ مِنْ شِرَّتِهِ ؛ وَيُولَدُ ٱلْمَوْلُودُ يَوْمَئِذٍ وَتُولَدُ مَعَهُ ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ .

* * *

تَقْرِيرُ مَعْنَى ٱلدَّوَامِ لِكُلِّ أَعْمَالِ ٱلنَّفْسِ حَتَّىٰ مِثْقَالِ ٱلذَّرَّةِ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ ، وَضَبْطُ ذَلِكَ بِرِيَاضَةٍ عَمَلِيَّةٍ دَائِمَةٍ مَفْرُوضَةٍ عَلَى ٱلنَّاسِ جَمِيعًا ـ هَـٰذَا هُوَ أَسَاسُ ٱلْعَقِيدَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ ؛ وَلَا

صَلَاحَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بِغَيْرِهِ يَرُدُّهَا إِلَىٰ سَبِيلِ قَصْدِهَا ، فَإِنَّ مِنْ ذَلِكَ تَكُونُ ٱلصِّفَةُ ٱلْعَقْلِيَّةُ ٱلَّتِي تَغْلِبُ عَلَى ٱلْمُجْتَمَعِ ، وَتُجَانِسُ بَيْنَ أَفْرَادِهِ ، فَتُوَجِّهُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا نَحْوَ ٱلْمُمْكِنِ مِنْ كَمَالِهَا ، وَلَا تَزَالُ تُوَجِّهُهَا نَحْوَ مَا هُوَ أَعْلَىٰ ، وَتَحْكُمُ فَاسِدَهَا بِصَالِحِهَا ، وَتَأْخُذُ عَاصِيَهَا بِمُطِيعِهَا ، وَتَجْعَلُ ٱلشَّرَفَ ٱلْإِنْسَانِيَّ غَرَضَهَا ٱلْأَوَّلَ ، لِأَنَّ ٱللهَ ٱلْحَقَّ غَرَضُهَا ٱلْأَخِيرُ ؛ فَيُصْبِحُ ٱلْمَرْءُ ـ وَهَـٰذَا دِينُهُ ـ كُلَّمَا تَقَدَّمَ بِهِ ٱلْعُمُرُ كَمُلَ فِيهِ ٱثْنَانِ : ٱلْإِنْسَانُ ، وَٱلشَّرِيعَةُ . وَلَا يَعُودُ طَالِبُ ٱلسَّعَادَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ فِي ٱلدُّنْيَا كَٱلْمَجْنُونِ يَجْرِي وَرَاءَ ظِلِّهِ لِيُمْسِكَهُ ؛ فَلَا يُدْرِكُ فِي ٱلْآخِرِ شَيْئًا غَيْرَ مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي عَمَلٍ بَاطِلٍ وَسَعْيٍ ضَائِعٍ .

وَٱلْإِسْلَامُ يَحْرِصُ أَشَدَّ ٱلْحِرْصِ وَأَبْلَغَهُ عَلَىٰ تَقْرِيرِ ذَلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْإِلَـٰهِيِّ ٱلْعَظِيمِ ، لَا بِٱلْمَنْطِقِ ، وَلَـٰكِنْ بِٱلْعَمَلِ ؛ ثُمَّ فِي ٱلنَّفْسِ وَعَوَاطِفِهَا ، لَا فِي ٱلْعَقْلِ وَآرَائِهِ ؛ ثُمَّ عَلَىٰ وَجْهِ ٱلتَّعْمِيمِ ، دُونَ ٱلِاسْتِثْنَاءِ وَٱلْخُصُوصِ ؛ وَذَلِكَ هُوَ سِرُّ مَشَقَّتِهِ عَلَى ٱلنَّفْسِ بِمَا يَفْرِضُهُ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّ فَلْسَفَتَهُ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسَ هِيَ أَسَاسُ ٱلْعَالَمِ ، وَأَنَّ ٱلنِّظَامَ ٱلْخُلُقِيَّ هُوَ أَسَاسُ ٱلنَّفْسِ ، وَأَنَّ ٱلْعَمَلَ ٱلدَّائِمَ هُوَ أَسَاسُ ٱلنِّظَامِ ، وَأَنَّ رُوحَ ٱلْعَمَلِ ٱلدَّائِمِ تَكُونُ فِيمَا يَشُقُّ بَعْضَ ٱلْمَشَقَّةِ وَلَا يَبْلُغُ ٱلْعُسْرَ وَٱلْحَرَجَ ، كَمَا تَكُونُ فِيمَا يَسْهُلُ بَعْضَ ٱلسُّهُولَةِ وَلَا يَبْلُغُ ٱلْكَسَلَ وَٱلْإِهْمَالَ .

وَلِلنَّفْسِ وَجْهَانِ : مَا تُعْلِنُ ، وَمَا تُسِرُّ ؛ وَلَا صِدْقَ لِإِعْلَانِهَا حَتَّىٰ يَصْدُقَ ضَمِيرُهَا ، وَلَا صَلَاحَ لِجَهْرِهَا حَتَّىٰ يَصْلُحَ ٱلسِّرُّ فِيهَا ، وَلَا يَكُونُ ٱلْإِنْسَانُ ٱلِاجْتِمَاعِيُّ فَاضِلًا بِمَشْهَدِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ بِغَيْبِهِ .

وَلِلْعَالَمِ كَذَلِكَ وَجْهَانِ : حَاضِرُهُ ٱلَّذِي يَمُرُّ فِيهِ ، وَآتِيهِ ٱلَّذِي يَمْتَدُّ لَهُ ؛ وَلَا يُفْلِحُ حَاضِرٌ مُنْقَطِعٌ لَا يُوَرِّثُ مَا بَعْدَهُ كَمَا وَرِثَ مَا قَبْلَهُ ، وَمَا حَاضِرُ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا جُزْءٌ مِنْ عَمَلِ ٱلنَّاسِ فِي ٱسْتِمْرَارِ فَضَائِلِهِمْ بَاقِيَةً نَامِيَةً .

وَلِلنِّظَامِ أَيْضًا وَجْهَانِ : نِظَامُ ٱلرَّغْبَةِ عَلَى ٱلطَّاعَةِ وَٱلِاطْمِئْنَانِ لَهَا ، وَنِظَامُ ٱلرَّغْبَةِ عَلَى ٱلْخَشْيَةِ وَٱلنَّفْرَةِ مِنْهَا . وَلَا يَسْتَقِيمُ شَأْنٌ لَيْسَ أَسَاسُهُ ٱلطَّاعَةَ فِي ٱلنَّفْسِ ، وَلَا يَسْتَمِرُّ نِظَامٌ عَلَيْهِ خِلَافٌ مِنْ فِكْرِ ٱلْعَامِلِ بِهِ .

وَلِلْعَمَلِ ٱلدَّائِمِ طَرِيقَتَانِ : إِحْدَاهُمَا طَرِيقَةُ ٱلْجَادِّ يَعْمَلُ لِلْعَاقِبَةِ يَسْتَيْقِنُهَا ، فَلَا يَجِدُ مِمَّا

يَشُقُّ عَلَيْهِ إِلَّا لَذَّةَ ٱلْمُغَالَبَةِ لِلنَّصْرِ : كُلُّ مَرَارَةٍ مِنْ قِبَلِهِ هِيَ حَلَاوَةٌ فِيهِ مِنْ بَعْدُ ، وَلَا يَعْرِفُ لِلْمِحْنَةِ يُبْتَلَىٰ بِهَا إِلَّا مَعْنَاهَا ٱلْحَقِيقِيَّ وَهُوَ إِيقَاظُ نَفْسِهِ ، فَيُصْبِحُ ٱلصَّبْرُ عِنْدَهُ كَصَبْرِ ٱلْمُحِبِّ عَلَىٰ أَشْيَاءَ مِمَّنْ يُحِبُّهُ ؛ صَبْرٌ فِيهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ مَا يَكْسُو ٱلْحِرْمَانَ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ خَيَالَ ٱلِاسْتِمْتَاعِ ، وَيُذِيقُ ٱلنَّفْسَ فِي ٱلْعَجْزِ عَنْ بَعْضِ أَغْرَاضِهَا ـ لَذَّةً كَلَذَّةِ إِدْرَاكِهِ .

* * *

تِلْكَ هِيَ فَلْسَفَةُ ٱلْإِسْلَامِ ؛ لَا قِوَامَ لِلْأَمْرِ فِيهَا وَلَا مِسَاكَ لَهُ إِلَّا بِتَقْرِيرِ مَعْنَى ٱلدَّوَامِ لِكُلِّ أَعْمَالِ ٱلنَّفْسِ ، وَوَضْعِ طَابَعِ ٱلْجَنَّةِ عَلَىٰ أَعْمَالِ ٱلْجَنَّةِ ، وَطَابَعِ ٱلنَّارِ عَلَىٰ أَعْمَالِ ٱلنَّارِ ـ وَحِيَاطَةِ كُلِّ فَرْدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ حِيَاطَةً رِيَاضِيَّةً عَمَلِيَّةً بَيْنَ ٱلسَّاعَةِ وَٱلسَّاعَةِ ، بَلْ بَيْنَ ٱلدَّقِيقَةِ وَٱلدَّقِيقَةِ ، بِمَا يُكَلَّفُ مِنْ أَعْمَالِ جِسْمِهِ وَحَوَاسِّهِ ، ثُمَّ أَعْمَالِ قَلْبِهِ وَنِيَّتِهِ ـ وَتَعْظِيمِ ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلرُّوحِيَّةِ دُونَ ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلْمَادِّيَّةِ ، فَلَا يُحَاوِلُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَجْعَلَ بَطْنَهُ فِي حَجْمِ مَمْلَكَةٍ أَوْ مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ ، بِمَا يَنْتَقِصُ مِنْ حُقُوقِ غَيْرِهِ ؛ بَلْ تَتَّسِعُ ذَاتِيَّةُ كُلِّ فَرْدٍ بِمَا يَجِبُ لَهُ عَلَى ٱلْمُجْتَمَعِ مِنَ ٱلْوَاجِبَاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَبِهَـٰذَا لَا بِغَيْرِهِ تَتَعَيَّنُ مَقَايِيسُ ٱلْأَخْلَاقِ فِي ٱلْأَرْضِ : بِٱلْمَصْلَحَةِ لَا بِٱللَّذَّةِ ؛ فَلَا يَقَعُ ٱلْخَطَأُ وَلَا ٱلتَّزْوِيرُ ، وَتَنْحَلُّ ٱلْمُشْكِلَةُ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةُ ، مَا دَامَتِ ٱلْحَيَاةُ لَا تَجِدُ مِنْ أَهْلِهَا كُلَّ سَاعَةٍ عُقَدًا فِيهَا .

وَٱلِاسْتِيلَاءُ بِذَلِكَ ٱلْمَعْنَىٰ عَلَى ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَاطِفَةِ هُوَ وَحْدَهُ ٱلطَّرِيقَةُ لِإِنْشَاءِ طَبِيعَةِ ٱلْخَيْرِ فِي ٱلنَّاسِ عَلَىٰ نَسَقِهَا ٱلطَّبِيعِيِّ ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ ٱلطَّرِيقَةُ لِتَطْهِيرِ ٱلتَّارِيخِ ٱلْإِنْسَانِيِّ مِنْ أَوْبَائِهِ ٱلِاقْتِصَادِيَّةِ ، ٱلَّتِي جَعَلَتْهُ كَأَنَّمَا هُوَ تَارِيخُ ٱلْأَسْنَانِ وَٱلْأَضْرَاسِ ، وَتَرَكَتِ ٱلنَّاسَ يَهْدِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا يَهْدِمُ ٱلْجَارُ حَائِطَ جَارِهِ لِيُوَسِّعَ بَيْتَهُ .

وَأَسَاسُ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْإِسْلَامِ إِخْضَاعُ ٱلْحَيَاةِ لِلْعَقِيدَةِ ، فَتَجْعَلُهَا ٱلْعَقِيدَةُ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلْحَاجَةِ ؛ فَيَكُونُ ٱلْفَقِيرُ مُعْدِمًا وَيَتَعَفَّفُ ، وَيَكُونُ ٱلْغَنِيُّ مُوسِرًا وَيَتَصَدَّقُ ، وَيَكُونُ ٱلشَّرِهُ طَامِعًا وَيُمْسِكُ ، وَيَكُونُ ٱلْقَوِيُّ قَادِرًا وَيُحْجِمُ ، وَكَمَا قَالَ ٱلْعَرَبُ فِي تَحْقِيقِ نَامُوسِ ٱلْأَنَفَةِ وَٱلْحَمِيَّةِ وَغَلَبَتِهِ عَلَى ٱلنَّامُوسِ ٱلِاقْتِصَادِيِّ : « تَجُوعُ ٱلْحُرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا » .

* * *

تُرِيدُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ ٱمْتِدَادًا غَيْرَ ٱمْتِدَادِهَا ٱلتِّجَارِيِّ فِي ٱلْأَرْضِ ، وَتَحْتَاجُ إِلَىٰ مَعْنًى يَقُودُ إِنْسَانَهَا غَيْرَ ٱلْحَيَوَانِ ٱلَّذِي فِيهِ ؛ وَإِذَا قَادَ ٱلْغُرَابُ قَوْمًا { فَإِنَّمَا هُوَ } ـ كَمَا قَالَ شَاعِرُنَا ـ يَمُرُّ بِهِمْ عَلَىٰ جِيَفِ ٱلْكِلَابِ . . . وَٱلْإِنْسَانِيَّةُ ٱلْيَوْمَ فِي مِثْلِ لَيْلٍ حُوشِيٍّ مُظْلِمٍ ٱخْتَلَطَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ، وَلَيْسَتْ مَعَانِي ٱلْإِسْلَامِ إِلَّا ٱلْإِشْرَاقَ ٱلْإِلَـٰهِيَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْكَثَافَةِ ٱلْمَادِّيَّةِ ٱلْمُتَرَاكِمَةِ ، وَإِذَا رُفِعَ ٱلْمِصْبَاحُ لَمْ تَجِدِ ٱلظَّلَامَ إِلَّا وَرَاءَ ٱلْحُدُودِ ٱلَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا أَشِعَّتُهُ .

وَقَدْ عَلِمْنَا مِنْ طَبِيعَةِ ٱلنَّفْسِ أَنَّ إِنْسَانِيَّةَ ٱلْفَرْدِ لَا تَعْظُمُ وَتَسْمُو وَتَتَخَيَّلُ وَتَفْرَحُ فَرَحَهَا ٱلصَّادِقَ وَتَحْزَنُ حُزْنَهَا ٱلسَّامِيَ ـ إِلَّا أَنْ تَعِيشَ فِي مَحْبُوبٍ ؛ فَإِنْسَانِيَّةُ ٱلْعَالَمِ لَا تَكُونُ مِثْلَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا عَاشَتْ فِي نَبِيِّهَا ٱلطَّبِيعِيِّ ، نَبِيِّ أَخْلَاقِهَا ٱلصَّحِيحَةِ وَآدَابِهَا ٱلْعَالِيَةِ وَنِظَامِهَا ٱلدَّقِيقِ ؛ وَأَيْنَ تَجِدُ هَـٰذَا ٱلْمَحْبُوبَ ٱلْأَعْظَمَ إِلَّا فِي مُحَمَّدٍ وَدِينِ مُحَمَّدٍ ؟

وَعَجِيبٌ أَنْ يَجْهَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ حِكْمَةَ ذِكْرِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْعَظِيمِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي ٱلْأَذَانِ كُلَّ يَوْمٍ ، يُنَادَىٰ بِٱسْمِهِ ٱلشَّرِيفِ مِلْءَ ٱلْجَوِّ ؛ ثُمَّ حِكْمَةَ ذِكْرِهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ مِنَ ٱلْفَرِيضَةِ وَٱلسُّنَّةِ وَٱلنَّافِلَةِ ، يُهْمَسُ بِٱسْمِهِ ٱلْكَرِيمِ مِلْءَ ٱلنَّفْسِ ! وَهَلِ ٱلْحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا ٱلْفَرْضُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَنْقَطِعُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ وَلَا يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ ٱلتَّارِيخِ ، وَلَا جُزْءًا وَاحِدًا مِنَ ٱلْيَوْمِ ؛ فَيَمْتَدُّ ٱلزَّمَنُ مَهْمَا ٱمْتَدَّ وَٱلْإِسْلَامُ كَأَنَّهُ عَلَىٰ أَوَّلِهِ ، وَكَأَنَّهُ فِي يَوْمِهِ لَا فِي دَهْرٍ بَعِيدٍ ؛ وَٱلْمُسْلِمُ كَأَنَّهُ مَعَ نَبِيِّهِ بَيْنَ يَدَيْهِ تَبْعَثُهُ رُوحُ ٱلرِّسَالَةِ ، وَيَسْطَعُ فِي نَفْسِهِ إِشْرَاقُ ٱلنُّبُوَّةِ ، فَيَكُونُ دَائِمًا فِي أَمْرِهِ كَٱلْمُسْلِمِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي غَيَّرَ وَجْهَ ٱلْأَرْضِ ؛ وَيَظْهَرُ هَـٰذَا ٱلْمُسْلِمُ ٱلْأَوَّلُ بِأَخْلَاقِهِ وَفَضَائِلِهِ وَحَمِيَّتِهِ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِنَ ٱلدُّنْيَا مَكَانَ إِنْسَانِ هَـٰذِهِ ٱلْبُقْعَةِ ، لَا كَمَا نَرَى ٱلْيَوْمَ ؛ فَإِنَّ كُلَّ أَرْضٍ إِسْلَامِيَّةٍ لَا يَكَادُ يَظْهَرُ فِيهَا إِلَّا إِنْسَانُهَا ٱلتَّارِيخِيُّ بِجَهْلِهِ وَخُرَافَاتِهِ وَمَا وَرِثَ مِنَ ٱلْقِدَمِ ؛ فَهُنَا ٱلْمُسْلِمُ ٱلْفِرْعَوْنِيُّ ، وَفِي نَاحِيَةٍ ٱلْمُسْلِمُ ٱلْوَثَنِيُّ ، وَفِي بَلَدٍ ٱلْمُسْلِمُ ٱلْمَجُوسِيُّ ، وَفِي جِهَةٍ ٱلْمُسْلِمُ ٱلْمُعَطِّلُ . . . وَمَا يُرِيدُ ٱلْإِسْلَامُ إِلَّا نَفْسَ ٱلْمُسْلِمِ ٱلْإِنْسَانِيِّ .

أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُ !

لَا تَنْقَطِعْ مِنْ نَبِيِّكَ ٱلْعَظِيمِ ، وَعِشْ فِيهِ أَبَدًا ، وَٱجْعَلْهُ مَثَلَكَ ٱلْأَعْلَىٰ ؛ وَحِينَ تَذْكُرُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَكُنْ كَأَنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ كُنْ دَائِمًا كَٱلْمُسْلِمِ ٱلْأَوَّلِ ؛ كُنْ دَائِمًا ٱبْنَ ٱلْمُعْجِزَةِ .

حَقِيقَةُ ٱلْمُسْلِمِ (*)

لَا يَعْرِفُ ٱلتَّارِيخُ غَيْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ رَجُلًا أَفْرَغَ ٱللهُ وُجُودَهُ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ ؛ كَمَا تَنْصَبُّ ٱلْمَادَّةُ فِي ٱلْمَادَّةِ ، لِتَمْتَزِجَ بِهَا ، فَتُحَوِّلَهَا ، فَتُحْدِثَ مِنْهَا ٱلْجَدِيدَ ، فَإِذَا ٱلإِنْسَانِيَّةُ تَتَحَوَّلُ بِهِ وَتَنْمُو ، وَإِذَا هُوَ ﷺ وُجُودٌ سَارٍ فِيهَا فَمَا تَبْرَحُ هَـٰذِهِ ٱلإِنْسَانِيَّةُ تَنْمُو بِهِ وَتَتَحَوَّلُ .

كَانَ ٱلْمَعْنَى ٱلآدَمِيُّ فِي هَـٰذِهِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ كَأَنَّمَا وَهَنَ مِنْ طُولِ ٱلدَّهْرِ عَلَيْهِ، يَتَحَيَّفُهُ وَيَمْحُوهُ وَيَتَعَاوَرُهُ بِٱلشَّرِّ وَٱلْمُنْكَرِ ؛ فَٱبْتَعَثَ ٱللهُ تَارِيخَ ٱلْعَقْلِ بِآدَمَ جَدِيدٍ بَدَأَتْ بِهِ ٱلدُّنْيَا فِي تَطَوُّرِهَا ٱلأَعْلَى مِنْ حَيْثُ يَرْتَفِعُ ٱلإِنْسَانُ عَلَى ذَاتِهِ ، كَمَا بَدَأَتْ مِنْ حَيْثُ يُوجَدُ ٱلإِنْسَانُ فِي ذَاتِهِ؛ فَكَانَتِ ٱلإِنْسَانِيَّةُ دَهْرَهَا بَيْنَ ٱثْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا فَتَحَ لَهَا طَرِيقَ ٱلْمَجِيءِ مِنَ ٱلْجَنَّةِ، وَٱلثَّانِي فَتَحَ لَهَا طَرِيقَ ٱلْعَوْدَةِ إِلَيْهَا: كَانَ فِي آدَمَ سِرُّ وُجُودِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَكَانَ فِي مُحَمَّدٍ سِرُّ كَمَالِهَا .

* * *

وَلِهَـٰذَا سُمِّيَ ٱلدِّينُ (بِٱلإِسْلَامِ) ؛ لِأَنَّهُ إِسْلَامُ ٱلنَّفْسِ إِلَى وَاجِبِهَا ، أَيْ إِلَى ٱلْحَقِيقَةِ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ كَأَنَّ ٱلْمُسْلِمَ يُنْكِرُ ذَاتَهُ فَيُسْلِمُهَا إِلَى ٱلإِنْسَانِيَّةِ تُصَرِّفُهَا وَتَعْتَمِلُهَا فِي كَمَالِهَا وَمَعَالِيهَا ؛ فَلَا حَظَّ لَهُ هُوَ مِنْ نَفْسِهِ يُمْسِكُهَا عَلَى شَهَوَاتِهِ وَمَنَافِعِهِ ، وَلَـٰكِنْ لِلإِنْسَانِيَّةِ بِهَا ٱلْحَظُّ .

وَمَا ٱلإِسْلَامُ فِي جُمْلَتِهِ إِلَّا هَـٰذَا ٱلْمَبْدَأُ : مَبْدَأُ إِنْكَارِ ٱلذَّاتِ وَ(إِسْلَامُهَا) طَائِعَةً عَلَى ٱلْمَنْشَطِ وَٱلْمَكْرَهِ لِفُرُوضِهَا وَوَاجِبَاتِهَا ؛ وَكُلَّمَا نَكَصَتْ إِلَى مَنْزِعِهَا ٱلْحَيَوَانِيِّ ، أَسْلَمَهَا صَاحِبُهَا إِلَى وَازِعِهَا ٱلإِلَـٰهِيِّ ؛ وَهُوَ أَبَدًا يَرُوضُهَا عَلَى هَـٰذِهِ ٱلْحَرَكَةِ مَا دَامَ حَيًّا ؛ فَيَنْتَزِعُهَا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَوْهَامِ دُنْيَاهَا ، لِيَضَعَهَا مَا بَيْنَ يَدَيْ حَقِيقَتِهَا ٱلإِلَـٰهِيَّةِ : يَرُوضُهَا عَلَى ذَلِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ مُسَمَّاةٍ فِي ٱللُّغَةِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ ، لَا يَكُونُ ٱلإِسْلَامُ إِسْلَامًا بِغَيْرِهَا ؛

(*) « الرسالة » ، العدد : ٩٣ ، ١٢ محرم سنة ١٣٥٤ هـ = ١٥ أبريل/نيسان ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٥٧٣ ـ ٥٧٥ .

فَلَا غَرْوَ كَانَتِ ٱلصَّلَاةُ بِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَى كَمَا وَصَفَهَا ٱلنَّبِيُّ ﷺ : هِيَ عِمَادَ ٱلدِّينِ[1] .

* * *

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ فِي كُلِّ مَطْلَعِ شَمْسٍ مِنْ حَيَاةِ ٱلْمُسْلِمِ صَلَاةٌ ، أَيْ : إِسْلَامُ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلإِرَادَةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلشَّامِلَةِ[2] ٱلْقَائِمَةِ عَلَى ٱلطَّاعَةِ لِلْفَرْضِ ٱلإِلَـٰهِيِّ ، وَإِنْكَارٌ لِمَعَانِيهَا ٱلذَّاتِيَّةِ ٱلْفَانِيَةِ ٱلَّتِي هِيَ مَادَّةُ ٱلشَّرِّ فِي ٱلأَرْضِ ، وَإِقْرَارُهَا لَحَظَاتٍ فِي حَيِّزِ ٱلْخَيْرِ ٱلْمَحْضِ ٱلْبَعِيدِ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَآثَامِهَا وَمُنْكَرَاتِهَا . وَمَعْنَى ذَلِكَ كُلِّهِ تَحْقِيقُ ٱلْمُسْلِمِ لِوُجُودِ رُوحِهِ ؛ إِذْ كَانَتْ أَعْمَالُ ٱلدُّنْيَا فِي جُمْلَتِهَا طُرُقًا تَتَشَتَّتُ فِيهَا ٱلأَرْوَاحُ وَتَتَبَعْثَرُ ، حَتَّى تَضِلَّ رُوحُ ٱلأَخِ عَنْ رُوحِ أَخِيهِ فَتُنْكِرُهَا وَلَا تَعْرِفُهَا !

وَهَـٰذَا ٱلْوُجُودُ ٱلرُّوحِيُّ هُوَ مَنْبَعُ ٱلْحَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلَّتِي جَاءَ ٱلإِسْلَامُ لِيَهْدِيَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ إِلَيْهَا : حَالَةِ ٱلسَّلَامِ ٱلرُّوحَانِيِّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ حَرْبَ ٱلدُّنْيَا ٱلْمُهْلِكَةَ حَرْبًا فِي خَارِجِ ٱلنَّفْسِ لَا فِي دَاخِلِهَا ، وَيَجْعَلُ ثَرْوَةَ ٱلإِنْسَانِ مُقَدَّرَةً بِمَا يُعَامِلُ ٱللهَ وَٱلإِنْسَانِيَّةَ عَلَيْهِ ؛ فَلَا يَكُونُ ذَهَبُهُ وَفِضَّتُهُ مَا كَتَبَتْ عَلَيْهِ ٱلدُّوَلُ : « ضُرِبَ فِي مَمْلَكَةِ كَذَا » ، وَلَـٰكِنْ مَا يَرَاهُ هُوَ قَدْ كُتِبَ عَلَيْهِ : « صُنِعَ فِي مَمْلَكَةِ نَفْسِي » ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكُونُ وُجُودُهُ ٱلاجْتِمَاعِيُّ لِلأَخْذِ حَسْبُ ، بَلْ لِلْعَطَاءِ أَيْضًا ؛ فَإِنَّ قَانُونَ ٱلْمَالِ هُوَ ٱلْجَمْعُ ، أَمَّا قَانُونُ ٱلْعَمَلِ فَهُوَ ٱلْبَذْلُ .

بِٱلانْصِرَافِ إِلَى ٱلصَّلَاةِ وَجَمْعِ ٱلنِّيَّةِ عَلَيْهَا ، يَسْتَشْعِرُ ٱلْمُسْلِمُ أَنَّهُ قَدْ حَطَّمَ ٱلْحُدُودَ ٱلأَرْضِيَّةَ ٱلْمُحِيطَةَ بِنَفْسِهِ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ ، وَخَرَجَ مِنْهَا إِلَى رُوحَانِيَّةٍ لَا يُحَدُّ فِيهَا إِلَّا بِٱللهِ وَحْدَهُ .

وَبِٱلْقِيَامِ فِي ٱلصَّلَاةِ ، يُحَقِّقُ ٱلْمُسْلِمُ لِذَاتِهِ مَعْنَى إِفْرَاغِ ٱلْفِكْرِ ٱلسَّامِي عَلَى ٱلْجِسْمِ كُلِّهِ ، لِيَمْتَزِجَ بِجَلَالِ ٱلْكَوْنِ وَوَقَارِهِ ، كَأَنَّهُ كَائِنٌ مُنْتَصِبٌ مَعَ ٱلْكَائِنَاتِ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .

وَبِٱلتَّوَلِّي شَطْرَ ٱلْقِبْلَةِ فِي سَمْتِهَا ٱلَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ عَلَى ٱخْتِلَافِ أَوْضَاعِ ٱلأَرْضِ ، يَعْرِفُ

(١) « ٱلصَّلَاةُ عِمَادُ ٱلدِّينِ » رواه البيهقي في « شعب الإيمان » . بسّام .

(٢) هَـٰذِهِ هِيَ حِكْمَةُ صَلَاةِ ٱلْجَمَاعَةِ وَٱلْحَثِّ عَلَيْهَا وَكَوْنِهَا أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهَا ؛ وَأَنَّ ٱلثَّوَابَ ٱلأَكْبَرَ فِيهَا وَحْدَهَا .

ٱلْمُسْلِمُ حَقِيقَةَ ٱلرَّمْزِ لِلْمَرْكَزِ ٱلثَّابِتِ فِي رُوحَانِيَّةِ ٱلْحَيَاةِ ؛ فَيَحْمِلُ قَلْبُهُ مَعْنَىٰ ٱلاطْمِئْنَانِ وَٱلاسْتِقْرَارِ عَلَىٰ جَاذِبِيَّةِ ٱلدُّنْيَا وَقَلَقِهَا .

وَبِٱلرُّكُوعِ وَٱلسُّجُودِ بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ ، يُشْعِرُ ٱلْمُسْلِمُ نَفْسَهُ مَعْنَىٰ ٱلسُّمُوِّ وَٱلرِّفْعَةِ عَلَىٰ كُلِّ مَا عَدَا ٱلْخَالِقَ مِنْ وُجُودِ ٱلْكَوْنِ .

وَبِٱلْجِلْسَةِ فِي ٱلصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ ٱلتَّحِيَّاتِ ٱلطَّيِّبَاتِ ، يَكُونُ ٱلْمُسْلِمُ جَالِسًا فَوْقَ ٱلدُّنْيَا يَحْمَدُ ٱللهَ وَيُسَلِّمُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَيَشْهَدُ وَيَدْعُو .

وَبِٱلتَّسْلِيمِ ٱلَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنَ ٱلصَّلَاةِ ، يُقْبِلُ ٱلْمُسْلِمُ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا إِقْبَالًا جَدِيدًا : مِنْ جِهَتَيِ ٱلسَّلَامِ وَٱلرَّحْمَةِ .

هِيَ لَحَظَاتٌ مِنَ ٱلْحَيَاةِ كُلَّ يَوْمٍ فِي غَيْرِ أَشْيَاءِ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ؛ لِجَمْعِ ٱلشَّهَوَاتِ وَتَقْيِيدِهَا بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ بِسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا مِنْ حَرَكَاتِ ٱلصَّلَاةِ ، وَلِتَمْزِيقِ ٱلْفَنَاءِ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ عَنِ ٱلنَّفْسِ ؛ فَيَرَىٰ ٱلْمُسْلِمُ مِنْ وَرَائِهِ حَقِيقَةَ ٱلْخُلُودِ ، فَتَشْعُرُ ٱلرُّوحُ أَنَّهَا تَنْمُو وَتَتَّسِعُ .

هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ ، وَهِيَ كَذَٰلِكَ خَمْسُ مَرَّاتٍ يَفْرُغُ فِيهَا ٱلْقَلْبُ مِمَّا ٱمْتَلَأَ بِهِ مِنَ ٱلدُّنْيَا ، فَمَا أَدَقَّ وَأَبْدَعَ وَأَصْدَقَ قَوْلَهُ ﷺ : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[1] .

* * *

لَمْ يَكُنِ ٱلْإِسْلَامُ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا إِبْدَاعًا لِلصِّيغَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ٱلَّتِي تَنْتَظِمُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ فِيهَا ؛ وَلِهَـٰذَا كَانَتْ آدَابُهُ كُلُّهَا حُرَّاسًا عَلَىٰ ٱلْقَلْبِ ٱلْمُؤْمِنِ ، كَأَنَّهَا مَلَائِكَةٌ مِنَ ٱلْمَعَانِي ؛ وَكَانَ ٱلْإِسْلَامُ بِهَا عَمَلًا إِصْلَاحِيًّا وَقَعَ بِهِ ٱلتَّطَوُّرُ فِي عَالَمِ ٱلْغَرِيزَةِ ، فَنَقَلَهُ إِلَىٰ عَالَمِ ٱلْخُلُقِ ، ثُمَّ ٱرْتَقَىٰ بِٱلْخُلُقِ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ ، ثُمَّ سَمَا بِٱلْحَقِّ إِلَىٰ ٱلْخَيْرِ ٱلْعَامِّ ؛ فَهُوَ سُمُوٌّ فَوْقَ ٱلْحَيَاةِ بِثَلَاثِ طَبَقَاتٍ ، وَتَدَرُّجٌ إِلَىٰ ٱلْكَمَالِ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ ، وَٱبْتِعَادٌ عَنِ ٱلْأَوْهَامِ بِمَسَافَةِ ثَلَاثِ حَقَائِقَ .

(١) [النسائي ، رقم : ٣٩٤٠ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١١٨٨٤ ، ١٢٦٤٤ ، ١٣٦٢٣] كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَسْتَبْطِىءُ ٱلصَّلَاةَ وَقَدْ جَاءَ وَقْتُهَا ، مِنْ شِدَّةِ شَوْقِهِ إِلَيْهَا فَيَقُولُ : « أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ » [أبو داود ، رقم : ٤٩٨٥ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٢٥٧٨ ، ٢٢٦٤٣] وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَدَقَّ فِي تَصْوِيرِ نَفْسِيَّتِهِ ﷺ وَأَشْوَاقِ رُوحِهِ ٱلْعَالِيَةِ مِنْ قَوْلِهِ : « أَرِحْنَا بِهَا » . فَهَـٰذَا كَمَالُ ٱلاتِّصَالِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَالِقِهِ .

وَبِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلْآدَابِ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا ٱلْمُسْلِمَةُ ٱلَّتِي أَسَّسَهَا ٱلنَّبِيُّ ﷺ دُنْيَا أَسْلَمَتْ طَبِيعَتُهَا ، فَأَصْبَحَتْ عَلَىٰ مَا أَرَادَ ٱلْمُسْلِمُونَ لَا مَا أَرَادَتْ هِيَ ؛ وَكَأَنَّهَا قَائِمَةٌ بِنَوَامِيسَ مِنْ أَهْلِيهَا ، لَا عَلَىٰ أَهْلِيهَا ؛ وَكَانَ ٱلظَّاهِرُ أَنَّ ٱلْإِسْلَامَ يَغْزُو ٱلْأُمَمَ بِٱلْعَرَبِ وَيَفْتَتِحُهَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحَقِيقَةَ ٱلْعَجِيبَةَ أَنَّ إِقْلِيمًا مِنَ ٱلدُّنْيَا كَانَ يُحَارِبُ سَائِرَ أَقَالِيمِ ٱلْأَرْضِ بِٱلطَّبِيعَةِ ٱلْأَخْلَاقِيَّةِ ٱلْجَدِيدَةِ لِهَـٰذَا ٱلدِّينِ .

وَكَأَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ أَلْقَىٰ فِي رِمَالِ ٱلْجَزِيرَةِ رُوحَ ٱلْبَحْرِ ، وَبَعَثَهَا بَعْثَهُ ٱلْإِلَـٰهِيِّ لِأَمْرِهِ ، فَكَانَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ هُوَ نُقْطَةَ ٱلْمَدِّ ٱلَّتِي يَفُورُ ٱلْبَحْرُ مِنْهَا ، وَكَانَ ٱلْمُسْلِمُونَ أَمْوَاجَهُ ٱلَّتِي غُسِلَتْ بِهَا ٱلدُّنْيَا . . .

لِهَـٰذَا سَمِعَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلْأَوَّلُونَ كَلَامَ ٱللهِ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ ، وَكَلَامَ رَسُولِهِ ﷺ ، لَا كَمَا يَسْمَعُونَ ٱلْقَوْلَ ، وَلَـٰكِنْ كَمَا يَتَلَقَّوْنَ ٱلْحُكْمَ ٱلنَّافِذَ ٱلْمَقْضِيَّ ؛ وَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ ٱلْبَلَاغَةَ وَحْدَهَا ، بَلْ رَوْعَةَ أَمْرِ ٱلسَّمَاءِ فِي بَلَاغَةٍ ؛ وَٱتَّصَلُوا بِنَبِيِّهِمْ ، ثُمَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، لَا كَمَا يَتَّصِلُ إِنْسَانٌ بِإِنْسَانٍ ، بَلْ كَمَا تَتَّصِلُ ٱلْأَمْوَاجُ بِقُوَّةِ ٱلْمَدِّ ، ثُمَّ كَمَا يُمِدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي قُوَّةٍ وَاحِدَةٍ .

وَحَقَّقُوا فِي كَمَالِهِ ﷺ وُجُودَهُمُ ٱلنَّفْسِيَّ ؛ فَكَانُوا مِنْ زَخَارِفِ ٱلْحَيَاةِ وَبَاطِلِهَا فِي مَوْضِعِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّذِي يُرَىٰ فِيهِ ٱلشَّيْءُ لَا شَيْءَ .

وَرَأَوْا فِي إِرَادَتِهِ ﷺ ٱلنُّقْطَةَ ٱلثَّابِتَةَ فِيمَا يَتَضَارَبُ مِنْ خَيَالَاتِ ٱلنَّفْسِ ؛ فَكَانُوا أَكْبَرَ عُلَمَاءِ ٱلْأَخْلَاقِ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ ، لَا مِنْ كُتُبٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا فَلْسَفَةٍ ، بَلْ مِنْ قَلْبِ نَبِيِّهِمْ وَحْدَهُ .

وَعَرَفُوا بِهِ ﷺ تَمَامَ ٱلرُّجُولَةِ ؛ وَمَتَىٰ تَمَّتْ هَـٰذِهِ ٱلرُّجُولَةُ تَمَامَهَا فِي إِنْسَانٍ ، رَجَعَتْ لَهُ ٱلطُّفُولَةُ فِي رُوحِهِ ، وَٱمْتَلَكَ تِلْكَ ٱلطَّبِيعَةَ ٱلَّتِي لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا أَعْظَمُ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلْحُكَمَاءِ ، فَأَصْبَحَ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي ٱلْحَيَاةِ إِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ بِخُطُوَاتٍ مُسَدَّدَةٍ لَا تَزِيغُ وَلَا تَنْحَرِفُ ، فَلَا شَرَّ وَلَا رَذِيلَةَ ؛ وَدُنْيَاهُ هِيَ ٱلدُّنْيَا كُلُّهَا بِشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا ، يَمْلِكُهَا وَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ مِنْهَا شَيْئًا ، مَا دَامَتْ فِي قَلْبِهِ طَبِيعَةُ ٱلسُّرُورِ ، فَلَا فَقْرَ وَلَا غِنَىٰ مِمَّا يَشْعُرُ ٱلنَّاسُ بِمَعَانِيهِ ، بَلْ كُلُّ

مَا أَمْكَنَ فَهُوَ غِنًى كَامِلٌ ، إِذْ لَمْ تَعُدِ ٱلْقُوَّةُ فِي ٱلْمَادَّةِ تَزِيْدُ بِزِيَادَتِهَا وَتَنْقُصُ بِنَقْصِهَا ، بَلِ ٱلْقُوَّةُ فِي ٱلرُّوحِ ٱلَّتِي تَتَصَرَّفُ بِطَبِيْعَةِ ٱلْوُجُوْدِ ، وَتَدْفَعُ قُوَى ٱلْجِسْمِ بِمِثْلِ دَوَافِعِ ٱلطُّفُوْلَةِ ٱلنَّامِيَةِ ٱلْمُتَغَلِّبَةِ ، حَتَّىٰ لَتَجْعَلُ مِنَ ٱلنُّوْرِ وَٱلْهَوَاءِ مَا يُؤْتَدَمُ بِهِ مَعَ ٱلْخُبْزِ ٱلْقَفَارِ ، كَمَا يُؤْتَدَمُ بِٱللَّحْمِ وَأَطَايِبِ ٱلأَطْعِمَةِ(١) .

وَبِذَٰلِكَ لَا تَتَسَلَّطُ ضَرُوْرَةٌ عَلَىٰ ٱلْجِسْمِ - كَٱلْجُوْعِ وَٱلْفَقْرِ وَٱلأَلَمِ وَنَحْوِهَا - إِلَّا كَانَ تَسَلُّطُهَا كَأَنَّهُ أَمْرٌ مِنْ قُوَّةٍ فِي ٱلْوُجُوْدِ إِلَىٰ قُوَّةٍ فِي هَـٰذَا ٱلْجِسْمِ : أَنْ تَظْهَرَ لِتَعْمَلَ عَمَلَهَا ٱلْمُعْجِزَ فِي إِبْطَالِ هَـٰذِهِ ٱلضَّرُوْرَةِ . وَهَـٰذَا ٱلْجِنْسُ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلأَزْهَارِ عَلَىٰ أَغْصَانِهَا ٱلْخُضْرِ ؛ لَوْ قَالَتْ شَيْئًا لَقَالَتْ : إِنَّ ثَرْوَتِي فِي ٱلْحَيَاةِ هِيَ ٱلْحَيَاةُ نَفْسُهَا ، فَلَيْسَ لِي فَقْرٌ وَلَا غِنًى ، بَلْ طَبِيْعَةٌ أَوْ لَا طَبِيْعَة .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ ٱلْمُسْلِمُ يُضْرَبُ بِٱلسَّيْفِ فِي سَبِيْلِ ٱللهِ ، فَتَقَعُ ضَرَبَاتُ ٱلسُّيُوْفِ عَلَىٰ جِسْمِهِ فَتُمَزِّقُهُ ؛ فَمَا يُحِسُّهَا إِلَّا كَأَنَّهَا قُبَلُ أَصْدِقَاءَ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ يَلْقَوْنَهُ وَيُعَانِقُوْنَهُ !

وَكَانَ يُبْتَلَىٰ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَلَا يَشْعُرُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ ٱلْمَرْزَأُ ٱلْمُبْتَلَىٰ يُعْرَفُ فِيْهِ ٱلْحُزْنُ وَٱلانْكِسَارُ ، بَلْ تَظْهَرُ فِيْهِ ٱلإِنْسَانِيَّةُ ٱلْمُنْتَصِرَةُ كَمَا يَظْهَرُ ٱلتَّارِيْخُ ٱلظَّافِرُ فِي بَطَلِهِ ٱلْعَظِيْمِ أُصِيْبَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ جِسْمِهِ بِجِرَاحٍ ، فَهِيَ جِرَاحٌ وَتَشْوِيْهٌ وَأَلَمٌ ، وَهِيَ شَهَادَةُ ٱلنَّصْرِ !

وَلَمْ تَكُنْ أَثْقَالُ ٱلْمُسْلِمِ مِنْ دُنْيَاهُ أَثْقَالًا عَلَىٰ نَفْسِهِ ، بَلْ كَانَتْ لَهُ أَسْبَابَ قُوَّةٍ وَسُمُوٍّ ؛ كَٱلنَّسْرِ ٱلْمَخْلُوْقِ لِطَبَقَاتِ ٱلْجَوِّ ٱلْعُلْيَا ، يَحْمِلُ دَائِمًا مِنْ أَجْلِ هَـٰذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ ثِقَلَ جَنَاحَيْهِ ٱلْعَظِيْمَيْنِ .

---

(١) عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : دَخَلَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَىٰ أُمِّ هَانِئٍ ، وَكَانَ جَائِعًا ، فَقَالَ لَهَا : « أَعِنْدَكِ طَعَامٌ آكُلُهُ ؟ » فَقَالَتْ : إِنَّ عِنْدِي لَكِسَرًا يَابِسَةً ، وَإِنِّي لَأَسْتَحِي أَنْ أُقَدِّمَهَا إِلَيْكَ ؛ فَقَالَ : « هَلُمِّيْهَا ! » ، فَكَسَرَهَا فِي مَاءٍ ، وَجَاءَتْهُ بِمِلْحٍ ، فَقَالَ : « مَا مِنْ إِدَامٍ ؟ » فَقَالَتْ : « مَا عِنْدِي إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ » . فَقَالَ : « هَلُمِّيْهِ ! » فَلَمَّا جَاءَتْ بِهِ صَبَّهُ عَلَىٰ طَعَامِهِ ، فَأَكَلَ مِنْهُ ، ثُمَّ حَمِدَ ٱللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « نِعْمَ ٱلإِدَامُ ٱلْخَلُّ يَا أُمَّ هَانِئٍ ، لَا يَقْفُرُ بَيْتٌ فِيْهِ خَلٌّ » ٱنْتَهَىٰ . [« المستدرك » للحاكم ، رقم ٦٨٧٥/٢٤٧٣ ، ٤/ ٥٤] .

وَكَانَتِ ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلَّتِي جَعَلَهَا ٱلنَّبِيُّ ﷺ مَثَلَهُمُ ٱلأَعْلَىٰ ، وَأَقَرَّهَا فِي أَنْفُسِهِمْ بِجَمِيْعِ أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ - أَنَّ ٱلْفَضَائِلَ كُلَّهَا وَاجِبَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ لِنَفْسِهِ ، إِذْ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ بِكُلِّ مُسْلِمٍ عَلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَلَا تَكُوْنُ فِي ٱلأُمَّةِ إِلَّا إِرَادَةٌ وَاحِدَةٌ مُتَعَاوِنَةٌ ، تَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمَ وَمَا هُوَ إِلَّا رُوحُ أُمَّتِهِ تَعْمَلُ بِهِ أَعْمَالَهَا هِيَ لَا أَعْمَالَهُ وَحْدَهَا .

ٱلْمُسْلِمُ إِنْسَانٌ مُمْتَدٌّ بِمَنَافِعِهِ فِي مَعْنَاهُ ٱلاجْتِمَاعِيِّ حَوْلَ أُمَّتِهِ كُلِّهَا ، لَا إِنْسَانٌ ضَيِّقٌ مُجْتَمِعٌ حَوْلَ نَفْسِهِ بِهَـٰذِهِ ٱلْمَنَافِعِ ؛ وَهُوَ مِنْ غَيْرِهِ فِي صِدْقِ ٱلْمُعَامَلَةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ كَٱلتَّاجِرِ مِنَ ٱلتَّاجِرِ : تَقُوْلُ ٱلأَمَانَةُ لِكِلَيْهِمَا : لَا قِيْمَةَ لِمِيْزَانِكَ إِلَّا أَنْ يُصَدِّقَهُ مِيْزَانُ أَخِيْكَ .

وَلَنْ يَكُوْنَ ٱلإِسْلَامُ صَحِيْحًا تَامًّا حَتَّىٰ يَجْعَلَ حَامِلَهُ مَثَلًا مِنْ نَبِيِّهِ فِي أَخْلَاقِ ٱللهِ ؛ فَمَا هُوَ بِشَخْصٍ يَضْبِطُ طَبِيْعَتَهُ : يَقْهَرُهَا مَرَّةً وَتَقْهَرُهُ مِرَارًا ؛ وَلَـٰكِنَّ طَبِيْعَةٌ تَضْبِطُ شَخْصَهَا فَهِيَ قَانُوْنُ وُجُوْدِهِ .

لَا يَضْطَرِبُ مِنْ شَيْءٍ ، وَكَيْفَ يَضْطَرِبُ وَمَعَهُ ٱلاسْتِقْرَارُ ؟

لَا يَخَافُ مِنْ شَيْءٍ ، وَكَيْفَ يَخَافُ وَمَعَهُ ٱلطُّمَأْنِيْنَةُ ؟

لَا يَخْشَىٰ مَخْلُوْقًا ، وَكَيْفَ يَخْشَىٰ وَمَعَهُ ٱللهُ ؟

أَيُّهَا ٱلأَسَدُ ، هَلْ أَنْتَ بِجُمْلَتِكَ إِلَّا فِي طَبِيْعَةِ مَخَالِبِكَ وَأَنْيَابِكَ . . . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعي

وَحْيُ ٱلْهِجْرَةِ [فِي نَفْسِي] (*)

إِنَّ ٱلتَّارِيْخَ لَيَتَكَلَّمُ بِلُغَةٍ أَوْسَعَ مِنْ أَلْفَاظِهِ إِذَا قَرَأَهُ مَنْ يَقْرَؤُهُ عَلَىٰ أَنَّهُ بَعْضُ نَوَامِيْسِ ٱلْوُجُوْدِ ، صُوِّرَتْ فِيْهَا ٱلنَّفْسُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ ، كَيْفَ ٱعْتَوَرَتْ أَغْرَاضَهَا ، وَكَيْفَ مَدَّتْ فِي نَسَقِهَا ، وَكَيْفَ تَغَلْغَلَتْ فِيْ مَسَالِكِهَا ، وَمَا تَأَتَّىٰ لَهَا فَجَرَتْ بِهِ مَجْرَاهَا ، وَمَا دَفَعَهَا فَٱنْحَدَرَتْ مِنْهُ إِلَىٰ مَقَارِّهَا ؛ فَهُوَ لَيْسَ بِكَلَامٍ تَسْتَقْبِلُهُ تَقْرَأُ فِيْهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ أَحْوَالٌ مِنَ ٱلْوُجُوْدِ تَعْتَرِضُهَا فَتُغَيِّرُ عَلَيْكَ حِسَّكَ بِإِلْهَامِهَا وَأَحْلَامِهَا ، وَتَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ فَتَتَنَاوَلُكَ مِنَ ٱلأُخْرَىٰ ؛ فَإِذَا ٱلْكَلِمَةُ مِنْ وَرَائِهَا مَعْنًى ، مِنْ وَرَائِهِ طَبِيْعَةٌ ، مِنْ وَرَائِهَا سَبَبٌ وَحِكْمَةٌ ؛ وَإِذَا كُلُّ حَادِثَةٍ فِيْهَا إِنْسَانِيَّتُهَا وَإِلَـٰهِيَّتُهَا مَعًا ، وَإِذَا ٱلْوُجُوْدُ فِيْ ذِهْنِكَ كَٱلسَّاعَةِ تَرْسُمُ لَكَ حَدَّ ٱلثَّانِيَةِ بِخَطْرَتَيْنِ ، وَحَدَّ ٱلدَّقِيْقَةِ مِنْ عَدَدٍ مَحْدُوْدٍ مِنَ ٱلثَّوَانِيْ ، ثُمَّ حَدَّ ٱلسَّاعَةِ إِلَىٰ حَدِّ ٱلْيَوْمِ ؛ وَإِذَا ٱلْبَيَانُ فِيْ نَفْسِكَ مِنْ كُلِّ هَـٰذِهِ ٱلْحَوَاشِيْ ، وَإِذَا ٱلتَّارِيْخُ فِيْمَا تَقْرَؤُهُ مُفَنَّنٌ فِيْ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، يَفِيءُ عَلَيْكَ مِنْ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيْهِ بِظِلَالٍ هِيَ صِلَتُكَ أَنْتَ أَيُّهَا ٱلْحَيُّ ٱلْمَوْجُوْدُ بِأَسْرَارِ مَا كَانَ مَوْجُوْدًا مِنْ قَبْلُ .

كَذَلِكَ قَرَأْتُ بِٱلأَمْسِ تَارِيْخَ ٱلْهِجْرَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ فِيْ كِتَابِ أَبِيْ جَعْفَرٍ ٱلطَّبَرِيِّ لِأَكْتُبَ عَنْهُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ(1) ، فَلَمْ أَكُنْ ـ عَلِمَ ٱللهُ ـ فِيْ كِتَابٍ وَلَا فِيْ حِكَايَةٍ ، بَلْ فِيْ عَالَمٍ ٱنْبَثَقَ فِيْ نَفْسِيْ مَخْلُوْقًا تَامًّا بِأَهْلِهِ ، وَحَوَادِثِ أَهْلِهِ ، وَأَسْرَارِ أَهْلِهِ جَمِيْعًا ؛ كَمَا يَرَىٰ ٱلْمُحِبُّ حَبِيْبَهُ : لَا يَكُوْنُ ٱلْجَمِيْلُ فِيْ مَحَلٍّ إِلَّا ٱمْتَلَأَ مَكَانُهُ بِعَاشِقِهِ ، فَهُوَ مَكَانٌ مِنَ ٱلنَّفْسِ وَٱلدُّنْيَا ، لَا مِنَ ٱلدُّنْيَا وَحْدَهَا ، وَفِيْهِ ٱلْحَيَاةُ كَمَا هِيَ فِيْ ٱلْوُجُوْدِ بِمَظْهَرِ ٱلْمَادَّةِ ، وَكَمَا هِيَ فِيْ ٱلْحُبِّ بِمَظْهَرِ ٱلرُّوْحِ .

وَتِلْكَ حَالَةٌ مِنَ ٱلْقِرَاءَةِ بِٱلرُّوْحِ وَٱلْكِتَابَةِ بِٱلرُّوْحِ ، مَتَىٰ أَنْتَ سَمَوْتَ إِلَيْهَا رَأَيْتَ فِيْهَا غَيْرَ

(*) « الرسالة » العدد : ٤٢ ، ٩ محرم سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٣ أبريل/ نيسان سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٦٤٥ ـ ٦٤٧ .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « لِأَكْتُبَ عَنْهُ كَلِمَةً فِي ٱلرِّسَالَةِ » بَدَلًا مِنْ : « لِأَكْتُبَ عَنْهُ هَذِهِ ٱلْكَلِمَةَ » .

ٱلْمَعْنَىٰ يُخْرِجُ مَعْنًىٰ ، وَمِنْ لَا شَيْءَ تُخْلَقُ أَشْيَاءُ ، لِأَنَّكَ مِنْهَا ٱتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ نَفْسِكَ ، وَمِنْ نَفْسِكَ ٱتَّصَلْتَ بِأَسْرَارٍ فَوْقَهَا ؛ فَيُصْبِحُ ٱلتَّارِيْخُ مَعَكَ فَنَّ ٱلْوُجُوْدِ ٱلإِنْسَانِيِّ عَلَىٰ ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِيْ أَفْضَتْ بِهِ ٱلْحِكْمَةُ إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ لِتَسْتَمِرَّ بِٱلنَّفْسِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، لَا فَنَّ عِلْمِ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِيْ أَفْضَتْ بِهِ ٱلْحَوَادِثُ مِمَّا بَيْنَ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ .

* * *

نَشَأَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ فِيْ مَكَّةَ ، وَٱسْتُنْبِئَ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلأَرْبَعِيْنَ مِنْ سِنِّهِ ، وَغَبَرَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو إِلَىٰ ٱللهِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَىٰ ٱلْمَدِيْنَةِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ فِيْ ٱلإِسْلَامِ أَوَّلَ بَدْأَتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَٱمْرَأَةٌ وَغُلَامٌ : أَمَّا ٱلرَّجُلُ فَهُوَ هُوَ ﷺ ، وَأَمَّا ٱلْمَرْأَةُ فَزَوْجُهُ خَدِيْجَةُ ، وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَعَلِيٌّ ٱبْنُ عَمِّهِ أَبِيْ طَالِبٍ .

ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ ٱلنُّمُوِّ فِيْ ٱلإِسْلَامِ بِحُرٍّ وَعَبْدٍ : أَمَّا ٱلْحُرُّ فَأَبُوْ بَكْرٍ ، وَأَمَّا ٱلْعَبْدُ فَبِلَالٌ ، ثُمَّ ٱتَّسَقَ ٱلنُّمُوُّ قَلِيْلًا قَلِيلًا بِبُطْءِ ٱلْهُمُوْمِ فِيْ سَيْرِهَا ، وَصَبْرِ ٱلْحُرِّ فِيْ تَجَلُّدِهِ ؛ وَكَأَنَّ ٱلتَّارِيْخَ وَاقِفٌ لَا يَتَزَحْزَحُ ، ضَيِّقٌ لَا يَتَّسِعُ ، جَامِدٌ لَا يَنْمُو ؛ وَكَأَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ أَخُوْ ٱلشَّمْسِ : يَطْلُعُ كِلَاهُمَا وَحْدَهُ كُلَّ يَوْمٍ . حَتَّىٰ إِذَا كَانَتِ ٱلْهِجْرَةُ مِنْ بَعْدُ ، فَٱنْتَقَلَ ٱلرَّسُوْلُ إِلَىٰ ٱلْمَدِيْنَةِ ، بَدَأَتِ ٱلدُّنْيَا تَتَقَلْقَلُ ، كَأَنَّمَا مَرَّ بِقَدَمِهِ عَلَىٰ مَرْكَزِهَا [فَضَغَطَهَا] فَحَرَّكَهَا ؛ وَكَانَتْ خَطَوَاتُهُ فِيْ هِجْرَتِهِ تَخُطُّ فِيْ ٱلأَرْضِ ، وَمَعَانِيْهَا تَخُطُّ فِيْ ٱلتَّارِيْخِ ؛ وَكَانَتِ ٱلْمَسَافَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَٱلْمَدِيْنَةِ ، وَمَعْنَاهَا بَيْنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ .

لَقَدْ كَانَ فِيْ مَكَّةَ يَعْرِضُ ٱلإِسْلَامَ عَلَىٰ ٱلْعَرَبِ كَمَا يُعْرَضُ ٱلذَّهَبُ عَلَىٰ ٱلْمُتَوَحِّشِيْنَ : يَرَوْنَهُ بَرِيْقًا وَشُعَاعًا ثُمَّ لَا قِيْمَةَ لَهُ ، وَمَا بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ حَاجَةُ بَنِيْ آدَمَ إِلَّا ٱلْمُتَوَحِّشِيْنَ ؛ وَكَانُوا فِيْ ٱلْمَحَادَّةِ وَٱلْمُخَالَفَةِ ٱلْحَمْقَاءِ ، وَٱلْبُلُوْغِ بِدَعْوَتِهِ مَبْلَغَ ٱلأَوْهَامِ وَٱلأَسَاطِيْرِ ـ كَمَا يَكُوْنُ ٱلْمَرِيْضُ بِذَاتِ صَدْرِهِ مَعَ ٱلَّذِيْ يَدْعُوْهُ فِيْ لَيْلَةٍ قَارَّةٍ(1) إِلَىٰ مُدَاوَاةِ جِسْمِهِ بِأَشِعَّةِ ٱلْكَوَاكِبِ ؛ وَكَانَتْ مَكَّةُ هَـٰذِهِ صَخْرًا جُغْرَافِيًّا يَتَحَطَّمُ وَلَا يَلِيْنُ ، وَكَأَنَّ ٱلشَّيْطَانَ نَفْسَهُ وَضَعَ هَـٰذَا ٱلصَّخْرَ فِيْ مَجْرَىٰ ٱلزَّمَنِ لِيَصُدَّ بِهِ ٱلتَّارِيْخَ ٱلإِسْلَامِيَّ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « فِي لَيَالِي ٱلْقَرِّ » بَدَلًا مِنْ : « فِي لَيْلَةٍ قَارَّةٍ » .

وَأُوذِيَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ، وَكُذِّبَ وَأُهِينَ ، وَرَجَفَ بِهِ ٱلْوَادِي يَخْطُو فِيهِ عَلَىٰ زَلَازِلَ تَتَقَلَّبُ ، وَنَابَذَهُ قَوْمُهُ وَتَذَامَرُوا فِيهِ ، وَحَضَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ ، وَٱنْصَفَقَ عَنْهُ عَامَّةُ ٱلنَّاسِ وَتَرَكُوهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ ٱللهُ مِنْهُمْ ؛ فَأُصِيبَ كَبِيرًا بِٱلْيُتْمِ مِنْ قَوْمِهِ ، كَمَا أُصِيبَ صَغِيرًا بِٱلْيُتْمِ مِنْ أَبَوَيْهِ .

وَكَانَ لَا يَسْمَعُ بِقَادِمٍ يَقْدُمُ مِنَ ٱلْعَرَبِ لَهُ ٱسْمٌ وَشَرَفٌ ، إِلَّا تَصَدَّىٰ لَهُ فَدَعَاهُ إِلَى ٱللهِ وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ ؛ وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيَتِ ٱلدَّعْوَةُ تَلُوحُ وَتَخْتَفِي كَمَا يَشُقُّ ٱلْبَرْقُ مِنْ سَحَابَةٍ عَلَى ٱلسَّمَاءِ : لَيْسَ إِلَّا أَنْ يُرَىٰ ، ثُمَّ لَا شَيْءَ بَعْدَ أَنْ يُرَىٰ !

* * *

فَهَـٰذَا تَارِيخُ مَا قَبْلَ ٱلْهِجْرَةِ فِي جُمْلَةِ مَعْنَاهُ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَقْرَأْهُ تَارِيخًا ، بَلْ قَرَأْتُ فِيهِ فَصْلًا رَائِعًا مِنْ حِكْمَةٍ إِلَـٰهِيَّةٍ ، وَضَعَهُ ٱللهُ كَٱلْمُقَدِّمَةِ لِتَارِيخِ ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْأَرْضِ ؛ مُقَدِّمَةٌ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأَيَّامِ تَحْيَا وَتَمُرُّ فِي نَسَقِ ٱلرِّوَايَةِ ٱلْإِلَـٰهِيَّةِ ٱلْمُنْطَوِيَةِ عَلَىٰ رُمُوزِهَا وَأَسْرَارِهَا ، وَتَظْهَرُ فِيهَا رَحْمَةُ ٱللهِ تَعْمَلُ بِقَسْوَةٍ ، وَحِكْمَةُ ٱللهِ تَتَجَلَّىٰ فِي غُمُوضٍ ؛ فَلَوْ أَنْتَ حَقَّقْتَ ٱلنَّظَرَ لَرَأَيْتَ تَارِيخَ ٱلْإِسْلَامِ يَتَأَلَّهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحِقْبَةِ ، بِحَيْثُ لَا تَقْرَؤُهُ ٱلنَّفْسُ ٱلْمُؤْمِنَةُ إِلَّا خَاشِعَةً كَأَنَّهَا تُصَلِّي ، وَلَا تَتَدَبَّرُهُ إِلَّا خَاضِعَةً كَأَنَّهَا تَتَعَبَّدُ .

بَدَأَ ٱلْإِسْلَامُ فِي رَجُلٍ وَٱمْرَأَةٍ وَغُلَامٍ ، ثُمَّ زَادَ حُرًّا وَعَبْدًا ؛ أَلَيْسَتْ هَـٰذِهِ ٱلْخَمْسُ هِيَ كُلَّ أَطْوَارِ ٱلْبَشَرِيَّةِ فِي وُجُودِهَا ، مَخْلُوقَةً فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلطَّبِيعَةِ ، وَمَصْنُوعَةً فِي ٱلسِّيَاسَةِ وَٱلِاجْتِمَاعِ ؟ فَهَاهُنَا مَطْلَعُ ٱلْقَصِيدَةِ ، وَأَوَّلُ ٱلرَّمْزِ فِي شِعْرِ ٱلتَّارِيخِ .

وَلَبِثَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً لَا يَبْغِيهِ قَوْمُهُ إِلَّا شَرًّا ، عَلَىٰ أَنَّهُ دَائِبٌ يَطْلُبُ ثُمَّ لَا يَجِدُ ، وَيَعْرِضُ ثُمَّ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ، وَيُخْفِقُ ثُمَّ لَا يَعْتَرِيهِ ٱلْيَأْسُ ، وَيَجْهَدُ ثُمَّ لَا يَتَخَوَّنُهُ ٱلْمَلَلُ ، وَيَسْتَمِرُّ مَاضِيًا لَا يَتَحَرَّفُ ، وَمُعْتَزِمًا لَا يَتَحَوَّلُ ؛ أَلَيْسَتْ هَـٰذِهِ هِيَ أَسْمَىٰ مَعَانِي ٱلتَّرْبِيَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ أَظْهَرَهَا ٱللهُ كُلَّهَا فِي نَبِيِّهِ ، فَعَمِلَ بِهَا وَثَبَتَ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ كَعُمْرِ طِفْلٍ وُلِدَ وَنَشَأَ وَأُحْكِمَ تَهْذِيبُهُ بِٱلْحَوَادِثِ ، حَتَّىٰ تَسَلَّمَتْهُ ٱلرُّجُولَةُ ٱلْكَامِلَةُ بِمَعَانِيهَا مِنَ ٱلطُّفُولَةِ ٱلْكَامِلَةِ بِوَسَائِلِهَا ؟

أَفَلَيْسَ هَـٰذَا فَصْلًا فَلْسَفِيًّا دَقِيقًا يُعَلِّمُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَنْشَأَ ٱلْمُسْلِمُ : غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَقُوَّتُهُ فِي إِيمَانِهِ ، وَمَوْضِعُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ مَوْضِعُ ٱلنَّافِعِ قَبْلَ ٱلْمُنْتَفِعِ ، وَٱلْمُصْلِحِ قَبْلَ ٱلْمُقَلِّدِ ؛ وَفِي نَفْسِهِ مِنْ قُوَّةِ ٱلْحَيَاةِ مَا يَمُوتُ بِهِ فِي هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ أَكْثَرُ مَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلنَّاسِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَمَطَامِعَ ؟

ثُمَّ أَلَيْسَتْ تِلْكَ ٱلْعَوَامِلُ ٱلْأَخْلَاقِيَّةُ هِيَ هِيَ ٱلَّتِي أُلْقِيَتْ فِي مَنْبَعِ ٱلتَّارِيخِ ٱلْإِسْلَامِيِّ لِيَعُبَّ مِنْهَا تَيَّارَهُ ؛ فَتَدْفَعُهُ فِي مَجْرَاهُ بَيْنَ ٱلْأُمَمِ ، وَتَجْعَلُ مِنْ أَخَصِّ ٱلْخَصَائِصِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ـ ٱلثَّبَاتَ عَلَى ٱلْخُطْوَةِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَإِنْ لَمْ تَتَقَدَّمْ ، وَعَلَى ٱلْحَقِّ وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ ؛ وَٱلتَّبَرُّؤَ مِنَ ٱلْأَثَرَةِ وَإِنْ شَحَّتْ عَلَيْهَا ٱلنَّفْسُ ، وَٱحْتِقَارَ ٱلضَّعْفِ وَإِنْ حَكَمَ وَتَسَلَّطَ ، وَمُقَاوَمَةَ ٱلْبَاطِلِ وَإِنْ سَادَ وَغَلَبَ ، وَحَمْلَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مَحْضِ ٱلْخَيْرِ وَإِنْ رَدُّوا بِٱلشَّرِّ ، وَٱلْعَمَلَ لِلْعَمَلِ وَإِنْ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ ، وَٱلْوَاجِبَ لِلْوَاجِبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ ، وَبَقَاءَ ٱلرَّجُلِ رَجُلًا وَإِنْ حَطَّمَهُ كُلُّ مَا حَوْلَهُ ؟

ثُمَّ هِيَ هِيَ ٱلْبُرْهَانَاتُ[1] ٱلْقَائِمَةُ لِلدَّهْرِ قِيَامَ ٱلْمَنَارَاتِ[2] فِي ٱلسَّاحِلِ ـ عَلَىٰ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ : تُثْبِتُ بِبُرْهَانِ ٱلْفَلْسَفَةِ وَعُلُومِ ٱلنَّفْسِ أَنَّهُ رُوحٌ وَغَايَاتُهَا ٱلْمَحْتُومَةُ بِٱلْقَدَرِ ، لَا جِسْمٌ وَوَسَائِلُهُ ٱلْمُتَغَلِّبَةُ بِٱلطَّبِيعَةِ ؛ وَلَوْ كَانَ رَجُلًا ٱبْتَعَثَتْهُ نَفْسُهُ ، لَتَمَحَّلَ ٱلْحِيَلَ لِسِيَاسَتِهِ ، وَلَأَحْدَثَ طَمَعًا مِنْ كُلِّ مَطْمَعٍ ، وَلَرَكَدَ مَعَ ٱلْحَوَادِثِ وَهَبَّ ، وَلَمَا ٱسْتَمَرَّ طَوَالَ هَـٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ لَا يَتَّجِهُ وَهُوَ فَرْدٌ إِلَّا ٱتِّجَاهَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا كَأَنَّمَا هُوَ هِيَ .

وَلَوْ هُوَ كَانَ رَجُلَ ٱلْمُلْكِ أَوْ رَجُلَ ٱلسِّيَاسَةِ ، لَاسْتَقَامَ وَٱلْتَوَىٰ ، وَلَأَدْرَكَ مَا يَبْتَغِي فِي سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ ، وَلَأَوْجَدَ ٱلْحَوَادِثَ يَتَعَلَّقُ عَلَيْهَا ، وَلَمَا أَفْلَتَ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَلَمَا ٱنْتَزَعَ نَفْسَهُ مِنْ مَحَلِّهِ فِي قَوْمِهِ وَكَانَ وَاسِطَةً فِيهِمْ ، وَلَا تَرَكَ عَوَامِلَ ٱلزَّمَنِ تُبْعِدُهُ وَهِيَ كَانَتْ تُدْنِيهِ .

قَالُوا : إِنَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ بَعَثَ إِلَيْهِ حِينَ كَلَّمَتْهُ قُرَيْشٌ فَقَالَ لَهُ : يَا ٱبْنَ أَخِي ! إِنَّ قَوْمَكَ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْبَرَاهِينُ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْبُرْهَانَاتِ » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْمَنَارَةِ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْمَنَارَاتِ » .

قَدْ جَاؤُوْنِيْ فَقَالُوا لِيْ كَذَا وَكَذَا ، فَأَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَىٰ نَفْسِكَ ، وَلَا تُحَمِّلْنِيْ مِنَ ٱلأَمْرِ مَا لَا أُطِيْقُ . فَظَنَّ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فِيْهِ بَدَاءٌ[١] ، وَأَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ ، وَأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ وَٱلْقِيَامِ مَعَهُ ، فَقَالَ : يَا عَمَّاهُ ! لَوْ وَضَعُوا ٱلشَّمْسَ فِيْ يَمِيْنِيْ وَٱلْقَمَرَ فِيْ يَسَارِيْ عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَـٰذَا ٱلأَمْرَ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ ٱللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيْهِ مَا تَرَكْتُهُ . ثُمَّ ٱسْتَعْبَرَ ﷺ فَبَكَىٰ !

يَا دُمُوْعَ ٱلنُّبُوَّةِ ! لَقَدْ أَثْبَتِّ أَنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلْعَظِيْمَةَ لَنْ تَتَعَزَّىٰ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا بِشَيْءٍ مِنْ غَيْرِهَا كَائِنًا مَا كَانَ ، لَا مِنْ ذَهَبِ ٱلأَرْضِ وَفِضَّتِهَا ، وَلَا مِنْ ذَهَبِ ٱلسَّمَاءِ وَفِضَّتِهَا إِذَا وُضِعَتِ ٱلشَّمْسُ فِيْ يَدٍ وَٱلْقَمَرُ فِيْ ٱلأُخْرَىٰ .

وَكُلُّ حَوَادِثِ ٱلْمُدَّةِ قَبْلَ ٱلْهِجْرَةِ عَلَىٰ طُوْلِهَا لَيْسَتْ إِلَّا دَلِيْلَ ذَلِكَ ٱلزَّمَنِ عَلَىٰ أَنَّهُ زَمَنُ نَبِيٍّ ، لَا زَمَنُ مَلِكٍ أَوْ سِيَاسِيٍّ أَوْ زَعِيْمٍ ؛ وَدَلِيْلَ ٱلْحَقِيْقَةِ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْيَقِيْنَ ٱلثَّابِتَ لَيْسَ يَقِيْنَ ٱلإِنْسَانِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ مِنْ جِهَةِ قُوَّتِهِ ، بَلْ يَقِيْنَ ٱلإِنْسَانِ ٱلإِلَـٰهِيِّ مِنْ جِهَةِ قَلْبِهِ ؛ وَدَلِيْلَ ٱلْحِكْمَةِ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا ٱلدِّيْنَ لَيْسَ مِنَ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْمَوْضُوْعَةِ ٱلَّتِيْ تَنْشُرُهَا عَدْوَىٰ ٱلنَّفْسِ لِلنَّفْسِ ؛ فَهَا هُوَ ذَا لَا يَبْلُغُ أَهْلُهُ فِيْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً أَكْثَرَ مَا تَبْلُغُ أُسْرَةٌ تَتَوَالَدُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْحِقْبَةِ ؛ وَدَلِيْلَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ أَنَّهُ وَحْيُ ٱللهِ بِإِيْجَادِ ٱلإِخَاءِ ٱلْعَالَمِيِّ وَٱلْوَحْدَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ . أَفَلَمْ يَكُنْ خُرُوْجُهُ عَنْ مَوْطِنِهِ هُوَ تَحَقُّقَهُ فِيْ ٱلْعَالَمِ ؟

ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، كَانَتْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دَلِيْلًا تُثْبِتُ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ رَجُلَ مُلْكٍ ، وَلَا سِيَاسَةٍ ، وَلَا زَعَامَةٍ ؛ وَلَوْ كَانَ وَاحِدًا مِنْ هَـٰؤُلَاءِ لأَدْرَكَ فِيْ قَلِيْلٍ ؛ وَلَيْسَ مُبْتَدِعَ شَرِيْعَةٍ مِنْ نَفْسِهِ ، وَإِلَّا لَمَا غَبَرَ فِيْ قَوْمِهِ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْهُمْ وَهُمْ حَوْلَهُ ؛ وَلَيْسَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ تَعْمَلُ أَسَالِيْبُ ٱلنَّفْسِ فِيْ ٱنْتِشَارِهَا ؛ وَلَوْ كَانَهُ لَحَمَلَهُمْ عَلَىٰ مَحْضِهَا وَمَمْزُوْجِهَا ؛ وَلَيْسَ رَجُلًا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمُصَادَفَاتِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَوْ هُوَ كَانَ لَجَعَلَ إِيْمَانَ يَوْمٍ كُفْرَ يَوْمٍ ؛ وَلَيْسَ مُصْلِحَ عَشِيْرَةٍ يُهَذِّبُ مِنْهَا عَلَىٰ قَدْرِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُ سِيَاسَةً وَمُخَادَعَةً ، وَلَا رَجُلَ وَطَنِهِ تَكُوْنُ غَايَتُهُ أَنْ يَشْمَخَ فِيْ أَرْضِهِ شُمُوْخَ جَبَلٍ فِيْهَا ، دُوْنَ أَنْ يُحَاوِلَ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ مِنْ إِطْلَالِهِ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا إِطْلَالَ

---

(١) { أَيْ نَشَأَ لَهُ رَأْيٌ جَدِيْدٌ فِيْهِ ، وَهَـٰذَا كَمَا يَقُوْلُوْنَ : رَجَعَ عَنْ رَأْيِهِ } .

ٱلسَّمَاءِ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ؛ وَلَا رَجُلَ حَاضِرِهِ إِذْ كَانَ وَاثِقًا دَائِمًا أَنَّ مَعَهُ ٱلْغَدَ وَآتِيَهُ ، وَإِنْ أَدْبَرَ عَنْهُ ٱلْيَوْمُ وَذَاهِبُهُ ؛ وَلَا رَجُلَ طَبِيْعَتِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ يَلْتَمِسُ لَهَا مَا يَلْتَمِسُ ٱلْجَائِعُ لِبَطْنِهِ ، وَلَا رَجُلِ شَخْصِيَّتِهِ يَسْتَهْوِيْ بِهَا وَيَسْحَرُ ، وَلَا رَجُلَ بَطْشِهِ يَغْلِبُ بِهِ وَيَتَسَلَّطُ ، وَلَا رَجُلَ ٱلأَرْضِ فِيْ ٱلأَرْضِ ، وَلَـٰكِنْ رَجُلَ ٱلسَّمَاءِ فِيْ ٱلأَرْضِ .

هَـٰذِهِ هِيَ حِكْمَةُ ٱللهِ فِيْ تَدْبِيْرِهِ لِنَبِيِّهِ قَبْلَ ٱلْهِجْرَةِ : قَبَضَ عَنْهُ أَطْرَافَ ٱلزَّمَنِ ، وَحَصَرَهُ مِنْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فِيْ مِثْلِ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ ، لَا تَصْدُرُ بِهِ ٱلأُمُوْرُ مَصَادِرَهَا كَيْ تُثْبِتَ أَنَّهَا لَا تَصْدُرُ بِهِ ؛ وَلَا تَسْتَحِقُّ بِهِ ٱلْحَقِيْقَةُ لِتَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ قُوَّتِهِ وَعَمَلِهِ .

وَكَانَ ﷺ عَلَىٰ ذَلِكَ ـ وَهُوَ فِيْ حُدُوْدِ نَفْسِهِ وَضِيْقِ مَكَانِهِ ـ يَتَّسِعُ فِيْ ٱلزَّمَنِ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَىٰ ذَلِكَ أَحَدٌ وَلَا يَعْلَمُهُ ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ شَمْسُ ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِيْ سَيَنْتَصِرُ فِيْهِ ـ قَبْلَ أَنْ تُشْرِقَ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا بِثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ـ مُشْرِقَةً فِيْ قَلْبِهِ ﷺ .

وَٱلْفَصْلُ مِنَ ٱلسَّنَةِ لَا يُقَدِّمُهُ ٱلنَّاسُ وَلَا يُؤَخِّرُوْنَهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ سَيْرِ ٱلْكَوْنِ كُلِّهِ ؛ وَٱلسَّحَابَةُ لَا يُشْعِلُوْنَ بَرْقَهَا بِٱلْمَصَابِيْحِ ، وَمَعَ ٱلنَّبِيِّ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ بُرْهَانُ ٱللهِ عَلَىٰ رِسَالَتِهِ ، إِلَىٰ أَنْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [٨ سورة الأنفال/ الآية : ٣٩] فَحَلَّ ٱلْفَصْلُ ، وَٱنْطَلَقَتِ ٱلصَّاعِقَةُ ، وَكَانَتِ ٱلْهِجْرَةُ .

تِلْكَ هِيَ ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلإِلَـٰهِيَّةُ لِلتَّارِيْخِ ، وَكَانَ طَبِيْعِيًّا أَنْ يَطَّرِدَ ٱلتَّارِيْخُ بَعْدَهَا ، حَتَّىٰ قَالَ ٱلرَّشِيْدُ لِلسَّحَابَةِ وَقَدْ مَرَّتْ بِهِ : أَمْطِرِيْ حَيْثُ شِئْتِ فَسَيَأْتِيْنِيْ خَرَاجُكِ !

مصطفى صادق الرافعي

فَلْسَفَةُ قِصَّةٍ(*)

مَاتَتْ[1] خَدِيْجَةُ زَوْجُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَمَاتَ[2] عَمُّهُ أَبُوْ طَالِبٍ فِيْ عَامٍ وَاحِدٍ ، فِيْ ٱلسَّنَةِ ٱلْعَاشِرَةِ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ ، فَعَظُمَتِ ٱلْمُصِيبَةُ فِيهِمَا عَلَيْهِ ، إِذْ كَانَ عَمُّهُ هَـٰذَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ ، وَيَقُوْمُ دُوْنَهُ فَلَا يَخْلُصُوْنَ إِلَيْهِ بِمَكْرُوْهٍ ؛ وَكَانَ أَبُوْ طَالِبٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَٱلْعَقِيْدَةِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ : هِيَ بِطَبِيْعَتِهَا قُوَّةٌ نَافِذَةٌ عَلَىٰ قُوَّةِ ٱلْقَبِيْلَةِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ كَانَ هُوَ وَحْدَهُ ٱلْمُشْكِلَةَ ٱلنَّفْسِيَّةَ ٱلْمُعَقَّدَةَ ٱلَّتِي تَعْمَلُ قُرَيْشٌ جَاهِدَةً فِيْ حَلِّهَا ، وَقَامَتِ ٱلْمَعْرَكَةُ ٱلإِسْلَامِيَّةُ ٱلأُوْلَىٰ بَيْنَ إِرَادَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِ ، وَهُمْ أُمَّةٌ تَحْكُمُهُمُ ٱلْكَلِمَةُ ٱلاجْتِمَاعِيَّةُ ٱلَّتِي تَسِيْرُ عَنْهُمْ فِي ٱلْقَبَائِلِ ؛ وَتَارِيْخُهُمْ مَا يُقَالُ فِي ٱلأَلْسِنَةِ مِنْ مَعَانِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ ، فَيَخْشَوْنَ ٱلْمَقَالَةَ أَكْثَرَ مِمَّا يَخْشَوْنَ ٱلْغَارَةَ ، وَقَدْ لَا يُبَالُوْنَ بِٱلْقَتْلَىٰ وَٱلْجَرْحَىٰ مِنْهُمْ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ يُبَالُوْنَ بِٱلْكَلِمَاتِ ٱلْمَجْرُوْحَةِ .

فَكَانَ مِنْ لَطِيْفِ صُنْعِ ٱللهِ لِلإِسْلَامِ ، وَعَجِيْبِ تَدْبِيْرِهِ فِيْ حِمَايَةِ نَبِيِّهِ ﷺ ـ وَضْعُ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ فِيْ أَوَّلِ تَارِيْخِ ٱلنُّبُوَّةِ ، تَشْتَغِلُ بِهَا سَخَافَاتُ قُرَيْشٍ ، وَتَكُوْنُ عَمَلًا لِفَرَاغِهِمُ ٱلرُّوْحِيِّ ، وَتُثِيْرُ فِيهِمُ ٱلإِشْكَالَ ٱلسِّيَاسِيَّ ٱلَّذِي يُعَطِّلُ قَانُوْنَهُمُ ٱلْوَحْشِيَّ إِلَىٰ أَنْ يَتِمَّ عَمَلُ ٱلأَسْبَابِ ٱلْخَفِيَّةِ ٱلَّتِيْ تَكْسِرُ هَـٰذَا ٱلْقَانُوْنَ ؛ فَإِنَّ ٱلْمَصْنَعَ ٱلإِلَـٰهِيَّ لَا يُخْرِجُ أَعْمَالَهُ ٱلتَّامَّةَ ٱلْعَظِيْمَةَ إِلَّا مِنْ أَجْزَاءٍ دَقِيْقَةٍ .

أَمَّا خَدِيْجَةُ زَوْجُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، فَكَانَتْ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمِحْنَةِ قَلْبًا مَعَ قَلْبِهِ ٱلْعَظِيْمِ ، وَكَانَتْ لِنَفْسِهِ كَقَوْلِ (نَعَمْ) لِلْكَلِمَةِ ٱلصَّادِقَةِ ٱلَّتِي يَقُوْلُ لَهَا كُلُّ ٱلنَّاسِ (لَا) ؛ وَمَا زَالَتِ ٱلْمَرْأَةُ

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٣ ، ٧ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ٣٠ مارس/ آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٤٨٣ ـ ٤٨٥ .
وراجع « فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها » فيما يلي . بسّام .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « هَلَكَتْ » بَدَلًا مِنْ : « مَاتَتْ » .

(٢) فِي ٱلأَصْلِ : « هَلَكَ » بَدَلًا مِنْ : « مَاتَ » .
وَلِيلاحظ أَنَّ كَلِمَةَ « هَلَكَ » هي التي استعملها ابن سحاق في سِيرَتِهِ ، راجع « السيرة النبوية » لابن هشام ٢/ ٢٦٤ ، ولو كانت كلمة « مات » أَوْلَىٰ . بسّام .

ٱلْكَامِلَةُ ٱلْمَحْبُوْبَةُ ٱلْمُحِبَّةُ هِيَ ٱلَّتِيْ تُعْطِي ٱلرَّجُلَ مَا نَقَصَ مِنْ مَعَانِي ٱلْحَيَاةِ ، وَتَلِدُ لَهُ ٱلْمَسَرَّاتِ مِنْ عَوَاطِفِهَا كَمَا تَلِدُ مِنْ أَحْشَائِهَا ، فَٱلْوُجُوْدُ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلَيْنِ عَظِيْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا زِيَادَةُ ٱلْحَيَاةِ فِي ٱلأَجْسَامِ ، وَٱلآخَرُ إِتْمَامُ نَقْصِهَا فِي ٱلْمَعَانِي .

* * *

وَبِمَوْتِ أَبِي طَالِبٍ وَخَدِيْجَةَ ، أُفْرِدَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ بِجِسْمِهِ وَقَلْبِهِ ، لِيَتَجَرَّدَ مِنَ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَغْلِبُ فِيهَا ٱلْحِسُّ ، إِلَىٰ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي تَغْلِبُ فِيهَا ٱلإِرَادَةُ ، ثُمَّ لِيَخْرُجَ مِنْ أَيَّامِ ٱلاسْتِقْرَارِ فِي أَرْضِهِ ، إِلَىٰ ٱلأَيَّامِ ٱلْمُتَحَرِّكَةِ بِهِ فِي هِجْرَتِهِ ؛ ثُمَّ لِيَنْتَهِيَ بِذَلِكَ إِلَىٰ غَايَةِ قَوْمِيَّتِهِ ٱلصَّغِيْرَةِ ٱلْمَحْدُوْدَةِ ، فَيَتَّصِلَ مِنْ ذَلِكَ بِأَوَّلِ عَالَمِيَّتِهِ ٱلْكُبْرَىٰ .

وَأَرَادَ ٱللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَبْدَأَ هَـٰذَا ٱلْجَلِيْلُ ٱلْعَظِيْمُ مِنْ أَسْمَىٰ خِلَالِ ٱلْجَلَالِ وَٱلْعَظَمَةِ ، لِيَكُوْنَ أَوَّلُ أَمْرِهِ شَهَادَةً بِكَمَالِهِ ؛ فَكَانَتِ ٱلْحَسَنَةُ فِيْهِ بِشَهَادَةِ ٱلسَّيِّئَةِ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَحِلْمُهُ بِشَهَادَةِ رُعُوْنَتِهِمْ ، وَأَنَاتُهُ بِدَلِيْلِ طَيْشِهِمْ ، وَحِكْمَتُهُ بِبُرْهَانِ سَفَاهَتِهِمْ ؛ وَبِذَلِكَ ظَهَرَ ٱلرُّوْحَانِيُّ رُوْحَانِيًّا فِي ٱلْمَادَّةِ .

قَالُوا : فَنَالَتْ مِنْهُ قُرَيْشٌ ، وَوَصَلُوا مِنْ أَذَاهُ إِلَىٰ مَا لَمْ يَكُوْنُوا يَصِلُوْنَ إِلَيْهِ فِي حَيَاةِ عَمِّهِ ، حَتَّىٰ نَثَرَ بَعْضُهُمُ ٱلتُّرَابَ عَلَىٰ رَأْسِهِ ، كَأَنَّمَا يُعْلِمُوْنَهُ أَنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ حُرًّا ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُوْنَ عَزِيْزًا ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُوْنَ نَبِيًّا ؛ قَالُوا : فَدَخَلَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ بَيْتَهُ وَٱلتُّرَابُ عَلَىٰ رَأْسِهِ ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَىٰ بَنَاتِهِ تَغْسِلُ عَنْهُ ٱلتُّرَابَ وَهِيَ تَبْكِي !

كَانَتْ تَبْكِي إِذْ لَا تَعْلَمُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلتُّرَابَ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْعَظِيْمِ هُوَ شُذُوْذُ ٱلْحَيَاةِ ٱلأَرْضِيَّةِ ٱلدَّنِيْئَةِ ، فِيْ مُقَابَلَةِ إِنْسَانِهَا ٱلشَّاذِّ ٱلْمُنْفَرِدِ . هَـٰذِهِ ٱلْقَبْضَةُ مِنَ ٱلتُّرَابِ ٱلأَرْضِيِّ قَبْضَةٌ سَفِيهَةٌ ، تُحَاوِلُ رَدَّ ٱلْمَمَالِكِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ ٱلْعَظِيْمَةِ أَنْ تَنْشَأَ نَشْأَتَهَا وَتَعْمَلَ عَمَلَهَا فِي ٱلتَّارِيْخِ ؛ فَهِيَ فِيْ مِقْدَارِهَا وَسَخَافَتِهَا وَمُحَاوَلَتِهَا ، كَعَقْلِ قُرَيْشٍ حِيْنَئِذٍ فِيْ مِقْدَارِهِ وَسَخَافَتِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ .

أَمَّا ٱلنَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِبِنْتِهِ : « يَا بُنَيَّةُ ! لَا تَبْكِي ، فَإِنَّ ٱللهَ مَانِعٌ أَبَاكِ »[1] . حَسِبَتْ ذَلِكَ

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام ٢/ ٢٦٤ ؛ والطبري في « تاريخه » ١/ ٥٥٣ . بسام .

هَوَانًا وَضِيعَةً ، فَأَعْلَمَهَا أَنَّ قَبْضَةً مِنَ ٱلتُّرَابِ لَا تَطْمُرُ ٱلنَّجْمَ ، وَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْحَثْوَةَ ٱلتُّرَابِيَّةَ لَا تُسَمَّىٰ مَعْرَكَةً أَثَارَتْهَا ٱلْخَيْلُ فَجَاءَتْ بِنَتِيجَةٍ ، وَأَنَّ سَاعَةً مِنَ ٱلْحُزْنِ فِي يَوْمٍ ، لَا يُحْكَمُ بِهَا عَلَىٰ ٱلزَّمَنِ كُلِّهِ ، وَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلنَّزْوَةَ ٱلَّتِي تَحَرَّكَتِ ٱلْآنَ هِيَ حُمْقُ ٱلْغَبَاوَةِ : قُوَّتُهَا نِهَايَتُهَا .

« يَا بُنَيَّةُ ! لَا تَبْكِي ، فَإِنَّ ٱللهَ مَانِعٌ أَبَاكِ » . أَيْ لَيْسَ لِلنَّبِيِّ كِبْرِيَاءٌ يَنَالُهَا ٱلنَّاسُ أَوْ يَغُضُّونَ عَنْهَا فَيَأْتِي ٱلدَّمْعُ مُتَرْجِمًا عَنِ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلنَّاقِصِ مُثْبِتًا أَنَّهُ نَاقِصٌ ؛ إِنَّمَا هِيَ ٱلنُّبُوَّةُ : قَانُونُهَا غَيْرُ مَا ٱعْتَادَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ أَفْرَاحٍ وَأَحْزَانٍ ، وَهِيَ ٱلنُّبُوَّةُ : تَجْعَلُ ٱلْمُخْتَارَ لَهَا غَيْرَ مَحْدُودٍ بِجَسَدِهِ ٱلضَّعِيفِ ، بَلْ حُدُودُهُ ٱلْحَقَائِقُ ٱلَّتِي فِيهَا قُوَّتُهَا ؛ فَهُوَ فِي مَنَعَةِ ٱلْوَاقِعِ ٱلَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ ، فَلَوْ أَمْكَنَ أَنْ يُحْذَفَ يَوْمٌ مِنَ ٱلزَّمَنِ أَوْ يُؤَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ ، أَمْكَنَ أَنْ يُؤَخَّرَ ٱلنَّبِيُّ أَوْ يُحْذَفَ .

« يَا بُنَيَّةُ ! لَا تَبْكِي ، فَإِنَّ ٱللهَ مَانِعٌ أَبَاكِ » . لَا وَٱللهِ مَا يَقُولُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ إِلَّا نَبِيٌّ وَسِعَ ٱلتَّارِيخَ فِي نَفْسِهِ ٱلْكَبِيرَةِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ هَـٰذَا ٱلتَّارِيخُ فِي ٱلدُّنْيَا ؛ فَكَلِمَتُهُ هِيَ ٱلْإِيمَانُ وَٱلثِّقَةُ ، إِذْ يَتَكَلَّمُ عَنْ مَوْجُودٍ .

تُرَابٌ يَنْثُرُهُ سَفِيهٌ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلنَّبِيِّ ! وَيْحَكِ يَا حَقَارَةَ ٱلْمَادَّةِ ! إِنَّ ٱرْتِفَاعَكِ لَعْنَةٌ ، إِنَّ ٱرْتِفَاعَكِ لَعْنَةٌ .

* * *

قَالُوا : وَخَرَجَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ وَحْدَهُ إِلَىٰ ٱلطَّائِفِ ، يَلْتَمِسُ مِنْ ثَقِيفٍ ٱلنَّصْرَ وَٱلْمَنَعَةَ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَلَمَّا ٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ ٱلطَّائِفِ عَمَدَ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ هُمْ يَوْمَئِذٍ سَادَتُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ ٱللهِ وَكَلَّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ وَٱلْقِيَامِ مَعَهُ فِي ٱلْإِسْلَامِ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسُبُّونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ ، حَتَّىٰ ٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ وَأَلْجَؤُوهُ إِلَىٰ حَائِطٍ[1] لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَهُمَا فِيهِ . وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سُفَهَاءِ ثَقِيفٍ مَنْ كَانَ يَتْبَعُهُ ، فَعَمَدَ ﷺ إِلَىٰ ظِلِّ حُبْلَةٍ مِنْ عِنَبٍ ، فَجَلَسَ فِيهِ ، وَٱبْنَا

(١) ٱلْحَائِطُ : ٱلْبُسْتَانُ ، وَجَمْعُهُ حَوَائِطُ .

رَبِيعَةَ يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَرَيَانِ مَا لَقِيَ مِنَ ٱلسُّفَهَاءِ .

فَلَمَّا ٱطْمَأَنَّ ﷺ فِي مَجْلِسِهِ قَالَ : « ٱللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَىٰ ٱلنَّاسِ ؛ يَا أَرْحَمَ ٱلرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَىٰ مَنْ تَكِلُنِي ؛ إِلَىٰ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ، أَوْ إِلَىٰ عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَـٰكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ ٱلَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ ٱلظُّلُمَاتُ ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ ٱلْعُتْبَىٰ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ! » .

* * *

أَلَا مَا أَكْمَلَ هَـٰذِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ ٱلَّتِي تُثْبِتُ أَنَّ قُوَّةَ ٱلْخُلُقِ هِيَ دَرَجَةٌ أَرْفَعُ مِنَ ٱلْخُلُقِ نَفْسِهِ ؛ فَهَـٰذَا فَنُّ ٱلصَّبْرِ لَا ٱلصَّبْرُ فَقَطْ ، وَفَنُّ ٱلْحِلْمِ لَا ٱلْحِلْمُ وَحْدَهُ .

قُوَّةُ ٱلْخُلُقِ هِيَ ٱلَّتِي تَجْعَلُ ٱلرَّجُلَ ٱلْعَظِيمَ ثَابِتًا فِي مَرْكَزِ تَارِيخِهِ لَا مُتَقَلْقِلًا فِي تَوَارِيخِ ٱلنَّاسِ ، مَحْدُودًا بِعَظَائِمِ شَخْصِيَّتِهِ ٱلْخَالِدَةِ لَا بِمَصَالِحِ شَخْصِهِ ٱلْفَانِي ، نَاظِرًا فِي ٱلْحَيَاةِ إِلَىٰ ٱلْوَضْعِ ٱلثَّابِتِ لِلْحَقِيقَةِ لَا إِلَىٰ ٱلْوَضْعِ ٱلْمُتَغَيِّرِ لِلْمَنْفَعَةِ .

وَمَا كَانَ أُولَـٰئِكَ ٱلْأَشْرَافُ وَسُفَهَاؤُهُمْ وَعَبِيدُهُمْ إِلَّا مَعَانِيَ ٱلظُّلْمِ ، وَٱلشَّرِّ ، وَٱلضَّعْفِ ، تَقُولُ لِلنَّبِيِّ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِي جَاءَ يَمْحُوهَا وَيُدِيلُ مِنْهَا : إِنَّنَا أَشْيَاءُ ثَابِتَةٌ فِي ٱلْبَشَرِيَّةِ .

لَمْ يَكُنْ مِنْهُمُ ٱلْأَشْرَافُ وَٱلسُّفَهَاءُ وَٱلْعَبِيدُ ، بَلْ كَانَ مِنْهُمُ ٱلْعَسْفُ ، وَٱلرِّقُّ ، وَٱلطَّيْشُ ؛ تَسْخَرُ ثَلَاثَتُهَا مِنْ نَبِيِّ ٱلْعَدْلِ ، وَٱلْحُرِّيَّةِ ، وَٱلْعَقْلِ ؛ فَمَا تَسْخَرُ إِلَّا مِنْ نَفْسِهَا .

صَغَائِرُ ٱلْحَيَاةِ قَدْ أَحَاطَتْ بِمَجْدِ ٱلْحَيَاةِ ، لِتُثْبِتَ ٱلصَّغَائِرُ أَنَّهَا ٱلصَّغَائِرُ ، وَلِيُثْبِتَ ٱلْمَجْدُ أَنَّهُ ٱلْمَجْدُ .

كَانَ ٱلْفَرِيقَانِ هُمَا ٱلْفِكْرَتَيْنِ ٱلْمُتَعَادِيَتَيْنِ أَبَدًا عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ : إِحْدَاهُمَا عِشْ لِتَأْكُلَ وَتَسْتَمْتِعَ وَإِنْ أَهْلَكْتَ ؛ وَٱلْأُخْرَىٰ عِشْ لِتَعْمَلَ وَتَنْفَعَ ٱلنَّاسَ وَإِنْ هَلَكْتَ .

كَانَتِ ٱلْأَقْدَارُ تُبَادِي هَـٰذَا ٱلرُّوحَ ٱلْوَاسِعَ بِذَلِكَ ٱلرُّوحِ ٱلضَّيِّقِ ، لِيَنْطَلِقَ ٱلْوَاسِعُ مِنْ

مَكانِهِ وَيَسْتَقْبِلَ ٱلدُّنْيا ٱلَّتِي عَلَيْهِ أَنْ يُنْشِئَها . فَأُولَـٰئِكَ ٱلأَشْرافُ وَٱلسُّفَهاءُ وَٱلْعَبِيدُ إِنْ هُمْ إِلَّا ٱلضِّيقُ ، وَٱلرُّكُودُ ، وَذُلُّ ٱلْعَيْشِ ؛ حَوْلَ ٱلسَّعَةِ ٱلرُّوحِيَّةِ ، وَٱلسُّمُوِّ ، وَطَهارَةِ ٱلْحَياةِ .

وَقَفَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلسَّماوِيُّ بَيْنَ مَعانِي ٱلأَرْضِ ؛ وَلَـٰكِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ يَنْبَسِطُ عَلَىٰ ٱلتُّرابِ فَلا يُعَفِّرُهُ ٱلتُّرابُ ، وَما هُوَ بِنُورٍ يُضِيءُ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ قُوَّةٌ تَعْمَلُ بِٱلْعَناصِرِ ٱلَّتِي مِنْ طَبِيعَتِها أَنْ تُحَوِّلَ ، فِي ٱلْعَناصِرِ ٱلَّتِي مِنْ شَأْنِها أَنْ تَتَحَوَّلَ .

وَكانَ بَيْنَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ أُولَـٰئِكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ قُوَّةٌ أُخْرَىٰ ، هِيَ ٱلْقُدْرَةُ ٱلَّتِي تَعْمَلُ بِهَـٰذا ٱلنَّبِيِّ لِلْعالَمِ كُلِّهِ ، وَبِهَـٰذِهِ ٱلْقُدْرَةِ لَمْ يَنْظُرِ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ قُرَيْشٍ وَصَوْلَتِهِمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما يَنْظُرُ إِلَىٰ شَيْءٍ ٱنْقَضَىٰ ، فَكانَ ٱلْوُجُودُ ٱلَّذِي يُحِيطُ بِهِ غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَكانَتْ حَقِيقَةُ ٱلزَّمَنِ ٱلآتِي تَجْعَلُ ٱلزَّمَنَ ٱلْحاضِرَ بِلا حَقِيقَةٍ .

وَإِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْقُدْرَةِ تَوَجَّهَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ ٱلدُّعاءِ ٱلْبَلِيغِ ٱلْخالِدِ ، يَشْكُو أَنَّهُ إِنْسانٌ فِيهِ ٱلضَّعْفُ وَقِلَّةُ ٱلْحِيلَةِ ، فَيَنْطِقُ ٱلإِنْسانِيُّ فِيهِ بِٱلشَّطْرِ ٱلأَوَّلِ مِنَ ٱلدُّعاءِ يَذْكُرُ ٱنْفِرادَهُ وَآثارَ ٱنْفِرادِهِ ، وَيَتَوَجَّعُ لِما بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِنْسانِيَّةِ قَوْمِهِ ؛ ثُمَّ يَنْطِقُ ٱلرُّوحانِيُّ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ آخِرِ ٱلدُّعاءِ مُتَوَجِّهًا إِلَىٰ مَصْدَرِهِ ٱلإِلَـٰهِيِّ قائِلًا أَوَّلَ ما يَقُولُ : إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلا أُبالِي .

وَلَعَمْرِي لَوْ نَطَقَتِ ٱلشَّمْسُ تَدْعُو ٱللهَ لَما خَرَجَتْ عَنْ هَـٰذا ٱلْمَعْنَىٰ وَلا زادَتْ عَلَىٰ قَوْلِهِ : « أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ » ؛ تَلْتَمِسُ مِنْ مَصْدَرِ ٱلنُّورِ ٱلأَزَلِيِّ حِياطَةَ وُجُودِها ٱلْكامِلِ .

* * *

وَلَقَدْ هَزِءُوا مِنْ قَبْلُ بِٱلْمَسِيحِ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ ، فَقالَ لِلسَّاخِرِينَ مِنْهُ : لَيْسَ نَبِيٌّ بِلا كَرامَةٍ إِلَّا فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ[1] . وَبِهَـٰذا رَدَّ عَلَيْهِمْ رَدَّ مَنِ ٱنْسَلَخَ مِنْهُمْ ، وَقالَ لَهُمْ قَوْلَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حُكْمٌ فِيهِمْ ، وَأَخَذَهُمْ بِٱلشَّرِيعَةِ ٱلأَدَبِيَّةِ لا ٱلْعَمَلِيَّةِ ؛ إِذْ كانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ كَٱلْحِكْمَةِ ٱلطَّائِفَةِ لَيْسَتْ لِكُلِّ قَلْبٍ وَلا لِكُلِّ عَقْلٍ ، وَلَـٰكِنَّها لِمَنْ أُعِدَّ لَها ؛ وَشَرِيعَتُهُ أَكْثَرُها فِي ٱلتَّعْبِيرِ وَأَقَلُّها فِي ٱلْعَمَلِ ، وَلَمْ تَجِئْ بِٱلْقُوَّةِ ٱلْعامِلَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَضَعَ ٱلْمَوْعِظَةَ فِي مَكانِ

(١) متى ٥٧ : ١٣ ؛ مرقص ٤ : ٦ ، لوقا ٢٤ : ٤ ؛ يوحنا ٤٤ : ٤ . بتمام .

ٱلسَّيْفِ ، وَأَنْ تَكُونَ قائِمَةً عَلَىٰ ٱلنَّهْيِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ قائِمَةٌ عَلَىٰ ٱلأَمْرِ ، وَأَنْ تَكُونَ كَشَمْسِ ٱلشِّتاءِ ٱلْجَمِيلَةِ : لا تَغْلِي بِها ٱلأَرْضُ ، وَإِنَّما عَمَلُها أَنْ تُمَهِّدَ هَـٰذِهِ ٱلأَرْضَ لِفَصْلٍ آخَرَ .

أَمَّا نَبِيُّنا ﷺ فَلَمْ يُجِبِ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ ، إِذْ كانَتِ ٱلْقُوَّةُ ٱلْكامِنَةُ فِي بِلادِ ٱلْعَرَبِ كُلِّها كامِنَةً فِيهِ ، وَكانَ صَدْرُهُ ٱلْعَظِيمُ يَحْمِلُ لِلدُّنْيا كَلِمَةً جَدِيدَةً لا تَقْبَلُ ٱلدُّنْيا أَنْ تُعامِلَهُ عَلَيْها إِلَّا بِطَرِيقَتِها ٱلْحَرْبِيَّةِ ؛ فَلَمْ يَرُدَّ رَدَّ ٱلشَّاعِرِ ٱلَّذِي يُرِيدُ مِنَ ٱلْكَلِمَةِ مَعْناها ٱلْبَلِيغَ ، وَلَـٰكِنَّهُ سَكَتَ سُكُوتَ ٱلْمُشْتَرِعِ ٱلَّذِي لا يُرِيدُ مِنَ ٱلْكَلِمَةِ إِلَّا عَمَلَها حِينَ يَتَكَلَّمُ ؛ وَكانَ فِي سُكُوتِهِ كَلامٌ كَثِيرٌ فِي فَلْسَفَةِ ٱلإِرادَةِ وَٱلْحُرِّيَّةِ وَٱلتَّطَوُّرِ ، وَأَنْ لا بُدَّ أَنْ يَتَحَوَّلَ ٱلْقَوْمُ ، وَأَنْ لا بُدَّ أَنْ يَتَفَطَّرَ هَـٰذا ٱلشَّجَرُ ٱلأَجْرَدُ عَنْ وَرَقٍ جَدِيدٍ أَخْضَرَ يَنْمُو بِٱلْحَياةِ .

لَمْ يَتَسَخَّطْ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَكانَ كَٱلصَّانِعِ ٱلَّذِي لا يَرُدُّ عَلَىٰ خَطَإِ ٱلآلَةِ بِسُخْطٍ وَلا يَأْسٍ ، بَلْ بِإِرْسالِ يَدِهِ فِي إِصْلاحِها .

* * *

قالُوا : وَرَأَىٰ ٱبْنا رَبِيعَةَ ، عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ما لَقِيَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ مِنَ ٱلسُّفَهاءِ ، فَتَحَرَّكَتْ لَهُ رَحِمُهُما ، فَدَعَوْا غُلامًا لَهُما نَصْرانِيًّا يُقالُ لَهُ : عَدَّاسٌ ، فَقالا لَهُ : خُذْ قِطْفًا مِنْ هَـٰذا ٱلْعِنَبِ وَضَعْهُ فِي ذَلِكَ ٱلطَّبَقِ ، ثُمَّ ٱذْهَبْ بِهِ إِلَىٰ ذَلِكَ ٱلرَّجُلِ فَقُلْ لَهُ يَأْكُلْ مِنْهُ . فَفَعَلَ عَدَّاسٌ ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّىٰ وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ؛ فَلَمَّا وَضَعَ يَدَهُ قالَ : « بِسْمِ ٱللهِ » . ثُمَّ أَكَلَ ؛ فَنَظَرَ عَدَّاسٌ إِلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ قالَ : وَٱللهِ إِنَّ هَـٰذا لَكَلامٌ ما يَقُولُهُ أَهْلُ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ .

فَقالَ لَهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ ٱلْبِلادِ أَنْتَ يا عَدَّاسُ ، وَما دِينُكَ ؟

قالَ : أَنا نَصْرانِيٌّ ، وَأَنا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نِينَوَىٰ . فَقالَ لَهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : مِنْ قَرْيَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ ؟ قالَ : وَما يُدْرِيكَ ما يُونُسُ بْنُ مَتَّىٰ ؟ قالَ ﷺ : ذاكَ أَخِي ؛ كانَ نَبِيًّا وَأَنا نَبِيٌّ .

فَأَكَبَّ عَدَّاسٌ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ .

* * *

يَا عَجَبًا لِرُمُوْزِ ٱلْقُدْرَةِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ !

لَقَدْ أَسْرَعَ ٱلْخَيْرُ وَٱلْكَرَامَةُ وَٱلإِجْلَالُ فَأَقْبَلَتْ تَعْتَذِرُ عَنِ ٱلشَّرِّ وَٱلسَّفَاهَةِ وَٱلطَّيْشِ ، وَجَاءَتِ ٱلْقُبُلَاتُ بَعْدَ كَلِمَاتِ ٱلْعَدَاوَةِ .

وَكَانَ ٱبْنَا رَبِيْعَةَ مِنْ أَلَدِّ أَعْدَاءِ ٱلإِسْلَامِ ، وَمِمَّنْ مَشَوْا إِلَىٰ أَبِيْ طَالِبٍ عَمِّ ٱلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ يَسْأَلُوْنَهُ أَنْ يَكُفَّهُ عَنْهُمْ أَوْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، أَوْ يُنَازِلُوْهُ وَإِيَّاهُ حَتَّىٰ يَهْلِكَ أَحَدُ ٱلْفَرِيْقَيْنِ ، فَٱنْقَلَبَتِ ٱلْغَرِيْزَةُ ٱلْوَحْشِيَّةُ إِلَىٰ مَعْنَاهَا ٱلإِنْسَانِيِّ ٱلَّذِيْ جَاءَ بِهِ ٱلدِّيْنُ ، لِأَنَّ ٱلْمُسْتَقْبَلَ ٱلدِّيْنِيَّ لِلْفِكْرِ لَا لِلْغَرِيْزَةِ .

وَجَاءَتِ ٱلنَّصْرَانِيَّةُ تُعَانِقُ ٱلإِسْلَامَ وَتُعِزُّهُ ، إِذِ ٱلدِّيْنُ ٱلصَّحِيْحُ مِنَ ٱلدِّيْنِ ٱلصَّحِيْحِ كَٱلأَخِ مِنْ أَخِيْهِ ، غَيْرَ أَنَّ نَسَبَ ٱلإِخْوَةِ ٱلدَّمُ وَنَسَبَ ٱلأَدْيَانِ ٱلْعَقْلُ .

ثُمَّ أَتَمَّ ٱلْقَدَرُ رَمْزَهُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ ، بِقِطْفِ ٱلْعِنَبِ سَائِغًا عَذْبًا مَمْلُوْءًا حَلَاوَةً ؛ فَبِٱسْمِ ٱللهِ كَانَ قِطْفُ ٱلْعِنَبِ رَمْزًا لِهَـٰذَا ٱلْعُنْقُوْدِ ٱلإِسْلَامِيِّ ٱلْعَظِيْمِ ٱلَّذِيْ ٱمْتَلَأَ حَبًّا كُلُّ حَبَّةٍ فِيْهِ مَمْلَكَةٌ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

فَوْقَ ٱلآدَمِيَّةِ(*)

ٱلإِسْرَاءُ وَٱلْمِعْرَاجُ

مِنْ أَعْجَبِ مَا ٱتَّفَقَ لِيْ أَنِّيْ فَرَغْتُ مِنْ تَسْوِيْدِ هَـٰذَا ٱلْمَقَالِ ثُمَّ أَرَدْتُ نَقْلَهُ ، فَتَعَسَّرَ عَلَيَّ وَصُرِفْتُ عَنْهُ بِأَلَمٍ شَدِيْدٍ ٱعْتَرَانِيْ ، وَنَالَنِيْ مِنْهُ ثِقْلَةٌ فِيْ ٱلدِّمَاغِ ؛ ثُمَّ كَشَفَهُ ٱللهُ بَعْدَ يَوْمٍ فَرَاجَعْتُ ٱلْكِتَابَةَ ، فَإِذَا قَلَمِيْ يَنْبَعِثُ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ :

كَيْفَ يَسْتَوْطِئُ ٱلْمُسْلِمُوْنَ ٱلْعَجْزَ ، وَفِيْ أَوَّلِ دِيْنِهِمْ تَسْخِيْرُ ٱلطَّبِيْعَةِ ؟

كَيْفَ يَسْتَمْهِدُوْنَ ٱلرَّاحَةَ ، وَفِيْ صَدْرِ تَارِيْخِهِمْ عَمَلُ ٱلْمُعْجِزَةِ ٱلْكُبْرَىٰ ؟

كَيْفَ يَرْكَنُوْنَ إِلَىٰ ٱلْجَهْلِ ، وَأَوَّلُ أَمْرِهِمْ آخِرُ غَايَاتِ ٱلْعِلْمِ ؟

كَيْفَ لَا يَحْمِلُوْنَ ٱلنُّوْرَ لِلْعَالَمِ ، وَنَبِيُّهُمْ هُوَ ٱلْكَائِنُ ٱلنُّوْرَانِيُّ ٱلأَعْظَمُ ؟

* * *

قِصَّةُ ٱلإِسْرَاءِ وَٱلْمِعْرَاجِ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، هَـٰذَا ٱلنَّجْمُ ٱلإِنْسَانِيُّ ٱلْعَظِيْمُ ؛ وَهُوَ ٱلنُّوْرُ ٱلْمُتَجَسِّدُ لِهِدَايَةِ ٱلْعَالَمِ فِيْ حَيْرَةِ ظُلُمَاتِهِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ؛ فَإِنَّ سَمَاءَ ٱلإِنْسَانِ تُظْلِمُ وَتُضِيْءُ مِنْ دَاخِلِهِ بِأَغْرَاضِهِ وَمَعَانِيْهِ . وَٱللهُ تَعَالَىٰ قَدْ خَلَقَ لِلْعَالَمِ ٱلأَرْضِيِّ شَمْسًا وَاحِدَةً تُنِيْرُهُ وَتُحْيِيْهِ وَتَتَقَلَّبُ عَلَيْهِ بِلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، بَيْدَ أَنَّهُ تَرَكَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَصْنَعَ لِنَفْسِهِ شَمْسَ قَلْبِهِ وَغَمَامَهَا وَسَحَائِبَهَا وَمَا تُسْفِرُ بِهِ وَمَا تُظْلِمُ فِيْهِ . وَلِهَـٰذَا سُمِّيَ ٱلْقُرْآنُ نُوْرًا لِعَمَلِ آدَابِهِ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَوُصِفَ ٱلْمُؤْمِنُوْنَ بِأَنَّهُمْ ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٢] ، وَكَانَ أَثَرُ ٱلإِيْمَانِ وَٱلتَّقْوَىٰ فِيْ تَعْبِيْرِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيْمِ أَنْ يَجْعَلَ ٱللهُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ نُوْرًا يَمْشُوْنَ بِهِ .

وَقَدْ حَارَ ٱلْمُفَسِّرُوْنَ فِيْ حِكْمَةِ ذِكْرِ « ٱللَّيْلِ » فِيْ آيَةِ « ٱلإِسْرَاءِ » مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ :

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٢ ، ٧ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ = ٤ نوفمبر/ تشرين الآخر ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٧٦٣ ـ ١٧٦٦ .

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [١٧ سورة الإسراء/ الآية : ١] . فَإِنَّ ٱلسُّرَىٰ فِيْ لُغَةِ ٱلْعَرَبِ لَا يَكُوْنُ إِلَّا لَيْلًا .

وَٱلْحِكْمَةُ هِيَ ٱلإِشَارَةُ إِلَىٰ أَنَّ ٱلْقِصَّةَ قِصَّةُ (ٱلنَّجْمِ) ٱلإِنْسَانِيِّ ٱلْعَظِيْمِ ٱلَّذِيْ تَحَوَّلَ مِنْ إِنْسَانِيَّتِهِ إِلَىٰ نُوْرِهِ ٱلسَّمَاوِيِّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمُعْجِزَةِ ، وَيُتَمِّمُ هَـٰذِهِ ٱلْعَجِيْبَةَ أَنَّ آيَاتِ « ٱلْمِعْرَاجِ » لَمْ تَجِئْ إِلَّا فِيْ سُوْرَةِ : « وَٱلنَّجْمِ » .

وَعَلَىٰ تَأْوِيْلِ أَنَّ ذِكْرَ (ٱللَّيْلِ) إِشَارَةٌ إِلَىٰ قِصَّةِ ٱلنَّجْمِ ، تَكُوْنُ ٱلآيَةُ بُرْهَانَ نَفْسِهَا ، وَتَكُوْنُ فِيْ نَسَقِهَا قَدْ جَاءَتْ مُعْجِزَةً مِنَ ٱلْمُعْجِزَاتِ ٱلْبَيَانِيَّةِ ؛ فَإِذَا قِيْلَ : إِنَّ نَجْمًا دَارَ فِيْ ٱلسَّمَاءِ ، أَوْ قَطَعَ مَا تَقْطَعُهُ ٱلنُّجُوْمُ مِنَ ٱلْمَسَافَاتِ ٱلَّتِيْ تُعْجِزُ ٱلْحِسَابَ ، فَهَلْ فِيْ ذَٰلِكَ مِنْ عَجِيْبٍ ؟ وَهَلْ فِيْهِ شَكٌّ أَوْ نَظَرٌ أَوْتَرَدُّدٌ ؟ وَهَلْ هُوَ إِلَّا مِنْ بَعْضِ مَا يُسَبِّحُ ٱللهَ بِذِكْرِهِ ؟ وَهَلْ يَكُوْنُ إِلَّا آيَةً ٱتَّصَلَتْ بِٱلآيَاتِ ٱلَّتِيْ نَرَاهَا ٱتِّصَالَ ٱلْوُجُوْدِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ ؟

وَأَنَا مَا يَكَادُ يَنْقَضِيْ عَجَبِيْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [١٧ سورة الإسراء/ الآية : ١] . مَعَ أَنَّ ٱلأَلْفَاظَ كَمَا تَرَىٰ مَكْشُوْفَةٌ وَاضِحَةٌ ، يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنْ لَيْسَ وَرَاءَهَا شَيْءٌ ، وَوَرَاءَهَا ٱلسِّرُّ ٱلأَكْبَرُ ؛ فَإِنَّهَا بِهَـٰذِهِ ٱلْعِبَارَةِ نَصٌّ عَلَىٰ إِشْرَافِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ فَوْقَ ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ يَرَىٰ بِغَيْرِ حِجَابِ ٱلْحَوَاسِّ مِمَّا مَرْجِعُهُ إِلَىٰ قُدْرَةِ ٱللهِ لَا قُدْرَةِ نَفْسِهِ ؛ بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَتِ ٱلْعِبَارَةُ : (لِيَرَىٰ مِنْ آيَاتِنَا) فَإِنَّ هَـٰذَا يَجْعَلُهُ لِنَفْسِهِ فِيْ حُدُوْدِ قُوَّتِهَا وَحَوَاسِّهَا وَزَمَانِهَا وَمَكَانِهَا ، فَيَضْطَرِبُ ٱلْكَلَامُ ، وَيَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ٱلاعْتِرَاضُ وَلَا تَكُوْنُ ثَمَّ مُعْجِزَةٌ .

وَتَحْوِيْلُ فِعْلِ (ٱلرُّؤْيَةِ) مِنْ صِيْغَةٍ إِلَىٰ صِيْغَةٍ كَمَا رَأَيْتَ ، هُوَ بِعَيْنِهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ تَحْوِيْلِ ٱلرَّائِيْ مِنْ شَكْلٍ إِلَىٰ شَكْلٍ كَمَا سَتَعْرِفُهُ ، وَهَـٰذِهِ مُعْجِزَةٌ أُخْرَىٰ يَسْجُدُ لَهَا ٱلْعَقْلُ ؛ فَتَبَارَكَ ٱللهُ مُنْزِلُ هَـٰذَا ٱلْكَلَامِ !

وَإِذَا كَانَ ﷺ نَجْمًا إِنْسَانِيًا فِيْ نُوْرِهِ ، فَلَنْ يَأْتِيَ هَـٰذَا إِلَّا مِنْ غَلَبَةِ رُوْحَانِيَّتِهِ عَلَىٰ مَادَّتِهِ ؛ وَإِذَا غَلَبَتْ رُوْحَانِيَّتُهُ كَانَتْ قُوَاهُ ٱلنَّفْسِيَّةُ مُهَيَّأَةً فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمِثْلِ حَالَتِهَا فِيْ ٱلأُخْرَىٰ ؛ فَهُوَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمُعْجِزَةِ أَشْبَهُ بِٱلْهَوَاءِ ٱلْمُتَحَرِّكِ . فَقُلِ ٱلآنَ : أَيُعْتَرَضُ عَلَىٰ ٱلْهَوَاءِ إِذَا ٱرْتَفَعَ بِأَنَّهُ لَمْ يَرْتَفِعْ فِيْ طَيَّارَةٍ . . . ؟

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ٱلإِنْسَانُ إِذَا سَمَا دَرَجَةً وَاحِدَةً فِيْ ثَبَاتِ قُوَاهُ ٱلرُّوْحِيَّةِ ، سَمَا بِهَا دَرَجَاتٍ فَوْقَ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا ، وَسُخِّرَتْ لَهُ ٱلْمَعَانِيْ ٱلَّتِيْ تُسَخِّرُ غَيْرَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَنَشَأَتْ لَهُ نَوَامِيْسُ أَخْلَاقِيَّةٌ غَيْرُ ٱلنَّوَامِيْسِ ٱلَّتِيْ تَتَسَلَّطُ بِهَا ٱلأَهْوَاءُ . وَمَتَىٰ وُجِدَ ٱلشَّيْءُ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ كَانَتْ طَبَائِعُ وُجُوْدِهِ هِيَ نَوَامِيْسَهُ ؛ فَٱلنَّارُ مَثَلًا إِذَا هِيَ تَضَرَّمَتْ أَوْجَدَتِ ٱلإِحْرَاقَ فِيْمَا يَحْتَرِقُ ، فَإِنْ وُضِعَ فِيْهَا مَا لَا يَحْتَرِقُ أَبْطَلَ نَوَامِيْسَهَا وَغَلَبَ عَلَيْهَا .

وَكُلُّ مُعْجِزَةٍ تَحْدُثُ فَهَـٰذَا هُوَ سَبِيْلُهَا فِيْ إِيْجَادِ ٱلنَّوَامِيْسِ ٱلْخَاصَّةِ بِهَا وَإِبْطَالِ ٱلنَّوَامِيْسِ ٱلْمَأْلُوْفَةِ ، وَبِهَـٰذَا يُقَالُ : إِنَّهَا خَرَقَتِ ٱلْعَادَةَ . وَمِنَ ٱلنُّوْرِ نُوْرٌ لَا يَشِفُّ لَهُ غَيْرُ ٱلْهَوَاءِ ، وَمِنْهُ أَشِعَّةُ رونتجن(١) Roentgen - rays ٱلَّتِيْ تَشِفُّ لَهَا ٱلْجُدْرَانُ وَٱلْحُجُبُ ؛ فَهَـٰذِهِ مُعْجِزَةٌ فِيْ ذَاكَ .

* * *

وَٱلنَّبِيُّ لَا يَكُوْنُ نَبِيًّا حَتَّىٰ يَكُوْنَ فِيْ إِنْسَانِهِ إِنْسَانٌ آخَرُ بِنَوَامِيْسَ تَجْعَلُهُ أَقْرَبَ إِلَىٰ ٱلْمَلَائِكَةِ فِيْ رُوْحَانِيَّتِهَا ، وَمَا يَنْزِلُ إِنْسَانُهُ ٱلظَّاهِرُ مِنَ ٱلإِنْسَانِ ٱلْبَاطِنِ فِيْهِ إِلَّا مَنْزِلَةَ مَنْ يَتَلَقَّىٰ مِمَّنْ يُعْطِيْ ؛ فَذَاكَ ٱلْبَاطِنُ هُوَ لِلْحَقَائِقِ ٱلَّتِيْ لَا تَحْمِلُهَا ٱلدُّنْيَا ، وَهَـٰذَا ٱلظَّاهِرُ لِمَا يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَ إِلَيْهِ ٱلْكَمَالُ فِيْ ٱلْمَثَلِ ٱلإِنْسَانِيِّ ٱلأَعْلَىٰ ، وَلَوْلَا ذَٰلِكَ ٱلْبَاطِنُ مَا ٱسْتَطَاعَ نَبِيٌّ مِنَ ٱلأَنْبِيَاءِ أَنْ يَحْمِلَ هُمُوْمَ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ لَا تُضْنِيْهِ وَلَا تُغَيِّرُهُ وَلَا تُعْجِزُهُ .

فَحَقِيْقَةُ ٱلنُّبُوَّةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ مِنَ ٱلْوُجُوْدِ فِيْ إِنْسَانٍ مُخْتَارٍ جَاءَتْ تُصْلِحُ ٱلْوُجُوْدَ ٱلإِنْسَانِيَّ بِهِ لِتَقِرَّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلْمُهَذَّبَةِ مَثَلَهَا ٱلأَعْلَىٰ ، بِدَلَالَتِهَا عَلَىٰ طَرِيْقِهَا ٱلنَّفْسِيِّ مَعَ طَرِيْقِهَا ٱلطَّبِيْعِيِّ ؛ فَيَكُوْنُ مَعَ ٱلانْحِطَاطِ ٱلرُّقِيُّ ، وَمَعَ ٱلنَّقْصِ ٱلْكَمَالُ ، وَمَعَ حُكْمِ ٱلْغَرِيْزَةِ ٱلتَّحَكُّمُ فِيْ ٱلْغَرِيْزَةِ ، وَمَعَ ٱلظُّلْمَةِ ٱلْمَادِّيَّةِ ٱلإِشْرَاقُ ٱلرُّوْحَانِيُّ .

وَمَا ٱلْمُعْجِزَاتُ إِلَّا شَأْنُ تِلْكَ ٱلْقُوَّةِ ٱلْبَاطِنَةِ لَا شَأْنُ إِنْسَانِهَا ٱلظَّاهِرِ . وَمَنِ ٱلَّذِيْ يُنْكِرُ أَنَّ قُوَىٰ ٱلْوُجُوْدِ هِيَ فِيْ نَفْسِهَا إِعْجَازٌ لِلْعَقْلِ ٱلْبَشَرِيِّ ؟ وَهَلْ يُنْكِرُ ٱلْيَوْمَ أَحَدٌ شَأْنَ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ

---

(١) هو وليام غونراد رونتجن Wilhelm Gonrad Roentgen (٨٤٥ ـ ١٩٢٣ م) فيزيائي ألماني ، مكتشف الأشعة السينية ، والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٠١ م . بسام .

فِي ٱلرَّادِيو[1] Radio حِينَ مَسَّتْهُ فَجَعَلَتِ ٱلْكَلِمَةَ ٱلَّتِي تُرْسَلُ بَيْنَ ٱلشَّرْقِ وَٱلْغَرْبِ ، كَٱلْكَلِمَةِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ يَتَحَدَّثَانِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ ؟

وَنَحْنُ نَرَىٰ مُعْجِزَاتِ ٱلتَّنْوِيمِ ٱلْمِغْنَاطِيسِيِّ وَمَا يُبْصِرُهُ ٱلنَّائِمُ وَمَا يَسْمَعُهُ ، وَمَا يَنْكَشِفُ لَهُ مِمَّا وَرَاءَ ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ ؛ وَلَيْسَ ٱلتَّنْوِيمُ شَيْئًا إِلَّا تَسْلِيطَ ٱلذَّاتِ ٱلْبَاطِنَةِ بِقُوَاهَا ٱلرُّوحِيَّةِ ٱلْعَجِيبَةِ ، عَلَىٰ ٱلذَّاتِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ بِحَوَاسِّهَا ٱلْمَحْدُودَةِ ، فَتَطْغَىٰ عَلَيْهَا ، فَتُصْبِحُ ٱلْحَوَاسُّ مُطْلَقَةً شَائِعَةً فِي ٱلْوُجُودِ بِمِقْدَارِ مَا فِيهَا مِنْ قُوَاهُ لَا بِمِقْدَارِ مَا فِيهَا مِنْ قُوَّةِ شَخْصِهَا .

وَعَلَىٰ نَحْوٍ مِنْ ذَلِكَ يَتَّصِلُ ٱلرَّجُلُ ٱلرُّوحَانِيُّ بِذَاتِهِ ٱلْبَاطِنَةِ ، فَيُوقِعُ شَخْصَهُ ٱلظَّاهِرَ فِي ٱلِاسْتِهْوَاءِ ، فَيَنْكَشِفُ لَهُ ٱلْوُجُودُ ، وَيُبْصِرُ مَا يَقَعُ عَلَىٰ ٱلْبُعْدِ ، وَيَرَىٰ مَا هُوَ آتٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ ؛ وَمَا ٱلْكَوْنُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ إِلَّا كَٱلْمَعْشُوقِ يَقُولُ لِعَاشِقِهِ ٱلَّذِي وَقَعَ فِي قَلْبِهِ ٱلْحُبُّ : قَدْ آتَيْتُكَ نُورًا تَنْظُرُ بِهِ جَمَالِي .

* * *

وَفِي عُلَمَاءِ عَصْرِنَا مَنْ يُفَكِّرُ فِي ٱلصُّعُودِ إِلَىٰ ٱلْقَمَرِ ، وَفِيهِمْ مَنْ يَعْمَلُ لِلْمُخَاطَبَةِ مَعَ ٱلْأَفْلَاكِ ، وَفِيهِمْ مَنْ تَقَعُ لَهُ ٱلْعَجَائِبُ فِي ٱسْتِحْضَارِ ٱلْأَرْوَاحِ وَتَسْخِيرِهَا ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ أَوَّلُ ٱلْبُرْهَانِ { ٱلْكَوْنِيِّ } ٱلَّذِي سَيُلْزِمُ ٱلْعِلْمَ[2] فَيَضْطَرُّهُ فِي يَوْمٍ مَا إِلَىٰ ٱلْإِقْرَارِ بِصِحَّةِ ٱلْإِسْرَاءِ وَٱلْمِعْرَاجِ .

وَنَحْنُ قَبْلَ أَنْ نُبْدِيَ رَأْيَنَا فِي ٱلْقِصَّةِ نُلِمُّ بِهَا إِلْمَامَةً مُوجَزَةً ؛ فَقَدِ ٱخْتَلَفَتْ فِيهَا ٱلْأَحَادِيثُ وَوَقَعَ فِيهَا تَخْلِيطٌ كَثِيرٌ ، فَجَاءَتْ فُنُونًا وَأَنْوَاعًا مِنْ طُرُقٍ شَتَّىٰ ، حَتَّىٰ جَمَعَهَا بَعْضُهُمْ فِي جُزْأَيْنِ[3] ، وَمَا تَحْتَمِلُ كُلَّ ذَلِكَ وَلَا بَعْضَهُ ، وَلَـٰكِنَّ رُوحَ ٱلرِّوَايَةِ فِي ذَلِكَ

(١) الراديو Radio ، وهو نظام اتصال يَسْتخدمُ الأمواجَ الكهرومغناطيسية من خلال الفضاء ، يستعمل هذا النظام في الإبراق والاتصال اللاسلكي ، الذي منه الهاتف وجميع الاتصالات والإذاعات والرادار وغير ذلك . والمقصود هنا ما يطلق عليه اليوم المِذْيَاعُ ، وفي فترة ٱصْطُلِحَ عَلَيْهِ لَفْظُ : المِرْدَاد . بسّام .

(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْفَمَ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْعِلْمَ » .

(٣) قَالَ ٱلذَّهَبِيُّ : إِنَّ ٱلْحَافِظَ عَبْدَ ٱلْغَنِيِّ جَمَعَ أَحَادِيثَ ٱلْإِسْرَاءِ فِي جُزْأَيْنِ .

ٱلزَّمَنِ كَانَتْ كَرُوحِ ٱلصَّحَافَةِ فِي هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ : مَتَىٰ فَارَتْ فَوْرَهَا ٱسْتَحْدَثَتْ مِنْ كُلِّ عِبَارَةٍ عِبَارَةً أُخْرَىٰ ، وَعَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ تَخْرُجُ مِنَ ٱلْعِبَارَتَيْنِ عِبَارَةٌ ثَالِثَةٌ ، فَيَكُونُ ٱلْأَصْلُ مَعْنًى وَاحِدًا وَإِذَا هُوَ يَمُدُّ مِنْ يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ .

وَلَا يَرَوْنَ بِذَلِكَ بَأْسًا ؛ فَإِنَّهُمْ يَشُدُّونَ بِهِ ٱلرَّأْيَ ، وَيُضَاعِفُونَ مِنْهُ ٱلْيَقِينَ ، وَيَزِيدُونَ ضَوْءًا فِي نُورِ ٱلْمَعْنَىٰ ، وَمَا دَامُوا قَدْ أَثْبَتُوا ٱلْأَصْلَ وَٱسْتَيْقَنُوهُ ، فَلَا حَرَجَ أَنْ يُؤَيِّدَ ٱلْقَوْلُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، بِٱجْتِهَادٍ فِي عِبَارَةٍ ، وَٱسْتِنْبَاطٍ مِنْ أُخْرَىٰ ، وَزِيَادَةٍ فِي ٱلثَّالِثَةِ مِمَّا هُوَ بِسَبِيلٍ مِنْهَا ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا نَرَىٰ مِنْ فَنِّ ٱلرِّوَايَةِ ٱلْقَصَصِيَّةِ ؛ إِذْ تَتَعَدَّدُ ٱلْأَسَالِيبُ وَٱلْعِبَارَاتُ مُخْتَلِفَةً مُتَنَوِّعَةً ، وَلَيْسَ تَحْتَهَا إِلَّا حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَخْتَلِفُ . وَٱلْقَصَصُ ٱلدِّينِيُّ فِي هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَنٌّ كَامِلٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ، لَا يُبْدِعُ ٱلْعَقْلُ وَٱلْخَيَالُ وَٱلْعَاطِفَةُ أَقْوَىٰ مِنْهُ وَلَا أَعْجَبَ وَلَا أَغْرَبَ .

هَـٰذَا فِي مَتْنِ ٱلْقِصَّةِ ، أَمَّا فِي وَاقِعَتِهَا فَقَدِ ٱخْتَلَفُوا ٱخْتِلَافًا آخَرَ : هَلْ كَانَ ٱلْإِسْرَاءُ وَٱلْمِعْرَاجُ يَقَظَةً أَوْ مَنَامًا ؟ وَبِٱلرُّوحِ وَحْدَهَا ، أَوْ بِٱلرُّوحِ وَٱلْجِسْمِ مَعًا ؟ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَـٰذَا ٱلْخِلَافَ لِأَنَّهُ ٱلدَّلِيلُ ٱلْقَاطِعُ عَلَىٰ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُخْبِرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُمْ وَجْهًا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْأَوْجُهِ . وَٱلْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عُقُولَهُمْ لَمْ تَكُنْ تَحْتَمِلُ ٱلْإِدْرَاكَ ٱلْعِلْمِيَّ ٱلَّذِي أَسَاسُهُ { مَا عُرِفَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ } ٱلْكَهْرَبَاءِ وَٱلْأَثِيرِ . . .

وَٱلْخُلَاصَةُ ٱلَّتِي تَتَأَدَّىٰ مِنَ ٱلْقِصَّةِ : أَنَّهُ ﷺ كَانَ مُضْطَجِعًا ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ، فَأَخْرَجَهُ مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ، فَأَرْكَبَهُ ٱلْبُرَاقَ ، فَأَتَىٰ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ ، ثُمَّ دَخَلَ ٱلْمَسْجِدَ فَصَلَّىٰ فِيهِ ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ ٱلسَّمَـٰوَاتِ ، فَٱسْتَفْتَحَهَا جِبْرِيلُ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، فَرَأَىٰ فِيهَا مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ، وَٱجْتَمَعَ بِٱلْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِمْ ، وَصَعِدَ فِي سَمَاءٍ بَعْدَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ ، فَغَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ ٱللهِ مَا غَشِيَهَا ، فَرَأَىٰ ﷺ مَظْهَرَ ٱلْجَمَالِ ٱلْأَزَلِيِّ ، ثُمَّ زُجَّ بِهِ فِي ٱلنُّورِ فَأَوْحَىٰ ٱللهُ إِلَيْهِ مَا أَوْحَىٰ .

أَمَّا وَشْيُ ٱلْقِصَّةِ وَطِرَازُهَا فَبَابٌ عَجِيبٌ مِنَ ٱلرُّمُوزِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي يُرْمَزُ بِهَا إِلَىٰ تَجْسِيدِ ٱلْأَعْمَالِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ : تَكُونُ تَعَبًا وَتَقَعُ فَائِدَةً ، أَوْ تُلْتَمَسُ مَنْفَعَةً وَشَهْوَةً وَتَقَعُ مَضَرَّةً وَحَمَاقَةً ، ثُمَّ تَفْنَىٰ مِنْ هَـٰذِهِ وَتِلْكَ ٱلصُّوَرُ ٱلزَّمَنِيَّةُ ٱلَّتِي تَوَهَّمَهَا أَصْحَابُهَا ، وَتَخْلُدُ

ٱلصُّوَرُ ٱلْأَبَدِيَّةُ ٱلَّتِي جَاءَتْ بِهَا حَقَائِقُهَا .

وَمِنْ هَـٰذِهِ ٱلرُّمُوزِ ٱلْبَدِيعَةِ قَوْلُهُ : فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَأَخَذْتُ ٱللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : أَخَذْتَ ٱلْفِطْرَةَ . وَأَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ قَوْمٍ يَزْرَعُونَ وَيَحْصُدُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، كُلَّمَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ ؛ فَسَأَلَ مَا هَـٰذَا ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، تُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْحَسَنَةُ سَبْعَ مِئَةِ ضِعْفٍ . ثُمَّ أَتَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ تُرْضَخُ رُؤُوسُهُمْ بِٱلصَّخْرِ ، كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَٰلِكَ شَيْءٌ ؛ فَقَالَ : مَا هَـٰذَا ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : هَـٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ تَتَثَاقَلُ رُؤُوسُهُمْ عَنِ ٱلصَّلَاةِ . ثُمَّ أَتَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ نَضِيجٌ فِي قِدْرٍ ، وَلَحْمٌ آخَرُ نَيِّءٌ فِي قِدْرٍ خَبِيثٍ ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنَ ٱلنَّيِّءِ ٱلْخَبِيثِ وَيَدَعُونَ ٱلنَّضِيجَ ؛ فَقَالَ : مَا هَـٰؤُلَاءِ ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْحَلَالُ ٱلطَّيِّبُ فَيَأْتِي ٱمْرَأَةً خَبِيثَةً ، وَٱلْمَرْأَةُ تَقُومُ مِنْ عِنْدِ زَوْجِهَا حَلَالًا طَيِّبًا فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا . ثُمَّ أَتَىٰ عَلَىٰ رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حُزْمَةً عَظِيمَةً لَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهَا وَهُوَ يَزِيدُ عَلَيْهَا ، فَقَالَ : مَا هَـٰذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ تَكُونُ عَلَيْهِ أَمَانَاتُ ٱلنَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَدَائِهَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا . ثُمَّ رَأَىٰ نِسَاءً مُعَلَّقَاتٍ بِثُدِيِّهِنَّ ؛ فَسَأَلَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : هَـٰؤُلَاءِ ٱللَّاتِي أَدْخَلْنَ عَلَى ٱلرِّجَالِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ .

* * *

وَنَحْنُ عَلَى ٱلرَّأْيِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ ٱلْعُلَمَاءِ ، مِنْ أَنَّ ٱلْإِسْرَاءَ وَٱلْمِعْرَاجَ كَانَا بِٱلْجِسْمِ وَٱلرُّوحِ مَعًا عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلَّذِي سَنُبَيِّنُهُ ؛ وَيُثْبِتُ ذَٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (وَٱلنَّجْمِ) : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [٥٣ سورة النجم/ الآيتان : ١٦ و١٧] فَلَا يَكُونُ ٱلْبَصَرُ يَزِيغُ وَيَطْغَىٰ إِلَّا فِي ٱلْجِسْمِ ، وَلَا يَنْتَفِي عَنْهُ ذَٰلِكَ إِلَّا وَهُوَ فِي ٱلْجِسْمِ . وَلَمْ يَتَنَبَّهْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُفَسِّرِينَ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُعْجِزِ ٱلْعَجِيبِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [٥٣ سورة النجم/ الآية : ١٧] ؛ فَذَٰلِكَ نَصٌّ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ يَرَىٰ بِجِسْمٍ قَدْ تَحَوَّلَ عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْآدَمِيَّةِ ٱلْمَحْدُودَةِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْهَا شَيْءٌ ؛ إِذْ لَا يَكُونُ طُغْيَانُ ٱلْبَصَرِ إِلَّا مِنْ تَسَلُّطِ ٱلْخَيَالِ عَلَيْهِ بِأَهْوَاءِ ٱلْجِسْمِ ٱلَّتِي لَا يَسْتَقِيمُ بِهَا حُكْمٌ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ ، فَمَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ بِكَوْنِهِ مُقَيَّدَ ٱلْحَاسَّةِ ، وَلَا طَغَىٰ بِكَوْنِهِ مُطْلَقَ ٱلْخَيَالِ ، بَلْ كَانَ كَمَا يُرِيهِ ٱللهُ مِنْ آيَاتِهِ ، أَيْ : كَانَ حَقِيقَةً كَوْنِيَّةً فِي غَيْرِ حَالَتِهَا

ٱلْأَرْضِيَّةِ ٱلنَّاقِصَةِ .

وَٱلَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ ٱلْإِسْرَاءَ وَٱلْمِعْرَاجَ كَانَا رُؤْيَا رَآهَا ٱلنَّبِيُّ ﷺ ؛ ٱحْتَجُّوا لِذَٰلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [١٧ سورة الإسراء/ الآية : ٦٠] . وَقَدْ خَلَطَ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي هَـٰذَا أَيْضًا ، وَإِنَّمَا كَانَ ٱلتَّعْبِيرُ بِلَفْظِ « ٱلرُّؤْيَا » ـ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مَنَامًا ـ لِنَفْيِ تَأْثِيرِ ٱلْحَوَاسِّ عَلَى ٱلرَّائِي ، وَإِثْبَاتِ أَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ ٱلْآدَمِيَّةَ بِجُمْلَتِهَا كَانَتْ فِيهِ كَالنَّائِمَةِ عَنْ حَيَاتِهَا ٱلْأَرْضِيَّةِ بِحَقَائِقِهَا وَأَخْيِلَتِهَا مَعًا ، فَلَيْسَ نَائِمًا كَالنَّائِمِ ، وَلَا مُسْتَيْقِظًا كَالْمُسْتَيْقِظِ .

وَفِي أَسَاسِ ٱلْقِصَّةِ جِبْرِيلُ وَٱلْبُرَاقُ ؛ وَهُمَا ٱلْقُوَّةُ ٱلْمَلَائِكِيَّةُ وَٱلْقُوَّةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ ، أَوِ ٱلرُّوحُ ٱلْمَلَائِكِيُّ وَٱلرُّوحُ ٱلطَّبِيعِيُّ ؛ وَلَمْ يُوصَفِ ٱلْبُرَاقُ بِأَنَّهُ دَابَّةٌ إِلَّا رَمْزًا ، إِذْ لَا يَأْتِي لِلْعَرَبِ أَنْ يَفْهَمُوا مَا يُرَادُ مِنْهُ ؛ وَعِنْدَنَا أَنَّهُ سُمِّيَ ٱلْبُرَاقَ مِنَ ٱلْبَرْقِ ، وَمَا ٱلْبَرْقُ إِلَّا ٱلْكَهْرَبَائِيَّةُ ، وَهَـٰذَا هُوَ ٱلْمُرَادُ مِنْهُ ؛ فَتِلْكَ قُوَّةٌ كَهْرَبَائِيَّةٌ مَتَىٰ نَبَضَتْ جَمَعَتْ أَوَّلَ ٱلْعَالَمِ بِآخِرِهِ ؛ وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْحِكْمَةُ فِي أَنَّ آيَةَ ٱلْإِسْرَاءِ لَمْ تَذْكُرْ أَنَّهُ كَانَ مَحْمُولًا عَلَىٰ شَيْءٍ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مَحْمُولًا إِلَّا عَلَىٰ رُوحِ ٱلْأَثِيرِ .

وَمَا دَامَتِ ٱلْقُوَّةُ ٱلْمَلَائِكِيَّةُ وَٱلْقُوَّةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ قَدْ سُخِّرَتَا لَهُ ﷺ ، فَلَا مَعْنَىٰ لِأَنْ يَكُونَ ذَٰلِكَ لِلرُّوحِ وَحْدَهَا { دُونَ ٱلْجِسْمِ } ، بَلِ ٱجْتِمَاعُهُمَا مَعًا فِي ٱلْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ سِرَّ ٱلْمُعْجِزَةِ إِنَّمَا كَانَ فِي تَيْسِيرِ مُلَاءَمَةِ جِسْمِهِ ٱلشَّرِيفِ لِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ ؛ فَيَتَحَوَّلُ فِي صُورَةٍ كَوْنِيَّةٍ مَلَائِكِيَّةٍ بَيْنَ سِرِّ ٱلْمَلَكِ وَسِرِّ ٱلطَّبِيعَةِ ، وَحِينَئِذٍ لَا تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ ٱلْحَوَاسِّ وَلَا أَحْكَامُ ٱلْمَادَّةِ .

وَمِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ تَتَحَوَّلَ ٱلْأَجْسَامُ إِلَىٰ حَالَتِهَا ٱلْأَثِيرِيَّةِ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْخَارِقَةِ ، وَبِهَـٰذَا يُعَلَّلُ طَيُّ ٱلْأَرْضِ لِبَعْضِ ٱلرُّوحَانِيِّينَ ، وَتُعَلَّلُ خَوَارِقُ كَثِيرَةٌ مِمَّا يَحْدُثُ فِي ٱسْتِحْضَارِ ٱلْأَرْوَاحِ لِهَـٰذَا ٱلْعَهْدِ ، وَمِمَّا يَأْتِيهِ فُقَرَاءُ ٱلْهِنْدِ ، وَمِمَّا كَانَ يَصْنَعُهُ « لا هوديني » ٱلْأَمْرِيكِيُّ(١) : إِذْ كَانُوا يُغَلِّلُونَهُ بِٱلسَّلَاسِلِ وَٱلْقُيُودِ ثُمَّ يَرَوْنَهُ طَلِيقًا ؛ وَيَحْبِسُونَهُ فِي ٱلسُّجُونِ

(١) هو هاري هوديني Harry Houdini (١٨٧٤ ـ ١٩٢٦ م) ، ساحر مشعوذ أميركي . بسّام .

ٱلْمُحَصَّنَةِ يَقُوْمُ عَلَيْهَا ٱلْحُرَّاسُ وَتُمْسِكُهُ فِيهَا ٱلأَبْوَابُ وَٱلْجُدْرَانُ ، ثُمَّ يَجِدُوْنَهُ فِيْ بَعْضِ ٱلْفَنَادِقِ .

وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ أَنْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِنْ هَـٰذَا وَنَحْوِهِ ، فَإِنَّ تَرْكِيْبَ ٱلطَّبِيْعَةِ رَدٌّ عَلَيْهِ ، وَنَقْصُهُ هُوَ رَدٌّ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَٱلْمُسْتَحِيلُ عَلَىٰ ٱلأَعْمَىٰ هُوَ أَيْسَرُ ٱلْمُمْكِنَاتِ عَلَىٰ ٱلْمُبْصِرِ .

فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ ذِكْرَ ٱلْبُرَاقِ وَٱلْمَلَكِ فِيْ أَسَاسِ قِصَّةِ ٱلإِسْرَاءِ وَٱلْمِعْرَاجِ هُوَ صِلَةُ ٱلْقِصَّةِ بِٱلْمُعْجِزَةِ ، وَهُوَ عَيْنُهُ صِلَتُهَا بِٱلْبُرْهَانِ ٱلْعِلْمِيِّ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُوْنَا فِيهَا لَمَا كَانَ لَهَا تَفْسِيرٌ .

* * *

وَٱلْقِصَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ تُثْبِتُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْوُجُوْدَ يَرِقُّ وَيَنْكَشِفُ وَيَسْتَضِيءُ كُلَّمَا سَمَا ٱلإِنْسَانُ بِرُوْحِهِ ، وَيَغْلُظُ وَيَتَكَاثَفُ وَيَتَحَجَّبُ كُلَّمَا نَزَلَ بِهَا ، وَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ قِصَّةٌ تَصِفُهُ بِمَظْهَرِهِ ٱلْكَوْنِيِّ فِيْ عَظَمَتِهِ ٱلْخَالِدَةِ كَمَا رَأَىٰ ذَاتَهُ ٱلْكَامِلَةَ فِيْ مَلَكُوْتِ ٱللهِ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ ، هِيَ كَٱلدَّرْسِ فِيْ أَنْ يَكُوْنَ لِقَلْبِ ٱلْمُؤْمِنِ مِعْرَاجٌ سَمَاوِيٌّ فَوْقَ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ، لِيَشْهَدَ بِبَصِيْرَتِهِ أَنْوَارَ ٱلْحَقِّ ، وَجَمَالَ ٱلْخَيْرِ ، وَتَجَدُّدَ ٱلأَعْمَالِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ فِيْ صُوَرِهَا ٱلْخَالِدَةِ ؛ فَيَكُوْنُ بِتَدَبُّرِهِ ٱلْقِصَّةَ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ وَيَنْزِلُ ؛ فَيَسْتَرِيحُ إِلَىٰ ٱلْحَقَائِقِ ٱلأَسَاسِيَّةِ لِهَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ، فَيَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ تَعَقُّدَ ٱلأَخْيِلَةِ ٱلَّذِي هُوَ أَسَاسُ ٱلْبَلَاءِ عَلَىٰ ٱلرُّوْحِ .

وَمَتَىٰ ٱسْتَنَارَ ٱلْقَلْبُ كَانَ حَيًّا فِيْ صَاحِبِهِ ، وَكَانَ حَيًّا فِيْ ٱلْوُجُوْدِ كُلِّهِ . وَمَتَىٰ سَلِمَتْ ٱلْحَيَاةُ مِنْ تَعْقِيْدِ ٱلْخَيَالِ ٱلْفَاسِدِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلإِنْسَانِ وَبَيْنَ ٱللهِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ ٱلْحَقُّ وَٱلْخَيْرُ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلنَّاسِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ ٱلرَّحْمَةُ وَٱلْحُبُّ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلإِنْسَانِيَّةُ ٱلْعُلْيَا(*)

مِنْ أَوْصَافِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ مُتَوَاصِلَ ٱلأَحْزَانِ ، دَائِمَ ٱلْفِكْرَةِ ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ ، طَوِيْلَ ٱلسَّكْتِ ، لَا يَتَكَلَّمُ فِيْ غَيْرِ حَاجَةٍ ، لَيْسَ بِٱلْجَافِيْ وَلَا ٱلْمَهِيْنِ ، يُعَظِّمُ ٱلنِّعْمَةَ وَإِنْ دَقَّتْ لَا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا ، وَلَا تُغْضِبُهُ ٱلدُّنْيَا وَلَا مَا كَانَ لَهَا ، فَإِذَا تُعُدِّيَ ٱلْحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَنْتَصِرَ لَهُ ، وَلَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا ؛ وَكَانَ خَافِضَ ٱلطَّرْفِ ، نَظَرُهُ إِلَىٰ ٱلأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ ، مَنْ رَآهُ بَدِيْهَةً هَابَهُ ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ ، لَا يَحْسَبُ جَلِيْسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، وَلَا يَطْوِيْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ بِشْرَهُ ، قَدْ وَسِعَ ٱلنَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا ، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِيْ ٱلْحَقِّ سَوَاءً ؛ يُحَسِّنُ ٱلْحَسَنَ وَيُقَوِّيْهِ ، وَيُقَبِّحُ ٱلْقَبِيْحَ وَيُوْهِيْهِ ، مُعْتَدِلُ ٱلأَمْرِ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ ؛ وَكَانَ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ حَيَاءً ، لَا يُثْبِتُ بَصَرَهُ فِيْ وَجْهِ أَحَدٍ ، لَهُ نُوْرٌ يَعْلُوْهُ كَأَنَّ ٱلشَّمْسَ تَجْرِيْ فِيْ وَجْهِهِ ، لَا يُؤْيِسُ رَاجِيَهُ ، وَلَا يُخَيِّبُ عَافِيَهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمَيْسُوْرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ ؛ أَجْوَدُ ٱلنَّاسِ بِٱلْخَيْرِ(١) .

* * *

صَلَّىٰ ٱللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ صَاحِبِ هَـٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ ٱلَّتِيْ لَا يَجِدُ ٱلْكَمَالُ ٱلإِنْسَانِيُّ مَذْهَبًا عَنْهَا وَلَا عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا يَجِدُ ٱلنَّقْصُ ٱلْبَشَرِيُّ مَسَاغًا إِلَيْهَا ، وَلَا إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا ؛ فَفِيْهَا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلتَّامُّ لِلإِنْسَانِيَّةِ ، كَمَا أَنَّ فِيهَا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلتَّامَّ لِلْحَقِّ ، وَمِنِ ٱجْتِمَاعِ هَـٰذَيْنِ يَكُوْنُ فِيهَا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلتَّامُّ لِلإِيْمَانِ .

هِيَ صِفَاتُ إِنْسَانِهَا ٱلْعَظِيْمِ ، وَقَدِ ٱجْتَمَعَتْ لَهُ لِتَأْخُذَ عَنْهُ ٱلْحَيَاةُ إِنْسَانِيَّتَهَا ٱلْعَالِيَةَ ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ مِنْ بُرْهَانَاتِ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ .

(*) « الرسالة » العدد : ٦٠ ، ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٧ أغسطس/آب سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٤٠٥ ـ ١٤٠٨ .

(١) جَمَعْنَا هَـٰذِهِ ٱلأَوْصَافَ مِنْ رِوَايَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَجَعَلْنَاهَا كَٱلْحَدِيْثِ ٱلْوَاحِدِ .

وَلَوْ جَمَعْتَ كُلَّ أَوْصَافِهِ ﷺ ، وَنَظَمْتَهَا بَعْضَهَا إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَٱعْتَبَرْتَهَا بِأَسْرَارِهَا ٱلْعِلْمِيَّةِ ـ لَرَأَيْتَ مِنْهَا كَوْنًا مَعْنَوِيًّا دَقِيقًا قَائِمًا بِهَـٰذَا ٱلْإِنْسَانِ ٱلْأَعْظَمِ ، كَمَا يَقُومُ هَـٰذَا ٱلْكَوْنُ ٱلْكَبِيرُ بِسُنَنِهِ وَأُصُولِ ٱلْحِكْمَةِ فِيهِ ، وَلَأَيْقَنْتَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلنَّبِيَّ ٱلْكَرِيمَ إِنْ هُوَ إِلَّا مُعْجَمٌ نَفْسِيٌّ حَيٌّ أَلَّفَتْهُ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ بِعِلْمٍ مِنْ عِلْمِهَا ، وَقُوَّةٍ مِنْ قُوَّتِهَا ، لِتَتَخَرَّجَ بِهِ ٱلْأُمَّةُ ٱلَّتِي تُبْدِعُ ٱلْعَالَمَ إِبْدَاعًا جَدِيدًا ، وَتُنْشِئَهُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْمَحْفُوظَةَ لَهُ فِي أَطْوَارِ كَمَالِهِ .

وَلَنْ تَرَىٰ فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ أَسْمَىٰ مِنِ ٱجْتِمَاعِ هَـٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ بَعْضِهَا إِلَىٰ بَعْضٍ ؛ وَإِنِّي لَأَكَادُ كُلَّمَا تَأَمَّلْتُهَا أَحْسَبُ هَـٰذَا ٱلسُّمُوَّ قَضَاءً وَقَدَرًا بِإِنْسَانٍ عَلَى ٱلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا . وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْإِنْسَانُ ٱلَّذِي خُلِقَ لِلدُّنْيَا لَا لِنَفْسِهِ ؛ فَهُوَ لَا يَنْمُو بِمَا يَكُونُ لَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْحَقِّ ، وَلَـٰكِنْ بِمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْوَاجِبَاتِ ، كَأَنَّمَا هُوَ حَقِيقَةٌ كَوْنِيَّةٌ تَعِيشُ عَيْشَهَا ، فَمَا تَكُونُ فِي ٱلْوُجُودِ إِلَّا لِتُقَرِّرَ وُجُودَهَا هِيَ ، وَلَا تَنْتَهِي حِينَ تَنْتَهِي بِذَاتِهَا إِلَّا لِتَبْدَأَ مَعَانِيهَا فِي غَيْرِهَا ، فَهُوَ ﷺ إِنْسَانٌ غُرِسَ فِي ٱلتَّارِيخِ غَرْسًا لِيَكُونَ حَدًّا لِزَمَنٍ وَأَوَّلًا لِزَمَنٍ بَعْدَهُ ، وَمَا كَانَتْ حَيَاتُهُ تِلْكَ إِلَّا طَرِيقَةَ غَرْسِهِ ، وَهُوَ أَبَدًا قَائِمٌ فِي مَكَانِهِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ ، إِذْ كَانَ ٱلزَّمَنُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ زَادَ فِي إِثْبَاتِهِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ فِي ٱلدُّنْيَا كَأَنَّهُ جِهَةٌ مِنَ ٱلْجِهَاتِ لَا إِنْسَانٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ، فَلَنْ يَتَغَيَّرَ أَوْ يُمْحَىٰ إِلَّا إِذَا تَغَيَّرَ أَوْ مُحِيَ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ .

وَنَحْنُ حِينَ نَقْرَأُ تِلْكَ ٱلصِّفَاتِ وَمَا فَاضَتْ بِهِ كُتُبُ ٱلشَّمَائِلِ مِنْ أَمْثَالِهَا ، لَا نَقْرَؤُهَا أَوْصَافًا وَلَا حِلْيَةً ، بَلْ نَرَاهَا صَفْحَةً إِلَـٰهِيَّةً مُصَنَّفَةً أَبْدَعَ تَصْنِيفٍ وَأَدَقَّهُ ، وَمِنْ وَرَاءِ تَأْلِيفِهَا تَفْسِيرٌ طَوِيلٌ لَا يَتَهَدَّىٰ ٱلْفِكْرُ ٱلْبَشَرِيُّ لِأَحْسَنَ مِنْهُ وَلَا أَصَحَّ وَلَا أَكْمَلَ ؛ فَقَدِ ٱجْتَمَعَتْ تِلْكَ ٱلصِّفَاتُ فِي إِنْسَانِهَا ٱجْتِمَاعَ ٱلْأَجْزَاءِ فِي ٱلْمَسْأَلَةِ ٱلرِّيَاضِيَّةِ : لَا يَنْبَغِي أَنْ تَزِيدَ أَوْ تَنْقُصَ ، إِذْ كَانَ فِي مَجْمُوعِهَا مَا وُجِدَ لَهُ مَجْمُوعُهَا .

وَيَكَادُ ٱلِارْتِبَاطُ بَيْنَ أَجْزَاءِ هَـٰذِهِ ٱلْمَسْأَلَةِ يَكُونُ هُوَ بِعَيْنِهِ صُورَةً لِلِارْتِبَاطِ بَيْنَ أَجْزَاءِ تِلْكَ ٱلصِّفَاتِ ٱلشَّرِيفَةِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا مَوْضُوعٌ وَضْعًا لَا يَتِمُّ ٱلْكُلُّ إِلَّا بِهِ ، حَتَّىٰ لَا مَوْضِعَ فِيهَا لِقِلَّةٍ أَوْ كَثْرَةٍ ؛ وَهَـٰذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ : « أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي » [رواه أبو سعيد ابن السمعاني في « أدب الإملاء » من حديث ابن مسعود] ، وَأَنْتَ إِذَا دَقَّقْتَ فِي هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَدْرَكْتَ مِنْ مَعَانِيهِ أَنَّ هُنَاكَ طَبِيعَةً أَخْلَاقِيَّةً مُفْرَدَةً تَجْرِي عَلَىٰ قَانُونِهَا ٱلَّذِي وَضَعَهُ ٱللهُ لَهَا وَأَحْكَمَهَا بِهِ .

وَأَعْجَبُ مَا يُدْهِشُنَا مِنْ مَجْمُوعِ صِفَاتِهِ ﷺ أَنَّ فِيهَا دَلِيلًا بَيِّنًا عَلَىٰ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ خِلْقَةً مُتَمَيِّزَةً بِنَفْسِهَا ، كَخِلْقَةِ ٱلْقَلْبِ ٱلْإِنْسَانِيِّ : نِظَامُهُ حَيَاتُهُ وَحَيَاتُهُ نِظَامُهُ ، وَكَأَنَّمَا ٱعْتَرَتْهُ حَالَةٌ نَفْسِيَّةٌ كَٱلَّتِي تَعْتَرِي ٱلْقَلْبَ فِي ٱسْتِشْعَارِ ٱلْخَطَرِ فَتُخْرِجُهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ إِلَىٰ أَقْوَىٰ مِنْهَا ، فَلَا يَزَالُ يُمِدُّ أَعْضَاءَ ٱلْجِسْمِ بِمَدَدٍ لَا يَنْفَدُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ وَٱلصَّبْرِ ، يَجْعَلُ ٱلْحَيَاةَ فِيهَا عَلَىٰ أَضْعَافِهَا كَأَنَّهَا حَيَاةٌ كَانَتْ مَخْبُوءَةً وَظَهَرَتْ بَغْتَةً ؛ وَفِي هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ تَتَّجِهُ غَرَائِزُ ٱلنَّفْسِ كُلُّهَا إِلَىٰ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ كَأَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ بِمِيزَانٍ ، مَضْبُوطَةٌ بِقِيَاسٍ ؛ فَتَرْجِعُ عَلَىٰ تَنَاقُضِهَا وَٱخْتِلَافِهَا مُتَعَاوِنَةً يُؤَازِرُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَكَانَ قَانُونُهَا ٱلطَّبِيعِيُّ أَنْ تَتَجَاذَبَ وَتَتَسَاقَطَ وَتُفَسِّرَ ٱلْوَاحِدَةُ مِنْهَا عَمَلَ ٱلْأُخْرَىٰ ، فَيَجِيءُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَضِدُّهُ مَعًا : كَٱلصِّدْقِ وَٱلْكَذِبِ ، وَٱلطَّمَعِ وَٱلْقَنَاعَةِ ، وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلثَّائِرَةِ وَٱلْخُمُودِ ٱلسَّاكِنِ ، إِلَىٰ آخِرِ مَا تَعُدُّ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْغَرَائِزِ ؛ وَلَـٰكِنَّهَا فِي ٱسْتِشْعَارِ ٱلْخَطَرِ تَكُونُ كَٱلْأَشْبَاهِ لَا كَٱلْأَضْدَادِ ، فَيَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَيُتَمِّمُ ٱلنَّقِيضُ مِنْهَا نَقِيضَهُ ، وَتَجْرِي كُلُّهَا فِي قَانُونٍ وَاحِدٍ : هُوَ ٱلدِّفَاعُ بِأَجْزَائِهَا عَنْ مَجْمُوعِهَا ؛ فَتَرَى ٱلنَّازِعَ مِنْهَا وَإِنَّهُ لَمُسْتَقِرٌّ فِي أَشَدَّ مِنَ ٱلْقَيْدِ ، وَكَأَنَّ فِيهِ غَيْرَ طَبِيعَتِهِ .

وَهَلْ يُنْبِئُكَ مَجْمُوعُ صِفَاتِهِ ﷺ إِلَّا أَنَّهُ يَعِيشُ مَعِيشَةَ ٱلْقَلْبِ إِذَا ٱخْتَلَفَ مَا حَوْلَهُ وَفَجَأَتْهُ بَغَتَاتُ ٱلْوُجُودِ فَتَجَاوَزَ أَنْ يَكُونَ مَنْبَعًا لِلْحَيَاةِ إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْحَيَاةِ فِي مَنْبَعِهَا ؟

وَتِلْكَ ٱلْحَالَةُ ـ كَمَا مَرَّ بِكَ ـ تَجْعَلُ وُجُودَ ٱلْإِنْسَانِ هُوَ وُجُودَ إِرَادَتِهِ وَعَقْلِهِ ، لَا وُجُودَ شَهَوَاتِهِ وَغَرَائِزِهِ ؛ وَكَذَٰلِكَ عَاشَ نَبِيُّنَا ﷺ ؛ فَهُوَ مُدَّةَ حَيَاتِهِ فِي وُجُودِ إِرَادَتِهِ لَا غَيْرِهَا ، حَتَّىٰ لَيْسَ عَلَيْهِ سَبِيلٌ لِغَمِيزَةٍ أَوْ لَائِمَةٍ ، كَأَنَّهُ خُلُقٌ تَشُدُّهُ نِيَّةٌ مُسْتَيْقِظَةٌ قَدْ نَبَّهَهَا مَا يُنَبِّهُ ٱلنَّفْسَ مِنَ ٱلْغَرَرِ وَٱلْخَطَرِ . وَلَعَلَّ هَـٰذَا ٱلشُّعُورَ فِي نَفْسِهِ ﷺ هُوَ ٱلتَّفْسِيرُ لِقَوْلِهِ : « نِيَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ » [رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ؛ والطبراني في « المعجم الكبير »] . إِلَىٰ أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِمَّا يَجْرِي فِي مَعْنَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْجَامِعَةِ ؛ يُرِيدُ بِهَا : أَنَّ نِيَّةَ ٱلْمُؤْمِنِ لَا تَنْطَوِي إِلَّا عَلَى ٱلْخَيْرِ ٱلْكَامِلِ ، فَهُوَ ـ مَا دَامَتْ نِيَّتُهُ عَلَىٰ صَلَاحِهَا وَسِرُّهُ عَلَىٰ إِخْلَاصِهِ ـ لَا يَعُدُّ ٱلْيَسِيرَ مِنَ ٱلشَّرِّ يَسِيرًا ، وَلَا يَرَى ٱلْكَثِيرَ مِنَ ٱلْخَيْرِ كَثِيرًا ؛ فَٱلْأَصْلُ ٱلْقَائِمُ فِي تِلْكَ ٱلنِّيَّةِ ٱلْمُؤْمِنَةِ أَلَّا يَبْدَأَ ٱلشَّرُّ كَيْ لَا يُوجَدَ ، وَأَلَّا يَنْتَهِيَ ٱلْخَيْرُ كَيْ لَا يَفْنَىٰ ؛ فَٱلْمُؤْمِنُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْكَمَالِ أَبَدًا ، فِي حِينِ أَنَّ عَمَلَهُ بِطَبِيعَتِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ يَتَنَاوَلُ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ جَمِيعًا ، ثُمَّ

لَا يَكُوْنُ إِلَّا عَمَلًا إِنْسَانِيًّا عَلَىٰ نَقْصٍ وَٱضْطِرَابٍ وَٱلْتِوَاءٍ .

وَقَدْ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْمُؤْمِنُ أَنْ يَأْتِيَ ٱلْخَيْرَ فِيْ بَعْضِ أَحْوَالِهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ دَائِمًا أَنْ يَنْوِيَهُ وَيَرْغَبَ فِيْهِ وَيَعْزِمَ عَلَيْهِ ، لِيُحَقِّقَ ضَمِيْرُهُ ٱلطَّيِّبَ فِيْ كُلِّ مَا يَهُمُّ بِهِ ؛ وَيَحْصُرَ أَفْكَارَهُ فِيْ قَانُوْنِ نِيَّتِهِ ٱلْمُؤْمِنَةِ . وَهَـٰذَا هُوَ ٱلْأَسَاسُ فِيْ عِلْمِ ٱلْأَخْلَاقِ ، لَا أَسَاسَ مِنْ دُوْنِهِ .

وَٱلنِّيَّةُ مِنْ بَعْدُ هِيَ حَارِسُ ٱلْعَمَلِ ؛ فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُذْعِنَ وَأَنْ يَأْبَىٰ ، وَمِنْ ثَمَّ تَكُوْنُ هَـٰذِهِ ٱلنِّيَّةُ رَدًّا وَمُدَافَعَةً مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَٱسْتِجَابَةً وَمُطَاوَعَةً مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْأُخْرَىٰ ؛ فَهِيَ عَلَىٰ ٱلْحَقِيْقَةِ مَتَىٰ صَلُحَتْ كَانَتِ ٱسْتِقْلَالًا تَامًّا لِلْإِرَادَةِ ، وَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ ضَبْطًا لِهَـٰذِهِ ٱلْإِرَادَةِ عَلَىٰ حَالٍ وَاحِدَةٍ هِيَ ٱلَّتِيْ يَنْتَظِمُ بِهَا قَانُوْنُ ٱلْمَبْدَإِ ٱلسَّامِيْ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَا ضَابِطَ لِصِحَّةِ ٱلْعَمَلِ وَٱسْتِقَامَتِهِ إِلَّا ٱلنِّيَّةُ ٱلصَّحِيْحَةُ ٱلْمُسْتَقِيْمَةُ ؛ فَٱلتَّزْوِيْرُ وَٱلتَّلْبِيْسُ كِلَاهُمَا سَهْلٌ مَيْسُوْرٌ فِي ٱلْأَعْمَالِ ، وَلَـٰكِنَّهُمَا مُسْتَحِيْلَانِ فِي ٱلنِّيَّةِ إِذَا خَلَصَتْ .

وَهِيَ كَذَلِكَ ضَابِطٌ لِلْفَضَائِلِ تُوَجِّهُ ٱلْقُلُوْبَ عَلَىٰ ٱخْتِلَافِهَا وَتَفَاوُتِهَا ٱتِّجَاهًا وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ ؛ فَيَكُوْنُ طَرِيْقُ مَا بَيْنَ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْإِنْسَانِ ، مِنْ نَاحِيَةِ ٱلطَّرِيْقِ مَا بَيْنَ ٱلْإِنْسَانِ وَبَيْنَ ٱللهِ .

وَأَشْوَاقُ ٱلرُّوْحِ بِطَبِيْعَتِهَا لَا تَنْتَهِيْ ، فَيُعَارِضُهَا ٱلْجِسْمُ بِجَعْلِ حَاجَاتِهِ غَيْرَ مُنْتَهِيَةٍ ؛ يُحَاوِلُ أَنْ يَطْمِسَ بِهَـٰذِهِ عَلَىٰ تِلْكَ ، وَأَنْ يُغَلِّبَ ٱلْحَيَوَانِيَّةَ عَلَىٰ ٱلرُّوْحَانِيَّةِ ، فَإِذَا كَانَتِ ٱلنِّيَّةُ مُسْتَيْقِظَةً كَفَّتْهُ وَأَمَاتَتْ أَكْثَرَ نَزَعَاتِهِ ، وَوَضَعَتْ لِكُلِّ حَاجَةٍ حَدًّا وَنِهَايَةً ؛ وَبِذَلِكَ تَرْجِعُ ٱلنِّيَّةُ إِلَىٰ أَنْ تَكُوْنَ قُوَّةً فِي ٱلنَّفْسِ يَخْرُجُ بِهَا ٱلْإِنْسَانُ عَنْ كَثِيْرٍ مِمَّا يَحُدُّهُ مِنْ جِسْمِهِ ، لِيَخْرُجَ بِذَلِكَ عَنْ كَثِيْرٍ مِمَّا يَحُدُّهُ مِنْ مَعَانِي ٱلْأَرْضِ . . .

وَهِيَ بَعْدَ هَـٰذَا كُلِّهِ تَحْمِلُ ٱلْإِنْسَانَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ وَاجِبِهِ كَأَنَّهُ رَقِيْبٌ حَيٌّ فِيْ قَلْبِهِ ، لَا يُرَائِيْهِ وَلَا يُجَامِلُهُ ، وَلَا يُخْدَعُ مِنْ تَأْوِيْلٍ ، وَلَا يُغَرُّ بِفَلْسَفَةٍ وَلَا تَزْيِيْنٍ ، وَلَا يُسْكِتُهُ مَا تُسَوِّلُ ٱلنَّفْسُ ، وَلَا يَزَالُ دَائِمًا يَقُوْلُ لِلْإِنْسَانِ فِيْ قَلْبِهِ : إِنَّ ٱلْخَطَأَ أَكْبَرَ ٱلْخَطَإِ أَنْ تُنَظِّمَ ٱلْحَيَاةَ مِنْ حَوْلِكَ وَتَتْرُكَ ٱلْفَوْضَىٰ فِيْ قَلْبِكَ .

وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ فِيْ مَعَانِي ٱلنِّيَّةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ تَجْعَلُ بَاطِنَ ٱلْجِسْمِ مُتَسَاوِقًا مَعَ ظَاهِرِهِ ،

فَتَتَعَاوَنُ ٱلْغَرَائِزُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ فِي ٱلنَّفْسِ تَعَاوُنًا سَهْلًا طَبِيْعِيًّا مُطَّرِدًا ، كَمَا تَتَعَاوَنُ أَعْضَاءُ ٱلْجِسْمِ عَلَىٰ ٱخْتِلَافِهَا فِيْ ٱطِّرَادٍ وَسُهُوْلَةٍ وَطَبِيْعَةٍ .

* * *

وَكُلُّ صِفَاتِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ـ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَمَا لَمْ نَذْكُرْهُ ـ مَتَىٰ ٱعْتُبِرَتْ بِذَلِكَ ٱلْأَصْلِ ٱلَّذِيْ بَيَّنَّاهُ ٱنْتَظَمَهَا جَمِيْعًا ، فَجَاءَ بَعْضُهَا تَمَامًا عَلَىٰ بَعْضٍ فِيْ نَسَقٍ رِيَاضِيٍّ عَجِيْبٍ ، وَظَهَرَتْ حِكْمَةُ كُلٍّ مِنْهَا وَاضِحَةً مَكْشُوْفَةً ، وَرَأَيْتَهَا فِيْ مَجْمُوْعِهَا تَصِفُ لَكَ عُمْرًا هَنْدَسِيًّا دَقِيْقًا قَدْ بَلَغَ ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلْكَمَالِ وَٱلرَّوْعَةِ وَٱلدِّقَّةِ ، لَا يُعَدُّ جُزْءٌ مِنْهُ جُزْءًا ، بَلْ كُلُّهُ أَجْزَاؤُهُ ، وَأَجْزَاؤُهُ كُلُّهُ ؛ كَٱلْوَضْعِ ٱلْهَنْدَسِيِّ : إِمَّا أَنْ يَكُوْنَ بِكُلِّهِ ، وَإِمَّا أَلَّا تَكُوْنَ فِيْهِ ٱلْهَنْدَسَةُ كُلُّهَا .

وَلَيْسَ مَجْمُوْعُ تِلْكَ ٱلصِّفَاتِ فِيْ مَعْنَاهُ إِلَّا صَنْعَةَ ٱلْإِنْسَانِ صَنْعَةً جَدِيْدَةً تُخْرِجُهُ مَوْجُوْدًا مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَتَكْسِرُ ٱلْقَالَبَ ٱلْأَرْضِيَّ ٱلَّذِيْ صُبَّ فِيْهِ وَتُفْرِغُهُ فِيْ مِثْلِ قَالَبِ ٱلْكَوْنِ ، فَإِذَا هُوَ غَيْرُ هَـٰذَا ٱلْإِنْسَانِ ٱلضَّيِّقِ ٱلْمُنْحَصِرِ فِيْ جِسْمِهِ وَدَوَاعِيْ جِسْمِهِ ، فَلَا تُخْضِعُهُ ٱلْمَادَّةُ ، وَلَا يُؤْتَىٰ مِنْ سُوْءِ نَظَرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَغُرُّهُ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا يُمْسِكُهُ ٱلزَّمَانُ ؛ إِذْ كَانَتْ هَـٰذِهِ هِيَ صِفَاتِ ٱلْمُسْتَعْبَدِ بِأَهْوَائِهِ لَا ٱلْحُرِّ فِيْهَا ، وَٱلْخَاضِعِ بِنَفْسِهِ لَا ٱلْمُسْتَقِلِّ بِهَا ، وَٱلْمَقْبُوْرِ فِيْ إِنْسَانِيَّتِهِ لَا ٱلْحَيِّ فَوْقَ إِنْسَانِيَّتِهِ ؛ وَمِثْلُ هَـٰذَا ٱلْمُسْتَعْبَدِ ٱلْخَاضِعِ ٱلْمَقْبُوْرِ لَا وُجُوْدَ لَهُ إِلَّا فِيْ حُكْمِ حَوَاسِّهِ ، فَعَمَلُهُ مَا يَعِيْشُ بِهِ لَا مَا يَعِيْشُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَيَتَّصِلُ بِكُلِّ شَيْءٍ ٱتِّصَالًا مَبْتُوْرًا يَنْتَهِيْ فِيْ هَوًى مِنْ أَهْوَاءِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلَّذِيْ فِيْهِ .

وَمِنَ ٱلْمُقَابَلَةِ ٱلْعَجِيْبَةِ أَنْ يَكُوْنَ فِي ٱلْإِنْسَانِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ حَيَوَانٌ ، تُقَابِلُهُ ٱلْحِكْمَةُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلْأَلِيْفِ بِإِنْسَانٍ ، وَحُكْمُهُمَا وَاحِدٌ وَمَنْطِقُهُمَا لَا يَخْتَلِفُ . فَلَوْ أَنَّكَ سَأَلْتَ حَيَوَانَ ٱلْأَعْصَابِ عَنْ صَاحِبِهِ ٱلْإِنْسَانِ لَقَالَ لَكَ : هُوَ غَلَّتِيْ وَمَزْرَعَتِيْ . وَلَوْ سَأَلْتَ كَلْبًا عَنْ حُبِّهِ صَاحِبَهُ وَمَبْلَغِ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ فِيْ نَفْسِهِ لَمَا زَادَ فِيْ جَوَابِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ يُحِبُّهُ حُبَّ ٱللُّقْمَةِ وَٱلْعَظْمَةِ . . .

وَمَتَىٰ كَانَ ٱلْإِنْسَانُ فِيْ حُكْمِ حَوَاسِّهِ لَمْ تَعُدِ ٱلْأَشْيَاءُ عِنْدَهُ كَمَا هِيَ فِيْ نَفْسِهَا بِمَعَانِيْهَا ٱلطَّبِيْعِيَّةِ ٱلْمَحْدُوْدَةِ ، وَٱنْقَلَبَتْ كَمَا هِيَ فِيْ وَهْمِهِ بِمَعَانٍ مُتَفَاوِتَةٍ مُضْطَرِبَةٍ ، فَلَا يَشْعُرُ ٱلْمَرْءُ بِٱئْتِلَافِ ٱلْوُجُوْدِ وَتَعَاوُنِهِ ، وَلَـٰكِنْ بِٱخْتِلَافِهِ وَتَنَاقُضِهِ ، فَمِنْ ثَمَّ لَا تَكُوْنُ أَسْبَابُ ٱللَّذَّةِ إِلَّا

مِنْ أَسْبَابِ ٱلْأَلَمِ ، وَيَدْخُلُ فِيْ كُلِّ حُبٍّ بُغْضٌ ، وَفِيْ كُلِّ رَغْبَةٍ طَمَعٌ ، وَفِيْ كُلِّ خَيْرٍ شَرٌّ ، وَفِيْ كُلِّ صَرِيْحٍ خَبِيْءٌ ، وَهَلُمَّ جَرًّا ؛ إِذْ لَا بُدَّ مِنْ هَـٰذَا كُلِّهِ مَتَىٰ غَلَبَ ٱلْفَانِيْ عَلَىٰ ٱلْبَاقِيْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ كُلِّ هَـٰذَا فِيْ تَمْثِيْلِ رِوَايَةِ ٱلْحَوَاسِّ ٱلْخَادِعَةِ ٱلَّتِيْ أَسَاسُهَا ٱلتَّغَيُّرُ وَٱلتَّقَلُّبُ ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّ ٱلنَّفْسَ إِنَّمَا تَعِيْشُ بِهَا فِيْ ظَاهِرٍ مِنَ ٱلْحَيَاةِ لَا فِيْ ٱلْحَيَاةِ نَفْسِهَا .

وَهَـٰذَا ٱلْخِدَاعُ جَاعِلٌ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَشْيَاءِ ٱلنَّفْسِ لَا يَبْدَأُ إِلَّا لِيَنْتَهِيَ ، ثُمَّ لَا يَنْتَهِيْ إِلَّا لِيَبْدَأَ ؛ فَمَا تَزَالُ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسُ طَامِعَةً فِيْمَا لَا تَنَالُهُ ، وَلَا يَزَالُ مِنْ ذَٰلِكَ مَصْدَرٌ لِآلَامِهَا ٱلْحِسِّيَّةِ ؛ ثُمَّ إِذَا هِيَ نَالَتْ مَنَالَتَهَا سَئِمَتْ ، فَلَا يَزَالُ مِنْ ذَٰلِكَ مَصْدَرٌ آخَرُ لِآلَامِهَا ٱلْمَعْنَوِيَّةِ . وَلَنْ يَجِيْءَ ٱلصَّحِيْحُ مِنْ غَيْرِ ٱلصَّحِيْحِ ؛ فَٱلْكَوْنُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا كَذِبًا فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلْكَاذِبَةِ بِحَوَاسِّهَا .

وَلِذَا كَانَ أَخَصُّ أَوْصَافِهِ ﷺ رَاجِعًا إِلَىٰ خُرُوْجِهِ مِنْ سُلْطَانِ نَفْسِهِ ، فَلَا يَغْضَبُ لَهَا ، وَلَا يُطْلِقُهَا مِنَ ٱلدُّنْيَا فِيْمَا تَذُمُّهُ أَوْ تَمْدَحُهُ ، وَلَا يُحِبُّ فِيْهَا ، وَلَا يُبْغِضُ مِنْ أَجْلِهَا ، وَلَا يُهَاوِنُهَا ، وَلَا يَسْتَلِيْنُ لَهَا فِيْ مَأْكَلٍ وَلَا مَلْبَسٍ ، وَلَا يَأْخُذُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْإِيْمَانِ بِٱللهِ وَٱلْإِيْمَانِ بِٱلْإِنْسَانِيَّةِ ؛ فَأَفْرَاحُهَا أَحْزَانُهَا ، وَآمَالُهَا أَشْوَاقُهَا ، وَأَمْلَاكُهَا أَعْمَالُهَا ، وَحِسَابُهَا فِيْ طَبِيْعَتِهَا ، وَحَوَادِثُهَا مِنَ ٱلْعَقْلِ لَا مِنَ ٱلْحَوَاسِّ ، وَعَظَمَتُهَا إِثْبَاتُ ذَاتِهَا فِيْ غَيْرِهَا ، لَا إِثْبَاتُ غَيْرِهَا فِيْ ذَاتِهَا ؛ وَغَايَتُهَا فِيْ ٱلْبَاقِيْ لَا ٱلزَّائِلِ ، وَفِيْ ٱلْخَالِدِ لَا ٱلْفَانِيْ . وَمَا دَامَ ٱلْحَاضِرُ مُتَحَرِّكًا فَهُوَ طَارِئٌ عَابِرٌ أَوْشَكُ أُمُوْرِ ٱلدُّنْيَا زَوَالًا ، وَٱلْعَمَلُ لَهُ عَلَىٰ مِقْدَارِهِ فِيْ قِلَّةِ لُبْثِهِ وَهَوَانِ أَمْرِهِ ، وَٱلِاهْتِمَامُ أَبَدًا بِمَا وَرَاءَهُ لَا بِهِ .

فَأَوَّلُ ٱلنَّفْسِ ٱلنِّيَّةُ ٱلْعَامِلَةُ لِآخِرَتِهَا ، وَآخِرُ ٱلنَّفْسِ مَا تُؤَدِّيْ إِلَيْهِ أَعْمَالُ هَـٰذِهِ ٱلنِّيَّةِ ؛ فَلَيْسَ فِيْ إِنْسَانِ ٱلدُّنْيَا إِلَّا إِنْسَانُ ٱلْعَالَمِ ٱلْآخِرِ ؛ وَبِهَـٰذَا يُقَدَّرُ صَمْتُهُ وَكَلَامُهُ ، وَحَرَكَتُهُ وَسُكُوْنُهُ ، وَمَا يَأْتِيْ وَمَا يَدَعُ ، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ٱلِاعْتِبَارِ إِنَّمَا هُوَ صُوْرَةُ ٱلْحَقِيْقَةِ ٱلْعَامِلَةِ فِيْهِ .

وَجِمَاعُ ٱلْأَمْرِ أَلَّا يَكُوْنَ مُسْتَقْبَلُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَامَةَ ٱسْتِهْزَاءٍ بِجَانِبِ مَاضِيْهِ ، وَلَا عَلَامَةَ ٱسْتِفْهَامٍ ، وَلَا عَلَامَةَ إِنْكَارٍ .

* * *

وَتَدُلُّ صِفَاتُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ بِٱجْتِمَاعِهَا وَتَسَاوُقِهَا عَلَىٰ حَقِيْقَةٍ عُظْمَىٰ لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَيْهَا أَحَدٌ ؛ وَهِيَ أَنَّ جَمِيْعَ خَصَائِصِهِ ٱلنَّفْسِيَّةِ مُرْهَفَةٌ مُتَيَقِّظَةٌ ، وَهَـٰذَا مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوْعُهُ وَإِمْكَانُهُ ؛ فَإِنَّ ٱلرَّجُلَ مِنَ ٱلنَّاسِ لَيَكُوْنُ حَيًّا بِٱلْحَيَاةِ ، وَلَـٰكِنَّ جَوَانِبَ كَثِيْرَةً مِنْ نَفْسِهِ قَدْ طَاحَ بِهَا ٱلْمَوْتُ ، أَوْ هِيَ مَرِيْضَةٌ وَذَٰلِكَ أَوَّلُ ٱلْمَوْتِ ؛ أَوْ غَافِلَةٌ وَذَٰلِكَ شِبْهُ ٱلْمَوْتِ ؛ أَمَّا ٱلْحَيُّ ٱلْعَظِيْمُ فَهُوَ ٱلَّذِيْ يَحْيَا بِأَكْثَرِ خَصَائِصِ نَفْسِهِ ، وَأَمَّا ٱلْحَيُّ ٱلْأَعْظَمُ فَهُوَ ٱلَّذِيْ يَحْيَا بِجَمِيْعِ خَصَائِصِهَا ، تَمْلَؤُهُ ٱلْحَيَاةُ فَيَمْلَأُ ٱلْحَيَاةَ ، وَيَتَمَدَّدُ ٱلسِّرُّ فِيْهِ لِيُرِيَهُ حَقَائِقَ ٱلْأَشْيَاءِ وَيَهْدِيَهُ وَيَدُلَّهُ ، فَيَكُوْنُ بِنَفْسِهِ رُؤْيَةً لِلنَّاسِ وَهِدَايَةً وَدَلَالَةً ؛ وَمِثْلُ هَـٰذَا يَعْظُمُ ثُمَّ يَعْظُمُ حَتَّىٰ لَيُرَىٰ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ كَٱلْفَرْقِ بَيْنَ نُوْرٍ لَبِسَ ٱللَّحْمَ وَٱلدَّمَ ، وَبَيْنَ تُرَابٍ لَبِسَ ٱلدَّمَ وَٱللَّحْمَ .

وَذَٰلِكَ لَا يَكَادُ يَتَّفِقُ إِلَّا فِيْ مَرَاتِبَ أَعْلَاهَا ٱلِامْتِيَازُ فِيْ ٱلنُّبُوَّةِ ، ثُمَّ { تَدْنُوْ إِلَىٰ } ٱلنُّبُوَّةِ ؛ ثُمَّ تَنْزِلُ إِلَىٰ ٱلِامْتِيَازِ فِيْ ٱلْحِكْمَةِ ؛ ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ ٱلشِّعْرِ . فَأَكْبَرُ ٱلشُّعَرَاءِ قَاطِبَةً كَٱلنَّبِيِّ فِيْ مَعْنَاهُ إِلَّا أَنَّهُ نَبِيٌّ صَغِيْرٌ ، وَإِلَّا أَنَّهُ فِيْ حُدُوْدِ قَلْبِهِ .

وَهَـٰذِهِ ٱلْقُوَىٰ ٱلثَّلَاثُ هِيَ ٱلَّتِيْ أَبْدَعَتْهَا ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ لِتَحْوِيْلِ ٱلْحَيَاةِ وَٱلسُّمُوِّ بِهَا ؛ فَٱلشَّاعِرُ يَسْتَوْحِيْ ٱلْجَمَالَ إِذَا تَأَلَّهَ ٱلْجَمَالُ فِيْ قَلْبِهِ ، وَٱلْحَكِيْمُ يَسْتَوْحِيْ ٱلْحَقِيْقَةَ إِذَا تَأَلَّهَتْ فِيْ نَفْسِهِ ، وَٱلنَّبِيُّ يَسْتَوْحِيْ ٱلْأُلُوْهِيَّةَ نَفْسَهَا .

* * *

« كَانَ ﷺ مُتَوَاصِلَ ٱلْأَحْزَانِ » وَلَـٰكِنَّهَا أَحْزَانُ ٱلنُّبُوَّةِ تَكْسُو ٱلْحَيَاةَ فَرَحَ ٱلنَّفْسِ ٱلْكَبِيْرَةِ ؛ وَهُوَ فَرَحٌ كُلُّهُ حُزْنٌ وَتَأَمُّلٌ ، وَفِكْرَةٌ وَخُشُوْعٌ ، وَطُهْرٌ وَفَضِيْلَةٌ ؛ وَمَا فَرَحُ أَعْظَمِ ٱلشُّعَرَاءِ بِطَرَبِ ٱلْوُجُوْدِ وَجَمَالِ ٱلْمَوْجُوْدَاتِ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيْلٌ مِنْ حُزْنِ ٱلنَّبِيِّ .

« وَكَانَ دَائِمَ ٱلْفِكْرَةِ لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ » إِذْ هُوَ مُكَلَّفٌ أَنْ يَصْنَعَ ٱلْإِنْسَانَ ٱلْجَدِيْدَ وَيُنَقِّحَ ٱلْآدَمِيَّةَ فِيْهِ . وَفِكْرَةُ ٱلنَّبِيِّ هِيَ مَعِيْشَتُهُ بِنَفْسِهِ مَعَ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْعُلْيَا ، إِذْ لَا يَرَىٰ أَكْثَرَهَا تَعِيْشُ فِيْ ٱلنَّاسِ ، وَهِيَ ٱلْفَرْدِيَّةُ وَٱسْتِقْلَالُهَا وَسُمُوُّهَا لِأَنَّهَا إِطَاقَةُ ٱلنَّفْسِ ٱلْكَبِيْرَةِ لِوَحْدَتِهَا ، بِخِلَافِ ٱلْأَنْفُسِ ٱلضَّعِيْفَةِ ٱلَّتِيْ لَا تُطِيْقُهَا ، فَدَأْبُهَا أَبَدًا أَنْ تَبْحَثَ عَمَّا تَسْتَعْبِدُ لَهُ ، أَوْ تَنْسَىٰ ذَاتَهَا فِيْهِ ، أَوْ تَسْتَرِيْحَ إِلَيْهِ مِنْ ذَاتِهَا . وَمَتَىٰ كَانَتِ ٱلنَّفْسُ فَارِغَةً كَانَ تَفْكِيْرُهَا مُضَاعَفَةً لِفَرَاغِهَا ، فَهِيَ تَفِرُّ مِنْهُ إِلَىٰ مَا يُلْهِيْهَا عَنْهُ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَظِيْمَ يَعِيْشُ فِيْ ٱمْتِلَاءِ نَفْسِهِ ؛ وَعَالَمُهُ

ٱلدَّاخِلِيُّ تُسَمِّيهِ ٱللُّغَةُ أَحْيَانًا : ٱلْفِكْرَةَ ؛ وَتُسَمِّيهِ أَحْيَانًا : ٱلصَّمْتَ .

« وَكَانَ ﷺ طَوِيلَ ٱلسَّكْتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ » ، وَمِنَ ٱلصَّمْتِ أَنْوَاعٌ : فَنَوْعٌ يَكُونُ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ ٱلْفَهْمِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَبَيْنَ أَسْرَارِ مَا يُحِيطُ بِهِ ؛ وَنَوْعٌ يَغْشَى ٱلْإِنْسَانَ ٱلْعَظِيمَ لِيَكُونَ عَلَامَةً عَلَىٰ رَهْبَةِ ٱلسِّرِّ ٱلَّذِي فِي نَفْسِهِ ٱلْعَظِيمَةِ ؛ وَنَوْعٌ ثَالِثٌ يَكُونُ فِي صَاحِبِهِ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ ٱلْحُكْمِ عَلَىٰ صَمْتِ ٱلنَّاسِ وَكَلَامِهِمْ ؛ وَنَوْعٌ رَابِعٌ هُوَ كَٱلْفَصْلِ بَيْنَ أَعْمَالِ ٱلْجَسَدِ وَبَيْنَ ٱلرُّوحِ فِي سَاعَةِ أَعْمَالِهَا ؛ وَنَوْعٌ خَامِسٌ يَكُونُ صَمْتًا عَلَىٰ دَوِيٍّ تَحْتَهُ يُشْبِهُ نَوْمًا سَاكِنًا عَلَىٰ أَحْلَامٍ جَمِيلَةٍ تَتَحَرَّكُ .

* * *

عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلنَّمَطِ يَجِبُ أَنْ تُفَسَّرَ كُلُّ أَوْصَافِهِ ﷺ ؛ فَهِيَ بِمَجْمُوعِهَا طَابَعٌ إِلَـٰهِيٌّ عَلَىٰ حَيَاتِهِ ٱلشَّرِيفَةِ ، يُثْبِتُ لِلدُّنْيَا بِكُلِّ بُرْهَانَاتِ[1] ٱلْعِلْمِ وَٱلْفَلْسَفَةِ أَنَّهُ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْأَفْضَلُ ، وَأَنَّهُ ٱلْأَقْدَرُ ، وَأَنَّهُ ٱلْأَقْوَىٰ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « بَرَاهِين » بَدَلًا مِنْ : « بُرْهَانَات » .

سُمُوُّ ٱلْفَقْرِ فِي ٱلْمُصْلِحِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ ٱلْأَعْظَمِ (*)

١

كَانَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مَا يَصِفُ ٱلتَّارِيخُ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْقِلَّةِ ، وَلَـٰكِنَّهُ كَانَ بِطَبِيعَتِهِ فَوْقَ ٱلِاسْتِغْنَاءِ ، فَهُوَ فَقِيرٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِٱلْفَقْرِ ، وَلَا تَنَالُهُ ٱلْمَعَانِي ٱلنَّفْسِيَّةُ ٱلَّتِي تَعْلُو بِعَرَضٍ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَتَنْزِلُ بِعَرَضٍ ، فَمَا كَانَتْ بِهِ خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَدْمًا فِي ٱلْحَيَاةِ فَيُرَمِّمَهَا ٱلْمَالُ ، وَلَا كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي سَعْيٍ يُنْفِقُ فِيهِ مِنْ نَفْسِهِ ٱلْكَبِيرَةِ لِيَجْمَعَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا كَانَ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ ٱلْبَعِيدِ وَٱلْقَرِيبِ مِنْ طَمَعٍ أَدْرَكَ أَوْ طَمَعٍ أَخْفَقَ ، وَلَا نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِي ٱلْحِسْبَةِ وَٱلتَّدْبِيرِ لِتَدِرَّ مَعِيشَتُهُ فَيَحْتَلِبَهَا ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً ، وَلَا ٱسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ ٱلْعَظِيمِ مَا يَجْعَلُ لِلدِّينَارِ مَعْنَى ٱلدِّينَارِ وَلَا لِلدِّرْهَمِ مَعْنَى ٱلدِّرْهَمِ ؛ فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى ٱلْحَيَّ لِهَـٰذَا ٱلْمَالِ هُوَ إِظْهَارُ ٱلنَّفْسِ رَابِيَةً مُتَجَسِّمَةً فِي صُورَةٍ تَكْبُرُ عَلَىٰ قَدْرٍ مِنَ ٱلسَّعَةِ وَٱلْغِنَىٰ ؛ وَٱلْمَعْنَى ٱلْحَيُّ لِلْفَقْرِ مِنَ ٱلْمَالِ هُوَ إِبْرَازُ ٱلنَّفْسِ ضَئِيلَةً مُنْزَوِيَةً فِي صُورَةٍ تَصْغُرُ عَلَىٰ قَدْرٍ مِنَ ٱلضِّيقِ وَٱلْعُسْرَةِ .

إِنَّ فَقْرَهُ ﷺ كَانَ مِنْ أَنَّهُ يَتَّسِعُ فِي ٱلْكَوْنِ لَا فِي ٱلْمَالِ ، فَهُوَ فَقْرٌ يُعَدُّ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ٱلْكُبْرَىٰ ٱلَّتِي لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَى ٱلْآنَ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ ، وَمِنْ أَيْنَ تَدَبَّرْتَهُ رَأَيْتَهُ فِي حَقِيقَتِهِ مُعْجِزَةً تَوَاضَعَتْ وَغَيَّرَتِ ٱسْمَهَا ؛ مُعْجِزَةً فِيهَا ٱلْحَقَائِقُ ٱلنَّفْسِيَّةُ وَٱلِاجْتِمَاعِيَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ، وَقَدْ سَبَقَتْ زَمَنَهَا بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا ، وَهِيَ ٱلْيَوْمَ تُثْبِتُ بِٱلْبُرْهَانِ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ : « إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ » . [أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » ؛ « المستدرك » للحاكم ، رقم : ١٠٠/١٠٠] .

نَحْنُ فِي عَصْرٍ تَكَادُ ٱلْفَضِيلَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ فِيهِ تَلْحَقُ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلتَّارِيخِيَّةِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ مَا كَانَ قَدِيمًا . . . بَلْ عَادَتْ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ ٱلشِّعْرِ تُرَادُ لِتَحْرِيكِ ٱلنَّسِيمِ ٱللُّغَوِيِّ ٱلرَّاكِدِ فِي ٱلْخَيَالِ ، كَمَا تَقُولُ : ٱلسَّحَابُ ٱلْأَزْرَقُ ، وَٱلْفَجْرُ ٱلْأَبْيَضُ ، وَٱلشَّفَقُ ٱلْأَحْمَرُ ،

(*) « الرسالة » العدد : ٥٤ ، ٥ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ١٦ يوليو/تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١١٦٥ ـ ١١٦٧ .

وَٱلتَّطَارِيفُ ٱلْوَرْدِيَّةُ عَلَىٰ ذَيْلِ ٱلشَّمْسِ . وَأَصْبَحَ ٱلنَّاسُ يَنْظُرُ أَكْثَرُهُمْ إِلَىٰ أَكْثَرِهِمْ بِأَعْيُنٍ فِيهَا مَعْنًى وَحْشِيٌّ لَوْ لُمِسَ لَضَرَبَ أَوْ طَعَنَ أَوْ ذَبَحَ .

وَعَمِلَتِ ٱلْمَدَنِيَّةُ أَعْمَالَهَا فَلَمْ تَزِدْ عَلَىٰ أَنْ أَخْرَجَتِ ٱلشَّكْلَ ٱلشِّعْرِيَّ لِإِنْسَانِهَا ٱلْفَنِّيِّ مُتَهَافِتًا تَرِفًا(١) ، وَنِعْمَةً ، وَٱفْتِنَانًا بَيْنَ ذَٰلِكَ ، مِنْ أَيْسَرِ ٱلْحَلَالِ إِلَىٰ ٱلْفَظِيعِ ٱلْمُتَفَاحِشِ فِي ٱلْإِبَاحَةِ ؛ فَكَأَنَّمَا وَضَعَتِ ٱلْمَدَنِيَّةُ عَقْلًا فِي وَحْشٍ ، فَجَاءَ وَقَدْ زَاغَتْ(٢) فِيهِ ٱلطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ ؛ ثُمَّ قَابَلَتْهُ بِٱلشَّكْلِ ٱلْوَحْشِيِّ لِإِنْسَانِهَا ٱلْفَقِيرِ ، فَكَأَنَّمَا نَزَعَتْ عَقْلًا مِنْ إِنْسَانٍ ، فَجَاءَ وَقَدْ ضَلَّتْ(٣) فِيهِ ٱلطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ ؛ وَكَانَ مَعَ ٱلْأَوَّلِ سَرَفُ ٱلْهَوَىٰ { بِٱلطَّبِيعَةِ } ، وَكَانَ مَعَ ٱلثَّانِي { بِٱلطَّبِيعَةِ } سَرَفُ ٱلْحَمَاقَةِ .

وَقَدْ أَصْبَحَ مِنْ تَهَكُّمِ ٱلْحَيَاةِ بِأَهْلِهَا أَنْ يَكُونَ ٱلْفَقِيرُ فَقِيرًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ صِنَاعَتَهُ فِي ٱلْمَدَنِيَّةِ عَمَلُ ٱلْغِنَىٰ لِلْأَغْنِيَاءِ . . . وَأَنْ يَكُونَ ٱلْغَنِيُّ غَنِيًّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عَمَلَهُ فِي ٱلْمَدَنِيَّةِ هُوَ صَنْعَةُ ٱلْفَقْرِ لِضَمِيرِهِ !

وَخَرَجَتْ مِنْ هَٰذَا وَذَاكَ مَسَائِلُ جَدِيدَةٌ فِي فَلْسَفَةِ ٱلْمُعَايَشَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي يُسَمُّونَهَا « ٱلاجْتِمَاعَ » ؛ فَسُؤَالٌ ٱسْمُهُ « ٱلاشْتِرَاكِيَّةُ » ، يَسْأَلُ ٱلْقُوَّةَ أَنْ تَجْعَلَ صَاحِبَ ٱلْمَالِ مِنْ مَالِهِ كَٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُطَلَّقَةِ مِنْ رَجُلِهَا . . . وَسُؤَالٌ ٱسْمُهُ « ٱلشُّيُوعِيَّةُ » ، يَطْلُبُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ أَنْ تُسَلِّطَ عَلَىٰ كُلِّ حَيٍّ مَا يَجْعَلُهُ فِي قُوَاهُ كَصَاحِبِ ٱلدَّارِ سُلِّطَ عَلَيْهِ ٱلطُّغْيَانُ فَٱنْقَلَبَتْ دَارُهُ سِجْنَهُ ، فَهُوَ يَتَأَلَّمُ مِنْ مَعْنَىٰ نِعْمَتِهِ بِمَعْنَىٰ شَقَائِهِ ، وَيَكُونُ أَغْيَظَ لَهُ أَنَّ رُوحَ ٱلسِّجْنِ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ رُوحِ ٱلْبَيْتِ ؛ وَسُؤَالٌ ٱسْمُهُ « ٱلْعَدَمِيَّةُ »(٤) ، يَأْمُرُ ٱلْقُوَّةَ أَنْ تَجْعَلَ ٱلْإِنْسَانَ كَٱلْحَيَوَانِ ٱلْمُسْتَوْلِغِ فِيمَا يَجِدُهُ مِنْ طَيِّبٍ وَخَبِيثٍ : لَا يُبَالِي ذَمًّا وَلَا عَارًا ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنَّهُ يَعِيشُ لِيَمُوتَ أَكْلًا وَنَوْمًا . . .

هَٰذَا إِلَىٰ أَسْئِلَةٍ كَثِيرَةٍ لَوْ ذَهَبْنَا نَعُدُّهَا وَنَصِفُهَا لَطَالَ بِنَا ٱلْقَوْلُ ، وَكُلُّهَا عَامِلَةٌ عَلَىٰ نَزْعِ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « لِإِنْسَانِهَا ٱلْغَنِيِّ تَرَفًا » بَدَلًا مِنْ : « لِإِنْسَانِهَا ٱلْغَنِيِّ مُتَهَافِتًا تَرَفًا » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « فَزَاغَتْ » بَدَلًا مِنْ : « وَقَدْ زَاغَتْ » .
(٣) فِي ٱلْأَصْلِ : « فَضَلَّتْ » بَدَلًا مِنْ : « فَجَاءَ وَقَدْ ضَلَّتْ » .
(٤) ٱلْفَوْضَوِيَّةُ وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا مِنْ طَيْشِ ٱلنَّزْعَةِ { ٱلْإِنْسَانِيَّةِ } .

ٱلشُّعُورِ ٱلْعَقْلِيِّ مِنَ ٱلْحَيَاةِ لِتَظْهَرَ أَسْخَفَ مِمَّا هِيَ ، وَأَقْبَحَ مِمَّا كَانَتْ ؛ حَتَّىٰ أَصْبَحَتِ ٱلشَّمْسُ { تَطْلُعُ } تَمْحُو لَيْلًا عَنِ ٱلْمَادَّةِ وَتُلْقِي لَيْلًا عَنِ ٱلنَّفْسِ ، فِي حِينِ أَنَّ ٱلدِّينَ وَٱلْإِنْسَانِيَّةَ لَا يَعْمَلَانِ غَيْرَ بَثِّ هَٰذَا ٱلنُّورِ ٱلْعَقْلِيِّ فِي ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْمَعَانِي لِتَظْهَرَ ٱلْحَيَاةُ مُضِيئَةً مُلْتَمِعَةً ، فَتُصْبِحَ أَوْضَحَ مِمَّا هِيَ فِي نَفْسِهَا ، وَأَجْمَلَ مِمَّا هِيَ فِي ٱلطَّبِيعَةِ .

فِي مِثْلِ هَٰذِهِ ٱلنَّزَعَاتِ ٱلْمُتَقَاتِلَةِ ٱلَّتِي صَعِدَتْ بِٱلْفَلْسَفَةِ وَنَزَلَتْ ، وَجَعَلَتْ مِنَ ٱلْعِلْمِ فِي صَدْرِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ مِلْءَ سَمَاءٍ مِنَ ٱلْغُيُومِ بِسَوَادِهَا وَرَعْدِهَا وَصَوَاعِقِهَا ، وَتَرَكَتِ ٱلْعَالَمَ يَضِجُّ ضَجِيجَهُ ٱلْمُزْعِجَ فِي قَلْبِ كُلِّ حَيٍّ حَتَّىٰ تُذَاعُ ٱلْهُمُومُ إِلَىٰ قُلُوبِ ٱلنَّاسِ إِذَاعَةَ ٱلْأَصْوَاتِ إِلَىٰ أَسْمَاعِهِمْ فِي « ٱلرَّادْيُو » . . . فِي مِثْلِ هَٰذَا ٱلْبَلَاءِ ٱلْمَاحِقِ تَتَلَفَّتُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ إِلَىٰ ٱلتَّارِيخِ تَسْأَلُهُ دَرْسًا مِنَ ٱلْكَمَالِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلْقَدِيمِ تَطِبُّ مِنْهُ لِهَٰذِهِ ٱلْحَمَاقَاتِ ٱلْجَدِيدَةِ ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَعَلِمَتْ أَنَّ دَرْسَ هَٰذَا ٱلْعَصْرِ فِي عِلَاجِ مَشَاكِلِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ هُوَ « مُحَمَّدٌ » ﷺ ، ٱلَّذِي لَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ فِي وَصْفِهِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ مَا بَلَغَ هُوَ فِي قَوْلِهِ : « إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ » .

* * *

هَٰذَا ٱلْمُصْلِحُ ٱلاجْتِمَاعِيُّ ٱلْأَعْظَمُ يُلْقِي فَقْرَهُ ٱلْيَوْمَ دَرْسًا عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا ٱلْعِلْمِيَّةِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ، لَا مِنْ كِتَابٍ وَلَا فِكْرٍ ، وَلَٰكِنْ بِأَخْلَاقِهِ وَعَمَلِهِ وَسِيرَتِهِ ؛ إِذْ لَيْسَ ٱلْمُصْلِحُ مَنْ فَكَّرَ وَكَتَبَ وَوَعَظَ وَخَطَبَ ، وَلَٰكِنَّهُ ٱلْحَيُّ ٱلْعَظِيمُ ٱلَّذِي تَلْتَمِسُهُ ٱلْفِكْرَةُ ٱلْعَظِيمَةُ لِتَحْيَا فِيهِ ، وَتَجْعَلَ لَهُ عُمْرًا ذِهْنِيًّا يَكُونُ مُصَرَّفًا عَلَىٰ حُكْمِهَا ، فَيَكُونُ تَارِيخُهُ وَوَصْفُهُ هُوَ وَصْفَ هَٰذِهِ ٱلْفِكْرَةِ وَتَارِيخَهَا .

وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَّا عُمْرًا ذِهْنِيًّا مَحْضًا ، تَمُرُّ فِيهِ ٱلْمَعَانِي ٱلْإِلَٰهِيَّةُ لِتَظْهَرَ لِلنَّاسِ إِلَٰهِيَّةً مُفَسَّرَةً . وَكُلُّ حَيَاتِهِ ﷺ دُرُوسٌ مُفَنَّنَةٌ مُخْتَلِفَةُ ٱلْمَعَانِي ، وَلَٰكِنَّهَا فِي جُمْلَتِهَا تُخَاطِبُ ٱلْإِنْسَانَ عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ بِهَٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ : أَيُّهَا ٱلْحَيُّ ! إِذَا كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ ، أَيْ : إِذَا كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ فِي ٱلْحَقِيقَةِ فَلَا تَكُنْ أَنْتَ فِي ٱلْكَذِبِ ، وَإِذَا كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ فِي ٱلرُّجُولَةِ ٱلْبَصِيرَةِ فَلَا تَكُنْ أَنْتَ فِي ٱلطُّفُولَةِ ٱلنَّزِقَةِ ، فَإِنَّ ٱلرَّجُلَ يَعْرِفُ وَيُدْرِكُ ، فَهُوَ بِذَٰلِكَ وَرَاءَ ٱلْحَقِيقَةِ ؛ وَلَٰكِنَّ ٱلطِّفْلَ يَجْهَلُ وَلَا يَعْرِفُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا بِعَيْنَيْهِ ، فَهُوَ وَرَاءَ ٱلْوَهْمِ ، وَمِنْ ثَمَّ طَيْشُهُ وَنَزَقُهُ ، وَإِيثَارُهُ كُلَّ عَاجِلٍ وَإِنْ قَلَّ ، وَعَمَلُهُ أَنْ تَكُونَ حَيَاتُهُ ٱلنَّفْسِيَّةُ ٱلضَّئِيلَةُ فِي مِثْلِ تَوَثُّبِ أَعْضَاءِ جِسْمِهِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ أَبَدًا يَلْعَبُ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ مَعًا . . .

أَيُّهَا ٱلْحَيُّ ! إِذَا كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ ، أَيْ : ٱلْحَيَاةُ فِيْ ذَاتِكَ ٱلدَّاخِلِيَّةِ وَقَانُوْنِ كَمَالِهَا ، فَإِذَا ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تُخْرِجَ لِلأَرْضِ مَعْنًى سَمَاوِيًّا مِنْ ذَاتِكَ فَهَـٰذَا هُوَ ٱلْجَدِيْدُ دَائِمًا فِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنْتَ بِذَلِكَ عَائِشٌ فِيْ ٱلْقَرِيْبِ ٱلْقَرِيْبِ مِنَ ٱلرُّوْحِ ، وَأَنْتَ بِهِ شَيْءٌ إِلَـٰهِيٌّ ؛ وَإِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ وَعِشْتَ فِيْ دَمِكَ وَأَعْصَابِكَ فَهَـٰذَا هُوَ ٱلْقَدِيْمُ دَائِمًا فِيْ ٱلْحَيْوَانِيَّةِ ، وَأَنْتَ بِذَلِكَ عَائِشٌ فِيْ ٱلْبَعِيْدِ ٱلْبَعِيْدِ مِنَ ٱلنَّفْسِ ، وَأَنْتَ بِهِ شَيْءٌ أَرْضِيٌّ كَٱلْحَجَرِ وَٱلتُّرَابِ .

هُنَا ، أَيْ : فِيْ ٱلإِرَادَةِ ٱلَّتِيْ فِيْكَ وَحْدَكَ . وَلَا هُنَاكَ ، أَيْ : فِيْ ٱلْخَيَالِ ٱلَّذِيْ هُوَ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ . وَهُنَا ، فِيْ أَخْلَاقِكَ وَفَضَائِلِكَ ٱلَّتِيْ لَا تَدْفَعُكَ إِلَىٰ طَرِيْقٍ مِنْ طُرُقِ ٱلْحَيَاةِ إِلَّا إِذَا كَانَ هُوَ بِعَيْنِهِ طَرِيْقًا مِنْ طُرُقِ ٱلْهِدَايَةِ وَٱلْحِكْمَةِ ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ ، فِيْ أَمْوَالِكَ وَمَعَايِشِكَ ٱلَّتِيْ تَجْعَلُكَ كَٱللِّصِّ مُنْدَفِعًا إِلَىٰ كُلِّ طَرِيْقٍ مَتَىٰ كَانَ هُوَ بِعَيْنِهِ طَرِيْقًا إِلَىٰ نَهْبَةٍ أَوْ سَرِقَةٍ . هُنَا ، فِيْ ٱلرُّوْحِ ، إِذْ تَشْعُرُ ٱلرُّوْحُ أَنَّهَا مَوْجُوْدَةٌ ، ثُمَّ تَعْمَلُ لِتُثْبِتَ أَنَّهَا شَاعِرَةٌ بِوُجُوْدِهَا ، مَاضِيَةٌ إِلَىٰ مَصِيْرِهَا ، مُنْتَهِيَةٌ بِجَسَدِهَا إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ ٱلإِنْسَانِيِّ عَلَىٰ سُنَّةِ ٱلنَّفْسِ ٱلْخَالِدَةِ ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ فِيْ ٱلْحِسِّ ، إِذْ يَتَعَلَّقُ ٱلْحِسُّ بِمَا يَتَقَلَّبُ عَلَىٰ ٱلْجِسْمِ ، فَهُوَ مُهْتَاجٌ لِشُعُوْرِهِ بِوَشْكِ فَنَائِهِ ، فَلَا يُحْدِثُ إِلَّا ٱلأَلَمَ إِنْ نَالَ أَوْ لَمْ يَنَلْ ، وَهُوَ مُنْتَهٍ بِجِسْمِهِ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ ٱلْحَيْوَانِيِّ بَيْنَ آكِلٍ وَمَأْكُوْلٍ عَلَىٰ سُنَّةِ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلْفَانِيَةِ .

أَيُّهَا ٱلْحَيُّ ! إِذَا كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ .

* * *

إِنَّ ٱلْحَكِيْمَ ٱلَّذِيْ يَنْظُرُ إِلَىٰ مَا وَرَاءَ ٱلأَشْيَاءِ فَيَتَعَرَّفُ أَسْرَارَهَا ، لَا تَكُوْنُ لَهُ حَيَاةُ ٱلَّذِيْ يَتَعَلَّقُ بِظَاهِرِهَا وَلَا أَخْلَاقُهُ وَلَا نَظْرَتُهُ ؛ هَـٰذَا ٱلأَخِيْرُ هُوَ فِيْ نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ لَهُ مَظْهَرُ ٱلْمَادَّةِ وَخِدَاعُهَا عَنِ ٱلْحَقِيْقَةِ ؛ وَذَلِكَ ٱلأَوَّلُ هُوَ نَفْسُهُ سِرٌّ مِنَ ٱلأَسْرَارِ لَهُ رَوْعَةُ ٱلسِّرِّ وَكَشْفُهُ عَنِ ٱلْحَقِيْقَةِ . وَلِهَـٰذَا كَانَ فِيْ حَيَاةِ ٱلأَنْبِيَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ مَا لَا يُطِيْقُهُ ٱلنَّاسُ وَلَا يَضْبِطُوْنَهُ إِذَا تَكَلَّفُوْهُ ، بَلْ يَنْخَرِقُ عَلَيْهِمْ فَيَكُوْنُ مِنْهُ ٱلْعَجْزُ ٱلْغَلَطُ ، وَيَحْدُثُ مِنَ ٱلْغَلَطِ ٱلزَّلَلُ .

وَنَظْرَةُ نَبِيِّنَا ﷺ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْوُجُوْدِ نَظْرَةٌ شَامِلَةٌ مُدْرِكَةٌ لِحَقِيْقَةِ ٱللَّا نِهَايَةِ ، فَيَرَىٰ بِدَايَةَ كُلِّ شَيْءٍ مَادِّيٍّ هِيَ نِهَايَتُهُ فِيْ ٱلتَّوِّ وَٱللَّحْظَةِ ، فَلَا وُجُوْدَ لَهُ إِلَّا عَارِضًا مَارًّا ، فَهُوَ فِيْ ٱعْتِبَارِهِ مَوْجُوْدٌ غَيْرُ مَوْجُوْدٍ ، مُبْتَدِىءٌ مُنْتَهٍ مَعًا ؛ وَبِذَلِكَ تَبْطُلُ عِنْدَهُ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْمَادِّيَّةُ وَتَأْثِيْرُهَا ، فَلَا

تَتَّصِلُ بِنَفْسِهِ ٱلْعَالِيَةِ إِلَّا مِنْ أَضْعَفِ جِهَاتِهَا ، وَيَجِدُ لَهَا ٱلنَّاسُ فِيْ حَيَاتِهِمُ ٱلشَّجَرَةَ وَٱلْفَرْعَ وَٱلثَّمَرَةَ ، وَمَا لَهَا عِنْدَهُ هُوَ جِذْرٌ وَلَا فَرْعٌ ؛ وَبِهَـٰذَا لَمْ يَفْتِنْهُ شَيْءٌ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ شَيْءٌ .

وَكَانَتِ ٱلدُّنْيَا تَطُوْلُ ٱلنَّاسَ وَتَتَقَاصَرُ عَنْهُ ، وَكَانَتْ مُنْقَطِعَةَ ٱلنَّمَاءِ وَهُوَ ذَاهِبٌ فِيْ نُمُوِّهِ ٱلرُّوْحِيِّ ، وَكَأَنَّمَا هُوَ صُوْرَةٌ أُخْرَىٰ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ؛ فَكِلَاهُمَا لَمَسَ بِنَفْسِهِ ٱلْحَيَاةَ جَدِيْدَةً خَالِيَةً مِمَّا جَمَعَ فِيْهَا ٱلزَّمَنُ وَأَهْلُهُ مِنْ طَمَعٍ وَشَرَهٍ ، وَجَاءَ آدَمُ لِيُعْطِيَ ٱلأَرْضَ نَاسَهَا مِنْ صُلْبِهِ ، وَجَاءَ مُحَمَّدٌ لِيُعْطِيَ ٱلنَّاسَ قَوَانِيْنَهُمْ مِنْ فَضَائِلِهِ ؛ فَآدَمُ بِشَخْصِهِ هُوَ دُنْيَا بُعِثَتْ لِتَتَّسِعَ ، وَمُحَمَّدٌ بِشَخْصِهِ هُوَ دُنْيَا بُعِثَتْ لِتَنْتَظِمَ .

وَمَاذَا يُفْهَمُ مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلأَخْلَاقِيَّةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ ٱلْعَظِيْمَةِ ؟ يُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ ٱلشَّهَوَاتِ خُلِقَتْ مَعَ ٱلإِنْسَانِ تَتَحَكَّمُ فِيْهِ ، لِيَنْقَلِبَ بِهَا إِنْسَانًا يَتَحَكَّمُ فِيْهَا ؛ وَأَنَّ ٱلإِنْسَانَ ٱلصَّحِيْحَ ٱلَّذِيْ لَمْ تُزَوِّرْهُ ٱلدُّنْيَا يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ ذَا رُوْحٍ يَمْتَدُّ فَيَفِيْضُ عَنْ غَايَاتِ جِسْمِهِ إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْلَىٰ فَأَعْلَىٰ حَتَّىٰ يُصْبِحَ فِيْ حُكْمِ ٱلنُّوْرِ وَٱنْطِلَاقِهِ وَحُرِّيَّتِهِ ، وَلَا يَنْكَمِشُ فَيَحْصُرُهُ جِسْمُهُ فِيْ غَايَاتِهِ وَضَرُوْرَاتِهِ فَيَرْتَدُّ إِلَىٰ مَا هُوَ أَسْفَلَ أَسْفَلَ حَتَّىٰ يَعُوْدَ فِيْ حُكْمِ ٱلتُّرَابِ وَأَسْرِهِ وَعُبُوْدِيَّتِهِ . فَٱلْفَقْرُ وَمَا إِلَيْهِ ، وَٱلزُّهْدُ { وَمَا } هُوَ بِسَبِيْلٍ مِنْهُ ، وَٱلانْصِرَافُ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلرَّذَائِلِ ـ كُلُّ ذَلِكَ إِنْ هُوَ إِلَّا تَرَاجُعُ ٱلنَّفْسِ ٱلْعَالِيَةِ إِلَىٰ ذَاتِهَا ٱلنُّوْرَانِيَّةِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، وَشَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، لِتُضِيْءَ عَلَىٰ ٱلْمَادَّةِ فَتَكْشِفَ حَقَائِقَهَا ٱلصَّرِيْحَةَ فَلَا تُبَالِيْهَا وَلَا تُقِيْمُ لَهَا وَزْنًا . فَبَيْنَمَا ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ ٱلأَمْوَالَ وَٱلشَّهَوَاتِ مَادَّةَ حَيَاةٍ وَعَمَلٍ وَشُعُوْرٍ ، تَرَاهَا هِيَ مَادَّةَ بَحْثٍ وَمَعْرِفَةٍ وَٱعْتِبَارٍ لَيْسَ غَيْرَ ؛ وَبِهَـٰذَا تَكُوْنُ ٱلنَّفْسُ ٱلْعَظِيْمَةُ فِيْ ٱلدُّنْيَا كَأُسْتَاذِ ٱلْمَعْمَلِ : تَدْخُلُ ٱلْمَادَّةُ إِلَىٰ مَعْمَلِهِ وَهِيَ مَادَّةٌ وَفِكْرَةٌ ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ وَهِيَ حَقِيْقَةٌ وَمَعْرِفَةٌ ، وَعَلَىٰ أَيِّ أَحْوَالِهَا فَهِيَ إِنَّمَا تُحَسُّ فِيْ ذَلِكَ ٱلْمَعْمَلِ بِأَصَابِعَ عِلْمِيَّةٍ دَقِيْقَةٍ لَيْسَ فِيْهَا ٱلْجَمْعُ وَلَا ٱلْحِرْصُ ، وَلَـٰكِنْ فِيْهَا ٱلذِّهْنُ وَٱلْفِكْرُ ؛ وَلَيْسَ لَهَا طَبِيْعَةُ ٱلرَّغْبَةِ وَٱلْغَفْلَةِ ، وَلَـٰكِنْ طَبِيْعَةُ ٱلانْتِبَاهِ وَٱلتَّحَرُّزِ ، وَلَيْسَتْ فِيْ أَسْرِ ٱلْمَادَّةِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَادَّةَ فِيْ أَسْرِهَا مَا شَاءَتْ .

وَلَا يُسَمَّىٰ فَقْرُهُ ﷺ زُهْدًا كَمَا يَظُنُّ ٱلضُّعَفَاءُ مِمَّنْ يَتَعَلَّقُوْنَ عَلَىٰ ظَاهِرِ ٱلتَّارِيْخِ ، وَلَا يُحَقِّقُوْنَ أُصُوْلَهُ ٱلنَّفْسِيَّةَ ؛ وَأَكْثَرُهُمْ يَقْرَأُ ٱلتَّارِيْخَ ٱلنَّبَوِيَّ بِأَرْوَاحٍ مُظْلِمَةٍ تُرِيْهِمْ مَا تُرِي ٱلْعَيْنُ إِذَا مَا ٱخْتَلَطَ ٱلظَّلَامُ وَلَبِسَ ٱلأَشْيَاءَ فَتَرَاءَتْ مُجْمَلَةً لَا تَفْصِيْلَ لَهَا ، مُفْرَغَةً لَا تَبْيِيْنَ فِيْهَا ؛

وَمَا بِهَا مِنْ ذَٰلِكَ شَيْءٌ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَتَرَاءَىٰ فِيْ بَقِيَّةٍ مِنَ ٱلْبَصَرِ لَا تَغْمُرُهَا .

وَهَلِ ٱلزُّهْدُ إِلَّا أَنْ تَطْرُدَ ٱلْجِسْمَ عَنْكَ وَهُوَ مَعَكَ ، وَتَنْصَرِفَ عَنْهُ وَهُوَ بِكَ مُتَعَلِّقٌ ؟ فَتِلْكَ سُخْرِيَةٌ وَمُثْلَةٌ ، وَهِيَ فِيْ رَأْيِيْ تَشْوِيْهٌ لِلْجِسْمِ بِرُوْحِهِ ، وَقَدْ تَنْعَكِسُ فَتَكُوْنُ مِنْ تَشْوِيْهِ ٱلرُّوْحِ بِجِسْمِهَا ؛ فَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا ٱللهُ وَحْدَهُ : أَذَاكَ تَفْسِيْرٌ لِإِنْسَانِيَّةِ ٱلزَّاهِدِ بِٱلنُّوْرِ ، أَمْ هُوَ تَفْسِيْرٌ بِٱلتُّرَابِ . . .

وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَمْلِكُ ٱلْمَالَ وَيَجِدُهُ ، وَكَانَ أَجْوَدَ بِهِ مِنَ ٱلرِّيْحِ ٱلْمُرْسَلَةِ ، وَلَـٰكِنَّهُ لَا يَدَعُهُ يَتَنَاسَلُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ يَنْبُتُ فِيْ عَمَلِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ عَمَلُهُ تَرْجَمَةً لِإِحْسَاسِهِ ٱلرُّوْحِيِّ ؛ فَهُوَ رَسُوْلٌ تَعْلِيْمِيٌّ ، قَلْبُهُ ٱلْعَظِيْمُ فِيْ ٱلْقَوَانِيْنِ ٱلْكَثِيْرَةِ مِنْ وَاجِبَاتِهِ ، وَهُوَ يُرِيْدُ إِثْبَاتَ وَحْدَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّ هَـٰذَا ٱلْإِنْسَانَ مَعَ ٱلْمَادَّةِ ٱلصَّامِتَةِ ٱلْعَمْيَاءِ مَادَّةٌ مُفَكِّرَةٌ مُمَيِّزَةٌ ، وَأَنَّ ٱلدِّيْنَ قُوَّةٌ رُوْحِيَّةٌ يَلْقَىٰ بِهَا ٱلْمُؤْمِنُ أَحْوَالَ ٱلْحَيَاةِ فَلَا يَثْبُتُ بِإِزَائِهَا شَيْءٌ عَلَىٰ شَيْئِيَّتِهِ ، إِذِ ٱلرُّوْحُ خُلُوْدٌ وَبَقَاءٌ ، وَٱلْمَادَّةُ فَنَاءٌ وَتَحَوُّلٌ ، وَمِنْ ثَمَّ تَخْضَعُ ٱلْحَوَادِثُ لِلرُّوْحِ ٱلْمُؤْمِنَةِ وَتَتَغَيَّرُ مَعَهَا ، فَإِنْ لَمْ تَخْضَعْ لَمْ تُخْضِعْهَا ، وَإِنْ لَمْ تَتَغَيَّرْ لَا تَتَغَيَّرُ ٱلرُّوْحُ بِهَا ؛ وَأَسَاسُ ٱلْإِيْمَانِ أَنَّ مَا يَنْتَهِي لَا يَنْبَغِيْ أَنْ يَتَصَرَّفَ بِمَا لَا يَنْتَهِيْ .

وَمَا قِيْمَةُ ٱلْعَقِيْدَةِ إِلَّا بِصِدْقِهَا فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَصْنَعُ هَـٰذَا ٱلْمَالُ : إِمَّا ٱلْكَذِبُ ٱلصُّرَاحُ فِيْ ٱلْحَيَاةِ ، وَإِمَّا شُبْهَةُ ٱلْكَذِبِ ؛ وَلِهَـٰذَا تَنَزَّهَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ عَنِ ٱلتَّعَلُّقِ بِهِ ، وَزَادَهُ بُعْدًا مِنْهُ أَنَّهُ نَبِيُّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَمَثَلُهَا ٱلْأَعْلَىٰ ، فَحَيَاتُهُ ٱلشَّرِيْفَةُ لَيْسَتْ كَمَا نَرَىٰ فِيْ ٱلنَّاسِ : إِيْجَادًا لِحَلِّ مَسَائِلِ ٱلْفَرْدِ وَتَعْقِيْدًا لِمَسَائِلِ غَيْرِهِ ، وَلَا تَوَسُّعًا مِنْ نَاحِيَةٍ وَتَضْيِيْقًا مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْأُخْرَىٰ ، وَلَا جَمْعًا مِنْ هُنَا وَمَنْعًا مِنْ هُنَاكَ ؛ بَلْ كَانَتْ حَيَاتُهُ بَعْدَ ٱلرِّسَالَةِ مُنْصَرِفَةً إِلَىٰ إِقْرَارِ ٱلتَّوَازُنِ فِيْ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَعْلِيْمِ ٱلْجَمِيْعِ عَلَىٰ تَفَاوُتِهِمْ وَٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ كَيْفَ يَكُوْنُ لَهُمْ عَقْلٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱلْكَوْنِ ؛ وَبِهَـٰذَا ٱلْعَقْلِ ٱلْكَوْنِيِّ ٱلسَّلِيْمِ تَرَى ٱلْمُؤْمِنَ إِذَا عَرَضَ لَهُ ٱلشَّيْءُ مِنَ ٱلدُّنْيَا يَفْتِنُهُ أَوْ يَصْرِفُهُ عَنْ وَاجِبِهِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ـ أَبَتْ نَفْسُهُ ٱلْعَظِيْمَةُ إِلَّا أَنْ تَرْتَفِعَ بِطَبِيْعَتِهَا ، فَإِذَا هُوَ فِيْ قَانُوْنِ ٱلسُّمُوِّ ، وَإِذَا ٱلْمَادَّةُ فِيْ قَانُوْنِ ٱلثِّقَلِ ؛ فَيَرْتَفِعُ وَتَتَهَاوَىٰ ، وَيُصْبِحُ ٱلذَّهَبُ ـ وَإِنَّهُ ذَهَبٌ ـ وَلَيْسَ فِيْهِ عِنْدَ ٱلْمُؤْمِنِ إِلَّا رُوْحُ ٱلتُّرَابِ .

سُمُوُّ ٱلْفَقْرِ
فِيْ ٱلْمُصْلِحِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ ٱلْأَعْظَمِ (*)
٢

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا : لَمْ يَمْتَلِئْ جَوْفُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ شِبَعًا قَطُّ ، وَإِنَّهُ كَانَ فِيْ أَهْلِهِ لَا يَسْأَلُهُمْ طَعَامًا وَلَا يَتَشَهَّاهُ ؛ إِنْ أَطْعَمُوْهُ أَكَلَ ، وَمَا أَطْعَمُوْهُ قَبِلَ ، وَمَا سَقَوْهُ شَرِبَ .

وَقَالَتْ : مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ خُبْزِ ٱلشَّعِيْرِ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّىٰ قُبِضَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ . [ابن ماجه ، رقم : ٣٣٤٦] .

وَعَنْهَا : كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ نَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْقِدُ بِنَارٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ٱلتَّمْرُ وَٱلْمَاءُ . [البخاري ، رقم : ٢٥٦٧ ؛ مسلم ، رقم : ٢٩٧٢] .

وَقَالَتْ : مَا رَفَعَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ قَطُّ غَدَاءً لِعَشَاءٍ ، وَلَا عَشَاءً لِغَدَاءٍ ، وَلَا ٱتَّخَذَ مِنْ شَيْءٍ زَوْجَيْنِ ؛ لَا قَمِيْصَيْنِ ، وَلَا رِدَاءَيْنِ ، وَلَا إِزَارَيْنِ ، وَلَا زَوْجَيْنِ مِنَ ٱلنِّعَالِ .

وَيُرْوَىٰ عَنْهَا ، قَالَتْ : تُوُفِّيَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ وَلَيْسَ عِنْدِيْ شَيْءٌ يَأْكُلُهُ ذُوْ كَبِدٍ ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيْرٍ فِيْ رَفٍّ لِيْ . [البخاري ، رقم : ٣٠٩٧ ؛ مسلم ، رقم : ٢٩٧٣] .

وَقَالَتْ(1) : تُوُفِّيَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُوْنَةٌ عِنْدَ يَهُوْدِيٍّ فِيْ ثَلَاثِيْنَ صَاعًا مِنْ شَعِيْرٍ . [الترمذي ، رقم : ١٢١٤ ؛ النسائي ، رقم : ٤٦٥١ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٤٣٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١١٠ ، ٢٧١٩ ، ٣٧٣٨ ، ٣٣٩٩ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٥٨٢] .

وَعَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ : كَانَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ يَبِيْتُ ٱللَّيَالِيَ ٱلْمُتَتَابِعَةَ وَأَهْلُهُ طَاوِيًا لَا يَجِدُوْنَ عَشَاءً ، وَإِنَّمَا كَانَ خُبْزُهُمُ ٱلشَّعِيْرَ . [الترمذي ، رقم : ٢٣٦٠ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٣٤٧ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٣٠٣ ، ٣٥٣٥] .

(*) « الرسالة » العدد : ٥٥ ، ١٢ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٣ يوليو/ تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٢٠٣ ـ ١٢٠٥ .

(1) بل عن ابن عباس . بسّام .

وَعَنِ أَنَسٍ[١] ، قَالَ : خَطَبَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ فَقَالَ : « وَٱللهِ مَا أَمْسَىٰ فِيْ آلِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ ، وَإِنَّهَا لَتِسْعَةُ أَبْيَاتٍ ! » وَٱللهِ مَا قَالَهَا ٱسْتِقْلَالًا [لِذِكْرِ ٱللهِ] ، وَلَٰكِنْ أَرَادَ أَنْ تَتَأَسَّىٰ بِهِ أُمَّتُهُ . [البخاري ، رقم : ٢٥٠٨ ؛ الترمذي ، رقم : ١٢١٥ ؛ النسائي ، رقم : ٤٦١٠ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٤٣٧ ، ٤١٤٧ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١١٥٨٢ ، ١١٩٥٢ ، ١٢٧٥٧ ، ١٣٠٢٧ ، ١٣٠٨٥] .

وَعَنِ ٱبْنِ بُجَيْرٍ[٢] ، قَالَ : أَصَابَ ٱلنَّبِيَّ ﷺ جُوْعٌ يَوْمًا ، فَعَمَدَ إِلَىٰ حَجَرٍ فَوَضَعَهُ عَلَىٰ بَطْنِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا رُبَّ نَفْسٍ طَاعِمَةٍ نَاعِمَةٍ فِيْ ٱلدُّنْيَا ، جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ؛ أَلَا رُبَّ مُكْرِمٍ نَفْسَهُ وَهُوَ مُهِيْنٌ لَهَا ؛ أَلَا رُبَّ مُهِيْنٍ نَفْسَهُ وَهُوَ مُكْرِمٌ لَهَا » . [أخرجه ابن سعد ، والبيهقي في « شعب الإيمان »] .

وَخُيِّرَ ﷺ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ مِثْلُ « أُحُدٍ » ذَهَبًا فَقَالَ : « لَا يَا رَبِّ ! أَجُوْعُ يَوْمًا فَأَدْعُوْكَ ، وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأَحْمَدُكَ ! » . [الترمذي ، رقم : ٣٩٨٠ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٦٨٦] .

وَكَانَ يَقُوْلُ فِيْ دُعَائِهِ وَيُكْثِرُ مِنْهُ : « ٱللَّهُمَّ أَحْيِنِيْ مِسْكِيْنًا ، وَأَمِتْنِيْ مِسْكِيْنًا ، وَٱحْشُرْنِيْ فِيْ زُمْرَةِ ٱلْمَسَاكِيْنِ » . [الترمذي ، رقم : ٢٣٥٢ ؛ وابن ماجه ، رقم : ٤١٢٦ ؛ و« المستدرك » ، رقم : ٧٩١١/٦٨] .

* * *

هَـٰذَا هُوَ سَيِّدُ ٱلْأُمَّةِ ، يُمْسِكُهُ فِيْ ٱلْحَيَاةِ نَبِيًّا عَظِيْمًا مَا يُخْرِجُ غَيْرَهُ مِنْهَا ذَلِيْلًا مُحْتَقَرًا ، وَكَأَنَّمَا أَشْرَقَ صَفَاءُ نَفْسِهِ عَلَىٰ تُرَابِ ٱلْأَرْضِ فَرَدَّهُ أَشِعَّةَ نُورٍ ، عَلَىٰ حِيْنِ يُلْقِيْ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلتُّرَابِ مِنْ ظَلَامِ أَنْفُسِهِمْ فَلَا يَبْقَىٰ تُرَابًا بَلْ يَرْجِعُ ظَلَامًا ، فَكَأَنَّهُمْ { إِذْ يَمْشُوْنَ عَلَيْهِ } يَطَؤُوْنَ ٱلْمَجْهُوْلَ بِخَوْفِهِ وَرَوْعَتِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَسْتَقِرُّ ظَلَامًا بَلْ يَرْجِعُ آلَامًا ، فَكَأَنَّهُمْ يَنْبُتُوْنَ عَلَىٰ ٱلْمَرَضِ لَا عَلَىٰ ٱلْحَيَاةِ ؛ ثُمَّ لَا يَثْبُتُ آلَامًا بَلْ يَتَحَوَّلُ فَوْرَةً وَتَوَثُّبًا تَكُوْنُ مِنْهُ نَزَوَاتُ ٱلْحُمْقِ

(١) فِي ٱلْأُصُولِ : « الحسن » .
(٢) فِي ٱلْأُصُولِ : « مُجير » وَصَوَابُهُ : ٱبْنُ بُجَير ، أو أَبِي ٱلنُّجَيْرِ كَمَا صَحَّحَهُ الخطيبُ البغداديُّ ؛ راجع « الإصابة » لابن حجر العسقلاني ، ترجمة عثمان بن بُجَيْر .

وَٱلْجُنُوْنِ فِيْ ٱلنَّفْسِ .

هَـٰؤُلَاءِ ٱلَّذِيْنَ تَعِيْشُ أَنْفُسُهُمْ فِيْ ٱلتُّرَابِ ، وَيَتَمَرَّغُوْنَ بِأَخْلَاقِهِمْ فِيْهِ ، يَنْقَلِبُوْنَ عَلَىٰ ٱلْحَيَاةِ مِنْ صُنْعِ ٱلتُّرَابِ نَاسًا دُوْدًا { كَطَبْعِ ٱلدُّوْدِ } لَا يَقَعُ فِيْ شَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدَهُ أَوْ قَذَّرَهُ ؛ أَوْ قَوْمًا سُوْسًا { كَطَبْعِ ٱلسُّوْسِ } لَا يَنَالُ شَيْئًا إِلَّا نَخَرَهُ أَوْ عَابَهُ ، فَهُمْ يُوْقِعُوْنَ ٱلْخَلَلَ فِيْ نِظَامِ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِذَا هِيَ طَائِشَةٌ تُخَيِّلُ لَهُمْ كَأَنَّمَا ٱخْتَلَّتْ نَوَامِيْسُ ٱلدُّنْيَا ، وَكَأَنَّ ٱللهَ قَبَضَهُمْ وَبَسَطَ غَيْرَهُمْ ، وَشَغَلَهُمْ وَفَرَّغَ مَنْ عَدَاهُمْ ، وَٱبْتَلَاهُمْ عَلَىٰ مُسْكَةِ ٱلرِّزْقِ[١] بِٱلشَّهْوَةِ ٱلْمَسْعُوْرَةِ ٱلَّتِيْ لَا تَتَحَقَّقُ ، فَضَرَبَهُمْ بِٱلْمُجَاهَدَةِ ٱلَّتِيْ لَا تَنْقَطِعُ ؛ وَأَنْعَمَ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ فِيْ بَسْطَةِ ٱلرِّزْقِ بِٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِيْ لَا تُقْطَعُ مِنْهَا ثَمَرَةٌ إِلَّا نَبَتَ غَيْرُهَا فِيْ مَكَانِهَا .

إِنَّ مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ فَقْرِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَتِيْدٌ حَاضِرٌ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَفْسَهُ فِيْ هَمِّ ٱلْمَالِ ، وَلَا جَعَلَتْهُ نَفْسُهُ فِيْ هَمِّ ٱلْفَقْرِ ، وَأَنَّهُ لَقِيَ ٱلْحَيَاةَ حَامِلًا لَا مَحْمُوْلًا ، وَٱسْتَقَرَّ فِيْهَا هَادِئًا لَا مُضْطَرِبًا ـ كُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُثْبِتُ لِلدُّنْيَا أَنَّهُ خُلِقَ وَبُعِثَ وَعَاشَ لِيَكُوْنَ دَرْسًا عَمَلِيًّا فِيْ حَلِّ ٱلْمُشْكِلَاتِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ، يُعَلِّمُ ٱلنَّاسَ أَنَّهَا لَا تَتَعَقَّدُ بِطَبِيْعَتِهَا ، وَلَـٰكِنْ بِطَبَائِعِهِمْ فِيْهَا ؛ وَلَا تَسْتَمِرُّ بِقُوَّتِهَا ، وَلَـٰكِنْ بِإِمْدَادِ قُوَاهُمْ لَهَا ؛ وَلَا تَغْلِبُ بِصَوْلَتِهَا ، وَلَـٰكِنْ بِجَزَعِهِمْ مِنْهَا ؛ وَلَا تُعْضِلُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا ، وَلَـٰكِنْ مِنْ سُوْءِ أَثَرِهِمْ عَلَيْهَا ، وَسُوْءِ نَظَرِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَهَا .

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْأَحَادِيْثَ ٱلَّتِيْ أَسْلَفْنَاهَا فَلَا تَقْرَأْهَا زُهْدًا وَتَقَلُّلًا ، وَلَا فَقْرًا وَجُوْعًا ، وَلَا ٱخْتِلَالًا وَحَاجَةً ، كَمَا تُتَرْجِمُهَا نَفْسُكَ أَوْ تُحِسُّهَا ضَرُوْرَتُكَ ؛ بَلِ ٱنْظُرْ فِيْهَا وَٱعْتَبِرْهَا بِنَفْسِهِ هُوَ ﷺ ، ثُمَّ ٱقْرَأْهَا شَرِيْعَةً ٱجْتِمَاعِيَّةً مُفَصَّلَةً عَلَىٰ طَبِيْعَةِ ٱلنَّفْسِ ، قَائِمَةً عَلَىٰ أَنْ تَأْخُذَ نَفْسُ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ قُوَىٰ ٱلدُّنْيَا عَنَاصِرَهَا ٱلْحَيَوِيَّةِ ، لِتُعْطِيَ ٱلْحَيَاةَ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةَ عَنَاصِرِهَا .

وَٱلْحَيَاةُ ٱلْعَامِلَةُ غَيْرُ ٱلْحَيَاةِ ٱلْوَادِعَةِ ، هُمَا ذَكَرٌ وَأُنْثَىٰ ؛ فَأَمَّا ٱلْأُوْلَىٰ فَهِيَ مَا وَصَفْنَا وَحَكَيْنَا ، وَأَمَّا ٱلثَّانِيَةُ فَهِيَ تَغَلُّلُ ٱلنِّعْمَةِ ، وَإِطْلَاقُ قَانُوْنِ ٱلتَّنَاسُلِ فِيْ ٱلْمَالِ يُنْمِي بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَيَنْبُتُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ، ثُمَّ إِقَامَةُ ٱلْحَيَاةِ عَلَىٰ ٱلزِّيْنَةِ وَمُقَوِّمَاتِهَا ، وَقِيَامُ ٱلزِّيْنَةِ عَلَىٰ

(١) { مُسْكَةُ ٱلرِّزْقِ : ضِدُّ بَسْطَةِ ٱلرِّزْقِ ، أَيْ : ٱلضِّيْقُ وَٱلسَّعَةُ } .

ٱلْخِدَاعِ وَطَبَائِعِهِ ، فَيُقْبِلُ ٱلْمَرْءُ مِنْ دُنْيَاهُ عَلَىٰ مَا هُوَ جَدِيرٌ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْهَا ، وَيُحِبُّ مِنْهَا مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُبَاغِضَهُ فِيهَا . وَكُلُّ مَا رَأَيْتَ وَعَلِمْتَ فِي رَجُلٍ قُوَّتُهُ ٱلْقُوَّةُ فَهُوَ هُنَاكَ ؛ وَكُلُّ مَا عَلِمْتَ وَرَأَيْتَ فِي أُنْثَىٰ قُوَّتُهَا ٱلضَّعْفُ فَهُوَ هُنَا .

فَٱلسَّوَادُ ٱلَّذِي تَرَاهُ فِي فَقْرِهِ ﷺ هُوَ ٱلسَّوَادُ ٱلْحَيُّ ؛ سَوَادُ ٱللَّيْلِ حَوْلَ ٱلرُّوحِ ٱلنَّجْمِيَّةِ ٱلسَّاطِعَةِ ؛ وَذَلِكَ ٱلتُّرَابُ هُوَ ٱلتُّرَابُ ٱلْحَيُّ ؛ تُرَابُ ٱلزَّرْعِ تَحْتَ ٱلنُّضْرَةِ وَٱلْخُضْرَةِ ؛ وَتِلْكَ ٱلْحَاجَةُ ٱلْجِسْمِيَّةُ هِيَ ٱلْحَاجَةُ ٱلْحَيَّةُ ٱلدَّافِعَةُ إِلَىٰ حُرِّيَّةِ ٱلنَّفْسِ ؛ وَذَلِكَ ٱلْإِقْلَالُ مِنْ فَهْمِ ٱللَّذَّةِ هُوَ ٱلْإِقْلَالُ ٱلْحَيُّ ٱلَّذِي يَزِيدُ قُوَّةَ فَهْمِ ٱلْجَمَالِ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ؛ وَذَلِكَ ٱلضِّيقُ فِي حَيِّزِ ٱلْمَتَاعِ لِلْحَاسَّةِ هُوَ ٱلضِّيقُ ٱلْحَيُّ ٱلَّذِي يُوَسِّعُ حَيِّزَ ٱلْمَتَاعِ لِلرُّوحِ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَذَلِكَ ٱلنَّقْصُ مِنَ ٱلْمَادَّةِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِنَفْيِ ٱلنَّقْصِ عَنِ ٱلْفَضِيلَةِ ، وَذَلِكَ ٱلِاحْتِقَارُ لِلْعَرَضِ ٱلْفَانِي ٱلزَّائِلِ هُوَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْآخَرُ لِتَقْدِيسِ ٱلْخَالِدِ ٱلْبَاقِي .

فَلَيْسَ هُنَاكَ خُبْزُ ٱلشَّعِيرِ ، وَلَا ٱلْجُوعُ ، وَلَا رَهْنُ ٱلدِّرْعِ عِنْدَ ٱلْيَهُودِيِّ . كَلَّا ، كَلَّا ، بَلْ هُنَاكَ حَقِيقَةٌ نَفْسِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ ، ثَابِتَةٌ مُتَّزِنَةٌ ، قَائِمَةٌ بِعَنَاصِرِهَا ٱلسَّامِيَةِ : مِنَ ٱلْيَقِينِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْحِكْمَةِ ، إِلَى ٱلرِّفْقِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلتَّوَاضُعِ ، تُخْبِرُ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلْعِلْمِيَّةَ ٱلْفَلْسَفِيَّةَ ٱلْمُفَكِّرَةَ أَنَّ ذَلِكَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْعَظِيمَ هُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلِاجْتِمَاعِيُّ ٱلتَّامُّ بِأَخْلَاقِهِ وَفَضَائِلِهِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي بُعِثَ لِتَنْقِيحِ غَرِيزَةِ تَنَازُعِ ٱلْبَقَاءِ ، وَكَسْرِ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ، وَقَمْعِ نَزَوَاتِهَا ، وَإِمَاتَةِ دَوَاعِيهَا ، وَٱلسُّمُوِّ بِخَوَاطِرِهَا ؛ فَهُوَ بِنَفْسِهِ صُورَةُ ٱلْكَمَالِ ٱلَّذِي بُعِثَ لِتَحْقِيقِهِ وَإِثْبَاتِ أَنَّهُ ٱلْمُمْكِنُ لَا ٱلْمُمْتَنِعُ ، وَٱلْحَقِيقِيُّ لَا ٱلْخَيَالِيُّ .

لَيْسَ هُنَاكَ دِرْعٌ مَرْهُونَةٌ فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا ، وَلَا ٱلْفَقْرُ ، وَلَا خُبْزُ ٱلشَّعِيرِ . كَلَّا ، كَلَّا ، بَلْ هُنَاكَ تَقْرِيرٌ أَنَّ ٱلنَّصْرَ فِي مَعْرَكَةِ ٱلْحَيَاةِ لَا يَأْتِي مِنَ ٱلْمَالِ وَٱلثَّرَاءِ وَٱلْمَتَاعِ ، وَلَـٰكِنْ مِنَ ٱلْمُعَانَاةِ وَٱلشِّدَّةِ وَٱلصَّبْرِ ؛ وَأَنَّ ٱلتَّقَدُّمَ ٱلْإِنْسَانِيَّ لَا يُبَاعُ بَيْعًا ، وَلَا يُؤْخَذُ هَوْنًا ؛ بَلْ هُوَ ٱنْتِزَاعٌ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلَّتِي تَتَغَلَّبُ عَلَى ٱلْأَزَمَاتِ وَلَا تَتَغَلَّبُ ٱلْأَزَمَاتُ عَلَيْهَا ، وَأَنَّ هَـٰذَا ٱلْمَالَ وَهَـٰذِهِ ٱلشَّهَوَاتِ ـ فِي حَقَائِقِ ٱلْحَيَاةِ وَمَصَايِرِهَا ـ كَكُنُوزِ ٱلْأَحْلَامِ : لَا تَكُونُ كُنُوزًا إِلَّا فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ أَرْضِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلنَّوْمِ ، فَلَا لَذَّةَ مِنْهَا إِلَّا بِمِقْدَارٍ خَفِيفٍ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْغَفْلَةِ . وَلَيْسَ إِلَّا ٱلْأَحْمَقُ أَوِ ٱلْمَخْذُولُ أَوِ ٱلضَّائِعُ هُوَ ٱلَّذِي يَقْطَعُ ٱلْعُمْرَ نَائِمًا أَبَدًا لِيَظَلَّ مَالِكًا أَبَدًا لِهَـٰذِهِ ٱلْكُنُوزِ . . . وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مُسْتَيْقِظٌ ، وَأَنَّهُ مَتَىٰ ٱنْتَبَهَ فِي آخِرَتِهِ لَمْ يَجِدْ

مِنْهَا شَيْئًا ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ [٢٤ سورة النور، الآية : ٣٩] .

كَلَّا ، كَلَّا ، لَيْسَ هُنَاكَ فَقْرٌ وَلَا جُوعٌ وَمَا إِلَيْهِمَا ، بَلْ هُنَاكَ وَضْعُ هَـٰذِهِ ٱلْحَقِيقَةِ : يَنْبَغِي أَنْ تَجِدَ نَفْسَكَ ، وَمَوْضِعَ نَفْسِكَ ، وَإِيمَانَ نَفْسِكَ ، وَعِزَّةَ نَفْسِكَ . فَإِذَا أَدْرَكْتَ ذَلِكَ وَرَفَعْتَ نَفْسَكَ إِلَىٰ مَوْضِعِهَا ٱلْحَقِّ ، وَأَقْرَرْتَهَا فِيهِ ، وَحَبَسْتَهَا عَلَيْهِ ، وَحَدَدْتَهَا بِٱلْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةٍ وَبِٱللَّهِ مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْمُقَابِلَةِ ـ رَأَيْتَ إِذًا أَنَّ قِيمَتَكَ ٱلصَّحِيحَةَ فِي أَنْ تَكُونَ وَسِيلَةً تُعْطِي وَتَعْمَلُ لِتُعْطِيَ ، لَا غَايَةً تَأْخُذُ وَتَعْمَلُ لِتَأْخُذَ ، وَمَهْمَا ضُيِّقَ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنْتَ كَٱلشَّجَرَةِ ٱلطَّيِّبَةِ تَأْخُذُ تُرَابًا وَتَصْنَعُ حَلَاوَةً .

وَمَا قَطُّ نَبَتَتْ شَجَرَةٌ فِي مَكَانِهَا لِتَأْكُلَ وَتَشْرَبَ وَتَخْتَزِنَ ٱلسَّمَادَ وَٱلتُّرَابَ وَتُحَصِّنَهُمَا وَتَمْنَعَهُمَا عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَوْ قَدْ فَعَلَتْ ذَلِكَ شَجَرَةٌ لَكَانَ هَلَاكُهَا فِيمَا تَفْعَلُ ، إِذْ تُحَاوِلُ أَنْ تُضَاعِفَ فَائِدَتَهَا مِنْ قَانُونِ ٱلْعَالَمِ ، فَيَكُونُ طَمَعُهَا سَرِيعًا فِي إِفْسَادِ ٱلصِّلَةِ بَيْنَهُمَا ، فَلَا يَجِدُ ٱلْقَانُونُ فِيهَا نِظَامَهُ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا تَجِدُ فِي ٱلْقَانُونِ نِظَامَهَا ، فَيُهْلِكُهَا ٱلَّذِي كَانَ يُحْيِيهَا ، وَتُسْتَعْبَدُ لِحَظِّ نَفْسِهَا ، فَيُفْقِدُهَا ذَلِكَ حُرِّيَّةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِي كَانَتْ لَهَا فِي نَفْسِهَا .

* * *

يَقُولُ نَبِيُّنَا ﷺ : « إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ ، إِنَّ نَفْسَهُ تُنْزَعُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ ٱللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ » . [النسائي ، رقم : ١٨٤٣ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٤٠٨ ، ٢٤٧١ ، ٢٦٩٩] فَهَـٰذَا هُوَ أَسْمَىٰ قَانُونٍ ٱجْتِمَاعِيٍّ يُمْكِنُ أَنْ تَظْفَرَ بِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ ، وَمَا يَأْتِي لَهَا ذَلِكَ إِلَّا إِذَا أَصْبَحَتْ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهَا شُعُورًا ٱجْتِمَاعِيًّا عَامًّا ، مُقَرَّرًا فِي ٱلنَّفْسِ ، قَائِمًا فِيهَا عَلَىٰ إِيمَانٍ رَاسِخٍ بِأَنَّ ٱلْفَرْدَ هُوَ صُورَةُ ٱلْمُجْتَمَعِ لَا صُورَةُ نَفْسِهِ وَحْدَهَا ، وَأَنَّ ٱلنَّاسَ كَحَبِّ ٱلْقَمْحِ فِي ٱلسُّنْبُلَةِ ، لَيْسَ لِجَمِيعِهِ إِلَّا قَانُونٌ وَاحِدٌ ، فَمَوْضِعُ كُلِّ حَبَّةٍ مِنَ ٱلسُّنْبُلَةِ هُوَ ثَرْوَتُهَا ، عَلَتْ أَوْ سَفَلَتْ ، وَكَثُرَ مَا تَأْخُذُهُ أَوْ قَلَّ ؛ وَإِذَا كَانَ أَسَاسُ ٱلْحَيَاةِ فِي ٱلْحَبَّةِ مِنْهَا أَنْ تَجِدَ قِوَامَهَا وَكِفَايَتَهَا مِنْ مَادَّةِ ٱلْأَرْضِ ، فَتَمَامُ ٱلْحَيَاةِ فِيهَا أَنْ يَغْمُرَهَا ٱلنُّورُ مِنْ حَوْلِهَا ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ ٱلنُّورُ مِنْ حَوْلِهَا يَغْمُرُهَا .

فَٱلْحَبَّةُ مِنَ ٱلسُّنْبُلَةِ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ ، وَإِنَّهَا لَتُنْزَعُ وَمَا بِهَا أَنَّهَا نُزِعَتْ ، وَلَـٰكِنَّهَا أَدَّتْ مَا تُؤَدِّي ، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْ قَانُونٍ لِتَتَّصِلَ بِقَانُونِ غَيْرِهِ ، وَمَا ٱغْتَنَتْ وَلَا ٱفْتَقَرَتْ ، وَلَا

أَكْثَرَتْ وَلَا أَخَفَّتْ ؛ بَلْ حَقَّقَتْ مَوْضِعَهَا ، فَإِنَّهَا مَا نَبَتَتْ لِتَبْقَىٰ ، وَمَا نَمَتْ إِلَّا لِيَنْقَطِعَ نَمَاؤُهَا . وَكَذَٰلِكَ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلصَّحِيحُ ٱلْإِيمَانِ ، ٱلصَّادِقُ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْحَيَاةِ : هُوَ أَبَدًا فِي قَانُونِ آخِرَتِهِ ، فَهُوَ أَبَدًا فِي عَمَلِ ضَمِيرِهِ .

وَٱلنَّاسُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ كَحَشْدٍ عَظِيمٍ يَتَدَفَّقُ مِنْ مَضِيقٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ يَنْفُذُ إِلَىٰ ٱلْفَضَاءِ ؛ فَإِذَا هُمْ أَدْرَكُوا جَمِيعًا أَنَّهُمْ مُفْضُونَ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلنِّهَايَةِ مَرُّوا آمِنِينَ وَكَانَ فِي يَقِينِهِمُ ٱلسَّلَامَةُ ، وَفِي صَبْرِهِمُ ٱلْوِقَايَةُ ، وَفِي نِظَامِهِمُ ٱلتَّوْفِيقُ ، وَفِي تَعَاوُنِهِمُ ٱلْحَيَاةُ ؛ فَهُمْ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ ، مَا دَامَ هَـٰذَا قَانُونَ جَمِيعِهِمْ ؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ شَذَّ مِنْهُمْ فَٱضْطَرَبَ فَطَاشَ ، هَلَكَ وَأَهْلَكَ مَنْ حَوْلَهُ ، وَمَنْ عَكَسَ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ وَنَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، أَهْلَكَ مَنْ حَوْلَهُ وَهَلَكَ . وَٱلْمَوْتُ أَشْقَىٰ ٱلْمَوْتِ هُنَا فِي هَـٰذَا ٱلْمَضِيقِ بَيْنَ ٱلْجَبَلَيْنِ ـ ٱعْتِبَارُ ٱلْحَاضِرِ حَاضِرًا فَقَطْ[1] ، وَٱلضَّجَرُ مِنْهُ ، وَجَعْلُ { كُلِّ } إِنْسَانٍ[2] نَفْسَهُ غَايَةً . وَٱلْحَيَاةُ أَهْنَأُ ٱلْحَيَاةِ ـ ٱعْتِبَارُ ٱلْحَاضِرِ بِمَا وَرَاءَهُ[3] ، وَٱلصَّبْرُ عَلَىٰ شِدَّتِهِ ، وَجَعْلُ ٱلْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَسِيلَةً .

* * *

فَذَٰلِكَ مَعْنَىٰ خُبْزِ ٱلشَّعِيرِ ، وَٱلْقِلَّةِ وَٱلضِّيقِ ، وَرَهْنِ ٱلدِّرْعِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ مِنْ سَيِّدِ ٱلْخَلْقِ وَأَكْمَلِهِمْ ، وَمَنْ لَوْ شَاءَ لَمَشَىٰ عَلَىٰ أَرْضٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ . فَهُوَ ﷺ يُعَلِّمُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ أَنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْعَظِيمَ ٱلنَّفْسِ لَا يَكُونُ فِي ٱلْحَيَاةِ إِلَّا ضَيْفًا نَازِلًا عَلَىٰ نَفْسِهِ .

وَمِنْ مَعَانِي ذَٰلِكَ ٱلْفَقْرِ ٱلْعَظِيمِ أَنَّ خُبْزَ ٱلشَّعِيرِ هُوَ رَمْزٌ مِنْ رُمُوزِ ٱلْحَيَاةِ عَلَىٰ ٱلتَّحَلُّلِ مِنْ خُلُقِ ٱلْأَثَرَةِ ، وَٱلْبَرَاءَةِ مِنْ هَوَىٰ ٱلتَّرَفِ ؛ وَرَهْنُ ٱلدِّرْعِ رَمْزٌ آخَرُ عَلَىٰ ٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلْكِبْرِيَاءِ وَٱلطَّمَعِ ؛ وَٱلْعُسْرَةُ رَمْزٌ ثَالِثٌ عَلَىٰ مُجَاهَدَةِ ٱلْمَلَلِ ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي يُفْسِدُ ٱلْحَيَاةَ كَمَا يُفْسِدُ بَعْضُ ٱلنَّبَاتِ ٱلنَّبَاتَ . وَمَجْمُوعُ هَـٰذِهِ ٱلرُّمُوزِ رَمْزٌ بِحَالِهِ عَلَىٰ وُجُوبِ ٱلْإِيقَاظِ ٱلنَّفْسِيِّ لِلْأُمَّةِ ٱلْعَزِيزَةِ ٱلَّتِي تَقُودُ أَنْفُسَهَا بِمُقَاسَاةِ ٱلشَّدَائِدِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلطِّبَاعِ ، لِتَكُونَ فِي كُلِّ فَرْدٍ مَادَّةُ ٱلْجَيْشِ ، وَلِيَصْلُحَ هَـٰذَا ٱلْجَيْشُ قَائِدًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱعْتِبَارُ ٱلْحَاضِرِ بِنَفْسِهِ » بَدَلًا مِنْ : « ٱعْتِبَارُ ٱلْحَاضِرِ حَاضِرًا فَقَطْ » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « وَجَعَلَ ٱلْإِنْسَانُ » بَدَلًا مِنْ : « وَجَعْلُ كُلِّ إِنْسَانٍ » .
(٣) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱعْتِبَارُهُ بِمَا وَرَاءَهُ » بَدَلًا مِنْ : « ٱعْتِبَارُ ٱلْحَاضِرِ بِمَا وَرَاءَهُ » .

عَلَىٰ أَنَّهُ ﷺ حَثَّ عَلَىٰ طَلَبِ ٱلْيَسَارِ ، وَٱلتَّغَلُّلِ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلشَّرِيفَةِ بِٱلْغَلَّةِ وَٱلْمَالِ ، فَقَالَ : « إِنَّكَ إِنْ تَدَعْ عِيَالَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ ٱلنَّاسَ » [البخاري ، رقم : ٥٦ ، ١٢٩٦ ، ٢٧٤٢ ، ٢٧٤٤ ، ٣٩٣٦ ، ٤٤٠٩ ، ٥٣٥٤ ، ٥٦٥٩ ، ٥٦٦٨ ، ٦٣٧٣ ، ٦٧٣٣ ؛ مسلم ، رقم : ١٦٢٨ ؛ الترمذي ، رقم : ٩٧٥ ، ٢١١٦ ، ٣٠٧٩ ، ٣١٨٩ ؛ النسائي ، رقم : ٣٦٢٦ ، ٣٦٢٧ ، ٣٦٢٨ ، ٣٦٣٠ ، ٣٦٣٢ ، ٣٦٣٥ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٧٤٠ ، ٣٨٦٤ ، ٣١٠٤ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١٤٤٣ ، ١٤٧٧ ، ١٤٨٢ ، ١٤٩١ ، ١٥٠٤ ، ١٥٢٧ ، ١٥٤٩ ، ١٦٠٢ ، ١٦١٧ ؛ موطأ مالك ، رقم : ١٤٩٥ ؛ الدارمي ، رقم : ٣١٩٥ ، ٣١٩٦] . وَرَأَىٰ عَابِدًا قَدِ ٱنْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ حَتَّىٰ أَكَلَتْ نَفْسُهُ جِسْمَهُ ، وَوَصَفُوا لَهُ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ ، فَقَالَ ﷺ : « مَنْ يَعُولُهُ ؟ » قَالُوا : كُلُّنَا نَعُولُهُ . فَقَالَ : « كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ ! . . » إِلَىٰ أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مَرْوِيَّةٍ ، هِيَ تَمَامُ ٱلْقَانُونِ ٱلْأَدَبِيِّ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ فِي ٱلدُّنْيَا ، تُثْبِتُ أَنَّ ٱلْحَيَّ إِنْ هُوَ إِلَّا عَمَلُ ٱلْحَيِّ .

وَلَـٰكِنْ حِينَ يَكُونُ سَيِّدُ ٱلْأُمَّةِ وَصَاحِبُ شَرِيعَتِهَا رَجُلًا فَقِيرًا ، عَامِلًا مُجَاهِدًا ، يَكْدَحُ لِعَيْشِهِ ، وَيَجُوعُ يَوْمًا وَيَشْبَعُ يَوْمًا ، فَلَمْ يُقَلِّبْ يَدَهُ فِي تِلَادٍ مِنَ ٱلْمَالِ يَرِثُهُ ، وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا[1] عَلَىٰ طَرِيفٍ مِنْهُ يُوَرِّثُهُ ـ فَذَٰلِكَ هُوَ مَا بَيَّنَّاهُ وَشَرَحْنَاهُ ، وَذَٰلِكَ كَٱلْأَمْرِ نَافِذًا لَا رُخْصَةَ فِيهِ ، عَلَىٰ أَلَّا يَتَّخِذَ ٱلْغَنِيُّ مِنَ ٱلْفَقِيرِ عَبْدًا ٱجْتِمَاعِيًّا لِفَقْرِ هَـٰذَا وَلِمَالِ ذَاكَ ؛ بَلْ هِيَ ٱلْمُسَاوَاةُ ٱلنَّفْسِيَّةُ لَا غَيْرُهَا وَإِنِ ٱخْتَلَفَتْ طَبَقَاتُ ٱلِاجْتِمَاعِ . وَٱلْأَكْرَمُ هُوَ ٱلْأَتْقَىٰ لِلّٰهِ بِمَعْنَىٰ ٱلتَّقْوَىٰ ، وَٱلْأَقْوَمُ بِٱلْوَاجِبِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ ٱلْوَاجِبِ ، وَٱلْأَكْفَأُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِي مَعَانِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ .

فَقْرُ ذَٰلِكَ ٱلسَّيِّدِ ٱلْأَعْظَمِ لَيْسَ فَقْرًا ، بَلْ هُوَ كَمَا رَأَيْتَ : ضَبْطُ ٱلسُّلْطَةِ ٱلْكَائِنَةِ فِي طَبِيعَةِ ٱلتَّمَلُّكِ ، لِقِيَامِ ٱلتَّعَاوُنِ ٱلْإِنْسَانِيِّ عَلَىٰ أَسَاسِهِ ٱلْعَمَلِيِّ ؛ هُوَ ٱلْمُحَاجَزَةُ ٱلْعَادِلَةُ بَيْنَ ٱلْمَصَالِحِ ٱلِاقْتِصَادِيَّةِ ٱلطَّاغِيَةِ : يَمْنَعُ أَنْ تَأْكُلَ مَصْلَحَةٌ مَصْلَحَةً فَتَهْلِكَ بِهَا ، وَيُوجِبُ أَنْ تَلِدَ ٱلْمَصْلَحَةُ مَصْلَحَةً لِتَحْيَا بِهَا .

وَٱلنَّبِيُّ ٱلْفَقِيرُ ٱلْعَظِيمُ هُوَ فِي ٱلتَّارِيخِ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ، كَٱلْقَاضِي ٱلْجَالِسِ وَرَاءَ مَوَادِّ ٱلْقَانُونِ . ﷺ .

مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « وَلَمْ يَجْمَعْهَا » بَدَلًا مِنْ : « وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا » .

دَرْسٌ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ(*)

قَالُوا : إِنَّهُ لَمَّا نَصَرَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُوْلَهُ وَرَدَّ عَنْهُ ٱلأَحْزَابَ وَفَتَحَ عَلَيْهِ قُرَيْظَةَ وَٱلنَّضِيرَ(١) ، ظَنَّ أَزْوَاجُهُ ﷺ أَنَّهُ ٱخْتَصَّ بِنَفَائِسِ ٱلْيَهُوْدِ وَذَخَائِرِهِمْ ؛ وَكُنَّ تِسْعَ نِسْوَةٍ : عَائِشَةُ ، وَحَفْصَةُ ، وَأُمُّ حَبِيْبَةَ ، وَسَوْدَةُ ، وَأُمُّ سَلَمَةَ ، وَصَفِيَّةُ ، وَمَيْمُوْنَةُ ، وَزَيْنَبُ ، وَجُوَيْرِيَةُ ؛ فَقَعَدْنَ حَوْلَهُ وَقُلْنَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ ! بَنَاتُ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ فِي ٱلْحَلْيِ وَٱلْحُلَلِ ، وَٱلإِمَاءِ وَٱلْخَوَلِ ، وَنَحْنُ عَلَىٰ مَا تَرَاهُ مِنَ ٱلْفَاقَةِ وَٱلضِّيْقِ . . . وَآلَمْنَ قَلْبَهُ بِمُطَالَبَتِهِنَّ لَهُ بِتَوْسِعَةِ ٱلْحَالِ ، وَأَنْ يُعَامِلَهُنَّ بِمَا تُعَامِلُ بِهِ ٱلْمُلُوْكُ وَأَبْنَاءُ ٱلدُّنْيَا أَزْوَاجَهُمْ ؛ فَأَمَرَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَتْلُوَ عَلَيْهِنَّ مَا نَزَلَ فِيْ أَمْرِهِنَّ مِنْ تَخْيِيْرِهِنَّ فِيْ فِرَاقِهِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا(٢) جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآيتان : ٢٨ و٢٩] .

قَالُوا : وَبَدَأَ ﷺ بِعَائِشَةَ ـ وَهِيَ أَحَبُّهُنَّ إِلَيْهِ ـ فَقَالَ لَهَا : « إِنِّيْ ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا مَا أُحِبُّ أَنْ تَعْجَلِيْ فِيْهِ حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِيْ أَبَوَيْكِ » . قَالَتْ : مَا هُوَ ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا ٱلآيَةَ . قَالَتْ : أَفِيْكَ أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ ؟ بَلْ أَخْتَارُ ٱللهَ تَعَالَىٰ وَرَسُوْلَهُ . [البخاري ، رقم : ٤٧٨٦ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٧٥ ؛ الترمذي ، رقم : ٣٢٠٤ ؛ النسائي ، رقم : ٣٤٣٩ ، ٣٤٤٠ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠٥٣ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٤٧٧١ ، ٢٥٥٧٧] .

ثُمَّ تَتَابَعْنَ كُلُّهُنَّ عَلَىٰ ذَلِكَ ، فَسَمَّاهُنَّ ٱللهُ « أُمَّهَاتِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ » ، تَعْظِيْمًا لِحَقِّهِنَّ ، وَتَأْكِيْدًا لِحُرْمَتِهِنَّ ، وَتَفْضِيْلًا لَهُنَّ عَلَىٰ سَائِرِ ٱلنِّسَاءِ .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٦ ، ٢٨ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٠ أبريل/ نيسان ١٩٣٦ ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٦٢٤ ـ ٦٢٧ .

(١) هُمَا حَيَّانِ مِنْ أَحْيَاءِ ٱلْيَهُوْدِ بِٱلْمَدِيْنَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِيْ أَوَاخِرِ سَنَةِ خَمْسٍ لِلْهِجْرَةِ .

(٢) ٱلسَّرَاحُ : ٱلطَّلَاقُ ، وَمُتْعَةُ ٱلطَّلَاقِ مَا تُعْطَاهُ ٱلْمُطَلَّقَةُ ـ وَهُوَ ـ يَخْتَلِفُ حَسْبَ ٱلسَّعَةِ وَٱلإِقْتَارِ .

هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْقِصَّةُ كَمَا تُقْرَأُ فِيْ ٱلتَّارِيْخِ وَكَمَا ظَهَرَتْ فِيْ ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ ، فَلْنَقْرَأْهَا نَحْنُ كَمَا هِيَ فِيْ مَعَانِيْ ٱلْحِكْمَةِ ، وَكَمَا ظَهَرَتْ فِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلْعَالِيَةِ ؛ فَسَنَجِدُ لَهَا غَوْرًا بَعِيْدًا ، وَنَعْرِفُ فِيْهَا دَلَالَةً سَامِيَةً ، وَنَتَبَيَّنُ تَحْقِيْقًا فَلْسَفِيًّا دَقِيْقًا لِلأَوْهَامِ وَٱلْحَقَائِقِ .

وَهِيَ قَبْلَ كُلِّ هَـٰذَا وَمَعَ كُلِّ هَـٰذَا تَنْطَوِيْ عَلَىٰ حِكْمَةٍ رَائِعَةٍ لَمْ يَتَنَبَّهْ لَهَا أَحَدٌ ، وَمِنْ أَجْلِهَا ذُكِرَتْ فِيْ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيْمِ ، لِتَكُوْنَ نَصًّا تَارِيْخِيًّا قَاطِعًا يُدَافِعُ بِهِ ٱلتَّارِيْخُ عَنْ هَـٰذَا ٱلنَّبِيِّ ٱلْعَظِيْمِ فِيْ أَمْرٍ مِنْ أَمْرِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْغَرِيْزَةِ ، فَإِنَّ جَهَلَةَ ٱلْمُبَشِّرِيْنَ فِيْ زَمَنِنَا هَـٰذَا ، وَكَثِيْرًا مِنْ أَهْلِ ٱلزَّيْغِ وَٱلإِلْحَادِ ، وَطَائِفَةً مِنْ قِصَارِ ٱلنَّظَرِ فِيْ ٱلتَّحْقِيْقِ ـ يَزْعُمُوْنَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِنَّمَا ٱسْتَكْثَرَ مِنَ ٱلنِّسَاءِ لِأَهْوَاءٍ نَفْسِيَّةٍ مَحْضَةٍ وَشَهَوَاتٍ كَٱلشَّهَوَاتِ ؛ وَيَتَطَرَّقُوْنَ مِنْ هَـٰذَا ٱلزَّعْمِ إِلَىٰ ٱلشُّبْهَةِ ، وَمِنَ ٱلشُّبْهَةِ إِلَىٰ سُوْءِ ٱلظَّنِّ ، وَمِنْ سُوْءِ ٱلظَّنِّ إِلَىٰ قُبْحِ ٱلرَّأْيِ ؛ وَكُلُّهُمْ غَبِيٌّ جَاهِلٌ ؛ فَلَوْ كَانَ ٱلأَمْرُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَوْ عَلَىٰ قَرِيْبٍ مِنْهُ أَوْ نَحْوٍ مِنْ قَرِيْبِهِ ، لَمَا كَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةُ ٱلَّتِيْ أَسَاسُهَا نَفْيُ ٱلزِّيْنَةِ وَتَجْرِيْدُ نِسَائِهِ جَمِيْعًا مِنْهَا ، وَتَصْحِيْحُ ٱلنِّيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُنَّ عَلَىٰ حَيَاةٍ لَا تَحْيَا فِيْهَا مَعَانِيْ ٱلْمَرْأَةِ ، وَتَحْتَ جَوٍّ لَا يَكُوْنُ أَبَدًا جَوَّ ٱلزَّهْرِ . . . وَأَمْرُهُ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ أَنْ يُخَيِّرَهُنَّ جَمِيْعًا بَيْنَ سَرَاحِهِنَّ فَيَكُنَّ كَٱلنِّسَاءِ وَيَجِدْنَ مَا شِئْنَ مِنْ دُنْيَا ٱلْمَرْأَةِ ، وَبَيْنَ إِمْسَاكِهِنَّ فَلَا يَكُنَّ مَعَهُ إِلَّا فِيْ طَبِيْعَةٍ أُخْرَىٰ تَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ تَنْتَهِيْ ٱلدُّنْيَا وَزِيْنَتُهَا .

فَٱلْقِصَّةُ نَفْسُهَا رَدٌّ عَلَىٰ زَعْمِ ٱلشَّهَوَاتِ ، إِذْ لَيْسَتْ هَـٰذِهِ لُغَةَ ٱلشَّهْوَةِ ، وَلَا سِيَاسَةَ مَعَانِيْهَا ، وَلَا أُسْلُوْبَ غَضَبِهَا أَوْ رِضَاهَا . وَمَا هَـٰهُنَا تَمْلِيْقٌ ، وَلَا إِطْرَاءٌ ، وَلَا نُعُوْمَةٌ ، وَلَا حِرْصٌ عَلَىٰ لَذَّةٍ ، وَلَا تَعْبِيْرٌ بِلُغَةِ ٱلْحَاسَّةِ ؛ وَٱلْقِصَّةُ بَعْدُ مَكْشُوْفَةٌ صَرِيْحَةٌ لَيْسَ فِيْهَا مَعْنَىٰ وَلَا شِبْهُ مَعْنًى مِنْ حَرَارَةِ ٱلْقَلْبِ ، وَلَا أَثَرٌ وَلَا بَقِيَّةُ أَثَرٍ مِنْ مَيْلِ ٱلنَّفْسِ ، وَلَا حَرْفٌ أَوْ صَوْتُ حَرْفٍ مِنْ لُغَةِ ٱلدَّمِ . وَهِيَ عَلَىٰ مَنْطِقٍ آخَرَ غَيْرِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلَّذِيْ تُسْتَمَالُ بِهِ ٱلْمَرْأَةُ ، فَلَمْ تَقْتَصِرْ عَلَىٰ نَفْيِ ٱلدُّنْيَا وَزِيْنَةِ ٱلدُّنْيَا عَنْهُنَّ ، بَلْ نَفَتِ ٱلأَمَلَ فِيْ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَىٰ آخِرِ ٱلدَّهْرِ ، وَأَمَاتَتْ مَعْنَاهُ فِيْ نُفُوْسِهِنَّ ، بِقَصْرِ ٱلإِرَادَةِ مِنْهُنَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ : ٱللهُ فِيْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَٱلرَّسُوْلُ فِيْ شَدَائِدِهِ وَمُكَابَدَتِهِ ، وَٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ فِيْ تَكَالِيْفِهَا وَمَكَارِهِهَا . فَلَيْسَ هُنَا ظَرْفٌ ، وَلَا رِقَّةٌ ، وَلَا عَاطِفَةٌ ، وَلَا سِيَاسَةٌ لِطَبِيْعَةِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَلَا ٱعْتِبَارٌ لِمِزَاجِهَا ، وَلَا زُلْفَىٰ لِأُنُوْثَتِهَا ؛ ثُمَّ هُوَ تَخْيِيْرٌ صَرِيْحٌ بَيْنَ ضِدَّيْنِ لَا تَتَلَوَّنُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تَكُوْنُ مِنْهُمَا مَعًا ، ثُمَّ هُوَ عَامٌّ لِجَمِيْعِ

زَوْجَاتِهِ لَا يُسْتَثْنَىٰ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ وَلَا أَكْثَرُ .

وَٱلْحَرِيصُ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ وَٱلِاسْتِمْتَاعِ بِهَا لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ هَـٰذَا ، بَلْ يُخَاطِبُ فِي ٱلْمَرْأَةِ خَيَالَهَا أَوَّلَ مَا يُخَاطِبُ ، وَيُشْبِعُهُ مُبَالَغَةً وَتَأْكِيدًا ، وَيُوسِعُهُ رَجَاءً وَأَمَلًا ، وَيُقَرِّبُ لَهُ ٱلزَّمَنَ ٱلْبَعِيدَ ، حَتَّىٰ لَوْ كَانَ فِي أَوَّلِ ٱللَّيْلِ وَكَانَ ٱلْخِلَافُ عَلَىٰ ٱلْوَقْتِ ، لَحَقَّقَ لَهُ أَنَّ ٱلظُّهْرَ بَعْدَ سَاعَةٍ . . .

* * *

وَبُرْهَانٌ آخَرُ ؛ وَهُوَ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَتَزَوَّجْ نِسَاءَهُ لِمَتَاعٍ مِمَّا يُمَتِّعُ ٱلْخَيَالُ بِهِ ، فَلَوْ كَانَ وَضْعُ ٱلْأَمْرِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَمَا ٱسْتَقَامَ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلزِّينَةِ وَبِٱلْفَنِّ ٱلنَّاعِمِ فِي ٱلثَّوْبِ وَٱلْحِلْيَةِ وَٱلتَّشَكُّلِ كَمَا نَرَىٰ فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْفَنِّيَّةِ ، فَإِنَّ ٱلْمُمَثِّلَةَ لَا تُمَثِّلُ ٱلرِّوَايَةَ إِلَّا فِي ٱلْمَسْرَحِ ٱلْمُهَيَّأِ بِمَنَاظِرِهِ وَجَوِّهِ . . . وَقَدْ كَانَ نِسَاؤُهُ ﷺ أَعْرَفَ بِهِ ؛ وَهَا هُوَ ذَا يَنْفِي ٱلزِّينَةَ عَنْهُنَّ وَيُخَيِّرُهُنَّ ٱلطَّلَاقَ إِذَا أَصْرَرْنَ عَلَيْهَا . فَهَلْ تَرَىٰ فِي هَـٰذَا صُورَةَ فِكْرٍ مِنْ أَفْكَارِ ٱلشَّهْوَةِ ؟ وَهَلْ تَرَىٰ إِلَّا ٱلْكَمَالَ ٱلْمَحْضَ ؟ وَهَلْ كَانَتْ مُتَابَعَةُ ٱلزَّوْجَاتِ ٱلتِّسْعِ إِلَّا تِسْعَةَ بُرْهَانَاتٍ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْكَمَالِ ؟

وَكَأَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ يُلْقِي بِهَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ دَرْسًا مُسْتَفِيضًا فِي فَلْسَفَةِ ٱلْخَيَالِ وَسُوءِ أَثَرِهِ ، عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ فِي أُنُوثَتِهَا ، وَعَلَىٰ ٱلرَّجُلِ فِي رُجُولَتِهِ ؛ وَأَنَّ ذَٰلِكَ تَعْقِيدٌ فِي ٱلشَّهَوَاتِ يُقَابِلُهُ تَعْقِيدٌ فِي ٱلطَّبْعِ ، وَكَذِبٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ يَنْشَأُ عَنْهُ كَذِبٌ فِي ٱلْخُلُقِ ، وَأَنَّهُ صَرْفٌ لِلْمَرْأَةِ إِلَىٰ حَيَاةِ ٱلْأَحْلَامِ وَٱلْأَمَانِي وَٱلطَّيْشِ وَٱلْبَطَرِ وَٱلْفَرَاغِ ، وَتَعْوِيدُهَا عَادَاتٍ تُفْسِدُ عَاطِفَتَهَا ، وَتُضِيفُ إِلَيْهَا ٱلتَّصَنُّعَ فَتُضْعِفُ قُوَّتَهَا ٱلنَّفْسِيَّةَ ٱلْقَائِمَةَ عَلَىٰ إِبْدَاعِ ٱلْجَمَالِ مِنْ حَقِيقَتِهَا لَا مِنْ مَظْهَرِهَا ، وَتَحْقِيقِ ٱلْفَائِدَةِ مِنْ عَمَلِهَا لَا مِنْ شَكْلِهَا .

وَكُلُّ مَحَاسِنِ ٱلْمَرْأَةِ هِيَ خَيَالٌ مُتَخَيَّلٌ وَلَا حَقِيقَةَ لِشَيْءٍ مِنْهَا فِي ٱلطَّبِيعَةِ ، وَإِنَّمَا حَقِيقَتُهَا فِي ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ إِلَيْهَا ؛ فَلَا تَكُونُ ٱمْرَأَةٌ فَاتِنَةً إِلَّا لِلْمَفْتُونِ بِهَا لَيْسَ غَيْرُ . وَلَوْ رَدَّتِ ٱلطَّبِيعَةُ عَلَىٰ مَنْ يُشَبِّبُ بِٱمْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ فَيَقُولُ لَهَا : هَـٰذِهِ مَحَاسِنُكِ وَهَـٰذِهِ فِتْنَتُكِ وَهَـٰذَا سِحْرُكِ وَهَـٰذَا وَهَـٰذَا ؛ لَقَالَتْ لَهُ ٱلطَّبِيعَةُ : بَلْ هَـٰذِهِ كُلُّهَا شَهَوَاتُكَ أَنْتَ[1] . . .

(١) بَسَطْنَا هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِي كَثِيرٍ مِمَّا كَتَبْنَاهُ ، وَخَاصَّةً فِي كِتَابِ : (ٱلسَّحَابِ ٱلْأَحْمَرِ) .

وَبِهَـٰذَا يَخْتَلِفُ ٱلْجَمَالُ عِنْدَ فَقْدِ ٱلنَّظَرِ ؛ فَلَا يَفْتِنُ ٱلْأَعْمَىٰ[1] جَمَالُ ٱلصُّورَةِ وَلَا سِحْرُ ٱلشَّكْلِ وَلَا فَرَاهَةُ ٱلْمَنْظَرِ ، وَإِنَّمَا يَفْتِنُهُ صَوْتُ ٱلْمَرْأَةِ وَمَجَسَّتُهَا وَرَائِحَتُهَا .

فَلَا حَقِيقَةَ فِي ٱلْمَرْأَةِ إِلَّا ٱلْمَرْأَةُ نَفْسُهَا ؛ وَلَوْ أُخِذَتْ كُلُّ أُنْثَىٰ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا هَـٰذِهِ لَمَا فَسَدَ رَجُلٌ وَلَا شَقِيَتِ ٱمْرَأَةٌ ، وَلَانْتَظَمَتْ حَيَاةُ كُلِّ زَوْجَيْنِ بِأَسْبَابِهَا ٱلَّتِي فِيهَا . وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْمَثَلُ ٱلْمَضْرُوبُ فِي ٱلْقِصَّةِ .

يُرِيدُ ٱلنَّبِيُّ ﷺ لِيُعَلِّمَ أُمَّتَهُ أَنَّ حَيْفَ ٱلْغَرِيزَةِ عَلَىٰ ٱلْعَقْلِ إِفْسَادٌ لِهَـٰذَا ٱلْعَقْلِ ، وَأَنَّهُ مَتَىٰ أُخِذَتِ ٱلْمَرْأَةُ لِحَظِّ ٱلْغَرِيزَةِ وَٱخْتِيَارِهَا ، كَانَتْ حَيَاتُهَا ٱسْتِجَابَةً لِجُنُونِ ٱلرَّجُلِ ، وَمَلَأَتْهَا مَعَانِي ٱلتَّزَيُّدِ وَٱلتَّصَنُّعِ ؛ فَيُوشِكُ أَنْ يَنْقُلَهَا هَـٰذَا عَنْ طَبِيعَتِهَا ٱلسَّامِيَةِ ٱلَّتِي أَكْثَرُهَا فِي ٱلْحِرْمَانِ وَٱلْإِيثَارِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلِاحْتِمَالِ ، وَيَرُدَّهَا إِلَىٰ أَضْدَادِ هَٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ ، فَيَقُومُ أَمْرُهَا بَعْدُ عَلَىٰ ٱلْأَثَرَةِ وَٱلْمَصْلَحَةِ وَٱلتَّفَادِي وَٱلضَّجَرِ وَٱلتَّبَرُّمِ وَٱلْإِلْحَاحِ وَٱلْإِزْعَاجِ ، وَيُضْعِفُ مَعْنَىٰ ٱلسَّلْبِ ٱلرَّاسِخِ فِي نَفْسِهَا مِنْ أَصْلِ ٱلْفِطْرَةِ ؛ فَيَتَبَدَّلُ حَيَاؤُهَا ، وَفِي ٱلْحَيَاءِ رَدُّهَا عَنْ أَشْيَاءَ ؛ وَيَقِلُّ إِخْلَاصُهَا ، وَفِي ٱلْإِخْلَاصِ رَدٌّ لَهَا عَنْ أَشْيَاءَ أُخْرَىٰ ؛ وَيَكْثُرُ طَمَعُهَا ، وَفِي قَنَاعَتِهَا مُحَاجَزَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلشَّرِّ .

وَبِهَـٰذَا وَنَحْوِهِ يَفْسُدُ مَا بَيْنَ ٱلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُتَصَنِّعَةِ ؛ فَإِذَا كَثُرَ ٱلْمُتَصَنِّعَاتُ لَا يَكُونُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ مَشَاكِلُ فَقَطْ ، بَلْ تَكُونُ مِنْ حُلُولِ ٱلْمَشَاكِلِ مَعَهُنَّ مَشَاكِلُ أُخْرَىٰ . . .

* * *

وَلُبَابُ هَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فِي ٱلزَّوَاجِ ٱلْمَثَلَ ٱلشَّعْبِيَّ ٱلْأَكْمَلَ كَمَا هُوَ دَأْبُهُ فِي كُلِّ صِفَاتِهِ ٱلشَّرِيفَةِ ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَاتُهُ جَمِيعًا كَنِسَاءِ فُقَرَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، لِيَكُونَ مِنْهُنَّ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ لِلْمَرْأَةِ ٱلْمُؤْمِنَةِ ٱلْعَامِلَةِ ٱلشَّرِيفَةِ ٱلَّتِي تَبْرَعُ ٱلْبَرَاعَةَ كُلَّهَا فِي ٱلصَّبْرِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَٱلْإِخْلَاصِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلصَّرَاحَةِ وَٱلْقَنَاعَةِ ، فَلَا تَكُونُ ٱلْمَرْأَةُ زِينَةً تَطْلُبُ زِينَةً لِتَتِمَّ بِهَا فِي ٱلْخَيَالِ ، وَلَـٰكِنْ إِنْسَانِيَّةً تَطْلُبُ كَمَالَهَا ٱلْإِنْسَانِيَّ لِتَتِمَّ بِهِ فِي ٱلْوَاقِعِ .

وَهَـٰذِهِ ٱلزِّينَةُ ٱلَّتِي تَتَصَنَّعُ بِهَا ٱلْمَرْأَةُ تَكَادُ تَكُونُ صُورَةَ ٱلْمَكْرِ وَٱلْخِدَاعِ وَٱلتَّعَقُّدِ ، وَكُلَّمَا

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « فَلَا يَفْتِنُهُ » بَدَلًا مِنْ : « فَلَا يَفْتِنُ ٱلْأَعْمَىٰ » .

أَسْرَفَتْ فِيْ هَـٰذِهِ أَسْرَفَتْ فِيْ تِلْكَ ، بَلِ ٱلزِّيْنَةُ لِوَجْهِ ٱلْمَرْأَةِ وَجِسْمِهَا سِلَاحٌ مِنْ أَسْلِحَةِ ٱلْمَعَانِيْ : كَٱلأَظَافِرِ وَٱلْمَخَالِبِ وَٱلأَنْيَابِ ، غَيْرَ أَنَّ هَـٰذِهِ لِوَحْشِيَّةِ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلْحَيَّةِ ٱلْمُفْتَرِسَةِ ، وَتِلْكَ لِوَحْشِيَّةِ ٱلْغَرِيْزَةِ ٱلْحَيَّةِ ٱلَّتِيْ تُرِيْدُ أَنْ تَفْتَرِسَ . وَلَا تُنْكِرُ ٱلْمَرْأَةُ نَفْسُهَا أَنَّ ٱلزِّيْنَةَ عَلَىٰ جِسْمِهَا ثَرْثَرَةٌ طَوِيْلَةٌ تَقُوْلُ وَتَقُوْلُ وَتَقُوْلُ . . .

* * *

وَإِنَّمَا يَكُوْنُ أَسَاسُ ٱلْكَمَالِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، فِيْ ٱلإِنْسَانِ ٱلْعَامِلِ ٱلْمُجَاهِدِ : لَا يَحْصُرُ نَفْسَهُ فِيْ شَيْءٍ يُسَمَّىٰ مَتَاعًا أَوْ زِيْنَةً ، وَلَا يُقَدِّرُ نَفْسَهُ بِمَا يَجْمَعُ لَهَا أَوْ بِمَا يَجْمَعُ حَوْلَهَا ، وَلَا يُعْتَدُّ مَا يَكُوْنُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا كَٱلتَّعْبِيْرِ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّهَوَاتِ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ . وَنَبِيُّنَا ﷺ هُوَ ٱلْغَايَةُ فِيْ هَـٰذَا . دَخَلَ عَلَيْهِ مَرَّةً عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ، فَإِذَا هُوَ عَلَىٰ حَصِيْرٍ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، وَإِذَا ٱلْحَصِيْرُ قَدْ أَثَّرَ فِيْ جَنْبِهِ . قَالَ عُمَرُ : وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيْرٍ نَحْوَ ٱلصَّاعِ ، [وَقَرَظٍ فِيْ نَاحِيَةٍ فِيْ ٱلْغُرْفَةِ] وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ[1] ؛ فَٱبْتَدَرَتْ عَيْنَايَ ، فَقَالَ : « مَا يُبْكِيْكَ يَا ابْنَ ٱلْخَطَّابِ ؟ » قَالَ عُمَرُ : يَا نَبِيَّ ٱللهِ ! وَمَا لِيْ لَا أَبْكِيْ وَهَـٰذَا ٱلْحَصِيْرُ قَدْ أَثَّرَ فِيْ جَنْبِكَ ، وَهَـٰذِهِ خَزَائِنُكَ لَا أَرَىٰ فِيْهَا إِلَّا مَا أَرَىٰ ، وَذَاكَ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرُ فِيْ ٱلثِّمَارِ وَٱلأَنْهَارِ وَأَنْتَ نَبِيُّ ٱللهِ وَصَفْوَتُهُ وَهَـٰذِهِ خِزَانَتُكَ[2] ؟ [ابن ماجه ، رقم : ٤١٥٣] .

وَجَاءَ مَرَّةً مِنْ سَفَرٍ فَدَخَلَ عَلَىٰ ٱبْنَتِهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا فَرَأَىٰ عَلَىٰ بَابِهَا سِتْرًا وَفِيْ يَدَيْهَا قُلْبَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ[3] ، فَرَجَعَ ؛ فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُوْ رَافِعٍ وَهِيَ تَبْكِيْ ، فَأَخْبَرَتْهُ بِرُجُوْعِ أَبِيْهَا ، فَسَأَلَهُ فِيْ ذَلِكَ ، فَقَالَ ﷺ : « مِنْ أَجْلِ ٱلسِّتْرِ وَٱلسِّوَارَيْنِ » .

فَلَمَّا أَخْبَرَهَا أَبُوْ رَافِعٍ هَتَكَتِ ٱلسِّتْرَ[4] ، وَنَزَعَتِ ٱلسِّوَارَيْنِ ، فَأَرْسَلَتْ بِهِمَا بِلَالًا إِلَىٰ

(١) كِيْسٌ مِنْ جِلْدٍ كَانَ يَتَّخِذُهُ ٱلْعَرَبُ وِعَاءً . [فِي ٱلأَصْلِ : « كَالَّذِي » بَدَلًا مِن : « كَانَ »] .
(٢) ٱلرِّوَايَاتُ مِنْ مِثْلِ هَـٰذَا كَثِيْرَةٌ عَنْهُ ﷺ ، وَقَدْ بَسَطْنَا فَلْسَفَةَ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ فِيْ مَقَالِ « سُمُوِّ ٱلْفَقْرِ » . [فِي ٱلأَصْلِ : « وَهَذِهِ خَزَائِنُكَ » بَدَلًا مِنْ : « هَذِهِ خَزَانَتُكَ »] .
(٣) ٱلْقُلْبُ (بِٱلضَّمِّ) : سِوَارٌ مِنَ ٱلْفِضَّةِ غَيْرُ مَلْوِيٍّ ، هُوَ ٱلَّذِيْ يُقَالُ لَهُ ٱلْيَوْمَ : (ٱلْغُوَيْشَةُ) ، وَهُوَ خَفِيْفٌ .
(٤) أَيْ : مَزَّقَتْهُ ؛ وَكَذَلِكَ رَأَىٰ مَرَّةً سِتْرًا عَلَىٰ بَابِ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا فَهَتَكَهُ وَقَالَ : « كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ ٱلدُّنْيَا . أَرْسِلِيْ بِهِ إِلَىٰ آلِ فُلَانٍ » .

ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَقَالَتْ : قَدْ تَصَدَّقْتُ بِهِ ، فَضَعْهُمَا حَيْثُ تَرَىٰ . فَقَالَ لِبِلَالٍ : « ٱذْهَبْ فَبِعْهُ وَٱدْفَعْهُ إِلَىٰ أَهْلِ ٱلصُّفَّةِ[1] » . فَبَاعَ ٱلْقُلْبَيْنِ بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ (نَحْوَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قِرْشًا) وَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَيْهِمْ[2] .

يَا بِنْتَ ٱلنَّبِيِّ ٱلْعَظِيْمِ ! وَأَنْتِ أَيْضًا لَا يَرْضَىٰ لَكِ أَبُوْكِ حِلْيَةً بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ وَإِنَّ فِيْ ٱلْمُسْلِمِيْنَ فُقَرَاءَ { لَا يَمْلِكُوْنَ مِثْلَهَا } .

أَيُّ رَجُلٍ شَعْبِيٍّ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ كَمُحَمَّدٍ ﷺ ، فِيْهِ لِلأُمَّةِ كُلِّهَا غَرِيْزَةُ ٱلأَبِ ، وَفِيْهِ عَلَىٰ كُلِّ أَحْوَالِهِ ٱلْيَقِيْنُ ٱلَّذِيْ لَا يَتَحَوَّلُ ، وَفِيْهِ ٱلطَّبِيْعَةُ ٱلتَّامَّةُ ٱلَّتِيْ يَكُوْنُ بِهَا ٱلْحَقِيْقِيُّ هُوَ ٱلْحَقِيْقِيَّ .

يَا بِنْتَ ٱلنَّبِيِّ ٱلْعَظِيْمِ ! إِنَّ زِيْنَةً بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ ، لَا تَكُوْنُ زِيْنَةً فِيْ رَأْيِ ٱلْحَقِّ إِذَا أَمْكَنَ أَنْ تَكُوْنَ صَدَقَةً بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ ؛ إِنَّ فِيْهَا حِيْنَئِذٍ مَعْنًى غَيْرَ مَعْنَاهَا ؛ فِيْهَا حَقُّ ٱلنَّفْسِ غَالِبًا عَلَىٰ حَقِّ ٱلْجَمَاعَةِ ؛ وَفِيْهَا ٱلإِيْمَانُ بِٱلْمَنْفَعَةِ حَاكِمًا عَلَىٰ ٱلإِيْمَانِ بِٱلْخَيْرِ ؛ وَفِيْهَا مَا لَيْسَ بِضَرُوْرِيٍّ قَدْ جَارَ عَلَىٰ مَا هُوَ ٱلضَّرُوْرِيُّ ؛ وَفِيْهَا خَطَأٌ مِنَ ٱلْكَمَالِ إِنْ صَحَّ فِيْ حِسَابِ ٱلْحَلَالِ وَٱلْحَرَامِ لَمْ يَصِحَّ فِيْ حِسَابِ ٱلثَّوَابِ وَٱلرَّحْمَةِ .

تَعَالَوْا أَيُّهَا ٱلاشْتِرَاكِيُّوْنَ فَٱعْرِفُوا نَبِيَّكُمُ ٱلأَعْظَمَ ؛ إِنَّ مَذْهَبَكُمْ مَا لَمْ تُحْيِهِ فَضَائِلُ ٱلإِسْلَامِ وَشَرَائِعُهُ - إِنَّ مَذْهَبَكُمْ لَكَٱلشَّجَرَةِ ٱلذَّابِلَةِ تُعَلِّقُوْنَ عَلَيْهَا ٱلأَثْمَارَ تَشُدُّوْنَهَا بِٱلْخَيْطِ . . . كُلَّ يَوْمٍ تَحُلُّوْنَ ، وَكُلَّ يَوْمٍ تَرْبِطُوْنَ ، وَلَا ثَمَرَةَ فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ .

* * *

(١) ٱلصُّفَّةُ : ٱلْغُرْفَةُ ، وَأَهْلُ ٱلصُّفَّةِ ، هُمْ : فُقَرَاءُ ٱلْمُهَاجِرِيْنَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ يَسْكُنُهُ ؛ فَكَانُوا يَأْوُوْنَ إِلَىٰ مَوْضِعٍ مُظَلَّلٍ فِيْ مَسْجِدِ ٱلْمَدِيْنَةِ يَسْكُنُوْنَهُ .
(٢) [قال الحافظُ العِراقِيُّ في « تَخْرِيج أَحَادِيثِ ٱلإِحْياء » : لَمْ أَرَهُ مَجْمُوعًا ، وَلِأَبي دَاوُد ، رقم : ٣٧٥٥ ، ابْن ماجَه ، رقم : ٣٣٦٠ ، مِنْ حَدِيثِ سَفِينَةَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ ، أَنَّهُ ﷺ جَاءَ فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ عِضَادَتَيْ ٱلْبَابِ ، فَرَأَىٰ ٱلْقِرَامَ قَدْ ضُرِبَ فِي نَاحِيَةِ ٱلْبَيْتِ ، فَرَجَعَ ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ لِعَلِيٍّ : ٱنْظُر مَا رَجَعَهُ . . . الحديث . رواه النسائي ، رقم : ٥١٤٠ من حديث ثَوْبَانَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ ، قَالَ : جَاءَتِ ٱبْنَةُ هُبَيْرَةَ إِلَى ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَفِي يَدِهَا فَتَخٌ مِنْ ذَهَبٍ . . . الحديث . وَفِيهِ : أَنَّهُ وَجَدَ فِي يَدِ فَاطِمَةَ سِلْسِلَةً مِنْ ذَهَبٍ . وَفِيهِ : « يَقُولُ ٱلنَّاسُ : فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهَا سِلْسِلَةٌ مِنْ نَارٍ ! » وَأَنَّهُ خَرَجَ وَلَمْ يَقْعُدْ ، فَأَمَرَتْ بِالسِّلْسِلَةِ ، فَبِيعَتْ ، فَاشْتَرَتْ بِثَمَنِهَا عَبْدًا فَأَعْتَقَتْهُ ، فَلَمَّا سَمِعَ قَالَ : « ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰ فَاطِمَةَ مِنَ ٱلنَّارِ » . وأخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ، رقم : ٢١٨٩٢ . ٱنْتَهَىٰ بِزِيادَةٍ] .

لَيْسَتْ قِصَّةُ ٱلتَّخْيِيرِ هَـٰذِهِ مَسْأَلَةً مِنْ مَسَائِلِ ٱلْغِنَىٰ وَٱلْفَقْرِ فِيْ مَعَانِيْ ٱلْمَادَّةِ ، وَلَـٰكِنَّهَا مَسْأَلَةٌ مِنْ مَسَائِلِ ٱلْكَمَالِ وَٱلنَّقْصِ فِيْ مَعَانِيْ ٱلرُّوحِ ؛ فَهِيَ صَرِيْحَةٌ فِيْ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ أُسْتَاذُ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا ؛ وَاجِبُهُ أَنْ يَكُوْنَ فَضِيْلَةً حَيَّةً فِيْ كُلِّ حَيَاةٍ ، وَأَنْ يَكُوْنَ عَزَاءً فِيْ كُلِّ فَقْرٍ ، وَأَنْ يَكُوْنَ تَهْذِيْبًا فِيْ كُلِّ غِنًىٰ ، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ فِيْ شَخْصِهِ وَسِيْرَتِهِ ٱلْقَانُوْنُ ٱلْأَدَبِيُّ لِلْجَمِيْعِ .

وَكَأَنَّهُ ﷺ يُرِيْدُ لِيُعَلِّمَ ٱلْأُمَّةَ بِهَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ أَنَّ ٱلْجَمَاعَاتِ لَا تَصْلُحُ بِٱلْقَوَانِيْنِ وَٱلشَّرَائِعِ وَٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ ، وَلَـٰكِنْ بِعَمَلِ عُظَمَائِهَا فِي ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ ؛ وَأَنَّ ٱلْحَاكِمَ عَلَى ٱلنَّاسِ لَا يَنْبَغِيْ أَنْ يَحْكُمَ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيْ نَفْسِهِ وَطَبِيْعَتِهِ يُحِسُّ فِتْنَةَ ٱلدُّنْيَا إِحْسَاسَ ٱلْمُتَسَلِّطِ لَا ٱلْخَاضِعِ ، لِيَكُوْنَ أَوَّلُ ٱسْتِقْلَالِهِ ٱسْتِقْلَالَ دَاخِلِهِ .

فَلَيْسَ ذَلِكَ فَقْرًا وَلَا زُهْدًا كَمَا تَرَىٰ فِيْ ظَاهِرِ ٱلْقِصَّةِ ، وَلَـٰكِنَّهَا جُرْأَةُ ٱلنَّفْسِ ٱلْعُظْمَىٰ فِيْ تَقْرِيْرِ حَقَائِقِهَا ٱلْعِلْمِيَّةِ .

* * *

وَتَنْتَهِيْ ٱلْقِصَّةُ فِيْ عِبَارَةِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيْمِ بِتَسْمِيَةِ زَوْجَاتِهِ ﷺ : « أُمَّهَاتِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ » بَعْدَ أَنِ ٱخْتَرْنَ ٱللهَ وَرَسُوْلَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ؛ وَعُلَمَاءُ ٱلتَّفْسِيْرِ يَقُوْلُوْنَ : إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ كَافَأَهُنَّ بِهَـٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ وَلَا فِيْهِ كَبِيْرُ مَعْنًىٰ ، وَإِنَّمَا تُشْعِرُ هَـٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ بِمَعْنًىٰ دَقِيْقٍ هُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ ٱلْإِعْجَازِ ؛ فَإِنَّ ٱلزَّوْجَةَ ٱلْكَامِلَةَ لَا تَكْمُلُ فِيْ ٱلْحَيَاةِ وَلَا تَكْمُلُ ٱلْحَيَاةُ بِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ وَصْفُهَا مَعَ رَجُلِهَا كَوَصْفِ ٱلْأُمِّ : تَرَىٰ ٱبْنَهَا بِٱلْقَلْبِ وَمَعَانِيْهِ ، لَا بِٱلْغَرِيْزَةِ وَحُظُوْظِهَا ؛ فَكُلُّ حَيَاةٍ حِيْنَئِذٍ مُمْكِنَةُ ٱلسَّعَادَةِ لِهَـٰذِهِ ٱلزَّوْجَةِ ، وَكُلُّ شَقَاءٍ مُحْتَمَلٌ بِصَبْرٍ ، وَكُلُّ جِهَادٍ فِيْهِ لَذَّتُهُ ٱلطَّبِيْعِيَّةُ ، إِذْ يَقُوْمُ ٱلْبَيْتُ عَلَىٰ ٱلْحُبِّ ٱلَّذِيْ هُوَ ٱلْحُبُّ ٱلْخَالِصُ لَا ٱلْمَنْفَعَةُ ، وَتَكُوْنُ زِيْنَةُ ٱلْحَيَاةِ وُجُوْدَ ٱلْحَيِّ نَفْسِهِ لَا وُجُوْدَ ٱلْمَادَّةِ ، وَتُبْنَى ٱلنَّفْسُ عَلَىٰ ٱلْوَفَاءِ ٱلطَّبِيْعِيِّ كَوَفَاءِ ٱلْأُمِّ ، وَذَلِكَ خُلُقٌ لَا يَعْسُرُ عَلَيْهِ فِيْ سَبِيْلِ حَقِيْقَتِهِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَزِيْنَتِهَا .

وَآخِرُ مَا نَسْتَخْرِجُ مِنَ ٱلْقِصَّةِ فِيْ دَرْسِ ٱلنُّبُوَّةِ هَـٰذِهِ ٱلْحِكْمَةُ :

بِحَسْبِ ٱلْمُؤْمِنِ إِذَا دَخَلَ دَارَهُ أَنْ يَجِدَ حَقِيْقَةَ نَفْسِهِ ٱلطَّيِّبَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ حَقِيْقَةَ كِسْرَىٰ وَلَا قَيْصَرَ .

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

شَهْرٌ لِلثَّوْرَةِ . . . فَلْسَفَةُ ٱلصِّيَامِ (*)

لَمْ أَقْرَأْ لِأَحَدٍ قَوْلًا شَافِيًا فِيْ فَلْسَفَةِ ٱلصَّوْمِ وَحِكْمَتِهِ؛ أَمَّا مَنْفَعَتُهُ لِلْجِسْمِ ، وَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلطِّبِّ لَهُ، وَبَابٌ مِنَ ٱلسِّيَاسَةِ فِيْ تَدْبِيْرِهِ؛ فَقَدْ فَرَغَ ٱلْأَطِبَّاءُ مِنْ تَحْقِيْقِ ٱلْقَوْلِ فِيْ ذَلِكَ؛ وَكَأَنَّ أَيَّامَ هَـٰذَا ٱلشَّهْرِ ٱلْمُبَارَكِ إِنْ هِيَ إِلَّا ثَلَاثُوْنَ حَبَّةً تُؤْخَذُ فِيْ كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً لِتَقْوِيَةِ ٱلْمَعِدَةِ وَتَصْفِيَةِ ٱلدَّمِ وَحِيَاطَةِ أَنْسِجَةِ ٱلْجِسْمِ ؛ وَلَـٰكِنَّنَا ٱلْآنَ لَسْنَا بِصَدَدٍ مِنْ هَـٰذَا ، وَإِنَّمَا نَسْتَوْحِيْ تِلْكَ ٱلْحَقِيْقَةَ ٱلْإِسْلَامِيَّةَ ٱلْكُبْرَىٰ ٱلَّتِيْ شَرَعَتْ هَـٰذَا ٱلشَّرْعَ لِسِيَاسَةِ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْأَرْضِيَّةِ ٱلصَّغِيْرَةِ، عَامِلَةً عَلَىٰ ٱسْتِمْرَارِ ٱلْفِكْرَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِيْهَا، كَيْ لَا تَتَبَدَّلَ ٱلنَّفْسُ عَلَىٰ تَغَيُّرِ ٱلْحَوَادِثِ وَتَبَدُّلِهَا ، وَلِكَيْلَا تَجْهَلَ ٱلدُّنْيَا مَعَانِيَ ٱلتَّرْقِيْعِ إِذَا أَتَتْ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مَعَانِي ٱلتَّمْزِيْقِ .

مِنْ مُعْجِزَاتِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيْمِ أَنَّهُ يَدَّخِرُ فِيْ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَعْرُوْفَةِ فِيْ كُلِّ زَمَنٍ ، حَقَائِقَ غَيْرَ مَعْرُوْفَةٍ لِكُلِّ زَمَنٍ ، فَيُجَلِّيْهَا لِوَقْتِهَا حِيْنَ يَضِجُّ ٱلزَّمَانُ ٱلْعِلْمِيُّ فِيْ مَتَاهَتِهِ وَحَيْرَتِهِ ، فَيَشْغَبُ عَلَىٰ ٱلتَّارِيْخِ وَأَهْلِهِ مُسْتَخِفًّا بِٱلْأَدْيَانِ ، وَيَذْهَبُ يَتَتَبَّعُ ٱلْحَقَائِقَ ، وَيَسْتَقْصِيْ فِيْ فُنُوْنِ ٱلْمَعْرِفَةِ ، لِيَسْتَخْلِصَ مِنْ بَيْنِ كُفْرٍ وَإِيْمَانٍ دِيْنًا طَبِيْعِيًّا سَائِغًا ، يَتَنَاوَلُ ٱلْحَيَاةَ أَوَّلَ مَا يَتَنَاوَلُ فَيَضْبِطُهَا بِأَسْرَارِ ٱلْعِلْمِ ، وَيُوَجِّهُهَا بِٱلْعِلْمِ إِلَىٰ غَايَتِهَا ٱلصَّحِيْحَةِ ، وَيُضَاعِفُ قُوَاهَا بِأَسَالِيْبِهِ ٱلطَّبِيْعِيَّةِ ، لِيُحَقِّقَ فِيْ إِنْسَانِيَّةِ ٱلْعَالَمِ هَـٰذِهِ ٱلشَّيْئِيَّةَ ٱلْمَجْهُوْلَةَ ٱلَّتِيْ تَتَوَهَّمُهَا ٱلْمَذَاهِبُ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةُ وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا مَذْهَبٌ مِنْهَا وَلَا قَارَبَهَا ؛ فَمَا بَرِحَتْ سَعَادَةُ ٱلِاجْتِمَاعِ كَٱلتَّجْرِبَةِ ٱلْعِلْمِيَّةِ بَيْنَ أَيْدِيْ عُلَمَائِهَا : لَمْ يُحَقِّقُوْهَا وَلَمْ يَيْأَسُوْا مِنْهَا ، وَبَقِيَتْ تِلْكَ ٱلْمَذَاهِبُ كَعَقَارِبِ ٱلسَّاعَةِ فِيْ دَوْرَتِهَا : تَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ تَبْدَأُ ثُمَّ لَا تَنْتَهِيْ إِلَّا إِلَىٰ حَيْثُ تَبْدَأُ . . .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ٧٥ ، ٣ شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ = ١٠ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٦ .

يَضْطَرِبُ الاشْتِرَاكِيُّوْنَ فِيْ أُوْرُبَّة وَقَدْ عَجَزُوا عَجْزَ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيْرَ ٱلإِنْسَانِ بِزِيَادَةٍ وَنَقْصٍ فِيْ أَعْصَابِهِ ؛ وَلَا يَزَالُ مَذْهَبُهُمْ فِيْ ٱلدُّنْيَا مَذْهَبَ كُتُبٍ وَرَسَائِلَ ؛ وَلَوْ أَنَّهُمْ تَدَبَّرُوا حِكْمَةَ ٱلصَّوْمِ فِيْ ٱلإِسْلَامِ ، لَرَأَوْا هَـٰذَا ٱلشَّهْرَ نِظَامًا عَمَلِيًّا مِنْ أَقْوَىٰ وَأَبْدَعِ ٱلأَنْظِمَةِ ٱلاشْتِرَاكِيَّةِ ٱلصَّحِيْحَةِ ؛ فَهَـٰذَا ٱلصَّوْمُ فَقْرٌ إِجْبَارِيٌّ تَفْرِضُهُ ٱلشَّرِيْعَةُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ فَرْضًا لِيَتَسَاوَىٰ ٱلْجَمِيْعُ فِيْ بَوَاطِنِهِمْ ، سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ مَلَكَ ٱلْمِلْيُوْنَ مِنَ ٱلدَّنَانِيْرِ ، وَمَنْ مَلَكَ ٱلْقِرْشَ ٱلْوَاحِدَ ، وَمَنْ لَمْ يَمْلِكْ شَيْئًا ؛ كَمَا يَتَسَاوَىٰ ٱلنَّاسُ جَمِيْعًا فِيْ ذَهَابِ كِبْرِيَائِهِمُ ٱلإِنْسَانِيَّةِ بِٱلصَّلَاةِ ٱلَّتِيْ يَفْرِضُهَا ٱلإِسْلَامُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ ؛ وَفِيْ ذَهَابِ تَفَاوُتِهِمُ ٱلاجْتِمَاعِيِّ بِٱلْحَجِّ ٱلَّذِيْ يَفْرِضُهُ عَلَىٰ مَنِ ٱسْتَطَاعَ .

فَقْرٌ إِجْبَارِيٌّ يُرَادُ بِهِ إِشْعَارُ ٱلنَّفْسِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ بِطَرِيْقَةٍ عَمَلِيَّةٍ وَاضِحَةٍ كُلَّ ٱلْوُضُوْحِ ، أَنَّ ٱلْحَيَاةَ ٱلصَّحِيْحَةَ وَرَاءَ ٱلْحَيَاةِ لَا فِيْهَا ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا تَكُوْنُ عَلَىٰ أَتَمِّهَا حِيْنَ يَتَسَاوَىٰ ٱلنَّاسُ فِيْ ٱلشُّعُوْرِ لَا حِيْنَ يَخْتَلِفُوْنَ ، وَحِيْنَ يَتَعَاطَفُوْنَ بِإِحْسَاسِ ٱلأَلَمِ ٱلْوَاحِدِ لَا حِيْنَ يَتَنَازَعُوْنَ بِإِحْسَاسِ ٱلأَهْوَاءِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ .

وَلَوْ حَقَّقْتَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ لَا يَخْتَلِفُوْنَ فِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ بِعُقُوْلِهِمْ ، وَلَا بِأَنْسَابِهِمْ ، وَلَا بِمَرَاتِبِهِمْ ، وَلَا بِمَا مَلَكُوا ؛ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُوْنَ بِبُطُوْنِهِمْ وَأَحْكَامِ هَـٰذِهِ ٱلْبُطُوْنِ عَلَىٰ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَاطِفَةِ ؛ فَمِنَ ٱلْبَطْنِ نَكْبَةُ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْعَمَلِيُّ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ؛ وَإِذَا ٱخْتَلَفَ ٱلْبَطْنُ وَٱلدِّمَاغُ فِيْ ضَرُوْرَةٍ ، مَدَّ ٱلْبَطْنُ مَدَّهُ مِنْ قُوَىٰ ٱلْهَضْمِ فَلَمْ يُبْقِ وَلَمْ يَذَرْ .

وَمِنْ هَـٰهُنَا يَتَنَاوَلُهُ ٱلصَّوْمُ بِٱلتَّهْذِيْبِ وَٱلتَّأْدِيْبِ وَٱلتَّدْرِيْبِ ، وَيَجْعَلُ ٱلنَّاسَ فِيْهِ سَوَاءً : لَيْسَ لِجَمِيْعِهِمْ إِلَّا شُعُوْرٌ وَاحِدٌ وَحِسٌّ وَاحِدٌ وَطَبِيْعَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ وَيُحْكِمُ ٱلأَمْرَ فَيَحُوْلُ بَيْنَ هَـٰذَا ٱلْبَطْنِ وَبَيْنَ ٱلْمَادَّةِ ، وَيُبَالِغُ فِيْ إِحْكَامِهِ فَيُمْسِكُ حَوَاشِيَهُ ٱلْعَصَبِيَّةَ فِيْ ٱلْجِسْمِ كُلِّهِ يَمْنَعُهَا تَغْذِيَتَهَا وَلَذَّتَهَا حَتَّىٰ نَفْثَةً مِنْ دَخِيْنَةٍ[1] .

وَبِهَـٰذَا يَضَعُ ٱلإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا فِيْ حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَتَلَبَّسُ بِهَا ٱلنَّفْسُ فِيْ مَشَارِقِ ٱلأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، وَيُطْلِقُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا صَوْتَ ٱلرُّوْحِ يُعَلِّمُ ٱلرَّحْمَةَ وَيَدْعُو إِلَيْهَا ، فَيُشْبِعُ

(١) ٱلدَّخِيْنَةُ كَلِمَةٌ وَضَعْنَاهَا لِلسِّيْجَارَةِ ، وَجَمْعُهَا دَخَائِنُ .

فِيْهَا بِهَـٰذَا ٱلْجُوْعِ فِكْرَةٌ مُعَيَّنَةٌ هِيَ كُلُّ مَا فِيْ مَذْهَبِ ٱلاشْتِرَاكِيَّةِ مِنَ ٱلْحَقِّ ، وَهِيَ تِلْكَ ٱلْفِكْرَةُ ٱلَّتِيْ يَكُوْنُ عَنْهَا مُسَاوَاةُ ٱلْغَنِيِّ لِلْفَقِيْرِ مِنْ طَبِيْعَتِهِ ، وَٱطْمِئْنَانُ ٱلْفَقِيْرِ إِلَىٰ ٱلْغَنِيِّ بِطَبِيْعَتِهِ ؛ وَمِنْ هَـٰذَيْنِ : (ٱلاطْمِئْنَانِ وَٱلْمُسَاوَاةِ) ، يَكُوْنُ هُدُوْءُ ٱلْحَيَاةِ بِهُدُوْءِ ٱلنَّفْسَيْنِ ٱللَّتَيْنِ هُمَا ٱلسَّلْبُ وَٱلإِيْجَابُ فِيْ هَـٰذَا ٱلاجْتِمَاعِ ٱلإِنْسَانِيِّ ؛ وَإِذَا أَنْتَ نَزَعْتَ هَـٰذِهِ ٱلْفِكْرَةَ مِنَ ٱلاشْتِرَاكِيَّةِ بَقِيَ هَـٰذَا ٱلْمَذْهَبُ كُلُّهُ عَبَثًا مِنَ ٱلْعَبَثِ فِيْ مُحَاوَلَةِ جَعْلِ ٱلتَّارِيْخِ ٱلإِنْسَانِيِّ تَارِيْخًا لَا طَبِيْعَةَ لَهُ .

* * *

مِنْ قَوَاعِدِ ٱلنَّفْسِ أَنَّ ٱلرَّحْمَةَ تَنْشَأُ عَنِ ٱلأَلَمِ ، وَهَـٰذَا بَعْضُ ٱلسِّرِّ ٱلاجْتِمَاعِيِّ ٱلْعَظِيْمِ فِيْ ٱلصَّوْمِ ، إِذْ يُبَالِغُ أَشَدَّ ٱلْمُبَالَغَةِ ، وَيُدَقِّقُ كُلَّ ٱلتَّدْقِيْقِ ، فِيْ مَنْعِ ٱلْغِذَاءِ وَشِبْهِ ٱلْغِذَاءِ عَنِ ٱلْبَطْنِ وَحَوَاشِيْهِ مُدَّةً آخِرُهَا آخِرُ ٱلطَّاقَةِ ؛ فَهَـٰذِهِ طَرِيْقَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِتَرْبِيَةِ ٱلرَّحْمَةِ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَلَا طَرِيْقَةَ غَيْرُهَا إِلَّا ٱلنَّكَبَاتُ وَٱلْكَوَارِثُ ؛ فَهُمَا طَرِيْقَتَانِ كَمَا تَرَىٰ : مُبْصِرَةٌ وَعَمْيَاءُ ، وَخَاصَّةٌ وَعَامَّةٌ ، وَعَلَىٰ نِظَامٍ وَعَلَىٰ فَجْأَةٍ .

وَمَتَىٰ تَحَقَّقَتْ رَحْمَةُ ٱلْجَائِعِ ٱلْغَنِيِّ لِلْجَائِعِ ٱلْفَقِيْرِ ، أَصْبَحَ لِلْكَلِمَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلدَّاخِلِيَّةِ سُلْطَانُهَا ٱلنَّافِذُ ، وَحَكَمَ ٱلْوَازِعُ ٱلنَّفْسِيُّ عَلَىٰ ٱلْمَادَّةِ ؛ فَيَسْمَعُ ٱلْغَنِيُّ فِيْ ضَمِيْرِهِ صَوْتَ ٱلْفَقِيْرِ يَقُوْلُ : « أَعْطِنِيْ » . ثُمَّ لَا يَسْمَعُ مِنْهُ طَلَبًا مِنَ ٱلرَّجَاءِ ، بَلْ طَلَبًا مِنَ ٱلأَمْرِ لَا مَفَرَّ مِنْ تَلْبِيَتِهِ وَٱلاسْتِجَابَةِ لِمَعَانِيْهِ ، كَمَا يُوَاسِيْ ٱلْمُبْتَلَىٰ مَنْ كَانَ فِيْ مِثْلِ بَلَائِهِ .

أَيَّةُ مُعْجِزَةٍ إِصْلَاحِيَّةٍ أَعْجَبُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمُعْجِزَةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ ٱلَّتِيْ تَقْضِيْ أَنْ يُحْذَفَ مِنَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا تَارِيْخُ ٱلْبَطْنِ ثَلَاثِيْنَ يَوْمًا فِيْ كُلِّ سَنَةٍ ، لِيَحِلَّ فِيْ مَحَلِّهِ تَارِيْخُ ٱلنَّفْسِ[1] ؟ وَأَنَا مُسْتَيْقِنٌ أَنَّ هُنَاكَ نِسْبَةً رِيَاضِيَّةً هِيَ ٱلْحِكْمَةُ فِيْ جَعْلِ هَـٰذَا ٱلصَّوْمِ شَهْرًا كَامِلًا مِنْ كُلِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، وَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلنِّسْبَةَ مُتَحَقِّقَةٌ فِيْ أَعْمَالِ ٱلنَّفْسِ لِلْجِسْمِ ، وَأَعْمَالِ ٱلْجِسْمِ لِلنَّفْسِ ؛ كَأَنَّهُ ٱلشَّهْرُ ٱلصِّحِّيُّ ٱلَّذِيْ يَفْرِضُهُ ٱلطِّبُّ فِيْ كُلِّ سَنَةٍ لِلرَّاحَةِ وَٱلاسْتِجْمَامِ وَتَغْيِيْرِ ٱلْمَعِيْشَةِ ،

(١) أَفْسَدَ ضَعْفُ ٱلنُّفُوْسِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، فَمَا يُحَقِّقُ ٱلنَّاسُ (تَارِيْخَ ٱلْبَطْنِ) كَمَا يُحَقِّقُوْنَهُ فِيْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَهُمْ يُعَوِّضُوْنَ ٱلْبَطْنَ فِيْ ٱللَّيْلِ مَا مَنَعُوْهُ فِيْ ٱلنَّهَارِ ، حَتَّىٰ جَعَلُوا ٱلصِّيَامَ تَغْيِيْرًا لِمَوَاعِيْدِ ٱلأَكْلِ . . . وَلَـٰكِنَّ ٱلصَّوْمَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَمْ يَحْرِمْهُمْ فَوَائِدَهُ .

لِإِحْدَاثِ ٱلتَّرْمِيمِ ٱلْعَصَبِيِّ فِي ٱلْجِسْمِ ؛ وَلَعَلَّ ذَٰلِكَ آتٍ مِنَ ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَ دَوْرَةِ ٱلدَّمِ فِي ٱلْجِسْمِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَبَيْنَ ٱلْقَمَرِ مُنْذُ يَكُونُ هِلَالًا إِلَىٰ أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْمُحَاقِ ؛ إِذْ تَنْتَفِخُ ٱلْعُرُوقُ وَتَرْبُو فِي ٱلنِّصْفِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلشَّهْرِ ، كَأَنَّهَا فِي (مَدٍّ) مِنْ نُورِ ٱلْقَمَرِ مَا دَامَ هَٰذَا ٱلنُّورُ إِلَىٰ زِيَادَةٍ ، ثُمَّ يُرَاجِعُهَا (ٱلْجَزْرُ) فِي ٱلنِّصْفِ ٱلثَّانِي حَتَّىٰ كَأَنَّ لِلدَّمِ إِضَاءَةً وَظَلَامًا . وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ لِلْقَمَرِ أَثَرًا فِي ٱلْأَمْرَاضِ ٱلْعَصَبِيَّةِ ، وَفِي مَدِّ ٱلدَّمِ وَجَزْرِهِ[1] ، فَهَٰذَا مِنْ أَعْجَبِ ٱلْحِكْمَةِ فِي أَنْ يَكُونَ ٱلصِّيَامُ شَهْرًا قَمَرِيًّا دُونَ غَيْرِهِ .

وَفِي تَرَائِي ٱلْهِلَالِ وَوُجُوبِ ٱلصَّوْمِ لِرُؤْيَتِهِ مَعْنًى دَقِيقٌ آخَرُ ، وَهُوَ - مَعَ إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ ٱلْهِلَالِ وَإِعْلَانِهَا - إِثْبَاتُ ٱلْإِرَادَةِ وَإِعْلَانُهَا ، كَأَنَّمَا ٱنْبَعَثَ أَوَّلُ ٱلشُّعَاعِ ٱلسَّمَاوِيِّ فِي ٱلتَّنَبُّهِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلْعَامِّ لِفُرُوضِ ٱلرَّحْمَةِ وَٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْبِرِّ .

وَهُنَا حِكْمَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ حِكَمِ ٱلصَّوْمِ ، وَهِيَ عَمَلُهُ فِي تَرْبِيَةِ ٱلْإِرَادَةِ وَتَقْوِيَتِهَا بِهَٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْعَمَلِيِّ ، ٱلَّذِي يُدَرِّبُ ٱلصَّائِمَ عَلَىٰ أَنْ يَمْتَنِعَ بِٱخْتِيَارِهِ مِنْ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّةِ حَيَوَانِيَّتِهِ ، وَيُبْقِيهِ مُصِرًّا عَلَى ٱلِٱمْتِنَاعِ ، مُتَهَيِّئًا لَهُ بِعَزِيمَتِهِ ، صَابِرًا عَلَيْهِ بِأَخْلَاقِ ٱلصَّبْرِ ، مُزَاوِلًا فِي كُلِّ ذَٰلِكَ أَفْضَلَ طَرِيقَةٍ نَفْسِيَّةٍ لِٱكْتِسَابِ ٱلْفِكْرَةِ ٱلثَّابِتَةِ تَرْسَخُ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَحَوَّلُ ، وَلَا تَعْدُو عَلَيْهَا عَوَادِي ٱلْغَرِيزَةِ .

وَإِدْرَاكُ هَٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ مِنَ ٱلْإِرَادَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ مَنْزِلَةٌ ٱجْتِمَاعِيَّةٌ سَامِيَةٌ ، هِيَ فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فَوْقَ مَنْزِلَةِ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْعِلْمِ ، فَفِي هَٰذَيْنِ تَعْرِضُ ٱلْفِكْرَةُ مَارَّةً مُرُورَهَا ، وَلَٰكِنَّهَا فِي ٱلْإِرَادَةِ تَعْرِضُ لِتَسْتَقِرَّ وَتَتَحَقَّقَ . فَٱنْظُرْ فِي أَيِّ قَانُونٍ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ، وَفِي أَيَّةِ أُمَّةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ ، تَجِدُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ قَدْ فُرِضَتْ فَرْضًا لِتَرْبِيَةِ إِرَادَةِ ٱلشَّعْبِ وَمُزَاوَلَتِهِ فِكْرَةً نَفْسِيَّةً وَاحِدَةً بِخَصَائِصِهَا وَمُلَابَسَاتِهَا حَتَّىٰ تَسْتَقِرَّ وَتَرْسَخَ وَتَعُودَ جُزْءًا مِنْ عَمَلِ ٱلْإِنْسَانِ ، لَا خَيَالًا يَمُرُّ بِرَأْسِهِ مَرًّا .

أَلَيْسَتْ هَٰذِهِ هِيَ إِتَاحَةَ ٱلْفُرْصَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ٱلَّتِي جَعَلُوهَا أَسَاسًا فِي تَكْوِينِ ٱلْإِرَادَةِ ؟ وَهَلْ

(١) { قَالَ ٱلْجَاحِظُ فِي «ٱلْحَيَوَانِ» : «وَلِزِيَادَةِ ٱلْقَمَرِ حَتَّىٰ يَصِيرَ بَدْرًا ، أَثَرٌ بَيِّنٌ فِي زِيَادَةِ ٱلدِّمَاءِ وَٱلْأَدْمِغَةِ وَجَمِيعِ ٱلرُّطُوبَاتِ» } .

تَبْلُغُ ٱلْإِرَادَةُ فِيمَا تَبْلُغُ ، أَعْلَىٰ مِنْ مَنْزِلَتِهَا حِينَ تَجْعَلُ شَهَوَاتِ ٱلْمَرْءِ مُذْعِنَةً لِفِكْرِهِ ، مُنْقَادَةً لِلْوَازِعِ ٱلنَّفْسِيِّ فِيهِ ، مُصَرَّفَةً بِٱلْحِسِّ ٱلدِّينِيِّ ٱلْمُسَيْطِرِ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَشَاعِرِهَا ؟

أَمَا وَٱللهِ لَوْ عَمَّ هَٰذَا ٱلصَّوْمُ ٱلْإِسْلَامِيُّ أَهْلَ ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ، لَآلَ مَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ إِجْمَاعًا مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا عَلَىٰ إِعْلَانِ ٱلثَّوْرَةِ شَهْرًا كَامِلًا فِي ٱلسَّنَةِ ، لِتَطْهِيرِ ٱلْعَالَمِ مِنْ رَذَائِلِهِ وَفَسَادِهِ ، وَمَحْقِ ٱلْأَثَرَةِ وَٱلْبُخْلِ فِيهِ ، وَطَرْحِ ٱلْمَسْأَلَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ لِيَتَدَارَسَهَا أَهْلُ ٱلْأَرْضِ دِرَاسَةً عَمَلِيَّةً مُدَّةَ هَٰذَا ٱلشَّهْرِ بِطُولِهِ ، فَيَهْبِطُ كُلُّ رَجُلٍ وَكُلُّ ٱمْرَأَةٍ إِلَىٰ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ وَمَكَامِنِهَا ، لِيَخْتَبِرَ فِي مَصْنَعِ فِكْرِهِ مَعْنَى ٱلْحَاجَةِ وَمَعْنَى ٱلْفَقْرِ ، وَلِيَفْهَمَ فِي طَبِيعَةِ جِسْمِهِ - لَا فِي ٱلْكُتُبِ - مَعَانِيَ ٱلصَّبْرِ وَٱلثَّبَاتِ وَٱلْإِرَادَةِ ، وَلِيَبْلُغَ مِنْ ذَٰلِكَ وَذَٰلِكَ دَرَجَاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْمُوَاسَاةِ وَٱلْإِحْسَانِ ؛ فَيُحَقِّقَ بِهَٰذِهِ وَتِلْكَ مَعَانِيَ ٱلْإِخَاءِ وَٱلْحُرِّيَّةِ وَٱلْمُسَاوَاةِ .

شَهْرٌ هُوَ أَيَّامٌ قَلْبِيَّةٌ فِي ٱلزَّمَنِ ؛ مَتَىٰ أَشْرَفَتْ عَلَى ٱلدُّنْيَا قَالَ ٱلزَّمَنُ لِأَهْلِهِ : هَٰذِهِ أَيَّامٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ لَا مِنْ أَيَّامِي ، وَمِنْ طَبِيعَتِكُمْ لَا مِنْ طَبِيعَتِي . فَيُقْبِلُ ٱلْعَالَمُ كُلُّهُ عَلَىٰ حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ بَالِغَةِ ٱلسُّمُوِّ ، يَتَعَهَّدُ فِيهَا ٱلنَّفْسَ بِرِيَاضَتِهَا عَلَىٰ مَعَالِي ٱلْأُمُورِ وَمَكَارِمِ ٱلْأَخْلَاقِ ، وَيَفْهَمُ ٱلْحَيَاةَ عَلَىٰ وَجْهٍ آخَرَ غَيْرِ وَجْهِهَا ٱلْكَالِحِ ، وَيَرَاهَا كَأَنَّمَا أُجِيعَتْ مِنْ طَعَامِهَا ٱلْيَوْمِيِّ كَمَا جَاعَ هُوَ ، وَكَأَنَّمَا أُفْرِغَتْ مِنْ خَسَائِسِهَا وَشَهَوَاتِهَا كَمَا فَرَغَ هُوَ ، وَكَأَنَّمَا أُلْزِمَتْ مَعَانِيَ ٱلتَّقْوَىٰ كَمَا أُلْزِمَهَا هُوَ . وَمَا أَجْمَلَ وَأَبْدَعَ أَنْ تَظْهَرَ ٱلْحَيَاةُ فِي ٱلْعَالَمِ كُلِّهِ - وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا - حَامِلَةً فِي يَدِهَا ٱلسُّبْحَةَ . . . ! فَكَيْفَ بِهَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ شَهْرًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ ؟

إِنَّهَا وَٱللهِ طَرِيقَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِرُسُوخِ فِكْرَةِ ٱلْخَيْرِ وَٱلْحَقِّ فِي ٱلنَّفْسِ ؛ وَتَطْهِيرِ ٱلِٱجْتِمَاعِ مِنْ خَسَائِسِ ٱلْعَقْلِ ٱلْمَادِّيِّ ؛ وَرَدِّ هَٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلْمَحْكُومَةِ فِي ظَاهِرِهَا بِٱلْقَوَانِينِ ، وَٱلْمُحَرَّرَةِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ فِي بَاطِنِهَا - إِلَىٰ قَانُونٍ مِنْ بَاطِنِهَا نَفْسِهِ يُطَهِّرُ مَشَاعِرَهَا ، وَيَسْمُو بِإِحْسَاسِهَا ، وَيَصْرِفُهَا إِلَىٰ مَعَانِي إِنْسَانِيَّتِهَا ، وَيُهَذِّبُ مِنْ زِيَادَاتِهَا ، وَيَحْذِفُ كَثِيرًا مِنْ فُضُولِهَا ، حَتَّىٰ يَرْجِعَ بِهَا إِلَىٰ نَحْوٍ مِنْ بَرَاءَةِ ٱلطُّفُولَةِ ، فَيَجْعَلَهَا صَافِيَةً مُشْرِقَةً بِمَا يَجْتَذِبُ إِلَيْهَا مِنْ مَعَانِي ٱلْخَيْرِ وَٱلصَّفَاءِ وَٱلْإِشْرَاقِ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ عَمَلِ ٱلْفِكْرَةِ ٱلثَّابِتَةِ فِي ٱلنَّفْسِ أَنْ تَدْعُوَ إِلَيْهَا مَا يُلَائِمُهَا وَيَتَّصِلُ بِطَبِيعَتِهَا مِنَ ٱلْفِكَرِ ٱلْأُخْرَىٰ . وَٱلنَّفْسُ فِي هَٰذَا ٱلشَّهْرِ مُحْتَسَبَةٌ فِي فِكْرَةِ ٱلْخَيْرِ وَحْدَهَا ، فَهِيَ تَبْنِي بِنَاءَهَا مِنْ ذَٰلِكَ مَا ٱسْتَطَاعَتْ .

هَـٰذَا عَلَىٰ ٱلْحَقِيقَةِ لَيْسَ شَهْرًا مِنَ ٱلأَشْهُرِ ، بَلْ هُوَ فَصْلٌ نَفْسَانِيٌّ كَفُصُوْلِ ٱلطَّبِيْعَةِ فِي دَوَرَانِهَا ؛ وَلَهُوَ وَٱللهِ أَشْبَهُ بِفَصْلِ ٱلشِّتَاءِ فِي حُلُوْلِهِ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا بِٱلْجَوِّ ٱلَّذِي مِنْ طَبِيْعَتِهِ ٱلسُّحُبُ وَٱلْغَيْثُ ، وَمِنْ عَمَلِهِ إِمْدَادُ ٱلْحَيَاةِ بِوَسَائِلَ لَهَا مَا بَعْدَهَا إِلَىٰ آخِرِ ٱلسَّنَةِ ، وَمِنْ رِيَاضَتِهِ أَنْ يُكْسِبَهَا ٱلصَّلَابَةَ وَٱلانْكِمَاشَ وَٱلْخِفَّةَ ، وَمِنْ غَايَتِهِ إِعْدَادُ ٱلطَّبِيْعَةِ لِلتَّفَتُّحِ عَنْ جَمَالِ بَاطِنِهَا فِي ٱلرَّبِيْعِ ٱلَّذِيْ يَتْلُوْهُ .

وَعَجِيْبٌ جِدًّا أَنَّ هَـٰذَا ٱلشَّهْرَ ٱلَّذِي يَدَّخِرُ فِيْهِ ٱلْجِسْمُ مِنْ قُوَاهُ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ فَيُوْدِعُهَا مَصْرِفَ رُوْحَانِيَّتِهِ ، لِيَجِدَ مِنْهَا عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ مَدَدَ ٱلصَّبْرِ وَٱلثَّبَاتِ وَٱلْعَزْمِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخُشُوْنَةِ ـ عَجِيْبٌ جِدًّا أَنَّ هَـٰذَا ٱلشَّهْرَ ٱلاقْتِصَادِيَّ هُوَ مِنْ أَيَّامِ ٱلسَّنَةِ كَفَائِدَةِ ٨,٣٣ فِي ٱلْمِئَةِ . . . فَكَأَنَّهُ يُسَجِّلُ فِي أَعْصَابِ ٱلْمُؤْمِنِ حِسَابَ قُوَّتِهِ وَرِبْحِهِ ، فَلَهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ زِيَادَةُ ٨,٣٣ مِنْ قُوَّتِهِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ ٱلرُّوْحَانِيَّةِ .

وَسِحْرُ ٱلْعَظَائِمِ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا إِنَّمَا يَكُوْنُ فِي ٱلأُمَّةِ ٱلَّتِي تَعْرِفُ كَيْفَ تَدَّخِرُ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ وَتُوَفِّرُهَا لِتَسْتَمِدَّهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ ، وَذَلِكَ هُوَ سِرُّ أَسْلَافِنَا ٱلأَوَّلِيْنَ ٱلَّذِيْنَ كَانُوا يَجِدُوْنَ عَلَىٰ ٱلْفَقْرِ فِيْ دِمَائِهِمْ وَأَعْصَابِهِمْ مَا تَجِدُ ٱلْجُيُوْشُ ٱلْعُظْمَىٰ ٱلْيَوْمَ فِيْ مَخَازِنِ ٱلْعَتَادِ وَٱلأَسْلِحَةِ وَٱلذَّخِيْرَةِ .

* * *

كُلُّ مَا ذَكَرْتُهُ فِي هَـٰذَا ٱلْمَقَالِ مِنْ فَلْسَفَةِ ٱلصَّوْمِ ؛ فَإِنَّمَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيْمَةِ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٨٣] . وَقَدْ فَهِمَهَا ٱلْعُلَمَاءُ جَمِيْعًا عَلَىٰ أَنَّهَا مَعْنَىٰ « ٱلتَّقْوَىٰ » ، أَمَّا أَنَا فَأَوَّلْتُهَا مِنَ « ٱلاتِّقَاءِ » ؛ فَبِٱلصَّوْمِ يَتَّقِي ٱلْمَرْءُ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَكُوْنَ كَٱلْحَيَوَانِ ٱلَّذِي شَرِيْعَتُهُ مِعِدَتُهُ ، وَأَلَّا يُعَامِلَ ٱلدُّنْيَا إِلَّا بِمَوَادِّ هَـٰذِهِ ٱلشَّرِيْعَةِ ؛ وَيَتَّقِي ٱلْمُجْتَمَعُ عَلَىٰ إِنْسَانِيَّتِهِ وَطَبِيْعَتِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَلَا يَكُوْنُ إِنْسَانٌ مَعَ إِنْسَانٍ كَحِمَارٍ مَعَ إِنْسَانٍ : يَبِيْعُهُ ٱلْقُوَّةَ كُلَّهَا بِٱلْقَلِيْلِ مِنَ ٱلْعَلَفِ .

وَبِٱلصَّوْمِ يَتَّقِي هَـٰذَا وَهَـٰذَا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَا خَلْفَهُ ، فَإِنَّ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ ٱلْحَاضِرُ مِنْ طِبَاعِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، وَمَا خَلْفَهُ هُوَ ٱلْجِيْلُ ٱلَّذِي سَيَرِثُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلطِّبَاعِ وَٱلأَخْلَاقِ ، فَيَعْمَلُ بِنَفْسِهِ فِي ٱلْحَاضِرِ ، وَيَعْمَلُ بِٱلْحَاضِرِ فِيْ ٱلآتِي[1] .

وَكُلُّ مَا شَرَحْنَاهُ فَهُوَ ٱتِّقَاءُ ضَرَرٍ لِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ ، وَٱتِّقَاءُ رَذِيْلَةٍ لِجَلْبِ فَضِيْلَةٍ ؛ وَبِهَـٰذَا ٱلتَّأْوِيْلِ تَتَوَجَّهُ ٱلآيَةُ ٱلْكَرِيْمَةُ جِهَةً فَلْسَفِيَّةً عَالِيَةً ، لَا يَأْتِي ٱلْبَيَانُ وَلَا ٱلْعِلْمُ وَلَا ٱلْفَلْسَفَةُ بِأَوْجَزَ وَلَا أَكْمَلَ مِنْ لَفْظِهَا ؛ وَيَتَوَجَّهُ ٱلصِّيَامُ عَلَىٰ أَنَّهُ شَرِيْعَةٌ ٱجْتِمَاعِيَّةٌ إِنْسَانِيَّةٌ عَامَّةٌ ، يَتَّقِي بِهَا ٱلاجْتِمَاعُ شُرُوْرَ نَفْسِهِ ؛ وَلَنْ يَتَهَذَّبَ ٱلْعَالَمُ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ مَعَ ٱلْقَوَانِيْنِ ٱلنَّافِذَةِ هَـٰذَا ٱلْقَانُوْنُ ٱلْعَامُّ ٱلَّذِيْ ٱسْمُهُ ٱلصَّوْمُ ، وَمَعْنَاهُ : « قَانُوْنُ ٱلْبَطْنِ » . . .

أَلَا مَا أَعْظَمَكَ يَا شَهْرَ رَمَضَانَ ! لَوْ عَرَفَكَ ٱلْعَالَمُ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ لَسَمَّاكَ : « مَدْرَسَةَ ٱلثَّلَاثِيْنَ يَوْمًا » .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

(١) يُفَسِّرُ ٱلْقُرْآنُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَمِنْ مُعْجِزَاتِهِ فِيْ هَـٰذَا ٱلتَّأْوِيْلِ ٱلَّذِيْ ٱسْتَخْرَجْنَاهُ أَنَّهُ يُؤَيِّدُهُ بِٱلآيَةِ ٱلْكَرِيْمَةِ فِيْ سُوْرَةِ (يس) : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [٣٦ سورة يس/ الآية : ٤٥] . . .
وَيُشِيْرُ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلتَّأْوِيْلِ قَوْلُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّمَا ٱلصَّوْمُ جُنَّةٌ (بِضَمِّ ٱلْجِيْمِ) فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ ، وَإِنِ ٱمْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّيْ صَائِمٌ ، إِنِّيْ صَائِمٌ » [البخاري ، رقم : ١٨٩٤ ، ١٩٠٤ ؛ مسلم ، رقم : ١١٥١ ؛ الترمذي ، رقم : ٧٦٤ ، ٧٦٦ ؛ النسائي ، رقم : ٢٢١٣ ـ ٢٢١٩ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٣٦٣ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٦٣٨ ، ١٦٩١ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٧١٥٤ ، ٧٤٤١ ، ٧٥٥٢ ، ٧٦٣٦ ، ٧٧٣٠ ، ٧٧٨١ ، ٧٩٩٦ ، ٢٧٣٤٤ ، ٨٣٤٥ ، ٨٣٦٦ ، ٢٧٣٠٧ ، ٨٨٦٨ ، ٨٨٩٣ ، و . . . ؛ « موطأ مالك » ، رقم : ٦٨٩ ، ٦٩٠ ؛ الدارمي ، رقم : ١٧٦٩ ، ١٧٧٠] .
وَٱلْجُنَّةُ ٱلْوِقَايَةُ يَتَّقِيْ بِهَا ٱلإِنْسَانُ ، وَٱلْمُرَادُ أَنْ يَعْتَقِدَ ٱلصَّائِمُ أَنَّهُ قَدْ صَامَ لِيَتَّقِيَ شَرَّ حَيْوَانِيَّتِهِ وَحَوَاسِّهِ ، فَقَوْلُهُ : « إِنِّي صَائِمٌ ، إِنِّيْ صَائِمٌ » ؛ أَيْ : إِنَّنِي غَائِبٌ عَنِ ٱلْفُحْشِ وَٱلْجَهْلِ وَٱلشَّرِّ ؛ إِنِّيْ فِيْ نَفْسِيْ وَلَسْتُ فِيْ حَيْوَانِيَّتِيْ .

ثَبَاتُ ٱلأَخْلَاقِ (*)

لَوْ أَنَّنِي سُئِلْتُ أَنْ أُجْمِلَ فَلْسَفَةَ ٱلدِّينِ ٱلإِسْلَامِيِّ كُلَّهَا فِي لَفْظَيْنِ ، لَقُلْتُ : إِنَّهَا ثَبَاتُ ٱلأَخْلَاقِ . وَلَوْ سُئِلَ أَكْبَرُ فَلَاسِفَةِ ٱلدُّنْيَا أَنْ يُوجِزَ عِلَاجَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ كُلَّهُ فِي حَرْفَيْنِ ، لَمَا زَادَ عَلَىٰ ٱلْقَوْلِ : إِنَّهُ ثَبَاتُ ٱلأَخْلَاقِ . وَلَوِ ٱجْتَمَعَ كُلُّ عُلَمَاءِ أُورُبَّةَ لِيَدْرُسُوا ٱلْمَدَنِيَّةَ ٱلأُورُبِّيَّةَ وَيَحْصُرُوا مَا يُعْوِزُهَا فِي كَلِمَتَيْنِ لَقَالُوا : ثَبَاتُ ٱلأَخْلَاقِ .

فَلَيْسَ يَنْتَظِرُ ٱلْعَالَمُ أَنْبِيَاءَ وَلَا فَلَاسِفَةً وَلَا مُصْلِحِينَ وَلَا عُلَمَاءَ يُبْدِعُونَ لَهُ بِدْعًا جَدِيدًا ؛ وَإِنَّمَا هُوَ يَتَرَقَّبُ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفَسِّرَ لَهُ ٱلإِسْلَامَ هَـٰذَا ٱلتَّفْسِيرَ ، وَيُثْبِتَ لِلدُّنْيَا أَنَّ كُلَّ ٱلْعِبَادَاتِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ هِيَ وَسَائِلُ عِلْمِيَّةٌ تَمْنَعُ ٱلأَخْلَاقَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ أَنْ تَتَبَدَّلَ فِي ٱلْحَيِّ فَيَخْلَعَ مِنْهَا وَيَلْبَسَ ، إِذَا تَبَدَّلَتْ أَحْوَالُ ٱلْحَيَاةِ فَصَعِدَتْ بِإِنْسَانِهَا أَوْ نَزَلَتْ ؛ وَأَنَّ ٱلإِسْلَامَ يَأْبَىٰ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانَ حَالَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ أَوِ ٱلْعُدْمِ ، وَمِنَ ٱلارْتِفَاعِ أَوِ ٱلضَّعَةِ ، وَمِنْ خُمُولِ ٱلْمَنْزِلَةِ أَوْ نَبَاهَتِهَا ؛ وَيُوجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانَ ٱلدَّرَجَةِ ٱلَّتِي ٱنْتَهَىٰ إِلَيْهَا ٱلْكَوْنُ فِي سُمُوِّهِ وَكَمَالِهِ ، وَفِي تَقَلُّبِهِ عَلَىٰ مَنَازِلِهِ بَعْدَ أَنْ صُفِّيَ فِي شَرِيعَةٍ بَعْدَ شَرِيعَةٍ ، وَتَجْرِبَةٍ بَعْدَ تَجْرِبَةٍ ، وَعِلْمٍ بَعْدَ عِلْمٍ .

ٱنْتَهَتِ ٱلْمَدَنِيَّةُ إِلَىٰ تَبَدُّلِ ٱلأَخْلَاقِ بِتَبَدُّلِ أَحْوَالِ ٱلْحَيَاةِ ، فَمَنْ كَانَ تَقِيًّا عَلَىٰ ٱلْفَقْرِ وَٱلإِمْلَاقِ وَحَرَمَهُ ٱلإِعْسَارُ فُنُونَ ٱللَّذَّةِ ، ثُمَّ أَيْسَرَ مِنْ بَعْدُ ؛ جَازَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فَاجِرًا عَلَىٰ ٱلْغِنَىٰ ، وَأَنْ يَتَسَمَّحَ لِفُجُورِهِ عَلَىٰ مَدِّ مَا يَتَطَوَّحُ بِهِ ٱلْمَالُ ، وَإِنْ أَصْبَحَ فِي كُلِّ دِينَارٍ مِنْ مَالِهِ شَقَاءُ نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ أَوْ فَسَادُهَا .

وَمَنْ وُلِدَ فِي بَطْنِ كُوخٍ ، أَوْ عَلَىٰ ظَهْرِ ٱلطَّرِيقِ ، وَجَبَ أَنْ يَبْقَىٰ أَرْضًا إِنْسَانِيَّةً ؛ كَأَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَبْنِ مِنْ عِظَامِهِ وَلَحْمِهِ وَأَعْصَابِهِ إِلَّا خَرِبَةً آدَمِيَّةً مِنْ غَيْرِ هَنْدَسَةٍ وَلَا نِظَامٍ وَلَا

(*) « الرسالة » العدد : ١١٥ ، ١٨ جمادى الآخرى سنة ١٣٥٤ هـ = ١٦ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٤٨٤ ـ ١٤٨٦ .

فَنٍّ . . . ثُمَّ يُقَابِلُهُ مَنْ وُلِدَ فِي ٱلْقَصْرِ أَوْ شِبْهِ ٱلْقَصْرِ فَلَهُ حُكْمٌ آخَرُ ، كَأَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ رَكَّبَ مِنْ عَظْمِهِ وَدَمِهِ وَتَكْوِينِهِ آيَةً هَنْدَسِيَّةً ، وَأُعْجُوبَةَ فَنٍّ ، وَطُرْفَةَ تَدْبِيرٍ ، وَشَيْئًا مَعَ شَيْءٍ ، وَطَبَقَةً عَلَىٰ طَبَقَةٍ .

وَلَـٰكِنَّ ٱلإِسْلَامَ يُقَرِّرُ ثَبَاتَ ٱلْخُلُقِ وَيُوجِبُهُ وَيُنْشِئُ ٱلنَّفْسَ عَلَيْهِ ، وَيَجْعَلُهُ فِي حِيَاطَةِ ٱلْمُجْتَمَعِ وَحِرَاسَتِهِ ، لِأَنَّ هُنَاكَ حُدُودًا فِي ٱلإِنْسَانِيَّةِ تَتَمَيَّزُ بِحُدُودٍ فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَلَا بُدَّ مِنَ ٱلضَّبْطِ فِي هَـٰذِهِ وَهَـٰذِهِ ، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ وَضْعٌ إِلَّا وَرَاءَهُ تَقْدِيرٌ ، وَلَا تَقْدِيرٌ إِلَّا مَعَهُ حِكْمَةٌ ، وَلَا حِكْمَةٌ إِلَّا فِيهَا مَصْلَحَةٌ ؛ وَحَتَّىٰ لَا تَعْلُوَ ٱلْحَيَاةُ وَلَا تَنْزِلَ إِلَّا بِمِثْلِ مَا تَرَىٰ مِنْ كِفَّتَيِ مِيزَانٍ شُدَّتَا فِي عَلَاقَةٍ تَجْمَعُهُمَا وَتُحَرِّكُهُمَا مَعًا ، فَهِيَ بِذَاتِهَا هِيَ ٱلَّتِي تَنْزِلُ بِٱلنَّازِلِ لِتَدُلَّ عَلَيْهِ ، وَتَشِيلُ بِٱلْعَالِي لِتُبَيِّنَ عَنْهُ ؛ فَٱلإِسْلَامُ مِنَ ٱلْمَدَنِيَّةِ وَهُوَ مَدَنِيَّةُ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ .

* * *

إِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ مَادَّةُ ٱلْعَظْمِ وَٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ فِي ٱلإِنْسَانِ فَهِيَ ثَابِتَةٌ مُقَدَّرَةٌ عَلَيْهِ ، وَلَنْ تَتَبَدَّلَ ٱلسُّنَنُ ٱلإِلَـٰهِيَّةُ ٱلَّتِي تُوجِدُهَا وَتُفْنِيهَا فَهِيَ مُصَرِّفَةٌ لَهَا قَاضِيَةٌ عَلَيْهَا ؛ وَبَيْنَ عَمَلِ هَـٰذِهِ ٱلْمَادَّةِ وَعَمَلِ قَانُونِهَا فِيهَا تَكُونُ أَسْرَارُ ٱلتَّكْوِينِ ؛ وَفِي هَـٰذِهِ ٱلأَسْرَارِ تَجِدُ تَارِيخَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ كُلَّهُ سَابِحًا فِي ٱلدَّمِ .

هِيَ ٱلْغَرَائِزُ تَعْمَلُ فِي ٱلإِنْسَانِيَّةِ عَمَلَهَا ٱلإِلَـٰهِيَّ ، وَهِيَ مُحَدَّدَةٌ مُحْكَمَةٌ عَلَىٰ مَا يَكُونُ مِنْ تَعَادِيهَا وَٱخْتِلَافِ بَيْنِهَا ، وَكَأَنَّهَا خُلِقَتْ بِمَجْمُوعِهَا لِمَجْمُوعِهَا ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ ٱلْخُلُقُ ٱلصَّحِيحُ فِي مَعْنَاهُ قَانُونًا إِلَـٰهِيًّا عَلَىٰ قُوَّةٍ كَقُوَّةِ ٱلْكَوْنِ وَضَبْطٍ كَضَبْطِهِ .

وَبِهَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ وَهَـٰذَا ٱلضَّبْطِ يَسْتَطِيعُ ٱلْخُلُقُ أَنْ يُحَوِّلَ ٱلْمَادَّةَ ٱلَّتِي تُعَارِضُهُ إِذَا هُوَ ٱشْتَدَّ وَصَلُبَ ، وَلَـٰكِنَّهُ يَتَحَوَّلُ مَعَهَا إِذَا هُوَ لَانَ أَوْ ضَعُفَ . فَهُوَ قَدَرٌ إِلَّا أَنَّهُ فِي طَاعَتِكَ ، إِذْ هُوَ قُوَّةُ ٱلْفَصْلِ بَيْنَ إِنْسَانِيَّتِكَ وَحَيَوَانِيَّتِكَ ، كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ ٱلْمَزْجِ بَيْنَهُمَا ، كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ ٱلتَّعْدِيلِ فِيهِمَا ، وَقَدْ سُوِّغَ ٱلْقُدْرَةَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلأَحْوَالِ جَمِيعًا ، وَلَوْلَا أَنَّهُ بِهَـٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ لَعَاشَ ٱلإِنْسَانُ طُولَ ٱلتَّارِيخِ قَبْلَ ٱلتَّارِيخِ ، إِذْ لَنْ يَكُونَ لَهُ حِينَئِذٍ كَوْنٌ تُؤَرَّخُ فَضَائِلُهُ أَوْ رَذَائِلُهُ بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ .

فَلَا عِبْرَةَ بِمَظْهَرِ ٱلْحَيَاةِ فِيْ ٱلْفَرْدِ ، إِذِ ٱلْفَرْدُ مُقَيَّدٌ فِيْ ذَاتِ نَفْسِهِ بِمَجْمُوْعٍ هُوَ لِلْمَجْمُوْعِ وَلَيْسَ لَهُ وَحْدَهُ ؛ فَإِنَّكَ تَرَىٰ ٱلْغَرَائِزَ دَائِبَةً فِيْ إِيْجَادِ هَـٰذَا ٱلْفَرْدِ لِنَوْعِهِ بِسُنَنٍ مِنْ أَعْمَالِهَا ، وَدَائِبَةً كَذَلِكَ فِيْ إِهْلَاكِهِ فِيْ ٱلنَّوْعِ نَفْسِهِ بِسُنَنٍ أُخْرَىٰ ؛ فَلَيْسَ قَانُوْنُ ٱلْفَرْدِ إِلَّا أَمْرًا عَارِضًا كَمَا تَرَىٰ ؛ وَبِهَـٰذَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَوَّلَ ٱلْفَرْدُ عَلَىٰ أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ ، ثُمَّ تَبْقَىٰ ٱلْأَخْلَاقُ ٱلَّتِيْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمَجْمُوْعِ ثَابِتَةً عَلَىٰ صُوْرَتِهَا .

فَٱلْأَخْلَاقُ عَلَىٰ أَنَّهَا فِيْ ٱلْأَفْرَادِ ، هِيَ فِيْ حَقِيْقَتِهَا حُكْمُ ٱلْمُجْتَمَعِ عَلَىٰ أَفْرَادِهِ ، فَقِوَامُهَا بِٱلِاعْتِبَارِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ لَا غَيْرُ .

* * *

وَحِيْنَ يَقَعُ ٱلْفَسَادُ فِيْ ٱلْمُجْمَعِ عَلَيْهِ مِنْ آدَابِ ٱلنَّاسِ ، وَيَلْتَوِيْ مَا كَانَ مُسْتَقِيْمًا ، وَتَشْتَبِهُ ٱلْعَالِيَةُ وَٱلسَّافِلَةُ ، وَتُطْرَحُ ٱلْمُبَالَاةُ بِٱلضَّمِيْرِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ ، وَيَقُوْمُ وَزْنُ ٱلْحُكْمِ فِيْ اجْتِمَاعِهِمْ عَلَىٰ ٱلْقَبِيْحِ وَٱلْمُنْكَرِ ، وَتَجْرِيْ ٱلْعِبْرَةُ فِيْمَا يَعْتَبِرُوْنَهُ بِٱلرَّذَائِلِ وَٱلْمُحَرَّمَاتِ ، وَلَا يُعْجِبُ ٱلنَّاسَ إِلَّا مَا يُفْسِدُهُمْ ، وَيَقَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ بِمَوْقِعِ ٱلْقَانُوْنِ وَيَحِلُّ فِيْ مَحَلِّ ٱلْعَادَةِ ؛ فَهُنَاكَ لَا مِسَاكَ لِلْخُلُقِ ٱلسَّلِيْمِ عَلَىٰ فَرْدٍ ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَحَوُّلِ ٱلْفَرْدِ فِيْ حَقِيْقَتِهِ ؛ إِذْ كَانَ لَا يَجِيْءُ أَبَدًا إِلَّا مُتَصَدِّعًا فِيْ كُلِّ مَظَاهِرِهِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَأَيْنَمَا وَقَعَ مِنْ أَعْمَالِ ٱلنَّاسِ جَاءَ مَكْسُوْرًا أَوْ مَثْلُوْمًا ، وَكَأَنَّهُ مُنْتَقِلٌ مِنْ عَالَمٍ إِلَىٰ عَالَمٍ ثَانٍ بِغَيْرِ نَوَامِيْسِ ٱلْأَوَّلِ .

وَمَا شَذَّ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَاعِدَةِ إِلَّا ٱلْأَنْبِيَاءُ وَأَفْرَادٌ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ ؛ فَأَمَّا أُوْلَـٰئِكَ فَهُمْ قُوَّةُ ٱلتَّحْوِيْلِ فِيْ تَارِيْخِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ : لَا يُبْعَثُ أَحَدُهُمْ إِلَّا لِيَهِيْجَ بِهِ ٱلْهَيْجُ فِيْ ٱلتَّارِيْخِ ، وَيَتَطَرَّقَ بِهِ ٱلنَّاسُ إِلَىٰ سُبُلٍ جَدِيْدَةٍ كَأَنَّمَا تَطْرُدُهُمْ إِلَيْهَا ٱلْعَوَاصِفُ وَٱلزَّلَازِلُ وَٱلْبَرَاكِيْنُ ، لَا شَرِيْعَتُهُ وَمَبَادِئُهُ وَآدَابُهُ ؛ وَأَمَّا ٱلْحُكَمَاءُ ٱلنَّاصِحُوْنَ فَهُمْ دَائِمًا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ أَمْكِنَةٌ بَشَرِيَّةٌ مُحَصَّنَةٌ لِحِفْظِ كُنُوْزِهَا وَإِحْرَازِهَا فِيْ أَنْفُسِهِمْ ، فَلَهُمْ فِيْ ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ عِصْمَةٌ وَمَنَعَةٌ كَٱلْجِبَالِ فِيْ ذَاتِ ٱلْأَرْضِ .

* * *

ٱلْأَخْلَاقُ فِيْ رَأْيِيْ هِيَ ٱلطَّرِيْقَةُ لِتَنْظِيْمِ ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلْفَرْدَةِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ ٱلْوَاجِبَاتِ

ٱلْعَامَّةِ ، فَٱلْإِصْلَاحُ فِيْهَا إِنَّمَا يَكُوْنُ مِنْ عَمَلِ هَـٰذِهِ ٱلْوَاجِبَاتِ ، أَيْ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْمُجْتَمَعِ وَٱلْقَائِمِيْنَ عَلَىٰ حُكْمِهِ . وَعِنْدِيْ أَنَّ لِلشَّعْبِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ؛ فَبَاطِنُهُ هُوَ ٱلدِّيْنُ ٱلَّذِيْ يَحْكُمُ ٱلْفَرْدَ ، وَظَاهِرُهُ هُوَ ٱلْقَانُوْنُ ٱلَّذِيْ يَحْكُمُ ٱلْجَمِيْعَ ، وَلَنْ يَصْلُحَ لِلْبَاطِنِ ٱلْمُتَّصِلِ بِٱلْغَيْبِ إِلَّا ذَلِكَ ٱلْحُكْمُ ٱلدِّيْنِيُّ ٱلْمُتَّصِلُ بِٱلْغَيْبِ مِثْلَهُ ؛ وَمِنْ هُنَا تَتَبَيَّنُ مَوَاضِعُ ٱلِاخْتِلَالِ فِيْ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلْأُوْرُبِّيَّةِ ٱلْجَدِيْدَةِ ؛ فَهِيَ فِيْ ظَاهِرِ ٱلشَّعْبِ دُوْنَ بَاطِنِهِ ، وَٱلْفَرْدُ فَاسِدٌ بِهَا فِيْ ذَاتِ نَفْسِهِ إِذَا هُوَ تَحَلَّلَ مِنَ ٱلدِّيْنِ ، وَلَـٰكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَبْدُو صَالِحًا مُنْتَظِمًا فِيْ ظَاهِرِهِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ بِٱلْقَوَانِيْنِ وَبِٱلْآدَابِ ٱلْعَامَّةِ ٱلَّتِيْ تَفْرِضُهَا ٱلْقَوَانِيْنُ ، فَلَا يَبْرَحُ هَازِئًا مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ سَاخِرًا بِهَا ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ ثَابِتَةٍ فِيْهِ ، ثُمَّ لَا تَكُوْنُ عِنْدَهُ أَخْلَاقًا يَعْتَدُّ بِهَا إِلَّا إِذَا دَرَّتْ بِهَا مَنَافِعُهُ ، وَإِلَّا فَهِيَ ضَارَّةٌ إِذَا كَانَتْ مِنْهَا مَضَرَّةٌ ، وَهِيَ مُؤْلِمَةٌ إِذَا حَالَتْ دُوْنَ ٱللَّذَّاتِ . وَلَا يَنْفَكُّ هَـٰذَا ٱلْفَرْدُ يَتَحَوَّلُ لِأَنَّهُ مُطْلَقٌ فِيْ بَاطِنِهِ غَيْرُ مُقَيَّدٍ إِلَّا بِأَهْوَائِهِ وَنَزَعَاتِهِ ، وَكَلِمَتَا ٱلْفَضِيْلَةِ وَٱلرَّذِيْلَةِ مَعْدُوْمَتَانِ فِيْ لُغَةِ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلنَّزَعَاتِ ؛ إِذِ ٱلْغَايَةُ ٱلْمَتَاعُ وَٱللَّذَّةُ وَٱلنَّجَاحُ ، وَلْيَكُنِ ٱلسَّبَبُ مَا هُوَ كَائِنٌ . . .

وَبِهَـٰذَا فَلَنْ تَقُوْمَ ٱلْقَوَانِيْنُ فِيْ أُوْرُبَّةَ إِذَا فَنِيَ ٱلْمُؤْمِنُوْنَ بِٱلْأَدْيَانِ فِيْهَا أَوْ كَاثَرَهُمُ ٱلْمُلْحِدُوْنَ ، وَهُمُ ٱلْيَوْمَ يُبْصِرُوْنَ بِأَعْيُنِهِمْ مَا فَعَلَتْ عَقْلِيَّةُ ٱلْحَرْبِ ٱلْعُظْمَىٰ فِيْ طَوَائِفَ مِنْهُمْ قَدْ خَرَّبَتْ أَنْفُسَهُمْ مِنْ إِيْمَانِهَا فَتَحَوَّلُوا ذَلِكَ ٱلتَّحَوُّلَ ٱلَّذِيْ أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَعْصَابُهُمْ بَعْدَ ٱلْحَرْبِ مَا تَزَالُ مُحَارِبَةً مُقَاتِلَةً تَرْمِيْ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ بِرُوْحِ ٱلدَّمِ وَٱلْأَشْلَاءِ وَٱلْقُبُوْرِ وَٱلتَّعَفُّنِ وَٱلْبِلَىٰ . . . وَٱنْتَهَتِ ٱلْحَرْبُ بَيْنَ أُمَمٍ وَأُمَمٍ ، وَلَـٰكِنَّهَا بَدَأَتْ بَيْنَ أَخْلَاقٍ وَأَخْلَاقٍ .

وَقَدِيْمًا حَارَبَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ ، وَفَتَحُوا ٱلْعَالَمَ ، وَدَوَّخُوا ٱلْأُمَمَ ؛ فَأَثْبَتُوا فِيْ كُلِّ أَرْضٍ هُدَىٰ دِيْنِهِمْ وَقُوَّةَ أَخْلَاقِهِمُ ٱلثَّابِتَةِ ، وَكَانَ مِنْ وَرَاءِ أَنْفُسِهِمْ فِيْ ٱلْحَرْبِ مَا هُوَ مِنْ وَرَائِهَا فِيْ ٱلسِّلْمِ ؛ وَذَلِكَ بِثَبَاتِ بَاطِنِهِمْ ٱلَّذِيْ لَا يَتَحَوَّلُ ، وَلَا تَسْتَخِفُّهُ ٱلْحَيَاةُ بِنَزَقِهَا ، وَلَا تَتَسَفَّهُهُ ٱلْمَدَنِيَّاتُ فَتَحْمِلُهُ عَلَىٰ ٱلطَّيْشِ .

وَلَوْ كَانُوْا هُمْ أَهْلَ هَـٰذِهِ ٱلْحَرْبِ ٱلْأَخِيْرَةِ بِكُلِّ مَا قَذَفَتْ بِهِ ٱلدُّنْيَا ، لَبَقِيَتْ لَهُمُ ٱلْعَقْلِيَّةُ ٱلْمُؤْمِنَةُ ٱلْقَوِيَّةُ ، لِأَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هُوَ وَعَقْلِيَّتُهُ فِيْ سُلْطَانِ بَاطِنِهِ ٱلثَّابِتِ ٱلْقَارِّ عَلَىٰ حُدُوْدٍ بَيِّنَةٍ مُحَصَّلَةٍ مَقْسُوْمَةٍ ، تَحُوْطُهَا وَتُمْسِكُهَا أَعْمَالُ ٱلْإِيْمَانِ ٱلَّتِيْ أَحْكَمَهَا ٱلْإِسْلَامُ أَشَدَّ إِحْكَامٍ بِفَرْضِهَا عَلَىٰ ٱلنُّفُوْسِ مُنَوَّعَةً مُكَرَّرَةً : كَٱلصَّلَاةِ وَٱلصَّوْمِ وَٱلزَّكَاةِ ، لِيَمْنَعَ بِهَا تَغَيُّرًا وَيُحْدِثَ

بِهَا تَغَيُّرًا آخَرَ ، وَيَجْعَلَهَا كَٱلْحَارِسَةِ لِلْإِرَادَةِ مَا تَزَالُ تَمُرُّ بِهَا وَتَتَعَهَّدُهَا بَيْنَ ٱلسَّاعَةِ وَٱلسَّاعَةِ[1] .

وَإِنَّمَا ٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ كَٱلْمَوْجِ وَٱلسَّاحِلِ ؛ فَإِذَا جُنَّ ٱلْمَوْجُ فَلَنْ يَضِيرَهُ مَا بَقِيَ ٱلسَّاحِلُ رَكِينًا هَادِئًا مَشْدُودًا بِأَعْضَادِهِ فِي طَبَقَاتِ ٱلْأَرْضِ . أَمَّا إِذَا مَاجَ ٱلسَّاحِلُ . . . فَذَلِكَ أُسْلُوبٌ آخَرُ غَيْرُ أُسْلُوبِ ٱلْبِحَارِ وَٱلْأَعَاصِيرِ ؛ وَلَا جَرَمَ أَلَّا يَكُونَ إِلَّا خَسْفًا بِٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِمَا .

* * *

فِي ٱلْكَوْنِ أَصْلٌ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ ، هُوَ قَانُونُ ضَبْطِ ٱلْقُوَّةِ وَتَصْرِيفِهَا وَتَوْجِيهِهَا عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ ٱلْحِكْمَةِ . وَيُقَابِلُهُ فِي ٱلْإِنْسَانِ قَانُونٌ مِثْلُهُ لَا بُدَّ مِنْهُ لِضَبْطِ مَعَانِي ٱلْإِنْسَانِ وَتَصْرِيفِهَا وَتَوْجِيهِهَا عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ ٱلْكَمَالِ . وَكُلُّ فُرُوضِ ٱلدِّينِ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَوَاجِبَاتِهِ وَآدَابِهِ ، إِنْ هِيَ إِلَّا حَرَكَةُ هَـٰذَا ٱلْقَانُونِ فِي عَمَلِهِ ؛ فَمَا تِلْكَ إِلَّا طُرُقٌ ثَابِتَةٌ لِخَلْقِ ٱلْحِسِّ ٱلْأَدَبِيِّ ، وَتَثْبِيتِهِ بِٱلتَّكْرَارِ ، وَإِدْخَالِهِ فِي نَامُوسٍ طَبِيعِيٍّ بِإِجْرَائِهِ فِي ٱلْأَنْفُسِ مَجْرَىٰ ٱلْعَادَةِ ، وَجَعْلِهِ بِكُلِّ ذَلِكَ قُوَّةً فِي بَاطِنِهَا ، فَتُسَمَّىٰ ٱلْوَاجِبَاتُ وَٱلْآدَابُ فُرُوضًا دِينِيَّةً ؛ وَمَا هِيَ فِي ٱلْوَاقِعِ إِلَّا عَنَاصِرُ تَكْوِينِ ٱلنَّفْسِ ٱلْعَالِيَةِ ، وَتَكُونُ أَوَامِرَ وَهِيَ حَقَائِقُ[2] .

وَمِنْ ذَلِكَ أَرَانَا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّينَ نَمْتَازُ عَلَىٰ ٱلْأُورُبِّيِّينَ بِأَنَّنَا أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَىٰ قَوَانِينِ ٱلْكَوْنِ ؛ فَفِي أَنْفُسِنَا ضَوَابِطُ قَوِيَّةٌ مَتِينَةٌ إِذَا نَحْنُ أَقْرَرْنَا مَدَنِيَّتَهُمْ فِيهَا ـ وَهِيَ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَقْبَلُ إِلَّا مَحَاسِنَ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ـ سَبَقْنَاهُمْ وَتَرَكْنَا غُبَارَ أَقْدَامِنَا فِي وُجُوهِهِمْ ، وَكُنَّا ٱلطَّبَقَةَ ٱلْمُصَفَّاةَ ٱلَّتِي يَنْشُدُونَهَا فِي إِنْسَانِيَّتِهِمُ ٱلرَّاهِنَةِ وَلَا يَجِدُونَهَا ، وَنَمْتَازُ عَنْهُمْ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ بِأَنَّنَا لَمْ نُنْشِئْ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةَ وَلَمْ تُنْشِئْنَا ، فَلَيْسَ حَقًّا عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ سَيِّئَاتِهَا فِي حَسَنَاتِهَا ،

---

(١) فَصَّلْنَا هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَقَالَاتِنَا : كَمَقَالَةِ « حَقِيقَةِ ٱلْمُسْلِمِ » ، وَ« [شَهْرٍ لِلثَّوْرَةِ . . .] فَلْسَفَةِ ٱلصَّوْمِ » وَغَيْرِهِمَا .

(٢) هَـٰذَا هُوَ ٱلَّذِي ضَلَّ عَنْهُ مُصْطَفَىٰ كَمَال وَمَنْ شَايَعُوهُ ، وَمَنْ قَلَّدُوهُ ، وَمَنِ ٱنْخَدَعُوا فِيهِ ، وَلَوْ فَهِمَهُ حَقَّ ٱلْفَهْمِ لَجَدَّدَ تُرْكِيَّةَ وَجَدَّدَ ٱلْعَالَمَ ٱلْإِسْلَامِيَّ كُلَّهُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلرَّجُلَ غَرِيبٌ عَنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي قَصِيرُ ٱلنَّظَرِ ، فَمَا زَادَ عَلَىٰ أَنْ جَدَّدَ ثَوْبًا وَقُبَّعَةً . . . !

وَحَمَاقَتَهَا فِي حِكْمَتِهَا ، وَتَزْوِيرَهَا فِي حَقِيقَتِهَا ؛ وَأَنْ نُسِيغَ مِنْهَا ٱلْحُلْوَةَ وَٱلْمُرَّةَ ، وَٱلنَّاضِجَةَ وَٱلْفَجَّةَ ؛ وَإِنَّمَا نَحْنُ نُحَصِّلُهَا وَنَقْتَبِسُهَا وَنَرْتَجِعُ مِنْهَا ٱلرَّجْعَةَ ٱلْحَسَنَةَ ؛ فَلَا نَأْخُذُ إِلَّا ٱلشَّيْءَ ٱلصَّالِحَ مَكَانَ ٱلشَّيْءِ قَدْ كَانَ دُونَهُ عِنْدَنَا وَنَدَعُ مَا سِوَىٰ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَا نَأْخُذُ وَلَا نَدَعُ إِلَّا عَلَىٰ ٱلْأُصُولِ ٱلضَّابِطَةِ ٱلْمُحْكَمَةِ فِي أَدْيَانِنَا وَآدَابِنَا ؛ وَلَسْنَا مِثْلَهُمْ مُتَّصِلِينَ مِنْ حَاضِرِ مَدَنِيَّتِهِمْ بِمِثْلِ مَاضِيهِمْ ، بَيْدَ أَنَّ ٱلْعَجَبَ ٱلَّذِي مَا يَفْرُغُ عَجَبِي مِنْهُ ، أَنَّ ٱلْمَوْسُومِينَ مِنَّا بِٱلتَّجْدِيدِ لَا يُحَاوِلُونَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ وَآخِرَهَا إِلَّا هَدْمَ تِلْكَ ٱلضَّوَابِطِ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ مَا نَمْتَازُ بِهِ ، وَٱلَّتِي هِيَ كَذَلِكَ كُلُّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ أُورُبَّةُ لِضَبْطِ مَدَنِيَّتِهَا ؛ وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ تَجْدِيدًا ، وَلَهُوَ بِأَنْ يُسَمَّىٰ حَمَاقَةً وَجَهْلًا أَوْلَىٰ وَأَحَقُّ .

أَقُولُ وَلَا أُبَالِي : إِنَّا ٱبْتُلِينَا فِي نَهْضَتِنَا هَـٰذِهِ بِقَوْمٍ مِنَ ٱلْمُتَرْجِمِينَ قَدِ ٱحْتَرَفُوا ٱلنَّقْلَ مِنْ لُغَاتِ أُورُبَّةَ ، وَلَا عَقْلَ لَهُمْ إِلَّا عَقْلُ مَا يَنْقُلُونَهُ ؛ فَصَنَعَتْهُمُ ٱلتَّرْجَمَةُ مِنْ حَيْثُ يَدْرُونَ أَوْ لَا يَدْرُونَ صَنْعَةَ تَقْلِيدٍ مَحْضٍ وَمُتَابَعَةٍ مُسْتَعْبَدَةٍ ، وَأَصْبَحَ عَقْلُهُمْ بِحُكْمِ ٱلْعَادَةِ وَٱلطَّبِيعَةِ ، إِذَا فَكَّرَ ٱنْجَذَبَ إِلَىٰ ذَلِكَ ٱلْأَصْلِ لَا يَخْرُجُ عَلَيْهِ وَلَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ . وَإِذَا صَحَّ أَنَّ أَعْمَالَنَا هِيَ ٱلَّتِي تَعْمَلُنَا ـ كَمَا يَقُولُ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ ـ فَهُمْ بِذَلِكَ خَطَرٌ أَيُّ خَطَرٍ عَلَىٰ ٱلشَّعْبِ وَقَوْمِيَّتِهِ وَذَاتِيَّتِهِ وَخَصَائِصِهِ ، وَيُوشِكُ إِذْ هُوَ أَطَاعَهُمْ إِلَىٰ كُلِّ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَنْ . . . أَنْ يُتَرْجِمُوهُ إِلَىٰ شَعْبٍ آخَرَ . . .

* * *

إِنَّ أُورُبَّةَ وَمَدَنِيَّتَهَا لَا تُسَاوِي عِنْدَنَا شَيْئًا إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تُحَقِّقُ فِينَا مِنِ ٱتِّسَاعِ ٱلذَّاتِيَّةِ بِعُلُومِهَا وَفُنُونِهَا ، فَإِنَّمَا ٱلذَّاتِيَّةُ وَحْدَهَا هِيَ أَسَاسُ قُوَّتِنَا فِي ٱلنِّزَاعِ ٱلْعَالَمِيِّ بِكُلِّ مَظَاهِرِهِ أَيُّهَا كَانَ ؛ وَلَهَا وَحْدَهَا ، وَبِٱعْتِبَارٍ مِنْهَا دُونَ سِوَاهَا ، نَأْخُذُ مَا نَأْخُذُهُ مِنْ مَدَنِيَّةِ أُورُوبَّةَ ، وَنُهْمِلُ مَا نُهْمِلُ ؛ وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَتْرُكَ ٱلتَّثَبُّتَ فِي هَـٰذَا وَلَا أَنْ نَتَسَامَحَ فِي دِقَّةِ ٱلْمُحَاسَبَةِ عَلَيْهِ .

فَٱلْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ ٱلضَّوَابِطِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ مَظَاهِرُ ٱلْأَدْيَانِ فِينَا ، ثُمَّ إِدْخَالُ ٱلْوَاجِبَاتِ ٱلِٱجْتِمَاعِيَّةِ ٱلْحَدِيثَةِ فِي هَـٰذِهِ ٱلضَّوَابِطِ لِرَبْطِهَا بِٱلْعَصْرِ وَحَضَارَتِهِ ، ثُمَّ تَنْسِيقُ مَظْهَرِ ٱلْأُمَّةِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْوَاجِبَاتِ وَٱلضَّوَابِطِ ، ثُمَّ ٱلْعَمَلُ عَلَىٰ ٱتِّحَادِ ٱلْمَشَاعِرِ

وَتَمَازُجِهَا لِتَقْوِيمِ هَـٰذَا ٱلْمَظْهَرِ ٱلشَّعْبِيِّ فِيْ جُمْلَتِهِ بِتَقْوِيمِ أَجْزَائِهِ . هَـٰذِهِ هِيَ ٱلأَرْكَانُ ٱلأَرْبَعَةُ ٱلَّتِيْ لَا يَقُومُ عَلَىٰ غَيْرِهَا بِنَاءُ ٱلشَّرْقِ .

وَٱلإِلْحَادُ وَٱلنَّزَعَاتُ ٱلسَّافِلَةُ وَتَخَانِيثُ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلأُورُبِّيَّةِ ٱلَّتِيْ لَا عَمَلَ لَهَا إِلَّا أَنْ تُظْهِرَ ٱلْخَطَرَ فِيْ أَجْمَلِ أَشْكَالِهِ . . . ، ثُمَّ ٱلْجَهْلُ بِعُلُومِ ٱلْقُوَّةِ ٱلْحَدِيثَةِ وَبِأُصُولِ ٱلتَّدْبِيرِ وَحِيَاطَةِ ٱلاجْتِمَاعِ وَمَا جَرَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَجْرَىٰ ، ثُمَّ ٱلتَّدْلِيسُ عَلَىٰ ٱلأُمَّةِ بِآرَاءِ ٱلْمُقَلِّدِينَ وَٱلزَّائِفِينَ وَٱلْمُسْتَعْمِرِينَ لِمَحْقِ ٱلأَخْلَاقِ ٱلشَّعْبِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ وَمَا ٱتَّصَلَ بِذَلِكَ ، ثُمَّ ٱلتَّخَاذُلُ وَٱلشِّقَاقُ وَتَدَابُرُ ٱلطَّوَائِفِ وَمَا كَانَ بِسَبِيلِهَا . تِلْكَ هِيَ ٱلْمَعَاوِلُ ٱلأَرْبَعُ ٱلَّتِيْ لَا يَهْدِمُ غَيْرُهَا بِنَاءَ ٱلشَّرْقِ .

فَلْيَكُنْ دَائِماً شِعَارُنَا ، نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّيْنَ ، هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ : أَخْلَاقُنَا قَبْلَ مَدَنِيَّتِهِمْ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

قُلْتُ لِنَفْسِيْ . . . وَقَالَتْ لِيْ . . . (*)(١)

قُلْتُ لِنَفْسِيْ : وَيْحَكِ يَا نَفْسُ ! مَا لِيْ أَتَحَامَلُ عَلَيْكِ ؛ فَإِذَا وَفَيْتِ بِمَا فِيْ وُسْعِكِ أَرَدْتُ مِنْكِ مَا فَوْقَهُ وَكَلَّفْتُكِ أَنْ تَسَعِي ؛ فَلَا أَزَالُ أُعْنِتُكِ مِنْ بَعْدِ كَمَالٍ فِيْهَا هُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ ، وَبَعْدَ ٱلْحَسَنِ فِيْهَا هُوَ ٱلأَحْسَنُ ؛ وَمَا أَنْفَكُّ أَجْهَدُكِ كُلَّمَا رَاجَعَكِ ٱلنَّشَاطُ ، وَأُضْنِيْكِ كُلَّمَا ثَابَتِ ٱلْقُوَّةُ ؛ فَإِنْ تَكُنْ لَكِ هُمُومٌ فَأَنَا أَكْبَرُهَا ، وَإِذَا سَاوَرَتْكِ ٱلأَحْزَانُ فَأَكْثَرُهَا مِمَّا أَجْلِبُ عَلَيْكِ .

أَنْتِ يَا نَفْسُ سَائِرَةٌ عَلَىٰ ٱلنَّهْجِ ، وَأَنَا أَعْتَسِفُ بِكِ ، أُرِيدُ ٱلطَّيَرَانَ لَا ٱلسَّيْرَ ، وَأَبْتَغِيْ عَمَلَ ٱلأَعْمَارِ فِيْ عُمْرٍ ، وَأَسْتَحِثُّكِ مِنْ كُلِّ هَجْعَةٍ رَاحَةٍ بِفَجْرٍ تَعِبٍ جَدِيْدٍ(٢) ، وَكَأَنِّيْ لَكِ زَمَنٌ يُمَادُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا يَبْرَحُ يَنْبَثِقُ عَلَيْكِ مِنْ ظَلَامٍ بِنُوْرٍ وَمِنْ نُوْرٍ بِظَلَامٍ ؛ لِيُهَيِّئَ لَكِ ٱلْقُوَّةَ ٱلَّتِيْ تَمْتَدُّ بِكِ فِيْ ٱلتَّارِيخِ مِنْ بَعْدُ ، فَتَذْهَبِيْنَ(٣) حِيْنَ تَذْهَبِيْنَ ، وَيَعِيْشُ قَلْبُكِ فِيْ ٱلْعَالَمِ سَارِيًا بِكَلِمَاتِ أَفْرَاحِهِ وَأَحْزَانِهِ .

وَقَالَتْ لِيَ ٱلنَّفْسُ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّيْ مَعَكَ دَأْبًا كَٱلْحَبِيْبَةِ ٱلْوَفِيَّةِ لِمَنْ تُحِبُّهُ(٤) : تَرَىٰ خُضُوْعَهَا أَحْيَانًا هُوَ أَحْسَنُ ٱلْمُقَاوَمَةِ ؛ وَأَمَّا أَنْتَ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ تَتْعَبُ وَلَا تَزَالُ تَتْعَبُ ، فَكَيْفَ تُرِيْنِيْ(٥) أَنَّكَ تَتَقَدَّمُ وَلَا تَزَالُ تَتَقَدَّمُ ؟

(*) « الرسالة » العدد : ٧٤ ، ٢٥ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ٣ ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦ .

(١) كُتِبَتْ فِيْ سَاعَةِ ضَجَرٍ ، مِنْ هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَاتِ ٱلطَّارِئَةِ عَلَىٰ ٱلرُّوحِ ، يُخَيَّلُ لِلْمَرْءِ فِيْهَا أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ ، وَٱلْعَالَمُ كُلُّهُ وَحْدَهُ ؛ ذَاكَ فِيْ وُجُوْدِ نَفْسِهِ خَاصَّةً ، وَٱلآخَرُ فِيْ وُجُوْدِ ٱلطَّبِيْعَةِ كُلِّهَا .

(٢) فِيْ ٱلأَصْلِ : « بِفَجْرٍ يَمْتَدُّ مِنْهُ نَهَارٌ مُضْطَرِبٌ » بَدَلًا مِنْ : « بِفَجْرٍ تَعِبٍ جَدِيْدٍ » .

(٣) فِيْ ٱلأَصْلِ : « تَذْهَبِي » بَدَلًا مِنْ : « تَذْهَبِيْنَ » .

(٤) فِيْ ٱلأَصْلِ : « تُحِبُّ » بَدَلًا مِنْ : « تُحِبُّهُ » .

(٥) فِيْ ٱلأَصْلِ : « تَدُلُّنِي » بَدَلًا مِنْ : « تُرِيْنِي » .

لَيسَتْ دُنْيَاكَ يَا صَاحِبِي مَا تَجِدُهُ مِنْ غَيْرِكَ ، بَلْ مَا تُوجِدُهُ بِنَفْسِكَ ؛ فَإِنْ لَمْ تَزِدْ شَيْئًا عَلَى ٱلدُّنْيَا كُنْتَ أَنْتَ زَائِدًا عَلَى ٱلدُّنْيَا ؛ وَإِنْ لَمْ تَدَعْهَا أَحْسَنَ مِمَّا وَجَدْتَهَا ، فَقَدْ وَجَدَتْهَا وَمَا وَجَدَتْكَ ؛ وَفِي نَفْسِكَ أَوَّلُ حُدُودِ دُنْيَاكَ وَآخِرُ حُدُودِهَا . وَقَدْ تَكُونُ دُنْيَا بَعْضِ ٱلنَّاسِ حَانُوتًا صَغِيرًا ، وَدُنْيَا ٱلآخَرِ كَٱلْقَرْيَةِ ٱلْمُلَمْلَمَةِ[1] ، وَدُنْيَا بَعْضِهِمْ كَٱلْمَدِينَةِ ٱلْكَبِيرَةِ ؛ أَمَّا دُنْيَا ٱلْعَظِيمِ فَقَارَّةٌ بِأَكْمَلِهَا ، وَإِذَا ٱنْفَرَدَ ٱمْتَدَّ فِي ٱلدُّنْيَا فَكَانَ هُوَ ٱلدُّنْيَا .

وَٱلْقُوَّةُ يَا صَاحِبِي تَغْتَذِي بِٱلتَّعَبِ وَٱلْمُعَانَاةِ ؛ فَمَا عَانَيْتَهُ ٱلْيَوْمَ حَرَكَةً مِنْ جِسْمِكَ ، أَلْفَيْتَهُ غَدًا فِي جِسْمِكَ قُوَّةً مِنْ قُوَى ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ . وَسَاعَةُ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ ٱلتَّعَبِ ، هِيَ فِي لَذَّتِهَا كَأَيَّامٍ[2] مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ تَعَبِ سَاعَةٍ . وَمَا أَشْبَهَ ٱلْحَيَّ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَوَشْكِ ٱنْقِطَاعِهِ مِنْهَا ، بِمَنْ خُلِقَ لِيَعِيشَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ[3] عَلَيْهِ سَاعَاتُهَا وَدَقَائِقُهَا وَثَوَانِيهَا ؛ أَفْتَرَاهُ يَغْفُلُ فَيُقَدِّرُهَا ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ ، وَيَذْهَبُ يُسْرِفُ فِيهَا ضُرُوبًا مِنْ لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ وَمُجُونِهِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْمَقَ أَحْمَقَ إِلَى نِهَايَةِ ٱلْحُمْقِ ؟

أَتْعِبْ تَعَبَكَ يَا صَاحِبِي ، فَفِي ٱلنَّاسِ تَعَبُ مَخْلُوقٍ مِنْ عَمَلِهِ ، فَهُوَ لَيِّنٌ هَيِّنٌ مُسَوًّى تَسْوِيَةً ؛ وَفِيهِمْ تَعَبُ خَالِقٍ عَمَلَهُ ، فَهُوَ جَبَّارٌ مُتَمَرِّدٌ لَهُ ٱلْقَهْرُ وَٱلْغَلَبَةُ . وَأَنْتَ إِنَّمَا تَكِدُّ لِتَسْمُوَ بِرُوحِكَ إِلَى هُمُومِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْعَالِيَةِ ، وَتَسْمُوَ بِجِسْمِكَ إِلَى مَشَقَّاتِ ٱلرُّوحِ ٱلْعَظِيمَةِ ؛ فَذَلِكَ يَا صَاحِبِي لَيْسَ تَعَبًا فِي حَفْرِ ٱلأَرْضِ ، وَلَـٰكِنَّهُ تَعَبٌ مِنْ حَفْرِ ٱلْكَنْزِ .

أَتْعِبْ يَا صَاحِبِي تَعَبَكَ ؛ فَإِنَّ عَنَاءَ ٱلرُّوحِ هُوَ عُمُرُهَا ؛ فَأَعْمَالُكَ عُمُرُكَ ٱلرُّوحَانِيُّ ، كَعُمُرِ ٱلْجِسْمِ لِلْجِسْمِ ؛ وَأَحَدُ هَـٰذَيْنِ[4] عُمُرُ مَا يَعِيشُ ، وَٱلآخَرُ عُمُرُ مَا سَيَعِيشُ .

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَقَدْ مَلِلْتُ أَشْيَاءَ وَتَبَرَّمْتُ بِأَشْيَاءَ . وَإِنَّ عَمَلَ ٱلتَّغْيِيرِ فِي ٱلدُّنْيَا لَهُوَ هَدْمٌ

(١) { أي : ٱلصَّغِيرَةُ تَقُومُ بِٱلدُّورِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْمُجْتَمِعَةِ } .
(٢) فِي ٱلأَصْلِ : « أَيَّامٌ » بَدَلًا مِنْ : « كَأَيَّامٍ » .
(٣) فِي ٱلأَصْلِ : « مَعْدُودَةٌ » وَفِي ٱلطبعة ٱلأُولَى : « مَعْدُودَةً » .
(٤) فِي ٱلأَصْلِ : « وأحدهما » بَدَلًا مِنْ : « وأحد هذين » .

لَهَا كُلَّمَا بُنِيَتْ ، ثُمَّ بِنَاؤُهَا كُلَّمَا هُدِمَتْ ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ بِصُورَتَيْنِ مَعًا ؛ وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ خَلَطْتُهُ بِٱلنَّفْسِ يَذْهَبُ فِيهَا ذَهَابَ ٱلْمَاءِ فِي ٱلْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا مَرَّ يَوْمٌ ، أَوْ عَهْدٌ كَٱلْيَوْمِ ، رَأَيْتُ فِي مَكَانِهِ إِنْسَانًا خَيَالِيًّا كَمَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ ٱلنُّحَاةِ فِيهَا قَوْلَانِ . . . ! فَهُوَ يَحْتَمِلُ { فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ } تَأْوِيلَ مَا أَظُنُّ بِهِ مِنْ خَيْرٍ ، وَمَا أَتَوَقَّعُ بِهِ مِنْ شَرٍّ ! وَكَمْ مِنِ ٱسْمٍ جَمِيلٍ إِذَا هَجَسَ فِي خَاطِرِي قُلْتُ : آهٍ ، هَـٰذَا ٱلَّذِي كَانَ . . . !

أَمَا وَٱللهِ إِنَّ ثِيَابَ ٱلنَّاسِ لَتَجْعَلُهُمْ أَكْثَرَ تَشَابُهًا فِي رَأْيِ ٱلنَّفْسِ ، مِمَّا تَجْعَلُهُمْ وُجُوهُهُمُ ٱلَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي رَأْيِ ٱلْعَيْنِ ؛ وَإِنِّي لَأَرَى ٱلْعَالَمَ أَحْيَانًا كَٱلْقِطَارِ ٱلسَّرِيعِ مُنْطَلِقًا بِرُكَّابِهِ[1] وَلَيْسَ فِيهِ مَنْ يَقُودُهُ ، وَأَرَى ٱلْغَفْلَةَ ٱلْمُفْرِطَةَ قَدْ بَلَغَتْ مِنْ هَـٰذَا ٱلنَّاسِ مَبْلَغَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ حَيٌّ فِي ٱلْحَيَاةِ كَٱلْمُوَظَّفِ تَحْتَ ٱلتَّجْرِبَةِ ، فَإِذَا قَضَى ٱلْمُدَّةَ قِيلَ لَهُ : ٱبْدَأْ مِنَ ٱلآنَ . كَأَنَّهُ إِذَا عَاشَ يَتَعَلَّمُ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ ، وَيُدْرِكُ مَا يَصْلُحُ وَمَا لَا يَصْلُحُ ، وَٱنْتَهَى مِنْ عُمُرِهِ إِلَى ٱلنِّهَايَةِ ٱلْمَحْدُودَةِ ـ رَجَعَ مِنْ بَعْدِهَا يَعِيشُ مُنْتَظِمًا عَلَى ٱسْتِوَاءٍ وَٱسْتِقَامَةٍ ، وَفِي إِدْرَاكٍ وَتَمْيِيزٍ . مَعَ أَنَّ ٱلْخُرَافَةَ نَفْسَهَا لَمْ تَقْبَلْ قَطُّ أَنْ يُعَدَّ مِنْهَا فِي أَوْهَامِ ٱلْحَيَاةِ أَنَّ رَجُلًا بَلَغَ ٱلثَّمَانِينَ أَوِ ٱلتِّسْعِينَ وَحَانَ أَجَلُهُ فَأَصْبَحُوا لَمْ يَجِدُوهُ مَيِّتًا فِي فِرَاشِهِ ؛ بَلْ وَجَدُوهُ مَوْلُودًا فِي فِرَاشِهِ . . . !

وَقَالَتْ لِيَ ٱلنَّفْسُ : وَأَنْتَ مَا شَأْنُكَ بِٱلنَّاسِ وَٱلْعَالَمِ ؟ يَا هَـٰذَا ! لَيْسَ لِمِصْبَاحِ ٱلطَّرِيقِ أَنْ يَقُولَ : « إِنَّ ٱلطَّرِيقَ مُظْلِمٌ » . إِنَّمَا قَوْلُهُ إِذَا أَرَادَ كَلَامًا أَنْ يَقُولَ : « هَـٰأَنَذَا مُضِيءٌ » .

وَٱلْحَكِيمُ لَا يَضْجَرُ وَلَا يَضِيقُ وَلَا يَتَمَلْمَلُ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْخُفُ وَلَا يَطِيشُ وَلَا يَسْتَرْسِلُ فِي كَذِبِ ٱلْوَهْمِ ؛ فَإِنَّ هَـٰذَا كُلَّهُ أَثَرُ ٱلْحَيَاةِ ٱلْبَهِيمِيَّةِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْبَهِيمَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، لَا أَثَرُ ٱلرُّوحِ ٱلْقَوِيَّةِ فِي إِنْسَانِهَا . وَٱلْحَيَوَانُ هُوَ ٱلَّذِي يَجُوعُ وَيَشْبَعُ لَا ٱلنَّفْسُ . وَبَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ مِمَّا يَعْتَوِرُ ٱلْحَيَوَانِيَّةَ ـ كَٱلْخُلُوِّ وَٱلِامْتِلَاءِ ، وَٱللَّذَّةِ وَٱلأَلَمِ ـ تَعْمَلُ قُوَى ٱلْحَيَوَانِ أَشْيَاءَهَا ٱلْكَثِيرَةَ ٱلَّتِي تَتَسَلَّطُ بِهَا عَلَى ٱلنَّفْسِ ، لِتَحُطَّهَا مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى أَنْ تَجْعَلَهَا كَنُفُوسِ ٱلْحَيَوَانِ ؛ وَلِهَـٰذَا كَانَ أَوَّلُ ٱلْحِكْمَةِ ضَبْطَ ٱلأَدَوَاتِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فِي ٱلْجِسْمِ ، كَمَا تُوضَعُ ٱلْيَدُ ٱلْعَالِمَةُ عَلَى مَفَاتِيحِ ٱلْقِطَارِ ٱلْمُنْطَلِقِ يَتَسَعَّرُ مِرْجَلُهُ وَيَغْلِي .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « بِرَكْبِهِ » بَدَلًا مِنْ : « بِرُكَّابِهِ » .

ٱعْمَلْ يَا صَاحِبِي عَمَلَكَ ؛ فَإِذَا رَأَيْتَ فِي ٱلْعَامِلِينَ مَنْ يَضْجَرُ فَلَا تَضْجَرْ مِثْلَهُ ، بَلْ خُذِ ٱطْمِئْنَانَهُ إِلَىٰ ٱطْمِئْنَانِكَ ، وَدَعْهُ يَخِلُّ وَتَضَاعَفْ أَنْتَ .

إِنَّهُ لَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ فِي ٱلنَّاسِ نَاسٌ (كَٱلْبُنُوكِ) : هَـٰذِهِ مُسْتَوْدَعَاتٌ لِلْمَالِ تَحْفَظُهُ وَتُخْرِجُ مِنْهُ وَتُثَمِّرُهُ ، وَتِلْكَ مُسْتَوْدَعَاتٌ لِلْفَضَائِلِ تَحْفَظُهَا وَتُخْرِجُ مِنْهَا وَتَزِيدُهَا . وَإِفْلَاسُ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَالِ ، هُوَ إِطْلَاقُ ٱلنَّكْبَةِ مُسَدَّسَهَا عَلَىٰ رَجُلٍ تَقْتُلُهُ ؛ وَلَـٰكِنَّ إِفْلَاسَ (بَنْكٍ) هُوَ إِطْلَاقُ ٱلنَّكْبَةِ مِدْفَعَهَا ٱلْكَبِيرَ عَلَىٰ مَدِينَةٍ تُدَمِّرُهَا .

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَمَا أَشَدَّ ٱلْأَلَمَ فِي تَحْوِيلِ هَـٰذَا ٱلْجَسَدِ إِلَىٰ شِبْهِ رُوحٍ مَعَ ٱلرُّوحِ ! تِلْكَ هِيَ ٱلْمُعْجِزَةُ ٱلَّتِي لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَمَلَ لَهَا يَجْعَلُهَا كَأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ . وَٱلْأَسَدُ ٱلْمَحْبُوسُ مَحْبُوسَةٌ فِيهِ قُوَّتُهُ وَطِبَاعُهُ ؛ فَإِنْ زَالَ ٱلْوُجُودُ ٱلْحَدِيدِيُّ مِنْ حَوْلِهِ ، أَوْ وَهَنَتْ نَاحِيَةٌ مِنْهُ ، ٱنْطَلَقَ ٱلْوَحْشُ . وَٱلرَّجُلُ ٱلْفَاضِلُ فَاضِلٌ مَا دَامَ فِي قَفَصِهِ ٱلْفِكْرِيِّ ، وَهُوَ مَا دَامَ فِي هَـٰذَا ٱلْقَفَصِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا نَمُوذَجًا مَعْرُوضًا لِلتَّنْقِيحِ ٱلْمُمْكِنِ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ : تُصِيبُهُ ٱلسَّيِّئَةُ مِنَ ٱلنَّاسِ لِتَخْتَبِرَ فِيهِ ٱلْحَسَنَةَ ، وَتَبْلُوهُ ٱلْخِيَانَةُ لِتَجِدَ ٱلْوَفَاءَ ، وَيَكْرُثُهُ ٱلْبُغْضُ لِيُقَابِلَهُ بِٱلْحُبِّ ، وَتَأْتِيهِ ٱللَّعْنَةُ لِتَجِدَ ٱلْمَغْفِرَةَ ؛ وَلَهُ قَلْبٌ لَا يَتْعَبُ فَيَبْلُغُ مَنْزِلَةً إِلَّا ٱبْتَدَأَ ٱلتَّعَبَ لِيَبْلُغَ مَنْزِلَةً أَعْلَىٰ مِنْهَا ، وَلَهُ فِكْرٌ كُلَّمَا جَهَدَ فَأَدْرَكَ حَقِيقَةً كَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ أَنْ يَجْهَدَ فَيُدْرِكَ غَيْرَهَا .

وَقَالَتْ لِيَ ٱلنَّفْسُ : إِنَّ مَنْ فَاقَ ٱلنَّاسَ بِنَفْسِهِ ٱلْكَبِيرَةِ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِي أَنْ يَفُوقَ نَفْسَهُ ٱلْكَبِيرَةَ ؛ إِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلنِّهَائِيَّ لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي ٱلصَّغَائِرِ وَٱلشَّرِّ ، أَمَّا ٱلْخَيْرُ وَٱلْكَمَالُ وَعَظَائِمُ ٱلنَّفْسِ وَٱلْجَمَالُ ٱلْأَسْنَىٰ ، فَهَـٰذِهِ حَقَائِقُ أَزَلِيَّةٌ وُجِدَتْ لِنَفْسِهَا : كَٱلْهَوَاءِ يَتَنَفَّسُهُ كُلُّ ٱلْأَحْيَاءِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ وَلَا يَنْتَهِي ، وَلَا يُعْرَفُ أَيْنَ يَنْتَهِي ؛ وَكَمَا يَنْبَعِثُ ٱلنُّورُ مِنَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْكَوَاكِبِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ، يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ ٱلصِّفَاتُ مُنْبَعِثَةً إِلَىٰ ٱلنُّفُوسِ مِنْ أَنْوَارِ ٱلْمَلَائِكَةِ ، وَبِهَـٰذَا كَانَ أَكْبَرُ ٱلنَّاسِ حَظًّا مِنْهَا هُمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ ٱلْمُتَّصِلِينَ بِتِلْكَ ٱلْأَنْوَارِ .

وَمِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ أَنْ جَعَلَ فِي كُلِّ ٱلنُّفُوسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ أَصْلًا صَغِيرًا يَجْمَعُ فِكْرَةَ ٱلْخَيْرِ

وَٱلْكَمَالِ وَعَظَائِمِ ٱلنَّفْسِ وَٱلْجَمَالِ ٱلْأَسْنَىٰ ، وَقَدْ تَعْظُمُ فِيهِ هَـٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا ، وَقَدْ تَصْغُرُ فِيهِ بَعْضُهَا أَوْ كُلُّهَا : أَلَا وَهُوَ ٱلْحُبُّ .

لَا بُدَّ أَنْ تَمُرَّ كُلُّ حَيَاةٍ إِنْسَانِيَّةٍ فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْحُبِّ ؛ مِنْ رِقَّةِ ٱلنَّفْسِ وَرَحْمَتِهَا ، إِلَىٰ هَوَى ٱلنَّفْسِ وَعِشْقِهَا .

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْحُبُّ أَنْ يَكُونَ عِشْقًا ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ ٱلْمَفَاتِيحِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِلنَّفْسِ ، وَفَتَحَ لِلْعَظَائِمِ وَٱلْمُعْجِزَاتِ أَبْوَابَهَا ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ يَجْعَلُ ٱلْخُرَافَةَ ٱلْفَارِغَةَ مُعْجِزَةً دَقِيقَةً ، وَيَمْلَأُ ٱلْحَيَاةَ بِمَعَانٍ لَمْ تَكُنْ فِيهَا مِنْ قَبْلُ ، وَيُصْبِحُ سِرُّ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ لَا يَنْتَهِي ؛ إِذْ هُوَ سِرٌّ لَا يُدْرَكُ وَلَا يُعْرَفُ .

ٱجْهَدْ جُهْدَكَ يَا صَاحِبِي ، فَمَا هُوَ قَفَصُكَ ٱلْفِكْرِيُّ ذَلِكَ ٱلشُّعَاعُ ٱلَّذِي يَحْبِسُكَ ، وَلَـٰكِنَّهُ صَقْلُ ٱلنَّفْسِ لِتَتَلَقَّىٰ ٱلْأَنْوَارَ ، وَلَا بُدَّ لِلْمِرْآةِ مِنْ ظَاهِرٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلْحَجَرِ { لِتَكُونَ بِهِ مِرْآةً } .

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَمَا أَشَدَّهُ مَضَضًا أُعَانِيهِ ! إِنْ أَمْرِي لَيَذْهَبُ فُرُطًا(1) . أَكُلَّمَا ٱبْتَغَيْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ مَرَحًا أَطْرَبُ لَهُ وَأَهْتَزُّ ، جَاءَتْنِي ٱلْحَيَاةُ بِفِكْرَةٍ أَسْتَكِدُّ فِيهَا وَأَدْأَبُ ؟ أَهَـٰذَا ٱلسُّرُورُ ٱلَّذِي لَا يَزَالُ يَقَعُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَكَادُ يَقَعُ لِي ؟ وَهَلْ أَنَا شَجَرَةٌ فِي مَغْرِسِهَا : تَنْمُو صَاعِدَةً بِفُرُوعِهَا ، وَنَازِلَةً بِجُذُورِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَبْرَحُ مَكَانَهَا ؟ أَوْ أَنَا تِمْثَالٌ عَلَىٰ قَاعِدَتِهِ : لَا يَتَزَحْزَحُ عَنْهَا إِلَّا سَاعَةَ لَا يَكُونُ تِمْثَالًا ، وَلَا يَدَعُهَا حَتَّىٰ تَدَعَهُ مَعَانِي ٱلْعَظَمَةِ ٱلَّتِي نُصِبَ لَهَا ؟

وَقَالَتْ لِيَ ٱلنَّفْسُ : وَيْحَكَ ! لَا تَطْلُبْ فِي كَوْنِكَ ٱلصَّغِيرِ مَا لَيْسَ فِيهِ ؛ إِنَّ ٱلنَّاسَ لَوِ ٱرْتَفَعُوا إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ وَتَقَلَّبُوا فِيهَا كَمَا يَسِيحُ أَهْلُ قَارَّةٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ فِي قَارَّةٍ غَيْرِهَا ، وَٱبْتَغَوْا أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ مِمَّا هُنَاكَ تَذْكَارًا صَغِيرًا إِلَىٰ ٱلْأَرْضِ ـ لَوَجَدُوا أَصْغَرَ مَا هُنَالِكَ أَكْبَرَ مِنَ ٱلْأَرْضِ كُلِّهَا ؛ فَأَنْتَ سَائِحٌ فِي سَمَاوَاتٍ .

(1) { أي : مُجَاوِزًا فِيهِ عَنِ ٱلْحَدِّ } .

أَنْتَ كَٱلنَّائِمِ : لَهُ أَنْ يَرَىٰ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِمَّا يَرَىٰ إِلَّا وَصْفَهُ ، وَحِكْمَتَهُ ، وَٱلسُّرُورَ بِمَا ٱلْتَذَّ مِنْهُ ، وَٱلْأَلَمَ بِمَا تَوَجَّعَ لَهُ .

لَنْ تَكُونَ فِي ٱلْأَرْضِ شَجَرَةٌ بِرِجْلَيْنِ تَذْهَبُ هُنَا وَهَٰهُنَا ، وَلَٰكِنَّ ٱلشَّجَرَةَ تُرْسِلُ أَثْمَارَهَا يَتَنَاقَلُهَا ٱلنَّاسُ ، وَهِيَ تُبْدِعُ ٱلثِّمَارَ إِبْدَاعَ ٱلْمُؤَلِّفِ ٱلْعَبْقَرِيِّ مَا يُؤَلِّفُهُ بِأَشَدِّ ٱلْكَدِّ وَأَعْظَمِ ٱلْجُهْدِ ، مُطْلِقَةً ضَمِيرَهَا فِي ٱلْفِكْرَةِ ٱلصَّغِيرَةِ ، تَعْقِدُهَا شَيْئًا شَيْئًا ، ثُمَّ تَعُودُ عَلَيْهَا بِٱلزِّيَادَةِ ، وَلَا تَزَالُ كُلَّ وَقْتٍ تَعُودُ عَلَيْهَا حَتَّىٰ تَسْتَفْرِغَ أَقْصَىٰ ٱلْقُوَّةِ ؛ ثُمَّ يَكُونُ سُرُورُهَا فِي أَنْ تَهَبَ فَائِدَتَهَا ، لِأَنَّهَا لِذَٰلِكَ وُجِدَتْ .

إِنَّ فِي ٱلشَّجَرَةِ طَبِيعَةً صَادِقَةً لَا شَهْوَةً مَكْذُوبَةً ؛ فَٱلْحَيَاةُ فِيهَا عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ ٱلْحَيَاةُ فِي ٱلْإِنْسَانِ عَلَىٰ مَجَازِهَا ؛ وَشَرْطُ ٱلْمَجَازِ ٱلْخَيَالُ وَٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلتَّلْوِينُ ؛ وَلَٰكِنْ مَتَىٰ ٱخْتَارَ ٱللهُ رَجُلًا فَأَقَرَّ فِيهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلصَّادِقَةِ ، وَوَهَبَ لَهُ ٱلْعَاطِفَةَ ٱلْقَادِرَةَ ٱلَّتِي تَصْنَعُ ثِمَارَهَا - فَقَدْ غَرَسَهُ شَجَرَةً فِي مَنْبِتِهَا لَا مَفَرَّ وَلَا مَنْدُوحَةَ ، وَقَدْ يُخَيِّلُ لَهُ ضَعْفُ طَبِيعَتِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ أَحْيَانًا أَنَّ نَضْرَةَ ٱلْمَجْدِ ٱلَّتِي تَعْلُوهُ وَتَتَأَلَّقُ حَوْلَهُ كَشُعَاعِ ٱلْكَوْكَبِ ، هِيَ تَعَبُهُ وَضَجَرُهُ ، أَوْ أَثَرُ ٱنْخِذَالِهِ وَأَلَمِهِ وَمَسْكَنَتِهِ ؛ وَهَٰذَا مِنْ شَقَاءِ ٱلْعَقْلِ ؛ فَإِنَّهُ دَائِمًا يُضِيفُ شَيْئًا إِلَىٰ شَيْءٍ ، وَيَخْلِطُ مَعْنًى بِمَعْنًى ، وَلَا يَتْرُكُ حَقِيقَةً عَلَىٰ مَا هِيَ ؛ كَأَنَّ فِيهِ مَا فِي ٱلطِّفْلِ مِنْ غَرِيزَةِ ٱلتَّقْلِيدِ ؛ وَٱلْعَقْلُ لَا يَرَىٰ أَمَامَهُ إِلَّا ٱلْإِلَٰهِيَّةَ ، فَهُوَ يُقَلِّدُهَا فِي مُدَاخَلَةِ ٱلْأَشْيَاءِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ ، لِإِيجَادِ ٱلْأَسْرَارِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ .

وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلصَّرِيحَةُ ٱلثَّابِتَةُ مَدْعَاةً لِلْمَلَلِ ٱلْعَقْلِيِّ فِي ٱلْإِنْسَانِ ، لَا يَكَادُ يُقِيمُ عَلَيْهَا أَوْ يَتَقَيَّدُ بِهَا ، فَمَا نَالَ شَيْئًا إِلَّا لِيَطْمَعَ فِي غَيْرِهِ ، وَمَا فَازَ بِلَذَّةٍ إِلَّا لِيَزْهَدَ فِيهَا ، وَأَجَلُّ مَا أَحَبَّهُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يَنَالَهُ ، ﴿ فَإِذَا نَالَهُ وَقَعَ فِيهِ مَعْنَىٰ مَوْتِهِ ، وَبَدَأَ فِي ٱلنَّفْسِ عُمْرًا آخَرَ مِنْ حَالَةٍ أُخْرَىٰ ، أَوْ مَاتَ وَلَمْ يَبْدَأْ ﴾ ؛ فَلَا بُدَّ لِهَٰذَا ٱلْإِنْسَانِ مَعَ كُلِّ صَوَابٍ مِنْ جُزْءٍ مِنَ ٱلْخَطَأِ ، فَإِنْ هُوَ لَمْ يَجِدْ خَطَأً فِي شَيْءٍ ٱنْتَفَكَ لِنَفْسِهِ(١) ٱلْخَطَأَ ٱلْمُضْحِكَ فِي شِبْهِ رِوَايَةٍ خَيَالِيَّةٍ .

(١) ﴿ كَذَبَ وَٱخْتَرَعَ ، وَمِنْهُ حَدِيثُ ٱلْإِفْكِ ﴾ .

إِنَّهُ لَشِعْرٌ سَخِيفٌ بَالِغُ ٱلسَّخَافَةِ أَنْ يَتَخَيَّلَ ٱلْغَرِيقُ مُفَكِّرًا فِي صَيْدِ سَمَكَةٍ رَآهَا . . . وَلَٰكِنْ هَٰذَا مِنْ أَبْلَغِ ٱلْبَلَاغَةِ عِنْدَ ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِي يَبْحَثُ عَنْ وَهْمٍ يُضِيفُهُ إِلَىٰ هَٰذِهِ ٱلْحَقِيقَةِ لِيَضْحَكَ مِنْهَا ، كَمَا يَبْحَثُ لِنَفْسِهِ أَحْيَانًا فِي أَجْمَلِ حَقَائِقِ ٱللَّذَّةِ عَنْ أَلَمٍ يَتَأَلَّمُ بِهِ لِيَعْبَسَ فِيهِ !

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَهَلْ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُحْرِقَ دَمِي لِأَنِّي أُفَكِّرُ ، وَهَلْ أَظَلُّ دَائِمًا بِهَٰذَا ٱلتَّفْكِيرِ كَٱلَّذِي يَنْظُرُ فِي وَجْهٍ حَسْنَاءَ بِمِنْظَارٍ مُكَبِّرٍ : لَا يُرِيهِ ذَٰلِكَ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَعْشُوقَ إِلَّا ثُقُوبًا وَتَخْرِيمًا كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ نُزِعَتْ مِنْهَا مَسَامِيرُ غَلِيظَةٌ . . . ! فَلَا يَجِدُ ٱلْمِسْكِينُ هَٰذِهِ ٱلْحَقِيقَةَ إِلَّا لِيَفْقِدَ ذَٰلِكَ ٱلْجَمَالَ ؟ وَهَلْ بُدٌّ مِنَ ٱلشَّبَهِ بَيْنَ بَعْضِ ٱلنَّاسِ وَبَيْنَ مَا ٱرْتَصَدَ لَهُ مِنْ عَمَلٍ ﴿ يَحْيَا بِهِ ﴾ ؛ فَلَا يَكُونُ ٱلْحُوذِيُّ حُوذِيًّا إِلَّا لِشَبَهٍ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْبِغَالِ وَٱلْحَمِيرِ . . . ؟

وَقَالَتْ لِيَ ٱلنَّفْسُ : إِنَّ فَأْسَ ٱلْحَطَّابِ لَا تَكُونُ مِنْ أَدَاةِ ٱلطَّبِيبِ ؛ فَخُذْ لِكُلِّ شَيْءٍ أَدَاتَهُ ، وَكُنْ جَاهِلًا أَحْيَانًا ، وَلَٰكِنْ مِثْلَ ٱلْجَهْلِ ٱلَّذِي يَصْنَعُ لِوَجْهِ ٱلطِّفْلِ بَشَاشَتَهُ ٱلدَّائِمَةَ ؛ فَهَٰذَا ٱلْجَهْلُ هُوَ أَكْبَرُ عِلْمِ ٱلشُّعُورِ ٱلدَّقِيقِ ٱلْمُرْهَفِ ، وَلَوْلَاهُ لَهَلَكَ ٱلْأَنْبِيَاءُ وَٱلْحُكَمَاءُ وَٱلشُّعَرَاءُ غَمًّا وَكَمَدًا ، وَلَكَانُوا فِي هَٰذَا ٱلْوُجُودِ ، عَلَىٰ هَٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ، بَيْنَ هَٰذِهِ ٱلْحَقَائِقِ - كَٱلَّذِي قُيِّدَ وَحُبِسَ فِي رَهَجٍ تُثِيرُهُ ٱلْقَدَمُ وَٱلْخُفُّ وَٱلْحَافِرُ : لَا يَتَنَفَّسُ إِلَّا ٱلْغُبَارَ يُثَارُ مِنْ حَوْلِهِ إِلَىٰ أَنْ يُقْضَىٰ عَلَيْهِ .

أَجْهَلْ جَهْلَكَ يَا صَاحِبِي فِي هَٰذِهِ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلْخَسِيسَةِ ؛ فَإِنَّهَا ٱلْعِلْمُ ٱلْخَبِيثُ ٱلَّذِي يُفْسِدُ ٱلرُّوحَ ، وَٱعْرِفْ كَيْفَ تَقُولُ لِرُوحِكَ ٱلطِّفْلَةِ فِي مَلَائِكِيَّتِهَا حِينَ تُسَاوِرُكَ ٱلشَّهَوَاتُ : هَٰذَا لَيْسَ لِي ؛ هَٰذَا لَا يَنْبَغِي لِي .

إِنَّ ٱلرُّوحَ ٱلْكَبِيرَةَ هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا ٱلطِّفْلُ ٱلْمَلَائِكِيُّ .

وَعِلْمُ خَسَائِسِ ٱلْحَيَاةِ يَجْعَلُ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ خَسِيسَةٍ نَفْسًا تَتَعَلَّقُ بِهَا ، فَيَكُونُ ٱلْمِسْكِينُ بَيْنَ نَفْسَيْنِ وَثَلَاثٍ وَأَرْبَعٍ ، إِلَىٰ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ ، كُلُّهُنَّ يَتَنَازَعْنَهُ ، فَيَضِيعُ بِهَٰذِهِ ٱلْكَثْرَةِ ، وَيُصْبِحُ بَعْضُهُ بَلَاءً عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَتَشْغَلُهُ ٱلْفُضُولُ ، فَيَعُودُ لَهَا كَٱلْمَزْبَلَةِ لِمَا أُلْقِيَ فِيهَا ، وَيُمْحَقُ فِي نَفْسِهِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ حِسُّ ٱلْفَرَحِ بِجَمَالِ ٱلطَّبِيعَةِ ، كَمَا يُمْحَقُ فِي ٱلْمَزْبَلَةِ مَعْنَى ٱلنَّظَافَةِ

وَمَعْنَىٰ ٱلْحِسِّ بِهَا .

هَـٰذِهِ ٱلْأَنْفُسُ ٱلْخَيَالِيَّةُ فِيْ هَـٰذَا ٱلْإِنْسَانِ ٱلْمَنْكُوْدِ ، هِيَ ٱلْأَرْوَاحُ ٱلَّتِي يَنْفُخُهَا فِيْ مَصَائِبِهِ ، فَتَجْعَلُهَا مَصَائِبَ حَيَّةً تَعِيشُ فِيْ وُجُوْدِهِ وَتَعْمَلُ فِيهِ أَعْمَالَهَا ، وَلَوْلَاهَا لَمَاتَتْ فِيْ نَفْسِهِ مَطَامِعُ كَثِيْرَةٌ ، فَمَاتَتْ لَهُ مَصَائِبُ كَثِيْرَةٌ .

ٱنْظُرْ بِٱلرُّوْحِ ٱلشَّاعِرَةِ ، تَرَ ٱلْكَوْنَ كُلَّهُ فِيْ سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ ٱنْسِجَامًا وَاحِدًا لَيْسَ فِيْهِ إِلَّا ٱلْجَمَالُ وَٱلسِّحْرُ وَفِتْنَةُ ٱلطَّرَبِ ؛ وَٱنْظُرْ بِٱلْعَقْلِ ٱلْعَالِمِ ، فَلَنْ تَرَىٰ فِي ٱلْكَوْنِ كُلِّهِ إِلَّا مَوَادَّ عِلْمِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَٱلْكِيمْيَاءِ .

وَمَدَىٰ ٱلرُّوْحِ جَمَالُ ٱلْكَوْنِ كُلِّهِ ؛ وَمَدَىٰ ٱلْعَقْلِ قِطْعَةٌ مِنْ حَجَرٍ ، أَوْ عَظْمَةٌ مِنْ حَيَوَانٍ ، أَوْ نَسِيْجَةٌ مِنْ نَبَاتٍ ، أَوْ فِلْذَةٌ مِنْ مَعْدِنٍ وَمَا أَشْبَهَهَا .

أَجْهَلْ جَهْلَكَ يَا صَاحِبِيْ ؛ فَفِيْ كُلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ ، بِشَرْطِ أَلَّا تَكُوْنَ ٱلْعَاشِقَ ٱلطَّامِعَ ، وَإِلَّا أَصَبْتَ فِيْ كُلِّ حُسْنٍ هَمًّا وَمَشْغَلَةً . . . !

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : إِلَىٰ ٱلْآنَ لَمْ أَقُلْ لَكِ ذَلِكَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِيْ كَتَمْتُهُ عَنْكِ .

وَقَالَتْ لِيَ ٱلنَّفْسُ : وَإِلَىٰ ٱلْآنَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِلَّا جَوَابَ ذَلِكَ ٱلَّذِي كَتَمْتَهُ عَنِّيْ . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

ٱلِانْتِحَارُ(*)

١

حَدَّثَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ ٱلْكُوفِيُّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِيْ مَسْجِدِ ٱلْكُوْفَةِ ، وَمَعِيَ سَعِيْدُ بْنُ عُثْمَانَ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَدَاوُدُ ٱلْأَزْدِيُّ ، وَجَمَاعَةٌ ـ أَقْبَلَ فَتًى فَجَلَسَ قَرِيْبًا مِنَّا ، وَكَانَ تِلْقَاءَ وَجْهِي ؛ لَا أَمُدُّ نَظَرِي إِلَّا ٱنْطَلَقَ فِيْ سَمْتِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ ، فَرَأَيْتُهُ يَتَسَمَّعُ إِلَىٰ حَدِيْثِنَا ؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيْدٌ ـ وَكَانَ خَافِتَ ٱلصَّوْتِ مِنْ عِلَّةٍ بِهِ ، وَكُنَّا نُسَمِّيْهِ ٱلنَّمْلَةَ ٱلصَّخَّابَةَ ـ رَأَيْتُ ٱلْفَتَىٰ يَتَزَحَّفُ قَلِيْلًا قَلِيْلًا حَتَّىٰ صَارَ بِحَيْثُ يَقَعُ فِيْ سَمَاعِهِ حَسِيْسُ نَمْلَتِنَا .

وَكَانَ سَعِيْدٌ يَقُوْلُ : ٱجْتَزْتُ أَنَا وَٱلشَّعْبِيُّ(١) أَمْسِ بِعِمْرَانَ ٱلْخَيَّاطِ ، فَمَازَحَهُ ٱلشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ : عِنْدَنَا حِبٌّ(٢) مَكْسُوْرٌ ، تَخِيْطُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْطٌ مِنْ رِيحٍ ! فَقُلْتُ أَنَا : فَٱذْهَبْ فَجِئْنَا بِٱلْمِغْزَلِ ٱلَّذِيْ يَغْزِلُ ٱلْهَوَاءَ لِنَصْنَعَ لَكَ ٱلْخَيْطَ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : هَـٰذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِيْ تَنَادُرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّفِقُ لَهُ ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فِيْ مَسْأَلَةٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ ٱمْرَأَتِهِ ؛ فَقَالَ ٱلرَّجُلُ : أَيُّكُمَا ٱلشَّعْبِيُّ . . . ؟ فَأَوْمَأَ ٱلشَّيْخُ إِلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ وَقَالَ : هَـٰذِهِ . . . !

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَضَحِكْنَا جَمِيْعًا ، وَأَخَذَ نَظَرِي ٱلْغُلَامَ فَإِذَا هُوَ نَاكِسٌ حُزْنًا وَهَمًّا ، وَكَأَنَّهُ لَا يَتَسَمَّعُ إِلَيْنَا لِيَسْمَعَ بَلْ لِيَشْغَلَ نَفْسَهُ عَنْ شَيْءٍ فِيْهَا ، فَتَتَوَزَّعَ خَوَاطِرُهُ ، فَيَتَبَدَّدَ

(*) « الرسالة » العدد : ٩٥ ، ٢٦ محرم سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٩ أبريل/ نيسان ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٦٨٣ ـ ٦٨٧ .

(١) هُوَ ٱلْإِمَامُ ٱلْعَظِيْمُ عَامِرُ بْنُ شَرَاحِيْلَ ٱلشَّعْبِيُّ ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ١٠٣ لِلْهِجْرَةِ أَوْ حَوْلَهَا عَنْ بِضْعٍ وَثَمَانِيْنَ سَنَةً ، وَكَانَ فِيْ عَصْرِهِ أَحَدَ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْأَرْبَعَةِ فِي ٱلْإِسْلَامِ : سَعِيْدُ بْنُ ٱلْمُسَيِّبِ فِي ٱلْمَدِيْنَةِ (ذَكَرْنَاهُ فِيْ : قِصَّةِ زَوَاجٍ) ، وَٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ فِي ٱلْبَصْرَةِ (ذَكَرْنَاهُ فِيْ قِصَّةِ : بِنْتِهِ ٱلصَّغِيْرَةِ) ، وَمَكْحُوْلٌ فِي ٱلشَّامِ ، وَٱلشَّعْبِيُّ هَـٰذَا فِي ٱلْكُوْفَةِ . وَكَانَ يُشْبِهُ فِيْ زَمَانِهِ ٱبْنَ عَبَّاسٍ فِيْ زَمَانِهِ .

(٢) ٱلْحِبُّ (بِكَسْرِ ٱلْحَاءِ) : هُوَ ٱلزِّيْرُ ، يُسْتَقْطَرُ ٱلْمَاءُ مِنْ أَسْفَلِهِ فَيَخْرُجُ صَافِيًا ، وَيُقَالُ لِرَشْحِهِ : قَطْرُ حِبٍّ .

ٱجْتِمَاعُهَا عَلَىٰ هَمِّهِ بِصَوْتٍ مِنْ هُنَا وَصَوْتٍ مِنْ هُنَا، كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمَحْزُوْنُ فِيْ مُغَالَبَةِ ٱلْحُزْنِ وَمُدَافَعَتِهِ: يَشْغَلُ عَنْهُ بَصَرَهُ وَقَلْبَهُ وَسَمْعَهُ جَمِيْعًا، فَيَكُوْنُ ٱلْحُزْنُ فِيْهِ وَكَأَنَّهُ بَعِيْدٌ مِنْهُ.

فَقُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ: أَمْرٌ أَمَاتَ ٱلضَّحِكَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْفَتَىٰ وَكَسَرَ حِدَّتَهُ وَشَبَابَهُ. ثُمَّ تَحَوَّلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: رَأَيْتُكَ يَا بُنَيَّ مُقْبِلًا عَلَيْنَا كَٱلْمُنْصَرِفِ عَنَّا؛ فَمَا بَالُكَ لَمْ تَضْحَكْ وَقَدْ ضَحِكْنَا جَمِيْعًا؟

قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّيْ يَا هَـٰذَا؛ فَأَيْنَ مِنِّيَ ٱلضَّحِكُ وَأَنَا عَلَىٰ شَفِيْرِ ٱلْقَبْرِ، وَرُوحُ ٱلتُّرَابِ مَالِئٌ عَيْنَيَّ فِيْ كُلِّ مَا أَرَىٰ، وَكَأَنَّ حُفْرَتِيَ ٱبْتَلَعَتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِيْ أَنَا فِيْهَا لِتَأْخُذَنِيْ فِيْهَا، وَأَنَا ٱلسَّاعَةَ مَيِّتٌ حَيٌّ؛ رِجْلٌ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَرِجْلٌ فِيْ ٱلْآخِرَةِ!

قُلْتُ: فَأَعْلِمْنِيْ مَا بِكَ يَا بُنَيَّ؛ فَلَقَدِ ٱحْتَسَبْتُ وَلَدًا لِيْ كَانَ فِيْ مِثْلِ سِنِّكَ وَشَبَابِكَ وَلَمْ أُرْزَقْ غَيْرَهُ، فَقَلْبِيْ بَعْدَهُ مَرِيْضٌ بِهِ، يَتَوَسَّمُهُ مُفَرَّقًا فِيْ لِدَاتِهِ، مُتَوَهِّمًا أَنَّ وُجُوْهَهُمْ تَجْمَعُهُ بِمَلَامِحِهِ؛ فَأَنَا مِنْ ذَلِكَ أُحِبُّهُمْ جَمِيْعًا وَأُطِيْلُ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِمْ وَٱلتَّأَمُّلَ فِيْ وُجُوْهِهِمْ، وَلَسْتُ أَرَىٰ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا كَانَ لَهُ وَلِقَلْبِيْ حَدِيْثٌ! فَإِنْ رَأَيْتُهُ حَزِيْنًا مِثْلَكَ تَقَطَّعْتُ لَهُ مِنْ إِشْفَاقٍ وَرَحْمَةٍ، وَطَالَعَنِيْ فَتَايَ فِيْ مِثْلِ هَمِّهِ وَحُزْنِهِ وَٱنْكِسَارِهِ؛ فَيَعُوْدُ قَلْبِيْ كَٱلْعَيْنِ ٱلَّتِيْ غَشَّاهَا ٱلدَّمْعُ، تَحْمِلُ أَثَرَ ٱلْحُزْنِ وَمَعْنَاهُ وَسِرَّهُ؛ فَنَبِّئْنِيْ مَا تَجِدُ يَا بُنَيَّ، فَلَعَلَّ لِيْ سَبَبًا إِلَىٰ كَشْفِ ضُرِّكَ أَوْ إِسْعَافِكَ بِحَاجَتِكَ؛ وَلَعَلَّكَ تَكُوْنُ قَدْ حَزِنْتَ مِنْ أَمْرٍ قَرِيْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ هَيِّنِ ٱلْمُحَاوَلَةِ، لَمْ يَجْعَلْهُ عِنْدَكَ كَبِيْرًا أَنَّهُ كَبِيْرٌ، وَلَـٰكِنْ أَنَّكَ أَنْتَ صَغِيْرٌ.

قَالَ ٱلْفَتَىٰ: مَهْلًا يَا عَمُّ! فَإِنَّ مَا نَزَلَ بِنَا مِمَّا تَنْقَطِعُ عِنْدَهُ ٱلْحِيْلَةُ وَلَا تَنْقَادُ فِيْهِ ٱلْوَسَائِلُ، وَلَا عِلَاجَ مِنْهُ إِلَّا بِٱلْمَوْتِ يَأْخُذُنَا وَيَأْخُذُهُ!

قُلْتُ: يَا بُنَيَّ! هَـٰذِهِ كَلِمَةٌ مَا أَحْسَبُ أَحَدًا يَقُوْلُهَا إِلَّا مَنْ أُخِذَ لِلْقَتْلِ بِجِنَايَتِهِ وَلَمْ يَعْفُ أَهْلُ ٱلدَّمِ، فَهَلْ جَنَيْتَ أَوْ جَنَىٰ أَبُوْكَ عَلَىٰ أَحَدٍ؟

قَالَ: إِنَّ ٱلْأَمْرَ قَرِيْبٌ مِنْ قَرِيْبٍ، فَإِنِّيْ تَرَكْتُ أَبِيَ ٱلسَّاعَةَ مُجْمِعًا عَلَىٰ إِزْهَاقِ نَفْسِهِ، وَقَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ ٱلدَّارَ وَٱسْتَوْثَقَ مِنَ ٱلْبَابِ!

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ: فَكَأَنَّمَا لَدَغَتْنِيْ حَيَّةٌ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ، وَأَكْبَرْتُ أَنْ يَكُوْنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَقْتُلُ

نَفْسَهُ؛ فَتَنَاهَضْتُ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْغُلَامَ أَمْسَكَ بِيْ وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا، وَسَيَقْتُلُ نَفْسَهُ مَتَىٰ أَظْلَمَ ٱللَّيْلُ وَهَدَأَتِ ٱلرِّجْلُ.

قُلْتُ: ٱلْحَمْدُ لِلهِ، إِنَّ فِيْ ٱلنُّوْرِ عَقْلًا، وَلَـٰكِنْ مَا ٱلَّذِيْ صَارَ بِهِ إِلَىٰ مَا قُلْتَ، وَكَيْفَ تَرَكْتَهُ لِقَدَرِهِ وَجِئْتَ؟

قَالَ ٱلْفَتَىٰ: إِنَّهُ قَالَ لِيْ: يَا وَلَدِيْ! لَيْسَ لَكَ أَبٌ بَعْدِيْ؛ فَإِنْ أَرَدْتَ ٱللَّحَاقَ بِيْ فَٱرْجِعْ مَعَ ٱللَّيْلِ لِنُسْلِمَ أَنْفُسَنَا، وَإِنْ آثَرْتَ ٱلْحَيَاةَ فَٱرْجِعْ مَعَ ٱلصُّبْحِ لِتُسْلِمَنِيْ إِلَىٰ غَاسِلِيْ!

قُلْتُ: أَفَآمِنٌ أَنْتَ أَلَّا يَكُوْنَ أَبُوْكَ قَدْ أَخْرَجَكَ عَنْهُ لِأَنَّ عَيْنَكَ تُمْسِكُ يَدَهُ وَتَرُدُّهُ عَمَّا يَهُمُّ بِهِ، حَتَّىٰ إِذَا خَلَا وَجْهُهُ مِنْكَ أَزْهَقَ نَفْسَهُ؟

قَالَ: لَمْ أَدَعْهُ حَتَّىٰ أَقْسَمَ أَنْ يَحْيَا إِلَىٰ ٱللَّيْلِ، وَحَتَّىٰ أَقْسَمْتُ أَنْ أَرْجِعَ لِأَمُوْتَ مَعَهُ؛ فَإِنْ لَمْ تُمْسِكْهُ يَمِيْنُهُ أَمْسَكَهُ ٱنْتِظَارِيْ، وَقَدْ فَرَغَتِ ٱلْحَيَاةُ مِنَّا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نَفْرُغَ مِنْهَا؛ وَمَنْ كَانَ فِيْمَا كُنَّا فِيْهِ ثُمَّ ٱنْحَدَرَ إِلَىٰ مَا ٱنْحَدَرْنَا إِلَيْهِ، لَمْ يَرَ ٱلنَّاسُ مِنْ نَفْسِهِ ضَعَةً وَلَا ٱسْتِكَانَةً؛ وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِأَسْأَلَ هَـٰذَا ٱلْإِمَامَ (ٱلشَّعْبِيَّ) وَجْهًا مِنَ ٱلرَّأْيِ فِيْمَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ ٱلدُّنْيَا، وَنَزَلَتْ بِهِ ٱلنَّازِلَاتُ، وَتَعَذَّرَ ٱلْقُوْتُ، وَٱشْتَدَّ ٱلضُّرُّ، وَتَدَلَّتْ بِهِ ٱلْمَسْكَنَةُ إِلَىٰ حَضِيْضِهَا، وَأُلْجِئَ إِلَىٰ أَحْوَالٍ دَقَّتْهُ دَقَّ ٱلرَّحَىٰ لِمَا تَدُوْرُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَعُدْ لَهُ إِلَّا رَأْيٌ وَاحِدٌ فِيْ مَعْنَىٰ ٱلدُّنْيَا: هُوَ أَنَّهُ مَكْذُوْبٌ مُزَوَّرٌ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا.

قُلْتُ: يَا بُنَيَّ! فَإِنِّيْ أَرَاكَ أَدِيْبًا؛ فَمَنْ أَبُوْكَ؟

قَالَ: هُوَ فُلَانٌ ٱلتَّاجِرُ، ظَهَرَ ظُهُوْرَ ٱلْقَمَرِ وَمُحِقَ مُحَاقَهُ، وَهُوَ ٱلْيَوْمَ فِيْ أَحْلَكِ ٱللَّيَالِيْ وَأَشَدِّهَا ٱنْطِمَاسًا؛ جَهَدَهُ ٱلْفَقْرُ، وَيَا لَيْتَهُ كَانَ ٱلْفَقْرُ وَحْدَهُ، بَلِ ٱنْتَهَكَتْهُ ٱلْعِلَلُ، وَلَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا ٱلْعِلَلَ مَعَ ٱلْفَقْرِ، بَلْ أَخَذَ ٱلْمَوْتُ ٱمْرَأَتَهُ فَمَاتَتْ هَمًّا بِهِ وَبِيْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرِيْ وَغَيْرُهَا، وَكَانَ كُلٌّ مِنْ ثَلَاثَتِنَا يَحْيَا لِلِاثْنَيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ، فَهَـٰذَا مَا كَانَ يَجْعَلُ كُلًّا مِنَّا لَا يَفْرُغُ إِلَّا ٱمْتَلَأَ، وَلَمَّا ذَهَبَتِ ٱلْأُمُّ ذَهَبَتِ ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلَّتِيْ كُنَّا نُقَاتِلُ ٱلْأَيَّامَ عَنْهَا، وَكَانَتْ هِيَ وَحْدَهَا تُرِيْنَا ٱلْحَيَاةَ بِمَعْنَاهَا إِنْ جَاءَتْنَا ٱلْحَيَاةُ فَارِغَةً مِنَ ٱلْمَعْنَىٰ، وَكُنَّا مِنْ أَجْلِهَا نَفْهَمُ ٱلْأَيَّامَ عَلَىٰ أَنَّهَا مُجَاهَدَةُ ٱلْبَقَاءِ؛ أَمَّا ٱلْآنَ فَٱلْحَيَاةُ عِنْدَنَا قَتْلُ ٱلْحَيَاةِ . . . !

قُلْتُ : يَا بُنَيَّ ! فَإِنَّكَ وَٱللهِ { مَعَ أَدَبِكَ } لَحَكِيْمٌ ، وَإِنِّيْ لَأَنْفَسُ بِكَ عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ ؛ فَكَيْفَ رَدَّتْكَ حَيَاةُ أُمِّكَ عَنْ قَتْلِ نَفْسِكَ وَلَا تَرُدُّكَ حَيَاةُ أَبِيْكَ ؟

قَالَ : لَوْ بَقِيَ أَبِيْ حَيّاً لَبَقِيْتُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلدَّهْرَ قَدِ ٱنْتَزَعَ مِنْهُ آخِرَ مَا كَانَ يَمْلِكُ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقُوَّةِ ، حِيْنَ أَخَذَ ٱلْقَلْبَ ٱلشَّفِيْقَ ٱلَّذِيْ كَانَ يَجْعَلُهُ يَرْتَعِدُ إِذَا فَكَّرَ فِيْ ٱلْمَوْتِ ؛ فَهُوَ ٱلْآنَ كَٱلَّذِيْ يُحَارِبُ عَنْ نَفْسِهِ تِلْقَاءَ عَدُوٍّ لَا يَرْحَمُهُ ؛ إِنْ عَجَزَ عَنْ عَدُوِّهِ فَٱلرَّأْيُ قَتْلُ نَفْسِهِ لِيَسْتَرِيْحَ مِنْ تَنْكِيْلِ ٱلْعَدُوِّ بِهِ .

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَأَدْرَكْتُ أَنَّ ٱلْفَتَىٰ يُرِيْدُ مِنْ سُؤَالِ ٱلشَّيْخِ تَحِلَّةً يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا أَنْ يَمُوْتَ مُسْلِمًا إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ كَٱلْمُضْطَرِّ أَوِ ٱلْمُكْرَهِ ؛ فَأَشْفَقْتُ أَنْ أَكْسِرَ نَفْسَهُ إِذَا أَنَا حَدَّثْتُهُ أَوْ أَفْتَيْتُهُ ؛ وَقُلْتُ : هَـٰذَا مَرِيْضٌ يَحْتَاجُ ٱلْعِلَاجَ لَا ٱلْفُتْيَا ؛ وَكَانَ إِمَامُنَا (ٱلشَّعْبِيُّ) حَكِيْمًا لَحِنًا فَطِنًا ، سَفَرَ بَيْنَ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ (عَبْدِ ٱلْمَلِكِ) وَعَاهِلِ ٱلرُّوْمِ ، فَحَسَدَنَا ٱلْعَاهِلُ أَنْ يَكُوْنَ فِيْنَا مِثْلُهُ(١) . وَقُلْتُ : لَعَلَّ ٱللهَ يُحْدِثُ بِهِ أَمْرًا . فَأَخَذْتُ بِيَدِ ٱلْفَتَىٰ إِلَيْهِ ، وَمَشَيْتُ أُكَلِّمُهُ وَأُرَفِّهُ عَنْ نَفْسِهِ . وَقُلْتُ لَهُ : أَمَا تَدْرِيْ أَنَّكَ حِيْنَ فَرَغْتَ مِنْ سُرُوْرِ ٱلْحَيَاةِ فَرَغْتَ مِنْ غُرُوْرِهَا أَيْضًا ، وَأَنَّ ٱلزَّاهِدَ ٱلْمُنْقَطِعَ فِيْ عُرْعُرَةِ ٱلْجَبَلِ يَنْظُرُ مِنْ صَوْمَعَتِهِ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا ، لَيْسَ بِأَحْكَمَ وَلَا أَبْصَرَ مِمَّنْ يَنْظُرُ مِنْ آلَامِهِ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا ؟

يَا بُنَيَّ ! إِنَّ ٱلزَّاهِدَ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ فَرَّ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ إِلَىٰ فَضَائِلِهِ ، وَلَـٰكِنَّ فِرَارَهُ مِنْ مُجَاهَدَةِ ٱلرَّذِيْلَةِ هُوَ فِيْ نَفْسِهِ رَذِيْلَةٌ لِكُلِّ فَضَائِلِهِ . وَمَاذَا تَكُوْنُ ٱلْعِفَّةُ وَٱلْأَمَانَةُ وَٱلصِّدْقُ

(١) [جاء في « سير أعلام النبلاء » للذهبي ٤/ ٣٠٤ :
قَالَ ٱبْنُ عَائِشَةَ : وَجَّهَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ٱلشَّعْبِيَّ إِلَىٰ مَلِكِ ٱلرُّومِ ، يَعْنِي رَسُولًا ؛ فَلَمَّا ٱنْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِ ، قَالَ : يَا شَعْبِيُّ ! أَتَدْرِي مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيَّ مَلِكُ ٱلرُّومِ ؟ قَالَ : وَمَا كَتَبَ به يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَتَعَجَّبُ لِأَهْلِ دِيَانَتِكَ ، كَيْفَ لَمْ يَسْتَخْلِفُوا عَلَيْهِمْ رَسُولَكَ ؟ قُلْتُ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! لِأَنَّهُ رَآنِي وَلَمْ يَرَكَ .
أَوْرَدَهَا ٱلْأَصْمَعِيُّ ؛ وَمِنْهَا قَالَ : يَا شَعْبِيُّ ! إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُغْرِيَنِي بِقَتْلِكَ . فَبَلَغَ ذَلِكَ مَلِكَ ٱلرُّومِ ، فَقَالَ : لِلّٰهِ أَبُوهُ ! وَٱللهِ مَا أَرَدْتُ إِلَّا ذَاكَ . ٱنْتَهَىٰ] .

وَٱلْوَفَاءُ وَٱلْبِرُّ وَٱلْإِحْسَانُ وَغَيْرُهَا ، إِذَا كَانَتْ فِيْمَنِ ٱنْقَطَعَ فِيْ صَحْرَاءَ أَوْ عَلَىٰ رَأْسِ جَبَلٍ ؟ أَيَزْعُمُ أَحَدٌ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فَضِيْلَةٌ فِيْ إِنْسَانٍ لَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا عَشَرَةُ أَحْجَارٍ ؟ وَٱيْمُ ٱللهِ إِنَّ ٱلْخَالِيَ مِنْ مُجَاهَدَةِ ٱلرَّذَائِلِ جَمِيْعًا ، لَهُوَ ٱلْخَالِيْ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ جَمِيْعًا !

يَا بُنَيَّ ! إِنَّ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَخْتَارُهُمُ ٱللهُ فَيَكُوْنُوْنَ قَمْحَ هَـٰذِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ : يَنْبُتُوْنَ وَيُحْصَدُوْنَ وَيُطْحَنُوْنَ وَيُعْجَنُوْنَ وَيُخْبَزُوْنَ ، لِيَكُوْنُوا غِذَاءَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِيْ بَعْضِ فَضَائِلِهَا . وَمَا أَرَاكَ أَنْتَ وَأَبَاكَ إِلَّا مِنَ ٱلْمُخْتَارِيْنَ ، كَأَنَّ فِيْ أَعْرَاقِكُمَا دَمَ نَبِيٍّ يُقْتَلُ أَوْ يُطْلَبُ !

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَٱنْتَهَيْنَا إِلَىٰ دَارِ ٱلشَّعْبِيِّ ، فَطَرَقْتُ ٱلْبَابَ ، وَجَاءَ ٱلشَّيْخُ فَفَتَحَ لَنَا ، وَسَلَّمْنَا وَسَلَّمَ ، ثُمَّ بَدَرْتُ فَقُلْتُ : يَا أَبَا عَمْرٍو ! إِنَّ أَبَا هَـٰذَا كَانَ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَتَرَادَفَتْ عَلَيْهِ ٱلْمَصَائِبُ ، وَتَوَالَتِ ٱلنَّكَبَاتُ ، وَتَوَاتَرَتِ ٱلْأَسْقَامُ . . . ثُمَّ ٱقْتَصَصْتُ مَا قَالَ ٱبْنُهُ حَرْفًا حَرْفًا ، ثُمَّ قُلْتُ : وَإِنَّهُ ٱلْآنَ مُوْشِكٌ أَنْ يُزْهِقَ نَفْسَهُ وَسَيَتْبَعُهُ ٱبْنُهُ هَـٰذَا ؛ وَقَدْ (هَدَاهُ ٱللهُ إِلَيْكَ) . فَجَاءَ يَسْأَلُكَ : أَيَمُوْتُ مُسْلِمًا مَنْ أُلْجِئَ وَأُكْرِهَ وَٱضْطُرَّ وَٱسْتَضَاقَ وَٱخْتَلَّ ، فَتَحَسَّىٰ سُمًّا فَهَلَكَ ، أَوْ تَوَجَّأَ بِحَدِيْدَةٍ فَقَضَىٰ ، أَوْ ذَبَحَ نَفْسَهُ بِنَصْلٍ فَخَفَتَ ، أَوْ حَزَّ فِيْ يَدِهِ بِسِكِّيْنٍ فَمَا رَقَأَ دَمُهُ حَتَّىٰ مَاتَ ، أَوِ ٱخْتَنَقَ فِيْ حَبْلٍ فَفَاضَتْ نَفْسُهُ ، أَوْ تَرَدَّىٰ مِنْ شَاهِقٍ فَطَاحَ . . . !

وَأَدْرَكَ ٱلشَّيْخُ مَعْنَىٰ قَوْلِيْ : (هَدَاهُ ٱللهُ إِلَيْكَ) ، وَمَعْنَىٰ مَا أَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ عَلَىٰ ٱلْقَتْلِ وَمَا ٱسْتَقْصَيْتُ مِنْ وُجُوْهِهِ ؛ فَعَلِمَ أَنِّيْ لَمْ أَسْأَلْهُ ٱلْفُتْيَا وَٱلنَّصَّ ، وَلَـٰكِنِّيْ سَأَلْتُهُ ٱلْحِكْمَةَ وَٱلسِّيَاسَةَ ؛ فَقَالَ : هَـٰذَا وَٱللهِ رَجُلٌ كَرِيْمٌ ، أَخَذَتْهُ ٱلْأَنَفَةُ وَعِزَّةُ ٱلنَّفْسِ ، وَمَا أَنَا ٱلسَّاعَةَ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَمِّهِ ، فَنَذْهَبُ نُكَلِّمُهُ وَٱللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ .

وَمَشَيْنَا ثَلَاثَتُنَا ، فَلَمَّا شَارَفْنَا ٱلدَّارَ قَالَ ٱلْفَتَىٰ : إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِيْ إِذَا رَآكُمَا ، وَرُبَّمَا ٱسْتَفَزَّ بِنَفْسِهِ فَأَزْهَقَهَا ، وَسَأَتَسَوَّرُ ٱلْحَائِطَ وَأَتَدَلَّىٰ ثُمَّ أَفْتَحُ لَكُمَا فَتَدْخُلَانِ وَأَنَا عِنْدَهُ .

* * *

وَدَخَلْنَا ، فَإِذَا رَجُلٌ كَٱلْمَرِيْضِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ ، خَوَّارٌ مَسْلُوْبُ ٱلْقُوَّةِ ، ٱنْزَعَجَ قَلْبُهُ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُرْأَةٌ ، وَإِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قُوَّةٌ ؛ وَصَغَّرَ إِلَيْهِ نَفْسَهُ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ فِيْ مُعَامَلَةِ

ٱلنَّاسِ كَالدِّرْهَمِ ٱلزَّائِفِ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ دَاءُ ٱلْحُزْنِ فَأَضْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعْقَعُ فِي جِلْدِهَا ، فَهِيَ تَهُمُّ فِي لَحْظَةٍ أَنْ تَثِبَ وَتَنْدَلِقَ .

وَسَلَّمَ ٱلشَّيْخُ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ ، ثُمَّ قَالَ : « بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ » [٢ سورة البقرة/الآية : ١٧٧] .

فَقَطَعَ عَلَيْهِ ٱلرَّجُلُ وَقَالَ كَالْمُخْتَنِقِ : أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ! قَدْ صَبَرْنَا حَتَّىٰ جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ خَلَوْنَا مِنْ مَعَانِي ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ ، فَمَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً نَمْلِكُ مَعْنَاهَا ، هِيَ أَنْ نَنْتَهِيَ !

وَمَدَّ ٱلشَّيْخُ عَيْنَهُ فَرَأَىٰ كُوَّةً مَسْدُودَةً فِي ٱلْجِدَارِ ، فَقَالَ لِي : ٱفْتَحْ هَٰذِهِ وَدَعِ ٱلْهَوَاءَ يَتَكَلَّمْ مَعَنَا كَلَامَهُ . فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَعَالَجْتُهَا حَتَّىٰ فَتَحْتُهَا ، وَنَفَذَ مِنْهَا رَوْحُ ٱلدُّنْيَا ، وَقَالَ ٱلشَّيْخُ لِلرَّجُلِ : أَصْغِ إِلَيَّ ، فَإِذَا أَنَا فَرَغْتُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَشَأْنَكَ بِنَفْسِكَ :

أَعَلِمْتَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ قَدْ مَرِضَ ، فَأَعْضَلَ مَرَضُهُ فَأَثْبَتَهُ عَلَىٰ سَرِيرِهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يَتَحَرَّكُ ، وَطَوَىٰ فِيهِ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي كَانَ حَيًّا وَنَشَرَ مِنْهُ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي سَيَكُونُ مَيْتًا ، فَبَقِيَ لَا حَيًّا وَلَا مَيْتًا ثَلَاثِينَ سَنَةً . . . ؟

قَالَ ٱلرَّجُلُ : وَفِي ٱلدُّنْيَا مَنْ يَعِيشُ عَلَىٰ هَٰذِهِ ٱلْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً ؟

قَالَ ٱلشَّيْخُ : صَحِّحِ ٱلْكَلَامَ وَٱسْأَلْ : أَيَصْبِرُ عَلَىٰ هَٰذِهِ ٱلْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَلَا يَقُولُ : (جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ) ! وَأَيُّ شَيْءٍ لَا صَبْرَ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلرَّجُلِ ٱلْمُؤْمِنِ ٱلَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ ٱلْبَلَاءَ مَالٌ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوضَعُ فِي ٱلْكِيسِ بَلْ فِي ٱلْجِسْمِ ؟

أَفَتَدْرِي مَنْ كَانَ ٱلصَّابِرَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَىٰ بَلَاءِ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ مُجْتَمِعَيْنِ فِي عِظَامٍ مُمَدَّدَةٍ عَلَىٰ سَرِيرِهَا ؟ إِنَّهُ إِمَامُنَا (عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ ٱلْخُزَاعِيُّ)[1] ٱلَّذِي أَرْسَلَهُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ يُفَقِّهُ أَهْلَ ٱلْبَصْرَةِ ، وَتَوَلَّىٰ قَضَاءَهَا ، وَكَانَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ يَحْلِفُ بِٱللَّهِ مَا قَدِمَهَا خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ . وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ أَنَا وَأَخُوهُ (ٱلْعَلَاءُ) ، فَرَأَيْنَاهُ مُثْبَتًا عَلَىٰ سَرِيرِ

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٥٣ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ .

ٱلْجَرِيدِ كَأَنَّمَا شُدَّ بِٱلْحِبَالِ وَمَا شُدَّ إِلَّا بِٱنْتِهَاكِ عَصَبِهِ وَذَوَبَانِ لَحْمِهِ وَوَهَنِ عِظَامِهِ ؛ فَبَكَىٰ أَخُوهُ ، فَقَالَ : لِمَ تَبْكِي ؟ قَالَ : لِأَنِّي أَرَاكَ عَلَىٰ هَٰذِهِ ٱلْحَالِ ٱلْعَظِيمَةِ ! قَالَ : لَا تَبْكِ ؛ فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ أَحَبُّهُ إِلَيَّ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ هَٰذِهِ ٱلْأَرْضَ تَحْمِلُ ٱلْجِبَالَ فَلَا يَشْعُرُ مَوْضِعٌ مِنْهَا بِٱلْجَبَلِ ٱلْقَائِمِ عَلَيْهِ ، إِذْ كَانَ تَمَاسُكُ ٱلْأَرْضِ كُلِّهَا قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا قُوَّةَ ٱلْجَمِيعِ ، وَلَوْلَا هَٰذَا لَدَكَّ ٱلْجَبَلُ مَوْضِعَهُ وَغَارَ بِهِ ؛ وَكَذَٰلِكَ يَحْمِلُ ٱلْمُؤْمِنُ مِثْلَ ٱلْجِبَالِ مِنَ ٱلْبَلَاءِ عَلَىٰ أَعْصَابِهِ لَا يَنْكَسِرُ لَهَا وَلَا يَتَهَدَّمُ ؛ إِذْ كَانَتْ قُوَّةُ رُوحِهِ قُوَّةً فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، فَٱلْبَلَاءُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ هِمَّةِ ٱلرُّوحِ لَا عَلَىٰ ٱلْجِسْمِ ، وَهَٰذَا مَعْنَىٰ ٱلْخَبَرِ : « إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ ، إِنَّ رُوحَهُ لَتُنْزَعُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ ٱللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ! » . [راجع « مسند أحمد » ، رقم : ٣٤٧١] .

ثُمَّ قَالَ : وَلَٰكِنْ ذَاكَ هُوَ ٱلْمُؤْمِنُ ، فَمَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا قَالَ لَهُ : « ٱمْتَحِنِّي ! » وَكَيْفَ تَرَاكَ إِذَا كُنْتَ بَطَلًا مِنَ ٱلْأَبْطَالِ مَعَ قَائِدِ ٱلْجَيْشِ ، أَمَا تَفْرِضُ عَلَيْكَ شَجَاعَتُكَ أَنْ تَقُولَ لِلْقَائِدِ : « ٱمْتَحِنِّي وَٱرْمِ بِي حَيْثُ شِئْتَ ! » وَإِذَا رَمَىٰ بِكَ فَرَجَعْتَ مُثْخَنًا بِٱلْجِرَاحِ وَنَالَكَ ٱلْبَتْرُ وَٱلتَّشْوِيهُ ، أَتَرَاهَا أَوْصَافًا لِمَصَائِبِكَ ، أَمْ ثَنَاءً عَلَىٰ شَجَاعَتِكَ ؟

ثُمَّ قَالَ : إِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلْإِيمَانُ بِٱللَّهِ ٱطْمِئْنَانًا فِي ٱلنَّفْسِ عَلَىٰ زَلَازِلِهَا وَكَوَارِثِهَا ، لَمْ يَكُنْ إِيمَانًا ، بَلْ هُوَ دَعْوَىٰ بِٱلْفِكْرِ أَوْ بِٱللِّسَانِ لَا يَعْدُوهُمَا ، كَدَعْوَىٰ ٱلْجَبَانِ أَنَّهُ بَطَلٌ ، حَتَّىٰ إِذَا فَجَأَهُ ٱلرَّوْعُ أَحْدَثَ فِي ثِيَابِهِ مِنَ ٱلْخَوْفِ . . . وَمِنْ ثَمَّ كَانَ قَتْلُ ٱلْمُؤْمِنِ نَفْسَهُ لِبَلَاءٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِمَا كُفْرًا بِٱللَّهِ وَتَكْذِيبًا لِإِيمَانِهِ ، وَكَانَ عَمَلُهُ هَٰذَا صُورَةً أُخْرَىٰ مِنْ طَيْشِ ٱلْجَبَانِ ٱلَّذِي أَحْدَثَ فِي ثِيَابِهِ !

وَٱلْإِيمَانُ ٱلصَّحِيحُ هُوَ بَشَاشَةُ ٱلرُّوحِ ، وَإِعْطَاءُ ٱللَّهِ ٱلرِّضَىٰ مِنَ ٱلْقَلْبِ ، ثِقَةً بِوَعْدِهِ وَرَجَاءً لِمَا عِنْدَهُ ، وَمِنْ هَٰذَيْنِ يَكُونُ ٱلِاطْمِئْنَانُ . وَبِٱلْبَشَاشَةِ وَٱلرِّضَىٰ وَٱلثِّقَةِ وَٱلرَّجَاءِ ، يُصْبِحُ ٱلْإِيمَانُ عَقْلًا ثَانِيًا مَعَ ٱلْعَقْلِ ؛ فَإِذَا ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُ بِمَا يَذْهَبُ مَعَهُ ٱلصَّبْرُ وَيَطِيشُ لَهُ ٱلْعَقْلُ ، وَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ فِي مِثْلِ ٱلْجُنُونِ ـ بَرَزَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَالَةِ عَقْلُهُ ٱلرُّوحَانِيُّ وَتَوَلَّىٰ سِيَاسَةَ جِسْمِهِ حَتَّىٰ يُفِيقَ ٱلْعَقْلُ ٱلْأَوَّلُ . وَيَجِيءُ ٱلْخَوْفُ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ وَنِقْمَتِهِ فِي ٱلْآخِرَةِ ، فَيَغْمُرُ بِهِ خَوْفَ ٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْفَقْرِ أَوِ ٱلْمَرَضِ أَوْ غَيْرِهِمَا فَيَقْتُلُ أَقْوَاهُمَا ٱلْأَضْعَفَ ، وَيُخْرِجُ ٱلْأَعَزُّ

مِنْهُمَا ٱلْأَذَلَّ .

فَٱلِاطْمِئْنَانُ بِٱلْإِيمَانِ هُوَ قَتْلُ ٱلْخَوْفِ ٱلدُّنْيَوِيِّ بِٱلتَّسْلِيمِ وَٱلرِّضَىٰ ، أَوْ تَحْوِيلُهُ عَنْ مَعْنَاهُ بِجَعْلِ ٱلْبَلَاءِ ثَوَابًا وَحَسَنَاتٍ ، أَوْ تَجْرِيدُهُ مِنْ أَوْهَامِهِ بِٱعْتِبَارِ ٱلْحَيَاةِ سَائِرَةً بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ ؛ وَهُوَ بِهَـٰذَا عَقْلٌ رُوحَانِيٌّ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي تَصْرِيفِ ٱلدُّنْيَا ، يَتْرُكُ ٱلنَّفْسَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ، تَقُولُ لِمَصَائِبِهَا وَهِيَ مُطْمَئِنَّةٌ : نَعَمْ . وَتَقُولُ لِشَهَوَاتِهَا وَهِيَ مُطْمَئِنَّةٌ : لَا .

وَمَا ٱلْإِنْسَانُ فِي هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ ؟ وَمَا خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ؟ وَمَا سُخْطُهُ وَرِضَاهُ ؟ إِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ إِلَّا كَمَا تَرَىٰ قَبْضَةً مِنَ ٱلتُّرَابِ تَتَكَبَّرُ وَقَدْ نَسِيَتْ أَنَّهُ سَيَأْتِي مَنْ يَكْنُسُهَا . . . !

* * *

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَٱنْظُرْ ، أَمَا تُبْتَلَىٰ ٱلشَّجَرَةُ ٱلْخَضْرَاءُ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِهَا بِمِثْلِ مَا يُبْتَلَىٰ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ ، غَيْرَ أَنَّ لَهَا عَقْلًا رُوحَانِيًّا مُسْتَقِرًّا فِي دَاخِلِهَا يُمْسِكُ ٱلْحَيَاةَ عَلَيْهَا وَيَتَرَبَّصُ حَالًا غَيْرَ ٱلْحَالِ ؛ وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ ظَاهِرِهَا وَبَلَائِهِ فَٱلسَّعَادَةُ كُلُّهَا فِي دَاخِلِهَا ، وَلَهَا دَائِمًا رَبِيعٌ عَلَىٰ قَدْرِهَا حَتَّىٰ فِي قُرِّ ٱلشِّتَاءِ .

فَٱلْعَقْلُ ٱلرُّوحَانِيُّ ٱلْآتِي مِنَ ٱلْإِيمَانِ ، لَا عَمَلَ لَهُ إِلَّا أَنْ يُنْشِئَ لِلنَّفْسِ غَرِيزَةً مُتَصَرِّفَةً فِي كُلِّ غَرَائِزِهَا ، تُكَمِّلُ شَيْئًا وَتُنْقِصُ مِنْ شَيْءٍ ، وَتُوَجِّهُ إِلَىٰ نَاحِيَةٍ وَتَصْرِفُ عَنْ نَاحِيَةٍ ؛ وَبِهَـٰذِهِ ٱلْغَرِيزَةِ تَسْمُو ٱلرُّوحُ فَتَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ مَصَائِبِهَا وَأَكْبَرَ مِنْ لَذَّاتِهَا جَمِيعًا .

وَتِلْكَ ٱلْغَرِيزَةُ هِيَ نَفْسُهَا مَعْنَىٰ ٱلرِّضَىٰ بِٱلْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، وَهِيَ تَأْتِي بِٱلتَّأْوِيلِ لِكُلِّ هُمُومِ ٱلدُّنْيَا ، فَتَضَعُ فِي ٱلنَّكَبَاتِ مَعَانِيَ شَرِيفَةً تَنْزِعُ مِنْهَا شَرَّهَا وَأَذَاهَا لِلنَّفْسِ ؛ وَلَيْسَتِ ٱلْمُصِيبَةُ شَيْئًا لَوْلَا تَأَذِّي ٱلنَّفْسِ بِهَا . وَإِذَا وَقَعَ ٱلتَّأْوِيلُ فِي مَعَانِي ٱلنَّكَبَاتِ أَصْبَحَتْ تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْفَضَائِلِ ، وَتَغَيَّرَتْ طَبِيعَتُهَا ، فَيَعُودُ ٱلْفَقْرُ بَابًا مِنَ ٱلزُّهْدِ ، وَٱلْمَرَضُ نَوْعًا مِنَ ٱلْجِهَادِ ، وَٱلْخَيْبَةُ طَرِيقًا مِنَ ٱلصَّبْرِ ، وَٱلْحُزْنُ وَجْهًا مِنَ ٱلرَّجَاءِ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

وَٱلنَّفْسُ وَحْدَهَا كَنْزٌ عَظِيمٌ ، وَفِيهَا وَحْدَهَا ٱلْفَرَحُ وَٱلِابْتِهَاجُ لَا فِي غَيْرِهَا ، وَمَا لَذَّاتُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا وَسَائِلُ لِإِثَارَةِ هَـٰذَا ٱلْفَرَحِ وَهَـٰذَا ٱلِابْتِهَاجِ ، فَإِنْ وُجِدَا مَعَ ٱلْفَقْرِ بَطَلَتْ عِزَّةُ ٱلْمَالِ وَأَصْبَحَ حَجَرًا مِنَ ٱلْحَجَرِ ؛ وَٱلْبُلْبُلُ يَتَغَرَّدُ بِحَنْجَرَتِهِ ٱلصَّغِيرَةِ مَا لَا تُغْنِي فِيهِ آلَاتُ ٱلتَّطْرِيبِ

كُلُّهَا . وَفِي ٱلنَّفْسِ حَيَاةُ مَا حَوْلَهَا ، فَإِذَا قَوِيَتْ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسُ أَذَلَّتِ ٱلدُّنْيَا ، وَإِذَا ضَعُفَتْ أَذَلَّتْهَا ٱلدُّنْيَا !

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : ثُمَّ سَكَتَ ٱلشَّيْخُ قَلِيلًا ، وَكُنْتُ أَرَىٰ ٱلرَّجُلَ كَأَنَّمَا يَغْتَسِلُ بِكَلَامِهِ ، وَقَدْ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَتَنَضَّرَ وَٱنْقَلَبَ إِلَىٰ رُوحِهِ ٱلَّتِي كَانَ مُنْصَرِفًا عَنْهَا ، فَعَادَتْ مَصَائِبُهُ تَضْغَطُ رُوحًا لَيِّنَةً كَمَا تَضْغَطُ ٱلْيَدُ عَلَىٰ ٱلْمَاءِ ، وَأَيْقَنَ أَنَّ ٱلنَّكْبَةَ كُلَّهَا هِيَ أَنْ يَنْظُرَ ٱلْإِنْسَانُ إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ بِعَيْنِ شَهَوَاتِهِ ، فَيُنْكَبَ أَوَّلَ مَا يُنْكَبُ فِي صَبْرِهِ وَيَقِينِهِ .

ثُمَّ قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنَيْ رَأْسِي مُعْجِزَةَ (ٱلْعَقْلِ ٱلرُّوحَانِيِّ) وَكَيْفَ يَصْنَعُ : رَأَيْتُ عُرْوَةَ بْنَ ٱلزُّبَيْرِ[1] وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، عِنْدَ ٱلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ، وَقَدْ وَقَعَتْ فِي رِجْلِهِ ٱلْأَكِلَةُ ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِقَطْعِهَا لَا تُفْسِدُ جَسَدَهُ كُلَّهُ ، فَدُعِيَ لَهُ مَنْ يَقْطَعُهَا ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ : نَسْقِيكَ ٱلْخَمْرَ حَتَّىٰ لَا تَجِدَ لَهَا أَلَمًا . فَقَالَ عُرْوَةُ : لَا أَسْتَعِينُ بِحَرَامِ ٱللهِ عَلَىٰ مَا أَرْجُو مِنْ عَافِيَةٍ ! قَالَ : فَنَسْقِيكَ ٱلْمُرْقِدَ . فَقَالَ عُرْوَةُ : مَا أُحِبُّ أَنْ أُسْلَبَ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِي وَأَنَا لَا أَجِدُ أَلَمَ ذَٰلِكَ فَأَحْتَسِبُهُ !

ثُمَّ دَخَلَ رِجَالٌ أَنْكَرَهُمْ عُرْوَةُ ، فَقَالَ : مَا هَـٰؤُلَاءِ ؟ قَالُوا : يُمْسِكُونَكَ ، فَإِنَّ ٱلْأَلَمَ رُبَّمَا عَزَبَ مَعَهُ ٱلصَّبْرُ . قَالَ : أَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ذَٰلِكَ مِنْ نَفْسِي !

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَٱنْظُرْ أَيُّهَا ٱلضَّعِيفُ ٱلَّذِي يُرِيدُ قَتْلَ نَفْسِهِ كَيْفَ صَنَعَ عُرْوَةُ ، وَكَيْفَ ٱسْتَقْبَلَ ٱلْبَلَاءَ ، وَكَيْفَ صَبَرَ وَكَيْفَ ٱحْتَمَلَ . إِنَّهُ ٱنْصَرَفَ بِحِسِّهِ إِلَىٰ ٱلنَّفْسِ فَٱنْبَسَطَتْ رُوحُهُ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ يُكَبِّرُ وَيُهَلِّلُ لِيَبْقَىٰ مَعَ رُوحِهِ وَحْدَهَا ، وَخَرَجَ مِنْ دُنْيَا ظَاهِرِهِ إِلَىٰ دُنْيَا بَاطِنِهِ ، وَغُمِرَتْ حَوَاسُّهُ وَأَعْصَابُهُ بِٱلنُّورِ ٱلْإِلَـٰهِيِّ مِنْ مَعْنَىٰ ٱلتَّكْبِيرِ وَٱلتَّهْلِيلِ ، فَقَطَعَ ٱلْقَاطِعُ كَعْبَهُ بِٱلسِّكِّينِ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ ٱلْعَظْمَ وَضَعَ عَلَيْهَا ٱلْمِنْشَارَ وَنَشَرَهَا وَعُرْوَةُ فِي ٱلتَّكْبِيرِ وَٱلتَّهْلِيلِ ؛ ثُمَّ جِيءَ بِٱلزَّيْتِ مَغْلِيًّا فِي مَغَارِفِ ٱلْحَدِيدِ فَحُسِمَ بِهِ مَكَانُ ٱلْقَطْعِ ، فَغُشِيَ عَلَىٰ عُرْوَةَ سَاعَةً ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَمْسَحُ ٱلْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ فِي كُلِّ هَـٰذِهِ ٱلْآلَامِ

(1) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٩٣ لِلْهِجْرَةِ .

ٱلْمَاحِقَةِ أَنَّةٌ وَلَا آهَةٌ ، وَلَمْ يَقُلْ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا وَلَا بَيْنَ ذَلِكَ : « جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ . . . ! » .

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَأُرْهِفَ بَأْسُ ٱلرَّجُلِ ٱلضَّعِيفِ وَقَوِيَ جَأْشُهُ ، وَٱنْبَعَثَتْ فِيهِ ٱلرُّوحُ إِلَىٰ عُمْرٍ جَدِيدٍ ، وَنَشَأَ لَهُ ٱلْيَقِينُ مِنْ عَقْلِهِ ٱلرُّوحَانِيِّ ، وَعَرَفَ أَنَّ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُدْرَكَ ، يُمْكِنُ أَنْ يُتْرَكَ .

وَجَاءَ هَـٰذَا ٱلْعَقْلُ ٱلرُّوحَانِيُّ فَمَرَّ بِٱلْمِنْشَارِ عَلَىٰ ٱلْيَأْسِ ٱلَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِ فَقَطَعَهُ ، فَمَا رَاعَنَا إِلَّا أَنْ وَثَبَ ٱلرَّجُلُ قَائِمًا يَقُولُ : ٱللهُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلدُّنْيَا ، ٱللهُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلدُّنْيَا !

ثُمَّ أَكَبَّ عَلَىٰ يَدِ ٱلشَّيْخِ وَهُوَ يَقُولُ : صَدَقْتَ ؛ « إِنْ كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا كَمَا تَرَىٰ قَبْضَةً مِنَ ٱلتُّرَابِ تَتَكَبَّرُ ، وَقَدْ نَسِيَتْ أَنَّهُ سَيَأْتِي مَنْ يَكْنُسُهَا ! » .

* * *

مَاذَا يَصْنَعُ ٱلْإِنْسَانُ إِذَا غَلِطَ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ ٱلدُّنْيَا إِلَّا أَنْ يَتَحَرَّىٰ ٱلصَّوَابَ ، وَيَجْتَهِدَ فِي ٱلرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَيَصْبِرَ عَلَىٰ مَا يَنَالُهُ فِي ذَلِكَ ؟ وَمَاذَا يَصْنَعُ ٱلْإِنْسَانُ إِذَا غَلِطَتْ فِيهِ مَسْأَلَةٌ . . . . ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

ٱلِانْتِحَارُ (*)

٢

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَقَامَ ٱلشَّعْبِيُّ إِلَىٰ ٱلرَّجُلِ فَٱعْتَنَقَهُ فَرَحًا بِمَا آلَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ ، بَعْدَ إِذْ

(*) « الرسالة » العدد : ٩٦ ، ٣ صفر سنة ١٣٥٤ هـ = ٦ مايو/أيار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٧٢٣ ـ ٧٢٧ .

رَأَىٰ ٱلنُّورَ يَجْرِي عَلَىٰ لَوْنِهِ وَيَتَرَقْرَقُ فِي دِيبَاجَتِهِ ؛ كَأَنَّمَا وَقَعَ ٱلصُّلْحُ بَيْنَ وَجْهِهِ وَبَيْنَ ٱلْحَيَاةِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : نِعْمَ أَخُو ٱلْإِسْلَامِ أَنْتَ ، فَٱسْتَعِذْ بِٱللهِ مِنْ خِذْلَانِهِ ، فَإِنَّهُ مَا خَذَلَكَ إِلَّا وَضْعُكَ نَفْسَكَ بِإِزَاءِ ٱللهِ تُعَارِضُهُ أَوْ تُجَارِيهِ فِي قُدْرَتِهِ ، فَيَكِلُكَ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ ، فَتَنْتَهِي بِكَ إِلَىٰ ٱلْعَجْزِ ، وَيَنْتَهِي ٱلْعَجْزُ بِكَ إِلَىٰ ٱلسَّخَطِ ؛ وَمَتَىٰ كُنْتَ عَاجِزًا سَاخِطًا ، مَحْصُورًا فِي نَفْسِكَ ؛ مَوْكُولًا إِلَىٰ قُدْرَتِكَ ، كُنْتَ كَٱلْأَسَدِ ٱلْجَائِعِ فِي ٱلْقَفْرِ ، إِذَا ظَنَّ أَنَّ قُوَّتَهُ تَتَنَاوَلُ خَلْقَ ٱلْفَرِيسَةِ ؛ فَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَىٰ نَفْسِكَ ٱلْيَأْسَ وَٱلِانْزِعَاجَ وَٱلْكَآبَةَ ، وَأَمْثَالَهَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمُهْلِكَاتِ تَقْدَحُ فِي قَلْبِكَ ٱلشَّكَّ فِي ٱللهِ ، وَتُثْبِتُ فِي رُوعِكَ شَرَّ ٱلْحَيَاةِ ، وَتُهْدِي إِلَىٰ خَاطِرِكَ حَمَاقَاتِ ٱلْعَقْلِ ، وَتُقَرِّرُ عِنْدَكَ عَجْزَ ٱلْإِرَادَةِ ؛ فَتَنْتَهِي مِنْ كُلِّ ذَلِكَ مَيْتًا قَدْ أَزْهَقَتْكَ نَفْسُكَ قَبْلَ أَنْ تُزْهِقَهَا !

وَلَوْ كُنْتَ بَدَلَ إِيمَانِكَ بِنَفْسِكَ قَدْ آمَنْتَ بِٱللهِ حَقَّ ٱلْإِيمَانِ ، لَسَلَّطَكَ ٱللهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ وَلَمْ يُسَلِّطْهَا عَلَيْكَ ؛ فَإِذَا رَمَتْكَ ٱلْمَطَامِعُ بِٱلْحَاجَةِ ٱلَّتِي لَا تَقْدِرُ عَلَيْهَا ، رَمَيْتَهَا مِنْ نَفْسِكَ بِٱلِاسْتِغْنَاءِ ٱلَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ؛ وَإِذَا جَاءَتْكَ ٱلشَّهَوَاتُ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلرَّغْبَةِ ٱلْمُقْبِلَةِ ، جِئْتَهَا مِنْ نَاحِيَةِ ٱلزُّهْدِ ٱلْمُنْصَرِفِ ، وَإِذَا سَاوَرَتْكَ كِبْرِيَاءُ ٱلدُّنْيَا أَذْلَلْتَهَا بِكِبْرِيَاءِ ٱلْآخِرَةِ .

وَبِهَـٰذَا تَنْقَلِبُ ٱلْأَحْزَانُ وَٱلْآلَامُ ضُرُوبًا مِنْ فَرَحِ ٱلْفَوْزِ وَٱلِانْتِصَارِ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَكَانَتْ فُنُونًا مِنَ ٱلْخِذْلَانِ وَٱلْهَمِّ ، وَتَعُودُ مَوْضِعَ فَخْرٍ وَمُبَاهَاةٍ ، وَكَانَتْ أَسْبَابَ خِزْيٍ وَٱنْكِسَارٍ . وَعَزِيمَةُ ٱلْإِيمَانِ إِذَا هِيَ قَوِيَتْ حَصَرَتِ ٱلْبَلَاءَ فِي مِقْدَارِهِ ، فَإِذَا حَصَرَتْهُ لَمْ تَزَلْ تَنْقُصُ مِنْ مَعَانِيهِ شَيْئًا شَيْئًا ، فَإِذَا ضَعُفَتْ هَـٰذِهِ ٱلْعَزِيمَةُ جَاءَ ٱلْبَلَاءُ غَامِرًا مُتَفَشِّيًا يُجَاوِزُ مِقْدَارَهُ بِمَا يَصْحَبُهُ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّوْعِ ، فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَزِيدُ شَيْئًا شَيْئًا بِمَا فِيهِ وَبِمَا لَيْسَ فِيهِ .

وَلِلْإِيمَانِ ضَوْءٌ فِي ٱلنَّفْسِ يُنِيرُ مَا حَوْلَهَا ، فَتَرَاهُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ ٱلْفَانِيَةِ وَشِيكًا أَنْ يَزُولَ ؛ فَإِذَا ٱنْطَفَأَ هَـٰذَا ٱلضَّوْءُ ٱنْطَمَسَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ، فَتَتَوَهَّمُهَا ٱلنَّفْسُ أَوْهَامًا مُتَبَايِنَةً عَلَىٰ أَحْوَالِهَا ٱلْمُخْتَلِفَةِ ؛ كَمَا يَرَىٰ ٱلْأَعْمَىٰ بِوَهْمِهِ : لَا عَيْنُهُ مَعَ ٱلْأَشْيَاءِ تَكُونُ فِي طَبِيعَتِهَا ، وَلَا أَشْيَاؤُهُ عِنْدَ عَيْنِهِ تَكُونُ فِي حَقِيقَتِهَا .

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَكَانَتِ ٱلشَّمْسُ قَدْ طَفَّلَتْ لِلْمَغِيبِ ؛ فَقَالَ ٱلإِمَامُ لِلرَّجُلِ : قُمْ فَتَوَضَّأْ وَأَسْبِغِ ٱلْوُضُوءَ ، وَسَأُعَلِّمُكَ أَمْرًا تَنْتَفِعُ بِهِ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ : فَإِذَا قُمْتَ إِلَىٰ وَضُوءِكَ فَأَيْقِنْ فِي نَفْسِكَ وَٱعْزِمْ فِي خَاطِرِكَ عَلَىٰ أَنَّ فِي هَٰذَا ٱلْمَاءِ سِرًّا رُوحَانِيًّا مِنْ أَسْرَارِ ٱلْغَيْبِ وَٱلْحَيَاةِ ، وَأَنَّهُ رَمْزٌ لِلسَّمَاءِ عِنْدَكَ ، وَأَنَّكَ إِنَّمَا تَتَطَهَّرُ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ نَفْسِكَ ٱلَّتِي ٱمْتَدَّتْ عَلَىٰ أَطْرَافِكَ ؛ ثُمَّ سَمِّ ٱللهَ تَعَالَىٰ مُفِيضًا ٱسْمَهُ ٱلْقَادِرَ ٱلْكَرِيمَ عَلَى ٱلْمَاءِ وَعَلَىٰ نَفْسِكَ مَعًا ، ثُمَّ تَمَثَّلْ أَنَّكَ غَسَلْتَ يَدَيْكَ مِمَّا فِيهِمَا وَمِمَّا تَتَعَاطَاهُ بِهِمَا مِنْ أَعْمَالِ ٱلدُّنْيَا ، وَأَنَّكَ آخِذٌ فِيهِمَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ لِوَجْهِكَ وَأَعْضَائِكَ ؛ وَقَرِّرْ عِنْدَ نَفْسِكَ أَنَّ ٱلْوُضُوءَ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا مَسْحَةً سَمَاوِيَّةً تُسْبِغُهَا عَلَىٰ كُلِّ أَطْرَافِكَ ، لِيَشْعُرَ بِهَا جِسْمُكَ وَعَقْلُكَ ؛ وَأَنَّكَ بِهَٰذِهِ ٱلْمَسْحَةِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ تَسْتَقْبِلُ ٱللهَ فِي صَلَاتِكَ سَمَاوِيًّا لَا أَرْضِيًّا .

فَإِذَا أَنْتَ ٱسْتَشْعَرْتَ هَٰذَا وَعَمِلْتَ عَلَيْهِ وَصَارَ عَادَةً لَكَ ، فَإِنَّ ٱلْوُضُوءَ حِينَئِذٍ يَنْزِلُ مِنَ ٱلنَّفْسِ مَنْزِلَةَ ٱلدَّوَاءِ ، كُلَّمَا ٱغْتَمَمْتَ أَوْ تَكَرَّهْتَ أَوْ تَسَخَّطْتَ أَوْ غَشِيَكَ حُزْنٌ أَوْ عَرَضَ لَكَ وَسْوَاسٌ ؛ فَمَا تَتَوَضَّأُ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلنِّيَّةِ إِلَّا غَسَلْتَ ٱلْحَيَاةَ وَغَسَلْتَ ٱلسَّاعَةَ ٱلَّتِي أَنْتَ فِيهَا مِنَ ٱلْحَيَاةِ[1] . وَتَرَى ٱلْمَاءَ تَحْسَبُهُ هُدُوءًا لَيِّنًا لِينَ ٱلرِّضَىٰ ، وَإِذَا هُوَ يَنْسَابُ فِي شُعُورِكَ وَفِي أَحْوَالِكَ جَمِيعًا .

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَقُمْتُ أَنَا فَجَدَّدْتُ وُضُوئِي عَلَىٰ هَٰذِهِ ٱلصِّفَةِ بِتِلْكَ ٱلنِّيَّةِ ؛ فَإِذَا أَنَا عِنْدَ نَفْسِي مُسْتَضِيءٌ بِرُوحٍ نَجْمِيَّةٍ لَهَا إِشْرَاقٌ وَسَنَاءٌ ، وَإِذَا ٱلْوُضُوءُ فِي أَضْعَفِ مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلِمْنَا مِنْ أَنَّهُ ٱلطَّهَارَةُ وَٱلنَّظَافَةُ ، أَمَّا فِي أَقْوَىٰ مَعَانِيهِ فَهُوَ إِفَاضَةٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهَا ٱلتَّقْدِيسُ وَٱلتَّزْكِيَةُ وَغَسْلُ ٱلْوَقْتِ ٱلإِنْسَانِيِّ مِمَّا يُخَالِطُهُ كُلَّمَا مَرَّتْ سَاعَاتٌ ، وَٱبْتِدَاؤُهُ بِٱلرُّوحِ كَٱلنَّبَاتِ ٱلأَخْضَرِ نَاضِرًا مَطْلُولًا مُتَرَطِّبًا بِٱلْمَاءِ .

ثُمَّ صَلَّىٰ بِنَا ٱلشَّيْخُ ، وَأَمَرَنِي بِٱلْمَبِيتِ مَعَ ٱلرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا خَشِيَ ٱلْبَدَوَاتِ أَنْ تَبْدُوَ لَهُ فَتَنْقُضَ عَزْمَهُ ، أَوْ هُوَ زَادَنِي عَلَيْهِ لِأُغَيِّرَ شَخْصَهُ وَأُبَدِّلَ وَحْدَتَهُ ٱلَّتِي كَانَ فِيهَا ، أَوْ كَأَنَّ

(1) هَٰذِهِ فِي رَأْيِنَا حِكْمَةُ تَكْرَارِ ٱلْوُضُوءِ ، وَتِلْكَ هِيَ أَسْرَارُهُ عِنْدَنَا . [وَقَدْ بَيَّنَّا شَيْئًا مِنْ حِكْمَةِ ٱلصَّلَاةِ فِي مَقَالَةِ « حَقِيقَةِ ٱلْمُسْلِمِ » ، فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهَا ٱلْقَارِئُ] .

ٱلشَّيْخَ لَمْ يَأْمَنْ عَلَى ٱلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانُهُ ٱلرُّوحِيُّ قَدْ تَنَبَّهَ بِأَكْمَلِهِ فَوَضَعَنِي كَٱلتَّنْبِيهِ لَهُ .

وَجَاءَنَا ٱلْعَشَاءُ مِنْ دَارِ ٱلشَّيْخِ فَطَعِمْنَا ، ثُمَّ قَامَ ٱلرَّجُلُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّيْنَا ٱلْعَتَمَةَ وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ ، فَٱسْتَنْبَأْتُهُ نَبَأَهُ ، فَقَالَ : مَهْلًا . ثُمَّ نَهَضَ فَتَوَضَّأَ ٱلثَّالِثَةَ وَقَالَ : تَٱللهِ مَا أَعْرِفُ ٱلْوُضُوءَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ إِلَّا مُلَامَسَةً بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلنَّفْسِ ، وَمَا أَعْرِفُ وَقْتَهُ مِنَ ٱلرُّوحِ إِلَّا كَسَاعَةِ ٱلْفَجْرِ عَلَى ٱلنَّبَاتِ ٱلأَخْضَرِ .

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَأَصْبَحْنَا فَغَدَوْنَا عَلَى ٱلإِمَامِ ؛ ثُمَّ لَزِمَنِي ٱلرَّجُلُ فِي بَعْضِ أُمُورِي ، ثُمَّ وَافَيْنَا ٱلْمَسْجِدَ صَلَاةَ ٱلْعَصْرِ لِحُضُورِ دَرْسِ ٱلشَّيْخِ ؛ وَكَانَ ٱلنَّاسُ كَٱلْحَبِّ ٱلْمُتَرَاصِفِ عَلَى ٱلْعُنْقُودِ ، لَا أَدْرِي مَنْ سَاقَهُمْ وَجَمَعَهُمْ ؛ كَأَنَّمَا عَلِمَتِ ٱلْكُوفَةُ أَنَّ رَجُلًا مُسْلِمًا كَفَرَ بِٱللهِ كَفْرَةً صَلْعَاءَ ، وَأَنَّهُ سَيَحْضُرُ دَرْسَ ٱلشَّيْخِ وَسَيَحْضُرُ ٱلشَّيْخُ مِنْ أَجْلِهِ ، فَهَبَّتِ ٱلرِّيَاحُ ٱلأَرْبَعُ تَسُوقُ أَهْلَهَا إِلَى ٱلْمَسْجِدِ مِنْ أَقْطَارِهَا .

وَجَلَسَ ٱلشَّيْخُ مَجْلِسَ ٱلْحَدِيثِ فَقَالَ :

رَوَيْنَا أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ بِهِ جِرَاحَةٌ ، فَأَتَىٰ قَرَنًا لَهُ فَأَخَذَ مِشْقَصًا[1] فَذَبَحَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ ٱلنَّبِيُّ ﷺ ، وَتَرَكَ جَنَازَتَهُ مَطْرُودَةً تَقْتَحِمُ مَتْلَفَةَ ٱلآخِرَةِ كَمَا ٱقْتَحَمَتْ مَتْلَفَةَ ٱلدُّنْيَا !

[مسلم، رقم: ٩٧٨؛ النسائي، رقم: ١٩٦٤؛ أبو داود، رقم: ٣١٨٥؛ «مسند أحمد»، رقم: ٢٠٢٩٢، ٢٠٣٣٧، ٢٠٣٧٠، ٢٠٤٠٤؛ راجع «المعجم الكبير» للطبراني ٢/٢٣١] .

رَوَيْنَا فِي ٱلْحَدِيثِ عَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « ٱلَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي ٱلنَّارِ ، وَٱلَّذِي يَطْعَنُ نَفْسَهُ يَطْعَنُ نَفْسَهُ فِي ٱلنَّارِ ، وَٱلَّذِي يَقْتَحِمُ يَقْتَحِمُ فِي ٱلنَّارِ ! » . [البخاري ، رقم : ١٣٦٥ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٩٣٣٥] .

رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ !» . [البخاري ، رقم : ٦١٠٥ ؛ مسلم ، رقم : ١١٠] .

رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ قَالَ : « كَانَ رَجُلٌ بِهِ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ ٱللهُ : بَدَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ

(1) ٱلْقَرَنُ (بِفَتْحَتَيْنِ) : جُعْبَةُ ٱلنُّشَّابِ . وَٱلْمِشْقَصُ : سَهْمٌ فِيهِ نَصْلٌ عَرِيضٌ .

فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ !» . [البخاري ، رقم : ١٣٦٤] .

قَالَ ٱلشَّعْبِيُّ : يَقُوْلُ ٱللهُ : « بَدَرَنِيْ عَبْدِيْ بِنَفْسِهِ . . . » أَيْ : بَدَرَنِيْ وَتَأَلَّهَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ إِلَـٰهَ نَفْسِهِ ، فَقَبَضَهَا وَتَوَفَّاهَا ، فَكَانَ ظَالِمًا .

بَدَرَنِيْ وَتَأَلَّهَ فِيْ آخِرِ أَنْفَاسِهِ لَحْظَةَ يَنْقَلِبُ إِلَيَّ ، فَكَانَ مَعَ ظُلْمِهِ مَغْرُوْرًا أَحْمَقَ !

بَدَرَنِيْ وَتَأَلَّهَ حِيْنَ ضَاقَ ، فَهَوَّرَ نَفْسَهُ فِيْ ٱلْمَوْتِ مِنْ عَجْزِهِ أَنْ يُمْسِكَهَا فِيْ ٱلْحَيَاةِ ، فَكَانَ عَاجِزًا مَعَ ظُلْمِهِ وَغُرُوْرِهِ وَحُمْقِهِ !

بَدَرَنِيْ وَتَأَلَّهَ عَلَىٰ جَهْلِهِ بِسِرِّ ٱلْحَيَاةِ وَحِكْمَتِهَا ، فَلَمْ يَسْتَحِ هَـٰذَا ٱلْمَخْلُوْقُ ٱلظَّالِمُ ٱلْمَغْرُوْرُ فِيْ حُمْقِهِ وَعَجْزِهِ وَجَهْلِهِ ـ لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يَجِيْئَنِيْ فِيْ صُوْرَةِ إِلَـٰهٍ !

بَدَرَنِيْ وَتَأَلَّهَ ، فَطَبَعَ نَفْسَهُ طَابَعَهَا ٱلأَبَدِيَّ مِنْ غَيٍّ وَتَمَرُّدٍ وَسَفَاهَةٍ ، وَأَرْسَلَهَا إِلَيَّ مَقْتُوْلَةً يَرُدُّهَا عَلَيَّ .

بَدَرَنِيْ وَتَأَلَّهَ كَأَنَّمَا يَقُوْلُ : إِنَّ لَهُ نِصْفَ ٱلأَمْرِ وَلِيَ ٱلنِّصْفُ ؛ أَنَا أَحْيَيْتُ وَهُوَ أَمَاتَ . . . !

بَدَرَنِيْ عَبْدِيْ بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ !

قَالَ ٱلشَّعْبِيُّ : وَإِنَّمَا تُحَرَّمُ ٱلْجَنَّةُ عَلَىٰ مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ ، إِذْ يَنْقَلِبُ إِلَىٰ ٱللهِ وَعَلَىٰ رُوْحِهِ جِنَايَةُ يَدِهِ مَا تُفَارِقُهَا إِلَىٰ ٱلأَبَدِ ؛ فَهُوَ هُنَاكَ جِيْفَةٌ مِنَ ٱلْجِيَفِ مَسْمُوْمَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَخْنُوْقَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَذْبُوْحَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مُهَشَّمَةٌ أَبَدًا ، يَقُوْلُ ٱللهُ لَهُ : أَنْتَ بَدَرْتَنِيْ بِنَفْسِكَ ، وَجَرَيْتَ مَعِيَ فِيْ ٱلْقَدَرِ مَجْرًى وَاحِدًا ، فَسَتَخْلُدُ نَفْسُكَ فِيْ ٱلصُّوْرَةِ ٱلَّتِيْ هِيَ مِنْ عَمَلِكَ ، وَمَا قَتَلَتْ إِلَّا حَسَنَاتِكَ .

قَالَ ٱلشَّعْبِيُّ : وَلَوْ عَرَفَ قَاتِلُ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ جِيْفَةً أَبَدِيَّةً ، فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا تَحَوَّلَ حِمَارًا وَبَقِيَ حِمَارًا ، فَيَرْضَىٰ أَنْ يَتَحَوَّلَ وَيُسْرِعَ لِيَتَحَوَّلَ؟

مِنْ ذَلِكَ نَظَرَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ جَنَازَةِ ذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِيْ قَتَلَ نَفْسَهُ ، كَمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ ذُبَابَةٍ تَوَجَّهَتْ بِٱلسَّبِّ إِلَىٰ ٱلشَّمْسِ وَٱلْكَوَاكِبِ وَٱلأَفْلَاكِ كُلِّهَا ، ثُمَّ جَاءَتْهُ تَقُوْلُ لَهُ : ٱشْهَدْ لِيْ .

* * *

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَمِمَّ يَقْتُلُ ٱلإِنْسَانُ نَفْسَهُ ؟ أَمَا إِنَّ ٱلْمَوْتَ آتٍ لَا رَيْبَ فِيْهِ وَلَا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عَنْهُ ، وَهُوَ ٱلْخَيْبَةُ ٱلْكُبْرَىٰ تُلْقَىٰ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ؛ فَمَا ضَرَرُ ٱلْخَيْبَةِ ٱلصَّغِيْرَةِ فِيْ أَمْرٍ مِنْ أُمُوْرِ ٱلْحَيَاةِ ؟

إِنَّ ٱلْمَرْءَ لَا يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ نَجَاحٍ بَلْ مِنْ خَيْبَةٍ ، فَإِنْ كَانَتِ ٱلْخَيْبَةُ مِنْ مَالٍ فَهِيَ ٱلْفَقْرُ أَوِ ٱلْحَاجَةُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عَافِيَةٍ فَهِيَ ٱلْمَرَضُ أَوِ ٱلاخْتِلَالُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عِزَّةٍ فَهِيَ ٱلذُّلُّ أَوِ ٱلْبُؤْسُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا سِوَىٰ ذَلِكَ ـ كَٱلنِّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ ـ فَهِيَ ٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلشَّهْوَةِ أَوِ ٱلتَّخَيُّلُ ٱلْفَاسِدُ .

وَلَيْسَ يَخِيْبُ ٱلإِنْسَانُ إِلَّا خَيْبَةَ عَقْلٍ أَوْ إِرَادَةٍ ، وَإِلَّا فَٱلْفَقْرُ وَٱلْحَاجَةُ ، وَٱلْمَرَضُ وَٱلاخْتِلَالُ ، وَٱلذُّلُّ وَٱلْبُؤْسُ ، وَٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلشَّهْوَةِ ، وَفَسَادُ ٱلتَّخَيُّلِ ـ كُلُّ ذَلِكَ مَوْجُوْدٌ فِيْ ٱلنَّاسِ ، يَحْمِلُهُ أَهْلُهُ رَاضِيْنَ بِهِ صَابِرِيْنَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ ٱلْغُبَارُ ٱلنَّفْسِيُّ لِهَـٰذِهِ ٱلأَرْضِ عَلَىٰ نُفُوْسِ أَهْلِهَا . وَيَا عَجَبًا ! إِنَّ ٱلْعُمْيَانَ هُمْ بِٱلطَّبِيْعَةِ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ضَحِكًا وَٱبْتِسَامَةً وَعَبَثًا وَسُخْرِيَةً ، أَفَتُرِيْدُوْنَ أَنْ تُخَاطِبَكُمُ ٱلْحَيَاةُ بِأَفْصَحَ مِنْ ذَلِكَ ؟

لَيْسَتِ ٱلْخَيْبَةُ هِيَ ٱلشَّرَّ ، بَلِ ٱلشَّرُّ كُلُّهُ فِيْ ٱلْعَقْلِ إِذَا تَبَلَّدَ فَجَمَدَ عَلَىٰ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلطَّمَعِ ٱلْخَائِبِ ، أَوْ فِيْ ٱلإِرَادَةِ إِذَا وَهَنَتْ فَبَقِيَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا لَمْ يُوْجَدْ . أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ حِيْنَ لَا يُبَالِيْ ٱلْعَقْلُ وَلَا ٱلإِرَادَةُ لَا يَبْقَىٰ لِلْخَيْبَةِ مَعْنًى وَلَا أَثَرٌ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَلَا يَخِيْبُ ٱلإِنْسَانُ حِيْنَئِذٍ ، بَلْ تَخِيْبُ ٱلْخَيْبَةُ نَفْسُهَا ؟

لِهَـٰذَا يَأْبَىٰ ٱلإِسْلَامُ عَلَىٰ أَهْلِهِ ٱلتَّرَفَ ٱلْعَقْلِيَّ وَٱلتَّخَيُّلَ ٱلْفَاسِدَ ، وَيَشْتَدُّ كُلَّ ٱلشِّدَّةِ فِيْ أَمْرِ ٱلإِرَادَةِ ، فَلَا يَتَرَخَّصُ فِيْ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَلَا يَزَالُ يُنَمِّيْهَا بِأَعْمَالٍ يَوْمِيَّةٍ تَشُدُّ مِنْهَا لِتَكُوْنَ رَقِيْبَةً عَلَىٰ ٱلْعَقْلِ حَارِسَةً لَهُ ، فَإِنَّ لِلْعَقْلِ أَمْرَاضًا كَثِيْرَةً يَطِيْشُ فِيْهَا دَرَجَاتٍ مِنَ ٱلطَّيْشِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْجُنُوْنَ أَحْيَانًا ؛ فَكَانَتِ ٱلإِرَادَةُ عَقْلًا لِلْعَقْلِ ؛ هِيَ لِيْنُهُ إِذَا تَصَلَّبَ ، وَهِيَ حَرَكَتُهُ إِذَا تَبَلَّدَ ، وَهِيَ حِلْمُهُ إِذَا طَاشَ ، وَهِيَ رِضَاهُ إِذَا سَخِطَ .

ٱلإِرَادَةُ شَيْءٌ بَيْنَ ٱلرُّوْحِ وَٱلْعَقْلِ ، فَهِيَ بَيْنَ وُجُوْدَيْنِ ؛ وَلِهَـٰذَا يَكُوْنُ بِهَا ٱلإِنْسَانُ بَيْنَ وُجُوْدَيْنِ أَيْضًا ، فَيَسْتَطِيْعُ أَنْ يَعِيْشَ وَهُوَ فِيْ ٱلدُّنْيَا كَٱلْمُنْفَصِلِ عَنْهَا ، إِذْ يَكُوْنُ فِيْ وُجُوْدِهِ

ٱلأَقْوَىٰ وُجُوْدُ رُوْحِهِ ؛ وَأَكْبَرُ هَمِّهِ نَجَاحُهُ فِيْ هَـٰذَا ٱلْوُجُوْدِ .

وَهَـٰذَا ٱلنَّجَاحُ لَا يَأْتِيْ مِنَ ٱلْمَالِ ، وَلَا تُحَقِّقُهُ ٱلْعَافِيَةُ ، وَلَا تُيَسِّرُهُ ٱلشَّهَوَاتُ ، وَلَا يُسَنِّيْهِ ٱلتَّخَيُّلُ ٱلْفَاسِدُ ؛ وَلَا يَكُوْنُ مِنْ مَتَاعِ ٱلْغُرُوْرِ ، وَلَا مِمَّا عُمْرُهُ خَمْسُوْنَ سَنَةً أَوْ مِئَةُ سَنَةٍ ؛ بَلْ يَأْتِيْ مِمَّا عُمْرُهُ ٱلْخُلُوْدُ وَمِمَّا هُوَ بَاقٍ أَبَدًا فِيْ مَعَانِيْهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلْحَقِّ وَٱلصَّلَاحِ ؛ فَهَـٰهُنَا يُعِيْنُ ٱلْمَرَضُ بِٱلصَّبْرِ عَلَيْهِ مَا لَا تُعِيْنُ ٱلصِّحَّةُ ، يُفِيْدُ ٱلْفَقْرُ بِحَقَائِقِهِ مَا لَا تُفِيْدُ ٱلثَّرْوَةُ ؛ وَهُنَا يَكُوْنُ ٱلْعَقْلُ ٱلإِنْسَانِيُّ عَامِلًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مُتَخَيِّلٌ ، وَقَانِعًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ طَامِعٌ ؛ وَهَـٰهُنَا لَا مَوْضِعَ لِغَلَبَةِ ٱلشَّهْوَةِ ، وَلَا كِبْرِيَاءِ ٱلنَّفْسِ ، وَلَا حُبِّ ٱلذَّاتِ ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثُ هِيَ جَالِبَةُ ٱلشَّقَاءِ عَلَىٰ ٱلإِنْسَانِ حَتَّىٰ فِيْ أَحْوَالِ ٱلسَّعَادَةِ ، وَبِدُوْنِهَا يَكُوْنُ ٱلإِنْسَانُ هَانِئًا حَتَّىٰ فِيْ أَحْوَالِ ٱلشَّقَاءِ .

بِٱلإِرَادَةِ ٱلْمُؤْمِنَةِ ٱلْقَوِيَّةِ يَنْصَرِفُ ذَكَاءُ ٱلْمُؤْمِنِ إِلَىٰ حَقَائِقِ ٱلْعَالَمِ وَصَلَاحِ ٱلنَّفْسِ بِهَا ، وَبِغَيْرِ هَـٰذِهِ ٱلإِرَادَةِ يَنْصَرِفُ ٱلذَّكَاءُ إِلَىٰ خَيَالِ ٱلإِنْسَانِ وَفَسَادِ ٱلإِنْسَانِ . . .

وَإِذَا ٱنْصَرَفَ ٱلذَّكَاءُ إِلَىٰ حَقَائِقِ ٱلدُّنْيَا كَانَ ٱلْعَقْلُ سَهْلًا مَرِنًا مِطْوَاعًا ، وَٱسْتَحَالَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْهَمَ فِكْرَةَ قَتْلِ ٱلنَّفْسِ أَوْ يُقِرَّهَا ، فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْفِكْرَةَ ٱلْخَبِيْثَةَ لَا تَسْتَطْرِقُ إِلَىٰ ٱلْعَقْلِ إِلَّا إِذَا تَحَجَّرَ وَٱنْحَصَرَ فِيْ غَرَضٍ وَاحِدٍ قَدْ خَابَ وَخَابَتْ فِيْهِ ٱلإِرَادَةُ فَفَرَغَتِ ٱلدُّنْيَا عِنْدَهُ .

وَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأً تَمَّ عَزْمُهُ عَلَىٰ قَتْلِ نَفْسِهِ ثُمَّ صَابَرَ ٱلدُّنْيَا أَيَّامًا ، لَانْفَسَحَ عَزْمُهُ أَوْ رَكَّ ؛ إِذْ يَلِيْنُ ٱلْعَقْلُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ نَوْعًا مَا ، وَيَجْعَلُ ٱلصَّبْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُصِيْبَةِ مَسَافَةً مَا ، فَتَتَغَيَّرُ حَالَةُ ٱلنَّفْسِ هَوْنًا مَا ؛ فَٱلصَّبْرُ كَٱلتَّرَوُّحِ بِٱلْهَوَاءِ عَلَىٰ ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِيْ يَكَادُ يَخْتَنِقُ مِنِ ٱحْتِبَاسِهِ فِيْ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ مُقْفَلٍ مِنْ جَوَانِبِهِ . وَمَثَلُ ٱلْعَقْلِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْحَالِ مَثَلُ ٱلْقَائِمِ فِيْ إِعْصَارٍ لَفَّهُ بِٱلتُّرَابِ لَفًّا وَسَدَّ عَلَيْهِ مَنَافِذَ ٱلْهَوَاءِ ، وَحَبَسَهُ فِيْ هَـٰذَا ٱلتُّرَابِ ٱلْمُلْتَفِّ حَبْسَ ٱلْحَشَرَةِ فِيْ جَوْفِ ٱلْقَصَبَةِ ؛ فَهُوَ عَلَىٰ ٱلْيَقِيْنِ أَنَّهَا حَالَةُ سَاعَةٍ طَارِئَةٍ فِيْ ٱلزَّمَنِ لَا حَالَةُ ٱلزَّمَنِ ؛ وَأَنَّ ٱلْهَوَاءَ ٱلَّذِيْ جَاءَ بِهَـٰذَا ٱلْهَمِّ هُوَ ٱلَّذِيْ يَذْهَبُ بِهَـٰذَا ٱلْهَمِّ .

وَكَمَا أَنَّ ٱلأَرْضَ هِيَ شَيْءٌ غَيْرُ هَـٰذَا ٱلإِعْصَارِ ٱلثَّائِرِ مِنْهَا ، فَٱلْحَيَاةُ كَذَلِكَ هِيَ أَمْرٌ آخَرُ غَيْرُ شَقَائِهَا .

❊ ❊ ❊

قَالَ ٱلإِمَامُ : وَفِيْ كِتَابِ ٱللهِ آيَتَانِ تَدُلَّانِ عَلَىٰ أَنَّهُ كِتَابُ ٱلدُّنْيَا كُلِّهَا ، إِذْ وَضَعَ لِهَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مِثَالَيْنِ : أَحَدُهُمَا ٱلْمِثَالُ ٱلرُّوْحِيُّ لِلْفَرْدِ ٱلْكَامِلِ ، وَٱلآخَرُ ٱلْمِثَالُ ٱلرُّوْحِيُّ لِلْجَمَاعَةِ ٱلْكَامِلَةِ .

أَمَّا ٱلآيَةُ ٱلأُوْلَىٰ فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ . [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٢١] .

وَأَمَّا ٱلثَّانِيَةُ فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ . [٤٨ سورة الفتح/ الآية : ٢٩] .

فَفِيْ رَجَاءِ ٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يَتَسَامَىٰ ٱلإِنْسَانُ فَوْقَ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْفَانِيَةِ ، فَتَمُرُّ هُمُوْمُهَا حَوْلَهُ وَلَا تَصْدِمُهُ ، إِذْ هِيَ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهِ فَكَأَنْ لَا سُلْطَانَ لَهَا عَلَيْهِ ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلْهُمُوْمُ تَجِدُ فِيْ مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ قُوًى بَالِغَةً تُصَرِّفُهَا كَيْفَ شَاءَتْ ، فَلَا يَجِيْءُ ٱلْهَمُّ قُوَّةً تَسْحَقُ ضَعْفًا ، بَلْ قُوَّةً تَمْتَحِنُ قُوَّةً أُخْرَىٰ أَوْ تُثِيْرُهَا لِتَكُوْنَ عَمَلًا ظَاهِرًا يُقَلِّدُهُ ٱلنَّاسُ وَيَنْتَفِعُوْنَ مِنْهُ بِٱلأُسْوَةِ ٱلْحَسَنَةِ ، وَٱلأُسْوَةُ وَحْدَهَا هِيَ عِلْمُ ٱلْحَيَاةِ .

وَقَدْ تَرَىٰ ٱلْفَقِيْرَ مِنَ ٱلنَّاسِ تَحْسَبُهُ مِسْكِيْنًا ، وَهُوَ فِيْ حَقِيْقَتِهِ أُسْتَاذٌ مِنْ أَكْبَرِ ٱلأَسَاتِيْذِ يُلْقِيْ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ دُرُوْسَ نَفْسِهِ ٱلْقَوِيَّةِ .

وَفِيْ رَجَاءِ ٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يَبْطُلُ أَكْبَرُ أَسْبَابِ ٱلشَّرِّ فِيْ ٱلنَّاسِ ، وَهُوَ نَظَرُ ٱلإِنْسَانِ لِمَنْ هُوَ أَحْظَىٰ مِنْهُ بِفِتْنَةِ ٱلدُّنْيَا نَظَرًا لَا يَبْعَثُ إِلَّا ٱلْحِقْدَ وَٱلسُّخْطَ ، فَيَنْظُرُ ٱلْمُؤْمِنُ حِيْنَئِذٍ إِلَىٰ مَا فِيْ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلصَّلَاحِ وَٱلإِيْمَانِ وَٱلْحَقِّ وَٱلْفَضِيْلَةِ ، وَهَـٰذِهِ بِطَبِيْعَتِهَا لَا تَبْعَثُ إِلَّا ٱلسُّرُوْرَ وَٱلْغِبْطَةَ . وَمَنْ جَعَلَهَا فِيْ تَفْكِيْرِهِ أَبْطَلَ أَكْثَرَ ٱلدُّنْيَا مِنْ تَفْكِيْرِهِ ؛ وَبِهَا تَسْقُطُ ٱلْفُرُوْقُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ عَالِيْهِمْ وَنَازِلِهِمْ ؛ كَٱلرَّجُلِ ٱلْفَقِيْرِ ٱلْعَالِمِ إِذَا قُدِّمَ عَلَىٰ ٱلْغَنِيِّ ٱلْعَالِمِ ؛ جَمَعَ بَيْنَهُمَا ٱلاتِّفَاقُ ٱلْعَقْلِيُّ وَسَقَطَ مَا عَدَاهُ .

وَفِيْ رَجَاءِ ٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يَعِيْشُ ٱلإِنْسَانُ عُمْرَهُ ٱلطَّوِيْلَ أَوِ ٱلْقَصِيْرَ كَأَنَّهُ فِيْ يَوْمٍ يُصْبِحُ مِنْهُ غَادِيًا عَلَىٰ ٱلْحَشْرِ وَٱلْحِسَابِ ؛ فَهُوَ مُتَّصِلٌ بِٱلْخُلُوْدِ غَيْرُ مَعْنِيٍّ إِلَّا بِأَسْبَابِهِ ؛ وَبِهَـٰذَا تَكُوْنُ أَمْرَاضُهُ وَآلَامُهُ وَمَصَائِبُهُ لَيْسَتْ مَكَارِهَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ، بَلْ هِيَ تِلْكَ ٱلْمَكَارِهُ ٱلَّتِيْ حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ

بِهَا ؛ وَلَا يَضُرُّهُ ٱلْحِرْمَانُ لِأَنَّهُ قَرِيبُ ٱلزَّوَالِ ، وَلَا يَغُرُّهُ ٱلْمَتَاعُ لِأَنَّهُ قَرِيبُ ٱلزَّوَالِ أَيْضًا .

وَفِي رَجَاءِ ٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يَسُودُ ٱلإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ سَيِّدَ نَفْسِهِ كَانَ سَيِّدَ مَا حَوْلَهَا يُصَرِّفُهُ بِحُكْمِهِ ، وَمَنْ كَانَ عَبْدَ نَفْسِهِ صَرَّفَهُ بِحُكْمِهِ كُلُّ مَا حَوْلَهُ .

قَالَ ٱلشَّعْبِيُّ : وَأَمَّا ٱلْمِثَالُ ٱلرُّوحِيُّ لِلْجَمَاعَةِ ٱلْكَامِلَةِ ، فَهُوَ فِي وَصْفِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [٤٨ سورة الفتح/ الآية : ٢٩] فَهَـٰذَا هَـٰذَا ، مَا أَحْسَبُهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ بَسْطٍ وَبَيَانٍ .

إِنَّ أَكْثَرَ مَا يَضِيقُ بِهِ ٱلإِنْسَانُ يَكُونُ مِنْ قِبَلِ مَنْ حَوْلَهُ مِمَّنْ يُعَايِشُهُمْ وَيَتَّصِلُ بِهِمْ لَا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ ، فَإِذَا قَامَ ٱجْتِمَاعُ أُمَّةٍ عَلَىٰ أَنَّهُمْ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [٤٨ سورة الفتح/ الآية : ٢٩] تَقَرَّرَتِ ٱلْعَظَمَةُ ٱلنَّفْسِيَّةُ لِلْجَمِيعِ عَلَى ٱلسَّوَاءِ ؛ وَمَنْ كَانُوا كَذَٰلِكَ لَمْ يَحْقِرُوا ٱلْفَقِيرَ بِفَقْرِهِ ، وَلَمْ يُعَظِّمُوا ٱلْغَنِيَّ لِغِنَاهُ ، وَإِنَّمَا يُحَقِّرُونَ وَيُعَظِّمُونَ لِصِفَاتٍ سَامِيَةٍ أَوْ حَقِيرَةٍ . وَبَيْنَ هَـٰؤُلَاءِ يَكُونُ ٱلْفَقِيرُ ٱلصَّابِرُ أَعْظَمَ قَدْرًا مِنَ ٱلْغَنِيِّ ٱلشَّاكِرِ ، وَإِعْظَامُ ٱلنَّاسِ لِفَضِيلَةِ ٱلْفَقِيرِ هُوَ ٱلَّذِي يَجْعَلُ فَقْرَهُ عِنْدَ نَفْسِهِ شَيْئًا ذَا قِيمَةٍ فِي ٱلإِنْسَانِيَّةِ .

وَمَتَىٰ تَصَحَّحَتْ آرَاءُ ٱلْجَمَاعَةِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُؤْلِمَةِ لِلنَّاسِ بَطَلَ أَلَمُهَا وَٱسْتَحَالَتْ مَعَانِيهَا ، وَصَارَ لَا يَبْلَىٰ مَعْنًى مِنْ مَعَانِي ٱلْحَيَاةِ فِي إِنْسَانٍ إِلَّا وَضَعَ إِيمَانُهُ مَعْنًى جَدِيدًا فِي مَكَانِهِ ، وَتُصْبِحُ ٱلْفَضِيلَةُ وَحْدَهَا غَايَةَ ٱلنَّفْسِ فِي ٱلْجَمِيعِ ؛ وَبِذَٰلِكَ يَصْبِرُ ٱلْفَرْدُ عَلَىٰ مَصَائِبِهِ ، لَا بِقُوَّتِهِ وَحْدَهُ ، وَلَـٰكِنْ بِجَمِيعِ ٱلْقُوَىٰ ٱلَّتِي حَوْلَهُ . أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ إِعْجَابَ ٱلنَّاسِ بِٱلشَّجَاعَةِ وَتَعْظِيمَهُمْ صَاحِبَهَا يَضَعُ فِي أَلَمِ ٱلسِّلَاحِ لَذَّةً يُحِسُّهَا لَحْمُ ٱلشُّجَاعِ ٱلْبَطَلِ ؟

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ ٱلْمَجْلِسِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ! وَإِذَا فَسَدَ ٱلنَّاسُ وَغَلُظَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَتَقَطَّعَتْ بَيْنَهُمُ ٱلأَسْبَابُ ، وَلَمْ يَعُودُوا ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [٤٨ سورة الفتح/ الآية : ٢٩] ، وَشَمِتُوا بِٱلْفَقِيرِ ، وَتَهَزَّؤُوا بِٱلْمُبْتَلَىٰ وَطَرَحُوهُ فِي أَلْسِنَتِهِمْ كَمَا يَطْرَحُ ٱلشَّاعِرُ فِي لِسَانِهِ رَجُلًا يَهْجُوهُ لَا يَكُفُّ عَنْهُ ـ فَمَا عَسَىٰ أَنْ يَصْنَعَ ٱلْمِسْكِينُ حِينَئِذٍ وَكُلُّ شَيْءٍ يَدْفَعُهُ إِلَىٰ قَتْلِ نَفْسِهِ ؟

وَقَالَ ٱلشَّعْبِيُّ : هَا هُنَا ٱلرَّجَاءُ فِي ٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ ، وَهُوَ شُعُورٌ لَا يُشْتَرَىٰ بِمَالٍ ، وَلَا

يُلْتَمَسُ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَا يَعْسُرُ عَلَىٰ مَنْ أَرَادَهُ ؛ وَٱلْفَقِيرُ وَٱلْمُبْتَلَىٰ وَغَيْرُهُمَا إِنَّمَا يَصْنَعُ كُلٌّ مِنْهُمَا مِثَالَهُ ٱلسَّامِيَ ؛ فَٱلصَّبْرُ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْعَنَتِ هُوَ صَبْرٌ عَلَىٰ إِتْمَامِ ٱلْمِثَالِ ، وَإِذَا وَقَعَ مَا يَسُوءُكَ أَوْ يَحْزُنُكَ فَٱبْحَثْ فِيهِ عَنْ فِكْرَتِهِ ٱلسَّامِيَةِ ، فَقَلَّمَا يَخْلُو مِنْهَا ، بَلْ قَلَّمَا يَجِيءُ إِلَّا بِهَا[1] .

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ : وَكَيْفَ يَصْنَعُ ٱمْرُؤٌ آلَتْ أَحْوَالُ ٱلدُّنْيَا إِلَىٰ مَا يُخِيفُهُ ، أَوْ بَلَغَ ٱلْهَمُّ مَبْلَغَهُ مِنْ قَلْبِهِ فَهَمَّ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ ؟

قَالَ ٱلشَّعْبِيُّ : فَلْيَجْعَلِ ٱلْخَوْفَ خَوْفَيْنِ : أَحَدُهُمَا خَوْفُهُ عَذَابَ ٱللهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهِ أَبَدًا ؛ فَيَذْهَبُ ٱلأَقْوَىٰ بِٱلأَضْعَفِ . وَإِذَا ٱبْتُلِيَ فَلْيَضُمَّ إِلَىٰ نَفْسِهِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ بَلَاءً مِنْهُ ؛ لِيَكُونَ هَمُّهُ أَحَدَ هَمَّيْنِ ، فَيَذْهَبُ ٱلأَثْقَلُ بِٱلأَخَفِّ .

إِنَّ ٱلإِنْسَانَ وَنَفْسَهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ كَٱلَّذِي أُعْطِيَ طِفْلًا نَزِقًا طَيَّاشًا عَارِمًا مُتَمَرِّدًا ، لِيُؤَدِّبَهُ وَيُحْكِمَ تَرْبِيَتَهُ وَتَقْوِيمَهُ فَيُثْبِتَ بِذَٰلِكَ أَنَّهُ أُسْتَاذٌ ، فَيُعْطَىٰ أَجْرَ صَبْرِهِ وَعَمَلِهِ ، ثُمَّ يَضِيقُ ٱلأُسْتَاذُ بِٱلطِّفْلِ سَاعَةً فَيَقْتُلُهُ . أَكَذَٰلِكَ ٱلتَّأْدِيبُ وَٱلتَّرْبِيَةُ ؟

[لِهَـٰذَا المجلس بَقِيَّةٌ] .

مصطفى صادق الرافعي

الانْتِحَارُ (*)

٣

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَكَانَ ٱلإِمَامُ قَدْ شَغَلَ خَاطِرَهُ بِهَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ فَأَخَذَتْ تَمُدُّ مَدَّهَا فِي نَفْسِهِ ، وَمَكَّنَتْ لَهُ مِنْ مَعَانِيهَا بِمِقْدَارِ مَا مَكَّنَ لَهَا فِي هَمِّهِ ، وَتَفَتَّقَ بِهَا ذِهْنُهُ عَنْ أَسَالِيبَ عَجِيبَةٍ يَتَهَيَّأُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ كَمَا يَلِدُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَعْنَىٰ . فَلَمَّا قَالَ ٱلرَّجُلَانِ مَقَالَهُمَا آنِفًا وَأَجَابَهُمَا بِتِلْكَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ، ٱنْقَدَحَ لَهُ مِنْ كَلَامِهِمَا وَكَلَامِهِ رَأْيٌ فَقَالَ :

(١) فِي كِتَابِنَا (ٱلْمَسَاكِينُ) كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ، [بَلِ ٱلْكِتَابُ كُلُّهُ قَائِمٌ عَلَيْهَا] .

(*) « الرسالة » العدد : ٩٧ ، ١٠ صفر سنة ١٣٥٤ هـ = ١٣ مايو/ أيار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٧٦٣ ـ ٧٦٦ .

يَا أَهْلَ ٱلْكُوفَةِ ! أَنْشُدُكُمُ ٱللهَ وَٱلإِسْلَامَ ، أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْكُمْ ضَاقَ بِرُوحِهِ يَوْمًا فَأَرَادَ إِزْهَاقَهَا إِلَّا كَشَفَ لِأَهْلِ ٱلْمَجْلِسِ نَفْسَهُ وَصَدَقَنَا عَنْ أَمْرِهِ ؛ وَلَا يَجِدَنَّ فِي ذَٰلِكَ ثَلْبًا وَلَا عَابًا ، فَإِنَّمَا ٱلنَّكْبَةُ مَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْقَدَرِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ؛ وَقَدْ يَكُونُ ٱبْتِدَاءُ ٱلْمُصِيبَةِ فِي رَجُلٍ هُوَ ٱبْتِدَاءَ ٱلْحِكْمَةِ فِيهِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ ؛ وَمَا مِنْ حَزِينٍ إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ فِي بَعْضِ سَاعَاتِ حُزْنِهِ أَنَّهُ قَدْ غُيِّبَتْ فِيهِ أَسْرَارٌ لَمْ تَكُنْ فِيهِ ، وَهَٰذَا مِنْ إِبَانَةِ ٱلْحَقِيقَةِ عَنْ نَفْسِهَا وَمَوْضِعِهَا كَمَا لَأْلَأَ فِي سَيْفٍ بَرِيقُهُ .

وَعَقْلُ ٱلْهَمِّ عَقْلٌ عَظِيمٌ ، فَلَوْ قَدْ أُرِيدَ ٱسْتِخْرَاجُ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱللَّذَّاتِ وَٱلنِّعَمِ ؛ لَكَانَ مِنْ شَرْحِ هَٰذَا ٱلْعِلْمِ مِنَ ٱلْحَمِيرِ وَٱلْبِغَالِ وَٱلدَّوَابِّ مَا لَا يَكُونُ مِثْلُهُ وَلَا قَرَابُهُ فِي ٱلْعُقَلَاءِ ، وَلَا تَبْلُغُهُ ٱلْقُوَىٰ ٱلْآدَمِيَّةُ فِي أَهْلِهَا ؛ بَيْدَ أَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ عِلْمٌ مِنَ ٱلْبُؤْسِ وَٱلْأَلَمِ وَٱلْحَاجَةِ لَمَا وُجِدَ شَرْحُهُ إِلَّا فِي ٱلنَّاسِ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ ٱلْخَاصُّ مِنْهُ إِلَّا فِي ٱلْخَاصَّةِ مِنْهُمْ .

وَمَا بَانَ أَهْلُ ٱلنِّعْمَةِ وَلَا غَمَرُوا ٱلْمَسَاكِينَ فِي تَطَاوُلِهِمْ بِأَعْنَاقِهِمْ إِلَّا مِنْ أَنَّهُمْ يَعْلُونَ أَكْتَافَ ٱلشَّيَاطِينِ ؛ فَٱلشَّيْطَانُ دَابَّةُ ٱلْغَنِيِّ ٱلَّذِي يَجْهَلُ ٱلْحَقَّ عَلَيْهِ فِي غِنَاهُ وَيَحْسَبُ نَفْسَهُ مُخَلًّى لِشَهَوَاتِهِ وَنَعِيمِهِ ؛ كَمَا هُوَ دَابَّةُ ٱلْعَالِمِ ٱلَّذِي يَجْهَلُ ٱلْحَقَّ عَلَيْهِ فِي عِلْمِهِ ، وَيَزْعُمُ نَفْسَهُ مُخَلًّى لِعَقْلِهِ أَوْ رَأْيِهِ ، وَمَا طَالَ ٱلطَّوِيلُ بِذَٰلِكَ وَلَا عَنْ ذَٰلِكَ قَصُرَ ٱلْقَصِيرُ ، وَهَلْ يَصِحُّ فِي ٱلرَّأْيِ أَنْ يُقَالَ : هَٰذَا أَطْوَلُ مِنْ هَٰذَا لِأَنَّ ٱلْأَوَّلَ فَوْقَ ٱلسُّلَّمِ وَٱلْآخَرَ فَوْقَ رِجْلَيْهِ . . . ؟

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : فَقَامَ شَيْخٌ مِنْ أَقْصَىٰ ٱلْمَجْلِسِ وَأَقْبَلَ يَتَخَطَّىٰ ٱلرِّقَابَ وَٱلنَّاسُ يَنْفَرِجُونَ لَهُ حَتَّىٰ وَقَفَ بِإِزَاءِ ٱلْإِمَامِ ؛ وَتَفَرَّسْتُهُ وَجَعَلَتْ عَيْنِي تَعْجُمُهُ ، فَإِذَا شَيْخٌ تَبْدُو طَلَاقَةُ وَجْهِهِ شَبَابًا عَلَىٰ وَجْهِهِ ، أَبْلَجُ ٱلْغُرَّةِ مُتَهَلِّلٌ عَلَيْهِ بَشَاشَةُ ٱلْإِيمَانِ وَفِي أَسَارِيرِهِ أَثَرٌ مِنْ تَقْطِيبٍ قَدِيمٍ ، يَنْطِقُ هَٰذَا وَذَاكَ أَنَّ ٱلرَّجُلَ فِيمَا أَتَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلدَّهْرِ قَدْ كَانَ أَطْفَأَ ٱلْمِصْبَاحَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَّةً ثُمَّ أَضَاءَهُ . وَعَجِبْتُ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَٰذَا ٱلشَّيْخِ قَدْ هَمَّ بِقَتْلِ نَفْسِهِ يَوْمًا ، وَأَنَا أَرَىٰ بِعَيْنَيَّ نَفْسَهُ هَٰذِهِ مُنْبَثِقَةً فِي ٱلْحَيَاةِ ٱنْبِثَاقَ ٱلنَّخْلَةِ ٱلسَّحُوقِ .

وَتَكَلَّمَ هَٰذَا ٱلرَّجُلُ فَقَالَ :

أَمَّا إِذْ نَاشَدْتَنَا ٱللهَ وَٱلْإِسْلَامَ وَمِيثَاقَ ٱلْعِلْمِ وَوَحْيَ ٱلْأَقْدَارِ فِي حِكْمَتِهَا ، فَإِنِّي مُحَدِّثُكَ بِخَبَرِي عَلَىٰ وَصْفِهِ وَرَصْفِهِ : أَمْلَقْتُ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَقَفَ بِي مِنَ ٱلدَّهْرِ مَا كَانَ يَجْرِي ، وَأَصْبَحْتُ فِي مُزَاوَلَةِ ٱلدُّنْيَا كَعَاصِرِ ٱلْحَجَرِ يُرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ ، وَعَجَزَتْ يَدِي حَتَّىٰ لَظُفُرُ دَجَاجَةٍ فِي نَبْشِهَا ٱلتُّرَابَ عَنِ ٱلْحَبَّةِ وَٱلْحَشَرَةِ أَقْدَرُ مِنِّي ؛ وَطَرَقَتْنِي ٱلنَّوَائِبُ كَأَنَّمَا هِيَ تُسَاكِنُنِي فِي دَارِي ، وَأَكَلَنِي ٱلدَّهْرُ لَحْمًا وَرَمَانِي عِظَامًا ، فَمَا كَانَ يَقِفُ عَلَيَّ إِلَّا كِلَابُ ٱلطَّرِيقِ ؛ وَلِي يَوْمَئِذٍ ٱمْرَأَةٌ أَعْقَبْتُ مِنْهَا طِفْلًا وَيَلْزَمُنِي حَقُّهُمَا وَلَا أَسْتَطِيعُهُ ؛ وَكَانَ بَيْنَنَا حُبٌّ فَوْقَ ٱلْمُعَاشَرَةِ وَٱلْأُلْفَةِ قَدْ تَرَكَنِي مِنِ ٱمْرَأَتِي هَٰذِهِ كَٱلشَّاعِرِ ٱلْغَزِلِ مِنْ صَاحِبَتِهِ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلشِّعْرَ فِي دَمِي لَا فِي لِسَانِي .

فَلَمَّا نَهَكَتْنِي ٱلْمَصَائِبُ وَتَنَاوَلَتْنِي مِنْ قَرِيبٍ وَمِنْ بَعِيدٍ ؛ قُلْتُ لِلْمَرْأَةِ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ شَحَبَتْ وَٱنْكَسَرَ وَجْهُهَا وَتَقَبَّضَ مِنْ هُزَالِهِ : وَٱيْمُ ٱللهِ يَا فُلَانَةُ لَوْ جَازَ أَنْ يُؤْكَلَ لَحْمُ ٱلْآدَمِيِّ لَذَبَحْتُ نَفْسِي لِتَأْكُلِي وَتَدُرِّي عَلَىٰ ٱلصَّبِيِّ . وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْكَبَ رَأْسِي وَأَذْهَبَ عَلَىٰ وَجْهِي لِتَفْقِدَانِي فَتَفْقِدَا شُؤْمِي عَلَيْكُمَا ؛ وَلَٰكِنْ رَدَّنِي قَلْبِي ، وَهُوَ حَبَسَنِي فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلصَّغِيرَةِ ٱلَّتِي بَيْنَكُمَا ، فَلَيْسَ لِي مِنَ ٱلْأَرْضِ مَشْرِقٌ وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا أَنْتِ وَهَٰذَا ٱلصَّبِيُّ . وَلَسْتُ أَدْرِي وَٱللهِ مَا نَصْنَعُ بِٱلْحَيَاةِ وَقَدْ كُنَّا مِنْ نَبَاتِهَا ٱلْأَخْضَرِ فَرَجَعْنَا مِنْ حَطَبِهَا ٱلْيَابِسِ ؛ وَعَادَتِ ٱلشَّمْسُ لَا تَغْذُوهَا بَلْ تَمْتَصُّ مِنْهَا مَا بَقِيَ ، وَلَا تَسْتَضِيءُ لَهَا ، وَلَٰكِنْ تَسْتَوْقِدُ عَلَيْهَا !

إِنَّ مَنْ فَقَدَ ٱلْخَيْرَ وَوَقَعَ فِي ٱلشَّرِّ ، حَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ خَيْرًا عَظِيمًا إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ فَخَلَصَ مِنَ ٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ جَمِيعًا ، لَا يُكْدِي وَلَا يَنْجَحُ ، وَلَا يَأْلَمُ وَلَا يَلَذُّ ؛ وَكَمَا أَنْكَرَتْهُ ٱلدُّنْيَا فَلْيُنْكِرْهَا . أَمَا إِنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلْقَبْرُ فَٱلْقَبْرُ وَلَٰكِنْ فِي بَطْنِ ٱلْأَرْضِ لَا عَلَىٰ ظَهْرِهَا كَحَالِنَا ؛ وَإِنْ كَانَ ٱلْمَوْتُ فَٱلْمَوْتُ وَلَٰكِنْ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ وَفِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا كَهَٰذَا ٱلَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَنْوَاعًا أَنْوَاعًا . قَدْ مَاتَتْ أَيَّامُنَا ، وَتُرِكْنَا نَعِيشُ كَٱلْمَوْتَىٰ لَا أَيَّامَ لَهُمْ ، وَزَادَ عَلَيْنَا ٱلْمَوْتَىٰ فِي ٱلنِّعْمَةِ وَٱلرَّاحَةِ أَنَّهُمْ لَا يَتَطَفَّلُونَ عَلَىٰ أَيَّامِ غَيْرِهِمْ فَيُطْرَدُوا عَنْ يَوْمِ هَٰذَا وَيَوْمِ ذَاكَ .

قَالَ : فَٱسْتَعْبَرَتِ ٱلْمَرْأَةُ بَاكِيَةً ، وَلَمَّا فَرَغَتْ مِنْ كَلَامِ دُمُوعِهَا قَالَتْ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَفْجَعَنَا فِيكَ ؟ قُلْتُ : مَا عَدَوْتِ مَا فِي نَفْسِي ؛ وَلَٰكِنْ هَلْ بَقِيَ فِيَّ مَنْ تُفْجَعِينَ فِيهِ ؟ أَمَا

ذَهَبَ مِنِّي ذَاكَ ٱلَّذِي كَانَ لَكِ زَوْجًا وَكَاسِبًا ، وَجَاءَ ٱلَّذِي هُوَ هَمُّكِ وَهَمُّ هَـٰذَا ٱلصَّبِيِّ مِنْ رَجُلٍ كَٱلْحُفْرَةِ لَا تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانِهَا وَتَأْخُذُ وَلَا تُعْطِي ؟

أَمْ وَٱللهِ لَكَأَنِّي خُلِقْتُ إِنْسَانًا خَطَأً ، حَتَّىٰ إِذَا تَبَيَّنَ ٱلْغَلَطُ أُرِيدَ إِرْجَاعِي إِلَىٰ ٱلْحَيَوَانِ فَلَمْ يَأْتِ لَا هَـٰذَا وَلَا ذَاكَ ، وَبَقِيتُ بَيْنَهُمَا ؛ يَمُرُّ ٱلنَّاسُ بِي فَيَقُولُونَ إِنْسَانٌ مِسْكِينٌ ؛ وَأَحْسَبُ لَوْ نَطَقَتِ ٱلْكِلَابُ لَقَالَتْ عَنِّي : كَلْبٌ مِسْكِينٌ . يَا عَجَبًا ! عَجَبًا لَا يَنْتَهِي ! أَصْبَحَتِ ٱلدُّنْيَا فِي يَدِنَا مِنَ ٱلْعَجْزِ وَٱلْيَأْسِ كَأَنَّمَا هِيَ بَعْرَةٌ نَجْهَدُ فِي تَحْوِيلِهَا يَاقُوتَةً أَوْ لُؤْلُؤَةً . . .

فَقَالَتِ ٱلْمَرْأَةُ : وَٱللهِ لَئِنْ حَيِيتَ عَلَىٰ هَـٰذَا إِنَّ هَـٰذَا لَكُفْرٌ قَبِيحٌ ، وَلَئِنْ مُتَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ لَأَقْبَحُ وَأَشَدُّ .

فَقُلْتُ لَهَا : وَيْحَكِ ! وَمَاذَا تَنْظُرُ ٱلْعَيْنُ ٱلْمُبْصِرَةُ فِي ٱلظَّلَامِ ٱلْحَالِكِ إِلَّا مَا تَنْظُرُ ٱلْعَمْيَاءُ؟

قَالَتْ : وَلِمَ لَا تَنْظُرُ كَمَا يَنْظُرُ ٱلْمُؤْمِنُ بِنُورِ ٱللهِ ؟

قُلْتُ : فَٱنْظُرِي أَنْتِ وَخَبِّرِينِي مَاذَا تَرَيْنَ . أَتَرَيْنَ رَغِيفًا ؟ أَتَرَيْنَ إِدَامًا ؟ أَتَرَيْنَ دِينَارًا ؟

قَالَتْ : وَٱللهِ إِنِّي لَأَرَىٰ كُلَّ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . أَرَىٰ قَمَرًا سَيَكْشِفُ هَـٰذِهِ ٱلسُّدْفَةَ ٱلْمُظْلِمَةَ إِنْ لَمْ يَطْلُعْ فَكَأَنْ قَدْ .

قَالَ : فَغَاظَتْنِي ٱلْمَرْأَةُ وَرَأَيْتُهَا حِينَئِذٍ أَشَدَّ عَلَيَّ بِقِلَّةِ ذَاتِ عَقْلِهَا مِنْ قِلَّةِ ذَاتِ يَدِي ؛ وَلَوْلَا حُبِّي إِيَّاهَا وَرَحْمَتِي لَهَا لَأَوْقَعْتُ بِهَا . وَٱسْتَحْكَمَ فِي ضَمِيرِي أَنْ أُزْهِقَ نَفْسِي وَأَدَعَهَا لِمَا كُتِبَ لَهَا .

وَقُلْتُ : إِنَّ جُبْنَ ٱلْمَرْأَةِ هُوَ نِصْفُ إِيمَانِهَا حِينَ لَا يَكُونُ نِصْفُ عَقْلِهَا ، وَلِلْقَدَرِ يَدٌ ضَعِيفَةٌ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ تَصْفَعُهُنَّ وَتَمْسَحُ دُمُوعَهُنَّ ، وَلَهُ يَدٌ أُخْرَىٰ عَلَىٰ ٱلرِّجَالِ ثَقِيلَةٌ تَصْفَعُ ٱلرَّجُلَ وَتَأْخُذُ بِحَلْقِهِ فَتَعْصِرُهُ .

* * *

قَالَ : وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْخَلِيقَةِ : أَرْحَامٌ تَدْفَعُ ، وَأَرْضٌ تَبْلَعُ . فَحَضَرَنِي هَـٰذَا ٱلْقَوْلُ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ وَشُبِّهَ لِي ، وَٱعْتَقَدْتُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْإِنْسَانَ شَيْءٌ حَقِيرٌ فِي ٱلْغَايَةِ مِنَ ٱلْهَوَانِ وَٱلضَّعَةِ : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ، وَأَثْقَلَتْ بِهِ كُرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ؛ وَهُوَ

مِنْ شُؤْمِهِ عَلَيْهَا إِذَا دَنَا لَهَا أَنْ تَضَعَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّىٰ يَضْرِبَهَا ٱلْمَخَاضُ فَتَتَقَلَّبُ وَتَصِيحُ وَتَتَمَزَّقُ وَتَنْصَدِعُ ؛ وَرُبَّمَا نَشِبَ فِيهَا فَقَتَلَهَا ، وَرُبَّمَا ٱلْتَوَىٰ فَيُبْقَرُ بَطْنُهَا عَنْهُ . وَإِذَا هِيَ وَلَدَتْهُ عَلَىٰ أَيِّ حَالَيْهَا مِنْ عُسْرٍ وَتَطْرِيقٍ بِمِثْلِ ٱلْمَطَارِقِ ٱلْمُحَطِّمَةِ ، أَوْ سَرَاحٍ وَرَوَاحٍ كَمَا يَتَيَسَّرُ - فَإِنَّمَا تَلِدُهُ فِي مَشِيمَةٍ وَدِمَاءٍ وَقَذَرٍ مِنَ ٱلْأَخْلَاطِ كَأَنَّمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ جُرْحٍ . ثُمَّ تَتَنَاوَلُهُ ٱلدُّنْيَا فَتَصْفَعُهُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي أَقْبَحَ وَأَقْذَرَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . ثُمَّ يَسْتَوْفِي مُدَّتَهُ فَيَأْخُذُهُ ٱلْقَبْرُ فَيَكُونُ شَرًّا عَلَيْهِ فِي تَمْزِيقِهِ وَتَعْفِينِهِ وَإِحَالَتِهِ .

قَالَ : وَحَضَرَنِي مَعَ كَلِمَةِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ قَوْلُ ذَلِكَ ٱلْجَاهِلِ ٱلزِّنْدِيقِ ٱلَّذِي يُعْرَفُ (بِٱلْبَقْلِيِّ) - إِذْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ كَٱلْبَقْلَةِ فَإِذَا مَاتَ لَمْ يَرْجِعْ . وَقُلْتُ لِنَفْسِي : إِنَّمَا أَنْتِ بَقْلَةٌ حَمْقَاءُ ذَاوِيَةٌ فِي أَرْضٍ نَشَّاشَةٍ(1) ، فَقَتَلَهَا مِلْحُ أَرْضِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَحْيَاهَا .

قَالَ : وَثُرْتُ إِلَىٰ ٱلْمُدْيَةِ أُرِيدُ أَنْ أَتَوَجَّأَ بِهَا ، فَتُبَادِرُنِي ٱلْمَرْأَةُ فَتَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ؛ وَأَكَادُ أَبْطِشُ بِهَا مِنَ ٱلْغَيْظِ ؛ وَكَانَتْ رُوحُ ٱلْجَحِيمِ تَزْفِرُ مِنْ حَوْلِي ، لَوْ سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ؛ فَمَا أَدْرِي أَيُّ مَلَكٍ هَبَطَ بِوَحْيِ ٱلْجَنَّةِ فِي لِسَانِ ٱمْرَأَتِي .

قُلْتُ لَهَا : إِنَّهَا عَزْمَةٌ مِنِّي أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي .

قَالَتْ : وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَنْقُضَهَا وَلَسْتُ أَرُدُّكَ عَنْهَا وَسَتُمْضِيهَا .

قُلْتُ : فَخَلِّي بَيْنَ نَفْسِي وَبَيْنَ ٱلْمُدْيَةِ .

قَالَتْ : كُلُّنَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ أَنَا وَأَنْتَ وَٱلصَّبِيُّ فَلْنَقْضِ مَعًا ؛ وَمَا بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِكَ رَغْبَةٌ وَلَا نَدَعُ ٱلصَّبِيَّ يَتِيمًا يَصْفَعُهُ مَنْ يُطْعِمُهُ ، وَيَضْرِبُهُ ٱبْنُ هَـٰذَا وَٱبْنُ ذَاكَ إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ فِي أَوْلَادِ ٱلنَّاسِ أَنَا ٱبْنُ ذَلِكَ وَلَا ٱبْنُ هَـٰذَا .

قُلْتُ : هَـٰذَا هُوَ ٱلرَّأْيُ .

قَالَتْ : فَتَعَالَ ٱذْبَحِ ٱلطِّفْلَ . . . . . .

* * *

(1) ٱلْأَرْضُ ٱلنَّشَّاشَةُ : هِيَ ٱلسَّبْخَةُ ٱلَّتِي فِيهَا ٱلْمِلْحُ وَٱلْمَاءُ .

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَمَا بَلَغَ ٱلرَّجُلُ فِي قِصَّتِهِ إِلَىٰ ذَبْحِ صَغِيْرِهِ[1] حَتَّىٰ ضَجَّ ٱلنَّاسُ ضَجَّةً مُنْكَرَةً ؛ وَتَوَهَّمَ كُلُّ أَبٍ مِنْهُمْ أَنَّ طِفْلَهُ ٱلصَّغِيْرَ مُمَدَّدٌ لِلذَّبْحِ وَهُوَ يُنَادِيْ أَبَاهُ وَيَشُقُّ حَلْقَهُ بِٱلصُّرَاخِ : يَا أَبِيْ يَا أَبِيْ ! أَدْرِكْنِيْ يَا أَبِيْ !

أَمَّا ٱلإِمَامُ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَكُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُوْلُ : إِنَّا للهِ ، كَيْفَ تَصْنَعُ جَهَنَّمُ حَطَبَهَا ؟

وَأَنَا فَمَا قَطُّ نَسِيْتُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ ، وَمَا قَطُّ رَأَيْتُ مِنْ بَعْدِهَا كَافِرًا وَلَا فَاسِقًا فَٱعْتَبَرْتُ أَعْمَالَهُ إِلَّا كَانَ كُلُّ ذَلِكَ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ طَرِيْقَةُ صَنْعَتِهِ حَطَبًا . . . كَأَنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَعَنَهُ ٱللهُ يَقُوْلُ لِأَتْبَاعِهِ : جَفِّفُوْهُ . . .

وَكَانَتْ هُنَيْهَاتٌ ، ثُمَّ فَاءَ ٱلنَّاسُ وَرَجَعُوْا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَاحُوا بِٱلْمُتَكَلِّمِ : ثُمَّ مَاذَا ؟

* * *

قَالَ ٱلرَّجُلُ : فَفَتَحْتُ عَيْنِيْ وَقَلْبِيْ مَعًا وَرَمَقْتُ ٱلطِّفْلَ ٱلْمِسْكِيْنَ ٱلَّذِيْ لَا يَمْلِكُ إِلَّا يَدَيْهِ ٱلضَّعِيْفَتَيْنِ ؛ وَنَظَرْتُ إِلَىٰ مَجْرَىٰ ٱلسِّكِّيْنِ مِنْ حَلْقِهِ وَإِلَىٰ مَحَزِّهَا فِيْ رَقَبَتِهِ ٱللَّيِّنَةِ ؛ وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّمَا تَفَرَّقَ بَصَرُهُ مِنَ ٱلْفَزَعِ عَلَىٰ كُلِّ جِهَةٍ ، وَرَأَيْتُهُ يَتَضَرَّعُ لِيْ بِعَيْنَيْهِ ٱلْبَاكِيَتَيْنِ أَلَّا أَذْبَحَهُ ، وَرَأَيْتُهُ يَتَوَسَّلُ بِيَدَيْهِ ٱلصَّغِيْرَتَيْنِ كَأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ مِنِّيْ أَمَامَ قَاتِلِهِ ، ثُمَّ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَتَلَوَّىٰ وَيَنْتَفِضُ وَيَصْرُخُ مِنْ أَلَمِ ٱلذَّبْحِ تَحْتَ يَدِ أَبِيْهِ ؛ تَحْتَ يَدِ أَبِيْهِ ٱلتَّعِسِ .

يَا وَيْلَتَاهُ ! لَقَدْ أَخَذَنِيْ مَا كَانَ يَأْخُذُنِيْ لَوْ تَهَدَّمَتِ ٱلسَّمَاءُ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ، وَحَسِبْتُ ٱلْكَوْنَ كُلَّهُ قَدِ ٱنْفَجَرَ صُرَاخًا مِنْ أَجْلِ ٱلطِّفْلِ ٱلضَّعِيْفِ ٱلَّذِيْ لَيْسَ لَهُ إِلَّا رَبُّهُ أَمَامَ ٱلْقَاتِلِ .

فَهَرْوَلْتُ مُسْرِعًا وَتَرَكْتُ ٱلدَّارَ وَٱلْمَرْأَةَ وَٱلصَّبِيَّ وَأَنَا أَقُوْلُ : يَا أَرْحَمَ ٱلرَّاحِمِيْنَ . يَا مَنْ خَلَقَ ٱلطِّفْلَ عَالَمُهُ أُمُّهُ وَأَبُوْهُ وَحْدَهُمَا وَبَاقِيْ ٱلْعَالَمِ هَبَاءٌ عِنْدَهُ . يَا مَنْ دَبَّرَ ٱلرَّضِيْعَ فَوَهَبَهُ مُلْكًا وَمَمْلَكَةً وَغِنًى وَسُرُوْرًا وَفَرَحًا ، كُلُّ ذَلِكَ فِيْ ثَدْيِ أُمِّهِ وَصَدْرِهَا لَا غَيْرُ . يَا إِلَـٰهِي : أَنْسِنِيْ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلنِّسْيَانِ ، وَٱرْزُقْنِيْ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلرِّزْقِ ، وَٱكْفُلْنِيْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلتَّدْبِيْرِ فَإِنِّيْ

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « ٱبْنِهِ » بَدَلًا مِنْ : « صَغِيْرِهِ » .

مُنْقَطِعٌ إِلَّا مِنْ رَحْمَتِكَ ٱنْقِطَاعَ ٱلرَّضِيْعِ إِلَّا مِنْ أُمِّهِ .

* * *

قَالَ ٱلرَّجُلُ : وَلَقَدْ كُنْتُ مَغْرُوْرًا كَٱلْجِيْفَةِ ٱلرَّاكِدَةِ تَحْسَبُ أَنَّهَا هِيَ تَفُوْرُ حِيْنَ فَارَتْ حَشَرَاتُهَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَحْقَرَ مِنَ ٱلذُّبَابِ ٱلَّذِيْ لَا يَجِدُ حَقَائِقَهُ ، وَلَا يَلْتَمِسُهَا ، إِلَّا فِيْ أَقْذَرِ ٱلْقَذَرِ .

وَمَا كِدْتُ أَمْضِيْ كَمَا تَسُوْقُنِيْ رِجْلَايَ حَتَّىٰ سَمِعْتُ صَوْتًا نَدِيًّا مَطْلُوْلًا يُرَجِّعُ تَرْجِيْعَ ٱلْوَرْقَاءِ فِيْ تَحْنَانِهَا وَهُوَ يُرَتِّلُ هَـٰذِهِ ٱلآيَةَ :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ . [١٨ سورة الكهف/ الآية : ٢٨] .

قَالَ : فَوَقَفْتُ أَسْمَعُ وَمَاذَا كُنْتُ أَسْمَعُ ؟ هَـٰذِهِ شُعَلٌ لَا كَلِمَاتٌ ، أَحْرَقَتْ كُلَّ مَا كَانَ حَوْلِيْ وَلَمَسَتْ مِصْبَاحَ رُوْحِيَ ٱلْمُنْطَفِئَ فَإِذَا هُوَ يَتَوَهَّجُ ، وَإِذَا ٱلدُّنْيَا كُلُّهَا تَتَوَهَّجُ فِيْ نُوْرِهِ ، وَٱرْتَفَعَتْ نَفْسِيْ عَنِ ٱلْجَدْبِ ٱلَّذِيْ كُنْتُ فِيْهِ وَكَأَنَّمَا لَفَّتْنِيْ سَحَابَةٌ مِنَ ٱلسُّحُبِ ، فَفِيْ رُوْحِيْ نَسِيْمُ ٱلْمَاءِ ٱلْبَارِدِ وَرَائِحَةُ ٱلْمَاءِ ٱلْعَذْبِ .

لَعَنَ ٱللهُ هَـٰذَا ٱلاضْطِرَابَ ٱلَّذِيْ يُبْتَلَىٰ ٱلْخَائِفُ بِهِ . إِنَّنَا نَحْسَبُهُ ٱضْطِرَابًا وَمَا هُوَ إِلَّا ٱخْتِلَاطُ ٱلْحَقَائِقِ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ وَذَهَابُ بَعْضِهَا فِيْ بَعْضٍ ، وَتَضَرُّبُ ٱلشَّرِّ فِيْ ٱلْخَيْرِ وَٱلْخَيْرِ فِيْ ٱلشَّرِّ حَتَّىٰ لَا يَبِيْنَ جِنْسٌ مِنْ جِنْسٍ ، وَلَا يُعْرَفَ حَدٌّ مِنْ حَدٍّ ، وَلَا تَمْتَازُ حَقِيْقَةٌ مِنْ حَقِيْقَةٍ . وَبِهَـٰذَا يَكُوْنُ ٱلزَّمَنُ عَلَىٰ ٱلْمُبْتَلَىٰ كَٱلْمَاءِ ٱلَّذِي جَمَدَ لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَتَسَايَرُ . فَيَلُوْحُ ٱلشَّرُّ وَكَأَنَّهُ دَائِمًا لَا يَزَالُ فِيْ أَوَّلِهِ يُنْذِرُ بِٱلأَهْوَالِ ، وَقَدْ يَكُوْنُ هَوْلُهُ ٱنْتَهَىٰ أَوْ يُوْشِكُ .

قَالَ ٱلرَّجُلُ : وَكُنْتُ أَرَىٰ يَأْسِيْ قَدِ ٱعْتَرَىٰ كُلَّ شَيْءٍ ، فَٱمْتَدَّ إِلَىٰ آخِرِ ٱلْكَوْنِ ، وَإِلَىٰ آخِرِ ٱلزَّمَنِ ؛ فَإِذَا سَكَنَ مَا بِيْ إِذَا هُوَ قَدْ كَانَ يَأْسَ يَوْمٍ أَوْ أَيَّامٍ فِيْ مَكَانٍ مِنَ ٱلأَمْكِنَةِ ، أَمَّا مَا وَرَاءَ هَـٰذِهِ ٱلأَيَّامِ وَمَا خَلْفَ هَـٰذَا ٱلْمَكَانِ ، فَذَلِكَ حُكْمُهُ حُكْمُ ٱلشَّمْسِ ٱلَّتِيْ تَطْلُعُ وَتَغِيْبُ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا لِإِحْيَائِهَا ، وَحُكْمُ ٱلْمَاءِ ٱلَّذِيْ تَهْمِيْ ٱلسَّمَاءُ بِهِ لِيَسْقِيَ ٱلأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا ، وَحُكْمُ ٱسْتِمْرَارِ هَـٰذِهِ ٱلأَجْرَامِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ فِيْ مَدَارِهَا لَا تُمْسِكُهَا وَلَا تَزِنُهَا إِلَّا قُوَّةُ خَالِقِهَا .

أَيْنَ أَثَرُ ٱلإِنْسَانِ ٱلدَّنِيِّ ٱلْحَقِيرِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ؟ وَهَلِ ٱلْحَيَاةُ إِلَّا بِكُلِّ ذَلِكَ ؟

وَمَا ٱلَّذِي فِي يَدِ ٱلإِنْسَانِ ٱلْعَاجِزِ مِنْ هَـٰذَا ٱلنِّظَامِ كُلِّهِ فَيَسُوغُ لَهُ أَنْ يَقُولَ فِي حَادِثَةٍ مِنْ حَوَادِثِهِ إِنَّ ٱلْخَيْرَ لَا يَبْتَدِئُ وَإِنَّ ٱلشَّرَّ لَا يَنْتَهِي ؟

تَعْتَرِي ٱلْمَصَائِبُ هَـٰذَا ٱلإِنْسَانَ لِتَمْحُوَ مِنْ نَفْسِهِ ٱلْخِسَّةَ وَٱلدَّنَاءَةَ ، وَتَكْسِرَ ٱلشَّرَّ وَٱلْكِبْرِيَاءَ ، وَتَفْثَأَ ٱلْحِدَّةَ وَٱلطَّيْشَ ؛ فَلَا يَكُونُ مِنْ حُمْقِهِ إِلَّا أَنْ يَزِيدَ بِهَا طَيْشًا وَحِدَّةً ، وَكِبْرِيَاءَ وَشَرًّا ، وَدَنَاءَةً وَخِسَّةً ، فَهَـٰذِهِ هِيَ مُصِيبَةُ ٱلإِنْسَانِ لَا تِلْكَ .

ٱلْمُصِيبَةُ هِيَ مَا يَنْشَأُ فِي ٱلإِنْسَانِ مِنَ ٱلْمُصِيبَةِ .

* * *

قَالَ : وَرَدَّدْتُ ٱلآيَةَ ٱلْكَرِيمَةَ فِي نَفْسِي لَا أَشْبَعُ مِنْهَا ، وَجَعَلْتُ أُرَتِّلُهَا أَحْسَنَ تَرْتِيلٍ وَأَطْرَبَهُ وَأَشْجَاهُ ؛ فَكَانَتْ نَفْسِي تَهْتَزُّ وَتَرْتَجُّ كَأَنَّمَا هِيَ تَبْدَأُ تَنْظِيمَ مَا فِيهَا لِإِقْرَارِ كُلِّ حَقِيقَةٍ فِي مَوْضِعِهَا بَعْدَ ذَلِكَ ٱلاخْتِلَاطِ وَٱلاضْطِرَابِ .

صَبْرُ ٱلنَّفْسِ مَعَ ٱلَّذِينَ يُمَثِّلُونَ رُوحَانِيَّتَهَا تَمْثِيلًا دَائِمًا بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ ، وَعَلَىٰ نُورِ ٱلْحَيَاةِ وَظَلَامِهَا ، يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللهِ ٱلَّذِي سَبِيلُهُ ٱلْحُبُّ لَا غَيْرُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ . وَتَقْيِيدُ ٱلْعَيْنَيْنِ بِهَـٰذَا ٱلْمَثَلِ ٱلأَعْلَىٰ كَمَا يَكُونُ ٱلأَمْرُ فِي ٱلْجَمَالِ وَٱلْحُبِّ ؛ وَٱلرَّبْطُ عَلَى ٱلإِرَادَةِ كَيْلَا تَتَفَلَّتَ فَتَسِفَّ إِلَىٰ حَقَائِرِ ٱلدُّنْيَا ٱلْمُسَمَّاةِ هُزْءًا وَتَهَكُّمًا زِينَةَ ٱلدُّنْيَا ، تِلْكَ ٱلَّتِي تُشْبِهُ حَقَائِقَ ٱلذُّبَابِ ٱلْعَالِيَةَ . . . فَتَكُونُ قَذِرَةً نَجِسَةً ، وَلَـٰكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ لِهَـٰذَا ٱلْخَلْقِ { ٱلذُّبَابِيِّ } . . .

تِلْكَ وَٱللهِ هِيَ أَسْبَابُ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلْقُوَّةِ . أَمَّا ٱلْمَصَائِبُ كُلُّهَا ، فَهِيَ فِي إِغْفَالِ ٱلْقَلْبِ ٱلإِنْسَانِيِّ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ .

* * *

قَالَ : وَلَمَّا صَحَّتْ تَوْبَتِي ، وَقَوِيَ ٱلْيَقِينُ فِي نَفْسِي ، كَبِرَتْ رُوحِي وَٱتَّسَعَتْ ، وَٱنْبَعَثَتْ لَهَا بَوَاعِثُ مِنْ غَيْرِ حَقَائِقِ ٱلذُّبَابِ ، وَأَشْرَقَ فِيهَا ٱلْجَمَالُ ٱلإِلَـٰهِيُّ سَاطِعًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكَانَ ٱلصُّبْحُ يَطْلُعُ عَلَيَّ كَأَنَّهُ وِلَادَةٌ جَدِيدَةٌ ، فَأَنَا دَائِمًا فِي عُمْرِ طِفْلٍ ، وَجَاءَنِي ٱلْخَيْرُ مِنْ حَيْثُ أَحْتَسِبُ وَلَا أَحْتَسِبُ ، وَكَأَنَّمَا نِمْتُ فَٱنْتَبَهْتُ غَنِيًّا ، وَعَمِلَ ٱلْقَلْبُ ٱلْحَيُّ فِي

ٱلزَّمَنِ ٱلْحَيِّ .

وَلَقَدْ أَفَدْتُ مِنَ ٱلآيَةِ طَبِيعَةً لَمْ تَكُنْ فِيَّ ، وَلَا يَثْبُتُ مَعَهَا ٱلشَّرُّ أَبَدًا ، فَأَصْبَحَ مِنْ خِصَالِي أَنْ أَرَى ٱلْحَاضِرَ كُلَّهُ مُتَحَرِّكًا يَمُرُّ بِمَا فِيهِ مِنْ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ جَمِيعًا ، وَأَسْتَشْعِرَ مِنْ حَرَكَتِهِ مِثْلَمَا تَرَىٰ عَيْنَايَ مِنْ قِطَارِ ٱلإِبِلِ يَهْتَزُّ تَحْتَ رِحَالِهِ وَهُوَ يُغِذُّ ٱلسَّيْرَ .

لَمْ أُبْعِدْ قَلِيلًا وَأَنَا أَمْشِي مُطْمَئِنًّا تَائِبًا مُتَوَكِّلًا حَتَّىٰ دَعَانِي رَجُلٌ ذُو نِعْمَةٍ وَمُرُوءَةٍ وَجَاهٍ ، وَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ قَلْبُهُ أَوْ كَلَّمَهُ وَجْهِي فِي قَلْبِهِ فَٱسْتَنْبَأَنِي ، وَبَثَثْتُهُ حَالِي وَٱقْتَصَصْتُ قِصَّتِي .

فَقَالَ : سَيُحْيِيكَ ٱللهُ بِٱلطِّفْلِ ٱلَّذِي كِدْتَ تَقْتُلُهُ ، فَٱرْجِعْ إِلَىٰ دَارِكَ . ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ دَنَانِيرَ وَقَالَ : ٱتَّجِرْ بِهَـٰذِهِ عَلَىٰ ٱسْمِ ٱللهِ وَبَرَكَتِهِ فَسَيَنْمُو فِيهَا طِفْلٌ مِنَ ٱلْمَالِ يَبْلُغُ أَشُدَّهُ . وَقَدْ صَدَقَ إِيمَانُهُ وَإِيمَانِي ، فَبَارَكَ لِيَ ٱللهُ وَنَمَا طِفْلُ ٱلْمَالِ وَبَلَغَ وَجَاوَزَ إِلَىٰ شَبَابِهِ .

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَجَلَسَ ٱلرَّجُلُ وَكَانَ كَٱلْخَطِيبِ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ ، فَقَالَ ٱلإِمَامُ : مَا أَشْبَهَ ٱلنَّكْبَةَ بِٱلْبَيْضَةِ تُحْسَبُ سِجْنًا لِمَا فِيهَا وَهِيَ تَحُوطُهُ وَتُرَبِّيهِ وَتُعِينُهُ عَلَىٰ تَمَامِهِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا ٱلصَّبْرُ إِلَىٰ مُدَّةٍ ، وَٱلرِّضَىٰ إِلَىٰ غَايَةٍ ، ثُمَّ تَنْقُفُ ٱلْبَيْضَةُ فَيَخْرُجُ خَلْقًا آخَرَ .

وَمَا ٱلْمُؤْمِنُ فِي دُنْيَاهُ إِلَّا كَٱلْفَرْخِ فِي بَيْضَتِهِ ، عَمَلُهُ أَنْ يَتَكَوَّنَ فِيهَا ، وَتَمَامُهُ أَنْ يَنْبَثِقَ شَخْصُهُ ٱلْكَامِلُ فَيَخْرُجَ إِلَىٰ عَالَمِهِ ٱلْكَامِلِ .

طنطا — **مصطفى صادق الرافعي**

ٱلانْتِحَارُ (*)
٤

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَمَدَّ ٱلإِمَامُ عَيْنَهُ وَقَدْ رُفِعَ لَهُ شَخْصٌ مِنَ ٱلْمَجْلِسِ ؛ ثُمَّ جَلَى

(*) « الرسالة » العدد : ٩٨ ، ١٧ صفر سنة ١٣٥٤هـ = ٢٠ مايو/أيار ١٩٣٥م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٨٠٣ ـ ٨٠٦ .

بِنَظَرِهِ كَأَنَّمَا يَتَطَلَّعُ إِلَىٰ عَجِيبَةٍ كَالْحَقِّ إِذَا بَطَلَ ، وَٱلصِّدْقِ إِذَا كَذَبَ ؛ ثُمَّ رَدَّ بَصَرَهُ عَلَيَّ كَأَنَّهُ يُعَجِّبُنِي مِنْ عَجَبِهِ ؛ ثُمَّ سَجَا طَرْفُهُ كَأَنَّمَا أَنْكَرَ رَأْيَ عَيْنَيْهِ فَهُوَ يَلْتَمِسُ رَأْيَ قَلْبِهِ . وَتَبَيَّنْتُ فِي وَجْهِهِ ٱنْقِبَاضًا خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ جَاءَهُ بِهَـٰذَا ٱلرَّجُلِ يُفْحِمُهُ بِهِ يُرِيهِ كَيْفَ يَجْعَلُ أَحَدَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلصَّالِحِينَ يَتَحَمَّسُ فِي دِينِهِ لِيَرْجِعَ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَصْلًا لَا غِنَىٰ عَنْهُ فِي إِنْشَاءِ قِصَّةِ كُفْرٍ !

هَـٰذَا هُوَ ضَيْفُنَا (أَبُو مُحَمَّدٍ ٱلْبَصْرِيُّ) يَتَخَوَّضُ ٱلنَّاسَ لِيَجِيءَ فَيُحَدِّثَنَا حَدِيثَهُ فِي قَتْلِ نَفْسِهِ وَٱلْإِثْمِ بِرَبِّهِ ؛ فَلَوْ قِيلَ لِي : إِنَّ قَوْسَ ٱلسَّمَاءِ بِأَحْمَرِهِ وَأَصْفَرِهِ وَأَزْرَقِهِ وَأَخْضَرِهِ ، قَدْ وَقَعَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱصْطُبِغَ مِنْ أَلْوَانِهِ أَوْحَالًا وَأَقْذَارًا ؛ لَكَانَ هَـٰذَا كَهَـٰذَا فِي تَعَاظُمِهِ وَإِنْكَارِهِ وَٱلْعَجَبِ مِنْهُ ؛ فَأَبُو مُحَمَّدٍ مِنَ ٱلرِّجَالِ ٱلْحُمْسِ(١) ٱلَّذِي لَوْ كَفَرَ أَحَدُهُمْ ثُمَّ قِيلَ : « إِنَّهُ كَفَرَ » ، لَقَصَّرَ ٱللَّفْظُ أَنْ يَبْلُغَ ٱلْحَقِيقَةَ أَوْ يَصِفَ شُنْعَتَهَا ، كَمَا يُقَصِّرُ لَفْظُ ٱلْجُنُونِ عَنْ وَصْفِ حَكِيمٍ تَأَلَّىٰ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ ٱلْكَوْنِ ، فَلَا يَبْقَىٰ فِي أَرْضٍ وَلَا سَمَاءٍ وَلَا تَنَالُهُ يَدُ ٱللهِ ! إِنَّ فِي لَفْظِ ٱلْكُفْرِ مَعَ ذَاكَ ، وَفِي لَفْظِ ٱلْجُنُونِ مَعَ هَـٰذَا - شَيْئًا مِنْ نِفَاقِ ٱلْعَقْلِ وَتَأَدُّبِهِ فِي أَدَاءِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَخْرَقِ ٱلَّذِي لَا يُشْبِهُهُ جُنُونٌ وَلَا كُفْرٌ .

وَنَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ خِذْلَانِهِ ؛ فَلَقَدْ يَكُونُ ٱلرَّجُلُ ٱلْمُؤْمِنُ فِي تَشَدُّدِهِ وَإِيغَالِهِ فِي ٱلدِّينِ - كَٱلَّذِي يَصْنَعُ حَبْلًا يَفْتِلُهُ فَتْلًا شَدِيدًا فَيُمِرُّهُ عَلَىٰ طَاقٍ بَعْدَ طَاقٍ ، لِيَكُونَ أَشَدَّ لَهُ وَأَقْوَىٰ ، ثُمَّ يُجَاذِبُهُ ٱلشَّيْطَانُ حَبْلَهُ ، فَإِذَا هُوَ كَانَ فِي ٱلْوَهَنِ مِثْلَ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا فِي سَقْفِ حَدَّادٍ ؛ فَرَأَتْهُ يَصُبُّ ٱلْحَدِيدَ ٱلْمَصْهُورَ يَجْعَلُهُ سِلْسِلَةً حَلْقَةً فِي حَلْقَةٍ ، فَذَهَبَتْ تَحْكِيهِ وَتُرْسِلُ مِنْ لُعَابِهَا خَيْطًا فِي خَيْطٍ تَزْعُمُهُ سِلْسِلَةً . . . !

إِنَّ مَعَ كُلِّ مُؤْمِنٍ شَيْطَانَهُ يَتَرَبَّصُ بِهِ ، فَلِهَـٰذَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ كَٱلَّذِي يَشْعُرُ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا مُنْذُ سَاعَةٍ ، فَهُوَ أَبَدًا مُحْتَرِسٌ مُتَهَيِّئٌ مُتَجَدِّدُ ٱلْحَوَاسِّ مُرْهَفُهَا يَسْتَقْبِلُ بِهَا ٱلدُّنْيَا جَدِيدَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ بَيْنَ ٱلْفَتْرَةِ وَٱلْفَتْرَةِ ؛ وَمِنْ هَـٰذَا حِكْمَةُ أَنْ يُؤَذِّنَ ٱلْمُؤَذِّنُ وَأَنْ تُقَامَ ٱلصَّلَاةُ مِرَارًا فِي ٱلْيَوْمِ ، فَكُلَّمَا بَدَأَ وَقْتٌ قَالَ ٱلْمُؤْمِنُ : ٱلْآنَ أَبْدَأُ إِيمَانِي أَطْهَرَ

(١) أَيْ : ٱلْمُتَحَمِّسِينَ فِي دِينِهِمْ .

مَا كَانَ وَأَقْوَىٰ .

* * *

وَقَالَ ٱلْإِمَامُ : هِيهِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! فَقَالَ ٱلْبَصْرِيُّ وَقَدْ رَأَى ٱلْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ ٱلْإِمَامِ : لَا يَفْزَعَنَّكَ أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ قَدْ يَجْعَلُ مَا يُحِبُّهُ هُوَ فِي مَا نَكْرَهُ نَحْنُ ؛ وَلَيْسَ لِلْأَقْدَارِ لُغَةٌ فَتَجْرِي عَلَىٰ أَلْفَاظِنَا ؛ وَقَدْ نُسَمِّي ٱلنَّازِلَةَ تَنْزِلُ بِنَا خَسَارًا وَهِيَ رِبْحٌ ، أَوْ نَقُولُ مُصِيبَةٌ جَاءَتْ لِتَبْدِيلِ ٱلْحَيَاةِ ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا طَرِيقَةً تَيَسَّرَتْ لِتَبْدِيلِ ٱلْفِكْرِ . إِنَّهَا لُغَةُ ٱلْقَدَرِ فِي شَيْءٍ هِيَ حَقِيقَةُ هَـٰذَا ٱلشَّيْءِ حِينَ تَظْهَرُ ٱلْحَقِيقَةُ ؛ وَكَأَيِّنْ مِنْ حَادِثَةٍ لَا تُصِيبُ ٱمْرَأً فِي نَفْسِهِ إِلَّا لِتَقَعَ بِهَا ٱلْحَرْبُ بَيْنَ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ وَبَيْنَ غَرَائِزِهَا . فَتَكُونُ أَعْمَالُ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْمُعَادِيَةِ أَسْبَابًا فِي أَعْمَالِ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُنْتَصِرِ .

وَكَثِيرٌ مِنْ هَـٰذَا ٱلْبَلَاءِ ٱلَّذِي يَقْضِي عَلَى ٱلْإِنْسَانِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا وَسَائِلَ مِنَ ٱلْقَدَرِ يُرَدُّ بِهَا ٱلْإِنْسَانُ إِلَىٰ عَالَمِ فِكْرِهِ ٱلْخَاصِّ بِهِ ؛ فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا عَالَمٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ مَنْ فِيهَا ، وَلَـٰكِنَّ دَائِرَةَ ٱلْفِكْرِ وَٱلنَّفْسِ هِيَ لِصَاحِبِهَا عَالَمُهُ وَحْدَهُ . وَٱلسَّعِيدُ مَنْ قَرَّ فِي عَالَمِهِ هَـٰذَا وَٱسْتَطَاعَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ كَٱلْمَلِكِ ٱلْمُطَاعِ فِي مَمْلَكَتِهِ ، نَافِذَ ٱلْأَمْرِ فِي صَغِيرَتِهَا وَكَبِيرَتِهَا ؛ وَٱلشَّقِيُّ مَنْ لَا يَزَالُ ضَائِعًا بَيْنَ عَوَالِمِ ٱلنَّاسِ ، يَنْظُرُ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْغَنِيِّ ، وَإِلَىٰ ذَاكَ ٱلْمَجْدُودِ ، وَإِلَىٰ ذَلِكَ ٱلْمُوَفَّقِ ؛ وَهُوَ فِي كُلِّ هَـٰذَا كَٱلْأَجْنَبِيِّ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ وَغَيْرِ قَوْمِهِ وَغَيْرِ أَهْلِهِ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ يُصْبِحُ أَجْنَبِيًّا عَنِ ٱلْإِنْسَانِ مَا دَامَ هُوَ أَجْنَبِيًّا عَنْ نَفْسِهِ .

لَقَدْ كُنْتُ ضَالًّا عَنْ نَفْسِي وَعَالَمِهَا ، فَكُنْتُ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا أَسْتَشْعِرُ شُعُورَ ٱللِّصِّ ، أَشْيَاؤُهُ هِيَ أَشْيَاءُ ٱلنَّاسِ جَمِيعًا ؛ وَٱللِّصُّ يَنْظُرُ إِلَىٰ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِعَيْنَيْ شَاعِرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِفٍ ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْ مُقَاتِلٍ مُتَرَبِّصٍ حَذِرٍ .

كُنْتُ وَٱللهِ إِنْ ضِقْتُ بِٱلنَّاسِ أَوْ وَسِعْتُهُمْ ؛ رَأَيْتُ فِي ذَلِكَ مَعْنًى مِنْ ضِيقِ ٱللِّصِّ وَسَعَتِهِ ؛ هُوَ عَلَىٰ أَيِّ حَالَيْهِ لَا يَنْظُرُ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ إِلَّا شَخْصًا مُتَوَارِيًا تَحْتَ ٱلظَّلَامِ يَتَسَلَّلُ فِي خَشْيَةٍ وَحَذَرٍ !

وَكُنْتُ نَزِقًا حَدِيدَ ٱلطَّبْعِ سَرِيعَ ٱلْبَادِرَةِ ؛ وَمَنْ فَقَدَ عَالَمَ نَفْسِهِ وَكَانَ فِي مِثْلِ ٱللِّصِّ ٱلَّذِي

ذَكَرْتُ ؛ فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلطِّبَاعَ تَكُوْنُ هِيَ أَسْلِحَتَهُ يَدْفَعُ بِهَا أَوْ يَعْتَدِي . وَمَا قَطُّ تَمَكَّنَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ وَأَحَاطَ بِهَا وَنَفَذَ فِيْهَا تَصَرُّفُهُ ؛ إِلَّا كَانَ رَاضِيًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِذْ يَتَّصِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِجِهَتِهِ ٱلسَّامِيَةِ لَا غَيْرِهَا ، حَتَّىٰ فِيْ ٱتِّصَالِهِ بِأَعْدَائِهِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ ؛ فَمَا يَرَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَلَا هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا ٱمْتِحَانًا لِفَضَائِلِهِ وَإِثْبَاتًا لَهَا . وَقَدْ يَكُوْنُ عَدُوُّكَ فِيْ بَعْضِ ٱلأُمُوْرِ عَيْنًا لَكَ فِيْ رُؤْيَةِ نَفْسِكَ ؛ فَفِيْهِ بَرَكَةُ هَـٰذِهِ ٱلْحَاسَّةِ وَنِعْمَتُهَا .

وَلَوْ نَحْنُ كُنَّا مُسْلِمِيْنَ إِسْلَامَ نَبِيِّنَا ﷺ ، وَإِسْلَامَ ٱلْمُقْتَدِيْنَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ ـ لَأَدْرَكْنَا سِرَّ ٱلْكَمَالِ ٱلإِسْلَامِيِّ ؛ وَهُوَ أَنْ يَقَرَّ ٱلإِنْسَانُ فِيْ عَالَمِ نَفْسِهِ وَيَجْعَلَ بَاطِنَهُ كَبَاطِنِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَـٰهِيٍّ ، لَيْسَ فِيْهِ إِلَّا قَانُوْنُهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْمُسْتَمِرُّ بِهِ إِلَىٰ جِهَةِ ٱلْكَمَالِ ، ٱلْمُرْتَفِعُ بِهِ مِنْ أَجْلِ كَمَالِهِ عَنْ دَوَافِعِ غَيْرِهِ ؛ فَنَظَرُ ٱلإِنْسَانِ إِلَىٰ نَقْصِ غَيْرِهِ هُوَ أَوَّلُ نَقْصِهِ . وَٱلْمُؤْمِنُ كَٱلْغُصْنِ ؛ إِنْ أَثْمَرَ فَتِلْكَ ثِمَارُ نَفْسِهِ ، وَإِنْ عَطِلَ لَمْ يَشْحَذْ وَلَمْ يَحْسُدْ وَٱسْتَمَرَّ يَعْمَلُ بِقَانُوْنِهِ .

وَلَقَدْ نَشَأْتُ فِيْ مَغْرِسٍ كَرِيْمٍ ، عَلَىٰ صُوْرَةٍ مِنَ ٱلْحَيَاةِ تُشْبِهُ صُوْرَةَ ٱلثَّمَرَةِ ٱلْحُلْوَةِ ، ٱجْتَمَعَ لَهَا مِنْ طَبِيْعَةِ مَغْرِسِهَا وَمَرْتَبَتِهَا مَا تَتَعَيَّنُ بِهِ مِنْ حَلَاوَةٍ وَنَكْهَةٍ وَمَذَاقٍ ؛ فَلَمَّا عَقَلْتُ وَعَرَفْتُ ٱلنَّاسَ بَعْدُ فَجَارَيْتُهُمْ وَخَالَطْتُهُمْ ، رَأَيْتُنِي مِنْهُمْ كَٱلتُّفَّاحَةِ مُلْقَاةً فِيْ ٱلْبَصَلِ . . . وَكَانَتِ ٱلتُّفَّاحَةُ حَمْقَاءَ فَزَادَتْ حُمْقًا ، وَكَانَتْ حَدِيْدَةً فَزَادَتْ حِدَّةً ، وَظَنَّتْ أَنَّ ٱلْحِكْمَةَ قَدْ مَسَخَتْ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَبَدَّلَتْ إِذْ خَلَقَتِ ٱلْبَصَلَةَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَتِ ٱلتُّفَّاحَةَ ؛ وَمَا عَلِمَتِ ٱلْخَرْقَاءُ أَنَّ ٱلْكَمَالَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ مَجْمُوْعُ نَقَائِصَ ، وَأَنَّ لِلْجَمَالِ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا ٱلَّذِي ٱسْمُهُ ٱلْقُبْحُ ؛ لَا يُعْرَفُ هَـٰذَا إِلَّا مِنْ هَـٰذَا ؛ وَأَنَّ ٱلْبَصَلَةَ لَوْ أَدْرَكَتْ مَا يُرِيْدُ ٱلنَّاسُ مِنْ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى ٱلتُّفَّاحَةِ لَسَمَّتْ نَفْسَهَا هِيَ ٱلتُّفَّاحَةَ ، وَقَالَتْ عَنْ هَـٰذِهِ : إِنَّهَا هِيَ ٱلْبَصَلَةُ !

وَلَمَّا رَأَتْ تُفَّاحَتِيْ أَنَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تَجْعَلَ ٱلشَّجَرَ كُلَّهُ فِيْ مِثْلِ مَرْتَبَتِهَا وَمَغْرِسِهَا قَالَتْ : إِنَّ ٱلأَمْرَ أَكْبَرُ مِنْ طَبِيْعَتِيْ ، وَمَا دَامَ سِرُّ ٱلْكَوْنِ مُغْلَقًا فَلَا تَعْرِيْفَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ سِرٌّ مُغْلَقٌ ، وَلْيَبْقَ كُلُّ شَيْءٍ فِيْ طَبِيْعَةِ نَفْسِهِ ، فَعَلَىٰ هَـٰذَا يَصْلُحُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَوْ فِيْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا .

* * *

قَالَ أَبُوْ مُحَمَّدٍ : وَلَـٰكِنْ بَقِيَتْ وَحْشَةُ ٱلدُّنْيَا وَجَفْوَتُهَا ، إِذْ لَمْ أَكُنِ ٱهْتَدَيْتُ إِلَىٰ عَالَمِيْ ، وَلَا تَأَكَّدَتْ عَقِيْدَتِيْ بِنَفْسِيْ ؛ فَكَانَ كُلُّ مَا حَوْلِيْ مُنْبَجِسًا فِيْ رُوْحِيْ بِشَرِّهِ ،

وَكَانَتِ ٱلدُّنْيَا بِهَـٰذَا كَٱلْمُتَطَابِقَةِ فِيْ رَأْيِيْ عَلَىٰ مَعْنًى وَاحِدٍ ، وَزَادَنِيْ أَنِّيْ كُنْتُ رَجُلًا عَزَبًا مُتَعَفِّفًا ؛ وَمَا أَشْبَهَ فَرَاغَ ٱلرُّجُوْلَةِ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ بِفَرَاغِ ٱلْعَقْلِ مِنَ ٱلذَّكَاءِ ؛ هَـٰذَا هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْبَلِيْدُ ، وَتِلْكَ هِيَ ٱلرُّجُوْلَةُ ٱلْبَلِيْدَةُ !

وَٱلْمَرْأَةُ تُضَاعِفُ مَعْنَىٰ ٱلْحَيَاةِ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، فَلَا جَرَمَ كَانَ ٱلْخَلَاءُ مِنْهَا مُضَاعَفَةً لِمَعْنَىٰ ٱلْمَوْتِ ؛ عَلِمَ هَـٰذَا مَنْ عَلِمَ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَ ، فَكُنْتُ أَعِيْشُ مِنَ ٱلْكَوْنِ فِيْ فَرَاغٍ مَيِّتٍ ، وَكُنْتُ أُحِسُّ فِيْ كُلِّ مَا حَوْلِيْ وَحْشَةً وَعَقْلِيَّةً تُشْعِرُنِيْ أَنَّ ٱلدُّنْيَا غَيْرُ تَامَّةٍ ؛ وَكَيْفَ تَتِمُّ فِيْ عَيْنِيْ دُنْيَا أَرَاهَا غَيْرَ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِيْ فِيْ قَلْبِيْ ؟

وَعَرَفْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمْضِيْ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَزَبِ ٱلْمُتَعَفِّفِ لَا يَمْضِيْ حَتَّىٰ يُهَيِّئَ فِيْهِ مَرَضَ يَوْمٍ آخَرَ . وَمِنْ هَـٰذِهِ ٱلأَيَّامِ ٱلْمَرِيْضَةِ ٱلْمُتَهَالِكَةِ ، تُعِدُّ ٱلْحَيَاةُ ٱنْتِقَامَهَا مِنْ هَـٰذَا ٱلْحَيِّ ٱلَّذِيْ نَقَضَ آيَتَهَا وَٱفْتَاتَ عَلَيْهَا ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ كَٱلإِلَـٰهِ لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ !

وَٱيْمُ ٱللهِ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَا يَفْرَحُ بِٱلرَّجُلِ ٱلزَّانِيْ وَبِٱلْمَرْأَةِ ٱلزَّانِيَةِ مَا يَفْرَحُ بِٱلرَّجُلِ ٱلْعَزَبِ وَبِٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَزْبَاءِ ؛ لِأَنَّهُ فِيْ ذَيْنِكَ رَذِيْلَةٌ فِيْ أُسْلُوْبِهَا ، أَمَّا فِيْ هَـٰذَيْنِ فَٱلشَّيْطَانُ رَذِيْلَةٌ فِيْ أُسْلُوْبِ فَضِيْلَةٍ . . ! هُنَاكَ يُلِمُّ ٱلشَّيْطَانُ وَيَمْضِيْ ، وَهُنَا يَأْتِيْ ٱلشَّيْطَانُ وَيُقِيْمُ !

وَقَدْ عِشْتُ مَا عِشْتُ بِقَلْبٍ مُغْلَقٍ وَعَقْلٍ مَفْتُوْحٍ ؛ وَلَيْتَنِيْ كُنْتُ جَاهِلًا مُغْلَقًا عَقْلُهُ ، وَكَانَ قَلْبِيْ مَفْتُوْحًا لِأَفْرَاحِ هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ ٱلْعَظِيْمِ !

وَمَضَتْ أَيَّامِيْ يَضْرِبُ بَعْضُهَا فِيْ بَعْضٍ ، وَيُمْرِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّىٰ ٱنْتَهَتْ مُنْتَهَاهَا ، وَجَاءَ ٱلْيَوْمُ ٱلْمُدْنَفُ ٱلْهَالِكُ ٱلَّذِيْ سَيَمُوْتُ . . .

أَصْبَحْتُ فَقُلْتُ لِنَفْسِيْ : كَمَا تَعِيْشِيْنَ وَيْحَكِ فِيْ أَحْكَامِ جَسَدٍ مُخْتَلٍّ لَا تُصَدَّقُ أَحْكَامُهُ ، وَمَا أَنْتِ مَعَهُ فِيْ طَبِيْعَتِكِ وَلَا هُوَ مَعَكِ فِيْ طَبِيْعَتِهِ ؛ فَفِيْمَ ٱجْتِمَاعُكُمَا إِلَّا عَلَىٰ بَلَائِيْ وَنَكَدِيْ ؟

لَمْ تَصْطَلِحَا قَطُّ عَلَىٰ وَاجِبٍ وَلَا لَذَّةٍ ، وَلَا حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ ؛ فَأَنْتُمَا عَدُوَّانِ لَا هَمَّ لِكِلَيْهِمَا إِلَّا إِفْسَادُ ٱلْمَسَرَّةِ ٱلَّتِيْ تَعْرِضُ لِلآخَرِ . وَمَا أَدْرِيْ بِمَنْ يَسْخَرُ ٱلشَّيْطَانُ مِنْكُمَا ؟ فَٱلْعَابِدُ ٱلَّذِيْ يُوَسْوِسُ بِٱللَّذَّاتِ يَتَمَنَّىٰ ٱقْتِرَافَهَا ، كَٱلْفَاجِرِ ٱلَّذِيْ يُوَاقِعُهَا وَيَقْتَحِمُهَا !

وَيْحَكِ يَا نَفْسُ ! إِنِّي رَأَيْتُ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلْخَرْقَاءَ لَمْ تُقَدِّمْ لِيْ إِلَّا رَغِيْفًا وَقَالَتْ : ٱمْلأْ بِهَـٰذَا بَطْنَكَ وَعَقْلَكَ وَعَيْنَيْكَ وَأُذُنَيْكَ وَمَشَاعِرَكَ . آه ، آه ! مُمْكِنٌ وَاحِدٌ مَعَهُ أَرْبَعَةُ مُسْتَحِيْلَاتٍ[١] ؛ إِنَّ هَـٰذَا لَا يُلْبِثُنِي أَنْ يَذْهَبَ مِنِّيْ بِٱلأَرْبَعَةِ ٱلَّتِيْ تُمْسِكُنِيْ عَلَىٰ ٱلْحَيَاةِ : ٱلأَمَلِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلإِيْمَانِ وَٱلصَّبْرِ .

لَقَدِ ٱسْتَوَىٰ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْكَآبَةِ صَغِيْرُ هَمِّي وَكَبِيْرُهُ ، وَمَا أَرَانِيْ إِلَّا قَدْ أَشْرَفْتُ عَلَىٰ ٱلْهَلَكَةِ ٱلَّتِيْ لَا بَاقِيَةَ لَهَا ، فَإِنَّ وَجْهِيَ ٱلْمُتَكَلِّحَ ٱلْمُتَقَبِّضَ يَدُلُّ مِنِّيْ عَلَىٰ أَعْصَابٍ مُحْتَضَرَةٍ نَهَكَتْهَا أَمْرَاضُهَا وَوَسَاوِسُهَا ، وَإِنَّمَا وَجْهُ ٱلإِنْسَانِ فِيْ قُطُوْبِهِ أَوْ تَهَلُّلِهِ هُوَ وَجْهُهُ وَوَجْهُ دُنْيَاهُ تَعْبِسُ أَوْ تَبْتَسِمُ .

وَتَٱللهِ لَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ كِفَاحِ ٱلدُّنْيَا بِهَـٰذِهِ ٱلأَعْصَابِ ٱلْمَرِيْضَةِ ٱلْوَاهِنَةِ ؛ فَإِنَّ حِبَالَةَ ٱلصَّيْدِ - صَيْدِ ٱلْوَحْشِ - لَا تَكُوْنُ مِنْ خَيْطِ ٱلإِبْرَةِ . . . ! وَأَرَانِيْ أَصْبَحْتُ كَإِنْسَانٍ حَجَرِيٍّ لَيْسَ فِيْ طَبِيْعَتِهِ ٱلالْتِوَاءُ إِلَىٰ يَمِيْنِ ٱلْحَيَاةِ وَيَسَارِهَا ؛ وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ مِنْ صَلَابَتِيْ أَنِّيْ ٱلأَسَدُ ، وَلَـٰكِنِّيْ أَسَدٌ مِنْ حَجَرٍ ، لَا تَفْرِضُ قُوَّتُهُ ٱلْفِرَارَ مِنْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ !

* * *

قَالَ أَبُوْ مُحَمَّدٍ : وَرَأَيْتُ نَفْسِيْ فِيْ هَـٰذَا ٱلْحِوَارِ كَٱلْمَيِّتَةِ ، لَا تُجِيْبُ وَلَا تَعْتَرِضُ وَلَا تُنْكِرُ ، وَكُنْتُ أَظُنُّهَا تُرَاوِدُنِيْ عَلَىٰ ٱلْحَيَاةِ أَوْ تَرُدُّنِيْ عَنْ غَوَايَتِيْ ؛ فَمَلأَنِيْ سُكُوْنُهَا جَزَعًا وَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ بَيْنِيْ وَبَيْنَهَا ، وَأَنَّهُ أَخَذَ بِمَنَافِذِهَا ، فَأَرَدْتُ ٱلصَّلَاةَ فَثَقُلْتُ عَنْهَا وَرَأَيْتُنِيْ لَا أَصْلُحُ لَهَا ، بَلْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّيْ إِذَا قُمْتُ إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ فَإِنَّمَا قُمْتُ لِأَتَهَزَّأَ بِٱلصَّلَاةِ !

وَجَعَلَ ٱلشَّيْطَانُ يَأْخُذُنِيْ عَنْ عَقْلِيْ وَيَرُدُّنِيْ إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَأْخُذُنِيْ وَيَرُدُّنِيْ ، حَتَّىٰ تَوَهَّمْتُ أَنِّيْ جُنِنْتُ ، وَكَأَنَّمَا كَانَ يُرِيْدُ ٱللَّعِيْنُ بَقِيَّةَ إِيْمَانِيْ يُجَاذِبُنِيْ فِيْهَا وَأُجَاذِبُهُ ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ مَسَّنِيْ خَبَالٌ وَأَلْقَيْتُ هَـٰذِهِ ٱلْبَقِيَّةَ فِيْ يَدَيْهِ !

ثُمَّ أَفَقْتُ إِفَاقَةً سَرِيْعَةً ، فَرَأَيْتُ (ٱلْمُصْحَفَ) يَرْقُبُنِيْ مِنْ قَرِيْبٍ[٢] ، فَعُذْتُ بِهِ وَعَطَفْتُ

(١) { ٱلرَّغِيْفُ يَمْلأُ ٱلْبَطْنَ ، فَهَـٰذَا هُوَ ٱلْمُمْكِنُ ، وَلَـٰكِنَّ عَمَلَهُ فِيْ ٱلْبَاقِيَاتِ مُسْتَحِيْلٌ } .

(٢) فِيْ ٱلطَّبْعَةِ ٱلأُوْلَى : « يَرْقُبُنِيْ قَرِيبٌ » بَدَلًا مِنْ : « يَرْقُبُنِيْ مِنْ قَرِيبٍ » .

عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: ٱمْنَعِ ٱلضَّرْبَةَ عَنْ قَلْبِيْ. بَيْدَ أَنِّيْ أَحْسَسْتُ أَنَّهُ خَصْمِيْ فِيْ مَوْقِفِيْ لَا ظَهِيْرِيْ؛ كَأَنِّيْ جَعَلْتُهُ مُصْحَفًا عِنْدَ زِنْدِيْقٍ ، فَكَانَ كُلُّ إِيْمَانِيْ ٱلَّذِيْ بَقِيَ لِيْ فِيْ تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَنِّيْ ضَعُفْتُ عَنْ حَمْلِ ٱلْمُصْحَفِ كَمَا ثَقُلْتُ عَنِ ٱلصَّلَاةِ ، فَبَقِيَ ٱلطَّاهِرُ طَاهِرًا وَٱلنَّجِسُ نَجِسًا .

وَلَمْ تَكُنْ نَفْسِيْ فِيَّ وَلَا كُنْتُ فِيْهَا ؛ فَرَأَيْتُ ٱلدُّنْيَا عَلَىٰ وَجْهٍ لَا أَدْرِيْ مَا هُوَ ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ مَعْقُوْلًا مِنْ تَخَالِيْطِ مَجْنُوْنٍ تَرَكَهُ عَقْلُهُ مِنْ سَاعَةٍ ، بَقَايَا شُعُوْرٍ ضَعِيْفٍ ، وَبَقَايَا فَهْمٍ مَرِيْضٍ ، تَتَصَاغَرُ فِيْهِمَا ٱلدُّنْيَا ، وَيَتَحَاقَرُ بِهِمَا ٱلْعَقْلُ .

فَلَمَّا ٱنْتَهَيْتُ إِلَىٰ هَـٰذَا لَمْ أَعْقِلْ مَا عَمِلْتُ ، وَكَانَتِ ٱلْمُوْسَىٰ قَدْ أَصَابَتْ مِنْ يَدِيْ عِرْقًا نَاشِزًا مُنْتَبِرًا ، فَفَارَ ٱلدَّمُ وَٱنْفَجَرَ مِنْهُ مِثْلُ ٱلْيَنْبُوْعِ ضُرِبَ عَنْهُ ٱلصَّخْرُ فَٱنْشَقَّ فَٱنْبَثَقَ .

وَتَحَقَّقْتُ حِيْنَئِذٍ أَنَّهُ ٱلْمَوْتُ فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ . . .

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ رَاوِيْ ٱلْقِصَّةِ : وَتَجَهَّمَ وَجْهُ ٱلرَّجُلِ فَأَطْرَقَ وَسَكَتَ ، وَكَانَ عَلَىٰ وَجْهِهِ شَفَقٌ مُحْمَرٌّ فَأَظْلَمَ بَغْتَةً عِنْدَمَا قَالَ : « فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ » .

وَٱرْتَجَّ ٱلْمَسْجِدُ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ : فَرَأَيْتَ مَاذَا ؟ رَأَيْتَ مَاذَا ؟

وَبَعَثَتِ ٱلصَّيْحَةُ أَبَا مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ : رَأَيْتُ ثَلَاثَةَ وُجُوْهٍ أَشْرَفَتْ مِنَ ٱلْمُصْحَفِ تَنْظُرُ إِلَيَّ كَٱلْعَاتِبَةِ ، وَكَانَ أَوْسَطُهَا كَٱلْقَمَرِ ٱلطَّالِعِ ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ ٱلْجَنَّةِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِيْ نَضْرَتِهِ وَبَشَاشَتِهِ . وَغَمْغَمَتِ { ٱلْوُجُوْهُ ٱلثَّلَاثَةُ } بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَسْمَعْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَلَـٰكِنَّ نَظَرَهَا إِلَيَّ كَانَ يُؤَدِّيْ لِيْ مَعَانِيْهَا ، وَكَأَنَّهَا تَقُوْلُ : « أَكَذَلِكَ ٱلْمُؤْمِنُ . . . ؟ » .

ثُمَّ غَابَتْ وَتَخَلَّتْ عَنِّيْ وَبَرَزَتْ ثَلَاثَةُ وُجُوْهٍ أُخْرَىٰ ، كَأَنَّهَا نَقَائِضُ تِلْكَ ، وَأَعُوْذُ بِٱللهِ مِنْ أَوْسَطِهَا ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ ٱلْجَحِيْمِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِيْ نُكْرِهِ وَهَوْلِهِ ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلأَصْغَرَ مِنْهَا وَجْهُ سُوْرَةٍ مِنْ سُوَرِ ٱلْمُصْحَفِ ، فَفَكَّرْتُ ، فَوَقَعَ لِيْ مِمَّا قَامَ فِيْ نَفْسِيْ مِنَ ٱللَّعْنَةِ أَنَّهَا : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . . . ﴾ . [١١١ سورة المسد/ الآية : ١] .

وَطَمَسَ ٱلظَّلَامُ هَـٰذِهِ ٱلرُّؤْيَا ، وَتَغَيَّمَتِ ٱلدُّنْيَا ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّ آثَامِيْ قَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيَّ ظُلْمَةً بَعْدَ ظُلْمَةٍ ، وَٱلْتَمَعَ شَيْءٌ أَحْمَرُ ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا ٱلدَّمُ يَتَخَايَلُ فِيْ عَيْنَيَّ كَأَنَّهُ شُعَلٌ تَتَلَوَّىٰ ،

فَجَزِعْتُ أَشَدَّ ٱلْجَزَعِ ، وَحَسِبْتُهَا طَرَائِقَ مُمْتَدَّةً لِرُوحِي تَذْهَبُ بِهَا إِلَى ٱلْجَحِيمِ .

وَمَاتَتْ كُلُّ خَوَاطِرِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا فِكْرَةً وَاحِدَةً بَقِيَتْ حَيَّةً تَأْكُلُ فِي قَلْبِي أَكْلَ ٱلنَّارِ ، وَهِيَ : « كَيْفَ تَجَرَّأْتُ فَوَضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱللهِ حُمْقِي ؟ » .

* * *

وَيَقُولُونَ : إِنَّ أُخْتِي قَدْ رَأَتْنِي أَتَشَحَّطُ فِي دَمِي فَصَاحَتْ ، وَجَاءَ ٱلنَّاسُ عَلَى صَوْتِهَا ، وَكَانَ فِيهِمْ طَبِيبٌ ، فَبَعْدَ لَأْيٍ مَا ، ٱسْتَطَاعَ حَبْسَ ٱلدَّمِ ، وَٱحْتَالَ حِيلَتَهُ حَتَّى أَسَفَّ ٱلْجُرْحَ دَوَاءً وَضَمَّدَهُ ؛ فَجَعَلْتُ أَثُوبُ نَفَسًا بَعْدَ نَفَسٍ ، وَرَاجَعْتُ قَلِيلًا قَلِيلًا . . .

ثُمَّ طَافَتِ ٱلْحَيَاةُ عَلَى عَيْنَيَّ فَفَتَحْتُهُمَا ، فَإِذَا ٱلْأَشْيَاءُ تَبْدُو لِي وَلَيْسَ فِيهَا حَقَائِقُ وَلَا مَعَانٍ ، كَأَنَّهَا تَتَخَلَّقُ جَدِيدَةً تَحْتَ بَصَرِي ، وَكَأَنَّهَا خَارِجَةٌ لِسَاعَتِهَا مِنْ يَدِ ٱللهِ !

وَتَمَاثَلْتُ شَيْئًا بَعْدَ سَاعَاتٍ ، فَأَحْسَسْتُ أَنَّ نَفْسِي قَدْ رَجَعَتْ إِلَيَّ سَاخِرَةً مِنِّي تَقُولُ : كَيْفَ رَأَيْتَ عَمَلَ ٱلْعَقْلِ أَيُّهَا ٱلْعَاقِلُ ؟

وَبَدَأَتِ ٱلْحَيَاةُ تَتَجَدَّدُ ، فَأَقْسَمْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي أَنْ أُجَدِّدَ إِيمَانِي بِٱللهِ . وَلَمْ أَكَدْ أَفْعَلُ حَتَّى أَحْسَسْتُ كَأَنَّ قُوَّةَ ٱلْوُجُودِ كُلَّهَا مُسْتَقِرَّةٌ فِي رُوحِي ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَنَا وَحْدِي ٱلْقَوِيُّ عَلَى هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ قُوَّةَ جِبَالِهَا وَصُخُورِهَا ، عَلَى حِينَ كَانَ جِسْمِي مُمَدَّدًا كَٱلْمَيِّتِ لَا يَتَمَاسَكُ مِنَ ٱلضَّعْفِ !

فَأَيْقَنْتُ حِينَئِذٍ مَا لَمْ أَعْرِفْهُ قَطُّ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَلَمْ أَشْعُرْ بِهِ قَطُّ فِي ٱلْحَيَاةِ وَلَمْ يَأْتِنِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا فِكْرٌ : أَيْقَنْتُ أَنَّهَا مُعْجِزَةُ ٱلْإِيمَانِ ٱلْجَدِيدِ ٱلْغَضِّ ، ٱلْمُتَّصِلِ بِٱللهِ لِتَوِّهِ كَإِيمَانِ ٱلْأَنْبِيَاءِ دُونَ أَنْ تَلْمَسَهُ شَهْوَةٌ ، أَوْ تَعْتَرِضَهُ خَاطِرَةٌ ، أَوْ تُكَدِّرَهُ ذَرَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِكْرٍ أَرْضِيٍّ دَنِسٍ .

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : ثُمَّ جَلَسَ ٱلْمُتَحَدِّثُ ، وَكَانَ ٱلنَّاسُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ كَأَنَّمَا غَادَرُوا ٱلدُّنْيَا سَاعَةً ، وَرَجَعُوا إِلَيْهَا عَلَى مِثْلِ حَالَتِهِ وَمِثْلِ إِيمَانِهِ ؛ فَسَكَتَ ٱلْإِمَامُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ، لِيَدَعَ كُلَّ نَفْسٍ تُكَلِّمُ صَاحِبَهَا .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلانْتِحَارُ(*)
٥

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَأَطْرَقَ ٱلنَّاسُ قَلِيلًا بَعْدَ خَبَرِ (أَبِي مُحَمَّدٍ ٱلْبَصْرِيِّ) ؛ إِذْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمْ قَدْ جَمَعَ بَالَهُ لِمَا سَمِعَ ، وَأَخَذَ يَحْدِسُ فِي نَفْسِهِ وَيُرَاجِعُهَا ٱلرَّأْيَ ، وَكَانَ ٱلْمَجْلِسُ قَدِ ٱمْتَدَّ بِنَا مُنْذُ ٱلْعَصْرِ وَمَا يَكَادُ ٱلنَّهَارُ يُشْعِرُنَا بِإِدْبَارِهِ ، حَتَّى ٱعْتَرَضَتْ فِي شَمْسِهِ ٱلْغُبْرَةُ ٱلَّتِي تَعْتَرِيهَا إِذْ دَنَتْ أَنْ تَغْرُبَ . وَكَانَ إِلَى يَسَارِي فَتًى رَيَّانُ ٱلشَّبَابِ ، حَسَنُ ٱلصُّورَةِ ، وَضِيءٌ مُشْرِقٌ ، لَهُ هَيْأَةٌ وَسَمْتٌ ، أَقْبَلَ عَلَى ٱلْأَيَّامِ ، وَأَقْبَلَتِ ٱلْأَيَّامُ عَلَيْهِ .

فَسَمِعَنِي أَطِنُّ عَلَى أُذُنِ (مُجَاهِدٍ ٱلْأَزْدِيِّ) ؛ وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ شَاعِرًا فِي كَلَامِهِ وَشَاعِرًا فِي قَلْبِهِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلنَّهَارِ يَا مُجَاهِدُ إِلَّا مِثْلُ صَبْرِ ٱلْمُحِبِّ دَنَا لَهُ ٱلْمَوْعِدُ ؛ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلشَّمْسِ إِلَّا مِثْلُ مَا تَتَلَفَّفُ صَاحِبَتُهُ ، تَأْخُذُ عَلَيْهَا ثَوْبَهَا وَغَلَائِلَهَا ، وَلَـٰكِنْ بَعْدَ أَنْ تُسْقِطَهَا مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا ، لِتَرَى جَمَالَ جِسْمِهَا هُنَا وَهُنَا !

فَٱهْتَزَّ ٱلْفَتَى لِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ، وَسَالَتِ ٱلرِّقَّةُ فِي أَعْطَافِهِ ، وَقَالَ : يَا عَمُّ ! أَمَا تَرَى مَا بَقِيَ مِنَ ٱلنَّهَارِ كَأَنَّهُ وَجْهُ بَاكٍ مَسَحَ دُمُوعَهُ وَلَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا كَآبَةُ ٱلزَّمَنِ . . . ؟

قُلْتُ : كَأَنَّ لَكَ خَبَرًا يَا فَتَى ، فَإِنْ كَانَ شَأْنُكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ فَقُصَّهُ عَلَيْنَا وَعَلِّلْنَا بِهِ سَائِرَ ٱلْوَقْتِ إِلَى أَنْ تَجِبَ ٱلشَّمْسُ ، وَلَعَلَّكَ طَائِرٌ بِنَا طَيْرَةً فَوْقَ ٱلدُّنْيَا .

قَالَ : فَمَهْ ؟

قُلْتُ : تَقُومُ فَتَتَكَلَّمُ ، فَإِنِّي أَرَى لَكَ لِسَانًا وَبَيَانًا .

قَالَ : أَوَ يَحْسُنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي ٱلْمَسْجِدِ عَنْ صَرْعَةِ ٱلْحُبِّ وَصَرِيعِهِ ، وَعَاشِقَةٍ وَعَاشِقٍ ؟

فَبَادَرَ مُجَاهِدٌ فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا فَتَى ! لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا ؛ إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ لَيُصَلِّي بَيْنَ

(*) « الرسالة » العدد : ٩٩ ، ٢٤ صفر سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٧ مايو/ أيار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٨٤٣ ـ ٨٤٧ .

يَدَيْ ٱللهِ وَكِتَابُ سَيِّئَاتِهِ فِيْ عُنُقِهِ مَنْشُوْرٌ مَقْرُوْءٌ . وَهَلْ أَوْقَاتُ ٱلصَّلَاةِ إِلَّا سَاعَاتٌ قَلْبِيَّةٌ لِكُلِّ يَوْمٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، تَأْتِيْ ٱلسَّاعَةُ مِمَّا قَبْلَهَا كَمَا تَأْتِيْ تَوْبَةُ ٱلْقَلْبِ مِمَّا عَمِلَ ٱلْجِسْمُ ؟ إِنَّمَا يَتَلَقَّىٰ ٱلْمَسْجِدُ مَنْ يَدْخُلُهُ لِسَاعَتِهِ ٱلَّتِيْ يَدْخُلُهُ فِيْهَا ، وَلَوْ أَنَّهُ حَاسَبَهُ عَنْ أَمْسِ وَأَوَّلَ مِنْهُ وَمَا خَلَا مِنْ قَبْلُ ، لَطَرَدَهُ مِنَ ٱلْعَتَبَةِ ! إِنَّ ٱلْمَسْجِدَ يَا بُنَيَّ إِنَّمَا يَقُوْلُ لِدَاخِلِهِ : ٱدْخُلْ فِيْ زَمَنِيْ وَدَعْ زَمَنَكَ ، وَتَعَالَ إِلَيَّ أَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ ٱلأَرْضِيُّ ، لِتَتَحَقَّقَ أَنَّ فِيْكَ حَاسَّةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، وَجِئْنِيْ بِقَلْبِكَ وَفِكْرِكَ ، لِيَشْعُرَا سَاعَةً أَنَّهُمَا فِيَّ لَا فِيْكَ[1] . وَلَسْنَا ٱلآنَ يَا بُنَيَّ فِيْ مُتَحَدَّثٍ كَنَدِيِّ ٱلْقَوْمِ يَتَطَارَحُوْنَ فِيْهِ أَخْبَارَهُمْ ، بَلْ نَحْنُ فِيْ مَجْلِسِ عِلْمٍ تَكَلَّمَتْ فِيْهِ رَقَبَةُ هَـٰذَا وَرَقَبَةُ هَـٰذَا بِمَا سَمِعْتَ ؛ فَقُمْ أَنْتَ فَٱذْكُرْ عِلْمَ قَلْبِكَ وَقُصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ طَيْشِ ٱلْحُبِّ وَٱلشَّبَابِ ٱلَّذِيْ يُشْبِهُ ٱلْكَلَامُ فِيْهِ أَنْ يَكُوْنَ كَلَامًا عَنِ ٱلصُّعُوْدِ إِلَىٰ ٱلْقَمَرِ وَٱلْقَبْضِ مِنْ هُنَاكَ عَلَىٰ ٱلْبَرْقِ !

❊ ❊ ❊

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : فَٱنْتَهَضَ ٱلْفَتَىٰ ، وَرَأَيْتُ مُجَاهِدًا يَتَنَهَّدُ كَأَنَّمَا ٱنْصَدَعَتْ كَبِدُهُ : فَقُلْتُ : مَا بَالُكَ ؟ قَالَ : إِنَّ شَبَابِيْ قَدْ مَرَّ عَلَيَّ ٱلسَّاعَةَ فَنَسَمْتُ مِنْهُ فِيْ بَرْدَةِ هَـٰذَا ٱلْفَتَىٰ ، ثُمَّ فَقَدْتُهُ فَقْدًا ثَانِيًا فَهَرِمْتُ هَرَمًا ثَانِيًا ، وَجَاءَنِيْ ٱلْحُزْنُ مِنْ إِحْسَاسِيْ بِأَنِّيْ شَيْخٌ ، حُزْنَ مَنْ هَمَّ أَنْ يَدْخُلَ بَابَ حَبِيْبٍ ثُمَّ رُدَّ . . . !

وَتَحَدَّثَ ٱلْفَتَىٰ ، فَإِذَا هُوَ يُدِيْرُ بَيْنَ فَكَّيْهِ لِسَانَ شَاعِرٍ عَظِيْمٍ ، يَتَكَلَّمُ كَلَامَهُ بِنَفْسَيْنِ : إِحْدَاهُمَا بَشَرِيَّةٌ تَصْنَعُ ٱلْمَعْنَىٰ وَٱللَّفْظَ ، وَٱلأُخْرَىٰ عُلْوِيَّةٌ تُلْقِيْ فِيْهَا ٱلنَّارَ وَٱلنُّوْرَ .

قَالَ : إِنَّ لِيْ قِصَّةً أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ، لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِيْ دُفِنَتْ فِيْهِ مَعَانِيْهَا ؛ وَقَدْ تَأْتِيْ ٱلْقِصَّةُ مِنْ أَخْبَارِ ٱلْقَلْبِ مُفْعَمَةً بِٱلآلَامِ وَٱلأَحْزَانِ ، لَا يُرَادُ بِآلَامِهَا وَأَحْزَانِهَا إِلَّا إِيْجَادُ أَخْلَاقٍ لِلْقَلْبِ يَعِيْشُ بِهَا وَيَتَبَدَّلُ . وَٱلَّذِيْ قُدِّرَ عَلَيْهِ ٱلْحُبُّ لَا يَكُوْنُ قَدْ أَحَبَّ غَيْرَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَكُوْنُ قَدْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يَنْسَىٰ نَفْسَهُ فِيْ غَيْرِهِ ، وَهَـٰذِهِ كَمَا هِيَ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ ٱلْحُبِّ ؛ فَهِيَ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ ٱلإِحْسَانِ .

---

(١) { سَتَأْتِيْ فَلْسَفَةُ ٱلْمَسْجِدِ فِيْ مَقَالَاتٍ أُخْرَىٰ مِمَّا يَجْمَعُ هَـٰذَا ٱلْكِتَابُ ، وَٱنْظُرْ مَقَالَةَ : « ٱللهُ أَكْبَرُ » } .

وَمَتَىٰ صَدَقَ ٱلْمَرْءُ فِيْ حُبِّهِ كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِكْرَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا فِكْرَةٌ وَٱلأُخْرَىٰ عَقِيْدَةٌ تَجْعَلُ هَـٰذِهِ ٱلْفِكْرَةَ ثَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ ؛ وَهَـٰذِهِ كَمَا هِيَ طَبِيْعَةُ ٱلْحُبِّ فَهِيَ طَبِيْعَةُ ٱلدِّيْنِ .

وَلَا شَيْءَ فِيْ ٱلدُّنْيَا غَيْرُ ٱلْحُبِّ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَنْقُلَ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا نَارًا صَغِيْرَةً وَجَنَّةً صَغِيْرَةً ، بِقَدْرِ مَا يَكْفِيْ عَذَابَ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ أَوْ نَعِيْمَهَا ! وَهَـٰذِهِ حَالَةٌ فَوْقَ ٱلْبَشَرِيَّةِ .

وَٱلْفَضَائِلُ عَامَّتُهَا تَعْمَلُ فِيْ نَقْلِ ٱلإِنْسَانِ مِنْ حَيْوَانِيَّتِهِ ، وَقَدْ لَا تَنْقُلُ إِلَّا أَقَلَّهُ وَيَبْقَىٰ فِيْ ٱلْحَيْوَانِيَّةِ أَكْثَرُهُ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلْحُبَّ ٱلصَّادِقَ يَقْتَلِعُ ٱلإِنْسَانَ مِنْ حَيْوَانِيَّتِهِ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، بَيْدَ أَنَّهُ لَا يَكُوْنُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا قَتَلَهُ بِآلَامِهِ ؛ فَهُوَ كَأَعْلَىٰ ٱلنُّسُكِ وَٱلْعِبَادَةِ .

كَانَ مِنْ خَبَرِيْ أَنِّيْ دُعِيْتُ يَوْمًا إِلَىٰ مَا يُدْعَىٰ لِمِثْلِهِ ٱلشَّبَابُ فِيْ مَجْلِسِ غِنَاءٍ وَشَرَابٍ . يَا لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٦] ، وَٱلْبَعُوْضَةُ فِيْ قِصَّتِيْ أَنَا كَانَتِ ٱمْرَأَةً نَصْرَانِيَّةً . . . قَيْنَةَ فُلَانٍ ٱلْمُغَنِّيَةَ ٱلْحَاذِقَةَ ٱلْمُحْسِنَةَ ٱلْمُتَأَدِّبَةَ ، تَحْفَظُ ٱلْخَبَرَ وَتَرْوِيْ ٱلشِّعْرَ ، وَتَتَكَلَّمُ بِأَلْفَاظٍ فِيْهَا حَلَاوَةُ وَجْهِهَا ، وَتَخْلُقُ ٱلنُّكْتَةَ إِذَا شَاءَتْ خَلْقَ ٱلزَّهْرَةِ ٱلْمُتَفَتِّحَةِ عَلَيْهَا سَقِيْطُ ٱلنَّدَىٰ ؛ وَتَجِدُّ بِٱلْحَدِيْثِ مَا شَاءَتْ وَتَهْزِلُ ، فَتَجْعَلُ لِلْكَلَامِ عَقْلًا وَشَهْوَةً تُضَاعِفُ بِهِمَا مَنْ تُحَدِّثُهُ فِيْ شَهَوَاتِهِ وَعَقْلِهِ !

وَسَتَجْرِيْ فِيْ قِصَّتِهَا أَلْفَاظُ ٱلْقِصَّةِ نَفْسِهَا ، لَا أَتَأَثَّمُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَتَذَمَّمُ ؛ فَقَدْ ذَكَرَ ٱللهُ ٱلْخَمْرَ بِلَفْظِ ٱلْخَمْرِ وَلَمْ يَقُلْ : « ٱلْمَاءَ ٱلَّذِيْ فِيْهِ ٱلسُّكْرُ » ، وَوَصَفَ ٱلشَّيْطَانَ وَلَمْ يَقُلْ : « ٱلْمَلَكَ ٱلَّذِيْ عَمِلَ عَمَلَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْحَسْنَاءِ فِيْ تَكَبُّرِهَا » ، وَذَكَرَ ٱلأَصْنَامَ بِأَنَّهَا ٱلأَصْنَامُ ، وَلَمْ يُسَمِّهَا : « حَامِلَةَ ٱلسَّمَاءِ ٱلَّتِيْ يَصْنَعُهَا ٱلإِنْسَانُ بِيَدَيْهِ » وَحِكَايَةُ مَا بَيْنَ ٱلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ هِيَ كَلَامٌ يُقَبِّلُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَيَلْتَزِمُ وَيَتَعَانَقُ !

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : فَتَبَسَّمَ إِمَامُنَا وَنَظَرَتْ عَيْنَاهُ تَسْأَلَانِ سُؤَالًا . أَمَّا مُجَاهِدٌ ٱلأَزْدِيُّ فَكَانَ مِنْ هِزَّةِ ٱلطَّرَبِ كَأَنَّهُ عَلَىٰ قَتَبِ بَعِيْرٍ ، وَقَالَ : للهِ دَرُّهُ فَتًى ، إِنَّ هَـٰذَا لَبَيَانٌ كَحِيْلُ ٱلْعَيْنِ . . .

ثُمَّ قَالَ ٱلْفَتَىٰ : وَذَهَبْتُ إِلَىٰ ٱلْمَجْلِسِ وَقَدْ جَعَلَتْهُ هَـٰذِهِ ٱلْمُغَنِّيَةُ مِنْ حَوَاشِيْهِ وَأَطْرَافِهِ كَأَنَّهُ تَفْسِيْرٌ لَهَا هِيَ . أَمَّا هِيَ فَجَعَلَتْ نَفْسَهَا تَفْسِيْرًا لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ : « ٱللَّذَّةُ . . . » .

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَطَرِبَ مُجَاهِدٌ طَرَبًا شَدِيدًا وَسَمِعْتُهُ يُخَافِتُ بِصَوْتِهِ يَقُولُ : « لله دَرُّهَا ٱمْرَأَةً ؛ هَـٰذِهِ ، هَـٰذِهِ عَدُوَّةُ ٱلْحُورِ ٱلْعِينِ !» .

ثُمَّ قَالَ ٱلْفَتَىٰ : وَتَطَرَّبَ جَمَاعَةُ أَهْلِ ٱلْمَجْلِسِ إِلَى ٱلشُّرْبِ ، وَمَا ذُقْتُ خَمْرًا قَطُّ ، وَلَنْ أَتَذَوَّقَهَا وَلَوْ شَرِبَهَا ٱلنَّاسُ جَمِيعًا ، وَلَنْ أَذُوقَهَا وَلَوِ ٱنْقَطَعَ ٱلْغَيْثُ وَلَمْ تُمْطِرِ ٱلسَّمَاءُ إِلَّا خَمْرًا ؛ فَإِنِّي مُذْ كُنْتُ يَافِعًا رَأَيْتُ أَبِي يَشْرَبُهَا ، وَكَانَتْ أُمِّي تَلُومُهُ فِيهَا وَتَشْتَدُّ فِي تَعْنِيفِهِ وَتَحْتَدِمُ ، وَكَانَا يَتَشَاحَنَانِ فَيَنَالُهَا بِٱلْأَذَىٰ وَيَنْدَرِئُ عَلَيْهَا بِٱلسَّبِّ وَفُحْشِ ٱلْقَوْلِ ، وَسَكِرَ مَرَّةً وَغَلَبَهُ ٱلسُّكْرُ حَتَّىٰ ثَارَتْ أَحْشَاؤُهُ ، فَذَرَعَهُ ٱلْقَيْءُ فَتَوَهَّمَنِي وِعَاءً ، وَجَاءَ إِلَيَّ وَأَنَا جَالِسٌ فَأَمْسَكَ بِي وَقَاءَ فِي حِجْرِي ، حَتَّىٰ أَفْرَغَ جَوْفَهُ ؛ وَثَارَتْ أُمِّي لِتَنْزِعَهُ وَأَنْشَأَتْ تُعَالِجُهُ عَنِّي فَتَصَارَعَ جُنُونُهُ وَعَقْلُهَا حَتَّىٰ كَفَأَتْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ كَٱلْإِنَاءِ ؛ فَٱلْتَوَىٰ كَٱلْحَيَّةِ بَطْنًا لِظَهْرٍ ، وَٱسْتَجْمَعَ كَٱلْقُنْفُذِ فِي شَوْكِهِ ، ثُمَّ لَكَزَهَا بِرِجْلِهِ أَسْفَلَ بَطْنِهَا فَٱنْقَلَبَتْ ، فَأَصَابَ رَأْسُهَا إِجَّانَةَ[1] ٱلْعَجِينِ فَتَثَلَّمَ تَثْلِيمَ ٱلْإِنَاءِ كَأَنَّمَا شُدِخَ ضَرْبًا بِحَجَرٍ ، وَٱنْتَثَرَ دِمَاغُهَا عَلَى ٱلْأَرْضِ أَمَامَ عَيْنَيَّ ، وَرَأَيْتُهَا لَمْ تَزِدْ عَلَىٰ أَنْ دَفَعَتْ بِإِحْدَىٰ يَدَيْهَا فِي ٱلْهَوَاءِ ، وَضَمَّتْ بِٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ صَدْرِهَا ، تَتَوَهَّمُ أَنَّهَا تَحْمِينِي وَتَدْفَعُهُ عَنِّي ؛ ثُمَّ سَكَنَتْ ، وَلَوْ لَمْ تَمُتْ مِنَ ٱلشَّجَّةِ فِي رَأْسِهَا لَمَاتَتْ مِنَ ٱلضَّرْبَةِ فِي بَطْنِهَا !

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَأَطْرَقَ ٱلْفَتَىٰ هُنَيْهَةً وَأَطْرَقَ ٱلنَّاسُ مَعَهُ ؛ فَرَفَعَ مُجَاهِدٌ صَوْتَهُ وَقَالَ : رَحِمَهَا ٱللهُ ! فَقَالَ ٱلنَّاسُ جَمِيعًا : رَحِمَهَا ٱللهُ !

ثُمَّ قَالَ ٱلْفَتَىٰ : وَكَانَ عَامَّةُ مَنْ فِي ٱلْمَجْلِسِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنِّي ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَوْ سَاغَ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَشْرَبَ دَمَ أُمِّهِ مَا شَرِبْتُ أَنَا ٱلْخَمْرَ . فَقَالُوا لِلْمُغَنِّيَةِ : إِنَّ هَـٰذَا لَا يَدْخُلُ فِي دِيوَانِنَا[2] . فَنَظَرَتْ إِلَيَّ ، وَهَرَبْتُ أَنَا مِنْ نَظْرَتِهَا بِإِطْرَاقَةٍ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : تَشْرَبُ عَلَىٰ

(1) هِيَ مَا يُعْجَنُ فِيهِ ٱلْعَجِينُ وَتُغْسَلُ فِيهِ ٱلثِّيَابُ ، وَقَدْ يُوضَعُ فِيهَا ٱلْمَاءُ لِيُتَوَضَّأَ مِنْهُ ، وَتُتَّخَذُ مِنْ حَجَرٍ أَوْ خَزَفٍ أَوْ غَيْرِهِمَا .

(2) تَعْبِيرٌ قَدِيمٌ كَانُوا يُرِيدُونَ بِهِ ٱلشُّرْبَ ، كَأَنَّهُ دِيوَانُ مَلِكٍ .

وَجْهِي ؟ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ وَجْهَكِ يَقُولُ لِي : لَا تَشْرَبْ . . . فَتَضَاحَكَتْ وَقَالَتْ : أَهُوَ يَقُولُ لَكَ غَيْرَ مَا يَقُولُ لِهَـٰؤُلَاءِ ؟ فَهَرَبْتُ مِنْ كَلَامِهَا بِإِطْرَاقَةٍ أُخْرَىٰ ، وَوَصَلَتِ ٱلْإِطْرَاقَتَانِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ قَلْبِهَا ؛ وَتَنَبَّهَ فِيهَا مِثْلُ حُنُوِّ ٱلْأُمِّ عَلَىٰ طِفْلِهَا إِذَا آذَتْهُ بِلِسَانِهَا فَأَطْرَقَ سَاكِتًا يَشْكُوهَا إِلَىٰ قَلْبِهَا !

وَٱلْتَفَتَتْ لِمَنْ حَضَرَ وَقَالَتْ لَهُمْ : لَسْتُ أَطِيبُ لَكُمْ وَلَا تَنْتَفِعُونَ بِي إِلَّا أَنْ تَشْرَبُوا لِي وَلَهُ وَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَٱنْحَطَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّاقِي ، فَشَرِبُوا أَرْطَالًا وَأَرْطَالًا ، وَهِيَ بَيْنَ ذَلِكَ تُغَنِّيهِمْ وَقَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ وَخَلَا وَجْهُهَا لَهُمْ مِنْ دُونِي وَإِنَّمَا تُخَالِسُنِي ٱلنَّظْرَةَ بَعْدَ ٱلنَّظْرَةِ .

فَوَسْوَسَ لِي شَيْطَانِي أَنْ تَشَدَّدَ مَعَ هَـٰذِهِ بِمِثْلِ عَزْمَتِكَ مَعَ ٱلْخَمْرِ ، { فَإِنَّمَا هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ } . وَلَـٰكِنَّنِي كُنْتُ أُحِدُّ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهَا ، فَمَرَّةً أُوَامِقُهَا نَظْرَةَ ٱلْمُحِبِّ لِلْحَبِيبِ ، { وَمَرَّةً أُغْضِي عَنْهَا بِنَظْرَةٍ لَا تُنْظَرُ } ؛ وَكَأَنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ آخُذُهَا وَأَدَعُهَا ، وَأَصِلُهَا وَأَهْجُرُهَا . فَقَالَتْ لِي كَٱلْمُنْكِرَةِ عَلَيَّ : مَا بَالُكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ هَـٰكَذَا ؟ وَلَـٰكِنَّ هَيْأَةَ وَجْهِهَا جَعَلَتِ ٱلْمَعْنَىٰ : لَا تَنْظُرْ إِلَيَّ إِلَّا هَـٰكَذَا . . . !

وَأَسْرَعَ ٱلشَّرَابُ فِي ٱلْقَوْمِ وَأَفْرَطَ عَلَيْهِمُ ٱلسُّكْرُ ؛ فَبَقِيتُ لِي وَحْدِي وَبَقِيتُ لَهَا وَحْدَهَا ؛ ثُمَّ تَنَاوَلَتْ عُودَهَا وَضَمَّتْهُ إِلَيْهَا ضَمًّا شَدِيدًا أَكْثَرَ مِنَ ٱلضَّمِّ . . . وَأَلْمَسَتْهُ صَدْرَهَا وَنَهْدَيْهَا ، ثُمَّ رَنَتْ إِلَيَّ بِمَعْنًى ، فَمَا شَكَكْتُ أَنَّهَا ضَمَّةٌ لِي أَنَا وَٱلْعُودِ ؛ ثُمَّ غَنَّتْ هَـٰذَا ٱلصَّوْتَ [من الطويل] :

أَلَا قَاتَلَ ٱللهُ ٱلْحَمَامَةَ غُدْوَةً ‏ ‏ ‏ عَلَى ٱلْغُصْنِ ؛ مَاذَا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ ؟
فَمَا سَكَتَتْ حَتَّىٰ أَوَيْتُ لِصَوْتِهَا ‏ ‏ ‏ وَقُلْتُ : تُرَىٰ هَـٰذِي ٱلْحَمَامَةُ جُنَّتِ ؟

* * *

وَمَا وَجْدُ أَعْرَابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا ‏ ‏ ‏ صُرُوفُ ٱلنَّوَىٰ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَّتِ . . .
إِذَا ذَكَرَتْ مَاءَ ٱلْعِضَاهِ وَطِيبَهُ ‏ ‏ ‏ وَبَرْدَ ٱلْحِمَىٰ مِنْ بَطْنِ خَبْتٍ ، أَرَنَّتِ . . .
بِأَكْثَرَ مِنِّي لَوْعَةً ، غَيْرَ أَنَّنِي ‏ ‏ ‏ أُجَمْجِمُ أَحْشَائِي عَلَىٰ مَا أَجَنَّتِ !

وَغَنَّتْهُ غِنَاءً مِنْ قَلْبٍ يَئِنُّ ، وَصَدْرٍ يَتَنَهَّدُ ، وَأَحْشَاءٍ لَا تُخْفِي مَا أَجَنَّتْ ؛ وَكَانَتْ تَرْتَفِعُ

بِٱلصَّوْتِ ثُمَّ كَأَنَّمَا يَهْمِي ٱلدَّمْعُ عَلَىٰ صَوْتِهَا ، فَيَرْتَعِشُ وَيَتَنَزَّلُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّىٰ يَئِنَّ أَنِينَ ٱلْبَاكِيَةِ ، ثُمَّ يَعْتَلِجُ فِي صَدْرِهَا مَعَ ٱلْحُبِّ ، فَيَتَرَدَّدُ عَالِيًا وَنَازِلًا ، ثُمَّ يَرْفَضُّ ٱلْكَلَامُ فِي آخِرِهِ دُمُوعًا تَجْرِي .

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : فَنَظَرَ إِلَيَّ مُجَاهِدٌ وَقَالَ : عَدُوَّةُ ٱلْجَنَّةِ وَٱللهِ هَـٰذِهِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، لَا تَقْبَلُ ٱلْجَنَّةُ مَنْ يَكُونُ مَعَهَا . تَقُولُ لَهُ : كُنْتَ مَعَ عَدُوَّتِي !

ثُمَّ قَالَ ٱلْفَتَىٰ : وَكَانَ ٱلْقَوْمُ قَدِ ٱنْتَشَوْا ، فَٱعْتَرَاهُمْ نِصْفُ ٱلنَّوْمِ وَبَقِيَ نِصْفُ ٱلْيَقَظَةِ فِي حَوَاسِّهِمْ ، فَكُلُّ مَا رَأَوْهُ مِنَّا رَأَوْهُ كَأَحْلَامٍ لَا وُجُودَ لَهَا إِلَّا خَلْفَ أَجْفَانِهِمُ ٱلْمُثْقَلَةِ سُكْرًا وَنُعَاسًا . وَوَثَبَتِ ٱلْمُغَنِّيَةُ فَجَاءَتْ إِلَىٰ جَانِبِي وَٱلْتَصَقَتْ بِي ، وَأَسْرَعَ ٱلشَّيْطَانُ فَوَسْوَسَ لِي : أَنِ ٱحْذَرْ فَإِنَّكَ رَجُلُ صِدْقٍ ، وَإِذَا صَدَقْتَ فِي ٱلْخَمْرِ فَلَا تَكْذِبَنَّ فِي هَـٰذِهِ ، وَلَئِنْ مَسَسْتَهَا إِنَّهَا لَضَيَاعُكَ آخِرَ ٱلدَّهْرِ !

فَعَجِبْتُ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانِي أَسْلَمَ وَأُعِنْتُ عَلَيْهِ كَمَا أُعِينَ ٱلْأَنْبِيَاءُ عَلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ . وَلَـٰكِنَّ ٱللَّعِينَ مَضَىٰ يَصُدُّنِي عَنِ ٱلْمَرْأَةِ دُونَ مَعَانِيهَا ، وَكَانَ مِنِّي كَٱلَّذِي يُدْنِي ٱلْمَاءَ مِنْ عَيْنَيِ ٱلْقَتِيلِ ٱلْمُتَلَهِّبِ جَوْفُهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ دَائِمًا فَوْتَ فَمِهِ ، وَلَقَدْ كُنْتُ مِنَ ٱلْفُحُولَةِ بِحَيْثُ يَبْدُو لِي مِنْ شِدَّةِ ٱلْفَوْرَةِ فِي دَمِي وَشَبَابِي أَنِّي[1] أَجْمَعُ فِي جِسْمِي رِجَالًا عِدَّةً ، وَلَـٰكِنْ ضَرَبَنِي ٱلشَّيْطَانُ بِٱلْخَجَلِ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكُونَ رَجُلًا مَعَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ .

وَعَجِبَتْ هِيَ لِذَٰلِكَ وَمَا أَسْرَعَ مَا نَطَقَ ٱلشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسَانِهَا بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ . . . !

فَقَالَتْ : لَقَدْ أَحْبَبْتُكَ مَا لَمْ أُحِبَّ أَحَدًا ، وَأَحْبَبْتُ خَجَلَكَ أَكْثَرَ مِنْكَ ، فَمَا يَسُرُّنِي أَنْ تَأْثَمَ فِيَّ فَتَدْخُلَ ٱلنَّارَ بِحُبِّي ، وَلَوْ أَنَّكَ ٱبْتَعْتَنِي مِنْ مَوْلَايَ ؟ فَقُلْتُ : بِكَمِ ٱشْتِرَاكِ ؟ قَالَتْ : بِأَلْفِ دِينَارٍ ! قُلْتُ : وَأَيْنَ هِيَ مِنِّي وَأَنَا لَوْ بِعْتُ نَفْسِي مَا حَصَلَتْ لِي ؟

فَتَمَّمَ ٱلشَّيْطَانُ مَوْعِظَتَهُ ، وَقَالَتْ { وَأَشَارَتْ إِلَىٰ قَلْبِهَا } : إِنَّ قَلْبِي { هَـٰذَا } قَبِلَكَ غَنِيًّا كُنْتَ أَوْ فَقِيرًا ، وَأَحَسَّ بِكَ وَحْدَكَ حُبَّ ٱلْعَذْرَاءِ أَوَّلَ مَا تُحِبُّ ، وَأَنَا ـ كَمَا تَرَانِي ـ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « أَنْ » بَدَلًا مِنْ : « أَنِّي » .

أَعِيشُ فِي ٱلسَّيِّئَاتِ كَٱلْمُكْرَهَةِ عَلَيْهَا ، فَسَأَعْمَلُ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ حَسَنَتِي عِنْدَ ٱللهِ ، أَذْهَبُ إِلَيْهِ حَامِلَةً فِي قَلْبِي حُبِّي إِيَّاكَ وَعِفَّتِي عَنْكَ ، وَلَئِنْ كَانَتْ عِفَّةُ مَنْ لَا يَشْتَهِي وَلَا يَجِدُ تُعَدُّ فَضِيلَةً كَامِلَةً ، إِنَّ عِفَّةَ مَنْ يَجِدُ وَيَشْتَهِي لَتُعَدُّ دِينًا بِحَالِهِ . وَلَا يَزَالُ حُبِّي بِكْرًا ، وَلَا أَزَالُ فِي ذَٰلِكَ عَذْرَاءَ ٱلْقَلْبِ ، وَهَـٰؤُلَاءِ قَدْ نَزَعُوا ٱلْحَيَاءَ عَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِهِمْ ، فَٱلْبِسْنِيهِ أَنْتَ مِنْ أَجْلِكَ خَاصَّةً ؛ وَإِنَّ قُوَّةَ حُبِّي كَٱلَّذِي سَيَتَأَلَّمُ بِكَ وَيَتَعَذَّبُ مِنْكَ لِطُولِ مَا يَصْبِرُ عَنْكَ ، سَتَكُونُ هِيَ بِعَيْنِهَا قُوَّةً لِفَضِيلَتِي وَطَهَارَتِي .

ثُمَّ تَنَاوَلَتْ عُودَهَا وَسَوَّتْهُ وَغَنَّتْ [من الوافر] :

فَلَوْ أَنَّا عَلَىٰ حَجَرٍ ذُبِحْنَا جَرَى ٱلدَّمَيَانِ بِٱلْخَبَرِ ٱلْيَقِينِ[1]

وَجَعَلَتْ تَتَأَوَّهُ فِي غِنَائِهَا كَأَنَّهَا تُذْبَحُ ذَبْحًا ، ثُمَّ وَضَعَتِ ٱلْعُودَ جَانِبًا وَقَالَتْ : مَا أَشْقَانِي ! إِذَا ٱتَّفَقَتْ لِي سَاعَةُ زَوَاجِي فِي غَيْرِ وَقْتِهَا فَجَاءَتْ كَٱلْحُلْمِ يَأْتِي بِخَيَالِ ٱلزَّمَنِ فَلَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِلَّا خَيَالُ ٱلْأَشْيَاءِ .

ثُمَّ سَأَلَتْنِي : مَا بَالُكَ لَمْ تَشْرَبِ ٱلْخَمْرَ وَلَمْ تَدْخُلْ فِي ٱلدِّيْوَانِ ؟ فَبَدَرَ شَيْطَانِي ٱلْمُؤْمِنُ . . . وَسَاقَ فِي لِسَانِي خَبَرَ أُمِّي وَأَبِي ، فَٱنْتَضَحَتْ عَيْنَاهَا بَاكِيَةً وَتَمَّ لَهَا رَأْيٌ فِيَّ كَرَأْيِي أَنَا فِي ٱلْمُسْكِرِ ؛ وَكَانَ شَيْطَانُهَا بَعْدَ ذَٰلِكَ شَيْطَانًا خَبِيثًا مَعَ أَصْحَابِهَا ، وَبَطْرِيقًا زَاهِدًا مَعِي أَنَا وَحْدِي !

وَرَأَيْتُهَا لَا تُجَالِسُنِي إِلَّا مُتَزَايِلَةً كَٱلْعَذْرَاءِ ٱلْخَفِرَةِ إِذَا ٱنْقَبَضَتْ وَغَطَّتْ وَجْهَهَا ، وَصَارَتْ تَخَافُنِي لِأَنَّهَا تُحِبُّنِي ، وَهَيَّبَنِي ٱلشَّيْطَانُ إِلَيْهَا فَعَادَتْ لَا تَرَىٰ فِيَّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي هُوَ تَحْتَ عَيْنَيْهَا ٱلثَّيِّبَيْنِ . . . وَلَـٰكِنِ ٱلْقِدِّيسَ ٱلَّذِي تَحْتَ قَلْبِهَا ٱلْبِكْرِ .

وَلَمْ يَعُدْ جَمَالِي هُوَ ٱلَّذِي يُعْجِبُهَا وَيُصْبِيهَا ، بَلْ كَانَ يُعْجِبُهَا مِنِّي أَنِّي صَنْعَةُ فَضِيلَتِهَا ٱلَّتِي لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا غَيْرِي . . .

* * *

(١) كَانَتِ ٱلْعَرَبُ تَزْعُمُ أَنَّهُ إِذَا قُتِلَ ٱثْنَانِ فَجَرَىٰ دَمَاهُمَا عَلَىٰ طَرِيقٍ وَاحِدٍ ثُمَّ ٱلْتَقَيَا ، حُكِمَ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا كَانَا مُتَحَابَّيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يَلْتَقِيَا حُكِمَ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا كَانَا مُتَشَانِئَيْنِ . وَمَا أَجْمَلَهَا خُرَافَةً وَأَشْعَرَهَا .

وَٱنْطَلَقَ ٱلشَّيْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فِيَّ وَفِيهَا بِدَهَائِهِ وَحِنْكَتِهِ وَبِكُلِّ مَا جَرَّبَ فِي ٱلنِّسَاءِ وَٱلرِّجَالِ مِنْ لَدُنِ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَىٰ يَوْمِي وَيَوْمِهَا . . . ! فَكَانَ يَجْذِبُنِي إِلَيْهَا أَشَدَّ ٱلْجَذْبِ ، وَيَدْفَعُهَا عَنِّي أَقْوَىٰ ٱلدَّفْعِ ، ثُمَّ يُغْرِينِي بِكُلِّ رَذَائِلِهَا وَلَا يُغْرِيهَا هِيَ إِلَّا بِفَضَائِلِي . وَأَلْقَىٰ مِنْهَا فِي دَمِي فِكْرَةَ شَهْوَةٍ مَجْنُونَةٍ مُتَقَلِّبَةٍ ، وَأَلْقَىٰ مِنِّي فِي دَمِهَا فِكْرَةَ حِكْمَةٍ رَزِينَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ . وَكُنْتُ أَلْقَاهَا كُلَّ يَوْمٍ وَأَسْمَعُ غِنَاءَهَا ؛ فَمَا هُوَ بِٱلْغِنَاءِ وَلَـٰكِنَّهُ صَوْتُ كُلِّ مَا فِيهَا لِكُلِّ مَا فِيَّ ، حَتَّىٰ لَوِ ٱلْتَصَقَ جِسْمُهَا بِجِسْمِي وَسَارَّ ٱلْبَدَنُ ٱلْبَدَنَ ، وَهَمَسَ ٱلدَّمُ لِلدَّمِ ، لَكَانَ هُوَ هَـٰذَا ٱلْغِنَاءَ ٱلَّذِي تُغَنِّيهِ .

وَأَصْبَحْتُ كُلَّمَا ٱسْتَقَمْتُ لِحُبِّهَا تَلَوَّتْ عَلَيَّ ؛ إِذْ لَسْتُ عِنْدَهَا إِلَّا ٱلْأَمَلَ فِي ٱلْمَغْفِرَةِ وَٱلثَّوَابِ ، وَكَأَنَّمَا مُسِخْتُ حَبْلًا طُولُهُ مِنْ هُنَا إِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ لِتَتَعَلَّقَ بِهِ . وَعَادَ ٱمْتِنَاعُهَا مِنِّي جُنُونًا دِينِيًّا مَا يُفَارِقُهَا ، فَٱبْتَلَانِي هَـٰذَا بِمِثْلِ ٱلْجُنُونِ فِي حُبِّهَا مِنْ كَلَفٍ وَشَغَفٍ .

وَٱنْحَصَرَتْ نَفْسِي فِيهَا ، فَرَجَعْتُ مَعَهَا أَشَدَّ غَبَاوَةً مِنَ ٱلْجَاهِلِ يَنْظُرُ إِلَىٰ مَدِّ بَصَرِهِ مِنَ ٱلْأُفُقِ فَيَحْكُمُ أَنَّ هَـٰهُنَا نِهَايَةَ ٱلْعَالَمِ ، وَمَا هَـٰهُنَا إِلَّا آخِرُ بَصَرِهِ وَأَوَّلُ جَهْلِهِ . وَٱنْفَلَتَ مِنِّي زِمَامُ رُوحِي ، وَٱنْكَسَرَ مِيزَانُ إِرَادَتِي ، وَٱخْتَلَّ ٱسْتِوَاءُ فِكْرِي ، فَأَصْبَحْتُ إِنْسَانًا مِنَ ٱلنَّقَائِضِ ٱلْمُتَعَادِيَةِ ، أَجْمَعُ ٱلْيَقِينَ وَٱلشَّكَّ فِيهِ ، وَٱلْحُبَّ وَٱلْبُغْضَ لَهُ ، وَٱلْأَمَلَ وَٱلْخَيْبَةَ مِنْهُ ، وَٱلرَّغْبَةَ وَٱلْعُزُوفَ عَنْهَا . وَفِي أَقَلَّ مِنْ هَـٰذَا يُخْطَفُ ٱلْعَقْلُ ، وَيَتَدَلَّهُ مَنْ يَتَدَلَّهُ .

ثُمَّ ٱبْتُلِيتُ مَعَ هَـٰذَا ٱللَّمَمِ بِجُنُونِ ٱلْغَيْظِ مِنِ ٱبْتِذَالِهَا لِأَصْحَابِهَا وَعِفَّتِهَا مَعِي ، فَكُنْتُ أَتَطَايَرُ قِطَعًا بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ وَأَجِدُ عَلَيْهَا وَأَتَنَكَّرُ لَهَا ، وَهِيَ فِي كُلِّ ذَلِكَ لَا تَزِيدُنِي عَلَىٰ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلرَّهْبَانِيَّةِ ؛ فَكَانَ يَطِيرُ بِعَقْلِي أَنْ أَرَىٰ جِسْمَهَا نَارًا مُشْتَعِلَةً ، ثُمَّ إِذَا أَنَا رُمْتُهُ ٱسْتَحَالَ ثَلْجًا ، وَقَرَّحَتِ ٱلْغَيْرَةُ قَلْبِي وَفَتَّتَتْ كَبِدِي مِنْ عَابِدَةِ ٱلشَّيْطَانِ مَعَ ٱلْجَمِيعِ ، ٱلرَّاهِبَةِ مَعَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَقَطْ . . . !

وَرَجَعَتْ خَوَاطِرِي فِيهَا مِمَّا يُعْقَلُ وَمَا لَا يُعْقَلُ ؛ فَكُنْتُ أَرَىٰ بَعْضَهَا كَأَنَّهُ رَاجِعٌ مِنْ سَفَرٍ طَوِيلٍ عَنْ حَبِيبٍ فِي آخِرِ ٱلدُّنْيَا ، وَبَعْضَهَا كَأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ دَارِ حَبِيبٍ فِي جِوَارِي ، وَبَعْضَهَا كَأَنَّهُ ذَاهِبٌ بِي إِلَىٰ ٱلْمَارِسْتَانِ . . . !

وَرَأَيْتُنَا كَأَنَّنَا فِي عَالَمَيْنِ لَا صِلَةَ بَيْنَهُمَا ، وَنَحْنُ مَعًا قَلْبًا إِلَىٰ قَلْبٍ ، فَذَهَبَ هَـٰذَا بِٱلْبَقِيَّةِ ٱلَّتِي بَقِيَتْ مِنْ عَقْلِي ؛ وَلَمْ أَرَ لِي مَنْجَاةً إِلَّا فِي قَتْلِ نَفْسِي لِأُزْهِقَ هَـٰذَا ٱلْوَحْشَ ٱلَّذِي فِيهَا .

وَذَهَبْتُ فَٱبْتَعْتُ شُعَيْرَاتٍ مِنَ ٱلسُّمِّ ٱلْوَحِيِّ ٱلَّذِي يُعَجِّلُ بِٱلْقَتْلِ ، وَأَخَذْتُهَا فِي كَفِّي وَهَمَمْتُ أَنْ أَقْمَحَهَا وَأَبْتَلِعَهَا ، فَذَكَرْتُ أُمِّي ، فَظَهَرَتْ لِخَيَالِي مَشْدُوخَةَ ٱلرَّأْسِ فِي هَيْأَةِ مَوْتِهَا ، وَإِلَىٰ جَانِبِهَا هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ فِي هَيْأَةِ جَمَالِهَا ، وَثَبَتَتْ عَلَىٰ عَيْنَيَّ هَـٰذِهِ ٱلرُّؤْيَا ، وَأَدْمَنْتُ ٱلنَّظَرَ فِيهَا طَوِيلًا فَإِذَا أَنَا رَجُلٌ آخَرُ غَيْرُ ٱلْأَوَّلِ ، وَإِذَا ٱلْمَرْأَةُ غَيْرُ تِلْكَ ، وَطَغَتْ عِبْرَةُ ٱلْمَوْتِ عَلَىٰ شَهْوَةِ ٱلْحَيَاةِ فَمَحَتْهَا ، وَصَحَّ عِنْدِي مِنْ يَوْمِئِذٍ أَنْ لَا عِلَاجَ مِنْ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ إِلَّا أَنْ تُقْرَنَ فِي ٱلنَّفْسِ صُورَةُ ٱمْرَأَةٍ مَيْتَةٍ إِلَىٰ صُورَةِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْحَيَّةِ ، وَكُلَّمَا ذُكِرَتْ هَـٰذِهِ جِيءَ لَهَا بِتِلْكَ ، فَإِذَا ٱسْتَمَرَّ ذَلِكَ فَإِنَّ ٱلْمَيِّتَةَ تُمِيتُهَا فِي ٱلنَّفْسِ وَتُمِيتُ ٱلشَّهْوَةَ إِلَيْهَا ، مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ ، فَلْيُجَرِّبْهُ مَنْ شَكَّ فِيهِ .

وَٱنْفَتَحَ لِي رَأْيٌ عَجِيبٌ ، فَجَعَلْتُ أَتَأَمَّلُ كَيْفَ آمَنَ شَيْطَانِي ثُمَّ كَفَرَ بَعْدُ ، عَلَىٰ أَنَّ شَيْطَانَهَا هِيَ كَفَرَ فِي ٱلْأَوَّلِ ثُمَّ آمَنَ فِي ٱلْآخِرِ ؟ فَوَٱللهِ مَا كُنْتُ إِلَّا غَبِيًّا خَامِدَ ٱلْفِطْنَةِ ، إِذْ لَمْ يَسْنَحْ لِيَ ٱلصَّوَابُ حَتَّىٰ كِدْتُ أُزْهِقُ نَفْسِي وَأَخْسَرُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ؛ فَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ ـ لَعَنَهُ ٱللهُ ـ إِنَّمَا رَدَّنِي عَنِ ٱلْفَاحِشَةِ وَهِيَ ذَنْبٌ وَاحِدٌ ، لِيَرْمِيَنِي بَعْدَهَا فِي ٱلذُّنُوبِ كُلِّهَا بِٱلْمَوْتِ عَلَىٰ ٱلْكُفْرِ !

وَرَدَّ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْخَاطِرُ مَا عَزَبَ مِنْ عَقْلِي . وَمَنِ ٱبْتُلِيَ بِبَلَاءٍ شَدِيدٍ يُزَلْزِلُ يَقِينَهُ ثُمَّ أَبْصَرَ ٱلْيَقِينَ ، جَاءَ مِنْهُ شَخْصٌ كَأَنَّمَا خُلِقَ لِسَاعَتِهِ ؛ فَلَعَنْتُ شَيْطَانِي وَٱسْتَعَذْتُ بِٱللهِ مِنْ مَكْرِهِ ، وَأَلْقَيْتُ ٱلسُّمَّ فِي ٱلتُّرَابِ وَغَيَّبْتُهُ فِيهِ ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي : وَيْحَكِ يَا نَفْسُ ! إِنَّ ٱلْحَيَاةَ تَعْمَلُ عَمَلًا بِٱلْحَيِّ ، أَفَتَرْضِينَ أَنْ تَعْمَلَ ٱلْحَيَاةُ بِأَبْطَالِهَا وَرِجَالِهَا مَا عَرَفْتِ وَمَا عَلِمْتِ ، ثُمَّ يَكُونُ عَمَلُهَا بِكِ أَنْتِ ٱلْقُعُودَ نَاحِيَةً وَٱلْبُكَاءَ عَلَىٰ ٱمْرَأَةٍ ؟

أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ! مَا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ سَرِقَةِ لَحْمٍ مِنْ دُكَّانِ قَصَّابٍ ، وَبَيْنَ سَرِقَةِ لَحْمِ ٱمْرَأَةٍ مِنْ دَارِ أَبِيهَا ، أَوْ زَوْجِهَا ، أَوْ مَوْلَاهَا . . . ؟

أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ! إِنَّمَا إِيمَانُ أَسْلَافِنَا مَعَنَا ؛ إِنَّ ٱلْإِسْلَامَ فِي ٱلْمُسْلِمِ .

❊ ❊ ❊

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَهُنَا طَاشَ مُجَاهِدٌ وَٱسْتَخَفَّهُ ٱلطَّرَبُ ، فَصَاحَ صَيْحَةَ ٱلنَّصْرِ : ٱللهُ أَكْبَرُ ! وَجَاوَبَهُ أَهْلُ ٱلْمَسْجِدِ فِي صَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ : ٱللهُ أَكْبَرُ ! وَلَمْ يَكَدْ يَهْتِفُ بِهَا ٱلنَّاسُ حَتَّىٰ ٱرْتَفَعَتْ صَيْحَةُ ٱلْمُؤَذِّنِ لِصَلَاةِ ٱلْمَغْرِبِ . ٱللهُ أَكْبَرُ . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلِانْتِحَار[*]
٦
تَتِمَّةٌ

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَٱنْفَضَّ مَجْلِسُ ٱلشَّيْخِ ، وَدَرَجَتْ بَعْدَهُ أَعْوَامٌ فِي عِدَّةِ ٱلشُّهُورِ مِنْ حَمْلِ ٱلْمَرْأَةِ ، بَلَغَتْ فِيهَا أُمُورُ ٱلنَّاسِ مَبْلَغَهَا مِنْ خَيْرِ ٱلدُّنْيَا وَشَرِّهَا ، مِمَّا أَعْرِفُ وَمَا لَا أَعْرِفُ ؛ وَدَخَلْتُ ٱلْبَصْرَةَ أَنَا وَمُجَاهِدٌ ٱلْأَزْدِيُّ ، نَسْمَعُ ٱلْحَسَنَ[1] وَنَأْخُذُ عَنْهُ ؛ فَإِنَّا لَسَائِرَانِ يَوْمًا فِي سِكَّةِ بَنِي سَمُرَةَ ، إِذْ وَافَقْنَا ٱلْفَتَىٰ صَاحِبَ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ مُقْبِلًا عَلَيْنَا ، وَكُنَّا فَقَدْنَاهُ تِلْكَ ٱلْمُدَّةَ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ فَٱلْتَزَمَهُ وَقَالَ : مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِذِي نَسَبٍ إِلَى ٱلْقَلْبِ . وَسَلَّمْتُ بَعْدَهُ وَعَانَقْتُهُ ، ثُمَّ أَقْبَلْنَا نَسْأَلُهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا كَانَ آخِرُ أَوَّلِكَ ؟

قَالَ مُجَاهِدٌ : بَلْ مَا كَانَ آخِرُ أَوَّلِهَا هِيَ ؟

فَضَحِكَ ٱلرَّجُلُ وَقَالَ : أَٱلنَّصْرَانِيَّةَ تَعْنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : آخِرُهَا مِنْ أَوَّلِهَا كَهَـٰذَا مِنِّي ؛ وَأَوْمَأَ إِلَىٰ ظِلِّهِ فِي ٱلْأَرْضِ مَمْدُودًا مَشْبُوحًا مُخْتَلِطًا غَيْرَ مُتَمَيِّزٍ ؛ كَأَنَّهُ ثَوْبٌ مَنْشُورٌ لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ ، وَكُنَّا فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلَّتِي يَصِيرُ فِيهَا ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْهِ فَهُوَ مَزْجُ ٱلْمَسْخِ بِٱلْمَسْخِ . . .

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٠ ، ٢ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ٣ يونيو/حزيران ١٩٣٥ ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٨٨٣ ـ ٨٨٧ .

(1) ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ : ٱلْإِمَامُ ٱلْعَظِيمُ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : مَا أَفَظَّ جَوَابَكَ وَأَثْقَلَهُ يَا رَجُلُ ! كَأَنَّهُ وَٱللهِ تَاجِرٌ لَا صِلَةَ لَهُ بِٱلْأَشْيَاءِ إِلَّا مِنْ أَثْمَانِهَا ؛ فَنَظَرُهُ إِلَىٰ فَرَاهَةِ ٱلدَّابَّةِ مِنَ ٱلدَّوَابِّ وَإِلَىٰ فَرَاهَةِ ٱلْجَارِيَةِ مِنَ ٱلرَّقِيقِ سَوَاءٌ .

قَالَ ٱلرَّجُلُ : فَأَنَا وَٱللهِ تَاجِرٌ ، وَأَنَا عَلَىٰ طَرِيقِ ٱلْإِيوَانِ[1] ٱلَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ تُجَّارُ ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ وَخُرَاسَانَ ؛ وَقَدْ ضَرَبْتُ فِي هَـٰذِهِ ٱلتِّجَارَاتِ وَحَسُنَتْ بِهَا حَالِي وَتَأَثَّلْتُ مِنْهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ قَلْبَ ٱلتَّاجِرِ غَيْرُ ٱلتَّاجِرِ ، فَلَيْسَ يَزِنُ وَلَا يَقْبِضُ ، وَلَا يَبِيعُ وَلَا يَشْتَرِي . أَمَّا « تِلْكَ » فَأَصْبَحَتْ نِسْيَانًا ذَهَبَ لِسَبِيلِهِ فِي ٱلزَّمَنِ !

قَالَ مُجَاهِدٌ : فَكَيْفَ كُنْتَ تَرَاهَا وَكَيْفَ عُدْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا ؟

قَالَ : كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا بِعَيْنَيَّ وَأَفْكَارِي وَشَهَوَاتِي ؛ فَكَانَتْ بِذَٰلِكَ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهَا وَمِنَ ٱلنِّسَاءِ ، وَكَانَتْ أَلْوَانًا أَلْوَانًا مَا تَنْقَضِي ، فَلَمَّا دَخَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ٱلزَّمَنُ وَٱلْعَقْلُ ، أَبْعَدَهَا هَـٰذَا عَنْ قَلْبِي وَأَبْعَدَهَا ذَاكَ عَنْ خَيَالِي ؛ فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا بِعَيْنَيَّ وَحْدَهُمَا ، فَرَجَعَتِ ٱمْرَأَةً كَكُلِّ ٱمْرَأَةٍ ؛ وَبِنُزُولِهَا مِنْ نَفْسِي هَـٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةَ ، رَجَعَتْ أَقَلَّ مِنْ نَفْسِهَا وَمِنَ ٱلنِّسَاءِ ، وَهَـٰذِهِ ٱلْقِلَّةُ فِيمَا عَرَفْتُ لَا تُصِيبُ ٱمْرَأَةً عِنْدَ مُحِبِّهَا إِلَّا فَعَلَتْ بِجَمَالِهَا مِثْلَمَا تَفْعَلُهُ ٱلشَّيْخُوخَةُ بِجِسْمِهَا ، فَأَدْبَرَتْ بِهِ ثُمَّ أَدْبَرَتْ وَٱسْتَمَرَّتْ تُدْبِرُ !

وَأَنْتَ إِذَا أَبْصَرْتَ ٱمْرَأَةً شَيْخَةً قَدْ ذَهَبَتِ ٱلَّتِي كَانَتْ فِيهَا . . . وَأَخْطَرْتَ فِي ذِهْنِكَ نِيَّةً مِمَّا بَيْنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ ، فَهَلْ تُرَاكَ وَاجِدًا ٱلشَّهْوَةَ وَٱلْمَيْلَ إِلَّا ٱلنُّفْرَةَ وَٱلْمَعْصِيَةَ ؟ إِنَّ هَـٰذَا ٱلَّذِي كَانَ ٱلْحُبَّ وَٱلْهَوَىٰ وَٱلْعِشْقَ ، هُوَ بِعَيْنِهِ ٱلَّذِي صَارَ ٱلْإِثْمَ وَٱلذَّنْبَ وَٱلضَّلَالَةَ !

قَالَ مُجَاهِدٌ : كَأَنَّكَ لَمَّا ذَهَبْتَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ مِنْ حُبِّهَا قَتَلْتَهَا هِيَ فِي نَفْسِكَ ؟ قَالَ : يَا رَحْمَةً قَدْ رَحِمَتْ بِهَا نَفْسِي يَوْمَئِذٍ ! أَمَا وَٱللهِ إِنَّ ٱلَّذِي يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ حُبِّ ٱمْرَأَةٍ لَغَبِيٌّ . وَيْحَهُ ! فَلْيَتَخَلَّصْ مِنْ هَـٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلْحَيَاةِ لَا مِنَ ٱلْحَيَاةِ نَفْسِهَا . وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ لِلْحُبِّ طَرَفَيْنِ : أَحَدُهُمَا فِي ٱللَّذَّةِ ، وَٱلْآخَرُ فِي ٱلْحَمَاقَةِ ؛ مَا مِنْهُمَا بُدٌّ . فَهَـٰذَا ٱلْحُبُّ يُلْقِي صَاحِبَهُ فِي ٱلْأَحْلَامِ وَيُغَشِّي بِهَا عَلَىٰ بَصَرِهِ ، ثُمَّ إِنْ هُوَ ٱتَّجَهَ بِطَرَفِهِ ٱلسَّعِيدِ إِلَىٰ حَظِّهِ ٱلْمُقْبِلِ وَٱتَّفَقَتِ ٱللَّذَّةُ لِلْمُحِبِّ ، أَيْقَظَتْهُ ٱللَّذَّةُ مِنْ أَحْلَامِهِ ؛ وَإِنِ ٱتَّجَهَ ٱلْحُبُّ بِطَرَفِهِ ٱلشَّقِيِّ إِلَىٰ حَظِّهِ

(1) هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ خَيْرُ مَا يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ (ٱلْبُورْصَةِ) ، { وَكَذَٰلِكَ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا } .

ٱلْمُدْبِرِ ، وَقَعَتِ ٱلْحَمَاقَاتُ فُنُونًا شَتَّىٰ بَيْنَ ٱلْحَبِيبَيْنِ ، وَفَعَلَتْ آخِرًا فِعْلَ ٱللَّذَّةِ ، فَأَيْقَظَتِ ٱلْعَاشِقَ مِنْ أَحْلَامِهِ أَيْضًا . وَهَـٰذَا تَدْبِيرٌ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ فِي تِلْكَ ٱلْقُوَّةِ ٱلْمُدَمِّرَةِ ٱلْمُسَمَّاةِ ٱلْحُبَّ . أَفَلَا يَدُلُّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ أَنَّ ٱللَّذَّةَ وَهْمٌ مِنَ ٱلْأَوْهَامِ مَا دَامَ تَحَقُّقُهَا هُوَ فَنَاءَهَا .

خُذْ عَنِّي يَا مُجَاهِدُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ : « لَيْسَ ٱلْكَمَالُ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَلَا مِنْ طَبِيعَتِهَا ، وَلَا هُوَ شَيْءٌ يُدْرَكُ ، وَلَـٰكِنَّ مِنْ عَظَمَةِ ٱلْكَمَالِ أَنَّ ٱسْتِمْرَارَ ٱلْعَمَلِ لَهُ هُوَ إِدْرَاكُهُ » .

قَالَ مُجَاهِدٌ : لَقَدْ عَلِمْتَ بَعْدَنَا عِلْمًا ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَـٰذَا وَعَمَّنْ أَخَذْتَ ؟

قَالَ : عَنِ ٱلسَّمَاءِ !

قَالَ : وَيْلَكَ ! أَيْنَ عَقْلُكَ ، فَهَلْ نَزَلَ عَلَيْكَ ٱلْوَحْيُ ؟

قَالَ ٱلرَّجُلُ : لَا ، وَلَـٰكِنْ تَعَالَيَا مَعِي إِلَى ٱلدَّارِ فَأُحَدِّثَكُمَا .

* * *

قَالَ ٱلْمُسَيَّبُ : وَذَهَبْنَا مَعَهُ ؛ فَأُتِينَا بِطَعَامٍ نَظِيفٍ فَأَكَلْنَا ، وَأَشْعَرَتْنَا ٱلدَّارُ أَنَّ رَبَّهَا قَدْ وَقَعَ فِي مَا شَاءَ مِنْ دُنْيَاهُ وَتَوَاصَلَتْ عَلَيْهِ ٱلنِّعْمَةُ ؛ فَلَمَّا غَسَلْنَا أَيْدِيَنَا قَالَ مُجَاهِدٌ : هِيهِ يَا أَبَا . . . يَا أَبَا مَنْ ؟ قَالَ : أَبُو عُبَيْدٍ . قَالَ : هِيهِ يَا أَبَا عُبَيْدٍ . . .

فَأَفْكَرَ ٱلرَّجُلُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : عَهْدُكُمَا بِي مُنْذُ تِسْعٍ فِي مَجْلِسِ ٱلْإِمَامِ ٱلشَّعْبِيِّ بِٱلْكُوفَةِ ؛ وَقَدْ كُنْتُ فِي بَقِيَّةٍ مِنَ ٱلنِّعْمَةِ أَتَجَمَّلُ بِهَا ، وَكَانَتْ تُمْسِكُنِي عَلَىٰ مَوْضِعِي فِي أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ؛ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ ٱلْبَقِيَّةُ تَدِقُّ وَتَنْفَضُّ حَتَّىٰ نَكِدَ عَيْشِي وَوَقَعْتُ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْمُقْعَدَةِ ٱلَّتِي لَا تَمْشِي بِصَاحِبِهَا ، وَٱنْقَلَبَ ٱلزَّمَنُ كَٱلْعَدُوِّ ٱلْمُغِيرِ جَاءَ لِيَصْطَلِمَ وَيُخَرِّبَ وَيُفْسِدَ ، فَأَثَّرَ فِيَّ أَقْبَحَ آثَارِهِ ، فَبِعْتُ مَا بَقِيَ لِي وَتَحَمَّلْتُ عَنِ ٱلْكُوفَةِ إِلَى ٱلْبَصْرَةِ ، وَقُلْتُ : إِنْ لَمْ تَتَغَيَّرْ حَالِي تَغَيَّرَتْ نَفْسِي ، وَلَا أَكُونُ فِي ٱلْبَصْرَةِ قَدِ ٱنْتَهَيْتُ إِلَى ٱلْفَقْرِ ، بَلْ أَكُونُ قَدْ بَدَأْتُ مِنَ ٱلْفَقْرِ كَمَا يَبْدَأُ غَيْرِي ، وَأَدَعُ ٱلْمَاضِيَ فِي مَكَانِهِ وَأَمْضِي إِلَىٰ مَا يَسْتَقْبِلُنِي .

فَٱلْتَمَسْتُ رُفْقَةً فَٱلْتَأَمْنَا عِشْرِينَ رَجُلًا ، فَلَمَّا كُنَّا فِي ٱلطَّرِيقِ ، سَلَبَنَا ٱللُّصُوصُ وَحَازُوا ٱلْقَافِلَةَ وَمَا تَحْوِيهِ ، وَنَجَوْتُ أَنَا رَاكِبًا فَرَسِي وَعُمْرِي ، وَأَدْرَكْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ ٱلْحَيَاةَ وَحْدَهَا مُلْكٌ عَظِيمٌ ، وَأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَدَاةُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ ، وَٱلْبَاقِي كُلُّهُ هُوَ مِنْ أَنْفُسِنَا لِأَنْفُسِنَا وَٱلْأَمْرُ فِيهِ هَيِّنٌ

وَٱلْخَطْبُ يَسِيرٌ .

وَقُلْتُ : لَوْ أَنَّ ٱللُّصُوصَ قَدْ مَرُّوا بِنَا كَمَا يَمُرُّ ٱلنَّاسُ بِٱلنَّاسِ لَمَا نَكَبُونَا ، وَلَـٰكِنَّهُمْ عَرَضُوا لَنَا عُرُوضَ ٱللِّصِّ لِلْمَالِ وَٱلْمَتَاعِ لَا لِلنَّاسِ ، فَوَضَعُوا فِينَا ٱلْأَيْدِيَ ٱلنَّاهِبَةَ ؛ وَمِنْ هَـٰذَا أَدْرَكْتُ أَنْ لَيْسَ ٱلشَّرُّ إِلَّا حَالَةً يَتَلَبَّسُ بِهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا . فَإِذَا كَانَ ذَٰلِكَ فَأَصْلُ ٱلسَّعَادَةِ فِي ٱلْإِنْسَانِ أَلَّا يَعْبَأَ بِهَـٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ مَتَىٰ عَرَضَتْ لَهُ ؛ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ ذَٰلِكَ إِلَّا إِذَا تَمَثَّلَ ٱلشَّرَّ كَمَا يَرَاهُ وَاقِعًا فِي غَيْرِهِ ؛ فَٱلْمَرْأَةُ ٱلْعَفِيفَةُ إِذَا عَرَضَتْ لَهَا حَالَةٌ مِنَ ٱلْفُجُورِ ، وَنَظَرَتْ إِلَىٰ نَفْسِهَا وَحَظِّ نَفْسِهَا ، فَقَدْ تَعْمَىٰ وَتَزِلُّ ؛ وَلَـٰكِنَّهَا إِذَا نَظَرَتْ إِلَىٰ ذَٰلِكَ فِي غَيْرِهَا وَإِلَىٰ أَثَرِهِ عَلَى ٱلْفَاجِرَةِ ، كَانَتْ كَأَنَّمَا زَادَتْ عَلَىٰ نَفْسِهَا نَفْسًا أُخْرَىٰ تُرِيهَا ٱلْأَشْيَاءَ مُجَرَّدَةً كَمَا هِيَ فِي حَقَائِقِهَا .

قَالَ : وَمَضَيْتُ عَلَىٰ وَجْهِي تَتَقَاذَفُنِي ٱلْبِقَاعُ وَٱلْأَمْكِنَةُ ، وَأَنَا أُعَانِي ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَاءَ ، وَأَخْشَى ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ، وَأُكَابِدُ ٱلْأَلَمَ وَٱلْجُوعَ ، حَتَّىٰ دَخَلْتُ ٱلْبَصْرَةَ دُخُولَ ٱلْبَعِيرِ ٱلرَّازِحِ ، قَطَعَ ٱلصَّحْرَاءَ تَأْكُلُ مِنْهُ وَلَا يَأْكُلُ مِنْهَا ، فَأَنْضَاهُ ٱلسَّفَرُ وَحَسَرَهُ ٱلْكَلَالُ وَنَحَتَهُ ٱلثِّقَلُ ٱلَّذِي يَحْمِلُهُ ، فَجَاءَ بِنِيَّةٍ غَيْرِ ٱلَّتِي كَانَ قَدْ خَرَجَ بِهَا . وَكَانَتْ أَيَّامِي هَـٰذِهِ عُمْرًا كَامِلًا مِنَ ٱلشَّقَاءِ ، جَعَلَتْنِي أُوقِنُ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْحَيَاةِ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلدَّوَابِّ تَحْتَ أَحْمَالِهَا : لَا تَخْتَارُ ٱلدَّابَّةُ مَا تَحْمِلُ وَلَا مَنْ تَحْمِلُ ، وَلَا يُتْرَكُ لَهَا مَعَ هَـٰذَا أَنْ تَخْتَارَ ٱلطَّرِيقَ وَلَا مُدَّةَ ٱلسَّيْرِ ؛ وَلَيْسَ لِلدَّابَّةِ إِلَّا شَيْئَانِ : صَبْرُهَا وَقُوَّتُهَا ؛ إِنْ فَقَدَتْهُمَا هَلَكَتْ ، وَإِنْ وَهَنَا فِيهَا كَانَ ضَعْفُهَا بِحَسَبِ ذَٰلِكَ .

إِنَّ هُنَاكَ أَوْقَاتًا مِنَ ٱلشَّقَاءِ وَٱلْبُؤْسِ تَقْذِفُ بِٱلْإِنْسَانِ وَرَاءَ إِنْسَانِيَّتِهِ وَإِنْسَانِيَّةِ ٱلْبَشَرِ جَمِيعًا ، لَا تُبَالِي كَيْفَ وَقَعَ وَفِي أَيِّ وَادٍ هَلَكَ ، فَلَا يَنْفَعُ ٱلْإِنْسَانَ حِينَئِذٍ إِلَّا أَنْ يَعْتَصِمَ بِأَخْلَاقِ ٱلْحَيَوَانِ ، فِي مِثْلِ رِضَاهُ ٱلَّذِي هُوَ أَحْكَمُ ٱلْحِكْمَةِ فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ ، وَصَبْرِهِ ٱلَّذِي هُوَ أَقْوَى ٱلْقُوَّةِ ، وَقَنَاعَتِهِ ٱلَّتِي هِيَ أَغْنَى ٱلْغِنَىٰ ، وَجَهْلِهِ ٱلَّذِي هُوَ أَعْلَمُ ٱلْعِلْمِ ، وَتَوَكُّلِهِ ٱلَّذِي هُوَ إِيمَانُ فِطْرَتِهِ بِفِطْرَتِهِ . لَا يُبَالِي ٱلْحَيَوَانُ مَالًا وَلَا نَعِيمًا ، وَلَا مَتَاعًا وَلَا مَنْزِلَةً ، وَلَا حَظًّا وَلَا جَاهًا ، وَلَنْ تَجِدَ حِمَارَ ٱلْمَلِكِ يَعْرِفُ مِنَ ٱلْمَلِكِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُ حِمَارُ ٱلسَّقَّاءِ مِنَ ٱلسَّقَّاءِ ؛ وَلَعَلَّكَ لَوْ سَأَلْتَهُمَا وَأَطَاقَا ٱلْجَوَابَ لَقَالَ لَكَ ٱلْأَوَّلُ : إِنَّ ٱلَّذِي فَوْقَ ظَهْرِي

ثَقِيلٌ مَقِيتٌ بَغِيضٌ ؛ وَلَقَالَ لَكَ ٱلثَّانِي : إِنَّ ٱلَّذِي يَرْكَبُهُ خَفِيفٌ سَهْلٌ سَمْحٌ !

وَلَـٰكِنَّ بَلَاءَ ٱلإِنْسَانِ أَنَّهُ حِيْنَ يُطَوِّحُهُ ٱلْبُؤْسُ وَٱلشَّقَاءُ وَرَاءَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، لَا يَنْظُرُ لِغَيْرِ ٱلنَّاسِ فَيَزِيْدُهُ ذَلِكَ بُؤْسًا وَحَسْرَةً ، وَيَمْحَقُ فِيْ نَفْسِهِ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلصَّبْرِ ، وَيَقْلِبُ رِضَاهُ غَيْظًا ، وَقَنَاعَتَهُ سُخْطًا ، وَيَبْتَلِيْهِ كُلُّ ذَلِكَ بِٱلْفِكْرَةِ ٱلْمُهْلِكَةِ أَعْجَزَهَا أَنْ تُهْلِكَ أَحَدًا فَلَا تَجِدُ مَنْ تُدَمِّرُهُ غَيْرَ صَاحِبِهَا ؛ فَإِذَا هِيَ وَجَدَتْ مَسَاغًا إِلَىٰ ٱلنَّاسِ فَأَهْلَكَتْ وَعَاثَتْ وَأَفْسَدَتْ ، جَعَلَتْ صَاحِبَهَا إِمَّا لِصًّا أَوْ قَاتِلًا أَوْ مُجْرِمًا ، أَيَّ ذَلِكَ تَيَسَّرَ !

* * *

قَالَ : وَكُنْتُ أَعْرِفُ فِيْ ٱلْبَصْرَةِ فُلَانًا ٱلتَّاجِرَ مِنْ سَرَاتِهَا وَوُجُوْهِ أَهْلِهَا ، فَٱسْتَطْرَقْتُهُ ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَىٰ خُرَاسَانَ ، وَلَيْسَ يَعْرِفُنِيْ أَحَدٌ فِيْ ٱلْبَصْرَةِ وَلَا أَعْرِفُ أَحَدًا غَيْرَهُ ؛ فَكَأَنَّمَا نُكِبْتُ مَرَّةً ثَانِيَةً بِغَارَةِ شَرٍّ مِنْ تِلْكَ ، غَيْرَ أَنَّهَا قَطَعَتْ عَلَيَّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةِ طَرِيْقَ أَيَّامِيْ ، وَسَلَبَتْنِيْ آخِرَ مَا بَقِيَ لِنَفْسِيْ ، وَهُوَ ٱلأَمَلُ !

وَرَأَيْتُ أَنَّهُ مَا مِنْ نُزُوْلِيْ إِلَىٰ ٱلأَرْضِ بُدٌّ ، فَأَكُوْنُ فِيْهَا إِنْسَانًا كَٱلدَّابَّةِ أَوِ ٱلْحَشَرَةِ : حَيَاتُهَا مَا ٱتَّفَقَ لَا مَا تُرِيْدُ أَنْ يَتَّفِقَ ؛ وَأَنَّهُ لَا رَأْيَ إِلَّا أَنْ أَسْخَرَ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ فَأَزْهَدَ فِيْهَا وَأَنَا ٱلْقَوِيُّ ٱلْكَرِيْمُ ، قَبْلَ أَنْ تَسْخَرَ هِيَ مِنِّيْ إِذَا جِئْتُهَا وَأَنَا ٱلطَّامِعُ ٱلْعَاجِزُ !

وَفِيْ ٱلأَرْضِ كِفَايَةُ كُلِّ مَا عَلَيْهَا وَمَنْ عَلَيْهَا وَلَـٰكِنْ بِطَرِيْقَتِهَا هِيَ لَا بِطَرِيْقَةِ ٱلنَّاسِ ؛ وَمَا دَامَتْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا قَائِمَةً عَلَىٰ ٱلتَّغْيِيْرِ وَٱلتَّبْدِيْلِ وَتَحَوُّلِ شَيْءٍ إِلَىٰ شَيْءٍ ، فَهَـٰذَا ٱلظَّبْيُ ٱلَّذِيْ يَأْكُلُهُ ٱلأَسَدُ لَا تَعْرِفُ ٱلأَرْضُ أَنَّهُ قَدْ أُكِلَ وَلَا أَنَّهُ ٱفْتُرِسَ وَمُزِّقَ ، بَلْ هُوَ عِنْدَهَا قَدْ تَحَوَّلَ قُوَّةً فِي شَيْءٍ آخَرَ وَمَضَىٰ ؛ أَمَّا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فَذَلِكَ خَطْبٌ طَوِيْلٌ فِيْ حِكَايَةِ أَوْهَامٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْوَجَلِ ؛ كَمَا لَوِ ٱخْتَرَعْتَ قِصَّةً خُرَافِيَّةً تَحْكِيْهَا عَنْ أَسَدٍ قَدْ نَزَعَ لَحْمًا . . . فَتَعَاهَدَهُ فَأَنْبَتَهُ فَحَصَدَهُ فَأَكَلَهُ ، فَذَهَبَ ٱلزَّرْعُ يَحْتَجُّ عَلَىٰ آكِلِهِ ، وَجَعَلَ يَشْكُوْ وَيَقُوْلُ : لَيْسَ لِهَـٰذَا زَرَعْتَنِيْ أَنْتَ ، وَلَيْسَ لِهَـٰذَا خَرَجْتُ أَنَا تَحْتَ ٱلشَّمْسِ ، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ هَـٰذَا طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ !

وَٱلإِنْسَانُ يَرَىٰ بِعَيْنَيْهِ هَـٰذَا ٱلتَّغْيِيْرَ وَاقِعًا فِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ عَامَّتِهَا وَفِيْ ٱلأَشْيَاءِ جَمِيْعِهَا ؛ فَإِذَا

وَقَعَ فِيْهِ هُوَ ضَجَّ وَسَخِطَ ، كَأَنَّ لَهُ حَقًّا لَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ ؛ وَهَـٰذَا هُوَ ٱلْعَجِيْبُ فِيْ قِصَّةِ بَنِيْ آدَمَ ، فَلَا يَزَالُ فِيْهَا عَلَىٰ ٱلأَرْضِ كَلِمَاتٌ مِنَ ٱلْجَنَّةِ لَا تُقَالُ هُنَا وَلَا تُفْهَمُ هُنَا ؛ بَلْ مَحَلُّ ٱلاعْتِرَاضِ بِهَا حِيْنَ يَكُوْنُ ٱلإِنْسَانُ خَالِدًا لَا يَقَعُ فِيْهِ ٱلتَّغْيِيْرُ وَٱلتَّبْدِيْلُ . وَمِنْ هَـٰذَا كَانَ خَيَالُ ٱللَّذَّةِ فِيْ ٱلأَرْضِ هُوَ دَائِمًا بَاعِثَ ٱلْحَمَاقَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ .

قَالَ أَبُوْ عُبَيْدٍ : وَذَهَبْتُ أَعْتَمِلُ بِيَدَيَّ وَجِسْمِيْ عَلَىٰ آلَامٍ مِنَ ٱلْفَاقَةِ وَٱلضُّرِّ ، وَمِنَ ٱلْخَيْبَةِ وَٱلإِخْفَاقِ ، وَمِنْ إِلْجَاءِ ٱلْمَسْكَنَةِ وَإِحْوَاجِ ٱلْخَصَاصَةِ ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِيْ وَإِنَّ يَدِيْ كَيَدِ ٱلْعَبْدِ ، وَظَهْرِيْ كَظَهْرِ ٱلدَّابَّةِ ، وَرِجْلِيْ كَرِجْلِ ٱلأَسِيْرِ ، وَعُنُقِيْ كَعُنُقِ ٱلْمَغْلُوْلِ ؛ وَيَطْلَعُ قُرْصُ ٱلشَّمْسِ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَيَغِيْبُ عَنْهَا وَمَا أَعْتَمِلُ إِلَّا بِقُرْصٍ مِنَ ٱلْخُبْزِ ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتُنِيْ أَبْذُلُ فِيْ صِيَانَةِ كُلِّ قَطْرَةٍ مِنْ مَاءِ وَجْهِيْ سَحَابَةً مِنَ ٱلْعَرَقِ حَتَّىٰ لَا أَسْأَلَ ٱلنَّاسَ ، وَيَا بُؤْسًا لِيْ إِنْ سَأَلْتُ وَإِنْ لَمْ أَسْأَلْ !

وَمَا كَانَ يُمْسِكُنِيْ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْمُرَمَّقَةِ ، تَأْتِيْ رَمَقًا بَعْدَ رَمَقٍ فِيْ يَوْمٍ يَوْمٍ - إِلَّا كَلَامُ ٱلشَّعْبِيِّ ٱلَّذِيْ سَمِعْتُهُ فِيْ مَسْجِدِ ٱلْكُوْفَةِ ، وَقَوْلُهُ فِيْ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ ؛ فَكَانَ كَلَامُهُ نُوْرًا فِيْ صَدْرِيْ يُشْرِقُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ مَعَ ٱلصُّبْحِ صُبْحٌ لِإِيْمَانِيْ . وَلَـٰكِنْ بَقِيَتْ أَيَّامُ نِعْمَتِيْ ٱلأُوْلَىٰ وَلَهَا فِيْ نَفْسِيْ ضَرَبَانٌ مِنَ ٱلْوَجَعِ كَٱلَّذِيْ يَجِدُهُ ٱلْمَجْرُوْحُ فِيْ جُرْحِهِ إِذَا ضُرِبَ عَلَيْهِ ، فَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لَا يَجِدُ مَنْفَذًا إِلَيَّ إِلَّا مِنْهَا . وَفَقَدْتُ ٱلصَّدِيْقَ وَعَوْنَهُ ، فَمَا كَانَ يُقْبِلُ عَلَيَّ صَدِيْقٌ إِلَّا فِيْ أَحْلَامِيْ مِنْ وَرَاءِ ٱلزَّمَنِ ٱلأَوَّلِ !

قَالَ مُجَاهِدٌ : وَٱلْحَبِيْبُ ؟

فَتَبَسَّمَ ٱلرَّجُلُ وَقَالَ : إِذَا فَرَغَتِ ٱلْحَيَاةُ مِنَ ٱلَّذِيْ هُوَ أَقَلُّ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ ، فَكَيْفَ يَكُوْنُ فِيْهَا ٱلَّذِيْ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ ؟ إِنَّ جُوْعَ يَوْمٍ وَاحِدٍ يَجْعَلُ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ حَقِيْقَةً جَافِيَةً لَا شِعْرَ فِيْهَا ، وَيَتْرُكُ ٱلزَّمَنَ وَمَا فِيْهِ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ مُعَطَّرَةٌ . . . وَٱلْبُؤْسُ يَقَظَةٌ مُؤْلِمَةٌ فِيْ ٱلْقَلْبِ ٱلإِنْسَانِيِّ تُحَرِّمُ عَلَيْهِ ٱلأَحْلَامَ ؛ وَمَا ٱلْحُبُّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ إِلَّا أَحْلَامُ ٱلْقُلُوْبِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ !

* * *

قَالَ أَبُوْ عُبَيْدٍ : وَتَضَعْضَعْتُ لِهَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْمُخْزِيَةِ وَأَبْرَمَتْنِيْ أَيَّامُهَا ، وَحَمَلْتُ فِيَّ ٱلْمَيِّتَ وَٱلْحَيَّ ، وَرَأَيْتُ ٱلشَّيْطَانَ - لَعَنَهُ ٱللهُ - كَأَنَّمَا ٱتَّخَذَنِيْ وِعَاءً مُطَّرَحًا عَلَىٰ طَرِيْقِهِ يُلْقِيْ

فِيْهِ ٱلْقُمَامَةَ . . ؛ وَظَهَرَ لِيْ قَلْبِي فِيْ وَسَاوِسِهِ كَٱلْمَدِيْنَةِ ٱلْخَرِبَةِ ضَرَبَهَا ٱلْوَبَاءُ ، فَأَعْمَرُ مَا فِيْهَا مَقْبُرَتُهَا ؛ وَعَادَ ٱلْبُؤْسُ وَقَاحَ ٱلْوَجْهِ لَا يَسْتَحِيْ ، فَلَا أَرَاهُ إِلَّا فِيْ أَرْذَلِ أَشْكَالِهِ وَأَبْرَدِهَا ؛ وَلَقَدْ يَكُوْنُ ٱلْبُؤْسُ لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ ٱلْحَيَاءِ فَيَأْتِي فِيْ أُسْلُوْبٍ مُعْتَذِرٍ كَٱلْمَرْأَةِ ٱلدَّمِيْمَةِ فِيْ نِقَابِهَا .

وَقُلْتُ لِنَفْسِيْ : مَا هُوَ وَٱللهِ إِلَّا ٱلْقَتْلُ ، فَهَـٰذَا عُمْرٌ أَرَاهُ كَٱلْأَسِيْرِ أُقِيْمَ عَلَىٰ ٱلنَّطْعِ وَسُلَّ عَلَيْهِ ٱلسَّيْفُ ، فَمَا يَنْتَقِمُ مِنْهُ ٱلْمُنْتَقِمُ بِأَفْظَعَ مِنْ تَأْخِيْرِ ٱلضَّرْبَةِ ، وَمَا يَرْحَمُهُ ٱلرَّاحِمُ بِأَحْسَنَ مِنْ تَعْجِيْلِهَا !

وَبِتُّ أُؤَامِرُ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسَ فِيْ قَتْلِهَا وَأُحَدِّثُهَا حَدِيْثَ ٱلْمَوْتِ ، فَسَدَّدَتْ رَأْيِيْ فِيْهِ وَقَالَتْ : مَا تَصْنَعُ بِجِسْمٍ كَٱلْمُتَعَفِّنِ أَصْبَحَ كَٱلْمَقْبُوْرِ لَا أَيَّامَ لَهُ إِلَّا أَيَّامُ ٱنْقِرَاضِهِ وَتَفْتِيْتِهِ ؟ بَيْدَ أَنِّيْ ذَكَرْتُ كَلَامَ (ٱلشَّعْبِيِّ) فِيْ ذَلِكَ ٱلْمَجْلِسِ وَأَنَا أَحْفَظُهُ كُلَّهُ ، فَجَعَلْتُ أَهُذُّهُ[1] مَا أَتْرُكُ مِنْهُ حَرْفًا ، وَٱتَّخَذْتُهُ مُتَكَلِّمًا مَعَ نَفْسِيْ لَا كَلَامًا ، كُنْتُ كُلَّمَا غَلَبَنِيْ ٱلضَّعْفُ رَفَعْتُ بِهِ صَوْتِيْ وَأَصْغَيْتُ كَمَا أُصْغِيْ إِلَىٰ إِنْسَانٍ يُكَلِّمُنِيْ ؛ فَرَأَيْتُ ٱلشَّيْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كَٱللِّصِّ إِذَا طَمِعَ فِيْ رَجُلٍ ضَعِيْفٍ مُنْفَرِدٍ ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُ وَجَدَ مَعَهُ رَجُلًا ثَانِيًا قَوِيًّا فَهَرَبَ !

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَنَالَنِيْ رَوْحٌ مِنَ ٱلاطْمِئْنَانِ وَجَدْتُ لَهُ ٱلسَّكِيْنَةَ فِيْ قَلْبِيْ فَنِمْتُ ، فَإِذَا ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ٱلَّذِيْ لَا يَنْسَاهُ مَنْ سَمِعَ بِهِ ، فَكَيْفَ ٱلَّذِيْ رَآهُ بِعَيْنَيْهِ ؟

رَأَيْتُنِيْ مَيِّتًا فِيْ يَدِ غَاسِلِهِ يُقَلِّبُهُ وَيُغَسِّلُهُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ ؛ ثُمَّ حُمِلْتُ عَلَىٰ ٱلنَّعْشِ ، كَأَنَّ ٱلْحَامِلِيْنَ قَدْ رَفَعُوْنِيْ يَقُوْلُوْنَ : ٱنْظُرُوا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كَيْفَ يَصِيْرُ ٱلنَّاسُ ؛ ثُمَّ صَلَّىٰ عَلَيَّ ٱلإِمَامُ ٱلشَّعْبِيُّ فِيْ مَسْجِدِ ٱلْكُوْفَةِ ، ثُمَّ دُلِّيْتُ فِيْ قَعْرٍ مُظْلِمَةٍ ، وَهِيْلَ ٱلتُّرَابُ عَلَيَّ ، وَتُرِكْتُ وَحِيْدًا وَٱنْصَرَفُوا !

وَمَا أَدْرِيْ كَمْ بَقِيْتُ عَلَىٰ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّمَا نُفِخَ فِيْ ٱلصُّوْرِ وَبُعْثِرَتِ ٱلْأَمْوَاتُ جَمِيْعًا ، فَطِرْنَا فِيْ ٱلْفَضَاءِ ، وَكَانَتِ ٱلنُّجُوْمُ غُبَارًا حَوْلَنَا كَتُرَابِ ٱلْعَاصِفَةِ فِيْ ٱلْعَاصِفَةِ ؛ وَإِذَا نَحْنُ فِيْ عَرَصَاتِ ٱلْقِيَامَةِ وَفِيْ هَوْلِ ٱلْمَوْقِفِ !

وَتَوَجَّهْتُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ فِيْ جِسْمِيْ إِلَىٰ ٱلرَّجَاءِ فِيْ رَحْمَةِ ٱللهِ ؛ وَرَأَيْتُ أَعْمَالِيْ رُؤْيَةً

(١) ٱلْهَذُّ : ٱلإِسْرَاعُ فِيْ ٱلْقِرَاءَةِ .

أَحْزَنَتْنِيْ ، فَهِيَ كَمَدِيْنَةٍ عَظِيْمَةٍ كُلُّ أَهْلِهَا صَعَالِيْكُ إِلَّا قَلِيْلًا مِنَ ٱلْمَسْتُوْرِيْنَ ، أَرَىٰ مِنْهُمُ ٱلْوَاحِدَ بَعْدَ ٱلْوَاحِدِ فِيْ ٱلسَّاعَةِ بَعْدَ ٱلسَّاعَةِ ، نَدَرُوْا وَتَبَعْثَرُوا وَضَاعُوا كَأَعْمَالِيْ ٱلصَّالِحَةِ !

وَذَكَرْتُ أَنِّيْ كِدْتُ أَقْتُلُ نَفْسِيْ فِرَارًا بِهَا مِنَ ٱلْعُمْرِ ٱلْمُؤْلِمِ ؛ فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا ٱلزَّمَنُ قَدْ ظَهَرَ فِيْ أَبَدِيَّتِهِ ، وَرَجَعَ ٱلْمَاضِيْ حَاضِرًا بِكُلِّ مَا حَوَىٰ كَأَنَّهُ لَمْ يَمْضِ ، وَإِذَا عُمْرِيْ كُلُّهُ لَا يَكَادُ يَبْلُغُ طَرْفَةَ عَيْنٍ مِنْ دَهْرٍ طَوِيْلٍ ، فَحَمِدْتُ ٱللهَ أَنِّيْ لَمْ أَفْتَدِ أَلَمَ ٱللَّحْظَةِ ٱلْقَصِيْرَةِ ٱلْقَصِيْرَةِ ، بِعَذَابِيْ ٱلْأَبَدِيِّ ٱلْخَالِدِ ٱلْخَالِدِ ٱلْخَالِدِ .

وَجِيْءَ عَلَىٰ أَعْيُنِ ٱلْخَلْقِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا وَأَكْثَرِهِمْ لَذَّاتٍ فِيْ تَارِيْخِ ٱلدُّنْيَا كُلِّهِ ، فَصَاحَ صَائِحٌ : هَـٰذَا أَنْعَمُ مَنْ كَانَ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ مُنْذُ خَلَقَهَا ٱللهُ إِلَىٰ أَنْ طَوَاهَا . ثُمَّ غُمِسَ هَـٰذَا ٱلْمُنَعَّمُ فِيْ ٱلنَّارِ غَمْسَةً خَفِيْفَةً كَنَبْضَةِ ٱلْبَرْقِ ، وَأُخْرِجَ إِلَىٰ ٱلْمَحْشَرِ ، وَقِيْلَ لَهُ وَٱلنَّاسُ جَمِيْعًا يَسْمَعُوْنَ : هَلْ ذُقْتَ نَعِيْمًا قَطُّ ؟ قَالَ : لَا وَٱللهِ .

ثُمَّ جِيْءَ بِأَتْعَسِ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ وَأَشَدِّهِمْ بُؤْسًا مُنْذُ خُلِقَتِ ٱلْأَرْضُ ، فَغُمِسَ فِيْ ٱلْجَنَّةِ غَمْسَةً أَسْرَعَ مِنَ ٱلنَّسِيْمِ تَحَرَّكَ وَمَرَّ ، ثُمَّ أُخْرِجَ إِلَىٰ ٱلْمَحْشَرِ وَقِيْلَ لَهُ : هَلْ ذُقْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ قَالَ : لَا وَٱللهِ .

وَسَمِعْنَا شَهِيْقَ جَهَنَّمَ وَهِيَ تَفُوْرُ ، تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ؛ فَأَيْقَنْتُ أَنَّ لَهَا نَفَسًا خُلِقَتْ مِنْ غَضَبِ ٱللهِ . وَخَرَجَ مِنْهَا عُنُقٌ عَظِيْمٌ هَائِلٌ ، لَوْ تَضَرَّمَتِ ٱلسَّمَاءُ كُلُّهَا نَارًا لَأَشْبَهَتْهُ ، فَجَعَلَ يَلْتَقِطُ صِنْفًا صِنْفًا مِنَ ٱلْخَلْقِ ، وَبَدَأَ بِٱلْمُلُوْكِ ٱلْجَبَابِرَةِ فَٱلْتَقَطَهُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً كَٱلْمِغْنَاطِيْسِ لِتُرَابِ ٱلْحَدِيْدِ ؛ وَقَذَفَ بِهِمْ إِلَىٰ ٱلنَّارِ ؛ ثُمَّ ٱنْبَعَثَ فَٱلْتَقَطَ ٱلْأَغْنِيَاءَ ٱلْمُفْسِدِيْنَ فَأَطَارَهُمْ إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ جَعَلَ يَأْخُذُ قَوْمًا قَوْمًا ، وَقَدْ أَلْجَمَنِيْ ٱلْعَرَقُ مِنَ ٱلْفَزَعِ ؛ ثُمَّ طِرْتُ أَنَا فِيْهِ ، وَنَظَرْتُ ، فَإِذَا أَنَا مُحْتَبَسٌ فِيْ مُظْلِمَةٍ نَارِيَّةٍ كَٱلْهَاوِيَةِ ، لَيْسَ حَوْلِيْ فِيْهَا إِلَّا قَاتِلُوْ أَنْفُسِهِمْ . وَلَوْ أَنَّ بِحَارَ ٱلْأَرْضِ جُعِلَ فِيْهَا ٱلْبَحْرُ فَوْقَ ٱلْبَحْرِ فَوْقَ ٱلْبَحْرِ ، إِلَىٰ أَنْ تَجْتَمِعَ كُلُّهَا فَيَكُوْنُ ٱلْعُمْقُ كَبُعْدِ مَا بَيْنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ ، ثُمَّ تُسْجَرُ نَارٌ تَلَظَّىٰ ، لَكَانَتْ هِيَ ٱلْهَاوِيَةَ ٱلَّتِيْ نَحْنُ فِيْ أَعْمَاقِهَا ؛ وَكُنْتُ سَمِعْتُ مِنْ إِمَامِنَا ٱلشَّعْبِيِّ : أَنَّ عُصَاةَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ٱلْمُوَحِّدِيْنَ إِذَا مَاتُوْا عَلَىٰ إِيْمَانِهِمْ كَانُوْا فِيْ ٱلنَّارِ أَحْيَاءً وَجَوَارِحُهُمْ مَوْتَىٰ ؛ لِأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْجَوَارِحَ قَدْ أَطَاعَتِ ٱللهَ وَسَبَّحَتْهُ فَكَرُمَتْ بِذَلِكَ حَتَّىٰ عَلَىٰ جَهَنَّمَ ، ثُمَّ يُعَذَّبُوْنَ عَذَابًا فِيْهِ ٱلرَّحْمَةُ ، ثُمَّ

يَخْرُجُونَ وَيَنْتَظِرُهُمْ إِيمَانُهُمْ عَلَىٰ بَابِ ٱلنَّارِ ، فَكَانَ إِلَىٰ جَانِبِي رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسَهُ ، فَسَمِعَ قَائِلًا مِنْ بَعِيدٍ يَقُولُ لِمُؤْمِنٍ : ٱخْرُجْ ! فَإِنَّ إِيمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ . فَصَاحَ ٱلَّذِي إِلَىٰ جَانِبِي : وَأَنَا ، أَفَلَا يَنْتَظِرُنِي إِيمَانِي ؟ فَقِيلَ لَهُ : وَهَلْ جِئْتَ بِهِ ؟

وَرَأَيْتُ رَجُلًا ذَبَحَ نَفْسَهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْرُخَ يَسْأَلُ ٱللهَ ٱلرَّحْمَةَ ، فَلَا يَخْرُجُ ٱلصَّوْتُ مِنْ حَلْقِهِ ، إِذْ كَانَ قَدْ فَرَاهُ وَبَقِيَ مَفْرِيًا ! وَأَبْصَرْتُ آخَرَ قَدْ طَعَنَ فِي قَلْبِهِ بِمُدْيَةٍ ، فَهُوَ هُنَاكَ تَسْلَخُ ٱلزَّبَانِيَةُ قَلْبَهُ تَبْحَثُ هَلْ فِيهِ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ ، فَلَا تَزَالُ تَسْلَخُ وَلَا تَزَالُ تَبْحَثُ !

وَرَأَيْتُ آخَرَ كَانَ تَحَسَّىٰ مِنَ ٱلسُّمِّ فَمَاتَ ظَمْآنَ يَتَلَظَّىٰ جَوْفُهُ ، فَلَا تَزَالُ تَنْشَأُ لَهُ فِي ٱلنارِ سَحَابَةٌ رَوِيَّةٌ تَبْرُقُ بِٱلْمَاءِ ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْهُ وَرَجَاهَا ، ٱنْفَجَرَتْ عَلَيْهِ بِٱلصَّوَاعِقِ ، ثُمَّ عَادَتْ تَنْشَأُ وَتَنْفَجِرُ !

وَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّمَا كُنْتُ مَجْنُونًا ضَعِيفًا عَاجِزًا فَأَزْهَقْتُ نَفْسِي . فَنُودِيَ : أَوَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱللهَ يُحَاسِبُكَ عَلَىٰ أَنَّكَ عَاقِلٌ لَا مَجْنُونٌ ؟ وَقَوِيٌّ لَا ضَعِيفٌ ؟ وَقَادِرٌ لَا عَاجِزٌ ؟ كُنْتَ تَعْقِلُ بِٱلْأَقَلِّ أَنَّكَ سَتَمُوتُ ، وَكُنْتَ تَقْوَىٰ عَلَىٰ أَنْ تَصْبِرَ ، وَكُنْتَ تَقْدِرُ أَنْ تَتْرُكَ ٱلشَّرَّ .

وَقَالَ رَجُلٌ عَالِمٌ قَدْ حَزَّ فِي يَدِهِ بِسِكِّينٍ فَمَاتَ : « لَمْ يَكُنِ ٱلْكَمَالُ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي طَبِيعَتِهَا وَلَا هُوَ شَيْءٌ يُدْرَكُ » . فَصَرَخَ فِيهِ صَوْتٌ رَهِيبٌ : « وَلَٰكِنَّ مِنْ عَظَمَةِ ٱلْكَمَالِ أَنَّ ٱسْتِمْرَارَ ٱلْعَمَلِ لَهُ هُوَ إِدْرَاكُهُ ! » .

* * *

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : ثُمَّ ٱنْتَصَبَ بِإِزَائِي شَيْطَانٌ مَارِدٌ أَحْمَرُ ، يَلْتَمِعُ ٱلْتِمَاعَ ٱلزُّجَاجِ فِيهِ ٱلْخَمْرُ ، فَقَامَ فِي وَجْهِي وَقَالَ : بِمَاذَا جِئْتَ إِلَىٰ هُنَا يَا عَدُوَّ ٱلْخَمْرِ ؟ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ ٱلنِّدَاءَ : شَفَعَتْ فِيكَ ٱلْخَمْرُ ٱلَّتِي لَمْ تَشْرَبْهَا ، ٱخْرُجْ ، إِنَّ إِيمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ !

فَصِحْتُ : ٱلْحَمْدُ للهِ ! وَتَحَرَّكَ بِهَا لِسَانِي ، فَٱنْتَبَهْتُ .

لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ٱلصَّبْرَ عَلَى ٱلْمَصَائِبِ نِعْمَةٌ كُبْرَىٰ لَا يُنْعِمُ ٱللهُ بِهَا إِلَّا فِي ٱلْمَصَائِبِ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

وَحْيُ ٱلْقُبُورِ (*)

ذَهَبْتُ فِي صُبْحِ يَوْمِ عِيدِ ٱلْفِطْرِ أَحْمِلُ نَفْسِي بِنَفْسِي إِلَى ٱلْمَقْبَرَةِ ، وَقَدْ مَاتَ لِي مِنَ ٱلْخَوَاطِرِ مَوْتَىٰ لَا مَيْتٌ وَاحِدٌ ؛ فَكُنْتُ أَمْشِي وَفِيَّ جَنَازَةٌ بِمُشَيِّعِيهَا : مِنْ فِكْرٍ يَحْمِلُ فِكْرًا ، وَخَاطِرٍ يَتْبَعُ خَاطِرًا ، وَمَعْنًى يَبْكِي ، وَمَعْنًى يُبْكَىٰ عَلَيْهِ .

وَكَذَٰلِكَ دَأْبِي كُلَّمَا ٱنْحَدَرْتُ فِي هَٰذِهِ ٱلطَّرِيقِ إِلَىٰ ذَٰلِكَ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي تَأْتِيهِ ٱلْعُيُونُ بِدُمُوعِهَا ، وَتَمْشِي إِلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ بِأَحْزَانِهَا ، وَتَجِيءُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ إِلَىٰ بَقَايَاهَا . تِلْكَ ٱلْمَقَابِرُ ٱلَّتِي لَا يُنَادَىٰ أَهْلُهَا مِنْ أَهْلِيهِمْ بِٱلْأَسْمَاءِ وَلَا بِٱلْأَلْقَابِ ، وَلَٰكِنْ بِهَٰذَا ٱلنِّدَاءِ : يَا أَحْبَابَنَا ، يَا أَحْزَانَنَا !

ذَهَبْتُ أَزُورُ أَمْوَاتِيَ ٱلْأَعِزَّاءَ وَأَتَّصِلُ مِنْهُمْ بِأَطْرَافِ نَفْسِي ، لِأَحْيَا مَعَهُمْ فِي ٱلْمَوْتِ سَاعَةً أَعْرِضُ فِيهَا أَمْرَ ٱلدُّنْيَا عَلَىٰ أَمْرِ ٱلْآخِرَةِ ، فَأَنْسَىٰ وَأَذْكُرُ ، ثُمَّ أَنْظُرُ وَأَعْتَبِرُ ، ثُمَّ أَتَعَرَّفُ وَأَتَوَسَّمُ ، ثُمَّ أَسْتَبْطِنُ مِمَّا فِي بَطْنِ ٱلْأَرْضِ ، وَأَسْتَظْهِرُ مِمَّا عَلَىٰ ظَهْرِهَا .

وَجَلَسْتُ هُنَاكَ أُشْرِفُ مِنْ دَهْرٍ عَلَىٰ دَهْرٍ ، وَمِنْ دُنْيَا عَلَىٰ دُنْيَا ، وَأَخْرَجَتِ ٱلذَّاكِرَةُ أَفْرَاحَهَا ٱلْقَدِيمَةَ لِتَجْعَلَهَا مَادَّةً جَدِيدَةً لِأَحْزَانِهَا ؛ وَٱنْفَتَحَ لِيَ ٱلزَّمَنُ ٱلْمَاضِي فَرَأَيْتُ رَجْعَةَ ٱلْأَمْسِ ، وَكَأَنَّ دَهْرًا كَامِلًا خُلِقَ بِحَوَادِثِهِ وَأَيَّامِهِ ، وَرُفِعَ لِعَيْنَيَّ كَمَا تُرْفَعُ ٱلصُّورَةُ ٱلْمُعَلَّقَةُ فِي إِطَارِهَا .

أَعْرِفُ أَنَّهُمْ مَاتُوا ، وَلَٰكِنِّي لَمْ أَشْعُرْ قَطُّ إِلَّا أَنَّهُمْ غَابُوا ؛ وَٱلْحَبِيبُ ٱلْغَائِبُ لَا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ ٱلزَّمَانُ وَلَا ٱلْمَكَانُ فِي ٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي يُحِبُّهُ مَهْمَا تَرَاخَتْ بِهِ ٱلْأَيَّامُ؛ وَهَٰذِهِ هِيَ بَقِيَّةُ ٱلرُّوحِ إِذَا ٱمْتَزَجَتْ بِٱلْحُبِّ فِي رُوحٍ أُخْرَىٰ : تَتْرُكُ فِيهَا مَا لَا يُمْحَىٰ لِأَنَّهَا هِيَ خَالِدَةٌ لَا تُمْحَىٰ .

ذَهَبَ ٱلْأَمْوَاتُ ذَهَابَهُمْ وَلَمْ يُقِيمُوا فِي ٱلدُّنْيَا ؛ وَمَعْنَىٰ ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ مَرُّوا بِٱلدُّنْيَا لَيْسَ

(*) « الرسالة » العدد : ٨١ ، ١٦ شوال سنة ١٣٥٣ هـ = ٢١ يناير/كانون الآخر ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٨٣ ـ ٨٤ .

غَيْرُ ، فَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْحَيَاةُ حِينَ تُعَبِّرُ عَنْهَا ٱلنَّفْسُ بِلِسَانِهَا لَا بِلِسَانِ حَاجَتِهَا وَحِرْصِهَا .

ٱلْحَيَاةُ مُدَّةُ عَمَلٍ ، وَكَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنَ ٱلْمُتَنَاقِضَاتِ ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَصْنَعٌ يُسَوَّغُ كُلُّ إِنْسَانٍ جَانِبًا مِنْهُ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْأَدَاةُ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ ، فَضِيلَتَكَ أَوْ رَذِيلَتَكَ .

* * *

جَلَسْتُ فِي ٱلْمَقْبَرَةِ ، وَأَطْرَقْتُ أُفَكِّرُ فِي هَـٰذَا ٱلْمَوْتِ . يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ ! كَيْفَ لَا يَسْتَشْعِرُونَهُ وَهُوَ يَهْدِمُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ أَجْزَاءً تُحِيطُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَهْدِمَهُ هُوَ بِجُمْلَتِهِ ؛ وَمَا زَالَ كُلُّ بُنْيَانٍ مِنَ ٱلنَّاسِ بِهِ كَٱلْحَائِطِ ٱلْمُسَلَّطِ عَلَيْهِ خَرَابُهُ ، يَتَآكَلُ مِنْ هُنَا وَيَتَنَاثَرُ مِنْ هُنَاكَ !؟

يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ عَجَبًا لَا يَنْتَهِي ! كَيْفَ يَجْعَلُونَ ٱلْحَيَاةَ مُدَّةَ نِزَاعٍ وَهِيَ مُدَّةُ عَمَلٍ ، وَكَيْفَ لَا تَبْرَحُ تَنْزُو ٱلنَّوَازِي بِهِمْ فِي ٱلْخِلَافِ وَٱلْبَاطِلِ ، وَهُمْ كُلَّمَا تَدَافَعُوا بَيْنَهُمْ قَضِيَّةً مِنَ ٱلنِّزَاعِ فَضَرَبُوا خَصْمًا بِخَصْمٍ وَرَدُّوا كَيْدًا بِكَيْدٍ ، جَاءَ حُكْمُ ٱلْمَوْتِ تَكْذِيبًا قَاطِعًا لِكُلِّ مَنْ يَقُولُ لِشَيْءٍ : هَـٰذَا لِي ؟

أَمَا وَٱللهِ إِنَّهُ لَيْسَ أَعْجَبَ فِي ٱلسُّخْرِيَةِ بِهَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مِنْ أَنْ يُعْطَى ٱلنَّاسُ مَا يَمْلِكُونَهُ فِيهَا لِإِثْبَاتِ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يَمْلِكُ مِنْهَا شَيْئًا ، إِذْ يَأْتِي ٱلْآتِي إِلَيْهَا لَحْمًا وَعَظْمًا ، وَلَا يَرْجِعُ عَنْهَا ٱلرَّاجِعُ إِلَّا لَحْمًا وَعَظْمًا ، وَبَيْنَهُمَا سَفَاهَةُ ٱلْعَظْمِ وَٱللَّحْمِ حَتَّىٰ عَلَى ٱلسِّكِّينِ ٱلْقَاطِعَةِ . . .

تَأْتِي ٱلْأَيَّامُ وَهِيَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ تَفِرُّ فِرَارَهَا ؛ فَمَنْ جَاءَ مِنْ عُمُرِهِ عِشْرُونَ سَنَةً فَإِنَّمَا مَضَتْ هَـٰذِهِ ٱلْعِشْرُونَ مِنْ عُمُرِهِ . وَلَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُصَحِّحَ أَعْمَالُ ٱلْحَيَاةِ فِي ٱلنَّاسِ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْأَصْلِ ٱلْبَيِّنِ ، لَوْلَا ٱلطِّبَاعُ ٱلْمَدْخُولَةُ ، وَٱلنُّفُوسُ ٱلْغَافِلَةُ ، وَٱلْعُقُولُ ٱلضَّعِيفَةُ ، وَٱلشَّهَوَاتُ ٱلْعَارِمَةُ ؛ فَإِنَّهُ مَا دَامَ ٱلْعُمُرُ مُقْبِلًا مُدْبِرًا فِي ٱعْتِبَارٍ وَاحِدٍ ، فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنَ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَا يُرْضِيهِ مَحْسُوبًا لَهُ وَمَحْسُوبًا عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ مَعًا ؛ وَتَكُونُ ٱلْحَيَاةُ فِي حَقِيقَتِهَا لَيْسَتْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلضَّمِيرُ ٱلْإِنْسَانِيُّ هُوَ ٱلْحَيَّ فِي ٱلْحَيِّ .

* * *

وَمَا هِيَ هَـٰذِهِ ٱلْقُبُورُ ؟ لَقَدْ رَجَعَتْ عِنْدَ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْمَوْتَىٰ أَبْنِيَةً مَيِّتَةً ؛ فَمَا قَطُّ رَأَوْهَا مَوْجُودَةً إِلَّا لِيَنْسَوْا أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ لَكَانَ لِلْقَبْرِ مَعْنَاهُ ٱلْحَيُّ ٱلْمُتَغَلْغِلُ فِي ٱلْحَيَاةِ إِلَىٰ بَعِيدٍ ؛ فَمَا ٱلْقَبْرُ إِلَّا بِنَاءٌ قَائِمٌ لِفِكْرَةِ ٱلنِّهَايَةِ وَٱلِانْقِطَاعِ ؛ وَهُوَ فِي ٱلطَّرَفِ ٱلْآخَرِ رَدٌّ عَلَى ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي هُوَ بِنَاءٌ قَائِمٌ لِفِكْرَةِ ٱلْبَدْءِ وَٱلِاسْتِمْرَارِ ؛ وَبَيْنَ ٱلطَّرَفَيْنِ ٱلْمَعْبَدُ وَهُوَ بِنَاءٌ لِفِكْرَةِ ٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي يَحْيَا فِي ٱلْبَيْتِ وَفِي ٱلْقَبْرِ ، فَهُوَ عَلَى ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ كَٱلْقَاضِي بَيْنَ خَصْمَيْنِ يُصْلِحُ بَيْنَهُمَا صُلْحًا أَوْ يَقْضِي .

ٱلْقَبْرُ كَلِمَةُ ٱلصِّدْقِ مَبْنِيَّةً مُتَجَسِّمَةً ، فَكُلُّ مَا حَوْلَهَا يَتَكَذَّبُ وَيَتَأَوَّلُ ، وَلَيْسَ فِيهَا هِيَ إِلَّا مَعْنَاهَا لَا يَدْخُلُهُ كَذِبٌ وَلَا يَعْتَرِيهِ تَأْوِيلٌ . وَإِذَا مَاتَتْ فِي ٱلْأَحْيَاءِ كَلِمَةُ ٱلْمَوْتِ مِنْ غُرُورٍ أَوْ بَاطِلٍ أَوْ غَفْلَةٍ أَوْ أَثَرَةٍ ، بَقِيَ ٱلْقَبْرُ مُذَكِّرًا بِٱلْكَلِمَةِ شَارِحًا لَهَا بِأَظْهَرِ مَعَانِيهَا ، دَاعِيًا إِلَى ٱلِاعْتِبَارِ بِمَدْلُولِهَا ، مُبَيِّنًا بِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلنِّهَايَةِ .

ٱلْقَبْرُ كَلِمَةُ ٱلْأَرْضِ لِمَنْ يَنْخَدِعُ فَيَرَى ٱلْعُمُرَ ٱلْمَاضِيَ كَأَنَّهُ غَيْرُ مَاضٍ ، فَيَعْمَلُ فِي إِفْرَاغِ حَيَاتِهِ مِنَ ٱلْحَيَاةِ(١) بِمَا يَمْلَؤُهَا مِنْ رَذَائِلِهِ وَخَسَائِسِهِ ؛ فَلَا يَزَالُ دَائِبًا فِي مَعَانِي ٱلْأَرْضِ وَٱسْتِجْمَاعِهَا وَٱلِاسْتِمْتَاعِ بِهَا ، يَتْلُو فِي ذَلِكَ تِلْوَ ٱلْحَيَوَانِ وَيَقْتَاسُ بِهِ ، فَشَرِيعَتُهُ جَوْفُهُ وَأَعْضَاؤُهُ ؛ وَتَرْجِعُ بِذَلِكَ حَيَوَانِيَّتُهُ مَعَ نَفْسِهِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ ، كَٱلْحِمَارِ مَعَ ٱلَّذِي يَمْلِكُهُ وَيَعْلِفُهُ ، لَوْ سُئِلَ ٱلْحِمَارُ عَنْ صَاحِبِهِ مَنْ هُوَ ؟ لَقَالَ : هُوَ حِمَارِي . . . .

ٱلْقَبْرُ عَلَى ٱلْأَرْضِ كَلِمَةٌ مَكْتُوبَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَىٰ آخِرِ ٱلدُّنْيَا ، مَعْنَاهَا أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ حَيٌّ فِي قَانُونِ نِهَايَتِهِ ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يَنْتَهِي .

* * *

إِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ لِلنِّهَايَةِ ، وَكَانَ ٱلِاعْتِبَارُ بِهَا وَٱلْجَزَاءُ عَلَيْهَا ، فَٱلْحَيَاةُ هِيَ ٱلْحَيَاةُ عَلَىٰ طَرِيقَةِ ٱلسَّلَامَةِ لَا غَيْرِهَا ؛ طَرِيقَةِ إِكْرَاهِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْإِنْسَانِيِّ عَلَىٰ مُمَارَسَةِ ٱلْأَخْلَاقِيَّةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَجَعْلِهَا أَصْلًا فِي طِبَاعِهِ ، وَوَزْنِ أَعْمَالِهِ بِنَتَائِجِهَا ٱلَّتِي تَنْتَهِي بِهَا ، إِذْ كَانَتْ رُوحَانِيَّتُهُ فِي ٱلنِّهَايَاتِ لَا فِي بِدَايَاتِهَا .

(١) أَيْ : مِنْ إِنْسَانِيَّةِ ٱلْحَيَاةِ .

فِيْ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا يَكُوْنُ ٱلإِنْسَانُ ذَاتًا تَعْمَلُ أَعْمَالَهَا ؛ فَإِذَا ٱنْتَهَتِ ٱلْحَيَاةُ ٱنْقَلَبَتْ أَعْمَالُ ٱلإِنْسَانِ ذَاتًا يَخْلُدُ هُوَ فِيْهَا ؛ فَهُوَ مِنَ ٱلْخَيْرِ خَالِدٌ فِيْ ٱلْخَيْرِ ، وَمِنَ ٱلشَّرِّ هُوَ خَالِدٌ فِيْ ٱلشَّرِّ ؛ فَكَأَنَّ ٱلْمَوْتَ إِنْ هُوَ إِلَّا مِيْلَادٌ لِلرُّوْحِ مِنْ أَعْمَالِهَا ؛ تُوْلَدُ مَرَّتَيْنِ : آتِيَةً وَرَاجِعَةً .

وَإِذَا كَانَ ٱلأَمْرُ لِلنِّهَايَةِ فَقَدْ وَجَبَ أَنْ تَبْطُلَ مِنَ ٱلْحَيَاةِ نِهَايَاتٌ كَثِيْرَةٌ ، فَلَا يُتْرَكُ ٱلشَّرُّ يَمْضِي إِلَىٰ نِهَايَتِهِ بَلْ يُحْسَمُ فِيْ بَدْئِهِ وَيُقْتَلُ فِيْ أَوَّلِ أَنْفَاسِهِ ؛ وَكَذَٰلِكَ ٱلشَّأْنُ فِيْ كُلِّ مَا لَا يَحْسُنُ أَنْ يَبْدَأَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوْزُ أَنْ يَمْتَدَّ : كَٱلْعَدَاوَةِ وَٱلْبَغْضَاءِ ، وَٱلْبُخْلِ وَٱلأَثَرَةِ ، وَٱلْكِبْرِيَاءِ وَٱلْغُرُوْرِ ، وَٱلْخِدَاعِ وَٱلْكَذِبِ ؛ وَمَا شَابَكَ هَـٰذِهِ أَوْ شَابَهَهَا ، فَإِنَّهَا كُلَّهَا ٱنْبِعَاثٌ مِنَ ٱلْوُجُوْدِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَٱنْفِجَارٌ مِنْ طَبِيْعَتِهِ ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ لِكُلٍّ مِنْهَا فِيْ ٱلإِرَادَةِ قَبْرٌ كَيْ تَسْلَمَ لِلنَّفْسِ ٱلطَّيِّبَةِ إِنْسَانِيَّتُهَا إِلَىٰ ٱلنِّهَايَةِ .

* * *

يَا مَنْ لَهُمْ فِيْ ٱلْقُبُوْرِ أَمْوَاتٌ !

إِنَّ رُؤْيَةَ ٱلْقَبْرِ زِيَادَةٌ فِيْ ٱلشُّعُوْرِ بِقِيْمَةِ ٱلْحَيَاةِ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ مَعْنَىٰ ٱلْقَبْرِ مِنْ مَعَانِيْ ٱلسَّلَامِ ٱلْعَقْلِيِّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا .

ٱلْقَبْرُ فَمٌ يُنَادِي : أَسْرِعُوْا أَسْرِعُوْا ، فَهِيَ مُدَّةٌ لَوْ صُرِفَتْ كُلُّهَا فِيْ ٱلْخَيْرِ مَا وَفَتْ بِهِ ؛ فَكَيْفَ يَضِيْعُ مِنْهَا ضَيَاعٌ فِيْ ٱلشَّرِّ أَوِ ٱلإِثْمِ ؟ لَوْ وُلِدَ ٱلإِنْسَانُ وَمَشَىٰ وَأَيْفَعَ وَشَبَّ وَٱكْتَهَلَ وَهَرِمَ فِيْ يَوْمٍ وَاحِدٍ ، فَمَا عَسَاهُ كَانَ يُضِيْعُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْيَوْمِ ٱلْوَاحِدِ ؟ إِنَّ أَطْوَلَ ٱلأَعْمَارِ لَا يَرَاهُ صَاحِبُهُ فِيْ سَاعَةِ مَوْتِهِ إِلَّا أَقْصَرَ مِنْ يَوْمٍ .

يُنَادِيْ ٱلْقَبْرُ : أَصْلِحُوْا عُيُوْبَكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ وَقْتٌ لِإِصْلَاحِهَا ؛ فَإِنَّهَا إِنْ جَاءَتْ إِلَىٰ هُنَا كَمَا هِيَ ، بَقِيَتْ كَمَا هِيَ إِلَىٰ ٱلأَبَدِ ، وَتَرَكَهَا ٱلْوَقْتُ وَهَرَبَ .

هُنَا قَبْرٌ ، وَهُنَاكَ قَبْرٌ ، وَهُنَالِكَ ٱلْقَبْرُ أَيْضًا ؛ فَلَيْسَ يَنْظُرُ فِيْ هَـٰذَا عَاقِلٌ إِلَّا كَانَ نَظَرُهُ كَأَنَّهُ حُكْمُ مَحْكَمَةٍ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ كَيْفَ تَنْبَغِي وَكَيْفَ تَكُوْنُ .

فِيْ ٱلْقَبْرِ مَعْنَىٰ إِلْغَاءِ ٱلزَّمَانِ ، فَمَنْ يَفْهَمُ هَـٰذَا ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَىٰ أَيَّامِهِ ، وَأَنْ يُسْقِطَ مِنْهَا أَوْقَاتَ ٱلشَّرِّ وَٱلإِثْمِ ، وَأَنْ يُمِيْتَ فِيْ نَفْسِهِ خَوَاطِرَ ٱلسُّوْءِ ؛ فَمِنْ مَعَانِيْ ٱلْقَبْرِ يَنْشَأُ

لِلإِرَادَةِ عَقْلُهَا ٱلْقَوِيُّ ٱلثَّابِتُ ؛ وَكُلُّ ٱلأَيَّامِ ٱلْمَكْرُوْهَةِ لَا تَجِدُ لَهَا مَكَانًا فِيْ زَمَنِ هَـٰذَا ٱلْعَقْلِ ، كَمَا لَا يَجِدُ ٱللَّيْلُ مَحَلًّا فِيْ سَاعَاتِ ٱلشَّمْسِ .

ثَلَاثَةُ أَرْوَاحٍ لَا تَصْلُحُ رُوْحُ ٱلإِنْسَانِ فِيْ ٱلأَرْضِ إِلَّا بِهَا :

رُوْحُ ٱلطَّبِيْعَةِ فِيْ جَمَالِهَا ، وَرُوْحُ ٱلْمَعْبَدِ فِيْ طَهَارَتِهِ ، وَرُوْحُ ٱلْقَبْرِ فِيْ مَوْعِظَتِهِ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

عَرُوسٌ تُزَفُّ إِلَىٰ قَبْرِهَا(*)

- ١ -

كَانَ عُمْرُهَا طَاقَةَ أَزْهَارٍ تُسَمَّىٰ أَيَّامًا .

كَانَ عُمْرُهَا طَاقَةَ أَزْهَارٍ يَنْتَسِقُ فِيهِ ٱلْيَوْمُ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ كَمَا تَنْبُتُ ٱلْوَرَقَةُ ٱلنَّاعِمَةُ فِي ٱلزَّهْرَةِ إِلَىٰ وَرَقَةٍ نَاعِمَةٍ مِثْلِهَا .

أَيَّامُ ٱلصِّبَا ٱلْمَرِحَةُ حَتَّىٰ فِي أَحْزَانِهَا وَهُمُومِهَا ؛ إِذْ كَانَ مَجِيئُهَا مِنَ ٱلزَّمَنِ ٱلَّذِي خُصَّ بِشَبَابِ ٱلْقَلْبِ ، تَبْدُو ٱلْأَشْيَاءُ فِي مَجَارِي أَحْكَامِهَا كَٱلْمَسْحُورَةِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ مُفْرِحَةً جَاءَتْ حَامِلَةً فَرَحَيْنِ ، وَإِنْ كَانَتْ مُحْزِنَةً جَاءَتْ بِنِصْفِ ٱلْحُزْنِ .

تِلْكَ ٱلْأَيَّامُ ٱلَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا ٱلطَّبِيعَةُ لِشَبَابِ ٱلْجِسْمِ بِقُوًى مُخْتَلِفَةٍ : مِنْهَا ٱلشَّمْسُ وَٱلْهَوَاءُ وَٱلْحَرَكَةُ ، وَمِنْهَا ٱلْفَرَحُ وَٱلنِّسْيَانُ وَٱلْأَحْلَامُ !

* * *

وَشَبَّتِ ٱلْعَذْرَاءُ وَأُفْرِغَتْ فِي قَالَبِ ٱلْأُنُوثَةِ ٱلشَّمْسِيِّ ٱلْقَمَرِيِّ ؛ وَٱكْتَسَىٰ وَجْهُهَا دِيبَاجَةً مِنَ ٱلزَّهْرِ ٱلْغَضِّ ، وَأَوْدَعَتْهَا ٱلطَّبِيعَةُ سِرَّهَا ٱلنِّسَائِيَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْعَذْرَاءَ فَنَّ جَمَالٍ لِأَنَّهَا فَنُّ حَيَاةٍ ، وَجَعَلَتْهَا تِمْثَالًا لِلظَّرْفِ ؛ وَمَا أَعْجَبَ سِحْرَ ٱلطَّبِيعَةِ عِنْدَمَا تُجَمِّلُ ٱلْعَذْرَاءَ بِظَرْفٍ كَظَرْفِ ٱلْأَطْفَالِ ٱلَّذِينَ سَتَلِدُهُمْ مِنْ بَعْدُ ! وَأَسْبَغَتْ عَلَيْهَا مَعَانِيَ ٱلرِّقَّةِ وَٱلْحَنَانِ وَجَمَالِ ٱلنَّفْسِ ؛ وَمَا أَكْرَمَ يَدَ ٱلطَّبِيعَةِ عِنْدَمَا تَمْهَرُ ٱلْعَذْرَاءَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ مَهْرَهَا ٱلْإِنْسَانِيَّ !

* * *

وَخُطِبَتِ ٱلْعَذْرَاءُ لِزَوْجِهَا ، وَعُقِدَ لَهُ عَلَيْهَا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ مِنْ شَهْرِ مَارِس/آذار فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلْخَامِسَةِ بَعْدَ ٱلظُّهْرِ .

(*) « الرسالة » العدد : ٨٩ ، ١٣ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٨ مارس/آذار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٤٠٤ ـ ٤٠٦ .

وَمَاتَتْ عَذْرَاءَ بَعْدَ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَأُنْزِلَتْ إِلَىٰ قَبْرِهَا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ مِنْ شَهْرِ مَارِس/آذار فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلْخَامِسَةِ بَعْدَ ٱلظُّهْرِ !

وَكَانَتِ ٱلسَّنَوَاتُ ٱلثَّلَاثُ عُمْرَ قَلْبٍ يُقَطِّعُهُ ٱلْمَرَضُ ، يَتَنَظَّرُونَ بِهِ ٱلْعُرْسَ ، وَيَنْتَظِرُ بِنَفْسِهِ ٱلرَّمْسَ !

يَا عَجَائِبَ ٱلْقَدَرِ ! أَذَاكَ لَحْنٌ مُوسِيقِيٌّ لِأَنِينٍ ٱسْتَمَرَّ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ ، فَجَاءَ آخِرُهُ مَوْزُونًا بِأَوَّلِهِ فِي ضَبْطٍ وَدِقَّةٍ ؟

أَكَانَتْ تِلْكَ ٱلْعَذْرَاءُ تَحْمِلُ سِرًّا عَظِيمًا سَيُغَيِّرُ ٱلدُّنْيَا ، فَرَدَّتِ ٱلدُّنْيَا عَلَيْهَا يَوْمَ ٱلتَّهْنِئَةِ وَٱلِٱبْتِسَامِ وَٱلزِّينَةِ ، فَإِذَا هُوَ يَوْمُ ٱلْوَلْوَلَةِ وَٱلدُّمُوعِ وَٱلْكَفَنِ ؟

- ٢ -

وَاهًا لَكَ أَيُّهَا ٱلزَّمَنُ ! مَنِ ٱلَّذِي يَفْهَمُكَ وَأَنْتَ مُدَّةُ أَقْدَارٍ ؟

وَٱلْيَوْمُ ٱلْوَاحِدُ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا هُوَ أَيَّامٌ مُخْتَلِفَةٌ بِعَدَدِ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا جَمِيعًا ، وَبِهَـٰذَا يَعُودُ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ سِرُّ يَوْمِهِ ، كَمَا أَنَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ سِرَّ رُوحِهِ ، وَلَيْسَ إِلَيْهِ لَا هَـٰذَا وَلَا هَـٰذَا .

وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلزَّمَنِيِّ ٱلْوَاحِدِ أَرْبَعُ مِئَةِ مَلْيُونِ يَوْمٍ إِنْسَانِيٍّ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ ! وَمَعَ ذَلِكَ يُحْصِيهِ عَقْلُ ٱلْإِنْسَانِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً ؛ يَا لَلْغَبَاوَةِ . . . . !

وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَا يَتَعَلَّقُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ إِلَّا بِٱلشُّعَاعِ ٱلَّذِي يُضِيءُ ٱلْمَكَانَ ٱلْمُظْلِمَ فِي قَلْبِهِ ، وَٱلشَّمْسُ بِمَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنِيرَ ٱلْقَلْبَ ٱلَّذِي لَا يُضِيئُهُ إِلَّا وَجْهٌ مَحْبُوبٌ .

وَفِي ٱلْحَيَاةِ أَشْيَاءُ مَكْذُوبَةٌ تُكَبِّرُ ٱلدُّنْيَا وَتُصَغِّرُ ٱلنَّفْسَ ، وَفِي ٱلْحَيَاةِ أَشْيَاءُ حَقِيقِيَّةٌ تَعْظُمُ بِٱلنَّفْسِ وَتَصْغُرُ بِٱلدُّنْيَا ؛ وَذَهَبُ ٱلْأَرْضِ كُلُّهُ فَقْرٌ مُدْقِعٌ حِينَ تَكُونُ ٱلْمُعَامَلَةُ مَعَ ٱلْقَلْبِ .

أَيَّتُهَا ٱلدُّنْيَا ! هَـٰذَا تَحْقِيرُكِ ٱلْإِلَـٰهِيُّ إِذَا أَكْبَرَكِ ٱلْإِنْسَانُ !

* * *

وَيَا عَجَبًا لِأَهْلِ ٱلسُّوءِ ٱلْمُغْتَرِّينَ بِحَيَاةٍ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ ! فَمَاذَا يَرْتَقِبُونَ إِلَّا أَنْ تَنْتَهِيَ ؟

حَيَاةٌ عَجِيبَةٌ غَامِضَةٌ ؛ وَهَلْ أَعْجَبُ وَأَغْمَضُ مِنْ أَنْ يَكُونَ ٱنْتِهَاءُ ٱلْإِنْسَانِ إِلَىٰ آخِرِهَا هُوَ أَوَّلَ

فِكْرِهِ فِي حَقِيقَتِهَا ؟

فَعِنْدَمَا تَحِينُ ٱلدَّقَائِقُ ٱلْمَعْدُودَةُ ٱلَّتِي لَا تَرْقُمُهَا ٱلسَّاعَةُ وَلَـٰكِنْ يَرْقُمُهَا صَدْرُ ٱلْمُحْتَضَرِ . . . عِنْدَمَا يَكُونُ مُلْكُ ٱلْمُلُوكِ جَمِيعًا كَٱلتُّرَابِ لَا يَشْتَرِي شَيْئًا ٱلْبَتَّةَ . . .

. . . مَاذَا يَكُونُ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُ بَعْدَ مَا تَقْتَرِفُ ٱلْجِنَايَةَ ، وَيَقُومُ عَلَيْكَ ٱلدَّلِيلُ ، وَتَرَى حَوْلَكَ ٱلْجُنْدَ وَٱلْقُضَاةَ ، وَ{ تَقِفُ } أَمَامَكَ ٱلشَّرِيعَةُ وَٱلْعَدْلُ ؟

* * *

أَعْمَالُنَا فِي ٱلْحَيَاةِ هِيَ وَحْدَهَا ٱلْحَيَاةُ ، لَا أَعْمَارُنَا ، وَلَا حُظُوظُنَا . وَلَا قِيمَةَ لِلْمَالِ ، أَوِ ٱلْجَاهِ ، أَوِ ٱلْعَافِيَةِ ، أَوْ هِيَ مَعًا ـ إِذَا سُلِبَ صَاحِبُهَا ٱلأَمْنَ وَٱلْقَرَارَ ! وَٱلآمِنُ فِي ٱلدُّنْيَا مَنْ لَمْ تَكُنْ وَرَاءَهُ جَرِيمَةٌ لَا تَزَالُ تَجْرِي وَرَاءَهُ . وَٱلسَّعِيدُ فِي ٱلآخِرَةِ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ جَرِيمَةٌ تُطَارِدُهُ وَهُوَ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ .

كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَخْدَعَ ٱلآلَةُ صَاحِبَهَا وَفِيهَا (ٱلْعَدَّادُ) : مَا تَتَحَرَّكُ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا أَشْعَرَتْهُ فَعَدَّهَا ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكْذِبَ ٱلإِنْسَانُ رَبَّهُ وَفِيهِ ٱلْقَلْبُ : مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا أَشْعَرَهُ فَعَدَّهُ ؟

ـ ٣ ـ

وَرَأَيْتُ ٱلْعَرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ .

أَفَرَأَيْتَ أَنْتَ ٱلْغِنَى عِنْدَمَا يُدْبِرُ عَنْ إِنْسَانٍ لِيَتْرُكَ لَهُ ٱلْحَسْرَةَ وَٱلذِّكْرَىٰ ٱلأَلِيمَةَ ؟ أَرَأَيْتَ ٱلْحَقَائِقَ ٱلْجَمِيلَةَ تَذْهَبُ عَنْ أَهْلِهَا فَلَا تَتْرُكُ لَهُمْ إِلَّا ٱلأَحْلَامَ بِهَا ؟ مَا أَتْعَبَ ٱلإِنْسَانَ حِينَ تَتَحَوَّلُ ٱلْحَيَاةُ عَنْ جِسْمِهِ إِلَىٰ ٱلإِقَامَةِ فِي فِكْرِهِ !

وَمَا هِيَ ٱلْهُمُومُ وَٱلأَمْرَاضُ ؟ هِيَ ٱلْقَبْرُ يَسْتَبْطِئُ صَاحِبَهُ أَحْيَانًا فَيَنْفُضُ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ شَيْئًا مِنْ تُرَابِهِ . . . !

رَأَيْتُ ٱلْعَرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ ، فَيَا للهِ مِنْ أَسْرَارِ ٱلْمَوْتِ وَرَهْبَتِهَا ! فَرَغَ جِسْمُهَا كَمَا فَرَغَتْ عِنْدَهَا ٱلأَشْيَاءُ مِنْ مَعَانِيهَا ! وَتَخَلَّىٰ هَـٰذَا ٱلْجِسْمُ عَنْ مَكَانِهِ لِلرُّوحِ تَظْهَرُ لِأَهْلِهَا وَتَقِفُ بَيْنَهُمْ وَقْفَةَ ٱلْوَدَاعِ !

وَتَحَوَّلَ ٱلزَّمَنُ إِلَىٰ فِكْرِ ٱلْمَرِيضَةِ ؛ فَلَمْ تَعُدْ تَعِيشُ فِي نَهَارٍ وَلَيْلٍ ، بَلْ فِي فِكْرٍ مُضِيْءٍ أَوْ فِكْرٍ مُظْلِمٍ !

يَا إِلَـٰهِي ! مَا هَـٰذَا ٱلْجِسْمُ ٱلْمُتَهَدِّمُ ٱلْمُقْبِلُ عَلَىٰ ٱلآخِرَةِ ؛ أَهُوَ تِمْثَالٌ بَطَلَ تَعْبِيرُهُ ، أَمْ تِمْثَالٌ بَدَأَ تَعْبِيرُهُ ؟

لَقَدْ وَثِقَتْ أَنَّهُ ٱلْمَوْتُ ، فَكَانَ فِكْرُهَا ٱلإِلَـٰهِيُّ هُوَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ ؛ وَكَانَ وَجْهُهَا كَوَجْهِ ٱلْعَابِدِ : عَلَيْهِ طَيْفُ ٱلصَّلَاةِ وَنُورُهَا . وَٱلرُّوحُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ مَتَىٰ عَبَّرَتْ لَا تُعَبِّرُ إِلَّا بِٱلْوَجْهِ .

وَلَهَا ٱبْتِسَامَةٌ غَرِيبَةُ ٱلْجَمَالِ ؛ إِذْ هِيَ ٱبْتِسَامَةُ آلَامٍ أَيْقَنَتْ أَنَّهَا مُوشِكَةٌ أَنْ تَنْتَهِيَ ! ٱبْتِسَامَةُ رُوحٍ لَهَا مِثْلُ فَرَحِ ٱلسَّجِينِ قَدْ رَأَىٰ سَجَّانَهُ وَاقِفًا فِي يَدِهِ ٱلسَّاعَةَ يَرْقُبُ ٱلدَّقِيقَةَ وَٱلثَّانِيَةَ لِيَقُولَ لَهُ : ٱنْطَلِقْ !

* * *

وَدَخَلْتُ أَعُودُهَا فَرَأَتْ كَأَنَّنِي آتٍ مِنَ ٱلدُّنْيَا . . . ! وَتَنَسَّمَتْ مِنِّي هَوَاءَ ٱلْحَيَاةِ ، كَأَنَّنِي حَدِيقَةٌ لَا شَخْصٌ !

وَمَنْ غَيْرُ ٱلْمَرِيضِ ٱلْمُدْنَفِ ، يَعْرِفُ أَنَّ ٱلدُّنْيَا كَلِمَةٌ لَيْسَ لَهَا مَعْنًى أَبَدًا إِلَّا ٱلْعَافِيَةَ ؟ مَنْ غَيْرُ ٱلْمَرِيضِ ٱلْمُشْفِي عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ ، يَعِيشُ بِقُلُوبِ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ حَوْلَهُ لَا بِقَلْبِهِ ؟

تِلْكَ حَالَةٌ لَا تَنْفَعُ فِيهَا ٱلشَّمْسُ وَلَا ٱلْهَوَاءُ وَلَا ٱلطَّبِيعَةُ ٱلْجَمِيلَةُ ، وَيَقُومُ مَقَامَ جَمِيعِهَا لِلْمَرِيضِ أَهْلُهُ وَأَحِبَّاؤُهُ !

وَكَانَ ذَوُوهَا مِنْ رَهْبَةِ ٱلْقَدَرِ ٱلدَّانِي كَأَنَّهُمْ أَسْرَىٰ حَرْبٍ أُجْلِسُوا تَحْتَ جِدَارٍ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ! وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ فَزَعِهَا تَنْبِضُ نَبْضًا مِثْلَ ضَرَبَاتِ ٱلْمَعَاوِلِ .

وَبِٱقْتِرَابِ ٱلْحَبِيبِ ٱلْمُحْتَضَرِ مِنَ ٱلْمَجْهُولِ ، يُصْبِحُ مَنْ يُحِبُّهُ فِي مَجْهُولٍ آخَرَ ، فَتَخْتَلِطُ عَلَيْهِ ٱلْحَيَاةُ بِٱلْمَوْتِ ، وَيَعُودُ فِي مِثْلِ حَيْرَةِ ٱلْمَجْنُونِ حِينَ يُمْسِكُ بِيَدِهِ ٱلظِّلَّ ٱلْمُتَحَرِّكَ لِيَمْنَعَهُ أَنْ يَذْهَبَ ! وَتَعْرُوهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَآبَةُ عُمْرٍ كَامِلٍ ، تُهَيِّئُ لَهُ جَلَالَ ٱلْحِسِّ ٱلَّذِي يَشْهَدُ بِهِ جَلَالَ ٱلْمَوْتِ !

* * *

وَحَانَتْ سَاعَةُ مَا لَا يُفْهَمُ ، سَاعَةُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهِيَ سَاعَةُ ٱللَّاشَيْءِ فِيْ ٱلْعَقْلِ ٱلإِنْسَانِيِّ ! فَٱلْتَفَتَتِ ٱلْعَرُوْسُ لِأَبِيْهَا تَقُوْلُ : « لَا تَحْزَنْ يَا أَبِيْ . . . » وَلِأُمِّهَا تَقُوْلُ : « لَا تَحْزَنِيْ يَا أُمِّيْ . . . ! » .

وَتَبَسَّمَتْ لِلدُّمُوْعِ كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ أَنْ تُكَلِّمَهَا هِيَ أَيْضًا ؛ تَقُوْلُ لَهَا : « لَا تَبْكِيْ . . . ! » وَأَشْفَقَتْ عَلَىٰ أَحْيَائِهَا وَهِيَ تَمُوْتُ ، فَٱسْتَجْمَعَتْ رُوْحَهَا لِيَبْقَىٰ وَجْهُهَا حَيًّا مِنْ أَجْلِهِمْ بِضْعَ دَقَائِقَ ! وَقَالَتْ : « سَأُغَادِرُكُمْ مُبْتَسِمَةً فَعِيْشُوْا مُبْتَسِمِيْنَ ، سَأَتْرُكُ تَذْكَارِيْ بَيْنَكُمْ تَذْكَارَ عَرُوْسٍ ! . . . »

ثُمَّ ذَكَرَتِ ٱللهَ وَذَكَّرَتْهُمْ بِهِ ، وَقَالَتْ : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ » . وَكَرَّرَتْهَا عَشْرًا ! وَتَملأَتْ رُوْحُهَا بِٱلْكَلِمَةِ ٱلَّتِيْ فِيْهَا نُوْرُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَنَطَقَتْ مِنْ حَقِيْقَةِ قَلْبِهَا بِٱلاسْمِ ٱلْأَعْظَمِ ٱلَّذِيْ يَجْعَلُ ٱلنَّفْسَ مُنِيْرَةً تَتَلَأْلَأُ حَتَّىٰ وَهِيَ فِيْ أَحْزَانِهَا .

ثُمَّ ٱسْتَقْبَلَتْ خَالِقَ ٱلرَّحْمَةِ فِيْ ٱلآبَاءِ وَٱلْأُمَّهَاتِ ! وَفِيْ مِثْلِ إِشَارَةِ وَدَاعٍ مِنْ مُسَافِرٍ ٱنْبَعَثَ بِهِ ٱلْقِطَارُ ، أَلْقَتْ إِلَيْهِمْ تَحِيَّةً مِنِ ٱبْتِسَامَتِهَا وَأَسْلَمَتِ ٱلرُّوْحَ !

ـ ٤ ـ

يَا لَعَجَائِبِ ٱلْقَدَرِ ! مَشَيْنَا فِيْ جَنَازَةِ ٱلْعَرُوْسِ ٱلَّتِيْ تُزَفُّ إِلَىٰ قَبْرِهَا طَاهِرَةً كَٱلطِّفْلَةِ وَلَمْ يُبَارِكْ لَهَا أَحَدٌ ! فَمَا جَاوَزْنَا ٱلدَّارَ إِلَّا قَلِيْلًا حَتَّىٰ أَبْصَرْتُ عَلَىٰ حَائِطٍ فِيْ ٱلطَّرِيْقِ إِعْلَانًا قَدِيْمًا بِٱلْخَطِّ ٱلْكَبِيْرِ ٱلَّذِيْ يَصِيْحُ لِلأَعْيُنِ ؛ إِعْلَانًا قَدِيْمًا عَنْ (رِوَايَةٍ) هَـٰذَا هُوَ ٱسْمُهَا : « مَبْرُوْكٌ . . . ! » .

وَٱخْتَرَقْنَا ٱلْمَدِيْنَةَ وَأَنَا أَنْظُرُ وَأَتَقَصَّىٰ ، فَلَمْ أَرَ هَـٰذَا ٱلإِعْلَانَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ! وَٱخْتَرَقْنَا ٱلْمَدِيْنَةَ كُلَّهَا ، فَلَمَّا ٱنْقَطَعَ ٱلْعُمْرَانُ وَأَشْرَفْنَا عَلَىٰ ٱلْمَقْبُرَةِ ، إِذَا آخِرُ حَائِطٍ عَلَيْهِ ٱلإِعْلَانُ : « مَبْرُوْكٌ . . . ! » .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

مَوْتُ أُمٍّ(*)

رَجَعْتُ مِنَ ٱلْجَنَازَةِ بَعْدَ أَنْ غَبَّرْتُ قَدَمَيَّ سَاعَةً فِيْ ٱلطَّرِيْقِ ٱلَّتِيْ تُرَابُهَا تُرَابٌ وَأَشِعَّةٌ ، وَكَانَتْ فِيْ ٱلنَّعْشِ لُؤْلُؤَةٌ آدَمِيَّةٌ مُحَطَّمَةٌ ، هِيَ زَوْجَةُ صَدِيْقٍ طَحْطَحَتْهَا ٱلْأَمْرَاضُ فَفَرَّقَتْهَا بَيْنَ عِلَلِ ٱلْمَوْتِ ، وَكَانَ قَلْبُهَا يُحْيِيْهَا فَأَخَذَ يُهْلِكُهَا ، حَتَّىٰ إِذَا دَنَا أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا رَحِمَهَا ٱللهُ فَقَضَىٰ فِيْهَا قَضَاءَهُ . وَمَنْ ذَا ٱلَّذِيْ مَاتَ لَهُ مَرِيْضٌ بِٱلْقَلْبِ وَلَمْ يَرَهُ مِنْ قَلْبِهِ فِيْ عِلَّتِهِ كَٱلْعُصْفُوْرَةِ ٱلَّتِيْ تَهْتَلِكُ تَحْتَ عَيْنَيْ ثُعْبَانٍ سَلَّطَ عَلَيْهَا سُمُوْمَ عَيْنَيْهِ !

كَانَتِ ٱلْمِسْكِيْنَةُ فِيْ ٱلْخَامِسَةِ وَٱلْعِشْرِيْنَ مِنْ سِنِّهَا ، أَمَّا قَلْبُهَا فَفِيْ ٱلثَّمَانِيْنَ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ ؛ هِيَ فِيْ سِنِّ ٱلشَّبَابِ وَهُوَ مُتَهَدِّمٌ فِيْ سِنِّ ٱلْمَوْتِ .

وَكَانَتْ فَاضِلَةً تَقِيَّةً صَالِحَةً ، لَمْ تَتَعَلَّمْ وَلَـٰكِنَّ عِلْمَهَا ٱلتَّقْوَىٰ وَٱلْفَضِيْلَةُ . وَأَكْمَلُ ٱلنِّسَاءِ عِنْدِيْ لَيْسَتْ هِيَ ٱلَّتِيْ مَلَأَتْ عَيْنَيْهَا مِنَ ٱلْكُتُبِ فَهِيَ تَنْظُرُ إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ نَظَرَاتٍ تَحُلُّ مَشَاكِلَ وَتَخْلُقُ مَشَاكِلَ ؛ وَلَـٰكِنَّهَا تِلْكَ ٱلَّتِيْ تَنْظُرُ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا بِعَيْنٍ مُتَلَأْلِئَةٍ بِنُوْرِ ٱلإِيْمَانِ تُقِرُّ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ ٱلسَّمَاوِيَّ ، فَتُؤْمِنُ بِأَحْزَانِهَا وَأَفْرَاحِهَا مَعًا ، وَتَأْخُذُ مَا تُعْطَىٰ مِنْ يَدِ خَالِقِهَا ، رَحْمَةً مَعْرُوْفَةً أَوْ رَحْمَةً مَجْهُوْلَةً . هَـٰذِهِ عِنْدِيْ تُسَمَّىٰ ٱمْرَأَةً ، وَمَعْنَاهَا ٱلْمَعْبَدُ ٱلْقُدْسِيُّ ؛ وَتَكُوْنُ ٱلزَّوْجَةَ ، وَمَعْنَاهَا ٱلْقُوَّةُ ٱلْمُسْعِدَةُ ؛ وَتَصِيْرُ ٱلأُمَّ ، وَمَعْنَاهَا ٱلتَّكْمِلَةُ ٱلإِلَـٰهِيَّةُ لِصِغَارِهَا وَزَوْجِهَا وَنَفْسِهَا .

وَمَهْمَا تَبْلُغِ ٱلْمَرْأَةُ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَٱلرَّجُلُ أَعْظَمُ مِنْهَا بِأَنَّهُ رَجُلٌ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَرْأَةَ حَقَّ ٱلْمَرْأَةِ هِيَ تِلْكَ ٱلَّتِيْ خُلِقَتْ لِتَكُوْنَ لِلرَّجُلِ مَادَّةَ ٱلْفَضِيْلَةِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلإِيْمَانِ ، فَتَكُوْنَ لَهُ وَحْيًا وَإِلْهَامًا وَعَزَاءً وَقُوَّةً ، أَيْ : زِيَادَةً فِيْ سُرُوْرِهِ وَنَقْصًا مِنْ آلَامِهِ .

(*) « الرسالة » العدد : ٥٢ ، ٢٠ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ٢ يوليو/ تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٠٨٥ ـ ١٠٨٦ .

وَلَنْ تَكُوْنَ ٱلْمَرْأَةُ فِي ٱلْحَيَاةِ أَعْظَمَ مِنَ ٱلرَّجُلِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ ، هُوَ صِفَاتُهَا ٱلَّتِي تَجْعَلُ رَجُلَهَا أَعْظَمَ مِنْهَا .

* * *

وَمَشَيْتُ مِنَ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي أَلْبَسَتْهُ ٱلْمَيْتَةُ مَعْنَىٰ ٱلْقَبْرِ ، إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ ٱلَّذِي أَلْبَسَ ٱلْمَيْتَةَ مَعْنَىٰ ٱلْبَيْتِ . وَأَنَا مُنْذُ مَشَيْتُ فِي جَنَازَةِ أُمِّي (رحمها الله) لَا أَسِيْرُ فِي هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقِ مَعَ ٱلْأَحْيَاءِ ، وَلَـٰكِنْ مَعَ ٱلْمَوْتَىٰ ، فَأَتْبَعُ { مِنَ ٱلْمَيِّتِ } صَدِيْقًا لَيْسَ رَجُلًا وَلَا ٱمْرَأَةً ، لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ؛ وَأَمْشِي فِي سَاعَةٍ لَيْسَتْ سِتِّيْنَ دَقِيْقَةً ، لِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنَ ٱلزَّمَنِ ؛ وَلَا أَرَىٰ ٱلطَّرِيْقَ مِنْ طُرُقِ ٱلْحَيَاةِ ، لِأَنَّنِي فِي صُحْبَةِ مَيِّتٍ ؛ وَتُصْبِحُ لِلْأَرْضِ فِي رَأْيِي جُغْرَافِيَّةٌ أُخْرَىٰ عَمِيَ ٱلنَّاسُ عَنْهَا لِشِدَّةِ وُضُوْحِهَا ، كَٱلْأُلُوْهِيَّةِ خَفِيَتْ مِنْ شِدَّةِ مَا ظَهَرَتْ .

يَقُوْلُوْنَ : إِنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ ٱلْأَرْضِ يَغْمُرُهَا ٱلْبَحْرُ . أَمَّا أَنَا فَأَرَىٰ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ ٱلْأَرْضِ لَا يَغْمُرُهَا ٱلْبَحْرُ ٱلَّذِي وَصَفُوْا ، وَلَـٰكِنْ خِضَمٌّ آخَرُ زَخَّارٌ مُتَضَرِّبٌ ، هُوَ ذَلِكَ ٱلْبَحْرُ ٱلتُّرَابِيُّ ٱلْعَظِيْمُ ٱلْمُسَمَّىٰ « ٱلْمَقْبَرَةَ » .

يَقُوْلُوْنَ : إِنَّ ٱلْحَيَاةَ هِيَ . . . هِيَ مَاذَا ـ وَيْحَكُمْ ـ أَيُّهَا ٱلْمَغْرُوْرُوْنَ ؛ أَفَلَا تَرَوْنَ هَـٰذِهِ ٱلصِّلَةَ ٱلدَّائِمَةَ بَيْنَ بَطْنِ ٱلْأُمِّ وَبَطْنِ ٱلْأَرْضِ ؟

* * *

لَعَمْرِي كَيْفَ تَجْعَلُ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ لِلنَّاسِ قُلُوْبًا مَعَ قُلُوْبِهِمْ ، فَيُحِسُّ ٱلْمَرْءُ بِقَلْبٍ ، وَيَعْمَلُ بِقَلْبٍ آخَرَ : يَعْتَقِدُ ضَرَرَ ٱلْكَذِبِ وَيَكْذِبُ ، وَيَعْرِفُ مَعَرَّةَ ٱلْإِثْمِ وَيَأْثَمُ ، وَيُوْقِنُ بِعَاقِبَةِ ٱلْخِيَانَةِ ثُمَّ يَخُوْنُ ؛ وَيَمْضِي فِي ٱلْعُمْرِ مُنْتَهِيًا إِلَىٰ رَبِّهِ ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ ، وَلَـٰكِنَّهُ فِي ٱلطَّرِيْقِ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلَ مَنْ قَدْ فَرَّ مِنْ رَبِّهِ . . . ؟

هَبَّتِ ٱلرِّيْحُ فِي ٱلسَّحَرِ عَلَىٰ رَوْضَةٍ غَنَّاءَ فَطَابَتْ لَهَا ، فَعَقَدَتْ عُقْدَتَهَا أَنْ تَتَّخِذَ لَهَا بَيْتًا فِي ذَلِكَ ٱلْمَكَانِ ٱلطَّيِّبِ لِتُقِيْمَ فِيْهِ . . . يَا لَهَا حِكْمَةً مِنَ ٱلتَّدْبِيْرِ ! تَزْعُمُ ٱلرِّيْحُ ٱلْإِقَامَةَ عَلَىٰ حِيْنِ كُلُّ وُجُوْدِهَا هُوَ لَحْظَةُ مُرُوْرِهَا ، وَتَحْلُمُ بِٱلْقَرَارِ فِي ٱلْبَيْتِ وَهِيَ لَا تَمْلِكُ بِطَبِيْعَتِهَا أَنْ تَقِفَ .

يَا لَهَا حِكْمَةً سَامِيَةً ، لَا يَسْكُنُهَا مِنَ ٱلْمَعْنَىٰ إِلَّا أَسْخَفُ مَا فِي ٱلْحُمْقِ !

* * *

هَمَدَ ٱلْحَيُّ وَٱنْطَفَأَتْ عَيْنَاهُ ، وَلَـٰكِنَّهُ تَحَرَّكَ فِي تَارِيْخِهِ مِمَّا ضَيَّقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَوْ وَسَّعَ ، وَأَصْبَحَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ مِنْ عَمَلِهِ إِمَّا مُبْصِرَةٍ أَوْ كَٱلْعَمْيَاءِ ؛ فَلَوْ تَكَلَّمَ يَصِفُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا لَقَالَ : إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلنُّجُوْمَ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ مَصَابِيْحُ مَأْتَمٍ أُقِيْمَ بِلَيْلٍ . وَمَا أَعْجَبَ أَنْ يَجْلِسَ أَهْلُ ٱلْمَأْتَمِ فِي ٱلْمَأْتَمِ لِيَضْحَكُوْا وَيَلْعَبُوْا !

وَلَوْ نَطَقَ ٱلْمَوْتَىٰ لَقَالُوْا : أَيُّهَا ٱلْأَحْيَاءُ ! إِنَّ هَـٰذَا ٱلْحَاضِرَ ٱلَّذِي يَمُرُّ فَيَكُوْنُ مَاضِيَكُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ، هُوَ بِعَيْنِهِ ٱلَّذِي يَكُوْنُ مُسْتَقْبَلَكُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ، لَا تَزِيْدُوْنَ فِيْهِ وَلَا تَنْقُصُوْنَ . وَإِنَّ ٱلدُّنْيَا تَبْدَأُ عِنْدَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْلَىٰ إِلَىٰ ٱلْأَدْنَىٰ : مِنَ ٱلْعُظَمَاءِ إِلَىٰ ٱلْفُقَرَاءِ ؛ وَلَـٰكِنَّهَا تَنْقَلِبُ فِي ٱلْآخِرَةِ فَتَبْدَأُ مِنَ ٱلْفُقَرَاءِ إِلَىٰ ٱلْعُظَمَاءِ ؛ وَأَنْتُمْ تَرْسُمُوْنَهَا بِخُطُوْطِ ٱلْمَطَامِعِ وَٱلْحُظُوْظِ ، وَيَرْسُمُهَا ٱللهُ بِخُطُوْطِ ٱلْحِرْمَانِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ ؛ إِنَّ ٱلتَّامَّ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ مَنْ تَمَّ بِمَتَاعِهَا وَلَذَّاتِهَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلتَّامَّ فِي ٱلسَّمَاءِ مَنْ تَمَّ بِنَفْسِهِ وَحْدَهَا .

* * *

يَا أَسَفَا ! لَنْ يَقُوْلَ ٱلْمَيِّتُ لِلْحَيِّ شَيْئًا ، وَمَنْ يَدْرِي ؟ لَعَلَّنَا وَنَحْنُ نُلْحِدُ لِلْمَوْتَىٰ وَنُنْزِلُهُمْ فِي قُبُوْرِهِمْ ، يَرَوْنَ بِأَرْوَاحِهِمُ ٱلْخَالِدَةِ أَنَّنَا نَحْنُ مَوْتَاهُمُ ٱلْمَسَاكِيْنُ ، وَأَنَّنَا مَدْفُوْنُوْنَ فِي ٱلْقَبْرِ ٱلَّذِي يُسَمُّوْنَهُ : « ٱلْكُرَةَ ٱلْأَرْضِيَّةَ » ! وَهَلِ ٱلْكُرَةُ ٱلْأَرْضِيَّةُ مِنَ ٱللَّانِهَايَةِ إِلَّا حُفْرَةٌ بِرِجْلِ نَمْلَةٍ لِتُدْفَنَ فِيْهَا نَمْلَةٌ . . .

ٱلْحَيَاةُ . . . أَتُرِيْدُ أَنْ تَعْرِفَهَا عَلَىٰ حَقِيْقَتِهَا ؟ هِيَ ٱلْمُبْهَمَاتُ ٱلْكَثِيْرَةُ ٱلَّتِي لَيْسَ لَهَا فِي ٱلْآخِرِ إِلَّا تَفْسِيْرٌ وَاحِدٌ : حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ .

* * *

وَرَجَعْنَا مَعَ ٱلصَّدِيْقِ إِلَىٰ بَيْتِهِ ، وَلَهُ خَمْسَةُ أَطْفَالٍ صِغَارٍ لَوْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلَّذِيْنَ ٱنْتَزَعُوْا مِنْ أُمِّهِمْ لَتَرَكَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَىٰ قَلْبِهَا مِثْلَ ٱلْمِكْوَاةِ ٱلْمُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي ٱلنَّارِ إِلَىٰ أَنْ تَحْمَرَّ ؛ وَلَـٰكِنَّ أُمَّهُمْ هِيَ ٱلَّتِي نُزِعَتْ مِنْهُمْ ، فَكَانَ بَقَاؤُهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ تَخْفِيْفًا لِسَكْرَةِ ٱلْمَوْتِ عَلَيْهَا .

وَغَشِيَتْهَا ٱلْغَشْيَةُ فَمَاتَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ ، إِذْ تَرَاهُمْ نَائِمِينَ تَحْتَ جَنَاحِ ٱلرَّحْمَةِ ٱلإِلَـٰهِيَّةِ ٱلْمَمْدُودِ ، وَقَالَتْ : إِنَّهَا تَسْمَعُ أَحْلَامَهُمْ . وَكَانُوا هُمْ عَقْلَهَا فِي سَاعَةِ ٱلْمَوْتِ !

تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي قَلْبِ ٱلأُمِّ دُنْيَا مِنْ خَلْقِهِ هُوَ ، وَدُنْيَا مِنْ خَلْقِ أَوْلَادِهَا !

تَبَارَكَ ٱلَّذِي أَثَابَ ٱلأُمَّ ثَوَابَ مَا تُعَانِي ، فَجَعَلَ فَرَحَهَا صُورَةً كَبِيرَةً مِنْ فَرَحِ صِغَارِهَا !

* * *

وَجَاءَ أَكْبَرُ ٱلأَطْفَالِ ٱلْخَمْسَةِ ، وَكَأَنَّهُ ثَمَانِيَةُ أَرْطَالٍ مِنَ ٱلْحَيَاةِ لَا ثَمَانِيَةُ أَعْوَامٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ ؛ جَاءَ إِلَيْنَا كَمَا يَجِيءُ ٱلْفَزَعُ لِقُلُوبٍ مُطْمَئِنَّةٍ ، إِذْ كَانَ فِي عَيْنَيْهِ ٱلْبَاكِيَتَيْنِ مَعْنَى فَقْدِ ٱلأُمِّ !

وَطَغَتْ عَلَيْهِ ٱلدُّمُوعُ فَتَنَاوَلَ مِنْدِيلَهُ وَمَسَحَهَا بِيَدِهِ ٱلصَّغِيرَةِ ، وَلَـٰكِنَّ رُوحَهُ ٱلْيَتِيمَةَ تَأْبَىٰ إِلَّا أَنْ تَرْسُمَ بِهَـٰذِهِ ٱلدُّمُوعِ عَلَىٰ وَجْهِهِ مَعَانِيَ يُتْمِهَا !

وَظَهَرَ ٱلِانْكِسَارُ فِي وَجْهِهِ يُعَبِّرُ بِبَلَاغَةٍ أَنَّهُ قَدْ أَحَسَّ حَقِيقَةَ ضَعْفِهِ وَطُفُولَتِهِ بِإِزَاءِ ٱلْمُصِيبَةِ ٱلَّتِي نَزَلَتْ بِهِ ، وَجَلَسَ مُسْتَسْلِمًا تُتَرْجِمُ هَيْئَتُهُ مَعَانِيَ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ : « رِفْقًا بِي ! » .

ثُمَّ تَطِيرُ مِنْ عَيْنَيْهِ نَظَرَاتٌ فِي ٱلْهَوَاءِ ، كَأَنَّمَا يُحِسُّ أَنَّ أُمَّهُ حَوْلَهُ فِي ٱلْجَوِّ وَلَـٰكِنَّهُ لَا يَرَاهَا !

ثُمَّ يُرْخِي عَيْنَيْهِ فِي إِغْمَاضَةٍ خَفِيفَةٍ ، كَأَنَّمَا يَرْجُو أَنْ يَرَىٰ أُمَّهُ فِي طَوِيَّتِهِ !

وَلَا يُصَدِّقُ أَنَّهَا مَاتَتْ ، فَإِنَّ صَوْتَهَا حَيٌّ فِي أُذُنَيْهِ لَا يَزَالُ يَسْمَعُهُ مِنْ أَمْسِ !

ثُمَّ يَعُودُ إِلَىٰ وَجْهِهِ ٱلِانْكِسَارُ وَٱلِاسْتِسْلَامُ ، وَيَتَمَلْمَلُ فِي مَجْلِسِهِ ، فَيَنْطِقُ جِسْمُهُ كُلُّهُ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ : « يَا أُمِّي ! » .

* * *

أَحَسَّ ـ وَلَا رَيْبَ ـ أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي ٱلْوُجُودِ(1) ، لِأَنَّ ٱلْوُجُودَ كَانَ أُمَّهُ .

وَلَمَسَ خُشُونَةَ ٱلدُّنْيَا مُنْذُ ٱلسَّاعَةِ ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَ ٱلصَّدْرَ ٱلَّذِي فِيهِ وَحْدَهُ لِينُ ٱلْحَيَاةِ ،

(1) فِي ٱلأَصْلِ : « أَنَّهُ بِمَضْيَعَةٍ حُدُودُهَا ٱلْحَيَاةُ » بَدَلًا مِنْ : « أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي ٱلْوُجُودِ » .

لِأَنَّ فِيهِ قَلْبَ أُمِّهِ وَرُوحَهَا .

وَشَعَرَ بِٱلذُّلِّ يَنْسَابُ إِلَىٰ قَلْبِهِ ٱلصَّغِيرِ ، لِأَنَّ تِلْكَ ٱلَّتِي كَانَ يَمْلِكُ فِيهَا حَقَّ ٱلرَّحْمَةِ قَدْ أُخِذَتْ مِنْهُ وَتَرَكَتْهُ بِلَا حَقٍّ فِي أَحَدٍ ؛ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَمَانٌ !

وَلَبِسَتْهُ ٱلْمَسْكَنَةُ ، لِأَنَّ لَهُ شَيْئًا عَزِيزًا أَصْبَحَ وَرَاءَ ٱلزَّمَانِ فَلَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ !

وَلَبِسَتْهُ ٱلْمَسْكَنَةُ ، لِأَنَّهُ صَارَ وَحْدَهُ فِي ٱلْمَكَانِ كَمَا هُوَ وَحْدَهُ فِي ٱلزَّمَانِ !

وَٱرْتَسَمَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ٱلتَّعَجُّبُ ، كَأَنَّهُ يَسْأَلُ نَفْسَهُ : « إِذَا لَمْ تَكُنْ أُمِّي هُنَا ، فَلِمَاذَا أَنَا هُنَا ؟! » .

ثُمَّ تَغَرْغَرَتْ عَيْنَاهُ فَيُخْرِجُ مِنْدِيلَهُ وَيَمْسَحُ دَمْعَهُ بِيَدِهِ ٱلصَّغِيرَةِ ، وَلَـٰكِنَّ رُوحَهُ ٱلْيَتِيمَةَ تَأْبَىٰ إِلَّا أَنْ تَرْسُمَ بِهَـٰذِهِ ٱلدُّمُوعِ عَلَىٰ وَجْهِهِ مَعَانِيَ يُتْمِهَا !

* * *

وَنَهَضَ ٱلصَّغِيرُ وَلَمْ يَنْطِقْ بِذَاتِ شَفَةٍ ؛ نَهَضَ يَحْمِلُ رُجُولَتَهُ ٱلَّتِي بَدَأَتْ مُنْذُ ٱلسَّاعَةِ !

ٱنْتَهَتْ ـ أَيُّهَا ٱلطِّفْلُ ٱلْمِسْكِينُ ـ أَيَّامُكَ مِنَ ٱلأُمِّ ؛ هَـٰذِهِ ٱلأَيَّامُ ٱلسَّعِيدَةُ ٱلَّتِي كُنْتَ تَعْرِفُ ٱلْغَدَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ مَعْرِفَتَكَ أَمْسِ ٱلَّذِي مَضَىٰ ؛ إِذْ يَأْتِي ٱلْغَدُ وَمَعَكَ أُمُّكَ !

وَبَدَأَتْ ـ أَيُّهَا ٱلطِّفْلُ ٱلْمِسْكِينُ ـ أَيَّامُكَ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، وَسَيَأْتِي كُلُّ غَدٍ مُحَجَّبًا مَرْهُوبًا ؛ إِذْ يَأْتِي لَكَ وَحْدَكَ ، وَيَأْتِي وَأَنْتَ وَحْدَكَ !

ٱلأُمُّ . . . ؟ يَا إِلَـٰهِي ، أَيُّ صَغِيرٍ عَلَى ٱلأَرْضِ يَجِدُ كِفَايَتَهُ مِنَ ٱلرُّوحِ إِلَّا فِي ٱلأُمِّ ؟!

مصطفى صادق الرافعي

قِصَّةُ أَبٍ(*)

حَدَّثَنِي ٱلْمِسْكِينُ فِيمَا حَدَثَ وَهُوَ يَصِفُ مَا نَزَلَ بِهِ قَالَ :

رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءً فَنَسَأَ بِٱلْوَلَدِ فِي آثَارِهِمْ ، وَمَدَّ بِٱلنَّسْلِ فِي وُجُودِهِمْ ، وَزَادَ مِنْهُ فِي أَرْوَاحِهِمْ أَرْوَاحًا ، وَضَمَّ بِهِ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ قُلُوبًا ، وَمَلَأَ أَعْيُنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِمَا تَقَرُّ بِهِ قُرَّةَ عَيْنٍ كَانَتْ لَمْ تَجِدْ ثُمَّ وَجَدَتْ ؛ فَهُمْ بِهَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَطْفَالِ يَمْلِكُونَ ٱلْقُوَّةَ ٱلَّتِي تُرْجِعُهُمْ أَطْفَالًا مِثْلَهُمْ فِي كُلِّ مَا يَسُرُّهُمْ ، فَيَكْبُرُ ٱلْفَرَحُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ضَئِيلًا صَغِيرًا ، وَيَعْظُمُ ٱلْأَمَلُ فِي أَشْيَائِهِمْ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ .

وَتِلْكَ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقَائِقِ ٱلسَّعَادَةِ لَا أَسْمَىٰ وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا إِلَّا ٱلْحَقِيقَةُ ٱلْأُخْرَىٰ ، وَهِيَ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي يَتَحَوَّلُ بِهَا ٱلْكَوْنُ فِي قَلْبِ ٱلْوَالِدَيْنِ إِلَىٰ كَنْزٍ مِنَ ٱلْحُبِّ وَٱلرَّحْمَةِ وَجَمَالِ ٱلْعَاطِفَةِ ، بِسِحْرٍ مِنِ ٱبْتِسَامَةِ طِفْلٍ أَوْ طِفْلَةٍ ، أَوْ بِكَلِمَةٍ مِنْهُمَا أَوْ حَرَكَةٍ ، عَلَىٰ حِينِ لَا يَتَحَوَّلُ مِثْلَ ذَلِكَ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ بِمَالِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا بِمُلْكِ ٱلدُّنْيَا .

رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءً ، وَلَـٰكِنَّهُ ٱبْتَلَانِي بِأَنْ أَكُونَ أَبًا ، وَأَخْرَجَ لِي مِنْ أَفْرَاحِ قَلْبِي أَحْزَانَ قَلْبِي ! وَلَقَدْ كُنْتُ كَرَجُلٍ مَلَكَ دَارًا يَسْتَمْتِعُ بِهَا ، فَتَمَنَّىٰ أَنْ يُشْرِعَ(1) فِي جَانِبٍ مِنْهَا غُرْفَةً يُزَخْرِفُهَا ، فَلَمَّا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ وَبَلَغَ ٱلْمُقْتَرَحَ ، ٱنْهَدَمَتِ ٱلدَّارُ وَبَقِيَتِ ٱلْغُرْفَةُ قَائِمَةً !

عَمْرَكَ ٱللهَ ، أَيَشْعُرُ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ فِي نَكْبَتِهِ بِٱلْغُرْفَةِ أَمْ بِٱلدَّارِ ؟ وَهَلْ تَرَاهُ زَادَ أَوْ نَقَصَ ؟ وَيَا لَيْتَهُمَا بَيْتٌ وَغُرْفَةٌ مِنْ بَيْتٍ ؛ فَإِنَّ ٱلْحِجَارَةَ تَحْيَا بِٱلْبِنَاءِ إِذَا مَاتَتْ بِٱلْهَدْمِ ، وَلَـٰكِنْ مَنْ ذَا يُحْيِي ٱلزَّوْجَةَ مَاتَتْ بَعْدَ أَنْ وَضَعَتْ بِكْرَهَا ٱلْأَوَّلَ وَٱلْآخِرَ !

(*) « الرسالة » العدد : ٥٩ ، ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٠ أغسطس/ آب سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٣٦٣ ـ ١٣٦٤ .

(1) أَيْ : يَفْتَحُ غُرْفَةً إِلَىٰ ٱلشَّارِعِ .

إِنَّهَا طِفْلَةٌ وُلِدَتْ وَكَأَنَّمَا أُخْرِجَتْ مِنْ تَحْتِ ٱلرَّدْمِ ، إِذْ وُلِدَتْ تَحْتَ مَاضٍ مِنَ ٱلْحَيَاةِ مُنْهَدِمٍ ، وَهَلْ فَرْقٌ بَيْنَ هَـٰذَا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ أُمُّهَا قَدْ وَلَدَتْهَا فِي ٱلصَّحْرَاءِ ثُمَّ أُكْرِهَتْ أَنْ تَدَعَهَا وَحْدَهَا فِي ذَلِكَ ٱلْقَفْرِ تَصْرُخُ وَتَبْكِي ! فَٱلْمِسْكِينَةُ عَلَىٰ ٱلْحَالَيْنِ مُنْقَطِعَةٌ أَوَّلَ مَا ٱنْقَطَعَتْ مِنْ حَنَانِ ٱلْأُمِّ وَرَحْمَتِهَا .

طِفْلَةٌ وُلِدَتْ صَارِخَةً ، لَا صَرْخَةَ ٱلْحَيَاةِ ، وَلَـٰكِنْ صَرْخَةَ ٱلنَّوْحِ وَٱلنَّدْبِ عَلَىٰ أُمِّهَا .

صَرْخَةٌ حَزِينَةٌ مَعْنَاهَا : ضَعُونِي مَعَ أُمِّي وَلَوْ فِي ٱلْقَبْرِ !

صَرْخَةٌ تَرْتَعِدُ ، كَأَنَّ ٱلْمِسْكِينَةَ شَعَرَتْ أَنَّ ٱلدُّنْيَا خَالِيَةٌ مِنَ ٱلصَّدْرِ ٱلَّذِي يُدْفِئُهَا !

صَرْخَةٌ تَتَرَدَّدُ فِي ضَرَاعَةٍ ، كَأَنَّهَا جُمْلَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ : « يَا رَبِّ ٱرْحَمْنِي مِنْ حَيَاةٍ بِلَا أُمٍّ ! » .

* * *

قَالَ ٱلْمِسْكِينُ وَهُوَ يَبْكِي ٱمْرَأَتَهُ :

وَلَمَّا ضَرَبَهَا ٱلْمَخَاضُ ، ضَاعَفَتْ قُوَّتَهَا مِنْ شُعُورِهَا أَنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدَ قَلِيلٍ مُضَاعَفَةً ﴿ بِمَوْلُودِهَا ﴾ ، وَسَتَكُونُ رُوحَيْنِ لَا رُوحًا وَاحِدَةً ، وَتَلِدُ لِي ٱلْحَيَاةَ وَٱلْحُبَّ ٱلْإِلَـٰهِيَّ مَعًا ، وَتَأْتِي لِقَلْبِي بِمِثْلِ طُفُولَتِهِ ٱلْأُولَىٰ ٱلَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَأْتِيَ ٱلرَّجُلَ إِلَّا مِنْ زَوْجِهِ . كُلُّ ذَلِكَ ضَاعَفَ قُوَاهَا سَاعَةً وَشَدَّ مِنْهَا ؛ وَلَـٰكِنْ مَا أَسْرَعَ مَا تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ ٱلْمَوْتُ ، إِذْ عُضِّلَتْ وَعَسُرَ خُرُوجُ مَوْلُودِهَا .

وَجَاءَهَا ٱلْجَرَّاحِيُّ بِمِبْضَعِهِ ، وَكَأَنَّهَا رَأَتْهُ ذَابِحًا لَا طَبِيبًا ، فَجَعَلَتْ تُعَبِّرُ بِعَيْنَيْهَا ، إِذْ لَمْ تَمْلِكْ فِي آلَامِهَا ٱلْقَاتِلَةِ غَيْرَ لُغَةِ هَاتَيْنِ ٱلْعَيْنَيْنِ .

كَانَتْ بِنَظْرَةٍ تَبْكِي عَلَيَّ وَعَلَىٰ بُؤْسِي ، وَبِأُخْرَىٰ تَبْكِي عَلَىٰ بُؤْسِ مَوْلُودِهَا وَشَقَائِهِ ؛ وَبِنَظْرَةٍ تُوَدِّعُنِي ، وَبِأُخْرَىٰ تَدْعُو ٱللهَ لِي جَزَاءَ مَا أَحْسَنْتُ إِلَيْهَا ؛ وَبِنَظْرَةٍ تَتَوَجَّعُ لِنَفْسِهَا ، وَبِأُخْرَىٰ تَتَأَلَّمُ مِنْ أَنَّهَا تَرَانِي أَكَادُ أُجَنُّ .

نَظَرَاتٌ نَظَرَاتٌ . . .

يَا إِلَـٰهِي ! لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ مَلَكَ ٱلْمَوْتِ وَاقِفٌ بَيْنَ عِشْرِينَ مِرْآةً تُحِيطُ بِهِ ، فَأَنَا أَرَاهُ مَوْتًا مُتَعَدِّدًا لَا مَوْتًا وَاحِدًا ، وَكُلُّ نَظْرَةٍ مِنْ عَيْنَيْ زَوْجَتِي إِلَيَّ كَانَتْ مِنْهَا هِيَ نَظْرَةً ، وَكَانَتْ عِنْدِي أَنَا مِرْآةَ ٱلرُّوحِ لِلرُّوحِ .

وَلَـٰكِنَّهَا لَمْ تَنْسَ أَنَّهَا تَمُوتُ لِوَضْعِ مَوْلُودِهَا ، وَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْآلَامَ ٱلدَّمَوِيَّةَ ٱلذَّابِحَةَ هِيَ ٱلْوَسِيلَةُ لِأَنْ تَتْرُكَ لِي بَقِيَّةً حَيَّةً مِنْهَا ؛ فَيَا لَلرَّحْمَةِ وَٱلْحَنَانِ وَٱلْحُبِّ ! لَقَدِ ٱبْتَسَمَتْ لِي وَهِيَ تَمُوتُ ؛ وَهِيَ تَلِدُ ؛ وَهِيَ تُذْبَحُ !

* * *

لَيْسَتْ رَحْمَةُ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُحِبَّةِ خَيَالًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ حَرَارَةُ ٱلشَّمْسِ ٱلَّتِي تُحْيِي ٱلدُّنْيَا خَيَالًا أَيْضًا ؛ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقَلْبَ ٱلنِّسْوِيَّ ٱلْمُسْتَقِرَّ فَوْقَ أَحْشَاءٍ تَحْمِلُ ٱلْجَنِينَ صَابِرَةً رَاضِيَةً فَرِحَةً بِآلَامِهَا ، وَتَغْذُوهُ وَتُقَاسِمُهُ حَيَاةَ نَفْسِهَا ـ هَـٰذَا ٱلْقَلْبُ يَحْمِلُ ٱلْحُبَّ أَيْضًا صَابِرًا رَاضِيًا فَرِحًا بِآلَامِهِ ، وَيَغْذُوهُ وَيُقَاسِمُهُ حَيَاةَ نَفْسِهِ .

وَلِلرَّحْمَةِ ٱلْإِلَـٰهِيَّةِ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ ٱلْإِنْسَانَ عَلَيْهَا دِلَالَاتٍ مُخْتَلِفَةً ؛ فَٱلشَّمْسُ تَدُلُّ عَلَيْهَا بِٱلضَّوْءِ ٱلَّذِي تَطْعَمُهُ ٱلْحَيَاةُ ، وَٱلْهَوَاءُ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِٱلضَّوْءِ ٱلَّذِي تَتَنَفَّسُهُ ٱلْحَيَاةُ ، وَٱلْمَاءُ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِٱلضَّوْءِ ٱلَّذِي تَشْرَبُهُ ٱلْحَيَاةُ ، وَهَـٰكَذَا إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَ فِي ٱلْآخِرِ قَلْبُ ٱلْمَرْأَةِ فَيَدُلَّ عَلَىٰ رَحْمَةِ ٱللهِ بِٱلْحُبِّ ٱلَّذِي تَقُومُ بِهِ ٱلْحَيَاةُ .

ٱبْتِسَامَةُ ٱلْحُبِّ غَالَبَتْ زَفَرَاتِ ٱلْمَوْتِ ٱلَّتِي تَعْتَلِجُ مِنْ تَحْتِهَا حَتَّىٰ غَلَبَتْهَا ، وَأَعَادَتِ ٱلْحَيَاةَ لَحْظَةً إِلَىٰ وَجْهِ زَوْجَتِي لِأَرَاهَا آخِرَ مَا أَرَاهَا فِي صُورَةِ ٱلْمُحِبَّةِ لِي ، فَكَانَ كُلُّ جَمَالِ نَفْسِهَا مُنْتَشِرًا عَلَىٰ ذَٰلِكَ ٱلْوَجْهِ ، وَظَهَرَتْ فِيهِ رُوحُهَا وَعَوَاطِفُهَا تُوَدِّعُنِي وَدَاعًا حَزِينًا مُبْتَسِمًا يَتَكَلَّمُ ؛ يَتَكَلَّمُ بِعَجْزِهِ عَنِ ٱلْكَلَامِ .

ٱبْتِسَامَةٌ لَا رَيْبَ أَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ لَيْسَتْ مِنْ جَمَالِ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَلَا مِنْ حَقَائِقِهَا ؛ فَكَأَنَّمَا ٱلْتَمَعَتْ بِأَشِعَّةٍ مِنَ ٱلْخُلْدِ تَرِفُّ رَفِيفَهَا عَلَىٰ وَجْهِ ٱلْحَبِيبِ لِيُظْهِرَ سَاعَةَ ٱلْمَوْتِ أَنَّ حُبَّهُ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلْمَوْتِ .

* * *

قَالَ ٱلْمِسْكِينُ : وَنَثَرَ ٱلطَّبِيبُ ذَا بَطْنِهَا فَكَانَتْ طِفْلَةً ، وَمَا كَانَتْ زَوْجَتِي تَقْتَرِحُ أَنْ يَكُونَ ٱلْجَنِينُ غَيْرَهَا ، بَلْ كَانَتْ مُسْتَيْقِنَةً أَنَّهَا تَضَعُهَا أُنْثَىٰ ، وَصَنَعَتْ لَهَا ثِيَابَهَا ، وَوَشَّتْهَا بِزِينَةِ ٱلْأُنُوثَةِ ، وَعَرَضَتْ أَسْمَاءَ ٱلْبَنَاتِ فَٱخْتَارَتِ ٱسْمَهَا أَيْضًا ، وَكُنْتُ أَكْرَهُ ذَٰلِكَ مِنْهَا وَأُرِيدُ وَلَدًا لَا بِنْتًا ، فَكَانَتْ تُغَايِظُنِي بِعَمَلِهَا وَإِصْرَارِهَا غَيْظَ دُعَابَةٍ لَا غَيْظَ جَفَاءٍ .

وَمَضَتْ لَا تَذْكُرُ إِلَّا بِنْتَهَا مُدَّةَ ٱلْحَمْلِ ، وَلَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا عَنْ بِنْتِهَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ لِذَٰلِكَ ؛ فَلَمَّا قَضَىٰ ٱللهُ فِيهَا قَضَاءَهُ ، عَلِمْتُ أَنَّ ذَٰلِكَ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ ٱلرُّوحِ ، فَكَانَ ٱلْإِلْهَامُ فِيهَا أَنَّهَا عَلَىٰ بَابِ قَبْرِهَا ، وَأَنَّهَا لَنْ تَرَىٰ طِفْلَتَهَا ، وَلَنْ تَعِيشَ لَهَا ، فَعَاشَتْ أَيَّامَ ٱلْحَمْلِ مَعَ ذِكْرَاهَا : تَضُمُّ ثِيَابَهَا إِلَىٰ صَدْرِهَا ، وَتَحْمِلُهَا عَلَىٰ يَدِهَا ، وَتُنَاغِيهَا وَتُقَبِّلُهَا ، وَتَأْخُذُهَا مِنَ ٱلْوَهْمِ وَتَرُدُّهَا إِلَيْهِ ؛ وَكَذَٰلِكَ نَعِمَتِ ٱلْمِسْكِينَةُ بِٱلْمِسْكِينَةِ !

لَكِ ٱللهُ يَا مُعْجِزَةَ ٱلرَّحْمَةِ ، يَا نَفْسَ ٱلْأُمِّ !

* * *

وَلَمَّا قِيلَ : مَاتَتْ . جَعَلَ يُكَلِّمُنِي ٱلْمُتَكَلِّمُ وَلَا أَعْقِلُ ؛ فَإِنَّ ٱلْكَلِمَةَ ٱلَّتِي تَأْتِي بِٱلْمُصِيبَةِ ٱلْمُتَوَقَّعَةِ طَالَ ٱرْتِقَابُهَا ، لَا تَأْتِي بِمَعَانٍ لُغَوِيَّةٍ كَغَيْرِهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ ، بَلْ بِأَسْلِحَةٍ تَضْرِبُ فِي ٱلنَّفْسِ وَفِي ٱلْعَقْلِ ، وَتُثْخِنُهُمَا جِرَاحًا وَفَتْكًا .

وَجَعَلَنِي مَوْتُهَا كَأَنِّي مَيْتٌ يَحْمِلُ نَفْسَهُ ، مَا حَوْلَهُ إِلَّا ٱلْمُشَيِّعُونَ ؛ وَأَحْسَسْتُ كَأَنَّ قُوَّةً أَخَذَتْ بِإِحْدَىٰ رِجْلَيَّ فَوَضَعَتْهَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَتَرَكَتِ ٱلثَّانِيَةَ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَلَحِقَنِي مِنَ ٱلْجَزَعِ مَا ٱللهُ عَالِمٌ بِهِ ، وَوَجِدْتُ أَحْرَقَ ٱلْوَجْدِ ، وَبَكَيْتُ أَحَرَّ ٱلْبُكَاءِ ؛ وَجَعَلَتْ أَفْكَارِي تَنْحَدِرُ مِنْ رَأْسِي إِلَىٰ حَلْقِي فَأَخْتَنِقُ بِهَا ، ثُمَّ لَا يُنَفِّسُ عَنِّي إِلَّا ٱلدَّمْعُ ، كَأَنَّ أَعْضَائِي ٱخْتَلَّتْ مِمَّا ضَغَطَنِي مِنَ ٱلْحُزْنِ ، فَأَنَا أَتَنَفَّسُ بِرِئَتَيَّ وَعَيْنَيَّ .

بِمَوْتِهَا شَعَرْتُ بِهَا ؛ وَلَعَلَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ لَا يَشْعُرُ ٱلْإِنْسَانُ بِلَذَّةِ ٱلْحُبِّ كَامِلَةً إِلَّا فِي آلَامِ ٱلْحُبِّ وَحْدَهَا ، وَكَانَتْ فِي حَيَاتِهَا تَضَعُ مِنْ رُوحِهَا فِي سُرُورِي ، وَهَـٰذَا هُوَ سِرُّ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمَحْبُوبَةِ : يَجِدُ مُحِبُّهَا فِي كُلِّ سُرُورٍ لَمَحَاتٍ رُوحَانِيَّةً ؛ وَكَذَٰلِكَ فَعَلَتْ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَجَعَلَتْ رُوحَهَا فِي أَحْزَانِي ؛ وَلَوْلَا أَنَّ رُوحَهَا فِي أَحْزَانِي لَقَتَلَتْنِي ٱلْمُصِيبَةُ .

وَكُنْتُ أَذْلِفُ وَرَاءَ ٱلنَّعْشِ وَقَدْ بَطَلَ فِيْ نَفْسِيْ ٱلشُّعُوْرُ بِٱلدُّنْيَا ، وَكَانَ ٱلنَّاسُ يَمْشُوْنَ حَوْلِيْ بِمَا فِيْهِمْ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، وَكَانُوْا ذَاهِبِيْنَ إِلَىٰ ٱلْمَقْبَرَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ سَائِرُوْنَ كَمَا يَذْهَبُوْنَ إِلَىٰ كُلِّ مَكَانٍ ؛ أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَمْشِيْ بِمَا فِيَّ مِنَ ٱلْحُبِّ مُنْكَسِرًا مُنْخَذِلًا مُتَضَعْضِعًا ، لِأَنِّيْ وَحْدِيْ سَائِرٌ وَرَاءَ مَا لَا يُلْحَقُ .

وَثَقُلَ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ قَلْبِيْ ، وَرَجَعَ كُلُّ أَمْرِهِمْ عِنْدِيْ إِلَىٰ ٱلْعَيْبِ وَٱلنَّقِيْصَةِ ، إِذْ كَانَ لِيْ عَقْلٌ طَارِئٌ مِنَ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِيْ أَنَا فِيْهَا لَيْسَ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَكُنْتُ وَحْدِيْ ٱلْمُصَابَ بَيْنَهُمْ ، فَكُنْتُ وَحْدِيْ بَيْنَهُمُ ٱلْعَاقِلَ .

أَنَا أَمْشِيْ لِأَنْتَهِيَ إِلَىٰ آخِرِ مُصِيْبَتِيْ ، وَهُمْ يَمْشُوْنَ لِيَنْتَهُوْا إِلَىٰ آخِرِ ٱلطَّرِيْقِ ؛ وَشَتَّانَ مَا نَحْنُ وَشَتَّانَ !

وَلَمَّا رَأَيْتُ قَبْرَهَا ٱبْتَدَرَتْ عَيْنَايَ تَنْظُرَانِ بِٱلدُّمُوْعِ لَا بِٱلنَّظَرِ ، وَرَأَيْتُ ٱلتُّرَابَ كَأَنَّهُ غُيُوْمٌ مُلَوَّنَةٌ بِأَلْوَانِ ٱلسُّحُبِ ٱلدَّاكِنَةِ تَتَهَيَّأُ فِيْ سَمَائِهَا تَحْتَ ٱلظَّلَامِ لِتُخْفِيَ كَوْكَبًا مِنَ ٱلْكَوَاكِبِ ؛ وَظَهَرَ لِيَ ٱلْقَبْرُ كَأَنَّهُ فَمُ ٱلْأَرْضِ يُخَاطِبُ ٱلْإِنْسَانَ بِحَزْمٍ صَارِمٍ ، يُخَاطِبُ ٱلْفَقِيْرَ وَٱلْغَنِيَّ ، وَٱلضَّعِيْفَ وَٱلْقَوِيَّ ، وَٱلْمُلُوْكَ وَٱلصَّعَالِيْكَ : « إِنَّ كُلَّ قُوَّةٍ تُنْزَعُ هُنَا » .

* * *

قَالَ ٱلْمِسْكِيْنُ : وَكَمَا يَجِدُ ٱلْإِنْسَانُ فِيْ أَيَّامِ ٱلْمَطَرِ رَائِحَةَ ٱلنَّسِيْمِ ٱلْمُبْتَلِّ بِٱلْمَاءِ ، كُنْتُ أَسْتَرْوِحُ فِيْ رَجْعَتِيْ إِلَىٰ ٱلدَّارِ رَائِحَةَ نَسِيْمٍ مُبْتَلٍّ بِٱلدُّمُوْعِ ؛ وَحَضَرْتُ ٱلْمَأْتَمَ وَعَزَّانِيْ ٱلنَّاسُ ، فَكُنْتُ فِيْهِمْ كَٱلْمَأْسُوْرِ بَيْنَهُمْ : لَا أَتَمَنَّىٰ إِلَّا أَنْ يَدَعُوْنِيْ فَأَنْجُوَ عَلَىٰ وَجْهِيْ ، وَلَا أَرَىٰ إِلَّا أَنَّهُمْ يُجَرِّعُوْنَنِيْ ٱلْوُجُوْدَ غُصَصًا كَمَا تَجَرَّعْتُ ٱلْفَقْدَ غُصَّةً غُصَّةً ؛ إِلَىٰ أَنْ تَفَرَّقُوْا مَعَ سَوَادِ ٱللَّيْلِ فَٱنْكَفَأْتُ إِلَىٰ ٱلدَّارِ ، فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ قَدْ تَغَيَّرَ وَلَمَسَهُ ٱلْمَوْتُ لَمْسَةً ، وَإِذَا ٱلدَّارُ نَفْسُهَا كَٱلْعَيْنِ ٱلْمَقْرُوْحَةِ مِنْ آثَارِ ٱلْبُكَاءِ : مَا ثَمَّ شَيْءٌ إِلَّا لِيُطَالِعَنِيْ بِأَنَّ مَسَرَّاتِيْ قَدْ مَاتَتْ !

وَلَاحَ ٱلصُّبْحُ لِعَيْنَيَّ ٱلسَّاهِرَتَيْنِ صُبْحًا فَاتِرًا تَبَيَّنْتُ فِيْهِ ٱلْخَجَلَ ، كَأَنَّهُ يَقُوْلُ : « لَمْ أَطْلُعْ لَكَ » ، فَٱنْسَلَلْتُ مِنَ ٱلْبَيْتِ ، وَذَهَبْتُ أَمْشِيْ فِيْ دُنْيَا هِيَ ٱلْكَآبَةُ ٱلْمُضِيْئَةُ سَخِرَتِ ٱلْأَقْدَارُ مِنْهَا بِإِظْهَارِهَا فِيْ هَـٰذَا ٱلضَّوْءِ مَظْهَرَ وَجْهِ ٱلْعَجُوْزِ ٱلْمُتَصَابِيَةِ فِيْ زِيْنَةٍ لَا تَزِيْدُهَا إِلَّا قُبْحًا !

وَمَضَيْتُ عَلَىٰ وَجْهِيْ لَا غَايَةَ لِيْ ، أَضْرِبُ فِيْ كُلِّ جِهَةٍ كَأَنَّمَا أُرِيْدُ أَنْ أَهْرُبَ مِنْ نَفْسِيْ ! وَمَا خَطَرَ لِيْ قَطُّ أَنِّيْ فِيْ يَوْمٍ جَدِيْدٍ ، بَلْ كُنْتُ عِنْدَ نَفْسِيْ لَا أَزَالُ فِيْ أَمْسِ ، وَتَغَيَّرَ عِنْدِيْ ٱلزَّمَانُ وَٱلْمَكَانُ : فَأَحَدُهُمَا سَاعَةُ مَوْتٍ لَا تَتْرُكُ مَا فِيْهَا ، وَٱلْآخَرُ قَبْرُ مَيْتَةٍ لَا يَرُدُّ مَا فِيْهِ .

آهٍ مِنَ ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِيْ يَنْتَهِيْ فِيْهِ ٱلْوُجُوْدُ لِيُعَذِّبَنَا بِٱلتَّذَكُّرِ أَنَّهُ كَانَ مَوْجُوْدًا !

* * *

قَالَ ٱلْمِسْكِيْنُ : ثُمَّ أَعَادَتْنِيْ قَدَمَايَ إِلَىٰ ٱلْبَيْتِ لِأَرَىٰ طِفْلَتِيْ - وَمَا كُنْتُ رَأَيْتُهَا - وَلَقَدْ كَانَتْ وِلَادَتُهَا أَوَّلَ ٱلْحَيَاةِ لَهَا ، وَأَوَّلَ ٱلْحَيَاةِ لِيْ أَيْضًا ؛ إِذْ لَوْلَاهَا لَانْتَحَرْتُ غَيْرَ شَكٍّ .

يَا وَيْلَتَا ! لَمْ تَلْتَقِ عَيْنِيْ بِعَيْنِ ٱلطِّفْلَةِ حَتَّىٰ ٱنْفَجَرَتْ تَبْكِيْ . أَتَبْكِيْنَ لِيْ يَا ٱبْنَتِيْ أَمْ عَلَيَّ ؟

أَهَـٰذَا بُكَاؤُكِ أَيَّتُهَا ٱلْمِسْكِيْنَةُ ، أَمْ هُوَ صَوْتُ قَلْبِكِ ٱلْيَتِيْمِ ؟

أَصَوْتُكِ أَنْتِ ، أَمْ هِيَ رُوْحُ أُمِّكِ تَصْرُخُ تَرْثِيْ لِيْ ، وَتَتَوَجَّعُ لِفَرْطِ مَا قَاسَيْتُ !

يَا ٱبْنَتِيْ ، إِنَّمَا أَنْتِ ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلصَّغِيْرَةُ ٱلَّتِيْ خَرَجَتْ لِيْ مِنْ كُلِّ تِلْكَ ٱلْخَيَالَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْجَمِيْلَةِ ، خَيَالَاتِ ٱلْأَيَّامِ ٱلسَّعِيْدَةِ ٱلَّتِيْ مَرَّتْ !

يُخْلَقُ ٱلْمَوَالِيْدُ مِنَ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ ؛ وَأَرَاكِ أَنْتِ يَا مِسْكِيْنَةُ ، خُلِقْتِ مِنَ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ وَٱلدُّمُوْعِ !

بَقِيَّةُ حَيَاةٍ مَاتَتْ ! فَهَلْ مَعْنَىٰ ذَلِكِ إِلَّا أَنَّكِ بَقِيَّةُ مَوْتٍ يَحْيَا ؟

مِسْكِيْنَةٌ ، مِسْكِيْنَةٌ ؛ لَوْ أَنَّ نَوَامِيْسَ ٱلْعَالَمِ مُتَغَيِّرَةٌ لِشَيْءٍ لَتَغَيَّرَتْ مِنْ أَجْلِ بُؤْسِكِ فَرَدَّتْ لَكِ ٱلْأُمَّ ؛ وَلَـٰكِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَمَا بُكَاؤُنَا وَآلَامُنَا وَتَعَاسَتُنَا إِلَّا تُرَاثُ ٱلْحَيَاةِ فِيْ أَجْسَامِنَا ٱلْأَرْضِيَّةِ ، كُلُّ ذَلِكَ طَبِيْعَةٌ ، وَلَـٰكِنَّ بُقْعَةً أَنْظَفُ مِنْ بُقْعَةٍ ، وَأَرَاكِ يَا ٱبْنَتِيْ كَٱلْبَيْتِ ٱلَّذِيْ هُدِمَ أَوَّلَ مَا بُنِيَ يَمْلَؤُهُ تُرَابُهُ !

لَنْ تَتَغَيَّرَ ٱلنَّوَامِيْسُ ، فَلَنْ تَجِدِيْ عَطْفَ ٱلْأُمِّ ، وَلَـٰكِنْ لَنْ يَتَغَيَّرَ قَلْبِيْ أَيْضًا ، فَلَنْ

تَحْرِمِيْ عَطْفَ ٱلْأَبِ .

وَإِذَا صَبَرَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلْحَيَاةِ فَمِنْ أَجْلِكِ يَا مِسْكِيْنَةُ ! مِنْ أَجْلِ ضَعْفِكِ وَٱنْقِطَاعِكِ سَأُعَانِيْ ٱلصَّبْرَ لَكِ ، وَأُعَانِيْ ٱلصَّبْرَ لِيْ ، وَأُعَانِيْ ٱلصَّبْرَ عَنْ أُمِّكِ ، سَأَصْبِرُ عَلَى ٱلصَّبْرِ نَفْسِهِ !

يَا ٱبْنَتِيْ ! يَا ٱبْنَتِيْ ! لِمَاذَا وَضَعَتْكِ ٱلْأَقْدَارُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلَّتِيْ لَيْسَ فِيْهَا إِلَّا قَبْرٌ مُظْلِمٌ مُقْفَلٌ عَلَى أُمِّكِ ، وَأَبٌ مِسْكِيْنٌ مُقْفَلٌ عَلَى آلَامِهِ ؟

* * *

قَالَ ٱلْمِسْكِيْنُ : وَهَـٰكَذَا كُتِبْتُ مِنْ أَهْلِ ٱلْبُؤْسِ وَٱلْهَمِّ ، فَلَمْ أَتَزَوَّجْ إِلَّا لِتَصْنَعَ لِيْ حَبِيْبَتِيْ دُمُوْعِيْ ، ثُمَّ لَمْ تَمُتْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَرَكَتْ لِيْ حَبِيْبَةً أُخْرَى سَتَظَلُّ زَمَنًا طَوِيْلًا تَصْنَعُ لِيْ دُمُوْعِيْ !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

ٱلسَّمَكَةُ(*)

١

حَدَّثَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِيْنٍ ٱلْفَقِيْهُ ٱلْبَغْدَادِيُّ قَالَ : حَصَلَتْ فِيْ مَدِيْنَةِ (بَلْخٍ) سَنَةَ ثَلَاثِيْنَ وَمِئَتَيْنِ ، وَعَالِمُهَا يَوْمَئِذٍ شَيْخُ خُرَاسَانَ أَبُوْ عَبْدِ ٱلرَّحْمَـٰنِ[1] ٱلزَّاهِدُ صَاحِبُ ٱلْمَوَاعِظِ وَٱلْحِكَمِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ قَلْبُهُ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ ، وَنَفْسُهُ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ، وَٱلْفَلَكُ ٱلْأَعْلَى مِنْ وَرَاءِ نَفْسِهِ ، كَأَنَّهُ يُلَقَّى عَلَيْهِ فِيْمَا زَعَمُوْا .

وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عِنْدَهُمْ : (لُقْمَانُ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ) ؛ لِمَا يُعْجِبُهُمْ مِنْ حِكَمِهِ فِيْ ٱلزُّهْدِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ، وَقَدْ حَضَرْتُ مَجَالِسَهُ وَحَفِظْتُ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئًا كَثِيْرًا ، كَقَوْلِهِ : مَنْ دَخَلَ فِيْ مَذْهَبِنَا هَـٰذَا (يَعْنِيْ ٱلطَّرِيْقَ) فَلْيَجْعَلْ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ خِصَالٍ مِنَ ٱلْمَوْتِ : مَوْتٌ أَبْيَضُ ، وَمَوْتٌ أَسْوَدُ ، وَمَوْتٌ أَحْمَرُ ، وَمَوْتٌ أَخْضَرُ ؛ فَٱلْمَوْتُ ٱلْأَبْيَضُ ٱلْجُوْعُ ، وَٱلْمَوْتُ ٱلْأَسْوَدُ ٱحْتِمَالُ ٱلْأَذَى ، وَٱلْمَوْتُ ٱلْأَحْمَرُ مُخَالَفَةُ ٱلنَّفْسِ ، وَٱلْمَوْتُ ٱلْأَخْضَرُ طَرْحُ ٱلرِّقَاعِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ (يَعْنِيْ لُبْسَ ٱلْمُرَقَّعَةِ وَٱلْخَلَقِ مِنَ ٱلثِّيَابِ) .

وَقُلْتُ يَوْمًا لِصَاحِبِهِ وَتِلْمِيْذِهِ (أَبِيْ تُرَابٍ) وَجَارَيْتُهُ فِيْ تَأْوِيْلِ هَـٰذَا ٱلْكَلَامِ : قَدْ فَهِمْنَا وَجْهَ ٱلتَّسْمِيَةِ فِيْ ٱلْمَوْتِ ٱلْأَخْضَرِ مَا دَامَتِ ٱلْمُرَقَّعَةُ خَضْرَاءَ ؛ فَمَا ٱلْوَجْهُ فِيْ ٱلْأَبْيَضِ وَٱلْأَسْوَدِ وَٱلْأَحْمَرِ ؟ فَجَاءَ بِقَوْلٍ لَمْ أَرْضَهُ ، وَلَيْسَ مَعَهُ دَلِيْلٌ ، ثُمَّ قَالَ : فَمَا عِنْدَكَ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : أَمَّا ٱلْجُوْعُ فَيُمِيْتُ ٱلنَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا وَيَتْرُكُهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً ، فَذَلِكَ ٱلْمَوْتُ ٱلْأَبْيَضُ ؛ وَأَمَّا ٱحْتِمَالُ ٱلْأَذَى فَهُوَ ٱحْتِمَالُ سَوَادِ ٱلْوَجْهِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ ، فَهُوَ ٱلْمَوْتُ ٱلْأَسْوَدُ ؛ وَأَمَّا مُخَالَفَةُ ٱلنَّفْسِ فَهِيَ كَإِضْرَامِ ٱلنَّارِ فِيْهَا ، فَذَاكَ ٱلْمَوْتُ ٱلْأَحْمَرُ .

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِيْنٍ : وَكُنْتُ ذَاتَ نَهَارٍ فِيْ مَسْجِدِ (بَلْخٍ) وَٱلنَّاسُ مُتَوَافِرُوْنَ يَنْتَظِرُوْنَ

(*) «الرسالة» العدد : ١٣٧ ، ٢٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٧ فبراير/ شباط ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٢٤٤ ـ ٢٤٨ .

(١) هُوَ حَاتِمُ بْنُ يُوْسُفَ شَيْخُ خُرَاسَانَ وَوَاعِظُهَا ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٣٧ لِلْهِجْرَةِ .

(لُقْمَانَ ٱلأُمَّةِ) لِيَسْمَعُوْهُ، وَشَغَلَهُ بَعْضُ ٱلأَمْرِ فَرَاثَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوْا : مَنْ يَعِظُنَا إِلَىٰ أَنْ يَجِيْءَ ٱلشَّيْخُ ؟ فَٱلْتَفَتَ إِلَيَّ أَبُوْ تُرَابٍ وَقَالَ : أَنْتَ رَأَيْتَ ٱلإِمَامَ أَحْمَدَ ٱبْنَ حَنْبَلٍ ، وَرَأَيْتَ بِشْرًا ٱلْحَافِيْ وَفُلَانًا وَفُلَانًا ، فَقُمْ فَحَدِّثِ ٱلنَّاسَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّمَا هَـٰؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ هُمْ بَقَايَا ٱلنُّبُوَّةِ . ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِيْ إِلَىٰ ٱلأُسْطُوَانَةِ ٱلَّتِيْ يَجْلِسُ إِلَيْهَا إِمَامُ خُرَاسَانَ فَأَجْلَسَنِيْ ثَمَّةَ وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيَّ .

وَتَطَاوَلَتِ ٱلأَعْنَاقُ ، وَرَمَانِيْ ٱلنَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ ، وَقَالُوْا : ٱلْبَغْدَادِيُّ ! ٱلْبَغْدَادِيُّ ! وَكَأَنَّمَا ضُوْعِفْتُ عِنْدَهُمْ بِمَجْلِسِيْ مَرَّةً وَبِنِسْبَتِيْ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، فَقُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ : وَٱللهِ مَا فِيْ ٱلْمَوْتِ ٱلأَحْمَرِ وَلَا ٱلأَخْضَرِ وَلَا ٱلأَسْوَدِ مَوْعِظَةٌ ، وَلَوْ لَبِسَ عِزْرَائِيْلُ قَوْسَ قُزَحٍ لأَفْسَدَ شِعْرُ هَـٰذِهِ ٱلأَلْوَانِ مَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ ؛ وَلَا مَوْعِظَةَ فِيْ كَلَامٍ لَمْ يَمْتَلِئْ مِنْ نَفْسِ قَائِلِهِ لِيَكُوْنَ عَمَلًا فَيَتَحَوَّلَ فِيْ ٱلنُّفُوْسِ ٱلأُخْرَىٰ عَمَلًا ، وَلَا يَبْقَىٰ كَلَامًا ؛ وَإِنَّهُ لَيْسَ ٱلْوَعْظُ تَأْلِيْفَ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ يَسْمَعُهُ ، لَـٰكِنَّهُ تَأْلِيْفُ ٱلنَّفْسِ لِنَفْسٍ أُخْرَىٰ تَرَاهَا فِيْ كَلَامِهَا ، فَيَكُوْنُ هَـٰذَا ٱلْكَلَامُ كَأَنَّهُ قَرَابَةٌ بَيْنَ ٱلنَّفْسَيْنِ ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّ ٱلدَّمَ ٱلْمُتَجَاذِبَ يَجْرِيْ فِيْهِ وَيَدُوْرُ فِيْ أَلْفَاظِهِ .

* * *

وَكُنْتُ رَأَيْتُ رُؤْيَا (بِبَلْخٍ) تَتَّصِلُ بِقِصَّةٍ قَدِيْمَةٍ فِيْ بَغْدَادَ ، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِمْ ، فَكَانَتِ ٱلْقِصَّةُ كَمَا حَكَيْتُهَا : أَنِّيْ ٱمْتُحِنْتُ بِٱلْفَقْرِ فِيْ سَنَةِ تِسْعَ عَشْرَةَ وَمِئَتَيْنِ ؛ وَٱنْحَسَمَتْ مَادَّتِيْ وَقُحِطَ مَنْزِلِيْ قَحْطًا شَدِيْدًا جَمَعَ عَلَيَّ ٱلْحَاجَةَ وَٱلضُّرَّ وَٱلْمَسْكَنَةَ ؛ فَلَوِ ٱنْكَمَشَتِ ٱلصَّحْرَاءُ ٱلْمُجْدِبَةُ فَصَغُرَتْ ثُمَّ صَغُرَتْ حَتَّىٰ تَرْجِعَ أَذْرُعًا فِيْ أَذْرُعٍ ، لَكَانَتْ هِيَ دَارِيْ يَوْمَئِذٍ فِيْ مَحَلَّةِ بَابِ ٱلْبَصْرَةِ مِنْ بَغْدَادَ .

وَجَاءَ يَوْمٌ صَحْرَاوِيٌّ كَأَنَّمَا طَلَعَتْ شَمْسُهُ مِنْ بَيْنِ ٱلرَّمْلِ لَا مِنْ بَيْنِ ٱلسُّحُبِ ، وَمَرَّتِ ٱلشَّمْسُ عَلَىٰ دَارِيْ فِيْ بَغْدَادَ مُرُوْرَهَا عَلَىٰ ٱلْوَرَقَةِ ٱلْجَافَّةِ ٱلْمُعَلَّقَةِ فِيْ ٱلشَّجَرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا شَيْءٌ يُسِيْغُهُ حَلْقُ آدَمِيٍّ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيْ ٱلدَّارِ إِلَّا تُرَابُهَا وَحِجَارَتُهَا وَأَجْذَاعُهَا ؛ وَلِيَ ٱمْرَأَةٌ وَلِيْ مِنْهَا طِفْلٌ صَغِيْرٌ ، وَقَدْ طَوَيْنَا عَلَىٰ جُوْعٍ يَخْسِفُ بِٱلْجَوْفِ خَسْفًا كَمَا تَهْبِطُ ٱلأَرْضُ ؛ فَلَتَمَنَّيْتُ حِيْنَئِذٍ لَوْ كُنَّا جُرْذَانًا فَنَقْرِضَ ٱلْخَشَبَ ! وَكَانَ جُوْعُ ٱلصَّبِيِّ يَزِيْدُ ٱلْمَرْأَةَ أَلَمًا إِلَىٰ جُوْعِهَا ، وَكُنْتُ بِهِمَا كَٱلْجَائِعِ بِثَلَاثَةِ بُطُوْنٍ خَاوِيَةٍ .

فَقُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ : إِذَا لَمْ نَأْكُلِ ٱلْخَشَبَ وَٱلْحِجَارَةَ فَلْنَأْكُلْ بِثَمَنِهَا . وَجَمَعْتُ نِيَّتِيْ عَلَىٰ بَيْعِ ٱلدَّارِ وَٱلتَّحَوُّلِ عَنْهَا ، وَإِنْ كَانَ خُرُوْجِيْ مِنْهَا كَٱلْخُرُوْجِ مِنْ جِلْدِيْ : لَا يُسَمَّىٰ إِلَّا سَلْخًا وَمَوْتًا ؛ وَبِتُّ لَيْلَتِيْ وَأَنَا كَٱلْمُثْخَنِ حُمِلَ مِنْ مَعْرَكَةٍ : فَمَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا عَلَىٰ جِرَاحٍ تَعْمَلُ فِيْهِ عَمَلَ ٱلسُّيُوْفِ وَٱلأَسِنَّةِ ٱلَّتِيْ عَمِلَتْ فِيْهَا .

ثُمَّ خَرَجْتُ بِغَلَسٍ لِصَلَاةِ ٱلصُّبْحِ ؛ وَٱلْمَسْجِدُ يَكُوْنُ فِيْ ٱلأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلسَّمَاءَ تَكُوْنُ فِيْهِ ، فَرَأَيْتُنِيْ عِنْدَ نَفْسِيْ كَأَنِّيْ خَرَجْتُ مِنَ ٱلأَرْضِ سَاعَةً . وَلَمَّا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ رَفَعَ ٱلنَّاسُ أَكُفَّهُمْ يَدْعُوْنَ ٱللهَ (تَعَالَىٰ) ، وَجَرَىٰ لِسَانِيْ بِهَـٰذَا ٱلدُّعَاءِ : « ٱللَّهُمَّ بِكَ أَعُوْذُ أَنْ يَكُوْنَ فَقْرِيْ فِيْ دِيْنِكَ ، أَسْأَلُكَ ٱلنَّفْعَ ٱلَّذِيْ يُصْلِحُنِيْ بِطَاعَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ بَرَكَةَ ٱلرِّضَىٰ بِقَضَائِكَ ، وَأَسْأَلُكَ ٱلْقُوَّةَ عَلَىٰ ٱلطَّاعَةِ وَٱلرِّضَا يَا أَرْحَمَ ٱلرَّاحِمِيْنَ » .

ثُمَّ جَلَسْتُ أَتَأَمَّلُ شَأْنِيْ ، وَأَطَلْتُ ٱلْجُلُوْسَ فِيْ ٱلْمَسْجِدِ كَأَنِّيْ لَمْ أَعُدْ مِنْ أَهْلِ ٱلزَّمَنِ فَلَا تَجْرِيْ عَلَيَّ أَحْكَامُهُ ، حَتَّىٰ إِذَا ٱرْتَفَعَ ٱلضُّحَىٰ وَٱبْيَضَّتِ ٱلشَّمْسُ جَاءَتْ حَقِيْقَةُ ٱلْحَيَاةِ ، فَخَرَجْتُ أَتَسَبَّبُ لِبَيْعِ ٱلدَّارِ ، وَٱنْبَعَثْتُ وَمَا أَدْرِيْ أَيْنَ أَذْهَبُ ، فَمَا سِرْتُ غَيْرَ بَعِيْدٍ حَتَّىٰ لَقِيَنِيْ (أَبُوْ نَصْرٍ ٱلصَّيَّادُ) وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ قَدِيْمًا ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا نَصْرٍ ! أَنَا عَلَىٰ بَيْعِ ٱلدَّارِ ؛ فَقَدْ سَاءَتِ ٱلْحَالُ وَأَحْوَجَتِ ٱلْخَصَاصَةُ ، فَأَقْرِضْنِيْ شَيْئًا يُمْسِكُنِيْ عَلَىٰ يَوْمِيْ هَـٰذَا بِٱلْقِوَامِ مِنَ ٱلْعَيْشِ حَتَّىٰ أَبِيْعَ ٱلدَّارَ وَأُوَفِّيَكَ .

فَقَالَ : يَا سَيِّدِيْ ! خُذْ هَـٰذَا ٱلْمِنْدِيْلَ إِلَىٰ عِيَالِكَ ، وَأَنَا عَلَىٰ أَثَرِكَ لَاحِقٌ بِكَ إِلَىٰ ٱلْمَنْزِلِ . ثُمَّ نَاوَلَنِيْ مِنْدِيْلًا فِيْهِ رُقَاقَتَانِ بَيْنَهُمَا حَلْوَىٰ ، وَقَالَ : إِنَّهُمَا وَٱللهِ بَرَكَةُ ٱلشَّيْخِ .

قُلْتُ : مَنِ ٱلشَّيْخُ وَمَا ٱلْقِصَّةُ ؟

قَالَ : وَقَفْتُ أَمْسِ عَلَىٰ بَابِ هَـٰذَا ٱلْمَسْجِدِ وَقَدِ ٱنْصَرَفَ ٱلنَّاسُ مِنْ صَلَاةِ ٱلْجُمُعَةِ ، فَمَرَّ بِيْ أَبُوْ نَصْرٍ بِشْرٌ ٱلْحَافِيْ[1] فَقَالَ : مَا لِيْ أَرَاكَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْوَقْتِ ؟ قُلْتُ : مَا فِيْ ٱلْبَيْتِ

(١) هُوَ ٱلزَّاهِدُ ٱلْعَظِيْمُ بِشْرُ بْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلْمَعْرُوْفُ بِٱلْحَافِيْ ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٣٢٧ لِلْهِجْرَةِ ، وَكَانَ وَاحِدَ ٱلدُّنْيَا فِيْ وَرَعِهِ وَتَقْوَاهُ ؛ وَقِيْلَ لَهُ : (ٱلْحَافِيْ) لِأَنَّهُ كَانَ فِيْ حَدَاثَتِهِ يَمْشِيْ إِلَىٰ طَلَبِ ٱلْعِلْمِ حَافِيًا ، إِجْلَالًا لِحَدِيْثِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ .

دَقِيْقٌ وَلَا خُبْزٌ وَلَا دِرْهَمٌ وَلَا شَيْءٌ يُبَاعُ . فَقَالَ : ٱللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ؛ ٱحْمِلْ شَبَكَتَكَ وَتَعَالَ إِلَىٰ ٱلْخَنْدَقِ ؛ فَحَمَلْتُهَا وَذَهَبْتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا ٱنْتَهَيْنَا إِلَىٰ ٱلْخَنْدَقِ قَالَ لِيْ : تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ . فَفَعَلْتُ ، فَقَالَ : سَمِّ ٱللهَ تَعَالَىٰ وَأَلْقِ ٱلشَّبَكَةَ . فَسَمَّيْتُ وَأَلْقَيْتُهَا ، فَوَقَعَ فِيْهَا شَيْءٌ ثَقِيْلٌ ، فَجَعَلْتُ أَجُرُّهُ فَشَقَّ عَلَيَّ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : سَاعِدْنِيْ فَإِنِّيْ أَخَافُ أَنْ تَنْقَطِعَ ٱلشَّبَكَةُ ، فَجَاءَ وَجَرَّهَا مَعِيْ ، فَخَرَجَتْ سَمَكَةٌ عَظِيْمَةٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهَا سِمَنًا وَعِظَمًا وَفَرَاهَةً . فَقَالَ : خُذْهَا وَبِعْهَا وَٱشْتَرِ بِثَمَنِهَا مَا يُصْلِحُ عِيَالَكَ . فَحَمَلْتُهَا فَٱسْتَقْبَلَنِيْ رَجُلٌ ٱشْتَرَاهَا ، فَٱبْتَعْتُ لِأَهْلِيْ مَا يَحْتَاجُوْنَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا أَكَلْتُ وَأَكَلُوْا ذَكَرْتُ ٱلشَّيْخَ فَقُلْتُ : أُهْدِيْ لَهُ شَيْئًا ، فَأَخَذْتُ هَاتَيْنِ ٱلرُّقَاقَتَيْنِ وَجَعَلْتُ بَيْنَهُمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَلْوَىٰ ، وَأَتَيْتُ إِلَيْهِ ، فَطَرَقْتُ ٱلْبَابَ ، فَقَالَ : مَنْ ؟ قُلْتُ : أَبُوْ نَصْرٍ ! قَالَ : ٱفْتَحْ وَضَعْ مَا مَعَكَ فِي ٱلدِّهْلِيْزِ وَٱدْخُلْ . فَدَخَلْتُ وَحَدَّثْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ فَقَالَ : ٱلْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ ذَلِكَ . فَقُلْتُ : إِنِّيْ هَيَّأْتُ لِلْبَيْتِ شَيْئًا وَقَدْ أَكَلُوْا وَأَكَلْتُ وَمَعِيْ رُقَاقَتَانِ فِيْهِمَا حَلْوَىٰ .

قَالَ : يَا أَبَا نَصْرٍ ! لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَـٰذَا مَا خَرَجَتِ ٱلسَّمَكَةُ ! ٱذْهَبْ كُلْهُ أَنْتَ وَعِيَالُكَ .

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِيْنٍ : وَكُنْتُ مِنَ ٱلْجُوْعِ بِحَيْثُ لَوْ أَصَبْتُ رَغِيْفًا لَحَسِبْتُهُ مَائِدَةً أُنْزِلَتْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، وَلَـٰكِنَّ كَلِمَةَ ٱلشَّيْخِ عَنِ ٱلسَّمَكَةِ أَشْبَعَتْنِيْ بِمَعَانِيْهَا شِبَعًا لَيْسَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ، كَأَنَّمَا طَعِمْتُ مِنْهَا ثَمَرَةً مِنْ ثِمَارِ ٱلْجَنَّةِ ؛ وَطَفِقْتُ أُرَدِّدُهَا لِنَفْسِيْ وَأَتَأَمَّلُ مَا تَفْتُقُ ٱلشَّهَوَاتُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلْبَلَاءَ إِنَّمَا يُصِيْبُنَا مِنْ أَنَّنَا نُفَسِّرُ ٱلدُّنْيَا عَلَىٰ طُوْلِهَا وَعَرْضِهَا بِكَلِمَاتٍ مَعْدُوْدَةٍ ، فَإِذَا ٱسْتَقَرَّ فِيْ أَنْفُسِنَا لَفْظٌ مِنْ أَلْفَاظِ هَـٰذِهِ ٱلشَّهَوَاتِ ، ٱسْتَقَرَّتْ بِهِ فِيْ ٱلنَّفْسِ كُلُّ مَعَانِيْهِ مِنَ ٱلْمَعَاصِيْ وَٱلذُّنُوْبِ ، وَأَخَذَتْ شَيَاطِيْنُ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ تَحُوْمُ عَلَىٰ قُلُوْبِنَا ، فَنُصْبِحُ مُهَيَّئِيْنَ لِهَـٰذِهِ ٱلشَّيَاطِيْنِ ، عَامِلِيْنَ لَهَا ، ثُمَّ عَامِلِيْنَ مَعَهَا ، فَتُدْخِلُنَا مَدَاخِلَ ٱلسُّوْءِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ، وَتُقْحِمُنَا فِيْ ٱلْوَرْطَةِ بَعْدَ ٱلْوَرْطَةِ ، وَفِيْ ٱلْهَلَكَةِ بَعْدَ ٱلْهَلَكَةِ .

وَمَا هَـٰذِهِ ٱلشَّيَاطِيْنُ إِلَّا كَٱلذُّبَابِ وَٱلْبَعُوْضِ وَٱلْهَوَامِّ ، لَا تَحُوْمُ إِلَّا عَلَىٰ رَائِحَةٍ تَجْذِبُهَا ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِيْ ٱلنَّفْسِ مَا تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ ، تَفَرَّقَتْ وَلَمْ تَجْتَمِعْ ، وَإِذَا أَلَمَّتِ ٱلْوَاحِدَةُ مِنْهَا بَعْدَ ٱلْوَاحِدَةِ لَمْ تَثْبُتْ . فَلَوْ أَنَّنَا طَرَدْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا ٱلْكَلِمَاتِ ٱلَّتِيْ أَفْسَدَتْ عَلَيْنَا رُؤْيَةَ ٱلدُّنْيَا كَمَا خُلِقَتْ ، لَكَانَ لِلدُّنْيَا فِيْ أَنْفُسِنَا شَكْلٌ آخَرُ أَحْسَنُ وَأَجْمَلُ مِنْ شَكْلِهَا ، وَلَكَانَتْ لَنَا أَعْمَالٌ أُخْرَىٰ أَحْسَنُ وَأَطْهَرُ مِنْ أَعْمَالِنَا .

فَٱلشَّيْخُ لَمْ يَكُنْ فِيْ نَفْسِهِ مَعْنًى لِكَلِمَةِ (ٱلتَّلَذُّذِ) ، وَبِطَرْدِهِ مِنْ نَفْسِهِ هَـٰذَا ٱللَّفْظَ ٱلْوَاحِدَ ، طَرَدَ مَعَانِيَ ٱلشَّرِّ كُلِّهَا ، وَصَلَحَ لَهُ دِيْنُهُ ، وَخَلُصَتْ نَفْسُهُ لِلْخَيْرِ وَمَعَانِيْ ٱلْخَيْرِ . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَضَعَ فِيْ نَفْسِهِ ٱمْرَأَةً يَعْشَقُهَا ، لَصَارَتِ ٱلدُّنْيَا كُلُّهَا فِيْ نَفْسِهِ كَٱلْمَخْدَعِ : مَا فِيْهِ إِلَّا ٱلْمَرْأَةُ وَحْدَهَا بِأَسْبَابِهَا إِلَيْهِ وَأَسْبَابِهِ إِلَيْهَا . . .

وَقَدْ كُنْتُ سَمِعْتُ فِيْ دَرْسِ شَيْخِنَا أَحْمَدَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ هَـٰذَا ٱلْحَدِيْثَ : « لَوْلَا أَنَّ ٱلشَّيَاطِيْنَ يَحُوْمُوْنَ عَلَىٰ قُلُوْبِ بَنِيْ آدَمَ لَنَظَرُوْا إِلَىٰ مَلَكُوْتِ ٱلسَّمَـٰوَاتِ » [« مسند الإمام أحمد » ، رقم : ٨٤٢٦] . فَمَا فَهِمْتُ وَٱللهِ مَعْنَاهُ إِلَّا مِنْ كَلِمَةِ ٱلشَّيْخِ فِيْ ٱلسَّمَكَةِ ، وَقَدْ عَلَّمَنِيْهَا هَـٰذَا ٱلصَّيَّادُ ٱلْعَامِّيُّ ؛ فَٱلشَّيَاطِيْنُ تَنْجَذِبُ إِلَىٰ ٱلْمَعَانِيْ ، وَٱلْمَعَانِيْ يُوْجِدُهَا ٱللَّفْظُ ٱلْمُسْتَقِرُّ فِيْ ٱلْقَلْبِ ٱسْتِقْرَارَ غَرَضٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ طَمَعٍ ؛ فَإِذَا خَلَا ٱلْقَلْبُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ ، فَقَدْ أَمِنَ مُنَازَعَتَهَا لَهُ وَشَغْلَهَا إِيَّاهُ ، فَيُصْبِحُ فَوْقَهَا لَا بَيْنَهَا ؛ وَمَتَىٰ صَارَ ٱلْقَلْبُ فَوْقَ ٱلشَّهَوَاتِ وَلَمْ يَجِدْ مِنْ أَلْفَاظِهَا مَا يُعْمِيْهِ وَيَعْتَرِضُ نَظَرَهُ إِلَىٰ ٱلْحَقَائِقِ ، ٱنْكَشَفَتْ لَهُ هَـٰذِهِ ٱلْحَقَائِقُ فَٱنْكَشَفَ لَهُ ٱلْمَلَكُوْتُ ؛ فَإِذَا وَقَعَ بَعْدُ فِيْ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱللَّذَّاتِ وَلَوْ (كَٱلرُّقَاقَتَيْنِ وَٱلْحَلْوَىٰ) ، ٱسْتَعْلَتِ ٱلْأَشْيَاءُ عَلَيْهِ فَحَجَبَتْهُ ، وَعَادَ بَيْنَهَا أَوْ تَحْتَهَا ، وَعَمِيَ عَمَىٰ ٱللَّذَّةِ ؛ وَٱلْحِجَابُ عَلَىٰ ٱلْبَصَرِ كَأَنَّهُ تَعْلِيْقُ ٱلْعَمَىٰ عَلَىٰ ٱلْبَصَرِ .

وَكُنْتُ لَا أَزَالُ أَعْجَبُ مِنْ صَبْرِ شَيْخِنَا أَحْمَدَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ وَقَدْ ضُرِبَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمُعْتَصِمِ بِٱلسِّيَاطِ حَتَّىٰ غُشِيَ عَلَيْهِ[١] ، فَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ رَأْيِهِ ؛ فَعَلِمْتُ ٱلْآنَ مِنْ كَلِمَةِ ٱلسَّمَكَةِ أَنَّهُ لَمْ

(١) كَانَ هَـٰذَا فِيْ سَنَةَ ٢١٩ وَقَدْ أَرَادُوْا ٱلإِمَامَ ٱلْعَظِيْمَ عَلَىٰ ٱلْقَوْلِ بِخَلْقِ ٱلْقُرْآنِ فَلَمْ يَقُلْ بِهِ ، فَأَفْتَىٰ ٱلْقَاضِيْ ٱبْنُ أَبِيْ دُؤَادٍ بِقَتْلِهِ وَشَغَبَ عَلَيْهِ . ثُمَّ ضُرِبَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمُعْتَصِمِ ، فَلَمَّا صَمَّمَ وَلَمْ يُجِبْ أَطْلَقَهُ ٱلْمُعْتَصِمُ وَنَدِمَ عَلَىٰ ضَرْبِهِ .

يَجْعَلْ فِيْ نَفْسِهِ لِلضَّرْبِ مَعْنَىٰ ٱلضَّرْبِ ، وَلَا عَرَفَ لِلصَّبْرِ مَعْنَىٰ ٱلصَّبْرِ ٱلآدَمِيِّ ؛ وَلَوْ هُوَ صَبَرَ عَلَىٰ هَـٰذَا صَبْرَ ٱلإِنْسَانِ لَجَزِعَ وَتَحَوَّلَ ، وَلَوْ ضُرِبَ ضَرْبَ ٱلإِنْسَانِ لَتَأَلَّمَ وَتَغَيَّرَ ؛ وَلَـٰكِنَّهُ وَضَعَ فِيْ نَفْسِهِ مَعْنَىٰ ثَبَاتِ ٱلسُّنَّةِ وَبَقَاءِ ٱلدِّيْنِ ، وَأَنَّهُ هُوَ ٱلأُمَّةُ كُلُّهَا لَا أَحْمَدُ ٱبْنُ حَنْبَلٍ ، فَلَوْ تَحَوَّلَ لَتَحَوَّلَ ٱلنَّاسُ ، وَلَوِ ٱبْتَدَعَ لَٱبْتَدَعُوْا ؛ فَكَانَ صَبْرُهُ صَبْرَ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ لَا صَبْرَ رَجُلٍ فَرْدٍ ، وَكَانَ يُضْرَبُ بِٱلسِّيَاطِ وَنَفْسُهُ فَوْقَ مَعْنَىٰ ٱلضَّرْبِ ، فَلَوْ قَرَضُوْهُ بِٱلْمَقَارِيْضِ وَنَشَرُوْهُ بِٱلْمَنَاشِيْرِ لَمَا نَالُوْا مِنْهُ شَيْئًا ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ جِسْمُهُ إِلَّا ثَوْبًا عَلَيْهِ ، وَكَانَ ٱلرَّجُلُ هُوَ ٱلْفِكْرَ لَيْسَ غَيْرَ .

هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَرَوْنَ فَضَائِلَهُمْ فَضَائِلَ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ يَرَوْنَهَا أَمَانَاتٍ قَدِ ٱئْتُمِنُوْا عَلَيْهَا مِنَ ٱللهِ لِتَبْقَىٰ بِهِمْ مَعَانِيْهَا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ؛ فَهُمْ يُزْرَعُوْنَ فِيْ ٱلأُمَمِ زَرْعًا بِيَدِ ٱللهِ ، وَلَا يَمْلِكُ ٱلزَّرْعُ غَيْرَ طَبِيْعَتِهِ ، وَمَا كَانَ ٱلْمُعْتَصِمُ وَهُوَ يُرِيْدُ شَيْخَنَا عَلَىٰ غَيْرِ رَأْيِهِ وَعَقِيْدَتِهِ إِلَّا كَٱلأَحْمَقِ يَقُوْلُ لِشَجَرَةِ ٱلتُّفَّاحِ : أَثْمِرِيْ غَيْرَ ٱلتُّفَّاحِ .

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِيْنٍ : وَأَخَذْتُ ٱلرُّقَاقَتَيْنِ وَأَنَا أَقُوْلُ فِيْ نَفْسِيْ : لَعَنَ ٱللهُ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ! إِنَّ مِنْ هَوَانِهَا عَلَىٰ ٱللهِ أَنَّ ٱلإِنْسَانَ فِيْهَا يَلْبَسُ وَجْهَهُ كَمَا يَلْبَسُ نَعْلَهُ . فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا كَانَتْ لَهُ نَظْرَةٌ مَلَائِكِيَّةٌ ثُمَّ ٱعْتَرَضَ ٱلْخَلْقَ يَنْظُرُ فِيْ وُجُوْهِهِمْ ، لَرَأَىٰ عَلَيْهَا وُحُوْلًا وَأَقْذَارًا كَٱلَّتِيْ فِيْ نِعَالِهِمْ أَوْ أَقْذَرَ أَوْ أَقْبَحَ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ لَا يَرَىٰ أَجْمَلَ ٱلْوُجُوْهِ ٱلَّتِيْ تَسْتَهِيْمُ ٱلنَّاسَ وَتَتَصَبَّاهَا مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ ، إِلَّا كَٱلأَحْذِيَةِ ٱلْعَتِيْقَةِ . . .

وَلَـٰكِنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّ فِيْ هَاتَيْنِ ٱلرُّقَاقَتَيْنِ سِرَّ ٱلشَّيْخِ ، وَرَأَيْتُهُمَا فِيْ يَدَيْهِ كَٱلْوَثِيْقَتَيْنِ بِخَيْرٍ كَثِيْرٍ ؛ فَقُلْتُ : عَلَىٰ بَرَكَةِ ٱللهِ . وَمَضَيْتُ إِلَىٰ دَارِيْ ؛ فَلَمَّا كُنْتُ فِيْ هَـٰذَا ٱلطَّرِيْقِ لَقِيَتْنِيْ ٱمْرَأَةٌ مَعَهَا صَبِيٌّ ، فَنَظَرَتْ إِلَىٰ ٱلْمِنْدِيْلِ وَقَالَتْ : يَا سَيِّدِيْ ، هَـٰذَا طِفْلٌ يَتِيْمٌ جَائِعٌ وَلَا صَبْرَ لَهُ عَلَىٰ ٱلْجُوْعِ ، فَأَطْعِمْهُ شَيْئًا يَرْحَمُكَ ٱللهُ . وَنَظَرَ إِلَيَّ ٱلطِّفْلُ نَظْرَةً لَا أَنْسَاهَا . حَسِبْتُ فِيْهَا خُشُوْعَ أَلْفِ عَابِدٍ يَعْبُدُوْنَ ٱللهَ (تَعَالَىٰ) مُنْقَطِعِيْنَ عَنِ ٱلدُّنْيَا ؛ بَلْ مَا أَظُنُّ أَلْفَ عَابِدٍ يَسْتَطِيْعُوْنَ أَنْ يُرُوْا ٱلنَّاسَ نَظْرَةً وَاحِدَةً كَٱلَّتِيْ تَكُوْنُ فِيْ عَيْنِ صَبِيٍّ يَتِيْمٍ جَائِعٍ يَسْأَلُ ٱلرَّحْمَةَ . إِنَّ شِدَّةَ ٱلْهَمِّ لَتَجْعَلُ وُجُوْهَ ٱلأَطْفَالِ كَوُجُوْهِ ٱلْقِدِّيْسِيْنَ ، فِيْ عَيْنِ مَنْ يَرَاهَا مِنَ

ٱلآبَاءِ وَٱلأُمَّهَاتِ ، لِعَجْزِ هَـٰؤُلَاءِ ٱلصِّغَارِ عَنِ ٱلشَّرِّ ٱلآدَمِيِّ وَٱنْقِطَاعِهِمْ إِلَّا مِنَ ٱللهِ وَٱلْقَلْبِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، فَيَظْهَرُ وَجْهُ أَحَدِهِمْ وَكَأَنَّهُ يَصْرُخُ بِمَعَانِيْهِ يَقُوْلُ : يَا رَبَّاهُ ! يَا رَبَّاهُ !

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِيْنٍ : وَخُيِّلَ إِلَيَّ حِيْنَئِذٍ أَنَّ ٱلْجَنَّةَ نَزَلَتْ إِلَىٰ ٱلأَرْضِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَىٰ مَنْ يُشْبِعُ هَـٰذَا ٱلطِّفْلَ وَأُمَّهُ ، وَٱلنَّاسُ عُمْيٌ لَا يُبْصِرُوْنَهَا ، وَكَأَنَّهُمْ يَمُرُّوْنَ بِهَا فِيْ هَـٰذَا ٱلْمَوْطِنِ مُرُوْرَ ٱلْحَمِيْرِ بِقَصْرِ ٱلْمَلِكِ : لَوْ سُئِلَتْ فَضَّلَتْ عَلَيْهِ ٱلإِصْطَبْلَ ٱلَّذِيْ هِيَ فِيْهِ . . .

وَذَكَرْتُ ٱمْرَأَتِيْ وَٱبْنَهَا وَهُمَا جَائِعَانِ مُنْذُ أَمْسِ ، غَيْرَ أَنِّيْ لَمْ أَجِدْ لَهُمَا فِيْ قَلْبِيْ مَعْنَىٰ ٱلزَّوْجَةِ وَٱلْوَلَدِ ؛ بَلْ مَعْنَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُحْتَاجَةِ وَطِفْلِهَا ، فَأَسْقَطْتُهُمَا عَنْ قَلْبِيْ وَدَفَعْتُ مَا فِيْ يَدِيْ لِلْمَرْأَةِ وَقُلْتُ لَهَا : خُذِيْ وَأَطْعِمِيْ ٱبْنَكِ ، وَوَٱللهِ مَا أَمْلِكُ بَيْضَاءَ وَلَا صَفْرَاءَ ، وَإِنَّ فِيْ دَارِيْ لَمَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلطَّعَامِ ؛ وَلَوْلَا هَـٰذِهِ ٱلْخَلَّةُ بِيْ لَتَقَدَّمْتُ فِيْمَا يُصْلِحُكِ . فَدَمَعَتْ عَيْنَاهَا ، وَأَشْرَقَ وَجْهُ ٱلصَّبِيِّ ، وَلَـٰكِنْ طَمَّ عَلَىٰ قَلْبِيْ مَا أَنَا فِيْهِ فَلَمْ أَجِدْ لِلدَّمْعَةِ مَعْنَىٰ ٱلدَّمْعَةِ ، وَلَا لِلْبَسْمَةِ مَعْنَىٰ ٱلْبَسْمَةِ .

وَقُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ : أَمَّا أَنَا فَأَطْوِيْ إِنْ لَمْ أُصِبْ طَعَامًا ، فَقَدْ كَانَ أَبُوْ بَكْرٍ ٱلصِّدِّيْقُ يَطْوِيْ سِتَّةَ أَيَّامٍ ، وَكَانَ ٱبْنُ عُمَرَ يَطْوِيْ ، وَكَانَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِمَّنْ حَفِظْنَا أَسْمَاءَهُمْ وَرَوَيْنَا أَخْبَارَهُمْ ؛ وَلَـٰكِنْ مَنْ لِلْمَرْأَةِ وَٱبْنِهَا بِمِثْلِ عَقْدِيْ وَنِيَّتِيْ ؟ وَكَيْفَ لِيْ بِهِمَا ؟

وَمَشَيْتُ وَأَنَا مُنْكَسِرٌ مُنْقَبِضٌ ، وَكَأَنِّيْ كُنْتُ نَسِيْتُ كَلِمَةَ ٱلشَّيْخِ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَـٰذَا مَا خَرَجَتِ ٱلسَّمَكَةُ » . فَذَكَرْتُهَا وَصَرَفْتُ خَاطِرِيْ إِلَيْهَا وَشَغَلْتُ نَفْسِيْ بِتَدَبُّرِهَا وَقُلْتُ : لَوْ أَنِّيْ أَشْبَعْتُ ثَلَاثَةً بِجُوْعِ ٱثْنَيْنِ لَحُرِمْتُ خَمْسَ فَضَائِلَ(١) وَهَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مُحْتَاجَةٌ إِلَىٰ ٱلْفَضِيْلَةِ ، وَهَـٰذِهِ ٱلْفَضِيْلَةُ مُحْتَاجَةٌ إِلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا ٱلْعَمَلِ ، وَهَـٰذَا ٱلْعَمَلُ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ أَنْ يَكُوْنَ هَـٰكَذَا ، فَمَا يَسْتَقِيْمُ ٱلأَمْرُ إِلَّا كَمَا صَنَعْتُ .

وَكَانَتِ ٱلشَّمْسُ قَدِ ٱنْبَسَطَتْ فِيْ ٱلسَّمَاءِ وَذَلِكَ وَقْتُ ٱلضُّحَىٰ ٱلأَعْلَىٰ ، فَمِلْتُ نَاحِيَةً

---

(١) يُرِيْدُ : جُوْعَهُ ، وَجُوْعَ ٱمْرَأَتِهِ ، وَجُوْعَ ٱبْنِهِ ؛ ثُمَّ شِبَعَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَشِبَعَ ٱبْنِهَا . فَهَـٰذِهِ خَمْسُ فَضَائِلَ .

وَجَلَسْتُ إِلَىٰ حَائِطٍ أُفَكِّرُ فِي بَيْعِ ٱلدَّارِ وَمَنْ يَبْتَاعُهَا ، فَأَنَا كَذَٰلِكَ إِذْ مَرَّ أَبُو نَصْرٍ ٱلصَّيَّادُ وَكَأَنَّهُ مُسْتَطَارٌ فَرَحًا ، فَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! مَا يُجْلِسُكَ هَـٰهُنَا وَفِي دَارِكَ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغِنَىٰ ؟ قُلْتُ : سُبْحَانَ ٱللهِ ! مِنْ أَيْنَ خَرَجَتِ ٱلسَّمَكَةُ يَا أَبَا نَصْرٍ ؟

قَالَ : إِنِّي لَفِي ٱلطَّرِيقِ إِلَىٰ مَنْزِلِكَ ، وَمَعِي ضَرُورَةٌ مِنَ ٱلْقُوتِ أَخَذْتُهَا لِعِيَالِكَ ، وَدَرَاهِمُ ٱسْتَدَنْتُهَا لَكَ ، إِذَا رَجُلٌ يَسْتَدِلُّ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ أَبِيكَ أَوْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهِ ، وَمَعَهُ أَثْقَالٌ وَأَحْمَالٌ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا أَدُلُّكَ . وَمَشَيْتُ مَعَهُ أَسْأَلُهُ عَنْ خَبَرِهِ وَشَأْنِهِ عِنْدَ أَبِيكَ . فَقَالَ : إِنَّهُ تَاجِرٌ مِنَ ٱلْبَصْرَةِ ، وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ أَوْدَعَهُ مَالًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، فَأَفْلَسَ وَٱنْكَسَرَ ٱلْمَالُ ، ثُمَّ تَرَكَ ٱلْبَصْرَةَ إِلَىٰ خُرَاسَانَ ، فَصَلُحَ أَمْرُهُ عَلَى ٱلتِّجَارَةِ هُنَاكَ ، وَأَيْسَرَ بَعْدَ ٱلْمِحْنَةِ ، وَٱسْتَظْهَرَ بَعْدَ ٱلْخِذْلَانِ ، وَأَقْبَلَ جَدُّهُ بِٱلثَّرَاءِ وَٱلْغِنَىٰ ؛ فَعَادَ إِلَى ٱلْبَصْرَةِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَحَلَّلَ ، فَجَاءَكَ بِٱلْمَالِ وَعَلَيْهِ مَا كَانَ يَرْبَحُهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثِينَ سَنَةً ، وَإِلَىٰ ذَلِكَ طَرَائِفُ وَهَدَايَا .

* * *

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَٱنْقَلَبْتُ إِلَىٰ دَارِي فَإِذَا مَالٌ جَمٌّ وَحَالٌ جَمِيلَةٌ ! فَقُلْتُ : صَدَقَ ٱلشَّيْخُ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَـٰذَا مَا خَرَجَتِ ٱلسَّمَكَةُ » ! فَلَوْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ لَمْ يَلْقَ فِي وَجْهِهِ أَبَا نَصْرٍ ، فِي هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيقِ ، فِي هَـٰذَا ٱلْيَوْمِ ، فِي هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ ، لَمَا ٱهْتَدَىٰ إِلَيَّ ؛ فَقَدْ كَانَ أَبِي مَغْمُورًا لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ وَهُوَ حَيٌّ ؛ فَكَيْفَ بِهِ مَيْتًا مِنْ وَرَاءِ عِشْرِينَ سَنَةً ؟

وَآلَيْتُ لَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ شُكْرِي هَـٰذِهِ ٱلنِّعْمَةَ ؛ فَلَمْ تَكُنْ لِي هِمَّةٌ إِلَّا ٱلْبَحْثَ عَنِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُحْتَاجَةِ وَٱبْنِهَا ، فَكَفَيْتُهُمَا وَأَجْرَيْتُ عَلَيْهِمَا رِزْقًا ، ثُمَّ ٱتَّجَرْتُ فِي ٱلْمَالِ ، وَجَعَلْتُ أَرُبُّهُ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلصَّنِيعَةِ وَٱلْإِحْسَانِ وَهُوَ مُقْبِلٌ يَزْدَادُ وَلَا يَنْقُصُ ، حَتَّىٰ تَمَوَّلْتُ وَتَأَثَّلْتُ .

وَكَأَنِّي قَدْ أَعْجَبَتْنِي نَفْسِي ، وَسَرَّنِي أَنِّي قَدْ مَلَأْتُ سِجِلَّاتِ ٱلْمَلَائِكَةِ بِحَسَنَاتِي ، وَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ كُتِبْتُ عِنْدَ ٱللهِ فِي ٱلصَّالِحِينَ ، فَنِمْتُ لَيْلَةً فَرَأَيْتُنِي فِي يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلْخَلْقُ يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَٱلْهَوْلُ هَوْلُ ٱلْكَوْنِ ٱلْأَعْظَمِ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ ٱلضَّعِيفِ ، يُسْأَلُ عَنْ كُلِّ مَا مَسَّهُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ . وَسَمِعْتُ ٱلصَّائِحَ يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ بَنِي آدَمَ ! سَجَدَتِ ٱلْبَهَائِمُ شُكْرًا للهِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهَا مِنْ آدَمَ . وَرَأَيْتُ ٱلنَّاسَ وَقَدْ وُسِّعَتْ أَبْدَانُهُمْ فَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ مَخْلُوقَةً مُجَسَّمَةً ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّ ٱلْفَاسِقَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ مَدِينَةٌ

كُلُّهَا مُخْزِيَاتٌ !

وَقِيلَ : وُضِعَتِ ٱلْمَوَازِينُ . وَجِيءَ بِي لِوَزْنِ أَعْمَالِي ، فَجُعِلَتْ سَيِّئَاتِي فِي كِفَّةٍ ، وَأُلْقِيَتْ سِجِلَّاتُ حَسَنَاتِي فِي ٱلْأُخْرَىٰ ، فَطَاشَتِ ٱلسِّجِلَّاتُ وَرَجَحَتِ ٱلسَّيِّئَاتُ ، كَأَنَّمَا وَزَنُوا ٱلْجَبَلَ ٱلصَّخْرِيَّ ٱلْعَظِيمَ ٱلضَّخْمَ بِلُفَافَةٍ مِنَ ٱلْقُطْنِ . . .

ثُمَّ جَعَلُوا يُلْقُونَ ٱلْحَسَنَةَ بَعْدَ ٱلْحَسَنَةِ مِمَّا كُنْتُ أَصْنَعُهُ ، فَإِذَا تَحْتَ كُلِّ حَسَنَةٍ شَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ مِنْ شَهَوَاتِ ٱلنَّفْسِ : كَٱلرِّيَاءِ وَٱلْغُرُورِ وَحُبِّ ٱلْمَحْمَدَةِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَغَيْرِهَا ، فَلَمْ يَسْلَمْ لِي شَيْءٌ ، وَهَلَكَتْ عَنِّي حُجَّتِي ، إِذِ ٱلْحُجَّةُ مَا يُبَيِّنُهُ ٱلْمِيزَانُ ، وَٱلْمِيزَانُ لَمْ يَدُلَّ إِلَّا عَلَىٰ أَنِّي فَارِغٌ .

وَسَمِعْتُ ٱلصَّوْتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَـٰذَا .

وَأَنْظُرُ لِأَرَىٰ مَا هَـٰذَا ٱلَّذِي بَقِيَ ، فَإِذَا ٱلرُّقَاقَتَانِ ٱللَّتَانِ أَحْسَنْتُ بِهِمَا عَلَى ٱلْمَرْأَةِ وَٱبْنِهَا ! فَأَيْقَنْتُ أَنِّي هَالِكٌ ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أُحْسِنُ بِمِئَةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً فَمَا أَغْنَتْ عَنِّي ، وَرَأَيْتُهَا فِي ٱلْمِيزَانِ مَعَ غَيْرِهَا شَيْئًا مُعَلَّقًا كَٱلْغَمَامِ حِينَ يَكُونُ سَاقِطًا بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ : لَا هُوَ فِي هَـٰذِهِ وَلَا هُوَ فِي تِلْكَ .

وَوُضِعَتِ ٱلرُّقَاقَتَانِ ، وَسَمِعْتُ ٱلْقَائِلَ : لَقَدْ طَارَ نِصْفُ ثَوَابِهِمَا فِي مِيزَانِ أَبِي نَصْرٍ ٱلصَّيَّادِ . فَٱنْخَذَلْتُ ٱنْخِذَالًا شَدِيدًا ، حَتَّىٰ لَوْ كُسِرْتُ نِصْفَيْنِ لَكَانَ أَخَفَّ عَلَيَّ وَأَهْوَنَ . بَيْدَ أَنِّي نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ كِفَّةَ ٱلْحَسَنَاتِ قَدْ نَزَلَتْ مَنْزِلَةً وَرَجَحَتْ بَعْضَ ٱلرُّجْحَانِ .

وَسَمِعْتُ ٱلصَّوْتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَـٰذَا .

وَأَنْظُرُ مَا هَـٰذَا ٱلَّذِي بَقِيَ ؟ فَإِذَا جُوعُ ٱمْرَأَتِي وَوَلَدِي فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ ! وَإِذَا هُوَ شَيْءٌ يُوضَعُ فِي ٱلْمِيزَانِ ، وَإِذَا هُوَ يَنْزِلُ بِكِفَّةٍ وَيَرْتَفِعُ بِٱلْأُخْرَىٰ حَتَّىٰ ٱعْتَدَلَتَا بِٱلسَّوِيَّةِ . وَثَبَتَ ٱلْمِيزَانُ عَلَىٰ ذَلِكَ ، فَكُنْتُ بَيْنَ ٱلْهَلَاكِ وَٱلنَّجَاةِ .

وَأَسْمَعُ ٱلصَّوْتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَـٰذَا .

وَنَظَرْتُ فَإِذَا دُمُوعُ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمِسْكِينَةِ حِينَ بَكَتْ مِنْ أَثَرِ ٱلْمَعْرُوفِ فِي نَفْسِهَا ، وَمِنْ إِيثَارِي إِيَّاهَا وَٱبْنَهَا عَلَىٰ أَهْلِي . وَوُضِعَتْ غَرْغَرَةُ عَيْنَيْهَا فِي ٱلْمِيزَانِ فَفَارَتْ ، فَطَمَّتْ كَأَنَّهَا

لُجَّةٌ ، مِنْ تَحْتِ ٱللُّجَّةِ بَحْرٌ ؛ وَإِذَا سَمَكَةٌ هَائِلَةٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ ٱللُّجَّةِ وَقَعَ فِيْ نَفْسِي أَنَّهَا رُوْحُ تِلْكَ ٱلدُّمُوْعِ ، فَجَعَلَتْ تَعْظُمُ وَلَا تَزَالُ تَعْظُمُ ، وَٱلْكِفَّةُ تَرْجَحُ وَلَا تَزَالُ تَرْجَحُ ، حَتَّىٰ سَمِعْتُ ٱلصَّوْتَ يَقُوْلُ : قَدْ نَجَا !

وَصِحْتُ صَيْحَةً ٱنْتَبَهْتُ لَهَا ، فَإِذَا أَنَا أَقُوْلُ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَـٰذَا مَا خَرَجَتِ ٱلسَّمَكَةُ ! » .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

ٱلزَّاهِدَانِ(*)
٢

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِيْنٍ : وَٱنْتَشَرَ حَدِيْثُ ٱلسَّمَكَةِ فِيْ أَهْلِ (بَلْخ) ، وَٱسْتَفَاضَ بَيْنَهُمْ ، وَكُنْتُ قَصَصْتُهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلسَّبْتِ ، فَلَمَّا دَارَ ٱلسَّبْتُ مِنْ أُسْبُوْعِهِ لَقِيَنِيْ شَيْخُهُمْ حَاتِمُ بْنُ يُوْسُفَ (لُقْمَانُ ٱلأُمَّةِ) وَمَعَهُ صَاحِبُهُ أَبُوْ تُرَابٍ ، فَقَالَ : يَا أَحْمَدُ ! لَكَأَنَّكَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمَدِيْنَةِ قَمَرٌ طَلَعَ بِلَيْلٍ ، فَلَا يَعِظِ ٱلنَّاسَ فِيْ يَوْمِ ٱلسَّبْتِ غَيْرُكَ ؛ وَمَنْ سَمِعَ فَكَأَنَّهُ عَايَنَ ، وَلَيْسَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ أَهْلِ بَلْخٍ مُنْذُ تَحَدَّثَتْ إِلَّا بِشْرٌ وَٱبْنُ حَنْبَلٍ ، وَلَا عَلَىٰ بَالِ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا مَوْعِظَتُكَ وَحَدِيْثُكَ .

وَٱلْكَلَامُ عَلَىٰ ٱلصَّالِحِيْنَ فِيْ مِثْلِ مَا وَصَفْتَ وَحَكَيْتَ قُرْبٌ مِنْ حَقَائِقِهِمْ ، وَسُمُوٌّ إِلَىٰ مَعَانِيْهِمْ ؛ وَلَيْسَ فِيْ ٱلْقَوْلِ بَابٌ لَهُ مَوْقِعٌ كَمَوْقِعِ ٱلْقِصَّةِ عَنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلَّذِيْنَ يَخْلُقُهُمُ ٱللهُ فِيْ ٱلْبَشَرِيَّةِ خَلْقَ ٱلنُّوْرِ : يُضِيْءُ مَا حَوْلَهُ مِنْ حَيْثُ يُرَىٰ ، وَيَعْمَلُ فِيْمَا حَوْلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يُرَىٰ ، وَفِيْ ظَاهِرِهِ ٱلْجَمَالُ وَٱلْمَنْفَعَةُ ، وَفِيْ بَاطِنِهِ ٱلْقُوَّةُ وَٱلْحَيَاةُ . وَلَسْتُ أَقُوْلُ لَكَ ٱذْهَبْ فَحَدِّثِ ٱلنَّاسَ ، وَلَـٰكِنِّيْ أَقُوْلُ ٱذْهَبْ فَأَعْطِ ٱلنَّاسَ عَقْلًا مِنَ ٱلْحَدِيْثِ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٣٨ ، ١ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٤ فبراير/ شباط ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٢٨٣ ـ ٢٨٦ .

قَالَ ٱبْنُ مِسْكِيْنٍ : فَلَمَّا صَلَّيْنَا ٱلْعَصْرَ ، قَدَّمَنِيْ أَبُوْ تُرَابٍ فَجَلَسْتُ فِيْ مَجْلِسِيْ ذَاكَ ، وَهَتَفَ بِيْ ٱلنَّاسُ يُرِيْدُوْنَ ٱلْحَدِيْثَ عَنْ بِشْرٍ ٱلْحَافِيْ وَمَا سَقَطَ لِيْ مِنْ أَخْبَارِهِ ، عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقَةِ ٱلَّتِيْ حَدَّثْتُهُمْ بِهَا مِنْ قَبْلُ ، فَٱبْتَدَأْتُ بِذِكْرِ مَوْتِهِ (رَحِمَهُ ٱللهُ) ، وَأَنَّ يَوْمَهُ كَأَنَّمَا ٱجْتَمَعَ لَهُ أَهْلُ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ سَنَةً(١) ، إِذْ خَرَجَتْ جَنَازَتُهُ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلصُّبْحِ ، فَلَمْ يَحْصُلْ فِيْ قَبْرِهِ إِلَّا فِيْ ٱللَّيْلِ مِمَّا ٱحْتَشَدَ فِيْ طَرِيْقِهِ مِنَ ٱلْخَلْقِ ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّ فِيْ نَعْشِهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ ٱلْجَنَّةِ يُطَالِعُهُمْ بِهِ ٱلْمَوْتُ(٢) ، فَخَرَجُوْا يَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِ ، وَكَانُوْا يَصِيْحُوْنَ فِيْ جَنَازَتِهِ : هَـٰذَا وَٱللهِ شَرَفُ ٱلدُّنْيَا قَبْلَ شَرَفِ ٱلآخِرَةِ .

ثُمَّ قُلْتُ : حَدَّثَنِيْ حُسَيْنٌ ٱلْمَغَازِلِيُّ(٣) : أَنَّ بِشْرًا (رَحِمَهُ ٱللهُ) كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا ٱلْخُبْزَ تَوَرُّعًا عَنِ ٱلشُّبُهَاتِ وَٱكْتِفَاءً لِضَرُوْرَةِ ٱلْحَيَاةِ بِٱلأَقَلِّ ٱلأَيْسَرِ ، وَكَانَ يَقُوْلُ فِيْ ذَلِكَ : يَدٌ أَقْصَرُ مِنْ يَدٍ ، وَلُقْمَةٌ أَصْغَرُ مِنْ لُقْمَةٍ . وَسُئِلَ مَرَّةً : بِأَيِّ شَيْءٍ تَأْكُلُ ٱلْخُبْزَ ؟ فَقَالَ : أَذْكُرُ ٱلْعَافِيَةَ فَأَجْعَلُهَا إِدَامًا . وَقَدْ أَعَانَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ ، وَكَانَ يَرَىٰ هَـٰذَا نَقْصًا فِيْ نَفْسِهِ حَتَّىٰ فَضَّلَ ٱلإِمَامَ أَحْمَدَ ٱبْنَ حَنْبَلٍ بِأَشْيَاءَ : مِنْهَا أَنَّ لَهُ أَهْلًا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ قِيْلَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ : لَوْ تَزَوَّجْتَ تَمَّ نُسُكُكَ . فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ تَقُوْمَ ٱلزَّوْجَةُ بِحَقِّيْ وَلَا أَقُوْمُ بِحَقِّهَا . فَكَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلنِّيَّةُ فِيْ نَفْسِهِ أَفْضَلَ مِنْ زَوَاجِهِ .

وَكَانَ مَعَ هَـٰذَا لَا يُؤَاكِلُ أَحَدًا ، وَلَا يَسْعَىٰ إِلَىٰ لِقَاءِ أَحَدٍ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ فِيْ مُؤَاخَاةِ ٱلزَّاهِدِ ٱلْعَظِيْمِ (مَعْرُوْفٍ ٱلْكَرْخِيِّ) ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ (ٱلأَسْوَدَ بْنَ سَالِمٍ) وَكَانَ صَدِيْقًا لَهُمَا ، فَقَالَ لِمَعْرُوْفٍ : إِنَّ بِشْرَ بْنَ ٱلْحَارِثِ يُرِيْدُ مُؤَاخَاتَكَ وَهُوَ يَسْتَحِيْ أَنْ يُشَافِهَكَ بِذَلِكَ ، وَقَدْ أَرْسَلَنِيْ إِلَيْكَ يَسْأَلُكَ أَنْ تَعْقِدَ لَهُ فِيْمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ أُخُوَّةً يَحْتَسِبُهَا وَيَعْتَدُّ بِهَا ؛ إِلَّا أَنَّهُ يَشْتَرِطُ فِيْهَا شُرُوْطًا : أَوَّلُهَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشْتَهِرَ ذَلِكَ ، وَثَانِيْهَا أَلَّا يَكُوْنَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

(١) مَاتَ رَحِمَهُ ٱللهُ عَنْ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ سَنَةً .

(٢) فِيْ ٱلأَصْلِ : « فِيْ هَذَا » بَدَلًا مِنْ : « يُطَالِعُهُمْ بِهِ ٱلْمَوْتُ » .

(٣) نِسْبَةً إِلَىٰ عَمَلِ ٱلْمَغَازِلِ ، وَكَانَ حُسَيْنٌ هَـٰذَا صَدِيْقًا لِبِشْرٍ ، وَكَانَ بِشْرٌ يَعْمَلُ ٱلْمَغَازِلَ وَيَعِيْشُ مِنْ ثَمَنِهَا ، وَمِنْ كَلَامِهِ لِٱبْنِ أُخْتِهِ عُمَرَ : يَا بُنَيَّ ! ٱعْمَلْ بِيَدَيْكَ ؛ فَإِنَّ أَثَرَهُ فِيْ ٱلْكَفَّيْنِ أَحْسَنُ مِنْ أَثَرِ ٱلسَّجْدَةِ بَيْنَ ٱلْعَيْنَيْنِ . هَـٰكَذَا كَانُوْا رَحِمَهُمُ ٱللهُ .

مُزَاوَرَةٌ وَلَا مُلَاقَاةٌ .

فَقَالَ مَعْرُوفٌ : أَمَّا أَنَا فَإِذَا أَحْبَبْتُ أَحَدًا لَمْ أُحِبَّ أَنْ أُفَارِقَهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ، وَأَزُورُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَأُوثِرُهُ عَلَىٰ نَفْسِي فِي كُلِّ حَالٍ ؛ وَأَنَا أَعْقِدُ لِبِشْرٍ أُخُوَّةً بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَلَـٰكِنِّي أَزُورُهُ مَتَىٰ أَحْبَبْتُ ، وَآمُرُهُ بِلِقَائِي فِي مَوَاضِعَ نَلْتَقِي فِيهَا إِذَا هُوَ كَرِهَ زِيَارَتِي .

قَالَ حُسَيْنٌ ٱلْمُغَازِلِيُّ : وَكَانَ هَـٰذَا كُلُّهُ مِنْ أَمْرِ بِشْرٍ مَعْرُوفًا فِي بَغْدَادَ ، لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِبَغْدَادَ إِمَامٌ غَيْرُهُ وَغَيْرُ ٱبْنِ حَنْبَلٍ ؛ فَمَا كَانَ أَكْثَرَ عَجَبِي حِينَ كُنْتُ عِنْدَهُ يَوْمًا وَقَدْ زَارَهُ (فَتْحٌ ٱلْمَوْصِلِيُّ) ، فَقَامَ فَجَاءَ بِدَرَاهِمَ مِلْءَ كَفِّهِ وَدَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ : ٱشْتَرِ لَنَا أَطْيَبَ مَا تَجِدُ مِنَ ٱلطَّعَامِ ، وَأَطْيَبَ مَا تَجِدُ مِنَ ٱلْحَلْوَىٰ ، وَأَطْيَبَ مَا تَجِدُ مِنَ ٱلطِّيبِ . وَمَا قَالَ لِي مِثْلَ ذَٰلِكَ قَطُّ ، وَهُوَ ٱلَّذِي رَأَى ٱلْفَاكِهَةَ يَوْمًا فَقَالَ : تَرْكُ هَـٰذِهِ عِبَادَةٌ ! وَهُوَ ٱلْقَائِلُ لِأَبِي نَصْرٍ ٱلصَّيَّادِ : لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَـٰذَا مَا خَرَجَتِ ٱلسَّمَكَةُ[1] .

فَذَهَبْتُ فَٱشْتَرَيْتُ وَٱنْتَقَيْتُ وَتَخَيَّرْتُ ، ثُمَّ وَضَعْتُ ٱلطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا ، فَرَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مَعَهُ وَمَا رَأَيْتُهُ أَكَلَ مَعَ غَيْرِهِ ، وَرَأَيْتُهُ مُنْبَسِطًا إِلَيْهِ وَمَا لِي عَهْدٌ كَانَ بِٱنْبِسَاطِهِ إِلَىٰ أَحَدٍ . وَقَدْ كُنْتُ أَخْبَرْتُهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلنَّهَارِ بِخَبَرِ أَحْمَدَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ ، عَلِمْتُهُ مِنْ إِدْرِيسَ ٱلْحَدَّادِ : فَإِنَّهُ لَمَّا زَالَتِ ٱلْمِحْنَةُ بَعْدَ أَنْ ضُرِبَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمُعْتَصِمِ وَصُرِفَ إِلَىٰ بَيْتِهِ ، حُمِلَ إِلَيْهِ مَالٌ كَثِيرٌ مِنْ سَرَوَاتِ بَغْدَادَ وَأَهْلِ ٱلْخَيْرِ فِيهَا ، فَرَدَّ جَمِيعَ ذَٰلِكَ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ أَيْسَرِهِ ، وَإِلَى ٱلْأَقَلِّ مِنْ أَيْسَرِهِ ، وَإِلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ أَقَلِّهِ ، فَجَعَلَ عَمُّهُ إِسْحَاقُ يَحْسُبُ مَا وَرَدَ فِي ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ، فَكَانَ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ لَهُ ٱلْإِمَامُ : يَا عَمِّ ! أَرَاكَ مَشْغُولًا بِحِسَابِ مَا لَا يُفِيدُكَ . قَالَ : قَدْ رَدَدْتَ ٱلْيَوْمَ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا وَأَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ حَبَّةٍ مِنْ دَانِقٍ . فَقَالَ ٱلْإِمَامُ : يَا عَمِّ ! لَوْ طَلَبْنَاهُ لَمْ يَأْتِنَا ، وَإِنَّمَا أَتَانَا لَمَّا تَرَكْنَاهُ .

* * *

قَالَ ٱلْمُغَازِلِيُّ : فَنِمْتُ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ وَأَنَا أُفَكِّرُ فِي صَنِيعِ ٱلشَّيْخِ ، وَقَدْ تَعَلَّقَ خَاطِرِي بِهِ : كَيْفَ ٱنْقَلَبَتِ ٱلْحَالُ مَعَهُ ، وَأَيُّ شَيْءٍ هَـٰذِهِ ٱلْحَالُ ؟ وَجَعَلْتُ أَكُدُّ ذِهْنِي لِأَعْرِفَ ٱلْحَقِيقَةَ

(١) مَرَّ هَـٰذَا فِي مَقَالِ «ٱلسَّمَكَةِ» .

ٱلْعَقْلِيَّةَ ٱلَّتِي سَلَّطَتْ عَلَيْهِ هَـٰذِهِ ٱلضَّرُورَةَ فَتَسَلَّطَ ٱلنَّعِيمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ لِلْقَوْمِ عُلُومًا رُوحَانِيَّةً لَيْسَتْ فِي ٱلْكُتُبِ ، فَمِنْهَا مَا لَا يَتَعَلَّمُونَهُ إِلَّا مِنَ ٱلْفَقْرِ ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَعَلَّمُونَهُ إِلَّا مِنَ ٱلْبَلَاءِ ، وَمِنْهَا ، وَمِنْهَا ؛ وَلَـٰكِنْ لَيْسَ مِنْهَا مَا يَتَعَلَّمُونَهُ مِنَ ٱللَّذَّاتِ وَٱلشَّهَوَاتِ ؛ وَذَهَبَ قَلْبِي إِلَىٰ أَوْهَامٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ فِي جَمِيعِهَا طَائِلٌ وَلَا بِهَا مَعْرِفَةٌ ، حَتَّىٰ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ ، وَأَنَا مِنْ وَهَجِ ٱلْفِكْرِ نَائِمٌ كَٱلْمَرِيضِ ، وَقَدْ ثَقُلَ رَأْسِي وَٱخْتَلَطَ فِيهِ مَا يُعْقَلُ بِمَا لَا يُعْقَلُ .

فَرَأَيْتُ أَوَّلَ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا جَبَّارًا يَحْكُمُ مَدِينَةً عَظِيمَةً ، وَقَدْ أَطْلَقَ ٱلْمُنَادِي فِي جَمْعِ كُلِّ أَطْفَالِ مَدِينَتِهِ ، فَجِيءَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ دَارٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ قَدْ جَلَسَ عَلَىٰ سَرِيرِهِ وَفِي يَدِهِ مِقْرَاضٌ عَظِيمٌ ، قَدِ ٱتَّخَذَهُ عَلَىٰ هَيْئَةِ نَصْلَيْنِ عَرِيضَيْنِ لَوْ وُضِعَتْ بَيْنَهُمَا رَقَبَةٌ لَفَصَلَاهَا عَنْ جِسْمِهَا ؛ فَكَانَ هَـٰذَا ٱلْجَبَّارُ يَتَنَاوَلُ ٱلطِّفْلَ مِنْ أُولَـٰئِكَ فَيَضَعُ أَصَابِعَ إِحْدَىٰ قَدَمَيْهِ فِي شِقَّيِ ٱلْمِقْرَاضِ فَيَقْرِضُهَا ، فَإِذَا هِيَ تَتَنَاثَرُ أَسْرَعَ مِمَّا يَقْرِضُ ٱلْمِقَصُّ ٱلْخَيْطَ ، ثُمَّ يَرْمِي بِٱلطِّفْلِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، وَيَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ فَيَبْتُرُ أَصَابِعَهُ ، وَٱلْأَطْفَالُ يَصْرُخُونَ ؛ وَأَنَا أَرَىٰ كُلَّ ذَٰلِكَ وَلَا أَمْلِكُ إِلَّا غَيْظِي عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْجَبَّارِ مِنْ حَيْثُ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُمْضِيَ فِيهِ هَـٰذَا ٱلْغَيْظَ فَأَقْرِضَ عُنُقَهُ بِمِقْرَاضِهِ .

ثُمَّ رَأَيْتُهُ يَأْخُذُ طِفْلًا صَغِيرًا ، فَلَمَّا جَاءَتْ قَدَمُ ٱلطِّفْلِ بَيْنَ شِقَّيِ ٱلْمِقْرَاضِ صَاحَ : يَا رَبِّ ! يَا رَبِّ ! فَإِذَا ٱلْمِقْرَاضُ يَلْتَوِي فَلَا يَصْنَعُ شَيْئًا ، وَكَأَنَّ فِيهِ حَجَرًا صَلْدًا لَا قَدَمًا رَخْصَةً . فَتَمَيَّزَ ٱلْجَبَّارُ مِنَ ٱلْغَيْظِ وَقَالَ : مَنْ هَـٰذَا ٱلطِّفْلُ ؟ فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَهْتِفُ : هَـٰذَا بِشْرٌ ٱلْحَافِي ! لَا يَبْلُغُ تَاجُ مَلِكٍ فِي ٱلْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لِقَدَمِهِ ٱلْحَافِيَةِ نَعْلًا عِنْدَ ٱللهِ !

وَكَانَ إِلَىٰ يَمِينِي رَجُلٌ يَتَضَوَّأُ[1] وَجْهُهُ صَلَاحًا وَتَقْوَىٰ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ هَـٰذَا ٱلطَّاغِيَةُ ؟ وَلِمَ ٱتَّخَذَ ٱلْمِقْرَاضَ لِأَقْدَامِ ٱلْأَطْفَالِ خَاصَّةً ؟

فَقَالَ : يَا حُسَيْنُ ! إِنَّ هَـٰذَا ٱلْجَبَّارَ هُوَ ذُلُّ ٱلْعَيْشِ ، وَهَـٰذَا وَسْمُهُ لِأَهْلِ ٱلْحَيَاةِ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، يُحَقِّقُ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مَعْنَى ٱلْبَهِيمَةِ أَوَّلَ مَا يَدِبُّ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ ذُو حَافِرٍ لَا ذُو قَدَمٍ .

(١) فِي ٱلطَّبْعَةِ ٱلْأُولَىٰ : «يَتَوَضَّأُ» بَدَلًا مِنْ : «يَتَضَوَّأُ» .

قُلْتُ : فَمَا بَالُ هَـٰذَا ٱلطِّفْلِ لَمْ يَعْمَلْ فِيْهِ ٱلْمِقْرَاضُ ؟

قَالَ : إِنَّ للهِ عِبَادًا ٱسْتَخَصَّهُمْ لِنَفْسِهِ ، أَوَّلُ عَلَامَتِهِ فِيْهِمْ أَنَّ ٱلذُّلَّ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ ، وَهُمْ يَجِيْئُوْنَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ لِإِثْبَاتِ ٱلْقُدْرَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ حُكْمِ طَبِيْعَةِ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِيْ هِيَ نَفْسُهَا طَبِيْعَةُ ٱلذُّلِّ ؛ فَإِذَا ٱطَّرَحَ أَحَدُهُمُ ٱلشَّهَوَاتِ وَزَهِدَ فِيْهَا ، وَٱسْتَقَامَ عَلَىٰ ذَلِكَ فِيْ عَقْدِ نِيَّةٍ وَقُوَّةِ إِرَادَةٍ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِٱلزَّاهِدِ كَمَا يَصِفُهُ ٱلنَّاسُ ، وَلَـٰكِنَّهُ رَجُلٌ قَوِيٌّ ٱخْتَارَتْهُ ٱلْقُدْرَةُ لِيَحْمِلَ أَسْلِحَةَ ٱلنَّفْسِ فِيْ مَعَارِكِهَا ٱلطَّاحِنَةِ ، كَمَا يَحْمِلُ ٱلْبَطَلُ ٱلأَرْوَعُ أَسْلِحَةَ ٱلْجِسْمِ فِيْ مَعَارِكِهِ ٱلدَّامِيَةِ : هَـٰذَا يُتَعَلَّمُ مِنْهُ فَنٌّ ، وَذَاكَ يُتَعَلَّمُ مِنْهُ فَنٌّ آخَرُ ، وَكِلَاهُمَا يُرْمَىٰ بِهِ عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ لِإِيْجَادِ ٱلنَّوْعِ ٱلْمُسْتَعِزِّ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، فَأَوَّلُ فَضَائِلِهِ ٱلشُّعُوْرُ بِٱلْقُوَّةِ ، وَآخِرُ فَضَائِلِهِ إِيْجَادُ ٱلْقُوَّةِ .

* * *

قَالَ ٱلْمُغَازِلِيُّ : وَضَرَبَ ٱلنَّوْمُ عَلَىٰ رَأْسِيْ ضَرْبَةً أُخْرَىٰ ، فَإِذَا أَنَا فِيْ أَرْضٍ خَبِيْثَةٍ دَاخِنَةٍ ، قَدِ ٱرْتَفَعَ لَهَا دُخَانٌ كَثِيْفٌ أَسْوَدُ يَتَضَرَّبُ بَعْضُهُ فِيْ بَعْضٍ ، وَجَعَلْتُ أَرَىٰ شُعَلًا حُمْرًا تَذْهَبُ وَتَجِيْءُ كَأَنَّهَا أَجْسَامٌ حَيَّةٌ ، فَوَقَعَ فِيْ وَهْمِيْ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلشَّيَاطِيْنُ : إِبْلِيْسُ وَجُنُوْدُهُ ؛ وَسَمِعْتُ صَارِخًا يَقُوْلُ : يَا بُشْرَىٰ ! فَلْتَبْكِ ٱلسَّمَاءُ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ، لَقَدْ أَكَلَ بِشْرٌ ٱلْحَافِيْ مِنْ أَطْيَبِ ٱلطَّعَامِ وَأَطْيَبِ ٱلْحَلْوَىٰ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَوَىٰ عِنْدَهُ حَجَرُهَا وَمَدَرُهَا ، وَذَهَبُهَا وَفِضَّتُهَا ! فَعَارَضَهُ صَائِحٌ أَسْمَعُ صَوْتَهُ وَلَا أَرَىٰ شَخْصَهُ : وَيْلَكَ يَا زَلَنْبُوْرُ[1] ! إِنَّ هَـٰذَا شَرٌّ عَلَيْنَا مِنْ عَامَّةِ نُسْكِهِ وَعِبَادَتِهِ ؛ فَهَـٰذَا وَيْحَكَ هُوَ ٱلزُّهْدُ ٱلأَعْلَىٰ ٱلَّذِيْ كَانَ لَا يُطِيْقُهُ بِشْرٌ ؛ إِنَّهُ إِعْنَاتٌ سَلَّطَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَإِنِّيْ دَفَعْتُ هَـٰذَا (ٱلْمُغَازِلِيَّ) ٱلأَعْمَىٰ ٱلْقَلْبِ لِيُزَيِّنَ لَهُ مَا فَعَلَ أَحْمَدُ ٱبْنُ حَنْبَلٍ مِنْ رَدِّهِ خَمْسِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ عَلَىٰ حَاجَتِهِ ، زُهْدًا وَوَرَعًا ، وَقُوَّةَ عَزْمٍ ، وَنَفَاذَ إِرَادَةٍ ؛ وَقُلْتُ : عَسَىٰ أَنْ تَتَحَرَّكَ فِيْ نَفْسِهِ شَهْوَةُ ٱلزُّهْدِ فَيَحْسُدَ أَوْ يَغَارَ ، أَوْ تُعْجِبَهُ نَفْسُهُ فَيَكُوْنُ لِيْ مِنْ ذَلِكَ لَمَّةٌ بِقَلْبِهِ فَأُوَسْوِسُ لَهُ ، فَإِنَّا نَأْتِيْ هَـٰؤُلَاءِ مِنْ أَبْوَابِ ٱلثَّوَابِ كَمَا نَأْتِيْ غَيْرَهُمْ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْمَعَاصِيْ ، وَنَتَوَرَّعُ مَعَ أَهْلِ ٱلْوَرَعِ كَمَا نَتَسَخَّفُ مَعَ أَهْلِ ٱلسُّخْفِ ؛ وَلَـٰكِنَّ

(١) هَـٰذَا ٱسْمُ بَعْضِ وَلَدِ إِبْلِيْسَ فِيْمَا يُرْوَىٰ ، وَفِيْ بَعْضِ ٱلنُّسَخِ ٱلَّتِيْ بِأَيْدِيْنَا أَنَّهُ خَنْزَبٌ لَا زَلَنْبُوْرُ . . . . .

ٱلرَّجُلَ رَجُلٌ وَفِيْهِ حَقِيْقَةُ ٱلزَّاهِدِ ، فَقَدْ أُعْطِيَ ٱلْقُوَّةَ عَلَىٰ جَعْلِ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ أَشْخَاصًا حَيَّةً يُعَادِيْهَا وَيُقَاتِلُهَا ، فَإِذَا أَنَا جَعَلْتُ شَهْوَتَهُ فِيْ ٱللَّذَّةِ قَتَلَ ٱللَّذَّةَ ، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِيْ ٱلْكَآبَةِ قَتَلَ ٱلْكَآبَةَ ، وَلَيْسَ ٱلزَّاهِدُ ٱلْعَابِدُ هُوَ ٱلَّذِيْ يَتَقَشَّفُ وَيَتَعَفَّفُ ، وَيَتَخَفَّفُ وَيَتَلَفَّفُ ، فَإِنَّ كَثِيْرًا مَا تَكُوْنُ هَـٰذِهِ هِيَ أَوْصَافَ ٱلذُّلِّ وَٱلْحُمْقِ ، وَيَكُوْنُ لَهَا عَمَلُ ٱلْعِبَادَةِ وَفِيْهَا إِثْمُ ٱلْمَعْصِيَةِ . وَلَـٰكِنَّ ٱلزَّاهِدَ حَقَّ ٱلزَّاهِدِ مَنْ أَدَارَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ عَيْنًا قَدْ تَعَلَّمَتِ ٱلنَّظَرَ بِحَقِّهِ وَٱلإِغْضَاءَ بِحَقِّهِ ؛ فَهَـٰذَا لَا يُخْطِئُ مَعْنَىٰ ٱلشَّرِّ إِنْ لَبَّسْنَاهُ عَلَيْهِ فِيْ صُوْرَةِ ٱلْخَيْرِ ، وَلَا مَعْنَىٰ ٱلْخَيْرِ إِنْ زَوَّرْنَاهُ فِيْ صُوْرَةِ ٱلشَّرِّ ، وَبِذَلِكَ يَضَعُ نَفْسَهُ فِيْ حَيْثُ شَاءَ مِنَ ٱلْمَنْزِلَةِ ، لَا فِيْ حَيْثُ شَاءَتِ ٱلدُّنْيَا أَنْ تَضَعَهُ مِنْ مَنَازِلِهَا ٱلدَّنِيْئَةِ .

وَمَا أَكَلَ بِشْرٌ هَـٰذِهِ ٱلطَّيِّبَاتِ إِلَّا لِيُبَادِرَ بِهَا وَسْوَسَتِيْ وَيَرُدَّنِيْ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ ٱللَّمَّةِ بِقَلْبِهِ ، فَلَوْ أَعْجَبَهُ زُهْدُ ٱبْنِ حَنْبَلٍ وَنَظَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى زُهْدِ نَفْسِهِ لَحَبِطَ أَجْرُهُ ؛ فَبِهَـٰذِهِ ٱلطَّيِّبَاتِ عَالَجَ نَفْسَهُ عِلَاجَ مَرِيْضٍ ، وَقَدْ غَيَّرَ عَلَىٰ جَوْفِهِ طَعَامًا بِطَعَامٍ ، كَمَا يُبَدِّلُ عَلَىٰ جِلْدِهِ ثَوْبًا بِثَوْبٍ ؛ وَلَا شَهْوَةَ لِلْجِلْدِ فِيْ أَحَدِهِمَا .

* * *

قَالَ ٱلْمُغَازِلِيُّ : وَثَقُلَ ٱلنَّوْمُ عَلَيَّ ثَقْلَةً أُخْرَىٰ ، فَرَأَيْتُنِيْ فِيْ وَادٍ عَظِيْمٍ ، وَفِيْ وَسَطِهِ مِثْلُ ٱلطَّوْدِ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ قَدْ رُكِمَ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ ؛ وَرَأَيْتُنِيْ مَعَ بِشْرٍ أَقُصُّ عَلَيْهِ خَبَرَ أَحْمَدَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ ؛ فَقَالَ : ٱنْظُرْ وَيْحَكَ ؛ إِنَّ ٱلنَّاسَ يُسَمُّوْنَهَا خَمْسِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ ، وَهِيَ هُنَا فِيْ وَادِيْ ٱلْحَقَائِقِ خَمْسُوْنَ أَلْفَ حَجَرٍ لَوْ أَصَابَتْ أَحْمَدَ لَقَتَلَتْهُ وَلَكَانَتْ قَبْرَهُ آخِرَ ٱلدَّهْرِ .

إِنَّ ٱلْمَالَ يَا بُنَيَّ هُوَ مَا يَعْمَلُهُ ٱلْمَالُ لَا جَوْهَرُهُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، فَإِذَا كُنْتَ بِمَفَازَةٍ لَيْسَ فِيْهَا مَنْ يَبِيْعُكَ شَيْئًا بِذَهَبِكَ ، فَٱلتُّرَابُ وَٱلذُّهَبُ هُنَاكَ سَوَاءٌ ؛ وَٱلْفَضَائِلُ هِيَ ذَهَبُ ٱلآخِرَةِ ؛ فَهُنَا تُجَدِّدُ بِٱلْمَالِ دُنْيَاكَ ٱلَّتِيْ لَا تَبْقَىٰ أَكْثَرَ مِنْ بَقَائِكَ ، وَهُنَاكَ تُجَدِّدُ بِٱلْفَضَائِلِ نَفْسَكَ ٱلَّتِيْ تَخْلُدُ بِخُلُوْدِهَا .

وَمَعْنَىٰ ٱلْغِنَىٰ مَعْنًىٰ مُلْتَبِسٌ عَلَىٰ ٱلْعُقُوْلِ ٱلآدَمِيَّةِ لِاجْتِمَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ فِيْهِ، فَحِيْنَ يَرُدُّ أَحْمَدُ ٱبْنُ حَنْبَلٍ خَمْسِيْنَ أَلْفًا ، يَكُوْنُ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ قَدْ صَحَّحَ نَفْسَهُ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَمَلِ وَجْهًا مِنَ ٱلتَّصْحِيْحِ .

* * *

قَالَ حُسَيْنٌ ٱلْمُغَازِلِيُّ : وَغَطَّنِيْ ٱلنَّوْمُ فِيْ أَعْمَاقِهِ غَطَّةً أُخْرَىٰ ؛ فَإِذَا أَنَا فِيْ ٱلْمَسْجِدِ فِيْ دَرْسِ ٱلإِمَامِ أَحْمَدَ وَهُوَ يُحَدِّثُ بِحَدِيْثِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ : « إِذَا عَظَّمَتْ أُمَّتِيْ ٱلدِّيْنَارَ وَٱلدِّرْهَمَ ، نُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ ٱلإِسْلَامِ ؛ وَإِذَا تَرَكُوْا ٱلأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوْفِ وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ، حُرِمُوْا بَرَكَةَ ٱلْوَحْيِ » [قَالَ ٱلْحَافِظُ ٱلْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ ٱلإِحْيَاءِ » : رَوَاهُ ٱبْنُ أَبِي ٱلدُّنْيَا فِي كِتَابِ « ٱلأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ » مُعْضَلًا مِنْ حَدِيثِ ٱلْفَضْلِ بْنِ عِيَاضٍ ، قَالَ : ذُكِرَ عَنْ نَبِيِّ ٱللهِ ﷺ] . وَهَمَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِيْ تَفْسِيْرِهِ[1] وَلَـٰكِنَّهُ رَآنِيْ فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ : يَا حُسَيْنُ ! إِذَا ٱجْتَزَأَ شَيْخُكَ بِٱلرَّغِيْفِ فَهَـٰذَا عِنْدَهُ هُوَ قَدْرُ ٱلضَّرُوْرَةِ ؛ فَإِنْ أَكَلَ ٱلطَّيِّبَاتِ فَقَدْ عَرَضَتْ حَالٌ جَعَلَتْ هَـٰذِهِ ٱلطَّيِّبَاتِ عِنْدَهُ هِيَ قَدْرُ ٱلضَّرُوْرَةِ ؛ وَفِيْ هَـٰذِهِ ٱلنُّفُوْسِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ لَا يَكُوْنُ ٱلْجُزْءُ ٱلأَرْضِيُّ إِلَّا مَحْدُوْدًا ، فَلَا يَكُوْنُ مَحْصُوْلُهُ إِلَّا مَا تَرَىٰ مِنْ قَدْرِ ٱلضَّرُوْرَةِ .

وَلَمَّا صَغُرَ ٱلْجُزْءُ ٱلأَرْضِيُّ فِيْ نُفُوْسِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ٱلأَوَّلِيْنَ مَلَكُوْا ٱلأَرْضَ كُلَّهَا بِقُوَّةِ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّمَاوِيِّ فِيْهَا ، إِذْ كَانَتْ إِرَادَتُهُمْ فَوْقَ ٱلأَطْمَاعِ وَٱلشَّهَوَاتِ ، وَكَانَتْ بِذَلِكَ لَا تَذِلُّ وَلَا تَضْعُفُ وَلَا تَنْكَسِرُ ؛ فَٱلآدَمِيَّةُ كُلُّهَا تَنْتَهِيْ إِلَىٰ بَعْضِ صُوَرٍ[2] ، وَهَـٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلَّذِيْنَ مَحَلُّهُمْ فِيْ أَعْلَاهَا .

يَا حُسَيْنُ ! أَلَا وَإِنَّ رَدَّ خَمْسِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ هُوَ كَذَلِكَ قَدْرُ ٱلضَّرُوْرَةِ .

قَالَ حُسَيْنٌ : وَذَهَبْتُ أَعْتَرِضُ عَلَىٰ ٱلإِمَامِ بِمَا كَانَ فِيْ نَفْسِيْ مِنْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْمَالَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَسْبِهِ ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فِيْ يَدِهِ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ ٱلْخَيْرِ ؛ وَأُنْسِيْتُ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلصَّدَقَاتِ هِيَ أَوْسَاخُ ٱلنَّاسِ وَأَقْذَارُ نُفُوْسِهِمْ ؛ فَلَمْ أَكَدْ أَفْتَحُ فَمِيْ حَتَّىٰ رَأَيْتُ ٱلْكَلَامَ يَتَحَوَّلُ طِيْنًا فِيْ فَمِيْ لِيُذَكِّرَنِيْ بِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ؛ وَكِدْتُ أَخْتَنِقُ فَٱنْتَفَضْتُ أَتَنَفَّسُ ، فَطَارَ ٱلنَّوْمُ وَٱلْحُلْمُ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) سَيَأْتِي تَفْسِيرُهُ فِي مَجْلِسٍ آخَرَ مِنْ مَجَالِسِ ٱبْنِ مِسْكِيْنٍ .

(٢) فِي ٱلأَصْلِ : « صُوَرِهِمْ » بَدَلًا مِنْ : « صُوَرٍ » .

إِبْلِيْسُ يُعَلِّمُ . . . (*) (١)

٣

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِيْنٍ : وَدَارَ ٱلسَّبْتُ ٱلثَّالِثُ ، وَجَلَسْتُ مَجْلِسِيْ لِلنَّاسِ وَقَدِ ٱنْتَظَمَتْ حَلَقَتُهُمْ ؛ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ عُرْضِ ٱلْمَجْلِسِ فَقَالَ : إِنَّ ٱلْحَسَنَ بْنَ شُجَاعٍ ٱلْبَلْخِيَّ تِلْمِيْذَ ٱلإِمَامِ أَحْمَدَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ[2] ، كَانَ مُنْذُ قَرِيْبٍ يُحَدِّثُنَا بِأَحَادِيْثَ عَنِ ٱلشَّيْطَانِ ، حَفِظْنَا مِنْهَا قَوْلَهُ ﷺ : « إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يُنْضِيْ شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِيْ أَحَدُكُمْ بَعِيْرَهُ فِيْ سَفَرِهِ » [« المسند » ، رقم : ٨٧١٧] . وَكَانَ ٱلْحَسَنُ يَقُوْلُ فِيْ تَأْوِيْلِهِ : إِنَّ شَيْطَانَ ٱلْكَافِرِ دَهِيْنٌ سَمِيْنٌ كَاسٍ ، وَشَيْطَانُ ٱلْمُؤْمِنِ مَهْزُوْلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ عَارٍ . فَهَلْ يَأْكُلُ ٱلشَّيْطَانُ وَيَدَّهِنُ وَيَلْبَسُ لِيَكُوْنَ لَهُ أَنْ يَجُوْعَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِ وَيَعْرَىٰ وَيَتَشَعَّثَ وَيَغْبَرَّ ؟

قَالَ ٱبْنُ مِسْكِيْنٍ : فَقُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ ! مَا أَرَىٰ ٱلسَّائِلَ إِلَّا شَيْطَانَ هَـٰذَا ٱلسَّائِلِ ؛ فَإِنَّ إِبْلِيْسَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْخَرَ مِنَ ٱلْعَالِمِ وَيُسْمِعَهُ طَنْزَهُ وَتَهَكُّمَهُ[3] ، حَرَّكَ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْهُ مَا هُوَ وَكَيْفَ هُوَ ؛ كَأَنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ : تَنَبَّهْ وَيْحَكَ عَلَىٰ مَعْنَايَ ، فَأَنْتَ تَتَكَلَّمُ وَأَنَا أَعْمَلُ ، وَأَنْتَ صُوْرَةٌ مِنَ ٱلرَّدِّ عَلَيَّ ، وَلَـٰكِنِّيْ حَقِيْقَةٌ مِنَ ٱلرَّدِّ عَلَيْكَ ، وَمَا أَنْتَ فِيْ مُحَارَبَتِكَ لِيْ بِٱلْوَعْظِ إِلَّا كَٱلَّذِيْ يُرِيْدُ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَ عَدُوِّهِ بِمِئَةِ ٱسْمٍ وُضِعَتْ لِلسَّيْفِ . . .

قَالَ : وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ خَبَرًا عَجِيْبًا عَنْ أَبِيْ عَامِرٍ قَبِيْصَةَ بْنِ عُقْبَةَ ٱلْكُوْفِيِّ ٱلْمُحَدِّثِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٣٩ ، ٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢ مارس/ آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٣٣٣ ـ ٣٣٥ .

(١) دَاعَبَنَا إِبْلِيْسُ (لَعَنَهُ ٱللهُ) مُدَاعَبَةً ثَقِيْلَةً فِيْ كِتَابَةِ هَـٰذَا ٱلْمَقَالِ ، وَسَنَقْتَصُّ لِلْقُرَّاءِ حِكَايَتَهُ فِيْ مَقَالَةِ : (دُعَابَةِ إِبْلِيْسٍ) .

(٢) تُوُفِّيَ ٱبْنُ شُجَاعٍ هَـٰذَا سَنَةَ ٢٤٤هـ ، وَكَانَ مِنْ حُفَّاظِ (بَلْخٍ) .

(٣) ٱلطَّنْزُ : ٱلتَّهَزُّؤُ وَٱلتَّهَكُّمُ : وَلَعَلَّ مِنْهُ كَلِمَةَ (طَظْ) عِنْدَ ٱلْعَامَّةِ .

ٱلْحَافِظِ ٱلثِّقَةِ أَحَدِ شُيُوخِ أَحْمَدَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ[١] ؛ وَهُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلصَّالِحُ ٱلْعَابِدُ ٱلَّذِي كَانَ يُقَالُ لَهُ : (رَاهِبُ ٱلْكُوفَةِ) ؛ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَٱحْتِبَاسِ نَفْسِهِ فِي دَاخِلِهِ كَأَنَّمَا جَسَدُهُ جِدَارٌ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ ٱلدُّنْيَا ، فَقُلْتُ : وَٱللهِ لَأُغِيظَنَّ ٱلشَّيْطَانَ بِهَـٰذَا ٱلْخَبَرِ ، فَإِنَّ أَسْمَاءَ ٱلزُّهَّادِ وَٱلْعُبَّادِ وَٱلصَّالِحِينَ هِيَ فِي تَارِيخِ ٱلشَّيَاطِينِ كَأَسْمَاءِ ٱلْمَوَاقِعِ ٱلَّتِي تَنْهَزِمُ فِيهَا ٱلْجُيُوشُ ، وَمَا ٱلرَّجُلُ ٱلْعَابِدُ إِلَّا صَاحِبُ ٱلْغَمَرَاتِ مَعَ ٱلشَّيْطَانِ ، وَكَأَنَّهُ يَحْتَمِلُ ٱلْمَكَارِهَ عَنْ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ بَلْ عَنِ ٱلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا حَيْثُ كَانَتْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، فَٱلنَّاسُ يَحْسَبُونَهُ قَدْ تَخَلَّىٰ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَيَظُنُّونَ ٱلتَّرْكَ أَيْسَرَ شَيْءٍ ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ ٱلزُّهْدَ لَا يَسْتَقِيمُ لِلزَّاهِدِ حَتَّىٰ يَجْعَلَ جِسْمَهُ كَأَنَّهُ فِي نِظَامٍ آخَرَ غَيْرِ نِظَامِ أَعْضَائِهِ ؛ وَلَا أَشَقَّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى ٱلنَّفْسِ . وَمُعْجِزَةُ ٱلزَّاهِدِ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ أَنْ يُخْرِجَ لِلنَّاسِ أَقْوَى ٱلْقُوَّةِ مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ أَضْعَفُ ٱلضَّعْفِ ؛ وَلَوْ أَنَّ مَلِكًا عَظِيمًا تَعِبَ فِي جَمْعِ ٱلدُّنْيَا وَفَتْحِ ٱلْمَمَالِكِ حَتَّىٰ حِيزَتْ لَهُ جَوَانِبُ ٱلْأَرْضِ ، لَكَانَ عَمَلُهُ هَـٰذَا هُوَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ لِتَعَبِ ٱلزَّاهِدِ فِي مُجَاهَدَةِ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَتَرْكِهَا .

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَقَصَصْتُ عَلَيْهِمُ ٱلْقِصَّةَ فَقُلْتُ : كَانَ أَبُو عَامِرٍ قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ كَثِيرَ ٱلْفِكْرِ فِي ٱلشَّيْطَانِ ، يَوَدُّ لَوْ رَآهُ وَنَاقَلَهُ ٱلْكَلَامَ ؛ وَكَانَ يَتَدَبَّرُ ٱلْأَحَادِيثَ ٱلَّتِي صَحَّ وُرُودُهَا فِيهِ ، وَيُفَسِّرُ مَعْنَى ٱلشَّيْطَانِ بِأَنَّهُ ٱلرُّوحُ ٱلْحَيُّ لِلْخَطَإِ عَلَى ٱلْأَرْضِ ؛ وَٱلْخَطَأُ يَكُونُ صَوَابًا مُحَوَّلًا عَنْ طَرِيقَتِهِ وَجِهَتِهِ ، وَلِهَـٰذَا كَانَ إِبْلِيسُ فِي ٱلْأَصْلِ مَلَكًا مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ وَتَحَوَّلَ عَنْ طَبِيعَتِهِ حِينَ خُلِقَ آدَمُ (عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) ، أَيْ وُجِدَ فِي ٱلْكَوْنِ رُوحُ ٱلْخَطَإِ حِينَ وُجِدَ فِيهِ ٱلرُّوحُ ٱلَّذِي سَيُخْطِئُ .

فَلَمَّا هَبَطَ آدَمُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ وَحُرِمَهَا هُوَ وَزَوْجُهُ وَذُرِّيَّتُهُ ، كَانَ إِبْلِيسُ (لَعَنَهُ ٱللهُ) هُوَ مَعْنَى بَقَاءِ هَـٰذَا ٱلْحِرْمَانِ وَٱسْتِمْرَارِهِ عَلَى ٱلدَّهْرِ ، فَكَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْآدَمِيَّةَ أُخْرِجَتْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ، وَأُخْرِجَتْ مَعَهَا قُوَّةٌ لَا تَزَالُ تَصُدُّهَا عَنْهَا ، لِيَضْطَرِبَا فِي ٱلْكِفَاحِ مَلِيًّا مِنْ زَمَنٍ هُوَ عُمْرُ كُلِّ إِنْسَانٍ ، وَهَـٰذَا هُوَ ٱلْعَدْلُ ٱلْإِلَـٰهِيُّ : لَمْ يَعْرِفْ آدَمُ حَقَّ ٱلْجَنَّةِ ، فَعُوقِبَ أَلَّا يَأْخُذَهَا إِلَّا

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢١٥هـ .

بِحَقِّهَا ، وَأَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱلْخَيْرِ قُوَّةَ ٱلشَّرِّ .

وَبَاتَ أَبُو عَامِرٍ ذَاتَ لَيْلَةٍ يُفَكِّرُ فِي هَـٰذَا وَنَحْوِهِ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَقِرَاءَتِهِ ، ثُمَّ هَوَّمَ فَكَانَ بَيْنَ ٱلْيَقَظَةِ وَٱلنَّوْمِ ، وَذَلِكَ حِينَ تَكُونُ ٱلْعَيْنُ نَائِمَةً وَٱلْعَقْلُ لَا يَزَالُ مُنْتَبِهًا ، فَكَأَنَّ ٱلْعَيْنَ مُتَرَاجِعَةٌ تُبْصِرُ مِنْ تَحْتِ أَجْفَانِهَا بَصَرًا يُشَارِكُهَا فِيهِ ٱلْعَقْلُ .

فَرَأَى شَيْخُنَا أَبُو عَامِرٍ صُورَةَ إِبْلِيسَ جَاءَهُ فِي زِيِّ رَجُلٍ زَاهِدٍ ، حَسَنِ ٱلسَّمْتِ ، طَيِّبِ ٱلرِّيحِ ، نَظِيفِ ٱلْهَيْئَةِ ، وَكَادَ يُشَبَّهُ عَلَيْهِ لَوْلَا أَنَّهُ قَدْ عَرَفَهُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، فَإِنَّ عَيْنَيِ ٱلْكَاذِبِ تَصْدُقَانِ عَنْهُ ، وَقَدْ عَلِمَ ٱللهُ أَنَّ ٱلْكَاذِبَ آدَمِيٌّ قَفْرٌ كَٱلْمَتَاهَةِ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، فَجَعَلَ عَيْنَيْهِ كَٱلْعَلَامَاتِ لِمَنْ خَاضَ ٱلْفَلَاةَ .

وَظَهَرَ ٱلشَّيْطَانُ زَاهِدًا عَابِدًا تَقِيًّا نَقِيًّا كَأَنَّهُ دِينٌ صَحِيحٌ خُلِقَ بَشَرًا ، فَصَرَخَ فِيهِ أَبُو عَامِرٍ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ ! أَمَعْصِيَةٌ فِي ثَوْبِ ٱلطَّاعَةِ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! لَوْ لَمْ تَقُلِ ٱلْمَعْصِيَةُ إِنَّهَا طَاعَةٌ لَمْ يُقَارِفْهَا أَحَدٌ . وَهَلْ خُلِقَتِ ٱلشَّهَوَاتُ فِي نَفْسِ ٱلْإِنْسَانِ وَغَرِيزَتِهِ إِلَّا لِتَقْرِيبِ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَاصِي مِنَ ٱلنَّفْسِ ، وَجَعْلِ كُلٍّ مِنْهَا طَاعَةً لِشَيْءٍ مَا ؛ فَتَقَعُ ٱلْمَعْصِيَةُ بِأَنَّهَا طَاعَةٌ لَا بِأَنَّهَا مَعْصِيَةٌ ؟ أَوَلَا تَرَى يَا أَبَا عَامِرٍ أَنَّ ٱلْحِيلَةَ مُحْكَمَةٌ فِي ٱلدَّاخِلِ مِنَ ٱلْجِسْمِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي ٱلْخَارِجِ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَـٰذَا ٱلْبَاطِنَ بِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهَـٰذَا ٱلْعَمَلِ لَمَا كَانَ لِظَاهِرِ ٱلْوُجُودِ كُلِّهِ فِي ٱلْإِنْسَانِ مَعْنًى وَلَا عَمَلٌ ؟

قَالَ ٱلشَّيْخُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ ! فَمَا أَرَى ٱلْمَوْتَ قَدْ خُلِقَ إِلَّا رَدًّا عَلَيْكَ أَنْتَ ، لِيَتَبَيَّنَ ٱلنَّاسُ أَنَّكَ ٱلْمُمْتَلِئُ ٱلْمُمْتَلِئُ ، وَلَـٰكِنَّكَ ٱلْفَارِغُ ٱلْفَارِغُ ؛ بَلْ كُلُّ شَهَوَاتِكَ سُخْرِيَةٌ مِنْكَ وَرَدٌّ عَلَيْكَ ، فَلَا طَعْمَ لِلَذَّةٍ مِنْ لَذَّاتِكَ إِلَّا وَهِيَ تَمُوتُ ، وَإِنَّمَا تَمَامُ وُجُودِهَا سَاعَةَ تَنْقَضِي ؛ وَمَتَى قَالَتِ ٱللَّذَّةُ : قَدِ ٱنْتَهَيْتُ . فَقَدْ وَصَفَتْ نَفْسَهَا أَبْلَغَ ٱلْوَصْفِ .

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! وَلَـٰكِنَّ ٱللَّذَّةَ لَا تَمُوتُ حَتَّى تَلِدَ مَا يُبْقِيهَا حَيَّةً ، فَهِيَ تَلِدُ ٱلْحَنِينَ إِلَيْهَا ، وَهُوَ لَا يَسْكُنُ حَتَّى يَعُودَ لَذَّةً تَنْقَضِي وَتَلِدُ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : مَعَانِي ٱلتُّرَابِ ، مَعَانِي ٱلتُّرَابِ ؛ كُلُّ نَبْتَةٍ فِيهَا بِذْرَتُهَا ، وَلَـٰكِنْ (عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ) لِمَاذَا جِئْتَنِي فِي هَـٰذِهِ ٱلصُّورَةِ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : لِأَنِّي لَا أَلْبَسُ إِلَّا مَحَبَّةَ ٱلْقَلْبِ ٱلآدَمِيِّ ، وَلَوْلَا ذَٰلِكَ لَطَرَدَتْنِي ٱلْقُلُوبُ كُلُّهَا وَبَطَلَ عَمَلِي فِيهَا ، وَهَلْ عَمَلِي إِلَّا ٱلتَّلْبِيسُ وَٱلتَّزْوِيرُ ؟ أَفَتَدْرِي يَا أَبَا عَامِرٍ أَنِّي لَا أَعْتَرِي ٱلْحَيْوَانَ قَطُّ ؟

قَالَ ٱلشَّيْخُ : لِأَنَّ ٱلْحَيْوَانَ لَا يَنْظُرُ إِلَى ٱلشَّيْءِ إِلَّا نَظْرَةً وَاحِدَةً ، هِيَ نَظَرُهُ وَفَهْمُهُ مَعًا ، فَلَا مَحَلَّ لِلتَّزْوِيرِ مَعَ هَـٰذِهِ ٱلنَّظْرَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ؛ وَصَدَقَ ٱللهُ ٱلْعَظِيمُ : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [٢٦ سورة الشعراء/الآيتان : ٢٢١ و٢٢٢] . فَأَنْتَ أَيُّهَا ٱلشَّيْطَانُ ٱلتَّزْوِيرُ ، وَٱلتَّزْوِيرُ مَوْضِعُهُ ٱلْكَذِبُ ؛ فَمَنْ لَمْ يَكْذِبْ فِي ٱلْفِكْرِ وَلَا فِي ٱلنَّظَرِ وَلَا فِي ٱلْفَهْمِ وَلَا فِي ٱلرَّجَاءِ ، فَلَيْسَ لَكَ عِنْدَهُ عَمَلٌ .

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! وَهَلْ تَرَى (رَحِمَكَ ٱللهُ) أَعْجَبَ وَأَغْرَبَ وَأَدْعَىٰ إِلَى ٱلْهُزْءِ وَٱلسُّخْرِيَةِ مِنْ أَنَّ أَعْظَمَ ٱلْعُقَلَاءِ ٱلزُّهَّادِ ٱلْعُبَّادِ ، هُوَ فِي جُمْلَةِ مَعَانِيهِ حَيَوَانٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا نَظْرَةٌ وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟

قَالَ ٱلشَّيْخُ : عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ . . . ؛ إِنَّ ٱلْحَيْوَانَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، فَهُوَ طَبِيعَةٌ مُسَخَّرَةٌ بِنِظَامِهَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْإِنْسَانَ أَشْيَاءُ مُتَنَاقِضَةٌ بِطَبِيعَتِهَا ، فَٱلْأُلُوهِيَّةُ أَنْ يُقِرَّ ٱلنِّظَامَ بَيْنَ هَـٰذِهِ ٱلْمُتَنَاقِضَاتِ ، كَأَنَّمَا ٱمْتُحِنَ فَأُعْطِيَ مِنْ جِسْمِهِ كَوْنًا فِيهِ عَنَاصِرُ ٱلاضْطِرَابِ ، وَحَوْلَهُ عَنَاصِرُ ٱلاضْطِرَابِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ دَبِّرْهُ .

فَضَحِكَ إِبْلِيسُ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : مِمَّ ضَحِكْتَ لَعَنَكَ ٱللهُ ؟

قَالَ : ضَحِكْتُ مِنْ أَنَّكَ أَعْلَمْتَنِي حَقِيقَةَ ٱلْإِبْلِيسِيَّةِ ، فَٱلزُّهَّادُ هُمُ ٱلصَّالِحُونَ لِأَنْ يَكُونُوا أَعْظَمَ ٱلْأَبَالِسَةِ . . .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ ؛ فَمَا هِيَ تِلْكَ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي زَعَمْتَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : وَٱللهِ يَا أَبَا عَامِرٍ ، مَا غَلَا إِنْسَانٌ فِي زَعْمِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱلْفَضِيلَةِ إِلَّا كَانَتْ هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْإِبْلِيسِيَّةَ ؛ وَسَأُعَلِّمُكَ يَا أَبَا عَامِرٍ حَقِيقَةَ ٱلزُّهْدِ وَٱلْعِبَادَةِ . فَلَا تَقُلْ إِنَّهَا أُلُوهِيَّةٌ تُقِرُّ ٱلنِّظَامَ بَيْنَ مُتَنَاقِضَاتِ ٱلْإِنْسَانِ وَمُتَنَاقِضَاتِ ٱلطَّبِيعَةِ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَتَسْخَرُ مِنِّي لَعَنَكَ ٱللهُ ؟ فَمَتَىٰ كُنْتَ تَعْلَمُ ٱلْحَقِيقَةَ وَٱلْفَضِيلَةَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : أَوَلَمْ أَكُنْ شَيْخَ ٱلْمَلَائِكَةِ ؟ فَمَنْ أَجْدَرُ مِنْ شَيْخِ ٱلْمَلَائِكَةِ أَنْ يَكُونَ عَالِمَهَا وَمُعَلِّمَهَا ؟

قَالَ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ ؛ فَمَا هِيَ حَقِيقَةُ ٱلزُّهْدِ وَٱلْعِبَادَةِ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : حَقِيقَتُهَا يَا أَبَا عَامِرٍ ، هِيَ ٱلَّتِي أَعْجَزَتْنِي فِي نَبِيِّكُمْ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : ﷺ ؛ فَمَا هِيَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : هِيَ ثَلَاثٌ بِهَا نِظَامُ ٱلنَّفْسِ ، وَنِظَامُ ٱلْعَالَمِ ، وَنِظَامُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلشَّهَوَاتِ : أَنْ تَكُونَ لَكَ تَقْوَىٰ ، ثُمَّ يَكُونَ لَكَ فِكْرٌ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلتَّقْوَىٰ ، ثُمَّ يَكُونَ لَكَ نَظَرٌ إِلَى ٱلْعَالَمِ مِنْ هَـٰذَا ٱلْفِكْرِ . مَا ٱجْتَمَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثُ فِي إِنْسَانٍ إِلَّا قَهَرَ ٱلدُّنْيَا وَقَهَرَ إِبْلِيسَ .

فَإِنْ كَانَتِ ٱلتَّقْوَىٰ وَحْدَهَا ـ كَتَقْوَىٰ أَكْثَرِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهْبَانِ ـ فَمَا أَيْسَرَ أَنْ أَجْعَلَ ٱلنَّظَرَ مِنْهَا نَظَرَ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلْبَلَادَةِ وَٱلْفَضَائِلِ ٱلْكَاذِبَةِ ، وَإِنْ كَانَ ٱلْفِكْرُ وَحْدَهُ ـ كَفِكْرِ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ ـ فَمَا أَهْوَنَ أَنْ أَجْعَلَ ٱلنَّظَرَ بِهِ نَظَرَ ٱلزَّيْغِ وَٱلْإِلْحَادِ وَٱلْبَهِيمِيَّةِ وَٱلرَّذَائِلِ ٱلصَّرِيحَةِ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : صَدَقَ ٱللهُ ٱلْعَظِيمُ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآية : ٢٠١] .

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! مَا يَضُرُّنِي وَٱللهِ أَنْ أُفَسِّرَ لَكَ ، فَإِنَّ قَارُورَةً مِنَ ٱلصِّبْغِ لَا تَصْبُغُ ٱلْبَحْرَ ، وَأَنَا أَعُدُّ ٱلزُّهَّادَ وَٱلْعُلَمَاءَ ٱلْمُصْلِحِينَ فَأَضَعُ فِي ٱلنَّاسِ بِجَانِبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِئَةَ أَلْفِ ٱمْرَأَةٍ مَفْتُونَةٍ ، وَمِئَةَ أَلْفِ رَجُلٍ فَاسِقٍ ، وَمِئَةَ أَلْفِ مَخْلُوقٍ ظَالِمٍ ، فَلَوْ أَنَّكَ صَبَغْتَ ٱلْبَحْرَ بِمِلْءِ قَارُورَةٍ حَمْرَاءَ لَمَا صَبَغْتَ ٱلْبَحْرَ ٱلْإِنْسَانِيَّ بِٱلزَّاهِدِ وَٱلْمُصْلِحِ ، مَا دَامَ ٱلْمُصْلِحُ شَيْئًا غَيْرَ ٱلسَّيْفِ ، وَمَا دَامَ ٱلزَّاهِدُ شَيْئًا غَيْرَ ٱلْحَاكِمِ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : لَعَنَكَ ٱللهُ مِنْ شَيْطَانٍ عَارِمٍ ، فَإِذَا وَضَعْتَ ٱلْمُصْلِحَ بَيْنَ مِئَةِ أَلْفِ فَاسِدٍ ، فَهَلْ هَـٰذِهِ إِلَّا طَرِيقَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ لِإِفْسَادِهِ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : وَمِئَةُ أَلْفِ ٱمْرَأَةٍ فَتَّانَةٍ مَفْتُونَةٍ يَا أَبَا عَامِرٍ ، كُلُّ وَاحِدَةٍ تَحْسَبُ جِسْمَهَا . . .

فَصَرَخَ ٱلشَّيْخُ : ٱغْرُبْ عَنِّي عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ !

قَالَ إِبْلِيسُ : وَلَـٰكِنَّ ٱلْآيَةَ ٱلْآيَةَ يَا أَبَا عَامِرٍ . لَقَدْ لَقِيتُ ٱلْمَسِيحَ وَجَرَّبْتُهُ وَهُوَ كَانَ تَفْسِيرَهَا .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ! وَعَلَيْكَ أَنْتَ لَعْنَةُ ٱللهِ ! فَكَيْفَ قَالَ ؟ وَكَيْفَ صَنَعَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : أَلْقَيْتُ بِهِ جَائِعًا فِي ٱلصَّحْرَاءِ لَا يَجِدُ مَا يَطْعَمُهُ ، وَلَا يَظُنُّ أَنَّهُ يَجِدُ ، وَلَا يَرْجُو أَنَّهُ يَظُنُّ ؛ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : إِنْ كُنْتَ رُوحَ ٱللهِ وَكَلِمَتَهُ كَمَا تَزْعُمُ ، فَمُرْ هَـٰذَا ٱلْحَجَرَ يَنْقَلِبْ خُبْزًا . فَكَانَ تَقِيًّا ، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ ، فَقَالَ : لَيْسَ بِٱلْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا ٱلْإِنْسَانُ . فَمِثْلُ هَـٰذَا لَوْ مَاتَ جُوعًا لَمْ يَتَحَوَّلْ ، لِأَنَّ ٱلْمَوْتَ إِتْمَامُ حَقِيقَتِهِ ٱلسَّامِيَةِ فَوْقَ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَوْ مُلِئَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا خُبْزًا وَهُوَ جَائِعٌ لَمْ يَتَحَوَّلْ ، لِأَنَّ لَهُ بَصَرًا مِنْ فَوْقِ ٱلْخُبْزِ إِلَىٰ حَقِيقَتِهِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ ؛ فَلَيْسَ بِٱلْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا ؛ بَلْ بِمَعَانٍ أُخْرَىٰ هِيَ إِشْبَاعُ حَقِيقَتِهِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ ٱلَّتِي لَا شَهْوَةَ لَهَا .

ثُمَّ ٱرْتَقَيْتُ بِهِ إِلَىٰ ذِرْوَةِ جَبَلٍ وَأَرَيْتُهُ مَمَالِكَ ٱلْخَافِقَيْنِ ، كَشَفْتُهَا كُلَّهَا لِعَيْنَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ : هَـٰذَا كُلُّهُ لَكَ إِذَا أَنْتَ سَجَدْتَ لِي . فَكَانَ مُتَّقِيًا ، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ : أَبْصَرَ حَقِيقَةَ ٱلْخَيَالِ ٱلَّذِي جَسَّمْتُهُ لَهُ ، وَعَلِمَ أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ يُعْطِي مِثْلَ مَعَانِي هَـٰذِهِ ٱلْمَمَالِكِ فِي جَرْعَةِ خَمْرٍ ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي سَاعَةِ لَذَّةٍ ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي شِفَاءِ غَيْظٍ بِٱلْقَتْلِ وَٱلْأَذَىٰ ؛ ثُمَّ لَا يَبْقَىٰ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَاقٍ غَيْرُ ٱلْإِثْمِ ، وَلَا يَصِحُّ مِنْهُ صَحِيحٌ إِلَّا ٱلْحَرَامُ . وَمَنْ مَلَكَ ٱلدُّنْيَا نَفْسَهَا لَمْ يَبْقَ لَهَا إِذَا بَقِيَتْ لَهُ ، فَهِيَ خَيَالٌ فِي جَرْعَةِ ٱلْحَيَاةِ ، كَمَا هِيَ خَيَالٌ فِي جَرْعَةِ ٱلْخَمْرِ .

يَا أَبَا عَامِرٍ ! إِنَّ هَـٰذَا ٱلنَّظَرَ ، ٱلَّذِي وَرَاءَهُ ٱلتَّذَكُّرُ ، ٱلَّذِي وَرَاءَهُ ٱلتَّقْوَىٰ ، ٱلَّتِي وَرَاءَهَا ٱللهُ ـ هَـٰذَا وَحْدَهُ هُوَ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي تَتَنَاوَلُ شَهَوَاتِ ٱلدُّنْيَا فَتُصَفِّيهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ حَتَّىٰ تَعُودَ بِهَا إِلَىٰ حَقَائِقِهَا ٱلتُّرَابِيَّةِ ٱلصَّغِيرَةِ ٱلَّتِي آخِرُهَا ٱلْقَبْرُ ، وَآخِرُ وُجُودِهَا ٱلتَّلَاشِي .

فَٱلْبَصَرُ ٱلْكَاشِفُ ٱلَّذِي يُجَرِّدُ ٱلْأَشْيَاءَ مِنْ سِحْرِهَا ٱلْوَهْمِيِّ ، هَـٰذَا هُوَ كُلُّ ٱلسِّرِّ .

* * *

قَالَ ٱلشَّيْخُ : لَعَنَكَ ٱللهُ ! فَكَيْفَ مَعَ هَـٰذَا تَفْتِنُ ٱلْمُؤْمِنَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! هَـٰذَا سُؤَالٌ شَيْطَانِيٌّ . . . تُرِيدُ ـ وَيْحَكَ ـ أَنْ تَحْتَالَ عَلَىٰ

ٱلشَّيْطَانِ ؟ وَلَـٰكِنْ مَا يَضُرُّنِي أَنْ أُفَسِّرَهَا لَكَ .

لَيْسَ ٱلْإِيمَانُ هُوَ ٱلِٱعْتِقَادَ وَلَا ٱلْعَمَلَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ هَـٰذَيْنِ لَمَا شَقَّ عَلَىٰ أَحَدٍ وَلَصَلُحَتِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلُهَا ؛ إِنَّمَا ٱلْإِيمَانُ وَضْعُ يَقِينٍ خَفِيٍّ يَكُونُ مَعَ ٱلْغَرِيزَةِ فِي مَقَرِّهَا ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ فِي مَقَرِّهَا لِتَصْدُرَ عَنْهُ أَعْمَالُ ٱلْغَرِيزَةِ ؛ وَهَـٰذَا ٱلْيَقِينُ لَا يَصْلُحُ كَذَٰلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ يَقِينًا ثَابِتًا بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ ٱلدُّنْيَا ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ فَيَتَذَكَّرُ فَيُبْصِرُ . هُنَاكَ مِيرَاثٌ مِنَ ٱلْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِ ، فَٱلْيَقِينُ بِهَـٰذَا ٱلْمِيرَاثِ هُوَ سِرُّ ٱلْإِيمَانِ .

وَٱلْعَمَلُ ٱلشَّيْطَانِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي إِفْسَادِ هَـٰذَا ٱلْيَقِينِ وَمُعَارَضَةِ ٱلْخَيَالِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِي فِيهِ بِٱلْحَقَائِقِ ٱلصَّغِيرَةِ ٱلَّتِي تَظْهَرُ لِلْمُغَفَّلِ عَظِيمَةً ، كَمَا تُشَبُّ نَارٌ أَكْبَرُ مِنْ قُرْصِ ٱلشَّمْسِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَبْلَهِ : ٱنْظُرْ بِعَيْنَيْكَ . فَيُصَدِّقُ أَنَّهَا أَكْبَرُ مِنَ ٱلشَّمْسِ .

وَمَتَىٰ صَغُرَ هَـٰذَا ٱلْيَقِينُ وَكَانَتِ ٱلْحَقَائِقُ ٱلدُّنْيَوِيَّةُ أَكْبَرَ مِنْهُ فِي ٱلنَّفْسِ ، فَأَيْسَرُ أَسْبَابِ ٱلْحَيَاةِ حِينَئِذٍ يُفْسِدُ ٱلْمُعْتَقَدَ وَيُسْقِطُ ٱلْفَضِيلَةَ ؛ وَبِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ يُوجَدُ ٱللِّصُّ حِينَئِذٍ .

أَمَّا إِذَا ثَبَتَ ٱلْيَقِينُ فَٱلشَّيْطَانُ مَعَ ٱلْإِنْسَانِ يَصْغُرُ ثُمَّ يَصْغُرُ ، وَيَعْجَزُ ثُمَّ يَعْجَزُ ، حَتَّىٰ لَيَرْجِعُ مِثْلَ ٱلدِّرْهَمِ إِذَا طَمِعَ ٱلطَّامِعُ أَنْ يَجْعَلَ ٱلرَّجُلَ ٱلْغَنِيَّ ٱلْكَثِيرَ ٱلْمَالِ لِصًّا مِنَ ٱللُّصُوصِ بِهَـٰذَا ٱلدِّرْهَمِ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : لَعَنَكَ ٱللهُ! فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ إِفْسَادَ هَـٰذَا ٱلْيَقِينِ فَكَيْفَ تَصْنَعُ فِي فِتْنَةِ ٱلْمُؤْمِنِ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ إِفْسَادَ ٱلْيَقِينِ زِدْتُهُ يَقِينًا فَيَفْسُدُ ، وَٱسْتِحْسَانُ ٱلرَّجُلِ لِأَعْمَالِهِ ٱلسَّامِيَةِ قَدْ يَكُونُ هُوَ أَوَّلَ أَعْمَالِهِ ٱلسَّافِلَةِ ؛ وَبِأَيِّ عَجِيبٍ يَكُونُ ٱلشَّيْطَانُ شَيْطَانًا إِلَّا بِمِثْلِ هَـٰذَا ؟

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَغَضِبَ ٱلشَّيْخُ ، فَمَدَّ يَدَهُ فَأَخَذَ فِيهَا عُنُقَ إِبْلِيسَ وَقَدْ رَآهُ دَقِيقًا ، ثُمَّ عَصَرَهُ عَصْرًا شَدِيدًا يُرِيدُ خَنْقَهُ ؛ فَقَهْقَهَ ٱلشَّيْطَانُ سَاخِرًا مِنْهُ . وَيَتَنَبَّهُ ٱلشَّيْخُ ، فَإِذَا هُوَ يَشُدُّ بِيَدِهِ ٱلْيُمْنَىٰ عَلَىٰ يَدِهِ ٱلْيُسْرَىٰ . . . .

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

ٱلدِّينَارُ وَٱلدِّرْهَمُ (*)
٤

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِيْنٍ : وَأَزِفَ تَرَحُّلِي عَنْ (بَلْخٍ) ، وَتَهَيَّأْتُ لِلْخُرُوْجِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مُدَّةِ مَقِيْلِي بِهَا إِلَّا أَيَّامٌ يَجِيْءُ فِيهَا ٱلسَّبْتُ ٱلرَّابِعُ ، وَكَانَ[1] قَدْ وَقَعَتْ مُمَارَاةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مُفْتِي (بَلْخٍ) أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ ٱلْبَاهِلِيِّ[2] تِلْمِيْذِ أَبِي يُوْسُفَ صَاحِبِ ٱلإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَحِيْحٌ عَلَى ٱلْمَالِ ، وَأَنَّهُ يَتَغَلَّلُهُ مِنْ مُسْتَغَلَّاتٍ كَثِيْرَةٍ[3] ، فَكَأَنَّمَا غَشِيَتْهُ غَمَامَتِي ، فَهُوَ لَا يَرَى أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي ٱلزُّهْدِ ، وَيَحْسَبُ هَـٰذَا ٱلزُّهْدَ تَمَاوُتَ ٱلْعُبَّادِ ، وَنَفْضَ ٱلأَيْدِي مِنَ ٱلدُّنْيَا ، وَسُوْءَ ٱلْمُصَاحَبَةِ لِمَا يُنْعِمُ ٱللهُ بِهِ عَلَى ٱلْعَبْدِ ، وَخِذْلَانَ ٱلْقُوَّةِ فِي ٱلْبَدَنِ ، وَمَا جَرَى هَـٰذَا ٱلْمَجْرَى مِنْ تَزْوِيرِ ٱلْحَيَاةِ بِٱلأَبَاطِيْلِ ٱلَّتِي زَعَمَ أَنَّهَا أَبَاطِيْلُ ٱلطَّاعَاتِ وَمَا أَقْرَبَهَا مِنْ أَبَاطِيْلِ ٱلْمَعْصِيَةِ . وَلَمْ يَكُنْ هَـٰذَا ٱلْمُفْتِي قَدْ سَمِعَنِي وَلَا حَضَرَ مَجْلِسِي ، وَلَوْلَا ٱلَّذِي لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ ذَلِكَ لَقَدْ كَانَ عَرَفَ .

وَجَادَلْتُهُ فَرَأَيْتُهُ وَاهِنَ ٱلدَّلِيْلِ ، ضَعِيفَ ٱلْحُجَّةِ ، يُخَمِّنُ تَخْمِينَ فَقِيْهٍ ، وَيَنْظُرُ إِلَى ٱلْخَفَايَا مِنْ حَقَائِقِ ٱلنُّفُوْسِ نَظَرَ صَاحِبِ ٱلنَّصِّ إِلَى ٱلظَّاهِرِ ، كَأَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ إِذَا أُلْقِيَتْ عَلَى ٱلنَّاسِ مَضَتْ نَافِذَةً كَفَتْوَى ٱلْمُفْتِي . . . وَيَزْعُمُ أَنَّ ٱلْوَعْظَ وَعْظُ ٱلْفُقَهَاءِ ، يَقُوْلُوْنَ : هَـٰذَا حَرَامٌ . فَيَكُوْنُ حَرَامًا لَا يُقَارِفُهُ أَحَدٌ ، وَهَـٰذَا حَلَالٌ . فَيَكُوْنُ حَلَالًا لَا يَتْرُكُهُ أَحَدٌ ، وَهُوَ كَانَ بَعِيْدًا عَنْ حَقِيْقَةِ ٱلْوَعْظِ وَمَدَاخِلِهِ إِلَى ٱلنَّفْسِ وَسِيَاسَتِهِ فِيهَا ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ ٱلْحَقِيْقَةَ كَٱلأُنْثَى : إِنْ لَمْ تُزَيِّنْ بِزِيْنَتِهَا لَمْ تَشْتَهِ أَحَدًا ؛ وَأَنَّ ٱلْمَوْعِظَةَ إِنْ لَمْ تَتَأَدَّ فِي أُسْلُوْبِهَا ٱلْحَيِّ

(*) « الرسالة » العدد : ١٤١ ، ٢٢ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٦ مارس/ آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .
هَكَذَا هُوَ ٱلْعُنْوَانُ فِي ٱلأَصْلِ ، وَفِي ٱلطَّبْعَةِ ٱلأُولَى : « ٱلدُّنْيَا وَٱلدِّرْهَمُ » .
(١) فِي ٱلأَصْلِ : « كَانَتْ » بَدَلًا مِنْ : « كَانَ » .
(٢) تُوُفِّيَ مُفْتِي بَلْخٍ هَـٰذَا سَنَةَ ٢٣٩هـ .
(٣) ٱلْمُسْتَغَلَّاتُ : أُصُوْلُ ٱلأَمْوَالِ ، وَتَغَلَّلَ وَٱسْتَغَلَّ بِمَعْنًى .

كَانَتْ بِٱلْبَاطِلِ أَشْبَهَ ، وَأَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ ٱلنَّفْسَ إِلَّا ٱلنَّفْسُ ٱلَّتِي فِيهَا قُوَّةُ ٱلتَّحْوِيْلِ وَٱلتَّغْيِيْرِ ، كَنُفُوْسِ ٱلأَنْبِيَاءِ وَمَنْ كَانَ فِي طَرِيْقَةِ رُوْحِهِمْ ، وَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ إِنَّمَا هِيَ وَضْعُ نُوْرِ ٱلْبَصِيْرَةِ فِي ٱلْكَلَامِ ، لَا وَضْعُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلْحُجَّةِ ، وَأَنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلزَّاهِدَ ٱلصَّحِيْحَ ٱلزُّهْدِ ، إِنَّمَا هُوَ حَيَاةٌ تَلْبَسُهَا ٱلْحَقِيْقَةُ لِتَكُوْنَ بِهِ شَيْئًا فِي ٱلْحَيَاةِ وَٱلْعَمَلِ . لَا شَيْئًا فِي ٱلْقَوْلِ وَٱلتَّوَهُّمِ ، فَيَكُوْنُ إِلْهَامُهَا فِيْهِ كَحَرَارَةِ ٱلنَّارِ فِي ٱلنَّارِ : مَنْ وَاتَاهَا أَحَسَّهَا .

وَلَعَمْرِي ، كَمْ مِنْ فَقِيْهٍ يَقُوْلُ لِلنَّاسِ : هَـٰذَا حَرَامٌ . فَلَا يَزِيْدُ هَـٰذَا ٱلْحَرَامَ إِلَّا ظُهُوْرًا وَٱنْكِشَافًا مَا دَامَ لَا يَنْطِقُ إِلَّا نُطْقَ ٱلْكُتُبِ ، وَلَا يُحْسِنُ أَنْ يَصِلَ بَيْنَ ٱلنَّفْسِ وَٱلشَّرْعِ ، وَقَدْ خَلَا مِنَ ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي تَجْعَلُهُ رُوْحًا تَتَعَلَّقُ ٱلأَرْوَاحُ بِهَا وَتَضَعُهُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي مَوْضِعٍ يَكُوْنُ بِهِ فِي ٱعْتِبَارِهِمْ كَأَنَّهُ آتٍ مِنَ ٱلْجَنَّةِ مُنْذُ قَرِيْبٍ ، رَاجِعٌ إِلَيْهَا بَعْدَ قَرِيْبٍ .

وَٱلْفَقِيْهُ ٱلَّذِي يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَالِ وَشَهَوَاتِ ٱلنَّفْسِ ، وَلَا يَجْعَلُ هَمَّهُ إِلَّا زِيَادَةَ ٱلرِّزْقِ وَحَظَّ ٱلدُّنْيَا ـ هُوَ ٱلْفَقِيْهُ ٱلْفَاسِدُ ٱلصُّوْرَةِ فِي خَيَالِ ٱلنَّاسِ ، يُفْهِمُهُمْ أَوَّلَ شَيْءٍ أَلَّا يَفْهَمُوْا عَنْهُ ؛ إِذْ حِرْصُهُ فَوْقَ بَصِيْرَتِهِ ، وَلَهُ فِي ٱلنُّفُوْسِ رَائِحَةُ ٱلْخُبْزِ ، وَلَهُ مَعْنًى : خَمْسٌ وَخَمْسَ عَشْرَةَ[1] . . . وَكَأَنَّ دُنْيَاهُ وَضَعَتْ فِيْهِ شَيْئًا فَاسِدًا غَرِيْبًا يُفْسِدُ ٱلْحَقِيْقَةَ ٱلَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا ؛ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ هَـٰذَا ٱلشَّيْءُ ، وَلَـٰكِنِّي رَأَيْتُ فُقَهَاءَ يَعِظُوْنَ وَيَتَكَلَّمُوْنَ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلْحَرَامِ وَٱلْحَلَالِ وَفِي نَصِّ كِتَابِ ٱللهِ وَسُنَّةِ رَسُوْلِهِ ﷺ ، ثُمَّ لَمْ أَجِدْ لِكَلَامِهِمْ نَفْعًا وَلَا رَدًّا ، إِذْ يُلْهِمُوْنَ ٱلنَّاسَ بِأَرْوَاحِهِمْ غَيْرَ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُوْنَ فِيْهِ ؛ وَتَسْخَرُ ٱلْحَقِيْقَةُ مِنْهُمْ ـ عَلَى خَطَرِهِمْ وَجَلَالِ شَأْنِهِمْ ـ بِذَاتِ ٱلأُسْلُوْبِ ٱلَّذِي تَسْخَرُ بِهِ مِنْ لِصٍّ يَعِظُ لِصًّا آخَرَ فَيَقُوْلُ لَهُ : لَا تَسْرِقْ . . .

* * *

قَالَ ٱبْنُ مِسْكِيْنٍ : فَلَمَّا دَارَ يَوْمُ ٱلسَّبْتِ أَقْبَلَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلْمَسْجِدِ أَفْوَاجًا ، وَكَانُوا قَدْ تَعَالَمُوْا إِزْمَاعِي ٱلرَّحِيْلَ عَنْ بَلَدِهِمْ ـ وَجَاءَ (لُقْمَانُ ٱلأُمَّةِ) فِي أَشْيَاعِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَجَاءَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْمُفْتِي فِي جَمَاعَتِهِ ؛ وَٱسْتَقَرَّ بِيَ ٱلْمَجْلِسُ فَنَفَذْتُ ٱلنَّاسَ بِنَظَرِي ، فَكَأَنَّهُمْ مِنْ كَثْرَتِهِمْ نَبَاتٌ غَطَّى ٱلأَرْضَ ، فَأَذْكَرَنِي هَـٰذَا شَيْخَنَا ٱلسَّرِيَّ بْنَ مُغَلِّسٍ

(١) يُرِيْدُ أَنَّهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا (عَمَلِيَّةٌ حِسَابِيَّةٌ . . .) وَفِي أَيَّامِ ضَعْفَةِ ٱلدِّيْنِ يَكُوْنُ ٱلْفِقْهُ ٱسْتِخْرَاجَ ٱلدَّرَاهِمِ مِنَ ٱلنُّصُوْصِ .

ٱلسَّقَطِيِّ[١] ، وَكَانَ قَدْ لَزِمَ دَارَهُ فِيْ بَغْدَادَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَا يَرَاهُ إِلَّا مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَجْعَلَ ٱلْمَوْعِظَةَ فِيْ شَرْحِ كَلِمَتِهِ ٱلْمَشْهُوْرَةِ : « لَا تَصِحُّ ٱلْمَحَبَّةُ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ حَتَّىٰ يَقُوْلَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : يَا أَنَا » . وَمَا نَقَلُوْا عَنْهُ مِنْ أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ : مُنْذُ ثَلَاثِيْنَ سَنَةً وَأَنَا فِيْ ٱلِاسْتِغْفَارِ مِنْ قَوْلِيْ : (ٱلْحَمْدُ لِلهِ) . فَقَالَ صَاحِبُهُ : وَكَيْفَ ذَٰلِكَ ؟ قَالَ : وَقَعَ بِبَغْدَادَ حَرِيْقٌ ، فَٱسْتَقْبَلَنِيْ رَجُلٌ فَقَالَ : نَجَا حَانُوْتُكَ . فَقُلْتُ : ٱلْحَمْدُ لِلهِ . فَأَنَا نَادِمٌ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْوَقْتِ عَلَىٰ مَا قُلْتُ ؛ إِذْ أَرَدْتُ لِنَفْسِيْ خَيْرًا مِنَ ٱلنَّاسِ !

قَالَ ٱبْنُ مِسْكِيْنٍ : وَلَـٰكِنِّيْ أَحْبَبْتُ أَنْ أُكَلِّمَ ٱلْمُفْتِيْ وَمَالَ ٱلْمُفْتِيْ ؛ فَحَدَّثْتُهُمْ حَدِيْثَ مَعْرِفَتِيْ بِٱلسَّرِيِّ : أَنِّيْ سَمِعْتُ يَوْمًا (غَيْلَانَ ٱلْخَيَّاطَ) يَقُوْلُ : إِنَّ ٱلسَّرِيَّ كَانَ ٱشْتَرَىٰ كُرَّ لَوْزٍ[٢] بِسِتِّيْنَ دِيْنَارًا ، وَأَثْبَتَهُ فِيْ رُزْنَامَجِهِ[٣] وَكَتَبَ أَمَامَهُ : رِبْحُهُ ثَلَاثَةُ دَنَانِيْرَ[٤] ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ غَلَا ٱلسِّعْرُ فَبَلَغَ تِسْعِيْنَ دِيْنَارًا ؛ فَأَتَاهُ ٱلدَّلَّالُ ٱلَّذِيْ كَانَ ٱشْتَرَىٰ لَهُ فَقَالَ : أُرِيْدُ ذَٰلِكَ ٱللَّوْزَ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : خُذْهُ . قَالَ : بِكَمْ ؟ فَقَالَ : بِثَلَاثَةٍ وَسِتِّيْنَ دِيْنَارًا . وَكَانَ ٱلدَّلَّالُ رَجُلًا صَالِحًا ، فَقَالَ لِلشَّيْخِ : إِنَّ ٱللَّوْزَ قَدْ صَارَ ٱلْكُرُّ بِتِسْعِيْنَ . قَالَ ٱلسَّرِيُّ : وَلَـٰكِنِّيْ عَقَدْتُ بَيْنِيْ وَبَيْنَ ٱللهِ عَقْدًا لَا أَحُلُّهُ ، فَلَسْتُ أَبِيْعُ إِلَّا بِثَلَاثَةٍ وَسِتِّيْنَ دِيْنَارًا . فَقَالَ ٱلدَّلَّالُ : وَأَنَا قَدْ عَقَدْتُ بَيْنِيْ وَبَيْنَ ٱللهِ عَقْدًا لَا أَحُلُّهُ ، أَلَّا أَغُشَّ مُسْلِمًا ، فَلَسْتُ أَشْتَرِيْ مِنْكَ إِلَّا بِتِسْعِيْنَ ؛ فَلَا ٱلدَّلَّالُ ٱشْتَرَىٰ مِنْهُ ، وَلَا ٱلسَّرِيُّ بَاعَهُ . . . !

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِيْنٍ : فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَٰلِكَ لَمْ تَكُنْ لِيْ هِمَّةٌ إِلَّا أَنْ أَلْقَىٰ ٱلشَّيْخَ وَأَصْحَبَهُ وَآخُذَ عَنْهُ ، فَلَمْ أُعَرِّجْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ كُنْتُ فِيْ ٱلْمَسْجِدِ ٱلَّذِيْ يُصَلِّيْ فِيْهِ ، فَأَجِدُهُ فِيْ حَلْقَتِهِ وَعِنْدَهُ مِمَّنْ كُنْتُ أَعْرِفُهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ بْنُ أَحْمَدَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ ، وَإِدْرِيْسُ ٱلْحَدَّادُ ، وَعَلِيُّ بْنُ سَعِيْدٍ ٱلرَّازِيُّ ، وَحَوْلَهُ خَلْقٌ كَثِيْرٌ وَهُوَ فِيْهِمْ كَٱلشَّجَرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ بَيْنَ ٱلْهَشِيْمِ تَعْلُوْهُ نَضْرَةُ رُوْحِهِ ، وَكَأَنَّمَا يُمِدُّهُ بِٱلنُّوْرِ عِرْقٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَهُوَ يَتَلَأْلَأُ لِلْعَيْنِ ؛ وَلَا يَمْلِكُ ٱلنَّاظِرُ إِلَيْهِ إِلَّا

(١) ٱلسَّقَطُ : رَدِيْءُ ٱلْمَتَاعِ (روبابيكيا) ، وَبَائِعُهُ : ٱلسَّقَطِيُّ . وَهَـٰذَا ٱلْإِمَامُ ٱلْعَظِيْمُ كَانَ أَوْحَدَ أَهْلِ زَمَانِهِ فِيْ ٱلْوَرَعِ ، وَلَهُ كَلَامٌ إِلَـٰهِيٌّ مُشْرِقٌ ، وَقَدْ تُوُفِّيَ عَنْ سِنٍّ عَالِيَةٍ فِيْ سَنَةِ ٢٥٣هـ .

(٢) ٱلْكُرُّ (بِضَمِّ ٱلْكَافِ) : مِكْيَالٌ عَظِيْمٌ يُقَدِّرُوْنَ بِهِ فِيْ ٱلْحِسَابِ ، وَهُوَ أَرْبَعُوْنَ إِرْدَبًّا مِصْرِيًّا .

(٣) أَيْ : دَفْتَرُ حِسَابِهِ . [أَيْ : ٱلدَّفْتَرُ ٱلْيَوْمِيُّ] .

(٤) خَمْسَةٌ فِيْ ٱلْمِئَةِ .

أَنْ يُحِسَّ فِيْ ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّهُ ٱلْأَدْنَىٰ ، مِنْ رُؤْيَتِهِ فِيْ ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ هَـٰذَا هُوَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْأَعْلَىٰ .

وَرَأَيْتُ عَلَىٰ وَجْهِهِ آلَامًا تَمْسَحُهُ مِسْحَةَ ٱلْأَشْوَاقِ لَا مِسْحَةَ ٱلْآلَامِ ، فَهِيَ آثَارُ مَا يَجِدُهُ فِيْ رُوْحِهِ ٱلْقَوِيَّةِ ، لَا كَآلَامِ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِيْ هِيَ آثَارُ ٱلْحِرْمَانِ فِيْ أَرْوَاحِهِمُ ٱلْوَاهِنَةِ ٱلضَّعِيْفَةِ فَلَا تَمْسَحُ وُجُوْهَهُمْ إِلَّا مِسْحَةَ ٱلْغَمِّ وَٱلْكَآبَةِ .

وَمَا يُخْطِئُ ٱلنَّظَرُ فِيْ تَمْيِيْزِ آلَامِ ٱلسَّمَاءِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْوُجُوْهِ ٱلسَّعِيْدَةِ مِنْ آلَامِ ٱلْأَرْضِ فِيْ ٱلْوُجُوْهِ ٱلْأُخْرَىٰ ، فَإِنَّ ٱلْأُوْلَىٰ تَتَنَدَّىٰ عَلَىٰ رُوْحِ ٱلنَّاظِرِ بِمِثْلِ ٱلطَّلِّ إِذَا قَطَّرَهُ ٱلْفَجْرُ ، وَٱلْأُخْرَىٰ تَتَثَوَّرُ ﴿ فِيْ رُوْحِهِ ﴾ كَمَا تَهِيْجُ ٱلْغَبَرَةُ إِذَا ضَرَبَتِ ٱلرِّيْحُ ٱلْأَرْضَ .

كَانَ ٱلشَّيْخُ فِيْ وُجُوْدٍ فَوْقَ وُجُوْدِنَا ؛ فَلَا تَتَلَوَّنُ لَهُ ٱلْأَشْيَاءُ ، وَلَا تَعْدُوْ عِنْدَهُ مَا هِيَ فِيْ نَفْسِهَا ، وَلَا يَحْمِلُ ٱلشَّيْءُ لَهُ إِلَّا مَعْنَاهُ مِنْ حَيْثُ يَصْلُحُ أَوْ لَا يَصْلُحُ ، وَمِنْ حَيْثُ يَنْبَغِيْ أَوْ لَا يَنْبَغِيْ . فَإِنَّمَا تَتَلَوَّنُ ٱلْأَشْيَاءُ عِنْدَمَا يَضَعُ ٱلشَّيْطَانُ عَيْنَهُ فِيْ عَيْنِ ٱلنَّاظِرِ إِلَيْهَا ؛ وَإِنَّمَا تَزِيْدُ وَتَنْقُصُ فِيْ ٱلْقَلْبِ عِنْدَمَا يَكُوْنُ رُوْحُ ٱلشَّيْطَانِ فِيْ ٱلْقَلْبِ ؛ وَإِنَّمَا يَشْتَبِهُ مَا يَنْبَغِيْ وَمَا لَا يَنْبَغِيْ عِنْدَمَا يَأْتِيْ ٱلشَّيْءُ مِنْ جِهَتَيْنِ : جِهَتِهِ مِنْ طَبِيْعَتِهِ هُوَ ، وَجِهَتِهِ مِنْ طَبِيْعَتِنَا نَحْنُ . وَبِهَـٰذَا قَدْ يَجْمَعُ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْمَالَ ثُمَّ لَا يَجِدُ فِيْ ٱلْمَالِ مَعْنَىٰ ٱلْغِنَىٰ ، وَقَدْ تَتَّفِقُ أَسْبَابُ ٱلنَّعِيْمِ وَلَا يَكُوْنُ مِنْهَا إِلَّا ٱلذُّلُّ . وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَجِدُ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا عَكْسَ مَا كَانَ يَنْبَغِيْ ، وَآخَرَ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا وَوَجَدَ بِذَٰلِكَ رَاحَتَهُ .

* * *

قَالَ ٱبْنُ مِسْكِيْنٍ : وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبِيْ حِيْنَ تَكَلَّمَ ٱلشَّيْخُ ، فَقَدْ أَخَذَ يُجِيْبُ عَمَّا فِيْ نَفْسِيْ وَلَمْ أَسْأَلْهُ ، كَأَنَّ ٱلَّذِيْ فِيْ فِكْرِيْ قَدِ ٱنْتَقَلَ إِلَيْهِ ؛ فَرَوَىٰ ٱلْحَدِيْثَ : « إِذَا عَظَّمَتْ أُمَّتِيْ ٱلدِّيْنَارَ وَٱلدِّرْهَمَ ، نُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ ٱلْإِسْلَامِ ؛ وَإِذَا تَرَكُوْا ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوْفِ وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ، حُرِمُوْا بَرَكَةَ ٱلْوَحْيِ » [قَالَ ٱلْحَافِظُ ٱلْعِرَاقِيُّ فِيْ « تَخْرِيْجِ أَحَادِيْثِ ٱلْإِحْيَاءِ » : رَوَاهُ ٱبْنُ أَبِيْ ٱلدُّنْيَا فِيْ كِتَابِ : « ٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوْفِ » مُعْضَلًا مِنْ حَدِيْثِ ٱلْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ ، قَالَ : ذُكِرَ عَنْ نَبِيِّ ٱللهِ ﷺ] . ثُمَّ قَالَ فِيْ تَأْوِيْلِهِ :

إِنَّ مَلَكَ ٱلْوَحْيِ يَنْزِلُ بِٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ لِيُخْضِعَ صَوْلَةَ ٱلْأَرْضِ بِصَوْلَةِ ٱلسَّمَاءِ ، فَإِذَا بَقِيَ

ٱلأَمْرُ بِٱلْمَعْرُوْفِ وَٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ، بَقِيَ عَمَلُ ٱلْوَحْيِ إِلَّا أَنَّهُ فِيْ صُوْرَةِ ٱلْعَقْلِ ، وَبَقِيَتْ رُوْحَانِيَّةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهَا فِيْ صُوْرَةِ ٱلنِّظَامِ ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ خَطَإٍ تَصْحِيْحُهُ ؛ فَيُصْبِحُ ٱلإِنْسَانُ بِذَلِكَ تَنْفِيْذًا لِلشَّرِيْعَةِ بَيْنَ آمِرٍ مُطَاعٍ وَمَأْمُوْرٍ مُطِيْعٍ ، فَيَتَعَامَلُ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ حَالَةٍ تَجْعَلُ بَعْضَهُمْ أُسْتَاذًا لِبَعْضٍ ، وَشَيْئًا مِنْهُمْ تَعْدِيْلًا لِشَيْءٍ ، وَقُوَّةً سَنَدًا لِقُوَّةٍ ؛ فَيَقُوْمُ ٱلْعَزْمُ فِيْ وَجْهِ ٱلتَّهَاوُنِ ، وَٱلشِّدَّةُ فِيْ وَجْهِ ٱلتَّرَاخِيْ ، وَٱلْقُدْرَةُ فِيْ وَجْهِ ٱلْعَجْزِ ؛ وَبِهَـٰذَا يَكُوْنُوْنَ شُرَكَاءَ مُتَعَاوِنِيْنَ ، وَتَعُوْدُ صِفَاتُهُمُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ وَكَأَنَّهَا جَيْشٌ عَامِلٌ يُنَاصِرُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَتَكُوْنُ ٱلْحَيَاةُ مُفَسَّرَةً مَا دَامَتْ مَعَانِيْهَا ٱلسَّامِيَةُ تَأْمُرُ أَمْرَهَا وَتُلْهِمُ إِلْهَامَهَا ، وَمَا دَامَتْ مُمَثَّلَةً فِيْ ٱلْوَاجِبِ ٱلنَّافِذِ عَلَىٰ ٱلْكُلِّ .

وَٱلنَّاسُ أَحْرَارٌ مَتَىٰ حَكَمَتْهُمْ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ ، فَلَيْسَتْ حَقِيْقَةُ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا ٱلْخُضُوْعَ لِلْوَاجِبِ ٱلَّذِيْ يَحْكُمُ ، وَبِذَلِكَ لَا بِغَيْرِهِ يَتَّصِلُ مَا بَيْنَ ٱلْمَلِكِ وَٱلسُّوْقَةِ ، وَمَا بَيْنَ ٱلأَغْنِيَاءِ وَٱلْفُقَرَاءِ ، ٱتِّصَالَ ٱلرَّحْمَةِ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَٱتِّصَالَ ٱلْقَسْوَةِ فِيْ ٱلتَّأْدِيْبِ وَحْدَهُ . فَبَرَكَةُ ٱلْوَحْيِ إِنَّمَا هِيَ جَعْلُ ٱلْقُوَّةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ عَمَلًا شَرْعِيًّا لَا غَيْرُ .

أَمَّا تَعْظِيْمُ ٱلأُمَّةِ لِلدِّيْنَارِ وَٱلدِّرْهَمِ ، فَهُوَ ٱسْتِعْبَادُ ٱلْمَعَانِيْ ٱلْحَيْوَانِيَّةِ فِيْ ٱلنَّاسِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ ، وَتَقَطُّعُ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ ٱلتَّشَابُكِ فِيْ لُحْمَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَجَعْلُ ٱلْكَبِيْرِ فِيْهِمْ كَبِيْرًا وَإِنْ صَغُرَتْ مَعَانِيْهِ ، وَٱلصَّغِيْرِ فِيْهِمْ صَغِيْرًا وَإِنْ كَبُرَ فِيْ ٱلْمَعَانِيْ ؛ وَبِهَـٰذَا تَمُوْجُ ٱلْحَيَاةُ بَعْضُهَا فِيْ بَعْضٍ ، وَلَا يَسْتَقِيْمُ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ رَأْيٍ صَحِيْحٍ ؛ إِذْ يَكُوْنُ ٱلصَّحِيْحُ وَٱلْفَاسِدُ فِيْ مُلْكِ ٱلإِنْسَانِ لَا فِيْ عَمَلِ ٱلإِنْسَانِ ، فَيَكْنِزُ ٱلْغَنِيُّ مَالًا وَيَكْنِزُ ٱلْفَقِيْرُ عَدَاوَةً ، كَأَنَّ هَـٰذَا قَتَلَ مَالَ هَـٰذَا ، وَكَأَنَّ أَعْمَالًا قَتَلَتْ أَعْمَالًا ، وَتَرْجِعُ ٱلصِّفَاتُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ مُتَعَادِيَةً ، وَتُبَاعُ ٱلْفَضَائِلُ وَتُشْتَرَىٰ ، وَيَزِيْدُ مَنْ يَزِيْدُ وَلَـٰكِنْ فِيْ ٱلْقَسْوَةِ ، وَيَنْقُصُ مَنْ يَنْقُصُ وَلَـٰكِنْ فِيْ ٱلْحُرِّيَّةِ ، وَتَكُوْنُ ٱلْمَنْفَعَةُ ٱلذَّاتِيَّةُ هِيَ ٱلَّتِيْ تَأْمُرُ فِيْ ٱلْجَمِيْعِ وَتَنْهَىٰ ، وَيَدْخُلُ ٱلْكَذِبُ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ فِيْ ٱلنَّظَرِ إِلَىٰ ٱلْمَالِ ، فَيَرَىٰ كُلُّ إِنْسَانٍ كَأَنَّمَا دِرْهَمُهُ وَدِيْنَارُهُ أَكْبَرُ قِيْمَةً مِنْ دِيْنَارِ ٱلآخَرِ وَدِرْهَمِهِ ، فَإِذَا أَعْطَىٰ نَقَصَ فَغَشَّ ، وَإِذَا أَخَذَ زَادَ فَسَرَقَ ؛ وَتُصْبِحُ ٱلنُّفُوْسُ نُفُوْسًا تِجَارِيَّةً تُسَاوِمُ قَبْلَ أَنْ تَنْبَعِثَ لِفَضِيْلَةٍ ، وَتُمَاكِسُ إِذَا دُعِيَتْ لِأَدَاءِ حَقٍّ ، وَيَتَعَامَلُ ٱلنَّاسُ فِيْ ٱلشَّرَفِ عَلَىٰ أُصُوْلٍ مِنَ ٱلْمَعِدَةِ لَا مِنَ ٱلرُّوْحِ ، فَلَا يُقَالُ حِيْنَئِذٍ : إِنَّ رَغِيْفَيْنِ أَكْثَرُ مِنْ رَغِيْفٍ وَاحِدٍ .

كَمَا هِيَ طَبِيْعَةُ ٱلْعَدَدِ ، بَلْ يُقَالُ : إِنَّ رَغِيْفَيْنِ أَشْرَفُ مِنْ رَغِيْفٍ . كَمَا هِيَ طَبِيْعَةُ ٱلنِّفَاقِ .

أَمَّا ٱلتِّجَارَةُ ـ وَهِيَ ٱلتَّفْسِيْرُ ٱلظَّاهِرُ لِمَعَانِيْ ٱلنُّفُوْسِ ـ فَتُصْبِحُ بَيْنَ ٱلْغِشِّ وَٱلضَّرَرِ وَٱلْمُمَاكَرَةِ ، وَتَكُوْنُ يَقَظَةُ ٱلتَّاجِرِ فِيْ غَفْلَةِ ٱلشَّارِيْ ، وَتَفْسُدُ ٱلإِرَادَةُ فَلَا تُحْدِثُ إِلَّا آثَارَهَا ٱلزَّائِغَةَ . وَمَا ٱلتَّاجِرُ فِيْ ٱلأُمَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ إِلَّا أُسْتَاذٌ لِتَعْلِيْمِ ٱلصِّدْقِ وَٱلْخُلُقِ فِيْ ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمُتَقَلِّبِ ، فَكَلِمَتُهُ كَٱلرَّقْمِ مِنَ ٱلْعَدَدِ لَا يَحْتَمِلُ أَزْيَدَ وَلَا أَنْقَصَ مِمَّا فِيْهِ ، وَيُمْتَحَنُ بِٱلدُّنْيَا وَٱلدِّرْهَمِ أَشَدَّ مِمَّا يُمْتَحَنُ ٱلْعَابِدُ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ . وَقَدْ شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ فِيْ قَضِيَّةٍ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : ٱئْتِنِيْ بِمَنْ يَعْرِفُكَ . فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ خَيْرًا ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَنْتَ جَارُهُ ٱلأَدْنَىٰ ٱلَّذِيْ يَعْرِفُ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَكُنْتَ رَفِيْقَهُ فِيْ ٱلسَّفَرِ ٱلَّذِيْ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَىٰ مَكَارِمِ ٱلأَخْلَاقِ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَعَامَلْتَهُ بِٱلدِّيْنَارِ وَٱلدِّرْهَمِ ٱلَّذِيْ يَسْتَبِيْنُ بِهِ وَرَعُ ٱلرَّجُلِ ؟ قَالَ : لَا .

قَالَ عُمَرُ : أَظُنُّكَ رَأَيْتَهُ قَائِمًا فِيْ ٱلْمَسْجِدِ يُهَمْهِمُ بِٱلْقُرْآنِ ، يَخْفِضُ رَأْسَهُ طَوْرًا وَيَرْفَعُهُ أُخْرَىٰ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : فَٱذْهَبْ فَلَسْتَ تَعْرِفُهُ !

وَإِنَّمَا ٱلتَّاجِرُ صُوْرَةٌ مِنْ ثِقَةِ ٱلنَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَإِرَادَةِ ٱلْخَيْرِ وَٱعْتِقَادِ ٱلصِّدْقِ ، وَهُوَ فِيْ كُلِّ ذَلِكَ مَظْهَرٌ تُوْضَعُ ٱلْيَدُ عَلَيْهِ كَمَا تَجُسُّ ٱلْيَدُ مَرَضَ ٱلْمَرِيْضِ وَصِحَّتَهُ .

فَإِذَا عَظَّمَتِ ٱلأُمَّةُ ٱلدِّيْنَارَ وَٱلدِّرْهَمَ ، فَإِنَّمَا عَظَّمَتِ ٱلنِّفَاقَ وَٱلطَّمَعَ وَٱلْكَذِبَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْقَسْوَةَ وَٱلاسْتِعْبَادَ ؛ وَبِهَـٰذَا تُقِيْمُ ٱلدَّنَانِيْرُ وَٱلدَّرَاهِمُ حُدُوْدًا فَاصِلَةً بَيْنَ أَهْلِهَا ، حَتَّىٰ لَتَكُوْنَ ٱلْمَسَافَةُ بَيْنَ غَنِيٍّ وَفَقِيْرٍ كَٱلْمَسَافَةِ بَيْنَ بَلَدَيْنِ قَدْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَهُمَا . وَإِنَّمَا هَيْبَةُ ٱلإِسْلَامِ فِيْ ٱلْعِزَّةِ بِٱلنَّفْسِ لَا بِٱلْمَالِ ، وَفِيْ بَذْلِ ٱلْحَيَاةِ لَا فِيْ ٱلْحِرْصِ عَلَيْهَا ، وَفِيْ أَخْلَاقِ ٱلرُّوْحِ لَا فِيْ أَخْلَاقِ ٱلْيَدِ ، وَفِيْ وَضْعِ حُدُوْدِ ٱلْفَضَائِلِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ لَا فِيْ وَضْعِ حُدُوْدِ ٱلدَّرَاهِمِ ، وَفِيْ إِزَالَةِ ٱلنَّقَائِصِ مِنَ ٱلطِّبَاعِ لَا فِيْ إِقَامَتِهَا ، وَفِيْ تَعَاوُنِ صِفَاتِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ لَا فِيْ تَعَادِيْهَا ، وَفِيْ ٱعْتِبَارِ ٱلْغِنَىٰ مَا يُعْمَلُ بِٱلْمَالِ لَا مَا يُجْمَعُ مِنَ ٱلْمَالِ ، وَفِيْ جَعْلِ أَوَّلِ ٱلثَّرْوَةِ ٱلْعَقْلُ وَٱلإِرَادَةُ ، لَا ٱلذَّهَبُ وَٱلْفِضَّةُ .

هَـٰذَا هُوَ ٱلإِسْلَامُ ٱلَّذِيْ غَلَبَ ٱلأُمَمَ ، لِأَنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ غَلَبَ ٱلنَّفْسَ وَٱلطَّبِيْعَةَ .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

دُعَابَةُ إِبْلِيسَ(*) (١)

أَمَا إِنِّي سَأَقُصُّ هَـٰذِهِ ٱلْحِكَايَةَ كَمَا ٱتَّفَقَتْ ، لَا أُزَيِّنُهَا بِخَيَالٍ ، وَلَا أَتَزَيَّدُ فِيهَا بِخَبَرٍ ، وَلَا أُوَلِّدُ لَهَا مَعْنًى ؛ فَإِنَّمَا هِيَ حِكَايَةُ خُبْثِ ٱلْخَبِيثِ : فَنُّهَا حِذْقُهُ وَدَهَاؤُهُ ، وَرِقَّتُهَا غِلْظَتُهُ وَشَرُّهُ ، وَمَعَانِيهَا بَلَاؤُهُ وَمِحْنَتُهُ ؛ وَأَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ، وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ .

لَمَّا فَكَّرْتُ فِي وَضْعِ مَقَالَةِ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (ٱبْنِ مِسْكِينٍ) ، وَأَدَرْتُ رَأْيِي فِي نَهْجِهَا وَحُدُودِهَا وَمَعَانِيهَا ، جَعَلَ فِكْرِي يَتَقَطَّعُ فِي ذَلِكَ ، يَذْهَبُ وَيَجِيءُ كَأَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُنَازَعَةً ، أَوْ كَأَنَّ فِي نَفْسِي شَيْئًا يَثْنِينِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ ٱلْعَزْمِ ؛ وَخُيِّلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ (إِبْلِيسَ) هَـٰذَا مَنْفَعَةٌ مِنَ ٱلْمَنَافِعِ . . . وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلَّذِي تَنُصُّ مَادَّتُهُ ٱلْأُولَىٰ : مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ . وَتَنُصُّ مَادَّتُهُ ٱلْأَخِيرَةُ : مَا ٱحْتَجْتَ إِلَيْهِ فَثَمَنُهُ أَنْ تَقْدِرَ عَلَىٰ أَخْذِهِ . . .

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجِسٌ : أَنَّ (إِبْلِيسَ) قَائِمٌ فِي لَفْظِ ٱلْحُرِّيَّةِ كَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي لَفْظِ ٱلْإِثْمِ ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ ٱلْفُسَّاقِ فَهُوَ أَيْضًا فِي أَدْمِغَةِ ٱلْفَلَاسِفَةِ ؛ وَإِنْ(٢) كَانَ فِي سُقُوطِ أَهْلِ ٱلرَّذِيلَةِ إِلَى ٱلرَّذِيلَةِ ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سُمُوِّ أَهْلِ ٱلْفَنِّ إِلَى ٱلْفَنِّ . . . قَالَ ٱلْهَاجِسُ : وَإِنَّ (إِبْلِيسَ) أَيْضًا هُوَ صَاحِبُ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ فِي هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلْمَادِّيِّ ، فَهُوَ مِنْ ثَمَّ حَقِيقٌ أَنْ يُلَقِّبُوهُ « صَاحِبَ ٱلْفَضِيلَةِ . . . » .

وَلَـٰكِنِّي لَمْ أَحْفِلْ بِهَـٰذِهِ ٱلْوَسَاوِسِ وَلَمْ أَعُجْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَٱسْتَعَنْتُ ٱللَّهَ وَأَمْضَيْتُ نِيَّتِي عَلَى ٱلْكِتَابَةِ ، وَأَخَذْتُ أُقَلِّبُ ٱلْمَوْضُوعَ ، وَأُنَبِّهُ فِكْرِي لَهُ ، وَأَسْتَشْرِفُ لِمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ ٱلنَّظَرُ ، وَأَتَطَلَّعُ لِمَا يَجِيءُ بِهِ ٱلْخَاطِرُ ، وَأَلْتَمِسُ مَا أَبْنِي عَلَيْهِ ٱلْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي ؛ فَلَمْ يَقَعْ لِي شَيْءٌ ٱلْبَتَّةَ ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ ٱبْتِدَاءِ ٱلْمَوْضُوعِ فَلَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى ٱقْتِحَامِهِ ،

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٢ ، ٢٩ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٣ مارس/ آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٤٤٣ ـ ٤٤٦ .

(١) ٱلدُّعَابَةُ : ٱلْمِزَاحُ وَٱللَّعِبُ ، وَكُلُّ مَا سَيَرِدُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ فَهُوَ صَحِيحٌ لَمْ نَخْتَرِعْ مِنْهُ شَيْئًا .

(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « وَلَئِنْ » بَدَلًا مِنْ : « وَإِنْ » .

وَكَأَنَّهُ مِنْ وَرَاءِ ٱلْعِلْمِ فَلَا يُبْلَغُ إِلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ مِنَ ٱلتَّعَذُّرِ كَمُحَاوَلَةِ تَصْوِيرِ حَمَاقَةِ ٱلْحَيَاةِ كُلِّهَا فِي كَلِمَةٍ . { وَإِبْلِيسُ كَلِمَةٌ فِيهَا حَمَاقَةُ ٱلْحَيَاةِ كُلِّهَا } . . .

* * *

وَمِنْ عَادَتِي فِي كِتَابَةِ هَـٰذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي تَنْشُرُهَا (ٱلرِّسَالَةُ)(١) ، أَنْ أَدَعَ ٱلْفَصْلَ مِنْهَا تُقَلِّبُهُ ٱلْخَوَاطِرُ فِي ذِهْنِي أَيَّامَ ٱلثُّلَاثَاءِ وَٱلْأَرْبِعَاءِ وَٱلْخَمِيسِ ، وَأَتْرُكُ أَمْرَهُ لِلْقُوَّةِ ٱلَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَتَوَلَّدُ ٱلْمَعَانِي مِنْ كُلِّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَقْرَأُ ، وَتَنْثَالُ مِنْ هَـٰهُنَا وَهَـٰهُنَا ، وَيَكُونُ ٱلْكَلَامُ كَأَنَّهُ شَيْءٌ حَيٌّ أُرِيدَ لَهُ ٱلْوُجُودُ فَوُجِدَ .

ثُمَّ أَكْتُبُ نَهَارَ ٱلْجُمُعَةِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ لَيْلُ ٱلسَّبْتِ وَلَيْلُ ٱلْأَحَدِ كَٱلْمَدَدِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْجَيْشِ إِذَا نَالَتْنِي فَتْرَةٌ أَوْ كُنْتُ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ قَطَعَنِي عَنِ ٱلْكِتَابَةِ شَيْءٌ مِمَّا يَعْرِضُ .

وَفِي أُسْبُوعِ إِبْلِيسَ ـ لَعَنَهُ ٱللَّهُ ـ ، مَرَّتِ ٱلْأَيَّامُ ٱلثَّلَاثَةُ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَلْوَانٍ : ضَجَرٌ لَا رُوحَ فِيهِ ، وَكَسَلٌ لَا نَشَاطَ مَعَهُ ، وَٱضْطِرَابٌ لَا مِسَاكَ لَهُ . وَأَطَلْتُ ٱلتَّفْكِيرَ يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ ، فَكَانَتْ تَعْتَرِينِي خَوَاطِرُ مُضْحِكَةٌ : فَيَعْرِضُ لِي مَرَّةً أَنْ أُصَوِّرَ إِبْلِيسَ ٱمْرَأَةً لِيَكُونَ إِبْلِيسَ ٱلْجَمِيلَ . . . وَتَارَةً أَتَوَهَّمُ أَنَّ إِبْلِيسَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ شَيْخًا كَبَعْضِ رِجَالِ ٱلدِّينِ ٱلَّذِينَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ، لِيُقَالَ : إِبْلِيسُ ٱلتَّقِيُّ ٱلْمُصَلِّي . . . وَحِينًا أَظُنُّ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا مُؤَلِّفًا شَهِيرًا لِيُقَالَ : إِبْلِيسُ ٱلْمُفَكِّرُ ٱلْمُصْلِحُ . . . وَخَطَرَ لِي أَخِيرًا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا مُلْحِدًا شُيُوعِيًّا فَاجِرًا ، لِيَكُونَ إِبْلِيسَ ٱلتَّامَّ لَا إِبْلِيسَ ٱلنَّاقِصَ . . .

* * *

وَلَمَّا ذَهَبَتِ ٱلْأَيَّامُ ٱلثَّلَاثَةُ بَاطِلًا ، خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ إِبْلِيسَ ـ أَخْزَاهُ ٱللَّهُ ـ يَسْأَلُنِي عَنِ ٱلْمَقَالَةِ : إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ ٱنْقَلَبَتْ . . . ؟ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ وَٱغْتَمَمْتُ بِهِ ، غَيْرَ أَنِّي ٱطْمَأْنَنْتُ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ وَأَنَّ وَرَاءَهُ لَيْلَتَيْنِ . وَكَانَتْ قَدْ غَرَبَتْ شَمْسُ ٱلْخَمِيسِ ، فَقُلْتُ : فَلَأَخْرُجْ لِأَتَفَرَّجَ مِمَّا بِي ، وَعَسَىٰ أَنْ أَجْمَعَ نَفْسِي لِلتَّفْكِيرِ إِذَا جَلَسْتُ فِي ٱلنَّدِيِّ ، وَلَعَلَّهُ يَقَعُ

(١) { مَجَلَّةُ ٱلرِّسَالَةِ ، وَكُلُّ مَقَالَاتِ هَـٰذَا ٱلْجُزْءِ وَٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ كُتِبَتْ لَهَا وَنُشِرَتْ فِيهَا ، إِلَّا فُصُولًا قَلِيلَةً } .

مَا أَسْتَوْحِيهِ أَوْ يَنْفَتِحُ لِي بَابٌ فِيْ ٱلْقِرَاءَةِ .

وَخَرَجْتُ ، فَلَمْ أُجَاوِزِ ٱلدَّارَ حَتَّىٰ ٱبْتَدَرَنِيْ مَنْ هَبَطَ عَلَيْهِ ٱلْخَبَرُ مِنَ ٱلْقَاهِرَةِ أَنَّ نَسِيْبًا لَنَا مِنَ ٱلْعُظَمَاءِ تُوُفِّيَ أَخُوْهُ ٱلْيَوْمَ . فَقُلْتُ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ ؛ ضَاعَ يَوْمُ ٱلْجُمُعَةِ . إِذْ لَا بُدَّ مِنَ ٱلسَّفَرِ لِتَشْيِيْعِ ٱلْجَنَازَةِ وَحُضُوْرِ ٱلْمَأْتَمِ ، ثُمَّ قُلْتُ : لَعَلَّ فِيْ هَـٰذَا ٱلسَّفَرِ ٱسْتِجْمَامًا وَنَشَاطًا فَأَسْتَدْرِكَ ٱلْأُسْبُوْعَ كُلَّهُ فِيْ يَوْمَيْنِ ، وَإِنَّمَا ٱلاسْتِكْثَارُ بِٱلْقُوَّةِ لَا بِٱلزَّمَنِ ، وَلَا يَدَ لِإِبْلِيْسَ فِيْ ٱلْمَوْتِ وَٱلْحَيَاةِ ، فَلَيْسَ إِلَّا ٱطِّرَاحُهُ وَقِلَّةُ ٱلْمُبَالَاةِ بِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ خَطَوَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ .

وَأَصْبَحْتُ فِيْ ٱلْقَاهِرَةِ ، وَمَشَيْتُ فِيْ ٱلْجَنَازَةِ قَبْلَ ٱلظُّهْرِ مَسِيْرَةَ سَاعَةٍ كَامِلَةٍ ؛ وَكَانَتِ ٱلشَّمْسُ سَاطِعَةً تَتَلَأْلَأُ ، وَأَنَا مُثْقَلٌ بِثِيَابِ ٱلشِّتَاءِ ، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُوْنَ ٱلْيَوْمُ مِنْ أَيَّامِ ٱلرِّيْحِ ٱلْمَجْنُوْنَةِ ؛ فَلَمَّا ٱنْتَهَيْنَا إِلَىٰ ٱلصَّحْرَاءِ ، هَبَّتِ ٱلرِّيْحُ هُبُوْبًا لَيِّنًا ، ثُمَّ زَفَّتْ فَكَانَتْ إِلَىٰ ٱلشِّدَّةِ مَا هِيَ ، وَلَـٰكِنَّهَا مَاضِيَةٌ تَسْفِيْ ٱلرَّمْلَ فِيْ ٱلأَعْيُنِ ، فَيَأْخُذُ فِيْ أَجْفَانِيْ أُكَالٌ وَتَهْيِيْجٌ ، وَلَيْسَ مَعِيْ شَيْءٌ أَتَّقِيْهَا بِهِ ؛ غَيْرَ أَنِّيْ شَغَلْتُ فِكْرِيْ بِرُؤْيَةِ ٱلْمَقَابِرِ ، وَجَعَلْتُهَا فِيْ نَفْسِيْ كَٱلْمَقَالَةِ ٱلْمَكْتُوْبَةِ سَطْرًا وَرَاءَ سَطْرٍ ؛ وَقُلْتُ : هَـٰهُنَا ٱلْحَقِيْقَةُ فِيْ أَوَّلِ تَفْسِيْرِهَا ، وَغَيْرُ ٱلْمَفْهُوْمِ فِيْ ٱلْحَيَاةِ يُفْهَمُ هُنَا .

ثُمَّ رَجَعْتُ مُنَدَّىٰ ٱلْجِسْمِ بِٱلْعَرَقِ وَعَلَيَّ نَضْحٌ مِنْهُ ، وَكَانَ ٱلْقَمِيْصُ مِنَ ٱلصُّوْفِ ، وَبِصَدْرِيْ أَثَرٌ مِنَ ٱلنَّزْلَةِ ٱلشُّعَبِيَّةِ ؛ وَإِذَا تَنَدَّىٰ ٱلصُّوْفُ وَجَبَ نَزْعُهُ وَإِلَّا فَهِيَ ٱلْعِلَّةُ مَا مِنْهَا بُدٌّ .

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ إِلَّا سَاعَةٌ حَتَّىٰ ٱنْخَرَقَتِ ٱلرِّيْحُ وَجَعَلَتْ تَعْصِفُ وَبَرَدَ ٱلْجَوُّ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ ٱلزُّكَامُ ، وَقُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ : هَـٰذَا بَابٌ عَلَىٰ حِدَةٍ ، وَٱلْمَقَالَةُ ذَاهِبَةٌ لَا مَحَالَةَ ، فَسَيَتَخَلَّفُ ٱلذِّهْنُ وَيَتَبَلَّدُ ؛ وَٱلشَّيْطَانُ كَرِيْمٌ فِيْ ٱلشَّرِّ يُعْطِيْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْأَلَ . . .

وَثَقُلَ ذَٰلِكَ عَلَيَّ ، فَكَانَ ٱلْغَمُّ بِهِ عِلَّةً جَدِيْدَةً ، بَيْدَ أَنِّيْ لَمْ أَزَلْ أَرْجُوْ ٱلْفُرْصَةَ فِيْ أَحَدِ ٱلْيَوْمَيْنِ : ٱلسَّبْتِ وَٱلأَحَدِ . وَقُلْتُ : إِنَّ مِنَ ٱلْبَلَاءِ ٱلْفِكْرَ فِيْ ٱلْبَلَاءِ ، وَلَعَلَّ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ ٱلثِّقَةَ بِٱلسَّلَامَةِ ؛ فَإِذَا نَبَّهْتُ ٱلْعَزِيْمَةَ رَجَوْتُ أَنْ يَتَغَلْغَلَ أَثَرُهَا فِيْ ٱلْبَدَنِ كُلِّهِ فَيَكُوْنُ عِلَاجًا فِيْ ٱلدَّمِ يَحْدُثُ بِهِ ٱلنَّشَاطُ وَيُرْهَفُ مِنْهُ ٱلطَّبْعُ وَتَجِمُّ عَلَيْهِ ٱلنَّفْسُ . وَفِيْ قُوَّةِ ٱلْعَصَبِ كَهْرَبَائِيَّةٌ لَهَا

عَمَلُهَا فِيْ ٱلْجِسْمِ إِذَا أَحْسَنَ ٱلْمَرْءُ بَعْثَهَا فِيْ نَفْسِهِ وَأَحْكَمَ إِفَاضَتَهَا وَتَصْرِيْفَهَا عَلَىٰ طَرِيْقَةٍ رِيَاضِيَّةٍ ؛ وَلَهِيَ ٱلدَّوَاءُ حِيْنَ يَعْجِزُ ٱلدَّوَاءُ ، وَهِيَ ٱلْقُوَّةُ حِيْنَ تُخْذَلُ ٱلْقُوَّةُ .

فَٱعْتَزَمْتُ وَصَمَّمْتُ ، وَٱحْتَلْتُ عَلَىٰ ٱلإِرَادَةِ ، وَتَكَثَّرْتُ مِنْ أَسْبَابِ ٱلثِّقَةِ ، وَتَرَصَّدْتُ لَهَا ٱلسَّوَانِحَ ٱلْعَقْلِيَّةَ ٱلَّتِيْ تَسْنَحُ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَقُلْتُ لِإِبْلِيْسَ : ٱجْهَدْ جُهْدَكَ ، فَمَا تَذْهَبُ مَذْهَبًا إِلَّا كَانَ لِيْ مَذْهَبٌ . وَلَـٰكِنَّ ٱللَّعِيْنَ أَخْطَرَ فِيْ ذِهْنِيْ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ يَسْخَرُ فِيْهِ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْكَاتِبِ ٱلْبَغْدَادِيِّ[١] [من الكامل] :

لَوْ قِيْلَ : كَمْ خَمْسٌ وَخَمْسٌ ؟ لَاغْتَدَىٰ   يَـوْمًـا وَلَيْلَتَـهُ يَعُـدُّ وَيَحْسُـبُ ،
وَيَقُـوْلُ : مُعْضِلَـةٌ عَجِيْـبٌ أَمْـرُهَـا   وَلَئِـنْ فَهِمْـتُ لَهَـا ، لَأَمْـرِيَ أَعْجَـبُ
خَمْـسٌ وَخَمْـسٌ سِتَّـةٌ ، أَوْ سَبْعَـةٌ   قَـوْلَانِ قَـالَهُمَـا ٱلْخَلِيْـلُ وَثَعْلَـبُ . . .

* * *

ثُمَّ أَجْمَعْتُ ٱلرُّجُوْعَ مِنْ يَوْمِيْ إِلَىٰ (طَنْطَا) ، لِأَتَّقِيَ ٱلْبَرْدَ بِعِلَاجِهِ إِنْ نَالَنِيْ أَثَرُهُ ، وَكَانَ عَلَيَّ وَقْتٌ إِلَىٰ أَنْ يَقُوْمَ ٱلْقِطَارُ ، فَذَهَبْتُ فَقَضَيْتُ وَاجِبًا مِنْ زِيَارَةِ بَعْضِ ٱلأَقَارِبِ فِيْ ضَاحِيَةِ (ٱلْجِيْزَةِ) ، ثُمَّ رَكِبْتُ ٱلتِّرَامَ ٱلَّذِيْ أَعْلَمُ أَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَىٰ مَحَطَّةِ سِكَّةِ ٱلْحَدِيْدِ .

وَجَلَسْتُ أُفَكِّرُ فِيْ إِبْلِيْسَ وَمَقَالَتِهِ ، وَٱلتِّرَامُ يَنْبَعِثُ فِيْ طَرِيْقِهِ نَحْوَ ثُلُثِ ٱلسَّاعَةِ ، حَتَّىٰ بَلَغَ ٱلْمَوْضِعَ ٱلَّذِيْ يَنْعَرِجُ مِنْهُ إِلَىٰ ٱلْمَحَطَّةِ ، وَهُوَ بِحِيَالِ (جَمْعِيَّةِ ٱلإِسْعَافِ) ، حَيْثُ تَنْشَعِبُ طُرُقٌ أُخْرَىٰ ؛ وَكُنْتُ مُنْصَرِفًا إِلَىٰ ٱلتَّفْكِيْرِ مُسْتَغْرِقًا فِيْهِ ، طَائِفَ ٱلنَّظَرَاتِ عَلَىٰ ٱلْجَوِّ ، فَمَا رَاعَنِيْ إِلَّا ٱخْتِلَافُ مَنْظَرِ ٱلطَّرِيْقِ ؛ وَأَنْتَبِهُ ، فَإِذَا ٱلتِّرَامُ يَمْرُقُ مُرُوْقَ ٱلسَّهْمِ فِيْ تِلْكَ ٱلسَّبِيْلِ ٱلصَّاعِدَةِ إِلَىٰ (ٱلْجِيْزَةِ) . . . مِنْ حَيْثُ جِئْتُ .

فَلَعَنْتُ ٱلشَّيْطَانَ وَتَلَبَّثْتُ حَتَّىٰ وَقَفَ هَـٰذَا ٱلتِّرَامُ ، فَغَادَرْتُهُ وَرَجَعْتُ مُهَرْوِلًا إِلَىٰ ذَٰلِكَ ٱلْمُنْشَعَبِ ، فَصَادَفْتُ تِرَامًا آخَرَ ، فَوَثَبْتُ إِلَيْهِ كَأَنِّيْ أُحْمَلُ إِلَيْهِ حَمْلًا ، وَدَفَعْتُ ٱلأُجْرَةَ ، وَٱنْطَلَقَ ، فَإِذَا هُوَ مُنْصَبٌّ فِيْ تِلْكَ ٱلطَّرِيْقِ عَيْنِهَا ٱلذَّاهِبَةِ إِلَىٰ ٱلْجِيْزَةِ مِنْ حَيْثُ جِئْتُ . . .

(١) قِيْلَ هَـٰذَا ٱلشِّعْرُ فِيْ وَصْفِ مَرْوَانَ ٱلْكَاتِبِ ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ كَاتِبًا عَلَىٰ ٱلْخَرَاجِ ، فَسَخِرَ مِنْهُ ٱلشَّاعِرُ بِهَـٰذَا ٱلأُسْلُوْبِ ٱلْبَدِيْعِ .

وَلا أَسْتَطِيعُ ٱلانْحِدارَ مِنْهُ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ ، فَتَسَخَّطْتُ وَلَعَنْتُ ٱلشَّيْطانَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، وَرَأَيْتُ أَنَّ عَبَثَهُ قَدْ تَرادَفَ ؛ فَلَمَّا سَكَنَ ٱلتِّرامُ رَجَعْتُ مُهَرْوِلًا إِلَىٰ ذَلِكَ ٱلْمُنْشَعِبِ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلْوَقْتِ غَيْرُ قَلِيلٍ .

وَٱنْظُرْ ثَمَّ ، فَإِذا تِرامٌ وَراءَ تِرامٍ ، وَإِذا قَدْ وَقَعَتْ حادِثَةٌ لِإِحْدَىٰ ٱلسَّيَّاراتِ وَٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ وَسُدَّتِ ٱلطَّرِيقُ . . . فَجَعَلْتُ أَغْلِي مِنَ ٱلْغَيْظِ ، وَلَعَنْتُ هَـٰذا ٱلدَّعَّابَةَ ٱلْخَبِيثَ . وَأَذْكَرَنِي ٱللَّعِينُ نادِرَةَ ٱلْأَعْرابِيِّ ٱلَّذِي عَضَّهُ ثَعْلَبٌ ، فَأَتَىٰ راقِيًا ، فَقالَ لَهُ ٱلرَّاقِي : ما عَضَّكَ ؟ فَٱسْتَحَىٰ أَنْ يَقُولَ ثَعْلَبٌ ، وَقالَ : كَلْبٌ . فَلَمَّا ٱبْتَدَأَ ٱلرَّجُلُ بِرُقْيَةِ ٱلْكَلْبِ ، قالَ لَهُ ٱلْأَعْرابِيُّ : وَٱخْلِطْ بِها شَيْئًا مِنْ رُقْيَةِ ٱلثَّعالِبِ . . .

* * *

ثُمَّ إِنِّي لَمْ أَرَ بُدًّا مِنْ بُلُوغِ ٱلْمَحَطَّةِ عَلَىٰ قَدَمَيَّ لِأُتِمَّ عَلَىٰ عَزِيمَتِي فِي مُراغَمَةِ ٱللَّعِينِ ، فَأَسْرَعْتُ أَطْوِي ٱلْأَرْضَ وَكَأَنَّما أَخُوضُ فِي أَحْشائِهِ ، وَكانَ بِصَدْرِي ٱلْتِهابٌ فَهاجَ بِي ، غَيْرَ أَنِّي تَجَلَّدْتُ وَٱتَّسَعْتُ لِٱحْتِمالِهِ وَبَلَغْتُ حَيْثُ أَرَدْتُ .

ثُمَّ ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُ فِي ٱلْقِطارِ عَرَبَةً خاصَّةً أَعْرِفُها ، كانَتْ مِنْ عَرَباتِ ٱلدَّرَجَةِ ٱلْأُولَىٰ فَجَعَلُوها فِي ٱلثَّانِيَةِ يُرَفِّهُونَ بِها بَعْضَ ٱلتَّرْفِيهِ عَلَىٰ طائِفَةٍ مِنَ ٱلْمُسافِرِينَ ؛ وَأَصَبْتُ فِيها مَكانًا خالِيًا كَأَنَّما كانَ مُهَيَّأً لِي بِخاصَّةٍ . . . فَٱنْحَطَطْتُ فِيهِ إِلَىٰ جانِبِ رَجُلٍ أُورُبِّيٍّ أَحْسَبُهُ أَلْمانِيًّا لِتَفاوُتِ خَلْقِهِ وَعُنْجُهِيَّتِهِ ؛ وَجَلَسْتُ أُنَفِّسُ عَنْ صَدْرِي ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَسْخَرُ مِنْ إِبْلِيسَ وَنِكايَتِهِ ، وَجَعَلْتُ أَتَعَجَّبُ مِمَّا ٱتَّفَقَ مِنْ هَـٰذا ٱلتَّدْبِيرِ .

وَتَحَرَّكَ ٱلْقِطارُ وَٱنْبَعَثَ ، وَكانَ ٱلْأُورُبِّيُّ إِلَىٰ جانِبِي مِمَّا يَلِي ٱلنَّافِذَةَ وَقَدْ تَرَكَها مَفْتُوحَةً ، فَأَحْسَسْتُ ٱلْهَواءَ يَنْصَبُّ مِنْها كَٱلْماءِ ٱلْبارِدِ وَأَنا مُتَنَدٍّ بِٱلْعَرَقِ ؛ وَتَرَقَّبْتُ أَنْ يُغْلِقَها ٱلرَّجُلُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَصابَرْتُهُ قَلِيلًا فَإِذا هُوَ ساكِنٌ مُطْمَئِنٌّ يَتَرَوَّحُ بِٱلْهَواءِ وَكَأَنَّما يَشْرَبُهُ ، وَتَأَمَّلْتُهُ فَإِذا شَيْخٌ فِي حُدُودِ ٱلسِّتِّينَ أَوْ فَوْقَها ، غَيْرَ أَنَّهُ عَلَىٰ بَقِيَّةٍ مِنْ قُوَّةِ مُصارِعٍ فِي ٱكْتِنازِ عَضَلِهِ وَٱجْتِماعِ قُوَّتِهِ وَوَثاقَةِ تَرْكِيبِهِ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلْهَواءَ مِنْ حاجَتِهِ ، وَهَمَمْتُ أَنْ أُنَبِّهَهُ أَوْ أَقُومَ أَنا فَأُغْلِقَ ٱلنَّافِذَةَ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ فَعَلْتُ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلشَّيْطانَ ـ أَخْزاهُ ٱللهُ ـ وَسْوَسَ لِي : إِنَّ هَـٰذا رَجُلٌ أَجْنَبِيٌّ غَرْبِيٌّ ، وَأَنْتَ مِصْرِيٌّ شَرْقِيٌّ ، فَلا يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تُعْلِمَهُ

وَتُعْلِمَ ٱلْحاضِرِينَ أَمامَكُما أَنَّكَ أَنْتَ ٱلْأَضْعَفُ عَلَىٰ حِينَ أَنَّهُ هُوَ ٱلْأَسَنُّ ، وَكَيْفَ لا تَقُومُ لِما يَقُومُ لَهُ وَقَدْ كُنْتَ تُباكِرُ ٱلْماءَ ٱلْبارِدَ فِي صَمِيمِ ٱلشِّتاءِ ، وَكُنْتَ لا تَلْبَسُ فِي أَشَدِّ أَيَّامِ ٱلْبَرْدِ غَيْرَ ثِيابِ ٱلصَّيْفِ ، وَكُنْتَ تَحْمِلُ كَذا وَكَذا ثِقْلًا لِلرِّياضَةِ ، وَتُعانِي كَذا وَكَذا مِنْ ضُرُوبِ ٱلْقُوَّةِ ، وَكُنْتَ تَلْوِي بِيَدَيْكَ عُودَ ٱلْحَدِيدِ ، وَكُنْتَ وَكُنْتَ . . .

فَتَذَمَّمْتُ وَٱللهِ مِمَّا خَطَرَ لِي ؛ وَأَنِفْتُ أَنْ أُنَبِّهَ ٱلرَّجُلَ ، وَرَأَيْتُ عَمَلِي هَـٰذا ضَعْفًا وَفُسُولَةً ، وَلَمْ أَعْبَأْ بِٱلْهَواءِ وَلا بِٱلْعَرَقِ وَلا بِٱلنَّزْلَةِ ٱلشُّعَبِيَّةِ وَلا بِٱلزُّكامِ ، وَتَرَكْتُ ٱلْأُورُبِّيَّ وَشَأْنَهُ ، وَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ كِتابٍ كانَ فِي يَدِي ، وَتَناسَيْتُ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلنَّافِذَةَ جِهَةٌ مِنْ تَدْبِيرِ إِبْلِيسَ ؛ وَكانَ ٱلْقِطارُ مُزْدَحِمًا بِٱلرَّاجِعِينَ مِنَ ٱلْمَعْرِضِ ٱلزِّراعِيِّ ٱلصِّناعِيِّ ، وَبَعْضُ ٱلنَّاسِ وُقُوفٌ فَلا مَطْمَعَ فِي مَكانٍ آخَرَ . . .

وَلَبِثْتُ ساعَةً وَنِصْفَ ساعَةٍ فِي تَيَّارٍ مِنْ هَواءِ (فِبْرايِر/ شُباط) يَنْصَبُّ ٱنْصِبابًا ، وَيَعْصِفُ عَصْفًا ، وَكَأَنِّي أَسْبَحُ مِنْهُ فِي نَهْرٍ تَحْتَ ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ ٱلْماطِرِ ، وَٱلنَّاسُ مُعْجَبُونَ بِي وَبِٱلْأُورُبِّيِّ ، وَهَـٰذا ٱلْأُورُبِّيُّ مُعْجَبٌ بِي أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ رَأَىٰ مَكانِي وَعَرَفَ مَوْضِعِي ؛ وَكانَ إِلَىٰ يَمِينِي مَجْلِسٌ بَقِيَ خالِيًا وَلَمْ يُقْدِمْ أَحَدٌ عَلَىٰ أَنْ يَجْلِسَ فِيهِ خَوْفًا مِنَ ٱلْهَواءِ وَمِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْأُورُبِّيِّ . . .

ثُمَّ تَراءَيْتُ أَنْوارَ مَحَطَّةِ (طَنْطا) ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمِحْنَةِ غَيْرُ دَقِيقَتَيْنِ ؛ فَوَٱللهِ ٱلَّذِي لا يُحْلَفُ بِغَيْرِ ٱسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لَقَدْ كانَ إِبْلِيسُ رَقِيعًا جِلْفًا بارِدًا ثَقِيلَ ٱلْمِزاحِ ؛ إِذْ لَمْ أَكَدْ أَتَهَيَّأُ لِلْقِيامِ ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ ٱلرَّجُلَ ٱلْأُورُبِّيَّ قَدْ مَدَّ يَدَهُ فَأَغْلَقَ ٱلنَّافِذَةَ . . .

* * *

وَرَجَعْتُ إِلَىٰ دارِي وَأَنا أَقُولُ : ثُمَّ ماذا يا إِبْلِيسُ ! ثُمَّ ماذا أَيُّها ٱلدُّعْبُبُ[1] ؟ وَحاوَلْتُ بِجُهْدِي أَنْ أَكْتُبَ أَوْ أَقْرَأَ فَلَمْ أَتَحَرَّكْ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَكانَتِ ٱلسَّاعَةُ ٱلْعاشِرَةَ لَيْلًا ، فَصَلَّيْتُ وَأَوَيْتُ إِلَىٰ مَضْجَعِي .

ثُمَّ أَصْبَحْتُ يَوْمَ ٱلسَّبْتِ ، فَإِذا كِتابٌ مِنَ ٱلْأُسْتاذِ صاحِبِ (ٱلرِّسالَةِ) : أَنَّهُ سَيَطْبَعُ

(١) ٱلدُّعْبُبُ وَٱلْمُداعِبُ وَٱلدَّعَّابَةُ (بِتَشْدِيدِ ٱلْعَيْنِ) : كُلُّها بِمَعْنًى .

عَدَدَيْنِ مَعًا فَيُرِيدُ لَهُمَا مَقَالَتَيْنِ ، إِذْ تُغْلِقُ ٱلْمَطْبَعَةُ فِي أَيَّامِ عِيدِ ٱلأَضْحَىٰ . وَكَانَ أَمَلِي فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مَخْذُولًا مِمَّا قَاسَيْتُ ، فَكَيْفَ لِي بِٱثْنَتَيْنِ ؟

وَٱخْتَلَطَ فِي نَفْسِي هَمٌّ بِهَمٍّ ، وَمَا يُفْسِدُ عَلَيَّ أَمْرِي شَيْءٌ مِثْلُ ٱلضِّيقِ ، فَإِذَا تَضَايَقْتُ كُنْتُ غَيْرَ مَنْ كُنْتُ ؛ وَلَـٰكِنِّي تَيَقَّظْتُ وَتَنَبَّهْتُ وَأَمَّلْتُ ٱلْعَافِيَةَ مِمَّا أَجِدُهُ مِنْ ثِقْلَةِ ٱلْبَرْدِ وَضَعْفَتِهِ ، وَأَحْدَثْتُ طَمَعًا فِي ٱلنَّشَاطِ إِذَا جَلَسْتُ لِلْكِتَابَةِ فِي ٱللَّيْلِ ، فَإِنِّي بِٱلنَّهَارِ أَعْمَلُ لِلْحُكُومَةِ .

فَلَمَّا كَانَ ٱللَّيْلُ لَمْ أَجِدْ أَمْرِي عَلَىٰ مَا أُحِبُّ ، وَجَلَسْتُ مُتَفَتِّرًا مُعْتَلًّا ، وَثَقُلَ رَأْسِي مِنْ ضَرْبَةِ ٱلنَّافِذَةِ ، وَتَسَلَّطَ عَلَيَّ ظَنُّ ٱلْمَرَضِ وَٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلْكِتَابَةِ ، وَٱنْتَقَضَ ٱلأَمْرُ كُلُّهُ فَرَأَيْتُنِي أَشُقُّ عَلَىٰ نَفْسِي بِلَا طَائِلٍ ، فَكَانَ مِنْ صَوَابِ ٱلتَّدْبِيرِ عِنْدِي أَنْ أَسْتَجِمَّ بِٱلنَّوْمِ ثُمَّ أَنْهَضَ فِي ٱلسَّحَرِ لِلْكِتَابَةِ ؛ فَأَوْصَيْتُ مَنْ يُوقِظُنِي ، وَحَرَّرْنَا ٱلسَّاعَةَ ٱلْمُنَبِّهَةَ عَلَىٰ تَمَامِ ٱلثَّانِيَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ .

وَأَحْسَسْتُ أَنِّي جَائِعٌ ، وَأَنَّ مِعِدَتِي مَشْحُوذَةٌ ، وَنَسِيتُ كُلَّ مَا أَعْرِفُ مِنَ ٱلطِّبِّ ؛ وَجَاؤُونِي بِشِوَاءٍ وَحَلْوَىٰ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَحَطَطْتُ فِيهِ وَلَفَفْتُ ٱلآخَرَ بِٱلأَوَّلِ ، ثُمَّ قُمْتُ أُرِيدُ ٱلنَّوْمَ ، فَإِذَا ٱلطَّعَامُ كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَافِذَةِ ٱلْقِطَارِ ، وَكَانَ ٱلَّذِي فِي ٱلْفِكْرِ مِنَ ٱلْمَقَالَةِ أَثْقَلَ مِنَ ٱلَّذِي فِي ٱلْمَعِدَةِ مِنَ ٱلطَّعَامِ ، وَسَاءَ ٱلْهَضْمُ فِي ٱلدِّمَاغِ وَٱلْبَطْنِ جَمِيعًا !

وَجَعَلْتُ أَتَنَاوَمُ وَأُرْخِي أَعْضَائِي وَأَتَوَهَّمُ ٱلْكَرَىٰ وَأَسْتَدْنِيهِ بِكُلِّ مَا أَعْرِفُ مِنْ وَسِيلَةٍ ، ثُمَّ لَا أَزْدَادُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ إِلَّا أَرَقًا ، وَتَمَرَّدَ ٱلْفِكْرُ ، وَأَحْسَسْتُ رَأْسِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ ، وَصِرْتُ أَتَمَلْمَلُ وَلَا أَتَقَارُّ ، وَتَوَهَّمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ لِي عَقْلَانِ مَا ٱسْتَطَعْتُ كِتَابَةَ ٱلْمَقَالَةِ عَنْ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ ٱللهُ ؛ وَأَذْكَرَنِي ٱلْخَبِيثُ نَادِرَةً مُضْحِكَةً : أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَرْكَبُ حِمَارًا ضَعِيفًا ، وَكَانَ يَبْعَثُهُ فَلَا يَنْبَعِثُ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ ، فَقِيلَ لَهُ : ٱرْفُقْ بِهِ . فَقَالَ : إِذَا لَمْ يَقْدِرْ يَمْشِي فَلِمَ صَارَ حِمَارًا . . . ؟

* * *

وَقَذَفْتُ بِنَفْسِي مِنَ ٱلْفِرَاشِ وَنَظَرْتُ فِي ٱلسَّاعَةِ ، فَإِذَا هِيَ مُوشِكَةٌ أَنْ تَبْلُغَ ٱلثَّانِيَةَ وَلَمْ

أُحِسَّ ٱلرُّقَادَ بَعْدُ ، فَأَسْرَعْتُ إِلَى ٱلْمُنَبِّهَةِ وَحَرَّرْتُهَا عَلَىٰ تَمَامِ ٱلسَّاعَةِ ٱلرَّابِعَةِ صَبَاحًا ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ يُرْهِقُنِي طُغْيَانًا وَكَيْدًا ، فَطَفِقْتُ أَلْعَنُهُ ، وَمَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ رَأَى ٱللَّعْنَ مَدْحًا فَهُوَ يَسْتَزِيدُنِي . . .

ثُمَّ رَجَعْتُ أُحَاوِلُ ٱلنَّوْمَ ، فَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱللَّيْلُ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا أَوَّلُهُ آخِرُهُ إِلَىٰ أَنْ طَلَعَ ٱلْفَجْرُ .

وَجَاءَ يَوْمُ ٱلأَحَدِ وَهُوَ يَوْمُ عُطْلَةِ ٱلأُورُبِّيِّينَ ، فَمَا أَشَدَّ عَجَبِي إِذْ تَرَكَنِي فِيهِ إِبْلِيسُ كَأَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ لَهُ وَقْتًا فِي هَـٰذَا ٱلْيَوْمِ . . .

وَٱلآنَ يُزَيِّنُ لِيَ ٱلْخَبِيثُ أَنْ أَخْتِمَ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَةَ بِـ . . . بِـ . . .

وَلَـٰكِنْ لَا . لَا .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

ٱلشَّيْطَانُ(*) . . .

قَالَ ٱلشَّيْخُ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱبْنُ ٱلدَّقَّاقِ : كَانَ شَيْخِي أَبُو عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدٌ ٱلأَزْهَرِيُّ ٱلْعَجَمِيُّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ رَجُلًا صَاحِبَ آيَاتٍ وَخَوَارِقَ مِمَّا فَوْقَ ٱلْعَقْلِ ، كَأَنَّمَا هُوَ سِرٌّ مِنَ ٱلأَسْرَارِ ٱلْجَارِيَةِ فِي هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ ، قَدْ بَلَغَ بِنَفْسِهِ رُتْبَةَ ٱلنَّجْمِ فِي أُفُقِهِ ٱلْبَعِيدِ ؛ فَفِيهِ أَهْوَاءُ ٱلإِنْسَانِ وَشَهَوَاتُهُ وَطِبَاعُهُ ، إِلَّا أَنَّهَا كَنُورِ ٱلنَّجْمِ فِي تَأَلُّقِهِ وَلَأْلَائِهِ مِنْ إِشْرَاقِ رُوحِهِ وَصَفَائِهَا ؛ وَقَدِ ٱرْتَفَعَ بِآدَمِيَّتِهِ فَوْقَ نَفْسِهَا ؛ فَأَصْبَحَ فِي ٱلنَّاسِ وَمَعَهُ سَمَاؤُهُ ، يَجْعَلُهَا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ ٱلدُّنْيَا .

وَٱلرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ هَـٰذَا ٱلْمَبْلَغَ كَانَ حَيًّا كَٱلْمَيِّتِ سَاعَةَ ٱحْتِضَارِهِ : يَنْظُرُ إِلَىٰ كُلِّ مَا فِي ٱلْحَيَاةِ نَظْرَةَ مَنْ يَتْرُكُ لَا مَنْ يَأْخُذُ ، وَمَنْ يَعْتَبِرُ لَا مَنْ يَغْتَرُّ ، وَمَنْ يَلْفِظُ لَا مَنْ يَتَذَوَّقُ ، وَمَنْ يُدْرِكُ ٱلسِّرَّ لَا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِٱلظَّاهِرِ ؛ وَيَرَىٰ ٱلشَّهَوَاتِ كَأَنَّهَا مِنْ لُغَةٍ لَا يَعْرِفُهَا ، فَهِيَ أَلْفَاظٌ فِيهَا مَعَانِي أَهْلِهَا لَا مَعَانِيهِ ، وَإِنَّمَا تَلْبَسُ كَلِمَاتُنَا مَعَانِيَهَا مِنْ أَنْفُسِنَا . وَفِي ٱلنُّفُوسِ مِثْلُ ٱلْهَشِيمِ : إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُشْتَعِلَةُ ٱسْتَطَارَ حَرِيقًا وَتَضَرَّمَ ، وَفِيهَا عَلَىٰ ٱلْمُجَاهَدَةِ مِثْلُ ٱلْمَاءِ ؛ فَإِذَا خَالَطَتْهُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱنْطَفَأَتْ بِهِ وَخَمَدَتْ .

وَقَدْ سَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ مَرَّةً : كَيْفَ تَحْدُثُ ٱلْكَرَامَاتُ وَٱلْخَوَارِقُ لِلإِنْسَانِ ؟ فَقَالَ : يَا وَلَدِي ! إِنَّ ٱلإِنْسَانَ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلْمَحْجُوبِينَ يَتَصَرَّفُ فِي جِسْمِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِرُوحَانِيَّتِهِ شَيْئًا ، فَإِذَا أَبْلَىٰ فِي ٱلْمُجَاهَدَةِ وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ ٱلنُّورُ ، تَصَرَّفَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِجِسْمِهِ شَيْئًا ، فَمَنْ أَطَاقَ أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْ بَشَرِيَّتِهِ ، وَٱتَّسَعَتْ ذَاتُهُ فِي مَعَانِي ٱلسَّمَاءِ بِمِقْدَارِ مَا ضَاقَتْ مِنْ مَعَانِي ٱلأَرْضِ ، وَكَانَ مُعَدًّا لِأَنْ يَتَحَقَّقَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ ، مُعَانًا عَلَىٰ ذَٰلِكَ بِطَبِيعَةٍ فَوْقَ ٱلاعْتِدَالِ ـ فَقَدْ شَاعَ فِي ٱلْكَوْنِ ، وَأَصَابَ لَهُ وَجْهًا وَمَذْهَبًا إِلَىٰ تِلْكَ ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي تَهْدِمُ فِي ٱلْعَالَمِ وَتَبْنِي ، وَتُفَرِّقُ وَتَجْمَعُ ، وَتَنْقُلُ ٱلصُّوَرَ بَعْضَهَا إِلَىٰ بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ ٱلْكَوْنَ كُلَّهُ

(*) « الرسالة » العدد : ٨٨ ، ٦ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ١١ مارس/آذار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٣٦٣ ـ ٣٦٧ .

جَوْهَرٌ وَاحِدٌ هُوَ ٱلنُّورُ ، حَتَّىٰ ٱلْجَبَلُ هُوَ نُورٌ صَخْرِيٌّ ، وَحَتَّىٰ ٱلْبَحْرُ هُوَ نُورٌ مَائِيٌّ ، وَحَتَّىٰ ٱلْحَدِيدُ وَٱلذَّهَبُ وَٱلتُّرَابُ ، كُلُّ ذَٰلِكَ نُورٌ(١) صَرَّفَتْهُ ٱلْقُدْرَةُ ٱلإِلَـٰهِيَّةُ تَصْرِيفَهَا ٱلْمُعْجِزَ ، فَكَانَ عَلَىٰ مَا نَرَىٰ : ظَاهِرٌ مُخَيَّلٌ يُلَائِمُ نَقْصَنَا وَعَجْزَنَا ، وَحَقِيقَةٌ قَارَّةٌ عَلَىٰ غَيْرِ مَا نَرَىٰ . وَمَنْ ذَا يَعْقِلُ أَنَّ ٱلصَّخْرَ نُورٌ مُتَجَمِّدٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا عَقْلُ عَيْنِهِ وَحَوَاسِّهِ ؟ وَمَنْ ذَا يُطِيقُ أَنْ يَفْهَمَ بِحَوَاسِّهِ وَعَيْنِهِ قَوْلَ ٱللهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [٢٧ سورة النمل/الآية : ٨٨] ؟ فَٱلْجِبَالُ جَامِدَةٌ ثَابِتَةٌ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَمُرُّ بِأَرْضِهَا وَتَمُوجُ فِي نَفْسِهَا ؛ وَمَتَىٰ تَأَذَّنَ ٱللهُ أَنْ يَنْكَشِفَ نُورُ كَلَامِهِ لِلْعَقْلِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، فَسَتَكُونُ هَـٰذِهِ ٱلآيَةُ عِلْمًا جَدِيدًا فِي ٱلأَرْضِ ، يُثْبِتُ أَنَّ ٱلسَّحَابَ وَٱلْجَبَلَ مَادَّةٌ وَاحِدَةٌ وَصُنْعٌ وَاحِدٌ .

وَيَا لَهَا سُخْرِيَةً بِٱلإِنْسَانِ وَجَهْلِهِ ! فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ غَيْرَ مَا نَرَىٰ ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِي ٱلدُّنْيَا هُوَ رَدٌّ عَلَىٰ ٱلنَّظَرِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، وَيَكَادُ ٱلْجَبَلُ ٱلْعَظِيمُ يَكُونُ كَلِمَةً عَظِيمَةً تَقُولُ لِلإِنْسَانِ : « كَذَبْتَ ! » .

فَٱلشَّأْنُ فِي ٱلْخَوَارِقِ وَٱلْكَرَامَاتِ رَاجِعٌ إِلَىٰ ٱلْقُدْرَةِ أَنْ يُسَلَّطَ ٱلإِنْسَانُ ٱلرُّوحَانِيُّ مَا فِيهِ مِنْ سِرِّ ٱلنُّورِ عَلَىٰ مَا فِي بَعْضِ ٱلأَشْيَاءِ مِنْ هَـٰذَا ٱلسِّرِّ ، وَتِلْكَ هِيَ طَاعَةُ بَعْضِ ٱلْكَوْنِ لِمَنْ يَنْصَرِفُ عَنِ ٱلْمَادَّةِ وَيَتَّصِلُ بِخَالِقِهَا .

فَإِذَا بَقِيَ فِي ٱلرَّجُلِ ٱلرُّوحَانِيِّ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ جِسْمِهِ يَقُولُ : « أَنَا . . . » لَمْ يَكُنْ فِي ٱلرَّجُلِ مِنْ تِلْكَ ٱلْقُدْرَةِ ذَرَّةٌ ؛ فَإِنْ هُوَ حَاوَلَ أَنْ يَخْرِقَ ٱلْعَادَةَ ، أَبَىٰ ٱلْكَوْنُ أَنْ يَعْرِفَهُ إِلَّا كَمَا يَعْرِفُ حَجَرًا مُلْقًى يُحَاوِلُ أَنْ يَتَصَرَّفَ بِٱلْجَبَلِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْهُ فَيَنْقُلَهُ أَوْ يُزَحْزِحَهُ أَوْ يُزَلْزِلَهُ .

وَلَا خَيْرَ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ مُطْلَقًا إِلَّا وَهُوَ أَخْذٌ مِنْ حُقُوقِ هَـٰذِهِ ٱلـ« أَنَا . . . » فِي إِنْسَانِهَا ، وَلَا شَرَّ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ مُطْلَقًا إِلَّا وَهُوَ إِضَافَةُ حُقُوقٍ إِلَيْهَا ؛ فَحِينَ لَا يَبْقَىٰ لَهَا حَقٌّ فِي شَيْءٍ عِنْدَ نَفْسِهَا ، يَجِبُ لَهَا ٱلْحَقُّ { عِنْدَئِذٍ } عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ . وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْكَرَامَةُ ؛ تُكْرِمُ

(١) كَلِمَةُ (ٱلنُّورِ) هَـٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا ٱلْيَوْمَ بِٱلْكَهْرَبَاءِ ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ ٱلْكَوْنَ كُلَّهُ هُوَ هَـٰذِهِ ٱلْكَهْرُبَاءُ مُتَجَمِّدَةً عَلَىٰ مَا شَاءَ ٱللهُ أَنْ تَكُونَ .

ٱلْخَلِيقَةُ مَنْ أَكْرَمَهُ ٱلْخَالِقُ .

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ تَتَّصِلَ نَفْسُهُ بِٱللهِ ، فَلَا يَكُنْ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ حَظِّ نَفْسِهِ ، وَلَا يُؤْمِنْ إِيمَانَ هَٰؤُلَاءِ ٱلْعَامَّةِ : يَكُونُ إِيمَانُهُمْ بِٱللهِ فِكْرَةً تُذْكَرُ وَتُنْسَى ، أَمَّا عَمَلُهُمْ فَهُوَ إِيمَانُهُمُ ٱلرَّاسِخُ بِٱلْجِسْمِ وَشَهَوَاتِهِ يُذْكَرُ وَلَا يُنْسَىٰ .

وَأَنْتَ تَرَىٰ رِجَالَ ٱلرُّوحِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ ، وَلَٰكِنَّ هَٰذَا كُلَّهُ لَيْسَ فِيهِ ذَرَّةٌ مِنْ أَرْوَاحِهِمْ ، عَلَىٰ خِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنَ ٱلنَّاسِ ؛ فَهَٰؤُلَاءِ كُلُّ أَرْوَاحِهِمْ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَنَاعِمِهِمْ ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَا يَجْرِي ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ إِلَّا فِي مَجَارٍ ضَيِّقَةٍ أَشَدَّ ٱلضِّيقِ لَا يَكَادُ يَنْفُذُ مِنْهَا إِلَىٰ فِكْرٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ حُلُمٍ مِنْ أَحْلَامِ ٱلدُّنْيَا ، أَمَّا ٱلْآخَرُونَ فَٱلشَّيْطَانُ فِيهِمْ هُوَ تَيَّارُ ٱلدَّمِ ، يَعُبُّ عُبَابُهُ فِي ٱلْأَسْفَلِ وَٱلْأَعْلَىٰ .

* * *

قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ : وَكُنَّا يَوْمَئِذٍ فِي دِمَشْقَ ، فَنَبَّهَنِي كَلَامُ ٱلشَّيْخِ عَنِ ٱلشَّيْطَانِ إِلَىٰ مَا قَرَأْتُهُ عَنْ كَثِيرِينَ مِمَّنْ رَأَوُا ٱلشَّيْطَانَ أَوْ حَاوَرُوهُ أَوْ صَارَعُوهُ ؛ فَقُلْتُ لِلشَّيْخِ : إِنَّ مِنْ حَقِّكَ عَلَيَّ أَنْ أَسْأَلَكَ حَقِّي عَلَيْكَ ، وَمَا فِي نَفْسِي أَحَبُّ إِلَيَّ وَلَا أَعْجَبُ مِنْ أَنْ أَرَى ٱلشَّيْطَانَ وَأُكَلِّمَهُ وَأَسْمَعَهُ ؛ وَأَنْتَ قَادِرٌ أَنْ تَنْقُلَنِي إِلَيْهِ كَمَا نَقَلْتَنِي إِلَىٰ مَا دَخَلْتَ بِي عَلَيْهِ مِنْ عَوَالِمِ ٱلْغَيْبِ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَمَاذَا يَرُدُّ عَلَيْكَ أَنْ تَرَى ٱلشَّيْطَانَ وَتُكَلِّمَهُ ؟

قُلْتُ : سُبْحَانَ ٱللهِ ! لَا يُجْدِي عَلَيَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ أَسْخَرَ مِنْهُ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : فَإِنِّي أَخْشَىٰ يَا وَلَدِي ، أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْطَانُ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيدُ أَنْ تَرَاهُ وَتَسْمَعَهُ . . . !

قُلْتُ : فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ سِرِّهِ ، فَيَكُونُ عِلْمًا لَا سُخْرِيَةً .

قَالَ : لَوْ كَشَفَ لَكَ عَنْ سِرِّهِ لَمَا كَانَ شَيْطَانًا ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ بِسِرِّهِ لَا بِغَيْرِهِ .

قُلْتُ : فَأُرِيدُ أَنْ أَرَى ٱلشَّيْطَانَ لِأَكُونَ قَدْ رَأَيْتُ ٱلشَّيْطَانَ !

قَالَ ٱلشَّيْخُ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ ! لَوْ كُنْتَ يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ بِأَرْبَعِ أَرْجُلٍ لَهَرَبْتَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ بِثَلَاثٍ مِنْهَا وَتَرَكْتَهُ يَجُرُّكَ مِنْ وَاحِدَةٍ !

قُلْتُ : يَا سَيِّدِي ! فَلَوْ كُنْتُ حِمَارًا لَبَطَلَ عَمَلُ ٱلشَّيْطَانِ فِي أَرْجُلِيَ ٱلْأَرْبَعِ كُلِّهَا ، إِذْ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَىٰ إِغْوَاءِ حِمَارٍ !

فَتَبَسَّمَ ٱلشَّيْخُ وَقَالَ : وَلَا بُدَّ أَنْ تَرَى ٱلشَّيْطَانَ وَتُكَلِّمَهُ ؟

قُلْتُ : لَا بُدَّ .

قَالَ : إِنَّهُ هُوَ يَقُولُهَا ، فَقُمْ !

* * *

قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ : وَكَانَ ٱلشَّيْخُ إِذَا مَشَىٰ إِلَىٰ أَمْرٍ خَارِقٍ بَقِيتُ مَعَهُ غَائِبًا عَنِ ٱلْحِسِّ ، كَأَنَّهُ يُبْطِلُ مِنِّي مَا أَنَا بِهِ أَنَا ، فَأُصْبِحُ ظِلًّا آدَمِيًّا مُعَلَّقًا بِهِ . وَلَا تَقَعُ ٱلْخَوَارِقُ إِلَّا لِمَنْ وَجَدَ ٱلْقُوَّةَ ٱلْمُكَمِّلَةَ لِرُوحِهِ ، وَهَٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ تُسْتَمَدُّ مِنَ ٱلشَّيْخِ ٱلْوَاصِلِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِمَامٍ يَأْخُذُ عَنْ إِمَامٍ ، كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ نَفْسِيَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ ، فَتَتَغَيَّرُ ٱلْوَاحِدَةُ مِنْهَا بِٱلْوَاحِدَةِ ، إِذْ تَقَعُ فِي جَوِّهَا فَتُورِقُ وَتُثْمِرُ ؛ كَٱلشَّجَرَةِ : جَوٌّ يَكْسُوهَا ، وَجَوٌّ يُذْبِلُهَا ، وَجَوٌّ يَسْلُبُهَا سَلْبًا ؛ وَكَذَٰلِكَ تَفْعَلُ ٱلنَّفْسُ إِذَا كَانَ لَهَا جَوٌّ .

وَخَرَجْنَا مِنْ دِمَشْقَ وَأَنَا خَلْفَ ٱلشَّيْخِ كَٱلْمَحْمُولِ ، فَرَأَيْتُنَا وَقَدْ أَشْرَفْنَا عَلَىٰ بِنَاءٍ عَظِيمٍ ، وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا يَتَلَقَّوْنَ ٱلشَّيْخَ وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَيَتَبَرَّكُونَ بِمَقْدَمِهِ ؟ فَأَنْكَرَتْهُمْ نَفْسِي وَوَجَدْتُ مِنْهُمْ وَحْشَةً ، فَٱلْتَفَتَ إِلَيَّ ٱلشَّيْخُ وَقَالَ : هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ ٱلْجِنِّ ، وَمَا إِلَيْهِمْ قَصَدْنَا ، فَلَا تَشْتَغِلْ بِمَا تَرَى وَٱشْتَغِلْ بِي .

ثُمَّ نَنْتَهِي إِلَى ٱلْبِنَاءِ ٱلْعَظِيمِ ، فَتَسْتَقْبِلُنَا طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ ، وَيُدْخِلُونَ ٱلشَّيْخَ وَأَنَا خَلْفَهُ ، وَيَمُرُّونَ بِنَا عَلَىٰ دُنْيَا مَخْبُوءَةٍ تُعْجِزُ ٱلْوَصْفَ ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ؛ فَيَقُولُونَ : هَٰذِهِ كُنُوزُ سُلَيْمَانَ وَذَخَائِرُهُ ، وَيَطُوفُونَ بِٱلشَّيْخِ يَعْرِضُونَهَا عَلَيْهِ كَنْزًا كَنْزًا ؛ فَرَأَيْنَا ثَمَّ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ، ثُمَّ ٱنْتَهَيْنَا آخِرًا إِلَىٰ مَغَارَةٍ خَسِيفَةٍ كَأَنَّهَا عِرْقٌ مِنْ عُرُوقِ جِسْمِ ٱلْأَرْضِ ، يَتَفَجَّرُ مِنْهَا دَوِيٌّ كَٱلرَّعْدِ ٱلْقَاصِفِ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱلسَّمْعِ كَخُوَارِ ٱلثَّوْرِ ، إِلَّا أَنَّهُ ثَوْرٌ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ رَأْسَهُ فِي قَدْرِ جَبَلٍ عَظِيمٍ ، يَتَعَلَّقُ بِهِ غَبْغَبٌ[1] فِي قَدْرِ جَبَلٍ آخَرَ ، عَلَىٰ جِسْمٍ

(١) غَبْغَبُ ٱلثَّوْرِ وَغَبَبُهُ : مَا تَثَنَّى مِنْ لَحْمِ ذَقْنِهِ مِنْ أَسْفَلَ .

يَسُدُّ ٱلْخَافِقَيْنَ ، فَخُوَارُهُ كَأَنَّهُ صُرَاخُ ٱلْأَرْضِ ، وَإِذَا أَنَا بِأَقْبَحِ مَكَانٍ مَنْظَرًا ، وَأَنْتَنِهِ رِيحًا ، كَأَنَّهُ سِجْنٌ بِنَاؤُهُ مِنَ ٱلْجِيَفِ .

فَقُلْتُ : مَا هَـٰذَا ؟

قَالُوا : هَـٰذَا سِجْنُ إِبْلِيسَ ، وَهُوَ هُنَا فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَغَارَةِ مُنْذُ زَمَنِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

قُلْتُ : أَفَمَسْجُونٌ هُوَ ؟

قَالُوا : وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مُوَقَّرٌ بِأَمْثَالِ ٱلْجِبَالِ حَدِيدًا يَرْبِضُ بِهِ فِي مَحْبِسِهِ ، فَلَا يَتَزَحْزَحُ وَلَا يَتَحَلْحَلُ .

قُلْتُ : وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ قَدْ مَلأَ ٱلدُّنْيَا فَسَادًا ، فَكَيْفَ بِهِ لَوْ كَانَ طَلِيقًا ؟

قَالُوا : فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ طَلِيقًا لَاسْتَحْوَذَ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ كَافَّةً ؛ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ ٱلْأَرْضِ عَلَىٰ شَهْوَةٍ وَاحِدَةٍ لَا شَيْءَ غَيْرُهَا ، فَيَبْطُلُ مَعَ هَـٰذِهِ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْوَاحِدَةِ كُلُّ تَدْبِيرٍ بَيْنَهُمْ ، فَلَا تَقُومُ لَهُمْ سِيَاسَةٌ ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَازِعٌ ؛ فَيَرْجِعُونَ كَالْكِلَابِ أَصَابَهَا ٱلْكَلَبُ وَهَاجَ بِهَا ، فَأَنْيَابُهَا فِي لَحْمِهَا ، لَا يَزَالُ يَعَضُّ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَلَيْسَ لِجَمِيعِهَا إِلَّا عَمَلٌ وَاحِدٌ يُسْلِمُهَا إِلَىٰ ٱلْهَلَاكِ ، وَيُصْبِحُ ظَهْرُ ٱلْأَرْضِ أَعْرَىٰ مِنْ سَرَاةِ أَدِيمٍ .

وَإِنَّمَا يَصْلُحُ ٱلنَّاسُ بِٱخْتِلَافِ شَهَوَاتِهِمْ وَتَنَافُرِهَا وَتَنَازُعِهَا ؛ فَبَعْضُهَا يَحْكُمُ بَعْضًا ، وَشَيْءٌ مِنْهَا يَزَعُ شَيْئًا ، وَمَنْ تَخَلَّصَ مِنْ نَزْوَةٍ قَمَعَ بِهَا نَزْوَةً أُخْرَىٰ ؛ كَالْمُتَزَوِّجِ ٱلْمُحْصَنِ : يَحْكُمُ بِالْجَلْدِ وَٱلرَّجْمِ عَلَىٰ مَنْ لَيْسَتْ لَهُ ٱمْرَأَةٌ فَزَنَىٰ ؛ وَكَالْغَنِيِّ ٱلْوَاجِدِ : يَحْكُمُ عَلَىٰ ٱللِّصِّ ٱلَّذِي لَمْ يَجِدْ فَسَرَقَ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

وَمَا يَنْشَأُ ٱلنَّاسُ فِي ثَلَاثَةِ أَعْمَارٍ ، فَيَشِبُّونَ وَيَكْتَهِلُونَ وَيَهْرَمُونَ ، إِلَّا لِتَخْتَلِفَ شَهَوَاتُهُمْ وَتَخْتَلِفَ مَقَادِيرُ ٱلرَّغْبَةِ فِيهَا ، فَتَتَحَقَّقُ مِنْ ثَمَّ تِلْكَ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ فِي ٱلتَّدْبِيرِ ، وَيَجِدُ ٱلشَّرْعُ مَحَلَّهُ بَيْنَهُمْ ، كَمَا يَجِدُ ٱلْعِصْيَانُ بَيْنَهُمْ مَحَلَّهُ .

وَلَوْ أَنَّ أُمَّةً كُلَّهَا أَطْفَالٌ أَوْ كُهُولٌ أَوْ شُيُوخٌ ، لَبَادَتْ فِي جِيلٍ وَاحِدٍ ؛ وَإِنَّهُ لَيْسَ أَسْمَجَ مِنَ ٱلرَّذِيلَةِ تَكُونُ وَحْدَهَا فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا ٱلْفَضِيلَةَ تَكُونُ وَحْدَهَا ، فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ يَظْهَرُ بِهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، كَالضِّدِّ وَٱلضِّدِّ ؛ وَٱلْمَعْرَكَةُ إِذَا ٱنْتَصَرَ كُلُّ مَنْ فِيهَا كَانَتْ هَزْلًا وَكَانَتْ شَيْئًا غَيْرَ ٱلْمَعْرَكَةِ .

قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ : وَقُلْتُ لَهُمْ : فَإِذَا كَانَ ٱلشَّيْطَانُ سَجِينًا قَدْ رَبَضَتْ بِهِ أَثْقَالُهُ ، حَتَّىٰ لَهُوَ فِي سِجْنٍ مِنْ سِجْنٍ مُبَالَغَةً فِي كَفِّهِ وَٱلتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ ـ فَكَيْفَ يَفْتِنُ ٱلنَّاسَ فِي أَرْجَاءِ ٱلْأَرْضِ وَيُوَسْوِسُ فِي قُلُوبِهِمْ ، حَتَّىٰ لَهُوَ يَدٌ بَيْنَ كُلِّ يَدَيْنِ ، وَحَتَّىٰ لَهُوَ ٱلْعَيْنُ ٱلثَّالِثَةُ لِعَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ ؟

قَالُوا : إِنَّ فِي رُوحِهِ ٱلنَّارِيَّةِ قُوَّةً تَفْصِلُ مِنْهَا وَتَنْتَشِرُ فِي ٱلْأَرْضِ ، كَشُعَاعِ ٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلشَّمْسِ : هَـٰذِهِ كُرَةٌ نَارِيَّةٌ مَيِّتَةٌ مُعَلَّقَةٌ عَلَىٰ ٱلْأَجْسَامِ مُرْصَدَةٌ لَهَا ، وَتِلْكَ كُرَةٌ نَارِيَّةٌ حَيَّةٌ مُعَلَّقَةٌ عَلَىٰ ٱلنُّفُوسِ مُرْصَدَةٌ لَهَا ، وَبِهَـٰذِهِ وَتِلْكَ عَمَارُ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِ ٱلدُّنْيَا .

قُلْتُ : لَعَلَّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقُولُوا : خَرَابُ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِ ٱلدُّنْيَا . فَغَلِطْتُمْ ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَجِيْءَ بَدَلَ ٱلْغَلَطِ . . . .

فَقَالَ أَحَدُهُمْ : يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ ! خَرَقَ ٱلثَّوْبُ ٱلْمِسْمَارَ . جَازَ هُنَا لِأَمْنِ ٱللَّبْسِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَفْعُولُ بِهِ ـ وَهُوَ ٱلثَّوْبُ ـ مَرْفُوعًا وَفَاعِلُهُ ـ وَهُوَ ٱلْمِسْمَارُ ـ مَنْصُوبًا ، هَلْ جِئْتَ ـ وَيْحَكَ ـ تَطْلُبُ ٱلنَّحْوَ أَوْ تَطْلُبُ ٱلشَّيْطَانَ . . . !

* * *

قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ : فَقَطَعَنِي ٱلْجِنِّيُّ ـ وَٱللهِ ـ وَأَخْجَلَنِي ، وَنَظَرْتُ خِلْسَةً إِلَىٰ ٱلشَّيْخِ أَرَاهُ كَيْفَ يَسْخَرُ مِنِّي ، فَإِذَا ٱلشَّيْخُ قَدِ ٱمَّلَسَ فَلَا أَرَاهُ ، وَإِذَا أَنَا وَحْدِي بَيْنَ ٱلْجِنِّ وَبِإِزَاءِ هَـٰذَا ٱلسَّاحِرِ ٱلَّذِي وُضِعَتْ عَيْنُهُ فِي جَبْهَتِهِ وَشُقَّ فَمُهُ فِي قَفَاهُ . . ! فَسُرِّيَ عَنِّي وَزَالَ مَا أَجِدُهُ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : ٱلْآنَ أَبْلُغُ أَرَبِي مِنَ ٱلشَّيْطَانِ وَيَكُونُ ٱلْأَمْرُ عَلَىٰ مَا أُرِيدُ ، فَلَا أَجِدُ مَنْ أَحْتَشِمُ وَلَا تَقْطَعُنِي هَيْبَةُ ٱلشَّيْخِ . . . !

وَوَقَعَ هَـٰذَا ٱلْخَاطِرُ فِي نَفْسِي ، فَٱسْتَعَذْتُ بِٱللهِ وَلَعَنْتُ ٱلشَّيْطَانَ وَقُلْتُ : هَـٰذَا أَوَّلُ عَبَثِهِ بِي وَجَعْلُهُ إِيَّايَ مِنْ أَهْلِ ٱلرِّيَاءِ ، كَأَنَّ لِي شَأْنًا فِي حُضُورِ ٱلشَّيْخِ وَشَأْنًا فِي غِيَابِهِ ، وَكَأَنِّي مُنَافِقٌ أُعْلِنُ غَيْرَ مَا أُسِرُّ ، وَقُلْتُ : إِنَّا للهِ ! كِدْتَ يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ تَتَشَيْطَنُ !

ثُمَّ هَمَمْتُ أَنْ أَنْكِصَ عَلَىٰ عَقِبَيَّ ، فَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلشَّيْخَ إِنَّمَا تَخَلَّىٰ عَنِّي لِأَكُونَ هُنَا بِنَفْسِي لَا بِهِ ، وَمَا أَنَا هُنَا إِلَّا بِهِ لَا بِنَفْسِي ، فَيُوشِكُ إِذَا بَقِيتُ فِي مَوْضِعِي أَنْ أَهْلِكَ ! بَيْدَ

أَنَّ ٱلْمَغَارَةَ ٱنْكَشَفَتْ لِيْ فَجْأَةً ، فَمَا مَلَكْتُ أَنْ أَنْظُرَ ؛ وَنَظَرْتُ فَمَا مَلَكْتُ أَنْ أَقِفَ ، وَوَقَفْتُ أَرَىٰ ، فَإِذَا دُخَانٌ قَدْ هَاجَ فَٱرْتَفَعَ يَثُوْرُ ثَوَرَانُهُ حَتَّىٰ تَمَلأَ ٱلْمَكَانُ بِهِ ، ثُمَّ رَقَّ وَلَطُفَ .

وَٱسْتَضْرَمَتْ مِنْهُ نَارٌ عَظِيْمَةٌ لَهَا وَهَجَانٌ شَدِيْدٌ يَضْطَرِمُ بَعْضُهَا فِيْ بَعْضٍ ، وَيُسْمَعُ مِنْ صَوْتِهَا مَعْمَعَةٌ قَوِيَّةٌ ، ثُمَّ خَمَدَتْ .

وَٱنْفَجَرَ فِيْ مَوْضِعِهَا كَٱلسَّدِّ ٱلْمُنْبَثِقِ مِنْ مَاءٍ كَثِيْفٍ أَبْيَضَ أَصْفَرَ أَحْمَرَ ، كَأَنَّهُ صَدِيْدٌ يَتَقَيَّحُ فِيْ دَمٍ ، ثُمَّ غَاضَ .

وَتَتَبَّعَتْ فِيْ مَكَانِهِ حَمْأَةٌ مُنْتِنَةٌ جَعَلَتْ تَرْبُوْ وَتَعْظُمُ حَتَّىٰ خِفْتُ أَنْ تَبْتَلِعَنِيْ وَأَذْهَبَ فِيْهَا ، فَسَمَّيْتُ ٱللهَ تَعَالَىٰ فَغَارَتْ فِي ٱلْأَرْضِ .

ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا كَلْبٌ أَسْوَدُ مُحْمَرُّ ٱلْحَمَالِيْقِ ، هَائِلُ ٱلْخِلْقَةِ مُسْتَأْسِدٌ ، قَدْ وَقَفَ عَلَىٰ جِيْفَةٍ قَذِرَةٍ غَابَ فِيْهَا خَطْمُهُ يَعُبُّ مِمَّا تَسِيْلُ بِهِ .

فَقُلْتُ : أَيُّهَا ٱلْكَلْبُ ! أَأَنْتَ ٱلشَّيْطَانُ ؟

وَٱنْظُرُ فَإِذَا هُوَ مَسْخٌ شَائِهٌ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ فِيْ بَهِيْمَةٍ قَدِ ٱمْتَزَجَا وَطَغَىٰ مِنْهُمَا شَيْءٌ عَلَىٰ شَيْءٍ ، أَمَّا وَجْهُهُ ، فَأَقْبَحُ شَيْءٍ مَنْظَرًا ، تَحْسَبُهُ قَدْ لَبِسَ صُوْرَةَ أَعْمَالِهِ . .

وَنَطَقَ فَقَالَ : أَنَا ٱلشَّيْطَانُ !

قُلْتُ : فَمَا تِلْكَ ٱلْجِيْفَةُ ؟

قَالَ : تِلْكَ دُنْيَاكُمْ فِيْ شَهَوَاتِهَا ، وَأَنَا أَلْتَقِمُ قَلْبَ ٱلْفَاسِقِ أَوِ ٱلْآثِمِ مِنْكُمْ ، كَمَا أَلْتَقِمُ دُوْدَةً مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْجِيْفَةِ .

قُلْتُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ وَعَلَى ٱلْفَاسِقِيْنَ وَٱلْآثِمِيْنَ ، فَكَيْفَ كُنْتَ دُخَانًا ، ثُمَّ ٱنْقَلَبْتَ نَارًا ، ثُمَّ رَجَعْتَ قَيْحًا ، ثُمَّ صِرْتَ حَمْأَةً ، ثُمَّ كُنْتَ كَلْبًا عَلَىٰ جِيْفَةٍ ؟

قَالَ : لَا تَلْعَنِ ٱلْفَاسِقِيْنَ وَٱلْآثِمِيْنَ ؛ فَإِنَّهُمُ ٱلْعُبَّادُ ٱلصَّالِحُوْنَ بِأَحَدِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ ، وَأَنْتَ وَأَمْثَالُكَ عُبَّادٌ صَالِحُوْنَ بِٱلْمَعْنَى ٱلْآخَرِ ، أَلَيْسَ فِي ٱلدُّنْيَا حَيَاءٌ وَوَقَاحَةٌ ؟ فَأُوْلَـٰئِكَ يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ هُمْ وَقَاحَتِيْ أَنَا عَلَى ٱللهِ ! أَنَا مَعَكُمْ فِيْ زُهْدِكُمْ حِرْمَانُ ٱلْحِرْمَانِ ، وَفَقْرُ ٱلْفَقْرِ ، وَلَقَدْ أَهْلَكْتُمُوْنِيْ بُؤْسًا ؛ غَيْرَ أَنِّيْ مَعَهُمْ لَذَّةُ ٱللَّذَّةِ ، وَشَهْوَةُ ٱلشَّهْوَةِ ، وَغِنَى ٱلْغِنَىٰ ، لَا تَتِمُّ

لَذَّةٌ فِيْ ٱلْأَرْضِ ، وَلَا تَحْلُوْ لِذَائِقِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَلَالًا ، إِلَّا إِذَا وَضَعْتُ أَنَا فِيْهَا مَعْنًى مِنْ مَعَانِيَّ أَوْ وَقَاحَةً مِنْ وَقَاحَتِيْ ! حَتَّىٰ لَأَجْعَلُ ٱلزَّوْجَةَ لِزَوْجِهَا مِثْلَ ٱلشِّعْرِ ٱلْبَلِيْغِ إِذَا ٱسْتَعَارَ لَهَا مَعْنًى مِنِّيْ ، وَكُلُّ مَا فَسَدَتْ بِهِ ٱلْمَرْأَةُ فَهُوَ مَجَازِيٌّ وَٱسْتِعَارَتِيْ لَهَا أَجْعَلُهَا بِهِ بَلِيْغَةً . . .

وَأَنْتُمْ يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ تَقْطَعُوْنَ حَيَاتَكُمْ كُلَّهَا تُجَاهِدُوْنَ إِثْمَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ حَيَاةِ عُبَّادِيْ ، فَٱنْظُرْ ـ رَحِمَكَ ٱللهُ ـ لَئِنْ كَانَتْ سَاعَةٌ مِنْ حَيَاتِهِمْ هِيَ جَهَنَّمُكُمْ أَنْتُمْ ، فَكَيْفَ تَكُوْنُ جَهَنَّمُ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمَسَاكِيْنِ ؟

إِنَّكَ رَأَيْتَنِيْ دُخَانًا لِأَنِّيْ كَذَلِكَ أَنْبَعِثُ فِي ٱلْقَلْبِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ، فَمَتَىٰ تَحَرَّكْتُ فِيْهِ حَرَكَةَ ٱلشَّرِّ كُنْتُ كَٱلِاحْتِيَالِ لِإِضْرَامِ ٱلنَّارِ بِٱلنَّفْخِ عَلَيْهَا ؛ فَمِنْ ثَمَّ أَكُوْنُ دُخَانًا ، فَإِذَا غَفَلَ عَنِّيْ صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ تَضَرَّمْتُ فِيْ قَلْبِهِ نَارًا تَطْلُبُ مَا يُطْفِئُهَا ؛ ثُمَّ يُوَاقِعُ ٱلْإِثْمَ وَٱلْمَعْصِيَةَ { وَيَقْضِيْ } نَهْمَتَهُ فَأَبْرُدُ عَنْ قَلْبِهِ ، فَيَكُوْنُ فِيْ قَلْبِهِ مِثْلُ ٱلْحَرْقِ ٱلَّذِيْ بَرَدَ فَتَأَكَّلَ مَوْضِعُهُ فَتَقَيَّحَ ، ثُمَّ يَخْتَلِطُ قَيْحُ أَعْمَالِهِ بِمَادَّتِهِ ٱلتُّرَابِيَّةِ ٱلْأَرْضِيَّةِ ، فَيَنْقَلِبُ هَـٰذَا ٱلْمِسْكِيْنُ حَمْأَةً إِنْسَانِيَّةً لَا تَزَالُ تَرْبُوْ وَتَنْتَفِخُ كَمَا رَأَيْتَ .

قُلْتُ : أَعُوْذُ بِٱللهِ مِنْكَ ! أَفَلَا تَعْرِفُ شَيْئًا يَرُدُّكَ عَنِ ٱلْقَلْبِ وَأَنْتَ دُخَانٌ بَعْدُ ؟

فَقَهْقَهَ ٱللَّعِيْنُ وَقَالَ : مَا أَشَدَّ غَفْلَتَكَ يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ ، إِذْ تَسْأَلُ ٱلشَّيْطَانَ أَنْ يَخْتَرِعَ ٱلتَّوْبَةَ ! أَمَا لَوْ أَنَّ شَيْئًا يَخْتَرِعُ ٱلتَّوْبَةَ فِي ٱلْأَرْضِ لَٱخْتَرَعَهَا ٱلْقَبْرُ ٱلَّذِيْ يَدْفِنُ فِيْهِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا كُلَّ طَرْفَةِ عَيْنٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، فَتُنْزِلُوْنَ فِيْهِ ٱلْمَيْتَ ٱلْمِسْكِيْنَ قَدِ ٱنْقَطَعَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَتْرُكُوْنَهُ لِآثَامِهِ ، وَحِسَابِ آثَامِهِ ، وَٱلْهَلَاكِ ٱلْأَبَدِيِّ فِيْ آثَامِهِ ؛ ثُمَّ تَعُوْدُوْنَ أَنْتُمْ لِاقْتِرَافِ هَـٰذِهِ ٱلْآثَامِ بِعَيْنِهَا !

قُلْتُ : عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَيُّهَا ٱللَّعِيْنُ ؛ وَلَـٰكِنْ أَلَا يَتَبَدَّدُ هَـٰذَا ٱلدُّخَانُ إِذَا ضَرَبَتْهُ ٱلرِّيْحُ أَوْ أَنْطَفَأَ مَا تَحْتَهُ !

قَالَ : أَوَّهْ ! لَقَدْ أَوْجَعْتَنِيْ كَأَنَّمَا ضَرَبْتَنِيْ بِجَبَلٍ[1] مِنْ نَارٍ ، إِنَّ نَبِيَّكُمْ عَرَفَهَا وَلَـٰكِنَّكُمْ أَغْبِيَاءُ ؛ تَأْخُذُوْنَ كَلَامَ نَبِيِّكُمْ كَأَنَّمَا هُوَ كَلَامٌ لَا عَمَلٌ ، وَكَأَنَّهُ كَلَامُ إِنْسَانٍ فِيْ وَقْتِهِ لَا كَلَامُ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « بِحَبَلٍ » بَدَلًا مِنْ : « بِجَبَلٍ » .

ٱلنُّبُوَّةِ لِلدَّهْرِ كُلِّهِ وَلِلْحَيَاةِ كُلِّهَا ؛ وَلِهَـٰذَا غَلَبْتُ أَنَا ٱلأَنْبِيَاءَ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ ، فَإِنِّيْ أَضَعُ ٱلْمَعَانِيَ ٱلَّتِيْ تَعْمَلُ ، لَا ٱلْحِكْمَةَ ٱلْمَتْرُوْكَةَ لِمَنْ يَعْمَلُ بِهَا وَمَنْ لَا يَعْمَلُ .

أَتَدْرِيْ يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ ، لِمَاذَا أَعْجَزَنِيْ أَسْلَافُكُمُ ٱلأَوَّلُوْنَ مِثْلَ : عُمَرَ وَأَبِيْ بَكْرٍ ؟ حَتَّىٰ كَانَ إِسْلَامُهُمْ مِنْ أَكْبَرِ مَصَائِبِيْ ، فَتَرَكُوْنِيْ زَمَنًا ـ وَأَنَا ٱلشَّيْطَانُ ـ أَرْتَابُ فِيْ أَنِّيْ أَنَا ٱلشَّيْطَانُ . . . ؟

قُلْتُ : لِمَاذَا ؟

قَالَ : أَرَاكَ ٱلآنَ لَمْ تَلْعَنْ ، فَلَسْتُ قَائِلَهَا إِلَّا إِذَا تَرَحَّمْتَ عَلَيَّ .

قُلْتُ : عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ مِنْ لَعَنَاتِ ٱللهِ ! قُلْ لِمَاذَا ؟

قَالَ : أَسَائِلٌ وَيَأْمُرُ ؟ وَطُفَيْلِيٌّ وَيَقْتَرِحُ ؟ لَا بُدَّ أَنْ تَتَرَحَّمَ !

قُلْتُ : يَرْحَمُنَا ٱللهُ مِنْكَ ! قُلْ لِمَاذَا ؟

قَالَ : وَهَـٰذِهِ لَعْنَةٌ فِيْ لَفْظَةِ رَحْمَةٍ ؛ لَا ، إِلَّا أَنْ تَتَرَحَّمَ عَلَيَّ ، أَنَا إِبْلِيْسُ ٱلرَّجِيْمُ !

قُلْتُ : فَيُغْنِيْ ٱللهُ عَنْ عِلْمِكَ ؛ لَقَدْ أَلْهَمَتْنِيْهَا رُوْحُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ ٱلنُّبُوَّةَ كَانَتْ هِيَ بِأَعْمَالِهَا وَصِفَاتِهَا تَفْسِيْرًا لِلأَلْفَاظِ عَلَىٰ أَسْمَىٰ ٱلْوُجُوْهِ وَأَكْمَلِهَا ، فَكَانَ رُوْحُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ لِتِلْكَ ٱلأَرْوَاحِ كَٱلأُمِّ لِأَبْنَائِهَا ؛ وَقَدْ رَأَوْهُ لَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِحَظِّ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيْمُ إِلَّا بِٱلْقَصْدِ فِيْ أَمْرِ ٱلنَّفْسِ ، وَجَعْلِ نَاحِيَةِ ٱلإِسْرَافِ فِيْهَا إِسْرَافًا فِيْ ٱلْعَمَلِ لِسَعَادَةِ ٱلنَّاسِ . وَكُلَّمَا ٱرْتَدَّ ٱلإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ وَحُظُوْظِهَا ٱرْتَدَّ إِلَيْكَ ـ أَيُّهَا ٱللَّعِيْنُ ـ وَأَقْبَلَ عَلَىٰ شَقَاءِ نَفْسِهِ ، وَكُلَّمَا عَمِلَ لِسَعَادَةِ غَيْرِهِ ٱبْتَعَدَ عَنْكَ ـ أَيُّهَا ٱلرَّجِيْمُ ـ وَأَقْبَلَ عَلَىٰ سَعَادَةِ نَفْسِهِ ، وَتَرْكُ ٱلْغَضَبِ وَحُظُوْظِ ٱلنَّفْسِ هُوَ ٱلصَّبْرُ ؛ وَصَبْرُ ٱلأَنْبِيَاءِ وَٱلصِّدِّيْقِيْنَ لَيْسَ صَبْرًا عَلَىٰ شَيْءٍ بِعَيْنِهِ فِيْ ٱلْحَيَاةِ ، بَلْ هُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَىٰ حَوَادِثِ ٱلْعُمْرِ كُلِّهِ ، كَصَبْرِ ٱلْمُسَافِرِ ؛ إِنْ كَانَ عَزِيْمَةً مُدَّةَ ٱلطَّرِيْقِ كُلِّهَا ، وَإِلَّا كَانَ فَسَادًا فِيْ ٱلْقُوَّةِ وَوَقَعَ بِهِ ٱلْخِذْلَانُ .

فَهَـٰذَا ٱلصَّبْرُ ٱلْمُعْتَزِمُ ٱلْمُصَمِّمُ ، ٱلَّذِيْ يُوَطِّنُ بِهِ ٱلرَّجُلُ نَفْسَهُ أَنْ يَكُوْنَ رَجُلًا إِلَىٰ ٱلآخِرِ ـ هُوَ تَعَبُ ٱلدُّنْيَا ، وَلَـٰكِنَّهُ هُوَ رَوْحُ ٱلْجَنَّةِ مَعَ ٱلإِنْسَانِ فِيْ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْمُؤْمِنُ ٱلصَّابِرُ رَجُلٌ مُقْفَلٌ عَلَيْهِ بِأَقْفَالِ ٱلْمَلَائِكَةِ ٱلَّتِيْ لَا يَقْتَحِمُهَا ٱلشَّيْطَانُ وَلَا تَفْتَحُهَا مَصَائِبُ ٱلدُّنْيَا ؛ وَلِذَلِكَ

قَالَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يُنْضِيْ شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِيْ أَحَدُكُمْ بَعِيْرَهُ فِيْ سَفَرِهِ » [« مسند الإمام أحمد » ، رقم : ٨٧١٧] . كَأَنَّهُ يَقُوْلُ : لَوْ لَمْ يَصْبِرِ ٱلْمُسَافِرُ دَائِبًا مُعْتَزِمًا مُدَّةَ سَفَرِهِ كُلَّهَا لَمَا أَنْضَىٰ بَعِيْرَهُ ، وَلَوْ لَمْ يَصْبِرِ ٱلْمُؤْمِنُ دَائِبًا مُعْتَزِمًا مُدَّةَ حَيَاتِهِ كُلَّهَا لَمَا أَنْضَىٰ شَيْطَانَهُ .

فَصَاحَ ٱلشَّيْطَانُ : أَوَّهْ ، أَوَّهْ ! وَلَـٰكِنْ قُلْ لِيْ يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ : مَا صَبْرُ رَجُلٍ مُؤْمِنٍ قَوِيِّ ٱلإِيْمَانِ ، قَدِ ٱسْتَطَاعَ بِقُوَّةِ إِيْمَانِهِ أَنْ يُفِيْقَ مِنْ سُكْرِ ٱلْغِنَىٰ ، فَتَخَلَّصَ مِنْ نَزَوَاتِ ٱلشَّيَاطِيْنِ ٱلذَّهَبِيَّةِ ٱلصَّغِيْرَةِ ٱلَّتِيْ تُسَمُّوْنَهَا ٱلدَّنَانِيْرُ ؛ وَقَدْ أَرَدْتُهُ عَلَىٰ أَنْ يَكْذِبَ ، فَرَأَىٰ ٱلإِيْمَانَ أَنْ يَصْدُقَ ؛ وَجَهَدْتُ بِهِ أَنْ يَغْضَبَ ، فَرَأَىٰ ٱلْحِكْمَةَ أَنْ يَهْدَأَ ؛ وَحَاوَلْتُ مِنْهُ أَنْ يَطْمَعَ ، فَرَأَىٰ ٱلرَّاحَةَ أَنْ يَرْضَىٰ ؛ وَسَوَّلْتُ لَهُ أَنْ يَحْسُدَ ، فَرَأَىٰ ٱلْفَضِيْلَةَ أَلَّا يُبَالِيْ ؛ وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِيْ ٱلْحَيَاةِ بِمَا يَثِقُ أَنَّهُ ٱلإِيْمَانُ وَٱلصَّبْرُ وَٱلْهُدُوْءُ وَٱلرِّضَا وَٱلْقَنَاعَةُ ؛ وَأَحَاطَ نَفْسَهُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلأَخْلَاقِ بِٱلسَّعَادَةِ ٱلْقَلْبِيَّةِ وَٱجْتَزَأَ بِهَا ؛ وَقَصَرَ نَظَرَهُ عَلَىٰ ٱلْحَقِيْقَةِ ؛ وَوَجَدَ ٱلْجَمَالَ فِيْ نَفْسِهِ ٱلطَّيِّبَةِ ٱلصَّافِيَةِ ؛ وَأَجْرَىٰ مَا يُؤْلِمُهُ وَمَا يَسُرُّهُ مَجْرًى وَاحِدًا ؛ وَنَظَرَ إِلَىٰ ٱلْعُمْرِ كُلِّهِ كَأَنَّهُ يَوْمٌ وَاحِدٌ يَرْقُبُ مَغْرِبَ شَمْسِهِ ؛ وَأَخَذَ مِنْ إِرَادَتِهِ قُوَّةً أَنْسَتْهُ مَا لَمْ تُعْطِهِ ٱلدُّنْيَا ، فَلَمْ يَحْفِلْ بِمَا أَعْطَتِ ٱلدُّنْيَا وَمَا مَنَعَتْ ؛ وَعَاشَ عَلَىٰ فَقْرِهِ بِكُلِّ ذَلِكَ كَمَا يَعِيْشُ ٱلْمُؤْمِنُ فِيْ ٱلْجَنَّةِ : هَـٰذَا فِيْ قَصْرٍ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ أَوْ يَاقُوْتَةٍ أَوْ زَبَرْجَدَةٍ ، وَذَاكَ فِيْ قَصْرٍ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَوْ مِنَ ٱلإِيْمَانِ أَوْ مِنَ ٱلْعَقْلِ .

قَالَ ٱلشَّيْطَانُ : فَلَمَّا أَعْجَزَنِيْ صَلَاحًا وَرِضًى وَصَبْرًا وَقَنَاعَةً وَإِيْمَانًا وَٱحْتِسَابًا ، وَكَانَ رَجُلًا عَالِمًا فَقِيْهًا ـ سَوَّلْتُ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ لِيَعِظَ ٱلنَّاسَ فَيَنْتَفِعُوْا بِهِ ، وَيُبَصِّرَهُمْ بِدِيْنِهِمْ ، وَيَتَكَلَّمَ فِيْ نَصِّ كَلَامِ ٱللهِ ؛ فَعَقَدَ ٱلْمَجْلِسَ وَوَعَظَ ، وَٱنْصَرَفُوْا وَبَقِيَ وَحْدَهُ .

فَجَاءَتِ ٱمْرَأَةٌ تَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلنِّسَاءُ فِيْ ٱلدِّيْنِ مِنْ أَمْرِ طَبِيْعَتِهِنَّ ؛ وَكَانَتِ ٱمْرَأَةً جَزْلَةً غَضَّةً { رَابِيَةً } ، يَهْتَزُّ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلُهَا ، وَتَمْشِيْ قَصِيْرَةَ ٱلْخَطْوِ مُتَثَاقِلَةً كَٱلْمُتَضَايِقَةِ مِنْ حَمْلِ أَسْرَارِ جَمَالِهَا وَأَسْرَارِ بَدَنِهَا ٱلْجَمِيْلِ ؛ فَبَعْضُ مِشْيَتِهَا يَقَظَةٌ وَبَعْضُهَا نَوْمٌ فَاتِرٌ تُخَالِطُهُ ٱلْيَقَظَةُ ؛ وَلَا يَرَاهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْفَحْلُ ٱلتَّامُّ ٱلْفُحُوْلَةِ إِلَّا رَأَىٰ ٱلْهَوَاءَ نَفْسَهُ قَدْ أَصْبَحَ مِنْ حَوْلِهَا أُنْثَىٰ ، مِمَّا تَعْصِفُ بِهِ رِيْحُهَا ٱلْعَطِرَةُ عِطْرَ زِيْنَتِهَا وَجِسْمِهَا .

وَكَانَ ٱلْوَاعِظُ قَدْ تَرَمَّلَ مِنْ أَشْهُرٍ ، وَكَانَتِ ٱلْمَرْأَةُ قَدْ تَأَيَّمَتْ مِنْ سَنَوَاتٍ ؛ فَلَمَّا رَآهَا

غَضَّ طَرْفَهُ عَنْهَا ؛ وَلَـٰكِنَّهَا سَأَلَتْهُ بِأَلْفَاظِهَا ٱلْعَذْبَةِ عَنْ أُمُورٍ هِيَ مِنْ أَسْرَارِ طَبِيعَتِهَا ، وَسَأَلَتْهُ عَنْ طَبِيعَتِهَا بِأَلْفَاظِهَا ؛ فَسَمِعَ مِنْهَا مِثْلَ صَوْتِ ٱلْبِلَّوْرِ ، يَتَكَسَّرُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ .

وَتَحَدَّثَتْ لَهُ وَكَأَنَّهَا تَتَحَدَّثُ فِيهِ ، فَسَمِعَ بِأُذُنِهِ وَدَمِهِ ، ثُمَّ كَانَ غَضُّ عَيْنِهِ أَقْوَىٰ لِرُؤْيَةِ قَلْبِهِ وَجَمْعِ خَوَاطِرِهِ .

وَرَأَىٰ صَوْتَهَا يَشْتَهِي ؛ وَعَانَقَتْهُ رَائِحَتُهَا ٱلْعِطْرِيَّةُ ٱلنَّفَّاذَةُ ؛ وَأَحَاطَتْهُ بِجَوٍّ كَجَوِّ ٱلْفِرَاشِ ؛ وَعَادَتْ أَنْفَاسُهَا كَأَنَّهَا وَسْوَسَةُ قُبَلٍ ؛ وَصَارَتْ زَفَرَاتُهَا كَٱلْقِدْرِ إِذَا ٱسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا ؛ وَطَلَعَتْ فِي خَيَالِهِ عُرْيَانَةً كَمَا تَطْلُعُ لِلسَّكْرَانِ مِنْ كَأْسِ ٱلْخَمْرِ حُورِيَّةٌ عُرْيَانَةٌ ، لَهَا جِسْمٌ يَنْدُو مِنَ ٱللِّينِ وَٱلْبَضَاضَةِ وَٱلنَّعْمَةِ كَأَنَّهُ مِنْ زَبَدِ ٱلْبَحْرِ ؟

قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ : وَكُنْتُ كَٱلنَّائِمِ ، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِصَوْتٍ كَصَكِّ ٱلْحَجَرِ بِٱلْحَجَرِ ، لَا كَتَكَسُّرِ ٱلْبِلَّوْرِ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَسَمِعْتُ شَيْخِي يَقُولُ :

أَفَسَقْتَ . . . ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

تَارِيخٌ يَتَكَلَّمُ(*) . . .

أَيَعْرِفُ ٱلْقُرَّاءُ أَنَّ فِي ٱلْأَحْلَامِ أَحْلَامًا هِيَ قِصَصٌ عَقْلِيَّةٌ كَامِلَةُ ٱلْأَجْزَاءِ مُحْكَمَةُ ٱلْوَضْعِ مُتَّسِقَةُ ٱلتَّرْكِيبِ بَدِيعَةُ ٱلتَّأْلِيفِ ، تَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ حِينَ يَنَامُ كَأَنَّهُ أَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَىٰ (شَرِكَةٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ) ، تَسِيحُ بِهِ فِي عَالَمٍ عَجِيبٍ كَأَنَّمَا سُحِرَ فَتَحَوَّلَ إِلَىٰ قِصَّةٍ ؟

إِنْ يَكُنْ فِي ٱلْقُرَّاءِ مَنْ لَا يَعْلَمُ هَـٰذَا فَلْيَعْلَمْهُ مِنِّي ؛ فَإِنِّي كَثِيرًا مَا أَكْتُبُ وَأَقْرَأُ فِي ٱلنَّوْمِ ، وَكَثِيرًا مَا يُلْقَىٰ عَلَيَّ مِنْ بَارِعِ ٱلْكَلَامِ ، وَكَثِيرًا مَا أَرَىٰ مَا لَوْ دَوَّنْتُهُ لَعُدَّ مِنَ ٱلْخَوَارِقِ وَٱلْمُعْجِزَاتِ .

وَهَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةُ ٱلَّتِي أَرْوِيهَا ٱلْيَوْمَ ، كَانَتِ ٱلْمُعْجِزَةُ فِيهَا أَنِّي مَشَيْتُ فِي ٱلتَّارِيخِ كَمَا أَمْشِي فِي طَرِيقٍ مُمْتَدَّةٍ ؛ فَتَقَدَّمْتُ إِلَىٰ أَهْلِ سَنَةِ ٣٩٥ لِلْهِجْرَةِ وَمَا يَلِيهَا ، فَعِشْتُ مَعَهُمْ وَتَخَبَّرْتُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ زَمَنِي لِأَقُصَّ مَا رَأَيْتُهُ عَلَىٰ أَهْلِ سَنَةِ ١٣٥٣ . . .

أَمْسَيْتُ ٱلْبَارِحَةَ كَٱلْمَغْمُومِ فِي أَحْوَالٍ ثَقِيلَةٍ عَلَى ٱلنَّفْسِ مَا تَنْطَلِقُ ٱلنَّفْسُ لَهَا ، أَوَّلُهَا سُوءُ ٱلْهَضْمِ ؛ وَمَتَىٰ كَانَ ٱلْبَدْءُ مِنْ هُنَا لَمْ تَكُنِ ٱلْحَرَكَةُ فِي ٱلنَّفْسِ إِلَّا دَائِرَةً : تَذْهَبُ مَا تَذْهَبُ ثُمَّ لَا تَنْتَهِي إِلَّا فِي سُوءِ ٱلْهَضْمِ عَيْنِهِ . فَجَلَسْتُ فِي ٱلنَّدِيِّ ٱلَّذِي أَسْمُرُ فِيهِ أَحْيَانًا ، فَكَانَ لِجَوِّهِ وَزْنٌ أَحْسَسْتُهُ كَمَا يُحِسُّ ٱلْغَائِصُ فِي ٱلْمَاءِ ثِقَلَ ٱلْمَاءِ عَلَيْهِ ؛ وَدَخَّنْتُ ٱلْكَرْكَرَةَ(١) فَلَمْ تَكُنْ هَوَاءً وَدُخَانًا يَتَرَوَّحُ ، بَلْ كَانَتْ مِنْ ثِقَلِهَا كَٱلطَّعَامِ يَدْخُلُ عَلَى ٱلطَّعَامِ ؛ وَنَظَرْتُ نَاحِيَةً فَأَخَذَتْ عَيْنَيَّ رَجُلًا فِيلِيَّ ٱلْخِلْقَةِ ، مُنْطَادَ ٱلْبَطْنِ كَأَنَّمَا نُفِخَ بَطْنُهُ بِٱلْآلَاتِ ، يَحْمِلُ مِنْهُ مِقْدَارَ أَرْبَعَةٍ مِنْ بُطُونِ ٱلْبَدِينَاتِ ٱلْحَوَامِلِ ، كُلٌّ مِنْهُنَّ فِي ٱلشَّهْرِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ

(*) «الرسالة» العدد : ٩١ ، ٢٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ١ أبريل/نيسان ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٤٨٣ ـ ٤٨٧ .

(١) ٱلْكَرْكَرَةُ : ٱسْمٌ وَضَعْنَاهُ (لِلشِّيشَةِ) أَوِ ٱلنَّارَجِيلَةِ ، أَخْذًا مِنْ صَوْتِهَا ، كَمَا صَنَعَ ٱلْعَرَبُ فِي تَسْمِيَتِهِمُ (ٱلْقَطَا) أَخْذًا مِنْ صَوْتِ هَـٰذَا ٱلطَّيْرِ ، وَكَمَا هِيَ طَرِيقَتُهُمْ ؛ وَتُجْمَعُ ٱلْكَرْكَرَةُ : كَرَاكِيرُ ، بِٱلْيَاءِ لِلْخِفَّةِ .

حَمْلِهَا . . . وَكَانَ مَعِيَ إِلَىٰ كُلِّ هَـٰذَا ٱلْبَلَاءِ خَمْسُ صُحُفٍ يَوْمِيَّةٍ أُرِيدُ قِرَاءَتَهَا . . . !

ثُمَّ جِئْتُ إِلَىٰ ٱلدَّارِ وَٱلْمَعْرَكَةُ حَامِيَةٌ فِي أَعْصَابِي ؛ وَمَا كَانَ سُوءُ ٱلْهَضْمِ مَنُومَةً فَيَدْعُو إِلَىٰ ٱلنَّوْمِ ، فَدَخَلْتُ بَيْتَ كُتُبِي وَأَرَدْتُ كِتَابًا أَيَّ كِتَابٍ تَنَالُهُ يَدِي ، فَخَرَجَ لِي كِتَابٌ فِي خُرَافَاتِ ٱلْأَوَّلِينَ وَأَسَاطِيرِهِمْ وَهَذَيَانِهِمْ وَسُوءِ هَضْمِهِمُ ٱلْعَقْلِيِّ . . . كَٱلْكَلَامِ عَنْ أَدُونِيس وَأَرْطَامِيس وَدِيُونِيس وَسَمِيرَامِيس وَإِيسِيس وَأُتُوبِيس وَأَزْتَغِيس . . . فَٱسْتَعَذْتُ بِٱللهِ وَقُلْتُ : حَتَّىٰ ٱلْكُتُبُ لَهَا فِي هَـٰذِهِ ٱللَّيْلَةِ أَعْصَابٌ قَدْ نَالَتْهَا ٱلثَّقْلَةُ وَٱلْأَلَمُ ؟

وَبَاتَ ٱللَّيْلُ يَقْظَانَ { مَعِي } ، وَبَقِيتُ مُتَمَلْمِلًا أَتَقَلَّبُ حَتَّىٰ أَخَذَ ٱلصُّدَاعُ فِي رَأْسِي ، فَٱنْقَلَبَ ٱلتَّعَبُ نَوْمًا ، وَجَاءَ مِنَ ٱلنَّوْمِ تَعَبٌ آخَرُ ، وَقُذِفْتُ إِلَىٰ عَالَمِ ٱلْأَحْلَامِ فِي قُنْبُلَةٍ تَسْتَقِرُّ بِي حَيْثُ تُرِيدُ لَا حَيْثُ أُرِيدُ :

* * *

وَرَأَيْتُنِي فِي قَوْمٍ لَا أَعْرِفُ مِنْهُمْ أَحَدًا قَدِ ٱجْتَمَعُوا جَمَاهِيرَ ، وَسَمِعْتُ قَائِلًا مِنْهُمْ يَقُولُ : « ٱلسَّاعَةَ يَمُرُّ مَوْلَانَا ٱلْعَالِي » . فَقُلْتُ لِمَنْ يَلِينِي : « مَنْ يَكُونُ مَوْلَانَا ٱلْعَالِي ؟ » قَالَ : « أَوَ أَنْتَ مِنْهُمْ ؟ » قُلْتُ : « مِمَّنْ ؟ » فَأَلْهَاهُ عَنْ جَوَابِي تَشَوُّفُ ٱلنَّاسِ وَٱنْصِرَافُهُمْ إِلَىٰ رَجُلٍ أَقْبَلَ رَاكِبًا حِمَارًا أَشْهَبَ ؟ فَصَاحُوا : « ٱلْقَمَرُ ٱلْقَمَرُ »(١) وَرَفَعَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي يُنَاكِبُنِي صَوْتَهُ يَقُولُ : « ٱلْبَرَكَاتُ وَٱلْعَظَمَاتُ لَكَ يَا مَوْلَانَا تَعَالَىٰ » !

قُلْتُ : إِنَّا لِلهِ ! لَقَدْ وَقَعْتُ فِي قَوْمٍ مِنَ ٱلزَّنَادِقَةِ ، يُعَارِضُونَ « ٱلتَّحِيَّاتُ وَٱلصَّلَوَاتُ وَٱلطَّيِّبَاتُ لِلهِ » ؛ ثُمَّ مَرَّ صَاحِبُ ٱلْحِمَارِ بِحِذَائِي ، وَغَمَزَهُ ٱلرَّجُلُ عَلَيَّ ، فَقَالَ : مَا بَالُكَ لَا تَقُولُ مِثْلَهُ ؟ قُلْتُ : أَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ . فَكَأَنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَلْطِمَنِي فَرَفَعَ يَدَهُ ، فَصِحْتُ فِيهِ : كَمَا أَنْتَ ـ وَيْلَكَ ـ وَإِلَّا قَبَضْتُ عَلَيْكَ ، وَأَسْلَمْتُكَ لِلْبُولِيسِ ، وَشَكَوْتُكَ إِلَىٰ ٱلنِّيَابَةِ ، وَرَفَعْتُكَ إِلَىٰ مَحْكَمَةِ ٱلْجُنَحِ !

قَالَ : مَاذَا أَسْمَعُ ؟ ٱلرَّجُلُ مَجْنُونٌ فَخُذُوهُ ! وَأَحَاطَ بِي جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ، وَلَـٰكِنَّهُ تَرَجَّلَ عَنْ حِمَارِهِ وَأَخَذَ بِيَدِي وَمَشَيْنَا ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ يَا هَـٰذَا ؟ قَالَ : أَرَاكَ مِنْ غَيْرِ هَـٰذَا

(١) ٱلْقَمَرُ : ٱسْمُ ذَٰلِكَ ٱلْحِمَارِ ، وَسَيَمُرُّ ذِكْرُهُ فِي ٱلْقِصَّةِ .

ٱلْبَلَدِ ؛ أَمَا تَعْرِفُ ٱلْحَاكِمَ بِأَمْرِ ٱللهِ ؟ فَأَنَا هُوَ . قُلْتُ : ٱنْظُرْ ـ وَيْحَكَ ـ مَا تَقُولُ ؛ فَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا مَمْرُورًا ؛ لَقَدْ كَتَبْتُ أَمْسِ كِتَابًا إِلَىٰ مَجَلَّةِ (ٱلرِّسَالَةِ) أَرَّخْتُهُ ١٣ مِنْ ذِي ٱلْحِجَّةِ سَنَةَ ١٣٥٣ و١٨ مِنْ مَارِس/آذار سَنَةَ ١٩٣٥ ، وَأَرْسَلْتُ بِهِ مَقَالَةَ « ٱلْخَرُوفَيْنِ »(١) . . .

قَالَ : مَاذَا أَسْمَعُ ؟ نَحْنُ ٱلْآنَ فِي سَنَةِ ٣٩٥ ؛ فَٱلرَّجُلُ مَجْنُونٌ ، أَوْ لَا فَأَنْتَ أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ مِنْ مُعْجِزَاتِي . لَقَدْ جِئْتُ بِكَ مِنَ ٱلتَّارِيخِ ، فَسَتَرَىٰ وَتَكْتُبُ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَىٰ ٱلتَّارِيخِ فَتَكُونُ مِنْ مُعْجِزَاتِي ، وَتَقُصُّ عَنِّي وَتَشْهَدُ لِي . . . !

قُلْتُ : فَإِنِّي أَعْرِفُ أَعْمَالَكَ إِلَىٰ أَنْ قُتِلْتَ فِي سَنَةِ ٤١١ . . . !

قَالَ : أَوَ إِلَـٰهٌ أَنْتَ فَتَخْلُقَ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً بِحَوَادِثِهَا ؟ لَقَدْ كِدْتَ مِنْ أَفْنِكَ وَغَبَاوَتِكَ تُفْسِدُ عَلَيَّ دَعْوَىٰ ٱلْمُعْجِزَةِ !

وَهَاجَ ٱلصُّدَاعُ فِي رَأْسِي ، وَبَلَغَ سُوءُ ٱلْهَضْمِ حَدَّهُ ، وَٱشْتَبَكَتْ سِنَاتُ إِيسِيس وَأُتُوبِيس . . . إلخ بِسِنِينِ إِبْلِيس ، وَمَرَّتْ بَيْنَ كُلِّ هَـٰذَا حَوَادِثُ ٱلطَّاغِيَةِ ٱلْمَعْتُوهِ ٱلْمُتَجَبِّرِ ، فَرَأَيْتُهُ يَبْتَدِعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِدَعًا ، وَيَخْتَرِعُ أَحْكَامًا يُكْرِهُ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ ٱلْخُرُوجِ مِنْهَا ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَنْقُضُ أَمْرَهُ ، وَيُعَاقِبُ عَلَىٰ ٱلْأَخْذِ بِهِ ، كَأَنَّ ٱلَّذِي نَقَضَ غَيْرُ ٱلَّذِي أَبْرَمَ ، وَكَأَنَّهُ حِينَ يَتَبَلَّدُ فَيُعْجِزُهُ أَنْ يَخْتَرِعَ جَدِيدًا ـ يَجْعَلُ ٱخْتِرَاعَهُ إِبْطَالَ ٱخْتِرَاعِهِ .

وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّمَا يَعْتَدُّ نَفْسَهُ مُخَّ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَقْلًا لِعُقُولِهَا ، ثُمَّ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَعْلِيَ ٱلنَّاسَ وَيَسْتَبِدَّ بِهِمُ ٱسْتِبْدَادَ ٱلشَّرِيعَةِ فِي أَمْرِهَا وَنَهْيِهَا ، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُ فِي جُمْلَتِهَا هِيَ نَقْضُ أَعْمَالِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ ، وَظَنَّ أَنَّهُ مُسْتَطِيعٌ مَحْوَ ذَٰلِكَ ٱلْعَصْرِ مِنْ أَذْهَانِ ٱلنَّاسِ وَقَتْلَ ٱلتَّارِيخِ ٱلْإِسْلَامِيِّ بِتَارِيخِ قَاتِلٍ سَفَّاكٍ .

وَسَوَّلَ لَهُ جُنُونُهُ أَنَّهُ خُلِقَ تَكْذِيبًا لِلنُّبُوَّةِ ؛ ثُمَّ أَفْرَطَ عَلَيْهِ ٱلْجُنُونُ فَحَصَّلَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ خُلِقَ تَكْذِيبًا لِلْأُلُوهِيَّةِ ؛ وَفِي تَكْذِيبِهِ لِلنُّبُوَّةِ وَٱلْأُلُوهِيَّةِ يَحْمِلُ ٱلْأُمَّةَ بِٱلْقَهْرِ وَٱلْغَلَبَةِ عَلَىٰ أَلَّا تُصَدِّقَ إِلَّا بِهِ هُوَ ؛ وَفِي سَبِيلِ إِثْبَاتِهِ لِنَفْسِهِ صَنَعَ مَا صَنَعَ ، فَجَاءَ تَارِيخُهُ لَا يَنْفِي أُلُوهِيَّةً وَلَا

(١) مَرَّتْ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَةُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ .

نُبُوَّةَ ، بَلْ يَنْفِي ٱلْعَقْلَ عَنْ صَاحِبِهِ ؛ وَجَاءَ هَـٰذَا ٱلتَّارِيخُ فِي ٱلإِسْلَامِ لِيَتَكَلَّمَ يَوْمًا فِي تَارِيخِ ٱلإِسْلَامِ . . .

* * *

رَأَيْتُنِي أَصْبَحْتُ كَاتِبًا لِهَـٰذَا ٱلْحَاكِمِ ، فَجَعَلْتُ أَشْهَدُ أَعْمَالَهُ وَأُدَوِّنُ تَارِيخَهُ ، وَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ مَا أَفْرَدَنِي بِهِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَقَدْ وَضَعَتْنِي ٱلدُّنْيَا مَوْضِعًا عَزِيزًا لَمْ يَرْتَفِعْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ كُتَّابِهَا وَأُدَبَائِهَا ، فَسَأَكْتُبُ عَنْ هَـٰذَا ٱلدَّهْرِ بِعَقْلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَـٰذَا ٱلدَّهْرِ ٩٦٨ سَنَةً صَاعِدَةً فِي ٱلْعِلْمِ .

وَدَوَّنْتُ عَشَرَةَ مُجَلَّدَاتٍ ضَخْمَةٍ ٱنْتَبَهْتُ وَأَنَا أَحْفَظُهَا كُلَّهَا ، فَإِذَا هِيَ جُمَلٌ صَغِيرَةٌ ، جَعَلَ ٱلْحُلْمُ كُلَّ نَبْذَةٍ مِنْهَا سِفْرًا ضَخْمًا كَمَا يُخَيَّلُ لِلنَّائِمِ أَنَّهُ عَاشَ عُمْرًا طَوِيلًا وَأَحْدَثَ أَحْدَاثًا مُمْتَدَّةً ، عَلَىٰ حِينِ لَا تَكُونُ ٱلرُّؤْيَا إِلَّا لَحْظَةً .

وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْمُجَلَّدَاتُ ٱلَّتِي قُلْتُ : إِنَّ ٱلتَّارِيخَ يَتَكَلَّمُ بِهَا فِي ٱلتَّارِيخِ . . .

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلأَوَّلُ

ٱبْتُلِيَ هَـٰذَا ٱلطَّاغِيَةُ بِنَقِيصَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَٱلأُخْرَىٰ مِنْ غَيْرِهِ ؛ فَأَمَّا ٱلَّتِي مِنْ نَفْسِهِ فَإِنِّي أَرَاهُ قَدْ خُلِقَ وَفِي مُخِّهِ لُفَافَةٌ عَصَبِيَّةٌ مِنْ يَهُودِيَّةِ جَدِّهِ رَأْسِ هَـٰذِهِ ٱلدَّعْوَةِ ؛ فَهُوَ ٱلْحَاكِمُ بْنُ ٱلْعَزِيزِ بْنِ ٱلْمُعِزِّ بْنِ ٱلْقَاسِمِ بْنِ ٱلْمَهْدِيِّ عُبَيْدِ ٱللهِ ، وَيَقُولُونَ إِنَّ عُبَيْدَ ٱللهِ هَـٰذَا كَانَ ٱبْنَ ٱمْرَأَةٍ يَهُودِيَّةٍ مِنْ حَدَّادٍ يَهُودِيٍّ ، فَٱتَّفَقَ أَنْ جَرَىٰ ذِكْرُ ٱلنِّسَاءِ فِي مَجْلِسِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْقَدَّاحِ ، فَوَصَفُوا لَهُ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْيَهُودِيَّةَ ، وَأَنَّهَا آيَةٌ فِي ٱلْحُسْنِ ؛ وَكَانَ لَهَا مِنَ ٱلْحَدَّادِ وَلَدٌ ، فَتَزَوَّجَهَا ٱلرَّجُلُ وَأَدَّبَ ٱبْنَهَا وَعَلَّمَهُ ، ثُمَّ عَرَّفَهُ أَسْرَارَ ٱلدَّعْوَةِ ٱلْعَلَوِيَّةِ وَعَهِدَ إِلَيْهِ بِهَا .

وَمِنْ بَعْضِ ٱللَّفَائِفِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي ٱلْمُخِّ مَا يَنْحَدِرُ بِٱلْوِرَاثَةِ مَطْبُوعًا عَلَىٰ خَيْرِهِ أَوْ شَرِّهِ ، لَا يَدَ لِلْمَرْءِ فِيهِ وَلَا حِيلَةَ لَهُ فِي دَفْعِهِ أَوِ ٱلانْتِفَاءِ مِنْهُ، فَيَكُونُ قَدَرًا يَتَسَلْسَلُ فِي ٱلْخَلْقِ لِيُحْدِثَ غَايَاتِهِ ٱلْمَقْدُورَةَ، فَمَتَىٰ وَقَعَ فِي مُخِّ إِنْسَانٍ فَٱلدُّنْيَا بِهِ كَٱلْحُبْلَىٰ وَلَا بُدَّ أَنْ تَتَمَخَّضَ عَنْهُ.

هَـٰذِهِ ٱللُّفَافَةُ ٱلْيَهُودِيَّةُ فِي مُخِّ هَـٰذَا ٱلطَّاغِيَةِ سَتُحَقِّقُ بِهِ قَوْلَ ٱللهِ تَعَالَىٰ : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ ﴾ [٥ سورة المائدة/ الآية : ٨٢] . فَهُوَ لَنْ يَكُونَ ٱلْعَدُوَّ لِلإِسْلَامِ دُونَ أَنْ يَكُونَ ٱلأَشَدَّ فِي هَـٰذِهِ ٱلْعَدَاوَةِ ، وَلَنْ يَكُونَ فِيهَا ٱلأَشَدَّ حَتَّىٰ يَفْعَلَ بِهَا ٱلأَفَاعِيلَ ٱلْمُنْكَرَةَ . وَمَا أَرَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَآذِنَ ٱلْقَائِمَةَ فِي ٱلْجَوِّ إِلَّا تَخْرِقُ بِمَنْظَرِهَا عَيْنَيْهِ مِنْ بُغْضِهِ لِلإِسْلَامِ وَٱنْطِوَائِهِ عَلَىٰ عَدَاوَتِهِ ؛ فَوَيْلٌ لَهَا مِنْهُ !

وَأَمَّا ٱلنَّقِيصَةُ ٱلثَّانِيَةُ فَقَدِ ٱبْتُلِيَ بِقَوْمٍ فَتَنُوهُ بِآرَائِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، وَهُمْ حَمْزَةُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَٱلأَخْرَمُ ، وَفُلَانٌ ، وَفُلَانٌ . . . وَقَدْ لَفَّقُوا لِلدُّنْيَا مَذْهَبًا هُوَ صُورَةُ عُقُولِهِمُ ٱلطَّائِشَةِ ، لَا يَجِيءُ إِلَّا لِلْهَدْمِ ، ثُمَّ لَا يَضَعُ أَوَّلَ مَعَاوِلِهِ إِلَّا فِي قُبَّةِ ٱلسَّمَاءِ لِيَهْدِمَهَا . . . ! وَلَوْ أَنَا جَمَعْتُ هَـٰذَا ٱلْمَذْهَبَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْتُ : هُوَ حَمَاقَةٌ حَمْقَاءُ تُرِيدُ إِخْرَاجَ ٱللهِ مِنَ ٱلْوُجُودِ لإِدْخَالِ ٱللهِ فِي بَعْضِ ٱلطُّغَاةِ !

وَيَتَقَلَّبُونَ فِي مَذْهَبِهِمْ بِهَـٰذِهِ ٱلأَلْقَابِ : ٱلْعَقْلُ ، ٱلإِرَادَةُ ، ٱلإِمَامُ ، قَائِمُ ٱلزَّمَانِ ، عِلَّةُ ٱلْعِلَلِ . . . ! وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلشُّيُوعِيَّةُ بِعَيْنِهَا ، تَعْمَلُ عَلَىٰ هَدْمِ فِكْرَةِ ٱلأُلُوهِيَّةِ وَإِلْحَاقِهَا بِٱلْخُرَافَةِ ؛ كَأَنَّ ٱلْقَائِمَ بِهَـٰذَا ٱلْمَذْهَبِ هُوَ عَقْلُ ٱلنَّاسِ وَإِرَادَتُهُمْ ، كَرِهُوا أَمْ رَضُوا ، فَلَا إِرَادَةَ لَهُمْ مَعَهُ وَلَا عَقْلَ ؛ وَهُوَ ٱلزَّمَنُ فَيَصْبُغُ ٱلزَّمَنَ بِمَا شَاءَ ، وَيَجْعَلُهُ كَيْفَ شَاءَ ، لأَنَّهُ ٱلْقَائِمُ بِهِ ، وَعِلَّةُ ٱلْعِلَلِ فِي سِيَاسَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ .

شُيُوعِيَّةٌ آثِمَةٌ كَبُرَتْ فِي حَمَاقَتِهَا أَنْ تَقُومَ بِجُنُونٍ وَاحِدٍ ، فَلَا تَقُومُ إِلَّا بِٱثْنَيْنِ مَعًا : جُنُونِ ٱلْعَقْلِ ، وَجُنُونِ ٱلسَّيْفِ !

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلثَّانِي

أَظْهَرَ ٱلطَّاغِيَةُ أَنَّ ٱللهَ يُؤَيِّدُ بِهِ ٱلإِسْلَامَ ، لِيَتَأَلَّفَ ٱلْجُنْدَ وَٱلشَّعْبَ وَيَسْتَمِيلَهُمْ إِلَيْهِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ لَئِيمَ ٱلْكَيْدِ ، دَنِيءَ ٱلْحِيلَةِ ، يَهُودِيَّ ٱلْمَكْرِ ؛ فَأَمَرَ بِعِمَارَةِ ٱلْمَدَارِسِ لِلْفِقْهِ وَٱلتَّفْسِيرِ وَٱلْحَدِيثِ وَٱلْفُتْيَا ، وَبَذَلَ فِيهَا ٱلأَمْوَالَ ، وَجَعَلَ فِيهَا ٱلْفُقَهَاءَ (وَٱلْمَشَايِخَ) ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِمْ ، وَٱلتَّوْسِعَةِ عَلَيْهِمْ ، وَٱلتَّخَضُّعِ لَهُمْ ، وَدَخَلَ فِي ظِلَالِ ٱلْعَمَائِمِ . . . وَأَحْضَرَ

لِنَفْسِهِ فَقِيهَيْنِ مَالِكِيَّيْنِ (ٱثْنَيْنِ لَا وَاحِدَ) يُعَلِّمَانِهِ وَيُفَقِّهَانِهِ ، وَكَانَ أَشْبَهَ بِمُرِيدٍ مَعَ شَيْخِ ٱلطَّرِيقَةِ يَتَسَعَّدُ بِهِ وَيَتَيَمَّنُ ؛ أَشْرَفُ أَلْقَابِهِ أَنَّهُ خَادِمُ ٱلْعِمَامَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ، وَأَسْعَدُ أَوْقَاتِهِ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي يَقُولُ لَهُ فِيهِ ٱلشَّيْخُ : رَأَيْتُكَ فِي ٱلرُّؤْيَا وَرَأَيْتُ لَكَ . . . !

وَكَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْمُعَامَلَةُ ٱلْإِسْلَامِيَّةُ ٱلْكَرِيمَةُ مِنْ هَـٰذَا ٱلطَّاغِيَةِ ، هِيَ بِعَيْنِهَا رِبَا ٱللُّفَافَةِ ٱلْيَهُودِيَّةِ فِي مُخِّهِ ؛ تُصْلِحُ بِإِقْرَاضِ مِئَةٍ ، وَفِيهَا نِيَّةُ ٱلْخَرَابِ بِٱلسِّتِّينَ فِي ٱلْمِئَةِ . . . ! فَإِنَّهُ مَا كَادَ يَتَمَكَّنُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَيَعْرِفُ إِقْبَالَهُمْ عَلَيْهِ وَثِقَتَهُمْ بِهِ ، حَتَّىٰ طَلَبَتِ ٱللُّفَافَةُ ٱلْيَهُودِيَّةُ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَٱلرِّبَا ؛ فَأَمَرَهُمْ بِهَدْمِ تِلْكَ ٱلْمَدَارِسِ وَإِخْرَابِهَا ، وَأَبْطَلَ ٱلْعِيدَيْنِ وَصَلَاةَ ٱلْجُمُعَةِ ، وَقَتَلَ ٱلْفُقَهَاءَ وَقَتَلَ مَعَهُمْ فَقِيهَيْهِ وَأُسْتَاذَيْهِ ، وَعَادَ كَٱلْمُرِيدِ ٱلْمُنَافِقِ مَعَ شَيْخِ ٱلطَّرِيقَةِ ، يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: إِنَّ هُنَاكَ ثَلَاثَةً تَعْمَلُ عَمَلًا وَاحِدًا فِي ٱلصَّيْدِ : ٱلْفَخُّ ، وَٱلْعِمَامَةُ ، وَٱللِّحْيَةُ. . . !

إِنَّ هَـٰذَا ٱلطَّاغِيَةَ مَلِكٌ حَاكِمٌ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَ حَمَاقَتَهُ شَيْئًا وَاقِعًا ، فَيَقْتُلَ عُلَمَاءَ ٱلدِّينِ بِإِهْلَاكِهِمْ ، وَيَقْتُلَ مَدَارِسَ ٱلدِّينِ بِإِخْرَابِهَا ، وَلَوْ شَاءَ لَاسْتَطَاعَ أَنْ يَشْنُقَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ كُلَّ ذِي عِمَامَةٍ[1] فِي عِمَامَتِهِ . وَيَبْلُغُ مِنْ كُفْرِهِ أَنْ يَتَبَجَّحَ وَيَرَىٰ هَـٰذَا قُوَّةً ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لِهَوَانِهِ عَلَى ٱللهِ قَدْ جَعَلَهُ ٱللهُ كَٱلذُّبَابَةِ ٱلَّتِي تُصِيبُ ٱلنَّاسَ بِٱلْمَرَضِ ، وَٱلْبَعُوضَةِ ٱلَّتِي تَقْتُلُ بِٱلْحُمَّىٰ ، وَٱلْقَمْلَةِ ٱلَّتِي تَضْرِبُ بِٱلطَّاعُونِ ، فَلَوْ فَخَرَتْ ذُبَابَةٌ ، أَوْ تَبَجَّحَتْ قَمْلَةٌ ، أَوِ ٱسْتَطَالَتْ بَعُوضَةٌ ، لَجَازَ لَهُ أَنْ يَطِنَّ طَنِينَهُ فِي ٱلْعَالَمِ . وَهَلْ فَعَلَ أَكْثَرَ مِمَّا تَفْعَلُ ؟

لَقَدْ أَوْدَىٰ بِأُنَاسٍ يَقُومُ إِيمَانُهُمْ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْمَوْتَ فِي سَبِيلِ ٱلْحَقِّ هُوَ ٱلَّذِي يُخَلِّدُهُمْ فِي ٱلْحَقِّ ، وَأَنَّ ٱنْتِزَاعَهُمْ بِٱلسَّيْفِ مِنَ ٱلْحَيَاةِ هُوَ ٱلَّذِي يَضَعُهُمْ فِي حَقِيقَتِهَا ، وَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلرُّوحَ ٱلْإِسْلَامِيَّةَ لَا يَطْمِسُهَا ٱلطُّغْيَانُ إِلَّا لِيَجْلُوَهَا .

إِنَّهُ وَٱللهِ مَا قَتَلَ وَلَا شَنَقَ وَلَا عَذَّبَ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْإِسْلَامَ ٱحْتَاجَ فِي عَصْرِهِ هَـٰذَا إِلَىٰ قَوْمٍ يَمُوتُونَ فِي سَبِيلِهِ ، وَأَعْوَزَهُ ذَٰلِكَ ٱلنَّوْعُ ٱلسَّامِي مِنَ ٱلْمَوْتِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي كَانَ حَيَاةَ ٱلْفِكْرِ وَمَادَّةَ ٱلتَّارِيخِ ، فَجَاءَتِ ٱلْقَمْلَةُ تَحْمِلُ طَاعُونَهَا . . . !

(1) فِي ٱلْأَصْلِ : « أَنْ يَشْنُقَ كُلَّ ذِي عِمَامَةٍ مِنْ سَوَادِ ٱلْمُسْلِمِينَ » بَدَلًا مِنْ : « أَنْ يَشْنُقَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ كُلَّ ذِي عِمَامَةٍ » .

لَقَدْ أَحْيَاهُمْ فِي ٱلتَّارِيخِ ، أَمَّا هُمْ فَقَتَلُوهُ فِي ٱلتَّارِيخِ ، وَجَاءَهُمْ بِٱلرَّحْمَةِ مِنْ جَمِيعِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، أَمَّا هُمْ فَجَاوَزُوهُ بِٱللَّعْنَةِ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا !

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلثَّالِثُ

يَرَىٰ هَـٰذَا ٱلطَّاغِيَةُ أَنَّ ٱلدِّينَ ٱلْإِسْلَامِيَّ خُرَافَةٌ وَشَعْوَذَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ ، وَأَنَّ مَحْوَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ ٱلْعَظِيمَةِ هُوَ نَفْسُهُ إِيجَادُ أَخْلَاقٍ ، وَأَنَّ ٱلْإِسْلَامَ كَانَ جَرِيئًا حِينَ جَاءَ فَٱحْتَلَّ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ؛ فَلَا يَطْرُدُهُ مِنَ ٱلدُّنْيَا إِلَّا جَرَاءَةُ شَيْطَانٍ كَٱلَّذِي تَوَقَّحَ عَلَى ٱللهِ حِينَ قَالَ : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣٨ سورة ص/الآية : ٨٢] . وَلِهَـٰذَا أَمَرَ ٱلنَّاسَ بِسَبِّ ٱلصَّحَابَةِ ، وَأَنْ يُكْتَبَ ذَٰلِكَ عَلَىٰ حِيطَانِ ٱلْمَسَاجِدِ وَٱلْمَقَابِرِ وَٱلشَّوَارِعِ !

أَخْزَاهُ ٱللهُ ! أَهِيَ رِوَايَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ يُلْصِقُ ٱلْإِعْلَانَ عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ؟ لَوْ سَمِعَ لَسَمِعَ ٱلْمَسَاجِدَ وَٱلْمَقَابِرَ وَٱلشَّوَارِعَ تَقُولُ : أَخْزَاهُ ٱللهُ . . . !

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلرَّابِعُ

هَـٰذَا ٱلْفَاسِقُ لَا يَرْكَبُ إِلَّا حِمَارًا أَشْهَبَ يُسَمِّيهِ : (ٱلْقَمَرَ) ، وَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ مُحْتَسِبًا لِغَايَةٍ خَبِيثَةٍ ؛ فَهُوَ يَدُورُ عَلَىٰ حِمَارِهِ هَـٰذَا فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَمَعَهُ عَبْدٌ أَسْوَدُ ، فَمَنْ وَجَدَهُ قَدْ غَشَّ ؛ أَمَرَ ٱلْأَسْوَدَ فَـ . . . ! وَوَقَفَ هُوَ يَنْظُرُ وَيَقُولُ لِلنَّاسِ : ٱنْظُرُوا . . . !

وَمِنْ غَلَبَةِ ٱلْفُسُوقِ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَعَلَىٰ شِيعَتِهِ أَنَّ دَاعِيَتَهُ (حَمْزَةَ بْنَ عَلِيٍّ) نَوَّهَ بِٱلْحِمَارِ فِي كِتَابِهِ وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِٱلثَّنَاءِ ، لِخِصَالٍ : مِنْهَا أَنَّ . . . ! وَكَتَبَ حَمْزَةُ هَـٰذَا فِي بَعْضِ رَسَائِلِهِ : أَنَّ مَا يَرْتَكِبُهُ أَهْلُ ٱلْفَسَادِ بِجِوَارِ ٱلْبَسَاتِينِ ٱلَّتِي يَمُرُّ بِهَا (ٱلْفَاسِقُ) مِنَ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلْفَحْشَاءِ ـ إِنَّمَا يُرْتَكَبُ فِي طَاعَتِهِ . . . !

هَـٰذِهِ طَبِيعَةُ كُلِّ حَاكِمٍ فَاسِقٍ مُلْحِدٍ ، يَرَىٰ فِي نَفْسِهِ رَذَائِلَهُ عُرْيَانَةً ، فَلَا يَكُونُ كَلَامُهُ وَعَمَلُهُ وَفِكْرُهُ إِلَّا فُحْشًا يَتَعَرَّىٰ ؛ وَإِنَّ فِي هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ غَرِيزَةَ فِسْقٍ بَهِيمِيَّةً مُتَّصِلَةً بِطَوْرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلْأَوَّلِ ؛ فَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ فِي جِسْمِهِ خَلِيَّةً عَصَبِيَّةً مُهْتَاجَةً ، مَا زَالَتْ تَسْبَحُ

بِٱلْوِرَاثَةِ فِيْ دِمَاءِ ٱلْأَحْيَاءِ ، مُتَلَفِّفَةً عَلَىٰ خَصَائِصِهَا ، حَتَّىٰ ٱسْتَقَرَّتْ فِيْ أَعْصَابِ هَـٰذَا ٱلْفَاسِقِ ، فَٱنْفَجَرَتْ بِكُلِّ تِلْكَ ٱلْخَصَائِصِ .

وَلَسْتُ أَرَىٰ أَكْثَرَ أَعْمَالِهِ تَرْجِعُ فِيْ مَرَدِّهَا إِلَّا إِلَىٰ طُغْيَانِ هَـٰذِهِ ٱلْغَرِيْزَةِ فِيْهِ ؛ فَهُوَ يُحَاوِلُ هَدْمَ ٱلإِسْلَامِ ، لِأَنَّهُ دِيْنُ ٱلْعِفَّةِ وَدِيْنُ صَوْنِ ٱلْمَرْأَةِ ، يُلْزِمُهَا حِجَابَ عِفَّتِهَا وَإِبَائِهَا ، وَيَمْنَعُهَا ٱلِابْتِذَالَ وَٱلْخَلَاعَةَ ، وَيُعِيْنُهَا أَنْ تَتَخَلَّصَ مِمَّنْ يَشْتَهِيْهَا ، وَلَوْ كَانَ ٱلْحَاكِمَ . . . إِنَّهُ يَمْقُتُ هَـٰذَا ٱلدِّيْنَ ٱلْقَوِيَّ ، كَمَا يَمْقُتُ ٱللِّصُّ ٱلْقَانُوْنَ ؛ فَهُوَ دِيْنٌ يَثْقُلُ عَلَىٰ غَرِيْزَتِهِ ٱلْفَاسِقَةِ ، وَلِكُلِّ غَرِيْزَةٍ فِيْ ٱلإِنْسَانِ شُعُوْرٌ لَا مَهْنَأَ لَهَا إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ حُرًّا حَتَّىٰ فِيْ ٱلتَّوَهُّمِ ؛ وَهَلْ يُعْجِبُ ٱلسِّكِّيْرَ شَيْءٌ أَوْ يُرْضِيْهِ أَوْ يَلَذُّهُ ، كَمَا يُعْجِبُهُ أَنْ يَرَىٰ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ سُكَارَىٰ ؛ فَيَنْتَشِي هُوَ بِٱلْخَمْرِ ، وَتَسْكَرَ غَرِيْزَتُهُ بِرُؤْيَةِ ٱلسُّكْرِ ؟

وَمَا زَالَ رَأْيُ ٱلْفُسَّاقِ فِيْ كُلِّ زَمَنٍ أَنَّ ٱلْحُرِّيَّةَ هِيَ حُرِّيَّةُ ٱلِاسْتِمْتَاعِ ، وَأَنَّ تَقْيِيْدَ ٱللَّذَّةِ إِفْسَادٌ لِلَّذَّةِ .

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلْخَامِسُ

يَزْعُمُ ٱلطَّاغِيَةُ أَنَّهُ يُعِزُّ قَوْمَهُ ، وَمَا أَرَاهُ يُعِزُّهُمْ ، وَلَـٰكِنَّهُ يَمْتَحِنُ ذُلَّهُمْ وَضَعْفَهُمْ وَهَوَانَهُمْ عَلَىٰ ٱلْأُمَمِ ؛ فَهُوَ يَتَجَرَّأُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، مُتَنَظِّرًا مَا يَتَسَهَّلُ ، مُتَرَقِّبًا مَا يُمْكِنُ ؛ وَهُوَ يَرَىٰ أَنَّ أَخْلَاقَنَا ٱلإِسْلَامِيَّةَ هِيَ أَمْوَاتُنَا دَفَنُوْا أَنْفُسَهُمْ فِيْنَا ؛ فَمِنْ ذَلِكَ يَهْدِمُ ٱلْأَخْلَاقَ وَيَظُنُّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَهْدِمُ قُبُوْرًا لَا أَخْلَاقًا .

وَلَقَدْ سَخِرَ مِنْهُ ٱلْمَصْرِيُّوْنَ بِنُكْتَةٍ مِنْ ظَرْفِهِمُ ٱلْبَدِيْعِ ، وَجَاؤُوْهُ مِنْ غَرِيْزَتِهِ ، فَصَنَعُوْا ٱمْرَأَةً مِنَ ٱلْوَرَقِ ٱلَّذِيْ يُشْبِهُ ٱلْجِلْدَ ، وَأَلْبَسُوْهَا خُفَّهَا وَإِزَارَهَا ، حَتَّىٰ لَا يَشُكَّ مَنْ رَآهَا أَنَّهَا آدَمِيَّةٌ ، ثُمَّ وَضَعُوْا فِيْ يَدِهَا قِصَّةً وَأَقَامُوْهَا فِيْ طَرِيْقِهِ ؛ فَلَمَّا رَآهَا عَدَلَ إِلَيْهَا وَأَخَذَ مِنْ يَدِهَا ٱلْقِصَّةَ وَقَرَأَهَا ، فَإِذَا فِيْهَا سَبٌّ لَهُ وَلِآبَائِهِ ؛ وَسُخْرِيَةٌ مِنْ جُنُوْنِهِ وَرُعُوْنَتِهِ ٱلْمُضْحِكَةِ ؛ فَغَضِبَ وَأَمَرَ بِقَتْلِ ٱلْمَرْأَةِ ؛ فَكَانَتْ هَـٰذِهِ سُخْرِيَةً أُخْرَىٰ حِيْنَ تَحَقَّقَ أَنَّهَا مِنَ ٱلْوَرَقِ ، وَأَخَذَتْهُ ٱلنُّكْتَةُ ٱلظَّرِيْفَةُ بِمِثْلِ ٱلْبَرْقِ وَٱلرَّعْدِ ؛ فَٱسْتَشَاطَ وَأَمَرَ عَبِيْدَهُ مِنَ ٱلسُّوْدَانِ بِتَحْرِيْقِ ٱلدُّوْرِ وَنَهْبِ

مَا فِيْهَا وَسَبْيِ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْفُجُوْرِ بِهِنَّ ؛ حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْأَزْوَاجُ يَشْتَرُوْنَ زَوْجَاتِهِمْ مِنَ ٱلْعَبِيْدِ ، بَعْدَ أَنْ طَارَتِ ٱلزَّوْبَعَةُ ٱلسَّوْدَاءُ فِيْ بَيَاضِ ٱلْأَعْرَاضِ .

ٱنْدَلَعَتْ ثَوْرَةُ ٱلْفُجُوْرِ فِيْ ٱلْمَدِيْنَةِ ، لَا مِنَ ٱلْعَبِيْدِ ، وَلَـٰكِنْ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْعَتِيْقِ ٱلْمُسْتَقِرِّ فِيْ هَـٰذَا ٱلطَّاغِيَةِ .

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلسَّادِسُ

وَهَـٰذِهِ رُعُوْنَةٌ مِنْ أَقْبَحِ رُعُوْنَاتِهِ ، كَأَنَّ هَـٰذَا ٱلْحَيَوَانَ لَا يَحْسَبُ نِسَاءَ ٱلْأُمَّةِ كُلَّهَا إِلَّا نِسَاءَهُ ، فَيَأْمُرُهُنَّ بِأَمْرِ ٱمْرَأَتِهِ ، وَكَأَنَّ ٱلنِّسَاءَ فِيْ رَأْيِهِ إِنْ هُنَّ إِلَّا ٱسْتِجَابَاتٌ عَصَبِيَّةٌ تُطْلَقُ وَتُرَدُّ .

إِنَّ لِمَوْجَةِ ٱلْفِسْقِ فِيْ ٱلْغَرِيْزَةِ ٱلطَّاغِيَةِ جَزْرًا وَمَدًّا يَقَعَانِ فِيْ تَارِيْخِ ٱلْفُسَّاقِ ؛ فَهَـٰذَا ٱلطَّاغِيَةُ قَدْ جَزَرَتْ فِيْهِ ٱلْمَوْجَةُ ، فَأَمَرَ أَنْ يُمْنَعَ ٱلنِّسَاءُ مِنَ ٱلْخُرُوْجِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، لَا تَطَأُ أَرْضَ ٱلْمَدِيْنَةِ قَدَمُ ٱمْرَأَةٍ ، وَأَمَرَ ٱلْخَفَّافِيْنَ أَلَّا يَصْنَعُوْا لَهُنَّ ٱلْأَخْفَافَ وَٱلْأَحْذِيَةَ ؛ وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ بَعْضَ ٱلنِّسَاءِ خَرَجْنَ إِلَىٰ ٱلْحَمَّامَاتِ هَدَمَ ٱلْحَمَّامَاتِ عَلَيْهِنَّ !

وَلَوْ مُدَّتِ ٱلْمَوْجَةُ فِيْ تَفَسُّقِ ٱلْفَاسِقِ لَفَرَضَ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ ٱلْخُرُوْجَ وَٱلِاتِّصَالَ بِٱلرِّجَالِ وَٱلتَّعَرُّضَ لِلإِبَاحَةِ .

إِنَّ ٱلصَّلَاحَ وَٱلْفَسَادَ كِلَاهُمَا فَسَادٌ مَا لَمْ يَكُنِ ٱلصَّلَاحُ نَظَافَةً فِيْ ٱلرُّوْحِ وَسُمُوًّا فِيْ ٱلْقَلْبِ .

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلسَّابِعُ

يَزْعُمُ ٱلطَّاغِيَةُ أَنَّهُ سَيَهْدِمُ كُلَّ قَدِيْمٍ ؛ وَإِنِّيْ لَأَخْشَىٰ وَٱللهِ أَنْ يَأْمُرَ ٱلنَّاسَ فِيْ بَعْضِ سَطَوَاتِ جُنُوْنِهِ : أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ أَبٌ أَوْ أُمٌّ بَلَغَ ٱلسِّتِّيْنَ فَلْيَقْتُلْهُ ، لِتَتَخَلَّصَ ٱلْأُمَّةُ مِنْ قَدِيْمِهَا ٱلإِنْسَانِيِّ . . . . !

كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَسَلَّطُ عَلَىٰ أَيَّامِ مُعَاصِرِيْهِ لَا عَلَىٰ ٱلتَّارِيْخِ ، وَيَحْكُمُ عَلَىٰ طَاعَةِ

قَوْمِهِ وَعِصْيَانِهِمْ لَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَمِيرَاثِهِمْ مِنَ ٱلْأَسْلَافِ ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَهْلِكَ حَتَّىٰ يَنْبَعِثَ فِي ٱلدُّنْيَا شَيْئَانِ : تَنْتُنُ رِمَّتُهُ فِي بَطْنِ ٱلْأَرْضِ ، وَتَنْتُنُ أَعْمَالُهُ عَلَىٰ ظَهْرِ ٱلْأَرْضِ . إِنَّ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ ٱلْمُسَلَّطَ ، كَٱلْغُبَارِ ٱلْمُسْتَطَارِ لَا يُكْنَسُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقَعَ . . .

وَلَقَدْ رَأَىٰ ٱلْمَأْفُونُ أَنَّ أَكْلَ ٱلنَّاسِ ٱلْمُلُوخِيَّا ٱلْخَضْرَاءَ وَٱلْفُقَّاعَ ، وَٱلتُّرْمُسَ وَٱلْجِرْجِيرَ ، وَٱلزَّبِيبَ وَٱلْعِنَبَ ـ هَوًى قَدِيمٌ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ ، فَنَهَىٰ عَنْ كُلِّ ذَٰلِكَ ، لَا يُبَاعُ وَلَا يُؤْكَلُ ، وَظَهَرَ عَلَىٰ أَنَّ جَمَاعَةً بَاعُوا أَشْيَاءَ مِنْهَا فَضَرَبَهُمْ بِٱلسِّيَاطِ ، وَأَمَرَ فَطِيفَ بِهِمْ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ، ثُمَّ ضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ؛ كَأَنَّ ٱلَّذِي يَحْمِلُ ٱلْمُلُوخِيَّا ٱلْخَضْرَاءَ عَلَىٰ رَأْسِهِ لِيَبِيعَهَا يَلْبَسُ عِمَامَةً خَضْرَاءَ . . .

أَهَـٰذَا ـ وَيْحَهُ ـ تَجْدِيدٌ فِي ٱلْأُمَّةِ ، أَمْ تَجْدِيدٌ فِي ٱلْمِعِدَةِ . . . ؟

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلثَّامِنُ

لَا يَرْضَىٰ ٱلطَّاغِيَةُ إِلَّا أَنْ يَمْحَقَ رُوحَانِيَّةَ ٱلْأُمَّةِ كُلَّهَا ، فَلَا يَتْرُكُ شَيْئًا رُوحَانِيًّا يَكُونُ لَهُ فِي أَعْصَابِ ٱلنَّاسِ أَثَرٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ ، وَبِمَنْ يَسْتَظْهِرُ { ـ وَيْلَهُ ـ } إِذَا مُحِقَتْ رُوحَانِيَّةُ ٱلْأُمَّةِ وَأَشْرَفَتْ نَزْعَتُهَا ٱلدِّينِيَّةُ عَلَىٰ ٱلِانْحِلَالِ ؟ كَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْوُجُودِ لِأُمَّةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ إِنَّمَا تُسْتَمَدُّ مِنْ إِيمَانِهَا بِٱلْمَثَلِ ٱلْأَعْلَىٰ ٱلَّذِي يَدْفَعُهَا فِي سِلْمِهَا إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ ، كَمَا يَدْفَعُهَا فِي حَرْبِهَا إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ بِقُوَّةٍ ؛ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ ٱلتَّارِيخَ كُلَّهُ تُقَرِّرُهُ فِي ٱلْأَرْضِ بِضْعَةُ مَبَادِئَ دِينِيَّةٍ .

هَـٰذَا ٱلْحَاكِمُ ٱلْأَخْرَقُ هُوَ عِنْدِي كَٱلَّذِي يَقُولُ لِنَفْسِهِ : لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْتَحَ دَوْلَةً ، فَلْأَفْتَحْ دَوْلَةً فِي مَمْلَكَتِي . . . لَقَدْ أَمَرَ بِهَدْمِ ٱلْكَنَائِسِ وَٱلْبِيَعِ ، حَتَّىٰ بَلَغَ مَا هَدَمَ مِنْهَا ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَنَيِّفًا .

أَيُّ مَجْنُونٍ أَسْخَفُ جُنُونًا مِنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي يَحْسَبُ ٱلنُّفُوسَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ كَٱلْأَخْشَابِ ؛ تَقْبَلُ كُلُّهَا بِغَيْرِ ٱسْتِثْنَاءٍ أَنْ تُدَقَّ فِيهَا ٱلْمَسَامِيرُ . . . ؟

سَيَعْلَمُ إِذَا نَشِبَتْ حَرْبٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ ، أَنَّهُ كَسَرَ أَشَدَّ سُيُوفِهِ مَضَاءً حِينَ كَسَرَ ٱلدِّينَ !

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلتَّاسِعُ

هَـٰذِهِ هِيَ ٱلطَّامَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ؛ فَلَا أَدْرِي كَيْفَ أَكْتُبُ عَنْهَا : لَقَدْ تَطَاوَلَ ٱلْمَجْنُونُ إِلَىٰ ٱلْأُلُوهِيَّةِ فَٱدَّعَاهَا ، وَصَارَ يَكْتُبُ عَنْ نَفْسِهِ : بِٱسْمِ ٱلْحَاكِمِ ٱلرَّحْمَـٰنِ !

لَوْ كَانَ أَغْبَى ٱلْأَغْبِيَاءِ فِي مَوْضِعِهِ لَاتَّقَىٰ شَيْئًا ، لَا أَقُولُ تَقْوَىٰ ٱلدِّينِ وَٱلضَّمِيرِ ، وَلَـٰكِنْ تَقْوَىٰ ٱلنِّفَاقِ ٱلسِّيَاسِيِّ ؛ فَكَانَ يَحْمِلُ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ أَنْ يَقُولُوا عَنْهُ : « أَبَانَا ٱلَّذِي فِي ٱلْأَرَضِينَ . . . ! » .

وَإِلَّا فَأَيُّ جَهْلٍ وَخَبْطٍ ، وَأَيُّ حُمْقٍ وَتَهَوُّرٍ ، أَنْ يَكُونَ إِلَـٰهٌ عَلَىٰ حِمَارٍ ، وَإِنْ كَانَ ٱسْمُ حِمَارِهِ ٱلْقَمَرَ !

ٱلْمُجَلَّدُ ٱلْعَاشِرُ

سَيَأْخُذُهُ ٱللهُ بِٱمْرَأَةٍ ؛ وَلِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مِنْ جِنْسِهِ ؛ لَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَقَاحَةِ غَرِيزَتِهِ أَنِ ٱئْتَفَكَ عَلَىٰ أُخْتِهِ ٱلْأَمِيرَةِ (سِتِّ ٱلْمُلْكِ) ، وَرَمَاهَا بِٱلْفَاحِشَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَزْكَىٰ ٱلنِّسَاءِ وَأَفْضَلِهِنَّ ، وَٱتَّهَمَهَا بِٱلْأَمِيرِ (سَيْفِ ٱلدِّينِ بْنِ ٱلدَّوَّاسِ) وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهَا تُدَبِّرُ قَتْلَهُ ، وَأَنَّهَا ٱجْتَمَعَتْ لِذَٰلِكَ بِسَيْفِ ٱلدِّينِ . فَسَأُمْسِكُ عَنِ ٱلْكِتَابَةِ فِي هَـٰذَا ٱلْمُجَلَّدِ ، وَأَدَعُ سَائِرَهُ بَيَاضًا حَتَّىٰ أَذْهَبَ إِلَيْهِمَا فَأُعِينَهُمَا بِمَا عِنْدِي مِنَ ٱلرَّأْيِ ، ثُمَّ أَعُودَ لِتَدْوِينِ مَا يَقَعُ مِنْ بَعْدُ . . .

* * *

وَرَأَيْتُ أَنِّي ٱجْتَمَعْتُ بِهِمَا وَٱطْمَأَنَّا إِلَيَّ ، فَأَخَذْنَا نُدِيرُ ٱلرَّأْيَ :

قَالَتِ ٱلْأَمِيرَةُ لِسَيْفِ ٱلدِّينِ فِيمَا قَالَتْهُ : « وَٱلرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تُتْبِعَهُ غِلْمَانًا يَقْتُلُونَهُ إِذَا خَرَجَ فِي غَدٍ إِلَىٰ جَبَلِ ٱلْمُقَطَّمِ ، فَإِنَّهُ يَنْفَرِدُ بِنَفْسِهِ هُنَاكَ ! » .

فَقُلْتُ أَنَا : « لَيْسَ هَـٰذَا بِٱلرَّأْيِ وَلَا بِٱلتَّدْبِيرِ » .

قَالَتْ : « فَمَا ٱلرَّأْيُ وَٱلتَّدْبِيرُ عِنْدَكَ ؟ » .

قُلْتُ : « إِنَّ لَنَا عِلْمًا يُسَمُّونَهُ (عِلْمَ ٱلنَّفْسِ) ، لَمْ يَقَعْ لِعُلَمَائِكُمْ ، وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي مِنْ

هَـٰذَا ٱلْعِلْمِ أَنَّ ٱلرَّجُلَ طَائِشُ ٱلْغَرِيزَةِ مَجْنُونُهَا ، وَأَنَّ ٱلْأَشِعَّةَ ٱللَّطِيفَةَ ٱلسَّاحِرَةَ ٱلَّتِي تَنْبَعِثُ مِنْ جِسْمِ ٱلْمَرْأَةِ ، هِيَ ٱلَّتِي تَنْفَجِرُ فِي مُخِّهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ؛ فَإِذَا خَبَتْ هَـٰذِهِ ٱلْأَشِعَّةُ وَبَطَلَتِ ٱلْغَرِيزَةُ ، بَطَلَتْ دَوَاعِي أَعْمَالِهِ ٱلْخَبِيثَةِ كُلِّهَا ، وَكَفَّ عَنْ مُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ ٱلْأُمَّةَ مَمْلُوءَةً مِنْ غَرَائِزِ جِسْمِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، لَا مِنْ فَضَائِلِهَا وَدِينِهَا . فَلَوْ أَخَذْتُمْ بِرَأْيِي وَأَمْضَيْتُمُوهُ فَإِنَّهُ سَيُنْكِرُ أَعْمَالَهُ إِذَا عَرَضَهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلْجَدِيدَةِ ، وَبِهَـٰذَا يُصْلِحُ مَا أَفْسَدَ ، وَتَكُونُ حَيَاتُهُ قَدْ نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا ٱلصَّحِيحَةِ كَمَا نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا ٱلْفَاسِدَةِ ؛ فَإِذَا . . . » .

قَالَ ٱلْأَمِيرُ : « فَإِذَا مَاذَا ؟ » .

قُلْتُ : « فَإِذَا خُصِيَ . . . » .

فَضَحِكَتْ سِتُّ ٱلْمُلْكِ ضِحْكَةً رَنَّتْ رَنِينًا .

قُلْتُ : « نَعَمْ إِذَا خُصِيَ هَـٰذَا ٱلْحَاكِمُ . . . » .

فَغَلَبَهَا ٱلضَّحِكُ أَشَدَّ مِنَ ٱلْأَوَّلِ ، وَرَمَتْنِي بِمِنْدِيلٍ لَطِيفٍ كَانَ فِي يَدِهَا أَصَابَ وَجْهِي ، فَٱنْتَبَهْتُ وَأَنَا أَقُولُ :

« نَعَمْ إِذَا خُصِيَ هَـٰذَا ٱلْحَاكِمُ . . . . » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

كُفْرُ ٱلذُّبَابَةِ(*) . . .

قَالَ كَلِيلَةُ(١) وَهُوَ يَعِظُ دِمْنَةَ وَيُحَذِّرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ ٱللهِ فِيهِ ؛ وَكَانَ دِمْنَةُ قَدْ دَاخَلَهُ ٱلْغُرُورُ وَزَهَاهُ ٱلنَّصْرُ ، وَظَهَرَ مِنْهُ ٱلْجَفَاءُ وَٱلْغِلْظَةُ ، وَلَقِيَ ٱلثَّعَالِبُ مِنْ زَيْغِهِ وَإِلْحَادِهِ عَنَتًا شَدِيدًا :

. . . وَٱعْلَمْ يَا دِمْنَةُ أَنَّ مَا زَعَمْتَهُ مِنْ رَأْيِكَ تَامًّا لَا يَعْتَرِيهِ ٱلنَّقْصُ ، هُوَ بِعَيْنِهِ ٱلنَّاقِصُ ٱلَّذِي لَمْ يَتِمَّ ؛ وَٱلْغُرُورُ ٱلَّذِي تُثْبِتُ بِهِ أَنَّ رَأْيَكَ صَحِيحٌ دُونَ ٱلْآرَاءِ ، لَعَلَّهُ هُوَ ٱلَّذِي يُثْبِتُ أَنَّ غَيْرَ رَأْيِكَ فِي ٱلْآرَاءِ هُوَ ٱلصَّحِيحُ .

وَلَوْ كَانَ ٱلْأَمْرُ عَلَىٰ مَا يَتَخَيَّلُ كُلُّ ذِي خَيَالٍ ، لَصَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ ، وَلَوْ صَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ ، لَكَذَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ ؛ وَإِنَّمَا يَدْفَعُ ٱللهُ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، لِيَجِيءَ حَقُّ ٱلْجَمِيعِ مِنَ ٱلْجَمِيعِ ، وَيَبْقَىٰ ٱلصَّغِيرُ مِنَ ٱلْخَطَإِ صَغِيرًا فَلَا يَكْبُرُ ، وَيَثْبُتَ ٱلْكَبِيرُ مِنَ ٱلصَّوَابِ عَلَىٰ مَوْضِعِهِ فَلَا يُنْتَقَصُ ، وَيَصِحَّ ٱلصَّحِيحُ مَا دَامَتِ ٱلشَّهَادَةُ لَهُ ، وَيَفْسُدَ ٱلْفَاسِدُ مَا دَامَتِ ٱلشَّهَادَةُ عَلَيْهِ ، وَمَا مَثَلُ هَـٰذَا إِلَّا مَثَلُ ٱلْأَرْنَبِ وَٱلْعُلَمَاءِ .

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْنَبًا سَمِعَتِ ٱلْعُلَمَاءَ يَتَكَلَّمُونَ فِي مَصِيرِ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ، وَمَتَىٰ يَتَأَذَّنُ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِهَا ، وَكَيْفَ تَكُونُ ٱلْقَارِعَةُ ؛ فَقَالُوا : إِنَّ فِي ٱلنُّجُومِ نُجُومًا مُذَنَّبَةً ، لَوِ ٱلْتَفَّ ذَنَبُ أَحَدِهَا عَلَىٰ جِرْمِ أَرْضِنَا هَـٰذِهِ لَطَارَتْ هَوَاءً كَأَنَّهَا نَفْخَةُ ٱلنَّافِخِ ، بَلْ أَضْعَفُ مِنْهَا كَأَنَّهَا زَفْرَةُ صَدْرٍ مَرِيضٍ ، { بَلْ أَوْهَىٰ ، كَأَنَّهَا نَفْثَةٌ مِنْ شَفَتَيْنِ } . فَقَالَتِ ٱلْأَرْنَبُ : مَا أَجْهَلَكُمْ أَيُّهَا ٱلْعُلَمَاءُ ! قَدْ وَٱللهِ خَرِفْتُمْ وَتَكَذَّبْتُمْ { وَٱسْتَحْمَقْتُمْ } ؛ وَلَا تَزَالُ ٱلْأَرْضُ بِخَيْرٍ مَعَ ذَوَاتِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٧ ، ٢١ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٢ يوليو/تموز ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١١٦٣ ـ ١١٦٦ .

(١) كَلِيلَةُ وَدِمْنَةُ هُنَا أُسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ ٱلْأُسْتَاذِ ٱلرَّافِعِيِّ ، يَعْمَدُ إِلَيْهِ حِينَ يُرِيدُ تَقْرِيرَ ٱلْمَعَانِي بِٱلتَّمْثِيلِ وَٱلْمُحَاوَرَةِ . (ٱلرِّسَالَةُ) .

{ وَٱنْظُرْ مَقَالَةَ (فَلْسَفَةُ ٱلطَّائِشَةِ) فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ } .

الأَذْنَابِ ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ جَهْلِكُمْ هُوَ هَـٰذَا ـ قَالُوا : وَأَرَتْهُمْ ذَنَبَهَا . . . !

قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ يُنْزِلُ نَفْسَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَنْزِلَةَ هَـٰذِهِ الأَرْنَبِ مِنْ أُولَـٰئِكَ العُلَمَاءِ ؛ فَيَقُولُ : كَذَبُوا وَصَدَقْتُ أَنَا ، وَأَخْطَؤُوا[1] جَمِيعًا وَأَصَبْتُ ، وَالْتَبَسَ عَلَيْهِمْ وَانْكَشَفَ لِي ، وَهُمْ زَعَمُوا وَأَنَا المُسْتَيْقِنُ . ثُمَّ لَا دَلِيلَ لَهُ إِلَّا مِثْلُ دَلِيلِ الأَرْنَبِ الخَرْقَاءِ مِنْ هَنَةٍ تَتَحَرَّكُ فِي ذَنَبِهَا .

وَكَانَ يُقَالُ : إِنَّهُ لَا يُجَاهِرُ بِالْكُفْرِ فِي قَوْمٍ إِلَّا رَجُلٌ هَانَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَعْبَؤُوا بِهِ ، فَهُوَ الأَذَلُّ المُسْتَضْعَفُ ؛ أَوْ رَجُلٌ هَانُوا عَلَيْهِ فَلَمْ يَعْبَأْ بِهِمْ ، فَهُوَ الأَعَزُّ الطَّاغِيَةُ ؛ ذَاكَ لَا يَخْشَوْنَهُ فَيَدَعُونَهُ لِنَفْسِهِ وَعَلَيْهِ شَهَادَةُ حُمْقِهِ ، وَهَـٰذَا يَخْشَوْنَهُ فَيَتْرُكُونَ مُعَارَضَتَهُ وَعَلَيْهِ شَهَادَةُ ظُلْمِهِ ؛ وَمَا شَرٌّ مِنْ هَـٰذَا إِلَّا هَـٰذَا .

وَقَالَتِ العُلَمَاءُ : إِنْ كُنْتَ حَاكِمًا تَشْنُقُ مَنْ يُخَالِفُكَ فِي الرَّأْيِ ، فَلَيْسَ فِي رَأْسِكَ إِلَّا عَقْلٌ اسْمُهُ الحَبْلُ ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَقْتُلُ مَنْ يُنْكِرُ عَلَيْكَ الخَطَأَ ، فَلَيْسَ لَكَ إِلَّا عَقْلٌ اسْمُهُ الحَدِيدُ ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَحْبِسُ مَنْ يُعَارِضُكَ بِالنَّظَرِ ، فَفِيكَ عَقْلٌ اسْمُهُ الجِدَارُ ؛ أَمَا إِنْ كُنْتَ تُنَاظِرُ وَتُجَادِلُ ، وَتُقْنِعُ وَتَقْتَنِعُ ، وَتَدْعُو النَّاسَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ، وَلَا تَأْخُذُهُمْ بِالْعَمَىٰ ـ فَفِيكَ العَقْلُ الَّذِي اسْمُهُ العَقْلُ .

* * *

قَالَ كَلِيلَةُ : وَأَنَا يَا دِمْنَةُ ، فَلَوْ كُنْتُ قَائِدًا مُطَاعًا ، وَأَمِيرًا مُتَّبَعًا ، لَا يُعْصَىٰ لِي أَمْرٌ ، وَلَا يُرَدُّ عَلَيَّ رَأْيٌ ، وَلَا يُنْكَرُ مِنِّي مَا يُنْكَرُ مِنَ المَخْلُوقِ إِذَا أَخْطَأَ ، وَلَا يُقَالُ لِي دَائِمًا إِلَّا إِحْدَىٰ الكَلِمَتَيْنِ : أَصَبْتَ ، (ثُمَّ هِيَ دَائِمًا) أَصَبْتَ ؛ وَلَا يَلْقَانِي أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي بِالْكَلِمَةِ الأُخْرَىٰ ، رَهْبَةً مِنْ سَخَطِي رَهْبَةَ الجُبَنَاءِ ، أَوْ رَغْبَةً فِي رِضَايَ رَغْبَةَ المُنَافِقِينَ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ وَخَلَصَ لِي بَاطِنُهُمْ جَمِيعًا[2] ـ فَلَوْ كُنْتُ وَكَانُوا عَلَىٰ

(1) فِي الأَصْلِ : « وَأَخْطَلُوا » بَدَلًا مِنْ : « وَأَخْطَؤُوا » .
(2) فِي الأَصْلِ : « وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدْ خَلَصَ لِي بَاطِنُهُمْ جَمِيعًا ، وَصَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ كُلُّهَا » بَدَلًا مِنْ : « وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ وَخَلَصَ لِي بَاطِنُهُمْ جَمِيعًا » .

هَـٰذَا ، لَأَحَالَنِي نَقْصُهُمْ إِلَىٰ نَقْصِ العَقْلِ بَعْدَ كَمَالِهِ ، وَرَدَّتْنِي فُسُولَتُهُمْ إِلَىٰ فُسُولَةِ الرَّأْيِ بَعْدَ جَوْدَتِهِ ، فَأَخْلِقْ بِي أَنْ أَعْتَبِرَ وَضْعَهُمْ إِيَّايَ فِي مَوْضِعِ الآلِهَةِ ، هُوَ إِنْزَالَهُمْ إِيَّايَ فِي مَنْزِلَةِ الشَّيَاطِينِ ؛ وَإِلَّا كُنْتُ حَقِيقًا أَنْ يُصِيبَنِي مَا أَصَابَ العَنْزَ الَّتِي زَعَمُوا لَهَا أَنَّهَا أُنْثَى الفِيلِ . . .

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي إِحْدَىٰ خَرَائِبِ الهِنْدِ جَمَاعَةٌ مِنَ العَظَاءِ ، وَكَانَ فِيهَا عَضْرَفُوطٌ كَبِيرٌ[1] ، فَمَلَّكَتْهُ الجَمَاعَةُ وَذَهَبَتْ تَأْتَمِرُ عَلَىٰ[2] أَمْرِهِ وَتَنْتَهِي . فَمَرَّ بِهَـٰذِهِ الخَرِبَةِ فِيلٌ جَسِيمٌ مِنَ الفِيَلَةِ الهِنْدِيَّةِ (العَظِيمَةِ) ، لَمْ يُحِسَّ بِالْعَظَاءِ ، وَلَمْ يُمَيِّزْ فَرْقًا بَيْنَ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ (مِنَ الحَشَرَاتِ) وَبَيْنَ الحَصَىٰ مَنْثُورًا يَلْتَمِعُ فِي الأَرْضِ هُنَا وَهُنَا ؛ قَالُوا : فَغَضِبَ العَضْرَفُوطُ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الفِيلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي مُدَافَعَتِهِ ، وَكَيْفَ يَحْتَالُ فِي هَلَاكِهِ[3] ؛ فَرَآهُ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِأَقْدَامِهِ يَنْقُلُهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً ؛ فَقَدَّرَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ أَزَالَ قَدَمَ الفِيلِ عَنِ الأَرْضِ زَالَ الفِيلُ نَفْسُهُ ؛ فَجَاءَ فَاعْتَرَضَ الطَّرِيقَ ، وَدَبَّ دَبِيبَهُ [إِلَىٰ قَدَمِ الفِيلِ] ؛ فَلَمَّا رَفَعَ الفِيلُ قَدَمَهُ اهْتَبَلَ هَـٰذِهِ الغَفْلَةَ مِنْهُ . . وَانْدَسَّ تَحْتَهَا ، فَانْدَسَّ مَقْبُورًا فِي التُّرَابِ !

ثُمَّ إِنَّ العَظَاءَ افْتَقَدَتْ أَمِيرَهَا . فَلَمَّا مَضَىٰ الفِيلُ لِسَبِيلِهِ ، وَرَأَتْ مَا نَزَلَ بِهَا ، نَفَرَتْ إِلَىٰ أَجْحَارِهَا ، وَاسْتَكَنَّتْ فِيهَا تَرْتَقِبُ وَتَتَرَبَّصُ ؛ فَدَخَلَتْ إِلَىٰ الخَرِبَةِ عَنْزٌ جَعَلَتْ تَتَقَمَّمُ مِنْهَا وَتَرْتَعُ فِيهَا ، وَرَأَتْهَا العَظَاءُ فَاجْتَمَعْنَ يَأْتَمِرْنَ . . .

فَقَالَ مِنْهَا قَائِلٌ : هَـٰذِهِ أُنْثَى الفِيلِ . فَسَأَلَتْ عِظَايَةٌ مِنْهُنَّ : وَأَيْنَ النَّابَانِ العَظِيمَانِ ؟

(1) العَظَاءُ : جَمْعُ عَظَاءَةٍ وَعِظَايَةٍ ، وَهِيَ هَـٰذِهِ الدُّوَيْبَّةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا : (السُّحْلِيَّةُ) ، وَالعَضْرَفُوطُ : ضَرْبٌ مِنَ العَظَاءِ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهَا .
(2) فِي الأَصْلِ : « عَنْ » بَدَلًا مِنْ : « عَلَىٰ » .
(3) فِي الأَصْلِ : « فَنَظَرَ العَضْرَفُوطُ كَيْفَ يَصْنَعُ بِهِ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الفِيلِ » بَدَلًا مِنْ : « قَالُوا : فَغَضِبَ العَضْرَفُوطُ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الفِيلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي مُدَافَعَتِهِ ، وَكَيْفَ يَحْتَالُ فِي هَلَاكِهِ » .

قَالَتِ ٱلْأُولَىٰ : إِنَّ ٱلإِنَاثَ دُونَ ٱلذُّكُورَةِ فِي خَلْقِهَا ، وَٱلأُنْثَىٰ هِيَ ٱلذَّكَرُ مَقْلُوبًا أَوْ مُخْتَصَرًا أَوْ مُشَوَّهًا ، وَلِذَلِكَ هُنَّ يَقْلِبْنَ ٱلْحَيَاةَ أَوْ يَخْتَصِرْنَهَا أَوْ يُشَوِّهْنَهَا ، أَفَلَا تَرَيْنَ ٱلنَّابَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ ٱلْبَارِزَيْنِ فِي ذَلِكَ ٱلْفِيلِ ٱلْجَسِيمِ ، كَيْفَ نَبَتَا صَغِيرَيْنِ مُنْقَلِبَيْنِ فَوْقَ رَأْسِ أُنْثَاهُ . . . ؟

فَقَالَتْ وَاحِدَةٌ : إِنْ جَازَ قَوْلُكِ فِي ٱلرَّأْيِ ، فَأَيْنَ ٱلْخُرْطُومُ ؟

قَالَتِ ٱلْأُخْرَىٰ : هُوَ هَٰذِهِ ٱلزَّنَمَةُ ٱلْمُتَدَلِّيَةُ مِنْ حَلْقِهَا ، وَذَلِكَ[1] خُرْطُومٌ عَلَىٰ قَدْرِ أُنُوثَةِ ٱلْأُنْثَىٰ . . . !

قَالُوا : ثُمَّ ٱجْتَمَعَ رَأْيُهُنَّ عَلَىٰ أَنْ يُمَلِّكْنَ أُنْثَىٰ ٱلْفِيلِ هَٰذِهِ ؛ وَأَنْ يَهَبْنَ لَهَا ٱلْخَرِبَةَ وَأُمَّتَهَا . وَسَمِعَتِ ٱلْمَاعِزَةُ كَلَامَهُنَّ ، فَقَالَتْ { فِي نَفْسِهَا } : لَا جَرَمَ أَنْ تَكُونَ ٱلْعَنْزُ فِيلَةً فِي أُمَّةٍ مِنَ ٱلْعَظَاءِ ، فَقَدْ قَالَتِ ٱلْعُلَمَاءُ : إِنَّهُ لَا كَبِيرَ إِلَّا بِصَغِيرٍ ، وَلَا قَوِيَّ إِلَّا بِضَعِيفٍ ، وَلَا طَاغِيَةَ إِلَّا بِذَلِيلٍ ؛ وَإِنَّ ٱلْعَظَمَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا شَهَادَةُ ٱلْحَقَارَةِ عَلَىٰ نَفْسِهَا ، وَإِنَّهُ رُبَّ عَظِيمٍ طَاغِيَةٍ مُتَجَبِّرٍ مَا قَامَ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا كَمَا تَقُومُ ٱلْحِيلَةُ ، وَلَا عَاشَ إِلَّا كَمَا يَعِيشُ ٱلْكَذِبُ ، وَلَا حَكَمَ إِلَّا كَمَا يَحْكُمُ ٱلْخِدَاعُ . وَهَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لِلْمَحْظُوظِ كَأَنَّهَا دُنْيَا لَهُ وَحْدَهُ ، فَمَتَىٰ جَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَدْ جَاءَتْ ، وَلَوْ أَنَّهَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ مِنْ نَاحِيَةٍ لَرَجَعَتْ[2] مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ ، لِيُثْبِتَ ٱلْحَظُّ أَنَّهُ ٱلْحَظُّ .

وَتَقَدَّمَ ٱلْعَظَاءُ إِلَىٰ ٱلْعَنْزِ ، فَقُلْنَ لَهَا : أَيَّتُهَا ٱلْفِيلَةُ ٱلْعَظِيمَةُ ! إِنَّ قَرِينَكِ ٱلْعَظِيمَ قَدْ مَسَّ أَمِيرَنَا ٱلْعَضْرَفُوطَ بِقَدَمِهِ فَغَيَّبَهُ تَحْتَ سَبْعِ أَرَضِينَ ، وَأَنْتِ أُنْثَاهُ وَسَيِّدَتُهُ ، فَقَدِ ٱخْتَرْنَاكِ[3] مَلِكَةً عَلَيْنَا ، وَوَهَبْنَا لَكِ ٱلْخَرِبَةَ وَمَا فِيهَا .

قَالَتِ ٱلْعَنْزُ : فَإِنِّي أَتَهَيَّبُ مِنْكُنَّ هَٰذِهِ ٱلْهِبَةَ ، وَنِعِمَّا صَنَعْتُنَّ ؛ غَيْرَ أَنَّ بَيْنَكُنَّ وَبَيْنِي مَا بَيْنَ ٱلْعَظَايَةِ وَٱلْفِيلِ ، وَمَا بَيْنَ ٱلْحَصَاةِ وَٱلْجَبَلِ ، فَإِذَا أَنَا قُلْتُ ، فَأَنَا قُلْتُ ؛ وَإِذَا أَنَا

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « وَهُوَ » بَدَلًا مِنْ : « وَذَلِكَ » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « رَجَعَتْ » بَدَلًا مِنْ : « لَرَجَعَتْ » .
(٣) فِي ٱلْأَصْلِ : « وَإِنَّنَا قَدِ ٱخْتَرْنَاكِ » بَدَلًا مِنْ : « وَأَنْتِ أُنْثَاهُ وَسَيِّدَتُهُ ، فَقَدِ ٱخْتَرْنَاكِ » .

أَمَرْتُ ، فَأَنَا أَمَرْتُ ؛ وَإِذَا أَنَا فَعَلْتُ ، فَأَنَا فَعَلْتُ . هُنَا فِي هَٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ كُلِّهَا (أَنَا) وَاحِدَةٌ لَيْسَ مَعَهَا غَيْرُهَا ؛ لِأَنَّ هَٰهُنَا فِي هَٰذَا ٱلرَّأْسِ دِمَاغَ فِيلَةٍ ، وَفِي هَٰذَا ٱلْجِسْمِ قُوَّةَ فِيلَةٍ ، وَفِي ٱلْخَرِبَةِ كُلِّهَا فِيلَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ فَلَا أَعْرِفَنَّ مِنْكُنَّ عَلَىٰ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ إِلَّا ٱلطَّاعَةَ ، طَاعَةَ ٱلْأَعْمَىٰ لِلْبَصِيرِ . أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ ٱلْحَقَائِقِ أَنَّنِي فِيلَةٌ وَأَنَّكُنَّ عَظَاءٌ ؛ وَمَتَىٰ بَدَأَ ٱلْيَقِينُ مِنْ هُنَا سَقَطَ ٱلْخِلَافُ مِنْ بَيْنِنَا وَبَطَلَ ٱلِاعْتِرَاضُ مِنْكُنَّ ، وَقَوْلِي حَقٌّ لِأَنَّهَا قُوَّةٌ ، وَبَاطِلِي كَذَلِكَ حَقٌّ لِأَنَّهُ مِنْ قُوَّتِي ؛ وَقَدْ قَالَ أَسْلَافُنَا حُكَمَاءُ ٱلْفِيلَةِ : إِنَّ ٱلْقَوِيَّ بَيْنَ ٱلضُّعَفَاءِ مَشِيئَةٌ مُطْلَقَةٌ ، فَهُوَ مُصْلِحٌ حَتَّىٰ بِٱلْإِفْسَادِ ، حَكِيمٌ حَتَّىٰ بِٱلْحَمَاقَةِ ، إِمَامٌ حَتَّىٰ بِٱلْخُرَافَةِ ، عَالِمٌ حَتَّىٰ بِٱلْجَهَالَةِ ، نَبِيٌّ حَتَّىٰ بِٱلشَّعْوَذَةِ . . . !

قَالُوا : وَتَنَكَّرُ عَلَيْهَا عِظَايَةٌ صَالِحَةٌ عَالِمَةٌ كَانَتْ ذَاتَ رَأْيٍ وَدِينٍ فِي قَوْمِهَا ، وَكُنَّ يُسَمِّينَهَا : (ٱلْعِمَامَةَ) ، لِبَيَاضِهَا وَصَلَاحِهَا وَطَهَارَتِهَا ، فَقَالَتْ : وَلَا كُلُّ هَٰذَا أَيَّتُهَا ٱلْفِيلَةُ ؛ لَقَدْ تَخَرَّصْتِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ؛ فَإِنَّكِ تَحْكُمِينَنَا مِنْ أَجْلِنَا لَا مِنْ أَجْلِكِ ، وَمَا قَوْلُكِ إِلَّا كَلِمَاتٌ تُحَقِّقُهَا أَعْمَالُنَا[1] نَحْنُ ؛ فَلَكِ ٱلطَّاعَةُ فِيمَا يُصْلِحُنَا [لَا فِيمَا يُفْسِدُنَا] ، { وَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ رَدٌّ عَلَيْكِ } ، وَرَأْيُكِ شَيْءٌ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مَعَهُ آرَاؤُنَا ، لِتَتَبَيَّنَ ٱلْأَسْبَابُ أَسْبَابُ ٱلْمُوَافَقَةِ وَٱلْمُخَالَفَةِ ، فَنَأْخُذُ عَنْ بَيِّنَةٍ وَنَتْرُكُ عَنْ بَيِّنَةٍ ؛ وَقَدْ كَانَ يُقَالُ فِي قَدِيمِ ٱلْحِكْمَةِ : إِنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ مَنْ يُقَدِّمُ رَأْيًا لِلْأُمَّةِ ٱلْحَازِمَةِ كَيْ تَأْخُذَ بِهِ ، أَوْ يَضَعُ لَهَا شَرْعًا لِيَحْمِلَهَا عَلَيْهِ ، أَوْ يَسُنُّ لَهَا سُنَّةً لِتَتَّبِعَهَا ـ { إِنَّهُ } يَجِبُ عَلَىٰ هَٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمِ لِتَحْوِيلِ ٱلْأُمَّةِ أَوْ تَحْرِيرِهَا أَنْ يَتَقَدَّمَ لِأَهْلِ ٱلشُّورَىٰ وَفِي رَأْسِهِ ٱلرَّأْيُ ، وَفِي عُنُقِهِ حَبْلٌ ؛ ثُمَّ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَيَبْسُطُهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ ، وَيُجَادِلُهُمْ وَيُجَادِلُونَهُ ؛ فَإِنْ كَانَ ٱلرَّأْيُ حَقًّا أَخَذُوا ٱلرَّأْيَ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَخَذُوا ٱلْحَبْلَ فَشَنَقُوا فِيهِ هَٰذَا ٱلْمُتَهَوِّرَ .

وَفِي دِينِنَا أَنَّ ٱلطَّاعَةَ فِي ٱلْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ أُخْرَىٰ ؛ وَلَقَدْ كَانَ لَنَا عَضْرَفُوطٌ بَحَّاثَةٌ فِي ٱلْأَدْيَانِ دَرَّاسَةٌ لِكُتُبِهَا { عَلَّامَةٌ نَقَّابٌ } ؛ فَكَانَ مِمَّا عَلَّمَنَا : أَنَّ ٱلْمَخْلُوقَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ ٱلنَّقْصِ إِذْ هُوَ مَاضٍ إِلَىٰ ٱلْفَنَاءِ ، فَيَجِبُ أَلَّا يَتِمَّ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِمِقْدَارٍ ، وَأَلَّا تَكُونَ ٱلْقُوَّةُ فِيهِ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « لَا يُحَقِّقُهَا إِلَّا أَعْمَالُنَا » بَدَلًا مِنْ : « تُحَقِّقُهَا أَعْمَالُنَا » .

إِلَّا بِمِقْدَارٍ ؛ وَلِهَـٰذَا كَانَ ٱلْعَقْلُ ٱلتَّامُّ فِي ٱلْأَرْضِ هُوَ مَجْمُوعُ ٱلْعُقُولِ ٱلْعَظِيمَةِ كُلِّهَا ، وَكَانَ أَتَمُّ ٱلْآرَاءِ وَأَصَحُّهَا مَا أَثْبَتَتِ ٱلْآرَاءُ نَفْسُهَا أَنَّهُ أَصَحُّهَا وَأَتَمُّهَا . فَلَا ٱلدِّيْنَ ٱتَّبَعْتِ أَيَّتُهَا ٱلْفِيلَةُ ، وَلَا ٱتَّبَعْتِ فِينَا ٱلْعَقْلَ ، { وَلَيْسَ إِلَّا هَـٰذَا (ٱلتَّفْيِيلُ) ٱلْكَاذِبُ } .

فَلَمَّا سَمِعَتِ ٱلْعَنْزُ ذَلِكَ تَنَفَّشَتْ وَغَضِبَتْ ، وَقَالَتْ : إِيَّاكُمْ وَهَـٰذِهِ ٱلتُّرَّهَاتِ مِنْ أَلْسِنَتِكُمْ ، وَهَـٰذِهِ ٱلْأَبَاطِيلَ فِي عُقُولِكُمْ ؛ لَا أَسْمَعَنَّ مِنْكُمْ كَلِمَةَ ٱلدِّينِ وَلَا كَلِمَةَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَلَا ٱلْعَضَافِيطِ . . . فَذَلِكَ وَحْيٌ غَيْرُ وَحْيِي أَنَا ؛ وَإِذَا كَانَ غَيْرَ وَحْيِي أَنَا فَأَنَا لَسْتُ فِيهِ ، وَإِذَا لَمْ أَكُنْ أَنَا فِيهِ فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِلْحُكْمِ ٱلَّذِي شَرْطُهُ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَنَا وَاحِدَةٌ . وَذَلِكَ إِنْ لَمْ يَجْعَلْكُمْ غُرَبَاءَ عَنِّي جَعَلَنِي غَرِيبَةً عَنْكُمْ ، مَا بُدٌّ مِنْ إِحْدَى ٱلْغُرْبَتَيْنِ ، فَهُوَ أَوَّلُ ٱلْقَطِيعَةِ ، وَٱلْقَطِيعَةُ أَوَّلُ ٱلْفَسَادِ . وَمَا دَامَ فِي ٱلدِّينِ أَمْرٌ غَيْرُ أَمْرِي ، وَنَهْيٌ غَيْرُ نَهْيِي ، وَتَحْلِيلٌ وَتَحْرِيمٌ لَا يَتَغَيَّرَانِ عَلَىٰ مَشِيئَتِي ـ فَأَنَا مَجْنُونَةٌ إِنْ رَضِيتُ لَكُمْ هَـٰذَا . . . !

فَضَحِكَتِ (ٱلْعِمَامَةُ) وَقَالَتْ لِلْمَاعِزَةِ : بَلْ قُولِي : أَنَا مَجْنُونَةٌ بِـ . . . (أَنَا) ؛ أَفَلَا يَجُوزُ وَأَنْتِ خَلْقٌ مِنَ ٱلْخَلْقِ أَنْ يَعْتَرِيَ عَقْلَكِ شَيْءٌ مِمَّا يَعْتَرِي ٱلْعُقُولَ ؟ وَلَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّكِ قَوِيَّةُ ٱلرَّأْيِ فِي نَاحِيَةِ ٱلْقُوَّةِ ، حَسَنَةُ ٱلتَّدْبِيرِ فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّجَاعَةِ ، مُتَجَاوِزَةُ ٱلْمِقْدَارِ فِي نَاحِيَةِ ٱلْحَزْمِ وَٱلْحِرْصِ عَلَىٰ مَصَالِحِ ٱلدَّوْلَةِ ؛ وَلَـٰكِنْ أَلَمْ يَقُلِ ٱلْحُكَمَاءُ : إِنَّ ٱلزِّيَادَةَ ٱلْمُسْرِفَةَ فِي جِهَةٍ مِنَ ٱلْعَقْلِ ، تَأْتِي مِنَ ٱلنَّقْصِ ٱلْمُتَحَيِّفِ لِجِهَةٍ أُخْرَىٰ ؛ وَإِنَّهُ رُبَّ عَقْلٍ كَانَ تَامًّا عَبْقَرِيًّا فِي أُمُورٍ ، لِأَنَّهُ ضَعِيفٌ أَبْلَهُ فِي غَيْرِهَا ؛ يُحْسِنُ فِي تِلْكَ مَا لَا يُحْسِنُهُ أَحَدٌ ، وَيُحْكِمُ مِنْهَا مَا لَا يُحْكِمُهُ أَحَدٌ ، ثُمَّ يَغْلَطُ فِي ٱلْأُخْرَىٰ مَا لَا يَغْلَطُ أَحَدٌ فِيهِ ؟

قَالُوا : فَجَاشَتِ ٱلْعَنْزُ وَفَارَتْ مِنَ ٱلْغَضَبِ فَوْرَةَ ٱلْجَبَّارِ ، وَخُيِّلَ إِلَيْهَا مِنْ عَمَى ٱلْغَيْظِ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَيْنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ ، وَأَنَّ زَنَمَتَهَا ٱمْتَدَّ مِنْهَا خُرْطُومٌ طَوِيلٌ ، وَأَنَّ قَرْنَيْهَا ٱنْبَعَجَ مِنْهُمَا نَابَانِ عَظِيمَانِ ؛ وَقَالَتْ : وَيْحَكُمْ ! خُذُوا هَـٰذِهِ (ٱلْعِمَامَةَ) فَٱشْنُقُوهَا ؛ فَإِنَّهَا كَمَا قَالَتْ ؛ تَقَدَّمَتْ إِلَيْنَا بِٱلرَّأْيِ وَٱلْحَبْلِ . . . !

وَكَانَ فِي ٱلْعَظَاءِ ضِعَافٌ وَمَهَازِيلُ وَجُبَنَاءُ ، وَمَأْكُولُونَ لِكُلِّ آكِلٍ ؛ فَتَشَبَّحَ[1] لَهُمْ أَنَّ

(١) أَيْ : خُيِّلَ إِلَيْهِمْ وَتَمَثَّلَ .

أُنْثَى ٱلْفِيلِ هَـٰذِهِ . . . سَتَخْلُقُهُمْ فِيَلَةً إِنْ هُمْ أَطَاعُوهَا ؛ فَإِذَا مَرَدُوا عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مِنْ صَرَامَةِ ٱلْبَأْسِ بِحَيْثُ تَجْعَلُ كُلَّ ظِلْفٍ مِنْ أَظْلَافِهَا جَبَلًا فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ فَتَسُوخُ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ . ثُمَّ إِنَّهُمُ ٱنْخَزَلُوا وَتَرَاجَعُوا ، وَأُخِذَتِ (ٱلْعِمَامَةُ) ٱلصَّالِحَةُ فَشُنِقَتْ ، وَخَمَدَ ٱلرَّأْيُ مِنْ بَعْدِهَا ، وَٱنْقَطَعَ ٱلْخِلَافُ وَٱلدِّينُ وَٱلْعَقْلُ ٱلْحُرُّ . . . ؛ وَأَقْبَلَتْ دَوْلَةُ ٱلْعَظَاءِ عَلَى ٱلْعَنْزِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا .

قَالُوا : وَٱغْتَرَّتِ ٱلْمَاعِزَةُ وَأَحَسَّتْ لَهَا وُجُودًا لَمْ يَكُنْ ، وَعَرَفَتْ لِنَفْسِهَا وَهِيَ مَاعِزَةٌ نَبَاهَةَ شَأْنِ ٱلْفِيلِ ٱلْقَوِيِّ ، فَلَجَّتْ فِي عَمَايَتِهَا وَكَفَرَتْ بِجِنْسِهَا ، وَقَالَتْ : لَمْ يَخْلُقْنِي ٱللهُ فِيلَةً وَخَلَقْتُ نَفْسِي ؛ فَأَنَا لَا هُوَ . . .

وَثَبَتَ عِنْدَهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ بِعَنْزٍ وَإِنْ أَشْبَهَتْهَا كُلُّ عَنْزٍ فِي ٱلدُّنْيَا ؛ وَذَهَبَتْ تُقَلِّدُ وَتَعِيشُ عَلَىٰ مَذَاهِبِ ٱلْفِيلَةِ بَيْنَ ٱلْعَظَاءِ ؛ فَإِذَا مَشَتِ ٱرْتَجَّتْ وَتَخَطَّرَتْ كَأَنَّهَا بِنَاءٌ يَتَقَلْقَلُ ، وَإِذَا ٱضْطَجَعَتْ أَنْذَرَتِ ٱلْأَرْضَ أَنْ تَتَمَسَّكَ لَا تَدُكَّهَا بِجَنْبِهَا . . . !

وَمَرَّ ذَلِكَ ٱلْفِيلُ بِهَـٰذَا ٱلْخَرَابِ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، فَلَاذَتِ ٱلْعَظَاءُ كُلُّهُنَّ بِٱلْفِيلَةِ . . . وَتَأَهَّبَتْ هَـٰذِهِ لِلْقِتَالِ ، وَتَحَصَّفَتْ فِي ٱلْمُبَارَزَةِ وَٱلْمُنَاجَزَةِ . . . (وَٱلْمُعَانَزَةِ) فَنَصَبَتْ قَرْنَيْهَا ، وَحَرَّكَتْ زَنَمَتَهَا ، وَطَأْطَأَتْ ، وَشَدَّتْ أَظْلَافَهَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَثَبَّتَتْ قَوَائِمَهَا ، وَصَلَّبَتْ عِظَامَهَا ، وَنَفَّشَتْ شَعْرَهَا ، وَتَشَوَّكَتْ كَٱلْقُنْفُذِ ، وَأَصَرَّتْ بِكُلِّ ذَلِكَ إِصْرَارَهَا ، وَكَانَتْ عَنْزًا نَطِيحَةً مُنْذُ كَانَتْ تَتْبَعُ أُمَّهَا وَتَتْلُوهَا ، فَكَيْفَ بِهَا وَقَدْ تَفَيَّلَتْ . . . ؟

ثُمَّ إِنَّهَا ثَبَتَتْ فِي طَرِيقِ ٱلْفِيلِ لِيَرَىٰ بِعَيْنَيْهِ هَـٰذَا ٱلْهَوْلَ ٱلْهَائِلَ . . . فَأَقْبَلَ ، فَمَدَّ خُرْطُومَهُ ، فَنَالَهَا بِهِ ، فَلَفَّهَا فِيهِ ، فَقَبَضَهُ ، فَرَفَعَهُ ، فَطَوَّحَهَا ، فَكَأَنَّمَا ذَهَبَتْ فِي ٱلسَّمَاءِ . . . !

وَتَهَارَبَتِ ٱلْعَظَاءُ وَلُذْنَ بِأَجْحَارِهِنَّ ، ثُمَّ غَدَوْنَ عَلَىٰ رِزْقِهِنَّ ؛ فَإِذَا جِيفَةُ ٱلْعَنْزِ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَدَبَبْنَ عَلَيْهَا وَٱرْتَعَيْنَ فِيهَا ، وَعَلِمْنَ أَنَّهَا كَانَتْ مَاعِزَةً فَيَلَهَا جُنُونُهَا ، وَأَدْرَكْنَ أَنَّ ٱلْكَذِبَ عَلَى ٱلْحَقَائِقِ قَدْ جَعَلَ ٱللهُ لَهُ حَقَائِقَ أُخْرَىٰ تَقْتُلُهُ ، وَأَنَّ مَنْ غَلَبَ أُمَّةَ ٱلْعَظَاءِ عَلَىٰ أَمْرِهَا فَلَيْسَتِ ٱلْأَيَّامُ وَٱللَّيَالِي عَظَاءً فَيَغْلِبُهَا ؛ وَأَنَّ تَغْيِيرَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ ، إِنَّمَا يَكُونُ بِتَحْوِيلِ بَاطِنِهَا لَا بِتَحْوِيلِ ظَاهِرِهَا ، وَأَنَّ ٱلْإِنَاءَ ٱلْأَحْمَرَ يُرِيكَ ٱلْمَاءَ مُحْمَرًّا وَٱلْمَاءُ فِي نَفْسِهِ لَا حُمْرَةَ

فِيهِ ، حَتَّىٰ إِذَا ٱنْكَسَرَ ٱلإِنَاءُ ظَهَرَ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ ؛ وَكُلُّ مَا يُخْفِي ٱلْحَقَّ هُوَ كَهَـٰذَا ٱلإِنَاءِ : لَوْنٌ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ لَا فِيهِ ؛ ثُمَّ أَيْقَنَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِخْرَاجِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ مِنْ نَزَعَاتٍ مَاعِزَةٍ مَأْفُونَةٍ ، هِيَ كَمُحَاوَلَةِ ٱسْتِيلَادِ ٱلْفِيلِ مِنَ ٱلْمَاعِزَةِ . . . . !

* * *

قَالَ كَلِيلَةُ . وَٱعْلَمْ يَا دِمْنَةُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْعَنْزَ ٱلْحَمْقَاءَ قَدْ كَفَرَتْ كُفْرَ ٱلذُّبَابَةِ ، لَمَا أَخَذَهَا ٱللهُ أَخْذَ ٱلذُّبَابَةِ .

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ ذُبَابَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ مِنْ حَمْقَىٰ ٱلذِّبَّانِ ، قُدِرَتِ ٱلْحَمَاقَةُ عَلَيْهَا أَبَدِيَّةً ، فَلَوِ ٱنْقَلَبَتْ نُقْطَةَ حِبْرٍ فِي دَوَاةٍ لَمَا كُتِبَتْ بِهَا إِلَّا كَلِمَةُ : سُخْفٍ .

وَوَقَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلذُّبَابَةُ عَلَىٰ وَجْهِ ٱمْرَأَةٍ زَنْجِيَّةٍ ضَخْمَةٍ ، فَجَعَلَتْ تُقَابِلُ بَيْنَ نَفْسِهَا وَبَيْنَ ٱلْمَرْأَةِ ؛ وَقَالَتْ : إِنَّ هَـٰذَا لَمِنْ أَدَلِّ ٱلدَّلِيلِ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْعَالَمَ فَوْضَىٰ لَا نِظَامَ فِيهِ ، وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ كَيْفَ يَتَّفِقُ عَلَىٰ مَا يَتَّفِقُ ، عَبَثًا فِي عَبَثٍ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ ٱلأَنْبِيَاءَ قَدْ كَذَبُوا ٱلنَّاسَ ، إِذْ كَيْفَ يَسْتَوِي فِي ٱلْحِكْمَةِ خَلْقِي (أَنَا) وَخَلْقُ هَـٰذِهِ ٱلذُّبَابَةِ ٱلضَّخْمَةِ ٱلَّتِي أَنَا فَوْقَهَا . . . ؟

ثُمَّ نَظَرَتْ لَيْلَةً فِي ٱلسَّمَاءِ ، فَأَبْصَرَتْ نُجُومَهَا يَتَلَأْلَأْنَ وَبَيْنَهَا ٱلْقَمَرُ ؛ فَقَالَتْ : وَهَـٰذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَىٰ مَا تَحَقَّقَ عِنْدِي مِنْ فَوْضَىٰ ٱلْعَالَمِ ، وَكَذِبِ ٱلأَدْيَانِ ، وَعَبَثِ ٱلْمُصَادَفَاتِ ؛ فَمَا ٱلإِيمَانُ بِعَيْنِهِ إِلَّا ٱلإِلْحَادُ بِعَيْنِهِ ، وَوَضْعُ ٱلْعَقْلِ فِي شَيْءٍ هُوَ إِيجَادُ ٱلأُلُوهِيَّةِ فِيهِ ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَسْتَوِي فِي ٱلْحِكْمَةِ وَضْعِي (أَنَا) فِي ٱلأَرْضِ وَرَفْعُ هَـٰذَا ٱلذُّبَّانِ ٱلأَبْيَضِ وَيَعْسُوبِهِ ٱلْكَبِيرِ[1] إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ . . . ؟

ثُمَّ إِنَّهَا وَقَعَتْ فِي دَارِ فَلَّاحٍ ، فَجَعَلَتْ تَمُورُ فِيهَا ذَهَابًا وَجِيئَةً ، حَتَّىٰ رَجَعَتْ بَقَرَةُ ٱلْفَلَّاحِ مِنْ مَرْعَاهَا ، فَبُهِتَتِ ٱلذُّبَابَةُ وَجَمَدَتْ عَلَىٰ غُرَّتِهَا مِنْ أَوَّلِ ٱلنَّهَارِ إِلَىٰ آخِرِهِ ، كَأَنَّهَا تُزَاوِلُ عَمَلًا ؛ فَلَمَّا أَمْسَتْ قَالَتْ : وَهَـٰذَا دَلِيلٌ أَكْبَرُ ٱلدَّلِيلِ عَلَىٰ فَوْضَىٰ ٱلأَرْزَاقِ فِي ٱلدُّنْيَا ،

(١) { ٱلْيَعْسُوبُ : أَمِيرُ ٱلنَّحْلِ وَٱلذِّبَّانِ وَنَحْوِهِمَا ، خُيِّلَ لِلذُّبَابَةِ أَنَّ ٱلْقَمَرَ أَمِيرُ هَـٰذَا ٱلذُّبَابِ ٱلأَبْيَضِ . . . } .

فَهَاتَانِ ذُبَابَتَانِ قَدْ ثَقَبَتَا ثُقْبَيْنِ فِي وَجْهِ هَـٰذِهِ ٱلْبَقَرَةِ وَٱكْتَنَّتَا فِيهِمَا تَأْكُلَانِ مِنْ شَحْمِهَا فَتَعْظُمَانِ سِمَنًا ؛ وَٱلنَّاسُ مِنْ جَهْلِهِمْ بِٱلْعِلْمِ ٱلذُّبَابِيِّ يُسَمُّونَهُمَا عَيْنَيْنِ . . . وَأَنَا قَضَيْتُ ٱلْيَوْمَ كُلَّهُ أَخْمِشُ وَأَعَضُّ وَأَلْسَعُ لِأَنْقُبَ لِي ثُقْبًا مِثْلَهُمَا فَمَا ٱنْتَزَعْتُ شَعْرَةً ؛ فَهَلْ يَسْتَوِي فِي ٱلْحِكْمَةِ رِزْقِي (أَنَا) وَرِزْقُ هَاتَيْنِ ٱلذُّبَابَتَيْنِ فِي وَجْهِ ٱلْبَقَرَةِ . . . ؟

ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ خُنْفُسَاءَ تَدِبُّ دَبِيبَهَا فِي ٱلأَرْوَاثِ وَٱلأَقْذَارِ ؛ فَنَظَرَتْ إِلَيْهَا وَقَالَتْ : هَـٰذِهِ لَا تَصْلُحُ دَلِيلًا عَلَىٰ ٱلْكُفْرِ ؛ فَإِنِّي (أَنَا) خَيْرٌ مِنْهَا ؛ (أَنَا) لِي أَجْنِحَةٌ وَلَيْسَ لَهَا ، (وَأَنَا) خَفِيفَةٌ وَهِيَ ثَقِيلَةٌ ؛ وَمَا كَأَنَّهَا ذُبَابَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ ذُبَابِ ٱلْقُرُونِ ٱلأُولَىٰ ، ذَلِكَ ٱلَّذِي كَانَ بَلِيدًا لَا يَتَحَرَّكُ ، فَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ ٱلْحَرَكَةُ جَنَاحًا[1] . ثُمَّ إِنَّهَا أَصْغَتْ فَسَمِعَتِ ٱلْخُنْفُسَاءَ تَقُولُ لِأُخْرَىٰ وَهِيَ تُحَاوِرُهَا : إِذَا لَمْ يَجِدِ ٱلْمَخْلُوقُ أَنَّهُ كَمَا يَشْتَهِي فَلْيَكْفُرْ كَمَا يَشْتَهِي ؛ يَا وَيْحَنَا ! لِمَ لَمْ نَكُنْ جَامُوسًا كَهَـٰذَا ٱلْجَامُوسِ ٱلْعَظِيمِ ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَرْقٌ إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَنْفُخُهُ وَلَمْ نَجِدْ . . . ؟

فَقَالَتِ ٱلذُّبَابَةُ : إِنَّ هَـٰذَا دَلِيلُ ٱلْعَقْلِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْعَاقِلَةِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّهَا لَا تَمْشِي مُتَثَاقِلَةً مِنْ أَنَّهَا بَطِيئَةٌ مُرْهَقَةٌ بِعَجْزِهَا ، وَلَـٰكِنْ مِنْ أَنَّهَا وَقُورٌ مُثْقَلَةٌ بِأَفْكَارِهَا ، وَهِيَ ٱلدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنِّي (أَنَا) ٱلسَّابِقَةُ إِلَىٰ كَشْفِ ٱلْحَقِيقَةِ . . . !

وَجَعَلَتِ ٱلذُّبَابَةُ لَا يُسْمَعُ مِنْ دَنْدَنَتِهَا إِلَّا ، أَنَا ، أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . مِنْ كُفْرٍ إِلَىٰ كُفْرِ غَيْرِهِ ، إِلَىٰ كُفْرِ غَيْرِهِمَا ؛ حَتَّىٰ كَأَنَّ ٱلسَّمَاوَاتِ كُلَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ ذُبَابَةٍ . . . .

ثُمَّ جَاءَتِ ٱلْحَقِيقَةُ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلإِلْحَادِ ٱلأَحْمَقِ تَسْعَىٰ سَعْيَهَا ؛ فَبَيْنَا ٱلذُّبَابَةُ عَلَىٰ وَجْهِ حَائِطٍ ، وَقَدْ أَكَلَتْ بَعُوضَةً أَوْ بَعُوضَتَيْنِ ، وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا ، فَوَقَفَتْ تَحُكُّ ذِرَاعَهَا بِذِرَاعِهَا ـ دَنَتْ بَطَّةٌ صَغِيرَةٌ قَدِ ٱنْفَلَقَتْ عَنْهَا ٱلْبَيْضَةُ أَمْسِ ، فَمَدَّتْ مِنْقَارَهَا ، فَٱلْتَقَطَتْهَا .

وَلَمَّا ٱنْطَبَقَ ٱلْمِنْقَارُ عَلَيْهَا قَالَتْ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْبَطَّةَ . . . !

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) { إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ ٱلْوَظِيفَةَ تَخْلُقُ ٱلْعُضْوَ كَمَا زَعَمُوا } .

يَا شَبَابَ ٱلْعَرَبِ !(*)

يَقُولُوْنَ : إِنَّ فِيْ شَبَابِ ٱلْعَرَبِ شَيْخُوخَةَ ٱلْهِمَمِ وَٱلْعَزَائِمِ ؛ فَٱلشُّبَّانُ يَمتَدُّوْنَ فِيْ حَيَاةِ ٱلأُمَمِ وَهُمْ يَنْكَمِشُوْنَ .

وَإِنَّ ٱللَّهْوَ قَدْ خَفَّ بِهِمْ حَتَّىٰ ثَقُلَتْ عَلَيْهِمْ حَيَاةُ ٱلْجِدِّ ، فَأَهْمَلُوْا ٱلْمُمْكِنَاتِ فَرَجَعَتْ لَهُمْ كَٱلْمُسْتَحِيْلَاتِ .

وَإِنَّ ٱلْهَزْلَ قَدْ هَوَّنَ عَلَيْهِمْ كُلَّ صَعْبَةٍ فَٱخْتَصَرُوْهَا ؛ فَإِذَا هَزَئُوا بِٱلْعَدُوِّ فِيْ كَلِمَةٍ فَكَأَنَّمَا هَزَمُوْهُ فِيْ مَعْرَكَةٍ . . .

وَإِنَّ ٱلشَّابَّ مِنْهُمْ يَكُوْنُ رَجُلًا تَامًّا ، وَرُجُوْلَةُ جِسْمِهِ تَحْتَجُّ عَلَىٰ طُفُوْلَةِ أَعْمَالِهِ .

وَيَقُوْلُوْنَ : إِنَّ ٱلأَمْرَ ٱلْعَظِيْمَ عِنْدَ شَبَابِ ٱلْعَرَبِ أَلَّا يَحْمِلُوْا أَبَدًا تَبِعَةَ أَمْرٍ عَظِيْمٍ .

* * *

وَيَزْعُمُوْنَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلشَّبَابَ قَدْ تَمَّتِ ٱلأُلْفَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَغْلَاطِهِ ، فَحَيَاتُهُ حَيَاةُ هَـٰذِهِ ٱلأَغْلَاطِ فِيْهِ .

وَأَنَّهُ أَبْرَعُ مُقَلِّدٍ لِلْغَرْبِ فِيْ ٱلرَّذَائِلِ خَاصَّةً ؛ وَبِهَـٰذَا جَعَلَهُ ٱلْغَرْبُ كَٱلْحَيَوَانِ مَحْصُوْرًا فِيْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَلَذَّاتِهِ .

وَيَزْعُمُوْنَ أَنَّ ٱلزُّجَاجَةَ مِنَ ٱلْخَمْرِ تَعْمَلُ فِيْ هَـٰذَا ٱلشَّرْقِ ٱلْمِسْكِيْنِ عَمَلَ جُنْدِيٍّ أَجْنَبِيٍّ فَاتِحٍ . . .

وَيَتَوَاصَوْنَ بِأَنَّ أَوَّلَ ٱلسِّيَاسَةِ فِيْ ٱسْتِعْبَادِ أُمَمِ ٱلشَّرْقِ ، أَنْ يُتْرَكَ لَهُمُ ٱلاسْتِقْلَالُ ٱلتَّامُّ فِيْ حُرِّيَّةِ ٱلرَّذِيْلَةِ . . .

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٥ ، ٣ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٢ يونيو/ حزيران ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٠٠١ ـ ١٠٠٣ .

وَيَقُوْلُوْنَ : إِنَّهُ لَا بُدَّ فِيْ ٱلشَّرْقِ مِنَ ٱلِٱثْنَيْنِ لِلتَّخْرِيْبِ : قُوَّةِ أُوْرُبَّةَ ، وَرَذَائِلِ أُوْرُبَّةَ .

* * *

يَا شَبَابَ ٱلْعَرَبِ ! مَنْ غَيْرُكُمْ يُكَذِّبُ مَا يَقُوْلُوْنَ وَيَزْعُمُوْنَ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلشَّرْقِ ٱلْمِسْكِيْنِ ؟

مَنْ غَيْرُ ٱلشَّبَابِ يَضَعُ ٱلْقُوَّةَ بِإِزَاءِ هَـٰذَا ٱلضَّعْفِ ٱلَّذِيْ وَصَفُوْهُ لِتَكُوْنَ جَوَابًا عَلَيْهِ ؟

مَنْ غَيْرُكُمْ يَجْعَلُ ٱلنُّفُوْسَ قَوَانِيْنَ صَارِمَةً ، تَكُوْنُ ٱلْمَادَّةُ ٱلأُوْلَىٰ فِيْهَا : قَدَرْنَا لِأَنَّنَا أَرَدْنَا ؟

أَلَا إِنَّ ٱلْمَعْرَكَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلاسْتِعْمَارِ مَعْرَكَةٌ نَفْسِيَّةٌ ، إِنْ لَمْ يُقْتَلْ فِيْهَا ٱلْهَزْلُ قُتِلَ فِيْهَا ٱلْوَاجِبُ !

وَٱلْحَقَائِقُ ٱلَّتِيْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَـٰذَا ٱلاسْتِعْمَارِ إِنَّمَا يَكُوْنُ فِيْكُمْ أَنْتُمْ بَحْثُهَا ٱلتَّحْلِيْلِيُّ ، تَكْذِبُ أَوْ تَصْدُقُ .

* * *

ٱلشَّبَابُ هُوَ ٱلْقُوَّةُ ؛ فَٱلشَّمْسُ لَا تَمْلَأُ ٱلنَّهَارَ فِيْ آخِرِهِ كَمَا تَمْلَؤُهُ فِيْ أَوَّلِهِ .

وَفِيْ ٱلشَّبَابِ نَوْعٌ مِنَ ٱلْحَيَاةِ تَظْهَرُ كَلِمَةُ ٱلْمَوْتِ عِنْدَهُ كَأَنَّهَا أُخْتُ كَلِمَةِ ٱلنَّوْمِ .

وَلِلشَّبَابِ طَبِيْعَةٌ أَوَّلُ إِدْرَاكِهَا ٱلثِّقَةُ بِٱلْبَقَاءِ ، فَأَوَّلُ صِفَاتِهَا ٱلإِصْرَارُ عَلَى ٱلْعَزْمِ .

وَفِيْ ٱلشَّبَابِ تَصْنَعُ كُلُّ شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ ٱلْحَيَاةِ أَثْمَارَهَا ؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ لَا تَصْنَعُ ٱلأَشْجَارُ كُلُّهَا إِلَّا خَشَبًا . . .

يَا شَبَابَ ٱلْعَرَبِ ! ٱجْعَلُوْا رِسَالَتَكُمْ : إِمَّا أَنْ يَحْيَا ٱلشَّرْقُ عَزِيْزًا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوْتُوْا .

* * *

أَنْقِذُوْا فَضَائِلَنَا مِنْ رَذَائِلِ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلأُوْرُبِّيَّةِ ، تُنْقِذُوْا ٱسْتِقْلَالَنَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتُنْقِذُوْهُ بِذَلِكَ .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلشَّرْقَ حِيْنَ يَدْعُوْ إِلَيْهِ ٱلْغَرْبَ ، ﴿ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ

وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [٢٢ سورة الحج/ الآية : ١٣] .

لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ إِذَا جَاءَ بِقُوَّتِهِ وَقَوَانِينِهِ ، وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ إِذَا جَاءَ بِرَذَائِلِهِ وَأَطْمَاعِهِ .

أَيُّهَا ٱلشَّرْقِيُّ ! إِنَّ ٱلدِّينَارَ ٱلْأَجْنَبِيَّ فِيهِ رَصَاصَةٌ مَخْبُوءَةٌ ، وَحُقُوقُنَا مَقْتُولَةٌ بِهَـٰذِهِ ٱلدَّنَانِيرِ .

أَيُّهَا ٱلشَّرْقِيُّ ! لَا يَقُولُ لَكَ ٱلْأَجْنَبِيُّ إِلَّا مَا قَالَ ٱلشَّيْطَانُ : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [١٤ سورة إبراهيم/ الآية : ٢٢] .

* * *

يَا شَبَابَ ٱلْعَرَبِ ! لَمْ يَكُنِ ٱلْعَسِيرُ يَعْسُرُ عَلَىٰ أَسْلَافِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ، كَأَنَّ فِي يَدِهِمْ مَفَاتِيحَ مِنَ ٱلْعَنَاصِرِ يَفْتَحُونَ بِهَا .

أَتُرِيدُونَ مَعْرِفَةَ ٱلسِّرِّ ؟ ٱلسِّرُّ أَنَّهُمُ ٱرْتَفَعُوا فَوْقَ ضَعْفِ ٱلْمَخْلُوقِ ، فَصَارُوا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ ٱلْخَالِقِ .

غَلَبُوا عَلَى ٱلدُّنْيَا لَمَّا غَلَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى ٱلْفَقْرِ ، وَمَعْنَى ٱلْخَوْفِ ، وَٱلْمَعْنَى ٱلْأَرْضِيَّ .

وَعَلَّمَهُمُ ٱلدِّينُ كَيْفَ يَعِيشُونَ بِٱللَّذَّاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ ٱلَّتِي وَضَعَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ عَظَمَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ .

وَٱخْتَرَعَهُمُ ٱلْإِيمَانُ ٱخْتِرَاعًا نَفْسِيًّا ، عَلَامَتُهُ ٱلْمُسَجَّلَةُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ : لَا يَذِلُّ .

* * *

حِينَ يَكُونُ ٱلْفَقْرُ قِلَّةَ ٱلْمَالِ ، يَفْتَقِرُ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ، وَتَتَخَذَّلُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ ، وَتَهْلِكُ ٱلْمَوَاهِبُ .

وَلَـٰكِنْ حِينَ يَكُونُ فَقْرَ ٱلْعَمَلِ ٱلطَّيِّبِ ، يَسْتَطِيعُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَغْتَنِيَ ، وَتَنْبَعِثُ ٱلْقُوَّةُ ، وَتَعْمَلُ كُلُّ مَوْهِبَةٍ .

وَحِينَ يَكُونُ ٱلْخَوْفُ مِنْ نَقْصِ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ وَآلَامِهَا ، تُفَسِّرُ كَلِمَةُ ٱلْخَوْفِ مِئَةَ رَذِيلَةٍ غَيْرِ ٱلْخَوْفِ .

وَلَـٰكِنْ حِينَ يَكُونُ مِنْ نَقْصِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْآخِرَةِ وَعَذَابِهَا ، تُصْبِحُ ٱلْكَلِمَةُ قَانُونَ ٱلْفَضَائِلِ أَجْمَعَ .

هَـٰكَذَا ٱخْتَرَعَ ٱلدِّينُ إِنْسَانَهُ ٱلْكَبِيرَ ٱلنَّفْسِ ٱلَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ : ٱنْهَزَمَتْ نَفْسُهُ .

* * *

يَا شَبَابَ ٱلْعَرَبِ ! كَانَتْ حِكْمَةُ ٱلْعَرَبِ ٱلَّتِي يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا : ٱطْلُبِ ٱلْمَوْتَ تُوهَبْ لَكَ ٱلْحَيَاةُ .

وَٱلنَّفْسُ إِذَا لَمْ تَخْشَ ٱلْمَوْتَ كَانَتْ غَرِيزَةُ ٱلْكِفَاحِ أَوَّلَ غَرَائِزِهَا تَعْمَلُ .

وَلِلْكِفَاحِ غَرِيزَةٌ تَجْعَلُ ٱلْحَيَاةَ كُلَّهَا نَصْرًا ، إِذْ لَا تَكُونُ ٱلْفِكْرَةُ مَعَهَا إِلَّا فِكْرَةً مُقَاتِلَةً .

غَرِيزَةُ ٱلْكِفَاحِ يَا شَبَابُ ، هِيَ ٱلَّتِي جَعَلَتِ ٱلْأَسَدَ لَا يُسَمَّنُ كَمَا تُسَمَّنُ ٱلشَّاةُ لِلذَّبْحِ .

وَإِذَا ٱنْكَسَرَتْ يَوْمًا ، فَٱلْحَجَرُ ٱلصَّلْدُ إِذَا تَرَضْرَضَتْ مِنْهُ قِطْعَةٌ كَانَتْ دَلِيلًا يَكْشِفُ لِلْعَيْنِ أَنَّ جَمِيعَهُ حَجَرٌ صَلْدٌ .

* * *

يَا شَبَابَ ٱلْعَرَبِ ! إِنَّ كَلِمَةَ (حَقِّي) لَا تَحْيَا فِي ٱلسِّيَاسَةِ إِلَّا إِذَا وَضَعَ قَائِلُهَا حَيَاتَهُ فِيهَا .

فَٱلْقُوَّةَ ٱلْقُوَّةَ يَا شَبَابُ ! ٱلْقُوَّةَ ٱلَّتِي تَقْتُلُ أَوَّلَ مَا تَقْتُلُ فِكْرَةَ ٱلتَّرَفِ وَٱلتَّخَنُّثِ .

ٱلْقُوَّةَ ٱلْفَاضِلَةَ ٱلْمُتَسَامِيَةَ ٱلَّتِي تَضَعُ لِلْأَنْصَارِ فِي كَلِمَةِ (نَعَمْ) مَعْنَى نَعَمْ .

ٱلْقُوَّةَ ٱلصَّارِمَةَ ٱلنَّفَّاذَةَ ٱلَّتِي تَضَعُ لِلْأَعْدَاءِ فِي كَلِمَةِ (لَا) مَعْنَى لَا .

يَا شَبَابَ ٱلْعَرَبِ ! ٱجْعَلُوا رِسَالَتَكُمْ : إِمَّا أَنْ يَحْيَا ٱلشَّرْقُ عَزِيزًا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتُوا .

طنطا   مصطفى صادق الرافعي

لَوْ[*] . . . !

رَأَيْتُنِي جَالِسًا فِي مَسْرَحٍ هَزْلِيٍّ بِمَدِينَةِ إِسْكَنْدَرِيَّةَ ، كَمَا يَجْلِسُ ٱلْقَاضِي فِي جَرِيمَةٍ يَحْمِلُ أَهْلُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ آثَامَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ، وَيَحْمِلُ هُوَ عَقْلَهُ وَحُكْمَهُ . وَقَدْ ذَهَبْتُ لِأَرَىٰ كَيْفَ يَتَسَاخَفُ أَهْلُ هَـٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ؛ فَكَانَ حُكْمِي أَنَّ ٱلسَّخَافَةَ عِنْدَنَا سَخِيفَةٌ جِدًّا . . .

رَأَيْتُهُمْ هُنَاكَ يَنْقُدُونَ ٱلْعُيُوبَ بِمَا يُنْشِئُ عُيُوبًا جَدِيدَةً ، وَيَسْبَحُونَ بِأَيْدِيهِمْ سِبَاحَةً مَاهِرَةً ؛ وَلَـٰكِنْ عَلَى ٱلْأَرْضِ لَا فِي ٱلْبَحْرِ ، وَتَكَادُ نَظْرَتُهُمْ إِلَى ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْهَزْلِيَّةِ تَكُونُ عَمًى ظَاهِرًا عَمَّا هِيَ بِهِ حَقِيقَةٌ هَزْلِيَّةٌ ؛ وَلَا غَايَةَ لَهُمْ مِنْ هَـٰذَا ٱلتَّمْثِيلِ إِلَّا ٱلرَّقَاعَةُ وَٱلْإِسْفَافُ وَٱلْخَلْطُ وَٱلْهَذَيَانُ ، إِذْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْأَشْبَهَ بِجُمْهُورِهِمِ ٱلَّذِي يَحْضُرُهُمْ ، وَكَانَ هُوَ ٱلْأَقْرَبَ إِلَىٰ تِلْكَ ٱلطِّبَاعِ ٱلْعَامِّيَّةِ ٱلْبَلِيدَةِ ٱلَّتِي ٱعْتَادَتْ مِنْ تَكَلُّفِ ٱلْهَزْلِ مَا جَعَلَهَا هِيَ فِي ذَاتِ نَفْسِهَا هَزْلًا يُسْخَرُ مِنْهُ .

وَلَا أَسْخَفَ مِنْ تَكَلُّفِ ٱلنُّكْتَةِ ٱلْبَارِدَةِ قَدْ خَلَتْ مِنَ ٱلْمَعْنَىٰ ، إِلَّا تَكَلُّفُ ٱلضَّحِكِ ٱلْمَصْنُوعِ يَأْتِي فِي عَقِبِهَا كَٱلْبُرْهَانِ عَلَىٰ أَنَّ فِي هَـٰذِهِ ٱلنُّكْتَةِ مَعْنًى .

فَٱلْفَنُّ ٱلْمُضْحِكُ عِنْدَ هَـٰؤُلَاءِ ، إِنَّمَا هُوَ ٱلسُّخْفُ ٱلَّذِي يُوَافِقُونَ بِهِ ٱلرُّوحَ ٱلْعَامِّيَّةَ ٱلضَّئِيلَةَ ٱلْكَاذِبَةَ ٱلْمَكْذُوبَ عَلَيْهَا ، ٱلَّتِي يَبْلُغُ مِنْ بَلَاهَتِهَا أَحْيَانًا أَنْ تَضْحَكَ لِلنُّكْتَةِ قَبْلَ إِلْقَائِهَا ، لِفَرْطِ خِفَّتِهَا وَرُعُونَتِهَا ، وَطُولِ مَا تَكَلَّفَتْ وَٱعْتَادَتْ . فَمَا ذَلِكَ ٱلْفَنُّ إِلَّا مَا تَرَىٰ مِنَ ٱلتَّخْلِيطِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ، وَٱلتَّضْرِيبِ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي ، وَإِيقَاعِ ٱلْغَلَطِ فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ؛ ثُمَّ لَا ثُمَّ بَعْدَ هَـٰذَا . فَلَا دِقَّةَ فِي ٱلتَّأْلِيفِ ، وَلَا عُمْقَ فِي ٱلْفِكْرَةِ ، وَلَا سِيَاسَةَ فِي جَمْعِ ٱلنَّقَائِضِ ، وَلَا نَفَاذَ فِي أَسْرَارِ ٱلنَّفْسِ ، وَلَا جِدَّ يُؤْخَذُ مِنْ هَزْلِيَّةِ ٱلْحَيَاةِ ، وَلَا عَظَمَةَ تُسْتَخْرَجُ مِنْ صَغَائِرِهَا ، وَلَا فَلْسَفَةَ تُعْرَفُ مِنْ حَمَاقَاتِهَا .

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٨ ، ٢٤ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ هـ = ١٣ يوليو/ تموز ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١١٢١ ـ ١١٢٣ .

وَٱلْفَرْقُ بَعِيدٌ بَيْنَ ضَحِكٍ هُوَ صِنَاعَةُ ذِهْنٍ لِتَحْرِيكِ ٱلنَّفْسِ ، وَشَحْذِ ٱلطَّبْعِ ، وَتَصْوِيرِ ٱلْحَقِيقَةِ صُورَةً أُخْرَىٰ ، وَبَيْنَ ضَحِكٍ هُوَ صِنَاعَةُ ٱلْبَلَاهَةِ لِلَّهْوِ وَٱلْعَبَثِ وَٱلْمَجَانَةِ لَا غَيْرُ .

* * *

وَكَانَ مَعِي قَرِيبٌ مِنْ أَذْكِيَاءِ ٱلطَّلَبَةِ ٱلْمُتَخَصِّصِينَ لِلْآدَابِ ٱلْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، فَلَمْ نَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا[١] حَتَّىٰ جَاءَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ضُبَّاطِ ٱلْأُسْطُولِ ٱلْإِنْكِلِيزِيِّ ، فَجَلَسُوا بِحِذَائِنَا صَفًّا تَلُوحُ عَلَيْهِمْ مَخَايِلُ ٱلظَّفَرِ ، وَلَهُمْ وَقَارُ ٱلْبُطُولَةِ ، وَفِيهِمْ أَرْوَاحُ ٱلْحَرْبِ ؛ وَهُمْ يَبْدُونَ فِي ثِيَابِهِمُ ٱلْبِيضِ ٱلْمُطَرَّاةِ[٢] كَأَنَّهُمْ ثَلَاثَةُ نُسُورٍ هَبَطَتْ مِنَ ٱلْغَمَامِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ، فَلِأَعْيُنِهَا نَظَرَاتٌ تَدُورُ هُنَا وَهُنَاكَ تُنْكِرُ وَتَعْرِفُ .

وَأَعْجَبَنِي أَنْ أَرَاهُمْ فِي هَـٰذَا ٱلْمَكَانِ ٱلْهَزْلِيِّ ٱلْمُمْتَلِئِ بِٱلضُّعَفَاءِ ، كَأَنَّهُمْ ثَلَاثُ حَقَائِقَ بَيْنَ ٱلْأَغْلَاطِ ، أَوْ ثَلَاثُ أَغْلَاطٍ كَبِيرَةٍ . . . وَكَانَ أَبْدَعَ مَا أَرَاهُ عَلَىٰ هَيْئَةِ وُجُوهِهِمْ وَأَسَرَّ لَهُ ، تَوَاضُعُ هَـٰذَا ٱلِاسْتِعْدَادِ ٱلْحَرْبِيِّ وَتَحَوُّلُهُ إِلَى ٱسْتِعْدَادٍ لِلسُّخْرِيَةِ . . .

ثُمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ طَوِيلًا ، فَإِذَا صَرَامَةٌ وَشَهَامَةٌ ، وَسَكِينَةٌ وَوَدَاعَةٌ ، وَحُسْنُ سَمْتٍ وَحَلَاوَةُ هَيْئَةٍ فِي جِلْسَةٍ رَزِينَةٍ مُتَوَقِّرَةٍ ، لَا يُشْبِهُهَا فِي حِسِّ ٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي تَعْرِفُ مَعَانِيَ ٱلْقُوَّةِ إِلَّا وَضْعُ ثَلَاثَةِ مَدَافِعَ مُصَوَّبَةٍ .

وَجَعَلْتُ أُقَلِّبُ عَيْنَيَّ فِي ٱلنَّاسِ ٱلْمَوْجُودِينَ وَمَلَامِحِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ ، ثُمَّ أَرْجِعُ ٱلْبَصَرَ إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ٱلثَّلَاثَةِ ، فَأَرَى ٱلْمِصْرِيَّ كَٱلْمُقْتَنِعِ بِأَنَّهُ مَحْدُودٌ بِمَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ لَا يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ مَكَانًا فِي غَيْرِهِمَا ، فَهُوَ مِنْ ثَمَّ لَا يَرْحَلُ وَلَا يُغَامِرُ ، وَلَا تَتَقَاذَفُهُ ٱلدُّنْيَا ؛ وَأَرَى ٱلْإِنْكِلِيزِيَّ كَٱلْمُقْتَنِعِ بِأَنَّ كُلَّ مَكَانٍ فِي ٱلْعَالَمِ يَنْتَظِرُ ٱلْإِنْكِلِيزَ . . .

وَخُيِّلَ إِلَيَّ وَٱللهِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْإِنْكِلِيزِ ٱلْأَقْوِيَاءِ ٱلْمُعْتَدِّينَ بِأَنْفُسِهِمْ لَا يُهَاجِرُ مِنْ بِلَادِهِ إِلَّا وَمَعَهُ نَفْسُهُ وَٱسْتِقْلَالُهُ ، وَتَارِيخُهُ وَرُوحُ دَوْلَتِهِ ، وَطَبِيعَةُ أَرْضِهِ ؛ فَهُوَ مُسْتَيْقِنٌ أَنَّ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « غَيْرَ قَلِيلٍ » بَدَلًا مِنْ : « إِلَّا يَسِيرًا » .

(٢) أَيِ ٱلْمَكْوِيَّةِ ؛ وَٱلْكَلِمَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ٱلَّتِي ٱسْتُعْمِلَتْ قَدِيمًا فِي مَعْنَىٰ (ٱلْمَكْوَجِيِّ) هِيَ : ٱلْمُطَرِّي (بِتَشْدِيدِ ٱلرَّاءِ) .

ٱللهَ لَا يَرْزُقُهُ رِزْقًا أَيَّ ٱلرِّزْقِ كَانَ عَلَىٰ مَا يَتَّفِقُ ، بَلْ رِزْقًا إِنْكِلِيزِيًّا ، أَيْ : فِيهِ كِفَايَتُهُ .

وَرَأَيْتُ شَيْئًا عَجِيبًا مِنَ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ طَابَعِ ٱلسِّلْمِ عَلَىٰ وُجُوهٍ ، وَبَيْنَ طَابَعِ ٱلْحَرْبِ عَلَىٰ وُجُوهٍ أُخْرَىٰ ؛ فَفِي تِلْكَ مَعَانِي ٱلسُّهُولَةِ وَٱلْمُلَايَنَةِ وَٱلْحِرْصِ عَلَىٰ مَادَّةِ ٱلْحَيَاةِ ، وَفِي هَـٰذِهِ مَعَانِي ٱلْعَزْمِ وَٱلْمُقَاوَمَةِ وَٱلْحِرْصِ عَلَىٰ مَجْدِ ٱلْحَيَاةِ لَا عَلَىٰ مَادَّتِهَا .

وَتَبَيَّنْتُ أُسْلُوبَيْنِ مِنَ ٱلأَسَالِيبِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ : أَحَدُهُمَا فِي فَرْدٍ قَدْ بَنَىٰ أَمْرَهُ عَلَىٰ أَنَّ أُمَّةً تَحْمِلُهُ ، فَهُوَ يَعِيشُ بِأَضْعَفِ مَا فِيهِ ؛ وَٱلآخَرُ فِي فَرْدٍ قَدْ وَضَعَ ٱلأَمْرَ عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ يَحْمِلُ أُمَّةً فَلَا يَدَعُ فِي نَفْسِهِ قُوَّةً إِلَّا ضَاعَفَهَا .

وَعَرَفْتُ وَجْهَيْنِ مِنْ وُجُوهِ ٱلتَّرْبِيَةِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ : أَحَدُهُمَا بِٱلطَّنْطَنَةِ ، وَٱلتَّهْوِيلِ ، وَٱلصُّرَاخِ ، وَٱسْتِعَارَةِ أَلْفَاظٍ غَيْرِ ٱلْوَاقِعِ لِلْوَاقِعِ ، وَتَحْمِيلِ ٱلأَلْفَاظِ غَيْرَ مَا تَحْمِلُ ؛ وَٱلآخَرُ بِٱلْهُدُوءِ ٱلَّذِي يَقْهَرُ ٱلْحَوَادِثَ ، وَٱلصَّبْرِ ٱلَّذِي يَغْلِبُ ٱلزَّمَنَ ، وَٱلْعَقِيدَةِ ٱلَّتِي تَفْرِضُ أَعْمَالَهَا ٱلْعَظِيمَةَ عَلَىٰ صَاحِبِهَا وَتَجْعَلُ أَعْظَمَ أَجْرِهِ عَلَيْهَا أَنْ يَقُومَ بِهَا .

وَمَيَّزْتُ بَيْنَ أَثَرَيْنِ مِنْ آثَارِ ٱلأَرْضِ فِي أَهْلِهَا : أَحَدُهُمَا فِي ٱلْمِصْرِيِّ ٱلسَّمْحِ ٱلْوَادِعِ ٱلأَلُوفِ ٱلْحَيِيِّ ٱلَّذِي هُوَ كَرَمُ ٱلطَّبِيعَةِ ، وَٱلآخَرُ فِي ٱلإِنْكِلِيزِيِّ ٱلْعَسِرِ ٱلْمُغَامِرِ ٱلنَّفُورِ ٱلْمُلِحِّ عَلَى ٱلدُّنْيَا كَأَنَّهُ تَطَفُّلُ ٱلطَّبِيعَةِ . . .

* * *

وَأَلْقَىٰ ٱبْنُ ٱلْعَمِّ ٱلَّذِي كَانَ مَعِي سَمْعَهُ إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ٱلضُّبَّاطِ ، وَهُمْ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلرَّأْيِ عَلَىٰ مَا يَظْهَرُ مِنْ حَدِيثِهِمْ ، ثُمَّ نَقَلَ إِلَيَّ عَنْهُمْ ، فَقَالَ كَبِيرُهُمْ : لَقَدْ فَرَغْتُ مِنْ بَحْثِيَ ٱلَّذِي وَضَعْتُهُ فِي فَلْسَفَةِ خُمُولِ ٱلشَّرْقِيِّينَ ، وَأَفْضَيْتُ مِنْهُ إِلَىٰ حَقَائِقَ عَجِيبَةٍ ، أَظْهَرُهَا وَأَخْفَاهَا مَعًا أَنَّ أُمَّةً مِنْ هَـٰذِهِ ٱلأُمَمِ لَا يُمَكَّنُ ٱلأَجْنَبِيُّ فِيهَا ، وَلَا تَثْقُلُ وَطْأَتُهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَطُولُ ثَوَاؤُهُ فِي أَرْضِهِمْ ، وَلَا يَحْتَلُّهَا مَنْ يَطْمَعُ فِيهَا ، مَا لَمْ يَكُنْ سَادَتُهَا وَأُمَرَاؤُهَا وَكُبَرَاؤُهَا كَأَنَّهُمْ فِيهَا دَوْلَةٌ مُحْتَلَّةٌ .

وَهَـٰؤُلَاءِ ٱلْكُبَرَاءُ هُمْ آفَةُ ٱلشَّرْقِ ؛ فَمِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِنَا أَنْ نَزِيدَ فِي تَعْظِيمِهِمْ ، وَأَنْ نَمُدَّ لَهُمْ فِي ٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ ، وَنَبْسُطَ لَهُمُ ٱلْيَمِينَ وَٱلشِّمَالَ ، وَنُوهِمَهُمْ أَنَّ عَظَمَتَهُمْ هَـٰكَذَا وُلِدَتْ

فِيهِمْ وَهَـٰكَذَا وُلِدُوا بِهَا مِنْ أُمَّهَاتِهِمْ كَمَا وُلِدُوا بِأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ . . . وَخَاصَّةً عُظَمَاءَ رِجَالِ ٱلأَدْيَانِ ٱلْمَفْتُونِينَ بِٱلدُّنْيَا ؛ فَإِنَّنَا نَصْنَعُ بِغُرُورِ ٱلْجَمِيعِ وَسَخَافَاتِهِمْ وَحِرْصِهِمْ وَطَمَعِهِمْ أَشْيَاءَ ٱجْتِمَاعِيَّةً ذَاتَ خَطَرٍ لَا يَصْنَعُ لَنَا مِثْلَهَا إِلَّا ٱلشَّيَاطِينُ ، وَمَنْ لَنَا بِٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلشَّيَاطِينِ ؟ وَهَـٰذَا مَا تَنَبَّهَ لَهُ (غَانْدِي) ذَلِكَ ٱلْمَهْزُولُ ٱلْهِنْدِيُّ ٱلَّذِي تُقَوَّمُ دُنْيَاهُ بِأَرْبَعَةِ شِلِنَاتٍ ، وَلَا يَزِنُ أَكْثَرَ مِنْ بِضْعَةِ أَرْطَالٍ مِنَ ٱلْجِلْدِ وَٱلْعَظْمِ ، وَلَا بَطْشَ عِنْدَهُ وَلَا قُوَّةَ فِيهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ جَبَّارٌ سَمَاوِيٌّ فِي يَدِهِ ٱلْبَرْقُ وَٱلرَّعْدُ يُرَىٰ وَيُسْمَعُ فِي أَرْجَاءِ ٱلدُّنْيَا .

قَالَ ضَابِطُ ٱلْيَمِينِ : وَبِصِنَاعَةِ ٱلْكِبْرِيَاءِ(١) هَـٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ يَكُونُ رَجُلُ ٱلشَّعْبِ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلشَّرْقِيِّينَ رَجُلَ تَقْلِيدٍ بِٱلطَّبِيعَةِ ، وَرَجُلَ ذُلٍّ بِٱلْحَالَةِ ، وَرَجُلَ خُضُوعٍ بِٱلْجُمْلَةِ ؛ فَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيِّدُ نَفْسِهِ وَلَا سَيِّدُ غَيْرِهِ ، بَلْ أَكْبَرُ مَعَانِيهِ أَنَّ غَيْرَهُ سَيِّدٌ عَلَيْهِ فَيَكُونُ مَعَهُ دَائِمًا خَيَالُ ٱسْتِعْبَادِهِ .

وَتَكَلَّمَ ضَابِطُ ٱلْيَسَارِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُتَرْجِمَ لَمْ يُمَيِّزْ أَقْوَالَهُ ، لِأَنَّ ثَلَاثَ عَشْرَةَ ٱمْرَأَةً كُنَّ يَصْرُخْنَ فِي ٱلرِّوَايَةِ ٱلْهَزْلِيَّةِ بِلَحْنٍ طَوِيلٍ يَقُلْنَ فِي أَوَّلِهِ : « عَاوِزِينَ رِجَّالَه تَدَلَّعْنَا . . . » وَكَانَتِ ٱلْمُوسِيقَىٰ تَصْرُخُ مَعَهُنَّ وَتُوَلْوِلُ كَأَنَّهَا هِيَ أَيْضًا ٱمْرَأَةٌ مَحْرُومَةٌ . . .

* * *

ثُمَّ أَرْهَفَ ٱلْمُتَرْجِمُ أُذُنَهُ فَقَالَ كَبِيرُهُمْ : إِنَّ لِهَـٰؤُلَاءِ ٱلشَّرْقِيِّينَ سِتَّ حَوَاسَّ : ٱلْخَمْسَ ٱلْمَعْرُوفَةَ ، وَحَاسَّةَ ٱلْخُمُولِ ٱلَّذِي خَدَعَتْهُمْ عَنْهُ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلْبَلِيدَةُ فَسَمَّوْهُ ٱلتَّرَفَ وَٱلْهَزْلَ وَٱللَّهْوَ ؛ وَٱلأُمَّةُ ٱلأُورُبِّيَّةُ ٱلَّتِي تَحْتَلُّ بِلَادًا شَرْقِيَّةً تَجِدُ فِيهَا لِصَغَائِرِ ٱلْحَيَاةِ جَيْشًا أَقْوَىٰ مِنْ جَيْشِهَا ؛ فَعَشَرَةُ آلَافِ جُنْدِيٍّ بِعَتَادِهِمْ وَآلَاتِهِمْ ، لَا يَصْنَعُونَ شَيْئًا إِلَّا ٱلاسْتِفْزَازَ وَٱلتَّحَدِّيَ وَإِثْبَاتَ أَنَّهُمْ غَاصِبُونَ ؛ وَلَـٰكِنْ مَا أَنْتَ قَائِلٌ فِي عَشَرَةِ آلَافِ مَكَانٍ كَهَـٰذَا ٱلْمَسْرَحِ بِرَاقِصَاتِهِ وَمُومِسَاتِهِ وَخُمُورِهِ وَرِوَايَاتِهِ ، وَبِهَـٰؤُلَاءِ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُخَنَّثِينَ ٱلْهَزْلِيِّينَ ٱلرُّقَعَاءِ ٱلَّذِينَ هُمْ وَحْدَهُمْ مُعَاهَدَةٌ سِيَاسِيَّةٌ نَاجِحَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ شَبَابِ ٱلأُمَّةِ . . . ؟

قَالَ ضَابِطُ ٱلْيَمِينِ : نَعَمْ ، إِنَّ فَنَّ ٱلاحْتِلَالِ فَنٌّ عَسْكَرِيٌّ فِي ٱلأَوَّلِ ، وَلَـٰكِنَّهُ فَنٌّ

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « ٱلْكُبَرَاءِ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْكِبْرِيَاءِ » .

أَخْلَاقِيٌّ فِيْ ٱلْآخِرِ ؛ وَلِهَـٰذَا يَجِبُ تَعْيِيْنُ نُقْطَةِ ٱتِّجَاهٍ لِلشَّبَابِ تَكُوْنُ مُضِيْئَةً لَامِعَةً جَذَّابَةً مُغْرِيَةً ، وَلَـٰكِنَّهَا فِيْ ذَاتِ ٱلْوَقْتِ مُحْرِقَةٌ أَيْضًا ، وَهَـٰذِهِ هِيَ صِنَاعَةُ إِهْلَاكِ ٱلشَّبَابِ بِٱلضَّوْءِ ٱلْجَمِيْلِ ، وَمَا عَلَىٰ ٱلسِّيَاسِيِّ ٱلْحَاذِقِ فِيْ ٱلشَّرْقِ إِلَّا أَنْ يَحْمِيَ ٱلرَّذِيْلَةَ ، فَإِنَّ ٱلرَّذِيْلَةَ سَتَعْرِفُ لَهُ صَنِيْعَهُ وَتَحْمِيْهِ . . .

فَتَكَلَّمَ ضَابِطُ ٱلْيَسَارِ ، وَلَـٰكِنَّ صَوْتَهُ ذَهَبَ فِيْ عِشْرِيْنَ صَوْتًا مِنْ رِجَالِ ٱلْمَسْرَحِ وَنِسَائِهِ يَصِيْحُوْنَ جَمِيْعًا : « يَا حِلْوَةُ يَا خَفَّافِيْ ، يَا مُجَنِّنَهُ ٱلشُّبَّانِ . . . »

* * *

وَلَمَّا أَلْمَمْتُ بِحِوَارِ ٱلضُّبَّاطِ ٱلثَّلَاثَةِ قُلْتُ لِصَاحِبِيْ : ٱسْتَأْذِنْ لِيْ عَلَيْهِمْ أُكَلِّمُهُمْ . فَفَعَلَ وَعَرَّفَنِيْ إِلَيْهِمْ ، وَتَرْجَمَ لَهُمْ مَقَالَةَ (يَا شَبَابَ ٱلْعَرَبِ) وَكَانَ يَحْمِلُهَا . فَكَأَنَّمَا رَمَاهُمْ مِنْهَا بِٱلْجَيْشِ وَٱلْأُسْطُوْلِ .

ثُمَّ قُلْتُ لِكَبِيْرِهِمْ : لَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّ ٱلْإِنْكِلِيْزِيَّ لَوْ دَخَلَ جَهَنَّمَ لَدَخَلَهَا إِنْكِلِيْزِيًّا . . . وَلَا أَجْحَدُ أَنَّ لَهُ فِيْ ٱلْحَيَاةِ مِثْلَ هِدَايَةِ ٱلْحَيَوَانِ ، لِأَنَّهُ رَجُلٌ عَمَلِيٌّ : دَلِيْلُ مَنْفَعَتِهِ أَنَّهَا مَنْفَعَتُهُ وَحَسْبُ ، ثُمَّ لَا دَلِيْلَ غَيْرُ هَـٰذَا وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا هَـٰذَا . فَإِذَا قَالَ ٱلشَّرْقِيُّ : حَقِّيْ ، وَقَالَ ٱلْإِنْكِلِيْزِيُّ : مَنْفَعَتِيْ ؛ بَطَلَتِ ٱلْأَدِلَّةُ { كُلُّهَا } ، وَرَأَىٰ ٱلشَّرْقِيُّ أَنَّهُ مَعَ ٱلْإِنْكِلِيْزِيِّ كَٱلَّذِيْ يُحَاوِلُ أَنْ يُقْنِعَ ٱلذِّئْبَ بِقَانُوْنِ ٱلْفَضِيْلَةِ وَٱلرَّحْمَةِ .

وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ فِيْ ٱلسِّيَاسَةِ عَجَائِبَ ، مِنْهَا مَا يُشْبِهُ أَنْ يَلْقَىٰ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا فَيَقُوْلَ لَهُ : يَا سَيِّدِيْ ٱلْعَزِيْزُ ! بِكُلِّ ٱحْتِرَامٍ أَرْجُو أَنْ تَتَلَقَّىٰ مِنِّيْ هَـٰذِهِ ٱلصَّفْعَةَ . . .

وَفِيْ ٱلسِّيَاسَةِ مَوَاعِيْدُ عَجِيْبَةٌ ، مِنْهَا مَا يُشْبِهُ غَرْسَ شَجَرَةٍ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِيْنِ ، وَٱلتَّوْكِيْدَ لَهُمْ بِٱلْأَيْمَانِ أَنَّهَا سَتُثْمِرُ رُغْفَانًا مَخْبُوْزَةً . . . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُطَعَّمُ فَتُثْمِرُ ٱلرُّغْفَانَ ٱلْمَخْبُوْزَةَ حَشْوُهَا ٱللَّحْمُ وَٱلْإِدَامُ .

وَفِيْ ٱلسِّيَاسَةِ مُحَارَبَةُ ٱلْمَسَاجِدِ بِٱلْمَرَاقِصِ ، وَمُحَارَبَةُ ٱلزَّوْجَاتِ بِٱلْمُوْمِسَاتِ ، وَمُحَارَبَةُ ٱلْعَقَائِدِ بِأَسَاتِذَةِ حُرِّيَّةِ ٱلْفِكْرِ ، وَمُحَارَبَةُ فُنُوْنِ ٱلْقُوَّةِ بِفُنُوْنِ ٱللَّذَّةِ . وَلَـٰكِنْ لَوْ فَهِمَ ٱلشَّبَابُ أَنَّ أَمَاكِنَ ٱللَّهْوِ فِيْ كُلِّ مَعَانِيْهَا لَيْسَتْ إِلَّا غَدْرًا بِٱلْوَطَنِ فِيْ كُلِّ مَعَانِيْهِ !

وَلَوْ عَرَفَ ٱلشَّبَابُ أَنَّ مُحَارَبَةَ ٱللَّهْوِ هِيَ أَوَّلُ ٱلْمَعْرَكَةِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ ٱلْفَاصِلَةِ !

وَلَوْ أَدْرَكَ ٱلشَّبَابُ أَنَّ أَوَّلَ حَقِّ ٱلْوَطَنِ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلَ فِيْ نَفْسِهِ مَعْنَىٰ ٱلشَّعْبِ لَا مَعْنَىٰ نَفْسِهِ !

وَلَوْ رَجَعَ ٱلدِّيْنُ ٱلْإِسْلَامِيُّ كَمَا هُوَ فِيْ طَبِيْعَتِهِ آلَةً حَرْبِيَّةً تَصْنَعُ مِنَ ٱلشَّبَابِ رِجَالَ ٱلْقُوَّةِ !

وَلَوْ عَلِمَ ٱلشَّبَابُ أَنَّ رُوْحَ هَـٰذَا ٱلدِّيْنِ لَيْسَتْ : ٱعْتَقِدْ وَلَا تَعْتَقِدْ . وَلَـٰكِنِ ٱفْعَلْ وَلَا تَفْعَلْ !

وَلَوْ أَيْقَنَ ٱلشَّبَابُ أَنَّ فَرَائِضَ هَـٰذَا ٱلدِّيْنِ لَيْسَتْ إِلَّا وَسَائِلَ عَمَلِيَّةً لِامْتِلَاءِ ٱلنَّفْسِ بِمَعَانِيْ ٱلتَّقْدِيْسِ !

وَلَوْ فَهِمَ ٱلشَّبَابُ أَنْ لَيْسَ فِيْ ٱلْكَوْنِ إِلَّا هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ تَجْعَلُ ٱلنَّفْسَ فَوْقَ ٱلْمَادَّةِ وَفَوْقَ ٱلْخَوْفِ وَفَوْقَ ٱلذُّلِّ وَفَوْقَ ٱلْمَوْتِ نَفْسِهِ !

وَلَوْ بَحَثَ ٱلشَّبَابُ ٱلنَّفْسَ ٱلْإِنْكِلِيْزِيَّةَ ٱلْقَوِيَّةَ لِيَعْرِفَ بِٱلْبُرْهَانِ أَنَّهَا نِصْفُ مُسْلِمَةٍ فَكَيْفَ بِهَا لَوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً ؟ . . .

* * *

وَكَانَ ٱلْمُتَرْجِمُ يَنْقُلُ إِلَيْهِمْ كَلَامِيْ ، فَمَا بَلَغَتْ إِلَىٰ حَيْثُ بَلَغْتُ ، حَتَّىٰ شَدَّ ٱلضَّابِطُ عَلَىٰ يَدِيْ وَهَزَّهَا ؛ فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا أَنَا قَدْ كُنْتُ نَائِمًا بَعْدَ سَهْرَةٍ طَوِيْلَةٍ فِيْ ذَلِكَ ٱلْمَسْرَحِ ، وَإِذَا يَدُ ٱلْمُتَرْجِمِ نَفْسِهِ هِيَ ٱلَّتِيْ تَهُزُّنِيْ لِأَنْتَبِهَ . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

فِيْ مِحْنَةِ فِلِسْطِيْنَ :

أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ !(*)

نَهَضَتْ فِلِسْطِيْنُ تَحُلُّ ٱلْعُقْدَةَ ٱلَّتِي عُقِدَتْ لَهَا بَيْنَ ٱلسَّيْفِ ، وَٱلْمَكْرِ ، وَٱلذَّهَبِ .

عُقْدَةٌ سِيَاسِيَّةٌ خَبِيْثَةٌ ، فِيْهَا لِذَلِكَ ٱلشَّعْبِ ٱلْحُرِّ قَتْلٌ ، وَتَخْرِيْبٌ ، وَفَقْرٌ .

عُقْدَةُ ٱلْحُكْمِ ٱلَّذِي يَحْكُمُ بِثَلَاثَةِ أَسَالِيْبَ : ٱلْوَعْدِ ٱلْكَذِبِ ، وَٱلْفَنَاءِ ٱلْبَطِيْءِ ، وَمَطَامِعِ ٱلْيَهُوْدِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ .

أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ ! لَيْسَتْ هَـٰذِهِ مِحْنَةَ فِلِسْطِيْنَ ، وَلَـٰكِنَّهَا مِحْنَةُ ٱلإِسْلَامِ ؛ يُرِيْدُوْنَ أَلَّا يُثْبِتَ شَخْصِيَّتَهُ ٱلْعَزِيْزَةَ ٱلْحُرَّةَ .

كُلُّ قِرْشٍ يُدْفَعُ ٱلْآنَ لِفِلِسْطِيْنَ ، يَذْهَبُ إِلَىٰ هُنَاكَ لِيُجَاهِدَ هُوَ أَيْضًا .

* * *

أُوْلَـٰئِكَ إِخْوَانُنَا ٱلْمُجَاهِدُوْنَ ؛ وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ أَخْلَاقَنَا هِيَ حُلَفَاؤُهُمْ فِيْ هَـٰذَا ٱلْجِهَادِ .

أُوْلَـٰئِكَ إِخْوَانُنَا ٱلْمَنْكُوْبُوْنَ ؛ وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُمْ فِيْ نَكْبَتِهِمُ ٱمْتِحَانٌ لِضَمَائِرِنَا نَحْنُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ جَمِيْعًا .

أُوْلَـٰئِكَ إِخْوَانُنَا ٱلْمُضْطَهَدُوْنَ ؛ وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي أَذَلَّتْهُمْ تَسْأَلُنَا نَحْنُ : هَلْ عِنْدَنَا إِقْرَارٌ لِلذُّلِّ ؟

مَاذَا تَكُوْنُ نَكْبَةُ ٱلْأَخِ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ ٱسْمًا آخَرَ لِمُرُوْءَةِ سَائِرِ إِخْوَتِهِ أَوْ مَذَلَّتِهِمْ ؟

أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ ! كُلُّ قِرْشٍ يُدْفَعُ لِفِلِسْطِيْنَ ، يَذْهَبُ إِلَىٰ هُنَاكَ لِيَفْرِضَ عَلَىٰ ٱلسِّيَاسَةِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٤ ، ٢٥ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ١٥ يونيو/ حزيران ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ؛ الصفحات : ٩٦١ ـ ٩٦٣ .

ٱحْتِرَامَ ٱلشُّعُوْرِ ٱلإِسْلَامِيِّ .

* * *

ٱبْتَلَوْهُمْ بِٱلْيَهُوْدِ يَحْمِلُوْنَ فِيْ دِمَائِهِمْ حَقِيْقَتَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ : مِنْ ذُلِّ ٱلْمَاضِيْ وَتَشْرِيْدِ ٱلْحَاضِرِ .

وَيَحْمِلُوْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ نِقْمَتَيْنِ طَاغِيَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنْ ذَهَبِهِمْ ، وَٱلْأُخْرَىٰ مِنْ رَذَائِلِهِمْ .

وَيُخَبِّئُوْنَ فِيْ أَدْمِغَتِهِمْ فِكْرَتَيْنِ خَبِيْثَتَيْنِ : أَنْ يَكُوْنَ ٱلْعَرَبُ أَقَلِّيَّةً ، ثُمَّ أَنْ يَكُوْنُوْا بَعْدَ ذَلِكَ خَدَمَ ٱلْيَهُوْدِ .

فِيْ أَنْفُسِهِمُ ٱلْحِقْدُ ، وَفِيْ خَيَالِهِمُ ٱلْجُنُوْنُ ، وَفِيْ عُقُوْلِهِمُ ٱلْمَكْرُ ، وَفِيْ أَيْدِيْهِمُ ٱلذَّهَبُ ٱلَّذِي أَصْبَحَ لَئِيْمًا لِأَنَّهُ فِيْ أَيْدِيْهِمْ .

أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ ! كُلُّ قِرْشٍ يُدْفَعُ لِفِلِسْطِيْنَ ، يَذْهَبُ إِلَىٰ هُنَاكَ لِيَتَكَلَّمَ كَلِمَةً تَرُدُّ إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْعَقْلَ .

* * *

ٱبْتَلَوْهُمْ بِٱلْيَهُوْدِ يَمُرُّوْنَ بَيْنَهُمْ مُرُوْرَ ٱلدَّنَانِيْرِ بِٱلرِّبَا ٱلْفَاحِشِ فِيْ أَيْدِيْ ٱلْفُقَرَاءِ .

كُلُّ مِئَةٍ يَهُوْدِيٍّ عَلَىٰ مَذْهَبِ ٱلْقَوْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُوْنَ فِيْ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِئَةً وَسَبْعِيْنَ . . .

حِسَابٌ خَبِيْثٌ يَبْدَأُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْعَقْلِ ، وَلَا يَنْتَهِيْ أَبَدًا وَفِيْهِ شَيْءٌ مِنَ ٱلْعَقْلِ .

وَٱلسِّيَاسَةُ وَرَاءَ ٱلْيَهُوْدِ ، وَٱلْيَهُوْدُ وَرَاءَ خَيَالِهِمُ ٱلدِّيْنِيِّ ، وَخَيَالُهُمُ ٱلدِّيْنِيُّ هُوَ طَرْدُ ٱلْحَقِيْقَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ .

أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ ! كُلُّ قِرْشٍ يُدْفَعُ لِفِلِسْطِيْنَ ، يَذْهَبُ إِلَىٰ هُنَاكَ لِيُثْبِتَ ٱلْحَقِيْقَةَ ٱلَّتِي يُرِيْدُوْنَ طَرْدَهَا .

* * *

يَقُوْلُ ٱلْيَهُوْدُ : إِنَّهُمْ شَعْبٌ مُضْطَهَدٌ فِيْ جَمِيْعِ بِلَادِ ٱلْعَالَمِ .

وَيَزْعُمُوْنَ : أَنَّ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَعِيْشُوْا أَحْرَارًا فِيْ فِلَسْطِيْنَ ، كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ جَمِيْعِ بِلَادِ ٱلْعَالَمِ . . .

وَقَدْ صَنَعُوْا لِلإِنْكِلِيْزِ أُسْطُوْلًا عَظِيْمًا لَا يَسْبَحُ فِيْ ٱلْبِحَارِ ، وَلَـٰكِنْ فِيْ ٱلْخَزَائِنِ . . .

وَأَرَادَ ٱلإِنْكِلِيْزُ أَنْ يَطْمَئِنُّوْا فِيْ فِلَسْطِيْنَ إِلَىٰ شَعْبٍ لَمْ يَتَعَوَّدْ قَطُّ أَنْ يَقُوْلَ : أَنَا .

وَلَـٰكِنْ لِمَاذَا كَنَسَتْكُمْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أَرْضِهَا بِمِكْنَسَةٍ أَيُّهَا ٱلْيَهُوْدُ ؟

* * *

أَجَهِلْتُمُ ٱلإِسْلَامَ ؟ ٱلإِسْلَامُ قُوَّةٌ كَتِلْكَ ٱلَّتِيْ تُوْجِدُ ٱلأَنْيَابَ وَٱلْمَخَالِبَ فِيْ كُلِّ أَسَدٍ .

قُوَّةٌ تُخْرِجُ سِلَاحَهَا بِنَفْسِهَا ، لِأَنَّ مَخْلُوْقَهَا عَزِيْزٌ لَمْ يُوْجَدْ لِيُؤْكَلَ ، وَلَمْ يُخْلَقْ لِيَذِلَّ .

قُوَّةٌ تَجْعَلُ ٱلصَّوْتَ نَفْسَهُ حِيْنَ يُزَمْجِرُ ، كَأَنَّهُ يُعْلِنُ ٱلأَسَدِيَّةَ ٱلْعَزِيْزَةَ إِلَىٰ ٱلْجِهَاتِ ٱلأَرْبَعِ .

قُوَّةٌ وَرَاءَهَا قَلْبٌ مُشْتَعِلٌ كَٱلْبُرْكَانِ ، تَتَحَوَّلُ فِيْهِ كُلُّ قَطْرَةِ دَمٍ إِلَىٰ شَرَارَةِ دَمٍ .

وَلَئِنْ كَانَتِ ٱلْحَوَافِرُ تُهَيِّئُ مَخْلُوْقَاتِهَا لِيَرْكَبَهَا ٱلرَّاكِبُ ، إِنَّ ٱلْمَخَالِبَ وَٱلأَنْيَابَ تُهَيِّئُ مَخْلُوْقَاتِهَا لِمَعْنًى آخَرَ[1] .

* * *

لَوْ سُئِلْتُ : مَا ٱلإِسْلَامُ فِيْ مَعْنَاهُ ٱلاجْتِمَاعِيِّ ؟ لَسَأَلْتُ : كَمْ عَدَدُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ؟

فَإِنْ قِيْلَ : ثَلَاثُ مِئَةِ مِلْيُوْنٍ . قُلْتُ : فَٱلإِسْلَامُ هُوَ ٱلْفِكْرَةُ ٱلَّتِيْ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ لَهَا ثَلَاثُ مِئَةِ مِلْيُوْنِ قُوَّةٍ .

أَيَجُوْعُ إِخْوَانُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ وَتَشْبَعُوْنَ ؟ إِنَّ هَـٰذَا ٱلشِّبَعَ ذَنْبٌ يُعَاقِبُ ٱللهُ عَلَيْهِ .

وَٱلْغِنَىٰ ٱلْيَوْمَ فِيْ ٱلأَغْنِيَاءِ ٱلْمُمْسِكِيْنَ عَنْ إِخْوَانِهِمْ ، هُوَ وَصْفُ ٱلأَغْنِيَاءِ بِٱللُّؤْمِ لَا بِٱلْغِنَىٰ .

---

(١) تجدُ مصْدَاق الرافعي رحمه الله في الأحداث المقاومَة التي تلت ومازالت مستمرة لأيامنا . بسام .

كُلُّ مَا يَبْذُلُهُ ٱلْمُسْلِمُوْنَ لِفِلَسْطِيْنَ ، يَدُلُّ دَلَالَاتٍ كَثِيْرَةً ، أَقَلُّهَا سِيَاسَةُ ٱلْمُقَاوَمَةِ .

* * *

كَانَ أَسْلَافُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ يَفْتَحُوْنَ ٱلْمَمَالِكَ ، فَٱفْتَحُوْا أَنْتُمْ أَيْدِيَكُمْ . . .

كَانُوْا يَرْمُوْنَ بِأَنْفُسِهِمْ فِيْ سَبِيْلِ ٱللهِ غَيْرَ مُكْتَرِثِيْنَ ، فَٱرْمُوْا أَنْتُمْ فِيْ سَبِيْلِ ٱلْحَقِّ بِٱلدَّنَانِيْرِ وَٱلدَّرَاهِمِ .

لِمَاذَا كَانَتِ ٱلْقِبْلَةُ فِيْ ٱلإِسْلَامِ إِلَّا لِتَعْتَادَ ٱلْوُجُوْهُ كُلُّهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَىٰ ٱلْجِهَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ؟

لِمَاذَا ٱرْتَفَعَتِ ٱلْمَآذِنُ إِلَّا لِيَعْتَادَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ رَفْعَ ٱلصَّوْتِ فِيْ ٱلْحَقِّ ؟

أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ ! كُوْنُوْا هُنَاكَ . كُوْنُوْا هُنَاكَ مَعَ إِخْوَانِكُمْ بِمَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِيْ .

* * *

لَوْ صَامَ ٱلْعَالَمُ ٱلإِسْلَامِيُّ كُلُّهُ يَوْمًا وَاحِدًا وَبَذَلَ نَفَقَاتِ هَـٰذَا ٱلْيَوْمِ ٱلْوَاحِدِ لِفِلَسْطِيْنَ ، لَأَغْنَاهَا .

لَوْ صَامَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ كُلُّهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا لِإِعَانَةِ فِلَسْطِيْنَ ، لَقَالَ ٱلنَّبِيُّ مُفَاخِرًا ٱلأَنْبِيَاءَ : هَـٰذِهِ أُمَّتِيْ !

لَوْ صَامَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ جَمِيْعًا يَوْمًا وَاحِدًا لِفِلَسْطِيْنَ ، لَقَالَ ٱلْيَهُوْدُ ٱلْيَوْمَ مَا قَالَهُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ : إِنَّ فِيْهَا قَوْمًا جَبَّارِيْنَ . . .

أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ ! هَـٰذَا مَوْطِنٌ يَزِيْدُ فِيْهِ مَعْنَىٰ ٱلْمَالِ ٱلْمَبْذُوْلِ فَيَكُوْنُ شَيْئًا سَمَاوِيًّا .

كُلُّ قِرْشٍ يَبْذُلُهُ ٱلْمُسْلِمُ لِفِلَسْطِيْنَ ، يَتَكَلَّمُ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ يَقُوْلُ : يَا رَبِّ ، أَنَا إِيْمَانُ فُلَانٍ !

مصطفى صادق الرافعي

قِصَّةُ ٱلأَيْدِي ٱلْمُتَوَضِّئَةِ(*) . . .

قَالَ رَاوِي ٱلْخَبَرِ : ذَهَبْتُ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ ٱلْجُمُعَةِ ؛ وَٱلْمَسْجِدُ يَجْمَعُ ٱلنَّاسَ بِقُلُوبِهِمْ لِيُخْرِجَ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْ دُنْيَا ذَاتِهِ ، فَلَا يُفَكِّرُ أَحَدٌ أَنَّهُ أَسْمَىٰ مِنْ أَحَدٍ ؛ وَلَقَدْ يَكُونُ إِلَىٰ جَانِبِكَ ٱلصَّانِعُ أَوِ ٱلأَجِيرُ أَوِ ٱلْفَقِيرُ أَوِ ٱلْجَاهِلُ ، وَأَنْتَ ٱلرَّئِيسُ أَوِ ٱلْعَظِيمُ أَوِ ٱلْغَنِيُّ أَوِ ٱلْعَالِمُ ، فَتَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ نَفْسِكَ فَتُحِسُّ كَأَنَّ خَوَاطِرَكَ مُتَوَضِّئَةٌ مُتَطَهِّرَةٌ ، وَتَرَىٰ كَلِمَةَ ٱلْكِبْرِيَاءِ قَدْ فَقَدَتْ رُوحَهَا ، وَكَلِمَةَ ٱلتَّوَاضُعِ قَدْ وَجَدَتْ رُوحَهَا ؛ وَتَشْعُرُ بِٱلنَّفْسِ ٱلْمُجْتَمِعَةِ قَدْ نَصَبَتِ ٱلْحَرْبَ لِلنَّفْسِ ٱلْمُنْفَرِدَةِ ؛ وَلَوْ خَطَرَ لَكَ شَيْءٌ بِخِلَافِ ذَلِكَ رَأَيْتَ ٱلْفَقِيرَ إِلَىٰ جَانِبِكَ تَوْبِيخًا لَكَ ، وَنَظَرْتَ إِلَيْهِ سَاكِتًا وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي قَلْبِكَ ، وَشَعَرْتَ بِٱللهِ مِنْ فَوْقِكُمَا ، وَٱسْتَعْلَنَتْ لَكَ رُوحُ ٱلْمَسْجِدِ كَأَنَّهَا تَهُمُّ بِطَرْدِكَ { مِنْهُ } ، وَخُيِّلَ إِلَيْكَ أَنَّ ٱلأَرْضَ سَتَلْطِمُ وَجْهَكَ إِذَا سَجَدْتَ { عَلَيْهَا } ، وَأَيْقَنْتَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ أَنْ لَسْتَ هُنَاكَ فِي دُنْيَاكَ وَلَيْسَ صَاحِبُكَ فِي دُنْيَاهُ ، وَإِنَّمَا أَنْتُمَا هُنَاكَ فِي إِنْسَانِيَّةٍ مِيزَانُهَا بِيَدِ ٱللهِ وَحْدَهُ ؛ فَلَا تَدْرِي أَيُّكُمَا ٱلَّذِي يَخِفُّ وَأَيُّكُمَا ٱلَّذِي يَثْقُلُ(1) .

قَالَ : وَٱلْعَجِيبُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلَّذِي لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلدِّينِ ، يَعْرِفُهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ ٱلدِّينِ عَلَىٰ وَجْهٍ آخَرَ ، فَتَرَاهُ فِي ٱلْمَسْجِدِ يَمْشِي مُخْتَالًا ، قَدْ تَحَلَّىٰ بِحِلْيَتِهِ ، وَتَكَلَّفَ لِزَهْوِهِ ، فَلَبِسَ ٱلْجُبَّةَ تَسَعُ ٱثْنَيْنِ ، وَتَطَاوَلَ كَأَنَّهُ ٱلْمِئْذَنَةُ ، وَتَصَدَّرَ كَأَنَّهُ ٱلْقِبْلَةُ ، وَٱنْتَفَخَ كَأَنَّهُ مُمْتَلِئٌ بِٱلْفُرُوقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلنَّاسِ ؛ وَهُوَ بَعْدَ كُلِّ هَـٰذَا لَوْ كَشَفَ ٱللهُ تَمْوِيهَهُ لَٱنْكَشَفَ عَنْ تَاجِرِ عِلْمٍ ، بَعْضُ شُرُوطِهِ عَلَىٰ ٱلْفَضِيلَةِ أَنْ يَأْكُلَ بِهَا ، فَلَا يَجِدُ دُنْيَا ذَاتِهِ إِلَّا فِي ٱلْمَسْجِدِ ، فَهُوَ نَوْعٌ مِنْ كَذِبِ ٱلْعَالِمِ ٱلدِّينِيِّ عَلَىٰ دِينِهِ .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٧ ، ١٧ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ هـ = ٦ يوليو/تموز ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٠٨٣ ـ ١٠٨٥ .

(1) ٱسْتَوْفَيْنَا ٱلْكَلَامَ عَنْ فَلْسَفَةِ ٱلْمَسْجِدِ فِي مَقَالَاتٍ كَثِيرَةٍ .

قَالَ ٱلرَّاوِي : وَصَعِدَ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمِنْبَرَ وَفِي يَدِهِ سَيْفُهُ ٱلْخَشَبِيُّ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ ؛ فَمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ٱلذِّرْوَةِ حَتَّىٰ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ ٱلرَّجُلَ قَدْ دَخَلَ فِي سِرِّ هَـٰذِهِ ٱلْخَشَبَةِ ، فَهُوَ يَبْدُو كَٱلْمَرِيضِ تُقِيمُهُ عَصَاهُ ، وَكَٱلْهَرِمِ يُمْسِكُهُ مَا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ ؛ وَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ كَذِبٌ صَرِيحٌ عَلَىٰ ٱلإِسْلَامِ وَٱلْمُسْلِمِينَ ، كَهَيْئَةِ سَيْفِهِ ٱلْخَشَبِيِّ فِي كَذِبِهَا عَلَىٰ ٱلسُّيُوفِ وَمَعْدَنِهَا وَأَعْمَالِهَا .

وَتَٱللهِ مَا أَدْرِي كَيْفَ يَسْتَحِلُّ عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلدِّينِ ٱلإِسْلَامِيِّ فِي هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ ، أَنْ يَخْطُبَ ٱلْمُسْلِمِينَ خُطْبَةَ جُمُعَتِهِمْ وَفِي يَدِهِ هَـٰذَا ٱلسَّيْفُ عَلَامَةَ ٱلذُّلِّ وَٱلضَّعَةِ وَٱلتَّرَاجُعِ وَٱلانْقِلَابِ وَٱلإِدْبَارِ وَٱلْهَزْلِ وَٱلسُّخْرِيَةِ وَٱلْفَضِيحَةِ وَٱلإِضْحَاكِ ؛ وَمَتَىٰ كَانَ ٱلإِسْلَامُ يَأْمُرُ بِنَجْرِ ٱلسُّيُوفِ مِنَ ٱلْخَشَبِ وَنَحْتِهَا وَتَسْوِيَتِهَا وَإِرْهَافِ حَدِّهَا ٱلَّذِي لَا يَقْطَعُ شَيْئًا ، ثُمَّ وَضْعِهَا فِي أَيْدِي ٱلْعُلَمَاءِ يَعْتَلُونَ بِهَا ذُؤَابَةَ كُلِّ مِنْبَرٍ ، لِتَتَعَلَّقَ بِهَا ٱلْعُيُونُ ، وَتَشْهَدَ فِيهَا ٱلرَّمْزَ وَٱلْعَلَامَةَ ، وَتَسْتَوْحِيَ مِنْهَا ٱلْمَعْنَوِيَّةَ ٱلدِّينِيَّةَ ٱلَّتِي يَجِبُ أَنْ تَتَجَسَّمَ لِتُرَىٰ ؟

أَفِي سَيْفٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ مَعْنَوِيَّةٌ غَيْرُ مَعْنَىٰ ٱلْهَزْلِ وَٱلسَّخَافَةِ ، وَبَلَاهَةِ ٱلْعَقْلِ وَذِلَّةِ ٱلْحَيَاةِ ، وَمَسْخِ ٱلتَّارِيخِ ٱلْفَاتِحِ ٱلْمُنْتَصِرِ ، وَٱلرَّمْزِ لِخُضُوعِ ٱلْكَلِمَةِ وَصِبْيَانِيَّةِ ٱلإِرَادَةِ ؟

قَالَ : وَكَانَ تَمَامُ ٱلْهُزْءِ بِهَـٰذَا ٱلسَّيْفِ ٱلْخَشَبِيِّ ٱلَّذِي صَنَعَتْهُ وِزَارَةُ أَوْقَافِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، أَنَّهُ فِي طُولِ صَمْصَامَةِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِبَ ٱلزُّبَيْدِيِّ فَارِسِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلإِسْلَامِ(1) ، فَكَانَ إِلَىٰ صَدْرِ ٱلْخَطِيبِ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ فِي يَدِهِ لَظَهَرَ مَقْبِضُهُ فِي صَدْرِ ٱلرَّجُلِ كَأَنَّهُ وِسَامٌ مِنَ ٱلْخَشَبِ . . .

قَالَ : وَكَانَ ٱلْخَطِيبُ إِذَا تَكَلَّفَ وَتَصَنَّعَ وَظَهَرَ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ حَمِيَ وَثَارَ ثَائِرُهُ ، ٱرْتَجَّ وَغَفَلَ عَنْ يَدِهِ ، فَتَضْطَرِبُ فِيهَا قَبْضَةُ ٱلسَّيْفِ فَتَلْكِزُهُ فِي صَدْرِهِ كَأَنَّمَا تُذَكِّرُهُ أَنَّ فِي يَدِهِ خَشَبَةً . . . لَا تَصْلُحُ لِهَـٰذِهِ ٱلْحَمَاسَةِ . . . !(2)

* * *

(1) كَانَ طُولُ ٱلصَّمْصَامَةِ سَبْعَةَ أَشْبَارٍ وَافِيَةٍ وَعَرْضُهَا شِبْرٌ .

(2) ٱلْقَاعِدَةُ ٱلشَّرْعِيَّةُ : أَنَّ ٱلْبَلَدَ ٱلَّذِي يُفْتَحُ بِٱلسَّيْفِ يُخْطَبُ فِيهِ بِٱلسَّيْفِ . وَلَمَّا ضَعُفَ ٱلْمُسْلِمُونَ أَنِفَ ٱلسَّيْفُ مِنْهُمْ وَأَطَاعَهُمُ ٱلْخَشَبُ . . . !

قَالَ : وَخطبَ ٱلْعَالِمُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ ، وَكَانَ سَيْفُهُ ٱلْخَشَبِيُّ يَخْطُبُ خُطْبَةً أُخْرَىٰ : فَأَمَّا ٱلأُوْلَىٰ فَهِيَ مَحْفُوْظَةٌ مَعْرُوْفَةٌ وَلَا تَنْتَهِي حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ أَثَرُهَا ، إِذْ هِيَ كَٱلْقِرَاءَةِ لِإِقَامَةِ ٱلصَّلَاةِ ؛ وَكَانَتْ فِيْ عَهْدِهَا ٱلأَوَّلِ كَٱلدَّرْسِ لِإِقَامَةِ شَأْنٍ مِنْ شُؤُوْنِ ٱلاجْتِمَاعِ وَٱلسِّيَاسَةِ ، فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ حَقِيْقَتِهَا ٱلإِسْلَامِيَّةِ مِثْلُ مَا بَيْنَ هَـٰذَا ٱلسَّيْفِ مِنَ ٱلْخَشَبِ وَبَيْنَ حَقِيْقَتِهِ ٱلأُوْلَىٰ . وَأَمَّا ٱلْخُطْبَةُ ٱلثَّانِيَةُ فَقَدْ عَقَلْتُهَا أَنَا عَنْ تِلْكَ ٱلْخَشَبَةِ وَكَتَبْتُهَا ، وَهَـٰذِهِ هِيَ عِبَارَتُهَا :

وَيْحَكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ ! لَوْ كُنْتُ بَقِيَّةً مِنْ خَشَبِ سَفِيْنَةِ نُوْحٍ ٱلَّتِيْ أَنْقَذَ فِيْهَا ٱلْجِنْسَ ٱلْبَشَرِيَّ ، لَمَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَضَعُوْنِيْ هَـٰذَا ٱلْمَوْضِعَ ؛ وَمَا جَعَلَكُمُ ٱللهُ حَيْثُ أَنْتُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَعَلْتُمُوْنِيْ حَيْثُ أَنَا ، تَكَادُ شَرَارَةٌ تَذْهَبُ بِيْ وَبِكُمْ مَعًا ، لِأَنَّ فِيَّ وَفِيْكُمُ ٱلْمَادَّةَ ٱلْخَشَبِيَّةَ وَٱلْمَادَّةَ ٱلْمُتَخَشِّبَةَ .

وَيْحَكُمْ ! لَوْ أَنَّهُ كَانَ لِخَطِيْبِكُمْ شَيْءٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلنَّارِيِّ ٱلْمُضْطَرِمِ ، لَمَا بَقِيَتِ ٱلْخَشَبَةُ فِيْ يَدِهِ خَشَبَةً . وَكَيْفَ يَمْتَلِئُ ٱلرَّجُلُ إِيْمَانًا بِإِيْمَانِهِ ، وَكَيْفَ يَصْعَدُ ٱلْمِنْبَرَ لِيَقُوْلَ كَلِمَةَ ٱلدِّيْنِ مِنَ ٱلْحَقِّ ٱلْغَالِبِ ، وَكَلِمَةَ ٱلْحَيَاةِ مِنَ ٱلْحَقِّ ٱلْوَاجِبِ ـ وَهُوَ كَمَا تَرَوْنَهُ قَدِ ٱنْتَهَىٰ مِنَ ٱلذُّلِّ إِلَىٰ أَنْ فَقَدَ ٱلسَّيْفُ رُوْحَهُ فِيْ يَدِهِ ؟

أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ ! لَنْ تُفْلِحُوْا وَهَـٰذَا خَطِيْبُكُمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ فِيْكُمْ ، إِلَّا إِذَا أَفْلَحْتُمْ وَأَنَا سَيْفُكُمُ ٱلْمُدَافِعُ عَنْكُمْ . أَيُّهَا ٱلْمُسْلِمُوْنَ ، غَيِّرُوْهُ وَغَيِّرُوْنِيْ .

* * *

قَالَ رَاوِيْ ٱلْخَبَرِ : وَلَمَّا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ مَاجَ ٱلنَّاسُ إِذِ ٱنْبَعَثَ فِيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلشُّبَّانِ يَصِيْحُوْنَ بِهِمْ يَسْتَوْقِفُوْنَهُمْ لِيَخْطُبُوْهُمْ ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ فَخَطَبَ ، فَذَكَرَ فِلِسْطِيْنَ وَمَا نَزَلَ بِهَا ، وَتَغَيُّرَ أَحْوَالِ أَهْلِهَا ، وَنَكْبَتَهُمْ وَجِهَادَهُمْ وَٱخْتِلَالَ أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ ٱسْتَنْجَدَ وَٱسْتَعَانَ ، وَدَعَا ٱلْمُوْسِرَ وَٱلْمُخِفَّ إِلَىٰ ٱلْبَذْلِ وَٱلتَّبَرُّعِ وَإِقْرَاضِ ٱللهِ تَعَالَىٰ ؛ وَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ بِصَنَادِيْقَ مَخْتُوْمَةٍ ، فَطَافُوْا بِهَا عَلَىٰ ٱلنَّاسِ يَجْمَعُوْنَ فِيْهَا ٱلْقَلِيْلَ وَٱلأَقَلَّ مِنْ دَرَاهِمَ هِيَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْحَالِ دَرَاهِمُ أَصْحَابِهَا وَضَمَائِرُهُمْ .

قَالَ : وَكَانَ إِلَىٰ جَانِبِيْ رَجُلٌ قَرَوِيٌّ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْفَلَّاحِيْنَ ٱلَّذِيْنَ تَعْرِفُ ٱلْخَيْرَ فِيْ

وُجُوْهِهِمْ ، وَٱلصَّبْرَ فِيْ أَجْسَامِهِمْ ، وَٱلْقَنَاعَةَ فِيْ نُفُوْسِهِمْ ، وَٱلْفَضْلَ فِيْ سَجَايَاهُمْ ؛ إِذِ ٱمْتَزَجَتْ بِهِمْ رُوْحُ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلْخِصْبَةِ فَتُخْرِجُ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرُوْعًا وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ زُرُوْعًا أُخْرَىٰ ـ فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْخَطِيْبَ خَطِيْبَ ٱلْمَسْجِدِ قَدْ غَشَّنَا وَهَـٰؤُلَاءِ ٱلشُّبَّانُ قَدْ فَضَحُوْهُ ؛ فَمَا يَنْبَغِيْ أَنْ تَكُوْنَ خُطْبَةُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ إِلَّا فِيْ أَخَصِّ أَحْوَالِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ .

قَالَ : وَنَبَّهَنِيْ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ ٱلسَّاذَجُ إِلَىٰ مَعْنًىٰ دَقِيْقٍ فِيْ حِكْمَةِ هَـٰذِهِ ٱلْمَنَابِرِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ ؛ فَمَا يُرِيْدُ ٱلإِسْلَامُ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ كَمَحَطَّاتِ ٱلإِذَاعَةِ ، يَلْتَقِطُ كُلُّ مِنْبَرٍ أَخْبَارَ ٱلْجِهَاتِ ٱلأُخْرَىٰ وَيُذِيْعُهَا فِيْ صِيْغَةِ ٱلْخِطَابِ إِلَىٰ ٱلرُّوْحِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْقَلْبِ ، فَتَكُوْنُ خُطْبَةُ ٱلْجُمُعَةِ هِيَ ٱلْكَلِمَةَ ٱلأُسْبُوْعِيَّةَ فِيْ سِيَاسَةِ ٱلأُسْبُوْعِ أَوْ مَسْأَلَةِ ٱلأُسْبُوْعِ ؛ وَبِهَـٰذَا لَا يَجِيْءُ ٱلْكَلَامُ عَلَىٰ ٱلْمَنَابِرِ إِلَّا حَيًّا بِحَيَاةِ ٱلْوَقْتِ ، فَيُصْبِحُ ٱلْخَطِيْبُ يَنْتَظِرُهُ ٱلنَّاسُ فِيْ كُلِّ جُمُعَةٍ ٱنْتِظَارَ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَدِيْدِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَسْتَطِيْعُ ٱلْمِنْبَرُ أَنْ يَكُوْنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحَيَاةِ عَمَلٌ .

قَالَ : وَخُيِّلَ إِلَيَّ بَعْدَ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ أَنَّ كُلَّ خَطِيْبٍ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمَسَاجِدِ نَاقِصٌ إِلَىٰ ٱلنِّصْفِ ، لِأَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ تُكْرِهُهُ أَنْ يَخْلَعَ إِسْلَامِيَّتَهُ ٱلْوَاسِعَةَ قَبْلَ صُعُوْدِهِ ٱلْمِنْبَرَ ، وَأَلَّا يَصْعَدَ إِلَّا فِيْ إِسْلَامِيَّتِهِ ٱلضَّيِّقَةِ ٱلْمَحْدُوْدَةِ بِحُدُوْدِ ٱلْوَعْظِ ٱلَّذِيْ هُوَ مَعَ ذَلِكَ نِصْفُ وَعْظٍ . . . فَٱلْخُطْبَةُ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ نِصْفُ خُطْبَةٍ ، أَوْ كَأَنَّهَا أَثَرُ خُطْبَةٍ مَعَهَا أَثَرُ سَيْفٍ . . .

قَالَ : وَأَخْرَجَ ٱلْقَرَوِيُّ كِيْسَهُ فَعَزَلَ مِنْهُ دَرَاهِمَ وَقَالَ : هَـٰذِهِ لِطَعَامٍ أَتَبَلَّغُ بِهِ وَلِأَوْبَتِيْ إِلَىٰ ٱلْبَلَدِ ، ثُمَّ أَفْرَغَ ٱلْبَاقِيْ فِيْ صَنَادِيْقِ ٱلْجَمَاعَةِ ؛ وَٱقْتَدَيْتُ أَنَا بِهِ فَلَمْ أَخْرُجْ مِنَ ٱلْمَسْجِدِ حَتَّىٰ وَضَعْتُ فِيْ صَنَادِيْقِهِمْ كُلَّ مَا مَعِيْ ؛ وَلَقَدْ حَسِبْتُ أَنَّهُ لَوْ بَقِيَ لِيْ دِرْهَمٌ وَاحِدٌ لَمَضَىٰ يَسُبُّنِيْ مَا دَامَ مَعِيْ إِلَىٰ أَنْ يَخْرُجَ عَنِّيْ .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِيْ : ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَىٰ ضَرِيْحِ صَاحِبِ ٱلْمَسْجِدِ أَزُوْرُهُ وَأَقْرَأُ فِيْهِ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ، فَإِذَا هُنَاكَ رِجَالٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ، ٱثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ (ٱلشَّكُّ فِيْ ثَالِثِهِمْ لِأَنَّهُ حَلِيْقُ ٱللِّحْيَةِ) . ثُمَّ تَوَافَىٰ إِلَيْهِمْ آخَرُوْنَ فَتَمُّوْا سَبْعَةً ؛ وَرَأَيْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوْا بِأَنْفُسِهِمْ صَاحِبَ (ٱللَّا لِحْيَةِ) ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْهُمْ عَلَىٰ ٱلْمَذْهَبِ ٱلشَّائِعِ فِيْ بَعْضِ ٱلْعَصْرِيِّيْنَ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْقُضَاةِ ٱلشَّرْعِيِّيْنَ ، أَحْسَبُهُمْ يَحْتَجُّوْنَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [٩٥ سورة

التين/الآية : ٤] ؛ وَكُلُّ ٱمْرِئٍ فَإِنَّمَا تُبَصِّرُهُ مِرْآتُهُ كَيْفَ يَظْهَرُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، أَبِلِحْيَةٍ أَمْ بِلَا لِحْيَةٍ . . . ؟

وَأَدَرْتُ عَيْنِي فِي وُجُوهِهِمْ ، فَإِذَا وَقَارٌ وَسَمْتٌ وَنُورٌ لَمْ أَرَ مِنْهَا شَيْئًا فِي وَجْهِ صَاحِبِ (ٱللَّا لِحْيَةِ) ؛ وَأَنَا فَمَا أَبْصَرْتُ قَطُّ لِحْيَةَ رَجُلٍ عَالِمٍ أَوْ عَابِدٍ أَوْ فَيْلَسُوفٍ أَوْ شَاعِرٍ أَوْ كَاتِبٍ أَوْ ذِي فَنٍّ عَظِيمٍ ، إِلَّا ذَكَرْتُ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّ ٱلْبَدِيعَ ٱلَّذِي وَرَدَ فِي بَعْضِ ٱلْأَخْبَارِ ؛ مِنْ أَنَّ لِلَّهِ (تَعَالَىٰ) مَلَائِكَةً يُقْسِمُونَ : وَٱلَّذِي زَيَّنَ بَنِي آدَمَ بِٱللِّحَىٰ .

وَكَانَ مِنَ ٱلسَّبْعَةِ رَجُلٌ تَرَكَ لِحْيَتَهُ عَافِيَةً عَلَىٰ طَبِيعَتِهَا ؛ فَٱمْتَدَّتْ وَعَظُمَتْ حَتَّىٰ نَشَرَتْ حَوْلَهَا جَوًّا رُوحَانِيًّا مِنَ ٱلْهَيْبَةِ تَشْعُرُ ٱلنَّفْسُ ٱلرَّقِيقَةُ بِتَيَّارِهِ عَلَىٰ بُعْدٍ ، فَكَانَ هَـٰذَا أَبْلَغَ رَدٍّ عَلَىٰ ذَاكَ .

* * *

قَالَ : وَأَنْصَتَ ٱلشُّيُوخُ جَمِيعًا إِلَىٰ خُطَبِ ٱلشُّبَّانِ ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُ هَـٰؤُلَاءِ جَافِيَةً صُلْبَةً حَتَّىٰ كَأَنَّهَا صَخَبُ مَعْرَكَةٍ لَا فَنُّ خَطَابَةٍ ، وَعَلَىٰ قَدْرِ ضَعْفِ ٱلْمَعْنَىٰ فِي كَلَامِهِمْ قَوِيَ ٱلصَّوْتُ ؛ فَهُمْ يَصْرُخُونَ كَمَا يَصْرُخُ ٱلْمُسْتَغِيثُ فِي صَيْحَاتٍ هَارِبَةٍ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ .

فَقَالَ أَحَدُ ٱلشُّيُوخِ ٱلْفُضَلَاءِ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ! جَاءَ فِي ٱلْخَبَرِ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّرْهَمِ » [البخاري ، رقم : ٢٨٨٧ ؛ الترمذي ، رقم : ٢٣٧٥ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٤١٣٦] . وَوَٱللَّهِ مَا تَعِسَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِلَّا مُنْذُ تَعَبَّدُوا لِهَـٰذَيْنِ حِرْصًا وَشُحًّا ؛ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [٥٩ سورة الحشر/الآية : ٩ ؛ ٦٤ سورة التغابن/الآية : ١٦] ، وَلَوْ تَعَارَفَتْ أَمْوَالُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي ٱلْحَوَادِثِ لَمَا أَنْكَرَتْهُمُ ٱلْحَوَادِثُ .

فَقَالَ آخَرُ : وَفِي ٱلْحَدِيثِ : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ ٱللَّهْفَانِ » [« الجامع الصغير » ، رقم : ١٨٦٣] ، وَلَـٰكِنْ مَا بَالُ هَـٰؤُلَاءِ ٱلشُّبَّانِ لَا يُورِدُونَ فِي خُطَبِهِمْ أَحَادِيثَ مَعَ أَنَّهَا هِيَ كَلِمَاتُ ٱلْقُلُوبِ ؟ فَلَوْ أَنَّهُمْ شَرَحُوا لِلْعَامَّةِ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثَ : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ ٱللَّهْفَانِ » لَأَسْرَعَ ٱلْعَامَّةُ إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ ٱللَّهُ .

قَالَ ٱلثَّالِثُ : وَلَـٰكِنْ جَاءَنَا ٱلْأَثَرُ فِي وَصْفِ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ : « إِنَّهَا فِي أَوَّلِ ٱلزَّمَانِ يَتَعَلَّمُ

صِغَارُهَا مِنْ كِبَارِهَا ، فَإِذَا كَانَ آخِرُ ٱلزَّمَانِ تَعَلَّمَ كِبَارُهُمْ مِنْ صِغَارِهِمْ » . فَنَحْنُ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ ، وَقَدْ سُلِّطَ ٱلصِّغَارُ عَلَى ٱلْكِبَارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْقُلُوهُمْ عَنْ طِبَاعِهِمْ إِلَىٰ صِبْيَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ .

قَالَ ٱلرَّاوِي : فَقُلْتُ لِصَدِيقِي مَعِي : قُلْ لِهَـٰذَا ٱلشَّيْخِ : لَيْسَ مَعْنَى ٱلْأَثَرِ مَا فَهِمْتَ ، بَلْ تَأْوِيلُهُ أَنَّ آخِرَ ٱلزَّمَانِ سَيَكُونُ لِهَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ زَمَنَ جِهَادٍ وَٱقْتِحَامٍ وَعَزِيمَةٍ وَمُغَالَبَةٍ عَلَى ٱسْتِقْلَالِ ٱلْحَيَاةِ ؛ فَلَا يَصْلُحُ لِوِقَايَةِ ٱلْأُمَّةِ إِلَّا شَبَابُهَا ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلْقَوِيُّ ٱلْجَرِيءُ كَمَا نَرَىٰ فِي أَيَّامِنَا هَـٰذِهِ ، فَيَتَنَزَّلُونَ مِنَ ٱلْكِبَارِ تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةَ ؛ إِذْ تَكُونُ ٱلْحَمَاسَةُ مُتَمِّمَةً لِقُوَّةِ ٱلْعِلْمِ . وَفِي ٱلْحَدِيثِ : « أُمَّتِي كَٱلْمَطَرِ : لَا يُدْرَىٰ أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ١٦٧٠٧] .

* * *

قَالَ ٱلرَّاوِي : وَلَمْ يَكَدِ ٱلصَّدِيقُ يَحْفَظُ عَنِّي هَـٰذَا ٱلْكَلَامَ وَيَهُمُّ بِتَبْلِيغِهِ ، حَتَّىٰ وَقَعَتِ ٱلصَّيْحَةُ فِي ٱلْمَكَانِ ؛ فَجَاءَ أَحَدُ ٱلْخُطَبَاءِ وَوَقَفَ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ ٱلرَّعْدُ : لَا يُكَرِّرُ إِلَّا زَمْجَرَةً وَاحِدَةً ؛ وَكَانَ ٱلشُّيُوخُ ٱلْأَجِلَّاءُ قَدْ سَمِعُوا كُلَّ مَا قِيلَ ، فَأَطْرَقُوا يَسْمَعُونَهُ مَرَّةً رَابِعَةً أَوْ خَامِسَةً ؛ وَفَرَغَ ٱلشَّبَابُ مِنْ هَدِيرِهِ فَتَحَوَّلَ إِلَيْهِمْ وَجَلَسَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مُتَأَدِّبًا مُتَخَشِّعًا وَوَضَعَ ٱلصُّنْدُوقَ ٱلْمَخْتُومَ .

فَقَالَ أَحَدُ ٱلشُّيُوخِ : مِمَّنْ أَنْتَ يَا بُنَيَّ ؟ قَالَ : مِنْ جَمَاعَةِ ٱلْإِخْوَانِ ٱلْمُسْلِمِينَ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : لَمْ يَخْفَ عَلَيْنَا مَكَانُكَ ، وَقَدْ بَذَلْتُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ؛ فَبَارَكَ ٱللَّهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ .

وَسَكَتَ ٱلشَّابُّ ، وَسَكَتَ ٱلشُّيُوخُ ، وَسَكَتَ ٱلصُّنْدُوقُ أَيْضًا . . .

ثُمَّ تَحَرَّكَتِ ٱلنَّفْسُ بِوَحْيِ ٱلْحَالَةِ ؛ فَمَدَّ أَوَّلُهُمْ يَدَهُ إِلَىٰ جَيْبِهِ ، ثُمَّ دَسَّهَا فِيهِ ، ثُمَّ عَيَّثَ فِيهِ قَلِيلًا(١) ؛ ثُمَّ . . . ثُمَّ أَخْرَجَ ٱلسَّاعَةَ يَنْظُرُ فِيهَا .

وَٱنْتَقَلَتِ ٱلْعَدْوَىٰ إِلَى ٱلْبَاقِينَ ، فَأَخْرَجَ أَحَدُهُمْ مِنْدِيلَهُ يَتَمَخَّطُ فِيهِ ، وَظَهَرَتْ فِي يَدِ ٱلثَّالِثِ سُبْحَةٌ طَوِيلَةٌ ، وَأَخْرَجَ ٱلرَّابِعُ سِوَاكًا فَمَرَّ بِهِ عَلَىٰ أَسْنَانِهِ ، وَجَرَّ ٱلْخَامِسُ كُرَّاسَةً

(١) أَيْ : بَحَثَ بِأَصَابِعِهِ .

كَانَتْ فِيْ قَبَائِهِ ، وَمَدَّ صَاحِبُ ٱللِّحْيَةِ ٱلْعَرِيْضَةِ أَصَابِعَهُ إِلَىٰ لِحْيَتِهِ يُخَلِّلُهَا ؛ أَمَّا ٱلسَّابِعُ صَاحِبُ (ٱللَّا لِحْيَةِ) ، فَثَبَتَتْ يَدُهُ فِيْ جَيْبِهِ وَلَمْ تَخْرُجْ ، كَأَنَّ فِيْهَا شَيْئًا يَسْتَحِي إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ ، أَوْ يَخْشَىٰ إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ مِنْ تَخْجِيْلِ ٱلْجَمَاعَةِ .

وَسَكَتَ ٱلشَّابُّ ، وَسَكَتَ ٱلشُّيُوْخُ ، وَسَكَتَ ٱلصُّنْدُوْقُ أَيْضًا . . .

قَالَ ٱلرَّاوِي : وَنَظَرْتُ فَإِذَا وُجُوْهُهُمْ قَدْ لَبِسَتْ لِلشَّابِ هَيْئَةَ ٱلْمُدَرِّسِ ٱلَّذِي يُقَرِّرُ لِتِلْمِيْذِهِ قَاعِدَةً قَرَّرَهَا مِنْ قَبْلُ أَلْفَ مَرَّةٍ لِأَلْفِ تِلْمِيْذٍ ؛ فَخَجِلَ ٱلشَّابُّ وَحَمَلَ صُنْدُوْقَهُ وَمَضَىٰ . . .

* * *

أَقُوْلُ أَنَا : فَلَمَّا ٱنْتَهَىٰ ٱلرَّاوِيْ مِنْ (قِصَّةِ ٱلأَيْدِي ٱلْمُتَوَضِّئَةِ) ، قُلْتُ لَهُ : لَعَلَّكَ أَيُّهَا ٱلرَّاوِيْ ٱسْتَيْقَظْتَ مِنَ ٱلْحُلُمِ قَبْلَ أَنْ يَمْلأَ ٱلشُّيُوْخُ ٱلأَجِلَّاءُ هَـٰذَا ٱلصُّنْدُوْقَ ، وَمَا خَتَمَ عَقْلُكَ هَـٰذِهِ ٱلرِّوَايَةَ بِهَـٰذَا ٱلْفَصْلِ إِلَّا بِمَا كَدَدْتَ فِيْهِ ذِهْنَكَ مِنْ فَلْسَفَةِ تَحَوُّلِ ٱلسَّيْفِ إِلَىٰ خَشَبَةٍ ؛ وَلَوْ قَدِ ٱمْتَدَّ بِكَ ٱلنَّوْمُ لَسَمِعْتَ أَحَدَهُمْ يَقُوْلُ لِسَائِرِهِمْ : بِمَنْ يَنْهَضُ إِخْوَانُنَا ٱلْمُجَاهِدُوْنَ وَبِمَنْ يَصُوْلُوْنَ ؟ لِهَـٰذَا قَالَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ : « جَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَىٰ ٱللهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيْلٍ » [الترمذي ، رقم : ١٩٦١] ؛ ثُمَّ يَمْلَؤُوْنَ ٱلصُّنْدُوْقَ . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

نَجْوَىٰ ٱلتِّمْثَالِ(*) (١)

أَيُّهَا ٱلْمُفْتَرِشُ ٱلصَّخْرَةَ يَشُدُّ ذِرَاعَيْهِ أَقْوَىٰ ٱلشَّدِّ كَأَنَّمَا يُرِيْدُ أَنْ يَقْتَلِعَ ٱلصَّخْرَةَ فِيْهِمَا .

مُتَنَاهِضًا بِصَدْرِهِ لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَإِنْ رَبَضَ فَإِنَّ ٱلْوَثْبَةَ فِيْ يَدَيْهِ .

مُتَمَطِّيًا بِصُلْبِهِ لِيُشِيْرَ مِنْ جِسْمِهِ ٱلْهَادِئِ إِلَىٰ مَعَانِيْهِ ٱلْمُفْتَرِسَةِ .

مُقْعِيًا عَلَىٰ ذَنَبِهِ وَمُتَحَفِّزًا بِسَائِرِهِ كَأَنَّهُ قُوَّةُ ٱنْدِفَاعٍ تَهُمُّ أَنْ تَنْفَلِتَ مِنْ جَاذِبِيَّةِ ٱلأَرْضِ .

وَأَنْتِ أَيَّتُهَا ٱلْهَيْفَاءُ تُمَثِّلُ ٱلإِنْسَانِيَّةَ ٱلْمُتَمَدِّنَةَ فِيْ نَحَافَتِهَا ، وَهِيَ كَهَـٰذِهِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ضَارِبَةٌ بِذِرَاعَيْ أَسَدٍ فِيْ غِلَظِ مِدْفَعَيْنِ . . .

حَكِيْمَةٌ فِيْ ٱلنَّظَرِ كَأَنَّمَا تَمُدُّ فِيْ سَرَائِرِ ٱلأُمَمِ نَظْرَةَ ٱلْمُتَأَمِّلِ ، وَلَـٰكِنَّ يَدَهَا كَيَدِ ٱلْحِكْمَةِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ عَلَىٰ تَرْكِيْبٍ عَقْلِيٍّ تَحْتَهُ ٱلْمَخَالِبُ . . .

سَاكِنَةٌ كَأَنَّهَا تِمْثَالُ ٱلسَّلَامِ ، عَلَىٰ أَنَّهَا فِيْ جِوَارِ ٱلأُسْدِ كَٱلسَّلَامِ بَيْنَ ٱلشُّعُوْبِ : تَلْمَحُ فِيْهِ إِنْسَانَ ٱلْعَالَمِ وَوَحْشَ ٱلْعَالَمِ . . .

يَا أَبَا ٱلْهَوْلِ .

أَأَنْتَ جَوَابٌ عَنْ ذَلِكَ ٱللُّغْزِ ٱلْقَدِيْمِ ٱلَّذِي هُوَ كَلَامٌ لَا يَتَكَلَّمُ وَسُكُوْتٌ لَا يَسْكُتُ .

وَٱلَّذِي أَشَارَ بِرَأْسِ ٱلإِنْسَانِ عَلَىٰ جِسْمِ ٱللَّيْثِ أَنَّهُ قُوَّةٌ عَمْيَاءُ كَٱلضَّرُوْرَةِ وَلَـٰكِنَّهَا مُبْصِرَةٌ كَٱلاخْتِيَارِ .

وَٱلَّذِي أَخْرَجَ مِنْ فَنَّيْ ٱلْغَرِيْزَةِ وَٱلْعَقْلِ فَنًّا ثَالِثًا لَا يَزَالُ فِيْ ٱلأَرْضِ يَنْتَظِرُ ٱلْمَرْأَةَ ٱلَّتِي تَلِدُ إِنْسَانًا عِظَامُهُ مِنَ ٱلْحَجَرِ ؟

وَأَنْتِ يَا مِصْرُ :

(*) لم أجدها في « الرسالة » .

(١) تِمْثَالُ نَهْضَةِ مِصْرَ ٱلَّذِي صَنَعَهُ ٱلْمَثَّالُ مُخْتَارٌ رَمْزًا لِهَـٰذِهِ ٱلنَّهْضَةِ ، وَهُوَ أَبُو ٱلْهَوْلِ مُتَحَفِّزًا تَقِفُ إِلَىٰ جَانِبِهِ ٱمْرَأَةٌ .

أَوَاقِفَةٌ ثَمَّةَ لِلشَّرْحِ وَٱلتَّفْسِيرِ ، تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ : إِنَّ أَجْدَادَكَ يَسْأَلُونَكَ مِنَ آلافِ ٱلسِّنِينَ بِهَـٰذَا ٱلرَّمْزِ : أَلَا مُعْجِزَةٌ مِنَ ٱلْقُوَّةِ تَمُطُّ عَضَلَاتِ ٱلْحَجَرِ ؟

أَلَا بَسْطَةٌ مِنَ ٱلْعِلْمِ تَجْعَلُكَ أَيُّهَا ٱلْمِصْرِيُّ وَكَأَنَّكَ رَأْسٌ لِجِسْمِ ٱلطَّبِيعَةِ ؟

أَلَا فَنٌّ جَدِيدٌ تَرْفَعُ بِهِ أَبَا ٱلْهَوْلِ فِي ٱلْجَوِّ فَتَزِيدُهُ عَلَىٰ قُوَّةِ ٱلْوَحْشِ وَذَكَاءِ ٱلْإِنْسَانِ خِفَّةَ ٱلطَّيْرِ ؟

أَمْ تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ : إِنَّ أَجْدَادَكَ يُوصُونَكَ بِهَـٰذَا ٱلرَّمْزِ أَنْ تَكُونَ كَالظَّهْرِ ٱلْأَسَدِيِّ لَا يُرْكَبُ مَطَاهُ ، وَكَالرَّأْسِ ٱلْإِنْسَانِيِّ لَا تُقَيَّدُ حُرِّيَّتُهُ ، وَكَالرَّبْضَةِ ٱلْجَبَلِيَّةِ لَا تَسْهُلُ إِزَاحَتُهَا ، وَكَالْإِبْهَامِ ٱلْمُرَكَّبِ مِنْ غَامِضَيْنِ لَا يَتَيَسَّرُ بِهِ عَبَثُ ٱلْعَابِثِ ، وَكَالصَّرَاحَةِ ٱلْمُجْتَمِعَةِ مِنْ عُنْصُرٍ وَاحِدٍ لَا يَغْلَطُ فِي حَقِيقَتِهَا أَحَدٌ ؟

أَمْ تَقُولِينَ يَا مِصْرُ : إِنَّ تَفْسِيرَ أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّ ٱلنَّهْضَةَ ٱلْمِصْرِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ يَوْمَ تُخْرِجُ ٱلْبِلَادُ مَنْ يَصْنَعُ أَبَا ٱلْهَوْلِ ٱلثَّانِي ؟

* * *

تِمْثَالُ ٱلنَّهْضَةِ أَمْ صَفْحَةٌ مِنَ ٱلْحَجَرِ قَدْ صَوَّرَ ٱلشَّعْبُ فِكْرَهُ عَلَيْهَا ، وَدَوَّنَ فِيهَا إِحْسَاسَهُ بِتَارِيخِهِ ، وَوَصَفَ بِهَا إِدْرَاكَهُ حَيَاةَ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّامِيَةِ ؟

أَمْ هُوَ كِتَابَةُ فَصْلٍ مِنَ ٱلتَّارِيخِ بِقَلَمِ ٱلْحَيَاةِ وَعَلَىٰ طَرِيقَةٍ مِنْ بَلَاغَتِهَا ، خَشِيَتْ عَلَيْهِ ٱلْفَنَاءَ فَدَوَّنَتْهُ فِي أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ ٱلْبَقَاءِ ٱلْحَجَرِيِّ ٱلصَّلْدِ ؟

أَمْ ذَاكَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ ٱلْأُمَّةِ أَحَالَهُ ٱلْفَنُّ مِنْ زَمَنٍ إِلَىٰ مَادَّةٍ ؛ وَمِنْ مَعْنًىٰ إِلَىٰ حِسٍّ ، وَمِنْ خَبَرٍ إِلَىٰ مَنْظَرٍ ، وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ عَنْهُ فَجَعَلَهُ ٱلْفَنُّ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ ؟

أَمْ هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي خَلَقَتْهَا نُفُوسُ هَـٰذَا ٱلْجِيلِ تُخَاطِبُ بِهِ ٱلنُّفُوسَ ٱلْآتِيَةَ لِتَتَمِّمَ عَلَيْهَا ، وَتُضِيفَ فِيهِ إِلَى ٱلْمَعْنَىٰ سِرَّ ٱلْمَعْنَىٰ ، وَتَضَعَ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ عَلَىٰ لِسَانِ ٱلطَّبِيعَةِ تَتَكَلَّمُ بِالتِّمْثَالِ كَمَا تَتَكَلَّمُ بِالْجِيلِ ؟

أَمْ تَرْكِيبٌ سِيَاسِيٌّ إِذَا فَسَّرَتْهُ ٱللُّغَةُ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ ٱلثَّابِتَ إِذَا ٱحْتَاجَ إِلَىٰ مَنْ يُثَبِّتُهُ . . . فَلَنْ يَمْحُوَهُ مَنْ يُنْكِرُهُ ، وَأَنَّ ٱلظَّاهِرَ إِنِ ٱحْتَاجَ إِلَىٰ مَنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ . . . فَلَنْ يُخْفِيَهُ مَنْ لَا يَرَاهُ ؟

* * *

بَلْ أَرَاكَ لَا هَوْلَ فِيكَ يَا أَبَا ٱلْهَوْلِ ٱلْجَدِيدِ .

أَفَذَاكَ مِنْ رِقَّةٍ دَاخَلَتْكَ وَرَحْمَةٍ جَاءَتْكَ مِنْ مَسِّ يَدِ ٱلْمَرْأَةِ . . . ؟

أَمِ ٱلْهَوْلُ ٱلْيَوْمَ قَدْ أَصْبَحَ فِي ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَاطِفَةِ وَمَدِّ ٱلْعَيْنِ ٱلنِّسَائِيَّةِ إِلَىٰ بَعِيدٍ . . . ؟

أَمْ لَا يَتِمُّ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ رَأْسُ رَجُلٍ وَجِسْمُ سَبُعٍ إِلَّا . . . إِلَّا بِأَنَامِلِ ٱمْرَأَةٍ ؟

أَلَا مَنْ يُعَلِّمُنِي أَهَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ مِنْكَ هِيَ تَهْذِيبٌ لِلْإِنْسَانِ وَٱلْوَحْشِ أَمْ تَكْمِلَةٌ عَلَيْهِمَا ؟

أَلَا مَنْ يَأْتِينِي بِالْحِكْمَةِ فِيكَ مِنْ وَضْعِ ٱلرَّجُلِ ٱلْقَوِيِّ رَأْسًا وَلَا جِسْمَ ، وَٱلْأَسَدِ ٱلْمُفْتَرِسِ جِسْمًا وَلَا رَأْسَ ، ثُمَّ لَا يَكْمُلُ دُونَهُمَا إِلَّا ٱلْمَرْأَةُ وَحْدَهَا .

إِنَّمَا كُنْتَ يَا أَبَا ٱلْهَوْلِ لُغْزَ ٱلصَّمْتِ ، فَلَمَّا أُضِيفَتِ ٱلْمَرْأَةُ إِلَيْكَ أَصْبَحْتَ لُغْزَ ٱلنُّطْقِ . . . فَيَا لَلْهَوْلِ !

فَاتِحُ ٱلْجَوِّ ٱلْمِصْرِيِّ(*) (١)

يَا طَيْرَ ٱلْمَثَلِ ٱلأَعْلَىٰ !

لَقَدِ ٱنْفَلَتَّ مِنْ رَذِيلَةِ ٱلْخَوْفِ وَتَرَكْتَهَا فِي ٱلتُّرَابِ مَوْطِئَ ٱلْقَدَمِ ، وَقُلْتَ لَهَا : وَيْحَكِ ! لَقَدْ آنَ لِلشَّبَابِ ٱلْمِصْرِيِّ ؛ فَهُوَ مُغَامِسٌ فِي مَاءِ ٱلصَّوَاعِقِ[٢] ، مُتَطَوِّحٌ فِي ٱللُّجَّةِ ٱلأَزَلِيَّةِ ٱلَّتِي تَغُوصُ فِيهَا ٱلْكَوَاكِبُ[٣] ، يَطِيرُ بِرُوحِ ٱلشَّرَارَةِ ، وَيَهْبِطُ بِرُوحِ ٱلْغَيْثِ ، وَيُلْجِمُ ٱلْجَوَّ وَيُسْرِجُهُ ، وَيَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَشْوِي عَدُوَّهُ فِي عَيْنِ ٱلشَّمْسِ .

وَكُنْتَ بَطَلًا مُغَامِرًا فَخَطَوْتَ فِي طَرِيقِ ٱلْمَلَائِكَةِ بِهَـٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَحَمَلَكَ ٱلْجَوُّ ؛ وَلَوْ أَنَّكَ خِفْتَ وَكُنْتَ عَلَىٰ جَنَاحَيْ جِبْرِيلَ لَا عَلَىٰ طَيَّارَةٍ ، لَخَافَ جِبْرِيلُ عَلَىٰ جَنَاحَيْهِ مِنْ حُطْمَةِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلتُّرَابِيِّ ٱلطَّاغِيَةِ ٱلَّتِي يَحْكُمُ عَلَىٰ ٱلأَحْيَاءِ بِٱلْمَوْتِ بِلَا مَوْتٍ ، لِأَنَّهُ ٱلذُّلُّ وَٱلْخُضُوعُ وَٱلرَّذِيلَةُ[٤] .

وَحَمَلَكَ ٱلْجَوُّ إِلَىٰ قُبَّةِ ٱلسَّمَاءِ ، وَهُنَالِكَ نَظَرَ ٱلْعَالَمُ فَرَأَىٰ لِمِصْرَ ٱلنَّاهِضَةِ عَلَمَهَا ٱلإِنْسَانِيَّ يَتَنَفَّسُ تَحْتَ ٱلْكَوَاكِبِ .

وَحَمَلَكَ ٱلْجَوُّ إِلَيْنَا ، فَلَمَّا رَفَعْنَا رُؤُوسَنَا لِنَرَاكَ ، رَفَعْنَاهَا فِي ٱلْوَقْتِ بَيْنَ شُعُوبِ ٱلأَرْضِ .

* * *

وَضَرَبْتَ يَا جَنَاحَ مِصْرَ فِي ٱلْهَوَاءِ ، وَأَعْنَانُ ٱلسَّمَاءِ[٥] مَمْلُوءَةٌ بِٱلزَّعْزَعِ وَٱلْهَوْجَاءِ

(*) « المقتطف » ؛ المجلد : ٧٦ ؛ مارس/آذار ١٩٣٠ م ، الصفحات : ٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

(١) ⟦ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِ طَيَّارٍ مِصْرِيٍّ قَدِمَ إِلَىٰ مِصْرَ مِنْ أُورُبَّةَ عَلَىٰ طَيَّارَتِهِ ، فِي شَهْرِ فِبْرَايِرْ/شباط سَنَةَ ١٩٣٠ م ، وَهُوَ ٱلطَّيَّارُ صِدْقِي وَطَائِرَتُهُ فَائِزَةُ ، وَكَانَ مَقْدَمُهُ يَوْمًا مَشْهُودًا ⟧ .

(٢) كِنَايَةٌ عَنِ ٱلسَّحَابِ .

(٣) كِنَايَةٌ عَنْ أَجْوَازِ ٱلْفَضَاءِ .

(٤) فِي ٱلأَصْلِ : « مَوْتٍ بِٱلذُّلِّ وَٱلْخُضُوعِ وٱلرَّذِيلَةِ » بَدَلًا مِنْ : « لِأَنَّهُ ٱلذُّلُّ وَٱلْخُضُوعُ وَٱلرَّذِيلَةُ » .

(٥) نَوَاحِيهَا ؛ جَمْعُ عَنَانٍ (بِٱلْفَتْحِ) .

وَٱلْعَاصِفِ ، وَٱلسَّمَاءُ فِي فَصْلِهَا ٱلْمُكْفَهِرِّ ٱلَّذِي تَخْلَعُ فِيهِ كُلَّ سَاعَةٍ وَتَلْبَسُ وَتُمَزِّقُ وَتَطْوِي[١] ، فَزِدْتَ بِجُرْأَتِكَ فِي بَرَاهِينِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ بُرْهَانَ قُوَّةِ ٱلْمُخَاطَرَةِ ، وَأَضَفْتَ إِلَىٰ مَنْطِقِهَا وَضْعًا جَدِيدًا مُفْحِمًا مِنْ رُوحِ ٱلتَّضْحِيَةِ .

وَطِرْتَ بَيْنَ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ فَجَعَلْتَهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي ٱعْتِقَادِكَ ؛ إِذْ وَصَلْتَ فِكْرَةَ ٱلْمَوْتِ بِسِرِّ ٱلإِيمَانِ ، وَٱلْحَيَاةَ بِسِرِّ ٱلْعَزِيمَةِ .

وَكُنْتَ رَجُلَ أُمَّتِكَ بِإِنْكَارِ ذَاتِ نَفْسِكَ مِنْ أَجْلِهَا .

وَٱتَّسَعْتَ لِلتَّارِيخِ بِوَضْعِكَ عُمْرَكَ ٱلْمَحْدُودَ عَلَىٰ ٱلطَّيَّارَةِ ، وَقَذْفِكَ بِهَا وَبِهِ فِي مَسْبَحِ ٱلأَجَلِ .

وَتَجَرَّدْتَ لِلأَبَدِيَّةِ لِتُعْطِيَ بِلَادَكَ : إِمَّا شَهِيدَ مَجْدٍ فِي ٱلآخِرَةِ ، وَإِمَّا شَهَادَةَ فَخْرٍ فِي ٱلدُّنْيَا .

وَكُنْتَ عَلَىٰ طَيَّارَتِكَ ٱلصَّغِيرَةِ ٱلْمُتَطَارِدَةِ تَحْتَ ٱلرِّيحِ ، وَحَوْلَكَ رُوحُ ٱلْهَرَمِ ٱلأَكْبَرِ ٱلْقَائِمِ بِإِرَادَةِ مِصْرَ وَكَأَنَّهُ مِسْمَارٌ مَدْقُوقٌ فِي كُرَةِ ٱلأَرْضِ بَيْنَ ٱلْقُطْبِ وَٱلْقُطْبِ .

* * *

وَأَنْتِ يَا « فَائِزَةُ » ، يَا هَـٰذِهِ ٱلصَّغِيرَةُ ٱلْخَارِجَةُ مِنْ مَالِ صَاحِبِهَا وَجُهْدِهِ وَعَزِيمَتِهِ كَمَا تَخْرُجُ ٱلْقُوَّةُ مِنْ ضَعْفٍ ، أَعَلِمْتِ إِذْ أَنْتِ تَرْتَفِعِينَ وَتَهْبِطِينَ بَيْنَ ٱلسُّحُبِ كَمَا تَتَوَاثَبُ ٱلْفَرَاشَةُ عَلَىٰ ٱلنُّوَّارِ فِي رَوْضَةٍ مُزْهِرَةٍ .

وَإِذْ أَنْتِ تَفْتَقِينَ وَتَحُوكِينَ فِي مُلَاءَةِ ٱلسَّحَابِ كَأَنَّكِ بِمُحَرِّكِكِ ٱلدَّوَّارِ تَنْسِجِينَ فِي ٱلسَّمَاءِ بِمِغْزَلٍ .

وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ صَفْقِ ٱلرِّيَاحِ ٱلْهُوجِ[٢] ، تَحْتَ ٱلسَّمَاءِ ٱلْمُدَجَّجَةِ[٣] ، فِي كُبَّةِ ٱلشِّتَاءِ[٤] ،

(١) كِنَايَةٌ عَنْ طَبِيعَةِ ٱلشِّتَاءِ ، مِنَ ٱلْغَيْمِ وَٱلصَّحْوِ وَمَا بَيْنَهُمَا .

(٢) ٱضْطِرَابُ ٱلرِّيَاحِ ٱلْمُتَقَلِّبَةِ .

(٣) ٱلْمُتَغَيِّمَةِ .

(٤) كُبَّةُ ٱلشِّتَاءِ : شِدَّتُهُ وَدَفْعَتُهُ .

كَأَنَّكِ مُنَاظَرَةٌ تَجْرِي بَيْنَ ٱلْعَزِيمَةِ فِي ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْعَزِيمَةِ فِي ٱلطَّبِيعَةِ .

وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ ذِئَابِ ٱلْأَعَاصِيرِ ، وَنُمُورِ ٱلسَّحَابِ[1] ، وَسِبَاعِ ٱلْغَيْمِ ذَوَاتِ ٱللِّبْدَةِ ٱلْكَثِيفَةِ ٱلْمُتَشَعِّثَةِ ، كَأَنَّكِ بِصَوْتِكِ وَأَزِيزِكِ تُطْلِقِينَ عَلَىٰ وُحُوشِ ٱلْجَوِّ مِدْفَعًا رَشَّاشًا يَتْرُكُهَا صَرْعَىٰ .

وَإِذْ تَرَاكِ ٱلرِّيحُ فَتَقُولُ عَنْكِ : رِيحٌ صَنَعَهَا ٱلْإِنْسَانُ . وَيَرَاكِ ٱلنَّجْمُ فَيَقُولُ : نَجْمٌ أَفْلَتَ مِنَ ٱلنِّظَامِ ٱلْأَرْضِيِّ . وَتَرَاكِ ٱلْمَلَائِكَةُ فَتَقُولُ : وَيْحَكَ يَا ٱبْنَ آدَمَ ، كَأَنَّكَ بِمَا خَلَقَهُ ٱلْعَقْلُ تَطْمَعُ مِنَّا فِي سَجْدَةٍ أُخْرَىٰ كَالَّتِي سَجَدْنَاهَا لِآدَمَ يَوْمَ خَلَقَهُ ٱللهُ .

. . . أَعَلِمْتِ إِذْ أَنْتِ كَذَلِكِ يَا « فَائِزَةُ » ، أَنَّ ٱلتَّارِيخَ ٱلْمِصْرِيَّ سَيُحَوِّلُكِ مِنْ طَيَّارَةٍ إِلَىٰ آيَةٍ كَآيَةِ بَدْءِ ٱلْخَلْقِ ، لِأَنَّ فِيكِ بَدْءَ ٱلطَّيَرَانِ فِي مِصْرَ ؟

* * *

سَلَامًا يَا فَاتِحَ ٱلْجَوِّ ٱلْمِصْرِيِّ . لَقَدْ أَجَالَتِ ٱلْأَيَّامُ قِدَاحَهَا فَخَرَجَتِ ٱلْقُرْعَةُ عَلَيْكَ ، وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ ٱلْوَاجِبُ آيَةً : بِاسْمِ ٱللهِ مَصْعَدُهَا وَمَجْرَاهَا .

وَطِرْتَ فَإِذَا أَنْتَ بِهَا عَابِرٌ فَوْقَ ٱلْحَاضِرِ لِتَجِيئَنَا مِنْ جَانِبِ ٱلْمُسْتَقْبَلِ .

وَهَبَطْتَ عَلَيْنَا كَأَنَّكَ فِي بَرِيدِ ٱلسَّمَاءِ كِتَابُ مَجْدٍ حَيٍّ لِلْوَطَنِيَّةِ ٱلظَّافِرَةِ .

بَلْ كِتَابُ قِصَّةٍ رَائِعَةٍ أَلَّفَتْهَا ٱلْعَوَاصِفُ مِنْ فَنَّيْنِ : ثَوْرَةِ ٱلْجَوِّ وَثَوْرَةِ نَفْسِكَ ٱلْمِصْرِيَّةِ . وَحَكَتْهَا فِي صَوْتَيْنِ : زَفِيفِ ٱلطَّيَّارَةِ وَصَرْخَةِ ضَمِيرِكَ ٱلْوَطَنِيِّ . وَجَعَلَتْهَا فَصْلَيْنِ : أَنْتَ وَٱلْمَجْهُولُ . أَلَا حَسْبُكَ مَجْدًا أَنْ يَحْيَا ٱلشَّعْبُ كُلُّهُ بِضْعَةَ أَيَّامٍ فِي قِصَّتِكَ !

* * *

فَعَلَىٰ مَهْدِ ٱلْجَوِّ ، وَفِي حَرِيرِ ٱلشُّعَاعِ ، وَتَحْتَ كِلَّةِ ٱلسَّحَابِ ـ وُلِدَ لِمِصْرَ يَوْمٌ تَارِيخِيٌّ .

(١) يُقَالُ : رِيحٌ مُتَذَئِّبَةٌ ؛ إِذَا كَانَتْ تَجِيءُ مِنْ هُنَا مَرَّةً وَمِنْ هُنَا مَرَّةً كَمَا يُسَاوِرُ ٱلذِّئْبُ ، فَوَضَعْنَا مِنْ هُنَا كَلِمَةَ ذِئَابِ ٱلرِّيَاحِ . وَٱلنُّمْرُ مِنَ ٱلسَّحَابِ : قِطَعٌ صِغَارٌ مُتَدَانٍ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، تَشْبِيهًا بِجِلْدِ ٱلنَّمِرِ ، فَوَضَعْنَا مِنْهَا نُمُورَ ٱلسَّحَابِ .

وَخَرَجَتِ ٱلتَّهَانِيُّ ٱلَّتِي طَالَ ٱحْتِبَاسُهَا فِي ٱلْقُلُوبِ ٱلْمِصْرِيَّةِ لَا يُفْرَجُ عَنْهَا لِأَنَّ سَجَّانَهَا ظُلْمُ ٱلسِّيَاسَةِ .

وَٱتَّجَهَتْ أَفْرَاحُ شَعْبٍ كَامِلٍ إِلَىٰ ٱلْفَتَىٰ ٱلْجَرِيءِ ٱلَّذِي رَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ فَوْقَ هَاوِيَةِ ٱلْمَوْتِ فَتَخَطَّاهَا .

وَتَلَقَّىٰ شُعُورُ ٱلْأُمَّةِ رَسُولَهُ ٱلْمِقْدَامَ ٱلَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ مَلْجَأٌ فِي خِطَارِهِ إِلَّا شُعُورَهُ بِهَٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ .

وَٱرْتَجَّ ٱلْوَادِي كُلُّهُ كَأَنَّهُ غِمْدٌ يَتَقَلْقَلُ حِينَ يُسَلُّ مِنْهُ ٱلسَّيْفُ .

ثُمَّ أُهْدِيَتْ كَلِمَةُ مِصْرَ لِابْنِهَا ٱلَّذِي كَتَبَ فِي جَوِّهَا ٱلْكَلِمَةَ ٱلسَّمَاوِيَّةَ ٱلْأُولَىٰ ، وَكَانَتْ سَاعَةٌ تَلَاشَىٰ عِنْدَهَا ٱلزَّمَنُ فَٱرْتَفَعَتْ مِنْهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَهَتَفَ مَعَنَا ٱلْفَرَاعِنَةُ : بُورِكْتَ يَا « صِدْقِي » !

* * *

لِلهِ دَرُّكَ أَيُّهَا ٱبْنُ عَزِيمَةٍ ! كَأَنَّمَا كَشَفْتَ أَهَاوِيلَ ٱلْوَحْيِ وَهَبَطْتَ فِي سَحَابَةٍ مُجَلْجِلَةٍ إِنْ لَمْ تَحْمِلْ كِتَابًا مُنْزَلًا فَكَأَنَّمَا حَمَلَتْ شَخْصًا مُنْزَلًا .

وَلَعَلَّكَ رَسُولُ ٱلْغَيْمِ ٱلْعَابِسِ لِهَٰذَا ٱلْجَوِّ ٱلْمِصْرِيِّ ٱلَّذِي يَضْحَكُ دَائِمًا ضِحْكَةَ ٱلْفَيْلَسُوفِ ٱلسَّاخِرِ فِي حِينِ أَصْبَحَتِ ٱلْحَيَاةُ قُوَّةً لَا فَلْسَفَةً . . .

وَلَعَلَّكَ مَبْعُوثُ ٱلْبَرْقِ وَٱلرَّعْدِ لِهَٰذَا ٱلسُّكُونِ ٱلنَّائِمِ ٱلَّذِي يَطْوِي كُلَّ يَوْمٍ فِي طَيِّ ٱلنِّسْيَانِ مَا حَدَثَ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ . . .

وَلَعَلَّكَ نَبِيُّ ٱلْجِدِّيَّةِ وَٱلْمَرَارَةِ لِهَٰذِهِ ٱلْحَلَاوَةِ ٱلنِّيلِيَّةِ ٱلْمُفْرِطَةِ ٱلَّتِي كَادَ مِنْهَا ٱلشَّعْبُ أَنْ يَكُونَ سُكَّرَ أَخْلَاقٍ يُذَابُ وَيُشْرَبُ . . .

وَلَعَلَّكَ تَفْسِيرٌ مُصَحِّحٌ لِعَقِيدَتِنَا ٱلْمَغْلُوطَةِ فِي ٱلْقَضَاءِ وَٱلْقَدَرِ ، أَنَّ ٱلْقَضَاءَ أَنْ تُقْدِمَ بِلَا خَوْفٍ ، وَأَنَّ ٱلْقَدَرَ أَنْ تَثِقَ بِلَا مُبَالَاةٍ .

أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ غَمَرْتَ ٱلشَّعْبَ بِمَوْجَةِ هَوَاءٍ جَدِيدَةٍ جِئْتَ بِهَا فِي جَنَاحَيْكَ ، وَنَفَخْتَ رُوحَ طَيَّارَتِكَ ٱلْمَجِيدَةِ فِي ٱلْقُلُوبِ فَجَعَلْتَهَا كُلَّهَا تُرَفْرِفُ كَأَنَّ لَكَ فِي ضُلُوعِ كُلِّ مِصْرِيٍّ طَيَّارَةً .

أَجْنِحَةُ ٱلْمَدَافِعِ ٱلْمِصْرِيَّةِ(*) (١)

ٱسْتَجْنِحِيْ(٢) يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيْرِيْ ، إِنَّ ٱلْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ ٱلْبَرْقِيَّ .

لَقَدْ مَدَّتْ لُغَةُ ٱلْقُوَّةِ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ مَدَّهَا حَتَّىٰ أَصْبَحَ ٱلطَّيَرَانُ بَعْضَ مَعَانِيْ ٱلْمَشْيِ ، وَلَمْ يَعُدِ ٱلْعَالَمُ يَدْرِيْ كَيْفَ تَكُوْنُ ٱلصُّوْرَةُ ٱلأَخِيْرَةُ ٱلَّتِيْ يَسْتَقِرُّ فِيْهَا مَعْنَىٰ إِنْسَانِهِ .

فَلْتَتَمَجَّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا ٱلْبَرْقِيِّ ٱلَّذِيْ تَخْرُجُ ٱلنَّارُ بِيَدِهِ مِنْ أَعْرَاضِ ٱلسَّحَابِ ، وَتُفَرْقِعُ فِيْ أَصَابِعِهِ هَزَّاتُ(٣) ٱلرَّعْدِ ، وَيَجْعَلُ فِيْ قُبَّةِ ٱلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً وَجَلْجَلَةً ، وَيَحْمِلُ ٱلاسْمَ ٱلْمِصْرِيَّ إِلَىٰ مُعَلَّقِ ٱلنَّجْمِ ، فَيَضَعُ لَهُ هُنَاكَ ٱلتَّعْرِيْفَ ٱلنَّارِيَّ ٱلَّذِيْ وَضَعَتْهُ ٱلدُّوَلُ ٱلْعُظْمَىٰ لِأَسْمَائِهَا .

وَلْتَتَمَجَّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا ٱلْبَرْقِيِّ ٱلَّذِيْ يُشْعِرُهَا حَقِيْقَةَ ٱلْعُلُوِّ ٱلْعَالِيْ ، وَٱلْعُمْقِ ٱلْعَمِيْقِ ، وَٱلسَّعَةِ ٱلَّتِيْ لَا تُحَدُّ ؛ وَيَزِيْدُ فِيْ مَعَانِيْ أَحْيَائِنَا مَعْنًى جَدِيْدًا لِأَحْيَاءِ ٱلسُّحُبِ ، وَفِيْ مَعَانِيْ أَمْوَاتِنَا مَعْنًى جَدِيْدًا لِمَوْتَىٰ ٱلْكَوَاكِبِ .

إِنْسَانٌ بَرْقِيٌّ يُتَمِّمُ بِشَجَاعَتِهِ فِيْ ٱلسَّمَاءِ بُطُوْلَةَ فَلَّاحِنَا ٱلإِنْسَانِ ٱلشَّمْسِيِّ فِيْ ٱلأَرْضِ ، وَيَعْلُوْ بِكِبْرِيَاءِ مِصْرَ فِيْ ذِرْوَةِ ٱلْعَالَمِ ، فَتَظْهَرُ طَيَّارَاتُهَا ٱلْعَظِيْمَةُ قُدْرَةً فِيْ ٱلْجَوِّ كَمَا ظَهَرَتْ آثَارُهَا ٱلْعَظِيْمَةُ قُدْرَةً فِيْ ٱلثَّرَىٰ .

إِنَّهَا مِصْرُ ، مِصْرُ ٱلْقَادِرَةُ ٱلَّتِيْ سَحَرَتِ ٱلْقِدَمَ بِقُوَّتِهَا وَفَنِّهَا ، فَبَقِيَ فِيْهَا عَلَىٰ حَالِهِ وَجَلَالَتِهِ ، وَٱنْهَزَمَ ٱلدَّهْرُ عَنْهُ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ عَلَىٰ قُوَّةِ ٱلزَّمَنِ نَفْسِهَا .

(*) « ٱلمقتطف » ؛ المجلد : ٨٤ ؛ يناير/ كانون الآخر ١٩٣٤ م ، الصفحات : ٨ ـ ١٠ .

(١) ⟦ كُتِبَتْ فِيْ ٱحْتِرَاقِ أَوَّلِ طَيَّارَةٍ حَرْبِيَّةٍ مِصْرِيَّةٍ فِيْ قُدُوْمِهَا إِلَىٰ مِصْرَ مِنْ أُوْرُبَّة ، وَقَدِ ٱحْتَرَقَ فِيْهَا ٱلشَّهِيْدَانِ : (حَجَّاجٌ وَدُوْسٌ) ، وَذٰلِكَ فِيْ شَهْرِ دِيْسَمْبَرَ/ كانون الأَوَّل سَنَةَ ١٩٣٣م ⟧ .

(٢) أَيْ : ٱتَّخِذِيْ ٱلأَجْنِحَةَ ، وَلَمْ تَأْتِ ٱلْكَلِمَةُ فِيْ ٱللُّغَةِ بِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، وَلَـٰكِنَّا ٱسْتَعْمَلْنَاهَا فِيْهِ قِيَاسًا عَلَىٰ كَلَامِهِمْ .

(٣) كَذَا فِي طَبْعَاتِ « وحْي ٱلْقَلَمِ » ، وَفي ٱلأَصْلِ : « هَزَمَاتُ » .

فَٱسْتَجْنِحِيْ يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيْرِيْ . إِنَّ ٱلْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ ٱلْبَرْقِيَّ .

* * *

وَلَمَّا فُتِحَ ٱلسِّجِلُّ ذَاتَ صَبَاحٍ لِتَكْتُبَ مِصْرُ أَسْمَاءَ ٱلْفَوْجِ ٱلأَوَّلِ مِنْ نُسُوْرِهَا ٱلْحَرْبِيِّيْنَ ، صَاحَ مَجْدُهَا ٱلْخَالِدُ مِنْ أَعْمَاقِ ٱلتَّارِيْخِ :

« أَضْرِمِيْ ٱلشُّعْلَةَ ٱلآدَمِيَّةَ ٱلأُوْلَىٰ يَا مِصْرُ ، وَٱفْتَحِيْ ٱلْقَبْرَ ٱلْجَوِّيَّ ٱلأَوَّلَ ، وَٱلْحِدِيْ فِيْهِ مِنْ عُنْصُرَيْكِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَٱلأَقْبَاطِ ، وَضَعِيْ ٱلْحَيَاةَ فِيْ أَسَاسِ ٱلْحَيَاةِ ، وَٱسْتَقْبِلِيْ عَصْرَكِ ٱلْجَدِيْدَ بِأَذَانِ ٱلْمَسْجِدِ وَدَقِّ ٱلنَّاقُوْسِ لِيُبَارِكَهُ ٱللهُ ، وَلْيَتَلَقَّ ٱلشَّعْبُ أَوَّلَ طَيَّارِيْهِ بِقُلُوْبٍ فِيْهَا رُوْحُ ٱلْمَعْرَكَةِ ، وَأَكْبَادٍ عَرَفَتْ مَسَّ ٱلنَّارِ ؛ وَلَا يَنْظُرَنَّ إِلَىٰ طَيَّارَاتِهِ ٱلأُوَلِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْظُرَ ٱلنَّعْشَيْنِ فَيَرَىٰ مَجْدَ ٱلْمَوْتِ فِيْ سَبِيْلِ ٱلْوَطَنِ ، فَتَسْطَعَ نَظَرَاتُهُ بِبَرِيْقِ ٱلْكِبْرِيَاءِ ، وَلَمْعَةِ ٱلْعَزِيْمَةِ ، وَشُعَاعِ ٱلإِيْمَانِ ؛ وَيَأْتَلِقَ فِيْهَا ٱلنُّوْرُ ٱلسَّمَاوِيُّ ٱلَّذِيْ يَجْعَلُ ٱلنَّاسَ فِيْ بَعْضِ سَاعَاتِهِمْ كَوَاكِبَ ، نُوْرُ صَلَاةِ ٱلشَّعْبِ عَلَىٰ مَوْتَاهُ ٱلشُّهَدَاءِ » .

وَٱسْتَجَابَ ٱلْقَدَرُ لِصَوْتِ ٱلْمَجْدِ، فَٱلْتَجَّ ٱلظَّلَامُ فِيْ وَضَحِ ٱلصُّبْحِ، وَٱنْطَفَأَ سِرَاجُ ٱلنَّهَارِ فِيْ قُبَّةِ ٱلْفَلَكِ، وَأَطْبَقَتْ نَوَاحِيْ ٱلْجَوِّ إِطْبَاقَ لَيْلَةٍ تَسَاقَطَتْ أَرْكَانُهَا، وَأَقْبَلَ ٱلضَّبَابُ يَعْتَرِضُ ٱعْتِرَاضَ جَبَلٍ عَائِمٍ يَتَذَبْذَبُ فِيْ بَحْرٍ ، وَٱسْتَأْرَضَ ٱلسَّحَابُ فَتَخَلَّىٰ عَنْ طَبِيْعَتِهِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ ٱلرَّقِيْقَةِ ، وَتَذَامَرَتِ ٱلْعَنَاصِرُ عَلَىٰ ٱلْقِتَالِ يَحُضُّ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَغَشَّتِ ٱلسَّمَاءُ بِوَجْهِ ٱلْمَوْتِ : كَلَّحَ فَٱرْبَدَّ وَٱنْتَفَخَ ، وَتَكَسَّرَتْ فِيْهِ ٱلْغُضُوْنُ كُلُّ غَضَنٍ كِسْفَةُ ظَلَامٍ ، وَعَادَ أَوْسَعُ شَيْءٍ أَضْيَقَ شَيْءٍ، فَكَانَ ٱلْفَضَاءُ كَصَدْرِ ٱلْمُحْتَضَرِ: لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا عُمْرُ سَاعَةٍ وَأَنْفَاسُهَا.

وَٱبْتَدَرَتْ إِلَىٰ مَجْدِ ٱلْمَوْتِ ٱلطَّيَّارَةُ ٱلْمِصْرِيَّةُ ٱلأُوْلَىٰ ، وَكَانَ فِيْهَا إِنْكِلِيْزِيَّانِ يَقُوْدَانِهَا فَأَبَاهَا ٱلْمَوْتُ ، فَذَهَبَتْ فَٱنْتَحَرَتْ أَسَفًا وَتَرَدَّتْ مُتَحَطِّمَةً ، وَٱنْسَلَّ ٱلرَّجُلَانِ مِنْ مَخَالِبِ ٱلرَّدَىٰ ، وَكَانَا فِيْ ٱلطَّيَّارَةِ كَوَرَقَتَيْنِ مِنَ ٱلنَّبْتِ فِيْ فَمِ جَرَادَةٍ هَمَّتْ تَقْضِمُهُمَا . . .

وَتَسْتَبِقُ ٱلثَّانِيَةُ فَإِذَا فِيْهَا وَدِيْعَةُ ٱلْكَرْمِ مِنْ عُنْصُرَيْ مِصْرَ : «حَجَّاجٍ وَدَوْسٍ» (١) وكَانَ سِرًّا

---

(١) هُمَا فُؤَاد حَجَّاج ، وَشَهْدِي دَوس ؛ وَكَانَ فِيْ ٱلطَّيَّارَةِ ٱلأُخْرَىٰ ٱلَّتِيْ تَحَطَّمَتْ ٱلْمِسْتَرْ بليت ، وَٱلْمِسْتَرْ سميث .

مِنْ أَسْرَارِ مِصْرَ ٱجْتِمَاعُهُمَا فِي مَدَاحِضِ ٱلْغَمَامِ وَمَزَالِقِهِ ، لِيَكُونَا هَدِيَّةَ مِصْرَ ٱلْأُولَىٰ إِلَىٰ مَجْدِهَا ٱلْحَرْبِيِّ ، ثُمَّ لِيَكُونَا هَدِيَّةَ ٱلْمَجْدِ إِلَىٰ إِحْسَاسِ هَـٰذَا ٱلشَّعْبِ يُحِسُّ مِنْهُمَا ٱلْعَالَمَ ٱلْمُنْطَوِيَ لَهُ فِي مُسْتَقْبَلِ ٱلنَّصْرِ .

وَٱعْتَسَفَتْ طَيَّارَةُ ٱلشَّهِيدَيْنِ طَرِيقَ ٱلْفَنَاءِ وَمَتَاهَةَ ٱلْحَيَاةِ ، فَذَهَبَتْ عَنْهَا مَعَارِفُ ٱلْأَرْضِ ، وَعُمِّيَتْ عَلَيْهَا مَعَالِمُ ٱلسَّمَاءِ ، وَخَرَجَتْ مِنْ تَصْرِيفِ أَيْدِي ٱلْبَطَلَيْنِ إِلَىٰ تَصْرِيفِ أَجَلِهِمَا ، وَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا تَطِيرُ فِي ٱلْأَنْفَاسِ ٱلْبَاقِيَةِ لَهُمَا ؛ فَمَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ ؛ وَلَمْ تَكُنْ[1] طَيَّارَةً تَحْمِلُهُمَا ، بَلْ جَنَاحًا مَمْدُودًا لَهُمَا مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ .

ثُمَّ ٱجْتَرَّهَا ٱلْمَوْتُ إِلَىٰ غَوْرٍ ، فَٱنْحَطَّتْ مِنَ ٱلْهَوَاءِ جَانِحَةً كَٱلطَّائِرِ يَطْلُبُ مَلْجَأً فِي ٱلْعَاصِفَةِ ، ثُمَّ ٱنْتَهَضَتْ وَاثِبَةً ، وَتَمَطَّرَتْ مُنْقَلِبَةً ، فَٱشْتَعَلَتْ فَٱسْتَعَرَتْ فَأَنْضَجَتْ رَاكِبَيْهَا ، رَحِمَهُمَا ٱللهُ !

وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مَنْظَرُ ٱلْحُزْنِ فِي ٱلْحَيَاةِ هُوَ ٱنْهِمَاكُ ٱلْحَيَاةِ فِي عَمَلٍ جَدِيدٍ تُبْدِعُ مِنْهُ ٱلسُّرُورَ وَٱلْقُوَّةَ . ٱحْتَرَقَ ٱلْبَطَلَانِ لِتَتَسَلَّمَ مِصْرُ فِي نَعْشَيْهِمَا رَمَادًا لَنْ يُبْنَىٰ تَارِيخُ ٱلْعِزَّةِ ٱلْوَطَنِيَّةِ إِلَّا بِهِ .

فَٱسْتَجْنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي . إِنَّ ٱلْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ ٱلْبَرْقِيَّ .

* * *

صَنَعَتِ ٱلنَّارُ ٱلْآدَمِيَّةُ ٱلْحَقِيقَةَ ، وَوَضَعَتْ لَنَا ٱلاسْمَ ٱلْبَدِيعَ ٱلَّذِي نُطْلِقُهُ عَلَىٰ طَيَّارِينَا ٱلْأَبْطَالِ ، فَلَا تُسَمُّوهُمْ نُسُورَ ٱلْجَوِّ ، وَلَـٰكِنْ سَمُّوهُمْ « جَمَرَاتِ ٱلْجَوِّ » .

صَنَعَتْ نَارُنَا ٱلْحَقِيقَةَ ، وَأَوْحَتْ إِلَيْنَا أَنْ نَسْتَبْدِلَ مِنْ أَنْفُسِنَا حَالَةً بِحَالَةٍ ، وَأَنْ نُفَاجِئَ شُعُورَنَا ٱلْحَالِمَ فَنَصْدِمَهُ بِآلَامِ ٱلْيَقَظَةِ ٱلْمُرَّةِ ، وَأَنْ نُغَيِّرَ قَاعِدَةَ ٱلْحَيَاةِ فِي ٱلتَّرْبِيَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ فَلَا تَكُونُ : ٱلْعَيْشَ ٱلْعَيْشَ ، وَلَـٰكِنِ ٱلْقُوَّةَ ٱلْقُوَّةَ .

صَنَعَتِ ٱلنَّارُ ٱلْحَقِيقَةَ ، وَأَثْبَتَتْ لَنَا أَنَّ ٱلْحَيَاةَ إِنْ هِيَ إِلَّا أَدَاةٌ لِلْحَيِّ ، وَلَيْسَ ٱلْحَيُّ أَدَاةً لِلْحَيَاةِ ، فَلْيَتَصَرَّفْ بِهَا عَلَىٰ قَوَانِينِ ٱلرُّوحِ وَآمَالِهَا فَيَسْمُو وَتَسْمُو ، وَلَا يَدَعْهَا تَتَصَرَّفُ عَلَىٰ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « تَعُدْ » بَدَلًا مِنْ : « تَكُنْ » .

مَذَاهِبِ أَقْدَارِ ٱلْمَادَّةِ وَتَصَارِيفِهَا فَيُذِلَّهَا وَتُذِلَّهُ . وَفِي قَانُونِ ٱلرُّوحِ : لَا قِيمَةَ لِعَالَمِ ٱلْأَشْيَاءِ إِلَّا كَمَا تَصْلُحُ لَنَا ؛ وَفِي قَانُونِ ٱلْمَادَّةِ وَضَغْطَةِ ٱلْحَيَاةِ : كَمَا تَصْلُحُ لَنَا وَكَمَا نَصْلُحُ لَهَا . . .

بَلَىٰ ، قَدْ صَنَعَتِ ٱلنَّارُ ٱلْآدَمِيَّةُ ٱلْحَقِيقَةَ ، وَأَعْطَتْنَا قِصَّةَ ٱلْحُرِّيَّةِ كَامِلَةً فِي مَعْنًى وَاحِدٍ : وَهُوَ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْحُرِّيَّةَ لِعَاشِقِيهَا كَأَجْمَلِ ٱلْجَمِيلَاتِ لِلْمُتَنَافِسِينَ عَلَيْهَا : جَمَالُهَا مُتَوَحِّشٌ ، وَخَلَاعَتُهَا مُفْتَرِسَةٌ ، وَظَرْفُهَا سَفَّاكٌ لِلدَّمِ .

فَٱسْتَجْنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي . إِنَّ ٱلْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ ٱلْبَرْقِيَّ .

* * *

وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ يَا « جَمَرَاتِ ٱلْجَوِّ » ، فَإِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَى ٱلسَّحَابِ ، فَلَيْسَتِ ٱلطَّيَّارَةُ ثَمَّ طَيَّارَةً ، بَلْ حَقِيقَةً حَيَّةً عَامِلَةً لِلْمَجْدِ ، فَلْتَحْمِلْ مَعْنَاهَا ٱلْمِصْرِيَّ مِنْ بَطَلِهَا ٱلْمِصْرِيِّ .

وَإِذَا سَبَحْتُمْ فِي مَهْبِطِ ٱلْقَدَرِ ، فَلَيْسَ ٱلطَّيَّارُ ثَمَّ طَيَّارًا ، بَلْ حَيَاةً عَبْقَرِيَّةً أَرْسَلَتْهَا مِصْرُ تَسْتَنْزِلُ لِلْحَيَاةِ أَقْدَارًا سَعِيدَةً .

وَإِذَا خُضْتُمْ فِي ٱلْمَعْرَكِ ٱلضَّنْكِ تَتَبَعْثَرُ فِيهِ ٱلْآجَالُ عَلَى ٱلرِّيَاحِ ، فَلَيْسَ ٱلْجِسْمُ ٱلْمِصْرِيُّ هُنَاكَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ، بَلْ نَامُوسًا طَبِيعِيًّا مَاضِيًا إِلَىٰ غَايَةٍ .

وَإِذَا تَقَاذَفْتُمْ فِي بَحْرِ ٱلشَّمْسِ ، فَأَنْتُمْ هُنَاكَ عَلَىٰ شِبَاكٍ طَرَحْتُمُوهَا لِصَيْدِ أَيَّامٍ مُضِيئَةٍ تَلْتَمِعُ فِي تَارِيخِ مِصْرَ .

وَإِذَا نَفَذْتُمْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ ، فَٱنْظُرُوهَا بِأَعْيُنِكُمْ مَعَالِيَ مِصْرَ[1] ، وَٱفْهَمُوهَا بِقُلُوبِكُمْ ذَاتِيَّةَ ٱلْوَطَنِ ٱلْمِصْرِيِّ تَعْلُو وَتَعْلُو وَلَا تَزَالُ أَبَدًا تَعْلُو .

إِنَّمَا ٱلطَّيَّارَةُ وَسِلَاحُهَا وَطَيَّارُهَا تَأْلِيفٌ مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْعَنَاصِرِ ، مَعْنَاهُ فِي ٱلْعَزِيمَةِ « لَا بُدَّ » . وَمَتَىٰ هَدَرَتِ ٱلطَّيَّارَةُ هَدِيرَهَا فَإِنَّمَا تَقُولُ لِلْبَطَلِ مِنْكُمْ : هَلُمَّ مِنْ عَالٍ إِلَىٰ أَعْلَىٰ ، إِلَىٰ أَكْثَرَ عُلُوًّا ، إِلَىٰ أَقْصَىٰ حُدُودِ ٱلْوَاجِبِ عَلَى ٱلنَّفْسِ حِينَ يَأْخُذُ ٱلْوَاجِبُ ٱلْكُلَّ وَحِينَ تُعْطِي ٱلنَّفْسُ ٱلْكُلَّ .

فَٱسْتَجْنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي . إِنَّ ٱلْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ ٱلْبَرْقِيَّ .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « وَتِلْكَ ٱلْعُلَىٰ » بَدَلًا مِنْ : « مَعَالِيَ مِصْرَ » .

أَحَادِيثُ ٱلْبَاشَا : ١

ٱلطَّمَاطِمُ ٱلسِّيَاسِيُّ(*) . . .

كَانَ (م) بَاشَا رَحِمَهُ ٱللهُ دَاهِيَةً مِنْ دُهَاةِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ، يَلْتَوِي مَرَّةً فِي يَدِهَا ٱلْتِوَاءَ ٱلْحَبْلِ ، وَيَسْتَوِي فِي يَدِهَا مَرَّةً ٱسْتِوَاءَ ٱلسَّيْفِ ، وَلَا يُرَىٰ أَبَدًا إِلَّا مُنْكَمِشًا مُتَحَرِّزًا كَأَنَّ لَهُ عَدُوًّا لَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ وَلَا مَتَىٰ يَقْتَحِمُ عَلَيْهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ ٱلَّذِينَ كَانُوا آلَاتٍ لِلْكَذِبِ بَيْنَ طَالِبِ ٱلْحَقِّ وَغَاصِبِ ٱلْحَقِّ ـ يَعْرِفُ أَنَّ عَدُوَّهُ كَامِنٌ فِي أَعْمَالِهِ .

وَكَانَ ذَكِيًّا أَرِيبًا ، غَيْرَ أَنَّ مُلَابَسَتَهُ لِلسِّيَاسَةِ ٱلدَّائِرَةِ عَلَىٰ مِحْوَرِهَا ، جَعَلَتْ نِصْفَ ذَكَائِهِ مِنَ ٱلذَّكَاءِ وَنِصْفَهُ مِنَ ٱلْمَكْرِ ؛ فَكَانَ فِي مُرَاوَغَتِهِ كَأَنَّ لَهُ ثَلَاثَةَ عُقُولٍ : أَحَدُهَا(١) مِصْرِيٌّ ، وَٱلْآخَرُ إِنْكِلِيزِيٌّ ، وَٱلثَّالِثُ خَارِجٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ .

وَبِهَـٰذَا تَقَدَّمَ وَعَاشَ أَثِيرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ مِنَ ٱلْإِنْكِلِيزِ ، وَٱسْتَمَرَّتْ مَجَارِيهِ مُطَّرِدَةً لَدَيْهِمْ حَتَّىٰ بَلَغُوا بِهِ إِلَى ٱلْوِزَارَةِ ، إِذْ كَانَ حَسَنَ ٱلْفَهْمِ عَنْهُمْ ، سَرِيعَ الاسْتِجَابَةِ إِلَيْهِمْ ؛ يَفْهَمُ مَعْنَىٰ أَلْفَاظِهِمْ ، وَمَعْنَى ٱلنِّيَّةِ ٱلَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ أَلْفَاظِهِمْ ، وَمَعْنًى آخَرَ يَتَبَرَّعُ هُوَ بِهِ لِأَلْفَاظِهِمْ . . . فَكَانَ هُوَ وَأَمْثَالُهُ فِي رَأْيِ تِلْكَ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْقَدِيمَةِ ، رِجَالًا كَٱلْأَفْكَارِ : يُوضَعُ أَحَدُهُمْ فِي مَكَانِهِ مِنَ ٱلْحُكْمِ كَمَا تُوضَعُ صِيغَةُ ٱلشَّكِّ لِإِفْسَادِ ٱلْيَقِينِ ، أَوْ صِيغَةُ ٱلْوَهْمِ لِتَوْلِيدِ ٱلْخَيَالِ ، أَوْ صِيغَةُ ٱلْهَوَىٰ لِإِيجَادِ ٱلْفِتْنَةِ .

* * *

وَكَانَ صَدِيقِي (فُلَانٌ) رَحِمَهُ ٱللهُ صَاحِبَ سِرِّهِ (ٱلسِّكِرْتير) ، وَقَدْ وَثِقَ بِهِ ٱلْبَاشَا حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ يُعَالِنُهُ بِمَا فِي نَفْسِهِ ، وَيَبُثُّهُ هُمُومَهُ وَأَحْزَانَهُ ، وَيَرَىٰ فِيهِ دُنْيَا حُرَّةً يَخْرُجُ إِلَيْهَا كُلَّمَا

(*) « الرسالة » العدد : ١٦٠ ، ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٧ يوليو/تموز ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٢٠١ ـ ١٢٠٣ .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « أَحَدُهُمَا » بَدَلًا مِنْ : « أَحَدُهَا » .

ضَاقَتْ بِهِ دُنْيَا وَظِيفَتِهِ ، وَيَسْتَعِيرُ مِنْهُ ٱلْيَقِينَ أَحْيَانًا بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ مِصْرِيًّا لَمْ يَتِمَّ بَعْدُ تَحْوِيلُهُ فِي ٱلْكُرْسِيِّ . . .

فَحَدَّثَنِي ٱلصَّدِيقُ بَعْدَ مَوْتِ هَـٰذَا ٱلْبَاشَا قَالَ : إِنَّهُ دَعَاهُ يَوْمًا لِيُفَاتِحَهُ ٱلرَّأْيَ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : إِنَّ ٱلرَّئِيسَ ٱلْإِنْكِلِيزِيَّ غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ إِلَيْكَ لِأَنَّ حَقِيقَةً مِنَ ٱلْحَقَائِقِ ٱلصَّرِيحَةِ ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ وَجْهِكَ ، فَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَقُولُ لَهُ بِعَيْنَيْكَ إِنَّكَ مِصْرِيٌّ مُسْتَقِلٌّ .

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ مَا يُغْضِبُهُ إِنَّ ٱلْخَطْبَ لَهَيِّنٌ ، فَلَسْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ نَظَّارَةٍ سَوْدَاءَ . . .

فَضَحِكَ ٱلْبَاشَا وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ، هَـٰذَا ٱلْإِنْكِلِيزِيُّ عِنْدَنَا كَٱلشَّيْطَانِ : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآية : ٢٧] ، وَوَٱللهِ يَا بُنَيَّ إِنِّي لَأَشَدُّ أَنَفَةً مِنْكَ ، وَإِنَّ صَدْرِي لَشَجِيٌّ مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ هَـٰذَا ٱلْكَرْبِ ، وَلَـٰكِنَّنَا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّينَ قَدْ ضِعْنَا مُنْذُ فَقَدْنَا ٱلشَّخْصِيَّةَ ٱلاجْتِمَاعِيَّةَ .

أَتُرَاكَ تَفْهَمُ شَيْئًا لَوْ قُلْتُ لَكَ : رَجُلٌ ، أَسَدٌ ، جَبَلٌ ، مَدِينَةٌ ، أُسْطُولٌ ؟ إِنَّ تَرْكِيبَنَا الاجْتِمَاعِيَّ شَيْءٌ كَهَـٰذَا ٱلْكَلَامِ : فِيهِ مِنْ ضَخَامَةِ ٱللَّفْظِ بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْحِلَالِ ٱلْمَعْنَىٰ وَٱضْمِحْلَالِهِ . وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ إِذَا أُفْرِدَتْ مَعْنًى صَحِيحٌ يَقُومُ بِهَا وَتَقُومُ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ فِي ٱلْجُمْلَةِ إِلَىٰ مَعْنًى كَلَا مَعْنًى .

أَصْبَحَ ٱلشَّرْقِيُّ يَعِيشُ فِي أُمَّتِهِ عَلَىٰ قَاعِدَةِ أَنَّهُ مُنْفَرِدٌ لَا صِلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْأَطْرَافِ لَا فِي ٱلزَّمَانِ وَلَا فِي ٱلْمَكَانِ ، وَنَسِيَ مَعْنَى ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « ٱعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا » [« كنز العمال » ، رقم : ١٤٠٣٣ ، بلفظ : « ٱحْرُثْ لِدُنْيَاكَ . . . » وَٱلْمَعْنَىٰ واحدٌ] . فَمَاذَا كَانَ يُرِيدُ أَعْظَمُ ٱلْمُصْلِحِينَ ٱلاجْتِمَاعِيِّينَ مِنْ قَوْلِهِ : « كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا » ؟ إِلَّا أَنْ يُقَرِّرَ لِأُمَّتِهِ أَنَّ ٱلْفَرْدَ يَنْبُوعُ ٱلْأَجْيَالِ ٱلْمُقْبِلَةِ كُلِّهَا ، فَلْيَعْمَلْ لَهَا وَلِنَفْسِهِ كَأَنَّهَا مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ فِيهَا .

هَـٰذِهِ حِكْمَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ دَقِيقَةٌ ، عِنْدَنَا نَحْنُ لَفْظُهَا وَلَسْنَا نَعْرِفُ مَعْنَاهَا ، وَعِنْدَ ٱلْإِنْكِلِيزِ مَعْنَاهَا وَلَا يَعْرِفُونَ لَفْظَهَا . أَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ أَمْ نَحْنُ ؟

وَعَلَىٰ قَاعِدَةِ ٱلانْفِرَادِ ٱنْفَرَدَ كُلُّ شَيْءٍ ؛ فَآثَرَ ٱلشَّرْقِيُّ حَيَاتَهُ عَلَىٰ وَطَنِهِ ، وَقَدَّمَ لَذَّتَهُ عَلَىٰ وَاجِبِهِ ، وَتَعَامَلَ بِٱلْمَالِ فِيْ مَوَاضِعِ ٱلْمُعَامَلَةِ بِٱلأَخْلَاقِ ؛ وَكَانَ طَبِيْعِيًّا مَعَ هَـٰذَا أَنْ يَخْتَصِرَ ٱلدِّيْنَ ٱخْتِصَارًا يَجْعَلُهُ مِقْدَارًا بَيْنَ مِقْدَارَيْنِ ، فَلَا هُوَ دِيْنٌ وَلَا هُوَ غَيْرُ دِيْنٍ ؛ وَبِذَٰلِكَ يُنَاسِبُ فَرْدِيَّتَهُ وَيَقْعُدُ تَحْتَ حُكْمِهِ وَهُوَ خَارِجٌ عَلَيْهِ ؛ فَتَرَىٰ ٱلرَّجُلَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَلَايِيْنِ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَهُوَ يَحْلِفُ بِهِ كَذِبًا عَلَىٰ دِرْهَمٍ ، وَيُصَلِّي وَيَفْجُرُ فِيْ يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَيَتَعَبَّدُ فِيْ نَفْسِهِ وَيَخُوْنُ سِوَاهُ فِيْ وَقْتٍ مَعًا .

وَمَتَىٰ كَانَتِ ٱلْحَالَةُ ٱلنَّفْسِيَّةُ لِلأُمَّةِ هِيَ هَـٰذِهِ ٱلْفَرْدِيَّةَ وَمَصَالِحَهَا وَدَوَاعِيَهَا ، كَانَ ٱلْكَذِبُ أَظْهَرَ خِلَالِ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ ، إِذْ هُوَ ٱنْفِرَادُ ٱلْكَاذِبِ بِحَظِّهِ وَمَصْلَحَتِهِ وَدَاعِيَتِهِ ؛ وَلَا يَكْذِبُ عَلَيْكَ إِلَّا مَنْ يَرْجُوْ أَنْ تَكُوْنَ مُغَفَّلًا ، أَوْ مَنْ قَدَّرَ فِيْ نَفْسِهِ أَنَّ ٱلْمُعَامَلَةَ ٱلْعَامَّةَ فِيْ ٱلأُمَّةِ هِيَ عَلَىٰ قَاعِدَةِ ٱلْمُغَفَّلِيْنَ . . . وَيَكْذِبُوْنَ فِيْ هَـٰذَا أَيْضًا فَيُسَمُّوْنَهُ حِذَاقًا وَبَرَاعَةً (وَشَطَارَةً) .

وَإِذَا عَمَّ ٱلْكَذِبُ فَشَا مِنْهُ ٱلْهَزْلُ ؛ فَكُلُّ كَاذِبٍ هَازِلٌ ، وَهَلْ يَجِدُّ ٱلْكَاذِبُ وَهُوَ يَكْذِبُ إِلَّا إِذَا كَانَ مَجْنُوْنًا ؟ وَمِنَ ٱلْهَزْلِ ضَرْبٌ هُوَ ٱلْمُبَاسَطَةُ بِٱلْكَذِبِ ، وَمِنْهُ ضَرْبٌ مِنْ كَذِبِ ٱلْحَقَائِقِ ، وَمِنْهُ مِنْ كَذِبِ ٱلْخَيَالِ ، وَكَيْفَمَا دَارَتِ ٱلْحَالُ لَا تَجِدُهُ إِلَّا كَذِبًا .

وَمَتَىٰ صَارَ ٱلْكَذِبُ أَصْلًا يُعْمَلُ عَلَيْهِ ، تَقَرَّرَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِنَّمَا يُقَالُ لِيُقَالَ فَقَطْ . أَفَلَسْتَ تَرَىٰ ٱلرَّجُلَيْنِ إِذَا أَخْبَرَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ بِٱلْخَبَرِ فِيْهِ شَيْءٌ مِنَ ٱلْغَرَابَةِ أَوِ ٱلْبُعْدِ ، لَا يُكَلِّمُهُ ٱلآخَرُ أَوَّلَ مَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَهُ : صَحِيْحٌ ؟ صِدْقٌ ؟

وَلَا أَضَرَّ عَلَىٰ ٱلأُمَّةِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْعَقِيْدَةِ ـ عَقِيْدَةِ أَنَّ ٱلْكَلَامَ يُقَالُ لِيُقَالَ فَقَطْ ـ فَإِنَّهَا هِيَ طَابَعُ ٱلْهَزْلِ عَلَىٰ أَخْلَاقِ ٱلأُمَّةِ ، وَعَلَىٰ كُلِّ أَحْوَالِهَا ، وَعَلَىٰ حُكُوْمَتِهَا أَيْضًا .

وَمِنَ ٱلْهَزْلِ وَٱلْكَذِبِ تَرَانَا مُبَالِغِيْنَ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ لَيَكُوْنُ لَنَا ٱلْوَاحِدُ كَٱلآحَادِ فِيْ غَيْرِنَا فَنَجْعَلُهُ مِئَةً بِصِفْرَيْنِ ، نَجِيْءُ بِأَحَدِهِمَا مِنِ ٱعْتِيَادِنَا ٱلْكَذِبَ عَلَىٰ ٱلْحَقِيْقَةِ ، وَنَجِيْءُ بِٱلآخَرِ مِنْ حَقِيْقَةِ إِفْلَاسِنَا .

هَـٰذِهِ مُبَالَغَةٌ خَطِرَةٌ ، وَأَخْطَرُ مَا فِيْهَا أَنَّنَا نُرِيْدُ بِهَا ٱلْمُبَالَغَةَ فِيْ ٱلدَّلَالَةِ عَلَىٰ ٱلأَشْيَاءِ ، فَتَنْقَلِبُ مُبَالَغَةً فِيْ ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْنَا نَحْنُ ، وَعَلَىٰ كَذِبِ طِبَاعِنَا ، وَعَلَىٰ فَوْضَىٰ ٱلْعَقْلِ فِيْنَا . نَعَمْ

وَحَتَّىٰ تُثْبِتُ أَنَّنَا لَا عَزْمَ لَنَا ، مِنْ كَوْنِهَا مُبَالَغَةً لَا تَدْقِيْقَ فِيْ مَعْنَاهَا ؛ وَأَنْ لَا صَبْرَ لَنَا ، مِنْ أَنَّهَا لَا ثَبَاتَ لِحَقِيْقَتِهَا ٱلْمَهْزُوْمَةِ ؛ وَأَنْ لَا شِدَّةَ لَنَا فِيْ طَلَبِ ٱلْحَقِّ ، لِأَنَّنَا بِهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْغَفْلَةِ فِيْ وَصْفِ ٱلْحَقِّ ؛ وَأَنَّنَا لَا نَتَمَثَّلُ ٱلْعَوَاقِبَ إِذْ نُرْسِلُ ٱلْكَلَامَ إِرْسَالًا وَلَا نَخْشَىٰ مَا يَكُوْنُ مِنْ عَاقِبَتِهِ .

وَأَيْسَرُ مَا يُفْهَمُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمُبَالَغَاتِ ٱلَّتِيْ أَصْبَحَتْ طَرِيْقَةً مِنْ طُرُقِ ٱلشَّعْبِ فِيْ ٱلتَّعْبِيْرِ ، أَنَّ هَـٰذَا ٱلشَّعْبَ لَا يَصْلُحُ فِيْ شَيْءٍ إِلَّا بِٱلْحُكُوْمَةِ ، فَهُوَ نَفْسُهُ كَٱلْمُبَالَغَةِ ، وَٱلْحُكُوْمَةُ لَهُ كَٱلتَّصْحِيْحِ ؛ وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْعِلَّةُ فِيْ أَنَّ ٱلشَّعْبَ ٱلْكَذُوْبَ يَلْجَأُ إِلَىٰ حُكُوْمَتِهِ فِيْ كُلِّ كَبِيْرَةٍ وَصَغِيْرَةٍ فِيْ ٱلْعَمَلِ ، كَمَا أَنَّهَا هِيَ ٱلْعِلَّةُ فِيْ أَنَّ حُكُوْمَتَهُ تَكْذِبُ عَلَيْهِ بِكُلِّ صَغِيْرَةٍ وَكَبِيْرَةٍ فِيْ ٱلسِّيَاسَةِ .

وَمِنْ أَثَرِ ٱلْكَذِبِ ٱلشَّعْبِيِّ وَٱلْمُبَالَغَةِ ٱلشَّعْبِيَّةِ ، مَا نَرَاهُ مِنِ ٱهْتِمَامِ كُلِّ فَرْدٍ بِمَا يَقُوْلُ ٱلنَّاسُ عَنْ أَعْمَالِهِ ، فَيُدِيْرُهَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ وَإِنْ قَلَّتْ مَنْفَعَتُهَا ، وَإِنْ فَسَدَتْ حَقِيْقَتُهَا ، وَإِنْ جَلَبَتْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلضَّرَرِ فِيْ مَالِهِ وَنَفْسِهِ مَا هِيَ جَالِبَةٌ ؛ فَقَاعِدَتُهُمْ هِيَ هَـٰذِهِ : لَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِيْ ٱلْحَيَاةِ لِلْعَمَلِ فِيْ نَفْسِهِ ، وَلَـٰكِنْ فِيْمَا يُقَالُ عَنْهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يُقَلْ شَيْءٌ فَلَا تَعْمَلْ شَيْئًا . . .

هَـٰذِهِ يَا بُنَيَّ أُمَّةٌ لَا يَكُوْنُ حُكَّامُهَا إِلَّا مُبَالَغَاتٍ أَيْضًا . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَٱرْتَفَعَ مِنَ ٱلطَّرِيْقِ صَوْتُ بَائِعٍ يُنَادِيْ عَلَىٰ سِلْعَتِهِ : أَحْسَنُ مِنَ ٱلتُّفَّاحِ يَا طَمَاطِمُ . . .

فَضَحِكَ ٱلْبَاشَا وَقَالَ : هَـٰكَذَا يَقُوْلُوْنَ لَنَا عَنِ ٱلطَّمَاطِمِ ٱلسِّيَاسِيِّ ٱلْعَفِنِ : إِنَّهُ لَيْسَ تُفَّاحًا وَحَسْبُ ، بَلْ هُوَ أَحْسَنُ مِنَ ٱلتُّفَّاحِ . . .

إِنَّ ٱلأُمَّةَ لَنْ تَكُوْنَ فِيْ مَوْضِعِهَا إِلَّا إِذَا وَضَعَتِ ٱلْكَلِمَةَ فِيْ مَوْضِعِهَا ، وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ ٱلأَخْلَاقِ فِيْ أُمَّةٍ كَلِمَةُ ٱلصِّدْقِ فِيْهَا ، وَٱلأُمَّةُ ٱلَّتِيْ لَا يَحْكُمُهَا ٱلصِّدْقُ لَا تَكُوْنُ مَعَهَا كُلُّ مَظَاهِرِ ٱلْحُكْمِ إِلَّا كَذِبًا وَهَزْلًا وَمُبَالَغَةً .

سيد بشر بإسكندرية

مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيْثُ ٱلْبَاشَا : ٢

ٱلْبِكُ وَٱلْبَاشَا(*)

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا ⟦ رحمه الله ⟧ قَالَ : جَاءَ يَوْمًا إِلَىٰ زِيَارَةِ ٱلْبَاشَا رَجُلٌ دَخَلَ عَلَيَّ مُتَهَلِّلًا مُشْرِقَ ٱلْوَجْهِ كَأَنَّهُ مُضَاءٌ مِنْ دَاخِلِهِ بِشَمْعَةٍ . . . وَيَتَرَنَّحُ عِطْفَاهُ كَأَنَّمَا تَهُزُّهُ أَسْرَارُ عَظَمَتِهِ ؛ وَيَمْشِي مُتَخَلِّعًا كَٱلْمَرْأَةِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلَّتِي أَثْقَلَهَا لَحْمُهَا وَأَثْقَلَتْهَا ٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةُ مِنْ أَعْيُنِ ٱلنَّاظِرِينَ إِلَيْهَا ، وَعَلَىٰ شَفَتَيْهِ خَيَالٌ مِنْ فِكْرَةِ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْكُبَرَاءِ ٱلْمَغْرُورِينَ ٱلَّذِينَ لَا يَأْمُرُ أَحَدُهُمْ رَجُلًا صَغِيرًا إِلَّا لِيُعْلِمَهُ أَنَّهُ هُوَ كَبِيرٌ ، فَيَكُونُ فِي ٱلْأَمْرِ شَيْئَانِ : ٱلْأَمْرُ وَٱللُّؤْمُ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فِي هَيْئَةٍ شَامِخَةٍ لَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ . سُبْحَ ٱللهِ ٱلَّذِي خَلَقَ فِي ٱلْأَسَدِ شَعْرَةً جَبَّارَةً خَرَجَ مِنْهَا ٱلْأَسَدُ كُلُّهُ . . .

سُبْحَانَ ٱللهِ وَلَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ . هَـٰذَا (فُلَانٌ بَاشَا) ٱلَّذِي قَرَأْتُ فِي ٱلصُّحُفِ أَمْسِ أَنَّهُمْ أَنْعَمُوا عَلَيْهِ بِرُتْبَةِ ٱلْبَاشَوِيَّةِ ؛ خَلَقَهُ ٱللهُ مِنْ تُرَابٍ وَحَوَّلَتِ ٱلرُّتْبَةُ هَـٰذَا ٱلتُّرَابَ ٱلَّذِي فِيهِ إِلَىٰ ذَهَبٍ خَالِصٍ . . . يَنْظُرُ إِلَيَّ وَبِرَغْمِهِ أَنْ تَقِفَ عَيْنَاهُ عَلَيَّ وَعَلَىٰ ٱلْحَائِطِ ؛ وَلَا تَجِدُ نَفْسُهُ ٱلْمَزْهُوَّةُ سَبِيلًا إِلَىٰ ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلرُّتْبَةِ إِلَّا هَـٰذَا ٱلِازْدِرَاءَ ٱلْمُنْبَعِثَ مِنْ شَخْصِهِ ٱلْعَظِيمِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ كَشَخْصِهِ . مَا بَيْنَ أَمْسِ وَٱلْيَوْمِ زَادَ هَـٰذِهِ ٱلزِّيَادَةَ ٱلْآدَمِيَّةَ ، أَوْ كَأَنَّمَا كَانَتْ صُورَتُهُ خُطُوطًا فَقَطْ فَوُضِعَتْ فِيهَا ٱلْأَلْوَانُ . . .

(بَاشَا) ! هَـٰذِهِ ٱلْبَاءُ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَلِفُ وَهَـٰذِهِ ٱلشِّينُ ٱلْمَمْدُودَةُ لَيْسَتْ حُرُوفًا خَارِجَةً مِنَ ٱلْأَبْجَدِيَّةِ ٱلْعَامَّةِ ؛ فَإِنَّ ٱلْأَبْجَدِيَّةَ قَدْ تَجْعَلُ ٱلْبَاءَ فِي بَلِيدٍ مَثَلًا ، وَٱلْأَلِفَ فِي أَبْلَهٍ ، وَٱلشِّينَ ٱلْمَمْدُودَةَ فِي شَاهِدِ زُورٍ مَثَلًا مَثَلًا . . . بَلْ تِلْكَ ٱلْحُرُوفُ مِنْ حُرُوفِ ٱلدَّوْلَةِ ، مُنْتَزَعَةٌ مِنْ قُوَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ لِحَيَاةِ صَاحِبِهَا مِنَ ٱلشَّكْلِ مَا يُسْبِغُهُ ٱلْفَنُّ عَلَىٰ ٱلْحَجَرِ مِنْ شَكْلِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٦١ ، ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ٣ أغسطس/ آب ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٢٤١ ـ ١٢٤٣ .

تِمْثَالٍ يُنْصَبُ لِلتَّعْظِيمِ .

قَالَ : وَكُنْتُ أَعْرِفُ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ إِلَّا كِتَابَةَ ٱسْمِهِ كَمَا تَكْتُبُ ٱلدَّجَاجَةُ فِي ٱلْأَرْضِ . . . فَكَانَتِ ٱلرُّتْبَةُ عَلَيْهِ كَإِطْلَاقِ لَفْظِ ٱلْحَدِيقَةِ عَلَىٰ صَخْرَةٍ مِنَ ٱلصُّخُورِ ٱلصَّلْدَةِ ؛ وَهَـٰذَا مِمَّا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمَجَازُ بِعَلَاقَةٍ مَا ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِي لَا يَسُوغُ فِي ٱلْمَجَازِ ، وَلَا فِي مُبَالَغَاتِ ٱلِاسْتِعَارَةِ ، وَلَا فِي خُرَافَاتِ ٱلْمُسْتَحِيلِ ، أَنْ تَزْعُمَ ٱلصَّخْرَةُ لِلنَّاسِ أَنَّ لَفْظَ ٱلْحَدِيقَةِ ٱلَّذِي أُطْلِقَ عَلَيْهَا قَدْ أَنْبَتَ فِيهَا أَشْجَارَ ٱلْحَدِيقَةِ . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَٱسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَىٰ ٱلْبَاشَا فَسَهَّلَ لَهُ ٱلْإِذْنَ وَقَالَ : هَـٰذَا رَجُلٌ أَصْبَحَ كَٱلْوَرَقَةِ ٱلْمَبْصُومَةِ بِخَاتَمِ ٱلدَّوْلَةِ ، فَلْتَكُنْ مَا هِيَ كَائِنَةٌ فَإِنَّ لَهَا ٱعْتِبَارَهَا . ثُمَّ تَلَقَّاهُ تَلَقِّيَ ٱلْهَازِلِ ٱلْمُتَهَكِّمِ وَقَالَ لَهُ : أُهَنِّئُكَ بِٱلنَّحْوِيِّ . . . مُبَارَكُونَ يَا بَاشَا . . . وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَبَسَطَ لَهُ وَجْهَهُ .

وَكَانَ فِي ٱلْبَاشَا دُعَابَةٌ ظَرِيفَةٌ يُعْرَفُ بِهَا ، وَهُوَ كَثِيرُ ٱلنَّوَادِرِ وَٱلْمُلَحِ ، وَلَهُ خَصِيصَةٌ عَجِيبَةٌ ، فَيَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُدْسٌ مِنَ ٱلْأَوْرَاقِ ٱلَّتِي تُعْرَضُ عَلَيْهِ يَنْظُرُ فِيهَا وَيَقْرَؤُهَا وَيَتَدَبَّرُهَا ، وَهُوَ فِي ذَٰلِكَ يَسْتَمِعُ إِلَىٰ مُحَدِّثِهِ وَيُرَاجِعُهُ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ ، فَيُصَرِّفُ ٱلنَّاسَ وَٱلْأَوْرَاقَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَيَسْتَعْمِلُ نَاحِيَتَيْنِ مِنْ فِكْرِهِ ٱسْتِعْمَالًا وَاحِدًا لَا يُخِلُّ بِٱلْإِصَابَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ هَـٰذِهِ وَلَا مِنْ تِلْكَ .

ثُمَّ قَالَ لِلْبَاشَا ٱلْحَدِيثِ وَعَيْنُهُ إِلَىٰ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ : هَـٰذِهِ أَوْرَاقُ سَرِقَةِ ثَوْرٍ عَظِيمٍ ، فَكَمْ يُسَاوِي ٱلثَّوْرُ ٱلْعَظِيمُ ٱلْآنَ . . . . ؟

قَالَ صَاحِبُنَا ٱلذَّكِيُّ ٱلْفَطِنُ : إِذَا كَانَ مِنَ ٱلثِّيرَانِ ٱلَّتِي تُعْرَضُ فِي ٱلْمَعَارِضِ وَتَنَالُ ٱلْمِيدَالِيَاتِ ٱلذَّهَبِيَّةَ فَقَدْ يَبْعُدُ سِعْرُهُ وَيُغَالَىٰ بِهِ .

قَالَ ٱلْبَاشَا : نَعَمْ نَعَمْ ؛ إِنَّ مِنَ ٱلثِّيرَانِ ثِيرَانًا يُنْعَمُ عَلَيْهَا بِٱلْأَوْسِمَةِ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا ٱلثَّوْرَ ٱلَّذِي سَأَلْتُكَ عَنْهُ يَا بَاشَا هُوَ ثَوْرُ مِحْرَاثٍ لَا ثَوْرُ مَعْرِضٍ . . .

قَالَ ٱلْآخَرُ : إِذَا كَانَ ثَوْرَ مِحْرَاثٍ فَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فَلَا يَكُونُ ثَوْرًا عَظِيمًا كَمَا قُلْتَ وَلَيْسَتْ لَهُ

إِلَّا قِيمَةُ مِثْلِهِ .

قَالَ ٱلْبَاشَا : أَرَانِي أَخْطَأْتُ ، وَلَعَنَ ٱللهُ ٱلْعَجَلَةَ ، فَهَـٰذِهِ أَوْرَاقُ سَرِقَةِ حِمَارٍ !

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَٱنْصَرَفْتُ عَنْهُمَا بِأَوْرَاقِي ، وَقَدْ رَأَيْتُ يَدَ ٱلْبَاشَا مَمْلُوءَةً لِصَاحِبِنَا بِتَحِيَّاتٍ كُلُّهَا صَفَعَاتٌ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا يَسِيرٌ حَتَّىٰ خَرَجَ مُبْتَهِجًا يَمِيدُ ٱلسُّرُورُ بِعِطْفَيْهِ . ثُمَّ دَعَانِي ٱلْبَاشَا وَدَفَعَ إِلَيَّ بِطَاقَةً بِٱلْحَاجَةِ ٱلَّتِي جَاءَ فِيهَا ٱلرَّجُلُ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا لَيْتَ لَنَا فِي أَلْقَابِ ٱلدَّوْلَةِ لَقَبَ (رَحِمَهُ ٱللهُ) . . . يُنْعَمُ بِهِ عَلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا . أَتَدْرِي يَا بُنَيَّ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلرُّتَبَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَلْقَابَ لَمْ تَكُنْ فِي ٱلْقَدِيمِ إِلَّا كَوَضْعِ عَلَامَةِ ٱلشَّرِّ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلشَّرِّ لِيَهَابَهُمُ ٱلنَّاسُ ، حَتَّىٰ كَأَنَّمَا يُكْتَبُ عَلَىٰ أَحَدِهِمْ مِنْ لَقَبِ بِكْ أَوْ بَاشَا : مُلْحَقٌ بِٱلدَّوْلَةِ . . .

وَكَانَ ٱلشَّعْبُ أُمِّيًّا جَاهِلًا لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْإِدْرَاكَ وَلَا يُحْسِنُ ٱلتَّمْيِيزَ ، فَكَانَتِ ٱلْأَلْقَابُ كَٱلْقَوَانِينِ ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلْمَوْضُوعَةِ فِي صِيغَةٍ مُوجَزَةٍ مَفْهُومَةٍ مُتَعَيِّنَةِ ٱلدَّلَالَةِ ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ يَحْمِلُ لَقَبًا مِنَ ٱلْحُكُومَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : لَقَدْ وَضَعَتِ ٱلْحُكُومَةُ كَلِمَةَ ٱلْأَمْرِ فِي شَفَتَيَّ . . .

وَكَأَنَّ ٱللَّقَبَ إِعْلَانٌ مِنَ ٱلْحُكُومَةِ ٱلْمُسْتَبِدَّةِ لِشَعْبِهَا ٱلْجَاهِلِ : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْبِكَ وَٱلْبَاشَا مِمَّنْ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يُحْتَرَمَ[1] .

مِنَ ٱلْهَزْلِ أَنْ يُشْتَرَىٰ ٱسْمُ ٱلنَّصْرِ ٱلْحَرْبِيِّ أَوْ يُوهَبَ أَوْ يُعَارَ ؛ وَأَقْبَحُ مِنْهُ فِي بَابِ ٱلْهَزْلِ أَنْ يُنْعَمَ عَلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا ٱلْأُمِّيِّ بِلَقَبِ بَاشَا . وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ بَذَلَ فِي سَبِيلِهِ مَا بَذَلَ ، وَأَضَاعَ مَا أَضَاعَ ، فَكَأَنَّ ٱلَّذِينَ مَنَحُوهُ إِيَّاهُ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا إِلَّا وَضْعَ تَوْقِيعِهِمْ عَلَىٰ أَخْذِ ٱلثَّمَنِ . . .

(١) [بَسَطْنَا شَيْئًا مِنْ فَلْسَفَةِ ٱلرُّتَبِ وَٱلْأَلْقَابِ فِي مَقَالَةِ : « بِنْتِ ٱلْبَاشَا » مِنْ مَقَالَاتِنَا فِي « ٱلرِّسَالَةِ »] .

وَلَقَدْ أَصْبَحَ ٱلرَّجُلُ تَحْتَ تَأْثِيرِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْعَظِيمَةِ مَخْبُولًا بِسِحْرِهَا ٱلْوَهْمِيِّ ، فَحَسِبَ ذَٰلِكَ إِدْخَالًا لَهُ فِي وَظِيفَةِ كُلِّ حَاكِمٍ ، وَإِشْرَاكًا لَهُ فِي ٱلْحُكْمِ مَتَىٰ ٱقْتَضَتْهُ مَجَارِي أُمُورِهِ وَأَحْوَالِهِ ، أَوْ حَاجَاتُ أَسْبَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ ؛ وَهَا هُوَ ذَا قَدْ جَاءَ يَطْلُبُ حَقَّهُ ، فَإِنَّ مِثْلَهُ لَا يَفْهَمُ مِنْ لَقَبِ (بَاشَا) إِلَّا أَنَّ ٱلْحُكُومَةَ قَدْ سَوَّغَتْ سُلْطَتَهُ ٱلظُّهُورَ وَٱلْعَمَلَ ، فَمَدَّتْ بَاعَهُ وَقَوَّتْ أَمْرَهُ وَنَوَّهَتْ بِٱسْمِهِ لِمَصَالِحِهَا وَعُمَّالِهَا ؛ فَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ قَدِ ٱلْتَحَمَ مُنْذُ ٱلْيَوْمِ بِٱلنَّسَبِ ٱلْحُكُومِيِّ ، وَفِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، هُوَ قَدْ وُلِدَ مِنْ بَطْنِ ٱلْحُكُومَةِ . . .

أَلَا تَرَىٰ أَنَّ ٱلشَّعْبَ لَوِ ٱسْتَرَدَّ سُلْطَتَهُ ٱلْكَامِلَةَ ، وَأَنَّ ٱلنَّاسَ لَوْ أَيْقَنُوا أَنَّ ٱلْأَلْقَابَ أَلْفَاظٌ فَارِغَةٌ مِنَ ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلْوَسِيلَةِ وَٱلشَّفَاعَةِ ، لَمَا بَقِيَ مَنْ يَعْبَأُ بِهَا ، وَلَكَانَ حَامِلُهَا هُوَ أَوَّلَ مَنْ يَسْخَرُ مِنْهَا ؟

فَهِيَ إِذًا شَعْبَذَةٌ[1] مِنَ ٱلْحُكُومَةِ وَتَضْلِيلٌ فِي مِثْلِ هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ ٱلْأُمِّيِّ ، وَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ ٱلتَّهْوِيلِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِي سِوَاهُ مِنَ ٱلْكِبْرِيَاءِ[2] وَٱلْعُظَمَاءِ ، كَأَنَّ ٱلْوَزِيرَ ٱلَّذِي يُلَقَّبُ بِٱلْبَاشَا ، يَجْعَلُ فِيهِ لَقَبُهُ وَزِيرَيْنِ ، وَكَأَنَّ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْأُمِّيِّ ٱلْمُغَفَّلِ ، يَجْعَلُ فِيهِ لَقَبُهُ شَخْصًا آخَرَ غَيْرَ ٱلْأُمِّيِّ ٱلْمُغَفَّلِ . . .

أَنَا قَلَّمَا رَأَيْتُ رَجُلًا يَحْتَاجُ إِلَىٰ أَلْقَابٍ يَتَعَظَّمُ بِهَا إِلَّا وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّهَا ؛ وَقَلَّمَا رَأَيْتُ رَجُلًا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا ؛ فَأَيْنَ يَكُونُ مَوْضِعُ هَـٰذِهِ ٱلرُّتَبِ وَٱلْأَلْقَابِ ؟

سيدي بشر بإسكندرية — مصطفى صادق الرافعي

(١) { ٱلشَّعْبَذَةُ وَٱلشَّعْوَذَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ } .

(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْكُبَرَاء » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْكِبْرِيَاءِ » .

أَحَادِيثُ ٱلْبَاشَا : ٣

سَاكِنُو ٱلثِّيَابِ(*) . . .

قَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : وَجَاءَنِي يَوْمًا ٱثْنَانِ مِنْ شُيُوخِ ٱلدِّينِ مِنْ ذَوِي هَيْئَاتِهِمْ وَأَصْحَابِ ٱلْمَنْزِلَةِ فِيهِمْ ، كِلَاهُمَا هَامَةٌ وَقَامَةٌ ، وَجُبَّةٌ وَعِمَامَةٌ ، وَدَرَجَةٌ مِنَ ٱلإِمَامَةِ ؛ وَلَهُمَا نَسِيمٌ يَنْفَحُ عِطْرًا حَسِبْتُهُ مِنْ تَرْوِيحِ أَجْنِحَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ ؛ وَعَلَيْهِمَا مِنَ ٱلْوَقَارِ كَظِلِّ ٱلشَّجَرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ فِي لَهَبِ ٱلشَّمْسِ تَفِيءُ بِهِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً . فَتَوَجَّهْتُ إِلَيْهِمَا بِنَظَرِي ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِمَا بِنَفْسِي ، وَوَضَعْتُ حَوَاسِّي كُلَّهَا فِي خِدْمَتِهِمَا ؛ وَقُلْتُ : هَـٰؤُلَاءِ هُمْ رِجَالُ ٱلْقَانُونِ ٱلَّذِي مَادَّتُهُ ٱلأُولَىٰ ٱلْقَلْبُ .

مَا أَسْخَفَ ٱلْحَيَاةَ لَوْلَا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ شَرَفِهَا وَقَدْرِهَا بِبَعْضِ ٱلأَحْيَاءِ ٱلَّذِينَ نَرَاهُمْ فِي عَالَمِ ٱلتُّرَابِ كَأَنَّ مَادَّتَهُمْ مِنَ ٱلسُّحُبِ ، فِيهَا لِغَيْرِهِمُ ٱلظِّلُّ وَٱلْمَاءُ وَٱلنَّسِيمُ ، وَفِيهَا لِأَنْفُسِهِمُ ٱلطَّهَارَةُ وَٱلْعُلُوُّ وَٱلْجَمَالُ ؛ يُثْبِتُونَ لِلضُّعَفَاءِ أَنَّ غَيْرَ ٱلْمُمْكِنِ مُمْكِنٌ بِٱلْفِعْلِ ، إِذْ لَا يَرَىٰ ٱلنَّاسُ فِي تَرْكِيبِ طِبَاعِهِمْ إِلَّا ٱلإِخْلَاصَ وَإِنْ كَانَ حِرْمَانًا ، وَإِلَّا ٱلْمُرُوءَةَ وَإِنْ كَانَتْ مَشَقَّةً ، وَإِلَّا مَحَبَّةَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ وَإِنْ كَانَتْ أَلَمًا ، وَإِلَّا ٱلْجِدَّ وَإِنْ كَانَ عَنَاءً ، وَإِلَّا ٱلْقَنَاعَةَ وَإِنْ كَانَتْ فَقْرًا .

هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ يُؤَلَّفُونَ بِيَدِ ٱلْقُدْرَةِ ، فَهُمْ كَٱلْكُتُبِ قَدِ ٱنْطَوَتْ عَلَىٰ حَقَائِقِهَا وَخُتِمَتْ كَمَا وُضِعَتْ ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْرِجَ لِلنَّاسِ مِنْ حَقِيقَةٍ نِصْفَ حَقِيقَةٍ وَلَا شِبْهَ حَقِيقَةٍ وَلَا تَزْوِيرًا عَلَىٰ حَقِيقَةٍ .

وَمَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلْقَائِمَةِ عَلَىٰ ٱلنَّوَامِيسِ ٱلاقْتِصَادِيَّةِ ! فَٱلسَّمَاءُ نَفْسُهَا تَحْتَاجُ فِيهَا إِلَىٰ سَمَاسِرَةٍ لِعَرْضِ ٱلْجَنَّةِ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ بِٱلثَّمَنِ ٱلَّذِي يَمْلِكُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ وَهُوَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٦٢ ، ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٤٣ ـ ١٦٤٤ .

ٱلْعَمَلُ ٱلطَّيِّبُ .

قَالَ : وَنَظَرْتُ إِلَى ٱلشَّيْخَيْنِ عَلَىٰ ٱعْتِبَارِ أَنَّهُمَا مِنْ بَقِيَّةِ ٱلنُّبُوَّةِ ٱلْعَامِلَةِ فِيهَا شَرِيعَةُ نَفْسِهَا ، تِلْكَ ٱلشَّرِيعَةُ ٱلَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ كَيْلَا يَتَغَيَّرَ ٱلنَّاسُ وَلَا يَتَبَدَّلُوا . ثُمَّ سَأَلْتُهُمَا عَنْ حَاجَتِهِمَا ، فَإِذَا أَحَدُهُمَا قَدْ عَمِلَ أَبْيَاتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ جَاءَ يَمْدَحُ بِهَا ٱلْبَاشَا لِيَزْدَلِفَ إِلَيْهِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « مَا أَشْبَهَ حَجَلَ ٱلْجِبَالِ(١) بِأَلْوَانِ صَخْرِهَا ! » هَـٰذَا عَالِمُ دُنْيَا يَحُدُّهَا مِنَ ٱلشَّرْقِ ٱلرَّغِيفُ ، وَمِنَ ٱلْغَرْبِ ٱلدِّينَارُ ، وَمِنَ ٱلشَّمَالِ ٱلْجَاهُ ، وَمِنَ ٱلْجَنُوبِ ٱلشَّيْطَانُ . . .

ثُمَّ نَشَرَ وَرَقَةً فِي يَدِهِ وَأَخَذَ يَسْرُدُ عَلَيَّ ٱلْقَصِيدَةَ ، وَهِيَ عَلَىٰ رَوِيِّ ٱلْهَاءِ ، تَنْتَهِي أَبْيَاتُهَا : هَا . هَا . هَا . فَكَانَ يَقْرَؤُهَا شِعْرًا ـ أَوْ كَمَا يُسَمِّيهِ هُوَ شِعْرًا ـ وَكُنْتُ أَسْمَعُهَا أَنَا قَهْقَهَةً مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلَّذِي رَكِبَ أَكْتَافَ هَـٰذَا ٱلْعَالِمِ ٱلدِّينِيِّ : هَا . هَا . هَا . هَا . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَأَدْخَلْتُهُمَا عَلَىٰ ٱلْبَاشَا ، فَوَقَفَ ٱلْمَدَّاحُ يَمْدَحُ بِقَصِيدَتِهِ ، وَأَخَذَتْ لِحْيَتُهُ ٱلْوَافِرَةُ تَهْتَزُّ فِي إِنْشَادِهِ كَأَنَّهَا مِنْفَضَةٌ يَنْفُضُ بِهَا ٱلْمَلَلَ عَنْ عَوَاطِفِ ٱلْبَاشَا . . . وَكَانَ لِلآخَرِ صَمْتٌ عَامِلٌ فِي نَفْسِهِ كَصَمْتِ ٱلطَّبِيعَةِ حِينَ تَنْفَطِرُ ٱلْبِذْرَةُ فِي دَاخِلِهَا ، إِذْ كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ حَاجَتَهُ هُوَ ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِصَاحِبِهِ رَافِدًا وَظَهِيرًا يَحْمِلُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱللَّيْثَ وَٱلْغَيْثَ ، لِتَتَقَلَّبَ ٱلأَشْيَاءُ حَوْلَ ٱلْمَمْدُوحِ فَيَأْخُذَهُ ٱلسِّحْرُ ، فَيَكُونَ جَوَابُ ٱلشَّمْسِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ أَنْ تُضِيءَ يَوْمَ ٱلشَّيْخِ ، وَجَوَابُ ٱلْقَمَرِ أَنْ يَمْلأَ ظَلَامَهُ ، وَجَوَابُ ٱللَّيْثِ أَنْ يَفْتَرِسَ عَدُوَّهُ ، وَجَوَابُ ٱلْغَيْثِ أَنْ يَهْطِلَ عَلَىٰ أَرْضِهِ .

وَٱلْبَاشَا لَا يَدَعُ ظَرْفَهُ وَدُعَابَتَهُ ، وَكَانَ قَدْ لَمَحَ فِي أَشْدَاقِ ٱلْعَالِمِ ٱلْمُتَشَاعِرِ أَسْنَانًا صِنَاعِيَّةً ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ نَظْمِهِ ٱلرَّكِيكِ قَالَ لَهُ : يَا أُسْتَاذُ ! أَحْسِبُنِي لَا أَكُونُ إِلَّا كَاذِبًا إِذَا قُلْتُ لَكَ : لَا فُضَّ فُوكَ . . .

ثُمَّ ذَكَرَ ٱلآخَرُ حَاجَتَهُ : وَهِيَ رَجَاؤُهُ أَنْ يَكُونَ عُمْدَةَ ٱلْقَرْيَةِ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ لَا مِنْ ذَوِي

(١) هَـٰذَا مَثَلٌ عَرَبِيٌّ ، وَٱلْحَجَلُ : ٱلطَّائِرُ ٱلْمَعْرُوفُ ، يَكُونُ فِي ٱلْجَبَلِ مِنْ لَوْنِ صَخْرِهِ لِلْعِلَّةِ ٱلْمُقَرَّرَةِ فِي ٱلتَّارِيخِ ٱلطَّبِيعِيِّ .

عَداوَتِهِ . فَقالَ لَهُ ٱلْباشا : وَلِقَرْيَتِكُمْ أَيْضًا أَبُوْ جَهْلٍ . . . ؟

* * *

وَلَمّا ٱنْصَرَفا قالَ لِيْ ٱلْباشا : لِأَمْرٍ ما جَعَلَ هَـٰؤُلاءِ ٱلْقَوْمِ لِأَنْفُسِهِمْ زِيًّا خاصًّا يَتَمَيَّزُوْنَ بِهِ فِيْ ٱلنّاسِ ، كَأَنَّ ٱلدِّيْنَ بابٌ مِنَ ٱلتَّحَرُّفِ وَٱلتَّصَرُّفِ ، بَعْضُ آلَتِهِ فِيْ ثِيابِهِ ؛ فَهَـٰؤُلاءِ يَسْكُنُوْنَ ٱلْجُبَبَ وَٱلْقَفاطِيْنَ وَكَأَنَّها دَواوِيْنُهُمْ لا ثِيابُهُمْ . . .

قَدْ أَفْهَمُ لِهَـٰذا مَعْنًى صَحِيْحًا إِذا كانَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَحْصُوْرًا فِيْ واجِباتِ عَمَلِهِ كَٱلْجُنْدِيِّ فِيْ مَعانِيْ سِلاحِهِ ، فَيَكُوْنُ ٱلتَّعْظِيْمُ وَٱلتَّوْقِيْرُ لِثَوْبِ ٱلْعالِمِ ٱلدِّيْنِيِّ كَأَداءِ ٱلتَّحِيَّةِ لِلثَّوْبِ ٱلْعَسْكَرِيِّ : مَعْناهُ أَنَّ فِيْ هَـٰذا ٱلثَّوْبِ عَمَلًا سامِيًا أَوَّلُهُ بَيْعُ ٱلرُّوْحِ وَبَذْلُ ٱلنَّفْسِ وَتَرْكُ ٱلدُّنْيا فِيْ سَبِيْلِ ٱلْمُجْتَمَعِ ؛ هَـٰذا ثَوْبُ ٱلْمَوْتِ يُفْرَضُ عَلَىٰ ٱلْحَياةِ أَنْ تُعَظِّمَهُ وَتُجِلَّهُ ، وَثَوْبُ ٱلدِّفاعِ تَجِبُ لَهُ ٱلطّاعَةُ وَٱلانْقِيادُ ، وَثَوْبُ ٱلْقُوَّةِ لَيْسَ لَهُ إِلَّا ٱلْمَهابَةُ وَٱلْإِعْزازُ فِيْ ٱلْوَطَنِ .
وَلَـٰكِنْ ماذا تَصْنَعُ ٱلْجُبَّةُ ٱلْيَوْمَ ؟ { إِنَّها } تُطْعِمُ صاحِبَها . . .

أَثَرُ ٱلْجَيْشِ مَعْرُوْفٌ فِيْ دِفاعِ ٱلْأُمَمِ ٱلْعَدُوَّةِ عَنِ ٱلْبِلادِ ، فَأَيْنَ أَثَرُ جَيْشِ ٱلْعُلَماءِ فِيْ دِفاعِ ٱلْمَعانِيْ ٱلْعَدُوَّةِ عَنْ أَهْلِ ٱلْبِلادِ ، وَقَدِ ٱحْتَلَّتْ هَـٰذِهِ ٱلْمَعانِيْ وَضَرَبَتْ وَتَمَلَّكَتْ وَتَرَكَتْ هَـٰذا ٱلْعالِمَ ٱلدِّيْنِيَّ فِيْ ثَوْبِهِ كَٱلْجُنْدِيِّ ٱلْمُنْهَزِمِ : يَحْمِلُ مِنْ هَزِيْمَتِهِ فَضِيْحَةً وَمِنْ ثَوْبِهِ فَضِيْحَةً أُخْرَىٰ ؟

أَنْتَ يا بُنَيَّ قَدْ رَأَيْتَ (ٱلشَّيْخَ مُحَمَّدْ عَبْدُهْ) وَعَرَفْتَهُ ؛ فَرَحِمَ ٱللهُ هَـٰذا ٱلرَّجُلَ ، ما كانَ أَعْجَبَ شَأْنَهُ ! لَكَأَنَّهُ وَٱللهِ سَحابَةٌ مَطْوِيَّةٌ عَلَىٰ صاعِقَةٍ . وَلَوْ قُلْتُ : إِنَّهُ قَدْ كانَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَرَأْسِهِ طَرِيْقٌ لِبَعْضِ ٱلْمَلائِكَةِ ؛ لَأَشْبَهَ أَنْ يَكُوْنَ هَـٰذا قَوْلًا .

كانَ يَزُوْرُنِيْ أَحْيانًا فَأَرانِيْ مُرْغَمًا عَلَىٰ أَنْ أُقَدِّمَ لَهُ مَجْلِسَيْنِ أَحَدُهُما قَلْبِيْ . وَكانَ لَهُ وَجْهٌ يَأْمُرُ أَمْرًا ، إِذْ لا تَراهُ إِلَّا شَعَرْتَ بِهِ يَرْفَعُكَ إِلَىٰ حَقِيْقَةٍ سامِيَةٍ[1] .

رَجُلٌ نَبَتَ عَلَىٰ أَعْراقٍ فِيْها إِبْداعُ ٱلْمُبْدِعِ ٱلْعَظِيْمِ ٱلَّذِيْ هَيَّأَهُ لِرِسالَتِهِ ، فَعَواطِفُهُ كَٱلْعِطْرِ فِيْ شَجَرَةِ ٱلْعِطْرِ ٱلشَّذِيَّةِ ، وَشَمائِلُهُ كَجَمالِ ٱلسَّماءِ فِيْ زُرْقَةِ ٱلسَّماءِ ٱلصّافِيَةِ ، وَعَظَمَتُهُ

(١) وَصَفْنا ٱلشَّيْخَ (رَحِمَهُ ٱللهُ) فِيْ كِتابِنا « ٱلسَّحابُ ٱلْأَحْمَرُ » وَٱسْتَلْهَمْنا رُوْحَهُ فَصْلًا طَوِيْلًا تَجِدُهُ هُناكَ .

كَرَوْعَةِ ٱلْبَحْرِ فِيْ مَنْظَرِ ٱلْبَحْرِ ٱلصّاخِبِ . وَكَثِيْرًا ما كانَ يَتَعَجَّبُ مِنْ هَـٰذا أُسْتاذُهُ (ٱلسَّيِّدُ جَمالُ ٱلدِّيْنِ ٱلْأَفْغانِيُّ) فَيَسْأَلُهُ مُنْدَهِشًا : بِٱللهِ قُلْ لِيْ : ٱبْنُ أَيِّ مَلِكٍ أَنْتَ ؟

لَمْ يَكُنِ ٱبْنَ مَلِكٍ وَلا ٱبْنَ أَمِيْرٍ ، وَلَـٰكِنَّهُ ٱبْنُ ٱلْقُوّاتِ ٱلرُّوْحِيَّةِ ٱلْعامِلَةِ فِيْ هَـٰذا ٱلْكَوْنِ ؛ فَهِيَ أَعَدَّتْهُ ، وَهِيَ أَلْهَمَتْهُ ، وَهِيَ أَنْطَقَتْهُ ، وَهِيَ أَخْرَجَتْهُ فِيْ قَوْمِهِ إِعْلانًا غَيْرَ كِتْمانٍ ، وَمُصارَحَةً غَيْرَ مُخادَعَةٍ ، وَهِيَ جَعَلَتْ فِيْهِ أَسَدِيَّةَ ٱلْأَسَدِ ، وَهِيَ أَلْقَتْ فِيْ كَلامِهِ تِلْكَ ٱلشَّهْوَةَ ٱلرُّوْحِيَّةَ ٱلَّتِيْ تُذاقُ وَتُحَبُّ ، كَٱلْحَلاوَةِ فِيْ ٱلْحَلْوَىٰ .

هَـٰذا هُوَ ٱلْعالِمُ ٱلدِّيْنِيُّ ؛ لا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ ٱبْنَ ٱلْقُوّاتِ ٱلرُّوْحِيَّةِ ، لا ٱبْنَ ٱلْكُتُبِ وَحْدَها ، وَلا بُدَّ أَنْ يَخْرُجَ بِعَمَلِهِ إِلَىٰ ٱلدُّنْيا ، لا أَنْ يُدْخِلَ ٱلدُّنْيا تَحْتَ سَقْفِ ٱلْجامِعِ . . .

وَأَنا فَما يَنْقَضِيْ عَجَبِيْ مِنْ هَـٰؤُلاءِ ٱلْعُلَماءِ ٱلَّذِيْنَ هُمْ بَقايا تَتَضاءَلُ بِجانِبِ ٱلْأَصْلِ ؛ يَبْحَثُوْنَ فِيْ سُنَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ : كَيْفَ كانَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَلْبَسُ وَيَمْشِيْ وَيَتَحَدَّثُ ؛ كَأَنَّهُمْ مِنَ ٱلدُّنْيا فِيْ قانُوْنِ ٱلْمائِدَةِ ، وَآدابِ ٱلْوَلائِمِ ، وَرُسُوْمِ ٱلْمُجْتَمَعاتِ ؛ أَمّا تِلْكَ ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلْكُبْرَىٰ ، وَهِيَ كَيْفَ كانَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ يُقاتِلُ وَيُحارِبُ لِهِدايَةِ ٱلْخَلْقِ ، وَكَيْفَ كانَ يَسْمُوْ عَلَىٰ ٱلدُّنْيا وَشَهَواتِها ؟ وَكَيْفَ كانَ بِطِباعِهِ ٱلْقَوِيَّةِ ٱلصَّرِيْحَةِ تَعْدِيْلًا فَعّالًا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْإِنْسانِيَّةِ لِلنَّوامِيْسِ ٱلْجائِرَةِ ؟ وَكَيْفَ كانَ يَحْمِلُ ٱلْفَقْرَ لِيَكْسِرَ بِهِ شِرَّةَ ٱلنَّوامِيْسِ ٱلاقْتِصادِيَّةِ ٱلَّتِيْ تَقْضِيْ بِجَعْلِ ٱلْأَخْلاقِ أَثَرًا مِنْ آثارِ ٱلسَّعَةِ وَٱلضِّيْقِ ، فَتُخْرِجُ مِنَ ٱلْغَنِيِّ مُتَعَفِّفًا وَمِنَ ٱلْفَقِيْرِ لِصًّا ؟ وَكَيْفَ ٱسْتَطاعَ ﷺ بِفَقْرِهِ ٱلسّامِيْ أَنْ يُحَوِّلَ مَعْنَىٰ ٱلْغِنَىٰ فِيْ نُفُوْسِ أَصْحابِهِ ، فَيَجْعَلَهُ ما ٱسْتَغْنَىٰ عَنْهُ ٱلْإِنْسانُ مِنْ شَهَواتِ ٱلدُّنْيا { وَتَرَكَ } ، لا ما نالَ مِنْها { وَجَمَعَ } ؟ أَمّا هَـٰذا وَنَحْوُهُ مِنْ حَقائِقِ ٱلنُّبُوَّةِ ٱلْعامِلَةِ فِيْ تَنْظِيْمِ ٱلْحَياةِ ، فَقَدْ أَهْمَلُوْهُ ، إِذْ هُوَ لا يُوْجَدُ فِيْ ٱلْكُتُبِ وَشُرُوْحِها وَحَواشِيْها ، وَلَـٰكِنْ فِيْ ٱلْحَياةِ وَأَثْقالِها وَأَكْدارِها ؛ وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ شُيُوْخُنا مِنَ ٱلْأُمَّةِ فِيْ مَواضِعَ لَمْ يَضَعْهُمْ فِيْها ٱلدِّيْنُ وَلَـٰكِنْ وَضَعَتْهُمْ فِيْها ٱلْوَظِيْفَةُ . . .

أَلا لَيْتَهُمْ يَكْتُبُوْنَ عَلَىٰ أَبْوابِ ٱلْأَزْهَرِ هَـٰذِهِ ٱلْحِكْمَةَ : سُئِلَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ : بِمَ سادَ فُلانٌ فِيْكُمْ ؟ قالُوْا : ٱحْتَجْنا إِلَىٰ عِلْمِهِ وَٱسْتَغْنَىٰ عَنْ دُنْيانا . . .

سيدي بشر بإسكندرية — مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيثُ ٱلْبَاشَا : ٤

ٱلأَخْلاَقُ ٱلْمُحَارِبَةُ(*)

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ قَالَ : كُنَّا فِي ثَوْرَةِ سَنَةِ ١٩١٩ سَنَةِ ٱلْهَزَاهِزِ وَٱلْفِتَنِ ، وَقَدْ تَفَاقَمَتِ ٱلثَّوْرَةُ ، وَأَخَذَ ٱلشَّبَابُ يَعْمَلُ ، وَيُفَكِّرُ فِيمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يَعْمَلَ ؛ وَكَانَ ٱلسُّخْطُ ٱلْعَامُّ هُوَ مِيرَاثَ ٱلْوَقْتِ ، فَكَانَتْ قُلُوبُ ٱلشَّعْبِ تُلْهِمُ وَاجِبَاتِهَا إِلْهَامًا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ كُلِّهَا إِلَّا لَذْعَةُ ٱلدَّمِ تُعَيِّنُ ٱتِّجَاهَ أَعْمَالِهَا وَتُحَدِّدُهُ .

كَانَتِ ٱلثَّوْرَةُ زَلْزَلَةً وَقَعَتْ فِي ٱلتَّارِيخِ ، فَجَاءَتْ تَحْتَ زَمَنٍ رَاكِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ إِلَّا بِأَنْ يُنْسَفَ ، وَلَا يَنْسِفُهُ إِلَّا مَادَّةٌ إِلَـٰهِيَّةٌ كَٱلْحَرَكَةِ ٱلْكَوْنِيَّةِ ٱلَّتِي تُخْرِجُ ٱلْيَوْمَ ٱلْجَدِيدَ مِنَ ٱلْيَوْمِ ٱلْقَدِيمِ ؛ فَكَانَ ٱلْقَدَرُ يَعْمَلُ بِأَيْدِي ٱلإِنْكِلِيزِ عَمَلًا مِصْرِيًّا ، وَيَعْمَلُ بِأَيْدِي ٱلْمِصْرِيِّينَ عَمَلًا آخَرَ .

وَتَعَلَّمَ ٱلشَّعْبُ مِنْ دَفْنِ شُهَدَائِهِ كَيْفَ يَسْتَنْبِتُ ٱلدَّمَ فَيُنْبِتُ بِهِ ٱلْحُرِّيَّةَ ، وَكَيْفَ يَزْرَعُ ٱلدَّمْعَ فَيُخْرِجُ مِنْهُ ٱلْعَزْمَ ، وَكَيْفَ يَسْتَثْمِرُ ٱلْحُزْنَ فَيُثْمِرُ لَهُ ٱلْمَجْدَ .

وَكَانَ رَصَاصُ ٱلإِنْكِلِيزِ يُصِيبُ هَدَفَيْنِ مَعًا : فَيَصْرَعُ شُهَدَاءَنَا ، وَيَقْتُلُ ٱلْمَوْتَ ٱلسِّيَاسِيَّ ٱلَّذِي ٱحْتَلَّ مَعَهُمْ هَـٰذِهِ ٱلْبِلَادَ . وَقَدْ أَنْعَمُوا عَلَى ٱلشَّعْبِ بِٱلصَّدْمَةِ ٱلأُولَىٰ ، فَنَشِبَتِ ٱلْمَعْرَكَةُ ٱلَّتِي تُقَاتِلُ فِيهَا ٱلأَخْلَاقُ ٱلْقَوْمِيَّةُ لِتَنْتَصِرَ ؛ وَشَعَرَتْ مِصْرُ فِي جِهَادِهَا بِأَنَّهَا مِصْرُ ، فَٱلْتَمَسَ رُوحُهَا ٱلتَّارِيخِيُّ رَمْزَهُ ٱلْعَظِيمَ فِي ٱلأُمَّةِ لِيَظْهَرَ فِيهِ عَاتِيًا جَبَّارًا ؛ فَكَانَ هَـٰذَا ٱلرَّمْزُ ٱلْجَلِيلُ ٱلْعَظِيمُ هُوَ سَعْدَ زَغْلُولٍ .

*　*　*

(*) «الرسالة» العدد : ١٦٣ ، ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ١٧ أغسطس/آب ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٣٢١ ـ ١٣٢٣ .

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَكَانَ ٱلطَّلَبَةُ قَدْ غَدَوْا مِنْ أَوَّلِ ٱلنَّهَارِ يَتَظَاهَرُونَ ، وَقَدْ جَعَلَتْهُمُ ٱلثَّوْرَةُ كَٱلأَرْوَاحِ تَخَلَّصَتْ مِنَ ٱلْمَوْتِ بِٱلْمَوْتِ فَلَا تَخْشَاهُ وَلَا تُبَالِيهِ(١) ، وَٱسْتَقَلَّتْ عَنِ ٱلْعَقْلِ بِتَحَوُّلِهَا إِلَىٰ شُعُورٍ مَحْضٍ ، وَخَرَجَتْ عَنِ ٱلْقَوَانِينِ كُلِّهَا إِلَّا ٱلْقَانُونَ ٱلْخَفِيَّ ٱلَّذِي لَا يُعْلَمُ مَا هُوَ .

كَانُوا فِي مَعَانِي قُلُوبِهِمْ لَا فِي غَيْرِهَا ، فَلَسْتَ تَرَاهُمْ إِلَّا عُظَمَاءَ فِي عَظَمَةِ ٱلْمَبْدَأِ ٱلَّذِي يَنْتَصِرُونَ لَهُ ، أَقْوِيَاءَ فِي قُوَّةِ ٱلإِيمَانِ ٱلَّذِي يَعْمَلُونَ بِهِ ، أَجِلَّاءَ فِي جَلَالِ ٱلْوَطَنِ ٱلَّذِي يَحْيَوْنَ وَيَمُوتُونَ فِي سَبِيلِهِ .

وَكَانُوا فِي ٱلشَّعْبِ هُمْ خَيَالَ ٱلأُمَّةِ ٱلْعَامِلَ ٱلْمُدْرِكَ ، وَشُعُورَهَا ٱلْحَيَّ ٱلْمُتَوَثِّبَ ، وَقُوَاهَا ٱلْبَارِزَةَ مِنْ أَعْمَاقِهَا ، وَأَمَلَهَا ٱلزَّاحِفَ لِيَقْهَرَ ٱلصُّعُوبَةَ .

يُفَادُونَ بِأَنْفُسِهِمُ ٱلْغَالِيَةِ وَيُؤْثِرُونَ عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ ذَاتُهُ وَلَا أَغْرَاضُ شَخْصِهِ . فَمَا أَجَلَّ وَمَا أَعْظَمَ ! وَمَا أَرْوَعَ وَمَا أَسْمَىٰ ! أَيَّتُهَا ٱلْحَيَاةُ ! هَلْ فِيكِ أَشْرَفُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا حَقِيقَةَ ٱلنُّبُوَّةِ ؟

*　*　*

قَالَ : وَكَانَ أَخِي هُوَ زَعِيمَ هَـٰؤُلَاءِ ٱلطَّلَبَةِ فِي مَدِينَتِنَا ؛ قَوِيٌّ عَلَى ٱلزَّعَامَةِ وَفِيٌّ بِهَا ؛ يَحْمِلُ قَلْبًا كَٱلْجَمْرَةِ ٱلْمُلْتَهِبَةِ ، وَلَهُ صَوْتٌ بَعِيدٌ تَحْسَبُ ٱلرَّعْدَ يُقَعْقِعُ بِهِ . إِذَا مَشَىٰ فِي جِهَادِهِ كَانَ كُلُّ مَا عَلَى ٱلأَرْضِ تُرَابًا تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، فَلَا يَمْشِي إِلَّا مُحْتَقِرًا هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، غَيْرَ مُقَدِّسٍ مِنْهَا إِلَّا دِينَهُ وَوَطَنَهُ ؛ وَسِلَاحُهُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ هُوَ سِلَاحٌ عَلَى ٱلظُّلْمِ وَضِدَّ ٱلظُّلْمِ .

وَكَانَ فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ يَقُودُ « ٱلْمُظَاهَرَةَ » ، وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ خَالِصَتِهِ وَصَفْوَةِ إِخْوَانِهِ ، يَمْشُونَ فِي ٱلطَّلِيعَةِ تَحْتَ جَوٍّ مُتَّقِدٍ كَأَنَّ فِيهِ غَضَبَ ٱلشَّبَابِ ، عَنِيفٍ كَأَنَّمَا ٱمْتَزَجَ بِهِ ٱلسُّخْطُ ٱلَّذِي يَفُورُونَ بِهِ ، رَهِيبٍ كَأَنَّهُ مُتَهَيِّئٌ لِيَنْفَجِرَ ؛ فَلَمَّا بَلَغُوا مَوْضِعًا مِنَ ٱلطَّرِيقِ يَنْعَطِفُونَ عِنْدَهُ ٱنْصَبَّ عَلَيْهِمُ ٱلْمِدْفَعُ ٱلرَّشَّاشُ . . .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « وَلا تُبَالِي بِهِ » بَدَلًا مِنْ : « وَلا تُبَالِيهِ » .

قَالَ : فَإِنِّي لَجَالِسٌ بَعْدَ ذَلِكَ فِي ٱلدِّيْوَانِ إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ أَخِي هَـٰذَا يَنْتَفِضُ غَضَبًا كَأَنَّ ٱلْمَعَانِي تَنْبَعِثُ مِنْ جَسَدِهِ لِتُقَاتِلَ ، وَرَأَيْتُ لَهُ عَيْنَيْنِ يَنْظُرُ ٱلنَّاظِرُ فِيهِمَا إِلَىٰ ٱلنَّارِ ٱلَّتِيْ فِي قَلْبِهِ ؛ فَخَشِيْتُ أَنْ يَكُوْنَ ٱلْقَوْمُ أَطْلَقُوْا عَلَيْهِمُ ٱلْجُنُوْنَ وَٱلرَّصَاصَ مَعًا .

وَٱسْتَنْبَأْتُهُ خَبَرَ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : إِنَّ ٱلَّذِيْنَ كَانُوْا حَوْلَهُ وَقَعُوْا يَتَشَحَّطُوْنَ فِيْ دِمَائِهِمْ ، فَوَقَفَ هُوَ شَاخِصًا إِلَيْهِمْ كَأَنَّهُ مَيِّتٌ مَعَهُمْ ، وَقَدْ أَحَسَّ كَأَنَّمَا خَلَعَ عَنْ جِسْمِهِ نَوَامِيْسَ ٱلطَّبِيْعَةِ ، فَلَا يَعْرِفُ مَا هِيَ ٱلْحَيَاةُ وَلَا مَا هُوَ ٱلْمَوْتُ ؛ وَكَانَ ٱلرَّصَاصُ يَتَطَايَرُ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّ أَرْوَاحَ ٱلشُّهَدَاءِ تَتَلَقَّاهُ وَتُبَعْثِرُهُ لَا يَنَالُهُ[1] بِسُوْءٍ . قَالَ : وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ مَا رَأَيْتُهُ فِيْ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ بَيْنَ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنَيْ رَأْسِي ٱلدَّمَ ٱلْمِصْرِيَّ يُسَلِّمُ عَلَىٰ ٱلدَّمِ ٱلْمِصْرِيِّ ، وَيَسْعَىٰ إِلَيْهِ فَيُعَانِقُهُ عِنَاقَ ٱلأَحْبَابِ .

ثُمَّ قَالَ : أَيْنَ هَـٰذَا ٱلْبَاشَا ؟ وَمَا بَالُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فِيْ ٱلاحْتِيَاطِ لِهَـٰذِهِ ٱلْفَوْرَةِ ؟ يَكَادُ ٱلْخِزْيُ وَٱللهِ يَكُوْنُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْوَظَائِفِ عَلَىٰ مِقْدَارِ ٱلْمُرَتَّبِ[2] . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَلَمْ يُتِمَّ كَلِمَتَهُ حَتَّىٰ خَرَجَ عَلَيْنَا ٱلْبَاشَا مُتَكَسِّرَ ٱلْوَجْهِ مِنَ ٱلْحُزْنِ قَدْ تَغَرْغَرَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَخِي إِلَىٰ غُرْفَتِهِ وَتَبِعْتُهُمَا ، ثُمَّ قَالَ : هَوْنًا مَا يَا بُنَيَّ ، إِنَّ ٱلْعِلَّةَ فِيكُمْ أَنْتُمْ يَا شَبَابَ ٱلأُمَّةِ ، فَكُلُّ مَا ٱبْتُلِيْنَا أَوْ نُبْتَلَىٰ بِهِ هُوَ مِمَّا يَسْتَدْعِيْهِ خُمُوْلُكُمْ وَتَسْتَوْجِبُهُ أَخْلَاقُكُمُ ٱلْمُتَخَاذِلَةُ ؛ إِنَّنَا مِنْ غَيْرِكُمْ كَٱلْمَدَافِعِ ٱلْفَارِغَةِ مِنْ ذَخِيْرَتِهَا : لَا تَصْلُحُ إِلَّا شَكْلًا ، وَبِهَـٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ كَانَ عِنْدَنَا شَكْلُ ٱلْحُكُوْمَةِ لَا ٱلْحُكُوْمَةُ .

أَتَدْرِي يَا فَتَىٰ مَا ٱلْحُكُوْمَةُ ٱلصَّحِيْحَةُ فِيْ مِثْلِ حَالَتِنَا ؟ هِيَ أَنْ تَحْكُمُوْا أَنْتُمْ فِيْ ٱلشَّعْبِ حُكُوْمَةً أَخْلَاقِيَّةً نَافِذَةَ ٱلْقَانُوْنِ ، فَتَضْبِطُوْا أَخْلَاقَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلرِّجَالِ ، وَتَرُدُّوْهَا كُلَّهَا أَخْلَاقًا مُحَارِبَةً لَا تَعْرِفُ إِلَّا ٱلْجِدَّ وَٱلْكَرَامَةَ وَصَرَامَةَ ٱلْحَقِّ ؛ وَإِلَّا فَكَمَا تَكُوْنُوْنَ يُوَلَّىٰ عَلَيْكُمْ . . .

هَـٰذَا وَحْدَهُ هُوَ ٱلَّذِي يُعِيْدُ ٱلأَجَانِبَ إِلَىٰ رُشْدِهِمْ وَإِلَىٰ ٱلْحَقِيْقَةِ ، فَمَا أَرَاهُمْ يُعَامِلُوْنَنَا

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « كَيْلَا يَنَابُهُ » بَدَلًا مِنْ : « لَا يَنَالُهُ » .
(٢) [لَا يَنْسَ ٱلْقَارِئُ أَنَّ هَذَا كَانَ فِي سَنَةِ ١٩١٩ م] .

إِلَّا كَأَنَّنَا ثِيَابٌ مُعَلَّقَةٌ لَيْسَ فِيْهَا لَابِسُوْهَا . . .

كَيْفَ يَتَصَعْلَكُ ٱلْمِصْرِيُّ لِلأَجْنَبِيِّ لَوْ أَنَّ فِي ٱلْمِصْرِيِّ حَقِيْقَةَ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ؟ أَتَرَىٰ بَارِجَةً حَرْبِيَّةً تَتَصَعْلَكُ لِزَوْرَقِ صَيْدٍ جَاءَ يَرْتَزِقُ ؟

إِنَّ فِيْ بِلَادِنَا ٱلْمَسْكِيْنَةِ ٱلأَجَانِبَ ، وَأَمْوَالَ ٱلأَجَانِبِ ، وَغَطْرَسَةَ ٱلأَجَانِبِ ؛ لَا لِأَنَّ فِيْهَا ٱلاحْتِلَالَ ، كَلَّا ، بَلْ لِأَنَّ فِيْهَا ضَعْفَ أَهْلِهَا ، وَغَفْلَةَ أَهْلِهَا ، وَكَرَمَ أَهْلِهَا . . . بَعْضُ هَـٰذَا يَا بُنَيَّ شَبِيْهٌ بِبَعْضٍ ، وَإِلَّا فَمَا هُوَ كَرَمُ ٱلشَّاةِ ٱلضَّعِيْفَةِ إِلَّا لَذَّةُ لَحْمِهَا . . . ؟

نُرِيْدُ لِهَـٰذَا ٱلشَّعْبِ طَبِيْعَةً جِدِّيَّةً صَارِمَةً ، يَنْظُرُ مِنْ خِلَالِهَا إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ فَيَسْتَشْعِرُ ذَاتَهُ ٱلتَّارِيْخِيَّةَ ٱلْمَجِيْدَةَ فَيَعْمَلُ فِيْ ٱلْحَيَاةِ بِقَوَانِيْنِهَا ؛ وَهَـٰذَا شُعُوْرٌ لَا تُحْدِثُهُ إِلَّا طَبِيْعَةُ ٱلأَخْلَاقِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ ٱلَّتِي لَا تَتَسَاهَلُ مِنْ ضَعْفٍ ، وَلَا تَتَسَمَّحُ مِنْ كَذِبٍ ، وَلَا تَتَرَخَّصُ مِنْ غَفْلَةٍ . وَٱلْحَقِيْقَةُ فِي ٱلْحَيَاةِ كَٱلْحَقِيْقَةِ فِيْ ٱلْمَنْطِقِ : إِذَا لَمْ يَصْدُقِ ٱلْبُرْهَانُ عَلَىٰ كُلِّ حَالَاتِهَا ، لَمْ يَصْدُقْ عَلَىٰ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِهَا ؛ فَإِذَا كُنَّا ضُعَفَاءَ كُرَمَاءَ ، أَعِزَّاءَ ، سَادَةً عَلَىٰ ٱلتَّارِيْخِ ٱلْقَدِيْمِ ، فَنَحْنُ ضُعَفَاءُ فَقَطْ . . .

إِنَّ ٱلْكُبَرَاءَ فِيْ ٱلشَّرْقِ كُلِّهِ لَا يَصْلُحُوْنَ إِلَّا لِلرَّأْيِ ، فَلَا تَسُوْمُوْهُمْ غَيْرَ هَـٰذَا ، فَهُمْ قَدْ تَلَقَّوْا ٱلدَّرْسَ مِنْ أَغْلَاطِهِمُ ٱلْكَثِيْرَةِ ، وَبِهَـٰذَا لَنْ تُفْلِحَ حُكُوْمَةٌ سِيَاسِيَّةٌ فِيْ ٱلشَّرْقِ ٱلنَّاهِضِ مَا لَمْ يَكُنْ شَبَابُهَا حُكُوْمَةً أَخْلَاقِيَّةً يُمِدُّهَا مِنْ نَفْسِهِ وَمِنَ ٱلشَّعْبِ فِيْ كُلِّ حَادِثَةٍ بِٱلأَخْلَاقِ ٱلْمُحَارِبَةِ .

يَا بُنَيَّ ، إِنَّ ٱلْقَوِيَّ لَوِ ٱتَّفَقَ مَعَ ٱلضَّعِيْفِ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ ، لَكَانَ مَعْنَاهَا لِلأَقْوَىٰ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ لِلأَضْعَفِ ؛ فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْقَوِيَّ ٱلَّذِيْ يَعْمَلُ مَعَ ٱلضَّعِيْفِ يَكُوْنُ فِيْهِ دَائِمًا شَخْصٌ آخَرُ مُخْتَفٍ ، هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلَّذِيْ يَعْمَلُ مَعَ نَفْسِهِ .

هَـٰكَذَا هِيَ ٱلسِّيَاسَةُ ؛ أَمَّا فِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ فَلَا ، إِذْ يَكُوْنُ ٱلْحَقُّ دَائِمًا بَيْنَ ٱلاثْنَيْنِ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلاثْنَيْنِ .

سيدي بشر . إسكندرية

مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيْثُ ٱلْبَاشَا : ٥

خَضَعَ يَخْضَعُ(*) . . .

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا فِيْمَا حَدَّثَنِي بِهِ : جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ قُنْصُلُ (ٱلدَّوْلَةِ ٱلْفُلَانِيَّةِ) مِنْ هَـٰذِهِ ٱلدُّوَلِ ٱلصَّغِيْرَةِ ؛ ٱلَّتِيْ لَوْ عَلِمَ ٱلذُّبَابُ فِيْ بِلَادِهَا أَنَّ فِيْ مِصْرَ ٱمْتِيَازَاتٍ أَجْنَبِيَّةً ، لَطَمِعَتْ كُلُّ ذُبَابَةٍ أَنْ يَكُوْنَ لَهَا فِيْ بِلَادِنَا ٱسْمُ ٱلطَّيَّارَةِ ٱلْحَرْبِيَّةِ . . .

وَرَأَيْتُهُ قَدْ دَخَلَ عَلَيَّ شَامِخًا بَاذِخًا مُتَجَبِّرًا ، كَأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَجِيْءَ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلدِّيْوَانِ لِمُقَابَلَةِ ٱلْحَاكِمِ ٱلْمِصْرِيِّ ـ قَدْ تَكَلَّمَ فِيْ (ٱلتَّلِفُوْنِ) مَعَ إِسْرَافِيْلَ يَأْمُرُهُ أَنْ يَكُوْنَ مُسْتَعِدًّا لِلنَّفْخِ فِيْ ٱلصُّوْرِ . . .

جَنَىٰ صُعْلُوْكٌ مِنْ رَعَايَا دَوْلَتِهِ عَلَىٰ مِصْرِيٍّ ، فَأُخِذَ كَمَا يُؤْخَذُ أَمْثَالُهُ ، وَقَضَىٰ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ بَيْنَ أَيْدِيْ ٱلْمُحَقِّقِيْنَ يَسْأَلُوْنَهُ ٱلأَسْئِلَةَ ٱلْهَيِّنَةَ ٱللَّيِّنَةَ ٱلَّتِيْ تُحِيْطُ بِتَعْرِيْفِهِ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَلَا يُشْبِهُهَا فِيْ سَخَافَةِ ٱلْمَعْنَىٰ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوْهُ عَنْ ثِيَابِهِ مِنْ أَيِّ مَصْنَعٍ هِيَ فِيْ أُوْرُبَّةَ . . . فَزَعَمَ ٱلْقُنْصُلُ أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ حَاضِرًا يَشْهَدُ ٱلتَّحْقِيْقَ ، لِأَنَّ جِنَايَةَ أَجْنَبِيٍّ عَلَىٰ مِصْرِيٍّ تَقَعُ أَجْنَبِيَّةً . . . فَلَهَا شَأْنٌ وَرِعَايَةٌ وَٱمْتِيَازٌ ؛ وَٱدَّعَىٰ أَنَّ ٱلْمُحَقِّقِيْنَ ضَايَقُوْا ٱلْمُجْرِمَ وَعَاسَرُوْهُ وَتَجَهَّمُوْهُ بِٱلْكَلَامِ ، وَلِهَـٰذَا جَاءَ يَحْتَجُّ .

وَرَأَيْتُهُ جَلَسَ مُتَوَقِّرًا كَأَنَّمَا يَشْعُرُ فِيْ نَفْسِهِ أَنَّهُ أَثْقَلُ مِنْ مِدْفَعٍ ضَخْمٍ ، لِأَنَّ فِيْ نَفْسِهِ وَهْمَ ٱلْقُوَّةِ ؛ وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَرَىٰ مَوْضِعَهُ بَيْنَ ٱلسَّقْفِ وَٱلأَرْضِ ؛ إِذْ يَحْمِلُ فِيْ رَأْسِهِ فِكْرَةَ أَنَّهُ ٱلأَعْلَىٰ ، وَكَانَتْ لَهُ هَيْئَةٌ صَرِيْحَةٌ فِيْ أَنَّ ٱلأَجْنَبِيَّ ٱلْمُقِيْمَ هُنَا لَيْسَ هُوَ كُلَّ ٱلأَجْنَبِيِّ ، بَلْ لَا تَزَالُ مِنْهُ بَقِيَّةٌ تُتَمِّمُهَا دَوْلَتُهُ ، وَفِيْ ٱلْجُمْلَةِ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَلِمَةً وَاضِحَةً مُفَسَّرَةً تَنْطِقُ بِأَنَّ

(*) « الرسالة » ، العدد : ١٦٤ ، ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥هـ = ٢٤ أغسطس/ آب ١٩٣٦م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٣٦١ ـ ١٣٦٣ .

لِلْقَانُوْنِ ٱلْمِصْرِيِّ قَانُوْنًا يَحْكُمُهُ فِيْ بِلَادِهِ !

وَأَنَا قَدْ دَرَسْتُ ٱلْقَانُوْنَ ٱلدَّوْلِيَّ ، وَعَرَفْتُ مَا هِيَ ٱلامْتِيَازَاتُ وَمَا أَصْلُهَا ، وَهِيَ لَا تَعْدُوْ كَرَمَ ٱلأَرْنَبِ ٱلَّتِيْ زَعَمُوْا أَنَّهَا كَانَتْ تَمْلِكُ حِمَاراً تَرْكَبُهُ وَتَرْتَفِقُ بِهِ ، فَسَأَلَتْهَا أَرْنَبٌ أُخْرَىٰ أَنْ تُرْدِفَهَا خَلْفَهَا ، فَلَمَّا ٱنْدَفَعَ بِهِمَا ٱلْحِمَارُ ٱسْتَوْطَأَتْهُ ، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهِ : يَا أُخْتِيْ ، مَا أَفْرَهَ حِمَارَكِ ! ثُمَّ سَكَتَتْ مُدَّةً وَأَعْجَبَهَا ٱلْحِمَارُ فَقَالَتْ : يَا أُخْتِيْ ، مَا أَفْرَهَ حِمَارَنَا . . .

وَكُنَّا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّيْنَ مِنَ ٱلضَّعْفِ وَٱلْغَفْلَةِ ؛ بِحَيْثُ لَمْ نَبْلُغْ مَبْلَغَ ٱلأَرْنَبِ فِيْ حِكْمَتِهَا وَتَدْبِيْرِهَا وَحَذَرِهَا ، فَإِنَّهَا أَسْرَعَتْ وَدَفَعَتْ صَاحِبَتَهَا وَقَالَتْ لَهَا : ٱنْزِلِيْ ـ وَيْلَكِ ـ قَبْلَ أَنْ تَقُوْلِيْ : مَا أَفْرَهَ حِمَارِيْ .

قَالَ : غَيْرَ أَنِّيْ فِيْ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ نَسِيْتُ ٱلْقَانُوْنَ ٱلدَّوْلِيَّ وَكُنْتُ فِيْ إِلْهَامِ مِصْرِيَّتِيْ وَحْدَهَا ، فَظَهَرَ لِيْ ظُهُوْرًا بَيِّنًا أَنْ لَا شَيْءَ ٱسْمُهُ ٱلْقَانُوْنُ ٱلْحَقُّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ؛ وَلَـٰكِنَّ هُنَاكَ ٱتِّفَاقًا بَيْنَ كُلِّ خُضُوْعٍ وَكُلِّ تَسَلُّطٍ ، هُوَ قَانُوْنُ هَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ بِخُصُوْصِهِمَا .

وَأَسْرَعْتُ إِلَىٰ ٱلْبَاشَا فَأَنْبَأْتُهُ ، وَأَسْرَعَ ٱلْبَاشَا فَغَيَّرَ وَجْهَهُ ، وَتَبَسَّطَ ، وَتَهَلَّلَ ، وَتَهَيَّأَ بِهَـٰذَا لِاسْتِقْبَالِ ٱلْقَادِمِ ٱلْعَزِيْزِ ، كَأَنَّهُ أَخَصُّ مُحِبِّيْهِ يَتَطَلَّعُ إِلَىٰ مُؤَانَسَتِهِ ، وَقَدْ جَاءَ يَزُوْرُهُ فِيْ دَارِهِ . ثُمَّ دَخَلَ ٱلْقُنْصُلُ ، وَلَمْ أَسْمَعْ مِمَّا دَارَ بَيْنَهُمَا إِلَّا ٱلْكَلِمَةَ ٱلأُوْلَىٰ ، وَهِيَ قَوْلُ ٱلْبَاشَا : لِنَبْدَأْ يَا سَيِّدِيْ مِنَ ٱلآخِرِ . . .

* * *

وَكَانَتْ فِيْ ٱلْبَاشَا مَوْهِبَةٌ عَجِيْبَةٌ فِيْ ٱخْتِلَابِ ٱلأَجَانِبِ خَاصَّةً ، يُدِيْرُهُمْ بِلَبَاقَةٍ كَٱلْخَاتَمِ فِيْ إِصْبَعِهِ ؛ حَتَّىٰ قَالَ لِيْ أَحَدُهُمْ : إِنَّ لِهَـٰذَا ٱلْبَاشَا حَاسَّةً زَائِدَةً ، لَوْ سُمِّيَتْ حَاسَّةَ ٱلإِرْضَاءِ لَكَانَ هَـٰذَا ٱسْمَهَا ٱلطَّبِيْعِيَّ ، وَإِنَّهُ يَعْمَلُ بِهَا كَمَا يَعْمَلُ ٱلْمُفَكِّرُ بِتَفْكِيْرِهِ ؛ فَهُوَ يَبْتَكِرُ ٱلأَسَالِيْبَ ٱلْغَرِيْبَةَ ٱلَّتِيْ يَصْعَدُ وَيَهْبِطُ بِهَا مِيْزَانُ ٱلْحَرَارَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ، وَإِنَّ جَلِيْسَهُ يَكَادُ يَشْعُرُ مِنْ مَهَارَتِهِ فِيْ ٱلتَّمْثِيْلِ أَنَّ فِيْ جَوِّ ٱلْمَكَانِ سِتَارًا يُرْفَعُ وَسِتَارًا يُسْدَلُ بَيْنَ ٱلْفُصُوْلِ .

فَمَا لَبِثَ ٱلْقُنْصُلُ أَنْ خَرَجَ بِغَيْرِ ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِيْ دَخَلَ بِهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ عَبَسَ فِيْ وَجْهِيْ أَنَا وَتَكَرَّهَ لِيْ كَأَنَّهُ أَصْغَرَ شَأْنِيْ ، فَٱزْدَرَتْنِيْ عَيْنُهُ ، فَوَثَبَتْ إِلَىٰ رَأْسِهِ فِكْرَةُ ٱلامْتِيَازَاتِ .

وَهَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلظَّالِمَةُ (ٱلامْتِيَازَاتُ) ؛ لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ قُوَّةً قَاهِرَةً نَافِذَةً ، وَأُعِينَ بِهَا طُفَيْلِيٌّ لِيَقْتَحِمَ دُوْرَ ٱلنَّاسِ آمِنًا مُطْمَئِنًّا ـ لَاسْتَحَىٰ هَـٰذَا ٱلطُّفَيْلِيُّ أَنْ يَأْكُلَ بِهَا ؛ إِذْ تَجْمَعُ عَلَيْهِ ٱلتَّطَفُّلَ وَٱلْمَقْتَ مَعًا ، وَلَوْ قِيْلَ لِحُسَامٍ بَتَّارٍ : إِنَّ لَكَ ٱمْتِيَازًا عَلَىٰ بَعْضِ ٱلسُّيُوْفِ أَلَّا تُقَارِعَكَ ، وَإِنَّكَ مَحْمِيٌّ أَنْ تَنَالَكَ سَطْوَتُهَا إِذَا قَارَعْتَهَا ـ لَأَنِفَ أَنْ يُسَمَّىٰ سَيْفًا بِهَـٰذَا أَوْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ، فَإِنَّ ٱلْقُوَّةَ ٱلظَّالِمَةَ ٱلَّتِيْ يُعِيْرُوْنَهُ إِيَّاهَا ، لَيْسَتْ إِلَّا مَهَانَةً لِشَرَفِ ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَادِلَةِ ٱلَّتِيْ هِيَ فِيْهِ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَوَصَفْتُ لِلْبَاشَا هَيْئَةَ ٱلْقُنْصُلِ ٱلَّتِيْ ٱنْصَرَفَ بِهَا ، وَتَقْطِيْبَهُ فِيْ وَجْهِيْ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ ٱلذُّبَابَةَ وَقَعَتْ فِيْ صَحْفَتِيْ أَنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْوَلِيْمَةِ . . . فَضَحِكَ بِمِلْءِ فِيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

سَتَبْطُلُ هَـٰذِهِ ٱلامْتِيَازَاتُ ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نِهَايَتِهَا إِلَّا أَنْ يَنْتَهِيَ ٱلشَّعْبُ إِلَىٰ حَقِيْقَتِهِ ٱلْقَوْمِيَّةِ ، فَمَا تَرْكُهَا فِيْ مَكَانَتِهَا إِلَّا نُزُوْلُ ٱلشَّعْبِ عَنْ مَكَانَتِهِ ، وَتَٱللهِ لَكَأَنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلأَجَانِبَ يَسْأَلُوْنَنَا بِهَـٰذِهِ ٱلامْتِيَازَاتِ : أَيْنَ مَكَانُكُمْ فِيْ بِلَادِكُمْ . . . ؟

أَتَدْرِيْ مَا قَالَهُ هَـٰذَا ٱلْقُنْصُلُ حِيْنَ تَجَاذَبْنَا ٱلْحَدِيْثَ فِيْهَا ، بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ نَفْسِيْ مِنْهُ فِيْ مَوْضِعِ ٱلْمُحَامِيْ ٱلَّذِيْ يَخْذُلُهُ ٱلدَّلِيْلُ ، فَيُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَنْزِلَ كَرَمَ ٱلْقُضَاةِ بِعَرْضِ بُؤْسِ ٱلْمُتَّهَمِ عَلَىٰ شَفَقَتِهِمْ ، لِيَسْتَعْطِفَ ٱلْقَانُوْنَ ٱلَّذِيْ فِيْ أَيْدِيْهِمْ بِٱلْقَانُوْنِ ٱلَّذِيْ فِيْ أَنْفُسِهِمْ ؟

إِنَّهُ قَالَ : لَا يَلُوْمَنَّ ٱلشَّرْقِيُّوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، فَهُمْ عَلَّمُوْا ٱلأَجَانِبَ أَنَّ نَتْفَ رِيْشِ ٱلطَّيْرِ أَوَّلُ أَكْلِهِ . . . وَهَـٰذِهِ ٱلامْتِيَازَاتُ إِنْ هِيَ إِلَّا مُعَامَلَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ طَبِيْعَةِ ٱلْخُضُوْعِ فِيْ ٱلشَّعْبِ . نَعَمْ إِنَّهَا مَضَرَّةٌ وَمَعَرَّةٌ ، وَظُلْمٌ وَقَسْوَةٌ ؛ وَلَـٰكِنَّهَا عَلَىٰ ذَلِكَ طَبِيْعِيَّةٌ فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ ؛ فَمَا دَامَ هَـٰذَا ٱلشَّعْبُ لَيِّنَ ٱلْمَأْخَذِ ، فَإِنَّ هَـٰذَا يُوْجِدُ لَهُ مَنْ يَأْخُذُهُ ؛ وَمَا دَامَتِ ٱلْكَلِمَةُ ٱلأُوْلَىٰ فِيْ مُعْجَمِ لُغَتِهِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ هِيَ مَادَّةُ (خَضَعَ يَخْضَعُ) ، فَهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ تَحْمِلُ فِيْ مَعْنَاهَا ٱلْوَاحِدِ أَلْفَ مَعْنًىٰ ، مِنْهَا : ظَلَمَ يَظْلِمُ ، وَرَكِبَ يَرْكَبُ ، وَمَلَكَ يَمْلِكُ ، وَٱسْتَبَدَّ يَسْتَبِدُّ ، وَدَجَّلَ يُدَجِّلُ ، وَخَدَعَ يَخْدَعُ ؛ فَهَلْ يَكْثُرُ أَنْ يَكُوْنَ مِنْهَا لِلأَجَانِبِ : ٱمْتَازَ يَمْتَازُ ؟

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : ثُمَّ زَمَّ ٱلْبَاشَا فَمَهُ وَسَكَتَ ؛ فَفَهِمْتُ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلَّتِيْ ٱنْطَبَقَ فَمُهُ عَلَيْهَا وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَا ، ثُمَّ غَلَبَهُ ٱلضَّحِكُ فَقَالَ : وَٱللهِ يَا بُنَيَّ لَوْ أَنَّ بُرْغُوْثًا طَمَرَ مِنْ ثَوْبِ صُعْلُوْكٍ أَجْنَبِيٍّ ، فَوَقَعَ فِيْ ثَوْبِ صُعْلُوْكٍ وَطَنِيٍّ ، فَتَقَاتَلَا ، فَقُبِضَ عَلَيْهِمَا ، فَأُخِذَا ـ لَمَا رَضِيَ بُرْغُوْثُ ٱلأَجْنَبِيِّ أَنْ يُحَاكَمَ إِلَّا فِيْ ٱلْمَحَاكِمِ ٱلْمُخْتَلَطَةِ . . .

ثُمَّ سَكَتَ ٱلْبَاشَا مَرَّةً أُخْرَىٰ كَأَنَّهُ يَقُوْلُ كَلَامًا آخَرَ لَا يَجُوْزُ نَشْرُهُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ! إِنَّ ٱلأَجَانِبَ لَا يَضَعُوْنَ ٱلْحِمْلَ إِلَّا عَلَىٰ مَنْ يَحْمِلُ ؛ فَإِذَا نَحْنُ تَوَخَّيْنَا مُرَادَهُمْ أَرَادُوْا لِأَنْفُسِهِمْ لَا لَنَا ؛ وَإِذَا وَافَقْنَا لَهُمْ غَرَضًا جَعَلُوْهُ كَٱلدِّيْنَارِ فِيْهِ مِئَةُ قِرْشٍ ، وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ نُصَارِفَهُمْ عَلَيْهِ بِمِئَةٍ . وَهُمْ ـ وَيْحَكَ ـ يَمْتَازُوْنَ فِيْ مُعَامَلَتِنَا لَا فِيْ سُطُوْرِ ٱلْقَوَانِيْنِ وَٱلْمُعَاهَدَاتِ ، فَلْنُبْطِلْ هَـٰذِهِ ٱلْمُعَامَلَةَ يَبْطُلْ هَـٰذَا ٱلامْتِيَازُ .

إِنَّ ٱلْحَقَّ يَا بُنَيَّ ٱسْتِحْقَاقٌ لَا دَعْوَىٰ ؛ وَهَـٰذَا ٱلتَّنَازُعُ عَلَىٰ ٱلْحَيَاةِ يَجْعَلُ وَسَائِلَهُ ٱلطَّبِيْعِيَّةَ ٱلانْتِزَاعَ وَٱلْمُطَالَبَةَ وَٱلتَّجَرُّدَ لَهُ وَٱلدَّأْبَ فِيْهِ وَٱلإِصْرَارَ عَلَيْهِ . وَكُلُّ ٱلأَقْوِيَاءِ يَعْلَمُوْنَ أَنَّ مَوْضِعَ ٱلاعْتِدَالِ بَيْنَ غَصْبِ ٱلْحَقِّ وَبَيْنَ ٱسْتِرْدَادِهِ مَوْضِعٌ لَا مَكَانَ لَهُ فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ ؛ وَٱلأَجْنَبِيُّ يَعْتَمِدُ عَلَيْنَا نَحْنُ فِيْ جَعْلِهِ أَكْبَرَ مِنَّا وَأَوْفَرَ حُرْمَةً ؛ فَإِذَا أَسْقَطَ[1] ٱلشَّعْبُ هَـٰذِهِ ٱلامْتِيَازَاتِ مِنْ فِكْرِهِ وَرُوْحِهِ وَأَعْصَابِهِ ، وَثَارَتْ فِيْهِ كِبْرِيَاءُ ٱلْوَطَنِيَّةِ فَٱسْتَنْكَفَ مِنَ ٱلاسْتِخْذَاءِ ، وَنَفَرَ مِنَ ٱلاخْتِضَاعِ ، وَأَبَىٰ إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ كَرَامَتَهُ ، وَصَرَفَ ٱهْتِمَامَهُ إِلَىٰ حُقُوْقِ هَـٰذِهِ ٱلْكَرَامَةِ ، وَأَصَرَّ أَلَّا يُعَامِلَ أَجْنَبِيًّا يَرَىٰ لِنَفْسِهِ ٱمْتِيَازًا عَلَى وَطَنِيٍّ ، وَقَرَّرَ ذَلِكَ فِيْ نَفْسِهِ وَمَكَّنَهُ فِيْ رُوْعِهِ ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ إِجْمَاعَهُ عَلَىٰ ٱلدِّيْنِ ـ إِذَا جَاءَتْ (إِذَا) هَـٰذِهِ بِشَرْطِهَا مِنَ ٱلشَّعْبِ ، جَاءَ جَوَابُ ٱلشَّرْطِ مِنَ ٱلأَجَانِبِ بِنُزُوْلِهِمْ عَنِ ٱلامْتِيَازَاتِ وَٱنْحَلَّتِ ٱلْمُشْكِلَةُ . إِنَّنَا يَا بُنَيَّ لَا نَمْلِكُ ضَغْطَ ٱلسِّيَاسَةِ ، وَلَـٰكِنَّا نَمْلِكُ مَا هُوَ أَقْوَىٰ ؛ نَمْلِكُ ضَغْطَ ٱلْحَيَاةِ .

لَهُمُ ٱلامْتِيَازُ بِأَنَّهُمْ أَجَانِبُ عَنَّا ، فَلْيَكُنْ لَنَا ٱلامْتِيَازُ ٱلآخَرُ بِأَنَّنَا أَجَانِبُ عَنْهُمْ فِيْ ٱلْمُعَامَلَةِ ، مِثْلًا بِمِثْلٍ ، وَمَا يَفُلُّ ٱلْحَدِيْدَ إِلَّا ٱلْحَدِيْدُ .

يَقُوْلُوْنَ : ٱلنِّظَامُ ٱلاقْتِصَادِيُّ وَٱلْمَالُ ٱلأَجْنَبِيُّ . وَلَـٰكِنْ أَرَأَيْتَ ٱلْمَالَ فِيْ يَدِ ٱلأَجْنَبِيِّ إِلَّا

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « أَلْغَى » بَدَلًا مِنْ : « أَسْقَطَ » .

مَالًا وَتَدْبِيرًا وَسُلْطَةً وَسِيَادَةً ، مِنْ أَنَّهُ فِيْ يَدِ ٱلْوَطَنِيِّ دَيْنٌ وَإِسْرَافٌ وَرِقٌّ وَذُلٌّ ؟

لَمْ يَظْهَرْ لِيْ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ تَحْرِيمِ ٱلرِّبَا فِيْ شَرِيْعَتِنَا ٱلإِسْلَامِيَّةِ ، وِقَايَةَ ٱلأُمَّةِ كُلِّهَا فِيْ ثَرْوَتِهَا وَضِيَاعِهَا وَمُسْتَغَلَّاتِهَا ، وَحِمَايَةَ ٱلشَّعْبِ وَمُلُوْكِهِ مِنَ ٱلإِسْرَافِ وَٱلتَّخَرُّقِ وَٱلْكَرَمِ ٱلْكَاذِبِ ، وَرَدَّ ٱلاسْتِعْمَارِ ٱلاقْتِصَادِيِّ ، وَشَلَّ ٱلنُّفُوْذِ ٱلأَجْنَبِيِّ .

أَمَا لَوْ أَنَّنَا كَتَبْنَا مِنَ ٱلأَوَّلِ عَلَىٰ أَبْوَابِ « ٱلْبَنْكِ ٱلْعِقَارِيِّ » وَأَبْوَابِ ذُرِّيَّتِهِ : « يَمْحَقُ ٱللهُ ٱلرِّبَا » . فَهَلْ كَانَتْ تُقْرَأُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتُ ٱلثَّلَاثُ عَلَىٰ أَبْوَابِ تِلْكَ ٱلْبُنُوْكِ ٱلأَجْنَبِيَّةِ إِلَّا هَـٰكَذَا : « مَحَالٌّ خَالِيَةٌ لِلإِيْجَارِ » . . . . . . ؟

سيدي بشر . إسكندرية — مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيْثُ ٱلْبَاشَا : ٦

فَلْنَتَعَصَّبْ(*) . . . !

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : جَاءَنِي يَوْمًا صَحَفِيٌّ إِنْكِلِيْزِيٌّ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْكُتَّابِ ٱلْمُتَعَصِّبِيْنَ ٱلَّذِيْنَ تُطْلِقُهُمْ إِنْكِلْتِرَةُ كَمَا تُطْلِقُ مَدَافِعَهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ هَـٰذِهِ لِلْبَارُوْدِ وَٱلرَّصَاصِ وَٱلْقَنَابِلِ ، وَأُوْلَـٰئِكَ لِلْكَذِبِ وَٱلتُّهَمِ وَٱلْمُغَالَطَاتِ .

وَهُوَ أُذُنٌ وَعَيْنٌ وَلِسَانٌ وَقَلَمٌ لِجَرِيْدَةٍ إِنْكِلِيْزِيَّةٍ كَبِيْرَةٍ ، مَعْرُوْفَةٍ بِثِقَلِ وَطْأَتِهَا عَلَىٰ ٱلشَّرْقِ وَٱلإِسْلَامِ ؛ تُصْلِحُ بِإِفْسَادٍ ، وَتُدَاوِيْ ٱلْحُمَّىٰ بِٱلطَّاعُوْنِ ، وَتَعْمَلُ فِيْ نَهْضَةِ ٱلشَّرْقِيِّيْنَ وَٱسْتِقْلَالِهِمْ مَا يُشْبِهُ قَطْعَ ثَدْيِ ٱلأُمِّ وَهُوَ فِيْ شَفَتَيْ رَضِيْعِهَا ٱلْمِسْكِيْنِ .

وَدَخَلَ عَلَيَّ هَـٰذَا ٱلْكَاتِبُ فِيْ ٱلسَّاعَةِ ٱلَّتِيْ خَرَجَ فِيْهَا مِنْ غُرْفَتِيْ صَاحِبُ جَرِيْدَةٍ أُسْبُوْعِيَّةٍ فِيْ مَدِيْنَتِنَا ؛ كَانَ قَدْ نَفَخَ ٱلضِّفْدَعَ لِيَجْعَلَهَا ثَوْرًا ، فَحَوَّلَ صَحِيْفَتَهُ إِلَىٰ جَرِيْدَةٍ يَوْمِيَّةٍ ، وَهُوَ

(*) « الرسالة » ، العدد : ١٦٥ ، ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ = ٣١ أغسطس/آب ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٤٠١ ـ ١٤٠٣ .

لَا يَجِدُ مَادَّتَهَا وَلَا يَسْتَطِيْعُ أَسْبَابَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ كَدَأْبِ ٱلنَّاسِ عِنْدَنَا كَانَ يَحْسَبُ ٱلْكَذِبَ فِيْ ٱلْعَمَلِ سَهْلًا مَهْلًا(١) كَٱلْكَذِبِ فِيْ ٱلْقَوْلِ ، فَلَمْ يَتَعَاظَمْهُ ٱلأَمْرُ(٢) ٱلْعَظِيْمُ ، وَٱقْتَرَضَ لِعَمَلِهِ كُلَّ أَلْفَاظِ ٱلنَّجَاحِ مِنَ ٱللُّغَةِ . . .

وَظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيُخَوِّفُ بِجَرِيْدَتِهِ ٱلْكُبَرَاءَ وَٱلأَعْيَانَ وَٱلْمَيَاسِيْرَ حَتَّىٰ يَغْلِبَ عَلَىٰ جَمِيْعِهِمْ ، وَيُشْرِكَ أَصَابِعَهُ مَعَ أَصَابِعِهِمْ فِيْ ٱسْتِخْرَاجِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ جُيُوْبِهِمْ ؛ فَلَمْ تَعِشْ جَرِيْدَتُهُ إِلَّا أَيَّامًا وَأَتْلَفَ مَا جَمَعَ ، وَرَهَنَ فِيْهَا دَارَهُ ٱلَّتِيْ لَا يَمْلِكُ غَيْرَهَا ؛ وَعَلِمَ آخِرًا أَنَّ ٱلَّذِيْ يَكْذِبُ فَيُسَمِّيْ ٱلْخَرُوْفَ جَمَلًا ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَىٰ ٱلْكَذِبِ نَفْسِهِ ، فَيَزْعُمَ أَنَّ ٱلنَّاقَةَ هِيَ ٱلَّتِيْ نَتَجَتْ هَـٰذَا ٱلْخَرُوْفَ . . .

وَلَمَّا ٱنْقَلَبَتْ هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيْدَةُ يَوْمِيَّةً كَانَ ٱلْبَاشَا هُوَ مَلْجَأَ ٱلرَّجُلِ وَوَزَرَهُ ، وَكَانَ لِكُلِّ يَوْمٍ فِيْ ٱلْجَرِيْدَةِ أَخْبَارٌ عَنِ ٱلْبَاشَا لَا تَقَعُ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُجْمَعُ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ ، وَلَـٰكِنْ تَقَعُ فِيْ ذِهْنِ ٱلْكَاتِبِ ، وَتُجْمَعُ مِنْ صَنَادِيْقِ ٱلْحُرُوْفِ ؛ حَتَّىٰ قَالَ لِيْ ٱلْبَاشَا مَرَّةً : إِنَّ ٱسْمِيْ قَدْ أَصْبَحَ مُوَظَّفًا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيْدَةِ لِجَمْعِ ٱلاشْتِرَاكِ . . .

وَتَحَرَّىٰ هَـٰذَا ٱلصَّحَفِيُّ أَنْ يَسْتَأْذِنَ يَوْمًا عَلَىٰ ٱلْبَاشَا وَفِيْ مَجْلِسِهِ حَشْدٌ عَظِيْمٌ مِنَ ٱلسَّرَاةِ وَٱلأَعْيَانِ وَٱلْعُمَدِ ، وَكَانَ جَمَعَهُمْ لِأَمْرٍ ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ دَخَلَ ٱلصَّحَفِيُّ حَتَّىٰ ٱبْتَدَرَهُ ٱلْبَاشَا بِهَـٰذَا ٱلسُّؤَالِ : يَا أُسْتَاذُ ! مَا هِيَ تَلِغْرَافَاتُ [بَرْقِيَّاتُ] أُوْرُبَّةَ عَنِ ٱلْحَوَادِثِ ٱلَّتِيْ سَتَقَعُ غَدًا . . . ؟

فَضَجَّ ٱلْمَجْلِسُ بِٱلضَّحِكِ ، وَفَقَدَ ٱلْمِسْكِيْنُ بِهَـٰذِهِ ٱلنُّكْتَةِ أَرْبَعِيْنَ دِيْنَارًا كَانَ يُؤَمِّلُ أَنْ يَخْرُجَ بِهَا ، وَأَعْلَنَ ٱلْبَاشَا فِيْ أَظْرَفِ إِعْلَانٍ وَأَبْلَغِهِ كَذِبَ ٱلرَّجُلِ وَنِفَاقَهُ وَإِسْفَافَهُ ، وَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ ٱلصَّحَافَةِ ٱلْمُدَوَّرَةِ تَدْوِيْرَ ٱلرَّغِيْفِ . . .

* * *

(١) هَـٰذَا ٱلاسْتِعْمَالُ مِمَّا وَضَعْنَاهُ نَحْنُ وَلَيْسَ فِيْ ٱللُّغَةِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلاتِّبَاعِ كَقَوْلِهِمْ : حَسَنٌ بَسَنٌ ، وَشَيْطَانٌ لَيْطَانٌ . . . إِلَخ .

(٢) فِيْ ٱلأَصْلِ : « فَلَمْ يَتَعَاظَمْ لِلأَمْرِ » بَدَلًا مِنْ : « فَلَمْ يَتَعَاظَمْهُ ٱلأَمْرُ » .

قَالَ : وَنَظَرْتُ إِلَىٰ ٱلصَّحَفِيِّ ٱلْأَنْكِلِيْزِيِّ نَظْرَةً أَكْشِفُهُ بِهَا ، فَإِذَا أَوَّلُ ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْثَالِهِ عِنْدَنَا ـ شُعُوْرُهُ أَنَّ بِلَادَهُ قَدْ رَبَّتْهُ (لِلْخَارِجِ) ، فَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ إِنْكِلِيْزِيٌّ مَرَّتَيْنِ ؛ وَيَأْتِيْ مِنْ ذَلِكَ إِحْسَاسُهُ بِعِزَّةِ ٱلْمَالِكِ وَقُوَّةِ ٱلْمُسْتَعْمِرِ ، فَلَا يَكُوْنُ حَيْثُ يَكُوْنُ إِلَّا فِيْ صَرَاحَةِ ٱلْأَمْرِ ٱلنَّافِذِ ، أَوْ غُمُوْضِ ٱلْحِيْلَةِ ٱلْمُبْهَمَةِ ؛ وَيَسْتَحْكِمُ بِهَـٰذَا وَذَاكَ طَبْعُهُ ٱلْعَمَلِيُّ ، فَهُوَ بِغَرِيْزَتِهِ مُقَاتِلٌ مِنْ مُقَاتِلَةِ ٱلْفِكْرِ ، يَلْتَمِسُ مَيْدَانَهُ بَيْنَ ٱلْقُوَىٰ ٱلْمُتَضَارِبَةِ لَا يُبَالِيْ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ ٱلْمَوْتُ مَا دَامَ فِيْهِ ٱلْعَمَلُ ؛ وَبِهَـٰذَا كُلِّهِ تَرَاهُ نَافِذَ ٱلْبَصِيْرَةِ قَائِمًا عَلَىٰ سَوَاءِ ٱلطَّرِيْقِ ، لِأَنَّ ٱلْإِنْكِلِيْزِيَّ ٱلْبَاطِنَ فِيْهِ يُوَجِّهُ ٱلْإِنْكِلِيْزِيَّ ٱلظَّاهِرَ مِنْهُ وَيُسَانِدُهُ ؛ وَفِيْ أَعْمَاقِ ٱلِاثْنَيْنِ تَجِدُ إِنْكِلْتِرَة ، وَلَيْسَ غَيْرَ إِنْكِلْتِرَة .

ثُمَّ تَفَرَّسْتُ فِيْ ٱلرَّجُلِ أُرِيْدُ كُنْهَهُ وَحَقِيْقَتَهُ ، فَإِذَا لَهُ نَفْسٌ مَفْتُوْحَةٌ مُقْفَلَةٌ مَعًا ، كَغُرَفِ ٱلدَّارِ ٱلْوَاحِدَةِ : يُفْتَحُ بَعْضُهَا لِمَا فِيْهِ كَيْمَا يُرَىٰ ، وَيُقْفَلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ مَا فِيْهِ كَيْلَا يُرَىٰ .

وَلَهُ وَجْهٌ عَمَلِيٌّ يَكَادُ يُحَاسِبُكَ عَلَىٰ نَظَرَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ تَدُوْرُ فِيْ هَـٰذَا ٱلْوَجْهِ عَيْنَانِ قَدِ ٱعْتَادَتَا وَزْنَ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْمَعَانِيْ ؛ يَتَلَأْلَأُ فِيْ هَاتَيْنِ ٱلْعَيْنَيْنِ شُعَاعُ ٱلنَّفْسِ ٱلْقَوِيَّةِ ٱلْمُمَرَّنَةِ ، قَدْ نَفَتِ ٱلثِّقَةُ بِهَا نِصْفَ هُمُوْمِ ٱلْحَيَاةِ عَنْ صَاحِبِهَا ، تُمِدُّ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسَ طَبِيْعَةٌ مُؤْمِنَةٌ بِأَنَّ أَكْبَرَ سُرُوْرِهَا فِيْ أَعْمَالِهَا ، فَوَاجِبُهَا فِيْ ٱلْحَيَاةِ أَنْ تَعْمَلَ كُلَّ مَا يَحْسُنُ بِهَا وَكُلَّ مَا يَحْسُنُ مِنْهَا .

لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَىٰ نَفْسِيَّةِ هَـٰذَا ٱلْإِنْكِلِيْزِيِّ أَنَّ كَلِمَةَ ٱلْخَيْبَةِ عِنْدَ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْإِنْكِلِيْزِ غَيْرُ كَلِمَةِ ٱلْخَيْبَةِ عِنْدَنَا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّيْنَ ، فَإِنَّ خَيْبَةَ ٱلنَّفْسِ لَا تَتِمُّ مَعَانِيْهَا أَبَدًا فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلْعَامِلَةِ ٱلدَّائِبَةِ ، ٱلَّتِيْ يُشْعِرُهَا ٱلْوَاجِبُ أَنَّهُ شَيْءٌ إِلَـٰهِيٌّ لَا يَخِيْبُ ، وَأَنَّ مَا يُرْفَضُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْعَمَلِ ٱلطَّيِّبِ لَا يُرْفَضُ فِيْ ٱلسَّمَاءِ .

وَكَأَنَّ ٱلرَّجُلَ قَدْ أَدْرَكَ غَرَضِيْ بِمَلَكَتِهِ ٱلصَّحَافِيَّةِ ٱلدَّقِيْقَةِ ، فَأَجَابَنِيْ عَنِ ٱلسُّؤَالِ ٱلَّذِيْ لَمْ أَسْأَلْهُ ، وَقَالَ لِيْ مُبْتَدِئًا : إِنَّ أَسَاسَنَا ٱلشَّخْصِيَّةُ وَحَاسَّةُ ٱلْوَاجِبِ ؛ وَإِنَّ فِيْكُمْ أَنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا هَـٰذَيْنِ ؛ فَأَخْلَاقُنَا تَظْهَرُ دَائِمًا فِيْ ٱلْعَمَلِ ، وَأَخْلَاقُكُمْ تَظْهَرُ دَائِمًا فِيْ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَارِغِ ؛ وَنَحْنُ نَطْلُبُ ٱلْحَقِيْقَةَ ، وَأَنْتُمْ تَطْلُبُوْنَ ٱلْأَلْفَاظَ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَوْ خَسِرَ ٱلْمِصْرِيُّ أَلْفَ دِيْنَارٍ ، ثُمَّ أَعْلَنَ أَنَّهَا مِئَةٌ فَقَطْ ، وَصَدَّقَ ٱلنَّاسُ أَنَّهَا مِئَةٌ ؛ لَكَانَ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ رَبِحَ تِسْعَ مِئَةٍ . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَٱسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَىٰ ٱلْبَاشَا فَسَهَّلَ وَرَحَّبَ ؛ ثُمَّ هَمَمْتُ بِٱلِانْصِرَافِ عَنْهُمَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْإِنْكِلِيْزِيَّ قَالَ : يَا بَاشَا ! إِنَّهُ قَدْ تَمَكَّنَ فِيْ رُوْعِيْ أَنَّ صَاحِبَ سِرِّكَ هَـٰذَا مُتَعَصِّبٌ دِيْنِيٌّ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ ٱبْنُ فُلَانٍ ٱلْقَاضِيْ ٱلشَّرْعِيِّ ، فَطَرْبُوْشُهُ ٱبْنُ ٱلْعِمَامَةِ ؛ وَلَقَدْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيَّ ، وَكَأَنَّهُ يَتَأَمَّلُ مِنْ أَيْنَ يَذْبَحُنِيْ . . .

فَضَحِكَ ٱلْبَاشَا وَقَالَ لِيْ : يَا فُلَانُ ! إِنَّ هَـٰذَا ٱلْكَاتِبَ مِنْ تَلَامِيْذِ بِرْنَارْدِشُو ، فَهُوَ كَأُسْتَاذِهِ يَجْعَلُ لِكُلِّ حَقِيْقَةٍ ذَنَبًا كَذَيْلِ ٱلْهِرِّ ، ثُمَّ يُمْسِكُهَا مِنْهُ فَإِذَا هِيَ تَعَضُّ وَتَتَلَوَّىٰ . . .

وَٱلْتَفَتَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ ٱلْإِنْكِلِيْزِيِّ ثُمَّ قَالَ لَهُ : جَاءَنِيْ كِتَابُكَ فَإِذَا كُنْتَ تُرِيْدُ رَأْيِيْ فِيْمَا تُسَمِّيْهِ ٱلتَّعَصُّبَ ٱلدِّيْنِيَّ عِنْدَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ، فَعَجِيْبٌ أَنْ تَضَعُوْا أَنْتُمُ ٱلْغَلْطَةَ ثُمَّ تَسْأَلُوْنَا نَحْنُ فِيْهَا ! إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلتَّعَصُّبَ ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِيْ أَكْثَرْتُمُ ٱلْكَلَامَ فِيْهِ ، إِنَّمَا هُوَ لَفْظٌ مِنْ أَلْفَاظِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْأُوْرُبِّيَّةِ ، أَرْسَلْتُمُوْهُ إِلَيْنَا لِيُقَاتِلَ لَفْظَ ٱلتَّعَصُّبِ ٱلْحَقِيْقِيِّ ؛ وَمِنْ قَبْلِ هَـٰذَا ٱخْتَرَعْتُمْ لَفْظَةَ (ٱلْأَقَلِّيَّاتِ) ، وَأَجْرَيْتُمُوْهَا فِيْ لُغَتِكُمُ ٱلسِّيَاسِيَّةِ ، لِتَجْعَلُوْا بِهَا لِتَعَصُّبِنَا ٱلْوَطَنِيِّ شَكْلًا آخَرَ غَيْرَ شَكْلِهِ فَتُفْسِدُوْهُ عَلَيْنَا بِهَـٰذِهِ ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُفْسِدَةِ ؛ وَبِذَلِكَ تَضْرِبُوْنَ ٱلْيَدَ ٱلْيُمْنَىٰ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْمَسُوْهَا ، إِذْ تَضْرِبُوْنَهَا بِشَلِّ ٱلْيَدِ ٱلْيُسْرَىٰ .

إِنَّ ٱلْإِسْلَامَ فِيْ نَفْسِهِ عَدُوٌّ شَدِيْدٌ عَلَىٰ ٱلتَّعَصُّبِ ٱلَّذِيْ تَفْهَمُوْنَهُ ، فَهُوَ يَقُوْلُ لِأَهْلِهِ فِيْ كِتَابِهِ ٱلْعَزِيْزِ : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ١٣٥] .

فَإِذَا كَانَ ٱلْعَدْلُ فِيْ هَـٰذَا ٱلدِّيْنِ عَدْلًا صَارِمًا ، وَحَقًّا مَحْضًا لَا يُمَيِّزُ بِشَيْءٍ ٱلْبَتَّةَ ، لَا ذَاتَ ٱلنَّفْسِ ٱلَّتِيْ فِيْهَا ٱشْتِهَاءُ ٱلدَّمِ ، وَلَا أَصْلَهَا مِنَ ٱلْأَبَوَيْنِ ٱللَّذَيْنِ جَاءَتْ مِنْهُمَا وِرَاثَةُ ٱلدَّمِ ، وَلَا أَطْرَافَهَا مِنَ ٱلْأَقْرَبِيْنَ ٱلَّذِيْنَ يَلْتَفُّوْنَ حَوْلَ نَسَبِ ٱلدَّمِ ـ إِذَا كَانَ هَـٰذَا ، فَأَيْنَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَدْلِ مَحَلُّ ٱلظُّلْمِ ؟

لَعَلَّكَ تُشِيْرُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلرُّعُوْنَةِ ٱلَّتِيْ تَعْرِفُهَا فِيْ ٱلْأَغْمَارِ وَٱلْأَغْفَالِ مِنَ ٱلْعَامَّةِ ، فَهَـٰذِهِ لَيْسَتْ مِنْ أَثَرِ ٱلدِّيْنِ ، بَلْ هِيَ أَثَرُ ٱلْجَهْلِ بِٱلدِّيْنِ ؛ إِنَّ هَـٰذَا لَيْسَ تَعَصُّبًا ، بَلْ هُوَ مَعْنًى مِنْ مَعَانِيْ ٱلْحَمِيَّةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ٱلْخَرْقَاءِ لَمْ تَجِدُوْا أَنْتُمْ لَهُ لَفْظًا ، وَكَانَ أَقْرَبَ ٱلْأَلْفَاظِ إِلَيْهِ عِنْدَكُمْ هُوَ

ٱلتَّعَصُّب ، فَأَطْلَقْتُمُوهُ عَلَيْهِ لِلْمَعْنَى ٱلَّذِي فِي نَفْسِهِ وَٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي فِي أَنْفُسِكُمْ . أَلَا فَٱعْلَمْ أَنَّ إِسْلَامَ ٱلْعَامَّةِ ٱلْيَوْمَ هُوَ كَٱلدَّعْوَىٰ ٱلْمَقْبُولَةِ شَكْلًا وَٱلْمَرْفُوضَةِ بَعْدَ ذَٰلِكَ .

قَالَ ٱلْإِنْكِلِيزِيُّ : وَلَـٰكِنَّ لِهَـٰؤُلَاءِ ٱلْعَامَّةِ عُلَمَاءَ دِينِيِّينَ يُدَبِّرُونَهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ ، وَهُمْ عِنْدَكُمْ وَرَثَةُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، أَيْ : مَنْبَعُ ٱلْفِكْرَةِ وَقُوَّتُهَا .

قَالَ ٱلْبَاشَا : غَيْرَ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَدْ أَصْبَحُوا كُلُّهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَنْدَسُّ فِيهِمْ عِرْقٌ مِنْ تِلْكَ ٱلْوِرَاثَةِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلَّذِي بَلَغَ بِنَا مَا تَرَىٰ ؛ فَٱلْقَوْمُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ كَٱلْأَسْلَاكِ ٱلْكَهْرَبَائِيَّةِ ٱلْمُعَطَّلَةِ : لَا فِيهَا سَلْبٌ وَلَا إِيجَابٌ ؛ وَلَوْ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْعُلَمَاءَ كَانَتْ فِيهِمْ كَهْرَبَاءُ ٱلنُّبُوَّةِ ، لَكَهْرَبُوا ٱلْأُمَمَ ٱلْإِسْلَامِيَّةَ فِي أَقْطَارِهَا ٱلْمُخْتَلِفَةِ . إِذًا لَقَامَ فِي وَجْهِ ٱلِاسْتِعْمَارِ ٱلْأُورُبِّيِّ أَرْبَعُ مِئَةِ مِلْيُونِ مُسْلِمٍ جَلْدٍ صَارِمٍ شَدِيدٍ ، مُتَظَاهِرِينَ مُتَعَاوِنِينَ ، قَدْ أَعَدُّوا كُلَّ مَا ٱسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةِ ٱلْعِلْمِ ، وَقُوَّةِ ٱلنَّفْسِ ، وَهُمْ لَوْ قَذَفَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِحَجَرَيْنِ لَرَدَمُوا ٱلْبَحْرَ . . .

أَتُرِيدُ مَعْنَى ٱلتَّعَصُّبِ فِي ٱلْإِسْلَامِ ؟ إِنَّهُ بِعَيْنِهِ كَتَعَصُّبِ كُلِّ إِنْكِلِيزِيٍّ لِلْأُسْطُولِ ؛ فَهُوَ تَشَابُكُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي أَرْجَاءِ ٱلْأَرْضِ قَاطِبَةً ، وَأَخْذُهُمْ بِأَسْبَابِ ٱلْقُوَّةِ إِلَىٰ آخِرِ ٱلِاسْتِطَاعَةِ ، لِدَفْعِ ظُلْمِ ٱلْقُوَّةِ بِآخِرِ مَا فِي ٱلِاسْتِطَاعَةِ .

وَهُوَ بِذَٰلِكَ يَعْمَلُ عَمَلَيْنِ : ٱسْتِكْمَالُ ٱلْوُجُودِ ٱلْإِسْلَامِيِّ ، وَٱلدِّفَاعُ عَنْ كَمَالِهِ .

وَإِذَا أَنْتَ تَرْجَمْتَ هَـٰذَا إِلَىٰ مَعْنَاهُ ٱلسِّيَاسِيِّ ، كَانَ مَعْنَاهُ إِصْرَارَ جَمِيعِ ٱلْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ نَوْعِ ٱلْحَيَاةِ وَكَرَامَتِهَا ، لَا عَلَىٰ ٱسْتِمْرَارِ ٱلْحَيَاةِ وَوُجُودِهَا فَقَطْ . وَذَٰلِكَ هُوَ مَبْدَؤُكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا ٱلْإِنْكِلِيزُ : لَا تَقْبَلُونَ إِلَّا حَيَاةَ ٱلسِّيَادَةِ وَٱلْحُكْمِ وَٱلْحُرِّيَّةِ ، فَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فِي هَـٰذَا ٱلْمَبْدَإِ لَوْ عَدَلْتُمْ .

أَلَيْسَ مِنَ ٱلْبَلَاءِ أَنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْيَوْمَ لَا يَدْرُسُ بَعْضُهُمْ بِلَادَ بَعْضٍ إِلَّا عَلَىٰ ٱلْخَرِيطَةِ . . . مَعَ أَنَّ ٱلْحَجَّ لَمْ يُشْرَعْ فِي دِينِهِمْ إِلَّا لِتَعْوِيدِهِمْ دِرَاسَةَ ٱلْأَرْضِ فِي ٱلْأَرْضِ نَفْسِهَا لَا فِي ٱلْوَرَقِ ، ثُمَّ لِيَكُونَ مِنْ مَبَادِئِهِمُ ٱلْعَمَلِيَّةِ أَنَّ ٱلْعَالَمَ مَفْتُوحٌ لَا مُقْفَلٌ ؟

إِنَّ ٱلتَّعَصُّبَ فِي حَقِيقَتِهِ هُوَ إِعْلَانُ ٱلْأُمَّةِ أَنَّهَا فِي طَاعَةِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْكَامِلَةِ ، وَأَنَّ لَهَا ٱلرُّوحَ ٱلْحَادَّةَ لَا ٱلْبَلِيدَةَ ، وَأَنَّ أَسَاسَهَا فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلِاحْتِرَامُ ٱلذَّاتِيُّ لَا تَقْبَلُ غَيْرَهُ ، وَأَنَّ أَفْكَارَهَا ٱلِاجْتِمَاعِيَّةَ حَقَائِقُ ثَابِتَةٌ لَا أَشْكَالٌ نَظَرِيَّةٌ ، وَأَنَّ مَبْدَأَهَا هُوَ ٱلْحَقُّ وَلَا شَيْءَ غَيْرُ ٱلْحَقِّ ، وَأَنَّ قَاعِدَتَهَا ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [٥ سورة المائدة/الآية : ١٠٥] . فَٱلْهِدَايَةُ أَوَّلًا وَٱلْهِدَايَةُ آخِرًا : ٱلْهِدَايَةُ فِي ٱلْقُوَّةِ ، وَٱلْهِدَايَةُ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ، وَٱلْهِدَايَةُ فِي ٱلِاجْتِمَاعِ . فَقُلْ لِي بِحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ إِنْكِلْتِرَةَ : أَيُعَابُ ذَٰلِكَ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي يَعِيبُ ٱللِّصُّ بِهَا أَهْلَ ٱلدَّارِ لِأَنَّهُمْ يُحْكِمُونَ فِي وَجْهِهِ إِقْفَالَ ٱلْبَابِ . . . ؟

قَالَ : فَوَجَمَ ٱلْإِنْكِلِيزِيُّ حَتَّىٰ ذُهِلَ عَنْ نَفْسِهِ وَصَاحَ :

إِذَا كَانَ هَـٰذَا فَلْنَتَعَصَّبْ ، فَلْنَتَعَصَّبْ !! .

سيدي بشر . إسكندرية — مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيثُ ٱلْبَاشَا : ٧

وَزْنُ ٱلْمَاضِي (*)

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : إِنِّي لَجَالِسٌ ذَاتَ يَوْمٍ وَفِي يَدِي كِتَابٌ لِبَعْضِ ٱلْمُتَفَلْسِفَةِ مِنْ مَلَاحِدَةِ أُورُبَّةَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَفْهَمُوا مَا لَا يُفْهَمُ ؛ وَكَانَ ٱلْبَاشَا قَدْ رَآنِي مَرَّةً أَنْظُرُ فِيهِ وَأَتَدَبَّرُ مَسَائِلَهُ ٱلْغَامِضَةَ ، فَقَالَ لِي : يَا بُنَيَّ ! إِنَّ أَحَدَ ٱلْكِلَابِ كَانَ شَاعِرًا فَيْلَسُوفًا ، فَنَظَرَ لَيْلَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَرَاعَتْهُ وَحَيَّرَتْهُ ؛ فَآلَىٰ أَنْ يَفْهَمَهَا بِعَقْلِهِ وَتَفَرَّغَ لِدَرْسِهَا مُدَّةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ وَضَعَ فِيهَا كِتَابًا نَفِيسًا ضَخْمًا ، كَانَ أَعْظَمَ كُتُبِ ٱلْفَلْسَفَةِ وَأَشَدَّهَا غُمُوضًا عِنْدَ ٱلْكِلَابِ ، وَكَانَ ٱسْمُهُ : ٱلْعِظَامُ ٱلْمُبَعْثَرَةُ فَوْقَنَا . . . (١)

قَالَ : فَأَنَا جَالِسٌ أَقْرَأُ هَـٰذَا ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي لَا صَحِيحَ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ . . . إِذْ

(*) « الرسالة » العدد : ١٦٦ ، ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ = ٧ سبتمبر/أيلول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٤٤١ ـ ١٤٤٣ .

(١) لَا رَيْبَ أَنَّ ٱلْمُؤَلِّفَ . . . قَدْ بَحَثَ فِي كِتَابِ (ٱلْوَسَائِلِ ٱلْعَمَلِيَّةِ) لِلِانْتِفَاعِ بِهَـٰذِهِ ٱلْعِظَامِ ٱلْمُبَعْثَرَةِ . . .

دَخَلَ عَلَيَّ كَاتِبٌ مُتَفَلْسِفٌ مُلْحِدٌ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمَدْخُولِيْنَ فِيْ عُقُوْلِهِمْ ، ٱلْمَفْتُوْنِيْنَ بِأُوْرُبَّة وَمَذَاهِبِهَا وَعُلْوِيَّاتِهَا وَسُفْلِيَّاتِهَا . . . وَهُوَ يَكْتُبُ فِيْ ٱلصُّحُفِ ، وَيُؤَلِّفُ ٱلرَّسَائِلَ ، وَقَدْ جَاءَ يَسْتَصْرِخُ ٱلْبَاشَا عَلَىٰ فَلَّاحٍ شَارَكَهُ فِيْ زِرَاعَةِ أَرْضِهِ ، فَزَرَعَهُ ٱلْفَلَّاحُ فِيْهَا وَحَصَدَهُ ، وَدَهَاهُ بِكَيْدِهِ ، وَٱبْتَلَاهُ بِغِلْظَتِهِ ، وَتَهَدَّدَهُ بِٱلنِّقْمَةِ .

وَكَانَ هَـٰذَا ٱلْفَلَّاحُ ٱلسَّاذَجُ ٱلْغَرِيْرُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيَّ وَعَرَّفَهُ لِيْ تَعْرِيْفًا قَامُوْسِيًّا مُحِيْطًا مِنْ مَادَّةِ كَفَرَ يَكْفُرُ . . . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : إِنَّهُ (بَيَّاعُ كَلَامٍ) يَصْدُقُ وَيَكْذِبُ حَسَبَ ٱلطَّلَبِ . . . وَٱلذِّمَّةُ نَفْسُهَا لَيْسَتْ عِنْدَهُ إِلَّا (عَمَلِيَّةٌ حِسَابِيَّةٌ) ؛ وَهُوَ فِيْ أَقْوَىٰ جِهَاتِهِ لَا يَنْفَعُ ٱلدُّنْيَا بِمَا تَنْفَعُهَا بِهِ ٱلْبَهِيْمَةُ مِنْ أَضْعَفِ جِهَاتِهَا .

أَمَّا ٱلْكَاتِبُ فَيَقُوْلُ عَنْ هَـٰذَا ٱلْفَلَّاحِ : إِنَّهُ لَا يَدْرِي أَهُوَ يُتِمُّ بَهَائِمَهُ أَمْ بَهَائِمُهُ هِيَ ٱلَّتِيْ تُتِمُّهُ ، وَإِنَّ ٱلَّذِيْ يَرْفَعُ ٱلْقَضِيَّةَ عَلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا ٱلْمَخْلُوْقِ إِلَىٰ ٱلْمَحْكَمَةِ لَا يَكُوْنُ إِلَّا كَٱلَّذِيْ يُقَعْقِعُ بِٱلْعَصَا عَلَىٰ جُحْرٍ فِيْهِ ٱلْحَيَّةُ ٱلسَّامَّةُ .

وَرَأَىٰ ٱلْمُتَفَلْسِفُ ٱلْكِتَابَ عَلَىٰ يَدِيْ ، فَتَهَلَّلَ وَٱسْتَبْشَرَ وَقَالَ لِيْ : هَـٰذَا نَسَبٌ بَيْنَنَا . . . فَأَدْرَكْتُ مِنْ كَلِمَتِهِ هَـٰذِهِ جُمْلَتَهُ وَتَفْصِيْلَهُ ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّيْ أَرَىٰ فِيْهِ نَفْسَهُ ٱلشَّرْقِيَّةَ كَٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُطَلَّقَةِ . . . فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا ٱشْتَرَيْتُ هَـٰذَا ٱلْكِتَابَ مِنْ أُوْرُبَّة ، وَلَـٰكِنِّيْ لَمْ أَشْتَرِ مِنْهَا دِمَاغِيْ . . .

وَكَلَّمْتُهُ أَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُ ؛ فَإِذَا هُوَ فِيْ قَوْمِهِ وَتَارِيْخِ قَوْمِهِ كَٱلسَّائِحِ فِيْ بِلَادٍ أَجْنَبِيَّةٍ : يَفْتَحُ لَهَا عَيْنَيْهِ وَلَا يَفْتَحُ لَهَا قَلْبَهُ .

* * *

وَكَانَ جَرِيْئًا فِيْ كَلَامِهِ مَعَ ٱلْبَاشَا ؛ يَطْرُدُ ٱلْقَوْلَ حَيْثُ شَاءَ حَقًّا وَبَاطِلًا ، ثُمَّ لَا سِنَادَ لِرَأْيِهِ وَلَا تَثْبِيْتَ لِحُجَّتِهِ إِلَّا قَوْلُ فُلَانٍ وَرَأْيُ فُلَانٍ ، كَأَنَّ فِيْ رَأْسِهِ عَقْلًا شَحَّاذًا . . . ثُمَّ ذَكَرَ آخِرَ ٱلْأَمْرِ مَا جَاءَ لَهُ ، فَخَجَّلَهُ ٱلْبَاشَا وَقَالَ : هَـٰذِهِ مَسْأَلَةٌ كَكُلِّ مَسَائِلِكَ : تَحْتَاجُ إِلَىٰ رَأْيِ فَيْلَسُوْفٍ أُوْرُبِّيٍّ . . . وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَدْخُلْ فِيْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ .

وَلَمَّا ٱنْصَرَفَ قَالَ ٱلْبَاشَا : يَحْسَبُ هَـٰذَا نَفْسَهُ عَالِمًا ، وَهُوَ صُعْلُوْكٌ عِلْمِيٌّ . . . وَإِنَّمَا

يَكُوْنُ دِمَاغُهُ وَأَدْمِغَةُ أَمْثَالِهِ عِنْدَ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلْعُلَمَاءِ ٱلَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَهُمْ كَمَا تَكُوْنُ سَلَّةُ ٱلْمُهْمَلَاتِ عِنْدَ ٱلصَّحَافِيِّيْنَ .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ يُتِمُّ ضَعْفَ عَقْلِهِ فِيْ ٱلرَّأْيِ بِقُوَّةِ عِنَادِهِ فِيْهِ ، لِيَجْعَلَ لَهُ ثَبَاتَ ٱلْحَقِيْقَةِ فَيُظَنَّ حَقِيْقَةً ، كَأَنَّ خَضْخَضَةَ ٱلْمَاءِ بِٱلْيَدِ فِيْ وِعَاءٍ صَغِيْرٍ يَنْقُلُ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْوِعَاءِ طَبِيْعَةَ ٱلْمَوْجِ ؛ وَعِنْدَ أَمْثَالِ هَـٰذَا ٱلْمَفْتُوْنِ مِنَ ٱلصَّعَالِيْكِ ٱلْعِلْمِيِّيْنَ ، أَنَّكَ إِذَا تَنَاوَلْتَ مَسْأَلَةً فَأَخْطَأْتَ فِيْهَا خَطَأً جَرِيْئًا ، فَقَدْ جَعَلْتَهَا بِخَطَئِكَ ٱلْجَرِيْءِ مَسْأَلَةً مِنَ ٱلْعِلْمِ . . . وَإِنَّكَ إِذَا عَانَدْتَ فَثَبَتَ ٱلْخَطَأُ فِيْ وَجْهِ ٱلنَّاقِدِيْنَ سَنَةً ، كَانَ حَقِيْقَةً مُدَّةَ سَنَةٍ . . .

هُمْ مَفْتُوْنُوْنَ زَائِغُوْنَ ، وَمِنْ فِتْنَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ ٱلْبُعْدَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ، كَٱلْبُعْدِ بَيْنَ ٱلْعَالِمِ وَٱلْجَاهِلِ ؛ وَلَوْ حَقَّقُوْا لَرَأَوْهُ بُعْدًا فِيْ ٱلْغَرَائِزِ لَا فِيْ ٱلْعَقْلِ ، أَيْ كَٱلْبُعْدِ بَيْنَ ٱلْفُجُوْرِ وَمَا أَشْبَهَ ٱلْفُجُوْرَ ، وَبَيْنَ ٱلتَّقْوَىٰ وَمَا أَشْبَهَ ٱلتَّقْوَىٰ .

زَعَمَ ٱلْأَحْمَقُ أَنَّ خَصْمَهُ ٱلْفَلَّاحَ رَجُلٌ رَاسِخٌ فِيْ ٱلْمَاضِيْ ، كَأَنَّهُ بَاقٍ فِيْ أَمْسِ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْهُ ؛ مَعَ أَنَّ أَمْسِ قَدِ ٱنْقَطَعَ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ إِلَىٰ أَنَّ ٱلْأُمَّةَ يَجِبُ أَنْ تَنْبِذَ مَاضِيَهَا ، ثُمَّ ٱدَّعَىٰ أَنَّ ٱلْإِسْلَامَ يَتَعَصَّبُ لِلْمَاضِيْ . هَـٰذِهِ ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ تَخْرُجُ مِنْهَا ٱلرَّابِعَةُ ٱلَّتِيْ سَكَتَ عَنْهَا . . .[(١)]

وَأَنَا لَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْخَرَ مِنْ مِثْلِ هَـٰذَا ٱلصُّعْلُوْكِ ٱلْعِلْمِيِّ ، لَمَا وَجَدْتُ فِيْ أَسَالِيْبِ ٱلسُّخْرِيَةِ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْهِ بِقَارُوْرَةٍ فَارِغَةٍ وَأَقُوْلَ لَهُ : ٱمْلَأْهَا لِيْ مِنْ آرَاءِ ٱلْفَلَاسِفَةِ . . .

يَغْفُلُ هَـٰذَا وَأَمْثَالُهُ عَنْ أَنَّ ٱلدِّيْنَ ٱلْإِسْلَامِيَّ لَا يَعْرِفُ ٱلْمَاضِيَ بِمَعْنَىٰ مَا مَضَىٰ عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ ؛ بَلْ هُوَ يَشْتَرِطُ فِيْهِ أَلَّا يُخَالِفَ ٱلْعَقْلَ وَلَا ٱلْعِلْمَ ، وَأَلَّا يُنَاقِضَ ٱلْهِدَايَةَ ؛ ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٠] وَفِيْ ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَىٰ : ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟﴾ [٥ سورة المائدة/ الآية : ١٠٤] وَفِيْ ٱلثَّالِثَةِ : ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا

(١) ٱلرَّابِعَةُ ٱلَّتِيْ يَسْتَلْزِمُهَا هَـٰذَا ٱلسِّيَاقُ ٱلْمَنْطِقِيُّ : هِيَ تَجَرُّدُ ٱلْأُمَّةِ مِنَ ٱلدِّيْنِ ، وَذَلِكَ مَا يَعْمَلُ لَهُ بَعْضُ ٱلصَّعَالِيْكِ ٱلْعِلْمِيِّيْنَ .

عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ؟﴾ [٣١ سورة لقمان/ الآية : ٢١] وَفِي ٱلرَّابِعَةِ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ؟﴾ [٤٣ سورة الزخرف/ الآيتان : ٢٣ و٢٤] .

فَٱنْظُرْ كَيْفَ صَوَّرَ مَا نُسَمِّيهِ ٱلْيَوْمَ بِٱلْجُمُوْدِ فِي قَوْلِهِ : (حَسْبُنَا) ، وَكَيْفَ صَوَّرَ مَا نُسَمِّيهِ بِٱلرَّجْعِيَّةِ فِي قَوْلِهِ : (نَتَّبِعُ) ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ رَفَضَ ٱلْجُمُوْدَ وَٱلرَّجْعِيَّةَ مَعًا فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْهِدَايَةِ ، أَيْ : فِي آثَارِهَا مِنَ ٱلْعُلُوْمِ وَٱلْمُخْتَرَعَاتِ وَٱلْفَضَائِلِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَكَيْفَ أَبْطَلَ فِي تِلْكَ ٱلثَّلَاثِ ٱلِاحْتِجَاجَ بِٱلْمَاضِي بِهَٰذَا ٱلْأُسْلُوْبِ ٱلدَّقِيْقِ ٱلْعَالِي ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي كُلِّ آيَةٍ : أَوَلَوْ ، أَوَلَوْ . لَمْ يُغَيِّرْهَا ؛ بَلْ كَرَّرَهَا بِلَفْظِهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ .

فَٱلْمُعْجِزُ هُنَا مَجِيْءُ ٱلْآيَاتِ بِهَٰذِهِ ٱلصُّوْرَةِ ٱلْمَنْطِقِيَّةِ لِإِسْقَاطِ حُجَّتِهِمْ ، وَنَفْيِ مَعْنَى ٱلتَّقْدِيْسِ عَنِ ٱلْمَاضِي فِيْهِنَّ ؛ إِذْ كَانَ ٱلْعِلْمُ دَائِمَ ٱلتَّغَيُّرِ ، وَكَانَ ٱلْعَقْلُ دَائِمَ ٱلتَّجْدِيْدِ وَٱلْإِبْدَاعِ ، وَكَانَتِ ٱلْهِدَايَةُ شَدِيْدَةً عَلَىٰ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ مَاضِي ٱلنَّفْسِ ؛ فَكَأَنَّهَا جَدِيْدَةٌ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ شَهْوَةٍ .

إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ بِمَاضِيْهِ وَحَاضِرِهِ كَأَنَّهُ مَقْسُوْمٌ قِسْمَيْنِ ، يَقُوْلُ أَحَدُهُمَا : أُرِيْدُ أَنْ أَكُوْنَ . وَيَقُوْلُ ٱلْآخَرُ : أَنَا قَدْ كُنْتُ . فَٱلْإِسْلَامُ بِهَٰذِهِ ٱلْآيَاتِ قَدْ أَوْجَبَ وَزْنَ ٱلْكَلِمَتَيْنِ فِي كُلِّ زَمَنٍ بِمَا هُوَ ٱلْأَصَحُّ ، وَبِمَا هُوَ ٱلْأَنْفَعُ ، وَبِمَا هُوَ ٱلْأَهْدَىٰ ؛ وَبِٱشْتِرَاطِهِ ٱلْهِدَايَةَ فِي جَمِيْعِهَا أَشَارَ إِلَىٰ أَنَّ ٱلْكَمَالَ ٱلنَّفْسِيَّ لِلْفَرْدِ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ مُرْتَبِطًا بِٱلْكَمَالِ ٱلْإِنْسَانِيِّ لِلْجِنْسِ .

وَهَٰذَا مَعْنًى عَجِيْبٌ ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ مَا تَرَىٰ مِنْ أَنَّ ٱلْإِسْلَامَ قَدْ أَصْلَحَ فِكْرَةَ ٱلْمَاضِي ؛ فَنَقَلَهَا مِنْ مَعْنَىٰ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأَجْدَادِ لِلنَّاسِ ، إِلَىٰ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلْآبَاءِ وَٱلْأَجْدَادِ لِإِنْسَانِيَّةِ ٱلنَّاسِ . وَٱلْأَخْذُ (بِٱلْأَهْدَىٰ) فِي ٱجْتِمَاعِ أُمَّةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ ، إِنَّمَا هُوَ بِعَيْنِهِ نَامُوْسُ ٱلتَّرَقِّي وَٱلتَّطَوُّرِ .

وَمِنْ أَدَقِّ ٱلْأَسْرَارِ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [٤٣ سورة الزخرف/ الآية : ٢٢ و٢٣] . فَكَلِمَةُ (أُمَّةٍ) هَٰذِهِ لَمْ يَعْرِفْهَا أَحَدٌ عَلَىٰ حَقِيْقَتِهَا ، وَلَمْ تُفَسِّرْهَا إِلَّا عُلُوْمُ هَٰذَا ٱلزَّمَنِ ، فَهِيَ ٱلْمَشَاعِرُ ٱلنَّفْسِيَّةُ ٱلَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا مِزَاجُ ٱلشَّعْبِ ، وَفِيْهَا يَسْتَقِرُّ ٱلْمَاضِي ؛ كَأَنَّ

ٱلْآيَةَ قَدْ عَبَّرَتْ بِآخِرِ مَا ٱنْتَهَىٰ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ ٱلنَّفْسِ : مِنْ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱبْنُ أَبَوَيْهِ وَٱبْنُ شَعْبِهِ أَيْضًا .

فَٱلتَّعَصُّبُ فِي ٱلْإِسْلَامِ هُوَ لِلْعِلْمِ ٱلنَّافِعِ ، وَلِلْمَجْدِ ٱلصَّحِيْحِ ، وَلِلْهِدَايَةِ ٱلْبَاعِثَةِ عَلَىٰ ٱلْكَمَالِ ؛ وَتَعَصُّبُ ٱلْجِيْلِ لِمِثْلِ هَٰذَا فِي مَاضِيْهِ ، هُوَ فِي ٱسْمِهِ تَعَصُّبٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ فِي مَعْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْعَمَلُ لِتَسْلِيْمِ مَجْدِ ٱلْأُمَّةِ إِلَىٰ ٱلْجِيْلِ ٱلتَّالِي .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيْثُ ٱلْبَاشَا : ٨

ٱلْمُعْجَمُ ٱلسِّيَاسِيُّ (*)

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا قَالَ : كُنَّا فِي سَنَةِ ١٩٢٠ ، وَهِيَ بِنْتُ سَنَةِ ١٩١٩[1] ؛ وَقَدِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْأُمَّةُ عَلَىٰ مُقَاطَعَةِ لَجْنَةِ مِلْنَرْ[2] Milner لَا تُكَلِّمُهَا ، فَجَعَلَتِ ٱلسُّكُوْتَ ثَوْرَةً ، وَأَعْلَنَ ٱلشَّعْبُ أَنَّ كَلِمَتَهُ فِي لِسَانِ ٱلْوَفْدِ يَنْطِقُ ٱلْوَفْدُ بِهَا نُطْقَ ٱلنَّبِيِّ بِمَا يُوْحَىٰ إِلَيْهِ ، فَمَا يَكُوْنُ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ أَنْ يَقُوْلَهَا ، وَلَا أَنْ يَقُوْلَ أُوْحِيَ إِلَيَّ . وَأَبَىٰ ٱللُّوْرْدُ مِلْنَرْ Milner أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّ لِلْمِصْرِيِّيْنَ إِجْمَاعًا يُعْتَدُّ بِهِ ، وَأَنَّهُمْ دَخَلُوْا فِي ٱلسِّيَاسَةِ دُخُوْلًا ثَابِتًا فَرَسَخُوْا فِيْهَا ، وَأَنَّهُمْ أَصْبَحُوْا مَعَ ٱلْإِنْكِلِيْزِ كَٱلْإِنْكِلِيْزِ ٱلَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِي مَثَلِهِمُ ٱلسَّائِرِ : يَنْبَغِي أَنْ نَكُوْنَ أَحْرَارًا مِثْلَ أَعْمَالِنَا .

(*) « الرسالة » العدد : ١٦٩ ، ١٢ شهر رجب سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٥٦١ ـ ١٥٦٣ .

(١) سَنَةُ ٱلثَّوْرَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ، وَقَدْ مَرَّ وَصْفُهَا فِي مَقَالَةِ « ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمُحَارِبَةُ » .

(٢) هو ألفريد ملنر Alfred Milner (١٨٥٤ ـ ١٩٢٥ م) سياسي بريطاني ، رَأَسَ لجنة باسمه .

وَزَعَمَ ٱللُّوْرْدُ لِنَفْسِهِ ، أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلأَحْزَابَ ٱلْمِصْرِيَّةَ لَا يَتَّفِقُ مِنْهَا ٱثْنَانِ أَبَدًا إِلَّا كَانَ بَيْنَهُمَا ثَالِثٌ يَخْتَلِفَانِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ ٱلطَّمَعُ فِيْ مَنَاصِبِ ٱلْحُكْمِ ؛ وَٱسْتُخْرِجَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ٱلْمِصْرِيَّ وَٱلْمِصْرِيَّ كَشِقَّيْ ٱلْمِقْرَاضِ : لَا يَتَحَرَّكَانِ فِيْ عَمَلٍ إِلَّا عَلَىٰ تَمْزِيْقِ شَيْءٍ بَيْنَهُمَا ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا (ٱلشَّيْءُ) لَمْ يَكُنْ مِنْهُمَا شَيْءٌ .

وَذَهَبَ ٱلرَّجُلُ يَتَظَنَّىٰ وَيَحْدِسُ عَلَىٰ مَا يُخَيِّلُ لَهُ ٱلظَّنُّ ، وَقَدْ حَسِبَ أَنَّ إِنْكِلْتِرَة يَحِقُّ لَهَا أَنْ تَقُوْلَ فِيْ ٱلْمِصْرِيِّيْنَ مَا يَقُوْلُ ٱللهُ فِيْ خَلْقِهِ كَمَا وَرَدَ فِيْ ٱلأَثَرِ : « إِنَّمَا يَتَقَلَّبُوْنَ فِيْ قَبْضَتِيْ » . وَكَمَا تَقُوْلُ ٱلْيَوْمَ لِأَهْلِ فِلَسْطِيْنَ مِنَ ٱلْعَرَبِ : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٤ سورة إبراهيم/ الآية : ١٩ و٣٥ سورة فاطر/ الآية : ١٦] . . . وَكَانَ ٱللُّوْرْدُ هَـٰذَا رَجُلًا مُمَارِسًا لِمَشَاكِلِ ٱلسِّيَاسَةِ ، دَخَّالًا فِيْهَا ، دَاهِيَةً مِنْ دُهَاةِ ٱلْقَوْمِ ، لَهُ فِيْ قَلْبِهِ عَيْنَانِ وَأُذُنَانِ غَيْرُ مَا فِيْ وَجْهِهِ كَحُذَّاقِ ٱلسِّيَاسِيِّيْنَ ؛ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ سِيَاسَةَ قَوْمِهِ لَا تَدْخُلُ فِيْ شَيْءٍ إِلَّا دُخُوْلَ ٱلإِبْرَةِ بِخَيْطِهَا فِيْ ٱلثَّوْبِ ، إِنْ خَرَجَتْ هِيَ تَرَكَتِ ٱلْخَيْطَ وَقَدْ جَمَعَ وَشَدَّ . . . فَأَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَ مَذْهَبَ ٱلْمِصْرِيِّيْنَ فِيْ إِجْمَاعِهِمْ عَلَىٰ ٱلاسْتِقْلَالِ ، وَقَدَّرَ أَنَّهُ وَاجِدٌ مِنَ ٱلْفَلَّاحِيْنَ عَوْنًا لَهُ وَمَادَّةً لِمَكْرِهِ ٱلسِّيَاسِيِّ ، وَحَسِبَ ٱلْوَفْدَ صُوْرَةً جَدِيْدَةً مِنْ طَبَقَةِ (ٱلْبَاشَوَاتِ) ٱلْقَدِيْمَةِ ، يَنْزِلُوْنَ مِنَ ٱلشَّعْبِ مَنْزِلَةَ ٱلْيَدِ ٱلَّتِيْ تُمْسِكُ ٱلْقَيْدَ ، مِنَ ٱلرِّجْلِ ٱلَّتِيْ فِيْهَا ٱلْقَيْدُ ، وَيَضَعُوْنَ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ ٱلْحَاجَةِ فِيْ كَلِمَةِ ٱلسِّيَاسَةِ ، وَيَقُوْلُوْنَ : ٱلْوَطَنَ ، وَهُمْ يُرِيْدُوْنَ ٱلْجَاهَ ، وَيُقِيْمُوْنَ ٱلشَّعْبَ كَٱلسُّلَّمِ يَنْتَصِبُ قَائِمًا بِأَيْدِيْهِمْ لِيَحْمِلَ أَرْجُلَهُمُ ٱلصَّاعِدَةَ عَلَيْهِ .

فَجَاءَ ٱللُّوْرْدُ إِلَىٰ مِصْرَ ، فَوَجَدَ ٱلأُمَّةَ كُلَّهَا قَدْ حَذِرَتْ مِنْهُ وَتَيَقَّظَتْ لَهُ ، حَتَّىٰ نَصَحَهُ رُشْدِيْ بَاشَا بِأَنَّهُ لَنْ يَجِدَ فِيْ مِصْرَ هِرَّةً تُفَاوِضُهُ ؛ وَلَـٰكِنَّهُ كَانَ مُسْتَيْقِنًا أَنَّ أُذُنَ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلإِنْكِلِيْزِيَّةِ (كَالرَّادِيُو) لِصَوْتَيْنِ : صَوْتِ ٱلدَّنَانِيْرِ وَصَوْتِ ٱلْجَمَاهِيْرِ ، فَمَرَّ فِيْ ٱلْبِلَادِ يَرْسُمُ عَلَىٰ ٱلْهَوَاءِ عَلَامَاتِ ٱسْتِفْهَامٍ ، وَٱنْصَفَقَ عَنْهُ ٱلنَّاسُ وَأَهْمَلُوْهُ ، وَكَانَ يَسِيْرُ فِيْ دَائِرَةِ ٱلصَّمْتِ ٱلَّتِيْ مَرْكَزُهَا أَبُوْ ٱلْهَوْلِ ، فَبَدَأَ وَظَلَّ يَبْدَأُ حَتَّىٰ ٱنْتَهَىٰ وَمَا زَالَ يَبْدَأُ . . . وَسَاحَ فِيْ ٱلْبِلَادِ سِيَاحَةً طَوِيْلَةً ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يُسَافِرْ إِلَّا مِنْ شَفَةِ أَبِيْ ٱلْهَوْلِ ٱلسُّفْلَىٰ إِلَىٰ شَفَتِهِ ٱلْعُلْيَا . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَجَاءَ ٱللُّوْرْدُ لِمُقَابَلَةِ ٱلْبَاشَا ، فَمَرَّ عَلَيَّ مُرُوْرَ كِتَابٍ مُقْفَلٍ : لَا أَعْرِفُ مِنْهُ إِلَّا ٱلْعُنْوَانَ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ رَجُلٌ بِمِقْدَارِ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِيْ يُخَالِفُ أُمَّةً كَامِلَةً تَكَادُ تَحْسَبُهُ مَطْوِيًّا عَلَىٰ زَوْبَعَةٍ ، وَتَرَىٰ لَهُ قُوَّتَيْنِ تُحِسُّ مِنْ أَثَرِهِمَا ٱلرَّهْبَةَ وَٱلإِعْجَابَ ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَهُ قُلْتَ : إِنَّ ٱللُّطْفَ وَٱلظَّرْفَ أَضْعَفُ شَمَائِلِهِ ، وَإِنَّ ٱلدَّهَاءَ وَٱلْحِيْلَةَ أَقْوَىٰ مَوَاهِبِهِ .

فَلَمَّا لَقِيْتُ ٱلْبَاشَا مِنَ ٱلْغَدِ ، سَأَلَنِيْ : كَيْفَ رَأَيْتَ ٱللُّوْرْدَ مِلْنَرْ Milner ؟ فَقُلْتُ : وَٱللهِ يَا بَاشَا إِنَّهُ كَٱلضَّرُوْرَةِ ، مَا يَتَمَنَّاهَا أَحَدٌ وَلَـٰكِنَّهَا تَجِيْءُ . . .

فَضَحِكَ ٱلْبَاشَا وَقَالَ : يَا لَيْتَ لَنَا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّيْنَ { كُلَّ يَوْمٍ } ضَرُوْرَةً تَصْنَعُ مَا صَنَعَ ٱللُّوْرْدُ ؛ إِنَّهُ كَشَفَ لَنَا فِيْ ذَاتِ أَنْفُسِنَا عَنْ حَقِيْقَةٍ مِنْ أَسْمَىٰ ٱلْحَقَائِقِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ : وَهِيَ أَنَّ ٱلشَّعْبَ ٱلَّذِيْ يُصِرُّ وَلَا يَزَالُ يُصِرُّ ، يَجْعَلُ ٱلإِغْرَاءَ لَا يُغْرِيْ وَٱلْخَوْفَ لَا يُخِيْفُ .

وَيَا لَيْتَ ٱلأُمَمَ ٱلشَّرْقِيَّةَ تَتَعَلَّمُ هَـٰذَا ٱلصَّمْتَ ٱلسِّيَاسِيَّ عَنْ مُجَاوَبَةِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلاسْتِعْمَارِيَّةِ أَحْيَانًا ؛ فَإِنَّ صَمْتَ ٱلأُمَّةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ عَنْ جَوَابِ (مِلْنَرْ Milner) ، كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ قُدْرَةَ ٱلأُمَّةِ هِيَ ٱلْمُتَكَلِّمَةُ كَلَامَهَا بِهَـٰذَا ٱلصَّمْتِ ، تُعْلِنُ لِلْعَالَمِ أَنَّ ٱلْوَاجِبَ ٱلشَّعْبِيَّ قَدْ وَضَعَ قُفْلَهُ عَلَىٰ كُلِّ فَمٍ .

وَقَدْ فَسَّرَ ٱللُّوْرْدُ هَـٰذَا ٱلسُّكُوْتَ بِتَفْسِيْرِهِ ٱلسِّيَاسِيِّ ، فَأَدْرَكَ مِنْهُ أَنَّ فِيْ ٱلشَّعْبِ أَنَفَةً وَحَمِيَّةً وَقُوَّةً ، وَأَنَّ حِسَابَ ٱلضَّمِيْرِ ٱلْوَطَنِيِّ أَصْبَحَ لِهَـٰذِهِ ٱلأَفْئِدَةِ كَٱلْحِسَابِ ٱلإِلَـٰهِيِّ لِلنُّفُوْسِ ٱلْمُؤْمِنَةِ : كِلَاهُمَا مُسْتَعْلِنٌ يُخَافُ وَيُتَّقَىٰ ، وَكِلَاهُمَا لَهُ كَلِمَةٌ مُحَرَّمَةٌ .

أَيَّةُ مُعْجِزَةٍ هَـٰذِهِ ٱلَّتِيْ جَعَلَتْ كَلِمَةَ ٱلأَجْنَبِيِّ تَتَّخِذُ فِيْ أَذْهَانِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ شَكْلَ قَائِلِهَا ، فَٱجْتَمَعَتْ لَهَا ٱلْبِلَادُ[١] عَلَىٰ مَعْنَىٰ ٱلرَّفْضِ ، وَأَصْبَحَ كُلُّ فَرْدٍ يَعْرِفُ مَحَلَّهُ مِنَ ٱلْكُلِّ ، وَخَضَعَتِ ٱلطَّبَائِعُ بِجُمْلَتِهَا لِقَانُوْنِ ٱلْعِزَّةِ ٱلْقَوْمِيَّةِ ، ٱلَّذِيْ يُلْزِمُهَا أَلَّا تَخْضَعَ لِلأَجْنَبِيِّ ؟

إِنَّ ٱلأُمَمَ بَعْضُ مَسَائِلَ نَفْسِيَّةٍ كَهَـٰذِهِ ٱلْمَسْأَلَةِ ؛ فَلَوْ أَنَّ لَنَا خَمْسَةَ دُرُوْسٍ سِيَاسِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « ٱلْجُلودُ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْبِلَادُ » .

كَدَرْسِ (مِلْنَرْ Milner) ، لَكَانَتْ لَنَا فِي ٱلإِيمَانِ ٱلْوَطَنِيِّ كَٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ .

وَٱلآنَ تَعَلَّمَتِ ٱلأُمَّةُ أَنَّ ٱلشَّعْبَ ٱلْعَزِيزَ هُوَ ٱلَّذِي يَنْظُرُ فِي فَضِّ مَشَاكِلِهِ إِلَى ٱلْحَلِّ وَإِلَىٰ طَرِيقَةِ ٱلْحَلِّ أَيْضًا ، وَقَدْ كَانَ (مِلْنَرْ Milner) هُوَ أَوَّلَ أَسَاتِذَتِنَا فِي تَعْلِيمِنَا ٱلطَّرِيقَةَ .

وَهَـٰذَا ٱلدَّرْسُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَرْسًا لِلشَّرْقِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلاسْتِعْمَارِيَّةَ قَائِمَةٌ فِيهِ عَلَىٰ خِدَاعِ ٱلطَّرِيقَةِ فِي حَلِّ مَشَاكِلِهِ ، فَيَحُلُّونَهَا وَيَعْقِدُونَهَا فِي نَصٍّ وَاحِدٍ ؛ وَيُثْبِتُ ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ أَنَّ ٱلْمُرَادَ مِنْهُ زَوَالُ ٱلْخِلَافِ ، وَيُثْبِتُ ٱلْعَمَلُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ ٱلْمُرَادَ كَانَ زَوَالَ ٱلْمُقَاوَمَةِ .

وَفِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلأُورُبِّيَّةِ مُوَافَقَاتٌ دَمِيمَةٌ كَٱلنِّسَاءِ ٱلْمُشَوَّهَاتِ ، فَإِذَا عَرَضُوا وَاحِدَةً مِنْهَا عَلَىٰ مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يُزَوِّجُوهُ . . . فَأَبَاهَا وَفَتَحَ لَهَا عَيْنَيْهِ بِكُلِّ مَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ ٱلإِبْصَارِ ، أَعْفَوْهُ مِنْهَا وَقَالُوا لَهُ : سَنَأْتِيكَ بِٱلْجَمِيلَةِ ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ بِهَا إِلَىٰ مَعْهَدِ ٱلتَّجْمِيلِ ٱللُّغَوِيِّ ، فَيُصَقِّلُونَهَا وَيُصَبِّغُونَهَا ، وَيَضَعُونَ لَهَا أَحْمَرَ ٱلسِّيَاسَةِ وَأَبْيَضَهَا ، ثُمَّ يَعْرِضُونَهَا جَدِيدَةً عَلَىٰ صَاحِبِهِمْ ذَاكَ ، وَمَا صَنَعُوا مَا بِهِ صَارَتِ ٱلدَّمِيمَةُ غَيْرَ دَمِيمَةٍ ، وَلَـٰكِنْ مَا بِهِ رَجَعَ غَيْرُ ٱلأَعْمَىٰ كَٱلأَعْمَىٰ .

وَلَهُمْ عُقُولٌ عَجِيبَةٌ فِي ٱخْتِرَاعِ ٱلأَلْفَاظِ ، حَتَّىٰ لَتَكُونُ شِدَّةُ ٱلْوُضُوحِ فِي عِبَارَةٍ ، هِيَ بِعَيْنِهَا ٱلطَّرِيقَةَ لإِخْفَاءِ ٱلْغُمُوضِ فِي عِبَارَةٍ أُخْرَىٰ . وَكَثِيرًا مَا يَأْتُونَ بِأَلْفَاظٍ مُنْتَفِخَةٍ تُحْسَبُ جَزْلَةً بَادِنَةً قَدْ مَلأَهَا مَعْنَاهَا ، وَهِيَ فِي ٱلسِّيَاسَةِ أَلْفَاظٌ حُبَالَىٰ ، تَسْتَكْمِلُ حَمْلَهَا مُدَّةً ثُمَّ تَلِدُ . . .

وَلَهُمْ مِنْ بَعْضِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ ، كَمَا لَهُمْ مِنْ بَعْضِ ٱلرِّجَالِ ٱلسِّيَاسِيِّينَ ؛ فَيَكُونُ ٱلرَّجُلُ مِنْ دُهَاتِهِمْ رَجُلًا كَٱلنَّاسِ ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ مِسْمَارٌ دَقُّوهُ فِي أَرْضِ كَذَا أَوْ مَمْلَكَةِ كَذَا ، وَيَكُونُ ٱللَّفْظُ لَفْظًا كَٱللُّغَةِ ، وَهُوَ مِسْمَارٌ دَقُّوهُ فِي وَثِيقَةٍ أَوْ مُعَاهَدَةٍ .

ثُمَّ ضَحِكَ ٱلْبَاشَا وَقَالَ : إِنَّ أَرْضَنَا تُخْرِجُ ٱلْقُطْنَ ، وَسِيَاسَتَنَا تُخْرِجُ أَلْفَاظًا كَٱلْقُطْنِ :

لَا تُوضَعُ فِي ٱلْمِغْزَلِ إِلَّا مَدَّتْ وَتَحَوَّلَتْ[1] . وَإِذَا ذَهَبْنَا نُخَالِفُهُمْ فِي ٱلتَّأْوِيلِ وَٱلتَّفْسِيرِ ، لَمْ نَجِدْ عِنْدَنَا ٱلْمُعْجَمَ ٱلسِّيَاسِيَّ ٱلَّذِي يُمْلِي ٱلنَّصَّ . أَتَدْرِي يَا بُنَيَّ مَا هُوَ ٱلْمُعْجَمُ ٱلسِّيَاسِيُّ ؟

أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ كِتَابًا يَتَأَلَّفُ مِنْ مِلْيَوْنِ كَلِمَةٍ ، لَذَهَبَتْ كُلُّهَا عَبَثًا وَبَاطِلًا وَهُرَاءً ، وَلَـٰكِنَّهُ ذَلِكَ ٱلْمُعْجَمُ ٱلْحَيُّ ، ذَلِكَ ٱلْمُعْجَمُ ٱلَّذِي يَتَأَلَّفُ مِنْ مِلْيَوْنِ جُنْدِيٍّ . . . . .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيثُ ٱلْبَاشَا : ٩

ٱللِّسَانُ ٱلْمُرَقَّعُ(*) . . .

وَقَالَ صَاحِبُ سِرٍّ (م) بَاشَا : جَاءَ « حَضْرَةُ صَاحِبِ ٱلسَّعَادَةِ » فُلَانٌ لِزِيَارَةِ ٱلْبَاشَا ؛ وَهُوَ رَجُلٌ مِصْرِيٌّ وُلِدَ فِي بَعْضِ ٱلْقُرَىٰ ، مَا نَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ (تَعَالَىٰ) مَيَّزَهُ بِجَوْهَرٍ غَيْرِ ٱلْجَوْهَرِ ، وَلَا طَبْعٍ غَيْرِ ٱلطَّبْعِ ، وَلَا تَرْكِيبٍ غَيْرِ ٱلتَّرْكِيبِ ، وَلَا زَادَ فِي دَمِهِ نُقْطَةَ زَهْوٍ ، وَلَا وَضَعَهُ مَوْضِعَ ٱلْوَسَطِ بَيْنَ فَنَّيْنِ مِنَ ٱلْخَلِيقَةِ . غَيْرَ أَنَّهُ زَارَ فَرَنْسَة ، وَطَافَ بِإِنْكِلْتَرَة ، وَسَاحَ فِي إِيطَالِيَة ، وَعَاجَ عَلَىٰ أَلْمَانِيَة ، وَلَوَّنَ نَفْسَهُ أَلْوَانًا ، فَهُوَ مِصْرِيٌّ مُلَوَّنٌ . وَمِنْ ثَمَّ كَانَ لَا يَرَىٰ فِي بِلَادِهِ وَقَوْمِهِ إِلَّا ٱلْفُرُوقَ بَيْنَ مَا هُنَا وَبَيْنَ مَا هُنَاكَ ، فَمَا يَظْهَرُ لَهُ دِينُ قَوْمِهِ إِلَّا مُقَابِلًا لِشَهَوَاتٍ أَحَبَّهَا وَغَامَرَ فِيهَا ، وَلَا لُغَةُ قَوْمِهِ إِلَّا مَقْرُونَةً بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ وَدَّ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَلَا تَارِيخُ قَوْمِهِ إِلَّا مُعْمًى عَلَيْهِ . . . كَٱلْمَيِّتِ بَيْنَ تَوَارِيخِ ٱلأُمَمِ .

(1) [لا يَنْسَ ٱلْقَارِئُ أَنَّ هَذَا كَانَ فِي سَنَةِ ١٩٢٠م] .

(*) « الرسالة » العدد : ١٨١ ، ٧ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ٢١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٢٠٦١ ـ ٢٠٦٣ .

هُوَ كَغَيْرِهِ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُتْرَفِينَ ٱلْمُنَعَّمِينَ : مِصْرِيُّ ٱلْمَالِ فَقَطْ ، إِذْ كَانَتْ أَسْبَابُهُمْ وَمُسْتَغَلَّاتُهُمْ فِيْ مِصْرَ ؛ عَرَبِيُّ الاسْمِ لَا غَيْرُ ، إِذْ كَانَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مِنْ جِنَايَةِ أَهْلِيهِمْ بِٱلطَّبِيعَةِ ؛ مُسْلِمٌ مَا مَضَىٰ دُوْنَ مَا هُوَ حَاضِرٌ ، إِذْ كَانَ لَا حِيْلَةَ فِيْ أَنْسَابِهِمْ ٱلَّتِيْ ٱنْحَدَرُوْا مِنْهَا .

هُوَ كَغَيْرِهِ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُتْرَفِينَ ٱلْمُنَعَّمِينَ ٱلْمَفْتُوْنِيْنَ بِٱلْمَدَنِيَّةِ : لِكُلٍّ مِنْهُمْ جِنْسُهُ ٱلْمِصْرِيُّ وَلِفِكْرِهِ جِنْسٌ آخَرُ .

قَالَ : وَكَانَ حَضْرَةُ صَاحِبِ ٱلسَّعَادَةِ يُكَلِّمُ ٱلْبَاشَا بِٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلَّتِيْ تَلْعَنُهَا ٱلْعَرَبِيَّةُ ، مُرْتَفِعًا بِهَا عَنْ لُغَةِ ٱلْفَصِيْحِ ٱرْتِفَاعًا مُنْحَطًّا . . . نَازِلًا بِهَا عَنْ لُغَةِ ٱلسُّوْقَةِ نُزُوْلًا عَالِيًا . . . فَكَانَ يَرْتَضِخُ لُكْنَةً أَعْجَمِيَّةً ، بَيْنَا هِيَ فِيْ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ جَرَسٌ عَالٍ يَطِنُّ ، إِذَا هِيَ فِيْ لَفْظٍ آخَرَ صَوْتُ مَرِيْضٍ يَئِنُّ ، إِذَا هِيَ فِيْ كَلِمَةٍ ثَالِثَةٍ نَغَمٌ مُوْسِيقِيٌّ يَرِنُّ . وَرَأَيْتُهُ يَتَكَلَّفُ نِسْيَانَ بَعْضِ ٱلْجُمَلِ ٱلْعَرَبِيَّةِ لِيَلْوِيَ لِسَانَهُ بِغَيْرِهَا مِنَ ٱلْفِرَنْسِيَّةِ ، لَا تَظَرُّفًا وَلَا تَمَلُّحًا وَلَا إِظْهَارًا لِقُدْرَةٍ أَوْ عِلْمٍ ، وَلَـٰكِنِ ٱسْتِجَابَةً لِلشُّعُوْرِ ٱلْأَجْنَبِيِّ ٱلْخَفِيِّ ٱلْمُتَمَكِّنِ فِيْ نَفْسِهِ . فَكَانَتْ وَطَنِيَّةُ عَقْلِهِ تَأْبَىٰ إِلَّا أَنْ تُكَذِّبَ وَطَنِيَّةَ لِسَانِهِ ، وَهُوَ بِإِحْدَاهُمَا زَائِفٌ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، وَبِٱلْأُخْرَىٰ زَائِفٌ عَلَىٰ غَيْرِ قَوْمِهِ .

* * *

فَلَمَّا ٱنْصَرَفَ ٱلرَّجُلُ قَالَ ٱلْبَاشَا : أُفٍّ لِهَـٰذَا وَأَمْثَالِ هَـٰذَا ! أُفٍّ لَهُمْ وَلِمَا يَصْنَعُوْنَ ! إِنَّ هَـٰذَا ٱلْكَبِيْرَ يُلَقِّبُوْنَهُ «حَضْرَةُ صَاحِبِ ٱلسَّعَادَةِ» ، وَلَأَشْرَفُ مِنْهُ وَٱللهِ رَجُلٌ قَرَوِيٌّ سَاذَجٌ يَكُوْنُ لَقَبُهُ «حَضْرَةُ صَاحِبِ ٱلْجَامُوْسَةِ» . . . نَعَمْ إِنَّ ٱلْفَلَّاحَ عِنْدَنَا جَاهِلُ عِلْمٍ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا أَقْبَحُ مِنْهُ جَهْلًا ، فَإِنَّهُ جَاهِلُ وَطَنِيَّةٍ .

ثُمَّ إِنَّ ٱلْجَامُوْسَةَ وَصَاحِبَهَا عَامِلَانِ دَائِبَانِ مُخْلِصَانِ لِلْوَطَنِ ؛ فَمَا هُوَ عَمَلُ حَضْرَةِ (صَاحِبِ ٱللِّسَانِ ٱلْمُرَقَّعِ) هَـٰذَا ؟ إِنَّ عَمَلَهُ أَنْ يُعْلِنَ بِرَطَانَتِهِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ أَنَّ لُغَةَ وَطَنِهِ ذَلِيْلَةٌ مَهِيْنَةٌ ، وَأَنَّهُ مُتَجَرِّدٌ مِنَ ٱلرُّوْحِ ٱلسِّيَاسِيِّ لِلُغَةِ قَوْمِهِ ؛ إِذْ لَا يَظْهَرُ ٱلرُّوْحُ ٱلسِّيَاسِيُّ لِلُغَةٍ مَا ، إِلَّا فِيْ ٱلْحِرْصِ عَلَيْهَا وَتَقْدِيْمِهَا عَلَىٰ سِوَاهَا .

كَانَ ٱلْوَاجِبُ عَلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا أَلَّا يَتَكَلَّمَ فِيْ بِلَادِهِ إِلَّا بِلُغَتِهِ ، وَكَانَ ٱلَّذِيْ هُوَ أَوْجَبُ أَنْ يَتَعَصَّبَ لَهَا عَلَىٰ كُلِّ لُغَةٍ تُزَاحِمُهَا فِيْ أَرْضِهَا ، فَتَرَكَ هَـٰذَا وَهَـٰذَا وَكَانَ هُوَ ٱلْمُزَاحِمَ بِنَفْسِهِ ؛ فَهُوَ عَلَىٰ أَنَّهُ «حَضْرَةُ صَاحِبِ سَعَادَةٍ» ، لَا يُنْزِلُ نَفْسَهُ مِنَ ٱللُّغَةِ ٱلْقَوْمِيَّةِ إِلَّا مَنْزِلَةَ خَادِمٍ أَجْنَبِيٍّ فِيْ حَانَةٍ .

أَتَدْرِيْ مَا هُوَ سِرُّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْكُبَرَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ ٱلسَّرَاةِ ٱلَّذِيْنَ يُطَمْطِمُوْنَ إِذَا تَكَلَّمُوْا فِيْمَا بَيْنَهُمْ ؟ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا طَبَقَاتٌ :

أَمَّا وَاحِدَةٌ ، فَإِنَّهُمْ يَصْنَعُوْنَ هَـٰذَا ٱلصَّنِيْعَ مُنْجَذِبِيْنَ إِلَىٰ أَصْلٍ رَاسِخٍ فِيْ طِبَاعِهِمْ ، مِمَّا تَرَكَهُ ٱلظُّلْمُ وَٱلاسْتِبْدَادُ وَٱلْحُمْقُ فِيْ زَمَنِ ٱلْحُكْمِ ٱلتُّرْكِيِّ ؛ فَهُمْ يُبْدُوْنَ جَوْهَرَ نُفُوْسِهِمْ لِأَعْيُنِهِمْ وَأَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ، كَأَنَّ ٱللُّغَةَ ٱلأَجْنَبِيَّةَ فِيْمَا بَيْنَهُمْ عَلَامَةُ ٱلْحُكْمِ وَٱلسُّلْطَةِ وَٱحْتِقَارِ ٱلشَّعْبِ وَٱسْتِمْرَارِ ذَلِكَ ٱلْحُمْقِ فِيْ ٱلدَّمِ . . . وَهُمْ بِهَا يَتَنَبَّلُوْنَ .

وَأَمَّا طَبَقَةٌ ، فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّفُوْنَ هَـٰذَا مِمَّا فِيْ نُفُوْسِهِمْ مِنْ طِبَاعٍ أَحْدَثَهَا ٱلنِّفَاقُ وَٱلْخُضُوْعُ وَٱلذُّلُّ ٱلسِّيَاسِيُّ فِيْ عَهْدِ ٱلاحْتِلَالِ ٱلإِنْكِلِيْزِيِّ ؛ فَٱللُّغَةُ ٱلأَجْنَبِيَّةُ بَيْنَهُمْ تَشْرِيْفٌ وَٱعْتِبَارٌ ، كَأَنَّهُمْ بِهَا مِنْ غَيْرِ ٱلشَّعْبِ ٱلْمَحْكُوْمِ ٱلَّذِيْ فَقَدَ ٱلسُّلْطَةَ ، وَهُمْ بِهَا يَتَمَجَّدُوْنَ .

وَأَمَّا جَمَاعَةٌ ، فَإِنَّهُمْ يَتَعَمَّدُوْنَ هَـٰذَا يُرِيْدُوْنَ بِهِ عَيْبَ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَتَهْجِيْنَهَا ، إِذِ ٱتَّخَذُوْا مِنْ عَدَاوَةِ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ طَرِيْقَةً ٱنْتَحَلُوْهَا وَمَذْهَبًا ٱنْتَسَبُوْا إِلَيْهِ ؛ وَفِيْهِمُ ٱلْعَالِمُ بِعُلُوْمِ أُوْرُبَّةَ ، وَٱلأَدِيْبُ بِأَدَبِ أُوْرُبَّةَ ؛ وَذَلِكَ مِنْ عَدَاوَتِهِمْ لِلدِّيْنِ الاسْلَامِيِّ ، إِذْ جَعَلَ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةَ حُكُوْمَةً بَاقِيَةً فِيْ بِلَادِهِمْ مَعَ كُلِّ حُكُوْمَةٍ وَفَوْقَ كُلِّ حُكُوْمَةٍ ؛ وَهُمْ يَزْدَرُوْنَ هَـٰذَا ٱلدِّيْنَ وَيُسْقِطُوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كُلَّ وَاجِبَاتِهِ . وَهَـٰؤُلَاءِ قَدْ خَلَطُوْا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، إِذْ يَغْلُوْنَ فِيْ مِصْرِيَّتِهِمْ غُلُوًّا قَبِيْحًا يَنْتَهِيْ بِهِمْ إِلَىٰ سَفَهِ ٱلآرَاءِ ، وَخِفَّةِ ٱلأَحْلَامِ ، وَطَيْشِ ٱلنَّزَعَاتِ ، فِيْمَا يَتَّصِلُ بِٱلدِّيْنِ ٱلإِسْلَامِيِّ وَآدَابِهِ وَلُغَتِهِ . وَمَا أَرَىٰ ٱلْوَاحِدَ مِنْهُمْ إِلَّا قَدْ غَطَّىٰ وَصْفُهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ رَقِيْعٌ ، عَلَىٰ وَصْفِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَالِمٌ أَوْ أَدِيْبٌ أَوْ مَا شَاءَ . إِنَّ هَـٰذَا لَمَقْتٌ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [٤٠ سورة غافر/الآية : ٣٥] .

طَرِيْقَةٍ نَفْسِيَّةٍ فِيْ ٱلنَّفْسِ ؛ فَهُمْ يُقْحِمُوْنَ فِيْ كِتَابَتِهِمْ وَحَدِيْثِهِمْ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلأَجْنَبِيَّةَ ، وَيَحْسَبُوْنَ عَمَلَهُمْ هَـٰذَا تَظَرُّفًا وَمُعَابَثَةً وَمُجُوْنًا ، عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ ٱلَّذِي يُظْهِرُ لِعَيْنِ ٱلْبَصِيْرِ مَوَاضِعَ ٱلْقَطْعِ ٱلتَّارِيْخِيِّ فِيْ نُفُوْسِهِمْ ، وَأَمَاكِنَ ٱلْفَسَادِ ٱلْقَوْمِيِّ فِيْ طَبِيْعَتِهِمْ ، وَجِهَاتِ ٱلتَّحَلُّلِ ٱلدِّيْنِيِّ فِيْ ٱعْتِقَادِهِمْ . هَـٰؤُلَاءِ يَكْتُبُ أَحَدُهُمْ : (ٱلنَّرْفَزَةَ Nerve) وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ يَقُوْلَ ٱلْغَضَبَ ، (وَٱلْفلِيْرِ Flir) وَهُوَ مُسْتَطِيْعٌ أَنْ يَجْعَلَ فِيْ مَكَانِهَا ٱلْمُغَازَلَةَ ، (وَسكَالَنس) وَهُوَ يَعْرِفُ لَفْظَةَ أَنْوَاعٍ وَأَلْوَانٍ ، وَهَـٰكَذَا وَهَـٰكَذَا ؛ وَلَا وَٱللهِ أَنْ تَكُوْنَ ٱلْمَسَافَةُ بَيْنَ ٱللَّفْظَيْنِ إِلَّا ٱلْمَسَافَةَ بِعَيْنِهَا بَيْنَ قُلُوْبِهِمْ وَرُشْدِ قُلُوْبِهِمْ .

وَمَا بَرِحَ ٱلتَّقْلِيْدُ ٱلسَّخِيْفُ لَا يَعْرِفُ لَهُ بَابًا يَلِجُ مِنْهُ إِلَىٰ ٱلسُّخَفَاءِ إِلَّا بَابَ ٱلتَّهَاوُنِ وَٱلتَّسَامُحِ ؛ وَنَحْنُ قَوْمٌ ٱبْتُلِيْنَا بِتَزْوِيْرِ ٱلْعُيُوْبِ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَعَدِّهَا فِيْ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْفَضَائِلِ ، مِنْ قِلَّةِ مَا فِيْنَا مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمَحَاسِنِ . وَبِهَـٰذِهِ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلْمَعْكُوْسَةِ نُحَاوِلُ أَنْ نَقْتَبِسَ مِنْ مَزَايَا ٱلأُوْرُبِّيِّيْنَ ، فَلَا نَأْخُذُ أَكْثَرَ مَا نَأْخُذُ إِلَّا عُيُوْبَهُمْ ، إِذْ كَانَتْ هِيَ ٱلأَسْهَلَ عَلَيْنَا ، وَهِيَ ٱلأَشْكَلَ بِطَبْعِنَا ٱلضَّعِيْفِ ٱلْمُتَسَامِحِ ٱلْمُتَهَاوِنِ .

وَمِنْ هَـٰذَا تَجِدُ مَشَاكِلَنَا ٱلاجْتِمَاعِيَّةَ ـ عَلَىٰ أَنَّهَا أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ مِنْ مَشَاكِلِ ٱلأُوْرُبِّيِّيْنَ ، وَعَلَىٰ أَنَّ فِيْ دِيْنِنَا وَآدَابِنَا لِكُلِّ مُشْكِلَةٍ حَلَّهَا ـ تَجِدُهَا هِيَ عَلَيْنَا أَصْعَبَ وَأَشَدَّ ، لِأَنَّنَا ضُعَفَاءُ وَمُتَخَاذِلُوْنَ وَمُقَلِّدُوْنَ وَمَفْتُوْنُوْنَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ : وَهُوَ أَنَّ أَكْثَرَ كُبَرَائِنَا هُمْ أَكْبَرُ بَلَائِنَا .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : ثُمَّ ضَحِكَ ٱلْبَاشَا ضِحْكَتَهُ ٱلسَّاحِرَةَ وَقَالَ : كَيْفَ تَصْنَعُ أُمَّةٌ يَكُوْنُ أَكْثَرُ ٱلْعَامِلِيْنَ هُمْ أَكْبَرَ ٱلْعَاطِلِيْنَ ، إِذْ يَعْمَلُوْنَ وَلَـٰكِنْ بِرُوْحٍ غَيْرِ عَامِلَةٍ . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيْثُ ٱلْبَاشَا : ١٠

سِرُّ ٱلْقُبَّعَةِ(*)

وَحَدَّثَنِيْ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا ، قَالَ : نَجَمَتْ فِيْ مِصْرَ حَرَكَةٌ بِعَقِبِ أَيَّامِ ٱلْبِدْعَةِ ٱلتُّرْكِيَّةِ ، حِيْنَ لَمْ تَبْقَ لِشَيْءٍ هُنَاكَ قَاعِدَةٌ إِلَّا ٱلْقَاعِدَةَ ٱلْوَاحِدَةَ ٱلَّتِيْ تُقَرِّرُهَا ٱلْمَشَانِقُ . . . فَمَنْ أَبَىٰ أَنْ يَخْلَعَ ٱلْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ خَلَعُوْا رَأْسَهُ ؛ وَمَنْ قَالَ : (لَا) ٱنْقَلَبَتْ (٨) هَـٰذِهِ مِشْنَقَةً فَعُلِّقَ فِيْهَا .

وَكَانَتْ فِكْرَةُ ٱتِّخَاذِ ٱلْقُبَّعَةِ فِيْ تُرْكِيَّةَ غِطَاءً لِلرَّأْسِ ، قَدْ جَاءَتْ بَعْدَ نَزَعَاتٍ مِنْ مِثْلِهَا ، كَمَا يَجِيْءُ ٱلْحِذَاءُ فِيْ آخِرِ مَايَلْبَسُ ٱللَّابِسُ ، فَلَمْ يَشُكَّ أَحَدٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ قُبَّعَةً عَلَىٰ ٱلرَّأْسِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ طَرِيْقَةٌ لِتَرْبِيَةِ ٱلرَّأْسِ ٱلْمُسْلِمِ تَرْبِيَةً جَدِيْدَةً ، لَيْسَ فِيْهَا رَكْعَةٌ وَلَا سَجْدَةٌ ؛ وَإِلَّا فَنَحْنُ نَرَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْقُبَّعَةَ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلزِّنْجِيِّ وَٱلْهَمَجِيِّ ، وَعَلَىٰ رَأْسِ ٱلأَبْلَهِ وَٱلْمَجْنُوْنِ ، فَمَا رَأَيْنَاهَا جَعَلَتِ ٱلأَسْوَدَ أَبْيَضَ ، وَلَا عَرَفْنَاهَا نَقَلَتْ هَمَجِيًّا عَنْ طَبْعِهِ ، وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ أَنَّهَا أَكْمَلَتِ ٱلْعَقْلَ ٱلنَّاقِصَ أَوْ رَدَّتِ ٱلْعَقْلَ ٱلذَّاهِبَ ، أَوِ ٱنْقَلَبَتْ آلَةً لِحَلِّ مُشْكِلَاتِ ٱلرَّأْسِ ٱلْبَلِيْدِ ، أَوْ غَصَبَتِ ٱلطَّبِيْعَةَ شَيْئًا وَقَالَتْ : هَـٰذَا لِحَامِلِيْ دُوْنَ حَامِلِ ٱلطَّرْبُوْشِ وَٱلْعِمَامَةِ .

وَقَدِ ٱحْتَجُّوا يَوْمَئِذٍ لِصَاحِبِ تِلْكَ ٱلْبِدْعَةِ أَنَّهُ لَا يَرَىٰ ٱلْوَجْهَ إِلَّا ٱلْمَدَنِيَّةَ ، وَلَا يَعْرِفُ ٱلْمَدَنِيَّةَ إِلَّا مَدَنِيَةَ أُوْرُبَّةَ ، فَهُوَ يَمْتَثِلُهَا كَمَا هِيَ فِيْ حَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا ، وَمَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ ، وَمَا يَكُوْنُ فِيْ حَاجَةٍ إِلَيْهِ وَمَا يَكُوْنُ فِيْ غِنًى عَنْهُ ؛ حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ ٱلأُوْرُبِّيِّيْنَ كَانُوْا عُوْرًا بِٱلطَّبِيْعَةِ ، لَجَعَلَ هُوَ قَوْمَهُ عُوْرًا بِٱلصِّنَاعَةِ لِيُشْبِهُوا ٱلأُوْرُبِّيِّيْنَ . . . نَعَمْ إِنَّهَا حُجَّةٌ تَامَّةٌ لَوْلَا نَقْصٌ قَلِيْلٌ فِيْ ٱلْبُرْهَانِ ، يُمْكِنُ تَلَافِيْهِ بِإِخْرَاجِ طَبْعَةٍ جَدِيْدَةٍ مِنْ كُتُبِ ٱلْفُتُوْحِ ٱلْعُثْمَانِيَّةِ ، يَظْهَرُ فِيْهَا ٱلْخُلَفَاءُ ٱلْعِظَامُ وَٱلأَبْطَالُ ٱلْمَغَاوِيْرُ ٱلَّذِيْنَ قَهَرُوْا ٱلأُوْرُبِّيِّيْنَ لَابِسِيْنَ قُبَّعَاتٍ ، لِيُشْبِهُوا ٱلأُوْرُبِّيِّيْنَ . . .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٧١ ، ٢٦ شهر رجب سنة ١٣٥٥ هـ = ١٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٤٣ ـ ١٦٤٤ .

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَتَهَوَّرَ فِي هَـٰذِهِ ٱلضَّلَالَةِ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِنَا ، وَأَخَذُوا يَدْعُوْنَ إِلَى ٱلتَّقَبُّعِ فِي مِصْرَ ٱحْتِذَاءً لِتُرْكِيَّةَ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى سَعْدِ بَاشَا (رَحِمَهُ ٱللهُ) يَطْلُبُ رَأْيَهُ ، فَكَانَ رَأْيُهُ : (لَا) بِمَدِّ ٱلأَلِفِ . . . وَعَهِدَ إِلَيَّ بَعْضُهُمْ أَنْ أَسْأَلَ ٱلْبَاشَا ، فَقَالَ :

وَيْحَهُمْ ! أَلَا يَخْجَلُوْنَ أَنْ نَكُوْنَ نَحْنُ ٱلْمِصْرِيِّيْنَ مُقَلِّدِيْنَ لِلتَّقْلِيْدِ نَفْسِهِ ؟ إِنَّ هَـٰذِهِ بِدْعَةٌ تَنْحَطُّ عِنْدَنَا دَرَجَةً عَنِ ٱلأَصْلِ ، فَكَأَنَّهَا بِدْعَتَانِ[1] . ثُمَّ ضَحِكَ ٱلْبَاشَا وَقَالَ : كَانَ فِي ٱلْقَدِيْمِ رَجُلٌ سَمِعَ أَنَّ ٱلْبَصَلَ بِٱلْخَلِّ نَافِعٌ لِلصَّفْرَاءِ ، فَذَهَبَ إِلَى بُسْتَانٍ يَمْلِكُهُ وَقَالَ لِوَكِيْلِهِ : ٱزْرَعْ لِي بَصَلًا بِخَلٍّ . . . هَـٰكَذَا يُرِيْدُوْنَ مِنَ ٱلْقُبَّعَاتِ : أَنْ تُخْرِجَ لَهُمْ تُرْكًا بِأُوْرُبِّيِّيْنَ .

لَيْسَتْ هَـٰذِهِ ٱلْقُبَّعَةُ فِي تُرْكِيَّةَ هِيَ ٱلْقُبَّعَةَ ، بَلْ هِيَ كَلِمَةُ سَبٍّ لِلْعَرَبِ وَرَدٌّ عَلَى ٱلإِسْلَامِ ، ضَاقَتْ بِهَا كُلُّ ٱلأَسَالِيْبِ أَنْ تُظْهِرَهَا وَاضِحَةً بَيِّنَةً ، فَلَمْ يَفِ بِهَا إِلَّا هَـٰذَا ٱلأُسْلُوْبُ وَحْدَهُ ، وَهِيَ إِعْلَانٌ سِيَاسِيٌّ بِٱلْمُنَاوَأَةِ وَٱلْمُخَالَفَةِ وَٱلانْحِرَافِ عَنَّا وَٱطِّرَاحِنَا ، فَإِنَّ ٱلَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِهِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ فِي ثِيَابِهَا وَشِعَارِهَا ؛ فَبِهَـٰذَا ٱنْفَتَحَ لَهُمْ بَابُ ٱلْخُرُوْجِ فِي ٱلْقُبَّعَةِ دُوْنَ غَيْرِهَا مِمَّا يَجْرِي فِيْهِ ٱلتَّقْلِيْدُ أَوْ يُبْدِعُهُ ٱلابْتِكَارُ ؛ وَإِلَّا فَأَيُّ سِرٍّ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقُبَّعَاتِ ، وَمَتَى كَانَتِ ٱلأُمَمُ تُقَاسُ بِمَقَايِيْسِ ٱلْخَيَّاطِيْنَ . . . ؟

هَـٰهُنَا سَيْفٌ أَرَادَ أَنْ يَكُوْنَ مِقَصًّا ، فَعَمِلَ { أَوَّلًا } مَا يَعْمَلُ ٱلْحُسَامُ ٱلْبَتَّارُ ، فَأَجَادَ وَأَبْدَعَ وَأَكْبَرَهُ ٱلنَّاسُ وَأَعْظَمُوْهُ ؛ ثُمَّ صَنَعَ مَا يَصْنَعُ ٱلْمِقَصُّ ، فَمَاذَا عَسَاهُ يَأْتِي بِهِ إِلَّا مَا يُنْكِرُهُ ٱلأَبْطَالُ وَٱلْخَيَّاطُوْنَ جَمِيْعًا ؟

أَكُتِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَظَلَّ دَهْرَنَا نَبْحَثُ فِي ٱلتَّقْلِيْدِ ٱلأَعْمَى ، وَأَلَّا يَحْيَا ٱلشَّرْقِيُّ إِلَّا مُسْتَعْبَدًا يَنْتَظِرُ فِي كُلِّ أُمُوْرِهِ مَنْ يَقُوْلُ لَهُ : ٱشْرَعْ لِي . . . ؟ إِنْ بَحَثْنَا فَلْنَبْحَثْ فِي زِيٍّ جَدِيْدٍ نَتَمَيَّزُ بِهِ ، فَتَكُوْنَ ٱلْقُوَى ٱلْكَامِنَةُ فِيْنَا وَفِي طَبِيْعَةِ أَرْضِنَا وَجَوِّنَا هِيَ ٱلَّتِي ٱخْتَرَعَتْ لِظَاهِرِهَا مَا يَجْعَلُهُ ظَاهِرَهَا ، كَمَا يُخْرِجُ زُوْرُ ٱلأَسَدِ لِبْدَةَ ٱلأَسَدِ ، غَايَةً فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْمُلَاءَمَةِ .

أَنَا أَلْبَسُ مَا شِئْتُ ، وَلَـٰكِنِّي عِنْدَ ٱلْقُبَّعَةِ أَجِدُ حَدًّا تَقِفُ إِلَيْهِ ذَاتِيَّتِي ٱلْفَرْدِيَّةُ ، فَلَا أَرَى

(١) { ٱلأَصْلُ تَقْلِيْدُ تُرْكِيَّةَ لِأُوْرُبَّةَ ، وَهَـٰذِهِ بِدْعَةٌ ؛ فَتَقْلِيْدُنَا لِتُرْكِيَّةَ بِدْعَةٌ أَسْخَفُ مِنَ ٱلأُوْلَى } .

ثَمَّةَ مَوْضِعَ ٱنْفِرَادٍ وَلَـٰكِنْ مَوْضِعَ مُشَاكَلَةٍ ، وَلَا أَعْرِفُ صِفَةَ مَنْفَعَةٍ لِي بَلْ صِفَةَ حَقِيْقَةٍ مِنِّي ، وَيَعْتَرِضُنِي مِنْ هُنَاكَ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يَصِيْرُ بِهِ ٱلنَّوْعُ إِلَى ٱلْجِنْسِ ، وَٱلْوَاحِدُ إِلَى ٱلْجَمَاعَةِ . وَمَا دُمْتُ مُسْلِمًا أُصَلِّي وَأَرْكَعُ وَأَسْجُدُ ، فَٱلْقُبَّعَةُ نَفْسُهَا تَقُوْلُ لِي : دَعْنِي فَلَسْتُ لَكَ .

وَهَـٰؤُلَاءِ ٱلرِّجَالُ ٱلَّذِيْنَ لَبِسُوْهَا فِي مِصْرَ ، إِنَّمَا ٱشْتَقُّوْهَا مِنَ ٱلْمَصْدَرِ نَفْسِ ٱلْمَصْدَرِ ٱلَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ ٱلتَّهَتُّكُ فِي ٱلنِّسَاءِ ، وَكِلَاهُمَا مَنْزَعٌ مِنَ ٱلْمُخَالَفَةِ ، وَكِلَاهُمَا ضِدٌّ مِنْ صِفَةٍ ٱجْتِمَاعِيَّةٍ تَقُوْمُ بِهَا فَضِيْلَةٌ شَرْقِيَّةٌ عَامَّةٌ . وَلَيْسَ يَعْدَمُ قَائِلٌ وَجْهًا مِنَ ٱلْقَوْلِ فِي تَزْيِيْنِ ٱلْقُبَّعَةِ ، وَلَا مَذْهَبًا مِنَ ٱلرَّأْيِ فِي ٱلاحْتِجَاجِ لَهَا ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْمَذَاهِبَ ٱلْفَلْسَفِيَّةَ لَا يُعْجِزُهَا أَنْ تُقِيْمَ لَكَ ٱلْبُرْهَانَ جَدَلًا مَحْضًا عَلَى أَنَّ حَيَاءَ ٱلْمَرْأَةِ وَعِفَّتَهَا إِنْ هُمَا إِلَّا رَذِيْلَتَانِ فِي ٱلْفَنِّ . . . وَإِنْ هُمَا إِلَّا مَرَضٌ وَضَعْفٌ ، وَإِنْ هُمَا إِلَّا كَيْتَ وَكَيْتَ ، ثُمَّ تَنْتَهِي ٱلْفَلْسَفَةُ إِلَى عَدِّهِمَا مِنَ ٱلْبَلَاهَةِ وَٱلْغَفْلَةِ ، وَمَا ٱلْغَفْلَةُ وَٱلْبَلَاهَةُ إِلَّا أَنْ تُرِيْدَ فَلْسَفَةٌ مِنْ فَلْسَفَاتِ ٱلدُّنْيَا أَنْ تُقْحِمَ فِي كِتَابِ ٱلصَّلَاةِ مَثَلًا فَصْلًا فِي . . . فِي . . . فِي ٱلدَّعَارَةِ .

لَا يَهُوْلَنَّكَ مَا أُقَرِّرُ لَكَ : مِنْ أَنَّ ٱلْقُبَّعَةَ ٱلأُوْرُبِّيَّةَ عَلَى رَأْسِ ٱلْمُسْلِمِ ٱلْمِصْرِيِّ ، تَهَتُّكٌ أَخْلَاقِيٌّ أَوْ سِيَاسِيٌّ أَوْ دِيْنِيٌّ أَوْ مِنْ هَـٰذِهِ كُلِّهَا مَعًا ، فَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ ٱلَّذِيْنَ لَبِسُوْهَا لَمْ يَلْبَسُوْهَا إِلَّا مُنْذُ قَرِيْبٍ ، بَعْدَ أَنْ تَهَتَّكَتِ ٱلأَخْلَاقُ ٱلشَّرْقِيَّةُ ٱلْكَرِيْمَةُ وَتَحَلَّلَ أَكْثَرُ عُقَدِهَا ، وَبَعْدَ أَنْ قَارَبَتِ ٱلْحُرِّيَّةُ ٱلْعَصْرِيَّةُ بَيْنَ ٱلنَّقَائِضِ حَتَّى كَادَتْ تَخْتَلِطُ ٱلْحُدُوْدُ ٱللُّغَوِيَّةُ ؛ فَحُرِّيَّةُ ٱلْمَنْفَعَةِ مَثَلًا تَجْعَلُ ٱلصَّادِقَ وَٱلْكَاذِبَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، فَلَا يُقَالُ : إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مَنْفَعَتَهُ فَصَدَقَ ، وَوَجَدَ مَنْفَعَتَهُ فَكَذَبَ ؛ وَعِنْدَ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلْعَصْرِيَّةِ أَنَّهُ مَا فَرَّقَ بَيْنَ ٱللَّفْظَيْنِ وَجَعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا حُدُوْدًا إِلَّا جَهْلُ ٱلْقُدَمَاءِ ، وَفَضِيْلَةُ ٱلْقُدَمَاءِ ، وَدِيْنُ ٱلْقُدَمَاءِ . وَهَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةُ : ٱلْجَهْلُ وَٱلْفَضِيْلَةُ وَٱلدِّيْنُ ، هِيَ أَيْضًا فِي ٱلْمُعْجَمِ ٱللُّغَوِيِّ ٱلْفَلْسَفِيِّ ٱلْجَدِيْدِ مُتَرَادِفَاتٌ لِمَعْنًى وَاحِدٍ ، هُوَ ٱلاسْتِعْبَادُ أَوِ ٱلْوَهْمُ أَوِ ٱلْخُرَافَةُ .

وَمَتَى أُزِيْلَتِ ٱلْحُدُوْدُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي ، كَانَ طَبِيْعِيًّا أَنْ يَلْتَبِسَ شَيْءٌ بِشَيْءٍ ، وَأَنْ يَحُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعِ مَعْنًى غَيْرِهِ ، وَأَصْبَحَ ٱلْبَاطِلُ بَاطِلًا بِسَبَبٍ وَحَقًّا بِسَبَبٍ آخَرَ ، فَلَا يَحْكُمُ ٱلنَّاسَ إِلَّا مَجْمُوْعَةٌ مِنَ ٱلأَخْلَاقِ ٱلْمُتَنَافِرَةِ ، تَجْعَلُ كُلَّ حَقِيْقَةٍ فِي ٱلأَرْضِ شُبْهَةً مُزَوَّرَةً عِنْدَ مَنْ لَا تَكُوْنُ مِنْ أَهْوَائِهِ وَنَزَعَاتِهِ ، فَيَحْتَاجُ ٱلنَّاسُ بِٱلضَّرُوْرَةِ إِلَى قُوَّةٍ تَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فَصْلًا

مُسَلَّحًا ، فَيَكسبُونَ ٱلقَانُونَ بِمَدَنِيَّتِهِم قُوَّةَ هَمَجِيَّةٍ تَضْطَرُّهُ أَنْ يُعِدَّ لِلْوَحْشِيَّةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَدْفَعُ هَـٰذِهِ ٱلْوَحْشِيَّةَ أَنْ تُعِدَّ لَهُ .

وَمِنِ ٱخْتِلَاطِ ٱلْحُدُودِ تَجِيْءُ ٱلْقُبَّعَةُ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلْمُسْلِمِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا حَدٌّ يَطْمِسُ حَدًّا ، وَفِكْرَةٌ تَهْزِمُ فِكْرَةً ، وَرَذِيلَةٌ تَقُوْلُ لِفَضِيلَةٍ : هَـا أَنَا ذِيْ قَدْ جِئْتُ فَاذْهَبِيْ .

مَا هُوَ ٱلأَكْبَرُ مِنْ شَيْئَيْنِ لَا حَدَّ بَيْنَهُمَا لِتَعْيِيْنِ ٱلصِّغَرِ ؟ وَمَا هُوَ ٱلأَصْغَرُ مِنْ شَيْئَيْنِ لَا حَدَّ بَيْنَهُمَا لِتَعْيِيْنِ ٱلْكِبَرِ ؟ إِنَّهَا ٱلْفَوْضَىٰ كَمَا تَرَىٰ مَا دَامَ ٱلْحَدُّ لَا مَوْضِعَ لَهُ فِيْ ٱلتَّمْيِيْزِ وَلَا مَقَرَّ لَهُ فِيْ ٱلْعُرْفِ وَلَا فَصْلَ بِهِ فِيْ ٱلْعَادَةِ ؛ وَمِنْ هُنَا كَانَ ٱلدِّيْنُ عِنْدَ أَقْوَامٍ أَكْبَرَ كَلِمَاتِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ فِيْ عَامَّةِ لُغَاتِهَا وَأَمْلأَهَا بِٱلْمَعْنَىٰ ، وَكَانَ عِنْدَ آخَرِيْنَ أَصْغَرَهَا وَأَفْرَغَهَا مِنَ ٱلْمَعْنَىٰ ؛ وَمَا كَبُرَ عِنْدَ أُوْلَـٰئِكَ إِلَّا مِنْ أَنَّهُ يَسَعُ ٱلاجْتِمَاعَ ٱلإِنْسَانِيَّ وَهُوَ مَحْدُوْدٌ بِغَايَاتِهِ ٱلْعُلْيَا ، وَمَا صَغُرَ عِنْدَ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا بِأَنَّ ٱلاجْتِمَاعَ لَا يَسَعُهُ فَلَا حَدَّ لَهُ ؛ وَكَأَنَّهُ مَعْنًىٰ مُتَوَهَّمٌ لَا وُجُوْدَ لَهُ إِلَّا فِيْ أَحْرُفِ كَلِمَتِهِ .

فَجَمَاعَةُ ٱلْقُبَّعَةِ لَا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ حَدًّا يَحُدُّوْنَهَا بِهِ مِنْ أَخْلَاقِنَا أَوْ دِيْنِنَا أَوْ شَرْقِيَّتِنَا ، وَقَدْ مَرَقُوْا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَأَصْبَحُوْا لَا يَرَوْنَ فِيْ زِيِّنَا ٱلْوَطَنِيِّ مَا فِيْهِ مِنْ قُوَّةِ ٱلسِّرِّ ٱلْخَفِيِّ ٱلَّذِيْ يُلْهِمُنَا مَا أَوْدَعَهُ ٱلتَّارِيْخُ مِنْ قَوْمِيَّتِنَا وَمَعَانِيْ أَسْلَافِنَا .

وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ مِنَّا قَوْمًا يَرَىٰ أَحَدُهُمْ فِيْ ظَنِّ نَفْسِهِ أَنَّهُ قَانُوْنٌ مِنْ قَوَانِيْنِ ٱلتَّطَوُّرِ ؛ فَهُوَ فِيْمَا يُلَابِسُهُ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ، بَلْ وَاحِدٌ مِنَ ٱلنَّوَامِيْسِ . . . وَمِنْ هُنَا ٱلثِّقَلُ وَٱلدَّعْوَىٰ ٱلْفَارِغَةُ ، وَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ ٱلثِّقَلِ وَفَرَاغِ ٱلدَّعْوَىٰ . وَإِنَّهُ لَحَقٌّ أَنْ يَكُوْنَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ أَنْبِيَاءَ ، وَلَـٰكِنَّ أَقْبَحَ مَا فِيْ ٱلْبَاطِلِ أَنْ يَظُنَّ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ نَبِيًّا .

وَٱعْلَمْ أَنَّ كَثِيْرًا مِمَّا يُزَيِّنُوْنَهُ لِلشَّرْقِيِّ مِنْ رَذَائِلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلأُوْرُبِّيَّةِ ، إِنْ هُوَ إِلَّا مَنْطِقُ شَهَوَاتٍ فِيْ جُمْلَتِهِ ، وَلَقَدْ تَسْمَعُ ٱلْجَائِعَ يَتَكَلَّمُ عَنِ ٱلطَّعَامِ ، فَتَرَىٰ كَلَامًا تَحْتَهُ مَعَانٍ وَمَعَانٍ لَا يَعُدُّهَا غَيْرُ ٱلْجَائِعِ إِلَّا حَمَاقَةَ سَاعَتِهَا . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيْثُ ٱلْبَاشَا : ١١

سَعْدُ زَغْلُوْلٍ(*)

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : أَلْقَىٰ إِلَيَّ ٱلْبَاشَا ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ (سَعْدًا) مُصَبِّحُنَا زَائِرًا[1] ، وَكَانَتْ بَيْنَ ٱلرَّجُلَيْنِ خَاصَّةٌ وَأَسْبَابٌ وَطِيْدَةٌ . وَلِلْبَاشَا مَوْقِعٌ أَعْرِفُهُ مِنْ نَفْسِ سَعْدٍ كَمَا أَعْرِفُ ٱلشُّعْلَةَ فِيْ بُرْكَانِهَا ؛ أَمَّا سَعْدٌ فَكَانَ قَدِ ٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ ٱلنِّهَايَةِ ٱلَّتِيْ جَعَلَتْهُ رَجُلًا فِيْ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ ٱلسِّحْرُ وَفِيْ ٱلأُخْرَىٰ ٱلْمُعْجِزَةُ ، فَهُوَ مِنْ عُظَمَاءِ هَـٰذِهِ ٱلْبِلَادِ كَقَامُوْسِ ٱللُّغَةِ مِنْ كَلِمَاتِ ٱللُّغَةِ : يَرُدُّ كُلُّ مُفْرَدٍ إِلَيْهِ فِيْ تَعْرِيْفِهِ ، وَلَا تَصِحُّ ٱلْكَلِمَةُ عِنْدَ أَحَدٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِيْهِ ٱلشَّهَادَةُ عَلَىٰ صِحَّتِهَا .

وَجَاءَنَا سَعْدٌ غُدْوَةً ، فَأَسْرَعْتُ إِلَىٰ تَقْبِيْلِ يَدِهِ قُبْلَةً لَا تُشْبِهُهَا ٱلْقُبُلَاتُ ، إِذْ مُثِّلَتْ لِيْ مِنْ فَرَحِهَا كَأَنَّهَا كَانَتْ مَنْفِيَّةً وَرَجَعَتْ إِلَىٰ وَطَنِهَا ٱلْعَزِيْزِ حِيْنَ وُضِعَتْ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْيَدِ .

إِنَّ ٱلرَّجُلَ[2] ٱلْعَظِيْمَ إِذَا كَانَ بَارًّا بِأَبِيْهِ عَارِفًا قَدْرَهُ مُدْرِكًا عَظَمَتَهُ ، يَشْعُرُ حِيْنَ يُقَبِّلُ يَدَ أَبِيْهِ كَأَنَّهُ يَسْجُدُ بِرُوْحِهِ سَجْدَةً للهِ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْيَدِ ٱلَّتِيْ يُقَبِّلُهَا ، وَيَجِدُ فِيْ نَفْسِهِ ٱتِّصَالًا كَهْرَبَائِيًّا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ سِرِّ وُجُوْدِهِ ، وَيَخُصُّهُ ٱلْعَالَمُ بِلَمْسَةٍ كَأَنَّ قُبْلَتَهُ نَبَضَتْ فِيْ ٱلْكَوْنِ ؛ وَكُلُّ هَـٰذَا قَدْ أَحْسَسْتُهُ أَنَا فِيْ تَقْبِيْلِيْ يَدَ سَعْدٍ ، وَزِدْتُ عَلَيْهِ شُعُوْرِيْ بِمِثْلِ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِيْ يَكُوْنُ فِيْ نَفْسِ ٱلْبَطَلِ حِيْنَ يُقَبِّلُ سَيْفَهُ ٱلْمُنْتَصِرَ .

وَضَحِكَ لِيْ سَعْدُ بَاشَا ضِحْكَتَهُ ٱلْمَعْرُوْفَةَ ، ٱلَّتِيْ يَبْدَؤُهَا فَمُهُ ، وَتُتَمِّمُهَا عَيْنَاهُ ، وَيَشْرَحُهَا وَجْهُهُ كُلُّهُ ، فَتَجِدُ جَوَابَهَا فِيْ رُوْحِكَ كَأَنَّهُ فِيْ رُوْحِكَ أَلْقَاهَا .

(*) «الرسالة» العدد : ١٧٠ ، ١٩ شهر رجب سنة ١٣٥٥ هـ = ٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٠١ ـ ١٦٠٣ .

(١) يُقَالُ : صَبَّحَهُ (بِتَشْدِيْدِ ٱلْبَاءِ) ، أَيْ : جَاءَهُ صُبْحًا .

(٢) فِيْ ٱلأَصْلِ : « ٱبْنَ ٱلرَّجُلِ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلرَّجُلَ » .

وَٱلرَّجُلُ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا نَظَرَ إِلَىٰ سَعْدٍ وَهُوَ يَتَبَسَّمُ ، رَأَىٰ لَهُ ٱبْتِسَامَةً كَأَنَّهَا كَمَالٌ يَتَوَاضَعُ ، فَيُحِسُّ كَأَنَّ شَيْئًا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ يَتَّصِلُ مِنْهُ بِشَيْءٍ طَبِيعِيٍّ ، فَيَنْتَعِشُ وَيَثِبُ فِي وُجُودِهِ ٱلرُّوحِيِّ وَثْبَةً عَالِيَةً تَكُونُ فَرَحًا أَوْ طَرَبًا أَوْ إِعْجَابًا أَوْ خُشُوعًا أَوْ كُلَّهَا مَعًا . غَيْرَ أَنَّ ٱلرَّجُلَ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ إِذَا تَأَمَّلَ وَجْهَ سَعْدٍ وَهُوَ يَضْحَكُ ضِحْكَتَهُ ٱلْمُطْمَئِنَّةَ ٱلْمُتَمَكِّنَةَ مِنْ مَعْنَاهَا ٱلْمُقِرِّ أَوِ ٱلْمُنْكِرِ أَوِ ٱلسَّاخِرِ أَوْ أَيِّ ٱلْمَعَانِي ـ حَسِبَ نَفْسَهُ يَرَىٰ شَكْلًا مِنَ ٱلْقَوْلِ لَا مِنَ ٱلضَّحِكِ ، وَظَهَرَتْ لَهُ تِلْكَ ٱلابْتِسَامَةُ ٱلْفَلْسَفِيَّةُ مُتَكَلِّمَةً ، كَأَنَّهَا مَرَّةً تَقُولُ : هَـٰذَا حَقِيقِيٌّ . وَمَرَّةً تَقُولُ : هَـٰذَا غَيْرُ حَقِيقِيٍّ .

إِنَّ سَعْدًا ٱلْعَظِيمَ كَانَ رَجُلًا مَا نَظَرَ إِلَيْهِ وَطَنِيٌّ إِلَّا بِعَيْنٍ فِيهَا دَلَائِلُ أَحْلَامِهَا ، كَأَنَّمَا هُوَ شَخْصُ فِكْرَةٍ لَا شَخْصُ إِنْسَانٍ ؛ فَإِذَا أَنْتَ رَأَيْتَهُ كَانَ فِي فِكْرِكَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي نَظَرِكَ ؛ فَأَنْتَ تَشْهَدُهُ بِنَظَرَيْنِ : أَحَدُهُمَا هَـٰذَا ٱلَّذِي تُبْصِرُ بِهِ ، وَٱلآخَرُ ذَاكَ ٱلَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ .

عَبْقَرِيٌّ كَٱلْجَمْرَةِ ٱلْمُلْتَهِبَةِ لَا تَحْسَبُهُ يَعِيشُ بَلْ يَحْتَرِقُ وَيُحْرِقُ ؛ ثَائِرٌ كَٱلزَّلْزَلَةِ فَهُوَ أَبَدًا يَرْتَجُّ وَهُوَ أَبَدًا يَرُجُّ مَا حَوْلَهُ ؛ صَرِيحٌ كَصَرَاحَةِ ٱلرُّسُلِ ، تِلْكَ ٱلَّتِي مَعْنَاهَا أَنَّ ٱلأَخْلَاقَ تَقُولُ كَلِمَتَهَا .

رَجُلُ ٱلشَّعْبِ ٱلَّذِي يُحِسُّ كُلُّ مِصْرِيٍّ أَنَّهُ يَمْلِكُ فِيهِ مُلْكًا مِنَ ٱلْمَجْدِ . وَقَدْ بَلَغَ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ مَبْلَغَ ٱلشَّرِيعَةِ ، فَٱسْتَطَاعَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : ضَعُوا هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَٱنْزِعُوا هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ مِنَ ٱلْحَيَاةِ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَٱنْقَضَتِ ٱلزِّيَارَةُ وَخَرَجَ سَعْدٌ وَٱلْبَاشَا إِلَىٰ يَسَارِهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ وَدَاعِهِ قَالَ لِي : وَٱللهِ يَا بُنَيَّ لَكَأَنَّمَا زَادَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ فِي أَلْقَابِ ٱلدَّوْلَةِ لَقَبًا جَدِيدًا ، ثُمَّ ضَحِكَ وَقَالَ : أَتَدْرِي مَا هَـٰذَا ٱللَّقَبُ ؟ قُلْتُ : فَمَا هُوَ يَا بَاشَا ؟

قَالَ : وَٱللهِ يَا بُنَيَّ مَا مِنْ (بَاشَا) فِي هَـٰذِهِ ٱلدَّوْلَةِ يَكُونُ إِلَىٰ جَانِبِ سَعْدٍ ، إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ رُتْبَتَهُ (نِصْفُ بَاشَا) . . .

هَـٰذَا رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلْعَظَمَةِ مَبْلَغًا تَصَاغَرَ مَعَهُ ٱلْكَبِيرُ ، وَتَضَاءَلَ ٱلْعَظِيمُ ، وَتَقَاصَرَ

ٱلشَّامِخُ ؛ نَعَمْ وَحَتَّىٰ تَرَكَ أَقْوَامًا مِنْ خُصُومَةِ ٱلْعُظَمَاءِ ، كَفُلَانٍ وَفُلَانٍ ، وَإِنَّ ٱلْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَيَلُوحُ لِلشَّعْبِ مِنْ فَرَاغِهِ وَضَعْفِهِ وَتَطَرُّحِهِ ، كَأَنَّهُ ظِلُّ رَجُلٍ لَا رَجُلٌ .

وَقَدْ أَصْبَحَ قُوَّةً عَامِلَةً لَا بُدَّ مِنْ فِعْلِهَا فِي كُلِّ حَيٍّ تَحْتَ هَـٰذَا ٱلأُفُقِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّ مَعَانِيَ نَفْسِهِ ٱلْكَبِيرَةِ تَنْتَشِرُ فِي ٱلْهَوَاءِ عَلَى ٱلنَّاسِ ، فَهُوَ قُوَّةٌ مُرْسَلَةٌ لَا تُمْسَكُ ، مَاضِيَةٌ لَا تُرَدُّ ، مَقْدُورَةٌ لَا يُحْتَالُ لَهَا بِحِيلَةٍ .

هَـٰذَا وَضْعٌ إِلَـٰهِيٌّ خَاصٌّ لَا يُشْبِهُهُ أَحَدٌ فِي هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ ، كَمَيْدَانِ ٱلْحَرْبِ لَا تُشْبِهُهُ ٱلأَمْكِنَةُ ٱلأُخْرَىٰ ؛ فَقَدْ غَامَرَ سَعْدٌ فِي ٱلثَّوْرَةِ ٱلْعُرَابِيَّةِ وَخَرَجَ مِنْهَا ، وَلَـٰكِنَّهَا هِيَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ ؛ بَلْ بَقِيَتْ فِيهِ ؛ بَقِيَتْ فِيهِ تَتَعَلَّمُ ٱلْقَانُونَ وَٱلسِّيَاسَةَ ، وَتُصْلِحُ أَغْلَاطَهَا ، ثُمَّ ظَهَرَتْ مِنْهُ فِي شَكْلِهَا ٱلْقَانُونِيِّ ٱلدَّقِيقِ . وَبِهَـٰذَا تَرَاهُ يَغْمُرُ ٱلرِّجَالَ مَهْمَا كَانُوا أَذْكِيَاءَ ؛ لِأَنَّ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِمْ ، وَتَرَاهُمْ يَظْهَرُونَ إِلَىٰ جَانِبِهِ أَشْيَاءَ ثَابِتَةً فِي مَعَانِيهَا ، أَمَّا هُوَ فَتَرَاهُ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهِ يَتَلَاطَمُ كَٱلأَمْوَاجِ ٱلْعَاتِيَةِ .

وَتِلْكَ ٱلثَّوْرَةُ هِيَ ٱلَّتِي تَتَكَلَّمُ فِي فَمِهِ أَحْيَانًا فَتَجْعَلُ لِبَعْضِ كَلِمَاتِهِ قُوَّةً كَقُوَّةِ ٱلنَّصْرِ ، وَشُهْرَةً كَشُهْرَةِ مَوْقِعَةٍ حَرْبِيَّةٍ مَذْكُورَةٍ .

وَلَمَّا كَانَ هُوَ ٱلْمُخْتَارَ لِيَكُونَ أَبًا لِلثَّوْرَةِ ـ حَرَمَتْهُ ٱلْقُدْرَةُ ٱلإِلَـٰهِيَّةُ ٱلنَّسْلَ ، وَصَرَفَتْ نَزْعَةَ ٱلأُبُوَّةِ فِيهِ إِلَىٰ أَعْمَالِهِ ٱلتَّارِيخِيَّةِ ، فَفِيهَا عِنَايَتُهُ وَقَلْبُهُ وَهُمُومُهُ ، وَهِيَ نَسْلٌ حَيٌّ مِنْ رُوحِهِ ٱلْعَظِيمَةِ ، وَيَكَادُ مَعَهَا يَكُونُ أَسَدًا يَزْأَرُ حَوْلَ أَشْبَالِهِ .

وَلَنْ يُذْكَرَ ٱلسِّيَاسِيُّونَ ٱلْمِصْرِيُّونَ مَعَ سَعْدٍ ، وَلَنْ يُذْكَرَ سَعْدٌ نَفْسُهُ إِذَا ٱنْقَلَبَ سِيَاسِيًّا ، فَإِنَّ ٱلْمَكَانَ ٱلْخَالِيَ فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلآنَ هُوَ مَكَانُ رَجُلِ ٱلْمُقَاوَمَةِ لَا رَجُلِ ٱلسِّيَاسَةِ ، وَهَـٰذَا هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي أَنَّ سَعْدًا يُشْعِرُ ٱلأُمَّةَ بِوُجُودِهِ لَذَّةً كَلَذَّةِ ٱلْفَوْزِ وَٱلانْتِصَارِ ، وَإِنْ لَمْ يَفُزْ بِشَيْءٍ وَلَمْ يَنْتَصِرْ عَلَىٰ شَيْءٍ ؛ فَٱطْمِئْنَانُ ٱلشَّعْبِ إِلَىٰ زَعِيمِ ٱلْمُقَاوَمَةِ ، هُوَ بِطَبِيعَتِهِ كَٱطْمِئْنَانِ حَامِلِ ٱلسِّلَاحِ إِلَىٰ سِلَاحِهِ .

وَسَعْدٌ وَحْدَهُ هُوَ ٱلَّذِي أَفْلَحَ فِي أَنْ يَكُونَ أُسْتَاذَ ٱلْمُقَاوَمَةِ لِهَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ ؛ فَنَسَخَ قَوَانِينَ ، وَأَوْجَدَ قَوَانِينَ ، وَحَمَلَ ٱلشَّعْبَ عَلَى ٱلإِعْجَابِ بِأَعْمَالِهِ ٱلْعَظِيمَةِ ، فَنَبَّهَ فِيهِ قُوَّةَ ٱلإِحْسَاسِ

بِٱلْعَظَمَةِ فَجَعَلَهُ عَظِيمًا ، وَصَرَفَهُ بِٱلْمَعَانِي ٱلْكَبِيرَةِ عَنِ ٱلصَّغَائِرِ ، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ طَرِيقِ مُسْتَقْبَلِهِ يُبْدِعُ إِبْدَاعَهُ فِيهِ .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلشَّرْقَ لَا يَحْيَا بِٱلسِّيَاسَةِ، وَلَـٰكِنْ بِٱلْمُقَاوَمَةِ مَا دَامَ ذَلِكَ ٱلْغَرْبُ بِإِزَائِهِ، وَٱلْفَرِيسَةُ لَا تَتَخَلَّصُ مِنَ ٱلْحَلْقِ ٱلْوَحْشِيِّ إِلَّا بِٱعْتِرَاضِ عِظَامِهَا ٱلصُّلْبَةِ ٱلْقَوِيَّةِ { فِي هَـٰذَا ٱلْحَلْقِ } .

وَكَمْ فِي ٱلشَّرْقِ مِنْ سِيَاسِيٍّ كَبِيرٍ يَجْعَلُونَهُ وَزِيرًا ، فَتَكُونُ ٱلْوَظِيفَةُ هِيَ ٱلْوَزِيرَ لَا نَفْسُ ٱلْوَزِيرِ ، حَتَّىٰ لَوْ خَلَعُوا ثِيَابَهُ عَلَىٰ خَشَبَةٍ وَنَصَّبُوهَا فِي كُرْسِيِّهِ ، لَكَانَتْ أَكْثَرَ نَفْعًا مِنْهُ لِلأُمَّةِ ، بِأَنَّهَا أَقَلُّ شَرًّا مِنْهُ . . .

يَا بُنَيَّ ، كُلُّ ٱلنَّاسِ يَرْضَوْنَ أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ وَٱلسِّيَادَةِ وَٱلْحُكْمِ ، فَلَيْسَتْ هَـٰذِهِ هِيَ مَسْأَلَةَ ٱلشَّرْقِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَسْأَلَةَ : مَنْ هُوَ ٱلنَّبِيُّ ٱلسِّيَاسِيُّ ٱلَّذِي يَرْضَىٰ أَنْ يُصْلَبَ . . . ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيثُ ٱلْبَاشَا : ١٢

حَمَاسَةُ ٱلشَّعْبِ(*)

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا قَالَ : لَمَّا رَجَعَ سَعْدُ بَاشَا مِنْ أُورُبَّةَ فِي سَنَةِ ١٩٢١ ، كَانَتِ ٱلْأُمَّةُ فِي ٱسْتِقْبَالِهِ كَأَنَّهَا طَائِرٌ مَدَّ جَنَاحَيْهِ ، لَا خِلَافَ لِشَيْءٍ مِنْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهُ ، بَلْ كُلُّهُ هُوَ كُلُّهُ ؛ وَكَانَتِ ٱلْمُعَارَضَةُ فِي ٱلِاسْتِحَالَةِ يَوْمَئِذٍ كَٱسْتِحَالَةِ وُجُودِ رُقْعَةٍ فِي رِيشِ ٱلطَّائِرِ .

عَلَىٰ أَنَّ ثَوْبَ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ كَثِيرُ ٱلرُّقَعِ دَائِمًا بِٱلْجَدِيدِ وَٱلْخَلَقِ ، فَرُقْعَةٌ مِنَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٤ ، ١٧ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ٢ نوفمبر/تشرين الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٧٨١ ـ ١٧٨٣ .

ٱلْمُعَارِضِينَ ، وَأُخْرَىٰ مِنَ ٱلْمُتَعَنِّتِينَ ، وَثَالِثَةٌ مِنَ ٱلْمُتَخَاذِلِينَ ، وَرَابِعَةٌ مِنَ ٱلْمُعَادِينَ ، وَخَامِسَةٌ وَسَادِسَةٌ وَسَابِعَةٌ مِنَ ٱلْحَاسِدِينَ وَٱلْمُنَافِسِينَ وَٱلْمُخْتَلِفِينَ لِشَهْوَةِ ٱلْخِلَافِ ؛ وَرِقَاعٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا نَعْلَمُ وَمَا لَا نَعْلَمُ ، فَإِنَّ مِنَ ٱلْعَجِيبِ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْجَوَّ ٱلَّذِي لَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا بَطِيئًا ، يَتَقَلَّبُ أَهْلُهُ بِسُرْعَةٍ ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلَّتِي لَا تَكَادُ تَخْتَلِفُ ، لَا يَكَادُ أَهْلُهَا يَتَّفِقُونَ .

وَلَـٰكِنَّ سَعْدًا (رَحِمَهُ ٱللهُ) رَجَعَ مِنْ أُورُبَّةَ رَجْعَةَ ٱلْكَرَامَةِ لِأُمَّةٍ كَامِلَةٍ ، فَفَازَ بِأَنَّهُ لَمْ يَخْسَرْ شَيْئًا مِنَ ٱلْحَقِّ ، وَٱنْتَصَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يُهْزَمْ ، وَدَلَّ عَلَىٰ ثَبَاتِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَزَعْزَعْ ، وَذَهَبَ صَوْلَةً وَرَجَعَ صَوْلَةً وَعَزِيمَةً ؛ فَكَانَ إِيمَانُ ٱلشَّعْبِ هُوَ ٱلَّذِي يَتَلَقَّاهُ ، وَكَانَتِ ٱلثَّوْرَةُ هِيَ ٱلَّتِي تَحْتَفِلُ بِهِ ، وَبَطَلَتِ ٱلْعِلَلُ كُلُّهَا فَلَمْ يَجِدِ ٱلاعْتِرَاضُ شَيْئًا يَعْتَرِضُ(١) عَلَيْهِ ، وَٱتَّفَقَتِ ٱلْأَسْبَابُ فَٱجْتَمَعَتِ ٱلْكَلِمَةُ ، وَظَهَرَ سَعْدٌ كَأَنَّهُ رُوحُ ٱلْأُمَّةِ مُتَمَثِّلًا فِي قُدْرَةٍ ، حَاكِمًا بِقُوَّةٍ ، مُتَسَلِّطًا بِيَقِينٍ .

نَعَمْ لَمْ يَنْتَصِرِ ٱلْبَطَلُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْأُمَّةَ ٱحْتَفَتْ بِهِ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ فِيهَا كَمَالًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ هُوَ سِرُّ ٱلانْتِصَارِ ؛ فَكَانَتْ حَمَاسَةُ ٱلشَّعْبِ فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ حَمَاسَةَ ٱلْمَبْدَإِ ٱلْمُتَمَكِّنِ : يُظْهِرُ شَجَاعَةَ ٱلْحَيَاةِ ، وَفَوْرَةَ ٱلْعَزَائِمِ ، وَفَضِيلَةَ ٱلإِخْلَاصِ ، وَشِدَّةَ ٱلصَّوْلَةِ ، وَعِنَادَ ٱلتَّصْمِيمِ ؛ وَيُثْبِتُ بِقُوَّةِ ظَاهِرِهِ قُوَّةَ بَاطِنِهِ ، وَكَانَ فَرَحُ ٱلْأُمَّةِ عِنَادًا سِيَاسِيًّا يَفْرَحُ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ قَوِيًّا لَمْ يَضْعُفْ ، وَكَانَ ٱبْتِهَاجُهَا مَجْدًا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ وَافِرًا لَمْ يَنْتَقِصْ ، وَكَانَ ٱلإِجْمَاعُ رَدًّا عَلَىٰ ٱلْيَأْسِ ، وَكَانَتِ ٱلْحَمَاسَةُ رَدًّا عَلَىٰ ٱلضَّعْفِ .

ٱنْبَعَثَتْ صَوْلَةُ ٱلْحَيَاةِ فِي ٱلشَّعْبِ كُلِّهِ ، وَٱبْتَدَأَ ٱلْمُسْتَقْبَلُ مِنْ يَوْمِئِذٍ ، فَلَوْ نَزَلَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِي سَحَابَةٍ مُجَلْجِلَةٍ يُسْمِعُ تَسْبِيحُهُمْ لِيُؤَيِّدُوا سَعْدًا ـ لَمَا زَادُوهُ شَيْئًا ؛ فَقَدْ كَانَ مَحَلُّهُ مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَأَنَّهُ ٱلْعَقِيدَةُ ، وَكَانَ ٱلتَّصْدِيقُ مَبْذُولًا لَهُ كَأَنَّهُ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْأَخِيرَةُ ، وَكَانَتِ ٱلطَّاعَةُ مَوْقُوفَةً عَلَيْهِ كَأَنَّهُ ٱلْبَاعِثُ ٱلطَّبِيعِيُّ ، وَكَانَ ٱلْبَطَلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ يُشْبِهُ نَبِيًّا مِنْ قِبَلِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا صُورَةٌ كَامِلَةٌ لِلسُّمُوِّ فِي أَفْكَارِ أُمَّةٍ .

* * *

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « مَا يَعْتَرِضُ » بَدَلًا مِنْ : « شَيْئًا يَعْتَرِضُ » .

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَرَجَعَ ٱلْبَاشَا مِنَ ٱلْقَاهِرَةِ وَقَدْ رَأَىٰ مَا رَأَىٰ مِنْ مُسَامَحَةِ ٱلنُّفُوسِ ، وَصِحَّةِ ٱلْعَهْدِ ، وَٱجْتِمَاعِ ٱلْكَلِمَةِ ، وَإِعْدَادِ ٱلشَّعْبِ لِلْمِرَاسِ وَٱلْمُعَانَاةِ ، فَقَالَ :

تَٱللهِ لَقَدْ أَثْبَتَ (سَعْدٌ) لِلدُّنْيَا كُلِّهَا أَنَّ مِصْرَ ٱلْجَبَّارَةَ مَتَىٰ شَاءَتْ بَنَتِ ٱلرِّجَالَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ ٱلْهَرَمِ ٱلأَكْبَرِ فِي ٱلْعَظَمَةِ وَٱلشُّهْرَةِ وَٱلْمَنْزِلَةِ وَٱلْقُوَّةِ . وَلَقَدْ صَنَعَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ ٱلْعَظِيمُ مَا تَصْنَعُ حَرْبٌ كَبِيرَةٌ ، فَجَمَعَ ٱلأُمَّةَ كُلَّهَا عَلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ لَا يَتَنَاقَضُ ، وَدَفَعَهَا بِرُوحٍ قَوْمِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَخْتَلِفُ ، وَجَعَلَ عِرْقَ ٱلسِّيَاسَةِ يَفُورُ كَمَا يَفُورُ ٱلْعِرْقُ ٱلْمَجْرُوحُ بِٱلدَّمِ .

إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ لَا ثَالِثَ بَيْنَهُمَا : إِمَّا ٱلْحَزْمُ إِلَىٰ ٱلآخِرِ وَإِمَّا ٱلإِضَاعَةُ . وَلَا حَزْمَ إِلَّا أَنْ يَبْقَىٰ ٱلشَّعْبُ كَمَا ظَهَرَ ٱلْيَوْمَ : طُوفَانًا حَيًّا ، مُسْتَوِيَ ٱلطَّبِيعَةِ ، مُنْدَفِعَ ٱلْحَرَكَةِ ، غَامِرًا كُلَّ مَا يَعْتَرِضُهُ ، إِلَىٰ أَنْ يُقْضَىٰ ٱلأَمْرُ وَيَقُولَ أَعْدَاؤُنَا : ﴿ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِي ﴾ [١١ سورة هود/ الآية : ٤٤] .

هَـٰكَذَا يَعْمَلُ ٱلْوَطَنُ مَعَ أَهْلِهِ كَأَنَّهُ شَخْصٌ حَيٌّ بَيْنَهُمْ ، حِينَ يَسْتَوِي ٱلْجَمِيعُ فِي ٱلثِّقَةِ ، وَيَتَآزَرُ ٱلْجَمِيعُ فِي ٱلأَمَلِ ، وَيَشْتَرِكُ ٱلْجَمِيعُ فِي ٱلْعَطْفِ ٱلرُّوحِيِّ ، وَلَا يَبْقَىٰ لِجَمَاعَةٍ مِنْهُمْ حَظٌّ فِي رَغْبَةٍ غَيْرِ ٱلرَّغْبَةِ ٱلْوَاحِدَةِ لِلْجَمِيعِ ؛ وَهَـٰكَذَا يَعْمَلُ ٱلْوَطَنُ بِأَهْلِهِ حِينَ يَعْمَلُ مَعَ أَهْلِهِ .

كَانَ أَعْدَاؤُنَا يَحْسَبُونَنَا ذُبَابًا سِيَاسِيًّا لَا شَأْنَ لَهُ إِلَّا بِفَضَلَاتِ ٱلسِّيَاسَةِ ، وَلَا عَمَلَ لَهُ فِي أَزْهَارِهَا وَأَثْمَارِهَا وَعِطْرِهَا وَحَلْوَاهَا ؛ فَأَسْمَعَهُمُ ٱلشَّعْبُ ٱلْيَوْمَ طَنِينَ ٱلنَّحْلِ ، وَأَرَاهُمْ إِبَرَ ٱلنَّحْلِ ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ ٱلأَزْهَارَ وَٱلأَثْمَارَ وَٱلْعِطْرَ وَٱلْحَلْوَىٰ هِيَ لَهُ بِٱلطَّبِيعَةِ .

وَكَانُوا يَتَخَرَّصُونَ أَنَّ مَذْهَبَنَا فِي ٱلْحَيَاةِ لِمَصْلَحَةِ ٱلْمَعَاشِ فَقَطْ ، وَأَنَّ ٱلْمِصْرِيَّ حَاكِمًا أَوْ مَحْكُومًا لَا يَمُدُّ آمَالَهُ ٱلْوَطَنِيَّةَ إِلَىٰ أَبْعَدَ مِنْ مُدَّةِ عُمْرِهِ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَطْلَقُوا أَيْدِيَنَا فِي حَاضِرِ ٱلأُمَّةِ أَطْلَقْنَا أَيْدِيَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهَا . وَمِنْ ثَمَّ طَمِعُوا أَنْ يَكُونَ ٱلْحَقُّ ٱلنَّاقِصُ فِي نَفْسِهِ حَقًّا تَامًّا فِي أَنْفُسِنَا لِهَـٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ؛ وَحَسِبُوا أَنَّ ٱلسِّيَاسِيَّ ٱلْمِصْرِيَّ لَا يَتَجَرَّأُ أَنْ يَقُولَ مَا يَقُولُهُ ٱلسِّيَاسِيُّ ٱلأُورُبِّيُّ : مِنْ أَنَّهُ لَا يَخْشَىٰ ٱلْمَوْتَ وَلَـٰكِنَّهُ يَخْشَىٰ ٱلْعَارَ . فَإِنَّهُ إِذَا مَاتَ مَاتَ وَحْدَهُ ، وَإِذَا جَلَبَ ٱلْعَارَ جَلَبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَعَلَىٰ أُمَّتِهِ وَعَلَىٰ تَارِيخِ أُمَّتِهِ ، بَيْدَ أَنَّ سَعْدًا

قَالَهَا ؛ وَفِي مِثْلِ هَـٰذَا قَدْ يَكُونُ قَوْلُ (لَا) مَعْرَكَةً .

وَهَا هِيَ ذِي مَعْرَكَةُ ٱلْيَوْمِ ٱلتَّارِيخِيَّةُ ، فَإِنَّ ٱلذَّرَّاتِ ٱلْحَيَّةَ ٱلَّتِي تُخْلَقُ مِنْ دِمَائِنَا نَحْنُ ٱلْمِصْرِيِّينَ قَدْ ثَارَتْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدِّمَاءِ ، فِي هَـٰذَا ٱلنَّهَارِ ، تُعْلِنُ أَنَّهَا لَا تَرْضَىٰ أَنْ تُولَدَ مُقَيَّدَةً بِقُيُودٍ[1] .

أَتَدْرِي مَاذَا عَرَضُوا عَلَىٰ سَعْدٍ ؟ إِنَّهُمْ عَرَضُوا عَلَيْهِ مَا يُشْبِهُ فِي ٱلسُّخْرِيَّةِ طَاحُونَةً تَامَّةَ ٱلأَدَوَاتِ وَٱلآلَاتِ مِنْ آخِرِ طِرَازٍ ، ثُمَّ لَا تُقَدَّمُ لَهَا إِلَّا حَبَّةُ قَمْحٍ وَاحِدَةٌ لِتَطْحَنَهَا . . . نَتِيجَةٌ تَسْخَرُ مِنْ أَسْبَابِهَا ، وَأَسْبَابٌ تَهْزَأُ بِٱلنَّتِيجَةِ .

إِنَّ أُورُبَّة لَا تَحْتَرِمُ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُهَا عَلَىٰ ٱحْتِرَامِهِ ، فَمَا أَرَىٰ لِلسِّيَاسِيِّينَ فِي هَـٰذَا ٱلشَّرْقِ عَمَلًا أَفْضَلَ وَلَا أَقْوَىٰ وَلَا أَرَدَّ بِٱلْفَائِدَةِ مِنْ إِحْيَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ فِي كُلِّ شَعْبٍ شَرْقِيٍّ ، ثُمَّ حِيَاطَتِهَا وَحُسْنِ تَوْجِيهِهَا ؛ فَهَـٰذِهِ ٱلْحَمَاسَةُ ٱلشَّعْبِيَّةُ ٱلدَّائِمَةُ ٱلْقَوِيَّةُ ٱلْبَصِيرَةُ ، هِيَ قُوَّةُ ٱلرَّفْضِ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُرْفَضَ ، وَقُوَّةُ ٱلتَّأْيِيدِ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُقْبَلَ ، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ وَسِيلَةُ جَمْعِ ٱلأَمْرِ ، وَإِحْكَامِ ٱلشَّأْنِ ، وَإِقْرَارِ ٱلْعَزِيمَةِ فِي ٱلأَخْلَاقِ ، وَتَرْبِيَةِ ٱلثِّقَةِ بِٱلنَّفْسِ ، وَبِهَا يَكُونُ إِذْكَاءُ ٱلْحِسِّ وَتَعْوِيدُهُ إِدْرَاكَ ٱلأَعْمَالِ ٱلْعَظِيمَةِ ، وَٱلتَّحَمُّسَ لَهَا ، وَٱلْبَذْلَ فِيهَا .

وَمَا عِلَّةُ ٱلْعِلَلِ فِينَا إِلَّا ضَعْفُ ٱلْحَمَاسَةِ ٱلشَّعْبِيَّةِ فِي ٱلشَّرْقِ ، وَسُوءُ تَدْبِيرِهَا ، وَقُبْحُ سِيَاسَتِهَا ؛ وَإِنَّا لَنَأْخُذُ عَنِ ٱلأُورُبِّيِّينَ مِنْ نِظَامِهِمْ وَأَسَالِيبِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَفُنُونِهِمْ ؛ فَنَأْخُذُ كُلَّ ذَلِكَ بِرُوحِنَا ٱلْفَاتِرَةِ فِي خُمُولٍ وَإِهْمَالٍ وَتَوَاكُلٍ وَتَفَرُّدٍ بِٱلْمَصْلَحَةِ وَٱسْتِبْدَادٍ بِٱلرَّأْيِ ، فَإِذَا دِينَارُهُمْ فِي أَيْدِينَا دِرْهَمٌ ، وَإِذَا نَحْنُ وَإِيَّاهُمْ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ كَٱلنَّحْلَةِ وَٱلذُّبَابَةِ عَلَىٰ زَهْرَةٍ . . .

لَيْسَتْ لَنَا حَمَاسَةُ ٱلْحَيَاةِ ، وَبِهَـٰذَا تَخْتَلِفُ أَعْمَالُنَا وَأَعْمَالُهُمْ ، وَذَلِكَ هُوَ ٱلسِّرُّ أَيْضًا فِي أَنَّ أَكْثَرَ حَمَاسَتِنَا كَلَامِيَّةٌ مَحْضَةٌ ؛ إِذْ يَكُونُ ٱلصُّرَاخُ وَٱلصِّيَاحُ وَٱلتَّشَدُّقُ وَنَحْوُهَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَظَاهِرِ ٱلْفَارِغَةِ ـ تَنْقِيحًا لِلطَّبِيعَةِ ٱلسَّاكِنَةِ فِينَا ، وَتَنْوِيعًا مِنْهَا بِغَيْرِ أَنْ نَجْهَدَ فِي ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّنْوِيعِ . وَمِنْ هَـٰذَا كَانَتْ لَنَا أَنْوَاعٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَنْطَلِقُ ٱللِّسَانُ فِيهَا لِلْخُرُوجِ مِنَ ٱلصَّمْتِ

(١) [لا يَنسَى القارئ أنّ هذا كانَ في سَنَة ١٩٢١م] .

لَا غَيْرُ . . . وَمِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ هَـٰذَا ٱلْهُرَاءِ ٱلسِّيَاسِيِّ ٱلَّذِي يَدُورُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْأَحْزَابِ وَٱلصُّحُفِ .

إِنَّ حَمَاسَةَ ٱلشَّعْبِ لَا تَكُونُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فَقَطْ ؛ بَلْ عَلَىٰ مَعَايِبِهِ أَيْضًا ، وَعَلَىٰ ضَعْفِهِ بِخَاصَّةٍ ، وَٱلشَّعْبُ ٱلْفَاتِرُ فِي حَمَاسَتِهِ لَوْ نَالَ حَقَّيْنِ مَغْصُوبَيْنِ لَعَادَ فَخَسِرَ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ؛ أَمَّا ٱلشَّعْبُ ٱلْمُتَحَمِّسُ ٱلْقَوِيُّ فِي حَمَاسَتِهِ ، فَلَوْ غُصِبَ حَقَّيْنِ وَنَالَ أَحَدَهُمَا لَعَادَ فَٱبْتَزَّ ٱلْآخَرَ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيثُ ٱلْبَاشَا : ١٣

ٱلْجُمْهُورُ(*)

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : كَانَ مِنْ بَعْضِ عَمَلِي فِي ٱلْحُكُومَةِ سَنَةَ ١٩٢٢ أَنْ أُرَاقِبَ ٱلْحَرَكَاتِ وَٱلسَّكَنَاتِ ، وَأَبُثَّ ٱلْعُيُونَ وَٱلْأَرْصَادَ ، وَأَعْرِفَ ٱلْمُضْطَرِبَ وَٱلْمُنْقَلِبَ فِي أَيَّامِ ٱلْفِتَنِ وَنَوَازِلِ ٱلْمِحْنَةِ ، مُحَافَظَةً عَلَى ٱلْأَمْنِ ، وَمُبَادَرَةً لِمَا يُتَوَقَّعُ ؛ فَكُنْتُ كَٱلْمَرْصِدِ ٱلْمُهَيَّإِ بِآلَاتِهِ لِتَدْوِينِ حَرَكَاتِ ٱلزَّلَازِلِ .

وَٱنْتَهَىٰ إِلَيْنَا يَوْمًا أَنَّ رَاجِفَةً مِنْ هَـٰذِهِ ٱلزَّلَازِلِ سَتَرْجُفُ بِفُلَانٍ مِنْ أَهْلِ ٱلرَّأْيِ ٱلْحُرِّ ؛ ٱلَّذِي يَسْتَقِلُّ وَلَا يُتَابِعُ ، وَيَنْتَقِدُ وَلَا يُحَابِي ، وَيُصَرِّحُ وَلَا يُجَمْجِمُ ، وَأَنَّ قَوْمًا ثَوَّرُوا عَلَيْهِ ٱلْغُبَارَ ٱلْآدَمِيَّ مِنَ ٱلْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِ ٱلْعَامَّةِ ، وَأَنَّهُمْ يَتَحَيَّنُونَ ٱلْوَقْتَ لِتَوْجِيهِ ٱلْمَكِيدَةِ لَهُ فِي شَكْلِهَا ٱلْمُفْتَرِسِ مِنْ هَـٰذَا ٱلْجُمْهُورِ ٱلنَّاقِمِ .

أَمَّا فُلَانٌ هَـٰذَا فَرَجُلٌ سِيَاسِيٌّ عَنِيدٌ أَضَاعَ ٱلْحَقَّ كُلَّهُ لِأَنَّهُ لَا يَرْضَىٰ بِنِصْفِ ٱلْحَقِّ . . .

(*) «الرسالة» العدد : ١٧٢ ، ٣ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٨٣ ـ ١٦٨٤ .

وَكَلِمَتُهُ فِي ٱلسِّيَاسَةِ كَأَنَّمَا تُلْقَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ مِنَ ٱلْغَيْبِ ؛ فَلَا يَتَحَوَّلُ عَنْهَا وَلَا يَمْلِكُ أَنْ يَتَكَلَّمَ إِلَّا بِمَا يَتَكَلَّمُ ؛ وَقَدْ ذَهَبَ بِصَوْتِهِ أَنَّهُ فِي قَوْمٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ كَٱلْحَقِّ ٱلْمَغْلُوبِ : لَا يَمُوتُ لِأَنَّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ ، ثُمَّ لَا يَحْيَا لِأَنَّهُ لَا يَنْتَصِرُ . وَقَدْ كَانَ رَجُلًا كَٱلْمِصْبَاحِ ٱلْوَهَّاجِ فَأَلْقَوْا عَلَيْهِ ٱلْغِطَاءَ ، فَإِذَا هُوَ فِي طَبِيعَتِهِ وَيَبْدُو لِلنَّاسِ بِغَيْرِ طَبِيعَتِهِ ، وَتَرَكَهُ رَأْيُهُ ٱلْحُرُّ ٱلصَّرِيحُ كَٱلنَّبِيِّ ٱلْمُكَذَّبِ يُرَدُّ عَلَيْهِ صِدْقُهُ ؛ لَا لِأَنَّهُ غَيْرُ صِدْقٍ ، وَلَـٰكِنْ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ ، أَوْ غَيْرُ مُلَائِمٍ .

وَمِنْ آفَاتِنَا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّينَ أَنَّنَا نَسْتَمْرِئُ ٱلْعَدَاوَةَ ، وَنَنْقَادُ لِأَسْبَابِهَا ، وَنَتَطَاوَعُ لَهَا تَطَاوُعَ ٱلصِّغَارِ بِأَنْفُسِهِمْ لِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ كَأَنَّ ٱلْمُسْتَبِدِّينَ ٱلَّذِينَ كَانُوا فِي تَارِيخِنَا قَدِ ٱنْتَقَلُوا إِلَىٰ طَبَائِعِنَا ؛ فَرَدُّ ٱلْفِكْرِ عَلَى ٱلْفِكْرِ فِي مُنَاقَشَةٍ تَجْرِي بَيْنَنَا ـ لَا يَكُونُ مِنْ دَفْعِ ٱلْحَقِيقَةِ لِلْحَقِيقَةِ ، وَلَـٰكِنْ مِنْ رَدِّ ٱلِاسْتِبْدَادِ عَلَى ٱلِاسْتِبْدَادِ ، وَمِنْ تَوَثُّبِ ٱلطُّغْيَانِ عَلَى ٱلطُّغْيَانِ ؛ فَهُوَ ٱلثَّلْبُ وَٱلطَّعْنُ وَٱلتَّجْرِيحُ ، وَهُوَ ٱلْجَفْوَةُ وَٱلْخُصُومَةُ وَٱللَّدَدُ ، وَهُوَ ٱلْمُنَازَعَةُ وَٱلْعُنْفُ وَٱلتَّحَامُلُ ؛ وَهُوَ بِهَـٰذِهِ وَتِلْكَ شَرٌّ وَفَسَادٌ وَسُقُوطٌ . وَٱلْجِدَالُ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ يَبْعَثُ ٱلْفِكْرَ فَيَنْتَهِي إِلَى ٱلْحَقِّ ، وَلَـٰكِنَّهُ فِينَا نَحْنُ يَهِيجُ ٱلْخُلُقَ فَيَنْتَهِي إِلَى ٱلشَّرِّ ، وَٱلرَّدُّ عَلَىٰ عَظِيمٍ مِنَّا كَأَنَّهُ يَرُدُّ عَلَىٰ مَنْزِلَتِهِ فِي ٱلنَّاسِ لَا عَلَىٰ مَنْزِلَتِهِ فِي ٱلرَّأْيِ ، وَكَشْفُ ٱلْخَطَإِ عِنْدَنَا تَعْيِيرٌ بِٱلْخَطَإِ لَا تَبْصِيرٌ بِٱلصَّوَابِ ، وَٱسْتِلَابُ ٱلْحُجَّةِ مِنْ صَاحِبِهَا وَإِفْسَادُهَا عَلَيْهِ كَٱسْتِلَابِ ٱلْمُلْكِ مِنْ مَالِكِهِ وَطَرْدِهِ مِنْهُ . . .

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ٱلدِّفَاعُ بِٱلْمُكَابَرَةِ أَصْلًا مِنْ أُصُولِ ٱلطَّبِيعَةِ فِينَا ، وَكَانَ ٱلِاضْطِهَادُ حُجَّةً لِلْحُجَّةِ ٱلْعَاجِزَةِ ، وَكَانَ ٱلْإِعْنَاتُ دَلِيلًا لِلدَّلِيلِ ٱلَّذِي لَا يَنْهَضُ بِنَفْسِهِ ، وَمَتَى ٱعْتَبَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ أَمْبَرَاطُورًا عَلَى ٱلْحَقِّ . . . فَلَا جَرَمَ لَا تَرُدُّ كَلِمَةٌ عَلَىٰ كَلِمَةٍ إِلَّا بِحَرْبٍ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَكَبُرَ ٱلْأَمْرُ عَلَى ٱلْبَاشَا ، فَجَمَعَ رُؤُوسَ ٱلْمُؤْتَمِرِينَ بِذَٰلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلْحُرِّ ، وَأَخَذَ يُقَلِّبُهُمْ تَقْلِيبَهُ بَيْنَ ٱلتَّوَدُّدِ وَٱلْمُلَاطَفَةِ ، وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ : إِنَّ فَضِيلَةَ ٱلْجُمْهُورِ هِيَ ٱلَّتِي تَضْمَنُ تَرْبِيَةَ ٱلْفَضِيلَةِ وَحِفْظَهَا وَغَلَبَتَهَا عَلَى ٱلرَّذَائِلِ ، وَإِنَّ كُلَّ صَحِيحٍ يَكُونُ فَاسِدًا إِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلْجُمْهُورُ صَحِيحًا ، وَإِنَّ غَيْرَ ٱلْعُقَلَاءِ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقْبَلُونَ ٱلْحَقِيقَةَ فِي

يَوْمٍ ثُمَّ يَرْفُضُونَهَا هِيَ ذَاتَهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُجَادِلُهُمْ وَتَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَبِلُوهَا ـ قَالُوا : هَـٰذَا كَانَ أَمْسِ . . . فَكَأَنَّمَا ٱلْفَاصِلُ بَيْنَ زَمَنَيْنِ يَجْعَلُ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ ضِدَّيْنِ .

ثُمَّ سَأَلَهُمْ : مَا هُوَ ذَنْبُ ٱلرَّجُلِ ؟ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : إِنَّهُ خَارِجٌ عَلَيْنَا فِي ٱلرَّأْيِ . فَقَالَ ٱلْبَاشَا : إِنَّ ٱلْمَعْنَىٰ فِي أَنْ يُخَالِفَكُمْ هُوَ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ تُخَالِفُونَهُ ؛ فَقَدْ تَكَافَأَتِ ٱلنَّاحِيَتَانِ ، وَخِلَافٌ بِخِلَافٍ ؛ فَمَا ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ حَقَّ رَدِّهِ عَنِ ٱلرَّأْيِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ هَـٰذَا ٱلْحَقِّ فِي رَدِّكُمْ أَنْتُمْ ؟

قَالُوا : إِنَّنَا ٱلْكَثْرَةُ . قَالَ ٱلْبَاشَا : يَا أَصْدِقَائِي ! إِنَّ خَوْفَ ٱلْكَثْرَةِ مِنْ رَأْيِ فَرْدٍ أَوْ أَفْرَادٍ هُوَ أَسْوَأُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ فِي تَفْسِيرِ رَأْيِهَا هِيَ ؛ وَعَشَرَةُ جُنَيْهَاتٍ لَا تَعْبَأُ بِٱلْجُنَيْهِ ٱلْوَاحِدِ ، فَإِنَّهَا تَسْتَغْرِقُهُ ؛ بَيْدَ أَنَّ هَـٰذِهِ لَيْسَتْ حَالَ عَشَرَةِ قُرُوشٍ يَا أَصْدِقَائِي !

نَعَمْ إِنَّ قَطْعَ ٱلْخِلَافِ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ ٱلْوَطَنِيَّةِ ، وَلَـٰكِنْ إِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ كَٱلْخِلَافِ فِي أَيِّهِمَا أَطْوَلُ : ٱلْعَصَا أَوِ ٱلْمِئْذَنَةُ . . . ؟ فَذَلِكَ جِدَالٌ مَحْسُومٌ مِنْ نَفْسِهِ بِلَا جِدَالٍ .

إِنَّ أَسَاسَ ٱنْخِذَالِنَا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّينَ فِي قُلُوبِنَا ، إِذْ لَا نَعْتَبِرُ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْعَامَّةَ إِلَّا مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا قَائِمَةٌ بِٱلرِّجَالِ ، ثُمَّ لَا نَعْتَبِرُ حَالَ ٱلرِّجَالِ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنْهُمْ ، ثُمَّ لَا نَعْتَبِرُ أَنْفُسَنَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُرْضِينَا أَوْ يُغْضِبُنَا ، وَقَدْ لَا يُغْضِبُنَا إِلَّا ٱلْحَقُّ وَٱلْجِدُّ ، وَقَدْ لَا يُرْضِينَا إِلَّا ٱلْبَاطِلُ وَٱلتَّهَاوُنُ ، وَلَـٰكِنَّنَا لَا نُبَالِي إِلَّا مَا نَرْضَىٰ وَمَا نَغْضَبُ .

لَسْتُمْ أَحْرَارًا فِي أَنْ تَجْعَلُوا غَيْرَكُمْ غَيْرَ حُرٍّ ، فَإِنْ يَكُنِ ٱلرَّأْيُ ٱلَّذِي يُعَارِضُكُمْ رَأْيًا حَقًّا وَتَرَكْتُمْ مُنَابَذَتَهُ فَقَدْ نَصَرْتُمُ ٱلْحَقَّ ؛ وَإِنْ يَكُنْ بَاطِلًا فَإِظْهَارُهُ بَاطِلًا هُوَ بُرْهَانُ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ؛ وَلَنْ تُجَرِّدُوا أَحَدًا مِنِ ٱخْتِيَارِ ٱلرَّأْيِ إِلَّا إِذَا تَجَرَّدْتُمْ أَنْتُمْ مِنِ ٱخْتِيَارِ ٱلْعَدْلِ ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَهَـٰذِهِ كِبْرِيَاءُ ظَالِمَةٌ ، تَدَّعِي أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ، ثُمَّ تَدَّعِي لِنَفْسِهَا حُكْمَهُ ، فَقَدْ كَذَبَتْ مَرَّتَيْنِ .

ٱسْمَعُوا أَيُّهَا ٱلسَّادَةُ ! قَامَتْ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلرَّأْيِ مُنَاظَرَةٌ فِي صَحِيفَةٍ مِنَ ٱلصُّحُفِ ، وَتَسَاجَلَا فِي مَقَالَاتٍ عِدَّةٍ ، فَلَمَّا عَجَزَ أَضْعَفُهُمَا حُجَّةً وَكَعَمَهُ ٱلْجِدَالُ ، كَتَبَ

مَقَالَتَهُ ٱلْأَخِيرَةَ فَجَاءَتْ سَقِيمَةً ، فَلَمْ تُرْضِهِ فَبَيَّتَهَا وَنَامَ عَنْهَا عَلَىٰ أَنْ يُرْسِلَهَا مِنَ ٱلْغَدَاةِ بَعْدَ أَنْ يُرَدِّدَ نَظَرَهُ فِيهَا وَيُصَحِّحَ آرَاءَهُ بِٱلْحُجَجِ ٱلَّتِي يُفْتَحُ بِهَا عَلَيْهِ . قَالُوا : فَلَمَّا نَامَ تَمَثَّلَتْ لَهُ ٱلْمَقَالَةُ فِي أَحْلَامِهِ جِسْمًا حَيًّا مَوْهُونًا مُتَرَضِّضًا ، مَخْلُوعًا مِنْ هُنَا مَكْسُورًا مِنْ هُنَاكَ ، مَجْرُوحًا فِيمَا بَيْنَهُمَا ؛ ثُمَّ كَلَّمَتْهُ فَقَالَتْ لَهُ : وَيْحَكَ أَيُّهَا ٱلْأَبْلَهُ ! إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَغْلِبَ صَاحِبَكَ وَتُسْكِتَهُ عَنْكَ ، فَٱحْمِلْ مَقَالَتَكَ إِلَىٰ رَأْسِهِ فِي ٱلْعَصَا لَا فِي ٱلْجَرِيدَةِ . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلسِّرِّ : وَضَحِكَ ٱلْقَوْمُ جَمِيعًا ، وَأَذْعَنُوا وَٱنْصَرَفُوا مُقْتَنِعِينَ ، قَدْ خَلَصَتْ دِخْلَتُهُمْ لِذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلْحُرِّ ، وَتَنَصَّلُوا مِنْ جَرِيمَةٍ كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا جَاءَ ٱلْبَاشَا بِمُعْجِزٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ ، وَلَـٰكِنَّ تَصْوِيرَهُ لِلْمَسْأَلَةِ كَانَ حَلًّا لَهَا فِي نُفُوسِهِمْ . فَلَمَّا أَدْبَرُوا تَنَفَّسَ ٱلْبَاشَا كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَكَانَ يَتَعَاطَىٰ إِنْقَاذَ غَرِيقٍ وَيُعَانِي فِيهِ حَتَّىٰ نَجَا ؛ ثُمَّ قَالَ لِي : إِنَّ هَـٰذَا كَانَ جَوَابًا عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَلَـٰكِنَّهُ هُوَ سُؤَالٌ عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِنَا : مَا ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلنَّاسَ عِنْدَنَا يَخْشَوْنَ ٱلْمُعَارَضَةَ فِي ٱلرَّأْيِ ٱلْوَطَنِيِّ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لَيُجَازُونَ عَلَيْهَا بِهَـٰذِهِ ٱلْعُقُوبَةِ ٱلشَّعْبِيَّةِ ٱلْمُنْكَرَةِ ؟ وَمَا بَالُهُمْ لَا يُعْطُونَ ٱلرَّأْيَ حُكْمَهُ وَحَقِيقَتَهُ ، بَلْ يُعْطُونَهُ مِنْ حُكْمِ أَنْفُسِهِمْ وَحَقَائِقِهَا وَشَهَوَاتِهَا ٱلْمُتَقَلِّبَةِ ، حَتَّىٰ لَتَرْجِعَ ٱلْفُرُوقُ ٱلضَّعِيفَةُ ٱلْمُتَجَانِسَةُ فِي أَبْنَاءِ ٱلْوَطَنِ ٱلْوَاحِدِ وَكَأَنَّهَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَٱلْمُبَايَنَةِ فُرُوقٌ جِنْسِيَّةٌ كَٱلَّتِي تَكُونُ بَيْنَ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ ، وَإِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ أُخْرَىٰ تُعَادِيهَا ⟦ بِهِ ⟧ ؟

قُلْتُ : إِنَّ رَأْيَ ٱلْكَثْرَةِ قَانُونٌ يَا بَاشَا ! .

قَالَ : هَـٰذَا صَحِيحٌ ، وَلَـٰكِنْ بِشَرْطَيْنِ لَا بِشَرْطٍ وَاحِدٍ : ٱلْأَوَّلُ أَلَّا يَخْرُجَ ٱلرَّأْيُ عَلَى ٱلْقَانُونِ ، وَٱلثَّانِي أَلَّا تَكُونَ ٱلْحَقِيقَةُ فِي ٱلرَّأْيِ ٱلَّذِي يُنَاقِضُهُ ؛ وَمُحَاوَلَةُ إِكْرَاهِ ٱلْمُعَارَضَةِ نَقْضٌ لِلشَّرْطَيْنِ مَعًا(١) ؛ ثُمَّ إِنَّ أَسَاسَ ٱلْوَطَنِيَّةِ سَلَامَةُ ٱلْقُلُوبِ وَصَفَاءُ ٱلنِّيَّاتِ ، وَٱسْتِوَاءُ ٱلْمُوَافِقِ وَٱلْمُخَالِفِ فِي هَـٰذَا ٱلْحُكْمِ ، وَمَتَىٰ وَقَعَ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ وَكَانَتِ ٱلنِّيَّةُ صَادِقَةً مُخْلِصَةً ، لَمْ يَكُنِ ٱخْتِلَافُهُمَا إِلَّا مِنْ تَنَوُّعِ ٱلرَّأْيِ ، وَٱنْتَهَيَا إِلَى ٱلِاتِّفَاقِ بِغَلَبَةِ أَقْوَى ٱلرَّأْيَيْنِ ،

(١) ⟦ لا يَنسى القارئُ أنّ هذا كانَ سَنَة ١٩٢٢م ⟧ .

مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ .

الْحَقِيقَةُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْجَمَاهِيرَ الشَّرْقِيَّةَ لَيْسَتْ فِي تَرْبِيَتِهَا مِنَ الْجَمَاهِيرِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يُعْتَدُّ بِهَا ، إِذْ لَا تَزَالُ فِي أَوَّلِ عُمْرِهَا السِّيَاسِيِّ ، وَبِهَذَا السَّبَبِ وَحْدَهُ كَانَ اخْتِلَافُ الْكُبَرَاءِ فِي السِّيَاسَةِ لَا يُشْبِهُهُ إِلَّا نِزَاعُ الْخَصْمَيْنِ بِغَيْرِ شُهُودٍ وَلَا قَاضٍ نَافِذِ الْحُكْمِ ، فَهُوَ نِزَاعُ قُوَّةٍ تَفُوزُ بِوَسَائِلِهَا ، لَا نِزَاعُ حَقٍّ يَسْتَعْلِي بِأَدِلَّتِهِ .

وَهَذِهِ الْمَجَالِسُ النِّيَابِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ كُلُّهَا صُوَرٌ مُمَثَّلَةٌ جَافَّةٌ ، مُنْقَطِعَةُ النَّمَاءِ مِنْ أَسْبَابِهَا ، كَالْفَرْعِ الْمَقْطُوعِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَإِنَّمَا يَتَنَضَّرُ الْفَرْعُ وَيُثْمِرُ أَثْمَارَهُ إِذَا قَامَ بِشَجَرَتِهِ لَا بِنَفْسِهِ ، وَمَا شَجَرَةُ الْفَرْعِ السِّيَاسِيِّ إِلَّا الْجُمْهُورُ السِّيَاسِيُّ .

فَسَبِيلُ الْإِصْلَاحِ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ شَرْقِيَّةٍ أَنْ يَنْهَضَ أَهْلُ الرَّأْيِ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ فِيهَا بَيْنَ عَالِمٍ وَأَدِيبٍ وَمُحَامٍ وَسَرِيٍّ ، وَمَنْ كَانَ بِسَبِيلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَيَجْعَلُوا لِمَدِينَتِهِمْ دَارَ نَدْوَةٍ لِلِاجْتِمَاعِ وَالْبَحْثِ وَالْمَشُورَةِ ، وَقَوْلِ (نَعَمْ) بِالْحُجَّةِ وَقَوْلِ (لَا) بِالْحُجَّةِ . ثُمَّ يُعْلِنُونَ ذَلِكَ فِي جُمْهُورِهِمْ وَيَنْزِلُونَ مِنْهُ مَنْزِلَةَ الْأُسْتَاذِ وَالْأَبِ وَالصَّدِيقِ فِي تَعْلِيمِهِ وَهِدَايَتِهِ وَإِرْشَادِهِ ؛ وَتَتَّصِلُ هَذِهِ الدُّورُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَتَنْتَهِي بِالْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ . وَبِغَيْرِ ذَلِكَ لَا يُمْلَأُ الْفَرَاغُ الَّذِي نَرَاهُ خَاوِيًا بَيْنَ الشَّعْبِ وَالْحُكُومَةِ ، وَبَيْنَ الْكُبَرَاءِ وَالْجَمَاهِيرِ ، وَإِنَّمَا أَكْثَرُ مَصَائِبِنَا مِنْ هَذَا الْفَرَاغِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يَضِيعُ فِيهِ مَا يَضِيعُ فِيهِ ، وَيَخْتَفِي مَا يَخْتَفِي .

مِنَّا قَوْمٌ مُوَظَّفُونَ فِي الْحُكُومَةِ ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ تَكُونُ الْحُكُومَةُ نَفْسُهَا مُوَظَّفَةً عِنْدَهُمْ ؟

* * *

(اعْتِذَارٌ) : بِهَذَا الْمَقَالِ انْتَهَتْ أَحَادِيثُ الْبَاشَا ؛ فَقَدْ أَنْبَأَنَا صَاحِبُ السِّرِّ أَنَّهُ سَيَكْتُمُ السِّرَّ . . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

الْمَجْنُونُ(*)

١

جَاءَ يَمْشِي هَادِئًا يَتَخَيَّلُ فِي مِشْيَتِهِ ، يَرْجُفُ بَيْنَ الْخُطْوَةِ وَالْخُطْوَةِ كَأَنَّهُ مِنْ كِبْرِهِ يُشْعِرُكَ أَنَّ الْأَرْضَ مُدْرِكَةٌ أَنَّهُ يَمْشِي فَوْقَهَا . . . وَلَا يَنْقُلُ قَدَمَهُ إِذَا خَطَا حَتَّى يَنْهَضَ بِرَأْسِهِ يُحَرِّكُهُ إِلَى أَعْلَى ، فَمَا تَدْرِي أَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَطْمَئِنَّ إِلَى رَأْسِهِ مَعَهُ . . . أَمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا الرَّأْسَ الْعَظِيمَ قَدْ وُضِعَ عَلَى جِسْمِهِ فِي مَوْضِعِ رَايَةِ الدَّوْلَةِ ، فَهُوَ يَهُزُّهُ هَزَّ الرَّايَةِ . . .

وَأَخَذَتْهُ عَيْنِي وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا طُولُ غُرْفَةٍ وَعَرْضُهَا ـ فَإِذَا هُوَ زَائِغُ الْبَصَرِ كَأَنَّمَا وَقَعَ فِي صَحْرَاءَ يُقَلِّبُ عَيْنَهُ فِي جِهَاتِهَا مُتَحَيِّرًا مُتَرَدِّدًا ، ثُمَّ كَأَنَّمَا رُفِعَ لَهُ فِي أَقْصَاهَا جَبَلٌ فَأَخَذَ إِلَى نَاحِيَتِهِ . . .

وَرَحَّبْتُ بِهِ ، وَأَجْلَسْتُهُ إِلَى جَانِبِي ، فَأَخَذَ يَسْتَعْرِفُ إِلَيَّ بِذِكْرِ اسْمِهِ وَجَمَاعَتِهِ وَبَلَدِهِ ، لَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ، كَأَنَّهُ عَنْتَرَةُ بَنِي عَبْسٍ : لِأَرْضِهِ مِنْ طَبِيعَتِهَا جُغْرَافِيَا ، وَمِنِ اسْمِهِ جُغْرَافِيَا عَلَى حِدَةٍ . . . فَلَمَّا رَآنِي لَا أُثْبِتُهُ مَعْرِفَةً قَالَ : إِنَّ بِكَ نِسْيَانًا .

قُلْتُ : وَكَثِيرًا مَا أَنْسَى ، غَيْرَ أَنَّ اسْمَكَ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تُذَكِّرُ بِتَارِيخٍ .

قَالَ : هَذِهِ غَلْطَةُ الْجَرَائِدِ . . . وَمَهْمَا تَنْسَ مِنْ شَيْءٍ فَلَا تَنْسَ أَنَّكَ أُسْتَاذُ « نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ(١) » . . .

فَسَرَّحْتُ فِيهِ نَظَرِي ، فَإِذَا أَنَا بِمَجْنُونٍ ظَرِيفٍ أَمْرَدَ أَهْيَفَ ، يَكَادُ بِرَخَاوَتِهِ وَتَفَكُّكِهِ لَا يَكُونُ رَجُلًا ، وَيَكَادُ يَبْدُو امْرَأَةً بِجَمَالِ عَيْنَيْهِ وَفُتُورِهِمَا .

وَتَوَسَّمْتُ فَإِذَا وَجْهٌ سَاكِنٌ مُنْبَسِطُ الْأَسَارِيرِ مَمْسُوحُ الْمَعَانِي ، يُنْبِئُ بِانْقِطَاعِ صَاحِبِهِ مِمَّا حَوْلَهُ ، كَأَنَّ دُنْيَاهُ لَيْسَتْ دُنْيَا النَّاسِ ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا رَأْسِهِ . . .

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٥ ، ٢٨ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٥ نوفمبر/ تشرين الآخر ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٨٨٣ ـ ١٨٨٦ .

(١) هَذَا الشَّابُّ الْمَجْنُونُ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ ، وَكَانَ قَدِ انْتَهَى إِلَى مَدْرَسَةِ الْمُعَلِّمِينَ الْأَوَّلِيَّةِ ، ثُمَّ خُولِطَ فِي عَقْلِهِ فَتَرَكَهَا ؛ وَكُلُّ مَا يَمُرُّ فِي هَذَا الْمَقَالِ بَيْنَ قَوْسَيْنِ فَهُوَ بِنَصِّهِ مِنْ كَلَامِهِ .

وَتَأَمَّلْتُ فَإِذَا طُفُولَةٌ مُتَبَلِّدَةٌ قَدْ ثَبَتَتْ فِي هَـٰذَا ٱلْوَجْهِ لِتُخْرِجَ مِنْ بَيْنِ ٱلرَّجُلِ وَٱلطِّفْلِ مَجْنُونًا لَا هُوَ طِفْلٌ وَلَا رَجُلٌ .

وَتَفَرَّسْتُ فَإِذَا آثَارُ مَعْرَكَةٍ بَادِيَةٍ فِي هَـٰذِهِ ٱلصَّفْحَةِ ، قَتْلَاهَا أَفْكَارُ ٱلْمِسْكِينِ وَعَوَاطِفُهُ .

وَتَبَيَّنْتُ فَإِذَا رَجُلٌ مُسْتَرْخٍ ، مُتَفَتِّرُ ٱلْبَدَنِ ، خَاثِرُ ٱلنَّفْسِ ، كَأَنَّهُ قَائِمٌ لِتَوِّهِ مِنَ ٱلنَّوْمِ فَلَا تَزَالُ فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ ، وَكَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مِنْ بَقَايَا حُلْمٍ كَانَ يَرَاهُ . . .

وَخُيِّلَ إِلَيَّ مِنْ هَـٰذَا ٱلْخُمُولِ فِي هَـٰذَا ٱلشَّابِّ ، أَنَّ عَلَيْهِ جَوًّا مِنْ تَثَاؤُبِهِ ، وَأَنَّ ٱلْمَكَانَ كُلَّهُ يَتَثَاءَبُ ، فَتَثَاءَبْتُ . . .

* * *

فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ مِنِّي ضَحِكَ وَقَالَ : إِنَّ « نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ » رَجُلٌ مِغْنَاطِيسِيٌّ عَظِيمٌ ؛ فَهَا هُوَ ذَا قَدْ أَلْقَىٰ عَلَيْكَ ٱلنَّوْمَ . . . وَحَسْبُكَ فَخْرًا أَنْ تَكُونَ أُسْتَاذَهُ وَأَخَاهُ وَثِقَتَهُ ، « فَلَيْسَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ٱلْيَوْمَ أَدِيبٌ غَيْرِي وَغَيْرَكَ . . . »

قُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّا لِلهِ ، مَا يَعْتَقِدُ ٱلرَّجُلُ أَنَّ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مَجْنُونًا غَيْرَهُ وَغَيْرِي ، وَكَأَنَّمَا أَلَمَّ بِذَلِكَ فَقَالَ : لَسْتُ مَجْنُونًا ؛ وَلَـٰكِنِّي كُنْتُ فِي ٱلْبِيمَارَسْتَانِ . . .

قُلْتُ : أَهُوَ ٱلْبِيمَارَسْتَانُ ٱلَّذِي يُسَمَّىٰ مُسْتَشْفَىٰ ٱلْمَجَاذِيبِ ؟

قَالَ : لَا ؛ إِنَّ هَـٰذَا ٱلَّذِي تُسَمِّيهِ أَنْتَ ، { هُوَ } هُوَ مُسْتَشْفَىٰ ٱلْمَجَاذِيبِ ؛ أَمَّا ٱلَّذِي سَمَّيْتُهُ أَنَا فَهُوَ مُسْتَشْفَىٰ فَقَطْ . . .

وَذَكَرْتُ عِنْدَئِذٍ أَنَّ مِنَ ٱلْمَجَانِينِ قَوْمًا ظُرَفَاءَ يَدْخُلُهُمُ ٱلْفَسَادُ فِي عُقُولِهِمْ مِنْ نَاحِيَةِ فِكْرَةٍ مُلَازِمَةٍ لَا تَبْرَحُ ، فَلَا يَكُونُ جُنُونُهُمْ جُنُونًا إِلَّا مِنْ هَـٰذَا ٱلْوَجْهِ ، وَسَائِرُ أَحْوَالِهِمْ كَأَحْوَالِ ٱلْعُقَلَاءِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ طَيَّاشُونَ مُتَقَلِّبُونَ ، إِذَا ٱزْدُهِيَ أَحَدُهُمْ لَمْ يُطِقْهُ ٱلنَّاسُ مِنْ زَهْوِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَتَنَطُّعِهِ ، كَأَنَّهُ وَاحِدُ ٱلدُّنْيَا فِي هَـٰذِهِ ٱلْفِكْرَةِ ، وَكَأَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱللهِ أَسْرَارًا ؛ وَيَظُنُّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ أَعْقَلُ ٱلنَّاسِ فِي أَرْقَىٰ طَبَقَاتِ عَقْلِهِ ، وَمَا جُنُونُهُ إِلَّا فِي هَـٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ وَحْدَهَا .

وَمِثْلُ هَـٰذَا لَا بُدَّ لَهُ مِمَّنْ يَسْتَجِيبُ لِهَذَيَانِهِ كَيْمَا يُحَرِّكَ فِيهِ خِفَّتَهُ وَطَيْشَهُ وَزَهْوَهُ ، وَلِيَكُونَ عِنْدَهُ ٱلشَّاهِدَ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْوُجُودِ ٱلْخَيَالِيِّ ٱلْمُبْدَعِ ٱلَّذِي لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي عَقْلِهِ

ٱلْمُخْتَلِّ . فَإِذَا هُوَ ظَفِرَ بِمَنْ يُحَاسِنُهُ ، أَوْ يُصَانِعُهُ ، أَوْ يُجَارِيهِ ، حَسِبَهُ مُذْعِنًا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا ، فَلَا يَدَعُهُ مِنْ بَعْدِهَا وَيَتَعَلَّقُ بِهِ أَشَدَّ ٱلتَّعَلُّقِ ، وَيَرَاهُ كَأَنَّهُ فِي مُلْكِهِ . . . فَيَتَّخِذُهُ صَفِيًّا وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ رَقِيقٌ ؛ وَقَدْ يَزْعُمُهُ أُسْتَاذَهُ لِيُفْهِمَهُ مِنْ ذَلِكَ بِحِسَابِ عَقْلِهِ . . . أَنَّهُ تِلْمِيذُهُ .

وَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) لَمْ يُسَمِّنِي أُسْتَاذَهُ إِلَّا بِحِسَابٍ مِنْ هَـٰذَا ٱلْحِسَابِ ، فَهُوَ سَيُعْطِي ٱلْأُسْتَاذِيَّةَ حَقَّهَا ، وَلَـٰكِنْ كَمَا هُوَ حَقُّهَا فِي لُغَةِ جُنُونِهِ . . . فَأُصْبِحُ فِي رَأْيِهِ تِلْمِيذَهُ وَصَنِيعَتَهُ ، وَمُحَدِّثَ هَذَيَانِهِ ، وَثِقَتَهُ وَمَلْجَأَهُ ، وَٱلْمُحَامِيَ مِنْ وَرَائِهِ .

قُلْتُ فِي نَفْسِي : إِذَا أَنَا تَرَكْتُهُ جَالِسًا كَانَ هَـٰذَا ٱلْمَجْلِسُ مَثَابَتَهُ مِنْ بَعْدُ ، فَلَا يَعْرِفُ لَهُ مَحَلًّا غَيْرَهُ ، وَيُصْبِحُ كَمَا يُقَالُ فِي تَعْبِيرِ ٱلْقَانُونِ « مَحَلَّهُ ٱلْمُخْتَارَ » ، فَيَتَطَرَّأُ إِلَيَّ لِسَبَبٍ وَلِغَيْرِ سَبَبٍ ، وَيَقَعُ فِي أَوْقَاتِي وُقُوعَ ٱلسَّهْوِ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ ، وَيَضِيعُ فِيهِ مَا يَضِيعُ . فَأَجْمَعْتُ أَنْ أَصْرِفَهُ رَاضِيًا بِٱلْيَأْسِ ؛ وَقَدِ ٱنْتَهَتْ نَفْسُهُ مِنْ مَعْرِفَتِي ، وَٱنْتَهَىٰ عَقْلُهُ إِلَىٰ ٱلرَّأْيِ أَنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ أُسْتَاذًا ، لَا بِحِسَابِهِ هُوَ وَلَا بِحِسَابِ ٱلنَّاسِ .

فَقُلْتُ لَهُ : ظَنِّي بِكَ أَنَّكَ أُسْتَاذُ نَفْسِكَ ، وَلَا يَحْسُنُ بِنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ أُسْتَاذٌ ؛ وَأَرَاكَ قَدْ فَرَغْتَ لِلْأَدَبِ ، أَمَّا أَنَا فَمَشْغُولٌ بِأَعْمَالِ وَظِيفَتِي ، وَقَدْ جَاءَ مِنَ ٱلْعَمَلِ مَا تَرَاهُ ، وَتَكَادُ لَا تَفِي بِهِ ٱلسَّاعَاتُ ٱلْبَاقِيَةُ مِنَ ٱلْوَقْتِ وَ . . .

فَقَطَعَ عَلَيَّ وَقَالَ : إِنَّ ٱلْوَقْتَ لَيْسَ فِي ٱلسَّاعَةِ ؛ وَٱلدَّلِيلُ أَنِّي أُعَطِّلُهَا فَيَتَعَطَّلُ ٱلْوَقْتُ ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا يَوْمٌ وَلَا سَاعَةٌ وَلَا ثَانِيَةٌ وَلَا دَقِيقَةٌ .

فَقُلْتُ : وَلَـٰكِنَّكَ إِذَا عَطَّلْتَهَا لَمْ تَتَعَطَّلِ ٱلشَّمْسُ ٱلَّتِي تُعَيِّنُ مَنَازِلَ ٱلنَّهَارِ ، فَسَيَمُرُّ ٱلظُّهْرُ وَيَحِينُ ٱلْعَصْرُ وَ . . .

قَالَ : وَيَأْتِي غَدٌ ، وَإِنَّمَا أَنَا مَعَكَ ٱلْيَوْمَ فَقَطْ . . . وَيَجِبُ أَنْ تَغْتَبِطَ بِأَنَّكَ أُسْتَاذُ (نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) ، فَقَدْ قَرَأْتُ ٱلْكَثِيرَ فِي ٱلْأَدَبِ وَقَرَأْتُكَ ، فَمَا كَانَ لِي رَأْيٌ إِلَّا رَأَيْتُهُ لَكَ . . . وَلَا صَحَّتْ عِنْدِي نَظَرِيَّةٌ إِلَّا رَأَيْتُكَ قَدْ أَبْدَيْتَهَا ، وَأَنَا لَا أَعْتَقِدُ أَدَبًا فِي مِصْرَ إِلَّا مَا تَوَافَقْنَا عَلَيْهِ مَعًا « وَلَا أُسَلِّمُ جَدَلًا ، وَلَا جَدَلًا أُسَلِّمُ أَنَّ فِي مِصْرَ أُدَبَاءَ يَنَالُونَ مِنِّي شَيْئًا ،

فَهُوَ أَنَا وَأَنَا هُوَ »[1] ، وَلَئِنْ لَمْ يُذْعِنُوا (لِنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) فَلَيَعْلَمُنَّ أَنَّهُمْ « وَقَعُوا مِنِّي مَوْقِعَ نَمْلَةٍ عَلَىٰ صَخْرَةٍ . . . هَـٰذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُرِيدُ « سَكَايِرَ » وَلَيْسَ مَعِي ثَمَنُهَا » . . .

فَتَهَلَّلْتُ وَٱسْتَبْشَرْتُ ، وَقُلْتُ لَهُ : هَـٰذَا قِرْشٌ فَهَلُمَّ فَٱشْتَرِ بِهِ دَخَائِنَكَ ، وَفِي رِعَايَةِ ٱللهِ . ثُمَّ ٱسْتَوَيْتُ لِلْقِيَامِ ، وَلَـٰكِنَّهُ لَمْ يَقُمْ ؛ بَلْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِهِ . . .

* * *

وَكَرِهْتُ أَنْ أَتَغَيَّرَ لَهُ وَمَا أَشُكُّ أَنَّهُ فِي هَـٰذَا صَحِيحُ ٱلتَّمْيِيزِ ؛ فَمَا أَسْرَعَ مَا قَالَ : إِنَّ « نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ » فَتًى قَوِيُّ ٱلإِرَادَةِ ؛ فَإِذَا هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَنِ ٱلتَّدْخِينِ سَاعَاتٍ فَمَا هُوَ بِصَبُورٍ . . . وَإِذَا لَمْ يَثْبُتْ لَكَ هَـٰذَا ٱلأَمْرُ عَنْ مُعَايَنَةٍ . . . فَمَا أَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَقَدْ غَرَسْتُ ٱلرَّجُلَ مِنْ حَيْثُ أَرَدْتُ ٱقْتِلَاعَهُ ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ مِنْ عُقَلَاءِ ٱلْمَجَانِينِ ٱلَّذِينَ تَتَغَيَّرُ فِيهِمُ ٱلْعَاطِفَةُ أَحْيَانًا فَتُلْهِمُهُمْ آيَاتٍ مِنَ ٱلذَّكَاءِ لَا يَتَّفِقُ مِثْلُهَا إِلَّا لِنَوَابِغِ ٱلْمَنْطِقِ ؛ وَذَكَرْتُ (بُهْلُولَ) ٱلْمَجْنُونَ ٱلَّذِي حَكَوْا عَنْهُ أَنَّ أَبْرَاهِيمَ ٱلشَّيْبَانِيَّ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ خَبِيصًا[2] فَقَالَ لَهُ : أَطْعِمْنِي . قَالَ : لَيْسَ هُوَ لِي ، إِنَّمَا هُوَ لِعَاتِكَةَ بِنْتِ ٱلْخَلِيفَةِ بَعَثَتْهُ إِلَيَّ لِآكُلَهُ لَهَا . . .

وَقَالُوا : إِنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ ٱلْبَزَّازِينَ فَرَأَىٰ قَوْمًا مُجْتَمِعِينَ عَلَىٰ بَابٍ وَكَانَ قَدْ نُقِبَ ، فَنَظَرَ فِيهِ وَقَالَ : أَتَعْلَمُونَ مَنْ عَمِلَ هَـٰذَا ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَأَنَا أَعْلَمُ .

فَقَالُوا : هَـٰذَا مَجْنُونٌ يَرَاهُمْ بِٱللَّيْلِ وَلَا يَتَحَاشَوْنَهُ ، فَٱلْطُفُوا بِهِ لَعَلَّهُ يُخْبِرُكُمْ . ثُمَّ قَالُوا : أَخْبِرْنَا . قَالَ : أَنَا جَائِعٌ . فَجَاؤُوهُ بِطَعَامٍ سَنِيٍّ وَحَلْوَاءَ ؛ فَلَمَّا شَبِعَ قَامَ فَنَظَرَ فِي ٱلنَّقْبِ وَقَالَ : هَـٰذَا عَمَلُ ٱللُّصُوصِ . . .

وَكَانَتْ مَجَلَّةُ (ٱلرِّسَالَةِ) فِي يَدِ (نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) ، فَوَصَلَ ٱلْكَلَامَ بِهَا وَقَالَ : إِنَّهُ

(١) مَا بَيْنَ ٱلْقَوْسَيْنِ هُوَ كَلَامُهُ بِنَصِّهِ كَمَا نَبَّهْنَا إِلَىٰ ذَٰلِكَ ، وَٱلْبَاقِي تَرْجَمْنَاهُ نَحْنُ عَنْ مَعَانِيهِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي فَهَـٰذِهِ سَبِيلُهُ .
(٢) طَعَامٌ كَانُوا يَتَّخِذُونَهُ مِنَ ٱلتَّمْرِ وَٱلسَّمْنِ .

يَقْرَأُ كُلَّ مَقَالَاتِي ، وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ ، وَإِنَّهَا وَإِنَّهَا . قُلْتُ : فَمَا ٱسْتَحْسَنْتَ مِنْهَا ؟ قَالَ : (مَقَالَةَ ٱلسِّينَمَا) . . .

فَقُلْتُ : مَتَىٰ كَانَ آخِرُ عَهْدِكَ بِرُؤْيَةِ ٱلسِّينَمَا ؟ قَالَ : أَمْسِ .

قُلْتُ : فَأَنَا لَمْ أَكْتُبْ مَقَالًا عَنِ ٱلسِّينَمَا ، وَلَـٰكِنَّكَ أُعْجِبْتَ بِمَا رَأَيْتَ أَمْسِ فَتَحَوَّلَ مَا رَأَيْتَهُ حُلْمًا فِي مَقَالَةٍ .

فَأَعْجَبَهُ هَـٰذَا ٱلتَّأْوِيلُ وَقَالَ : بِمِثْلِ هَـٰذَا أَنَا (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) ، فَأَقْرَأُ مَقَالَتَكَ فِي ٱلْغَيْبِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكْتُبَهَا . . .

قُلْتُ : إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ عَنْ نَفْسِكَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) ، وَهَـٰذَا يَحْصُرُ نُبُوغَكَ فِي قَرْنٍ بِعَيْنِهِ ؛ فَلَوْ قَطَعْتَ ٱلْكَلِمَةَ وَقُلْتَ : (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ) ، لَصَحَّ أَنْ تَكُونَ نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلتَّاسِعَ عَشَرَ وَٱلثَّامِنَ عَشَرَ ، وَمَا قَبْلَهُمَا وَمَا بَعْدَهُمَا .

فَرَأَيْتُ بِهِ شَدْهَةً كَأَنَّهُ يُفَكِّرُ فِي جُنُونِهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ وَقَالَ : لَا . لَا ؛ وَإِنَّ هَا هُنَا مَوْضِعَ نَظَرٍ ، فَلَوْ رَضِيتُ بِنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ فَقَطْ ، لَجَاءَ مَنْ يَقُولُ : إِنِّي نَابِغَةُ قَرْنِ خَرُوفٍ . . .

* * *

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : حَمْأَةٌ مُدَّتْ بِمَاءٍ[1] ، وَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْوَسَاوِسَ لَا تَنْفَكُّ تَعْرُو هَـٰذَا ٱلْمِسْكِينَ مَا وَجَدَ مَنْ يُكَلِّمُهُ ؛ وَٱلأَفْكَارُ فِي ذِهْنِهِ مُجْتَمِعَةٌ مُخْتَلِطَةٌ مُسْتَرْسِلَةٌ كَأَنَّهَا ثَوْرَةٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَا نِظَامَ لَهَا ، فَلَأَسْكُتْ عَنْهُ وَلْأَتَشَاغَلْ بِمَا بَيْنَ يَدَيَّ .

وَسَكَتُّ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ ؛ فَجَعَلَ طَائِفُهُ يَعْتَرِيهِ ، وَكَأَنَّ ٱلسُّكُوتَ قَدْ سَلَّطَ أَفْكَارَهُ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهَا أَخَذَتْ تَصِيحُ بِهِ فِي رَأْسِهِ كَمَا يَصِيحُ غِلْمَانُ ٱلطُّرُقِ بِٱلْمَجْنُونِ ، لَا يَزَالُونَ بِهِ حَتَّىٰ يُحْرِدُوهُ وَيُفْقِدُوهُ ٱلْبَقِيَّةَ مِنْ صَبْرِهِ وَعَقْلِهِ مَعًا . فَغَضِبَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) وَنَقَلَهُ ٱلْغَضَبُ إِلَىٰ حَالَةٍ زَمْهَرَتْ فِيهَا عَيْنَاهُ[2] ، وَكَلَحَ وَجْهُهُ حَتَّىٰ خِفْتُ أَنْ يَثُورَ بِهِ ٱلْجُنُونُ ، فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَتَعَلَّلْتُ بِسُؤَالِهِ : أَلَكَ إِخْوَةٌ ؟ أَلَمْ يَنْبُغْ فِيهِمْ نَابِغَةٌ . . . ؟

(١) هَـٰذَا مَثَلٌ فِي مَعْنَىٰ : زَادَ ٱلطِّينَ بِلَّةً ، وَٱلْحَمْأَةُ إِذَا مَدَدْتَهَا بِٱلْمَاءِ زَادَتْ وَٱتَّسَعَتْ .
(٢) أَيْ : لَمَعَتْ غَضَبًا .

قَالَ : إِنَّ لَهُ أَخًا يُعَذِّبُهُ ، وَيُوقِعُ بِهِ ضَرْبًا ، وَيُغَلِّلُهُ بِالسَّلَاسِلِ ، وَيَشُدُّهُ « بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَىٰ صُمِّ جَنْدَلِ »[1] ، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ بِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَا لَوْ أَنْزَلَهُ بِحَجَرٍ لَتَأَلَّمَ .

قُلْتُ : فَأَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ رَاحَةٍ ، وَيَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَأْوِيَ إِلَىٰ مَكَانٍ تَتَمَدَّدُ فِيهِ .

قَالَ : إِنِّي مُنْصَرِفٌ وَسَأَجْلِسُ فِي نَدِيِّ كَذَا[2] « هَـٰذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِي ثَمَنُ ٱلْقَهْوَةِ » .

قُلْتُ : فَهَـٰذَا قِرْشٌ تَدْفَعُهُ ثَمَنًا لَهَا ، فَاذْهَبْ فَاسْتَمْتِعْ بِهَا وَبِالتَّدْخِينِ وَبِالرَّاحَةِ فِي ذَلِكَ ٱلنَّدِيِّ ، فَالْمَكَانُ هَا هُنَا كَثِيرُ ٱلضَّجِيجِ وَٱلْحَرَكَةِ . وَٱسْتَوْفَزْتُ لِلْقِيَامِ ؛ وَلَـٰكِنَّهُ لَمْ يَتَحَلْحَلْ مِنْ مَجْلِسِهِ .

* * *

ثُمَّ قَالَ : أَرَاكَ ٱلْآنَ مُسْتَبْصِرًا أَنِّي (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) بِعَيْنِهِ .

قُلْتُ : بَلْ بِعَيْنَيْهِ ٱلْيُمْنَىٰ وَٱلْيُسْرَىٰ مَعًا . . .

قَالَ : لَا . لَا ؛ إِنَّكَ نَسِيتَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ فِي ٱلتَّوْكِيدِ : عَيْنُهُ وَنَفْسُهُ وَذَاتُهُ . « أَيْ أَنَا نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ بِعَيْنِهِ وَنَفْسِهِ وَذَاتِهِ ، فَلَيْسَ غَيْرِي نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ » .

وَكَادَتْ نَفْسِي تَخْرُجُ غَيْظًا ، وَلَـٰكِنِّي رَأَيْتُ ٱلْحِلْمَ عَلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا يَجْرِي مَجْرَىٰ ٱلصَّدَقَةِ ؛ وَقُلْتُ : إِنَّ أُدَبَاءَ ٱلْمَجَانِينِ كَثِيرًا مَا يَتَّفِقُ لَهُمُ ٱلْإِبْدَاعُ ٱلطَّرِيفُ إِذَا عَلَّلُوا شَيْئًا ، كَذَلِكَ ٱلْقَاصُّ ٱلَّذِي كَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ ٱلْعَامَّةِ سِيرَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ : إِنَّ ٱلذِّئْبَ ٱلَّذِي أَكَلَ يُوسُفَ كَانَ ٱسْمُهُ كَذَا ؛ فَرَدُّوا عَلَيْهِ : إِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَأْكُلْهُ ٱلذِّئْبُ .

قَالَ : فَهَـٰذَا هُوَ ٱسْمُ ٱلذِّئْبِ ٱلَّذِي لَمْ يَأْكُلْ يُوسُفَ .

فَقُلْتُ لِلْمَجْنُونِ : فَمَا ٱلْعِلَّةُ عِنْدَكَ فِي أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ يَقُولُوا فِي ٱلتَّوْكِيدِ : عَيْنُهُ وَأُذُنُهُ وَأَنْفُهُ وَفَمُهُ وَيَدُهُ وَرِجْلُهُ ؟

(١) هَذَا عَجُزُ بَيْتٍ لِامْرِئِ ٱلْقَيْسِ . بسام .

(٢) نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ « ٱلنَّدِيَّ » لِمَكَانِ ٱلْقَهْوَةِ .

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلْفَضَاءِ ثُمَّ قَالَ : لَيْسُوا مَجَانِينَ فَيَخْلِطُوا هَـٰذَا ٱلْخَلْطَ ، وَإِلَّا وَجَبَ أَنْ يَقُولُوا مَعَ ذَلِكَ : وَعِمَامَتُهُ وَثَوْبُهُ وَنَعْلُهُ وَبَعِيرُهُ وَشَاتُهُ وَدَرَاهِمُهُ . « هَـٰذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِي أُجْرَةُ ٱلسَّيَّارَةِ إِلَىٰ بَلَدِي وَهِيَ قِرْشَانِ » .

قُلْتُ : هَـٰذِهِ هِيَ أُجْرَةُ ٱلسَّيَّارَةِ وَصَحِبَتْكَ ٱلسَّلَامَةُ ؛ وَنَهَضْتُ وَاقِفًا ؛ وَلَـٰكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ .

* * *

ثُمَّ قَالَ : إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفْ بَعْدُ « أَنِّي أَقُولُ ٱلشِّعْرَ فِي ٱلْغَزَلِ وَٱلنَّسِيبِ وَٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَٱلْفَخْرِ ؛ وَأَنِّي فِي ٱلْخَطَابَةِ قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ أَوْ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ ، وَأَنِّي صَخْرٌ لَا يَنْفَجِرُ . . . يَابِسٌ لَا يَنْعَصِرُ ، لَسْتُ كَالْحَجَّاجِ بَلْ كَعُمَرَ » .

قُلْتُ : هَـٰذَا شَيْءٌ يَطُولُ بَيْنَنَا وَلَا حَاجَةَ لَكَ بِهَـٰذِهِ ٱلْبَرَاهِينِ كُلِّهَا ، فَقَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ فِي ٱلْأَدَبِ وَٱلشِّعْرِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلتَّرَسُّلِ .

قَالَ : وَٱلْفَلْسَفَةُ ؟

قُلْتُ : وَٱلْفَلْسَفَةِ وَكُلِّ مَعْقُولٍ وَمَنْقُولٍ ؛ وَقَدِ ٱنْتَهَيْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ .

قَالَ : وَلَـٰكِنَّكَ تَحْسَبُنِي مَجْنُونًا أَوْ مَمْرُورًا « كَمَا حَسِبَتْنِي ٱلْجَرَائِدُ ٱلَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ ٱخْتِفَائِي فِي ٱلْبِيمَارِسْتَانِ كَانَ لِجُنُونِي ٱلْفِكْرِيِّ أَوْ لِذَكَائِي ٱلطَّبِيعِيِّ وَهُوَ ٱلْأَصَحُّ . . . فَبَيِّنْ لِهَـٰذِهِ ٱلْجَرَائِدِ أَنِّي خَرَجْتُ ، وَأَنِّي سَأَطْبَعُ ٱلْأَدَبَ بِطَابَعٍ جَدِيدٍ » .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنِّي لَسْتُ مُرَاسِلَ جَرَائِدَ . قَالَ : « فَٱجْعَلْنِي رِسَالَةً وَرَاسِلْهَا عَنِّي أَوْ أَكْتُبُ لَكَ أَنَا مَا تُرْسِلُهُ ، وَمَا جِئْتُكَ إِلَّا لِهَـٰذَا ؛ وَيَجِبُ أَنْ تُلْحِقَنِي بِجَرِيدَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَهَـٰذِهِ ٱلْجَرَائِدُ تَعْرِفُنِي كُلُّهَا ، وَقَدْ تَنَاوَلَتْنِي مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّوَاحِي ٱلْأَدَبِيَّةِ ؛ فَضْلًا عَنْ أَنِّي كَاتِبٌ فَذٌّ ، وَخَطِيبٌ فَذٌّ ، وَشَاعِرٌ فَذٌّ ؛ وَهَـٰذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ ، فَهَلْ أُعَوِّلُ عَلَيْكَ فِي صِلَتِي بِالْجَرَائِدِ أَوْ لَا ؟ » .

قُلْتُ : إِنَّكَ تَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَكَ ، وَقَدْ بَلَوْتَهُمْ وَبَلَوْا مِنْكَ ؛ فَلَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَيَّ عِنْدَهُمْ .

قَالَ : « إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ بَأْسِي ، وَقَدْ حَسِبُونِي مَجْنُونًا ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَاطِينُ ؛ وَمَا عَلِمُوا أَنَّ شَيْطَانَ ٱلشِّعْرِ هُوَ ٱلَّذِي ٱسْتَهْوَانِي ، كَمَا أَنَّ شَيْطَانَ ٱلْحُبِّ هُوَ ٱلَّذِي ٱسْتَهْوَاكَ . . . هَـٰذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِي ثَمَنُ ٱلْغَدَاءِ ، وَلَا أُكَلِّفُكَ شَيْئًا . . . »

قُلْتُ : فَهَـٰذَا قِرْشٌ لِلْغَدَاءِ فِيْ مَطْعَمِ ٱلشَّعْبِ . وَهُمُ ٱلآنَ يَتَغَدَّوْنَ وَيُوْشِكُ إِذَا أَبْطَأْتَ أَنْ تُوَافِقَهُمْ وَقَدِ ٱسْتَنْفَدُوْا ٱلطَّعَامَ ، وَأَنْتَ لَا تَجْهَلُ أَنَّ ٱلْقِرْشَ فِيْ مَطْعَمِ ٱلشَّعْبِ هُوَ قِرْشَانِ فِيْ ٱلْقِيْمَةِ .

قَالَ : صَدَقْتَ ؛ يُوْشِكُ أَنْ أُوَافِقَهُمْ وَقَدْ فَرَغُوْا مِنْ طَعَامِهِمْ وَغَسَلُوْا ٱلآنِيَةَ . فَلأُبْقِ هَـٰذَا لِلْعَشَاءِ وَسَأَطْوِيْ إِلَىٰ ٱللَّيْلِ . . .

قُلْتُ : فَمَعَكَ ٱلآنَ ثَمَنُ ٱلدُّخَانِ ، وَٱلْقَهْوَةِ ، وَٱلْغَدَاءِ ، وَأُجْرَةُ ٱلسَّيَّارَةِ إِلَىٰ بَلَدِكَ . وَقَدْ كَانَ نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلثَّالِثِ لِلْهِجْرَةِ وَٱسْمُهُ (طَاقُ ٱلْبَصَلِ)(١) يُغَنِّيْ بِقِيْرَاطٍ وَلَا يَسْكُتُ إِلَّا بِدَانِقٍ . هَـٰذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ فَخُذْ هَـٰذَا ٱلْقِرْشَ ثَمَنًا لِسُكُوْتِكَ وَٱنْصَرِفْ .

* * *

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَامَ مُغْضَبًا ، وَتَنَفَّسْتُ بَعْدَهُ ٱلصُّعَدَاءَ ٱلطَّوِيْلَةَ . . . وَفَتَحْتُ ٱلنَّافِذَةَ وَٱسْتَقْبَلْتُ ٱلْهَوَاءَ ٱلنَّقِيَّ وَأَخَذْتُ فِيْ رِيَاضَةِ ٱلتَّنَفُّسِ ٱلْعَمِيْقِ ، ثُمَّ زَاغَتْ عَيْنِيْ إِلَىٰ ٱلْبَابِ ؛ فَإِذَا (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنِ) مُقْبِلٌ مَعَ نَابِغَةِ قَرْنٍ آخَرَ . . . . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

ٱلْمَجْنُوْنُ(*)
٢

وَرَأَيْتُ ٱلْمَجْنُوْنَيْنِ يَدْخُلَانِ مَعًا ، فَكَأَنَّمَا سَدَّا ٱلْبَابَ وَسَوَّيَاهُ بِٱلْبِنَاءِ ، وَتَرَكَا ٱلْغُرْفَةَ حَائِطًا مُصْمَتًا لَا بَابَ فِيْهِ ، مِمَّا ٱعْتَرَانِيْ مِنَ ٱلضِّيْقِ وَٱلْحَرَجِ ؛ وَقُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ : إِنَّهُ لَا مَذْهَبَ لِلْعَقْلِ بَيْنَ هَـٰذَيْنِ إِلَّا أَنْ يُعِيْنَ كِلَاهُمَا عَلَىٰ صَاحِبِهِ ، فَأَرَىٰ أَنْ أَدَعَهُمَا وَأَكُوْنَ أَنَا

(١) هَـٰذَا مَجْنُوْنٌ مِنْ مَجَانِيْنِ ٱلْكُوْفَةِ فِيْ ٱلْقَرْنِ ٱلثَّالِثِ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٦ ، ٦ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨ .

أُصَرِّفُهُمَا ؛ وَيَا رُبَّمَا جَاءَ مِنَ ٱلنَّوَادِرِ فِيْ ٱجْتِمَاعِ مَجْنُوْنَيْنِ مَا لَا يَأْتِيْ مِثْلُهُ مِنْ عَقْلَيْنِ يَجْتَمِعَانِ عَلَىٰ ٱبْتِكَارِهِ ؛ غَيْرَ أَنِّيْ خَشِيْتُ أَنْ أَكُوْنَ أَنَا ٱلْمَجْنُوْنَ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ لَا آمَنُ أَنْ يَثِبَ أَحَدُهُمَا بِٱلآخَرِ إِذَا خَطَرَتْ بِهِ ٱلْخَطْرَةُ مِنْ شَيْطَانِهِ ، فَرَأَيْتُ أَنْ يَكُوْنَ لِيْ ظَهِيْرٌ عَلَيْهِمَا ، إِنْ لَمْ يَحِقَّ بِهِ ٱلْعَوْنُ فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَطُوْلَ بِهِ ٱلصَّبْرُ . . . وَكَانَ إِلَىٰ قَرِيْبٍ مِنِّيْ ٱلصَّدِيْقُ (ا . ش)(١) فَأَرْسَلْتُ فِيْ طَلَبِهِ .

أَمَّا هَـٰذَا ٱلْمَجْنُوْنُ ٱلثَّانِيْ ٱلَّذِيْ جَاءَ بِهِ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) فَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ ، وَهُوَ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِيْ خُلِّطَتْ صُحُفُهُ بَعْضُهَا فِيْ بَعْضٍ فَتَدَاخَلَتْ وَفَسَدَ تَرْتِيْبُهَا ، وَٱنْقَلَبَ بِذَلِكَ ٱلْعِلْمُ ٱلَّذِيْ كَانَ فِيْهَا جَهْلًا وَتَخْلِيْطًا ، يَثِبُ ٱلْكَلَامُ بَعْدَ كُلِّ صَفْحَةٍ إِلَىٰ صَفْحَةٍ غَرِيْبَةٍ لَا صِلَةَ لَهَا بِمَا قَبْلَهَا وَلَا مَا بَعْدَهَا .

وَهُوَ طَالِبٌ أَزْهَرِيٌّ كَانَ أَكْبَرَ هَمِّهِ أَنْ يَصِيْرَ حَافِظًا كَٱلْحُفَّاظِ ٱلأَقْدَمِيْنَ مِنَ ٱلرُّوَاةِ وَٱلْفُقَهَاءِ ، فَجَعَلَ يَسْتَظْهِرُ كِتَابًا بَعْدَ كِتَابٍ وَمَتْنًا بَعْدَ مَتْنٍ ؛ وَكَانَتْ لَهُ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ، فَكُلُّ مَا أُفْرِغَ فِيْهَا مِنْ دَرْسٍ أَوْ حَدِيْثٍ أَوْ خَبَرٍ ، نَزَلَ مِنْهَا كَٱلنَّقْرِ عَلَىٰ آلَةٍ كَاتِبَةٍ ، فَيَنْطَبِعُ فِيْ ذِهْنِهِ ٱنْطِبَاعَ ٱلْكِتَابَةِ : لَا تُمْحَىٰ وَلَا تُنْسَىٰ .

ثُمَّ ٱلْتَاثَ هَـٰذِهِ ٱللُّوْثَةَ وَهُوَ يَحْفَظُ مَتْنًا فِيْ فِقْهِ ٱلشَّافِعِيِّ (رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ) ، فَغَبَرَ سِنِيْنَ يَتَحَفَّظُهُ ، كُلَّمَا ٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ آخِرِهِ نَسِيَهُ مِنْ أَوَّلِهِ ؛ فَيَعُوْدُ فِيْ حِفْظِهِ وَرُبَّمَا أَثْبَتَ مِنْهُ ٱلشَّيْءَ بَعْدَ ٱلشَّيْءِ ، وَلَـٰكِنَّهُ إِذَا بَلَغَ ٱلآخِرَ لَمْ يَجِدْ مَعَهُ ٱلأَوَّلَ ؛ فَلَا يَزَالُ هَـٰذَا دَأْبَهُ لَا يَمَلُّ وَلَا يَجِدُ لِهَـٰذَا ٱلْعَنَاءِ مَعْنًى ، وَلَا يَزَالُ مُقْبِلًا عَلَىٰ ٱلْكِتَابِ يَجْمَعُهُ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ ٱلْكِتَابُ يَتَبَدَّدُ فِيْ ذَاكِرَتِهِ .

وَتَرَكَ ٱلْمَعْهَدَ ٱلَّذِيْ هُوَ فِيْهِ وَتَخَلَّىٰ فِيْ دَارِهِ لِلْحِفْظِ ، وَأَجْمَعَ أَلَّا يَدَعَ هَـٰذَا ٱلْمَتْنَ أَوْ يَحْفَظَهُ ، كَأَنَّ فِيْهِ ٱلْمَوْضِعَ ٱلَّذِيْ فَارَقَهُ عَقْلُهُ عِنْدَهُ ، وَبِذَلِكَ رَجَعَ ٱلْمِسْكِيْنُ آلَةَ حِفْظٍ لَيْسَ لَهَا مِسَاكٌ ؛ وَأَصْبَحَ كَٱلَّذِيْ يَرْفَعُ ٱلْمَاءَ مِنَ ٱلْبَحْرِ ، ثُمَّ يُلْقِيْهِ فِيْ ٱلْبَحْرِ ، لِيَنْزَحَ ٱلْبَحْرَ . . .

* * *

(١) يغلب على الظن أن المقصود هو : أمين حافظ شرف ، زميل الرافعي في محكمة طنطا . بسام .

وَجَاءَ (ا . ش) ، فَقُلْتُ لَهُ ، وَأَوْمَأْتُ إِلَىٰ ٱلْمَجْنُونِ ٱلأَوَّلِ : هَـٰذَا نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ .

قَالَ : وَهَلِ ٱنْتَهَىٰ ٱلْقَرْنُ ٱلْعِشْرُونَ فَيُعْرَفُ مَنْ نَابِغَتُهُ ؟

فَقُلْتُ لِلْمَجْنُونِ : أَجِبْهُ أَنْتَ .

فَسَأَلَهُ : وَهَلْ بَدَأَ ٱلْقَرْنُ ٱلْوَاحِدُ وَٱلْعِشْرُونَ ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ : فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلَّذِي إِلَىٰ جَانِبِي نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْوَاحِدِ وَٱلْعِشْرِينَ . . . فَكَمَا جَازَ أَنْ يَكُونَ هُوَ نَابِغَةَ قَرْنٍ لَمْ يَبْدَأْ ، جَازَ أَنْ أَكُونَ أَنَا نَابِغَةَ قَرْنٍ لَمْ يَنْتَهِ .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنَّكَ زِدْتَ ٱلْمُشْكِلَةَ تَعْقِيدًا مِنْ حَيْثُ تَوَهَّمْتَ حَلَّهَا ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ مَعَكَ فِي آنٍ وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُ خَمْسٌ وَسِتُّونَ سَنَةً ؟

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلْفَضَاءِ ، وَهُوَ كُلَّمَا أَرَادَ شَيْئًا عَسِيرًا نَظَرَ إِلَىٰ ٱللَّا شَيْءِ . . . ثُمَّ قَالَ : هَـٰذِهِ ٱلأُمُورُ لَا تَشْتَبِهُ إِلَّا عَلَىٰ غَيْرِ ٱلْعَاقِلِ . . . وَكَيْفَ لَا يَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَمْسٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَأَنَا أَتَقَدَّمُهُ فِي ٱلنُّبُوغِ بِأَكْثَرَ مِنْ عِلْمِ ٱلْعُلَمَاءِ فِي خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً . . . ؟

قُلْتُ لِلآخَرِ : أَكَذَٰلِكَ ؟

قَالَ : مِمَّا حَفِظْنَاهُ عَنِ ٱلْحَسَنِ : أَدْرَكْنَا قَوْمًا لَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ لَقُلْتُمْ : مَجَانِينُ . وَلَوْ أَدْرَكُوكُمْ لَقَالُوا : شَيَاطِينُ . . .

فَضَحِكَ ٱلأَوَّلُ وَقَالَ : إِنَّهُ تِلْمِيذِي .

قَالَ ٱلثَّانِي : لَقَدْ صَدَقَ فَهُوَ أُسْتَاذِي ، وَلَـٰكِنَّهُ حِينَ يَنْسَىٰ لَا يُذَكِّرُهُ غَيْرِي . . .

قُلْتُ : لَا غَرْوَ ؛ « فَمِمَّا حَفِظْنَاهُ » عَنِ ٱلزُّهْرِيِّ : إِذَا أَنْكَرْتَ عَقْلَكَ فَٱقْدَحْهُ بِعَاقِلٍ . . .

فَغَضِبَ نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ وَقَالَ : وَيْحٌ لِهَـٰذَا ٱلْجَاهِلِ ، ٱلأَحْمَقِ ، ٱلْجَاحِدِ لِلْفَضْلِ ، مَعَ جُنُونِهِ وَخَبَلِهِ . أَيُذَكِّرُنِي وَهُوَ مُنْذُ كَذَا وَكَذَاسَنَةً يَحْفَظُ مَتْنًا وَاحِدًا لَا يُمْسِكُهُ

عَقْلُهُ إِلَّا كَمَا يُمْسِكُ ٱلْمَاءَ ٱلْغَرَابِيلُ ؟ صَدَقَ وَٱللهِ مَنْ قَالَ : عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ ؛ خَيْرٌ ؛ خَيْرٌ .

فَقَالَ ٱلثَّانِي : خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ ، هَـٰأَنَذَا قَدْ ذَكَّرْتُكَ مِنْ نِسْيَانٍ ، وَهَـٰأَنْتَ ذَا رَأَيْتَ .

فَضَحِكَ ٱلنَّابِغَةُ وَقَالَ : وَلَـٰكِنِّي لَمْ أُرِدْ أَنْ أَقُولَ هَـٰذَا ، بَلْ أُرِيدُ أَنْ أُؤَلِّفَ كَلَامًا آخَرَ . . . . . . عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ ، خَيْرٌ ، خَيْرٌ ؛ خَيْرٌ مِنْ مَجْنُونٍ جَاهِلٍ . . . .

* * *

وَرَأَيْتُ أَنَّ فِي ٱلْتِقَاءِ مَجْنُونَيْنِ شَيْئًا طَرِيفًا غَيْرَ جُنُونِهِمَا ، وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ ٱلْمَجْنُونَ ٱلْوَاحِدَ هُوَ ٱلْمَجْنُونُ ؛ أَمَّا ٱلاثْنَانِ فَقَدْ يَكُونُ مِنِ ٱجْتِمَاعِهِمَا وَتَحَاوُرِهِمَا فَنٌّ ظَرِيفٌ مِنَ ٱلتَّمْثِيلِ ، إِذَا وَجَدَا مَنْ يُصَرِّفُهُمَا فِي ٱلْحَدِيثِ ، وَيَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُمَا ، وَيَسْتَكْشِفُ مِنْهُمَا قِصَّتَهُمَا ٱلْعَقْلِيَّةَ . . . .

وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ (نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) مِنَ ٱلْمَجَانِينِ ٱلَّذِينَ لَهُمْ أُذُنٌ فِي غَيْرِ ٱلأُذُنِ ، وَعَيْنٌ فِي غَيْرِ ٱلْعَيْنِ ، وَأَنْفٌ بِغَيْرِ ٱلأَنْفِ ؛ إِذْ تَتَلَقَّىٰ أَدْمِغَتُهُمْ أَصْوَاتًا وَأَشْبَاحًا وَرَوَائِحَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا لَا مِنَ ٱلْوُجُودِ ، وَتُدْرِكُهَا بِٱلتَّوَهُّمِ لَا بِٱلْحَاسَّةِ ، فَتَتَخَلَّقُ هَوَاجِسُهُمْ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ ، وَتَخْطُرُ ٱلْكَلِمَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي ذِهْنِ أَحَدِهِمْ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَعْنَاهَا يَتَكَلَّمُ فِي دِمَاغِهِ أَوْ يَمْشِي أَوْ يُلَاطِفُهُ أَوْ يُؤْذِيهِ أَوْ يَفْعَلُ أَفْعَالًا أُخْرَىٰ .

وَبَيْنَا أَنَا أُدِيرُ ٱلرَّأْيَ فِي إِخْرَاجِ فَصْلٍ تَمْثِيلِيٍّ مِنَ ٱلْحِوَارِ بَيْنَ هَـٰذَيْنِ ٱلْمَجْنُونَيْنِ[1] ، إِذْ قَالَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) : صَهْ ! إِنَّ جَرَسَ « ٱلتَّلِفُونِ » يَدُقُّ .

قَالَ (ا . ش) : لَا أَسْمَعُ صَوْتًا ، وَلَيْسَ هَـٰهُنَا « تَلِفُونٌ » .

فَٱغْتَاظَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلآخَرُ وَقَالَ : إِنَّكَ تَتَقَحَّمُ عَلَىٰ ٱلنَّوَابِغِ وَلَسْتَ مِنْ قَدْرِهِمْ ، وَمَا عَمَلُكَ إِلَّا أَنْ تُنْكِرَ ؛ وَٱلإِنْكَارُ ، وَيْلَكَ ، أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَىٰ ٱلْمَجَانِينِ وَأَشْبَاهِ ٱلْمَجَانِينِ ، وَٱلْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِ ٱلْعَامَّةِ ؛ وَقَدْ أَنْكَرْتَ نُبُوغَهُ آنِفًا ، وَأَرَاكَ ٱلآنَ تُنْكِرُ « تَلِفُونَهُ » . . .

(١) سَيَأْتِي هَـٰذَا ٱلْفَصْلُ ٱلتَّمْثِيلِيُّ فِي مَقَالٍ آخَرَ .

قَالَ (ا . ش) : وَأَيْنَ « ٱلتِّلِفُونُ Telephone »[1] وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْغُرْفَةُ بِأَعْيُنِنَا ؟

فَضَحِكَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) وَقَالَ : صَهْ وَيْحَكَ ! لَقَدْ خَلَطْتَ عَلَيَّ ؛ إِنَّ ٱلْجَرَسَ يَدُقُّ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أُكَلِّمَهَا حَتَّىٰ يَطُولَ ٱنْتِظَارُهَا ، وَحَتَّىٰ تَدُقَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَأَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ قَدْ دَقَّتِ ٱلثَّالِثَةَ وَذَهَبَ رَنِينُهَا فِي صَوْتِكَ وَلَغَطِكَ . . .

قَالَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلْآخَرُ : هِيَ صَاحِبَتُهُ ٱلَّتِي يَهْوَاهَا وَتَهْوَاهُ ؛ وَقَدِ ٱسْتَهَامَهَا وَتَيَّمَهَا وَحَيَّرَهَا وَخَبَّلَهَا ، حَتَّىٰ لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ ، فَوَضَعَتْ لَهُ تَلِفُونًا فِي رَأْسِهِ . . . . . .

قَالَ « ٱلنَّابِغَةُ » : وَهَـٰذَا ٱلتَّلِفُونُ لَا يُسْمِعُنِي صَوْتَهَا فَقَطْ ، بَلْ هُوَ يُنْشِقُنِي عِطْرَهَا أَيْضًا . وَقَدْ تُكَلِّمُنِي فِيهِ ٱلْمَلَائِكَةُ أَحْيَانًا ، وَأَنَا سَاخِطٌ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَبِيبَةِ فَإِنَّهَا غَيُورٌ تُخْشَىٰ سَطَوَاتُهَا عَلَى ٱللَّائِي تَغَارُ مِنْهُنَّ ، وَلَوْلَا ذَٰلِكَ لَكَلَّمَتْنِي فِي هَـٰذَا ٱلتَّلِفُونِ إِحْدَى ٱلْحُورِ ٱلْعِينِ . . . . . .

قُلْنَا : أَوَ تَغَارُ مِنْهَا ٱلْحُورُ ٱلْعِينُ ؟

قَالَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلثَّانِي : بَلِ ٱلْأَمْرُ فَوْقَ ذَٰلِكَ ، فَإِنَّ ٱلْحُورَ ٱلْعِينَ يَشْتُمْنَهَا وَيَلْعَنَّهَا ؛ « فَمِمَّا حَفِظْنَاهُ » هَـٰذَا ٱلْحَدِيثُ : « لَا تُؤْذِي ٱمْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي ٱلدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ ٱلْحُورِ ٱلْعِينِ : لَا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ ٱللهُ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا » [الترمذي ، رقم : ١١٧٤ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠١٤ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٥٩٦] .

قَالَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) : وَيْلِي عَلَى ٱلْمَجْنُونِ ! إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُوَ لَهُ مَوْضِعِي فَهُوَ يَتَمَنَّىٰ هَلَاكِي وَٱنْتِقَالِي وَشِيكًا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا . وَهُوَ يَقُولُ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِأَنَّهُ أَحْمَقُ لَيْسَ لَهُ عُقْدَةٌ مِنَ ٱلْعَقْلِ ، فَيَزْعُمُ أَنَّهَا تُؤْذِينِي ، وَلَوْ هِيَ آذَتْنِي لَغَضِبْتُ قَبْلَ ذَٰلِكَ ، وَلَوْ غَضِبْتُ لَرَفَعَتِ ٱلتَّلِفُونَ . صَهْ ! إِنَّ ٱلْجَرَسَ يَدُقُّ .

* * *

(١) تلفون Telephone : اختير لَهُ عدة أسماء ، منها : الهاتف والمُسِرَّة وغيرهما : وكلمة الهاتف هي الرائجة ، في بلاد الشام . بسّام .

قَالَ ا . ش : إِنَّ لِلنَّوَابِغِ لَشَأْنًا عَجَبًا ، فَفِي مُدِيرِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ رَجُلٌ نَابِغَةٌ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ وَتَرَكَتْ لَهُ غُلَامًا ، فَتَزَوَّجَ أُخْرَىٰ وَهُوَ يَعِيشُ فِي دَارِ أَبِيهِ . فَلَمَّا كَانَ عِيدُ ٱلْأَضْحَىٰ سَأَلَ أَبَاهُ مَالًا يَبْتَاعُ بِهِ ٱلْأُضْحِيَّةَ فَلَمْ يُعْطِهِ . وَهُوَ رَجُلٌ يَحْفَظُ ٱلْقُرْآنَ ، فَذَكَرَ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) وَرُؤْيَاهُ فِي ٱلْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ ٱبْنَهُ ، فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ هَـٰذَا بَابٌ إِلَى ٱلنُّبُوَّةِ ، وَأَنَّ ٱللهَ قَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْهِ ، فَأَخَذَ ٱلْغُلَامَ فِي صَبِيحَةِ ٱلْعِيدِ وَهَمَّ بِذَبْحِهِ ، وَلَوْلَا أَنْ صَرَخَ ٱلْغُلَامُ فَأَدْرَكَهُ ٱلنَّاسُ فَٱسْتَنْقَذُوهُ . . .

قَالَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) : هَـٰذَا مَجْنُونٌ وَلَيْسَ بِنَابِغَةٍ ؛ بَلْ هَـٰذَا مِنْ جُهَلَاءِ ٱلْمَجَانِينِ ؛ بَلْ هُوَ مَجْنُونٌ عَلَىٰ حِدَتِهِ . وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي ٱلْبِيمَارِسْتَانِ فِي حِينِ كُنْتُ أَنَا فِي ٱلْمُسْتَشْفَىٰ . . . فَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ ٱئْتَمَرَ فِي ذَبْحِ غُلَامِهِ بِإِرَادَةِ ٱللهِ . وَلَوْ كَانَتْ إِرَادَةُ ٱللهِ لَنَفَذَتْ بِٱلذَّبْحِ ، وَلَوْ كَانَ ٱلْأَمْرُ وَحْيًا لَنَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلسَّمَاءِ كَبْشٌ يَذْبَحُهُ . . . وَهَـٰكَذَا أَنَا فِي ٱلْمَنْطِقِ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) .

ثُمَّ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى ٱلْمَجْنُونِ ٱلثَّانِي وَقَالَ : وَأَنَا أَتَقَدَّمُ هَـٰذَا فِي ٱلنُّبُوغِ بِأَكْثَرَ مِنْ عِلْمِ ٱلْعُلَمَاءِ فِي خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً كَامِلَةً .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنَّكَ ذَكَرْتَ هَـٰذَا مِنْ قَبْلُ فَلِمَ عُدْتَ فِيهِ ٱلْآنَ ؟

قَالَ : إِنَّ ٱلسَّبَبَ قَدْ تَغَيَّرَ فَتَغَيَّرَ مَعْنَى ٱلْكَلَامِ ، وَقَدْ بَدَا لِي أَنَّهُ يَتَمَنَّىٰ هَلَاكِي لِيَكُونَ هُوَ نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ . فَمَعْنَى ٱلْكَلَامِ ٱلْآنَ : أَنَّهُ لَوْ عَاشَ خَمْسًا وَسِتِّينَ سَنَةً « يَحْفَظُ ٱلْمَتْنَ » لَمَا بَلَغَ مَبْلَغِي مِنَ ٱلْعِلْمِ . هَـٰذَا رَجُلٌ نِصْفُهُ مَيِّتٌ جُنُونًا مَوْتًا حَقِيقِيًّا ، وَنِصْفُهُ ٱلْآخَرُ مَيِّتٌ جَهْلًا بِٱلْمَوْتِ ٱلْمَعْنَوِيِّ .

قَالَ ا . ش : حَسْبُهُ أَنْ يُقَلِّدَكَ تَقْلِيدَ ٱلْعَامِّيِّ لِإِمَامِهِ فِي ٱلصَّلَاةِ ؛ وَعَسَىٰ أَلَّا تَسْتَكْثِرَ عَلَيْهِ هَـٰذَا ، فَإِنَّهُ تِلْمِيذُكَ .

قَالَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلثَّانِي : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : لَوْ صُوِّرَ ٱلْعَقْلُ لَأَضَاءَ مَعَهُ ٱللَّيْلُ ، وَلَوْ صُوِّرَ ٱلْجَهْلُ لَأَظْلَمَ مَعَهُ ٱلنَّهَارُ . . . وَنَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ هَـٰذَا لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُصَلِّي ، فَقَدْ

فِي ٱلْأَصْلِ : « عَجِيبًا » بَدَلًا مِنْ : « عَجَبًا » .

وَقَفَ مُنْذُ أَيَّامٍ يُصَلِّي بِٱلشِّعْرِ . . . وَلَمَّا رَأَيْتُهُ نَاسِيًا فَذَكَّرْتُهُ وَنَبَّهْتُهُ أَنَّ ٱلصَّلَاةَ لَا تَجُوزُ بِٱلشِّعْرِ ، ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَهُوَ رَاكِعٌ فَسَبَّنِي وَشَتَمَنِي وَصَرَخَ فِيَّ وَقَالَ : مَا شَأْنُكَ بِي ؟ هَلْ أَنَا أُصَلِّي لَكَ أَنْتَ . . . ؟

فَغَضِبَ « ٱلنَّابِغَةُ » وَقَالَ : وَٱللهِ إِنْ تَحْسَبُونَنِي إِلَّا مَجْنُونًا فَتُرِيدُونَ أَنْ يُقَلِّدَنِي هَـٰذَا ٱلْأَحْمَقُ ٱلَّذِي لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ يُمْسِكُهُ . وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا ٱعْتَقَدْتُمْ أَنَّ تَقْلِيدِي مِنَ ٱلسَّهْلِ ٱلْمُمْكِنِ ، وَلَعَرَفْتُمْ أَنَّ نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ نَفْسَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقْلِيدَ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ .

قُلْنَا : هَـٰذَا عَجِيبٌ ، وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ : لَا أَعُدُّكُمْ مِنَ ٱلْأَذْكِيَاءِ إِلَّا إِذَا عَقَلْتُمْ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ .

قَالَ ا . ش : هَـٰذَا لَمْ يُعْرَفْ مِثْلُهُ فَكَيْفَ نَعْرِفُهُ ؟ وَلَمْ يَتَوَهَّمْهُ أَحَدٌ ، فَكَيْفَ نَتَوَهَّمُهُ ؟

وَقُلْتُ أَنَا : لَعَلَّكَ رَأَيْتَ نَفْسَكَ فِي ٱلرُّؤْيَا ؟

قَالَ : لَوْ لَمْ تَكُنْ أُسْتَاذَ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ لَمَا عَرَفْتَهَا ؛ وَهَـٰذَا نِصْفُ ٱلصَّوَابِ ؛ وَمَا دُمْتَ أُسْتَاذِي ، فَلَوْ أَنَّنَا ٱخْتَلَفْنَا فِي رَأْيٍ لَكَانَ خِلَافُكَ لِي صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنْكَ ، وَكَانَ خِلَافِي لَكَ صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنِّي ؛ فَأَنْتَ (غَيْرُ مُخْطِئٍ) وَأَنَا مُصِيبٌ ، وَإِذَا أَسْقَطْنَا كَلِمَةَ (غَيْر) أَظَلُّ أَنَا مُصِيبًا وَتَكُونُ أَنْتَ مُخْطِئًا . . .

أَنَا لَمْ أَرَ (نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) فِي ٱلرُّؤْيَا ، وَلَـٰكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي ٱلْمِرْآةِ عِنْدَ ٱلْحَلَّاقِ . . . وَرَأَيْتُهُ يُقَلِّدُنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى فِي ٱلْإِشَارَةِ وَٱلْقَوْمَةِ وَٱلْقَعْدَةِ ، وَلَـٰكِنِّي صَرَخْتُ فِيهِ وَسَبَبْتُهُ فَفَتَحَ فَمَهُ ، ثُمَّ خَافَنِي وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . . .

وَأَوْمَأَ إِلَى ٱلْمَجْنُونِ ٱلْآخَرِ وَقَالَ : وَأَنَا أَتَقَدَّمُ هَـٰذَا فِي ٱلنُّبُوغِ بِأَكْثَرَ مِنْ عِلْمِ ٱلْعُلَمَاءِ فِي خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً .

قَالَ « ا . ش » : لَقَدْ قُلْتَهَا مَرَّتَيْنِ كِلْتَاهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، فَمَا مَعْنَاكَ فِي هَـٰذِهِ ٱلثَّالِثَةِ ؟

قَالَ : هَـٰذَا ٱلْغِرُّ يَزْعُمُ أَنِّي لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أُصَلِّي ، وَيَسْتَدِلُّ لِذَلِكَ بِأَنِّي صَلَّيْتُ بِٱلشِّعْرِ وَأَنِّي شَتَمْتُهُ وَأَنَا رَاكِعٌ ؛ وَلَوْ كَانَ عَاقِلًا لَعَلِمَ أَنَّ شَتْمِي إِيَّاهُ وَأَنَا رَاكِعٌ ثَوَابٌ لَهُ . . . وَلَوْ كَانَ نَابِغَةً لَعَلِمَ أَنَّ ٱلشِّعْرَ كَانَ فِي مَدْحِ دَوْلَةِ ٱلنَّحَّاسِ بَاشَا وَأُولِي ٱلنُّهَى .

قُلْنَا : وَلَـٰكِنَّ ٱلشِّعْرَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا تَجُوزُ بِهِ ٱلصَّلَاةُ وَلَوْ فِي مَدْحِ دَوْلَةِ ٱلنَّحَّاسِ بَاشَا .

قَالَ : لَمْ أُصَلِّ بِهِ ، وَلَـٰكِنْ خَطَرَ لِي وَأَنَا أُصَلِّي أَنِّي نَسِيتُ ٱلْقَصِيدَةَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَحَقَّقَ أَنِّي لَمْ أَنْسَهَا . . . فَإِذَا أَنَا نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ فِي ٱلْحِفْظِ ، وَهِيَ سِتَّةُ أَبْيَاتٍ . لَا كَهَـٰذَا ٱلْمَعْتُوهِ ٱلَّذِي صَبَرَ عَلَى ٱلْمَتْنِ صَبْرَ ٱلْغَرِيبِ عَلَى ٱلْغُرْبَةِ ٱلطَّوِيلَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْفَظْهُ .

قَالَ « ا . ش » : فَأَمْلِ عَلَيْنَا هَـٰذَا ٱلشِّعْرَ .

فَأَمْلَى عَلَيْهِ[1] [من مجزوء الكامل] .

يَا حَلِيفَ ٱلسُّهْدِ قُلْ لِي ... أَيْنَ مَنْ فِي ٱلدَّهْرِ خَالْ
إِنْ تَكُنْ تَهْوَىٰ غَزَالًا ... أَكْحَلَ ٱلْعَيْنَيْنِ مَالْ
أَنَا أَهْوَاهَا وَلَـٰكِنْ ... لَا سَبِيلَ إِلَىٰ ٱلْوِصَالْ
مُنْذُ وَلَّتْ قُلْتُ مَهْلًا ... مُنْذُ غَابَتْ فِي خَيَالْ
أَنَا مَجْنُونٌ بِلَيْلَىٰ ... لَيْلَ يَا لَيْلَىٰ ! تَعَالْ

قُلْنَا : وَلَـٰكِنْ لَيْسَ هَـٰذَا مَدْحًا !

فَضَحِكَ وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تَعْرِفُوا أَنِّي أَقُولُ فِي ٱلْغَزَلِ ، أَمَّا ٱلْمَدِيحُ فَهُوَ [من الكامل] :

شُغِفَ ٱلْوَرَىٰ بِمَنَاصِبٍ وَأَمَانِي ... وَشُغِفْتَ يَا نَحَّاسُ بِٱلْأَوْطَانِ
حَسِبُوا ٱلْحَيَاةَ تَفَاخُرًا وَتَنَعُّمًا ... وَحَسِبْتَهَا للهِ وَٱلْأَوْطَانِ

ثُمَّ أُرْتِجَ عَلَيْهِ فَسَكَتَ . قَالَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلْآخَرُ : إِنَّهَا سِتَّةُ أَبْيَاتٍ ، وَقَدْ نَسِيتَ أَرْبَعَةً ، وَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ أُذَكِّرَكَ .

فَقَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : أَظُنُّهُ قَدْ حَانَ وَقْتُ ٱلصَّلَاةِ وَأُرِيدُ أَنْ أُصَلِّيَ . . . وَنَظَرَ إِلَى ٱللَّاشَيْءِ فِي ٱلْفَضَاءِ ، ثُمَّ قَالَ . وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ :

لَا أَبْتَغِي فِي ٱلْمَدْحِ غَيْرَ أُولِي ٱلنُّهَىٰ ... أَوْ صَادِقٍ[2] أَوْ شَوْقِيٍّ أَوْ مُطْرَانِ

ثُمَّ أَمَرَ ا . ش . أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ ٱلشِّعْرَ فَقَرَأَهُ ، فَقَالَ : أَحْسَنْتَ ، ٱنْظُرْ إِلَى فَوْقٍ .

(١) هَـٰذَا شِعْرُهُ بِحُرُوفِهِ كَمَا أَمْلَاهُ .
(٢) فَسَّرَ (صَادِق) بِأَنَّهُ أُسْتَاذُ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ .

فَنظَرَ ، ثُمَّ قَالَ : ٱنْظُرْ إِلَىٰ تَحتٍ . فَنظَرَ ثُمَّ سَكَتَ .

قَالَ ا . ش : وَبَعْدُ ؟

قَالَ : وَبَعْدُ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ يَنظُرُونَ إِمَّا إِلَىٰ فَوْقٍ وَإِمَّا إِلَىٰ تَحتٍ . . .

* * *

وَكَانَ ٱلضَّجَرُ قَدْ نَالَ مِنِّي ، فَرَجَوْتُ ا . ش . أَنْ يَلْبَثَ مَعَهُمَا وَأَذِنْتُ لِنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ أَنْ يَلْقَانِي فِي ٱلنَّدِيِّ وَٱنْصَرَفْتُ .

قَالَ ا . ش وَهُوَ يُنَبِّئُنِي : فَمَا غِبتَ عَنَّا حَتَّىٰ أَخَذَ ٱلْمَجْنُونُ يَشْكُو وَيَتَوَجَّعُ وَيَقُولُ : لَقَدْ حَاقَ بِيَ ٱلظُّلْمُ ، وَإِنَّ (ٱلرَّافِعِيَّ) رَجُلٌ عَسُوفٌ ظَالِمٌ ، لِأَنِّي أَكْتُبُ لَهُ كُلَّ مَقَالَاتِهِ ٱلَّتِي يَنْشُرُهَا فِي (ٱلرِّسَالَةِ) . . . وَأَجْمَعُ نَفْسِي لَهَا ، وَأَجْهَدُ فِي بَيَانِهَا ، وَأُذِيبُ عَقْلِي فِيهَا ، وَهُوَ مُسْتَرِيحٌ وَادِعٌ ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَنْتَحِلَهَا وَيَضَعَ تَوْقِيعَهُ عَلَيْهَا ، وَيَبْعَثَ بِهَا إِلَى ٱلْمَجَلَّةِ ، ثُمَّ هُوَ يَقْبِضُ فِيهَا ٱلذَّهَبَ وَيَنَالُ ٱلشُّهْرَةَ ، وَلَا يَدْفَعُ لِي عَنْ كُلِّ مَقَالَةٍ إِلَّا قِرْشَيْنِ[١] . . .

قَالَ « ا . ش » : فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُرْسِلَ أَنْتَ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَاتِ إِلَى ٱلْمَجَلَّةِ فَتَقْبِضَ فِيهَا ٱلذَّهَبَ ؟

قَالَ: إِنَّ هُنَاكَ أَسْرَارًا أَنَا مُحصِنُهَا وَكَاتِمُهَا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَهَا أَحَدٌ فَإِنَّهَا أَسْرَارٌ. . .

قَالَ لَهُ : فَدَعِ (ٱلرَّافِعِيَّ) وَٱكْتُبْ لِي أَنَا هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَاتِ ، وَأَنَا أُعْطِيكَ فِي كُلِّ مَقَالَةٍ ذَهَبِيَّيْنِ لَا قِرْشَيْنِ .

قَالَ : هَـٰذِهِ أَسْرَارٌ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَّا لِلرَّافِعِيِّ ، لِأَنَّ (نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينِ) لَا يَجُوزُ أَنْ يَدَّعِيَ كَلَامَهُ إِلَّا أُسْتَاذُ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ ، وَلَوِ ٱدَّعَاهُ غَيْرُهُ لَكَانَ هَـٰذَا حَطًّا مِنْ قَدْرِ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ ، وَهَـٰذَا بَعْضُ ٱلْأَسْرَارِ لَا كُلُّ ٱلْأَسْرَارِ . . .

قُلْتُ : ثُمَّ جَاءَ ٱلْمَجْنُونَانِ فِي ٱلْعَشِيَّةِ إِلَى ٱلنَّدِيِّ .

مصطفى صادق الرافعي

(١) لَا يَزَالُ هَـٰذَا ٱلْمِسْكِينُ مُنْذُ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ يَدَّعِي أَنَّهُ هُوَ ٱلَّذِي يَكْتُبُ لَنَا هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَاتِ ، غَيْرَ أَنَّهُ رَفَعَ ٱلْقِيمَةَ أَخِيرًا ؛ فَجَعَلَهَا عِشْرِينَ قِرْشًا . . . . . .

ٱلْمَجْنُونُ (*)
٣

وَكُنَّا فِي ٱلنَّدِيِّ ثَلَاثَةً : أَنَا ، وَ« ا . ش »[١] ، و« س . ع »[٢] ؛ وَقَدْ هَيَّأْتُ تَدْبِيرًا تَوَافَقْنَا عَلَيْهِ لِتَحْرِيكِ هَـٰذَيْنِ ٱلْمَجْنُونَيْنِ ، وَتَدْوِينِ مَا يَجِيءُ مِنْهُمَا . فَلَمَّا أَقْبَلَا تَحَفَّيْنَا بِهِمَا وَٱلْطَفْنَاهُمَا ، وَقُمْنَا ثَلَاثَتُنَا بِبَسْطِهِمَا وَإِكْرَامِهِمَا ، حَتَّىٰ حَسِبَا أَنَّ فِي كَلِمَةِ « مَجْنُونٍ » مَعْنَىٰ كَلِمَةِ أَمِيرٍ أَوْ أَمِيرَةٍ . . . وَرَأَيْتُ فِي عَيْنَيْ « نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ » ـ وَهُوَ أَعْيَنُ أَنْجَلُ[٣] ـ مَا لَوْ تَرْجَمْتُهُ لَمَا كَانَتِ ٱلْعِبَارَةُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ نَفْسًا أُنْثَىٰ أَعْشَقُهَا أَنَا . . . فَكَانَ مُسَدَّدًا فَكِهَ ٱللِّسَانِ ، تُسْتَلْمَحُ لَهُ ٱلنَّادِرَةُ ، وَتُسْتَظْرَفُ مِنْهُ ٱلْحَرَكَةُ .

وَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهُ ٱلْغُرُورُ ، وَٱحْتَاجَ ٱلْجُنُونُ كَمَا يَحْتَاجُ ٱلْجَمَالُ إِلَىٰ كِبْرِيَائِهِ إِذَا حَاطَتْهُ ٱلْأَعْيُنُ ـ أَدَارَ بَصَرَهُ فِي ٱلْمَكَانِ ، ثُمَّ قَالَ : أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَصْبِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ هَـٰذَا ٱلنَّدِيِّ فِي ضَوْضَائِهِ وَرِعَاعِهِ وَغَوْغَائِهِ . إِنْ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا أَخْلَاطٌ وَأَوْشَابٌ وَحُثَالَةٌ . هَـٰذَا ٱلْجَالِسُ هُنَاكَ . هَـٰذَا ٱلْوَاقِفُ هُنَالِكَ . هَـٰذَا ٱلْمُسْتَوْفِزُ . هَـٰذَانِ ٱلْمُتَقَابِلَانِ . هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُتَجَمِّعُونَ . هَـٰذَا كُلُّهُ خَيَالُ حَقِيقَةٍ فِي رَأْسِي . مَا هِيَ ؟ مَا هِيَ ؟

هَـٰذَا ٱلتَّصَايُحُ ٱلْمُنْكَرُ . هَـٰذَا ٱلضَّرْبُ بِحِجَارَةِ ٱلنَّرْدِ . هَـٰذِهِ ٱلزَّحْمَةُ ٱلَّتِي ٱنْغَمَسْنَا فِيهَا . هَـٰذَا ٱلْمَكَانُ ٱلْهَائِجُ مِنْ حَوْلِنَا . هَـٰذَا كُلُّهُ خَيَالُ حَقِيقَةٍ فِي رَأْسِي . هِيَ ، هِيَ ، هِيَ .

فَٱنْزَعَجَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلْآخَرُ ، وَوَقَعَ فِي تَهَاوِيلِ خَيَالِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْنَا تَدُورُ عَيْنَاهُ ، وَتَوَجَّسَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٧ ، ١٣ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦ .

(١) هو أمين حافظ شرف . بسام .

(٢) هو سَعِيدُ العُرْيَان . بسام .

(٣) أَيْ : وَاسِعُ ٱلْعَيْنِ أَنْجَلُهَا ، وَقَدْ مَرَّ وَصْفُهُ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلْأُولَىٰ .

شَزْرًا، ثُمَّ زَاغَ بَصَرُهُ إِلَىٰ ٱلْبَابِ، وَٱسْتَوْفَزَ وَجَمَعَ نَفْسَهُ لِلْقِيَامِ؛ فَلَمَّا رَأَىٰ صَاحِبُهُ مَا نَزَلَ بِهِ، قَهْقَهَ وَأَمْعَنَ فِي ٱلضَّحِكِ وَقَالَ: إِنَّمَا خَوَّفَتْهُ ٱلصِّبْيَانَ وَٱلضَّرْبَ لِيُثْبِتَ لَكُمْ أَنَّهُ مَجْنُونٌ...

فَحَرِدَ ٱلْآخَرُ وَٱغْتَاظَ وَجَعَلَ يُتَمْتِمُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.

قَالَ «ٱلنَّابِغَةُ»: مَا كَلَامٌ تَطِنُّ بِهِ طَنِينَ ٱلذُّبَابَةِ أَيُّهَا ٱلْخَبِيثُ؟

قَالَ: «مِمَّا حَفِظْنَاهُ»: أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ ٱلْأَحْمَقِ أَنَّهُ إِذَا ٱسْتُنْطِقَ تَجَلَّفَ، وَإِذَا بَكَىٰ خَارَ، وَإِذَا ضَحِكَ نَهَقَ... كَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ ٱلسَّاعَةَ، تَقُولُ: هَاءْ، هُوءْ، هِيءْ...

فَتَغَيَّرَ وَجْهُ «ٱلنَّابِغَةِ»، وَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً مُنْكَرَةً، وَهَمَّ أَنْ يَقْتَحِمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَيُّهَا ٱلْمَجْنُونُ! لِمَاذَا تَضْطَرُّنِي إِلَىٰ أَنْ أُجِيبَكَ جَوَابَ مَجْنُونٍ... لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَوْتَ مِنِّي!

فَأَسْرَعَ «ا. ش»، وَأَمْسَكَ بِهِ؛ وَٱعْتَرَضَ مِنْ دُونِهِ «س. ع»، وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ بَدَأْتَهُ وَٱلْبَادِىءُ أَظْلَمُ.

قَالَ: وَلَـٰكِنْ ـ وَيْحَهُ ـ كَيْفَ قَالَ هَـٰذَا؟ كَيْفَ لَمْ يَقُلْ إِلَّا هَـٰذَا؟ كَيْفَ لَمْ يَجِدْ إِلَّا هَـٰذَا يَقُولُهُ؟ أَنَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ أَحْمَقُ، وَقَدْ أَوْحَدَهُ ٱللهُ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ؟ لَهَمَمْتُ وَٱللهِ أَنْ أَكْسِرَ ٱلَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ؛ فَمَا يَقُولُ إِلَّا أَنِّي أَحْمَقُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ...

* * *

قُلْتُ: إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلَّذِي أَغْضَبَكَ مِنْهُ؛ فَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ: «لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَفِيهِ حَمْقَةٌ، فَبِهَا يَعِيشُ». وَٱلْحَيَاةُ نَفْسُهَا حَمَاقَةٌ مُنَظَّمَةٌ تَنْظِيمًا عَاقِلًا؛ وَمَا يُقْبِلُ ٱلْإِنْسَانُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ لَذَّاتِهَا إِلَّا وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ حَمَاقَاتِهِ؛ وَأَمْتَعُ ٱللَّذَّةِ مَا طَاشَ فِيهِ ٱلْعَقْلُ وَخَرَجَ مِنْ قَانُونِهِ؛ وَلَوْلَا هَـٰذَا ٱلْحُمْقُ فِي طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ لَمَا ٱحْتَمَلَ طَبِيعَةَ ٱلْحَيَاةِ؛ أَلَيْسَ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَكْثَرَكَ غَائِبٌ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَأَقَلَّكَ حَاضِرٌ فِيهَا، وَأَنَّ يَقَظَتَكَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْحُلْمِ وَمَا يُشْبِهُ ٱلْحُلْمَ، كَأَنَّكَ خُلِقْتَ فِي كَوْكَبٍ وَهَبَطْتَ { مِنْهُ } إِلَىٰ كَوْكَبِنَا هَـٰذَا، فَمَا فِيكَ لِلْأَرْضِ[1] وَلَا فِيهَا لَكَ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ يَلْتَئِمُ بَعْضُهُ بِبَعْضِهِ،

(١) فِي ٱلْأَصْلِ: «لَهُ» بَدَلًا مِنْ: «لِلْأَرْضِ».

وَأَكْثَرُكُمَا مُتَنَافِرٌ أَوْ مُتَنَاقِضٌ أَوْ مُتَرَاجِعٌ؟

قَالَ: بَلَىٰ.

قُلْتُ: فَهَـٰذَا ٱلْقَلِيلُ هُوَ ٱلْحَمْقَةُ ٱلَّتِي بِهَا تَعِيشُ، وَهُوَ أَرْضِيَّةُ ٱلْأَرْضِ فِيكَ؛ أَمَّا سَمَاوِيَّةُ ٱلسَّمَاءِ فَبَعِيدَةٌ لَا تَحْتَمِلُهَا طَبِيعَةُ ٱلْأَرْضِ؛ وَلِهَـٰذَا يَعِيشُ أَهْلُ ٱلْحَقِيقَةِ عَيْشَ ٱلْمَجَانِينِ فِي رَأْيِ ٱلْمَغْرُورِينَ ٱلَّذِينَ غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلْفَانِيَةُ، أَوِ ٱلْمَخْدُوعِينَ ٱلَّذِينَ خَدَعَتْهُمُ ٱلظَّوَاهِرُ ٱلْكَاذِبَةُ؛ فَكُلَّمَا أَتَوْا عَمَلًا مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلسَّامِيَةِ ٱنْتَهَىٰ إِلَى ٱلْحَمْقَىٰ مَعْكُوسًا أَوْ مُحَوَّلًا أَوْ مَعْدُولًا بِهِ؛ وَلَعَلَّ هَـٰذَا أَصَحُّ تَفْسِيرٍ لِلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ: «أَكْثَرُ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ٱلْبُلْهُ» [قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»: أخرجه البزار. «مجمع الزوائد»، رقم: ١٣٠٥٠ و١٧٩١٤ و١٨٦٧٤].

قَالَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلْآخَرُ: «مِمَّا حَفِظْنَاهُ»: أَكْثَرُ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ٱلْبُلْهُ.

فَقَالَ (ٱلنَّابِغَةُ): ٱلْمُصِيبَةُ فِيكَ أَنَّكَ أَنْتَ هُوَ أَنْتَ؛ أَلَا فَلْتَعْلَمْ أَنَّكَ مِنْ بُلْهَاءِ ٱلْبِيمَارِسْتَانِ لَا مِنْ بُلْهِ ٱلْجَنَّةِ...

قُلْتُ: ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَوْتَ لَا بُدَّ آتٍ عَلَى ٱلنَّاسِ جَمِيعًا، فَيَسْلُبُهُمْ كُلَّ مَا نَالُوهُ مِنَ ٱلدُّنْيَا، وَيُلْحِقُ مَنْ نَالَ بِمَنْ لَمْ يَنَلْ؛ فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يُسَرُّ بِأَنْ يَنَالَ مَا لَا يَبْقَىٰ لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ سُرُورُهُ مِنْ حَمَاقَتِهِ؟ وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَحْزَنُ عَلَىٰ أَنْ يَفُوتَهُ مَا لَا يَبْقَىٰ لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ حُزْنُهُ حَمَاقَةً أُخْرَىٰ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ فِي ٱلْحُبِّ بَعْدَ أَنْ يَنْقَضِيَ ٱلْحُبُّ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ حَمَاقَةً ضَرَبَتْ فِي ٱلْحَوَاسِّ كُلِّهَا حَتَّىٰ مَلَأَتِ ٱلنَّفْسَ؛ ثُمَّ مَلَأَتِ ٱلنَّفْسَ حَتَّىٰ فَاضَتْ عَلَى ٱلزَّمَنِ؛ ثُمَّ فَاضَتْ عَلَى ٱلزَّمَنِ حَتَّىٰ خَبَّلَتِ ٱلْعَاشِقَ تَخْبِيلًا لَذِيذًا تَصْغُرُ فِيهِ ٱلْأَشْيَاءُ وَتَكْبُرُ، وَيَجْعَلُ ٱلْوَاقِعَ فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ ٱلْوَاقِعِ فِي دُنْيَاهَا؟ يُشَبِّهُ كُلُّ عَاشِقٍ حَبِيبَتَهُ بِٱلْقَمَرِ: فَهَبِ ٱلْقَمَرَ سَمِعَ هَـٰذَا وَفَهِمَهُ وَعَنَاهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ، فَمَاذَا عَسَاهُ يَقُولُ إِلَّا أَنْ يُعْجَبَ مِنْ هَـٰذَا ٱلْحُمْقِ فِي هَـٰذَا ٱلتَّشْبِيهِ؟

* * *

فَهَدَأَ (ٱلنَّابِغَةُ) وَسَكَنَ غَضَبُهُ وَقَالَ: صَدَقْتَ، وَلِهَـٰذَا أَنَا لَا أُشَبِّهُ حَبِيبَتِي بِٱلْقَمَرِ.

قُلْتُ: فَبِمَاذَا تُشَبِّهُهَا؟

قَالَ : لَا أَقُوْلُ لَكَ حَتَّىٰ أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُ أَنْتَ حَبِيْبَتَكَ .

قُلْتُ : وَأَنَا كَذَلِكَ لَا أُشَبِّهُهَا بِٱلْقَمَرِ .

قَالَ : فَبِمَاذَا تُشَبِّهُهَا ؟

قُلْتُ : حَتَّىٰ أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُ أَنْتَ . . .

قَالَ : هَـٰذَا لَا يُرْضَىٰ مِنْكَ وَأَنْتَ أُسْتَاذُ (نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) ، وَلَكَ حَبَائِبُ كَثِيْرَاتٌ عَدَدَ كُتُبِكَ ، وَقَدْ أَعْجَبَتْنِي مِنْهُنَّ تِلْكَ ٱلَّتِي فِي « أَوْرَاقِ ٱلْوَرْدِ » ، وَأَظُنُّكَ أَحْبَبْتَهَا فِي شَهْرِ مَايُو/ أَيَّار مِنْ سَنَةِ . . . مِنْ سَنَةٍ . . .

قَالَ ٱلْمَجْنُوْنُ ٱلْآخَرُ : مِنْ سَنَةِ ١٩٣٥ ؛ هَا أَنَا ذَا قَدْ نَبَّهْتُكَ .

قَالَ : يَا وَيْلَكَ ! إِنَّ « أَوْرَاقَ ٱلْوَرْدِ » ظَهَرَتْ مِنْ بِضْعِ سِنِيْنِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ بُلَهَاءِ ٱلْبِيْمَارِسْتَانِ لَا مِنْ بُلْهِ أَوْرَاقِ ٱلْوَرْدِ . . . مَاذَا كُنْتُ أَقُوْلُ ؟

قَالَ « ا . ش » : كُنْتَ تَقُوْلُ : هَـٰذَا لَا يُرْضَىٰ مِنْكَ وَلَكَ حَبَائِبُ كَثِيْرَاتٌ .

قَالَ : نَعَمْ ، لِأَنَّكَ إِذَا شَبَّهْتَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ بِٱلْقَمَرِ ، ٱنْتَهَىٰ ٱلْقَمَرُ وَفَرَغَ ٱلتَّشْبِيْهُ فَيَظَلُّ ٱلْأُخْرَيَاتُ بِلَا قَمَرٍ . . . ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةَ ٱلْقَمَرِ لَا تُعْجِبُنِي ، فَلَوْنُهَا أَدْكَنُ مُغْبَرٌّ(١) يَضْرِبُ أَحْيَانًا إِلَىٰ ٱلسَّوَادِ . . . فَإِذَا عَشِقْتُ زَنْجِيَّةً فَهَـٰهُنَا مَحَلُّ ٱلتَّشْبِيْهِ بِٱلْقَمَرِ . . . أَمَّا ٱلْبِيْضُ ٱلرَّعَابِيْبُ فَتَشْبِيْهُهُنَّ بِٱلْقَمَرِ مِنْ فَسَادِ ٱلذَّوْقِ .

قَالَ « س . ع » : وَلِلْأَلْفَاظِ أَلْوَانٌ عِنْدَكَ ؟

قَالَ : لَوْ كُنْتَ نَابِغَةً لَأَبْصَرْتَ فِي دَاخِلِكَ أَخْيِلَةً مِنَ ٱلْجَنَّةِ ؛ أَلَمْ يَقُلْ أُسْتَاذُنَا آنِفًا عَنْ (نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) : إِنَّهُ هَبَطَ مِنْ كَوْكَبٍ إِلَىٰ كَوْكَبٍ ؟ فَفِي كَوْكَبِنَا ٱلْأَوَّلِ يَكُوْنُ لَنَا سَمْعٌ مُلَوَّنٌ ، وَحِسٌّ مُلَوَّنٌ ؛ نَسْمَعُ قَرْعَ ٱلطَّبْلِ أَزْرَقَ ، وَنَفْخَ ٱلْبُوْقِ أَحْمَرَ ، وَرَنِيْنَ ٱلنَّغَمِ ٱلْحُلْوِ أَخْضَرَ(٢) ، وَٱلْوُجُوْدُ كُلُّهُ صُوَرٌ مُلَوَّنَةٌ ، سَوَاءٌ مِنْهُ مَا يُرَىٰ وَمَا يُحَسُّ ، وَمَا هُوَ مُسْتَخْفٍ وَمَا

(١) ٱلدُّكْنَةُ : لَوْنٌ بَيْنَ ٱلْحُمْرَةِ وَٱلسَّوَادِ .

(٢) هَـٰذَا وَاقِعٌ وَلَيْسَ مِنَ ٱلْخَيَالِ ؛ فَبَعْضُ ٱلنَّاسِ يَسْمَعُوْنَ ٱلْأَصْوَاتَ وَيُحِسُّوْنَ ٱلْأَشْيَاءَ مُلَوَّنَةً ؛ وَعُلَمَاءُ=

هُوَ ظَاهِرٌ .

ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَىٰ ٱلْمَجْنُوْنِ ٱلْآخَرِ وَقَالَ : وَٱسْمُ هَـٰذَا ٱلْأَبْلَهِ كَلَفْظِ ٱلْحِبْرِ ، لَا أَسْمَعُهُ إِلَّا أَسْوَدَ . . .

* * *

وَسَكَتَ « ٱلنَّابِغَةُ » وَسَكَتْنَا ؛ فَقَالَ لَهُ س . ع : مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ ؟

قَالَ : لِأَنِّي أُرِيْدُ ٱلسُّكُوْتَ .

قَالَ : فَلِمَاذَا تُرِيْدُ ٱلسُّكُوْتَ ؟

قَالَ : لِأَنِّي لَا أُرِيْدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ . . .

وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ ٱلْغَيْظُ مِنَ ٱلْمَجْنُوْنِ ٱلْآخَرِ ، فَرَمَىٰ بِعَيْنِهِ ٱلْفَضَاءَ يَنْظُرُ ٱللَّاشَيْءَ وَقَالَ : إِذَا أَصْبَحَ كُلُّ ٱلنِّسَاءِ ذَوَاتِ لِحًى أَصْبَحَ هَـٰذَا عَاقِلًا . . . فَدَقَّ ٱلْآخَرُ بِرِجْلِهِ دَقَّاتٍ مَعْدُوْدَةً ؛ فَثَارَ (ٱلنَّابِغَةُ) وَقَالَ : مَنْ هَـٰذَا يَشْتُمُنِي ؟

قَالَ « س . ع » : لَمْ يَشْتُمْكَ أَحَدٌ ، هَـٰذَا خَفْقُ رِجْلٍ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ .

قَالَ : بَلْ شَتَمَنِي هَـٰذَا ٱلْخَبِيْثُ ، وَسَمْعِي لَا يُكَذِّبُنِي أَبَدًا ، وَأَنَا رَجُلٌ ظَنُوْنٌ ، أُسِيْءُ ٱلظَّنَّ بِكُلِّ أَحَدٍ ، وَعَلَامَةُ ٱلْحَازِمِ « ٱلْعَاقِلِ » سُوْءُ ظَنِّهِ بِٱلنَّاسِ . فَهَبْهُ كَمَا قُلْتَ قَدْ خَفَقَ بِنَعْلِهِ ، أَوْ خَبَطَ بِرِجْلِهِ ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَعْنِي مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنَا أَسْمَعُ مَا يَعْنِيْهِ . لَقَدْ طَفَحَ ٱلشِّعْرُ عَلَىٰ قَلْبِي فَلَا بُدَّ لِي مِنْ هِجَائِهِ ، وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَذْبَحَهُ وَلَوْ بِٱلْكَلَامِ ، فَإِنِّي إِذَا هَجَوْتُهُ رَأَيْتُ دَمَهُ فِي كَلِمَاتِي ، وَأُرِيْدُ أَنْ أَجْعَلَهُ كَٱلْعَنْزِ ٱلَّتِي كَانَتْ عِنْدَنَا وَذَبَحْنَاهَا .

ثُمَّ ٱنْتَزَعَ قَلَمَ « س . ع » ، وَقَالَ : هَـٰذِهِ هِيَ ٱلسِّكِّيْنُ . وَلَـٰكِنْ أَسْأَلُكَ يَا أُسْتَاذِي أَنْ تَذْبَحَهُ أَنْتَ بِكَلِمَتَيْنِ وَتَصِفَ لَهُ جُنُوْنَهُ ، فَقَدْ عَزَبَ عَنِّي ٱلشِّعْرُ . إِنَّ خَفْقَةَ رِجْلٍ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ تَسْتَطِيْرُ ٱلْأَرَانِبَ فَزَعًا ؛ فَيَنْفِرْنَ إِلَىٰ أَجْحَارِهِنَّ وَيَتَهَارَبْنَ ، وَمَا كَانَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ

= ٱلْأَمْرَاضِ ٱلْعَصَبِيَّةِ يَعْرِفُوْنَ هَـٰذَا وَيُعَلِّلُوْنَهُ بِأَنَّهُ صُوَرٌ ذِهْنِيَّةٌ قَدْ لَبِسَهَا مُؤَثِّرٌ مِنَ ٱلْمُؤَثِّرَاتِ فَهُوَ يَصْبُغُهَا بِلَوْنِهِ .

فِي ذِهْنِي إِلَّا أَرَانِب . . .

أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ أَنَّ مَنْ كَانَ حَصِيفًا ثَبِيتًا مِثْلِي ، كَانَ دَقِيقَ ٱلْحِسِّ ؛ وَمَنْ كَانَ فَدْمًا غَبِيًّا مِثْلَ هَـٰذَا ، كَانَ بَلِيدَ ٱلْحِسِّ غَلِيظًا كَثِيفًا ؛ فَإِذَا أَنَا ٱسْتَشْعَرْتُ ٱلْبَرْدَ رَأَيْتُنِي قَدْ سَافَرْتُ إِلَىٰ ٱلْقُطْبِ ٱلشَّمَالِيِّ ؛ أَمَّا هَـٰذَا ٱلْمَجْنُونُ فَهُوَ إِذَا ٱسْتَشْعَرَ بَرْدًا سَافَرَ إِلَىٰ عَبَاءَتِهِ أَوْ لِحَافِهِ . . . إِذْ هُوَ لَا يَعْرِفُ جُغْرَافِيَة ، وَلَا يَدْرِي مَا طَحَاهَا .

قُلْتُ : هَـٰذَا مِنْكَ أَظْرَفُ مِنْ نَادِرَةِ أَبِي ٱلْحَارِثِ .

قَالَ : وَمَا نَادِرَةُ أَبِي ٱلْحَارِثِ ؟ وَهَلْ هُوَ نَابِغَةٌ ؟

قُلْتُ : جَلَسَ يَتَغَدَّىٰ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعِيسَىٰ بْنِ جَعْفَرٍ ، فَأُتِيَ بِخِوَانٍ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَرْغِفَةٍ ، فَأَكَلَ أَبُو ٱلْحَارِثِ رَغِيفَهُ قَبْلَهُمَا ، وَٱلرَّشِيدُ مَلِكٌ عَظِيمٌ : لَا يَأْكُلُ أَكْلَ ٱلْجَائِعِ ، وَإِنَّمَا هُوَ ٱلتَّشْعِيثُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ؛ فَكَانَ رَغِيفُهُ لَا يَزَالُ بَاقِيًا ؛ فَصَاحَ أَبُو ٱلْحَارِثِ فَجْأَةً : يَا غُلَامُ ! فَرَسِي . فَفَزِعَ ٱلرَّشِيدُ وَقَالَ : وَيْلَكَ مَا لَكَ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَرْكَبَ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلرَّغِيفِ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ . . .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : وَلَـٰكِنْ فَرْقًا بَيْنَ أَبِي ٱلْحَارِثِ وَبَيْنَ (نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) ، فَإِنَّ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ أَنِّي رُبَّمَا نَظَرْتُ إِلَىٰ ٱلرَّجُلِ وَهُوَ يَأْكُلُ فَأَجِدُ ٱلشِّبَعَ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ بِبَطْنِي لَا بِبَطْنِهِ ، وَلَـٰكِنَّ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ أَنَّ هَـٰذَا لَا يَتَّفِقُ لِي أَبَدًا حِينَ أَكُونُ جَائِعًا . . .

أَمَّا هَـٰذَا ٱلْمَجْنُونُ ٱلَّذِي أَمَامَنَا ، فَرُبَّمَا أَبْصَرَ ٱلْحِمَارَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ٱلْحِمْلُ ، فَيَشْعُرُ كَأَنَّ ٱلْحِمْلَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ هُوَ لَا عَلَىٰ ظَهْرِ ٱلْحِمَارِ . . .

قَالَ ٱلْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : أَنَّهُ سُرِقَ لِأَعْرَابِيٍّ حِمَارٌ ، فَقِيلَ لَهُ : أَسُرِقَ حِمَارُكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَأَحْمَدُ ٱللهَ . فَقِيلَ لَهُ : عَلَىٰ مَاذَا تَحْمَدُهُ ؟ قَالَ : عَلَىٰ أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَيْهِ حِينَ سُرِقَ . . . فَأَنَا إِذَا رَأَيْتُ حِمَارًا مُثْقَلَ ٱلظَّهْرِ ، حَمِدْتُ ٱللهَ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْحِمْلَ لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ ، لَا كَمَا يَقُولُ هَـٰذَا . ثُمَّ دَقَّ بِرِجْلِهِ دَقَّاتٍ . . .

فَٱسْتَشَاطَ (ٱلنَّابِغَةُ) وَقَالَ : أَسَمِعْتُمْ كَيْفَ يَقُولُ إِنِّي مَجْنُونٌ ، ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِهَـٰذَا بَلْ يَقُولُ إِنِّي حِمَارٌ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ٱلْحِمْلُ ؟

قُلْتُ : يَنْبَغِي أَنْ تَتَكَافَأَا ، وَهَـٰذَا لَا يَعِيبُكَ مِنْهُ وَلَا يَعِيبُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّ مِنْ تَوَاضُعِ « ٱلنَّوَابِغِ » أَنْ يَشْعُرُوا بِبُؤْسِ ٱلْحَيَوَانِ ، فَإِذَا شَعَرُوا بِبُؤْسِهِ دَخَلَتْهُمُ ٱلرِّقَّةُ لَهُ ، فَإِذَا دَخَلَتْهُمُ ٱلرِّقَّةُ صَارَ خَيَالُ ٱلْحِمْلِ حِمْلًا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ ٱلرَّقِيقَةِ ؛ وَقَدْ يَصْنَعُونَ أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ : حَكَىٰ ٱلْجَاحِظُ عَنْ ثُمَامَةَ قَالَ : كَانَ (نَابِغَةٌ) يَأْتِي سَاقِيَةً لَنَا سَحَرًا ؛ فَلَا يَزَالُ يَمْشِي مَعَ دَابَّتِهَا ذَاهِبًا وَرَاجِعًا فِي شِدَّةِ ٱلْحَرِّ أَيَّامَ ٱلْحَرِّ ، وَفِي ٱلْبَرْدِ أَيَّامَ ٱلْبَرْدِ ، فَإِذَا أَمْسَىٰ تَوَضَّأَ وَقَالَ : ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ لَنَا مِنْ هَـٰذَا ٱلْهَمِّ فَرَجًا وَمَخْرَجًا . فَكَانَ كَذَٰلِكَ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ !

قَالَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : ثَمَرَةُ ٱلدُّنْيَا ٱلسُّرُورُ ، وَلَا سُرُورَ لِلْعُقَلَاءِ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَـٰذَا أَعْقَلَ ٱلْعُقَلَاءِ لَمَا مُحِقَ سُرُورُهُ فِي ٱلدُّنْيَا هَـٰذَا ٱلْمَحْقَ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ غَمًّا ، رَحِمَهُ ٱللهُ !

* * *

قَالَ « س . ع » : فَٱعْفُ ٱلْآنَ عَنْ صَاحِبِكَ وَلَا تَذْبَحْهُ بِٱلْهِجَاءِ .

قَالَ : لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي مِنْ نِسْيَانٍ ، وَهَـٰذَا ٱلْمَجْنُونُ يَرَىٰ نِسْيَانِي مِنْ مَرَضٍ عَقْلِيٍّ ، وَكَانَ ٱلْوَجْهُ ـ لَوْ تَهَدَّىٰ إِلَىٰ ٱلْحَقِيقَةِ ـ أَنْ يَرَاهُ شُذُوذًا فِي ٱلْعَقْلِ ، أَيْ : نُبُوغًا عَظِيمًا كَنُبُوغِ ذَٰلِكَ ٱلْفَيْلَسُوفِ ٱلَّذِي أَرَادَ أَنْ يَتَثَبَّتَ(1) فِي كَمْ مِنَ ٱلزَّمَنِ تُسْلَقُ ٱلْبَيْضَةُ ؛ فَأَخَذَ بِيَدِهِ ٱلسَّاعَةَ وَبِيَدِهِ ٱلْأُخْرَىٰ بَيْضَةً ، ثُمَّ نَسِيَ نِسْيَانَ ٱلنُّبُوغِ ، فَأَلْقَىٰ ٱلسَّاعَةَ فِي ٱلْمَاءِ عَلَىٰ ٱلنَّارِ ، وَثَبَتَتْ عَيْنُهُ عَلَىٰ ٱلْبَيْضَةِ يَنْظُرُ فِيهَا عَلَىٰ أَنَّهَا هِيَ ٱلسَّاعَةُ . وَلَوْ قَدْ رَآهُ هَـٰذَا ٱلْأَبْلَهُ لَزَعَمَهُ مَجْنُونًا كَمَا يَزْعُمُنِي ، فَإِنَّ ٱلْمَجَانِينَ يَرَوْنَ ٱلْعُقَلَاءَ مَرْضَىٰ بِمَوَاهِبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ ٱلَّتِي يَعْمَلُونَهَا .

وَأَنَا فَلَيْسَ يُهَيِّجُنِي شَيْءٌ مَا تُهَيِّجُنِي كَلِمَاتٌ ثَلَاثٌ : أَنْ يُقَالَ لِي مَجْنُونٌ ، أَوْ أَبْلَهُ ، أَوْ أَحْمَقُ . فَمَنْ رَغِبَ فِي صُحْبَتِي فَلْيَتَجَنَّبْ هَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثَ كَمَا يَتَجَنَّبُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْكُفْرَ وَٱلْكُفْرَ . . .

قَالَ ا . ش : فَإِذَا قِيلَ لَكَ مَثَلًا . مَثَلًا . أَيْ عَلَىٰ ٱلتَّمْثِيلِ : مُغَفَّلٌ . . .

---

(1) فِي ٱلْأَصْلِ : « يَعْرِف » بَدَلًا مِنْ : « يَتَثَبَّتَ » .

فَحَكَّ رَأْسَهُ قَلِيلًا وَقَالَ : لَا ! هَـٰذِهِ لَيْسَتْ مِنْ قَذرِي[1] . . .

قُلْتُ : فَبَعْضُ ٱلْكَلِمَاتِ إِذَا قُطِعَتْ عِنْدَكَ غَيَّرَتِ ٱلْحَقَائِقَ ، كَذَٰلِكَ ٱلْقَرْنُ ٱلَّذِي قُطِعَ فَرَدَّ ٱلْبَقَرَةَ فَرَسًا ؟

قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ ذَٰلِكَ ؟

قُلْتُ: زَعَمُوا أَنَّ أَعْرَابِيًّا خَرَجَ إِخْوَتُهُ يَشْتَرُونَ خَيْلًا ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ فَجَاءَ بِعِجْلٍ يَقُودُهُ؛ فَقِيلَ لَهُ : مَا هَـٰذَا ؟ قَالَ : فَرَسٌ ٱشْتَرَيْتُهُ . قَالُوا : يَا مَائِقُ ! هَـٰذِهِ بَقَرَةٌ ، أَمَا تَرَى قَرْنَيْهَا ؟ فَرَجَعَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ فَقَطَعَ قَرْنَيْهَا، ثُمَّ قَادَهَا إِلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: قَدْ أَعَدْتُهَا فَرَسًا كَمَا تُرِيدُونَ. . . .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : هَـٰذَا غَيْرُ بَعِيدٍ ، فَقَدْ رَأَيْتُنَا حِينَ ذَبَحْنَا ٱلْعَنْزَ وَكَسَرْنَا قَرْنَيْهَا أَعَدْنَاهَا كَلْبَةً سَوْدَاءَ ، فَتَقَذَّرْتُهَا وَعِفْتُ لَحْمَهَا وَلَمْ أَطْعَمْ مِنْهَا .

ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى ٱلآخَرِ وَقَالَ : هَـٰذَا لَا يَدْرِي مَا طَحَاهَا ، وَهُوَ مِثْلُ ٱلْعَنْزِ : تَحْسَبُ قَرْنَيْهَا لِلْقِتَالِ وَٱلنِّطَاحِ وَمِنْهُمَا تُمْسَكُ لِلذَّبْحِ ؛ فَقُلْ فِي هَـٰذَا يَا أُسْتَاذُ (نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) .

قُلْتُ لِلآخَرِ : أَيُرْضِيكَ أَنْ أَقُولَ فِي ٱلْمَعْنَىٰ لَا فِيكَ أَنْتَ . . . ؟

قَالَ : نَعَمْ .

فَكَتَبْتُ هَـٰذِهِ ٱلأَبْيَاتَ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ ٱلنَّابِغَةُ [من مجزوء الكامل] :

قُلْ لِعَنْزٍ نَاطِحَاهَا ... لِقِتَالٍ سَلَّحَاهَا
مَا لَهَا قَدْ طَرَحَاهَا ... فِي يَدَيْنِ ذَبَحَاهَا ؟

* * *

شِيمَةٌ مِنِّي نَحَاهَا ... عَقْلُ غِرٍّ فَلَحَاهَا
لَيْسَ يَدْرِي مَا طَحَاهَا ... بَلْ يَرَى شَمْسَ ضُحَاهَا
حَجَرًا مِثْلَ رَحَاهَا ... وَيَرَى ٱللَّيْلَ مَحَاهَا
ظُلْمَا طَالَتْ لِحَاهَا . . .

* * *

(١) نَصُّ عِبَارَتِهِ : « دِي مُشْ أَذَيّ » . . .

وَسُرَّ (ٱلنَّابِغَةُ) وَٱزْدَهَىٰ ، وَجَعَلَ يَقُولُ : طَالَتْ لِحَاهَا ، طَالَتْ لِحَاهَا . وَمَا كَانَ هَـٰذَا إِلَّا ٱلسُّرُورُ ٱلأَصْغَرُ ؛ أَمَّا سُرُورُهُ ٱلأَكْبَرُ فَمَجِيءُ سَاعِي (ٱلْبَرِيدِ ٱلْمُسْتَعْجَلِ) إِلَى ٱلنَّدِيِّ ، وَفِي يَدِهِ رِسَالَةٌ عُنْوَانُهَا : نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ فُلَانٌ ، بِنَدِيِّ كَذَا .

وَجَعَلَ ٱلرَّجُلُ يَهْتِفُ بِٱلْعُنْوَانِ يَسْأَلُ عَنْ صَاحِبِهِ ؛ فَتَطَاوَلَتْ أَعْنَاقُ ٱلنَّاسِ ، وَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ (نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) وَقَدْ مَدَّ يَدَهُ يَتَنَاوَلُ ٱلرِّسَالَةَ وَكَأَنَّهُ مَلِكٌ مِنَ ٱلْقُدَمَاءِ أُسْقِطَ لَهُ كِتَابٌ بِٱلْفَتْحِ ٱلْعَظِيمِ وَبِضَمِّ دَوْلَةٍ إِلَىٰ دَوْلَتِهِ .

ثُمَّ تَرَكَ ٱلرِّسَالَةَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ يُقَلِّبُهَا وَلَا يَفُضُّهَا وَنَحْنُ فِي دَهْشَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ؛ فَنَظَرَ فِيهَا ٱلْمَجْنُونُ ٱلآخَرُ وَقَالَ لَهُ : هَـٰذَا عَجِيبٌ يَا أَخِي ، كَيْفَ هَـٰذَا ؟ إِنَّ هَـٰذَا لَا يُصَدَّقُ ؛ إِنَّكَ لَمْ تُلْقِهَا فِي صُنْدُوقِ ٱلْبَرِيدِ إِلَّا مُنْذُ سَاعَةٍ . . . .[1]

مصطفى صادق الرافعي

ٱلْمَجْنُونُ(*)
٤

وَضَاقَ « نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ » بِحُمْقِ ٱلْمَجْنُونِ ٱلآخَرِ ؛ وَرَآهُ دَاهِيَةً دَوَاهٍ ، كُلَّمَا تَعَاقَلَ أَوْ تَحَاذَقَ لَمْ يَأْتِ لَهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَكْشِفَ عَنْ جُنُونِهِ هُوَ ؛ فَلَا يَبْرَحُ يُجَرِّعُهُ ٱلْغَيْظَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ يَسُبُّهُ فِي عَقْلِهِ ؛ فَأَرَادَ أَنْ يَحْتَالَ لِصَرْفِهِ عَنِ ٱلْمَجْلِسِ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ

(١) جاء بعد هذه المقالة في الأصل :
ٱلْمُبَشِّرُونَ : كَتَبَ إِلَيْنَا فَاضِلٌ يَذْكُرُ بَعْضَ سَخَافَاتِ ٱلْمُبَشِّرِينَ نَقَلَهَا مِنْ أَحَدِ كُتُبِهِمْ ، وَسَأَلَنَا ٱلرَّدَّ عَلَيْهِمْ ، فَأَبْلَغُ ٱلرَّدِّ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ تَجَنُّبُهُمْ وَإِهْمَالُ كُلِّ مَا يَكْتُبُونَ ، إِذْ هُمْ مُصَابُونَ بِجُنُونِ ٱلْفِكْرَةِ ٱلدِّينِيَّةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُونَهُ عَنِ ٱلإِسْلَامِ مَثَلُ رَجُلٍ أَمْرِيكِيٍّ (نَابِغَةٍ) . . . يُرِيدُ أَنْ يُقِيمَ لَكَ ٱلْبُرْهَانَ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْجَمَلَ ٱلْعَرَبِيَّ إِنَّمَا هُوَ مَصْنُوعٌ فِي مَصَانِعِ فُورْد . . . .
ٱلرَّافِعِيُّ

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٧ ، ٢٠ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ١٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٦ .

ٱلرِّسَالَةَ ٱلَّتِي جَاءَ بِهَا (ٱلْبَرِيْدُ ٱلْمُسْتَعْجَلُ) وَقَالَ لَهُ : خُذْ هَـٰذِهِ فَٱذْهَبْ فَأَلْقِهَا فِيْ دَارِ ٱلْبَرِيْدِ ، فَسَيَجِيْءُ بِهَا ٱلسَّاعِي مَرَّةً أُخْرَىٰ ، ثُمَّ تَذْهَبُ ٱلثَّانِيَةَ فَتُلْقِيهَا ، وَيَعُوْدُ هُوَ فَيَجِيْءُ بِهَا ، وَتَكُوْنُ أَنْتَ تَذْهَبُ وَيَكُوْنُ هُوَ يَجِيْءُ ، فَنَضْحَكُ مِنْهُ وَيَضْحَكُوْنَ . . . .

قَالَ « س . ع » : وَلَـٰكِنْ كَمْ يَذْهَبُ هَـٰذَا وَكَمْ يَجِيْءُ ذَاكَ ؟

فَغَمَزَهُ (ٱلنَّابِغَةُ) بِعَيْنِهِ أَنِ ٱسْكُتْ ؛ فَتَغَافَلَ « س . ع » ، وَقَالَ : كَمْ تُرِيْدُ أَنْ يَجِيْءَ ٱلسَّاعِي لِيَهْتِفَ بِنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ ؟

قَالَ ٱلْمَجْنُوْنُ ٱلآخَرُ : هَـٰذَا هُوَ ٱلرَّأْيُ ، فَلَسْتُ قَائِمًا حَتَّىٰ أَعْرِفَ كَمْ مَرَّةً أَذْهَبُ ؛ فَإِنَّ ٱلسَّاعِيَ لَا يَجِيْءُ إِلَّا رَاكِبًا ، وَأَنَا لَا أَذْهَبُ إِلَّا رَاجِلًا ، وَإِنَّ لِيْ رِجْلَيْ إِنْسَانٍ لَا رِجْلَيْ دَابَّةٍ . . .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : سُبْحَانَ ٱللهِ ! بِقَلِيْلٍ مِنَ ٱلْجُنُوْنِ يَخْرُجُ مِنَ ٱلإِنْسَانِ مَجْنُوْنٌ كَامِلٌ مُسْتَلَبُ ٱلْعَقْلِ . بَيْدَ أَنَّهُ لَا يَأْتِي ٱلنَّابِغَةُ إِلَّا مِنْ كَثِيْرٍ وَكَثِيْرٍ ، وَمِنَ ٱلنُّبُوْغِ كُلِّهِ بِجَمِيْعِ وَسَائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ عَلَىٰ تَعَدُّدِهَا وَتَفَرُّقِهَا وَصُعُوْبَةِ ٱجْتِمَاعِهَا لِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ (كَنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) ، فَهُوَ ٱلَّذِيْ تَوَافَتْ إِلَيْهِ كُلُّ هَـٰذِهِ ٱلأَسْبَابِ ، وَتَوَازَنَتْ فِيْهِ كُلُّ تِلْكَ ٱلْخِلَالِ . إِنَّهُ لَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي ٱلْعِلْمِ وَلَا فِي ٱلتَّعْلِيْمِ ؛ وَلَـٰكِنَّمَا ٱلشَّأْنُ فِي ٱلْمَوْهِبَةِ ٱلَّتِيْ تُبْدِعُ ٱلابْتِكَارَ ، كَمَوْهِبَةِ (نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) ؛ فَبِهَا[1] تَجِيْءُ أَعْمَالُهُ مُنْسَجِمَةً دَالَّةً بِنَفْسِهَا عَلَىٰ نَفْسِهَا ؛ وَمُتَمَيِّزَةً مَعَ كَوْنِهَا مُنْسَجِمَةً دَالَّةً بِنَفْسِهَا عَلَىٰ نَفْسِهَا ؛ وَمُتَلَائِمَةً مَعَ كَوْنِهَا مُتَمَيِّزَةً دَالَّةً بِنَفْسِهَا عَلَىٰ نَفْسِهَا . . .

هَـٰذَا « س . ع » ، كَانَ ٱلأَوَّلَ بَيْنَ خِرِّيْجِي مَدْرَسَةِ دَارِ ٱلْعُلُوْمِ ، مَدْرَسَةِ ٱلأَدَبِ وَٱلْعَرَبِيَّةِ ، وَٱلْمَنْطِقِ وَٱلتَّحَذْلُقِ ، وَبَلَاغَةِ ٱللِّسَانِ وَصِحَّةِ ٱلنَّظَرِ ؛ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ ٱلْكِتَابَ يُلْقَىٰ فِي ٱلْبَرِيْدِ وَعَلَيْهِ طَابَعٌ وَاحِدٌ ، فَيَصِلُ إِلَىٰ غَايَتِهِ بِهَـٰذَا ٱلطَّابَعِ ، ثُمَّ يَرَىٰ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ أَرْبَعَةَ طَوَابِعَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةِ ٱلْمَعْنُوْنَةِ بِٱسْمِ (نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) ، فَلَا يُدْرِكُ بِعَقْلِهِ أَنَّ مَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ مِنْ حَقِّ هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَيَّ أَنَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ . . . .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « فِيهَا » بَدَلًا مِنْ : « فَبِهَا » .

فَطَرِبَ ٱلْمَجْنُوْنُ ٱلآخَرُ ، وَٱهْتَزَّ فِيْ مَجْلِسِهِ ، وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ ، وَقَالَ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » هَـٰذَا ٱلْحَدِيْثُ : « يُحَاسِبُ ٱللهُ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُوْلِهِمْ » . فَلَا تُؤَاخِذْ « س . ع » ، فَإِنَّ مَدْرَسَةَ دَارِ ٱلْعُلُوْمِ تُعَلِّمُهُمْ : « فِيْهَا قَوْلَانِ » ، وَفِيْهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ ، وَفِيْهَا أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ ، وَلَـٰكِنَّهَا لَا تُعَلِّمُهُمْ فِيْهَا أَرْبَعَةُ طَوَابِعَ . . . .

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَىٰ « س . ع » ، وَقَالَ لَهُ : لَا عَلَيْكَ ، فَأَنَا صَاحِبُهُ وَخَلِيْطُهُ ، وَحَامِلُ عِلْمِهِ ، وَرَاوِيَةُ أَدَبِهِ ، وَأَكْبَرُ دُعَاتِهِ وَثِقَاتِهِ ، وَمَا عَلِمْتُ هَـٰذِهِ ٱلْحِكْمَةَ مِنْهُ إِلَّا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ .

قَالَ « ا . ش » : فَإِذَا كَانَ هَـٰذَا ، فَإِنَّ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُوْلَ : لِمَاذَا لَمْ يَضَعْ عَلَىٰ كِتَابِهِ عَشَرَةً مِنَ ٱلطَّوَابِعِ ، فَيَجِيْءُ بِهِ ٱلسَّاعِيْ عَشْرَ مَرَّاتٍ .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : وَهَـٰذَا أَيْضًا . . . ؟ [من الوافر]

« وَمَا شَرُّ ٱلثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو   بِصَاحِبِكِ ٱلَّذِيْ لَا تَصْبَحِيْنَا[1] »

إِنَّ ٱلشَّمْعَةَ فِيْ يَدِ ٱلْعَاقِلِ تَكُوْنُ لِلضَّوْءِ فَقَطْ ، وَلَـٰكِنَّهَا فِيْ يَدِ ٱلْمَجْنُوْنِ لِلضَّوْءِ وَلِلإِحْرَاقِ أَصَابِعِهِ . . . كَمِ ٱلسَّاعَةُ ٱلآنَ ؟

قُلْنَا : هِيَ ٱلتَّاسِعَةُ .

قَالَ : وَمَتَىٰ يَنْصَرِفُ أَهْلُ هَـٰذَا ٱلنَّدِيِّ ؟

قُلْنَا : لِتَمَامِ ٱلثَّانِيَةَ عَشْرَةَ .

قَالَ : فَإِذَا كَانَ ٱلسَّاعِيْ يَتَرَدَّدُ فِيْ كُلِّ سَاعَةٍ مَرَّةً ، فَهِيَ أَرْبَعُ مَرَّاتٍ إِلَىٰ أَنْ يَنْفَضَّ ٱلْمُجْتَمِعُوْنَ هُنَا ، وَبَيْنَ ذَلِكَ مَا يَكُوْنُ قَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ عَرَفُوْا (نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) ، وَجَاءَ قَوْمٌ غَيْرُهُمْ فَيَعْرِفُوْنَهُ . وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا يَجِدُ ٱلسَّاعِيْ هُنَا أَحَدًا ، فَلَا تَكُوْنُ فَائِدَةٌ مِنْ مَجِيْئِهِ . . .

فَصَفَّقَ ٱلْمَجْنُوْنُ ٱلآخَرُ وَقَالَ : هَـٰذَا وَأَبِيْكَ هُوَ ٱلتَّهَدِّيْ إِلَىٰ وَجْهِ ٱلرَّأْيِ وَسَدَادِهِ ،

(١) هُوَ لِعَمْرِو بْنِ كُلْثُوْمٍ ، مِنْ مُعَلَّقَتِهِ ٱلْمَعْرُوْفَةِ ، وَيُرْوَىٰ لِعَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ ٱللَّخْمِيِّ ٱبْنِ أُخْتِ جُذَيْمَةَ ٱلأَبْرَشِ . بسّام .

وَهَـٰذَا هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلرَّصِيْنُ ٱلَّذِي يَقُوْمُ عَلَىٰ أُصُوْلِ ٱلْحِسَابِ وَٱلْجُغْرَافِيَة . . . « وَمِمَّا حَفِظْنَاهُ » هَـٰذَا ٱلْحَدِيْثُ : « لَا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ ٱلْعَقْلِ » . [« مجمع الزوائد »، رقم : ١٨٠٣٨ ؛ « كنز العمال »، رقم : ٤٤١٣٦ ، ٤٤٢٣٧ ، ٤٤٣٨٩] فَأَرْبَعَةُ طَوَابِعَ ، لِأَرْبَعِ مَرَّاتٍ ، فِيْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ ؛ وَمَا عَدَا هَـٰذَا فَإِسْرَافٌ وَتَبْذِيْرٌ ؛ وَ« لَا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ ٱلْعَقْلِ » . . .

* * *

وَرَضِيَ (ٱلنَّابِغَةُ) عَنْ صَاحِبِهِ وَقَالَ لَهُ : لَئِنْ كَانَتْ فِيْكَ ضَعْفَةٌ إِنَّ فِيْكَ لَبَقِيَّةً تَعْقِلُ بِهَا . . .

ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ ٱلرِّسَالَةَ وَدَسَّهَا فِيْ ثَوْبِهِ .

قُلْنَا : وَلَـٰكِنْ أَلَا تَفُضُّهَا لِنَعْرِفَ مَا فِيْهَا ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ : أَيْنَ جَارَيْتُكُمْ فِيْ بَابِ ٱلْمُطَايَبَةِ وَٱلنَّادِرَةِ ، وَجَارَيْتُ هَـٰذَا ٱلْأَبْلَهَ فِيْ بَابِ جُنُوْنِهِ وَحُمْقِهِ - تَحْسَبُوْنَ أَنَّ ٱلْأَمْرَ عَلَىٰ ذَلِكَ ، وَأَنَّ ٱلرِّسَالَةَ فَارِغَةٌ إِلَّا مِنْ عُنْوَانِهَا ، وَأَنَّ نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ هُوَ أَرْسَلَهَا إِلَىٰ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ ، كَمَا قَالَ سَعْدُ بَاشَا : (جُورج ٱلْخَامِسُ يُفَاوِضُ جُورجَ ٱلْخَامِسِ) . . . ؟ لَحَقٌّ وَٱللهِ أَنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْكَبِيْرَ ٱلَّذِي يَأْبَىٰ ٱلصَّغَائِرَ ، هُوَ ٱلَّذِي تَأْتِي مِنْهُ ٱلصَّغَائِرُ أَحْيَانًا لِتُثْبِتَ أَنَّهُ عَقْلٌ كَبِيْرٌ ، وَهَـٰكَذَا تَسْخَرُ ٱلْحَقِيْقَةُ مِنْ كِبَارِ ٱلْعُقُوْلِ (كَنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) . . .

فَغَضِبَ ٱلْمَجْنُوْنُ ٱلْآخَرُ وَهَمَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ ؛ فَقَالَ لَهُ (ٱلنَّابِغَةُ) : أَنْتَ كَاذِبٌ فِيْمَا سَتَقُوْلُهُ . . .

قُلْنَا : وَلَـٰكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا بَعْدُ ، فَكَمَا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ كَاذِبًا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ صَادِقًا .

قَالَ : وَسَيُخْطِئُ فِيْ رَأْيِهِ ٱلَّذِي يُبْدِيْهِ . . .

قُلْنَا : وَلَمْ يُبْدِ شَيْئًا مِنْ رَأْيِهِ .

قَالَ : وَلَا يَعْرِفُ ٱلْحَقِيْقَةَ ٱلَّتِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْهَا .

قُلْنَا : وَيْحَكَ ! أَدَخَلْتَ فِيْ عَقْلِ ٱلرَّجُلِ أَمْ تَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ؟

قَالَ : لَا هَـٰذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَـٰكِنَّهُ قِيَاسٌ مَنْطِقِيٌّ يُتَوَهَّمُ ٱطِّرَادُهُ . إِنَّهُ سَيَقُوْلُ : إِنِّي مَجْنُوْنٌ . . .

فَأَخْرَجَ ٱلْآخَرُ لِسَانَهُ . . . قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : تَبًّا لَكَ ، لَقَدْ رَأَيْتُ ٱلْكَلِمَةَ فِيْ لِسَانِكَ كَأَنَّهَا مَكْتُوْبَةٌ بِحُرُوْفِ ٱلْمَطْبَعَةِ . وَيْحَكَ يَا مَرْقَعَانُ[1] ! أَلَا تَعْرِفُ أَنَّ لَكَ دِمَاغًا مَخْرُوْقًا تَسْقُطُ مِنْهُ أَفْكَارُكَ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهَا ، وَلَوْلَا أَنَّهُ مَخْرُوْقٌ لَحَفِظْتَ ٱلْمَتْنَ ! إِنَّ كُلَّ تَخْطِئَةٍ لِيْ مِنْكَ هِيَ ٱعْتِرَافٌ لِيْ مِنْكَ بِصَوَابٍ .

فَنَظَرَ ٱلْآخَرُ إِلَيْهِ نَظْرَةً كَانَ تَفْسِيْرُهَا فِيْ حَوَاجِبِهِ ، إِذْ مَطَّ حَوَاجِبَهُ[2] وَرَقَّصَهَا . فَقَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : وَنَظَرَاتُهُ خَبِيْثَةٌ مِلْحَةُ ٱلطَّعْمِ ، مَزْعُوْقَةٌ كَمَاءِ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُرِّ أُخِذَ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَأُضِيْفَ إِلَىٰ مِلْحِهِ ٱلطَّبِيْعِيِّ مِلْحٌ ، أَكَادُ أَتَهَوَّعُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّظْرَةِ فَأَقِيْءُ .

ٱلْآنَ فَهِمْتُ مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ : « مِلْحَةٌ فِيْ عَيْنِ ٱلْحَسُوْدِ » . فَإِنَّ ٱلْمِلْحَ لَا يَغْلِبُهُ إِلَّا ٱلْمِلْحُ ، كَٱلْحَدِيْدِ بِٱلْحَدِيْدِ يُفْلَحُ . هَاتُوا كَأْسًا مِنْ مُعَتَّقَةِ ٱلْخَمْرِ ، ثُمَّ لِيَنْظُرْ فِيْهَا ٱلْخَبِيْثُ هَـٰذِهِ ٱلنَّظْرَةَ ، فَإِنَّ ٱلْخَمْرَ لَا بُدَّ مُسْتَحِيْلَةٌ « شَرْبَةَ مِلْحٍ إِنْكِلِيْزِيٍّ » . . . هَـٰذَا ٱلْأَبْلَهُ ثَقِيْلُ ٱلدَّمِ كَأَنَّ دَمَهُ مَأْخُوْذٌ مِنْ مُسْتَنْقَعٍ . . . أَهَـٰذَا ٱلَّذِي لَا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَقُوْلَ لِشَيْءٍ فِيْ ٱلدُّنْيَا : هُوَ لِيْ ، إِلَّا ٱلْفَقْرَ وَٱلْجُنُوْنَ وَٱلْخُرَافَةَ - يُكَذِّبُ مَا فِيْ ٱلرِّسَالَةِ ٱلَّتِي جَاءَ بِهَا ٱلْبَرِيْدُ ٱلْمُسْتَعْجِلُ ، وَلَا يُصَدِّقُ أَنَّهَا مُرْسَلَةٌ إِلَىٰ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ مِنْ صَاحِبِ ٱلسُّمُوِّ ٱلْأَمِيْرِ ؟

هَـٰذَا ٱلذَّاهِبُ ٱلْعَقْلِ هُوَ كَٱلْجَبَانِ ٱلْمُنْقَطِعِ فِيْ وَحْشَةِ ٱلْقَفْرِ ، فِيْ ظَلَامِ ٱللَّيْلِ : إِذَا تَوَجَّسَ حَرَكَةً ضَعِيْفَةً ٱنْقَلَبَتْ فِيْ وَهْمِهِ قِصَّةَ جَرِيْمَةٍ مِلْؤُهَا ٱلرُّعْبُ وَفِيْهَا ٱلْقَتْلُ وَٱلذَّبْحُ ؛ وَلِهَـٰذَا يَخْشَىٰ مَا فِيْ ٱلرِّسَالَةِ ٱلَّتِي جَاءَتْ مِنْ صَدِيْقِيْ صَاحِبِ ٱلسُّمُوِّ . هَاؤُمُ ٱقْرَؤُوا ٱلرِّسَالَةَ .

وَفَضَضْنَا ٱلْغِلَافَ ، فَإِذَا وَرَقَتَانِ مَمْهُوْرَتَانِ بِتَوْقِيْعِ أَمِيْرٍ مَعْرُوْفٍ ، إِحْدَاهُمَا صَكٌّ بِأَلْفِ جُنَيْهٍ تُدْفَعُ (لِنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) ، وَٱلثَّانِيَةُ أَمْرٌ بِٱلْقَبْضِ عَلَىٰ ٱلْمَجْنُوْنِ ٱلْآخَرِ . . .

---

(١) ٱلْمَرْقَعَانُ وَٱلْمَرْقَعُ : ٱلْأَحْمَقُ ٱلَّذِي يَتَمَزَّقُ عَلَيْهِ رَأْيُهُ فَلَا يَجْتَمِعُ لَهُ .

(٢) هُمَا حَاجِبَانِ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا ٱلْأُسْلُوْبَ هُوَ ٱلْأَفْصَحُ هُنَا ، وَهُوَ كَثِيْرٌ فِيْ ٱلْعَرَبِيَّةِ .

وَإِرْسَالِهِ إِلَى ٱلْمَارِسْتَانِ . . .

* * *

وَذَهَبْتُ أُصْلِحُ بَيْنَهُمَا { صُلْحاً } فَقُلْتُ : إِنَّ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : بَيْنَمَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ ، فَقَالَ بَعْضُ ٱلْقَوْمِ : هَـٰذَا مَجْنُونٌ . فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « هَـٰذَا مُصَابٌ ؛ إِنَّمَا ٱلْمَجْنُونُ ٱلْمُقِيمُ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ ٱللهِ » [« كنز العمال » ، رقم : ١٠٤٣٧ ، ١٠٤٥٣] .

فَقَالَ صَاحِبُ ٱلْمَتْنِ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : « إِنَّمَا ٱلْمَجْنُونُ ٱلْمُقِيمُ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ ٱللهِ » .

قُلْتُ : وَلَيْسَ فِيكُمَا مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ ٱللهِ . . .

قَالَ ٱلْمَجْنُونُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : وَلَيْسَ فِيكُمَا مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ ٱللهِ . . .

قُلْتُ : هَـٰذَا لَيْسَ مِنَ ٱلْحَدِيثِ وَلَـٰكِنَّهُ مِنْ كَلَامِي .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : أَنْبَأْتُكُمْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلأَبْلَهَ يَضِلُّ فِي دَارِهِ كَمَا يَضِلُّ ٱلأَعْرَابِيُّ فِي ٱلصَّحْرَاءِ ؛ وَأَنَّ ٱلأُسْطُولَ ٱلإِنْكِلِيزِيَّ لَوِ ٱسْتَقَرَّ فِي سَاقِيَةٍ يَدُورُ فِيهَا ثَوْرٌ ، لَكَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى ٱلتَّصْدِيقِ مِنِ ٱسْتِقْرَارِ ٱلْعَقْلِ فِي رَأْسِ هَـٰذَا ٱلأَبْلَهِ ؟ . . .

فَٱحْتَدَمَ ٱلآخَرُ وَهَمَّ أَنْ يَقُولَ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » ، وَلَـٰكِنِّي أَسْكَتُّهُ وَقُلْتُ (لِلنَّابِغَةِ) : إِنَّكَ دَائِمًا فِي ذِرْوَةِ ٱلْعَالَمِ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ تَرَى ٱلْمُحِيطَ ٱلأَعْظَمَ سَاقِيَةً . « وَٱلنَّوَابِغُ » هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَوَابِغُ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ فِي رَأْيِ ٱلنَّاسِ مَرْضَىٰ بِمَرَضِ ٱلصُّعُودِ ٱلْخَيَالِيِّ إِلَىٰ ذِرْوَةِ ٱلْعَالَمِ . وَمِنْ هَـٰذَا يَكُونُ ٱلْمَجَانِينُ هُمُ ٱلْمَرْضَىٰ بِمَرَضِ ٱلنُّزُولِ ٱلْحَقِيقِيِّ إِلَىٰ حَضِيضِ ٱلآدَمِيَّةِ ؛ فَهُنَاكَ يَعْمَلُونَ فَتَكُونُ أَفْكَارُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، ثُمَّ تَكُونُ عُقُولُهُمْ مِنْ أَفْكَارِهِمْ ، فَيَكُونُ هَـٰذَا هُوَ ٱلْجُنُونَ فِي عُقُولِهِمْ ؛ وَذَلِكَ فِي مَعْنَىٰ ٱلْحَدِيثِ : « إِنَّمَا ٱلْمَجْنُونُ ٱلْمُقِيمُ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ ٱللهِ » .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : لَعَمْرِي إِنَّ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقُّ ؛ فَنُبُوغُ ٱلْعَقْلِ مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ ٱلسُّمُوِّ فِيهِ ؛ فَٱلشَّاعِرُ ٱلْعَظِيمُ مَجْنُونٌ بِٱلْكَوْنِ ٱلَّذِي يَتَخَيَّلُهُ فِي فِكْرِهِ ، وَٱلْعَاشِقُ مَجْنُونٌ بِكَوْنٍ آخَرَ لَهُ عَيْنَانِ مَكْحُولَتَانِ ؛ وَٱلْفَيْلَسُوفُ مَجْنُونٌ بِٱلْكَوْنِ ٱلَّذِي يَدْأَبُ فِي مَعْرِفَتِهِ ؛ وَنَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ

ٱلْعِشْرِينَ مَجْنُونٌ . . . لَا . لَا . قَدْ نَسِينَا ! . ش ، فَهُوَ مَجْنُونٌ ، و« س . ع » فَهُوَ مَجْنُونٌ [من الوافر] :

وَكُلُّ ٱلنَّاسِ مَجْنُونٌ بِلَيْلَىٰ   وَلَيْلَىٰ لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا

وَمِنْ حَقِّ لَيْلَىٰ أَلَّا تُقِرَّ لَهُمْ ، إِذْ هِيَ لَا تُقِرُّ إِلَّا لِنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ وَحْدَهُ ؛ وَمَا أَعْجَبَ سِحْرَ ٱلْمَرْأَةِ فِي ٱلْكَوْنِ ٱلنَّفْسَانِيِّ لِلرِّجَالِ ؛ أَمَّا فِي ٱلْكَوْنِ ٱلْحَقِيقِيِّ فَهِيَ أُنْثَىٰ كَإِنَاثِ ٱلْبَهَائِمِ لَيْسَ غَيْرُ . وَأَعْقَلُ ٱلرِّجَالِ مَنْ كَانَ كَٱلْحِمَارِ أَوِ ٱلثَّوْرِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ ذُكُورِ ٱلْبَهَائِمِ . فَٱلْحِمَارُ لَا يَعْرِفُ ٱلْحِمَارَةَ إِلَّا أَنَّهَا حِمَارَةٌ ، وَٱلثَّوْرُ لَا يَعْرِفُ ٱلْبَقَرَةَ إِلَّا أَنَّهَا بَقَرَةٌ ؛ وَلَا يَنْظُمُونَ شِعْرًا ، وَلَا يَكْتُبُونَ « أَوْرَاقَ ٱلْوَرْدِ » . . . وَإِنَاثُ ٱلْبَهَائِمِ أُمَّاتٌ(1) لَا غَيْرُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَجِيبَ أَنَّ ذُكُورَتَهَا لَيْسَتْ آبَاءً ؛ فَهَـٰذِهِ ٱلذُّكُورَةُ طُفَيْلِيَّةٌ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَٱلطُّفَيْلِيُّ لَا يَأْكُلُ إِلَّا بِحِيلَةٍ يَحْتَالُ بِهَا ، فَيَكُونُ صَاحِبَ نَوَادِرَ وَأَضَاحِيكَ وَأَكَاذِيبَ . وَلِهَـٰذَا كَانَ عِشْقُ ٱلرِّجَالِ لِلنِّسَاءِ ضُرُوبًا مِنَ ٱلْخِدَاعِ وَٱلأَكَاذِيبِ وَٱلأَضَاحِيكِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلْغَفْلَةِ وَٱلْبَلَاهَةِ ؛ وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ فَهُوَ عِشْقٌ ، أَمَّا آخِرُهُ فَهُوَ آخِرُ ٱلْحِيلَةِ وَٱلأُكْذُوبَةِ ، وَهُوَ قَوْلُ ٱلطُّفَيْلِيِّ : قَدْ شَبِعْتُ وَقَدْ رَوِيتُ . . . وَيْحَكُمْ ! أَيْنَ أَوَّلُ ٱلْكَلَامِ ؟

قُلْنَا : أَوَّلُهُ مَا أَعْجَبَ سِحْرَ ٱلْمَرْأَةِ فِي ٱلْكَوْنِ ٱلنَّفْسَانِيِّ لِلرِّجَالِ .

قَالَ : نَعَمْ هَـٰذَا هُوَ . إِنَّهُ سِحْرٌ لَا أَعْجَبَ مِنْهُ فِي هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ ٱلنَّفْسَانِيِّ إِلَّا سِحْرُ ٱلذَّهَبِ ؛ فَلَوْ مُسِخَتِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْجَمِيلَةُ شَيْئًا مِنَ ٱلأَشْيَاءِ لَكَانَتْ سَبِيكَةً ذَهَبِيَّةً تَلْمَعُ ؛ وَلِهَـٰذَا يُوجِدُ ٱلذَّهَبُ ٱللُّصُوصَ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَتُوجِدُ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْجَمِيلَةُ لُصُوصًا آخَرِينَ ، فَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ ٱلذَّهَبُ وَأَنْ تُصَانَ ٱلْمَرْأَةُ .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنِ ٱلَيْسَ مِنَ ٱلْمَالِ فِضَّةٌ ، وَهِيَ تُوجِدُ ٱللُّصُوصَ كَٱلذَّهَبِ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، وَفِي ٱلنِّسَاءِ كَذَلِكَ فِضَّةٌ ، وَفِيهِنَّ ٱلنُّحَاسُ ؛ وَلَوْ أَنْتَ أَلْقَيْتَ رِيَالًا فِي ٱلطَّرِيقِ لَأَحْدَثَتْ مَعْرَكَةً يَخْتَصِمُ فِيهَا رَجُلَانِ ، ثُمَّ لَا يَذْهَبُ بِٱلرِّيَالِ إِلَّا ٱلأَقْوَىٰ ، وَلَوْ تَرَكْتَ قِرْشًا لَتَضَارَبَ عَلَيْهِ طِفْلَانِ ، ثُمَّ لَا يَفُوزُ بِهِ إِلَّا مَنْ عَضَّ ٱلآخَرَ . . .

(١) يُقَالُ فِي غَيْرِ ٱلْعَاقِلِ : أُمَّاتٌ ، وَفِي ٱلْعَاقِلِ : أُمَّهَاتٌ .

وَلٰكِنَّ (فُورد[1] Ford) ٱلْغَنِيَّ ٱلأَمْرِيكِيَّ ٱلْعَظِيمَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ يَدَهُ عَلَىٰ أَرْبَعِ مِئَةِ مِلْيُونِ جُنَيْهٍ ، لَا يَتَكَلَّمُ عَنِ ٱلْقِرْشِ ؛ (وَنَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) ٱلَّذِي يَمْلِكُ (لَيْلَىٰ) ، لَا يَتَكَلَّمُ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ قُرُوشِ ٱلنِّسَاءِ . . .

قُلْتُ : فَإِنِّي أَحْسَبُكَ أَعْلَمْتَنِي أَنَّ ٱسْمَهَا فَاطِمَةُ لَا لَيْلَىٰ .

قَالَ : هَلْ يَسْتَقِيمُ ٱلشِّعْرُ إِذَا قُلْتَ : وَكُلُّ ٱلنَّاسِ مَجْنُونٌ بِفَاطِمَةَ ، وَفَاطِمُ لَا تُقِرُّ لَهُمْ ؟

قُلْتُ : لَا .

قَالَ : إِذًا فَهِيَ (لَيْلَىٰ) لِيَسْتَقِيمَ ٱلشِّعْرُ . . . أَمَّا حِينَ أَقُولُ [لِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ ، من الطويل] :

فَـاطِـمُ مَهْـلًا بَعْـدَ هَـٰذَا ٱلتَّـدَلُّـلِ

فَهِيَ فَاطِمَةُ لِيَصِحَّ ٱلْوَزْنُ . . .

قُلْتُ : يُشْبِهُ وَٱللهِ أَلَّا يَكُونَ ٱسْمُهَا لَيْلَىٰ وَلَا فَاطِمَةَ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ تُسَمَّىٰ حَسَبَ ٱلْوَزْنِ وَٱلْبَحْرِ ، فَٱسْمُهَا فَعُولُنْ أَوْ مُفَاعَلَتُنْ . . .

* * *

ثُمَّ قُلْنَا لَهُ : فَمَا رَأْيُكَ فِي ٱلْحُبِّ ، فَإِنَّهُ لَيُقَالُ : إِنَّكَ أَعْشَقُ ٱلنَّاسِ وَأَغْزَلُ ٱلنَّاسِ ؟

قَالَ : إِنَّ ذٰلِكَ لَيُقَالُ (وَهُوَ ٱلأَصَحُّ) .

ثُمَّ أَطْرَقَ يُفَكِّرُ . وَبَدَا عَلَيْهِ أَنَّهُ مَدْهُوشٌ ذَاهِبُ ٱلْعَقْلِ ، كَأَنَّهُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ مَسَافَةٍ أَبْعَدَ مِنَ ٱلْمَسَافَةِ ٱلَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَقْلِهِ . وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ قَدْ حُشِرْنَ جَمِيعًا فِي رَأْسِهِ ، وَمَرَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ تَعْرِضُ مَفَاتِنَهَا وَغَزَلَهَا ، وَتُلَائِمُ هَذَيَانَهُ بِهَذَيَانٍ مِنْ جَمَالِهَا ، فَهُوَ يَرَىٰ وَيَسْمَعُ وَيَعْرِضُ وَيَتَحَيَّرُ . ثُمَّ ٱضْطَرَبَ كَٱلَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُمْسِكَ بِشَيْءٍ أَفْلَتَ مِنْهُ ؛ فَلَمْ يُنَبِّهْهُ إِلَّا قَوْلُ ٱلْمَجْنُونِ ٱلآخَرِ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » أَنَّ أَعْرَابِيَّةً سُئِلَتْ عَنِ ٱلْعِشْقِ فَقَالَتْ : إِنَّهُ دَاءٌ وَجُنُونٌ . . .

(١) هو هنري فورد Henry Ford (١٨٦٣ ـ ١٩٤٧ م) صناعي أميركي عُرف بمصانعه المنتجة للسيارات .

قَالَ : ٱسْكُتْ يَا وَيْلَكَ ! لَقَدْ أَطْفَأْتَ ٱلأَنْوَارَ بِكَلِمَتِكَ ٱلْمَجْنُونَةِ . كَانَ فِي رَأْسِي مَرْقَصٌ عَظِيمٌ تَسْطَعُ ٱلأَنْوَارُ فِيهِ بَيْنَ ٱلأَحْمَرِ وَٱلأَخْضَرِ وَٱلأَبْيَضِ ؛ وَتَرْقُصُ فِيهِ ٱلْجَمِيلَاتُ مِنَ ٱلطَّوِيلَةِ وَٱلْقَصِيرَةِ وَٱلْمَمْشُوقَةِ وَٱلْبَادِنَةِ ، فَجِئْتَ بِٱلدَّاءِ وَٱلْجُنُونِ قَبَّحَكَ ٱللهُ فَأَخْرَجْتَنِي عَنْهُنَّ إِلَيْكَ . أَحْسَبُ أَنَّكَ لَوِ ٱنْتَحَرْتَ لَصَلُحَ ٱلْعَالَمُ أَوْ صَلُحْتُ أَنَا عَلَى ٱلأَقَلِّ . . . فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْنُقَ نَفْسَكَ فَأَنَا آتِيكَ بِٱلْحَبْلِ ٱلَّذِي كُنْتُ مُقَيَّدًا فِيهِ ، أَيْ : ٱلْحَبْلُ ٱلَّذِي عِنْدِي فِي ٱلدَّارِ . . . عَلَىٰ أَنَّ رَأْسَكَ ٱلْفَارِغَ مَشْنُوقٌ فِيكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي .

قَالَ ٱلآخَرُ : مَا أَنْتَ مُنْذُ ٱلْيَوْمِ إِلَّا فِي شَنْقِي وَتَعْذِيبِي أَوْ فِي شَنْقِ عَقْلِي (عَلَى ٱلأَصَحِّ) . « وَمِمَّا حَفِظْنَاهُ » قَوْلُ ٱلأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ : إِنِّي لَأُجَالِسُ ٱلأَحْمَقَ سَاعَةً فَأَتَبَيَّنُ ذٰلِكَ فِي « عَقْلِي » . . .

فَلَمْ يَرُعْنَا إِلَّا قِيَامُ ٱلْمَجْنُونِ مُسَلَّحًا بِحِذَائِهِ فِي يَدِهِ . . . وَهُوَ حِذَاءٌ عَتِيقٌ غَلِيظٌ يَقْتُلُ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ فَحُلْنَا بَيْنَهُمَا وَأَثْبَتْنَاهُ فِي مَكَانِهِ . وَقُلْنَا : هَـٰذَا رَجُلٌ قَدْ غُلِبَ عَلَىٰ عَقْلِهِ فَلَا يَدْرِي مَا يَقُولُ ؛ فَإِذَا هُوَ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مَجْنُونٌ ، أَفَلَا تَدُلُّ أَنْتَ عَلَىٰ أَنَّكَ عَاقِلٌ ؟ مَا سَأَلْنَاكَ فِي ٱنْتِحَارِهِ وَجُنُونِهِ ، بَلْ سَأَلْنَاكَ رَأْيَكَ فِي ٱلْحُبِّ ؛ وَمَا نَشُكُّ أَنَّكَ قَدْ أَطَلْتَ ٱلتَّفْكِيرَ لِيَكُونَ ٱلْجَوَابُ دَقِيقًا ، فَإِنَّكَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) ، فَٱنْظُرْ أَنْ يَكُونَ ٱلْجَوَابُ كَذٰلِكَ .

قَالَ : نَعَمْ إِنَّ ٱلْعَاقِلَ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ ٱلسُّؤَالُ أَطَالَ ٱلْفِكْرَ فِي ٱلْجَوَابِ . فَٱكْتُبْ يَا فُلَانُ (س . ع) :

جَلَسَ نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ مَجْلِسَ ٱلإِمْلَاءِ مُرْتَجِلًا فَقَالَ[1] : قِصَّةُ ٱلْحُبِّ هِيَ قِصَّةُ آدَمَ ، خَلَقَ ٱللهُ ٱلْمَرْأَةَ مِنْ ضِلَعِهِ . فَأَوَّلُ عَلَامَاتِ ٱلْحُبِّ أَنْ يَشْعُرَ ٱلرَّجُلُ بِٱلأَلَمِ كَأَنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلَّتِي أَحَبَّهَا كَسَرَتْ لَهُ ضِلَعًا . . . وَكُلُّ قَدِيمٍ فِي ٱلْحُبِّ هُوَ قَدِيمٌ بِمَعْنًى غَيْرِ مَعْقُولٍ ، وَكُلُّ جَدِيدٍ فِيهِ هُوَ جَدِيدٌ بِمَعْنًى غَيْرِ مَفْهُومٍ ؛ فَغَيْرُ ٱلْمَعْقُولِ وَغَيْرُ ٱلْمَفْهُومِ هُوَ ٱلْحُبُّ .

وَٱلْجَمْرَةُ ٱلْحَمْرَاءُ إِذَا قِيلَ : إِنَّهَا ٱنْطَفَأَتْ وَبَقِيَتْ جَمْرَةً فَذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلصِّدْقِ مِنْ بَقَاءِ ٱلْحُبِّ حَيًّا بِمَعْنَاهُ ٱلأَوَّلِ إِذَا ٱنْطَفَأَ أَوْ بَرَدَ .

(١) هَـٰذَا نَصُّ عِبَارَتِهِ حِينَ يُرِيدُ ٱلتَّخْلِيطَ .

وَٱلْعَاشِقُ مَجْنُوْنٌ . وَجُنُوْنُهُ مَجْنُوْنٌ أَيْضًا ، فَهُوَ كَٱلَّذِيْ يَرَىٰ ٱلْجَمْرَةَ مُنْطَفِئَةً ، وَيَرَىٰ مَعَ ذَٰلِكَ أَنَّهَا لَا تَزَالُ حَمْرَاءَ ، ثُمَّ يُمْعِنُ فِيْ خَيَالِهِ فَيَرَاهَا وَرْدَةً مِنَ ٱلْوَرْدِ . . . وَإِذَا سَأَلْتَهُ أَنْ يَصِفَ ٱلْجَمَالَ ٱلَّذِيْ يَهْوَاهُ كَانَ فِيْ ذَٰلِكَ أَيْضًا مَجْنُوْنَ ٱلْجُنُوْنِ ، كَٱلَّذِيْ يَرَىٰ قَمَرَ ٱلسَّمَاءِ أَنَّهُ قَدْ تَفَتَّتَ وَتَنَاثَرَ وَوَقَعَ فِيْ ٱلرَّوْضَةِ ، فَكَانَ نُثَارُهُ هُوَ ٱلْيَاسَمِيْنَ ٱلْأَبْيَضَ ٱلْجَمِيْلَ ٱلذَّكِيَّ . . .

وَٱلْمَجْنُوْنُ يَرَىٰ ٱلدُّنْيَا بِجُنُوْنِهِ وَٱلْعَاقِلُ يَرَاهَا بِعَقْلِهِ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَاشِقَ ٱلْمَخْبُوْلَ لَا يَنْظُرُ مَنْ يَهْوَاهُ إِلَّا بِبَقِيَّةٍ مِنْ هَـٰذَا وَبَقِيَّةٍ مِنْ ذَٰلِكَ ، فَلَا يَخْلُصُ مَعَ حَبِيْبِهِ إِلَىٰ جُنُوْنٍ وَلَا عَقْلٍ .

(وَٱلْمَجْهُوْلُ) إِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ فِيْ دِمَاغٍ بَشَرِيٍّ لَمْ يَسَعْهُ إِلَّا أَحَدُ رَأْسَيْنِ : رَأْسِ ٱلْمَجْنُوْنِ وَرَأْسِ ٱلْعَاشِقِ . . .

وَلَا صُعُوْبَةَ فِيْ ٱلْحُكْمِ عَلَىٰ شَيْءٍ بِأَنَّهُ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ إِلَّا حِيْنَ يَكُوْنُ ٱلْخَيْرُ وَٱلشَّرُّ ٱمْرَأَةً مَعْشُوْقَةً . أَمَّا أَوْصَافُ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْكُتَّابِ لِلْجَمَالِ وَٱلْحُبِّ فَهِيَ كُلُّهَا تَقْلِيْدٌ قَدْ تَوَسَّعُوْا فِيْهِ ؛ وَٱلْأَصْلُ أَنَّ ثَوْرًا أَحَبَّ بَقَرَةً فَكَانَ يَقُوْلُ لَهَا : يَا نَجْمَةَ ٱلْقُطْبِ ٱلَّتِيْ نَزَلَتْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ لِتَدُوْرَ فِيْ ٱلسَّاقِيَةِ كَمَا دَارَتْ فِيْ ٱلْفَلَكِ . . .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : هَـٰذَا رَأْيِيْ فِيْ حُبِّ ٱلْعَاشِقِيْنَ ؛ أَمَّا حُبِّيْ أَنَا (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) فَيَجْمَعُهُ قَوْلُكَ : فُلٌّ ، وَرْدٌ ، زَهْرٌ . . .

قُلْنَا : مَا هَـٰذِهِ ٱلْأَلْغَازُ ؟ وَهَلْ لِلْحُبِّ مَتْنٌ كَقَوْلِهِمْ : حُرُوْفُ ٱلْقَلْقَلَةِ يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (قُطْبُ جَدٍ) ، وَحُرُوْفُ ٱلزِّيَادَةِ يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (سَأَلْتُمُوْنِيْهَا) ؟

فَتَضَاحَكَ (ٱلنَّابِغَةُ) وَقَالَ [من الوافر] :

تَكَـاثَـرَتِ ٱلظِّبَـاءُ عَلَـىٰ خِـرَاشٍ

فَلِكَيْلَا نَنْسَىٰ . . . إِنَّ كُلَّ حَرْفٍ هُوَ بَدْءُ ٱسْمٍ ، ٱلْفَاءُ فَاطِمَةُ ، وَٱللَّامُ لَيْلَىٰ ، وَٱلْوَاوُ وَرْدَةُ ، وَٱلرَّاءُ رَبَابٌ ، وَٱلدَّالُ دَلَالٌ ، وَٱلزَّايُ زَكِيَّةٌ ، وَٱلْهَاءُ هِنْدٌ ، وَٱلرَّاءُ رَبَابٌ . . .

قُلْنَا : رَبَابٌ قَدْ مَضَتْ فِيْ (وَرْدٍ) .

قَالَ : كُنَّا تَهَاجَرْنَا مُدَّةً ثُمَّ ٱصْطَلَحْنَا بَعْدَ هِنْدٍ . . .

* * *

قُلْتُ : هَـٰكَذَا « ٱلنَّوَابِغُ » فَإِنَّ رَجُلًا أَدِيْبًا كَانَتْ كُنْيَتُهُ (أَبَا ٱلْعَبَّاسِ) فَلَمَّا « نَبَغَ » صَيَّرَهَا (أَبَا ٱلْعَيْرِ)(١) وَفَتَقَ لَهُ نُبُوْغُهُ أَنْ يَجْعَلَهَا تَارِيْخًا يَعْرِفُ مِنْهَا عُمُرَهُ . قَالُوْا : فَكَانَ يَزِيْدُ فِيْهَا كُلَّ سَنَةٍ حَرْفًا حَتَّىٰ مَاتَ وَهِيَ هَـٰكَذَا :

أَبُوْ ٱلْعَيْرِ طَرَدْ طِيْلَ طَلِيْرِي بَكْ بَكْ . . . . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْمَجْنُوْنُ(*)
٥

ثُمَّ إِنَّ (نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) ٱسْتَخَفَّهُ ٱلطَّرَبُ لِذِكْرِ صَوَاحِبِهِ وَجَمِيْلَاتِهِ مِنْ فَاطِمَةَ إِلَىٰ رَبَابٍ ؛ وَمِنْ طَبْعِ ٱلْمَجْنُوْنِ أَنَّهُ إِذَا كَذَبَ صَدَّقَ نَفْسَهُ ، فَإِنَّ قُوَّةَ ٱلضَّبْطِ فِيْ عَقْلِهِ إِمَّا مَعْدُوْمَةٌ وَإِمَّا مُخْتَلَّةٌ ؛ وَكُلُّ وَجْهٍ تَخَيَّلَ مِنْهُ خَيَالًا فَهُوَ وَجْهٌ مِنْ وُجُوْهِ ٱلْعِلْمِ عِنْدَهُ ، إِذْ كَانَ عَالَمُهُ أَكْثَرُهُ فِيْ دَاخِلِهِ لَا فِيْ ٱلْعَالَمِ ، فَإِذَا تَوَهَّمَ أَوْ أَحَسَّ أَوْ شَعَرَ ، فَإِنَّمَا يَكُوْنُ ذَٰلِكَ بِطَرِيْقَتِهِ هُوَ لَا بِطَرِيْقَةِ ٱلنَّاسِ ٱلْعُقَلَاءِ ؛ فَلَيْسَ يَحْتَمِلُ عَقْلُهُ إِلَّا فِكْرَةً وَاحِدَةً تَمْضِيْ مُنْفَرِدَةً بِنَفْسِهَا مُسْتَقِلَّةً بِمَعْنَاهَا كَأَنَّهَا قَدَرٌ غَالِبٌ عَلَىٰ جَمِيْعِ أَفْكَارِهِ ٱلْأُخْرَىٰ ، فَلَا شَأْنَ لَهَا بِٱلْوَاقِعِ ، وَلَا شَأْنَ لِلْوَاقِعِ بِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ تُحَقِّقُ مَعْنَاهَا كَمَا تَخْطُرُ لَهُ ، لَا كَمَا تَتَمَثَّلُ فِيْمَا حَوْلَهُ .

فَبَيْنَ كُلِّ مَجْنُوْنٍ وَبَيْنَ مَا حَوْلَهُ دِمَاغُهُ ٱلْمُتَدَجِّيْ بِٱلْغُيُوْمِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ، لَا تَزَالُ تَعْرِضُ لَهُ ٱلْغَيْمَةُ بَعْدَ ٱلْغَيْمَةِ مِنِ ٱخْتِلَالِ بَعْضِ ٱلْمَرَاكِزِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِيْهِ ، وَفَسَادِ أَعْمَالِهَا بِهَـٰذَا ٱلِاخْتِلَالِ ، وَقِيَامِ ٱلطَّبِيْعَةِ فِيْهَا عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَسَادِ .

---

(١) { ٱلْعَيْرُ : ٱلْحِمَارُ ، وَتَكَنَّىٰ بَعْضُ ٱلْحَمْقَىٰ (أَبُوْ ٱلْبَقَرِ) قِيَاسًا عَلَىٰ (أَبُوْ ٱلْعَيْرِ) } .

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٩ ، ٢٧ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٢٠٤٣ـ٢٠٤٧ .

وَمِنْ ذَلِكَ تَنْقَلِبُ ٱلْكَلِمَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ، وَإِنَّهَا لَحَادِثَةٌ تَامَّةٌ فِي عَقْلِ ٱلْمَجْنُونِ كَالْقِصَّةِ ٱلْوَاقِعَةِ لَهَا زَمَانٌ وَمَكَانٌ ، وَبَدْءٌ وَنِهَايَةٌ ، لَا يُخَامِرُهُ فِيهَا ٱلشَّكُّ ، وَلَا يَعْتَرِيهَا ٱلتَّكْذِيبُ ؛ وَكَيْفَ وَهِيَ قَائِمَةٌ فِي ذِهْنِهِ مِنْ وَرَاءِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ قِيَامَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَسْمَاعِ ؟

وَلِحَوَاسِّ ٱلْمَجْنُونِ جِهَتَانِ فِي ٱلْعَمَلِ ، لِأَنَّهَا بَيْنَ كَوْنَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا ٱلْكَوْنُ ٱلْخَرِبُ ٱلَّذِي فِي دِمَاغِهِ ؛ وَفِي هَـٰذَا يَقُولُ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) : إِنَّ فِي دَاخِلِ عَيْنَيْهِ مِنْظَارًا يَرَى بِهِ ٱلْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ حَقَائِقِهَا ، أَيْ فِي حَقَائِقِهَا . . .

وَحَدَّثَنَا ٱلدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ ٱلرَّافِعِيُّ قَالَ : إِنَّ فِي دَارِ ٱلْمَجَانِينِ بِمَدِينَةِ لِيُون Lyon بِفَرَنْسَة نَابِغَةً كَنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ ، ذُكِرَتْ أَمَامَهُ قَيْصَرَةُ رُوسِيَة وَخَبَرُ مَقْتَلِهَا ، فَأَحْفَظَهُ هَـٰذَا وَأَرْمَضَهُ وَقَالَ : يَا وَيْحَهُمْ ! كَذَبُوا عَلَيْهَا وَعَلَيَّ . . . فَسَأَلَهُ ٱلدُّكْتُورُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ .

قَالَ : كَانَ مِنْ خَبَرِ ٱلْقَيْصَرَةِ أَنَّهَا رَأَتْنِي فَأَحَبَّتْنِي ، وَعَلِمَتْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَ مِنْهُ قَلْبُهَا أَنِّي أَنَا رَجُلُهَا لَا ٱلْقَيْصَرُ ؛ فَمَا زَالَتْ بَعْدَهَا تَنَاكَدُ ٱلْقَيْصَرَ وَتَلْتَوِي عَلَيْهِ وَلَا تَصْلُحُ لَهُ فِي شَيْءٍ حَتَّىٰ يَئِسَ مِنْهَا فَطَلَّقَهَا ، فَحَمَلَتْ كُنُوزَهَا وَحِلَاهَا وَلَجَأَتْ إِلَىٰ حَبِيبِهَا ، ثُمَّ تَبِعَتْهَا نَفْسُ ٱلْقَيْصَرِ وَلَمْ يُطِقِ ٱلْعَيْشَ بَعْدَهَا فَٱنْتَحَرَ . . . ثُمَّ طَلَبَهَا ٱلشُّيُوعِيُّونَ لِمَا مَعَهَا مِنْ كُنُوزٍ ، فَأَخْفَاهَا هُوَ فِي مَكَانٍ حَرِيزٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ ؛ ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ لَا يَصِلُ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي أَحْرَزَهَا فِيهِ إِلَّا إِذَا نَامَ . . . كَيْلَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلشُّيُوعِيِّينَ فَيَتَعَقَّبَهُ فَيَعْلَمَ مَقَرَّهَا ؛ وَلِهَـٰذَا كَانَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَنْ يَنْسَىٰ ٱلْمَكَانَ إِذَا ٱسْتَيْقَظَ . . . فَقَدْ يَزِلُّ مَرَّةً فَيُخْبِرُ بِهِ أَوْ يَغْلِبُهُ ٱلشَّوْقُ مَرَّةً عَلَىٰ « عَقْلِهِ » . . . فَيَذْهَبُ إِلَيْهِ ؛ فَعَسَىٰ أَنْ يَرَاهُ مَنْ يَنِمُّ بِذَلِكَ ، فَتَفْتَضِحُ ٱلْحَبِيبَةُ وَتُؤْخَذُ مِنْهُ .

قَالَ : وَإِنَّ ٱلْقَيْصَرَةَ هِيَ تَحْتَاطُ أَيْضًا مِثْلَ ذَلِكَ فَتُرَاسِلُهُ كُلَّ يَوْمٍ بِٱللَّاسِلْكِيِّ رَسَائِلَ تَقَعُ مِنَ ٱلْجَوِّ فِي دِمَاغِهِ فَيَقْرَؤُهَا وَحْدَهُ ، وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا يَخَافُهُ أَنْ يَغْلِبَهَا جُنُونُ ٱلْحُبِّ يَوْمًا ، فَتَطِيشُ طَيْشَ ٱلْمَرْأَةِ، فَتَزُورُهُ فِي هَـٰذَا ٱلْمَارِسْتَانِ . . . . . فَقَدْ تُقْتَلُ إِذَا رَآهَا ٱلشُّيُوعِيُّونَ .

قَالَ ٱلدُّكْتُورُ : وَهَاكَ(١) (نَابِغَةٌ) آخَرُ ثَبَتَ فِي ذِهْنِهِ أَنَّ ٱمْرَأَةً مِنْ أَجْمَلِ ٱلنِّسَاءِ قَدْ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « هُنَاكَ » بَدَلًا مِنْ : « هَاكَ » .

ٱسْتَهَامَتْ بِهِ وَأَنَّهَا مُبْتَلَاةٌ فِي حُبِّهَا إِيَّاهُ بِجُنُونِ ٱلْغَيْرَةِ ، وَقَدْ تَنَاهَتْ فِيهِ حَتَّىٰ إِنَّهَا لَتَقْتُلُ نَفْسَهَا إِذَا عَلِمَتْ أَنَّ لِصَاحِبِهَا هَوًى فِي ٱمْرَأَةٍ أُخْرَىٰ . وَخَيَّلَتْهُ هَـٰذِهِ ٱلْفِكْرَةُ ، فَٱعْتَقَدَ أَنَّ حَبِيبَتَهُ مِنْ جُنُونِ غَيْرَتِهَا وَاقِعَةٌ بَيْنَ ٱلسَّلَامَةِ وَٱلتَّلَفِ ؛ ثُمَّ تَوَهَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ وَاشِيًا قَدْ أَعْلَمَهَا أَنَّ ٱلنِّسَاءَ ٱفْتَتَنَّ بِهِ ، فَطَارَ صَوَابُهَا ، فَهِيَ آتِيَةٌ إِلَيْهِ فِي ٱلْمَارِسْتَانِ لِتُوَبِّخَهُ وَتَشْفِيَ غَيْظَهَا مِنْهُ ، ثُمَّ تَنْتَحِرَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ . . . وَأَدَارَ (ٱلنَّابِغَةُ) ٱلْفِكْرَ فِي إِقْنَاعِهَا لِتَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا بِٱلْغَيْبِ . . . فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَىٰ مَقْنَعٍ تَسْتَيْقِنُ بِهِ ٱلْمَرْأَةُ أَنْ لَا أَرَبَ لِلنِّسَاءِ فِيهِ إِلَّا أَنْ . . . فَفَعَلَ وَجَبَّ خِصْيَتَيْهِ بِيَدِهِ لِيُقَدِّمَهُمَا بُرْهَانًا أَنَّهُ لَهَا وَحْدَهَا . . .

* * *

قُلْنَا : وَطَرِبَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) لِذِكْرِ صَوَاحِبِهِ وَجَمِيلَاتِهِ ، فَجَعَلَ يَتَرَنَّمُ بِهَـٰذَا ٱلشِّعْرِ [من البسيط] :

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَىٰ فَقُلْتُ لَهُمْ   مَا لَذَّةُ ٱلْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ

فَقَالَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : مَا لَذَّةُ « ٱلْخُبْزِ » إِلَّا لِلْمَجَانِينِ . . .

فَضَحِكَ (ٱلنَّابِغَةُ) : وَقَالَ : مَا أَسْخَفَكَ مِنْ أَحْمَقَ . إِذْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْمَعْنَىٰ فَقُلْ : مَا لَذَّةُ (ٱلْكَعْكِ). أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْأَبْلَهَ لَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةَ خُبْزٍ لَقَالَ: إِنَّهَا « ل . ح . م ». وَلَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةَ لَحْمٍ لَقَالَ : « ف . و . ل » . . .

إِنَّهُ طِفْلٌ عُمْرُهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً وَفِيهِ دَائِمًا غَضَبُ ٱلطِّفْلِ وَنَزَقُهُ وَحَمَاقَتُهُ ، وَفِيهِ كَذَلِكَ سُرُورُ ٱلطِّفْلِ وَطَيْشُهُ وَأَحْلَامُهُ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ عَقْلُ ٱلطِّفْلِ . . . وَهُوَ مِنَ ٱلضَّعْفِ ، وَشِدَّةِ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْعِنَايَةِ فِي حِيَاطَتِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَٱلْبِرِّ بِهِ كَطِفْلٍ صَغِيرٍ - بِحَيْثُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَحْيَانًا أَنَّنِي أُمُّهُ . . . .

قُلْنَا : وَتَنْسَىٰ بِهَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ أَنَّكَ رَجُلٌ ؟

قَالَ : وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ تَتَّهِمُونَنِي بِٱلنِّسْيَانِ ، وَهُوَ شَرْعًا جِهَةٌ مُلْزِمَةٌ لِلْحُكْمِ بِٱلْجُنُونِ . فَمَا ٱلنِّسْيَانُ إِلَّا ٱلْكَلِمَةُ ٱلْأُخْرَىٰ لِمَعْنَىٰ ضَعْفِ ٱلْعَقْلِ ؛ وَضَعْفُ ٱلْعَقْلِ هُوَ ٱللَّفْظُ ٱلآخَرُ لِمَعْنَىٰ جُنُونِي ؛ وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ مَا أَكْرَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ .

قُلْتُ : لَا ! [إِنَّ] ٱلنِّسْيَانَ لَا يَكُوْنُ مِنكَ نِسْيَانًا بِمَعْنَاهُ فِي ٱلْمَجَانِيْنِ ، بَلْ بِمَعْنَاهُ فِيْكَ أَنْتَ مِنْ تَوَاثُبِ ٱلْأَفْكَارِ ٱلنَّابِغَةِ وَتَزَاحُمِهَا فِي تَوَارُدِهَا عَلَىٰ ٱلْعَقْلِ . فَإِذَا تَوَاثَبَتْ وَتَزَاحَمَتْ كَانَ أَمْرُهَا إِلَىٰ أَنْ يُنْسِيَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَلَا يَنْطَلِقُ مِنْهَا إِلَّا ٱلْقَوِيُّ ٱلنَّابِغُ حَقَّ نُبُوْغِهِ ، فَيَجِيْءُ كَالْمُنْقَطِعِ مِمَّا قَبْلَهُ ؛ فَيُحْسَبُ ذَلِكَ نِسْيَانًا وَمَا هُوَ بِهِ . وَقَدْ تَصْطَلِحُ ٱلْأَفْكَارُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَعْرَكَةِ ٱلذِّهْنِيَّةِ إِذَا كَانَ ٱلنَّابِغَةُ مَسْرُوْرًا مَحْبُوْرًا يَرْقُصُ طَرَبًا . . . فَيَكُوْنُ أَمْرُهَا إِلَىٰ أَنْ تَجِيْءَ كُلُّهَا مَعًا عَلَىٰ ٱخْتِلَافِ مَعَانِيْهَا وَتَنَاقُضِهَا ؛ فَيُحْسَبُ ذَلِكَ ضَرْبًا مِنَ ٱلذُّهُوْلِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُ ٱلْعِلَّةَ « ٱلنُّبُوْغِيَّةَ » ؛ وَعُذْرُهُ جَهْلُ هَـٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ، وَهِيَ فِي دِلَالَةِ ٱلْعَقْلِ لَيْسَتْ نِسْيَانًا وَلَا ذُهُوْلًا .

قَالَ : فَأَعْلِمْنِي كَيْفَ نِسْيَانُ ٱلْمَجَانِيْنِ ، فَقَدْ خَفِيَ عَلَيَّ أَنْ أُدْرِكَ هَـٰذَا ٱلْأَمْرَ ٱلْعَجِيْبَ فِيْهِمْ ، وَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ يَفُوْتُهُمْ مَا ٱسْتَدْنَىٰ لَهُمْ مِنَ ٱلْفِكْرِ بَعْدَ أَنْ يَكُوْنَ قَدِ ٱسْتَقَرَّ وَحَصَلَ فِي عُقُوْلِهِمْ ؟

قُلْتُ : لَا يَكُوْنُ ٱلنِّسْيَانُ تُهْمَةً بِٱلْجُنُوْنِ إِلَّا فِي أَحْوَالٍ ثَلَاثٍ ، جَاءَتْ بِكُلِّهَا ٱلرِّوَايَةُ ٱلصَّحِيْحَةُ ٱلْمَحْفُوْظَةُ :

فَأَمَّا ٱلْأُوْلَىٰ : فَمَا يُرْوَىٰ عَنْ رَجُلٍ كَانَ سَرِيًّا غَنِيًّا وَعُمِّرَ حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ ٱلْخَرَفُ ؛ فَجَاءَهُ كَاتِبُهُ يَوْمًا يَسْتَعِيْنُهُ عَلَىٰ تَجْهِيْزِ أُمِّهِ وَقَدْ مَاتَتْ ، فَدَفَعَ إِلَىٰ غُلَامٍ لَهُ دَنَانِيْرَ يَشْتَرِي بِهَا كَفَنًا ، وَدَنَانِيْرَ أُخْرَىٰ يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَىٰ ٱلْقَبْرِ ، ثُمَّ قَالَ لِغُلَامٍ آخَرَ : ٱمْضِ إِلَىٰ صَاحِبِنَا وَغَاسِلِ مَوْتَانَا فُلَانٍ فَٱدْعُهُ يُغَسِّلُهَا .

قَالَ ٱلْكَاتِبُ : فَٱسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي ٱبْعَثْ خَلْفَ فُلَانَةَ وَهِيَ جَارَةٌ لَنَا تُغَسِّلُهَا . قَالَ : يَا فُلَانُ ! مَا تَدَعُ عَقْلَكَ فِي حُزْنٍ وَلَا فَرَحٍ . كَيْفَ تُدْخِلُ عَلَيْهَا مَنْ لَا نَعْرِفُهُ ؟

قَالَ ٱلْكَاتِبُ : نَعَمْ تَأْذَنُ بِذَلِكَ .

قَالَ : لَا وَٱللهِ مَا يُغَسِّلُهَا إِلَّا فُلَانٌ .

فَضَاقَ ٱلْكَاتِبُ بِهَـٰذَا ٱلْحُمْقِ وَقَالَ : يَا سَيِّدِي ! كَيْفَ يُغَسِّلُ رَجُلٌ ٱمْرَأَةً ؟

قَالَ : وَإِنَّمَا أُمُّكَ ٱمْرَأَةٌ . . . ؟ وَٱللهِ لَقَدْ أُنْسِيْتُ . . .

وَأَمَّا ٱلْحَالَةُ ٱلثَّانِيَةُ : فَمَا يُرْوَىٰ عَنْ رَجُلٍ كَانَ نَائِمًا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَخَرَجَتْ يَدُهُ مِنَ ٱلْفِرَاشِ فَبَرَدَتْ ، فَأَدْنَاهَا إِلَىٰ جَسَدِهِ وَهُوَ نَائِمٌ فَأَحَسَّ بَرْدَهَا فَأَيْقَظَتْهُ ، فَٱنْتَبَهَ فَزِعًا فَقَبَضَ عَلَيْهَا بِيَدِهِ ٱلْأُخْرَىٰ وَصَاحَ : ٱللُّصُوْصُ . ٱللُّصُوْصُ . . . هَـٰذَا ٱللِّصُّ قَدْ قَبَضْتُ عَلَيْهِ ، أَدْرِكُوْنِيْ لِئَلَّا تَكُوْنَ فِيْ يَدِهِ حَدِيْدَةٌ يَضْرِبُنِيْ بِهَا ، فَجَاؤُوْا بِٱلسِّرَاجِ ، فَوَجَدُوْهُ قَابِضًا بِيَدِهِ عَلَىٰ يَدِهِ وَقَدْ نَسِيَ أَنَّهَا يَدُهُ . . .

وَأَمَّا ٱلثَّالِثَةُ : فَهِيَ رِوَايَةٌ عَنْ رَجُلٍ قَدْ وَرِثَ نِصْفَ دَارٍ ، فَفَكَّرَ طَوِيْلًا كَيْفَ تَخْلُصُ ٱلدَّارُ كُلُّهَا لَهُ ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ إِلَىٰ ٱلْوَسِيْلَةِ ؛ فَذَهَبَ إِلَىٰ رَجُلٍ وَقَالَ لَهُ : أُرِيْدُ أَنْ أَبِيْعَكَ حِصَّتِي مِنَ ٱلدَّارِ وَأَشْتَرِيَ بِثَمَنِهَا ٱلنِّصْفَ ٱلْبَاقِيَ لِتَصِيْرَ ٱلدَّارُ كُلُّهَا لِي . . .

* * *

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : لَعَمْرِيْ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْجُنُوْنُ ، وَمَا يُذْكَرُ مَعَ هَـٰؤُلَاءِ مَجْنُوْنُ ٱلْمَتْنِ وَلَا « غَيْرُهُ » . . .

فَقَالَ ٱلْآخَرُ : تَٱللهِ لَوْلَا أَنَّ (نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) يَرْفَعُ نَفْسَهُ عَنِ ٱلْجُنُوْنِ لَجَاءَ فِي ٱلْجُنُوْنِ بِمَا يُذْهِلُ « ٱلْعُقُوْلَ » . . .

ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا ٱلنَّابِغَةُ يَتَحَفَّزُ لَهُ . . . ؛ فَأَسْرَعَ يَقُوْلُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » كُنْ حَذِرًا كَأَنَّكَ غِرٌّ ، وَكُنْ ذَاكِرًا كَأَنَّكَ نَاسٍ . فَهَـٰذَا هُوَ نِسْيَانُ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ ، نِسْيَانُ حُكَمَاءَ لَا نِسْيَانُ مَجَانِيْنَ .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : وَلَـٰكِنْ قَدْ فَسَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ [من البسيط] :

مَـا لَـذَّةُ ٱلْعَيْـشِ إِلَّا لِلْمَجَـانِيْـنِ

فَمَا بَقِيَتْ مَعَ ٱلْجُنُوْنِ لَذَّةٌ .

قُلْتُ : إِنَّ ٱلشَّاعِرَ لَا يُرِيْدُ ٱلْمَجَانِيْنَ ٱلَّذِيْنَ هُمْ مَجَانِيْنُ بِٱلْمَرَضِ ، وَإِنَّمَا يُرِيْدُ ٱلْعُشَّاقَ ٱلْمَجَانِيْنَ بِٱلْجَمَالِ ؛ وَجُنُوْنُ ٱلْعَاشِقِ فِي هَـٰذَا ٱلْبَابِ كَعُيُوْبِ ٱلْعُظَمَاءِ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَنِّ ، وَهِيَ عُيُوْبٌ تُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا بِحَسَنَاتِ ٱلْعَظَمَةِ ، فَلَيْسَتْ كَغَيْرِهَا مِنَ ٱلْعُيُوْبِ .

قَالَ : فَيَجِبُ أَنْ أَصْنَعَ بَيْتًا آخَرَ يُفَسِّرُ ذَلِكَ ٱلشِّعْرَ لِيَسْتَقِيمَ لِيَ ٱلتَّمَثُّلُ بِهِ ؛ ثُمَّ فَكَّرَ وَهَمْهَمَ ، ثُمَّ كَتَبَ فِي وَرَقَةٍ ثُمَّ طَوَاهَا وَقَالَ : ٱصْنَعْ أَنْتَ أَوَّلَ ، وَسَأَأْتَمِنُ « س . ع » عَلَى شِعْرِي . وَدَفَعَ إِلَيْهِ ٱلْوَرَقَةَ .

فَنَظَرْتُ وَقُلْتُ : يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلشِّعْرُ هَـٰكَذَا [من البسيط] :

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... مَا لَذَّةُ ٱلْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ
ٱلْعَقْلُ إِنْ حَكَمَ ٱلْعُشَّاقَ أَثْقَلُ مِنْ ... فَقْرٍ تَحَكَّمَ فِي رِزْقِ ٱلْمَسَاكِينِ

وَنَشَرَ « س . ع » . ٱلْوَرَقَةَ فَإِذَا فِيهَا :

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... مَا لَذَّةُ ٱلْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ
إِنَّ ٱلْعُيُوبَ عَنِ ٱلْمَجْنُونِ دَافِعَةٌ ... بِأَنَّهُ « نَابِغٌ فِي ٱلْقَرْنِ عِشْرِينِ » . . .

وَضَحِكْنَا جَمِيعًا ؛ فَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ : أَبْعَدَكَ ٱللهُ يَا « س . ع » . إِنَّ مَنِ ٱئْتَمَنَ ٱلْمَجْنُونَ عَلَى سِرٍّ وَقَالَ لَهُ : ٱكْتُمْهُ ؛ فَكَأَنَّمَا قَالَ لَهُ : ٱنْشُرْهُ . . .

* * *

ثُمَّ قَالَ : وَدِدْتُ وَٱللهِ أَنْ يَكُونَ « س . ع » هَـٰذَا « نَابِغَةً » ، وَلَـٰكِنِّي سَأَجْعَلُهُ نَابِغَةً ، فَقَدْ صَارَ لَهُ عَلَيَّ حَقُّ ٱلصَّدِيقِ وَهُوَ حَقٌّ لَا أُضَيِّعُهُ وَلَا أُخِلُّ بِهِ . فَإِذَا ٱحْتَجْتَ يَا « س . ع » إِلَى خِطَابٍ رَنَّانٍ تُلْقِيهِ فِي حَفْلٍ عَظِيمٍ ، أَوْ قَصِيدَةٍ تَمْدَحُ بِهَا وَزِيرَ ٱلْمَعَارِفِ ، فَٱلْجَأْ إِلَيَّ فَإِنِّي مَلْجَأٌ لَكَ . وَمَتَى ٱنْتَحَلْتَ شِعْرِي كُنْتَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَنَبِّيَ أَوِ ٱلْبُحْتُرِيَّ أَوِ ٱبْنَ ٱلرُّومِيِّ ، فَإِنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْقُدَامَى لَمْ يَنْفَعْهُمْ إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ ، وَلَمَّا لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ أَعْجَبُوا ٱلنَّاسَ إِذْ أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ . . .

قُلْنَا : فَمَا حُكْمُكَ عَلَيْهِمْ فِي ٱلْأَدَبِ ؟

قَالَ : إِذَا حَكَمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ ، فَمِنَ ٱلطَّبِيعِيِّ أَلَّا يُعْجِبَنِي مِنْهُمْ أَحَدٌ . إِنَّ « نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ » لَا يَقُولُ لِمَعْنًى هَـٰذَا أَحْسَنُ ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ ٱلْأَحْسَنِ ، وَلَا يَقُولُ عَنْ نَابِغَةٍ هَـٰذَا أَشْهَرُ ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ ٱلْأَشْهَرِ .

قُلْتُ : كَأَنَّ ٱلدُّنْيَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَأَنْتَ فِيهَا ٱلزَّاهِدُ ٱلْعَظِيمُ ٱلَّذِي لَا يَقُولُ فِي حُسْنٍ هَـٰذَا

أَحْسَنُ لِأَنَّهُ فَوْقَ ٱلشَّهْوَةِ ، وَلَا فِي نَعِيمٍ هَـٰذَا أَطْيَبُ لِأَنَّهُ فَوْقَ ٱلطَّمَعِ ، وَلَا فِي مَالٍ هَـٰذَا أَكْثَرُ لِأَنَّهُ فَوْقَ ٱلْحِرْصِ . وَأَحْسَبُكَ لَوْ كُنْتَ تَرْعَى غَنَمًا لَكُنْتَ ٱلْحَقِيقَ فِي عَصْرِنَا بِقَوْلِ تِلْكَ ٱلرَّاعِيَةِ ٱلزَّاهِدَةِ : أَصْلَحْتُ شَأْنِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْلَحَ بَيْنَ ٱلذِّئْبِ وَٱلْغَنَمِ .

قَالَ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قُلْتُ : حُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلصَّالِحِينَ أَنَّهُ فَكَّرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : يَا رَبِّ ! مَنْ زَوْجَتِي فِي ٱلْجَنَّةِ ؟ فَأُرِيَ فِي مَنَامِهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ أَنَّهَا جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ فِي أَرْضِ كَذَا . فَجَاءَ تِلْكَ ٱلْأَرْضَ فَسَأَلَ عَنِ ٱلْجَارِيَةِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : مَا هَـٰذَا ؟ تَسْأَلُ عَنْ جَارِيَةٍ سَوْدَاءَ مَجْنُونَةٍ كَانَتْ لِي فَأَعْتَقْتُهَا ؟ قَالَ : وَمَاذَا رَأَيْتُمْ مِنْ جُنُونِهَا ؟ قَالَ : كَانَتْ تَصُومُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا أَعْطَيْنَاهَا فُطُورَهَا تَصَدَّقَتْ بِهِ ، وَكَانَتْ لَا تَهْدَأُ ٱللَّيْلَ وَلَا تَنَامُ ، فَضَجِرْنَا مِنْهَا .

قَالَ : فَأَيْنَ هِيَ ؟ قَالَ : تَرْعَى غَنَمًا لِلْقَوْمِ فِي ٱلصَّحْرَاءِ .

فَذَهَبَ إِلَى ٱلصَّحْرَاءِ فَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ فِي صَلَاتِهَا ، وَنَظَرَ إِلَى ٱلْغَنَمِ فَإِذَا ذِئْبٌ يَدُلُّهَا عَلَى ٱلْمَرْعَى وَذِئْبٌ يَسُوقُهَا . فَلَمَّا فَرَغَتْ مِنْ صَلَاتِهَا سَلَّمَ عَلَيْهَا ، فَأَنْبَأَتْهُ أَنَّهُ زَوْجُهَا فِي ٱلْجَنَّةِ وَأَنْبَأَهَا أَنَّهُ بُشِّرَ بِهَا ؛ ثُمَّ سَأَلَهَا : مَا هَـٰذِهِ ٱلذِّئَابُ مَعَ ٱلْأَغْنَامِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ أَصْلَحْتُ شَأْنِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْلَحَ بَيْنَ ٱلذِّئْبِ وَٱلْغَنَمِ .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : هَـٰذَا كَذِبٌ لِأَنَّهُ عَجِيبٌ ، وَهُوَ عَجِيبٌ لِأَنَّهُ كَذِبٌ .

قُلْتُ : وَأَيُّ عَجِيبٍ فِي هَـٰذَا ؟ إِنَّ ٱلذِّئْبَ وَٱلشَّاةَ ، وَٱلْأَسَدَ وَٱلْغَزَالَ ، وَٱلثُّعْبَانَ وَٱلْعُصْفُورَ ، وَكُلَّ آكِلٍ وَمَأْكُولٍ مِنَ ٱلْأَحْيَاءِ ، لَوْ هِيَ دَخَلَتْ فِي دَائِرَةِ ٱلصَّلَاةِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ لَانْتَظَمَتْ كُلُّهَا صَفًّا وَاحِدًا يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ . فَهَـٰذِهِ ٱلْجَارِيَةُ نَشَرَتْ رُوحَ ٱلصَّلَاةِ وَٱلتَّقْوَى عَلَى كُلِّ مَا حَوْلَهَا مِنْ قَلْبِهَا ٱلطَّاهِرِ ٱلْمُطْمَئِنِّ بِٱلْإِيمَانِ ، فَوَقَعَ ٱلذِّئْبُ مِنْهَا فِي دَائِرَةٍ مِغْنَاطِيسِيَّةٍ ، فَسُلِبَ وَحْشِيَّتَهُ وَرَجَعَ مُسَخَّرًا لِفِكْرَةِ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْخَيْرِ إِذْ تَجَانَسَتْ فِيهِ ٱلْحَيَاةُ بِمَا حَوْلَهَا ، وَٱنْسَجَمَ ٱلنَّوْعُ وَٱلنَّوْعُ فِي حَرَكَةٍ مُتَجَاوِبَةٍ ٱنْسِجَامَ ٱلرَّجُلِ ٱلْمِغْنَاطِيسِيِّ هُوَ وَمَنْ يُنَوِّمُهُ فِي إِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ وَفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : فَإِذَا دَخَلَ ٱلذِّئْبُ مَسْجِدًا يَرْتَجُّ بِٱلْمُصَلِّينَ ، أَتُرَاهُ يَصُفُّ أَرْبَعَتَهُ وَيَقِفُ

بَيْنَهُمْ لِلصَّلَاةِ ، أَمْ يُصَلِّي صَلَاتَهُ ٱلذِّئْبِيَّةَ فِي لُحُومِهِمْ ؟

قُلْتُ : وَأَيْنَ هُمُ ٱلَّذِينَ يُصَلُّونَ بِحَقِيقَةِ ٱلصَّلَاةِ ، فَيَخْرُجُونَ بِهَا مِنَ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلْكَوْنِ ، وَمِنَ ٱلزَّمَنِ إِلَى ٱلْأَبَدِ ، وَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ إِلَى مُسَبِّبِهَا ، وَمِمَّا فِي ٱلْقَلْبِ إِلَى مَا فَوْقَ ٱلْقَلْبِ ؟ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ جَمِيعًا يُصَلُّونَ بِجَوَارِحِهِمْ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَرْوَاحِهِمْ طُولُ ٱلدُّنْيَا وَعَرْضُهَا ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يَتَّصِلُ فِكْرُهُ بِمَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ ، كَمَا يَتَّصِلُ فِكْرُ ٱللِّصِّ بِيَدِهِ ، وَفِكْرُ ٱلْعَاشِقِ بِعَيْنِهِ ، وَفِكْرُ ٱلطُّفَيْلِيِّ بِمَعِدَتِهِ . . . فَٱسْمُهَا عِنْدَهُمُ ٱلصَّلَاةُ ، وَحَقِيقَتُهَا عِنْدَ ٱللهِ كَمَا تَرَى .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : وَلَـٰكِنَّهُ ذِئْبٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ أَنْ يَأْكُلَ ٱلشَّاةَ لَا أَنْ يَرْعَاهَا ، فَلَا أَفْهَمُ شَيْئًا .

وَقَالَ ٱلْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » رَتَعَ ٱلذِّئْبُ فِي ٱلْغَنَمِ ، وَلَمْ يَقُولُوا صَلَّى ٱلذِّئْبُ فِي ٱلْغَنَمِ ، فَلَا أَفْهَمُ شَيْئًا .

قُلْتُ : سَأَزِيدُكُمَا عَدَمَ فَهْمٍ . . . إِنَّ قَلْبَ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلطَّاهِرَةِ مُتَّصِلٌ بِٱللهِ ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ طِبَاعِهَا ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَلَا ظِلٌّ مِنْ ظِلَالِ ٱلدُّنْيَا ؛ وَقَدْ تَجَلَّى فِيهِ سِرُّ ٱلْحَيَاةِ ، وَهُوَ ٱلسِّرُّ ٱلَّذِي لَا يَطْعَمُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَلْبَسُ وَلَا يَشْتَهِي وَلَا يَطْمَعُ فِي شَيْءٍ وَلَا يُحْرِزُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا طَبِيعَتُهُ أَشْوَاقُهُ ٱلْكَوْنِيَّةُ ، وَٱتِّصَالُهُ بِنَفَحَاتِ ٱلْقُوَّةِ ٱلْأَزَلِيَّةِ ٱلْمُسَخِّرَةِ لِلْوُجُودِ كُلِّهِ . فَٱنْتَشَرَتْ هَـٰذِهِ ٱلْمَوْجَةُ ٱلْكَهْرَبَائِيَّةُ ٱلْأَثِيرِيَّةُ حَوْلَ ٱلْجَارِيَةِ مِنْ قَلْبِهَا ، وَجَاءَ ٱلذِّئْبُ فَٱلْتَجَّ فِيهَا وَغَمَرَتْهُ ٱلرُّوحَانِيَّةُ ٱلْغَالِبَةُ ، فَإِذَا هُوَ يَفْتَحُ عَيْنَهُ عَلَى كَوْنٍ غَرِيبٍ قَدْ تَجَلَّى ٱلسَّلَامُ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا قُوَّةٌ آمِرَةٌ أَمْرَهَا بِٱئْتِلَافِ كُلِّ شَيْءٍ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَٱجْتِمَاعِ ٱلْمُتَنَافِرِينَ فِي حَالَةٍ مَعْرُوفَةٍ لَا فِي حَالَةِ إِنْكَارٍ . فَصَارَ ٱلذِّئْبُ مُسْتَيْقِظًا ، وَلَـٰكِنَّهُ فِي رُوحِ ٱلنَّوْمِ ، وَشُلَّتْ فِيهِ ٱلذِّئْبِيَّةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ ، فَإِذَا هُوَ يَحْمِلُ ٱلْأَنْيَابَ وَٱلْأَظَافِرَ وَقَدْ أُنْسِيَ ٱسْتِعْمَالَهَا ؛ وَبَقِيَتْ حَرَكَتُهُ ٱلْحَيَوَانِيَّةُ ، وَلَـٰكِنْ تَعَطَّلَتْ بَوَاعِثُهَا فَبَطَلَ مَعْنَاهَا .

وَمِنْ كُلِّ ذَلِكَ ٱخْتَفَى ٱلذِّئْبُ ٱلَّذِي هُوَ فِي ٱلذِّئْبِ ، وَبَقِيَ ٱلْحَيَوَانُ حَيًّا كَكُلِّ ٱلْأَحْيَاءِ ، فَنَاسَبَ ٱلشَّاةَ وَفَزِعَ إِلَيْهَا إِذْ لَمْ تَكُنِ[1] ٱلْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا عَلَاقَةَ جِسْمِ ٱلْآكِلِ بِجِسْمِ ٱلْأَكِيلَةِ ، بَلْ

(١) ٱلْأَصْلُ : « تَعُدْ » بَدَلًا مِنْ : « تَكُنْ » .

عَلَاقَةَ ٱلرُّوحِ ٱلْحَيِّ بِرُوحٍ حَيٍّ مِثْلِهِ[1] .

* * *

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : أَمَّا أَنَا ، فَقَدْ فَهِمْتُ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا ٱلْمَجْنُونَ لَمْ يَفْهَمْ . ٱكْتُبْ يَا « س . ع » : جَلَسَ نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ مَجْلِسَهُ لِلْفَلْسَفَةِ عَلَى غَيْرِ إِعْدَادٍ وَلَا تَمَكُّنٍ ، وَبِدُونِ كُتُبٍ ٱلْبَتَّةَ . . . وَكَانَ هَـٰذَا أَجْمَعَ لِرَأْيِهِ وَأَذْهَنَ لَهُ وَأَدْعَى لِأَنْ يَتَوَفَّرَ عَلَى ٱلْإِمْلَاءِ بِكُلِّ « مَوَاهِبِهِ ٱلْعَقْلِيَّةِ » ؛ وَلَمَّا أَنْ فَكَّرَ ٱلنَّابِغَةُ وَأَعْطَى ٱلنَّظَرَ حَقَّهُ وَجَمَعَ فِي عَقْلِهِ ٱلْفَذِّ جَزَالَةَ ٱلرَّأْيِ إِلَى قُوَّةِ ٱلتَّفَنُّنِ وَٱلِابْتِكَارِ ، قَالَ مُرْتَجِلًا : إِنَّ فَلْسَفَةَ ٱلذِّئْبِ وَٱلشَّاةِ حِينَ لَمْ يَأْكُلْهَا وَلَمْ تَنْطَحْهُ ، هِيَ بِٱلنَّصِّ وَبِٱلْحَرْفِ كَمَا قَالَ أُسْتَاذُ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ . . .

(حَاشِيَةٌ) : وَإِنَّ مَجْنُونَ ٱلْمَتْنِ لَمْ يَفْهَمْ هَـٰذِهِ ٱلْفَلْسَفَةَ .

فَٱمْتَعَضَ ٱلْآخَرُ وَقَالَ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » [من البسيط] :

وَبَاتَ يَقْدَحُ طُولَ ٱللَّيْلِ فِكْرَتَهُ   وَفَسَّرَ ٱلْمَاءَ بَعْدَ ٱلْجُهْدِ بِٱلْمَاءِ

فَقَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : وَيْلَكَ يَا أَبْلَهُ ! أَمَا وَٱللهِ لَوْ كُنْتَ نِفْطَوَيْهِ أَوْ سِيبَوَيْهِ لَمَا كُنْتَ عِنْدِي إِلَّا جَحْشَوَيْهِ أَوْ بَغْلَوَيْهِ . . .

(١) رَوَتِ ٱلصُّحُفُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ قِصَّةَ حَاكِمٍ إِنْكِلِيزِيٍّ كَانَ قَدِ ٱقْتَنَصَ ذِئْبًا هِنْغَارِيًّا وَشَدَّهُ فِي سِلْسِلَةٍ وَجَعَلَهُ فِي حَدِيقَةِ دَارِهِ إِلَى أَنْ يَرَى فِيهِ رَأْيًا ؛ وَكَانَ لِلْحَاكِمِ طِفْلٌ صَغِيرٌ أَعْجَبَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَنْظَرُهُ ٱلْوَحْشِيُّ ، فَتَرَبَّصَ إِلَى ٱللَّيْلِ ، فَلَمَّا ٱسْتَثْقَلَ أَهْلُهُ نَوْمًا ٱنْسَلَّ مِنْ حُجْرَتِهِ وَهَبَطَ ٱلْحَدِيقَةَ وَجَاءَ إِلَى ٱلذِّئْبِ فَوَثَبَ هَـٰذَا يَتَحَفَّزُ لِٱفْتِرَاسِهِ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلطِّفْلَ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ مَعْنَى هَـٰذِهِ ٱلْوَحْشِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلذِّئْبَ كَٱلْكَلْبِ فَلَمْ يَضْطَرِبْ وَلَمْ يَخَفْ وَلَمْ يُدَاخِلْهُ ٱلشَّكُّ ؛ وَمَضَى إِلَى ٱلْوَحْشِ مَسْرُورًا مُطْمَئِنًّا فَتَنَاوَلَهُ مِنْ شَعْرِهِ وَجَعَلَ يَمْسَحُهُ بِيَدَيْهِ ٱلصَّغِيرَتَيْنِ وَيَعْبَثُ بِهِ ، وَٱلذِّئْبُ مَذْهُوشٌ ذَاهِلٌ ، ثُمَّ سَكَنَ وَٱسْتَأْنَسَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ مَعَ جَرْوٍ مِنْ أَجْرَائِهِ لَا مَعَ طِفْلٍ آدَمِيٍّ ؛ وَجَذَبَهُ ٱلطِّفْلُ مِنْ رَقَبَتِهِ حَتَّى أَضْجَعَهُ ثُمَّ ٱتَّخَذَهُ وِسَادَةً وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى ظَهْرِهِ وَنَامَ . . . وَٱفْتَقَدَتِ ٱلطِّفْلَ مُرَبِّيَتُهُ فَلَمْ تَجِدْهُ فِي فِرَاشِهِ ، فَنَبَّهَتْ أَهْلَهُ ، وَذَهَبُوا يَبْحَثُونَ عَنْهُ فِي غُرَفِ ٱلدَّارِ ، ثُمَّ نَزَلُوا إِلَى ٱلْحَدِيقَةِ فَبَصُرُوا بِهِ نَائِمًا وَرَأْسُهُ عَلَى ٱلذِّئْبِ ، وَخَافُوا إِزْعَاجَ ٱلْوَحْشِ فَرَمَوْهُ بِٱلرَّصَاصِ فَقَتَلُوهُ وَقَامَ ٱلطِّفْلُ يَبْكِي عَلَى صَدِيقِهِ ٱلْوَفِيِّ . . .

هَـٰذَا هُوَ أَثَرُ ٱلرُّوحِ ٱلْمُطْمَئِنَّةِ ٱلْمَاضِيَةِ عَلَى يَقِينِهَا ، وَلَـٰكِنْ أَيْنَ مِثْلُ هَـٰذَا ٱلْيَقِينِ فِي مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ ؟ وَكُلُّ مُرَوِّضِي ٱلْوَحْشِ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَوَّلَ وَآخِرَ مَا يُخِيفُونَهَا بِهِ هُوَ نَزْعُ ٱلْخَوْفِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ هَـٰذَا هُوَ وَحْدَهُ سِلَاحُ ٱلنَّفْسِ فِي ٱلنَّفْسِ .

لَقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ ٱلْكَلَامَ فِي تِلْكَ ٱلْفَلْسَفَةِ طَرِيقًا نَزِهًا جَمِيلًا حَفَّتْهُ ٱلْأَشْجَارُ وَٱلْأَزْهَارُ عَنْ جَانِبَيْهِ، وَٱنْدَفَعَتْ فِي سَوَائِهِ (تُمْبِيلَاتُ) [أَيْ: سَيَّارَاتُ] ٱلْأَفْكَارِ خَاطِفَةً كَٱلْبَرْقِ. فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ أَنْتَ ٱنْتَهَيْنَا مِنْ سَخَافَتِكَ إِلَىٰ طَرِيقٍ حَجَرِيٍّ تُقَعْقِعُ فِيهِ عَرَبَاتُ ٱلنَّقْلِ تَجُرُّهَا ٱلْبِغَالُ ٱلْبَطِيئَةُ.

فَقَالَ ٱلْآخَرُ وَهُوَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ: مَا أَرَدْتُ وَٱللهِ مَسَاءَتَكَ، وَلَوْ أَرَدْتُهَا لَقُلْتُ: وَفَسَّرَ ٱلْمَاءَ بَعْدَ ٱلْجُهْدِ بِٱلسبرتو [أَيْ: ٱلْكُحُول]... فَهَـٰذَا هُوَ ٱلْخَطَأُ، أَمَّا تَفْسِيرُ ٱلْمَاءِ بَعْدَ ٱلْجُهْدِ بِٱلْمَاءِ فَهُوَ صَحِيحٌ.

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ): وَلَـٰكِنَّهُ تَفْسِيرٌ مُفْرِطُ ٱلسُّقُوطِ كَتَفْسِيرِ ٱلْمَجَانِينِ، فَهُوَ يَقُولُ: إِنِّي مَجْنُونٌ.

قُلْتُ: كَلَّا، إِنَّ تَفْسِيرَ ٱلْمَجَانِينِ يَكُونُ عَلَىٰ غَيْرِ هَـٰذَا ٱلْوَجْهِ، كَٱلَّذِي حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِآخَرَ: ضَرَبْنَا ٱلسَّاعَةَ زِنْدِيقًا. قَالَ ٱلْآخَرُ: وَأَيُّ شَيْءٍ ٱلزِّنْدِيقُ؟ قَالَ: ٱلَّذِي يُقَطِّعُ ٱلْمَزِّيقَا. قَالَ: وَكَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ يُقَطِّعُ ٱلْمَزِّيقَا؟

قَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ ٱلتِّينَ بِٱلْخَلِّ ......

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْمَجْنُونُ (*)
٦
تَتِمَّةٌ

وَطَالَ ٱلْمَجْلِسُ بِنَا وَبِٱلْمَجْنُونَيْنِ، وَٱلْكَلَامُ عَلَىٰ أَنْحَائِهِ يَنْدَفِعُ مِنْ وَجْهٍ إِلَىٰ وَجْهٍ، وَيَمُرُّ فِي مَعْنًى إِلَىٰ مَعْنًى؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أَبْلُغَ بِهِ إِلَىٰ ٱلْغَايَةِ ٱلَّتِي جَمَعْتُ مِنْ أَجْلِهَا بَيْنَ هَـٰذَيْنِ ٱلْمَجْنُونَيْنِ، بَعْدَ مَا ٱنْطَلَقْنَا فِي ٱلْقَوْلِ وَٱنْفَتَحَ ٱلْقُفْلُ ٱلْمَوْضُوعُ عَلَىٰ عَقْلِ كُلٍّ مِنْهُمَا.

وَكَانَ قَدْ مَرَّ فِي ٱلنَّدِيِّ بَائِعُ رِوَايَاتٍ مُتَرْجَمَةٍ « بُولِيسِيَّةٍ وَغَرَامِيَّةٍ وَلُصُوصِيَّةٍ! » يَحْمِلُ ٱلرَّجُلُ مِنْهَا مَزْبَلَةَ أَخْلَاقٍ أُورُبِّيَّةٍ كَامِلَةٍ لِيَنْفُضَهَا فِي نُفُوسِ ٱلْأَحْدَاثِ مِنْ فِتْيَانِنَا وَفَتَيَاتِنَا،

(*) « الرسالة » العدد: ١٣٠، ٤ شوال سنة ١٣٥٤ هـ = ٣٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٥ م، السنة الثالثة، الصفحات: ٢٠٨٣ ـ ٢٠٨٧.

فَقُلْتُ (لِنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ): أَتَقْرَأُ ٱلرِّوَايَاتِ؟

قَالَ: لَا، إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ثُمَّ لَمْ أُعَاوِدْ، إِذْ جَعَلَتْنِي ٱلرِّوَايَةُ رِوَايَةً مِثْلَهَا.

قُلْنَا: هَـٰذَا أَعْجَبُ مَا مَرَّ بِنَا مُنْذُ ٱلْيَوْمِ، فَكَيْفَ صِرْتَ رِوَايَةً؟

قَالَ: أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ طَبِيعَةَ ٱلنَّوَابِغِ، إِذْ لَيْسَ لَكُمْ حِسُّهُمُ ٱلْمُرْهَفُ، وَلَا طَبْعُهُمُ ٱلْمُسْتَحْكِمُ، وَلَا خَصَائِصُهُمُ ٱلْغَيْبِيَّةُ، وَلَا خَوَاطِرُهُمُ ٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِمَا فَوْقَ ٱلطَّبِيعَةِ.

قُلْتُ: نَعَمْ أَعْرِفُ ذَلِكَ؛ وَمَا مِنْ (نَابِغَةٍ) إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ عَالَمَيْنِ عَلَىٰ طَرَفٍ مِمَّا هُنَا وَطَرَفٍ مِمَّا هُنَاكَ، فَهُوَ خَرَّاجٌ وَلَّاجٌ بَيْنَ ٱلْعَالَمَيْنِ؛ وَلَهُ نَفْسٌ مُرَكَّبَةٌ تَرْكِيبَهَا عَلَىٰ نَوَامِيسَ مَعْرُوفَةٍ وَأُخْرَىٰ مَجْهُولَةٍ؛ فَهِيَ تَأْخُذُ مِنَ ٱلظَّاهِرِ وَٱلْبَاطِنِ مَعًا، وَيَحْصُرُهَا ٱلْمَكَانُ مَرَّةً وَيُفْلِتُهَا مَرَّةً، وَتَكُونُ أَحْيَانًا فِي زَمَانِ ٱلْأَرْضِ، وَأَحْيَانًا فِي زَمَنِ ٱلْكَوَاكِبِ مِنَ ٱلْقَمَرِ فَصَاعِدًا... وَلَـٰكِنْ...

فَقَطَعَ عَلَيَّ وَقَالَ: أَضِفْ إِلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْعُقُولَ ٱلَّتِي تَحْصُرُ مَنْ يُسَمُّونَهُمُ ٱلْعُقَلَاءَ فِي ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ، لَا تُوجِدُ أَهْلَهَا إِلَّا ٱلْهُمُومَ وَٱلْأَحْزَانَ، وَٱلْمَطَامِعَ ٱلسَّافِلَةَ، وَٱلْأَفْعَالَ ٱلدَّنِيئَةَ، فَإِنَّهُمْ يَعِيشُونَ فَوْقَ ٱلتُّرَابِ.

قُلْتُ: نَعَمْ، وَإِذَا عَاشُوا فَوْقَ ٱلتُّرَابِ فَبِٱضْطِرَارٍ أَنْ تَكُونَ مَعَانِي ٱلتُّرَابِ فَوْقَهُمْ وَتَحْتَهُمْ وَمِنْ حَوْلِهِمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَلَيْسُوا يَقْطَعُونَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ إِلَّا عُمْرًا تُرَابِيًّا فِي كُلِّ مَعَانِيهِ وَلَـٰكِنْ...

قَالَ: وَزِدْ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُقَيَّدُونَ تَقْيِيدَ ٱلْمَجَانِينِ، غَيْرَ أَنَّ حِبَالَهُمْ وَسَلَاسِلَهُمْ عَقْلِيَّةٌ غَيْرُ مَنْظُورَةٍ؛ وَبِتَغْلِيلِهِمْ تَغْلِيلَ ٱلْمَجَانِينِ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ عُقَلَاءَ، وَأَعْقَلُهُمْ أَثْقَلُهُمْ قُيُودًا، وَهَـٰذَا مِنَ ٱلْغَرَابَةِ كَمَا تَرَىٰ.

قُلْتُ: نَعَمْ، أَمَّا ٱلْعُقَلَاءُ بِحَقِيقَةِ ٱلْعَقْلِ، فَهُمُ ٱلَّذِينَ يَضْحَكُونَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، إِذْ كَانُوا فِي حَالٍ كَحَالِ ٱلْمُنْطَلِقِ مِنَ ٱلْمُقَيَّدِ، وَفِي مَوْضِعٍ كَمَوْضِعِ ٱلْمُعَافَىٰ مِنَ ٱلْمُبْتَلَىٰ. وَلَـٰكِنْ...

قَالَ: وَفَوْقَ هَـٰذَا وَذَاكَ، إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ ٱلسَّعَادَةَ، إِذْ لَيْسَ لَهُمُ ٱلْعَقْلُ ٱلضَّاحِكُ

ٱلسَّاحِرُ ٱلْعَابِثُ ٱلَّذِي خُصَّ بِهِ ٱلنَّوَابِغُ وَكَانَ ٱلْأَوْحَدُ فِيهِ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) .

قُلْتُ : نَعَمْ ، وَإِذَا مَلَكُوا ٱلسَّعَادَةَ لَمْ يَشْعُرُوا بِهَا ؛ أَمَّا (ٱلنَّوَابِغُ) فَقَدْ لَا يَمْلِكُونَهَا ، وَلَـٰكِنْ لَا يَفُوتُهُمُ ٱلشُّعُورُ بِهَا أَبَدًا فَيَجِيئُهُمُ ٱلْفَرَحُ مِنْ أَسْبَابِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَسْبَابِهِ مَا دَامَ لَهُمُ ٱلْعَقْلُ ٱلضَّاحِكُ ٱلسَّاحِرُ ٱلْعَابِثُ ٱلَّذِي دَأْبُهُ أَبَدًا أَنْ يَنْسَىٰ لِيَضْحَكَ ، وَلَا قَانُونَ لَهُ إِلَّا إِرَادَةُ صَاحِبِهِ ، عَلَىٰ مَشِيئَةِ صَاحِبِهِ ، لِمَنْفَعَةِ صَاحِبِهِ . وَلَـٰكِنْ . . .

قَالَ : وَٱلَّذِي هُوَ أَهَمُّ مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ ؛ أَنَّ أَعْظَمَ خَصَائِصِ هَـٰذَا ٱلْعَقْلِ ٱلضَّاحِكِ ٱلسَّاحِرِ ٱلْعَابِثِ أَنْ يَطْرُدَ عَنْ صَاحِبِهِ مَا لَا يُحِبُّ وَيُجَنِّبَهُ أَنْ يَخْسَرَ شَيْئًا مِنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ لِذَٰلِكَ يَجْعَلُ حِسَابَهُ مَعَ ٱلْأَشْيَاءِ حِسَابًا يَهُودِيًّا لَابُدَّ فِيهِ مِنْ رِبْحِ خَمْسِينَ فِي ٱلْمِئَةِ . . . . .

قُلْتُ : نَعَمْ ، وَهُوَ دَائِمًا كَالطِّفْلِ ؛ وَمَا أَظْرَفَ بَلَاهَةَ ٱلطِّفْلِ وَمَا أَجْدَاهَا عَلَيْهِ ، إِذْ يَضَعُ بَلَاهَتَهُ دَائِمًا فِي أَرْوَاحِ ٱلْأَشْيَاءِ وَأَسْرَارِهَا ، فَتَخْرُجُ بَلْهَاءَ مِثْلَهُ ، وَتَنْقَلِبُ لَهُ ٱلدُّنْيَا كَأَنَّهَا أُمٌّ تُضَاحِكُ ٱبْنَهَا وَتُلَاعِبُهُ . وَلَـٰكِنْ . . .

قَالَ : وَلَـٰكِنْ هَـٰذَا مَبْلَغٌ لَا تَبْلُغُهُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ إِلَّا شُذُوذًا فِي أَفْرَادِهَا مِنْ جَبَابِرَةِ ٱلْعُقُولِ (كَنَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) .

قُلْتُ : نَعَمْ (وَلَـٰكِنْ) كَيْفَ صَارَ (نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) رِوَايَةً(١) حِينَ قَرَأَ ٱلرِّوَايَةَ !

قَالَ : هَـٰذِهِ نُكْتَةُ ٱلنُّبُوغِ ؛ فَلَوْ أَنَّ مُؤَلِّفَهَا كَانَ نَابِغَةً مِثْلَنَا يَتَلَقَّىٰ فِي نَفْسِهِ وَحْيَ ٱلْأَثِيرِ وَإِشَارَاتِ ٱلرُّوحِ ٱلْأَعْظَمِ ؛ لَعَلِمَ مِنَ ٱلْغَيْبِ أَنَّ (نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ) سَيَقْرَأُ رِوَايَتَهُ ، فَكَانَ يَتَحَرَّىٰ مَعَانِيَ غَيْرَ مَعَانِيهِ ، وَيَتَوَخَّىٰ بِهَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ وَضْعًا(٢) آخَرَ لَا تَكُونُ فِيهِ حَبِيبَةٌ خَائِنَةٌ ، وَلَا لِصٌّ عَارِمٌ ، وَلَا قَاتِلٌ سَفَّاحٌ ، وَلَا سِجْنٌ مُظْلِمٌ ، وَلَا مَحْكَمَةٌ تَقُولُ حَيْثُ وَحَيْثُ . . .

قُلْتُ : وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حَبِيبَةٍ خَائِنَةٍ فِي ٱلْوَرَقِ ، وَلِصٍّ بَيْنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْمَطْبَعِيَّةِ ، وَقَاتِلٍ لَا يَقْتُلُ إِلَّا كَلَامًا ، وَسِجْنٍ وَمَحْكَمَةٍ عَلَى ٱلصَّحِيفَةِ لَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ؟

قَالَ : هَـٰذِهِ نُكْتَةُ ٱلنُّبُوغِ ، فَمَا ٱسْتَوْعَبْتُ ٱلْقِصَّةَ حَتَّىٰ عَمَرَتْنِي أَشْخَاصُهَا ، وَأَقْحَمْتُ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « رَاوِيَةً » بَدَلًا مِنْ : « رِوَايَةً » .
(٢) فِي ٱلْأَصْلِ : « وَصْفًا » بَدَلًا مِنْ : « وَضْعًا » .

مِنْهَا عَلَىٰ هَوْلٍ هَائِلٍ ، فَخَانَتْنِي ٱلْخَائِنَةُ لَعَنَهَا ٱللهُ . . . وَلَوْلَا خَوْفُ ٱلسِّجْنِ وَٱلْمَحْكَمَةِ لَقَتَلْتُهَا أَشْنَعَ قِتْلَةٍ وَمَثَّلْتُ بِهَا أَقْبَحَ تَمْثِيلٍ . وَيْحَ ٱلْخَائِنَةِ كَيْفَ ٱسْتَمَالَهَا ذَٰلِكَ ٱلدَّمِيمُ ٱلطَّوِيلُ ٱلْعِمْلَاقُ ٱلْمَشْبُوحُ ٱلْعِظَامِ ٱلْمَفْتُولُ ٱلْعَضَلِ ؟ وَلَـٰكِنَّنِي لَسْتُ عِمْلَاقًا وَلَا مَبْنِيًّا بِنَاءَ ٱلْحَائِطِ ، ثُمَّ كَانَ مَجْنُونًا بِشَهَوَاتِهِ جُنُونَ ٱلْفِيلِ ٱلْهَائِجِ ، وَكُنْتُ فِي شَهَوَاتِي عَاقِلًا عَقْلَ ٱلْإِنْسَانِ ، ثُمَّ كَانَ غَنِيًّا غِنَى ٱلْجُهَّالِ ، وَكُنْتُ فَقِيرًا فَقْرَ ٱلْعُلَمَاءِ . وَٱلنِّسَاءُ ؛ قَبَّحَ ٱللهُ ٱلنِّسَاءَ . إِنَّهُنَّ زِينَةٌ تَطْلُبُ زِينَةً مِثْلَهَا . وَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ لَتَمْنَحُ وَجْهَهَا لِلْقِرْدِ يُقَبِّلُهُ إِذَا كَانَ ٱلذَّهَبُ يَتَسَاقَطُ مِنْ قُبُلَاتِهِ . أَمَّا مَنْ كَانَ مِثْلِي ، أَمْوَالُهُ ٱلشَّبَابُ وَٱلْجَمَالُ وَٱلْعَقْلُ وَٱلنُّبُوغُ ، فَهُوَ مُفْلِسٌ عِنْدَهُنَّ إِفْلَاسَ ٱلْقِرْدِ فِي ٱلْغَابَةِ ، فَهُوَ عِنْدَهُنَّ قِرْدٌ لِهَـٰذِهِ ٱلْمُشَابَهَةِ .

قُلْتُ : هَـٰذَا لَيْسَ عَجِيبًا فَإِنَّ ٱللُّغَوِيِّينَ يُجْرُونَ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱسْمَ مَا يُقَارِبُهُ فِي ٱلْمَعْنَىٰ .

قَالَ ٱلْمَجْنُونُ ٱلْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » أَنَّ ٱللُّغَوِيِّينَ يُجْرُونَ عَلَى ٱلشَّيْءِ مَا يُقَارِبُهُ فِي ٱلْمَعْنَىٰ . . .

فَتَرَبَّدَ وَجْهُ (ٱلنَّابِغَةِ) غَضَبًا وَقَالَ : أَبِي يَلْعَبُ هَـٰذَا ٱلْمَجْنُونُ ؟ إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّ ٱللُّغَوِيِّينَ يُسَمُّونَنِي قِرْدًا ، فَهَاتُوا ٱلْقَوَامِيسَ [أَيْ : ٱلْمَعَاجِمَ] كُلَّهَا وَٱرْجِعُوا إِلَىٰ مَادَّةِ (قِرْد) وَمَادَّةِ (نَابِغَة) . . . سَوْأَةً عَلَيْكَ أَيُّهَا ٱلصَّبِيُّ ٱلْمُعَمَّرُ . . . أَلَا فَدَعُونِي أُؤَدِّبُهُ أَدَبَ ٱلصِّبْيَانِ ، فَإِنَّ ٱللَّطْمَةَ ٱلْقَوِيَّةَ عَلَىٰ وَجْهِ ٱلطِّفْلِ ٱلْمُكَابِرِ فِي حَقِيقَةٍ ، تُلْمِسُهُ ٱلْحَقِيقَةَ ٱلَّتِي يُكَابِرُ فِيهَا إِذْ تُدْخِلُهَا إِلَىٰ عَقْلِهِ مِنْ أَقْرَبِ طَرِيقٍ . . .

قَالَ « أ . ش » : أَنْتَ قُلْتَ ، لَا هُوَ . عَلَىٰ أَنَّكَ لَسْتَ قِرْدًا أَبَدًا إِلَّا عِنْدَ ٱمْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ فَاتِنَةٍ مُتَخَيِّلَةٍ مُتَمَاجِنَةٍ ، قَدْ تَضَعُ ٱلْبَرْذَعَةَ عَلَىٰ ظَهْرِ ٱلْأَمِيرِ وَتَجْعَلُهُ حِمَارَهَا ، فَيُعْجِبُ ٱلْأَمِيرَ أَنْ يَكُونَ حِمَارَهَا . وَلَسْتَ قِرْدًا مَعَ قِرَادٍ إِلَىٰ جَانِبِ عَنْزٍ وَكَلْبٍ . . .

قَالَ : ٱلْآنَ عَلِمْتُ ٱلسَّبَبَ ، فَإِنَّ ٱلْخَائِنَةَ كَانَتْ مُتَخَيِّلَةً مُؤَلِّفَةً كُتُبٍ وَرِوَايَاتٍ ، وَٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِي تُؤَلِّفُ ٱلْكُتُبَ، غَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ تُؤَلِّفَ ٱلرَّجُلَ أَيْضًا ، وَتَجْعَلَهُ قِصَّةً { هُوَ } فِيهَا قِرْدٌ . . . وَهَـٰذَا إِذَا كَانَتْ جَمِيلَةً كَٱمْرَأَةِ ٱلرِّوَايَةِ . أَمَّا إِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً مَجْمُوعَةً مِنَ ٱلْمُتَنَاقِضَاتِ ، أَوْ عَجُوزًا مَجْمُوعَةً مِنَ ٱلسِّنِينَ ؛ فَهَـٰذِهِ وَهَـٰذِهِ كُلُّ أَيَّامِهَا كَيَوْمِ ٱلْأَحَدِ عِنْدَ ٱلنَّصَارَىٰ . . . يَوْمٌ لِلْعُطْلَةِ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا شِرَاءٌ وَلَا مُسَاوَمَةٌ . هَـٰذِهِ وَهَـٰذِهِ كِلْتَاهُمَا تَجْعَلُ ٱلرَّجُلَ كَٱلْمَاءِ فِي سَبِيلِ ٱلتَّجَمُّدِ . . . لَا يَشْتَعِلُ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسْتَعِرَ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَحْتَرِقَ.

وَمُؤَلِّفَةُ ٱلْكُتُبِ لَا يَكُوْنُ وَجْهُهَا إِلَّا إِحْدَىٰ وَثِيْقَتَيْنِ : فَإِمَّا جَمِيْلَةٌ ، فَوَجْهُهَا وَثِيقَةٌ بِأَنَّ لَهَا دُيُونًا عَلَىٰ ٱلرِّجَالِ ؛ وَإِمَّا غَيْرُ جَمِيْلَةٍ ، فَوَجْهُهَا (مُخَالَصَةٌ) مِنْ كُلِّ ٱلدُّيُوْنِ . . .

قُلْنَا : هَـٰذَا فِي ٱلْخَائِنَةِ ، فَكَيْفَ سَرَقَكَ ٱللِّصُّ وَلَسْتَ غَنِيًّا ؟

قَالَ : هَـٰذِهِ هِيَ نُكْتَةُ ٱلنُّبُوْغِ ؛ وَفِي ٱلنُّبُوْغِ أَشْيَاءُ لَا يَنْكَشِفُ تَفْسِيرُهَا ، وَلَيْسَ فِي جَهْلِهَا مَضَرَّةٌ عَلَىٰ أَحَدٍ ، وَجَهْلٌ لَا يَضُرُّ هُوَ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ ، لَـٰكِنَّهُ عِلْمٌ . وَٱلْبَحْثُ فِي بَعْضِ أَعْمَالِ (ٱلنَّابِغَةِ) هُوَ كَٱلْبَحْثِ عَنْ سِرِّ ٱلْحَيَاةِ فِيْهِ ، إِذْ يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ تِلْكَ بِسِرِّ ٱلْحَيَاةِ لَا بِسِرِّ ٱلْعَقْلِ ، أَيْ : بِٱلْعَقْلِ ٱلْخَاصِّ بِهِ وَحْدَهُ لَا بِٱلْعَقْلِ ٱلطَّبِيْعِيِّ ٱلْمُشْتَرَكِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ .

* * *

قُلْتُ : وَمِنْ عَجَائِبِكَ أَنَّكَ لَا تَقْرَأُ ٱلرِّوَايَاتِ ، وَلَـٰكِنَّكَ مَعَ ذُلِكَ تُؤَلِّفُهَا . . .

قَالَ : إِنَّ ذُلِكَ لَيَكُوْنُ ، وَإِنْ لَمْ أُؤَلِّفْهَا أَنَا تَأَلَّفَتْ هِيَ لِي . فَإِذَا تَقَدَّمَ ٱللَّيْلُ وَنَامَ ٱلنَّاسُ جَمِيْعًا ٱنْتَبَهْتُ أَنَا وَحْدِي لِرِوَايَةِ ٱلْعَالَمِ فَأَرَىٰ مَا شِئْتُ أَنْ أَرَىٰ . وَفِي ضَوْءِ ٱلنَّهَارِ أَجِدُ ٱلنَّاسَ عُقَلَاءَ وَلَـٰكِنِّي فِي ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ أُبْصِرُهُمْ مَجَانِيْنَ ، فَهَـٰذَا ٱللَّيْلُ بُرْهَانُ ٱلطَّبِيْعَةِ عَلَىٰ جُنُوْنِ ٱلنَّاسِ وَضَعْفِ عُقُوْلِهِمْ إِذْ هُوَ يُثْبِتُ حَاجَةَ هَـٰذِهِ ٱلْعُقُوْلِ إِلَىٰ ضَرْبٍ مِنَ ٱلنِّسْيَانِ ٱلْأَبْلَهِ ٱلتَّامِّ لَوْلَاهُ مَا عَقَلَتْ فِي نَهَارِهَا وَلَا ٱسْتَقَامَ لَهَا أَمْرٌ .

يُصْرَعُ ٱلنَّاسُ فِي ٱللَّيْلِ صَرْعَةَ ٱلْمَجَانِيْنِ فَيُغْمِضُوْنَ أَعْيُنَهُمْ وَلَا يَرَوْنَ شَيْئًا . أَمَّا أَنَا فَأَرَىٰ ٱلْعَالَمَ فِي ٱللَّيْلِ مَسْرَحًا هَزَلِيًا يَضِجُّ بِٱلضَّحِكِ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْأَحْمَقِ ٱلَّذِي يَقْطَعُ سَرَاةَ نَهَارِهِ ، وَهُوَ مُعْتَقِدٌ أَنَّهُ قَابِضٌ عَلَىٰ ٱلْوُجُوْدِ بِٱلْأَعْيُنِ وَٱلْآذَانِ وَٱلْآنَافِ . . . أَيْنَ رَأَيْتَ ٱلْأَسَدَ بِعَيْنِكَ أَيُّهَا ٱلْأَحْمَقُ وَسَمِعْتَ فِي أُذُنَيْكَ زَئِيْرَهُ ، ٱدَّعَيْتَ ٱلدَّعْوَىٰ ٱلْعَرِيْضَةَ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ مَلَكْتَهُ وَقَبَضْتَ عَلَيْهِ ، وَلَا تَدْرِيْ فِي هَـٰذَا أَنَّكَ كَٱلْمَعْتُوْهِ إِذَا قَبَضَ عَلَىٰ ٱلظِّلِّ بِيَدِهِ ، وَصَاحَ : هَاتُوا ٱلْحَبْلَ لِأُقَيِّدَهُ ، لَا يُفْلِتُ . . . ؟

قُلْتُ : فَإِذَا كَانَ ٱلْعَالَمُ كُلُّهُ رِوَايَتَكَ فَأَخْرِجْ لَنَا فَصْلًا مِنَ ٱلرِّوَايَةِ .

قَالَ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ ، أَنْ أَكْتُبَ أَوْ أُمَثِّلَ ؟

قُلْنَا : بَلِ ٱلتَّمْثِيْلُ أَحَبُّ إِلَيْنَا .

فَنَظَرَ إِلَىٰ ٱلْمَجْنُوْنِ ٱلْآخَرِ وَقَالَ : إِنَّ ٱلْمَجْنُوْنَ فِي طَبِيْعَتِهِ يَنْبُوعٌ مِنَ ٱلْأَشْخَاصِ يَفِيْضُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، كَيَنْبُوعِ ٱلْمَاءِ يَسُحُّ ٱلدُّفْعَةَ بَعْدَ ٱلدُّفْعَةِ ، فَهُنَا ٱلْمَسْرَحُ ، وَٱلرِّوَايَةُ ٱلْآنَ رِوَايَةُ ٱلطَّبِيْبِ وَٱلْمَجْنُوْنِ . . .

* * *

أَنْتَ يَا « س . ع » . عَمُّ هَـٰذَا ٱلْمَجْنُوْنِ . فَإِذَا قَالَ لَكَ : يَا عَمُّ ! قُلْ لَهُ : أَنَا لَسْتُ . . . وَلَـٰكِنِّي أَخُو أَبِيكَ . . . لِنَنْظُرَ أَيَتَنَبَّهُ عَلَىٰ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّيْغَتَيْنِ أَمْ لَا ؛ فَإِنَّهُ فَرْقٌ عَقْلِيٌّ دَقِيْقٌ تُمْتَحَنُ بِهِ ٱلْعُقُوْلُ . . .

تَعَالَ أَيُّهَا ٱلْمَرِيْضُ ، فَإِنِّي أَرْجُوْ أَنْ يَكُوْنَ شِفَاؤُكَ عَلَىٰ يَدَيَّ ، وَفِي يَدِي هَـٰذِهِ لَمْسَةٌ مِنْ لَمَسَاتِ ٱلْمَسِيْحِ ، لِأَنَّ (نَابِغَةَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ) هُوَ ٱلْآنَ طَبِيْبُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ . . .

ٱتَّقُوْا أَنْ تُغْضِبُوْهُ أَوْ تُخِيْفُوْهُ ، وَأَقِيْمُوْا لَهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَتَحَرَّوْا مَسَرَّتَهُ دَائِمًا ، فَإِنَّ إِدْخَالَ بَعْضِ ٱلسُّرُوْرِ إِلَىٰ نَفْسِ ٱلْمَجْنُوْنِ هُوَ إِدْخَالُ بَعْضِ ٱلْعَقْلِ إِلَىٰ رَأْسِهِ .

مَتَىٰ أَنْكَرْتَ يَا « س . ع » عَقْلَ ٱبْنِ أَخِيْكَ وَمَا كَانَ ٱلسَّبَبُ ؟ وَكَيْفَ غُلِبَ عَلَىٰ عَقْلِهِ ؟ وَهَلْ « ا . ش » . هُوَ خَالُهُ أَوْ أَخُو أُمِّهِ . . . ؟

لَطَفَ ٱللهُ لَكَ أَيُّهَا ٱلْمِسْكِيْنُ . قُلْ لِي : أَتَتَذَكَّرُ أَمْسِ ؟ أَتَتَذَكَّرُ غَدًا ؟ . . . إِنَّ ٱلْأَمْسَ وَٱلْغَدَ سَاقِطَانِ جَمِيْعًا مِنْ حِسَابِ ٱلْمَجَانِيْنِ ؛ وَمِنَ ٱلرَّحْمَةِ بِهِمْ أَنَّ ٱلدُّنْيَا تَبْدَأُ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ ، فَقَدِ ٱسْتَرَاحُوْا مَنْ ثُلُثَيْ هُمُوْمِ ٱلزَّمَنِ فِي ٱلْعُقَلَاءِ . وَهُمْ لَا يَصْلُحُوْنَ أَنْ يَنْفَعُوْا ٱلنَّاسَ كَٱلْعُقَلَاءِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ صَالِحُوْنَ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْعُقَلَاءِ لِلِانْتِفَاعِ بِأَنْفُسِهِمْ فِي ٱلضَّحِكِ وَٱلْمَرَحِ وَٱلطَّرَبِ ، وَهَـٰذَا حَسْبُهُمْ مِنَ ٱلنِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ .

قُلْ لِي أَيُّهَا ٱلْمَجْنُوْنُ ! أَتُحِسُّ أَنَّ ٱلدُّنْيَا تَصْنَعُ لَكَ نَفْسَكَ ، أَمْ نَفْسُكَ هِيَ تَصْنَعُ لَكَ ٱلدُّنْيَا؟ إِنَّ هَـٰذِهِ مَسْأَلَةٌ يَحُلُّهَا كُلُّ مَجْنُوْنٍ عَلَىٰ طَرِيْقَتِهِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ ، فَمَا هِيَ طَرِيْقَتُكَ فِي حَلِّهَا ؟

مَالَكَ لَا تُجِيْبُ أَيُّهَا ٱلْأَبْلَهُ ؟ (هَـٰذَا مَنْ جِهَةٍ وَمِنْ جِهَةٍ) أَعْطُوْهُ قِرْشًا لِيَنْطَلِقَ لِسَانُهُ ، وَأَتُوْا ٱلطَّبِيْبَ أَجْرَهُ وَافِيًا وَهُوَ لَا يَقِلُّ عَنْ قِرْشَيْنِ . . .

ثُمَّ مَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) عَلَىٰ مَجْنُوْنِ ٱلْمَتْنِ وَسَارَّهُ بِشَيْءٍ . فَقُلْنَا : مَا أَمْرُ هَـٰذَا ٱلْمَالِ بِسِرٍّ ؛

هَـٰذَا قِرْشٌ لِلْمَرِيضِ وَهَـٰذَانِ قِرْشَانِ لِلطَّبِيبِ .

فَقَالَ ٱلْمَجْنُونُ : « مِمَّاحَفِظْنَاهُ » كَفَى بِٱلسَّلَامَةِ دَاءً .

قَالَ ٱلطَّبِيبُ : هَـٰذَا مَرِيضٌ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْجُنُونِ ٱسْمُهُ « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » ، وَهُوَ جُنُونُ ٱلنِّسْيَانِ ٱلَّذِي يَضَعُ فِي مَكَانِ ٱلْعَقْلِ كَلِمَةً ثَابِتَةً لَا يَتَذَكَّرُ ٱلْمَجْنُونُ[1] إِلَّا بِهَا ؛ وَمِنْ أَعْرَاضِهِ جُنُونُ ٱلشَّكِّ ، فَكُلُّ مَا حَوْلَ ٱلْمَرِيضِ مَشْكُوكٌ فِيهِ ، وَقَدْ يَتَرَامَىٰ إِلَىٰ جُنُونِ ٱللَّمْسِ ، فَلَوْ لَمَسْتَهُ بِإِصْبَعِكَ تَوَهَّمَهَا عَقْرَبًا ، فَخَافَ مِنَ ٱلإِصْبَعِ تَلْمُسُهُ خَوْفَهُ مِنَ ٱلْعَقْرَبِ تَلْدَغُهُ ، وَلَـٰكِنْ بَقِيَتْ أَشْيَاءُ لَابُدَّ مِنَ ٱلتَّدْقِيقِ فِي فَحْصِهَا ، فَلَيْسَ هَـٰذَا مِنْ مَجَانِينِ ٱلْعَبْقَرِيَّةِ ٱلَّتِي ٱنْحَرَفَتْ عَنْ طَرِيقِهَا أَوْ شَذَّتْ فِي قُوَّتِهَا ؛ وَلَا هُوَ مِمَّنْ يَتَجَانُّ وَيَتَحَامَقُ ٱلْتِمَاسًا لِلرِّزْقِ وَٱلْعَيْشِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : حَمَاقَةٌ تَعُولُنِي خَيْرٌ مِنْ عَقْلٍ أَعُولُهُ .

فَقَالَ ٱلْمَجْنُونُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » حَمَاقَةٌ تَعُولُنِي . . .

فَضَحِكَ (ٱلنَّابِغَةُ) وَقَالَ : هُوَ كَمَا بَيَّنْتُ لَكُمْ مُصَابٌ بِجُنُونِ (مِمَّا حَفِظْنَاهُ) وَهُوَ أَقَلُّ ٱلْجُنُونِ وَأَهْوَنُهُ ، وَعِلَاجُهُ ٱلْبَسْطُ وَٱلسُّرُورُ وَٱلْقِرْشُ ؛ وَٱلضَّرْبُ أَحْيَانًا . . . فَإِذَا تَابَرَ عَلَيْهِ ٱلدَّاءُ تَحَوَّلَ إِلَىٰ جُنُونِ (مِمَّا ضَرَبْنَاهُ) . . . فَيَعْتَدِي ٱلْمُصَابُ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يُوقِعُ بِهِ ضَرْبًا ، وَعِلَاجُهُ حِينَئِذٍ ٱلْقَمِيصُ ٱلْمَرْقُومُ[2] ؛ فَإِذَا فَدَحَتِ ٱلْعِلَّةُ ٱنْقَلَبَ ٱلْمَرَضُ إِلَىٰ جُنُونِ (مِمَّا قَتَلْنَاهُ) . وَعِلَاجُهُ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَاسِلُ وَٱلْأَغْلَالُ .

وَٱلْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ : إِنَّ آخِرَ مَا ٱنْتَهَتْ إِلَيْهِ فَلْسَفَةُ ٱلطِّبِّ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ أَنَّ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا مَجَانِينُ ، وَلَـٰكِنَّ بَعْضَهُمْ أَوْفَرُ قِسْطًا مِنْ بَعْضٍ ، كَأَنَّ سَلْبَ ٱلْعَقْلِ هُوَ أَيْضًا حُظُوظٌ كَحُظُوظِ مَوْهِبَةِ ٱلْعَقْلِ . وَأَهْلُ ٱلْمِرِّيخِ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ يُسَمُّونَ ٱلْأَرْضَ بِيمَارِسْتَانَ ٱلْفَلَكِ . . .

وَلَـٰكِنْ بَقِيَتْ أَشْيَاءُ لَابُدَّ مِنَ ٱلتَّدْقِيقِ فِي فَحْصِهَا ؛ وَعِنْدِي فِي ٱلدَّارِ عَاطُوسٌ إِذَا أَشْمَمْتُهُ هَـٰذَا ٱلْمَجْنُونَ عَطَسَ بِهِ عَطْسَةً قَوِيَّةً فَخَرَجَ جُنُونُهُ مِنْ أَنْفِهِ . . . قُلْ لِي أَيُّهَا ٱلْمِسْكِينُ ! أَتَخَافُ إِذَا سِرْتَ وَحْدَكَ فِي مَيْدَانٍ وَاسِعٍ كَأَنَّ ٱلْمَيْدَانَ سَيَلْتَفُّ عَلَيْكَ ؟

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « لَا يَتَذَكَّرُهُ » بَدَلًا مِنْ : « لَا يَتَذَكَّرُ ٱلْمَجْنُونُ » .

(٢) ٱلْقَمِيصُ ٱلْمَرْقُومُ قَمِيصُ ٱلسِّجْنِ يَلْبَسُهُ ٱلْمَسْجُونُ وَيُرْقَمُ عَلَيْهِ ٱلْعَدَدُ ٱلَّذِي يُسَمَّىٰ ٱلْيَوْمَ (ٱلنِّمْرَةَ) ، وَقَدْ كَانَ هَـٰذَا مَعْرُوفًا فِي ٱلتَّمَدُّنِ ٱلْإِسْلَامِيِّ .

أَتَضْطَرِبُ إِذَا مَشَيْتَ فِي مَضِيقٍ كَأَنَّ ٱلْمَكَانَ سَيَنْطَبِقُ عَلَيْكَ ؟ وَإِذَا كُنْتَ فِي عَرَبَةِ ٱلْقِطَارِ فَهَلْ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ ٱلْبِيمَارِسْتَانَ قَدْ جَرَّهُ ٱلْقِطَارُ وَٱنْطَلَقَ بِهِ هَارِبًا ؟ وَهَلْ شَعَرْتَ يَوْمًا أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْكَ أَنْ تَنْتَحِرَ ؟

أَرِنِي هَـٰذَا ٱلْقِرْشَ ٱلَّذِي فِي يَدِكَ . فَمَدَّ إِلَيْهِ ٱلْمَجْنُونُ يَدَهُ بِٱلْقِرْشِ .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : ٱنْظُرِ ٱلْآنَ هَلْ تُحَدِّثُكَ نَفْسُكَ أَنْ تَغْصِبَنِي هَـٰذَا ٱلْقِرْشَ أَوْ تَسْرِقَهُ مِنِّي ؟

قَالَ : نَعَم .

قَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : إِذًا يَجِبُ أَنْ أُحْرِزَهُ فِي جَيْبِي . . . وَأَسْرَعَ فَأَخْفَاهُ فِي جَيْبِهِ .

* * *

فَصَاحَ ٱلْآخَرُ وَشَغَبَ ، وَقَالَ : سَلَبَنِي وَنَهَبَنِي .

قُلْنَا : لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَّصِلَ بَيْنَكُمَا شَرٌّ فِي تَمْثِيلِ ٱلرِّوَايَةِ فَهَـٰذَا قِرْشٌ آخَرُ ، وَلَـٰكِنْ أَفِي ٱلْفَلْسَفَةِ عِنْدَ (ٱلنَّابِغَةِ) إِبَاحَةُ ٱلسَّرِقَةِ وَٱلْغَصْبِ ؟ .

قَالَ : فَٱلرِّوَايَةُ ٱلْآنَ هِيَ رِوَايَةُ ٱلْفَيْلَسُوفِ ٱلْعَظِيمِ أَفْلَاطُونَ وَتِلْمِيذِهِ أَرِسْطُو .

قُلْ لِي وَيْحَكَ يَا أَرِسْطُو ! أَعَلِمْتَ أَنَّ فِي ٱلْمَجَانِينِ أَغْنِيَاءَ يَسْرِقُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلْقَلِيلَ لَا قِيمَةَ لَهُ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ وَلَيْسَتْ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ . فَمَا عِلَّةُ ذٰلِكَ عِنْدَكَ وَمَا وَجْهُهُ فِي مَقُولَةِ ٱلْجُنُونِ ؟ .

أَعَجَزْتَ عَنِ ٱلْجَوَابِ ؟ إِذًا فَٱعْلَمْ يَا أَرِسْطُو أَنَّ ٱلْمُصَابَ بِهَـٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْجُنُونِ إِذَا ٱشْتَرَىٰ هَـٰذَا ٱلشَّيْءَ بِدِرْهَمٍ كَانَتْ قِيمَتُهُ مِنَ ٱلدِّرْهَمِ وَحْدَهُ ، وَهُوَ غَنِيٌّ لَا قِيمَةَ لِلدِّرْهَمِ فِي مَالِهِ فَلَا يَحْفِلُ بِٱلشِّرَاءِ ، بَيْدَ أَنَّهُ إِذَا سَرَقَهُ كَانَتْ قِيمَتُهُ عِنْدَهُ مِنْ عَقْلِهِ وَحِيلَتِهِ ، فَيَجِيئُهُ بِلَذَّةٍ لَا تَشْتَرِيهَا كُلُّ أَمْوَالِهِ وَلَا كُلُّ أَمْوَالِ ٱلدُّنْيَا . فَهَـٰذَا جُنُونٌ بِٱللَّذَّةِ لَا بِٱلسَّرِقَةِ ، وَهُوَ بِذٰلِكَ ضَرْبٌ مِنَ ٱلْعِشْقِ يَجْعَلُ ٱلشَّيْءَ إِذَا لَمْ يُسْرَقْ كَأَنَّهُ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْمَعْشُوقَةُ ٱلْمُمْتَنِعَةُ عَلَىٰ عَاشِقِهَا .

وَٱلْجِيَاعُ إِذَا سَرَقُوا لِيَأْكُلُوا وَيُمْسِكُوا ٱلرَّمَقَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يُقَالُ فِي لُغَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ : إِنَّهُمْ سَرَقُوا بَلْ أَخَذُوا . . . فَبِٱضْطِرَارٍ جَاعُوا وَبِٱضْطِرَارٍ مِثْلِهِ أَكَلُوا ، وَٱلسَّارِقُ هُنَا هُوَ ٱلْغَنِيُّ[1] ٱلَّذِي مَنَعَهُمُ ٱلْإِحْسَانَ وَٱلْمَعُونَةَ . . .

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْفَتَىٰ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْغَنِيُّ » .

فَالدُّنْيَا مَعْكُوسَةٌ مُنْقَلِبَةٌ أَوْضَاعُهَا يَا أَرِسْطُو ، وَلَوْ ٱسْتَقَامَتْ هَـٰذِهِ ٱلأَوْضَاعُ لَوُجِدَتِ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلأَرْضِ لأَهْلِ ٱلأَرْضِ جَمِيْعًا . وَكَيْفَ لَكَ بِٱلسَّعَادَةِ وَٱلنَّاسُ مَخْلُوْقُوْنَ بِعُيُوْبِهِمْ ؟ وَيَا لَيْتَهُمْ مَخْلُوْقُوْنَ بِعُيُوْبِهِمْ فَقَطْ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلطَّامَّةَ ٱلْكُبْرَىٰ أَنَّ عُيُوْبَهُمْ تَعْمَلُ دَائِمًا عَلَىٰ أَنْ تَرَىٰ فِي ٱلآخَرِيْنَ عُيُوْبًا مِثْلَهَا .

كُلُّ حِمَارٍ فَهُوَ يُرِيْدُ أَنْ يَمْلأَ جَوْفَهُ تِبْنًا وَفُوْلًا وَشَعِيْرًا ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَرَ حِمَارًا قَطّ يُرِيْدُ أَنْ يَمْلأَ لِنَفْسِهِ ٱلإِسْطَبْلَ ؛ فَإِذَا وُجِدَ إِنْسَانٌ هَـٰذِهِ هِمَّتُهُ وَهَـٰذَا عَمَلُهُ فَٱسْمُهُ إِنْسَانٌ لَا حِمَارٌ . . .

يَا أَرِسْطُو ! إِنَّ مُعْضِلَةَ ٱلْمُعْضِلَاتِ أَنْ يُحَاوِلَ إِنْسَانٌ حَلَّ مُشْكِلَةٍ دَاخِلِيَّةٍ مَحْضَةٍ قَائِمَةٍ فِي نَفْسِ حِمَارٍ أَوْ ثَابِتَةٍ فِي ذِهْنِهِ ٱلْحِمَارِيِّ . . . وَمِثْلُ هَـٰذَا أَنْ يُحَاوِلَ حِمَارٌ حَلَّ مُشْكِلَةٍ نَفْسِيَّةٍ فِي ذِهْنِ إِنْسَانٍ أَوْ فِي قَلْبِهِ ، فَلَا حَلَّ لِمَشَاكِلِ ٱلْعَالَمِ أَبَدًا مَا دَامَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَ غَيْرِهِ كَحِمَارٍ مَعَ إِنْسَانٍ . . .

وَٱلْمُعْضِلَاتُ ٱلنَّفْسِيَّةُ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيَاطِيْنِ ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَجِيْءَ ٱلْمَلَائِكَةُ لِتُحَارِبَ ٱلشَّيَاطِيْنَ بِٱلْبَرْقِ وَٱلرَّعْدِ دِفَاعًا عَنِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ مَنَعَهَا ، وَأَرْسَلَ لِلإِنْسَانِ مَلَائِكَةً أُخْرَىٰ إِنْ شَاءَ هَـٰذَا ٱلإِنْسَانُ عَمِلَتْ ، وَإِنْ شَاءَ عَجَزَتْ ؛ وَهِيَ فَضَائِلُ ٱلأَدْيَانِ ٱلْمُنْزَلَةِ . فَإِذَا مَنَحَهَا ٱلإِنْسَانُ إِرَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ ، فَعَمِلَتْ عَمَلَهَا كَانَ ٱلإِنْسَانُ هُوَ ٱلْمَلَكَ بَلْ فَوْقَ ٱلْمَلَكِ ، وَإِذَا أَضْعَفَهَا وَمَحَقَهَا كَانَ ٱلإِنْسَانُ هُوَ ٱلشَّيْطَانَ وَأَسْفَلَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ .

يَا أَرِسْطُو[1] ! « هَـٰذَا ٱلْعَالَمُ عِنْدِي كُتْلَةٌ مِنَ ٱلْعَدَمِ ٱتَّفَقَتْ عَلَىٰ ٱلظُّهُوْرِ وَسَتَخْتَفِي . وَٱلْعَالَمُ عِنْدِي ضَعْفٌ رُكِّبَ وَقُوَّةٌ رُكِّبَتْ . وَٱلْعَالَمُ عِنْدِي لَا شَيْءَ . وَٱلْعَالَمُ بَيْنَ بَيْنَ . وَٱلْعَالَمُ قِسْمَانِ : مِنْهُمُ ٱلْفَلَّاحُ ٱلزِّرَاعِيُّ وَذٰلِكَ أَفْضَلُ فَلْسَفَةٍ طَبِيْعِيَّةٍ . . . وَٱلْعَالَمُ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَوْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ . وَٱلأَدَبُ هُوَ ٱلْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ بِلَا أَدَبٍ . وَٱلأَدَبُ ضَرْبَانِ : أَدَبٌ نَفْسَانِيٌّ وَأَدَبٌ مُكْتَسَبٌ . وَقَدْ يَكُوْنُ طَبِيْعِيًّا كَمَا هُوَ عِنْدَ نَابِغَةِ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ . وَمَنْ هُوَ نَابِغَةُ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ ؟ هُوَ شَخْصٌ مَاتَ بِلَا مَوْتٍ ، وَيَحْيَا بِلَا حَيَاةٍ » .

(١) هَـٰذِهِ ٱلأَسْطُرُ ٱلَّتِي وَضَعْنَاهَا بَيْنَ ٱلْقَوْسَيْنِ هِيَ مِنْ كَلَامِ ٱلْمَجْنُوْنِ بِٱلنَّصِّ ، وَكُنَّا سَأَلْنَاهُ أَنْ يَكْتُبَ رَأْيَهُ فِي ٱلْعَالَمِ وَٱلْحَيَاةِ فَكَتَبَ عَلَىٰ ٱلْبَدِيْهَةِ مَقَالَةً كُلُّهَا تَخْلِيْطٌ وَتَنَدُّرٌ ؛ فِيْهَا كَلِمَاتٌ كَأَعْمَقِ مَا تَجِيْءُ بِهِ مَذَاهِبُ ٱلْفَلْسَفَةِ .

أَتُرِيْدُ يَا أَرِسْطُو أَنْ تَعْرِفَ سِرَّ تَرْكِيْبِ ٱلْعَالَمِ ؟ ٱلأَمْرُ يَسِيْرٌ غَيْرُ عَسِيْرٍ ، فَإِنَّ سِرَّ تَرْكِيْبِهِ كَسِرِّ تَرْكِيْبِ ٱلْقِرْشِ ٱلَّذِي فِي يَدِكَ ، فَدَعْنِي أُظْهِرُكَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَقِيْقَةِ وَمُدَّ يَدَكَ بِٱلْقِرْشِ لأُبَيِّنَ لَكَ سِرَّ ٱلتَّرْكِيْبِ فِيْهِ . . .

* * *

وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَجْنُوْنَ ٱلآخَرَ أَسْرَعَ فَغَيَّبَ ٱلْقِرْشَ فِي جَيْبِهِ . فَقَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : هَـٰذَا سِيَاسِيٌّ دَاهِيَةٌ خَبِيْثٌ . وَٱلرِّوَايَةُ ٱلآنَ رِوَايَةُ سِيَاسِيِّ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ .

لَيْسَ فِي حَقِيْقَةِ ٱلسِّيَاسَةِ إِلَّا ٱلرَّذْلُ مِنْ أَفْعَالِ ٱلسِّيَاسِيِّيْنَ . وَٱلأَلْفَاظُ ٱلسِّيَاسِيَّةُ ٱلَّتِي تَحْمِلُ أَكْثَرَ مِنْ مَعْنًى هِيَ ٱلَّتِي لَا تَحْمِلُ مَعْنًى . فَلْيَحْذَرِ ٱلشَّرْقُ مِنْ كُلِّ لَفْظٍ سِيَاسِيٍّ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ ، أَوْ مَعْنًى وَنِصْفَ مَعْنًى ، أَوْ مَعْنًى وَشِبْهَ مَعْنًى ؛ فَإِنْ قَالُوْا لَنَا : (أَحْمَرُ) ؛ قُلْنَا : ٱكْتُبُوْهُ بِهَـٰذَا ٱللَّفْظِ ؛ فَإِذَا كَتَبُوْهُ قُلْنَا لَهُمْ : ٱرْسُمُوْا إِلَىٰ جَانِبِ مَعْنَاهُ بِٱللَّوْنِ ٱلأَحْمَرِ لِتَشْهَدَ ٱلطَّبِيْعَةُ نَفْسُهَا عَلَىٰ أَنَّ مَعْنَاهُ أَحْمَرُ لَا غَيْرُ . . . وَعَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةِ يَجِبُ أَنْ تُكْتَبَ ٱلْمُعَاهَدَاتُ ٱلسِّيَاسِيَّةُ بَيْنَ أُورُبَّةَ وَٱلشَّرْقِ .

إِنَّهُمْ يَكْتُبُوْنَ لَنَا جَرِيْدَةً بِأَسْمَاءِ ٱلأَطْعِمَةِ ثُمَّ يَقُوْلُوْنَ : أَكَلْتُمْ وَشَبِعْتُمْ . . . وَلَقَدْ رَأَيْتُ (مُظَاهَرَاتٍ) كَثِيْرَةً وَلَا كَٱلْمُظَاهَرَةِ ٱلَّتِي أَتَمَنَّاهَا ؛ فَمَا أَتَمَنَّىٰ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ كُلُّ ٱلْمَجَانِيْنِ فِي مُظَاهَرَةٍ . . . . . .

وَهَـٰذَا ٱلأَبْلَهُ ٱلَّذِي أَمَامَنَا لَيْسَ وَطَنِيًّا وَلَا فِيْهِ ذَرَّةٌ مِنَ ٱلْوَطَنِيَّةِ ؛ فَإِنْ كَانَ وَطَنِيًّا أَوْ زَعَمَ أَنَّهُ وَطَنِيٌّ ، فَلْيُخْرِجِ ٱلْقِرْشَ ٱلَّذِي فِي جَيْبِهِ . . . لِيَكُوْنَ فَأْلًا حَسَنًا لِخُرُوْجِ جَيْشِ ٱلاحْتِلَالِ مِنْ مِصْرَ . . .

* * *

وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَجْنُوْنَ لَمْ يُخْرِجِ ٱلْقِرْشَ وَتَرَكَ جَيْشَ ٱلاحْتِلَالِ فِي مَكَانِهِ .

فَقَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : ٱلرِّوَايَةُ ٱلآنَ رِوَايَةُ ٱلشُّرْطِيِّ وَٱللِّصِّ . وَبِحَقٍّ مِنَ ٱلْقَانُوْنِ يَكُوْنُ لِلشُّرْطِيِّ أَنْ يُفَتِّشَ هَـٰذَا ٱللِّصَّ لِيُخْرِجَ ٱلْقِرْشَ مِنْ جَيْبِهِ . . .

* * *

غَيْرَ أَنَّ ٱلْمَجْنُوْنَ ٱمْتَنَعَ . فَقَالَ (ٱلنَّابِغَةُ) : كُلُّ ذٰلِكَ لَا يُجْدِيْ مَعَ هَـٰذَا ٱلْخَبِيْثِ ، فَٱلرِّوَايَةُ ٱلْآنَ رِوَايَةُ هَارُوْنَ ٱلرَّشِيْدِ مَعَ ٱلْبَرَامِكَةِ . وَيَجِبُ أَنْ يَنْكُبَ ٱلرَّشِيْدُ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْبَرَامِكَةَ لِيَسْتَصْفِيَ ٱلْقِرْشَ . . .

* * *

بَيْدَ أَنَّنَا مَنَعْنَاهُ أَنْ يَنْكُبَ « ٱلْبَرَامِكَةَ » ، فَقَالَ : ٱلرِّوَايَةُ ٱلْآنَ رِوَايَةُ ٱلْعَاشِقِ وَٱلْمَعْشُوْقَةِ ، وَنَظَرَ طَوِيْلًا فِيْ ٱلْمَجْنُوْنِ وَصَعَّدَ فِيْهِ عَيْنَهُ وَصَوَّبَ فَلَمْ يَرَ إِلَّا مَا يُذَكِّرُ بِأَنَّهُ رَجُلٌ ، فَتَهَدَّىٰ إِلَىٰ رَأْيٍ عَجِيْبٍ . فَوَقَعَ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ ٱمْرَأَةً فِيْ حِذَائِهَا . . . وَجَعَلَ يُنَاجِيْ ٱلْحِذَاءَ بِهَذِهِ ٱلْمُنَاجَاةِ :

إِنَّ سَخَافَاتِ ٱلْحُبِّ هِيَ أَقْوَىٰ ٱلدَّلِيْلِ عِنْدَ أَهْلِهِ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْحُبَّ غَيْرُ سَخِيْفٍ ؛ فَكُلُّ فِكْرَةٍ فِيْ ٱلْحُبِّ مَهْمَا كَانَتْ سَخِيْفَةً ، عَلَيْهَا جَلَالُ ٱلْحُبِّ ؛ وَلِلْحِذَاءِ فِيْ قَدَمَيْكِ يَا حَبِيْبَتِيْ جَمَالُ ٱلصُّنْدُوْقِ ٱلْمَمْلُوْءِ ذَهَبًا فِيْ نَظَرِ ٱلْبَخِيْلِ ، وَكُلَّ شَيْءٍ مِنْكِ أَنْتِ فِيهِ سِرُّ جَمَالِكِ أَنْتِ . وَٱلْحِذَاءُ فِيْ قَدَمَيْكِ لَيْسَ حِذَاءً ، وَلَـٰكِنَّهُ بَعْضُ حُدُوْدِ جِسْمِكِ ٱلْجَمِيْلِ ، فَلَا أَكُوْنُ كُلَّ ٱلْعَاشِقِ حَتَّىٰ أُحِيْطَ بِكُلِّ حُدُوْدِكِ إِلَىٰ ٱلْحِذَاءِ .

إِنَّ جِسْمَكِ يَا حَبِيْبَتِيْ كَٱلْمَاءِ ٱلْجَارِيْ ٱلْعَذْبِ ؛ فِيْ كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهُ رُوْحُ ٱلْمَاءِ كُلِّهِ ؛ وَحَيْثُمَا وَقَعَتِ ٱلْقُبْلَةُ مِنْ جِسْمِكِ كَانَ فِيْهَا رُوْحُ شَفَتَيْكِ ٱلْوَرْدِيَّتَيْنِ . هَـٰذِهِ قُبْلَةٌ عَلَىٰ قَدَمَيْكِ يَا حَبِيْبَتِيْ ؛ وَهَـٰذِهِ قُبْلَةٌ عَلَىٰ سَاقِكِ ؛ وَهَـٰذِهِ قُبْلَةٌ عَلَىٰ ثَوْبِكِ ، وَهَـٰذِهِ قُبْلَةٌ عَلَىٰ جَيْبِكِ . . . .

وَكَادَتْ يَدُ (ٱلنَّابِغَةِ) تَخْرُجُ بِٱلْقِرْشِ ؛ فَعَضَّهُ ٱلْمَجْنُوْنُ فِيْ كَتِفِهِ عَضَّةً وَحْشِيَّةً ، فَجَأَهُ ٱلْخَوْفُ مِنْهَا فَطَارَ صَوَابُهُ ، فَصَرَخَ صَرْخَةً عَظِيْمَةً دَوَّىٰ لَهَا ٱلْمَكَانُ وَتَرَدَّدَتْ كَصَرْصَرَةِ ٱلْبَازِيِّ فِيْ ٱلْجَوِّ ، ثُمَّ ٱعْتَرَاهُ ٱلطَّيْفُ ، وَأَطْبَقَ عَلَيْهِ ٱلْجُنُوْنُ فَٱخْتَلَطَ وَتَخَبَّطَ . . . . . .

(وَٱلرِّوَايَةُ ٱلْآنَ) . . . ؟ . رِوَايَةُ عَرَبَةِ ٱلْإِسْعَافِ . . . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

وحي القلم

"بيان كأنه تنزيل من التنزيل" "أو قبس من نور الذكر الحكيم"

سعد باشا زغلول

في تقريظه "إعجاز القرآن" للرافعي

كتبه

مصطفى صادق الرافعي

بعناية

بسّام عبد الوهّاب الجابي

الجزء الثاني

ٱلسُّمُوُّ ٱلرُّوحِيُّ ٱلأَعْظَمُ وَٱلْجَمَالُ ٱلْفَنِّيُّ فِيْ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ(١) (٢)

لَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ هَـٰذَا ٱلفَصْلَ وَهَمَمْتُ بِهِ عَرَضَتْ لِيَ مَسْأَلَةٌ نَظَرْتُ فِيهَا أَطْلُبُ جَوَابَهَا ، ثُمَّ قَدَّرْتُ أَنْ يَكُوْنَ أَبْلَغُ فَلَاسِفَةِ ٱلْبَيَانِ فِيْ أَوْرُبَّةَ لَعَهْدِنَا هَـٰذَا رَجُلًا يُحْسِنُ ٱلْعَرَبِيَّةَ ٱلْمُبِيْنَةَ ، وَقَدْ بَلَغَ فِيْهَا مَبْلَغَ أَئِمَّتِهَا عِلْمًا وَذَوْقًا ، وَدَرَسَ تَارِيْخَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ دَرْسَ ٱلرُّوْحِ لِأَعْمَالِ ٱلرُّوْحِ ، وَتَفَقَّهَ فِيْ شَرِيْعَتِهِ فِقْهَ ٱلْحِكْمَةِ لِأَسْرَارِ ٱلْحِكْمَةِ ، وَٱسْتَوْعَبَ أَحَادِيْثَهُ وَٱعْتَبَرَهَا بِفَنِّ ٱلنَّقْدِ ٱلْبَيَانِيِّ ٱلَّذِيْ يَبْحَثُ فِيْ خَصَائِصِ ٱلْكَلَامِ عَنْ خَصَائِصِ ٱلنَّفْسِ ، وَتَمَثَّلْتُ أَنِّيْ لَقِيْتُ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ فَسَأَلْتُهُ : مَا هُوَ ٱلْجَمَالُ ٱلْفَنِّيُّ عِنْدَكَ فِيْ بَلَاغَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ وَمَاذَا تَسْتَخْرِجُ لَكَ فَلْسَفَةُ ٱلْبَيَانِ مِنْهُ ؟ وَمَا سِرُّهُ ٱلَّذِيْ يَجْتَمِعُ فِيْهِ ؟

وَلَمْ يَكَدْ يَخْطُرُ لِيْ ذَٰلِكَ حَتَّىٰ ٱنْكَشَفَ ٱلْخَاطِرُ عَنْ وَجْهٍ آخَرَ ، وَذَٰلِكَ أَنْ يَكُوْنَ مَعْنَىٰ هَـٰذَا ٱلسُّؤَالِ بِعَيْنِهِ قَدْ وَقَعَ فِيْ شَيْءٍ مِنْ حَدِيْثِ ٱلنَّفْسِ لِأَبْلَغِ أُوْلَـٰئِكَ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِيْنَ رَأَوْا ٱلنَّبِيَّ ﷺ ، وَآمَنُوْا بِهِ ، وَٱتَّبَعُوْا ٱلنُّوْرَ ٱلَّذِيْ أُنْزِلَ مَعَهُ ، وَقَدْ صَحِبَهُ فَطَالَتْ صُحْبَتُهُ ، لَا يَفُوْتُهُ مِنْ كَلَامِهِ فِيْ ٱلْمَلَإِ شَيْءٌ ، وَخَالَطَهُ حَتَّىٰ كَانَ لَهُ فِيْ ٱلإِحَاطَةِ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ كَبَعْضِ ٱلتَّارِيْخِ ، فَتَدَبَّرَ مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُوْنَ سِرُّ ٱلْجَمَالِ فِيْ بَلَاغَتِهِ ﷺ ، وَمَا مَرْجِعُهُ ٱلَّذِيْ يُرَدُّ إِلَيْهِ ؟

لَوْ دَارَ ٱلسُّؤَالُ دَوْرَتَيْهِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلسَّلِيْقَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْمُحْكَمَةِ ٱلَّتِيْ رَجَعَتْ أَنْ تَكُوْنَ فَلْسَفَةَ تَشْعُرُ وَتُحِسُّ ، وَفِيْ تِلْكَ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلْبَيَانِيَّةِ ٱلْمُلْهَمَةِ ٱلَّتِيْ بَلَغَتْ أَنْ تَكُوْنَ سَلِيْقَةً تَدْرُسُ وَتُفَكِّرُ ـ لَمَا خَلَصَ مِنْ كِلْتَيْهِمَا إِلَّا بِرَأْيٍ وَاحِدٍ تَلْتَقِيْ عَلَيْهِ حَقِيْقَةُ ٱلْبَيَانِ مِنْ طَرَفَيْهَا : وَهُوَ أَنَّ ذَٰلِكَ ٱلْجَمَالَ ٱلْفَنِّيَّ فِيْ بَلَاغَتِهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ أَثَرٌ عَلَىٰ ٱلْكَلَامِ مِنْ رُوْحِهِ ٱلنَّبَوِيَّةِ

(١) أَنْشَأَ ٱلْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللهُ هَـٰذَا ٱلْبَحْثَ جَوَابًا لِرَجَاءِ « ٱلْهِدَايَةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ » فِيْ بَغْدَادَ سَنَةَ ١٣٥٢هـ ؛ وَٱنْظُرْ « فَتْرَةَ جَمَامٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » . سَعِيد ٱلْعُرْيَان .

(٢) بَسَطْنَا ٱلْكَلَامَ فِيْ كِتَابِنَا « إِعْجَازُ ٱلْقُرْآنِ » عَنْ بَلَاغَةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوْهٍ كَثِيْرَةٍ ، وَبَقِيَ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِيْ تَرَاهُ ، فَهَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَةُ كَالتَّكْمِلَةِ عَلَىٰ مَا هُنَاكَ .

ٱلْجَدِيدَةِ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَتَارِيخِهَا .

وَبَعْدُ ؛ فَأَنَا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلصَّفَحَاتِ لَا أَصْنَعُ شَيْئًا غَيْرَ تَفْصِيلِ هَـٰذَا ٱلْجَوَابِ وَشَرْحِهِ بِٱسْتِخْرَاجِ مَعَانِيهِ ، وَٱسْتِنْبَاطِ أَدِلَّتِهِ ، وَٱلْكَشْفِ عَنْ أَسْرَارِهِ وَحَقَائِقِهِ ؛ وَلَقَدْ دَرَسْتُ كَلَامَهُ ﷺ ، وَقَضَيْتُ فِيْ ذٰلِكَ أَيَّامًا أَتَتَبَّعُ ٱلسِّرَّ ٱلَّذِيْ وَقَعَ فِيْ ٱلتَّارِيخِ ٱلْقَفْرِ ٱلْمُجْدِبِ فَأَخْصَبَ بِهِ وَأَنْبَتَ لِلدُّنْيَا أَزْهَارَهُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ ٱلْجَمِيلَةَ ، فَكَانُوْا نَاسًا إِنْ عِبْتَهُمْ بِشَيْءٍ لَمْ تَعِبْهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ دُوْنَ ٱلْمَلَائِكَةِ ، وكَانُوْا نَاسًا دَارَتِ ٱلْكُرَةُ ٱلْأَرْضِيَّةُ فِيْ عَهْدِهِمْ ثَلَاثَ دَوْرَاتٍ : وَاحِدَةً حَوْلَ ٱلشَّمْسِ ، وَثَانِيَةً حَوْلَ نَفْسِهَا ، وَثَالِثَةً حَوْلَ أَصْحَابِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ .

ثُمَّ تَرَكْتُ ٱلْكَلَامَ ٱلنَّبَوِيَّ يَتَكَلَّمُ فِيْ نَفْسِيْ وَيُلْهِمُنِيْ مَا أُفْصِحُ بِهِ عَنْهُ ، فَلَكَأَنِّيْ بِهِ يَقُوْلُ فِيْ صِفَةِ نَفْسِهِ : إِنِّيْ أَصْنَعُ أُمَّةً لَهَا تَارِيخُ ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدُ ، فَأَنَا أُقْبِلُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، وَأَذْهَبُ هُنَاكَ وَهُنَا ، مَعَ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلْحَقَائِقِ لَا مَعَ ٱلْكَلَامِ وَٱلنَّاسِ وَٱلْوَقْتِ .

إِنَّ هَـٰهُنَا دُنْيَا ٱلصَّحْرَاءِ سَتَلِدُ ٱلدُّنْيَا ٱلْمُتَحَضِّرَةَ ٱلَّتِيْ مِنْ ذُرِّيَّتِهَا أُوْرُبَّةُ وَأَمْرِيكَةُ ، فَٱلْقُرْآنُ وَٱلْحَدِيْثُ يَعْمَلَانِ فِيْ حَيَاةِ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ بِنُوْرٍ مُتَمِّمٍ لِمَا يَعْمَلُهُ نُوْرُ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ .

وَقَدْ كَانَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ يَغْزُوْنَ ٱلدُّنْيَا بِأَسْلِحَةٍ هِيَ فِيْ ظَاهِرِهَا أَسْلِحَةُ ٱلْمُقَاتِلِيْنَ ، وَلَـٰكِنَّهَا فِيْ مَعَانِيهَا أَسْلِحَةُ ٱلْأَطِبَّاءِ ، وَكَانُوْا يَحْمِلُوْنَ ٱلْكِتَابَ وَٱلسُّنَّةَ ثُمَّ مَضَوْا إِلَىٰ سَبِيلِهِمْ وَبَقِيَ ٱلْكَلَامُ مِنْ بَعْدِهِمْ غَازِيًا مُحَارِبًا فِيْ ٱلْعَالَمِ كُلِّهِ حَرْبَ تَغْيِيرٍ وَتَحْوِيلٍ إِلَىٰ أَنْ يَدْخُلَ ٱلْإِسْلَامُ إِلَىٰ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ(١) .

هَـٰذَا مَنْطِقُ ٱلْحَدِيثِ فِيْ نَفْسِيْ ، وَقَدْ كُنْتُ أَقْرَؤُهُ وَأَنَا أَتَمَثَّلُهُ مُرْسَلًا بِتِلْكَ ٱلْفَصَاحَةِ ٱلْعَالِيَةِ مِنْ فَمِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ يَمُرُّ إِعْجَازُ ٱلْوَحْيِ أَوَّلَ مَا يَخْرُجُ بِهِ ٱلصَّوْتُ ٱلْبَشَرِيُّ إِلَىٰ ٱلْعَالَمِ ، فَلَا أَرَىٰ ثَمَّ إِلَّا أَنَّ شَيْئًا إِلَـٰهِيًّا عَظِيمًا مُتَّصِلًا بِرُوحِ ٱلْكَوْنِ كُلِّهِ ٱتِّصَالَ بَعْضِ ٱلسِّرِّ

(١) فِيْ ٱلْحَدِيْثِ ٱلشَّرِيْفِ : « لَيَدْخُلَنَّ هَـٰذَا ٱلدِّيْنُ عَلَىٰ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ » . وَكَأَنَّ ٱلْعِبَارَةَ نَصٌّ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْإِسْلَامَ يَعُمُّ حِيْنَ تُظْلِمُ ٱلدُّنْيَا ظَلَامَهَا ٱلشِّعْرِيَّ . . . إِذَا طُمِسَتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ بِلَذَّاتِهَا ، وَأَظْلَمَتْ آفَاقُهَا ٱلرُّوْحَانِيَّةُ ؛ فَيَجِيْءُ ٱلْإِسْلَامُ فِيْ قُوَّةِ أَخْلَاقِهِ كَشَبَابِ ٱلْفَجْرِ ، يَبْعَثُ حَيَاةَ ٱلنُّوْرِ ٱلْإِنْسَانِيِّ بَعْثًا جَدِيْدًا ، وَهَـٰذَا هُوَ رَأْيُنَا فِيْ مُسْتَقْبَلِ ٱلْإِسْلَامِ : لَا بُدَّ مِنِ ٱنْحِلَالِ أُوْرُبَّةَ وَأَمْرِيْكَةَ ، كَمَا يَصْفَرُّ ٱلنَّهَارُ ، ثُمَّ يَخْتَلِطُ ، ثُمَّ يُظْلِمُ ، ثُمَّ تَطْلُبُ ٱلطَّبِيْعَةُ نُوْرَهَا ٱلْحَيَّ مِنْ بَعْدُ .

بِبَعْضِ ٱلسِّرِّ ، يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ إِنْسَانِيٍّ هُوَ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِيْ يَجِيءُ فِيْ كَلِمَاتٍ قَوِيَّةٍ رَائِعَةٍ ، فَتُهَا فِيْ بَلَاغَتِهَا كَالشَّبَابِ ٱلدَّائِمِ .

كُنْتُ أَتَأَمَّلُهُ قِطَعًا قِطَعًا مِنَ ٱلْبَيَانِ فَأَرَاهُ يَنْقُلُنِيْ إِلَىٰ مِثْلِ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِيْ أَتَأَمَّلُ فِيهَا رَوْضَةً تَتَنَفَّسُ عَلَىٰ ٱلْقَلْبِ ، أَوْ مَنْظَرًا يَهُزُّ جَمَالُهُ ٱلنَّفْسَ ، أَوْ عَاطِفَةً تَزِيدُ بِهَا ٱلْحَيَاةُ فِيْ ٱلدَّمِ ، عَلَىٰ هُدُوءٍ وَرَوْحٍ وَإِحْسَاسٍ وَلَذَّةٍ ؛ ثُمَّ يَزِيدُ عَلَىٰ ذٰلِكَ أَنَّهُ يُصْلِحُ مِنَ ٱلْجِهَاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِيْ نَفْسِيْ ، ثُمَّ يَرْزُقُ ٱللهُ مِنْهُ رِزْقَ ٱلنُّوْرِ ، فَإِذَا أَنَا فِيْ ذَوْقِ ٱلْبَيَانِ كَأَنَّمَا أَرَىٰ ٱلْمُتَكَلِّمَ ﷺ وَرَاءَ كَلَامِهِ .

وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنِّيْ كَثِيرًا مَا أَقِفُ عِنْدَ ٱلْحَدِيثِ ٱلدَّقِيقِ أَتَعَرَّفُ أَسْرَارَهُ ، فَإِذَا هُوَ يَشْرَحُ لِيْ وَيَهْدِيْنِيْ بِهَدْيِهِ ، ثُمَّ أُحِسُّهُ كَأَنَّمَا يَقُوْلُ لِيْ مَا يَقُوْلُ ٱلْمُعَلِّمُ لِتِلْمِيذِهِ : أَفَهِمْتَ ؟

وَقَفْتُ عِنْدَ قَوْلِهِ ﷺ : « إِنَّ قَوْمًا رَكِبُوْا فِيْ سَفِينَةٍ ، فَٱقْتَسَمُوْا ، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ ، فَنَقَرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأْسٍ ، فَقَالُوْا لَهُ : مَا تَصْنَعُ ؟ قَالَ : هُوَ مَكَانِيْ أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ ! فَإِنْ أَخَذُوْا عَلَىٰ يَدِهِ نَجَا وَنَجَوْا ، وَإِنْ تَرَكُوْهُ هَلَكَ وَهَلَكُوْا »(١) .

فَكَانَ لِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ فِيْ نَفْسِيْ كَلَامٌ طَوِيلٌ عَنْ هَؤُلَاءِ ٱلَّذِيْنَ يَخُوْضُوْنَ مَعَنَا ٱلْبَحْرَ وَيُسَمُّوْنَ أَنْفُسَهُمْ بِٱلْمُجَدِّدِيْنَ ، وَيَنْتَحِلُوْنَ ضُرُوْبًا مِنَ ٱلْأَوْصَافِ : كَحُرِّيَّةِ ٱلْفِكْرِ ، وَٱلْغَيْرَةِ ، وَٱلْإِصْلَاحِ ؛ وَلَا يَزَالُ أَحَدُهُمْ يَنْقُرُ مِنْ سَفِينَةِ دِيْنِنَا وَأَخْلَاقِنَا وَآدَابِنَا بِفَأْسِهِ ، أَيْ :

(١) رَوَىٰ ٱلْبُخَارِيُّ [رقم : ٢٤٩٣] هَـٰذَا ٱلْحَدِيْثَ عَلَىٰ وَجْهٍ آخَرَ ، وَفِيْهِ زِيَادَةٌ مِنَ ٱلْجَمَالِ ٱلْفَنِّيِّ ؛ قَالَ : « مَثَلُ ٱلْقَائِمِ عَلَىٰ حُدُوْدِ ٱللهِ وَٱلْوَاقِعِ فِيْهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ ٱسْتَهَمُوْا عَلَىٰ سَفِيْنَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ؛ فَكَانَ ٱلَّذِيْنَ فِيْ أَسْفَلِهَا إِذَا ٱسْتَقَوْا مِنَ ٱلْمَاءِ مَرُّوْا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوْا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِيْ نَصِيْبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ! فَإِنْ تَرَكُوْهُمْ وَمَا أَرَادُوْا هَلَكُوْا جَمِيْعًا ، وَإِنْ أَخَذُوْا عَلَىٰ أَيْدِيْهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيْعًا » . [وروى هذا الحديث أيضًا : الترمذي ، رقم : ٢١٧٣ ؛ الإمام أحمد في « مسنده » ، رقم : ١٧٨٩٧ ، ١٧٩٠٤ ، ١٧٩١٢ ، ١٧٩٤٤] .

فَهَـٰذَا تَمْثِيْلٌ لِحَالَةِ طَائِفَةٍ فِيْ (ٱلْأَسْفَلِ) تَعْمَلُ لِرَحْمَةِ مَنْ هُمْ فِيْ (ٱلْأَعْلَىٰ) : عَاطِفَةٌ شَرِيْفَةٌ وَلَـٰكِنَّهَا سَافِلَةٌ ، وَحَمِيَّةٌ مُلْتَهِبَةٌ وَلَـٰكِنَّهَا بَارِدَةٌ ، وَرَحْمَةٌ خَالِصَةٌ وَلَـٰكِنَّهَا مُهْلِكَةٌ ؛ وَلَنْ تَجِدَ كَهَـٰذَا ٱلتَّمْثِيْلِ فِيْ تَصْوِيْرِ ٱلْبَلَادَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ وَٱلْغَفْلَةِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ لِأُنَاسٍ هُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَمْثِلَةُ ٱلْجِدِّ وَٱلْعَمَلِ وَٱلْحِكْمَةِ ، فَكَأَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ يَقُوْلُ لِهَـٰؤُلَاءِ مِنْ أَلْفٍ وَثَلَاثِ مِئَةِ سَنَةٍ : أَنْتُمُ ٱلْمُصْلِحُوْنَ إِصْلَاحًا مَخْرُوْقًا . . . !

بِقَلَمِهِ . . . زَاعِمًا أَنَّهُ مَوْضِعُهُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ يَصْنَعُ فِيْهِ مَا يَشَاءُ وَيَتَوَلَّاهُ كَيْفَ أَرَادَ ، مُوَجِّهًا لِحَمَاقَتِهِ وُجُوْهًا مِنَ ٱلْمَعَاذِيْرِ وَٱلْحُجَجِ ، مِنَ ٱلْمَدَنِيَّةِ وَٱلْفَلْسَفَةِ ، جَاهِلًا أَنَّ ٱلْقَانُوْنَ فِيْ ٱلسَّفِيْنَةِ إِنَّمَا هُوَ قَانُوْنُ ٱلْعَاقِبَةِ دُوْنَ غَيْرِهَا ، فَٱلْحُكْمُ لَا يَكُوْنُ عَلَىٰ ٱلْعَمَلِ بَعْدَ وُقُوْعِهِ كَمَا يُحْكَمُ عَلَىٰ ٱلأَعْمَالِ ٱلأُخْرَىٰ ، بَلْ قَبْلَ وُقُوْعِهِ ؛ وَٱلْعِقَابُ لَا يَكُوْنُ عَلَىٰ ٱلْجُرْمِ يَقْتَرِفُهُ ٱلْمُجْرِمُ كَمَا يُعَاقَبُ ٱللِّصُّ وَٱلْقَاتِلُ وَغَيْرُهُمَا ، بَلْ عَلَىٰ ٱلشُّرُوْعِ فِيْهِ ، بَلْ عَلَىٰ تَوَجُّهِ ٱلنِّيَّةِ إِلَيْهِ ؛ فَلَا حُرِّيَّةَ هُنَا فِيْ عَمَلٍ يُفْسِدُ خَشَبَ ٱلسَّفِيْنَةِ أَوْ يَمَسُّهُ مِنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ مَادَامَتْ مُلَجِّجَةً فِيْ بَحْرِهَا ، سَائِرَةً إِلَىٰ غَايَتِهَا ؛ إِذْ كَلِمَةُ (ٱلْخَرْقِ) لَا تَحْمِلُ فِيْ ٱلسَّفِيْنَةِ مَعْنَاهَا ٱلأَرْضِيَّ ، وَهُنَاكَ لَفْظَةُ (أَصْغَرُ خَرْقٍ) لَيْسَ لَهَا إِلَّا مَعْنًى وَهُوَ (أَوْسَعُ قَبْرٍ) . . .

فَفَكِّرْ فِيْ أَعْظَمِ فَلَاسِفَةِ ٱلدُّنْيَا مَهْمَا يَكُنْ مِنْ حُرِّيَّتِهِ وَٱنْطِلَاقِهِ ، فَهُوَ هَٰهُنَا مَحْدُوْدٌ عَلَىٰ رَغْمِ أَنْفِهِ بِحُدُوْدٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ وَٱلْحَدِيْدِ تَفْسِيْرُهَا فِيْ لُغَةِ ٱلْبَحْرِ حُدُوْدُ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَصْلَحَةِ ، وَكَمَا أَنَّ لَفْظَةَ (ٱلْخَرْقِ) يَكُوْنُ مِنْ مَعَانِيْهَا فِيْ ٱلْبَحْرِ ٱلْقَبْرُ وَٱلْغَرَقُ وَٱلْهَلَاكُ ، فَكَلِمَةُ (ٱلْفَلْسَفَةِ) يَكُوْنُ مِنْ بَعْضِ مَعَانِيْهَا فِيْ ٱلاجْتِمَاعِ ٱلْحَمَاقَةُ وَٱلْغَفْلَةُ وَٱلْبَلَاهَةُ ، وَكَلِمَةُ ٱلْحُرِّيَّةِ يَكُوْنُ مِنْ مَعَانِيْهَا ٱلْجِنَايَةُ وَٱلزَّيْغُ وَٱلْفَسَادُ[1] وَعَلَىٰ هَٰذَا ٱلْقِيَاسِ ٱللُّغَوِيِّ فَٱلْقَلَمُ فِيْ أَيْدِيْ

(١) ٱلزَّائِغُوْنَ فِيْ ٱلتَّارِيْخِ ٱلإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ صِنْفَانِ لَيْسَ لَهُمَا ثَالِثٌ ، وَقَدْ وَصَفَهُمَا ٱلْحَدِيْثُ ٱلَّذِيْ رَوَاهُ ٱلْبُخَارِيُّ [رقم : ٣٦٠٧ ، ٧٠٨٤] بِسَنَدِهِ إِلَىٰ حُذَيْفَةَ بْنِ ٱلْيَمَانِ قَالَ : كَانَ ٱلنَّاسُ يَسْأَلُوْنَ رَسُوْلَ ٱللهِ ﷺ عَنِ ٱلْخَيْرِ ؛ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ ٱلشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِيْ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُوْلَ ٱللهِ ! إِنَّا كُنَّا فِيْ جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ ، فَجَاءَنَا ٱللهُ بِهَٰذَا ٱلْخَيْرِ ، فَهَلْ بَعْدَ ٱلْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : وَهَلْ بَعْدَ ٱلشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، وَفِيْهِ دَخَنٌ » قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ ؟ قَالَ : « قَوْمٌ يَهْدُوْنَ بِغَيْرِ هَدْيِيْ ، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ » قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ ٱلْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، دُعَاةٌ إِلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوْهُ فِيْهَا » قُلْتُ : يَا رَسُوْلَ ٱللهِ ! صِفْهُمْ لِيْ . قَالَ : « هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ، وَيَتَكَلَّمُوْنَ بِأَلْسِنَتِنَا » قُلْتُ : يَا رَسُوْلَ ٱللهِ ! فَمَا تَأْمُرُنِيْ إِنْ أَدْرَكَنِيْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : « تَلْزَمُ جَمَاعَةَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَإِمَامَهُمْ » قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ ؟ قَالَ : « فَٱعْتَزِلْ تِلْكَ ٱلْفِرَقَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّىٰ يُدْرِكَكَ ٱلْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ » [وهو أيضًا عند مسلم ، رقم : ١٨٤٧ ؛ أبو داود ، رقم : ٤٢٤٤ ، ابن ماجه ، رقم : ٣٩٧٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٢٧١ ، ٢٢٨١٧ ، ٢٢٨٨١ ، ٢٢٩١٦ ، ٢٢٩٢٢ ، ٢٢٩٣٩] ٱنْتَهَىٰ ٱلْحَدِيْثُ .
فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ : « يَهْدُوْنَ بِغَيْرِ هَدْيِيْ . . . تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ » ؛ فَهَٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلَّذِيْنَ يُرِيْدُوْنَ ٱلإِصْلَاحَ =

بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ مِنْ مَعَانِيْهِ ٱلْفَأْسُ ، وَٱلْكَاتِبُ مِنْ مَعَانِيْهِ ٱلْمُخَرِّبُ ، وَٱلْكِتَابَةُ مِنْ مَعَانِيْهَا ٱلْخِيَانَةُ ؛ قَالَ لِيْ ٱلْحَدِيْثُ : أَفَهِمْتَ ؟ .

هَٰكَذَا يَجِبُ تَأَمُّلُ ٱلْجَمَالِ ٱلْفَنِّيِّ فِيْ كَلَامِهِ ﷺ ، فَهُوَ كَلَامٌ كُلَّمَا زِدْتَهُ فِكْرًا زَادَكَ مَعْنًى ، وَتَفْسِيْرُهُ قَرِيْبٌ قَرِيْبٌ كَٱلرُّوْحِ فِيْ جِسْمِهَا ٱلْبَشَرِيِّ ، وَلَٰكِنَّهُ بَعِيْدٌ بَعِيْدٌ كَٱلرُّوْحِ فِيْ سِرِّهَا ٱلإِلٰهِيِّ ، فَهُوَ مَعَكَ عَلَىٰ قَدْرِ مَا أَنْتَ مَعَهُ ، إِنْ وَقَفْتَ عَلَىٰ حَدٍّ وَقَفَ ، وَإِنْ مَدَدْتَ مَدَّ ، وَمَا أَدَّيْتَ بِهِ تَأَدَّىٰ ، وَلَيْسَ فِيْهِ شَيْءٌ مِمَّا تَرَاهُ لِكُلِّ بُلَغَاءِ ٱلدُّنْيَا مِنْ صِنَاعَةِ عَبَثِ ٱلْقَوْلِ ، وَطَرِيْقَةِ تَأْلِيْفِ ٱلْكَلَامِ ، وَٱسْتِخْرَاجِ وَضْعٍ مِنْ وَضْعٍ ، وَٱلْقِيَامِ عَلَىٰ ٱلْكَلِمَةِ حَتَّىٰ تَبِيْضَ كَلِمَةً أُخْرَىٰ . . . ، وَٱلرَّغْبَةِ فِيْ تَكْثِيْرِ سَوَادِ ٱلْمَعَانِيْ ، وَتَرْكِ ٱللِّسَانِ يَطِيْشُ طَيْشَهُ ٱللُّغَوِيَّ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ ، وَيَحْذُوْ ٱلْكَلَامَ عَلَىٰ مَعَانِيْ أَلْفَاظِهِ ، وَيَجْتَلِبُ لَهُ مِنْهَا وَيَسْتَكْرِهُهَا عَلَىٰ أَغْرَاضِهِ ؛ وَيَطْلُبُ لِصِنَاعَتِهِ مِنْ حَيْثُ أَدْرَكَ وَعَجَزَ ، وَمِنْ حَيْثُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ ، إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ قِيْلَ لِتَصِيْرَ بِهِ ٱلْمَعَانِيْ إِلَىٰ حَقَائِقِهَا ، فَهُوَ مِنْ لِسَانٍ وَرَاءَهُ قَلْبٌ ، وَرَاءَهُ نُوْرٌ ، وَرَاءَهُ ٱللهُ جَلَّ جَلَالُهُ ؛ وَهُوَ كَلَامٌ فِيْ مَجْمُوْعِهِ كَأَنَّهُ دُنْيَا أَصْدَرَهَا ﷺ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْعَظِيْمَةِ ، لَا تَبْرَحُ مَاضِيَةً فِيْ طَرِيْقِهَا ٱلسَّوِيِّ عَلَىٰ دِيْنِ ٱلْفِطْرَةِ ، فَلَا تَتَّسِعُ لِخِلَافٍ ، وَلَا يَقَعُ بِهَا ٱلتَّنَافُرُ ، وَٱلْخِلَافُ وَٱلتَّنَافُرُ إِنَّمَا يَكُوْنَانِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ بِطَبِيْعَتِهَا ، لِقِيَامِهَا عَلَىٰ قَانُوْنِ ٱلتَّنَازُعِ تَعْدُوْ بِهِ وَتَجْتَرِمُ وَتَأْثَمُ ، فَهِيَ نَازِلَةٌ إِلَىٰ ٱلشَّرِّ ، وَٱلشَّرُّ بَعْضُهُ أَسْفَلُ مِنْ بَعْضٍ ، أَمَّا رُوْحَانِيَّةُ ٱلْفِطْرَةِ فَمُتَّسِقَةٌ بِطَبِيْعَتِهَا ، لَا تَقْبَلُ فِيْ ذَاتِهَا ٱفْتِرَاقًا

= لِلْمُسْلِمِيْنَ لَا مِنْ طَرِيْقِ ٱلإِسْلَامِ بَلْ مِنْ طُرُقٍ أُخْرَىٰ فِيْهَا مَعْرُوْفُهَا وَمُنْكَرُهَا ، وَفِيْهَا عِلْمُهَا وَجَهْلُهَا ، وَفِيْهَا عَقْلُهَا وَحَمَاقَتُهَا . وَلَعَلَّ مِنْ هَٰذَا قَوْلُهُمْ : ٱلْمَدَنِيَّةُ ٱلأُوْرُبِّيَّةُ بِحَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا . . . وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ : « إِلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ » فَلَيْسَتِ ٱلدَّعْوَةُ إِلَىٰ بَابٍ وَاحِدٍ بَلْ إِلَىٰ أَبْوَابٍ مُخْتَلِفَةٍ لَعَلَّ آخِرَ مَا فَتَحُوْا مِنْهَا بَابُ ٱلأَدَبِ ٱلْمَكْشُوْفِ . . .
ثُمَّ تَأَمَّلْ قَوْلَهُ ﷺ : « وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ » فَإِنَّ مَعْنَاهُ ٱلاسْتِمْسَاكُ بِمَا بَقِيَ عَلَىٰ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلسَّلِيْمَةِ مِمَّا لَا يَسْتَطِيْعُ أُوْلَٰئِكَ أَنْ يُغَيِّرُوْهُ وَلَا أَنْ يُجَدِّدُوْهُ ، أَيْ : بِٱلاسْتِمْسَاكِ وَلَوْ بِأَصْلٍ وَاحِدٍ مِنْ قَدِيْمِ ٱلْفَضِيْلَةِ وَٱلإِيْمَانِ ، وَعِبَارَةُ ٱلْعَضِّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ تُمَثِّلُ أَبْدَعَ وَأَبْلَغَ وَصْفٍ لِمَنْ يَلْزَمُ أُصُوْلَ ٱلْفَضَائِلِ فِيْ هَٰذَا ٱلزَّمَنِ ، وَمَبْلَغُ مَا يُعَانِيْهِ فِيْ ٱلتَّمَسُّكِ بِفَضِيْلَتِهِ ، وَهِيَ وَحْدَهَا فَنٌّ كَأَجْمَلِ مَا يُبْدِعُهُ مُصَوِّرٌ عَبْقَرِيٌّ .

وَلَا ٱخْتِلَافًا ، إِذْ كَانَ أَوَّلُهَا ٱلْعُلُوَّ فَوْقَ ٱلذَّاتِيَّةِ ، وَقَانُوْنُهَا ٱلتَّعَاوُنَ عَلَىٰ ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ، فَهِيَ صَاعِدَةٌ إِلَىٰ ٱلْخَيْرِ ، وَٱلْخَيْرُ بَعْضُهُ أَعْلَىٰ مِنْ بَعْضٍ .

فَكَلَامُهُ ﷺ يَجْرِيْ مَجْرَىٰ عَمَلِهِ : كُلُّهُ دِيْنٌ وَتَقْوَىٰ وَتَعْلِيْمٌ ، وَكُلُّهُ رُوْحَانِيَّةٌ وَقُوَّةٌ وَحَيَاةٌ ، وَإِنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ وَقَدْ أَخَذْتُ بِطُهْرِهِ وَجَمَالِهِ ـ أَنَّ مِنَ ٱلْفَنِّ ٱلْعَجِيْبِ أَنْ يَكُوْنَ هَـٰذَا ٱلْكَلَامُ صَلَاةً وَصِيَامًا فِيْ ٱلْأَلْفَاظِ .

أَمَّا أُسْلُوْبُهُ ﷺ فَأَجِدُ لَهُ فِيْ نَفْسِيْ رُوْحَ ٱلشَّرِيْعَةِ وَنِظَامَهَا وَعَزِيْمَتَهَا ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا قُوَّةٌ ، قُوَّةُ أَمْرٍ نَافِذٍ لَا يَتَخَلَّفُ ، وَإِنَّ لَهُ مَعَ ذٰلِكَ نَسَقًا هَادِئًا هُدُوْءَ ٱلْيَقِيْنِ ، مُبِيْنًا بَيَانَ ٱلْحِكْمَةِ ، خَالِصًا خُلُوْصَ ٱلسِّرِّ ، وَاقِعًا مِنَ ٱلنَّفْسِ ٱلْمُؤْمِنَةِ مَوْقِعَ ٱلنِّعْمَةِ مِنْ شَاكِرِهَا ، وَكَيْفَ لَا يَكُوْنُ كَذٰلِكَ وَهُوَ أَمْرُ ٱلرُّوْحِ ٱلْعَظِيْمَةِ ٱلْمُوَجَّهَةِ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَوَحْيِهِ ، لِيَتَوَجَّهَ ٱلْعَالَمُ بِهَا كَأَنَّهُ مِنْهُ مَكَانُ ٱلْمِحْوَرِ ، وَدَوْرَتُهُ بِنَفْسِهِ هِيَ دَوْرَتُهُ بِنَفْسِهِ وَبِمَا حَوْلَهُ ، رُوْحُ نَبِيٍّ مُصْلِحٍ رَحِيْمٍ ، هُوَ بِإِصْلَاحِهِ وَرَحْمَتِهِ فِيْ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُوَ بِٱلنُّبُوَّةِ فَوْقَهَا ، وَهُوَ بِهَـٰذِهِ وَتِلْكَ فِيْ شَمَائِلِهِ وَطِبَاعِهِ مَجْمُوْعٌ إِنْسَانِيٌّ عَظِيْمٌ لَوْ شُبِّهَ بِشَيْءٍ لَقِيْلَ فِيْهِ : إِنَّهُ كَمَجْمُوْعِ ٱلْقَارَّاتِ ٱلْخَمْسِ لِعُمْرَانِ ٱلدُّنْيَا .

وَمَنْ دَرَسَ تَارِيْخَهُ ﷺ وَأَعْطَاهُ حَقَّهُ مِنَ ٱلنَّظَرِ وَٱلْفِكْرِ وَٱلتَّحْقِيْقِ ، رَأَىٰ نَسَقًا مِنَ ٱلتَّارِيْخِ ٱلْعَجِيْبِ كَنِظَامِ فَلَكٍ مِنَ ٱلْأَفْلَاكِ مُوَجَّهٍ بِٱلنُّوْرِ فِيْ ٱلنُّوْرِ مِنْ حَيْثُ يَبْدَأُ إِلَىٰ حَيْثُ يَنْتَهِيْ ، فَلَيْسَ يَمْتَرِيْ عَاقِلٌ مُمَيِّزٌ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلشَّرِيْفَةَ ، بِذٰلِكَ ٱلنِّظَامِ ٱلدَّقِيْقِ ، فِيْ ذٰلِكَ ٱلتَّوَجُّهِ ٱلْمُحْكَمِ ـ لَا يُطِيْقُهَا بَشَرٌ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ عَلَىٰ نَامُوْسِ ٱلْحَيَاةِ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيْ لَحْمِهِ وَدَمِهِ مَعْنَىٰ ٱلنُّوْرِ وَٱلْكَهْرَبَاءِ عَلَىٰ نَامُوْسٍ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلْحَيَاةِ .

وَلَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ ﷺ فِيْ ٱلصَّبْرِ وَٱلثَّبَاتِ وَٱسْتِقْرَارِ ٱلنَّفْسِ وَٱطْمِئْنَانِهَا عَلَىٰ زَلَازِلِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا فِيْ ٱلرَّحْمَةِ وَرِقَّةِ ٱلْقَلْبِ وَٱلسُّمُوِّ فَوْقَ مَعَانِيْ ٱلْبَقَاءِ ٱلْأَرْضِيِّ ؛ فَهُوَ قَدْ خُلِقَ كَذٰلِكَ لِيَغْلِبَ ٱلْحَوَادِثَ وَيَتَسَلَّطَ عَلَىٰ ٱلْمَادَّةِ ، فَلَا يَكُوْنُ شَأْنُهُ شَأْنَ غَيْرِهِ مِنَ ٱلنَّاسِ : تَدْفِنُهُمْ مَعَانِيْ ٱلتُّرَابِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ فَوْقَ ٱلتُّرَابِ ، أَوْ يَحُدُّهُمُ ٱلْجِسْمُ ٱلْإِنْسَانِيُّ مِنْ جَمِيْعِ جِهَاتِهِمْ بِحُدُوْدِ طِبَاعِهِ وَنَزَعَاتِهِ ؛ وَبِذٰلِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَنْبَعَ تَارِيْخٍ فِيْ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا دَائِمًا ، وَلَرَأْسُ ٱلدُّنْيَا نِظَامُ أَفْكَارِهِ ٱلصَّحِيْحَةِ .

* * *

عَنْ عَبْدِ ٱللهِ بِنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُوْلَ ٱللهِ ﷺ يَقُوْلُ : « ٱنْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّىٰ أَوَوْا ٱلْمَبِيْتَ إِلَىٰ غَارٍ فَدَخَلُوْهُ ، فَٱنْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ ٱلْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ ٱلْغَارَ ، فَقَالُوْا : إِنَّهُ لَا يُنْجِيْكُمْ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوْا ٱللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ ! فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : ٱللَّهُمَّ كَانَ لِيْ أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيْرَانِ ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا[1] فَنَأَىٰ بِيْ فِيْ طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّىٰ نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوْقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا ، فَلَبِثْتُ وَٱلْقَدَحُ عَلَىٰ يَدَيَّ أَنْتَظِرُ ٱسْتِيْقَاظَهُمَا حَتَّىٰ بَرَقَ ٱلْفَجْرُ ، فَٱسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوْقَهُمَا . ٱللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلصَّخْرَةِ ، فَٱنْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيْعُوْنَ ٱلْخُرُوْجَ » .

قَالَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ : « وَقَالَ ٱلْآخَرُ : ٱللَّهُمَّ كَانَتْ لِيْ بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَٱمْتَنَعَتْ مِنِّيْ ، حَتَّىٰ أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ ٱلسِّنِيْنَ[2] فَجَاءَتْنِيْ فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِيْنَ وَمِئَةَ دِيْنَارٍ عَلَىٰ أَنْ تُخْلِيَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ نَفْسِهَا ! فَفَعَلَتْ ، حَتَّىٰ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ : لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ ٱلْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ ! فَتَحَرَّجْتُ مِنَ ٱلْوُقُوْعِ عَلَيْهَا ، فَٱنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ، وَتَرَكْتُ ٱلذَّهَبَ ٱلَّذِيْ أَعْطَيْتُهَا . ٱللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ٱبْتِغَاءَ وجْهِكَ فَٱفْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ ! فَٱنْفَرَجَتِ ٱلصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيْعُوْنَ ٱلْخُرُوْجَ مِنْهَا » .

قَالَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ : « وَقَالَ ٱلثَّالِثُ : ٱللَّهُمَّ إِنِّيْ ٱسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ ٱلَّذِيْ لَهُ وَذَهَبَ ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّىٰ كَثُرَتْ مِنْهُ ٱلْأَمْوَالُ ، فَجَاءَنِيْ بَعْدَ حِيْنٍ ، فَقَالَ : يَا عَبْدَ ٱللهِ ! أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِيْ . فَقُلْتُ لَهُ : كُلُّ مَا تَرَىٰ مِنْ أَجْرِكَ : مِنَ ٱلْإِبِلِ وَٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ وَٱلرَّقِيْقِ ؛ فَقَالَ : يَا عَبْدَ ٱللهِ ! لَا تَسْتَهْزِئْ بِيْ ! فَقُلْتُ : إِنِّيْ لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ ! فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَسَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ لِيْ شَيْئًا ، ٱللّٰهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَٱفْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ ؛ فَٱنْفَرَجَتِ ٱلصَّخْرَةُ ، فَخَرَجُوْا يَمْشُوْنَ » ٱنْتَهَىٰ ٱلْحَدِيْثُ . [رواه البخاري ، رقم : ٢٢٧٢ و٣٤٦٥ ؛ مسلم ، رقم : ٢٧٤٣] .

---

(١) أَيْ : لَا يَسْقِيْ ٱلْغَبُوْقَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهِ أَوْ جَمَاعَتِهِ قَبْلَهُمَا .

(٢) سَنَةٌ : جَدْبٌ وَفَقْرٌ .

وَأَنَا فَلَسْتُ أَدْرِيْ ، أَهَـٰذَا هُوَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ يَتَكَلَّمُ فِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ وَحُقُوْقِهَا بِكَلَامٍ بَيِّنٍ صَرِيْحٍ لَا فَلْسَفَةَ فِيْهِ ، يَجْعَلُ مَا بَيْنَ ٱلإِنْسَانِ وَٱلإِنْسَانِ مِنَ ٱلنِّيَّةِ هُوَ مَا بَيْنَ ٱلإِنْسَانِ وَرَبِّهِ مِنَ ٱلدِّيْنِ ؟ أَمْ هِيَ ٱلإِنْسَانِيَّةُ تَنْطِقُ عَلَىٰ لِسَانِهِ بِهَـٰذَا ٱلْبَيَانِ ٱلْعَالِيْ ، فِيْ شِعْرٍ مِنْ شِعْرِهَا ، ضَارِبَةً فِيْهِ ٱلأَمْثَالَ ، مُشِيْرَةً فِيْهِ إِلَىٰ ٱلرُّمُوْزِ ، وَاضِعَةً إِنْسَانَهَا بَيْنَ شِدَّةِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَرَحْمَةِ ٱللهِ ، مُحْكِمَةً عَنَاصِرَ رِوَايَتِهَا ٱلشِّعْرِيَّةِ ، مُحَقِّقَةً فِيْ بَيَانِهَا ٱلْمَكْشُوْفِ أَغْمَضَ مَعَانِيْهَا فِيْ فَلْسَفَةِ ٱلْحَاسَّةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ حِيْنَ تَتَّصِلُ بِأَشْيَائِهَا فَتَظْهَرُ ٱلضَّرُوْرَةُ ٱلْبَشَرِيَّةُ وَتَخْتَفِيْ ٱلْحِكْمَةُ ، وَفَلْسَفَةِ ٱلرُّوْحِ حِيْنَ تَتَّصِلُ بِهَـٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ ذَاتِهَا فَتَظْهَرُ ٱلْحِكْمَةُ وَتَخْتَفِيْ ٱلضَّرُوْرَةُ ـ مُبَيِّنَةً أَثَرَ هَـٰذِهِ وَتِلْكَ فِيْ طَبِيْعَةِ ٱلْكَوْنِ ، مُقَرِّرَةً أَنَّ ٱلْحَقِيْقَةَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ ٱلْعَالِيَةَ لَنْ تَكُوْنَ فِيْمَا يَنَالُ ٱلإِنْسَانُ مِنْ لَذَّتِهِ ، وَلَا فِيْمَا يَنْجَحُ مِنْ أَغْرَاضِهِ ، وَلَا فِيْمَا يُقْنِعُهُ مِنْ مَنْطِقِهِ ، وَلَا فِيْمَا يَلُوحُ مِنْ خَيَالِهِ ، وَلَا فِيْمَا يَنْتَظِمُ مِنْ قَوَانِيْنِهِ ؛ بَلْ هِيَ ٱلسُّمُوُّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْكَاذِبَةِ كُلِّهَا ، وَهِيَ ٱلرَّحْمَةُ ٱلَّتِيْ تَغْلِبُ عَلَىٰ ٱلأَثَرَةِ فَيُسَمِّيْهَا ٱلنَّاسُ بِرًّا ، وَٱلرَّحْمَةُ ٱلَّتِيْ تَغْلِبُ عَلَىٰ ٱلشَّهْوَةِ فَيُسَمِّيْهَا ٱلنَّاسُ عِفَّةً ، وَٱلرَّحْمَةُ ٱلَّتِيْ تَغْلِبُ عَلَىٰ ٱلطَّمَعِ فَيُسَمِّيْهَا ٱلنَّاسُ أَمَانَةً ؛ وَهِيَ فِيْ ضَبْطِ ٱلرُّوْحِ لِثَلَاثٍ مِنَ ٱلْحَوَاسِّ : حَاسَّةُ ٱلدَّعَةِ ٱلَّتِيْ يَقُوْمُ بِهَا حَظُّ ٱلْخُمُوْلِ ، وَحَاسَّةُ ٱللَّذَّةِ ٱلَّتِيْ يَقُوْمُ بِهَا حَظُّ ٱلْهَوَىٰ ، وَحَاسَّةُ ٱلتَّمَلُّكِ ٱلَّتِيْ يَقُوْمُ بِهَا حَظُّ ٱلْقُوَّةِ .

وَتَزِيْدُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ عَلَىٰ ذٰلِكَ فِيْ نَسَقِ شِعْرِهَا أَنَّهَا تُثْبِتُ أَنَّ ٱلْبِرَّ مِنَ ٱلْعِفَّةِ وَٱلأَمَانَةِ هُوَ عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ كَٱلأَسَاسِ لَهُمَا ؛ فَمَنْ نَشَأَ عَلَىٰ بِرِّ أَبَوَيْهِ كَانَ خَلِيْقًا أَنْ يَتَحَقَّقَ بِٱلْعِفَّةِ وَٱلأَمَانَةِ ، وَأَنَّ ٱلْعِفَّةَ مِنَ ٱلأَمَانَةِ وَٱلْبِرِّ هِيَ مِسَاكُهُمَا وَجَامِعَتُهُمَا فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَأَنَّ ٱلأَمَانَةَ مِنَ ٱلْبِرِّ وَٱلْعِفَّةِ هِيَ كَمَالُ هَـٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ، وَكُلُّهُنَّ دَرَجَاتٌ لِحَقِيْقَةٍ وَاحِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَهَا أَسْمَىٰ مِنْ بَعْضٍ فِيْ ٱلشَّأْنِ وَٱلْمَنْزِلَةِ ، وَبَعْضُهَا طَرِيْقٌ لِبَعْضٍ يَجُرُّ سَبَبٌ مِنْهَا سَبَبًا مِنْهَا ، وَأَنَّ ٱلرَّحْمَةَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ ٱلَّتِيْ هِيَ وَحْدَهَا ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ هَـٰذَا ٱلْحُبُّ ، بَادِئًا مِنَ ٱلْوَلَدِ لِأَبَوَيْهِ ، وَهُوَ ٱلْحُبُّ ٱلْخَاصُّ ، ثُمَّ مِنَ ٱلْمُحِبِّ لِحَبِيْبَتِهِ ، وَهُوَ ٱلْحُبُّ ٱلأَخَصُّ ، ثُمَّ مِنَ ٱلإِنْسَانِ لِلإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُوَ ٱلْحُبُّ مُطْلَقًا بِعُمُوْمِهِ وَبِغَيْرِ أَسْبَابِهِ ٱلْمُلْجِئَةِ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلْغَرِيْزَةِ ؛ وَهِيَ دَرَجَاتٌ كَدَرَجَاتِ ٱلْحَيَاةِ نَفْسِهَا مِنْ طُفُوْلَتِهَا إِلَىٰ شَبَابِهَا إِلَىٰ ٱلشَّيْخُوْخَةِ ، وَمِنَ ٱلْعَاطِفَةِ إِلَىٰ ٱلرَّغْبَةِ إِلَىٰ ٱلْعَقْلِ .

ثُمَّ إِنَّهُ مَا دَامَ كَمَالُ ٱلْفَضِيْلَةِ هُوَ ٱلأَمَانَةُ ، فَمَا قَبْلَهَا أَنْوَاعٌ مِنْهَا ؛ فَبِرُّ ٱلْوَلَدِ أَمَانَةُ ٱلطَّبْعِ

ٱلْمُتَأَدِّبِ ، وَعِفَّةُ ٱلْمُحِبِّ أَمَانَةُ ٱلْقَلْبِ ٱلْكَرِيْمِ ، وَٱلثَّالِثَةُ أَمَانَةُ ٱلْخُلُقِ ٱلْعَالِيْ ، وَهِيَ أَسْمَاهُنَّ ، لِأَنَّهَا لَنْ تَكُوْنَ خُلُقًا ثَابِتًا إِلَّا وَقَدْ خَضَعَ لِقَانُوْنِهَا ٱلطَّبْعُ وَٱلْقَلْبُ ، وَدَخَلَ فِيْ أَسْبَابِهَا ٱلأَدَبُ وَٱلْكَرَمُ ؛ فَٱلأَمَانَةُ ٱلْكَامِلَةُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْفَلْسَفَةِ هِيَ ٱلأَمَانَةُ لِلإِنْسَانِيَّةِ ٱلْعَامَّةِ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِٱلْمَرْءِ مِنْ أَبْعَدِ جِهَاتِهِ ، دُوْنَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلْخَاصَّةِ بِكُلِّ شَخْصٍ مَنْ أَبٍ ، أَوْ أُمٍّ ، أَوْ قَرِيْبٍ ؛ وَدُوْنَ ٱلَّتِيْ هِيَ أَخَصُّ وَهِيَ إِنْسَانِيَّةُ ٱلْحُبِّ .

وَنَرَىٰ فِيْ لَفْظِ ٱلْحَدِيْثِ أَنَّ كُلَّ رَجُلٍ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلَّذِيْنَ مَثَّلُوْا رِوَايَةَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلْفَاضِلَةِ فِيْ فُصُوْلِهَا ٱلثَّلَاثَةِ ، لَا يَقُوْلُ : إِنَّهُ فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنْ صَالِحِ أَعْمَالِهِ إِلَّا (ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ) ، وَقَدْ تَطَابَقُوْا جَمِيْعًا عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَدَقِّ مَا فِيْ فَلْسَفَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ فِيْ شِعْرِهَا ذَلِكَ ، فَإِنَّ مَعْنَاهَا أَنَّ ٱلرَّجُلَ فِيْ صَالِحِ عَمَلِهِ إِنَّمَا كَانَ مُجَاهِدًا نَفْسَهُ ، يَمْنَعُهَا مَا تَحْرِصُ عَلَيْهِ مِنْ حَظِّهَا أَوْ لَذَّتِهَا أَوْ مَنْفَعَتِهَا ، أَيْ : مُنْخَلِعًا مِنْ طَبِيْعَتِهِ ٱلأَرْضِيَّةِ ٱلْمُنَازِعَةِ لِسِوَاهَا ، ٱلْمُنْفَرِدَةِ بِذَاتِهَا ، مُتَحَقِّقًا بِٱلطَّبِيْعَةِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ ٱلَّتِيْ لَا يَرْحَمُ ٱللهُ عَبْدًا إِلَّا بِهَا ، وَهِيَ رَحْمَةُ ٱلإِنْسَانِ غَيْرَهُ ، أَيْ : ٱنْدِمَاجُهُ بِٱسْتِطَاعَتِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَإِعْطَاؤُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَمُعَاوَنَتُهُ كَفُّ أَذَاهُ .

وَٱلْحَدِيْثُ كَٱلنَّصِّ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلرَّحْمَةَ فِيْ ٱلنَّفْسِ هِيَ ٱلدِّيْنُ عِنْدَ ٱللهِ ، لَا يَصْلُحُ دِيْنٌ بِغَيْرِهَا ، وَلَا يَقْبَلُ ٱللهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا مِنْ نَفْسٍ تَخْلُوْ مِنْهَا ؛ وَإِذَا كَانَتْ بِهَـٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ ، وَكَانَتْ أَسَاسَ مَا يُفْرَضُ عَلَىٰ ٱلإِنْسَانِ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلْحَقِّ ، فَهِيَ مِنْ ذَلِكَ فِيْ مَعْنَىٰ ٱلْحَدِيْثِ أَسَاسُ مَا يُصْلِحُ هَـٰذِهِ ٱلإِنْسَانِيَّةَ مِنَ ٱلشَّرِّ وَٱلْبَاطِلِ ؛ وَبِهَـٰذَا كُلِّهِ تَكُوْنُ ٱلْغَايَةُ ٱلْفَلْسَفِيَّةُ ٱلَّتِيْ يَنْتَهِيْ إِلَيْهَا كَلَامُهُ ﷺ ، أَنَّ تَنْشِئَةَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ ٱلْبِرِّ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلأَمَانَةِ لِلإِنْسَانِيَّةِ هِيَ وَحْدَهَا ٱلطَّرِيْقَةُ ٱلْعَمَلِيَّةُ ٱلْمُمْكِنَةُ لِحَلِّ مُعْضِلَةِ ٱلشَّرِّ وَٱلْجَرِيْمَةِ فِيْ ٱلاجْتِمَاعِ ٱلْبَشَرِيِّ .

وَٱنْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ نِهَايَةَ ٱلسُّمُوِّ فِيْ رَحْمَةِ ٱلْمَالِ ٱلَّذِيْ يَصِفُوْنَهُ بِأَنَّهُ شَقِيْقُ ٱلرُّوْحِ ، فَكَأَنَّ ٱلإِنْسَانَ لَا يَخْرُجُ فِيْهَا لِغَيْرِهِ مِنْ بَعْضِ مَالِهِ ، بَلْ يَنْخَلِعُ مِنْ بَعْضِ رُوْحِهِ ؛ وَهَـٰذَا يُقَرِّرُ لَكَ فَلْسَفَةً أُخْرَىٰ : أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ ٱلصَّحِيْحَةَ فِيْ ٱلْعَطَاءِ دُوْنَ ٱلأَخْذِ ، وَأَنَّ ٱلزَّائِفَةَ هِيَ فِيْ ٱلأَخْذِ دُوْنَ ٱلْعَطَاءِ ؛ وَذَلِكَ آخِرُ مَا ٱنْتَهَتْ إِلَيْهِ فَلْسَفَةُ ٱلأَخْلَاقِ ؛ فَمَا ٱلْمَرْءُ إِلَّا ثَمَرَةٌ تَنْضَجُ بِمَوَادِّهَا ، حَتَّىٰ إِذَا نَضِجَتْ وَٱحْلَوْلَتْ كَانَ مَظْهَرُ كَمَالِهَا وَمَنْفَعَتِهَا فِيْ ٱلْوُجُوْدِ أَنْ تَهَبَ حَلَاوَتَهَا ؛ فَإِذَا هِيَ أَمْسَكَتِ ٱلْحَلَاوَةَ عَلَىٰ نَفْسِهَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا هَـٰذِهِ ٱلْحَلَاوَةُ بِعَيْنِهَا سَبَبٌ فِيْ

عَفَنِهَا وَفَسَادِهَا مِنْ بَعْدُ . أَفَهِمْتَ ؟

وَمَا دُمْنَا قَدْ وَصَفْنَا رَحْمَةَ ٱلْمَالِ ، فَإِنَّا نُتِمُّ ٱلْكَلَامَ فِيهَا بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيْثِ ٱلْعَجِيْبِ فِيْ فَنِّ تَمْثِيْلِهِ وَبَلَاغَةِ فَنِّهِ : عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُوْلَ ٱللهِ ﷺ يَقُوْلُ : « مَثَلُ ٱلْبَخِيْلِ وَٱلْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيْدٍ ، مِنْ ثَدْيِهِمَا إِلَىٰ تَرَاقِيهِمَا ؛ فَأَمَّا ٱلْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَىٰ جِلْدِهِ حَتَّىٰ تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ ، وَأَمَّا ٱلْبَخِيْلُ فَلَا يُرِيْدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ » . ٱنْتَهَىٰ .
[البخاري ، رقم : ١٤٤٤ ، ٢٩١٧ ، ٥٧٩٧ ؛ مسلم ، رقم : ١٠٢١ ؛ النسائي ، رقم : ٢٥٤٧ ، ٢٥٤٨ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٧٤٣٤ ، ٨٨١٤ ، ١٠٣٩١] .

فَأَنْتَ تَرَىٰ ظَاهِرَ ٱلْحَدِيْثِ ، وَلَـٰكِنَّ فَنَّهُ ٱلْعَجِيْبَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيْدِ ٱلَّذِيْ يُرَادُ بِهِ طَبِيْعَةُ ٱلْخَيْرِ وَٱلرَّحْمَةِ فِيْ ٱلْإِنْسَانِ ، فَهِيَ مِنْ أَشَدِّ ٱلطَّبَائِعِ جُمُوْدًا وَصَلَابَةً وَٱسْتِعْصَاءً مَتَىٰ ٱعْتَرَضَتْهَا حُظُوْظُ ٱلنَّفْسِ ٱلْحَرِيْصَةِ وَأَهْوَاؤُهَا ، وَمَعَ ذَٰلِكَ فَإِنَّ ٱلسَّخَاءَ بِٱلْمَالِ يَبْسُطُ مِنْهَا وَيَنْتَهِيْ فِيْ ٱلطَّبْعِ إِلَىٰ أَنْ يَجْعَلَهَا لَيِّنَةً ، فَلَا تَزَالُ تَمْتَدُّ وَتَسْبُغُ حَتَّىٰ يَكُوْنَ كَمَالُ طَبْعِ ٱلسَّخَاءِ وَهُوَ كَمَالُ طَبْعِ ٱلْخَيْرِ فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلْكَرِيْمَةِ ، فَمَنْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ ٱلْجُوْدَ وَٱلْإِنْفَاقَ رَاضَهَا رِيَاضَةً عَمَلِيَّةً كَرِيَاضَةِ ٱلْعَضَلِ بِأَثْقَالِ ٱلْحَدِيْدِ وَمُعَانَاةِ ٱلْقُوَّةِ فِيْ ٱلصِّرَاعِ وَنَحْوِهِ : أَمَّا ٱلشُّحُّ فَلَا يُنَاقِضُ تِلْكَ ٱلطَّبِيْعَةَ وَلَـٰكِنَّهُ يَدَعُهَا جَامِدَةً مُسْتَعْصِيَةً ، لَا تَلِيْنُ وَلَا تَسْتَجِيْبُ وَلَا تَتَيَسَّرُ .

وَقَدْ جَعَلَ ٱلْجُبَّةَ مِنَ ٱلثُّدِيِّ إِلَىٰ ٱلتَّرَاقِيْ ، وَهَـٰذَا مِنْ أَبْدَعِ مَا فِيْ ٱلْحَدِيْثِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فَهُوَ مُنْفِقٌ عَلَىٰ ضَرُوْرَاتِهِ ، يَسْتَوِيْ فِيْ ذَٰلِكَ ٱلْكَرِيْمُ وَٱلْبَخِيْلُ ، فَهُمَا عَلَىٰ قَدْرٍ سَوَاءٍ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ ؛ وَإِنَّمَا ٱلتَّفَاوُتُ فِيْمَا زَادَ وَسَبَغَ مِنْ وَرَاءِ هَـٰذَا ٱلْحَدِّ ، فَهَـٰهُنَا يَبْسُطُ ٱلْكَرِيْمُ بَسْطَهُ ٱلْإِنْسَانِيَّ ، أَمَّا ٱلْبَخِيْلُ فَهُوَ « يُرِيْدُ » لِأَنَّهُ إِنْسَانٌ ، ٱلْإِرَادَةُ عَمَلٌ عَقْلِيٌّ لَا أَكْثَرَ ، فَإِذَا هُوَ حَاوَلَ تَحْقِيْقَ هَـٰذِهِ ٱلْإِرَادَةِ وَقَعَ مِنْ طَبِيْعَةِ نَفْسِهِ ٱلْكَزَّةِ فِيْمَا يُعَانِيْهِ مَنْ يُوَسِّعُ جُبَّةَ ٱلْحَدِيْدِ لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مِنْ حَلَقَاتِهَا فِيْ مَكَانِهَا ، فَهِيَ مُسْتَعْصِيَةٌ مُتَمَاسِكَةٌ ، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ .

أَلَا تَرَىٰ كَيْفَ تَتَوَجَّهُ ٱلْحُجَّةُ ؛ وَكَيْفَ تَدِقُّ ٱلْفَلْسَفَةُ وَهِيَ فِيْ أَظْهَرِ ٱلْبَيَانِ وَأَوْضَحِهِ ؟ وَهَلْ تُحْسَبُ طَبِيْعَةُ ٱلْبَخِيْلِ فِيْ دَقَائِقِهَا ٱلنَّفْسِيَّةِ لَوْ هِيَ نَطَقَتْ ـ بَالِغَةً مِنْ وَصْفِ نَفْسِهَا هَـٰذَا

ٱلْمَبْلَغَ مِنْ جَمَالِ ٱلْفَنِّ وَإِبْدَاعِهِ ؟ وَهُوَ بَعْدُ وَصْفٌ لَوْ نُقِلَ إِلَىٰ كُلِّ لُغَاتِ ٱلْأَرْضِ لَزَانَهَا جَمِيْعًا ، وَلَكَانَ فِيْ جَمِيْعِهَا كَٱلْإِنْسَانِ نَفْسِهِ : لَا يَخْتَلِفُ تَرْكِيْبُهُ ، فَلَنْ يَكُوْنَ بِثَلَاثَةِ أَعْيُنٍ ، لَا فِيْ بِلَادِ شِكْسْبِيْرَ Shakespeare وَلَا فِيْ بِلَادِ ٱلزُّنُوْجِ !

إِنَّ كَلَامَ نَبِيِّنَا ﷺ يَجِبُ أَنْ يُتَرْجَمَ بِفَلْسَفَةِ عَصْرِنَا وَآدَابِهِ ، فَسَتَرَاهُ حِيْنَئِذٍ كَأَنَّمَا قِيْلَ مَرَّةً أُخْرَىٰ مِنْ فَمِ ٱلنُّبُوَّةِ ، وَسَتَرَاهُ فِيْ شَرْحِهِ ٱلْفَلْسَفِيِّ كَٱلْأَزْهَارِ ٱلنَّاضِرَةِ : حَيَاتُهَا بَشَاشَتُهَا فِيْ ٱلنُّوْرِ ، وَتَعْرِفُهُ إِنْسَانِيَّةٌ قَائِمَةٌ تُصَحَّحُ بِهَا أَغْلَاطُ ٱلزَّمَنِ فِيْ أَهْلِهِ ، وَأَغْلَاطُ ٱلنَّاسِ فِيْ زَمَنِهِمْ ؛ وَتَجِدُهُ يَرِفُّ عَلَىٰ ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱلْمِسْكِيْنَةِ بِحَنَانٍ كَحَنَانِ ٱلْأُمِّ عَلَىٰ أَطْفَالِهَا ، وَٱلنَّاسُ ٱلْآنَ كَٱلْأَطْفَالِ غَابَتْ أُمُّهُمْ ، فَهُمْ فِيْ تَنَافُرٍ صِبْيَانِيٍّ . . . وَمَا ٱلْأُمُّ بِطَبِيْعَتِهَا إِلَّا ٱلْمِيْزَانُ لِٱسْتِبْدَادِهِمْ ، وَٱلْحِكْمَةُ لِطَيْشِهِمْ ، وَٱلِٱئْتِلَافُ لِتَنَافُرِهِمْ ، وَٱلنِّظَامُ لِعَبَثِهِمْ ؛ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَحَنَانُ قَلْبِهَا ٱلْكَبِيْرِ هُوَ ٱلْقَانُوْنُ لِكُلِّ قَضَايَا هَـٰذِهِ ٱلْقُلُوْبِ ٱلصَّغِيْرَةِ .

وَقَدْ كَتَبْنَا فِيْ فَلْسَفَةِ ٱلْأَدَبِ وَحَقِيْقَتِهِ ، وَمَعَانِيْهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّ ٱلْأَدِيْبَ ٱلتَّامَّ ٱلْأَدَاةِ هُوَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْكَوْنِيُّ ، وَغَيْرُهُ هُوَ ٱلْإِنْسَانُ فَقَطْ ، وَأَنَّ عِلْمَ ٱلْأَدِيْبِ هُوَ ٱلنَّفْسُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ بِأَسْرَارِهَا ٱلْمُتَّجِهَةِ إِلَىٰ ٱلطَّبِيْعَةِ ، وَٱلطَّبِيْعَةُ بِأَسْرَارِهَا ٱلْمُتَّجِهَةِ إِلَىٰ ٱلنَّفْسِ ؛ وَلِذَٰلِكَ فَمَوْضِعُهُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ مَوْضِعُ فِكْرَةٍ حُدُوْدُهَا مِنْ كُلِّ نَوَاحِيْهَا ٱلْأَسْرَارُ ـ وَأَنَّ ٱلْأَدِيْبَ مُكَلَّفٌ تَصْحِيْحَ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَنَفْيَ ٱلتَّزْوِيْرِ عَنْهَا ، وَإِخْلَاصَهَا مِمَّا يَلْتَبِسُ بِهَا عَلَىٰ تَتَابُعِ ٱلضَّرُوْرَاتِ ، ثُمَّ تَصْحِيْحَ ٱلْفِكْرَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِيْ ٱلْوُجُوْدِ ، وَنَفْيَ ٱلْوَثَنِيَّةِ عَنْ هَـٰذِهِ ٱلْفِكْرَةِ ، وَٱلسُّمُوَّ بِهَا إِلَىٰ فَوْقِ ، ثُمَّ إِلَىٰ فَوْقِ ، وَدَائِمًا إِلَىٰ فَوْقِ[١] .

فَإِذَا تَدَبَّرْتَ هَـٰذَا ٱلْمَقَالَ ، وَٱعْتَبَرْتَ كَلَامَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ مَا بَيَّنَّا وَشَرَحْنَا ، وَأَخَذْتَهُ مِنْ عَصْرِهِ وَمِنَ ٱلْعَصْرِ ٱلَّذِيْ نَعِيْشُ فِيْهِ ، وَنَظَرْتَ إِلَىٰ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيْهِ ، وَٱسْتَبْرَأْتَ مَا بَيْنَهَا مِنْ

(١) نُشِرَ هَـٰذَا ٱلْمَقَالُ فِيْ مُقْتَطَفِ شَهْرِ يوليو/ تموز سَنَةَ ١٩٣٢ ، وَأَكْثَرُ مَا فِيْهِ يُعَدُّ مُتَمِّمًا لِفَلْسَفَةِ هَـٰذَا ٱلْفَصْلِ ؛ وَسَنَجْمَعُ كُلَّ مَقَالَاتِنَا فِيْ كِتَابٍ يَصْدُرُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ فِيْ آخِرِ صَيْفِ هَـٰذَا ٱلْعَامِ .
قُلْتُ [وَٱلْقَائِلُ هُوَ سَعِيدٌ ٱلْعُرْيَانُ] : وَأَحْسَبُهُ كَانَ يَعْنِيْ كِتَابَهُ « قَوْلٌ مَعْرُوْفٌ » ، وَقَدِ ٱسْتَغْنَىٰ عَنْهُ بِهَـٰذَا ٱلْكِتَابِ « وَحْيُ ٱلْقَلَمِ » ، وَقَدْ نَشَرْنَا هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَةَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْجُزْءِ ، وَٱنْظُرْ « فَتْرَةُ جَمَامٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » .

خَوَاصِّ ٱلْفَنِّ بِمِثْلِ مَا نَبَّهْنَاكَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلتَّأْوِيْلِ ٱلَّذِيْ مَرَّ بِكَ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ كُلَّ حَقِيْقَةٍ فَنِّيَّةٍ لَا تَكُوْنُ كَذَلِكَ إِلَّا بِخَاصَّةٍ فِيْهَا ، وَأَنَّ سِرَّ جَمَالِهَا فِيْ خَاصَّتِهَا - إِذَا جَمَعْتَ ذَلِكَ لَمْ تَرَ مَذْهَبًا عَنِ ٱلْإِقْرَارِ بِأَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ كَمَا هُوَ أَعْظَمُ نَبِيٍّ وَأَعْظَمُ مُصْلِحٍ ، فَهُوَ أَعْظَمُ أَدِيْبٍ ؛ لِأَنَّ فَنَّهُ ٱلْأَدَبِيَّ أَعْظَمُ فَنٍّ يُحَقِّقُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ حَيَاةَ أَخْلَاقِهَا ، وَهُوَ بِكُلِّ ذَلِكَ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ .

* * *

فَٱلْفَنُّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْبَلَاغَةِ هُوَ فِيْ دَقَائِقِهِ أَثَرُ تِلْكَ ٱلرُّوْحِ ٱلْعُلْيَا بِكُلِّ خَصَائِصِهَا ٱلْعَظِيْمَةِ ٱلَّتِيْ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا ٱلْوُجُوْدُ ٱلرُّوْحَانِيُّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ، وَلِذَا تَرَىٰ كَلَامَهُ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ حُدُوْدِ ٱلزَّمَانِ ، فَكُلُّ عَصْرٍ وَاجِدٌ فِيْهِ مَا يُقَالُ لَهُ ، وَهُوَ بِذَلِكَ نُبُوَّةٌ لَا تَنْقَضِيْ ، وَهُوَ حَيٌّ بِٱلْحَيَاةِ ذَاتِهَا ، وَكَأَنَّمَا هُوَ لَوْنٌ عَلَىٰ وَجْهٍ مِنْهَا كَمَا تَرَى ٱلْبَيَاضَ مَثَلًا هُوَ ٱللَّوْنُ عَلَىٰ وَجْهِ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْبَشَرِيِّ . . .

فَإِذَا نَظَرْتَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْفَنِّ فَٱنْظُرْهُ فِيْ حَدِيْثِهِ ، وَفِيْ عَمَلِهِ ، وَفِي ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِيْ أَلَّفَهَا مِنَ ٱلتَّارِيْخِ تَأْلِيْفَ ٱلْقِطْعَةِ ٱلْبَلِيْغَةِ ٱلنَّادِرَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ ، وَرُدَّ كُلَّ مَا تَدَبَّرْتَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَىٰ تِلْكَ ٱلرُّوْحِ ٱلْجَدِيْدَةِ عَلَىٰ تَارِيْخِ ٱلْأَرْضِ ، فَلْتَعْلَمَنَّ حِيْنَئِذٍ أَنَّ كُلَّ بَلِيْغٍ هُوَ شَمْعَةٌ مُضِيْئَةٌ صُنِعَتْ لَهَا مَادَّةُ ٱلنُّوْرِ نُوْرًا وَجَمَالًا ، بِجَانِبِ هَـٰذِهِ ٱلشَّمْسِ ٱلَّتِيْ خُلِقَتْ فِيْهَا مَادَّةُ ٱلنُّوْرِ نُوْرًا وَجَمَالًا وَحَيَاةً وَقُوَّةً ، هُنَاكَ نُوْرٌ لِذِيْ عَيْنَيْنِ وَهُنَا ٱلنُّوْرُ لِكُلِّ ذِيْ عَيْنَيْنِ ؛ وَذَاكَ يَتَخَايَلُ كَٱلْحُلْمِ ، وَهَـٰذَا يُفْصِحُ كَٱلْحَقِيْقَةِ ، وَذَلِكَ ضَوْءٌ مِنْ حَوْلِهِ ٱلظُّلْمَةُ دَانِيَةٌ ، وَهَـٰذَا قَدْ طَرَدَ ٱلظُّلْمَةَ عَنْ نِصْفِ ٱلدُّنْيَا إِلَىٰ نِصْفِ ٱلدُّنْيَا ؛ وَٱلْأَوَّلُ نُوْرٌ بِلَا رُوْحٍ ، وَٱلثَّانِيْ هُوَ رُوْحُ ٱلنُّوْرِ .

تِلْكَ فِيْ رَأْيِنَا هِيَ ٱلطَّرِيْقَةُ ٱلَّتِيْ كَانَ يَفْهَمُهُ بِهَا أَصْحَابُهُ ﷺ ، كَمَا يَفْهَمُ ٱلشَّاعِرُ نُوْرَ ٱلْقَمَرِ فِيْ لَيْلَةِ صَيْفٍ بِمَعَانٍ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ ، وَمِنَ ٱلنَّفْسِ وَٱلْحَالَةِ ، وَمِنَ ٱلْهَيْئَةِ وَٱلشَّكْلِ ، وَمِنَ ٱلْعَيْنِ وَٱلْفِكْرِ ، وَمِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ، فَفِيْهِ ٱلنُّوْرُ وَزِيَادَةٌ ، أَيِ ٱلْحَقِيْقَةُ وَمَا تَرْتَفِعُ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِهَا ، وَبِهَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةِ كَانُوْا مَعَهُ كَأَعْظَمِ فَلَاسِفَةِ ٱلْفَنِّ مَعَ ٱلْفَنِّ إِعْجَابًا وَحُبًّا وَٱنْقِيَادًا وَطَاعَةً حَتَّىٰ ٱنْخَلَعُوْا مِنْ عَصْرِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَخَرَجُوْا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَطَبَائِعِهِمْ ، وَٱنْجَذَبُوْا إِلَيْهِ أَشَدَّ ٱنْجِذَابٍ عَرَفَهُ ٱلتَّارِيْخُ ، وَأَصْبَحُوْا مُصَرَّفِيْنَ مَعَهُ تَصْرِيْفَ ٱلْحَوَادِثِ لَا تَصْرِيْفَ ٱلْأَشْخَاصِ ، وَعَادَتْ أَنْفُسُهُمْ وَكَأَنَّ تَأْثِيْرَ ٱلْأَرْضِ يَلْتَقِيْ فِيْهَا بِتَأْثِيْرِ

ٱلسَّمَاءِ فَيَغْسِلُ فِيْ سُحُبٍ عَالِيَةٍ فَلَا يَكُوْنُ فِيْهَا كَمَا يُرِيْدُهُ ٱلنَّاسُ بَلْ كَمَا يُرِيْدُ ٱللهُ ، وَرَجَعَتْ قُلُوْبُهُمْ لَا تَلْبَسُ عَنْ دِيْنِهَا رَأْيًا وَلَا هَوًى ، وَكَأَنَّمَا وُضِعَ لَهَا هَـٰذَا ٱلدِّيْنُ حَرَسًا عَلَىٰ كُلِّ سَمْعٍ وَعَلَىٰ كُلِّ بَصَرٍ ، وَبِٱلْجُمْلَةِ فَأُوْلَـٰئِكَ قَوْمٌ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهُمُ ٱلنَّبِيُّ ﷺ فَأَفْرَغَهُمْ ثُمَّ مَلَأَهُمْ ، وَمَا ٱنْتَقَلُوْا إِلَىٰ مَنْزِلَتِهِمُ ٱلْعَالِيَةِ فِي ٱلتَّارِيْخِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَقَلَهُمْ هُوَ إِلَىٰ مَنْزِلَةٍ مِنْ مَنَازِلِ نَفْسِهِ ٱلشَّرِيْفَةِ .

وَنَاهِيْكَ مِنْ رِجَالٍ يُمَثِّلُ لَهُمْ بِهَـٰذَا ٱلْمَثَلِ ٱلَّذِيْ يَضْرِبُهُ لَهُمْ فِي ٱلْإِيْمَانِ لِيَبْلُغُوْهُ أَوْ يُقَارِبُوْهُ ، فَعَنْ خَبَّابِ بْنِ ٱلْأَرَتِّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَالَ : شَكَوْنَا إِلَىٰ رَسُوْلِ ٱللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِيْ ظِلِّ ٱلْكَعْبَةِ ، قُلْنَا : أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ أَلَا تَدْعُوْ ٱللهَ لَنَا ؟ قَالَ : « كَانَ ٱلرَّجُلُ فِيْمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيْهِ فَيُجَاءُ بِٱلْمِنْشَارِ فَيُوْضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِٱثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِيْنِهِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ ٱلْحَدِيْدِ مَا دُوْنَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِيْنِهِ » . [البخاري ، رقم : ٣٦١٢ ، ٣٨٥٢ ، ٦٩٤٣ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٦٤٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٠٥٥٣ ، ٢٠٥٦٨ ، ٢٦٦٧٥] .

فَٱنْظُرْ يَا هَـٰذَا ، فَإِنَّهُ لَوِ ٱجْتَمَعَتْ قُوَى ٱلْكَوْنِ فَجَاءَتْ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا فَنَزَلَتْ فِيْ عِبَارَةٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ لِتَمْلَأَ نُفُوْسَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ بِقُوَّتِهَا لَمَا وُضِعَتْ إِلَّا هَـٰذَا ٱلْوَضْعَ مِنْ هَـٰذَا ٱلتَّمْثِيْلِ بِأَمْشَاطِ ٱلْمَسَامِيْرِ وَأَسْنَانِ ٱلْمِنْشَارِ فِيْ عَظْمِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحَيِّ وَلَحْمِهِ ، وَظَاهِرُ ٱلتَّمْثِيْلِ عَلَىٰ مَا رَأَيْتَ مِنَ ٱلْعَجَبِ ، وَلَـٰكِنَّ لَهُ بَاطِنًا أَعْجَبَ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَهُوَ ٱلْبَلَاغَةُ كُلُّ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْبَيَانُ حَقُّ ٱلْبَيَانِ ، فَإِنَّمَا يُرِيْدُ ﷺ أَنَّ ٱلْحَدِيْدَ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَمْزَعُ مِنْ أُوْلَـٰئِكَ ٱلْأَقْوِيَاءِ بِإِيْمَانِهِمْ عَظْمًا وَلَحْمًا وَعَصَبًا ، بَلْ هُوَ حَدِيْدٌ يَأْكُلُ حَدِيْدًا مِثْلَهُ أَوْ أَشَدَّ مِنْهُ ، فَإِنَّ لِلرُّوْحِ ٱلْمُؤْمِنَةِ ٱلْمُسَلَّطَةِ عَلَىٰ جِسْمِهَا قُوَّةً تَصْنَعُ هَـٰذِهِ ٱلْمُعْجِزَةَ ، فَيَمُرُّ ٱلْحَدِيْدُ فِي ٱلْعَظْمِ وَٱللَّحْمِ وَٱلْعَصَبِ يَسْلُبُهَا ٱلْحَيَاةَ ، وَلَـٰكِنَّهَا تَسْلُبُهُ شِدَّتَهُ وَجَلَدَهُ وَصَبْرَهُ ! .

* * *

وَكُلُّ مَا جَاءَ مِنَ ٱلتَّمْثِيْلِ فِيْ كَلَامِهِ ﷺ يَنْطَوِيْ فِيْهِ مِنْ إِبْدَاعِ ٱلْفَنِّ ٱلْبَيَانِيِّ وَإِعْجَازِهِ مَا يَفُوْتُ حُدُوْدَ ٱلْبُلَغَاءِ ، حَتَّىٰ لَا تَشُكَّ إِذَا أَنْتَ تَدَبَّرْتَهُ بِحَقِّهِ مِنَ ٱلنَّظَرِ وَٱلْعِلْمِ أَنَّ بَلَاغَتَهُ إِنَّمَا هِيَ شَيْءٌ كَبَلَاغَةِ ٱلْحَيَاةِ فِي ٱلْحَيِّ : هِيَ ٱلْبَلَاغَةُ وَلَـٰكِنَّهَا أَبْدَعُ مِمَّا هِيَ ، لِأَنَّهَا ٱلْحَيَاةُ أَيْضًا .

وَأَنْتَ خَبِيرٌ أَنَّ هَـٰذَا ٱلنَّبِيَّ ٱلْكَرِيمَ ﷺ كَانَتْ تَأْخُذُهُ عِنْدَ نُزُوْلِ ٱلْوَحْيِ عَلَيْهِ أَحْوَالٌ وُصِفَتْ فِيْ كُتُبِ ٱلْحَدِيْثِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ ٱلْوَحْيُ فِيْ ٱلْيَوْمِ ٱلشَّدِيْدِ ٱلْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِيْنَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا . [البخاري، رقم: ٢، ٣٢١٥؛ مسلم، رقم: ٢٣٣٣].

وَفِيْ حَدِيْثٍ آخَرَ [البخاري ، رقم : ٢٦٦١ ، ٤١٤١] عَنْهَا قَالَتْ : فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ ٱلْبُرَحَاءِ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ عَنْهُ مِثْلُ ٱلْجُمَانِ مِنَ ٱلْعَرَقِ فِيْ يَوْمٍ شَاتٍ .

وَفِيْ حَدِيْثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ [البخاري ، رقم : ٣٨٣٢ ، ٤٥٩٢ ؛ مسلم ، رقم : ١٨٩٨] : فَأَنْزَلَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ رَسُوْلِ ٱللهِ ﷺ ، وَفَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِيْ ، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّىٰ خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخِذِيْ .

وَفِيْ حَدِيْثِ يَعْلَىٰ بْنِ أُمَيَّةَ [البخاري ، رقم: ١٥٣٦؛ مسلم، رقم: ١١٨٠] حِيْنَ قَالَ لِعُمَرَ : أَرِنِيْ ٱلنَّبِيَّ ﷺ حِيْنَ يُوْحَىٰ إِلَيْهِ ـ : فَأَشَارَ عُمَرُ إِلَيَّ ، فَجِئْتُ وَعَلَىٰ رَأْسِ رَسُوْلِ ٱللهِ ﷺ ثَوْبٌ قَدْ أُظِلَّ بِهِ ، فَأَدْخَلْتُ رَأْسِيْ ، فَإِذَا رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ مُحْمَرُّ ٱلْوَجْهِ وَهُوَ يَغِطُّ ، أَيْ : يُرَدِّدُ نَفَسَهُ مِنْ شِدَّةِ ثِقَلِ ٱلْوَحْيِ .

فَهَـٰذِهِ كُلُّهَا أَحْوَالٌ تَصِفُ عَمَلَ ٱلدِّمَاغِ بِكُلِّ مَا فِيْهِ مِنْ جُهْدِ ٱلْقُوَىٰ ٱلْعَصَبِيَّةِ ، لِيَرْتَفِعَ بِٱلْحَيَاةِ إِلَىٰ مَا فَوْقَهَا وَيَتْرُكُهَا لِوَعْيِ ٱلرُّوْحِ وَحْدَهَا ، لَا يُشَارِكُهَا فِيْ هَـٰذَا ٱلْوَعْيِ فِكْرٌ وَلَا هَاجِسٌ ، وَلَا يَتَّصِلُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ حَيَاةِ ٱلْحَيِّ ، فَيَتَحَقَّقُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وُجُوْدٌ آخَرُ غَيْرُ وُجُوْدِهِ ٱلْمَحْدُوْدِ بِجِسْمِهِ وَطِبَاعِهِ وَدُنْيَاهُ ؛ وَيَخْرُجُ بِوَعْيِهِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْجَاذِبِيَّةِ ٱلْأَرْضِيَّةِ إِلَىٰ مَا وَرَاءَ حُدُوْدِ ٱلطَّبِيْعَةِ مِنْ قُوَىٰ ٱلْغَيْبِ ؛ وَبِذَلِكَ يَتَلَقَّىٰ عَنْ رُوْحِ ٱلْكَوْنِ ثُمَّ يُفْصَمُ عَنْهُ وَقَدْ وَعَىٰ مَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ .

وَمَا وَصَفَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ أَنَّ فَخِذَهُ كَادَتْ تُرَضُّ ـ بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَىٰ أَنَّ رُوْحَهُ ﷺ تَنْسَرِحُ مِنْ جِسْمِهِ سَاعَةَ ٱلْوَحْيِ فَيَثْقُلُ ٱلْجِسْمُ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَخِفُّ بِٱلرُّوْحِ وَتَبْقَىٰ وَظَائِفُ ٱلْحَيَاةِ عَامِلَةً أَعْمَالَهَا بِعُسْرٍ وَبُطْءٍ ، لِاتِّصَالِهَا بِشُعَاعٍ مِنَ ٱلرُّوْحِ دُوْنَ ٱلرُّوْحِ بِجُمْلَتِهَا ، وَلَسْنَا هُنَا بِصَدَدِ ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلْوَحْيِ ، فَلَهُ مَوْضِعٌ إِنْ شَاءَ ٱللهُ فِيْ كِتَابِنَا « أَسْرَارُ ٱلْإِعْجَازِ »[1] ، وَإِنَّمَا نُرِيْدُ أَنْ نَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلتَّهْيِئَةَ ٱلْإِلَـٰهِيَّةَ لِذَلِكَ ٱلْجِهَازِ ٱلْعَصَبِيِّ لَهَا أَثَرُهَا ٱلْعَظِيْمُ فِيْ فَنِّ

(١) ٱنْظُرْ كِتَابَنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » . سَعِيد ٱلْعُرْيَان .

بَلَاغَتِهِ ﷺ ، وبِهَا ٱمْتَازَ عَنْ كُلِّ بُلَغَاءِ ٱلدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ ٱلْمُلْهَمَ مِنْ أَفْذَاذِ ٱلْعَبْقَرِيِّيْنَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ إِنَّمَا يَبْلُغُ مَا يَبْلُغُهُ بِبَعْضِ هَـٰذَا ٱلَّذِيْ رَأَيْتَ ، وَفِيْ بَعْضِ هَـٰذَا أَبْدَعُ مَا وَرِثَتِ ٱلدُّنْيَا مِنْ فُنُوْنِ ٱلْبَيَانِ ، وَكَأَنَّ فِيْ ٱلدِّمَاغِ مَادَّةً فِيْ مَوْضِعٍ مِنْهُ يُمَيَّزُ بِهَا مَنْ تَخْتَارُهُمُ ٱلسَّمَاءُ لِحِكْمَتِهَا وَإِلْهَامِهَا ، وَإِذَا كَانَ فَنُّ ٱلْعَبْقَرِيِّيْنَ هُوَ أَسْمَىٰ ٱلْكَلَامِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ، لِمَا خُصُّوْا بِهِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلتَّهْيِئَةِ ، فَإِنَّ فَنَّهُ ﷺ يَكُوْنُ وَلَا جَرَمَ مِنْ بَابِ ٱلْأَكْبَرِ مِمَّا هُوَ أَكْبَرُ فِيْ إِلْهَامِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا .

وَلِهَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّادِرَةِ كَانَ بَيَانُهُ قَوِيًّا عَلَىٰ مَزْجِ مَعَانِيْهِ بِٱلنَّفْسِ بِمَا فِيْهِ مِنْ صَنْعَةِ ٱلْحَيَاةِ ، وَإِنَّمَا فَلْسَفَةُ ٱلْبَيَانِ ٱلْفَنِّيِّ أَنْ تَمْتَدَّ ٱلْحَيَاةُ مِنَ ٱلنَّفْسِ إِلَىٰ ٱللَّفْظِ ، فَتَصْنَعَ فِيْهِ صُنْعَهَا ، فَتَفْصِلَ ٱلْعِبَارَةَ ٱلْفَنِّيَّةَ عَنْ كَاتِبِهَا أَوْ قَائِلِهَا وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ كَلَامِهِ ، لِتَسْتَحِيْلَ عِنْدَ قَارِئِهَا أَوْ سَامِعِهَا قِطْعَةً مِنَ ٱلْحَيَاةِ فِيْ صُوْرَةٍ مِنْ صُوَرِ ٱلْإِدْرَاكِ ؛ فَٱلْبَيَانُ ٱلْفَنِّيُّ هُوَ ٱلْوَسِيْلَةُ لِحَمْلِ ٱلْوُجُوْدِ وَبَعْثَرَتِهِ فِيْ مَوَاضِعَ غَيْرِ مَوَاضِعِهِ ، وَخَلْقِهِ خَلْقًا آخَرَ فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ يُؤَوَّلُ قَوْلُهُ ﷺ : « إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْرًا » [البخاري، رقم: ٥١٤٦، ٥٧٦٧؛ الترمذي، رقم: ٢٠٢٨؛ أبوداود، رقم: ٥٠٠٧؛ « مسند أحمد »، رقم: ٤٦٣٧، ٥٢١٠، ٥٢٦٩، ٥٦٥٤؛ « موطأ مالك »، رقم: ١٨٥٠] ؛ جَعَلَ نَوْعًا مِنَ ٱلْبَيَانِ هُوَ ٱلسِّحْرُ ، لَا ٱلْبَيَانَ كُلَّهُ ، فَٱلْحَدِيْثُ كَٱلنَّصِّ عَلَىٰ مَا تُسَمِّيْهِ ٱلْفَلْسَفَةُ ٱلْأُوْرُبِّيَّةُ ٱلْيَوْمَ بِـ « ٱلْبَيَانِ ٱلْفَنِّيِّ » ، كَأَنَّهُ قَالَ : إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ فَنًّا هُوَ سِحْرٌ مِنْ عَمَلِ ٱلنَّفْسِ فِيْ ٱللُّغَةِ تُغَيَّرُ بِهِ ٱلْأَشْيَاءُ وَلَهُ عَجَبُ ٱلسِّحْرِ وَتَأْثِيْرُهُ وَتَصَرُّفُهُ ؛ وَهَـٰذَا مَعْنًىٰ لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلَا يُذْكَرُ مَعَهُ كُلُّ مَا قَالُوْهُ فِيْ تَفْسِيْرِ ٱلْحَدِيْثِ ، وَبِذَلِكَ ٱلتَّأْوِيْلِ يَكُوْنُ هَـٰذَا ٱلْحَدِيْثُ قَدِ ٱحْتَوَىٰ أَسْمَىٰ حَقِيْقَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ لِلْفَنِّ .

وَمِنْ أَثَرِ تِلْكَ ٱلْقُوَّةِ أَيْضًا مَا تَرَاهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْوُضُوْحِ فِيْ كَلَامِهِ ﷺ ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا هَـٰذِهِ ٱلْبَلَاغَةَ ٱلنَّبَوِيَّةَ ٱلْعَجِيْبَةَ قَائِمَةً عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ هُوَ لَفْظُ ٱلْحَقِيْقَةِ لَا لَفْظُ ٱللُّغَةِ ، فَٱلْعِنَايَةُ فِيْهَا بِٱلْحَقَائِقِ ، ثُمَّ ٱلْحَقَائِقُ هِيَ تَخْتَارُ أَلْفَاظَهَا ٱللُّغَوِيَّةَ عَلَىٰ مَنَازِلِهَا ؛ وَبِذَلِكَ يَأْتِيْ ٱلْكَلَامُ كَأَنَّهُ نُطْقٌ لِلْحَقِيْقَةِ ٱلْمُعَبَّرِ عَنْهَا ، وَٱلْكَلِمَةُ ٱلصَّادِقَةُ تُنْطَقُ مَرَّةً وَاحِدَةً ؛ فَصُوْرَتُهَا ٱللُّغَوِيَّةُ لَا تَكُوْنُ إِلَّا صَرِيْحَةً مُنْكَشِفَةً عَنْ مَعْنَاهَا ٱلْمُضِيْءِ كَأَنَّمَا أُلْقِيَ فِيْهَا ٱلنُّوْرُ .

وَهُوَ مَعْلُوْمٌ أَنَّهُ ﷺ لَا يَتَكَلَّفُ وَلَا يَتَعَمَّلُ ، وَلَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يُؤَلِّفْ ، وَمَعَ هَـٰذَا لَا تَجِدْ فِيْ بَلَاغَتِهِ مَوْضِعًا يَقْبَلُ ٱلتَّنْقِيْحَ ، أَوْ تَعْرِفُ لَهُ رِقَّةً مِنَ ٱلشَّأْنِ كَأَنَّمَا بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيْهَا فِيْ

كُلِّ بَلَاغَتِهِ مِقْيَاسٌ وَمِيْزَانٌ ، أَوْ كَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلَاغَةَ تَنْبَثِقُ بِٱلْكَلَامِ عَلَىٰ طَبِيْعَةٍ عَامِلَةٍ فِيْهِ بِقُوَاهَا ٱلدَّائِبَةِ ٱلثَّابِتَةِ ، فَفَنُّهَا ٱلْجَمِيْلُ هُوَ ٱلتَّرْكِيْبُ ٱلَّذِي تَجِيْءُ فِيْهِ كَمَا تَرَىٰ ٱلشَّجَرَ مَثَلًا كَاسِيًا مِنْ وَرَقِهِ وَزَهْرِهِ ؛ فَأَنْتَ مِنْهُ بِإِزَاءِ عَمَلٍ جَمِيْلٍ لِأَنَّكَ بِإِزَاءِ حَقِيْقَةٍ طَبِيْعِيَّةٍ قَدِ ٱنْفَرَدَتْ فِيْ ذَاتِهَا ، وَمَعْنَى ٱنْفِرَادِهَا فِيْ ذَاتِهَا أَنَّهَا كَذٰلِكَ هِيَ ، فَلَيْسَ فِيْهَا مَوْضِعٌ لِشَيْءٍ غَيْرِ مَا هُوَ فِيْهَا ؛ ثُمَّ لَا تَنْسَ أَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ أَكْبَرُ ٱلسَّبَبِ فِيْ ذَلِكَ ٱلْوُضُوْحِ ٱلْبَيَانِيِّ ٱلْعَجِيْبِ ؛ فَإِنَّ ٱلْحَيَاةَ لَا تَسْتَغْلِقُ فِيْ ٱلْبَلَاغَةِ بِإِنْسَانٍ إِلَّا وَهِيَ غَنِيَّةٌ عَنْهُ ؛ وَلَعَلَّ غُمُوْضَ بَعْضِ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَبَعْضِ ٱلشُّعَرَاءِ هُوَ مِنْ دَلِيْلِ ٱلطَّبِيْعَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ زَائِدُوْنَ فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ . . . أَلَا تَرَىٰ أَنَّ مِنْ أَسَالِيْبِهِمُ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ وَٱلشِّعْرِيَّةِ مَا يَجْعَلُ مَعْنَىٰ ٱلْكَلِمَةِ أَحْيَانًا هُوَ نَقْضُ مَعْنَاهَا[1] إِذْ يَتَصَنَّعُوْنَ لِلْفِكْرِ وَيَسْتَجْلِبُوْنَ لَهُ وَيُشَقِّقُوْنَ فِيْهِ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱلْأَلْفَاظِ بِٱلْأَلْفَاظِ ، فَهَـٰهُنَا ٱلْبَدِيْعُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُنَاكَ « ٱلْبَدِيْعُ ٱلْفِكْرِيُّ » ، وَلَا طَائِلَ وَرَاءَهُمَا إِلَّا صِنَاعَةٌ وَبَهْرَجَةٌ .

وَمَتَىٰ كَانَ ٱلنَّبِيُّ قِسْمًا مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، بَلْ مَادَّةً لِمَعَانِيْهَا ٱلْجَدِيْدَةِ ، فَلَنْ يَكُوْنَ بَيَانُهُ إِلَّا عَلَىٰ مَا وَصَفْنَا لَكَ جَمَالًا ، وَوُضُوْحًا وَمَنْفَعَةً وَدِقَّةً وَسُمُوًّا بِقَدْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ .

* * *

وَهُنَا مَعْنًى نُرِيْدُ أَنْ نُنَبِّهَ إِلَيْهِ وَنَتَكَلَّمَ فِيْ سِرِّهِ وَحَقِيْقَتِهِ ، فَإِنَّكَ تَقْرَأُ مَا جُمِعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلنَّبَوِيِّ فَلَا تُصِيْبُ فِيْهِ مَا تُصِيْبُهُ فِيْ بَلَاغَةِ أُدَبَاءِ ٱلْعَالَمِ مِمَّا فَنُّهُ ٱلْكَلَامُ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ ، وَٱلْحُبِّ ، وَجَمَالِ ٱلطَّبِيْعَةِ ، وَهُوَ فِيْ بَلَاغَةِ ٱلنَّاسِ كَٱلْقَلْبِ فِيْ ٱلْجِسْمِ : لَا تَخْلُوْ مِنْهُ وَلَا تَقُوْمُ إِلَّا بِهِ ؛ حَتَّىٰ تَجِدَ ٱلْكَلَامَ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ وَحْدَهَا شَطْرَ ٱلْأَدَبِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ، كَمَا أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ هِيَ شَطْرُ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَا يُعْرَفُ لَهُ ﷺ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْأَغْرَاضِ إِلَّا كَلِمَاتٌ بَيَانِيَّةٌ جَاءَتْ بِمَا يَفُوْتُ ٱلْوَصْفَ مِنَ ٱلْجَمَالِ وَٱلدِّقَّةِ ، مُتَنَاهِيَةً فِيْ ٱلْحُسْنِ ، ظَاهِرَةً فِيْ ٱلدَّلَالَةِ ، يَظْهَرُ فِيْ وَجْهِ بَلَاغَتِهَا مَا يَظْهَرُ فِيْ وَجْهِ ٱلْعَذْرَاءِ مِنْ طَبِيْعَةِ ٱلْحَيَاءِ وَٱلْخَفَرِ ؛ كَقَوْلِهِ فِيْ ٱلنِّسَاءِ : « رِفْقًا بِٱلْقَوَارِيْرِ » [البخاري، رقم: ٦١٤٩؛ مسلم، رقم: ٢٣٢٣]، وَقَوْلُهُ لِأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَقَدْ كَسَاهُ قُبْطِيَّةً[2]

(١) مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ « غيته Goethe » شَاعِرِ ٱلْأَلْمَانِ : إِنَّ ٱلْكُلَّ بَاطِلٌ ، مَعْنَاهُ أَنَّ ٱلْكُلَّ لَيْسَ بِبَاطِلٍ وَلَعَلَّ هَـٰذَا فِيْ « ٱلْبَدِيْعِ ٱلْفِكْرِيِّ » مِنْ بَابِ كُلِّ ٱلنَّفْيِ لِلْإِثْبَاتِ . . .

(٢) بِضَمِّ ٱلْقَافِ : ثَوْبٌ مِنْ ثِيَابِ مِصْرَ رَقِيْقَةٌ بَيْضَاءُ ، وَضَمُّوْا « قَافَهُ » فَرْقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُنْسَبُ إِلَىٰ ٱلْقِبْطِ مِنْ غَيْرِ ٱلثِّيَابِ .

فَكَسَاهَا ٱمْرَأَتَهُ : « أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا » [« مسند أحمد » ، رقم : ٢١٢٧٩ ، ٢١٢٨١ ؛ « مجمع الزوائد » ، رقم : ٨٦١١] قَالَ ٱلشَّرِيْفُ ٱلرَّضِيُّ فِيْ شَرْحِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ : وَهَـٰذِهِ ٱسْتِعَارَةٌ ؛ وَٱلْمُرَادُ أَنَّ ٱلْقُبْطِيَّةَ بِرِقَّتِهَا تَلْصَقُ بِٱلْجِسْمِ ، فَتُبَيِّنُ حَجْمَ ٱلثَّدْيَيْنِ ، وَٱلرَّادِفَتَيْنِ ، وَمَا يَشْتَدُّ مِنْ لَحْمِ ٱلْعَضُدَيْنِ وَٱلْفَخِذَيْنِ ، فَيَعْرِفُ ٱلنَّاظِرُ إِلَيْهَا مَقَادِيْرَ هَـٰذِهِ ٱلْأَعْضَاءِ ، حَتَّىٰ تَكُوْنَ كَٱلظَّاهِرَةِ لِلَحْظِهِ ، وَٱلْمُمْكِنَةِ لِلَمْسِهِ ، فَجَعَلَهَا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لِهَـٰذِهِ ٱلْمَحَالِّ كَٱلْوَاصِفَةِ لِمَا خَلْفَهَا . وَٱلْمُخْبِرَةِ عَمَّا ٱسْتَتَرَ بِهَا ؛ وَهَـٰذِهِ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْعِبَارَاتِ عَنْ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، وَلِهَـٰذَا ٱلْغَرَضِ رَمَىٰ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ فِيْ قَوْلِهِ : « إِيَّاكُمْ وَلُبْسَ ٱلْقَبَاطِيِّ ، فَإِنَّهَا إِلَّا تَشِفُّ تَصِفُ » [« كنز العمال » ، رقم : ٤٢٠٣١] فَكَانَ رَسُوْلُ ٱللهِ ﷺ أَبَا عُذْرَةِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، وَمَنْ تَبِعَهُ فَإِنَّمَا سَلَكَ فَجَّهُ .

قُلْنَا : وَهَـٰذَا كَلَامٌ حَسَنٌ ، وَلَـٰكِنَّ فِيْ عِبَارَةِ ٱلْحَدِيْثِ سِرًّا هُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهِ ٱلشَّرِيْفُ ، عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ حَقِيْقَةُ ٱلْفَنِّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ بِخَاصَّتِهَا ، وَلَا نَظُنُّ أَنَّ بَلِيْغًا مِنْ بُلَغَاءِ ٱلْعَالَمِ يَتَأَتَّىٰ لِمِثْلِهِ ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمْ يَقُلْ : أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ أَعْضَائِهَا ، بَلْ قَالَ : حَجْمَ عِظَامِهَا ، مَعَ أَنَّ ٱلْمُرَادَ لَحْمَ ٱلْأَعْضَاءِ فِيْ حَجْمِهِ وَتَكْوِيْنِهِ ، وَذَلِكَ مُنْتَهَىٰ ٱلسُّمُوِّ بِٱلْأَدَبِ ، إِذْ ذِكْرُ « أَعْضَاءِ » ٱلْمَرْأَةِ فِيْ هَـٰذَا ٱلسِّيَاقِ ، وَبِهَـٰذَا ٱلْمَعْرِضِ ، هُوَ فِيْ ٱلْأَدَبِ ٱلْكَامِلِ أَشْبَهُ بِٱلرَّفَثِ ، وَلَفْظَةُ « ٱلْأَعْضَاءِ » تَحْتَ ٱلثَّوْبِ ٱلرَّقِيْقِ ٱلْأَبْيَضِ تُنَبِّهُ إِلَىٰ صُوَرٍ ذِهْنِيَّةٍ كَثِيْرَةٍ هِيَ ٱلَّتِيْ عَدَّهَا ٱلرَّضِيُّ فِيْ شَرْحِهِ ، وَهِيَ تُوْمِئُ إِلَىٰ صُوَرٍ أُخْرَىٰ مِنْ وَرَائِهَا ، فَتَنَزَّهَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ ، وَضَرَبَ ٱلْحِجَابَ ٱللُّغَوِيَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيْ ٱلسَّافِرَةِ . . . وَجَاءَ بِكَلِمَةِ « ٱلْعِظَامِ » لِأَنَّهَا ٱللَّفْظَةُ ٱلطَّبِيْعِيَّةُ ٱلْمُبَرَّأَةُ مِنْ كُلِّ نَزْغَةٍ ، لَا تَقْبَلُ أَنْ تَلْتَوِيَ ، وَلَا تُثِيْرُ مَعْنًىٰ ، وَلَا تَحْمِلُ غَرَضًا ، إِذْ تَكُوْنُ فِيْ ٱلْحَيِّ وَٱلْمَيْتِ ، بَلْ هِيَ بِهَـٰذَا أَخَصُّ ؛ وَفِيْ ٱلْجَمِيْلِ وَٱلْقَبِيْحِ ، بَلْ هِيَ هُنَا أَلْيَقُ ؛ وَفِيْ ٱلشَّبَابِ وَٱلْهَرَمِ ، بَلْ هِيَ فِيْ هَـٰذَا أَوْضَحُ . وَٱلْأَعْضَاءُ لَا تَقُوْمُ إِلَّا بِٱلْعِظَامِ ، فَٱلْمَجَازُ عَلَىٰ مَا نَرَىٰ ، وَٱلْحَقِيْقَةُ هِيَ مَا عَلِمْتَ .

وَمِنْ كَلِمَاتِهِ فِيْ ٱلْوَصْفِ ٱلطَّبِيْعِيِّ قَوْلُهُ ﷺ وَهُوَ يَذْكُرُ أَوْقَاتَ ٱلصَّلَاةِ : « ٱلْعَصْرُ إِذَا كَانَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ ، وَكَذَلِكَ مَا دَامَتِ ٱلشَّمْسُ حَيَّةً ؛ وَٱلْعِشَاءُ إِذَا غَابَ ٱلشَّفَقُ إِلَىٰ أَنْ

تَمْضِي كَوَاهِلُ ٱللَّيْلِ » وَكَوَاهِلُ ٱللَّيْلِ : أَوَائِلُهُ وَفُرُوعُهُ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ مِنْهُ . كَٱلَّذِيْ يَتَقَدَّمُ ٱلْمَطَايَا مِنْ أَعْنَاقِهَا ٱلْمُمْتَدَّةِ بَعْضَ ٱلامْتِدَادِ .

وَقَوْلُهُ وَقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ : مَتَىٰ يُصَلِّيْ ٱلْعِشَاءَ ٱلآخِرَةَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : « إِذَا مَلأَ ٱللَّيْلُ بَطْنَ كُلِّ وَادٍ » . [« مسند أحمد » ، رقم : ٢٢٥٨٥] .

وَقَوْلُهُ : « إِذَا طَلَعَ حَاجِبُ ٱلشَّمْسِ فَأَخِّرُوا ٱلصَّلَاةَ حَتَّىٰ تَرْتَفِعَ » . [البخاري ، رقم : ٥٨٣ ؛ مسلم ، رقم : ٨٢٨] .

وَقَوْلُهُ : « إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ٱسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي ٱلزَّرْعِ ، فَقَالَ لَهُ : أَلَسْتَ فِيْمَا شِئْتَ ؟ قَالَ : بَلَىٰ ! وَلَـٰكِنِّيْ أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ ؛ قَالَ : فَبَذَرَ فَبَادَرَ ٱلطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَٱسْتِوَاؤُهُ وَٱسْتِحْصَادُهُ فَكَانَ أَمْثَالَ ٱلْجِبَالِ » . [البخاري ، رقم : ٣٣٤٨ ، ٧٥١٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١٠٢٦٤] .

وَقَوْلُهُ : « بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِيْ فَٱشْتَدَّ عَلَيْهِ ٱلْعَطَشُ ، فَنَزَلَ بِئْرًا ، فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ ، فَإِذَا بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ ٱلثَّرَىٰ مِنَ ٱلْعَطَشِ ، فَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَ هَـٰذَا مِثْلَ ٱلَّذِيْ بَلَغَ بِيْ ! فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيْهِ ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَىٰ ٱلْكَلْبَ ؛ فَشَكَرَ ٱللهُ لَهُ ! فَغَفَرَ لَهُ » قَالُوْا : يَا رَسُوْلَ ٱللهِ ! وَإِنَّ لَنَا فِيْ ٱلْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ قَالَ : « فِيْ كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » . [البخاري . رقم : ٣٣٦٣ ؛ مسلم ، رقم : ٢٢٤٤ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٥٥٠ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٨٦٥٧ ، ١٠٣٢١ ، ١٠٣٧٣ ؛ « موطأ مالك » ، رقم : ١٧٢٩] .

فَهَـٰذَا وَنَحْوُهُ مِنَ ٱلْفَنِّ ٱلْبَدِيْعِ ٱلنَّادِرِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَأْتِيْ فِيْ كَلَامِهِ ﷺ إِلَّا فِيْ مِثْلِ مَا رَأَيْتَ ، فَلَا يُرَادُ مِنْهُ ٱسْتِجْلَابُ ٱلْعِبَارَةِ ، وَلَا صِنَاعَةُ ٱلْخَيَالِ ، فَيَظُنُّ مَنْ لَا يُمَيِّزُ وَلَا يُحَقِّقُ أَنَّ خُلُوَّ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ مِنْ فَنِّ وَصْفِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْحُبِّ ، دَلِيْلٌ عَلَىٰ مَا يُنْكِرُهُ أَوْ يَسْتَجْفِيْهِ ، وَيَقُوْلُ : بَدَاوَةٌ وَسَذَاجَةٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا تُشَبِّهُهُ ٱلْغَفْلَةُ عَلَىٰ جَهَلَةِ ٱلْمُسْتَشْرِقِيْنَ وَمَنْ فِيْ حُكْمِهِمْ مِنْ ضِعَافِ أُدَبَائِنَا وَجَهَلَةِ[1] كُتَّابِنَا ؛ وَإِنَّمَا ٱنْتَفَىٰ ذَلِكَ عَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ لِانْتِفَاءِ ٱلشِّعْرِ عَنْهُ وَكَوْنِهِ لَا يَنْبَغِيْ لَهُ ـ كَمَا بَسَطْنَاهُ فِيْ مَوْضِعِهِ[2] ـ فَعَمَلُهُ أَنْ يَهْدِيَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ لَا أَنْ

(١) فِيْ مُعْظَمِ ٱلطَّبَعَاتِ : « جُلَّةِ » بَدَلًا مِنْ : « جَهَلَةِ » .
(٢) كِتَابُنَا « إِعْجَازُ ٱلْقُرْآنِ » .

يُزَيِّنَ لَهَا ، وَأَنْ يَدُلَّهَا عَلَىٰ مَا يَجِبُ فِيْ ٱلْعَمَلِ ، لَا مَا يَحْسُنُ فِيْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ ؛ وَأَنْ يَهْدِيَهَا إِلَىٰ مَا تَفْعَلُهُ لِتَسْمُوَ بِهِ ، لَا إِلَىٰ مَا تَتَخَيَّلُهُ لِتَلْهُوَ بِهِ . وَٱلْخَيَالُ هُوَ ٱلشَّيْءُ ٱلْحَقِيْقِيُّ عِنْدَ ٱلنَّفْسِ فِيْ سَاعَةِ ٱلانْفِعَالِ وَٱلتَّأَثُّرِ بِهِ فَقَطْ ، وَمَعْنَىٰ هَـٰذَا أَنَّهُ لَا يَكُوْنُ أَبَدًا حَقِيْقَةً ثَابِتَةً ، فَلَا يَكُوْنُ إِلَّا كَذِبًا عَلَىٰ ٱلْحَقِيْقَةِ .

ثُمَّ هُوَ ﷺ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنْ بُلَغَاءِ ٱلنَّاسِ : يَتَّصِلُ بِٱلطَّبِيْعَةِ لِيَسْتَمْلِيَ مِنْهَا ؛ بَلْ هُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بِمَصْدَرِهَا ٱلأَزَلِيِّ لِيُمْلِيَ فِيْهَا ؛ وَقَدْ كَانَتْ آخِرَ ٱبْتِسَامَةٍ لَهُ فِيْ ٱلدُّنْيَا ٱبْتِسَامَتُهُ لِلصَّلَاةِ[1] يَتَهَلَّلُ لِطَهَارَةِ ٱلنَّفْسِ ٱلْمُؤْمِنَةِ وَجَمَالِهَا قَائِمَةً بَيْنَ يَدَيْ خَالِقِهَا ، مُنْسَكِبًا فِيْ طَهَارَتِهَا رُوْحُ ٱلنُّوْرِ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَبْدُوْ ٱلْكَوْنُ فِيْ عَيْنِهِ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ مِمَّا يُشْبِهُ مَا فِيْ نَفْسِهِ ، فَكُلُّ مَا رَآهُ ٱلْمُصَلِّيْ ٱلْخَاشِعُ فِيْ صَلَاتِهِ[2] يَبْدُوْ لَهُ كَأَنَّهُ يُصَلِّيْ فِيْ ضَرْبٍ مِنَ ٱلْعِبَادَةِ عَلَىٰ نَحْوٍ مِنَ ٱلدِّيْنِ ، وَكُلُّ مَا رَآهُ ٱلسَّكْرَانُ فِيْ سُكْرِهِ يَكَادُ يَرَاهُ مُتَخَبِّطًا يُعَرْبِدُ مَا يَتَمَاسَكُ !

ثُمَّ إِنَّ ٱلْكَلَامَ فِيْ وَصْفِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْحُبِّ عَلَىٰ طَرِيْقَةِ ٱلأَسَالِيْبِ ٱلْبَيَانِيَّةِ ، إِنَّمَا هُوَ بَابٌ مِنَ ٱلأَحْلَامِ ، إِذْ لَا بُدَّ فِيْهِ مِنْ عَيْنَيْ شَاعِرٍ ، أَوْ نَظْرَةِ عَاشِقٍ ، وَهُنَا نَبِيٌّ يُوْحَىٰ إِلَيْهِ ، فَلَا مَوْضِعَ لِلْخَيَالِ فِيْ أَمْرِهِ ، إِلَّا مَا كَانَ تَمْثِيْلًا يُرَادُ بِهِ تَقْوِيَةُ ٱلشُّعُوْرِ ٱلإِنْسَانِيِّ بِحَقِيْقَةِ مَا فِيْ بَعْضِ مَا يَعْرِضُ مِنْ بَابِ ٱلإِرْشَادِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ، كَمَا مَرَّ بِكَ مِنْ أَمْثِلَتِهِ ، وَكَقَوْلِهِ ﷺ : « إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يَرَىٰ ذُنُوْبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ ٱلْفَاجِرَ يَرَىٰ ذُنُوْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَىٰ أَنْفِهِ ! » [البخاري ، رقم : ٦٣٠٨] وَهَـٰذَا كَلَامٌ أَبْلَغُ مَا أَنْتَ وَاجِدٌ مِنْ تَفْسِيْرِهِ تِلْكَ ٱلنَّفْسُ ٱلْمُؤْمِنَةَ بِإِحْسَاسِهَا ٱلرَّقِيْقِ ، كَأَنَّهُ حَاسَّةٌ مِنَ ٱلنُّوْرِ كُبِتَ فِيْ شُعُوْرِهَا ، وَتِلْكَ ٱلنَّفْسُ ٱلْفَاجِرَةُ بِإِحْسَاسِهَا ٱلْغَلِيْظِ كَأَنَّهُ ، حَاسَّةٌ مِنَ ٱلتُّرَابِ . . .

(١) عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّيْ بِهِمْ فِيْ وَجَعِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ٱلَّذِيْ تُوُفِّيَ فِيْهِ ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلاثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوْفٌ فِيْ ٱلصَّلَاةِ ، فَكَشَفَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ ٱلْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ ٱلْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، فَنَكَصَ أَبُوْ بَكْرٍ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ ٱلصَّفَّ ، وَظَنَّ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ خَارِجٌ إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا ٱلنَّبِيُّ ﷺ : أَنْ أَتِمُّوْا صَلَاتَكُمْ ، وَأَرْخَىٰ ٱلسِّتْرَ ، فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ . [البخاري ، رقم : ٦٨٠ ؛ مسلم ، رقم : ١١٦٧] .
(٢) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَمِيْلَةِ ٱلدَّقِيْقَةِ فِيْ نَحْوِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ قَوْلُهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : « لَا تَزَالُوْنَ فِيْ صَلَاةٍ مَا ٱنْتَظَرْتُمُ ٱلصَّلَاةَ ! » . [البخاري ، رقم : ٦٠٠ ؛ مسلم ، رقم : ٦٤٠] .

وَيَكَادُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلَّذِي يَسْمَعُ هَـٰذَا ٱلْوَصْفَ يُذَكِّرُهُ ذُنُوبَهُ ـ أَنْ يُحِسَّ بِحَرَكَةِ جَبَلٍ يَهُمُّ أَنْ يَنْقَلِعَ فَيَمِيلَ عَلَيْهِ ، أَمَّا ٱلْفَاجِرُ فَيَسْمَعُهُ يُذَكِّرُهُ ذُنُوبَهُ فَإِذَا هِيَ فِي خَيَالِهِ نُقَطٌ سُودٌ تَمُرُّ مُرُورَ ٱلذُّبَابِ ، لَيْسَ مِنْهُ إِلَّا ٱلْحِسُّ بِهِ ، كَمَا يُحِسُّ مَنْ يُضْرَبُ عَلَىٰ أَنْفِهِ بِرِجْلِ ذُبَابَةٍ . . . وَجَعَلَ ٱلذُّبَابُ يَمُرُّ عَلَىٰ أَنْفِهِ دُونَ عَيْنِهِ أَوْ فَمِهِ ، وَذَلِكَ مُنْتَهَىٰ ٱلْجَمَالِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ ، لِأَنَّ ٱلذُّبَابَ إِذَا وَقَعَ عَلَىٰ ٱلْفَمِ أَوِ ٱلْعَيْنِ ثَبَتَ وَأَلَحَّ ، فَإِذَا وَقَعَ عَلَىٰ قَصَبَةِ ٱلأَنْفِ لَمْ يَكَدْ يَقِفُ وَمَرَّ مُرُورَهُ .

ٱلْكَوْنُ فِي نَظَرِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ آيَةُ ٱلْحِكْمَةِ لَا آيَةُ ٱلْفَنِّ ، وَمَنْظَرُ ٱلْمُسْتَيْقِنِ لَا مَنْظَرُ ٱلْمُتَخَيِّلِ ، وَمَادَّةُ ٱلْعُبُودِيَّةِ لله لَا مَادَّةُ ٱلتَّأَلُّهِ لِلإِنْسَانِ ، وَبِذَلِكَ حَرَّمَ ٱلإِسْلَامُ أَشْيَاءَ وَكَرِهَ أَشْيَاءَ لَا يَكُونُ ٱلْفَنُّ بِغَيْرِهَا فَنًّا ، فِي ضُرُوبٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَٱلتَّصْوِيرِ وَٱلْمُوسِيقِيِّ وَٱلْحُبِّ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْظُرُ لِلإِنْسَانِ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، وَحَاضِرًا وَآتِيًا ، وَوَاجِبًا وَمَنْفَعَةً ، وَلَذَّةً وَأَلَمًا ؛ وَهَـٰذِهِ كُلُّهَا لَا إِطْلَاقَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَجْلِ ٱلْقَيْدِ ، عَلَىٰ حِينَ أَنَّ ٱلْفَنَّ لَا قَيْدَ فِيهِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ ٱلإِطْلَاقِ ، وَأَسَاسُ ٱلدِّينِ حَظُّ ٱلْجَمَاعَةِ وَقُيُودُهَا ، وَأَسَاسُ ٱلْفَنِّ حَظُّ ٱلْفَرْدِ وَحُرِّيَّتُهُ ، وَهَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ لَا تَبْدُو فِي حَالَةِ تَرْكِيبٍ وَٱنْتِظَامٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لِلْكُلِّ ، فَإِذَا كَانَتْ لِفَرْدٍ ظَهَرَتْ فِي هَيْئَةِ ٱنْحِلَالٍ وَٱنْتِقَاصٍ ، وَأَصْبَحَتْ فِي ٱلْكَوْنِ كُلِّهِ كَأَنَّهَا عُمْرُ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ .

ثُمَّ إِنَّ لِلْفَنِّ أَلْوَانًا لَا بُدَّ مِنْهَا لِتَصْوِيرِهِ ٱلْجَمِيلِ ٱلَّذِي تُعْجَبُ بِهِ ٱلنَّفْسُ ، وَٱلشَّيْطَانُ هُوَ ٱللَّوْنُ ٱلأَحْمَرُ فِيهَا . . . أَيْ هُوَ أَشَدُّهَا زُهُوًّا وَإِشْرَاقًا وَجَمَالًا فِي ٱلتَّصْوِيرِ ٱلْفَنِّيِّ لِكُلِّ مَا فِي ٱلْمَرْأَةِ وَٱلْحُبِّ وَٱلْجَمَالِ وَشَهَوَاتِ ٱلنَّفْسِ ، وَلَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّ ٱلْحَيَاةَ ٱلْقَوِيَّةَ حِينَ تُمَازِجُهَا هَـٰذِهِ ٱلْفُنُونُ تَكْسِبُ مَرَحًا وَنَشَاطًا وَيَكُونُ لَهَا رَوْنَقٌ ، وَفِيهَا مَتَاعٌ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحَيَاةَ لَا تَكُونُ بِهَا كَذَلِكَ إِلَّا مِنْ أَنَّهَا تَحْتَسِي خَمْرَهَا . . . فَلَهَا بَعْدُ مِنْ عَاقِبَةِ هَـٰذِهِ ٱلْفُنُونِ شَبِيهٌ بِمَا يَكُونُ لِلْجِسْمِ ٱلْقَوِيِّ مِنْ عَاقِبَةِ ٱلْخَمْرِ إِذَا تَغَلْغَلَتِ ٱلْخَمْرُ فِي شِعَابِ كَبِدِهِ وَأَحَالَتْ رَطْبَتَهَا يَابِسَةً ، كَمَا وَقَعَ فِي أَطْوَارٍ كَثِيرَةٍ مِنْ تَارِيخِ ٱلأُمَمِ ؛ فَلَيْسَ ٱلاعْتِبَارُ فِي هَـٰذَا ٱلتَّشْبِيهِ بِمَا يَعْرِضُ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلسَّاعَةِ ٱلزَّائِلَةِ بِأَفْرَاحِهَا وَفَنِّ حَيَاتِهَا ، بَلِ ٱلشَّأْنُ لِلْعَاقِبَةِ ٱلْمَحْتُومَةِ مَتَىٰ جَاءَتْ سَاعَتُهَا ٱلْبَاقِيَةُ بِأَحْزَانِهَا وَفَنِّ هَلَاكِهَا ، فَٱلإِسْلَامُ فِيمَا حَرَّمَ وَكَرِهَ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَزِدْ عَلَىٰ أَنْ أَرَادَ لِلْحَيَاةِ أَنْ تَحْيَا ، لِأَنَّهُ لَا يُقِرُّ صُورَةً مِنْ صُوَرِ ٱنْتِحَارِهَا .

وَمَنْ كَانَ أَكْبَرُ عَمَلِهِ إِنْشَاءَ ٱلْحَقَائِقِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ وَتَقْرِيرَهَا شَرِيعَةً وَعَاطِفَةً وَأَعْمَالًا ، فَلَا جَرَمَ كَانَ فَنُّهُ غَيْرَ ٱلَّذِي أَكْبَرُ عَمَلِهِ تَمْوِيهُ تِلْكَ ٱلْحَقَائِقِ وَزَخْرَفَتُهَا لِيَقَعَ ٱلإِحْسَاسُ بِهَا عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِهَا ، فَتَخِفُّ بِٱلْوَاقِعِ مِنْهَا عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ خِفَّةَ ٱلْكَذِبِ عَلَىٰ سَاعَةِ تَصْدِيقِهِ ؛ وَهَـٰذَا هُوَ أَكْبَرُ عَمَلِ ٱلشِّعْرِ .

وَهَـٰهُنَا سِرٌّ دَقِيقٌ لَا يَتِمُّ كَلَامُنَا إِلَّا بِشَرْحِهِ ، لِنَقْطَعَ ٱلْقَوْلَ فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، فَيَظْهَرَ حَقُّهُ مِنْ بَاطِنِهِ : قُلْنَا آنِفًا إِنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنْ بُلَغَاءِ ٱلنَّاسِ : يَتَّصِلُ بِٱلطَّبِيعَةِ يَسْتَمْلِي مِنْهَا ، بَلْ هُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بِمَصْدَرِهَا ٱلأَزَلِيِّ لِيُمْلِيَ فِيهَا . وَمَعْنَىٰ هَـٰذَا أَنَّهُ لَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ زَيْغِ ٱلنَّفْسِ مَا يَعْرِضُ لِغَيْرِهِ مِنَ ٱلنَّاسِ ، فَأَحْكَمُ حُكَمَاءِ ٱلدُّنْيَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَبَيَّنَ جُزْءًا صَغِيرًا مِنَ ٱلْكَوْنِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ ؛ إِذْ كَانَتْ حَوَاسُّ ٱلْجِسْمِ غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ لِذَلِكَ ؛ فَفَهْمُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْكَوْنِ فَهْمًا صَادِقًا ، جَزْمًا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِفَهْمِ ٱلْكَوْنِ بِأَجْمَعِهِ ، فَهُوَ كُلُّهُ ذَرَّةٌ مُكَبَّرَةٌ إِلَىٰ مَا لَا يَنْتَهِي وَلَا يُحَدُّ ، وَلَيْسَتِ ٱلنُّبُوَّةُ شَيْئًا غَيْرَ ٱلاتِّصَالِ بِٱلسِّرِّ .

وَٱلْحَاضِرُ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي إِنْسَانٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ، هُوَ حَاضِرٌ لَيْسَ غَيْرُ ، لِأَنَّهُ يَتَحَوَّلُ وَيَفْنَىٰ ، فَهُوَ مِنَ ٱلزَّيْغِ ٱلَّذِي يَعْتَرِي ٱلنَّفْسَ ، وَمِنْهُ كُلُّ أَغْرَاضِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱلْفَانِيَةِ ، وَلِهَـٰذَا كَانَ طَابَعُ ٱللهِ عَلَىٰ نَبِيِّنَا ﷺ هُوَ تَجْرِيدَهُ مِنْ زَيْغِ ٱلْهَوَىٰ وَسَرَفِ ٱلطَّبِيعَةِ ، فَهُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّهُ مُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ ، وَلَهُ فِي هَـٰذَا ٱلْبَابِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ وَلَا يُطِيقُهُ أَحَدٌ ، وَيَجِبُ عَلَىٰ مَنْ يَقْرَأُ سِيرَتَهُ وَشَمَائِلَهُ وَحَدِيثَهُ أَنْ يَبْحَثَ دَائِمًا عَنْ طَابَعِ ٱللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ سَيَرَىٰ حِينَئِذٍ كَأَنَّهُ يَدْرُسُهَا مَعَ ٱلْمَلَائِكَةِ لَا مَعَ ٱلنَّاسِ ، وَسَيَظْهَرُ لَهُ مِنْ تَفْسِيرِهَا أَنَّ ٱلدُّنْيَا لَمْ تَسْتَطِعْ تَحْقِيقَ غَايَتِهَا ٱلأَخْلَاقِيَّةِ ٱلْعُلْيَا إِلَّا فِيهَا ، وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ إِنْسَانًا ، وَكَانَ أَيْضًا حَرَكَةً فِي تَقَدُّمِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَأَنَّ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ أَنَّهُ أَطَاقَ فِي تَارِيخِهِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ ٱلْبَشَرِيَّةُ فِي تَارِيخِهَا وَأَنَّ كُلَّ أُمُورِهِ ﷺ مَوْضُوعَةٌ وَضْعًا إِلَـٰهِيًّا كَأَنَّهَا صِفَاتٌ كَوَّنَهَا ٱللهُ وَعَلَّقَهَا فِي ٱلتَّارِيخِ لِمَعَانِي ٱلْحَيَاةِ ، تَعْلِيقَ ٱلشَّمْسِ فِي ٱلسَّمَاءِ لِمَوَادِّ ٱلْحَيَاةِ .

إِنَّ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمَصَالِحَ إِنَّمَا هِيَ حَصْرُ ٱلنَّفْسِ فِي جَانِبٍ مِنَ ٱلشُّعُورِ مَحْدُودٍ بِلَذَّاتٍ وَهُمُومٍ وَأَحَاسِيسَ تَجْعَلُ غَرَضَ ٱلإِنْسَانِ فِي ٱلإِنْسَانِ نَفْسِهِ فَهُوَ كَمَا يَمْلَأُ مَعِدَتَهُ وَيَتَأَنَّقُ فِي ٱلاخْتِيَارِ لَهَا ، يُرِيدُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ أَنْ يَمْلَأَ شَخْصَهُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ بِعَيْنِهَا ، طَرِيقَةِ إِشْبَاعِ

مَعِدَتِهِ . . . وَبِهَـٰذَا تَسْخَرُ مِنْهُ حَقَائِقُ ٱلْكَوْنِ ، لِأَنَّهَا لَا تُحَدُّ بِشَخْصٍ ، وَلَا تَنْحَصِرُ فِي أَحَدٍ ، وَكُلُّ مَنْ كَانَتْ حُدُوْدُهُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ جِسْمَهُ وَلَذَّاتِ جِسْمِهِ ، فَهُوَ فِي مِقْدَارِ هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ كَٱلْمَيْتِ ٱلْمَحْدُوْدِ مِنَ ٱلْأَرْضِ كُلِّهَا بِقَبْرِهِ وَتُرَابِ قَبْرِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَجِدُ جِسْمَهُ وَأَكَاذِيْبَ ٱلطَّبِيْعَةِ عَلَيْهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ لَنْ يَجِدَ ٱلرُّوْحَ وَحَقَائِقَهَا ، وَإِذَا لَمْ يَجِدْ هَـٰذِهِ فَلَنْ يَعْرِفَ ٱلْكَوْنَ وَأَسْرَارَهُ ؛ وَإِذَا فَقَدَ هَـٰذَا فَهُوَ ٱلْحَاضِرُ ٱلضَّيِّقُ ٱلْمُشَوَّهُ ٱلْمَكْذُوْبُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَفَنُّهُ شَهْوَةُ إِحْسَاسِهِ وَإِنْ كَانَ مَخْدُوْعًا ، وَشَهْوَةُ نَظَرِهِ وَإِنْ كَانَ مُلَبَّسًا عَلَيْهِ ، وَشَهْوَةُ خَيَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ ٱلتَّمْوِيْهُ وَٱلزُّوْرُ ، وَٱلْحَاضِرُ ٱلضَّيِّقُ ٱلْمُشَوَّهُ ٱلْمَكْذُوْبُ ٱلْخَادِعُ هُوَ ٱلْمُسَمَّىٰ فِي لُغَةِ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيْثِ « بِٱلدُّنْيَا » ؛ فَإِذَا ٱتَّسَعَ ٱلْإِنْسَانُ لِرُوْحِهِ وَأَدْرَكَ حَقِيْقَتَهَا ، وَوَعَىٰ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْكَوْنِ ، وَأَخَذَ يُحَقِّقُ هَـٰذِهِ ٱلرُّوْحَ ٱلسَّمَاوِيَّةَ فِي أَعْمَالِهِ ، وَتَخَطَّىٰ حُدُوْدَ جِسْمِهِ إِلَىٰ فِكْرَةِ ٱلْخُلُوْدِ ؛ فَهَـٰذَا كُلُّهُ هُوَ ٱلْمُسَمَّىٰ فِي لُغَةِ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيْثِ بِـ « ٱلْآخِرَةِ » فَهُمَا كَلِمَتَانِ فِي مُنْتَهَىٰ ٱلْإِبْدَاعِ مِنَ ٱلْفَنِّ وَٱلْفَلْسَفَةِ ؛ وَعَلَىٰ ذَلِكَ يُؤَوَّلُ قَوْلُهُ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ : « مَنْ كَانَ هَمُّهُ ٱلْآخِرَةَ جَمَعَ ٱللهُ شَمْلَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ ٱلدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ؛ وَمَنْ كَانَ هَمُّهُ ٱلدُّنْيَا فَرَّقَ ٱللهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ » . [ابن ماجه ، رقم : ٤١٠٥ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٠٨٠] .

وَأَنْتَ إِذَا فَسَّرْتَ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ بِمَا وَصَفْنَا لَكَ وَوَجَّهْتَهَا عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلتَّأْوِيْلِ ، رَأَيْتَ عَجَائِبَ مَعَانِيْهَا لَا تَنْقَضِيْ . وَأَدْرَكْتَ سِرَّ قَوْلِهِ ﷺ : « إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ ٱللهِ عَلَّمَنِيْهِ » [« مسند أحمد » ، رقم : ٢٠٦١١] فَٱتِّسَاعُ ٱلذَّاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَمُمَادَّتُهَا لِحَقَائِقِ ٱلْكَوْنِ ، يَجْعَلُ ٱلْإِنْسَانَ كَٱلْكَوْنِ نَفْسِهِ ، مُجْتَمِعًا غَيْرَ مُفَرَّقٍ عَلَىٰ هُمُوْمِ ٱلْحَيَاةِ ؛ وَيَجْعَلُ ٱلْغِنَىٰ مَعْنًى لَا مَادَّةً ؛ وَلَوِ ٱمْتَلَكَ إِنْسَانٌ مِنَ ٱلنَّاسِ كُلَّ مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ ٱلشَّمْسُ ، وَكَانَ لَهُ كَنْزٌ فِي ٱلْمَشْرِقِ وَكَنْزٌ فِي ٱلْمَغْرِبِ ؛ لَمَا بَلَغَ شَيْئًا قَلِيْلًا مِنْ لَذَّةِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِي قَلْبِهِ ؛ وَفِي هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ تُصْبِحُ ٱلدُّنْيَا ٱلْعَرِيْضَةُ ٱلَّتِي يَهْلَكُ ٱلنَّاسُ فِي تَحْصِيْلِهَا وَلَيْسَتْ إِلَّا ضَرُوْرَةً صَغِيْرَةً ؛ قَدْ تَكُوْنُ فِي ثَوْبٍ وَلُقَيْمَاتٍ وَنَحْوِهَا مِمَّا لَا خَطَرَ لَهُ ، وَهَـٰذَا هُوَ إِرْغَامُهَا وَهِيَ مَالِكَةُ ٱلْمُلُوْكِ ، فَإِذَا ضَاقَ ٱلْإِنْسَانُ عَنْ رُوْحِهِ أَصْبَحَتِ ٱلنَّفْسُ كَٱلْمُنْخُلِ يُوْضَعُ ٱلدَّقِيْقُ ٱلنَّاعِمُ فِيْهِ لِيَخْرُجَ مِنْهُ فَيُمْسِكُهُ كُلَّهُ وَلَا يُمْسِكُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَوَضَعَ بَيْنَ عَيْنَيْهَا مَعْنَىٰ ٱلْفَقْرِ ، فَهِيَ تَعْمَلُ

أَبَدًا لِتَمْتَلِئَ ، وَلَا تَمْتَلِئُ أَبَدًا ؛ وَإِذَا كَانَ ٱلْمُنْخُلُ مُتَّخَذًا عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقَةِ ٱلَّتِي صُنِعَ بِهَا ، فَفَقْرُهُ وَلَا جَرَمَ مُعَلَّقٌ عَلَيْهِ مِنْ ذَاتِ تَرْكِيْبِهِ . « أَفَهِمْتَ . . . » ؟ .

وَلَمَّا كَانَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ مُتَسَاوِقًا مَعَ ٱلْحَقِيْقَةِ ، مُتَّصِلًا بِهَا ، مَحْدُوْدًا بِرَبِّهِ لَا بِنَفْسِهِ ، كَانَ لِذَلِكَ خَارِجًا مِنْ حَاضِرِ مَا نَحْنُ فِيْهِ ، مُمْتَدًّا بِمَعْنَاهُ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلْكَامِلِ إِلَىٰ ٱلْمُسْتَقْبَلِ ٱلَّذِي وَرَاءَ ٱلْحَيَاةِ ، فَمَا نَحْصُرُهُ نَحْنُ بِطَبِيْعَتِنَا فِي بَعْضِ ٱلْأَسْمَاءِ لَا يَلْتَفِتُ هُوَ إِلَيْهِ بِطَبِيْعَتِهِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَوْصَافُ ٱلْغِنَىٰ وَٱلْحِلْيَةِ وَٱلنَّعِيْمِ وَٱلْمَتَاعِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْمَطْعَمِ وَٱلْمَشْرَبِ ، وَمَا دَاخَلَ ٱلطَّبِيْعَةَ مِنْ مِثْلِ مَعَانِيْهَا ، وَمَا جَرَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَجْرَىٰ ، فَهَـٰذَا كُلُّهُ يَرَاهُ ٱلنَّاسُ مِنْ جِهَةِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَٱلْمَطْمَعِ فِيْهِ ؛ إِذْ كَانَ ضَعْفُ إِدْرَاكِهِمْ وَضِيْقُ وَعْيِهِمْ مِمَّا يُبْدِعُ لَهُمْ أَكَاذِيْبَ ٱلْخَيَالِ ، فَتَجِيْءُ مِنْ ذَلِكَ أَوْصَافُهُمْ وَفُنُوْنُ أَوْصَافِهِمْ ، أَمَّا ٱلنَّبِيُّ ﷺ فَيَرَىٰ ذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْغِنَىٰ عَنْهُ وَٱلسُّمُوِّ عَلَيْهِ ! إِذْ كَانَ لَا يَنْظُرُ بِطَبِيْعَةِ رُوْحِهِ ٱلْعَظِيْمَةِ إِلَّا أَعْلَىٰ ٱلنَّظَرَيْنِ وَأَطْهَرَهُمَا ، فَآخِرُ إِدْرَاكِنَا لِلْحَقِيْقَةِ وَٱلطَّبِيْعَةِ أَوَّلُ إِدْرَاكِهِ هُوَ لِلطَّبِيْعَةِ وَٱلْحَقِيْقَةِ ، وَمَا تَعْجَزُ عَنْهُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ تَبْدَأُ مِنْهُ ٱلنُّبُوَّةُ .

وَعَلَىٰ هَـٰذَا ، فَإِنَّ مِنْ أَقْوَىٰ ٱلْبَرَاهِيْنِ عَلَىٰ كَمَالِهِ ﷺ وَنُبُوَّتِهِ وَٱتِّسَاعِ رُوْحِهِ وَنَفَاذِ إِدْرَاكِهِ لِحَقَائِقِ ٱلْكَوْنِ ـ أَنَّهُ لَمْ يَتَبَسَّطْ فِي ٱلْفُنُوْنِ كَمَا يَصْنَعُ ٱلْبُلَغَاءُ ، وَلَمْ يَأْخُذْ مَأْخَذَهُمْ فِيْهَا ؛ إِذْ كَانَتْ كُلُّهَا مِنْ أَكَاذِيْبِ ٱلْقَلْبِ وَٱلْفِكْرِ وَٱلْعَيْنِ .

وَفِي قَانُوْنِ ٱلْحَقِيْقَةِ أَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ هِيَ كُلُّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهِيَ كَمَا هِيَ ، أَمَّا فِي قَانُوْنِ ٱلْكَذِبِ فَٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا هِيَ مَا تَخْتَارُهُ أَنْتَ مِنْهَا ، وَكَمَا تَخْتَارُهُ .

بِحَسْبِ ٱلدُّنْيَا مِنْ جَمَالِ فَنِّهِ ﷺ مَا يُضِيْفُ إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ عَظَمَةَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَظِيْمَةِ ، وَيَدْفَعُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ فِي طَرِيْقِهَا ٱلْوَاحِدِ ٱلَّذِي هُوَ بَيْنَ ٱلْأَبِ وَٱلْأُمِّ ، طَرِيْقُ ٱلْأَخِ إِلَىٰ أَخِيْهِ ، يَكُوْنُ فِي ٱلدُّنْيَا بَيْنَ ٱلرَّجُلَيْنِ كَمَا هُوَ فِي ٱلدَّمِ بَيْنَ ٱلْقَلْبَيْنِ رَحْمَةٌ وَمَوَدَّةٌ ، وَبِحَسْبِنَا مِنْ جَمَالِ هَـٰذَا ٱلْفَنِّ مَا يَهْدِي ٱلْإِنْسَانَ إِلَىٰ حَقِيْقَةِ نَفْسِهِ ؛ فَيُقِرُّهُ فِي ٱلْحَقِيْقِيِّ مِنْ وُجُوْدِهِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ، وَيَجْعَلُ ٱلْفَضَائِلَ كُلَّهَا تَرْبِيَةً لِلْقَلْبِ ؛ يَكْبُرُ بِهَا ثُمَّ يَكْبُرُ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَكْبُرُ حَتَّىٰ يَتَّسِعَ لِحَقِيْقَةِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْكُبْرَىٰ : « ٱللهُ أَكْبَرُ » .

* * *

قُرْآنُ ٱلْفَجْرِ (*) (١)

كُنْتُ فِي ٱلْعَاشِرَةِ مِنْ سِنِّي وَقَدْ جَمَعْتُ ٱلْقُرْآنَ كُلَّهُ حِفْظًا وَجَوَّدْتُهُ بِأَحْكَامِ ٱلْقِرَاءَةِ ، وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ فِي مَدِينَةِ (دَمَنْهُور : عَاصِمَةِ ٱلْبُحَيْرَةِ) وَكَانَ أَبِي - رَحِمَهُ ٱللهُ - كَبِيرَ ٱلْقُضَاةِ ٱلشَّرْعِيِّينَ فِي هَـٰذَا ٱلإِقْلِيمِ ، وِمِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَكِفُ كُلَّ سَنَةٍ فِي أَحَدِ ٱلْمَسَاجِدِ عَشَرَةَ ٱلأَيَّامِ ٱلأَخِيرَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ؛ يَدْخُلُ ٱلْمَسْجِدَ فَلَا يَبْرَحُهُ إِلَّا لَيْلَةَ عِيدِ ٱلْفِطْرِ بَعْدَ ٱنْقِضَاءِ ٱلصَّوْمِ ؛ فَهُنَاكَ يَتَأَمَّلُ وَيَتَعَبَّدُ وَيَتَّصِلُ بِمَعْنَاهُ ٱلْحَقِّ ، وَيَنْظُرُ إِلَى ٱلزَّائِلِ بِمَعْنَى ٱلْخَالِدِ ، وَيُطِلُّ عَلَى ٱلدُّنْيَا إِطْلَالَ ٱلْوَاقِفِ عَلَى ٱلأَيَّامِ ٱلسَّائِرَةِ ! وَيُغَيِّرُ ٱلْحَيَاةَ فِي عَمَلِهِ وَفِكْرِهِ ، وَيَهْجُرُ تُرَابَ ٱلأَرْضِ فَلَا يَمْشِي عَلَيْهِ ، وَتُرَابَ ٱلْمَعَانِي ٱلأَرْضِيَّةِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ ، وَيَدْخُلُ فِي ٱلزَّمَنِ ٱلْمُتَحَرِّرِ مِنْ أَكْثَرِ قُيُودِ ٱلنَّفْسِ ، وَيَسْتَقِرُّ فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْمَمْلُوءِ لِلْجَمِيعِ بِفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ ؛ ثُمَّ لَا يَرَى مِنَ ٱلنَّاسِ إِلَّا هَـٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلْمُرَطِّبَ ٱلرُّوحِ بِٱلْوُضُوءِ ، ٱلْمَدْعُوَّ إِلَى دُخُولِ ٱلْمَسْجِدِ بِدَعْوَةِ ٱلْقُوَّةِ ٱلسَّامِيَةِ ، ٱلْمُنْحَنِيَ فِي رُكُوعِهِ لِيَخْضَعَ لِغَيْرِ ٱلْمَعَانِي ٱلذَّلِيلَةِ ، ٱلسَّاجِدَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ لِيُدْرِكَ مَعْنَى ٱلْجَلَالِ ٱلأَعْظَمِ .

وَمَا هِيَ حِكْمَةُ هَـٰذِهِ ٱلأَمْكِنَةِ ٱلَّتِي تُقَامُ لِعِبَادَةِ ٱللهِ ؟ إِنَّهَا أَمْكِنَةٌ قَائِمَةٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ، تُشْعِرُ ٱلْقَلْبَ ٱلْبَشَرِيَّ فِي نِزَاعِ ٱلدُّنْيَا أَنَّهُ فِي إِنْسَانٍ لَا فِي بَهِيمَةٍ . . .

* * *

وَذَهَبْتُ لَيْلَةً فَبِتُّ عِنْدَ أَبِي فِي ٱلْمَسْجِدِ ؛ فَلَمَّا كُنَّا فِي جَوْفِ ٱللَّيْلِ ٱلأَخِيرِ أَيْقَظَنِي لِلسَّحُورِ ، ثُمَّ أَمَرَنِي فَتَوَضَّأْتُ لِصَلَاةِ ٱلْفَجْرِ وَأَقْبَلَ هُوَ عَلَى قِرَاءَتِهِ ؛ فَلَمَّا كَانَ ٱلسَّحَرُ ٱلأَعْلَى هَتَفَ بِٱلدُّعَاءِ ٱلْمَأْثُورِ : « ٱللَّهُمَّ لَكَ ٱلْحَمْدُ ؛ أَنْتَ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ ، وَلَكَ ٱلْحَمْدُ ؛ أَنْتَ بَهَاءُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ ، وَلَكَ ٱلْحَمْدُ ؛ أَنْتَ زَيْنُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ ، وَلَكَ ٱلْحَمْدُ ؛ أَنْتَ قِيَامُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَنْ عَلَيْهِنَّ ؛ أَنْتَ ٱلْحَقُّ وَمِنْكَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٧ ، ١٩ ذو القعدة سنة ١٣٥٥ هـ = ١ فبراير/ شباط ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ١٦١ ـ ١٦٣ .

(١) أَنْشَأَهَا قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ، فَٱعْجَبْ لَهُ يَذْكُرُ أَوَّلِيَّتَهُ وَهُوَ عَلَى أَبْوَابِ آخِرَتِهِ ! سَعِيد ٱلْعُرْيَان .

ٱلْحَقُّ . . . » إِلَى آخِرِ ٱلدُّعَاءِ .

وَأَقْبَلَ ٱلنَّاسُ يَتَنَابُونَ ٱلْمَسْجِدَ ، فَٱنْحَدَرْنَا مِنْ تِلْكَ ٱلْعِلْيَةِ ٱلَّتِي يُسَمُّونَهَا (ٱلدَّكَّةَ) وَجَلَسْنَا نَنْتَظِرُ ٱلصَّلَاةَ . وَكَانَتِ ٱلْمَسَاجِدُ فِي ذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ تُضَاءُ بِقَنَادِيلِ ٱلزَّيْتِ ، فِي كُلِّ قِنْدِيلٍ ذُبَالَةٌ يَرْتَعِشُ ٱلنُّورُ فِيهَا خَافِتًا ضَئِيلًا يَبِصُّ بَصِيصًا كَأَنَّهُ بَعْضُ مَعَانِي ٱلضَّوْءِ لَا ٱلضَّوْءُ نَفْسُهُ ؛ فَكَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْقَنَادِيلُ وَٱلظَّلَامُ يَرْتَجُّ حَوْلَهَا ، تَلُوحُ كَأَنَّهَا شُقُوقٌ مُضِيئَةٌ فِي ٱلْجَوِّ ، فَلَا تَكْشِفُ ٱللَّيْلَ وَلٰكِنْ تَكْشِفُ أَسْرَارَهُ ٱلْجَمِيلَةَ . وَتَبْدُو فِي ٱلظُّلْمَةِ كَأَنَّهَا تَفْسِيرٌ ضَعِيفٌ لِمَعْنًى غَامِضٍ يُومِئُ إِلَيْهِ وَلَا يُبَيِّنُهُ ، فَمَا تَشْعُرُ ٱلنَّفْسُ إِلَّا أَنَّ ٱلْعَيْنَ تَمْتَدُّ فِي ضَوْئِهَا مِنَ ٱلْمَنْظُورِ إِلَى غَيْرِ ٱلْمَنْظُورِ ، كَأَنَّهَا سِرٌّ يَشِفُّ عَنْ سِرٍّ .

وَكَانَ لَهَا مَنْظَرٌ كَمَنْظَرِ ٱلنُّجُومِ يُتِمُّ جَمَالَ ٱللَّيْلِ بِإِلْقَائِهِ ٱلشُّعَلَ فِي أَطْرَافِهِ ٱلْعُلْيَا وَإِلْبَاسِ ٱلظَّلَامِ زِينَتَهُ ٱلنُّورَانِيَّةَ ؛ فَكَانَ ٱلْجَالِسُ فِي ٱلْمَسْجِدِ وَقْتَ ٱلسَّحَرِ يَشْعُرُ بِٱلْحَيَاةِ كَأَنَّهَا مَخْبُوءَةٌ ، وَيُحِسُّ فِي ٱلْمَكَانِ بَقَايَا أَحْلَامٍ ، وَيَسْرِي حَوْلَهُ ذٰلِكَ ٱلْمَجْهُولُ ٱلَّذِي سَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْغَدُ ؛ وَفِي هَـٰذَا ٱلظَّلَامِ ٱلنُّورَانِيِّ تَتَكَشَّفُ لَهُ أَعْمَاقُهُ مُنْسَكِبًا فِيهَا رُوحُ ٱلْمَسْجِدِ ، فَتَعْتَرِيهِ حَالَةٌ رُوحَانِيَّةٌ يَسْتَكِينُ فِيهَا لِلْقَدَرِ هَادِئًا وَادِعًا رَاجِعًا إِلَى نَفْسِهِ ، مُجْتَمِعًا فِي حَوَاسِّهِ ، مُنْفَرِدًا بِصِفَاتِهِ ، مُنْعَكِسًا عَلَيْهِ نُورُ قَلْبِهِ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ سُلْطَانِ مَا يُضِيءُ عَلَيْهِ ٱلنَّهَارُ ، أَوْ كَأَنَّ تِلْكَ ٱلظُّلْمَةَ قَدْ طَمَسَتْ فِيهِ عَلَى أَلْوَانِ ٱلأَرْضِ .

ثُمَّ يَشْعُرُ بِٱلْفَجْرِ فِي ذٰلِكَ ٱلْغَبَشِ عِنْدَ ٱخْتِلَاطِ آخِرِ ٱلظَّلَامِ بِأَوَّلِ ٱلضَّوْءِ ، شُعُورًا نَدِيًّا كَأَنَّ ٱلْمَلَائِكَةَ قَدْ هَبَطَتْ تَحْمِلُ سَحَابَةً رَقِيقَةً تَمْسَحُ بِهَا عَلَى قَلْبِهِ لِيَتَنَضَّرَ مِنْ يُبْسٍ ، وَيَرِقَّ مِنْ غِلْظَةٍ . وَكَأَنَّمَا جَاؤُوهُ مَعَ ٱلْفَجْرِ لِيَتَنَاوَلَ ٱلنَّهَارَ مِنْ أَيْدِيهِمْ مَبْدُوءًا بِٱلرَّحْمَةِ ، مُفْتَتَحًا بِٱلْجَمَالِ ، فَإِذَا كَانَ شَاعِرَ ٱلنَّفْسِ ٱلْتَقَى فِيهِ ٱلنُّورُ ٱلسَّمَاوِيُّ بِٱلنُّورِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، فَإِذَا هُوَ يَتَلَأْلَأُ فِي رُوحِهِ تَحْتَ ٱلْفَجْرِ .

* * *

لَا أَنْسَى أَبَدًا تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ وَنَحْنُ فِي جَوِّ ٱلْمَسْجِدِ ، وَٱلْقَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ كَٱلنُّجُومِ فِي مَنَاطِهَا مِنَ ٱلْفَلَكِ ، وَتِلْكَ ٱلسُّرُجُ تَرْتَعِشُ فِيهَا ٱرْتِعَاشَ خَوَاطِرِ ٱلْحُبِّ ، وَٱلنَّاسُ جَالِسُونَ عَلَيْهِمْ وَقَارُ أَرْوَاحِهِمْ ، وَمِنْ حَوْلِ كُلِّ إِنْسَانٍ هُدُوءُ قَلْبِهِ ؛ وَقَدِ ٱسْتَبْهَمَتِ ٱلأَشْيَاءُ فِي نَظَرِ

ٱلعَيْنِ لِيَلْبَسَهَا ٱلإِحْسَاسُ ٱلرُّوحَانِيُّ فِي ٱلنَّفْسِ ، فَيَكُونُ لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ ٱلَّذِي هُوَ مِنْهُ وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي لَيْسَ مِنْهُ ، فَيُخْلَقُ فِيهِ ٱلْجَمَالُ ٱلشِّعْرِيُّ كَمَا يُخْلَقُ لِلنَّظَرِ ٱلْمُتَخَيِّلُ .

لَا أَنْسَى أَبَدًا تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ وَقَدِ ٱنْبَعَثَ فِي جَوِّ ٱلْمَسْجِدِ صَوْتٌ غَرِدٌ رَخِيمٌ ، يَشُقُّ سُدْفَةَ ٱللَّيْلِ فِي مِثْلِ رَنِينِ ٱلْجَرَسِ تَحْتَ ٱلأُفُقِ ٱلعَالِي وَهُوَ يُرَتِّلُ هَـٰذِهِ ٱلآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ ٱلنَّحْلِ :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [١٦ سورة النحل/ الآيات : ١٢٥ ـ ١٢٨] .

* * *

وَكَانَ هَـٰذَا ٱلْقَارِئُ يَمْلِكُ صَوْتَهُ أَتَمَّ مَا يَمْلِكُ ذُو ٱلصَّوْتِ ٱلْمُطْرِبِ ، فَكَانَ يَتَصَرَّفُ بِهِ أَحْلَىٰ مِمَّا يَتَصَرَّفُ ٱلْقُمْرِيُّ وَهُوَ يَنُوحُ فِي أَنْغَامِهِ ، وَبَلَغَ فِي ٱلتَّطْرِيبِ كُلَّ مَبْلَغٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ ٱلْقَادِرُ ، حَتَّىٰ لَا تُفَسَّرُ ٱللَّذَّةُ ٱلْمُوسِيقِيَّةُ بِأَبْدَعَ مِمَّا فَسَّرَهَا هَـٰذَا ٱلصَّوْتُ ، وَمَا كَانَ إِلَّا كَٱلْبُلْبُلِ هَزَّتْهُ ٱلطَّبِيعَةُ بِأُسْلُوبِهَا فِي جَمَالِ ٱلْقَمَرِ ، فَٱهْتَزَّ يُجَاوِبُهَا بِأُسْلُوبِهِ فِي جَمَالِ ٱلتَّغْرِيدِ .

كَانَ صَوْتُهُ عَلَىٰ تَرْتِيبٍ عَجِيبٍ فِي نَغَمَاتِهِ ، يَجْمَعُ قُوَّةَ ٱلرِّقَّةِ وَبَيْنَ رِقَّةِ ٱلْقُوَّةِ ، وَيَضْطَرِبُ ٱضْطِرَابًا رُوحَانِيًّا كَٱلْحُزْنِ ٱعْتَرَاهُ ٱلْفَرَحُ عَلَىٰ فَجْأَةٍ ، يَصِيحُ ٱلصَّيْحَةَ تَتَرَجَّحُ فِي ٱلْجَوِّ وَفِي ٱلنَّفْسِ ، وَتَتَرَدَّدُ فِي ٱلْمَكَانِ وَفِي ٱلْقَلْبِ ، وَيَتَحَوَّلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ ٱلإِلٰهِيُّ إِلَىٰ شَيْءٍ حَقِيقِيٍّ ، يَلْمَسُ ٱلرُّوحَ فَيَرْفَضُّ عَلَيْهَا بِمِثْلِ ٱلنَّدَىٰ ، فَإِذَا هِيَ تَرِفُّ رَفِيفًا ، وَإِذَا هِيَ كَٱلزَّهْرَةِ ٱلَّتِي مَسَحَهَا ٱلطَّلُّ .

وَسَمِعْنَا ٱلْقُرْآنَ غَضًّا طَرِيًّا كَأَوَّلِ مَا نَزَلَ بِهِ ٱلْوَحْيُ ، فَكَانَ هَـٰذَا ٱلصَّوْتُ ٱلْجَمِيلُ يَدُورُ فِي ٱلنَّفْسِ كَأَنَّهُ بَعْضُ ٱلسِّرِّ ٱلَّذِي يَدُورُ فِي نِظَامِ ٱلْعَالَمِ ؛ وَكَانَ ٱلْقَلْبُ وَهُوَ يَتَلَقَّىٰ ٱلآيَاتِ كَقَلْبِ ٱلشَّجَرَةِ يَتَنَاوَلُ ٱلْمَاءَ وَيَكْسُوهَا مِنْهُ .

وَٱهْتَزَّ ٱلْمَكَانُ وَٱلزَّمَانُ كَأَنَّمَا تَجَلَّىٰ ٱلْمُتَكَلِّمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي كَلَامِهِ ، وَبَدَا ٱلْفَجْرُ

كَأَنَّهُ وَاقِفٌ يَسْتَأْذِنُ ٱللهَ أَنْ يُضِيءَ مِنْ هَـٰذَا ٱلنُّورِ ! .

وَكُنَّا نَسْمَعُ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ وَكَأَنَّمَا مُحِيَتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي فِي ٱلْخَارِجِ مِنَ ٱلْمَسْجِدِ وَبَطَلَ بَاطِلُهَا ، فَلَمْ يَبْقَ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ إِلَّا ٱلإِنْسَانِيَّةُ ٱلطَّاهِرَةُ وَمَكَانُ ٱلْعِبَادَةِ ، وَهَـٰذِهِ هِيَ مُعْجِزَةُ ٱلرُّوحِ مَتَىٰ كَانَ ٱلإِنْسَانُ فِي لَذَّةِ رُوحِهِ مُرْتَفِعًا عَلَىٰ طَبِيعَتِهِ ٱلأَرْضِيَّةِ .

أَمَّا ٱلطِّفْلُ ٱلَّذِي كَانَ فِيَّ يَوْمَئِذٍ فَكَأَنَّمَا دُعِيَ بِكُلِّ ذَلِكَ لِيَحْمِلَ هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةَ وَيُؤَدِّيَهَا إِلَىٰ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي يَجِيءُ فِيهِ مِنْ بَعْدُ ؛ فَأَنَا فِي كُلِّ حَالَةٍ أَخْضَعُ لِهَـٰذَا ٱلصَّوْتِ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [١٦ سورة النحل/ الآية : ١٢٥] ؛ وَأَنَا فِي كُلِّ ضَائِقَةٍ أَخْشَعُ لِهَـٰذَا ٱلصَّوْتِ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [١٦ سورة النحل/ الآية : ١٢٧] ! .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

ٱللُّغَةُ وَٱلدِّينُ وَٱلْعَادَاتُ
بِٱعْتِبَارِهَا مِنْ مُقَوِّمَاتِ ٱلاسْتِقْلَالِ (*)(١)

لَيْسَتْ حَقِيقَةُ ٱلأُمَّةِ فِي هَـٰذَا ٱلظَّاهِرِ ٱلَّذِي يَبْدُو مِنْ شَعْبٍ مُجْتَمِعٍ مَحْكُومٍ بِقَوَانِينِهِ وَأَوْضَاعِهِ ؛ وَلَكِنْ تِلْكَ ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْكَائِنُ ٱلرُّوحِيُّ ٱلْمُكْتَنُّ فِي ٱلشَّعْبِ ، ٱلْخَالِصُ لَهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ ، ٱلْمَقْصُورُ عَلَيْهِ فِي تَرْكِيبِهِ ؛ كَعَصِيرِ ٱلشَّجَرَةِ : لَا يُرَىٰ عَمَلُهُ وَٱلشَّجَرَةُ كُلُّهَا هِيَ عَمَلُهُ .

وَهَـٰذَا ٱلْكَائِنُ ٱلرُّوحِيُّ هُوَ ٱلصُّورَةُ ٱلْكُبْرَىٰ لِلنَّسَبِ فِي ذَوِي ٱلْوَشِيجَةِ مِنَ ٱلأَفْرَادِ ، بَيْدَ أَنَّهُ يُحَقِّقُ فِي ٱلشَّعْبِ قَرَابَةَ ٱلصِّفَاتِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ : فَيَجْعَلُ لِلأُمَّةِ شَأْنَ ٱلأُسْرَةِ ، وَيَخْلُقُ فِي ٱلْوَطَنِ مَعْنَىٰ ٱلدَّارِ ، وَيُوجِدُ فِي ٱلاخْتِلَافِ نَزْعَةَ ٱلتَّشَابُهِ ، وَيَرُدُّ ٱلْمُتَعَدِّدَ إِلَىٰ طَبِيعَةِ ٱلْوَحْدَةِ ، وَيُبْدِعُ لِلأُمَّةِ شَخْصِيَّتَهَا ٱلْمُتَمَيِّزَةَ ، وَيُوجِبُ لِهَـٰذِهِ ٱلشَّخْصِيَّةِ بِإِزَاءِ غَيْرِهَا قَانُونَ ٱلتَّنَاصُرِ وَٱلْحَمِيَّةِ ، إِذْ يَجْعَلُ ٱلْخَوَاطِرَ مُشْتَرَكَةً ، وَٱلدَّوَاعِيَ مُسْتَوِيَةً ، وَٱلنَّوَازِعَ مُتَآزِرَةً ، فَتَجْتَمِعُ ٱلأُمَّةُ كُلُّهَا عَلَىٰ ٱلرَّأْيِ : تَتَسَانَدُ لَهُ بِقِوَاهَا ، وَيَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا فِيهِ ؛ وَبِهَـٰذَا كُلِّهِ يَكُونُ رُوحُ ٱلأُمَّةِ قَدْ وَضَعَ فِي كَلِمَةِ ٱلأُمَّةِ مَعْنَاهَا .

وَٱلْخُلُقُ ٱلْقَوِيُّ ٱلَّذِي يُنْشِئُهُ لِلأُمَّةِ كَائِنُهَا ٱلرُّوحِيُّ ، هُوَ ٱلْمَبَادِىءُ ٱلْمُنْتَزَعَةُ مِنْ أَثَرِ ٱلدِّينِ وَٱللُّغَةِ وَٱلْعَادَاتِ ، وَهُوَ قَانُونٌ نَافِذٌ يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، إِذْ يَعْمَلُ فِي ٱلْحَيِّزِ ٱلْبَاطِنِ مِنْ وَرَاءِ ٱلشُّعُورِ ، مُتَسَلِّطًا عَلَىٰ ٱلْفِكْرِ ، مُصَرِّفًا لِبَوَاعِثِ ٱلنَّفْسِ ؛ فَهُوَ وَحْدَهُ ٱلَّذِي يَمْلأُ ٱلْحَيَّ بِنَوْعِ حَيَاتِهِ ، وَهُوَ طَابَعُ ٱلزَّمَنِ عَلَىٰ ٱلأُمَمِ ، وَكَأَنَّهُ عَلَىٰ ٱلتَّحْقِيقِ وَضْعُ ٱلأَجْدَادِ عَلَامَتَهُمُ ٱلْخَاصَّةَ عَلَىٰ ذُرِّيَّتِهِمْ .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٥ ، ٢١ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ١٣ أبريل/ نيسان ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٥٦١ ـ ٥٦٤ .

(١) أَنْشَأَهَا لِلْمُسَابَقَةِ ٱلأَدَبِيَّةِ ٱلْعَامَّةِ فِي عَهْدِ عَلِيٍّ مَاهِرٍ بَاشَا سَنَةَ ١٩٣٦ ، وَٱنْظُرْ « فِي ٱلنَّقْدِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ ٱلْعُرْيَانِ .

أَمَّا ٱللُّغَةُ ، فَهِيَ صُورَةُ وُجُودِ ٱلأُمَّةِ بِأَفْكَارِهَا وَمَعَانِيهَا وَحَقَائِقِ نُفُوسِهَا ، وُجُودًا مُتَمَيِّزًا قَائِمًا بِخَصَائِصِهِ ، فَهِيَ قَوْمِيَّةُ ٱلْفِكْرِ ، تَتَّحِدُ بِهَا ٱلأُمَّةُ فِي صُوَرِ ٱلتَّفْكِيرِ وَأَسَالِيبِ أَخْذِ ٱلْمَعْنَىٰ مِنَ ٱلْمَادَّةِ . وَٱلدِّقَّةُ فِي تَرْكِيبِ ٱللُّغَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ دِقَّةِ ٱلْمَلَكَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَعُمْقُهَا هُوَ عُمْقُ ٱلرُّوحِ وَدَلِيلُ ٱلْحِسِّ عَلَىٰ مَيْلِ ٱلأُمَّةِ إِلَىٰ ٱلتَّفْكِيرِ وَٱلْبَحْثِ فِي ٱلأَسْبَابِ وَٱلْعِلَلِ ، وَكَثْرَةُ مُشْتَقَّاتِهَا بُرْهَانٌ عَلَىٰ نَزْعَةِ ٱلْحُرِّيَّةِ وَطِمَاحِهَا ، فَإِنَّ رُوحَ ٱلاسْتِعْبَادِ ضَيِّقٌ لَا يَتَّسِعُ وَدَأْبُهُ [فِي ٱلْمُسْتَعْبَدِينَ] لُزُومُ ٱلْكَلِمَةِ وَٱلْكَلِمَاتِ ٱلْقَلِيلَةِ .

وَإِذَا كَانَتِ ٱللُّغَةُ بِهَـٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ ، وَكَانَتْ أُمَّتُهَا حَرِيصَةً عَلَيْهَا ، نَاهِضَةً بِهَا ، مُتَّسِعَةً فِيهَا ، مُكْبِرَةً شَأْنَهَا ؛ فَمَا يَأْتِي ذَٰلِكَ إِلَّا مِنْ رُوحِ ٱلتَّسَلُّطِ فِي شَعْبِهَا وَٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ طَبِيعَتِهِ وَعَمَلِ طَبِيعَتِهِ ، وَكَوْنِهِ سَيِّدَ أَمْرِهِ ، وَمُحَقِّقَ وُجُودِهِ ، وَمُسْتَعْمِلَ قُوَّتِهِ ، وَٱلآخِذَ بِحَقِّهِ ؛ فَأَمَّا إِذَا كَانَ مِنْهُ ٱلتَّرَاخِي وَٱلإِهْمَالُ ، وَتَرْكُ ٱللُّغَةِ لِلطَّبِيعَةِ ٱلسُّوقِيَّةِ ، وَإِصْغَارُ أَمْرِهَا ، وَتَهْوِينُ خَطَرِهَا ، وَإِيثَارُ غَيْرِهَا بِٱلْحُبِّ وَٱلإِكْبَارِ ؛ فَهَـٰذَا شَعْبٌ خَادِمٌ لَا مَخْدُومٌ ، تَابِعٌ لَا مَتْبُوعٌ ، ضَعِيفٌ عَنْ تَكَالِيفِ ٱلسِّيَادَةِ ، لَا يُطِيقُ أَنْ يَحْمِلَ عَظَمَةَ مِيرَاثِهِ ، مُجْتَزِئٌ بِبَعْضِ حَقِّهِ ، مُكْتَفٍ بِضَرُورَاتِ ٱلْعَيْشِ ، يُوضَعُ لِحُكْمِهِ ٱلْقَانُونُ ٱلَّذِي أَكْثَرُهُ لِلْحِرْمَانِ وَأَقَلُّهُ لِلْفَائِدَةِ ٱلَّتِي هِيَ كَٱلْحِرْمَانِ .

لَا جَرَمَ كَانَتْ لُغَةُ ٱلأُمَّةِ هِيَ ٱلْهَدَفَ ٱلأَوَّلَ لِلْمُسْتَعْمِرِينَ ؛ فَلَنْ يَتَحَوَّلَ ٱلشَّعْبُ أَوَّلَ مَا يَتَحَوَّلُ إِلَّا مِنْ لُغَتِهِ ، إِذْ يَكُونُ مَنْشَأُ ٱلتَّحَوُّلِ مِنْ أَفْكَارِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَآمَالِهِ ، وَهُوَ إِذَا ٱنْقَطَعَ مِنْ نَسَبِ لُغَتِهِ ٱنْقَطَعَ مِنْ نَسَبِ مَاضِيهِ ، وَرَجَعَتْ قَوْمِيَّتُهُ صُورَةً مَحْفُوظَةً فِي ٱلتَّارِيخِ ، لَا صُورَةً مُحَقَّقَةً فِي وُجُودِهِ . فَلَيْسَ كَٱللُّغَةِ نَسَبٌ لِلْعَاطِفَةِ وَٱلْفِكْرِ ؛ حَتَّىٰ إِنَّ أَبْنَاءَ ٱلأَبِ ٱلْوَاحِدِ لَوِ ٱخْتَلَفَتْ أَلْسِنَتُهُمْ فَنَشَأَ مِنْهُمْ نَاشِئٌ عَلَىٰ لُغَةٍ ، وَنَشَأَ ٱلثَّانِي عَلَىٰ أُخْرَىٰ ، وَٱلثَّالِثُ عَلَىٰ لُغَةٍ ثَالِثَةٍ ، لَكَانُوا فِي ٱلْعَاطِفَةِ كَأَبْنَاءِ ثَلَاثَةِ آبَاءٍ .

وَمَا ذَلَّتْ لُغَةُ شَعْبٍ إِلَّا ذَلَّ ، وَلَا ٱنْحَطَّتْ إِلَّا كَانَ أَمْرُهُ فِي ذَهَابٍ وَإِدْبَارٍ ؛ وَمِنْ هَـٰذَا يَفْرِضُ ٱلأَجْنَبِيُّ ٱلْمُسْتَعْمِرُ لُغَتَهُ فَرْضًا عَلَىٰ ٱلأُمَّةِ ٱلْمُسْتَعْمَرَةِ وَيَرْكَبُهُمْ بِهَا ، وَيُشْعِرُهُمْ عَظَمَتَهُ فِيهَا ، وَيَسْتَلْحِقُهُمْ مِنْ نَاحِيَتِهَا ؛ فَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ أَحْكَامًا ثَلَاثَةً فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ : أَمَّا ٱلأَوَّلُ فَحَبْسُ لُغَتِهِمْ فِي لُغَتِهِ سِجْنًا مُؤَبَّدًا ، وَأَمَّا ٱلثَّانِي فَٱلْحُكْمُ عَلَىٰ مَاضِيهِمْ بِٱلْقَتْلِ مَحْوًا

وَنِسْيَانًا ؛ وَأَمَّا ٱلثَّالِثُ فَتَقْيِيْدُ مُسْتَقْبَلِهِمْ فِيْ ٱلأَغْلَالِ ٱلَّتِي يَصْنَعُهَا ؛ فَأَمْرُهُمْ مِنْ بَعْدِهَا لأَمْرِهِ تَبَعٌ .

وَٱلَّذِيْنَ يَتَعَلَّقُوْنَ ٱللُّغَاتِ ٱلأَجنَبِيَّةَ يَنْزِعُوْنَ إِلَىٰ أَهْلِهَا بِطَبِيْعَةِ هَـٰذَا ٱلتَّعَلُّقِ ، إِنْ لَمْ تَكُنْ عَصَبِيَّتُهُمْ لِلُغَتِهِمْ قَوِيَّةً مُسْتَحْكِمَةً مِنْ قِبَلِ ٱلدِّيْنِ أَوِ ٱلْقَوْمِيَّةِ ؛ فَتَرَاهُمْ إِذَا وَهَنَتْ فِيهِمْ هَـٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةُ يَخْجَلُوْنَ مِنْ قَوْمِيَّتِهِمْ ، وَيَتَبَرَّؤُوْنَ مِنْ سَلَفِهِمْ ، وَيَنْسَلِخُوْنَ مِنْ تَارِيْخِهِمْ ، وَتَقُوْمُ بِأَنْفُسِهِمُ ٱلْكَرَاهَةُ لِلُغَتِهِمْ وَآدَابِ لُغَتِهِمْ ، وَلِقَوْمِهِمْ وَأَشْيَاءِ قَوْمِهِمْ ؛ فَلَا يَسْتَطِيْعُ وَطَنُهُمْ أَنْ يُوْحِيَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَ رُوْحِهِ ؛ إِذْ لَا يُوَافِقُ مِنْهُمْ ٱسْتِجَابَةً فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ ؛ وَيَنْقَادُوْنَ بِٱلْحُبِّ لِغَيْرِهِ ؛ فَيَتَجَاوَزُوْنَهُ وَهُمْ فِيْهِ ، وَيَرِثُوْنَ دِمَاءَهُمْ مِنْ أَهْلِهِمْ ثُمَّ تَكُوْنُ ٱلْعَوَاطِفُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدِّمَاءِ لِلأَجْنَبِيِّ وَمِنْ ثَمَّ تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ قِيْمَةُ ٱلأَشْيَاءِ بِمَصْدَرِهَا لَا بِنَفْسِهَا ، وَبِٱلْخَيَالِ ٱلْمُتَوَهَّمِ فِيْهَا لَا بِٱلْحَقِيْقَةِ ٱلَّتِي تَحْمِلُهَا ؛ فَيَكُوْنُ شَيْءُ ٱلأَجْنَبِيِّ فِيْ مَذْهَبِهِمْ أَجْمَلَ وَأَثْمَنَ ، لأَنَّ إِلَيْهِ ٱلْمَيْلَ وَفِيْهِ ٱلإِكْبَارُ وَٱلإِعْظَامُ ؛ وَقَدْ يَكُوْنُ ٱلْوَطَنِيُّ مِثْلَهُ أَوْ أَجْمَلَ مِنْهُ بَيْدَ أَنَّهُ فَقَدَ ٱلْمَيْلَ ، فَضَعُفَتْ صِلَتُهُ بِٱلنَّفْسِ ، فَعَادَتْ كُلُّ مُمَيِّزَاتِهِ { فَضَعُفَتْ } لَا تُمَيِّزُهُ .

وَأَعْجَبُ مِنْ هَـٰذَا فِيْ أَمْرِهِمْ ، أَنَّ أَشْيَاءَ ٱلأَجْنَبِيِّ لَا تَحْمِلُ مَعَانِيَهَا ٱلسَّاحِرَةَ فِيْ نُفُوْسِهِمْ إِلَّا إِذَا بَقِيَتْ حَامِلَةً أَسْمَاءَهَا ٱلأَجْنَبِيَّةَ ، فَإِنْ سُمِّيَ ٱلأَجْنَبِيُّ بِلُغَتِهِمُ ٱلْقَوْمِيَّةِ نَقَصَ مَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ وَتَصَاغَرَ وَظَهَرَتْ فِيْهِ ذِلَّةٌ . . . وَمَا ذَاكَ إِلَّا صِغَرُ نُفُوْسِهِمْ وَذِلَّتُهَا ، إِذْ لَا يَنْتَخُوْنَ لِقَوْمِيَّتِهِمْ فَلَا يُلْهِمُهُمُ ٱلْحَرْفُ مِنْ لُغَتِهِمْ مَا يُلْهِمُهُمُ ٱلْحَرْفُ ٱلأَجْنَبِيُّ .

وَٱلشَّرْقُ مُبْتَلَىً بِهَـٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ، وَمِنْهَا جَاءَتْ مَشَاكِلُهُ أَوْ أَكْثَرُهَا ؛ وَلَيْسَ فِيْ ٱلْعَالَمِ أُمَّةٌ عَزِيْزَةُ ٱلْجَانِبِ تُقَدِّمُ لُغَةَ غَيْرِهَا عَلَىٰ لُغَةِ نَفْسِهَا ، وَبِهَـٰذَا لَا يَعْرِفُوْنَ لِلأَشْيَاءِ ٱلأَجْنَبِيَّةِ مَوْضِعًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حُدُوْدِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلْوَطَنِيَّةِ ؛ وَلَوْ أَخَذْنَا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّيْنَ بِهَـٰذَا ، لَكَانَ هَـٰذَا وَحْدَهُ عِلَاجًا حَاسِمًا لأَكْثَرِ مَشَاكِلِنَا .

فَٱللُّغَاتُ تَتَنَازَعُ ٱلْقَوْمِيَّةَ ، وَلَهِيَ وَٱللهِ ٱحْتِلَالٌ عَقْلِيٌّ فِيْ ٱلشُّعُوْبِ ٱلَّتِي ضَعُفَتْ عَصَبِيَّتُهَا ؛ وَإِذَا هَانَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْقَوْمِيَّةُ عَلَىٰ أَهْلِهَا ، أَثَّرَتِ ٱللُّغَةُ ٱلأَجنَبِيَّةُ فِيْ ٱلْخُلُقِ ٱلْقَوْمِيِّ مَا يُؤَثِّرُ ٱلْجَوُّ ٱلأَجْنَبِيُّ فِيْ ٱلْجِسْمِ ٱلَّذِيْ ٱنْتَقَلَ إِلَيْهِ وَأَقَامَ فِيْهِ .

أَمَّا إِذَا قَوِيَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ ، وَعَزَّتِ ٱللُّغَةُ ، وَثَارَتْ لَهَا ٱلْحَمِيَّةُ ؛ فَلَنْ تَكُوْنَ ٱللُّغَاتُ

ٱلأَجْنَبِيَّةُ إِلَّا خَادِمَةً يُرْتَفَقُ بِهَا ، وَيَرْجِعُ شِبْرُ ٱلأَجْنَبِيِّ شِبْرًا لَا مِتْرًا . . . وَتَكُوْنُ تِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةُ لِلُّغَةِ ٱلْقَوْمِيَّةِ مَادَّةً وَعَوْنًا لِكُلِّ مَا هُوَ قَوْمِيٌّ فَيُصْبِحُ كُلُّ شَيْءٍ أَجْنَبِيٍّ قَدْ خَضَعَ لِقُوَّةٍ قَاهِرَةٍ غَالِبَةٍ ، هِيَ قُوَّةُ ٱلإِيْمَانِ بِٱلْمَجْدِ ٱلْوَطَنِيِّ وَٱسْتِقْلَالِ ٱلْوَطَنِ ؛ وَمَتَىٰ تَعَيَّنَ ٱلأَوَّلُ أَنَّهُ ٱلأَوَّلُ ، فَكُلُّ قُوَىٰ ٱلْوُجُوْدِ لَا تَجْعَلُ ٱلَّذِيْ بَعْدَهُ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ ٱلثَّانِيْ .

* * *

وَٱلدِّيْنُ هُوَ حَقِيْقَةُ ٱلْخُلُقِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ فِيْ ٱلأُمَّةِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْقُلُوْبَ كُلَّهَا طَبَقَةً وَاحِدَةً عَلَىٰ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَظَاهِرِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ عَالِيَةً وَنَازِلَةً وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَهُوَ بِذٰلِكَ ٱلضَّمِيْرُ ٱلْقَانُوْنِيُّ لِلشَّعْبِ ، وَبِهِ لَا بِغَيْرِهِ ثَبَاتُ ٱلأُمَّةِ عَلَىٰ فَضَائِلِهَا ٱلنَّفْسِيَّةِ ، وَفِيْهِ لَا فِيْ سِوَاهُ مَعْنَىٰ إِنْسَانِيَّةِ ٱلْقَلْبِ .

وَلِهَـٰذَا كَانَ ٱلدِّيْنُ مِنْ أَقْوَىٰ ٱلْوَسَائِلِ ٱلَّتِي يُعَوَّلُ عَلَيْهَا فِيْ إِيْقَاظِ ضَمِيْرِ ٱلأُمَّةِ وَتَنْبِيْهِ رُوْحِهَا ، وَٱهْتِيَاجِ خَيَالِهَا : إِذْ فِيْهِ أَعْظَمُ ٱلسُّلْطَةِ ٱلَّتِي لَهَا وَحْدَهَا قُوَّةُ ٱلْغَلَبَةِ عَلَىٰ ٱلْمَادِّيَّاتِ ؛ فَسُلْطَانُ ٱلدِّيْنِ هُوَ سُلْطَانُ كُلِّ فَرْدٍ عَلَىٰ ذَاتِهِ وَطَبِيْعَتِهِ ؛ وَمَتَىٰ قَوِيَ هَـٰذَا ٱلسُّلْطَانُ فِيْ شَعْبٍ ، كَانَ حَمِيًّا أَبِيًّا ، لَا تُرْغِمُهُ قُوَّةٌ ، وَلَا يَعْنُوْ لِلْقَهْرِ .

وَلَوْلَا ٱلتَّدَيُّنُ بِٱلشَّرِيْعَةِ ، لَمَا ٱسْتَقَامَتِ ٱلطَّاعَةُ لِلْقَانُوْنِ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَلَوْلَا ٱلطَّاعَةُ ٱلنَّفْسِيَّةُ لِلْقَوَانِيْنِ ؛ لَمَا ٱنْتَظَمَتْ أُمَّةٌ ؛ فَلَيْسَ عَمَلُ ٱلدِّيْنِ إِلَّا تَحْدِيْدَ مَكَانِ ٱلْحَيِّ فِيْ فَضَائِلِ ٱلْحَيَاةِ ؛ وَتَعْيِيْنَ تَبِعَتِهِ فِيْ حُقُوْقِهَا وَوَاجِبَاتِهَا ، وَجَعْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ نِظَامًا مُسْتَقِرًّا فِيْهِ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَدَفْعَ ٱلإِنْسَانِ بِهَـٰذَا ٱلنِّظَامِ نَحْوَ ٱلأَكْمَلِ ، وَدَائِمًا نَحْوَ ٱلأَكْمَلِ .

وَكُلُّ أُمَّةٍ ضَعُفَ ٱلدِّيْنُ فِيْهَا ٱخْتَلَّتْ هَنْدَسَتُهَا ٱلاجْتِمَاعِيَّةُ ، وَمَاجَ بَعْضُهَا فِيْ بَعْضٍ ، فَإِنَّ مِنْ دَقِيْقِ ٱلْحِكْمَةِ فِيْ هَـٰذَا ٱلدِّيْنِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ ٱلْغَايَةَ ٱلأَخِيْرَةَ مِنَ ٱلْحَيَاةِ { غَايَةً } فِيْ هَـٰذِهِ ٱلأَرْضِ ، وَذَلِكَ لِتَنْتَظِمَ ٱلْغَايَاتُ ٱلأَرْضِيَّةُ فِيْ ٱلنَّاسِ ، فَلَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؛ فَيَغْتَنِيَ ٱلْغَنِيُّ وَهُوَ آمِنٌ ، وَيَفْتَقِرَ ٱلْفَقِيْرُ وَهُوَ قَانِعٌ ، وَيَكُوْنُ ثَوَابُ ٱلأَعْلَىٰ فِيْ أَنْ يَعُوْدَ عَلَىٰ ٱلأَسْفَلِ بِٱلْمَبَرَّةِ ، وَثَوَابُ ٱلأَسْفَلِ فِيْ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ تَرْكِ ٱلأَعْلَىٰ فِيْ مَنْزِلَتِهِ ؛ ثُمَّ يَنْصَرِفُ ٱلْجَمِيْعُ بِفَضَائِلِهِمْ إِلَىٰ تَحْقِيْقِ ٱلْغَايَةِ ٱلإِلَـٰهِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ ٱلَّتِي لَا يَكْبُرُ عَلَيْهَا ٱلْكَبِيْرُ ، وَلَا يَصْغُرُ عَنْهَا ٱلصَّغِيْرُ ؛ وَهِيَ ٱلْحَقُّ ، وَٱلصَّلَاحُ ، وَٱلْخَيْرُ ، وَٱلتَّعَاوُنُ عَلَىٰ ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ .

وَمَا دَامَ عَمَلُ ٱلدِّينِ هُوَ تَكْوِينَ ٱلْخُلُقِ ٱلثَّابِتِ ٱلدَّائِبِ فِيْ عَمَلِهِ ، ٱلْمُعْتَزِّ بِقُوَّتِهِ ، ٱلْمُطْمَئِنِّ إِلَىٰ صَبْرِهِ ، ٱلنَّافِرِ مِنَ ٱلضَّعْفِ ، ٱلأَبِيِّ عَلَىٰ ٱلذُّلِّ ، ٱلْكَافِرِ بِٱلاسْتِعْبَادِ ، ٱلْمُؤْمِنِ بِٱلْمَوْتِ فِيْ ٱلْمُدَافَعَةِ عَنْ حَوْزَتِهِ ، ٱلْمَجْزِيِّ بِتَسَامِيهِ وَبَذْلِهِ وَعَطْفِهِ وَإِيْثَارِهِ وَمُفَادَاتِهِ ، وَٱلْعَامِلِ فِيْ مَصْلَحَةِ ٱلْجَمَاعَةِ ، ٱلْمُقَيَّدِ فِيْ مَنَافِعِهِ بِوَاجِبَاتِهِ نَحْوَ ٱلنَّاسِ ـ مَا دَامَ عَمَلُ ٱلدِّينِ هُوَ تَكْوِينَ هَـٰذَا ٱلْخُلُقِ ـ فَيَكُوْنُ ٱلدِّيْنُ فِيْ حَقِيْقَتِهِ هُوَ جَعْلَ ٱلْحِسِّ بِٱلشَّرِيْعَةِ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلْحِسِّ بِٱلْمَادَّةِ ؛ وَلَعَمْرِيْ مَا يَجِدُ ٱلاسْتِقْلَالُ قُوَّةً هِيَ أَقْوَىٰ لَهُ وَأَرَدُّ عَلَيْهِ مِنْ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ إِذَا تَقَرَّرَ فِيْ نُفُوْسِ ٱلأُمَّةِ وَٱنْطَبَعَتْ عَلَيْهِ .

وَهَـٰذِهِ ٱلأُمَّةُ ٱلدِّيْنِيَّةُ ٱلَّتِيْ يَكُوْنُ وَاجِبُهَا أَنْ تَشْرُفَ وَتَسُوْدَ وَتَعْتَزَّ ، يَكُوْنُ وَاجِبُ هَـٰذَا ٱلْوَاجِبِ فِيْهَا أَلَّا تَسْقُطَ وَلَا تَخْضَعَ وَلَا تَذِلَّ .

وَبِتِلْكَ ٱلأُصُوْلِ ٱلْعَظِيْمَةِ ٱلَّتِيْ يُنْشِئُهَا ٱلدِّيْنُ ٱلصَّحِيْحُ ٱلْقَوِيُّ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، يَتَهَيَّأُ ٱلنَّجَاحُ ٱلسِّيَاسِيُّ لِلشَّعْبِ ٱلْمُحَافِظِ عَلَيْهِ ٱلْمُنْتَصِرِ لَهُ ؛ إِذْ يَكُوْنُ مِنَ ٱلْخِلَالِ ٱلطَّبِيْعِيَّةِ فِيْ زُعَمَائِهِ وَرِجَالِهِ ٱلثَّبَاتُ عَلَىٰ ٱلنَّزْعَةِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ ، وَٱلصَّلَابَةُ فِيْ ٱلْحَقِّ ، وَٱلإِيْمَانُ بِمَجْدِ ٱلْعَمَلِ ، وَتَغْلِيْبُ ذَلِكَ عَلَىٰ ٱلأَحْوَالِ ٱلْمَادِّيَّةِ ٱلَّتِيْ تَعْتَرِضُ ذَا ٱلرَّأْيِ لِتَفْتِنَهُ عَنْ رَأْيِهِ وَمَذْهَبِهِ : مِنْ مَالٍ ، أَوْ جَاهٍ ، أَوْ مَنْصِبٍ ، أَوْ مُوَافَقَةِ ٱلْهَوَىٰ ، أَوْ خَشْيَةِ ٱلنِّقْمَةِ ، أَوْ خَوْفِ ٱلْوَعِيْدِ ، إِلَىٰ غَيْرِهَا مِنْ كُلِّ مَا يَسْتَمِيْلُ بِهِ ٱلْبَاطِلُ أَوْ يُرْهِبُ بِهِ ٱلظُّلْمُ .

وَلَا يَذْهَبَنَّ عَنْكَ أَنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْمُؤْمِنَ ، ٱلْقَوِيَّ ٱلإِيْمَانِ ، ٱلْمُمْتَلِئَ ثِقَةً وَيَقِيْنًا وَوَفَاءً وَصِدْقًا وَعَزْمًا وَإِصْرَارًا عَلَىٰ فَضِيْلَتِهِ وَثَبَاتًا عَلَىٰ مَا يَلْقَىٰ فِيْ سَبِيْلِهَا ـ لَا يَكُوْنُ رَجُلًا كَالنَّاسِ ؛ بَلْ هُوَ رَجُلُ ٱلاسْتِقْلَالِ ٱلَّذِيْ وَاجِبُهُ جُزْءٌ مِنْ طَبِيْعَتِهِ وَغَايَتُهُ ٱلسَّامِيَةُ لَا تَنْفَصِلُ عَنْهُ ، هُوَ رَجُلُ صِدْقِ ٱلْمَبْدَإِ ، وَصِدْقِ ٱلْكَلِمَةِ ، وَصِدْقِ ٱلأَمَلِ ، وَصِدْقِ ٱلنَّزْعَةِ ؛ وَهُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِيْ يَنْفَجِرُ فِيْ ٱلتَّارِيْخِ كُلَّمَا ٱحْتَاجَتِ ٱلْحَيَاةُ ٱلْوَطَنِيَّةُ إِلَىٰ إِطْلَاقِ قَنَابِلِهَا لِلنَّصْرِ .

* * *

وَٱلْعَادَاتُ هِيَ ٱلْمَاضِيْ ٱلَّذِيْ يَعِيْشُ فِيْ ٱلْحَاضِرِ ، وَهِيَ وَحْدَةٌ تَارِيْخِيَّةٌ فِيْ ٱلشَّعْبِ ، تَجْمَعُهُ كَمَا يَجْمَعُهُ ٱلأَصْلُ ٱلْوَاحِدُ ، ثُمَّ هِيَ كَٱلدِّيْنِ فِيْ قِيَامِهَا عَلَىٰ أَسَاسٍ أَدَبِيٍّ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَفِيْ ٱشْتِمَالِهَا عَلَىٰ ٱلتَّحْرِيْمِ وَٱلتَّحْلِيْلِ ، وَتَكَادُ عَادَاتُ ٱلشَّعْبِ تَكُوْنُ دِيْنًا ضَيِّقًا خَاصًّا بِهِ ،

يَحْصُرُهُ فِيْ قَبِيْلِهِ وَوَطَنِهِ ، وَيُحَقِّقُ فِيْ أَفْرَادِهِ ٱلأُلْفَةَ وَٱلتَّشَابُكَ ، وَيَأْخُذُهُمْ جَمِيْعًا بِمَذْهَبٍ وَاحِدٍ : هُوَ إِجْلَالُ ٱلْمَاضِيْ .

وَإِجْلَالُ ٱلْمَاضِيْ فِيْ شَعْبٍ تَارِيْخِيٍّ هُوَ ٱلْوَسِيْلَةُ ٱلرُّوْحِيَّةُ ٱلَّتِيْ يَسْتَوْحِيْ بِهَا ٱلشَّعْبُ أَبْطَالَهُ ، وَفَلَاسِفَتَهُ ، وَعُلَمَاءَهُ ، وَأُدَبَاءَهُ ، وَأَهْلَ ٱلْفَنِّ مِنْهُ ، فَيُوْحُوْنَ إِلَيْهِ وَحْيَ عُظَمَائِهِمُ ٱلَّتِيْ لَمْ يَغْلِبْهَا ٱلْمَوْتُ ؛ وَبِهَـٰذَا تَكُوْنُ صُوَرُهُمُ ٱلْعَظِيْمَةُ حَيَّةً فِيْ تَارِيْخِهِ ، وَحَيَّةً فِيْ آمَالِهِ وَأَعْصَابِهِ .

وَٱلْعَادَاتُ هِيَ وَحْدَهَا ٱلَّتِيْ تَجْعَلُ ٱلْوَطَنَ شَيْئًا نَفْسِيًّا حَقِيْقِيًّا ، حَتَّىٰ لَيَشْعُرُ ٱلإِنْسَانُ أَنَّ لِأَرْضِهِ أُمُوْمَةَ ٱلأُمِّ ٱلَّتِيْ وَلَدَتْهُ ، وَلِقَوْمِهِ أُبُوَّةَ ٱلأَبِ ٱلَّذِيْ جَاءَ بِهِ إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ ، وَلَيْسَ يَعْرِفُ هَـٰذَا إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَبَ عَنْ وَطَنِهِ ، وَخَالَطَ غَيْرَ قَوْمِهِ ، وَٱسْتَوْحَشَ مِنْ غَيْرِ عَادَاتِهِ ؛ فَهُنَاكَ ، هُنَاكَ يُثْبِتُ ٱلْوَطَنُ نَفْسَهُ بِعَظَمَةٍ وَجَبَرُوْتٍ وَكَأَنَّهُ وَحْدَهُ هُوَ ٱلدُّنْيَا .

وَهَـٰذِهِ ٱلطَّبِيْعَةُ ٱلنَّاشِئَةُ فِيْ ٱلنَّفْسِ مِنْ أَثَرِ ٱلْعَادَاتِ هِيَ ٱلَّتِيْ تُنَبِّهُ فِيْ ٱلْوَطَنِيِّ رُوْحَ ٱلتَّمَيُّزِ عَنِ ٱلأَجْنَبِيِّ ، وَتُوَحِّشُ نَفْسَهُ مِنْهُ كَأَنَّهَا حَاسَّةُ ٱلأَرْضِ تُنَبِّهُ أَهْلَهَا وَتُنْذِرُهُمُ ٱلْخَطَرَ .

وَمَتَىٰ صَدَقَتِ ٱلْوَطَنِيَّةُ فِيْ ٱلنَّفْسِ أَقَرَّتْ كُلَّ شَيْءٍ أَجْنَبِيٍّ فِيْ حَقِيْقَتِهِ ٱلأَجْنَبِيَّةِ ؛ فَكَانَ هَـٰذَا هُوَ أَوَّلَ مَظَاهِرِ ٱلاسْتِقْلَالِ ، وَكَانَ أَقْوَىٰ ٱلذَّرَائِعِ إِلَىٰ ٱلْمَجْدِ ٱلْوَطَنِيِّ .

* * *

وَبِٱللُّغَةِ وَٱلدِّيْنِ وَٱلْعَادَاتِ ، يَنْحَصِرُ ٱلشَّعْبُ فِيْ ذَاتِهِ ٱلسَّامِيَةِ بِخَصَائِصِهَا وَمُقَوِّمَاتِهَا ، فَلَا يَسْهُلُ ٱنْتِزَاعُهُ مِنْهَا وَلَا ٱنْتِسَافُهُ مِنْ تَارِيْخِهِ ، وَإِذَا أُلْجِئَ إِلَىٰ حَالٍ مِنَ ٱلْقَهْرِ لَمْ يَنْخَذِلْ وَلَمْ يَتَضَعْضَعْ ، وَٱسْتَمَرَّ يَعْمَلُ مَا تَعْمَلُهُ ٱلشَّوْكَةُ ٱلْحَادَّةُ : إِنْ لَمْ تُتْرَكْ لِنَفْسِهَا ، لَمْ تُعْطِ مِنْ نَفْسِهَا إِلَّا ٱلْوَخْزَ .

* * *

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

تَجْدِيدُ ٱلإِسْلَامِ (*) (١)
رِسَالَةُ ٱلأَزْهَرِ فِي ٱلقَرْنِ ٱلعِشْرِيْنَ (٢)

(ٱلأَزْهَرُ) هَـٰذِهِ هِيَ ٱلكَلِمَةُ لَا يُقَابِلُهَا فِي خَيَالِ ٱلأُمَّةِ ٱلمِصْرِيَّةِ إِلَّا كَلِمَةُ (ٱلهَرَمِ) ، وَفِي كِلْتَا ٱللَّفْظَتَيْنِ يَكْمُنُ سِرٌّ خَفِيٌّ مِنْ أَسْرَارِ ٱلتَّارِيْخِ تَجْعَلُ بَعْضَ ٱلكَلِمَاتِ مِيرَاثًا عَقْلِيًّا لِلأُمَّةِ ، يُنْسِي مَادَّةَ ٱللُّغَةِ فِيهَا ، وَلَا يُبْقِي مِنْهَا إِلَّا مَادَّةَ ٱلنَّفْسِ ؛ إِذْ تَكُوْنُ هَـٰذِهِ ٱلكَلِمَاتُ تَعْبِيْرًا عَنْ شَيْءٍ ثَابِتٍ ثَبَاتَ ٱلفِكْرَةِ ٱلَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ ، مُسْتَقِرٍّ فِي ٱلرُّوْحِ ٱلقَوْمِيَّةِ ٱسْتِقْرَارَهُ فِي ٱلزَّمَنِ ، مُتَجَسِّمٍ مِنْ مَعْنَاهُ كَأَنَّ ٱلطَّبِيْعَةَ قَدْ أَفْرَدَتْهُ بِمَادَّتِهِ دُوْنَ مَا يُشَارِكُهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلمَادَّةِ ، فَٱلحَجَرُ فِي ٱلهَرَمِ ٱلأَكْبَرِ يَكَادُ يَكُوْنُ فِي ٱلعَقْلِ زَمَانًا لَا حَجَرًا ، وَفَنًّا لَا جِسْمًا ؛ وَٱلمَكَانُ فِي ٱلأَزْهَرِ يَغِيْبُ فِيهِ مَعْنَى ٱلمَكَانِ ، وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ قُوَّةٍ عَقْلِيَّةٍ سَاحِرَةٍ تُوْجَدُ فِي ٱلمَنْظُوْرِ غَيْرِ ٱلمَنْظُوْرِ .

وَعِنْدِي أَنَّ ٱلأَزْهَرَ فِي زَمَانِنَا هَـٰذَا يَكَادُ يَكُوْنُ تَفْسِيْرًا جَدِيْدًا لِلْحَدِيْثِ : « مِصْرُ كِنَانَةُ ٱللهِ فِي أَرْضِهِ » [راجع « المقاصد الحسنة » ، رقم : ١٠٢٩ ؛ و« كشف الخفاء » ، رقم : ٢٣٠٩] فَعُلَمَاؤُهُ ٱليَوْمَ أَسْهُمٌ نَافِذَةٌ مِنْ أَسْهُمِ ٱللهِ يَرْمِيْ بِهَا مَنْ أَرَادَ دِيْنَهُ بِٱلسُّوْءِ ، فَيُمْسِكُهَا لِلْهَيْبَةِ وَيَرْمِي بِهَا لِلنَّصْرِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ هَـٰذَا ٱلمَعْنَىٰ أَوَّلَ مَعَانِيْهِمْ فِي هَـٰذَا ٱلقَرْنِ ٱلعِشْرِيْنَ ٱلَّذِي ٱبْتُلِيَ بِمِلْءِ عِشْرِيْنَ قَرْنًا مِنَ ٱلجُرْأَةِ عَلَىٰ ٱلأَدْيَانِ وَإِهْمَالِهَا وَٱلإِلْحَادِ فِيْهَا .

أَوَّلُ شَيْءٍ فِي رِسَالَةِ ٱلأَزْهَرِ فِي ٱلقَرْنِ ٱلعِشْرِيْنَ : أَنْ يَكُوْنَ أَهْلُهُ قُوَّةَ إِلَـٰهِيَّةً مُعَدَّةً لِلنَّصْرِ ، مُهَيَّأَةً لِلنِّضَالِ ، مُسَدَّدَةً لِلإِصَابَةِ ، مُقَدَّرَةً فِي طَبِيْعَتِهَا أَحْسَنَ تَقْدِيْرٍ ؛ تُشْعِرُ ٱلنَّاسَ بِٱلاطْمِئْنَانِ إِلَىٰ عَمَلِهَا ، وَتُوْحِي إِلَىٰ كُلِّ مَنْ يَرَاهَا ٱلإِيْمَانَ ٱلثَّابِتَ بِمَعْنَاهَا ؛ وَلَنْ يَأْتِيَ لَهُمْ هَـٰذَا إِلَّا إِذَا ٱنْقَلَبُوْا إِلَىٰ طَبِيْعَتِهِمُ ٱلصَّحِيْحَةِ ، فَلَا يَكُوْنُ ٱلعِلْمُ تَحَرُّفًا وَلَا مِهْنَةً وَلَا

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٤ ، ١٤ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ٦ أبريل/ نيسان ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٥٢٣ ـ ٥٢٥ .

(١) { أَنْشَأَهَا لِلْمُسَابَقَةِ ٱلأَدَبِيَّةِ ٱلعَامَّةِ } .

(٢) لَمْ نَتَكَلَّمْ فِي هَـٰذِهِ ٱلمَقَالَةِ عَنِ ٱللُّغَةِ وَٱلأَدَبِ وَتَفْصِيْلِ عُلُوْمِ ٱلأَزْهَرِ ؛ لِأَنَّ هَـٰذِهِ هِيَ مَادَّةُ ٱلأَزْهَرِ لَا رِسَالَتُهُ ٱلجَدِيْدَةُ فِي رَأْيِنَا .

مَكْسَبَةً (١) ، وَلَا يَكُوْنُ فِي أَوْرَاقِ ٱلكُتُبِ خَيَالُ (أَوْرَاقِ ٱلبَنْكِ) . . بَلْ تَظْهَرُ فِيهِمُ ٱلعَظَمَةُ ٱلرُّوْحَانِيَّةُ آمِرَةً نَاهِيَةً فِي ٱلمَادَّةِ ، لَا مَأْمُوْرَةً مَنْهِيَّةً بِهَا ؛ وَيَرْتَفِعُ كُلٌّ مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ ، فَيَكُوْنُ مُقَرَّرَ خُلُقٍ فِي ٱلحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ يَكُوْنَ مُعَلِّمَ عِلْمٍ ٱلحَيَاةِ ، لِيَنْبَثَّ مِنْهُمْ مِغْنَاطِيْسُ ٱلنُّبُوَّةِ يَجْذِبُ ٱلنُّفُوْسَ بِهِمْ أَقْوَىٰ مِمَّا تَجْذِبُهَا ضَلَالَاتُ ٱلعَصْرِ ؛ فَمَا يَحْتَاجُ ٱلنَّاسُ فِي هَـٰذَا ٱلزَّمَنِ إِلَى ٱلعَالَمِ وَإِنَّ ٱلكُتُبَ وَٱلعُلُوْمَ لَتَمْلأُ ٱلدُّنْيَا ـ وَإِنَّمَا يَحْتَاجُوْنَ إِلَىٰ ضَمِيْرِ ٱلعَالِمِ .

وَقَدْ عَجَزَتِ ٱلمَدَنِيَّةُ أَنْ تُوْجِدَ هَـٰذَا ٱلضَّمِيْرَ ، مَعَ أَنَّ ٱلإِسْلَامَ فِي حَقِيْقَتِهِ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا قَانُوْنَ هَـٰذَا ٱلضَّمِيْرِ ، إِذْ هُوَ دِيْنٌ قَائِمٌ عَلَىٰ أَنَّ ٱللهَ لَا يَنْظُرُ مِنَ ٱلإِنْسَانِ إِلَىٰ صُوْرَتِهِ وَلَـٰكِنْ إِلَىٰ عَمَلِهِ ؛ فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ ٱلأَزْهَرُ مِنْ رِسَالَتِهِ ، ضَمَائِرُ أَهْلِهِ .

وَٱلنَّاسُ خَاضِعُوْنَ لِلْمَادَّةِ بِقَانُوْنِ حَيَاتِهِمْ ، وَبِقَانُوْنٍ آخَرَ هُوَ قَانُوْنُ ٱلقَرْنِ ٱلعِشْرِيْنَ . . . فَهُمْ مِنْ ثَمَّ فِي أَشَدِّ ٱلحَاجَةِ إِلَىٰ أَنْ يَجِدُوْا بَيْنَهُمُ ٱلمُتَسَلِّطَ عَلَىٰ ٱلمَادَّةِ بِقَانُوْنِ حَيَاتِهِ ؛ لِيَرَوْا بِأَعْيُنِهِمُ ٱلقُوَىٰ ٱلدَّنِيئَةَ مَغْلُوْبَةً ؛ ثُمَّ لِيَجِدُوْا فِي هَـٰذَا ٱلإِنْسَانِ أَسَاسَ ٱلقُدْوَةِ وَٱلاحْتِذَاءِ فَيَتَّصِلُوْا مِنْهُ بِقُوَّتَيْنِ : قُوَّةِ ٱلتَّعْلِيْمِ ، وَقُوَّةِ ٱلتَّحْوِيْلِ .

{ وَ } هَـٰذَا هُوَ سِرُّ ٱلإِسْلَامِ ٱلأَوَّلِ ٱلَّذِي نَفَذَ بِهِ مِنْ أُمَّةٍ إِلَىٰ أُمَّةٍ وَلَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ يَصُدُّهُ ، إِذْ كَانَ يَنْفُذُ فِي ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ نَفْسِهَا .

* * *

وَمِنْ أَخَصِّ وَاجِبَاتِ ٱلأَزْهَرِ فِي هَـٰذَا ٱلقَرْنِ ٱلعِشْرِيْنَ ، أَنْ يَعْمَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لِإِقْرَارِ مَعْنَى ٱلإِسْلَامِ ٱلصَّحِيْحِ فِي ٱلمُسْلِمِيْنَ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمُ ٱليَوْمَ قَدْ أَصْبَحُوْا مُسْلِمِيْنَ بِٱلنَّسَبِ لَا غَيْرُ . . . وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ تَجْدِيْدِ إِسْلَامِهِ (٢) .

وَٱلحُكُوْمَاتُ ٱلإِسْلَامِيَّةُ عَاجِزَةٌ فِي هَـٰذَا ، بَلْ هِيَ مِنْ أَسْبَابِ هَـٰذَا ٱلشَّرِّ ؛ لِأَنَّ لَهَا وُجُوْدًا سِيَاسِيًّا وَوُجُوْدًا مَدَنِيًّا ؛ أَمَّا ٱلأَزْهَرُ فَهُوَ وَحْدَهُ ٱلَّذِي يَصْلُحُ لِإِتْمَامِ نَقْصِ ٱلحُكُوْمَةِ فِي هَـٰذَا ٱلبَابِ ؛ وَهُوَ وَحْدَهُ ٱلَّذِي يَسَعُهُ مَا تَعْجِزُ عَنْهُ ، وَأَسْبَابُ نَجَاحِهِ مُهَيَّأَةٌ ثَابِتَةٌ إِذْ كَانَ لَهُ

(١) { أَيْ : ٱحْتِرَافُ ٱلعِلْمِ لِلتَّكَسُّبِ بِهِ كَمَا نَرَاهُ ٱليَوْمَ } .

(٢) فِي ٱلأَصْلِ : « ٱلإِسْلَامِ » بَدَلًا مِنْ : « إِسْلَامِهِ » .

بِقُوَّةِ ٱلتَّارِيخِ حُكْمُ ٱلزَّعَامَةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ ، وَكَانَتْ فِيهِ عِنْدَ ٱلْمُسْلِمِينَ بَقِيَّةُ ٱلْوَحْيِ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ؛ ثُمَّ كَانَ هُوَ صُورَةَ ٱلْمِزَاجِ ٱلنَّفْسِيِّ ٱلإِسْلَامِيِّ ٱلْمَحْضِ ؛ بَيْدَ أَنَّهُ فَرَّطَ فِي وَاجِبِ هَـٰذِهِ ٱلزَّعَامَةِ ؛ وَفَقَدَ ٱلْقُوَّةَ ٱلَّتِي كَانَ يَحْكُمُ بِهَا ، وَهِيَ قُوَّةُ ٱلْمَثَلِ ٱلأَعْلَىٰ ٱلَّتِي كَانَتْ تَجْعَلُ ٱلرَّجُلَ مِنْ عُلَمَائِهِ كَمَا قُلْنَا مَرَّةً : إِنْسَانًا تَتَخَيَّرُهُ ٱلْمَعَانِي ٱلسِّيَاسِيَّةُ تَظْهَرُ فِيهِ بِأُسْلُوبٍ عَمَلِيٍّ ، فَيَكُونُ فِي قَوْمِهِ ضَرْبًا مِنَ ٱلتَّرْبِيَةِ وَٱلتَّعْلِيمِ بِقَاعِدَةٍ مُنْتَزَعَةٍ مِنْ مِثَالِهَا ، مَشْرُوحَةٍ بِهَـٰذَا ٱلْمِثَالِ نَفْسِهِ .

وَٱلْعَقِيدَةُ فِي سَوَادِ ٱلنَّاسِ بِغَيْرِ هَـٰذَا ٱلْمَثَلِ ٱلأَعْلَىٰ هِيَ أَوَّلُ مَغْلُوبٍ فِي قُوَى ٱلْحَيَاةِ .

لَقَدِ ٱعْتَادَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ قَدِيمٍ أَنْ يَجْعَلُوا أَبْصَارَهُمْ إِلَىٰ عُلَمَاءِ ٱلأَزْهَرِ ، فَهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ[١] ، وَيَتَأَسَّوْنَ بِهِمْ ، وَيَمْنَحُونَهُمُ ٱلطَّاعَةَ ، وَيَنْزِلُونَ عَلَىٰ حُكْمِهِمْ ، وَيَلْتَمِسُونَ فِي سِيرَتِهِمُ ٱلتَّفْسِيرَ لِمُشْكِلَاتِ ٱلنَّفْسِ . وَيَعْرِفُونَ بِهِمْ مَعْنَىٰ صِغَرِ ٱلدُّنْيَا وَمَعْنَىٰ كِبَرِ ٱلأَعْمَالِ ٱلْعَظِيمَةِ ؛ وَكَانَ غِنَى ٱلْعَالِمِ ٱلدِّينِيِّ شَيْئًا غَيْرَ ٱلْمَالِ ، بَلْ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنَ ٱلْمَالِ ؛ إِذْ كَانَ يَجِدُ حَقِيقَةَ ٱلْغِنَىٰ فِي إِجْلَالِ ٱلنَّاسِ لِفَقْرِهِ كَأَنَّهُ مُلْكٌ لَا فَقْرٌ ؛ وَكَانَ زُهْدُهُ قُوَّةً حَاكِمَةً فِيهَا ٱلصَّلَابَةُ وَٱلشِّدَّةُ وَٱلْهَيْبَةُ وَٱلسُّمُوُّ وَفِيهَا كُلُّ سُلْطَانِ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ ، لِأَنَّ فِيهَا كُلَّ ٱلنَّزَعَاتِ ٱلاسْتِقْلَالِيَّةِ ؛ وَيَكَادُ ٱلزُّهْدُ ٱلصَّحِيحُ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ ٱلْقُوَّةَ ٱلَّتِي تَجْعَلُ عُلَمَاءَ ٱلدِّينِ حَقَائِقَ مُؤَثِّرَةً عَامِلَةً فِي حَيَاةِ ٱلنَّاسِ أَغْنِيَائِهِمْ وَفُقَرَائِهِمْ ، لَا حَقَائِقَ مَتْرُوكَةً لِنَفْسِهَا يُوحِشُ ٱلنَّاسَ مِنْهَا أَنَّهَا مَتْرُوكَةٌ لِنَفْسِهَا .

* * *

وَعُلَمَاءُ ٱلأَزْهَرِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ قَوَانِينُ نَفْسِيَّةٌ نَافِذَةٌ عَلَىٰ ٱلشَّعْبِ ، وَعَمَلُهُمْ أَرَدُّ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ مِنْ قَوَانِينِ ٱلْحُكُومَةِ ، بَلْ هُمُ ٱلتَّصْحِيحُ لِهَـٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ إِذَا جَرَتِ ٱلأُمُورُ عَلَىٰ عِلَلِهَا وَأَسْبَابِهَا ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَقِّقُوا وُجُودَهُمْ ، وَأَنْ يَتَنَاوَلُوا ٱلأُمَّةَ مِنْ نَاحِيَةِ قُلُوبِهَا وَأَرْوَاحِهَا ، وَأَنْ يُعِدُّوا تَلَامِيذَهُمْ فِي ٱلأَزْهَرِ كَمَا يُعِدُّونَ ٱلْقَوَانِينَ ٱلدَّقِيقَةَ ، لَا طُلَّابًا يَرْتَزِقُونَ بِٱلْعِلْمِ .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « فَيَتَّبِعُوهُمْ » بَدَلًا مِنْ : « فَهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ »

أَيْنَ صَوْتُ ٱلأَزْهَرِ وَعَمَلُهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْمَائِجَةِ بِمَا فِي ٱلسَّطْحِ وَمَا فِي ٱلْقَاعِ . . . وَأَيْنَ وَحْيُ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي مِيثَاقُهَا أَنْ تَجْعَلَ ٱلنُّبُوَّةَ كَأَنَّهَا شَيْءٌ وَاقِعٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلْعَصْرِيَّةِ لَا خَبَرٌ تَارِيخِيٌّ فِيهَا ؟

لَقَدْ أَصْبَحَ إِيمَانُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ عَادَةُ ٱلإِيمَانِ لَا ٱلإِيمَانُ نَفْسُهُ ، وَرَجَعَ ٱلإِسْلَامُ فِي كُتُبِهِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَكَأَنَّهُ أَدْيَانٌ مُخْتَلِفَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ لَا دِينٌ وَاحِدٌ ، فَرِسَالَةُ ٱلأَزْهَرِ أَنْ يُجَدِّدَ عَمَلَ ٱلنُّبُوَّةِ فِي ٱلشَّعْبِ ، وَأَنْ يُنَقِّيَ عَمَلَ ٱلتَّارِيخِ فِي ٱلْكُتُبِ ، وَأَنْ يُبْطِلَ عَمَلَ ٱلْوَثَنِيَّةِ فِي ٱلْعَادَاتِ ، وَأَنْ يُعْطِيَ ٱلأُمَّةَ دِينَهَا ٱلْوَاضِحَ ٱلسَّمْحَ ٱلْمُيَسَّرَ ، وَقَانُونَهَا ٱلْعَمَلِيَّ ٱلَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهَا وَقُوَّتُهَا .

وَلَا وَسِيلَةَ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلأَزْهَرُ جَرِيئًا فِي قِيَادَةِ ٱلْحَرَكَةِ ٱلرُّوحِيَّةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ ، جَرِيئًا فِي عَمَلِهِ لِهَـٰذِهِ ٱلْقِيَادَةِ ، آخِذًا بِأَسْبَابِ هَـٰذَا ٱلْعَمَلِ ، مُلِحًّا فِي طَلَبِ هَـٰذِهِ ٱلأَسْبَابِ ، مُصِرًّا عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلطَّلَبِ ، وَكُلُّ هَـٰذَا يَكُونُ عَبَثًا إِنْ لَمْ يَكُنْ رِجَالُ ٱلأَزْهَرِ وَطَلَبَتُهُ أَمْثِلَةً مِنَ ٱلأَمْثِلَةِ ٱلْقَوِيَّةِ فِي ٱلدِّينِ وَٱلْخُلُقِ وَٱلصَّلَابَةِ لِتَبْدَأَ ٱلْحَالَةُ ٱلنَّفْسِيَّةُ فِيهِمْ ، فَإِنَّهَا إِنْ بَدَأَتْ لَا تَقِفُ ؛ وَٱلْمَثَلُ ٱلأَعْلَىٰ حَاكِمٌ بِطَبِيعَتِهِ عَلَىٰ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، مُطَاعٌ بِحُكْمِهِ فِيهَا ، مَحْبُوبٌ بِطَاعَتِهَا لَهُ .

وَٱلْمَادَّةُ ٱلْمُطَهِّرَةُ لِلدِّينِ وَٱلأَخْلَاقِ لَا تَجِدُهَا ٱلأُمَّةُ إِلَّا فِي ٱلأَزْهَرِ ، فَعَلَىٰ ٱلأَزْهَرِ أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ فِيهِ تِلْكَ ٱلْمَادَّةَ بِإِظْهَارِ عَمَلِهَا[١] لَا بِإِلْصَاقِ ٱلْوَرَقَةِ ٱلْمَكْتُوبِ فِيهَا ٱلاسْمُ عَلَىٰ ٱلزُّجَاجَةِ . . .

وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ وَاجِبُ ٱلأَزْهَرِ أَنْ يَطْلُبَ ٱلإِشْرَافَ عَلَىٰ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلإِسْلَامِيِّ فِي ٱلْمَدَارِسِ ، وَأَنْ يَدْفَعَ ٱلْحَرَكَةَ ٱلدِّينِيَّةَ دَفْعًا بِوَسَائِلَ مُخْتَلِفَةٍ ، أَوَّلُهَا أَنْ يَحْمِلَ وِزَارَةَ ٱلْمَعَارِفِ عَلَىٰ إِقَامَةِ فَرْضِ ٱلصَّلَاةِ فِي جَمِيعِ مَدَارِسِهَا ، مِنْ مَدْرَسَةِ حُرِّيَّةِ ٱلْفِكْرِ . . . فَنَازِلًا ؛ وَٱلأُمَّةُ ٱلإِسْلَامِيَّةُ كُلُّهَا تَشُدُّ رَأْيَ ٱلأَزْهَرِ فِي هَـٰذَا .

وَإِذَا نَحْنُ ٱسْتَخْرَجْنَا ٱلتَّفْسِيرَ ٱلْعَمَلِيَّ لِهَـٰذِهِ ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [١٦ سورة النحل/الآية : ١٢٥] : دَلَّتْنَا ٱلآيَةُ بِنَفْسِهَا عَلَىٰ كُلِّ تِلْكَ ٱلْوَسَائِلِ ، فَمَا ٱلْحِكْمَةُ هُنَا إِلَّا ٱلسِّيَاسَةُ ٱلاجْتِمَاعِيَّةُ فِي ٱلْعَمَلِ ، وَلَيْسَتِ ٱلْمَوْعِظَةُ ٱلْحَسَنَةُ

(١) كَذَا بِٱلأَصْلِ ، وَفِي بَعْضِ ٱلطَّبَعَاتِ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ : « بِإِظْهَارِهَا لَهُمْ ».

إِلَّا ٱلطَّرِيقَةَ ٱلنَّفْسِيَّةَ فِي ٱلدَّعْوَةِ .

ٱلْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، وَلَيْسَ ٱلنَّبِيُّ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ إِلَّا تَارِيخَ شَدَائِدَ وَمِحَنٍ ، وَمُجَاهَدَةً فِي هِدَايَةِ ٱلنَّاسِ ، وَمُرَاغَمَةً لِلْوُجُودِ ٱلْفَاسِدِ ، وَمُكَابَدَةَ ٱلتَّصْحِيحِ لِلْحَالَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ لِلْأُمَّةِ ؛ فَهَـٰذَا كُلُّهُ هُوَ ٱلَّذِي يُوَرَّثُ عَنِ ٱلْأَنْبِيَاءِ لَا ٱلْعِلْمُ وَتَعْلِيمُهُ فَقَطْ .

* * *

وَإِذَا قَامَتْ رِسَالَةُ ٱلْأَزْهَرِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَقَائِقِ ، وَأَصْبَحَ وُجُودُهُ هُوَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْمُتَمِّمَ لِلْحُكُومَةِ ، ٱلْمُعَاوِنَ لَهَا فِي ضَبْطِ ٱلْحَيَاةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ لِلشَّعْبِ وَحِيَاطَتِهَا وَأَمْنِهَا وَرَفَاهِيَتِهَا وَٱسْتِقْرَارِهَا ـ ٱتَّجَهَتْ طَبِيعَتُهُ إِلَىٰ أَدَاءِ رِسَالَتِهِ ٱلْكُبْرَىٰ لِلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَقَّقَ ٱلذَّرَائِعَ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةِ ، مِنْ فَتْحِ بَابِ ٱلِاجْتِهَادِ ، وَتَنْقِيَةِ ٱلتَّارِيخِ ٱلْفِقْهِيِّ ، وَتَهْذِيبِ ٱلرُّوحِ ٱلْإِسْلَامِيِّ ، وَٱلسُّمُوِّ بِهِ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلْكَلَامِيَّةِ ٱلْجَدَلِيَّةِ ٱلسَّخِيفَةِ ؛ ثُمَّ ٱسْتِخْرَاجِ أَسْرَارِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ ٱلْمُكْتَنَّةِ فِيهِ ، لِهَـٰذِهِ ٱلْعُصُورِ ٱلْعِلْمِيَّةِ ٱلْأَخِيرَةِ ، وَبَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدِ ٱجْتَمَعَتْ فِيهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي تُمْسِكُ ٱلْإِسْلَامَ عَلَىٰ سُنَّتِهِ بَيْنَ ٱلْقَدِيمِ وَٱلْجَدِيدِ ، لَا يُنْكِرُهُ هَـٰذَا وَلَا يُغَيِّرُهُ ذَاكَ ، وَبَعْدَ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَزْهَرُ قَدِ ٱسْتَفَاضَ عَلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعَرَبِيِّ بِكُتُبِهِ وَدُعَاتِهِ وَمَبْعُوثِيهِ مِنْ حَامِلِي عِلْمِهِ وَرُسُلِ إِلْهَامِهِ .

أَمَّا تِلْكَ ٱلرِّسَالَةُ ٱلْكُبْرَىٰ ، فَهِيَ بَثُّ ٱلدَّعْوَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ فِي أُورُبَّةَ وَأَمْرِيكَةَ وَٱلْيَابَانِ ، بِلُغَاتِ ٱلْأُورُبِّيِّينَ وَٱلْأَمْرِيكِيِّينَ وَٱلْيَابَانِيِّينَ ، فِي أَلْسِنَةٍ أَزْهَرِيَّةٍ مُرْهَفَةٍ مَصْقُولَةٍ لَهَا بَيَانُ ٱلْأَدَبِ ، وَدِقَّةُ ٱلْعِلْمِ ، وَإِحَاطَةُ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَإِلْهَامُ ٱلشِّعْرِ ، وَبَصِيرَةُ ٱلْحِكْمَةِ ، وَقُدْرَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ؛ أَلْسِنَةٌ أَزْهَرِيَّةٌ لَا يُوجَدُ ٱلْآنَ مِنْهَا لِسَانٌ وَاحِدٌ فِي ٱلْأَزْهَرِ ، وَلَـٰكِنَّهَا لَنْ تُوجَدَ إِلَّا فِي ٱلْأَزْهَرِ ؛ وَلَا قِيمَةَ لِرِسَالَتِهِ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ إِذَا هُوَ لَمْ يُوجِدْهَا فَتَكُونَ ٱلْمُتَكَلِّمَةَ عَنْهُ ، وَٱلْحَامِلَةَ لِرِسَالَتِهِ . وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْبَعَثَاتُ ٱلَّتِي قَرَّرَ ٱلْأَزْهَرُ ٱبْتِعَاثَهَا إِلَىٰ أُورُبَّةَ إِلَّا أَوَّلُ تَارِيخِ تِلْكَ ٱلْأَلْسِنَةِ .

إِنَّ ٱلْوَسِيلَةَ ٱلَّتِي نَشَرَتِ ٱلْإِسْلَامَ مِنْ قَبْلُ لَمْ تَكُنْ أَجْنِحَةَ ٱلْمَلَائِكَةِ ، وَلَا كَانَتْ قُوَّةً مِنْ جَهَنَّمَ ، وَلَا تَزَالُ هِيَ هِيَ ٱلَّتِي تَنْشُرُهُ ؛ فَلَيْسَ مُسْتَحِيلًا وَلَا مُتَعَذِّرًا أَنْ يَغْزُوَ هَـٰذَا ٱلدِّينُ أُورُبَّةَ وَأَمْرِيكَةَ وَٱلْيَابَانَ كَمَا غَزَا ٱلْعَالَمَ ٱلْقَدِيمَ . وَلَمْ يَكُنِ ٱلسِّلَاحُ مِنْ قَبْلُ إِلَّا طَرِيقَةً لِإِيجَادِ

إِسْلَامٍ[1] فِي ٱلْأُمَّةِ ٱلْغَرِيبَةِ عَنْهُ ، حَتَّىٰ إِذَا وُجِدَ تَوَلَّىٰ هُوَ ٱلدَّعْوَةَ لِنَفْسِهِ بِقُوَّةِ ٱلنَّامُوسِ ٱلطَّبِيعِيِّ ٱلْقَائِمِ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْأَصْلَحَ هُوَ ٱلْأَبْقَىٰ ، وَٱنْحَازَتْ إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ لِأَنَّهُ قَانُونُ طَبِيعَتِهَا ٱلسَّلِيمَةِ ، وَدِينُ فِطْرَتِهَا ٱلْقَوِيَّةِ ؛ وَقَدْ ظَلَّ ٱلْإِسْلَامُ يَنْتَشِرُ وَلَمْ يَكُنْ يَحْمِلُهُ إِلَّا ٱلتَّاجِرُ ، كَمَا كَانَ يَنْتَشِرُ وَحَامِلُهُ ٱلْجَيْشُ ؛ فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا تَغْيِيرُ ٱلسِّلَاحِ فِي هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ وَجَعْلُهُ سِلَاحًا مِنْ فَلْسَفَةِ ٱلدِّينِ وَأَسْرَارِ حِكْمَتِهِ ؛ فَهَـٰذَا ٱلدِّينُ كَمَا قُلْنَا فِي بَعْضِ كَلَامِنَا[2] : أَعْمَالٌ مُفَصَّلَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ أَدَقَّ تَفْصِيلٍ وَأَوْفَاهُ بِمَصْلَحَتِهَا ، فَهُوَ يُعْطِي ٱلْحَيَاةَ فِي كُلِّ عَصْرٍ عَقْلَهَا ٱلْعَمَلِيَّ ٱلثَّابِتَ ٱلْمُسْتَقِرَّ تَنْتَظِمُ بِهِ أَحْوَالُ ٱلنَّفْسِ عَلَىٰ مَيْزَةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَيَدَعُ لِلْحَيَاةِ عَقْلَهَا ٱلْعَمَلِيَّ ٱلْمُتَجَدِّدَ ٱلْمُتَغَيِّرَ تَنْتَظِمُ بِهِ أَحْوَالُ ٱلطَّبِيعَةِ عَلَىٰ قَصْدٍ وَهُدًى ؛ وَهَـٰذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلْإِسْلَامِ فِي أَخَصِّ مَعَانِيهِ ، لَا يُغْنِي عَنْهُ فِي ذَٰلِكَ دِينٌ آخَرُ ، وَلَا يُؤَدِّي تَأْدِيَتَهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَاجَةِ أَدَبٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا فَلْسَفَةٌ ، كَأَنَّمَا هُوَ نَبْعٌ فِي ٱلْأَرْضِ لِمَعَانِي ٱلنُّورِ ، بِإِزَاءِ ٱلشَّمْسِ نَبْعَ ٱلنُّورِ فِي ٱلسَّمَاءِ .

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَزْهَرِ إِلَّا أَنْ يُوجِدَ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ فِي تِلْكَ ٱلْأُمَمِ مَا يَسْتَمِرُّ ، ثُمَّ ٱلِاسْتِمْرَارُ هُوَ يُوجِدُ مَا يَثْبُتُ ، وَٱلثَّبَاتُ يُوجِدُ مَا يَدُومُ ؛ وَكَأَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَشَارَ إِلَىٰ هَـٰذَا فِي قَوْلِهِ : « نَضَّرَ ٱللهُ ٱمْرَأً سَمِعَ مِنِّي شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْ سَامِعٍ » .
[الترمذي ، رقم : ٢٦٥٧ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٣٢] .

أَمَا وَٱللهِ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْمُبَلَّغَ ٱلَّذِي هُوَ أَوْعَىٰ لَهُ مِنَ ٱلسَّامِعِ لَنْ يَكُونَ فِي ٱلتَّارِيخِ بِأَدَقِّ ٱلْمَعْنَىٰ إِلَّا أُورُبَّةَ وَأَمْرِيكَةَ فِي هَـٰذَا ٱلزَّمَنِ ٱلْعِلْمِيِّ إِذَا نَحْنُ عَرَفْنَا كَيْفَ نُبَلِّغُ .

أَنَا مُسْتَيْقِنٌ أَنَّ فَيْلَسُوفَ ٱلْإِسْلَامِ ٱلَّذِي سَيَنْتَشِرُ ٱلدِّينُ عَلَىٰ يَدِهِ فِي أُورُبَّةَ وَأَمْرِيكَةَ لَنْ يَخْرُجَ إِلَّا مِنَ ٱلْأَزْهَرِ ، وَمَا كَانَ ٱلْأُسْتَاذُ ٱلْإِمَامُ ٱلشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ إِلَّا أَوَّلَ ٱلتَّطَوُّرِ ٱلْمُنْتَهِي إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْغَايَةِ ، وَسَيَكُونُ عَمَلُ فَلَاسِفَةِ ٱلْأَزْهَرِ ٱسْتِخْرَاجَ قَانُونِ ٱلسَّعَادَةِ لِتِلْكَ ٱلْأُمَمِ مِنْ آدَابِ ٱلْإِسْلَامِ وَأَعْمَالِهِ ؛ ثُمَّ مُخَاطَبَةَ ٱلْأُمَمِ بِأَفْكَارِهَا وَعَوَاطِفِهَا ، وَٱلْإِفْضَاءَ مِنْ ذَٰلِكَ إِلَىٰ ضَمِيرِهَا ٱلِاجْتِمَاعِيِّ ، فَإِنَّ أَوَّلَ ٱلدِّينِ هُنَاكَ أُسْلُوبُهُ ٱلَّذِي يَظْهَرُ بِهِ .

* * *

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْإِسْلَامِ » بَدَلًا مِنْ : « إِسْلَامٍ » .
(٢) { ٱنْظُرْ مَقَالَةَ « ٱلْإِشْرَاقِ ٱلْإِلَـٰهِيِّ » « وَحْيُ ٱلْقَلَمِ » } .

هَـٰذِهِ هِيَ رِسَالَةُ ٱلأَزْهَرِ فِي ٱلقَرْنِ ٱلعِشْرِيْنَ ، وَيَجِبُ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِوَسَائِلِهَا مِنَ ٱلآنِ ، وَمِنْ وَسَائِلِهَا أَنْ يُعَالِنَ بِهَا لِتَكُوْنَ مَوْثِقًا عَلَيْهِ ، وَيَحْسُنُ بِٱلأَزْهَرِ فِي سَبِيْلِ ذَٰلِكَ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ كُلَّ مُفَكِّرٍ إِسْلَامِيٍّ ذِيْ إِلْهَامٍ أَوْ بَحْثٍ دَقِيْقٍ أَوْ إِحَاطَةٍ شَامِلَةٍ ؛ فَتَكُوْنُ لَهُ أَلْقَابٌ عِلْمِيَّةٌ يَمْنَحُهُمْ إِيَّاهَا وَإِنْ لَمْ يَتَخَرَّجُوْا فِيْهِ ، ثُمَّ يَسْتَعِيْنُ بِعَمَلِهِمْ وَإِلْهَامِهِمْ وَآرَائِهِمْ .

وَبِهَـٰذِهِ ٱلأَلْقَابِ يَمْتَدُّ ٱلأَزْهَرُ إِلَىٰ حُدُوْدٍ فِكْرِيَّةٍ بَعِيْدَةٍ ، وَيُصْبِحُ أَوْسَعَ فِي أَثَرِهِ عَلَىٰ ٱلْحَيَاةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ ، وَيُحَقِّقُ لِنَفْسِهِ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْجَامِعِيَّ .

وَفِي تِلْكَ ٱلسَّبِيْلِ يَجِبُ عَلَىٰ ٱلأَزْهَرِ أَنْ يَخْتَارَ أَيَّامًا فِي كُلِّ سَنَةٍ يُجْمَعُ فِيْهَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ (قِرْشُ ٱلإِسْلَامِ) ؛ لِيَجِدَ مَادَّةَ ٱلنَّفَقَةِ ٱلْوَاسِعَةِ فِي نَشْرِ دِيْنِ ٱللهِ ، وَلَيْسَ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ مُسْلِمٌ وَلَا مُسْلِمَةٌ لَا يَبْسُطُ يَدَهُ ، فَمَا يَحْتَاجُ هَـٰذَا ٱلتَّدْبِيْرُ لأَكْثَرَ مِنْ إِقْرَارِهِ وَتَنْظِيْمِهِ وَإِعْلَانِهِ فِي ٱلأُمَمِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ وَمَوَاسِمِهَا ٱلْكُبْرَىٰ ، وَخَاصَّةً مَوْسِمَ ٱلْحَجِّ .

وَهَـٰذَا ٱلْعَمَلُ هُوَ نَفْسُهُ وَسِيْلَةٌ مِنْ أَقْوَىٰ ٱلْوَسَائِلِ فِي تَنْبِيْهِ ٱلشُّعُوْرِ ٱلإِسْلَامِيِّ وَتَحْقِيْقِ ٱلْمُعَاوَنَةِ فِي نَشْرِ ٱلدِّيْنِ وَحِيَاطَتِهِ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ نَتَائِجُ ٱجْتِمَاعِيَّةٌ لَا مَوْضِعَ لِتَفْصِيْلِهَا { هُنَا } ، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُوْنَ (قِرْشُ ٱلإِسْلَامِ) مَادَّةً لأَعْمَالٍ إِسْلَامِيَّةٍ ذَاتِ بَالٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ أَيِّ ٱلأَحْوَالِ صِلَةٌ رُوْحِيَّةٌ تَجْعَلُ ٱلأَزْهَرَ كَأَنَّهُ مُعْطِيْهِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَا آخِذُهُ .

وَٱلْخُلَاصَةُ أَنَّ أَوَّلَ رِسَالَةِ ٱلأَزْهَرِ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ : ٱهْتِدَاءُ ٱلأَزْهَرِ إِلَىٰ حَقِيْقَةِ مَوْضِعِهِ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِيْنَ : ﴿ وَجَآءَكَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ . [١١ سورة هود/ الآية : ١٢٠] .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلأَسَدُ(*)

جَلَسَ أَبُوْ عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلرُّوْذَبَادِيُّ ٱلْبَغْدَادِيُّ[١] فِي مَجْلِسِ وَعْظِهِ بِمِصْرَ بَعْدَ وَفَاةِ شَيْخِهِ أَبِي ٱلْحَسَنِ بُنَانٍ ٱلْحَمَّالِ ٱلزَّاهِدِ ٱلْوَاسِطِيِّ شَيْخِ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ[٢] ، وَكَانَ يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِعِبَادَتِهِ وَزُهْدِهِ ؛ وَقَدْ خَرَجَ أَكْثَرُ أَهْلِ مِصْرَ فِي جَنَازَتِهِ ، فَكَانَ يَوْمُهُ يَوْمًا كَٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلْعَالَمِ ٱلآخِرِ لأَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ؛ مَا بَقِيَ أَحَدٌ إِلَّا ٱقْتَنَعَ أَنَّهُ فِي شَهَوَاتِ ٱلدُّنْيَا وَأَبَاطِيْلِهَا كَٱلأَعْمَىٰ فِي سُوْءِ تَمْيِيْزِهِ بَيْنَ لَوْنِ ٱلتُّرَابِ وَلَوْنِ ٱلدَّقِيْقِ . إِذْ يَنْظُرُ كُلُّ ٱمْرِئٍ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ مِثْلَ هَـٰذِهِ ٱلنَّظْرَةِ ، بِٱللَّمْسِ لَا بِٱلْبَصَرِ ، وَبِٱلتَّوَهُّمِ لَا بِٱلتَّحْقِيْقِ ، وَعَلَىٰ دَلِيْلِ نَفْسِهِ فِي ٱلشَّيْءِ لَا عَلَىٰ دَلِيْلِ ٱلشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ ؛ وَبِٱلإِدْرَاكِ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ دُوْنَ ٱلإِدْرَاكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، ثُمَّ يَأْتِي ٱلْمَوْتُ فَيَكُوْنُ كَٱلْمَاءِ صُبَّ عَلَىٰ ٱلدَّقِيْقِ وَٱلتُّرَابِ جَمِيْعًا ، فَلَا يَرْتَابُ مُبْصِرٌ وَلَا أَعْمَىٰ ، وَيَبْطُلُ مَا هُوَ بَاطِلٌ وَيَحِقُّ ٱلَّذِي هُوَ حَقٌّ .

وَتَكَلَّمَ أَبُوْ عَلِيٍّ فَقَالَ : كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ شَيْخِنَا ٱلْجُنَيْدِ[٣] فِي بَغْدَادَ ، فَجَاءَهُ كِتَابٌ مِنْ يُوْسُفَ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ـ شَيْخِ ٱلرَّيِّ وَٱلْجِبَالِ فِي وَقْتِهِ[٤] ـ يَقُوْلُ فِيْهِ : لَا أَذَاقَكَ ٱللهُ طَعْمَ نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ إِنْ ذُقْتَهَا لَمْ تَذُقْ بَعْدَهَا خَيْرًا أَبَدًا ! قَالَ : فَجَعَلْتُ أُفَكِّرُ فِي طَعْمِ ٱلنَّفْسِ مَا هُوَ ، وَجَاءَنِي مَا لَمْ أَرْضَهُ مِنَ ٱلرَّأْيِ حَتَّىٰ سَمِعْتُ بِخَبَرِ بُنَانٍ رَحِمَهُ ٱللهُ مَعَ أَحْمَدَ بْنِ طُوْلُوْنَ أَمِيْرِ مِصْرَ ، فَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ سَبَبَ قُدُوْمِي إِلَىٰ هُنَا لأَرَىٰ ٱلشَّيْخَ وَأَصْحَابَهُ وَأَنْتَفِعَ بِهِ .

(*) «الرسالة» العدد : ١٩٩ ، ١٥ صفر سنة ١٣٥٦ هـ = ٢٦ أبريل/ نيسان ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٦٨٥ ـ ٦٨٨ .

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٣٢٢هـ . [وَٱلْبَعْضُ يَضْبِطُهُ : ٱلرُّوذَبَارِيُّ ؛ وَنِسْبَتُهُ إِلَىٰ مَوْضِعٍ عِنْدَ طُوسَ ، وَقِيلَ : إِلَىٰ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَىٰ بَغْدَادَ] .

(٢) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٣١٦هـ .

(٣) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٩٨هـ .

(٤) كَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٣٠٤هـ .

وَٱلْبَلَدُ ٱلَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ ٱلدِّيْنِ ٱلصَّحِيْحِ وَٱلنَّفْسِ ٱلْكَامِلَةِ وٱلأَخْلَاقِ ٱلإِلٰهِيَّةِ ، هُوَ فِيْ ٱلْجَهْلِ كَٱلْبَلَدِ ٱلَّذِيْ لَيْسَ فِيْهِ كِتَابٌ مِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْبَتَّةَ وَإِنْ كَانَ كُلُّ أَهْلِهِ عُلَمَاءَ ؛ وَإِنْ كَانَ فِيْ كُلِّ مَحَلَّةٍ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ ، وَفِيْ كُلِّ دَارٍ مِنْ دُوْرِهِ خِزَانَةُ كُتُبٍ ؛ فَلَا تُغْنِيْ هَـٰذِهِ ٱلْكُتُبُ عَنِ ٱلرِّجَالِ ، فَإِنَّمَا هِيَ صَوَابٌ أَوْ خَطَأٌ يَنْتَهِيْ إِلَىٰ ٱلْعَقْلِ ، وَلٰكِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْكَامِلَ صَوَابٌ يَنْتَهِيْ إِلَىٰ ٱلرُّوْحِ ، وَهُوَ فِيْ تَأْثِيْرِهِ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلْعِلْمِ ، إِذَا هُوَ تَفْسِيْرُ ٱلْحَقَائِقِ فِيْ ٱلْعَمَلِ ٱلْوَاقِعِ وَحَيَاتُهَا عَامِلَةً مُرَتَّبَةً دَاعِيَةً إِلَىٰ نَفْسِهَا ، وَلَوْ أَقَامَ ٱلنَّاسُ عَشْرَ سِنِيْنٍ يَتَنَاظَرُوْنَ فِيْ مَعَانِيْ ٱلْفَضَائِلِ وَوَسَائِلِهَا ، وَوَضَعُوْا فِيْ ذٰلِكَ مِئَةَ كِتَابٍ ، ثُمَّ رَأَوْا رَجُلًا فَاضِلًا بِأَصْدَقِ مَعَانِيْ ٱلْفَضِيْلَةِ ، وَخَالَطُوْهُ وَصَحِبُوْهُ ـ لَكَانَ ٱلرَّجُلُ وَحْدَهُ أَكْبَرَ فَائِدَةً مِنْ تِلْكَ ٱلْمُنَاظَرَةِ وَأَجْدَىٰ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ مِنْهَا وَأَدَلَّ عَلَىٰ ٱلْفَضِيْلَةِ مِنْ مِئَةِ كِتَابٍ وَمِنْ أَلْفِ كِتَابٍ ؛ وَلِهَـٰذَا يُرْسِلُ ٱللهُ ٱلنَّبِيَّ مَعَ كُلِّ كِتَابٍ مُنْزَلٍ لِيُعْطِيَ ٱلْكَلِمَةَ قُوَّةَ وُجُوْدِهَا ، وَيُخْرِجَ ٱلْحَالَةَ ٱلنَّفْسِيَّةَ مِنَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْمَعْقُوْلِ ، وَيُنْشِئَ ٱلْفَضَائِلَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ عَلَىٰ طَرِيْقَةِ ٱلنَّسْلِ مِنْ إِنْسَانِهَا ٱلْكَبِيْرِ .

وَمَا مِثْلُ ٱلْكِتَابِ يَتَعَلَّمُ ٱلْمَرْءُ مِنْهُ حَقَائِقَ ٱلأَخْلَاقِ ٱلْعَالِيَةِ ، إِلَّا كَوَضْعِ ٱلإِنْسَانِ يَدَهُ تَحْتَ إِبْطِهِ لِيَرْفَعَ جِسْمَهُ عَنِ ٱلأَرْضِ ؛ فَقَدْ أَنْشَأَ يَعْمَلُ وَلٰكِنَّهُ لَنْ يَرْتَفِعَ ، وَمِنْ ذٰلِكَ كَانَ شَرُّ ٱلنَّاسِ هُمُ ٱلْعُلَمَاءَ وَٱلْمُعَلِّمِيْنَ إِذَا لَمْ تَكُنْ أَخْلَاقُهُمْ دُرُوْسًا أُخْرَىٰ تَعْمَلُ عَمَلًا آخَرَ غَيْرَ ٱلْكَلَامِ ، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَجْلِسُ مَجْلِسَ ٱلْمُعَلِّمِ ثُمَّ تَكُوْنُ حَوْلَهُ رَذَائِلُهُ تُعَلِّمُ تَعْلِيْمًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ يَدْرِيْ وَلَا يَدْرِيْ ، وَيَكُوْنُ كِتَابُ ٱللهِ مَعَ ٱلإِنْسَانِ ٱلظَّاهِرِ مِنْهُ ، وَكِتَابُ ٱلشَّيْطَانِ مَعَ ٱلإِنْسَانِ ٱلْخَفِيِّ فِيْهِ .

* * *

قَالَ أَبُوْ عَلِيٍّ : وَقَدِمْتُ إِلَىٰ مِصْرَ لأَرَىٰ أَبَا ٱلْحَسَنِ وَآخُذَ عَنْهُ وَأُحَقِّقَ مَا سَمِعْتُ مِنْ خَبَرِهِ مَعَ ٱبْنِ طُوْلُوْنَ ، فَلَمَّا لَقِيْتُهُ لَقِيْتُ رَجُلًا مِنْ تَلَامِيْذِ شَيْخِنَا ٱلْجُنَيْدِ ، يَتَلَأْلَأُ فِيْهِ نُوْرُهُ وَيَعْمَلُ فِيْهِ سِرُّهُ ، وَهُمَا كَٱلشَّمْعَةِ ، وَٱلشَّمْعَةُ فِيْ ٱلضَّوْءِ وَإِنْ صَغُرَتْ وَاحِدَةٌ وَإِنْ كَبُرَتْ وَاحِدَةٌ ، وَعَلَامَةُ ٱلرَّجُلِ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ أَنْ يَعْمَلَ وُجُوْدُهُ فِيْمَنْ حَوْلَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِهِ ، كَأَنَّ بَيْنَ ٱلأَرْوَاحِ وَبَيْنَهُ نَسَبًا شَابِكًا ، فَلَهُ مَعْنَىٰ أُبُوَّةِ ٱلأَبِ فِيْ أَبْنَائِهِ : لَا يَرَاهُ مَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ إِلَّا أَحَسَّ أَنَّهُ شَخْصُهُ ٱلأَكْبَرُ . فَهَـٰذَا هُوَ ٱلَّذِيْ تَكُوْنُ فِيْهِ ٱلتَّكْمِلَةُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ لِلنَّاسِ ، وَكَأَنَّهُ

مَخْلُوْقٌ خَاصَّةً لإِثْبَاتِ أَنَّ غَيْرَ ٱلْمُسْتَطَاعِ مُسْتَطَاعٌ .

وَمِنْ عَجِيْبِ حِكْمَةِ ٱللهِ أَنَّ ٱلأَمْرَاضَ ٱلشَّدِيْدَةَ تَعْمَلُ بِٱلْعَدْوَىٰ فِيْمَنْ قَارَبَهَا أَوْ لَامَسَهَا ، وَأَنَّ ٱلْقُوَى ٱلشَّدِيْدَةَ تَعْمَلُ كَذٰلِكَ بِٱلْعَدْوَىٰ فِيمَنِ ٱتَّصَلَ بِهَا أَوْ صَاحَبَهَا ، وَلِهَـٰذَا يَخْلُقُ ٱللهُ ٱلصَّالِحِيْنَ وَيَجْعَلُ ٱلتَّقْوَىٰ فِيْهِمْ إِصَابَةً كَإِصَابَةِ ٱلْمَرَضِ تَصْرِفُ عَنْ شَهَوَاتِ ٱلدُّنْيَا كَمَا يَصْرِفُ ٱلْمَرَضُ عَنْهَا ، وَتَكْسِرُ ٱلنَّفْسَ كَمَا يَكْسِرُهَا ذَاكَ ، وَتُفْقِدُ ٱلشَّيْءَ مَا هُوَ بِهِ شَيْءٌ ، فَتَتَحَوَّلُ قِيْمَتُهُ ، فَلَا يَكُوْنُ بِمَا فِيْهِ مِنَ ٱلْوَهْمِ بَلْ بِمَا فِيْهِ مِنَ ٱلْحَقِّ .

وَإِذَا عَدِمَ ٱلنَّاسُ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِيْ يُعْدِيهِمْ بِقُوَّتِهِ ٱلْعَجِيْبَةِ ، فَقَلَّمَا يَصْلُحُوْنَ لِلْقُوَّةِ ؛ فَكِبَارُ ٱلصَّالِحِيْنَ وَكِبَارُ ٱلزُّعَمَاءِ وَكِبَارُ ٱلْقُوَّادِ وَكِبَارُ ٱلشُّجْعَانِ وَكِبَارُ ٱلْعُلَمَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ ـ كُلُّ هَـٰؤُلَاءِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَكُلُّهُمْ فِيْ ٱلْحِكْمَةِ كَكِبَارِ ٱلْمَرْضَىٰ .

* * *

قَالَ أَبُوْ عَلِيٍّ : وَهَمَمْتُ مَرَّةً أَنْ أَسْأَلَ ٱلشَّيْخَ عَنْ خَبَرِهِ مَعَ ٱبْنِ طُوْلُوْنَ ، فَقَطَعَتْنِيْ هَيْبَتُهُ ، فَقُلْتُ : أَحْتَالُ بِسُؤَالِهِ عَنْ كَلِمَةِ شَيْخِ ٱلرَّيِّ : « لَا أَذَاقَكَ ٱللهُ طَعْمَ نَفْسِكَ » ؛ وَبَيْنَمَا أُهَيِّئُ فِيْ نَفْسِيْ كَلَامًا أُجْرِيْ فِيْهِ هَـٰذِهِ ٱلْعِبَارَةَ ، جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ لِلشَّيْخِ : لِيْ عَلَىٰ فُلَانٍ مِئَةُ دِيْنَارٍ ، وَقَدْ ذَهَبَتِ ٱلْوَثِيْقَةُ ٱلَّتِيْ كُتِبَ فِيْهَا ٱلدَّيْنُ ، وَأَخْشَىٰ أَنْ يُنْكِرَ إِذَا هُوَ عَلِمَ بِضَيَاعِهَا ؛ فَٱدْعُ ٱللهَ لِيْ وَلَهُ أَنْ يُظْفِرَنِيْ بِدَيْنِيْ وَأَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ . فَقَالَ ٱلشَّيْخُ : إِنِّيْ رَجُلٌ قَدْ كَبِرْتُ وَأَنَا أُحِبُّ ٱلْحَلْوَىٰ ، فَٱذْهَبْ فَٱشْتَرِ رَطْلًا مِنْهَا وَٱئْتِنِيْ بِهِ حَتَّىٰ أَدْعُوَ لَكَ ! .

فَذَهَبَ ٱلرَّجُلُ فَٱشْتَرَىٰ ٱلْحَلْوَىٰ وَوَضَعَهَا لَهُ ٱلْبَائِعُ فِيْ وَرَقَةٍ فَإِذَا هِيَ ٱلْوَثِيْقَةُ ٱلضَّائِعَةُ ، وَجَاءَ إِلَىٰ ٱلشَّيْخِ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ : خُذِ ٱلْحَلْوَىٰ فَأَطْعِمْهَا صِبْيَانَكَ لَا أَذَاقَنَا ٱللهُ طَعْمَ أَنْفُسِنَا فِيْمَا نَشْتَهِيْ ! ثُمَّ إِنَّهُ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ : لَوْ أَنَّ شَجَرَةً ٱشْتَهَتْ غَيْرَ مَا بِهِ صِحَّةُ وُجُوْدِهَا وَكَمَالُ مَنْفَعَتِهَا فَأُذِيْقَتْ طَعْمَ نَفْسِهَا لأَكَلَتْ نَفْسَهَا وَذَوَتْ .

* * *

قَالَ أَبُوْ عَلِيٍّ : وَٱلْمُعْجِزَاتُ ٱلَّتِيْ تَحْدُثُ لِلأَنْبِيَاءِ ، وَٱلْكَرَامَاتُ ٱلَّتِيْ تَكُوْنُ لِلأَتْقِيَاءِ ، وَمَا يَخْرِقُ ٱلْعَادَةَ يَخْرُجُ عَنِ ٱلنَّسَقِ ـ كُلُّ ذٰلِكَ كَقَوْلِ ٱلْقُدْرَةِ عَنِ ٱلرَّجُلِ ٱلشَّاذِّ : هُوَ هَـٰذَا .

فَلَمْ تَبْقَ بِيْ حَاجَةٌ إِلَىٰ سُؤَالِ ٱلشَّيْخِ عَنْ خَبَرِهِ مَعَ ٱبْنِ طُوْلُوْنَ ، وَكُنْتُ كَأَنِّي أَرَىٰ بِعَيْنَيْ رَأْسِيْ كُلَّ مَا سَمِعْتُ ، بَيْدَ أَنِّي لَمْ أَنْصَرِفْ حَتَّىٰ لَقِيْتُ أَبَا جَعْفَرٍ ٱلْقَاضِيْ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مُسْلِمِ ٱبْنِ قُتَيْبَةَ ٱلدِّيْنَوَرِيَ[1] ذَاكَ ٱلَّذِيْ يُحَدِّثُ بِكُتُبِ أَبِيْهِ كُلِّهَا مِنْ حِفْظِهِ وَهِيَ وَاحِدٌ وَعُشْرُوْنَ مُصَنَّفًا فِيْهَا ٱلْكَبِيْرُ وَٱلصَّغِيْرُ ، فَقَالَ لِيْ : لَعَلَّكَ ٱشْتَفَيْتَ مِنْ خَبَرِ بُنَانٍ مَعَ ٱبْنِ طُوْلُوْنَ . فَمِنْ أَجْلِهِ زَعَمْتَ جِئْتَ إِلَىٰ مِصْرَ .

قُلْتُ : إِنَّهُ تَوَاضَعَ فَلَمْ يُخْبِرْنِيْ ، وَهِبْتُهُ فَلَمْ أَسْأَلْهُ .

قَالَ : تَعَالَ أُحَدِّثْكَ ٱلْحَدِيْثَ .

كَانَ أَحْمَدُ بْنُ طُوْلُوْنَ[2] مِنْ جَارِيَةٍ تُرْكِيَّةٍ ، وَكَانَ طُوْلُوْنُ أَبُوْهُ مَمْلُوْكًا حَمَلَهُ نُوْحُ بْنُ أَسَدٍ عَامِلُ بُخَارَىٰ إِلَىٰ ٱلْمَأْمُوْنِ فِيْمَا كَانَ مُوَظَّفًا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَالِ وَٱلرَّقِيْقِ وَٱلْبَرَاذِيْنِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ ، فَوُلِدَ أَحْمَدُ فِيْ مَنْصِبِ ذِلَّةٍ تَسْتَظْهِرُ بِٱلطُّغْيَانِ ، وَكَانَتْ هَاتَانِ طَبِيْعَتَيْهِ إِلَىٰ آخِرِ عُمْرِهِ ، فَذَهَبَ بِهِمَّتِهِ مَذْهَبًا بَعِيْدًا ، وَنَشَأَ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ عَلَىٰ أَنْ يُتِمَّ هٰذَا ٱلنَّقْصَ وَيَكُوْنَ أَكْبَرَ مِنْ أَصْلِهِ ، فَطَلَبَ ٱلْفُرُوْسِيَّةَ وَٱلْعِلْمَ وَٱلْحَدِيْثَ ، وَصَحِبَ ٱلزُّهَّادَ وَأَهْلَ ٱلْوَرَعِ ، وَتَمَيَّزَ عَلَىٰ ٱلْأَتْرَاكِ ، وَطَمَحَ إِلَىٰ ٱلْمَعَالِيْ . وَظَلَّ يَرْمِيْ بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ فِيْ ذٰلِكَ يَكْبُرُ وَلَا يَزَالُ يَكْبُرُ ، كَأَنَّمَا يُرِيْدُ أَنْ يَنْقَطِعَ مِنْ أَصْلِهِ وَيَلْتَحِقَ بِٱلْأُمَرَاءِ ؛ فَلَمَّا ٱلْتَحَقَ بِهِمْ ظَلَّ يَكْبُرُ لِيَلْحَقَ بِٱلْمُلُوْكِ ، فَلَمَّا بَلَغَ هٰؤُلَاءِ كَانَتْ نِيَّتُهُ عَلَىٰ مَا يَعْلَمُ ٱللهُ .

قَالَ : كَانَ عَقْلُهُ مِنْ أَثَرِ طَبِيْعَتَيْهِ كَٱلْعَقْلَيْنِ لِرَجُلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، فَلَهُ يَدٌ مَعَ ٱلْمَلَائِكَةِ وَيَدُهُ ٱلْأُخْرَىٰ مَعَ ٱلشَّيَاطِيْنِ ، فَهُوَ ٱلَّذِيْ بَنَىٰ ٱلْمَارِسْتَانَ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ وَأَقَامَ فِيْهِ ٱلْأَطِبَّاءَ . وَشَرَطَ إِذَا جِيْءَ بِٱلْعَلِيْلِ أَنْ تُنْزَعَ ثِيَابُهُ وَتُحْفَظَ عِنْدَ أَمِيْنِ ٱلْمَارِسْتَانِ ثُمَّ يُلْبَسَ ثِيَابًا وَيُفْرَشَ لَهُ وَيُغْدَىٰ عَلَيْهِ وَيُرَاحَ بِٱلْأَدْوِيَةِ وَٱلْأَغْذِيَةِ وَٱلْأَطِبَّاءِ حَتَّىٰ يَبْرَأَ . وَلَمْ يَكُنْ هٰذَا قَبْلَ إِمَارَتِهِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَظَرَ فِيْ ٱلْمَظَالِمِ مِنْ أُمَرَاءِ مِصْرَ ، وَهُوَ صَاحِبُ يَوْمِ ٱلصَّدَقَةِ ، يُكْثِرُ مِنْ صَدَقَاتِهِ كُلَّمَا كَثُرَتْ نِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْهِ ، وَمَرَاتِبُهُ لِذٰلِكَ فِيْ كُلِّ أُسْبُوْعٍ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِيْنَارٍ سِوَىٰ مَطَابِخِهِ ٱلَّتِيْ

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٣٢٢هـ .
(٢) كَانَتْ إِمَارَةُ ٱبْنِ طُوْلُوْنَ نَحْوَ ٢٦ سَنَةً ، وَتُوُفِّيَ ٢٧٠هـ .

أُقِيْمَتْ فِيْ كُلِّ يَوْمٍ فِيْ دَارِهِ وَغَيْرِهَا ، يُذْبَحُ فِيْهَا ٱلْبَقَرُ وَٱلْكِبَاشُ وَيُغْرَفُ لِلنَّاسِ ، وَلِكُلِّ مِسْكِيْنٍ أَرْبَعَةُ أَرْغِفَةٍ يَكُوْنُ فِيْ ٱثْنَيْنِ مِنْهَا فَالُوْذَجٌ[1] وَفِيْ ٱلْآخَرَيْنِ مِنَ ٱلْقُدُوْرِ ، وَيُنَادَىٰ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ دَارَ ٱلْأَمِيْرِ فَلْيَحْضُرْ ! وَتُفْتَحُ ٱلْأَبْوَابُ ، وَيَدْخُلُ ٱلنَّاسُ وَهُوَ فِيْ ٱلْمَجْلِسِ يَنْظُرُ إِلَىٰ ٱلْمَسَاكِيْنِ وَيَتَأَمَّلُ فَرَحَهُمْ بِمَا يَأْكُلُوْنَ وَيَحْمِلُوْنَ ، فَيَسُرُّهُ ذٰلِكَ وَيَحْمَدُ ٱللهَ عَلَىٰ نِعْمَتِهِ ؛ وَكَانَ رَاتِبُ مَطْبَخِهِ فِيْ كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دِيْنَارٍ ؛ وَٱقْتَدَىٰ بِهِ ٱبْنُهُ خُمَارَوَيْهِ ، فَأَنْشَأَ بَعْدَهُ مَطْبَخَ ٱلْعَامَّةِ[2] يُنْفِقُ عَلَيْهِ ثَلَاثَةً وَعِشْرِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ كُلَّ شَهْرٍ .

وَقَدْ بَلَغَ مَا أَرْسَلَهُ ٱبْنُ طُوْلُوْنَ إِلَىٰ فُقَرَاءِ بَغْدَادَ وَعُلَمَائِهَا فِيْ مُدَّةِ وِلَايَتِهِ أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمِئَتَيْ أَلْفِ دِيْنَارٍ[3] . وَكَانَ كَثِيْرَ ٱلتِّلَاوَةِ لِلْقُرْآنِ ، وَقَدِ ٱتَّخَذَ حُجْرَةً بِقُرْبِهِ فِيْ ٱلْقَصْرِ وَضَعَ فِيْهَا رِجَالًا سَمَّاهُمْ بِٱلْمُكَبِّرِيْنَ ، يَتَعَاقَبُوْنَ ٱللَّيْلَ نُوَبًا يُكَبِّرُوْنَ ، وَيُسَبِّحُوْنَ ، وَيَحْمَدُوْنَ ، وَيُهَلِّلُوْنَ ، وَيَقْرَؤُوْنَ ٱلْقُرْآنَ تَطْرِيْبًا وَيُنْشِدُوْنَ قَصَائِدَ ٱلزُّهْدِ ، وَيُؤَذِّنُوْنَ أَوْقَاتَ ٱلْأَذَانِ ؛ وَهُوَ ٱلَّذِيْ فَتَحَ أَنْطَاكِيَةَ فِيْ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّيْنَ وَمِئَتَيْنِ ، ثُمَّ مَضَىٰ إِلَىٰ طَرَسُوْسَ كَأَنَّهُ يُرِيْدُ فَتْحَهَا ، فَلَمَّا نَابَذَهُ أَهْلُهَا وَقَاتَلَهُمْ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَنْهَزِمُوْا عَنْهَا ، لِيَبْلُغَ ذٰلِكَ طَاغِيَةَ ٱلرُّوْمِ ، فَيَعْلَمَ أَنَّ جُيُوْشَ ٱبْنِ طُوْلُوْنَ عَلَىٰ كَثْرَتِهَا وَشِدَّتِهَا لَمْ تَقُمْ لِأَهْلِ طَرَسُوْسَ ، فَيَكُوْنَ بِهٰذَا كَأَنَّهُ قَاتَلَهُ وَصَدَّهُ عَنْ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ ٱلْإِسْلَامِ ، وَيَجْعَلَ هٰذَا ٱلْخَبَرَ كَٱلْجَيْشِ فِيْ تِلْكَ ٱلنَّاحِيَةِ ! .

وَمَعَ كُلِّ ذٰلِكَ ، فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا طَائِشَ ٱلسَّيْفِ ، يَجُوْرُ وَيَعْسِفُ ، وَقَدْ أُحْصِيَ مَنْ قَتَلَهُمْ صَبْرًا أَوْ مَاتُوْا فِيْ سِجْنِهِ فَكَانُوْا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا ؛ وَأَمَرَ بِسَجْنِ قَاضِيْهِ بَكَّارِ بْنِ قُتَيْبَةَ فِيْ حَادِثَةٍ مَعْرُوْفَةٍ ، وَقَالَ لَهُ : غَرَّكَ قَوْلُ ٱلنَّاسِ مَا فِيْ ٱلدُّنْيَا مِثْلُ بَكَّارٍ ؟ أَنْتَ شَيْخٌ قَدْ خَرِفْتَ ! ثُمَّ حَبَسَهُ وَقَيَّدَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ جَمِيْعَ عَطَايَاهُ مُدَّةَ وِلَايَتِهِ ٱلْقَضَاءَ ، فَكَانَتْ عَشَرَةَ آلَافِ دِيْنَارٍ . قِيْلَ : إِنَّهَا وُجِدَتْ فِيْ بَيْتِ بَكَّارٍ بِخَتْمِهَا لَمْ يَمَسَّهَا زُهْدًا وَتَوَرُّعًا .

وَلَمَّا ذَهَبَ شَيْخُكَ أَبُوْ ٱلْحَسَنِ يُعَنِّفُهُ وَيَأْمُرُهُ بِٱلْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَاهُ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ طَاشَ عَقْلُهُ

(١) نَوْعٌ مِنَ ٱلْحَلْوَىٰ ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيْهِ ٱلْعَامَّةُ (ٱلْبَالُوْظَةُ) .
(٢) هٰذَا هُوَ ٱلْأَصْلُ فِيْ مَطْعَمِ ٱلشَّعْبِ .
(٣) ٱلدِّيْنَارُ : نِصْفُ جُنَيْهٍ مِصْرِيٍّ فَعِدَّةُ ذٰلِكَ مِلْيُوْنٌ وَمِئَةُ أَلْفِ جُنَيْهٍ ، صَدَقَاتُهُ عَلَىٰ بَغْدَادَ وَحْدَهَا رَحِمَهُ ٱللهُ . [وَٱلدِّيْنَارُ يُعَادِلُ أَرْبَعَةَ غْرَامَاتٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ].

وَأَمَرَ بِإِلْقَائِهِ إِلَىٰ ٱلْأَسَدِ ، وَهُوَ ٱلْخَبَرُ ٱلَّذِي طَارَ فِي ٱلدُّنْيَا وَبَلَغَكَ فِي بَغْدَادَ . . .

* * *

قَالَ وَكُنْتُ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ ، فَجِيءَ بِٱلْأَسَدِ مِنْ قَصْرِ ٱبْنِهِ خُمَارَوَيْهِ ؛ وَكَانَ خُمَارَوَيْهِ هٰذَا مَشْغُوفًا بِٱلصَّيْدِ ، لَايَكَادُ يَسْمَعُ بِسَبُعٍ فِي غَيْضَةٍ أَوْ بَطْنِ وَادٍ إِلَّا قَصَدَهُ وَمَعَهُ رِجَالٌ عَلَيْهِمْ لُبُودٌ ، فَيَدْخُلُونَ إِلَىٰ ٱلْأَسَدِ وَيَتَنَاوَلُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ غَابِهِ عَنْوَةً وَهُوَ سَلِيمٌ ، فَيَضَعُونَهُ فِي أَقْفَاصٍ مِنْ خَشَبٍ مُحْكَمَةِ ٱلصُّنْعِ ، يَسَعُ ٱلْوَاحِدُ مِنْهَا ٱلسَّبُعَ وَهُوَ قَائِمٌ .

وَكَانَ ٱلْأَسَدُ ٱلَّذِي ٱخْتَارُوهُ لِلشَّيْخِ أَغْلَظَ مَا عِنْدَهُمْ ، جَسِيمًا ، ضَارِيًا ، عَارِمَ ٱلْوَحْشِيَّةِ ، مُتَزَيِّلَ ٱلْعَضَلِ ، شَدِيدَ عَصَبِ ٱلْخَلْقِ ، هَرَّاسًا ، فَرَّاسًا ، أَهْرَتَ ٱلشِّدْقِ يَلُوحُ شِدْقُهُ مِنْ سَعَتِهِ وَرَوْعَتِهِ كَفَتْحَةِ ٱلْقَبْرِ يُنْبِئُ أَنَّ جَوْفَهُ مَقْبَرَةٌ ، وَيَظْهَرُ وَجْهُهُ خَارِجًا مِنْ لِبْدَتِهِ ، يَهُمُّ أَنْ يَنْقَذِفَ عَلَىٰ مَنْ يَرَاهُ فَيَأْكُلُهُ ! .

وَأَجْلَسُوا ٱلشَّيْخَ فِي قَاعَةٍ وَأَشْرَفُوا عَلَيْهِ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ فَتَحُوا بَابَ ٱلْقَفَصِ مِنْ أَعْلَاهُ فَجَذَبُوهُ فَٱرْتَفَعَ ؛ وَهَجْهَجُوا بِٱلْأَسَدِ يَزْجُرُونَهُ ، فَٱنْطَلَقَ يُزَمْجِرُ وَيَزْأَرُ زَئِيرًا تَنْشَقُّ لَهُ ٱلْمَرَائِرُ ، وَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَسْمَعُهُ أَنَّهُ ٱلرَّعْدُ وَرَاءَهُ ٱلصَّاعِقَةُ ! .

ثُمَّ ٱجْتَمَعَ ٱلْوَحْشُ فِي نَفْسِهِ وَٱقْشَعَرَّ ، ثُمَّ تَمَطَّىٰ كَٱلْمَنْجَنِيقِ يَقْذِفُ ٱلصَّخْرَةَ ، فَمَا بَقِيَ مِنْ أَجَلِ ٱلشَّيْخِ إِلَّا طَرْفَةُ عَيْنٍ ؛ وَرَأَيْنَاهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ سَاكِنًا مُطْرِقًا لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ ٱلْأَسَدِ وَلَا يَحْفِلُ بِهِ ، وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ كَادَ يَنْهَتِكُ حِجَابُ قَلْبِهِ مِنَ ٱلْفَزَعِ وَٱلرُّعْبِ وَٱلْإِشْفَاقِ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ .

وَلَمْ يَرُعْنَا إِلَّا ذُهُولُ ٱلْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِهِ ، فَأَقْعَىٰ عَلَىٰ ذَنَبِهِ ، ثُمَّ لَصِقَ بِٱلْأَرْضِ هُنَيْهَةً يَفْتَرِشُ ذِرَاعَيْهِ ، ثُمَّ نَهَضَ نَهْضَةً أُخْرَىٰ كَأَنَّهُ غَيْرُ ٱلْأَسَدِ ، فَمَشَىٰ مُتَرَفِّقًا ثَقِيلَ ٱلْخَطْوِ تُسْمَعُ لِمَفَاصِلِهِ قَعْقَعَةٌ مِنْ شِدَّتِهِ وَجَسَامَتِهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ ٱلشَّيْخِ وَطَفِقَ يَحْتَكُّ بِهِ وَيَلْحَظُهُ وَيَشَمُّهُ كَمَا يَصْنَعُ ٱلْكَلْبُ مَعَ صَاحِبِهِ ٱلَّذِي يَأْنَسُ بِهِ ، وَكَأَنَّهُ يُعْلِنُ أَنَّ هٰذِهِ لَيْسَتْ مُصَاوَلَةً بَيْنَ ٱلرَّجُلِ ٱلتَّقِيِّ وَٱلْأَسَدِ ، وَلٰكِنَّهَا مُبَارَزَةٌ بَيْنَ إِرَادَةِ ٱبْنِ طُولُونَ وَإِرَادَةِ ٱللهِ ! .

وَضَرَبَتْهُ رُوحُ ٱلشَّيْخِ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْآدَمِيِّ عَمَلٌ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بِإِزَاءِ لَحْمٍ وَدَمٍ ، فَلَوْ أَكَلَ ٱلضَّوْءَ وَٱلْهَوَاءَ وَٱلْحَجَرَ وَٱلْحَدِيدَ ، كَانَ ذٰلِكَ أَقْرَبَ وَأَيْسَرَ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ هٰذَا ٱلرَّجُلَ

ٱلْمُتَمَثِّلَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ لَا يُحِسُّ لِصُورَةِ ٱلْأَسَدِ مَعْنًى مِنْ مَعَانِيهَا ٱلْفَاتِكَةِ ، وَلَا يَرَىٰ فِيهِ إِلَّا حَيَاةً خَاضِعَةً مُسَخَّرَةً لِلْقُوَّةِ ٱلْعُظْمَىٰ ٱلَّتِي هُوَ مُؤْمِنٌ بِهَا وَمُتَوَكِّلٌ عَلَيْهَا ، كَحَيَاةِ ٱلدُّودَةِ وَٱلنَّمْلَةِ وَمَا دُونَهَا مِنَ ٱلْهَوَامِّ وَٱلذَّرِّ ! .

وَوَرَدَ ٱلنُّورُ عَلَىٰ هٰذَا ٱلْقَلْبِ ٱلْمُؤْمِنِ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ قُرْبِ ٱلْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْأَسَدِ وَلٰكِنَّهُ هُوَ وَٱلْأَسَدُ بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ ، وَكَانَ مُنْدَمِجًا فِي يَقِينِ هٰذِهِ ٱلْآيَةِ : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ . [٥٢ سورة الطور/الآية : ٤٨] .

وَرَأَىٰ ٱلْأَسَدُ رَجُلًا هُوَ خَوْفُ ٱللهِ ، فَخَافَ مِنْهُ ، وَكَمَا خَرَجَ ٱلشَّيْخُ مِنْ ذَاتِهِ وَمَعَانِيهَا ٱلنَّاقِصَةِ ، خَرَجَ ٱلْوَحْشُ مِنْ ذَاتِهِ وَمِنْ مَعَانِيهَا ٱلْوَحْشِيَّةِ ؛ فَلَيْسَ فِي ٱلرَّجُلِ خَوْفٌ وَلَا هَمٌّ وَلَا جَزَعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ ، وَمِنْ ذٰلِكَ لَيْسَ فِي ٱلْأَسَدِ فَتْكٌ وَلَا ضَرَاوَةٌ وَلَا جُوعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ .

وَنَسِيَ ٱلشَّيْخُ نَفْسَهُ فَكَأَنَّمَا رَآهُ ٱلْأَسَدُ مَيْتًا وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ (أَنَا) ٱلَّتِي يَأْكُلُهَا ، وَلَوْ أَنَّ خَطْرَةً مِنْ هَمِّ ٱلدُّنْيَا خَطَرَتْ عَلَىٰ قَلْبِهِ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَوِ ٱخْتَلَجَتْ فِي نَفْسِهِ خَالِجَةٌ مِنَ ٱلشَّكِّ ، لَفَاحَتْ رَائِحَةُ لَحْمِهِ فِي خَيَاشِيمِ ٱلْأَسَدِ ، فَتَمَزَّقَ فِي أَنْيَابِهِ وَمَخَالِبِهِ .

* * *

قَالَ : وَٱنْصَرَفْنَا عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلسَّبُعِ إِلَىٰ ٱلنَّظَرِ فِي وَجْهِ ٱلشَّيْخِ ، فَإِذَا هُوَ سَاهِمٌ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَفَعُوهُ ، وَجَعَلَ كُلٌّ مِنَّا يَظُنُّ ظَنًّا فِي تَفْكِيرِهِ ، فَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّ ٱلْخَوْفَ أَذْهَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ وَقَائِلٍ : إِنَّهُ ٱلِانْصِرَافُ بِعَقْلِهِ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ ؛ وَثَالِثٍ يَقُولُ : إِنَّهُ سُكُونُ ٱلْفِكْرَةِ لِمَنْعِ ٱلْحَرَكَةِ عَنِ ٱلْجِسْمِ فَلَا يَضْطَرِبُ ؛ وَزَعَمَ جَمَاعَةٌ أَنَّ هٰذِهِ حَالَةٌ مِنَ ٱلِاسْتِغْرَاقِ يَسْحَرُ بِهَا ٱلْأَسَدَ ؛ وَأَكْثَرْنَا فِي ذٰلِكَ وَتَجَارَيْنَا فِيهِ ، حَتَّىٰ سَأَلَهُ ٱبْنُ طُولُونَ : مَا ٱلَّذِي كَانَ فِي قَلْبِكَ وَفِيمَ كُنْتَ تُفَكِّرُ ؟

فَقَالَ ٱلشَّيْخُ : لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أُفَكِّرُ فِي لُعَابِ ٱلْأَسَدِ ، أَهُوَ طَاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ ؟ . . .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

أُمَرَاءُ لِلْبَيْعِ (*)

قَالَ ٱلشَّيْخُ تَاجُ ٱلدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ـ ٱلْمُلَقَّبُ طُوَيْرَ ٱللَّيْلِ ـ أَحَدُ أَئِمَّةِ ٱلْفُقَهَاءِ بِٱلْمَدْرَسَةِ ٱلظَّاهِرِيَّةِ بِٱلْقَاهِرَةِ[1] :

كَانَ شَيْخُنَا ٱلْإِمَامُ ٱلْعَظِيمُ شَيْخُ ٱلْإِسْلَامِ تَقِيُّ ٱلدِّينِ ٱبْنُ مَجْدِ ٱلدِّينِ ، ٱبْنُ دَقِيقِ ٱلْعِيدِ[2] لَا يُخَاطِبُ ٱلسُّلْطَانَ إِلَّا بِقَوْلِهِ : (يَا إِنْسَانُ) فَمَا يَخْشَاهُ ، وَلَا يَتَعَبَّدُ لَهُ ، وَلَا يَنْحَلُهُ أَلْقَابَ ٱلْجَبَرُوتِ وَٱلْعَظَمَةِ ، وَلَا يُزَيِّنُهُ بِٱلنِّفَاقِ ، وَلَا يُدَاجِيهِ كَمَا يَصْنَعُ غَيْرُهُ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ؛ وَكَانَ هَـٰذَا عَجِيبًا ؛ غَيْرَ أَنَّ تَمَامَ ٱلْعَجَبِ أَنَّ ٱلشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ يُخَاطِبُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا بِهَـٰذَا ٱللَّفْظِ عَيْنِهِ (يَا إِنْسَانُ) ؛ فَمَا يَعْلُو بِٱلسُّلْطَانِ وَٱلْأُمَرَاءِ وَلَا يَنْزِلُ بِٱلضُّعَفَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَلَا يَرَىٰ أَحْسَنَ مَا فِي هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ إِلَّا ٱلْحَقِيقَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ !

ثُمَّ كَانَ لَا يُعَظِّمُ فِي ٱلْخِطَابِ إِلَّا أَئِمَّةَ ٱلْفُقَهَاءِ ، فَإِذَا خَاطَبَ مِنْهُمْ أَحَدًا قَالَ لَهُ : (يَا فَقِيهُ) عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُسْمَحُ بِهَـٰذَا إِلَّا لِمِثْلِ شَيْخِ ٱلْإِسْلَامِ نَجْمِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلرِّفْعَةِ[3] ، ثُمَّ يَخُصُّ عَلَاءَ ٱلدِّينِ ٱبْنَ ٱلْبَاجِيِّ وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ : (يَا إِمَامُ) ؛ إِذْ كَانَ آيَةً مِنْ آيَاتِ ٱللهِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُجَّةِ ، لَا يَكَادُ يَقْطَعُهُ أَحَدٌ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ وَٱلْمُبَاحَثَةِ ؛ فَهُوَ كَٱلْبُرْهَانِ إِجْلَالُهُ إِجْلَالُ ٱلْحَقِّ ، لِأَنَّ فِيهِ ٱلْمَعْنَىٰ وَتَثْبِيتَ ٱلْمَعْنَىٰ .

وَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا : يَا سَيِّدِي ! أَرَاكَ تُخَاطِبُ ٱلسُّلْطَانَ بِخِطَابِ ٱلْعَامَّةِ ، فَإِنْ عَلَوْتَ قُلْتَ : (يَا إِنْسَانُ) ، وَإِنْ نَزَلْتَ قُلْتَ : (يَا إِنْسَانُ) ، أَفَلَا يُسْخِطُهُ هَـٰذَا مِنْكَ وَقَدْ تَذَوَّقَ حَلَاوَةَ أَلْفَاظِ ٱلطَّاعَةِ وَٱلْخُضُوعِ ، وَخَصَّهُ ٱلنِّفَاقُ بِكَلِمَاتٍ هِيَ ظِلُّ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلَّتِي يُوصَفُ ٱللهُ بِهَا

(*) « الرسالة » العدد : ٢٠٠ ، ٢٢ صفر سنة ١٣٥٦ هـ = ٣ مايو/ أيار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٧٢٨ ـ ٧٣١ .

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٧١٧هـ .

(٢) كَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٧٠٢هـ .

(٣) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٧١٠هـ .

ثُمَّ جَعَلَهُ ٱلْمُلْكُ إِنْسَانًا بِذَاتِهِ فِي وُجُودِ ذَاتِهِ ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ مِنْ غَيْرِهِ كَٱلْجَبَلِ وَٱلْحَصَاةِ . يَسْتَوِيَانِ فِي ٱلْعُنْصُرِ وَيَتَبَايَنَانِ فِي ٱلْقَدْرِ ، وَأَقَلُّهُ مَهْمَا قَلَّ هُوَ أَكْثَرُهَا مَهْمَا عَظُمَتْ ، وَوُجُودُهُ شَيْءٌ وَوُجُودُهَا شَيْءٌ آخَرُ ؟

فَتَبَسَّمَ ٱلشَّيْخُ ، وَقَالَ : يَا وَلَدِي ! أَيْشٍ هَـٰذَا ؟ إِنَّنَا نُفُوسٌ لَا أَلْفَاظٌ ، وَٱلْكَلِمَةُ مِنْ قَائِلِهَا هِيَ بِمَعْنَاهَا فِي نَفْسِهِ لَا بِمَعْنَاهَا فِي نَفْسِهَا ، فَمَا يَحْسُنُ بِحَامِلِ ٱلشَّرِيعَةِ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلَامٍ يَرُدُّهُ ٱلشَّرْعُ عَلَيْهِ ، وَلَوْ نَافَقَ ٱلدِّينُ لَبَطَلَ أَنْ يَكُونَ دِينًا ، وَلَوْ نَافَقَ ٱلْعَالِمُ ٱلدِّينِيُّ لَكَانَ كُلُّ مُنَافِقٍ أَشْرَفَ مِنْهُ ، فَلَطْخَةٌ فِي ٱلثَّوْبِ ٱلْأَبْيَضِ لَيْسَتْ كَلَطْخَةٍ فِي ٱلثَّوْبِ ٱلْأَسْوَدِ ، وَٱلْمُنَافِقُ رَجُلٌ مُغَطًّى فِي حَيَاتِهِ ، وَلَـٰكِنَّ عَالِمَ ٱلدِّينِ رَجُلٌ مَكْشُوفٌ فِي حَيَاتِهِ لَا مُغَطًّى ، فَهُوَ لِلْهِدَايَةِ لَا لِلتَّلْبِيسِ ، وَفِيهِ مَعَانِي ٱلنُّورِ لَا مَعَانِي ٱلظُّلْمَةِ ، وَذَاكَ يَتَّصِلُ بِٱلدِّينِ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْعَمَلِ ، فَإِذَا نَافَقَ فَقَدْ كَذَبَ ، وَٱلْعَالِمُ يَتَّصِلُ بِٱلدِّينِ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْعَمَلِ وَنَاحِيَةِ ٱلتَّبْيِينِ ، فَإِذَا نَافَقَ فَقَدْ كَذَبَ وَغَشَّ وَخَانَ .

وَمَا مَعْنَى ٱلْعُلَمَاءِ بِٱلشَّرْعِ إِلَّا أَنَّهُمْ ٱمْتِدَادٌ لِعَمَلِ ٱلنُّبُوَّةِ فِي ٱلنَّاسِ دَهْرًا بَعْدَ دَهْرٍ ، يَنْطِقُونَ بِكَلِمَتِهَا ، وَيَقُومُونَ بِحُجَّتِهَا ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلَاقِهَا كَمَا تَأْخُذُ ٱلْمِرْآةُ ٱلنُّورَ ، تَحْوِيهِ فِي نَفْسِهَا وَتُلْقِيهِ عَلَىٰ غَيْرِهَا ، فَهِيَ أَدَاةٌ لِإِظْهَارِهِ وَإِظْهَارِ جَمَالِهِ مَعًا .

أَتَدْرِي يَا وَلَدِي مَا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ عُلَمَاءِ ٱلْحَقِّ وَعُلَمَاءِ ٱلسُّوءِ وَكُلُّهُمْ آخِذٌ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفُ؟ إِنَّ أُولَـٰئِكَ فِي أَخْلَاقِهِمْ كَٱللَّوْحِ مِنَ ٱلْبِلَّوْرِ : يُظْهِرُ ٱلنُّورَ نَفْسَهُ فِيهِ وَيُظْهِرُ حَقِيقَتَهُ ٱلْبِلَّوْرِيَّةَ ، وَهَـٰؤُلَاءِ بِأَخْلَاقِهِمْ كَٱللَّوْحِ مِنَ ٱلْخَشَبِ يُظْهِرُ ٱلنُّورُ حَقِيقَتَهُ ٱلْخَشَبِيَّةَ لَا غَيْرَ !

وَعَالِمُ ٱلسُّوءِ يُفَكِّرُ فِي كُتُبِ ٱلشَّرِيعَةِ وَحْدَهَا ؛ فَيَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَوَّلَ وَيَحْتَالَ وَيُغَيِّرَ وَيُبَدِّلَ وَيُظْهِرَ وَيُخْفِيَ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلْحَقَّ يُفَكِّرُ مَعَ كُتُبِ ٱلشَّرِيعَةِ فِي صَاحِبِ ٱلشَّرِيعَةِ ، فَهُوَ مَعَهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ يَسْأَلُهُ : مَاذَا تَفْعَلُ وَمَاذَا تَقُولُ ؟

وَٱلرَّجُلُ ٱلدِّينِيُّ لَا تَتَحَوَّلُ أَخْلَاقُهُ وَلَا تَتَفَاوَتُ وَلَا يَجِيءُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ حَوَادِثِ ٱلْيَوْمِ ، فَهُوَ بِأَخْلَاقِهِ كُلِّهَا ، لَا يَكُونُ مَرَّةً بِبَعْضِهَا وَمَرَّةً بِبَعْضِهَا ، وَلَنْ تَرَاهُ مَعَ ذَوِي ٱلسُّلْطَانِ وَأَهْلِ ٱلْحُكْمِ وَٱلنِّعْمَةِ كَعَالِمِ ٱلسُّوءِ هَـٰذَا ٱلَّذِي لَوْ نَطَقَتْ أَفْعَالُهُ لَقَالَتْ لِلهِ بِلِسَانِهِ : هُمْ يُعْطُونَنِي ٱلدَّرَاهِمَ وَٱلدَّنَانِيرَ ، فَأَيْنَ دَرَاهِمُكَ أَنْتَ وَدَنَانِيرُكَ ؟

إِنَّ ٱلدِّينَارَ يَا وَلَدِي إِذَا كَانَ صَحِيحًا فِي أَحَدِ وَجْهَيْهِ دُونَ ٱلآخَرِ ، أَوْ فِي بَعْضِهِ دُونَ بَعْضِهِ ، فَهُوَ زَائِفٌ كُلُّهُ ، وَأَهْلُ ٱلْحُكْمِ وَٱلْجَاهِ حِينَ يَتَعَامَلُونَ مَعَ هَـٰؤُلَاءِ يَتَعَامَلُونَ مَعَ قُوَّةِ ٱلْهَضْمِ فِيهِمْ . فَيُنْزِلُونَهُمْ بِذَٰلِكَ مَنْزِلَةَ ٱلْبَهَائِمِ : تُقَدِّمُ أَعْمَالَهَا لِتَأْخُذَ لِبُطُونِهَا ، وَٱلْبَطْنُ ٱلآكِلُ فِي ٱلْعَالِمِ ٱلسُّوءِ يَأْكُلُ دِينَ ٱلْعَالِمِ فِيمَا يَأْكُلُهُ . . .

فَإِذَا رَأَيْتَ لِعُلَمَاءِ ٱلسُّوءِ وَقَارًا فَهُوَ ٱلْبَلَادَةُ ، أَوْ رِقَّةً فَسَمِّهَا ٱلضَّعْفَ ، أَوْ مُحَاسَنَةً فَقُلْ إِنَّهَا ٱلنِّفَاقُ ، أَوْ سُكُوتًا عَنِ ٱلظُّلْمِ فَتِلْكَ رَشْوَةٌ يَأْكُلُونَ بِهَا !

* * *

قَالَ ٱلْإِمَامُ : وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ شَيْخِي سُلْطَانِ ٱلْعُلَمَاءِ عِزِّ ٱلدِّينِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ[1] فَلَقَدْ كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ شَيْئًا تَصْنَعُهُ طَبِيعَتُهُ كَمَا يَصْنَعُ جِسْمُهُ ٱلْحَيَاةَ ، فَلَا يُبَالِي هَلَكَ فِيهِ أَوْ عَاشَ ، إِذْ هُوَ فِي ٱلدَّمِ كَٱلْقَلْبِ ، لَا تَنَالُهُ يَدُ صَاحِبِهِ وَلَا يَدُ غَيْرِهِ ؛ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِمَالٍ وَلَا جَاهٍ وَلَا تَرَفٍ وَلَا نَعِيمٍ ، فَكَانَ تَجَرُّدُهُ مِنْ أَوْهَامِ ٱلْقُوَّةِ قُوَّةً لَا تُغْلَبُ ؛ وَٱنْتَزَعَ خَوْفَ ٱلدُّنْيَا مِنْ قَلْبِهِ فَعَمَرَتْهُ ٱلرُّوحُ ٱلسَّمَاوِيَّةُ ٱلَّتِي تُخِيفُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا تَخَافُ ؛ وَكَانَ بِهَـٰذِهِ ٱلرُّوحِ كَأَنَّهُ تَحْوِيلٌ وَتَبْدِيلٌ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ ، حَتَّىٰ قَالَ ٱلْمَلِكُ ٱلظَّاهِرُ بِيبَرْسُ وَقَدْ رَأَىٰ كَثْرَةَ ٱلْخَلْقِ فِي جَنَازَتِهِ حِينَ مَرَّتْ تَحْتَ ٱلْقَلْعَةِ : ٱلْآنَ ٱسْتَقَرَّ أَمْرِي فِي ٱلْمُلْكِ ، فَلَوْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلشَّيْخَ دَعَا ٱلنَّاسَ لِلْخُرُوجِ عَلَيَّ لَانْتَزَعَ مِنِّي ٱلْمَمْلَكَةَ !

وَكَانَ سُلْطَانُهُ فِي دِمَشْقَ ٱلصَّالِحَ إِسْمَاعِيلَ ، فَٱسْتَنْجَدَ بِٱلْإِفْرَنْجِ عَلَىٰ ٱلْمَلِكِ نَجْمِ ٱلدِّينِ أَيُّوبَ سُلْطَانِ مِصْرَ ؛ فَغَضِبَ ٱلشَّيْخُ وَأَسْقَطَ ٱسْمَ ٱلصَّالِحِ مِنَ ٱلْخُطْبَةِ وَخَرَجَ مُهَاجِرًا ، فَأَتْبَعَهُ ٱلصَّالِحُ بَعْضَ خَوَاصِّهِ يَتَلَطَّفُ بِهِ وَيَقُولُ لَهُ : مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَعُودَ إِلَىٰ مَنَاصِبِكَ وَمَا كُنْتَ عَلَيْهِ وَأَكْثَرَ مِمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا تَتَخَشَّعَ لِلسُّلْطَانِ وَتُقَبِّلَ يَدَهُ .

فَقَالَ لَهُ ٱلشَّيْخُ : يَا مِسْكِينُ ! أَنَا لَا أَرْضَىٰ أَنْ يُقَبِّلَ ٱلسُّلْطَانُ يَدِي ! أَنْتُمْ فِي وَادٍ وَأَنَا فِي وَادٍ .

(١) هُوَ ٱلْإِمَامُ ٱلْعَظِيمُ ، شَيْخُ ٱلْإِسْلَامِ ، عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ ، بَرَكَةُ ٱلدُّنْيَا فِي عَصْرِهِ ؛ تُوُفِّيَ سَنَةَ ٦٦٠هـ .

ثُمَّ قَدِمَ إِلَىٰ مِصْرَ فِي سَنَةِ ٦٣٩ هـ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ٱلسُّلْطَانُ نَجْمُ ٱلدِّينِ أَيُّوبُ ، وَتَحَفَّىٰ بِهِ ، وَوَلَّاهُ خِطَابَةَ مِصْرَ وَقَضَاءَهَا ، وَكَانَ أَيُّوبُ مَلِكًا شَدِيدَ ٱلْبَأْسِ ، لَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يُخَاطِبَهُ إِلَّا مُجِيبًا ، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ بِحَضْرَتِهِ ٱبْتِدَاءً ؛ وَقَدْ جَمَعَ مِنَ ٱلْمَمَالِيكِ ٱلتُّرْكِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ مِثْلُهُ لِغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، حَتَّىٰ كَانَ أَكْثَرُ أُمَرَاءِ عَسْكَرِهِ مِنْهُمْ ، وَهُمْ مَعْرُوفُونَ بِٱلْخُشُونَةِ وَٱلْبَأْسِ وَٱلْفَظَاظَةِ وَٱلِاسْتِهَانَةِ بِكُلِّ أَمْرٍ ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ٱلْعِيدِ صَعِدَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْخُ وَهُوَ يَعْرِضُ ٱلْجُنْدَ وَيُظْهِرُ مُلْكَهُ وَسَطْوَتَهُ وَٱلْأُمَرَاءُ يُقَبِّلُونَ ٱلْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَنَادَاهُ ٱلشَّيْخُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ لِيَسْمَعَ هَـٰذَا ٱلْمَلَأُ ٱلْعَظِيمُ : يَا أَيُّوبُ ! ثُمَّ أَمَرَهُ بِإِبْطَالِ مُنْكَرٍ ٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ عِلْمِهِ فِي حَانَةٍ تُبَاعُ فِيهَا ٱلْخَمْرُ ؛ فَرَسَمَ ٱلسُّلْطَانُ بِإِبْطَالِ ٱلْحَانَةِ وَٱعْتَذَرَ إِلَيْهِ .

فَحَدَّثَنِي ٱلْبَاجِيُّ قَالَ : سَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنَ ٱلْقَلْعَةِ وَقَدْ شَاعَ ٱلْخَبَرُ ، فَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي ! كَيْفَ كَانَتِ ٱلْحَالُ ؟

قَالَ : يَا بُنَيَّ ! رَأَيْتُهُ فِي تِلْكَ ٱلْعَظَمَةِ فَخَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَدْخُلَهَا ٱلْغُرُورُ فَتُبْطِرَهُ ، فَكَانَ مَا بَادَيْتُهُ بِهِ .

قُلْتُ : أَمَا خِفْتَهُ ؟ .

قَالَ : يَا بُنَيَّ ! ٱسْتَحْضَرْتُ هَيْبَةَ ٱللهِ تَعَالَىٰ فَكَانَ ٱلسُّلْطَانُ أَمَامِي كَٱلْقِطِّ[1] . وَلَوْ أَنَّ حَاجَةً مِنَ ٱلدُّنْيَا فِي نَفْسِي لَرَأَيْتُهُ ٱلدُّنْيَا كُلَّهَا ؛ بَيْدَ أَنِّي نَظَرْتُ بِٱلْآخِرَةِ فَٱمْتَدَّتْ عَيْنِي فِيهِ إِلَىٰ غَيْرِ ٱلْمَنْظُورِ لِلنَّاسِ ، فَلَا عَظَمَةَ وَلَا سُلْطَانَ وَلَا بَقَاءَ وَلَا دُنْيَا ، بَلْ هُوَ لَا شَيْءَ فِي صُورَةِ شَيْءٍ .

نَحْنُ يَا وَلَدِي مَعَ هَـٰؤُلَاءِ كَٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي يُصَحِّحُ مَعْنًى آخَرَ ، فَإِذَا أَمَرْنَاهُمْ فَٱلَّذِي يَأْمُرُهُمْ فِينَا هُوَ ٱلشَّرْعُ لَا ٱلْإِنْسَانُ ؛ وَهُمْ قَوْمٌ يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمُ ٱلْحَقَّ فِي إِسْكَاتِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلصَّحِيحَةِ أَوْ طَمْسِهَا أَوْ تَحْرِيفِهَا ؛ فَمَا بُدٌّ أَنْ يُقَابَلُوا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ بِمَنْ يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمُ ٱلْحَقَّ فِي إِنْطَاقِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ وَبَيَانِهَا وَتَوْضِيحِهَا ؛ فَإِذَا كَانَ ذَٰلِكَ فَهَـٰهُنَا ٱلْمَعْنَىٰ بِإِزَاءِ ٱلْمَعْنَىٰ ؛ فَلَا خَوْفَ وَلَا مُبَالَاةَ وَلَا شَأْنَ لِلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ .

(١) هَـٰذِهِ كَلِمَاتُ ٱلشَّيْخِ بِحُرُوفِهَا .

وَإِنَّمَا ٱلشَّرُّ كُلُّ ٱلشَّرِّ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ ٱلْعَالِمُ لِحُظُوظِ نَفْسِهِ وَمَنَافِعِهَا ، فَيَكُونَ بَاطِلًا مُزَوَّرًا فِي صُورَةِ ٱلْحَقِّ ، وَهَـٰهُنَا تَكُونُ ٱلذَّاتُ مَعَ ٱلذَّاتِ ، فَيَخْشَعُ ٱلضَّعْفُ أَمَامَ ٱلْقُوَّةِ ، وَيَذِلُّ ٱلْفَقْرُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْغِنَىٰ ، وَتَرْجُو ٱلْحَيَاةُ لِنَفْسِهَا وَتَخْشَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهَا ، فَإِذَا ٱلْعَالِمُ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ كَٱلْخَشَبَةِ ٱلْبَالِيَةِ ٱلنَّخِرَةِ حَاوَلَتْ أَنْ تُقَارِعَ ٱلسَّيْفَ ! .

كَلَّا يَا وَلَدِي ! إِنَّ ٱلسُّلْطَانَ وَٱلْحُكَّامَ أَدَوَاتٌ يَجِبُ تَعْيِينُ عَمَلِهَا قَبْلَ إِقَامَتِهَا ، فَإِذَا تَفَكَّكَتْ وَٱحْتَاجَتْ إِلَىٰ مَسَامِيرَ دُقَّتْ فِيهَا ٱلْمَسَامِيرُ ، وَإِذَا ٱنْفَتَقَ ٱلثَّوْبُ فَمِنْ أَيْنَ لِلْإِبْرَةِ أَنْ تَسْلُكَ بِٱلْخَيْطِ ٱلَّذِي فِيهَا إِذَا هِيَ لَمْ تَخِزْهُ ؟

إِنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلْحَقَّ كَٱلْمِسْمَارِ ، إِذَا أُوجِدَ ٱلْمِسْمَارُ لِذَاتِهِ دُونَ عَمَلِهِ كَفَرَتْ بِهِ كُلُّ خَشَبَةٍ . . .

* * *

قَالَ ٱلْإِمَامُ تَقِيُّ ٱلدِّينِ : وَطَغَى ٱلْأُمَرَاءُ مِنَ ٱلْمَمَالِيكِ وَثَقُلَتْ وَطْأَتُهُمْ عَلَى ٱلنَّاسِ ، وَحَيْثُمَا وُجِدَتِ ٱلْقُوَّةُ ٱلْمُسَلَّطَةُ ٱلْمُسْتَبِدَّةُ جَعَلَتْ طُغْيَانَهَا وَٱسْتِبْدَادَهَا أَدَبًا وَشَرِيعَةً ، إِلَّا أَنْ تَقُومَ بِإِزَائِهَا قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ أَقْوَىٰ مِنْهَا ، فَفَكَّرَ شَيْخُنَا فِي هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأُمَرَاءِ وَقَالَ : إِنَّ خِدَاعَ ٱلْقُوَّةِ ٱلْكَاذِبَةِ لِشُعُورِ ٱلنَّاسِ بَابٌ مِنَ ٱلْفَسَادِ ، إِذْ يَحْسَبُونَ كُلَّ حَسَنٍ مِنْهَا هُوَ ٱلْحَسَنَ ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا فِي ذَاتِهِ وَلَا أَقْبَحَ مِنْهُ . وَيَرَوْنَ كُلَّ قَبِيحٍ عِنْدَهَا هُوَ ٱلْقَبِيحُ ، وَإِنْ كَانَ حَسَنًا وَلَا أَحْسَنَ مِنْهُ .

وَقَالَ : مَا مَعْنَى ٱلْإِمَارَةِ وَٱلْأُمَرَاءِ ؟ وَإِنَّمَا قُوَّةُ ٱلْكُلِّ ٱلْكَبِيرِ هِيَ عِمَادُ ٱلْفَرْدِ ٱلْكَبِيرِ ، فَلِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ هَـٰذَا ٱلْكُلِّ حَقُّهُ وَعَمَلُهُ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَـٰذِهِ ٱلْإِمَارَةُ أَعْمَالًا نَافِعَةً قَدْ كَبُرَتْ وَعَظُمَتْ ، فَٱسْتَحَقَّتْ هَـٰذَا ٱللَّقَبَ بِطَبِيعَةٍ فِيهَا كَطَبِيعَةِ أَنَّ ٱلْعَشَرَةَ أَكْثَرُ مِنَ ٱلْوَاحِدِ ، لَا أَهْوَاءً وَشَهَوَاتٍ وَرَذَائِلَ وَمَفَاسِدَ تَتَّخِذُ لَقَبَهَا فِي ٱلضُّعَفَاءِ بِطَبِيعَةٍ كَطَبِيعَةِ أَنَّ ٱلْوَحْشَ مُفْتَرِسٌ .

وَفَكَّرَ ٱلشَّيْخُ فَهَدَاهُ تَفْكِيرُهُ إِلَىٰ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْأُمَرَاءِ مَمَالِيكُ ، فَحُكْمُ ٱلرِّقِّ مُسْتَصْحَبٌ عَلَيْهِمْ لِبَيْتِ مَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَيَجِبُ شَرْعًا بَيْعُهُمْ كَمَا يُبَاعُ ٱلرَّقِيقُ .

وَبَلَغَهُمْ ذَٰلِكَ فَجَزِعُوا لَهُ وَعَظُمَ فِيهِ ٱلْخَطْبُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ ٱحْتَدَمَ ٱلْأُمَرَاءُ وَأَيْقَنُوا أَنَّهُمْ بِإِزَاءِ ٱلشَّرْعِ لَا بِإِزَاءِ ٱلْقَاضِي ٱبْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ .

وَأَفْتَى ٱلشَّيْخُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ لَهُمْ بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ وَلَا زَوَاجٌ وَلَا طَلَاقٌ وَلَا مُعَامَلَةٌ ، وَأَنَّهُ لَا يُصَحِّحُ لَهُمْ شَيْئًا مِنْ هَـٰذَا حَتَّىٰ يُبَاعُوا وَيَحْصُلَ عِتْقُهُمْ بِطَرِيقٍ شَرْعِيٍّ !

ثُمَّ جَعَلُوا يَتَسَبَّبُونَ إِلَىٰ رِضَاهُ ، وَيَتَحَمَّلُونَ عَلَيْهِ بِٱلشَّفَاعَاتِ ، وَهُوَ مُصِرٌّ لَا يَعْبَأُ بِجَلَالَةِ أَخْطَارِهِمْ ، وَلَا يَخْشَىٰ ٱتِّسَامَهُ بِعَدَاوَتِهِمْ ، فَرَفَعُوا ٱلْأَمْرَ إِلَى ٱلسُّلْطَانِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ رَأْيِهِ وَحُكْمِهِ .

وَٱسْتَشْنَعَ ٱلسُّلْطَانُ فِعْلَهُ وَحَنِقَ عَلَيْهِ وَأَنْكَرَ مِنْهُ دُخُولَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ ، وَقَبَّحَ عَمَلَهُ وَسِيَاسَتَهُ وَمَا تَطَاوَلَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا نَفْسُهُ وَمَا تَكَادُ تَصِلُ يَدُهُ إِلَىٰ مَا يُقِيمُهُ ، وَهُمْ وَافِرُونَ وَفِي أَيْدِيهِمُ ٱلْقُوَّةُ وَلَهُمُ ٱلْأَمْرُ وَٱلنَّهْيُ .

وَٱنْتَهَىٰ ذَٰلِكَ إِلَى ٱلشَّيْخِ ٱلْإِمَامِ فَغَضِبَ وَلَمْ يُبَالِ بِٱلسُّلْطَانِ وَلَا كَبُرَ عَلَيْهِ إِعْرَاضُهُ ، وَأَزْمَعَ ٱلْهِجْرَةَ مِنْ مِصْرَ ، فَٱكْتَرَىٰ حَمِيرًا أَرْكَبَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ عَلَيْهَا وَمَشَىٰ هُوَ خَلْفَهُمْ يُرِيدُ ٱلْخُرُوجَ إِلَى ٱلشَّامِ ، فَلَمْ يَبْعُدْ إِلَّا قَلِيلًا نَحْوَ نِصْفِ بَرِيدٍ حَتَّىٰ طَارَ ٱلْخَبَرُ فِي ٱلْقَاهِرَةِ ، فَفَزِعَ ٱلنَّاسُ ، وَتَبِعُوهُ لَا يَتَخَلَّفُ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَلَا ٱمْرَأَةٌ وَلَا صَبِيٌّ ، وَسَارَ فِيهِمُ ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلصُّلَحَاءُ وَٱلتُّجَّارُ وَٱلْمُحْتَرِفُونَ ، كَأَنَّ خُرُوجَهُ خُرُوجُ نَبِيٍّ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَٱسْتَعْلَنَتْ قُوَّةُ ٱلشَّرْعِ فِي مَظْهَرِهَا ٱلْحَاكِمِ ٱلْآمِرِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْجَمَاهِيرِ ، فَقِيلَ لِلسُّلْطَانِ : إِنْ ذَهَبَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ ذَهَبَ مُلْكُكَ .

فَٱرْتَاعَ ٱلسُّلْطَانُ ، فَرَكِبَ بِنَفْسِهِ وَلَحِقَ بِٱلشَّيْخِ يَتَرَضَّاهُ وَيَسْتَدْفِعُ بِهِ غَضَبَ ٱلْأُمَّةِ ، وَأَطْلَقَ لَهُ يَأْمُرُ بِمَا شَاءَ ، وَقَدْ أَيْقَنَ أَنَّهُ لَيْسَ رَجُلَ ٱلدِّينَارِ وَٱلدِّرْهَمِ وَٱلْعَيْشِ وَٱلْجَاهِ وَلُبْسِ طَيْلَسَانِ ٱلْعُلَمَاءِ كَمَا يَلْصَقُ ٱلرِّيشُ عَلَىٰ حَجَرٍ فِي صُورَةِ طَائِرٍ .

وَرَجَعَ ٱلشَّيْخُ ، وَأَمَرَ أَنْ يُعْقَدَ ٱلْمَجْلِسُ وَيُجْمَعَ ٱلْأُمَرَاءُ وَيُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ لِلْمُسَاوَمَةِ فِي بَيْعِهِمْ ، وَضَرَبَ لِذَٰلِكَ أَجَلًا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَمْرُ قَدْ تَعَالَمَهُ كُلُّ ٱلْقَاهِرَةِ ، لِيَتَهَيَّأَ مَنْ يَتَهَيَّأُ لِلشِّرَاءِ وَٱلسَّوْمِ فِي هَـٰذَا ٱلرَّقِيقِ ٱلْغَالِي .

* * *

وَكَانَ مِنَ ٱلأُمَرَاءِ ٱلْمَمَالِيْكُ نَائِبُ ٱلسَّلْطَنَةِ ، فَبَعَثَ إِلَىٰ ٱلشَّيْخِ يُلاطِفُهُ وَيَسْتَرْضِيْهِ ، فَلَمْ يَعْبَأِ ٱلشَّيْخُ بِهِ ، فَهَاجَ هَائِجُهُ وَقَالَ : كَيْفَ يَبِيْعُنَا هَـٰذَا ٱلشَّيْخُ وَيُنَادِيْ عَلَيْنَا وَيُنْزِلُنَا مَنْزِلَةَ ٱلْعَبِيْدِ وَيُفْسِدُ مَحَلَّنَا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيَبْتَذِلُ أَقْدَارَنَا وَنَحْنُ مُلُوْكُ ٱلأَرْضِ ؟ وَمَا ٱلَّذِي يَفْقِدُ هَـٰذَا ٱلشَّيْخُ مِنَ ٱلدُّنْيَا فَيُدْرِكَ مَا نَحْنُ فِيْهِ ؟ إِنَّهُ يَفْقِدُ مَا لا يَمْلِكُ وَيَفْقِدُ غَيْرَ ٱلْمَوْجُوْدِ ، فَلا جَرَمَ لا يُبَالِيْ وَلَا يَرْجِعُ عَنْ رَأْيِهِ مَا دَامَ هَـٰذَا ٱلرَّأْيُ لَا يَمُرُّ فِيْ مَنَافِعِهِ ، وَلَا شَهَوَاتِهِ وَلَا فِيْ أَطْمَاعِهِ ، كَٱلَّذِيْنَ نَرَاهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلدُّنْيَا ، أَمَا وَٱللهِ لأَضْرِبَنَّهُ بِسَيْفِيْ هَـٰذَا ، فَمَا يَمُوْتُ رَأْيُهُ وَهُوَ حَيٌّ .

ثُمَّ رَكِبَ ٱلنَّائِبُ فِيْ عَسْكَرِهِ ، وَجَاءَ إِلَىٰ دَارِ ٱلشَّيْخِ ، وَٱسْتَلَّ سَيْفَهُ ، وَطَرَقَ ٱلْبَابَ .

فَخَرَجَ ٱبْنُهُ عَبْدُ ٱللَّطِيْفِ وَرَأَىٰ مَا رَأَىٰ ، فَٱنْقَلَبَ إِلَىٰ أَبِيْهِ وَقَالَ لَهُ : ٱنْجُ بِنَفْسِكَ إِنَّهُ ٱلْمَوْتُ ، وَإِنَّهُ ٱلسَّيْفُ وَإِنَّهُ . . . وَإِنَّهُ . . .

فَمَا ٱكْتَرَثَ ٱلشَّيْخُ لِذٰلِكَ وَلَا جَزِعَ وَلَا تَغَيَّرَ ، بَلْ قَالَ لَهُ : يَا وَلَدِيْ ! أَبُوْكَ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ فِيْ سَبِيْلِ ٱللهِ !

وَخَرَجَ لَا يَعْرِفُ ٱلْحَيَاةَ وَلَا ٱلْمَوْتَ ، فَلَيْسَ فِيْهِ ٱلإِنْسَانِيُّ بَلِ ٱلإِلٰهِيُّ ، وَنَظَرَ إِلَىٰ نَائِبِ ٱلسَّلْطَنَةِ وَفِيْ يَدِهِ ٱلسَّيْفُ ، فَٱنْطَلَقَتْ أَشِعَّةُ عَيْنَيْهِ فِيْ أَعْصَابِ هَـٰذِهِ ٱلْيَدِ فَيَبِسَتْ وَوَقَعَ ٱلسَّيْفُ مِنْهَا .

وَتَنَاوَلَهُ بِرُوْحِهِ ٱلْقَوِيَّةِ ، فَٱضْطَرَبَ ٱلرَّجُلُ وَتَزَلْزَلَ ، وَكَأَنَّمَا تَكَسَّرَ مِنْ أَعْصَابِهِ فَهُوَ يَرْعُدُ وَلَا يَسْتَقِرُّ وَلَا يَهْدَأُ .

وَأَخَذَ ٱلنَّائِبُ يَبْكِيْ وَيَسْأَلُ ٱلشَّيْخَ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ ؛ ثُمَّ قَالَ : يَا سَيِّدِيْ ! مَا تَصْنَعُ بِنَا ؟ .

قَالَ ٱلشَّيْخُ : أُنَادِيْ عَلَيْكُمْ وَأَبِيْعُكُمْ !

ـ وَفِيْمَ تَصْرِفُ ثَمَنَنَا ؟

ـ فِيْ مَصَالِحِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ .

ـ وَمَنْ يَقْبِضُهُ ؟

ـ أَنَا .

وَكَانَ ٱلشَّرْعُ هُوَ ٱلَّذِيْ يَقُوْلُ (أَنَا) ، فَتَمَّ لِلشَّيْخِ مَا أَرَادَ ، وَنَادَىٰ عَلَىٰ ٱلأُمَرَاءِ وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَٱشْتَطَّ فِيْ ثَمَنِهِمْ ، لَا يَبِيْعُ ٱلْوَاحِدَ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلثَّمَنُ آخِرَ مَا يَبْلُغُ ، وَكَانَ كُلُّ أَمِيْرٍ قَدْ أَعَدَّ مِنْ شِيْعَتِهِ جَمَاعَةً يَسْتَامُوْنَهُ لِيَشْتَرُوْهُ . . .

وَدُمِغَ ٱلظُّلْمُ وَٱلنِّفَاقُ وَٱلطُّغْيَانُ وَٱلتَّكَبُّرُ وَٱلاسْتِطَالَةُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلَّتِي أَعْلَنَهَا ٱلشَّرْعُ :

أُمَرَاءُ لِلْبَيْعِ . . . ! أُمَرَاءُ لِلْبَيْعِ . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

ٱلْعَجُوزَانِ (*)
١

قَالَ مُحَدِّثِي : ٱلْتَقَىٰ هَـٰذَانِ ٱلشَّيْخَانِ بَعْدَ فِرَاقِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَكَانَتْ مَثَابَتُهُمَا(١) ذٰلِكَ ٱلْمَكَانَ ٱلْقَائِمَ عَلَىٰ شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ فِي إِسْكَنْدَرِيَّةَ فِي جِهَةِ كَذَا ، وَهُمَا صَدِيقَانِ كَانَا فِي صَدْرِ أَيَّامِهِمَا ـ حِينَ كَانَتْ لَهُمَا أَيَّامٌ . . . رَجُلَيْ حُكُومَةٍ يَعْمَلَانِ فِي دِيوَانٍ وَاحِدٍ ، وَكَانَا فِي عَيْشِهِمَا أَخَوَيْ جِدٍّ وَهَزْلٍ ، وَفَضَائِلَ وَرَذَائِلَ ، يَجْتَمِعَانِ دَائِمًا ٱجْتِمَاعَ ٱلسُّؤَالِ وَٱلْجَوَابِ ، فَلَا تَنْقَطِعُ وَسِيلَةُ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلآخَرِ ، وَكَأَنَّ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْحَيَاةِ قَرَابَةَ ٱلابْتِسَامَةِ مِنَ ٱلابْتِسَامَةِ ، وَٱلدَّمْعَةِ مِنَ ٱلدَّمْعَةِ .

وَلَبِثَا كَذٰلِكَ مَا شَاءَ ٱللهُ ، ثُمَّ تَبَدَّدَا ، وَأَخَذَتْهُمَا ٱلآفَاقُ كَدَأْبِ « ٱلْمُوَظَّفِينَ » : يَنْتَظِمُونَ وَيَنْتَثِرُونَ ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُهُمْ تَرْفَعُهُ أَرْضٌ وَتُخْفِضُهُ أُخْرَىٰ ، وَكَأَنَّ « ٱلْمُوَظَّفَ » مِنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسُۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ . [٣١ سورة لقمان/الآية : ٣٤] .

وَٱفْتَرَقَ ٱلصَّدِيقَانِ عَلَىٰ مَضَضٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ أَمْرُ ٱلْحُكُومَةِ بِنَقْلِ بَعْضِ « مُوَظَّفِيهَا » هُوَ أَمْرَهَا بِتَمْزِيقِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ؛ ثُمَّ تَصَرَّفَتْ بِهِمَا ٱلدُّنْيَا فَذَهَبَا عَلَىٰ طَرَفَيْ طَرِيقٍ لَا يَلْتَقِيَانِ ، وَأَصْبَحَ كِلَاهُمَا مِنَ ٱلآخَرِ كَيَوْمِهِ ٱلَّذِي مَضَىٰ : يُحْفَظُ وَلَا يُرَىٰ .

* * *

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : وَكُنْتُ مَعَ ٱلأُسْتَاذِ (م) ، وَهُوَ رَجُلٌ فِي ٱلسَّبْعِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ إِنَّهُ شَابٌّ لَمْ يَبْلُغْ مِنَ ٱلْعُمُرِ إِلَّا سَبْعِينَ سَنَةً . . .

وَيَزْعُمُ أَنَّ فِي جِسْمِهِ ٱلنَّامُوسَ ٱلأَخْضَرَ ٱلَّذِي يُحْيِي ٱلشَّجَرَةَ حَيَاةً وَاحِدَةً إِلَى ٱلآخِرِ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٠ ، ٢٧ صفر سنة ١٣٥٥ هـ = ١٨ مايو/أيار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٨٠٥ ـ ٨٠٧ .

(١) أَيْ : ٱلْمَكَانُ ٱلَّذِي ٱجْتَمَعَا فِيهِ بَعْدَ ٱلتَّفَرُّقِ .

رَجُلٌ فَارِهٌ ، مُتَأَنِّقٌ ، فَاخِرُ ٱلْبِزَّةِ ، جَمِيلُ ٱلسَّمْتِ ، فَارِعُ ٱلشَّطَاطِ(١) ، كَٱلْمَصْبُوبِ فِي قَالَبٍ لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا ٱنْحِنَاءَ ، مُجْتَمِعٌ كُلُّهُ لَمْ يَذْهَبْ مِنْهُ شَيْءٌ ، قَدْ حَفِظَتْهُ أَسَالِيبُ ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي يُعَانِيهَا فِي رِيَاضَتِهِ ٱلْيَوْمِيَّةِ ، وَهُوَ مُنْذُ كَانَ فِي أُنُفَتِهِ وَشَبَابِهِ لَا يَمْشِي إِلَّا مُسْتَأْخِرَ ٱلصَّدْرِ(٢) ، مَشْدُودَ ٱلظَّهْرِ ، مُرْتَفِعَ ٱلْعُنُقِ ، مُسْنِدًا قَفَاهُ إِلَىٰ طَوْقِهِ ، وَبِذٰلِكَ شَبَّ وَشَابَ عَلَىٰ ٱسْتِوَاءٍ وَاحِدٍ ، وَكُلَّمَا سُئِلَ عَنْ سِرِّ قَامَتِهِ وَعُودِهِ لَمْ يَزِدْ عَلَىٰ قَوْلِهِ : إِنَّ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ إِسْنَادِ ٱلْقَفَا(٣) .

وَهُوَ دَائِمًا عِطْرٌ عَبِقٌ ، ثُمَّ لَا يَمَسُّ إِلَّا عِطْرًا وَاحِدًا لَا يُغَيِّرُهُ ، يَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا ٱلطِّيبَ يَحْفَظُ خَيَالَ ٱلصِّبَا ، وَأَنَّهُ يُبْقِي لِلأَيَّامِ رَائِحَتَهَا .

وَلَهُ فَلْسَفَةٌ مِنْ حِسِّهِ لَا مِنْ عَقْلِهِ ، وَلِفَلْسَفَتِهِ قَوَاعِدُ وَأُصُولٌ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، وَمِنْ بَعْضِ قَوَاعِدِهَا ٱلزَّهْرُ ، وَمِنْ بَعْضِهَا ٱلْمُوسِيقَىٰ ، وَمِنْ بَعْضِهَا ٱلصَّلَاةُ أَيْضًا ؛ وَكُلُّ تِلْكَ هِيَ عِنْدَهُ قَوَاعِدُ لِحِفْظِ ٱلشَّبَابِ . وَمِنْ فَلْسَفَتِهِ أَنَّ مَبَادِئَ ٱلشَّبَابِ وَعَادَاتِهِ إِذَا هِيَ لَمْ تَتَغَيَّرِ ٱتَّصَلَ ٱلشَّبَابُ فِيهَا وَٱطَّرَدَ فِي ٱلرُّوحِ ، فَتَكُونُ مِنْ ذٰلِكَ قُوَّةٌ تَحْرُسُ قُوَّةَ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ ، وَتُمْسِكُ عَلَىٰ ٱلْجِسْمِ حَالَتَهُ ٱلنَّفْسِيَّةَ ٱلأُولَىٰ .

وَهُوَ يَزِيدُ فِي حِكْمَةِ ٱلصَّلَاةِ فِكْرَةً رِيَاضِيَّةً عَمَلِيَّةً لَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْهَا أَحَدٌ : هِيَ رِيَاضَةُ ٱلْبَطْنِ وَٱلأَمْعَاءِ بِٱلرُّكُوعِ وَٱلسُّجُودِ وَٱلْقِيَامِ ؛ وَيَقُولُ : إِنَّ ثَرْوَةَ ٱلصَّلَاةِ تُكْنَزُ فِي صُنْدُوقَيْنِ ، أَحَدُهُمَا ٱلرُّوحُ لِمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ ، وَٱلآخَرُ ٱلْبَطْنُ لِمَا قَبْلَ ٱلْمَوْتِ ؛ وَيَرَىٰ أَنَّ ٱلإِسْلَامَ لَمْ يَفْرِضْ صَلَاةَ ٱلصُّبْحِ قَبْلَ ٱلشَّمْسِ إِلَّا لِيَجْعَلَ ٱلْفَجْرَ يَنْصَبُّ فِي ٱلرُّوحِ كُلَّ يَوْمٍ .

* * *

(١) مُمْتَدُّ ٱلطُّولِ .

(٢) يُقَالُ : مُسْتَقْدِمَ ٱلصَّدْرِ : لِلْهَرِمِ ٱلْمُنْحَنِي ٱلظَّهْرِ ؛ فَأَخَذْنَا مِنْهَا مُسْتَأْخِرَ ٱلصَّدْرِ ، وَذٰلِكَ بُرُوزُهُ حِينَ يَكُونُ مَشْدُودًا ، فَيَكُونُ أَعْلَاهُ إِلَىٰ ٱلْوَرَاءِ .

(٣) هَـٰذِهِ حَقِيقَةٌ رِيَاضِيَّةٌ ، وَلَهَا أَقْوَىٰ ٱلأَثَرِ فِي شَدِّ ٱلْجِسْمِ وَٱنْتِصَابِ ٱلْقَامَةِ إِذَا ٱعْتَادَهَا ٱلإِنْسَانُ . . . وَٱلْمُرَادُ بِٱلطَّوْقِ : ٱلْبَنِيقَةُ (ٱلْيَاقَةُ) .

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : وَبَيْنَمَا نَحْنُ جَالِسَانِ مَرَّ بِنَا شَيْخٌ أَعْجَفُ مَهْزُوْلٌ مَوْهُوْنٌ فِيْ جِسْمِهِ ، يَدْلُفُ مُتَقَاصِرَ ٱلْخَطْوِ كَأَنَّ حِمْلَ ٱلسِّنِيْنِ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ، مُرْعِشٌ مِنَ ٱلْكِبَرِ ، مُسْتَقْدِمُ ٱلصَّدْرِ ، مُنْحَنٍ ، يَتَوَكَّأُ عَلَىٰ عَصًا ، وَيَدُلُّ ٱنْحِنَاؤُهُ عَلَىٰ أَنَّ عُمُرَهُ قَدِ ٱعْوَجَّ أَيْضًا . وَهُوَ يَبْدُوْ فِيْ ضَعْفِهِ وَهُزَالِهِ كَأَنَّ ثِيَابَهُ مُلِئَتْ عِظَامًا لَا إِنْسَانًا ، وَكَأَنَّهَا مَا خِيْطَتْ إِلَّا لِتُمْسِكَ عَظْمًا عَلَىٰ عَظْمٍ . . .

قَالَ : فَحَمْلَقَ إِلَيْهِ (م) ثُمَّ صَاحَ : رِيْنَا ! رِيْنَا . فَٱلْتَفَتَ ٱلْعَجُوْزُ ، وَمَا كَادَ يَأْخُذُنَا بَصَرُهُ حَتَّىٰ ٱنْفَتَلَ إِلَيْنَا وَأَقْبَلَ ضَاحِكًا يَقُوْلُ : أَوَّهْ ! رِيْتْ ، رِيْتْ ! .

وَنَهَضَ (م) ، فَٱحْتَضَنَهُ ، وَتَلَازَمَا طَوِيْلًا ، وَجَعَلَ رَأْسَاهُمَا يَدُوْرَانِ وَيَتَطَوَّحَانِ ، وَكِلَاهُمَا يُقَبِّلُ صَاحِبَهُ قُبَلًا ظَامِئَةً لَا عَهْدَ لِيْ بِمِثْلِهَا فِيْ صَدِيْقَيْنِ ، حَتَّىٰ لَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُمَا لَا يَتَعَانَقَانِ وَلَا يَتَلَاثَمَانِ ، وَلَـٰكِنْ بَيْنَهُمَا فِكْرَةٌ يَعْتَنِقَانِهَا وَيُقَبِّلَانِهَا مَعًا . . .

وَقُلْتُ : مَا هَـٰذَا أَيُّهَا ٱلْعَجُوْزَانِ ؟

فَضَحِكَ (م) وَقَالَ : هَـٰذَا صَدِيْقِي ٱلْقَدِيْمُ (ن) ، تَرَكْتُهُ مُنْذُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ ٱلشَّبَابِ ، فَهَا هُوَ ذَا مُعْجِزَةٌ أُخْرَىٰ مِنْ مُعْجِزَاتِ ٱلْهَرَمِ ، وَلَمْ يَبْقَ كَامِلًا مِنْهُ إِلَّا ٱسْمُهُ . . .

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا رِيْنَا ؟

قَالَ ٱلْعَجُوْزُ (ن) : لَقَدْ أَصْبَحْتُ كَمَا تَرَىٰ : زَادَ ٱلْعُمْرُ فِيْ رِجْلَيَّ رِجْلًا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْعَصَا ، وَرَجَعَ مَصْدَرُ ٱلْحَيَاةِ فِيَّ مَصْدَرًا لِلْآلَامِ وَٱلْأَوْجَاعِ ، وَدَخَلَتْ فِيْ طَبِيْعَتِيْ عَادَةٌ رَابِعَةٌ مِنْ تَعَاطِيْ ٱلدَّوَاءِ .

فَضَحِكَ (م) وَقَالَ : قَبَّحَ ٱللهُ هَـٰذِهِ ٱلْعَادَةَ ٱلدَّخِيْلَةَ ، فَمَا هِيَ ٱلْعَادَاتُ ٱلثَّلَاثُ ٱلْأَصْلِيَّةُ ؟

قَالَ ٱلْعَجُوْزُ : هِيَ ٱلْأَكْلُ وَٱلشُّرْبُ وَٱلنَّوْمُ . . . ثُمَّ أَنْتَ يَا رِيْتْ كَيْفَ تَقْرَأُ ٱلصُّحُفَ ٱلْآنَ ؟

قَالَ (م) : أَقْرَؤُهَا كَمَا يَقْرَؤُهَا ٱلنَّاسُ ، فَمَا سُؤَالُكَ عَنْ هَـٰذَا ؟ وَهَلْ تُقْرَأُ ٱلصُّحُفُ يَوْمًا غَيْرَ مَا تُقْرَأُ فِيْ يَوْمٍ ؟ .

قَالَ : آهٍ ! إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ أَقْرَأُ فِيْ ٱلصُّحُفِ أَخْبَارُ ٱلْوَفَيَاتِ ، لِأَرَىٰ بَقَايَا ٱلدُّنْيَا ، ثُمَّ (إِعْلَانَاتُ ٱلْأَدْوِيَةِ) . . . وَلَـٰكِنْ كَيْفَ أَنْتَ يَا رِيْتْ ؟ إِنِّيْ لَأَرَاكَ مَا تَزَالُ مِنْ وَرَاءِ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً فِيْ ذٰلِكَ ٱلْعَيْشِ ٱلرَّخِيِّ ، وَأَرَاكَ تَحْمِلُ شَيْخُوْخَتَكَ بِقُوَّةٍ ، كَأَنَّ ٱلدَّهْرَ لَمْ يَخْرُمْكَ[1] مِنْ هُنَا وَلَا مِنْ هُنَا ، وَكَأَنَّهُ يَلْمَسُكَ بِأَصَابِعِهِ لَا بِمَسَامِيْرِهِ ، فَهَلْ أَصَبْتَ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ ٱلْعِلْمِ ٱلْحَدِيْثِ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : نَاشَدْتُكَ ٱللهَ ، أَفِيْ مُعْجِزَاتِ ٱلْعِلْمِ ٱلْحَدِيْثِ مُعْجِزَةٌ لِعَظْمِيْ ؟ .

قَالَ (م) : وَيْحَكَ يَا رِيْنَا ! إِنَّكَ عَلَىٰ ٱلْعَهْدِ لَمْ تَبْرَحْ كَمَا كُنْتَ مَزْبَلَةَ أَفْكَارٍ . . . مَاذَا يَصْنَعُ فِيْكَ ٱلْعِلْمُ ٱلْحَدِيْثُ وَأَنْتَ كَمَا أَرَىٰ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ ٱلْعَظْمِ وَٱلْخَشَبِ . . . ؟

* * *

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : وَضَحِكْنَا جَمِيْعًا ، ثُمَّ قُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (م) : وَلَـٰكِنْ مَا (رِيْنَا وَرِيْتْ) ؟ وَمَا هَـٰذِهِ ٱللُّغَةُ ؟ وَفِيْ أَيِّ مُعْجَمٍ تَفْسِيْرُهَا ؟

قَالَ : فَتَغَامَزَ ٱلشَّيْخَانِ ، ثُمَّ قَالَ (م) : يَا بُنَيَّ ! هَـٰذِهِ لُغَةٌ مَاتَتْ مَعَانِيْهَا وَبَقِيَتْ أَلْفَاظُهَا ، فَهِيَ كَتِلْكَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْأَثَرِيَّةِ ٱلْبَاقِيَةِ مِنَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُوْلَىٰ .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةَ ٱلْأُوْلَىٰ لَمْ تَنْقَضِ إِلَّا فِيْكُمَا . . . وَلَا يَزَالُ كُلُّ شَابٍّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُوْلَىٰ ، وَمَا أَحْسَبُ (رِيْنَا وَرِيْتْ) فِيْ لُغَتِكُمَا ٱلْقَدِيْمَةِ إِلَّا بِمَعْنَىٰ (سُوْسُوْ ، وَزُوْزُوْ) فِيْ ٱللُّغَةِ ٱلْحَدِيْثَةِ ؟

فَقَالَ (م) : ٱسْمَعْ يَا بُنَيَّ ! إِنَّ رَجُلَ سَنَةِ ١٩٣٥[2] مَتَىٰ سَأَلَ فِيْ رَجُلِ سَنَةِ ١٨٩٥ : مَا مَعْنَىٰ رِيْنَا وَرِيْتْ ؟ فَرَدَّ عَلَيْهِ : إِنَّ (رِيْنَا) مَعْنَاهَا (كَاتْرِيْنَا Cathrina) ؛ وَكَانَ (ن) بِهَا صَبًّا مُغْرَمًا ، وَكَانَ مُقْتَتَلًا قَتَلَهُ حُبُّهَا . أَمَّا (رِيْتْ) ، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهَا .

---

(١) فِيْ ٱلْأَصْلِ : « يَحْزُمْكَ » بَدَلًا مِنْ : « يَخْرُمْكَ » .

(٢) كَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْقِصَّةُ فِيْ صَيْفِ سَنَةِ ١٩٣٥ فِيْ إِسْكَنْدَرِيَّةَ .

فَٱمْتَعَضَ ٱلْعَجُوزُ (ن) وَقَالَ : سُبْحَانَ ٱللهِ ، ٱسْمَعْ يَا بُنَيَّ ! إِنَّ رَجُلَ سَنَةِ ١٨٩٥ فِيَّ يَقُولُ لَكَ : إِنَّ (رِيتَ) مَعْنَاهَا (مَرْغَرِيتَ Margarite) ، وَكَانَتِ ٱلْجَوَىٰ ٱلْبَاطِنَ ، وَكَانَتِ ٱللَّوْعَةَ وَٱلْحَرِيقَ ٱلَّذِي لَا يَنْطَفِئُ فِي قَلْبِ ٱلْأُسْتَاذِ (م) .

قُلْتُ : فَأَنْتُمَا أَيُّهَا ٱلْعَجُوزَانِ مِنْ عُشَّاقِ سَنَةِ ١٨٩٥ ، فَكَيْفَ تَرَيَانِ ٱلْحُبَّ ٱلْآنَ ؟

قَالَ ٱلْعَجُوزُ (ن) : يَا بُنَيَّ ! إِنَّ أَوَاخِرَ ٱلْعُمْرِ كَالْمَنْفَىٰ . . . وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي تَتَكَلَّمُ بِهَا أَنْتَ وَأَنْتُمَا وَأَنْتُمْ . . . غَيْرَ أَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَخْتَلِفُ ٱخْتِلَافًا بَعِيدًا .

قُلْتُ : وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا .

قَالَ : وَأَضْرِبُ لَهُمْ مَثَلًا كَلِمَةَ (ٱلْأَكْلِ) ، فَلَهَا عِنْدَنَا ثَلَاثَةُ مَعَانٍ : ٱلْأَكْلُ ، وَسُوءُ ٱلْهَضْمِ ، وَوَجَعُ ٱلْمَعِدَةِ . وَكَلِمَةَ (ٱلْمَشْيِ) فَلَهَا أَيْضًا ثَلَاثَةُ مَعَانٍ : ٱلْمَشْيُ ، وَٱلتَّعَبُ ، وَغَمَزَاتُ ٱلْعَظْمِ . . . وَكَلِمَةَ (ٱلنَّسِيمِ) : ٱلنَّسِيمُ ٱلْعَلِيلُ يَا بُنَيَّ : زِيدَ لَنَا فِي مَعْنَاهَا : تَحَرُّكُ (ٱلرُّوْمَاتِزْمِ) . . .

فَضَحِكَ (م) وَقَالَ : يَا « شَيْخُ » . . .

قَالَ ٱلْعَجُوزُ : وَتِلْكَ ٱلزِّيَادَةُ يَا بُنَيَّ لَا تَجِيءُ إِلَّا مِنْ نَقْصٍ ، فَهُنَا بَقِيَّةٌ مِنْ يَدَيْنِ ، وَبَقِيَّةٌ مِنْ رِجْلَيْنِ ، وَبَقِيَّةٌ مِنْ بَطْنٍ ، وَبَقِيَّةٌ مِنْ وَمِنْ وَمِنْ ، وَمَجْمُوعُ كُلِّ ذٰلِكَ بَقِيَّةٌ مِنْ إِنْسَانٍ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : ٱلْبَقِيَّةُ فِي حَيَاتِكَ . . .

قَالَ (ن) : وَبِٱلْجُمْلَةِ يَا بُنَيَّ ، فَإِنَّ حَرَكَةَ ٱلْحَيَاةِ فِي ٱلرَّجُلِ ٱلْهَرِمِ تَكُونُ حَوْلَ ذَاتِهَا لَا حَوْلَ ٱلْأَشْيَاءِ ، وَمَا أَعْجَبَ أَنْ تَكُونَ أَقْصَرُ حَرَكَتَيِ ٱلْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا كَذٰلِكَ ، وَإِذَا قَالَ ٱلشَّابُّ فِي مُغَامَرَتِهِ : لِيَمْضِ ٱلزَّمَنُ وَلْتَتَصَرَّمِ ٱلْأَيَّامُ ! فَإِنَّ ٱلْأَيَّامَ هِيَ ٱلَّتِي تَنْصَرِمُ وَٱلزَّمَنُ هُوَ ٱلَّذِي يَمُرُّ ، أَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ، فَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ : لِيَمْضِ ٱلزَّمَنُ ، فَكَأَنَّمَا قَالَ : فَلْأَمْضِ أَنَا . . .

فَصَاحَ (م) : يَا شَيْخُ ! . . . يَا شَيْخُ ! . . .

ثُمَّ قَالَ ٱلْعَجُوزُ : وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ ٱلْعِلْمَ نَفْسَهُ يَهْرَمُ مَعَ ٱلرَّجُلِ ٱلْهَرِمِ ، فَيُصْبِحُ مِثْلَهُ ضَعِيفًا لَا غَنَاءَ عِنْدَهُ وَلَا حِيلَةَ لَهُ ، وَكُلُّ مَصَانِعِ لَنْكَشِيرَ وَمَصَانِعِ بَنْكِ مِصْرَ وَٱلْيَابَانِ

وَٱلْأَمْرِيكِيَّتَيْنِ ، وَمَا بَقِيَ مِنْ مَصَانِعِ ٱلدُّنْيَا ، لَا فَائِدَةَ مِنْ جَمِيعِهَا ، فَهِيَ عَاجِزَةٌ أَنْ تَكْسُوَ عِظَامِي . . .

* * *

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : فَقَهْقَهَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : كِدْتُ وَٱللهِ أَتَخَشَّبُ مِنْ هٰذَا ٱلْكَلَامِ ، وَكَادَتْ مَعَانِي ٱلْعَظْمِ تَخْرُجُ مِنْ عِظَامِي ، لَقَدْ كَانَ ٱلْمُتَوَحِّشُونَ حُكَمَاءَ فِي أَمْرِ شُيُوخِهِمْ ، فَإِذَا عَلَتِ ٱلسِّنُّ بِجَمَاعَةٍ مِنْهُمْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ أَحْيَاءً إِلَّا بِٱمْتِحَانٍ ، فَهُمْ يَجْمَعُونَهُمْ وَيُلْجِئُونَهُمْ إِلَىٰ شَجَرَةٍ غَضَّةٍ لَيِّنَةِ ٱلْمَهَزَّةِ ، فَيُكْرِهُونَهُمْ أَنْ يَصْعَدُوا فِيهَا ثُمَّ يَتَدَلَّوْا مِنْهَا وَقَدْ عَلِقَتْ أَيْدِيهِمْ بِأَغْصَانِهَا ، فَإِذَا صَارُوا عَلَىٰ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ ٱجْتَمَعَ ٱلْأَشِدَّاءُ مِنْ فِتْيَانِ ٱلْقَبِيلَةِ فَيَأْخُذُونَ بِجِذْعِ ٱلشَّجَرَةِ يَرُجُّونَهَا وَيَنْفُضُونَهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، فَمَنْ ضَعُفَتْ يَدَاهُ مِنْ أُولٰئِكَ ٱلشُّيُوخِ أَوْ كَلَّتْ حَوَامِلُ ذِرَاعَيْهِ فَأَفْلَتَ ٱلْغُصْنَ ٱلَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ فَوَقَعَ : أَخَذُوهُ فَأَكَلُوهُ ؛ وَمَنِ ٱسْتَمْسَكَ أَنْزَلُوهُ فَأَمْهَلُوهُ إِلَىٰ حِينٍ !

فَٱقْشَعَرَّ ٱلْعَجُوزُ (ن) وَقَالَ : أَعُوذُ بِٱللهِ ! هٰذِهِ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ، وَلَعَنَهَا ٱللهُ مِنْ حِكْمَةٍ ، فَإِنَّهُمْ يَطْبُخُونَهُمْ فِي ٱلشَّجَرَةِ قَبْلَ ٱلْأَكْلِ ، أَوْ هُمْ يَجْعَلُونَهُمْ كَذٰلِكَ لِيَتَوَهَّمُوهُمْ طُيُورًا فَيَكُونَ لَحْمُهُمْ أَطْيَبَ وَأَلَذَّ ، وَيَتَسَاقَطُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ حَمَائِمَ وَعَصَافِيرَ .

قَالَ (م) : إِنْ كَانَ فِي ٱلْوَحْشِيَّةِ مَنْطِقٌ فَلَيْسَ فِي هٰذَا ٱلْمَنْطِقِ « بَابُ لِمَ » ، وَلَا « بَابُ كَيْفَ » وَلَوْ كَانَ بِهِمْ أَنْ يَأْكُلُوهُمْ لَأَكَلُوهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْبِيَةُ ٱلطَّبِيعَةِ لِأَهْلِ ٱلطَّبِيعَةِ ، فَإِنَّ رُؤْيَةَ ٱلرَّجُلِ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ وَهَزَّهَا وَعَاقِبَتَهَا يُبْعِدُ عَنْهُ ٱلضَّعْفَ وَٱلتَّخَلْخُلَ ، وَيَدْفَعُهُ إِلَىٰ مُعَانَاةِ ٱلْقُوَّةِ ، وَيَزِيدُ نَفْسَهُ ٱنْتِشَارًا عَلَى ٱلْحَيَاةِ وَطَمَعًا فِيهَا وَتَنَشُّطًا لِأَسْبَابِهَا ، فَيَكُونُ سَاعِدُهُ آخِرَ شَيْءٍ يَهْرَمُ ، وَلَا يَزَالُ فِي ٱلْحِدَّةِ وَٱلنَّشَاطِ وَٱلْوَثَبَانِ ، فَلَا يَعْجَزُ قَبْلَ يَوْمِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ ، وَيَكُونُ ٱلْمُتَوَحِّشُونَ بِهٰذَا قَدِ ٱحْتَالُوا عَلَى ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ فَٱضْطَرُّوهَا إِلَىٰ مَجْهُودِهَا ، وَأَكْرَهُوهَا عَلَىٰ أَنْ تَبْذُلَ مِنَ ٱلْقُوَّةِ آخِرَ مَا يَسَعُ ٱلْجِسْمُ .

قَالَ(ن) : فَنَعَمْ إِذًا ، وَلَعَنَ ٱللهُ مَعَانِيَ ٱلضَّعْفِ : كِدْتُ وَٱللهِ أَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا شَابًّا ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَوَحِّشًا تَخَافُ أَنْ تُؤْكَلَ ، فَتَظَلُّ شَيْخًا رَجُلًا لَا شَيْخًا طِفْلًا ، وَتَرَىٰ

ٱلْعُمْرَ كَمَا يَرَىٰ ٱلْبَخِيْلُ ذَهَبَهُ : مَهْمَا يَبْلُغْ فَكَثْرَتُهُ غَيْرُ كَثِيْرَةٍ .

* * *

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : وَأَضْجَرَنِي حِوَارُهُمَا ، إِذْ لَمْ يَعُدْ فِيْهِ إِلَّا أَنَّ جِسْمَ هَـٰذَا يَرُدُّ عَلَىٰ جِسْمِ هَـٰذَا ، وَإِنَّمَا ٱلشَّيْخُ مِنْ أَمْثَالِ هَـٰؤُلَاءِ زَمَانٌ يَتَكَلَّمُ وَيَقُصُّ وَيَعِظُ وَيَنْتَقِدُ ، وَلَنْ يَكُوْنَ ٱلشَّيْخُ مَعَكَ فِي حَقِيْقَةٍ إِنْ لَمْ تَرْحَلْ أَنْتَ فِيْهِ إِلَىٰ دُنْيَا قَدِيْمَةٍ . فَقُلْتُ لَهُمَا : أَيُّهَا ٱلْعَجُوْزَانِ ! أُرِيْدُ أَنْ أُسَافِرَ إِلَىٰ سَنَةِ ١٨٩٥ . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْعَجُوْزَانِ (*)(١)
٢

قَالَ مُحَدِّثِي : وَلَمَّا قُلْتُ لَهُمَا : أَيُّهَا ٱلْعَجُوْزَانِ ! أُرِيْدُ أَنْ أُسَافِرَ إِلَىٰ سَنَةِ ١٨٩٥ ؛ نَظَرَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٥١ ، ٤ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٥ مايو/أيار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٨٤٣ ـ ٨٤٥ .

(١) ٱلْجُمْهُوْرُ مِنْ أَهْلِ ٱللُّغَةِ عَلَىٰ أَنَّ (ٱلْعَجُوْزَ) وَصْفٌ خَاصٌّ بِٱلْمَرْأَةِ إِذَا شَاخَتْ وَهَرِمَتْ ، وَلَـٰكِنْ جَاءَ فِي « ٱللِّسَانِ » : « وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ عَجُوْزٌ » وَنَقَلَهُ صَاحِبُ « ٱلتَّاجِ » عَنِ ٱلصَّاغَانِيِّ ، وَنَحْنُ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلرَّأْيِ ، وَلَوْ لَمْ يَأْتِ فِيْهِ نَصٌّ عَنِ ٱلْعَرَبِ لَابْتَدَعْنَاهُ وَزِدْنَاهُ فِي ٱللُّغَةِ ؛ وَوَجْهُهُ عِنْدَنَا أَنَّ ٱلرَّجُلَ وَٱلْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَا ٱلْهَرَمَ فَقَدَا خَصَائِصَ ٱلذُّكُوْرَةِ وَٱلْأُنُوْثَةِ ؛ فَلَمْ يَعُوْدَا رَجُلًا وَٱمْرَأَةً ، فَٱسْتَوَيَا فِي ٱلْعَجْزِ ، فَكَانَ ٱلرَّجُلُ قَمِيْنًا أَنْ يُشَارِكَ ٱلْمَرْأَةَ فِي وَصْفِهَا ، فَيَقَعُ ٱللَّفْظُ عَلَيْهِمَا جَمِيْعًا ! .

وَإِنَّمَا ٱمْتَنَعَ ٱلْعَرَبُ أَنْ يَقُوْلُوْا لِلرَّجُلِ (عَجُوْزٌ) وَخَصُّوْا ذٰلِكَ بِٱلْمَرْأَةِ ، تَعَسُّفًا وَظُلْمًا وَطُغْيَانًا ، كَدَأْبِهِمْ مَعَ ٱلنِّسَاءِ ، فَإِذَا شَاخَتِ ٱلْمَرْأَةُ فَقَدْ بَطَلَتْ أُنُوْثَتُهَا عِنْدَهُمْ وَعَجَزَتْ عَنْ حَاجَةِ ٱلرَّجُلِ وَعَجَزَتْ فِي كَثِيْرٍ ، وَنَفَتْهَا ٱلطَّبِيْعَةُ وَبَرِئَتْ مِنْهَا ؛ أَمَّا ٱلرَّجُلُ فَبِٱلْخِلَافِ ، لِأَنَّهُ رَجُلٌ ؛ وَإِذَا شَاخَ وَبَطَلَ وَعَجَزَ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُكَابِرَ فِي ٱلْمَعْنَىٰ ـ كَابَرَ فِي ٱللَّفْظِ . . . وَأَبَىٰ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ (عَجُوْزٌ) ، وَزَعَمَ أَنَّ ذٰلِكَ خَاصٌّ بِٱلْمَرْأَةِ .

أَلَا إِنَّ هَـٰذَا تَزْوِيْرٌ فِي ٱللُّغَةِ ، وَإِنْ كَانَ لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ فَذَٰلِكَ فِي أَوْصَافِ ٱلْقُدْرَةِ لَا فِي أَوْصَافِ ٱلْعَجْزِ !

إِلَيَّ ٱلْعَجُوْزُ ٱلظَّرِيْفُ (ن) وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ! أَحْسَبُ رُؤْيَتَكَ إِيَّايَ قَدْ دَنَتْ بِكَ مِنَ ٱلْآخِرَةِ . . . فَتُرِيْدُ أَنْ نَلُوْذَ بِأَخْبَارِ شَبَابِنَا لِتَنْظُرَ إِلَيْنَا وَفِيْنَا رُوْحُ ٱلدُّنْيَا .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : وَكَيْفَ لَا تُرِيْهِ ٱلْآخِرَةَ وَأَكْثَرُكَ ٱلْآنَ فِي « ٱلْمَجْهُوْلِ » ؟

قَالَ : وَيْحَكَ يَا (م) ! لَا تَزَالُ عَلَىٰ وَجْهِكَ مِسْحَةٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ هُنَا وَهُنَا ، كَأَنَّ ٱلشَّيْطَانَ هُوَ ٱلَّذِي يُصْلِحُ فِي دَاخِلِكَ مَا ٱخْتَلَّ مِنْ قَوَانِيْنِ ٱلطَّبِيْعَةِ ، فَلَا تَسْتَبِيْنُ فِيْكَ ٱلسِّنُّ وَقَدْ نَيَّفْتَ عَلَىٰ ٱلسَّبْعِيْنَ ، وَمَا أَحْسَبُ ٱلشَّيْطَانَ فِي تَنْظِيْفِكَ إِلَّا كَٱلَّذِي يَكْنُسُ بَيْتَهُ . . .

قَالَ (م) : فَأَنْتَ أَيُّهَا ٱلْعَجُوْزُ ٱلصَّالِحُ بَيْتٌ قَدْ تَرَكَهُ ٱلشَّيْطَانُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ كَلِمَةَ : (لِلْإِيْجَارِ) . . .

فَضَحِكَ (ن) وَقَالَ : تَٱللهِ إِنَّ ٱلْهَرَمَ لَهُوَ إِعَادَةُ دَرْسِ ٱلدُّنْيَا . وَفَهْمُهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ فَهْمًا لَا خَطَأَ فِيْهِ ، إِذْ يَنْظُرُ ٱلشَّيْخُ بِٱلْعَيْنِ ٱلطَّاهِرَةِ ، وَيَسْمَعُ بِٱلْأُذُنِ ٱلطَّاهِرَةِ ، وَيَلْمَسُ بِٱلْيَدِ ٱلطَّاهِرَةِ . . . وَتَٱللهِ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَا مَعْنَىٰ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ وَقَاحَةُ ٱلْأَعْصَابِ .

قَالَ (م) : فَأَنْتَ أَيُّهَا ٱلْعَجُوْزُ ٱلصَّالِحُ إِنَّمَا أَصْبَحْتَ بِلَا شَيْطَانٍ ، لِأَنَّ ٱلْهَرَمَ قَدْ أَدَّبَ أَعْصَابَكَ . . .

قَالَ ٱلْعَجُوْزُ ٱلظَّرِيْفُ : وَعِنْدَ مَنْ غَيْرِنَا نَحْنُ ٱلشُّيُوْخُ تُطَاعُ ٱلْأَوَامِرُ وَٱلنَّوَاهِي ٱلْأَدَبِيَّةُ حَقَّ طَاعَتِهَا ؟ عِنْدَ مَنْ غَيْرِ ٱلشُّيُوْخِ تُقَدَّسُ مِثْلُ هَـٰذِهِ ٱلْحِكَمِ ٱلْعَالِيَةِ : لَا تَعْتَدِ عَلَىٰ أَحَدٍ . . . لَا تُفْسِدِ ٱمْرَأَةً عَلَىٰ زَوْجِهَا . . .

* * *

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : وَضَحِكْنَا جَمِيْعًا ، وَكَانَ ٱلْعَجُوْزُ (ن) مِنَ ٱلْآيَاتِ فِي ٱلظَّرْفِ وَٱلنُّكْتَةِ ، فَقَالَ : تَظُنُّنِي يَا بُنَيَّ فِي ٱلسَّبْعِيْنَ ؟ فَوَٱللهِ مَا أَنَا بِجُمْلَتِي فِي ٱلسَّبْعِيْنَ ؛ وَٱللهِ وَٱللهِ .

قَالَ (م) : لَقَدْ أَهْتَرَ ٱلشَّيْخُ[1] يَا بُنَيَّ ، فَإِنَّ هَـٰذَا مِنْ خَرَفِهِ فَلَا تُصَدِّقْهُ .

(١) أَيْ : أَخْطَأَ فِي ٱلرَّأْيِ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلْكِبَرِ .

قَالَ (ن) : وَٱللهِ مَا خَرِفْتُ وَمَا قُلْتُ إِلَّا حَقًّا ، فَهَاهُنَا مَا عُمْرُهُ خَمْسُ سَنَوَاتٍ فَقَطْ ، وَهُوَ أَسْنَانِي . . .

قُلْتُ : « وَرِيْنَا وَرِيتَ » وَسَنَةَ ١٨٩٥ ؟

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : أَنْتَ يَا بُنَيَّ مِنَ ٱلْمُجَدِّدِينَ ، فَمَا هَوَاكَ فِي ٱلْقَدِيمِ وَمَا شَأْنُكَ بِهِ ؟ .

وَمَا كَادَ ٱلْعَجُوزُ (ن) يَسْمَعُ هَـٰذَا حَتَّىٰ طَرَفَ بِعَيْنَيْهِ[1] وَحَدَّدَ بَصَرَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : أَأَنْتَ لَأَنْتَ هُوَ ؟ لَعَمْرِي إِنَّ فِي عَيْنَيْكَ لَضَجِيجًا وَكَذِبًا وَجِدَالًا وَٱحْتِيَالًا وَزَعْمًا وَدَعْوَىٰ وَكُفْرًا وَإِلْحَادًا ، وَلَعَمْرِي . . .

فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [١٥ سورة الحجر/الآية : ٧٢] ، لَقَدْ وَقَعَ ٱلتَّجْدِيدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي ٱلشُّيُوخِ أَجْسَامًا وَٱلشُّيُوخِ عُقُولًا ؛ فَهَـٰؤُلَاءِ عِنْدَ ٱلنِّهَايَةِ ، وَغَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ مِنْ ضَعْفِهِمْ أَنْ يَدِينُوا بِٱلْمَاضِي ، فَإِنَّ حَيَاتَهُمْ لَا تَلْمَسُ ٱلْحَاضِرَ إِلَّا بِضَعْفٍ !

قَالَ ٱلْعَجُوزُ : رَحِمَ ٱللهُ ٱلشَّيْخَ (ع) ، وَكَانَ هَـٰذَا يَا بُنَيَّ رَجُلًا يَنْسَخُ لِلْعُلَمَاءِ فِي زَمَنِنَا ٱلْقَدِيمِ ، وَكَانَ يَأْخُذُ عَشَرَةَ قُرُوشٍ أَجْرًا عَلَى ٱلْكُرَّاسَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ، وَهُوَ رَدِيءُ ٱلْخَطِّ ، فَإِذَا وَرَّقَ لِأَدِيبٍ وَلَمْ يُعْجِبْهُ خَطُّهُ فَكَلَّمَهُ فِي ذَلِكَ تَعَلَّقَ ٱلشَّيْخُ بِهِ وَطَالَبَهُ بِعِشْرِينَ قِرْشًا عَنِ ٱلْكُرَّاسَةِ ، مِنْهَا عَشَرَةٌ لِلْكِتَابَةِ ، وَعَشَرَةٌ غَرَامَةً لِإِهَانَةِ ٱلْكِتَابَةِ . . .

نَعَمْ يَا بُنَيَّ ! إِنَّ لِلْمَاضِي فِي قُلُوبِنَا مَوَاقِعَ يَنْزِلُ فِيهَا فَيَتَمَكَّنُ ، وَلَـٰكِنْ قَاعِدَةَ (ٱثْنَانِ وَٱثْنَانِ : أَرْبَعَةٌ) لَا تُعَدُّ فِي ٱلْمَاضِي وَلَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ ، وَٱلْحَقِيقَةُ بِنَفْسِهَا لَا بِٱسْمِهَا ، وَلَيْسَتْ تَحْتَاجُ ٱلنَّارُ إِلَىٰ ثَوْبِ ٱلْمَرْأَةِ إِلَّا فِي رَأْيِ ٱلْمُغَفَّلِ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ .

قَالَ ٱلْعَجُوزُ : زَعَمُوا أَنَّ مُغَفَّلًا كَانَ يَرَىٰ ٱمْرَأَتَهُ تُضْرِمُ ٱلْحَطَبَ فَتَنْفُخُ فِيهِ حَتَّىٰ يَشْتَعِلَ ، فَٱحْتَاجَ يَوْمًا فِي بَعْضِ شَأْنِهِ إِلَى ٱلنَّارِ ، وَلَمْ تَكُنِ ٱمْرَأَتُهُ فِي دَارِهَا ، فَجَاءَ بِٱلْحَطَبِ وَأَضْرَمَ فِيهِ وَجَعَلَ يَنْفُخُ ، وَكَانَ ٱلْحَطَبُ رَطْبًا ، فَدَخَّنَ وَلَمْ يَشْتَعِلْ ، فَفَكَّرَ ٱلْمُغَفَّلُ قَلِيلًا ، ثُمَّ

(١) أَيْ : حَرَّكَ أَجْفَانَهُمَا .

ذَهَبَ فَلَبِسَ ثَوْبَ ٱمْرَأَتِهِ وَعَادَ إِلَى ٱلنَّارِ وَكَانَ ٱلْحَطَبُ قَدْ جَفَّ ، فَلَمْ يَكَدْ يَنْفُخُ حَتَّىٰ ٱجْتَمَعَ وَتَضَرَّمَ ، فَأَيْقَنَ ٱلْمُغَفَّلُ أَنَّ ٱلنَّارَ تَخَافُ ٱمْرَأَتَهُ . . . وَأَنَّهَا لَا تَتَضَرَّمُ إِلَّا إِذَا رَأَتْ ثَوْبَهَا ! .

* * *

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْقَدِيمِ وَٱلْجَدِيدِ أَصْبَحَ عِنْدَنَا كَفُنُونِ ٱلْحَرْبِ : تُبْدِعُ مَا تُبْدِعُ لِتَغْيِيرِ مَا لَا يَتَغَيَّرُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَعَلَىٰ مَا بَلَغَتْ وَسَائِلُ ٱلْمَوْتِ فِي ٱلْقَدِيمِ وَٱلْجَدِيدِ ، فَإِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُمِيتَ أَحَدًا مَرَّتَيْنِ .

لَقَدْ قَرَأْتُ يَا بُنَيَّ كَثِيرًا فَلَمْ أَرَ إِلَى ٱلْآنَ مِنْ آثَارِ ٱلْمُجَدِّدِينَ عِنْدَنَا شَيْئًا ذَا قِيمَةٍ ، مَا كَانَ مِنْ هُرَاءٍ وَتَقْلِيدٍ زَائِفٍ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ ، وَمَا كَانَ جَيِّدًا فَهُوَ كَٱلنَّفَائِسِ فِي مُلْكِ ٱللِّصِّ : لَهَا ٱعْتِبَارَانِ ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ مُقْتَنِيهَا . . . فَٱلْآخَرُ عِنْدَ ٱلْقَاضِي[1] .

كَلَّا أَيُّهَا ٱللِّصُّ ، لَنْ تُسَمَّىٰ مَالِكًا بِهَـٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ، إِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ تَسْخَرُ بِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ وَمِنَ ٱلْحَقِّ وَمِنْ نَفْسِكَ .

يَقُولُونَ : ٱلْعِلْمُ وَٱلْفَنُّ وَٱلْغَرِيزَةُ وَٱلشَّهْوَةُ وَٱلْعَاطِفَةُ وَٱلْمَرْأَةُ وَحُرِّيَّةُ ٱلْفِكْرِ وَٱسْتِقْلَالُ ٱلرَّأْيِ وَنَبْذُ ٱلتَّقَالِيدِ وَكَسْرُ ٱلْقُيُودِ ، إِلَىٰ آخِرِهِ وَإِلَىٰ آخِرِهَا . . . فَهَـٰذَا كُلُّهُ حَسَنٌ مَقْبُولٌ سَائِغٌ فِي ٱلْوَرَقِ إِنْ كَانَ فِي مَقَالَةٍ أَوْ قِصَّةٍ ، وَهُوَ سَائِغٌ كَذَلِكَ حِينَ يَنْحَصِرُ فِي حُدُودِهِ ٱلَّتِي تَصْلُحُ لَهُ مِنْ ثِيَابِ ٱلْمُمَثِّلِينَ أَوْ مِنْ بَعْضِ ٱلنُّفُوسِ ٱلَّتِي يُمَثِّلُ بِهَا ٱلْقَدَرُ فُصُولَهُ ٱلسَّاخِرَةَ أَوْ فُصُولَهُ ٱلْمُبْكِيَةَ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ حِينَ يُخْرِجُونَ هَـٰذَا كُلَّهُ لِلْحَيَاةِ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ قُوَّتِهَا ٱلْمُوجِبَةِ ، تَرُدُّهُ ٱلْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ بِٱلْقُوَّةِ ٱلسَّالِبَةِ ، إِذْ لَا تَزَالُ تَخْلُقُ خَلْقَهَا وَتَعْمَلُ أَعْمَالَهَا بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ ، وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ هَـٰذَا ٱلْقَانُونُ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْفِكْرَ ٱلْمَرِيضَ حِينَ يُهْدَمُ مِنْ صَاحِبِهِ ـ يُهْدَمُ فِي ٱلْكَوْنِ بِصَاحِبِهِ ، فَفِيهَا أَيْضًا ٱلْقَانُونُ ٱلْآخَرُ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْفِكْرَ ٱلصَّحِيحَ ٱلسَّامِيَ حِينَ يُبْنَىٰ مِنْ أَهْلِهِ ـ يُبْنَىٰ فِي ٱلْكَوْنِ بِأَهْلِهِ .

* * *

قَالَ ٱلْعَجُوزُ (ن) : زَعَمُوا أَنَّ أَحَدَ سِلْكَيِ ٱلْكَهرَبَاءِ كَانَ فَيْلَسُوفًا مُجَدِّدًا ، فَقَالَ

(١) فِي كِتَابِنَا « تَحْتَ رَايَةِ ٱلْقُرْآنِ » كَلَامٌ كَثِيرٌ عَنِ ٱلتَّجْدِيدِ وَٱلْمُجَدِّدِينَ . وَمَا نَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ حَقًّا وَمَا نَرَاهُ بَاطِلًا .

لِلآخَرِ : مَا أَرَاكَ إِلَّا رَجْعِيًّا ، إِذْ كُنْتَ لَا تَتْبَعُنِي أَبَدًا وَلَا تَتَّصِلُ بِي ، وَلَا تَجْرِي فِي طَرِيقَتِي ، وَلَنْ تُفْلِحَ أَبَدًا إِلَّا أَنْ تَأْخُذَ مَأْخَذِي وَتَتْرُكَ مَذْهَبَكَ إِلَى مَذْهَبِي . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : أَيُّهَا ٱلْفَيْلَسُوفُ ٱلْعَظِيمُ ! لَوْ أَنِّي ٱتَّبَعْتُكَ لَبَطَلْنَا مَعًا ، فَمَا أَذْهَبُ فِيكَ وَمَا تَذْهَبُ فِيَّ ، وَمَا عَلِمْتُكَ تَشْتِمُنِي فِي رَأْيِكَ إِلَّا بِمَا تَمْدَحُنِي بِهِ فِي رَأْيِي .

قَالَ ٱلْعَجُوزُ : وَهَـٰذَا هُوَ جَوَابُنَا إِذَا كُنَّا رَجْعِيِّينَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَجْلِ ٱلدِّينِ أَوِ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْحَيَاءِ أَوِ ٱلْعِفَّةِ إِلَى آخِرِهَا وَإِلَى آخِرِهِ ، وَنَحْنُ لَا نَرَى هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُجَدِّدِينَ عِنْدَ ٱلتَّحْقِيقِ إِلَّا ضَرُورَاتٍ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْحَيَاةِ وَشَهَوَاتِهَا وَحَمَاقَاتِهَا تَلَبَّسَتْ بَعْضَ ٱلْعُقُولِ كَمَا يَتَلَبَّسُ أَمْثَالُهَا بَعْضَ ٱلطِّبَاعِ فَتَزِيغُ بِهَا ، وَلِلْحَيَاةِ فِي لُغَتِهَا ٱلْعَمَلِيَّةِ مُتَرَادِفَاتٌ كَٱلْمُتَرَادِفَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ : تَكُونُ ٱلْكَلِمَتَانِ وَٱلْكَلِمَاتُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، فَٱلْمُخَرِّبُ وَٱلْمُخَرِّفُ وَٱلْمُجَدِّدُ بِمَعْنًى !

كُلُّ مُجَدِّدٍ يُرِيدُ أَنْ يَضَعَ فِي كُلِّ شَيْءٍ قَاعِدَةً نَفْسَهُ هُوَ ، فَلَوْ أَطَعْنَاهُمْ لَمْ تَبْقَ لِشَيْءٍ قَاعِدَةٌ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلْوَاحِدَةَ عَلَى هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَى سُنَّتِهَا وَمَا تَصْلُحُ بِهِ مِنَ ٱلضَّبْطِ وَٱلْإِحْكَامِ ، وَٱلْجَلْبِ لَهَا وَٱلدَّفْعِ عَنْهَا وَٱلْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا بِوَسَائِلِهَا ٱلدَّقِيقَةِ ٱلْمَوْزُونَةِ ٱلْمُقَدَّرَةِ ، وَٱلسَّهْلَةِ فِي عَمَلِهَا ٱلصَّعْبَةِ فِي تَدْبِيرِهَا ، فَعَلَى نَحْوِ مِمَّا كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ فِي بَطْنِ ٱلْأُمِّ يَجِبُ أَنْ نَعِيشَ فِي بَطْنِ ٱلْكَوْنِ بِحُدُودٍ مَرْسُومَةٍ وَقَوَاعِدَ مُهَيَّأَةٍ وَحَيِّزٍ مَعْرُوفٍ ؛ وَإِلَّا بَقِيَتْ حَرَكَاتُ هَـٰذَا ٱلْإِنْسَانِ فِي مَعْنَاهَا كَحَرَكَاتِ ٱلْجَنِينِ ، يَرْتَكِضُ لِيَخْرُجَ عَنْ قَانُونِهِ ، فَإِنِ ٱسْتَمَرَّ عَمَلُهُ أَلْقَى بِهِ مَسْخًا مُشَوَّهًا مِنْ جَسَدٍ كَانَ يَعْمَلُ فِي تَنْظِيمِهِ ، أَوْ قَذَفَ بِهِ مَيِّتًا مِنْ جِسْمٍ كَانَ كُلُّ مَا فِيهِ يَعْمَلُ لِحَيَاتِهِ وَصِيَانَتِهِ .

هَـٰذَا ٱلْجِسْمُ كُلُّهُ يَشْرَعُ لِلْجَنِينِ مَا دَامَ فِيهِ ، وَهَـٰذَا ٱلِاجْتِمَاعُ كُلُّهُ يَشْرَعُ لِلْفَرْدِ مَا دَامَ فِيهِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرٍ إِذَا كَانَ ٱلْجَنِينُ مُجَدِّدًا لَا يُعْجِبُهُ مَثَلًا وَضْعُ ٱلْقَلْبِ وَلَا يُرْضِيهِ عَمَلُ ٱلدَّمِ[1] وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُقَيَّدًا لِأَنَّهُ حُرٌّ ؟ .

ٱنْظُرْ إِلَى هَـٰذَا ٱلشُّرْطِيِّ فِي هَـٰذَا ٱلشَّارِعِ يَضْرِبُ مُقْبِلًا لِيُدْبِرَ ، وَمُدْبِرًا لِيُقْبِلَ ؛ وَقَدْ أَلْبَسَتْهُ ٱلْحُكُومَةُ ثِيَابًا يَتَمَيَّزُ بِهَا ، وَهِيَ تَتَكَلَّمُ لُغَةً غَيْرَ لُغَةِ ٱلثِّيَابِ ، وَكَأَنَّهَا تَقُولُ : أَيُّهَا

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « ٱلْأُمِّ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلدَّمِ » .

ٱلنَّاسُ ! إِنَّ هَـٰهُنَا ٱلْإِنْسَانَ ٱلَّذِي هُوَ قَانُونٌ دَائِمًا ؛ وَٱلَّذِي هُوَ قُوَّةٌ أَبَدًا ، وَٱلَّذِي هُوَ سِجْنٌ حِينًا ، وَٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَوْتُ إِذَا ٱقْتَضَى ٱلْحَالُ .

أَتَحْسَبُ يَا بُنَيَّ هَـٰذَا ٱلشُّرْطِيَّ قَائِمًا فِي هَـٰذَا ٱلشَّارِعِ كَجُدْرَانِ هَـٰذِهِ ٱلْمَنَازِلِ ؟ كَلَّا يَا بُنَيَّ ! إِنَّهُ وَاقِفٌ أَيْضًا فِي ٱلْإِرَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَفِي ٱلْحِسِّ ٱلْبَشَرِيِّ وَفِي ٱلْعَاطِفَةِ ٱلْحَيَّةِ ؛ فَكَيْفَ لَا يَمْحُوهُ ٱلْمُجَدِّدُونَ مَعَ أَنَّهُ فِي ذَاتِهِ إِرْغَامٌ بِمَعْنًى ، وَإِكْرَاهٌ بِمَعْنًى غَيْرِهِ ، وَقَيْدٌ فِي حَالَةٍ ، وَبَلَاءٌ فِي حَالَةٍ أُخْرَى ؟ .

لَـٰكِنَّهُ إِرْغَامٌ لِيَقَعَ بِهِ ٱلتَّيْسِيرُ ، وَإِكْرَاهٌ لِتَنْطَلِقَ بِهِ ٱلرَّغْبَةُ ، وَقَيْدٌ لِتَتَجَمَّدَ بِهِ ٱلْحُرِّيَّةُ ؛ وَكَانَ هُوَ نَفْسُهُ بَلَاءً مِنْ نَاحِيَةٍ لِيَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ عِصْمَةً مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلَّتِي تُقَابِلُهَا .

يَا بُنَيَّ ! كُلُّ دِينٍ صَالِحٍ ، وَكُلُّ فَضِيلَةٍ كَرِيمَةٍ ، وَكُلُّ خُلُقٍ طَيِّبٍ - كُلُّ شَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَصَالِحِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ كَهَـٰذَا ٱلشُّرْطِيِّ بِعَيْنِهِ : فَإِمَّا تَخْرِيبُ ٱلْعَالَمِ أَيُّهَا ٱلْمُجَدِّدُونَ ، وَإِمَّا تَخْرِيبُ مَذْهَبِكُمْ . . .

* * *

قَالَ ٱلْعَجُوزُ (ن) : أَنَبْحَثُ عَمَّا نَتَسَلَّطُ بِهِ أَمْ نَبْحَثُ عَمَّا يَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا ؟ وَهَلْ نُرِيدُ أَنْ تَكُونَ غَرَائِزُنَا أَقْوَى مِنَّا وَأَشَدَّ ، أَوْ نَكُونَ نَحْنُ أَشَدَّ مِنْهَا وَأَقْوَى ؟ هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْمَسْأَلَةُ لَا مَسْأَلَةُ ٱلْجَدِيدِ وَٱلْقَدِيمِ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِي يَعْظُمُ بِنَا وَنَعْظُمُ بِهِ ، فَسَدَ ٱلْحِسُّ وَفَسَدَتِ ٱلْحَيَاةُ ، وَكُلُّ ٱلْأَدْيَانِ ٱلصَّحِيحَةِ وَٱلْأَخْلَاقِ ٱلْفَاضِلَةِ إِنْ هِيَ إِلَّا وَسَائِلُ هَـٰذَا ٱلْمَثَلِ ٱلْأَعْلَى لِلسُّمُوِّ بِٱلْحَيَاةِ فِي آمَالِهَا وَغَايَاتِهَا عَنِ ٱلْحَيَاةِ نَفْسِهَا فِي وَقَائِعِهَا وَمَعَانِيهَا .

* * *

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : وَرَأَيْتَنِي بَيْنَ ٱلْعَجُوزَيْنِ كَأَنِّي بَيْنَ نَابَيْنِ ، وَلَمْ أَكُنْ مُجَدِّدًا عَلَى مَذْهَبِ إِبْلِيسَ ٱلَّذِي رَدَّ عَلَى ٱللهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَظَنَّ لِحُمْقِهِ أَنَّ قُوَّةَ ٱلْمَنْطِقِ تُغَيِّرُ مَا لَا يَتَغَيَّرُ ؛ فَسَكَتُّ ، حَتَّى إِذَا فَرَغَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْفَلْسَفَةِ قُلْتُ : وَٱلرِّحْلَةُ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ؟ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْعَجُوْزَانِ (*)
٣

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : وَتَبَيَّنَ فِيْ ٱلْعَجُوْزِ (ن) أَثَرُ ٱلتَّعَبِ ، فَتَوَجَّعَ وَأَخَذَ يَئِنُّ كَأَنَّ بَعْضَهُ قَدْ مَاتَ لِوَقْتِهِ . . . أَوْ وَقَعَ فِيْهِ ٱخْتِلَالٌ جَدِيْدٌ ، أَوْ نَالَتْهُ ضَرْبَةُ ٱلْيَوْمِ ، وَٱلشَّيْخُ مَتَىٰ دَخَلَ فِيْ ٱلْهَرَمِ دَخَلَ فِيْ ٱلْمَعْرَكَةِ ٱلْفَاصِلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَيَّامِهِ .

ثُمَّ تَأَفَّفَ وَتَمَلْمَلَ وَقَالَ : إِنَّ أَوَّلَ مَا يَظْهَرُ عَلَىٰ مَنْ شَاخَ وَهَرِمَ ، هُوَ أَنَّ ٱلطَّبِيْعَةَ قَدْ غَيَّرَتِ ٱلْقَانُوْنَ ٱلَّذِيْ كَانَتْ تَحْكُمُهُ بِهِ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ صَاحِبَنَا كَانَ قَاضِيًا يَحْكُمُ فِيْ ٱلْمَحَاكِمِ ، وَأَرَىٰ ٱلْمَحَاكِمَ قَدْ حَكَمَتْ عَلَيْهِ بِهَـٰذِهِ ٱلشَّيْخُوْخَةِ (مُطَبِّقَةً فِيْهَا) بَعْضَ ٱلْمَوَادِ مِنْ قَانُوْنِ ٱلْعُقُوْبَاتِ ، فَمَا خَرَجَ مِنَ ٱلْمَحْكَمَةِ إِلَّا إِلَىٰ ٱلْحَبْسِ ٱلثَّالِثِ .

فَضَحِكَ (ن) وَقَالَ : قَدْ عَرَفْنَا « ٱلْحَبْسَ ٱلْبَسِيْطَ » وَ« ٱلْحَبْسَ مَعَ ٱلشُّغْلِ » فَمَا هُوَ هَـٰذَا « ٱلْحَبْسُ ٱلثَّالِثُ ؟ » .

قَالَ : هُوَ « ٱلْحَبْسُ مَعَ ٱلْمَرَضِ » . . .

قَالَ (ن) : صَدَقْتَ لَعَمْرِيْ ، فَإِنَّ آخِرَ أَجْسَامِنَا لَا يَكُوْنُ إِلَّا بِحِسَابٍ مِنْ صَنْعَةِ أَعْمَالِنَا ، وَكَأَنَّ كُرْسِيَّ ٱلْوَظِيْفَةِ ٱلْحُكُوْمِيَّةِ قَدْ عَرَفَ أَنَّهُ كُرْسِيُّ ٱلْحُكُوْمَةِ ، فَهُوَ يَضْرِبُ ٱلضَّرَائِبَ عَلَىٰ عِظَامِ ٱلْمُوَظَّفِيْنَ . . . أَتَدْرِيْ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ [١٦ سورة النحل/ الآية : ٧٠ ؛ ٢٢ سورة الحج/ الآية : ٥] وَلِمَ سَمَّاهُ ٱلْأَرْذَلَ ؟ .

قُلْنَا : فَلِمَ سَمَّاهُ كَذٰلِكَ ؟

قَالَ : لِأَنَّهُ خَلْطُ ٱلْإِنْسَانِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ ، وَمَسْخُهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ ، فَلَا هُوَ رَجُلٌ وَلَا

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٢ ، ١١ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ١ يونيو/ حزيران ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٨٨٣ ـ ٨٤٥ .

شَابٌ وَلَا طِفْلٌ ، فَهُوَ أَرْدَأُ وَأَرْذَلُ مَا فِيْ ٱلْبِضَاعَةِ . . .

فَٱسْتَضْحَكَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : أَمَّا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ شَيْخًا حِيْنَ كُنْتُ فِيْ ٱلثَّلَاثِيْنَ مِنْ عُمُرِيْ ، وَهَـٰذَا هُوَ ٱلَّذِيْ جَعَلَنِيْ فَتًىٰ حِيْنَ بَلَغْتُ ٱلسَّبْعِيْنَ .

قَالَ (ن) : كَأَنَّ ٱلْحَيَاةَ تُصَحِّحُ نَفْسَهَا فِيْكَ .

قَالَ : بَلْ أَنَا أَكْرَهْتُهَا أَنْ تُصَحِّحَ نَفْسَهَا ، فَقَدْ عَرَفْتُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ سَعَةَ ٱلْإِنْفَاقِ فِيْ ٱلشَّبَابِ هِيَ ضَائِقَةُ ٱلْإِفْلَاسِ فِيْ ٱلْهَرَمِ ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ لِلطَّبِيْعَةِ « عَدَّادًا » لَا يُخْطِئُ ٱلْحِسَابَ ، فَإِذَا أَنَا ٱقْتَصَدْتُ عَدَّتْ لِيْ ، وَإِذَا أَسْرَفْتُ عَدَّتْ عَلَيَّ ، وَلَنْ تُعْطِيَنِيْ ٱلدُّنْيَا بَعْدَ ٱلشَّبَابِ إِلَّا مِمَّا فِيْ جِسْمِيْ ، إِذْ لَا يُعْطِيْ ٱلْكَوْنُ حَيًّا أَرَادَ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْهُ ، فَكُنْتُ أَجْعَلُ نَفْسِيْ كَٱلشَّيْخِ ٱلَّذِيْ تَقُوْلُ لَهُ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلْكَثِيْرَةُ : لَسْتُ لَكَ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ لَذَّاتِيْ كُلُّهَا فِيْ قُيُوْدِ ٱلشَّرِيْعَتَيْنِ : شَرِيْعَةُ ٱلدِّيْنِ وَشَرِيْعَةُ ٱلْحَيَاةِ .

قَالَ : وَعَرَفْتُ أَنَّ مَا يُسَمِّيْهِ ٱلنَّاسُ وَهَنَ ٱلشَّيْخُوْخَةِ لَا يَكُوْنُ مِنَ ٱلشَّيْخُوْخَةِ وَلَـٰكِنْ مِنَ ٱلشَّبَابِ ، فَمَا هُوَ إِلَّا عَمَلُ ٱلْإِنْسَانِ فِيْ تَسْمِيْمِ جِسْمِهِ ثَلَاثِيْنَ أَوْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً بِٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ وَٱلْإِغْفَالِ وَٱلْإِرْهَاقِ وَٱلسُّرُوْرِ وَٱلْحُزْنِ وَٱللَّذَّةِ وَٱلْأَلَمِ ، فَكُنْتُ مَعَ ٱلْجِسْمِ فِيْ شَبَابِهِ لِيَكُوْنَ مَعِيْ بَعْدَ شَبَابِهِ ، وَلَمْ أَبْرَحْ أَتَعَاهَدُهُ كَمَا يَتَعَاهَدُ ٱلرَّجُلُ دَارَهُ : يَزِيْدُ مَحَاسِنَهَا وَيَنْفِيْ عُيُوْبَهَا وَيَحْفَظُ قُوَّتَهَا وَيَتَّقِيْ ضَعْفَهَا ، وَيَجْعَلُهَا دَائِمًا بَالَهُ وَهَمَّهُ ، وَيَنْظُرُ فِيْ يَوْمِهَا ٱلْقَرِيْبِ لِغَدِهَا ٱلْبَعِيْدِ ، فَلَا يَنْقَطِعُ حِسَابُ آخِرِهَا وَإِنْ بَعُدَ هَـٰذَا ٱلْآخِرُ ، وَلَا يَزَالُ أَبَدًا يَحْتَاطُ لِمَا يَخْشَىٰ وُقُوْعَهُ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ .

قَالَ ٱلْعَجُوْزُ (ن) : صَدَقْتَ وَٱللهِ ، فَمَا أَفْلَحَ إِلَّا مَنِ ٱغْتَنَمَ ٱلْإِمْكَانَ ، وَمَا نَوْعُ ٱلشَّيْخُوْخَةِ إِلَّا مِنْ نَوْعِ ٱلشَّبَابِ ، وَهَـٰذَا ٱلْجِسْمُ ٱلْإِنْسَانِيُّ كَٱلْمَدِيْنَةِ ٱلْكَبِيْرَةِ فِيْهَا (مَجْلِسُهَا ٱلْبَلَدِيُّ) ٱلْقَائِمُ عَلَىٰ صِيَانَتِهَا وَنِظَامِهَا وَتَقْوِيَتِهَا ، وَرَئِيْسُ هَـٰذَا ٱلْمَجْلِسِ ٱلْإِرَادَةُ ، وَقَانُوْنُهُ كُلُّهُ وَاجِبَاتٌ ثَقِيْلَةٌ ، وَهُوَ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْقَوَانِيْنِ : إِذَا لَمْ يُنَفَّذْ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لَمْ يُغْنِ فِيْ ٱلْآخِرِ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : وَكُلُّ جِهَازٍ فِيْ ٱلْجِسْمِ هُوَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَاءِ ذٰلِكَ (ٱلْمَجْلِسِ ٱلْبَلَدِيِّ) ؛ فَجِهَازُ ٱلتَّنَفُّسِ وَجِهَازُ ٱلْهَضْمِ وَٱلْجِهَازُ ٱلْعَضَلِيُّ وَٱلْجِهَازُ ٱلْعَصَبِيُّ وَٱلدَّوْرَةُ

ٱلدَّمَوِيَّةُ ، هَـٰذِهِ كُلُّهَا يَجِبُ أَنْ تُتْرَكَ عَلَىٰ حُرِّيَّتِهَا ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَأَنْ تُعَانَ عَلَىٰ سُنَّتِهَا ، فَلَا يُحَالُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْمَالِهَا بِرُشْوَةٍ مِنْ لَذَّةٍ ، أَوْ مَفْسَدَةٍ مِنْ زِينَةٍ ، أَوْ مَطْعَمَةٍ فِي رَفَاهِيَّةٍ ، أَوْ دَعْوَةٍ إِلَىٰ مَدَنِيَّةٍ ، أَوْ شَيْءٍ مِمَّا يُفْسِدُ حُكْمَهَا أَوْ يُعَطِّلُ عَمَلَهَا أَوْ يُضْعِفُ طَبِيعَتَهَا .

وَٱلْقَاعِدَةُ فِي ٱلْعُمْرِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ ٱلشَّبَابُ هُوَ ٱلطُّفُولَةَ ٱلثَّانِيَةَ فِي بَرَاءَتِهِ وَطَهَارَتِهِ كَانَتِ ٱلشَّيْخُوخَةُ هِيَ ٱلشَّبَابَ ٱلثَّانِيَ فِي قُوَّتِهَا وَنَشَاطِهَا ؛ وَمَا رَأَيْتُ كَالدِّينِ وَسِيلَةً تَجْعَلُ ٱلطُّفُولَةَ مُمْتَدَّةً بِحَقَائِقِهَا إِلَىٰ آخِرِ ٱلْعُمْرِ فِي هَـٰذَا ٱلْإِنْسَانِ ، فَسِرُّ ٱلطُّفُولَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي قُوَّتِهَا عَلَىٰ حَذْفِ ٱلْفُضُولِ وَٱلزَّوَائِدِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ، فَلَا يُطْغِيهَا ٱلْغِنَىٰ ، وَلَا يَكْسِرُهَا ٱلْفَقْرُ ، وَلَا تُذِلُّهَا ٱلشَّهْوَةُ ، وَلَا يُفْزِعُهَا ٱلطَّمَعُ ، وَلَا يَهُولُهَا ٱلْإِخْفَاقُ ، وَلَا يَتَعَاظَمُهَا ٱلضُّرُّ ، وَلَا يُخِيفُهَا ٱلْمَوْتُ ؛ ثُمَّ لَا تَمَلُّ وَهِيَ ٱلصَّابِرَةُ ، وَلَا تُبَالِغُ وَهِيَ ٱلرَّاضِيَةُ ، وَلَا تَشُكُّ وَهِيَ ٱلْمُوقِنَةُ ، وَلَا تُسْرِفُ وَهِيَ ٱلْقَانِعَةُ ، وَلَا تَتَبَلَّدُ وَهِيَ ٱلْعَامِلَةُ ، وَلَا تَجْمُدُ وَهِيَ ٱلْمُتَجَوِّلَةُ ؛ ثُمَّ هِيَ لَا تُكَلِّفُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ إِلَّا ٱلْعَطْفَ وَٱلْحُبَّ وَٱلْبَشَاشَةَ وَطَبَائِعَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّتِي يَمْلِكُهَا كُلُّ قَلْبٍ ؛ وَلَا تُوجِبُ شَرِيعَتُهَا فِي ٱلْمُعَامَلَةِ إِلَّا قَاعِدَةَ ٱلرَّحْمَةِ ، وَلَا تُقَرِّرُ فَلْسَفَتُهَا لِلْحَيَاةِ ، إِلَّا طَهَارَةَ ٱلنَّظَرِ ؛ ثُمَّ تَتَهَكَّمُ بِالدُّنْيَا أَكْثَرَ مِمَّا تَهْتَمُّ لَهَا ، وَتَسْتَغْنِي فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَاجُ ، وَتَسْتَخْرِجُ ٱلسَّعَادَةَ لِنَفْسِهَا دَائِمًا مِمَّا أَمْكَنَ ، قَلَّ أَوْ كَثُرَ .

وَبِكُلِّ هَـٰذَا تَعْمَلُ ٱلطُّفُولَةُ فِي حِرَاسَةِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْغَضَّةِ وَٱسْتِمْرَارِهَا وَنُمُوِّهَا ، وَلَوْلَا ذَٰلِكَ لَمَا زَهَا طِفْلٌ وَلَا شَبَّ غُلَامٌ وَلَا رَأَتِ ٱلْعُيُونُ بَيْنَ هُمُومِ ٱلدُّنْيَا ذَٰلِكَ ٱلرُّوَاءَ وَذَٰلِكَ ٱلْمَنْظَرَ عَلَىٰ وُجُوهِ ٱلْأَطْفَالِ يُثْبِتَانِ أَنَّ ٱلْبَرَاءَةَ فِي ٱلنَّفْسِ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلطَّبِيعَةِ .

وَكُلُّ ذَٰلِكَ هُوَ أَيْضًا مِنْ خَصَائِصِ ٱلدِّينِ وَبِهِ يَعْمَلُ ٱلدِّينُ فِي تَهْذِيبِ ٱلْحَيَاةِ وَٱطِّرَادِهَا عَلَىٰ أُصُولِهَا ٱلْقَوِيَّةِ ٱلسَّلِيمَةِ . وَمَتَىٰ قَوِيَ هَـٰذَا ٱلدِّينُ فِي إِنْسَانٍ لَمْ تَكُنْ مَفَاسِدُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حُدُودِهِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ فِي أَرْضٍ وَهِيَ فِي أَرْضٍ أُخْرَىٰ ؛ وَأَصْبَحَتِ ٱلْبَرَاءَةُ فِي نَفْسِهِ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلطَّبِيعَةِ .

ثُمَّ قَالَ : وَٱلْعَجِيبُ أَنَّ ٱعْتِقَادَ ٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ لَا يَتَحَقَّقُ أَبَدًا بِأَحْسَنِ مَعَانِيهِ وَأَكْمَلِهَا إِلَّا فِي قَلْبَيْنِ : قَلْبِ ٱلطِّفْلِ لِأَنَّهُ طِفْلٌ ، وَقَلْبِ ٱلْمُؤْمِنِ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ .

فَقَالَ ٱلْعَجُوزُ (ن) : إِنَّهُ لَكَمَا قُلْتَ ، وَلَعْنَةُ ٱللهِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلْآدَمِيَّةِ ٱلْبَاطِلَةِ ،

فَإِنَّ ٱلشَّهْوَةَ ٱلْوَاحِدَةَ فِي أَلْفِ نَفْسٍ لَتَجْعَلُ ٱلْحَقِيقَةَ ٱلْوَاحِدَةَ كَأَنَّهَا أَلْفُ حَقِيقَةٍ مُتَعَادِيَةٍ مُتَنَازِعَةٍ ، وَٱلطَّامِعَانِ فِي ٱمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ قَدْ تَكُونُ شَهْوَةُ أَحَدِهِمَا هِيَ ٱلشَّهْوَةَ ، وَهِيَ ٱلْقَتْلَ ؛ وَلَعْنَةُ ٱللهِ عَلَىٰ ٱلْمُلْحِدِينَ وَإِلْحَادِهِمْ ، يُزْرُونَ عَلَىٰ ٱلْأَدْيَانِ بِأَنَّهَا تَكَالِيفُ وَقُيُودٌ وَصِنَاعَةٌ لِلْحَيَاةِ ، ثُمَّ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ ذَٰلِكَ لِصِنَاعَةِ ٱلْآلَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَرِّكَ ٱلْمُخْتَلِفِينَ حَرَكَةً وَاحِدَةً ، فَمَا ٱبْتُلِيَتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ بِشَيْءٍ كَمَا ٱبْتُلِيَتْ بِهَـٰذَا ٱلْخِلَافِ ٱلَّذِي يَفْتَحُ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ أَبْوَابَ ٱلتَّجَنِّي ، وَيَجْعَلُ ٱلنَّفْرَةَ وَسُوءَ ٱلظَّنِّ أَقْرَبَ إِلَىٰ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ مِنَ ٱلْأُلْفَةِ وَٱلثِّقَةِ .

لَقَدْ جَاءَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمُعْجِزَاتِ ، وَلَـٰكِنْ فِيمَا بَيْنَ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلطَّبِيعَةِ ، وَبَيْنَ ٱلْإِنْسَانِ وَمَنَافِعِهِ ، فَهَلْ غَيْرُ ٱلدِّينِ يَجِيءُ بِٱلْمُعْجِزَاتِ ٱلْعَمَلِيَّةِ فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّفْسِ وَٱلنَّفْسِ ، وَبَيْنَ ٱلنَّفْسِ وَهُمُومِهَا ، وَبَيْنَ مَا هُوَ حَقٌّ وَمَا هُوَ وَاجِبٌ ؟ .

* * *

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ ٱلْعَجُوزُ (ن) وَقَالَ : صِلْ عَمَّكَ يَا بُنَيَّ بِٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي مَضَىٰ ، فَأَيْنَ بَلَغْنَا آنِفًا مِنْ أَمْرِ ٱلتَّجْدِيدِ وَٱلْمُجَدِّدِينَ ؟ وَمَاذَا قُلْنَا وَمَاذَا قُلْتَ ؟ أَمَا إِنَّ ٱلْحَمَاقَةَ ٱلْجَدِيدَةَ وَٱلرَّذِيلَةَ ٱلْجَدِيدَةَ وَٱلْخَطَأَ ٱلْجَدِيدَ ، كُلُّ ذَٰلِكَ إِنْ كَانَ جَدِيدًا مِنْ صَاحِبِهِ فَهُوَ قَدِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا أَبَدًا مِنْ جَدِيدٍ إِلَّا إِطْلَاقَ ٱلْحُرِّيَّةِ فِي ٱسْتِعْمَالِ كُلِّ أَدِيبٍ حَقَّهُ فِي ٱلْوَقَاحَةِ وَٱلْجَهْلِ وَٱلْخَطَإِ وَٱلْغُرُورِ وَٱلْمُكَابَرَةِ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : وَلَيْسَ ٱلظَّاهِرُ بِمَا يَظْهَرُ لَكَ مِنْهُ ، وَلَـٰكِنْ بِٱلْبَاطِنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ ، فَمُسْتَشْفَى ٱلْمَجَاذِيبِ قَصْرٌ مِنَ ٱلْقُصُورِ فِي ظَاهِرِهِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَجَاذِيبَ هُمْ حَقِيقَتُهُ لَا ٱلْبِنَاءُ ، وَكُلُّ مُجَدِّدٍ عِنْدَنَا يَزْعُمُ لَكَ أَنَّهُ قَصْرٌ عَظِيمٌ ، وَهُوَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ مُسْتَشْفَىٰ مَجَانِينَ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْمَجَانِينَ فِيهِ طِبَاعٌ وَشَهَوَاتٌ وَنَزَوَاتٌ : وَعَلَىٰ هَـٰذَا مَا ٱلَّذِي يَمْنَعُ ٱلْفُجُورَ ٱلْمُتَوَقِّحَ أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ ٱلْأَدَبَ ٱلْمَكْشُوفَ ؟ .

قَالَ (ن) : وَإِذَا أَنْتَ ذَهَبْتَ تَعْتَرِضُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةِ زَعَمُوا لَكَ أَنَّ لِلْفَنِّ وَقَاحَةً مُقَدَّسَةً . . . وَأَنَّ (لَا أَدَبِيَّةَ) رَجُلِ ٱلْفَنِّ هِيَ (ٱللَّا أَخْلَاقِيَّةُ ٱلْعَالِيَةُ) . . .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : فَوَقَاحَةُ ٱلشَّهْوَةِ إِذَا ٱسْتَعْلَنَتْ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْحَيَاءِ وَأَهْلِ ٱلْفَضِيْلَةِ وَدَعَتْ إِلَىٰ مَذْهَبِهَا ، كَانَتْ تَجْدِيدًا مَا فِيْ ذٰلِكَ رَيْبٌ ؛ وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا ٱلْمَذْهَبَ هُوَ أَقْدَمُ مَا فِيْ ٱلْأَرْضِ ، إِذْ هُوَ بِعَيْنِهِ مَذْهَبُ كُلِّ زَوْجَيْنِ ٱجْتَمَعَا مِنَ ٱلْبَهَائِمِ مُنْذُ خَلَقَ ٱللهُ ٱلْبَهَائِمَ . . .

قَالَ (ن) : وَقُلْ مِثْلَ ذٰلِكَ فِيْ مُتَسَخِّطٍ عَلَىٰ ٱللهِ وَعَلَىٰ ٱلنَّاسِ يُخْرِجُ مِنْ كُفْرِهِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْأَدْيَانِ أَدَبًا جَدِيْدًا ، وَفِيْ مَغْرُوْرٍ يَتَغَفَّلُ ٱلنَّاسَ ، وَفِيْ لِصِّ آرَاءٍ ، وَفِيْ مُقَلِّدٍ تَقْلِيْدًا أَعْوَرَ - كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ وَأَشْبَاهِهِمْ مُبْتَلَىٰ بِعِلَّةٍ ، فَمَذْهَبُهُ رِسَالَةُ عِلَّتِهِ ؛ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَكُوْنُ ثَبَاتُهُ عَلَىٰ ٱلرَّأْيِ ٱلْفَاسِدِ إِلَّا مِنْ ثَبَاتِ ٱلْعِلَّةِ فِيْهِ .

* * *

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : وَكُنْتُ مِنَ ٱلْمُجَدِّدِيْنَ ، فَأَرْمَضَنِيْ ذٰلِكَ ، وَقُلْتُ لِلْعَجُوْزَيْنِ : إِنَّ هَـٰذَا نِصْفُ ٱلصَّحِيْحِ ، أَمَّا ٱلنِّصْفُ ٱلْآخَرُ فَهُوَ فِيْ كَثِيْرٍ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلَّذِيْنَ يَنْتَحِلُوْنَ ٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلدِّيْنِ وَٱلْفَضِيْلَةِ ، نَعَمْ ، إِنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُوْنَ حَقَّهُمْ فِيْ ٱلْوَقَاحَةِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْقُرُوْشَ تَسْتَعْمِلُ حَقَّهَا . . .

فَضَحِكَ ٱلْعَجُوْزُ(ن) وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ! فَإِنَّ ٱلْجَدِيْدَ فِيْ كُلِّ حِمَارٍ هُوَ أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ نَهِيْقَهُ مُوْسِيْقَىٰ ، فَٱلْحِمَارُ وَٱلنَّهِيْقُ وَٱلْمُوْسِيْقَىٰ كُلُّ ذٰلِكَ لَا جَدِيْدَ فِيْهِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلتَّسْمِيَةَ وَحْدَهَا هِيَ ٱلْجَدِيْدَةُ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلتَّصْدِيْقَ وَٱلتَّكْذِيْبَ هُنَا فِيْ آذَانِ ٱلْمُوْسِيْقِيِّيْنَ لَا فِيْ حَلْقِ حِمَارِنَا ٱلْمُحْتَرَمِ . . .

قَالَ (م) : وَزَعَمُوْا أَنَّ رَجُلًا نَصَبَ فَخًّا لِصَيْدِ ٱلْعَصَافِيْرِ ، فَجَاءَ عُصْفُوْرٌ فَنَظَرَ مِنْ هَـٰذَا ٱلْفَخِّ إِلَىٰ شَيْءٍ جَدِيْدٍ ، فَقَالَ : يَا هَـٰذَا ! مَالَكَ مَطْمُوْرًا فِيْ ٱلتُّرَابِ ؟ قَالَ ٱلْفَخُّ : ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّوَاضُعِ لِخَلْقِ ٱللهِ ! قَالَ : فَمِمَّ كَانَ ٱنْحِنَاؤُكَ ؟ قَالَ ٱلْفَخُّ : ذٰلِكَ مِنْ طُوْلِ عِبَادَتِيْ لِلهِ ؛ قَالَ : فَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَبَّةُ عِنْدَكَ ؟ قَالَ ٱلْفَخُّ : أَعْدَدْتُهَا لِطُيُوْرِ ٱللهِ ٱلصَّائِمِيْنَ يُفْطِرُوْنَ عَلَيْهَا . قَالَ ٱلْعُصْفُوْرُ : فَتُبِيْحُهَا لِيْ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

فَتَقَدَّمَ ٱلْمِسْكِيْنُ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا ٱلْتَقَطَهَا وَقَعَ ٱلْفَخُّ فِيْ عُنُقِهِ ، فَقَالَ وَهُوَ يَخْتَنِقُ : إِنْ كَانَ ٱلْعُبَّادُ يَخْنِقُوْنَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْخَنْقِ فَقَدْ خُلِقَ إِبْلِيْسُ جَدِيدٌ . . .

قَالَ (ن) : فَٱلْحَقِيْقَةُ أَنَّ إِبْلِيْسَ هُوَ ٱلَّذِيْ تَجَدَّدَ لِيَصْلُحَ لِزَمَنِ ٱلْآلَاتِ وَٱلْمُخْتَرَعَاتِ وَٱلْعُلُوْمِ وَٱلْفُنُوْنِ وَعَصْرِ ٱلسُّرْعَةِ وَٱلتَّحَوُّلِ ، وَمَا دَامَ ٱلرُّقِيُّ مُطَّرِدًا وَهَـٰذَا ٱلْعَقْلُ ٱلْإِنْسَانِيُّ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ فِيْ تَسْخِيْرِ ٱلطَّبِيْعَةِ ، فَسَيَنْتَهِيْ ٱلْأَمْرُ بِتَسْخِيْرِ إِبْلِيْسَ نَفْسَهُ مَعَ ٱلطَّبِيْعَةِ . . . لِاسْتِخْرَاجِ كُلِّ مَا فِيْهِ مِنَ ٱلشَّرِّ .

قَالَ (م) : وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَجَبَ أَنَّ إِبْلِيْسَ هَـٰذَا ؛ أَتُرَاهُ ٱنْقَلَبَ أَوْرُبِيًّا لِلْأَوْرُبِّيِّيْنَ ؟ وَإِلَّا فَمَا بَالُهُ يُخْرِجُ فِيْهِمْ مُجَدِّدِيْنَ مِنْ جَبَابِرَةِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْخَيَالِ ، ثُمَّ لَا يُؤْتِيْنَا نَحْنُ إِلَّا مُجَدِّدِيْنَ مِنْ جَبَابِرَةِ ٱلتَّقْلِيْدِ وَٱلْحَمَاقَةِ ؟ .

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : فَقُلْتُ لَهُمَا : أَيُّهَا ٱلْعَجُوْزَانِ ٱلْقَدِيْمَانِ ! سَأَنْشُرُ قَوْلَكُمَا هَـٰذَا لِيَقْرَأَهُ ٱلْمُجَدِّدُوْنَ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : وَٱنْشُرْ يَا بُنَيَّ أَنَّ ٱلرَّبِيْعَ صَاحِبَ ٱلْإِمَامِ ٱلشَّافِعِيِّ ، مَرَّ يَوْمًا فِيْ أَزِقَّةِ مِصْرَ فَنُثِرَتْ عَلَىٰ رَأْسِهِ إِجَانَةٌ(١) مَمْلُوْءَةٌ رَمَادًا ، فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ وَأَخَذَ يَنْفُضُ ثِيَابَهُ وَرَأْسَهُ ، فَقِيْلَ لَهُ : أَلَا تَزْجُرُهُمْ ؟ قَالَ : مَنِ ٱسْتَحَقَّ ٱلنَّارَ وَصُوْلِحَ بِٱلرَّمَادِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَغْضَبَ . . . !

* * *

ثُمَّ قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَٱسْتَوْلَىٰ عَلَيَّ ٱلْعَجُوْزَانِ ، وَرَأَيْتُ قَوْلَهُمَا يَعْلُوْ قَوْلِيْ ، وَكُنْتُ فِيْ ٱلسَّابِعَةِ وَٱلْعِشْرِيْنَ ، وَهِيَ سِنُّ ٱلْحِدَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ، فَمَا حَسِبْتُنِيْ مَعَهُمَا إِلَّا ثُلُثَ عَجُوْزٍ . . . مِمَّا أَثَّرَا عَلَيَّ ، وَٱنْقَلَبْتُ لَا أَرَىٰ فِيْ ٱلْمُجَدِّدِيْنَ إِلَّا كُلَّ سَقِيْمٍ فَاسِدٍ ، وَٱعْتَبَرْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعِلَّتِهِ ، فَإِذَا ٱلْقَوْلُ مَا قَالَ ٱلشَّيْخَانِ ، وَإِذَا تَحْتَ كُلِّ رَأْيٍ مَرِيْضٍ مَرَضٌ ، وَوَرَاءَ كُلِّ ٱتِّجَاهٍ إِبْرَةٌ مِغْنَاطِيْسِيَّةٌ طَرَفُهَا إِلَىٰ ٱلشَّيْطَانِ . . .

وَفَرَغْنَا مِنْ هَـٰذَا ، فَقُلْتُ لِلشَّيْخَيْنِ : لَقَدْ حَانَ وَقْتُ نُزُوْلِكُمَا مِنْ بَيْنِ ٱلْغُيُوْمِ أَيُّهَا ٱلْفَيْلَسُوْفَانِ ، أَمَا كُنْتُمَا فِيْ سَنَةِ ١٨٩٥ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْبَشَرِيِّ . . .؟ .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

(١) قَصْعَةٌ .

ٱلْعَجُوزَانِ(*)
٤
تَتِمَّةٌ

قَالَ مُحَدِّثُنَا: وَكُنْتُ قَدْ ضِقْتُ بِهَـٰذِهِ ٱللَّجَاجَةِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ، وَرَأَيْتُنِي مُضْطَغِنًا عَلَى ٱلشَّيْخَيْنِ مَعًا؛ فَقُلْتُ لِلْعَجُوزِ (ن): حَدِّثْنِي ـ رَحِمَكَ ٱللهُ ـ بِشَيْءٍ مِنْ قَدِيمِكُمَا، فَأَنْتُمَا ٱخْتِصَارٌ لِكُلِّ مَا مَرَّ مِنَ ٱلْحَيَاةِ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَىٰ أَصْلِهِ ٱلْمُطَوَّلِ إِلَّا فِي ٱلْحُبِّ . . . وَمَا زِلْتُمَا فِي جِدِّ ٱلْحَدِيثِ تَعْبَثَانِ بِي مُنْذُ ٱلْيَوْمِ، فَقَدْ عَدَلْتُمَا بِي إِلَىٰ شَأْنِكُمَا وَرَأْيِكُمَا فِي ٱلْقَدِيمِ وَٱلْجَدِيدِ، وَبَقِيَ أَنْ أَمِيلَ بِكُمَا مَيْلَةً إِلَىٰ سَنَةِ ١٨٩٥، وَقَدْ وَٱللهِ كَادَ يَنْتَحِرُ قَلْبِي يَأْسًا مِنْ خَبَرِ (كَاتْرِينَا Cathrina وَمَرْغَرِيت Margarite)؛ وَلَكَأَنَّكَ تَخْشَىٰ إِذْ أَعْلَمْتَنِي خَبَرَ صَاحِبَتِكَ هَـٰذِهِ وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ـ مَا تَخَافُهُ مِنْ رَجُلٍ سَيَفْجَؤُكَ مَعَهَا فِي ٱلْخَلْوَةِ عَلَىٰ حَالٍ مِنَ ٱلرِّيبَةِ فَيَأْخُذُكَ «مُتَلَبِّسًا بِٱلْجَرِيمَةِ» كَمَا تَقُولُونَ فِي لُغَةِ ٱلْمَحَاكِمِ . . .

قَالَ: فَضَحِكَ ٱلْعَجُوزَانِ، وَقَالَ (ن): لَا وَٱللهِ يَا بُنَيَّ! وَلَـٰكِنِّي أَقُولُ مَا قَالَ ذَٰلِكَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَرَبِيُّ لِقَوْمِهِ وَقَدْ بَلَغَ مِئَتَيْ سَنَةٍ: «قَلْبِي مُضْغَةٌ مِنْ جَسَدِي، وَلَا أَظُنُّهُ إِلَّا قَدْ نَحَلَ كَمَا نَحَلَ سَائِرُ جَسَدِي»(١)، وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ! أَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ ٱلْحُبُّ عَنِ ٱلشَّيْخِ وَبَقِيَ مِنْهُ ٱلْحَنَانُ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ؛ فَيُحِبُّ ٱلْعَجُوزُ مَكَانًا أَوْ شَيْئًا أَوْ مَعْنًى أَيَّ ذَٰلِكَ كَانَ، لِيُعِيدَهُ ذَٰلِكَ إِلَى ٱلدُّنْيَا أَوْ يُبْقِيَهُ فِيهَا (بِقَدْرِ ٱلْإِمْكَانِ).

فَضَحِكَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ: وَلَعَلَّ ثَرْثَرَةَ ٱلْعَجُوزِ (ن) هِيَ ٱلْآنَ مَعْشُوقَةُ ٱلْعَجُوزِ (ن).

(*) «الرسالة» العدد: ١٥٣، ١٨ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ٨ يونيو/حزيران ١٩٣٦ م، السنة الرابعة، الصفحات: ٩٤١ ـ ٩٤٤.

(١) هُوَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ حَكِيمُ ٱلْعَرَبِ، قَالَهَا لِقَوْمِهِ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ كَيْلَا يَتَّكِلُوا عَلَيْهِ فِي حِيلَةٍ وَلَا مَنْطِقٍ؛ وَيُقَالُ: إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَفِي مَعْنَى ٱلسَّنَةِ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ كَلَامٌ لَيْسَ هَـٰذَا مَوْضِعُهُ.

ثُمَّ قَالَ: وَكُلُّ شَيْءٍ يَرِقُّ فِي قَلْبِ ٱلرَّجُلِ ٱلْهَرِمِ وَيُحَوِّلُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ لَا يُطِيقُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَّا مَعْنَاهُ ٱلْغَلِيظَ، وَلَابُدَّ أَنْ يَخْرُجَ ٱلْعَجُوزُ مِنْ مَعَانِي ٱلدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ٱلدُّنْيَا، وَلِهَـٰذَا لَا يَهْنَأُ ٱلشَّيْخُ إِلَّا إِذَا عَاشَ بِأَفْكَارِ جِسْمِهِ ٱلْحَاضِرِ، وَقَدَّرَ ٱلْأُمُورَ عَلَىٰ مَا هُوَ فِيهِ لَا عَلَىٰ مَا كَانَ فِيهِ، وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ جِسْمِهِ ٱلْحَاضِرِ وَجِسْمِهِ ٱلْمَاضِي أَنَّ هَـٰذَا ٱلْمَاضِيَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ أَعْضَاؤُهُ، فَهُوَ مُجْتَمِعٌ مِنْ أَعْمَالِهَا وَشَهَوَاتِهَا، مَاضٍ فِي تَحْقِيقِ وُجُودِهَا وَمَعَانِيهَا؛ أَمَّا ٱلْحَاضِرُ؛ أَمَّا ٱلْجِسْمُ ٱلْهَرِمُ، فَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّهُ يَحْمِلُ أَعْضَاءَهُ كُلَّهَا وَكَأَنَّهَا مَلْفُوفَةٌ فِي ثِيَابِهِ كَمَتَاعِ ٱلْمُسَافِرِ قَبْلَ ٱلسَّفَرِ . . . وَكَأَنَّ بَعْضَهَا يُسَلِّمُ عَلَىٰ بَعْضٍ سَلَامَ ٱلْوَدَاعِ يَقُولُ: تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ(١).

فَتَمَلْمَلَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ: أُفٍّ لَكَ وَلِمَا تَقُولُ! لَا جَرَمَ أَنَّ هَـٰذِهِ لُغَةُ عِظَامِكَ ٱلَّتِي لَا صَلَابَةَ فِيهَا، فَمِنْ ذَٰلِكَ لَا تَجِيءُ مَعَانِيكَ فِي ٱلْحَيَاةِ إِلَّا وَاهِنَةً نَاحِلَةً فَقَدَتْ أَكْثَرَهَا وَبَقِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ ٱلنِّهَايَةِ، أَلَيْسَ فِي ٱلْهَرَمِ إِلَّا أَنْ يَبْقَى ٱلْجِسْمُ لِيَكُونَ ظَاهِرًا فَقَطْ كَعُمْشُوشِ ٱلْعُنْقُودِ(٢) بَعْدَ ذَهَابِ ٱلْحَبِّ مِنْهُ، يَقُولُ: كَانَ هُنَا وَكَانَ هُنَا.

أَلَا فَٱعْلَمْ يَا (ن) أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلشَّيْخُوخَةَ إِنَّمَا هِيَ غَلَبَةُ رُوحَانِيَّةِ ٱلْجِسْمِ عَلَىٰ بَشَرِيَّتِهِ، فَهَـٰذَا طَوْرٌ مِنْ أَطْوَارِ ٱلْحَيَاةِ لَا تَدَعُهُ ٱلْحَيَاةُ إِلَّا وَفِيهِ لَذَّتُهُ وَسُرُورُهُ كَمَا تَصْنَعُ بِسَائِرِ أَطْوَارِهَا، غَيْرَ أَنَّ لَذَّاتِهِ بَيْنَ ٱلرُّوحِ وَٱلْجَمَالِ، وَمَسَرَّاتِهِ بَيْنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلطَّبِيعَةِ، وَكُلُّ مَا نَقَصَ مِنَ ٱلْعُمُرِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ زِيَادَةً فِي إِدْرَاكِ ٱلرُّوحِ وَقُوَّتِهَا وَشِدَّتِهَا وَنُورِهَا، وَقِيلَ لِبَعْضِ أَهْلِ هَـٰذَا ٱلشَّأْنِ وَكَانَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: كَيْفَ تَجِدُ ٱلْعِلَّةَ؟ فَقَالَ: سَلُوا ٱلْعِلَّةَ عَنِّي كَيْفَ تَجِدُنِي؟

وَإِنَّمَا تَثْقُلُ ٱلشَّيْخُوخَةُ عَلَىٰ صَاحِبِهَا إِذَا هِيَ ٱنْتَكَسَتْ فِيهِ وَكَانَتْ مُرَاغَمَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ

(١) فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ: «إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُعَالِجُ كَرْبَ ٱلْمَوْتِ وَسَكَرَاتِ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، تَقُولُ: عَلَيْكَ ٱلسَّلَامُ، تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ» [قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»: رويناه في «الأربعين» لأبي هدبة إبراهيم بن هدبة، عن أنس بن مالك. انتهى. وراجع «كنز العمال»، رقم: ٤٢١٨٣].

(٢) هُوَ مَا يَبْقَىٰ مِنَ ٱلْعُنْقُودِ بَعْدَ أَكْلِ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْحَبِّ.

ٱلْحَيَاةِ، فَيَطْمَعُ ٱلشَّيْخُ فِيمَا مَضَىٰ وَلَا يَزَالُ يَتَعَلَّقُ بِهِ وَيَتَسَخَّطُ عَلَىٰ ذَهَابِهِ وَيَتَصَنَّعُ لَهُ وَيَتَكَلَّفُ أَسْبَابَهُ ، وَقَدْ نَسِيَ أَنَّ ٱلْحَيَاةَ رَدَّتْهُ طِفْلًا كَالطِّفْلِ ، أَكْبَرُ سَعَادَتِهِ فِي ٱلتَّوْفِيقِ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلصَّغِيرَةِ ٱلْبَرِيئَةِ ، وَأَقْوَىٰ لَذَّتِهِ أَنْ يَتَّفِقَ ٱلْجَمَالُ ٱلَّذِي فِي خَيَالِهِ وَٱلْجَمَالُ ٱلَّذِي فِي ٱلْكَوْنِ ، وَإِنَّهُ لَكَمَا قُلْتَ أَنْتَ : لَا يَهْنَأُ ٱلشَّيْخُ إِلَّا إِذَا عَاشَ بِأَفْكَارِ جِسْمِهِ ٱلْحَاضِرِ .

وَمَا أَصْدَقَ وَأَحْكَمَ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثَ ٱلشَّرِيفَ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ بِعَدْلِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ ٱلرَّوْحَ وَٱلْفَرَحَ فِي ٱلرِّضَىٰ وَٱلْيَقِينِ ، وَجَعَلَ ٱلْهَمَّ وَٱلْحُزْنَ فِي ٱلشَّكِّ وَٱلسَّخَطِ » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٦٢٩١] . فَهَـٰذِهِ هِيَ قَاعِدَةُ ٱلْحَيَاةِ : لَا تُعَامِلُكَ ٱلْحَيَاةُ بِمَا تَمْلِكُ مِنَ ٱلدُّنْيَا ، وَلَكِنْ بِمَا تَمْلِكُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبِذَٰلِكَ تَكُونُ ٱلسَّعَادَةُ حَقِيقَةً مُمْكِنَةً مَوْجُودَةً ، بَلْ تَكُونُ فِي كُلِّ مَا أَمْكَنَ وَكُلِّ مَا وُجِدَ ، وَإِذَا كَانَ ٱلرِّضَىٰ هُوَ ٱلِاتِّفَاقَ بَيْنَ ٱلنَّفْسِ وَصَاحِبِهَا ، وَكَانَ ٱلْيَقِينُ هُوَ ٱلِاتِّفَاقَ بَيْنَ ٱلنَّفْسِ وَخَالِقِهَا ، فَقَدْ أَصْبَحَ قَانُونُ ٱلسَّعَادَةِ شَيْئًا مَعْنَوِيًّا مِنْ فَضِيلَةِ ٱلنَّفْسِ وَإِيمَانِهَا وَعَقْلِهَا ، وَمِنَ ٱلْأَسْرَارِ ٱلَّتِي فِيهَا ، لَا شَيْئًا مَادِّيًّا مِنْ أَعْضَائِهَا وَمَتَاعِهَا وَدُنْيَاهَا وَٱلْأَخِيلَةِ ٱلْمُتَقَلِّبَةِ عَلَيْهَا .

* * *

فَأَطْرَقَ ٱلْعَجُوزُ (ن) قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [١٩ سورة مريم/ الآية : ٤] أَلَا مَا أَحْكَمَ هَـٰذِهِ ٱلْآيَةَ ! فَوَٱللهِ إِنْ قَرَأْتُ وَلَا قَرَأَ ٱلنَّاسُ فِي تَصْوِيرِ ٱلْهَرَمِ ٱلْفَانِي أَبْدَعَ مِنْهَا وَلَا أَدَقَّ وَلَا أَوْفَىٰ ، أَلَا تُحِسُّ أَنَّ قَائِلَهَا يَكَادُ يَسْقُطُ مِنْ عَجَفٍ وَهُزَالٍ وَإِعْيَاءٍ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ قَائِمًا فِي ٱلْحَيَاةِ قِيَامُهُ فِيهَا مِنْ قَبْلُ ، وَأَنَّ تَنَاقُضَ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ قَدْ وَقَعَ فِي جِسْمِهِ فَأَخَلَّ بِهِ ، وَأَنَّ مَعَانِيَ ٱلتُّرَابِ قَدْ تَعَلَّقَتْ بِهَـٰذَا ٱلْجِسْمِ تَعْمَلُ فِيهِ عَمَلَهَا ، فَأَخَذَ يَتَفَتَّتُ كَأَنَّمَا لَمَسَ ٱلْقَبْرُ عِظَامَهُ وَهُوَ حَيٌّ ، وَأَنَّهُ بِهَـٰذَا كُلِّهِ أَوْشَكَ أَنْ يَنْكَسِرَ ٱنْكِسَارَ ٱلْعَظْمِ بَلَغَ ٱلْمِبْرَدُ فِيهِ آخِرَ طَبَقَاتِهِ ؟ .

قَالَ مُحَدِّثُنَا : فَقُلْتُ لَهُ تُرَىٰ لَوْ أَنَّ نَابِغَةً مِنْ نَوَابِغِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي زَمَنِنَا هَـٰذَا ، تَنَاوَلَ بِفَنِّهِ ذَٰلِكَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْعَجِيبَ فَكَتَبَهُ صُورَةً وَأَلْوَانًا ، لَا أَحْرُفًا وَكَلِمَاتٍ ، فَكَيْفَ تُرَاهُ يَصْنَعُ ؟

قَالَ : كَانَ يَصْنَعُ هَـٰكَذَا : يَرْسُمُ مَنْظَرَ ٱلشِّتَاءِ فِي سَمَاءٍ تَعَلَّقَ سَحَابُهَا كَثِيفًا مُتَرَاكِبًا بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ يُخَيَّلُ أَنَّ ٱلسَّمَاءَ تَدْنُو مِنَ ٱلْأَرْضِ ، وَقَدْ سَدَّتِ ٱلسُّحُبُ ٱلْآفَاقَ وَأَظْلَمَ بِهَا

ٱلْجَوُّ ظَلَامَهُ تَحْتَ ٱلنَّهَارِ ٱلْمُغَطَّىٰ ، وَٱسْتَطَارَتْ بَيْنَهَا وَشَائِعُ مِنَ ٱلْبَرْقِ ، ثُمَّ يَتْرُكُ مِنَ ٱلشَّمْسِ جَانِبَ ٱلْأُفُقِ لُمْعَةً كَضَوْءِ ٱلشَّمْعَةِ فِي فَتْقٍ مِنْ فُتُوقِ ٱلسَّحَابِ ، ثُمَّ يُرْسِلُ فِي ٱلصُّورَةِ رِيحًا بَارِدَةً هَوْجَاءَ ، يَدُلُّ عَلَيْهَا ٱنْحِنَاءُ ٱلشَّجَرِ وَتَقَلُّبُ ٱلنَّبَاتِ ؛ ثُمَّ يَرْسِمُ رِجَالًا وَنِسَاءً يَغْلِي ٱلشَّبَابُ فِيهِمْ غَلَيَانَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَعَافِيَةٍ ، وَحُبٍّ وَصَبَابَةٍ ، وَتَغْلِي فِيهِمْ أَفْكَارٌ أُخْرَىٰ . . . وَهُمْ جَمِيعًا فِي هَيْئَةِ ٱلْمُسْرِعِينَ إِلَىٰ مَرْقَصٍ ؛ وَهُمْ جَمِيعًا مِنَ ٱلْمُجَدِّدِينَ . . .

ثُمَّ يَرْسُمُ يَا بُنَيَّ فِي آخِرِهِمْ (عَلَىٰ بُعْدٍ مِنْهُمْ) عَمَّكَ ٱلْعَجُوزَ (ن) ، يَرْسُمُهُ كَمَا تَرَاهُ ، مُنْحَلَّ ٱلْقُوَّةِ ، مُنْحَنِيَ ٱلصُّلْبِ ، مُرْعَشًا مُتَزَلْزِلًا مُتَضَعْضِعًا ، قَدْ زَعْزَعَتْهُ ٱلرِّيحُ ، وَضَرَبَهُ ٱلْبَرْدُ ، وَخَنَقَتْهُ ٱلسُّحُبُ ؛ وَلَهُ وَجْهٌ عَلَيْهِ ذُبُولُ ٱلدُّنْيَا ، يُنْبِئُ أَنَّ دَمَهُ قَدْ وُضِعَ مِنْ جِسْمِهِ فِي بَرَّادَةٍ ، وَٱلْكَوْنُ كُلُّهُ مِنْ حَوْلِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ أَسْبَابُ رُومَاتِزْمٍ Rheumatism (١) . . .

ثُمَّ يُصَوِّرُهُ وَقَدْ وَقَفَ هُنَاكَ سَاهِمًا كَئِيبًا ، رَافِعًا رَأْسَهُ يَنْظُرُ إِلَى ٱلسَّمَاءِ .

* * *

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : وَضَحِكْنَا جَمِيعًا ، ثُمَّ قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : لَعَمْرِي إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلْآدَمِيَّةَ كَٱلْآلَةِ صَاحِبُهَا مُهَنْدِسُهَا ؛ فَإِنْ صَلَحَتْ وَٱسْتَقَامَتْ فَمِنْ عِلْمِهِ بِهَا وَحِيَاطَتِهِ لَهَا ، وَإِنْ فَسَدَتْ وَٱخْتَلَّتْ فَمِنْ عَبَثِهِ فِيهَا وَإِهْمَالِهِ إِيَّاهَا ، وَلَيْسَ عَلَى ٱلطَّبِيعَةِ فِي ذَٰلِكَ سَبِيلُ لَائِمَةٍ ؛ وَٱلشَّيْخُ ٱلضَّعِيفُ لَيْسَ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا إِلَّا ٱلصُّورَةَ ٱلْهَزْلِيَّةَ لِمَفَاسِدِ شَبَابِهِ وَضَعْفِهِ وَلِينِهِ وَدَعَتِهِ ، تُظْهِرُهَا ٱلدُّنْيَا لِيَسْخَرَ مَنْ يَسْخَرُ وَيَتَّعِظَ مَنْ يَتَّعِظُ .

قَالَ (ن) : أَكَذَٰلِكَ هُوَ يَا أُسْتَاذُ ؟ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ : بَلْ هِيَ ٱلصُّورَةُ ٱلْجِدِّيَّةُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْبَاطِلَةِ ٱلَّتِي دَأْبُهَا أَلَّا تُصَرِّحَ عَنْ حَقِيقَتِهَا إِلَّا فِي ٱلْآخِرِ ، فَتُظْهِرُهَا ٱلدُّنْيَا لِيُجِلَّ ٱلْحَقِيقَةَ مَنْ يُجِلُّهَا ، وَلَيْسَ إِلَّا بِهَـٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ يُعْرَفُ مِنْ خَرَابِ ٱلصُّورَةِ خَرَابُ ٱلْمَعْنَىٰ .

قَالَ ٱلْعَجُوزُ (ن) : آهٍ مِنْ إِجْلَالِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱحْتِرَامِ ٱلنَّاسِ إِيَّاهَا ! إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ ٱحْتِرَامًا لِلشَّيْخِ وَٱلشَّيْخُ لَا يَرَاهُ إِلَّا تَعْزِيَةً . وَمَا ٱلْأَشْيَاخُ ٱلْهَرْمَىٰ إِلَّا جَنَازَاتٌ قَبْلَ وَقْتِهَا ، لَا تُوحِي

(١) تُتَرْجَمُ ٱلْيَوْمَ بِـ« ٱلرَّثْيَةِ » ، أَوْ دَاءِ ٱلْتِهَابِ ٱلْمَفَاصِلِ ٱلرَّثْوِيِّ . بَسَّام .

إِلَىٰ ٱلنَّاسِ شَيْئًا غَيْرَ وَحْيِ ٱلْجَنَازَةِ مِنْ مَهَابَةٍ وَخُشُوعٍ .

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ : إِنَّمَا أَنْتَ دَائِمًا فِي حَدِيثِ نَفْسِكَ مَعَ نَفْسِكَ ، وَلَوْ كُنْتَ نَهَرًا يَا مُسْتَنْقَعُ لَمَا كَانَ فِي لُغَتِكَ هَـٰذِهِ ٱلْأَحْرُفُ مِنَ ٱلْبَعُوضِ .

قَالَ ٱلْعَجُوزُ ٱلظَّرِيفُ : إِنَّ هَـٰذَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي نَتَنَازَعُهَا بَيْنَنَا ، تَرُدُّ عَلَيَّ وَأَرُدُّ عَلَيْكَ ، وَلَـٰكِنَّهُ كَلَامُ ٱلْقَانُونِ ٱلَّذِي لَكَ وَحْدَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ أَيُّهَا ٱلْقَاضِي .

قَالَ (م) : صَرِّحْ وَبَيِّنْ فَمَا فَهِمْنَا شَيْئًا .

قَالَ ٱلْعَجُوزُ : هَـٰذَا كَلَامٌ قُلْتُهُ قَدِيمًا فِي حَادِثَةٍ عَجِيبَةٍ ؛ فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيَّ ذَاتَ يَوْمٍ قَضِيَّةُ شَيْخٍ هَرِمٍ كَانَ قَدْ سَرَقَ دَجَاجَةً ؛ وَتَوَسَّمْتُهُ فَإِذَا هُوَ مِنْ أَذْكَىٰ ٱلنَّاسِ ، وَإِذَا هُوَ يَجِلُّ عَنْ مَوْضِعِهِ مِنَ ٱلتُّهَمَةِ ، وَلَـٰكِنْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّهُ سَرَقَ ، وَقَامَتِ ٱلْبَيِّنَةُ عَلَيْهِ وَوَجَبَ ٱلْحُكْمُ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ! أَمَا تَسْتَحِي وَأَنْتَ شَائِبٌ أَنْ تَكُونَ لِصًّا ؟ .

قَالَ : يَا سَيِّدِي ٱلْقَاضِي ! كَأَنَّكَ تَقُولُ لِي : أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَجُوعَ ؟

فَوَرَدَ عَلَيَّ مِنْ جَوَابِهِ مَا حَيَّرَنِي ، فَقُلْتُ لَهُ : وَإِذَا جُعْتَ أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَسْرِقَ ؟

قَالَ : يَا سَيِّدِي ٱلْقَاضِي ! كَأَنَّكَ تَقُولُ لِي : وَإِذَا جُعْتَ أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَأْكُلَ ؟

فَكَانَتْ هَـٰذِهِ أَشَدَّ عَلَيَّ ، فَقُلْتُ لَهُ : وَإِذَا أَكَلْتَ أَمَا تَأْكُلُ إِلَّا حَرَامًا ؟

فَقَالَ : يَا سَيِّدِي ٱلْقَاضِي ! إِنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيَّ مُحْتَاجًا لَا أَجِدُ شَيْئًا ، لَمْ تَرَنِي سَارِقًا حِينَ وَجَدْتُ شَيْئًا .

فَأَفْحَمَنِي ٱلرَّجُلُ عَلَىٰ جَهْلِهِ وَسَذَاجَتِهِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَوْ سَرَقَ أَفْلَاطُونُ Platon لَكَانَ مِثْلَ هَـٰذَا ؟ فَتَرَكْتُ ٱلْكَلَامَ بِٱلْفَلْسَفَةِ وَتَكَلَّمْتُ بِٱلْقَانُونِ ٱلَّذِي لَا يَمْلِكُ ٱلرَّجُلُ مَعَهُ قَوْلًا يُرَاجِعُنِي بِهِ ، فَقُلْتُ : وَلَـٰكِنَّكَ جِئْتَ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَحْكَمَةِ بِٱلسَّرِقَةِ فَلَا تَذْهَبُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَحْكَمَةِ إِلَّا بِٱلسِّجْنِ سَنَتَيْنِ .

* * *

قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَأَرْمَضَنِي هَـٰذَا ٱلْعَجُوزُ ٱلثَّرْثَارُ وَمَلَأَ صَدْرِي ، إِذْ مَا بَرِحَ يُدِيرُنِي وَأُدِيرُهُ عَنْ كَاتِرِينَا Cathrine وَمَرْغَرِيتَ Margarite ، وَرَأَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ هَرِمَ فِيهِ إِلَّا لِسَانَهُ ،

فَحَمَلَنِي ٱلضَّجَرُ وَٱلطَّيْشُ عَلَىٰ أَنْ قُلْتُ لَهُ : وَهَبِ ٱلْقَضِيَّةَ كَانَتْ هِيَ قَضِيَّةَ كَاتِرِينَا Cathrine وَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْكَ مُتَّهَمَةً ، أَفَكُنْتَ قَائِلًا لَهَا : جِئْتِ إِلَىٰ ٱلْمَحْكَمَةِ بِٱلسَّرِقَةِ فَلَا تَذْهَبِينَ مِنَ ٱلْمَحْكَمَةِ إِلَّا بِٱلْحَبْسِ سَنَتَيْنِ ؟

وَجَرَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَىٰ لِسَانِي وَمَا أَلْقَيْتُ لَهَا بَالًا وَلَا عَرَفْتُ لَهَا خَطَرًا ؛ فَٱكْفَهَرَّ ٱلْقَاضِي ٱلْعَجُوزُ وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ غَضَبًا ، وَقَالَ : يَا بَغِيضُ ! أَحَسِبْتَنِي كُنْتُ قَائِلًا لَهَا : جِئْتِ إِلَىٰ ٱلْمَحْكَمَةِ بِٱلسَّرِقَةِ فَلَا تَذْهَبِينَ مِنَ ٱلْمَحْكَمَةِ إِلَّا بِٱلْقَاضِي . . .

وَغَضِبَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : وَيْحَكَ ! أَهَـٰذَا مِنْ أَدَبِكُمُ ٱلْجَدِيدِ ٱلَّذِي تَأَدَّبْتُمْ بِهِ عَلَىٰ أَسَاتِذَةٍ مِنْهُمُ ٱلْفَجَرَةُ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ ٱلْأَنْبِيَاءَ وَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِدِينِ ٱلْغَرِيزَةِ وَيُسَوِّغُونَكُمْ مَذَاهِبَ ٱلْحَمِيرِ وَٱلْبِغَالِ فِي حُرِّيَّةِ ٱلدَّمِ . . . ؟ أَمَا إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ نَشَأْتُمْ عَلَىٰ حُرِّيَّةِ ٱلرَّأْيِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْكَلِمَةَ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ لَا تَكُونُ حُرَّةً كُلَّ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَّا وَهِيَ أَحْيَانًا سَفِيهَةٌ كُلَّ ٱلسَّفَاهَةِ كَهَـٰذِهِ ٱلْقَوْلَةِ ٱلَّتِي نَطَقْتَ بِهَا .

لَقَدْ كَانَ ٱلنَّاسُ فِي زَمَنِنَا ٱلْمَاضِي أُنَاسًا عَلَىٰ حِدَةٍ ، وَكَانَتِ ٱلْآدَابُ حَالَاتٍ عَقْلِيَّةً ثَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَكَانَ ٱلْأُسْتَاذُ ٱلْكَافِرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ لَا يَكُونُ مَعَ تَلَامِيذِهِ إِلَّا كَٱلْمُومِسِ : تَجْهَدُ أَنْ تُرَبِّيَ بِنْتَهَا عَلَىٰ غَيْرِ طَرِيقَتِهَا !

قَالَ ٱلْمُحَدِّثُ : فَلَجْلَجْتُ وَذَهَبْتُ أَعْتَذِرُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَجُوزَ (ن) قَطَعَ عَلَيَّ وَأَنْشَأَ يَقُولُ وَقَدِ ٱنْفَجَرَ غَيْظُهُ : لَقَدْ تَمَّتْ فِي هَـٰؤُلَاءِ صَنْعَةُ حُرِّيَّةِ ٱلْفِكْرِ ، كَمَا تَمَّتْ مِنْ قَبْلُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْوَاعِظِ ٱلْمُعَلِّمِ ٱلْقَدِيمِ ٱلَّذِي حَدَّثُوا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُصُّ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلْمَسْجِدِ كُلَّ أَرْبِعَاءَ[1] فَيُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ وَيَعِظُهُمْ وَيُحَذِّرُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمُ ٱللهَ وَجَنَّتَهُ وَنَارَهُ ؛ قَالُوا : فَٱحْتَبَسَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ وَطَالَ ٱنْتِظَارُهُمْ لَهُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَٰلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُ فَقَالَ : يَقُولُ لَكُمْ أَبُو كَعْبٍ : ٱنْصَرِفُوا فَإِنِّي أَصْبَحْتُ مَخْمُورًا . . . . . .

هَـٰذَا ٱلْقَاصُّ ٱلْمَخْمُورُ هُوَ عِنْدَ هَـٰؤُلَاءِ ٱلسُّخَفَاءِ إِمَامٌ فِي مَذْهَبِ حُرِّيَّةِ ٱلْفِكْرِ ، وَفَضِيلَتُهُ

(١) هُوَ أَبُو كَعْبٍ ٱلْقَاصُّ ، ذَكَرَهُ ٱلْجَاحِظُ فِي « ٱلْحَيَوَانِ » وَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يَقُصُّ كُلَّ أَرْبِعَاءَ فِي مَسْجِدِ عَتَّابٍ بِٱلْبَصْرَةِ .

عِنْدَهُمْ أَنَّهُ صَرِيحٌ غَيْرُ مُنَافِقٍ . . . وَكَانَ يَكُونُ[1] هَـٰذَا قَوْلًا فِيْ إِمَامِ ٱلْمَسْجِدِ لَوْلَا أَنَّهُ إِمَامُ ٱلْمَسْجِدِ ؛ غَيْرَ أَنَّ حُرِّيَّةَ ٱلْفِكْرِ تُبْنَىٰ دَائِمًا فِيْ كُلِّ مَا تُبْنَىٰ عَلَىٰ غَيْرِ ٱلْأَصْلِ ، وَعِنْدَهَا أَنَّ ٱلْمَنْطِقَ ٱلَّذِيْ مَوْضُوعُهُ مَا يَجِبُ ، لَيْسَ بِٱلْمَنْطِقِ ٱلصَّحِيحِ ؛ إِذَا لَا يَجِبُ شَيْءٌ مَا دَامَ مَذْهَبُهَا ٱلْإِطْلَاقَ وَٱلْحُرِّيَّةَ .

كُلُّ مَفْتُونٍ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ ٱلْعَالِمَ لَا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ مِنْ تَفْكِيرِهِ كَمَا مَرَّ مِنْ إِرَادَةِ ٱلْخَالِقِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَىٰ ٱلْأَشْيَاءِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ سَخِيفَةٍ تَجْعَلُهُ يَحْكُمُ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ : (كُنْ) وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا جَهْلُهُ ؛ وَمَذْهَبُهُ ٱلْأَخْلَاقِيُّ : اُطْلُبْ أَنْتَ ٱلْقُوَّةَ لِلْمَجْمُوعِ ، أَمَّا أَنَا فَأَلْتَمِسُ لِنَفْسِي ٱلْمَنْفَعَةَ وَٱللَّذَّةَ ! وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ ٱلْمُجْتَمَعَ ؛ فَإِنَّهُمْ لَيَحْمِلُونَهُ وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ طَرِيقَةِ ٱلْبَرَاغِيثِ فِيْ جَنَاحِ ٱلنَّسْرِ .

قَالَ (م) : وَكَيْفَ ذٰلِكَ ؟ .

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ طَائِفَةً مِنَ ٱلْبَرَاغِيثِ ٱتَّصَلَتْ بِجَنَاحِ نَسْرٍ عَظِيمٍ وَٱسْتَمْرَأَتْهُ وَرَتَعَتْ فِيهِ ، فَصَابَرَهَا ٱلنَّسْرُ زَمَنًا ، ثُمَّ تَأَذَّىٰ بِهَا ، وَأَرَادَ أَنْ يَرْمِيَهَا عَنْهُ ، فَطَفِقَ يَخْفُقُ بِجَنَاحَيْهِ يُرِيدُ نَفْضَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ ٱلْبَرَاغِيثُ : أَيُّهَا ٱلنَّسْرُ ٱلْأَحْمَقُ ! أَمَا تَعْلَمُ أَنَّنَا فِي جَنَاحَيْكَ لِنَحْمِلَكَ فِي ٱلْجَوِّ . . .

أَمَّا أَسَاتِذَةُ هَـٰذِهِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلدِّينِيَّةِ ٱلْفِكْرِيَّةِ ٱلْأَدَبِيَّةِ ، فَقَدْ قَالَ ٱلْحُكَمَاءُ : إِنَّ بَعْرَةً مِنَ ٱلْبَعْرِ كَانَتْ مُعَلِّمَةً فِي مَدْرَسَةٍ !

قَالَ (م) : وَكَيْفَ ذٰلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ بَعْرَةَ كَبْشٍ كَانَتْ مُعَلِّمَةً فِي مَدْرَسَةِ ٱلْحَصَىٰ ، فَأَلَّفَتْ لِتَلَامِيذِهَا كِتَابًا أَحْكَمَتْهُ وَأَطَالَتْ لَهُ ٱلْفِكْرَةَ ، وَبَلَغَتْ فِيهِ جَهْدَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ لِتُظْهِرَ عَبْقَرِيَّتَهَا ٱلْجَبَّارَةَ ، فَكَانَ ٱلْبَابُ ٱلْأَكْبَرُ فِيهِ أَنَّ ٱلْجَبَلَ خُرَافَةٌ مِنَ ٱلْخُرَافَاتِ ، لَا يَسُوغُ فِي ٱلْعَقْلِ ٱلْحُرِّ إِلَّا هَـٰذَا ، وَلَا يَصِحُّ غَيْرُ هَـٰذَا فِي ٱلْمَنْطِقِ . قَالَتْ : وَٱلْبُرْهَانُ عَلَىٰ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ ٱلْجَبَلَ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَكُونُ فِي قَدْرِ ٱلْكَبْشِ ٱلْكَبِيرِ أَلْفَ أَلْفِ مَرَّةٍ ؛ فَإِذَا كَانَ ٱلْجَبَلُ فِي قَدْرِ ٱلْكَبْشِ أَلْفَ أَلْفِ مَرَّةٍ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَبْعَرَهُ ٱلْكَبْشُ . . . ؟

(١) هَلِ ٱلصَّوَابُ : « وَكَادَ يَكُونُ » ؟ بَسَّام.

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ (م) : هَـٰذَا مَنْطِقٌ جَدِيدٌ سَدِيدٌ لَوْلَا أَنَّهُ مَنْطِقُ بَعْرَةٍ ! .

قَالَ (ن) : وَكُلُّ قَدِيمٍ لَهُ عِنْدَهُمْ جَدِيدٌ . فَكَلِمَةُ (رَجُلٍ) قَدْ تَخَنَّثَتْ ، وَكَلِمَةُ (شَابٍّ) قَدْ تَأَنَّثَتْ ، وَكَلِمَةُ (عَفِيفَةٍ) قَدْ تَدَنَّسَتْ ، وَكَلِمَةُ (حَيَاءٍ) قَدْ تَنَجَّسَتْ ؛ وَٱلزَّمَنُ ٱلْجَدِيدُ أَلَّا يَعْرِفَ ٱلطَّالِبُ فِي هَـٰذَا ٱلْعَامِ مَاذَا تَكُونُ أَخْلَاقُهُ فِي ٱلْعَامِ ٱلْقَادِمِ . . . وَٱلْحَيَاةُ ٱلْجَدِيدَةُ أَنْ تُتْقِنَ ٱلْغِشَّ أَكْثَرَ مِمَّا تُتْقِنُ ٱلْعَمَلَ . . . وَٱلذِّمَّةُ ٱلْجَدِيدَةُ أَنَّ مَالَ غَيْرِكَ لَا يُسَمَّىٰ مَالًا إِلَّا حِينَ يَصِيرُ فِي يَدِكَ . . . وَٱلصِّدْقُ ٱلْجَدِيدُ أَنْ تَكْذِبَ مِئَةَ مَرَّةٍ ، فَعَسَىٰ أَنْ يُصَدِّقَ ٱلنَّاسُ مِنْهَا مَرَّةً . . . ثُمَّ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْجَدِيدُ ، وَٱلْحُبُّ ٱلْجَدِيدُ ، وَٱلْمَرْأَةُ ٱلْجَدِيدَةُ ، وَٱلْأَدَبُ ٱلْجَدِيدُ ، وَٱلِابْنُ ٱلْجَدِيدُ ، وَمَا أَدْرِي وَمَا لَا أَدْرِي ! .

قَالُوا : ٱلسُّوبَرْمَان Superman ! وَتَنَطَّعُوا فِي إِخْرَاجِ ٱلْمَخْلُوقِ ٱلْكَامِلِ بِغَيْرِ دِينِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، فَسَخِرَتْ مِنْهُمُ ٱلطَّبِيعَةُ فَلَمْ تُخْرِجْ إِلَّا ٱلنَّاقِصَ أَفْحَشَ ٱلنَّقْصِ ، وَتَرَكَتْهُمْ يَعْمَلُونَ فِي ٱلنَّظَرِيَّةِ وَعَمِلَتْ هِيَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ .

* * *

قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَنَهَضَ ٱلْعَجُوزُ (ن) وَهُوَ يَقُولُ : تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ يَا خَالِقَ هَـٰذَا ٱلْخَلْقِ ! لَوْ فَهِمُوا عَنْكَ لَفَهِمُوا ٱلْحِكْمَةَ فِي أَنَّكَ قَدْ فَتَحْتَ عَلَىٰ ٱلْعِلْمِ ٱلْجَدِيدِ بِٱلْغَازَاتِ ٱلسَّامَّةِ . . .

قَالَ : وَلَمَّا ٱنْصَرَفَ ٱلْعَجُوزُ (ن) ، قُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (م) : وَلَـٰكِنْ مَا خَبَرُ كَاتْرِينَا Cathrine وَمَرْغَرِيتَ Margarite وَسَنَةِ ١٨٩٥ ؟

قَالَ : أَيُّهَا ٱلْأَبْلَهُ ! أَمَا أَدْرَكْتَ بَعْدُ أَنَّ ٱلْعَجُوزَيْنِ قَدْ سَخِرَا مِنْكَ بِأُسْلُوبٍ جَدِيدٍ . . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلسَّطْرُ ٱلْأَخِيرُ مِنَ ٱلْقِصَّةِ(*)(١)

رَجَعْتُ إِلَىٰ أَوْرَاقٍ قَدِيمَةٍ يَبْلُغُ عُمْرُهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوْ لِوَاذَهَا ، تَزِيدُ قَلِيلًا أَوْ تَنْقُصُ قَلِيلًا ؛ وَجَعَلْتُ أَفْلِي هَـٰذِهِ ٱلْأَوْرَاقَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا أَنَا عَلَىٰ أَطْلَالِ ٱلْأَيَّامِ فِي مَدِينَةٍ قَائِمَةٍ مِنْ تَارِيخِي ٱلْقَدِيمِ ، نَائِمَةٍ تَحْتَ ظُلُمَاتِهَا ٱلَّتِي كَانَتْ أَنْوَارَ عَهْدٍ مَضَىٰ ، وَإِذَا أَنَا مِنْهَا كَٱلَّذِي ٱغْتَرَبَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَنْ وَطَنِهِ ثُمَّ آبَ إِلَيْهِ ، فَمَا يَرَىٰ مِنْ شَيْءٍ كَانَ لَهُ بِهِ عَهْدٌ فِي أَيَّامِ حِدْثَانِهِ وَنَشَاطِهِ إِلَّا ٱتَّصَلَ بَيْنَهُمَا سِرٌّ ، وَمِنْ طَبِيعَةِ ٱلْقَلْبِ ٱلْعَاشِقِ فِي حَنِينِهِ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِهِ كَأَنَّهُ ذُو قَلْبٍ مِثْلِهِ لَهُ حَنِينٌ وَنَجْوَىٰ !

وَذٰلِكَ ٱلتَّلَاشِي ٱلْمَحْفُوظُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْأَوْرَاقِ ، يَحْفَظُ لِي فِيهَا فِيمَا تَحْتَوِيهِ نَفْسًا وَطَبِيعَةً كَانَتْ نَفْسَ شَاعِرٍ وَطَبِيعَةَ رَوْضَةٍ ، فِي عَهْدٍ مِنَ ٱلصِّبَا كُنْتُ فِيهِ أَتَقَدَّمُ فِي ٱلشَّبَابِ وَفِي ٱلْكَوْنِ مَعًا ، كَأَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ تُخْلَقُ فِيَّ خَلْقًا آخَرَ ؛ فَإِذَا قَرَضْتُ شِعْرًا وَٱسْتَوَىٰ لِي عَلَىٰ مَا أُحِبُّ ، أَحْسَسْتُ إِحْسَاسَ ٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي يَضُمُّ إِلَىٰ مَمْلَكَتِهِ مَدِينَةً جَدِيدَةً ، وَإِذَا تَنَاوَلْتُ طَاقَةً مِنَ ٱلزَّهْرِ وَتَأَمَّلْتُهَا عَلَىٰ مَا أُحِبُّ ، شَعَرْتُ بِهَا كَأَجْمَلِ غَانِيَةٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ تُوحِي إِلَيَّ وَحْيَ ٱلْجَمَالِ كُلِّهِ ، وَإِذَ وَقَفْتُ عَلَىٰ شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ ، تَرَجْرَجَ ٱلْبَحْرُ بِأَمْوَاجِهِ فِي نَفْسِي ، فَكُنْتُ مَعَهُ أَكْبَرَ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَأَوْسَعَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ . أَمَّا ٱلْحُبُّ . . . ؟ أَمَّا ٱلْحُبُّ فَكَانَتْ لَهُ مَعَانِيهِ ٱلصَّغِيرَةُ ٱلَّتِي هِيَ كَضَرُورَاتِ ٱلطِّفْلِ لِلطِّفْلِ ؛ لَيْسَ فِيهَا كَبِيرُ شَيْءٍ ، وَلَـٰكِنَّ فِيهَا أَكْبَرَ ٱلسَّعَادَةِ ، وَفِيهَا نَضْرَةُ ٱلْقَلْبِ .

عَهْدٌ مِنَ ٱلصِّبَا كَانَتْ فِيهِ طَرِيقَةُ ٱلْعَقْلِ مِنْ طَرِيقَةِ ٱلْحُلْمِ ؛ وَكَانَتِ ٱلْعَاطِفَةُ هِيَ عَاطِفَةٌ فِي ٱلنَّفْسِ ، وَهِيَ فِي وَقْتٍ مَعًا خُدْعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعَةِ ؛ وَكَانَ مَا يَأْتِي يُنْسِي دَائِمًا مَا مَضَىٰ وَلَا يُذَكِّرُ بِهِ ، وَكَانَتِ ٱلْأَيَّامُ كَٱلْأَطْفَالِ ٱلسُّعَدَاءِ : لَا يَنَامُ أَحَدُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ فِكْرَةِ لَعِبٍ وَلَهْوٍ ،

(*) « الرسالة » العدد : ٧٨ ، ٢٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ = ٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٢١٢٣ ـ ٢١٢٦ .

(١) أَنْظُرْ « قَصَصُ ٱلرَّافِعِيِّ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ ٱلْعُرْيَانِ .

وَلا يَسْتَيْقِظُ إِلَّا عَلَىٰ فِكْرَةِ لَهْوٍ وَلَعِبٍ ؛ وَكَانَتِ ٱللُّغَةُ نَفْسُهَا كَأَنَّ فِيهَا أَلْفَاظًا مِنَ ٱلْحَلْوَىٰ ، وَكَانَتِ ٱلْآلَامُ ـ عَلَىٰ قِلَّتِهَا ـ كَٱلْمَرِيضِ ٱلَّذِي مَعَهُ دَوَاؤُهُ ٱلْمُجَرَّبُ ، وَكَانَتْ فَلْسَفَةُ ٱلْجَمَالِ تَضْحَكُ مِنْ فَيْلَسُوفِهَا ٱلصَّغِيرِ ، ٱلْوَاضِحِ كُلَّ ٱلْوُضُوحِ ٱلْمُقْتَصِرِ بِكُلِّ لَفْظٍ عَلَىٰ مَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْنَاهُ ، ٱلْمُتَفَلْسِفِ فِي تَحْقِيقِ ٱلرَّغْبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَفَلْسَفُ فِي تَخَيُّلِ ٱلْفِكْرَةِ !

هُوَ ٱلْعَهْدُ ٱلَّذِي مِنْ أَخَصِّ خَصَائِصِهِ أَنْ تَعْمَلَ ، فَيَكُونُ ٱلْعَمَلُ فِي نَفْسِهِ عَمَلًا ، وَيَكُونُ فِي نَفْسِكَ لَذَّةً .

* * *

فِي أَوْرَاقِي تِلْكَ بَحَثْتُ عَنْ قِصَّةٍ عُنْوَانُهَا « ٱلدَّرْسُ ٱلْأَوَّلُ فِي عُلْبَةِ كِبْرِيتٍ » كَتَبْتُهَا فِي سَنَةِ ١٩٠٥ ، وَأَنَا لَا أَدْرِي يَوْمَئِذٍ أَنَّهَا قِصَّةٌ يَسْبَحُ فِي جَوِّهَا قَدَرٌ رِوَائِيٌّ عَجِيبٌ ، سَيَأْتِي بَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً فَيَكْتُبُ فِيهَا ٱلسَّطْرَ ٱلْأَخِيرَ ٱلَّذِي تَتِمُّ مَعَهُ فَلْسَفَةُ مَعْنَاهَا .

وَهَـٰأَنَا ذَا أَنْشُرُهَا كَمَا كَتَبْتُهَا ، وَكَانَ هَـٰذَا ٱلْقَلَمُ إِذْ ذَاكَ غَضًّا لَمْ يَصْلُبْ ، وَكَانَ كَٱلْغُصْنِ تَمِيلُ بِهِ ٱلنَّسْمَةُ ، عَلَىٰ أَنَّ أَسَاسَ بَلَاغَتِهِ قَدْ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ ، بَلَاغَةَ فَرَحِهِ أَوْ بَلَاغَةَ حُزْنِهِ ، وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْقِصَّةُ :

« عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ » غُلَامٌ فَلَّاحٌ ، قَدْ شَهِدَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا تِسْعَةَ أَعْوَامٍ ، مَرَّتْ بِهِ كَمَا يَمُرُّ ٱلزَّمَنُ عَلَىٰ مَيِّتٍ : لَا تَزِيدُهُ حَيَاةُ ٱلْأَحْيَاءِ إِلَّا إِهْمَالًا ، فَنَشَأَ مَنْشَأَ أَمْثَالِهِ مِمَّنْ فَقَدُوا ٱلْوَالِدَيْنِ ، وَٱنْتُزِعُوا مِنْ شَمْلِهِمْ فَتُرِكُوا لِلطَّبِيعَةِ تَفْصِلُهُمْ وَتَصِلُهُمْ بِٱلْحَيَاةِ ، وَتُضَيِّقُ لَهُمْ فِيهَا وَتُوَسِّعُ .

وَهَيَّأَتِ ٱلطَّبِيعَةُ مِنْهُ إِنْسَانًا حَيَوَانِيًّا ، لَا يَبْلُغُ أَشُدَّهُ حَتَّىٰ يُغَالِبَ عَلَى ٱلرِّزْقِ بِٱلْحِيلَةِ أَوِ ٱلْجَرِيمَةِ ، وَيَسْتَخْلِصَ قُوتَهُ كَمَا يَرْتَزِقُ ٱلْوَحْشُ بِٱلْمِخْلَبِ وَٱلنَّابِ ؛ وَلَنْ يَكُونَ بَعْدُ إِلَّا مَجْمُوعَةً مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلْفَاتِكَةِ ٱلْجَرِيئَةِ ، فَإِنَّ ٱلطَّبِيعَةَ مَتَىٰ ٱبْتَدَأَتْ عَمَلَهَا فِي تَحْوِيلِ ٱلْإِنْسَانِ عَنْ إِنْسَانِيَّتِهِ ، نَزَلَتْ بِهِ إِلَىٰ ٱلْعَالَمِ ٱلْحَيَوَانِيِّ ، وَوَصَلَتْهُ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلشَّرِّ وَٱلدَّنَاءَةِ ، ثُمَّ لَا تَتْرُكُ عَمَلَهَا حَتَّىٰ يَتَحَوَّلَ هُوَ إِلَيْهَا .

وَأَلِفَ « عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ » فِي بَلَدِهِ حَانُوتَ رَجُلٍ فَقِيرٍ ، يَسْتَغْنِي بِٱلْبَيْعِ عَنِ ٱلتَّكَفُّفِ وَعَنِ

ٱلْمَسْأَلَةِ ؛ فَكَانَ ٱلْغُلَامُ يُكْثِرُ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَهُ ، وَكَانَ يَطْعَمُ مِنْ صَاحِبِهِ أَحْيَانًا كَرِزْقِ ٱلطَّيْرِ ، فُتَاتًا وَبَقَايَا ؛ إِذْ كَانَ ٱلْغُلَامُ شَحَّاذًا ، وَكَانَ صَاحِبُ ٱلْحَانُوتِ لَا يَرْتَفِعُ عَنِ ٱلشَّحَاذَةِ إِلَّا بِمَنْزِلَةٍ تَجْعَلُ ٱلنَّاسَ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ بِٱلشِّرَاءِ مِنْ هَنَاتِهِ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا بِضَاعَةً : كَٱلْخَيْطِ ، وَٱلإِبْرَةِ ، وَٱلْكِبْرِيتِ ، وَٱلْمِلْحِ ، وَغَزَالِ لِلْوَلَدِ ، وَكُحْلٍ لِلصَّبَايَا ، وَنَشُوقٍ لِلْعَجَائِزِ نُسْخَةِ ٱلشَّيْخِ ٱلشَّعْرَانِيِّ ، وَمَا لَفَّ لَفَّهَا مِمَّا يَصْعَدُ ثَمَنُهُ مِنْ كُسُورِ ٱلْمِلِّيمِ ، إِلَىٰ ٱلْمِلِّيمِ وَكُسُورِهِ . . .

وَتَغَفَّلَهُ ٱلْغُلَامُ مَرَّةً وَأَهْوَىٰ بِيَدِهِ إِلَىٰ ذَخَائِرِ ٱلْحَانُوتِ ، فَٱلْتَقَطَتْ « عُلْبَةَ كِبْرِيتٍ » كَانَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يَسْرِقَهَا وَأَنْ يَشْتَرِيَهَا ـ نِصْفَ مِلِّيمٍ ؛ وَلَكِنْ مَنْ لَهُ « بِٱلْعِشْرِينَ ٱلْخُرْدَةِ » ؟ وَهِيَ عِنْدَ مِثْلِهِ دِينَارٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ يَرِنُّ رَنِينًا وَيَرْقُصُ عَلَىٰ ٱلظُّفْرِ رَقْصَةً إِنْكِلِيزِيَّةً ؟ .

وَمَاذَا يَصْنَعُ بِٱلْعُلْبَةِ ؟ هَمَّتْ نَفْسُهُ أَنْ تُجَادِلَهُ وَلَمَّا تَسْكُنْ رَعْشَةُ يَدِهِ مِنْ هَوْلِ ٱلإِثْمِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْغُلَامَ كَانَ طَبِيعِيًّا وَلَمْ يَكُنْ فَيْلَسُوفًا ، وَلِذَٰلِكَ رَأَىٰ أَنْ يُحْرِزَ ٱلْحَقِيقَةَ بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَيْهَا . وَقَدِ ٱصْطَلَحَ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ أَنَّ مَادَّةَ ٱلسَّرِقَةِ هِيَ « مَدُّ ٱلْيَدِ » أَخْطَأَتْ أَمْ أَصَابَتْ ، وَجَاءَتْ بِٱلْغَالِي أَوْ جَاءَتْ بِٱلرَّخِيصِ ؛ فَضَمَّ يَدَهُ عَلَىٰ ٱلْعُلْبَةِ وَٱنْتَزَعَهَا ، وَتَرَكَ فِي مَكَانِهَا فَضِيلَةَ ٱلأَمَانَةِ ٱلَّتِي لَمْ يَعْرِفْ لَهُ ٱلنَّاسُ قِيمَتَهَا ، فَهَانَتْ كَذَٰلِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَٱنْطَلَقَ وَهِيَ تُنَادِيهِ :

أَيُّهَا ٱلْغُلَامُ ! أَتَدْفَعُ ثَمَنَ عُلْبَةِ ٱلْكِبْرِيتِ سَنَتَيْنِ مِنْ عُمْرِكَ ؟ وَهَلْ خَلَا ٱلنَّاسُ مِمَّنْ يَعْرِفُونَ لِعُمْرِكَ قِيمَةً ؟ .

وَٱرْتَدَّ رَجْعُ ٱلصَّوْتِ ٱلْخَفِيِّ إِلَىٰ قَلْبِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، فَضَرَبَ قَلْبُهُ ضَرَبَاتٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ ، وَنَزَا نَزْوَةً مُضْطَرِبَةً ؛ فَٱلْتَفَتَ ٱلْغُلَامُ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، ثُمَّ أَمْعَنَ فِي ٱلْفِرَارِ وَتَرَكَ ٱلأَمَانَةَ تُنَادِيهِ :

أَيُّهَا ٱلْغُلَامُ ! إِنَّ لَكَ فِي ٱلآخِرَةِ نَارًا لَا تُوقَدُ بِهَٰذَا ٱلْكِبْرِيتِ ، وَلَكَ فِي ٱلدُّنْيَا سِجْنٌ كَهَـٰذِهِ ٱلْعُلْبَةِ ، فَٱلْعَبِ ٱلْعَبْ مَا دَامَ ٱلنَّاسُ قَدْ أَهْمَلُوكَ ! ٱلْعَبْ بِٱلثِّقَابِ ٱلَّذِي فِي يَدِكَ فَسَيَمْتَدُّ فِيكَ مَعْنَىٰ ٱللَّهَبِ حَتَّىٰ يَجْعَلَ حَيَاتَكَ فِي أَعْمَارِ ٱلنَّاسِ دُخَانًا وَنَارًا ؛ وَسَتَكُونُ أَيَّامُكَ أَعْوَادًا كَهَـٰذَا ٱلْكِبْرِيتِ : تَشْتَعِلُ فِي ٱلدُّنْيَا وَتُحْرَقُ .

وَكَأَنَّ أَذْنَابَ ٱلسِّيَاطِ كَانَتْ تُلْهِبُ ظَهْرَ ٱلْغُلَامِ ٱلْمِسْكِينِ ، وَلَـٰكِنَّهُ مَا كَادَ يَلْتَفِتُ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ حَتَّىٰ كَانَ فِي قَبْضَةِ صَاحِبِ ٱلْحَانُوتِ ، وَإِذَا هُوَ بِكَلِمَةٍ مِنْ لُغَةِ كَفِّهِ ٱلْغَلِيظَةِ ، خُيِّلَتْ لَهُ فِي شِعْرِهَا أَنَّ جِدَارًا ٱنْقَضَّ عَلَيْهِ ، وَتَلَتْهَا جُمْلَةٌ مِنْ قَوَافِي ٱلصَّفْعِ جَلْجَلَتْ فِي أُذُنَيْهِ كَٱلرَّعْدِ ، وَأَعْقَبَ ذَٰلِكَ مِثْلُ ٱلْمَوْجِ مِنْ جَمَاعَاتِ ٱلأَطْفَالِ أَحَاطَ بِهِ ، فَتَرَكَ هَـٰذَا ٱلزَّوْرَقَ ٱلإِنْسَانِيَّ ٱلصَّغِيرَ يَتَكَفَّأُ عَلَىٰ صَدَمَاتِ ٱلأَيْدِي ، فَمَا أَحَسَّ ٱلْغُلَامُ ٱلتَّعِسُ إِلَّا أَنَّ ٱلْكِبْرِيتَ ٱلَّذِي فِي يَدِهِ قَدِ ٱنْقَدَحَ فِي رَأْسِهِ ، وَكَانَتْ أَنَامِلُ صَاحِبِ ٱلْحَانُوتِ كَأَنَّمَا تَحُكُّ أَعْوَادَهُ فِي جِلْدِ وَجْهِهِ ٱلْخَشِنِ .

* * *

وَذَهَبُوا بِهِ إِلَىٰ (دَوَّارِ) ٱلْعُمْدَةِ يَقْضِي فِيهِ ٱللَّيْلَ ، ثُمَّ يُصْبِحُ عَلَىٰ رِحْلَةٍ إِلَىٰ ٱلْمَرْكَزِ وَٱلنِّيَابَةِ ، وَٱنْطَرَحَ ٱلْمِسْكِينُ مُنْتَظِرًا حُكْمَ ٱلصَّبَاحِ ، مُؤَمِّلًا فِي عَقْلِهِ ٱلصَّغِيرِ أَلَّا يُفْصِحَ ٱلنَّهَارُ حَتَّىٰ يَكُونَ « سَيِّدُنَا عِزْرَائِيلُ » قَدْ طَمَسَ ٱلْجَرِيمَةَ وَشُهُودَهَا ثُمَّ أَغْفَىٰ مُطْمَئِنًّا إِلَىٰ مَلَكِ ٱلْمَوْتِ وَأَنَّهُ قَدْ أَخَذَ فِي عَمَلِهِ بِجِدٍّ ، وَأَيْقَنَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنْ سَيَشْحَذُ فِي ٱلْخَمِيسِ مِمَّا يُوَزَّعُ فِي ٱلْمَقْبَرَةِ صَدَقَةً عَلَىٰ أَرْوَاحِ ٱلْعُمْدَةِ ، وَصَاحِبِ ٱلْحَانُوتِ ، وَٱلْخَفِيرِ ٱلَّذِي عَهِدُوا إِلَيْهِ جَرَّهُ إِلَىٰ ٱلْمَرْكَزِ . . . ! وَكَيْفَ يَشُكُّ فِي أَنَّ هَـٰذَا وَاقِعٌ بِهِمْ وَهُوَ قَدْ تَوَسَّلَ بِٱلْوَلِيِّ فُلَانٍ وَنَذَرَ لَهُ شَمْعَةً يَسْرِقُهَا مِنْ حَانُوتٍ آخَرَ . . . !

هَـٰكَذَا عَرَفَ ٱلشَّرَّ قَلْبُ هَـٰذَا ٱلصَّبِيِّ ، وَٱنْتَهَىٰ بِهِ عَدْلُ ٱلنَّاسِ إِلَىٰ أَفْظَعَ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ ، وَكَأَنَّهُمْ بِذَٰلِكَ ٱلْقَانُونِ ٱلَّذِي يُصْلِحُونَهُ بِهِ عَلَىٰ زَعْمِهِمْ ، قَدْ نَاوَلُوهُ سُبْحَةً لِيَظْهَرَ بِهَا مَظْهَرَ ٱلصَّالِحِينَ ، وَلَمْ يُفْهِمُوهُ شَيْئًا فَفَهِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَهُ : هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيمَةُ وَاحِدَةٌ ، فَعُدَّ جَرَائِمَكَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلسُّبْحَةِ لِتَعْرِفَ كَمْ تَبْلُغُ ! .

كَانَتْ فِي ٱلْحَقِيقَةِ لُعْبَةً لَا سَرِقَةً ، وَكَانَتْ يَدُ ٱلْغُلَامِ فِيمَا فَعَلَتْ مُسْتَجِيبَةً لِقَانُونِ ٱلْمَرَحِ وَٱلنَّشَاطِ وَٱلْحَرَكَةِ ، كَمَا تَكُونُ أَعْضَاءُ ٱلطِّفْلِ لَا كَمَا تَكُونُ يَدُ ٱللِّصِّ ؛ وَكَانَ أَشْبَهَ بِٱلرَّضِيعِ يَمُدُّ يَدَهُ لِكُلِّ مَا يَرَاهُ ، لَا يُمَيِّزُ ضَارَّةً وَلَا نَافِعَةً ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَشْعُرَ وَيُحَقِّقَ طَبِيعَتَهُ ، وَكَانَ كُلُّ مَا فِي ٱلأَمْرِ وَقُصَارَىٰ مَا بَلَغَ ـ أَنَّ خَيَالَ هَـٰذَا ٱلْغُلَامِ أَلِفَ قِصَّةً مِنْ قِصَصِ ٱللَّهْوِ ، وَأَنَّ ٱلْكِبَارَ أَخْطَؤُوا فِي فَهْمِهَا وَتَوْجِيهِهَا . . . ! لَيْسَتْ سَرِقَةُ ٱلطِّفْلِ سَرِقَةً ، وَلَـٰكِنَّهَا حَقٌّ مِنْ

حُقُوقِ ذَكَائِهِ يُرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ .

* * *

وَٱنْتَهَىٰ « عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ » إِلَىٰ ٱلْمَحْكَمَةِ ، فَقَضَتْ بِسَجْنِهِ فِيْ (إِصْلَاحِيَّةِ ٱلأَحْدَاثِ) مُدَّةَ سَنَتَيْنِ ، وَٱسْتَأْنَفَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ ٱلْخَيْرِ فِيْ بَلَدِهِ ، صَدَقَةً وَٱحْتِسَابًا . . . إِذْ لَمْ يُكَلِّفِ ٱلاسْتِئْنَافُ إِلَّا كِتَابَةَ وَرَقَةٍ ؛ فَلَمَّا مَثَلَ ٱلصَّغِيْرُ أَمَامَ رَئِيسِ ٱلْمَحْكَمَةِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ لِفَقْرِهِ مُحَامٍ يَدْفَعُ عَنْهُ ، وَلَـٰكِنِ ٱنْطَلَقَ مِنْ دَاخِلِهِ مُحَامٍ شَيْطَانِيٌّ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ عَجِيْبٍ ، هُوَ سُخْرِيَةُ ٱلْجَرِيْمَةِ مِنَ ٱلْمَحْكَمَةِ ، وَسُخْرِيَةُ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ مِنْ عَمَلِ ٱلْقَاضِي . . . !

سَأَلَهُ ٱلرَّئِيسُ : « مَا ٱسْمُكَ ؟» .

ـ « ٱسْمِي عَبْدُهْ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْعُمْدَةَ يُسَمِّيْنِي : يَا ٱبْنَ ٱلْكَلْبِ !» .

ـ « مَا سِنُّكَ ؟» .

ـ « أَبُويَا هُوَ ٱللِّيْ كَانَ سَنَّانَ » .

ـ « عُمْرُكَ إِيهْ ؟» .

ـ « عُمْرِيْ ؟ عُمْرِيْ مَا عَمِلْتُ شَقَاوَةً !» .

ٱلنِّيَابَةُ لِلْمَحْكَمَةِ : « ذَكَاءٌ مُخِيفٌ يَا حَضَرَاتِ ٱلْقُضَاةِ ! عُمْرُهُ تِسْعُ سَنَوَاتٍ !» .

ٱلرَّئِيسُ : « صَنْعَتُكَ إِيهْ ؟» .

ـ « صَنْعَتِيْ أَلْعَبُ مَعَ مَحْمُوْدَ وَمَرْيَمَ ، وَٱضْرِبُ ٱللِّيْ يِضْرَبْنِي !» .

ـ « تَعِيْشُ فِينْ ؟» .

ـ « فِيْ ٱلْبَلَدِ !» .

ـ « تَاكُلْ مِنِينْ ؟» .

ـ « آكُلُ مِنَ ٱلأَكْلِ !» .

كَانَ أَبُو ٱلْغُلَامِ سَنَّانًا ، وَمِثْلُ هَـٰذَا ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلْعَامِّيَّةِ فِيْ ٱلْقِصَّةِ هُوَ مِلْحُ ٱلْقِصَّةِ .

ٱلنِّيَابَةُ لِلْمَحْكَمَةِ : « يَا حَضَرَاتِ ٱلْقُضَاةِ ! مِثْلُ هَـٰذَا لَا يَسْرِقُ عِلْبَةَ كِبْرِيتٍ إِلَّا لِيُحْرِقَ بِهَا ٱلْبَلَدَ . . . » .

ٱلرَّئِيسُ : « أَلَكَ أُمٌّ ؟» .

ـ « أُمِّيْ غَضِبَتْ عَلَىٰ أَبُويَا ، وَرَاحَتْ قَعَدَتْ فِيْ ٱلتُّرْبَةِ ؛ مَا رِضِيْتْشِ تِرْجَعْ !» .

ـ « وَأَبُوكَ ؟» .

ـ « أَبُويَا لاخَرْ غِضِبْ وَرَاحْ لَهَا » .

ٱلرَّئِيسُ ضَاحِكًا : « وَأَنْتَ » .

ـ « وَٱللهِ يَا أَفَنْدِيْ عَاوِزْ أَغْضَبْ ، مُشْ عَارِفْ أَغْضَبْ إِزَّاي !» .

ـ « إِنْتَ سَرَقْتَ عِلْبَةَ ٱلْكِبْرِيتْ ؟» .

ـ « دِيْ هِيَّ طَارَتْ مِنَ ٱلدُّكَّانِ ، حَسِبْتُهَا عُصْفُوْرَةً وَمِسِكْتَهَا . . . » .

ٱلنِّيَابَةُ : « وَلِيهْ مَا طَارِتْشِ ٱلْعُلَبْ ٱللِّيْ مَعَاهَا فِيْ ٱلدُّكَّانِ ؟ » .

ـ « أَنَا عَارِفْ ؟ يِمْكِنْ خَافَتْ مِنِّيْ !» .

ٱلنِّيَابَةُ لِلْمَحْكَمَةِ : « جَرَاءَةٌ مُخِيفَةٌ يَا حَضَرَاتِ ٱلْقُضَاةِ ! ٱلْمُتَّهَمُ وَهُوَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلسِّنِّ ، يَشْعُرُ فِيْ ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ ٱلأَشْيَاءَ تَخَافُهُ !» .

فَصَاحَ ٱلْغُلَامُ مَسْرُوْرًا مِنْ هَـٰذَا ٱلثَّنَاءِ . « وَٱللهِ يَا أَفَنْدِيْ إِنْتَ رَاجِلْ طَيِّبْ ! أَدَّيْكْ عِرِفْتِنِي ، رَبِّنَا يِكْفِيكْ شَرَّ ٱلْعُمْدَةِ وَٱلْغَفِيْرِ !» .

* * *

وَأُمْضِيَ ٱلْحُكْمُ فِيْ ٱلاسْتِئْنَافِ ، وَخَرَجَ ٱلصَّغِيْرُ مَعَ رِجَالٍ مِنَ ٱلْمُجْرِمِيْنَ يَسُوْقُهُمُ ٱلْجُنْدُ ، ثُمَّ ٱحْتَبَسُوْا ٱلْجَمِيْعَ فَتْرَةً مِنَ ٱلْوَقْتِ عِنْدَ كَاتِبِ ٱلْمَحْكَمَةِ ، لِيَسْتَوْفِيَ أَعْمَالَهُ ٱلْكِتَابِيَّةَ ، ثُم يُسَاقُوْنَ مِنْ بَعْدُ إِلَىٰ ٱلسِّجْنِ .

وَجَلَسَ « عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ » ، عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ، وَقَدِ ٱكْتَنَفَهُ عَنْ جَانِبَيْهِ طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُجْرِمِيْنَ يَتَحَادَثُوْنَ وَيَتَغَامَزُوْنَ ! وَكُلُّهُمْ رِجَالٌ وَلَـٰكِنَّهُ وَحْدَهُ ٱلصَّغِيْرُ بَيْنَهُمْ . فَٱطْمَأَنَّ شَيْئًا قَلِيْلًا ، إِذْ

قَدَّرَ فِيْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هَـٰؤُلَاءِ قَدْ أُرِيْدَ بِهِمْ شَرٌّ لَمَا سَكَنُوْا هَـٰذَا ٱلسُّكُوْنَ ، وَإِنَّ ٱلَّذِيْ يُرَادُ بِهِمْ لَا يَنَالُهُ هُوَ إِلَّا أَصْغَرُ مِنْهُ ، كَصَفْعَةٍ أَوْ صَفْعَتَيْنِ مَثَلًا . . . وَهُوَ يَسْمَعُ أَنَّ ٱلرِّجَالَ يَقْتُلُوْنَ وَيُحَرِّقُوْنَ وَيَسُمُّوْنَ وَيَعْتَدُوْنَ وَيَنْهَبُوْنَ ؛ وَمَا تَكُوْنُ (عُلْبَةُ ٱلْكِبْرِيْتِ) فِيْ جَنْبِ ذَٰلِكَ ؟ وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنِ ٱسْتَرَدَّهَا صَاحِبُهَا ، وَقَدْ نَالَ هُوَ مَا كَفَاهُ قَبْلَ ٱلْحُكْمِ ؟

وَمَا لَبِثَ بَعْدَ هَـٰذَا ٱلْخَاطِرِ ٱلْجَمِيْلِ أَنْ رَدَّ ٱلاطْمِئْنَانُ فِيْ عَيْنَيْهِ دُمُوْعًا كَادَ يُرِيْقُهَا ٱلْجَزَعُ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْقَلَقَ ٱعْتَادَهُ ، فَٱلْتَفَتَ إِلَىٰ كُتَّابِ ٱلْمَحْكَمَةِ مَرَّةً وَإِلَىٰ ٱلْجُنْدِ مَرَّةً ، ثُمَّ لَوَىٰ وَجْهَهُ وَلَمْ يَسْتَبِحْ لِنَفْسِهِ أَنْ يَتَجَرَّأَ عَلَىٰ ٱلْفِكْرِ فِيْهِمْ ، لِأَنَّهُ قَابَلَ مَهَابَتَهُمْ بِآلِهَةِ بَلَدِهِ : ٱلْعُمْدَةُ وَٱلْمَشَايِخُ وَٱلْخُفَرَاءُ ؛ فَأَدْرَكَ أَنَّ ٱلْجُنُوْدَ هُمُ ٱلْحُكُوْمَةُ ٱلْقَادِرَةُ ، وَٱسْتَدَلَّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ بِأَزْرَارِهِمُ ٱللَّامِعَةِ ، وَخَنَاجِرِهِمُ ٱلصَّقِيْلَةِ وَتَمَشَّتْ فِيْ قَلْبِهِ رَهْبَةُ هَـٰذِهِ ٱلْخَنَاجِرِ ، فَٱضْطَرَبَ خَشْيَةَ أَنْ يَكُوْنُوْا قَدْ أَسْلَمُوْهُ إِلَىٰ مَنْ يَذْبَحُهُ ، فَنَظَرَ إِلَىٰ ٱلَّذِيْ يَلِيْهِ مِنَ ٱلْمُجْرِمِيْنَ وَسَأَلَهُ : « رَاحْ يَاخْدُوْنِيْ فِيْنْ ؟ » فَأَجَابَتْهُ لَكْمَةٌ خَفِيَّةٌ ٱنْطَلَقَ لَهَا دَمْعُهُ ، حَتَّىٰ أَسْكَتَهُ ٱلَّذِيْ يَلِيْهِ مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ ، وَكَانَ فِيْ رَأْيِهِ مِنَ ٱلصَّالِحِيْنَ ! .

ثُمَّ ٱتَّصَلَ ٱلْجَزَعُ بَيْنَ قَلْبِهِ وَعَيْنَيْهِ ، فَهُمَا تَضْطَرِبَانِ إِلَىٰ ٱلْجِهَاتِ ٱلْأَرْبَعِ ، وَكَأَنَّمَا يُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَشِفَّ مِنْ أَيِّهَا سَيَأْتِيْهِ ٱلْمَوْتُ ذَبْحًا ، وَلَمْ يَكُنْ فَهِمَ مَعْنَىٰ (ٱلإِصْلَاحِيَّةِ) ، وَحَكَمَ ٱلْقُضَاةُ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ رَجُلٌ يَفْهَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَرْحَمُوْا هَـٰذِهِ ٱلطُّفُوْلَةَ بِكَلِمَةٍ مُفَسِّرَةٍ . وَعَدْلُ ٱلتَّرْبِيَةِ غَيْرُ عَدْلِ ٱلْقَانُوْنِ ، فَكَانَ ٱلْوَاجِبُ عَلَىٰ ٱلْقَاضِيْ ٱلَّذِيْ يَحْكُمُ عَلَىٰ ٱلطِّفْلِ ، أَنْ يَجْعَلَ حُكْمَهُ أَشْبَهَ بِصِيْغَةِ ٱلْقِصَّةِ مِنْهُ بِصِيْغَةِ ٱلْحُكْمِ ، وَأَنْ يَدَعَ ٱلْجَرِيْمَةَ تَنْطَلِقُ وَتَذْهَبُ فَلَا يَقُوْلُ لَهَا ٱمْكُثِيْ . . .

وَبَقِيَ لِلْخَنَاجِرِ رَهْبَتُهَا فِيْ نَفْسِ هَـٰذَا ٱلْمِسْكِيْنِ ، فَلَوْ أَنَّهُمْ قَادُوْهُ إِلَىٰ حَبْلِ ٱلشَّنَّاقَةِ لَأَفْهَمَهُ (ٱلْحَبْلُ) مَعْنَىٰ ٱلْعُقُوْبَةِ ، أَمَّا وَهُوَ بَيْنَ هَـٰذِهِ ٱلْخَنَاجِرِ ٱلْمُغْمَدَةِ - وَفِيْ ٱلْخَنَاجِرِ مَعْنَىٰ ٱلذَّبْحِ - فَإِنَّمَا هُوَ ٱلذَّبْحُ لَا غَيْرُهُ .

وَطَرَقَتْ أُذُنَيْهِ قَهْقَهَةُ ٱلْمُجْرِمِ عَنْ يَمِيْنِهِ فَٱسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْخَاطِرِ ، فَثَبَّتَ عَيْنَهُ فِيْ ٱلرَّجُلِ ، فَإِذَا هُوَ يَرَىٰ وَجْهًا مُتَلَأْلِئًا ، وَجِسْمًا رَابِطَ ٱلْجَأْشِ ، وَهُزُؤًا وَسُخْرِيَةً بِهَـٰؤُلَاءِ ٱلْجُنُوْدِ وَخَنَاجِرِهِمْ .

وَٱسْتَرَاحَ ٱلْغُلَامُ إِلَىٰ صَاحِبِهِ هَـٰذَا ، وَأَلَحَّ بِنَظَرِهِ عَلَيْهِ ، وَٱبْتَدَأَ يَتَعَلَّمُ فِيْ وَجْهِهِ

ٱلْفَلْسَفَةَ ، وَلَيْسَتِ ٱلْفَلْسَفَةُ مَقْصُوْرَةً عَلَىٰ ٱلْكُتُبِ ، بَلْ إِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ حَالَةً تَشْغَلُهُ ، فَنَظَرُهُ فِيْ ٱعْتِبَارِ دَقَائِقِهَا وَكَشْفِ مَسْتُوْرِهَا هُوَ ٱلْفَلْسَفَةُ بِعَيْنِهَا .

وَقَالَ ٱلْغُلَامُ لِنَفْسِهِ :

هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ أَقْوَىٰ مِنْ كُلِّ قُوَّةٍ ، فَهُوَ مَحْكُوْمٌ عَلَيْهِ وَلَا يُبَالِيْ ، بَلْ يُقَهْقِهُ ضَحِكًا ، فَهَـٰذَا ٱلْحُكْمُ إِذَنْ لَا يُخِيْفُ ؛ لَا ، بَلْ هُوَ تَعَوَّدَ ٱلْأَحْكَامَ ، إِذَنْ فَمَنْ تَعَوَّدَ ٱلْأَحْكَامَ لَمْ يَخَفِ ٱلْأَحْكَامَ ؛ إِذَنْ يَا عَبْدَ ٱلرَّحْمَـٰنِ سَتَتَعَوَّدُ ، فَإِنَّ ٱلْخَوْفَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ قَدْ غَطَّكَ مِنْ « عُلْبَةِ ٱلْكِبْرِيْتِ » فِيْ حَرِيْقٍ مُتَسَعِّرٍ ، وَمَا قَدْرُ « عُلْبَةِ ٱلْكِبْرِيْتِ » ؟ فَلَوْ كَانَتِ ٱلسَّرِقَةُ جَامُوْسَةً مَا لَقِيْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ ، يَا لَيْتَنِيْ إِذًا . . . وَلَـٰكِنِّيْ لَا أَزَالُ صَغِيْرًا ، فَمَتَىٰ كَبِرْتُ . . . آهِ مَتَىٰ كَبِرْتُ . . . » .

وَبَدَأَ ٱلْقَانُوْنُ عَمَلَهُ فِيْ ٱلْغُلَامِ ، فَطَرَدَ مِنْهُ ٱلطِّفْلَ وَأَقَرَّ فِيْهِ ٱلْمُجْرِمَ .

* * *

وَأَطْرَقَ « عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ » هَادِئًا سَاكِنًا ، وَقَامَتْ فِيْ نَفْسِهِ مَحْكَمَةٌ مِنَ ٱلْأَبَالِسَةِ ، بِقُضَاتِهَا وَنِيَابَتِهَا ، يُجَادِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيُدَاوِلُوْنَ بَيْنَهُمْ أَمْرَ هَـٰذَا ٱلْغُلَامِ عَلَىٰ وَجْهٍ آخَرَ .

وَقَالَ شَيْطَانٌ مِنْهُمْ : « وَلَـٰكِنَّا نَخْشَىٰ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ (ٱلإِصْلَاحِيَّةَ) سَتُخْرِجُهُ بَعْدَ سَنَتَيْنِ شَرِيْفًا يَحْتَرِفُ ؛ وَٱلثَّانِيْ أَنَّ ٱلنَّاسَ رُبَّمَا تَوَلَّوْهُ بِٱلتَّرْبِيَةِ وَٱلتَّعْلِيْمِ فِيْ ٱلْمَدَارِسِ رَحْمَةً وَشَفَقَةً ، فَيَخْرُجُ شَرِيْفًا يَحْتَرِفُ » .

وَمَا أَسْرَعَ مَا نَفَىٰ ٱلْخَوْفَ عَنْهُمْ قَوْلُ ٱلْغُلَامِ نَفْسِهِ بِلَهْجَةٍ فِيْهَا ٱلْحِقْدُ وَٱلْغَيْظُ ، وَقَدْ صَفَعَهُ ٱلْجُنْدِيُّ ٱلَّذِيْ يَقُوْدُهُ إِلَىٰ ٱلسِّجْنِ - : « وِدَا كُلُّهُ عَلَىٰ شَانْ عُلْبَةِ كِبْرِيْتِ . . . ؟ » .

. . . .

. . . .

فِيْ سَنَةِ ١٩٣٤ قَضَتْ مَحْكَمَةُ ٱلْجِنَايَاتِ بِٱلْمَوْتِ شَنْقًا عَلَىٰ قَاتِلٍ مُجْرِمٍ خَبِيْثٍ ، عَيَّارٍ مُتَشَطِّرٍ ، ٱسْمُهُ « عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدُ ٱلرَّحِيْمِ » .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

عَاصِفَةُ ٱلْقَدَرِ (١)

عَلَىٰ شَاطِئَ ٱلنِّيلِ فِيْ إِقْلِيْمِ (ٱلْغَرْبِيَّةِ) مِنْ هَـٰذَا ٱلْبَرِّ ، قَرْيَةٌ لَيْسَ فِيْهَا جَبَلٌ وَلَـٰكِنَّ رُوْحَ ٱلْجَبَلِ فِيْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَإِذَا [أَنْتَ] ٱعْتَبَرْتَهُ بِٱلرِّجَالِ قُوَّةً وَضَعْفًا رَأَيْتَهُ يَنْهَضُ فِيْهِمْ بِمَنْكِبَيْهِ نَهْضَةَ ٱلْجَبَلِ فِيْمَا حَوْلَهُ ، وَهُوَ بَطَلُ ٱلْقَرْيَةِ وَلِوَاءُ كُلِّ مَعْرَكَةٍ تَنْشُبُ فِيْهَا بَيْنَ فِتْيَانِهَا [وَبَيْنَ] وَفِتْيَانِ ٱلْقُرَىٰ ٱلْمُتَنَاثِرَةِ حَوْلَهَا ، وَلَا تَزَالُ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَارِكُ بَيْنَ شُبَّانِ ٱلْقُرَىٰ كَأَنَّهَا مِنْ حَرَكَةِ ٱلدَّمِ ٱلْحُرِّ ٱلْفَاتِحِ ٱلْمُتَوَارَثِ فِيْهِمْ مِنْ أَجْيَالٍ بَعِيْدَةٍ ، يَنْحَدِرُ مِنْ جِيْلٍ إِلَىٰ جِيْلٍ وَفِيْهِ تِلْكَ ٱلْقَطَرَاتُ ٱلثَّائِرَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ تَغْلِيْ وَتَفُوْرُ(٢) ، وَهِيَ كَعَهْدِهَا لَا تَزَالُ تَغْلِيْ وَتَفُوْرُ ، وَيُلَقِّبُوْنَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ ٱلشَّدِيْدَ (بِٱلْجَمَلِ) لِمَا يَعْرِفُوْنَهُ مِنْ جَسَامَةِ خَلْقِهِ وَصَبْرِهِ عَلَىٰ ٱلشَّدَائِدِ ، وَٱحْتِمَالِهِ فِيْهَا ، وَكَوْنِهِ مَعَ ذَٰلِكَ سَلِسَ ٱلْقِيَادَةِ(٣) سَلِيْمَ ٱلْفِطْرَةِ رَقِيْقَ ٱلطَّبْعِ ؛ عَلَىٰ أَنَّهُ أَبْطَشُ ذِيْ يَدَيْنِ إِنْ ثَارَ ثَائِرُهُ ، وَلَهُ إِيْمَانٌ قَوِيٌّ يَسْتَمْسِكُ بِهِ كَمَا يَتَمَاسَكُ ٱلْجَبَلُ بِعُنْصُرِهِ ٱلصَّخْرِيِّ ، إِلَّا أَنَّهُ يَخْلِطُهُ بِبَعْضِ ٱلْخُرَافَاتِ ، إِذْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ بَعْضِ ٱلْجَرَائِمِ ٱلشَّرِيْفَةِ ٱلَّتِيْ يَحْمِلُ عَلَيْهَا فَرْطُ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْمُرُوْءَةِ فِيْ مِثْلِهِ مَعَ مِثْلِهِ .

وَلَيْسَ فِيْ تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ مِنْ بَحْرٍ ، غَيْرَ أَنَّ فِيْهَا شَابًّا أَعْنَفُ طَيْشًا وَعُتُوًّا مِنَ ٱلْمَوْجَةِ عَلَىٰ بَحْرِهَا فِيْ يَوْمِ رِيْحٍ عَاتِيَةٍ ، حُلْوُ ٱلْمَنْظَرِ لَـٰكِنَّهُ مُرُّ ٱلطَّعْمِ ، صَافِي ٱلْوَجْهِ لَـٰكِنَّ لَهُ غَوْرًا بَعِيْدًا مِنَ ٱلدَّهَاءِ وَٱلْخُبْثِ ، وَهُوَ ٱبْنُ عُمْدَةِ ٱلْبَلْدَةِ وَوَاحِدُ أَبَوَيْهِ وَٱلْوَارِثُ مِنْ دُنْيَاهُمَا ٱلْعَرِيْضَةِ ، يَبْسُطُ يَدَيْهِ عَلَىٰ خَمْسِ مِئَةِ فَدَّانٍ ، وَقَدْ أَفْسَدَتْهُ ٱلنِّعْمَةُ وَأَهَانَتْهُ عِزَّتُهُ عَلَىٰ أَهْلِهِ ؛ وَلَوِ ٱجْتَمَعَتْ حَسَنَتَانِ لِتَخْرُجَ مِنْهُمَا سَيِّئَةٌ مِنَ ٱلسَّيِّئَاتِ بِأَسْلُوْبٍ مِنَ ٱلأَسَالِيْبِ ، لَمَا وَسِعَهَا إِلَّا أُسْلُوْبُ نَشْأَتِهِ مِنْ أَبَوَيْهِ ٱلطَّيِّبَيْنِ . تَعَلَّمَ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنْ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَىٰ ٱلْعِلْمِ ، فَجَعَلَتْ

---

(١) أَنْشَأَهَا لِلْمُقْتَطَفِ سَنَةَ ١٩٢٥ ، [وَنُشِرَتْ فِي مجلة «ٱلرِّسالة» العدد : ٣٥٨، ٦ شهر ربيع الآخر ١٣٥٩هـ = ١٣ مايو/ أيار ١٩٤٠م ، السنة الثامنة ، الصفحات : ٨٣٥ـ٨٣٩].

(٢) في «ٱلرِّسالة» : «تَفُورُ وَتَغْلِي» بَدَلًا مِنْ : «تَغْلِي وَتَفُورُ» .

(٣) في «ٱلرِّسالة» : «ٱلْقِيَادِ» بَدَلًا مِنَ : «ٱلْقِيَادَةِ» .

تَلْفُظُهُ ٱلْمَدَارِسُ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ كَأَنَّهُ نَوَاةُ ثَمَرَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ ، فَإِذَا قِيْلَ لَهُ فِيْ ذَٰلِكَ قَالَ : إِنَّ خَمْسَ مِئَةِ فَدَّانٍ لَا تَسَعُهَا مَدْرَسَةٌ . . . وَذَهَبَ إِلَىٰ فِرَنْسَة يَطْلُبُ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيْ ٱسْتَعْصَىٰ عَلَيْهِ فِيْ مِصْرَ ، فَأَرْهَفَ ذَٰلِكَ ٱلْعِلْمُ . . . خَيَالَهُ وَصَقَلَ حِسَّهُ ، وَرَجَعَ مِنْ بَارِيْسَ Paris رَقِيْقَ ٱلْحَاشِيَةِ ، خَنِثًا مُتَظَرِّفًا ، لَا يَصْلُحُ شَرْقِيًّا وَلَا غَرْبِيًّا !

وَلَيْسَ فِيْ تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ غَابَةٌ ، لَـٰكِنَّ فِيْهَا عَذْرَاءَ تَلْتَفُّ مِنْ جِسْمِهَا فِيْ رِدَاءِ ٱلْجَمَالِ ٱلطَّبِيْعِيِّ ٱلرَّائِعِ ، وَلَهَا نَفْسٌ أَشَدُّ وُعُوْرَةً مِمَّا تَنْطَوِيْ ٱلْغَابَةُ عَلَيْهِ ؛ فَفِيْ ظَاهِرِهَا ٱلرَّوْنَقُ ٱلَّذِيْ يَفْتِنُ فَيَجْذِبُ إِلَيْهَا ، وَفِيْ بَاطِنِهَا ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِيْ تَلْتَوِي فَتَدْفَعُ عَنْهَا ؛ وَهِيَ ٱبْنَةُ عَمِّ (ٱلْجَمَلِ) وَٱسْمُهَا (خَضْرَاءُ) ، وَكَأَنَّ فِيْهَا زَهْوَ خُضْرَةِ ٱلرَّبِيْعِ ، وَلَمْ تَكُنْ تَعْشَقُ إِلَّا ٱلْقُوَّةَ ، فَمَا يُزَيِّنُ لَهَا مِنَ ٱلرِّجَالِ إِلَّا ٱبْنُ عَمِّهَا ، وَهِيَ شَدِيْدَةُ ٱلإِعْجَابِ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا إِعْجَابُ ٱلْمَرْأَةِ بِرَجُلٍ مِنَ ٱلرِّجَالِ مِفْتَاحٌ مِنْ مَفَاتِيْحِ قَلْبِهَا .

وَكَانَتْ (خَضْرَاءُ) جَاهِلَةً كَنِسَاءِ ٱلْقُرَىٰ ، بَيْدَ أَنَّهَا تِلْمِيْذَةٌ بَارِعَةٌ لِلطَّبِيْعَةِ ٱلَّتِيْ نَشَأَتْ فِيْهَا وَزَاوَلَتْ أَعْمَالَهَا ؛ فَهِيَ بِذَٰلِكَ أَقْوَىٰ نَفْسًا وَأَشَدُّ مِرَاسًا مِنَ ٱلْفَتَيَاتِ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ ؛ إِذِ ٱتَّخَذَتْ شَكْلًا ثَابِتًا مِنْ أَشْكَالِ ٱلْحَيَاةِ ، وَٱلْحَيَاةُ هِيَ صَنَعَتْهَا هَـٰذِهِ ٱلصَّنْعَةَ أَوْ أَقَامَتْهَا عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ ، عَلَىٰ حِيْنِ أَنَّ ٱلْمُتَعَلِّمَاتِ يُمْضِيْنَ أَيَّامَ ٱلنَّشْأَةِ وَسِنَّ ٱلْغَرِيْزَةِ فِيْ ٱلتَّلَقِّيْ عَنِ ٱلأَلْفَاظِ وَٱلْكُتُبِ ، وَفِيْ تَوَهُّمِ ٱلصُّوَرِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ لِلاجْتِمَاعِ دُوْنَ مُبَاشَرَتِهَا ، وَفِيْ تَوَقِّيْ أَعْمَالِ ٱلْحَيَاةِ بَدَلًا مِنْ مُخَالَطَتِهَا ؛ فَيَؤُوْلُ ذَٰلِكَ مِنْهُنَّ إِلَىٰ قُوَّةٍ فِيْ ٱلتَّخَيُّلِ قَلَّمَا تُرْضِي ٱلْحَقِيْقَةَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ ٱلْمُؤْلِمَةَ حِيْنَ تُصَادِمُهَا يَوْمًا { مَا } ؛ وَتَتِمُّ ٱلْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ ، وَلَـٰكِنْ بِٱعْتِبَارِ أَنَّهَا تَمَّتْ تِلْمِيْذَةً لِلْمَدْرَسَةِ لَا ٱمْرَأَةً لِلْحَيَاةِ بِمَا فِيْهَا مِمَّا يُعْجِبُ وَمَا لَا يُعْجِبُ .

وَكَانَتْ خَضْرَاءُ أَشْبَهَ بِدَوْرَةِ ٱلنَّهَارِ ؛ تَفْتَحُ أَجْفَانَهَا عَلَىٰ أَشِعَّةِ ٱلْفَجْرِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَلَا تَزَالُ نَهَارَهَا فِيْ دَأْبٍ وَعَمَلٍ ، فَنَفَىٰ ذَٰلِكَ عَنْ أَخْلَاقِهَا مَا يَجْلُبُهُ ٱلسُّكُوْنُ مِنَ ٱلْخُمُوْلِ وَٱلْمَيْلِ إِلَىٰ ٱلْعَبَثِ وَٱلدُّعَابَةِ ، وَحَصَلَتْ لَهَا مِنَ ٱلْحَيَاةِ حَقِيْقَةٌ عَرَفَتْ مِنْهَا أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ عَامِلٌ مِنْ أَكْبَرِ ٱلْعَوَامِلِ فِيْ ٱلنِّظَامِ ٱلإِنْسَانِيِّ ؛ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ ٱلْكَدِّ وَٱلتَّعَبِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ بِطَبِيْعَتِهِ ٱلْحَقِيْقِيَّةِ لَا بِطَبِيْعَتِهِ ٱلْمُزَوَّرَةِ ٱلْمَصْنُوْعَةِ، وَرَأَتِ ٱلرَّجُلَ يَسْتَأْثِرُ بِجَلَائِلِ ٱلأَعْمَالِ وَلَا يَتْرُكُ لِلْمَرْأَةِ إِلَّا كَمَا يَتْرُكُ عَقْرَبُ ٱلسَّاعَاتِ لِعَقْرَبِ ٱلثَّوَانِيْ فِيْ ٱلرُّقْعَةِ ٱلَّتِيْ تَجْمَعُهُمَا ؛ فَهَـٰذَا ٱلصَّغِيْرُ لَا يَبْرَحُ يَضْرِبُ فِيْ « دَائِرَتِهِ ٱلضَّيِّقَةِ » يَهْتَزُّ مِنْ جُزْءٍ إِلَىٰ جُزْءٍ ، حَتَّىٰ إِذَا أَتَمَّ ٱلدَّقِيْقَةَ

فِيْ سِتِّيْنَ هَزَّةٍ كَامِلَةٍ ذَهَبَ ٱلْأَوَّلُ بِفَضْلِهَا كُلِّهَا وَخَطَا بِهَا خُطْوَةً وَاحِدَةً ؛ ثُمَّ يَعُوْدُ ٱلْمُسْتَضْعَفُ[١] ٱلمِسْكِيْنُ إِلَىٰ مِثْلِ عَمَلِهِ ، وَلَا يَزَالُ [هَذَا] دَأْبُهُمَا ، وَإِنَّ أَكْثَرَهُمَا عَمَلًا وَتَعَبًا هُوَ أَقَلُّهُمَا قِيْمَةً وَظُهُوْرًا ؛ وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا ٱلضَّعِيْفَ ٱلْمَغْبُوْنَ لَمْ يَنَلْهُ مَا نَالَهُ إِلَّا مِنْ كَوْنِهِ هُوَ وَحْدَهُ ٱلَّذِيْ بُنِيَ فِيْ هَـٰذَا ٱلنِّظَامِ عَلَىٰ فَضِيْلَةِ ٱلصَّبْرِ وَٱلدِّقَّةِ ، لِيَكُوْنَ أَسَاسًا لِلآخَرِ ، فَعَرَفَتْ (خَضْرَاءُ) كَيْفَ تُقَيِّدُ طَبِيْعَتَهَا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا ، وَتُقِرُّهَا عَلَىٰ ٱلصَّبْرِ وَٱلرِّضَا وَٱلسُّكُوْنِ إِلَىٰ حَظِّهَا ٱلطَّبِيْعِيِّ وَٱلاغْتِبَاطِ بِهِ ؛ إِذْ كَانَ فَضْلُ ٱلرَّجُلِ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ لَيْسَ فِيْ كَوْنِهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فَضْلًا أَوْ أَسْبَابَ فَضْلٍ ، بَلْ فِيْ كَوْنِهَا هِيَ أَكْثَرَ مِنْهُ حُبًّا وَتَسَامُحًا وَصَبْرًا وَإِيْثَارًا ، فَفَضَائِلُهَا ٱلْحَقِيْقِيَّةُ هِيَ ٱلَّتِيْ جَعَلَتْهُ ٱلأَفْضَلَ ، كَمَا تَجُوْعُ ٱلأُمُّ لِتُطْعِمَ ٱبْنَهَا !

* * *

وَرَآهَا (ٱبْنُ ٱلْعُمْدَةِ) وَلَمَّا تَمْضِ أَيَّامٌ عَلَىٰ رُجُوْعِهِ مِنْ أَوْرُبَّةَ ، وَقَدْ لَبِثَ هُنَاكَ بِضْعَ سِنِيْنَ ، وَكَانَ عَهْدُهُ بِٱلْفَتَاةِ صَغِيْرَةً ، فَوَثَبَتْ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَثْبَةً وَاحِدَةً ، وَرَأَىٰ شَبَابًا وَجَمَالًا وَرَوْعَةً زَيَّنَتْهَا فِيْ قَلْبِهِ وَسَوَّلَتْ لَهُ مَطْمَعًا مِنَ ٱلْمَطَامِعِ وَجَعَلَتْهُ يَرَىٰ مَا يَرَىٰ بِمَعْنًىٰ وَيَفْهَمُ مِنْهُ مَا يَفْهَمُ بِمَعْنًىٰ غَيْرِهِ .

وَكَانَتْ حِيْنَ رَآهَا وَاقِفَةً عَلَىٰ ٱلنِّيْلِ تَمْلأُ جَرَّتَهَا مَعَ نِسَاءٍ مِنْ قَوْمِهَا وَهُنَّ يَتَعَابَثْنَ وَيَتَضَاحَكْنَ ، كَأَنَّ لِخِصْبِ ٱلأَرْضِ فِيْ أَرْوَاحِهِنَّ أَثَرًا بَادِيًا ، فَإِذَا مَا أَقْبَلْنَ عَلَىٰ ٱلنَّهْرِ لِشَأْنٍ مِنْ شُؤُوْنِهِنَّ تَنَدَّتْ رُوْحُ ٱلْمَاءِ عَلَىٰ ذٰلِكَ ٱلأَثَرِ فَٱهْتَزَّ وَٱهْتَزَّتِ ٱلْمَرْأَةُ بِهِ ، فَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ مِسْحَةٍ مِنْ جَمَالٍ رَأَيْتَ لَهَا رَفِيْفًا كَرَفِيْفِ ٱلزَّهْرَةِ حِيْنَ يَمْسَحُهَا ٱلنَّدَىٰ ، وَذَهَبَتْ تَتَمَوَّجُ[٢] فِيْ جِسْمِهَا وَقَدْ حَسَرَتْ عَنْ ذِرَاعَيْهَا ، وَلَمَسَ ٱلْمَاءُ دَمَهَا ٱلْجَذَّابَ ، فَأَرْسَلَ فِيْهِ تَيَّارًا مِنَ ٱلْعَافِيَةِ وَٱلنَّشَاطِ يَتَّصِلُ مِنْهَا بِقَلْبِ مَنْ يَرَاهَا إِنْ هُوَ كَانَ شَاعِرًا يُحِسُّ ، فَإِنْ كَانَتْ رُوْحُ ٱلرَّجُلِ ظَمْأَىٰ وَرَأَىٰ ٱلْمَرْأَةَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ ، فَمَا أَحْسَبُهُ إِلَّا[٣] يَشْرَبُ مِنْهَا بِعَيْنَيْهِ شُرْبًا يَجِدُ لَهُ فِيْ قَلْبِهِ نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ ؛ وَكَذٰلِكَ وَقَعَتِ ٱلْفَتَاةُ مِنْ نَفْسِ هَـٰذَا ٱلْفَتَىٰ ، فَزَيَّنَهَا لَهُ ٱلْخُبْثُ ٱلَّذِيْ فِيْهِ أَضْعَافَ مَا زَيَّنَهَا لَهُ ٱلْجَمَالُ ٱلَّذِيْ فِيْهَا ، وَقَذَفَهَا ٱلْقَدَرُ إِلَىٰ قَلْبِهِ لِيُخْرِجَ مِنْ هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ تَارِيْخَ جَرِيْمَةٍ ؛ فَوَقَفَ يَتَأَمَّلُهَا بِعَيْنٍ أَحَدَّ مِنْ آلَةِ ٱلتَّصْوِيْرِ لَا تَفُوْتُهَا حَرَكَةٌ ، وَسَلَّطَ

(١) فِي « ٱلرِّسالة » : « ٱلْمُسْتَعِفُ » بَدَلًا مِنَ : « ٱلْمُسْتَضْعَفُ » .
(٢) فِي « ٱلرِّسالة » : « لِتَمُوجَ » بَدَلًا مِنْ : « تَتَمَوَّجُ » .
(٣) فِي « ٱلرِّسالة » : « أَحبه أَن » بَدَلًا مِنْ : « أَحْسَبُهُ إِلَّا » .

عَلَيْهَا فِكْرَهُ وَذَوْقَهُ ، وَأَيْقَظَ لَهَا فِيْ نَفْسِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلرَّاقِدَةَ ، فَنَصَبَتْ فِيْ قَلْبِهِ عِدَّةً مِنْ تَمَاثِيْلِ ٱلْجَمَالِ تَجَسَّدَتْ فِيْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَىٰ شَكْلٍ كَأَنَّمَا أُفْرِغَتْ فِيْهِ إِفْرَاغًا .

* * *

وَكَانَتْ نَفْسُ ٱبْنِ ٱلْعُمْدَةِ مِنَ ٱلنُّفُوْسِ ٱلْخَيَالِيَّةِ ٱلْمُتَوَثِّبَةِ ؛ إِذْ قَامَتْ مِنْ نَشْأَتِهَا عَلَىٰ أَنْ تَطْلُبَ فَتُجَابَ ، وَتَأْمُرَ فَتُطَاعَ ، وَتَشْتَهِيَ فَتَجِدَ ، وَكَأَنَّهُ مَا خُلِقَ إِلَّا لِيَسْتَعْبِدَ قَلْبَيْ وَالِدَيْهِ ، وَكَانَا سَاذَجَيْنِ لَا يَعْرِفَانِ مِنْ عِلْمِ ٱلتَّرْبِيَةِ إِلَّا أَنَّ لِلْحُكُوْمَةِ مَدَارِسَ لِلتَّرْبِيَةِ ، وَمُوْسِرَيْنِ لَا يَفْهَمَانِ مِنْ مَعْنَىٰ ٱلْحَاجَةِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهَا ٱلْحَاجَةُ إِلَىٰ ٱلْمَالِ ، وَمُنْقَطِعَيْنِ مِنَ ٱلنَّسْلِ إِلَّا مِنْهُ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُوْلَدْ لَهُمَا بَلْ قَدْ وُلِدَا لَهُ . . . فَلَهُ ٱلأَمْرُ عَلَيْهِمَا مِنْ كَوْنِهِ لَا أَمْرَ لَهُمَا عَلَيْهِ ؛ وَبِذٰلِكَ أَسْرَفَا لَهُ مِنْ فَضَائِلِ ٱلرِّقَّةِ وَٱلْحَنَانِ وَٱلإِشْفَاقِ وَمَا إِلَيْهَا ، وَهِيَ فِيْ نَفْسِهَا فَضَائِلُ ، وَلَـٰكِنْ مَتَىٰ أَسْرَفَ بِهَا ٱلآبَاءُ عَلَىٰ أَوْلَادِهِمْ لَمْ تُنْشِئْ فِيْ أَوْلَادِهِمْ إِلَّا مَا يَكُوْنُ مِنْ أَضْدَادِهَا ، كَٱلشَّجَرِ تُفْرِطُ عَلَيْهِ ٱلرَّيَّ فَلَا يُحْدِثُ فِيْهِ إِلَّا ٱلْيَبَسَ ، وَٱلذَّوِيَّ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ تَسْقِيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دُمْتَ تَرْوِيْهِ بِمِقْدَارٍ مِنْ هَوَاكَ لَا بِمِقْدَارِ حَاجَتِهِ .

وَنَشَأَ ٱلْفَتَىٰ فِيْ أَحْوَالٍ ٱجْتِمَاعِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ جَعَلَتْ مِنْ أَخَصِّ طِبَاعِهِ تَمْوِيْهَ نَفْسِهِ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ ، وَٱلتَّبَاهِيْ بِٱلْغِنَىٰ ، وَٱلتَّنَبُّلَ بِٱلأَصْدِقَاءِ وَٱلْحَاشِيَةِ مِنْ وُزَرَائِهِ وَعُمَّالِهِ ، وَٱلتَّهَيُّؤَ بِٱلثِّيَابِ وَٱلأَزْيَاءِ ؛ فَٱنْصَرَفَ بَاطِنُهُ إِلَىٰ تَجْمِيْلِ ظَاهِرِهِ ، وَرَدَّ ظَاهِرُهُ عَلَىٰ بَاطِنِهِ بِٱلشَّهَوَاتِ وَٱلدَّنَايَا ، وَأَعَانَهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ أَنَّهُ جَمِيْلٌ فَاتِنٌ كَأَنَّمَا خُلِقَتْ صُوْرَتُهُ « لِلصَّفْحَةِ ٱلْحَسَّاسَةِ » مِنْ قُلُوْبِ ٱلنِّسَاءِ ؛ وَذٰلِكَ مُلْكٌ عَظِيْمٌ لَمْ يَكُنْ أَبُوْهُ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّيِّبُ مِنْهُ إِلَّا كَمَا يَكُوْنُ وَزِيْرُ مَالِيَّةِ ٱلدَّوْلَةِ . . .

وَلَمَّا أُرْسِلَ إِلَىٰ بَارِيْسَ Paris وَقَعَ مِنْهَا فِيْ بَلَدٍ عَجِيْبٍ كَأَنَّهُ خَيَالٌ مُتَخَيَّلٌ ، لَا يَؤُمُّهُ ٱلرَّجُلُ[١] فِيْ ٱلدُّنْيَا مِنْ كَامِلٍ أَوْ نَاقِصٍ ، وَعَالِمٍ أَوْ جَاهِلٍ ، وَشَرِيْفٍ أَوْ سَاقِطٍ ؛ إِلَّا رَأَىٰ فِيْهِ مَا يَمْلأُ كُلَّ مَدَاخِلِ نَفْسِهِ وَمَخَارِجِهَا ، فَلَوْ قَامَتْ مَدِيْنَةٌ مِنْ أَحْلَامِ ٱلنُّفُوْسِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ فِيْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَطُهْرِهَا وَفُجُوْرِهَا ، وَٱخْتِلَالِهَا وَنِظَامِهَا ، لَكَانَتْ هِيَ بَارِيْسَ Paris ؛ وَٱنْقَطَعَ ٱلشَّابُّ هُنَاكَ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَإِلَىٰ صُوَرِ نَفْسِهِ مِنْ أَصْدِقَاءِ ٱلسُّوْءِ ، فَلَا أَهْلٌ فَيُلْزِمُوْهُ ٱلْفَضِيْلَةَ ، وَلَا إِخْوَانٌ فَيَرُدُّوْهُ إِلَىٰ ٱلرَّأْيِ ، وَلَا خُلُقٌ مَتِيْنٌ فَيَعْتَصِمُ بِهِ ، وَلَا نَفْسٌ مُرَّةٌ فَيَفِيْءُ إِلَيْهَا ، وَلَا فَقْرٌ . . . فَيَحِدَّ لَهُ حُدُوْدًا فِيْ ٱلشَّهَوَاتِ يَقِفُ عِنْدَهَا ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا خَيَالٌ مُتَوَقِّدٌ

(١) فِي « ٱلرِّسالة » : « رَجُلٌ » بَدَلًا مِنَ : « ٱلرَّجُلُ » .

وَمِزَاجٌ مَشْبُوْبٌ وَتَرْبِيَةٌ مُدَلَّلَةٌ وَطَبْعٌ جَرِيْءٌ وَمَالٌ يَمُرُّ فِيْ إِنْفَاقِهِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ أَبٌ غَنِيٌّ مَخْدُوْعٌ كَأَنَّهُ فِيْ يَدِ ٱبْنِهِ كُرَةُ ٱلْخَيْطِ : كُلَّمَا جَذَبَ مِنْهَا مَدَّتْ لَهُ مَدًّا ، ثُمَّ مَا هُنَالِكَ مِنْ فُنُوْنِ ٱلْجَمَالِ وَمُتَعِ ٱللَّذَّاتِ وَأَسْبَابِ ٱللَّهْوِ ، مِمَّا يَتَنَاهَىٰ إِلَيْهِ فَسَادُ ٱلْفَاسِدِ ، وَمَا هُوَ فِيْ ذَاتِهِ كَأَنَّهُ عُقُوْبَةٌ مُسْتَأْصِلَةٌ لِلأَخْلَاقِ ٱلطَّيِّبَةِ ؛ فَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ ٱلْبَارِيْسِيُّ مِنْ هَـٰذَا ٱلْمِسْكِيْنِ فِيْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَرِجْلِهِ وَيَدِهِ ، يُوَجِّهُهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَبِٱلْجُمْلَةِ فَقَدْ ذَهَبَ لِيَدْرُسَ ، فَدَرَسَ مَا شَاءَ وَرَجَعَ أُسْتَاذًا فِيْ كُلِّ عُلُوْمِ ٱلنَّفْسِ ٱلْمُخْتَلَّةِ ٱلطَّائِشَةِ وَفُنُوْنِهَا ، وَأَضَافَ إِلَىٰ هَـٰذِهِ وَتِلْكَ كَلِمَاتٍ يَلْوِيْ بِهَا لِسَانَهُ مِنْ عُلُوْمٍ وَأَقَاوِيْلَ لَيْسَ فِيْهَا إِلَّا مَا يَدُلُّ ٱلْحَاذِقَ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا ٱلشَّابَّ لَمْ يُفْلِحْ قَطُّ فِيْ مَدْرَسَةٍ .

فَلَمَّا وَقَعَتْ (خَضْرَاءُ) مِنْهُ ذٰلِكَ ٱلْمَوْقِعَ وَأَخَذَتْ مَأْخَذَهَا فِيْ نَفْسِهِ ، ٱعْتَدَّهَا نَزْوَةً مِنْ نَزَوَاتِهِ ، فَمَا بِمِثْلِهِ أَنْ يُحِبَّ مِثْلَهَا ، وَلَا هِيَ كِفَايَتُهُ فِيْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ لَهْوَ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِهِ ، أَوْ حَادِثَةً تَجْرِيْ فِيْهَا حَالٌ مِنْ أَحْوَالِهِ ٱلْغَرَامِيَّةِ ، وَحَسِبَهَا ٱمْرَأَةً لَيْسَ لِقَلْبِهَا أَبْوَابٌ تَمْتَنِعُ عَلَىٰ مِثْلِهِ ، فَقَدَّرَ أَنَّ غِنَاهُ وَفَقْرَهَا يَقْتَلِعَانِ بَابًا ، وَعِلْمَهُ وَجَهْلَهَا يُحَطِّمَانِ بَابًا آخَرَ ، وَجَمَالَهُ وَحْدَهُ يَضَعُ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلأَقْفَالِ عَمَّا بَقِيَ مِنَ ٱلأَبْوَابِ ! وَكَانَ يَحْسَبُ أَنَّ جَمَالَ ٱلْمَرْأَةِ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ كَٱلْحِلْيَةِ مِنْ بَائِعِهَا ؛ فَكُلُّ مَنْ مَلَكَ ثَمَنَهَا فَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا هَـٰذَا ٱلثَّمَنِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلأَيَّامَ جَعَلَتْ تَأْتِيْ وَتَمُرُّ وَهُوَ لَا يَزِيْدُ عَلَىٰ أَنْ يَعْرِضَ لَهَا وَهِيَ تَرْمِيْهِ مِنْ صُدُوْدِهَا كُلَّ يَوْمٍ بِدَاعِيَةٍ مِنْ دَوَاعِيْ ٱلْهَوَىٰ ، وَكَانَ لَا يَجِدُ بِنَفْسِهِ قُوَّةَ أَنْ يَزِيْدَهَا عَلَىٰ ٱلنَّظَرِ شَيْئًا ، وَتَرَكَ لِوَجْهِهِ وَثِيَابِهِ وَنَظَرَاتِهِ وَغِنَاهُ أَنْ تَصِلَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَقَلْبِهَا بِسَبَبٍ ؛ فَلَمْ يَنَلْ طَائِلًا ، وَتَمَادَىٰ فِيْ حُبِّهِ ، وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ فِكْرَةٌ غَمَرَتْهُ بِهَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ، أَمَّا هِيَ فَأَشْعَرَتْهَا غَرِيْزَتُهَا بِمَا فِيْ قَلْبِهِ مِنْهَا ، وَكَانَتْ مُسَمَّاةً لِابْنِ عَمِّهَا[1] فَكَانَتْ تَتَحَاشَىٰ هَـٰذَا ٱلشَّابَّ وَتَحْذَرُهُ حَذَرًا شَدِيْدًا ، وَتَتَوَهَّمُ أَنَّ ٱلنَّاسَ يُحْصُوْنَ عَلَيْهَا ٱلنَّظْرَةَ وَٱلالْتِفَاتَةَ وَيُحْصُوْنَ عَلَيْهِ مِنْ مِثْلِهِمَا ، وَوَقَعَ فِيْ نَفْسِهَا أَنَّ لِهَـٰذَا ٱلرَّجُلِ شَأْنًا غَيْرَ شَأْنِ ٱلرِّجَالِ ٱلآخَرِيْنَ ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيْعُوْنَ مَعَهَا حِيْلَةً وَهُوَ يَسْتَطِيْعُهَا بِغِنَاهُ وَمَنْزِلَتِهِ .

وَكَانَ لِلرَّجُلِ خَادِمٌ دَاهِيَةٌ قَدْ تَخَرَّجَ فِيْ مَجَالِسِ ٱلْقَضَاءِ . . . مِنْ كَثْرَةِ مَا حُكِمَ عَلَيْهِ مِنْ تَزْوِيْرٍ[2] وَٱحْتِيَالٍ وَغِشٍّ وَٱدِّعَاءٍ وَإِنْكَارٍ وَنَحْوِهَا ، وَقَدِ ٱسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ وَٱتَّخَذَهُ مُؤَانِسًا

(١) مُعَدَّةٌ لِخِطْبَتِهِ ، أَوْ كَمَا يَقُوْلُوْنَ : قُرِئَتْ مَعَ أَهْلِهَا ٱلْفَاتِحَةُ .

(٢) فِي « ٱلرِّسَالَة » : « فِي تَزْوِيرٍ » بَدَلًا مِنْ : « مِنْ تَزْوِيرٍ » .

وَرَفِيْقًا ، وَجَعَلَهُ دَسِيْسًا[1] إِلَىٰ شَهَوَاتِهِ ٱلسَّافِلَةِ ، وَكَانَ يُسَمِّيْهِ فِيْمَا بَيْنَهُمَا (إِبْلِيْسَ) ؛ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْمِيَهَا بِهِ قَالَ : يَا سَيِّدِيْ ! هَـٰذِهِ قَضِيَّةُ ٱحْتِيَالٍ عَلَيْهَا ، فَإِذَا دَخَلَ ٱبْنُ عَمِّهَا خَصْمًا فِيْ ٱلدَّعْوَىٰ كَانَتْ قَضِيَّةَ ٱحْتِيَالٍ عَلَىٰ عُمْرِيْ أَنَا !

قَالَ : وَيْحَكَ أَيُّهَا ٱلأَبْلَهُ ! فَأَيْنَ دَهَاؤُكَ وَمَكْرُكَ ؟ وَإِنَّمَا أُرْسِلُكَ إِلَىٰ ٱمْرَأَةٍ فَقِيْرَةٍ عَيْشُهَا كَفَافُهَا ، وَأَنْتَ تَعِدُهَا وَتُمَنِّيْهَا وَتَبْذُلُ عَنِّيْ مَا شِئْتَ ، وَمَتَىٰ أَطْمَعْتَهَا فِيْ ٱلْمَالِ ، فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْمَالَ سَيُوْجِدُ مَا يُوْجِدُهُ[2] فِيْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَيَشْرِيْ مَا لَا يُشْرَىٰ ، وَيَبِيْعُ مَا لَا يُبَاعُ !

قَالَ (إِبْلِيْسُ) : نَعَمْ يَا سَيِّدِيْ ، وَكَذٰلِكَ هُوَ ، وَلَـٰكِنَّ خَوْفَ ٱلْعَارِ يَطْرُدُ حُبَّ ٱلْمَالِ !

قَالَ : فَأَنْتَ إِذًا لَا تَقْبَلُ ؟

قَالَ : وَلَا أَرْفُضُ . . .

قَالَ ٱلشَّابُّ : قَاتَلَكَ ٱللهُ ! لَقَدْ فَهِمْتُ ! سَأَشْتَرِيْهَا مِنْكَ بِثَمَنَيْنِ ، أَحَدُهُمَا لَكَ وَٱلآخَرُ لَهَا ؛ وَلَـٰكِنْ أَخْبِرْنِيْ كَيْفَ تَصْنَعُ مَعَهَا وَمِنْ أَيْنَ تَبْلُغُ إِلَيْهَا ؟

قَالَ (إِبْلِيْسُ) : لَمَّا كُنْتُ فِيْ ٱلسِّجْنِ عَرَفْتُ لِصًّا فَاتِكًا أَعْيَا قَوْمَهُ خُبْثًا وَشَرًّا ؛ وَهَـٰذَا ٱلسِّجْنُ يَحْسَبُهُ ٱلنَّاسُ عِقَابًا وَرَدْعًا وَمَنْهَاةً عَنِ ٱلإِثْمِ ، عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْمَدْرَسَةُ ٱلَّتِيْ تُنْشِئُهَا ٱلْحُكُوْمَةُ بِنَفْسِهَا لِتَلَقِّيْ عُلُوْمَ ٱلْجَرِيْمَةِ عَنْ كِبَارِ أَسَاتِذَتِهَا ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ كِبَارُهُمْ فِيْ مَكَانٍ مِنَ ٱلأَرْضِ إِلَّا فِيْهِ ، فَٱلسِّجْنُ طَرِيْقَةٌ مِنْ طُرُقِ حَلِّ ٱلْمُشْكِلَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَـٰكِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ يُحْدِثُ لِلإِنْسَانِيَّةِ مُشْكِلَةً لَا تُحَلُّ !

قَالَ ٱلْفَتَىٰ : وَيْحَكَ ! أَيْنَ يُذْهَبُ بِكَ ؟ إِنَّمَا أُرْسِلُكَ إِلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ لَا إِلَىٰ ٱلسِّجْنِ !

قَالَ : ⟦ نَعَمْ ، ⟧ تُرْسِلُنِيْ أَنْتَ إِلَيْهَا وَلَـٰكِنْ لَا يَعْلَمُ إِلَّا ٱللهُ أَيْنَ يُرْسِلُنِيْ ٱبْنُ عَمِّهَا : إِلَىٰ ٱلسِّجْنِ ، أَمْ إِلَىٰ ٱلْمُسْتَشْفَىٰ . . . ! فَٱسْمَعْ يَا سَيِّدِيْ : كَانَ مِنْ نَصَائِحِ أُسْتَاذِيْ فِيْ ذٰلِكَ ٱلسِّجْنِ ، أَنَّ ٱلْحِيْلَةَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْبَغِيْ لِإِحْكَامِهَا أَنْ يَكُوْنَ فِيْ بَعْضِ أَسْبَابِهَا ٱمْرَأَةٌ ، وَٱلْكَيْدُ لِامْرَأَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ فِيْ بَعْضِ وَسَائِلِهِ رَجُلٌ . . . صَهْ ! ٱنْظُرْ ٱنْظُرْ !

(١) جَاسُوْسًا وَصَاحِبَ سِرٍّ .

(٢) فِي « ٱلرِّسَالَة » : « لَا يُوجَدُ » بَدَلًا مِنْ : « يُوجِدُهُ » .

فَٱلْتَفَتَ ٱلشَّابُّ ، فَإِذَا (ٱلْجَمَلُ) مُقْبِلٌ يَتَكَفَّأُ فِي مِشْيَتِهِ ، وَكَانَ غَلِيظًا ، فَإِذَا خَطَا شَدَّ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ بِقَدَمَيْهِ وَتَكَدَّسَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ؛ وَكَانَ مُنْطَلِقًا وَقْتَئِذٍ إِلَىٰ بَعْضِ مَذَاهِبِهِ ، فَلَمَّا حَاذَاهُمَا قَالَ : ٱلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ ! فَرَدَّا جَمِيعًا ، وَرَمَىٰ ٱبْنَ ٱلْعُمْدَةِ بِنَظْرَةٍ ثُمَّ مَضَىٰ لِوَجْهِهِ ، فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّىٰ بَلَغَهُ صَوْتُ ٱلشَّابِّ يُنَادِيهِ : يَا فُلَانُ ! فَٱنْكَفَأَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ ٱلشَّابُّ : لَقَدْ بَعُدَ عَهْدُكَ بِٱلْقُوَّةِ عَلَىٰ مَا أَرَىٰ .

[قَالَ : فَمَا ذَاكَ ؟]

قَالَ : أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ فُلَانًا فِي هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي تُجَاوِرُنَا سَيَقْتَرِنُ بِزَوْجَتِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ ٱلْمَوْقِعَةَ ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَ بَلَدِنَا وَتِلْكَ ٱلْبَلْدَةِ يَوْمَ عُرْسِ فُلَانٍ فِي ٱلسَّنَةِ ٱلْمَاضِيَةِ ، وَكَيْفَ ٱنْدَفَعُوا عَلَىٰ أَهْلِ بَلَدِنَا وَحَطَمُوا فِيهِمْ تِلْكَ ٱلْحَطْمَةَ ٱلشَّدِيدَةَ ، وَلَوْلَا أَنْتَ أَدْرَكْتَهُمْ وَرَمَيْتَهُمْ بِنَفْسِكَ حَتَّىٰ دَفَعْتَهُمْ عَنِ ٱلنَّاسِ وَسُقْتَهُمْ أَمَامَكَ سَوْقَ ٱلنِّعَاجِ ، لَكَانَتْ بَلَدُنَا ٱلْيَوْمَ أَذَلَّ ٱلْبِلَادِ ، وَلَاسْتَطَالُوا عَلَيْنَا بِأَنَّهُمْ غَلَبُونَا ؛ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي صَاحِبِي هَٰذَا كَيْفَ تَلَقَّيْتَ بِهَرَاوَتِكَ يَوْمَئِذٍ خَمْسًا وَعِشْرِينَ هَرَاوَةً ، فَأَطَرْتَهَا كُلَّهَا فِي جَوْلَتِكَ ، وَهَزَمْتَ أَصْحَابَهَا بَعْدَ أَنْ أَحَاطُوا بِكَ وَتَكَلَّبُوا[1] عَلَيْكَ ، فَأَنْتَ فَخْرُ بَلَدِنَا وَصَاحِبُ زَعَامَتِهَا ، وَمَا أَرَىٰ لَكَ إِلَّا أَنْ تَنْتَهِزَ هَٰذِهِ ٱلْفُرْصَةَ وَتُسْرِعَ ٱلْوَثْبَةَ إِلَيْهِمْ بِرِجَالِكَ ، فَتَجْزِيَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَنِيعًا بِصَنِيعٍ مِثْلِهِ ! .

فَهَزَّ ٱلْجَمَلُ كَتِفَيْهِ ٱلْعَرِيضَتَيْنِ وَقَالَ : بَلْ سَأَنْتَظِرُهُمْ فِي يَوْمِ عُرْسِي بِٱبْنَةِ عَمِّي . . . !

قَالَ ٱلشَّابُّ : أَبَلَغْتَ مَا أَرَىٰ ؟ فَإِنَّكَ لَتَخَافُهُمْ !

قَالَ : لَا أَخَافُهُمْ ، وَلَٰكِنْ أَخَافُ ٱلْحُكُومَةَ أَنْ تُؤَخِّرَ يَوْمَ زَوَاجِي . . . سَنَةً أَوْ سَنَتَيْنِ !

قَالَ ٱلْفَتَىٰ : فَإِنَّ عَمَلَكَ هَٰذَا لَا يَشُدُّ مِنْ نُفُوسِ رِجَالِنَا ، وَلَا بُدَّ أَنَّ أُولَٰئِكَ سَيَنْتَظِرُونَكُمْ وَيَعُدُّونَ لَكُمْ ، فَإِذَا لَمْ تُنَاجِزُوهُمْ فِي بَلَدِهِمْ عَدُّوهَا عَلَيْكُمْ هَزِيمَةً مِنَ ٱلْهَزَائِمِ ، وَكَأَنَّهُمْ ضَرَبُوكُمْ بِلَا ضَرْبٍ ! .

قَالَ ٱلْجَمَلُ : هُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَىٰ ٱلضَّرْبِ بِلَا ضَرْبٍ ، لِأَنَّهُمْ رِجَالٌ ، وَٱلَّذِي يَضْرِبُ بِلَا ضَرْبٍ لَا يَكُونُ رَجُلًا . . . وَٱلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ !

(١) فِي « ٱلرِّسَالَةِ » : « وَتَكَابُوا » بَدَلًا مِنْ : « وَتَكَلَّبُوا » .

ثُمَّ ٱنْطَلَقَ ، فَلَمَّا ٱبْعَدَ قَالَ ٱلشَّابُّ : لَقَدْ بَدَأْتُ ٱلْحَرْبَ وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أُحَطِّمَ هَٰذَا ٱلْفَلَّاحَ ٱللَّعِينَ ، وَلَقَدْ عَرَفْتُ ٱلْآنَ مِنْ وَجْهِهِ أَنَّ عَيْنَهُ عَلَيَّ ، وَلَسْتُ أَشُكُّ فِي أَنَّ ٱبْنَةَ[1] عَمِّهِ لَا تَمْتَنِعُ بِقُوَّتِهَا بَلْ بِقُوَّتِهِ ، وَلَوْلَا مَعْرِفَتِي أَنَّهُ مِنَ ٱنْحِطَاطِ ٱلْغَرِيزَةِ كَٱلْوَحْشِ فِي ٱلدِّفَاعِ عَنْ أُنْثَاهُ لَـ . . .

قَالَ (إِبْلِيسُ) : لَقَدْ تَأَمَّلْتُ ٱلْقِصَّةَ فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَكَ إِلَىٰ ٱلْفَتَاةِ وَهِيَ بَعْدُ فَتَاةٌ ، فَإِذَا هُوَ وَصَلَ إِلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ قَطَعْتَ أَنْتَ بِهَٰذِهِ ٱلْخُطْوَةِ نِصْفَ ٱلطَّرِيقِ إِلَيْهَا . . . وَسَتَبْلُو هِيَ مِنْ غِلْظَتِهِ وَخُشُونَةِ طَبْعِهِ مَا يُسَهِّلُ لَكَ أَنْ تُعَلِّمَهَا قِيمَةَ ظَرْفِكَ وَرِقَّتِكَ ، وَسَتَجِدُ مِنْ سُوءِ مُعَامَلَتِهِ وَقُبْحِ تَسَلُّطِهِ مَا يَفْتَحُ قَلْبَهَا لِمَنْ يَأْتِيهَا مِنْ قِبَلِ ٱلرِّفْقِ وَٱللِّينِ ، وَسَتُصِيبُ عِنْدَهُ مِنْ ضِيقِ ٱلْمَعِيشَةِ وَقِلَّتِهَا وَيُبْسِهَا مَا يُفْهِمُهَا مَعْنَىٰ ذَٰلِكَ ٱلْعَيْشِ ٱلْحُلْوِ ٱلْخَضِرِ ٱلَّذِي تَعْرِضُهُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا بُدَّ مُبْتَلِيهَا بِغَيْرَتِهِ ٱلْعَمْيَاءِ بَعْدَ مَا عَرَفَ مِنْ حُبِّكَ إِيَّاهَا ، وَٱلْغَيْرَةُ مِنْكَ هِيَ تُوجِدُكَ بَيْنَهُمَا دَائِمًا وَتُنَبِّهُ ٱلْمَرْأَةَ إِلَيْكَ كُلَّمَا كَرِهَتْ مِنْ رَجُلِهَا شَيْئًا لَا تَرْضَاهُ .

وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مُدَّةٌ يَسِيرَةٌ حَتَّىٰ أُهْدِيَتِ ٱلْمَرْأَةُ إِلَىٰ زَوْجِهَا ، وَإِنَّمَا تَعَجَّلَ ٱلزِّفَافَ لِيَتَأَتَّىٰ[2] لَهُ أَنْ يَنْصِبَ يَدَهُ ٱلْقَوِيَّةَ حِجَابًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَٰذَا ٱلْمَفْتُونِ ، وَلِيَكْتَسِبَ مِنَ ٱلْقَانُونِ حَقًّا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ قَبْلُ إِذَا هُوَ مَدَّ هَٰذِهِ ٱلْيَدَ وَعَصَرَ فِي قَبْضَتِهَا تِلْكَ ٱلرَّقَبَةَ ٱلَّتِي تَتَطَلَّعُ إِلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ ؛ وَرَأَىٰ ٱلشَّابُّ أَنَّ هَٰذِهِ ٱلْحَالَ لَا تَعْتَدِلُ بِهِ وَبِخَصْمِهِ مَعًا ، وَكَانَتِ ٱلْغَيْرَةُ تَأْكُلُ مِنْ قَلْبِهِ أَكْلًا ، وَكَانَ يَعْرِضُ لِلْمَرْأَةِ كُلَّمَا خَرَجَتْ بِمِكْتَلِهَا[3] إِلَىٰ ٱلسُّوقِ أَوْ بِجَرَّتِهَا إِلَىٰ ٱلْمَاءِ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ فِي ٱلطَّرِيقِ ٱلَّذِي لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ . . . فَكَانَتْ إِذَا رَأَتْهُ لَمْ تَزِدْ عَلَىٰ مَا يَكُونُ مِنْهَا إِذَا هِيَ أَبْصَرَتْ حِمَارًا يَمُدُّ عَيْنَهُ إِلَيْهَا ! فَعَمَدَ إِلَىٰ ٱمْرَأَةٍ مُقَيِّنَةٍ[4] تَزُفُّ ٱلْعَرَائِسَ ، وَهِيَ ٱلَّتِي زَفَّتْ (خَضْرَاءَ) ، فَأَكْرَمَهَا وَأَتْحَفَهَا وَسَأَلَهَا أَنْ تُسْعِفَهُ بِبَعْضِ مَا تَحْتَالُ بِهِ ، وَأَنْ تَكُونَ سَبِيلَهُ إِلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ؛ وَتَحَمَّلَ عَلَيْهَا (بِإِبْلِيسِهِ) حَتَّىٰ ٱسْتَوْثَقَ مِنْهَا ، فَكَانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْهُ أَمَامَ (خَضْرَاءَ) ؛ تَسْتَجِرُّ بِذَٰلِكَ أَنْ تَلْفِتَهَا إِلَىٰ نِعْمَتِهِ وَجَمَالِهِ ، وَلَٰكِنَّ ٱلْمَرْأَةَ أَغْلَظَتْ لَهَا وَسَبَّتْهَا وَحَذَّرَتْهَا أَنْ

(١) فِي « ٱلرِّسَالَةِ » : « بِنْتَ » بَدَلًا مِنْ : « ٱبْنَةَ » .
(٢) فِي « ٱلرِّسَالَةِ » : « لِيَأْتِيَ » بَدَلًا مِنْ : « لِيَتَأَتَّىٰ » .
(٢) هُوَ مَا يُسَمَّىٰ ٱلْغَلَقَ .
(٣) فِي « ٱلرِّسَالَةِ » : « مُغَنِّيَةٍ » بَدَلًا مِنْ : « مُقَيِّنَةٍ » .

تَعُوْدَ إِلَىٰ مِثْلِ كَلَامِهَا ، وَقَالَتْ لَهَا آخِرَ مَا قَالَتْ : وَٱعْلَمِيْ أَنَّنِيْ لَوْ دُفِعْتُ إِلَىٰ طَرِيْقَيْنِ وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِهِمَا ، ثُمَّ كَانَ أَحَدُهُمَا حَصَاهُ ٱلدَّنَانِيْرُ وَهُوَ طَرِيْقُ ٱلْعَارِ ، وَٱلآخَرُ حَصْبَاؤُهُ ٱلْجَمْرُ وَيُفْضِيْ إِلَىٰ ٱلشَّرَفِ ، إِذَنْ لَتَنَزَّهْتُ أَنْ أُدَنِّسَ نَعْلِيْ بِٱلذَّهَبِ وَلَنَثَرْتُ لَحْمَ قَدَمَيَّ عَلَىٰ ٱلْجَمْرِ نَثْرًا .

وَٱلْحُبُّ لَا يُبْقِيْ[1] حُبًّا أَبَدًا ، فَإِمَّا فَازَ فَبَرَدَ وَرَجَعَ سُلُوًّا ، وَإِمَّا خَابَ فَٱضْطَرَمَ وَتَحَوَّلَ إِلَىٰ حِقْدٍ وَنِقْمَةٍ ؛ وَكَذَٰلِكَ ٱنْفَجَرَ ٱلشَّابُّ غَيْظًا ، وَوَجَدَ عَلَىٰ ٱلْخَيْبَةِ مَوْجِدَةً شَدِيْدَةً ، وَأَخَذَ يُدِيْرُ رَأْيَهُ ، فَفَتَقَتْ لَهُ ٱلْحِيْلَةُ أَنْ يَقْتُلَ ٱلرَّجُلَ ٱلشَّهْمَ بِشَهَامَتِهِ ؛ وَٱلْمَرْأَةَ ٱلْعَفِيْفَةَ بِعِفَّتِهَا ؛ فَوَاطَأَ إِبْلِيْسَهُ عَلَىٰ أَنْ يَدْفَعَ إِلَىٰ تِلْكَ ٱلْمُقَيِّنَةِ[2] مِنْدِيْلًا مِنَ ٱلْحَرِيْرِ عُقِدَ طَرَفُهُ عَلَىٰ دِيْنَارٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ ، تُلْقِيْهِ فِيْ صُنْدُوْقِ (خَضْرَاءَ) وَتَدُسُّهُ فِيْ طَيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ ثِيَابِهَا ، فَذَهَبَتِ ٱلْمَرْأَةُ ، وَمَا زَالَتْ بِخَضْرَاءَ تَسْتَصْلِحُهَا وَتَعْتَذِرُ إِلَيْهَا حَتَّىٰ ٱسْتَلَّتْ ضَغِيْنَةَ قَلْبِهَا ، ثُمَّ سَأَلَتْهَا أَنْ تَأْتِيَهَا (بِٱلْعَيْشِ وَٱلْمِلْحِ) لِتُصِيْبَ كِلْتَاهُمَا مِنْهُ وَتَتَحَرَّمَ بِحُرْمَتِهِ ؛ فَلَمَّا نَهَضَتْ تَأْتِيْهَا أَسْرَعَتِ ٱلْخَبِيْثَةُ إِلَىٰ ٱلصُّنْدُوْقِ فَدَسَّتِ ٱلْمِنْدِيْلَ فِيْ أَبْعَدِ مَوَاضِعِهِ وَأَخْفَاهَا ، وَكَانَ مُنَدًّى بِٱلْعِطْرِ لِيَنُمَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ إِذَا لَمْ يَنُمَّ أَحَدٌ عَلَيْهِ ؛ ثُمَّ رَجَعَتْ بِمَا فَعَلَتْ إِلَىٰ ٱلشَّابِّ ، فَأَطْلَقَ خَادِمَهُ يَهْمِسُ لِبَعْضِ أَصْدِقَاءِ ٱلْجَمَلِ أَنَّهُ رَأَىٰ ٱلْيَوْمَ فِيْ يَدِ (خَضْرَاءَ) دِيْنَارًا ذَهَبًا عَلَىٰ نُدْرَةِ ٱلذَّهَبِ وَعِزَّتِهِ ؛ فَجَعَلَ هَـٰذَا ٱلدِّيْنَارُ يَطِيْرُ مِنْ نَفْسٍ إِلَىٰ نَفْسٍ بِقُوَّةِ ٱلذَّهَبِ ٱلَّذِيْ فِيْهِ ، وَٱلْحُبِّ ٱلَّذِيْ أَعْطَاهُ ، وَٱلْجَمَالِ ٱلَّذِيْ أَخَذَهُ ؛ ثُمَّ ٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ ٱلْجَمَلِ ، فَكَأَنَّمَا حَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ إِلَىٰ دَارِهِ كَٱلْمَجْنُوْنِ وَقَدْ حَمِيَ دَمُهُ ٱلْحُرُّ ، وَجَاشَ جَأْشُهُ ٱلْعَنِيْفُ وَلَمْ تَكُنِ ٱمْرَأَتُهُ فِيْ ٱلدَّارِ ، فَنَثَرَ مَا فِيْ ٱلصُّنْدُوْقِ ، وَمَا كَادَتْ تَفْغَمُهُ رَائِحَةُ ٱلْعِطْرِ حَتَّىٰ نَفَخَ ٱلشَّيْطَانُ بِهَا نَفْخَةَ ٱلْغَضَبِ ٱلْكَافِرِ ، ثُمَّ عَثَرَ عَلَىٰ ٱلْمِنْدِيْلِ ، وَرَأَىٰ بَصِيْصَ ٱلدِّيْنَارِ ، فَدَارَتْ بِهِ ٱلأَرْضُ وَأَيْقَنَ أَنَّ ٱلْعَارَ قَدْ طَرَقَ بَابَهُ ، وَأَنَّ ٱلْبَابَ قَدْ فُتِحَ لَهُ ؛ ثُمَّ رَدَّ نَفْسَهُ عَلَىٰ مَكْرُوْهِهَا وَرَدَّ مَعَهَا كُلَّ شَيْءٍ إِلَىٰ مَوْضِعِهِ ، وَتَلَفَّفَ رَأْيُهُ عَلَىٰ جَرِيْمَتَيْنِ ، وَخَرَجَ وَرُوْحُهُ تَصْرُخُ مِنْ ضَرْبَةٍ بِمِنْدِيْلٍ ، وَهُوَ ٱلَّذِيْ كَانَتْ تَتَهَاوَىٰ عَلَيْهِ ٱلضَّرَبَاتُ ٱلْقَاتِلَةُ تُهَشِّمُ مِنْهُ وَلَا يَتَأَوَّهُ !

وَذَكَرَ أَنَّ (حَمَاتَهُ) أَثْنَتْ مِنْ عَهْدٍ قَرِيْبٍ عَلَىٰ ٱبْنِ ٱلْعُمْدَةِ وَوَصَفَتْهُ بِٱلرِّقَّةِ وَٱلْغِنَىٰ ، فَوَجَّهَ إِلَيْهَا أَنْ تَأْتِيَ فَتَبِيْتَ عِنْدَ ٱمْرَأَتِهِ لِأَنَّهُ عَلَىٰ سَفَرٍ ، وَكَانَ كَٱلأَعْمَىٰ فِيْ ضَلَالَتِهِ : لَا يَرَىٰ ٱلأَشْيَاءَ إِلَّا كَمَا يَتَخَيَّلُهَا فِيْ نَفْسِهِ دُوْنَ مَا هِيَ فِيْ نَفْسِهَا ، فَسَأَلَتْهُ زَوْجَتُهُ : أَيْنَ أَزْمَعْتَ وَمَا

(١) فِي « ٱلرِّسالة » : « وَأَمَّا ٱلْحُبُّ فَلَا يَبْقَىٰ » بَدَلًا مِنْ : « وَٱلْحُبُّ لَا يُبْقِي » .
(٢) فِي « ٱلرِّسالة » : « ٱلْمُغَنِّيَةِ » بَدَلًا مِنْ : « ٱلْمُقَيِّنَةِ » .

تَبْغِيْ مِنْ سَفَرِكَ وَكَمْ تَلْبَثُ عَنَّا ؟ فَكَأَنَّهُ سَمِعَهَا تَقُوْلُ : ٱرْحَلْ إِلَىٰ مَكَانٍ بَعِيْدٍ وَغِبْ عَنَّا زَمَنًا طَوِيْلًا ، فَبِنَا إِلَىٰ غِيَابِكَ حَاجَةٌ شَدِيْدَةٌ ! وَكَادَ يَبْطِشُ بِهَا ، وَلَـٰكِنَّهُ كَاتَمَ صَدْرَهُ ٱللَّوْعَةَ وَذَكَرَ ٱسْمَ جِهَةٍ بَعِيْدَةٍ وَمَضَىٰ وَٱلانْكِسَارُ يُعْرَفُ فِيْهِ !

* * *

فَزِعَ ٱلنَّاسُ بَعْدَ أَيَّامٍ فِيْ جَوْفِ ٱللَّيْلِ ، فَإِذْ بَيْتُ ٱلْجَمَلِ يَحْتَرِقُ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ ، وَٱقْتَحَمُوْهُ فَإِذَا ٱلْمَرْأَةُ وَأُمُّهَا فَحْمَتَانِ ؛ وَٱنْطَلَقَتْ أَشْرَارُ[1] ٱلأَلْسِنَةِ ، وَقُبِضَ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ فِيْ بَلَدٍ أُخْرَىٰ ، وَتَوَلَّىٰ ٱبْنُ ٱلْعُمْدَةِ تَوْجِيْهَ ٱلْبَيِّنَةِ عَلَيْهِ ، وَشَهِدَ ٱلشُّهُوْدُ عَلَىٰ ٱلدِّيْنَارِ ، وَشَهِدَ ٱلدِّيْنَارُ عَلَىٰ ٱلنَّارِ ، وَأَنْكَرَ « ٱلْجَمَلُ » وَلَمْ يُقَصِّرْ فِيْ إِقَامَةِ ٱلْحُجَّةِ ، وَدَافَعَ عَنِ ٱمْرَأَتِهِ وَبَالَغَ فِيْ أَمَانَتِهَا وَعِفَّتِهَا ، وَشَهِدَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ عَلَيْهَا مِنْ سُوْءٍ ، وَأَنَّهَا أَطْهَرُ ٱلنِّسَاءِ وَأَبَرُّهُنَّ ، ثُمَّ كَانَ ٱلْحُكْمُ أَنْ قُضِيَ عَلَيْهِ بِٱلْمَوْتِ شَنْقًا !

* * *

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ إِنْفَاذِ ٱلْحُكْمِ سُئِلَ ٱلرَّجُلُ : هَلْ مِنْ شَيْءٍ تُرِيْدُهُ ؟ فَطَلَبَ دَخِيْنَةً[2] فَقَدَّمَهَا لَهُ قَيِّمُ ٱلسِّجْنِ ، فَأَشْعَلَهَا وَنَفَخَ مِنْ دُخَانِهَا نَفْخَةً ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَكَلَّمُ وَعُمْرُهُ يَفْنَىٰ مَعَ ٱلدَّخِيْنَةِ نَفَسًا فِيْ نَفَسٍ ، وَعَادَ هَـٰذَا ٱلدُّخَانُ ٱلْمُتَطَايِرُ كَأَنَّهُ سَحَابٌ يَسْبَحُ فِيْهِ ٱلْوَحْيُ بَيْنَ حُدُوْدِ ٱلدُّنْيَا وَحُدُوْدِ ٱلآخِرَةِ ؛ قَالَ ٱلْمِسْكِيْنُ : لَمْ أَتَعَلَّمْ ، وَلَوْ تَعَلَّمْتُ مَا وَقَفْتُ هُنَا ؛ وَلَـٰكِنْ رُبَّمَا كُنْتُ خَرَجْتُ نَذْلًا كَبَعْضِ ٱلْمُتَعَلِّمِيْنَ ٱلَّذِيْنَ يَعِيْشُوْنَ أَشْرَافًا وَفِيْهِمْ أَرْوَاحُ ٱلْقَتَلَةِ وَٱللُّصُوْصِ ! .

لَمْ أُقِرَّ لِأَحَدٍ بِجَرِيْمَتِيْ خَشْيَةَ أَنْ تُذْكَرَ كَلِمَةُ ٱلْعَارِ مَعَ ٱسْمِيْ ، وَآثَرْتُ أَنْ أَمُوْتَ بِٱلشَّنْقِ عَلَىٰ أَنْ أَحْيَا وَيَمُوْتَ ٱسْمِيْ بِٱلْعَارِ ! .

وَلَـٰكِنِّيْ سَأَعْتَرِفُ ٱلآنَ أَمَامَكُمْ وَأَنْتُمُ ٱلسَّاعَةَ عَلَىٰ قَبْرِيْ ، فَكُوْنُوْا كَٱلْمَلَائِكَةِ لَا يَشْهَدُوْنَ بِمَا عَرَفُوْا إِلَّا عِنْدَ ٱللهِ وَحْدَهُ .

أَعْتَرِفُ أَنِّيْ قَتَلْتُ زَوْجَتِيْ وَأُمَّهَا ؛ وَقَدْ تَقُوْلُوْنَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِ ٱلرَّجُلِ أَنْ يَقْتُلَ ٱمْرَأَةً فَضْلًا عَنِ ٱثْنَيْنِ ؛ إِنَّنِيْ رَجُلٌ سَأُشْنَقُ ، أَمَّا ٱلنِّسَاءُ فَلَا يُشْنَقْنَ وَإِنَّمَا يُرْسِلْنَ ٱلرِّجَالَ إِلَىٰ ٱلْمِشْنَقَةِ . . لَمْ أَرَ أَبِيْ ؛ إِذْ تَرَكَنِيْ طِفْلًا ، وَلَـٰكِنْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا ، فَأَنَا رَجُلٌ وَٱبْنُ رَجُلٍ ،

(١) فِي « ٱلرِّسالة » : « أَسْرَارُ » بَدَلًا مِنْ : « أَشْرَارُ » .
(٢) وَضَعْنَاهَا لِلسِّيْجَارَةِ ، وَهِيَ أَلْيَقُ ٱلأَلْفَاظِ بِهَا .

وَلَمْ يُذِلَّنِي رَجُلٌ قَطُّ ، وَلَـٰكِنْ لَوْ خَلَقَ ٱللهُ قُوَّةَ مِئَةِ جَبَّارٍ فِي جِسْمِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لَأَذَلَّتْهُ ٱمْرَأَةٌ ! .

إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شِيمَةِ ٱلرَّجُلِ أَنْ يَقْتُلَ ٱلنِّسَاءَ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَرْأَةَ تُذِلُّ ٱلرَّجُلَ ذُلًّا يُهَوِّنُ عَلَيْهِ قَتْلَ نَفْسِهِ ، فَكَيْفَ لَا يُهَوِّنُ عَلَيْهِ قَتْلَهَا ؟ .

عَلِّمُوا ٱلْمُتَعَلِّمِينَ لِيَصِيرُوا فِي ٱلشَّرَفِ وَٱلْأَمَانَةِ وَٱلْعِفَّةِ كَرَجُلٍ جَاهِلٍ مِثْلِي : لَا يَرَىٰ لِلْحَيَاةِ كُلِّهَا قِيمَةً إِذَا كَانَ فِيهَا مَعْنَى ٱلْعَارِ ، وَيُقَدِّمُ عُنُقَهُ لِلْمِشْنَقَةِ حَتَّىٰ لَا يُنَكِّسَ رَأْسَهُ لِلذُّلِّ ! .

أَصْلِحُوا ٱلْقَانُونَ ٱلَّذِي يَحْكُمُ بِٱلْمَوْتِ شَنْقًا وَيُزْهِقُ ٱلْأَرْوَاحَ ٱلْكَبِيرَةَ ، فِي حِينِ تَغْلِبُهُ ٱلْأَرْوَاحُ ٱلصَّغِيرَةُ بِحِيَلِهَا ٱلدَّنِيئَةِ ! .

وَمَعَ ذَٰلِكَ سَأَلْقَى ٱللهَ وَهُوَ يَعْلَمُ سَرِيرَتِي إِنْ كُنْتُ بَرِيئًا أَوْ مُجْرِمًا ! .

قَيِّمُ ٱلسِّجْنِ : سَتَلْقَاهُ طَاهِرًا .

ٱلسَّجِينُ : أَرَأَيْتُمْ مِنِّي خُلُقَ سُوءٍ ؟ أَتَعْتَقِدُ عَلَيَّ ذَنْبًا مُدَّةَ سِجْنِي ؟ .

ٱلْقَيِّمُ : كُلُّنَا رَاضُونَ عَنْكَ .

ٱلسَّجِينُ : هَـٰذَا مَثَلٌ مِنْ أَخْلَاقِي ، وَٱلْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ أَنَّ آخِرَ كَلِمَةٍ أَسْمَعُهَا مِنْ إِنْسَانٍ عَلَى ٱلْأَرْضِ ـ كَلِمَةُ ٱلرِّضَا .

. . . .

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ ٱللهِ ! .

* * *

نَظَرَتْ رِيشَةٌ مِنْ زَغَبِ ٱلْعُصْفُورِ إِلَى ٱلنُّجُومِ فَحَسِبَتْهَا رِيشًا مُتَنَاثِرًا ، فَٱمْتَطَتِ ٱلْعَاصِفَةَ وَقَالَتْ : إِلَى ٱلسَّمَاءِ ! وَدَارَتْ بِهَا ٱلْعَاصِفَةُ مَا شَاءَ ٱللهُ أَنْ تَدُورَ ، ثُمَّ رَمَتْ بِهَا حَيْثُ وَقَعَتْ لَمْ تُبَالِ فِي مَوْضِعِ نَفْعٍ أَمْ ضُرٍّ ؛ فَأَقْبَلَتِ ٱلرِّيشَةُ تَتَسَخَّطُ وَتَزْعُمُ أَنَّهَا فَوْضَىٰ ثَائِرَةٌ لَا حِكْمَةَ فِي خَلْقِهَا ، وَأَنَّ ٱلرِّيَاحَ بَعْثَرَةٌ فِي نِظَامِ ٱلْعَالَمِ . . . وَكَانَ إِلَىٰ جَانِبِهَا شَجَرَةٌ تَهْتَزُّ وَلَا تَطِيرُ . . . فَلَمَّا وَعَتْ مَقَالَتَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا فَقَالَتْ : أَيَّتُهَا ٱلرِّيشَةُ ! إِنَّ ٱلرِّيَاحَ لَا تَكُونُ بَعْثَرَةً فِي نِظَامِ ٱلْعَالَمِ إِلَّا إِذَا كَانَ ٱلْعَالَمُ رِيشًا كُلُّهُ ! .

مصطفى صادق الرافعي

ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ[*][1]

١

أَقْبَلَ عَلَيَّ صَاحِبِي ٱلْأَدِيبُ وَقَالَ : ٱنْظُرْ ! هَـٰذِهِ هِيَ ! وَقَدْ حَلَّتْ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ وَمَالِي عَهْدٌ بِهَا مُنْذُ سَنَةٍ . وَمَدَّ إِلَيَّ يَدَهُ ، فَنَظَرْتُ إِلَىٰ صُورَةِ ٱمْرَأَةٍ كَأَحْسَنِ ٱلنِّسَاءِ وَجْهًا وَجِسْمًا ، تَتَأَوَّدُ فِي غِلَالَةٍ مِنَ ٱللَّاذِ[2] .

وَكَأَنَّ شُعَاعَ ٱلضُّحَىٰ فِي وَجْهِهَا ، وَكَأَنَّهَا ٱلْقَمَرُ طَالِعًا مِنْ غَيْمَةٍ ، وَيَكَادُ صَدْرُهَا يَتَنَهَّدُ وَهِيَ صُورَةٌ ، وَتَبْدُو هَيْئَةُ فَمِهَا كَأَنَّهَا وَعْدٌ بِقُبْلَةٍ ، وَفِي عَيْنَيْهَا نَظْرَةٌ كَٱلسُّكُوتِ بَعْدَ ٱلْكَلِمَةِ ٱلَّتِي قِيلَتْ هَمْسًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُحِبِّهَا . . .

فَقُلْتُ : هَـٰذِهِ صُورَةٌ مَا أَرَاهَا قَدْ رَسَمَهَا إِلَّا ٱثْنَانِ : ٱلْمُصَوِّرُ وَإِبْلِيسُ ، فَمَنْ هِيَ ؟ .

قَالَ : سَلْهَا ، أَمَا تَرَاهَا تَكَادُ تَثِبُ مِنَ ٱلْوَرَقَةِ ؟ إِنَّهَا إِلَّا تُخْبِرْكَ بِشَيْءٍ أَخْبَرَكَ عَنْهَا وَجْهُهَا أَنَّهَا أَجْمَلُ ٱلنِّسَاءِ وَأَظْرَفُهُنَّ ، وَأَحْسَنُ مَنْ شَاهَدْتَ وَجْهًا وَأَعْيُنًا ، وَثَغْرًا وَجِيدًا ، وَٱلَّذِي بَعْدَ ذَٰلِكَ . . .

قُلْتُ : وَيْحَكَ ! لَقَدْ شَعَرْتَ بَعْدِي ، إِنَّ هَـٰذَا شِعْرٌ مَوْزُونٌ [من الطويل] :

وَأَحْسَـنُ مَـنْ شَـاهَـدْتَ وَجْهًـا وَأَعْيُنًـا   وَثَغْـرًا وَجِيـدًا وَٱلَّـذِي بَعْـدَ ذَلِكَـا . . .

قَالَ : إِنَّ شَيْطَانَ هَـٰذِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا شَاعِرًا : أَلَسْتَ تَرَاهُ نَاظِمًا مِنْ فُنُونِهَا ، عَلَى ٱلرَّسْمِ شِعْرًا مُعْجِزًا كُلَّ شَاعِرٍ ؟ .

قُلْتُ : وَهَـٰذَا أَيْضًا شِعْرٌ مَوْزُونٌ [من الطويل] :

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٣ ، ١٠ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٧٢٣ ـ ١٧٢٥ .

(١) ٱنْظُرْ قِصَّةَ صَاحِبَةِ هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ فِي « عَوْدٍ عَلَىٰ بَدْءٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » ، وَهِيَ صَاحِبَةُ « ٱلْجَمَالِ ٱلْبَائِسِ » . سَعِيدٌ ٱلْعُرْيَانُ .

(٢) ٱللَّاذُ : ٱلْحَرِيرُ ٱلصِّينِيُّ ٱلرَّقِيقُ ؛ وَٱلْغِلَالَةُ : مِثْلُ ٱلْقَمِيصِ ٱلَّذِي تَحْتَ ٱلثِّيَابِ .

أَلَسْتَ تَرَاهُ نَاظِمًا مِنْ فُتُونِهَا ... عَلَى ٱلرَّسْمِ شِعْرًا مُعْجِزًا كُلَّ شَاعِرِ

قَالَ : بَلَىٰ وَٱللهِ إِنَّهُ ٱلشَّيْطَانُ ، إِنَّهُ شَيْطَانُهَا يُرِيكَ لِهَـٰذَا ٱلْجِسْمِ رُوحًا رَشِيقَةً ، تَلِينُ كَلِينِ ٱلْجِسْمِ بَلْ هِيَ أَرْشَقُ .

قُلْتُ : وَهَـٰذَا أَيْضًا ، وَٱلْقَافِيَةُ ٱلَّتِي بَعْدَ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ : وَبِهَا شَقُوْا . . .

فَضَحِكَ صَاحِبُنَا وَقَالَ : حَرِّكِ ٱلصُّورَةَ فِي يَدِكَ ، فَإِنَّكَ سَتَرَاهَا وَمَا تَشُكُّ أَنَّهَا تَرْقُصُ .

قُلْتُ : ٱلْآنَ ٱنْقَطَعَ شَيْطَانُكَ ، فَهَـٰذَا لَيْسَ شِعْرًا وَلَا يَجِيءُ مِنْهُ وَزْنٌ .

وَتَضَاحَكَا وَضَحِكَ ٱلشَّيْطَانُ ، وَظَهَرَ ٱلْوَجْهُ ٱلْجَمِيلُ فِي ٱلرَّسْمِ كَأَنَّهُ يَضْحَكُ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ : ٱنْظُرْ إِلَىٰ هَاتَيْنِ ٱلْعَيْنَيْنِ ، إِنَّهُمَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ٱلَّتِي تَفْتِنُ ٱلرَّجُلَ وَتَسْحَرُهُ مَتَىٰ نَظَرَتْ إِلَيْهِ ، وَتُعَذِّبُهُ وَتُضْنِيهِ مَتَىٰ غَابَتْ عَنْهُ ؛ إِنَّ فِي شُعَاعِهِمَا قُدْرَةً عَلَىٰ وَضْعِ ٱلنُّورِ فِي ٱلْقَلْبِ ٱلسَّعِيدِ ، كَمَا أَنَّ فِي سَوَادِهِمَا ٱلْقُدْرَةَ عَلَىٰ وَضْعِ ٱلظُّلْمَةِ فِي ٱلْقَلْبِ ٱلْمَهْجُورِ .

وَٱنْظُرْ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَمِ ، إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَمِ ٱلَّذِي تَعْجِزُ كُلُّ حَدَائِقِ ٱلْأَرْضِ أَنْ تُخْرِجَ وَرْدَةً حَمْرَاءَ تُشْبِهُهُ .

وَٱنْظُرْ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْجِيدِ تَحْتَهُ ذَلِكَ ٱلصَّدْرُ ٱلْعَارِي ، فَوْقَهُ ذَلِكَ ٱلْوَجْهُ ٱلْمُشْرِقُ تِلْكَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ ٱلضَّوْءِ ، أَمَّا ٱلْوَجْهُ فَفِيهِ رُوحُ ٱلشَّمْسِ ، وَأَمَّا ٱلْجِيدُ فَفِيهِ رُوحُ ٱلنَّجْمِ ، وَأَمَّا ٱلصَّدْرُ فَفِيهِ رُوحُ ٱلْقَمَرِ ٱلضَّاحِي .

ٱنْظُرْ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَسَافَةِ ٱلْبَيْضَاءِ مِنْ أَعْلَىٰ جَبِينِهَا إِلَىٰ أَسْفَلِ نَهْدَيْهَا ، تِلْكَ مِنْطَقَةُ ٱلْقُبُلَاتِ فِي جُغْرَافِيَةِ هَـٰذَا ٱلْجَمَالِ . . .

ٱنْظُرْ إِلَى ٱلصَّدْرِ يَحْمِلُ ذَيْنِكَ ٱلثَّدْيَيْنِ ٱلنَّاهِدَيْنِ ؛ إِنَّهُ ٱلْمَعْرِضُ ٱلَّذِي ٱخْتَارَتْهُ ٱلطَّبِيعَةُ مِنْ جِسْمِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْجَمِيلَةِ لِلْإِعْلَانِ عَنْ ثِمَارِ ٱلْبُسْتَانِ . . .

ٱنْظُرْ إِلَى ٱلنَّهْدَيْنِ ، لِمَ بَرَزَا فِي صَدْرِ ٱلْمَرْأَةِ إِلَّا إِذَا كَانَا يَتَحَدَّيَانِ ٱلصَّدْرَ ٱلْآخَرَ . . . ؟

وَٱنْظُرْ لِهَـٰذَا ٱلْخَصْرِ ٱلدَّقِيقِ وَمَا فَوْقَهُ وَمَا تَحْتَهُ ، أَلَا تَرَاهُ فِتْنَةً مُتَوَاضِعَةً بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مُتَكَبِّرَتَيْنِ . . . ؟

ٱنْظُرْ إِلَيْهَا كُلِّهَا ، ٱنْظُرْ إِلَىٰ كُلِّ هَـٰذَا ٱلْجَمَالِ ، وَهَـٰذَا ٱلسِّحْرِ ، وَهَـٰذَا ٱلْإِغْرَاءِ ؛ أَلَا تَرَى ٱلْكَنْزَ ٱلَّذِي يُحَوِّلُ ٱلْقَلْبَ إِلَىٰ لِصٍّ . . . ؟

هَـٰذِهِ مَخْلُوقَةٌ مَرَّتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنَ ٱللهِ فِي ٱلْعَالَمِ ، وَٱلْأُخْرَىٰ مِنْ حُبِّي أَنَا فِي نَفْسِي أَنَا : فَكَلِمَةُ « جَمِيلَةٍ » ٱلَّتِي تَصِفُ ٱلْمَرْأَةَ ٱلتَّامَّةَ ، لَا تَصِفُهَا هِيَ إِلَّا بَعْضَ ٱلْوَصْفِ ، وَرَسْمُهَا هَـٰذَا ٱلَّذِي تَرَاهُ إِنَّمَا هُوَ حُدُودٌ لِتِلْكَ ٱلرُّوحِ ٱلَّتِي فِيهَا قُوَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ ، وَهَيْهَاتَ يَظْهَرُ مِنْ تِلْكَ ٱلرُّوحِ إِلَّا مَا يَظْهَرُ مِنَ ٱلْجَمْرَةِ ٱلْمُشْتَعِلَةِ رَسْمُ هَـٰذِهِ ٱلْجَمْرَةِ فِي وَرَقَةٍ .

أَشْهَدُ مَا نَظَرْتُ مَرَّةً إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلرَّسْمِ ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهَا إِلَّا وَجَدْتُ ٱلْفَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي نَفْسِهَا وَبَيْنَهَا فِي ٱلصُّورَةِ ، كَأَنَّهُ ٱعْتِذَارٌ نَاطِقٌ مِنْ آلَةِ ٱلتَّصْوِيرِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا أَدَاةً .

* * *

قُلْتُ : ٱللَّهُمَّ غَفْرًا ، ثُمَّ مَاذَا يَا صَدِيقِيَ ٱلْمَجْنُونَ ؟ .

فَأَطْرَقَ ٱلْأَدِيبُ مَهْمُومًا ، وَكَانَتْ أَفْكَارُهُ تَنْفَجِرُ فِي دِمَاغِهِ ٱنْفِجَارًا هُنَا وَٱنْفِجَارًا هُنَاكَ ؛ ثُمَّ رَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ وَقَالَ :

هَـٰذِهِ ٱلْغَانِيَةُ قَدْ حَبَسَتْ أَفْكَارِي كُلَّهَا فِي فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا هِيَ ؛ وَأَغْلَقَتْ أَبْوَابَ نَفْسِي وَمَنَافِذَهَا إِلَى ٱلدُّنْيَا ، وَأَلْهَبَتْ فِي دَمِي جَمْرَةً مِنْ جَهَنَّمَ فِيهَا عَذَابُ ٱلْإِحْرَاقِ وَلَيْسَ فِيهَا ٱلْإِحْرَاقُ نَفْسُهُ كَيْلَا يَنْتَهِيَ مِنْهَا ٱلْعَذَابُ ! .

وَبَيْنَنَا حُبٌّ بِغَيْرِ طَرِيقَةِ ٱلْحُبِّ ، فَإِنَّ طَبِيعَتِيَ ٱلرُّوحَانِيَّةَ ٱلْكَامِلَةَ تَهْوَىٰ فِيهَا طَبِيعَتَهَا ٱلْبَشَرِيَّةَ ٱلنَّاقِصَةَ ، فَأَنَا أُمَازِجُهَا بِرُوحِي فَأَتَأَلَّمُ لَهَا ، وَأَتَجَنَّبُهَا بِجِسْمِي فَأَتَأَلَّمُ بِهَا .

حُبٌّ عَقِيمٌ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فِيهِ لَا يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ ٱلْوَاقِعِ . . .

حُبٌّ عَجِيبٌ لَا تَنْتَفِي مِنْهُ آلَامُهُ وَلَا تَكُونُ فِيهِ لَذَّاتُهُ .

حُبٌّ مُعَقَّدٌ لَا يَزَالُ يَلْقَى ٱلْمَسْأَلَةَ بَعْدَ ٱلْمَسْأَلَةِ ، ثُمَّ يَرْفُضُ ٱلْحَلَّ ٱلَّذِي لَا تُحَلُّ ٱلْمَسْأَلَةُ إِلَّا بِهِ .

حُبٌّ أَحمَقُ يَعشَقُ المَرأَةَ المَبذُولَةَ لِلنَّاسِ ، وَلَا يَرَاهَا لِنَفسِهِ إِلَّا قِدِّيسَةً لَا مَطمَعَ فِيهَا .

حُبٌّ أَبلَهُ لَا يَزَالُ فِي حَقَائِقِ الدُّنيَا كَالمُنتَظِرِ أَن تَقَعَ عَلَى شَفَتَيهِ قُبلَةٌ مِنَ الفَمِ الَّذِي فِي الصُّورَةِ .

حُبٌّ مَجنُونٌ كَالَّذِي يَرَى الحَسنَاءَ أَمَامَ مِرآتِهَا فَيَقُولُ لَهَا : اذهَبِي أَنتِ وَستَبقَى لِي هَـٰذِهِ الَّتِي فِي المِرآةِ . . .

* * *

قُلتُ : اللَّهُمَّ رَحمَةً ؛ ثُمَّ مَاذَا يَا صَاحِبِيَ المِسكِينَ ؟

قَالَ : ثُمَّ هَـٰذِهِ الَّتِي أُحِبُّهَا هِيَ الَّتِي لَا أُرِيدُ الاستِمتَاعَ بِهَا وَلَا أُطِيقُهُ وَلَا أَجِدُ فِي طَبِيعَتِي جُرأَةً عَلَيهِ ، فَكَأَنَّهَا الذَّهَبُ وَكَأَنِّي الفَقِيرُ الَّذِي لَا يُرِيدُ أَن يَكُونَ لِصًّا ؛ يَقُولُ لَهُ شَيطَانُ المَالِ : تَستَطِيعُ أَن تَطمَعَ ، وَيَقُولُ لَهُ شَيطَانُ الحَاجَةِ : وَتَستَطِيعُ أَن تَفعَلَ ، وَيَقُولُ هُوَ لِنَفسِهِ : لَا أَستَطِيعُ إِلَّا الفَضِيلَةَ !

إِنَّ عَذَابَ هَـٰذَا بِشَيطَانَينِ لَا بِشَيطَانٍ وَاحِدٍ ، غَيرَ أَنَّ لَذَّتَهُ فِي انتِصَارِهِ كَلَذَّةِ مَن يَقهَرُ بَطَلَينِ كِلَاهُمَا أَقوَى مِنهُ وَأَشَدُّ .

* * *

قُلتُ : اللَّهُمَّ عَفوًا ، ثُمَّ مَاذَا يَا قَاهِرَ الشَّيطَانَينِ ؟

فَأَطرَقَ مَلِيًّا كَالَّذِي يَنظُرُ فِي أَمرٍ قَد حَيَّرَهُ لَا يَتَوَجَّهُ لَهُ فِي أَمرِهِ وَجهٌ ، ثُمَّ تَنَهَّدَ وَقَالَ : يَا طُولَ عِلَّةِ قَلبِي ! مِن أَينَ أَجِيءُ لِأَحلَامِي بِغَيرِ مَا تَجِيءُ الأَحلَامُ بِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَحتَ النَّومِ وَوَرَاءَ العَقلِ وَفَوقَ الإِرَادَةِ ؟ لَقَد بَلَغَ بِي هَوَاهَا أَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ مِن كَلَامِ الحُبِّ فِي كِتَابٍ أَو رِوَايَةٍ أَو شِعرٍ أَو حَدِيثٍ ـ أَرَاهَا مُوَجَّهَةً إِلَيَّ أَنَا .

ثُمَّ قَالَ : انطَلِق بِنَا فَتَرَاهَا حَتَّى تَعلَمَ مِنهَا عِلمًا ، فَهِيَ فِي ذَلِكَ المَسرَحِ ، هِيَ فِي ذَلِكَ الشَّرِّ ، هِيَ فِي تِلكَ الظُّلُمَاتِ ، هِيَ كَاللُّؤلُؤَةِ لَا تَترَبَّى لُؤلُؤَةً إِلَّا فِي أَعمَاقِ بَحرٍ .

* * *

وَذَهَبنَا إِلَى مَسرَحٍ يَقُومُ فِي حَدِيقَةٍ غَنَّاءَ مُتَرَامِيَةِ الجِهَاتِ بَعِيدَةِ الأَطرَافِ تَظهَرُ تَحتَ اللَّيلِ مِن ظُلُمَاتِهَا وَأَنوَارِهَا كَأَنَّهَا مُثقَلَةٌ بِمَعَانِي الهَجرِ وَالعِشقِ .

وَتَقَدَّمنَا نَسِيرُ فِي الغَبَشِ ، فَقَالَ صَاحِبُنَا المُحِبُّ : إِنِّي لَأَشعُرُ أَنَّ الظَّلَامَ هُنَا حَيٌّ كَأَنَّ فِيهِ غَوَامِضَ قَلبٍ كَبِيرٍ ، فَمَا أَرَى فَرقًا بَينَ أَن أَجلِسَ فِيهِ وَبَينَ الجُلُوسِ إِلَى فَيلَسُوفٍ عَظِيمٍ مَهمُومٍ بِهَمِّ اللَّانِهَايَةِ ، فَتَعَالَ نَبرُز إِلَى ذَلِكَ النُّورِ حَولَ المَسرَحِ لِنَرَاهَا وَهِيَ مُقبِلَةٌ ، فَإِنَّ رُؤيَتَهَا سَيِّدَةً غَيرُ رُؤيَتِهَا رَاقِصَةً ، وَلِهَـٰذِهِ جَمَالُ فَنٍّ وَلِتِلكَ فَنُّ جَمَالٍ .

وَلَم نَلبَث إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى وَافَت ، وَرَأَيتُهَا تَمشِي مِشيَةَ الخَفِرَاتِ كَأَنَّمَا تَحتَرِمُ أَفكَارَ النَّاسِ ، يَزهُوهَا عَلَى ذَلِكَ إِحسَاسٌ نَبِيلٌ كَإِحسَاسِ المَلِكَةِ الشَّاعِرَةِ بِمَحَبَّةِ شَعبِهَا ؛ وَانتَفَضَ مَجنُونُنَا وَأَغمَضَ عَينَيهِ كَأَنَّهَا تَمُرُّ بَينَ ذِرَاعَيهِ لَا فِي طَرِيقِهَا . وَكَأَنَّ لَذَّةَ قُربِهَا مِنهُ هِيَ المُمكِنُ الَّذِي لَا يُمكِنُ غَيرُهُ .

وَكَانَ عَجَبًا مِنَ العَجَبِ أَن تَحَرَّكَ الهَوَاءُ فِي الحَدِيقَةِ وَاضطَرَبَت أَشجَارُهَا ، فَقَالَ : أَنتَ تَرَى ؛ فَهَـٰذَا احتِجَاجٌ مِن رَاقِصَاتِ الطَّبِيعَةِ عَلَى دُخُولِ هَـٰذِهِ الرَّاقِصَةِ . قُلتُ : آهٍ يَا صَدِيقِي ! إِنَّ المَرأَةَ لَا تَكُونُ امرَأَةً بِمَعَانِيهَا إِلَّا إِذَا وُجِدَت فِي جَوِّ قَلبٍ يَعشَقُهَا .

وَنَفَذنَا إِلَى المَسرَحِ ، وَتَحَرَّى صَاحِبُنَا مَوضِعًا يَكُونُ فِيهِ مَنظَرَ العَينِ مِن صَاحِبَتِهِ وَيَكُونُ مُستَخفِيًا مِنهَا ، ثُمَّ رُفِعَ السِّتَارُ عَنهَا بَينَ اثنَتَينِ يَكتَنِفَانِهَا ، وَقَد لَبِسنَ ثَلَاثَتُهُنَّ أَثوَابَ الرِّيفِيَّاتِ ، وَظَهَرنَ كَهَيئَاتِهِنَّ حِينَ يَجنِينَ القُطنَ .

وَبَرَزَت (تِلكَ) فِي ثَوبٍ مِنَ الحَرِيرِ الأَسوَدِ ، وَهِيَ بَيضَاءُ بَيَاضَ القَمَرِ حِينَ يَتِمُّ ، وَقَد شَدَّت وَسَطَهَا بِمِشَدَّةٍ مِنَ الحَرِيرِ الأَحمَرِ ، فَتَحَبَّكَت بِهَا وَظَهَرَت شَيئَينِ : أَعلَى وَأَسفَلَ ؛ ثُمَّ أَلقَت عَلَى شَعرِهَا الذَّهَبِيِّ قَلَنسُوَةً حَمرَاءَ مِن ذَلِكَ الحَرِيرِ أَمَالَتهَا جَانِبًا فَحَبَسَت شَيئًا مِنهُ وَأَظهَرَت سَائِرَهُ ، وَأَخَذَت بِيَدَيهَا صَفَّاقَتَينِ[1] ، وَأَقبَلَ الثَّلَاثُ يَرقُصنَ وَيُغَنِّينَ نَشِيدَ الفَلَّاحَةِ .

(١) الصَّفَّاقَاتُ ، هِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا : السَّاجَاتُ ، تَكُونُ فِي أَصَابِعِ الرَّاقِصَةِ ، وَالكَلِمَةُ وَارِدَةٌ فِي كِتَابِ « الأَغَانِي » .

لَمْ أَنْظُرْ إِلَىٰ غَيْرِهَا ، فَقَدْ كَانَتْ صَاحِبَتَاهُ دَلِيلَيْنِ عَلَىٰ جَمَالِهَا لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ ؛ وَمَا أَحْسَبُ ٱلْحَرِيرَ ٱلْأَحْمَرَ ، كَانَ مَعَهَا أَحْمَرَ وَلَا ٱلْأَسْوَدَ كَانَ عَلَيْهَا أَسْوَدَ ، وَلَا لَوْنَ ٱلذَّهَبِ فِي مِعْصَمِهَا كَانَ لَوْنَ ٱلذَّهَبِ ؛ كَلَّا كَلَّا ، هَـٰذِهِ أَلْوَانٌ فَوْقَ ٱلطَّبِيعَةِ ، لِأَنَّ ذَٰلِكَ ٱلْوَجْهَ يُشْرِقُ عَلَيْهَا بِٱلْجَمَالِ وَٱلْحَيَاةِ ، وَذَٰلِكَ ٱلْجِسْمُ يَفِيضُ لَهَا بِٱلْخِفَّةِ وَٱلطَّرَبِ ، وَتِلْكَ ٱلرُّوحُ تَبْعَثُ فِيهَا ٱلْمَرَحَ وَٱلنَّشْوَةَ ؛ هَـٰذَا مَزِيجٌ مِنْ خَمْرِ ٱلْأَلْوَانِ لَا مِنَ ٱلْأَلْوَانِ نَفْسِهَا .

وَقَالَ مَجْنُونُنَا : إِنَّ أَجْمَلَ ٱلْجَمَالِ فِي ٱلْمَرْأَةِ ٱلْفَاتِنَةِ هُوَ ذَاكَ ٱلَّذِي يَجْعَلُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَوْعَ شُعُورِهِ بِهَا ، وَأَنَا أَشْعُرُ ٱلسَّاعَةَ أَنَّ قَلْبِي نِصْفُ قَلْبٍ فَقَطْ ، وَأَنَّ نِصْفَهُ ٱلْآخَرَ فِي هَـٰذِهِ وَحْدَهَا ؛ فَمَا شُعُورُكَ أَنْتَ ؟

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي ! إِنَّ ٱللهَ رَحِيمٌ ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ أَخْفَىٰ ٱلْقَلْبَ وَأَخْفَىٰ بَوَاعِثَهُ لِيَظَلَّ كُلُّ إِنْسَانٍ مَخْبُوءًا عَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ ؛ فَدَعْنِي مَخْبُوءًا عَنْكَ !

قَالَ : لَا بُدَّ !

قُلْتُ : إِنَّ ٱلْمِصْبَاحَ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلنَّجِسِ لَا يَبْعَثُ ٱلنُّورَ نَجِسًا ، وَمَا أَشْعُرُ إِلَّا أَنَّ ٱلنُّورَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِي قَدِ ٱمْتَزَجَ بِٱلنُّورِ ٱلَّذِي فِي عَيْنَيْهَا .

ثُمَّ كَأَنَّهَا أَحَسَّتْ بِأَنَّ إِنْسَانًا قَدِ ٱمْتَلَأَ بِهَا ، فَأَدَارَتْ وَجْهَهَا وَهِيَ تَرْقُصُ فَتَلَمَّحَتْ صَاحِبَنَا ، وَجَعَلَتْ تُقَطِّعُ ٱلطَّرْفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ كَأَنَّهَا تَعْرِفُهُ وَتَجْهَلُهُ ، ثُمَّ تَبَيَّنَتْ إِلْحَاحَ نَظَرِهِ فَضَحِكَتْ لِأَنَّهَا تَعْرِفُهُ وَلَا تَجْهَلُهُ !

أَمَّا هُوَ ؛ أَمَّا ٱلْمَجْنُونُ ؛ أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ . . . . !

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ (*)
٢

. . . أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ ، فَرَأَىٰ ٱلضِّحْكَةَ ٱلَّتِي أَلْقَتْ بِهَا صَاحِبَتُهُ وَهِيَ تَرْقُصُ حِينَ عَرَفَتْهُ ـ غَيْرَ مَا رَأَيْتُهَا أَنَا وَغَيْرَ مَا رَأَىٰ ٱلنَّاسُ : كَانَتْ لَنَا نَحْنُ ٱبْتِسَامًا عَذْبًا مِنْ فَمٍ جَمِيلٍ يَتِمُّ جَمَالُهُ بِهَـٰذِهِ ٱلصُّورَةِ ، وَكَانَتْ لَهُ هُوَ لُغَةً مِنْ هَـٰذَا ٱلْفَمِ ٱلْجَمِيلِ يُتِمُّ بِهَا حَدِيثًا قَدِيمًا كَانَ بَيْنَهُمَا ؛ وَٱعْتَرَانَا مِنْهَا ٱلطَّرَبُ وَٱعْتَرَاهُ مِنْهَا ٱلْفِكْرُ ، وَوَصَفَتْ لَنَا نَوْعًا مِنَ ٱلْحُسْنِ وَوَصَفَتْ لَهُ نَوْعًا مِنَ ٱلشَّوْقِ ، وَمَرَّتْ عَلَيْنَا شُعَاعًا فِي ٱلضَّوْءِ وَوَقَعَتْ فِي يَدِهِ هُوَ كَبِطَاقَةِ ٱلزِّيَارَةِ عَلَيْهَا ٱسْمٌ مَكْتُوبٌ . . . .

وَقَوِيَ إِحْسَاسُ ٱلرَّاقِصَةِ ٱلْجَمِيلَةِ بَعْدَ ذَلِكَ فَٱنْبَعَثَ يَدُلُّ عَلَىٰ نَفْسِهِ ضُرُوبًا مِنَ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْخَفِيَّةِ ، وَرَجَعَتْ بِهَـٰذَا ٱلْإِحْسَاسِ كَٱلْحَقِيقَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْغَامِضَةِ ٱلْمَمْلُوءَةِ بِفُنُونِ ٱلرَّمْزِ وَٱلْإِيمَاءِ ، وَكَأَنَّهَا زَادَتْ بِهَـٰذَا ٱلْغُمُوضِ زِيَادَةً ظَاهِرَةً ؛ وَلِلْمَرْأَةِ لَحَظَاتٌ تَكُونُ فِيهَا بِفِكْرَيْنِ حِينَمَا يَكُونُ أَحَدُ ٱلْفِكْرَيْنِ مَاثِلًا أَمَامَهَا فِي رَجُلٍ تَهْوَاهُ ؛ فَفِي هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ تَتَحَدَّثُ ٱلْمَرْأَةُ بِكَلَامٍ فِيهِ صَمْتٌ يَشْرَحُ وَيُفَسِّرُ ، وَتَضْطَرِبُ بِحَرَكَةٍ فِيهَا ٱسْتِرْخَاءٌ يَمِيلُ وَيَعْتَنِقُ ، وَتَنْظُرُ بِأَلْحَاظٍ فِيهَا ٱنْكِسَارٌ يَأْمُرُ وَيَتَوَسَّلُ ، وَكَانَتْ هِيَ فِي هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ . . فَغَلَبَتْ وَٱللهِ عَلَىٰ صَاحِبِهَا ٱلْمِسْكِينِ وَتَرَكَتْ نَفْسَهُ كَأَنَّهَا تَتَقَطَّعُ فِيهِ مِنْ أَسَفٍ وَحَسْرَةٍ ؛ ثُمَّ كَانَتْ لَهُ كَٱلزَّهْرَةِ ٱلْعَبِقَةِ : بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا جَمَالُهَا وَعِطْرُهَا وَهَوَاؤُهَا وَٱلْحَاسَّةُ ٱلَّتِي فِيهِ .

وَجَعَلَ يَسْتَنْشِقُهَا مِنْ خِلَالِ أَعْضَائِهَا وَهِيَ تَرْقُصُ ، ثُمَّ قَالَ لِي : ٱنْظُرْ وَيْحَكَ ! لَكَأَنَّ ثِيَابَهَا تَضُمُّهَا وَتَلْتَصِقُ بِهَا ضَمَّ ذِي ٱلْهَوَىٰ لِمَنْ يَهْوَىٰ .

قُلْتُ : مَا هِيَ إِلَّا كَهَاتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ تَرْقُصَانِ مَعَهَا : ٱمْرَأَةٌ بَيْنَ ٱمْرَأَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ أَحْسَنَ ٱلثَّلَاثِ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٥ ، ٢٤ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ٩ نوفمبر/ تشرين الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٨٢٣ ـ ١٨٢٥ .

قَالَ : كَلَّا ! هَـٰذِهِ وَحْدَهَا قَصِيدَةٌ مِنْ أَرْوَعِ ٱلشِّعْرِ تَتَحَرَّكُ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَقْرَأَ ، وَتُرَىٰ بَدَلًا مِنْ أَنْ تُسْمَعَ ؛ قَصِيدَةٌ بِلَا أَلْفَاظٍ ، وَلَـٰكِنَّ مَنْ شَاءَ وَضَعَ لَهَا أَلْفَاظًا مِنْ دَمِهِ إِذَا هُوَ فَهِمَهَا بِحَوَاسِّهِ وَفِكْرِهِ وَشُعُورِهِ .

قُلْتُ : وَٱلْأُخْرَيَانِ ؟

قَالَ : كَلَّا كَلَّا ، هَـٰذَا فَنٌّ آخَرُ ، فَٱلْوَاحِدَةُ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمِسْكِينَاتِ إِنَّمَا تَرْقُصُ بِمَعِدَتِهَا . . . تَرْقُصُ لِلْخُبْزِ لَا غَيْرُ ؛ أَمَّا (تِلْكَ) فَرَقْصُهَا ٱلطَّرَبُ مَصْنُوعًا عَلَىٰ جِسْمِهَا وَمَصْنُوعًا مِنْ جِسْمِهَا ، إِنَّهَا كَٱلطَّاوُوسِ يَتَبَخْتَرُ فِي أَصْبَاغِهِ ، فِي رِيشِهِ ، فِي خُيَلَائِهِ ، بِخَتْرَةٍ يُضَاعِفُهَا ٱلْحُسْنُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَلَوْ خَلَقَ ٱللهُ جِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا مِنَ ٱلْجَوَاهِرِ أَحْمَرِهَا وَأَخْضَرِهَا وَأَصْفَرِهَا وَأَزْرَقِهَا ، وَٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْأَزْهَارِ فِي أَلْوَانِهَا وَوَشْيِهَا ، ثُمَّ ٱخْتَالَ ٱلطَّاوُوسُ بَيْنَهُمَا نَاشِرًا ذَيْلَهُ فِي كِبْرِيَاءِ رُوحِهِ ٱلْمُلَوَّنَةِ ـ لَظَهَرَ فِيهِ وَحْدَهُ ٱللَّوْنُ ٱلْمَلِكُ بَيْنَ أَلْوَانٍ هِيَ رَعِيَّتُهُ ٱلْخَاضِعَةُ .

* * *

وَٱنْتَهَىٰ رَقْصُ ٱلْحَسْنَاءِ ٱلْفَاتِنَةِ وَغَابَتْ وَرَاءَ ٱلسِّتَارَةِ بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَتْ قُبْلَةً فِي ٱلْهَوَاءِ . . . فَقَالَ صَاحِبُنَا : آهٍ ! لَوْ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْحَسْنَاءَ تَصَدَّقَتْ بِدِرْهَمٍ عَلَىٰ فَقِيرٍ ، لَجَعَلَتْهُ لَمْسَةُ يَدِهَا دِرْهَمًا وَقُبْلَةً . . .

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! قُبْلَةٌ مُحَرَّرَةٌ مُسَدَّدَةٌ وَقَدْ رَأَيْتُهَا وَقَعَتْ هُنَا . . . وَلَـٰكِنَّكَ دَائِمًا فِي خِصَامٍ بَيْنَ نَفْسِكَ وَبَيْنَ حَقَائِقِ ٱلْحَيَاةِ ؛ تَعْشَقُ ٱلْقُبْلَةَ وَتُخَاصِمُ ٱلْفَمَ ٱلَّذِي يُلْقِيهَا ، وَتَبْنِي ٱلْعُشَّ وَتَتْرُكُهُ فَارِغًا مِنْ طَيْرِهِ ؛ إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلَّتِي تُحِبُّكَ لَا بُدَّ مُنْتَهِيَةٌ(١) إِلَىٰ ٱلْجُنُونِ مَا دَامَتْ مَعَكَ فِي غَيْرِ ٱلْمَفْهُومِ وَغَيْرِ ٱلْمَعْقُولِ وَغَيْرِ ٱلْمُمْكِنِ .

ثُمَّ بَدَأَ فَصْلٌ آخَرُ عَلَىٰ ٱلْمَسْرَحِ وَظَهَرَ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ وَقِصَّةٌ ؛ وَكَانَ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ ٱلرِّجَالِ شَيْخٌ يُمَثِّلُ فَقِيهًا ، وَآخَرُ يُمَثِّلُ شُرْطِيًّا ؛ فَقَالَ صَاحِبُنَا ٱلْفَيْلَسُوفُ : لَقَدْ جَاءَتْ هَـٰذِهِ ٱلثِّيَابُ فَارِغَةً وَكَأَنَّهَا ٱلْآنَ تَنْطِقُ أَنَّ صِحَّةَ أَكْثَرِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ صِحَّةُ ٱلظَّاهِرِ فَقَطْ ، مَا دَامَ

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « أَنْ تَنْتَهِيَ » بَدَلًا مِنْ : « مُنْتَهِيَةٌ » .

ٱلظَّاهِرُ يُخْلَعُ وَيُلْبَسُ بِهَـٰذِهِ ٱلسُّهُولَةِ ، فَكَمْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مِنْ شُرَفَاءَ لَوْ حَقَّقْتَ أَمْرَهُمْ وَبَلَوْتَ ٱلْبَاطِنَ مِنْهُمْ لَرَأَيْتَهُمْ إِنَّمَا يُشَرِّفُونَ ٱلرَّذَائِلَ لِأَنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَهَا بِشَرَفٍ ظَاهِرٍ . . . وَكَمْ مِنْ أَغْنِيَاءَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱللُّصُوصِ إِلَّا أَنَّهُمْ يَسْرِقُونَ بِقَانُونٍ . . . وَكَمْ مِنْ فُقَهَاءَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْفَجَرَةِ إِلَّا أَنَّهُمْ يَفْجُرُونَ بِمَنْطِقٍ وَحُجَّةٍ . . . لَيْسَتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ بِهَـٰذِهِ ٱلسُّهُولَةِ ٱلَّتِي يَظُنُّهَا مَنْ يَظُنُّ ، وَإِلَّا فَفِيمَ كَانَ تَعَبُ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَشَقَاءُ ٱلْحُكَمَاءِ وَجِهَادُ أَهْلِ ٱلنُّفُوسِ ؟ .

ٱلْعُقْدَةُ ٱلسَّمَاوِيَّةُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَخْلُقِ ٱلْإِنْسَانَ إِلَّا حَيَوَانًا مُلَطَّفًا تَلْطِيفًا إِنْسَانِيًّا ، ثُمَّ أَرَاهُ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ وَقَالَ لَهُ : ٱجْعَلْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ إِنْسَانًا وَجِئْنِي .

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! فَمَا تَقُولُ فِي حُبِّكَ هَـٰذِهِ ٱلرَّاقِصَةَ وَأَنْتَ حَيَوَانٌ مُلَطَّفٌ تَلْطِيفًا إِنْسَانِيًّا ؟ .

قَالَ : وَيْحَكَ ! وَهَلِ ٱلْعُقْدَةُ إِلَّا هُنَا ؟ فَهَـٰذِهِ مَبْذُولَةٌ مُمْكِنَةٌ ، ثُمَّ هِيَ لِي كَٱلضَّرُورَةِ ٱلْقَاهِرَةِ ، فَلَا يَكُونُ حُبُّهَا إِلَّا إِغْرَاءً بِنَيْلِهَا ، وَلَا تَكُونُ سُهُولَةُ نَيْلِهَا إِلَّا إِغْرَاءً لِذَلِكَ ٱلْإِغْرَاءِ ؛ فَأَنَا مِنْهَا لَسْتُ فِي ٱمْرَأَةٍ وَحُبٍّ ، وَلَـٰكِنِّي فِي ٱمْتِحَانٍ شَدِيدٍ عَسِرٍ ؛ أُغَالِبُ نَامُوسًا مِنْ نَوَامِيسِ ٱلْكَوْنِ ، وَأُدَافِعُ قَانُونًا مِنْ قَوَانِينِ ٱلْغَرِيزَةِ ، وَأُظْهِرُ قُوَّتِي عَلَىٰ قُوَّةِ ٱلضَّرُورَةِ ٱلْمُيَسَّرَةِ بِأَسْبَابِهَا ، وَهِيَ أَشَدُّ ٱلضَّرُورَاتِ عُنْفًا وَإِلْحَاحًا وَقَهْرًا لِلنَّفْسِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا ضَرُورَةٌ لَازِمَةٌ ، وَأَنَّهَا مُهَيَّأَةٌ سَهْلَةٌ ؛ فَلَوْ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْمَحْبُوبَةَ كَانَتْ مُمْتَنِعَةً بَعِيدَةَ ٱلْمَنَالِ ، لَمَا كَانَتْ لِي فَضِيلَةٌ فِي هَـٰذَا ٱلْحُبِّ ٱلْعَنِيفِ ، وَلَـٰكِنَّهَا دَانِيَةٌ مُيَسَّرَةٌ عَلَىٰ ٱلشَّغَفِ وَٱلْهَوَىٰ ؛ فَهَـٰذَا هُوَ ٱلِامْتِحَانُ لِأَصْنَعَ أَنَا بِنَفْسِي فَضِيلَةَ نَفْسِي ! .

* * *

وَمَرَّ ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي مَثَّلُوهُ وَمَا نَشْعُرُ مِنْهُ بِتَمْثِيلٍ ، فَقَدْ كَانَ كَٱلصُّورَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْمُعْتَرِضَةِ لِلْعَقْلِ وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي غَيْرِهَا ، وَكَانَتِ (ٱلْحَقِيقَةُ) فِي شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ هَـٰذَا ، وَمَتَىٰ لَمْ يَتَعَلَّقِ ٱلشُّعُورُ بِٱلْفَنِّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَنٌّ ؛ وَهَـٰذَا هُوَ سِرُّ كُلِّ ٱمْرَأَةٍ مَحْبُوبَةٍ ، فَهِيَ وَحْدَهَا ٱلَّتِي تُثِيرُ شُعُورَ ٱلْمُحِبِّ فِي نَفْسِهِ فَيَشْعُرُ مِنْ حُسْنِهَا بِحَقِيقَةِ ٱلْحُسْنِ ٱلْمُطْلَقِ ، وَيَجِدُ فِي مَعَانِيهَا جَوَابَ مَعَانِيهِ ، وَتَأْتِيهِ كَأَنَّهَا صُنِعَتْ لَهُ وَحْدَهُ ، وَتَجْعَلُ لَهُ فِي ٱلزَّمَانِ زَمَنًا قَلْبِيًّا يَحْصُرُ وُجُودَهُ فِي وُجُودِهَا .

وَلَيْسَ فَنُّ ٱلْحُبِّ شَيْئًا إِلَّا ٱسْتِطَاعَةَ ٱلْحَبِيْبِ أَنْ يَجْعَلَ شَهَوَاتِ ٱلْمُحِبِّ شَاعِرَةً بِهِ مُمْتَلِئَةً مِنْهُ مُتَعَلِّقَةً عَلَيْهِ ، كَأَنَّ بِهِ وَحْدَهُ ظُهُوْرَ جَسَدِيَّةِ هَـٰذَا ٱلْجَسَدِ وَرُوْحَانِيَّةَ هَـٰذَا ٱلرُّوْحِ ؛ وَكُلُّ مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ ٱلْمَحْبُوْبُ لِلْمُحِبِّ فَإِنَّمَا هُوَ وَسَائِلُ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ لِإِظْهَارِ تِلْكَ ٱلْمَعَانِيْ ٱلَّتِيْ فِيْهِ ، كَيْمَا تَكْبُرُ فَيُدْرِكُهَا ٱلْمُحِبُّ بِدِقَّةٍ ، وَتَثُوْرُ فَيَحُسُّهَا ٱلْعَاشِقُ بِعُنْفٍ ، وَتَسْتَبِدُّ فَيَخْضَعُ لَهَا ٱلْمِسْكِيْنُ بِقُوَّةٍ .

وَٱلشَّهَوَاتُ كَٱلطَّبِيْعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فِيْ أَعْصَابِ ٱلْإِنْسَانِ ، وَهِيَ تَتْبَعُ فِكْرَهُ وَخَيَالَهُ وَلَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ ، أَوِ ٱلتَّنَبُّهِ وَٱلْخُمُوْدِ ، أَوِ ٱلْحِدَّةِ وَٱلسُّكُوْنِ ، غَيْرَ أَنَّهَا فِيْ ٱلْحُبِّ تَجِدُ لَهَا فِكْرًا وَخَيَالًا مِنَ ٱلْمَحْبُوْبِ ، فَتَكُوْنُ كَأَنَّهَا قَدْ غَيَّرَتْ طَبِيْعَتَهَا بِسِرٍّ مَجْهُوْلٍ مِنْ أَسْرَارِ ٱلْأُلُوْهِيَّةِ . وَمِنْ هُنَا يَتَأَلَّهُ ٱلْحَبِيْبُ وَهُوَ هُوَ لَمْ يَزِدْ وَلَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ وَلَمْ يَتَبَدَّلْ ، وَتَرَاهُ فِيْ وَهْمِ مُحِبِّهِ يَفْرِضُ فَرْضًا وَيُشَرِّعُ شَرِيْعَةً مِنْ حَيْثُ لَا قِيْمَةَ لِفُرُوْضِهِ وَشَرِيْعَتِهِ إِلَّا فِيْ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْمُؤْمِنَةِ بِهِ وَحْدَهَا .

وَمِنْ ثُمَّ لَا عِصْمَةَ عَلَىٰ ٱلْمُحِبِّ إِلَّا إِذَا وُجِدَ بَيْنَ إِيْمَانَيْنِ ، أَقْوَاهُمَا ٱلْإِيْمَانُ بِٱلْحَلَالِ وَٱلْحَرَامِ ؛ وَبَيْنَ خَوْفَيْنِ ، أَشَدُّهُمَا ٱلْخَوْفُ مِنَ ٱللهِ ؛ وَبَيْنَ رَغْبَتَيْنِ ، أَعْظَمُهُمَا ٱلرَّغْبَةُ فِيْ ٱلسُّمُوِّ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَاشِقُ ذَا دِيْنٍ وَفَضِيْلَةٍ فَلَا عِصْمَةَ عَلَىٰ ٱلْحُبِّ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ أَقْوَىٰ ٱلْإِيْمَانَيْنِ ٱلْحِرْصَ عَلَىٰ مَكَانَةِ ٱلْمَحْبُوْبِ فِيْ ٱلنَّاسِ ، وَأَشَدُّ ٱلْخَوْفَيْنِ ٱلْخَوْفَ مِنَ ٱلْقَانُوْنِ . . . وَأَعْظَمُ ٱلرَّغْبَتَيْنِ ٱلرَّغْبَةَ فِيْ نَتِيْجَةٍ مَشْرُوْعَةٍ كَٱلزَّوَاجِ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَـٰذَا أَوْ ذَاكَ فَقَلَّمَا تَجِدُ ٱلْحُبَّ إِلَّا وَهُوَ فِيْ جَرَاءَةِ كُفْرَيْنِ وَحَمَاقَةِ جُنُوْنَيْنِ ، وَٱنْحِطَاطِ سَفَالَتَيْنِ ، وَبِهَـٰذَا لَا يَكُوْنُ فِيْ ٱلْإِنْسَانَيْنِ إِلَّا دُوْنَ مَا هُوَ فِيْ بَهِيْمَتَيْنِ ! .

* * *

ثُمَّ جَاءَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّالِثُ وَظَهَرَتْ هِيَ عَلَىٰ ٱلْمَسْرَحِ ، ظَهَرَتْ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَةَ فِيْ ثَوْبِ مَرْكِيْزَةٍ أُوْرُبِّيَّةٍ تُخَاصِرُ عَشِيْقًا لَهَا ، فَيَرْقُصَانِ فِيْ أَدَبٍ أُوْرُبِّيٍّ مُتَمَدِّنٍ . . . مُتَمَدِّنٍ بِنِصْفِ وَقَاحَةٍ ؛

مُتَأَدِّبٍ . . . مُتَأَدِّبٍ بِنِصْفِ تَسَفُّلٍ ؛ مَشْرُوْعٍ . . . مَشْرُوْعٍ بِنِصْفِ كُفْرٍ ؛ هُوَ عَلَىٰ ٱلنِّصْفِ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ لَيَجْعَلَ ٱلْعَذْرَاءَ نِصْفَ عَذْرَاءٍ ؛ وَٱلزَّوْجَةَ نِصْفَ زَوْجَةٍ . . ! .

وَكَانَ ٱلَّذِيْ يُمَثِّلُ دَوْرَ ٱلْعَشِيْقِ فَتَاةٌ أُخْرَىٰ غُلَامِيَّةٌ مُجَمَّمَةُ ٱلشَّعْرِ[1] مَمْسُوْخَةٌ بَيْنَ ٱلْمَرْأَةِ وَٱلرَّجُلِ : فَلَمَّا رَآهَا صَاحِبُنَا قَالَ : هَـٰذَا أَفْضَلُ . .

وَهَشَّتِ ٱلْحَسْنَاءُ وَتَبَسَّمَتْ وَأَخَذَتْ فِيْ رَقْصِهَا ٱلْبَدِيْعِ ، فَٱنْفَصَلَ عَنِّيْ ٱلصَّدِيْقُ وَأَهْمَلَنِيْ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا بِٱلنَّظْرَةِ بَعْدَ ٱلنَّظْرَةِ ، كَأَنَّهُ يُكَرِّرُ غَيْرَ ٱلْمَفْهُوْمِ لِيَفْهَمَهُ ، وَرَجَعَ وَإِيَّاهَا كَأَنَّهُ فِيْ عَالَمٍ مِنْ غَيْرِ زَمَنِنَا تُقَدِّمُهُ عَنْ عَالَمِنَا سَاعَةٌ أَوْ تُؤَخِّرُهُ سَاعَةٌ ؛ وَكَانَتْ جُمْلَةُ حَالِهِ كَأَنَّهَا تَقُوْلُ لِيْ : إِنَّ ٱلدُّنْيَا ٱلْآنَ ٱمْرَأَةٌ ! وَكَانَ مِنَ ٱلسُّرُوْرِ كَأَنَّمَا نَقَلَهُ ٱلْحُبُّ إِلَىٰ رُتْبَةِ آدَمَ ، وَنَقَلَ صَاحِبَتَهُ إِلَىٰ رُتْبَةِ حَوَّاءَ ، وَنَقَلَ ٱلْمَسْرَحَ إِلَىٰ رُتْبَةِ ٱلْجَنَّةِ !

وَٱلْعَجَبُ أَنَّ ٱلْقَمَرَ طَلَعَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ وَأَفَاضَ نُوْرًا جَدِيْدًا عَلَىٰ ٱلْمَسْرَحِ ٱلْمَكْشُوْفِ فِيْ ٱلْحَدِيْقَةِ ، فَكَأَنَّهُ فَعَلَ هَـٰذَا لِيُتِمَّ ٱلْحُسْنَ وَٱلْحُبَّ ، وَأَخَذَ شُعَاعُ ٱلْقَمَرِ ٱلسَّمَاوِيِّ يَرْقُصُ حَوْلَ هَـٰذَا ٱلْقَمَرِ ٱلْأَرْضِيِّ ، فَكَانَتِ ٱلصِّلَةُ تَامَّةً وَثِيْقَةً بَيْنَ نَفْسِ صَاحِبِنَا وَبَيْنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ وَٱلْقَمَرَيْنِ .

مَا هَـٰذَا ٱلْوَجْهُ لِهَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ؟ إِنَّهُ بَيْنَ ٱللَّحْظَةِ وَٱللَّحْظَةِ يُعَبِّرُ تَعْبِيْرًا جَدِيْدًا بِقَسَمَاتِهِ وَمَلَامِحِهِ ٱلْفَتَّانَةِ : كُلُّ ٱلْبَيَاضِ ٱلْخَاطِفِ فِيْ نُجُوْمِ ٱلسَّمَاءِ يَجُوْلُ فِيْ أَدِيْمِهِ ٱلْمُشْرِقِ ، وَكُلُّ ٱلسَّوَادِ ٱلَّذِيْ فِيْ عُيُوْنِ ٱلْمَهَا يَجْتَمِعُ فِيْ عَيْنَيْهِ ، وَكُلُّ ٱلْحُمْرَةِ ٱلَّتِيْ فِيْ ٱلْوَرْدِ هِيَ فِيْ حُمْرَةِ هَاتَيْنِ ٱلشَّفَتَيْنِ .

مَا هَـٰذَا ٱلْجِسْمُ ٱلْمُتَّزِنُ ٱلْمُتَمَوِّجُ ٱلْمُفْرَغُ كَأَنَّهُ يَنْدَفِقُ هُنَا وَهُنَا ؟ إِنَّهُ جِسْمٌ كَامِلُ ٱلْأُنُوْثَةِ ، إِنَّهُ صَارِخٌ صَارِخٌ ، إِنَّهُ عَالَمُ جَمَالٍ كَمَا تَقُوْلُ ٱلْفَلْسَفَةُ حِيْنَ تَصِفُ ٱلْعَالَمَ : فِيْهِ « جِهَةُ فَوْقٍ » وَ« جِهَةُ تَحْتٍ » ؛ لَوِ ٱمْتَدَّتْ لَهُ يَدُ عَاشِقَةٍ لَجَعَلَ فِيْ خَمْسِ أَصَابِعِهَا خَمْسَ حَوَاسَّ . . .

(١) ٱلْمُجَمَّمَاتُ : هُنَّ ٱللَّوَاتِيْ يَتَّخِذْنَ شُعُوْرَهُنَّ جُمَّةً (بِضَمِّ ٱلْجِيْمِ) ، أَيْ : يَقْصُصْنَهَا ؛ كَمَا يَفْعَلُ نِسَاءُ هَـٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ تَشَبُّهًا بِٱلرِّجَالِ ؛ وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَصْنَعُهُ نِسَاءُ ٱلْعَرَبِ وَنَهَىٰ ٱلْإِسْلَامُ عَنْهُ كَرَاهَةً لِهَـٰذَا ٱلتَّشَبُّهِ ؛ فَقَصُّ ٱلشَّعْرِ (عَلَىٰ ٱلْمُوْدَةِ) هُوَ ٱلتَّجْمِيْمُ .

مَا هَـٰذَا ؟ مَا هَـٰذَا ؟ لَقَدْ خُتِمَ ٱلرَّقْصُ بِقُبْلَةٍ أَلْقَاهَا ٱلْخَلِيْلُ عَلَىٰ شَفَتَيْ ٱلْخَلِيْلَةِ ، وَكَانَتْ تَرَكَتْ خَصْرَهَا فِي يَدَيْهِ وَٱنْفَلَتَتْ تَمِيْلُ بِأَعْلَاهَا رَاجِعَةً بِرَأْسِهَا إِلَىٰ خَلْفٍ ، نَازِلَةً بِهِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا إِلَىٰ ٱلأَرْضِ ، هَارِبَةً بِشَفَتَيْهَا مِنَ ٱلْفَمِ ٱلْمُطِلِّ عَلَيْهَا ؛ وَكَانَ هَـٰذَا ٱلْفَمُ يَنْزِلُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا لِيُدْرِكَ ٱلْهَارِبَ . . .

وَقَبْلَ أَنْ تَقَعَ ٱلْقُبْلَةُ ٱلْتَفَتَتْ لَفْتَةً إِلَيَّ . . . ثُمَّ تَلَقَّتِ ٱلْقُبْلَةَ ، أَمَّا هُوَ ، أَمَّا مَجْنُوْنُنَا أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِيْنِ . . . ؟

طنطا — مصطفى صادق الرفعي

ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِيْنُ(*)
٣

أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِيْنِ ، فَرَمَقَهَا وَهِيَ تَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ٱلْتِفَاتَ ٱلظَّبْيَةِ بِسَوَادِ عَيْنَيْهَا ، يَجْعَلُ سَوَادُهُمَا ٱلْجَمِيْلُ فِي ٱلنَّظْرَةِ ٱلْوَاحِدَةِ نَظْرَتَيْنِ لِعَاشِقِ ٱلْجَمَالِ ، تَقُوْلُ إِحْدَاهُمَا : أَنْتَ ، وَتَقُوْلُ ٱلأُخْرَىٰ : أَنَا ؛ ثُمَّ رَآهَا(١) وَقَدْ كَسَرَتْ أَجْفَانَهَا وَتَفَتَّرَتْ فِي يَدَيْ ٱلْمُمَثِّلِ ٱلْعَشِيْقِ وَأَفْصَحَ مَنْظَرُهَا بِبَلَاغَةٍ . . . بِبَلَاغَةِ جِسْمِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمَحْبُوْبَةِ بَيْنَ ذِرَاعَيْ مَنْ تُحِبُّهُ ، ثُمَّ ٱخْتَلَجَتْ وَصَوَّبَتْ وَجْهَهَا ، وَأَهْدَفَتْ شَفَتَيْهَا ، وَتَلَقَّتِ ٱلْقُبْلَةَ .

وَكَانَ بِهِ مِنْهَا مَا ٱللهُ عَلِيْمٌ بِهِ ، فَٱنْبَعَثَ مِنْ صَدْرِهِ آهَةٌ مُعْوِلَةٌ تَئِنُّ أَنِيْنًا ، غَيْرَ أَنَّهَا كَلَّمَتْهُ بِعَيْنَيْهَا أَنَّهَا تُقَبِّلُهُ هُوَ ؛ فَلَا رَيْبَ قَدْ حَمَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَىٰ ٱلنَّسَمَاتُ شَيْئًا جَمِيْلًا عَنْ ذٰلِكَ ٱلْفَمِ ، لَمَسَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ ٱلنَّفْسَ ، وَٱلْقُبْلَةُ هِيَ هِيَ ، وَلَـٰكِنْ وَقَعَ خَطَأٌ فِي طَرِيْقَةِ إِرْسَالِهَا . . .

{ وَ } لَيْسَ تَحْتَ ٱلْخَيَالِ شَيْءٌ مَوْجُوْدٌ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْخَيَالَ ٱلْمُتَسَرِّحَ بَيْنَ ٱلْحَبِيْبَيْنِ تَكُوْنُ

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٦ ، ٢ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ١٦ نوفمبر/ تشرين الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٨٦٣ ـ ١٨٦٥ .

(١) فِي ٱلأَصْلِ : « أَرَاهَا » بَدَلًا مِنْ : « رَآهَا » .

فِيْهِ أَشْيَاءُ كَثِيْرَةٌ وَاجِبَةُ ٱلْوُجُوْدِ ؛ إِذْ هُوَ بِطَبِيْعَتِهِ مَجْرَىٰ أَحْلَامٍ مِنْ فِكْرٍ إِلَىٰ فِكْرٍ ، وَمَسْرَحُ شُعُوْرٍ يَصْدُرُ وَيَرِدُ بَيْنَ ٱلْقَلْبَيْنِ فِي حَيَاةٍ كَامِلَةِ ٱلإِحْسَاسِ مُتَجَاوِبَةِ ٱلْمَعَانِي ؛ وَبِهَـٰذَا ٱلْخَيَالِ يَكُوْنُ مَعَ ٱلْقَلْبَيْنِ ٱلْمُتَحَابَّيْنِ رُوْحٌ طَبِيْعِيٌّ كَأَنَّهُ قَلْبٌ ثَالِثٌ يَنْقُلُ لِلْوَاحِدِ عَنِ ٱلآخَرِ ، وَيَصِلُ ٱلسِّرَّ بِٱلسِّرِّ ، وَيَزِيْدُ فِي ٱلأَشْيَاءِ وَيُنْقِصُ مِنْهَا ، وَيَدْخُلُ فِي غَيْرِ ٱلْحَقِيْقِيِّ فَيَجْعَلُهُ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْحَقِيْقِيِّ ؛ وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنْ فَرَحٌ وَلَا حُزْنٌ ، وَلَا أَمَلٌ وَلَا يَأْسٌ ، وَلَا سَعَادَةٌ وَلَا شَقَاءٌ ، إِلَّا وَكُلُّ ذٰلِكَ مُضَاعَفٌ لِلْمُحِبِّ ٱلصَّادِقِ بِقَدْرِ قَلْبَيْنِ ؛ وَٱلَّذِيْنَ يَعْرِفُوْنَ قُبْلَةَ ٱلشَّغَفِ وَٱلْهَوَىٰ ، يَعْرِفُوْنَ أَنَّ ٱلْعَاشِقَ يُقَبِّلُ بِلَذَّةِ أَرْبَعِ شِفَاهٍ .

* * *

وَٱنْسَدَلَتْ بَعْدَ هَـٰذِهِ ٱلْقُبْلَةِ سِتَارَةُ ٱلْمَسْرَحِ ، وَغَابَتِ ٱلْجَمِيْلَةُ ٱلْمَعْشُوْقَةُ غَيْبَةَ ٱلتَّمْثِيْلِ ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِيْنِ : إِنَّ رُوْحَيْكُمَا مُتَزَوِّجَتَانِ . . .

قَالَ : آهٍ ! وَمَدَّهَا مِنْ قَلْبِهِ كَأَنَّهُ دَنِفٌ سَقِيْمٌ .

قُلْتُ : وَمَاذَا بَعْدَ آهٍ ؟ .

قَالَ : وَمَاذَا كَانَ قَبْلَهَا ؟ إِنَّهُ ٱلْحُبُّ : فِيْهِ مِثْلُ مَا فِي (عَمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ) مِنْ تَنَهُّدَاتِ ٱلأَلَمِ وَلَذَعَاتِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا مُفَرَّقَةٌ عَلَىٰ ٱلأَوْقَاتِ وَٱلأَسْبَابِ ، مُبَعْثَرَةٌ غَيْرُ مَجْمُوْعَةٍ ! « آهٍ » : هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْكَلِمَةُ ٱلَّتِي لَا تَفْرُغُ مِنْهَا ٱلْقُلُوْبُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ ، وَهِيَ تُقَالُ بِلَهْفَةٍ وَاحِدَةٍ فِي ٱلْمُصِيْبَةِ ٱلدَّاهِمَةِ ، وَٱلأَلَمِ ٱلْبَالِغِ ، وَٱلْمَرَضِ ٱلْمُدْنِفِ ، وَٱلْحُبِّ ٱلشَّدِيْدِ ؛ فَحِيْنَمَا تُوْشِكُ ٱلنَّفْسُ أَنْ تَخْتَنِقَ تَتَنَفَّسُ بِـ « آهٍ » !

قُلْتُ : أَمَا رَأَيْتَهَا مَرَّةً وَقَدْ أَوْشَكَتْ نَفْسُهَا أَنْ تَخْتَنِقَ . . . ؟

قَالَ : لَقَدْ هِجْتَ لِيْ دَاءً قَدِيْمًا ؛ إِنَّ لِهَـٰذِهِ ٱلْحَبِيْبَةِ سَاعَاتٍ مَغْرُوْسَةً فِي زَمَنَيْ غَرْسَ ٱلشَّجَرِ ، فَبَيْنَ ٱلْحِيْنِ وَٱلْحِيْنِ تُثْمِرُ هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَاتُ مُرَّهَا وَحُلْوَهَا فِي نَفْسِي كَمَا يُثْمِرُ ٱلشَّجَرُ ٱلْمُخْتَلِفُ . وَلَقَدْ رَأَيْتُهَا ذَاتَ مَرَّةٍ فِي سَاعَةِ هَمِّهَا ! ثُمَّ ضَحِكَ وَسَكَتَ .

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! مَاذَا رَأَيْتَ مِنْهَا ؟ وَكَيْفَ أَرَاكَ ٱلْوَجْدُ مَا رَأَيْتَ مِنْهَا ؟

قَالَ : أَتُصَدِّقُنِي ؟

قُلْتُ : نَعَمْ .

قَالَ : رَأَيْتُ ٱلْهَمَّ عَلَىٰ وَجْهِ هَـٰذِهِ ٱلْجَمِيلَةِ كَأَنَّهُ هَمٌّ مُؤَنَّثٌ يَعْشَقُهُ هَمٌّ مُذَكَّرٌ . . . فَلَهُ جَمَالٌ وَدَلَالٌ وَفِتْنَةٌ وَجَاذِبِيَّةٌ ، وَكَأَنَّ وَجْهَهَا يَصْنَعُ مِنْ حُزْنِهَا حُزْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا بِمَعْنَىٰ ٱلْهَمِّ لِقَلْبِهَا ! وَٱلآخَرُ بِمَعْنَىٰ ٱلثَّوْرَةِ لِقَلْبِي !

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! هَـٰذَا كَلَامٌ آخَرُ ؛ فَهَـٰذِهِ ٱمْرَأَةٌ نَاعِمَةٌ بَضَّةٌ مَطْوِيٌّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضِهَا ، لَفَّاءُ مِنْ جِهَةٍ هَيْفَاءُ مِنْ جِهَةٍ ، ثَقِيلَةُ شَيْءٍ وَخَفِيفَةُ شَيْءٍ ، جَمَعَتِ ٱلْحُسْنَ وَٱلْجِسْمَ وَفَنًّا بَارِعًا فِي هَـٰذَا وَفَنًّا مُفْرَدًا فِي ذَاكَ ، وَهِيَ جَمِيلَةٌ كُلَّ مَا تَتَأَمَّلُ مِنْهَا ، سَاحِرَةٌ كُلَّ مَا تَتَخَيَّلُ فِيهَا ، وَهِيَ مَزَّاحَةٌ دَحْدَاحَةٌ[1] ، وَهِيَ تُطَالِعُكَ وَتُطْمِعُكَ ، وَأَنْتَ ٱمْرُؤٌ عَاشِقٌ وَرَجُلٌ قَوِيُّ ٱلرُّجُولَةِ ، فَٱلْجَمِيلَةُ وَٱلْمَرْأَةُ هُمَا لَكَ فِي هَـٰذَا ٱلْجِسْمِ ٱلْوَاحِدِ ، إِنْ ذَهَبْتَ تَفْصِلُهُمَا فِي خَيَالِكَ ٱمْتَزَجَتَا فِي دَمِكَ ، وَلَوْ أَمْسَكَتْ آلَةُ ٱلتَّصْوِيرِ نَظَرَاتِكَ إِلَيْهَا لَبَانَتْ فِيهَا أَطْرَافُ ٱللَّهَبِ ٱلأَحْمَرِ مِمَّا فِي نَفْسِكَ مِنْهَا ، وَلَعَمْرِي لَوْ مَرَّتْ عَرَبَةٌ تَدْرُجُ فِي ٱلطَّرِيقِ وَنَظَرْتَ إِلَيْهَا نَظْرَتَكَ لِهَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ بِهَـٰذِهِ ٱلْغَرِيزَةِ ٱلْمُحْتَسِبَةِ ٱلْمَكْفُوفَةِ[2] لَظَنَنْتُكَ سَتَرَى ٱلْعَجَلَةَ ٱلْخَلْفِيَّةَ عَاشِقًا مُهْتَاجًا يُطَارِدُ ٱلْعَجَلَةَ ٱلأَمَامِيَّةَ وَهِيَ تَفِرُّ مِنْهُ فِرَارَ ٱلْعَذْرَاءِ . . . !

* * *

فَضَحِكَ وَقَالَ : لَا ، لَا ؛ إِنَّ نَوْعَ ٱلتَّصْوِيرِ لِإِنْسَانٍ هُوَ نَوْعُ ٱلْمَعْرِفَةِ لِهَـٰذَا ٱلإِنْسَانِ ، وَمِنْ كُلِّ حَبِيبٍ وَحَبِيبَةٍ تَجْتَمِعُ مُقَدِّمَةٌ وَنَتِيجَةٌ بَيْنَهُمَا تَلَازُمٌ فِي ٱلْمَعْنَىٰ ، وَٱلْمُقَدِّمَةُ عِنْدِي أَنَّ إِبْلِيسَ هُنَا فِي غَيْرِ إِبْلِيسِيَّتِهِ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ ٱلنَّتِيجَةُ وَضْعَهُ فِي إِبْلِيسِيَّتِهِ ؛ وَمَا أَتَصَوَّرُ فِيَّ هَـٰذِهِ ٱلْجَمِيلَةِ إِلَّا ٱلْفَنَّ ٱلَّذِي أَسْبَغَهُ ٱلْجَمَالُ عَلَيْهَا ، فَهِيَ فِي مَعْرِفَتِي وَخَيَالِي كَٱلتِّمْثَالِ ٱلْمُبْدَعِ إِبْدَاعَهُ[3] : لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا إِلَّا إِظْهَارَ شَكْلِهِ ٱلْجَمِيلِ ٱلتَّامِّ حَافِلًا بِمَعَانِيهِ .

---

(١) هَـٰذِهِ كَلِمَةٌ ٱسْتَعْمَلَهَا بَعْضُ ٱلْمُوَلَّدِينَ فِي مَعْنَىٰ ٱلظَّرِيفَةِ (ٱلْمُدَرْدِحَةِ) . وَلَيْسَ كَذَلِكَ مَعْنَاهَا فِي ٱللُّغَةِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلِاسْتِعْمَالَ صَحِيحٌ عِنْدَنَا ، وَٱللُّغَةُ لَا تَأْبَاهُ .

(٢) يَسْتَعْمِلُ ٱلْكُتَّابُ فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ لَفْظَ (ٱلْمَكْبُوتَةِ) ؛ وَهُوَ تَعْبِيرٌ ضَعِيفٌ ، وَٱلأَفْصَحُ مَا ذَكَرْنَا هُنَا .

(٣) فِي ٱلأَصْلِ : « بَدَاعَةٌ » بَدَلًا مِنْ : « إِبْدَاعَهُ » .

وَلَيْسَتْ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ هِيَ ٱلأُولَىٰ وَلَا ٱلثَّانِيَةُ وَلَا ٱلثَّالِثَةُ فِيمَنْ أَحْبَبْتُ[1] ؛ إِنَّهَا تَكْرَارٌ وَإِيضَاحٌ وَتَكْمِلَةٌ لِشَيْءٍ لَا يَكْمُلُ أَبَدًا ، وَهُوَ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلنِّسْوِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلَّتِي يَزِيدُ ٱلشَّيْطَانُ فِيهَا مِنْ عِشْقِ كُلِّ عَاشِقٍ ؛ إِنَّ بَطْنَ ٱلْمَرْأَةِ يَلِدُ ، وَوَجْهُ ٱلْمَرْأَةِ يَلِدُ ! .

قُلْتُ : هَـٰذَا إِنْ كَانَ وَجْهُهَا كَوَجْهِ صَاحِبَتِكَ ، وَلَـٰكِنْ مَا بَالُ ٱلدَّمِيمَةِ ؟ .

قَالَ : لَا ، هَـٰذَا وَجْهٌ عَاقِرٌ . . .

* * *

قُلْتُ : وَلَـٰكِنَّ ٱلْخَطَأَ فِي فَلْسَفَتِكَ هَـٰذِهِ أَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ نَظْرَةً عَمَلِيَّةً تُرِيدُ أَنْ تَعْمَلَ ثُمَّ تَمْنَعُهَا أَنْ تَعْمَلَ ؛ فَتَأْتِي فَلْسَفَتُكَ بَعِيدَةً مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَكَأَنَّكَ تَغْذُو ٱلْمَعِدَةَ ٱلْجَائِعَةَ بِرَائِحَةِ ٱلْخُبْزِ فَقَطْ .

قَالَ : نَعَمْ هَـٰذَا خَطَأٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ ٱلْخَطَأُ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْحَقَائِقَ ٱلْخَالِيَةَ مِنْ هَـٰذَا ٱلْجَمَالِ ؛ فَإِذَا سَخِرَتْ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمَادِّيَّةِ بِأُسْلُوبٍ فَبِهَـٰذَا ٱلأُسْلُوبِ عَيْنِهِ تُثْبِتُ ٱلْحَقِيقَةُ نَفْسَهَا فِي شَكْلٍ آخَرَ قَدْ يَكُونُ أَجْمَلَ مِنْ شَكْلِهَا ٱلأَوَّلِ .

أَتَعْلَمُ كَيْفَ كَانَتْ نَظْرَتِي إِلَىٰ نُورِ ٱلْقَمَرِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ وَإِلَىٰ حُسْنِ هَـٰذِهِ عَلَىٰ ٱلْقَمَرِ ؟ إِنَّ ٱلْقَمَرَ كَانَ يُنْسِينِي بَشَرِيَّتَهَا فَأَرَاهَا مُتَمِّمَةً لَهُ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي مِرْآةٍ ، فَهِيَ خَيَالُ وَجْهِهِ ؛ وَكَانَتْ هِيَ تُنْسِينِي مَادِّيَّةَ ٱلْقَمَرِ فَأَرَاهُ مُتَمِّمًا لَهَا كَأَنَّهُ خَيَالُ وَجْهِهَا .

أَتَدْرِي مَا نَظْرَةُ ٱلْحُبِّ ؟ إِنَّ فِي هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ ٱلإِنْسَانِيِّ شَرَارَةً كَهْرَبَائِيَّةً مَتَىٰ ٱنْقَدَحَتْ زَادَتْ فِي ٱلْعَيْنِ أَلْحَاظًا كَشَّافَةً ، وَزَادَتْ فِي ٱلْحَوَاسِّ أَضْوَاءً مُدْرِكَةً ؛ فَيَنْفُذُ ٱلْعَاشِقُ بِنَظَرِهِ وَحَوَاسِّهِ جَمِيعًا فِي حَقَائِقِ ٱلأَشْيَاءِ ، فَتَكُونُ لَهُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ زِيَادَةٌ فِي ٱلرُّؤْيَةِ وَزِيَادَةٌ فِي ٱلإِدْرَاكِ يَحْمِلُ بِهَا عَمَلًا فِيمَا يَرَاهُ وَمَا يُدْرِكُهُ ؛ وَبِهَـٰذِهِ ٱلزِّيَادَةِ ٱلْجَدِيدَةِ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ تَكُونُ لِلدُّنْيَا حَالَةٌ جَدِيدَةٌ فِي هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ ، وَيَأْتِي ٱلسُّرُورُ جَدِيدًا وَيَأْتِي ٱلْحُزْنُ جَدِيدًا أَيْضًا ؛

---

(١) { ٱنْظُرْ فَصْلَ « ٱلرَّافِعِيُّ ٱلْعَاشِقُ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

فَأَلْفُ قُبْلَةٍ يَتَنَاوَلُهَا أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ أَلْفِ حَبِيبٍ ؛ هِيَ أَلْفُ نَوْعٍ مِنَ ٱللَّذَّةِ وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَلَوْ بَكَىٰ أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ هَجْرِ أَلْفِ مَعْشُوقٍ لَكَانَ فِي كُلِّ دَمْعٍ نَوْعٌ مِنَ ٱلْحُزْنِ لَيْسَ فِي ٱلْآخَرِ !

* * *

قُلْتُ : فَنَوْعُ تَصَوُّرِكَ لِهَـٰذِهِ ٱلرَّاقِصَةِ ٱلَّتِي تُحِبُّهَا ، أَنَّ إِبْلِيسَ هُنَا فِي غَيْرِ إِبْلِيسِيَّتِهِ . . . !

قَالَ : هَـٰكَذَا هِيَ عِنْدِي ، وَبِهَـٰذَا أَسْخَرُ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْإِبْلِيسِيَّةِ .

قُلْتُ : أَوَتَسْخَرُ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلْإِبْلِيسِيَّةُ مِنْكَ ، وَهُوَ ٱلْأَصَحُّ وَعَلَيْهِ ٱلْفَتْوَىٰ . . .

فَضَحِكَ طَوِيلًا وَقَالَ : سَأُحَدِّثُكَ بِغَرِيبَةٍ : أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْغَادَةَ لَا تَظْهَرُ أَبَدًا إِلَّا فِي ٱلْحَرِيرِ ٱلْأَسْوَدِ ؛ وَهِيَ رَقِيقَةُ ٱلْبَشَرَةِ نَاصِعَةُ ٱللَّوْنِ ، فَيَكُونُ لَهَا مِنْ سَوَادِ ٱلْحَرِيرِ بَيَاضُ ٱلْبَيَاضِ وَجَمَالُ ٱلْجَمَالِ ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ بَعْدَ ٱلْعَشَاءِ فِي طَرِيقِي إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَكَانِ لِأَرَاهَا ، وَكَانَ ٱللَّيْلُ مُظْلِمًا يَتَدَجَّىٰ ، وَقَدْ لَبِسَ وَتَلَبَّسَ وَغَلَبَ عَلَىٰ مَصَابِيحِ ٱلطَّرِيقِ فَحَصَرَ أَنْوَارَهَا حَتَّىٰ جَعَلَ بَيْنَ كُلِّ مِصْبَاحَيْنِ ظُلْمَةً قَائِمَةً كَٱلرَّقِيبِ بَيْنَ حَبِيبَيْنِ يَمْنَعُهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا ؛ فَبَيْنَا أُقَلِّبُ عَيْنَيَّ فِي ٱلنُّورِ وَٱلْغَسَقِ وَأَنَا فِي مِثْلِ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلْأَفْكَارُ ٱلْمُحْزِنَةُ أَشَدَّ حُزْنًا - إِذْ رُفِعَ لِي مِنْ بَعِيدٍ شَبَحٌ أَسْوَدُ يَمْشِي مِشْيَتَهُ مُتَفَتِّرًا قَصِيرَ ٱلْخَطْوِ يَهْتَزُّ وَيَتَبَخْتَرُ ؛ فَتَبَصَّرْتُهُ فِي هَيْئَةٍ فَمَا شَكَكْتُ أَنَّهَا هِيَ . وَفُتِحَتِ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي فِي خَيَالِي وَبَرَزَتِ ٱلْحَقَائِقُ ٱلْكَثِيرَةُ تَلْتَمِسُ مَعَانِيَهَا فِي لَذَّةِ ٱلْحُبِّ ، وَكَانَ ٱلطَّرِيقُ خَالِيًا ، فَأَحْسَسْتُ بِهِ لَنَا وَحْدَنَا كَٱلْمَسَافَةِ ٱلْمَحْصُورَةِ بَيْنَ ثَغْرَيْنِ مُتَعَاشِقَيْنِ يَدْنُو أَحَدُهُمَا مِنَ ٱلْآخَرِ ، وَأَسْرَعْتُ إِسْرَاعَ ٱلْقَلْبِ إِلَى ٱلْفُرْصَةِ حِينَ تُمْكِنُ ؛ فَلَمَّا صِرْتُ بِحَيْثُ أَتَبَيَّنُ ذٰلِكَ ٱلشَّبَحَ إِذَا هُوَ . . . إِذَا هُوَ قِسِّيسٌ . . .

* * *

فَقُلْتُ : يَا عَجَبًا ! مَا أَظْرَفَ مَا دَاعَبَكَ إِبْلِيسُ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ ! وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَكَ : إِيهٍ يَا صَاحِبَ ٱلْفَضِيلَةِ . .

وَكَانَ ٱلْمُمَثِّلُونَ يَتَنَاوَبُونَ ٱلْمَسْرَحَ وَنَحْنُ عَنْهُمْ فِي شُغْلٍ ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ نَوْبَتُهَا قَدْ جَاءَتْ

بَعْدُ ، وَأَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسَانِي فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَبْعَثَ إِلَيْهَا فُلَانًا يَسْتَفْتِحُ كَلَامَهَا ثُمَّ يَدْعُوهَا ، فَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا { إِلَّا } كَلِمَةُ « تَعَالَيْ » أَوْ « تَفَضَّلِي » .

قَالَ : كَلَّا ، يَجِبُ أَنْ تَنْفَصِلَ عَنِّي لِأَرَاهَا فِي نَفْسِي أَشْكَالًا وَأَشْكَالًا ؛ وَيَجِبُ أَنْ تَبْتَعِدَ لِأَلْمَسَهَا لَمَسَاتٍ رُوحِيَّةً ؛ وَيَجِبُ أَنْ أَجْهَلَ مِنْهَا أَشْيَاءَ لِأُحَقِّقَ فِيهَا عِلْمَ قَلْبِي ؛ وَيَجِبُ أَنْ تَدَعَ جِسْمَهَا وَأَدَعَ جِسْمِي وَهُنَاكَ نَلْتَقِي رَجُلًا وَٱمْرَأَةً وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ فَهْمٍ جَدِيدٍ وَطَبِيعَةٍ جَدِيدَةٍ . بِهَـٰذَا ٱلْفَهْمِ أَنَا أَكْتُبُ ، وَبِهَـٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةِ أَنَا أُحِبُّ !

مَا هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يَفْتِنُنِي مِنْهَا ؟ هُوَ هَـٰذَا ٱلْكُلُّ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ .

وَمَا هُوَ هَـٰذَا ٱلْكُلُّ ؟ هُوَ ٱلَّذِي يُفَسِّرُ نَفْسَهُ فِي قَلْبِي بِهَـٰذَا ٱلْحُبِّ .

وَمَا هُوَ هَـٰذَا ٱلْحُبُّ ؟ هُوَ أَنَا وَهِيَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ مِنَ ٱلْيَأْسِ .

نَعَمْ أَنَا بَائِسٌ ، وَلَـٰكِنَّ شُعُورَ ٱلْبُؤْسِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْغِنَىٰ فِي ٱلْفَنِّ : لَا يَكُونُ هَـٰذَا ٱلْغِنَىٰ إِلَّا مِنْ هَـٰذَا ٱلشُّعُورِ ٱلْمُؤْلِمِ ، وَٱلْحَبِيبُ ٱلَّذِي لَا تَنَالُهُ ، هُوَ وَحْدَهُ ٱلْقَادِرُ قُدْرَةَ ٱلْجَمَالِ وَٱلسِّحْرِ ، يَجْعَلُكَ لَا تَدْرِي أَيْنَ يَخْتَبِئُ مِنْهُ جَمَالُهُ فَيَدَعُكَ تَبْحَثُ عَنْهُ بِلَذَّةٍ ، وَلَا تَدْرِي أَيْنَ يُسْفِرُ جَمَالُهُ مِنْهُ[1] فَيَدَعُكَ تَرَاهُ بِلَذَّةٍ أُخْرَىٰ ، أَنَا أُنْضِجُ هَـٰذِهِ ٱلْحَلْوَىٰ عَلَىٰ نَارٍ مَشْبُوبَةٍ ، عَلَىٰ نَارٍ مَشْبُوبَةٍ فِي قَلْبِي !

قُلْتُ : يَا صَدِيقِيَ ٱلْمِسْكِينَ ! هَـٰذِهِ مُشْكِلَةٌ عَرَضَتْ بِهَا ٱلْمُصَادَفَةُ وَسَتَحُلُّهَا ٱلْمُصَادَفَةُ أَيْضًا . وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبِي إِذْ لَمْ أَفْرُغْ مِنَ ٱلْكَلِمَةِ حَتَّىٰ رَأَيْنَا (ٱلْمُشْكِلَةَ) مُقْبِلَةً عَلَيْنَا . . .

أَمَّا هُوَ ، أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

* * *

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « مِنْهُ جَمَالُهُ » بَدَلًا مِنْ : « جَمَالُهُ مِنْهُ » .

ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِيْنُ (*)
٤

أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِيْنِ ، فَمَا كَادَ يَرَىٰ ٱلْحَبِيْبَةَ وَهِيَ مُقْبِلَةٌ تَتَيَمَّمُنَا حَتَّىٰ بَغَتَهُ ذٰلِكَ ، فَسَاوَرَهُ ٱلْقَلَقُ ، وَٱعْتَرَاهُ مَا يَعْتَرِي ٱلْمُحِبَّ ٱلْمَهْجُوْرَ إِذَا فَاجَأَهُ فِي ٱلطَّرِيْقِ هَاجِرُهُ ؛ أَرَأَيْتَ مَرَّةً عَاشِقًا جَفَاهُ ٱلْحَبِيْبُ وَٱمْتَنَعَ عَلَيْهِ دَهْرًا لَا يَرَاهُ ، وَصَارَمَهُ مُدَّةً لَا يُكَلِّمُهُ ، فَنَزَعَ نَوْمَهُ مِنْ لَيْلِهِ ، وَرَاحَتَهُ مِنْ نَهَارِهِ ، وَدُنْيَاهُ مِنْ يَدِهِ ؛ وَبَلَغَ بِهِ مَا بَلَغَ مِنَ ٱلسُّقْمِ وَٱلضَّنَىٰ ، ثُمَّ بَيْنَا هُوَ يَمْشِي إِذْ بَاغَتَهُ ذٰلِكَ ٱلْحَبِيْبُ مُنْحَدِرًا فِي ٱلطَّرِيْقِ ؟

إِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ حِيْنَئِذٍ قَلْبَ هَـٰذَا ٱلْمِسْكِيْنِ لَرَأَيْتَهُ عَلَىٰ زَلْزَلَةٍ مِنْ شِدَّةِ ٱلْخَفَقَانِ ، وَكَأَنَّهُ فِي ضَرَبَاتِهِ مُتَلَعْثِمٌ يُكَرِّرُ كَلِمَةً وَاحِدَةً : هِيَ هِيَ هِيَ .

وَلَوْ نَفَذْتَ إِلَىٰ حِسِّ هَـٰذَا ٱلْبَائِسِ لَرَأَيْتَهُ يَشْعُرُ مِثْلَ شُعُوْرِ ٱلْمُحْتَضَرِ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا قَدْ نَفَتْهُ مِنْهَا !

وَلَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَىٰ دَمِهِ فِي عُرُوْقِهِ لَأَبْصَرْتَهُ مَخْذُوْلًا يَتَرَاجَعُ كَأَنَّ ٱلدَّمَ ٱلْآخَرَ يَطْرُدُهُ .

إِنَّهَا لَحْظَةٌ يَرَىٰ فِيْهَا ٱلْمَهْجُوْرُ بِعَيْنَيْهِ أَنَّ كُلَّ شَهَوَاتِهِ فِي خَيْبَةٍ ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِ ٱلْحُبُّ مَعَ كُلِّ شَهْوَةٍ نَوْعًا مِنَ ٱلذُّلِّ ، فَيَكُوْنُ بِإِزَاءِ ٱلْحَبِيْبِ كَٱلْمُنْهَزِمِ مِئَةَ مَرَّةٍ أَمَامَ ٱلَّذِي هَزَمَهُ مِئَةَ مَرَّةٍ .

لَحْظَةٌ لَا يَشْعُرُ ٱلْمِسْكِيْنُ فِيْهَا مِنَ ٱلْبَغْتَةِ وَٱلتَّخَاذُلِ وَٱلِاضْطِرَابِ وَٱلْخَوْفِ إِلَّا أَنَّ رُوْحَهُ وَثَبَتْ إِلَىٰ رَأْسِهِ ثُمَّ هَوَتْ فَجْأَةً إِلَىٰ قَدَمَيْهِ !

* * *

غَيْرَ أَنَّ صَاحِبَنَا نَحْنُ لَمْ يَكُنْ مَهْجُوْرًا مِنْ صَاحِبَتِهِ ؛ وَلَـٰكِنْ مِنْ عَجَائِبِ ٱلْحُبِّ أَنَّهُ يَعْمَلُ أَحْيَانًا عَمَلًا وَاحِدًا بِٱلْعَاطِفَتَيْنِ ٱلْمُخْتَلِفَتَيْنِ ، إِذْ كَانَ دَائِمًا عَلَىٰ حُدُوْدِ ٱلْإِسْرَافِ مَا دَامَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٧ ، ٩ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٣ نوفمبر/ تشرين الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٩٠٣ ـ ١٩٠٥ .

حُبًّا ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِيْهِ قَرِيْبٌ مِنْ ضِدِّهِ ، وَٱلصِّدْقُ فِيْهِ مِنْ نَاحِيَةٍ مُهَيَّأٌ دَائِمًا لِأَنْ يُقَابَلَ بِتُهْمَةِ ٱلْكَذِبِ مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْأُخْرَىٰ ، وَٱلْيَقِيْنُ مُعَدٌّ لَهُ ٱلشَّكُّ بِٱلطَّبِيْعَةِ ؛ وَٱلْحُبُّ نَفْسُهُ قَضَاءٌ عَلَىٰ ٱلْعَدْلِ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْضَعُ لِقَانُوْنٍ مِنَ ٱلْقَوَانِيْنِ ، وَٱلْحَبِيْبُ ـ مَعَ أَنَّهُ حَبِيْبٌ ـ يَخَافُهُ عَاشِقُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ حَبِيْبٌ !

وَقَدْ يَصْفَرُّ ٱلْعَاشِقُ لِمُبَاغَتَةِ ٱللِّقَاءِ كَمَا يَصْفَرُّ لِمُبَاغَتَةِ ٱلْهَجْرِ ، وَهَـٰذِهِ كَانَتْ حَالُ صَاحِبِنَا عِنْدَمَا رَآهَا مُقْبِلَةً عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ يَخْشَىٰ إِلْمَامَتَهَا بِهِ ، تَوَقِّيًا عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ ظُنُوْنِ ٱلنَّاسِ ، وَأَكْثَرُ مَا يُحْسِنُهُ ٱلنَّاسُ هُوَ أَنْ يُسِيْئُوْا ٱلظَّنَّ ، وَهُوَ رَجُلٌ ذُوْ شَأْنٍ ضَخْمٍ ، وَمَقَالَةُ ٱلسُّوْءِ إِلَىٰ مِثْلِهِ سَرِيْعَةٌ إِذَا رُئِيَ مَعَ مِثْلِهَا وَكَأَنَّهَا هِيَ أَلَمَّتْ بِكُلِّ هَـٰذَا أَوْ طَالَعَهَا بِهِ وَجْهُهُ ٱلْمُتَوَقِّرُ ٱلْمُتَزَمِّتُ ، فَعَدَلَتْ عَنْ طَرِيْقِهَا إِلَيْنَا وَوَقَفَتْ عَلَىٰ رَئِيْسِ فِرْقَةِ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا إِلَّا خُطُوَاتٌ ، وَرَأَيْتُهَا قَدْ هَيَّأَتْ فِي عَيْنَيْهَا نَظْرَةً غَاضَبَتْنَا بِهَا ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ صَالَحَتْنَا بِأُخْرَىٰ !

وَكَأَنَّهَا أَلْقَتْ لِرَئِيْسِ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ أَمْرًا لِيَتَأَهَّبَ أُهْبَتَهُ لِدَوْرِهَا ، ثُمَّ هَمَّتْ أَنْ تَرْجِعَ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ فَجَعَلَتْ تُكَلِّمُهُ وَعَيْنَاهَا إِلَيْنَا ، فَقَالَ صَاحِبُنَا وَأَعْجَبَهُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِهَا : إِنَّهَا نَبِيْلَةٌ حَتَّىٰ فِي سُقُوْطِهَا !

وَلَا أَدْرِي مَاذَا كَانَتْ تَقُوْلُ لِرَئِيْسِ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ لَمْ يَظْهَرْ لِي وَقْتَئِذٍ إِلَّا كَأَنَّهُ تَلِيْفُوْنٌ مُعَلَّقٌ !

* * *

كَانَتْ عَيْنَاهَا إِلَىٰ صَاحِبِهَا لَا تَنْزِلَانِ عَنْهُ وَلَا تَتَحَوَّلَانِ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، وَلَا تُسَارِقُهُ ٱلنَّظَرَ بَلْ تُغَالِبُهُ عَلَيْهِ مُغَالَبَةً ؛ وَرَأَيْتُهُ كَذٰلِكَ قَدْ ثَبَتَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهَا ، فَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْوُجُوْدَ قَدِ ٱنْحَصَرَ جَمَالُهُ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَعْيُنٍ عَاشِقَةٍ ؛ وَكَانَتْ تُطَارِحُهُ وَيُطَارِحُهَا كَلَامًا مَخْبُوْءًا تَحْتَ هَـٰذِهِ ٱلنَّظَرَاتِ ، قَدْ نَسِيَا مَا حَوْلَهُمَا ، وَشَعَرَا بِمَا يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ حَبِيْبَيْنِ إِذَا ٱلْتَقَيَا فِي بَعْضِ لَحَظَاتِ ٱلرُّوْحِ ٱلسَّامِيَةِ : أَنَّ هَـٰذَا ٱلْعَالَمَ ٱلْعَظِيْمَ لَا يَعْمَلُ إِلَّا لِٱثْنَيْنِ فَقَطْ : هُوَ وَهِيَ .

وَكَانَ فَمُهَا ٱلْجَمِيْلُ لَا يَزَالُ يُسَاقِطُ أَلْفَاظَهُ لِرَئِيْسِ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ ، وَكَأَنَّهَا تَسْرُدُ لَهُ حِكَايَةً

مَرْوِيَّةٌ ، أَوْ تُعَارِضُ بِحَافِظَتِهِ كَلَامًا تَحْفَظُهُ مِنْ كَلَامِ ٱلتَّمْثِيلِ أَوِ ٱلْغِنَاءِ ؛ فَهِيَ تَتَحَدَّثُ وَعَيْنَاهَا مُفَكِّرَتَانِ شَاخِصَتَانِ ، فَلَمْ يُنْكِرِ ٱلرَّجُلُ هَيْئَتَهَا هَـٰذِهِ ؛ وَلَـٰكِنْ كَيْفَ كَانَتْ عَيْنَاهَا ؟ .

لَقَدْ أَرَادَتْ فِي ٱلْبَدْءِ أَنْ تَجْعَلَ قُوَّةَ نَظَرَاتِهَا كَلَامًا ، حَتَّىٰ لَحَسِبْتُ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلنَّظَرَاتِ ٱلْأُولَىٰ تَهْتِفُ مِنْ بَعِيدٍ : أَنْتَ يَا أَنْتَ !

ثُمَّ بَدَا فِي عَيْنَيْهَا فُتُورُ ٱلظَّمَأِ ، ظَمَأِ ٱلْحُبِّ ٱلْمُتَكَبِّرِ ٱلْمُتَمَرِّدِ ، لِأَنَّهُ حُبُّ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمَعْشُوقَةِ ، وَلِأَنَّ لَهُ لَذَّتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا فِي أَنْ يَبْقَىٰ ظَمَأً إِلَىٰ حِينٍ . . .

ثُمَّ أَرْسَلَتِ ٱلْأَلْحَاظُ ٱلَّتِي تَتَوَهَّجُ أَحْيَانًا فَوْقَ كَلَامِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْجَمِيلَةِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا ٱلنَّفْسِيَّةِ ؛ فَتُضْرِمُ فِي كَلَامِهَا شَرَارَةً مِنَ ٱلرُّوحِ تُظْهِرُ ٱلْكَلَامَ كَأَنَّهُ يُحْرِقُ وَيَحْتَرِقُ . . .

ثُمَّ تَوَجَّعَتِ ٱلنَّظَرَاتُ لِأَنَّهَا تَصِلُهَا بِٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي لَا يُشْبِهُ ٱلرِّجَالَ ، فَلَا يَسْتَوْهِبُ خُضُوعَهَا وَلَا يَشْتَرِيهِ ؛ وَٱلرَّجُلُ كُلُّ ٱلرَّجُلِ عِنْدَ مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ هُوَ ٱلَّذِي لَا يُشْبِهُ ٱلْبَاقِينَ مِمَّنْ تَعْرِفُهُمْ ، فَإِذَا أَحَبَّهَا فَكَأَنَّمَا أَحَبَّهَا عَذْرَاءَ خَفِرَةً لَمْ تُمَسَّ ، وَكَأَنَّهُ مِنْ ذَٰلِكَ يَصِلُهَا بِمَاضِيهَا وَطَهَارَتِهَا وَحَيَائِهَا وَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَمَثَّلَهُ إِلَّا فِي مِثْلِ حُبِّهِ .

ثُمَّ ذَبَلَتْ عَيْنَاهَا ٱلْجَمِيلَتَانِ ، وَمَا هُوَ ذُبُولُ عَيْنَيِ ٱمْرَأَةٍ تَنْظُرُ إِلَىٰ مُحِبِّهَا ؛ إِنَّهُ هُوَ ٱسْتِسْلَامُ فِكْرِهَا لِفِكْرِهِ ، أَوْ عِنَادُ مَعْنًى فِيهَا لِمَعْنًى فِيهِ ، أَوْ تَوْكِيدُ خَاطِرَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى ٱلتَّوْكِيدِ ، وَمَرَّةً هُوَ كَقَوْلِهَا : لِمَاذَا ؟ وَتَارَةً هُوَ كَقَوْلِهَا : أَفَهِمْتَ ؟ وَأَحْيَانًا ، وَأَحْيَانًا هُوَ ٱنْتِهَاءُ مُقَاوَمَةٍ .

* * *

وَتَمَّتِ ٱلْحِكَايَةُ ٱلْمَرْوِيَّةُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُلْقِيهَا لِلتِّلِيفُونِ . . . فَكَرَّتْ رَاجِعَةً إِلَى ٱلْمَسْرَحِ بَعْدَ أَنْ صَاحَتْ نَظَرَاتُهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ كَمَا بَدَأَتْ : أَنْتَ يَا أَنْتَ . . .

فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا : وَيْحَكَ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! لَوِ ٱخْتَارَ ٱلشَّيْطَانُ عَيْنَيْنِ سَاحِرَتَيْنِ يَنْظُرُ بِهِمَا إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْفِتْنَةِ لَمَا ٱخْتَارَ إِلَّا عَيْنَيْهَا ، فِي وَجْهِهَا ، فِي هَيْئَتِهَا ، فِي مَوْقِفِهَا ، وَأَرَاكَ مَعَ هَـٰذَا كَمُنْتَظِرٍ مَا لَا يُوجَدُ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ ، وَأَرَاهَا مَعَكَ فِي حُبِّهَا كَٱلْحَيَوَانِ ٱلْأَلِيفِ إِذَا طَمِعَ فِي ٱلْمُسْتَحِيلِ .

قَالَ : وَمَا هُوَ ٱلْمُسْتَحِيلُ ٱلَّذِي يَطْمَعُ فِيهِ ٱلْحَيَوَانُ ٱلْأَلِيفُ ؟

قُلْتُ : ذَٰلِكَ حِينَ يَطْمَعُ فِي أَنْ تَكُونَ لَهُ حُقُوقٌ عَلَىٰ صَاحِبِهِ فَوْقَ ٱلْأُلْفَةِ وَٱلْمَنْفَعَةِ .

قَالَ : لَقَدْ أَغْمَضْتَ فِي ٱلْعِبَارَةِ ، فَبَيِّنْ لِي شَيْئًا مِنَ ٱلْبَيَانِ .

قُلْتُ : هَبْ كَلْبَةً تَأْلَفُ صَاحِبَهَا وَتُحِبُّهُ فَهِيَ لَهُ ذَلِيلَةٌ مِطْوَاعٌ ، ثُمَّ يَبْلُغُ بِهَا ٱلْحُبُّ أَنْ تَطْمَعَ فِي أَنْ يَكُونَ لَهَا تَمَامُ ٱلشَّرَفِ ، فَلَا يَقُولُ صَاحِبُهَا عَنْهَا : هَـٰذِهِ كَلْبَتِي ، بَلْ يَقُولُ : هَـٰذِهِ زَوْجَتِي . . .

قَالَ : وَيْ مِنْكَ ! وَيْ مِنْكَ ![1] لَقَدْ ضَرَبْتَ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلْمِسْمَارِ كَمَا يَقُولُونَ : هَـٰذَا هُوَ ٱلْمُسْتَحِيلُ ٱلَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، هَـٰذَا هُوَ ٱلْمَثَلُ . يَا لَفْظَ ٱلْحَلْوَىٰ ! يَا لَفْظَ ٱلْحَلْوَىٰ ! لَوْ كَرَّرْتُكَ بِلِسَانِي أَلْفَ مَرَّةٍ فَهَلْ تَضَعُ فِي لِسَانِي طَعْمَهَا . . .

قُلْتُ : خَفِّضْ عَلَيْكَ يَا صَاحِبَ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ ، فَلَسْتَ أَكْثَرَ مِنْ عَاشِقٍ .

قَالَ : بَلْ أَنَا مَعَ هَـٰذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَاشِقٍ ؛ لِأَنَّ فِي ٱلْعَاشِقِ رَاغِبًا وَفِيَّ أَنَا رَاهِبٌ ، وَفِيهِ ٱلْجَرِيءُ وَفِيَّ ٱلْمُنْكَمِشُ ؛ وَيَغْتَرِفُ ٱلْغَرْفَةَ مِنَ ٱلشَّلَّالِ ٱلْمُتَحَدِّرِ فَيَحْسُوهَا فَيَرْتَوِي ، وَأَغْتَرِفُ أَنَا ٱلْغَرْفَةَ بِيَدِي ، وَأُبْقِيهَا فِي يَدِي ، وَأَطْمَعُ أَنْ تَهْدِرَ فِي يَدِي كَٱلشَّلَّالِ . . . أَنَا أَكْثَرُ مِنْ عَاشِقٍ ؛ فَإِنَّهُ يَعْشَقُ لِيَنْتَهِيَ مِنَ أَلَمِ ٱلْجَمَالِ ، وَأَعْشَقُ أَنَا لِأَسْتَمِرَّ فِي هَـٰذَا ٱلْأَلَمِ ! .

هَـٰذِهِ هَـٰذِهِ ، ٱلْعَجِيبُ يَا صَدِيقِي ! أَنَّ خَيَالَ ٱلْإِنْسَانِ يَلْتَقِطُ صُوَرًا كَثِيرَةً مِنْ صُوَرِ ٱلْجَمَالِ تَجِيءُ كَمَا يَتَّفِقُ ، وَلَـٰكِنَّهُ يَلْتَقِطُ صُورَةً وَاحِدَةً بِإِتْقَانٍ عَجِيبٍ ، هِيَ صُورَةُ ٱلْحُبِّ ؛ فَهَـٰذِهِ هَـٰذِهِ .

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ إِبْلِيسَ هُنَا فِي غَيْرِ حَقِيقَتِهِ ٱلْإِبْلِيسِيَّةِ وَلَمْ تَفْهَمْ عَنِّي[2] ؟ فَٱفْهَمِ ٱلْآنَ أَنَّنَا إِنْ كُنَّا لَا نَرَى ٱلْمَلَائِكَةَ فَإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّنَا نَرَاهَا فِيمَنْ نُحِبُّهُمْ ؛ وَمَا دَامَ سِرُّ ٱلْحُبِّ يُبَدِّلُ ٱلزَّمَنَ وَٱلنَّفْسَ وَيَأْتِي بِأَشْيَاءَ مِنْ خَارِجِ ٱلْحَيَاةِ ، فَكُلُّ حَقَائِقِ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ فِي غَيْرِ حَقِيقَتِهَا .

هَـٰذِهِ هَـٰذِهِ ؛ لَا أَطْلُبُ فِي غَيْرِهَا ٱمْرَأَةً أَجْمَلَ مِنْهَا ، فَهَـٰذَا كَٱلْمُسْتَحِيلِ ، وَلَـٰكِنِّي

(١) أَيْ : عَجَبٌ ، يَتَعَجَّبُ مِنْ فِطْنَتِهِ .

(٢) مَرَّ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلثَّالِثَةِ .

أَلْتَمِسُ فِيهَا هِيَ ٱمْرَأَةً أَطْهَرَ مِنْهَا ، وَهَـٰذَا كَالْمُسْتَحِيلِ أَيْضًا ؛ إِنَّهَا أَجْمَلُ جِسْمٍ ، وَلَـٰكِنْ وَا أَسَفَاهُ ، إِنَّهَا أَجْمَلُ جِسْمٍ لِلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَجِبُ أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْهَا ! .

* * *

وَسَكَتَ صَاحِبُنَا ؛ إِذْ رُفِعَتْ سِتَارَةُ ٱلْمَسْرَحِ وَظَهَرَتْ هِيَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، ظَهَرَتْ فِي زِينَةٍ لَا غَايَةَ بَعْدَهَا ، تُمَثِّلُ ٱلْعَرُوسَ لَيْلَةَ جَلْوَتِهَا ؛ أَلَا مَا أَمَرَّهَا سُخْرِيَةً مِنْكِ أَيَّتُهَا ٱلْمِسْكِينَةُ ! عَرُوسٌ وَلَـٰكِنْ لِمَنْ ؟

كَانَتْ تَبْرُقُ عَلَىٰ ٱلْمَسْرَحِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ نُورُهُ نُورٌ وَجَمَالٌ وَعَوَاطِفُ شِعْرٍ .

وَأَقْبَلَتْ تَتَمَايَلُ بِجِسْمٍ رَخْصٍ لَيِّنٍ مُسْتَرْسِلِ ٱلْأَعْطَافِ يَتَدَفَّقُ ٱلْجَمَالُ وَٱلشَّبَابُ فِيهِ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَىٰ أَسْفَلِهِ .

وَأَظْهَرَ وَجْهُهَا حُسْنًا وَأَبْدَىٰ جِسْمُهَا حُسْنًا آخَرَ ، فَتَمَّ ٱلْحُسْنُ بِٱلْحُسْنِ .

وَاقِفَةٌ كَالنَّائِمَةِ ، فَٱلْجَوُّ جَوُّ ٱلْأَحْلَامِ ، وَكَانَ ٱلْحُبُّ يَحْلُمُ ، وَكَانَ ٱلسُّرُورُ يَحْلُمُ ! .

مُهْتَزَّةٌ كَالْمَوْجِ فِي ٱلْمَوْجِ . هَلْ خُلِقَتْ رُوحُ ٱلْبَحْرِ فِي جِسْمِهَا ٱلْمُتَرَجْرِجِ فَشَيْءٌ يَعْلُو وَشَيْءٌ يَهْبِطُ وَشَيْءٌ يَثُورُ وَيَضْطَرِبُ ؟ .

ثُمَّ دَقَّتِ ٱلْمُوسِيقَىٰ بِأَلْحَانِهَا ٱلْمُتَكَلِّمَةِ ،وَدَقَّتْ أَعْضَاءُ هَـٰذَا ٱلْجِسْمِ بِأَلْحَانِهَا ٱلْمُتَحَرِّكَةِ ، وَأَحْسَسْنَا كَأَنَّ رُوحَ ٱلْحَدِيقَةِ جَالِسَةٌ بَيْنَنَا تَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَتَعَجَّبُ . تَتَعَجَّبُ مِنْ قَوَامِهَا لِلْغُصْنِ ٱلْحَيِّ ، وَمِنْ بَدَنِهَا لِلزَّهْرِ ٱلْحَيِّ ، وَمِنْ عِطْرِهَا لِلنَّسِيمِ ٱلْحَيِّ .

أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ . . . ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ(*)(١)

٥

أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ فَتَزَعْزَعَتْ كَبِدُهُ مِمَّا رَأَىٰ ؛ وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْفَتَّانَةِ تُمَثِّلُ زِفَافَ ٱلْعَرُوسِ وَقَدْ أَشْرَقَ فِيهَا رَوْنَقُهَا وَسَطَعَتْ وَلَمَعَتْ ، فَبَدَتْ لَهُ مُفَسَّرَةً فِي هَـٰذِهِ ٱلْغَلَائِلِ ، غَلَائِلِ ٱلْعُرْسِ ، وَمَا غَلَائِلُ ٱلْعُرْسِ ؟

إِنَّهَا تِلْكَ ٱلثِّيَابُ ٱلَّتِي تَكْسُو لَابِسَتَهَا إِلَىٰ سَاعَةٍ فَقَطْ . . . ثِيَابٌ أَجْمَلُ مَا فِيهَا أَنَّهَا تُقَدِّمُ ٱلْجَمَالَ إِلَىٰ ٱلْحُبِّ ، فَأَزْهَىٰ أَلْوَانِهَا ٱللَّوْنُ ٱلْمُشْرِقُ مِنْ رُوحِ لَابِسَتِهَا ، وَأَسْطَعُ ٱلْأَنْوَارِ عَلَيْهَا ٱلنُّورُ ٱلْمُنْبَعِثُ مِنْ فَرَحِ قَلْبَيْنِ .

تِلْكَ ٱلثِّيَابُ ٱلَّتِي تَكُونُ سَكَبًا مِنْ خَالِصِ ٱلْحَرِيرِ وَرَفِيعِ ٱلْخَزِّ ، وَحِينَ تَلْبَسُهَا مِثْلُ هَـٰذِهِ ٱلْفَاتِنَةِ تَكَادُ تَنْطِقُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ ٱلْحَرِيرِ ، إِذْ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْحَرِيرَ مَا تَحْتَهَا . . .

ثُمَّ تَنَهَّدَ ٱلْمِسْكِينُ وَقَالَ : أَفَهِمْتَ ؟

قُلْتُ : فَهِمْتُ مَاذَا ؟

قَالَ : هَـٰذَا هُوَ ٱنْتِقَامُهَا .

قُلْتُ : يَا عَجَبًا ! أَتُرِيدُهَا فِي ثِيَابِ رَاهِبَةٍ ، مُكَبْكَبَةً فِيهَا كَمَا أُلْقِيَتِ ٱلْبِضَاعَةُ فِي غِرَارَةٍ ، بَيْنَ سَوَادٍ هُوَ شِعَارُ ٱلْحِدَادِ عَلَىٰ ٱلْأُنُوثَةِ ٱلْهَالِكَةِ ، وَبَيَاضٍ هُوَ شِعَارُ ٱلْكَفَنِ لِهَـٰذِهِ ٱلْأُنُوثَةِ ؟

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٩ ، ٢٣ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ .

(١) نُرَجِّحُ أَنْ يَكُونَ ٱلْقُرَّاءُ قَدْ أَدْرَكُوا ٱلْغَرَضَ مِنْ كِتَابَةِ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَاتِ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلسَّرْدِ ٱلَّذِي وَصَفَتْهُ لَنَا إِحْدَىٰ ٱلْأَدِيبَاتِ بِأَنَّ « فِيهِ أَشْيَاءَ مَادِّيَّةً » ؛ فَنَحْنُ نَرْمِي إِلَىٰ تَصْوِيرِ ٱلْغَرِيزَةِ ثَائِرَةً مُهْتَاجَةً بِكُلِّ أَسْبَابِ ٱلثَّوْرَةِ وَٱلِاهْتِيَاجِ ، وَلَـٰكِنَّهَا مَكْفُوحَةٌ بِأَسْبَابٍ أُخْرَىٰ مِنَ ٱلدِّينِ وَٱلشَّرَفِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَفَلْسَفَةِ ٱلْعَقْلِ . . .

قَالَ : أَنْتَ لَا تَعْرِفُهَا ؛ إِنَّ ٱلرِّوَايَةَ ٱلَّتِي تُمَثِّلُ فِيهَا بَيْنَ ٱلرُّوحِ وَٱلْجِسْمِ ، هِيَ ٱلَّتِي ٱحْتَاجَتْ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَصْلِ يَقْوَىٰ بِهِ ٱلْمَعْنَىٰ ؛ وَكُلُّ عَاشِقَةٍ فَعِشْقُهَا هُوَ ٱلرِّوَايَةُ ٱلَّتِي تُمَثِّلُ فِيهَا ، يُؤَلِّفُهَا هَـٰذَا ٱلْمَوْقِفُ ٱلَّذِي ٱسْمُهُ ٱلْحُبُّ ، وَلَا تَدْرِي هِيَ مَاذَا يَصْنَعُ وَمَاذَا يُؤَلِّفُ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَفْتَأُ يُؤَلِّفُ وَيَصْنَعُ وَيُنَقِّحُ كَمَا تَتَنَزَّلُ بِهِ ٱلْحَالُ بَعْدَ ٱلْحَالِ ، وَكَمَا تَعْرِضُ بِهِ ٱلْمُصَادَفَةُ بَعْدَ ٱلْمُصَادَفَةِ ؛ وَعَلَيْهَا هِيَ أَنْ تُمَثِّلَ . . .

قُلْتُ : فَهَـٰذَا ؛ وَلَـٰكِنْ كَيْفَ يَكُونُ هَـٰذَا ٱنْتِقَامًا ؟

قَالَ : إِنَّ ٱلْأَفْكَارَ أَشْيَاءُ حَقِيقِيَّةٌ ، وَلَوْ كُشِفَ لَكَ ٱلْجَوُّ هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَةَ لَرَأَيْتَهُ مَسْطُورًا عِبَارَاتٍ عِبَارَاتٍ كَأَنَّهُ مَقَالَةُ جَرِيدَةٍ .

هَـٰذَا ٱلْفَصْلُ حِوَارٌ طَوِيلٌ فِي ٱلْهُمُومِ وَٱلْآلَامِ وَرِقَّةِ ٱلشَّوْقِ وَتَهَالُكِ ٱلصَّبْوَةِ ؛ لَوْ كُتِبَ لَهُ عُنْوَانٌ لَكَانَ عُنْوَانُهُ هَـٰكَذَا : مَا أَشْهَاهَا وَمَا أَحْظَاهَا ! إِنَّ ٱلْهَوَاءَ بَيْنَ كُلِّ عَاشِقَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ يَأْخُذُ وَيُعْطِي .

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! مَا أَعْجَبَ مَا تُدَقِّقُ ! لَقَدْ أَدْرَكْتُ ٱلْآنَ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ تَتَسَلَّحُ بِمَا شَاءَتْ ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تُدَافِعَ ، وَلَـٰكِنْ لِتَزِيدَ أَسْلِحَتَهَا فِي سِلَاحِ مَنْ تُحِبُّهُ فَتَزِيدَهُ قُوَّةً عَلَىٰ قَهْرِهَا وَإِخْضَاعِهَا . . .

* * *

أَمَّا هَـٰذِهِ (ٱلْعَرُوسُ) ، فَكَانَتْ أَفْكَارُهَا لَا تَجِدُ أَلْفَاظًا تَحُدُّهَا فَهِيَ تَظْهَرُ كَيْفَمَا ٱتَّفَقَ : مُرْسَلَةً إِرْسَالًا فِي ٱللَّفْتَةِ وَٱلْحَرَكَةِ وَٱلْهَيْئَةِ وَٱلْقَوْمَةِ وَٱلْقَعْدَةِ ، وَهِيَ مَنْ عَلِمْتَ : ٱمْرَأَةٌ تَعِيشُ لِلْحَقَائِقِ ، وَبَيْنَ ٱلْحَقَائِقِ ، كَكُلِّ ذِي صَنْعَةٍ فِي صَنْعَتِهِ ، فَكَانَتْ فِي تَمَادِيهَا خَطَرًا أَيَّ خَطَرٍ عَلَىٰ صَاحِبِ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ ، تُمَثِّلُ شَيْئًا لَا أَدْرِي أَهُوَ ظَاهِرٌ بِخَفَائِهِ أَمْ هُوَ خَافٍ بِظُهُورِهِ ، وَقَدْ وَقَعَ صَاحِبُنَا مِنْهَا فِيمَا لَمْ يَدْخُلْ فِي حِسَابِهِ ، فَكَانَتِ ٱلْخَبِيثَةُ ٱلْمَاجِنَةُ تُسْكِرُهُ بِمُسْكِرٍ حَقِيقِيٍّ ، غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِسْمِهَا لَا مِنْ زُجَاجَةِ خَمْرٍ .

وَكَانَتْ لِذِهْنِهِ ٱلْمُتَخَيِّلِ كَٱلسَّحَابَةِ ٱلْمُمْتَلِئَةِ بِٱلْبَرْقِ ، تُومِضُ كُلَّ لَحْظَةٍ بِأَنْوَارٍ بَعْدَ أَنْوَارٍ ، وَبَيْنَ ٱلْفَتْرَةِ وَٱلْفَتْرَةِ تَرْمِي ٱلصَّاعِقَةَ .

وَظَهَرَتْ كَأَنَّهَا ٱمْرَأَةٌ مَخْلُوقَةٌ مِنْ دَمٍ وَلَهَبٍ ، فَلَقَدْ أَيْقَنْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ ٱلْحُبَّ إِنْ هُوَ إِلَّا ٱلْغَرِيزَةُ ٱلْبَهِيمِيَّةُ بِعَيْنِهَا مُحَاوِلَةً أَنْ تَكُونَ شَيْئًا لَهُ وُجُودٌ فَنِّيٌّ إِلَىٰ وُجُودِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ ، فَهُوَ مُصِيبَتَانِ فِي وَاحِدَةٍ ، وَكُلُّ عَمَلِهِ أَنْ يَجْعَلَ ٱللَّذَّةَ أَلَذَّ ، وَٱلْأَلَمَ أَشَدَّ ، وَٱلْقِلَّةَ كَثْرَةً ، وَٱلْكَثْرَةَ أَكْثَرَ ، وَمَا هُوَ نِهَايَةٌ كَأَنَّهُ لَا نِهَايَةَ . . .

هَـٰذِهِ (ٱلْعَرُوسُ) كَانَتْ قَبْلَ ٱلْآنَ وَاقِفَةً عَلَىٰ حُدُودِ صَاحِبِهَا ، أَمَّا ٱلْآنَ فَإِنَّهَا تَقْتَحِمُ ٱلْحُدُودَ وَتَغْزُو غَزْوَهَا وَتَمْتَلِكُ . . .

يَا لَسِحْرِ ٱلْحُبِّ مِنْ سِحْرٍ ! كُلُّ مَا فِي ٱلطَّبِيعَةِ مِنْ جَمَالٍ تُظْهِرُهُ ٱلطَّبِيعَةُ لِعَاشِقِهَا فِي إِحْدَىٰ صُوَرِ ٱلْفَهْمِ ؛ أَمَّا ٱلْحَبِيبُ ٱلْجَمِيلُ فَهُوَ وَحْدَهُ ٱلَّذِي يَظْهَرُ لِعَاشِقِهِ فِي كُلِّ صُوَرِ ٱلْفَهْمِ ، وَبِهَـٰذَا يَكُونُ ٱلْوَقْتُ مَعَهُ أَوْقَاتًا مُخْتَلِفَةً مُتَنَاقِضَةً ، فَفِي سَاعَةٍ يَكُونُ ٱلْعَقْلُ ، وَفِي سَاعَةٍ يَكُونُ ٱلْجُنُونُ .

يَا لَسِحْرِ ٱلْحُبِّ ! لَقَدْ أَرَادَتْ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ أَنْ تَذْهَبَ بِعَقْلِ صَاحِبِهَا ، وَأَنْ تَنْقُلَهُ إِلَىٰ وَحْشِيَّةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْأَوَّلِ ٱلْكَامِنِ فِيهِ ، وَأَنْ تَقْذِفَ بِهِ إِلَىٰ بَعِيدٍ بَعِيدٍ وَرَاءَ فَضَائِلِهِ وَعِصْمَتِهِ ، فَسَنَحَتْ لَهُ كَمَا يَسْنَحُ ٱلصَّيْدُ لِلصَّائِدِ يَحْمِلُ فِي جِسْمِهِ لَحْمَهُ ٱلشَّهِيَّ . . . وَتَرَكَتْ شُعُورَهُ جَائِعًا إِلَىٰ مَحَاسِنِهَا بِمِثْلِ جُوعِ ٱلْمَعِدَةِ . . . وَبَرَزَتْ لَهُ صَرِيحَةً كَمَا هِيَ ، وَلِمَا هِيَ ، وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهَا هِيَ هِيَ ، وَكُلُّ ذَٰلِكَ حِينَ أَلْبَسَتْ جِسْمَهَا ثِيَابَ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمُؤَنَّثَةِ .

آهِ مِنْ (هِيَ) إِذَا ٱمْتَلَأَتِ ٱلْهَاءُ وَٱلْيَاءُ مِنْ قَلْبِ رَجُلٍ يُحِبُّ ! وَآهِ مِنْ (هِيَ) إِذَا خَرَجَتْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ مِنْ لُغَةِ ٱلنَّاسِ إِلَىٰ لُغَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ !

إِنَّ فِي كُلِّ ٱمْرَأَةٍ . . . ٱمْرَأَةً يُقَالُ لَهَا : (هِيَ)[1] بِٱعْتِبَارِ ٱلضَّمِيرِ لِلتَّأْنِيثِ فَقَطْ ، كَمَا يُعْتَبَرُ فِي ٱلدَّابَّةِ وَٱلْحَشَرَةِ وَٱلْأَدَاةِ وَنَحْوِهَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمُؤَنَّثَاتِ ٱلَّتِي يَرْجِعُ عَلَيْهَا هَـٰذَا ٱلضَّمِيرُ ، وَلَـٰكِنْ (هِيَ) ٱلْمُفْرَدَةُ فِي ٱلْكَوْنِ كُلِّهِ لَا تُوجَدُ فِي ٱلنِّسَاءِ إِلَّا حِينَ يُوجَدُ لَهَا (هُوَ) . . .

* * *

(١) قُلْتُ : هُنَا رِسَالَةٌ إِلَىٰ « فُلَانَةٍ » مِنْ تِلْكَ ٱلرَّسَائِلِ ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمَا بَعْدَ ٱلْقَطِيعَةِ . . . وَٱنْظُرْ « رَسَائِلَ ٱلْأَحْزَانِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » . سَعِيد ٱلْعُرْيَان .

أَنَا . . . أَنَا ٱلَّذِي يَقُصُّ لِلْقُرَّاءِ هٰذِهِ ٱلْقِصَّةَ ، قَدْ كَابَدْتُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْحُبِّ وَإِفْرَاطِ ٱلْوَجْدِ مَا يُفْعِمُ(1) قَلْبَيْنِ مِسْكِينَيْنِ لَا قَلْبًا وَاحِدًا ، وَكَانَتْ لِي (هِيَ) مِنَ ٱلْهِيَاتِ عَانَيْتُ فِيهَا ٱلْحُبَّ وَٱلْأَلَمَ دَهْرًا طَوِيلًا ، وَقَدْ ذَهَبَتْ بِي فِي هَوَاهَا كُلَّ مَذْهَبٍ إِلَّا مَذْهَبًا يُحِلُّ حَرَامًا ، أَوْ مَذْهَبًا يُخِلُّ بِمُرُوءَةٍ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلسَّامِيَ فِي ٱلْحُبِّ هُوَ أَلَّا يَخْرُجَ مِنَ ٱلْعَاشِقِ مُجْرِمٌ .

فَالشَّأْنُ كُلُّ ٱلشَّأْنِ أَنْ يَسْتَطِيعَ ٱلرَّجُلُ ٱلْفَصْلَ بَيْنَ ٱلْحُبِّ مِنْ أَجْلِ جَمَالِ ٱلْأُنْثَىٰ يَظْهَرُ عَلَيْهَا ، وَبَيْنَ ٱلْحُبِّ مِنْ أَجْلِ ٱلْأُنْثَىٰ تَظْهَرُ فِي جَمَالِهَا ، فَهُوَ فِي ٱلْأُولَىٰ يَشْهَدُ ٱلْإِلٰهِيَّةَ فِي إِبْدَاعِهَا ٱلسَّامِي ٱلْجَمِيلِ ، وَفِي ٱلْأُخْرَىٰ لَا يَرَىٰ غَيْرَ ٱلْبَشَرِيَّةِ فِي حَيَوَانِيَّتِهَا ٱلْمُتَجَمِّلَةِ . . .

وَقَدْ أَدْرَكْتُ مِنْ فَلْسَفَةِ ٱلْحُبِّ أَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ ٱلْكُبْرَىٰ لِهٰذَا ٱلْجَمَالِ ٱلْأَزَلِيِّ ٱلَّذِي يَمْلَأُ ٱلْعَالَمَ - قَدْ جَعَلَتْ حَنِينَ ٱلْعِشْقِ فِي قَلْبِ ٱلْإِنْسَانِ هُوَ أَوَّلَ أَمْثِلَتِهَا ٱلْعَمَلِيَّةِ فِي تَعْلِيمِهِ ٱلْحَنِينَ إِلَيْهَا إِنْ شَاءَ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، فَكَمَا يُحِبُّ إِنْسَانٌ بِرُوحِ ٱلشَّهْوَةِ يُحِبُّ إِنْسَانٌ آخَرُ بِرُوحِ ٱلْعِبَادَةِ ، وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ ٱلْفَلَاسِفَةُ : (تَلْطِيفُ ٱلسِّرِّ) أَيْ : جَعْلُهُ مُسْتَعِدًّا لِلتَّوَجُّهِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلْحَقِّ وَٱلْخَيْرِ ، وَقَدْ عَدُّوا فِيمَا يُعِينُ عَلَيْهِ ٱلْفِكْرَ ٱلدَّقِيقَ وَٱلْعِشْقَ ٱلْعَفِيفَ .

وَكَذٰلِكَ تَبَيَّنْتُ ، مِمَّا عَلَّمَنِي ٱلْحُبُّ أَنَّ طَرْدَ آدَمَ وَحَوَّاءَ مِنَ ٱلْفِرْدَوْسِ ، كَانَ مَعْنَاهُ ثِقَلَ مَعَانِي ٱلْفِرْدَوْسِ وَعَرْضَهَا لِكُلِّ آدَمَ وَحَوَّاءَ يُمَثِّلَانِ ٱلرِّوَايَةَ . . . فَإِذَا « قَطَفَا ٱلثَّمَرَةَ » طُرِدَا مِنْ مَعَانِي ٱلْجَنَّةِ(2) ، وَهَبَطَا بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ أَخْيِلَةِ ٱلسَّمَاءِ إِلَىٰ حَقَائِقِ ٱلْأَرْضِ .

نَعَمْ هُوَ ٱلْحُبُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي كُلِّ عَاشِقٍ لِكُلِّ جَمِيلٍ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَ أَهْلِهِ يَكُونُ فِي جَمَالِ ٱلْعَمَلِ أَوْ قُبْحِ ٱلْعَمَلِ ، وَهٰذِهِ ٱلنُّفُوسُ مَصَانِعُ مُخْتَلِفَةٌ لِهٰذِهِ ٱلْمَادَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ ، فَٱلْحُبُّ فِي بَعْضِهَا يَكُونُ قُوَّةً وَفِي بَعْضِهَا يَكُونُ ضَعْفًا ، وَفِي نَفْسٍ يَكُونُ ٱلْهَوَىٰ حَيَوَانِيًّا يُرَاكِمُ ٱلظُّلْمَةَ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَفِي أُخْرَىٰ يَكُونُ رُوحَانِيًّا يَكْشِفُ ٱلظَّلَامَ عَنِ ٱلْحَيَاةِ .

وَٱلْمُعْجِزَةُ فِي هٰذَا ٱلْإِنْسَانِ ٱلضَّعِيفِ أَنَّ لَهُ مَعَ طَبِيعَةِ كُلِّ شَيْءٍ طَبِيعَةَ ٱلْإِحْسَاسِ بِهِ ، فَهُوَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَجِدَ لَذَّةَ نَفْسِهِ فِي ٱلْأَلَمِ ، قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَأْخُذَ هِبَةً مِنْ مَعَانِي ٱلْحِرْمَانِ ؛

(1) فِي ٱلْأَصْلِ : « يَمْلَأُ » بَدَلًا مِنْ : « يُفْعِمُ » .
(2) أَيْ : طَرْدًا كَٱلطَّرْدِ مِنَ ٱلْجَنَّةِ .

وَبِهٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةِ يَسْمُو مَنْ يَسْمُو ، وَهِيَ عَلَىٰ أَتَمِّهَا وَأَقْوَاهَا فِي عُظَمَاءِ ٱلنُّفُوسِ ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ تَأْتِي هٰؤُلَاءِ ٱلْعُظَمَاءَ سَائِلَةً : مَاذَا يُرِيدُونَ مِنْهَا ؟

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمُوَ بِٱلْحُبِّ فَلْيَضَعْهُ فِي نَفْسِهِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ : ٱلْخُلُقُ ٱلرَّفِيعُ وَٱلْحِكْمَةُ ٱلنَّاضِجَةُ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَا أَقَلَّ مِنْ شَيْئَيْنِ : ٱلْحَلَالُ ، وَٱلْحَرَامُ(1) .

* * *

أَنَا . . . أَنَا ٱلَّذِي يَقُصُّ لِلْقُرَّاءِ هٰذِهِ ٱلْقِصَّةَ ، أَعْرِفُ هٰذَا كُلَّهُ ، وَبِهٰذَا كُلِّهِ فَهِمْتُ قَوْلَ صَاحِبِ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ : إِنْ ظُهُورَ صَاحِبَتِهِ فِي فَصْلِ ٱلْعَرُوسِ هُوَ ٱنْتِقَامُهَا ، حَاصَرَتْ عَيْنَاهَا عَيْنَيْهِ ، وَزَحَفَتْ مَعَانِيهَا عَلَىٰ مَعَانِيهِ ؛ وَقَاتَلَتْ قِتَالَ جِسْمِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمَحْبُوبَةِ فِي مَعْرَكَةِ حُبِّهَا ، وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : كَأَنَّمَا لَبِسَتْ هٰذِهِ ٱلثِّيَابَ لِتَظْهَرَ لَهُ بِلَا ثِيَابٍ . . .

وَأَرَدْتُ أَنْ أُعِيبَهَا بِمَا صَنَعَتْ نَفْسُهَا لَهُ ، وَأَنْ أُعِيبَهُ هُوَ بِدُخُولِهِ فِيمَا لَا يُشْبِهُهُ ، وَقُلْتُ فِي غَيْرِ طَائِلٍ وَلَا جَدْوَىٰ ، فَمَا كُنْتُ إِلَّا كَٱلَّذِي يَعِيبُ ٱلْوَرْدَ بِقَوْلِهِ : يَا عِطْرَ ٱلشَّذَىٰ ، وَيَا أَحْمَرَ ٱلْخَدَّيْنِ !

وَقَدْ أَمْسَكَ عَنْ جَوَابِي ، وَكَانَتْ مَحَاسِنُهَا تَجْعَلُ كَلِمَاتِي شَوْهَاءَ ، وَكَانَ وُضُوحُهَا يَجْعَلُ مَعَانِيَّ غَامِضَةً ، وَكَانَتْ حَلَاوَتُهَا تَجْعَلُ أَقْوَالِي مُرَّةً ، وَكَانَتْ ثِيَابُ ٱلْعُرْسِ وَهِيَ تُزَفُّ تُرِيهِ أَلْفَاظِي فِي ثِيَابِ ٱلْعَجُوزِ ٱلْمُطَلَّقَةِ ، وَكُلَّمَا غَاضَبْتُهُ مَعَ نَفْسِهِ أَوْقَعَتْ هِيَ ٱلصُّلْحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ .

وَٱلْعَجِيبُ ٱلْعَجِيبُ فِي هٰذَا ٱلْحُبِّ أَنَّ فَتْحَ ٱلْعَيْنَيْنِ عَلَى ٱلْجَمِيلِ ٱلْمَحْبُوبِ هُوَ نَوْعٌ مِنْ تَغْمِيضِهَا لِلنَّوْمِ وَرُؤْيَا ٱلْأَحْلَامِ ؛ لَيْسَ إِلَّا هٰذَا ، وَلَا يَكُونُ أَبَدًا إِلَّا هٰذَا ؛ فَمَهْمَا أَعْطَيْتَ مِنْ جَدَلٍ فَإِقْنَاعُكَ ٱلْمُحِبَّ ٱلْمُسْتَهَامَ كَإِقْنَاعِكَ ٱلنَّائِمَ ٱلْمُسْتَثْقَلَ(2) ؛ وَكَيْفَ وَلَهُ أَلْفَاظٌ مِنْ عَقْلِهِ لَا مِنْ عَقْلِكَ ، وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُ نِسْيَانُهُ إِيَّاكَ ، وَقَدْ تَرَكَكَ عَلَىٰ ظَاهِرِ ٱلدُّنْيَا وَغَاصَ هُوَ فِي دُنْيَا بَاطِنِهِ لَا يَمْلِكُ فِيهَا أَخْذًا وَلَا رَدًّا إِلَّا مَا تُعْطِي وَمَا تَمْنَعُ .

* * *

(1) بَسَطْنَا هٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلثَّانِيَةِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَقَالَاتِ عَلَىٰ وَجْهٍ آخَرَ .
(2) [بِفَتْحِ ٱلْقَافِ ، أَيْ : ٱلَّذِي أَثْقَلَهُ ٱلنَّوْمُ] .

ثُمَّ . . . ثُمَّ غَابَتِ (ٱلْعَرُوسُ) بَعْدَ أَنْ نَظَرَتْ لَهُ وَضَحِكَتْ .

ضَحِكَتْ بِحُزْنٍ ، حُزْنَ[1] ٱلَّذِي يَسْخَرُ مِنْ حَقِيقَةٍ لِأَنَّهُ يَتَأَلَّمُ مِنْ حَقِيقَةٍ غَيْرِهَا ؛ وَكَانَ مَنْظَرُهَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْمُنْكَسِرُ فَلْسَفَةً تَامَّةً مُصَوَّرَةً لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي ٱعْتَدَىٰ عَلَيْهِ ٱلشَّرُّ فَأَحَالَهُ ، وَٱلْإِرَادَةِ ٱلَّتِي أَكْرَهَهَا ٱلْقَدَرُ فَأَخْضَعَهَا ، وَٱلْعِفَّةِ ٱلْمِسْكِينَةِ ٱلَّتِي أَذَلَّتْهَا ضَرُورَةُ ٱلْحَيَاةِ ، وَٱلْفَضِيلَةِ ٱلْمَغْلُوبَةِ ٱلَّتِي حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ فَضِيلَةً !

وَيَا مَا كَانَ أَجْمَلَهَا نَاظِرَةً بِمَعَانِي ٱلْبُكَاءِ ضَاحِكَةً بِغَيْرِ مَعَانِي ٱلضَّحِكِ ؛ تَتَنَهَّدُ مَلَامِحُ وَجْهِهَا وَفَمُهَا يَبْتَسِمُ ! .

كَانَ مَنْظَرُهَا نَاطِقًا بِأَنَّ قَلْبَهَا ٱلْحَزِينَ يَسْأَلُ سُؤَالًا أَبْدَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهَا بِلُطْفٍ وَرِقَّةٍ ؛ كَانَ يَسْأَلُ إِنْسَانًا : أَلَا تَحُلُّ هَـٰذِهِ ٱلْعُقْدَةَ . . . ؟ .

وَٱنْقَضَى ٱلتَّمْثِيلُ وَتَنَاهَضَ ٱلنَّاسُ .

أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ(*)
٦

أَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ فَقَامَ لِيَخْرُجَ وَقَدْ تَفَارَطَتْهُ ٱلْهُمُومُ وَتَسَابَقَتْ إِلَيْهِ فَٱنْكَسَرَ وَتَفَتَّرَ ؛ وَكَأَنَّمَا هُوَ قَدْ فَارَقَ صَاحِبَتَهُ بَاكِيًا وَبَاكِيَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَرَىٰ بُكَاءَهُ غَيْرُهَا وَلَا يَرَىٰ بُكَاءَهَا غَيْرُهُ ! .

وَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ مَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا تَغَشَّى ٱلدُّنْيَا لَوْنُ نَفْسِهِ ٱلْحَزِينَةِ ؛ إِذْ كَانَتْ نَفْسُهُ أَلْقَتْ

(١) [حُزْنَ ٱلثَّانِيَةُ فِي هَـٰذَا ٱلتَّرْكِيبِ مَنْصُوبَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ] .

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٠ ، ٣٠ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ١٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٢٠٢٣ ـ ٢٠٢٥ .

ظِلَّهَا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَرَاهُ ؛ وَجَعَلَ يَدْلُفُ وَلَا يَمْشِي كَأَنَّهُ مُثْقَلٌ بِحِمْلٍ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ .

إِنَّهُ لَيْسَ أَخَفَّ وَزْنًا مِنَ ٱلدَّمْعِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلْمُتَأَلِّمَةَ لَا تَحْمِلُ أَثْقَلَ مِنْهُ ، حَتَّىٰ لَيَنْتَثِرُ عَلَى ٱلنَّفْسِ أَحْيَانًا وَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهَا بِنَاءٌ قَائِمٌ يَتَهَدَّمُ عَلَىٰ جِسْمٍ ؛ وَبَعْضُ ٱلتَّنَهُّدَاتِ عَلَىٰ رِقَّتِهَا وَخِفَّتِهَا ، قَدْ تَشْعُرُ بِهَا ٱلنَّفْسُ فِي بَعْضِ هَمِّهَا كَأَنَّهَا جَبَلٌ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ أَخَذَتْهُ ٱلرَّجْفَةُ فَمَادَتْ بِهِ ، فَتَقَلْقَلَ ، فَهُوَ يَتَفَلَّقُ وَيَتَهَاوَىٰ عَلَيْهَا .

آهٍ . . . حِينَ يَتَغَيَّرُ ٱلْقَلْبُ فَيَتَغَيَّرُ كُلُّ شَيْءٍ فِي رَأْيِ ٱلْعَيْنِ ! لَقَدْ كَانَ صَاحِبُنَا مُنْذُ قَلِيلٍ وَكَأَنَّ كُلَّ سُرُورٍ فِي ٱلدُّنْيَا يَقُولُ لَهُ : أَنَا لَكَ ! فَعَادَ ٱلْآنَ وَمَا يَقُولُ لَهُ : « أَنَا لَكَ » إِلَّا ٱلْهَمُّ ؛ وَٱلْتَقَىٰ هُوَ وَٱلظَّلَامُ وَٱلْعَالَمُ ٱلصَّامِتُ ! .

جَعَلَ يَدْلُفُ وَلَا يَمْشِي كَأَنَّهُ مُثْقَلٌ بِحِمْلٍ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ ؛ وَمَتَىٰ وَقَعَ ٱلطَّائِرُ مِنَ ٱلْجَوِّ مَكْسُورَ ٱلْجَنَاحِ ، ٱنْقَلَبَتِ ٱلنَّوَامِيسُ كُلُّهَا مُعَطَّلَةً فِيهِ ، وَظَهَرَ ٱلْجَوُّ نَفْسُهُ مَكْسُورًا فِي عَيْنِ ٱلطَّائِرِ ٱلْمِسْكِينِ ؛ وَتَنْفَصِلُ رُوحُهُ عَنِ ٱلسَّمَاءِ وَأَنْوَارِهَا ، حَتَّىٰ لَوْ غَمَرَهُ ٱلنُّورُ وَهُوَ مُلْقًى فِي ٱلتُّرَابِ لَأَحَسَّهُ عَلَى ٱلتُّرَابِ وَحْدَهُ لَا عَلَىٰ جِسْمِهِ . . .

ثُمَّ خَرَجْنَا ، فَٱنْتَبَهَ صَاحِبُنَا مِمَّا كَانَ فِيهِ ؛ وَبِهَـٰذِهِ ٱلِانْتِبَاهَةِ ٱلْمُؤْلِمَةِ أَدْرَكَ مَا كَانَ فِيهِ عَلَىٰ وَجْهٍ آخَرَ ، فَتَعَذَّبَ بِهِ عَذَابَيْنِ : أَمَّا وَاحِدٌ فَلِأَنَّهُ كَانَ وَلَمْ يَدُمْ ، وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَلِأَنَّهُ زَالَ وَلَمْ يَعُدْ ؛ وَٱلسُّرُورُ فِي ٱلْحُبِّ شَيْءٌ غَيْرُ ٱلسُّرُورِ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلنَّاسُ ؛ إِذْ هُوَ فِي ٱلْأَوَّلِ رُوحٌ تَتَضَاعَفُ بِهِ ٱلرُّوحُ ؛ فَكُلُّ مَا سَرَّكَ وَٱنْتَهَىٰ شَعَرْتَ أَنَّهُ ٱنْتَهَىٰ ، وَلَـٰكِنْ مَا يَنْتَهِي مِنْ سُرُورِ ٱلْعَاشِقِ ٱلْمُسْتَهَامِ يُشْعِرُهُ أَنَّهُ مَاتَ ، فَلَهُ فِي نَفْسِهِ حُزْنُ ٱلْمَوْتِ وَهَمُّ ٱلثُّكْلِ ، وَلَهُ فِي نَفْسِهِ هَمُّ ٱلثُّكْلِ وَحُزْنُ ٱلْمَوْتِ ! .

* * *

وَيَنْظُرُ صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ فَإِذَا ٱلْأَنْوَارُ قَدِ ٱنْطَفَأَتْ فِي ٱلْحَدِيقَةِ ، وَإِذَا ٱلْقَمَرُ أَيْضًا كَأَنَّمَا كَانَ فِيهِ مَسْرَحٌ وَأَخَذُوا يُطْفِئُونَ أَنْوَارَهُ .

كَانَ وَجْهُ ٱلْقَمَرِ فِي مِثْلِ حُزْنِ وَجْهِ ٱلْعَاشِقِ ٱلْمُبْتَعِدِ عَنْ حَبِيبَتِهِ إِلَىٰ أَطْرَافِ ٱلدُّنْيَا ، فَكَانَ أَبْيَضَ أَصْفَرَ مُكَمَّدًا ، تَتَخَايَلُ فِيهِ مَعَانِي ٱلدُّمُوعِ ٱلَّتِي يُمْسِكُهَا ٱلتَّجَلُّدُ أَنْ تَتَسَاقَطَ .

كَانَ فِيْ وَجْهِ ٱلْقَمَرِ وَفِيْ وَجْهِ صَاحِبِنَا مَعًا مَظْهَرُ تَأْثِيْرِ ٱلْقَدَرِ ٱلْمُفَاجِئِ بِٱلنَّكْبَةِ .

وَبَدَتْ لَنَا ٱلْحَيَاةُ تَحْتَ ٱلظُّلْمَةِ مُقْفِرَةً خَاوِيَةً عَلَىٰ أَطْلَالِهَا ، فَارِغَةً كَفَرَاغِ نِصْفِ ٱللَّيْلِ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ مُشْرِقًا فِيْ نِصْفِ ٱلنَّهَارِ ؛ يَا لَكَ مِنْ سَاحِرٍ أَيُّهَا ٱلْحُبُّ ؛ إِذْ تَجْعَلُ فِيْ لَيْلِ ٱلْعَاشِقِ وَنَهَارِهِ ظَلَامًا وَضَوْءًا لَيْسَا فِيْ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِيْ ! .

أَمَّا ٱلْحَدِيْقَةُ فَلَبِسَهَا مَعْنَىٰ ٱلْفِرَاقِ ، وَمَا أَسْرَعَ مَا ظَهَرَتْ كَأَنَّمَا يَبِسَتْ كُلُّهَا لِتَوِّهَا وَسَاعَتِهَا ، وَأَنْكَرَهَا ٱلنَّسِيْمُ فَهَرَبَ مِنْهَا فَهِيَ سَاكِنَةٌ ، وَتَحَوَّلَتْ رُوْحُهَا خَشَبِيَّةً جَافَّةً ، فَلَا نُضْرَةَ فِيْهَا مِنَ ٱلنَّفْسِ ؛ وَبَدَتْ أَشْجَارُهَا فِيْ ٱلظَّلَامِ قَائِمَةً فِيْ سَوَادِهَا كَٱلنَّائِحَاتِ يَلْطِمْنَ وَيُوَلْوِلْنَ ، وَتَنَكَّرَ مَشْهَدُ ٱلطَّبِيْعَةِ كَمَا يَقَعُ دَائِمًا حِيْنَ تَنْبَتُّ ٱلصِّلَةُ بَيْنَ ٱلْمَكَانِ وَنَفْسِ ٱلْكَائِنِ فِيْهِ]] .

مَاذَا حَدَثَ ؟ .

لَا شَيْءَ إِلَّا مَا حَدَثَ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، فَقَدْ تَغَيَّرَتْ طَرِيْقَةُ ٱلْفَهْمِ ، وَكَانَ لِلْحَدِيْقَةِ مَعْنًىٰ مِنْ نَفْسِهِ فَسُلِبَ ٱلْمَعْنَىٰ ، وَكَانَ لَهَا فَيْضٌ مِنْ قَلْبِهِ فَٱنْحَبَسَ عَنْهَا ٱلْفَيْضُ ؛ وَبِهَـٰذَا وَهَـٰذَا بَدَتْ فِيْ ٱلسَّلْبِ وَٱلْعَدَمِ وَٱلتَّنَكُّرِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِبْدَاعٌ فِيْ شَيْءٍ مُبْدَعٍ وَلَا جَمَالٌ فِيْ مَنْظَرٍ جَمِيْلٍ .

أَكَذَا يَفْعَلُ ٱلْحُبُّ حِيْنَ يَضَعُ فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلْعَاشِقَةِ مَعْنًىٰ ضَئِيْلًا مِنْ مَعَانِيْ ٱلْفَنَاءِ كَهَـٰذَا ٱلْفِرَاقِ ؟ .

أَكَذَا يَتْرُكُ ٱلرُّوْحَ إِذَا فَقَدَتْ شَيْئًا مَحْبُوْبًا ، تَتَوَهَّمُ كَأَنَّهَا مَاتَتْ بِمِقْدَارِ هَـٰذَا ٱلشَّيْءِ ؟

مِسْكِيْنٌ أَنْتَ أَيُّهَا ٱلْقَلْبُ ٱلْعَاشِقُ ! مِسْكِيْنٌ أَنْتَ !

* * *

وَمَضَيْنَا فَمِلْنَا إِلَىٰ نَدِيٍّ نَجْلِسُ فِيْهِ ، وَأَرَدْتُ مُعَابَثَةَ صَاحِبِنَا ٱلْمُتَأَلِّمِ بِٱلْحُبِّ وَٱلْمُتَأَلِّمِ بِأَنَّهُ مُتَأَلِّمٌ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا أَرَاكَ إِلَّا كَأَنَّكَ تَزَوَّجْتَهَا وَطَلَّقْتَهَا فَتَبِعَتْهَا نَفْسُكَ ! .

قَالَ : آهٍ ! مَنْ أَنَا ٱلْآنَ ؟ وَمَا بَالُ ذَلِكَ ٱلْخَيَالِ ٱلَّذِيْ نَسَّقَ لِيَ ٱلدُّنْيَا فِيْ أَجْمَلِ أَشْكَالِهَا قَدْ عَادَ فَبَعْثَرَهَا ؟ أَتَدْرِيْ أَنَّ ٱلْعَالَمَ كَانَ فِيَّ ثُمَّ أُخِذَ مِنِّيْ فَأَنَا ٱلْآنَ فَضَاءٌ فَضَاءٌ ؟ .

قُلْتُ : أَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ حَبِيْبٍ هُوَ ٱلْعَالَمُ ٱلشَّخْصِيُّ لِمُحِبِّهِ .

قَالَ : وَلِذَلِكَ يَعِيْشُ ٱلْمُحِبُّ ٱلْمَهْجُوْرُ ، أَوِ ٱلْمُفَارِقُ ، أَوِ ٱلْمُنْتَظِرُ ، وَكَأَنَّهُ فِيْ أَيَّامٍ خَلَتْ ، وَتَرَاهُ كَأَنَّمَا يَجِيْءُ إِلَى ٱلدُّنْيَا كُلَّ يَوْمٍ وَيَرْجِعُ .

قُلْتُ : إِنَّ مِنْ بَعْضِ مَا يَكُوْنُ بِهِ ٱلْجَمَالُ جَمَالًا أَنَّهُ ظَالِمٌ قَاهِرٌ عَنِيْفٌ ، كَٱلْمَلِكِ يَسْتَبِدُّ لِيَتَحَقَّقَ مِنْ نَفَاذِ أَمْرِهِ ؛ وَكَأَنَّ ٱلْجَمِيْلَ لَا يَتِمُّ جَمَالُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْيَانًا غَيْرَ جَمِيْلٍ فِيْ ٱلْمُعَامَلَةِ ! .

قَالَ : وَلَـٰكِنَّ ٱلْأَمْرَ مَعَ هَـٰذِهِ ٱلْحَبِيْبَةِ بِٱلْخِلَافِ ؛ فَهِيَ تَطَلَّبُنِيْ وَأَتَنَكَّبُهَا ، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ لَـٰكِنَّهَا مُقْبِلَةٌ عَلَىٰ ٱمْتِنَاعِيْ ؛ وَكَأَنَّهَا طَالِبٌ يَعْدُوْ وَرَاءَ مَطْلُوْبٍ يَفِرُّ ، فَلَا هَـٰذَا يَقِفُ وَلَا ذَاكَ يُدْرِكُ .

قُلْتُ : فَإِنَّ هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْمُشْكِلَةُ ، وَمَتَىٰ كَانَتِ ٱلْحَبِيْبَةُ مِثْلَهَا ، وَكَانَ ٱلْمُحِبُّ مِثْلَكَ ، فَقَدْ جَاءَتِ ٱلْعُقْدَةُ بَيْنَهُمَا مَعْقُوْدَةً مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا فَلَا حَلَّ لَهَا .

قَالَ : كَذَلِكَ هُوَ ، فَهَلْ تَعْرِفُ فِيْ ٱلْبُؤْسِ وَٱلْهَمِّ كَبُؤْسِ ٱلْعَاشِقِ ٱلَّذِيْ لَا يَتَدَبَّرُ كَيْفَ يَأْخُذُ حَبِيْبَتَهُ ، وَلَـٰكِنْ كَيْفَ يَتْرُكُهَا ؟ مَا هِيَ ٱلْمَسَافَةُ بَيْنِيْ وَبَيْنَهَا ؟ خَطْوَةٌ خَطْوَتَانِ ؟ كَلَّا ، كَلَّا ؛ بَلْ فَضَائِلُ وَفَضَائِلُ تَمْلَأُ ٱلدُّنْيَا كُلَّهَا ، إِنَّ مَسَافَةَ مَا بَيْنَ ٱلْحَلَالِ وَٱلْحَرَامِ مُتَرَاخِيَةٌ مُمْتَدَّةٌ ذَاهِبَةٌ إِلَىٰ غَيْرِ نِهَايَةٍ ؛ وَإِذَا كَانَ ٱلْحُبُّ ٱلْفَاسِدُ لَا يَقْبَلُ مِنَ ٱلْحَبِيْبِ إِلَّا (نَعَمْ) بِلَا شَرْطٍ وَلَا قَيْدٍ لِأَنَّهُ فَاسِدٌ ، فَٱلْحُبُّ ٱلطَّاهِرُ يَقْبَلُ (لَا) لِأَنَّهُ طَاهِرٌ ؛ ثُمَّ هُوَ لَا يَرْضَىٰ (نَعَمْ) إِلَّا بِشَرْطِهَا وَقَيْدِهَا مِنَ ٱلْأَدَبِ وَٱلشَّرِيْعَةِ وَكَرَامَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ وَٱلرَّجُلِ .

وَإِذَا لَمْ يَنْتَهِ ٱلْحُبُّ بِٱلْإِثْمِ وَٱلرَّذِيْلَةِ . فَقَدْ أَثْبَتَ أَنَّهُ حُبٌّ ؛ وَشَرَفُهُ حِيْنَئِذٍ هُوَ سِرُّ قُوَّتِهِ وَعُنْصُرُ دَوَامِهِ .

أَتَعْرِفُ أَنَّ بَعْضَ عُشَّاقِ ٱلْعَرَبِ تَمَنَّىٰ لَوْ كَانَ جَمَلًا وَكَانَتْ حَبِيْبَتُهُ نَاقَةً . . . ؟ إِنَّهُ بِهَـٰذَا يَوَدُّ أَلَّا يَكُوْنَ بَيْنَهُمَا ٱلْعَقْلُ وَٱلْقَانُوْنُ وَهَـٰذَا ٱلْحِرْمَانُ ٱلَّذِيْ يُسَمَّىٰ ٱلشَّرَفَ ، وَأَلَّا يَكُوْنَ بَيْنَهُمَا إِلَّا قَيْدُ غَرِيْزَتِهَا ٱلَّذِيْ يَنْحَلُّ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ فِيْ لَحْظَةٍ مَا ، وَأَنْ يُتْرَكَ لِقُوَّتِهِ وَتُتْرَكَ هِيَ لِضَعْفِهَا ، وَٱلْقُوَّةُ وَٱلضَّعْفُ فِيْ قَانُوْنِ ٱلطَّبِيْعَةِ هُمَا مِلْكٌ وَتَمْلِيْكٌ وَٱغْتِصَابٌ وَتَسْلِيْمٌ .

قُلْتُ : وَهَـٰذَا مَا يَفْعَلُهُ كُلُّ عَاشِقٍ لِمِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلرَّاقِصَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا ٱلْحَيَوَانُ ، فَإِنَّ بَيْنَهُمَا قُوَّةً وَضَعْفًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ، فَمَعَهُ ٱلثَّمَنُ وَبِهَا ٱلْحَاجَةُ ، وَهُمَا فِي قَانُونِ ٱلضَّرُورَةِ مِلْكٌ وَتَمْلِيكٌ .

قَالَ : وَهَـٰذَا مِمَّا يُقَطِّعُ فِي قَلْبِي ، فَلَوْ أَنَّ لِلأُمَّةِ دِينًا وَشَرَفًا لَمَا بَقِيَ مَوْضِعُ ٱلزَّوْجَةِ فَارِغًا مِنْ رَجُلٍ ، وَإِنَّ هَـٰذِهِ وَأَمْثَالَهَا إِنَّمَا يَنْزِلْنَ فِي تِلْكَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْخَالِيَةِ أَوَّلَ مَا يَنْزِلْنَ ، فَكُلُّ بَغِيٍّ هِيَ فِي ٱلْمَعْنَىٰ دِينٌ مَتْرُوكٌ وَشَرَفٌ مُبْتَذَلٌ فِي ٱلْأُمَّةِ .

* * *

قُلْتُ : فَحَدِّثْنِي عَنْكَ ، مَا هَـٰذَا ٱلْوَجْدُ بِهَا ؟ وَمَا هَـٰذَا ٱلِاحْتِرَاقُ فِيهَا ؟ وَأَنْتَ قَدْ كُنْتَ بَيْنَ يَدَيْهَا خَيَالِيًّا مَحْضًا كَأَنَّمَا جَمَعْتَهَا فِي حَوَاسِّكَ فَأَخَذْتَهَا وَتَرَكْتَهَا فِي وَقْتٍ مَعًا ، وَحَوَاسُّكَ هَـٰذِهِ لَا تَزَالُ كَمَا هِيَ ، بَلْ هِيَ قَدْ زَادَتْ حِدَّةً ، فَكَمَا صَنَعَتْ لَكَ مِنْ قُرْبٍ تَصْنَعُ لَكَ مِنْ بُعْدٍ .

قَالَ : أَنَا فِي مَحْضَرِهَا أُحِبُّهَا كَمَا رَأَيْتَ بِٱلْقَدْرِ ٱلَّذِي تَقُولُ هِيَ فِيهِ إِنَّكَ لَا تُحِبُّنِي . إِذْ كَانَ بَيْنَنَا آخَرُ ٱسْمُهُ ٱلْخُلُقُ ، وَلَـٰكِنِّي فِي غِيَابِهَا أَفْقِدُ هَـٰذَا ٱلْمِيزَانَ ٱلَّذِي يَزِنُ ٱلْمِقْدَارَ وَيُحَدِّدُهُ ، وَإِذَا كُنْتَ لَمْ تَعْلَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ ٱلْعَاشِقُ فِي غَيْبَةِ ٱلْمَعْشُوقِ ، فَٱعْلَمْ أَنَّ كِبْرِيَاءَهُ حِينَئِذٍ لَا تَرَىٰ بِإِزَائِهَا مَا تُقَاوِمُهُ ، فَتَتَخَلَّىٰ عَنْهُ وَتَخْذُلُهُ ، وَفَضِيلَتَهُ لَا تَجِدُ مَا تَسْتَعْلِنُ فِيهِ ، فَتَتَوَارَىٰ وَتَدَعُهُ ، وَشَخْصِيَّتَهُ لَا تَجِدُ مَا تَبْرُزُ لَهُ ؛ فَتَخْتَفِي وَتُهْمِلُهُ ، فَمَا يَكُونُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَظْهَرَ ٱلْمِسْكِينُ وَحْدَهُ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَهَنِ وَٱلنَّقْصِ وَحِدَّةِ ٱلشَّوْقِ ، وَهُنَا يَنْتَقِمُ ٱلْحُبُّ مِمَّا زَوَّرَتْ عَلَيْهِ ٱلْكِبْرِيَاءُ وَٱلْفَضِيلَةُ وَٱلشَّخْصِيَّةُ ، فَيَضْرِبُ بِحَقَائِقِهِ ضَرَبَاتٍ مُؤْلِمَةً لَا تَقُومُ لَهَا ٱلْقُوَّةُ ، وَيَجْعَلُ غِيَابَ ٱلْحَبِيبِ كَأَنَّهُ حُضُورُهُ مُسْتَخْفِيًا لِرُؤْيَةِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي كُتِمَتْ عَنْهُ ، وَكَمْ مِنْ عَاشِقَةٍ مُتَكَبِّرَةٍ عَلَىٰ مَنْ تَهْوَاهُ تَصُدُّهُ وَتُبَاعِدُهُ ، وَهِيَ فِي خَلْوَتِهَا سَاجِدَةٌ عَلَىٰ أَقْدَامِ خَيَالِهِ تُمَرِّغُ وَجْهَهَا هُنَا وَهُنَا عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْقَدَمِ وَعَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْقَدَمِ !

أَلَا إِنَّهُ لَا بُدَّ فِي ٱلْحُبِّ مِنْ تَمْثِيلِ رِوَايَةِ ٱلِامْتِنَاعِ أَوِ ٱلصَّدِّ أَوِ ٱلتَّهَاوُنِ أَوْ أَيِّ ٱلرِّوَايَاتِ مِنْ مِثْلِهَا ، وَلَـٰكِنَّ ثِيَابَ ٱلْمَسْرَحِ هِيَ دَائِمًا ثِيَابُ ٱسْتِعَارَةٍ مَا دَامَ لَابِسُهَا فِي دَوْرِهِ مِنَ ٱلْقِصَّةِ .

* * *

ثُمَّ وَضَعَ ٱلْمِسْكِينُ يَدَهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَقَالَ : آهِ ! إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقَلْبَ يُغَاضِبُ ٱلْحَيَاةَ كُلَّهَا مَتَىٰ أَرَادَ أَنْ يَشْعُرَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ غَضْبَانٌ .

مَنْ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ أَحْزَانَهُ ؟ وَلَـٰكِنْ مَنْ مِنْهُمُ ٱلَّذِي يَعْرِفُ أَسْرَارَ أَحْزَانِهِ وَحِكْمَتَهَا ؟ أَمَا إِنَّهُ لَوْ كُشِفَ ٱلسِّرُّ لَرَأَيْنَا ٱلْأَفْرَاحَ وَٱلْأَحْزَانَ عَمَلًا فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ أَعْمَالِ تَنَازُعِ ٱلْبَقَاءِ ، فَهَـٰذَا ٱلنَّامُوسُ يَعْمَلُ فِي إِيجَادِ ٱلْأَصْلَحِ وَٱلْأَقْوَىٰ ، ثُمَّ يَعْمَلُ كَذَلِكَ لِإِيجَادِ ٱلْأَفْضَلِ وَٱلْأَرَقِّ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ آلَامُ ٱلْحُبِّ قَوِيَّةً قَوِيَّةً حَتَّىٰ لَكَأَنَّهَا فِي ٱلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ تُهَيِّئُ أَحَدَ ٱلْقَلْبَيْنِ لِيَسْحَقَ ٱلْقَلْبَ ٱلْآخَرَ .

آهِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱللَّوَاعِجِ ! إِنَّهَا مَا تَكَادُ تَضْطَرِمُ حَتَّىٰ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ وَكَأَنَّهَا مَوْقِدٌ يَشْتَعِلُ بِٱلْجَمْرِ ، وَبِذَلِكَ يُصْهَرُ ٱلْمَعْدِنُ ٱلْإِنْسَانِيُّ وَيُصْنَعُ صَنْعَةً جَدِيدَةً ، وَإِلَىٰ أَنْ يَنْصَهِرَ وَيَتَصَفَّىٰ وَيُصْنَعَ ، مَاذَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ حَبِيبِهِ ؟

يَكُونُ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ رُوحُهُ ٱلنَّارِيُّ .

* * *

قُلْتُ : بَخٍ بَخٍ[1] ! هَـٰكَذَا فَلْيَكُنِ ٱلْحُبُّ ؛ إِنَّهَا حِينَ تَهِيجُ فِي نَفْسِكَ ٱلْحَنِينَ إِلَيْهَا تُعْطِيكَ مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْ جَمَالِهَا وَمَا هُوَ أَبْدَعُ مِنْ جِسْمِهَا ، إِذْ تُعْطِيكَ أَقْوَى ٱلشِّعْرِ وَأَحْسَنَ ٱلْحِكْمَةِ .

قَالَ : وَأَقْوَى ٱلْأَلَمِ وَأَشَدَّ ٱللَّوْعَةِ ، يَا عَجَبًا ! كَأَنَّ ٱلْحَيَاةَ لَا تُقَدِّمُ فِي عِشْقِ ٱلْمَحْبُوبِ إِلَّا عِشْقَهَا هِيَ ؛ فَإِذَا وَقَعَتِ ٱلْجَفْوَةُ ، أَوْ حُمَّ ٱلْبَيْنُ ، أَوِ ٱعْتَرَى ٱلْيَأْسُ ـ قَدَّمَ ٱلْمَوْتُ نَفْسَهُ فَكُلُّ ذَلِكَ شِبْهُ ٱلْمَوْتِ .

إِنَّ ٱلْحُزْنَ ٱلَّذِي يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَدُوِّ يَجِيءُ مَعَهُ بِقُوَّةِ تَحَمُّلِهِ وَتَتَجَلَّدُ لَهُ وَتُكَابِرُ فِيهِ ؛ وَلَـٰكِنْ أَيْنَ ذَلِكَ فِي حُزْنٍ مَبْعَثُهُ ٱلْحَبِيبُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ ٱلْقُوَّةُ إِذَا ضَعُفَ ٱلْقَلْبُ ؟

* * *

(١) كَلِمَةُ ٱلْإِعْجَابِ تُقَالُ عِنْدَ ٱلرِّضَى وَٱلْمَدْحِ ، وَمِثْلُهَا (زِهِ) وَهَـٰذِهِ فَارِسِيَّةٌ .

قُلْتُ : لَا يَصْنَعُ ٱللهُ بِكَ إِلَّا خَيْرًا ؛ فَإِذَا كَانَ غَدٌ وَٱنْسَلَخَ ٱلنَّهَارُ مِنَ ٱللَّيْلِ ، جِئْنَا إِلَيْهَا فَرَأَيْنَاهَا فِي ٱلْمَسْرَحِ ، وَلَعَلَّ ٱلْأَمْرَ يَصْدُرُ مَصْدَرًا آخَرَ ، قَالَ : أَرْجُو . . .

وَلَمْ يَكَدْ يَنْطَلِقُ بِهَـٰذِهِ ٱلرَّجِيَّةِ حَتَّىٰ مَرَّ بِنَا سَبْعَةُ رِجَالٍ يُقَهْقِهُونَ ، ثُمَّ تَلَاقَيْنَا وَجِئْنَا ؛ وَيَا وَيْلَتَنَا عَلَىٰ ٱلْمِسْكِينِ حِينَ عَلِمَ أَنَّهَا رَحَلَتْ ؛ لَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ يَضْحَكُ بِسَبْعَةِ أَفْوَاهٍ . . مِنْ قَوْلِهِ : أَرْجُو .

وَلِمَاذَا رَحَلَتْ ؟ لِمَاذَا ؟

وَأَمَّا هُوَ . . . ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ (*)

٧

وَأَمَّا صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ ، فَمَا عَلِمَ أَنَّهَا قَدْ رَحَلَتْ عَنْ لَيْلَتِهِ حَتَّىٰ أَظْلَمَ ٱلظَّلَامُ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةً أَضَاءَ شَيْءٌ لَا يُرَىٰ ، فَإِذَا غَابَتِ ٱنْطَفَأَ هَـٰذَا ٱلضَّوْءُ ؛ وَرَأَيْتُهُ وَاجِمًا كَاسِفَ ٱلْبَالِ يَتَنَازَعُهُ فِي نَفْسِهِ مَا لَا أَدْرِي ، كَأَنَّ غِيَابَهَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ إِنْذَارَ حَرْبٍ .

لِمَاذَا كَانَ ٱلشُّعَرَاءُ يَنُوحُونَ عَلَىٰ ٱلْأَطْلَالِ وَيَلْتَاعُونَ بِهَا وَيَرْتَمِضُونَ مِنْهَا وَهِيَ أَحْجَارٌ وَآثَارٌ وَبَقَايَا ؟ وَمَا ٱلَّذِي يَتَلَقَّاهُمْ بِهِ ٱلْمَكَانُ بَعْدَ رَحِيلِ ٱلْأَحِبَّةِ ؟ يَتَلَقَّاهُمْ بِٱلْفَرَاغِ ٱلْقَلْبِيِّ ٱلَّذِي لَا يَمْلَؤُهُ مِنَ ٱلْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا وُجُودُ شَخْصٍ وَاحِدٍ ؛ وَعِنْدَ هَـٰذَا ٱلْفَرَاغِ تَقِفُ ٱلدُّنْيَا مَلِيًّا كَأَنَّهَا ٱنْتَهَتْ إِلَىٰ نِهَايَةٍ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلْعَاشِقَةِ ، فَتَبْطُلُ حِينَئِذٍ ٱلْمُبَادَلَةُ بَيْنَ مَعَانِي ٱلْحَيَاةِ وَبَيْنَ شُعُورِ ٱلْحَيِّ ؛ وَيَكُونُ ٱلْعَاشِقُ مَوْجُودًا فِي مَوْضِعِهِ وَلَا تَجِدُهُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَمُرُّ بِهِ ، فَتَرْجِعُ مِنْهُ

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٢ ، ١٤ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٢١٠٤ ـ ٢١٠٦ .

كَالْحَقَائِقِ تُلِمُّ بِٱلْفَرَاغِ ٱلْعَقْلِيِّ مِنْ وَعْيِ سَكْرَانٍ .

يَا أَثَرَ ٱلْحَبِيبِ حِينَ يُفَارِقُ ٱلْحَبِيبُ ! مَا ٱلَّذِي يَجْعَلُ فِيكَ تِلْكَ ٱلْقُدْرَةَ ٱلسَّاحِرَةَ ؟ أَهُوَ فَصْلُكَ بَيْنَ زَمَنٍ وَزَمَنٍ ، أَمْ جَمْعُكَ ٱلْمَاضِيَ فِي لَحْظَةٍ ؛ أَمْ تَحْوِيلُكَ ٱلْحَيَاةَ إِلَىٰ فِكْرَةٍ ، أَمْ تَكْبِيرُكَ ٱلْحَقِيقَةَ إِلَىٰ أَضْعَافِ حَقِيقَتِهَا ، أَمْ تَصْوِيرُكَ رُوحِيَّةَ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي تُحِبُّهُ ٱلرُّوحُ ، أَمْ إِشْعَارُكَ ٱلنَّفْسَ كَٱلْمَوْتِ أَنَّ ٱلْحَيَاةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ ٱلِانْقِلَابِ ، أَمْ قُدْرَتُكَ عَلَىٰ زِيَادَةِ حَالَةٍ جَدِيدَةٍ لِلْهَمِّ وَٱلْحُزْنِ ، أَمْ رُجُوعُكَ بِٱللَّذَّةِ تُرَىٰ وَلَا تُمْكِنُ ، أَمْ أَنْتَ كُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ يَفْرُغُ سَاعَةً مِنَ ٱلدُّنْيَا وَيَمْتَلِئُ بِكَ وَحْدَكَ ؟

يَا أَثَرَ ٱلْحَبِيبِ حِينَ يُفَارِقُ ٱلْحَبِيبُ ! مَا هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلسِّحْرِيَّةُ فِيكَ تَجْتَذِبُ بِهَا ٱلصَّدْرَ لِيَضُمَّكَ ، وَتَسْتَهْوِي بِهَا ٱلْفَمَ لِيُقَبِّلَكَ ، وَتَسْتَدْعِي ٱلدَّمْعَ لِيَنْفِرَ لَكَ ، وَتَهْتَاجُ ٱلْحَنِينَ لِيَنْبَعِثَ فِيكَ ؟ أَكُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّكَ أَثَرُ ٱلْحَبِيبِ ، أَمْ لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ يَفْرُغُ سَاعَةً مِنَ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَجِدُ مَا يَخْفِقُ عَلَيْهِ سِوَاكَ ؟

* * *

وَوَقَفَ صَاحِبُنَا ٱلْمِسْكِينُ مَحْزُونًا كَأَنَّ شَيْئًا يَصِلُهُ بِكُلِّ هُمُومِ ٱلْعَالَمِ ؛ وَتِلْكَ هِيَ طَبِيعَةُ ٱلْأَلَمِ ٱلَّذِي يُفَاجِئُ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ مَكْمَنِ لَذَّتِهِ وَمَوْضِعِ سُرُورِهِ ، فَيُلْبِسُهُ نَوْعًا مِنَ ٱلْحَيَاةِ بِطَرِيقَةِ سَلْبِ ٱلْحَيَاةِ نَفْسِهَا ، وَيَأْخُذُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْئًا مَاتَ فَيَدْفِنُهُ فِي قَبْرِ ٱلْمَاضِي ، يَكُونُ أَلَمًا لِأَنَّ فِيهِ ٱلْمَضَضَ ، وَكَآبَةً لِأَنَّ فِيهِ ٱلْخَيْبَةَ ، وَذُهُولًا لِأَنَّ فِيهِ ٱلْحَسْرَةَ ؛ وَتَتِمُّ هَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْهُمُومِ بِٱلضِّيقِ ٱلشَّدِيدِ فِي ٱلنَّفْسِ ، لِاجْتِمَاعِ ثَلَاثَتِهَا عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ ؛ فَإِذَا ٱلْمِسْكِينُ مَبْغُوتٌ مَبْغُوتٌ ، كَأَنَّ ٱلْآلَامَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْجِهَاتِ ٱلْأَرْبَعِ ، فَقَلْبُهُ مِنْهَا صُدُوعٌ صُدُوعٌ . . .

وَجَعَلْتُ أَعْذِلُ صَاحِبَنَا فَلَا يَعْتَذِلُ ، وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أُثْبِتَ لَهُ وُجُودَ ٱلصَّبْرِ كُنْتُ كَأَنَّمَا أُثْبِتُ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ ؛ ثُمَّ تَنَفَّسَ وَهُوَ يَكَادُ يَنْشَقُّ غَيْظًا وَقَالَ : لِمَاذَا رَحَلَتْ ؟ لِمَاذَا ؟

قُلْتُ : أَنْتَ أَذْلَلْتَ جَمَالَهَا بِهَـٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي تَرَىٰ أَنَّكَ تُعِزُّ جَمَالَهَا بِهِ ، وَقَدِ ٱشْتَدَدْتَ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ نَفْسِكَ ، وَتَعَنَّتَّ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَقَلْبِهَا ؛ كَانَتْ ظَرِيفَةَ ٱلْمَذْهَبِ فِي عِشْقِهَا وَكُنْتَ خَشِنًا فِي حُبِّكَ ، وَسَوَّغَتْكَ حَقًّا فَرَدَدْتَهُ عَلَيْهَا ، وَتَهَالَكْتَ وَٱنْقَبَضْتَ أَنْتَ ، وَرَفَعَتْ قَدْرَكَ

عَنْ نَفْسِهَا تَحَبُّبًا وَتَوَدُّدًا فَخَفَضَتْ قَدْرَهَا عَنْ نَفْسِكَ مِنْ اطِّرَاحٍ وَجَفَاءٍ ، وَٱسْتَفْرَغَتْ وُسْعَهَا فِي رِضَاكَ فَتَغَاضَبْتَ ، وَنَفَضَتْ عَنْ مَحَاسِنِهَا شَيْئًا شَيْئًا تَسْأَلُ بِكُلِّ شَيْءٍ سُؤَالًا فَلَمْ تَكُنْ أَنْتَ مِنْ جَوَابِهَا فِي شَيْءٍ . . .

وَمِنْ طَبْعِ ٱلْمَرْأَةِ أَنَّهَا إِذَا أَحَبَّتْ ٱمْتَنَعَتْ أَنْ تَكُونَ ٱلْبَادِئَةَ ، فَٱلْتَوَتْ عَلَىٰ صَاحِبِهَا وَهِيَ عَاشِقَةٌ ، وَجَاحَدَتْ وَهِيَ مُقِرَّةٌ ؛ إِذْ تُرِيدُ فِي ٱلْأَوَّلَةِ أَنْ تَتَحَقَّقَ أَنَّهَا مَحْبُوبَةٌ ، وَفِي ٱلثَّانِيَةِ أَنْ يُقَدِّمَ لَهَا ٱلْبُرْهَانَ عَلَىٰ أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ ٱلْمُهَاجَمَةَ ، وَفِي ٱلثَّالِثَةِ هِيَ تُرِيدُ أَلَّا تَأْخُذَهَا إِلَّا قُوَّةٌ قَوِيَّةٌ فَتَمْتَحِنُ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ ، وَمَعَ هَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ تَأْبَىٰ طَبِيعَةُ ٱلسُّرُورِ فِيهَا وَٱلِاسْتِمْتَاعِ بِهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِهَـٰذَا ٱلسُّرُورِ وَهَـٰذَا ٱلْإِمْتَاعِ شَأْنٌ وَقِيمَةٌ ، فَتُذِيقَ صَاحِبَهَا ٱلْمُرَّ قَبْلَ ٱلْحُلْوِ لِيَكْبُرَ هَـٰذَا بِهَـٰذَا .

غَيْرَ أَنَّهَا إِذَا غَلَبَهَا ٱلْوَجْدُ وَأَكْرَهَهَا ٱلْحُبُّ عَلَىٰ أَنْ تَبْتَدِئَ صَاحِبَهَا ، ثُمَّ ٱبْتَدَأَتْ وَلَمْ تَجِدِ ٱلْجَوَابَ مِنْهُ ، أَوْ لَمْ يَأْتِ ٱلْأَمْرُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ عَلَىٰ مَا تُحِبُّ ، فَإِنَّ ٱلِابْتِدَاءَ حِينَئِذٍ يَكُونُ هُوَ ٱلنِّهَايَةَ ، وَيَنْقَلِبُ ٱلْحُبُّ عَدُوَّ ٱلْحُبِّ ؛ وَأَنَا أَعْرِفُ ٱمْرَأَةً وَضَعَتْهَا كِبْرِيَاؤُهَا فِي مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ وَقَالَتْ لِصَاحِبِهَا : سَأَتَأَلَّمُ وَلَـٰكِنْ لَنْ أُغْلَبَ ، فَكَانَ ٱلَّذِي وَقَعَ وَا أَسَفَاهُ ـ أَنَّهَا تَأَلَّمَتْ حَتَّىٰ جُنَّتْ ، وَلَـٰكِنْ لَمْ تُغْلَبْ[1] . . .

قَالَ : فَمَا بَالُ هَـٰذِهِ ؟ أَمَا تَرَاهَا تَبْتَدِئُ كُلَّ يَوْمٍ رَجُلًا ؟

قُلْتُ : إِنَّهَا تَبْتَدِئُ مُتَكَسِّبَةً لَا عَاشِقَةً ، فَإِذَا أَحَبَّتِ ٱلْحُبَّ ٱلصَّحِيحَ أَرَادَتْ قِيمَتَهَا ، [قِيمَتَهَا] فِيمَا هُوَ قِيمَتُهَا ؛ وَأَنَا أَحْسَبُهَا تُحِبُّ فِيكَ هَـٰذَا ٱلْعُنْفَ وَهَـٰذِهِ ٱلْقَسْوَةَ وَهَـٰذِهِ ٱلرُّوحِيَّةَ ٱلْجَبَّارَةَ ؛ فَإِنَّهَا لَذَّاتٌ جَدِيدَةٌ لِلْمَرْأَةِ ٱلَّتِي لَا تَجِدُ مَنْ يُخْضِعُهَا ، وَفِي طَبِيعَةِ كُلِّ ٱمْرَأَةٍ شَيْءٌ لَا يَجِدُ تَمَامَهُ إِلَّا فِي عُنْفِ ٱلرَّجُلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ ٱلْعُنْفُ ٱلَّذِي أَوَّلُهُ رِقَّةٌ وَآخِرُهُ رِقَّةٌ !

* * *

أَمَا وَٱللهِ إِنَّ عَجَائِبَ ٱلْحُبِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَكُونَ عَجِيبَةً ، وَٱلشَّيْءُ ٱلْغَرِيبُ يُسَمَّىٰ غَرِيبًا فَيَكْفِي ذَٰلِكَ بَيَانًا فِي تَعْرِيفِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْحُبِّ سُمِّيَ غَرِيبًا فَلَا تَكْفِيهِ ٱلتَّسْمِيَةُ ،

(١) { ٱنْظُرْ قِصَّةَ هَـٰذِهِ ٱلْحَبِيبَةِ ٱلَّتِي تَأَلَّمَتْ حَتَّىٰ جُنَّتْ فِي « ٱلرَّافِعِيُّ ٱلْعَاشِقُ » مِنْ « حَيَاةِ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

فَيُوصَفُ مَعَ ٱلتَّسْمِيَةِ بِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَلَا يَبْلُغُ فِيهِ ٱلْوَصْفُ ، فَيَقَعُ ٱلتَّعَجُّبُ مَعَ ٱلْوَصْفِ وَٱلتَّسْمِيَةِ مِنْ أَنَّهُ شَيْءٌ غَرِيبٌ ، ثُمَّ تَبْقَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ مَنْزِلَةٌ لِلْإِغْرَاقِ فِي ٱلتَّعَجُّبِ بَيْنَ ٱلْعَاشِقِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، وَهَـٰكَذَا يَشْعُرُونَ .

فَكُلُّ أَسْرَارِ ٱلْحُبِّ مِنْ أَسْرَارِ ٱلرُّوحِ وَمِنْ عَالَمِ ٱلْغَيْبِ ، وَكَأَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ نُبُوَّتَانِ : كَبِيرَةٌ وَصَغِيرَةٌ ، وَعَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . فَإِحْدَاهُمَا بِٱلنَّفْسِ ٱلْعَظِيمَةِ فِي ٱلْأَنْبِيَاءِ ، وَٱلْأُخْرَىٰ بِٱلْقَلْبِ ٱلرَّقِيقِ فِي ٱلْعُشَّاقِ ، وَفِي هَـٰذِهِ مِنْ هَـٰذِهِ شَبَهٌ ، لِوُجُودِ ٱلْعَظَمَةِ ٱلرُّوحِيَّةِ فِي كِلْتَيْهِمَا غَالِبَةً عَلَىٰ ٱلْمَادَّةِ ، مُجَرَّدَةً مِنْ إِنْسَانِ ٱلطِّينِ إِنْسَانًا مِنَ ٱلنُّورِ ، مُحَرِّكَةً هَـٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةَ ٱلْآدَمِيَّةَ حَرَكَةً جَدِيدَةً فِي ٱلسُّمُوِّ ، ذَاهِبَةً بِٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَىٰ مَا هُوَ ٱلْأَحْسَنُ وَٱلْأَجْمَلُ ، وَاضِعَةً مَبْدَأَ ٱلتَّجْدِيدِ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَمُرُّ بِٱلنَّفْسِ ، مُنْبَعِثَةً بِٱلْأَفْرَاحِ مِنْ مَصْدَرِهَا ٱلْعُلْوِيِّ ٱلسَّمَاوِيِّ .

بَيْدَ أَنَّ فِي ٱلْعِشْقِ أَنْبِيَاءَ كَذَبَةً ، فَإِذَا تَسَفَّلَ ٱلْحُبُّ فِي جَلَالٍ ، وَٱسْتَعْلَنَتِ ٱلْبَهِيمِيَّةُ فِي عَظَمَةٍ ، وَتَجَرَّدَ مِنْ إِنْسَانِ ٱلطِّينِ إِنْسَانُ ٱلْحَجَرِ ، وَتَحَرَّكَتِ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلْآدَمِيَّةُ حَرَكَةً جَدِيدَةً فِي ٱلسُّقُوطِ ، وَذَهَبَتِ ٱلْمَعْرِفَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ إِلَىٰ مَا هُوَ ٱلْأَقْبَحُ وَٱلْأَسْوَأُ ، وَتَجَدَّدَ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي ٱلنَّفْسِ مَعْنًى فَاسِدٌ ، وَٱنْبَعَثَتِ ٱلْأَفْرَاحُ مِنْ مَصْدَرِهَا ٱلسُّفْلِيِّ ـ إِذَا وَقَعَ كُلُّ هَـٰذَا مِنَ ٱلْحُبِّ فَمَا عَسَاهُ يَكُونُ ؟

لَا يَكُونُ إِلَّا أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ يُقَلِّدُ ٱلنُّبُوَّةَ ٱلصَّغِيرَةَ فِي بَعْضِ ٱلْعُشَّاقِ ، كَمَا يُقَلِّدُ ٱلنُّبُوَّةَ ٱلْكَبِيرَةَ فِي بَعْضِ ٱلدَّجَّالِينَ .

* * *

هَـٰكَذَا قَالَ صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ وَقَدْ تَكَلَّمَ عَنِ ٱلْحُبِّ وَنَحْنُ جَالِسَانِ فِي ٱلْحَدِيقَةِ ، وَكُنَّا دَخَلْنَاهَا لِيُجَدِّدَ عَهْدًا بِمَجْلِسِهِ فَلَعَلَّهُ يَسْكُنُ بَعْضُ مَا بِهِ ، وَٱسْتَفَاضَ كَلَامُنَا فِي وَصْفِ تِلْكَ ٱلْعَبْهَرَةِ[1] ٱلْفَتَّانَةِ ٱلَّتِي أَحَلَّتْهُ هَـٰذَا ٱلْمَحَلَّ وَبَلَغَتْ بِهِ مَا بَلَغَتْ ، وَكَانَ فِي رِقَّةٍ لَا رِقَّةَ بَعْدَهَا ، وَفِي حُبٍّ لَا نِهَايَةَ وَرَاءَهُ لِمُحِبٍّ ؛ وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَرَىٰ ٱلْحَدِيثَ عَنْهَا كَأَنَّهُ

(١) هِيَ ٱلَّتِي جَمَعَتِ ٱلْحُسْنَ وَٱلْجِسْمَ وَٱلِامْتِلَاءَ وَجَمَالَ ٱلْخِلْقَةِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، كَهَـٰذِهِ ٱلَّتِي نَحْنُ فِي وَصْفِهَا مُنْذُ شَهْرَيْنِ . . .

إِحْضَارُهَا بِصُوْرَةٍ مَا !

وَأَنْفَعُ مَا فِيْ حَدِيْثِ ٱلْعَاشِقِ عَنْ حُبِّهِ وَأَلَمِهِ أَنَّ ٱلْكَلَامَ يُخْرِجُهُ مِنْ حَالَةِ ٱلْفِكْرِ ، وَيُؤْنِسُ قَلْبَهُ بِٱلْأَلْفَاظِ(١) ، وَيُخَفِّفُ مِنْ حَرَكَةِ نَفْسِهِ بِحَرَكَةِ لِسَانِهِ ، وَيُوَجِّهُ حَوَاسَّهُ إِلَىٰ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمُتَحَرِّكِ ؛ فَتَسْلُبُهُ أَلْفَاظُهُ أَكْثَرَ مَعَانِيْهِ ٱلْوَهْمِيَّةِ ، وَتَأْتِيْهِ بِٱلْحَقَائِقِ عَلَىٰ قَدْرِهَا فِيْ ٱللُّغَةِ لَا فِيْ ٱلنَّفْسِ ؛ وَفِيْ كُلِّ ذَلِكَ حِيْلَةٌ عَلَىٰ ٱلنِّسْيَانِ وَتَعَلُّلٌ إِلَىٰ سَاعَةٍ ؛ وَهُوَ تَدْبِيْرٌ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ بِٱلْعَاشِقِيْنَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْبَلَاءِ ٱلَّذِيْ يُسَمَّىٰ ٱلْفِرَاقَ أَوِ ٱلْهَجْرَ .

وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا عَجِبْتُ لَهُ أَنَّ صَدِيْقًا مَرَّ بِنَا فَدَعَاهُ صَاحِبُنَا وَقَالَ وَهُوَ يُوْمِئُ إِلَيَّ : أَنَا وَفُلَانٌ هَـٰذَا مُخْتَلِفَانِ مُنْذُ ٱلْيَوْمَ : لَا هُوَ يُقِيْمُ عُذْرًا وَلَا أَنَا أُقِيْمُ حُجَّةً ، وَأَحْسَبُ أَنَّ عِنْدَكَ رَأْيًا ؛ فَٱقْضِ بَيْنَنَا .

وَيَسْأَلُهُ ٱلصَّدِيْقُ : مَا ٱلْقَضِيَّةُ ؟

فَيَقُوْلُ وَهُوَ يُشِيْرُ إِلَيَّ : إِنَّ هَـٰذَا قَدْ تَخَرَّقَ قَلْبُهُ مِنَ ٱلْحُبِّ فَلَا يَدْرِيْ مِنْ أَيْنَ يَجِيْءُ لِقَلْبِهِ بِرُقْعَةٍ . . . وَأَنَّهُ يَعْشَقُ فُلَانَةَ ٱلرَّاقِصَةَ ٱلَّتِيْ كَانَتْ فِيْ هَـٰذَا ٱلْمَسْرَحِ ، وَيَزْعُمُ لِيْ . . . أَنَّهَا أَجْمَلُ وَأَفْتَنُ وَأَحْلَىٰ مَنْ طَلَعَتْ عَلَيْهِ ٱلشَّمْسُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ وَجْهِهَا وَبَيْنَ ٱلْقَمَرِ وَجْهُ ٱمْرَأَةٍ أُخْرَىٰ فِيْ كُلِّ مَا يُضِيْءُ ٱلْقَمَرُ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ عَيْنَيْهَا مِمَّا لَا يُنْسَىٰ أَبَدًا أَبَدًا أَبَدًا . . . لِأَنَّ أَلْحَاظَهَا تَذُوْبُ فِيْ ٱلدَّمِ وَتَجْرِيْ فِيْهِ ، وَأَنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَوْ أَرَادَ مُنَاجَزَةَ ٱلْعِفَّةِ وَٱلزُّهْدِ فِيْ حَرْبٍ حَاسِمَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَزْهَدِ ٱلْعُبَّادِ لَتَرَكَ كُلَّ حِيَلِهِ وَأَسَالِيْبِهِ وَقَدَّمَ جِسْمَهَا وَفَنَّهَا . .

فَيَقُوْلُ لَهُ ٱلْمَسْؤُوْلُ : وَمَا رَأْيُكَ أَنْتَ ؟

فَيُجِيْبُهُ : لَوْ كَانَ عَنْهَا صَاحِيًا لَقَدْ صَحَا ، إِنَّ ٱلْمُشْكِلَةَ فِيْ ٱلْحُبِّ أَنَّ كُلَّ عَاشِقٍ لَهُ قَلْبُهُ ٱلَّذِيْ هُوَ قَلْبُهُ ، وَحَسْبُهَا أَنَّ مِثْلَ هَـٰذَا هُوَ يَصِفُهَا ، وَمَا يُدْرِيْنَا مِنْ تَصَارِيْفِ ٱلْقَدَرِ بِهَـٰذِهِ ٱلْمِسْكِيْنَةِ مَا عَلَيْهَا مِمَّا لَهَا ، فَلَعَلَّهَا ٱلْجَمَالُ حُكِمَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَذَّبَ بِقُبْحِ ٱلنَّاسِ ، وَلَعَلَّهَا ٱلسُّرُوْرُ قُضِيَ عَلَيْهِ أَنْ يُسْجَنَ فِيْ أَحْزَانٍ !

* * *

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : « بِٱلِاتِّعَاظِ » بَدَلًا مِنْ : « بِٱلْأَلْفَاظِ » .

وَقُلْتُ لَهُ : يَا صَدِيْقِيْ ٱلْمِسْكِيْنَ ! أَوَ كُلُّ هَـٰذَا لَهَا فِيْ قَلْبِكَ ؟ فَمَا هَـٰذَا ٱلْقَلْبُ ٱلَّذِيْ تَحْمِلُهُ وَتَتَعَذَّبُ بِهِ ؟

قَالَ : إِنَّهُ وَٱللهِ قَلْبُ طِفْلٍ ، وَمَا حُبُّهُ إِلَّا ٱلْتِمَاسُهُ ٱلْحَنَانَ ٱلثَّانِيْ مِنَ ٱلْحَبِيْبَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ٱلْحَنَانِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلْأُمِّ ؛ وَكُلُّ كَلَامِيْ فِيْ ٱلْحُبِّ إِنَّمَا هُوَ إِمْلَاءُ هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ عَلَىٰ فِكْرِهِ كَأَنَّهُ يَخْلُقُ بِهِ خَلْقَ تَفْكِيْرِهِ .

آهِ يَا صَدِيْقِيْ ! إِنَّ مِنَ ٱلسُّخْرِيَةِ بِهَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا أَنَّ ٱلْقَلْبَ لَا يَسْتَمِرُّ طِفْلًا بَعْدَ زَمَنِ ٱلطُّفُوْلَةِ إِلَّا فِيْ ٱثْنَيْنِ : مَنْ كَانَ فَيْلَسُوْفًا عَظِيْمًا ، وَمَنْ كَانَ مُغَفَّلًا عَظِيْمًا !

* * *

وَٱفْتَرَقْنَا ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ خَبَرَهُ فَلَقِيْتُهُ مِنَ ٱلْغَدِ ، وَكَانَ لِيْ فِيْ أَحْلَامِيْ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ شَأْنٌ عَجِيْبٌ ، وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ أَعْجَبُ ، أَمَّا أَنَا فَلَا يَعْنِيْ ٱلْقُرَّاءَ شَأْنِيْ وَقِصَّتِيْ .

وَأَمَّا هُوَ . . . !؟

طنطا مصطفى صادق الرافعي

ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِيْنُ(*)
٨

وَأَمَّا هُوَ ، فَحَدَّثَنِيْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيْثِ ٱلْعَجِيْبِ مِنْ لَطَائِفِ إِلْهَامِهِ وَفَنِّهِ ، قَالَ : ٱنْصَرَفْتُ إِلَىٰ دَارِيْ وَقَدْ عَزَّ عَلَيَّ أَنْ يَكُوْنَ هَـٰذَا مِنْهَا وَأَنْ يَكُوْنَ هَـٰذَا مِنِّيْ ، وَهِيَ إِنْ غَابَتْ أَوْ حَضَرَتْ فَإِنَّهَا لِيْ كَٱلشَّمْسِ لِلدُّنْيَا : لَا تُظْلِمُ ٱلدُّنْيَا فِيْ نَاحِيَةٍ إِلَّا مِنْ أَنَّهَا تُضِيْءُ فِيْ نَاحِيَةٍ ، فَظُلْمَتُهَا مِنْ عَمَلِ نُوْرِهَا ، وَكَانَتْ لَيْلَتِيْ فَارِغَةً مِنَ ٱلنَّوْمِ فَبِتُّ أَتَمَلْمَلُ ، وَجَعَلَ ٱلْقَلْبُ يَدُقُّ فِيْ جَنْبَيَّ كَأَنَّهُ آلَةٌ فِيْ سَاعَةٍ لَا قَلْبُ إِنْسَانٍ ، وَكَانَ فِيْ ٱلدُّنْيَا مِنْ حَوْلِيْ صَمْتٌ كَصَمْتِ ٱلَّذِيْ سَكَتَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٤ ، ٢٨ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ١١ يناير/كانون الآخر ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٤٥ ـ ٤٨ .

بَعْدَ خُطْبَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَفِيَّ أَنَا صَمْتٌ آخَرُ كَصَمْتِ ٱلَّذِي سَكَتَ بَعْدَ سُؤَالٍ لَا جَوَابَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ ٱلْهَوَاءُ رَاكِدًا كَالسَّكْرَانِ ٱلَّذِي ٱنْطَرَحَ مِنْ ثَقْلَةِ ٱلسُّكْرِ بَعْدَ أَنْ هَذَى طَوِيلًا وَعَرْبَدَ ، وَٱلْوُجُودُ كُلُّهُ يَبْدُو كَالْمُخْتَنِقِ ، لِأَنَّ مَعْنَى ٱلِاخْتِنَاقِ فِي قَلْبِي وَأَفْكَارِي ، وَنَظَرْتُ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَإِذَا هِيَ تَتَغَوَّرُ نَجْمًا بَعْدَ نَجْمٍ ، كَأَنَّ مَعْنَى ٱلرَّحِيلِ ٱنْتَشَرَ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ إِذْ رَحَلَتِ ٱلْحَبِيبَةُ ؛ وَكَأَنَّ كُلَّ وَجْهٍ مُضِيءٍ يَقُولُ لِي كَلِمَةً : لَا تَنْتَظِرْ !

فَلَمَّا عَسْعَسَ ٱللَّيْلُ رَمَيْتُ بِنَفْسِي فَنِمْتُ وَٱلْعَقْلُ يَقْظَانُ ، وَصَنَعَتِ ٱلْأَحْلَامُ مَا تَصْنَعُ ، فَرَأَيْتُهَا هِيَ فِي تِلْكَ ٱلشُّفُوفِ ٱلَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا عَرُوسًا ، وَمَا أَعْجَبَ كِبْرِيَاءَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمَحْبُوبَةِ ! إِنَّهَا لَتَبْدُو لِعَيْنَيْ مُحِبِّهَا كَالْعَارِيَةِ وَرَاءَ سِتْرٍ رَقِيقٍ يَشِفُّ عَنْهَا كَالضَّوْءِ ، ثُمَّ تُدِلُّ بِنَفْسِهَا أَنْ تَرْفَعَ هَذَا ٱلسِّتْرَ ، فَإِنْ لَمْ يَتَجَرَّأْ هُوَ لَمْ تَتَجَرَّأْ هِيَ ، وَكَأَنَّهَا تَقُولُ لَهُ : قَدْ رَفَعْتُهُ بِطَرِيقَتِي فَٱرْفَعْهُ أَنْتَ بِطَرِيقَتِكَ . .

وَكَانَتْ مُصَوَّرَةً فِي ٱلْحُلْمِ تَصْوِيرًا آخَرَ ، فَلَا يَنْسَكِبُ مِنْ جِسْمِهَا مَعْنَى ٱلْحُسْنِ ٱلَّذِي أَتَأَمَّلُهُ وَأَعْقِلُهُ ، وَلَكِنْ مَعْنَى ٱلسُّكْرِ ٱلَّذِي يَتْرُكُ ٱلْمَرْءَ بِلَا عَقْلٍ ، وَلَمْ تَكُنْ غَلَائِلُهَا عَلَيْهَا كَالثِّيَابِ عَلَى ٱلْمَرْأَةِ ، وَلَكِنَّهَا ظَهَرَتْ لِي كَاللَّوْنِ عَلَى ٱلْوَرْدَةِ ٱلزَّاهِيَةِ : تُظْهِرُ فِتْنَةً وَتَتِمُّ فِتْنَةً .

أَيَّتُهَا ٱلْأَحْلَامُ ! مَاذَا تُبْدِعِينَ إِلَّا مَخْلُوقَاتِ ٱلدَّمِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ، مَاذَا تُبْدِعِينَ ؟

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي ! دَعِ ٱلْآنَ هَذِهِ ٱلْفَلْسَفَةَ وَخُذْ فِي قَصِّ مَا رَأَيْتَ ، ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ ٱلْوَرْدَةِ وَلَوْنِ ٱلْوَرْدَةِ ؟

قَالَ : إِنَّهُ ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ دَائِمًا ، إِنَّهُ ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ ، لَقَدْ ضَحِكَتْ لِي وَقَالَتْ : هَأَنَذَا قَدْ جِئْتُ ! وَأَقْبَلَتْ تُرَائِينِي بِوَجْهِهَا ، وَتَتَغَزَّلُ بِعَيْنَيْهَا ، وَتَتَنَهَّدُ بِصَدْرِهَا ، وَأَلْقَتْ يَدَهَا فِي يَدِي ، فَأَحْسَسْتُ ٱلْيَدَيْنِ تَتَعَانَقَانِ وَلَا تَتَصَافَحَانِ ؛ ثُمَّ تَرَكْنَاهُمَا نَائِمَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى ، وَسَكَتْنَا هُنَيْهَةً وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيْنَا أَنَّنَا إِذَا تَكَلَّمْنَا ٱسْتَيْقَظَتْ يَدَانَا !

أَمَا صَافَحَتْكَ ٱمْرَأَةٌ تُحِبُّهَا وَتُحِبُّكَ ؟ أَمَا أَحْسَسْتَ بِيَدِهَا قَدْ نَامَتْ فِي يَدِكَ وَلَوْ لَحْظَةً ؟ أَمَا رَأَيْتَ بِعَيْنَيْكَ نُعَاسَ يَدِهَا وَهُوَ يَنْتَقِلُ إِلَى عَيْنَيْهَا ، فَإِذَا هُمَا فَاتِرَتَانِ ذَابِلَتَانِ ، وَتَحْتَ

أَجْفَانِهِمَا حُلْمٌ قَصِيرٌ ؟

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي دَعِ ٱلْفَلْسَفَةَ ؛ ثُمَّ كَانَ مَاذَا بَعْدَ أَنْ نَامَتْ يَدٌ عَلَى يَدٍ ؟

قَالَ : ثُمَّ كَانَتْ سُخْرِيَةٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ أَقْبَحَ سُخْرِيَةٍ قَطُّ .

قُلْتُ : حَسْبِي لَكَأَنَّكَ شَرَحْتَ لِي مَا بَقِيَ . . .

فَضَحِكَ طَوِيلًا وَقَالَ : إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَسْخَرُ ٱلْآنَ مِنْكَ أَيْضًا ، وَكَأَنِّي بِهِ يَقُولُ لَكَ [من البسيط] :

وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ[١] . . .

أَفَتَدْرِي مَا ٱلَّذِي كَانَ وَمَا بَقِيَّةُ ٱلْخَبَرِ ؟

لَقَدْ كُنْتُ مُولَعًا بِٱمْتِحَانِ قُوَّتِي فِي ٱلضَّغْطِ بِيَدِي عَلَى أَعْوَادٍ مَنْصُوبَةٍ مِنَ ٱلْحَدِيدِ ، أَوْ عَلَى أَيْدِي ٱلرِّجَالِ ٱلْأَقْوِيَاءِ إِذَا سَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ[٢] ؛ فَلَمَّا صَافَحَتْنِي لَبِثْتُ مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى يَدِهَا قَلِيلًا قَلِيلًا ، فَتَنَبَّهَتْ فِيَّ هَذِهِ ٱلْعَادَةُ ، فَمَسَخَتِ ٱلْحُلْمَ وَٱنْصَرَفَ وَهْمِي إِلَى أَقْبَحِ صُورَةٍ وَأَشْنَعِهَا وَأَبْعَدِهَا مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ ٱلْحُبِّ وَلَذَّاتِ ٱلْحُبِّ ؛ فَإِذَا بِإِزَائِي وَجْهٌ ، وَجْهُ مَنْ ؟ وَجْهُ مُصَارِعٍ ٱلْمَانِيٍّ كُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً وَأَضْغَطُ عَلَى يَدِهِ . . .

* * *

قُلْتُ : إِنَّمَا هَذِهِ كِبْرِيَاؤُكَ أَوْ عِفَّتُكَ تَنَبَّهَتْ فِي تِلْكَ ٱلشِّدَّةِ مِنْ يَدِكَ ، وَلَا يَزَالُ أَمْرُكَ عَجِيبًا ؛ فَهَلْ مَعَكَ أَنْتَ مَلَائِكَةٌ وَمَعَ ٱلنَّاسِ شَيَاطِينُ ؟

قَالَ : وَٱلَّذِي هُوَ أَعْجَبُ أَنِّي رَأَيْتُ فِي أَضْعَافِ أَحْلَامِي كَأَنَّ قَلْبِي ٱلْمِسْكِينَ يُخَاصِمُنِي وَأُخَاصِمُهُ ؛ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَحْنَاءِ ٱلضُّلُوعِ كَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنَ ٱلظِّلِّ يُرَى وَلَا يُرَى إِذْ لَا شَكْلَ لَهُ ؛ وَسَبَّنِي وَسَبَبْتُهُ ، وَقُلْتُ لَهُ وَقَالَ لِي ، وَتَغَالَظْنَا كَأَنَّنَا عَدُوَّانِ ؛ فَهُوَ يَرَى أَنِّي أَنَا أَمْنَعُهُ

(١) [هَذَا صَدْرُ بَيْتٍ لِأَبِي ٱلْعَبَّاسِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْمُعْتَزِّ بِٱللهِ ، وَعَجُزُهُ :
فَظُنَّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ ٱلْخَبَرِ] .

(٢) { ٱنْظُرْ « مِنْ شُؤُونِهِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

لَذَّتَهُ ، وَأَرَىٰ أَنَّهُ هُوَ يَمْنَعُنِي ، وَأَنَّهُ أَشْفَىٰ بِي عَلَىٰ مَا أَشْفَىٰ ؛ وَقُلْتُ لَهُ فِيمَا قُلْتُ : لَا قَرَارَ عَلَىٰ جِنَايَتِكَ فَٱذْهَبْ عَنِّيْ وَلَا تَتَسَمَّ بِٱسْمِي فَإِنَّهُ لَا فُلَانَ لَكَ[1] بَعْدَ ٱلْيَوْمِ ؛ وَلَوْلَا أَنَّكَ مَخْذُوْلٌ فِي ٱلْحُبِّ لَعَلِمْتَ أَنَّ لَمْسَةَ يَدِ ٱلرَّجُلِ لِيَدِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْجَمِيْلَةِ نَوْعٌ مُخَفَّفٌ مِنَ ٱلتَّقْبِيْلِ ، فَإِذَا هِيَ تَرَكَتْهُ يَرْتَفِعُ فِي ٱلدَّمِ ٱنْتَهَىٰ يَوْمًا إِلَىٰ تَقْبِيْلِ فَمِهِ لِفَمِهَا ؛ وَلَوْلَا أَنَّكَ مَخْذُوْلٌ فِي ٱلْحُبِّ ، لَعَلِمْتَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلضَّمَّ بَيْنَ ٱلْيَدَيْنِ نَوْعٌ مُخَفَّفٌ مِنَ ٱلْعِنَاقِ ، فَإِذَا هِيَ تَرَكَتْهُ يَشْتَدُّ فِي ٱلدَّمِ ٱنْتَهَىٰ يَوْمًا إِلَىٰ ضَمِّ ٱلصَّدْرِ لِلصَّدْرِ ؛ وَلَـٰكِنَّكَ مَخْذُوْلٌ فِي ٱلْحُبِّ ، وَلَـٰكِنَّكَ مَخْذُوْلٌ !

وَقَالَ لِيْ فِيمَا قَالَ : وَأَنْتَ أَيُّهَا ٱلْخَائِبُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ أَنَامِلَهَا ٱلرَّخْصَةَ هِيَ أَنَامِلُهَا ، لَا أَعْوَادُكَ مِنَ ٱلْحَدِيْدِ ؟ فَكَيْفَ شَدَدْتَ عَلَيْهَا وَيْحَكَ تِلْكَ ٱلشَّدَّةَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْ لَكَ وَجْهَ ٱلْمُصَارِعِ ؟ وَلَـٰكِنَّكَ خَائِبٌ فِي ٱلْحُبِّ ، وَلَـٰكِنَّكَ خَائِبٌ !

قُلْتُ : فَهَـٰذِهِ قَضِيَّةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيُّهَا ٱلْقَلْبُ ٱلْعَدُوُّ ؛ لَقَدْ تَرَكْتَنِي مِنَ ٱلْهُمُوْمِ كَٱلشَّجَرَةِ ٱلْمُنْخَرِبَةِ قَدْ بَلِيَتْ وَصَارَتْ فِيهَا ٱلتَّخَارِيْبُ ؛ فَلَا حَيَاتُهَا بِٱلْحَيَاةِ وَلَا مَوْتُهَا بِٱلْمَوْتِ ، وَكَمْ عَلَّقْتَنِي بِفَاتِنَةٍ بَعْدَ فَاتِنَةٍ لَا عَنْهَا إِقْصَارٌ يَنْتَهِي وَلَا فِيهَا مَطْمَعٌ يَبْتَدِئُ ؛ مَا أَنْتَ فِيَّ إِلَّا وَحْشٌ أَكْبَرُ لَذَّتِهِ لَطْعُ ٱلدَّمِ !

* * *

وَٱسْتَدَارَ ٱلْحُلْمُ فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ رَأَيْتُنِي فِي مَحْكَمَةِ ٱلْجِنَايَاتِ ، وَكَأَنِّي شَكَوْتُ قَلْبِيْ إِلَيْهَا فَهُوَ جَالِسٌ فِي ٱلْقَفَصِ ٱلْحَدِيْدِيِّ بَيْنَ ٱلْمُجْرِمِيْنَ يَنْتَظِرُ مَا يَنْتَظِرُوْنَ مِنَ ٱلْفَصْلِ فِي أَمْرِهِمْ ، وَقَدِ ٱرْتَفَعَ ٱلْمُسْتَشَارُوْنَ ٱلثَّلَاثَةُ إِلَىٰ مِنَصَّةِ ٱلْحُكْمِ ، وَجَلَسَ ٱلنَّائِبُ ٱلْعَامُّ فِي مَجْلِسِهِ يَتَوَلَّىٰ إِقَامَةَ ٱلدَّعْوَىٰ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَوْرَاقُهُ يَنْظُرُ فِيهَا ، وَرَأَيْتُ مِنْهَا غِلَافًا كُتِبَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ : قَضِيَّةُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِيْنِ .

وَتَكَلَّمَ رَئِيسُ ٱلْمَحْكَمَةِ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فَقَالَ : لَيْسَ فِي قَضِيَّةِ ٱلْقَلْبِ مُحَامٍ ، فَٱبْغُوهُ مَنْ يُدَافِعُ عَنْهُ ؛ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَنْ عَسَىٰ تَخْتَارُ لِلدِّفَاعِ عَنْكَ ؟

قَالَ ٱلْقَلْبُ : أَوَ هُنَا مَوْضِعٌ لِلِاخْتِيَارِ يَا حَضْرَةَ ٱلرَّئِيْسِ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ تَحْتَ هَـٰذِهِ ـ وَأَوْمَأَ

(١) ذَكَرَ ٱسْمَهُ ، كَمَا تَقُوْلُ مَثَلًا : لَا مُحَمَّدَ لَكَ .

إِلَى ٱلسَّمَاءِ ـ وَلَا فَوْقَ هَـٰذِهِ وَأَوْمَأَ إِلَىٰ ٱلْأَرْضِ ـ إِلَّا . . .

فَبَدَرَ ٱلنَّائِبُ ٱلْعَامُّ وَقَالَ : إِلَّا ٱلْحَبِيْبَةُ ؟ أَكَذَٰلِكَ ؟ غَيْرَ أَنَّهَا أُسْتَاذَةٌ فِي ٱلرَّقْصِ لَا فِي ٱلْقَانُوْنِ !

ٱلْقَلْبُ : وَلَـٰكِنَّنِي لَا أَخْتَارُ غَيْرَهَا مَحْكُوْمًا لِيْ أَوْ مَحْكُوْمًا عَلَيَّ ؛ أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَنْظُرَ فِيهَا وَٱنْظُرُوْا أَنْتُمْ فِي ٱلْقَضِيَّةِ . . .

ٱلرَّئِيْسُ : فَلْيَكُنْ ؛ فَهَـٰذِهِ جَرِيْمَةُ عَوَاطِفٍ ، إِيْذَنْ لَهَا أَيُّهَا ٱلْآذِنُ .

فَنَادَىٰ ٱلْمُحْضِرُ[1] : ٱلْأُسْتَاذَةُ ! ٱلْأُسْتَاذَةُ !

وَجَاءَتْ مُبَادِرَةً ، وَدَخَلَتْ تَمْشِيْ مِشْيَتَهَا وَقَدِ ٱفْتَرَّ ثَغْرُهَا عَنِ ٱلنُّوْرِ ٱلَّذِي يَسْطَعُ فِي ٱلنَّفْسِ ؛ وَأَوْمَضَتْ بِوَجْهِهَا يَمِيْنًا وَشِمَالًا ، فَصَرَفَ ٱلنَّاسُ جَمِيْعًا أَبْصَارَهُمْ إِلَيْهَا وَقَدْ نَظَرُوا إِلَىٰ فِتْنَةٍ مِنَ ٱلْفِتَنِ ؛ وَثَارَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ نَزْعَةٌ ، وَغَلَبَتِ ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلْبَشَرِيَّةُ فَٱنْتَقَضَتْ طِبَاعُ ٱلْمَوْجُوْدِيْنَ فِي قَاعَةِ ٱلْجَلْسَةِ ، وَأَبْطَلَ قَانُوْنُ جَمَالِهَا قَانُوْنَ ٱلْمَحْكَمَةِ ، فَوَقَعَتِ ٱلضَّجَّةُ وَعَلَتِ ٱلْأَصْوَاتُ وَٱخْتَلَطَتْ ؛ وَتَرَدَّدَتْ بَيْنَ جُدْرَانِ ٱلْمَكَانِ صَدًى فِيْ صَدًى كَأَنَّ ٱلْجُدْرَانَ تَتَكَلَّمُ مَعَ ٱلْمُتَكَلِّمِيْنَ .

أَصْوَاتٌ أَصْوَاتٌ : سُبْحَانَ ٱللهِ ! سُبْحَانَ ٱللهِ ! تَبَارَكَ ٱللهُ ! تَبَارَكَ ٱللهُ ! آهٍ آهٍ ! آهٍ آهٍ ! وَسُمِعَ صَوْتٌ يَقُوْلُ : ٱتَّهِمُوْنِي أَنَا أَيْضًا . . . فَنَفَرَتِ ٱلْكَلِمَاتُ : وَأَنَا ، وَأَنَا ، وَأَنَا ! وَٱخْتَفَتِ ٱلْمَحْكَمَةُ وَٱنْبَعَثَ ٱلْمَسْرَحُ بِدُخُوْلِ فَاتِنَتِهِ ٱلرَّاقِصَةِ ؛ وَكَانَ ٱلْمُسْتَشَارُوْنَ وَٱلنَّائِبُ ٱلْعَامُّ فِي أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ كَأَنَّهُمْ صُوَرٌ مُعَلَّقَةٌ عَلَى ٱلْحَائِطِ : لَا يَخْشَاهَا أَحَدٌ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ مَا يَصْنَعُ !

فَصَاحَ ٱلرَّئِيْسُ : هُنَا ٱلْمَحْكَمَةُ ! هُنَا ٱلْمَحْكَمَةُ ! سُبْحَانَ ٱللهِ . . . ٱلْمَحْكَمَةُ ٱلْمَحْكَمَةُ !

ٱلنَّائِبُ ٱلْعَامُّ : هَـٰذَا بَدْءٌ لَا تَرْضَاهُ ٱلنِّيَابَةُ وَلَا تَقْبَلُ أَنْ تَنْسَحِبَ عَلَيْهِ ، نَعَمْ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْوَجْهَ ٱلْجَمِيْلَ أَبْرَعُ مُحَامٍ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ ، وَنَعَمْ إِنَّ جِسْمَهَا . . . آهٍ مَاذَا ؟ إِنَّكُمْ تَأْتُوْنَ

(١) هُوَ ٱلْمُوَظَّفُ ٱلَّذِي يَكُوْنُ فِي ٱلْجَلْسَةِ لِلنِّدَاءِ عَلَى ٱلْخُصُوْمِ .

بِالشَّهْوَةِ ٱلْغَالِبَةِ ٱلْقَاهِرَةِ لِتُدَافِعَ عَنِ ٱلْمُشْتَهِي . . . عَنِ ٱلْمُتَّهَمِ ، هَـٰذَا وَضْعٌ كَوَضْعِ ٱلْعُذْرِ إِلَىٰ جَانِبِ ٱلذَّنْبِ ، وَكَأَنَّكُمْ يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ . . .

فَبَدَرَتِ ٱلْمُحَامِيَةُ تَقُولُ فِي نَغْمَةِ دَلَالٍ وَفُتُورٍ : وَكَأَنَّكُمْ يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ قَدْ نَسِيتُمْ أَنَّ ٱلنَّائِبَ ٱلْعَامَّ لَهُ قَلْبٌ أَيْضًا . . .

وَٱشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَىٰ ٱلنَّائِبِ ، وَتَبَيَّنَ ٱلْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ؛ فَقَالَ :

يَا حَضْرَةَ ٱلرَّئِيسِ . . .

ٱلرَّئِيسُ مُبْتَسِمًا : وَاحِدَةٌ بِوَاحِدَةٍ ، وَأَرْجُو أَلَّا تَكُونَ لَهَا ثَانِيَةٌ ، وَمَعْنَىٰ هَـٰذَا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ أَلَّا تَكُونَ لَهَا ثَالِثَةٌ . . .

(ضَحِكٌ) .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ : وَكُنْتُ بِلَا قَلْبٍ . . . فَلَمْ أَلْتَفِتْ لِلْجَمَالِ ، بَلْ رَاعَنِي ذَكَاءُ ٱلْمُحَامِيَةِ وَنَفَاذُهَا وَحُسْنُ ٱهْتِدَائِهَا إِلَى ٱلْحُجَّةِ فِي أَوَّلِ ضَرَبَاتِهَا ، وَتَعَجَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ ٱلتَّعَجُّبِ ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلنَّائِبَ ٱلْعَامَّ سَيَقَعُ فِي لِسَانِهَا لَا كَمَا يَقَعُ مِثْلُهُ فِي لِسَانِ ٱلْمُحَامِي ٱلْقَدِيرِ ، وَلَـٰكِنْ كَمَا يَقَعُ زَوْجٌ فِي لِسَانِ زَوْجَةٍ مَعْشُوقَةٍ مُتَدَلِّلَةٍ تُجَادِلُهُ بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ بَعْضُهَا ٱلْكَلَامُ . . وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : يَا رَحْمَةَ ٱللهِ ! لَا تَجْعَلِي مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلْجَمِيلَاتِ ٱلْفَاتِنَاتِ مُحَامِيَاتٍ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَحَاكِمِ ، فَلَوْ أَلْبَسُوهُنَّ لِحًى مُسْتَعَارَةً لَكَانَ ٱلصَّوْتُ ٱلرَّخِيمُ وَحْدَهُ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَفْوَاهِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلْعَذْبَةِ ، نِدَاءً قَانُونِيًّا لِلْقُبُلَاتِ . . .

وَنَهَضَتِ ٱلْمُحَامِيَةُ ٱلْعَجِيبَةُ فَسَلَّطَتْ عَيْنَيْهَا ٱلسَّاحِرَتَيْنِ عَلَىٰ ٱلنَّائِبِ ، ثُمَّ قَالَتْ تُخَاطِبُ ٱلْمَحْكَمَةَ : قَبْلَ ٱلنَّظَرِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ قَضِيَّةِ ٱلْحُبِّ وَٱلْجَمَالِ ، قَضِيَّةِ قَلْبِي ٱلْمِسْكِينِ . . . أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّفَ ٱلرَّأْيَ ٱلْقَانُونِيَّ فِي ٱعْتِبَارِ ٱلْجَرِيمَةِ . أَهِيَ شَخْصِيَّةٌ ، فَتَقْتَصِرُ عَلَىٰ صَاحِبِهَا ؛ أَوْ خَاصَّةٌ ، فَتَضُرُّ غَيْرَ جَانِبِهَا ؛ أَوْ عَامَّةٌ ، فَيَتَنَاوَلُهَا ٱلْعُمُومُ ٱلْمَحْدُودُ لِمَنْ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةُ ٱلْحُبِّ ؛ أَوْ هِيَ أَعَمُّ ، فَيَتَنَاوَلُهَا ٱلْعُمُومُ ٱلْمُطْلَقُ لِلْهَيْئَةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ مَا هِيَ جَرِيمَةُ قَلْبِي . . ؟

ٱلرَّئِيسُ : مَا رَأْيُ ٱلنِّيَابَةِ ؟

ٱلنَّائِبُ ضَاحِكًا : (غَزَالَتُهَا رَايِقَةٌ) كَمَا يَقُولُ ٱلرَّاقِصَاتُ وَٱلْمُمَثِّلَاتُ . . أَرَىٰ أَنَّهَا جَرِيمَةٌ آتِيَةٌ مِنْ ضَرْبِ ٱلْخَاصِّ فِي ٱلْعَامِّ . . . (ضَحِكٌ) .

ٱلْمُحَامِيَةُ : جَوَابٌ كَجَوَابِ ٱلْقَائِلِ : حُبُّ أَبِي بَكْرٍ . كَانَ ذَلِكَ ٱلرَّجُلُ يُحِبُّ زَوْجَتَهُ ٱلْجَمِيلَةَ وَيَخَافُهَا ، وَكَانَتْ تَقْسُو عَلَيْهِ قَسْوَةً عَظِيمَةً وَتُغْلِظُ لَهُ ٱلْكَلَامَ ، وَهُوَ يَفْرَقُ مِنْهَا وَلَا يُخَالِفُهَا ، فَرَآهَا يَوْمًا وَقَدْ طَابَتْ نَفْسُهَا ، فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَهِزَ ٱلْفُرْصَةَ وَيَشْكُوَ قَسْوَتَهَا ؛ فَقَالَ : يَا فُلَانَةُ ! قَدْ وَٱللهِ أَحْرَقَ قَلْبِي . . . وَلَمْ تَدَعْهُ يُتِمُّ ٱلْكَلِمَةَ ، فَحَدَّدَتْ نَظَرَهَا إِلَيْهِ وَقَطَّبَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ : أَحْرَقَ قَلْبَكَ مَاذَا ؟ فَخَافَ وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ لَهَا : سُوءُ أَخْلَاقِكِ . فَقَالَ : حُبُّ أَبِي بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ (ضَحِكٌ) . وَرَنَّتْ ضِحْكَةُ ٱلْمُحَامِيَةِ فَٱضْطَرَبَتْ لَهَا ٱلْقُلُوبُ ، وَوَقَعَتْ فِي كُلِّ دَمٍ ، وَفِي دَمِ ٱلنَّائِبِ أَيْضًا ، فَٱنْخَزَلَ وَلَمْ يَزِدْ عَلَىٰ أَنْ يَقُولَ : أَحْتَجُّ مِنْ كُلِّ قَلْبِي . .

ٱلرَّئِيسُ : لِنَدْخُلْ فِي ٱلْمَوْضُوعِ وَلْتَكُنِ ٱلْمُرَافَعَةُ مُطْلَقَةً ، فَإِنَّ ٱلْحُدُودَ فِي جَرَائِمِ ٱلْقَلْبِ تُسْدَلُ وَتُرْفَعُ كَهَـٰذِهِ ٱلسَّتَائِرِ فِي مَسْرَحِ ٱلتَّمْثِيلِ ، وَعِشْرُونَ سِتَارَةً قَدْ تَكُونُ كُلُّهَا لِرِوَايَةٍ وَاحِدَةٍ .

* * *

ٱلنَّائِبُ ٱلْعَامُّ : يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ! ، لَا يَطُولُ ٱتِّهَامِي ، فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْقَلْبَ هُوَ نَفْسُهُ تُهْمَةٌ مُتَكَلِّمَةٌ .

ٱلْمُحَامِيَةُ ، وَلَـٰكِنَّهُ قَلْبٌ .

ٱلنَّائِبُ : وَأَنَا يَا سَيِّدَتِي لَمْ أُحَرِّفِ ٱلْكَلِمَةَ وَلَمْ أَقُلْ إِنَّهُ كَلْبٌ . (ضَحِكٌ) وَتَضَرَّجَ وَجْهُ ٱلْمُحَامِيَةِ وَخَجِلَتْ[1] .

---

(١) إِذَا كَانَ كَلْبًا فَهُوَ يَتْبَعُ كَلْبَةً . . . وَهَـٰذِهِ هِيَ غَمْزَةُ ٱلنَّائِبِ لِلْمُحَامِيَةِ ، وَلَا يَنْسَ ٱلْقُرَّاءُ أَنَّ ٱلْمَحْكَمَةَ فِي ٱلرُّؤْيَا ؛ وَفِي ٱلرُّؤْيَا عَلِمْنَا أَنَّ هَـٰذَا ٱلنَّائِبَ كَأَكْثَرِ شُبَّانِ ٱلْعَصْرِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْفَاسِدَةِ ، لَا يَتَزَوَّجُونَ ، لِأَنَّ ٱلْمَدَنِيَّةَ جَعَلَتْهُمْ بَيْنَ ٱلْفِتْيَانِ «أَنْصَافَ مُتَزَوِّجِينَ» عَلَىٰ وَزْنِ أَنْصَافِ عَذَارَىٰ بَيْنَ=

ٱلرَّئِيسُ : ٱلْمَوْضُوعُ ٱلْمَوْضُوعُ .

ٱلنَّائِبُ : يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ! إِنَّ أَلَمَ هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيمَةِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي شَخْصِ ٱلْجَانِي أَوْ مَالِهِ . أَوْ صِفَتِهِ كَأَنْ يَكُونَ زَوْجًا مَثَلًا ، أَوْ صِيتِهِ ٱلأَدَبِيِّ ، فَأَمَّا ٱلشَّخْصُ فَهَـٰذَا ظَاهِرٌ ، وَأَمَّا ٱلْمَالُ فَنَعَمْ ، إِنَّ ٱلْقَلْبَ ٱلْمِسْكِينَ قَرَّرَ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحِبِهِ أَلَّا يَبْتَاعَ أَبَدًا تَذْكِرَةَ دُخُولٍ إِلَىٰ جَهَنَّمَ . . . (ضَحِكٌ) .

ٱلْمُحَامِيَةُ : أَسْتَمِيحُ ٱلنَّائِبَ عُذْرًا إِذَا أَنَا . . إِذَا أَنَا فَهِمْتُ مِنْ هَـٰذَا ٱلتَّعْبِيرِ أَنَّ حَضْرَتَهُ يَعْرِفُ عَلَىٰ ٱلأَقَلِّ أَيْنَ تُبَاعُ هَـٰذِهِ « ٱلتَّذَاكِرُ » . . (ضَحِكٌ) وَتَفَرَّجَ وَجْهُ ٱلنَّائِبِ ٱلْعَامِّ وَخَجِلَ .

ٱلرَّئِيسُ : كُنْتُ رَجَوْتُ أَلَّا تَكُونَ لِلأُولَىٰ ثَانِيَةٌ ، وَقُلْتُ : إِنَّ مَعْنَىٰ هَـٰذَا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ أَلَّا يَكُونَ لَهَا ثَالِثَةٌ ، فَهَلْ أَنَا مُحْتَاجٌ إِلَىٰ ٱلْقَوْلِ بِأَنَّ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْمَنْطِقِيَّ أَلَّا يَكُونَ لِلثَّالِثَةِ رَابِعَةٌ . .

ٱلنَّائِبُ : يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ! وَأَمَّا ٱلصِّفَةُ ، فَهَـٰذَا ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ قَلْبُ رَجُلٍ مُتَزَوِّجٍ ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمْ صُوفِيَّةُ هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ ، وَلَا يَخْدَعَنَّكُمْ تَأَلُّهُهُ وَزَعْمُهُ ٱلسُّمُوَّ ؛ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ يَعْشَقُ رَاقِصَةً ، وَهَـٰذَا ٱعْتِدَاءٌ فِي ضِمْنِهِ ٱعْتِدَاءٌ عَلَىٰ ٱلزَّوَاجِ وَعَلَىٰ ٱلشَّرَفِ ، وَهَبْهُ مُتَصَوِّفًا مُتَأَلِّهًا وَلَمْ يَتَّصِلْ بِٱلرَّاقِصَةِ ، فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ قَدْ أَخَذَهَا وَٱتَّخَذَهَا وَلَـٰكِنْ بِأُسْلُوبِهِ ٱلْخَاصِّ . . وَبِهَـٰذَا ٱقْتَرَفَ ٱلْجَرِيمَةَ ؛ آهِ ! إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةَ نَاقِصَةٌ ، وَذَلِكَ نَقْصٌ فِيهَا أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ نَقْصًا فِي ٱلْحُكْمِ أَيْضًا ، فَأَتِمُّوهُ أَنْتُمْ . يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ! إِنَّ ٱلنَّقْصَ فِيهَا أَنَّهَا لَا شُهُودَ فِيهَا ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا عَمَلٌ إِلَـٰهِيٌّ لَا يَظْهَرُ إِلَّا ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآية : ٢٤] .

ٱلْمُحَامِيَةُ : هَـٰذَا تَعْبِيرٌ أَكْبَرُ مِنْ قُدْرَةِ قَائِلِهِ وَمِنْ مَنْزِلَتِهِ وَوَظِيفَتِهِ ، هَـٰذَا تَعْبِيرٌ جَسُورٌ ! يَا حَضْرَةَ ٱلنَّائِبِ ! مَنِ ٱلَّذِي لَا يَحْمِلُ شُهُودًا فِي لِسَانِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، بَلْ أَلْفَ شَاهِدٍ عَلَىٰ

= ٱلْفَتَيَاتِ . . . وَفِي ٱلرُّؤْيَا عَلِمْنَا أَنَّهُ يُخَادِنُ رَاقِصَةً ، وَيُقَالُ : مُمَثِّلَةً - بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَاحِبِ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ مُنَافَسَةٌ . . .

لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ . . يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَفْهُومًا بَيْنَنَا يَا حَضْرَةَ ٱلنَّائِبِ أَنَّ ٱلنُّونَ وَٱلْبَاءَ فِي لَفْظَةِ (نَائِبٍ) غَيْرُ ٱلنُّونِ وَٱلْبَاءِ فِي لَفْظَةِ (نَبِيٍّ) .

ٱلنَّائِبُ : يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ! لَا أَرَىٰ مِمَّا يُخْرِجُنِي فِي ٱلاتِّهَامِ أَنْ أُصَرِّحَ لَكُمْ أَنَّ مِمَّا حَيَّرَنِي فِي هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيمَةِ أَنْ لَيْسَ فِيهَا مِنْ أَوْصَافِ ٱلْجَرَائِمِ إِلَّا ثَلْمُ ٱلْكَرَامَةِ ، فَلَا قَذْفَ وَلَا سَبَّ وَلَا هَتْكَ عِرْضٍ وَلَا فُجُورَ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا كَأْسَ خَمْرٍ لِلرَّاقِصَةِ . .

ٱلْمُحَامِيَةُ : لَا أَرَىٰ أَمَامَ حَضْرَةِ ٱلنَّائِبِ كَأْسَ مَاءٍ ، وَسَيَجِفُّ حَلْقُهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ ، فَلَعَلَّ ٱلْمَحْكَمَةَ تَأْمُرُ لِي بِكَأْسٍ . . (ضَحِكٌ) .

ٱلنَّائِبُ : يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ! يَعْشَقُ رَاقِصَةً ، ٱسْمُ فَاعِلٍ مِنْ رَقَصَ يَرْقُصُ ، ٱمْرَأَةٌ لَا تَلْبَسُ ثِيَابًا ، بَلْ عُرْيًا فِي شَكْلِ ثِيَابٍ . . ٱمْرَأَةٌ لَا كَٱلنِّسَاءِ ، كَذِبُهَا هُوَ صِدْقٌ مِنْ شَفَتَيْهَا ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّهُمَا حَمْرَاوَانِ رَقِيقَتَانِ عَذْبَتَانِ مَحْبُوبَتَانِ مَطْلُوبَتَانِ . .

ٱلْمُحَامِيَةُ تَضْحَكُ . .

ٱلنَّائِبُ بَعْدَ أَنْ تَتَعْتَعَ : ٱمْرَأَةٌ لَا كَٱلنِّسَاءِ ، جَعَلَتْهَا ٱلْحِرْفَةُ ٱمْرَأَةً فِي ٱلْعَمَلِ وَرَجُلًا فِي ٱلْكَسْبِ . .

ٱلْمُحَامِيَةُ : وَلَـٰكِنَّكَ لَا تَدْرِي تَحْتَ أَيِّ حِمْلٍ سَقَطَتِ[1] ٱلْمِسْكِينَةُ ، وَقَدْ يَكُونُ فِي ٱلرَّذَائِلِ رَذَائِلُ كَبَعْضِ أَصْحَابِ ٱلأَلْقَابِ : ذَاتُ عَظَمَةٍ . .

ٱلنَّائِبُ : يُحِبُّ رَاقِصَةً ، أَيْ يَضَعُهَا فِي عَقْلِهِ ٱلْبَاطِنِ وَيَشْتَهِيهَا ، نَعَمْ يَشْتَهِيهَا ؛ فَمِنْ عَقْلِهِ ٱلْبَاطِنِ ، وَبِتَعْبِيرِ ٱللُّغَةِ . مِنْ وَاعِيَتِهِ ـ تَخْرُجُ ٱلْجَرِيمَةُ أَوْ عَلَىٰ ٱلأَقَلِّ ، فِكْرَةُ ٱلْجَرِيمَةِ .

وَٱلصِّيتُ ٱلأَدَبِيُّ يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ؟ هَلْ مِنْ كَرَامَةٍ لِمَنْ يَعْشَقُ رَاقِصَةً ؟ لَا بَلْ هَلْ مِنْ كَرَامَةٍ فِي ٱلْحُبِّ ؟ أَلَمْ يَقُولُوا : إِنَّ كَرَامَةَ ٱلرَّجُلِ [ٱلْعَاشِقِ] تَكُونُ تَحْتَ قَدَمَيِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمَعْشُوقَةِ كَٱلْمِمْسَحَةِ ٱلْخَشِنَةِ تَمْسَحُ بِهَا نَعْلَيْهَا !

ٱلْحُبُّ ؟ مَا هُوَ ٱلْحُبُّ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ فِكْرَةً ، بَلْ هُوَ شَيْطَانٌ يَتَلَبَّسُ لِجِسْمِ ٱلْعَاشِقِ لِيَعْمَلَ

(١) هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ لِفِكْتُورْ هِيْغُو .

أَعْمالَهُ بِأَداةٍ حَيَّةٍ ، وَهَـٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ ٱلْحَيَوانِيُّ لِلإِنْسانِ هُوَ ٱلَّذِي يُهَيِّئُ مِنَ ٱلْحُبِّ مَداخِلَ وَمَخارِجَ لِلشَّياطِينِ فِي جِسْمِهِ ، وَهَلْ رَضِيَ صاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ بِجِنايَةِ قَلْبِهِ عَلَيْهِ ، وَعَظِيمِ مَا ٱنْتَهَكَ مِنْ أَخْلاقِهِ ٱلسَّامِيَةِ ؟ هَلْ رَضِيَ بِعِشْقِهِ راقِصَةً ؟ إِنَّهُ لَمْ يَرْضَ ٱلرِّضَىٰ ٱلصَّحِيحَ أَوْ رَضِيَ بِقَدْرٍ مَا ؛ فَعَلَىٰ كِلَيْهِما يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مانِعٌ ؛ وَٱلْمانِعُ مِنَ ٱلرِّضَىٰ هُوَ ٱلْمُوجِبُ لِلْعُقُوبَةِ .

ٱلْمُحامِيَةُ : وَلَـٰكِنَّ قَدْرًا مِنَ ٱلرِّضَىٰ يَنْزِلُ بِٱلْجِنايَةِ فَيَرُدُّهَا إِلَىٰ جُنْحَةٍ كَمَا فِي ٱلْقَانُونِ ٱلإِنْكِلِيزِيِّ ، وَقَدْ قَرَّرَ ٱلشُّرَّاحُ أَنَّهُ مَا دَامَ ٱلرِّضَىٰ غَيْرَ مُسْتَلَبٍ بِكُلِّهِ ، فَٱلْجَرِيمَةُ غَيْرُ وَاقِعَةٍ بِكُلِّهَا .

ٱلنَّائِبُ : جُنْحَةُ كُلِّ قَلْبٍ هِيَ جِنايَةٌ مِنْ هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ بِخُصُوصِهِ ، عَلَىٰ طَرِيقَةِ « حَسَنَاتُ ٱلأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ ٱلْمُقَرَّبِينَ »[1] ؛ وَٱلْعِبْرَةُ هُنَا بِٱلْوَاقِعِ لَا بِٱلصِّفَةِ ٱلْقَانُونِيَّةِ ، وَقَدْ قَرَّرَ ٱلشُّرَّاحُ أَنَّ ٱلْوَاقِعَ قَدْ يَكُونُ أَحْيَانًا سَبَبًا فِي تَشْدِيدِ ٱلْعُقُوبَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْدِيدِ ٱلْعُقُوبَةِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ . لَا أَطْلُبُ ٱلْحُكْمَ بِٱلْمَادَّةِ ٢٣٠ عُقُوبَاتٍ بَلْ بِٱلْمَوَادِّ مِنْ ٢٣٠ إِلَىٰ ٢٤١ ضَرْبَةً وَاحِدَةً .

ٱلْمُحامِيَةُ : قَدْ نَسِيتَ أَنَّ هَـٰذَا قَلْبٌ وَعُقُوبَتُهُ عُقُوبَةٌ لِصَاحِبِهِ ٱلْبَرِيءِ .

ٱلنَّائِبُ : إِذَنْ أَطْلُبُ عِقَابَهُ بِحِرْمَانِهِ ٱلْجَمَالَ ، وَهَـٰذَا أَشَقُّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعِقَابِ بِٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَادَّةً وَبِعِشْرِينَ وَثَلَاثِينَ .

ٱلرَّئِيسُ : وَمَا هِيَ ٱلطَّرِيقَةُ لِتَنْفِيذِ ٱلْحُكْمِ بِهَـٰذَا ٱلْحِرْمَانِ ؟

ٱلنَّائِبُ : تَأْمُرُ ٱلْمَحْكَمَةُ بِٱلْمَرَاقِصِ كُلِّهَا فَتُغْلَقُ ، وَبِٱلْمَسَارِحِ كُلِّهَا فَتُقْفَلُ ، وَبِٱلسِّينَمَا فَتَبْطُلُ إِلَّا مَا لَا جَمَالَ فِيهِ مِنْهَا وَلَا غَزَلَ وَلَا حُبَّ ، وَيُحَرِّمُ ٱلسُّفُورُ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا ٱلْعَجَائِزَ وَٱلدَّمِيمَاتِ ، وَيُمْنَعُ نَشْرُ صُوَرِ ٱلْجَمَالِ فِي ٱلصُّحُفِ وَٱلْكُتُبِ ، وَ . . .

ٱلْمُحامِيَةُ : قُلْ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : يَجِبُ إِصْلَاحُ ٱلْعَالَمِ كُلِّهِ لِإِصْلَاحِ ٱلْقَلْبِ ٱلإِنْسَانِيِّ !

* * *

وَجَلَسَ ٱلنَّائِبُ ، فَٱلْتَفَتَ ٱلرَّئِيسُ إِلَىٰ ٱلْمُحامِيَةِ وَقَالَ لَهَا : وَأَمَّا هُوَ . . . ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) [ينسب هذا القول للجنيد ، ولأبي سعيد الخراز ، ولذي النون رحمهم الله تعالى] .

ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ (*)
تَتِمَّةٌ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ : وَوَقَفَتِ ٱلْمُحامِيَةُ وَكَأَنَّهَا بَيْنَ ٱلْحُرَّاسِ تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَقَدْ ظَهَرَتْ لِلْمَوْجُودِينَ ظُهُورَ ٱلْجَمَالِ لِلْحُبِّ ، وَنَقَلَتْهُمْ فِي ٱلزَّمَنِ إِلَىٰ مِثْلِ ٱلسَّاعَةِ ٱلْمُصَوَّرَةِ ٱلَّتِي يَنْتَظِرُ فِيهَا ٱلأَطْفَالُ سَمَاعَ ٱلْقِصَّةِ ٱلْعَجِيبَةِ ، سَاعَةٍ فِيهَا كُلُّ صُوَرِ ٱللَّذَّةِ لِلْقَلْبِ .

وَكَانَتْ تُدَافِعُ بِكَلَامِهَا ، وَوَجْهُهَا يُدَافِعُ عَنْ كَلَامِهَا ، فَلَوْ نَطَقَتْ غَيًّا أَوْ رُشْدًا فَلِهَـٰذَا صَوَابٌ وَلِهَـٰذَا صَوَابٌ ، لِأَنَّ أَحَدَ ٱلصَّوَابَيْنِ مَنْظُورٌ بِٱلأَعْيُنِ .

كَانَ صَوْتُ ٱلنَّائِبِ ٱلْعَامِّ كَلَامًا يُسْمَعُ وَيُفْهَمُ ، أَمَّا صَوْتُ ٱلْمُحامِيَةِ ٱلْجَمِيلَةِ فَكَانَ يُسْمَعُ وَيُفْهَمُ وَيُحَسُّ وَيُذَاقُ ؛ تُلْقِيهِ هِيَ مِنْ نَاحِيَةِ مَا يُدْرَكُ ، وَتَتَلَقَّاهُ ٱلنَّفْسُ مِنْ نَاحِيَةِ مَا يُعْشَقُ ، فَهُوَ مُتَّصِلٌ بِحَقِيقَتَيْنِ مِنْ مَعْنَاهُ وَمَعْنَاهَا ، وَهُوَ كُلُّهُ حَلَاوَةٌ مِنْ فَمِهَا ٱلْحُلْوِ .

* * *

وَبَدَأَتْ فَتَنَاوَلَتْ مِنْ أَشْيَائِهَا مِرْآةً صَغِيرَةً فَنَظَرَتْ فِيهَا .

ٱلنَّائِبُ ٱلْعَامُّ : مَا هَـٰذَا يَا أُسْتَاذَةُ ؟

ٱلْمُحامِيَةُ : إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيمَةَ تَأْلِيفُ عَيْنَيَّ ، فَأَنَا أَسْأَلُ عَيْنَيَّ قَبْلَ أَنْ أَتَكَلَّمَ !

ٱلنَّائِبُ : نَعَمْ يَا سَيِّدَتِي ؛ وَلَـٰكِنِّي أَرْجُو أَلَّا تُدْخِلِي ٱلْقَضِيَّةَ فِي سِرِّ ٱلْمِرْآةِ وَأَخَوَاتِهَا . . . إِنَّ ٱلنِّيَابَةَ تَخْشَىٰ عَلَىٰ ٱتِّهَامِهَا إِذَا تَكَحَّلَتْ لُغَةُ ٱلدِّفَاعِ !

فَضَحِكَتِ ٱلْمُحامِيَةُ ضِحْكَةً كَانَتْ أَوَّلَ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمُؤَثِّرَةِ . . .

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٥ ، ٥ ذو القعدة سنة ١٣٥٥هـ = ١٨ يناير/ كانون الآخر ١٩٣٧م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٨٥ ـ ٨٧ .

ٱلنَّائِبُ : مِنَ ٱلْوَقَارِ ٱلْقَانُونِيِّ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُحَامِيَةُ ٱلْفَتَّانَةُ غَيْرَ فَتَّانَةٍ وَلَا جَذَّابَةٍ أَمَامَ ٱلْمَحْكَمَةِ .

ٱلْمُحَامِيَةُ : تُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَهَا عَجُوزًا بِأَمْرِ ٱلنِّيَابَةِ . . . ؟ (ضَحِكٌ) .

ٱلنَّائِبُ : جَمَالُ حَسْنَاءَ ، فِي ظَرْفِ غَانِيَةٍ ، فِي شَمَائِلِ رَاقِصَةٍ ، فِي حَمَاسَةِ عَاشِقَةٍ ، فِي ذَكَاءِ مُحَامِيَةٍ ، فِي قُدْرَةِ حُبٍّ ـ هَـٰذَا كَثِيرٌ !

ٱلْمُحَامِيَةُ : يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ! لَمْ تَكُنِ ٱلْمَرْأَةُ هَفْوَةً مِنْ طَبِيعَةِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَلَـٰكِنَّهَا ٱلْكَلِمَةُ ٱلْأُولَىٰ فِي ٱلدِّفَاعِ . كَلِمَةٌ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنْهَا مِنَ ٱلنَّائِبِ ٱلْعَامِّ أَنَّهُ أَقَرَّ بِتَأْثِيرِ ٱلْجَمَالِ وَخَطَرِهِ ، حَتَّىٰ لَقَدْ خَشِيَ عَلَىٰ ٱتِّهَامِهِ إِذَا تَكَحَّلَتْ لَهُ لُغَتِي .

ٱلْقُضَاةُ يَتَبَسَّمُونَ .

ٱلنَّائِبُ : لَمْ أَزِدْ عَلَىٰ أَنْ طَلَبْتُ ٱلْوَقَارَ ٱلْقَانُونِيَّ ؛ ٱلْوَقَارَ ، نَعَمِ ٱلْوَقَارَ ؛ فَإِنَّ ٱلْمُحَامِيَةَ أَمَامَ ٱلْمَحْكَمَةِ ، هِيَ مُتَكَلِّمٌ لَا مُتَكَلِّمَةٌ .

ٱلْمُحَامِيَةُ : مُتَكَلِّمٌ بِلِحْيَةٍ مُقَدَّرَةٍ مَنَعَ مِنْ ظُهُورِهَا ٱلتَّعَذُّرُ . (ضَحِكٌ) .

كَلَّا يَا حَضْرَةَ ٱلنَّائِبِ ؛ إِنَّ لِهَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ قَانُونًا آخَرَ تُنْتَزَعُ مِنْهُ شَوَاهِدُ وَأَدِلَّةٌ ؛ قَانُونَ سِحْرِ ٱلْمَرْأَةِ لِلرَّجُلِ ، فَلَوِ ٱقْتَضَانِي ٱلدِّفَاعُ أَنْ أَرْقُصَ لَرَقَصْتُ ، أَوْ أُغَنِّيَ لَغَنَّيْتُ ، أَوْ أُثْبِتَ سِحْرَ ٱلْجَمَالِ لَأَثْبَتُّهُ أَوَّلَ شَيْءٍ فِي ٱلنَّائِبِ ٱلْعَامِّ . . .

ٱلرَّئِيسُ : يَا أُسْتَاذَةُ !

ٱلْمُحَامِيَةُ : لَمْ أُجَاوِزِ ٱلْقَانُونَ ، فَٱلنَّائِبُ فِي جَرِيمَتِنَا هُوَ خَصْمُ ٱلْقَضِيَّةِ ، وَهُوَ أَيْضًا خَصْمُ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلنِّسْوِيَّةِ .

ٱلنَّائِبُ : لَوْ حَدَثَ مِنْ هَـٰذَا شَيْءٌ لَكَانَ إِيحَاءً لِعَوَاطِفِ ٱلْمَحْكَمَةِ . . . فَأَنَا أَحْتَجُّ !

ٱلْمُحَامِيَةُ : ٱحْتَجَّ مَا شِئْتَ ، فَفِي قَضَايَا ٱلْحُبِّ يَكُونُ ٱلْعَدْلُ عَدْلَيْنِ ؛ إِذْ كَانَ ٱلِاضْطِرَارُ قَدْ حَكَمَ بِقَانُونِهِ قَبْلَ أَنْ تَحْكُمَ أَنْتَ بِقَانُونِكَ .

ٱلنَّائِبُ : هَـٰذِهِ ٱلْعُقْدَةُ لَيْسَتْ عُقْدَةً فِي مِنْدِيلٍ يَا سَيِّدَتِي ، بَلْ هِيَ عُقْدَةٌ فِي ٱلْقَانُونِ .

ٱلْمُحَامِيَةُ : وَهَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ قَضِيَّةَ إِخْلَاءِ دَارٍ يَا سَيِّدِي ، بَلْ هِيَ قَضِيَّةُ إِخْلَاءِ قَلْبٍ !

ٱلرَّئِيسُ : ٱلْمَوْضُوعُ ، ٱلْمَوْضُوعُ !

ٱلْمُحَامِيَةُ : يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ! إِذَا ٱنْتَفَىٰ ٱلْقَصْدُ ٱلْجِنَائِيُّ وَجَبَتِ ٱلْبَرَاءَةُ ، هَـٰذَا مَبْدَأٌ لَا خِلَافَ عَلَيْهِ ؛ فَمَا هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْوُجُودِيُّ فِي جَرِيمَةِ قَلْبَيِ ٱلْمِسْكِينَيْنِ ؟

ٱلنَّائِبُ : أَوَّلُهُ حُبُّ رَاقِصَةٍ .

ٱلْمُحَامِيَةُ : آهٍ ! دَائِمًا هَـٰذَا ٱلْوَصْفُ ؟ هَبُوهَا فِي مَعْنَاهَا غَيْرَ جَدِيرَةٍ بِأَنْ يَعْرِفَهَا لِأَنَّهُ رَجُلٌ تَقِيٌّ ، أَفَلَيْسَتْ فِي حُسْنِهَا جَدِيرَةٌ بِأَنْ يُحِبَّهَا لِأَنَّهُ رَجُلٌ شَاعِرٌ ؟ ٱحْكُمُوا يَا حَضَرَاتِ ٱلْقُضَاةِ ! هَـٰذِهِ رَاقِصَةٌ تَرْتَزِقُ وَتَرْتَفِقُ ، وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهَا رَهْنٌ بِأَسْبَابِهَا ، وَمَعْنَىٰ هَـٰذَا أَنَّهَا خَاضِعَةٌ لِلْكَلِمَةِ ٱلَّتِي تَدْفَعُ . فَلِمَاذَا لَمْ يَنَلْهَا وَهِيَ مُتَعَرِّضَةٌ لَهُ ، وَكِلَاهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ عَلَىٰ ٱلنِّهَايَةِ ، وَفِي آخِرِ أَوْصَافِ ٱلشَّوْقِ ؟ أَلَيْسَ هَـٰذَا حَقِيقًا بِإِعْجَابِكُمُ ٱلْقَانُونِيِّ كَمَا هُوَ جَدِيرٌ بِإِعْجَابِ ٱلدِّينِ وَٱلْعَقْلِ ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَـٰذَا ٱلْحُبُّ شَهْوَةَ فِكْرٍ ، فَمَا ٱلَّذِي يَحُولُ دُونَهَا وَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا . . . ؟

ٱلْقُضَاةُ يَتَبَسَّمُونَ .

ٱلنَّائِبُ : نَسِيَتِ ٱلْمُحَامِيَةُ أَنَّهَا مُحَامِيَةٌ ، وَٱنْتَقَلَتْ إِلَىٰ شَخْصِيَّتِهَا ٱلْوَاقِفَةِ عَلَىٰ ٱلنِّهَايَةِ وَفِي آخِرِ أَوْصَافِ ٱلشَّوْقِ . . . فَأَرْجُو أَنْ تَرْجِعَ إِلَىٰ ٱلْمَوْضُوعِ ، مَوْضُوعِ ٱلرَّاقِصَةِ .

ٱلْمُحَامِيَةُ: آهٍ ! دَائِمًا ٱلرَّاقِصَةُ ، مَنْ هِيَ هَـٰذِهِ ٱلْمِسْكِينَةُ ٱلْأَسِيرَةُ فِي أَيْدِي ٱلْجُوعِ وَٱلْحَاجَةِ وَٱلِاضْطِرَارِ ؟ أَلَيْسَتْ مَجْمُوعَةَ فَضَائِلَ مَقْهُورَةٍ ، أَلَيْسَتْ هِيَ ٱلْجَائِعَةَ ٱلَّتِي لَا تَجِدُ مِنَ ٱلْفَاجِرِينَ إِلَّا لَحْمَ ٱلْمَيْتَةِ ؟ نَعَمْ إِنَّهَا زَلَّتْ ، إِنَّهَا سَقَطَتْ ، وَلَـٰكِنْ بِمَاذَا ؟ بِٱلْفَقْرِ لَا غَيْرُ ، فَقْرِ ٱلضَّمِيرِ وَٱلذِّمَّةِ فِي رَجُلٍ فَاسِدٍ خَدَعَهَا وَتَرَكَهَا ! وَفَقْرِ ٱلْعَدْلِ وَٱلرَّحْمَةِ فِي ٱجْتِمَاعٍ فَاسِدٍ خَذَلَهَا وَأَهْمَلَهَا ! يَا لَلرَّحْمَةِ لِلْيَتِيمَةِ مِنَ ٱلْأَهْلِ ، وَأَهْلُهَا مَوْجُودُونَ ! وَٱلْمُنْقَطِعَةِ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَٱلنَّاسُ حَوْلَهَا !

تَقُولُونَ : يَجِبُ وَلَا يَجِبُ ، ثُمَّ تَدَعُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلظَّالِمَةَ تَعْكِسُ مَا شَاءَتْ فَتَجْعَلُ مَا لَا يَنْبَغِي هُوَ ٱلَّذِي يَنْبَغِي ، وَتَقْلِبُ مَا يَجِبُ إِلَىٰ مَا لَا يَجِبُ ، فَإِذَا ضَاعَ مَنْ يَضِيعُ فِي هَـٰذَا ٱلِاخْتِلَاطِ ، قُلْتُمْ لَهُ : شَأْنُكَ بِنَفْسِكَ ؛ وَنَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْهُ فَأَضَعْتُمُوهُ مَرَّةً أُخْرَىٰ ،

وَيْحَكُمْ يَا قَوْمُ ! غَيِّرُوا ٱتِّجَاهَ ٱلأَسْبَابِ فِي هَـٰذَا ٱلاجْتِمَاعِ ٱلْفَاسِدِ ، تُخْرِجْ لَكُمْ مُسَبَّبَاتٌ أُخْرَىٰ غَيْرُ فَاسِدَةٍ .

تَأْتِي ٱلْمَرْأَةُ مِنْ أَعْمَالِ ٱلرَّجُلِ لَا مِنْ أَعْمَالِ نَفْسِهَا ، فَهِيَ تَابِعَةٌ وَتَظْهَرُ كَأَنَّهَا مَتْبُوعَةٌ ، وَذَلِكَ هُوَ ظُلْمُ ٱلطَّبِيعَةِ لِلْمِسْكِينَةِ ؛ وَمِنْ كَوْنِهَا تَظْهَرُ كَأَنَّهَا مَتْبُوعَةٌ ، يَظْلِمُهَا ٱلاجْتِمَاعُ ظُلْمًا آخَرَ فَيَأْخُذُهَا وَحْدَهَا بِٱلْجَرِيمَةِ ، وَيُقَالُ : سَافِلَةٌ وَسَاقِطَةٌ ، وَمَا جَاءَتْ إِلَّا مِنْ سَافِلٍ وَسَاقِطٍ !

لِمَاذَا أَوْجَبَتِ ٱلشَّرِيعَةُ ٱلرَّجْمَ بِٱلْحِجَارَةِ عَلَىٰ ٱلْفَاسِقِ ٱلْمُحْصَنِ ؟ أَهِيَ تُرِيدُ ٱلْقَتْلَ وَٱلتَّعْذِيبَ وَٱلْمُثْلَةَ ؟ كَلَّا ، فَإِنَّ ٱلْقَتْلَ مُمْكِنٌ بِغَيْرِ هَـٰذَا بِأَشَدَّ مِنْ هَـٰذَا ، وَلَـٰكِنَّهَا ٱلْحِكْمَةُ ٱلسَّامِيَةُ ٱلْعَجِيبَةُ : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْفَاسِقَ هَدَمَ بَيْتًا فَهُوَ يُرْجَمُ بِحِجَارَتِهِ !

مَا أَجَلَّكِ وَأَسْمَاكِ يَا شَرِيعَةَ ٱلطَّبِيعَةِ ، كُلُّ ٱلأَحْجَارِ يَجِبُ أَنْ تَنْتَقِمَ لِحَجَرِ دَارِ ٱلأُسْرَةِ إِذَا ٱنْهَدَمَ .

تَسْتَسْقِطُونَ ٱلْمِسْكِينَةَ ، وَلَوْ ذَكَرْتُمْ آلَامَهَا لَوَجَدْتُمْ فِي أَلْسِنَتِكُمْ كَلِمَاتِ ٱلإِصْلَاحِ وَٱلرَّحْمَةِ لَا كَلِمَاتِ ٱلذَّمِّ وَٱلْعَارِ ؛ إِنَّهَا تَسْعَىٰ بِرَذِيلَتِهَا إِلَىٰ ٱلرِّزْقِ ؛ فَهَلْ مَعْنَىٰ هَـٰذَا إِلَّا أَنَّهَا تَسْعَىٰ إِلَىٰ ٱلرِّزْقِ بِأَقْوَىٰ قُوَّتِهَا ؟ نَعَمْ ، إِنَّ ذَلِكَ مَعْنَىٰ ٱلْفُجُورِ ، وَلَـٰكِنِ ٱلْيَأْسَ هُوَ نَفْسُهُ مَعْنَىٰ ٱلْقُوتِ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؟

ٱلرَّئِيسُ ـ وَهُوَ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ ـ : ٱلْمَوْضُوعُ ٱلْمَوْضُوعُ !

ٱلْمُحَامِيَةُ : مَا هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْوُجُودِيُّ فِي جَرِيمَةِ قَلْبَيِ ٱلْمِسْكِينَيْنِ ؟ مَا هُوَ ٱلْوَاقِعُ مِنْ جَرِيمَةٍ يَضْرِبُ صَاحِبُهَا ٱلْمَثَلَ بِنَفْسِهِ لِلشَّبَابِ فِي تَسَامِي غَرِيزَتِهِ عَنْ مَعْنَاهَا إِلَىٰ أَطْهَرَ وَأَجْمَلَ مِنْ مَعْنَاهَا ؟ لَبِئْسَ ٱلْقَانُونُ إِنْ كَانَ ٱلْقَانُونُ يُعَاقِبُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ صَارَ إِلَىٰ عَمَلٍ دِينِيٍّ مِنْ أَعْمَالِ ٱلْفَضِيلَةِ !

ٱلنَّائِبُ : أَلَا يَخْجَلُ مِنْ شُعُورِهِ بِأَنَّهُ يُحِبُّ رَاقِصَةً ؟

ٱلْمُحَامِيَةُ : وَمِمَّ يَخْجَلُ ؟ أَمِنْ جَمَالِ شُعُورِهِ أَمْ مِنْ فَنِّ شُعُورِهِ ؟ أَيَخْجَلُ مِنْ عَظَمَةٍ فِي سُمُوٍّ فِي كَمَالٍ ؟ أَيَخْجَلُ ٱلْبَطَلُ مِنْ أَعْمَالِ ٱلْحَرْبِ وَهِيَ نَفْسُهَا أَعْمَالُ ٱلنَّصْرِ وَٱلْمَجْدِ ؟

أَتَأْذَنُونَ يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ أَنْ أَصِفَ لَكُمْ جَمَالَ صَاحِبَتِهِ وَأَنْ أُظْهِرَ شَيْئًا مِنْ سِرِّ فَنِّهَا ٱلَّذِي هُوَ سِرُّ ٱلْبَيَانِ فِي فَنِّهِ ؟

ٱلنَّائِبُ : إِنَّهَا تَتَمَاجَنُ عَلَيْنَا يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ، فَٱلَّذِي يُحَاكَمُ عَلَىٰ ٱلسُّكْرِ لَا يَدْخُلُ ٱلْمَحْكَمَةَ وَمَعَهُ ٱلزُّجَاجَةُ . .

ٱلرَّئِيسُ : لَا حَاجَةَ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنْ تَرْجَمَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَىٰ أَعْمَالٍ يَا حَضْرَةَ ٱلأُسْتَاذَةِ .

ٱلْمُحَامِيَةُ : كَثِيرًا مَا تَكُونُ ٱلأَلْفَاظُ مُتَرْجَمَةً خَطَأً بِنِيَّاتِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ بِهَا أَوِ ٱلْمُصْغِينَ إِلَيْهَا ؛ فَكَلِمَةُ ٱلْحُبِّ مَثَلًا قَدْ تَنْتَهِي إِلَىٰ فِكْرٍ مِنَ ٱلأَفْكَارِ حَامِلَةً مَعْنَىٰ ٱلْفُجُورِ ، وَهِيَ بِعَيْنِهَا تَبْلُغُ إِلَىٰ فِكْرٍ آخَرَ حَامِلَةً إِلَىٰ سُمُوِّهِ مِنْ سُمُوِّهَا ؛ وَعَلَىٰ نَحْوٍ مِنْ هَـٰذَا يَخْتَلِفُ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ ٱلْحِجَابِ عِنْدَ ٱلشَّرْقِيِّينَ وَٱلأُورُبِّيِّينَ ؛ فَٱلأَصْلُ فِي مَدَنِيَّةِ هَـٰؤُلَاءِ إِبَاحَةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْخَفِيفَةِ مِنَ ٱلْعِفَّةِ . . . وَإِكْرَامُ ٱلْمَرْأَةِ إِكْرَامُ مُغَازَلَةٍ . . . يَقُولُونَ : إِنَّ رَقْمَ ٱلْوَاحِدِ غَيْرُ رَقْمِ ٱلْعَشَرَةِ ، فَيَضَعُونَهُ فِي حَيَاةِ ٱلْمَرْأَةِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا يَجِيءُ « ٱلصِّفْرُ » فَإِذَا هُوَ ٱلْعَشَرَةُ بِعَيْنِهَا !

أَمَّا ٱلشَّرْقِيُّونَ فَٱلأَصْلُ فِي مَدَنِيَّتِهِمُ ٱلْتِزَامُ ٱلْعِفَّةِ وَإِقْرَارُ ٱلْمَرْأَةِ فِي حَقِيقَتِهَا ، لَا جَرَمَ كَانَ ٱلْحِجَابُ هُنَا وَهُنَاكَ بِٱلْمَعْنَيَيْنِ ٱلْمُتَنَاقِضَيْنِ : ٱلاسْتِبْدَادُ وَٱلْعَدْلُ ، وَٱلْقَسْوَةُ وَٱلرَّحْمَةُ ، وَ . .

ٱلنَّائِبُ : وَٱمْرَأَةُ ٱلْبَيْتِ وَٱمْرَأَةُ ٱلشَّارِعِ . .

ٱلْمُحَامِيَةُ : وَبَصَرُ ٱلْقَانُونِ وَعَمَىٰ ٱلْقَانُونِ . .

ٱلرَّئِيسُ : وَحُسْنُ ٱلأَدَبِ وَسُوءُ ٱلأَدَبِ . . . ٱلْمَوْضُوعُ ٱلْمَوْضُوعُ .

ٱلْمُحَامِيَةُ : لَا وَٱلَّذِي شَرَّفَكُمْ بِشَرَفِ ٱلْحُكْمِ يَا حَضَرَاتِ ٱلْمُسْتَشَارِينَ ، مَا يَرَىٰ ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِينُ فِي حَبِيبَتِهِ إِلَّا تَعْبِيرَ ٱلْجَمَالِ ، فَهُوَ يَفْهَمُهَا فَهْمَ ٱلتَّعْبِيرِ كَكُلِّ مَوْضُوعَاتِ ٱلْفَنِّ ، وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْجَمَالِ تَعَرَّفَتْ إِلَيْهِ فِيهَا ، أَيْنَ أَحَسَّ ٱلشَّاعِرُ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ ٱلطَّبِيعَةِ ، فِي مَنْظَرٍ مِنْ مَنَاظِرِهَا ، قُلْتُمْ : أَجْرَمَ وَأَثِمَ ؟

هَـٰذَا قَلْبٌ ذُو أَفْكَارٍ ، وَسَبِيلُهُ أَنْ يُعَانَ عَلَىٰ مَا يَتَحَقَّقُ بِهِ مِنْ هَـٰذَا ٱلْفَنِّ ، قَدْ تَقُولُونَ : إِنَّ فِي ٱلطَّبِيعَةِ جَمَالًا غَيْرَ جَمَالِ ٱلْمَرْأَةِ فَلْيَأْخُذْ مِنَ ٱلطَّبِيعَةِ وَلْيُعْطِ مِنْهَا ، وَلَـٰكِنْ مَا ٱلَّذِي

يُحْيِيَ الطَّبِيْعَةَ إِلَّا أَخْذُهَا مِنَ ٱلْقَلْبِ ؟ وَمَا هِيَ طَرِيْقَةُ أَخْذِهَا مِنَ ٱلْقَلْبِ إِلَّا بِٱلْحُبِّ ؟ وَقَدْ تَقُوْلُوْنَ : إِنَّهُ يَتَأَلَّمُ وَيَتَعَذَّبُ ، وَلَـٰكِنْ سَلُوْهُ : أَهُوَ يَتَأَلَّمُ بِإِدْرَاكِهِ ٱلآلَمَ فِيْ ٱلْحُبِّ ، أَوْ بِإِدْرَاكِهِ قَسْوَةَ ٱلْحَقِيْقَةِ وَأَسْرَارَ ٱلتَّعْقِيْدِ فِيْ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ ؟ . .

إِنَّ شُعَرَاءَ ٱلْقُلُوْبِ لَا يَكُوْنُوْنَ دَائِمًا إِلَّا فِيْ أَحَدِ ٱلطَّرَفَيْنِ : هَمٌّ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْهَمِّ ، وَفَرَحٌ أَكْثَرُ مِنَ ٱلْفَرَحِ ، فَإِذَا عَشِقُوْا تَجَاوَزُوْا مَوْضِعَ ٱلْوَسَطِ ٱلَّذِيْ لَا يَكُوْنُ ٱلْحُبُّ ٱلْمُعْتَدِلُ إِلَّا فِيْهِ ، وَمِنْ هَـٰذَا فَلَيْسَ لَهُمْ آلَامٌ مُعْتَدِلَةٌ وَلَا أَفْرَاحٌ مُعْتَدِلَةٌ .

هَـٰذَا قَلْبٌ مُخْتَارٌ مِنَ ٱلْقُدْرَةِ ٱلْمُوْحِيَةِ إِلَيْهِ ، فَٱلَّتِيْ يُحِبُّهَا لَا تَكُوْنُ إِلَّا مُخْتَارَةً مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقُدْرَةِ ٱخْتِيَارَ مَلَكِ ٱلْوَحْيِ ، وَهُمَا بِهَـٰذَا قُوَّتَانِ فِيْ يَدِ ٱلْجَمَالِ لِإِبْدَاعِ أَثَرٍ عَظِيْمٍ مِلْءَ قُدْرَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا عَظِيْمَةٌ . .

فَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّ حُبَّ هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ جَرِيْمَةٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، قَالَتِ ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلْفَنِّيَّةُ : بَلِ ٱمْتِنَاعُ هَـٰذِهِ ٱلْجَرِيْمَةِ جَرِيْمَةٌ .

إِنَّ خَمْسِيْنَ وَخَمْسِيْنَ تَأْتِيْ مِنْهُمَا مِئَةٌ ، فَهَـٰذَا بَدِيْهِيٌّ ، وَلَـٰكِنَّهُ لَيْسَ أَبْيَنَ وَلَا أَظْهَرَ وَلَا أَوْضَحَ مِنْ قَوْلِنَا : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْعَاشِقَ وَهَـٰذِهِ ٱلْمَعْشُوْقَةَ يَأْتِيْ مِنْهُمَا فَنٌّ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِيْنِ : وَٱنْصَرَفَ ٱلْقُضَاةُ إِلَىٰ غُرْفَتِهِمْ لِيَتَدَاوَلُوْا ٱلرَّأْيَ فِيْمَا يَحْكُمُوْنَ بِهِ ، وَأَوْمَأَتْ لِيْ ٱلْمُحَامِيَةُ ٱلْجَمِيْلَةُ تَدْعُوْنِيْ إِلَيْهَا ، فَنَهَضْتُ أَقُوْمُ ، فَإِذَا أَنَا جَالِسٌ وَقَدِ ٱنْتَبَهْتُ مِنَ ٱلنَّوْمِ .

* * *

(جَائِزَةٌ)[١] لِمَنْ يُحْسِنُ كِتَابَةَ ٱلْحُكْمِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ خَمْسُ نُسَخٍ مِنْ كِتَابِ « وَحْيِ

(١) { قُلْتُ : وَرَدَتْ إِلَى ٱلْمُؤَلِّفِ مِئَاتُ ٱلرَّسَائِلِ بِحُكْمِ أَصْحَابِهَا فِيْ قَضِيَّةِ (ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِيْنِ) ، وَلَـٰكِنَّ مُسَابَقَةَ ٱلْحُكْمِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ لَمْ يُفْصَلْ فِيْهَا ، لِأَنَّ قَاضِيَهَا ٱلأَوَّلَ وَمُتَّهَمَهَا ٱلأَوَّلَ قَدْ غَالَهُ ٱلْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَرَىٰ رَأْيَهُ وَيَحْكُمَ حُكْمَهُ } .

ٱلْقَلَمِ » وَتُرْسَلُ ٱلْمَقَالَاتُ (بِٱسْمِنَا إِلَىٰ طَنْطَا) وَٱلْمَوْعِدُ (إِلَىٰ آخِرِ شَهْرِ يَنَايِرَ/ كَانُوْنِ ٱلآخِرِ هَـٰذَا) وَٱلشَّرْطُ رِضَىٰ ٱلْمُحَكَّمِيْنَ ، وَمِنْهُمْ صَاحِبُ ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِيْنِ وَصَاحِبَتُهُ . .[١]

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

(١) [جَاءَ فِي « الرسالة » العدد : ١٩١ ، ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ١ مارس/ آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحة : ٣٢٨ : الْحُكْمُ فِي قَضِيَّةِ « الْقَلْبِ الْمِسْكِينُ » تَلَقَّيْنَا أَرْبَعِينَ حُكْمًا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَسَتَجْتَمِعُ اللَّجْنَةُ لِاخْتِيَارِ مَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ شَرْطُنَا ، وَهُوَ (إِحْسَانُ الْكِتَابَةِ) ، ثُمَّ نُعْلِنُ حُكْمَهَا . الرَّافِعِيُّ] .

ٱنْتِصَارُ ٱلْحُبِّ(*)(١)

كُلُّ مَا يُكْتَبُ عَنْ حَبِيبَيْنِ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْضُ مَا يُفْهَمُ مِنْ رُؤْيَةِ وَجْهِ أَحَدِهِمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ وَجْهِ ٱلآخَرِ .

وَمَا تَعْرِفُهُ ٱلْعَيْنُ مِنَ ٱلْعَيْنِ لَا تَعْرِفُهُ بِٱلْفَاظٍ ، وَلَـٰكِنْ بِأَسْرَارٍ . .

وَٱلْغَلِيلُ ٱلْمُتَسَعِّرُ فِي دَمِ ٱلْعَاشِقِ ، كَجُنُونِ ٱلْمَجْنُونِ : يَخْتَصُّ بِرَأْسِهِ وَحْدَهُ .

وَضَمَّةُ ٱلْمُحِبِّ لِحَبِيبِهِ إِحْسَاسٌ لَا يُسْتَعَارُ مِنْ صَدْرٍ آخَرَ ، كَمَا لَا يُسْتَعَارُ ٱلْمَوْلُودُ لِبَطْنٍ لَمْ يَحْمِلْهُ .

وَكَلِمَةُ ٱلْقُبْلَةِ ٱلَّتِي مَعْنَاهَا وَضْعُ ٱلْفَمِ ، لَنْ يَنْتَقِلَ إِلَيْهَا مَا تَذُوقُهُ ٱلشَّفَتَانِ !

* * *

وَيَوْمُ ٱلْحُبِّ يَوْمٌ مَمْدُودٌ ، لَا يَنْتَهِي فِي ٱلزَّمَنِ إِلَّا إِذَا بَدَأَ يَوْمُ ٱلسُّلُوِّ فِي ٱلزَّمَنِ . . .

فَهَلْ يَسْتَطِيعُ ٱلْخَلْقُ أَنْ يَصْنَعُوا حَدًّا يَفْصِلُ بَيْنَ وَقْتَيْنِ لِيَنْتَهِيَ أَحَدُهُمَا . . . ؟

وَهَبْهُمْ صَنَعُوا ٱلسُّلْوَانَ مِنْ مَادَّةِ ٱلنَّصِيحَةِ وَٱلْمَنْفَعَةِ ، وَمِنْ أَلْفِ بُرْهَانٍ وَبُرْهَانٍ ، فَكَيْفَ لَهُمْ بِٱلْمُسْتَحِيلِ ، وَكَيْفَ لَهُمْ بِوَضْعِ ٱلسُّلْوَانِ فِي ٱلْقَلْبِ ٱلْعَاشِقِ ؟

وَإِذَا سَالَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ رِقَّةِ ٱلْحُبِّ ، فَبِأَيِّ مَادَّةٍ تُصْنَعُ فِيهَا صَلَابَةُ ٱلْحَجَرِ ؟ . . .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٦ ، ١٢ ذو القعدة سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٥ يناير/كانون الآخر ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(١) شَغَلَتْنَا مَقَالَاتُ « ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ » عَنِ ٱلْكِتَابَةِ فِي حَادِثَةِ (ٱلْقَلْبِ ٱلْمِسْكِينِ ٱلأَعْظَمِ) ، قَلْبِ ٱلْمَلِكِ إِدْوَارْدْ Edward عِنْدَمَا وَقَعَتِ ٱلْحَادِثَةُ .

{ قُلْتُ : وَحَادِثَةُ تَخَلِّي ٱلْمَلِكِ إِدْوَارْدْ Edward عَنْ عَرْشِ ٱلأَمْبَرَاطُورِيَّةِ ٱلْبَرِيطَانِيَّةِ فِي سَنَةِ ١٩٣٧ مِنْ أَجْلِ ٱمْرَأَةٍ ـ ذَائِعَةٌ مَشْهُورَةٌ } .

وَمَا هُوَ ٱلْحُبُّ إِلَّا إِظْهَارُ ٱلْجِسْمِ ٱلْجَمِيلِ حَامِلًا لِلْجِسْمِ ٱلآخَرِ كُلَّ أَسْرَارِهِ ، يَفْهَمُهَا وَحْدَهُ فِيهِ وَحْدَهُ ؟

وَمَا هُوَ ٱلْحُبُّ إِلَّا تَعَلُّقُ ٱلنَّفْسِ بِٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي لَا يَمْلَؤُهَا بِٱلإِحْسَاسِ ؟

وَمَا هُوَ ٱلْحُبُّ إِلَّا إِشْرَاقُ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي فِيهِ قُوَّةُ ٱلْحَيَاةِ ، كَنُورِ ٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلشَّمْسِ وَحْدَهَا ؟

وَهَلْ فِي ذَهَبِ ٱلدُّنْيَا وَمُلْكِ ٱلدُّنْيَا مَا يَشْتَرِي ٱلأَسْرَارَ ، وَٱلإِحْسَاسَ ، وَذَلِكَ ٱلنُّورَ ٱلْحَيَّ ؟ . . .

فَمَا هُوَ ٱلْحُبُّ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ ٱلْحُبُّ ؟

* * *

مَا هُوَ هَـٰذَا ٱلسِّرُّ فِي ٱلْجَمَالِ ٱلْمَعْشُوقِ ، إِلَّا أَنَّ عَاشِقَهُ يُدْرِكُهُ كَأَنَّهُ عَقْلٌ لِلْعَقْلِ ؟

وَمَا هُوَ هَـٰذَا ٱلإِدْرَاكُ إِلَّا ٱنْحِصَارُ ٱلشُّعُورِ فِي جَمَالٍ مُتَسَلِّطٍ كَأَنَّهُ قَلْبٌ لِلْقَلْبِ ؟

وَمَا هُوَ ٱلْجَمَالُ ٱلْمُتَسَلِّطُ بِإِنْسَانٍ عَلَىٰ إِنْسَانٍ ، إِلَّا ظُهُورُ ٱلْمَحْبُوبِ كَأَنَّهُ رُوحٌ لِلرُّوحِ ؟

وَلَـٰكِنْ مَا هُوَ ٱلسِّرُّ فِي حُبِّ ٱلْمَحْبُوبِ دُونَ سِوَاهُ ؟ . . . هُنَا تَقِفُ ٱلْمَسْأَلَةُ وَيَنْقَطِعُ ٱلْجَوَابُ .

هُنَا سِرٌّ خَفِيٌّ كَسِرِّ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ، لِأَنَّهَا وَحْدَانِيَّةُ (أَنَا وَأَنْتِ) .

* * *

نَاقَشُوا ٱلْحُبَّ ، فَقَالُوا : أَصْبَحَتِ ٱلدُّنْيَا دُنْيَا ٱلْمَادَّةِ ، وَٱلرُّوحَانِيَّةُ ٱلْيَوْمَ كَٱلْعِظَامِ ٱلْهَرِمَةِ لَا تَكْتَسِي ٱللَّحْمَ ٱلْعَاشِقَ .

وَقَالَ ٱلْحُبُّ : لَا ، بَلِ ٱلْمَادَّةُ لَا قِيمَةَ لَهَا فِي ٱلرُّوحِ ، وَهَـٰذَا ٱلْقَلْبُ لَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَىٰ يَدٍ وَلَا رِجْلٍ .

نَاقَشُوا ٱلْحُبَّ ، فَقَالُوا : إِنَّ ٱلْعَصْرَ عَصْرُ ٱلآلَاتِ ، وَٱلْعَمَلَ ٱلرُّوحِيَّ لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلآلَةِ وَلَا مَعَ ٱلآلَةِ .

قَالَ ٱلْحُبُّ : لَا ، يَصْنَعُ ٱلإِنْسَانُ مَا شَاءَ ، وَيَبْقَى ٱلْقَلْبُ دَائِمًا كَمَا صَنَعَهُ ٱلْخَالِقُ . . .

وَقَالُوا: ٱلضَّعِيفَانِ: ٱلْحُبُّ وَٱلدِّينُ، وَٱلْقَوِيَّانِ: ٱلْمَالُ وَٱلْجَاهُ؛ فَبِمَاذَا رَدَّ ٱلْحُبُّ؟. . .

* * *

جَاءَ بِلُؤْلُؤَةٍ رُوحَانِيَّةٍ فِي مِسِزْ سِمْبسُون Misses Sampson ؛ وَوَضَعَ إِلَيْهَا فِي مِيزَانِ ٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ أَعْظَمَ تَاجٍ فِي ٱلْعَالَمِ : تَاجُ إِدْوَارْدَ ٱلثَّامِنِ Edward VIII « مَلِكِ بَرِيطَانِيَةَ ٱلْعُظْمَىٰ وَإِرْلَنْدَةَ وَٱلْمُمْتَلَكَاتِ ٱلْبَرِيطَانِيَّةِ فِيمَا وَرَاءَ ٱلْبِحَارِ وَمَلِكِ ـ أَمْبَرَاطُورِ ٱلْهِنْدِ » .

وَتَنَافَسَتِ ٱلرُّوحَانِيَّةُ وَٱلْمَادِّيَّةُ ، فَرَجَعَ ٱلتَّاجُ وَمَا فِيهِ إِلَّا أَضْعَفَ ٱلْمُعْنِيِّينَ مِنَ ٱلْقَلْبِ .

وَأَعْلَنَ ٱلْحُبُّ عَنْ نَفْسِهِ بِأَحْدَثِ ٱخْتِرَاعٍ فِي ٱلْإِعْلَانِ ، فَهَزَّ ٱلْعَالَمَ كُلَّهُ هَزَّةً صَحَافِيَّةً :

ٱلْحُبُّ . . ٱلْحُبُّ . . ٱلْحُبُّ .

* * *

مِسِزْ سِمْبسُون Misses Sampson ، تِلْكَ ٱلْجَمِيلَةُ بِنِصْفِ جَمَالٍ ، ٱلْمُطَلَّقَةُ مَرَّتَيْنِ .
هَـٰذَا هُوَ ٱخْتِيَارُ ٱلْحُبِّ !

وَلَـٰكِنَّهَا ٱلْمَعْشُوقَةُ ؛ وَكُلُّ مَعْشُوقَةٍ هِيَ عَذْرَاءُ لِحَبِيبِهَا وَلَوْ تَزَوَّجَتْ مَرَّتَيْنِ ؛ هَـٰذَا هُوَ سِحْرُ ٱلْحُبِّ !

وَلَـٰكِنَّهَا ٱلْفَاتِنَةُ كُلَّ ٱلْفِتْنَةِ ، وَٱلظَّرِيفَةُ كُلَّ ٱلظَّرْفِ ، وَٱلْمَرْأَةُ كُلُّ ٱلْمَرْأَةِ ، هَـٰذَا هُوَ فِعْلُ ٱلْحُبِّ !

وَلَـٰكِنَّهَا ٱلْعَقْلُ لِلْأَعْصَابِ ٱلْمَجْنُونَةِ ، وَٱلْأُنْسُ لِلْقَلْبِ ٱلْمُسْتَوْحِشِ ، وَٱلنُّورُ فِي ظُلْمَةِ ٱلْكَآبَةِ ؛ هَـٰذَا هُوَ حُكْمُ ٱلْحُبِّ !

وَمِنْ أَجْلِهَا يَقُولُ مَلِكُ إِنكِلْتَرَةَ لِلْعَالَمِ : « لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعِيشَ بِدُونِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّتِي أُحِبُّهَا » فَهَـٰذَا هُوَ إِعْلَانُ ٱلْحُبِّ . . .

* * *

إِذَا أَخَذُوهَا عَنْهُ أَخَذُوهَا مِنْ دَمِهِ ، فَذَلِكَ مَعْنًى مِنَ ٱلذَّبْحِ .

وَإِذَا ٱنْتَزَعُوهَا ٱنْتَزَعُوهَا مِنْ نَفْسِهِ ، فَذَلِكَ مَعْنًى مِنَ ٱلْقَتْلِ .

وَهَلْ فِي غَيْرِهَا هِيَ رُوحُ ٱللَّهْفَةِ ٱلَّتِي فِي قَلْبِهِ ، فَيَكُونُ ٱلْمَذْهَبُ إِلَىٰ غَيْرِهَا ؟

لَكَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَمُوتَ مَوْتًا فِيهِ حَيَاةٌ .

وَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ مِنْهُ أَنْ يُجَنَّ جُنُونًا بِعَقْلٍ . . . هَـٰذَا هُوَ جَبَرُوتُ ٱلْحُبِّ !

* * *

وَلِلسِّيَاسَةِ حُجَجٌ ، وَعِنْدَ مِسِزْ سِمْبسُون Misses Sampson حُجَجٌ ، وَعِنْدَ ٱلْهَوَىٰ . . .

ٱلتَّاجُ ، ٱلْمَلَكِيَّةُ ، ٱمْرَأَةٌ مُطَلَّقَةٌ ، ٱمْرَأَةٌ مِنَ ٱلشَّعْبِ ؛ فَهَـٰذَا مَا تَقُولُهُ ٱلسِّيَاسَةُ .

وَلَـٰكِنَّهَا ٱمْرَأَةُ قَلْبِهِ ، تَزَوَّجَتْ مَرَّتَيْنِ لِيَكُونَ لَهُ فِيهَا إِمْتَاعُ ثَلَاثِ زَوْجَاتٍ ؛ وَهَـٰذَا مَا يَقُولُهُ ٱلْحُبُّ !

وَٱللَّحْظَةُ ٱلنَّاعِسَةُ ، وَٱلِابْتِسَامَةُ ٱلنَّائِمَةُ ، وَٱلْإِشَارَةُ ٱلْحَالِمَةُ وَكَلِمَةُ (سَيِّدِي)(١) ؛ هَـٰذَا مَا يَقُولُهُ ٱلْجَمَالُ .

وَٱنْتَصَرَ ٱلْحُبُّ عَلَى ٱلسِّيَاسَةِ ، وَأَبَى ٱلْمَلِكُ أَنْ يَكُونَ كَٱلْأُمِّ ٱلْأَرْمَلَةِ فِي مِلْكِ أَوْلَادِهَا ٱلْكِبَارِ . . .

* * *

ٱلْعَرْشُ يَقْبَلُ رَجُلًا خَلَفًا مِنْ رَجُلٍ ، فَيَكُونُ ٱلثَّانِي كَٱلْأَوَّلِ .

وَٱلْحُبُّ لَا يَقْبَلُ ٱمْرَأَةً خَلَفًا مِنِ ٱمْرَأَةٍ ، فَلَنْ تَكُونَ ٱلثَّانِيَةُ كَٱلْأُولَىٰ .

وَطَارَتْ فِي ٱلْعَالَمِ هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةُ : « أَنَا إِدْوَارْدُ ٱلثَّامِنُ Edward VIII . . . أَتَخَلَّىٰ عَنِ ٱلْعَرْشِ وَذُرِّيَّتِي مِنْ بَعْدِي » !

« وَأَعْلَنَ ٱلْحُبُّ عَنْ نَفْسِهِ بِأَحْدَثِ ٱخْتِرَاعٍ فِي ٱلْإِعْلَانِ؛ فَهَزَّ ٱلْعَالَمَ كُلَّهُ هَزَّةً صَحَافِيَّةً » .

ٱلْحُبُّ . . . ٱلْحُبُّ . . . ٱلْحُبُّ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) لَا تُخَاطِبُ مِسِزْ سِمْبسُون Misses Sampson إِدْوَارْدَ Edward إِلَّا بِكَلِمَةِ: (سَيِّدِي)، وَلَا تَتَحَدَّثُ عَنْهُ وَلَا تُسَمِّيهِ إِلَّا قَالَتْ: (سَيِّدِي). وَلَنْ يَأْمُرَ ٱلْحُبُّ أَمْرَهُ بِأَبْلَغَ وَلَا أَرَقَّ مِنْ كَلِمَةِ ٱلْعُبُودِيَّةِ ٱللَّطِيفَةِ هَـٰذِهِ حِينَ تَنْطِقُ بِهَا ٱلْمَرْأَةُ فِي صَوْتِ قَلْبِهَا وَغَرِيزَتِهَا؛ وَقَدْ كَانَ هَـٰذَا أَدَبَ نِسَاءِ ٱلشَّرْقِ مَعَ أَزْوَاجِهِنَّ، أَمَّا ٱلْيَوْمَ. . .

قُنْبُلَةٌ بِٱلْبَارُوْدِ(*)
لَا بِٱلْمَاءِ ٱلْمُقَطَّرِ(١) . . .

حَيَّاكُمُ ٱللهُ يَا شَبَابَ ٱلْجَامِعَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ؛ لَقَدْ كَتَبْتُمُ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلَّتِي يَصْرُخُ مِنْهَا ٱلشَّيَاطِيْنُ . . .

كَلِمَاتٌ لَوِ ٱنْتَسَبْنَ لَانْتَسَبَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِلَىٰ آيَةٍ مِمَّا نَزَلَ بِهِ ٱلْوَحْيُ فِيْ كِتَابِ ٱللهِ .

فَطَلَبُ تَعْلِيْمِ ٱلدِّيْنِ لِشَبَابِ ٱلْجَامِعَةِ يَنْتَمِيْ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْآيَةِ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٣٣] .

وَطَلَبُ ٱلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلشُّبَّانِ وَٱلْفَتَيَاتِ يَرْجِعُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْآيَةِ : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٥٣] .

وَطَلَبُ إِيْجَادِ ٱلْمَثَلِ ٱلْأَخْلَاقِيِّ لِهَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ مِنْ شَبَابِهَا ٱلْمُتَعَلِّمِ هُوَ مَعْنَىٰ ٱلْآيَةِ : ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [٤٥ سورة الجاثية/ الآية : ٢٠] .

قُوَّةُ ٱلْأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ ٱلْأَخْلَاقِ ، إِنَّ ٱلْخُطْوَةَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا . . .

* * *

حَيَّاكُمُ ٱللهُ يَا شَبَابَ ٱلْجَامِعَةِ ؛ لَقَدْ كَتَبْتُمُ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلَّتِي يُصَفِّقُ لَهَا ٱلْعَالَمُ ٱلْإِسْلَامِيُّ كُلُّهُ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٩٤ ، ٩ محرم سنة ١٣٥٦ هـ = ٢٢ مارس/ آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٤٤٥ ـ ٤٤٦ .

(١) رَفَعَ طَلَبَةُ ٱلْكُلِّيَّاتِ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ إِلَىٰ مُدِيْرِهَا وَعُمَدَائِهَا وَأَسَاتِذَتِهَا ـ طَلَبًا يَلْتَمِسُوْنَ فِيْهِ إِدْخَالَ ٱلتَّعْلِيْمِ ٱلدِّيْنِيِّ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ وَٱلْفَصْلَ بَيْنَ ٱلشُّبَّانِ وَٱلْفَتَيَاتِ ، إِذْ « لَا إِصْلَاحَ إِلَّا بَعْدَ إِصْلَاحِ رُوْحِ ٱلشَّبَابِ ٱلنَّاهِضِ ، حَتَّىٰ يَكُوْنَ لَهُ مِنْ قُوَّةِ رُوْحِهِ وَسُمُوِّ أَخْلَاقِهِ سِلَاحٌ يُحَارِبُ بِهِ ٱلرَّذِيْلَةَ وَيَنْصُرُ بِهِ ٱلْفَضِيْلَةَ » . قَالُوْا : « وَلَا شَكَّ أَنَّ ٱلْأُمَّةَ بِأَسْرِهَا قَدْ أَحَسَّتْ بِنَقْصِ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلدِّيْنِيَّةِ فِيْ ٱلْمُجْتَمَعِ ٱلْمِصْرِيِّ ، وَنَقْصِ أَخْلَاقِ ٱلْفَرْدِ وَوَطَنِيَّتِهِ تِبَاعًا » .
{ قُلْتُ : وَكَانَ ذَلِكَ فِيْ مَارِسْ/ آذار سَنَةَ ١٩٣٧ } . سَعِيد ٱلْعُرْيَان .

كَلِمَاتٌ لَيْسَ فِيْهَا شَيْءٌ جَدِيْدٌ عَلَىٰ ٱلْإِسْلَامِ ، وَلَـٰكِنَّ كُلَّ جَدِيْدٍ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِيْنَ لَا يُوْجَدُ إِلَّا فِيْهَا .

كَلِمَاتُ ٱلْقُوَّةِ ٱلرُّوْحِيَّةِ ٱلَّتِي تُرِيْدُ أَنْ تَقُوْدَ ٱلتَّارِيْخَ مَرَّةً أُخْرَىٰ بِقُوَىٰ ٱلنَّصْرِ لَا بِعَوَامِلِ ٱلْهَزِيْمَةِ .

كَلِمَاتُ ٱلشَّبَابِ ٱلطَّاهِرِ ٱلَّذِيْ هُوَ حَرَكَةُ ٱلرُّقِيِّ فِيْ ٱلْأُمَّةِ كُلِّهَا ، فَسَيَكُوْنُ مِنْهَا ٱلْمُحَرِّكُ لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا .

كَلِمَاتٌ لَيْسَتْ قَوَانِيْنَ ، وَلَـٰكِنَّهَا سَتَكُوْنُ هِيَ ٱلسَّبَبَ فِيْ إِصْلَاحِ ٱلْقَوَانِيْنِ .

قُوَّةُ ٱلْأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ ٱلْأَخْلَاقِ ، إِنَّ ٱلْخُطْوَةَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا . . .

* * *

يُرِيْدُ ٱلشَّبَابُ مَعَ حَقِيْقَةِ ٱلْعِلْمِ حَقِيْقَةَ ٱلدِّيْنِ ، فَإِنَّ ٱلْعِلْمَ لَا يُعَلِّمُ ٱلصَّبْرَ وَلَا ٱلصِّدْقَ وَلَا ٱلذِّمَّةَ .

يُرِيْدُوْنَ قُوَّةَ ٱلنَّفْسِ مَعَ قُوَّةِ ٱلْعَقْلِ ، فَإِنَّ ٱلْقَانُوْنَ ٱلْأَدَبِيَّ فِيْ ٱلشَّعْبِ لَا يَضَعُهُ ٱلْعَقْلُ وَحْدَهُ وَلَا يُنَفِّذُهُ وَحْدَهُ .

يُرِيْدُوْنَ قُوَّةَ ٱلْعَقِيْدَةِ ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَنْفَعْهُمْ فِيْ بَعْضِ شَدَائِدِ ٱلْحَيَاةِ مَا تَعَلَّمُوْهُ نَفَعَهُمْ مَا ٱعْتَقَدُوْهُ .

يُرِيْدُوْنَ ٱلسُّمُوَّ ٱلدِّيْنِيَّ ، لِأَنَّ فِكْرَةَ إِدْرَاكِ ٱلشَّهَوَاتِ بِمَعْنَاهَا هِيَ فِكْرَةُ إِدْرَاكِ ٱلْوَاجِبَاتِ بِغَيْرِ مَعْنَاهَا .

يُرِيْدُوْنَ ٱلشَّبَابَ ٱلسَّامِيَ ٱلطَّاهِرَ مِنَ ٱلْجِنْسَيْنِ ، كَيْ تُوْلَدَ ٱلْأُمَّةُ ٱلْجَدِيْدَةُ سَامِيَةً طَاهِرَةً .

قُوَّةُ ٱلْأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ ٱلْأَخْلَاقِ ؛ إِنَّ ٱلْخُطْوَةَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا . .

* * *

أَحَسَّ ٱلشَّبَابُ أَنَّهُمْ يَفْقِدُوْنَ مِنْ قُوَّةِ ٱلْمَنَاعَةِ ٱلرُّوْحِيَّةِ بِقَدْرِ مَا أَهْمَلُوْا مِنَ ٱلدِّيْنِ .

وَمَا هِيَ ٱلْفَضَائِلُ إِلَّا قُوَّةُ ٱلْمَنَاعَةِ عَنْ أَضْدَادِهَا ؟ فَٱلصِّدْقُ مَنَاعَةٌ مِنَ ٱلْكَذِبِ ، وَٱلشَّرَفُ

مَنَاعَةٌ مِنَ ٱلْخِسَّةِ .

وَٱلشَّبَابُ ٱلْمُثْقَلُ بِفُرُوضِ ٱلْقُوَّةِ هُوَ ٱلْقُوَّةُ نَفْسُهَا ، وَهَلِ ٱلدِّينُ إِلَّا فُرُوضُ ٱلْقُوَّةِ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ ؟ .

وَشَبَابُ ٱلشَّهَوَاتِ شَبَابٌ مُفْلِسٌ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ ، يُنْفِقُ دَائِمًا وَلَا يَكْسِبُ أَبَدًا ! .

وَٱلْمَدَارِسُ تُخْرِجُ شُبَّانَهَا إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ . فَتَسْأَلُهُمُ ٱلْحَيَاةُ : مَاذَا تَعَوَّدْتُمْ لَا مَاذَا تَعَلَّمْتُمْ ! .

قُوَّةُ ٱلأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ ٱلأَخْلَاقِ ؛ إِنَّ ٱلْخَطْوَةَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا . . .

* * *

وَأَحَسَّ ٱلشَّبَابُ مَعْنَىٰ كَثْرَةِ ٱلْفَتَيَاتِ فِي ٱلْجَامِعَةِ ، وَأَدْرَكُوا مَعْنَىٰ هَـٰذِهِ ٱلرِّقَّةِ ٱلَّتِي خَلَقَتْهَا ٱلْحِكْمَةُ ٱلْخَالِقَةُ .

وَٱلْمَرْأَةُ أَدَاةُ ٱسْتِمَالَةٍ بِٱلطَّبِيعَةِ ، تَعْمَلُ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ مَا تَعْمَلُهُ بِٱلإِرَادَةِ ، لِأَنَّ رُؤْيَتَهَا أَوَّلُ عَمَلِهَا .

نَعَمْ إِنَّ ٱلْمِغْنَاطِيسَ لَا يَتَحَرَّكُ حِينَ يَجْذِبُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحَدِيدَ يَتَحَرَّكُ لَهُ حِينَ يَنْجَذِبُ .

وَمَتَىٰ فَهِمَ أَحَدُ ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْجِنْسَ ٱلآخَرَ ، فَهِمَهُ بِإِدْرَاكَيْنِ لَا بِإِدْرَاكٍ وَاحِدٍ !

وَجَمَالُ ٱلْمَرْأَةِ إِذَا ٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ قَلْبِ ٱلرَّجُلِ ، وَجَمَالُ ٱلرَّجُلِ إِذَا ٱسْتَقَرَّ فِي قَلْبِ ٱلْمَرْأَةِ . . .

. . . هُمَا حِينَئِذٍ مَعْنَيَانِ . وَلَـٰكِنَّهُمَا عَلَىٰ رَغْمِ أَنْفِ ٱلْعِلْمِ مَعْنَيَانِ مُتَزَوِّجَانِ . . .

* * *

لَا ، لَا ؛ يَا رِجَالَ ٱلْجَامِعَةِ ! إِنْ كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ ٱسْمُهُ حُرِّيَّةُ ٱلْفِكْرِ فَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ ٱسْمُهُ حُرِّيَّةُ ٱلأَخْلَاقِ .

وَتَقُولُونَ : أُورُبَّة وَتَقْلِيدُ أُورُبَّة ! وَنَحْنُ نُرِيدُ ٱلشَّبَابَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ لِاسْتِقْلَالِنَا

لَا لِخُضُوعِنَا لِأُورُبَّة .

وَتَقُولُونَ : إِنَّ ٱلْجَامِعَاتِ لَيْسَتْ مَحَلَّ ٱلدِّينِ ، وَمَنِ ٱلَّذِي يَجْهَلُ أَنَّهَا بِهَـٰذَا صَارَتْ مَحَلًّا لِفَوْضَىٰ ٱلأَخْلَاقِ .

وَتَزْعُمُونَ أَنَّ ٱلشَّبَابَ تَعَلَّمُوا مَا يَكْفِي مِنَ ٱلدِّينِ فِي ٱلْمَدَارِسِ ٱلابْتِدَائِيَّةِ وَٱلثَّانَوِيَّةِ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِ فِي ٱلْجَامِعَةِ .

أَفَتَرَوْنَ ٱلإِسْلَامَ دُرُوسًا ٱبْتِدَائِيَّةً وَثَانَوِيَّةً فَقَطْ ؛ أَمْ تُرِيدُونَهُ شَجَرَةً تُغْرَسُ هُنَاكَ لِتُقْلَعَ عِنْدَكُمْ . . .

لَا ، لَا ؛ يَا رِجَالَ ٱلْجَامِعَةِ! إِنَّ قُنْبُلَةَ ٱلشَّبَابِ ٱلْمُجَاهِدِ تُمْلَأُ بِٱلْبَارُودِ لَا بِٱلْمَاءِ ٱلْمُقَطَّرِ .

* * *

إِنَّ ٱلشَّبَابَ مَخْلُوقُونَ لِغَيْرِ زَمَنِكُمْ ، فَلَا تُفْسِدُوا عَلَيْهِمُ ٱلْحَاسَّةَ ٱلاجْتِمَاعِيَّةَ ٱلَّتِي يُحِسُّونَ بِهَا زَمَنَهُمْ .

لَا تَجْعَلُوهُمْ عَبِيدَ آرَائِكُمْ وَهُمْ شَبَابُ ٱلاسْتِقْلَالِ ؛ إِنَّهُمْ تَلَامِيذُكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ أَيْضًا أَسَاتِذَةُ ٱلأُمَّةِ .

لَقَدْ تَكَلَّمَ بِلِسَانِكُمْ هَـٰذَا ٱلْبِنَاءُ ٱلصَّغِيرُ ٱلَّذِي يُسَمَّىٰ : ٱلْجَامِعَةَ ، وَتَكَلَّمَ بِأَلْسِنَتِهِمْ هَـٰذَا ٱلْبِنَاءُ ٱلْكَبِيرُ ٱلَّذِي يُسَمَّىٰ : ٱلْوَطَنَ .

أَمَّا بِنَاؤُكُمْ فَمَحْدُودٌ بِٱلآرَاءِ وَٱلأَحْلَامِ وَٱلأَفْكَارِ ، وَأَمَّا ٱلْوَطَنُ فَمَحْدُودٌ بِٱلْمَطَامِعِ وَٱلْحَوَادِثِ وَٱلْحَقَائِقِ .

لَا ، لَا ؛ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلَّذِينَ هَدَوُا ٱلْعَالَمَ ، قَدْ هَدَوْهُ بِٱلرُّوحِ ٱلدِّينِيَّةِ ٱلَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهَا لَا بِأَحْلَامِ ٱلْفَلَاسِفَةِ .

لَا ، لَا ؛ إِنَّ ٱلْفَضِيلَةَ فِطْرَةٌ لَا عِلْمٌ ، وَطَبِيعَةٌ لَا قَانُونٌ ، وَعَقِيدَةٌ لَا فِكْرَةٌ ؛ وَأَسَاسُهَا أَخْلَاقُ ٱلدِّينِ لَا آرَاءُ ٱلْكُتُبِ .

* * *

مَنْ هَـٰذَا ٱلْمُتَكَلِّمُ يَقُوْلُ لِلأُمَّةِ : ٱلْجَامِعِيُّوْنَ لَنْ يَقْبَلُوْا أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ فِيْ شُؤُوْنِهِمْ مَهْمَا يَكُنْ أَمْرُهُ ؟

أَهَـٰذَا صَوْتُ جَرَسِ ٱلْمَدْرَسَةِ لِأَطْفَالِ ٱلْمَدْرَسَةِ تِرِنْ . . . تِرِنْ . . . فَيَجْتَمِعُوْنَ وَيَنْصَاعُوْنَ ؟

كَلَّا يَا رَجُلُ ! لَيْسَ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ قَالَبٌ يُصَبُّ فِيْهِ ٱلْمُسْلِمُوْنَ عَلَىٰ قِيَاسِكَ ٱلَّذِيْ تُرِيْدُ .

إِنَّ ٱلتَّعْلِيْمَ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ بِغَيْرِ دِيْنٍ يَعْصِمُ ٱلشَّخْصِيَّةَ ، هُوَ تَعْلِيْمُ ٱلرَّذِيْلَةِ تَعْلِيْمَهَا ٱلْعَالِيْ . . .

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [١٠ سورة يونس/ الآية : ٥٣] .

قُوَّةُ ٱلأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ ٱلأَخْلَاقِ . . . إِنَّ ٱلْخُطْوَةَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا . . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

شَيْطَانٌ وَشَيْطَانَةٌ . . . (١)

شَغَلَنِيْ مَا شَغَلَ ٱلنَّاسَ مِنْ حَدِيْثِ ٱلْجَامِعَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ وَمَا أَرَادَهُ طَلَبَتُهَا مِنْ وَرَعٍ يَحْجُزُهُمْ عَنْ مَحَارِمِ ٱللهِ ، وَدِيْنٍ يَخْلُصُ بِهِ ٱلإِيْمَانُ إِلَىٰ قُلُوْبِهِمْ ، فَلَا يَكُوْنُ لَفْظُ ٱلْمُسْلِمِ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِ كَأَنَّهُ مَكْتُوْبٌ عَلَىٰ وَرَقَةٍ ؛ ثُمَّ مَا ٱبْتَغَوْهُ مِنَ ٱلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلشُّبَّانِ وَٱلْفَتَيَاتِ ، تَطْهِيْرًا لِلطِّبَاعِ وَنَوَازِعِ ٱلنَّفْسِ ، وَٱتِّقَاءً لِسُوْءِ ٱلْمُخَالَطَةِ ، وَبُعْدًا عَنْ مَطِيَّةِ ٱلإِثْمِ ، وَتَوْفِيْرًا لِأَسْبَابِ ٱلرُّجُوْلَةِ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ وَلِصِفَاتِ ٱلأُنُوْثَةِ عَلَىٰ ٱلأُنْثَىٰ .

وَقَرَأْتُ كُلَّ مَا نَشَرَتْهُ ٱلصُّحُفُ ، وَٱسْتَقْصَيْتُ وَبَالَغْتُ ، وَنَظَرْتُ فِيْ ٱلأَلْفَاظِ وَمَعَانِيْهَا وَمَعَانِيْ مَعَانِيْهَا ؛ وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَتَتَبَّعُ بَابَ « فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ » فِيْ ٱلْمَجَلَّاتِ ٱلأُسْبُوْعِيَّةِ ٱلَّتِيْ تَكْتُبُ عَنْ حَوَادِثِ ٱلاخْتِلَاطِ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ وَتُسَمِّيْ ٱلأَسْمَاءَ وَتَصِفُ ٱلأَوْصَافَ وَتَذْكُرُ ٱلنَّوَادِرَ ؛ فَمَلأَ كُلُّ ذَلِكَ صَدْرِيْ وَٱجْتَمَعَ ٱلْكَلَامُ يُتَرْجِمُ نَفْسَهُ إِلَيَّ فِيْ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا وَهَـٰأَنَذَا أَقُصُّهَا :

رَأَيْتُنِيْ عِنْدَ بَابِ ٱلْجَامِعَةِ وَكَأَنِّيْ ذَاهِبٌ لِأَقْطَعَ بِٱلْيَقِيْنِ عَنِ ٱلظَّنِّ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ٱلظِّنَّةَ تَقُوْمُ فِيْ حِكْمَةِ ٱلتَّشْرِيْعِ مَقَامَ ٱلْحَقِيْقَةِ ، لِخَفَائِهَا وَكَثْرَةِ وُجُوْدِهَا ، فَإِنْ كَانَ فِيْ ٱخْتِلَاطِ ٱلْجِنْسَيْنِ مَا يُخْشَىٰ أَنْ يَقَعَ فَهُوَ كَٱلْوَاقِعِ . . .

. . . ثُمَّ رَأَيْتُ شَيْطَانَةً قَدْ خَرَجَتْ مِنَ ٱلْجَامِعَةِ وَمَضَتْ تَتْبَعُ أَنْفَهَا تَتَشَمَّمُ ٱلْهَوَاءَ وَتَسْتَرْوِحُهُ كَأَنَّ فِيْهِ شَيْئًا ، حَتَّىٰ مَالَتْ إِلَىٰ خَمَرٍ(١) هُنَاكَ مِنْ ذَلِكَ ٱلشَّجَرِ ٱلْمُلْتَفِّ عَنْ يَمِيْنِ

---

(١) لَمَّا كَتَبَ ٱلْمُؤَلِّفُ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ مَقَالَهُ ٱلسَّابِقَ فِيْ تَحِيَّةِ شَبَابِ ٱلْجَامِعَةِ ، رَاحَ يَتَتَبَّعُ مَا تَنْشُرُ ٱلصُّحُفُ مِنْ حَدِيْثِ (فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ) فِيْ مُنَاهَضَةِ دَعْوَةِ ٱلطُّلَّابِ ؛ فَوَقَعَ لَهُ مِنْ حَدِيْثِهِمَا أَوْحَىٰ إِلَيْهِ مَوْضُوْعَ هَـٰذَا ٱلْمَقَالِ ، فَكَتَبَهُ يُعَرِّضُ بِفُلَانٍ وَفُلَانَةٍ وَيَرْوِيْ مِنْ خَبَرِهِمَا وَيَرُدُّ رَدَّهُ عَلَيْهِمَا ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَىٰ ٱلرِّسَالَةِ ، وَلَـٰكِنَّ صَاحِبَ ٱلرِّسَالَةِ أَبَىٰ عَلَيْهِ نَشْرَهُ ، حِفَاظًا عَلَىٰ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فُلَانٍ [أَيْ : طَهَ حُسَيْن] مِنْ صِلَاتِ ٱلْوُدِّ ؛ وَبَقِيَ ٱلْمَقَالُ فِيْ مَكْتَبِ ٱلْمُؤَلِّفِ حَتَّىٰ غَالَتْهُ مَنِيَّتُهُ ! سَعِيد ٱلْعُرْيَان .

(٢) ٱلْخَمَرُ (بِفَتْحِ ٱلْمِيْمِ) : مَا وَارَاكَ مِنْ شَجَرٍ وَغَيْرِهِ .

ٱلطَّرِيْقِ ، فَوَقَفَتْ عِنْدَهُ تَتَنَفَّسُ وَتَتَنَهَّدُ ؛ ثُمَّ تَبَصَّرَتْ فَإِذَا شَيْطَانٌ مُقْبِلٌ إِلَىٰ ٱلْجَامِعَةِ إِقْبَالَ ٱلْمُغِيْرِ فِيْ غَارَتِهِ ، فَأَوْمَأَتْ لَهُ ، فَعَدَلَ إِلَيْهَا وَحَيَّاهَا بِتَحِيَّةِ ٱلشَّيَاطِيْنِ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : مَا وُقُوْفُكِ أَيَّتُهَا ٱلْخَبِيْثَةُ ؟ وَكَيْفَ تَرَكْتِ صَاحِبَتَكِ ٱلَّتِيْ أَنْتِ مُوَكَّلَةٌ بِهَا ؟ وَمَا عَسَىٰ أَنْ يَعْمَلَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنَ ٱلْجِنْسَيْنِ إِذَا لَمْ تُوَازِرْهُ ٱلشَّيْطَانَةُ .

قَالَتْ : إِنَّمَا ٱجْتَذَبَتْنِيْ إِلَىٰ هُنَا رَائِحَةُ عَاشِقَيْنِ كَانَا فِيْ هَـٰذَا ٱلظِّلِّ يُوَارِيْهِمَا عَنِ ٱلْأَعْيُنِ ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مَزْكُوْمًا ، أَفَكُنْتَ فِيْ ٱلْأَزْهَرِ . . ؟ .

فَجَعَلَ ٱلشَّيْطَانُ يَتَضَاحَكُ وَقَالَ : أَنَا مُرْسَلٌ مِنْ مُسْتَشْفَىٰ ٱلْمَجَانِيْنِ مَدَدًا لِشَيَاطِيْنِ ٱلْجَامِعَةِ ؛ فَقَدِ ٱحْتَاجُوْا إِلَىٰ ٱلنَّجْدَةِ . . وَلَـٰكِنْ أَنْتِ كَيْفَ تَرَكْتِ صَاحِبَتَكِ مِنْ أَجْلِ رَائِحَةِ قُبْلَةٍ عَلَىٰ خَمْسِ مِئَةِ مِتْرٍ ؟ مَا أَحْسَبُهَا ٱلْآنَ إِلَّا جَالِسَةً تَكْتُبُ فِيْ مَنْعِ ٱخْتِلَاطِ ٱلْجِنْسَيْنِ وَوُجُوْبِ إِدْخَالِ ٱلتَّعْلِيْمِ ٱلدِّيْنِيِّ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ ! .

قَالَتِ ٱلشَّيْطَانَةُ : إِنَّ صَاحِبَتِيْ لَأَبْرَعُ مِنِّيْ فِيْ ٱلْبَرَاعَةِ ، وَأَدَقُّ فِيْ ٱلْحِيْلَةِ ، وَأَهْدَىٰ لِلْمَعَاذِيْرِ ، وَأَنْفَذُ إِلَىٰ ٱلْغَرَضِ ، وَمِثْلُهَا قَلِيْلٌ هُنَا ، وَلَـٰكِنَّ قَلِيْلَ ٱلشَّرِّ لَيْسَ قَلِيْلًا ، فَإِنَّهُ وُصْلَةٌ وَطَرِيْقٌ كَمَا تَعْلَمُ ؛ وَمَا تَجِدُ ٱلْفَتَاةُ خَيْرًا مِنْ هَـٰذَا ٱلْمَكَانِ يَنْفِيْ عَنْهَا ٱلرِّيْبَةَ وَهُوَ يُدْنِيْهَا مِنْهَا بِهَـٰذَا ٱلاخْتِلَاطِ مَعَ ٱلْفِتْيَانِ ، وَيُهَيِّئُ لِعَقْلِهَا أَسْبَابًا تَكُوْنُ فِيْهَا أَسْبَابُ قَلْبِهَا ؛ وَقَدْ كُنْتَ أَنْتَ فِيْ أُوْرُبَّةَ أَفَمَا رَأَيْتَ هُنَاكَ شَابًّا وَشَابَّةً حَوْلَ كِتَابِ عِلْمٍ وَكَأَنَّهُمَا عَلَىٰ زُجَاجَةِ خَمْرٍ ؟ .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْعِلْمَ شَيْءٌ وَمُخَالَطَةَ ٱلشُّبَّانِ شَيْءٌ آخَرُ ؛ فَذَلِكَ يُطْلِقُ فِكْرَهَا بِتَجَاوُزِ ٱلْحُدُوْدِ ، وَٱلاخْتِلَاطُ يَجْعَلُ فِكْرَهَا يَحْصُرُهَا فِيْ حُدُوْدِ إِحْسَاسِهَا ؛ وَأَحَدُهُمَا يُرْهِفُ ذِهْنَهَا لِإِدْرَاكِ ٱلْأَشْيَاءِ ، وَٱلْآخَرُ يُرْهِفُ عَوَاطِفَهَا لِإِدْرَاكِ ٱلرَّجُلِ ، وَقَدْ فَرَغَ ٱللهُ مِنْ خَلْقِهِ ٱلْأُنْثَىٰ فَمَا تُخْلَقُ هُنَا مَرَّةً أُخْرَىٰ عَلَىٰ غَيْرِ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلْمَفْطُوْرَةِ عَلَىٰ ٱلْحُبِّ فِيْ صُوْرَةٍ مِنْ صُوَرِهِ ٱلْمُمْكِنَةِ ، وَٱلصُّوْرَةُ هِيَ ٱلشَّابُّ هُنَا مَا دَامَ ٱلشَّابُّ هُنَا ؛ وَأَنَا ٱلشَّيْطَانَةُ قَدْ تَعَلَّمْتُ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ أَنَّ قَاعِدَةَ : « لَا حَيَاءَ فِيْ ٱلْعِلْمِ » هِيَ ٱلَّتِيْ تُقَرِّرُ فِيْ بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ قَاعِدَةَ : « لَا حَيَاءَ فِيْ ٱلْحُبِّ » .

قَالَ ٱلشَّيْطَانُ : أَنْتِ أَدْرَىٰ بِسُلْطَانِ ٱلطَّبِيْعَةِ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِيْ أَعْرِفُهُ أَنَا أَنَّ مَفَاسِدَ أُوْرُبَّةَ تَدْخُلُ إِلَىٰ ٱلشَّرْقِ فِيْ أَشْيَاءَ كَثِيْرَةٍ ، مِنْهَا ٱلْخَمْرُ وَٱلنِّسَاءُ وَٱلْعَادَاتُ وَٱلْقَوَانِيْنُ

وَٱلْكُتُبُ وَنِظَامُ ٱلْمَدَارِسِ !

قَالَتِ ٱلشَّيْطَانَةُ : وَإِنَّ سُلْطَانَ ٱلطَّبِيْعَةِ فِيْ ٱلْمَرْأَةِ يَبْحَثُ دَائِمًا عَنْ رَعِيَّتِهِ مَا لَمْ يُكَبَّحْ وَيُرَدَّ عَنِ ٱلْبَحْثِ : إِذْ هُوَ لَا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ سُلْطَانٌ إِلَّا بِنَفَاذِ حُكْمِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ ؛ وَمِنْ رَعِيَّتِهِ نَظَرَاتُ ٱلإِعْجَابِ ، وَكَلِمَاتُ ٱلثَّنَاءِ ، وَعِبَارَاتُ ٱلإِغْرَاءِ ، وَعَوَاطِفُ ٱلْمَيْلِ ، وَمَعَانِيْ ٱلْخُضُوْعِ ؛ وَرُبَّ كَلِمَةٍ مِنَ ٱلرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ لَا يَكُوْنُ فِيْهَا شَيْءٌ وَيَكُوْنُ ٱلرَّجُلُ كُلُّهُ فِيْهَا ذَاهِبًا إِلَىٰ قَلْبِهَا مُتَدَسِّسًا إِلَىٰ خَيَالِهَا ، وَكَمْ مِنْ أُمٍّ تَرَىٰ ٱبْنَتَهَا رَاجِعَةً إِلَىٰ ٱلدَّارِ ، وَتُحِسُّ بِٱلْغَرِيْزَةِ ٱلنِّسْوِيَّةِ أَنَّ مَعَ ٱبْنَتِهَا خَيَالًا مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلآخَرِ .

وَمِمَّ يَنْبَعِثُ ٱلْحُبُّ إِلَّا مِنَ ٱلأُلْفَةِ وَٱلْمُخَالَطَةِ وَٱلْمُجَاذَبَةِ وَٱلْمُنَازَعَةِ ٱلَّتِيْ يُسَمُّوْنَهَا هُنَا مُنَافَسَةً بَيْنَ ٱلْجِنْسَيْنِ وَيَعُدُّوْنَهَا حَسَنَةً مِنْ حَسَنَاتِ ٱلاخْتِلَاطِ ؟ نَعَمْ ، إِنَّهَا مَشْحَذَةٌ لِلأَذْهَانِ وَدَاعِيَةٌ إِلَىٰ بُلُوْغِ ٱلْغَايَةِ مِنَ ٱلاجْتِهَادِ ، وَبِهَا يَرِقُّ ٱللِّسَانُ وَتَنْحَلُّ عُقْدَتُهُ ، وَيُصْبِحُ ٱلشَّابُّ كَمَا يَقُوْلُوْنَ : « ٱبْنَ نُكْتَةٍ وَيَفْهَمُ ٱلطَّايِرَةَ . . . » وَتَعُوْدُ ٱلْفَتَاةُ وَهِيَ تَجْتَهِدُ أَنْ تَكُوْنَ حَلَاوَةً تَذُوْقُهَا ٱلرُّوْحُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلأَعْمَالَ بِٱلنِّيَّاتِ وَٱلأُمُوْرُ بِخَوَاتِيْمِهَا ، وَٱلطَّبِيْعَةُ نَفْسُهَا تُوَازِنُ ٱلْعَقْلَ ٱلْعِلْمِيَّ بِٱلْجَهْلِ ٱلْخُلُقِيِّ ؛ وَلَعَلَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ فُنُوْنًا فِيْ فِسْقِهِ وَفُجُوْرِهِ لَا يَكُوْنُ إِلَّا عَالِمًا مِنْ أَهْلِ ٱلْفَنِّ أَوْ زِنْدِيْقًا مِنْ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ ، وَلَا يُصَحِّحُ هَـٰذِهِ ٱلْمُوَازَنَةَ إِلَّا ٱلدِّيْنُ ، فَهُوَ ٱلَّذِيْ يُقَرِّرُ ٱلْقَوَاعِدَ ٱلثَّابِتَةَ فِيْ كِلْتَا ٱلنَّاحِيَتَيْنِ ، وَهَـٰذَا مَا يَطْلُبُهُ ٱلْمَجَانِيْنُ مِنْ شُبَّانِ هَـٰذِهِ ٱلْجَامِعَةِ وَيُوْشِكُ أَنْ يَظْفَرُوْا بِهِ ، لَوْلَا أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةَ مُبْتَلَاةٌ فِيْ كُلِّ حَادِثَةٍ مِنْ دِيْنِهَا بِإِجَالَةِ ٱلرَّأْيِ حَتَّىٰ يَضِيْعَ ٱلرَّأْيُ .

ٱسْمَعْ وَيْحَكَ هَـٰذَا ٱلْفَتَىٰ ٱلَّذِيْ يَقْرَأُ . . . فَأَلْقَىٰ ٱلشَّيْطَانُ سَمْعَهُ فَإِذَا طَالِبٌ يَقْرَأُ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ كَلَامًا فِيْ صَحِيْفَةٍ لِإِحْدَىٰ خِرِّيْجَاتِ ٱلْجَامِعَةِ تَقُوْلُ فِيْهِ : « وَلِهَـٰذَا أُصَرِّحُ أَنَّ تَجْرِبَةَ ٱشْتِرَاكِ ٱلْجِنْسَيْنِ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ نَجَحَتْ إِلَىٰ أَبْعَدِ غَايَةٍ ، وَلَمْ يَحْدُثْ خِلَالَهَا قَطُّ مَا يَدْعُوْ إِلَىٰ قَلَقِ ٱلْقَلِقِيْنَ وَٱلْمُنَادَاةِ بِٱلْفَصْلِ ؛ بَلْ بِٱلْعَكْسِ حَدَثَ مَا يَدْعُوْ إِلَىٰ تَشْجِيْعِ ٱلأَخْذِ بِٱلتَّجْرِبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ ٱلْيَوْمَ » .

فَقَهْقَهَ ٱلشَّيْطَانُ وَقَالَ : « قَلَقُ ٱلْقَلِقِيْنَ » . . مَا رَأَيْتُ كَلَامًا أَغْلَظَ وَلَا أَجْفَىٰ مِنْ هَـٰذَا ، إِنَّهَا لَوْ دَافَعَتْ عَنِ ٱلشَّيْطَانِ بِهَـٰذِهِ ٱلْقَاقَاتِ لَخَسِرَ ٱلْقَضِيَّةَ . .

ثُمَّ لَهَزَ ٱلشَّيْطَانَةَ لَهْزَةً وَقَالَ لَهَا : كَذَبْتِ عَلَيَّ أَيَّتُهَا ٱلْخَبِيثَةُ ! فَمَا لَكِ عَمَلٌ فِي ٱلْجَامِعَةِ وَأَنْتِ تَخْرُجِيْنَ لِرَائِحَةِ قُبْلَةٍ بَيْنَ عَاشِقَيْنِ عَلَىٰ مَسَافَةِ خَمْسِ مِئَةِ مِتْرٍ ؛ إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْقَافَاتِ لَهِيَ ٱلدَّلِيلُ أَقْوَىٰ ٱلدَّلِيلِ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْفَتَاةَ هُنَا تُنْظَرُ فَتَاةً حِيْنَ تُرَىٰ ، وَلَـٰكِنَّهَا تُسْمَعُ رَجُلًا حِيْنَ تَتَكَلَّمُ !

قَالَتِ ٱلشَّيْطَانَةُ : وَلَـٰكِنْ أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهَا : « تَشْجِيعُ [ٱلأَخْذِ بِـ] ٱلتَّجْرِبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ ٱلْيَوْمَ » . . ؟ أَلَا يُرْضِيكَ هَـٰذَا ٱلَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَدْعُوَ « إِلَىٰ قَلَقِ ٱلْقَلِقِيْنَ » ؟ ثُمَّ إِنِّي أَنَا فُلَانَةُ ٱلشَّيْطَانَةُ قَدْ كُنْتُ ٱلسَّبَبَ فِي حَادِثَةٍ وَقَعَتْ وَطُرِدَ فِيهَا طَالِبٌ مِنَ ٱلْجَامِعَةِ ، أَفَلَا يُرْضِيكَ ٱلإِغْرَاءُ وَٱلْكَذِبُ فِي بِضْعِ كَلِمَاتٍ ؟ .

قَالَ ٱلشَّيْطَانُ : كُلَّ ٱلرِّضَا ، فَهَـٰذَا فَنٌّ آخَرُ ؛ وَٱلْمُعَلِّمُ ٱلَّذِي يُنْكِرُ حَادِثَةً وَقَعَتْ مِنْ تِلْمِيذِهِ وَلَا يُقِرُّ بِأَنَّهَا وَقَعَتْ ، لَا يَكُونُ إِنْكَارُهُ إِلَّا إِجَازَةً لِوُقُوعِ مِثْلِهَا !

قَالَتِ ٱلشَّيْطَانَةُ : وَهَبِ ٱلْحَادِثَةَ لَمْ تَقَعْ ، فَكَيْفَ تَعْرِفُ ٱلْجَامِعَةُ مَا يَحْدُثُ فِي ٱلْقُلُوبِ ؟ وَمَنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَ قِصَّةً تُؤَلِّفُهَا أَرْبَعُ أَعْيُنٍ فِي وَجْهَيْنِ ؟ وَكَيْفَ تُكْشَفُ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي أَوَّلُ وُجُودِهَا كِتْمَانُ ٱلْكَلَامِ عَنْهَا ، وَأَوَّلُ ٱلْكَلَامِ عَنْهَا ٱلْهَمْسُ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ دُوْنَ غَيْرِهِمَا ؟ وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي فِي طَاقَتِهِ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَىٰ قَلْبَيْنِ أَصْبَحَا فِي تَلَقِّي ٱلرَّسَائِلِ كَصُنْدُوقَيِ ٱلْبَرِيْدِ . . ؟

ٱسْمَعْ ٱسْمَعْ هَـٰذَا ٱلآخَرَ . . فَٱسْتَرَقَ ٱلشَّيْطَانُ ٱلسَّمْعَ فَإِذَا طَالِبٌ يَقْرَأُ فِي صَحِيفَةٍ أُخْرَىٰ عَلَىٰ جَمَاعَتِهِ :

« وَٱلَّذِيْنَ يَزْعُمُوْنَ أَنَّ ٱلاتِّصَالَ بَيْنَ ٱلطَّالِبَاتِ وَٱلطَّلَبَةِ خَطَرٌ ، إِنَّمَا يُسِيئُوْنَ إِلَىٰ أَخْلَاقِكُمْ . . وَٱلْحَقُّ أَيُّهَا ٱلأَصْدِقَاءُ ! أَنَّ ٱلَّذِي حَمَلَنِي عَلَىٰ أَنْ أَغْضَبَ وَأَثُوْرَ إِنَّمَا هُوَ ٱلدِّفَاعُ عَنِ ٱلْكَرَامَةِ ٱلْجَامِعِيَّةِ » .

قَالَ ٱلشَّيْطَانُ : كُلُّ ٱلرِّضَا كُلُّ ٱلرِّضَا . . هَـٰذَا كَلَامُ دَاهِيَةٍ أَرِيْبٍ ، فَلَقَدْ أَحْسَنَ قَاتَلَهُ ٱللهُ ! إِنَّهَا عِبَارَاتٌ جَامِعِيَّةٌ مُحْكَمَةُ ٱلسَّبْكِ تَقُوْمُ عَلَىٰ أُصُوْلِهَا مِنْ فَنِّ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْخَطَابِيَّةِ ، وَكُلُّ مَنْ أَظُنُّهُ بِتُهْمَةٍ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَخْرِقَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِأَحْسَنَ مِنْ هَـٰذَا وَلَا بِمِثْلِ هَـٰذَا .

وَلَيْسَ لَنَا أَقْوَىٰ مِنْ هَـٰذَا ٱلطَّبْعِ ٱلْقَوِيِّ ٱلَّذِي يَشْعُرُ بِٱلنَّقْصِ ، فَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا إِثْبَاتُ ذَاتِهِ فِي كُلِّ مَا يُجَادِلُ فِيْهِ دُوْنَ إِثْبَاتِ ٱلصَّوَابِ وَلَوْ كَانَ ٱلنَّاسُ جَمِيْعًا فِي هَـٰذَا ٱلْجَانِبِ وَكَانَ هُوَ وَحْدَهُ فِي جَانِبِ ٱلْخَطَأِ .

وَلَـٰكِنْ أُفٍّ ! مَاذَا صَنَعَ هَـٰذَا ٱلْقَائِلُ ؟ وَأَيْنَ ٱلتُّهْمَةُ ٱلَّتِي لَا تُبَدِّلُ ٱسْمَهَا فِي ٱللُّغَةِ ؟ وَأَيْنَ ٱلذَّنْبُ ٱلَّذِي يَرْضَىٰ أَنْ تُوْضَعَ ٱلْيَدُ عَلَيْهِ ؟ وَهَلْ إِنْكَارُ ٱلْمُذْنِبِ إِلَّا ٱحْتِجَاجٌ مِنْ كَرَامَتِهِ ٱلزَّائِفَةِ وَإِظْهَارِ ٱلْغَضَبِ فِي بَعْضِ ٱلأَلْفَاظِ ؟ . .

إِنَّ هَـٰذَا كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلضُّعَفَاءِ حِيْنَ يُمَارُوْنَ ، أَلَا مَا أَكْذَبَ ٱلْكَذِبَ هُنَا ! فَإِنَّ ٱلْفَسَادَ لَيَقَعُ مِنِ ٱخْتِلَاطِ ٱلْجِنْسَيْنِ فِي ٱلْجَامِعَاتِ ٱلأُوْرُبِّيَّةِ ثُمَّ لَا يُعَدُّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِسَاءَةً إِلَى ٱلأَخْلَاقِ ، وَلَا غَضًّا مِنَ ٱلْكَرَامَةِ ٱلْجَامِعِيَّةِ ، وَفِي فَرَنْسَةَ يَجْتَمِعُ ٱلشُّبَّانُ وَٱلْفَتَيَاتُ مِنْ طَلَبَةِ ٱلْجَامِعَةِ وَيَحْتَسُوْنَ ٱلْخَمْرَ وَيَتَرَاقَصُوْنَ وَيَتَوَاعَدُوْنَ ثُمَّ لَا تَقُوْلُ لَهُمُ ٱلأَخْلَاقُ : أَيْنَ أَنْتُمْ . . . ؟ وَهُنَاكَ فِي ٱلأَنْدِيَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِٱلطَّلَبَةِ يَنْتَخِبُوْنَ مَلِكَةَ ٱلْجَمَالِ مِنْ بَيْنِ ٱلطَّالِبَاتِ كُلَّ سَنَةٍ ، ثُمَّ يَنْزِعُوْنَ بِأَيْدِيْهِمْ ثِيَابَهَا ٱلَّتِي تُسَمَّىٰ ثِيَابًا ، وَيَطُوْفُوْنَ بِهَا غُرَفَ ٱلنَّادِي كَعَرُوْسٍ وَاحِدَةٍ مَجْلُوَّةٍ عَلَىٰ مِئَةِ زَوْجٍ فِي ٱلْمَعْنَىٰ ، « وَبُونْسْوَارٌ Bon Soir » أَيَّتُهَا ٱلْكَرَامَةُ ٱلْجَامِعِيَّةُ . .

وَٱلاخْتِلَاطُ هُنَاكَ يَقْرُبُ أَنْ يَكُوْنَ ضَرْبًا مِنَ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلاشْتِرَاكِيَّةِ ، وَكُلُّ مَا بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْ لُغَةِ ٱلْحَيَاءِ هُوَ أَنْ يَتَلَطَّفُوْا فَيَقُوْلُوْا : إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلطَّالِبَةَ صَدِيْقَةُ فُلَانٍ ٱلطَّالِبِ ، يُعَبِّرُوْنَ بِلَفْظِ ٱلصَّدَاقَةِ عَنْ أَوَّلِ ٱلْمَعْنَىٰ وَيَدَعُوْنَ سَائِرَ أَحْوَالِهِ ، إِذْ لَا يُبَالِي أَمْرَهُمَا أَحَدٌ لَا مِنَ ٱلطَّلَبَةِ وَلَا مِنَ ٱلأَسْتَاذِيْنَ . . . وَهُنَاكَ يُعْتَذَرُ لِلشَّبَابِ فِي مِثْلِ هَـٰذَا بِأَنَّهُ شَابٌّ ، فَتَقُوْمُ كَلِمَةُ ٱلشَّبَابِ فِي ٱلْعُرْفِ بِمَعْنَىٰ كَلِمَةِ ٱلضَّرُوْرَةِ فِي ٱلشَّرْعِ ! .

وَهُمْ قَدْ عَرَفُوْا أَنَّ ٱلْجَامِعَةَ لِحُرِّيَّةِ ٱلْفِكْرِ ، وَمِنْ حُرِّيَّةِ ٱلْفِكْرِ حُرِّيَّةُ ٱلنَّزْعَةِ ، وَمِنْ هَـٰذِهِ حُرِّيَّةُ ٱلْمَيْلِ ٱلشَّخْصِيِّ ، وَمِنْ حُرِّيَّةِ ٱلْمَيْلِ حُرِّيَّةُ ٱلْحُبِّ ؛ وَهَلْ يَعْرِفُ ٱلْحُبُّ فِي ٱلْجَامِعَةِ أَنَّهُ فِي ٱلْجَامِعَةِ فَيَسْتَحِيَ وَيَكُوْنُ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ مَا هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ؟ أَوَ لَيْسَ فِي لُغَةِ ٱلزَّوَاجِ عِنْدَهُمْ عِبَارَةُ « نِسْيَانِ مَاضِي ٱلْفَتَاةِ » . .

وَلَـٰكِنِ ٱسْمَعِي ٱسْمَعِي . .

فَأَصَاخَتِ ٱلشَّيْطَانَةُ ؛ فَإِذَا طَالِبٌ مِنَ ٱلأَزْهَرِ يَقْرَأُ لِطَالِبٍ مِنْ كُلِّيَّةِ ٱلْحُقُوقِ فِي صَحِيفَةٍ مِنْ دِفَاعِ أَحَدِ خِرِّيجِي ٱلْجَامِعَةِ :

« وَمَا بَالُ إِخْوَانِنَا ٱلأَزْهَرِيِّينَ يَسْخَطُونَ عَلَىٰ ٱلْجَامِعَةِ وَٱخْتِلَاطِ ٱلْجِنْسَيْنِ فِيهَا ، وَفِي مِصْرَ نَوَاحٍ أُخْرَىٰ هِيَ أَحَقُّ بِحَرْبِهِمْ وَأَوْلَىٰ بِٱهْتِمَامِهِمْ ؟ لَعَلَّهُمْ قَدْ نَسُوْا حَالَنَا فِي ٱلصَّيْفِ عَلَىٰ شَوَاطِئِ ٱلْبَحْرِ ، وَٱلنَّاسُ يَمْكُثُونَ هُنَاكَ شُهُورًا عَرَايَا أَوْ كَٱلْعَرَايَا » .

فَقَالَتِ ٱلشَّيْطَانَةُ : مَا لَهُ وَلِهَـٰذَا ؟ لَقَدْ أَخْزَىٰ نَفْسَهُ وَأَخْزَىٰ ٱلْجَامِعَةَ ، وَهَلْ صَنَعَ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ يَقُولُ لِلأَزْهَرِيِّينَ : إِنَّ أَهْوَنَ ٱلْفَسَادِ مِنْ هَـٰذَا ٱلاخْتِلَاطِ فِي ٱلْجَامِعَةِ ، وَأَكْثَرَهُ فِي شَوَاطِئِ ٱلْبَحْرِ ؛ فَمَا بَالُكُمْ تَدَعُونَ أَشَدَّهُ وَتَأْخُذُونَ عَلَىٰ أَهْوَنِهِ ؟ .

قَالَ ٱلشَّيْطَانُ : وَيْحَهُ ! وَهَلْ يَأْخُذُونَ عَلَىٰ أَهْوَنِهِ فِي ٱلْجَامِعَةِ إِلَّا لِأَنَّهُ فِي ٱلْجَامِعَةِ لَا فِي مَكَانٍ آخَرَ ؟ وَلَـٰكِنِ ٱسْمَعِي ، مَا هَـٰذَا ؟ . . .

فَأَزْعَجَا ٱلصَّوْتَ سَمْعَهُمَا ، فَإِذَا طَالِبٌ يَقْرَأُ فِي مَجَلَّةٍ : « ظَهَرَتِ ٱلآنِسَةُ فُلَانَةُ وَهِيَ تَلْبَسُ فُسْتَانًا أَحْمَرَ شَفْتَشِي بَمْبِي كِرِيبِي مُشَجَّرْ بِيْتِي وَقُبُونْكَهْ أَحْمَرَ عَلَىٰ أَبْيَضَ » . . .

قَالَتِ ٱلشَّيْطَانَةُ : هَـٰذَا ! هَـٰذَا ! فَهَلْ هِيَ إِلَّا أَلْوَانُ أَفْكَارٍ تَحْتَ أَلْوَانِ ثِيَابٍ ؟ وَهَلْ يَظْهَرُ سُلْطَانُ ٱلطَّبِيعَةِ فِي ٱلْمَرْأَةِ بَاحِثًا عَنْ رَعِيَّتِهِ إِلَّا فِي أَلْوَانٍ جَمِيلَةٍ هِيَ أَسْئِلَةٌ لِلْعُيُونِ ؟ لَقَدْ مَثَّلَ سِرْبٌ مِنَ ٱلطَّالِبَاتِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْجَامِعَةِ فَصْلًا فِي بَعْضِ ٱلْحَفَلَاتِ سَمَّوْهُ « عَرْضَ ٱلأَزْيَاءِ » وَٱلْفَتَاةُ تَعْرِضُ ٱلثَّوْبَ ، وَٱلثَّوْبُ يَعْرِضُ ٱلْجِسْمَ ، وَٱلْجِسْمُ وَٱلثَّوْبُ مَعًا يَعْرِضَانِ ٱلْفَتَاةَ ! وَعَرْضُ ٱلأَزْيَاءِ فِي ٱلْجَامِعَةِ هُوَ أَمْرٌ مِنَ ٱلْجَامِعَةِ بِإِهْمَالِ هَـٰذِهِ ٱلآيَةِ : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآية : ٣١] ! .

قَالَ ٱلشَّيْطَانُ : خَبِّرِينِي عَنْ صَاحِبَتِكِ ٱلَّتِي أَنْتِ مُوَكَّلَةٌ بِهَا . أَتَرَيْنَهَا كَانَتْ تَأْتِي إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْجَامِعَةِ لَوْ أَلْبَسُوهُنَّ مِثْلَ ثَوْبِ ٱلرَّاهِبَةِ وَخَمَّرُوهُنَّ بِٱلْخِمَارِ وَأَضَاعُوا مَسَاحَةَ ٱلْجِسْمِ فِي مَسَاحَةِ ٱلثَّوْبِ وَأَجْلَسُوهُنَّ فِي آخِرِ ٱلصُّفُوفِ كَأَنَّهُنَّ فِي ٱلْمَسْجِدِ ؟ لَقَدْ فَعَلُوا مِثْلَ هَـٰذَا فِي بَعْضِ جَامِعَاتِ أُورُبَّةَ ، فَحَرَّمُوا صَبْغَ ٱلشِّفَاهِ عَلَىٰ ٱلْفَتَيَاتِ ، وَمَنَعُوهُنَّ إِبْدَاءَ ٱلزِّينَةِ ؛ فَٱمْتَنَعَتِ ٱلزَّيِّنَةُ وَٱلْمُتَزَيِّنَةُ مَعًا ، وَهَجَرْنَ ٱلْجَامِعَةَ ، وَقُلْنَ فِيمَا قُلْنَ : إِنَّ ٱلْمِرْآةَ وَٱلأَحْمَرَ

وَٱلأَبْيَضَ وَنَحْوَهَا هِيَ ٱلْحَقَائِقُ فِي عِلْمِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَسَالِيبِ بَحْثِ كُلِّ فَتَاةٍ عَنْ رَجُلِهَا ٱلْمَخْبُوءِ بَيْنَ ٱلرِّجَالِ فِي ٱلْجَامِعَةِ أَوْ غَيْرِ ٱلْجَامِعَةِ ، وَٱلْعِلْمُ وَسِيلَةُ عَيْشٍ ، وَٱلرَّجُلُ وَسِيلَةٌ مِثْلُهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ أَجْدَىٰ ٱلْوَسِيلَتَيْنِ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ وَأَحَقُّهُمَا بِٱلْعِنَايَةِ ، إِذْ هِيَ لَا تَتَزَوَّجُ ٱلْكِيمْيَاءَ وَلَا ٱلطَّبِيعَةَ وَلَا ٱلْقَانُونَ ، وَمَعْنَىٰ هَـٰذَا بِغَيْرِ ٱللُّغَةِ ٱلَّتِي هُنَا فِي ٱلْجَامِعَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ أَنَّ وُجُودَ ٱلْفَتَاةِ مَعَ ٱلشُّبَّانِ لِلتَّعْلِيمِ ، هُوَ كَذَلِكَ وُجُودُهَا بَيْنَهُمْ لِلاسْتِمَالَةِ وَٱلْمَكْرِ ٱلنِّسْوِيِّ ٱلْجَذَّابِ .

ٱسْمَعِي ٱسْمَعِي ! مَا هَـٰذَا ٱلصَّوْتُ ٱلْمُنْكَرُ ٱلْجَافِي ٱلْخَشِنُ ؟ .

فَتَسَمَّعَتْ ، فَإِذَا ٱلطَّالِبُ ٱلأَزْهَرِيُّ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : قَالُوا : وَيَحْرُمُ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ أَنْ تَرَىٰ شَيْئًا مِنَ ٱلرَّجُلِ وَلَوْ بِلَا مَيْلٍ وَلَا خَوْفِ ٱلْفِتْنَةِ ، وَإِذَا هِيَ ٱضْطُرَّتْ إِلَىٰ مُدَاوَاةٍ أَوْ أَدَاءِ شَهَادَةٍ أَوْ تَعْلِيمٍ أَوْ بَيْعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ـ جَازَ نَظَرُهَا بِقَدْرِ ٱلضَّرُورَةِ .

فَقَالَتِ ٱلشَّيْطَانَةُ : هَـٰذَا كَلَامُ رَحِمَهُ ٱللهُ . . . لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ سَائِغًا لَوْ أَنَّ ٱلشُّبَّانَ يَتَعَلَّمُونَ فِي ٱلْجَامِعَةِ لِيَحْمِلُوا مَعَهُمُ ٱلْحَقَّ كَمَا يَحْمِلُونَ مَعَهُمُ ٱلْعِلْمَ ؛ وَكَيْفَ لَهُمْ بِهَـٰذَا وَمَعَانِي ٱلدِّينِ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ كَأَسْمَاءِ ٱلْبِلَادِ ٱلْبَعِيدَةِ فِي كُتُبِ ٱلْجُغْرَافِيَةِ ، لَا هُمْ رَأَوْهَا وَلَا هُمْ حَقَّقُوهَا ؟ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَعْلِيمَ ٱلدِّينِ هُنَا ، فَيَقُولُ لَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ : أَلَمْ تَعْرِفُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنَّهَا ٱلصَّلَاةُ ، وَٱلصِّيَامَ وَأَنَّهُ ٱلصِّيَامُ ، وَٱلزَّكَاةَ وَأَنَّهَا ٱلزَّكَاةُ ، وَٱلْحَجَّ وَأَنَّهُ ٱلْحَجُّ ؟ وَهَـٰذَا كَلَامٌ يُشْبِهُ دَرْسَ مَوَاقِعِ ٱلْبِلَادِ عَلَىٰ ٱلْخَرِيطَةِ ، فَبَارِيسُ Paris كَلِمَةٌ ، وَلَنْدَنُ London كَلِمَةٌ ، لَا غَيْرُ ؛ أَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ ٱلْعَظِيمَةُ ٱلْهَائِلَةُ فَشَيْءٌ غَيْرُ هَـٰذَا ٱلْكَلَامِ ٱلْجُغْرَافِيِّ ٱلتَّعْلِيمِيِّ ؛ إِذْ مَا هِيَ كُلُّ فُرُوضِ ٱلدِّينِ إِلَّا أَعْمَالٌ دَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ يَجِبُ فَرْضُهَا عَلَىٰ ٱلْجَمِيعِ لِتَحْقِيقِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ فِي ٱلْجَمْعِ ، وَهِيَ سِرُّ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْعَظَمَةِ وَٱلنَّجَاحِ ، فَتَعْلِيمُ ٱلدِّينِ فِي ٱلْجَامِعَةِ هُوَ إِقْنَاعُ ٱلنَّفْسِ بِجَعْلِ فُرُوضِهِ مِنْ قَوَانِينِهَا ٱلثَّابِتَةِ ، لَا بِأَدَاءِ هَـٰذِهِ ٱلْفُرُوضِ فَقَطْ ؛ وَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِدَرْسِهِ كَمَا تُدْرَسُ فَلْسَفَةُ ٱلْقَوَانِينِ وَٱلاقْتِصَادِ وَٱلتَّرْبِيَةِ ، أَيْ : بِٱعْتِبَارِهِ عِلْمَ فَلْسَفَةِ ٱلرُّوحِ ٱلْعَمَلِيَّةِ لِلأُمَّةِ ، ثُمَّ بِجَعْلِ ٱلْمُدَرِّسِينَ أَوَّلَ ٱلْعَامِلِينَ بِهِ ، لِيَتَحَقَّقَ مَعْنَىٰ ٱلإِقْنَاعِ ، فَلَا يَنْقَلِبُ ٱلدَّرْسُ هُزُءًا وَسُخْرِيَةً ؛ وَبِذَلِكَ يَخْرُجُ ٱلشَّابُّ مِنَ ٱلْجَامِعَةِ وَفِي رُوحِهِ قُوَّةٌ ثَابِتَةٌ تَعْمَلُ بِهِ ٱلْعَمَلَ ٱلصَّالِحَ ، وَتُوَجِّهُهُ إِلَىٰ ٱلْخَيْرِ ، وَتَحْفَظُهُ بَيْنَ أَهْوَاءِ ٱلْحَيَاةِ

وَشَدَائِدِهَا ، وَتَجْعَلُهُ دَائِمًا يَشْعُرُ أَنَّهُ فِي مَوْضِعِهِ السَّامِي مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِنْ كَانَ فِي أَقَلِّ مَرَاتِبِ الْمَالِ وَالْجَاهِ ، وَمِنْ ثَمَّ يَرْجِعُ الشُّبَّانُ فِي الْأُمَّةِ آلَاتِ قُوَّةٍ مُنَظَّمَةٍ عَامِلَةٍ ، وَأَيْسَرُ مَا تَعْمَلُهُ هَـٰذِهِ الْآلَاتُ ، إِزَالَةُ الْمُنْكَرَاتِ ، وَصُنْعُ الشَّعْبِ صَنْعَةً جَدِيدَةً لِلسِّلْمِ وَالْحَرْبِ ، وَ ، وَ ، وَ ، وَ . . .

قَالَ الشَّيْطَانُ : وَمَاذَا أَيَّتُهَا الْخَبِيثَةُ ؟ لَقَدْ هَوَّلْتِ عَلَيَّ !

قَالَتْ : وَطَرْدُنَا نَحْنُ الشَّيَاطِينَ مِنَ الْجَامِعَةِ !

قَالَ : اسْكُتِي وَيْحَكِ ! فَمَا أُرْسِلْتُ مِنْ مُسْتَشْفَى الْمَجَانِينِ إِلَّا لِهَـٰذَا ؛ فَلَنْ يَقَعَ الْفَصْلُ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ ، وَلَنْ يَدْخُلَ التَّعْلِيمُ الدِّينِيُّ فِي الْجَامِعَةِ ، وَسَيُدَافِعُونَ بِأَنَّ هَـٰذَا كُلَّهُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ . . .

* * *

نَهْضَةُ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ(*)

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ النَّهْضَةَ وَاقِعَةٌ فِي الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ ، مُسْتَطِيرَةٌ فِي أَرْجَائِهَا اسْتِطَارَةَ الشَّرَرِ يَضْرَمُ فِي كُلِّ جِهَةٍ نَارًا حَامِيَةً ، وَيَسْتَمِدُّ مِنْ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ لِعُنْصُرِهِ الْمُلْتَهِبِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الشَّرْقَ قَدْ تَقَلَّتَ مِنْ أَوْهَامِ السِّيَاسَةِ وَخُرَافَاتِهَا ، وَقَدِ اخْتَلَفَ عَلَى الْغَرْبِ بَعْدَ أَنْ طَابَقَهُ زَمَنًا ، وَتَابَعَهُ مُدَّةً ، وَعَرَفَهُ بِمِقْدَارِ مَا بَلَاهُ ، وَكَذَّبَهُ بِقَدْرِ مَا صَدَّقَهُ ، وَنَفَرَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْعَقْلَ الشَّرْقِيَّ قَدْ تَطَوَّرَ وَأَدْرَكَ مَعْنَى نَكْثِ الْعَهْدِ وَنَقْضِ الشَّرْطِ فِي السِّيَاسَةِ الْغَرْبِيَّةِ ، وَعَلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ هُوَ بِعَيْنِهِ الْعَهْدُ وَالشَّرْطُ فِي هَـٰذِهِ السِّيَاسَةِ مَا دَامَتِ الْمُفَاوَضَةُ وَالتَّعَاقُدُ بَيْنَ الذِّئْبِ وَالشَّاةِ . . . وَلَا رَيْبَ أَنَّ الشَّرْقَ يُجَاذِبُ الْآنَ مَقَالِيدَهُ الَّتِي أَلْقَاهَا ، وَيَضْرِبُ عَلَى سَلَاسِلِهِ الَّتِي تَقَيَّدَ بِهَا ، وَيُكَابِدُ الصُّعُودَ وَالْهُبُوطَ فِي نَهْضَتِهِ هَـٰذِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ بَلَغَ مِنْ إِغْضَائِهِ عَلَى الذُّلِّ وَقَرَارِهِ عَلَى الضَّيْمِ ، وَجَهْلِهِ وَتَجَاهُلِهِ - أَنَّ أُورُبَّةَ رَبَطَتْ أَقْطَارَهُ كُلَّهَا فِي بِضْعَةِ أَسَاطِيلَ تَجْذِبُهَا جَذْبَ الْكَوَاكِبِ لِلْأَرْضِ .

غَيْرَ أَنِّي مَعَ هَـٰذَا كُلِّهِ لَا أُسَمِّي هَـٰذِهِ النَّهْضَةَ نَهْضَةً إِلَّا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ وَالتَّوَسُّعِ فِي الْعِبَارَةِ ، وَالدَّلَالَةِ بِمَا كَانَ عَلَى مَا يَكُونُ : فَإِنَّ أَسْبَابَ النَّهْضَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تَطَّرِدُ اطِّرَادَ الزَّمَنِ ، وَتَنْمُو نُمُوَّ الشَّبَابِ وَتَنْدَفِعُ انْدِفَاعَ الْعُمُرِ إِلَى أَجَلٍ بِعَيْنِهِ - لَا يَزَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مِثْلُ هَـٰذَا الْمَوْتِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلَفِنَا وَأَوَّلِيَّتِنَا ، وَإِلَّا فَأَيْنَ الْأَخْلَاقُ الشَّرْقِيَّةُ ، وَأَيْنَ

---

(١) كُتِبَ هَـٰذَا الْمَقَالُ جَوَابًا لِلِاسْتِفْتَاءِ الْآتِي الَّذِي وَجَّهَتْهُ إِلَيْهِ إِحْدَى الْمَجَلَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ :

أ - هَلْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ نَهْضَةَ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ قَائِمَةٌ عَلَى أَسَاسٍ وَطِيدٍ يَضْمَنُ لَهَا الْبَقَاءَ ، أَمْ هِيَ فَوَرَانٌ وَقْتِيٌّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَخْمَدَ ؟

ب - هَلْ تَعْتَقِدُونَ بِإِمْكَانِ تَضَامُنِ هَـٰذِهِ الْأَقْطَارِ وَتَآلُفِهَا ؟ وَمَتَى ؟ وَبِأَيِّ الْعَوَامِلِ ؟ وَمَا شَأْنُ اللُّغَةِ فِي ذٰلِكَ ؟

جـ - هَلْ يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ اقْتِبَاسُ عَنَاصِرِ الْمَدَنِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ ؟ وَبِأَيِّ قَدْرٍ ؟ وَعِنْدَ أَيِّ حَدٍّ يَجِبُ أَنْ يَقِفَ هَـٰذَا الِاقْتِبَاسُ ، فِي النِّظَامَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ، وَفِي الْأَدَبِ وَالشِّعْرِ ، وَفِي الْعَادَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَفِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ ؟ سَعِيد الْعُرْيَان .

ٱلْمِزَاجُ ٱلْعَقْلِيُّ ٱلصَّحِيْحُ لأُمَمِ ٱلشَّرْقِ ، وَمَا هَـٰذَا ٱلَّذِيْ نَحْنُ فِيْهِ مِنْ رُوْحٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ؟ ثُمَّ أَيْنَ ٱلْمُصْلِحُوْنَ ٱلَّذِيْنَ لَا يُسَاوِمُوْنَ بِمُلْكٍ وَلَا إِمَارَةٍ ، وَلَا يَطْلُبُوْنَ بِٱلإِصْلَاحِ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ ٱلدُّنْيَا أَوْ بَاطِلًا مِنْ زُخْرُفِهَا ؟ ثُمَّ أَيْنَ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِيْنَ تَجْعَلُهُمْ مَبَادِئُهُمُ ٱلْعَالِيَةُ ٱلْقَوِيَّةُ أَوَّلَ ضَحَايَاهَا ، وَتَرْوِيْ مِنْهُمْ عِرْقَ ٱلثَّرَىٰ ٱلَّذِيْ يَغْتَذِيْ مِنْ بَقَايَا ٱلأَجْدَادِ لِيَنْبُتَ مِنْهُ ٱلأَحْفَادُ ؟

إِنَّ ٱلْجَوَابَ عَلَىٰ نَهْضَةِ أُمَّةٍ نَهْضَةً ثَابِتَةً لَا يَكُوْنُ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَفُنُوْنِهِ ، بَلْ مِنْ مَبْدَأٍ ثَابِتٍ مُسْتَمِرٍّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِيْ نُفُوْسِ أَهْلِهَا ، وَلَنْ يَكُوْنَ هَـٰذَا ٱلْمَبْدَأُ كَذٰلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ قَائِمًا عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ : إِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ ، وَخُلُقٌ عَزِيْزٌ ، وَٱسْتِهَانَةٌ بِٱلْحَيَاةِ ، وَصِبْغَةٌ خَاصَّةٌ بِٱلأُمَّةِ .

فَأَمَّا ٱلإِرَادَةُ ٱلْقَوِيَّةُ فَلَا تَنْقُصُ ٱلشَّرْقِيِّيْنَ ، وَإِنَّمَا ٱلْفَضْلُ فِيْهَا لِسَاسَةِ ٱلْغَرْبِ ٱلَّذِيْنَ بَصَّرُوْنَا بِأَنْفُسِنَا ، إِذْ وَضَعُوْنَا مَعَ ٱلأُمَمِ ٱلأُخْرَىٰ أَمَامَ مِرْآةٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلُوْا يَقُوْلُوْنَ مَعَ ذٰلِكَ إِنَّنَا غَيْرُ هَـٰؤُلَاءِ ، وَإِنَّ هَـٰذَا ٱلإِنْسَانَ ٱلَّذِيْ فِيْ ٱلْمِرْآةِ غَيْرُ هَـٰذَا ٱلْفَرْدِ ٱلَّذِيْ فِيْهَا . . . وَلَـٰكِنْ أَيْنَ ٱلْخُلُقُ وَأَيْنَ ٱلْعِزَّةُ ٱلْقَوْمِيَّةُ وَأَيْنَ ٱلْعَصَبِيَّةُ ٱلشَّرْقِيَّةُ ، وَهَـٰذِهِ مَفَاسِدُ أَوْرُبَّةَ كُلُّهَا تَنْصَبُّ فِيْ أَخْلَاقِ ٱلشَّرْقِيِّيْنَ كَمَا تَنْصَبُّ أَقْذَارُ مَدِيْنَةٍ كَبِيْرَةٍ فِيْ نَهْرٍ صَغِيْرٍ عَذْبٍ ، فَلَا ٱلدِّيْنُ بَقِيَ فِيْنَا أَخْلَاقًا ، وَلَا ٱلأَخْلَاقُ بَقِيَتْ فِيْنَا دِيْنًا ، وَأَصْبَحَتِ ٱلْمِيْزَةُ ٱلشَّرْقِيَّةُ فَاسِدَةً مِنْ كُلِّ وُجُوْهِهَا فِيْ ٱلرُّوْحِ وَٱلذَّوْقِ ، وَلَمْ يَعُدْ لَنَا شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ يُسَمَّىٰ ٱلْمَدَنِيَّةَ ٱلشَّرْقِيَّةَ ، وَأَخَذَ ٱلْحَمْقَىٰ وَٱلضُّعَفَاءُ مِنَّا يُحَاوِلُوْنَ فِيْ إِصْلَاحِهِمْ أَنْ يُؤَلِّفُوْا ٱلأُمَّةَ عَلَىٰ خُلُقٍ جَدِيْدٍ يَنْتَزِعُوْنَهُ مِنَ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ، وَلَا يَعْلَمُوْنَ أَنَّ ٱلْخُلُقَ ٱلطَّارِئَ لَا يَرْسَخُ بِمِقْدَارِ مَا يُفْسِدُ مِنَ ٱلأَخْلَاقِ ٱلرَّاسِخَةِ . وَهُمْ يَغْتَبِطُوْنَ إِذَا قِيْلَ لَهُمْ مَثَلًا : إِنَّ مِصْرَ قِطْعَةٌ مِنْ أَوْرُبَّةَ ، وَلَا يَعْلَمُوْنَ مَا تَحْتَ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ مِنْ تَعْطِيْلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ، وَٱلذَّهَابِ بِهَا ، وَإِفْسَادِهَا ، وَتَعْرِيْضِهَا لِلذَّمِّ ، وَتَسْلِيْطِ ٱلْبَلَاءِ عَلَيْهَا ، مِمَّا لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَىٰ ٱلتَّبَسُّطِ فِيْ شَرْحِهِ .

لَسْتُ أَقُوْلُ : إِنَّ نَهْضَةَ ٱلشَّرْقِ ٱلْعَرَبِيِّ لَا أَسَاسَ لَهَا ؛ فَإِنَّ لَهَا أَسَاسًا مِنْ حَمِيَّةِ ٱلشَّبَابِ ، وَعِلْمِ ٱلْمُتَعَلِّمِيْنَ ، وَمِنْ جَهْلِ أَوْرُبَّةَ ٱلَّذِيْ كَشَفَتْهُ ٱلْحَرْبُ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا كُلَّهُ عَلَىٰ قُوَّتِهِ وَكِفَايَتِهِ فِيْ بَعْضِ ٱلأَحْيَانِ لإِقَامَةِ ٱلأَحْدَاثِ ٱلْكُبْرَىٰ وَٱهْتِيَاجِ ٱلْعَوَاطِفِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ ـ لَا يَحْمِلُ ثِقَلَ ٱلزَّمَنِ ٱلْمُمْتَدِّ ، وَلَا يَكْفِيْ لأَنْ يَكُوْنَ أَسَاسًا وَطِيْدًا يَقُوْمُ عَلَيْهِ بِنَاءُ عِدَّةِ قُرُوْنٍ مِنَ

ٱلْحَضَارَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلْعَالِيَةِ ، بَلْ مَا أَسْرَعَهُ إِلَىٰ ٱلْهَدْمِ وَٱلنَّقْضِ ، لَوْ صَدَمَتْهُ ٱلأَسَالِيْبُ ٱللَّيِّنَةُ مِنَ ٱلدَّهَاءِ ٱلأَوْرُبِّيِّ عَلَىٰ ٱخْتِلَافِهَا . . .

إِذْ قُدِّرَ لأَوْرُبَّةَ أَنْ تَفُوْزَ بِأُسْلُوْبِهَا ٱلْجَدِيْدِ ، أُسْلُوْبِ ٱسْتِعْبَادِ ٱلشَّرْقِ بِٱلصَّدَاقَةِ . . . عَلَىٰ طَرِيْقَةِ ٱدِّعَاءِ ٱلثَّعْلَبِ لِلدَّجَاجِ أَنَّهُ قَدْ حَجَّ وَتَابَ وَجَاءَ لِيُصَلِّيَ بِهَا . . .

وَٱلَّذِيْ أَرَاهُ أَنَّ نَهْضَةَ هَـٰذَا ٱلشَّرْقِ ٱلْعَرَبِيِّ لَا تُعْتَبَرُ قَائِمَةً عَلَىٰ أَسَاسٍ وَطِيْدٍ إِلَّا إِذَا نَهَضَ بِهَا ٱلرُّكْنَانِ ٱلْخَالِدَانِ : ٱلدِّيْنُ ٱلإِسْلَامِيُّ ، وَٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ؛ وَمَا عَدَاهُمَا فَعَسَىٰ أَنْ لَا تَكُوْنَ لَهُ قِيْمَةٌ فِيْ حُكْمِ ٱلزَّمَنِ ٱلَّذِيْ لَا يَقْطَعُ بِحُكْمِهِ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ مِنَ ٱلْمَبْدَأِ وَٱلنِّهَايَةِ .

وَظَاهِرٌ أَنَّ أَغْلَبِيَّةَ ٱلشَّرْقِ ٱلْعَرَبِيِّ وَمَادَّتِهِ ٱلْعُظْمَىٰ هِيَ ٱلَّتِيْ تَدِيْنُ بِٱلإِسْلَامِ ، وَمَا ٱلإِسْلَامُ فِيْ حَقِيْقَتِهِ إِلَّا مَجْمُوْعَةُ أَخْلَاقٍ قَوِيَّةٍ تَرْمِيْ إِلَىٰ شَدِّ ٱلْمَجْمُوْعِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَلَعَمْرِيْ إِنِّيْ لأَحْسَبُ عُظَمَاءَ أَمْرِيْكَة كَأَنَّهُمْ مُسْلِمُوْ ٱلتَّارِيْخِ ٱلْحَدِيْثِ فِيْ مُعْظَمِ أَخْلَاقِهِمْ ، لَوْلَا شَيْءٌ مِنَ ٱلْفَرْقِ هُوَ ٱلَّذِيْ لَا يَمْنَعُهُمْ أَنْ يَنْحَطُّوْا إِذَا هُمْ بَلَغُوْا ٱلْقِمَّةَ ، فَإِنَّ مِنْ عَجَائِبِ ٱلدُّنْيَا أَنَّ قِمَّةَ ٱلْحَضَارَةِ ٱلرَّفِيْعَةِ هِيَ بِعَيْنِهَا مَبْدَأُ سُقُوْطِ ٱلأُمَمِ ، وَهَـٰذَا عِنْدَنَا هُوَ ٱلسِّرُّ فِيْ أَنَّ ٱلدِّيْنَ ٱلإِسْلَامِيَّ يَكْرَهُ لأَهْلِهِ أَنْوَاعَ ٱلتَّرَفِ وَٱلزِّيْنَةِ وَٱلِاسْتِرْخَاءِ ، وَلَا يَرَىٰ ٱلنَّحْتَ وَٱلتَّصْوِيْرَ وَٱلْمُوْسِيْقَىٰ وَٱلْمُغَالَاةَ فِيْهَا وَفِيْ ٱلشِّعْرِ إِلَّا مِنَ ٱلْمَكْرُوْهَاتِ ، بَلْ قَدْ يَكُوْنُ فِيْهَا مَا يَحْرُمُ إِنْ وُجِدَ سَبَبٌ لِتَحْرِيْمِهِ ، إِذْ كَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْفُنُوْنُ فِيْ ٱلْغَالِبِ وَفِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ هِيَ ٱلَّتِيْ تُؤَدِّيْ فِيْ نِهَايَتِهَا إِلَىٰ سُقُوْطِ أَخْلَاقِ ٱلأُمَّةِ ، بِمَا يَسْتَتْبِعُهُ مِنْ أَسَالِيْبِ ٱلرَّفَاهِيَةِ وَٱلضَّعْفِ ٱلْمُتَفَنِّنِ ، وَمَا تُحْدِثُهُ لِلنَّفْسِ مِنْ فُنُوْنِ ٱللَّذَّاتِ وَٱلإِغْرَاقِ فِيْهَا وَٱلِاسْتِهْتَارِ بِهَا ؛ وَمَا سَقَطَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلرُّوْمَانِيَّةُ وَلَا ٱلدَّوْلَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ إِلَّا بِكَأْسٍ وَٱمْرَأَةٍ وَوَتَرٍ ، وَخَيَالٍ شِعْرِيٍّ يَفْتَنُّ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ وَيُزَيِّنُهَا .

وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لِلأُمَّةِ فِيْ نَهْضَتِهَا مِنْ أَنْ تَتَغَيَّرَ ، فَإِنَّ رُجُوْعَنَا إِلَىٰ ٱلأَخْلَاقِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ ٱلْكَرِيْمَةِ أَعْظَمُ مَا يَصْلُحُ لَنَا مِنَ ٱلتَّغَيُّرِ وَمَا نَصْلُحُ بِهِ مِنْهُ ، فَلَقَدْ بَعُدَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَعْضِهَا ، وَٱنْقَطَعَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْبَعْضِ ٱلآخَرِ ، وَإِذَا نَحْنُ نَبَذْنَا ٱلْخَمْرَ ، وَٱلْفُجُوْرَ ، وَٱلْقِمَارَ ، وَٱلْكَذِبَ ، وَٱلرِّيَاءَ ؛ وَإِذَا أَنِفْنَا مِنَ ٱلتَّخَنُّثِ ، وَٱلتَّبَرُّجِ ، وَٱلِاسْتِهْتَارِ بِٱلْمُنْكَرَاتِ ، وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيْ ٱلْمُجُوْنِ وَٱلسُّخْفِ وَٱلرَّقَاعَةِ ، وَإِذَا أَخَذْنَا فِيْ أَسْبَابِ ٱلْقُوَّةِ ، وَٱصْطَنَعْنَا

ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْمَتِينَةَ : مِنَ ٱلْإِرَادَةِ ، وَٱلْإِقْدَامِ ، وَٱلْحَمِيَّةِ ، وَإِذَا جَعَلْنَا لَنَا صِبْغَةً خَاصَّةً تُمَيِّزُنَا مِنْ سِوَانَا ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّنَا أَهْلُ رُوحٍ وَخُلُقٍ ـ إِذَا كَانَ ذَٰلِكَ كُلُّهُ فَلَعَمْرِي أَيُّ ضَيْرٍ فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ ؟ وَهَلْ تِلْكَ إِلَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْإِسْلَامِيَّةُ ٱلصَّحِيحَةُ ، وَهَلْ فِي ٱلْأَرْضِ نَهْضَةٌ ثَابِتَةٌ تَقُومُ عَلَىٰ غَيْرِهَا ؟

إِنَّ مِنْ خَصَائِصِ هَـٰذَا ٱلدِّينِ ٱلْأَخْلَاقِيِّ أَنَّهُ صُلْبٌ فِيمَا لَا بُدَّ لِلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ مِنْهُ إِذَا أَرَادَتِ ٱلْكَمَالَ ٱلْإِنْسَانِيَّ ، وَلَـٰكِنَّهُ مَرِنٌ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ لِأَحْوَالِ ٱلْأَزْمِنَةِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ مِمَّا لَا يَأْتِي عَلَىٰ أُصُولِ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْكَرِيمَةِ ، وَلَيْسَ يَخْفَىٰ أَنَّهُ لَا يُغْنِي غَنَاءَ ٱلدِّينِ شَيْءٌ فِي نَهْضَةِ ٱلْأُمَمِ ٱلشَّرْقِيَّةِ خَاصَّةً ، فَهُوَ وَحْدَهُ ٱلْأَصْلُ ٱلرَّاسِخُ فِي ٱلدِّمَاءِ وَٱلْأَعْصَابِ ، وَمَتَىٰ نَهَضَ ٱلْمُسْلِمُونَ ، وَهُمْ مَادَّةُ ٱلشَّرْقِ ، نَهَضَ إِخْوَانُهُمْ فِي ٱلْوَطَنِ وَٱلْمَنْفَعَةِ وَٱلْعَادَةِ مِنْ أَهْلِ ٱلْمِلَلِ ٱلْأُخْرَىٰ ، وَٱضْطُرُّوا أَنْ يُجَانِسُوهُمْ فِي أَغْلَبِ أَخْلَاقِهِمُ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَا حَجْرَ عَلَىٰ حُرِّيَّتِهِمْ فِي ذَٰلِكَ إِلَّا كَبَعْضِ ٱلْحَجْرِ عَلَىٰ حُرِّيَّةِ ٱلْمَرِيضِ إِذَا أَوْجَرْتَهُ ٱلدَّوَاءَ ٱلْمُرَّ .

وَلَمَّا كَانَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِخْوَةً بِنَصِّ دِينِهِمْ ، وَكَانَتْ مَبَادِئُهُمْ وَاحِدَةً ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدًا ، فَلَا جَرَمَ كَانَ مِنَ ٱلسَّهْلِ ـ لَوْ رَجَعُوا إِلَىٰ أَخْلَاقِ دِينِهِمْ وَٱنْتَبَذُوا مَا يَصُدُّهُمْ عَنْهَا ـ أَنْ يُؤَلِّفُوا مِنَ ٱلشَّرْقِ كُلِّهِ دُوَلًا مُتَّحِدَةً يَحْسُبُ لَهَا ٱلْغَرْبُ حِسَابًا ذَا أَرْقَامٍ لَا تَنْتَهِي . . .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلشَّرْقَ فِي حَاجَةٍ إِلَى ٱلْمَبَادِئِ وَٱلْأَخْلَاقِ ، وَهِيَ مَعَ ذَٰلِكَ كَامِنَةٌ فِيهِ ، وَمُسْتَقْبَلُهُ كَامِنٌ فِيهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ فِي ٱلْكُتُبِ وَلَا فِي ٱلْفُنُونِ ، بَلْ فِي ٱلرِّجَالِ ٱلْقَائِمِينَ عَلَيْهَا ، فَٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَدْمِغَةُ هِيَ أَسَاسُ ٱلنَّهْضَةِ ٱلصَّحِيحَةِ ٱلثَّابِتَةِ ، وَإِذَا نَحْنُ تَأَمَّلْنَا هَـٰذِهِ ٱلنَّهْضَةَ ٱلرَّاهِنَةَ وَجَدْنَا أَسَاسَهَا خَرِبًا مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ ، وَوَجَدْنَا ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِي لَا يَمْلَؤُهُ إِلَّا ٱلْقَلْبُ ٱلْكَبِيرُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا خَيَالُ كَاتِبٍ مِنَ ٱلْكُتَّابِ ، وَٱلْمَوْضِعَ ٱلَّذِي لَا يَسُدُّهُ إِلَّا ٱلرَّأْسُ ٱلْعَظِيمُ قَدْ سَدَّتْهُ قِطْعَةٌ مِنْ صَحِيفَةٍ . . .

وَلَقَدْ تَنَبَّأَ نَبِيُّ هَـٰذَا ٱلدِّينِ ﷺ بِهَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي ٱنْتَهَىٰ إِلَيْهَا ٱلشَّرْقُ ٱلْعَرَبِيُّ بِإِزَاءِ ٱلْغَرْبِ ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا : « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا ٱجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ بَنُو ٱلْأَصْفَرِ[1] ٱجْتِمَاعَ ٱلْأَكَلَةِ

(١) بَنُو ٱلْأَصْفَرِ : هُمُ ٱلرُّومُ ، وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنَ ٱلْأُورُبِّيِّينَ .

عَلَى ٱلْأَقْصَاعِ ؟ » فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ : أَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ ٱللهِ أَمْ مِنْ كَثْرَةٍ ؟ قَالَ : « بَلْ مِنْ كَثْرَةٍ ، وَلَـٰكِنَّكُمْ غُثَاءٌ[1] كَغُثَاءِ ٱلسَّيْلِ قَدْ أَوْهَنَ قُلُوبَكُمْ حُبُّ ٱلدُّنْيَا » [أبو داود ، رقم : ٤٢٩٧ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٨٩١] .

فَوَهَنُ ٱلْقُلُوبِ بِحُبِّ ٱلدُّنْيَا ـ عَلَىٰ مَا يَنْطَوِي فِي هَـٰذِهِ ٱلْعِبَارَةِ مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُخْتَلِفَةِ ـ هُوَ عِلَّةُ ٱلشَّرْقِ ، وَلَا دَوَاءَ لِهَـٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ غَيْرُ ٱلْأَخْلَاقِ ، وَلَا أَخْلَاقَ بِغَيْرِ ٱلدِّينِ ٱلَّذِي هُوَ عِمَادُهَا . أَلَا وَإِنَّ أَسَاسَ ٱلنَّهْضَةِ قَدْ وُضِعَ ، وَلَـٰكِنْ بَقِيَتِ ٱلصَّخْرَةُ ٱلْكُبْرَىٰ وَسَتُوضَعُ يَوْمًا ، وَهَـٰذَا مَا أَعْتَقِدُهُ ، لِأَنَّ ٱلْغَرْبَ يَدْفَعُ مَعَنَا هَـٰذِهِ ٱلصَّخْرَةَ لِيُقِرَّهَا فِي مَوْضِعِهَا مِنَ ٱلْأَسَاسِ ، وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يَدْفَعُنَا نَحْنُ إِلَى ٱلْحُفْرَةِ لِيَدْفِنَنَا فِيهَا . . . وَهَـٰذَا عَمًى فِي ٱلسِّيَاسَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِخِذْلَانٍ مِنَ ٱللهِ لِأَمْرٍ قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ .

* * *

وَإِنِّي لَأَرَىٰ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ ٱلْأَقْطَارِ ٱلْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَقْتَبِسُوا مِنْ عَنَاصِرِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱقْتِبَاسَ ٱلتَّقْلِيدِ ، بَلِ ٱقْتِبَاسَ ٱلتَّحْقِيقِ ، بَعْدَ أَنْ يُعْطُوا كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ مِنَ ٱلتَّمْحِيصِ ، وَيُقَلِّبُوهُ عَلَىٰ حَالَتَيْهِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَٱلْغَرْبِيَّةِ ، فَإِنَّ ٱلتَّقْلِيدَ لَا يَكُونُ طَبِيعَةً إِلَّا فِي ٱلطَّبَقَاتِ ٱلْمُنْحَطَّةِ ، وَصِنَاعَةُ ٱلتَّقْلِيدِ وَصِنَاعَةُ ٱلْمَسْخِ فَرْعَانِ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَمَا قَلَّدَ ٱلْمُقَلِّدُ بِلَا بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ إِلَّا أَتَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ فِي نَفْسِهِ مِنْ مَلَكَةِ ٱلِابْتِكَارِ وَذَهَبَ بِبَعْضِ خَاصِّيَّتِهِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ، عَلَىٰ أَنَّنَا لَا نُرِيدُ مِنْ ذَٰلِكَ أَنْ لَا نَأْخُذَ مِنَ ٱلْقَوْمِ شَيْئًا ؛ فَإِنَّ ٱلْفَرْقَ بَعِيدٌ بَيْنَ ٱلْأَخْذِ فِي ٱلْمُخْتَرَعَاتِ وَٱلْعُلُومِ ، وَبَيْنَ ٱلْأَخْذِ مِنْ زُخْرُفِ ٱلْمَدَنِيَّةِ وَأَهْوَاءِ ٱلنَّفْسِ وَفُنُونِ ٱلْخَيَالِ وَرَوْنَقِ ٱلْخَبِيثِ وَٱلطَّيِّبِ ، إِذِ ٱلْفِكْرُ ٱلْإِنْسَانِيُّ إِنَّمَا يُنْتِجُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا ، فَلَيْسَ هُوَ مُلْكًا لِأُمَّةٍ دُونَ أُخْرَىٰ ؛ وَمَا ٱلْعَقْلُ ٱلْقَوِيُّ إِلَّا جُزْءٌ مِنْ قُوَّةِ ٱلطَّبِيعَةِ .

فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنِّظَامَاتِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ ، فَلْنَأْخُذْ مَا يَتَّفِقُ مَعَ ٱلْأَصْلِ ٱلرَّاسِخِ فِي آدَابِنَا مِنَ ٱلشُّورَىٰ وَٱلْحُرِّيَّةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ عِنْدَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي لَا يَجُورُ عَلَىٰ أَخْلَاقِ ٱلْأُمَّةِ وَلَا يُفْسِدُ مِزَاجَهَا وَلَا يُضْعِفُ قُوَّتَهَا .

(١) ٱلْغُثَاءُ : مَا يَحْمِلُهُ ٱلسَّيْلُ مِنَ ٱلْهَشِيمِ وَنَحْوِهِ مِمَّا تَحَطَّمَ وَتَعَفَّنَ وَلَا قِيمَةَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ فِيهِ .

وَإِذَا نَقَلْنَا مِنَ ٱلأَدَبِ وَٱلشِّعْرِ ، فَلْنَدَعْ خُرَافَاتِ ٱلْقَوْمِ وَسَخَافَاتِهِمُ ٱلرِّوَائِيَّةَ إِلَىٰ لُبِّ ٱلْفِكْرِ وَرَائِعِ ٱلْخَيَالِ وَصَمِيمِ ٱلْحِكْمَةِ ، وَلْنَتَّبِعْ طَرِيقَتَهُمْ فِي ٱلاسْتِقْصَاءِ وَٱلتَّحْقِيقِ ، وَأُسْلُوبَهُمْ فِي ٱلنَّقْدِ وَٱلْجَدَلِ ، وَتَأَتِّيَهُمْ إِلَى ٱلنَّفْسِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ بِتِلْكَ ٱلأَسَالِيبِ ٱلْبَيَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْحِكْمَةُ بِعَيْنِهَا .

وَأَمَّا فِي ٱلْعَادَاتِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَلْنَذْكُرْ أَنَّ ٱلشَّرْقَ شَرْقٌ وَٱلْغَرْبَ غَرْبٌ ، وَمَا أَرَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ تَصْدُقُ إِلَّا فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ وَحْدَهُ - وَٱلْقَوْمُ فِي نِصْفِ ٱلأَرْضِ وَنَحْنُ فِي نِصْفِهَا ٱلآخَرِ ، وَلَهُمْ مِزَاجٌ وَإِقْلِيمٌ وَطَبِيعَةٌ وَمِيرَاثٌ مِنْ كُلِّ ذٰلِكَ وَلَنَا مَا يَتَّفِقُ وَمَا يَخْتَلِفُ ، وَإِنَّ أَوَّلَ ٱلأَدِلَّةِ عَلَىٰ ٱسْتِقْلَالِنَا أَنْ نَنْسَلِخَ مِنْ عَادَاتِ ٱلْقَوْمِ ، فَإِنَّ هَـٰذَا يُؤَدِّي بِلَا رَيْبٍ إِلَىٰ إِبْطَالِ صِفَةِ ٱلتَّقْلِيدِ فِينَا ، وَيَحْمِلُنَا عَلَىٰ أَنْ نَتَّخِذَ لأَنْفُسِنَا مَا يُلَائِمُ طَبَائِعَنَا وَيُنَمِّي أَذْوَاقَنَا ٱلْخَاصَّةَ بِنَا ، وَيُطْلِقُ لَنَا ٱلْحُرِّيَّةَ فِي ٱلاسْتِقْلَالِ ٱلشَّخْصِيِّ ، وَلَقَدْ كُنَّا سَادَةَ ٱلدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ كَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْعَادَاتُ ٱلْغَرْبِيَّةُ ٱلَّتِي رَأَيْنَا مِنْهَا وَمِنْ أَثَرِهَا فِينَا مَا أَفْسَدَ رُجُولَةَ رِجَالِنَا وَأُنُوثَةَ نِسَائِنَا عَلَى ٱلسَّوَاءِ ، وَمَا هَـٰؤُلَاءِ ٱلشُّبَّانُ ٱلْمَسَاكِينُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ بَعْضِ هَـٰذِهِ ٱلْعَادَاتِ وَيَعْمَلُونَ عَلَىٰ بَثِّهَا فِي طَبَقَاتِ ٱلأُمَّةِ إِلَّا كَٱلَّذِي يَحْسَبُ أَنَّ أُورُبَّةَ يُمْكِنُ أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ طُرْبُوشِهِ . . .

وَلَقَدْ غَفَلْنَا عَنْ أَنَّنَا نَدْعُوا ٱلأُورُبِّيِّينَ إِلَىٰ أَنْفُسِنَا وَإِلَى ٱلتَّسَلُّطِ عَلَىٰ بِلَادِنَا بِٱنْتِحَالِنَا عَادَاتِهِمُ ٱلاجْتِمَاعِيَّةَ لأَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ ٱلْمُشَاكَلَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَوَجْهٌ مِنَ ٱلتَّقْرِيبِ بَيْنَ جِنْسَيْنِ يُعِينُ عَلَىٰ ٱنْدِمَاجِ أَضْعَفِهِمَا فِي أَقْوَاهُمَا ، وَيُضَيِّقُ دَائِرَةَ ٱلْخِلَافِ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ هُوَ مِنْ أَيْنَ ٱعْتَبَرْتَهُ وَجَدْتَهُ فِي فَائِدَتِهِ لِلأُورُبِّيِّينَ أَشْبَهَ بِتَلْيِينِ ٱللُّقْمَةِ ٱلصُّلْبَةِ تَحْتَ ٱلأَسْنَانِ ٱلْقَاطِعَةِ ، وَهَلْ نَسِيَ ٱلشَّرْقِيُّونَ أَنْ لَا حُجَّةَ لِلْغَرْبِ فِي ٱسْتِعْبَادِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ تَمْدِينَهُمْ ؟!

وَحَيْثُمَا قُلْنَا : « ٱلدِّينُ ٱلإِسْلَامِيُّ » فَإِنَّمَا نُرِيدُ ٱلأَخْلَاقَ ٱلَّتِي قَامَ بِهَا ، وَٱلْقَانُونَ ٱلَّذِي يُسَيْطِرُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلأَخْلَاقِ عَلَى ٱلنَّفْسِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ؛ وَهَـٰذَا فِي رَأْيِنَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ لأَنَّهُ ٱلأَوَّلُ وَٱلآخِرُ(١) .

(١) حَذَفْنَا مِنْ هَـٰذَا ٱلْمَقَالِ بَعْضَ عِبَارَاتٍ حَذَفَهَا ٱلْمُؤَلِّفُ بِقَلَمِهِ فِي ٱلأَصْلِ ٱلَّذِي تَحْتَ أَيْدِينَا . سعيد العُرْيَان .

لَا تَجْنِي ٱلصَّحَافَةُ عَلَىٰ ٱلأَدَبِ(*) وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ فَنِّيَّتِهِ(١)

قَالُوا : إِنَّ ٱلأَصْمَعِيَّ كَانَ يُنْكِرُ أَنْ يُقَالَ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ : (مَالِحٌ) ، وَيَقُولُ : إِنَّمَا هُوَ مِلْحٌ ، وَإِنَّ (مَالِحٌ) هَـٰذِهِ عَامِّيَّةٌ ؛ فَلَمَّا أَنْشَدُوهُ فِي ذٰلِكَ شِعْرًا لِذِي ٱلرُّمَّةِ يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَيْهِ ، قَالَ : إِنَّ ذَا ٱلرُّمَّةِ قَدْ بَاتَ فِي حَوَانِيتِ ٱلْبَقَّالِينَ بِٱلْبَصْرَةِ زَمَانًا . . .

يُرِيدُ شَيْخُنَا هَـٰذَا : أَنَّ (ٱلْمَالِحَ) فِي ٱلأَكْثَرِ ٱلأَعَمِّ يَكُونُ مِمَّا يَبِيعُهُ ٱلْبَقَّالُونَ ، وَلُغَتُهُمْ عَامِّيَّةٌ مُزَالَةٌ عَنْ سَنَنِهَا ٱلْفَصِيحِ ، مَصْرُوفَةٌ إِلَىٰ وَجْهِهَا ٱلتِّجَارِيِّ ؛ وَلَـٰكِنْ كَيْفَ بَاتَ ذُو ٱلرُّمَّةِ فِي حَوَانِيتِ ٱلْبَقَّالِينَ زَمَانًا حَتَّىٰ عَلِقَتِ ٱلْكَلِمَةُ بِمَنْطِقِهِ وَجَذَبَهُ إِلَيْهَا ٱلطَّبْعُ ٱلْعَامِّيُّ ، وَلَمْ يُخَالِطْ عَرَبِيَّتَهُ غَيْرُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ وَحْدَهَا ؟ لَمْ يَقُلِ ٱلأَصْمَعِيُّ شَيْئًا ، وَلَـٰكِنْ رِوَايَتَهُ تُخْبِرُ أَنَّ ذَا ٱلرُّمَّةِ ٱنْحَدَرَ مِنَ ٱلْبَادِيَةِ إِلَى ٱلْبَصْرَةِ يَلْتَمِسُ مَا يَلْتَمِسُهُ ٱلشُّعَرَاءُ ، فَلَمَّا كَانَ بِهَا ٱسْتَضَاقَ بِهَا فَلَمْ يُصِبْ لِجَوْفِهِ غَيْرَ ٱلْخُبْزِ ، وَلَمْ يَجِدْ لِلْخُبْزِ غَيْرَ (ٱلْمَالِحِ) يُسِيغُهُ بِهِ لِيَجِدَ ٱلْمَسْلَكَ فِي حَلْقِهِ ، قَالُوا : فَيَأْتِي ٱلْبَقَّالِينَ فَيَبْتَاعُ مِنْهُمُ ٱلسَّمَكَةَ (ٱلْمَالِحَةَ) وَٱلْبَقْلَةَ (ٱلْمَالِحَةَ) ، وَيَعْرِفُونَهُ مُضِيفًا إِلَىٰ فَرَجٍ ، فَيُنْسِئُونَ لَهُ فِي ٱلثَّمَنِ إِلَىٰ أَجَلٍ ، حَتَّىٰ يَمْتَدِحَ وَيَنَالَ ٱلْجَائِزَةَ . قَالُوا : ثُمَّ يُمْطِرُهُ ٱلْمَمْدُوحُ وَيَلْوِي بِهِ وَلَا يَرَىٰ فِي تَلْفِيقِ ٱلْعَيْشِ رُخْصًا إِلَّا فِي (ٱلْمَالِحِ) ، فَيَتَتَابَعُ فِي ٱلشِّرَاءِ وَيَمْضُونَ فِي إِسْلَافِهِ إِبْقَاءً عَلَيْهِ وَحُسْنَ نَظَرٍ مِنْهُمْ لِمَنْزِلَتِهِ وَشِعْرِهِ ، وَيَرَىٰ هُوَ أَنْ لَا ضَمَانَ لِلْوَفَاءِ بِمَا عَلَيْهِ إِلَّا نَفْسُهُ . فَمَا بُدٌّ أَنْ يَتَرَاءَىٰ لَهُمْ بَيْنَ ٱلسَّاعَةِ وَٱلسَّاعَةِ ، فَيُخَالِطُهُمْ فَيُحَدِّثُهُمْ فَيَسْمَعُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ عَلَىٰ طَبْعِهِمْ وَهُوَ عَلَىٰ سَجِيَّتِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَقْتَضُونَهُ ثَمَنًا ، وَلَا يَزَالُونَ يَمُدُّونَ لَهُ ، فَلَا يَزَالُ (ٱلْمَالِحُ) أَيْسَرَ مَنَالًا عَلَيْهِ ، كَمَا هُوَ إِلَىٰ نَفْسِهِ أَشْهَىٰ ، وَفِي

(*) « الرسالة » العدد : ٥٠ ، ٦ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ١٨ يونيو/ حزيران ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٠٠٥ ـ ١٠٠٨ .

(١) { بِهَـٰذَا ٱلْمَقَالِ بَدَأَ ٱلْمُؤَلِّفُ عَمَلَهُ فِي ٱلرِّسَالَةِ ؛ وَٱنْظُرْ « عَمَلَهُ فِي ٱلرِّسَالَةِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

جَوْفِهِ أَمْرًا ، لِمَكَانِ أَعْرَابِيَّتِهِ وَخُشُونَةِ عَيْشِهِ ؛ فَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ مَرْتَعَةً مِنْ هَـٰذَا (ٱلْمَالِحِ) . قَالُوا : ثُمَّ يَرَىٰ ٱلْبَقَّالُونَ أَنْ لَا ضَمَانَ لِمَا ٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ مَعَهُمْ ، فَيُلْزِمُونَهُ ٱلْحَوَانِيتَ بَيَاضَ يَوْمِهِ ، وَيُغْلِقُونَهَا عَلَيْهِ سَوَادَ لَيْلَتِهِ ، فَهُمْ يُمْسِكُونَهُ بِٱلنَّهَارِ ، وَتُمْسِكُهُ ٱلْحِيطَانُ وَٱلأَبْوَابُ بِٱللَّيْلِ !

فَلَمَّا عَظُمَ ٱلدَّيْنُ ، وَبَلَغَ ٱلْجُمْلَةَ ٱلَّتِي فَاتَتْ حِسَابَ ٱلأَيَّامِ إِلَىٰ حِسَابِ ٱلأَهِلَّةِ ، أُحْضِرَ ٱلشَّاعِرُ كَرْبَهُ وَهَمَّهُ ، وَلَمْ يَعُدِ (ٱلْمَالِحُ) يَنْجَعُ فِيهِ ، وَلَا يَجِدُ بِهِ غِذَاءً بَلْ حَرِيقًا فِي ٱلدَّمِ ، وَرَأَىٰ أَنَّهُ قَدِ ٱمْتُحِنَ بِهَـٰذَا (ٱلْمَالِحِ) ٱلْخَبِيثِ ، وَأَشْرَطَ نَفْسَهُ فِيهِ ، وَٱرْتَهَنَهَا بِهِ ؛ فَلَا يَزَالُ مِنَ (ٱلْمَالِحِ) هَمٌّ فِي نَفْسِهِ ، وَمَغْصٌ فِي جَوْفِهِ ، وَلَفْظٌ عَلَىٰ لِسَانِهِ ، وَدَيْنٌ عَلَىٰ ذِمَّتِهِ ؛ وَلَا يَزَالُ مَهْمُومًا بِهِ ؛ إِذْ كَانَ عَلَىٰ طَرِيقٍ مِنْ طَرِيقَيْنِ : إِمَّا ٱلْوَفَاءُ وَلَا قُدْرَةَ عَلَيْهِ مِنْ مُفْلِسٍ ، وَإِمَّا ٱلْحَبْسُ وَلَا طَاقَةَ بِهِ لِشَاعِرٍ ؛ وَحَبْسُ ذِي ٱلرُّمَّةِ فِي ثَمَنِ (ٱلْمَالِحِ) هُوَ حَبْسٌ عِنْدَ ٱلشُّرْطَةِ ، وَلَـٰكِنَّهُ قَتْلٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ ٱلْقَتْلِ عِنْدَ صَاحِبَتِهِ (مَيَّةَ) إِذَا تَرَامَىٰ إِلَيْهَا ٱلْخَبَرُ ؛ وَٱلأَعْرَابِيُّ ٱلْجِلْفُ ٱلَّذِي يُحْبَسُ فِي ثَمَنِ(ٱلْمَالِحِ) عِنْدَ ٱلْوَالِي بَعْدَ أَنْ بَاتَ زَمَنًا رَهْنًا بِهِ فِي حَوَانِيتِ ٱلْبَقَّالِينَ لَا يَصْلُحُ عَاشِقًا لِمَيَّ ، وَهِيَ مَنْ هِيَ !

[من الطويل] :

لَهَـا بَشَـرٌ مِثْـلُ ٱلْحَـرِيـرِ وَمَنْطِـقٌ   رَخِيـمُ ٱلْحَـوَاشِـي . . . . . .

فَلَا (ٱلْمَالِحُ) مِنْ غِذَائِهَا ، وَلَا لَفْظُ (ٱلْمَالِحِ) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي فَمِهَا ٱلْعَذْبِ ، وَأَبْعَدَ ٱللهُ جَارِيَتَهَا ٱلزِّنْجِيَّةَ إِنْ لَمْ تَأْنَفْ لِنَفْسِهَا وَمَكَانِهَا مِنْ عِشْقِ هَـٰذَا ٱلأَعْرَابِيِّ ٱلْغَلِيظِ ٱلْخَشِنِ ٱلَّذِي أَلْحَقَهُ (ٱلْمَالِحُ) بِٱللُّصُوصِ وَٱلْغَارِمِينَ ، وَأَخْزَاهَا ٱللهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِشْقُ هَـٰذَا ٱلأَعْرَابِيِّ لَهَا سَوَادًا عَلَىٰ سَوَادِهَا فِي ٱلنَّاسِ ، فَكَيْفَ بِمَيَّ وَهِيَ أَصْفَىٰ مِنَ ٱلْمِرْآةِ ٱلنَّقِيَّةِ ، وَأَبْيَضُ مِنَ ٱلزَّهْرَةِ ٱلْبَيْضَاءِ ؟

قَالُوا : وَيَصْنَعُ ٱللهُ لِغَيْلَانَ ٱلْمِسْكِينِ ، فَيَمْدَحُ وَيُنَافِقُ وَيَحْتَالُ ، وَيَعِدُهُ ٱلْمَمْدُوحُ بِٱلْجَائِزَةِ إِذَا غَدَا عَلَيْهِ ، وَيَكُونُ ذَٰلِكَ وَٱلشَّمْسُ نَازِلَةٌ إِلَىٰ خِدْرِهَا ، فَيَنْكَفِئُ ٱلشَّاعِرُ إِلَىٰ حَوَانِيتِ غُرَمَائِهِ مِنَ ٱلْبَقَّالِينَ يَبِيتُ فِيهَا أُخْرَىٰ لَيَالِيهِ ، وَيُغْلِقُونَ عَلَيْهِ وَقَدْ سَئِمُوهُ آكِلًا وَمَاطِلًا ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ فَلَا يَعْتَدُّونَهُ إِلَّا فَأْرًا مِنْ فِئْرَانِ حَوَانِيتِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُ يَأْكُلُ فَيَسْتَوْفِي ، وَلَمْ

يَعُدِ ٱسْمُهُ عِنْدَهُمْ ذَا ٱلرُّمَّةِ بَلْ ذَا ٱلْغُمَّةِ . . . فَلَمْ يُعْطُوهُ لِعَشَائِهِ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ إِلَّا مَا فَسَدَ وَخَبُثَ مِنْ عَتِيقِ (ٱلْمَالِحِ) ، فَهُوَ نَتِنٌ يُسَمَّىٰ طَعَامًا ، وَدَاءٌ يُبَاعُ بِثَمَنٍ ، وَهَلَاكٌ يَحْمِلُ عَلَيْهِ ٱلاضْطِرَارُ كَمَا يَحْمِلُ عَلَىٰ أَكْلِ ٱلْجِيفَةِ ؛ وَكَانُوا قَدْ وَضَعُوهُ فِي آنِيَةٍ قَذِرَةٍ مُتَلَجِّنَةٍ طَالَ عَهْدُهَا بِٱلْغَسْلِ وَٱلنَّظَافَةِ ، وَفِيهَا بَقِيَّةٌ مِنْ عَفَنٍ قَدِيمٍ ، فَلَصِقَ بِهَا مَا لَصِقَ ، وَتَرَاكَبَ عَلَيْهَا مَا تَرَاكَبَ ، وَوَقَعَ فِيهَا مَا وَقَعَ .

ثُمَّ يَتَهَيَّأُ ٱلشَّاعِرُ لِصَلَاةِ ٱلْعِشَاءِ يَرْجُو أَنْ تَنَالَهُ بَرَكَتُهَا ، فَيَسْتَجِيبُ ٱللهُ لَهُ وَيُفَرِّجُ عَنْهُ ، وَقَدْ كَانَ لَدَيْهِ قَدَحٌ مِنَ ٱلْمَاءِ لِوَضُوئِهِ ، وَلَـٰكِنَّ (ٱلْمَالِحَ) ٱلَّذِي تَغَدَّىٰ بِهِ كَانَ قَدْ أَحْرَقَ جَوْفَهُ وَأَضْرَمَ عَلَىٰ أَحْشَائِهِ وَهُوَ فِي صَيْفٍ قَائِظٍ ، فَمَا زَالَ يُطْفِئُهُ بِٱلشَّرْبَةِ بَعْدَ ٱلشَّرْبَةِ ، وَٱلْمَصَّةِ بَعْدَ ٱلْمَصَّةِ ، حَتَّىٰ ٱشْتَفَّ ٱلْقَدَحَ وَأَتَىٰ عَلَيْهِ ، فَيَكْسَلُ عَنِ ٱلصَّلَاةِ وَيَلْعَنُ (ٱلْمَالِحَ) وَمَا جَرَّ عَلَيْهِ ؛ ثُمَّ يَعَضُّهُ ٱلْجُوعُ فَيَكْسِرُ خُبْزَتَهُ وَيُسَمِّي وَيَغْمِسُ ٱللُّقْمَةَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا فَيَجِدُ لَهَا رَائِحَةً مُنْكَرَةً ، فَيَنْظُرُ فِي ٱلآنِيَةِ وَقَدْ نَفَذَ إِلَيْهِ ٱلضَّوْءُ مِنْ قِنْدِيلِ ٱلْحَارِسِ ، فَإِذَا فِي (ٱلْمَالِحِ) خُنْفُسَاءُ قَدِ ٱنْفَجَرَتْ شِبَعًا ، وَيُدَقِّقُ ٱلنَّظْرَةَ فَإِذَا دُوَيْبَةٌ أُخْرَىٰ قَدْ تَفَسَّخَتْ وَهَرَأَهَا (ٱلْمَالِحُ) وَفَعَلَ بِهَا وَفَعَلَ ! قَالُوا : وَتَثِبُ نَفْسُهُ إِلَىٰ حَلْقِهِ ، وَلَا يَرَىٰ ٱلطَّاعُونَ وَٱلْبَلَاءَ ٱلأَصْفَرَ وَٱلأَحْمَرَ إِلَّا هَـٰذَا (ٱلْمَالِحَ) ، فَيَتَحَوَّلُ إِلَىٰ كُوَّةِ ٱلْحَانُوتِ يَتَنَسَّمُ ٱلْهَوَاءَ مِنْهَا وَيَتَطَعَّمُ ٱلرَّوْحَ وَهِيَ مُضَبَّبَةٌ بِٱلْحَدِيدِ ، وَلَا يَزَالُ يُرَاعِي مِنْهَا ٱللَّيْلَ وَيُقَدِّرُهُ مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً بِحِسَابِ ٱلْبَادِيَةِ ، وَهُوَ بَيْنَ ذَٰلِكَ يَلْعَنُ (ٱلْمَالِحَ) عَدَدَ مَا يُسَبِّحُ ٱلْعَابِدُ ٱلْقَائِمُ فِي جَوْفِ ٱللَّيْلِ ، وَيَطُولُ ذَٰلِكَ عَلَيْهِ ، حَتَّىٰ إِذَا كَادَ يَنْشَقُّ لَمَعَ ٱلْفَجْرُ لِعَيْنِهِ ، فَلَا يَرَاهُ ٱلشَّاعِرُ إِلَّا كَٱلْغَدِيرِ يَتَفَجَّرُ بِٱلْمَاءِ ٱلصَّافِي ، وَيَوَدُّ لَوِ ٱنْصَبَّ هَـٰذَا ٱلضَّوْءُ فِي جَوْفِهِ لِيَغْسِلَهُ مِنَ (ٱلْمَالِحِ) وَأَوْضَارِ (ٱلْمَالِحِ) . ثُمَّ يَأْتِي ٱللهُ بِٱلْفَرَجِ وَبِصَاحِبِ ٱلْحَانُوتِ فَيَفْتَحُ لَهُ ، وَيَغْدُو ذُو ٱلرُّمَّةِ عَلَىٰ ٱلْمَمْدُوحِ فَيَقْبِضُ ٱلْجَائِزَةَ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ حَوَانِيتِ ٱلْبَقَّالِينَ فَيُوَفِّي أَصْحَابَهَا مَا عَلَيْهِ ؛ وَلَا يَبْقَىٰ مَعَهُ إِلَّا دَرَاهِمُ مَعْدُودَةٌ ، فَيَخْرُجُ مِنَ ٱلْبَصْرَةِ عَلَىٰ حِمَارٍ ٱكْتَرَاهُ وَقَدْ فُتِحَتْ لَهُ آفَاقُ ٱلدُّنْيَا ، وَكَأَنَّمَا فَرَّ مِنْ مَوْتٍ غَيْرِ ٱلْمَوْتِ ، لَيْسَ ٱسْمُهُ ٱلْبَوَارَ وَلَا ٱلْهَلَاكَ وَلَا ٱلْقَتْلَ ، وَلَـٰكِنَّ ٱسْمَهُ (ٱلْمَالِحُ) ! .

قَالُوا : وَيُحَرِّكُهُ ٱلْحِمَارُ لِلشِّعْرِ كَمَا كَانَتْ تُحَرِّكُهُ ٱلنَّاقَةُ ، فَيَقُولُ : أَخْزَاكَ ٱللهُ مِنْ حِمَارٍ بَصْرِيٍّ ، إِنْ أَنْتَ فِي ٱلْمَرَاكِبِ إِلَّا (كَٱلْمَالِحِ) فِي ٱلأَطْعِمَةِ ، ثُمَّ يَغْلِبُهُ ٱلطَّبْعُ وَيَنْزُو بِهِ

الطَّرَبُ ، وتهزُّهُ الحياةُ ، فيَهْتاجُ للشِّعرِ ويذكرُ شوقَهُ وحُبَّهُ ودارَ ميَّ ، وفي (عقلِهِ الباطنِ) حوانيتُ وحوانيتُ من (المالِحِ) ، فيأتي هذا (المالحُ) في شعرِهِ ويدخلُ في لُغتِهِ ، فيقولُ الشِّعرَ الذي أهملَ الأصمعيُّ روايتَهُ لأنَّ فيهِ (المالحَ) ؛ وما أدري أنا ما هو ، ولكنْ لعلَّهُ مثلُ قولِ الآخرِ [وهو مجنونُ ليلى قيسُ بنُ الملوَّحِ ، من الطويل] :

ولو تفلَتْ في البحرِ والبحرُ (مالحٌ) ... لأصبحَ ماءُ البحرِ من ريقِها عذبا

أو مثلُ قولِ القائلِ [وهو عُذافرٌ الكِنديُّ ، من الرجز] :

بصريَّةٌ تزوَّجتْ بصريّا ... يُطعمُها (المالحَ) والطَّريّا

* * *

هذه هي الرِّوايةُ التمثيليَّةُ التي تفسِّرُ كلامَ الأصمعيِّ ، ولا مذهبَ عنها في التعليلِ إذ[1] صار (المالحُ) كلمةً نفسيَّةً في لغةِ ذي الرُّمَّةِ ، على رغمِ أنفِ الأحمرِ والأسودِ والأصمعيِّ وأبي عُبيدةَ ، فالرجلُ من الحُجَجِ في العربيَّةِ إلّا في كلمةِ (المالح) ، فإنَّهُ هنا عاميٌّ بقَّالٌ حوانيتيٌّ نزلَ بطبعِهِ على حكمِ العيشِ ، وغلبَهُ ما لا بدَّ أن يغلبَ من تسلُّطِ (واعيتِهِ الباطنةِ)[2] .

والحكمةُ التي تخرجُ من هذه الروايةِ أنَّ أبلغَ الناسِ ينحرفُ بعملِهِ كيفَ شاءتِ الحِرفةُ ، ولا بدَّ أن تقعَ المشابهةُ بينَ نفسِهِ وعملِهِ ، فربَّما أرادَ بكلامِهِ وجهًا وجاءَ بهِ الهاجسُ على وجهٍ آخرَ ، وإذا كانَ في النفسِ موضعٌ من مواضعِها أفسدَهُ العملُ - ظهرَ فسادُهُ في الذوقِ والإدراكِ فطمسَ على مواضعَ أُخرى ، فلا تنتظرْ من صحافيٍّ قد ارتهنَ نفسَهُ بحرفةِ الكلامِ ألّا يكونَ لهُ في الأدبِ والبلاغةِ (مالحٌ) كمالحِ ذي الرُّمَّةِ ، وإن كانَ أبلغَ الناسِ لا أبلغَ كتّابِ الصحفِ وحدَهم .

(١) في الأصل : «إذا» بدلًا من : «إذ» .

(٢) وضعنا هذه الكلمةَ لما يُسمَّى : (العقلُ الباطنُ) ، وهي أدقُّ في التعبيرِ تستوفي كلَّ معاني الكلمةِ ، ولا معنى لأنْ يكونَ هناك عقلٌ ، ثمَّ يكونُ باطنًا غافلًا ، فإنَّ هذا [بعيدٌ] لا يسوِّغُهُ الاشتقاقُ .

و(المالحُ) الذي رأيناهُ لكاتبٍ بليغٍ من أصحابِنا[1] أنَّهُ كتبَ في إحدى الصحفِ عن ديوانٍ هو في شعرِ هذه الأيامِ كالبعثِ بعدَ موتِ شوقي وحافظ رحمهما اللهُ ، فيأتي بالمجازِ بعدَ الاستعارةِ بعدَ الكنايةِ ممّا قالَهُ الشاعرُ ثمَّ يقولُ : هذا عجيبٌ تصوُّرُهُ . لا أعرفُ ماذا يريدُ . البِلى للشُّعاعِ غيرُ مقبولٍ ، ولا يزالُ ينسحبُ على هذه الطريقةِ من النقدِ ثمَّ يعقِّبُ على ذلكَ بقولِهِ : «والأصلُ في الكتابةِ أنَّها للإفهامِ ، أي نقلُ الخاطرِ أو الإحساسِ من ذهنٍ إلى ذهنٍ ومن نفسٍ إلى نفسٍ ، ولا سبيلَ إلى ذلكَ إذا كانتِ العبارةُ يتعاورُها الضعفُ والإبهامُ والركاكةُ وقلَّةُ العنايةِ بدقَّةِ الأداءِ ، وإذا كنتَ تستعملُ اللفظَ في غيرِ موضعِهِ ولغيرِ ما أُريدَ بهِ ، فكيفَ تتوقَّعُ منّي أن أفهمَ منكَ ؟» .

لا ، لا ، هذا (مالحٌ) من مالحِ الأدبِ ، فإذا كانَ الضعفُ والإبهامُ والركاكةُ وسوءُ الإفهامِ وضعفُ الأداءِ - آتيةً في رأيِ الكاتبِ من استعمالِ اللفظِ في غيرِ موضعِهِ ولغيرِ ما أُريدَ لهُ - فإنَّ محاسنَ البيانِ من التشبيهِ والاستعارةِ والمجازِ والكنايةِ ليسَ لها مأتى كذلكَ إلّا استعمالُ اللفظِ في غيرِ موضعِهِ ولغيرِ ما أُريدَ لهُ .

وعلى طريقةِ الكاتبِ كيفَ يصنعُ في قولِهِ تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [٢٥ سورة الفرقان/ الآية : ٢٣] ؟ .

أتراهُ يقولُ : كيفَ قدمَ اللهُ ، وهل كانَ غائبًا أو مسافرًا ، وكيفَ قدمَ إلى عملٍ ، وهلِ العملُ بيتٌ أو مدينةٌ ؟

ثمَّ كيفَ يصنعُ في هذه الآيةِ : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ [١١ سورة هود/ الآية : ٤٤] أيسألُ : وهل للأرضِ حلقٌ تحرِّكُهُ عضلاتُهُ للبلعِ ، وإذا كانَ لها حلقٌ أفلا يجوزُ أن تَرْمى فيهِ فتحتاجَ إلى غرغرةٍ وعلاجٍ وطبٍّ ؟ .

وماذا يقولُ في حديثِ البخاريِّ [رقم : ٢٥١٠ ، مسلم ، رقم : ١٨٠١ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٧٦٨ ؛ والنصُّ في «صحيح مسلم»] : «إنّي لأسمعُ صوتًا كأنَّهُ صوتُ الدمِ» ، أو «صوتًا يقطرُ منهُ الدمُ» - كما في الأغاني - أيوجِّهُ الاعتراضَ على الصوتِ وجرحِهِ ودمِهِ ، ويسألُ :

(١) { يعني : المازنيَّ ، وكانَ لهُ نقدٌ لديوانِ «الملّاحِ التائهِ» } .

بِمَاذَا جُرِحَ ، وَمَا لَوْنُ هَـٰذَا ٱلدَّمِ ، وَهَلْ لِلصَّوْتِ عُرُوْقٌ فَيَجْرِيْ ٱلدَّمُ فِيْهَا ؟ .

إِنَّ ٱلإِفْهَامَ وَنَقْلَ ٱلْخَاطِرِ وَٱلإِحْسَاسِ لَيْسَتْ هِيَ ٱلْبَلَاغَةَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْهَا ، وَإِلَّا فَكِتَابَةُ ٱلصُّحُفِ كُلُّهَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِيْ ٱلأَدَبِ ، إِذْ هِيَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ لَا يُقْدَحُ فِيْهَا وَلَا يُغَضُّ مِنْهَا ، وَمَا قَصَّرَتْ قَطُّ فِيْ نَقْلِ خَاطِرٍ وَلَا ٱسْتَغْلَقَتْ دُوْنَ إِفْهَامٍ .

هَـٰهُنَا خِوَانٌ فِيْ مَطْعَمٍ كَمَطْعَمِ (ٱلْحَاتِيْ) مَثَلًا ، عَلَيْهِ ٱلشِّوَاءُ وَٱلْمِلْحُ وَٱلْفِلْفِلُ وَٱلْكَوَامِيْخُ أَصْنَافًا مُصَنَّفَةً ، وَآخَرُ فِيْ وَلِيْمَةِ عُرْسٍ فِيْ قَصْرٍ وَعَلَيْهِ أَلْوَانُهُ وَأَزْهَارُهُ وَمِنْ فَوْقِهِ ٱلأَشِعَّةُ وَمِنْ حَوْلِهِ ٱلأَشِعَّةُ ٱلأُخْرَىٰ مِنْ كُلِّ مُضِيْئَةٍ فِيْ ٱلْقَلْبِ بِنُوْرِ وَجْهِهَا ٱلْجَمِيْلِ ؛ أَفَتَرَىٰ ٱلسُّهُوْلَةَ كُلَّ ٱلسُّهُوْلَةِ إِلَّا فِيْ ٱلأَوَّلِ ؟ وَهَلِ ٱلتَّعْقِيْدُ كُلَّ ٱلتَّعْقِيْدِ ٱلَّا فِيْ ٱلثَّانِيْ ؟ وَلَـٰكِنْ أَيُّ تَعْقِيْدٍ هُوَ ؟ إِنَّهُ تَعْقِيْدٌ فَنِّيٌّ لَيْسَ إِلَّا ؛ وَبِهِ يَنْضَافُ ٱلْجَمَالُ إِلَىٰ ٱلْمَنْفَعَةِ ، فَتَجْتَمِعُ ٱلْفَائِدَةُ وَٱلاسْتِمْتَاعُ وَتُزَيَّنُ ٱلْمَائِدَةُ وَٱلنَّفْسُ مَعًا ؛ وَهُوَ كَذٰلِكَ تَعْقِيْدٌ فَنِّيٌّ لَاءَمَ بَيْنَ إِبْدَاعِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَإِبْدَاعِ ٱلْفِكْرِ ، وَجَاءَ بِرُوْحِ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ ٱلَّتِيْ يَقُوْمُ عَلَيْهَا ٱلْكَوْنُ ٱلْجَمِيْلُ فَبَثَّهَا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِيْ تَقُوْمُ بِهَا ٱلْمَائِدَةُ ٱلْجَمِيْلَةُ ، وَٱسْتَنْزَلَ سِرَّ ٱلْجَاذِبِيَّةِ فَجَعَلَ لِلْمَائِدَةِ بِمَا عَلَيْهَا شُعُوْرًا مُتَّصِلًا بِٱلْقُلُوْبِ مِنْ حَيْثُ جَعَلَ لِلْقُلُوْبِ شُعُوْرًا مُتَّصِلًا بِٱلْمَائِدَةِ .

وَهَـٰذَا ٱلتَّعْقِيْدُ ٱلَّذِيْ صَوَّرَ فِيْ ٱلْجَمَادِ دِقَّةَ فَنِّ ٱلْعَاطِفَةِ ، هُوَ بِعَيْنِهِ فَنِّيَّةُ ٱلسُّهُوْلَةِ وَرُوْحِيَّتُهَا ؛ وَتِلْكَ ٱلسَّذَاجَةُ ٱلَّتِيْ فِيْ ٱلْمَائِدَةِ ٱلأُخْرَىٰ هِيَ ٱلسُّهُوْلَةُ ٱلْمَادِّيَّةُ بِغَيْرِ فَنٍّ وَلَا رُوْحٍ ، وَفَرْقُ بَيْنِهِمَا أَنَّ إِحْدَاهُمَا تَحْمِلُ قَصِيْدَةً رَائِعَةً مِنَ ٱلطَّعَامِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ ، وَٱلأُخْرَىٰ تَحْمِلُ مِنَ ٱلطَّعَامِ مَقَالَةً كَمَقَالَاتِ ٱلصُّحُفِ !

وَٱلْوَجْهُ فِيْ ٱلشَّوْهَاءِ وَفِيْ ٱلْجَمِيْلَةِ وَاحِدٌ : لَا يَخْتَلِفُ بِأَعْضَائِهِ وَلَا مَنَافِعِهِ ، وَلَا فِيْ تَأْدِيَتِهِ مَعَانِيْ ٱلْحَيَاةِ عَلَىٰ أَتَمِّهَا وَأَكْمَلِهَا ؛ بَيْدَ أَنَّ ٱنْسِجَامَ ٱلْجَمِيْلِ يَأْتِيْ مِنْ إِعْجَازِ تَرْكِيْبِهِ وَتَقْدِيْرِ قَسَمَاتِهِ وَتَدْقِيْقِ تَنَاسُبِهِ ، وَجَعْلِهِ بِكُلِّ ذٰلِكَ يُظْهِرُ فَنَّهُ ٱلنَّفْسِيَّ بِسُهُوْلَةٍ مُنْسَجِمَةٍ هِيَ فَنِّيَّتُهُ وَرُوْحِيَّتُهُ ، أَمَّا ٱلآخَرُ فَلَا يَقْبَلُ هَـٰذَا ٱلْفَنَّ وَلَا يُظْهِرُ مِنْهُ شَيْئًا ؛ إِذَا كَانَ قَدْ فَقَدَ ٱلتَّدْقِيْقَ ٱلْهَنْدَسِيَّ ٱلَّذِيْ هُوَ تَعْقِيْدُ فَنِّ ٱلتَّنَاسُبِ ؛ وَجَاءَ عَلَىٰ ٱلْمَقَايِيْسِ ٱلسَّهْلَةِ مِنْ طَوِيْلٍ إِلَىٰ قَصِيْرٍ ، إِلَىٰ مَا يَسْتَدِيْرُ وَمَا يَعْرُضُ ، إِلَىٰ مَا يَنْتَأُ مِنْ هُنَا وَيَنْخَسِفُ مِنْ هُنَاكَ ، كَٱلْوَجْنَةِ ٱلْبَارِزَةِ ، وَٱلشِّدْقِ ٱلْغَائِرِ ؛ فَهَـٰذِهِ ٱلسُّهُوْلَةُ ٱلْمُطْلَقَةُ فِيْ ٱلْوَضْعِ كَمَا يَتَّفِقُ ، هِيَ بِعَيْنِهَا ٱلتَّعْقِيْدُ ٱلْمُطْلَقُ

عِنْدَ ٱلْفَنِّ ٱلَّذِيْ لَا مَحَلَّ فِيْهِ لِلَفْظَةِ : (كَمَا يَتَّفِقُ) .

وَٱلطَّرِيْقَةُ ٱلَّتِيْ يَكُوْنُ بِهَا ٱلْجَمَالُ جَمِيْلًا هِيَ بِعَيْنِهَا ٱلطَّرِيْقَةُ ٱلَّتِيْ يَكُوْنُ بِهَا ٱلْبَيَانُ بَلِيْغًا ، فَٱلْمَرْجِعُ فِيْ ٱثْنَيْهِمَا إِلَىٰ تَأْثِيْرِهِمَا فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَأَنْتَ فَقُلْ : إِنَّ هَـٰذَا مَفْهُوْمٌ وَهَـٰذَا غَيْرُ مَفْهُوْمٍ ، وَذَاكَ سَهْلٌ وَٱلآخَرُ مُعَقَّدٌ ، وَوَاضِحٌ وَمُغْلَقٌ ، وَمُسْتَقِيْمٌ عَلَىٰ طَرِيْقَتِهِ وَمُحَوَّلٌ عَنْ طَرِيْقَتِهِ ؛ إِنَّكَ فِيْ ذٰلِكَ لَا تَدُلُّ عَلَىٰ شَيْءٍ تَعِيْبُهُ أَوْتَمْدَحُهُ فِيْ ٱلْجَمَالِ أَوْ ٱلْبَلَاغَةِ أَكْثَرَ مِمَّا تَدُلُّ عَلَىٰ مَا يُمْدَحُ أَوْ يُعَابُ فِيْ نَفْسِكَ وَذَوْقِهَا وَإِدْرَاكِهَا .

وَمَعَانِيْ ٱلاخْتِلَافِ لَا تَكُوْنُ فِيْ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَلَفِ فِيْهِ ، بَلْ فِيْ ٱلأَنْفُسِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ عَلَيْهِ : فَإِنَّ مُحَالًا أَنْ تَكُوْنَ ٱلْجَمِيْلَةُ مَمْدُوْحَةً مَذْمُوْمَةً لِجَمَالِهَا فِيْ وَقْتٍ مَعًا ، وَإِلَّا كَانَتْ قَبِيْحَةً بِمَا هِيَ بِهِ حَسْنَاءُ ، وَهَـٰذَا أَشَدُّ بُعْدًا فِيْ ٱلاسْتِحَالَةِ ، وَحُكْمُكَ عَلَىٰ شَيْءٍ هُوَ عَقْلُكَ أَنْتَ فِيْ هَـٰذَا ٱلشَّيْءِ .

وَمَتَىٰ ٱتَّفَقَ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ مَعْنًىٰ يَسْتَحْسِنُوْنَهُ وَجَدْتَ دَوَاعِيْ ٱلاسْتِحْسَانِ فِيْ أَنْفُسِهِمْ مُخْتَلِفَةً ، وَكَذٰلِكَ هُمْ فِيْ دَوَاعِيْ ٱلذَّمِّ إِذَا عَابُوْا ؛ وَلَـٰكِنْ مَتَىٰ تَعَيَّنَتِ ٱلْوُجُوْهُ ٱلَّتِيْ بِهَا يَكُوْنُ ٱلْحُكْمُ ، وَرَجَعَ إِلَيْهَا ٱلْمُخْتَلِفُوْنَ ، وَٱلْتَزَمُوْا ٱلأُصُوْلَ ٱلَّتِيْ رَسَمَتْهَا ، وَتَقَرَّرَتْ بِهَا ٱلطَّرِيْقَةُ عِنْدَهُمْ فِيْ ٱلذَّوْقِ وَٱلْفَهْمِ ، فَذٰلِكَ يَنْفِيْ أَسْبَابَ ٱلاخْتِلَافِ لِمَا يَكُوْنُ مِنْ مَعَانِيْ ٱلتَّكَافُؤِ وَخَاصَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ ، وَلِهَـٰذَا كَانَ ٱلشَّرْطُ فِيْ نَقْدِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ كَاتِبٍ مُبْدِعٍ فِيْ بَيَانِهِ لَمْ تُفْسِدْهُ نَزْعَةٌ أُخْرَىٰ ، وَفِيْ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ شَاعِرٍ عَلَتْ مَرْتَبَتُهُ وَطَالَتْ مُمَارَسَتُهُ لِهَـٰذَا ٱلْفَنِّ فَلَيْسَ لَهُ نَزْعَةٌ أُخْرَىٰ تُفْسِدُهُ .

وَمَا ٱلْمَجَازَاتُ وَٱلاسْتِعَارَاتُ وَٱلْكِنَايَاتُ وَنَحْوَهَا مِنْ أَسَالِيْبِ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَّا أُسْلُوْبٌ طَبِيْعِيٌّ لَا مَذْهَبَ عَنْهُ لِلنَّفْسِ ٱلْفَنِّيَّةِ ، إِذْ هِيَ بِطَبِيْعَتِهَا تُرِيْدُ دَائِمًا مَا هُوَ أَعْظَمُ ، وَمَا هُوَ أَجْمَلُ ، وَمَا هُوَ أَدَقُّ ؛ وَرُبَّمَا ظَهَرَ ذٰلِكَ لِغَيْرِ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ تَكَلُّفًا وَتَعَسُّفًا وَوَضْعًا لِلأَشْيَاءِ فِيْ غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ؛ وَيَخْرُجُ مِنْ هَـٰذَا أَنَّهُ عَمَلٌ فَارِغٌ وَإِسَاءَةٌ فِيْ ٱلتَّأْدِيَةِ ، وَتَمَحُّلٌ لَا عِبْرَةَ بِهِ ، وَلَـٰكِنَّ فَنِّيَّةَ ٱلنَّفْسِ ٱلشَّاعِرَةِ تَأْبَىٰ إِلَّا زِيَادَةَ مَعَانِيْهَا ، فَتَصْنَعُ أَلْفَاظَهَا صِنَاعَةً تُوْلِيْهَا مِنَ ٱلْقُوَّةِ مَا يَنْفُذُ إِلَىٰ ٱلنَّفْسِ وَيُضَاعِفُ إِحْسَاسَهَا ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَا تَكُوْنُ ٱلزِّيَادَةُ فِيْ صُوَرِ ٱلْكَلَامِ وَتَقْلِيْبِ أَلْفَاظِهِ وَإِرَادَةِ مَعَانِيْهِ إِلَّا تَهْيِئَةً لِهَـٰذِهِ ٱلزِّيَادَةِ فِيْ شُعُوْرِ ٱلنَّفْسِ ؛ وَمِن ذٰلِكَ يَأْتِيْ ٱلشِّعْرُ دَائِمًا

زَائِدًا بِٱلصِّنَاعَةِ ٱلْبَيَانِيَّةِ ، لِتُخْرِجَهُ هَـٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ طَبِيْعِيًّا فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ إِلَىٰ أَنْ يَكُوْنَ رُوْحَانِيًّا فِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَٱلشُّعُوْرُ ٱلْمُهْتَاجُ ٱلْمُتَفَزِّزُ غَيْرُ ٱلسَّاكِنِ ٱلْمُتَلَبِّدِ ، وَٱلْبَيَانُ فِيْ صِنَاعَةِ ٱللُّغَةِ يُقَابِلُ هَـٰذَا ٱلنَّحْوَ ، فَتَجِدُ مِنَ ٱلتَّعْبِيْرِ مَا هُوَ حَيٌّ مُتَحَرِّكٌ ، وَمَا هُوَ جَامِدٌ مُسْتَلْقٍ كَٱلنَّائِمِ أَوْ كَٱلْمَيِّتِ ؛ وَبِهَـٰذَا لَا تَكُوْنُ حَقِيْقَةُ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱلْبَيَانِيَّةِ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا صِنَاعَةٌ فَنِّيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا لِإِحْدَاثِ ٱلاهْتِيَاجِ فِيْ أَلْفَاظِ ٱللُّغَةِ ٱلْحَسَّاسَةِ كَيْ تُعْطِيَ ٱلْكَلِمَاتِ مَا لَيْسَ فِيْ طَاقَةِ ٱلْكَلِمَاتِ أَنْ تُعْطِيَهُ .

لَقَدْ تَكَلَّمُوْا أَخِيْرًا فِيْ جِنَايَةِ ٱلصَّحَافَةِ عَلَىٰ ٱلأَدَبِ ، وَٱلصَّحَافَةُ عِنْدِيْ لَا تَجْنِيْ عَلَىٰ ٱلأَدَبِ ، وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ فَنِّيَّتِهِ ؛ فَلَهَا مِنَ ٱلأَثَرِ عَلَىٰ سَلِيْقَةِ ٱلْبَلِيْغِ وَطَبْعِهِ قَرِيْبٌ مِمَّا كَانَ لِحَوَانِيْتِ ٱلْبَقَّالِيْنَ فِيْ ٱلْبَصْرَةِ عَلَىٰ طَبْعِ ذِيْ ٱلرُّمَّةِ وَسَلِيْقَتِهِ ، وَكُلَّمَا قَرُبَ ٱلصَّحَافِيُّ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ وَحَقِّهَا عَلَىٰ ٱلْجُمْهُوْرِ ، بَعُدَ عَنِ ٱلْفَنِّ وَجَمَالِهِ وَحَقِّهِ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ ، وَهَـٰذَا وَاضِحٌ بِلَا كَبِيْرِ تَأَمُّلٍ ، بَلْ هُوَ وَاضِحٌ بِغَيْرِ تَأَمُّلٍ . . .

مصطفى صادق الرافعي

صَعَالِيْكُ ٱلصَّحَافَةِ
١

لَمَّا ظَهَرَ كِتَابِيْ «وَحْيُ ٱلْقَلَمِ» حَمَلْتُ مِنْهُ إِلَىٰ فُضَلَاءِ كُتَّابِنَا فِيْ دُوْرِ ٱلصُّحُفِ وَٱلْمَجَلَّاتِ أُهْدِيْهِ إِلَيْهِمْ لِيَقْرَءُوْهُ وَيَكْتُبُوْا عَنْهُ ، وَأَنَا رَجُلٌ لَيْسَ فِيَّ أَكْثَرُ مِمَّا فِيَّ ، كَٱلنَّجْمِ يَسْتَحِيْلُ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ مُسْتَنْقَعٌ؛ فَمَا أَعْلَمُ فِيْ طَبِيْعَتِيْ مَوْضِعًا لِلنِّفَاقِ تَتَحَوَّلُ فِيْهِ ٱلْبَصَلَةُ إِلَىٰ تُفَّاحَةٍ، وَلَا مَكَانًا مِنَ ٱلْخَوْفِ تَنْقَلِبُ فِيْهِ ٱلتُّفَّاحَةُ إِلَىٰ بَصَلَةٍ ، وَلَسْتُ أُهْدِيْ مِنْ كُتُبِيْ إِلَّا إِحْدَىٰ هَدِيَّتَيْنِ : فَإِمَّا ٱلتَّحِيَّةُ لِمَنْ أَثِقُ بِأَدَبِهِمْ وَكِفَايَتِهِمْ وَسَلَامَةِ قُلُوْبِهِمْ، وَإِمَّا إِنْذَارُ حَرْبٍ لِغَيْرِ هَـٰؤُلَاءِ! .

وَٱلْقُرْآنُ نَفْسُهُ قَدْ أَثْبَتَ ٱللهُ فِيْهِ أَقْوَالَ مَنْ عَابُوْهُ ، لِيَدُلَّ بِذٰلِكَ عَلَىٰ أَنَّ ٱلْحَقِيْقَةَ مُحْتَاجَةٌ إِلَىٰ مَنْ يُنْكِرُهَا وَيَرُدُّهَا ، كَحَاجَتِهَا إِلَىٰ مَنْ يُقِرُّ بِهَا وَيَقْبَلُهَا ؛ فَهِيَ بِأَحَدِهِمَا تُثْبِتُ وُجُوْدَهَا ، وَبِٱلآخَرِ تُثْبِتُ قُدْرَتَهَا عَلَىٰ ٱلْوُجُوْدِ وَٱلاسْتِمْرَارِ .

وَٱلشُّعُوْرُ بِٱلْحَقِّ لَا يَخْرَسُ أَبَدًا ، فَإِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ قَوِيَّةً صَرِيْحَةً مَرَّ مِنْ بَاطِنِهَا إِلَىٰ ظَاهِرِهَا فِيْ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْخَالِصَةِ ، فَإِنْ قَالَ لَا أَوْ نَعَم صُدِّقَ فِيْهِمَا ؛ وَإِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ مُلْتَوِيَةً ٱعْتَرَضَتْهُ ٱلأَغْرَاضُ وَٱلدَّخَائِلُ ، فَمَرَّ مِنْ بَاطِنٍ إِلَىٰ بَاطِنٍ حَتَّىٰ يَخْلُصَ إِلَىٰ ٱلظَّاهِرِ فِيْ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْمَقْلُوْبَةِ ؛ إِذْ يَكُوْنُ شُعُوْرًا بِٱلْحَقِّ يُغَطِّيْهِ غَرَضٌ آخَرُ كَٱلْحَسَدِ وَنَحْوِهِ ، فَإِنْ قَالَ لَا أَوْ نَعَم كَذَبَ فِيْهِمَا جَمِيْعًا .

* * *

وَكُنْتُ فِيْ طَوَافِيْ عَلَىٰ دُوْرِ ٱلصُّحُفِ وَٱلْمَجَلَّاتِ أُحِسُّ فِيْ كُلٍّ مِنْهَا سُؤَالًا يَسْأَلُنِيْ بِهِ ٱلْمَكَانُ : لِمَاذَا لَمْ تَجِئْ ؟ فَإِنِّيْ فِيْ ٱبْتِدَاءِ أَمْرِيْ كُنْتُ نَزَعْتُ إِلَىٰ ٱلْعَمَلِ فِيْ ٱلصَّحَافَةِ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مُتَعَلِّمٌ رَيِّضٌ وَمُتَأَدِّبٌ نَاشِئٌ ، وَلَـٰكِنَّ أَبِيْ رَحِمَهُ ٱللهُ رَدَّنِيْ عَنْ ذٰلِكَ وَوَجَّهَنِيْ فِيْ

(*) «الرسالة» العدد : ١٨٩ ، ٤ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ١٥ فبراير/شباط ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٢٤٣ ـ ٢٤٥ .

(١) يَعْنِيْ ٱلْجُزْأَيْنِ ٱلأَوَّلَ وَٱلثَّانِيَ فِيْ طَبْعَتِهِمَا ٱلأُوْلَىٰ . سَعِيد ٱلْعُرْيَان .

سَبِيلِيْ هَـٰذِهِ وَٱلْحَمْدُ لِلهِ ، فَلَوْ أَنَّنِي نَشَأْتُ صِحَافِيًّا لَكُنْتُ ٱلْآنَ كَبَعْضِ ٱلْحُرُوفِ ٱلْمَكْسُورَةِ فِيْ ٱلطَّبْعِ .

وَلِلصَّحَافَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ شَأْنٌ عَجِيبٌ ، فَهِيَ كُلَّمَا تَمَّتْ نَقَصَتْ ، وَكُلَّمَا نَقَصَتْ تَمَّتْ ؛ إِذْ كَانَ مَدَارُ ٱلْأَمْرِ فِيهَا عَلَىٰ ٱعْتِبَارِ أَكْثَرِ مَنْ يَقْرَؤُوْنَهَا أَنْصَافَ قُرَّاءٍ أَوْ أَنْصَافَ أُمِّيِّيْنَ ؛ وَهِيَ بِهَـٰذَا كَالطَّرِيْقَةِ لِتَعْلِيْمِ ٱلْقِرَاءَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ أَوِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ أَوْ ٱلْأَدَبِيَّةِ ، فَتَمَامُهَا بِمُرَاعَاةِ قَوَاعِدِ ٱلنَّقْصِ فِيْ ٱلْقَارِئِ . . . وَمَا بُدٌّ أَنْ تَتَقَيَّدَ بِأَوْهَامِ ٱلْجُمْهُوْرِ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَقَيَّدُ بِحَقِيقَةِ نَفْسِهَا ؛ فَهِيَ مَعَهُ كَالزَّوْجَةِ ٱلَّتِي لَمْ تَلِدْ بَعْدُ ، لَهَا مِنْ رَجُلِهَا مَنْ يَأْمُرُهَا وَيَجْعَلُهَا فِيْ حُكْمِهِ وَهَوَاهُ ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ أَبْنَائِهَا مَنْ تَأْمُرُهُمْ وَتَجْعَلُهُمْ فِيْ طَاعَتِهَا وَرَأْيِهَا وَأَدَبِهَا ؛ ثُمَّ هِيَ عَمَلُ ٱلسَّاعَةِ وَٱلْيَوْمِ ؛ فَمَا أَبْعَدَهَا مِنْ حَقِيقَةِ ٱلْأَدَبِ ٱلصَّحِيْحِ ، إِذْ يَنْظُرُ فِيهِ إِلَىٰ ٱلْوَقْتِ ٱلدَّائِمِ لَا إِلَىٰ ٱلْوَقْتِ ٱلْغَابِرِ ، وَيُرَادُ بِهِ مَعْنَىٰ ٱلْخُلُوْدِ لَا مَعْنَىٰ ٱلنِّسْيَانِ .

وَلَا يَقْتُلُ ٱلنُّبُوْغَ شَيْءٌ كَالْعَمَلِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلصَّحَافَةِ بِطَرِيْقَتِهَا ؛ فَإِنَّ أَسَاسَ ٱلنُّبُوْغِ (مَا يَجِبُ كَمَا يَجِبُ) ، وَأَدَبُهُ ٱلْعُمْقُ وَٱلتَّغَلْغُلُ فِيْ أَسْرَارِ ٱلْأَشْيَاءِ وَإِخْرَاجُ ٱلثَّمَرَةِ ٱلصَّغِيْرَةِ مِنْ مِثْلِ ٱلشَّجَرَةِ ٱلْكَبِيْرَةِ بِعَمَلٍ طَوِيْلٍ دَقِيْقٍ ؛ أَمَّا هِيَ فَأَسَاسُهَا (مَا يُمْكِنُ كَمَا يُمْكِنُ) ، وَدَأْبُهَا ٱلسُّرْعَةُ وَٱلتَّصَفُّحُ وَٱلْإِلْمَامُ وَصِنَاعَةٌ كَصِنَاعَةِ ٱلْعُنْوَانِ لَا غَيْرُ .

فَلَيْسَ يَحْسُنُ بِالْأَدِيْبِ أَنْ يَعْمَلَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلصَّحَافَةِ ٱلْيَوْمِيَّةِ إِلَّا إِذَا نَضِجَ وَتَمَّ وَأَصْبَحَ كَالدَّوْلَةِ عَلَىٰ « ٱلْخَرِيْطَةِ » لَا كَالْمَدِيْنَةِ فِيْ ٱلدَّوْلَةِ فِيْ ٱلْخَرِيْطَةِ ، فَهُوَ حِيْنَئِذٍ لَا يَسْهُلُ مَحْوُهُ وَلَا تَبْدِيْلُهُ . . . ثُمَّ هُوَ يَمُدُّهَا بِالْقُوَّةِ وَلَا يَسْتَمِدُّ ٱلْقُوَّةَ مِنْهَا ، وَيَكُوْنُ تَاجًا مِنْ تِيْجَانِهَا لَا خَرَزَةً مِنْ خَرَزَاتِهَا ، وَيَقُوْمُ فِيْهَا كَالْمَنَارَةِ ٱلْعَظِيْمَةِ تُلْقِي أَشِعَّتَهَا مِنْ أَعْلَىٰ ٱلْجَوِّ إِلَىٰ مَدًى بَعِيْدٍ مِنَ ٱلْآفَاقِ ، لَا كَمِصْبَاحٍ مِنْ مَصَابِيْحِ ٱلشَّارِعِ ! .

وَحَالَةُ ٱلْجُمْهُوْرِ عِنْدَنَا تَجْعَلُ ٱلصَّحَافَةَ مَكَانًا طَبِيْعِيًّا لِرَجُلِ ٱلسِّيَاسَةِ قَبْلَ غَيْرِهِ ، إِذْ كَانَ ٱلرَّجُلُ ٱلسِّيَاسِيُّ هُوَ صَوْتَ ٱلْحَوَادِثِ سَائِلًا وَمُجِيْبًا ، ثُمَّ يَلِيْهِ ٱلرَّجُلُ شِبْهُ ٱلْعَالِمِ ، ثُمَّ ٱلرَّجُلُ شِبْهُ ٱلْمُمَثِّلِ ٱلْهَزْلِيِّ . . . وَٱلْأَدِيْبُ ٱلْعَظِيْمُ فَوْقَ هَـٰؤُلَاءِ جَمِيْعًا . غَيْرَ أَنَّهُ عِنْدَنَا فِيْ ٱلصَّحَافَةِ وَرَاءَ هَـٰؤُلَاءِ جَمِيْعًا ! .

* * *

وَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ طَوَافِيْ عَلَىٰ دُوْرِ ٱلصُّحُفِ جَاءَتْ هِيَ تَطُوْفُ بِيْ فِيْ نَوْمِيْ ؛ فَرَأَيْتُنِي ذَاتَ لَيْلَةٍ أَدْخُلُ إِحْدَاهَا لِأُهْدِيَ « وَحْيَ ٱلْقَلَمِ » إِلَىٰ ٱلْأَدِيْبِ ٱلْمُتَخَصِّصِ فِيْهَا لِلْكِتَابَةِ ٱلْأَدَبِيَّةِ ، وَدَلُّوْنِي عَلَيْهِ ، فَإِذَا رَجُلٌ مَرْبُوْعٌ ، مُشَوَّهُ ٱلْخَلْقِ ، صَغِيْرُ ٱلرَّأْسِ ، دَقِيْقُ ٱلْعُنُقِ ، جَاحِظُ ٱلْعَيْنَيْنِ ، تَدُوْرَانِ فِيْ مِحْجَرَيْهِمَا دَوْرَةً وَحْشِيَّةً كَأَنَّمَا رَعَبَهُ ٱلْحَيَاةُ مُذْ كَانَ جَنِيْنًا فِيْ بَطْنِ أُمِّهِ ، لِأَنَّهُ خُلِقَ لِلْإِحْسَاسِ وَٱلْوَصْفِ ، أَوْ كَأَنَّمَا رُكِّبَ فِيْهِ هَـٰذَا ٱلنَّظَرُ ٱلسَّاخِرُ لِيَرَىٰ أَكْثَرَ مِمَّا يَرَىٰ غَيْرُهُ مِنْ أَسْرَارِ ٱلسُّخْرِيَةِ فَيَنْبُغُ فِيْ فُنُوْنِهَا ، أَوْ هُوَ قَدْ خُلِقَ بِهَاتَيْنِ ٱلْعَيْنَيْنِ ٱلْجَاحِظَتَيْنِ دِلَالَةً عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقُدْرَةِ ٱلْإِلَـٰهِيَّةِ بِأَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ أُرْسِلَ لِتَدْقِيْقِ ٱلنَّظَرِ .

وَقَالَ ٱلَّذِيْ عَرَّفَنِيْ بِهِ : حَضْرَتُهُ عَمْرُوْ أَفَنْدِي ٱلْجَاحِظُ . . . وَهُوَ أَدِيْبُ ٱلْجَرِيْدَةِ .

قُلْتُ : شَيْخُنَا أَبُوْ عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ؟ .

فَضَحِكَ ٱلْجَاحِظُ وَقَالَ : وَأَدِيْبُ ٱلْجَرِيْدَةِ ، أَيْ شَحَّاذُ ٱلْجَرِيْدَةِ ، يَكْتُبُ لَهَا كَمَا يَقْرَأُ ٱلْقَارِئُ عَلَىٰ ضَرِيْحٍ ؛ بِالرَّغِيْفِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلْبَيْضِ وَٱلْقِرْشِ . .

قُلْتُ : إِنَّا لِلهِ ! فَكَيْفَ ٱنْتَهَيْتَ يَا أَبَا عُثْمَانَ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلنِّهَايَةِ وَكُنْتَ مِنْ أَعَاجِيْبِ ٱلدُّنْيَا ؟ وَكَيْفَ خِبْتَ فِيْ ٱلصَّحَافَةِ وَكُنْتَ رَأْسًا فِيْ ٱلْكَلَامِ ؟

قَالَ : نَجَحَتْ أَخْلَاقِيْ فَخَابَتْ آمَالِيْ ، وَلَوْ جَاءَ ٱلْوَضْعُ بِالْعَكْسِ لَكَانَ ٱلْأَمْرُ بِالْعَكْسِ ؛ وَٱلْمُصِيْبَةُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلصُّحُفِ أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا هُوَ قَانُوْنُ كُلِّ رَجُلٍ هُنَا .

قُلْتُ : وَذَاكَ ٱلرَّجُلُ ٱلْوَاحِدُ مَا قَانُوْنُهُ ؟

قَالَ : لَهُ ثَلَاثَةُ قَوَانِيْنَ : ٱلْجِهَاتُ ٱلْعَالِيَةُ وَمَا يَسْتَوْحِيْهِ مِنْهَا ، وَٱلْجِهَاتُ ٱلنَّازِلَةُ وَمَا يُوْحِيْهِ إِلَيْهَا ، وَقَانُوْنُ ٱلصِّلَةِ بَيْنَ ٱلْجِهَتَيْنِ وَهُوَ . .

قُلْتُ : وَهُوَ مَاذَا ؟

فَحَمْلَقَ فِيَّ وَقَالَ : مَا هَـٰذِهِ ٱلْبَلَادَةُ ؟ وَهُوَ ٱلَّذِيْ « هُوَ » . . . أَمَا تَرَىٰ ٱلصَّحِيْفَةَ كَكُلِّ شَيْءٍ يُبَاعُ ؟ وَأَنْتَ فَخَبِّرْنِي - وَلَكَ ٱلدَّوْلَةُ وَٱلصَّوْلَةُ عِنْدَ ٱلْقُرَّاءِ - أَلَمْ تَرَ بِعَيْنَيْكَ أَنَّكَ لَوْ جِئْتَ تَدْفَعُ ثَمَانَ مِئَةِ قِرْشٍ ، لَكُنْتَ فِيْ نُفُوْسِهِمْ أَعْظَمَ مِمَّا أَنْتَ وَقَدْ جِئْتَ تُهْدِيْ ثَمَانَ مِئَةِ صَفْحَةٍ مِنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلْأَدَبِ ؟

قُلْتُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! فَمَاذَا تَكْتُبُ هُنَا ؟

قَالَ : إِنَّ ٱلْكِتَابَةَ فِي هَـٰذِهِ ٱلصَّحَافَةِ صُورَةٌ مِنَ ٱلرُّؤْيَةِ ، فَمَاذَا تَرَى أَنْتَ فِي . . . وَفِي . . . وَفِي . . . ؟ لَقَدْ كُنَّا نَرْوِي فِي ٱلْحَدِيثِ : « يَكُونُ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ ٱلدُّنْيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَلْحَسُ ٱلْأَرْضَ ٱلْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا » [راجع « مسند أحمد » ، رقم : ١٥٢٠] ، فَلَعَلَّ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْأَلْسِنَةِ ٱلطَّوِيلَةِ لِسَانُ صَاحِبِ ٱلْجَرِيدَةِ . .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنَّكَ يَا شَيْخَنَا قَدْ نَسِيتَ ٱلْقُرَّاءَ وَحُكْمَهُمْ عَلَى ٱلصَّحِيفَةِ .

قَالَ : ٱلْقُرَّاءُ مَا ٱلْقُرَّاءُ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْقُرَّاءُ ! وَهَلْ أَسَاسُ أَكْثَرِهِمْ إِلَّا بَلَادَةُ ٱلْمَدَارِسِ ، وَسَخَافَةُ ٱلْحَيَاةِ ، وَضَعْفُ ٱلْأَخْلَاقِ ، وَكَذِبُ ٱلسِّيَاسَةِ ؟ إِنَّ ٱلْإِبْدَاعَ كُلَّ ٱلْإِبْدَاعِ فِي أَكْثَرِ مَا تَكْتُبُ هَـٰذِهِ ٱلصُّحُفُ ، أَنْ تَجْعَلَ ٱلْكَذِبَ يُكَذِّبُ بِطَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ . . وَمَا دَامَ ٱلْمَبْدَأُ هُوَ ٱلْكَذِبَ فَٱلْمَظْهَرُ هُوَ ٱلْهَزْلُ ، وَٱلنَّاسُ فِي حَيَاةٍ قَدْ مَاتَتْ فِيهَا ٱلْمَعَانِي ٱلشَّدِيدَةُ ٱلْقَوِيَّةُ ٱلسَّامِيَةُ ، فَهُمْ يُرِيدُونَ ٱلصَّحَافَةَ ٱلرَّخِيصَةَ ، وَٱللُّغَةَ ٱلرَّخِيصَةَ ، وَٱلْقِرَاءَةَ ٱلرَّخِيصَةَ ؛ وَبِهَـٰذَا أَصْبَحَ ٱلْجَاحِظُ وَأَمْثَالُهُمْ (صَعَالِيكَ ٱلصَّحَافَةِ) .

* * *

وَدَقَّ ٱلْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَىٰ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ ، فَنَهَضَ إِلَيْهِ ثُمَّ رَجَعَ بِعَيْنَيْنِ لَا يُقَالُ فِيهِمَا جَاحِظَتَانِ ، بَلْ خَارِجَتَانِ . . . وَقَالَ : أُفٍّ ! ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١١ سورة هود/ الآية : ١٦] .

« كَلَّا وَٱلَّذِي حَرَّمَ ٱلتَّزَيُّدَ عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ ، وَقَبَّحَ ٱلتَّكَلُّفَ عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ ، وَبَهْرَجَ ٱلْكَذَّابِينَ عِنْدَ ٱلْفُقَهَاءِ ، لَا يَظُنُّ هَـٰذَا إِلَّا مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُ »(١) .

قُلْتُ : مَاذَا دَهَاكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ ؟

قَالَ : وَيْحَهَا صَحَافَةً ! قُلْ فِي عَمَلِكَ مَا قَالَ ٱلْمَثَلُ : جَحَظَ إِلَيْهِ عَمَلُهُ(٢) .

(١) هَـٰذِهِ ٱلْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ ٱلْجَاحِظِ .

(٢) يُرِيدُونَ أَنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي عَمَلِهِ رَأَىٰ سُوءَ مَا صَنَعَ .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنْ مَا ٱلْقِصَّةُ ؟

قَالَ : وَيْحَهَا صَحَافَةً ! وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ كَامِلًا ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِخَصْلَةٍ مِنْهُنَّ كَانَ مِنْ صَالِحِي ٱلْقَوْمِ : دِينٌ يُرْشِدُهُ ، أَوْ عَقْلٌ يُسَدِّدُهُ ، أَوْ حَسَبٌ يَصُونُهُ ، أَوْ حَيَاءٌ يَقْنَاهُ » . وَقَالَ : « ٱلْمُؤْمِنُ بَيْنَ أَرْبَعٍ : مُؤْمِنٌ يَحْسُدُهُ ، وَمُنَافِقٌ يُبْغِضُهُ ، وَكَافِرٌ يُجَاهِدُهُ ، وَشَيْطَانٌ يَفْتِنُهُ . وَأَرْبَعٌ لَيْسَ أَقَلَّ مِنْهُنَّ : ٱلْيَقِينُ ، وَٱلْعَدْلُ ، وَدِرْهَمٌ حَلَالٌ ، وَأَخٌ فِي ٱللهِ » . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ . . .(١)

قُلْتُ : يَا شَيْخَنَا ، دَعْنَا ٱلْآنَ مِنَ ٱلرِّوَايَةِ وَٱلْحِفْظِ وَٱلْحَسَنِ وَٱلْأَحْنَفِ ؛ فَمَاذَا دَهَاكَ عِنْدَ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ ؟

قَالَ : لَمْ أُحْسِنِ ٱلْمُهَاتَرَةَ فِي ٱلْمَقَالِ ٱلَّذِي كَتَبْتُهُ ٱلْيَوْمَ . . وَيَقُولُ رَئِيسُ ٱلتَّحْرِيرِ : إِنَّ نِصْفَ ٱلتَّمْوِيهِ رَذِيلَةٌ ؟ فَإِنَّ نِصْفَهُ ٱلْآخَرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَمْوِيهٌ . وَيَقُولُ : إِنَّ سُمُوَّ ٱلْكِتَابَةِ ٱنْحِطَاطٌ فَصِيحٌ ، لِأَنَّ ٱلْقُرَّاءَ فِي هَـٰذَا ٱلْعَهْدِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ حِفْظِ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ وَدِرَاسَةِ كُتُبِ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْفُصَحَاءِ ، بَلْ مِنَ ٱلرِّوَايَاتِ وَٱلْمَجَلَّاتِ ٱلْهَزْلِيَّةِ . وَحِفْظُ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ وَكَلَامِ ٱلْعُلَمَاءِ يَضَعُ فِي ٱلنَّفْسِ قَانُونَ ٱلنَّفْسِ ؛ وَيَجْعَلُ مَعَانِيَهَا مُهَيَّأَةً بِٱلطَّبِيعَةِ لِلِاسْتِجَابَةِ لِتِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْكَبِيرَةِ فِي ٱلدِّينِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَٱلْجِدِّ وَٱلْقُوَّةِ ؛ وَلَـٰكِنْ مَاذَا تَصْنَعُ ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْمَجَلَّاتُ وَصُوَرُ ٱلْمُمَثِّلَاتِ وَٱلْمُغَنِّيَاتِ وَخَبَرُ ٱلطَّالِبِ فُلَانٍ وَٱلطَّالِبَةِ فُلَانَةَ وَٱلْمَسَارِحِ وَٱلْمَلَاهِي ؟ .

وَيَقُولُ رَئِيسُ ٱلتَّحْرِيرِ : إِنَّ ٱلْكَاتِبَ ٱلَّذِي لَا يَسْأَلُ نَفْسَهُ : مَا يُقَالُ عَنِّي فِي ٱلتَّارِيخِ ؟ هُوَ كَاتِبُ ٱلصَّحَافَةِ ٱلْحَقِيقِيُّ ، لِأَنَّ ٱلْقُرُوشَ هِيَ ٱلْقُرُوشُ ، وَٱلتَّارِيخَ هُوَ ٱلتَّارِيخُ ؛ وَمَطْبَعَةَ ٱلصَّحِيفَةِ ٱلنَّاجِحَةِ هِيَ بِنْتُ خَالَةِ مَطْبَعَةِ ٱلْبَنْكِ ٱلْأَهْلِيِّ ؛ وَلَا يَتَحَقَّقُ نَسَبُ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي إِخْرَاجِ ٱلْوَرَقِ ٱلَّذِي يُصْرَفُ كُلُّهُ وَلَا يُرَدُّ مِنْهُ شَيْءٌ ! .

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِظْهَارَ ٱلْمَخَازِي مَكْتُوبَةً ، كَحَوَادِثِ ٱلْفُجُورِ وَٱلسَّرِقَةِ وَٱلْقَتْلِ وَٱلْعِشْقِ

(١) هَـٰذِهِ طَرِيقَةُ ٱلْجَاحِظِ بِخَلْطِ ٱلْكَلَامِ دَائِمًا بِٱلنَّقْلِ .

وَغَيْرِهَا ؛ يَزْعُمُوْنَ أَنَّهَا أَخْبَارٌ تُرْوَىٰ وَتُقَصُّ لِلْحِكَايَةِ أَوِ الْعِبْرَةِ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا أَخْبَارُهُم إِلَىٰ أَعْصَابِ الْقُرَّاءِ . . .

* * *

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَىٰ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

صَعَالِيكُ الصَّحَافَةِ(*) . . .
٢

وَغَابَ شَيْخُنَا أَبُو عُثْمَانَ عِنْدَ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ بَعْضَ سَاعَةٍ ، ثُمَّ رَجَعَ تَدُوْرُ عَيْنَاهُ فِي حِجَاظَيْهِمَا وَقَدِ اكْفَهَرَّ وَجْهُهُ وَعَبَسَ كَأَنَّمَا يَجْرِي فِيهِ الدَّمُ الْأَسْوَدُ لَا الْأَحْمَرُ ، وَهُوَ يَكَادُ يَنْشَقُّ مِنَ الْغَيْظِ ، وَبَعْضُهُ يَغْلِي فِي بَعْضِهِ كَالْمَاءِ عَلَىٰ النَّارِ ؛ فَمَا جَلَسَ حَتَّىٰ جَاءَتْ ذُبَابَتَانِ فَوَقَعَتَا عَلَىٰ كَنَفَيْ أَنْفِهِ تُتِمَّانِ كَآبَةَ وَجْهِهِ الْمُشَوَّهِ ، فَكَانَ مَنْظَرُهُمَا مِنْ عَيْنَيْهِ السَّوْدَاوَيْنِ الْجَاحِظَتَيْنِ مَنْظَرَ ذُبَابَتَيْنِ وُلِدَتَا مِنْ ذُبَابَتَيْنِ . . .

وَتَرَكَهُمَا الرَّجُلُ لِشَأْنِهِمَا وَسَكَتَ عَنْهُمَا ؛ فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! هَاتَانِ ذُبَابَتَانِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ الذُّبَابَ يَحْمِلُ الْعَدْوَىٰ .

فَضَحِكَ ضِحْكَةَ الْمَغِيظِ ، وَقَالَ : إِنَّ الذُّبَابَ هُنَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَطْبَعَةِ لَا مِنَ الطَّبِيعَةِ . فَأَكْثَرُ الْقَوْلِ فِي هَٰذِهِ الْجَرَائِدِ حَشَرَاتٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ : مِنْهَا مَا يُسْتَقْذَرُ ، وَمَا تَنْقَلِبُ لَهُ النَّفْسُ ، وَمَا فِيهِ الْعَدْوَىٰ ، وَمَا فِيهِ الضَّرَرُ ؛ وَمَا بُدٌّ أَنْ يَعْتَادَ الْكَاتِبُ الصَّحَافِيُّ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ بَعْضِ الْقَوْلِ مِثْلَ مَا يَعْتَادُ الْفَقِيرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ بَعْضِ الْحَشَرَاتِ فِي ثِيَابِهِ ؛ وَقَدْ يُرِيدُهُ

(*) « الرسالة » العدد : ١٩٠ ، ١١ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٢ فبراير/ شباط ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٢٩٣ ـ ٢٩٥ .

صَاحِبُ الْجَرِيدَةِ أَوْ رَئِيسُ التَّحْرِيرِ عَلَىٰ أَنْ يَكْتُبَ كَلَامًا لَوْ أَعْفَاهُ مِنْهُ وَأَرَادَهُ عَلَىٰ أَنْ يَجْمَعَ الْقَمْلَ وَالْبَرَاغِيثَ مِنْ أَهْدَامِ الْفُقَرَاءِ وَالصَّعَالِيكِ بِقَدْرِ مَا يَمْلَأُ مَقَالَةً . . كَانَ أَخَفَّ عَلَيْهِ وَأَهْوَنَ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ أَصْرَحَ فِي مَعْنَىٰ الطَّلَبِ وَالتَّكْلِيفِ(١) .

وَكَيْفَمَا دَارَ الْأَمْرُ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ كَلَامِ الصُّحُفِ لَوْ مَسَخَهُ اللهُ شَيْئًا غَيْرَ الْحُرُوْفِ الْمَطْبَعِيَّةِ ، لَطَارَ كُلُّهُ ذُبَابًا عَلَىٰ وُجُوهِ الْقُرَّاءِ ! .

قُلْتُ : وَلَٰكِنَّكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ ذَهَبْتَ مُتَطَلِّقًا إِلَىٰ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ وَرَجَعْتَ مُتَعَقِّدًا ، فَمَا الَّذِي أَنْكَرْتَ مِنْهُ ؟ .

قَالَ : « لَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَىٰ مَا يَشْتَهِيهِ الْغَرِيرُ وَالْجَاهِلُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُوْرِ ، لَبَطَلَ النَّظَرُ وَمَا يَشْحَذُ عَلَيْهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، وَلَتَعَطَّلَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْ مَعَانِيهَا وَالْعُقُوْلُ مِنْ ثِمَارِهَا ، وَلَعَدِمَتِ الْأَشْيَاءُ حُظُوظَهَا وَحُقُوقَهَا »(٢) . هُنَاكَ رَجُلٌ مِنْ هَٰؤُلَاءِ الْمَعْنِيِّينَ بِالسِّيَاسَةِ كَمَا هِيَ السِّيَاسَةُ فِي هَٰذَا الْبَلَدِ . . . يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ فِي الْحَوَادِثِ غَيْرَ مَعَانِيهَا ، وَيَرْبِطُ بَعْضَهَا إِلَىٰ بَعْضٍ بِأَسْبَابٍ غَيْرِ أَسْبَابِهَا ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا نَتَائِجَ غَيْرَ نَتَائِجِهَا ، وَيُلَفِّقُ لَهَا مِنَ الْمَنْطِقِ رُقَعًا كَهَٰذِهِ الرُّقَعِ فِي الثَّوْبِ الْمَفْتُوقِ ؛ ثُمَّ لَا يَرْضَىٰ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ بِذَٰلِكَ رَدًّا عَلَىٰ جَمَاعَةِ خُصُوْمِهِ وَهِيَ رَدٌّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ جَمَاعَتِهِ ، وَلَا يَرْضَىٰ مَعَ الرَّدِّ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ كَالْأَعَاصِيرِ تَدْفَعُ مِثْلَ تَيَّارِ الْبَحْرِ فِي الْمُسْتَنْقَعِ الرَّاكِدِ .

ثُمَّ لَمْ يَجِدْ لَهَا رَئِيسُ التَّحْرِيرِ غَيْرَ عَمِّكَ أَبِي عُثْمَانَ فِي لَطَافَةِ حِسِّهِ وَقُوَّةِ طَبْعِهِ وَحُسْنِ بَيَانِهِ وَاقْتِدَارِهِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ وَضِدِّهِ ، كَأَنَّ أَبَا عُثْمَانَ لَيْسَ عِنْدَهُ مِمَّنْ يُحَاسِبُوْنَ أَنْفُسَهُمْ ، وَلَا مِنَ الْمُمَيِّزِيْنَ فِي الرَّأْيِ ، وَلَا مِنَ الْمُسْتَدِلِّيْنَ بِالدَّلِيلِ ، وَلَا مِنَ النَّاظِرِيْنَ بِالْحُجَّةِ ؛ وَكَأَنَّ أَبَا عُثْمَانَ هَٰذَا رَجُلٌ حُرُوْفِيٌّ . . . كَحُرُوْفِ الْمَطْبَعَةِ : تَرْفَعُ مِنْ طَبَقَةٍ وَتُوْضَعُ فِي طَبَقَةٍ وَتَكُوْنُ عَلَىٰ مَا شِئْتَ ، وَأَدْنَىٰ حَالَاتِهَا أَنْ تُمَدَّ إِلَيْهَا الْيَدُ فَإِذَا هِيَ فِي يَدِكَ .

وَأَنَا امْرُؤٌ سَيِّدٌ فِي نَفْسِي ، وَأَنَا رَجُلُ صِدْقٍ ، وَلَسْتُ كَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَتَأَنَّمُوْنَ وَلَا

(١) هَٰذِهِ طَرِيقَةُ الْجَاحِظِ فِي الْإِغْرَاقِ حِيْنَ يَتَهَكَّمُ .

(٢) هَٰذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَاحِظِ .

يَتَذَمَّمُوْنَ ؛ فَإِنْ خُضْتُ فِيْ مِثْلِ هَـٰذَا ٱنْتَقَضَ طَبْعِيْ وَضَعُفَتْ ٱسْتِطَاعَتِيْ وَتَبَيَّنَ ٱلنَّقْصُ فِيْمَا أَكْتُبُ ، وَنَزَلْتُ فِيْ ٱلْجِهَتَيْنِ ؛ فَلَا يَطَّرِدُ لِيَ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰ مَا يَرْجُوْ ، وَلَا يَسْتَوِيْ عَلَىٰ مَا أُحِبُّ ؛ فَذَهَبْتُ أُنَاقِضُهُ وَأَرُدُّ عَلَيْهِ ؛ فَبُهِتَ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ فِيْ وَجْهِيْ ، كَأَنَّ ٱلْكَاتِبَ عِنْدَهُ خَادِمُ رَأْيِهِ كَخَادِمِ مَطْبَخِهِ وَطَعَامِهِ ، هَـٰذَا مِنْ هَـٰذَا !

ثُمَّ قَالَ لِيْ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! إِنِّيْ لَأَسْتَحِيْ أَنْ أُعَنِّفَكَ ؛ وَبِهَـٰذَا ٱلْقَوْلِ لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يُعَنِّفَ أَبَا عُثْمَانَ . . . وَلَهَمَمْتُ وَاللهِ أَنْ أُنْشِدَهُ قَوْلَ عَبَّاسِ بن مِرْدَاسٍ [من الكامل] :

أَكُلَيْبُ . . . مَا لَكَ كُلَّ يَوْمٍ ظَالِمًا ... وَٱلظُّلْمُ أَنْكَدُ وَجْهُهُ مَلْعُوْنُ . . .

لَوْلَا أَنْ ذَكَرْتُ قَوْلَ ٱلْآخَرِ [من الطويل] :

وَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يُعْطِ سَمْعًا وَطَاعَةً ... وَبَيْنَ تَمِيْمٍ غَيْرُ حَزِّ ٱلْغَلَاصِمِ

وَحَزُّ ٱلْغَلَاصِمِ « وَقَطْعُ ٱلدَّرَاهِمِ » مِنْ قَافِيَةٍ وَاحِدَةٍ . . .

وَقَالَ سَعِيْدُ ٱبْنُ أَبِيْ عَرُوْبَةَ : « لَأَنْ يَكُوْنَ لِيْ نِصْفُ وَجْهٍ وَنِصْفُ لِسَانٍ عَلَىٰ مَا فِيْهِمَا مِنْ قُبْحِ ٱلْمَنْظَرِ وَعَجْزِ ٱلْمَخْبَرِ ـ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُوْنَ ذَا وَجْهَيْنِ وَذَا لِسَانَيْنِ وَذَا قَوْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ » .

وَقَالَ أَيُّوْبُ ٱلسَّخْتِيَانِيُّ . . .

وَهَمَّ شَيْخُنَا أَنْ يَمُرَّ فِي ٱلْحِفْظِ وَٱلرِّوَايَةِ عَلَىٰ طَرِيْقَتِهِ، فَقُلْتُ: وَقَالَ رَئِيْسُ ٱلتَّحْرِيْرِ . . . ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ : أَمَّا رَئِيْسُ ٱلتَّحْرِيْرِ فَيَقُوْلُ : إِنَّ ٱلْخِلَابَةَ وَٱلْمُوَارَبَةَ وَتَقْلِيْبَ ٱلْمَنْطِقِ هِيَ كُلُّ ٱلْبَلَاغَةِ فِيْ ٱلصَّحَافَةِ ٱلْحَدِيْثَةِ ، وَلَهِيَ كَقَلْبِ ٱلْأَعْيَانِ فِيْ مُعْجِزَاتِ ٱلْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ؛ فَكَمَا ٱنْقَلَبَتِ ٱلْعَصَا حَيَّةً تَسْعَىٰ ، وَهِيَ عَصًا وَهِيَ مِنَ ٱلْخَشَبِ ، فَكَذَٰلِكَ تَنْقَلِبُ ٱلْحَادِثَةُ فِيْ مُعْجِزَاتِ ٱلصَّحَافَةِ إِذَا تَعَاطَاهَا ٱلْكَاتِبُ ٱلْبَلِيْغُ بِٱلْفِطْنَةِ ٱلْعَجِيْبَةِ وَٱلْمَنْطِقِ ٱلْمُلَوَّنِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِأَسَالِيْبِ ٱلسِّيَاسَةِ ؛ فَتَكُوْنُ لِلتَّهْوِيْلِ وَهِيَ فِيْ ذَاتِهَا ٱطْمِئْنَانٌ ، وَلِلتُّهْمَةِ وَهِيَ فِيْ نَفْسِهَا بَرَاءَةٌ ؛ وَلِلْجِنَايَةِ وَهِيَ فِيْ مَعْنَاهَا سَلَامَةٌ ؛ وَلَوْ نَفَخَ ٱلصَّحَافِيُّ ٱلْحَاذِقُ فِيْ قَبْضَةٍ مِنَ ٱلتُّرَابِ لَاسْتَطَارَتْ مِنْهَا ٱلنَّارُ وَٱرْتَفَعَ لَهَبُهَا ٱلْأَحْمَرُ فِيْ دُخَانِهَا ٱلْأَسْوَدِ . قَالَ : وَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْمَنْطِقَ ٱلْمُلَوَّنَ فِيْ ٱلسِّيَاسَةِ إِنَّمَا هُوَ إِتْقَانُ ٱلْحِيْلَةِ عَلَىٰ أَنْ يُصَدِّقَكَ ٱلنَّاسُ ؛ فَإِنَّ ٱلْعَامَّةَ

وَأَشْبَاهَ ٱلْعَامَّةِ لَا يُصَدِّقُوْنَ ٱلصِّدْقَ لِنَفْسِهِ ، وَلَـٰكِنْ لِلْغَرَضِ ٱلَّذِيْ يُسَاقُ لَهُ ، إِذْ كَانَ مَدَارُ ٱلْأَمْرِ فِيْهِمْ عَلَى ٱلْإِيْمَانِ وَٱلتَّقْدِيْسِ ، فَأَذِقْهُمْ حَلَاوَةَ ٱلْإِيْمَانِ بِٱلْكَذِبِ فَلَنْ يَعْرِفُوْهُ إِلَّا صِدْقًا وَفَوْقَ ٱلصِّدْقِ ، وَهُمْ مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ يُقِيْمُوْنَ ٱلْبَرَاهِيْنَ ٱلْعَجِيْبَةَ وَيُسَاعِدُوْنَ بِهَا مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِمْ مَتَىٰ أَحْكَمَ ٱلْكَذِبَ ، لِيُحَقِّقُوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ بَحَثُوْا وَنَظَرُوْا وَدَقَّقُوْا . . .

ثُمَّ قَالَ أَبُوْ عُثْمَانَ : وَمَعْنَىٰ هَـٰذَا كُلِّهِ أَنَّ بَعْضَ دُوْرِ ٱلصَّحَافَةِ لَوْ كَتَبَتْ عِبَارَةً صَرِيْحَةً لِلْإِعْلَانِ لَكَانَتِ ٱلْعِبَارَةُ هَـٰكَذَا : سِيَاسَةٌ لِلْبَيْعِ . . .

* * *

قُلْتُ : يَا شَيْخَنَا ! فَإِنَّكَ هُنَا عِنْدَهُمْ لَتَكْتُبُ كَمَا يَكْتُبُوْنَ ، وَمَقَالَاتُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْكَاذِبَةِ كَرَسَائِلِ ٱلْحُبِّ ٱلْكَاذِبِ : تُقْرَأُ فِيْهَا مَعَانٍ لَا تُكْتَبُ ، وَيَكُوْنُ فِيْ عِبَارَتِهَا حَيَاءٌ وَفِيْ ضِمْنِهَا طَلَبُ مَا يُسْتَحَىٰ مِنْهُ . . وَٱلْحَوَادِثُ عِنْدَهُمْ عَلَىٰ حَسَبِ ٱلْأَوْقَاتِ ، فَٱلْأَبْيَضُ أَسْوَدُ فِيْ ٱللَّيْلِ ، وَٱلْأَسْوَدُ أَبْيَضُ بِٱلنَّهَارِ ؛ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ فُلَانٍ كَيْفَ يَصْنَعُ وَكَيْفَ لَا يُعْجِزُهُ بُرْهَانٌ وَكَيْفَ يُخَرِّجُ ٱلْمَعَانِيْ ؟

قَالَ : بَلَىٰ ! نِعْمَ ٱلشَّاهِدُ هُوَ وَأَمْثَالُهُ ! إِنَّهُمْ مُصَدَّقُوْنَ حَتَّىٰ فِيْ تَارِيْخِ حَفْرِ زَمْزَمَ .

قُلْتُ : وَكَيْفَ ذَٰلِكَ ؟

قَالَ : شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ بَعْضِ ٱلْقُضَاةِ عَلَىٰ رَجُلٍ آخَرَ ، فَأَرَادَ هَـٰذَا أَنْ يُجَرِّحَ شَهَادَتَهُ ، فَقَالَ لِلْقَاضِيْ : أَتَقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ رَجُلٌ يَمْلِكُ عِشْرِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ وَلَمْ يَحُجَّ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ ؟ فَقَالَ ٱلشَّاهِدُ : بَلَىٰ قَدْ حَجَجْتُ . قَالَ ٱلْخَصْمُ : فَاسْأَلْهُ أَيُّهَا ٱلْقَاضِيْ عَنْ زَمْزَمَ كَيْفَ هِيَ ؟ قَالَ ٱلشَّاهِدُ : لَقَدْ حَجَجْتُ قَبْلَ أَنْ تُحْفَرَ زَمْزَمُ فَلَمْ أَرَهَا . . .

قَالَ أَبُوْ عُثْمَانَ : فَهَـٰذِهِ هِيَ طَرِيْقَةُ بَعْضِهِمْ فِيْمَا يُزَكِّيْ بِهِ نَفْسَهُ : يَنْزِلُوْنَ إِلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ وَإِنِ ٱرْتَفَعُوْا عَنْ مِثْلِ هَـٰذَا ٱلتَّعْبِيْرِ ، إِذْ كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ ٱلسِّيَاسِيَّةُ جَدَلًا فِيْ ٱلصُّحُفِ لِنَفْيِ ٱلْمَنْفِيِّ وَإِثْبَاتِ ٱلْمُثْبَتِ ، لَا عَمَلًا يَعْمَلُوْنَهُ بِٱلنَّفْيِ وَٱلْإِثْبَاتِ . وَمَتَىٰ ٱسْتَقَلَّتْ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ وَجَبَ تَغْيِيْرُ هَـٰذِهِ ٱلصَّحَافَةِ وَإِكْرَاهُهَا عَلَىٰ ٱلصِّدْقِ ، فَلَا يَكُوْنُ ٱلشَّأْنُ حِيْنَئِذٍ فِيْ إِطْلَاقِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلصَّحَافِيَّةِ إِلَّا مِنْ مَعْنَاهَا ٱلْوَاقِعِ .

وَٱلْحَيَاةُ ٱلْمُسْتَقِلَّةُ ذَاتُ قَوَاعِدَ وَقَوَانِينَ دَقِيقَةٍ لَا يُتَرَخَّصُ فِيهَا مَا دَامَ أَسَاسُهَا إِيجَادَ ٱلْقُوَّةِ وَحِيَاطَةَ ٱلْقُوَّةِ وَإِعْمَالَ ٱلْقُوَّةِ ، وَمَا دَامَتْ طَبِيعَتُهَا قَائِمَةً عَلَىٰ جَعْلِ أَخْلَاقِ ٱلشَّعْبِ حَاكِمَةً لَا مَحْكُومَةً ؛ وَقَدْ كَانَ ٱلْعَمَلُ ٱلسِّيَاسِيُّ إِلَىٰ ٱلْآنَ هُوَ إِيجَادَ ٱلضَّعْفِ وَحِيَاطَةَ ٱلضَّعِيفِ وَبَقَاءَ ٱلضَّعْفِ ؛ فَكَانَتْ قَوَاعِدُنَا فِي ٱلْحَيَاةِ مَغْلُوطَةً ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ٱلْخُلُقُ ٱلْقَوِيُّ ٱلصَّحِيحُ هُوَ ٱلشَّاذَّ ٱلنَّادِرَ يَظْهَرُ فِي ٱلرَّجُلِ بَعْدَ ٱلرَّجُلِ وَٱلْفَتْرَةِ بَعْدَ ٱلْفَتْرَةِ ، وَذٰلِكَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي أَنَّ عِنْدَنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُنَافِقِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْحُرِّ ، وَمِنَ ٱلْكَاذِبِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلصَّادِقِ ، وَمِنَ ٱلْمُمَارِي أَكْثَرَ مِنَ ٱلصَّرِيحِ ؛ فَلَا جَرَمَ ٱرْتَفَعَتِ ٱلْأَلْقَابُ فَوْقَ حَقَائِقِهَا ، وَصَارَتْ نُعُوتُ ٱلْمَنَاصِبِ وَكَلِمَاتُ « بَاشَا وَبِكْ » مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُقَدَّسِ صِحَافِيًّا . .

يَا لَعِبَادِ ٱللهِ ! يَأْتِيهِمُ ٱسْمُ ٱلْأَدِيبِ ٱلْعَظِيمِ فَلَا يَجِدُونَ لَهُ مَوْضِعًا فِي « مَحَلِّيَّاتِ ٱلْجَرِيدَةِ » ؛ وَيَأْتِيهِمُ ٱسْمُ ٱلْبَاشَا أَوِ ٱلْبِكِ أَمْ صَاحِبِ ٱلْمَنْصِبِ ٱلْكَبِيرِ ، فَبِمَاذَا تَتَشَرَّفُ « ٱلْمَحَلِّيَّاتُ » إِلَّا بِهِ ؟ وَهَـٰذَا طَبِيعِيٌّ ، وَلَـٰكِنْ فِي طَبِيعَةِ ٱلنِّفَاقِ ؛ وَهَـٰذَا وَاجِبٌ ، وَلَـٰكِنْ حِينَ يَكُونُ ٱلْخُضُوعُ هُوَ ٱلْوَاجِبَ ؛ وَلَوْ أَنَّ لِلْأَدِيبِ وَزْنًا فِي مِيزَانِ ٱلْأُمَّةِ لَكَانَ لَهُ مِثْلُ ذٰلِكَ فِي مِيزَانِ ٱلصِّحَافَةِ ، فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ ٱلصِّحَافَةَ هُنَا هِيَ صُورَةٌ مِنْ عَامِّيَّةِ ٱلشَّعْبِ لَيْسَ غَيْرُ . . وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يُصَحِّحُ مَعْنَىٰ ٱلشَّرَفِ ٱلْعَامِلِ لِهَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ وَتَارِيخِهَا ، وَأَكْثَرُ ٱلْأَلْقَابِ عِنْدَنَا هِيَ أَغْلَاطٌ فِي مَعْنَىٰ ٱلشَّرَفِ . . ؟

ثُمَّ ضَحِكَ أَبُو عُثْمَانَ وَقَالَ : زَعَمُوا أَنَّ ذُبَابَةً وَقَعَتْ فِي بَارِجَةِ (أَمِيرَالٍ) إِنْكِلِيزِيٍّ أَيَّامَ ٱلْحَرْبِ ٱلْعُظْمَىٰ ، فَرَأَتِ ٱلْقَائِدَ ٱلْعَظِيمَ وَقَدْ نَشَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ دَرْجًا مِنَ ٱلْوَرَقِ وَهُوَ يُخَطِّطُ فِيهِ رَسْمًا مِنْ رُسُومِ ٱلْحَرْبِ ، وَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ يُلْقِي ٱلنُّقْطَةَ بَعْدَ ٱلنُّقْطَةِ مِنَ ٱلْمِدَادِ وَيَقُولُ : هَـٰذِهِ مَدِينَةُ كَذَا ، وَهَـٰذَا حِصْنُ كَذَا ، وَهَـٰذَا مَيْدَانُ كَذَا . قَالُوا : فَسَخِرَتْ مِنْهُ ٱلذُّبَابَةُ وَقَالَتْ : مَا أَيْسَرَ هَـٰذَا ٱلْعَمَلَ وَمَا أَخَفَّ وَمَا أَهْوَنَ ! ثُمَّ وَقَعَتْ عَلَىٰ صَفْحَةٍ بَيْضَاءَ وَجَعَلَتْ تُلْقِي وَنِيمَهَا[1] هُنَا وَهُنَا ، وَتَقُولُ : هَـٰذِهِ مَدِينَةٌ ، وَهَـٰذَا حِصْنٌ . .

* * *

(١) وَنِيمُ ٱلذُّبَابِ : هُوَ . . . أَيْ : هَـٰذِهِ ٱلنُّقَطُ ٱلسُّودُ ٱلَّتِي يُحْدِثُهَا .

وَٱلْتَفَتَ ٱلْجَاحِظُ كَأَنَّمَا تَوَهَّمَ ٱلْجَرَسَ يَدُقُّ . . فَلَمَّا لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا ، قَالَ : لَوْ أَنَّنِي أَصْدَرْتُ صَحِيفَةً يَوْمِيَّةً لَسَمَّيْتُهَا (ٱلْأَكَاذِيبُ) فَمَهْمَا أَكْذِبُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ فَقَدْ صَدَقْتُ فِي ٱلِاسْمِ ، وَمَهْمَا أُخْطِئُ فَلَنْ أُخْطِئَ فِي وَضْعِ ٱلنِّفَاقِ تَحْتَ عُنْوَانِهِ .

قَالَ : ثُمَّ أَخُطُّ تَحْتَ ٱسْمِ ٱلْجَرِيدَةِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ بِٱلْخَطِّ ٱلثُّلُثِ هَـٰذَا نَصُّهَا :

مَا هِيَ عِزَّةُ ٱلْأَذِلَّاءِ ؟ هِيَ ٱلْكَذِبُ ٱلْهَازِلُ .

مَا هِيَ قُوَّةُ ٱلضُّعَفَاءِ ؟ هِيَ ٱلْكَذِبُ ٱلْمُكَابِرُ .

مَا هِيَ فَضِيلَةُ ٱلْكَذَّابِينَ ؟ هِيَ ٱسْتِمْرَارُ ٱلْكَذِبِ .

قَالَ : ثُمَّ لَا يُحَرِّرُ فِي جَرِيدَتِي إِلَّا « صَعَالِيكُ ٱلصِّحَافَةِ » مِنْ أَمْثَالِ ٱلْجَاحِظِ ، ثُمَّ أَكْذِبُ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلْمَالِ فَأُمَجِّدُ ٱلْفُقَرَاءَ ٱلْعَامِلِينَ ، وَعَلَىٰ رِجَالِ ٱلشَّرَفِ فَأُعَظِّمُ ٱلْعُمَّالَ ٱلْمَسَاكِينَ ، وَعَلَىٰ ٱلْأَلْقَابِ فَأُقَدِّمُ ٱلْأُدَبَاءَ وَٱلْمُؤَلِّفِينَ ، وَ . . .

وَدَقَّ ٱلْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَىٰ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ . . .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

صَعَالِيكُ ٱلصِّحَافَةِ(*)
٣

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَجَعَ أَبُو عُثْمَانَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةِ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ فِي عَمَلٍ وَأَدَائِهِ ، بَلْ كَانَ عِنْدَ رَئِيسِ ٱلشُّرْطَةِ فِي جِنَايَةٍ وَعِقَابِهَا ، فَظَهَرَ مُنْقَلَبُ ٱلسَّحْنَةِ ٱنْقِلَابًا دَمِيمًا شَوَّهَ تَشْوِيهَهُ وَزَادَ فِيهِ زِيَادَاتٍ . . وَرَأَيْتُهُ مَمْطُوطَ ٱلْوَجْهِ مَطًّا شَنِيعًا بَدَتْ فِيهِ عَيْنَاهُ ٱلْجَاحِظَتَانِ كَأَنَّهُمَا غَيْرُ مُسْتَقِرَّتَيْنِ فِي وَجْهِهِ ، بَلْ مُعَلَّقَتَانِ عَلَىٰ جَبْهَتِهِ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٩١ ، ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ١ مارس/آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٣٢٦ ـ ٣٢٨ .

وَجَعَلَ يَضْرِبُ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ بِٱلْأُخْرَىٰ وَيَقُولُ : هَـٰذَا بَابٌ عَلَىٰ حِدَةٍ فِي ٱلِامْتِحَانِ وَٱلْبَلْوَىٰ ، وَمَا فِيهِ إِلَّا ٱلْمؤُونَةُ ٱلْعَظِيمَةُ وَٱلْمَشَقَّةُ ٱلشَّدِيدَةُ ، وَٱلْعَمَلُ فِي هَـٰذِهِ ٱلصَّحَافَةِ إِنَّمَا هُوَ ٱمْتِحَانُكَ بِٱلصَّبْرِ عَلَىٰ ٱثْنَتَيْنِ : عَلَىٰ ضَمِيرِكَ ، وَعَلَىٰ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ ! « وَسَأَلَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا أَبَا لُقْمَانَ ٱلْمَمْرُورَ عَنِ ٱلْجُزْءِ ٱلَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ : ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ . . . فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَيْنَاءِ مُحَمَّدٌ : أَفَلَيْسَ فِي ٱلْأَرْضِ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ غَيْرُهُ ؟ قَالَ : بَلَىٰ حَمْزَةُ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ . . . قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؟ قَالَ : أَبُو بَكْرٍ يَتَجَزَّأُ . . . قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ ؟ قَالَ : يَتَجَزَّأُ مَرَّتَيْنِ . وَٱلزُّبَيْرُ يَتَجَزَّأُ مَرَّتَيْنِ . . . قَالَ : فَأَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ فِي مُعَاوِيَةَ ؟ قَالَ : لَا يَتَجَزَّأُ .

فَقَدْ فَكَّرْنَا فِي تَأْوِيلِ أَبِي لُقْمَانَ حِينَ جَعَلَ ٱلْأَنَامَ أَجْزَاءً تَتَجَزَّأُ إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ ذَهَبَ ؟ فَلَمْ نَقَعْ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَبُو لُقْمَانَ كَانَ إِذَا سَمِعَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ يَذْكُرُونَ ٱلْجُزْءَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ ، هَالَهُ ذَٰلِكَ وَكَبُرَ فِي صَدْرِهِ وَتَوَهَّمَ أَنَّهُ ٱلْبَابُ ٱلْأَكْبَرُ مِنْ عِلْمِ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَأَنَّ ٱلشَّيْءَ إِذَا عَظُمَ خَطَرُهُ سَمَّوْهُ بِٱلْجُزْءِ ٱلَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ »[1] .

قُلْتُ : وَرَجَعَ بِنَا ٱلْقَوْلُ إِلَىٰ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ . . .

فَضَحِكَ حَتَّىٰ أَسْفَرَ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ رَئِيسَ ٱلتَّحْرِيرِ قَدْ تَلَقَّىٰ ٱلسَّاعَةَ أَمْرًا بِأَنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ ٱلْيَوْمَ هُوَ فُلَانٌ ؛ وَأَنَّ فُلَانًا ٱلْآخَرَ يَتَجَزَّأُ مَرَّتَيْنِ . . . وَأَنَّ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي يُبْنَىٰ عَلَيْهِ رَأْيُ ٱلصَّحِيفَةِ فِي هَـٰذَا ٱلنَّهَارِ هُوَ شَأْنُ كَذَا فِي عَمَلِ كَذَا ؛ وَأَنَّ هَـٰذَا ٱلْخَبَرَ يَجِبُ أَنْ يُصَوَّرَ فِي صِيغَةٍ تُلَائِمُ جُوعَ ٱلشَّعْبِ فَتَجْعَلُهُ كَٱلْخُبْزِ ٱلَّذِي يَطْعَمُهُ كُلُّ ٱلنَّاسِ ، وَتُثِيرُ لَهُ شَهْوَةً فِي ٱلنُّفُوسِ كَشَهْوَةِ ٱلْأَكْلِ ، وَطَبِيعَةً كَطَبِيعَةِ ٱلْهَضْمِ . . . وَقَدْ رَمَىٰ إِلَيَّ رَئِيسُ ٱلتَّحْرِيرِ بِجُمْلَةِ ٱلْخَبَرِ ، وَعَلَيَّ أَنَا بَعْدَ ذَٰلِكَ أَنْ أُضْرِمَ ٱلنَّارَ وَأَنْ أَجْعَلَ ٱلتُّرَابَ دَقِيقًا أَبْيَضَ يُعْجَنُ وَيُخْبَزُ وَيُؤْكَلُ وَيَسُوغُ فِي ٱلْحَلْقِ وَتَسْتَمْرِئُهُ ٱلْمَعِدَةُ وَيَسْرِي فِي ٱلْعُرُوقِ .

وَإِذَا أَنَا كَتَبْتُ فِي هَـٰذَا ٱحْتَجْتُ مِنَ ٱلتَّرْقِيعِ وَٱلتَّمْوِيهِ ، وَمِنَ ٱلتَّدْلِيسِ وَٱلتَّغْلِيطِ ، وَمِنَ ٱلْخِبِّ وَٱلْمَكْرِ ، وَمِنَ ٱلْكَذِبِ وَٱلْبُهْتَانِ ـ إِلَىٰ مِثْلِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلزِّنْدِيقُ وَٱلدَّهْرِيُّ وَٱلْمُعَطِّلُ

(١) هَـٰذِهِ ٱلْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ ٱلْجَاحِظِ .

فِي إِقَامَةِ ٱلْبُرْهَانَاتِ عَلَىٰ صِحَّةِ مَذْهَبٍ عَرَفَ ٱلنَّاسُ جَمِيعًا أَنَّهُ فَاسِدٌ بِٱلضَّرُورَةِ إِذْ كَانَ مَعْلُومًا مِنَ ٱلدِّينِ بِٱلضَّرُورَةِ ، أَنَّهُ فَاسِدٌ ؛ وَأَيْنَ تَرَىٰ إِلَّا فِي تِلْكَ ٱلنِّحَلِ وَفِي هَـٰذِهِ ٱلصَّحَافَةِ أَنْ يُنْكِرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ وَهُوَ عَارِفٌ أَنَّهُ مُنْكِرٌ ، وَأَنْ يَجْتَرِئَ وَهُوَ مُوقِنٌ أَنَّهُ مُجْتَرِئٌ ، وَيُكَابِرَ وَهُوَ وَاثِقٌ أَنَّهُ يُكَابِرُ ؟ فَقَدْ ظَهَرَ تَقْدِيرٌ مِنْ تَقْدِيرٍ ، وَعَمَلٌ مِنْ عَمَلٍ ، وَمَذْهَبٌ مِنْ مَذْهَبٍ ؛ وَٱلْآفَةُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ فِي ٱلْإِقْنَاعِ وَٱلْجَدَلِ وَٱلْمُغَالَطَةِ إِلَّا ٱلْحَقَائِقَ ٱلْمُؤَكَّدَةَ ؛ يَأْخُذُونَهَا إِذَا وُجِدَتْ وَيَصْنَعُونَهَا إِنْ لَمْ تُوجَدْ ، إِذْ كَانَ ٱلتَّأْثِيرُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجَعْلِ ٱلْقَارِئِ كَٱلْحَالِمِ : يَمْلِكُهُ ٱلْفِكْرُ وَلَا يَمْلِكُ هُوَ مِنْهُ شَيْئًا ، وَيُلْقَىٰ إِلَيْهِ وَلَا يَمْتَنِعُ ، وَيُعْطَىٰ وَلَا يَرُدُّ عَلَىٰ مَنْ أَعْطَاهُ .

قُلْتُ : وَلَـٰكِنْ مَا هُوَ ٱلْخَبَرُ ٱلَّذِي أَرَادُوكَ عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ مِنْ تُرَابِهِ دَقِيقًا أَبْيَضَ ؟ .

قَالَ : هُوَ بِعَيْنِهِ ذَٰلِكَ ٱلشَّأْنُ ٱلَّذِي كَتَبْتُ فِيهِ لِهَـٰذِهِ ٱلصَّحِيفَةِ نَفْسِهَا ، أَنْقُضُهُ وَأُسَفِّهُهُ وَأَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ جُزْءًا يَتَجَزَّأُ . . . فَإِنْ صَنَعْتُ ٱلْيَوْمَ بَلَاغَتِي فِي تَأْيِيدِهِ وَتَزْيِينِهِ وَٱلْإِشَادَةِ بِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ هَـٰذَا كَاسِرًا لِي ، وَلَا حَائِلًا بَيْنِي وَبَيْنَ ذَاتِ نَفْسِي ـ فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ ٱلْجَاحِظُ تَكْذِيبًا لِلْجَاحِظِ ، آهٍ لَوْ وُضِعَ ٱلرَّادْيُو فِي غُرَفِ رُؤَسَاءِ ٱلتَّحْرِيرِ لِيَسْمَعَ ٱلنَّاسُ . . .

قُلْتُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! هَـٰذَا كَقَوْلِكَ : لَوْ وُضِعَ ٱلرَّادْيُو فِي غُرَفِ قُوَّادِ ٱلْجُيُوشِ أَوْ رُؤَسَاءِ ٱلْحُكُومَاتِ .

قَالَ : لَيْسَ هَـٰذَا مِنْ هَـٰذَا ، فَإِنَّ لِلْجَيْشِ مَعْنًى غَيْرَ ٱلْحِذْقِ فِي تَدْبِيرِ ٱلْمَعَاشِ وَٱلتَّكَسُّبِ وَجَمْعِ ٱلْمَالِ ؛ وَفِي أَسْرَارِهِ أَسْرَارُ قُوَّةِ ٱلْأُمَّةِ وَعَمَلُ قُوَّتِهَا ؛ وَلِلْحُكُومَةِ دَخَائِلُ سِيَاسِيَّةٌ لَا يُحَرِّكُهَا أَنَّ فُلَانًا ٱرْتَفَعَ وَأَنَّ فُلَانًا ٱنْخَفَضَ ، وَلَا تُصَرِّفُهَا ٱلْعَشَرَةُ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْخَمْسَةِ ؛ وَفِي أَسْرَارِهَا أَسْرَارُ وُجُودِ ٱلْأُمَّةِ وَنِظَامُ وُجُودِهَا .

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : وَإِنَّمَا نَزَلَ بِصَحَافَتِنَا دُونَ مَنْزِلَتِهَا أَنَّهَا لَا تَجِدُ ٱلشَّعْبَ ٱلْقَارِئَ ٱلْمُمَيِّزَ ؛ ٱلصَّحِيحَ ٱلْقِرَاءَةِ ٱلصَّحِيحَ ٱلتَّمْيِيزِ ، ثُمَّ هِيَ لَا تُرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ أَمْوَالُهَا فِي إِيجَادِهِ وَتَنْشِئَتِهِ ؛ وَعَمَلُ ٱلصَّحَافَةِ مِنَ ٱلشَّعْبِ عَمَلُ ٱلتَّيَّارِ مِنَ ٱلسُّفُنِ فِي تَحْرِيكِهَا وَتَيْسِيرِ مَجْرَاهَا ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْمُضْحِكَ أَنَّ تَيَّارَنَا يَذْهَبُ مَعَ سَفِينَةٍ وَيَرْجِعُ مَعَ سَفِينَةٍ . . . وَلَوْ أَنَّ ٱلصَّحَافَةَ ٱلْعَرَبِيَّةَ وَجَدَتِ ٱلشَّعْبَ قَارِئًا مُدْرِكًا مُمَيِّزًا مُعْتَبِرًا مُسْتَبْصِرًا لَمَا رَمَتْ بِنَفْسِهَا عَلَى ٱلْحُكُومَاتِ

وَٱلْأَحْزَابِ عَجْزًا وَضَعْفًا وَفُسُوْلَةً ، وَلَا خَرَجَتْ عَنِ ٱلنَّسَقِ ٱلطَّبِيْعِيِّ ٱلَّذِيْ وُضِعَتْ لَهُ ، فَإِنَّ ٱلشَّعْبَ تَحْكُمُهُ ٱلْحُكُوْمَةُ ، وَإِنَّ ٱلْحُكُوْمَةَ تَحْكُمُهَا ٱلصَّحَافَةُ ، فَهِيَ مِنْ ثَمَّ لِسَانُ ٱلشَّعْبِ ، وَإِنَّمَا يَقْرَؤُهَا ٱلْقَارِئُ لِيَرَىٰ كَلِمَتَهُ مَكْتُوْبَةً ، وَشُعُوْرُ ٱلْفَرْدِ أَنَّ لَهُ حَقًّا فِي رَقَابَةِ ٱلْحُكُوْمَةِ وَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ حَرَكَةِ ٱلسِّيَاسَةِ وَٱلاجْتِمَاعِ ، هُوَ ٱلَّذِيْ يُوْجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْتَاعَ كُلَّ يَوْمٍ صَحِيْفَةَ ٱلْيَوْمِ .

قَالَ أَبُوْ عُثْمَانَ : فَٱلصَّحَافَةُ لَا تَقْوَىٰ إِلَّا حَيْثُ يَكُوْنُ كُلُّ إِنْسَانٍ قَارِئًا ، وَحَيْثُ يَكُوْنُ كُلُّ قَارِئٍ لِلصَّحِيْفَةِ كَأَنَّهُ مُحَرِّرٌ فِيْهَا ، فَهُوَ مُشَارِكٌ فِي ٱلرَّأْيِ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ مِمَّنْ يَدُوْرُ عَلَيْهِمُ ٱلرَّأْيُ ، مُتَتَبِّعٌ لِلْحَوَادِثِ لِأَنَّهُ هُوَ مِنْ مَادَّتِهَا أَوْ هِيَ مِنْ مَادَّتِهِ ، وَهُوَ لِذَلِكَ يُرِيْدُ مِنَ ٱلصَّحِيْفَةِ حِكَايَةَ ٱلْوَقْتِ وَتَفْسِيْرَ ٱلْوَقْتِ ، وَأَنْ تَكُوْنَ لَهُ كَمَا يَكُوْنُ ٱلتَّفْكِيْرُ ٱلصَّحِيْحُ لِلْفِكْرِ ؛ فَيُلْزِمُهَا ٱلصِّدْقَ وَيَطْلُبُ مِنْهَا ٱلْقُوَّةَ وَيَلْتَمِسُ فِيْهَا ٱلْهِدَايَةَ : وَتَأْتِي إِلَيْهِ فِي مَطْلَعِ كُلِّ يَوْمٍ أَوْ مَغْرِبِهِ كَمَا يَدْخُلُ إِلَىٰ دَارِهِ أَحَدُ أَهْلِهِ ٱلسَّاكِنِيْنَ فِيْ دَارِهِ .

وَفِيْ قِلَّةِ ٱلْقِرَاءَةِ عِنْدَنَا آفَتَانِ : أَمَّا وَاحِدَةٌ فَهِيَ ٱلْقِلَّةُ ٱلَّتِيْ لَا تُغْنِيْ شَيْئًا ، وَأَمَّا ٱلْأُخْرَىٰ فَهُمْ عَلَىٰ قِلَّتِهِمْ لَا تَرَىٰ أَكْبَرَ شَأْنِهِمْ إِلَّا عِبَادَةَ قَوْمٍ لِقَوْمٍ ، وَزِرَايَةَ أُنَاسٍ بِآخَرِيْنَ ، وَتَعَلُّقَ نِفَاقٍ بِنِفَاقٍ ، وَتَصْدِيْقَ كَذِبٍ لِكَذِبٍ ؛ وَآفَةٌ ثَالِثَةٌ تَخْرُجُ مِنِ ٱجْتِمَاعِ ٱلاثْنَتَيْنِ : وَهِيَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَكُوْنُوْنَ فِيْ قِرَاءَتِهِمُ ٱلصَّحِيْفَةَ إِلَّا كَٱلنَّظَّارَةِ ٱجْتَمَعُوْا لِيَشْهَدُوْا مَا يَتَلَهَّوْنَ بِهِ ، أَوْ كَٱلْفُرَّاغِ يَلْتَمِسُوْنَ مَا يَقْطَعُوْنَ بِهِ ٱلْوَقْتَ ، فَهُمْ يَأْخُذُوْنَ ٱلسِّيَاسَةَ مَأْخَذَ مَنْ لَا يُشَارِكُ فِيْهَا ، وَيَتَعَاطَوْنَ ٱلْجِدَّ تَعَاطِيَ مَنْ يَلْهُوْ بِهِ ، وَيَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَعْمَالَ بِرُوْحِ ٱلْبَطَالَةِ ، وَٱلْعَزَائِمَ بِأُسْلُوْبِ عَدَمِ ٱلْمُبَالَاةِ ، وَٱلْمُبَاحَثَةَ بِفِكْرَةِ ٱلإِهْمَالِ ، وَٱلْمُعَارَضَةَ بِطَبِيْعَةِ ٱلْهُزْءِ وَٱلتَّحْقِيْرِ ، وَهُمْ كَٱلْمُصَلِّيْنَ فِيْ ٱلْمَسْجِدِ ؛ فَمَثِّلْ لِنَفْسِكَ نَوْعًا مِنَ ٱلْمُصَلِّيْنَ إِذَا ٱصْطَفُّوْا وَرَاءَ ٱلإِمَامِ تَرَكُوْهُ يُصَلِّيْ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْهُمْ وَٱنْصَرَفُوْا . . .

قَالَ أَبُوْ عُثْمَانَ : بِهَـٰذَا وَنَحْوِهِ جَاءَتِ ٱلصُّحُفُ عِنْدَنَا وَأَكْثَرُهَا لَا ثَبَاتَ لَهُ إِلَّا فِيْ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِيْ تَكُوْنُ فِيْهِ بَيْنَ مَنَافِعِهِ وَوَسَائِلِ مَنَافِعِهِ ، وَمِنْ هَـٰذَا وَنَحْوِهِ كَانَ أَقْوَىٰ ٱلْمَادَّةِ عِنْدَنَا أَنْ تَظْهَرَ ٱلصَّحِيْفَةُ مَمْلُوْءَةً حُكُوْمَةً وَسُلْطَةً وَبَاشَوَاتٍ وَبِيْكَوَاتٍ . . . وَكَانَ مِنَ ٱلطَّبِيْعِيِّ أَنَّ مَحَلَّ ٱلْبَاشَا وَٱلْبِكْ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْحُكُوْمِيَّةِ ٱلتَّفِهَةِ لَا يَكُوْنُ مِنَ ٱلْجَرِيْدَةِ إِلَّا فِيْ مَوْضِعِ قَلْبِ ٱلْحَيِّ مِنَ ٱلْحَيِّ .

ثُمَّ ٱسْتَضْحَكَ شَيْخُنَا وَقَالَ : لَقَدْ كَتَبْتُ ذَاتَ يَوْمٍ مَقَالَةً أَقْتَرِحُ فِيْهَا عَلَىٰ ٱلْحُكُوْمَةِ تَصْحِيْحَ هَـٰذِهِ ٱلْأَلْقَابِ ، وَذَلِكَ بِوَضْعِ لَقَبٍ جَدِيْدٍ يَكُوْنُ هُوَ ٱلْمُفَسِّرَ لِجَمِيْعِهَا وَيَكُوْنُ هُوَ ٱللَّقَبَ ٱلْأَكْبَرَ فِيْهَا ، فَإِذَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَىٰ إِنْسَانٍ كَتَبَتِ ٱلصُّحُفُ هَـٰكَذَا : أَنْعَمَتِ ٱلْحُكُوْمَةُ عَلَىٰ فُلَانٍ بِلَقَبِ (ذُوْ مَالٍ) .

وَدَقَّ ٱلْجَرَسُ يَدْعُوْ أَبَا عُثْمَانَ إِلَىٰ رَئِيْسِ ٱلتَّحْرِيْرِ . . .

* * *

فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيْرًا ثُمَّ عَادَ مُتَهَلِّلًا ضَاحِكًا وَقَدْ طَابَتْ نَفْسُهُ ، فَلَيْسَ لَهُ جُحُوْظُ ٱلْعَيْنَيْنِ إِلَّا بِٱلْقَدْرِ ٱلطَّبِيْعِيِّ ، وَجَلَسَ إِلَيَّ وَهُوَ يَقُوْلُ :

بَيْدَ أَنَّ رَئِيْسَ ٱلتَّحْرِيْرِ لَمْ يَنْشُرْ ذَلِكَ ٱلْمَقَالَ ، وَلَمْ يَرَ فِيْهِ ٱسْتِظْرَافًا وَلَا ٱبْتِكَارًا وَلَا نُكْتَةً وَلَا حُجَّةً صَادِقَةً ، بَلْ قَالَ : كَأَنَّكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ تُرِيْدُ أَنْ يَأْكُلَ عَدَدُ ٱلْيَوْمِ عَدَدَ ٱلْغَدِ ، فَإِذَا نَحْنُ زَهِدْنَا فِيْ ٱلْأَلْقَابِ وَأَصْغَرْنَا أَمْرَهَا وَتَهَكَّمْنَا بِهَا ، وَقُلْنَا : إِنَّهَا أَفْسَدَتْ مَعْنَىٰ ٱلتَّقْدِيْرِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، وَتَرَكَتْ مَنْ لَمْ يَنَلْهَا مِنْ ذَوِيْ ٱلْجَاهِ وَٱلْغِنَىٰ يَرَىٰ نَفْسَهُ إِلَىٰ جَانِبِ مَنْ نَالَهَا كَٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُطَلَّقَةِ بِجَانِبِ ٱلْمُتَزَوِّجَةِ . . . وَقُلْنَا : إِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ تَكَادُ تَكُوْنُ وَسِيْلَةً مِنْ وَسَائِلِ ٱلدَّفْعِ إِلَىٰ ٱلتَّمَلُّقِ وَٱلْخُضُوْعِ وَٱلنِّفَاقِ لِمَنْ بِيَدِهِمُ ٱلْأَمْرُ ، أَوْ وَسِيْلَةً إِلَىٰ مَا هُوَ أَحَطُّ مِنْ ذَلِكَ كَمَا كَانَ شَأْنُهَا فِيْ عَهْدِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعُثْمَانِيَّةِ ٱلْبَائِدَةِ حِيْنَ كَانَ ٱلْوِسَامُ كَٱلرُّقْعَةِ مِنْ جِلْدِ ٱلدَّوْلَةِ ، يُرْقَعُ بِهَا ٱلصَّدْرُ ٱلَّذِيْ شَقُّوْهُ وَٱنْتَزَعُوْا ضَمِيْرَهُ - إِذَا نَحْنُ قُلْنَا هَـٰذَا وَفَعَلْنَا هَـٰذَا ، لَمْ نَجِدِ ٱلشَّعْبَ ٱلَّذِيْ يَحْكُمُ لَنَا ، وَوَجَدْنَا ذَوِيْ ٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ وَٱلْمَنَاصِبِ ٱلَّذِيْنَ يَحْكُمُوْنَ عَلَيْنَا ، فَكُنَّا كَمَنْ يَتَقَدَّمُ فِيْ ٱلتُّهْمَةِ بِغَيْرِ مُحَامٍ إِلَىٰ قَاضٍ ضَعِيْفٍ .

يَا أَبَا عُثْمَانَ ! إِنَّمَا هِيَ حَيَاةُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : ٱلصَّحِيْفَةُ ثُمَّ ٱلصَّحِيْفَةُ ، ثُمَّ ٱلْحَقِيْقَةُ . . فَٱلْفِكْرَةُ ٱلْأُوْلَىٰ لِلصَّحِيْفَةِ ، وَٱلْفِكْرَةُ ٱلثَّانِيَةُ هِيَ لِلصَّحِيْفَةِ أَيْضًا ؛ وَمَتَىٰ جَاءَ ٱلشَّعْبُ ٱلَّذِيْ يَقُوْلُ : لَا . . بَلْ هِيَ ٱلْحَقِيْقَةُ ، ثُمَّ ٱلْحَقِيْقَةُ ، ثُمَّ ٱلصَّحِيْفَةُ - فَيَوْمَئِذٍ لَا يُقَالُ فِيْ ٱلصَّحَافَةِ مَا قِيْلَ لِلْيَهُوْدِ فِيْ كِتَابِ مُوْسَىٰ : ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [٦ سورة الأنعام/الآية : ٩١] .

قُلْتُ : أَرَاكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ لَمْ تُنْكِرْ شَيْئًا مِنْ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةِ ، فَشَقَّ عَلَيْكَ أَلَّا تَثْلُبَهُ ، فَغَمَزْتَهُ بِٱلْكَلَامِ عَنْ مَرَّةٍ سَالِفَةٍ .

قَالَ : أَمَّا هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةُ فَأَنَا ٱلرَّئِيسُ لَا هُوَ ، وَفِي مِثْلِ هَـٰذَا لَا يَكُونُ عَمُّكَ أَبُو عُثْمَانَ مِنْ (صَعَالِيكِ ٱلصَّحَافَةِ) ، إِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱشْتَبَهَ فِي كَلِمَةٍ : مَا وَجْهُهَا : أَمَرْفُوعَةٌ هِيَ أَمْ مَنْصُوبَةٌ ؟ وَفِي لَفْظَةٍ : مَا هِيَ : أَعَرَبِيَّةٌ أَمْ مُوَلَّدَةٌ ؟ وَفِي تَعْبِيرٍ أَعْجَمِيٍّ : مَا ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ مِنَ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلصَّحِيحَةِ ؟ وَفِي جُمْلَةٍ : أَهِيَ فِي نَسَقِهَا أَفْصَحُ أَمْ يُبْدِلُهَا ؟

إِنَّ ٱلْمُعْجَمَ هُنَا لَا يُفِيدُهُمْ إِلَّا إِذَا نَطَقَ . .

وَلَقَدِ ٱبْتُلِيَتْ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ فِي عَهْدِهَا ٱلْأَخِيرِ بِحُبِّ ٱلسُّهُولَةِ مِمَّا أَثَّرَ فِيهَا ٱلِاحْتِلَالُ وَسِيَاسَتُهُ وَتَحَمُّلُهُ ٱلْأَعْبَاءَ عَنْهَا وَٱسْتِهْدَافُهُ دُونَهَا لِلْخَطَرِ ، فَشِبْهُ ٱلْعَامِّيَّةِ فِي لُغَةِ ٱلصُّحُفِ وَفِي أَخْبَارِهَا وَفِي طَرِيقِهَا إِنَّمَا هُوَ صُورَةٌ مِنْ سُهُولَةِ تِلْكَ ٱلْحَيَاةِ : وَكَأَنَّهُ تَثْبِيتٌ لِلضَّعْفِ وَٱلْخَوَرِ ، وَأَنْتَ خَبِيرٌ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتَحَوَّلُ بِمَا تُحْدِثُ لَهُ طَبِيعَتُهُ عَالِيًا أَوْ نَازِلًا ، فَقَدْ تَحَوَّلَتِ ٱلسُّهُولَةُ مِنْ شِبْهِ ٱلْعَامِّيَّةِ إِلَىٰ نِصْفِ ٱلْعَامِّيَّةِ فِي كِتَابَةِ أَكْثَرِ ٱلْمَجَلَّاتِ وَفِي رَسَائِلِ طَلَبَةِ ٱلْمَدَارِسِ ، لِتَبْدُوَ ٱلْمَقَالَةُ فِي أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا كَأَنَّهَا ٱلْقُنْفُذُ أَرَادَ أَنْ يَحْمِلَ مَأْكَلَةَ صِغَارِهِ ، فَقَرَضَ عُنْقُودًا مِنَ ٱلْعِنَبِ ، فَأَلْقَاهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَأَتْرَبَهُ وَتَمَرَّغَ فِيهِ ، ثُمَّ مَشَىٰ يَحْمِلُ كُلَّ حَبَّةٍ مَرْضُوضَةٍ فِي عِشْرِينَ إِبْرَةً مِنْ شَوْكِهِ .

* * *

ثُمَّ مَدَّ أَبُو عُثْمَانَ يَدَهُ فَتَنَاوَلَ مَجَلَّةً مِمَّا أَمَامَهُ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَيْهَا ٱتِّفَاقًا ، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ : ٱقْرَأْ وَلَا تَتَجَاوَزْ عُنْوَانَ كُلِّ مَقَالَةٍ ؛ فَقَرَأْتُ هَـٰذِهِ ٱلْعَنَاوِينَ :

« مَسْؤُولِيَّةُ طَبِيبٍ عَنْ فَتَاةٍ عَذْرَاءَ » ، « مَوَدَّةُ ٱلرَّاقِصَاتِ ٱلصِّينِيَّاتِ » ، « تَخِرُّ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا لِأَنَّهُمُ ٱكْتَشَفُوا صُورَةَ حَبِيبِهَا » ، « هَلْ تُعْتَبَرُ قَبُولُ ٱلْهَدِيَّةِ دَلِيلًا عَلَىٰ ٱلْحُبِّ ، وَإِذَا كَانَتْ مَلَابِسَ دَاخِلِيَّةً . . . فَهَلْ تُعْتَبَرُ وَعْدًا بِٱلزَّوَاجِ ؟ » ، « هَلْ يَحِقُّ لِلْأَبِ أَنْ يُطَالِبَ

صَدِيقَ ٱبْنَتِهِ . . . بِتَعْوِيضٍ إِذَا كَانَتِ ٱبْنَتُهُ غَيْرَ شَرْعِيَّةٍ » ، « بَيْنَ خَطِيبَتَيْنِ لِشَابٍّ وَاحِدٍ » ، « بَعْدَ أَنْ قَصَّ عَلَىٰ زَوْجَتِهِ أَخْبَارَ ٱلسَّهْرَةِ . . لِمَاذَا أَطْلَقَتْ عَلَيْهِ ٱلرَّصَاصَ ؟ » ، « عَرُوسٌ تَأْخُذُ (شَبَكَةً) مِنْ شَابَّيْنِ ثُمَّ تَطْرُدُهُمَا » ، « زَوْجَةُ ٱلْمُوَظَّفِ أَيْنَ ذَهَبَتْ » ، « لِمَاذَا خُطِفَتِ ٱلْعَرُوسُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْمُحَدَّدِ لِلزِّفَافِ ؟ » ، « فِي ٱلطَّرِيقِ : حُبٌّ بِٱلْإِكْرَاهِ » ، « فُلَانُونَ وَفُلَانَاتٌ ، زَوَاجٌ وَطَلَاقٌ ، وَأَخْبَارُ ٱلْمَرَاقِصِ ، وَحَوَادِثُ أَمَاكِنِ ٱلدَّعَارَةِ . . . ، إِلَخْ ، إِلَخْ » .

فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ : هَـٰذِهِ هِيَ حُرِّيَّةُ ٱلنَّشْرِ ؛ وَلَئِنْ كَانَ هَـٰذَا طَبِيعِيًّا فِي قَانُونِ ٱلصَّحَافَةِ إِنَّهُ لَإِثْمٌ كَبِيرٌ فِي قَانُونِ ٱلتَّرْبِيَةِ ، فَإِنَّ ٱلْأَحْدَاثَ وَٱلضُّعَفَاءَ يَجِدُونَهُ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَٱلتَّخْيِيرِ بَيْنَ ٱلْأَخْذِ بِٱلْوَاجِبِ وَبَيْنَ تَرْكِهِ ، وَلَا يَفْهَمُونَ مِنْ جَوَازِ نَشْرِهِ إِلَّا هَـٰذَا . « وَبَابٌ آخَرُ مِنْ هَـٰذَا ٱلشَّكْلِ فَبِكُمْ أَعْظَمُ حَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ تَعْرِفُوهُ وَتَقِفُوا عِنْدَهُ . وَهُوَ مَا يَصْنَعُ ٱلْخَبَرُ وَلَا سِيَّمَا إِذَا صَادَفَ مِنَ ٱلسَّامِعِ قِلَّةَ تَجْرِبَةٍ ، فَإِنْ قَرَنَ بَيْنَ قِلَّةِ ٱلتَّجْرِبَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّحَفُّظِ ـ دَخَلَ ذَلِكَ ٱلْخَبَرُ إِلَىٰ مُسْتَقَرِّهِ مِنَ ٱلْقَلْبِ دُخُولًا سَهْلًا ، وَصَادَفَ مَوْضِعًا وَطِيئًا وَطَبِيعَةً قَابِلَةً وَنَفْسًا سَاكِنَةً ، وَمَتَىٰ صَادَفَ ٱلْقَلْبَ كَذَلِكَ رَسَخَ رُسُوخًا لَا حِيلَةَ فِي إِزَالَتِهِ .

وَمَتَىٰ أُلْقِيَ إِلَىٰ ٱلْفِتْيَانِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ ٱلْفَتَيَاتِ فِي وَقْتِ ٱلْغَرَارَةِ وَعِنْدَ غَلَبَةِ ٱلطَّبِيعَةِ وَشَبَابِ ٱلشَّهْوَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّشَاغُلِ وَ . . »[1] .

وَدَقَّ ٱلْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَىٰ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ . .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

* * *

(١) هَـٰذِهِ ٱلْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ ٱلْجَاحِظِ .

صَعَالِيكُ ٱلصَّحَافَةِ(*) . . . (١)
تَتِمَّةٌ
٤

جَاءَ أَبُوْ عُثْمَانَ وَفِيْ بُرُوْزِ عَيْنَيْهِ مَا يَجْعَلُهُمَا فِيْ وَجْهِهِ شَيْئًا كَعلَامَتَيْ تَعَجُّبٍ أَلْقَتْهُمَا ٱلطَّبِيْعَةُ فِيْ هَـٰذَا ٱلْوَجْهِ ، وَقَدْ كَانُوْا يُلَقِّبُوْنَهُ (ٱلْحدَقِيَّ) فَوْقَ تَلْقِيْبِهِ بِٱلْجَاحِظِ ، كَأَنَّ لَقَبًا وَاحِدًا لَا يَبِيْنُ عَنْ قُبْحِ هَـٰذَا ٱلنُّتُوْءِ فِيْ عَيْنَيْهِ إِلَّا بِمُرَادِفٍ وَمُسَاعِدٍ مِنَ ٱللُّغَةِ . . . وَمَا تَذَكَّرْتُ ٱللَّقَبَيْنِ إِلَّا حِيْنَ رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ .

وَٱنْحطَّ فِيْ مَجْلِسِهِ كَأَنَّ بَعْضَهُ يَرْمِيْ بَعْضَهُ مِنْ سَخَطٍ وَغَيْظٍ ، أَوْ كَأَنَّ مِنْ جِسْمِهِ مَا لَا يُرِيْدُ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ هَـٰذَا ٱلْخلْقِ ٱلْمُشَوَّهِ ؛ ثُمَّ نَصَبَ وَجْهَهُ يَتَأَمَّلُ ، فَبَدَتْ عَيْنَاهُ فِيْ خُرُوْجِهِمَا كَأَنَّمَا تَهُمَّانِ بِٱلْفِرَارِ مِنْ هَـٰذَا ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِيْ تَحْيَا ٱلْكَآبَةُ فِيْهِ كَمَا يَحْيَا ٱلْهَمُّ فِيْ ٱلْقَلْبِ ، ثُمَّ سَكَتَ عَنِ ٱلْكَلَامِ لِأَنَّ أَفْكَارَهُ كَانَتْ تُكَلِّمُهُ .

فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ ٱلصَّمْتَ وَقُلْتُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! رَجَعْتَ مِنْ عِنْدِ رَئِيْسِ ٱلتَّحْرِيْرِ زَائِدًا شَيْئًا أَوْ نَاقِصًا شَيْئًا ، فَمَا هُوَ يَرْحَمُكَ ٱللهُ ؟

(*) « الرسالة » العدد : ١٩٢ ، ٢٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ٨ مارس/آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٣٦٦ ـ ٣٦٨ .

(١) كَتَبَ ٱلدُّكْتُور زَكِيْ مُبَارَكْ مَقَالًا فِيْ جَرِيْدَةِ « ٱلْمِصْرِيِّ » ٱلْغَرَّاءِ زَعَمَ فِيْهِ أَنَّنَا قُلْنَا : « إِنَّ ٱلصَّحَافَةَ لَا تَنْجَحُ إِلَّا فِيْ أَيْدِيْ ٱلصَّعَالِيْكِ » وَلَا نَدْرِيْ كَيْفَ أَحَسَّ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، ثُمَّ تَهَدَّدَنَا !! فَقَالَ : « مَا رَأْيُكَ إِذَا وَقَفَ لَكَ أَحَدُ ٱلصَّحَفِيِّيْنَ (وَلَعَلَّهُ يَعْنِيْ نَفْسَهُ) فِيْ مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ !! وَرَمَاكَ بِحُبِّ ٱلتَّكَلُّفِ وَٱلافْتِعَالِ فِيْ عَالَمِ ٱلإِنْشَاءِ وَٱلتَّأْلِيْفِ؟ ! » « مَا رَأْيُكَ إِذَا حَمَلَكَ رَجُلٌ مِنْهُمْ (وَلَعَلَّهُ يَعْنِيْ نَفْسَهُ) عَلَىٰ عَاتِقِهِ وَأَلْقَىٰ بِكَ فِيْ هَاوِيَةِ ٱلتَّارِيْخِ لِتَعِيْشَ مَعَ صَعْصَعَةَ بْنِ صُوْحَانَ ؟ أَبْلَغِ خُطَبَاءِ ٱلْعَرَبِ وَأَنْطَقِهِمْ » .

وَجَوَابُنَا لِصَاحِبِنَا هَـٰذَا : إِنَّ وَزَارَةَ ٱلدَّاخِلِيَّةِ ٱطَّلَعَتْ عَلَىٰ مَقَالِهِ فَأَمَرَتْ جَمِيْعَ ٱلْمَحَالِّ ٱلَّتِيْ تَبِيْعُ لُعَبَ ٱلأَطْفَالِ ، أَلَّا يَبِيْعُوْا « مَعْرَكَةً فَاصِلَةً » وَلَا « هَاوِيَةَ تَارِيْخٍ » .

قَالَ : رَجَعْتُ زَائِدًا أَنِّيْ نَاقِصٌ . وَهَـٰهُنَا شَيْءٌ لَا أَقُوْلُهُ ، وَلَوْ أَنَّ فِيْ ٱلأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُوْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ لَوَقَفُوْا عَلَىٰ عَمِّكَ وَأَمْثَالِ عَمِّكَ مِنْ كُتَّابِ ٱلصُّحُفِ يَتَعَجَّبُوْنَ لِهَـٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلْجَدِيْدِ مِنَ ٱلشُّهَدَاءِ ! .

وَقَالَ ٱبْنُ يَحْيَىٰ ٱلنَّدِيْمُ : دَعَانِيْ ٱلْمُتَوَكِّلُ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَخْمُوْرٌ ، فَقَالَ : أَنْشِدْنِيْ قَوْلَ عُمَارَةَ فِيْ أَهْلِ بَغْدَادِ ، فَأَنْشَدْتُهُ [لِدُعْبُلِ ٱلخُزَاعِيِّ ، مِنَ ٱلطَّوِيلِ] :

وَمَـنْ يَشْتَـرِيْ مِنِّـيْ مُلُـوْكَ مُخَـرَّمٍ ... أَبِـعْ « حَسَنًـا » وَٱبْنَـيْ هِشَـامٍ بِـدِرْهَـمِ
وَأُعْطِـيْ « رَجَـاءً » بَعْـدَ ذَاكَ زِيَـادَةً ... وَأَمْنَـحُ « دِيْنَـارًا » بِغَيْـرِ تَنَـدُّمِ

قَالَ أَبُوْ عُثْمَانَ [من الطويل] :

فَـإِنْ طَلَبُـوْا مِنِّـيْ ٱلـزِّيَـادَةَ زِدْتُهُـمْ ... أَبَـا دُلَـفٍ وَٱلْمُسْتَطِيْـلَ بْـنَ أَكْثَـمِ

وَيْلِيْ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرِ ! ٱثْنَانِ بِدِرْهَمٍ ، وَٱثْنَانِ زِيَادَةً فَوْقَهُمَا لِعِظَمِ ٱلدِّرْهَمِ ، وَٱثْنَانِ زِيَادَةً عَلَىٰ ٱلزِّيَادَةِ لِجَلَالَةِ ٱلدِّرْهَمِ ، كَأَنَّهُ رَئِيْسُ تَحْرِيْرِ جَرِيْدَةٍ يَرَىٰ ٱلدُّنْيَا قَدْ مُلِئَتْ كُتَّابًا ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰهُنَا شَيْئًا لَا أَقُوْلُهُ .

وَزَعَمُوْا أَنَّ كِسْرَىٰ أَبْرَوِيزَ كَانَ فِيْ مَنْزِلِ ٱمْرَأَتِهِ شِيْرِيْنَ ، فَأَتَاهُ صَيَّادٌ بِسَمَكَةٍ عَظِيْمَةٍ ، فَأُعْجِبَ بِهَا وَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَتْ لَهُ شِيْرِيْنَ : أَمَرْتَ لِلصَّيَّادِ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ! فَإِنْ أَمَرْتَ بِهَا لِرَجُلٍ مِنَ ٱلْوُجُوْهِ ، قَالَ : إِنَّمَا أَمَرَ لِيْ بِمِثْلِ مَا أَمَرَ لِلصَّيَّادِ ! فَقَالَ كِسْرَىٰ : كَيْفَ أَصْنَعُ وَقَدْ أَمَرْتُ لَهُ ؟

قَالَتْ : إِذَا أَتَاكَ فَقُلْ لَهُ : أَخْبِرْنِيْ عَنِ ٱلسَّمَكَةِ ، أَذَكَرٌ هِيَ أَمْ أُنْثَىٰ ؟ فَإِنْ قَالَ أُنْثَىٰ ، فَقُلْ لَهُ : لَا تَقَعُ عَيْنِيْ عَلَيْكَ حَتَّىٰ تَأْتِيَنِيْ بِقَرِيْنِهَا ، وَإِنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقُلْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ .

فَلَمَّا غَدَا ٱلصَّيَّادُ عَلَىٰ ٱلْمَلِكَ ، قَالَ لَهُ : أَخْبِرْنِيْ عَنِ ٱلسَّمَكَةِ ، أَذَكَرٌ هِيَ أَمْ أُنْثَىٰ ؟ قَالَ : بَلْ أُنْثَىٰ ؛ قَالَ ٱلْمَلِكُ : فَأْتِنِيْ بِقَرِيْنِهَا . فَقَالَ ٱلصَّيَّادُ : عَمَّرَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ ! إِنَّهَا كَانَتْ بِكْرًا لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ . . .

قُلْتُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! فَهَلْ وَقَعْتَ فِيْ مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْمُعْضِلَةِ مَعَ رَئِيْسِ ٱلتَّحْرِيْرِ ؟

قَالَ : لَمْ يَنْفَعْ عَمَّكَ أَنَّ سَمَكَتَهُ كَانَتْ بِكْرًا ، فَإِنَّمَا يُرِيْدُوْنَ إِخْرَاجَهُ مِنَ ٱلْجَرِيْدَةِ ؛ وَمَا

بَلَاغَةُ أَبِي عُثْمَانَ ٱلْجَاحِظِ بِجَانِبِ بَلَاغَةِ ٱلتِّلِغْرَافِ وَبَلَاغَةِ ٱلْخَبَرِ وَبَلَاغَةِ ٱلْأَرْقَامِ وَبَلَاغَةِ ٱلْأَصْفَرِ وَبَلَاغَةِ ٱلْأَبْيَضِ . . . وَلَـٰكِنَّ هَـٰهُنَا شَيْئًا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ .

وَسَمَكَتِي هَـٰذِهِ كَانَتْ مَقَالَةً جَوَّدْتُهَا وَأَحْكَمْتُهَا وَبَلَغْتُ بِأَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا أَعْلَىٰ مَنَازِلِ ٱلشَّرَفِ وَأَسْنَىٰ رُتَبِ ٱلْبَيَانِ ، وَجَعَلْتُهَا فِي ٱلْبَلَاغَةِ طَبَقَةً وَحْدَهَا ، وَقَبْلَ أَنْ يَقُولَ ٱلْأُورُبِّيُّونَ (صَاحِبَةُ ٱلْجَلَالَةِ ٱلصَّحَافَةُ) قَالَ ٱلْمَأْمُونُ : « ٱلْكُتَّابُ مُلُوكٌ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ » فَأَرَادَ عَمُّكَ أَبُو عُثْمَانَ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مَلِكًا بِتِلْكَ ٱلْمَقَالَةِ فَإِذَا هُوَ بِهَا مِنْ (صَعَالِيكِ ٱلصَّحَافَةِ) .

لَقَدْ كَانَتْ كَٱلْعَرُوسِ فِي زِينَتِهَا لَيْلَةَ ٱلْجَلْوَةِ عَلَىٰ مُحِبِّهَا ، مَا هِيَ إِلَّا ٱلشَّمْسُ ٱلضَّاحِيَةُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَشْوَاقٌ وَلَذَّاتٌ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ٱكْتِشَافُ أَسْرَارِ ٱلْحُبِّ ، وَمَا هِيَ إِلَّا هِيَ ؛ فَإِذَا ٱلْعَرُوسُ عِنْدَ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ هِيَ ٱلْمُطَلَّقَةُ ، وَإِذَا ٱلْمُعْجِبُ هُوَ ٱلْمُضْحِكُ ، وَيَقُولُ ٱلرَّجُلُ : أَمَّا نَظَرِيًّا فَنَعَمْ ، وَأَمَّا عَمَلِيًّا فَلَا ؛ وَهَـٰذَا عَصْرٌ خَفِيفٌ يُرِيدُ ٱلْخَفِيفَ ، وَزَمَنٌ عَامِّيٌّ يُرِيدُ ٱلْعَامِّيَّ ، وَجُمْهُورٌ سَهْلٌ يُرِيدُ ٱلسَّهْلَ ؛ وَٱلْفَصَاحَةُ هِيَ إِعْرَابُ ٱلْكَلَامِ لَا سِيَاسَتُهُ بِقُوَىٰ ٱلْبَيَانِ وَٱلْفِكْرِ وَٱللُّغَةِ ، فَهِيَ ٱلْيَوْمَ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فُنُونِهَا وَٱسْتَقَرَّتْ فِي عِلْمِ ٱلنَّحْوِ .

وَحَسْبُكَ مِنَ ٱلْفَرْقِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلْقَارِئِ ٱلْعَامِّيِّ : أَنَّكَ أَنْتَ لَا تَلْحَنُ وَهُوَ يَلْحَنُ .

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : وَهَـٰذِهِ أَكْرَمَكَ ٱللهُ مَنْزِلَةٌ يَقِلُّ فِيهَا ٱلْخَاصِّيُّ وَيَكْثُرُ ٱلْعَامِّيُّ ، فَيُوشِكُ أَلَّا يَكُونَ بَعْدَهَا إِلَّا غَلَبَةُ ٱلْعَامِّيَّةِ ، وَيَرْجِعُ ٱلْكَلَامُ ٱلصَّحَافِيُّ كُلُّهُ سُوقِيًّا بَلَدِيًّا (حَنْشَصِيًّا)[1] ، وَيَنْقَلِبُ ٱلنَّحْوُ نَفْسُهُ وَمَا هُوَ إِلَّا ٱلتَّكَلُّفُ وَٱلتَّوَعُّرُ وَٱلتَّقَعُّرُ كَمَا يَرَوْنَ ٱلْآنَ فِي ٱلْفَصَاحَةِ ، وَٱلْقَلِيلُ مِنَ ٱلْوَاجِبَاتِ يَنْتَهِي إِلَىٰ ٱلْأَقَلِّ ؛ وَٱلْأَقَلُّ يَنْتَهِي إِلَىٰ ٱلْعَدَمِ ، وَٱلِانْحِدَارُ سَرِيعٌ يَبْدَأُ بِٱلْخُطْوَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ثُمَّ لَا تَمْلِكُ بَعْدَهَا ٱلْخُطَا ٱلْكَثِيرَةَ .

لَا جَرَمَ فَسَدَ ٱلذَّوْقُ وَفَسَدَ ٱلْأَدَبُ وَفَسَدَتْ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ كَانَتْ كُلُّهَا صَالِحَةً ، وَجَاءَتْ فُنُونٌ مِنَ ٱلْكِتَابَةِ مَا هِيَ إِلَّا طَبَائِعُ كُتَّابِهَا تَعْمَلُ فِيمَنْ يَقْرَؤُهَا عَمَلَ ٱلطِّبَاعِ ٱلْحَيَّةِ فِيمَنْ يُخَالِطُهَا ، وَلَوْ كَانَ فِي قَانُونِ ٱلدَّوْلَةِ تُهْمَةُ إِفْسَادِ ٱلْأَدَبِ أَوْ إِفْسَادِ ٱللُّغَةِ ، لَقُبِضَ عَلَىٰ كَثِيرِينَ

(١) [حَنْشَصِيًّا ، أَيْ : خَارِجًا عَنْ مَأْلُوفِ ٱلْعَادَةِ كَلَامًا وَأَفْعَالًا] .

لَا يَكْتُبُونَ إِلَّا صِنَاعَةَ لَهْوٍ وَمَسْلَاةَ فَرَاغٍ وَفَسَادًا وَإِفْسَادًا ؛ وَٱلْمُصِيبَةُ فِي هَـٰؤُلَاءِ مَا يَزْعُمُونَ لَكَ مِنْ أَنَّهُمْ يَسْتَنْشِطُونَ ٱلْقُرَّاءَ وَيُلْهُونَهُمْ ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَعْمَلُ فِي هَـٰذِهِ ٱلنَّهْضَةِ لِمُعَالَجَةِ ٱللَّهْوِ ٱلَّذِي جَعَلَ نِصْفَ وُجُودِنَا ٱلسِّيَاسِيِّ عَدَمًا ؛ ثُمَّ لِمَلْءِ ٱلْفَرَاغِ ٱلَّذِي جَعَلَ نِصْفَ حَيَاتِنَا ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ بَطَالَةً ؛ وَهَـٰذَا أَيْضًا مِمَّا جَعَلَ عَمَّكَ أَبَا عُثْمَانَ فِي هَـٰذِهِ ٱلصَّحَافَةِ مِنْ (صَعَالِيكِ ٱلصَّحَافَةِ) وَتَرَكَهُ فِي ٱلْمُقَابَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ كَأَنَّهُ فِي أَمْسِ وَكَأَنَّهُمْ فِي غَدٍ .

وَدَقَّ ٱلْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَىٰ رَئِيسِ ٱلتَّحْرِيرِ . . .

* * *

فَمَا شَكَكْتُ أَنَّهُمْ سَيَطْرُدُونَهُ ، فَإِنَّ ٱللهَ لَمْ يَرْزُقْهُ لِسَانًا مَطْبَعِيًّا ثَرْثَارًا يَكُونُ كَٱلْمُتَّصِلِ مِنْ دِمَاغِهِ بِصُنْدُوقِ حُرُوفٍ . . . وَلَمْ يَجْعَلْهُ كَهَـٰؤُلَاءِ ٱلسِّيَاسِيِّينَ ٱلَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ ٱلنِّفَاقُ وَيَتَلَوَّنُ ، وَلَا كَهَـٰؤُلَاءِ ٱلْأُدَبَاءِ ٱلَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ ٱلتَّضْلِيلُ وَيَتَشَكَّلُ .

وَرَجَعَ شَيْخُنَا كَٱلْمَخْنُوقِ أُرْخِيَ عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ : وَيْلِي عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ ! وَيْلِي مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلظَّرِيفِ ٱلَّذِي يُقَالُ فِي ٱلْوَجْهِ لِيَدْفَعَ فِي ٱلْقَفَا . . . كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا يَمْلِكَ هَـٰذِهِ ٱلصَّحَافَةَ ٱلْيَوْمِيَّةَ إِلَّا مَجَالِسُ ٱلْأُمَّةِ ؛ فَذَلِكَ هُوَ إِصْلَاحُ ٱلْأُمَّةِ وَٱلصَّحَافَةِ وَٱلْكُتَّابِ جَمِيعًا ؛ أَمَّا فِي هَـٰذِهِ ٱلصُّحُفِ ، فَٱلْكَاتِبُ يَخْبِزُ عَيْشَهُ عَلَىٰ نَارٍ تَأْكُلُ مِنْهُ قَدْرَ مَا يَأْكُلُ مِنْ عَيْشِهِ ، وَلَوْ أَنَّ عَمَّكَ فِي خَفْضٍ وَرَفَاهِيَةٍ وَسَعَةٍ ، لَكَانَ فِي ٱسْتِغْنَائِهِ عَنْهُمْ حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلسَّيْفَ ٱلَّذِي لَا يَجِدُ عَمَلًا لِلْبَاطِلِ ، تَفْضُلُهُ ٱلْإِبْرَةُ ٱلَّتِي تَعْمَلُ لِلْخِيَاطِ ، وَمَاذَا يَمْلِكُ عَمُّكَ أَبُو عُثْمَانَ ؟ يَمْلِكُ مَا لَا يَنْزِلُ عَنْهُ بِدُوَلِ ٱلْمُلُوكِ ، وَلَا بِٱلدُّنْيَا كُلِّهَا ، وَلَا بِٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ ؛ إِذْ يَمْلِكُ عَقْلَهُ وَبَيَانَهُ ، عَلَىٰ أَنَّهُ مُسْتَأْجَرٌ هُنَا بِعَقْلِهِ وَبَيَانِهِ ؛ يَعْقِلُ مَا شَاؤُوا وَيَكْتُبُ مَا شَاؤُوا .

لَكَ ٱللهُ أَنْ أَصْدُقَكَ ٱلْقَوْلَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحِرْفَةِ ٱلْيَوْمِيَّةِ : إِنَّ ٱلْكَاتِبَ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ صَحِيفَةٍ إِلَىٰ صَحِيفَةٍ ، تَخْرُجُ كِتَابَتُهُ مِنْ دِينٍ إِلَىٰ دِينٍ . . .

وَرَأَيْتُ شَيْخَنَا كَأَنَّمَا وَضَعَ لَهُ رَئِيسُ ٱلتَّحْرِيرِ مِثْلَ ٱلْبَارُودِ فِي دِمَاغِهِ ثُمَّ أَشْعَلَهُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُمَازِحَهُ وَأُسَرِّيَ عَنْهُ ، فَقُلْتُ : ٱسْمَعْ يَا أَبَا عُثْمَانَ ! جَاءَتْنِي بِٱلْأَمْسِ قَضِيَّةٌ يَرْفَعُهَا صَاحِبُهَا إِلَىٰ ٱلْمَحْكَمَةِ ، وَقَدْ كَتَبَ فِي عَرْضِ دَعْوَاهُ : إِنَّ جَارَ بَيْتِهِ غَصَبَهُ قِطْعَةً مِنْ أَرْضٍ

فِنَائِهِ ٱلَّذِي تَرَكَهُ حَوْلَ ٱلْبَيْتِ ، وَبَنَىٰ فِي هَـٰذِهِ ٱلرُّقْعَةِ دَارًا ، وَفَتَحَ لِهَـٰذِهِ ٱلدَّارِ نَافِذَاتٍ ، فَهُوَ يُرِيدُ مِنَ ٱلْقَاضِي أَنْ يَحْكُمَ بِرَدِّ ٱلْأَرْضِ ٱلْمَغْصُوبَةِ ، وَهَدْمِ هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ ٱلْمَبْنِيَّةِ فَوْقَهَا ، وَ . . . وَ . . . وَسَدِّ نَافِذَاتِهَا ٱلْمَفْتُوحَةِ . . . !

فَضَحِكَ ٱلْجَاحِظُ حَتَّىٰ أَمْسَكَ بَطْنَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ : هَـٰذَا أَدِيبٌ عَظِيمٌ كَبَعْضِ ٱلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْأَدَبَ فِي ٱلصِّحَافَةِ ؛ كَثُرَتْ أَلْفَاظُهُ وَنَقَصَ عَقْلُهُ ، « وَسُئِلَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَتَىٰ يَكُونُ ٱلْأَدَبُ شَرًّا مِنْ عَدَمِهِ ؟ قَالَ : إِذَا كَثُرَ ٱلْأَدَبُ وَنَقَصَتِ ٱلْقَرِيحَةُ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَّلِينَ : مَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ أَغْلَبَ خِصَالِ ٱلْخَيْرِ عَلَيْهِ ؛ كَانَ حَتْفُهُ فِي أَغْلَبِ خِصَالِ ٱلْخَيْرِ عَلَيْهِ ، وَهَـٰذَا كُلُّهُ قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ »[1] .

وَٱلْأَدَبُ وَحْدَهُ هُوَ ٱلْمَتْرُوكُ فِي هَـٰذِهِ ٱلصِّحَافَةِ لِمَنْ يَتَوَلَّاهُ كَيْفَ يَتَوَلَّاهُ ، إِذْ كَانَ أَرْخَصَ مَا فِيهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ أَدَبٌ لِأَنَّ ٱلْأُمَمَ ٱلْحَيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا أَدَبٌ ، ثُمَّ هُوَ مِنْ بَعْدِ هَـٰذَا ٱلِاسْمِ ٱلْعَظِيمِ مِلْءُ فَرَاغٍ لَا بُدَّ أَنْ يُمْلَأَ ، وَصَفْحَةُ ٱلْأَدَبِ وَحْدَهَا هِيَ ٱلَّتِي تَظْهَرُ فِي ٱلْجَرِيدَةِ ٱلْيَوْمِيَّةِ كَبُقْعَةِ ٱلصَّدَأِ عَلَى ٱلْحَدِيدِ : تَأْكُلُ مِنْهُ وَلَا تُعْطِيهِ شَيْئًا .

ثُمَّ يَأْبَىٰ مَنْ تُتْرَكُ لَهُ هَـٰذِهِ ٱلصَّفْحَةُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ (رَئِيسَ تَحْرِيرٍ) عَلَى ٱلْأُدَبَاءِ ، فَمَا يَدَعُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ ٱلنُّبُوغِ وَلَا نَعْتًا مِنْ نُعُوتِ ٱلْعَبْقَرِيَّةِ إِلَّا نَحَلَهُ نَفْسَهُ وَوَضَعَهُ تَحْتَ ثِيَابِهِ ، وَمَا أَيْسَرَ ٱلْعَظَمَةَ وَمَا أَسْهَلَ مَنَالَهَا إِذَا كَانَتْ لَا تُكَلِّفُكَ إِلَّا ٱلْجَرَاءَةَ وَٱلدَّعْوَىٰ وَٱلزَّعْمَ ، وَتَلْفِيقَ ٱلْكَلَامِ مِنْ أَعْرَاضِ ٱلْكُتُبِ وَحَوَاشِي ٱلْأَخْبَارِ .

وَقَدْ يَكُونُ ٱلرَّجُلُ فِي كِتَابَتِهِ كَٱلْعَامَّةِ ، فَإِذَا عِبْتَهُ بِٱلرَّكَاكَةِ وَٱلسُّخْفِ وَٱلِابْتِذَالِ وَفَرَاغِ مَا يَكْتُبُ ، قَالَ : هَـٰذَا مَا يُلَائِمُ ٱلْقُرَّاءَ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَكْذَبِ ٱلنَّاسِ فِيمَا يَدَّعِي لِنَفْسِهِ وَمَا يُهَوِّلُ بِهِ لِتَقْوِيَةِ شَأْنِهِ وَإِصْغَارِ مَنْ عَدَاهُ ، فَإِذَا كَذَّبَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ قَالَ : هَـٰذَا مَا يُلَائِمُنِي ، وَهُوَ وَاثِقٌ أَنَّهُ فِي نَوْعٍ مِنَ ٱلْقُرَّاءِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَمْلَأَهُمْ بِهَـٰذِهِ ٱلدَّعَاوَىٰ كَمَا تُمْلَأُ ٱلسَّاعَةُ ، فَإِذَا هُمْ جَمِيعًا يَقُولُونَ : تِكْ تِكْ . . . تِكْ تِكْ . . .

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ أَنْ يَكُونَ ٱلسَّامِعُ يَفْهَمُ مَعْنَى ٱلْقَائِلِ ، جَعَلَ ٱلْفَصَاحَةَ وَٱللُّكْنَةَ

(١) هَـٰذِهِ ٱلْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ ٱلْجَاحِظِ .

وَٱلْخَطَأَ وَٱلصَّوَابَ وَٱلْإِغْلَاقَ وَٱلْإِبَانَةَ وَٱلْمَلْحُونَ وَٱلْمُعْرَبَ ، كُلَّهُ سَوَاءً وَكُلَّهُ بَيَانًا[1] وَكَانَ ٱلْمَكِّيُّ طَيِّبَ ٱلْحُجَجِ ، ظَرِيفَ ٱلْحِيَلِ ، عَجِيبَ ٱلْعِلَلِ ، وَكَانَ يَدَّعِي كُلَّ شَيْءٍ عَلَىٰ غَايَةِ ٱلْإِحْكَامِ وَلَمْ يُحْكِمْ شَيْئًا قَطُّ مِنَ ٱلْجَلِيلِ وَلَا مِنَ ٱلدَّقِيقِ ؛ وَإِذْ قَدْ جَرَىٰ ذِكْرُهُ فَسَأُحَدِّثُكَ بِبَعْضِ أَحَادِيثِهِ ، قُلْتُ لَهُ مَرَّةً : أَعَلِمْتَ أَنَّ ٱلشَّارِيَ حَدَّثَنِي أَنَّ ٱلْمَخْلُوعَ - أَيِ ٱلْأَمِينَ - بَعَثَ إِلَى ٱلْمَأْمُونِ بِجِرَابٍ فِيهِ سُمْسُمٌ ، كَأَنَّهُ مُخْبِرُهُ أَنَّ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْجُنْدِ بِعَدَدِ ذَلِكَ ، وَأَنَّ ٱلْمَأْمُونَ بَعَثَ لَهُ بِدِيكٍ أَعْوَرَ ، يُرِيدُ أَنَّ طَاهِرَ بْنَ ٱلْحُسَيْنِ يَقْتُلُ هَـٰؤُلَاءِ كُلَّهُمْ كَمَا يَلْقُطُ ٱلدِّيكُ ٱلْحَبَّ ؟

قَالَ : فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثَ أَنَا وَلَّدْتُهُ ، وَلَـٰكِنِ ٱنْظُرْ كَيْفَ سَارَ فِي ٱلْآفَاقِ[1] .

ثُمَّ قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : وَقَدْ زَعَمَ أَحَدُ أُدَبَائِكُمْ أَنَّهُ ٱكْتَشَفَ فِي تَارِيخِ ٱلْأَدَبِ ٱكْتِشَافًا أَهْمَلَهُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ وَغَفَلَ عَنْهُ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ ! فَنَظَرَ عَمُّكَ فِي هَـٰذَا ٱلَّذِي ٱدَّعَاهُ ، فَإِذَا ٱلرَّجُلُ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ كَٱلَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ ٱكْتَشَفَ أَمْرِيكَا فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ ٱلْجُغْرَافِيَةِ . . .[2] .

وَمَا يَزَالُ ٱلْبُلَهَاءُ يُصَدِّقُونَ ٱلْكَلَامَ ٱلْمَنْشُورَ فِي ٱلصُّحُفِ ، لَا بِأَنَّهُ صِدْقٌ وَلَـٰكِنْ بِأَنَّهُ « مَكْتُوبٌ فِي ٱلْجَرِيدَةِ » . . فَلَا عَجَبَ أَنْ يَظُنَّ كَاتِبُ صَفْحَةِ ٱلْأَدَبِ - مَتَىٰ كَانَ مَغْرُورًا - أَنَّهُ إِذَا تَهَدَّدَ إِنْسَانًا فَمَا هَدَّدَهُ بِصَفْحَتِهِ ، بَلْ بِحُكُومَتِهِ . . .

نَعَمْ أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ! إِنَّهَا حُكُومَةٌ وَدَوْلَةٌ ؛ وَلَـٰكِنْ وَيْحَكَ ! إِنَّ ثَلَاثَ ذُبَابَاتٍ لَيْسَتْ ثَلَاثَ قِطَعٍ مِنْ أُسْطُولِ إِنْكِلْتَرَة . . . !

* * *

وَضَحِكَ أَبُو عُثْمَانَ وَضَحِكْتُ ! فَٱسْتَيْقَظْتُ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) هَـٰذَا مِنْ كَلَامِ ٱلْجَاحِظِ .

(٢) { يَعْنِي زَكِي مُبَارَكْ فِي دَعْوَىٰ مَعْرِفَتِهِ أَوَّلَ مَنِ ٱخْتَرَعَ فَنَّ ٱلْمَقَامَاتِ } .

أَبُو حَنِيفَةَ وَلَٰكِنْ بِغَيْرِ فِقْهٍ(*)(١) !

قَدِ ٱنْتَهَيْنَا فِي ٱلأَدَبِ إِلَىٰ نِهَايَةٍ صَحَافِيَّةٍ عَجِيبَةٍ ، فَأَصْبَحَ كُلُّ مَنْ يَكْتُبُ يُنْشَرُ لَهُ ، وَكُلُّ مَنْ يُنْشَرُ لَهُ يَعُدُّ نَفْسَهُ أَدِيبًا ، وَكُلُّ مَنْ عَدَّ نَفْسَهُ أَدِيبًا جَازَ لَهُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ مَذْهَبٍ وَأَنْ يَقُولَ فِي مَذْهَبِهِ وَيَرُدَّ عَلَىٰ مَذْهَبِ غَيْرِهِ .

فَعِنْدَنَا ٱلْيَوْمَ كَلِمَاتٌ ضَخْمَةٌ تَدُورُ فِي ٱلصُّحُفِ بَيْنَ ٱلأُدَبَاءِ كَمَا تَدُورُ أَسْمَاءُ ٱلْمُسْتَعْمَرَاتِ بَيْنَ ٱلسِّيَاسِيِّينَ ٱلْمُتَنَازِعِينَ عَلَيْهَا ، يَتَعَلَّقُ بِهَا ٱلطَّمَعُ ، وَتَنْبَعِثُ لَهَا ٱلْفِتْنَةُ ، وَتَكُونُ فِيهَا ٱلْخُصُومَةُ وَٱلْعَدَاوَةُ ؛ مِنْهَا قَوْلُهُمْ : أَدَبُ ٱلشُّيُوخِ وَأَدَبُ ٱلشَّبَابِ ؛ وَدِكْتَاتُورِيَّةُ ٱلأَدَبِ وَدِيمُقْرَاطِيَّةُ ٱلأَدَبِ ، وَأَدَبُ ٱلأَلْفَاظِ وَأَدَبُ ٱلْحَيَاةِ ، وَٱلْجُمُودُ وَٱلتَّحَوُّلُ ، وَٱلْقَدِيمُ وَٱلْجَدِيدُ ، ثُمَّ مَاذَا وَرَاءَ ذَٰلِكَ مِنْ أَصْحَابِ هَٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ ؟

وَرَاءَ ذَٰلِكَ أَنَّ مِنْهُمْ أَبَا حَنِيفَةَ وَلَٰكِنْ مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ ، وَٱلشَّافِعِيَّ وَلَٰكِنْ بِغَيْرِ ٱجْتِهَادٍ ، وَمَالِكَ وَلَٰكِنْ بِغَيْرِ رِوَايَةٍ ، وَٱبْنَ حَنْبَلٍ وَلَٰكِنْ بِغَيْرِ حَدِيثٍ ؛ أَسْمَاءٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْعَمَلِ أَنَّهَا كَذِبٌ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ رَدٌّ عَلَيْهَا .

وَلَيْسَ يَكُونُ ٱلأَدَبُ أَدَبًا إِلَّا إِذَا ذَهَبَ يَسْتَحْدِثُ وَيَخْتَرِعُ عَلَىٰ مَا يَصْرِفُهُ ٱلنَّوَابِغُ مِنْ أَهْلِهِ حَتَّىٰ يُؤَرَّخَ بِهِمْ ، فَيُقَالُ : أَدَبُ فُلَانٍ ، وَطَرِيقَةُ فُلَانٍ ، وَمَذْهَبُ فُلَانٍ ؛ إِذْ لَا يَجْرِي ٱلأَمْرُ فِيمَا عَلَا وَتَوَسَّطَ وَنَزَلَ إِلَّا عَلَىٰ إِبْدَاعٍ غَيْرِ تَقْلِيدٍ ، وَتَقْلِيدٍ غَيْرِ ٱتِّبَاعٍ ، وَٱتِّبَاعٍ غَيْرِ تَسْلِيمٍ ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلرَّأْيِ وَنُبُوغِ ٱلرَّأْيِ وَٱسْتِقْلَالِ ٱلرَّأْيِ حَتَّىٰ يَكُونَ فِي ٱلْكِتَابَةِ إِنْسَانٌ جَالِسٌ هُوَ كَاتِبُهَا ، كَمَا أَنَّ ٱلْحَيَّ ٱلْجَالِسَ فِي كُلِّ حَيٍّ هُوَ مَجْمُوعُهُ ٱلْعَصَبِيُّ ، فَيَخْرُجُ ضَرْبٌ مِنَ ٱلآدَابِ كَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلتَّحَوُّلِ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلإِنْسَانِيِّ يَرْجِعُ بِٱلْحَيَاةِ إِلَىٰ ذَرَّاتِ مَعَانِيهَا ، ثُمَّ يَرْسُمُ مِنْ هَٰذِهِ ٱلْمَعَانِي مِثْلَ مَا أَبْدَعَتْ ذَرَّاتُ ٱلْخَلِيقَةِ فِي تَرْكِيبٍ مِنْ تَرْكِيبٍ ، فَلَا يَكُونُ

(*) « الرسالة » العدد : ١٩٣ ، ٢ محرم سنة ١٣٥٦ هـ = ١٥ مارس/آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٤٠٢ ـ ٤٠٥ .

(١) { وَهَٰذَا فَصْلٌ مِنَ ٱلْمَعْرَكَةِ ٱلأَخِيرَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَكِي مُبَارَك } .

لِلأَدِيبِ تَعْرِيفٌ إِلَّا أَنَّهُ ٱلْمُقَلِّدُ ٱلإِلَٰهِيُّ(١) .

وَإِذَا ٱعْتَبَرْنَا هَٰذَا ٱلأَصْلَ ، فَهَلْ يَبْدَأُ ٱلأَدَبُ ٱلْعَرَبِيُّ فِي عَصْرِنَا أَوْ يَنْتَهِي ؛ وَهَلْ تُرَاهُ يَعْلُو أَوْ يَنْزِلُ ، وَهَلْ يَسْتَجْمِعُ أَوْ يَنْفَضُّ ، وَهَلْ هُوَ مِنْ قَدِيمِهِ ٱلصَّرِيحِ بَعِيدٌ مِنْ بَعِيدٍ ، أَوْ قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ ، أَوْ هُوَ فِي مَكَانٍ بَيْنَهُمَا ؟

هَٰذِهِ مَعَانٍ لَوْ ذَهَبْتُ أُفَصِّلُهَا لَاقْتَحَمْتُ تَارِيخًا طَوِيلًا أَمُرُّ فِيهِ بِعِظَامٍ مُبَعْثَرَةٍ فِي ثِيَابِهَا لَا فِي قُبُورِهَا . . وَلَٰكِنِّي مُوجِزٌ مُقْتَصِرٌ عَلَىٰ مَعْنًى هُوَ جُمْهُورُ هَٰذِهِ ٱلأَطْرَافِ كُلِّهَا ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ يَرْجِعُ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَادِي بَيْنَ ٱلأَذْوَاقِ وَٱلإِسْفَافِ بِمَنَازِعِ ٱلرَّأْيِ وَٱلْخَلْطِ وَٱلاضْطِرَابِ فِي كُلِّ ذَٰلِكَ ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ أَمْرُ ٱلأَدَبِ عَلَىٰ أَقْبَحِهِ وَهُمْ يَرَوْنَهُ عَلَىٰ أَحْسَنِهِ ، وَحَتَّىٰ قِيلَ فِي ٱلأُسْلُوبِ : أُسْلُوبٌ تَلْغْرَافِيٌّ ، وَفِي ٱلْفَصَاحَةِ : فَصَاحَةٌ عَامِّيَّةٌ ، وَفِي ٱللُّغَةِ : لُغَةُ ٱلْجَرَائِدِ ، وَفِي ٱلشِّعْرِ : شِعْرُ ٱلْمَقَالَةِ ؛ وَنَجَمَتِ ٱلنَّاجِمَةُ مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ ، وَيُزَيَّنُ لَهُمْ أَنَّهَا ٱلْقُوَّةُ قَدِ ٱسْتَحْصَفَتْ وَٱشْتَدَّتْ ، وَنَازَعَ ٱلأَدَبُ ٱلْعَرَبِيُّ إِلَىٰ سُخْرِيَةِ ٱلتَّقْلِيدِ وَإِلَىٰ أَنْ يَكُونَ لَصِيقًا دَعِيًّا فِي آدَابِ ٱلأُمَمِ ، وَٱسْتَهْلَكَهُ ٱلتَّضْيِيعُ وَسُوءُ ٱلنَّظَرِ لَهُ عَلَىٰ حِينَ يُؤَتَّىٰ لَهُمْ أَنَّ كُلَّ ذَٰلِكَ مِنْ حِفْظِهِ وَصِيَانَتِهِ وَحُسْنِ ٱلصَّنِيعِ فِيهِ وَمِنْ تَوْفِيرِ ٱلْمَادَّةِ عَلَيْهِ .

أَيْنَ تُصِيبُ ٱلْعِلَّةَ إِذَا ٱلْتَمَسْتَهَا ؟ أَفِي ٱلأَدَبِ مِنْ لُغَتِهِ وَأَسَالِيبِ لُغَتِهِ ، وَمَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِ مَعَانِيهِ ؟ أَمْ فِي ٱلْقَائِمِينَ عَلَيْهِ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَمَنَاحِيهِمْ وَمَا يَتَّفِقُ مِنْ أَسْبَابِهِمْ وَجَوَاذِبِهِمْ ؟

إِنْ تَقُلْ : إِنَّهَا فِي ٱللُّغَةِ وَٱلأَسَالِيبِ وَٱلْمَعَانِي وَٱلأَغْرَاضِ ، فَهَٰذِهِ كُلُّهَا تَصِيرُ إِلَىٰ حَيْثُ يُرَادُ بِهَا ، وَتَتَقَلَّدُ ٱلْبَلِيَّةَ مِنْ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ فِيهَا ، وَقَدِ ٱسْتَوْعَبَتْ وَٱتَّسَعَتْ وَمَادَّتِ ٱلْعُصُورَ ٱلْكَثِيرَةَ إِلَىٰ عَهْدِنَا ، فَلَمْ تُؤْتَ مِنْ ضِيقٍ وَلَا جُمُودٍ وَلَا ضَعْفٍ ، ثُمَّ هِيَ مَادَّةٌ ، وَلَا عَلَيْهَا مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ مِنْهَا حَيْثُ يَمْلَأُ كَفَّهُ أَوْ حَيْثُ تَقَعُ يَدُهُ عَلَىٰ حَاجَتِهِ .

وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّ ٱلْعِلَّةَ فِي ٱلأُدَبَاءِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَمَنَاحِيهِمْ وَدَوَاعِيهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ ؛ سَأَلْنَاكَ : وَلِمَ قَصَّرُوا عَنِ ٱلْغَايَةِ ، وَلِمَ وَقَعُوا بِٱلْخِلَافِ ، وَكَيْفَ ذَهَبُوا عَنِ ٱلْمَصْلَحَةِ ، وَكَيْفَ ٱعْتَقَمَتِ ٱلْخَوَاطِرُ وَفَسَدَتِ ٱلأَذْوَاقُ مَعَ قِيَامِ ٱلأَدَبِ ٱلصَّحِيحِ فِي كُتُبِهِ مَقَامَ أُمَّةٍ مِنْ أَهْلِهِ

(١) ٱسْتَوْفَيْنَا هَٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ فِي مَقَالَةِ « ٱلأَدَبِ وَٱلأَدِيبِ » .

أَعْرَابًا وَفُصَحَاءَ وَكُتَّابًا وَشُعَرَاءَ ، وَمَعَ ٱنْفِسَاحِ ٱلأُفُقِ ٱلْعَقْلِيِّ فِيْ هَـٰذَا ٱلدَّهْرِ وَٱجْتِمَاعِهِ مِنْ أَطْرَافِهِ لِمَنْ شَاءَ ، حَتَّىٰ لَتَجِدَ عُقُوْلَ نَوَابِغِ ٱلْقَارَّاتِ ٱلْخَمْسِ تُحْتَقَبُ فِيْ حَقِيْبَةٍ مِنَ ٱلْكُتُبِ ، أَوْ تُصَنْدَقُ[1] فِيْ صُنْدُوْقٍ مِنَ ٱلأَسْفَارِ .

كَيْفَ ذَهَبَ ٱلأُدَبَاءُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْعَرَبِيَّةِ نَشْرًا مُتَبَدِّدِيْنَ تَعْلُوْ بِهِمُ ٱلدَّائِرَةُ وَتَهْبِطُ ، فَكُلٌّ أَعْلَىٰ وَكُلٌّ أَسْفَلُ ؟ هَـٰذَا فُلَانٌ شَاعِرٌ قَدْ أَحَاطَ بِٱلشِّعْرِ عَرَبِيِّهِ وَغَرْبِيِّهِ وَهُوَ يَنْظِمُهُ وَيَفْتَنُّ فِيْ أَغْرَاضِهِ وَيُوَلِّدُ وَيَسْرِقُ وَيَنْسَخُ وَيَمْسَخُ ، وَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ ٱلشَّاعِرُ ٱلَّذِيْ فَقَدَتْهُ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ تَارِيْخِهَا ، وَوَقَعَ فِيْ تَارِيْخِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَحْدَهَا ٱبْتِلَاءً وَمِحْنَةً ، وَهُوَ كَكُلِّ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْمَغْرُوْرِيْنَ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوْا فِيْ لُغَاتٍ غَيْرِ ٱلْعَرَبِيَّةِ لَظَهَرُوْا نُجُوْمًا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَرَبِيَّةَ جَعَلَتْ كُلًّا مِنْهُمْ حَصَاةً بَيْنَ ٱلْحَصَىٰ ، وَتَقْرَأُ شِعْرَهُ فَإِذَا هُوَ شِعْرٌ تَتَوَهَّمُ مِنْ قِرَاءَتِهِ تَقْطِيْعَ ثِيَابِكَ ، إِذْ تُجَاذِبُ نَفْسَكَ لِتَفِرَّ مِنْهُ فِرَارًا .

وَهَـٰذَا فُلَانٌ ٱلْكَاتِبُ ٱلَّذِيْ وَٱلَّذِيْ . . وَٱلَّذِيْ يَرْتَفِعُ إِلَىٰ أَقْصَىٰ ٱلسَّمَوَاتِ عَلَىٰ جَنَاحَيْ ذُبَابَةٍ .

وَهَـٰذَا فِرْعَوْنُ ٱلأَدَبِ ٱلَّذِيْ يَقُوْلُ : أَنَا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَىٰ ! وَهَـٰذَا فُلَانٌ وَهَـٰذَا فُلَانٌ . . .

أَيْنَ يَكُوْنُ ٱلزِّمَامُ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ لِيَعْرِفُوْا مَا هُمْ فِيْهِ كَمَا هُمْ فِيْهِ ، وَلِيَضْبِطُوْا آرَاءَهُمْ وَهَوَاجِسَهُمْ ، وَلِيَعْلَمُوْا أَنَّ حِسَابَهُمْ عِنْدَ ٱلنَّاسِ لَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ ، فَٱلْوَاحِدَةُ مِنْهُمْ وَاحِدَةٌ وَإِنْ تَوَهَّمُوْهَا مِئَةً وَتَوَهَّمَهَا بَعْضُهُمْ أَلْفًا أَوْ أَلْفَيْنِ ، وَمَتَىٰ قَالَ ٱلنَّاسُ : غَلِطُوْا ، فَقَدْ غَلِطُوْا ، وَمَتَىٰ قَالُوْا : سُخَفَاءُ ، فَهُمْ سُخَفَاءُ .

وَأَيْنَ ٱلزِّمَامُ عَلَيْهِمْ وَقَدِ ٱنْطَلَقُوْا كَأَنَّهُمْ مُسَخَّرُوْنَ بِٱلْجَبْرِ عَلَىٰ قَانُوْنٍ مِنَ ٱلتَّدْمِيْرِ وَٱلتَّخْرِيْبِ ، فَلَيْسَ فِيْهِمْ إِلَّا طَبِيْعَةٌ مُكَابِرَةٌ لَا إِقْرَارَ مِنْهَا ، بَاغِيَةٌ لَا إِنْصَافَ مَعَهَا ، نَافِرَةٌ لَا مَسَاغَ إِلَيْهَا ، مُتَّهَمَةٌ لَا ثِقَةَ بِهَا ، طَبِيْعَةٌ يَتَحَوَّلُ كُلُّ شَيْءٍ فِيْهَا إِلَىٰ أَثَرٍ مِنْهَا كَمَا يَتَحَوَّلُ مَاءُ ٱلشَّجَرِ فِي ٱلْعُوْدِ ٱلرَّطْبِ ٱلْمُشْتَعِلِ إِلَىٰ دُخَانٍ أَسْوَدَ ! .

* * *

(١) كَلِمَةٌ وَضَعْنَاهَا عَلَىٰ قِيَاسِ تُحْتَقَبُ .

يَرْجِعُ هَـٰذَا ٱلْخَلْطُ فِيْ رَأْيِيْ إِلَىٰ سَبَبٍ وَاحِدٍ : هُوَ خُلُوُّ ٱلْعَصْرِ مِنْ إِمَامٍ بِٱلْمَعْنَىٰ ٱلْحَقِيْقِيِّ يَلْتَقِيْ عَلَيْهِ ٱلإِجْمَاعُ وَيَكُوْنُ مِلْءَ ٱلدَّهْرِ فِيْ حِكْمَتِهِ وَعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ وَلِسَانِهِ وَمَنَاقِبِهِ وَشَمَائِلِهِ ؛ فَإِنَّ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلإِمَامِ يُخَصُّ دَائِمًا بِٱلإِرَادَةِ ٱلَّتِيْ لَيْسَ لَهَا إِلَّا ٱلنَّصْرُ وَٱلْغَلَبَةُ ، وَٱلَّتِيْ تُعْطِي ٱلْقُوَّةَ عَلَىٰ قَتْلِ ٱلصَّغَائِرِ وَٱلسَّفَاسِفِ ؛ وَهُوَ إِذَا أُلْقِيَ فِي ٱلْمِيْزَانِ عِنْدَ ٱخْتِلَافِ ٱلرَّأْيِ ، وُضِعَ فِيْهِ بِٱلْجُمْهُوْرِ ٱلْكَبِيْرِ مِنْ أَنْصَارِهِ وَٱلْمُعْجَبِيْنَ بِآدَابِهِ ، وَبِٱلسَّوَادِ ٱلْغَالِبِ مِنْ كُلِّ ٱلْفَاعِلِيَّاتِ ٱلْمُحِيْطَةِ بِهِ وَٱلْمُنْجَذِبَةِ إِلَيْهِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَتَهَيَّأُ قُوَّةُ ٱلتَّرْجِيْحِ وَيَتَعَيَّنُ ٱلْيَقِيْنُ وَٱلشَّكُّ ؛ وَٱلْمِيْزَانُ ٱلْيَوْمَ فَارِغٌ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ فَلَا يُرَجِّحُ وَلَا يُعَيِّنُ .

وَمَكَانَةُ هَـٰذَا ٱلإِمَامِ تَحُدُّ ٱلأَمْكِنَةَ ، وَمِقْدَارُهُ يَزِنُ ٱلْمَقَادِيْرَ ، فَيَكُوْنُ هُوَ ٱلْمَنْطِقَ ٱلإِنْسَانِيَّ فِيْ أَكْثَرِ ٱلْخِلَافِ ٱلإِنْسَانِيِّ : تَقُوْمُ بِهِ ٱلْحُجَّةُ ، فَتَلْزَمُ وَإِنْ أَنْكَرَهَا ٱلْمُنْكِرُ ، وَتَمْضِيْ وَإِنْ عَانَدَ فِيْهَا ٱلْمُعَانِدُ ، وَيُؤْخَذُ بِهَا وَإِنْ أَصَرَّ ٱلْمُصِرُّ عَلَىٰ غَيْرِهَا ؛ لِأَنَّ بِٱلإِجْمَاعِ عَلَى ٱلْقِيَاسِ يَتَبَيَّنُ ٱلتَّطَرُّفُ فِي ٱلزِّيَادَةِ أَوِ ٱلتَّقْصِيْرِ ، وَٱلإِجْمَاعُ إِذَا ضَرَبَ ضَرَبَ ٱلْمَعْصِيَةَ بِٱلطَّاعَةِ ، وَٱلزَّيْغَ بِٱلاسْتِقَامَةِ ، وَٱلْعِنَادَ بِٱلتَّسْلِيْمِ ؛ فَيَخْرُجُ مَنْ يَخْرُجُ وَعَلَيْهِ وَسْمُهُ ، وَيَزِيْغُ مَنْ يَزِيْغُ وَفِيْهِ صِفَتُهُ ، وَيُصِرُّ ٱلْمُكَابِرُ وَٱسْمُهُ ٱلْمُكَابِرُ لَيْسَ غَيْرُ ، وَإِنْ هُوَ تَكَذَّبَ وَتَأَوَّلَ ، وَإِنْ زَعَمَ مَا هُوَ زَاعِمٌ .

وَلِكُلِّ ٱلْقَوَاعِدِ شَوَاذُّ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْقَاعِدَةَ هِيَ إِمَامُ بَابِهَا ؛ فَمَا مِنْ شَاذٍّ يَحْسَبُ نَفْسَهُ مُنْطَلِقًا مُخَلًّىٰ ، إِلَّا هُوَ مَحْدُوْدٌ بِهَا مَرْدُوْدٌ إِلَيْهَا ، مُتَّصِلٌ مِنْ أَوْسَعِ جِهَاتِهِ بِأَضْيَقِ جِهَاتِهِ ؛ حَتَّىٰ مَا يَعْرِفُ أَنَّهُ شَاذٌّ إِلَّا بِمَا تُعْرَفُ بِهِ أَنَّهَا قَاعِدَةٌ ، فَيَكُوْنُ شَأْنُهُ فِيْ نَفْسِهِ بِمَا تُعَيِّنُ هِيَ لَهُ عَلَىٰ مَكْرَهَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ .

وَٱلإِمَامُ يَنْبُتُ فِيْ آدَابِ عَصْرِهِ فِكْرًا وَرَأْيًا ، وَيَزِيْدُ فِيْهَا قُوَّةً وَإِبْدَاعًا ، وَيُزَيِّنُ مَاضِيَهَا بِأَنَّهُ فِيْ نِهَايَتِهِ ، وَمُسْتَقْبَلَهَا بِأَنَّهُ فِيْ بِدَايَتِهِ ، فَيَكُوْنُ كَٱلتَّعْدِيْلِ بَيْنَ ٱلأَزْمِنَةِ مِنْ جِهَةٍ ، وَٱلانْتِقَالِ فِيْهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ ؛ لِأَنَّ هَـٰذَا ٱلإِمَامَ إِنَّمَا يُخْتَارُ لإِظْهَارِ قُوَّةِ ٱلْوُجُوْدِ ٱلإِنْسَانِيِّ مِنْ بَعْضِ وُجُوْهِهَا وَإِثْبَاتِ شُمُوْلِهَا وَإِحَاطَتِهَا كَأَنَّهُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ ٱلْجِنْسِ يَأْنَسُ ٱلْجِنْسُ فِيْهَا إِلَىٰ كَمَالِهِ ٱلْبَعِيْدِ ، وَيَتَلَقَّىٰ مِنْهُ حُكْمَ ٱلتَّمَامِ عَلَى ٱلنَّقْصِ ، وَحُكْمَ ٱلْقُوَّةِ عَلَى ٱلضَّعْفِ ، وَحُكْمَ ٱلْمَأْمُوْلِ عَلَى ٱلْوَاقِعِ ، وَيَجِدُ فِيْهِ قَوْمُهُ كَمَا يَجِدُوْنَ فِي ٱلْحَقِيْقَةِ ٱلَّتِيْ لَا يُكَابِرُ عِنْدَهَا

مُتَنَطِّعٌ بِتَأْوِيلٍ ، وَفِي ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي لَا يُخَالِفُ عِنْدَهَا مُبْطِلٌ بِعِنَادٍ ؛ وَفِي ٱلشَّرِيعَةِ ٱلَّتِي لَا يَرُوغُ مِنْهَا مُتَعَسِّفٌ بِحِيلَةٍ ، وَلَنْ يَضِلَّ ٱلنَّاسُ فِي حَقٍّ عَرَفُوا حَدَّهُ ، فَإِنَّ مَا وَرَاءَ ٱلْحَدِّ هُوَ ٱلتَّعَدِّي ؛ وَلَنْ يُخْطِئُوا فِي حُكْمٍ أَصَابُوا وَجْهَهُ ، فَإِنَّ مَا عَدَا ٱلْوَجْهَ هُوَ ٱلْخِلَافُ وَٱلْمِرَاءُ .

وَقَدْ طُبِعَ ٱلنَّاسُ فِي بَابِ ٱلْقُدْوَةِ عَلَىٰ غَرِيزَةٍ لَا تَتَحَوَّلُ ؛ فَمَنِ ٱنْفَرَدَ بِٱلْكَمَالِ كَانَ هُوَ ٱلْقُدْوَةَ ، وَمَنْ غَلَبَ كَانَ هُوَ ٱلسَّمْتَ ؛ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِمَّنْ يَقْتَاسُونَ بِهِ وَيَتَوَازَنُونَ فِيهِ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمُوا عَلَىٰ مَرَاشِدِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ ، فَٱلْإِمَامُ كَأَنَّهُ مِيزَانٌ مِنْ عَقْلٍ . فَهُوَ يَتَسَلَّطُ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلنَّاقِصِ وَٱلْوَافِي مِنْ كُلِّ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ ، ثُمَّ لَا خِلَافَ عَلَيْهِ ، إِذْ كَانَتْ فِيهِ أَوْزَانُ ٱلْقُوَىٰ وَزْنًا بَعْدَ وَزْنٍ ، وَكَانَتْ فِيهِ مَنَازِلُ أَحْوَالِهَا مَنْزِلَةً بَعْدَ مَنْزِلَةٍ .

هُوَ إِنْسَانٌ ، تَتَخَيَّرُ بَعْضُ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّامِيَةِ لِتَظْهَرَ فِيهِ بِأُسْلُوبٍ عَمَلِيٍّ ، فَيَكُونُ فِي قَوْمِهِ ضَرْبًا مِنَ ٱلتَّرْبِيَةِ وَٱلتَّعْلِيمِ بِقَاعِدَةٍ مُنْتَزَعَةٍ مِنْ مِثَالِهَا ، مَشْرُوحَةٍ بِهَـٰذَا ٱلْمِثَالِ نَفْسِهِ ، فَإِلَيْهِ يَرُدُّ ٱلْأَمْرُ[١] فِي ذَٰلِكَ ، وَبِتِلْوِهِ يُتْلَىٰ ، وَعَلَىٰ سَبِيلِهِ يُنْهَجُ ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِٱلْفَنِّ ٱلَّذِي هُوَ إِمَامٌ فِيهِ ، إِلَّا كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَهُوَ مِنْ ذَٰلِكَ مُتَّصِلٌ بِقُوَى ٱلنُّفُوسِ كَأَنَّهُ هِدَايَةٌ فِيهَا ، لِأَنَّهُ بِفَنِّهِ حَكَمَ عَلَيْهَا ، فَيَكُونُ قُوَّةً وَتَنْبِيهًا ، وَتَسْهِيلًا وَإِيضَاحًا ، وَإِبْلَاغًا وَهِدَايَةً ؛ وَيَكُونُ رَجُلًا وَإِنَّهُ لِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ ، وَيَكُونُ فِي نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَفِي ٱلْأَنْفُسِ كُلِّهَا ، وَيُعْطَىٰ مِنْ إِجْلَالِ ٱلنَّاسِ مَا يَكُونُ بِهِ ٱسْمُهُ ، كَأَنَّهُ خَلْقٌ مِنَ ٱلْحُبِّ طَرِيقُهُ عَلَى ٱلْعَقْلِ لَا عَلَى ٱلْقَلْبِ .

وَلَعَلَّ ذَٰلِكَ مِنْ حِكْمَةِ إِقَامَةِ ٱلْخَلِيفَةِ فِي ٱلْإِسْلَامِ وَوُجُوبِ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَا بُدَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ مِنْ ضَوْءٍ فِي لَحْمٍ وَدَمٍ ، وَبَعْضُ مَعَانِي ٱلْخَلِيفَةِ فِي تَنْصِيبِهِ كَبَعْضِ مَعَانِي «ٱلشَّهِيدِ ٱلْمَجْهُولِ» فِي ٱلْأُمَمِ ٱلْمُحَارِبَةِ ٱلْمُنْتَصِرَةِ ٱلْمُتَمَدِّنَةِ : رَمْزُ ٱلتَّقْدِيسِ ، وَمَعْنَى ٱلْمُفَادَاةِ ، وَصَمْتٌ يَتَكَلَّمُ ، وَمَكَانٌ يُوحِي ، وَقُوَّةٌ تُسْتَمَدُّ ، وَٱنْفِرَادٌ يَجْمَعُ ؛ وَحُكْمُ ٱلْوَطَنِيَّةِ عَلَىٰ أَهْلِهَا بِأَحْكَامٍ كَثِيرَةٍ فِي شَرَفِ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ ؛ بَلِ ٱلْحَرْبُ مَخْبُوءَةٌ فِي حُفْرَةٍ ، وَٱلنَّصْرُ مُغَطًّى بِقَبْرٍ ؛ بَلِ ٱلْمَجْهُولُ ٱلَّذِي فِيهِ كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ .

* * *

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : «ٱلْأُمُورُ» بَدَلًا مِنْ : «ٱلْأَمْرُ» .

فَعَصْرُنَا هَـٰذَا مُضْطَرِبٌ مُخْتَلٌّ ، إِذْ لَا إِمَامَ فِيهِ يَجْتَمِعُ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ ، وَإِذْ كُلُّ مَنْ يَزْعُمُ نَفْسَهُ إِمَامًا هُوَ مِنْ بَعْضِ جِهَاتِهِ كَأَنَّهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَلَـٰكِنْ بِغَيْرِ فِقْهٍ !

وَلَعَمْرِي مَا نَشَأَ قَوْلُهُمْ «ٱلْجَدِيدُ وَٱلْقَدِيمُ» إِلَّا لِأَنَّ هَـٰهُنَا مَوْضِعًا خَالِيًا يُظْهِرُ خَلَاؤُهُ مَكَانَ ٱلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلنَّاحِيَتَيْنِ وَيَجْعَلُ جِهَةً تَنْمَازُ[١] مِنْ جِهَةٍ ، فَمُنْذُ مَاتَ ٱلْإِمَامُ ٱلْكَبِيرُ ٱلشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُهُ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ جَرَتْ أَحْدَاثٌ ، وَنَتَأَتْ رُؤُوسٌ ، وَزَاغَتْ طَبَائِعُ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ رَجُلٌ بَلْ رُفِعَ قُرْآنٌ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي ٱلْأَصْلِ : «تَنْحَازُ» بَدَلًا مِنْ : «تَنْمَازُ» .

ٱلْأَدَبُ وَٱلْأَدِيبُ (*)(١)

إِذَا ٱعْتَبَرْتَ ٱلْخَيَالَ فِي ٱلذَّكَاءِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَأَوْلَيْتَهُ دِقَّةَ ٱلنَّظَرِ وَحُسْنَ ٱلتَّمْيِيزِ ، لَمْ تَجِدْهُ فِي ٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا تَقْلِيدًا مِنَ ٱلنَّفْسِ لِلْأُلُوهِيَّةِ بِوَسَائِلَ عَاجِزَةٍ مُنْقَطِعَةٍ ، قَادِرَةٍ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلْوَهْمِ بِمِقْدَارِ عَجْزِهَا عَنِ ٱلْإِيجَادِ وَٱلتَّحْقِيقِ .

وَهَٰذِهِ ٱلنَّفْسُ ٱلْبَشَرِيَّةُ ٱلْآتِيَةُ مِنَ ٱلْمَجْهُولِ فِي أَوَّلِ حَيَاتِهَا ، وَٱلرَّاجِعَةُ إِلَيْهِ آخِرَ حَيَاتِهَا ، وَٱلْمُسَدَّدَةُ فِي طَرِيقِهِ مُدَّةَ حَيَاتِهَا ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَقَرَّرَ فِي خَيَالِهَا أَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْمَوْجُودَ قَدِ ٱنْتَهَى بِوُجُودِهِ ، وَلَا تَرْضَى طَبِيعَتُهَا بِمَا يَنْتَهِي ؛ فَهِيَ لَا تَتَعَاطَى ٱلْمَوْجُودَ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَيَالِهَا عَلَى أَنَّهُ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ فَمَا يُبْدَأُ ، وَتَمَّ فَمَا يُزَادُ ، وَخَلَدَ فَلَا يَتَحَوَّلُ ؛ بَلْ لَا تَزَالُ تَضْرِبُ ظَنَّهَا وَتُصَرِّفُ وَهْمَهَا فِي كُلِّ مَا تَرَاهُ أَوْ يَتَلَجْلَجُ فِي خَاطِرِهَا ، فَلَا تَبْرَحُ تَتَلَمَّحُ فِي كُلِّ وُجُودٍ غَيْبًا ، وَتَكْشِفُ مِنَ ٱلْغَامِضِ ، وَتَزِيدُ فِي غُمُوضِهِ ، وَتَجْرِي دَأْبًا عَلَى مَجَارِيهَا ٱلْخَيَالِيَّةِ ٱلَّتِي تُوثِقُ صِلَتَهَا بِٱلْمَجْهُولِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَا بُدَّ فِي أَمْرِهَا مَعَ ٱلْمَوْجُودِ مِمَّا لَا وُجُودَ لَهُ ، تَتَعَلَّقُ بِهِ وَتَسْكُنُ إِلَيْهِ ؛ وَعَلَى ذَٰلِكَ لَا بُدَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ـ مَعَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي لَهُ فِي ٱلْحَقِّ ـ مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي لَهُ فِي ٱلْخَيَالِ ؛ وَهَا هُنَا مَوْضِعُ ٱلْأَدَبِ وَٱلْبَيَانِ فِي طَبِيعَةِ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، فَكِلَاهُمَا طَبِيعِيٌّ فِيهَا كَمَا تَرَى .

وَإِذَا قِيلَ ٱلْأَدَبُ ، فَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ ٱلْبَيَانِ ؛ لِأَنَّ ٱلنَّفْسَ تَخْلُقُ فَتُصَوِّرُ فَتُحْسِنُ ٱلصُّورَةَ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ تَمَامُ ٱلتَّرْكِيبِ فِي مَعْرِضِهِ وَجَمَالِ صُورَتِهِ وَدِقَّةِ لَمَحَاتِهِ ؛ بَلْ يَنْزِلُ ٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يَلْبَسُهُ مَنْزِلَةَ ٱلنُّضْجِ مِنَ ٱلثَّمَرَةِ وَحْدَهَا قَبْلَ ٱلنُّضْجِ شَيْئًا مُسَمًّى أَوْ مُتَمَيِّزًا بِنَفْسِهِ ، فَلَنْ تَكُونَ بِغَيْرِ ٱلنُّضْجِ شَيْئًا تَامًّا وَلَا صَحِيحًا ، وَمَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَسْتَوْفِيَ كَمَالَ عُمْرِهَا ٱلْأَخْضَرِ ٱلَّذِي هُوَ بَيَانُهَا وَبَلَاغَتُهَا .

(*) « الرسالة » العدد : ١١٠ ، ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ = ١٢ أغسطس/آب ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٢٨٣ ـ ١٢٨٧ .

(١) أَنْظُرْ « عَوْدٌ عَلَىٰ بَدْءٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » . سَعِيد ٱلْعُرْيَان .

وَهَٰذِهِ مَسْأَلَةٌ كَيْفَمَا تَنَاوَلْتَهَا فَهِيَ هِيَ حَتَّى تُمْضِيَهَا عَلَى هَٰذَا ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي رَأَيْتَ فِي ٱلثَّمَرَةِ وَنُضْجِهَا ؛ فَإِنَّ ٱلْبَيَانَ صِنَاعَةُ ٱلْجَمَالِ فِي شَيْءٍ جَمَالُهُ هُوَ مِنْ فَائِدَتِهِ ، وَفَائِدَتُهُ مِنْ جَمَالِهِ ؛ فَإِذَا خَلَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْتَحَقَ بِغَيْرِهِ ، وَعَادَ بَابًا مِنَ ٱلِاسْتِعْمَالِ بَعْدَ أَنْ كَانَ بَابًا مِنَ ٱلتَّأْثِيرِ ؛ وَصَارَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ حَالَيْهِ كَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْفَاكِهَةِ إِذْ هِيَ بَابٌ مِنَ ٱلنَّبَاتِ ، وَبَيْنَ ٱلْفَاكِهَةِ إِذْ هِيَ بَابٌ مِنَ ٱلْخَمْرِ ؛ وَلِهَٰذَا كَانَ ٱلْأَصْلُ فِي ٱلْأَدَبِ ٱلْبَيَانَ وَٱلْأُسْلُوبَ فِي جَمِيعِ لُغَاتِ ٱلْفِكْرِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ، لِأَنَّهُ كَذَٰلِكَ فِي طَبِيعَةِ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ .

فَٱلْغَرَضُ ٱلْأَوَّلُ لِلْأَدَبِ ٱلْمُبِينِ أَنْ يَخْلُقَ لِلنَّفْسِ دُنْيَا ٱلْمَعَانِي ٱلْمُلَائِمَةِ لِتِلْكَ ٱلنَّزْعَةِ ٱلثَّابِتَةِ فِيهَا إِلَى ٱلْمَجْهُولِ وَإِلَى مَجَازِ ٱلْحَقِيقَةِ ، وَأَنْ يُلْقِيَ ٱلْأَسْرَارَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمَكْشُوفَةِ بِمَا يَتَخَيَّلُ فِيهَا ، وَيَرُدَّ ٱلْقَلِيلَ مِنَ ٱلْحَيَاةِ كَثِيرًا وَافِيًا بِمَا يُضَاعِفُ مِنْ مَعَانِيهِ ، وَيَتْرُكَ ٱلْمَاضِيَ مِنْهَا ثَابِتًا قَارًّا بِمَا يُخَلِّدُ مِنْ وَصْفِهِ ، وَيَجْعَلَ ٱلْمُؤْلِمَ مِنْهَا لَذًّا خَفِيفًا بِمَا يَبُثُّ فِيهِ مِنَ ٱلْعَاطِفَةِ ، وَٱلْمَمْلُولَ مُمْتِعًا حُلْوًا بِمَا يَكْشِفُ فِيهِ مِنَ ٱلْجَمَالِ وَٱلْحِكْمَةِ ؛ وَمَدَارُ ذَٰلِكَ كُلِّهِ عَلَى إِيتَاءِ ٱلنَّفْسِ لَذَّةَ ٱلْمَجْهُولِ ، ٱلَّتِي هِيَ فِي نَفْسِهَا لَذَّةٌ مَجْهُولَةٌ أَيْضًا ؛ فَإِنَّ هَٰذِهِ ٱلنَّفْسَ طُلَعَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ ، لَا تَبْتَغِي مَجْهُولًا صِرْفًا وَلَا مَعْلُومًا صِرْفًا ، كَأَنَّهَا مُدْرِكَةٌ بِفِطْرَتِهَا أَنْ لَيْسَ فِي ٱلْكَوْنِ صَرِيحٌ مُطْلَقٌ وَلَا خَفِيٌّ مُطْلَقٌ ؛ وَإِنَّمَا تَبْتَغِي حَالَةً مُلَائِمَةً بَيْنَ هَٰذَيْنِ ، يَثُورُ فِيهَا قَلَقٌ أَوْ يَسْكُنُ مِنْهَا قَلَقٌ .

وَأَشْوَاقُ ٱلنَّفْسِ هِيَ مَادَّةُ ٱلْأَدَبِ ؛ فَلَيْسَ يَكُونُ أَدَبًا إِلَّا إِذَا وَضَعَ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِي لَيْسَ لَهَا مَعْنًى ، أَوْ كَانَ مُتَّصِلًا بِسِرِّ هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ فَيَكْشِفُ عَنْهُ أَوْ يُومِئُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ، أَوْ غَيَّرَ لِلنَّفْسِ هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ تَغْيِيرًا يَجِيءُ طِبَاقًا لِغَرَضِهَا وَأَشْوَاقِهَا ؛ فَإِنَّهُ كَمَا يَرْحَلُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ جَوٍّ إِلَى جَوِّ غَيْرِهِ ، يَنْقُلُهُ ٱلْأَدَبُ مِنْ حَيَاتِهِ ٱلَّتِي لَا تَخْتَلِفُ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى ، فِيهَا شُعُورُهَا وَلَذَّتُهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَكَانٌ وَلَا زَمَانٌ ؛ حَيَاةٌ كَمُلَتْ فِيهَا أَشْوَاقُ ٱلنَّفْسِ ، لِأَنَّ فِيهَا ٱللَّذَّاتِ وَٱلْآلَامَ بِغَيْرِ ضَرُورَاتٍ وَلَا تَكَالِيفَ ؛ وَلَعَمْرِي مَا جَاءَتِ ٱلْجَنَّةُ وَٱلنَّارُ فِي ٱلْأَدْيَانِ عَبَثًا ؛ فَإِنَّ خَالِقَ ٱلنَّفْسِ بِمَا رَكَّبَهُ فِيهَا مِنَ ٱلْعَجَائِبِ ، لَا يَحْكُمُ ٱلْعَقْلُ أَنَّهُ قَدْ أَتَمَّ خَلْقَهَا إِلَّا بِخَلْقِ ٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ مَعًا ؛ إِذْ هُمَا ٱلصُّورَتَانِ ٱلدَّائِمَتَانِ ٱلْمُتَكَافِئَتَانِ لِأَشْوَاقِهَا ٱلْخَالِدَةِ إِنْ هِيَ ٱسْتَقَامَتْ مُسَدَّدَةً أَوِ ٱنْعَكَسَتْ حَائِلَةً .

وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّ ٱلنَّفْسَ لَا تَتَحَقَّقُ مِنْ حُرِّيَّتِهَا وَلَا تَنْطَلِقُ ٱنْطِلَاقَتَهَا ٱلْخَالِدَةَ فَتُحِسُّ وَحْدَةَ ٱلشُّعُورِ وَوَحْدَةَ ٱلْكَمَالِ ٱلْأَسْمَىٰ ـ إِلَّا فِي سَاعَاتٍ وَفَتَرَاتٍ تَنْسَلُّ فِيهَا مِنْ زَمَنِهَا وَعَيْشِهَا وَنَقَائِصِهَا وَٱضْطِرَابِهَا إِلَىٰ (مِنْطَقَةٍ حِيَادٍ) خَارِجَةٍ وَرَاءَ ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ ؛ فَإِذَا هَبَطَتْهَا ٱلنَّفْسُ ، فَكَأَنَّمَا ٱنْتَقَلَتْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱسْتَرْوَحَتِ ٱلْخُلْدَ ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلْمِنْطَقَةُ ٱلسِّحْرِيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي أَرْبَعَةٍ : حَبِيبٍ فَاتِنٍ مَعْشُوقٍ أُعْطِيَ قُوَّةَ سِحْرِ ٱلنَّفْسِ ؛ فَهِيَ تَنْسَىٰ بِهِ ؛ وَصَدِيقٍ مَحْبُوبٍ وَفِيٍّ أُوتِيَ قُوَّةَ جَذْبِ ٱلنَّفْسِ ، فَهِيَ تَنْسَىٰ عِنْدَهُ ؛ وَقِطْعَةٍ أَدَبِيَّةٍ آخِذَةٍ ، فَهِيَ سَاحِرَةٌ كَٱلْحَبِيبِ أَوْ جَاذِبَةٌ كَٱلصَّدِيقِ ؛ وَمَنْظَرٍ فَنِّيٍّ رَائِعٍ ، فَفِيهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْءٌ .

وَهَـٰذِهِ كُلُّهَا تُنْسِي ٱلْمَرْءَ زَمَنَهُ مُدَّةً تَطُولُ وَتَقْصُرُ ، وَذَٰلِكَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تُصِيبُ مِنْهَا أَسَالِيبَ رُوحِيَّةً لِٱتِّصَالِهَا هُنَيْهَةً بِٱلرُّوحِ ٱلْأَزَلِيِّ فِي لَحَظَاتٍ مِنَ ٱلشُّعُورِ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَكَأَنَّهَا مِنَ ٱلْأَزَلِيَّةِ ، وَمِنْ ثَمَّ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُقَرِّرَ أَنَّ أَسَاسَ ٱلْفَنِّ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ هُوَ ثَوْرَةُ ٱلْخَالِدِ فِي ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْفَانِي فِيهِ ، وَأَنَّ تَصْوِيرَ هَـٰذِهِ ٱلثَّوْرَةِ فِي أَوْهَامِهَا وَحَقَائِقِهَا بِمِثْلِ ٱخْتِلَاجَاتِهَا فِي ٱلشُّعُورِ وَٱلتَّأْثِيرِ ـ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْأَدَبِ وَأُسْلُوبُهُ .

ثُمَّ إِنَّ ٱلِٱتِّسَاقَ وَٱلْخَيْرَ وَٱلْحَقَّ وَٱلْجَمَالَ ـ وَهِيَ ٱلَّتِي تَجْعَلُ لِلْحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ أَسْرَارَهَا ـ أُمُورٌ غَيْرُ طَبِيعِيَّةٍ فِي عَالَمٍ يَقُومُ عَلَى ٱلِٱضْطِرَابِ وَٱلْأَثَرَةِ وَٱلنِّزَاعِ وَٱلشَّهَوَاتِ ؛ فَمِنْ ذَٰلِكَ يَأْتِي ٱلشَّاعِرُ وَٱلْأَدِيبُ وَذُو ٱلْفَنِّ عِلَاجًا مِنْ حِكْمَةِ ٱلْحَيَاةِ لِلْحَيَاةِ ، فَيَبْدَعُونَ لِتِلْكَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ عَالَمَهَا ٱلَّذِي تَكُونُ طَبِيعِيَّةً فِيهِ ، وَهُوَ عَالَمٌ أَرْكَانُهُ ٱلِٱتِّسَاقُ فِي ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَجْرِي فِيهَا ؛ وَٱلْجَمَالُ فِي ٱلتَّعْبِيرِ ٱلَّذِي يَتَأَدَّىٰ بِهِ ؛ وَٱلْحَقُّ فِي ٱلْفِكْرِ ٱلَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ ؛ وَٱلْخَيْرُ فِي ٱلْغَرَضِ ٱلَّذِي يُسَاقُ لَهُ ؛ وَيَكُونُ فِي ٱلْأَدَبِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْكَمَالِ بِحَسَبِ مَا يَجْتَمِعُ لَهُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ ، وَلَا مِعْيَارَ أَدَقُّ مِنْهَا إِنْ ذَهَبْتَ تَعْتَبِرُهُ بِٱلنَّظَرِ وَٱلرَّأْيِ ، فَفِي عَمَلِ ٱلْأَدِيبِ تَخْرُجُ ٱلْحَقِيقَةُ مُضَافًا إِلَيْهَا ٱلْفَنُّ ، وَيَجِيءُ ٱلتَّعْبِيرُ مَزِيدًا فِيهِ ٱلْجَمَالُ ، وَتَتَمَثَّلُ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلْجَامِدَةُ خَارِجَةً مِنْ نَفْسٍ حَيَّةٍ ، وَيَظْهَرُ ٱلْكَلَامُ وَفِيهِ رِقَّةُ حَيَاةِ ٱلْقَلْبِ وَحَرَارَتُهَا وَشُعُورُهَا وَٱنْتِظَامُهَا وَدَقُّهَا ٱلْمُوسِيقِيُّ ، وَتَلْبَسُ ٱلشَّهَوَاتُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ شَكْلَهَا ٱلْمُهَذَّبَ لِتَكُونَ بِسَبَبٍ مِنْ تَقْرِيرِ ٱلْمَثَلِ ٱلْأَعْلَىٰ ، ٱلَّذِي هُوَ ٱلسِّرُّ فِي ثَوْرَةِ ٱلْخَالِدِ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْفَانِي ، وَٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ مِنَ ٱلْأَدَبِ وَٱلْفَنِّ مَعًا ، وَبِهَـٰذَا يَهَبُ لَكَ ٱلْأَدَبُ تِلْكَ ٱلْقُوَّةَ

ٱلْغَامِضَةَ ٱلَّتِي تَتَّسِعُ بِكَ حَتَّىٰ تَشْعُرَ بِٱلدُّنْيَا وَأَحْدَاثِهَا مَارَّةً مِنْ خِلَالِ نَفْسِكَ ، وَتُحِسَّ ٱلْأَشْيَاءَ كَأَنَّهَا ٱنْتَقَلَتْ إِلَىٰ ذَاتِكَ مِنْ ذَوَاتِهَا ، وَذَٰلِكَ سِرُّ ٱلْأَدِيبِ ٱلْعَبْقَرِيِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَرَى ٱلرَّأْيَ بِٱلِٱعْتِقَابِ[1] وَٱلِٱجْتِهَادِ كَمَا يَرَاهُ ٱلنَّاسُ ، وَإِنَّمَا يُحِسُّ بِهِ ، فَلَا يَقَعُ لَهُ رَأْيُهُ بِٱلْفِكْرِ ، بَلْ يُلْهَمُهُ إِلْهَامًا ، وَلَيْسَ يُوَاتِيهِ ٱلْإِلْهَامُ إِلَّا مِنْ كَوْنِ ٱلْأَشْيَاءِ تَمُرُّ فِيهِ بِمَعَانِيهَا وَتَعْبُرُهُ كَمَا تَعْبُرُ ٱلسُّفُنُ ٱلنَّهْرَ ، فَيُحِسُّ أَثَرَهَا فِيهِ فَيُلْهَمُ مَا يُلْهَمُ ، وَيَحْسَبُهُ ٱلنَّاسُ نَافِذًا بِفِكْرِهِ مِنْ خِلَالِ ٱلْكَوْنِ ، عَلَىٰ حِينَ أَنَّ حَقَائِقَ ٱلْكَوْنِ هِيَ ٱلنَّافِذَةُ مِنْ خِلَالِهِ .

وَلَوْ أَرَدْتَ أَنْ تُعَرِّفَ ٱلْأَدِيبَ مَنْ هُوَ ، لَمَا وَجَدْتَ أَجْمَعَ وَلَا أَدَقَّ فِي مَعْنَاهُ مِنْ أَنْ تُسَمِّيَهُ ٱلْإِنْسَانَ ٱلْكَوْنِيَّ ، وَغَيْرُهُ هُوَ ٱلْإِنْسَانُ فَقَطْ ، وَمِنْ ذَٰلِكَ مَا يَبْلُغُ مِنْ عُمْقِ تَأَثُّرِهِ بِجَمَالِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَعَانِيهَا ، ثُمَّ مَا يَقَعُ مِنِ ٱتِّصَالِ ٱلْمَوْجُودَاتِ بِهِ بِآلَامِهَا وَأَفْرَاحِهَا ؛ إِذْ كَانَتْ فِيهِ مَعَ خَاصِّيَّةِ ٱلْإِنْسَانِ خَاصِّيَّةُ ٱلْكَوْنِ ٱلشَّامِلِ . فَٱلطَّبِيعَةُ تُثْبِتُ بِجَمَالِ فَنِّهِ ٱلْبَدِيعِ أَنَّهُ مِنْهَا ، وَتَدُلُّ ٱلسَّمَاءُ بِمَا فِي صِنَاعَتِهِ مِنَ ٱلْوَحْيِ وَٱلْأَسْرَارِ أَنَّهُ كَذَٰلِكَ مِنْهَا ، وَتُبَرْهِنُ ٱلْحَيَاةُ بِفَلْسَفَتِهِ وَآرَائِهِ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا مِنْهَا ، وَهَـٰذَا وَذَاكَ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلشُّمُولُ ٱلَّذِي لَا حَدَّ لَهُ ، وَٱلِٱتِّسَاعُ ٱلَّذِي كُلُّ آخِرٍ فِيهِ لِشَيْءٍ أَوَّلٌ فِيهِ لِشَيْءٍ .

وَهُوَ إِنْسَانٌ يَدُلُّهُ ٱلْجَمَالُ عَلَىٰ نَفْسِهِ لِيَدُلَّ غَيْرَهُ عَلَيْهِ ، وَبِذَٰلِكَ زِيدَ عَلَىٰ مَعْنَاهُ مَعْنًى ، وَأُضِيفَ إِلَيْهِ فِي إِحْسَاسِهِ قُوَّةُ إِنْشَاءِ ٱلْإِحْسَاسِ فِي غَيْرِهِ ، فَأَسَاسُ عَمَلِهِ دَائِمًا أَنْ يَزِيدَ عَلَىٰ كُلِّ فِكْرَةٍ صُورَةً لَهَا ، وَيَزِيدَ عَلَىٰ كُلِّ صُورَةٍ فِكْرَةً فِيهَا ، فَهُوَ يُبْدِعُ ٱلْمَعَانِيَ لِلْأَشْكَالِ ٱلْجَامِدَةِ فَيُوجِدُ ٱلْحَيَاةَ فِيهَا ، وَيُبْدِعُ ٱلْأَشْكَالَ لِلْمَعَانِي ٱلْمُجَرَّدَةِ فَيُوجِدُهَا هِيَ فِي ٱلْحَيَاةِ ، فَكَأَنَّهُ خُلِقَ لِيَتَلَقَّى ٱلْحَقِيقَةَ وَيُعْطِيَهَا لِلنَّاسِ وَيَزِيدَهُمْ فِيهَا ٱلشُّعُورَ بِجَمَالِهَا ٱلْفَنِّيِّ ، وَبِٱلْأُدَبَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ تَنْمُو مَعَانِي ٱلْحَيَاةِ ، كَأَنَّمَا أَوْجَدَتْهُمُ ٱلْحِكْمَةُ لِتَنْقُلَ بِهِمُ ٱلدُّنْيَا مِنْ حَالَةٍ إِلَىٰ حَالَةٍ ، وَكَأَنَّ هَـٰذَا ٱلْكَوْنَ ٱلْعَظِيمَ يَمُرُّ فِي أَدْمِغَتِهِمْ لِيُحَقِّقَ نَفْسَهُ .

وَمُشَارَكَةُ ٱلْعُلَمَاءِ لِلْأُدَبَاءِ تُوجِبُ أَنْ يَتَمَيَّزَ ٱلْأَدِيبُ بِٱلْأُسْلُوبِ ٱلْبَيَانِيِّ ، إِذْ هُوَ كَٱلطَّابَعِ عَلَى ٱلْعَمَلِ ٱلْفَنِّيِّ ، وَكَٱلشَّهَادَةِ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ لِهَـٰذَا ٱلْإِنْسَانِ ٱلْمَوْهُوبِ ٱلَّذِي جَاءَتْ

(١) ٱلِٱعْتِقَابُ : إِطَالَةُ ٱلنَّظَرِ وَكَدُّ ٱلْفِكْرِ .

مِنْ طَرِيقِهِ ، ثُمَّ لِأَنَّ ٱلْأُسْلُوبَ هُوَ تَخْصِيصٌ لِنَوْعٍ مِنَ ٱلذَّوْقِ وَطَرِيقَةٍ مِنَ ٱلْإِدْرَاكِ كَأَنَّ ٱلْجَمَالَ يَقُولُ بِٱلْأُسْلُوبِ : إِنَّ هَـٰذَا هُوَ عَمَلُ فُلَانٍ .

وَفَصْلُ مَا بَيْنَ ٱلْعَالِمِ وَٱلْأَدِيبِ ، أَنَّ ٱلْعَالِمَ فِكْرَةٌ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْأَدِيبَ فِكْرَةٌ وَأُسْلُوبُهَا ، فَٱلْعُلَمَاءُ هُمْ أَعْمَالٌ مُتَّصِلَةٌ مُتَشَابِهَةٌ يُشَارُ إِلَيْهِمْ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، عَلَىٰ حِينٍ يُقَالُ فِي كُلِّ أَدِيبٍ عَبْقَرِيٍّ : هَـٰذَا هُوَ ، هَـٰذَا وَحْدَهُ . وَعِلْمُ ٱلْأَدِيبِ هُوَ ٱلنَّفْسُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ بِأَسْرَارِهَا ٱلْمُتَّجِهَةِ إِلَى ٱلطَّبِيعَةِ ، وَٱلطَّبِيعَةُ بِأَسْرَارِهَا ٱلْمُتَّجِهَةِ إِلَى ٱلنَّفْسِ ، وَلِذَٰلِكَ فَمَوْضِعُ ٱلْأَدِيبِ مِنَ ٱلْحَيَاةِ مَوْضِعُ فِكْرَةٍ حُدُودُهَا مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهَا ٱلْأَسْرَارُ .

وَإِذَا رَأَى ٱلنَّاسُ هَـٰذِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تَرْكِيبًا تَامًّا قَائِمًا بِحَقَائِقِهِ وَأَوْصَافِهِ ، فَٱلْأَدِيبُ ٱلْعَبْقَرِيُّ لَا يَرَاهَا إِلَّا أَجْزَاءً ، كَأَنَّمَا هُوَ يَشْهَدُ خَلْقَهَا وَتَرْكِيبَهَا ، وَكَأَنَّمَا أَمْرُهَا فِي (مَعْمَلِهِ) ، أَوْ كَأَنَّ ٱللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ دَعَاهُ لِيَرَىٰ فِيهَا رَأْيَهُ . . . وَبِذَٰلِكَ يَجِيءُ ٱلنَّابِغُ مِنْ أَدَبِ ٱلْعَبَاقِرَةِ وَبَعْضُهُ كَٱلْمُقْتَرَحَاتِ لِتَجْمِيلِ ٱلدُّنْيَا وَتَهْذِيبِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَبَعْضُهُ كَٱلْمُوَافَقَةِ وَإِقْرَارِ ٱلْحِكْمَةِ ؛ وَأَسَاسُهُ عَلَىٰ كُلِّ هَـٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلنَّقْدُ ثُمَّ ٱلنَّقْدُ ، وَلَا شَيْءَ غَيْرُ ٱلنَّقْدِ ؛ كَأَنَّ ٱلْقُوَّةَ ٱلْأَزَلِيَّةَ تَقُولُ لِهَـٰذَا ٱلْمُلْهَمِ : أَنْتَ كَلِمَتِي فَقُلْ كَلِمَتَكَ . . .

* * *

وَتَرَى ٱلْجَمَالَ حَيْثُ أَصَبْتَهُ شَيْئًا وَاحِدًا لَا يَكْبُرُ وَلَا يَصْغُرُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحِسَّ بِهِ يَكْبُرُ فِي أُنَاسٍ وَيَصْغُرُ فِي أُنَاسٍ ؛ وَهَا هُنَا يَتَأَلَّهُ ٱلْأَدَبُ ؛ فَهُوَ خَالِقُ ٱلْجَمَالِ فِي ٱلذِّهْنِ ، وَٱلْمُمْكِنُ لِلْأَسْبَابِ ٱلْمُعِينَةِ عَلَىٰ إِدْرَاكِهِ وَتَبَيُّنِ صِفَاتِهِ وَمَعَانِيهِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي يُقَدِّرُ لِهَـٰذَا ٱلْعَالَمِ قِيمَتَهُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ بِإِضَافَةِ ٱلصُّوَرِ ٱلْفِكْرِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ إِلَيْهِ ، وَمُحَاوَلَتِهِ إِظْهَارَ ٱلنِّظَامِ ٱلْمَجْهُولِ فِي مُتَنَاقِضَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ، وَٱلِارْتِفَاعِ بِهَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْوَاقِعِ ٱلْمُنْحَطِّ ٱلْمُجْتَمِعِ مِنْ غَشَاوَةِ ٱلْفِطْرَةِ وَصَوْلَةِ ٱلْغَرِيزَةِ ، وَغَرَارَةِ ٱلطَّبْعِ ٱلْحَيَوَانِيِّ .

وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْأَدَبِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ، فَبِٱضْطِرَارٍ أَنْ تَتَهَذَّبَ فِيهِ ٱلْحَيَاةُ وَتَتَأَدَّبَ ، وَأَنْ يَكُونَ تَسَلُّطُهُ عَلَىٰ بَوَاعِثِ ٱلنَّفْسِ دُرْبَةً لِإِصْلَاحِهَا وَإِقَامَتِهَا ، لَا لِإِفْسَادِهَا وَٱلِانْحِرَافِ بِهَا إِلَى ٱلزَّيْغِ وَٱلضَّلَالَةِ ، وَبِٱضْطِرَارٍ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَدِيبُ مُكَلَّفًا تَصْحِيحَ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَنَفْيَ ٱلتَّزْوِيرِ عَنْهَا ، وَإِخْلَاصَهَا مِمَّا يَلْتَبِسُ بِهَا عَلَىٰ تَتَابُعِ ٱلضَّرُورَاتِ ؛ ثُمَّ تَصْحِيحَ ٱلْفِكْرَةِ

ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِي ٱلْوُجُودِ ، وَنَفْيَ ٱلْوَثَنِيَّةِ عَنْ هَـٰذِهِ ٱلْفِكْرَةِ ، وَٱلسُّمُوَّ بِهَا إِلَىٰ فَوْقٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ فَوْقٍ ، وَدَائِمًا إِلَىٰ فَوْقٍ !

وَإِنَّمَا يُكَلَّفُ ٱلْأَدِيبُ ذَٰلِكَ لِأَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ ، مِنْ خَصَائِصِهِ ٱلتَّمْيِيزُ وَتَقَدُّمُ ٱلنَّظَرِ وَتَسَقُّطُ ٱلْإِلْهَامِ ، وَلِأَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي عَمَلِهِ ٱلْفَنِّيِّ أَلَّا يَبْحَثَ فِي ٱلشَّيْءِ نَفْسِهِ ، وَلَـٰكِنْ فِي ٱلْبَدِيعِ مِنْهُ ؛ وَأَلَّا يَنْظُرَ إِلَىٰ وُجُودِهِ ، بَلْ إِلَىٰ سِرِّهِ ، وَلَا يُعْنَىٰ بِتَرْكِيبِهِ ، بَلْ بِٱلْجَمَالِ فِي تَرْكِيبِهِ ، وَلِأَنَّ مَادَّةَ عَمَلِهِ أَحْوَالُ ٱلنَّاسِ ، وَأَخْلَاقُهُمْ ، وَأَلْوَانُ مَعَايِشِهِمْ ، وَأَحْلَامُهُمْ ، وَمَذَاهِبُ أَخْيِلَتِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ فِي مَعْنَى ٱلْفَنِّ ، وَتَفَاوُتُ إِحْسَاسِهِمْ بِهِ ، وَأَسْبَابُ مَغَاوِيهِمْ وَمَرَاشِدِهِمْ ، يُسَدِّدُ عَلَىٰ كُلِّ ذَٰلِكَ رَأْيَهُ ، وَيُجِيلُ فِيهِ نَظَرَهُ ؛ وَيَخْلِطُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَيُنْفِذُهُ مِنْ حَوَاسِّهِ ، كَأَنَّمَا لَهُ فِي ٱلسَّرَائِرِ ٱلْقَبْضُ وَٱلْبَسْطُ ، وَكَأَنَّهُ وَلِيُّ ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْجُزْءِ ٱلْخَفِيِّ فِي ٱلْإِنْسَانِ ، يَقُومُ عَلَىٰ سِيَاسَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى ٱلْمَثَلِ ٱلْأَعْلَىٰ . وَهَلْ يُخْلَقُ ٱلْعَبْقَرِيُّ إِلَّا كَٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱللهِ لِعِبَادِهِ عَلَىٰ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى ٱلَّذِي هُوَ أَكْمَلُ وَٱلَّذِي هُوَ أَبْدَعُ ، حَتَّىٰ لَا يَيْأَسَ ٱلْعَقْلُ ٱلْإِنْسَانِيُّ وَلَا يَنْخَذِلَ ، فَيَسْتَمِرُّ دَائِبًا فِي طَلَبِ ٱلْكَمَالِ وَٱلْإِبْدَاعِ ٱللَّذَيْنِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا ؟

فَٱلْأَدِيبُ يُشْرِفُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مِنْ بَصِيرَتِهِ ، فَإِذَا وَقَائِعُ ٱلْحَيَاةِ فِي حَذْوٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنِّزَاعِ وَٱلتَّنَاقُضِ ، وَإِذَا هِيَ دَائِبَةٌ فِي مَحْقِ ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، تَارِكَةٌ كُلَّ حَيٍّ مِنَ ٱلنَّاسِ كَأَنَّهُ شَخْصٌ قَائِمٌ مِنْ عَمَلِهِ وَحَوَادِثِهِ وَأَسْبَابِ عَيْشِهِ ؛ فَإِذَا تَلَجْلَجَ ذَٰلِكَ فِي نَفْسِ ٱلْأَدِيبِ ٱتَّجَهَتْ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسُ ٱلْعَالِيَةُ إِلَىٰ أَنْ تَحْفَظَ لِلدُّنْيَا حَقَائِقَ ٱلضَّمِيرِ وَٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْإِيمَانِ وَٱلْفَضِيلَةِ ، وَقَامَتْ حَارِسَةً عَلَىٰ مَا ضَيَّعَ ٱلنَّاسُ ، وَسُخِّرَتْ فِي ذَٰلِكَ تَسْخِيرًا لَا تَمْلِكُ مَعَهُ أَنْ تَأْبَىٰ مِنْهُ ، وَلَا يَسْتَوِي لَهَا أَنْ تُغْمِضَ فِيهِ ؛ وَنُقِلَتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ كُلُّهَا وَوُضِعَتْ عَلَىٰ مَجَازِ طَرِيقِهَا أَيْنَ تَوَجَّهَتْ فَتَأَكَّدَ ٱلْأَمْرُ فِيهَا ، وَوُصِلَ بِهَا ، وَعَلِمَتْ أَنَّهَا مِنْ خَالِصَةِ ٱللهِ ، وَأَنَّ رِسَالَتَهَا لِلْعَالَمِ هِيَ تَقْرِيرُ ٱلْحُبِّ لِلْمُتَعَادِينَ ، وَبَسْطُ ٱلرَّحْمَةِ لِلْمُتَنَازِعِينَ ، وَأَنْ تَجْمَعَ ٱلْكُلَّ عَلَى ٱلْجَمَالِ وَهُوَ لَا يُخْتَلَفُ فِي لَذَّتِهِ ، وَتَصِلَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِيقَةِ وَهِيَ لَا تَتَفَرَّقُ فِي مَوْعِظَتِهَا ، وَتُشْعِرَهُمُ ٱلْحِكْمَةَ وَهِيَ لَا تَتَنَازَعُ فِي مَنَاحِيهَا ؛ فَٱلْأَدَبُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ يُشْبِهُ ٱلدِّينَ : كِلَاهُمَا يُعِينُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى ٱلِاسْتِمْرَارِ فِي عَمَلِهَا ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ ؛ غَيْرَ أَنَّ ٱلدِّينَ يَعْرِضُ لِلْحَالَاتِ ٱلنَّفْسِيَّةِ لِيَأْمُرَ وَيَنْهَىٰ ، وَٱلْأَدَبُ يَعْرِضُ لَهَا لِيَجْمَعَ وَيُقَابِلَ ؛

وَالَّذِيْنُ يُوَجِّهُ ٱلْإِنْسَانَ إِلَىٰ رَبِّهِ وَٱلْأَدَبُ يُوَجِّهُهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ ، وَذَٰلِكَ وَحْيُ ٱللهِ إِلَىٰ ٱلْمَلَكِ إِلَىٰ نَبِيٍّ مُخْتَارٍ ، وَهَـٰذَا وَحْيُ ٱللهِ إِلَىٰ ٱلْبَصِيرَةِ إِلَىٰ إِنْسَانٍ مُخْتَارٍ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلأَدِيْبِ مَثَلٌ أَعْلَىٰ يَجْهَدُ فِيْ تَحْقِيْقِهِ وَيَعْمَلُ فِيْ سَبِيْلِهِ ، فَهُوَ أَدِيْبُ حَالَةٍ مِنَ ٱلْحَالَاتِ ، لَا أَدِيْبُ عَصْرٍ وَلَا أَدِيْبُ جِيلٍ ؛ وَبِذَٰلِكَ وَحْدَهُ كَانَ أَهْلُ ٱلْمَثَلِ ٱلأَعْلَىٰ فِيْ كُلِّ عَصْرٍ هُمُ ٱلأَرْقَامَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ ٱلَّتِيْ يُلْقِيْهَا ٱلْعَصْرُ فِيْ آخِرِ أَيَّامِهِ لِيَحْسُبَ رِبْحَهُ وَخَسَارَتَهُ . . .

لَا يَخْدَعَنَّكَ عَنْ هَـٰذَا أَنْ تَرَىٰ بَعْضَ ٱلْعَبْقَرِيِّيْنَ لَا يُؤْتَىٰ فِيْ أَدَبِهِ أَوْ أَكْثَرِهِ إِلَّا إِلَىٰ ٱلرَّذَائِلِ ، يَتَغَلْغَلُ فِيْهَا ، وَيَتَمَلَّأُ بِهَا ، وَيَكُوْنُ مِنْهَا عَلَىٰ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا ٱلسَّفَلَةُ وَٱلْحَشْوَةُ مِنْ طَغَامِ ٱلنَّاسِ وَرُعَاعِهِمْ ؛ فَإِنَّ هَـٰذَا وَأَضْرَابَهُ مُسَخَّرُوْنَ لِخِدْمَةِ ٱلْفَضِيْلَةِ وَتَحْقِيْقِهَا مِنْ جِهَةِ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلنَّهْيِ ؛ لِيَكُوْنُوْا مَثَلًا وَسَلَفًا وَعِبْرَةً ؛ وَكَثِيْرًا مَا تَكُوْنُ ٱلْمَوْعِظَةُ بِرَذَائِلِهِمْ أَقْوَىٰ وَأَشَدَّ تَأْثِيْرًا مِمَّا هِيَ فِيْ ٱلْفَضَائِلِ ؛ بَلْ هُمْ عِنْدِيْ كَبَعْضِ ٱلأَحْوَالِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ٱلدَّقِيْقَةِ ٱلَّتِيْ يَأْمُرُ فِيْهَا ٱلنَّهْيُ أَقْوَىٰ مِمَّا يَأْمُرُ ٱلأَمْرُ ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا يَكُوْنُ مِنْ قِرَاءَتِكَ مَوْعِظَةَ ٱلْفَضِيْلَةِ ٱلأَدَبِيَّةِ ٱلَّتِيْ تَأْمُرُكَ أَنْ تَكُوْنَ عَفِيْفًا طَاهِرًا ، ثُمَّ مَا يَكُوْنُ مِنْ رُؤْيَتِكَ ٱلْفَاجِرَ ٱلْمُبْتَلَىٰ ٱلْمُشَوَّهَ ٱلْمُتَحَطِّمَ ٱلَّذِيْ يَنْهَاكَ بِصُوْرَتِهِ أَنْ تَكُوْنَ مِثْلَهُ ؛ وَلِهَـٰذِهِ ٱلْحَقِيْقَةِ ٱلْقَوِيَّةِ فِيْ أَثَرِهَا ـ حَقِيْقَةِ ٱلأَمْرِ بِٱلنَّهْيِ ـ يَعْمَدُ ٱلنَّوَابِغُ فِيْ بَعْضِ أَدَبِهِمْ إِلَىٰ صَرْفِ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ عَنْ وَجْهِهَا ، بِعَكْسِ نَتِيْجَةِ ٱلْمَوْقِفِ ٱلَّذِيْ يُصَوِّرُوْنَهُ ، أَوِ ٱلإِحَالَةِ فِيْ ٱلْحَادِثَةِ ٱلَّتِيْ يَصِفُوْنَهَا ؛ فَيَنْتَهِيْ ٱلرَّاهِبُ ٱلتَّقِيُّ فِيْ ٱلْقِصَّةِ مُلْحِدًا فَاجِرًا ، وَتَرْتَدُّ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْبَغِيُّ قِدِّيْسَةً ، وَيَرْجِعُ ٱلابْنُ ٱلْبَرُّ قَاتِلًا مَجْنُوْنًا جُنُوْنَ ٱلدَّمِ ؛ إِلَىٰ كَثِيْرٍ مِمَّا يَجْرِيْ فِيْ هَـٰذَا ٱلنَّسَقِ ، كَمَا تَرَاهُ لِأَنَاطُوْل فرَانس Anotole France وَشِكْسْبِيْر William shakespeare وَغَيْرِهِمَا ، وَمَا كَانَ ذَٰلِكَ عَنْ غَفْلَةٍ مِنْهُمْ وَلَا شَرٍّ ، وَلَـٰكِنَّهُ أُسْلُوْبٌ مِنَ ٱلْفَنِّ ، يُقَابِلُهُ أُسْلُوْبٌ مِنَ ٱلْخَلْقِ ، لِيُبْدِعَ أُسْلُوْبًا مِنَ ٱلتَّأْثِيْرِ ؛ وَكُلُّ ذَٰلِكَ شَاذٌّ مَعْدُوْدٌ يَنْبَغِيْ أَنْ يَنْحَصِرَ وَلَا يَتَعَدَّىٰ ، لِأَنَّهُ وَصْفٌ لِأَحْوَالٍ دَقِيْقَةٍ طَارِئَةٍ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ ، لَا تَعْبِيْرٌ عَنْ حَقَائِقَ ثَابِتَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ فِيْهَا .

وَٱلشَّرُّ فِيْ ٱلْعَبْقَرِيِّ ٱلَّذِيْ تِلْكَ صِفَتُهُ وَذَٰلِكَ أَدَبُهُ ، أَنْ يَعْلُوَ بِٱلرَّذِيْلَةِ . . . فِيْ أُسْلُوْبِهِ وَمَعَانِيْهِ ، آخِذًا بِغَايَةِ ٱلصَّنْعَةِ ، مُتَنَاهِيًا فِيْ حُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ ؛ حَتَّىٰ يُصْبِحَ وَكَأَنَّ ٱلرَّذَائِلَ هِيَ ٱخْتَارَتْ مِنْهُ مُفَسِّرَهَا ٱلْعَبْقَرِيَّ ٱلشَّاذَّ ٱلَّذِيْ يَكُوْنُ فِيْ سُمُوِّ فَنِّهِ ٱلْبَيَانِيِّ هُوَ وَحْدَهُ ٱلطَّرَفَ

ٱلْمُقَابِلَ لِسُمُوِّ ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْفَضِيْلَةِ ، فَيَصْنَعُ ٱلإِلْهَامُ فِيْ هَـٰذَا وَفِيْ هَـٰذَا صُنْعَهُ ٱلْفَنِّيَّ بِطَرِيْقَةٍ بَدِيْعَةِ ٱلتَّأْثِيْرِ ، أَصْلُهَا فِيْ أَدِيْبِ ٱلْفَضِيْلَةِ مَا يُرِيْدُهُ وَيُجَاهِدُ فِيْهِ ، وَفِيْ أَدِيْبِ ٱلرَّذِيْلَةِ مَا يَقُوْدُهُ وَيَنْدَفِعُ إِلَيْهِ ؛ كَأَنَّ مِنْهُمَا إِنْسَانًا صَارَ مَلَكًا يَكْتُبُ ، وَإِنْسَانًا عَادَ حَيَوَانًا يَكْتُبُ . . .

وَإِذَا أَنْتَ مَيَّلْتَ بَيْنَ رَذِيْلَةِ ٱلأَدِيْبِ ٱلْعَبْقَرِيِّ فِيْ فَنِّهِ ، وَرَذِيْلَةِ ٱلأَدِيْبِ ٱلْفَسْلِ ٱلَّذِيْ يَتَشَبَّهُ بِهِ ـ فِيْ ٱلتَّأْلِيْفِ وَٱلرَّأْيِ وَٱلْمُتَابَعَةِ وَٱلْمَذْهَبِ ـ رَأَيْتَ ٱلْوَاحِدَةَ مِنَ ٱلأُخْرَىٰ كَبُكَاءِ ٱلرَّجُلِ ٱلشَّاعِرِ مِنْ بُكَاءِ ٱلرَّجُلِ ٱلْغَلِيْظِ ٱلْجِلْفِ : هَـٰذَا دُمُوْعُهُ أَلَمُهُ ؛ وَذَاكَ دُمُوْعُهُ أَلَمُهُ وَشِعْرُهُ ؛ وَفِيْ كِتَابَةِ هَـٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ مِنَ ٱلْعَبْقَرِيِّيْنَ خَاصَّةً يَتَحَقَّقُ لَكَ أَنَّ ٱلأُسْلُوْبَ هُوَ أَسَاسُ ٱلْفَنِّ ٱلأَدَبِيِّ ؛ وَأَنَّ ٱللَّذَّةَ بِهِ هِيَ عَلَامَةُ ٱلْحَيَاةِ فِيْهِ ؛ إِذْ لَا تَرَىٰ غَيْرَ قِطْعَةٍ أَدَبِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ ، شَاهِدُهَا مِنْ نَفْسِهَا عَلَىٰ أَنَّهَا بِأُسْلُوْبِهَا لَيْسَتْ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ إِلَّا نُكْتَةً نَفْسِيَّةً لِاهْتِيَاجِ ٱلْبَوَاعِثِ فِيْ نُفُوْسِ قُرَّائِهَا ؛ وَأَنَّهَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ هِيَ أَيْضًا مَسْأَلَةٌ مِنْ مَسَائِلِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ مَطْرُوْحَةٌ لِلنَّظَرِ وَٱلْحَلِّ ؛ بِمَا فِيْهَا مِنْ جَمَالِ ٱلْفَنِّ وَدَقَائِقِ ٱلتَّحْلِيْلِ .

* * *

وَٱللَّذَّةُ بِٱلأَدَبِ غَيْرُ ٱلتَّلَهِّيْ بِهِ وَٱتِّخَاذِهِ لِلْعَبَثِ وَٱلْبَطَالَةِ فَيَجِيْءُ مَوْضُوْعًا عَلَىٰ ذَٰلِكَ فَيَخْرُجُ إِلَىٰ أَنْ يَكُوْنَ مَلْهَاةً وَسُخْفًا وَمَضْيَعَةً . فَإِنَّ ٱللَّذَّةَ بِهِ آتِيَةٌ مِنْ جَمَالِ أُسْلُوْبِهِ وَبَلَاغَةِ مَعَانِيْهِ وَتَنَاوُلِهِ ٱلْكَوْنَ وَٱلْحَيَاةَ بِٱلأَسَالِيْبِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِيْ فِيْ ٱلنَّفْسِ ، وَهِيَ ٱلأَصْلُ فِيْ جَمَالِ ٱلأُسْلُوْبِ ، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ هَـٰذِهِ ٱللَّذَّةِ مَنْفَعَةٌ كُلُّهُ كَسَائِرِ مَا رُكِّبَ فِيْ طَبِيْعَةِ ٱلْحَيِّ ؛ إِذْ يُحِسُّ ٱلذَّوْقُ لَذَّةَ ٱلطَّعَامِ مَثَلًا عَلَىٰ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ فِعْلِهَا ٱلطَّبِيْعِيِّ ٱسْتِمْرَاءُ ٱلتَّغْذِيَةِ لِبِنَاءِ ٱلْجِسْمِ وَحِفْظِ ٱلْقُوَّةِ وَزِيَادَتِهَا ؛ أَمَّا ٱلتَّلَهِّيْ فَيَجِيْءُ مِنْ سُخْفِ ٱلأَدَبِ ، وَفَرَاغِ مَعَانِيْهِ ؛ وَمُوَاتَاتِهِ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلْخَسِيْسَةَ ؛ وَٱلْتِمَاسِهِ ٱلْجَوَانِبَ ٱلضَّيِّقَةَ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ؛ وَذَٰلِكَ حِيْنَ لَا يَكُوْنُ أَدَبَ ٱلشَّعْبِ وَلَا ٱلإِنْسَانِيَّةِ ؛ بَلْ أَدَبَ فِئَةٍ بِعَيْنِهَا وَأَحْوَالِهَا ؛ فَإِنَّ أَدِيْبَ صِنَاعَتِهِ أَوْ أَدِيْبَ جَمَاعَتِهِ ، غَيْرُ أَدِيْبِ قَوْمِهِ وَأَدِيْبِ عَصْرِهِ : أَحَدُهُمَا إِلَىٰ حَدٍّ مَحْدُوْدٍ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، وَٱلآخَرُ عَمَلٌ جَامِعٌ مُسْتَمِرٌّ مُتَفَنِّنٌ ؛ لِأَنَّ عَمَلَهُ ٱلأَدَبِيَّ هُوَ وُجُوْدُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فِيْ قَوْمِهِ لَا يَبْرَحُ يَقُوْلُ لَهُ : ٱكْتُبْ . . .

وَمِنَ ٱلأُصُوْلِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِيْ لَا تَتَخَلَّفُ ، أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ لِلشَّعْبِ ، كَانَ ٱلأَدَبُ أَدَبَ ٱلشَّعْبِ فِيْ حَيَاتِهِ وَأَفْكَارِهِ وَمَطَامِحِهِ وَأَلْوَانِ عَيْشِهِ ، وَزَخَرَ ٱلأَدَبُ بِذَٰلِكَ وَتَنَوَّعَ وَٱفْتَنَّ

وَيُبْنَى عَلَى ٱلْحَيَاةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ فَإِنْ كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ لِغَيْرِ ٱلشَّعْبِ ، كَانَ ٱلأَدَبُ أَدَبَ ٱلْحَاكِمِينَ وَيُبْنَى عَلَى ٱلنِّفَاقِ وَٱلْمُدَاهَنَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ وَٱلْكَذِبِ وَٱلتَّدْلِيسِ ؛ وَنَضَبَ ٱلأَدَبُ مِنْ ذَلِكَ وَقَلَّ وَتَكَرَّرَ مِنْ صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَفِي ٱلأُولَى يَتَّسِعُ ٱلأَدِيبُ مِنَ ٱلإِحْسَاسِ بِٱلْحَيَاةِ وَفُنُونِهَا وَأَسْرَارِهَا فِي كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ إِلَى ٱلإِحْسَاسِ بِٱلْكَوْنِ وَمَجَالِيهِ وَأَسْرَارِهِ فِي كُلِّ مَا حَوْلَهُ . أَمَّا ٱلثَّانِيَةُ فَلَا يُحِسُّ فِيهَا إِلَّا أَحْوَالَ نَفْسِهِ وَخَلِيطِهِ ، فَيُصْبِحُ أَدَبُهُ أَشْبَهَ بِمَسَافَةٍ مَحْدُودَةٍ مِنَ ٱلْكَوْنِ ٱلْوَاسِعِ ، لَا يَزَالُ يَذْهَبُ فِيهَا وَيَجِيءُ حَتَّى يَمَلَّ ذَهَابَهُ وَمَجِيئَهُ .

وَٱلْعَجَبُ ٱلَّذِي لَمْ يَتَنَبَّهْ لَهُ أَحَدٌ إِلَى ٱلْيَوْمِ مِنْ كُلِّ مَنْ دَرَسُوا ٱلأَدَبَ ٱلْعَرَبِيَّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، أَنَّكَ لَا تَجِدُ تَقْرِيرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْفَلْسَفِيِّ ٱلاجْتِمَاعِيِّ لِلأَدَبِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهِ إِلَّا فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَحْدَهَا ، وَلَمْ يَغْفُلْ عَنْهُ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ وَحْدَهُمْ !

فَإِذَا أَرَدْتَ ٱلأَدَبَ ٱلَّذِي يُقَرِّرُ ٱلأُسْلُوبَ شَرْطًا فِيهِ ، وَيَأْتِي بِقُوَّةِ ٱللُّغَةِ صُورَةً لِقُوَّةِ ٱلطِّبَاعِ ، وَبِعَظَمَةِ ٱلأَدَاءِ صُورَةً لِعَظَمَةِ ٱلأَخْلَاقِ ؛ وَبِرِقَّةِ ٱلْبَيَانِ صُورَةً لِرِقَّةِ ٱلنَّفْسِ ، وَبِدِقَّتِهِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ فِي ٱلْعُمْقِ صُورَةً لِدِقَّةِ ٱلنَّظْرَةِ إِلَى ٱلْحَيَاةِ ؛ وَيُرِيكَ أَنَّ ٱلْكَلَامَ أُمَّةٌ مِنَ ٱلأَلْفَاظِ عَامِلَةٌ فِي حَيَاةِ أُمَّةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ، ضَابِطَةٌ لَهَا ٱلْمَقَايِيسَ ٱلتَّارِيخِيَّةَ ، مُحْكِمَةٌ لَهَا ٱلأَوْضَاعَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ ، مُشْتَرِطَةٌ فِيهَا ٱلْمَثَلَ ٱلأَعْلَى ، حَامِلَةٌ لَهَا ٱلنُّورَ ٱلإِلَـٰهِيَّ عَلَى ٱلأَرْضِ . . .

. . . وَإِذَا أَرَدْتَ ٱلأَدَبَ ٱلَّذِي يُنْشِئُ ٱلأُمَّةَ إِنْشَاءً سَامِيًا ؛ وَيَدْفَعُهَا إِلَى ٱلْمَعَالِي دَفْعًا ، وَيَرُدُّهَا عَنْ سَفَاسِفِ ٱلْحَيَاةِ ، وَيُوَجِّهُهَا بِدِقَّةِ ٱلإِبْرَةِ ٱلْمِغْنَاطِيسِيَّةِ إِلَى ٱلآفَاقِ ٱلْوَاسِعَةِ ، وَيُسَدِّدُهَا فِي أَغْرَاضِهَا ٱلتَّارِيخِيَّةِ ٱلْعَالِيَةِ تَسْدِيدَ ٱلْقُنْبُلَةِ خَرَجَتْ مِنْ مِدْفَعِهَا ٱلضَّخْمِ ٱلْمُحَرَّرِ ٱلْمُحْكَمِ ، وَيَمْلَأُ سَرَائِرَهَا يَقِينًا وَنُفُوسَهَا حَزْمًا وَأَبْصَارَهَا نَظَرًا وَعُقُولَهَا حِكْمَةً ، وَيَنْفُذُ بِهَا مِنْ مَظَاهِرِ ٱلْكَوْنِ إِلَى أَسْرَارِ ٱلأُلُوهِيَّةِ . . .

. . . إِذَا أَرَدْتَ ٱلأَدَبَ عَلَى كُلِّ هَـٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ مِنَ ٱلاعْتِبَارِ ـ وَجَدْتَ ٱلْقُرْآنَ ٱلْحَكِيمَ قَدْ وَضَعَ ٱلأَصْلَ ٱلْحَيَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَعْجَبُ مَا فِيهِ أَنَّهُ جَعَلَ هَـٰذَا ٱلأَصْلَ مُقَدَّسًا ، وَفَرَضَ هَـٰذَا ٱلتَّقْدِيسَ عَقِيدَةً ، وَٱعْتَبَرَ هَـٰذِهِ ٱلْعَقِيدَةَ ثَابِتَةً لَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَتَنَبَّهْ لَهُ ٱلأُدَبَاءُ وَلَمْ يَحْذُوا بِٱلأَدَبِ حَذْوَهُ ، وَحَسِبُوهُ دِينًا فَقَطْ ، وَذَهَبُوا بِأَدَبِهِمْ إِلَى ٱلْعَبَثِ وَٱلْمُجُونِ

وَٱلنِّفَاقِ ، كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا بَقَايَا تَارِيخٍ مُحْتَضَرٍ بِٱلْعِلَلِ ٱلْقَاتِلَةِ ، ذَاهِبٍ إِلَى ٱلْفَنَاءِ ٱلْحَتْمِ !

وَٱلْقُرْآنُ بِأُسْلُوبِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِهِ لَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَـٰذَا : إِنَّ ٱلأَدَبَ هُوَ ٱلسُّمُوُّ بِضَمِيرِ ٱلأُمَّةِ .

وَلَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلأَدِيبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَـٰذَا : إِنَّ ٱلأَدِيبَ هُوَ مَنْ كَانَ لِأُمَّتِهِ وَلِلُغَتِهَا فِي مَوَاهِبِ قَلَمِهِ لَقَبٌ مِنْ أَلْقَابِ ٱلتَّارِيخِ .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

❊ ❊ ❊

سِرُّ ٱلنُّبُوغِ فِي ٱلْأَدَبِ(*)

لَوْ تَرْجَمْنَا ٱلْخَاطِرَةَ ٱلَّتِي تَمُرُّ فِي ذِهْنِ ٱلْحَيْوَانِ ٱلذَّكِيِّ حِينَ يَنْقَادُ فِي يَدِ رَجُلٍ ضَعِيفٍ أَبْلَهٍ يُصَرِّفُهُ وَيُدِيرُهُ عَلَىٰ أَغْرَاضِهِ ، فَنَقَلْنَاهَا مِنْ فِكْرِ ٱلْحَيْوَانِ إِلَىٰ لُغَتِنَا ، وَأَدَّيْنَاهَا بِمَعْنًى مِمَّا بَيْنَ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْحَيْوَانِ ـ لَكَانَتْ فِي ٱلْعِبَارَةِ هَـٰكَذَا : مَا أَنْتَ أَيُّهَا ٱلْأَبْلَهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمُدَبِّرَةِ لِلْكَوْنِ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْكَ وَسَلَّمَ . . . ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلتَّرْكِيبَ ٱلَّذِي يَبِينُ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنَ ٱلْحَيْوَانِ قَدْ جَعَلَ دِمَاغَ هَـٰذَا ٱلْحَيْوَانِ خَاتَمًا مِنَ ٱللهِ دَمَغَ بِهِ عَلَىٰ خَصَائِصِهِ فَأَفْرَغَهُ ٱللهُ فِي جِلْدِهِ ، وَوَضَعَ فِي رَأْسِهِ ذَٰلِكَ ٱلْقُفْلَ ٱلْإِلَـٰهِيَّ ٱلَّذِي حَبَسَهُ فِي بَابِ ٱلِاضْطِرَارِ مِنْ غَرَائِزِهِ ٱلْبَهِيمِيَّةِ ، وَأَقْفَلَ بِهِ عَلَى ٱلدُّنْيَا ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْمُتَّسِعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْإِنْسَانِ ، فَٱلْكَوْنُ عِنْدَهُ لَغْوٌ كُلُّهُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا حَقَائِقُ يَسِيرَةٌ ، ثُمَّ لَا تَفْسِيرَ لِهَـٰذِهِ ٱلْحَقَائِقِ إِلَّا مِنْ طَبِيعَتِهِ هُوَ ، فَجِلْدُهُ أَدَقُّ تَفْسِيرٍ فَلَكِيٍّ . . . لِلشَّمْسِ وَٱلنُّورِ وَٱلْهَوَاءِ وَمَا يَجِيءُ مِنْهَا ، وَجَوْفُهُ أَصَحُّ تَعْبِيرٍ جُغْرَافِيٍّ . . . لِلْكُرَةِ ٱلْأَرْضِيَّةِ وَمَا تَحْمِلُ ، وَجُوعُهُ وَشِبَعُهُ هُمَا كُلُّ فَلْسَفَةِ ٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِي ٱلْعَالَمِ ! .

فَأَسَاسُ ٱلذَّكَاءِ عَالِيًا وَنَازِلًا هُوَ ٱلتَّرْكِيبُ ٱلطَّبِيعِيُّ لَا غَيْرُهُ ، لَوْ زَادَتْ فِي ٱلدِّمَاغِ ذَرَّةٌ أَوْ نَقَصَتْ لَزَادَتْ لِلدُّنْيَا صُورَةٌ أَوْ نَقَصَتْ ، فَبِٱلضَّرُورَةِ تَكُونُ هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْقَاعِدَةَ فِيمَا نَرَىٰ مِنْ تَبَايُنِ حِدَّةِ ٱلذَّكَاءِ فِي أَفْرَادِ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْحَيْوَانِ ، وَمَا نَشْهَدُ مِنْ ذَٰلِكَ فِي أَحْوَالِ ٱلنَّاسِ ، مِنَ ٱلْفِطْنَةِ إِلَى ٱلذَّكَاءِ(١) إِلَى ٱلْأَلْمَعِيَّةِ إِلَى ٱلْجَهْبَذَةِ إِلَى ٱلنُّبُوغِ إِلَى ٱلْعَبْقَرِيَّةِ ؛ وَهِيَ طَبَقَاتٌ مِنَ أَلْفَاظِ ٱللُّغَةِ لِأَحْوَالٍ قَائِمَةٍ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي تَرْجِعُ إِلَىٰ دَرَجَاتٍ ثَابِتَةٍ فِي تَرْكِيبِ ٱلدِّمَاغِ .

وَمِمَّا يَسْجُدُ لَهُ ٱلْعَقْلُ ٱلْإِنْسَانِيُّ سَجْدَةً طَوِيلَةً إِذَا هُوَ تَأَمَّلَ فِي حِكْمَةِ ٱللهِ وَمَرَّ يَتَصَفَّحُ مِنْ أَسْرَارِ مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلنُّبُوغِ ـ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْوُجُودَ ٱلَّذِي يَحْمِلُ أَسْرَارَ ٱلْأُلُوهِيَّةِ

(*) « ٱلْمُقْتَطَفُ » يَنَايِرَ/كانون الآخر سَنَةَ ١٩٣٣ م ، الصفحات : ٢٥ ـ ٣٣ .

(١) عِنْدَنَا أَنَّ ٱلْفِطْنَةَ فِي ٱللُّغَةِ ، دُونَ ٱلذَّكَاءِ ؛ تُقَابِلُ مَا عِنْدَ ٱلْحَيْوَانِ مِنَ ٱلتَّنَبُّهِ ؛ وَٱلذَّكَاءُ : ٱلتَّوَقُّدُ وَٱللَّهَبَانُ .

هُوَ كُرَةٌ مُتَقَاذِفَةٌ فِي ٱلْفَضَاءِ ٱلْأَبَدِيِّ ، وَأَنَّ ٱلْأَرْضَ ٱلَّتِي تَحْمِلُ أَسْرَارَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، هِيَ كُرَةٌ طَائِرَةٌ فِيمَا مُدَّ لَهَا مِنَ ٱلْوُجُودِ ، وَأَنَّ كُلَّ حَيٍّ فِيهَا يَحْمِلُ أَسْرَارَ حَيَاتِهِ فِي كُرَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ هِيَ رَأْسُهُ ، وَأَنَّ ٱلْوُجُودَ مِنْ كُلِّ حَيٍّ هُوَ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَيْسَ شَيْئًا ، فِي ٱلنَّظَرِ وَلَا فِي ٱلْحِسِّ وَلَا فِي ٱلْفَهْمِ إِلَّا كَمَا يُرَىٰ وَيُحَسُّ وَيُفْهَمُ فِي هَـٰذَا ٱلرَّأْسِ بِعَيْنِهِ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِ وَتَرْكِيبِهِ ، فَيَصْعَدُ ٱلتَّدْرِيجُ إِلَى ٱلْكَبِيرِ إِلَى ٱلْأَكْبَرِ ، وَيَنْزِلُ إِلَى ٱلصَّغِيرِ إِلَى ٱلْأَصْغَرِ ، ثُمَّ لَا مَعْنَىٰ لِمَا صَعِدَ إِلَّا مِمَّا نَزَلَ ، وَبِهَـٰذَا سَتَكُونُ آخِرَةُ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ مَتَىٰ نَفَذَ ٱلْعُلَمَاءُ إِلَى ٱلسِّرِّ ٱلْحَقِيقِيِّ ، أَنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْإِنْسَانِيَّ فَهِمَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا . .

وَٱلنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ بِتَرْكِيبِ أَدْمِغَتِهِمْ عَلَىٰ شَبِيهٍ مِنْ هَـٰذَا ٱلتَّدْرِيجِ ؛ فَأَمَّا وَاحِدٌ فَيَكُونُ دِمَاغُهُ بِٱعْتِبَارِهِ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلذَّكَاءِ وَٱلْعَقْلِ كَٱلْوُجُودِ ٱلْمُحِيطِ ، وَأَمَّا آخَرُ فَكَٱلشَّمْسِ ، ثُمَّ غَيْرُهُمَا كَٱلْأَرْضِ ، ثُمَّ ٱلرَّابِعُ كَٱلْإِنْسَانِ ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْهُمْ كَٱلْحَيْوَانِ وَمِنْهُمْ كَٱلْحَشَرَةِ ؛ وَلَا عِلَّةَ لِكُلِّ هَـٰذَا إِلَّا مَا هَيَّأَتِ ٱلْأَقْدَارُ « بِأَسْبَابِهَا ٱلْكَثِيرَةِ » لِكُلِّ إِنْسَانٍ فِي تَرْكِيبِ دِمَاغِهِ فِي نَوْعِ ٱلْمَادَّةِ ٱلسُّنْجَابِيَّةِ مِنَ ٱلْمُخِّ ، وَأَحْوَالِ ٱلتَّرْكِيبِ فِي ٱلْمَلَايِينِ مِنَ ٱلْخَلَايَا ٱلْعَصَبِيَّةِ ، وَمَا لَا يُعَدُّ مِنْ فُرُوعِ هَـٰذِهِ ٱلْخَلَايَا وَشُعَبِهَا ؛ ثُمَّ مَا يَكُونُ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَلَاقَاتِ بَيْنَ هَـٰذِهِ ٱلْفُرُوعِ ٱلَّتِي هِيَ لِكُلِّ رَأْسٍ كَرَمْلِ ٱلْكُرَةِ ٱلْأَرْضِيَّةِ ، ثُمَّ ٱخْتِلَافُ مَقَادِيرِ ٱلْمَوَادِّ ٱلْكِيمَاوِيَّةِ ٱلَّتِي تَتَخَلَّقُ فِي غُدَدِ ٱلْجِسْمِ وَتَنْفُثُهَا ٱلْغُدَدُ فِي ٱلدَّمِ .

فَقَدْ يَكُونُ ٱلْعَمَلُ ٱلنَّابِغُ ٱلْمُتَمَرِّدُ عَلَى ٱلْعُقُولِ آتِيًا مِنْ قَطْرَةٍ فِي هَـٰذِهِ ٱلْغُدَدِ ، كَمَا يَنْبَعِثُ ٱلْعِمْلَاقُ ٱلْمَارِدُ بِعِظَامِهِ ٱلْمُمْتَدَّةِ وَأَلْوَاحِهِ ٱلْمَشْبُوحَةِ مِنْ غُدَّتِهِ ٱلنُّخَامِيَّةِ لَا غَيْرِهَا .

فَٱلذَّكِيُّ مِنْ ذَكِيٍّ مِثْلِهِ إِنَّمَا هُوَ كَٱلْجَيْشِ مِنْ جَيْشٍ بِإِزَائِهِ : يَقَعُ ٱلِاخْتِلَافُ بَيْنَهُمَا فِيمَا ٱشْتَمَلَا عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْجُنْدِ ، وَصِفَاتِهِمْ مِنَ ٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ ، وَأَحْوَالِهِمْ مِنَ ٱلنِّظَامِ وَٱلِاخْتِلَالِ ، وَقُوَّةِ آلَاتِهِمْ وَمِقْدَارِهَا وَنَوْعِ ٱلِاخْتِرَاعِ فِيهَا ، ثُمَّ طَبِيعَةِ مَوْضِعِهِمْ وَحُسْنِ تَوْجِيهِهِمْ وَقِيَادَتِهِمْ ، وَمَا ٱكْتَنَفَهُمْ مِنْ صَعْبٍ أَوْ سَهْلٍ ، وَمَا تَظَاهَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأَقْدَارِ ، ثُمَّ ٱلتَّوْفِيقُ ٱلَّذِي لَا حِيلَةَ فِيهِ إِنْ وَقَعَ فِي حِصَّةِ أَحَدِهِمَا وَٱسْتَقَرَّ ، أَوْ وَقَعَ هَوْنًا وَطَارَ لِلْآخَرِ ؛ وَبِنَحْوٍ مِنْ هَـٰذَا كُلِّهِ تَكُونُ ٱلْمُفَاضَلَةُ إِذَا وَازَنْتَ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ مِنَ ٱلنَّوَابِغِ فِي حَقِيقَةِ نُبُوغِهِمَا .

فَٱلنَّابِغَةُ خَلْقٌ مِنْ خَالِقِهِ ، يُصْنَعُ كَمَا تَرَىٰ بِأَقْدَارِ ٱللهِ ؛ إِذْ هُوَ قَدَرٌ عَلَىٰ قَوْمِهِ وَعَلَىٰ عَصْرٍ ، وَهُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلْوَرَقَةِ ٱلرَّابِحَةِ مِنْ وَرَقِ ٱلسَّحْبِ (ٱلْيَانَصِيبِ) ، سَلَّةُ يَدٍ جَعَلَتْهَا مَالًا وَتَرَكَتِ ٱلْبَاقِيَاتِ وَرَقًا وَأَحْدَثَتْ بَيْنَهُمَا ٱلْفَرْقَ ٱلذَّهَبِيَّ ؛ وَبِهَذَا لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْعَالَمُ أَنْ يَزِيدَ ٱلدُّنْيَا نَابِغَةً إِلَّا إِذَا ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَزِيدَ فِي ٱلْكَوَاكِبِ نَجْمًا فَيَصْنَعُهُ . وَهَبْهُ صَنَعَهُ مِنَ ٱلْكَهْرُبَاءِ ، فَيَبْقَىٰ أَنْ يَحْمِلَهُ ، وَإِذَا حَمَلَهُ بَقِيَ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى ٱلسَّمَـٰوَاتِ ؛ وَهَبْهُ قَدْ رَفَعَهُ فَيَبْقَىٰ كُلُّ شَيْءٍ . . . يَبْقَىٰ عَلَيْهِ أَنْ يُقْحِمَهُ فِي ٱلنُّجُومِ وَيُرْسِلَهُ فِيهَا يَدُورُ وَيَتَفَلَّكُ .

وَكَمَا يُخْلَقُ ٱلنَّابِغَةُ بِتَرْكِيبِهِ ، تُخْلَقُ لَهُ ٱلْأَحْوَالُ ٱلْمُلَائِمَةُ لِعَمَلِهِ ٱلَّذِي خُصَّ بِهِ فِي أَسْرَارِ ٱلتَّقْدِيرِ عَامِلًا نَافِعًا ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تُلَائِمُهُ هُوَ مُنْتَفِعًا ؛ فَإِنَّهُ هُوَ غَيْرُ مَقْصُودٍ إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ وَسِيلَةٌ أَوْ آلَةٌ تُكَابِدُ مَا تَحْتَمِلُ فِي أَعْمَالِهَا ، وَيُؤَتَّىٰ لَهَا لِتَأْخُذَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ وَتُعْطِيَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ ؛ وَبِذَلِكَ يَرْجِعُ ٱلتَّقْدِيرُ إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ ٱلْعَقْلُ ٱلنَّابِغَةُ دَلِيلًا لِلنَّاسِ مِنَ ٱلنَّاسِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْخَالِقِ ٱلَّذِي هُوَ وَحْدَهُ أَمْرُهُ ٱلْأَمْرُ .

وَإِذَا كَانَ ٱلْجَمَالُ يَسْتَعْلِنُ فِي كَلَامِ هَـٰؤُلَاءِ ٱلنَّوَابِغِ ، وَٱلْخَيَالُ يَظْهَرُ فِي تَعْبِيرِهِمْ ، وَٱلْحِكْمَةُ تَهْبِطُ إِلَى ٱلدُّنْيَا فِي تَفْكِيرِهِمْ ، وَٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ هُمُ ٱلدَّاعُونَ إِلَيْهِ ، وَٱلْأَشْوَاقُ ٱلنَّفْسِيَّةُ هُمْ مُوقِظُوهَا ، وَٱلْعَوَاطِفُ هُمُ ٱلْمُصَوِّرُونَ لَهَا ، وَسُرُورُ ٱلْحَيَاةِ هُمُ ٱلَّذِينَ حَوَّلُوهُ إِلَى ٱلْفَنِّ - إِذَا كَانَ هَـٰذَا كُلُّهُ فَهَـٰذَا كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ تَوْكِيدٌ لِاتِّصَالِهِمْ بِٱلْقُوَّةِ ٱلْأَزَلِيَّةِ ٱلْمُدَبِّرَةِ ، وَأَنَّهُمْ أَدَوَاتُهَا فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ؛ فَمَا هِيَ أَعْمَالُهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ أَعْمَالُهَا ، وَقَدْ يَظُنُّ ٱلنَّاسُ أَنَّ ٱلنَّابِغَةَ يَلْتَمِسُ ٱلْقُوَى ٱلْمُحِيطَةَ بِهِ لِيَبْتَدِعَ مِنْهَا ، وَٱلْحَقِيقَةُ أَنَّهَا هِيَ تَلْتَمِسُهُ لِتَبْتَدِعَ بِهِ .

وَبَعْدُ ، فَٱلنَّابِغَةُ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ مِنَ ٱلْفَلَكِ ، فَهُوَ يَخْزُنُ ٱلْأَشِعَّةَ ٱلْعَقْلِيَّةَ وَيُرِيقُهَا ، وَفِي يَدِهِ ٱلْأَنْوَارُ وَٱلظِّلَالُ وَٱلْأَلْوَانُ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلَ ٱلْفَجْرِ كُلَّمَا أَظْلَمَتْ عَلَى ٱلنَّاسِ مَعَانِي ٱلْحَيَاةِ ؛ وَلَا تَزَالُ ٱلْحِكْمَةُ تُلْقِي إِلَيْهِ ٱلْفِكْرَةَ ٱلْجَمِيلَةَ لِيُعْطِيَهَا هُوَ صُورَةَ فِكْرَتِهَا ، وَتُوحِي إِلَيْهِ مَعْنَى ٱلْحَقِّ لِيُؤْتِيَهَا هُوَ مَعْنَىٰ جَمَالِ ٱلْحَقِّ ؛ وَٱلطَّبِيعَةُ خَلَقَهَا ٱللهُ وَحْدَهُ ، وَلَـٰكِنَّهَا لَيْسَتْ مَعْقُولَةً إِلَّا بِٱلْعِلْمِ ، وَلَيْسَتْ جَمِيلَةً إِلَّا بِٱلشِّعْرِ ، وَلَيْسَتْ مَحْبُوبَةً إِلَّا بِٱلْفَنِّ ؛ فَٱلنَّوَابِغُ فِي هَـٰذَا كُلِّهِ هُمْ شُرُوحٌ وَتَفَاسِيرُ حَوْلَ كَلِمَاتِ ٱللهِ ، وَكُلُّهُمْ يَشْعُرُ بِٱلْوُجُودِ فَنًّا كَامِلًا وَيَشْعُرُ بِنَفْسِهِ شَرْحًا لِأَشْيَاءَ مِنْ هَـٰذَا ٱلْفَنِّ ، وَيَرَىٰ مَعَانِيَ ٱلطَّبِيعَةِ كَأَنَّمَا تَأْتِيهِ تَلْتَمِسُ فِي كِتَابَتِهِ وَشِعْرِهِ حَيَاةً أَكْبَرَ

وَأَوْسَعَ مِمَّا هِيَ فِيهِ مِنْ حَقَائِقِهَا ٱلْمَحْدُودَةِ ، وَتَتَعَرَّضُ لَهُ أَحْزَانُ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ تَسْأَلُهُ أَنْ يُصَحِّحَ ٱلرَّأْيَ فِيهَا بِٱسْتِخْرَاجِ مَعْنَاهَا ٱلْخَيَالِيِّ ٱلْجَمِيلِ ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ آلَامًا وَأَحْزَانًا إِلَّا أَنَّ مَعْنَاهَا ٱلْخَيَالِيَّ هُوَ سُرُورٌ تَحْمِلُهُ لِلنَّاسِ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلنَّفْسِ ٱلْبَشَرِيَّةِ أَنْ تَسْكُنَ إِلَىٰ وَصْفِ آلَامِهَا وَفَلْسَفَةِ حِكْمَتِهَا حِينَ تَبْدُو بَصَائِرُهَا حَامِلَةً أَثَرَهَا ٱلْإِلَـٰهِيَّ ، كَأَنَّ ٱلْمُؤْلِمَ لَيْسَ هُوَ ٱلْأَلَمَ ، وَإِنَّمَا هُوَ جَهْلُ سِرِّهِ .

وَبِٱلْجُمْلَةِ ، فَٱلْكَوْنُ يَخْتَارُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مُفَسِّرَهُ ٱلْعَبْقَرِيَّ لِيَكْشِفَ مِنْ غُمُوضِهِ وَيَزِيدَ فِيهِ أَيْضًا . . . ثُمَّ لِيُؤْتَى ٱلنَّاسُ ٱلْمَثَلَ ٱلْأَعْلَىٰ مِنَ ٱلْمَعْنَىٰ عَلَىٰ يَدِ ٱلْمَثَلِ ٱلْأَعْلَىٰ مِنَ ٱلْفِكْرِ ؛ وَلِهَـٰذَا تُصِيبُ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي يَكْتُبُهُ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْمُلْهَمُ فِي أَوْقَاتِ ٱلتَّجَلِّي عَلَيْهِ كَأَنَّهُ صَوَّرَ نَفْسَهُ وَصَاغَهَا ، أَوْ كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ ٱلْحِسِّ قَدْ جَمَدَتْ فِي أَسْطُرٍ ؛ وَلَا بُدَّ أَنْ تُشْعِرَكَ ٱلْجُمْلَةُ أَنَّهَا قُذِفَتْ وَحْيًا ، إِذْ لَا تَجِدُهَا إِلَّا وَكَأَنَّ فِي كَلِمَاتِهَا رُوحًا يَرْتَعِشُ ؛ وَلَقَدْ يَخْطُرُ لِي وَأَنَا أَقْرَأُ بَعْضَ ٱلْمَعَانِي ٱلْجَمِيلَةِ لِذِهْنٍ مِنَ ٱلْأَذْهَانِ ٱلْمُلْهَمَةِ كَشِكْسْبِيرَ Shakespeare وَٱلْمُتَنَبِّي وَغَيْرِهِمَا - حِينَ أَتَأَمَّلُ ٱخْتِرَاعَ ٱلْمَعْنَىٰ وَإِبْدَاعَ سِيَاقِهِ وَضُحَى ٱلْبَيَانِ عَلَيْهِ وَإِشْرَاقَهُ فِيهِ وَمَا أُتِيحَ لَهُ مِنْ جَلَالٍ ظَاهِرٍ فِي شَكْلٍ حَيٍّ يَلْمَحُ بِسِرِّهِ فِي ٱلنَّفْسِ - يُخَيَّلُ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ سِرَّ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْقَادِرَ يَعْمَلُ عَمَلَهُ أَحْيَانًا بِذِهْنٍ إِنْسَانِيٍّ لِيَخْلُقَ تَعْبِيرًا عَنْ جَلَالِهِ فِي مِثْلِ جَلَالِهِ .

وَأَنْتَ فَلَوْ أَخَذْتَ مَعْنًى مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلْآتِيَةِ مِنَ ٱلْإِلْهَامِ ، وَأَجْرَيْتَهُ فِي كِتَابَةِ كَاتِبٍ أَوْ شِعْرِ شَاعِرٍ مِنَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا أَذْهَانُهُمْ يَكُدُّونَهَا ، وَكُتُبُهُمْ يَجْعَلُونَهَا أَذْهَانَهُمْ أَحْيَانًا . . . لَرَأَيْتَ ٱلْفَرْقَ بَيْنَ شَيْءٍ وَشَيْءٍ فِي أَحْسَنِ مَا أَنْتَ وَاجِدُهُ لَهُمْ عَلَىٰ نَحْوِ مَا تَرَىٰ بَيْنَ زَهْرَةٍ حَرِيرِيَّةٍ جَاءَتْ مِنْ عَمَلِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلْإِبْرَةِ وَٱلْخَيْطِ ، وَزَهْرَةٍ أُخْرَىٰ قَدِ ٱنْبَثَقَتْ عَطِرَةً نَاضِرَةً فِي غُصْنِهَا ٱلْأَخْضَرِ مِنْ عَمَلِ ٱلْحَيَاةِ بِٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ .

وَٱلْعَبْقَرِيُّ هُوَ أَبَدًا وَرَاءَ مَا لَا يَنْتَهِي مِنْ جَمَالٍ أَوَّلُهُ فِي نَفْسِهِ وَآخِرُهُ فِي ٱلْجَمَالِ ٱلْأَقْدَسِ ٱلَّذِي مَسَحَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلسَّامِيَةِ ؛ فَمَا دَامَ فِيهِ سِرُّ ٱلْعَبْقَرِيَّةِ فَهُوَ دَائِبٌ يَعْمَلُ مُمَزِّقًا حَيَاتَهُ فِي سُبُحَاتِ ٱلنُّورِ تَمْزِيقًا يَجْتَمِعُ مِنْهُ أَدَبُهُ ، وَمَا أَدَبُهُ إِلَّا صُورَةُ حَيَاتِهِ ؛ وَهُوَ كُلَّمَا أَبْدَعَ شَيْئًا طَلَبَ ٱلَّذِي هُوَ أَبْدَعُ مِنْهُ ، فَلَا يَزَالُ مُتَأَلِّمًا إِنْ عَمِلَ لِأَنَّ طَبِيعَتَهُ لَا تَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ مِنْ عَمَلِهِ ، وَمُتَأَلِّمًا إِنْ لَمْ يَعْمَلْ لِأَنَّ تِلْكَ ٱلطَّبِيعَةَ بِعَيْنِهَا لَا تَهْدَأُ إِلَّا فِي عَمَلٍ ، وَهِيَ

طَبِيْعَةٌ مُتَمَرِّدَةٌ بِذَلِكَ ٱلْجَمَالِ ٱلْأَقْدَسِ تَمَرُّدَ ٱلْعِشْقِ فِيْ حَامِلِهِ ؛ إِذْ هُمَا صُوْرَتَانِ لِأَمْرٍ وَاحِدٍ كَمَا سَنُشِيْرُ إِلَيْهِ ؛ فَكُلُّ مَا تَجِدُهُ فِيْ نَفْسِ ٱلْعَاشِقِ ٱلْمُتَدَلِّهِ مِمَّا يَتَرَامَىٰ بِهِ إِلَىٰ جُنُوْنِهِ وَهَلَاكِهِ ، تَجِدُ شَبَهًا مِنْهُ فِيْ نَفْسِ ٱلْعَبْقَرِيِّ ؛ فَكِلَاهُمَا قَانُوْنُهُ مِنْ طَبِيْعَتِهِ وَحْدَهَا ؛ إِذْ قَدِ ٱتَّخَذَتْ حَيَاتُهُ شَكْلَهَا ٱلْفَنِّيَّ مِنْ ذَوْقِهِ هُوَ وَحْدَهُ ؛ فَلَيْسَ يَتْبَعُ طَرِيْقَةَ أَحَدٍ ، بَلْ هُوَ طَرِيْقَةُ نَفْسِهِ[1] ، وَكِلَاهُمَا مُسْتَرْسِلٌ أَبَدًا إِلَىٰ جَمَالٍ مُسْتَفِيْضٍ عَلَىٰ رُوْحِهِ يَتَقَلَّبُ فِيْهَا بِٱللَّذَّةِ وَٱلْأَلَمِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَسْتَمِدُّ مِنْهُ . وَكِلَاهُمَا لَا يَجِدُ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْجَمِيْلَ فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ مَعْنًى بَلْ رَسُوْلًا مِنَ ٱلْجَمَالِ أُرْسِلَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ ، وَلَا يَزَالُ يَشْعُرُ فِيْ كُلِّ وَقْتٍ أَنَّ لَهُ رَسَائِلَ وَرُسُلًا هُوَ بَعْدُ فِيْ ٱنْتِظَارِهَا ؛ وَكِلَاهُمَا مَتَىٰ ظَفِرَ بِشَيْءٍ مِنْ مَصْدَرِ ٱلْجَمَالِ ٱنْتَهَىٰ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ إِلَىٰ ٱلظَّنِّ أَنَّهُ رَبِحَ مِنَ ٱلْكَوْنِ رِبْحًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ قَبْلُ . وَكِلَاهُمَا مُتَهَالِكٌ بَيْنَ قُيُوْدِ ٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِيْ فِيْ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْوَاقِعِ ، وَبَيْنَ حُرِّيَّتِهَا ٱلَّتِيْ فِيْ خَيَالِهِ وَأَمَلِهِ ، كَأَنَّ عَلَيْهِ فِيْ سَبِيْلِ هَـٰذِهِ ٱلْحُرِّيَّةِ أَنْ يُقَطِّعَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا قَيْدًا مِنْ قُيُوْدِ ٱلِاجْتِمَاعِ أَوِ ٱلْعَيْشِ ؛ وَكِلَاهُمَا مُتَّصِلٌ بِقُوَّةٍ غَيْبِيَّةٍ وَرَاءَ مَا يُرَىٰ وَمَا يُحَسُّ تَجْعَلُ نَظْرَتَهُ فِيْ ٱلْأَشْيَاءِ خَاضِعَةً لِقَانُوْنِ ٱلنَّظْرَةِ ٱلْعَاشِقَةِ فِيْ ٱلْعَيْنَيْنِ ٱلسَّاحِرَتَيْنِ ٱلْمَعْشُوْقَتَيْنِ ، فَإِذَا مَدَّ عَيْنَيْهِ فِيْ شَيْءٍ جَمِيْلٍ ، فَهُنَاكَ سُؤَالٌ وَجَوَابُهُ ، وَوَحْيٌ وَتَرْجَمَتُهُ ،

(١) لَا وَجْهَ عِنْدَنَا لِمَا ٱسْتَعْمَلَهُ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ فِيْ ٱلْأَدَبِ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَدْرَسَةُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَمَدْرَسَةُ ٱلنَّابِغَةِ وَنَحْوُ ذَلِكَ ، تَرْجَمَةٌ حَرْفِيَّةٌ لِقَوْلِ ٱلْأُوْرُبِّيِّيْنَ : مَدْرَسَةُ فُلَانٍ وَمَدْرَسَةُ فُلَانٍ ؛ فَإِنَّ ٱلْأَدَبَ إِنْ كَانَ تَقْلِيْدًا فَهُوَ أَدَبٌ مُنْحَطٌّ لَا يُجْعَلُ مَدْرَسَةً يُحْتَذَىٰ عَلَيْهَا وَيَتَخَرَّجُ بِهَا ، وَإِنْ كَانَ إِبْدَاعًا فَلَيْسَ ٱلْإِبْدَاعُ مَدْرَسَةً تَكُوْنُ بِٱلتَّعْلِيْمِ وَٱلتَّلْقِيْنِ وَيَتَخَرَّجُ بِهَا ٱلْوَاحِدُ وَٱلْمِئَةُ وَٱلْأَلْفُ عَلَىٰ طِرَازٍ لَا يَخْتَلِفُ ؛ إِنَّمَا تَنْطَبِقُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَىٰ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ فِيْ ٱلْفُنُوْنِ ٱلتَّعْلِيْمِيَّةِ ، وَفِيْ هَـٰذَا لَا تُطْلَقُ فِيْ ٱلْأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ إِلَّا عَلَىٰ فِئَتَيْنِ فَقَطْ ، هُمَا ٱلْبَصْرِيُّوْنَ وَٱلْكُوْفِيُّوْنَ ، عَلَىٰ أَنَّ كَلِمَةَ مَذْهَبٍ هِيَ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيْ هَـٰذَا ، وَهِيَ أَسَدُّ مِنْهَا ؛ إِذْ يَدُلُّ ٱلْمَذْهَبُ عَلَىٰ مَنْحًى ٱخْتَارَهُ ٱلرَّأْيُ وَذَهَبَ إِلَيْهِ ، فَكَأَنَّهُ عَنْ تَحْقِيْقٍ فِيْ صَاحِبِهِ وَتَابِعِيْهِ ؛ أَمَّا تَسْمِيَةُ مَجْمُوْعَةِ ٱلْإِلْهَامَاتِ ٱلَّتِيْ مَرَّتْ فِيْ ذِهْنِ نَابِغَةٍ مِنَ ٱلنَّوَابِغِ بِٱلْمَدْرَسَةِ ، فَتَسْمِيَةٌ مُضْحِكَةٌ بَارِدَةٌ ؛ إِذِ ٱلْإِلْهَامُ بَصِيْرَةٌ مَحْضَةٌ ، وَمَا هُوَ مِمَّا يُقَلَّدُ ، وَقَلَّمَا تَشَابَهَ ذِهْنَانِ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ فِيْ عَنَاصِرِ ٱلتَّكْوِيْنِ ٱلَّتِيْ يَأْتِيْ مِنْهَا ٱلنُّبُوْغُ ؛ وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : طَرِيْقَةُ فُلَانٍ وَطَرِيْقَةُ فُلَانٍ ، فَٱلطَّرِيْقَةُ هِيَ ٱلْكَلِمَةُ ٱلصَّحِيْحَةُ ، لِأَنَّ عَلَيْهَا ظَاهِرَ ٱلْعَمَلِ وَأُسْلُوْبَهُ ، يَتَوَجَّهُ بِهَا مَنْ يَتَوَجَّهُ ، وَيُقَلِّدُ فِيْهَا مَنْ يُقَلِّدُ ، أَمَّا سِرُّ ٱلْعَمَلِ فَهُوَ سِرُّ ٱلْعَامِلِ أَيْضًا ، وَهُوَ شَيْءٌ فِيْ ٱلرُّوْحِ وَٱلْبَصِيْرَةِ ، وَهُوَ فِيْ ٱلْعَبْقَرِيِّ أَمْرٌ لَا يَسْتَطِيْعُهُ إِنْسَانٌ وَشَذَّ فِيْ إِنْسَانٍ بِخُصُوْصِهِ .

وَمُرُوْرٌ مِنْ يَقَظَةٍ إِلَىٰ حُلُمٍ ، وَٱنْتِقَالٌ مِنْ حَقِيْقَةٍ إِلَىٰ خَيَالٍ ! .

غَيْرَ أَنَّ طَبِيْعَةَ ٱلْعَبْقَرِيِّ تَزِيْدُ عَلَىٰ كُلِّ ذَلِكَ أَلَمًا تَنْفَرِدُ بِهِ لَا تَسْتَقِرُّ مَعَهُ عَلَىٰ رِضًا وَلَا يَبْرَحُ يُسَلِّطُ ٱلْإِعْنَاتَ عَلَيْهَا وَيَسْتَغْرِقُهَا بِٱلْهُمُوْمِ ٱلسَّامِيَةِ ؛ وَذَلِكَ أَلَمُ ٱلْكَمَالِ ٱلْفَنِّيِّ ٱلَّذِيْ لَا يُدْرِكُ ٱلْعَبْقَرِيُّ غَايَتَهُ عِنْدَ نَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ قَدْ أَدْرَكَ غَايَاتٍ وَغَايَاتٍ ؛ فَطَبِيْعَةُ كُلِّ عَبْقَرِيٍّ تَجْهَدُ جُهْدَهَا فِيْ ٱلْعَمَلِ لِتُخْرِجَ بِهِ مِمَّا يَسْتَطِيْعُهُ ٱلنَّاسُ ، فَإِذَا تَأَتَّىٰ صَاحِبُهَا لِذَلِكَ وَكَابَدَ فِيْهِ وَأَدْرَكَ مِنْهُ وَبَلَغَ وَأَعْجَزَ ٱنْدَفَعَتْ طَبِيْعَتُهُ إِلَىٰ ٱلْخُرُوْجِ مِمَّا يَسْتَطِيْعُ هُوَ . . . كَأَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَدَاخِلٌ فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ فِيْ وَقْتٍ مَعًا ، وَكَأَنَّهُ نَفْسُهُ وَفَوْقَ نَفْسِهِ فِيْ حَالٍ ، وَهَـٰذَا سِرُّ حُرِّيَّتِهِ وَسُمُوِّهِ ، كَمَا أَنَّهُ سِرُّ أَلَمِهِ وَحَيْرَتِهِ . . .

وَمِنْ أَثَرِ ذَلِكَ مَا تُحِسُّهُ أَنْتَ إِذَا قَرَأْتَ لِلْأَدِيْبِ ٱلْبَلِيْغِ ٱلتَّامِّ صَاحِبِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْأُسْلُوْبِ وَٱلذِّهْنِ ٱلْمُلْهَمِ ؛ فَإِنَّكَ تَقِفُ عَلَىٰ ٱلْمَعْنَىٰ مِنْ مَعَانِيْهِ يَمْلَأُ نَفْسَكَ وَيَتَمَدَّدُ فِيْهَا وَيَهْتَزُّ بِهَا طَرَبًا وَإِعْجَابًا ، فَتَقُوْلُ : لَا أَحْسَنَ مِنْ هَـٰذَا ! ثُمَّ تُؤَمِّلُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ تَجِدَ مِنْهُ هُوَ أَحْسَنَ مِنْ هَـٰذَا . . . كَأَنَّهُ وَإِنْ تَنَاهَىٰ إِلَىٰ ٱلْغَايَةِ لَا يَزَالُ عِنْدَكَ فَوْقَ ٱلْغَايَةِ ؛ وَهَـٰذَا غَرِيْبٌ ، وَلَـٰكِنْ لَا دَلِيْلَ عَلَىٰ ٱلْعَبْقَرِيَّةِ إِلَّا ٱلْغَرَابَةُ دَائِمًا ؛ فَهِيَ نِظَامٌ لَا نِظَامَ فِيْهِ ؛ لِأَنَّهَا طَرِيْقَةٌ لَا طَرِيْقَةَ لَهَا ؛ وَبِهَـٰذِهِ ٱلْغَرَابَةِ جَاءَتِ ٱلْعَبْقَرِيَّةُ كُلُّهَا أَمْثِلَةً وَلَيْسَ فِيْهَا قَوَاعِدُ يُحْتَذَىٰ عَلَيْهَا وَلَا هِدَايَةَ فِيْهَا إِلَّا مِنَ ٱلرُّوْحِ ؛ وَإِذَا كَانَ ٱلْفَنُّ قُدْرَةً مُتَصَرِّفَةً فِيْ ٱلْجَمَالِ ، فَٱلْعَبْقَرِيَّةُ قُدْرَةٌ مُتَصَرِّفَةٌ فِيْ ٱلْفَنِّ ، وَٱلنَّابِغَةُ كَٱلْمُتَكَيِّسِ[1] ٱلَّذِيْ مَعَهُ قُوَى ٱلْعَقْلِ وَيُرِيْدُ أَنْ يَزْدَادَ عَلَىٰ قَدْرِهِ مِنْهَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَبْقَرِيَّ كَٱلْإِلَهِيِّ ٱلَّذِيْ مَعَهُ قُوَى ٱلرُّوْحِ وَيُرِيْدُ أَنْ يَزِيْدَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ قَدْرِهِمْ بِهَا ؛ وَذَاكَ مَرْجِعُهُ ٱلْفِكْرُ ٱلدَّقِيْقُ ٱلْبَاحِثُ ، وَهَـٰذَا مَنَاطُهُ ٱلْبَصِيْرَةُ ٱلشَّفَّافَةُ ٱلنَّافِذَةُ ، وَهِيَ أَغْرَبُ ٱلْغَرَائِبِ فِيْ ٱلْإِنْسَانِ ، إِذْ هِيَ ٱلْجِهَةُ ٱلْمُطْلَقَةُ فِيْ هَـٰذَا ٱلْمَخْلُوْقِ ٱلْمُقَيَّدِ ، وَبِهَا تَتَّسِعُ ٱلنَّفْسُ لِإِدْرَاكِ ٱلْمُطْلَقِ ٱلظَّاهِرِ مِنْ خِلَالِ ٱلْمَوْجُوْدَاتِ ، وَفِيْهَا تَتَحَوَّلُ ٱلْأَشْيَاءُ مِنْ نِظَامِ ٱلْحَاسَّةِ إِلَىٰ نِظَامِ ٱلرُّوْحِ ، فَيُسْمَعُ ٱلْمَرْئِيُّ وَيُبْصَرُ ٱلْمَسْمُوْعُ ، وَتَخْلَعُ ٱلْأَجْسَامُ أَنْغَامًا ، وَتَلْبَسُ ٱلْأَصْوَاتُ أَشْكَالًا ، وَيَبْدُوْ عِنْدَهَا كُلُّ مَخْلُوْقٍ وَكَأَنَّ فِيْهِ بَقِيَّةً زَائِدَةً عَلَىٰ خَلْقِهِ تُرِكَتْ لِيَعْمَلَ فِيْهَا ٱلْكَاتِبُ

(١) مِنَ ٱلْكَيْسِ ، وَهُوَ ٱلْعَقْلُ ، فَيَكُوْنُ عَاقِلًا وَيُرِيْدُ أَنْ يَزْدَادَ عَلَىٰ مِقْدَارِهِ .

أَوِ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُحَدَّثُ[1] عَمَلَ فَنِّهِ ٱلزَّائِدِ عَلَىٰ ٱلطَّبِيعَةِ بِٱلْحَاسَّةِ ٱلزَّائِدَةِ عَلَىٰ ذِهْنِهِ ، وَهِيَ ٱلَّتِي نُسَمِّيهَا ٱلإِلْهَامَ .

هَـٰذِهِ ٱلْحَاسَّةُ هِيَ كَذَلِكَ مِنْ بَعْضِ ٱلْغَرَابَةِ ، تَكُوْنُ فِيْ صَاحِبِهَا ٱلْمَوْهُوْبِ كَمَا تَكُوْنُ حَاسَّةُ ٱلاتِّجَاهِ فِيْ ٱلطُّيُوْرِ ٱلَّتِيْ تَقْطَعُ فِيْ جَوِّ ٱلسَّمَاءِ إِلَىٰ غَايَاتِهَا ٱلْبَعِيْدَةِ مِنْ قُطْبِ ٱلأَرْضِ إِلَىٰ قُطْبِهَا ٱلآخَرِ بِغَيْرِ دَلِيْلٍ تَحْمِلُهُ ، وَلَا رَسْمٍ تَنْظُرُ فِيْهِ ، وَلَا عِلْمٍ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ؛ وَكَمَا تَكُوْنُ حَاسَّةُ ٱلتَّمْيِيْزِ فِيْ ٱلنَّحْلِ ٱلَّذِيْ يَبْنِيْ عَسَلَتَهُ عَلَىٰ هَنْدَسَةٍ لَيْسَتْ مِنْ كِتَابٍ وَلَا مَدْرَسَةٍ ، وَحَاسَّةُ ٱلتَّدْبِيْرِ فِيْ ٱلنَّمْلِ ٱلَّذِيْ يُدَبِّرُ مَمْلَكَتَهُ بِغَيْرِ عُلُوْمِ ٱلْمَمَالِيْكِ وَسِيَاسَتِهَا ، وَكَثِيْرًا مَا يَجِيْءُ ٱلأَدِيْبُ ٱلْمُلْهَمُ مِنْ حَقَائِقِ ٱلْفِكْرِ وَبَيَانِهِ وَأَسْرَارِ ٱلطَّبَائِعِ وَأَوْصَافِهَا بِمَا يُغَطِّيْ عَلَىٰ فَلْسَفَةِ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَعِلْمِ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَمِثْلُ هَـٰذَا ٱلْعَبْقَرِيِّ هُوَ عِنْدِيْ فَوْقَ ٱلْعِلْمِ ، لَا أَقُوْلُ بِدَرَجَةٍ وَلَـٰكِنْ بِحَاسَّةٍ .

وَبِٱلإِلْهَامِ يَكُوْنُ لِكُلِّ عَبْقَرِيٍّ ذِهْنُهُ ٱلَّذِيْ مَعَهُ وَذِهْنُهُ ٱلَّذِيْ لَيْسَ مَعَهُ ، إِذَا كَانَتْ لَهُ مِنْ وَرَاءِ خَيَالِهِ قُوَّةٌ غَيْرُ مَنْظُوْرَةٍ لَيْسَتْ فِيْهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَعْمَلُ كَمَا تَعْمَلُ ٱلأَعْضَاءُ فِيْ جِسْمِهِ ، هَيِّنَةً مُنْقَادَةً كَأَنَّهَا تَتَصَرَّفُ عَلَىٰ ٱطِّرَادِ ٱلْعَادَةِ بِلَا فِكْرٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا عُسْرٍ مَا دَامَتْ تَنْجَلِيْ عَلَيْهِ .

وَلَيْسَتْ تَتَّصِلُ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ إِلَّا بِتَرْكِيْبٍ عَصَبِيٍّ تَكُوْنُ فِيْهِ ٱلْخَصَائِصُ ٱلَّتِيْ تَصْلُحُ أَنْ تَتَلَقَّىٰ عَنْهَا ، وَهِيَ فِيْ ٱلْعَبْقَرِيِّيْنَ خَصَائِصُ مَرَضِيَّةٌ فِيْ ٱلأَعَمِّ ٱلأَغْلَبِ ، بَلْ لَعَلَّهَا كَذَلِكَ دَائِمًا ، لِيَتَيَسَّرَ بِهَا ٱلْعَبْقَرِيُّ لِحَالَةٍ خَفِيْفَةٍ مِنَ ٱلْمَوْتِ . . . يَحْمِلُ بِهَا كَدَّهُ وَتَعَبَهُ وَمَا يُعَانِيْهِ مِنْ مَضَضِ ٱلْفِكْرِ وَثِقْلَتِهِ ، ثُمَّ لِتَكُوْنَ هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةُ كَٱلتَّقْرِيْبِ بَيْنَ عَالَمِ ٱلشَّهَادَةِ فِيْهِ وَبَيْنَ عَالَمِ ٱلْغَيْبِ

(١) هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْقَدِيْمَةُ ٱلَّتِيْ تُقَابِلُ مَا نُسَمِّيْهِ ٱلْعَبْقَرِيَّ بِلُغَةِ عَصْرِنَا ، كَأَنَّ ٱلأَشْيَاءَ تُحَدِّثُهُ بِأَسْرَارِهَا ، أَوْ تُحَدِّثُهُ بِهَا قُوَّةٌ أَعْلَىٰ مِنَ ٱلْقُوَّةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَإِذَا كَانَ مُحَدَّثًا فَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ سَمْعٍ مِنَ ٱلْغَيْبِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَا زَعَمَ ٱلْعَرَبُ مِنْ أَنَّ لِكُلِّ شَاعِرٍ شَيْطَانًا يَنْفُثُ عَلَىٰ لِسَانِهِ ، وَهُوَ وَصْفٌ دَقِيْقٌ لِلْعَبْقَرِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ بِٱللُّغَةِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَدْ صَحَّحَهُ ٱلنَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِشَاعِرِهِ حَسَّانَ : « قُلْ وَرُوْحُ ٱلْقُدُسِ مَعَكَ » [« مسند أحمد » ، رقم : ١٨١٦٨] وَكَلِمَةُ « رُوْحُ ٱلْقُدُسِ » تَنْطَوِيْ عَلَىٰ فَلْسَفَةِ ٱلْعَبْقَرِيِّ كُلِّهَا .

مِنْهُ ، فَٱلتَّرْكِيْبُ ٱلْعَصَبِيُّ فِيْ دِمَاغِ ٱلْعَبْقَرِيِّ إِنْسَانٌ عَلَىٰ حِيَالِهِ مَعَ إِنْسَانٍ آخَرَ ، أَحَدُهُمَا لِمَا فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ وَٱلثَّانِيْ لِمَا وَرَاءَ ٱلطَّبِيْعَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ٱلرَّجُلُ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْفِئَةِ كَٱلْمِصْبَاحِ : يَتَّقِدُ وَيَنْطَفِئُ لِأَنَّهُ آلَةُ نُوْرٍ تَعْرِضُ لَهَا ٱلْعِلَلُ فَتَذْهَبُ بِقُدْرَتِهَا عَلَيْهِ ، وَتَنْضُبُ مَادَّةُ ٱلنُّوْرِ مِنْهَا ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَتَكُوْنُ مُضِيْئَةً فَتَنْطَفِئُ لِسَبَبٍ لَيْسَ مِنْهَا وَلَا مِنْ نُوْرِهَا ، وَهِيَ عَلَىٰ كُلِّ هَـٰذِهِ ٱلأَحْوَالِ لَا تَمْلِكُ مِنْهَا حَالَةً ، فَبَيْنَمَا ٱلْعَبْقَرِيُّ ٱلَّذِيْ يَمْلأُ ٱلدُّنْيَا مِنْ آثَارِهِ ٱلنَّابِغَةِ ، تَرَاهُ فِيْ حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهِ يَدْأَبُ لَا يَأْتَلِيْ فَيَجِدُّ فِيْ ٱلْعَمَلِ وَيَبْذُلُ ٱلْوُسْعَ فِيْهِ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ مُطَاوَلَةِ ٱلتَّعَبِ فِيْ إِحْكَامِهِ وَيَفِيْضُ بِهِ فَيْضًا وَكَأَنَّ فِيْ طَبِيْعَتِهِ ٱلرَّبِيْعَ ٱلْمُتَفَتِّحَ طُوْلَ أَيَّامِهِ بِٱلْجَمَالِ - إِذَا هُوَ فِيْ حَالَةٍ أُخْرَىٰ يَتَلَكَّأُ وَيَتَرَبَّصُ لَا يَعْمَلُ شَيْئًا كَأَنَّمَا دَخَلَ فِيْ قَرِيْحَتِهِ ٱلشِّتَاءُ ، وَفِيْ ثَالِثَةٍ يَتَبَاطَأُ وَيَتَلَبَّثُ فَلَا يَعِنُّ لَهُ جَدِيْدٌ كَأَنَّمَا حُبِسَ عَنْهُ فِكْرُهُ أَوْ نَبَا طَبْعُهُ أَوْ هُوَ فِيْ قَيْظِ طَبِيْعَتِهِ وَخُمُوْلِهَا وَضَجَرِهَا ، ثُمَّ لَا تَمْضِيْ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا قُوَّةٌ وَسَاعَةٌ ، فَإِذَا عَلَىٰ صَيْفِهِ هَوَاءُ نُوْفَمْبَرَ/تِشْرِيْنَ ٱلثَّانِيْ وَدِيْسَمْبَرَ/كَانُوْنَ ٱلأَوَّلِ . . . وَإِذَا هُوَ مُنْبَعِثٌ مِلْءَ ٱلْقُوَّةِ وَٱلنَّشَاطِ ، وَرُبَّمَا يَأْخُذُ فِيْ غَرَضٍ مِنَ ٱلْكِتَابَةِ قَدْ رَسَمَ لَهُ ٱلْمَعْنَىٰ وَهَيَّأَ لَهُ ٱلْمَادَّةَ ، فَلَا يَكَادُ يَمْضِيْ لِنَحْوٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَتَنَاسَخَ فِيْ ذِهْنِهِ ٱلْمَعَانِيْ ، فَإِذَا هُوَ يَكْتُبُ مَا لَا يُشْبِهُ مَا كَانَ ٱبْتَدَأَ بِهِ ، وَيَأْتِيْهِ غَيْرُ مَا كَانَ قَدْ أَرَادَهُ ، كَأَنَّهُ يُلْقَىٰ عَلَيْهِ فَهُوَ يَسْتَمْلِيْ ؛ وَقَدْ يَبْتَدِئُ مَعْنًى ثُمَّ يُقْطَعُ عَنْهُ بِطَارِئٍ مِنْ عَمَلٍ أَوْ حَدِيْثٍ ، ثُمَّ يُعَاوِدُهُ فَإِذَا مَعْنًى آخَرَ وَإِذَا جِهَةٌ مِنَ ٱلْفِكْرِ هِيَ جِهَةُ ٱلإِبْدَاعِ وَٱلاخْتِرَاعِ فِيْ مَوْضُوْعِهِ ، وَإِذَا هُوَ إِنَّمَا كَانَ يُجَرُّ بِذَلِكَ ٱلصَّارِفِ عَنْ مَعْنَاهُ ٱلأَوَّلِ جَرًّا لِيَدَعَهُ إِلَىٰ ٱلأَكْمَلِ وَٱلأَصَحِّ ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ ٱسْتَوْفَىٰ عَلَىٰ مَا بَدَأَ لَأَسَفَّ وَضَعُفَ وَجَاءَ بِمَا غَيْرُهُ أَقْدَرُ عَلَيْهِ ؛ كَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ ٱلْخَفِيَّةَ ٱلَّتِيْ تُلْهِمُهُ تُنَقِّحُ لَهُ أَيْضًا بِأَسَالِيْبِهَا ٱلْغَرِيْبَةِ ؛ وَقَدْ يَكُوْنُ آخِذًا فِيْ عَمَلِهِ مَاضِيًا عَلَىٰ طَبْعِهِ مُسْتَرْسِلًا إِلَىٰ مَا يَنْكَشِفُ لَهُ مِنْ أَسْرَارِ ٱلْمَعَانِيْ ثَقِفًا مِنْ هُنَا لَقِفًا[1] مِنْ هُنَاكَ ثُمَّ يَنْظُرُ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مُسِحَ لَوْحُ خَيَالِهِ ، وَيَطْلُبُ ٱلْمَعْنَىٰ فَلَا يُتَاحُ لَهُ ، وَيَتَمَادَىٰ فَلَا يَزِيْدُ إِلَّا كَدًّا وَعُسْرًا، كَأَنَّمَا ذَهَبَ إِلْهَامُهُ فِيْ غَمْضٍ مِنْ غُمُوْضِ ٱلأَبَدِيَّةِ[2] ؛

(١) يُقَالُ : هُوَ ثَقِفٌ لَقِفٌ، أَيْ : سَرِيْعُ ٱلْفَهْمِ لِمَا يُلْقَىٰ إِلَيْهِ ، وَلَـٰكِنَّا ٱسْتَعْمَلْنَاهُ كَمَا تَرَىٰ فَجَاءَ أَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنْ أَصْلِهِ .

(٢) قَالُوْا : كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِيْ زَمَانِهِ يَقُوْلُ : تَمُرُّ عَلَيَّ ٱلسَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ =

وَكُلُّ مَنِ ٱرْتَاضَ بِصِنَاعَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱسْتَحْكَمَتْ لَهُ عَادَتُهَا وَمَرَّ فِيْ دَرَجَاتِهَا حَتَّىٰ بَلَغَ ٱلْمَكَانَةَ ٱلَّتِيْ يَسْتَشْرِفُ مِنْهَا لِلإِلْهَامِ وَيَتَعَرَّضُ فِيْهَا بِرُوْحِهِ وَبَصِيْرَتِهِ لِنَبَضَاتِ ٱلْوَحْيِ وَٱنْكِشَافَاتِ ٱلْغَيْبِ ، يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَعْنًى بَدِيْعٍ يَأْتِيْ بِهِ فِيْ صِنَاعَتِهِ إِنَّمَا يَقَعُ لَهُ إِلْهَامًا مِنْ ذَلِكَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْحَيِّ ٱلْمُتَمَدِّدِ فِيْ ٱلْكَائِنَاتِ كُلِّهَا ؛ ظَاهِرًا فِيْ شَيْءٍ مِنْهَا بِٱلضَّوْءِ ، وَفِيْ أَشْيَاءَ بِٱلأَلْوَانِ ، وَفِيْ بَعْضِهَا بِٱلْحَرَكَةِ ، وَفِيْ بَعْضِهَا بِٱلانْسِجَامِ ، وَفِيْ بَعْضِهَا بِٱلرَّوْعَةِ وَٱلْفَخَامَةِ ، وَفِيْ غَيْرِهَا بِنِصْبَةِ ٱلْهَيْئَةِ ؛ وَظَاهِرًا فِيْ حَالَاتٍ كَثِيْرَةٍ بِأَنَّهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ ؛ وَيَعْرِفُ كَذَلِكَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلشَّامِلَ ٱلَّذِيْ لَا يُحَدُّ هُوَ ٱلَّذِيْ يَنْقُلُ ٱلْوُجُوْدَ كُلَّهُ إِلَىٰ نُفُوْسِ ٱلنَّوَابِغِ[1] مَتَىٰ نَبَضَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلنُّفُوْسِ ٱلرَّقِيْقَةِ وَأَشْعَرَهَا سِرَّهُ ، وَإِذَا هَمَّ ٱلنَّابِغَةُ أَنْ يَتَوَضَّحَهُ لَا يَرَىٰ شَيْئًا ، وَإِذَا أَرَادَ حُجَّةً عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلْجَلَاءَ عَنْ بَيَانِهِ بِكَلِمَةٍ ، وَإِذَا ٱلْتَمَسَ ٱلتَّعْرِيْفَ بِهِ لَمْ يَجِدْ إِلَّا مَا يَشْهَدُ لَهُ إِحْسَاسُهُ وَقَلْبُهُ ؛ وَهَـٰذَا ٱلَّذِيْ يَنْقَدِحُ فِيْ أَذْهَانِ ٱلنَّوَابِغِ أَفْكَارًا حِيْنَ يَفِيْضُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ بِسَبَبٍ مِنْ قِرَاءَةٍ أَوْ مُشَاهَدَةٍ أَوْ حَالَةٍ أَوْ مِرَاسٍ ، هُوَ هُوَ بِعَيْنِهِ ٱلَّذِيْ يَنْقَدِحُ عِشْقًا فِيْ قُلُوْبِ ٱلْمُحِبِّيْنَ حِيْنَ يَتَرَاءَىٰ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِيْ مَعْنًى عَلَىٰ وَجْهٍ جَمِيْلٍ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ٱلنَّابِغَةُ فِيْ ٱلأَدَبِ لَا يَتِمُّ تَمَامُهُ إِلَّا إِذَا أَحَبَّ وَعَشِقَ ، وَكَانَ ٱلأَدَبُ نَفْسُهُ فِيْ تَحْصِيْلِ حَقِيْقَتِهِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ لَيْسَ شَيْئًا سِوَىٰ صِنَاعَةِ جَمَالِ ٱلْفِكْرِ . . .

وَهَـٰذَا ٱلْعَمَلُ فِيْ ٱلْجِهَازِ ٱلْعَصَبِيِّ ٱلْخَاصِّ بِهِ فِيْ بَعْضِ ٱلأَدْمِغَةِ هُوَ ٱلَّذِيْ كَانَ يُسَمِّيْهِ عُلَمَاءُ ٱلأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلتَّوْلِيْدِ ، وَقَدْ عَرَفُوْا أَثَرَهُ وَلَـٰكِنَّهُمْ لَمْ يَنْتَبِهُوْا إِلَىٰ حَقِيْقَتِهِ وَلَا أَدْرَكُوْا

= أَضْرَاسِيْ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ ! وَذَكَرُوْا أَنَّهُ كَانَ مِنْ عَمَلِهِ إِذَا ٱسْتَصْعَبَ ٱلشِّعْرُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْكَبَ نَاقَتَهُ وَيَطُوْفَ وَحْدَهُ خَالِيًا مُنْفَرِدًا فِيْ شِعَابِ ٱلْجِبَالِ وَبُطُوْنِ ٱلأَوْدِيَةِ فَيَنْقَادُ لَهُ ٱلْكَلَامُ ؛ وَأَخْبَارُهُمْ كَثِيْرَةٌ فِيْ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِيْ يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَىٰ ٱلشِّعْرِ وَيُجْتَلَبُ بِهَا نَافِرُهُ ، وَٱلْحَقِيْقَةُ أَنَّهَا عِلَلٌ مِنَ ٱلنَّفْسِ تُعَارِضُ حَالَةَ ٱلإِلْهَامِ إِلَىٰ أَنْ تَزُوْلَ وَتَصْفُوَ ٱلنَّفْسُ مِنْهَا ، أَوْ أَسْبَابٌ تَتَّفِقُ وَلَا تُلْهِمُ شَيْئًا إِلَىٰ أَنْ تَتَغَيَّرَ بِأَسْبَابٍ مُلْهِمَةٍ .

(١) هُنَاكَ فَرْقٌ عِلْمِيٌّ بَيْنَ مَا يُسَمَّىٰ نُبُوْغًا وَمَا يُسَمَّىٰ عَبْقَرِيَّةً ، وَلَـٰكِنَّا فِيْ هَـٰذَا ٱلْفَصْلِ أَطْلَقْنَا ٱلْكَلَامَ وَقَيَّدْنَا فِيْ مَوَاضِعَ بِخُصُوْصِهَا ، وَيَكَادُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلنَّابِغَةِ وَٱلْعَبْقَرِيِّ فِيْ جِمَاعِ أَمْرِهِ أَنْ يَكُوْنَ كَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلتِّلِغْرَافِ ٱلَّذِيْ طَرِيْقُهُ مَادَّةُ ٱلسِّلْكِ وَبَيْنَ ٱلآخَرِ ٱلَّذِيْ طَرِيْقُهُ رُوْحُ ٱلْجَوِّ ؛ فَكِلَاهُمَا هُوَ ٱلآخَرُ ، وَلَـٰكِنَّ أَحَدَهُمَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ طَرِيْقٍ مَسْلُوْكٍ وَٱلآخَرَ طَرِيْقُهُ كُلُّ ٱلطُّرُقِ ، أَيْ : فَوْقَ أَنْ يُقَيَّدَ بِطَرِيْقَةٍ .

مِنْ سِرِّهِ شَيْئًا ؛ وَأَحْسَنُ مَا قَرَأْنَاهُ فِيْهِ قَوْلُ ٱبْنِ رَشِيْقٍ فِيْ كِتَابِ « ٱلْعُمْدَةِ » : « إِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ ٱلشَّاعِرِ تَوْلِيْدُ مَعْنًى وَلَا ٱخْتِرَاعُهُ ، أَوِ ٱسْتِطْرَافُ لَفْظٍ وَٱبْتِدَاعُهُ ، أَوْ زِيَادَةٌ فِيْمَا أَجْحَفَ فِيْهِ غَيْرُهُ مِنَ ٱلْمَعَانِيْ ، أَوْ نَقْصٌ مِمَّا أَطَالَهُ سِوَاهُ مِنَ ٱلأَلْفَاظِ ، أَوْ صَرْفُ مَعْنًى إِلَىٰ وَجْهٍ عَنْ وَجْهٍ آخَرَ ـ كَانَ ٱسْمُ ٱلشَّاعِرِ عَلَيْهِ مَجَازًا لَا حَقِيْقَةً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا فَضْلُ ٱلْوَزْنِ » . هَـٰذَا كَلَامُ ٱبْنُ رَشِيْقٍ ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَحْسَنُ مِنْهُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ تَخْلِيْطٌ لَا قِيْمَةَ لَهُ ، وَلَيْسَ فِيْهِ مِنْ مَوْضُوْعِنَا إِلَّا لَفْظُ ٱلتَّوْلِيْدِ .

وَمِمَّا لَا نَقْضِيْ مِنْهُ عَجَبًا فِيْ تَتَبُّعِ فَلْسَفَةِ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْعَجِيْبَةِ ، أَنَّنَا نَرَىٰ أَكْثَرَ أَلْفَاظِهَا كَٱلتَّامَّةِ لَا يَنْقُصُهَا شَيْءٌ مِنْ دَقَائِقِ ٱلْمَعْنَىٰ فِيْ أَصْلِ وَضْعِهَا ، عَلَىٰ حِيْنٍ لَا يَفْهَمُ عُلَمَاؤُهَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلأَلْفَاظِ إِلَّا بَعْضَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهَا مُنَزَّلَةٌ تَنْزِيْلًا مِمَّنْ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ؛ وَقَدْ نَبَّهْنَا إِلَىٰ هَـٰذَا فِيْ كِتَابِنَا « تَارِيْخُ آدَابِ ٱلْعَرَبِ » وَأَفَضْنَا فِيْهِ وَٱسْتَوْفَيْنَا هُنَاكَ مِنْ فَلْسَفَتِهِ ، وَجَاءَ ٱلْقُرْآنُ ٱلْكَرِيْمُ مِنْ هَـٰذَا بِٱلْعَجَائِبِ ٱلَّتِيْ تَفُوْتُ ٱلْعَقْلَ ، حَتَّىٰ إِنَّ أَكْثَرَ أَلْفَاظِهِ لَتَكَادُ تَكُوْنُ مَخْتُوْمَةً نَزَلَتْ كَذَلِكَ لِتَفُضَّ ٱلْعُلُوْمُ وَٱلْفَلْسَفَةُ خَوَاتِمَهَا فِيْ عُصُوْرٍ آتِيَةٍ لَا رَيْبَ فِيْهَا[1] ؛ وَكَلِمَةُ ٱلتَّوْلِيْدِ ٱلَّتِيْ لَمْ يَفْهَمْ مِنْهَا ٱلْعُلَمَاءُ إِلَّا أَخْذَ مَعْنًى مِنْ مَعْنَىٰ غَيْرِهِ بِطَرِيْقَةٍ مِنْ طُرُقِ ٱلأَخْذِ ٱلَّتِيْ أَشَارُوْا إِلَيْهَا فِيْ كُتُبِ ٱلأَدَبِ ـ هِيَ ٱلْكَلِمَةُ ٱلَّتِيْ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ أَسْرَارِ ٱلنُّبُوْغِ وَلَا تَجِدُ مَا يَسُدُّ فِيْ ذَلِكَ مَسَدَّهَا أَوْ يُحِيْطُ إِحَاطَتَهَا ، وَلَا نَظُنُّ فِيْ لُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ مَا يُشْبِهُهَا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدِّلَالَةِ وَٱسْتِيْعَابِهَا كُلَّ أَسْرَارِ ٱلْمَعْنَىٰ ؛ إِذْ هِيَ بِلَفْظِهَا نَصٌّ عَلَىٰ حَيَاةِ ٱلْكَوْنِ فِيْ ٱلذِّهْنِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، وَأَنَّهُ يَتَّخِذُهُ وَسِيْلَةً لِإِبْدَاعِ مَعَانِيْهِ ، كَمَا يَتَّخِذُ سِرُّ ٱلْحَيَاةِ بَطْنَ ٱلأُمِّ وَسِيْلَةً لِإِبْدَاعِ مَوْجُوْدَاتِهِ ؛ وَأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَتَلَاقَحُ فَيَلِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِيْ أُسْلُوْبٍ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، وَأَنَّ هَـٰذِهِ وَحْدَهَا ٱلطَّرِيْقَةُ لِتَطَوُّرِ ٱلْفِكْرِ وَإِخْرَاجِ سُلَالَاتٍ مِنَ ٱلْمَعَانِيْ بَعْضُهَا أَجْمَلُ مِنْ بَعْضٍ ، كَمَا يَكُوْنُ مِثْلُ ذَلِكَ فِيْ ٱلنَّسْلِ بِوَسَائِلِ ٱلتَّلْقِيْحِ مِنَ ٱلدِّمَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ، وَأَنَّ ٱلنُّبُوْغَ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا ٱلتَّرْكِيْبُ ٱلْعَصَبِيُّ ٱلْخَاصُّ فِيْ ٱلذِّهْنِ ، ثُمَّ نُمُوُّ هَـٰذَا ٱلتَّرْكِيْبِ مَعَ ٱلْحَيَاةِ

(١) عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ وَكَشْفِ أَسْرَارِهِ فِيْ آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ سَيُبْنَىٰ كِتَابُنَا ٱلْجَدِيْدُ « أَسْرَارُ ٱلإِعْجَازِ » . { قُلْتُ : وَٱنْظُرْ خَاتِمَةَ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

فِي طَرِيقَةٍ سَوَاءٍ هِيَ وَطَرِيقَةُ ٱلْوِلَادَةِ ٱلْمُحْيِيَةِ ٱلَّتِي مَرْجِعُهَا كَذَلِكَ إِلَىٰ تَرْكِيبٍ خَاصٍّ فِي أَحْشَاءِ ٱلْأُنْثَىٰ : يَنْمُو ثُمَّ يُدْرِكُ ثُمَّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ ٱلْمُعْجِزَ ؛ وَإِذَا كَانَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي ٱلطَّبِيعَةِ زَوْجَانِ ، فَٱلْكَلِمَةُ نَصٌّ عَلَىٰ أَنَّ أَذْهَانَ ٱلنَّوَابِغِ أَذْهَانٌ مُؤَنَّثَةٌ فِي طِبَاعِهَا ٱلَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا ؛ وَهَـٰذَا صَحِيحٌ ، إِذْ هِيَ أَقْوَىٰ ٱلْأَذْهَانِ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ فِي ٱلْحِسِّ بِٱلْآلَامِ وَٱلْمَسَرَّاتِ ، وَمَعَانِي ٱلدُّمُوعِ وَٱلِابْتِسَامِ أَسْرَعُ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِهَا ، بَلْ هِيَ طَبِيعَةٌ فِيهَا ؛ وَهِيَ وَحْدَهَا ٱلْمُبْدِعَةُ لِلْجَمَالِ وَٱلْمُنْشِئَةُ لِلذَّوْقِ ، وَعَمَلُهَا فِي ذَلِكَ هُوَ قَانُونُ وُجُودِهَا ؛ ثُمَّ هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى ٱلِاحْتِمَالِ وَٱلْإِعْطَاءِ وَٱلرِّضَا بِٱلْحِرْمَانِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ وَإِدْمَانِ ٱلصَّبْرِ عَلَىٰ ٱلتَّعَبِ وَٱلدِّقَّةِ وَٱلِاهْتِمَامِ بِٱلتَّفَاصِيلِ وَأَسَاسُهَا ٱلْحُبُّ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ طِبَاعِ ٱلْأُنْثَىٰ وَهِيَ ٱلنَّابِغَةُ فِيهِ ، بَلْ هِيَ ٱلنَّابِغَةُ بِهِ .

فَسِرُّ ٱلنُّبُوغِ فِي ٱلْأَدَبِ وَفِي غَيْرِهِ هُوَ ٱلتَّوْلِيدُ ، وَسِرُّ ٱلتَّوْلِيدِ فِي نُضْجِ ٱلذِّهْنِ ٱلْمُهَيَّأِ بِأَدَوَاتِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ ، ٱلْمُتَّجِهَةِ إِلَىٰ ٱلْمَجْهُولِ وَمَعَانِيهِ كَمَا تَتَّجِهُ كُلُّ آلَاتِ ٱلْمَرْصَدِ ٱلْفَلَكِيِّ إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ وَأَجْرَامِهَا ؛ وَبِذَلِكَ ٱلْعُنْصُرِ ٱلذِّهْنِيِّ يَزِيدُ ٱلنَّابِغَةُ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، كَمَا يَزِيدُ ٱلْمَاسُ عَلَىٰ ٱلزُّجَاجِ ، وَٱلْجَوْهَرُ عَلَىٰ ٱلْحَجَرِ ، وَٱلْفُولَاذُ عَلَىٰ ٱلْحَدِيدِ ، وَٱلذَّهَبُ عَلَىٰ ٱلنُّحَاسِ ؛ فَهَـٰذِهِ كُلُّهَا نَبَغَتْ نُبُوغَهَا بِٱلتَّوْلِيدِ فِي سِرِّ تَرْكِيبِهَا ، وَيَتَفَاوَتُ ٱلنَّوَابِغُ أَنْفُسُهُمْ فِي قُوَّةِ هَـٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ ، فَبَعْضُهُمْ فِيهَا أَكْمَلُ مِنْ بَعْضٍ ، وَتَمُدُّ لَهُمْ فِي ٱلْخِلَافِ أَحْوَالُ أَزْمَانِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ وَحَوَادِثِهِمْ وَنَحْوُهَا ، وَبِهَـٰذِهِ ٱلْمُبَايَنَةِ تَجْتَمِعُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ شَخْصِيَّةٌ وَتَتَّسِقُ لَهُ طَرِيقَةٌ ؛ وَبِذَلِكَ تَتَنَوَّعُ ٱلْأَسَالِيبُ ، وَيُعَادُ ٱلْكَلَامُ غَيْرَ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ ، وَتَتَجَدَّدُ ٱلدُّنْيَا بِمَعَانِيهَا فِي ذِهْنِ كُلِّ أَدِيبٍ يَفْهَمُ ٱلدُّنْيَا وَتَتَّخِذُ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْجَارِيَةُ فِي ٱلْعَادَةِ غَرَابَةً لَيْسَتْ فِي ٱلْعَادَةِ وَيَرْجِعُ ٱلْحَقِيقِيُّ أَكْثَرَ مِنْ حَقِيقَتِهِ .

وَقَدْ سُئِلَ مُصَوِّرٌ مُبْدِعٌ بِمَاذَا يَمْزُجُ أَلْوَانَهُ فَتَأْتِي وَلَهَا إِشْرَاقُهَا وَجَمَالُهَا وَنُبُوغُ مَبَانِيهَا وَزَهْوُ ٱلْحَيَاةِ بِهَا فِي ٱلصُّورَةِ ، فَقَالَ : إِنَّمَا أَمْزُجُهَا بِمُخِّي . وَهَـٰذَا هَـٰذَا ، فَإِنَّ ٱلْأَلْوَانَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ جَمِيعًا وَلَـٰكِنَّ مُخَّهُ عِنْدَهُ وَحْدَهُ وَلَهُ تَرْكِيبُهُ ٱلْخَاصُّ بِهِ وَحْدَهُ وَسِرُّ ٱلصِّنَاعَةِ فِي تَوْلِيدِ هَـٰذَا ٱلدِّمَاغِ ، فَكَأَنَّ أَلْوَانَهُ فِي صِنَاعَتِهِ جَاءَتْ مِنْهُ بِخُصُوصِهِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يَتَنَاوَلُهُ ٱلْعَبْقَرِيُّ ، فَإِنَّكَ لَتَجِدُ ٱلشِّعْرَ فِي وَزْنٍ خَاصٍّ بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيُتَمِّمُ ٱلْغَرَضَ مِنْهُ وَيُضِيفُ إِلَىٰ

مَعَانِيهِ أَنَقًا مِنَ ٱلْجَمَالِ وَحُسْنِهِ وَإِلَىٰ صَوْتِهِ نَغَمًا مِنَ ٱلْمُوسِيقَىٰ وَطَرَبِهَا . فَمَا أَشْبَهَ ٱلْجِهَازَ ٱلْعَصَبِيَّ فِي دِمَاغِ كُلِّ نَابِغَةٍ أَنْ يَكُونَ وَزْنًا شِعْرِيًّا لِهَـٰذَا ٱلنَّابِغَةِ بِخَاصَّتِهِ . أَلَا تَرَىٰ أَنَّكَ لَا تَقْرَأُ ٱلْأَدِيبَ ٱلْحَقَّ إِلَّا وَجَدْتَ كُلَّ مَا يَكْتُبُهُ يَجِيءُ فِي وَزْنٍ خَاصٍّ بِهِ حَتَّىٰ لَا يَخْرُجَ عَنْهُ مَرَّةً ، أَوْ تَزِيدَ أَنْتَ فِيهِ وَتُنْقِصَ إِلَّا ظَهَرَ لَكَ أَنَّهُ مَكْسُورٌ . . . ؟

وَٱلذِّهْنُ ٱلْعَبْقَرِيُّ لَا يَتَّخِذُ ٱلْمَعَانِيَ مَوْضُوعَ بَحْثٍ وَنَظَرٍ وَتَعَقُّبٍ يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا أَوْ يَتَعَلَّقُ عَلَيْهَا ، فَهَـٰذَا عَمَلُ ٱلذِّهْنِ ٱلذَّكِيِّ وَحْدَهُ ، وَهُوَ غَايَةُ ٱلْغَايَاتِ فِيهِ ، يَبْحَثُ وَيَنْظُرُ وَيَتَصَفَّحُ وَيَجْمَعُ مِنْ هُنَا ، وَيَأْخُذُ مِنْ ثَمَّ ، وَيَعْتَرِضُ وَيُصَحِّحُ ، وَيَأْتِيكَ بِٱلْمَقَالَةِ يَحْسَبُ فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ وَمَا فِيهَا إِلَّا أَشْيَاؤُهُ هُوَ وَأَمْثَالُهُ . أَمَّا ٱلذِّهْنُ ٱلْعَبْقَرِيُّ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي إِلَّا مَادَّةُ عَمَلٍ ، فَلَا تَكَادُ تُلَابِسُهُ حَتَّىٰ تَتَحَوَّلَ فِيهِ وَتَنْمُوَ وَتَتَنَوَّعَ وَتَتَسَاقَطَ لَهُ أَشْكَالًا وَصُوَرًا فِي مِثْلِ خَطَرَاتِ ٱلْبَرْقِ ، وَرُبَّمَا غَمَرَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْوَاحِدُ فِي جَمَالِهِ وَسُمُوِّهِ وَقُوَّةِ تَأْثِيرِهِ مَقَالَاتٍ عِدَّةً لِأُولَـٰئِكَ ٱلْأَذْكِيَاءِ ، فَنَسَخَهَا نَسْخًا ، وَجَعَلَهَا مِنْهُ كَٱلشُّمُوعِ ٱلْمُوقَدَةِ بِإِزَاءِ ٱلشَّمْسِ . فَإِذَا ذَهَبْتَ تُوَازِنُ بَيْنَ مِثْلِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ وَمِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَاتِ فِي ٱلرَّوْعَةِ وَٱلْجَلَالِ ، وَرَأَيْتَ عَرْبَدَةَ ٱلْمَقَالَةِ وَغُرُورَهَا لَمْ تَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ تَقُولَ لَهَا : يَا حَصَاةَ ٱلْمِيزَانِ فِي إِحْدَىٰ كِفَّتَيْهِ ! أَلَا يَكْفِيكِ ٱلْجَبَلُ فِي ٱلْكِفَّةِ ٱلْأُخْرَىٰ . . . ؟ .

وَقَدْ عَرَفَ ٱلْأُدَبَاءُ جَمِيعًا أَنَّ كَاتِبَ فَرَنْسَةَ ٱلْعَظِيمَ أَنَاتُولَ فرانس Anatole France كَانَ يَكْتُبُ ٱلْجُمْلَةَ ثُمَّ يُنَقِّحُهَا ثُمَّ يُهَذِّبُهَا ثُمَّ يُعِيدُهَا ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا ، وَهَـٰكَذَا خَمْسَ مَرَّاتٍ إِلَىٰ ثَمَانٍ ، وَيُقَدِّمُ وَيُؤَخِّرُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ مَوْضِعٍ ، وَيَحْتَسِبُونَ هَـٰذَا تَحْكِيكًا وَتَهْذِيبًا وَمَا هُوَ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ، وَلَا أَحْسَبُ ٱلْأُورُبِّيِّينَ أَنْفُسَهُمْ تَنَبَّهُوا إِلَىٰ سِرِّ هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ ، وَإِنَّمَا سِرُّهَا مِنْ جِهَازِ ٱلتَّوْلِيدِ فِي رَأْسِ ذَلِكَ ٱلْكَاتِبِ ٱلْعَظِيمِ ، فَإِذَا قَرَأَ كِتَابَةً حَوَّلَهَا فِكْرَةً ، وَأَبْدَعَ لَهُ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْمَلَ فِي ذَلِكَ أَوْ يَتَكَلَّفَ لَهُ إِلَّا مَا يَتَكَلَّفُ مَنْ يَهُزُّ إِلَيْهِ بِجِذْعِ ٱلشَّجَرَةِ لِتُسَاقِطَ عَلَيْهِ ثَمَرًا نَاضِجًا حُلْوًا جَنِيًّا . فَكُلَّمَا قَرَأَ وَلَّدَ ذِهْنُهُ ، فَيُثْبِتُ مَا يَأْتِيهِ ، فَلَا تَزَالُ صُورَةٌ مِنْ صُورَةٍ حَتَّىٰ يَجِيءَ ٱلْمَعْنَىٰ فِي ٱلنِّهَايَةِ ، وَإِنَّهُ لَأَغْرَبُ ٱلْغَرَائِبِ لَا يَكَادُ ٱلْعَقْلُ يَهْتَدِي إِلَىٰ طَرِيقَتِهِ وَسِيَاقِ ٱلْفِكْرِ فِيهِ ، إِذْ كَانَ لَمْ يَأْتِ إِلَّا مُحَوَّلًا عَنْ وَجْهِهِ مَرَّاتٍ لَا مَرَّةً وَاحِدَةً .

فَجِهَازُ ٱلتَّوْلِيدِ مَتَىٰ ٱسْتَمَرَّ وَٱسْتَحْكَمَ فِي إِنْسَانٍ أَصْبَحَ لَهُ بِمَقَامِ مَلَكِ ٱلْوَحْيِ مِنَ ٱلنَّبِيِّ ،

وَهُوَ عِنْدَنَا دَلِيلٌ مِنْ أَقْوَىٰ ٱلأَدِلَّةِ عَلَىٰ صِحَّةِ ٱلنُّبُوَّةِ وَحُدُوثِ ٱلْوَحْيِ وَإِمْكَانِهِ ، إِذْ لَا تَتَصَرَّفُ بِهِ إِلَّا قُوَّةٌ غَيْبِيَّةٌ لَا عَمَلَ لِلإِنْسَانِ فِيهَا ، بَلْ هِيَ تُبْدِعُ إِبْدَاعَهَا وَتُلْقَىٰ عَلَيْهِ إِلْقَاءً . وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ تَعَرَّضَ لَهَا أَدْرَكَ مِنْهَا ، وَلَا كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ مِنْهَا بَلَغَ بِهَا ، بَلْ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ ٱلْجِهَازِ ٱلْعَصَبِيِّ ٱلْمُحْكَمِ كَجِهَازِ ٱللَّاسِلْكِيِّ ٱلدَّقِيقِ ٱلْمَصْنُوعِ لِتَلَقِّي أَبْعَدِ ٱلأَمْوَاجِ ٱلْكَهْرَبَائِيَّةِ وَأَقْوَاهَا . وَهَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ إِنْ أَرَادَتْ مَعَانِيَ ٱلْجَمَالِ أَخْرَجَتِ ٱلشَّاعِرَ ، وَإِنْ أَرَادَتْ كَشْفَ ٱلسِّرِّ عَنِ ٱلأَشْيَاءِ أَخْرَجَتِ ٱلأَدِيبَ ، وَإِنْ أَرَادَتْ حَقَائِقَ ٱلْوُجُودِ أَخْرَجَتِ ٱلْحَكِيمَ . فَإِنْ كَانَ ٱلأَمْرُ أَكْبَرَ مِنْ هَـٰذَا كُلِّهِ ، وَكَانَ أَمْرَ تَغْيِيرِ ٱلْحَيَاةِ وَصَبِّ أَزْمَانٍ جَدِيدَةٍ لِلإِنْسَانِيَّةِ ، وَٱلْوُثُوبِ بِهَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا دَرَجَةً أَوْ دَرَجَاتٍ فِي ٱلرُّقِيِّ - فَهُنَا تَكُونُ ٱلْوَسِيلَةُ أَكْبَرَ مِنَ ٱلْبَصِيرَةِ ، فَلَيْسَ لَهَا مِنْ قُوَّةِ ٱلْغَيْبِ إِلَّا ٱلْوَحْيُ ، وَيَكُونُ ٱلْغَرَضُ أَكْبَرَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ وَٱلأَدِيبِ وَٱلْحَكِيمِ ، فَلَا يُخْتَارُ إِلَّا ٱلنَّبِيُّ . ثُمَّ لَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ إِلَّا وَهُوَ فِي حِسٍّ لِسَاعَةِ ٱلْوَحْيِ وَحْدَهَا ، وَهِيَ سَاعَةٌ لَيْسَتْ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، بَلْ مِنَ ٱلرُّوحِ ٱلْمُنْصَرِفِ عَنِ ٱلزَّمَنِ وَمَا فِيهِ لِيَتَلَقَّىٰ عَنْ رُوحِ ٱلْخُلْدِ ، وَقَرِيبٌ مِنْ ذَٰلِكَ خَلْوَةُ ٱلنَّابِغَةِ بِنَفْسِهِ فِي سَاعَةِ ٱلتَّوْلِيدِ .

فَسِرُّ ٱلنُّبُوغِ مِنْ سِرِّ ٱلْوَحْيِ ، لَا رَيْبَ فِي ذَٰلِكَ ، وَمَا أَسْهَلَ سِرَّ ٱلْوَحْيِ وَأَيْسَرَ أَمْرَهُ ، وَلَـٰكِنْ فِي ٱلأَنْبِيَاءِ وَحْدَهُمْ ، وَهُنَا كُلُّ ٱلصُّعُوبَةِ . . « أَنْ نَكُونَ أَوْ لَا نَكُونَ ، هَـٰذِهِ هِيَ ٱلْمَسْأَلَةُ » .

نَقْدُ ٱلشِّعْرِ وَفَلْسَفَتُهُ(*)

ٱلشَّاعِرُ فِي رَأْيِنَا هُوَ ذَاكَ ٱلَّذِي يَرَىٰ ٱلطَّبِيعَةَ كُلَّهَا بِعَيْنَيْنِ لَهُمَا عِشْقٌ خَاصٌّ وَفِيهِمَا غَزَلٌ عَلَىٰ حِدَةٍ ، وَقَدْ خُلِقَتَا مُهَيَّأَتَيْنِ بِمَجْمُوعَةِ ٱلنَّفْسِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِرُؤْيَةِ ٱلسِّحْرِ ٱلَّذِي لَا يُرَىٰ إِلَّا بِهِمَا ، بَلِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْحَيَّةِ لَوْلَا عَيْنَا ٱلشَّاعِرِ ، كَمَا لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلْجَمَالِ ٱلْحَيِّ لَوْلَا عَيْنَا ٱلْعَاشِقِ .

فَإِذَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْعَظِيمُ أَعْمَىٰ كَهُومِيرُوس Homerus وملتون Milton وَبَشَّارٍ وَٱلْمَعَرِّيِّ وَأَضْرَابِهِمْ ، ٱنْبَعَثَ ٱلْبَصَرُ ٱلشِّعْرِيُّ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ حَاسَّةٍ فِيهِ ، وَأَبْصَرَ مِنْ خَوَاطِرِهِ ٱلْمُنْبَثَّةِ فِي كُلِّ مَعْنًى ، فَأَدَّىٰ بِٱلنَّفْسِ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلْمُظْلِمِ أَكْثَرَ مَا كَانَ يُؤَدِّيهِ بِهَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلْمُضِيءِ ، وَقَصَّرَ عَنِ ٱلْمُبْصِرِينَ فِي مَعَانٍ وَأَرْبَىٰ عَلَيْهِمْ فِي مَعَانٍ أُخْرَىٰ ، فَيَجْتَمِعُ لِلشِّعْرِ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ وَأُولَـٰئِكَ مَدُّ ٱلنَّفْسِ ٱلْمُلْهَمَةِ مِمَّا بَيْنَ أَطْرَافِ ٱلنُّورِ إِلَىٰ أَغْوَارِ ٱلظُّلْمَةِ .

وَٱلشِّعْرُ فِي أَسْرَارِ ٱلأَشْيَاءِ لَا فِي ٱلأَشْيَاءِ ذَاتِهَا ، وَلِهَـٰذَا تَمْتَازُ قَرِيحَةُ ٱلشَّاعِرِ بِقُدْرَتِهَا عَلَىٰ خَلْقِ ٱلأَلْوَانِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ٱلَّتِي تَصْبُغُ كُلَّ شَيْءٍ وَتُلَوِّنُهُ لِإِظْهَارِ حَقَائِقِهِ وَدَقَائِقِهِ حَتَّىٰ يَجْرِيَ مَجْرَاهُ فِي ٱلنَّفْسِ وَيَجُوزَ مَجَازَهُ فِيهَا ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَعَاوَرَهُ ٱلنَّاسُ مِنْ أَشْيَاءِ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا فَهُوَ إِنَّمَا يُعْطِيهِمْ مَادَّتَهُ فِي هَيْئَتِهِ ٱلصَّامِتَةِ ، حَتَّىٰ إِذَا ٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ ٱلشَّاعِرِ أَعْطَاهُ هَـٰذِهِ ٱلْمَادَّةَ فِي صُورَتِهَا ٱلْمُتَكَلِّمَةِ ، فَأَبَانَتْ عَنْ نَفْسِهَا فِي شِعْرِهِ ٱلْجَمِيلِ بِخَصَائِصَ وَدَقَائِقَ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا ٱلنَّاسُ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ فِيهَا .

فَبِٱلشِّعْرِ تَتَكَلَّمُ ٱلطَّبِيعَةُ فِي ٱلنَّفْسِ وَتَتَكَلَّمُ ٱلنَّفْسُ لِلْحَقِيقَةِ وَتَأْتِي ٱلْحَقِيقَةُ فِي أَظْرَفِ أَشْكَالِهَا وَأَجْمَلِ مَعَارِضِهَا ، أَيْ : فِي ٱلْبَيَانِ ٱلَّذِي تَصْنَعُهُ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسُ ٱلْمُلْهَمَةُ حِينَ تَتَلَقَّىٰ ٱلنُّورَ مِنْ كُلِّ مَا حَوْلَهَا وَتَعْكِسُهُ فِي صِنَاعَةٍ نُورَانِيَّةٍ مُتَمَوِّجَةٍ بِٱلأَلْوَانِ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْكَلِمَاتِ وَٱلأَنْغَامِ .

(*) مَجَلَّةُ أَبولو : مايو/ أيار سنة ١٩٣٢ .

وَٱلإِنْسَانُ مِنَ ٱلنَّاسِ يَعِيْشُ فِيْ عُمْرٍ وَاحِدٍ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّاعِرَ يَبْدُوْ كَأَنَّهُ فِيْ أَعْمَارٍ كَثِيْرَةٍ مِنْ عَوَاطِفِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَنْطَوِيْ عَلَىٰ نُفُوْسٍ مُخْتَلِفَةٍ تَجْمَعُ ٱلإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَبِذَٰلِكَ خُلِقَ لِيُفِيْضَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا ، كَأَنَّمَا هُوَ نَبْعٌ إِنْسَانِيٌّ لِلإِحْسَاسِ يَغْتَرِفُ ٱلنَّاسُ مِنْهُ لِيَزِيْدَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَانِيَ وُجُوْدِهِ ٱلْمَحْدُوْدِ مَا دَامَ هَـٰذَا ٱلْوُجُوْدُ لَا يَزِيْدُ فِيْ مُدَّتِهِ ، ثُمَّ لِيُرْهِفَ ٱلإِنْسَانُ بِذَٰلِكَ أَعْصَابَهُ فَتُدْرِكَ شَيْئًا مِمَّا فَوْقَ ٱلْمَحْسُوْسِ ، وَتُمَكِّنَهُ طَرَفًا مِنْ أَطْرَافِ ٱلْحَقِيْقَةِ ٱلْخَالِدَةِ ٱلَّتِيْ تَتَّسِعُ بِٱلنَّفْسِ وَتُخْرِجُهَا مِنْ حُدُوْدِ ٱلضَّرُوْرَاتِ ٱلضَّيِّقَةِ ٱلَّتِيْ تَعِيْشُ فِيْهَا لِتَصِلَهَا بِلَذَّاتِ ٱلْمَعَانِيْ ٱلْحُرَّةِ ٱلْجَمِيْلَةِ ٱلْكَامِلَةِ ، وَكَأَنَّ ٱلشِّعْرَ لَمْ يَجِئْ فِيْ أَوْزَانٍ إِلَّا لِيَحْمِلَ فِيْهَا نَفْسَ قَارِئِهِ إِلَىٰ تِلْكَ ٱللَّذَّاتِ عَلَىٰ ٱهْتِزَازَاتِ ٱلنَّغَمِ ، وَمَا يُطْرِبُ ٱلشِّعْرُ إِلَّا إِذَا أَحْسَنَتْهُ كَأَنَّمَا أَخَذَ ٱلنَّفْسَ لَحْظَةً وَرَدَّهَا .

وَٱلشَّاعِرُ ٱلْحَقِيْقُ بِهَـٰذَا ٱلاسْمِ ـ أَيْ : ٱلَّذِيْ يَغْلِبُ عَلَىٰ ٱلشِّعْرِ وَيَفْتَتِحُ مَعَانِيَهُ وَيَهْتَدِيْ إِلَىٰ أَسْرَارِهِ وَيَأْخُذُ بِغَايَةِ ٱلصَّنْعَةِ فِيْهِ ـ تَرَاهُ يَضَعُ نَفْسَهُ فِيْ مَكَانِ مَا يُعَانِيْهِ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ وَمَا يَتَعَاطَىٰ وَصْفَهُ مِنْهَا ، ثُمَّ يُفَكِّرُ بِعَقْلِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ عَقْلُ هَـٰذَا ٱلشَّيْءِ مُضَافًا إِلَيْهِ ٱلإِنْسَانِيَّةُ ٱلْعَالِيَةُ ، وَبِهَـٰذَا تَنْطَوِيْ نَفْسُهُ عَلَىٰ ٱلْوُجُوْدِ فَتَخْرُجُ ٱلأَشْيَاءُ فِيْ خِلْقَةٍ جَمِيْلَةٍ مِنْ مَعَانِيْهَا ، وَتُصْبِحُ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسُ خَلِيْقَةً أُخْرَىٰ لِكُلِّ مَعْنًى دَاخَلَهَا أَوِ ٱتَّصَلَ بِهَا ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَلَا رَيْبَ أَنَّ نَفْسَ ٱلشَّاعِرِ ٱلْعَظِيْمِ تَكَادُ تَكُوْنُ حَاسَّةً مِنْ حَوَاسِّ ٱلْكَوْنِ .

وَلَوْ سُئِلَتْ أَزْمَانُ ٱلدُّنْيَا كَيْفَ فَهِمَ أَهْلُهَا مَعَانِيَ ٱلْحَيَاةِ ٱلسَّامِيَةِ وَكَيْفَ رَأَوْهَا فِيْ آثَارِهَا ٱلأُلُوْهِيَّةِ عَلَيْهَا ، لَقَدَّمَ كُلُّ جِيْلٍ فِيْ ٱلْجَوَابِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ مَعَانِيَ ٱلدِّيْنِ وَمَعَانِيَ ٱلشِّعْرِ .

وَلَيْسَتِ ٱلْفِكْرَةُ شِعْرًا إِذَا جَاءَتْ كَمَا هِيَ فِيْ ٱلْعِلْمِ وَٱلْمَعْرِفَةِ ، فَهِيَ فِيْ ذَٰلِكَ عِلْمٌ وَفَلْسَفَةٌ ، وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ فِيْ تَصْوِيْرِ خَصَائِصِ ٱلْجَمَالِ ٱلْكَامِنَةِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْفِكْرَةِ عَلَىٰ دِقَّةٍ وَلَطَافَةٍ كَمَا تَتَحَوَّلُ فِيْ ذِهْنِ ٱلشَّاعِرِ ٱلَّذِيْ يُلَوِّنُهَا بِعَمَلِ نَفْسِهِ فِيْهَا وَيَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةِ أَسْرَارِهَا .

فَٱلأَفْكَارُ مِمَّا تُعَانِيْهِ ٱلأَذْهَانُ كُلُّهَا وَيَتَوَاطَأُ فِيْهِ قَلْبُ كُلِّ إِنْسَانٍ وَلِسَانُهُ ، بَيْدَ أَنَّ فَنَّ ٱلشَّاعِرِ هُوَ فَنُّ خَصَائِصِهَا ٱلْجَمِيْلَةِ ٱلْمُؤَثِّرَةِ ، وَكَأَنَّ ٱلْخَيَالَ ٱلشِّعْرِيَّ نَحْلَةٌ مِنَ ٱلنَّحْلِ تُلِمُّ بِٱلأَشْيَاءِ لِتَبْدَعَ فِيْهَا ٱلْمَادَّةَ ٱلْحُلْوَةَ لِلذَّوْقِ وَٱلشُّعُوْرِ ، وَٱلأَشْيَاءُ بَاقِيَةٌ بَعْدُ كَمَا هِيَ لَمْ يُغَيِّرْهَا

ٱلْخَيَالُ ، وَجَاءَ مِنْهَا بِمَا لَا تَحْسَبُهُ مِنْهَا ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ وَحْدَهَا هِيَ ٱلشَّاعِرِيَّةُ .

فَٱلشَّاعِرُ ٱلْعَظِيْمُ لَا يُرْسِلُ ٱلْفِكْرَةَ لإِيْجَادِ ٱلْعِلْمِ فِيْ نَفْسِ قَارِئِهَا حَسْبُ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَصْنَعُهَا وَيَحْذُوْ ٱلْكَلَامَ فِيْهَا بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَيَتَصَرَّفُ بِهَا ذَٰلِكَ ٱلتَّصَرُّفَ لِيُوْجِدَ بِهَا ٱلْعِلْمَ وَٱلذَّوْقَ مَعًا ؛ وَعَبْقَرِيَّةُ ٱلأَدَبِ لَا تَكُوْنُ فِيْ تَقْرِيْرِ ٱلأَفْكَارِ تَقْرِيْرًا عِلْمِيًّا بَحْتًا ، وَلَـٰكِنْ فِيْ إِرْسَالِهَا عَلَىٰ وَجْهٍ مِنَ ٱلتَّسْدِيْدِ لَا يَكُوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُقِرَّهَا فِيْ مَكَانِهَا مِنَ ٱلنَّفْسِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ حَائِلٌ . وَكَثِيْرًا مَا تَكُوْنُ ٱلأَفْكَارُ ٱلأَدَبِيَّةُ ٱلْعَالِيَةُ ٱلَّتِيْ يُلْهَمُهَا أَفْذَاذُ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْكُتَّابِ هِيَ أَفْكَارَ عَقْلِ ٱلتَّارِيْخِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، فَلَا تَفْصِلُ عَنْهُمُ ٱلْفِكْرَةُ فِيْ أُسْلُوْبِهَا ٱلْبَيَانِيِّ ٱلْجَمِيْلِ حَتَّىٰ تَتَّخِذَ وَضْعَهَا ٱلتَّارِيْخِيَّ فِيْ ٱلدُّنْيَا ، وَتَقُوْمَ عَلَىٰ أَسَاسِهَا فِيْ أَعْمَالِ ٱلنَّاسِ ، فَتَتَحَقَّقَ فِيْ ٱلْوُجُوْدِ وَيُعْمَلَ بِهَا ؛ وَهَـٰذَا طَرَفٌ مِمَّا بَيْنَ ٱلأَدَبِ ٱلْعَالِيْ وَبَيْنَ ٱلأَدْيَانِ مِنَ ٱلْمُشَابَهَةِ .

وَمَتَىٰ نَزَلَتِ ٱلْحَقَائِقُ فِيْ ٱلشِّعْرِ وَجَبَ أَنْ تَكُوْنَ مَوْزُوْنَةً فِيْ شَكْلِهَا كَوَزْنِهِ ، فَلَا تَأْتِيْ عَلَىٰ سَرْدِهَا وَلَا تُؤْخَذُ هَوْنًا كَٱلْكَلَامِ بِلَا عَمَلٍ وَلَا صِنَاعَةٍ ، فَإِنَّهَا إِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا ٱلشَّاعِرُ جَمَالًا وَنَسَقًا مِنَ ٱلْبَيَانِ يَكُوْنُ لَهَا شَبِيْهًا بِٱلْوَزْنِ ، وَيَضَعُ فِيْهَا رُوْحًا مُوْسِيْقِيَّةً بِحَيْثُ يَجِيْءُ ٱلشِّعْرُ بِهَا وَلَهُ وَزْنَانِ فِيْ شَكْلِهِ وَرُوْحِهِ ـ فَتِلْكَ حَقَائِقُ مَكْسُوْرَةٌ تَلُوْحُ فِيْ ٱلذَّوْقِ كَٱلنَّظْمِ ٱلَّذِيْ دَخَلَتْهُ ٱلْعِلَلُ فَجَاءَ مُخْتَلًّا قَدْ زَاغَ أَوْ فَسَدَ .

وَٱلْخَيَالُ هُوَ ٱلْوَزْنُ ٱلشِّعْرِيُّ لِلْحَقِيْقَةِ ٱلْمُرْسَلَةِ ، وَتَخَيُّلُ ٱلشَّاعِرِ إِنَّمَا هُوَ إِلْقَاءُ ٱلنُّوْرِ فِيْ طَبِيْعَةِ ٱلْمَعْنَىٰ لِيَشِفَّ بِهِ ، فَهُوَ بِهَـٰذَا يَرْفَعُ ٱلطَّبِيْعَةَ دَرَجَةً إِنْسَانِيَّةً ، وَيَرْفَعُ ٱلإِنْسَانِيَّةَ دَرَجَةً سَمَاوِيَّةً ؛ وَكُلُّ بَدَائِعِ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْمُخْتَرِعِيْنَ هِيَ مِنْهُ بِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، فَهُوَ فِيْ أَصْلِهِ ذَكَاءُ ٱلْعِلْمِ ، ثُمَّ يَسْمُوْ فَيَكُوْنُ هُوَ بَصِيْرَةَ ٱلْفَلْسَفَةِ ، ثُمَّ يَزِيْدُ سُمُوُّهُ فَيَكُوْنُ رُوْحَ ٱلشِّعْرِ ؛ وَإِذَا قَبِلْتَ هَـٰذَا ٱلنَّسَقَ فَٱنْحَدَرْتَ بِهِ نَازِلًا كَمَا صَعِدْتَ بِهِ ، حَصَلَ مَعَكَ أَنَّ ٱلْخَيَالَ رُوْحُ ٱلشِّعْرِ ، ثُمَّ يَنْحَطُّ شَيْئًا فَيَكُوْنُ بَصِيْرَةَ ٱلْفَلْسَفَةِ ، ثُمَّ يَزِيْدُ ٱنْحِطَاطًا فَيَكُوْنُ ذَكَاءَ ٱلْعِلْمِ ؛ فَٱلشَّاعِرُ كَمَا تَرَىٰ هُوَ ٱلأَوَّلُ إِنِ ٱرْتَقَتِ ٱلدُّنْيَا ، وَهُوَ ٱلأَوَّلُ إِنِ ٱنْحَطَّتِ ٱلدُّنْيَا ؛ وَكَأَنَّمَا إِنْسَانِيَّةُ ٱلإِنْسَانِ تَبْدَأُ مِنْهُ .

* * *

إِذَا قَرَنَّا لِلشِّعْرِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ وَعَرَفْنَا أَنَّهُ فَنُّ ٱلنَّفْسِ ٱلْكَبِيْرَةِ ٱلْحَسَّاسَةِ ٱلْمُلْهَمَةِ حِيْنَ

تَتَنَاوَلُ ٱلْوُجُوْدَ مِنْ فَوْقِ وُجُوْدِهِ فِيْ لُطْفٍ رُوْحَانِيٍّ ظَاهِرٍ فِيْ ٱلْمَعْنَىٰ وَٱللُّغَةِ وَٱلأَدَاءِ ـ وَجَبَ أَنْ نَعْتَبِرَ نَقْدَ ٱلشِّعْرِ بِٱعْتِبَارٍ مِمَّا قَرَّرْنَاهُ ، وَأَنْ نُقِيْمَهُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلأُصُوْلِ ، فَإِنَّ ٱلنَّقْدَ ٱلأَدَبِيَّ فِيْ أَيَّامِنَا هَـٰذِهِ ـ وَخَاصَّةً نَقْدَ ٱلشِّعْرِ ـ أَصْبَحَ أَكْثَرُهُ مِمَّا لَا قِيْمَةَ لَهُ ، وَسَاءَ ٱلتَّصَرُّفُ بِهِ ، وَوَقَعَ ٱلْخَلْطُ فِيْهِ ، وَتَنَاوَلَهُ أَكْثَرُ أَهْلِهِ بِعِلْمٍ نَاقِصٍ ، وَطَبْعٍ ضَعِيْفٍ ، وَذَوْقٍ فَاسِدٍ ، وَطَمِعَ فِيْهِ مَنْ لَا يُحَصِّلُ مَذْهَبًا صَحِيْحًا . وَلَا يَتَّجِهُ لِرَأْيٍ جَيِّدٍ ، حَتَّىٰ جَاءَ كَلَامُهُمْ وَإِنَّ فِيْ ٱللَّغْوِ وَٱلتَّخْلِيْطِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَخَفُّ مَحْمَلًا ، فَإِنَّكَ مِنْ هَـٰذَيْنِ فِيْ حَقِيْقَةٍ مَكْشُوْفَةٍ تَعْرِفُهَا تَخْلِيْطًا وَلَغْوًا ، وَلَـٰكِنَّكَ مِنْ نَقْدِ أُوْلَـٰئِكَ فِيْ أَدَبٍ مُزَوَّرٍ وَدَعْوَىٰ فَارِغَةٍ وَزَوَائِدَ مِنَ ٱلْفُضُوْلِ وَٱلتَّعَسُّفِ يَتَزَيَّدُوْنَ بِهَا لِلنَّفْخِ وَٱلصَّوْلَةِ وَإِيْهَامِ ٱلنَّاسِ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ لَا يَرَىٰ أَحَدًا إِلَّا هُوَ تَحْتَ قُدْرَتِهِ . . عَلَىٰ أَنَّ جُهْدَ عَمَلِهِ إِذَا فَتَّشْتَهُ وَٱعْتَبَرْتَ عَلَيْهِ مَا يُخَالِطُ فِيْهِ ، أَنَّهُ يَكْتُبُ حَيْثُ يُرِيْدُ ٱلنَّقْدُ أَنْ يُحَقِّقَ ، وَيَمْلأُ فَرَاغًا مِنَ ٱلْوَرَقِ حَيْثُ يَقْتَضِيْهِ ٱلْبَحْثُ أَنْ يَمْلأَ فَرَاغًا مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ .

وَقَدْ قُلْنَا فِيْ كِتَابِنَا « تَحْتَ رَايَةِ ٱلْقُرْآنِ » : إِنَّ أُسْتَاذَ ٱلآدَابِ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ إِلَىٰ ٱلإِحَاطَةِ بِتَارِيْخِهَا وَتَقَصِّيْ مَوَادِّهَا ـ ذَوْقًا فَنِّيًّا مُهَذَّبًا مَصْقُوْلًا ، وَلَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ لَهُ هَـٰذَا ٱلذَّوْقُ إِلَّا مِنْ إِبْدَاعٍ فِيْ صِنَاعَتَيِ ٱلشِّعْرِ وَٱلنَّثْرِ ، ثُمَّ يَجْمَعُ إِلَىٰ هَـٰذَيْنِ (أَيْ : ٱلإِحَاطَةِ وَٱلذَّوْقِ) تِلْكَ ٱلْمَوْهِبَةَ ٱلْغَرِيْبَةَ ٱلَّتِيْ تَلُفُّ بَيْنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْفِكْرِ وَٱلْمُخَيِّلَةِ فَتَبْدِعُ مِنَ ٱلْمُؤَرِّخِ ٱلْفَيْلَسُوْفِ ٱلشَّاعِرِ ٱلْعَالِمِ شَخْصًا مِنْ هَـٰؤُلَاءِ جَمِيْعًا هُوَ ٱلَّذِيْ نُسَمِّيْهِ : ٱلنَّاقِدَ ٱلأَدَبِيَّ .

هَـٰذِهِ هِيَ صِفَاتُ ٱلنَّاقِدِ فِيْ رَأْيِنَا ، فَٱنْظُرْ أَيْنَ تَجِدُهُ بَيْنَ هَـٰؤُلَاءِ ٱلأَسَاتِذَةِ ٱلْمُخْتَصَرِيْنَ . . . فِيْ أَدَبِهِمْ ، ٱلْمُطَوَّلِيْنَ . . . فِيْ أَلْقَابِهِمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَتَعَاطَوْنَ ٱلنَّقْدَ وَلَيْسَ لَهُمْ وَسَائِلُهُ إِلَّا مَا كَانَ ضَعْفَةً وَقِلَّةً وَإِدْبَارًا ، وَقَدْ فَاتَهُمْ مَا لَا تَحْمِلُهُ أَقْدَارُهُمْ وَلَا تَبْلُغُهُ قُوَاهُمْ ، وَجَهِلُوْا أَنَّ ٱلنَّاقِدَ ٱلأَدَبِيَّ إِنَّمَا يُلْقِيْ دَرْسًا عَالِيًا لَا يَدُلُّ فِيْهِ عَلَىٰ ٱلْعُيُوْبِ ٱلْفَنِّيَّةِ إِلَّا بِإِظْهَارِ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلَّتِيْ تُقَابِلُهَا فِيْ أَسْمَىٰ مَا ٱنْتَهَىٰ إِلَيْهِ ٱلْفَنُّ مِنْ آثَارِ تَارِيْخِهِ ؛ فَيَكُوْنُ ٱلنَّقْدُ تَهْذِيْبًا وَتَخْلِيْصًا لِفُنُوْنِ ٱلأَدَبِ كُلِّهَا ؛ وَهُوَ بِهَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةِ يَجْلُوْهَا عَلَىٰ ٱلنَّاسِ وَيَبْدَعُ فِيْهَا وَيَزِيْدُ فِيْ مَادَّتِهَا وَيُسَهِّلُهَا عَلَىٰ ٱلْقُرَّاءِ وَيُحَصِّلُهَا لَهُمْ تَحْصِيْلًا لَا يَبْلُغُوْنَهُ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَيُعْطِيْهِمْ مِنْ كُلِّ ضَعِيْفٍ مَا هُوَ قَوِيٌّ ، وَمِنْ كُلِّ قَوِيٍّ مَا هُوَ أَقْوَىٰ .

وَرَأَيْنَاهُمْ فِيْ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ لَا يَزِيْدُوْنَ عَلَىٰ أَنْ يُعَلِّقُوْا عَلَىٰ كَلَامِ ٱلشَّاعِرِ ، فَيَجِيْءُ عَمَلُهُمْ

فِيْ ٱلْجُمْلَةِ كَأَنَّهُ تَصْنِيْفٌ مِنْ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ وَشَرْحٌ لَهُ وَتَصَفُّحٌ عَلَىٰ بَعْضِ مَعَانِيْهِ ، وَبِهَـٰذَا يَرْجِعُ ٱلشَّاعِرُ وَإِنَّهُ هُوَ ٱلْمُتَصَرِّفُ فِيْ نَاقِدِهِ يُدِيْرُهُ كَيْفَ شَاءَ ، وَيَجِيْءُ هَـٰذَا ٱلنَّاقِدُ زَائِدًا مُتَطَفِّلًا ، فَتَأْتِيْ كِتَابَتُهُ وَإِنَّهَا لَضَرْبٌ مِنْ سُخْرِيَةِ ٱلْمَنْقُوْدِ بِنَاقِدِهِ ، وَيُصْبِحُ وَضْعُ ٱلْكَلَامِ عَلَىٰ ٱلْعَكْسِ ، فَٱلشَّاعِرُ ٱلْمَنْقُوْدُ لَمْ يَتَكَلَّمْ وَلَـٰكِنَّهُ أَبَانَ قُصُوْرَ ٱلنَّاقِدِ وَجَهْلَهُ ، فَهُوَ ٱلنَّاقِدُ وَإِنْ سَكَتَ ، وَذَاكَ هُوَ ٱلْمَنْقُوْدُ وَإِنْ تَكَلَّمَ !

وَهَـٰذَا ٱلْمُتَعَلِّقُ عَلَىٰ أَخْبَارِ ٱلشَّاعِرِ وَشِعْرِهِ كَتَعَلُّقِ « ٱلتَّلْخِيْصِ » عَلَىٰ أَصْلِهِ « ٱلْمُطَوَّلِ » وَٱلشَّرْحِ عَلَىٰ مَتْنِهِ ٱلْمُوْجَزِ ، إِنَّمَا هُوَ كَاتِبٌ يَجِدُ مِنْ ذَلِكَ مَادَّةً إِنْشَائِيَّةً ، فَيَتَصَرَّفُ بِهَا لِيَكْتُبَ ، وَلَا يُرَادُ مِنَ ٱلنَّقْدِ أَنْ يَكُوْنَ ٱلشَّاعِرُ وَشِعْرُهُ مَادَّةَ إِنْشَاءٍ ، بَلْ مَادَّةَ حِسَابٍ مُقَدَّرٍ بِحَقَائِقَ مُعَيَّنَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا ؛ فَنَقْدُ ٱلشِّعْرِ هُوَ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ عِلْمُ حِسَابِ ٱلشِّعْرِ ، وَقَوَاعِدُهُ ٱلأَرْبَعُ ٱلَّتِيْ تُقَابِلُ ٱلْجَمْعَ وَٱلطَّرْحَ وَٱلضَّرْبَ وَٱلْقِسْمَةَ هِيَ ٱلاطِّلَاعُ وَٱلذَّوْقُ وَٱلْخَيَالُ وَٱلْقَرِيْحَةُ ٱلْمُلْهَمَةُ .

وَثَمَّ ضَرْبٌ آخَرُ مِنْ تَعَلُّقِ ٱلضُّعَفَاءِ ، يَتَنَاوَلُ ٱلشَّاعِرَ بِٱعْتِبَارِهِ رَجُلًا لَهُ مَوْضِعُهُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمَنْزِلُهُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، ثُمَّ لَا يَعْدُوْ ذَلِكَ(١) ؛ وَهُوَ تَزْوِيْرٌ لِلْمُؤَرِّخِ بِجَعْلِهِ نَاقِدًا ، وَتَزْوِيْرٌ لِلنَّاقِدِ يَرُدُّهُ مُؤَرِّخًا ، عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِيْ ٱلنَّقْدِ ٱلصَّحِيْحِ ، وَلَـٰكِنَّهُ لَا يَقُوْمُ بِنَفْسِهِ وَلَا تَنْفُذُ بِهِ بَصِيْرَةُ ٱلنَّقْدِ ، إِذِ ٱلشَّاعِرُ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا بِأَنَّهُ رَجُلٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَحَيٌّ فِيْ ٱلأَحْيَاءِ وَعُمْرٌ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ ٱلْمُؤَرَّخَةِ ، وَلَـٰكِنْ بِمَوْضُوْعِهِ مِنْ أَسْرَارِ ٱلْحَيَاةِ وَصِلَةِ نَفْسِهِ بِهَا وَقُدْرَةِ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ عَلَىٰ أَنْ تَنْفُذَ إِلَىٰ حَقَائِقِ ٱلطَّبِيْعَةِ فِيْ كَائِنَاتِهَا عَامَّةً ، وَفِيْ إِنْسَانِهَا خَاصَّةً ، ثُمَّ بِقُدْرَةٍ مِثْلِ هَـٰذِهِ فِيْ ٱلنَّفَاذِ إِلَىٰ أَسْرَارِ ٱللُّغَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِيْ هِيَ ٱلْوُجُوْدُ ٱلْمَعْنَوِيُّ لِكُلِّ ذَلِكَ ، وَٱلتَّصَرُّفُ بِهَا عَلَىٰ طَبَقَاتِ مَعَانِيْهِ حَتَّىٰ لَا تَقْصُرَ عَنِ ٱلْغَايَةِ وَلَا تَقَعَ دُوْنَ ٱلْقَصْدِ ، فَإِنَّ ٱلشِّعْرَ إِنْ هُوَ إِلَّا ظُهُوْرُ عَظَمَةِ ٱلنَّفْسِ ٱلشَّاعِرَةِ بِمَظْهَرِهَا ٱللُّغَوِيِّ ، وَلَئِنْ كَانَ فِيْ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ تَارِيْخٌ لَا يَتِمُّ ٱلنَّقْدُ إِلَّا بِهِ ، فَهُوَ تَارِيْخُ ٱلشِّعْرِ فِيْ نَفْسِ قَائِلِهِ ، ثُمَّ تَارِيْخُ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ فِيْ مَعَانِيْ ٱلشِّعْرِ مِنْ عَصْرِهَا ، ثُمَّ أَدَبُ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرِ مِنَ ٱلْوُجُوْدِ ٱلأَدَبِيِّ لِلُّغَةِ ٱلَّتِيْ نَظَمَ بِهَا ؛ وَذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ

(١) لَمْ نَذْكُرْ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ أَمْثِلَةً وَلَمْ نُعَيِّنْ أَسْمَاءً حَتَّىٰ لَا يَمْتَدَّ ٱلْكَلَامُ فَتَخْرُجَ ٱلْمَقَالَةُ إِلَىٰ أَنْ تَكُوْنَ كِتَابًا ، وَلَـٰكِنَّكَ إِذَا قَرَأْتَ ٱلشِّعْرَ وَمَا يُكْتَبُ فِيْ نَقْدِهِ ، وَٱلْمُحَاضَرَاتِ ٱلَّتِيْ تُلْقَىٰ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَدْ وَجَدْتَ ٱلأَمْثِلَةَ وَٱلأَسْمَاءَ . . .

فِيْهِ تَارِيْخُ ٱلشَّاعِرِ نَفْسِهِ مُحَصَّلًا مِنْ نَوَاحِيْهِ فِيْ جِهَاتِ ٱلْحَيَاةِ ، مُتَعَمِّقًا فِيْهِ بِٱلِاسْتِقْصَاءِ ، مُتَغَلْغِلًا إِلَيْهِ بِٱلنَّقْدِ . . .

* * *

وَإِنَّ لَنَا رَأْيًا بَسَطْنَاهُ مِرَارًا ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِضَ لِنَقْدِ ٱلشَّاعِرِ وَٱلْكَلَامِ عَنْهُ إِلَّا شَاعِرٌ كَبِيْرٌ يَكُوْنُ ذَا طَبِيْعَةٍ فِيْ ٱلنَّقْدِ ، أَوْ كَاتِبٌ عَظِيْمٌ يَكُوْنُ ذَا طَبِيْعَةٍ فِيْ ٱلشِّعْرِ ، أَيْ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْأَدَبِ وَٱلشِّعْرِ مَعًا لِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ وَحْدَهُ ، فَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ فِيْهِ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلْإِحْسَاسِ وَٱلْإِلْهَامِ جَمِيْعًا ، فَيَتَبَيَّنُ ٱلنَّاقِدُ وُجُوْهَ ٱلنَّقْصِ ٱلْفَنِّيِّ ، وَيَعْرِفُ بِمَ نَقَصَتْ وَمَاذَا كَانَ يَنْبَغِي لَهَا وَمَا وَجْهُ تَمَامِهَا ، ثُمَّ يَعْرِفُ مِنَ ٱلْكَمَالِ ٱلْفَنِّيِّ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَيُحِسُّ عَلَىٰ ٱلْحَالَتَيْنِ بِٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي أَحَسَّهَا ٱلشَّاعِرُ حِيْنَ ٱنْتَزَعَ شِعْرَهُ مِنْهَا ، وَمَا كَانَ يَتَخَالَجُهُ وَقْتَئِذٍ مِنَ ٱلْفِكْرِ وَيَتَمَثَّلُ لَهُ مِنَ ٱلصُّوَرِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ ٱلَّتِي أَلْهَمَتْهُ إِلْهَامَهَا ؛ فَإِنَّ ٱلْمَعَانِي ٱلْمَكْتُوْبَةَ هِيَ شِعْرُ ٱلشَّاعِرِ ، وَلَـٰكِنَّ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمَحْسُوْسَةَ هِيَ شِعْرُ ٱلشِّعْرِ ، وَإِنَّمَا يُوْقَفُ عَلَيْهَا بِٱلتَّوَهُّمِ وَٱلِاسْتِرْسَالِ إِلَىٰ مَا وَرَاءَ ٱلشِّعْرِ مِنْ بَوَاعِثِهِ ، وَمَا تَمَوَّجَتْ بِهِ رُوْحُ ٱلشَّاعِرِ عِنْدَ عَمَلِهِ ، وَمَا عَرَضَتْ لَهَا بِهِ طَبَائِعُ ٱلْمَعَانِي ، وَهَـٰذَا كُلُّهُ لَا يُحِسُّهُ ٱلنَّاقِدُ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا فِيْ قُوَّةِ مَنْ يَنْقُدُهُ أَوْ أَقْوَىٰ مِنْهُ طَبِيْعَةَ شِعْرٍ .

وَٱلنَّقْدُ إِنَّمَا هُوَ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ لِسَانًا يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ كَلَامَ مُتَّهَمٍ فِيْ مَحْكَمَةٍ لِيُقِيْمَ حُجَّةً أَوْ يُزِيْحَ شُبْهَةً أَوْ يُقَرِّرَ حَقِيْقَةً أَوْ يَبْسُطَ مَعْنًى أَوْ يُوَجِّهَ عِلَّةً أَوْ يَكْشِفَ خَافِيًا أَوْ يُثْبِتَ نَقِيْضَةً أَوْ يُظْهِرَ إِحْسَانًا ، وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهُوَ نَفْضُ ٱلسَّيِّئَةِ وَٱلْحَسَنَةِ ، وَوُقُوْعُ أَدِلَّةِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْفَنِّ وَٱلذَّوْقِ مَوَاقِعَهَا ، وَتَكَلُّمُ ٱلْكَلَامِ بِذَاتِ نَفْسِهِ مَا تُنْكِرُ مِنْهُ وَمَا تَسْتَجِيْدُ ، وَٱلشَّاعِرُ وَٱلنَّاقِدُ يَلْتَقِيَانِ جَمِيْعًا فِيْ ٱلْقَارِئِ فَوَجَبَ مِنْ ثَمَّ أَنْ يَكُوْنَ ٱلنَّاقِدُ قُوَّةً تَكْشِفُ قُوَّةً مِثْلَهَا أَوْ دُوْنَهَا لِيُصَحِّحَ فَنٌّ فَنًّا مِثْلَهُ أَوْ يُقِرَّهُ أَوْ يَزِيْدَ عَلَيْهِ فَضْلَ بَيَانٍ وَمَزِيَّةَ فِكْرٍ ، وَبِهَـٰذَا يُصْبِحُ ٱلْقَارِئُ كَٱلسَّائِحِ ٱلَّذِي مَعَهُ ٱلدَّلِيْلُ وَأَمَامَهُ ٱلْمَنْظَرُ ، أَيْ : مَعَهُ ٱلتَّارِيْخُ ٱلنَّاطِقُ وَبِإِزَائِهِ ٱلتَّارِيْخُ ٱلصَّامِتُ . وَإِذَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ وَشِعْرُهُ إِنَّمَا هُمَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُمْتَازَةُ وَحَوَادِثُهَا وَإِلْهَامُهَا وَمَعَانِي ٱلْحَيَاةِ فِيْهَا ، فَلَيْسَ يَتَّجِهُ أَنْ يَكُوْنَ ٱلنَّاقِدُ تَامًّا إِلَّا بِنَفْسٍ مِنْ نَوْعِهَا فِيْ دِقَّةِ ٱلْحِسِّ وَلُطْفِ ٱلنَّظَرِ وَٱلِاسْتِشْفَافِ وَقُوَّةِ ٱلتَّأَثُّرِ بِمَعَانِي ٱلْحَيَاةِ وَسُمُوِّ ٱلْإِلْهَامِ وَٱلْعَبْقَرِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ يَجِيْءُ ٱلنَّقْدُ ٱلصَّحِيْحُ بَيَانًا خَالِصًا

مَنْخُوْلًا كَأَنَّهُ شَرْحُ نَفْسٍ لِنَفْسٍ مِثْلِهَا .

وَلَيْسَ ٱلْأَنْفُ هُوَ ٱلَّذِي يَنْقُدُ ٱلْوَرْدَةَ ٱلْعَطِرَةَ ٱلْفَيَّاحَةَ ، وَإِنَّمَا تَنْقُدُهَا ٱلْحَاسَّةُ ٱلَّتِي فِيْ ٱلْأَنْفِ ، وَنَاقِدُ ٱلشِّعْرِ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا فَهُوَ أَنْفٌ صَحِيْحُ ٱلتَّرْكِيْبِ ، وَلَـٰكِنْ بِٱلْجِلْدِ وَٱلْعَظْمِ دُوْنَ تِلْكَ ٱلْحَاسَّةِ ٱلَّتِي هِيَ رُوْحُ ٱلْعَصَبِ ٱلْمُنْبَثِّ فِيْ هَـٰذَا ٱلتَّرْكِيْبِ وَٱلْمُتَّصِلِ بِمَا وَرَاءَهُ مِنْ أَعْصَابِ ٱلدِّمَاغِ ، فَهَـٰذَا ٱلْأَنْفُ . . . يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَتَنَاوَلَ ٱلْوَرْدَةَ وَلَـٰكِنْ بِحِسٍّ غَلِيْظٍ مَحَقَتْهُ ٱلْآفَةُ كَمَا يَتَنَاوَلُ حَجَرًا أَوْ حَدِيْدًا أَوْ خَشَبًا أَيُّهَا كَانَ ؛ فَٱلْوَرْدَةُ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ يَمْتَازُ بِٱللِّيْنِ وَيَخْتَصُّ بِٱلنُّعُوْمَةِ وَيَسْطَعُ بِٱلرَّوْنَقِ وَيَزْهُو بِٱللَّوْنِ ، وَيَذْهَبُ يَتَكَلَّمُ فِيْ هَـٰذَا كُلِّهِ ، وَهَـٰذَا كُلُّهُ فِيْ ٱلْوَرْدَةِ ، وَلَـٰكِنَّهُ لَيْسَ ٱلْوَرْدَةَ .

وَمَتَىٰ كَانَ ٱلْبَحْثُ هُوَ ٱلْبَحْثَ فِيْ ٱلسَّمَاءِ وَأَفْلَاكِهَا وَأَجْرَامِهَا فَلَا يَسْتَقِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلنَّاظِرُ ٱلْمُرَكَّبُ ، أَيْ : ٱلَّذِي مَعَهُ عَيْنُهُ وَتِلِسْكُوْبُهُ وَعِلْمُهُ جَمِيْعًا ، إِنْ نَقَصَ مِنْ ذَلِكَ فَبِقَدْرِ نُقْصَانِهِ يَكُوْنُ ضَعْفُهُ ، وَإِنْ تَمَّ فَبِقَدْرِ تَمَامِهِ يَكُوْنُ وَفَاؤُهُ ، وَلَوْ أَمْكَنَ أَنْ يَنْفَصِلَ ٱلشَّاعِرُ مِنْ شِعْرِهِ فَيَقْطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمَعَانِي مِنْ نَسَبِ نَفْسِهِ ، وَيَبْتَعِدَ عَنِ ٱلشِّعْرِ لِيَرَاهُ جَدِيْدًا عَلَيْهِ ، وَيُمَيِّزَهُ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ ـ لَكَانَ هُوَ ٱلنَّاقِدَ ، فَنَاقِدُ ٱلشِّعْرِ هُوَ ٱلشَّاعِرُ نَفْسُهُ ، وَلَـٰكِنْ فِيْ وَضْعٍ أَتَمَّ وَأَوْفَىٰ ، وَحَالَةٍ أَبْيَنَ وَأَبْصَرَ ، أَيْ : كَأَنَّهُ ٱلشَّاعِرُ نَفْسُهُ مُنَقَّحًا تَامًّا بِغَيْرِ ضَعْفٍ وَلَا نَقْصٍ .

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَرَىٰ مِنْ آيَةِ ٱلنَّقْدِ ٱلْبَدِيْعِ ٱلْمُحْكَمِ إِذَا قَرَأْتَهُ مَا يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّ ٱلشِّعْرَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْكَ عَرْضًا وَيُحَصِّلُ لَكَ أَمْرَهُ وَيُبَيِّنُ حَالَتَهُ فِيْ ذِهْنِ شَاعِرِهِ ، وَكَيْفَ تَوَافَىٰ وَٱئْتَلَفَ ، وَكَيْفَ ٱنْتَزَعَهُ ٱلشَّاعِرُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، وَمَا وَقَعَ فِيْهِ مِنْ قَدْرِ ٱلْإِلْهَامِ ، وَمَا أَصَابَهُ مِنْ تَأْثِيْرِ ٱلْإِنْسَانِ وَمَا ٱتَّفَقَ لَهُ مِنْ حَظِّ ٱلطَّبِيْعَةِ وَٱلْأَشْيَاءِ ، وَبِٱلْجُمْلَةِ يُوْرِدُ ٱلنَّقْدُ عَلَيْكَ مَا تَرَىٰ مَعَهُ كَأَنَّ حَرَكَةَ ٱلدَّمِ وَٱلْأَعْصَابِ قَدْ عَادَتْ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِلَىٰ ٱلشِّعْرِ .

* * *

أَلَا وَإِنَّ شِعْرَنَا ٱلْعَرَبِيَّ ٱلْجَمِيْلَ قَدْ أَصْبَحَ ٱلْيَوْمَ فِيْ أَشَدِّ ٱلْحَاجَةِ إِلَىٰ مَنْ يُعَلِّمُ ٱلْقَارِئَ كَيْفَ يَذُوْقُهُ وَيَتَبَيَّنُهُ وَيَخْلُصُ إِلَىٰ سِرِّ ٱلتَّأْثِيْرِ فِيْهِ ، وَيُخْرِجُهُ مَخْرَجًا سَرِيًّا فِيْ أَنْغَامِهِ

وَأَلْحَانِهِ ، وَيَأْتِيْ بِهِ مِنْ نَفْسِ شَاعِرِهِ وَمِنْ نَفْسِهِ جَمِيْعًا ، فَقُوَّةُ ٱلتَّمْيِيْزِ فِيْ هَـٰذَا كُلِّهِ عَلَىٰ تَسْدِيْدٍ وَصَوَابٍ هِيَ ٱلَّتِيْ يُعْطِيْهَا ٱلنَّاقِدُ لِقُرَّائِهِ ، وَٱلشِّعْرُ فِكْرٌ وَقِرَاءَتُهُ فِكْرٌ آخَرُ ، فَإِنْ قَصَّرَ هَـٰذَا عَنْ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ لِيَتَّصِلَ بِهِ وَيَتَغَلْغَلَ فِيْهِ ، فَلَا بُدَّ لِلْفِكْرَيْنِ مِنْ صِلَةٍ فِكْرِيَّةٍ هِيَ كِتَابَةُ ٱلنَّاقِدِ ٱلَّذِيْ هُوَ مِنْ نَاحِيَةٍ كَمَالٌ لِلطَّبِيْعَةِ ٱلنَّاقِصَةِ ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ شَرْحٌ لِلطَّبِيْعَةِ ٱلْكَامِلَةِ ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَالِثَةٍ هُوَ بِذَوْقِهِ وَفَنِّهِ قَانُوْنُ ٱلانْتِظَامِ ٱلدَّقِيْقُ ٱلَّذِيْ يُبَيِّنُ بِهِ مَا ٱسْتَقَامَ فِي ٱلْكَلَامِ وَمَا ٱعْوَجَّ .

وَطَرِيْقَتُنَا نَحْنُ فِيْ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ تَقُوْمُ عَلَىٰ رُكْنَيْنِ : ٱلْبَحْثُ فِيْ مَوْهِبَةِ ٱلشَّاعِرِ ، وَهَـٰذَا يَتَنَاوَلُ نَفْسَهُ وَإِلْهَامَهُ وَحَوَادِثَهُ ؛ وَٱلْبَحْثُ فِيْ فَنِّهِ ٱلْبَيَانِيِّ ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ أَلْفَاظَهُ وَسَبْكَهُ وَطَرِيْقَتَهُ ؛ وَسَنَقُوْلُ فِيْهِمَا مَعًا .

فَأَمَّا ٱلْكَلَامُ فِيْ فَنِّ ٱلشِّعْرِ ، فَٱلْمُرَادُ بِٱلشِّعْرِ - أَيْ : نَظْمِ ٱلْكَلَامِ - هُوَ فِيْ رَأْيِنَا ٱلتَّأْثِيْرُ فِي ٱلنَّفْسِ لَا غَيْرُ ، وَٱلْفَنُّ كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ هَـٰذَا ٱلتَّأْثِيْرُ ، وَٱلاحْتِيَالُ عَلَىٰ رَجَّةِ ٱلنَّفْسِ لَهُ ، وَٱهْتِزَازِهَا بِأَلْفَاظِ ٱلشِّعْرِ وَوَزْنِهِ ، وَإِدَارَةِ مَعَانِيْهِ ، وَطَرِيْقَةِ تَأْدِيَتِهَا إِلَى ٱلنَّفْسِ ، وَتَأْلِيْفِ مَادَّةِ ٱلشُّعُوْرِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ تَأْلِيْفًا مُتَلَائِمًا مُسْتَوِيًا فِيْ نَسْجِهِ لَا يَقَعُ فِيْهِ تَفَاوُتٌ وَلَا ٱخْتِلَالٌ ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ تَعَسُّفٌ وَلَا ٱسْتِكْرَاهٌ ؛ فَيَأْتِي ٱلشِّعْرُ مِنْ دِقَّتِهِ وَتَرْكِيْبِهِ ٱلْحَيِّ وَنَسَقِهِ ٱلطَّبِيْعِيِّ كَأَنَّمَا يُقْرَعُ بِهِ عَلَى ٱلْقَلْبِ ٱلإِنْسَانِيِّ لِيَفْتَحَ لِمَعَانِيْهِ إِلَى ٱلرُّوْحِ ؛ وَٱلشِّعْرُ ٱلْعَرَبِيُّ إِذَا تَمَّتْ لَهُ فِيْ صِنَاعَتِهِ وَسَائِلُ ٱلتَّأْثِيْرِ وَأُحْكِمَ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ ، كَانَ أَسْمَىٰ شِعْرٍ إِنْسَانِيٍّ ، فَتَرَاهُ يَطْرُدُ بِأَلْفَاظِهِ ٱلْجَمِيْلَةِ ٱلسَّائِغَةِ وَكَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُ فِيْهَا مَعَانِيَ ، بَلْ يَحْمِلُ حَرَكَاتٍ عَصَبِيَّةً لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَنْسَابَ فِي ٱلدَّمِ حَائِلٌ ، فَمَا يَكُوْنُ إِلَّا أَنْ يَغْمُرَكَ بِٱلطَّرَبِ وَيَهُزَّكَ مِنْ أَعْمَاقِ ٱلنَّفْسِ وَيُوْرِدَ عَلَيْكَ مِنْ نَفْحَةِ ٱلرُّوْحِ مَا إِنْ تَدَبَّرْتَهُ فِيْ نَفْسِكَ وَأَفْصَحَتْ عَنْهُ شُعُوْرَكَ رَأَيْتَهُ فِيْ حَقِيْقَتِهِ وَجْهًا مِنْ نِسْيَانِ ٱلْحَيَاةِ ٱلأَرْضِيَّةِ وَٱلانْتِقَالِ إِلَىٰ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ مِنَ ٱلسُّرُوْرِ وَٱلاهْتِيَاجِ وَٱلأَلَمِ وَٱلشُّجُوِّ يَحْيَاهَا ٱلدَّمُ ٱلثَّائِرُ وَحْدَهُ غَيْرَ مُشَارَكٍ فِيْهَا إِلَّا مِنَ ٱلْقَلْبِ .

وَٱلَّذِيْنَ يَجْهَلُوْنَ ذَلِكَ فِيْ أَمْرِ ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ فِيْ مِزَاجِهِ ٱلْخَاصِّ - فَلَا يَعْتَبِرُوْنَهُ حَيًّا ذَا طِبَاعٍ وَخَصَائِصَ لَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاتِهَا وَٱلنُّزُوْلِ عَلَىٰ حُكْمِهَا وَتَلَقِّيْهَا بِمَا يُوَافِقُهَا ، كَمَا لَا بُدَّ مِنْ أَشْبَاهِ ذَلِكَ لِامْرَأَةٍ جَمِيْلَةٍ - تَرَاهُمْ يُخِلُّوْنَ بِقَوَانِيْنِ صِنَاعَتِهِ ٱلْبَيَانِيَّةِ ، وَيُنْزِلُوْنَ أَلْفَاظَهُ دُوْنَ

مَنَازِلِهَا ، وَيُرْسِلُوْنَ مَعَانِيَهُ عَلَىٰ غَيْرِ طَرِيْقَتِهَا ٱلشِّعْرِيَّةِ ، وَيَبْتَلُوْنَهُ بِفُضُوْلٍ كَثِيْرَةٍ هِيَ كَٱلآفَاتِ وَٱلأَمْرَاضِ ، فَيَأْتُوْنَ بِنَظْمٍ تَقْرَؤُهُ إِذَا قَرَأْتَهُ وَأَنْتَ تَتَلَوَّىٰ كَأَنَّمَا يُقْرَعُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِقَبْضَةِ يَدٍ أَوْ يُدَقُّ عَلَيْهِ بِحَجَرٍ . . . وَقَدْ فَشَا هَـٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلشِّعْرِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلأَيَّامِ وَأَصْبَحَ مَظْهَرًا لِمَا فَسَدَ مِنْ ذَوْقِ ٱلأَدِيْبِ وَمَا ٱلْتَاثَ مِنْ أَمْرِ ٱللُّغَةِ وَمَا ٱعْوَجَّ مِنْ طُرُقِ ٱلْفَلْسَفَةِ وَمَا عَمَّتْ بِهِ ٱلْبَلْوَىٰ مِنَ ٱلتَّقْلِيْدِ ٱلأُوْرُبِّيِّ ، وَكَثِيْرًا مَا رَأَيْتُ ٱلْقَصِيْدَةَ مِنْ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ كَٱمْرَأَةٍ سُلِخَ وَجْهُهَا وَوُضِعَتْ لَهَا جِلْدَةُ وَجْهِ مَيْتٍ . . . وَٱلنَّاظِمُ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ لَا يُصَرِّفُ ٱلشِّعْرَ عَلَىٰ حُدُوْدِهِ ٱلنَّفْسِيَّةِ وَلَا يُحْكِمُهُ فِيْهَا ، بَلْ تُصَرِّفُهُ ٱلأَلْفَاظُ كَيْفَ ٱتَّفَقَتْ لَهُ عَلَىٰ وُجُوْهِهَا ٱلْمُلْتَوِيَةِ ، وَتَسُوْسُهُ ٱلْمَعَانِيْ سِيَاسَةً عَمْيَاءَ فَقَدَتْ بَاصِرَتَيْهَا مَعًا ، وَيَحْسَبُوْنَ كَلَامَهُمْ مِنَ ٱلنُّوْرِ ٱلْعَقْلِيِّ وَلَـٰكِنَّهُ ٱلنُّوْرُ فِيْ قَطْعِهِ ثَمَانِيْنَ أَلْفَ مِيْلٍ فِي ٱلثَّانِيَةِ ، فَلَا يَكَادُ يُقَالُ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَالَمِ ، حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْهُ وَيُنْسَىٰ وَيَلْحَقَ بِٱللَّا نِهَايَةِ . . .

وَهَـٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْفَاسِدَةِ هُوَ بِعَيْنِهِ ذَلِكَ ٱلنَّوْعُ ٱلصِّنَاعِيُّ ٱلَّذِيْ أَفْسَدَ ٱلشِّعْرَ مُنْذُ ٱلْقَرْنِ ٱلْخَامِسِ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْقَدِيْمَ كَانَ فَسَادًا فِي ٱلأَلْفَاظِ يَجْعَلُهَا كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا مُحَالًا مِنَ ٱلصَّنْعَةِ ، وَٱلْحَدِيْثُ جَاءَ فَسَادًا فِي ٱلْمَعَانِيْ يَجْعَلُهَا كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا مُحَالًا مِنَ ٱلْبَيَانِ .

وَيَزْعُمُ أَصْحَابُ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ أَنَّهُمْ فَلَاسِفَةٌ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ كَذَلِكَ فِيْ سَرِقَةِ ٱلْفَلَاسِفَةِ لَا غَيْرُ . . . وَلَوْ عَلِمُوْا لَعَلِمُوْا أَنَّ أَلْفَاظَ ٱلشِّعْرِ هِيَ أَلْفَاظٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَضَعُ ٱلشِّعْرُ فِيْهَا ٱلْكَلَامَ وَٱلْمُوْسِيْقَىٰ مَعًا فَتَخْرُجُ بِذَلِكَ مِنْ طَبِيْعَةِ ٱللُّغَةِ ٱلْعَامَّةِ ٱلْقَائِمَةِ عَلَىٰ تَأْدِيَةِ ٱلْمَعْنَىٰ بِٱلدِّلَالَةِ وَحْدَهَا إِلَىٰ طَبِيْعَةِ لُغَةٍ خَاصَّةٍ أَرْقَىٰ مِنْهَا تُؤَدِّي ٱلْمَعْنَىٰ بِٱلدِّلَالَةِ وَٱلنَّغَمِ وَٱلذَّوْقِ ، فَكُلُّ كَلِمَةٍ فِي ٱلشِّعْرِ تُجْتَلَبُ لِمَعْنَاهَا مِنْ تَرْكِيْبِهِ ، ثُمَّ لِمَوْضِعِهَا مِنْ نَسَقِهِ ، ثُمَّ لِجَرْسِهَا فِيْ أَلْحَانِهِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ هُوَ ٱلَّذِيْ يَجْعَلُ لِلْكَلِمَةِ لَوْنَهَا ٱلْمَعْنَوِيَّ فِيْ جُمْلَةِ ٱلتَّصْوِيْرِ بِٱلشِّعْرِ ؛ وَمَا يَمُرُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلْعَظِيْمُ بِلَفْظَةٍ مِنَ ٱللُّغَةِ إِلَّا وَهِيَ كَأَنَّهَا تُكَلِّمُهُ تَقُوْلُ : دَعْنِيْ أَوْ خُذْنِيْ .

وَكَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلأَزْهَارِ مِنْ جَوِّ ٱلأَشِعَّةِ ، كَذَلِكَ لَا بُدَّ لِلْمَعَانِي ٱلشِّعْرِيَّةِ مِنْ جَوِّ ٱللُّغَةِ ٱلْبَيَانِيَّةِ ، فَٱلْبَيَانُ إِنَّمَا هُوَ أَشِعَّةُ مَعَانِي ٱلْقَصِيْدَةِ ، وَقَدْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّ ٱلصِّنَاعَةَ ٱلْبَيَانِيَّةَ صِنَاعَةٌ مُتَكَلَّفَةٌ لَا شَأْنَ لَهَا فِيْ جَمَالِ ٱلشِّعْرِ وَدِقَّةِ ٱلتَّعْبِيْرِ ، وَمَا نُنْكِرُ أَنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ ٱلْجَمِيْلِ أَشْيَاءَ مُتَكَلَّفَةً ، وَلَـٰكِنَّهَا تَنْزِلُ مِنْ أَسَالِيْبِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْعَالِيَةِ مَنْزِلَةً كَمَنْزِلَةِ ٱلظَّرْفِ وَٱلدَّلِّ وَٱلْخَلَاعَةِ فِيْ

ٱلْحَبِيبَةِ ٱلْجَمِيلَةِ .

إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْفُنُونَ لَيْسَتْ مِنْ جَمَالِ ٱلْخِلْقَةِ وَٱلتَّرْكِيبِ فِي ٱلْمَرْأَةِ ، وَلَـٰكِنَّهَا مَتَىٰ ظَهَرَتْ فِي ٱلْجَمَالِ ٱلْفَاتِنِ أَصْبَحَ بِدُونِهَا ـ وَهُوَ جَمِيلٌ دَائِمًا ـ كَأَنَّهُ غَيْرُ جَمِيلٍ أَحْيَانًا .

هُنَا صِنَاعَةٌ هِيَ رُوحُ ٱلْحُسْنِ فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَصِنَاعَةٌ مِثْلُهَا هِيَ رُوحُ ٱلْحُسْنِ أَحْيَانًا فِي ٱلْبَلَاغَةِ[1] ، وَمَا ٱلتَّرَاكِيبُ ٱلْبَيَانِيَّةُ فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْحَيِّ إِلَّا كَٱلْمَلَامِحِ وَٱلتَّقَاسِيمِ فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ ٱلْجَمَالِ ٱلْحَيِّ ، وَكَثِيرًا مَا يُخَيَّلُ إِلَيَّ حِينَ أَتَأَمَّلُ بَلَاغَةَ ٱللَّفْظِ ٱلرَّشِيقِ إِلَىٰ جَانِبِ لَفْظٍ جَمِيلٍ فِي شِعْرٍ مُحْكَمِ ٱلسَّبْكِ ، أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ كَحُبِّ رَجُلٍ مُتَأَنِّقٍ يَتَقَرَّبُ مِنْ حُبِّ ٱمْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ ، وَعَطْفِ أُمُومَةٍ عَلَىٰ طُفُولَةٍ ؛ وَحَنِينِ عَاطِفَةٍ لِعَاطِفَةٍ ، إِلَىٰ أَشْبَاهٍ وَنَظَائِرَ مِنْ هَـٰذَا ٱلنَّسَقِ ٱلرَّقِيقِ ٱلْحَسَّاسِ ؛ فَإِذَا قَرَأْتَ فِي شِعْرِ أَصْحَابِنَا أُولَـٰئِكَ رَأَيْتَ مِنْ لَفْظٍ كَٱلشُّرْطِيِّ أَخَذَ بِتَلَابِيبِ لَفْظٍ كَٱلْمُجْرِمِ . . . إِلَىٰ كَلِمَتَيْنِ هُمَا مَعًا كَٱلضَّارِبِ وَٱلْمَضْرُوبِ . . . إِلَىٰ هَمَجٍ وَرَعَاعٍ وَهَرْجٍ وَمَرْجٍ وَهَيْجٍ وَفِتْنَةٍ ؛ أَمَّا ٱلْقَافِيَةُ فَكَثِيرًا مَا تَكُونُ فِي شِعْرِهِمْ لَفْظًا مُلَاكِمًا . . . لَيْسَ أَمَامَهُ إِلَّا رَأْسُ ٱلْقَارِئِ .

وَكَمَا يُهْمِلُونَ ٱخْتِيَارَ ٱللَّفْظِ وَٱلْقَافِيَةِ يَتَسَهَّلُونَ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْوَزْنِ ٱلْمُلَائِمِ لِمُوسِيقِيَّةِ ٱلْمَوْضُوعِ ، فَإِنَّ مِنَ ٱلْأَوْزَانِ مَا يَسْتَمِرُّ فِي غَرَضٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَلَا يَسْتَمِرُّ فِي غَيْرِهِ ؛ كَمَا أَنَّ مِنَ ٱلْقَوَافِي مَا يَطَّرِدُ فِي مَوْضُوعٍ وَلَا يَطَّرِدُ فِي سِوَاهُ ، وَإِنَّمَا ٱلْوَزْنُ مِنَ ٱلْكَلَامِ كَزِيَادَةِ ٱللَّحْنِ عَلَى ٱلصَّوْتِ : يُرَادُ مِنْهُ إِضَافَةُ صِنَاعَةٍ مِنْ طَرَبِ ٱلنَّفْسِ إِلَىٰ صِنَاعَةٍ مِنْ طَرَبِ ٱلْفِكْرِ ، فَٱلَّذِينَ يُهْمِلُونَ كُلَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُونَ شَيْئًا مِنْ فَلْسَفَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُفْسِدُونَ أَقْوَى ٱلطَّبِيعَتَيْنِ فِي صِنَاعَتِهِ ؛ إِذِ ٱلْمَعْنَىٰ قَدْ يَأْتِي نَثْرًا فَلَا يَنْقُصُهُ ذَلِكَ عَنِ ٱلشِّعْرِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْنًى ، بَلْ رُبَّمَا زَادَهُ ٱلنَّثْرُ إِحْكَامًا وَتَفْصِيلًا وَقُوَّةً بِمَا يَتَهَيَّأُ فِيهِ مِنَ ٱلْبَسْطِ وَٱلشَّرْحِ وَٱلتَّسَلْسُلِ ، وَلَـٰكِنَّهُ فِي ٱلشِّعْرِ يَأْتِي غِنَاءً ، وَهَـٰذَا مَا لَا يَسْتَطِيعُهُ ٱلنَّثْرُ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ .

فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلشَّاعِرُ أَنْ يَأْتِيَ فِي نَظْمِهِ بِٱلرَّوِيِّ ٱلْمُونِقِ وَٱلنَّسْجِ ٱلْمُتَلَائِمِ وَٱلْحَبْكِ

(١) لَنَا كَلَامٌ طَوِيلٌ فِي فَلْسَفَةِ ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْبَيَانِيِّ سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ فِي كِتَابِنَا ٱلْجَدِيدِ « أَسْرَارُ ٱلْإِعْجَازِ » .
{ قُلْتُ : وَٱقْرَأْ حَدِيثَنَا عَنْ « أَسْرَارِ ٱلْإِعْجَازِ » فِي كِتَابِ « حَيَاةِ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

ٱلْمُسْتَوِي وَٱلْمَعَانِي ٱلْجَيِّدَةِ ٱلَّتِي تَخْلُصُ إِلَى ٱلنَّفْسِ خُلُوصَ طَبِيعَةٍ إِلَىٰ طَبِيعَةٍ تُمَازِجُهَا وَرَأَيْتَهُ يَأْتِي بِٱلشِّعْرِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ وَٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَوْخَمَةِ ٱلرَّدِيئَةِ وَٱلْقَافِيَةِ ٱلْقَلِقَةِ ٱلنَّافِرَةِ وَٱلْمَجَازَاتِ ٱلْمُتَفَاوِتَةِ ٱلْمُضْطَرِبَةِ وَٱلِاسْتِعَارَاتِ ٱلْبَعِيدَةِ ٱلْمَمْسُوخَةِ ـ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَٱبْتَلَاهُ مَعَ ذَلِكَ بِزَيْغِ ٱلطَّبِيعَةِ وَسَرَفِ ٱلتَّقْلِيدِ ، فَمَا يَجِيءُ ٱلشِّعْرُ عَلَىٰ لِسَانِهِ فِي بَيْتٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَجِيءَ ٱللَّغْوُ عَلَىٰ لِسَانِهِ فِي مِئَةِ بَيْتٍ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ .

ذَلِكَ قَوْلُنَا فِي فَنِّ ٱلشَّاعِرِ ؛ أَمَّا ٱلْكَلَامُ فِي مَوْهِبَتِهِ ٱلَّتِي بِهَا صَارَ شَاعِرًا وَعَلَىٰ مِقْدَارِهَا يَكُونُ مِقْدَارُهُ وَٱتِّصَالُ أَسْبَابِهِ أَوِ ٱنْقِطَاعُهَا مِنَ ٱلشِّعْرِ ، فَذَلِكَ بَابٌ لَا يُمْكِنُ بَسْطُ ٱلْمَعْنَىٰ فِيهِ وَلَا تَحْصِيلُ دَقَائِقِهِ إِلَّا إِذَا صُوِّرَتْ رُوحُ ٱلشَّاعِرِ فِي تَرْكِيبِهَا ٱلدَّقِيقِ ٱلْمُعْجِزِ وَوُزِنَتْ فِي مِيزَانِهَا ٱلْإِلَـٰهِيِّ وَعُرِفَ نَقْصُهَا إِنْ نَقَصَتْ وَتَمَامُهَا إِنْ تَمَّتْ ، وَأَمْكَنَ تَتَبُّعُ مَوَاقِعِهَا مِنْ أَسْرَارِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَسَاقِطِهَا مِنْ مَنَازِلِ ٱلْإِلْهَامِ ؛ وَهَـٰذَا مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ ٱلنَّفْسِيِّ ، فَإِنَّ ٱلْأَرْوَاحَ ٱلْقَوِيَّةَ يَلْمَحُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَقَدْ تَكُونُ لَمْحَةُ ٱلرُّوحِ ٱلشَّاعِرَةِ لِرُوحٍ مِثْلِهَا هِيَ تَدَبُّرَهَا وَوَزْنَهَا وَإِدْرَاكَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ كَمَا تَرَىٰ مِنْ وَضْعِ ٱلنُّورِ بِإِزَاءِ ٱلنُّورِ ، فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْوَضْعَ هُوَ نَفْسُهُ وَزْنٌ لِكِلَيْهِمَا فِي مِيزَانِ ٱلْبَصَرِ دُونَ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ مُوَازَنَةٌ إِلَّا فِي ٱلتَّأَلُّقِ وَٱلشُّعَاعِ ، فَهُمَا فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَالَةِ نُورَانِ يُضِيئَانِ ، وَلَـٰكِنَّهُمَا أَيْضًا كَلِمَتَانِ بَيِّنَتَانِ عَمَّا فِيهِمَا مِنَ ٱلْأَكْثَرِ وَٱلْأَقَلِّ .

لِهَـٰذَا قُلْنَا : إِنَّ ٱلشَّاعِرَ لَا يَتَّسِعُ لِنَقْدِهِ وَلَا يُحِيطُ بِهِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ لَهُ رُوحٌ شِعْرِيَّةٌ تُكَافِئُهُ فِي وَزْنِهَا أَوْ تَرْبِي عَلَىٰ مِقْدَارِهِ ؛ فَإِنَّ هُنَاكَ قُوًى رُوحِيَّةً لِإِدْرَاكِ ٱلْجَمَالِ وَخَلْقِهِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ خَلْقًا هُوَ رُوحُ ٱلشِّعْرِ وَرُوحُ فَنِّهِ ، وَقُوًى أُخْرَىٰ لِصِلَةِ ٱلْعَوَاطِفِ بِٱلْفِكْرِ صِلَةً هِيَ سِرُّ ٱلشِّعْرِ وَسِرُّ فَنِّهِ ، وَقُوًى غَيْرُ هَـٰذِهِ وَتِلْكَ لِتَحْوِيلِ مَا يُخَالِجُ ٱلنَّفْسَ ٱلشَّاعِرَةَ تَحْوِيلَ ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلَّتِي هِيَ قُوَّةُ ٱلشِّعْرِ وَقُوَّةُ فَنِّهِ ، وَبِمَجْمُوعِ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَىٰ كُلِّهَا تَمْتَازُ رُوحُ ٱلشَّاعِرِ مِنْ غَيْرِ ٱلشَّاعِرِ ؛ أَمَّا مَا تَمْتَازُ بِهِ هَـٰذِهِ ٱلرُّوحُ مِنْ رُوحٍ شَاعِرَةٍ مِثْلِهَا فَهُوَ مَا يَكُونُ مِنْ تَفَاوُتِ ٱلْمَقَادِيرِ ٱلَّتِي يَهَبُهَا ٱللهُ وَحْدَهُ ، فَيَخُصُّ شَاعِرًا بِٱلزِّيَادَةِ وَآخَرَ بِٱلنَّقْصِ ، وَيَهَبُ أَسْبَابَهَا ٱلَّتِي تَكُونُ عَنْهَا فَيُوسِعُ لِوَاحِدٍ وَيُضَيِّقُ عَلَى ٱلْآخَرِ ؛ وَإِذَا تَمَّتْ تِلْكَ ٱلْقُوَىٰ وَٱسْتَحْكَمَتْ تَهَيَّأَ مِنْهَا لِلشَّاعِرِ

جِهَازٌ عَصَبِيٌّ خَالِصٌ هُوَ جِهَازُ ٱلتَّوْلِيْدِ لَا يَمُرُّ بِهِ مَعْنًىٰ إِلَّا تَجَسَّدَ فِيْهِ بِصُوْرَةٍ غَيْرِ صُوْرَتِهِ .

وَقَدِ ٱسْتَوْفَيْنَا ٱلْكَلَامَ عَلَىٰ ذَلِكَ فِيْ مَقَالِنَا « سِرُّ ٱلنُّبُوْغِ فِيْ ٱلأَدَبِ » وَهُوَ لَا غَيْرُهُ سِرُّ ٱلْعَبْقَرِيَّةِ .

فَأَمْثَلُ ٱلطُّرُقِ فِيْ نَقْدِ مَوْهِبَةِ ٱلشَّاعِرِ إِدْرَاكُهَا بِٱلرُّوْحِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ إِحْسَاسِهَا ، وَٱلنَّفَاذُ إِلَىٰ بَصِيْرَتِهَا ، وَٱكْتِنَاهُ مَقَادِيْرِ ٱلإِلْهَامِ فِيْهَا ، وَتَأَمُّلُ آثَارِهَا فِيْ ٱلْجَمَالِ ، وَتَدَبُّرُ طَبِيْعَتِهَا ٱلْمُوْسِيْقِيَّةِ فِيْ ٱلْحِسِّ وَٱلْفَهْمِ وَٱلتَّعْبِيْرِ ، وَتَبَيُّنُ قُدْرَتِهَا عَلَىٰ ٱلْفَرَحِ وَٱلْحُزْنِ بِأَشْجَىٰ وَأَرَقِّ مَا تَهْتَاجُ فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلْحَسَّاسَةِ ، وَمَعْرِفَةُ قُوَّةِ ٱلتَّحْوِيْلِ فِيْ عَوَاطِفِهَا لِلْمَعَانِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ وَٱلطَّبِيْعِيَّةِ تَحْوِيْلًا يَجْعَلُ ٱلْقُوَّةَ أَقْوَىٰ مِمَّا تَبْلُغُ ، وَٱلْحَقِيْقَةَ أَكْبَرَ مِمَّا تَظْهَرُ ، وَتَأْتِيْ بِكُلِّ شَيْءٍ وَمَعَهُ شَيْءٌ ؛ وَلَيْسَ يَنْتَهِيْ ٱلنَّاقِدُ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِٱلْبَحْثِ فِيْ ٱلأَغْرَاضِ ، أَيْ : « ٱلْمَوَاضِيْعِ » ٱلَّتِيْ نَظَمَ فِيْهَا ٱلشَّاعِرُ وَمَا يَصِلُهُ بِهَا مِنْ أُمُوْرِ عَيْشِهِ وَأَحْوَالِ زَمَنِهِ وَكَيْفَ تَنَاوَلَهَا مِنْ نَاحِيَتِهِ وَمِنْ نَاحِيَتِهَا وَمَاذَا أَبْدَعَ ، ثُمَّ فِيْ أَيِّ ٱلْمَنَازِلِ يَقَعُ شِعْرُهُ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ فِيْ تَارِيْخِ لُغَتِهِ وَآدَابِهَا ، ثُمَّ نَظْرَتُهُ ٱلْفَلْسَفِيَّةُ إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ وَمَسَائِلِهَا ، وَٱتِّسَاعُهُ لِأَفْرَاحِهَا وَآلَامِهَا ، وَقُوَّةُ أَمْوَاجِهِ ٱلرُّوْحِيَّةِ فِيْ هَـٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلإِنْسَانِيِّ ٱلرَّجَّافِ ٱلْمُتَضَرِّبِ ٱلَّذِيْ يَبْلُغُ فِيْ نُفُوْسِ بَعْضِ ٱلشُّعَرَاءِ أَنْ يَكُوْنَ كَٱلأُقْيَانُوْسِ وَفِيْ بَعْضِهَا أَنْ يَكُوْنَ كَٱلْمُسْتَنْقَعِ . . . ثُمَّ دِقَّةُ فَهْمِهِ عَنْ وَحْيِ ٱلطَّبِيْعَةِ ، وَٱلإِشْرَافُ عَلَىٰ جَلِيَّةِ مَعْنَاهَا بِٱلْهَمْسَةِ وَٱللَّمْسَةِ ، وَتَسَقُّطُ إِلْهَامِ ٱلْغَيْبِ مِنْهَا بِٱلإِيْمَاءَةِ وَٱللَّحْظَةِ ؛ وَهَـٰذَا كُلُّهُ لَا يَسْتَوْسِقُ لِلنَّاقِدِ ٱلْعَظِيْمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَ رُوْحِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِيْ ٱخْتَصَّ بِهَا ، مُحِيْطًا بِآثَارِ ٱلشُّعَرَاءِ فِيْ لُغَتِهِ ، بَصِيْرًا بِمَآخِذِهَا ، مُحْكِمًا لِأَسْبَابِ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَهَا ، مُتَصَرِّفًا مَعَ ذَلِكَ بِأَدَاةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ صِنَاعَةِ ٱللُّغَةِ وَٱلْبَيَانِ وَفُنُوْنِ ٱلأَدَبِ .

وَإِذَا كَانَ مِنْ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ عِلْمٌ ، فَهُوَ عِلْمُ تَشْرِيْحِ ٱلأَفْكَارِ ، وَإِذَا كَانَ مِنْهُ فَنٌّ فَهُوَ فَنُّ دَرْسِ ٱلْعَاطِفَةِ ، وَإِذَا كَانَ مِنْهُ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةُ إِظْهَارِ ٱلْجَمَالِ ٱلْبَيَانِيِّ فِيْ ٱللُّغَةِ . . .

* * *

فَيْلَسُوْفٌ وَفَلَاسِفَةٌ . . . (*)

أَتَأَمَّلُ ٱلآنَ هَـٰذَا ٱلْقَلَمَ فِيْ يَدِيْ ـ وَأَنَا أُفَكِّرُ فِيْمَا سَأَكْتُبُهُ لِلزَّهْرَاءِ ـ فَأَرَىٰ نِصَابَ ٱلْقَلَمِ أَضْلَاعًا حُمْرًا فِيْ لَوْنِ ٱلْمَرْجَانِ ، تَنْسَرِحُ قَلِيْلًا ، ثُمَّ تَسْتَدِيْرُ ، ثُمَّ تَسْتَدِقُّ ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهَا قَادِمَةٌ سَوْدَاءُ كَأَنَّهَا قَصَبَةُ رِيْشَةٍ مِنْ جَنَاحٍ ، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ هَـٰذَا ٱللَّوْنَ ٱلأَحْمَرَ ٱلْمَزْهُوَّ يَقُوْلُ لِلأَسْوَدِ : إِنَّمَا أَنْتَ غَلْطَةُ ٱلَّذِيْ صَنَعَنِيْ ، فَكَيْفَ أُلْهِمَ فِيَّ هَـٰذَا ٱلإِلْهَامُ ؟ فَوَسَمَنِيْ بِهَـٰذَا ٱلْمَيْسَمِ مِنْ حُسْنٍ وَلَوْنٍ وَتَرْكِيْبٍ ، ثُمَّ ٱعْتَرَضَتْهُ ٱلْغَفْلَةُ فِيْكَ فَأَخْطَأَ ، وَأَدْرَكَهُ ٱلْعَجْزُ فَلَمْ يُمَيِّزْ ، وَدَخَلَ عَلَىٰ رَأْيِهِ ٱلْوَهَنُ فَإِذَا هُوَ يَصِلُكَ بِيْ كَٱلسَّيِّئَةِ بَعْدَ ٱلْحَسَنَةِ ، وَيُنْزِلُكَ مِنِّيْ مَنْزِلَةَ ٱلْقُبْحِ مِنَ ٱلْجَمَالِ ! فَأَيْنَ كَانَتْ صِحَّةُ رَأْيِهِ ٱلَّتِيْ بَلَغَ بِهَا فِيْ أَحْسَنِ مَا وُفِّقَ إِلَيْهِ حِيْنَ بَلَغَ فِيْكَ أَسْوَأَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْنَعَ ؟ فَيَقُوْلُ ٱلأَسْوَدُ : إِنَّمَا فِيْكَ أَنْتَ غَلْطَةُ ٱلصَّانِعِ وَبِكَ أَخْطَأَ جِهَةَ ٱلْفَنِّ ، فَلَمْ يَزِنْ مِنْكَ مَا كَانَ وَزَنَ مِنِّيْ ، وَلَا قَدَّرَ لَكَ مِثْلَ مَا قَدَّرَ لِيْ ، وَجِئْتَ غَلِيْظًا غَيْرَ مَقْدُوْدٍ ، وَكُنْتَ إِلَىٰ ٱلْعَرْضِ وَلَمْ تَكُنْ إِلَىٰ ٱلطُّوْلِ ، وَكُنْتَ أَحْمَرَ وَلَمْ تَكُنْ أَسْوَدَ ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا فَاسِدَ ٱلْحِسِّ ، مُتَغَيِّرَ ٱلذَّوْقِ ، وَمَا أَرَاكَ صَنَعَكَ هَـٰذَا ٱلرَّجُلُ إِلَّا فِيْ سَاعَةِ هَمٍّ قَارَبَتْ بَيْنَ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ ، فَمَازَجَتْ بَيْنَ رَأْيِهِ وَعَمَلِهِ ، فَجَمَعَتْ بَيْنَ عَمَلِهِ وَغَلَطِهِ .

ذَلِكَ مَنْطِقُ ٱللَّوْنَيْنِ فِيْمَا أَدْرَكْتُ مِنْهُمَا ، وَكِلَاهُمَا مُخْطِئٌ فِيْ جِهَةِ مَا هُوَ مُسْتَدِلٌّ بِهِ أَوْ مُتَنَظِّرٌ فِيْهِ ، وَٱلْحَقِيْقَةُ مِنْ وَرَائِهِمَا ، إِذِ ٱلْحِكْمَةُ لَيْسَتْ فِيْ أَحَدِهِمَا لِحُمْرَةٍ أَوْ سَوَادٍ ، بَلْ هِيَ فِيْ ٱثْنَيْهِمَا جَمِيْعًا لِائْتِلَافِهِمَا جَمِيْعًا ، فَلَا تَنْقَسِمُ عَلَيْهِمَا قِسْمَةٌ مَا ، لِأَنَّهَا آتِيَةٌ مِنْهُمَا بِٱلْمُقَابَلَةِ بَيْنَ ٱثْنَيْهِمَا ، وَمَا لَا يَخْرُجُ أَبَدًا إِلَّا مِنِ ٱثْنَيْنِ فَهُوَ أَبَدًا وَاحِدٌ لَا نِصْفَ لَهُ ؛ كَٱلطِّفْلِ مِنْ أَبَوَيْهِ : لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ مِنْ أُمِّهِ لِأَنَّكَ لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ مِنْ أَبِيْهِ .

أَفِيْ ٱلأَرْضِ كُلِّهَا مَنْ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَقْسِمَ طِفْلًا وَاحِدًا فَيَجْعَلَهُ طِفْلَيْنِ تَعْتَدِلُ بِهِمَا ٱلْحَيَاةُ وَتَمُدُّهُمَا بِرُوْحَيْنِ مِنْ رُوْحٍ وَاحِدَةٍ ؟ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ هَـٰذَا ٱلْخَالِقَ ٱلأَرْضِيَّ . . إِلَّا فِيْ طَائِفَتَيْنِ : ٱلأُوْلَىٰ قَوْمٌ مِنْ ذَاهِبِيْ ٱلْعُقُوْلِ يَخْلُقُوْنَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُمْ لَا يَخْلُقُوْنَ شَيْئًا ، وَٱلثَّانِيَةُ

(*) مَجَلَّةُ ٱلزَّهْرَاءِ ، سَنَةَ ١٩٢٥ .

قَوْمٌ مِنْ جَبَابِرَةِ ٱلْعُقُوْلِ . . . عِنْدَنَا تَعرِفُ لَهُمْ مِنَ ٱلْخَلْطِ وَسُخْفِ ٱلرَّأْيِ مَا يُرِيْدُوْنَ أَنْ يَعْلُوْا بِهِ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ ، إِذْ كَانَ ٱلنَّاسُ لَا يُجَاوِزُوْنَ ٱلْحَقَائِقَ ، فَظَنَّ هَـٰؤُلَاءِ أَنَّهُمْ إِنْ جَاوَزُوْهَا وَعَدَوْا عَلَيْهَا خَرَجُوْا إِلَىٰ طَبَقَةٍ فَوْقَ ٱلْعَقْلِ ٱلإِنْسَانِيِّ . وَلِلْجُنُوْنِ طَرَفَانِ ؛ أَحَدُهُمَا : أَلَّا يَعْقِلَ ٱلْمَجْنُوْنُ عَنِ ٱلنَّاسِ ، وَٱلآخَرُ : أَلَّا يَعْقِلَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلْعَاقِلِ ، فَذَلِكَ ذَلِكَ وَهَـٰذَا هَـٰذَا ، وَكَأَنَّ فِيْ رَأْسِ كُلٍّ مِنْهُمَا مُضْمَرَةً مِنْ قُوَّةِ ٱلْخَلْقِ تَنْطَوِيْ عَلَىٰ مَحْجُوْبَةٍ إِلَـٰهِيَّةٍ ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا يَزِيْدُ فِيْ ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا فَوْقَ ٱلطَّبِيْعَةِ لِأَنَّهُ مِنْ ذَوِيْ ٱلأَسْرَارِ ٱلْمَجْهُوْلَةِ ٱلَّتِيْ لَا تَسْتَبِيْنُ عِنْدَنَا مِنْ خَفَائِهَا ، ثُمَّ لَا تَخْفَىٰ عِنْدَهُمْ مِنِ ٱسْتِبَانَتِهَا .

يُضْحِكُنِيْ مِنْ جَبَابِرَةِ ٱلْعُقُوْلِ هَـٰؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ ٱلدِّيْنَ مَرَّةً عَادَةً ، وَتَارَةً ٱخْتِرَاعًا ، وَحِيْنًا خُرَافَةً ، وَطَوْرًا ٱسْتِعْبَادًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَهُمْ رَأْيٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانُوْا يَعْتَقِدُوْنَهُ بِٱلْحُجَّةِ وَيَشُدُّوْنَهُ بِٱلدَّلِيْلِ ، فَلَمَّا جَاءَ طَاغُوْرُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْهِنْدِيُّ ٱلْمُتَصَوِّفُ إِلَىٰ مِصْرَ ، وَجَلَسُوْا إِلَيْهِ وَسَمِعُوْهُ ، خَرَجُوْا يَتَكَلَّمُوْنَ كَأَنَّمَا كَانُوْا فِيْ مَعْبَدٍ ، وَكَأَنَّمَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ حَقِيْقَتُهُ ٱلإِلَـٰهِيَّةُ ، وَكَأَنَّمَا ٱتَّضَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا عَنِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِيْ جَلَسَ فِيْهِ ٱلرَّجُلُ ، فَلَا يَعْرِفُوْنَهُ مِنَ ٱلأَرْضِ ، وَلَا مِنْ هَـٰذَا ٱلْعَالَمِ ، بَلْ كَانُوْا فِيْ غَشْيَةٍ قَدْ فَرَّوْا لَهَا وَسَكَنُوْا إِلَيْهَا ، وَمَا أَرَاهُمْ صُرِفُوْا عَنْ عُقُوْلِهِمْ وَلَا صُرِفَتْ عُقُوْلُهُمْ عَنْهُمْ ، وَلَـٰكِنَّ طَاغُوْرَ شَاعِرٌ فَيْلَسُوْفٌ ، وَهُمْ يَعْرِفُوْنَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ لُصُوْصِ كُتُبِهِ وَآرَائِهِ ، وَيَقَعُوْنَ مِنْهُ مَوْقِعَ ٱلسَّفْسَطَةِ ٱلْفَارِغَةِ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ ٱلْقَائِمِ ، وَإِذَا قِيْسُوْا إِلَيْهِ كَانُوْا كَٱلذُّبَابِ تَزْعُمُ أَنْفُسَهَا نُسُوْرَ ٱلْمَزَابِلِ ، وَلَـٰكِنَّهَا لَا تُكَابِرُ فِيْ أَنَّ مِنَ ٱلْهُزْءِ بِهَا قِيَاسَهَا بِنُسُوْرِ ٱلْجَوِّ .

لَقَدْ ضَرَبَهُمْ طَاغُوْرُ ، لَا بِأَنَّهُ لَمَسَهُمْ ، بَلْ بِأَنَّهُمْ لَمَسُوْهُ . . . وَفَضَحَهُمْ فَضِيْحَةَ ٱللُّؤْلُؤَةِ لِلزُّجَاجِ ٱلْمُدَّعِيْ أَنَّهُ لُؤْلُؤٌ ، وَأَظْهَرَ لَنَا تَجَمُّلَهُمُ ٱلْعَقْلِيَّ كَهَـٰذِهِ ٱلأَصْبَاغِ فِيْ وَجْهِ ٱلشَّوْهَاءِ : تَذْهَبُ تَتَصَنَّعُ وَلَا تَدْرِيْ أَنَّهُ إِنْ كَانَ فِيْ أَدْهَانِهَا وَأَصْبَاغِهَا رُوْحُ ٱلنَّقَّاشِ ، فَفِيْ وَجْهِهَا هِيَ مَعْنَىٰ ٱلْحَائِطِ .

لَقَدْ قَرَأْتُ كُلَّ مَا كَتَبُوْا عَنْ طَاغُوْرَ أَلْتَمِسُ فِيْهِ هَـٰذِهِ ٱلْحَقِيْقَةَ لِأَرَىٰ كَيْفَ يَكُوْنُ جَبَابِرَةُ ٱلْعُقُوْلِ حِيْنَ تَنْكَشِفُ عَنْهُمُ ٱلْمَعَاذِيْرُ وَتَنْزَاحُ ٱلْعِلَلُ وَتَنْتَهِكُ ٱلأَسْتَارُ ، فَإِذَا هُمْ فِيْ كُلِّ

مَا كَتَبُوْهُ لَا يُحِسُّوْنَ إِلَّا هَـٰذِهِ ٱلْحَقِيْقَةَ ، وَلَا يَصِفُوْنَ إِلَّا هَـٰذَا ٱلْحِسَّ ، فَلَمْ يُخْزِهِمْ عِنْدَنَا إِلَّا هَـٰذَا ٱلْوَصْفُ ، لَا جَرَمَ فَكُلُّ مَا أَثْنَوْا بِهِ عَلَىٰ ٱلشَّاعِرِ ٱلْفَيْلَسُوْفِ قَرَأْنَاهُ ذَمًّا لَهُمْ ، وَعَرَفْنَاهُ قَدْحًا فِيْهِمْ ، وَأَخَذْنَاهُ تُهَمَةً عَلَيْهِمْ ، وَكُلُّ مَا أَعْظَمُوْا مِنْ أَمْرِهِ صَغَّرَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَلَقَدْ جَعَلُوْهُ إِنْسَانًا كَأَنَّمَا تَنْتَهِيْ قِمَّةُ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا عِنْدَ قَدَمِهِ ، وَتَبْدَأُ قَدَمُهُ مِنْ قِمَّةِ ٱلدُّنْيَا ، فَمَا عَرَفْنَا مِنْ ذَلِكَ قِيَاسًا لِسُمُوِّ طَاغُوْرَ وَٱرْتِفَاعِ نَفْسِهِ ، بَلْ قِيَاسًا لِٱنْحِطَاطِ أَنْفُسِهِمْ وَهَوَانِ أَمْرِهِمْ وَقِلَّةِ خَطَرِهِمْ ، فَإِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْمُقَلِّدَ ٱلْمَخْدُوْعَ لَا يَزَالُ يَطُوْلُ فِيْ تَقْلِيْدِهِ وَلَا يَزَالُ يَتَوَعَّرُ فِيْ ٱلرَّأْيِ ٱلَّذِيْ يَرَاهُ وَيَعْتَسِفُ طُرُقَ ٱلْعِلْمِ ٱعْتِسَافًا ، حَتَّىٰ يَرْمِيَهُ ٱللهُ بِأَصْلٍ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلأُصُوْلِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلَّتِيْ يُقَلِّدُهَا ، فَإِذَا هُوَ مُفْحَمٌ يَتَقَاصَرُ مِنْ طُوْلٍ ، وَيَتَسَهَّلُ مِنْ وَعْرٍ ، وَيَهْتَدِيْ مِنْ تَعَسُّفٍ ، وَيَنْحَطُّ إِلَىٰ ٱلْوَهْدَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَىٰ ٱلْجَبَلِ ، وَيُسَلِّمُ فِيْ نَفْسِهِ ، وَيُذْعِنُ بِرَأْيِهِ ، وَيَنْقَادُ مِنْ حَيْثُ يَأْبَىٰ وَمِنْ حَيْثُ لَا يَأْبَىٰ ، وَيُصْبِحُ وَقَدْ غَمَرَتْهُ تِلْكَ ٱلنَّفْسُ أَشْبَهَ بِٱلظِّلِّ مِمَّا يَرْمِيْهِ وَيَفِيْءُ بِهِ ، فَهُوَ مَسْخٌ فِيْ تَمْثِيْلِهِ ٱلصُّوْرَةَ ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَيْهَا بِمَا يَطُوْلُ وَيَقْصُرُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ أَحْوَالِهِ إِبْهَامٌ سَخِيْفٌ مُظْلِمٌ لِحَقِيْقَةٍ شَرِيْفَةٍ نَيِّرَةٍ .

وَأَنْتَ أَفَلَا تَرَىٰ هَـٰذَا مِنْ جَبَابِرَةِ ٱلْعُقُوْلِ كَتِلْكَ ٱلشِّيْمَةِ فِيْ أَخْلَاقِ ٱلْعَامَّةِ ، إِذْ لَا يَصْلُحُوْنَ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَكُوْنُوْا تَبَعًا ، وَلَا عِلْمَ لَهُمْ إِلَّا مَا يَرْبِطُ فِيْ صُدُوْرِهِمْ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ ، ثُمَّ يَعْمَلُوْنَ بِلَا تَحْقِيْقٍ . وَيَحْمِلُوْنَ بِلَا تَمْيِيْزٍ ، ثُمَّ لَا تَكُوْنُ نَهْمَةُ أَنْفُسِهِمْ مَعَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَالِمِ ـ إِذَا ٱجْتَمَعُوْا بِهِ ـ إِلَّا فِيْ ٱلتَّسْلِيْمِ لَهُ ، وَٱتِّقَاءِ حَقَائِقِهِ ، وَٱلنُّزُوْلِ عَنْ آرَائِهِمْ إِلَىٰ رَأْيِهِ ، وَٱلْخُرُوْجِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ إِلَىٰ نَفْسِهِ !

لَقَدْ قُلْنَا مِنْ قَبْلُ : إِنَّ جَبَابِرَةَ ٱلْعُقُوْلِ هَـٰؤُلَاءِ ٱلَّذِيْنَ يَأْبَوْنَ إِلَّا أَنْ يَكُوْنُوْا عُلَمَاءَنَا وَسَادَتَنَا لِيُصَرِّفُوْا عُقُوْلَنَا وَيُغَيِّرُوْا عَقَائِدَنَا وَيُصْلِحُوْا آدَابَنَا وَيُدْخِلُوْنَا فِيْ مَسَاخِطِ ٱللهِ وَيَهْجُمُوْا بِنَا عَلَىٰ مَحَارِمِهِ وَيُرْكِبُوْنَا مَعَاصِيَهُ ـ إِنْ هُمْ فِيْ أَنْفُسِهِمْ إِلَّا عَامَّةٌ وَجَهَلَةٌ وَحَمْقَىٰ إِذَا وُزِنُوْا بِعُلَمَاءِ ٱلأُمَمِ وَقِيْسُوْا إِلَىٰ حُكَمَاءِ ٱلدُّنْيَا ، وَمَا يَكْتُبُوْنَ لِلأُمَّةِ فِيْ نَصِيْحَتِهَا وَتَعْلِيْمِهَا إِلَّا مَا يَتَحَوَّلُ مِنْ كَلِمَاتٍ وَجُمَلٍ فِيْ ٱلصُّحُفِ وَٱلْكُتُبِ إِلَىٰ أَنْ يَصِيْرُوْا فِيْ ٱلْوَاقِعِ فُسَّاقًا وَفَجَرَةً وَمُلْحِدِيْنَ وَسَاخِرِيْنَ وَمُفْسِدِيْنَ ؛ فَٱلْمُصِيْبَةُ فِيْهِمْ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْعِلْمِ ٱلنَّاقِصِ فِيْ وَزْنِ ٱلْمُصِيْبَةِ بِهِمْ مِنْ

نَاحِيَةِ ٱلْخُلُقِ ٱلْفَاسِدِ ، وَهَاتَانِ مَعًا فِي وَزْنِ ٱلْمُصِيبَةِ ٱلْكُبْرَىٰ ٱلَّتِي يَجْنُوْنَ بِهَا عَلَىٰ ٱلأُمَّةِ لِتَهْدِيْمِهَا فِيْمَا يَعْمَلُوْنَ ، وَتَجْدِيْدِهَا فِيْمَا يَزْعُمُوْنَ . . .

لَمْ أَنْخَدِعْ قَطُّ فِيْ هَـٰؤُلَاءِ مِنْ فَلَاسِفَةٍ أَوْ دَكَاتِرَةٍ أَوْ جَبَابِرَةٍ ، وَلَسْتُ أَضَعُ أَمْرَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ حَقِّهِ ، فَإِنِّي لَأَعْرِفُ أَنَّ ٱلْهِرَّ مِنْ قَبِيلَةِ ٱلأَسَدِ ، وَلَـٰكِنَّ أَسَدِيَّتَهُ عَلَىٰ ٱلْفَأْرِيَّةِ وَحْدَهَا . . . وَلَعِلْمُ عَاقِبَتُهُ ٱلْجَهْلُ خَيْرٌ لِلأُمَّةِ مِنْ عَوَاقِبِ عِلْمِهِمْ وَتَخَبُّطِهِمْ وَحَمَاقَاتِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ مُقَلِّدُوْنَ ، وَلَهُمْ طِبَاعٌ مُعْتَلَّةٌ زَائِغَةٌ ، وَعُقُوْلٌ لَا مِسَاكَ لَهَا مِنْ دِيْنٍ أَوْ ضَمِيْرٍ ؛ فَمَا يَجْنَحُوْنَ إِلَّا إِلَىٰ بِدْعَةٍ سَيِّئَةٍ ، أَوْ آفَةٍ مَحْذُوْرَةٍ ، أَوْ فِكْرَةٍ مُتَّهَمَةٍ ؛ وَلَا يَعْمَلُوْنَ إِلَّا مَا يُشْبِهُ ٱلظَّنَّ بِهِمْ ، وَٱلرَّأْيَ فِيْهِمْ ؛ مِنْ تَمْدِيْنِ ٱلأَخْلَاقِ ٱلسَّافِلَةِ وَإِلْحَاقِهَا بِٱلْعِلْمِ أَوِ ٱلْفَلْسَفَةِ ، مَعَ بَقَاءِ ٱلْعَقْلِ نَاضِجًا صَحِيْحًا يَحْكُمُ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْخَبِيْثِ كَمَا كَانَ يَحْكُمُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ٱلطَّيِّبِ ؛ وَلَيْسَ مِنْ سَبِيْلٍ إِلَىٰ هَـٰذَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ تَحْوِيْلِ ٱلأَخْلَاقِ ، فَإِنْ هِيَ ٱسْتَمْسَكَتْ وَلَمْ تَتَحَوَّلْ فَهَا هُنَا مَوْضِعُ ٱلنِّزَاعِ وَمَحَلُّ ٱلْخِلَافِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ حَرْبٍ مِنَّا كَحَرْبِ ٱلاسْتِقْلَالِ ، ثُمَّ حَرْبٍ مِنْهُمْ كَحَرْبِ ٱلاسْتِعْمَارِ . . .

فَٱلَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ لَيْسَ ٱلْقَدِيْمَ وَٱلْجَدِيْدَ ، وَلَا ٱلتَّأَخُّرَ وَٱلتَّقَدُّمَ ، وَلَا ٱلْجُمُوْدَ وَٱلتَّحَوُّلَ ؛ وَلَـٰكِنَّ أَخْلَاقَنَا وَتَجَرُّدَهُمْ مِنْهَا ، وَدِيْنَنَا وَإِلْحَادَهُمْ فِيْهِ ، وَكَمَالَنَا وَنَقْصَهُمْ ، وَتَوَثُّقَنَا وَٱنْحِلَالَهُمْ ، وَٱعْتِصَامَنَا بِمَا يُمْكِنُنَا وَتَرَاخِيَهُمْ تَرَاخِيَ ٱلْحَبْلِ لَا يَجِدُ مَا يَشُدُّهُ .

وَٱلآنَ أَنْظُرُ إِلَىٰ قَلَمِي فَأَرَىٰ شَطْرَهُ ٱلأَسْوَدَ مَا جُعِلَ كَذَٰلِكَ إِلَّا لِيَزِيْدَ فِيْ جَمَالِ حُمْرَتِهِ وَبَرِيْقِهَا ، وَيُكْسِبَهَا لَمْعَةً لَا تَأْتِيْهَا إِلَّا مِنَ ٱلسَّوَادِ خَاصَّةً ؛ وَٱلشَّرُّ خَيْرٌ إِذَا بَقِيَ مَحْصُوْرًا فِيْ مَوْضِعِهِ وَلَمْ يَتَجَاوَزْهُ ؛ فَإِذَا تَنَبَّهَتِ ٱلأُمَّةُ لِجَبَابِرَةِ ٱلْعُقُوْلِ هَـٰؤُلَاءِ ، قُلْنَا : لَا بَأْسَ بِٱلسَّوَادِ ٱلْمُظْلِمِ إِذَا كَانَتْ حِكْمَتُهُ حَمْرَاءَ . . .

* * *

شَيْطَانِي وَشَيْطَانُ طَاغُوْرَ . . . (*)

طَاغُوْرُ هَـٰذَا شَاعِرُ ٱلْهِنْدِ ، مَرَّ بِمِصْرَ مُرُوْرَ شَمْسِ ٱلشِّتَاءِ بِٱلْيَوْمِ ٱلْمَطِيْرِ : لَا يَقَعُ نُوْرُهَا إِلَّا فِي ٱلْقُلُوْبِ مِمَّا تَسْتَخِفُّ وَتَسْتَهْوِيْ ، وَمِمَّا تَمْتَنِعُ وَتَتَأَبَّىٰ ، وَمِمَّا تَرِقُّ وَتَلْطُفُ ؛ وَتَنْقَدِحُ بَيْنَ ٱلسُّحُبِ ٱلْهَامِيَةِ فَإِذَا لَهَا مِنَ ٱلْجَمَالِ وَٱلسِّحْرِ وَٱلْعَجَبِ مَا يَكُوْنُ لِجَمْرَةٍ تُخْرِجُهَا ٱلسَّمَاءُ مُعْجِزَةً لِلنَّاسِ فَيَرَوْنَهَا تُرْسِلُ ٱلشُّعَاعَ مَرَّةً وَتُمْطِرُ ٱلْمَاءَ مَرَّةً .

لَمْ أَلْقَ طَاغُوْرَ وَلَـٰكِنِّي أَنْفَذْتُ إِلَيْهِ شَيْطَانِي ، وَقُلْتُ أُوْصِيْهِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ لِوَجْهِهِ : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ هِنْدِيٌّ ، وَلَـٰكِنَّهُ إِنْسَانٌ ؛ فَمَا أَرْضٌ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ أَرْضٍ ؛ وَأَنَّهُ شَاعِرٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ مَخْلُوْقٌ ، فَمَا طَبِيْعَةٌ أَغْلَبُ عَلَيْهِ مِنْ طَبِيْعَةٍ ؛ وَأَنَّهُ حَكِيْمٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ تَرْكِيْبُ مَا جُبِلَتْ لَهُ طِيْنَةٌ غَيْرُ ٱلطِّيْنَةِ ؛ وَأَنَّهُ سَمَاوِيٌّ ، غَيْرَ أَنَّهُ سَمَاوِيٌّ كَعُلَمَاءِ ٱلْفَلَكِ . سَمَاؤُهُ فِيْ مِنْظَارٍ وَكِتَابٍ وَقَلَمٍ وَحِبْرٍ . . . فَٱذْهَبْ إِلَيْهِ فَدَاخِلْ شَيْطَانَهُ ، فَإِنَّكَ وَاجِدٌ لَهُ مِنْ ذَٰلِكَ مَا لِكُلِّ ٱلشُّعَرَاءِ ، وَرُبَّمَا عَرَفْتَ شَيْطَانَهُ مِنْ ذَوِيْ قَرَابَتِكَ أَوْ خَالِصَةِ أَهْلِكَ ، ثُمَّ ٱئْتِنِي بِكَلَامِهِ عَلَىٰ جِهَةِ مَا هُوَ مُفَكِّرٌ فِيْهِ ، لَا عَلَىٰ جِهَةِ مَا هُوَ مُتَكَلِّمٌ بِهِ ؛ وَخُذْ مَا يَهْجِسُ عَلَىٰ قَلْبِهِ ، وَدَعْ مَا يَجْرِيْ فِيْ لِسَانِهِ ؛ فَإِنَّ هَـٰذَا سَيَأْتِيْ بِهِ إِخْوَانُكَ مِنْ « مَنْدُوْبِي ٱلصُّحُفِ » . . . وَٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ حَكِيْمٍ مُهَيَّئٌ لِمَسَائِلَ مَنْ حَوْلَهُ كَلَامًا ، غَيْرَ أَنَّ مَعَانِيَ مَنْ حَوْلَهُ مُهَيِّئَةٌ لَهُ مَسَائِلَ أُخْرَىٰ يُفَكِّرُ فِيْ كُلِّ جَوَابٍ عَلَيْهَا وَلَا يَنْطِقُ بِجَوَابٍ عَلَيْهَا .

* * *

فَحَدَّثَنِي شَيْطَانِي بَعْدَ رُجُوْعِهِ قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُوْرَ قَالَ : لَمَّا هَبَطَ طَاغُوْرُ هَـٰذَا ٱلْوَادِيَ نَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلشَّمْسِ ثُمَّ قَالَ : أَنْتِ هُنَا وَأَنْتِ هُنَاكَ ، تَقْرُبِيْنَ بِأَثَرٍ وَتَبْعُدِيْنَ بِأَثَرٍ ، وَتَطْلُعِيْنَ بِجَوٍّ وَتَغْرُبِيْنَ بِجَوٍّ ، فَلَا تَخْتَلِفِيْنَ وَتَخْتَلِفُ بِكِ ٱلأَقَالِيْمُ ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِٱلأَقَالِيْمِ ٱلأُمَمُ ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِٱلأُمَمِ ٱلأَفْكَارُ وَٱلْمَنَازِعُ ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِٱلأَفْكَارِ وَٱلْمَنَازِعِ أَغْرَاضُهَا

(*) « ٱلْبَلَاغُ ٱلأُسْبُوْعِيُّ » سَنَةَ ١٩٢٦ .

وَمَصَالِحُهَا ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِمَصَالِحِهَا وَأَغْرَاضِهَا ٱلْحَقَائِقُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ ، وَإِنَّمَا ٱلْبَاطِلُ وَٱلْحَقُّ فِيمَا تَسْتَقْبِلُ هَٰذِهِ ٱلْحَقَائِقَ أَوْ تَسْتَدْبِرُ ؛ وَقَدْ غَلَبَتِ ٱلسِّيَاسَةُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ هَٰذِهِ ٱلْحَقَائِقُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ جُغْرَافِيَّةً ، لَهَا شُعُوبٌ وَلَهَا مُسْتَعْمَرَاتٌ ، فَٱلإِخَاءُ فِي ٱلْغَرْبِ سِيَادَةٌ فِي ٱلشَّرْقِ ، وَٱلْمُسَاوَاةُ هُنَاكَ ٱمْتِيَازٌ هُنَا ، وَٱلْحُرِّيَّةُ فِي مَمْلَكَةٍ ٱسْتِعْبَادٌ لِمَمْلَكَةٍ ، وَٱلتَّحِيَّةُ فِي مَوْضِعٍ صَفْعَةٌ فِي مَوْضِعٍ ، وَٱلضِّيَافَةُ فِي مَكَانٍ ٱسْتِئْكَالٌ فِي مَكَانٍ ، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [١١ سورة هود/الآيتان : ١١٨ و١١٩] : فَلَنْ يَتَّصِلَ ٱلنَّاسُ بِٱلرُّوحِ ٱلأَعْلَىٰ إِلَّا مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ٱلَّتِي لَمْ تَتَغَيَّرْ وَلَنْ تَتَغَيَّرَ فِيهِمْ ، جِهَةِ ٱلدُّمُوعِ ٱلَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي أَسْوَدَ وَلَا أَحْمَرَ ، وَٱلَّتِي لَا تَنْبَعِثُ إِلَّا مِنَ ٱلرِّقَّةِ وَٱلْوَجْدِ وَٱلأَحْزَانِ وَٱلآلَامِ ، وَهِيَ بِذَلِكَ نَسَبُ كُلِّ قَلْبٍ إِلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ ، فَلَوْ غَمَرَ ٱلْعَالَمَ كُلَّهُ بَلَاءٌ وَاحِدٌ لَا تُحْرِزُ مِنْهُ أَرْضٌ أَهْلَهَا وَلَا تَتَحَاجَزُ ٱلأُمَمُ فِيهِ ، لَاسْتَلَبَ مَطَامِعَ ٱلنَّاسِ بَعْضَهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَأَرْجَعَ ٱلإِنْسَانِيَّةَ ٱلزَّائِغَةَ إِلَىٰ مُسْتَقَرِّهَا ، فَتَجَرَّدُوا مِنَ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ، فَٱتَّصَلُوا بِٱللَّانِهَايَةِ وَهُمْ فِي ٱلنِّهَايَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَلَاءٌ عَامٌّ فَفِكْرٌ عَامٌّ فِي بَلَاءٍ يُمِيتُ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلْمُتَطَلِّعَةَ ، وَيَكُونُ كَٱلدَّاءِ تَلَبَّسَ بِٱلْجِنْسِ ٱلإِنْسَانِيِّ كَٱلَّذِي تَصِفُهُ ٱلأَدْيَانُ مِنْ جَهَنَّمَ وَٱلْمَصِيرِ إِلَيْهَا وَٱلْحِسَابِ عِنْدَهَا وَٱلْجَزَاءِ عَلَىٰ ٱلشَّرِّ بِهَا ، حَتَّىٰ لَا تَبْقَىٰ نَفْسٌ إِلَّا وَهِيَ فِي وَثَاقٍ مِنْ حَلَالِهَا وَحَرَامِهَا ، وَلَا يَبْقَىٰ شَرٌّ يُتَخَيَّلُ أَوْ يُشْتَهَىٰ إِلَّا وَهُوَ كَٱلْمَتَاعِ ٱلنَّفِيسِ بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُدْرَانٍ تَتَسَاقَطُ وَتَحْتَرِقُ لَا يَجِدُ فِي كُلِّ ٱللُّصُوصِ لِصًّا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَٰذَا وَلَا ذَاكَ فَٱلْحُبُّ ٱلْعَامُّ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ جَيْشٌ وَلَا سِلَاحٌ وَلَا سِيَاسَةٌ وَلَا دُوَلٌ ، وَلَا تَكُونَ ٱلْمَمَالِكُ إِلَّا بُيُوتًا إِنْسَانِيَّةً بَيْنَ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْكُلِّ مِنَ ٱلشَّابِكَةِ وَٱللُّحْمَةِ مَا بَيْنَ ٱلْكُلِّ وَٱلْوَاحِدَةِ ، وَحَتَّىٰ تَقُولَ مِصْرُ لِإِنْكِلْتَرَة : يَا بِنْتَ عَمِّي ! . . فَإِنِ ٱسْتَحَالَ كُلُّ هَٰذَا فَٱلْحُرِّيَّةُ ٱلْعَامَّةُ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ مَحْدُودَةً مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا بِٱلشِّعْرِ ، وَعَلَىٰ أَنْ يَكُونَ ٱلشِّعْرُ مَحْدُودًا بِٱلطَّبِيعَةِ ، وَٱلطَّبِيعَةُ مَحْدُودَةً بِٱللهِ ، فَيَنْتَزِعُ ٱلنَّوْمَ مِنَ ٱلأَرْضِ لِتَتَّصِلَ ٱلْيَقَظَةُ بِٱلْحُلُمِ . . . مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ ٱلنَّوْمِ .

قَالَ شَيْطَانُ طَاغُورَ : . . . ثُمَّ ٱبْتَأَسَ طَاغُورُ وَقَالَ : كُلُّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ أَوْ كَٱلْمُسْتَحِيلِ ، وَلَٰكِنَّهُ فِي ٱلأَمَلِ مُمْكِنٌ أَوْ كَٱلْمُمْكِنِ ؛ وَلِلَّفْظِ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا مَا يَكُونُ ، وَٱلثَّانِي مَا يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ، ذَلِكَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَّا ، لِأَنَّهُ جَانِبُ ٱلنِّظَامِ ٱلإِلَٰهِيِّ ، وَهَٰذَا لَا بُدَّ لَنَا مِنْهُ لِأَنَّهُ جَانِبُ ٱلْخَيَالِ ٱلإِنْسَانِيِّ ؛ وَذَلِكَ مِنَ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلَّتِي تَعْمَلُ وَلَا تَتَكَلَّمُ ، وَهَٰذَا مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ وَلَا يَعْمَلُ . آهٍ آهٍ ! إِنَّمَا ٱلسَّلَامُ ٱلْعَامُّ أَنْ يَكُونَ ٱلْوُجُودُ شَرِكَةً إِلَٰهِيَّةً إِنْسَانِيَّةً بِرِضًا وَٱتِّفَاقٍ بَيْنَ ٱلطَّرَفَيْنِ . . وَلَعَمْرِي إِنَّ كُلَّ ٱلْمُسْتَحِيلَاتِ مُمْكِنَةٌ بِٱلإِضَافَةِ إِلَىٰ هَٰذَا ٱلْمُسْتَحِيلِ .

ثُمَّ تَبَسَّمَ طَاغُورُ إِذْ خَطَرَ لَهُ أَنَّهُ شَاعِرٌ عَلَيْهِ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَرْدَةَ وَيَقُولَ فِيهَا مَا يَجْعَلُهَا بَيْتَ شِعْرٍ فِي كِتَابِ ٱلطَّبِيعَةِ لَهُ وَزْنٌ وَنَغَمٌ ، وَلَٰكِنْ عَلَىٰ ٱلطَّبِيعَةِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ تُنْبِتَهَا نَاضِرَةً عَطِرَةً جَمِيلَةً تَتَمَيَّزُ مِنْ غَيْرِهَا بِرَائِحَةٍ وَلَوْنٍ وَشَكْلٍ .

قَالَ شَيْطَانُهُ : وَلَمَّا ٱنْتَهَىٰ مِنْ تَأَمُّلِهِ إِلَىٰ هَٰذِهِ ٱلْخَاطِرَةِ قَدَّمَتْ لَهُ سَيِّدَةٌ هِنْدِيَّةٌ عُقُودَ ٱلزَّهْرِ ، وَبَيْنَا هِيَ تُقَلِّدُهُ إِيَّاهَا قَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنَّ هَٰذِهِ ٱلأَزْهَارَ مِنْ مَعَانِي ٱلْمَاءِ ٱلْعَذْبِ ؛ فَإِذَا ٱنْطَلَقْنَا فِي أَوْهَامِنَا وَرَاءَ ٱلْحُبِّ ٱلْعَامِّ وَٱلسَّلَامِ ٱلْعَامِّ فَلِمَنْ تَكُونُ مَعَانِي ٱلْمَاءِ ٱلْمِلْحِ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ ٱلأَرْضِ وَمِنْ أَزْهَارِهِ ٱلأُسْطُولُ ٱلإِنْكِلِيزِيُّ . . .

* * *

حَدَّثَنِي شَيْطَانِي قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ : وَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ طَاغُورُ فِي قَصْرِ شَوْقِي بِكْ وَرَآهُ فِي مِثْلِ حُسْنِ ٱلدِّينَارِ وَنَقْشِهِ وَنَفَاسَتِهِ ، قَالَ : لَا جَرَمَ هَٰذِهِ أُمَّةٌ أَغْنَتْ شَاعِرَهَا ، فَمَا أُخْطِئَ ٱلتَّقْدِيرُ ، وَإِنْ أَخْطَأْتُهُ فَلَا أَبْعُدُ عَنِ ٱلْمُقَارَنَةِ إِذَا حَسِبْتَ أَنَّ هَٰذَا ٱلشَّاعِرَ يَطْبَعُ لِهَٰذِهِ ٱلأُمَّةِ نِصْفَ مِلْيُونِ نُسْخَةٍ مِنْ كُلِّ دِيوَانِ شِعْرٍ أَوْ دَفْتَرِ حِكْمَةٍ أَوْ كِتَابِ قِصَّةٍ ، وَلَيْتَنِي أَعْرِفُ ٱلْعَرَبِيَّةَ لِأَعْرِفَ كَيْفَ يُبْدِعُ هَٰذَا ٱلشَّعْبُ فَلْسَفَتَهُ فِي أَغَانِيهِ ٱلْمُتَّصِلَةِ بِغُيُومِ ٱلسَّمَاءِ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِأَحْسَنِ وَأَظْهَرِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَرْجَمَةً لِلْحَقِيقَةِ ٱلْخَالِدَةِ ٱلَّتِي يَتَوَارَثُهَا شَعْبٌ خَالِدٌ .

ٱلشِّعْرُ فِكْرَةُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلإِنْسَانِ ، وَفِكْرَةُ ٱلإِنْسَانِ فِي ٱلْوُجُودِ ، وَلَا يَكْفِي أَنْ يُخْلَقَ هَٰذَا ٱلإِنْسَانُ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُخْلَقَ مَرَّةً أُخْرَىٰ مِنْ مَعَانٍ وَأَلْفَاظٍ ، وَإِلَّا خَرَجَ حَيَوَانًا أَعْجَمَ ، فَٱلشَّاعِرُ يُبْدِعُ أُمَّةً كَامِلَةً ، إِنْ لَمْ يَخْلُقْهَا فَإِنَّهُ يَخْلُقُ أَفْكَارَهَا ٱلْجَمِيلَةَ وَحِكْمَتَهَا ٱلْخَالِدَةَ وَآدَابَهَا ٱلْعَالِيَةَ وَسِيَاسَتَهَا ٱلْمُوَفَّقَةَ ، وَمَا أَحْسَبُ ٱلنَّهْضَةَ ٱلْمِصْرِيَّةَ إِلَّا بِٱلأَغَانِي وَٱلأَنَاشِيدِ ، فَتَأْتِي مِنْ إِنْكِلْتَرَة جُنُودٌ وَتَخْرُجُ لَهَا مِنْ دُوْرِ ٱلْغِنَاءِ وَٱلتَّمْثِيلِ جُنُودٌ

أُخْرَىٰ ؛ لَقَدْ كُنْتُ مُلْهَمًا حِيْنَ قُلْتُ مَرَّةً : « إِنَّ ٱللهَ يُخَاطِبُ ٱلنَّاسَ عَنْ طَرِيْقِ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ »[1] .

نَعَمْ عَنْ طَرِيْقِ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ ، فَكُلُّ شَيْءٍ هُوَ مُوْسِيْقَىٰ فِيْ نَفْسِهِ ، حَتَّىٰ حِيْنَ يَتَطَاحَنُ ٱلنَّاسُ وَيَذْبَحُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَإِنَّ صَلْصَلَةَ ٱلأَسْلِحَةِ وَدَوِيَّ ٱلْقَنَابِلِ وَأَزِيْزَ ٱلرَّصَاصِ وَتَصَايُحَ ٱلْجُنُوْدِ ـ كُلُّ ذَٰلِكَ لَحْنٌ أَعَدَّهُ ٱللهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ « وَمُوْسِيْقَاهُ » . . . لِجَنَازَاتِ ٱلأُمَمِ .

* * *

حَدَّثَنِيْ شَيْطَانِيْ قَالَ : حَدَّثَنِيْ شَيْطَانُ طَاغُوْرَ قَالَ : وَلَمَّا رَأَىٰ طَاغُوْرُ ٱلأُسْتَاذَ ٱلْفَاضِلَ مُدِيْرَ ٱلْجَامِعَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ـ وَهِيَ ٱلَّتِيْ دَعَتْهُ إِلَىٰ إِلْقَاءِ مُحَاضَرَتِهِ ـ قَالَ : نَعَمْ وَحُبًّا وَكَرَامَةً ، إِنَّهُ لَا يَسْتَقِيْمُ فِيْ ٱلْعَقْلِ أَنْ تَدْعُوَ هَـٰذِهِ ٱلْجَامِعَةُ شَاعِرًا رُوْحَانِيًّا مِثْلِيْ إِلَّا وَهِيَ فَلَكٌ نَيِّرٌ يَعُدُّهُ ٱللهُ مِنْ نُجُوْمِهِ ، وَمَا أَحْسَبُ أُسْتَاذَ آدَابِهَا ٱلْعَرَبِيَّةِ إِلَّا تِلْكَ ٱلذَّرَّةَ ٱللُّؤْلُؤِيَّةَ ٱلَّتِيْ كَانَتْ تُجَاوِرُنِيْ فِيْ طِيْنَةِ ٱلْخَلْقِ ٱلأَزَلِيَّةِ . فَلَوْ أَنَّ ٱلذَّرَّاتِ ٱلثَّمَانِ ٱلَّتِيْ كَانَتْ حَوْلَنَا خُلِقَتْ فِيْ عَصْرِنَا هَـٰذَا وَتَوَزَّعَتْ عَلَىٰ ٱلأُمَمِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ لَكُنَّا وَإِيَّاهَا كَوَصَايَا ٱللهِ ٱلْعَشْرِ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلْمَادِّيِّ . . . وَلَمَلأْنَا طَيَّاتِهَا إِيْمَانًا بِٱللهِ . وَلَصَارَ للهِ تَعَالَىٰ فِيْ أَرْضِهِ عَشْرُ آلَاتٍ سَمَاوِيَّةٍ لَا سِلْكِيَّةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْخَلْقِ ، تُبَاهِيْ ٱلْجَامِعَةُ ٱلْمِصْرِيَّةُ بِأَنَّ فِيْهَا إِحْدَاهَا . . . لَقَدْ نَغَّصَ عَلَيَّ هَـٰذِهِ ٱلشَّيْخُوْخَةَ أَنِّيْ لَمْ أَتَعَلَّمِ ٱلْعَرَبِيَّةَ ، وَكَيْفَ لِيْ بِأَنْ أُرَتِّلَ أَنَاشِيْدَ أُسْتَاذِ ٱلآدَابِ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ، وَأَسْتَمْتِعَ بِأَلْحَانِهِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ فِيْ شِعْرِهِ وَأَغَانِيْهِ ، وَأَسْمَعَ ٱلْمَلَائِكَةَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمِئْذَنَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ فِيْ ٱلْجَامِعَةِ تَهْتِفُ بِكَلِمَةِ ٱلإِسْلَامِ ٱلرَّهِيْبَةِ صَارِخَةً بِحَقِيْقَةِ ٱلْوُجُوْدِ فِيْ ٱلْوُجُوْدِ : ٱللهُ أَكْبَرُ ٱللهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ . . .

قَالَ شَيْطَانِيْ : وَكَانَ شَيْطَانُ ٱلدُّكْتُوْرِ طَـٰهَ حُسَيْنٍ أُسْتَاذُ ٱلْجَامِعَةِ حَاضِرًا مَعَنَا ، فَلَمَّا أَلَمَّ بِمَا فِيْ نَفْسِ طَاغُوْرَ قَالَ لِيْ : حَقًّا إِنَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ أَنْ لَا يَعْرِفَ هَـٰذَا ٱلْهِنْدِيُّ ٱللُّغَةَ ٱلْعَرَبِيَّةَ ، لِأَنَّهُ لَوْ عَرَفَ ٱللُّغَةَ ٱلْعَرَبِيَّةَ لَمَا أَرْضَتْهُ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ، وَلَا آدَابُ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، وَلَا أُسْتَاذُ آدَابِ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ! فَقُلْتُ : ٱسْكُتْ وَيْحَكَ ! دَعِ ٱلرَّجُلَ فِيْ أَحْلَامِهِ ، وَلَا تَكُنْ غَيْمَةً

(١) هَـٰذِهِ ٱلْعِبَارَةُ مِنْ كَلَامِ طَاغُوْرَ فِيْ مُحَاضَرَتِهِ مِمَّا تَرْجَمَتْهُ جَرِيْدَةُ ٱلسِّيَاسَةِ .

سَمَائِهِ ٱلْمُشْرِقَةَ ، أَمَا تَرَاهُ يَحْلُمُ ، أَمَا سَمِعْتَهُ يَقُوْلُ : « وَٱلْحَقِيْقَةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ جَمَالٌ لَيْسَ يَعْدِلُهُ جَمَالٌ ؛ أَلَسْتَ تَرَىٰ إِلَىٰ صُوْرَةِ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَجُوْزِ أَبْدَعَهَا فَنَّانٌ مَاهِرٌ ، إِنَّكَ تَنْظُرُ إِلَىٰ ٱلصُّوْرَةِ فَتُقِرُّ بِجَمَالِهَا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْعَجُوْزَ ٱلَّتِيْ فِيْهَا لَيْسَتْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ ٱلْجَمَالِ ، لَـٰكِنَّمَا جَمَالُ ٱلصُّوْرَةِ أَنَّهَا تُمَثِّلُ هَـٰذِهِ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْعَجُوْزَ عَلَىٰ حَقِيْقَتِهَا »[1] فَهَـٰذِهِ كَلِمَاتٌ فِيْ سُبُحَاتِ ٱلنُّوْرِ ، وَهِيَ مِنْ لُغَةِ ٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْكَوَاكِبِ لَا مِنْ لُغَةِ ٱلنَّفْسِ ذَاتِ ٱلْعَوَاطِفِ ، وَإِلَّا فَهَلْ يَصِحُّ فِيْ ٱلْعَقْلِ أَنَّ تَصْوِيْرَ ٱلْعَجُوْزِ ٱلَّتِيْ ٱضْطَرَبَ مِيْزَانُ ٱلْخَلْقِ فِيْهَا حَتَّىٰ لَا يَزِنَ مِنْهَا إِلَّا بَقَايَا ٱلْخِلْقَةِ وَأَنْقَاضَ ٱلْعُمْرِ وَخَرَائِبَ ٱلْمَرْأَةِ . . . يَكُوْنُ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ شَوْهَتِهَا وَتَهَدُّمِهَا وَتَشَنُّنِ جِلْدِهَا وَمَوْتِ ظَاهِرِهَا ـ جَمَالًا فِيْ ٱلصُّوْرَةِ لِأَنَّهُ قَبِيْحٌ فِيْ ٱلأَصْلِ ؟ أَفَلَيْسَ لَوْ كَانَ ذَٰلِكَ صَحِيْحًا لَمُلِئَتِ ٱلْمَتَاحِفُ وَٱلْقُصُوْرُ بِأَلْوَاحِ ٱلْعَجَائِزِ ، وَلَمَا بَقِيَتْ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ عَجُوْزٌ إِلَّا ذَهَبَتْ لِأَحَدِ ٱلْمُصَوِّرِيْنَ تَقُوْلُ لَهُ : ٱخْلُقْنِيْ . . !

* * *

حَدَّثَنِيْ شَيْطَانِيْ قَالَ : حَدَّثَنِيْ شَيْطَانُ طَاغُوْرَ قَالَ : وَكَانَ طَاغُوْرُ رَطْبَ ٱللِّسَانِ فِيْ مُحَاضَرَتِهِ ، كَأَنَّ غَابَةً مِنْ غَابَاتِ ٱلْهِنْدِ أَمَدَّتْهُ بِكُلِّ مَا ٱعْتَصَرَتْهُ ٱلشَّمْسُ فِيْهَا مَاءً وَحَيَاةً وَنُضْرَةً ، فَهُوَ فِيْ كَلَامِهِ وَمَعَانِيْهِ وَرَقٌ وَزَهْرٌ وَنَسِيْمٌ وَظِلٌّ وَحَفِيْفٌ وَتَغْرِيْدٌ يَسْحَرُ ٱلنَّاظِرَ إِلَيْهِ إِذْ لَا يَرَىٰ ٱلنَّاظِرُ شَكْلَهُ ٱلإِنْسَانِيَّ فِيْهِ بَلْ يَرَاهُ شَيْئًا مِنْ خَيَالِهِ كَأَنَّمَا ٱنْفَصَلَ مِنْهُ فَتَمَثَّلَ بَشَرًا سَوِيًّا ، وَلَوْ أَنَّكَ ٱطَّلَعْتَ يَوْمًا فِيْ ٱلْمِرْآةِ فَإِذَا خَيَالُكَ فِيْهَا يُكَلِّمُكَ وَيَسْتَأْنِسُكَ وَيَلْطُفُ لَكَ ، لَمَا أَدْهَشَكَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَطْرَبَكَ وَلَا ٱسْتَخْرَجَ مِنْ عَجَبِكَ وَذُهُوْلِكَ إِلَّا كَٱلَّذِيْ يَعْتَرِيْ نَفْسَكَ حِيْنَ يُكَلِّمُكَ طَاغُوْرُ . وَتَرَاهُ يَسْتَخْلِصُ آرَاءَهُ ٱلْمُتَصَرِّفَةَ بِكَلَامِهِ مِنْ رُوْحِ ٱلنَّوَامِيْسِ ٱلإِلَـٰهِيَّةِ ٱلْمُدَبِّرَةِ لِلْكَوْنِ ؛ فَتُحِسُّهُ يُضِيْفُ إِلَيْكَ زِيَادَةً لَيْسَتْ فِيْكَ ، فَمَهْمَا كَبُرَتْ بِهِ تَصْغُرُ نَفْسُكَ عِنْدَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ هُوَ يَتَّصِلُ بِرُوْحِكَ مَرَّةً فِيْ جَلَالِ حُبِّ ٱلأَبِ لِطِفْلِهِ ، وَمَرَّةً فِيْ رِقَّةِ فَرَحِ ٱلطِّفْلِ بِأَبِيْهِ ؛ فَإِذَا أَنْتَ مِنْهُ بِمَوْقِفٍ عَجِيْبٍ مِنْ مُعْجِزَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ تَرُوْعُكَ بِطِفْلٍ شَيْخٍ قَدِ ٱجْتَمَعَ فِيْهِ

(١) هَـٰذِهِ ٱلْعِبَارَةُ مِمَّا تَرْجَمَتْهُ جَرِيْدَةُ ٱلسِّيَاسَةُ مِنْ مُحَاضَرَةِ طَاغُوْرَ ، وَإِذَا قِيْلَ : إِنَّ ٱلصِّنَاعَةَ فِيْ نَقْلِ ٱلصُّوْرَةِ مُحْكَمَةٌ فَلَيْسَ مَعْنَىٰ ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلصُّوْرَةَ جَمِيْلَةٌ ، وَٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِيْ يَرْمِيْ إِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ مَعْرُوْفٌ ، وَقَدْ كَتَبْنَاهُ فِيْ « ٱلسَّحَابِ ٱلأَحْمَرِ » ، وَلَـٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِيْ ٱلْعِبَارَةِ عَنْهُ أَوْ أَخْطَأَتِ ٱلتَّرْجَمَةُ .

طَرَفًا ٱلْعُمْرِ وَجَاءَ كَأَنَّهُ مَظْهَرُ رُوحِهِ ٱلَّتِيْ لَا عُمْرَ لَهَا .

إِنْسَانٌ كَهْرَبَائِيٌّ يُحَاوِلُ أَنْ يَزِيْدَ فِيْ تَرْكِيْبِ ٱلنَّاسِ عَظْمَةً مِنْ حَدِيْدٍ أَوْ عَصَبًا مِنْ سِلْكٍ ، لِتَصِلَ بِهِمْ جَمِيْعًا تِلْكَ ٱلشُّعْلَةُ ٱلطَّائِفَةُ ، فَإِذَا هُمْ خَلْقٌ آخَرُ كَأَهْلِ ٱلْجَنَّةِ يَسْعَىٰ نُوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ؛ وَلَـٰكِنَّهُ بَصُرَ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ ٱلْمَسْرَحِ بِإِعْلَانِ ٱلسِّيْمَا ٱلَّتِيْ تُجَاوِرُهُ وَمَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلتَّصَاوِيْرِ وَٱلتَّهَاوِيْلِ ، فَقَالَ فِيْ نَفْسِهِ : بَعْدَ قَلِيْلٍ تَجِيْءُ إِلَىٰ هُنَا لَنْدَنُ London وَبَارِيْسُ Paris وَنِيُوْيُورْكُ New York وَغَيْرُهَا مِنْ أَرْضِ ٱللهِ بِنَاسِهَا وَحَيَوَانِهَا وَنَبَاتِهَا ، يَرَاهَا ٱلْجَالِسُوْنَ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ، وَيَتَّصِلُوْنَ بِهَا ٱتِّصَالًا بَعِيْدًا لَا يَجْعَلُهُمْ فِيْهَا ، وَلَـٰكِنَّهُ لَا يُخْلِيْهِمْ مِنْهَا ؛ وَيَجِبُ لِعُمْرَانِ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْضِ أَنْ يَبْقَىٰ أَهْلُ مِصْرَ فِيْ مِصْرَ فَلَا يَدْعُوْهَا جَمِيْعًا لِيَتَّصِلُوْا جَمِيْعًا بِمَا تَشْتَاقُهُ أَنْفُسُهُمْ مِنْ بَارِيْسَ Paris أَوْ غَيْرِ بَارِيْسَ Paris مِنْ حَقَائِقِ ٱلْعَالَمِ ٱلْكُبْرَىٰ ، وَلَا يَحْسُنُ هَـٰذَا ٱلِاتِّصَالُ إِلَّا إِذَا خَصَّ وَلَمْ يَعُمَّ ، فَيَقُوْمُ بِهِ ٱلْوَاحِدُ وَٱلِاثْنَانِ وَٱلْجَمَاعَةُ وَتَبْقَىٰ ٱلْأُمَّةُ بِمَا هِيَ وَكَمَا هِيَ ، لِأَنَّهَا بِذَلِكَ وَحْدَهُ أُمَّةٌ ، كَمَا أَنَّ ٱلنَّاسَ بِطَبَائِعِهِمْ نَاسٌ ، وَٱلْكَوْنَ بِٱخْتِلَافِهِ كَوْنٌ ، فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ٱلْحُبُّ ٱلْعَامُّ وَٱلسَّلَامُ ٱلْعَامُّ وَٱلِاتِّصَالُ ٱلْعَامُّ ، بِٱلْحَقِيْقَةِ ٱلرُّوْحِيَّةِ ٱلْعُلْيَا ؛ ثُمَّ تَبَسَّمَ وَقَالَ : مَا أَشْبَهَنِيْ بِهَـٰذِهِ ٱلسِّيْمَا ، غَيْرَ أَنَّ شَرِيْطِيْ لَا يَرَىٰ فِيْهِ ٱلنَّاسُ رِوَايَةً مِنْ لَنْدَنَ London وَبَارِيْسَ Paris ، بَلْ رِوَايَةً وَقَعَتْ حَوَادِثُهَا فِيْ جَنَّةِ ٱلْخُلْدِ . . .

* * *

فَلْسَفَةُ ٱلْقِصَّةِ

وَلِمَاذَا لَا أَكْتُبُ فِيْهَا(*) . . . ؟(١)

لَمْ أَكْتُبْ فِيْ ٱلْقِصَّةِ إِلَّا قَلِيْلًا ، إِذَا أَنْتَ أَرَدْتَ ٱلطَّرِيْقَةَ ٱلْكِتَابِيَّةَ ٱلْمُصْطَلَحَ عَلَىٰ تَسْمِيَتِهَا بِهَـٰذَا ٱلِاسْمِ ، وَلَـٰكِنِّيْ مَعَ ذَلِكَ لَا أَرَانِيْ وَضَعْتُ كُلَّ كُتُبِيْ وَمَقَالَاتِيْ إِلَّا فِيْ قِصَّةٍ بِعَيْنِهَا ، هِيَ قِصَّةُ هَـٰذَا ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِيْ فِيْ رَأْسِيْ ، وَهَـٰذَا ٱلْقَلْبِ ٱلَّذِيْ بَيْنَ جَنْبَيَّ . . . . . .

[شَاعَ أَدَبُ ٱلْقِصَّةِ فِيْ أُوْرُبَّةَ ، وَطَغَىٰ عِنْدَهُمْ عَلَىٰ ٱلْمَقَالَةِ وَٱلْكِتَابِ وَدِيْوَانِ ٱلشِّعْرِ جَمِيْعًا ، فَقَامَ عِنْدَنَا ٱلْمُتَابِعُوْنَ فِيْ ٱلرَّأْيِ ، وَٱلْمُقَلِّدُوْنَ فِيْ ٱلْهَوَىٰ ، وَٱلضُّعَفَاءُ بِطَبِيْعَةِ ٱلتَّقْلِيْدِ وَٱلْمُتَابَعَةِ ـ قَامُوْا يَدْعُوْنَ إِلَىٰ هَذَا ٱلْفَنِّ مِنَ ٱلْكِتَابَةِ ، وَلَا يَرَوْنَ مَنْ لَا يَكْتُبُ فِيْهِ إِلَّا مُدْبِرًا عَنْ عَصْرِهِ وَأَدَبِ عَصْرِهِ . وَلَا جَرَمَ إِذَا كَانُوْا هُمْ أَنْفُسُهُمْ مُدْبِرِيْنَ عَنِ ٱلْحَقِيْقَةِ وَمَعْنَىٰ ٱلْحَقِيْقَةِ ، وَأَنْتَ مَتَىٰ كَانَ وَجْهُكَ إِلَىٰ ٱلْبَاطِلِ وَظَهْرُكَ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ ، فَمَهْمَا تَقَدَّمَ فِيْ رَأْيِ نَفْسِكَ فَإِنَّمَا تَتَأَخَّرُ فِيْ رَأْيِ ٱلْحَقِّ ، وَكُلَّمَا قَطَعْتَ إِلَىٰ غَايَتِكَ رَأَيْتَ ٱلَّذِيْ وَرَاءَكَ مُتَخَلِّفًا

(*) « الرسالة » العدد : ٤٠ ، ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٥٢ هـ = ٩ أبريل/ نيسان سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٥٦٩ ـ ٥٧٠ .

هَذِهِ ٱلْمَقَالَةُ هِيَ مَا ٱسْتَخْلَصَهُ ٱلسَّيِّدُ أَسْعَد حَنَّا مِنْ مُصْطَفَى صَادِق ٱلرَّافِعِيِّ وَنَشَرَهُ فِي « ٱلرِّسَالَةِ » قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَ ٱلرَّافِعِيُّ مَعَ « ٱلرِّسَالَةِ » ، وَقَدَّمَ ٱلسَّيِّدُ أَسْعَد حَنَّا لَهَا بِقَوْلِهِ : سَأَلْتُ ٱلْأُسْتَاذَ مُصْطَفَى ٱلرَّافِعِيَّ ، لِمَاذَا لَا يَكْتُبُ فِي ٱلْقِصَّةِ ، وَلِمَاذَا يَخْلُو أَدَبُهُ مِنْهَا ؟ فَأَجَابَ :

وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ : هَذَا هُوَ رَأْيُ ٱلْأُسْتَاذِ ٱلرَّافِعِيِّ نَنْشُرُهُ عَلَىٰ أَصْلِهِ ، لِيَنْظُرَ فِيهِ ٱلْكَثِيرُ مِنْ شَبَابِنَا ٱلنَّاشِئِينَ ، ٱلَّذِينَ أَقْبَلُوا عَلَىٰ كِتَابَةِ ٱلْقِصَّةِ ، لَعَلَّ فِيهِ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيُفِيدُهُمْ ، وَيُمَهِّدُ لَهُمْ سَبِيلَ ٱلْكَمَالِ فِي إِنْتَاجِهِمْ . بَسَّام .

(١) { وُجِّهَ إِلَيْنَا سُؤَالٌ : لِمَاذَا لَا تَكْتُبُ فِي ٱلْقِصَّةِ ؟ وَكَانَ هَـٰذَا قَبْلَ أَنْ نَكْتُبَ مَقَالَاتِنَا فِي مَجَلَّةِ ٱلرِّسَالَةِ ، فَرَدَدْنَا بِهَـٰذَا ٱلرَّدِّ } .

{ قُلْتُ : وَٱنْظُرْ « عَمَلَهُ فِي ٱلرِّسَالَةِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

مُتَرَاجِعًا بِمِقْدَارِ مَا أَبْعَدَتْ كَأَنَّهُ فِي أَمْسِ ، وَكَأَنَّكَ فِي غَدٍ ، وَلا يَوْمَ بَيْنَكُمَا يَجْمَعُ مِنْكُمَا مَا تَفَرَّقَ]] .

أَنَا لَا أَعْبَأُ بِٱلْمَظَاهِرِ وَٱلْأَعْرَاضِ ٱلَّتِي يَأْتِي بِهَا يَوْمٌ وَيَنْسَخُهَا يَوْمٌ آخَرُ ، وَٱلْقِبْلَةُ ٱلَّتِي أَتَّجِهُ إِلَيْهَا فِي ٱلْأَدَبِ إِنَّمَا هِيَ ٱلنَّفْسُ ٱلشَّرْقِيَّةُ فِي دِينِهَا وَفَضَائِلِهَا ، فَلَا أَكْتُبُ إِلَّا مَا يَبْعَثُهَا حَيَّةً وَيَزِيدُ فِي حَيَاتِهَا وَسُمُوِّ غَايَتِهَا ، وَيُمَكِّنُ لِفَضَائِلِهَا وَخَصَائِصِهَا فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَلِذَا لَا أَمَسُّ مِنَ ٱلْآدَابِ كُلِّهَا إِلَّا نَوَاحِيَهَا ٱلْعُلْيَا ؛ ثُمَّ إِنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ دَائِمًا أَنِّي رَسُولٌ لُغَوِيٌّ بُعِثْتُ لِلدِّفَاعِ عَنِ ٱلْقُرْآنِ وَلُغَتِهِ وَبَيَانِهِ ، فَأَنَا أَبَدًا فِي مَوْقِفِ ٱلْجَيْشِ : (تَحْتَ ٱلسِّلَاحِ) ، لَهُ مَا يُعَانِيهِ وَمَا يَتَكَلَّفُهُ وَمَا يُحَاوِلُهُ وَيَفِي بِهِ ، وَمَا يَتَحَامَاهُ وَمَا يَتَحَفَّظُ فِيهِ ، وَتَارِيخُ نَصْرِهِ وَهَزِيمَتِهِ فِي أَعْمَالِهِ دُونَ سِوَاهَا ؛ وَكَيْفَ ٱعْتَرَضْتَ ٱلْجَيْشَ رَأَيْتَهُ فَنَّ نَفْسِهِ ، لَا فَنَّكَ أَنْتَ وَلَا فَنَّ سِوَاكَ ؛ إِذْ هُوَ لِطَرِيقَتِهِ وَغَايَتِهِ وَمَا يَتَأَدَّى بِهِ لِلْحَيَاةِ وَٱلتَّارِيخِ .

[[وَقَدْ عَابَنِي مَرَّةً أَحَدُ ٱلْكُتَّابِ بِأَنِّي (لَا أَكْتُبُ فِي ٱلدِّرَامَا [ٱلْفَنِّ ٱلْمَسْرَحِيِّ وَٱلتَّمْثِيلِيِّ]) ؛ فَلَوْ أَنَّ هَذَا ٱلْكَاتِبَ وَقَفَ عَلَى شَاطِئِ ٱلْمُحِيطِ وَجَعَلَ يَتَهَكَّمُ بِٱلْأُسْطُولِ ٱلْإِنْكِلِيزِيِّ فَيُزْرِي عَلَيْهِ أَنَّهُ لَيْسَ شُيُوعِيًّا وَلَا بَلْشَفِيًّا ، فَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ ٱلْأُسْطُولُ إِذَا هُوَ أَجَابَهُ ؟ إِلَّا أَنْ يَقُولَ شَيْئًا كَهَذَا : تَبَارَكَ مَنْ صَنَعَ ٱلْإِنْسَانَ مِدْفَعَ لَحْمٍ لِإِطْلَاقِ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَارِغِ .

أَنَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا أَزَالُ إِلَى ٱلْآنِ مَعَ ٱلْأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ فِي فَنِّهِ وَبَيَانِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَنَا مَعَ ٱلْحِكَايَةِ وَلُغَتِهَا وَعَوَاطِفِهَا ، فَأَكْبَرُ عَمَلِي إِضَافَةُ ٱلصُّوَرِ ٱلْفِكْرِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ إِلَى أَدَبِنَا وَبَيَانِنَا مُتَحَاشِيًا جُهْدَ ٱلطَّاقَةِ أَنْ أَنْقُلَ إِلَى كِتَابَتِي دَوَابَّ ٱلْأَرْضِ أَوْ دَوَابَّ ٱلنَّاسِ أَوْ دَوَابَّ ٱلْحَوَادِثِ ، فَإِنَّ ٱلْكُتُبَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ طَبَائِعِ كُتَّابِهَا تَعْمَلُ فِيمَنْ يَقْرَؤُهَا عَمَلَ ٱلطِّبَاعِ ٱلْحَيَّةِ فِيمَنْ يُخَالِطُهَا . وَٱلرِّوَايَةُ إِذَا وَضَعَهَا كَاتِبٌ فَاجِرٌ ، فَهِيَ عِنْدِي لَيْسَتْ رِوَايَةً ، بَلْ هِيَ عَمَلٌ يَجِبُ أَنْ يُسَمَّى فِي قَانُونِ ٱلْعُقُوبَاتِ (فُجُورًا بِٱلْكِتَابَةِ) .

إِنَّ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ مِنَ ٱلْقِصَصِ ، وَبِخَاصَّةٍ هَذِهِ ٱلَّتِي غَمَرَتِ ٱلْكِتَابَةَ عِنْدَنَا ـ إِنَّمَا هِيَ صِيَاغَةٌ لَهْوٍ ، وَمَسْلَاةُ فَرَاغٍ ، وَهَذَا قَدْ يَكُونُ لَهُ وَجْهٌ فِي عِلَاجِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ، وَفِي تَخْفِيفِ حُطْمَةِ ٱلِاجْتِمَاعِ فِي أُورُوبَّةَ وَأَمْرِيكَةَ ، وَلَكِنْ مَا مَوْضِعُهُ عِنْدَنَا فِي ٱلشَّرْقِ ،

وَٱلشَّرْقُ إِنَّمَا نَعْمَلُ فِي نَهْضَتِهِ لِمُعَالَجَةِ ٱللَّهْوِ ٱلَّذِي جَعَلَ نِصْفَ وُجُودِهِ ٱلسِّيَاسِيِّ عَدَمًا ، وَلِمَلْءِ ٱلْفَرَاغِ ٱلَّذِي جَعَلَ نِصْفَ حَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ مَوْتًا ؟ هَذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلْقِصَّةِ هُوَ لِرِجَالِنَا وَنِسَائِنَا إِذَا قَرَؤُوهُ وَتَلَهَّوْا بِهِ أَشْبَهُ بِإِدْخَالِ أُولَئِكَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ ـ إِدْخَالِهِمْ وَإِدْخَالِهِنَّ عَلَى ٱلْكِبَرِ ـ فِي مَدَارِسِ رِيَاضِ ٱلْأَطْفَالِ .

ٱلْأَطْفَالُ يَسْتَلِذُّونَ ٱلْحِكَايَةَ بِٱلْفِطْرَةِ لِأَنَّهَا تَجِيئُهُمْ بِٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي يَعْسُرُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَيْهَا أَوْ يُغَامِرُوا فِيهَا ، وَتُهَيِّئُ لَهُمْ أَنْ يُشْعِرُوا خَيَالَهُمْ قُوَّةَ ٱلْخَلْقِ ، فَتَكُونُ لَذَّتُهُمْ عَلَى مِقْدَارِ مِنْ بُعْدِ هَذِهِ ٱلدُّنْيَا عَنْهُمْ وَعَلَى مِقْدَارِ مِثْلِهِ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلْعَجْزِ فِي خَيَالِهِمْ ، وَهَذَا ٱلضَّعْفُ فِي ٱلنَّاحِيَتَيْنِ هُوَ بِعَيْنِهِ ٱلَّذِي يَجْعَلُ لِأَكْثَرِ ٱلْقِصَصِ شَأْنًا عِنْدَ سُخَفَاءِ ٱلنَّاسِ وَفُرَّاغِهِمْ ، وَأَهْلِ ٱلْحُمْقِ فِيهِمْ ، يُسَعِّرُهُمْ شَهَوَاتٍ وَخَيَالَاتٍ وَأَوْهَامًا مِنَ ٱلْبَاطِلِ . فَذَلِكَ إِذًا لَيْسَ أَدَبًا يُكْتَبُ وَيُقْرَأُ ، بَلْ هُوَ بَلَاءٌ ٱجْتِمَاعِيٌّ يُطْبَعُ وَيُوَزَّعُ فِي ٱلنَّاسِ . . .]] .

أَلَا تَرَى أَنَّ تِلْكَ ٱلرِّوَايَاتِ تُوضَعُ قِصَصًا ، ثُمَّ تُقْرَأُ فَتَبْقَى قِصَصًا ؟ وَإِنْ هِيَ صَنَعَتْ شَيْئًا فِي قُرَّائِهَا لَمْ تَزِدْ عَلَى مَا تَفْعَلُ ٱلْمُخَدِّرَاتُ : تَكُونُ مُسَكِّنَاتٍ عَصَبِيَّةً إِلَى حِينٍ ، ثُمَّ تَنْقَلِبُ هِيَ بِنَفْسِهَا بَعْدَ قَلِيلٍ إِلَى مُهَيِّجَاتٍ عَصَبِيَّةٍ ؟

وَأَنَا لَا أُنْكِرُ أَنَّ فِي ٱلْقِصَّةِ أَدَبًا عَالِيًا ، وَلَكِنَّ هَذَا ٱلْأَدَبَ ٱلْعَالِيَ فِي رَأْيِي لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَخْذِ ٱلْحَوَادِثِ وَتَرْبِيَتِهَا فِي ٱلرِّوَايَةِ كَمَا يُرَبَّى ٱلْأَطْفَالُ عَلَى أُسْلُوبٍ سَوَاءٍ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْفَضِيلَةِ ؛ فَٱلْقِصَّةُ مِنْ هَذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ مَدْرَسَةٌ لَهَا قَانُونٌ مَسْنُونٌ ، وَطَرِيقَةٌ مُمَحَّصَةٌ ، وَغَايَةٌ مُعَيَّنَةٌ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَاوَلَهَا غَيْرُ ٱلْأَفْذَاذِ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلْفِكْرِ ٱلَّذِينَ تُنَصِّبُهُمْ مَوَاهِبُهُمْ لِإِلْقَاءِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْحَاسِمَةِ فِي ٱلْمُشْكِلَةِ ٱلَّتِي تُثِيرُ ٱلْحَيَاةَ أَوْ تُثِيرُهَا ٱلْحَيَاةُ ، وَٱلْأَعْلَامِ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلْبَيَانِ ٱلَّذِينَ رُزِقُوا مِنْ أَدَبِهِمْ قُوَّةَ ٱلتَّرْجَمَةِ عَمَّا بَيْنَ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْحَيَاةِ ، وَمَا بَيْنَ ٱلْحَيَاةِ وَمَوَادِّهَا ٱلنَّفْسِيَّةِ فِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، تَتَخَيَّلُ ٱلْحَيَاةُ فَتُبْدِعُ أَجْمَلَ شِعْرِهَا ، وَتَتَأَمَّلُ فَتُخْرِجُ أَسْمَى حِكْمَتِهَا ، وَتُشَرِّعُ فَتَضَعُ أَصَحَّ قَوَانِينِهَا .

وَأَمَّا مَنْ عَدَاهُمْ مِمَّنْ يَحْتَرِفُونَ كِتَابَةَ ٱلْقِصَصِ ؛ فَهُمْ فِي ٱلْأَدَبِ رَعَاعٌ وَهَمَجٌ ، كَانَ مِنْ أَثَرِ قِصَصِهِمْ مَا يَتَخَبَّطُ فِيهِ ٱلْعَالَمُ ٱلْيَوْمَ مِنْ فَوْضَى ٱلْغَرَائِزِ ، هَذِهِ ٱلْفَوْضَى ٱلْمَمْقُوتَةُ ٱلَّتِي لَوْ

حَقَّقْتَهَا فِيْ ٱلنُّفُوسِ لَمَا رَأَيْتَهَا إِلَّا عَامِّيَّةً رُوْحَانِيَّةً مُنْحَطَّةً تَتَسَكَّعُ فِيْهَا ٱلنَّفْسُ مُشَرَّدَةً فِيْ طُرُقِ رَذَائِلِهَا .

إِذَا قَرَأْتَ ٱلرِّوَايَةَ ٱلزَّائِفَةَ أَحْسَسْتَ فِيْ نَفْسِكَ بِأَشْيَاءَ بَدَأَتْ تَسْفُلُ ، وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلرِّوَايَةَ ٱلصَّحِيْحَةَ أَدْرَكْتَ مِنْ نَفْسِكَ أَشْيَاءَ بَدَأَتْ تَعْلُوْ ؛ تَنْتَهِيْ ٱلأُوْلَىٰ فِيْكَ بِأَثَرِهَا ٱلسَّيِّئِ ، وَتَبْدَأُ ٱلثَّانِيَةُ مِنْكَ بِأَثَرِهَا ٱلطَّيِّبِ ؛ وَهَـٰذَا عِنْدِيْ هُوَ فَرْقُ مَا بَيْنَ فَنِّ ٱلْقِصَّةِ ، وَفَنِّ ٱلتَّلْفِيْقِ ٱلْقِصَصِيِّ !!

* * *

شِعْرُ صَبْرِيْ (*)

فِيْ ٱلْحَادِيْ وَٱلْعِشْرِيْنَ مِنْ شَهْرِ مَارِسَ/ آذَار مِنْ سَنَتِنَا(١) هَـٰذِهِ نَزَعَ ٱلشِّعْرُ ٱلْعَرَبِيُّ عَنْ رَأْسِهِ عِمَامَةَ ٱلْمَشْيَخَةِ وَنَشَرَهَا لِلْمَوْتِ ، فَكَانَتِ ٱلْكَفَنَ ٱلَّذِيْ طُوِيَ فِيْهِ بَقِيَّةُ شُيُوْخِ ٱلأَدَبِ : ٱلْمَرْحُوْمُ إِسْمَاعِيْلُ بَاشَا صَبْرِيْ .

كَانَ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ مِنَ ٱلرِّجَالِ ٱلَّذِيْنَ نَشَؤُوْا فِيْ تَارِيْخٍ لَا يُنْشِئُ رَجُلًا ؛ وَجَاؤُوْا فِيْ غَيْرِ زَمَنِهِمْ لِيَجِيْءَ بِهِمْ زَمَنُهُمْ بَعْدُ ، وَهَـٰؤُلَاءِ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيْهِمْ قُوَّةٌ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ ، فَهُمْ أَقْدَارٌ وَأَحْدَاثٌ تُوْلَدُ وَتَنْشَأُ وَتَنْمُوْ فِيْ أُسْلُوْبٍ إِنْسَانِيٍّ لِيَتِمَّ بِهَا شَيْءٌ كَانَ نَقْصًا ، وَيُحَسِّنُ شَيْئًا كَانَ هُجْنَةً ، وَيُوْجِدَ أَمْرًا كَانَ عَدَمًا ، ثُمَّ لِيَكُوْنَ لِلزَّمَنِ مِنْهَا حُدُوْدٌ يَبْدَأُ عِنْدَ ٱلْوَاحِدِ مِنْهَا فَيَتَغَيَّرُ فِيْهِ وَيَتَحَوَّلُ بِهِ وَيَخْرُجُ مَعَهُ فِيْ بَعْضِ مَعَانِيْهِ زَمَنًا جَدِيْدًا فِيْ رَجُلٍ جَدِيْدٍ .

كَذَٰلِكَ كَانَ صَبْرِيْ فِيْ مَنْحًى مِنْ مَنَاحِيْ ٱلشِّعْرِ ، وَكَانَ ٱلْبَارُوْدِيُّ ـ رَحِمَهُمَا ٱللهُ ـ فِيْ مَنْحًى آخَرَ ؛ فَهُمَا طَرَفَا ٱلْمِحْوَرِ ٱلَّذِيْ ٱسْتَدَارَ عَلَيْهِ هَـٰذَا ٱلْفَلَكُ لِيَبْدَأَ بَعْدَ تَارِيْخِهِ ٱلْمَيْتِ تَارِيْخًا حَيًّا ، وَلِيَخْرُجَ مِنَ ٱلْجَوِّ ٱلْقَاتِمِ فِيْ أَعْرَاضِ ٱلأَرْضِ إِلَىٰ ٱلْفَضَاءِ ٱلْمُشْرِقِ بِمَعَانِيْ ٱلسَّمَاءِ ، ثُمَّ لِيَنْفُضَ عَنْهُ فِيْ مَهَبِّ ٱلرِّيَاحِ ٱلْعُلْوِيَّةِ مَا لَصِقَ بِهِ مِنْ طِبَاعِ أَهْلِهِ وَأَخْلَاقِهِمْ ، وَيُغْلِقَ بِهَا مَا فَتَحَ ٱلزَّمَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِ هَـٰذِهِ ٱلْحِرْفَةِ ، فَكَانَ ٱلشِّعْرُ فِيْ حَاجَةٍ إِلَىٰ رَجُلٍ كَٱلْمَلِكِ ، فَأَصَابَ رَجُلَيْنِ ، وَعَلِمَ ٱللهُ مَا رَأَيْتُ فِيْ كُلِّ مَنْ رَأَيْتُهُمْ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ نَفْسًا تُعَدُّ مَعَهُمَا ، وَلَا خُلُقًا يَجْرِيْ فِيْ أَخْلَاقِهِمَا ، وَلَا ظَرْفًا وَلَا رِقَّةً وَلَا أَدَبًا وَلَا شَيْئًا يَصْلُحُ أَنْ يَكُوْنَ شَرْحًا مِنْهُمَا ، أَوْ تَوْكِيْدًا لِشَيْءٍ فِيْهِمَا ، أَوْ تَقْوِيَةً لِمَعْنًى مِنْ مَعَانِيْهِمَا ، كَأَنَّمَا وُجِدَا لِيَكُوْنَ أَحَدُهُمَا مَبْدَأً وَٱلآخَرُ نِهَايَةً ، وَلِيَنْفَرِدَا ٱنْفِرَادَ ٱلطَّرَفَيْنِ مِنَ ٱلْمَسَافَةِ بَالِغَةً مَا بَلَغَتْ .

كَانَ ٱلشِّعْرُ لِعَهْدِهِمَا بَقِيَّةً رَثَّةً فِيْ مَعْرِضٍ خَلَقٍ مِمَّا كَانَ يُسَمِّيْهِ أُدَبَاءُ ٱلأَنْدَلُسِ بِٱلأَغْرَاضِ ٱلْمَشْرِقِيَّةِ وَطَرِيْقَةِ ٱلْمَشَارِقَةِ ، وَهُمْ يَعْنُوْنَ بِذَٰلِكَ ٱلصِّنَاعَةَ وَٱلتَّكَلُّفَ لِلْبَدِيْعِ وَٱلانْصِرَافَ إِلَىٰ

(*) « ٱلْمُقْتَطَفُ » : مَايُوْ/ أَيَّار سَنَةَ ١٩٢٣ .

(١) هوَ إِسْمَاعِيْلُ بَاشَا صَبْرِيْ ، تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللهُ فِيْ شَهْرِ مَارِسَ/ آذار سَنَةَ ١٩٢٣م .

ٱللَّفْظِ وَٱسْتِكْرَاهِهِ عَلَىٰ ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي أَرَادُوا ، إِلَىٰ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْ ذَلِكَ وَيَخْرُجُ أَوْ يَدْخُلُ فِي بَابِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ هَـٰذَا وَمِثْلُهُ مِمَّا يُسَاغُ وَيُحْتَمَلُ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلثَّامِنِ وَأَكْثَرِ ٱلتَّاسِعِ لِلْهِجْرَةِ ، ثُمَّ فِي أَيَّامٍ بَعْدَ ذَلِكَ ، غَيْرَ أَنَّهُ بَلِيَ وَتَهَتَّكَ فِي مِصْرَ خَاصَّةً وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَىٰ مُنْتَصَفِ ٱلْقَرْنِ ٱلثَّالِثِ عَشَرَ إِلَّا رُقَعٌ وَخُيُوطٌ فِي قَصَائِدَ وَمَقَاطِيعَ .

ثُمَّ كَانَ أَكْثَرُ ٱلشُّعَرَاءِ يَوْمَئِذٍ إِنَّمَا يَحْتَرِفُونَ فَنَّ ٱلأَدَبِ صِنَاعَةً كَسَائِرِ ٱلْمِهَنِ وَٱلصِّنَاعَاتِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْعَيْشِ لِهَـٰؤُلَاءِ ٱلْمُسْتَأْكِلِينَ وَٱلْمُتَكَسِّبِينَ مِنَ ٱلسُّوقَةِ وَٱلْمُرْتَزِقَةِ .

* * *

ظَهَرَ ٱلْبَارُودِيُّ وَنَبَغَ فِي شِعْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ صَبْرِي ٱلشِّعْرَ بِسَنَوَاتٍ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلأَدَبَ ٱلْفَارِسِيَّ وَٱلْجَزَالَةَ ٱلْعَرَبِيَّةَ هُمَا ٱللَّذَانِ تَحَوَّلَا فِيهِ ، ثُمَّ نَبَغَ صَبْرِي بَعْدَ ذَلِكَ بِزَمَنٍ ، فَتَحَوَّلَ فِيهِ ٱلأَدَبُ ٱلإِفْرَنْجِيُّ وَٱلرِّقَّةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ، وَهَـٰذَا مَوْضِعُ ٱلتَّفَاوُتِ فِي شِعْرِ ٱلرَّجُلَيْنِ ٱللَّذَيْنِ ٱقْتَنَصَا ٱلْخَيَالَ ٱلشِّعْرِيَّ مِنْ طَرَفَيِ ٱلأَرْضِ ، وَكِلَاهُمَا يَذْهَبُ مَذْهَبًا وَيَرْجِعُ إِلَىٰ طَبْعٍ وَيُرَوِّضُ شِعْرَهُ عَلَىٰ وَجْهٍ ؛ فَٱلْبَارُودِيُّ يَسْتَجْزِلُ وَيَجْمَعُ إِلَىٰ سَبْكِهِ ٱلْجَيِّدِ قُوَّةَ ٱلْفَخَامَةِ وَشِدَّةَ ٱلْجَزَالَةِ ؛ ثُمَّ يَعْتَرِضُ ٱلْخَيَالُ مِنْ حَيْثُ يَهْبِطُ عَلَىٰ ٱلنَّفْسِ فِي مَمَرِّ ٱلْوَحْيِ ؛ وَصَبْرِي يَسْتَرِقُّ وَيُضِيفُ إِلَىٰ صَفَاءِ لَفْظِهِ جَمَالَ ٱلتَّخَيُّرِ وَحَلَاوَةَ ٱلرِّقَّةِ ، وَيُعَارِضُ ٱلْفِكْرَ مِنْ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِٱلْقَلْبِ ، وَٱلْبَارُودِيُّ لَا يَرَىٰ إِلَّا مِيزَانَ ٱللِّسَانِ يُقِيمُ عَلَيْهِ حُرُوفَهُ وَكَلِمَاتِهِ ، وَصَبْرِي لَا يَرَىٰ إِلَّا مِيزَانَ ٱلذَّوْقِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ وَرَاءِ ٱللِّسَانِ ؛ وَقَدْ يُسِّرَتْ لِكِلَيْهِمَا أَسْبَابُ نَاحِيَتِهِ فِي أَحْسَنِ مَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ ؛ فَجَاءَ ٱلْبَارُودِيُّ حَافِظًا كَأَنَّهُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ دَوَاوِينِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ ، وَجَاءَ صَبْرِي مُفَكِّرًا كَأَنَّهُ مَجْمُوعَةُ أَذْوَاقٍ وَأَفْكَارٍ ، وَهُمَا يَشْتَرِكَانِ مَعًا فِي ٱلتَّلَوُّمِ عَلَىٰ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ وَٱلتَّأَنِّي فِي عَمَلِهِ وَتَقْلِيبِهِ عَلَىٰ وُجُوهٍ مِنَ ٱلتَّصَفُّحِ ، وَتَمْحِيصِهِ بِٱلنَّقْدِ وَٱلابْتِلَاءِ لَفْظاً وَجُمْلَةً جُمْلَةً ، ثُمَّ مُطَاوَلَةُ مَعَانِيهِ وَمُصَابَرَتُهَا كَأَنَّمَا يَنْتَزِعَانِ مَحَاسِنَهَا مِنْ أَيْدِي ٱلْمَلَائِكَةِ ؛ وَأَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ فِيهِمَا ، وَقَالَ لِي صَبْرِي بَاشَا مَرَّةً وَقَدْ جَارَيْتُهُ فِي بَعْضِ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ : إِنَّهُ يَعْلَمُ هَـٰذَا مِنَ ٱلْبَارُودِيِّ وَمِنْ نَفْسِهِ . قُلْتُ : أَفَيَبْلُغُ بِهِ ذَلِكَ أَنْ يَمْحُوَ بَيَاضَ ٱلْيَوْمِ فِي سَوَادِ بَيْتٍ وَاحِدٍ ؟ قَالَ : وَفِي سَوَادِ شَطْرَةٍ أَحْيَانًا ! وَلَيْسَ يُنْقِصُهُمَا هَـٰذَا ٱلأَمْرُ شَيْئًا ، فَإِنَّ خَبَرَ زُهَيْرٍ فِي حَوْلِيَّاتِهِ مَعْرُوفٌ وَقَدْ عَمِلَ سَبْعَ قَصَائِدَ فِي سَبْعِ سِنِينَ : يَحُوكُ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْهَا فِي سَنَةٍ .

وَنَقَلُوا عَنْ مَرْوَانَ ٱبْنِ أَبِي حَفْصَةَ أَنَّهُ قَالَ : كُنْتُ أَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، وَأُحْكِمُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، وَأَعْرِضُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ أَخْرُجُ بِهَا إِلَىٰ ٱلنَّاسِ ؛ فَقِيلَ : هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَوْلِيُّ ٱلْمُنَقَّحُ .

كَانَ مَرْجِعُ ٱلْبَارُودِيِّ إِلَىٰ ٱلْحِفْظِ ، فَنَبَغَ فِي وَثَبَاتٍ قَلِيلَةٍ ؛ أَمَّا صَبْرِي فَٱحْتَاجَ إِلَىٰ زَمَنٍ حَتَّىٰ ٱسْتَحْكَمَتْ نَاحِيَتُهُ وَآتَتْهُ أَسْبَابُهُ عَلَىٰ ٱلإِجَادَةِ ، لِأَنَّ مَرْجِعَهُ إِلَىٰ ٱلذَّوْقِ ، وَهَـٰذَا يُكْتَسَبُ بِٱلْمِرَانِ وَيَنْضُجُ عِنْدَ نُضُوجِ ٱلْفِكْرِ ، وَلَا يَأْتِي بِٱلْمَاءِ وَٱلرَّوْنَقِ حَتَّىٰ تَأْتِيَ لَهُ أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ ؛ وَأَنْتَ تَعْرِفُ ذَلِكَ فِي ٱلرَّجُلَيْنِ مِنْ أَوَائِلِ شِعْرِهِمَا ؛ فَقَدْ رَثَىٰ ٱلْبَارُودِيُّ أَبَاهُ فِي سِنِّ ٱلْعِشْرِينَ بِأَبْيَاتِهِ ٱلدَّالِيَةِ ٱلشَّهِيرَةِ ٱلَّتِي مَطْلَعُهَا [من البسيط] :

لَا فَارِسَ ٱلْيَوْمَ يَحْمِي ٱلسَّرْحَ بِٱلْوَادِي طَاحَ ٱلرَّدَىٰ بِشِهَابِ ٱلْحَيِّ وَٱلنَّادِي

وَهِيَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ بَيْتًا ، وَجَيِّدُهَا جَيِّدٌ . وَكَأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ لِسَانِ أَعْرَابِيٍّ ، وَإِنَّمَا جَاءَتْهُ مِنْ صَنْعَةِ ٱلْحِفْظِ ، كَٱلَّذِي ٱتَّفَقَ لِلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ فِي أَبْيَاتِهِ ٱلْخَائِيَّةِ ٱلَّتِي كَتَبَ بِهَا إِلَىٰ أَبِيهِ وَعُمْرُهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَكَانَ أَبُوهُ مُعْتَقَلًا بِقَلْعَةِ شِيرَازَ وَمَطْلَعُهَا [من الخفيف] :

أَبْلِغَا عَنِّيَ ٱلْحُسَيْنَ أَلُوكًا إِنَّ ذَا ٱلطَّوْدَ بَعْدَ بُعْدِكَ سَاخَا
وَٱلشِّهَابَ ٱلَّذِي ٱصْطَلَيْتَ لَظَاهُ عَكَسَتْ ضَوْءَهُ ٱلْخُطُوبُ فَبَاخَا

هَـٰذَا ، عَلَىٰ أَنَّ ٱلْبِدَايَةَ كَمَا يُقَالُ مَزَلَّةٌ ، وَقَدْ وُفِّقْنَا إِلَىٰ ٱلْوُقُوفِ عَلَىٰ أَوَّلِ مَا نُشِرَ مِنْ شِعْرِ صَبْرِي بَاشَا ، وَذَلِكَ قَصِيدَتَانِ نُشِرَتَا فِي مَجَلَّةِ « رَوْضَةِ ٱلْمَدَارِسِ » فِي مَدْحِ إِسْمَاعِيل بَاشَا ، فَنُشِرَتِ ٱلأُولَىٰ فِي ٱلْعَدَدِ ٱلصَّادِرِ فِي غَايَةِ شَوَّالٍ سَنَةَ ١٢٨٧ لِلْهِجْرَةِ = ١٨٧٠ لِلْمِيلَادِ ؛ وَنُشِرَتِ ٱلثَّانِيَةُ فِي عَدَدِ شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلآخِرِ مِنْ سَنَةِ ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م ، وَبَيْنَهُمَا خَمْسَةُ أَشْهُرٍ ، كَانَتْ وَثْبَتُهُ فِيهَا ضَعِيفَةً مُتَقَاصِرَةً ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ بُطْءِ نُضْجِهِ بِطَبِيعَةِ ٱلأَسْبَابِ ٱلَّتِي تَسَبَّبَ بِهَا إِلَىٰ ٱلشِّعْرِ ؛ وَكَانَتِ « ٱلرَّوْضَةُ » يَوْمَئِذٍ تَنْشُرُ لِطَائِفَةٍ مِنْ فُحُولِ دَهْرِهِمْ ، كَٱلسَّيِّدِ صَالِحٍ مَجْدِي ، وَرُفَاعَةَ بِكْ رَافِع ، وَمُحَمَّدْ أَفَنْدِي قَدْرِي « وَنَابِغَةِ ٱلزَّمَانِ مُحَمَّدْ أَفَنْدِي رِضْوَان » وَغَيْرِهِمْ . وَكَانَتْ تَسْتَقْبِلُ قَصَائِدَهُمْ بِسَجَعَاتٍ دَاوِيَةٍ مُفَرْقِعَةٍ ، هِيَ لِذَلِكَ ٱلْعَهْدِ أَشْبَهُ ٱلأَشْيَاءِ بِطَلَقَاتِ مَدَافِعِ ٱلتَّحِيَّةِ لِلْمُلُوكِ وَٱلأُمَرَاءِ ، فَلَمَّا نَشَرَتْ لِصَبْرِي قَالَتْ فِي

ٱلْقَصِيدَةِ ٱلأُولَىٰ : « تَهْنِئَةٌ بِٱلْعِيدِ ٱلأَكْبَرِ لِلْخُدَيْوِيّ ٱلأَعْظَمِ بِقَلَمِ إِسْمَاعِيلَ صَبْرِيّ أَفَنْدِيّ » .
وَقَالَتْ فِي ٱلثَّانِيَةِ : « قَصِيدَةٌ رَائِيَّةٌ فِي مَدْحِ ٱلْحَضْرَةِ ٱلْخُدَيْوِيَّةِ مِنْ نَظْمِ ٱلشَّابِّ ٱلنَّجِيبِ إِسْمَاعِيلَ صَبْرِيّ أَفَنْدِيّ مِنْ تَلَامِذَةِ مَدْرَسَةِ ٱلإِدَارَةِ » وَمَطْلَعُ ٱلْقَصِيدَةِ ٱلأُولَىٰ [من الكامل] :

سَفَرَتْ فَلَاحَ لَنَا هِلَالُ سُعُودِ ... وَنَمَا ٱلْغَرَامُ بِقَلْبِيَ ٱلْمَعْمُودِ

وَلَا شَيْءَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ حُرُوفِ ٱلْمَطْبَعَةِ . . . وَمَطْلَعُ ٱلثَّانِيَةِ [من الطويل] :

أَغُرَّتُكَ ٱلْغَرَّاءُ أَمْ طَلْعَةُ ٱلْبَدْرِ ... وَقَامَتُكَ ٱلْهَيْفَاءُ أَمْ عَادِلُ ٱلسُّمْرِ

وَفِي هَـٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ بَيْتٌ وَقَفْتُ عِنْدَهُ أَرَىٰ صَبْرِي بَاشَا فِي صَبْرِي أَفَنْدِي كَأَنَّهُ خَيَالُ مَوْلُودٍ يَسْتَهِلُّ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ [من الطويل] :

فَطُولٌ مِنَ ٱلْهُجْرَانِ عَلَّ وُقُوفَنَا ... يَطُولُ مَعًا - يَا قَاتِلِي - سَاعَةَ ٱلْحَشْرِ

وَيَكَادُ هَـٰذَا ٱلْبَيْتُ يَكُونُ أَوَّلَ ٱنْقِلَابٍ لِلْفِكْرَةِ فِيهِ : وَهُوَ غَرِيبٌ ، وَٱلتَّأَمُّلُ فِيهِ أَغْرَبُ ، وَلَـٰكِنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ خَيَالٍ سَيَثِبُ يَوْمًا عَلَىٰ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَاتِ .

وَفِي ذَلِكَ ٱلزَّمَنِ عَيْنِهِ كَانَ ٱلْبَارُودِيُّ شِهَابًا يَلْتَهِبُ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مَبْلَغَهُ وَٱسْتَجْمَعَ أَسْبَابَ نِهَايَتِهِ ، بَلْ هُوَ نَظَمَ قَبْلَ ذَلِكَ بِسِتِّ سَنَوَاتٍ قَصِيدَتَهُ ٱلشَّهِيرَةَ [من الكامل] :

أَخَذَ ٱلْكَرَىٰ بِمَعَاقِدِ ٱلأَجْفَانِ ... وَهَفَا ٱلسُّرَىٰ بِأَعِنَّةِ ٱلْفُرْسَانِ

فَلَمْ يَكُنْ لِيَذْهَبَ وَجْهُ ٱلشِّعْرِ عَنْ صَبْرِي ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُغْضِيَ عَنِ ٱحْتِذَاءِ هَـٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلْبَارِعَةِ وَيَأْخُذَ فِي غَيْرِهَا لَوْلَا أَنَّ فِيهِ طَبْعًا مُسْتَقِلًّا يَذْهَبُ إِلَىٰ كَمَالِهِ فِي أُسْلُوبٍ آخَرَ كَأُسْلُوبِ كُلِّ زَهْرَةٍ فِي غُصْنِهَا ، وَأَخَصُّ أَحْوَالِ صَبْرِي أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا فَجَاءَ أَكْبَرَ مِنْ شَاعِرٍ ، وَكَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلَّذِي صَرَفَهُ مِنْ نَاحِيَةٍ هُوَ نَفْسَهُ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ .

* * *

يَنْبُغُ ٱلشَّاعِرُ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ لَا بُدَّ مِنْهَا : طَرِيقَةِ ٱلدَّرْسِ ٱلَّتِي عَالَجَ بِهَا ٱلشِّعْرَ ، وَكُتُبِ هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ ، وَٱلرِّجَالِ ٱلَّذِينَ هُمْ أَمْثِلَتُهَا فِي نَفْسِهِ . ثُمَّ . . . وَيَا للهِ مِنْ ثُمَّ هَـٰذِهِ ، فَهِيَ ٱللَّمْحَةُ ٱلسَّمَاوِيَّةُ ٱلَّتِي تُشْرِقُ عَلَىٰ فُؤَادِ ٱلشَّاعِرِ مِنْ وَجْهٍ جَمِيلٍ ، وَٱلثَّلَاثُ ٱلأُولَىٰ تُنْشِئُ نُبُوغًا

مَعْرُوفًا فِي نَوْعِهِ وَمِقْدَارِهِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلأَخِيرَةَ هِيَ طَرِيقُ ٱلْقَدَرِ ٱلَّتِي لَا يُعْرَفُ آخِرُهَا : وَإِذَا تَجَدَّدَتْ فِي حَيَاةِ ٱلشَّاعِرِ أَوِ ٱتَّصَلَتْ تَجَدَّدَ بِهَا نُبُوغُهُ أَوِ ٱتَّصَلَ ، فَعَلَىٰ قَدْرِ مَا يُحِبُّ تَخْبُوهُ ٱلسَّمَاءُ مِنْ أَسْرَارِ ٱلْجَمَالِ ، وَهِيَ نَفْسُهَا أَجْمَلُ أَسْبَابِ ٱلشِّعْرِ وَأَجْمَلُ مَعَانِيهِ وَأَجْمَلُ غَايَاتِهِ ، فَهِيَ هِيَ ٱلْمَادَّةُ ٱلَّتِي تُؤَلِّفُ بَيْنَ نَفْسِ ٱلشَّاعِرِ وَبَيْنَ مَعْنَى ٱلْجَمَالِ ٱلشِّعْرِيِّ فِي هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ كُلِّهِ ، وَإِذَا أَنْتَ نَزَعْتَ ٱلنَّظْرَةَ وَٱلابْتِسَامَةَ - وَهُمَا عُنْصُرَا تِلْكَ ٱلْمَادَّةِ - مِنْ حَيَاةِ ٱلشَّاعِرِ ، نَزَعْتَ ٱلْحَيَاةَ نَفْسَهَا مِنْ شِعْرِهِ ، فَمَا يَبْقَىٰ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مَقْبَرَةٌ لِلأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي ، وَتَسْمَعُ شِعْرَهُ فَلَا تَجْزِيهِ بِهِ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِكَ : يَرْحَمُكَ ٱللهُ . . . وَصَبْرِي لَمْ يَدْرُسِ ٱلشِّعْرَ فِي ٱلْكُتُبِ أَكْثَرَ مِمَّا دَرَسَهُ فِي ٱلْوُجُوهِ وَٱلْعُيُونِ ، وَقَدْ عَالَجَ هَـٰذَا ٱلشِّعْرَ فِي بِدَايَتِهِ لِيَتَأَتَّىٰ إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِهِ ٱلْبَعِيدَةِ ؛ أَمَّا ٱلرِّجَالُ ٱلَّذِينَ كَانُوا أَمْثِلَتَهُ فَكَانُوا رِجَالَ ٱلظَّرْفِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلنُّكْتَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ٱلشَّهِيرَةِ ، ٱلَّتِي ٱنْفَرَدَ بِهَا ٱلطَّبْعُ ٱلْمِصْرِيُّ وَنَصَّ عَلَيْهَا عُلَمَاءُ ٱلْبَلَاغَةِ ، كَٱلسَّكَّاكِيِّ وَغَيْرِهِ ؛ بَلْ كَانَ عَصْرُهُ كُلُّهُ عَصْرَ هَـٰذِهِ ٱلنُّكْتَةِ ، فَتَحَوَّلَتْ فِي طَبْعِهِ ٱلرَّقِيقِ ٱلْمُبْتَكِرِ تَحَوُّلًا رَقِيقًا مُبْتَكَرًا أَرْجَعَهَا إِلَى ٱلظَّرْفِ ٱلْمَحْضِ ٱلَّذِي ٱجْتَمَعَتْ فِيهِ كُلُّ طِبَاعِهِ كَمَا يَجْتَمِعُ ٱلسَّحَابُ مِنَ ٱلْمَاءِ .

وَلَقَدْ كَانَ فِي شِعْرِهِ أَحَقَّ ٱلنَّاسِ بِقَوْلِ ٱبْنِ سَعِيدٍ ٱلْمَغْرِبِيِّ [من الطويل] :

أَسُكَّانَ مِصْرٍ جَاوَرَ ٱلنِّيلُ أَرْضَكُمْ ... فَأَكْسَبَكُمْ تِلْكَ ٱلْحَلَاوَةَ فِي ٱلشِّعْرِ
وَكَانَ بِتِلْكَ ٱلأَرْضِ سِحْرٌ فَمَا بَقِي ... سِوَىٰ أَثَرٍ يَبْدُو عَلَى ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ

وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ دَائِمَ ٱلْحُبِّ : يَمْزُجُ ذِكْرَىٰ مَاضِيهِ بِحَاضِرِهِ فَيَخْرُجُ مِنْهُمَا حُبًّا جَدِيدًا ؛ وَكَانَ ٱلرَّجُلُ كَأَنَّهُ مَجْرُوحُ ٱلْقَلْبِ ، فَلَا يَزَالُ يَئِنُّ حَتَّىٰ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِهِ ، إِذْ يُرْسِلُ ٱلنَّفَسَ ٱلطَّوِيلَ بَيْنَ هُنَيْهَةٍ وَأُخْرَىٰ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَطْمَئِنَّ أَنَّ نَفْسَهُ فِيهِ ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا بَاقِيًا فِي نَفْسِهِ ؛ وَتِلْكَ هَمْهَمَةٌ لَا تَكُونُ فِي شَاعِرٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِغَيْرِ مَعْنًىٰ .

كَانَتِ ٱلنَّظْرَةُ وَٱلابْتِسَامَةُ تَتَمَثَّلُ لَهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَتَعْتَرِضُهُ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَرَاهَا ، فَيَجِدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ رُوحًا مِنَ ٱلشِّعْرِ ، وَيَقْرَأُ لَمَحَاتِهَا مَتَى ٱلْتَمَعَتْ ، وَكَانَ يَعِيشُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ مَعْنًىٰ فِي قَصِيدَةٍ هُوَ أَمِيرُ أَبْيَاتِهَا .

فَشَاعِرُنَا هَـٰذَا أَخْرَجَهُ ٱثْنَانِ : ٱلظَّرْفُ وَٱلْجَمَالُ ؛ وَهَـٰذَا سِرُّ إِبَائِهِ أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ،

لِأَنَّهُ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمْ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمِحْنَةِ وَٱلْبَلْوَىٰ ٱلَّتِي ٱبْتُلُوا بِهَا . . .

وَلَقَدْ هَمَّ صَبْرِي فِي أَوَاخِرِ عُمْرِهِ بِمَحْوِ شِعْرِهِ لَوْ أَنَّهُ كَانَ فِي مَنَالِ يَدِهِ ؛ عَلَىٰ أَنَّهُ مَحَا مِنْهُ بِإِهْمَالِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَثْبَتَ ؛ وَعَلِمْتُ مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يُدَوِّنْ شَيْئًا ، وَأَنَّهُ يَنْسَىٰ مَا يَقُولُهُ ، فَكَأَنَّهُ يُوجَدُ بِسَبَبٍ وَاحِدٍ وَيُمْحَقُ بِسَبَبَيْنِ ؛ وَقَدِيمًا كَانَ كِبَارُ ٱلْعُلَمَاءِ مَتَىٰ ٱنْتَهَوْا إِلَىٰ ٱلتَّحْقِيقِ رَأَوْا عُمْرَهُمْ كُلَّهُ بِدَايَةً ، وَرَأَوْا مَا فَعَلُوا بَاطِلًا ، فَغَسَلُوا كُتُبَهُمْ أَوْ أَحْرَقُوهَا ، وَلَـٰكِنَّا لَمْ نَعْرِفْ هَـٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةَ فِي شَاعِرٍ بَعْدَ عَصْرِ ٱلْكِتَابَةِ وَٱلتَّدْوِينِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَأْنَفُ لِنَفْسِهِ أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَجْمَعُ يَدَهُ عَلَىٰ شِعْرِهِ ، كَٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ ٱلَّذِي يَقُولُ [من الرجز] :

مَـا لَـكَ تَـرْضَـىٰ أَنْ تُعَـدَّ شَـاعِـرًا   بُعْـدًا لَهَـا مِـنْ عَـدَدِ ٱلْفَضَـائِـلِ

وَيَقُولُ فِي مَدْحِ أَبِيهِ [من الكامل] :

إِنِّـي لَأَرْضَـىٰ أَنْ أَرَاكَ مُمَـدَّحًـا   وَعُـلَاكَ لَا تَـرْضَـىٰ بِـأَنِّـي شَـاعِـرُ

وَمِثْلُهُ أَبُو طَالِبٍ ٱلْمَأْمُونِيُّ وَآخَرُونَ يَدَّعُونَ ذَلِكَ دَعْوَىٰ وَفِي أَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

وَلِإِفْرَاطِ صَبْرِي فِي ٱلظَّرْفِ وَٱلْجَمَالِ وَقِيَامِ شِعْرِهِ عَلَىٰ هَـٰذَيْنِ ٱلرُّكْنَيْنِ ، جَاءَ مُقِلًّا ، مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقِصَارِ ، وَزَادَ إِقْلَالُهُ فِي قِيمَةِ شِعْرِهِ ، فَخَرَجَتْ مَقَاطِيعُهُ مَخْرَجَ ٱلشَّيْءِ ٱلطَّرِيفِ ٱلَّذِي يُتَعَجَّبُ مِنْهُ فِي وُجُودِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ لِقِلَّةِ وُجُودِهِ ؛ وَبِذَلِكَ رَبِحَ تَعَبَ ٱلْمُكْثِرِينَ وَٱلْمُطِيلِينَ ، إِذْ كَانَ لَا يَقُولُ إِلَّا فِيمَا تُؤَاتِيهِ ٱلسَّجِيَّةُ وَيَنْزِعُ لَهُ ٱلطَّبْعُ ، فَيَدْنُو مَأْخَذُهُ ، وَيَكْثُرُ بِقَلِيلِهِ ، وَيَرْمِي مِنْهُ بِمِثْلِ ٱلْحُجَّةِ وَٱلْبُرْهَانِ ، فَيَطْمِسُ بِهِمَا عَلَىٰ كَلَامٍ طَوِيلٍ وَجَدَلٍ عَرِيضٍ .

وَلَا يَعِيبُ ٱلْمُقِلَّ أَنَّهُ مُقِلٌّ إِذَا كَثُرَتْ حَسَنَاتُهُ ، بَلْ ذَلِكَ أَعْوَنُ لَهُ عَلَىٰ ٱلْقُلُوبِ وَٱلنُّفُوسِ إِذَا أَصَابَتْ فِي شِعْرِهِ مَا يُغْرِيهَا بِطَلَبِ ٱلْمَزِيدِ مِنْهُ ؛ وَقَدْ عَدُّوا بَيْنَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ : طَرَفَةَ بْنَ ٱلْعَبْدِ ، وَعُبَيْدَ بْنَ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلَ ، وَعَدِيًّا بْنَ زَيْدٍ ، وَسَلَامَةَ بْنَ جَنْدَلٍ ، وَحُصَيْنًا بْنَ ٱلْحُمَامِ ، وَٱلْمُتَلَمِّسَ ، وَٱلْحَارِثَ بْنَ حِلِّزَةَ ، وَٱبْنَ كُلْثُومٍ ، وَغَيْرَهُمْ أَتَيْنَا عَلَىٰ

أَسْمَائِهِمْ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مِنْ « تَارِيخِ آدَابِ ٱلْعَرَبِ » ؛ وَمِنْ أُولَـٰئِكَ مَنْ يُعْرَفُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلْوَاحِدَةِ : كَطَرَفَةَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْرَفُ بِثَلَاثِ قَصَائِدَ : كَعَلْقَمَةَ ؛ أَوْ بِأَرْبَعٍ : كَعَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْرَفُ بِٱلْأَبْيَاتِ ٱلْمُتَفَرِّقَةِ ؛ وَلَا عِبْرَةَ بِمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ غَيْرِ ٱلْمُصَحِّحِينَ وَأَهْلِ ٱلتَّحْقِيقِ ، فَإِنَّ ٱلْحَمْلَ عَلَىٰ شُعَرَاءِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ كَثِيرٌ ؛ وَقَدْ يَعْرِفُونَ ٱلشَّاعِرَ بِٱلْبَيْتِ ٱلْفَرْدِ ، لِأَنَّ ٱلْعَرَبَ إِنَّمَا يَعْتَبِرُونَ ٱلشِّعْرَ بِمِقْدَارِ مَا يُحَرِّكُ مِنْ مِيزَانِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْقَلْبُ ، لَا بِٱلطُّولِ وَلَا بِٱلْقِصَرِ ، وَقَدْ قَالُوا فِي بَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ [من الطويل] :

وَلَسْـتَ بِمُسْتَبْـقٍ أَخًـا لَا تَلُمُّـهُ   عَلَىٰ شَعَـثٍ ، أَيُّ ٱلرِّجَـالِ ٱلْمُهَـذَّبُ ؟

إِنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ؛ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا عَلَىٰ ٱلِاعْتِبَارِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ . وَكَانُوا يُسَمُّونَ ٱلْبَيْتَ ٱلْوَاحِدَ : يَتِيمًا ؛ فَإِذَا بَلَغَ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ فَهِيَ نُتْفَةٌ ، وَإِلَىٰ ٱلْعَشَرَةِ تُسَمَّىٰ قِطْعَةٌ ، وَإِذَا بَلَغَ ٱلْعِشْرِينَ ٱسْتَحَقَّ أَنْ يُسَمَّىٰ قَصِيدًا .

وَكَانَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَتَعَمَّدُ أَنْ لَا يَجِيءَ فِي شِعْرِهِ ٱلْجَيِّدِ بِغَيْرِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةِ إِلَىٰ ٱلْقِطَعِ ٱلصَّغِيرَةِ ، كَشَاعِرِنَا صَبْرِي بَاشَا ؛ وَمِنْهُمْ عَقِيلُ بْنُ عُلَّفَةَ ؛ كَانَ يَقْصُرُ هِجَاءَهُ وَيَقُولُ : يَكْفِيكَ مِنَ ٱلْقِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِٱلْعُنُقِ . وَمِنْهُمْ أَبُو ٱلْمُهَوِّسِ ، وَكَانَ يَحْتَجُّ لِذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَجِدِ ٱلْمَثَلَ ٱلنَّادِرَ إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا ، وَلَمْ يَجِدِ ٱلشِّعْرَ ٱلسَّائِرَ إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا ؛ وَمِنْهُمُ ٱلْجَمَّازُ ؛ قَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ وَقَدْ أَنْشَدَهُ بَيْتَيْنِ : مَا تَزِيدُ عَلَىٰ ٱلْبَيْتِ وَٱلْبَيْتَيْنِ ؟ فَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أُنْشِدَكَ مُذَارَعَةً ؟؟؟ وَٱبْنُ لَنْكَكَ ٱلْمِصْرِيُّ ، وَٱبْنُ فَارِسٍ ، وَمَنْصُورٌ ٱلْفَقِيهُ ٱلَّذِي كَانَ يُقَالُ فِيهِ : إِذَا رَمَحَ بِزَوْجَيْهِ قَتَلَ ؛ وَلَا نَسْتَقْصِي فِي هَـٰذَا فَلْنَدَعْهُ ، فَإِنَّ لَهُ مَوْضِعًا .

غَيْرَ أَنَّ صَبْرِي كَانَ لَهُ مَعَ جُودَةِ ٱلْمَقَاطِيعِ جُودَةُ ٱلْقَصِيدِ إِذَا قَصَّدَ ، كَقَوْمٍ عُرِفُوا بِذَلِكَ فِي ٱلتَّارِيخِ ، مِنْهُمُ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ ٱلْأَحْنَفِ وَسِوَاهُ ؛ وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ إِقْلَالِهِ مَا أَعْلَمَنِي بِهِ مِنْ أَنَّ طَرِيقَتَهُ فِي أَكْثَرِ مَا يَنْظِمُ مُعَارَضَةُ مَعْنًى يَقِفُ عَلَيْهِ ، أَوْ تَضْمِينُ حِكْمَةٍ ، أَوْ ضَرْبُ مَثَلٍ عَلَىٰ طَرِيقَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْمُلَاحَظَةِ ، أَوْ تَدْوِينُ خَطْرَةٍ عَرَضَتْ لَهُ ، أَوْ لَمْحَةٍ أُوحِيَتْ إِلَيْهِ ؛ وَهُوَ يَنْزِلُ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ ٱلنَّصَفَةِ وَٱلْمَعْدِلَةِ فَلَا يَنْتَحِلُ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ ، بَلْ يَدُلُّكَ بِنَفْسِهِ عَلَىٰ ٱلْأَصْلِ ٱلَّذِي مِنْهُ أَخَذَ أَوِ ٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱحْتَذَىٰ .

قَالَ لِي مَرَّةً : إِنَّ ٱلْبُسْتَانِيَّ عَقَدَ حِكْمَةً فَارِسِيَّةً فِي قَوْلِهِ [من الطويل] :

قَضَيْتَ إِلَـٰهِي بِـٱلْعَذَابِ فَيَـا تُـرَىٰ   بِـأَيِّ مَكَـانٍ بِـٱلْعَـذَابِ تَـدِيـنُ
وَلَيْـسَ عَـذَابٌ حَيْثُمَـا أَنْـتَ كَـائِـنٌ   وَأَيُّ مَكَـانٍ لَسْـتَ فِيـهِ تَكُـونُ ؟

ثُمَّ قَالَ : فَأَخَذْتُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ وَقُلْتُ [من الكامل] :

يَـا رَبِّ أَيْـنَ تُـرَىٰ تُقَامُ جَهَنَّـمُ   لِلظَّـالِمِيـنَ غَـدًا وَلِـلأَشْـرَارِ
لَمْ يُبْقِ عَفْـوُكَ فِـي ٱلسَّمَـٰوَاتِ ٱلْعُلَىٰ   وَٱلأَرْضِ شِبْـرًا خَـالِيًـا لِلنَّـارِ
يَـا رَبِّ أَهِّلْنِـي لِفَضْلِـكَ وَٱكْفِنِـي   شَطَـطَ ٱلْعُقُـولِ وَفِتْنَـةَ ٱلأَفْكَـارِ
وَمُرِ ٱلْـوُجُـودَ يَشِـفُّ عَنْكَ لِكَـيْ أَرَىٰ   غَضَـبَ ٱللَّطِيـفِ وَرَحْمَـةَ ٱلْجَبَّـارِ
يَـا عَـالِـمَ ٱلأَسْـرَارِ حَسْبِـي مِحْنَـةً   عِلْمِـي بِـأَنَّـكَ عَـالِـمُ ٱلأَسْـرَارِ

وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلشِّعْرَيْنِ أَنَّ ٱلْبُسْتَانِيَّ جَاءَ بِكَلَامِهِ عَلَىٰ طَرِيقَةِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ ٱلَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ أَهْلِ ٱلتَّحْقِيقِ ، كَٱبْنِ ٱلْعَرَبِيِّ وَٱلشُّشْتَرِيِّ ؛ وَأَمَّا صَبْرِي فَٱنْظُرْ كَيْفَ ٱسْتَوْفَىٰ وَكَيْفَ لَاءَمَ وَكَيْفَ ٱمْتَلَأَتْ أَعْطَافُ شِعْرِهِ .

وَقَدْ يَأْخُذُ ٱلْمَأْخَذَ ٱلدَّقِيقَ ٱلَّذِي لَا يَتَنَبَّهُ لَهُ إِلَّا ٱلْمُطَّلِعُ ٱلْحَاذِقُ بِصِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ ، كَقَوْلِهِ [من الطويل] :

إِذَا مَـا صَـدِيـقٌ عَقَّنِـي بِعَـدَاوَةٍ   وَفَـوَّقْتُ يَـوْمًا فِـي مَقَـاتِلِـهِ سَهْمِـي
تَعَـرَّضَ طَيْـفُ ٱلْـوُدِّ بَيْنِـي وَبَيْنَـهُ   فَكَسَّـرَ سَهْمِـي فَـٱنْثَنَيْـتُ وَلَـمْ أَرْمِ

فَهَـٰذَا يَنْظُرُ إِلَىٰ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ وَعْلَةَ [من الكامل] :

قَـوْمِـي هُمُـو قَتَلُـوا أُمَيْـمَ أَخِـي   فَـإِذَا رَمَيْـتُ يُصِيبُنِـي سَهْمِـي

وَلَـٰكِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ ؛ فَإِنَّ أَسَاسَ ٱلْمَعْنَىٰ قَوْلُهُ : « تَعَرَّضَ طَيْفُ ٱلْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ » وَهُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلأَحْنَفِ [من الخفيف] :

وَإِذَا مَـا مَـدَدْتُ طَـرْفِـي إِلَـىٰ غَيْـ   ـرِكَ مُثِّلْـتَ دُونَـهُ فَـأَرَاكَـا

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ أَبْدَعَ فِي ٱنْتِزَاعِ ٱلْمَعْنَىٰ وَكَيْفَ جَعَلَ لَهُ مَعْرِضًا جَدِيدًا ، وَكَيْفَ أَدَّاهُ أَحْسَنَ تَأْدِيَةٍ فِي أَلْطَفِ وَجْهٍ كَأَنَّهُ شَيْءٌ مُخْتَرَعٌ .

وَمِنْ شِعْرِهِ ٱلسَّائِرِ قَوْلُهُ فِي ٱلْعِنَاقِ وَتَلَازُمِ ٱلْحَبِيبَيْنِ [من الطويل] :

وَلَمَّـا ٱلْتَقَيْنَـا قَـرَّبَ ٱلشَّـوْقُ جُهْـدَهُ   شَجِيَّيْـنِ فَـاضَـا لَـوْعَـةً وَعِتَـابَـا
كَـأَنَّ صَـدِيقًـا فِـي خِـلَالِ صَـدِيقِـهِ   تَسَـرَّبَ أَثْنَـاءَ ٱلْعِنَـاقِ وَغَـابَـا

وَهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ عَلَىٰ إِبْدَاعِهِ فِيهِ مُتَدَاوَلٌ ، وَأَصْلُهُ لِبَشَّارٍ - أَظُنُّ - فِي قَوْلِهِ[1] [من الطويل] :

وَبِتْنَـا جَمِيعًـا لَـوْ تُـرَاقُ زُجَاجَـةٌ   مِـنَ ٱلْخَمْـرِ فِيمَـا بَيْنَنَـا لَـمْ تُسَـرَّبِ

فَأَبْدَعَ صَبْرِي فِي أَخْذِهِ وَجَعَلَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلزُّجَاجَةِ ٱلْمُتَصَدِّعَةِ جَوْهَرَةً تَتَأَلَّقُ ؛ عَلَىٰ أَنِّي لَا أَسْتَحْسِنُ قَوْلَهُ « كَأَنَّ صَدِيقًا . . . » فَمَا هَـٰذَا بِعِنَاقِ ٱلأَصْدِقَاءِ وَلَوْ كَانَ ٱلصَّدِيقُ رَاجِعًا مِنْ سَفَرِ ٱلآخِرَةِ ! وَإِذَا غَابَ وَاحِدٌ فِي ٱلآخَرِ فَٱلآخَرُ حَامِلٌ بِهِ . وَقَدْ أَخَذْتُ أَنَا هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ مِنْهُ ، وَلَوْلَاهُ مَا ٱهْتَدَيْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ فِي ذَٰلِكَ [من الطويل] :

وَلَمَّـا ٱلْتَقَيْنَـا ضَمَّنَـا ٱلْحُـبُّ ضَمَّـةً   بِهَـا كُـلُّ مَـا فِـي مُهْجَتَيْنَـا مِـنَ ٱلْحُـبِّ
وَشَـدَّ ٱلْهَـوَىٰ صَـدْرًا لِصَـدْرٍ كَـأَنَّمَـا   يُـرِيـدُ ٱلْهَـوَىٰ إِنْفَـاذَ قَلْـبٍ إِلَـىٰ قَلْـبِ

* * *

وَأَحْسَنُ مَا تَجِدُ شِعْرَ صَبْرِي فِي ٱلْغَزَلِ وَٱلنَّسِيبِ وَٱلْوَصْفِ وَٱلْحِكْمَةِ ، فَهِيَ عَنَاصِرُ قَلْبِهِ وَذَوْقِهِ ، وَلَا يَتَصَرَّفُ مَعَهُ أَقْوَىٰ مَا يَتَصَرَّفُ إِلَّا فِي هَـٰذِهِ ٱلأَغْرَاضِ ، وَلَعَلَّهُ إِنْ جَاوَزَهَا قَصَرَ مَعَهُ شَيْئًا مَا وَضَعُفَتْ أَدَاتُهُ ضَعْفًا مَا ، لِأَنَّهُ يَكُونُ شَاعِرَ ٱلصَّنْعَةِ وَهُوَ يَأْبَاهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا مِنْ أَجْلِهَا ؛ وَقَلَّمَا يُجَارِيهِ أَحَدٌ فِي تِلْكَ ٱلأَغْرَاضِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي فَتَحَ أَبْوَابَهَا ،

(١) ٱلْبَيْتُ لِعَلِيِّ بْنِ ٱلْجَهْمِ ، وَقَبْلَهُ [من الطويل] :

أَلَا رُبَّ لَيْـلٍ ضَمَّنَـا بَعْـدَ هَجْعَـةٍ   وَأَدْنَـىٰ فُـؤَادًا مِـنْ فُـؤَادٍ مُعَـذَّبِ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ بَشَّارٍ [من الطويل] :

وَمُـزْنَجَـةِ ٱلأَعْطَـافِ مَهْضُـومَـةِ ٱلْحَشَـا   تَمُـورُ بِسِحْـرٍ عَيْنُهَـا وَتَـدُورُ
إِذَا نَظَـرَتْ صَبَّـتْ عَلَيْـكَ صَبَـابَـةً   وَكَـادَتْ قُلُـوبُ ٱلْعَـاشِقِيـنَ تَطِيـرُ
خَلَـوْتُ بِهَـا لَا يَخْلُـصُ ٱلْمَـاءُ بَيْنَنَـا   إِلَـىٰ ٱلصُّبْـحِ دُونِـي حَـاجِبٌ وَسُتُـورُ

وَحَسْبُكَ أَنَّهُ ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي ٱحْتَذَىٰ عَلَيْهِ شَوْقِي بِكْ ؛ وَقَدْ يَنْقَسِمُ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْوَاحِدُ فِي رَجُلَيْنِ حِينَ يَقْدِرُ ، فَإِذَا لَمْ يُوجَدْ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدِ ٱلآخَرُ ، وَأَنَا أَرَىٰ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْلَا صَبْرِي لَمَا نَبَغَ شَوْقِي ، وَكَانَ هَـٰذَا يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ يَعْرِضُ عَلَيْهِ شِعْرَهُ وَيَرْجِعُ بِآثَارِ ذَوْقِهِ فِيهِ ، وَكَذَٰلِكَ كَانَ يَفْعَلُ خَلِيفَةُ ٱلْبَارُودِيِّ حَافِظ بِكْ إِبْرَاهِيمُ ، وَٱسْتَرْفَدَ شَوْقِي مِنْ صَبْرِي بَاشَا هَـٰذَا ٱلْبَيْتَ ٱلسَّائِرَ [من البسيط] :

صُـونِـي جَـمَـالَـكِ عَنَّـا إِنَّنَـا بَشَـرٌ   مِـنَ ٱلتُّـرَابِ وَهَـٰـذَا ٱلْحُسْنُ رُوحَـانِي

فَهُوَ لِصَبْرِي بَاشَا ، وَٱلْمُرَافَدَةُ سُنَّةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ قَدِيمٍ ، وَهِيَ غَيْرُ ٱلانْتِحَالِ وَغَيْرُ ٱلسَّرِقَةِ وَمَا يُسَمَّىٰ إِغَارَةً وَغَصْبًا ؛ وَقَدِ ٱسْتَرْفَدَ ٱلنَّابِغَةُ زُهَيْرًا فَأَمَرَ ٱبْنَهُ كَعْبًا فَرَفَدَهُ ، وَٱلْحِكَايَةُ فِي ذَٰلِكَ مَشْهُورَةٌ عَنْهُ وَعَنْ سِوَاهُ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي مِصْرَ مِمَّنْ يُحْسِنُ ذَوْقَ ٱلْبَيَانِ وَتَمْيِيزَ أَقْدَارِ ٱلأَلْفَاظِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَأَلْوَانِ دِلَالَتِهَا كَٱلْبَارُودِيِّ وَصَبْرِي وَإِبْرَاهِيمَ ٱلْمُوَيْلِحِيِّ وَٱلشَّيْخِ مُحَمَّد عَبْدُه رَحِمَهُمُ ٱللهُ جَمِيعًا ؛ وَٱلْبَارُودِيُّ يَذُوقُ بِٱلسَّلِيقَةِ ، وَصَبْرِي بِٱلْعَاطِفَةِ ، وَٱلْمُوَيْلِحِيُّ بِٱلظَّرْفِ ، وَٱلشَّيْخُ بِٱلْبَصِيرَةِ ٱلنَّفَّاذَةِ ؛ وَذَٰلِكَ شَيْءٌ رَكَّبَهُ ٱللهُ فِي طَبِيعَةِ صَبْرِي لَمْ يُحَصِّلْهُ بِٱلدَّرْسِ أَكْثَرَ مِمَّا حَصَّلَهُ بِٱلْحِسِّ ، وَمِنْ أَجْلِهِ كَانَ يُفَضِّلُ ٱلْبُحْتُرِيَّ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، وَهُوَ بِلَا نِزَاعٍ بُحْتُرِيُّ مِصْرَ ، كَمَا لَقَّبُوا ٱبْنَ زَيْدُونَ بُحْتُرِيَّ ٱلْمَغْرِبِ ، وَإِنَّكَ لَتَجِدُ بَعْضَ ٱلأَلْفَاظِ فِي شِعْرِ ٱلرَّجُلِ كَأَنَّهَا شِعْرٌ مَعَ ٱلشِّعْرِ ، فَتَقِفُ عَلَى ٱلْعِبَارَةِ مِنْهَا وَقَلْبُكَ يَتَنَفَّسُ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا إِنَّمَا وُضِعَتْ لِقَلْبِكَ خَاصَّةً ، فَهِيَ تَغْمِزُ عَلَيْهِ غَمْزًا وَكَأَنَّهَا نَفْثَةُ مَلَكٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ جَاءَتْكَ فِي نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِ ٱلْجَنَّةِ .

وَيَمْتَازُ نَسِيبُهُ بِأَنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ فِي طَهَارَتِهِ وَعِفَّتِهِ ضَوْءًا مِنْ جَمَالِ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ ، وَهُوَ عِنْدِي أَنْسَبُ مِنَ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلأَحْنَفِ ٱلَّذِي صَرَفَ كُلَّ شِعْرِهِ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، وَلَوْ أَنَّ عَصْرَهُ كَانَ عَصْرَ أَدَبٍ صَحِيحٍ لأَخْمَلَ كُلَّ شُعَرَاءِ هَـٰذَا ٱلْبَابِ ، مِنَ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ إِلَىٰ طَبَقَةِ عُشَّاقِ ٱلْعَرَبِ إِلَىٰ أَئِمَّةِ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْغَرَامِيَّةِ لآخِرِ ٱلْقَرْنِ ٱلسَّابِعِ .

وَمِنْ غَزَلِهِ ٱلْبَدِيعِ قَوْلُهُ [من البسيط] :

يَـا مَـنْ أَقَـامَ فُـؤَادِي إِذْ تَمَلَّكَـهُ   مَـا بَيْـنَ نَـارَيْـنِ مِـنْ شَـوْقٍ وَمِـنْ شَجَـنِ
تَفْدِيكَ أَعْيُنُ قَـوْمٍ حَـوْلَكَ ٱزْدَحَمَتْ   عَطْشَىٰ إِلَىٰ نَهْلَةٍ مِـنْ وَجْهِـكَ ٱلْحَسَـنِ
جَـرَّدْتَ كُـلَّ مَلِيـحٍ مِـنْ مَـلَاحَتِـهِ   لَـمْ تَتَّـقِ ٱللهَ فِـي ظَبْـيٍ وَلَا غُصُـنِ

وَقَوْلُهُ [من البسيط] :

أَقْصِرْ فُـؤَادِي فَمَـا ٱلذِّكْـرَىٰ بِنَـافِعَـةٍ   وَلَا بِشَـافِعَـةٍ فِـي رَدِّ مَـا كَـانَـا
سَـلَا ٱلْفُـؤَادُ ٱلَّـذِي شَـاطَـرْتَـهُ زَمَنًـا   خَفْقَ ٱلصَّبَابَـةِ فَـٱخْفِـقْ وَحْدَكَ ٱلآنَـا

وَيَا رَحْمَةَ ٱللهِ لِلْقَلْبِ ٱلَّذِي يَفْهَمُ هَـٰذَا ٱلْبَيْتَ ، فَإِنَّهُ لَيُجَنُّ بِهِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ ٱسْتِعْدَادٌ لِهَـٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْجُنُونِ .

وَمِنْ قَلَائِدِهِ ٱلْغَرَامِيَّةِ قَوْلُهُ [من البسيط] :

يَـا آسِيَ ٱلْحَيِّ هَـلْ فَتَّشْتَ فِـي كَبِـدِي   وَهَـلْ تَبَيَّنْـتَ دَاءً فِـي زَوَايَـاهَـا
أَوَّاهُ مِـنْ حُـرَقٍ أَوْدَتْ بِمُعْظَمِهَـا   وَلَـمْ تَـزَلْ تَتَمَشَّـىٰ فِـي بَقَـايَـاهَـا
يَـا شَـوْقُ رِفْقًـا بِـأَضْـلَاعٍ عَصَفْـتَ بِهَـا   فَـٱلْقَلْـبُ يَخْفِـقُ ذُعْـرًا فِـي حَنَـايَـاهَـا

وَلَهُ قَصِيدَةُ (تِمْثَالُ جَمَالٍ) وَقَدْ نَظَمَهَا لِتُنْقَلَ إِلَى ٱلْفَرَنْسَوِيَّةِ ، وَمِنْ عُيُونِهَا قَوْلُهُ [من الرمل] :

وَٱبْسِمِـي ، مَـنْ كَـانَ هَـٰـذَا ثَغْـرُهُ   يَمْـلأُ ٱلـدُّنْيَـا ٱبْتِسَـامًـا وَٱزْدِهَـاءْ
لَا تَخَـافِـي شَطَطًـا مِـنْ أَنْفُـسٍ   تَعْثُـرُ ٱلصَّبْـوَةُ فِيهَـا بِـٱلْحَيَـاءْ
رَاضَـتِ ٱلنَّخْـوَةُ مِـنْ أَخْـلَاقِنَـا   وَٱرْتَضَـىٰ آدَابَنَـا حُسْـنُ ٱلْـوَلَاءْ
فَلَـوِ ٱمْتَـدَّتْ أَمَـانِيُّنَـا إِلَـىٰ   مُلْـكِ مَـا كَـدَّرَتْ ذَاكَ ٱلصَّفَـاءْ

وَٱلشُّعَرَاءُ مِنْ أَوَّلِ تَارِيخِ ٱلأَدَبِ إِلَى ٱلْيَوْمِ يَقُولُونَ فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : « لَا تَخَافِي شَطَطًا » ٱلأَبْيَاتَ . وَمَا مِنْهُمْ مَنْ وُفِّقَ إِلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلأَخِيرِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ بَلَغَ ٱلْغَايَةَ ، كَٱبْنِ نُبَاتَةَ ٱلسَّعْدِيِّ وَٱلسَّرِيِّ ٱلرَّفَّاءِ وَغَيْرِهِمَا .

وَمِنْ أَبْدَعِ مَا ٱتَّفَقَ لَهُ فِي ٱلْوَصْفِ أَبْيَاتٌ فِي ٱلدَّوَاةِ تَخَلَّصَ فِي آخِرِهَا إِلَىٰ مَدْحِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ تَخَلُّصٌ لَيْسَ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ كُلِّهِ مِثْلُهُ فِي ٱلإِبْدَاعِ وَحُسْنِ ٱلاخْتِرَاعِ ،

يَقُوْلُ فِيْهَا [من الخفيف] :

أَكْـرِمِـيْ ٱلْعِلْـمَ وَٱمْنَحِـيْ خَـادِمِيْـهِ	مَـاءَكِ ٱلْغَـالِـيْ ٱلنَّفِيْـسَ ٱلثَّمِيْنَـا
وَٱبْـذُلِـيْ ٱلصَّـافِـيْ ٱلْمُطَهَّـرَ مِنْـهُ	لِهُـدَاةِ ٱلسَّـرَائِـرِ ٱلْمُـرْشِـدِيْنَـا
وَإِذَا ٱلظُّلْـمُ وَٱلظَّـلَامُ ٱسْتَعَـانَـا	يَـوْمَ نَحْـسٍ بِـأَجْهَـلِ ٱلْجَـاهِلِيْنَـا
وَٱسْتَمَـدَّا مِـنَ ٱلشُّـرُوْرِ مِـدَادًا	فَـٱجْعَلِيْـهِ مِـنْ قِسْمَـةِ ٱلظَّـالِمِيْنَـا
وَٱقْـذِفِـيْ ٱلنُّقْطَـةَ ٱلَّتِـيْ بَـاتَ فِيْهَـا	غَضَـبُ ٱلْقَـاهِـرِ ٱلْمُـذِلِّ كَمِيْنَـا
لِيَـرَاعِ ٱمْـرِئٍ إِذَا خَـطَّ سَطْـرًا	نَبَـذَ ٱلْحَـقَّ وَٱرْتَضَـىٰ ٱلْمَيْـنَ دِيْنَـا
وَإِذَا كَـانَ فِيْـكِ نُقْطَـةُ سُـوْءٍ	كُـوِّنَـتْ مِـنْ خَبَـاثَـةٍ تَكْـوِيْنَـا
فَـٱجْعَلِيْهَـا قِسْـطَ ٱلَّـذِيْـنَ ٱسْتَبَـاحُـوْا	فِـيْ ٱلسِّيَـاسَـاتِ حُـرْمَـةَ ٱلأَضْعَفِيْنَـا
وَإِذَا خِفْـتَ أَنْ يَكُـوْنَ مِـنَ ٱلصَّخْـ	ـرِ جَـلَامِيْـدُ تَـرْجُـمُ ٱلسَّـامِعِيْنَـا
فَـٱبْخَلِـيْ بِـٱلْمِـدَادِ بُخْـلًا وَإِنْ أُعْطِيْـ	ـتِ فِيْـهِ ٱلْمِئِيْـنَ ثُـمَّ ٱلْمِئِيْنَـا
فَـإِذَا أَعْـوَزَ ٱلْمِـدَادُ طَبِيْبًـا	يَصِـفُ ٱلـدَّاءَ دَائِبًـا مُسْتَعِيْنَـا
فَـٱمْنَحِيْـهِ ٱلْمُـرَادَ مَنًّـا وَعُـرْفًـا	وَٱسْتَطِيْبِـيْ مَعُـوْنَـةَ ٱلْمُحْسِنِيْنَـا
وَإِذَا مُهْجَـةُ ٱلْحَمَـائِـمِ أَسْـدَتْ	نُقْطَـةً سَـرَّهَـا ٱلـزَّكِـيَّ ٱلْمَصُـوْنَـا
فَـٱجْعَلِيْهَـا عَلَـىٰ ٱلْمَـوَدَّاتِ وَقْفًـا	وَهَبِيْهَـا رَسَـائِـلَ ٱلشَّيِّقِيْنَـا
فَـإِذَا لَـمْ يَكُـنْ بِقَلْبِـكِ إِلَّا	مَـا أَعَـدَّ ٱلإِخْـلَاصُ لِلْمُخْلِصِيْنَـا
فَـٱجْعَلِيْـهِ حَظِّـيْ لِأَكْتُـبَ مِنْـهُ	شَـرْحَ حَـالِـيْ لِسَيِّـدِ ٱلْمُـرْسَلِيْنَـا

هَـٰذَا وَٱللهِ هُوَ ٱلشِّعْرُ ، وَمَا وُفِّقَ إِلَىٰ مِثْلِهِ أَحَدٌ كَائِنًا مَنْ كَانَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ .

* * *

وَلَا نُطِيْلُ بِٱلنَّقْلِ مِنْ شِعْرِهِ وَتَتَبُّعِ أَغْرَاضِهِ ، فَهُوَ كَٱلأَلْمَاسِ فِيْ ٱلشَّمْسِ : يُشِعُّ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَلَا يَخْتَلِفُ ضَوْءُهُ إِلَّا فِيْ بَعْضِ ٱللَّوْنِ مِمَّا يَكُوْنُ ٱلأَجْمَلَ فِيْمَا كُلُّهُ جَمَالٌ ، وَيَمُجُّ مِنَ ٱلشُّعَاعِ مَا لَا تَجِدُ حُسْنَهُ فِيْ ٱلشُّعَاعِ نَفْسِهِ ، وَأَحْيَانًا يَرِقُّ كَبَعْضِ ٱلْبِلَّوْرِ فَيَمْتَصُّ حَرَارَةَ ٱلشَّمْسِ وَيَسْتَوْقِدُ بِهَا فِيْ ذَاتِهِ لِيُضْرِمَ مَا وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَمَا وَرَاءَهُ إِلَّا قُلُوْبُنَا ٱلْحَزِيْنَةُ عَلَيْهِ ، رَحِمَهُ ٱللهُ !

* * *

حافِظْ ٱبْرَاهِيمْ(*)

فَرَغْتُ ٱلآنَ مِنْ قِرَاءَةِ شِعْرِ حَافِظْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَعُدْ حَافِظٌ بَيْنَنَا إِلَّا شِعْرَهُ وَنَثْرَهُ ، فَبِٱللهِ أَحْلِفُ مَا نَظَرْتُ فِيْ صَفْحَةٍ مِمَّا بَيْنَ يَدَيَّ إِلَّا وَأَحْسَسْتُ أَنَّ ذَلِكَ ٱلشَّاعِرَ ٱلْعَظِيْمَ يَقُوْلُ فِيْ بَيَانِهِ ٱلرَّائِعِ وَصِنَاعَتِهِ ٱلْبَدِيْعَةِ : أَنَا هُنَا !

وَلُغَةُ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ ٱلْمُتَدَفِّقَةُ بِٱلْحَيَاةِ كَأَنَّ كَلِمَاتِهَا ٱلْقَوِيَّةَ عُرُوْقٌ فِيْ جِسْمٍ حَيٍّ مُتَوَثِّبٍ . لَمْ تَخْرُجْ عَنْ أَنْ تَكُوْنَ هِيَ ٱلْعَرَبِيَّةُ ٱلْمُبِينَةُ فِيْ جَزَالَتِهَا وَنَصَاعَتِهَا وَدِقَّةِ تَرْكِيْبِهَا ٱلْبَيَانِيِّ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ كُلِّهِ مَنْ يُكَابِرُ أَوْ يُمَارِيْ فِيْ أَنَّهَا هِيَ لُغَةُ حَافِظٍ وَحْدَهُ ، كَأَنَّهُ أَرْغَمَ ٱلتَّارِيْخَ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِ فِيْ أَجْمَلِ آثَارِهِ .

وَأَنَا أَعْرِفُ فِيْ شِعْرِهِ مَوَاضِعَ مِنَ ٱلاضْطِرَابِ وَٱلضَّعْفِ وَٱلنَّقْصِ سَأُشِيْرُ إِلَىٰ بَعْضِهَا ، وَلَـٰكِنِّيْ عَلَىٰ مَا أَعْرِفُهُ أَجِدُ هَـٰذَا ٱلشِّعْرَ كَٱلتَّيَّارِ يَعُبُّ عُبَابُهُ لَا يُبَالِيْ مَا تَنَاثَرَ مِنْهُ وَمَا رَكَدَ وَمَا وَقَعَ فِيْ غَيْرِ مَوْقِعِهِ ، إِذْ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِيْ ٱجْتِمَاعِ مَادَّتِهِ لَا فِيْ أَجْزَاءٍ مِنْهَا ، وَفِيْ ٱلسِّرِّ ٱلَّذِيْ يَدْفَعُهَا فِيْ كُلِّ مَوْضِعٍ لَا فِيْ ٱلْمَظْهَرِ ٱلَّذِيْ تَكُوْنُ بِهِ فِيْ مَوْضِعٍ دُوْنَ مَوْضِعٍ ؛ فَهُوَ أَبَدًا يَقُوْلُ لِمَنْ يَتَصَفَّحُ عَلَيْهِ أَوْ يَنْتَقِدُهُ : ٱنْظُرْ لِمَا بَقِيَ .

* * *

تَرْجِعُ صَدَاقَتِيْ لِحَافِظٍ رَحِمَهُ ٱللهُ إِلَىٰ سَنَةِ ١٩٠٠ ، أَوَّلُ عَهْدِيْ بِٱلأَدَبِ وَطَلَبِهِ ، وَقَدْ شَهِدْتُ مِنْ يَوْمِئِذٍ بِنَاءَهُ ٱلأَدَبِيَّ عَالِيًا فَعَالِيًا إِلَىٰ ٱلذُّرْوَةِ ٱلَّتِيْ ٱنْتَهَىٰ إِلَيْهَا ؛ وَأَخْلَصَ لِيْ ثِقَتَهُ وَأَصْفَانِيْ مَوَدَّتَهُ ، وَكَانَ هَمُّكَ مِنْ أَخٍ كَرِيْمٍ ، وَلَهُ فِيْ نَفْسِيْ مَكَانٌ لَمْ يُنْكِرْهُ مُذْ عَرَفْتُهُ ، وَلَمْ يَضِقْ بِمَحَبَّتِهِ مُنْذُ ٱتَّسَعَ لَهَا ، وَكُنْتُ وَإِيَّاهُ يَرَىٰ أَحَدُنَا ٱلآخَرَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ كَٱلْجَانِبَيْنِ لِصُوْرَةٍ وَاحِدَةٍ : لَا يَتَهَيَّأُ فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ أَنْ يَخْتَلِفَا وَٱلصُّوْرَةُ بَعْدُ قَائِمَةٌ ، وَلَا أَنْ يَضْطَرِبَ مَا بَيْنَهُمَا وَٱلصُّوْرَةُ مِنْهُمَا عَلَىٰ وَزْنٍ وَتَقْدِيْرٍ .

وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا لَا يَمْنَعُنِيْ أَنْ أُقَرِّرَ أَنَّهُ كَانَ عِنْدِيْ أَكْبَرَ مِنْ شِعْرِهِ ـ وَلَعَلَّهُ كَذَلِكَ عِنْدَ كُلِّ مَنْ

(*) « ٱلْمُقْتَطَفُ » ، ٱلمجلد ٨١ ، أُكْتُوْبَرْ/ تشرين الأول ١٩٣٢ ، الصفحة : ٢٦٦ وما بعدها .

خَلَطُوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ - فَإِنَّهُ يَتَعَاظَمُكَ بِنَفْسِهِ ٱلْقَوِيَّةِ وَبِٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِيْ تُحِسُّهُ فِيْ ٱلْعَبْقَرِيِّ وَلَا تَدْرِيْ مَا هُوَ ، وَذَلِكَ مِنْ سِحْرِ ٱلْعَبْقَرِيِّيْنَ وَأَثَرِهِمْ فِيْ نَفْسِ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِمْ ، فَيَتَّسِقُ لَهُمْ أَمْرَانِ مِنْ أَمْرٍ وَاحِدٍ ، وَحَظَّانِ بِحَظٍّ ؛ وَنَصِيْبَانِ بِنَصِيْبٍ ؛ لِأَنَّ مَعَ ٱلإِعْجَابِ بِآثَارِهِمْ إِعْجَابًا آخَرَ بِٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِيْ أَبْدَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلآثَارَ ؛ فَفِيْ ذَوَاتِهِمُ ٱلْمَحْبُوْبَةِ يَسْتَمِرُّ ٱلإِعْجَابُ كَٱلسَّائِرِ عَلَىٰ طَرِيْقٍ لَا مَوْقِفَ عَلَيْهِ ، وَفِيْ آثَارِهِمْ يَكُوْنُ ٱلإِعْجَابُ فِيْ مَوْقِفٍ قَدِ ٱنْتَهَتِ ٱلطَّرِيْقُ بِهِ فَوَقَفَ عَلَىٰ حَدٍّ إِنْ بَعُدَ وَإِنْ قَرُبَ .

لَا جَرَمَ كَانَ شَاعِرُنَا عَبْقَرِيًّا ، عَجِيْبَ ٱلصَّنْعَةِ ، قَوِيَّ ٱلإِلْهَامِ ، بَلِيْغَ ٱلأَثَرِ فِيْ عَصْرِهِ ، يُشْبِهُ تَحَوُّلًا وَقَعَ فِيْ صُوْرَةٍ مِنْ صُوَرِ ٱلتَّارِيْخِ ، وَلَـٰكِنَّهُ كَذَلِكَ فِيْ مَذَاهِبَ مِنَ ٱلشِّعْرِ دُوْنَ غَيْرِهَا ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنَ ٱلتَّمَامِ فِيْ فُنُوْنِ ٱلشِّعْرِ مَا يَكُوْنُ بِهِ ٱلشَّاعِرُ ٱلتَّامُّ أَوِ ٱلأَدِيْبُ ٱلْكَامِلُ ٱلأَدَاةِ ؛ وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ كَلَّمْتُهُ فِيْ ذَلِكَ وَنَبَّهْتُهُ إِلَىٰ أَنَّهُ كَٱلنَّمَطِ ٱلْوَاحِدِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَرَسَّلَ شِعْرُهُ بَيْنَ ٱلنُّفُوْسِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ وَأَغْرَاضِهَا ٱلْكَثِيْرَةِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ، فَإِذَا كَانَتِ ٱلسِّيَاسَةُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ فَلَيْسَتِ ٱلْحَيَاةُ هِيَ ٱلسِّيَاسَةُ ، وَلَا يَنْبَغِيْ أَنْ يَكُوْنَ شِعْرُهُ كُلُّهُ كَشَمْسِ ٱلصَّيْفِ ، فَإِنَّ لِلرَّبِيْعِ شَمْسًا أَجْمَلَ مِنْهَا وَأَحَبَّ ، كَأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أَزْهَارِهِ وَعِطْرِهِ وَنَسِيْمِهِ .

وَلَقَدْ كَانَ يَفْخَرُ بِأَنَّهُ (ٱلشَّاعِرُ ٱلاجْتِمَاعِيُّ) ، وَهَـٰذَا لَقَبٌ مَيَّزَهُ بِهِ صَدِيْقُنَا ٱلأُسْتَاذُ مُحَمَّدْ كُرْدْ عَلِيْ أَيَّامَ كَانَ فِيْ مِصْرَ قَدِيْمًا ، فَتَعَلَّقَ بِهِ حَافِظٌ وَرَآهُ تَعْبِيْرًا صَحِيْحًا لِمَا فِيْ نَفْسِهِ وَلِلْمَمْلَكَةِ ٱلَّتِيْ ٱخْتَصَّ بِهَا ، قَالَ لِيْ يَوْمًا فِيْ سَنَةِ ١٩٠٣ : أَنَا لَا أَعُدُّ شَاعِرًا إِلَّا مَنْ كَانَ يَنْظِمُ فِيْ ٱلاجْتِمَاعِيَّاتِ . فَقُلْتُ لَهُ : وَمَا لَكَ لَا تَقُوْلُ بِٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَكْشُوْفَةِ : إِنَّكَ لَا تَعُدُّ ٱلشَّاعِرَ إِلَّا مَنْ يَنْظِمُ مَقَالَاتِ ٱلْجَرَائِدِ . . .

وَلَا بُدَّ لِيْ أَنْ أَبْسُطَ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِيْ هَـٰذَا ٱلْفَصْلِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ دَائِمًا أَنَّ شَاعِرَنَا (حَافِظ) خُلِقَ لِلتَّأْرِيْخِ فِيْ أَصْلِ طَبِيْعَتِهِ ، ثُمَّ زِيْدَتْ فِيْهِ مَوْهِبَةُ ٱلشِّعْرِ لِيَكُوْنَ مُؤَرِّخًا حَيَّ ٱلْوَصْفِ بَلِيْغَ ٱلتَّأْثِيْرِ قَوِيَّ ٱلتَّصَرُّفِ ، وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ أَكْثَرُ مَا نَظَمَهُ وَأَسَاسُهُ ٱلتَّارِيْخَ وَٱلسِّيَاسَةَ ، وَصَحَّ لَهُ بِهَـٰذَا ٱلاعْتِبَارِ أَنْ يَقُوْلَ : إِنَّهُ ٱلشَّاعِرُ ٱلاجْتِمَاعِيُّ ، وَلَـٰكِنَّ مَادَّةَ ٱلشِّعْرِ غَيْرُ رُوْحِ ٱلشِّعْرِ ، فَإِذَا كَانَ فِيْ ٱلْمَادَّةِ ٱجْتِمَاعِيٌّ وَسِيَاسِيٌّ فَلَيْسَ فِيْ ٱلرُّوْحِ إِلَّا ٱلشَّاعِرُ عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ ؛ وَٱلاجْتِمَاعِيَّاتُ لَيْسَتْ كُلَّ حَقَائِقِ ٱلْحَيَاةِ ، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَانٍ خَاصَّةٌ مَحْصُوْرَةٌ فِيْ زَمَنِهَا

وَمَكَانِهَا ، عَلَىٰ أَنَّ ٱلْحَقَائِقَ لَيْسَتْ هِيَ ٱلشِّعْرَ ، وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ تَصْوِيْرُهَا وَٱلإِحْسَاسُ بِهَا فِيْ شَكْلٍ حَيٍّ تَلْبَسُهُ ٱلْحَقِيْقَةُ مِنَ ٱلنَّفْسِ ، فَٱلشَّاعِرُ ٱلاجْتِمَاعِيُّ شَاعِرٌ فِيْ حَيِّزٍ مَحْدُوْدٍ مِنْ وُجُوْهِ ٱلشِّعْرِ وَمَذَاهِبِهِ ، وَإِذَا كَانَ ٱلاجْتِمَاعُ كُلَّ شِعْرِهِ فَلَا يُسَمَّىٰ شِعْرُهُ فَنًّا ، إِذْ كَانَ ٱلْفَنُّ إِنْسَانِيًّا وَكَانَ شَامِلًا عَامًّا ؛ وَٱلْمَقَايِيْسُ ٱلَّتِيْ يَطَّرِدُ عَلَيْهَا ٱلْفَنُّ ٱلأَدَبِيُّ لَا تَكُوْنُ فِيْ ٱلزَّمَنِ وَلَا فِيْ ٱلْمَوْضِعِ ، بَلْ فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلَّتِيْ لَا تَخْتَصُّ بِوَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلشِّعْرُ إِنْسَانِيًّا عَامًّا يُوْلَدُ كُلُّ جِيْلٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَيَجِدُهُ كَأَنَّمَا وُضِعَ لَهُ وَٱرْتَهَنَ بِأَغْرَاضِهِ وَحَقَائِقِهِ ، فَهُوَ شِعْرٌ (كَٱلأَخْبَارِ ٱلْمَحَلِّيَّةِ) ؛ وَهَـٰذَا وَجْهُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ آنِفًا مِنْ نَظْمِ مَقَالَاتِ ٱلْجَرَائِدِ .

فَمَقَالَاتُ ٱلْجَرَائِدِ هَـٰذِهِ لَا تَأْتِيْنَا بِٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِيْ نَحْنُ مِنْهَا فِيْ ٱلإِنْسَانِيَّةِ وَٱلطَّبِيْعَةِ وَٱلْجَمَالِ وَحَقَائِقِ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ ، بَلِ ٱلَّتِيْ يَكُوْنُ مِنْهَا يَوْمُنَا ٱلْمَرْقُوْمُ بِأَنَّهُ يَوْمُ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا مِنْ سَنَةِ كَذَا . . . فَإِذَا مَاتَ ٱلْيَوْمُ مَاتَتِ ٱلْجَرِيْدَةُ ، ثُمَّ تُوْلَدُ ثُمَّ تَمُوْتُ ؛ وَقَدْ أَدْرَكَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ سِرَّ ٱلشِّعْرِ وَأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَىٰ تَحْوِيْلِ ٱلشُّعُوْرِ ٱلإِنْسَانِيِّ إِلَىٰ مَعْرِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ ، فَخَلَدَ شِعْرُهُ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُمْحَىٰ مِنَ ٱلْعَرَبِيَّةِ مَا بَقِيَتْ . وَهَـٰذَا عَلَىٰ مَا يُقْدَحُ مِنْ وُجُوْهِ ٱلاعْتِرَاضِ وَٱلنَّقْصِ ، وَعَلَىٰ أَنَّ ٱلْمُتَنَبِّيَّ كَانَ ضَعِيْفًا فِيْ نَاحِيَةِ ٱلْجَمَالِ وَٱلْحُبِّ ضَعْفًا ظَاهِرًا كَضَعْفِ شَاعِرِنَا حَافِظْ فِيْ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، وَلَـٰكِنَّ حِكْمَتَهُ ٱلإِنْسَانِيَّةَ وَدِقَّةَ أَوْصَافِهِ وَإِقَامَتَهُ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلرَّذَائِلَ فِيْ كَمَالِهَا ٱلْفَنِّيِّ مَقَامَ تَمَاثِيْلَ بَارِعَةٍ مِنَ ٱلْجَمَالِ ، كُلُّ ذَلِكَ تَرَكَ شِعْرَهُ مُسْتَمِرًّا بِٱسْتِمْرَارِ ٱلْحَيَاةِ وَبِٱسْتِمْرَارِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ وَبِٱسْتِمْرَارِ ٱلذَّوْقِ .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْكَوْنَ مَبْنِيٌّ فِيْ نَفْسِهِ مِمَّا يَعْلَمُ ٱلْعِلْمُ تَرْكِيْبَهُ وَلَا يَعْلَمُ سِرَّ تَرْكِيْبِهِ إِلَّا ٱللهُ وَحْدَهُ ، وَلَـٰكِنَّهُ مَبْنِيٌّ فِيْ أَنْفُسِنَا مِنْ عَمَلِ ٱلْحَوَاسِّ ، ثُمَّ مِنَ ٱلتَّعْلِيْلِ وَٱلتَّفْسِيْرِ ؛ أَمَّا ٱلْحَوَاسُّ فَفِيْ كُلِّ حَيٍّ ، لَا تُخْلَقُ بِصِنَاعَةٍ وَلَا عَمَلٍ ؛ وَأَمَّا ٱلتَّعْلِيْلُ وَٱلتَّفْسِيْرُ فَهُمَا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشَّاعِرِ وَٱلأَدِيْبِ ، فَكِلَاهُمَا يُخْلَقُ لِإِتْمَامِ ٱلْخَلْقِ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ ، وَهِيَ مَنْزِلَةٌ لَا أَدْرِيْ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تُمْسَخَ حَتَّىٰ تَقْتَصِرَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ ٱلشَّاعِرِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ أَوِ ٱلسِّيَاسِيِّ ، فَتَرْجِعَ بِهِ نَمَطًا وَاحِدًا مَعَ أَنَّ ٱلآثَارَ ٱلأَدَبِيَّةَ وَفِيْ جُمْلَتِهَا ٱلشِّعْرُ ، إِنْ هِيَ إِلَّا قُوَىٰ ٱلْفِكْرِ وَإِلْهَامَ ٱلنَّفْسِ وَبَصِيْرَةَ ٱلرُّوْحِ مُسَجَّلَةً كُلَّهَا فِيْ بَوَاعِثِهَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ نَفْسٍ عَالِيَةٍ مُمْتَازَةٍ ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلْقُوَىٰ كَثِيْرَةُ ٱلتَّحَوُّلِ ،

فَيَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ آثَارُهَا كَثِيرَةَ ٱلتَّنَوُّعِ ، وَتَنَوُّعُ ٱلصُّوَرِ ٱلْفِكْرِيَّةِ فِي آثَارِ ٱلشَّاعِرِ أَوِ ٱلْأَدِيبِ وَمَجِيئُهَا مُتَوَافِرَةً مُتَتَابِعَةً هُوَ مِعْيَارُ أَدَبِهِ وَقِيَاسُ نُبُوغِهِ عَالِيًا أَوْ نَازِلًا ، وَمُتَّبِعًا أَوْ مُبْتَكِرًا ، وَفِيمَا يُضِيءُ مِنْ نَوَاحِيهِ وَمَا يَنْطَفِئُ .

عَلَىٰ أَنَّ شَاعِرَنَا ٱلِاجْتِمَاعِيَّ (كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوصَفَ رَحِمَهُ ٱللهُ) وَإِنْ كَانَ قَدْ نَفَخَ فِي رُوحِ ٱلشَّعْبِ أَنْفَاسًا إِلَـٰهِيَّةً ، وَأَحْسَنَ فِي وَصْفِ حَوَادِثِهِ وَآلَامِهِ وَعُيُوبِهِ ، وَأَبْلَغَ ٱلْبَيَانَ فِي كُلِّ ذَٰلِكَ ـ فَإِنَّهُ نَزَلَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَنْ وَضْعِهِ ٱلصَّحِيحِ ، فَكَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ بِمَكَانِ ٱلشُّرْطِيِّ فِي ٱلطَّرِيقِ ؛ يَقِفُ لِلْجَرَائِمِ وَٱلْحَوَادِثِ ، عَلَىٰ حِينِ أَنَّ مَقَامَهُ ٱلِاجْتِمَاعِيَّ مِنَ ٱلشَّعْبِ مَقَامُ ٱلْمُعَلِّمِ فِي مَدْرَسَتِهِ : يَجْلِسُ لِلطِّبَاعِ وَٱلْأَخْلَاقِ . لَيْسَ ٱلشَّأْنُ أَنْ يُوجَدَ فِي شِعْرِ ٱلشَّاعِرِ حَوَادِثُ عَصْرِهِ أَكْثَرُهَا أَوْ أَقَلُّهَا ، فَإِنَّ فَوْقَ هَـٰذِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَىٰ مِنْهَا ، وَهِيَ أَنْ تُوجَدَ حَوَادِثُ ٱلنَّهْضَةِ بِشِعْرِ ٱلشَّاعِرِ ، وَأَنْ يَكُونَ فِي شِعْرِهِ ٱلْعُنْصُرُ ٱلنَّارِيُّ مِنَ ٱللُّغَةِ ٱلشَّعْبِيَّةِ .

عَلَىٰ أَنَّ « حافظ » رَحِمَهُ ٱللهُ أَدْرَكَ كُلَّ هَـٰذَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ ، فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُمِيتَ دِيوَانَهُ وَيَسْتَخْرِجَ مِنْهُ جُزْءًا صَغِيرًا يَخْتَارُ فِيهِ أَلْفَ بَيْتٍ وَيُسْقِطُ مَا عَدَاهَا وَإِنْ . . وَإِنْ كَانَ فِيهِ شِعْرٌ ٱجْتِمَاعِيٌّ . . . وَمَعَ هَـٰذَا ٱلنَّقْصِ ٱلَّذِي بُعِثَتْ عَلَيْهِ طَبِيعَةُ ٱلزَّمَنِ وَطَبِيعَةُ ٱلشَّاعِرِ مَعًا ، فَإِنَّ تَمَامَ « حافظ » فِي مَذْهَبِهِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ ٱلَّذِي نَبَغَ فِيهِ جَاءَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْقُوَّةِ وَفَوْقَ ٱلطَّاقَةِ ، لَا يُجَارِيهِ فِيهِ شَاعِرٌ آخَرُ ، بِحَيْثُ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ ٱلنَّابِغَةَ قَدَرٌ إِلَـٰهِيٌّ لَا يُنْقِصُ مِنْ عَظَمَتِهِ أَنْ يَكُونَ حَادِثَةً وَاحِدَةً تُدَوِّي دَوِيَّهَا فِي ٱلدُّنْيَا ؛ فَهُوَ مُيَسَّرٌ مُنْذُ نَشْأَتِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ مِنْ ذَٰلِكَ ، فَأَحْكَمَتْهُ ٱلْمَدْرَسَةُ ٱلْحَرْبِيَّةُ ثُمَّ قَيَّدَهُ ٱلْجَيْشُ ، ثُمَّ تَقَاذَفَهُ ٱلسُّودَانُ ، ثُمَّ قَذَفَ بِهِ ٱلظُّلْمُ ، ثُمَّ تَوَلَّاهُ إِمَامُ عَصْرِهِ ٱلشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُهُ ، وَهُوَ كَذَٰلِكَ فِي غَايَاتِهِ ٱلْوَعِرَةِ وَمَقَاصِدِهِ ٱلْعُمْرَانِيَّةِ وَمَعَانِيهِ لِلْإِصْلَاحِ ـ مَدْرَسَةٌ حَرْبِيَّةٌ وَجَيْشٌ وَفَلَاةٌ ، فَلَمْ يَكُنْ حافظٌ إِلَّا ٱلصَّوْتَ ٱلْإِنْسَانِيَّ ٱلَّذِي أُعِدَّ بِخَصَائِصِهِ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ حَوَادِثِ أُمَّتِهِ وَخَصَائِصِهَا ، وَكَأَنَّهُ فِي نَقْلَتِهِ مِنَ ٱلسُّودَانِ إِلَىٰ مِصْرَ قَدِ ٱنْتَقَلَ مِنْ جَيْشٍ يُحَارِبُ ٱلْأَقْوَامَ ٱلْأَعْدَاءَ لِأُمَّتِهِ ، إِلَىٰ جَيْشٍ آخَرَ يُحَارِبُ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْأَعْدَاءَ لِأُمَّتِهِ .

* * *

وُلِدَ حافظُ إبراهيم سَنَةَ ١٨٧١ ، وَكَانَ ٱلْكِتَابُ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي هَدَاهُ إِلَىٰ سِرِّ ٱلْأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ

وَأَرْهَفَ ذَوْقَهُ وَأَحْكَمَ طَبِيعَتَهُ ، هُوَ كِتَابُ « ٱلْوَسِيلَةِ ٱلْأَدَبِيَّةِ » لِلشَّيْخِ حُسَيْنٍ ٱلْمَرْصِفِيِّ ، ٱلْمَطْبُوعُ فِي مِصْرَ لِخَمْسٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً ؛ فَفِي هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ قَرَأَ حافظٌ خُلَاصَةً مُخْتَارَةً مُحَقَّقَةً مِنْ فُنُونِ ٱلْأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ فِي عُصُورِهِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ، وَدَرَسَ ذَوْقَ ٱلْبَلَاغَةِ فِي أَسْمَىٰ مَا يَبْلُغُ بِهَا ٱلذَّوْقُ ، وَوَقَفَ عَلَىٰ أَسْرَارِ تَرْكِيبِهَا ، وَعَرَفَ مِنْهُ ٱلطَّرِيقَةَ ٱلَّتِي نَبَغَ بِهَا ٱلْبَارُودِيُّ ، وَهِيَ قِرَاءَتُهُ دَوَاوِينَ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَحِفْظُهُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا ، فَبَنَىٰ شَاعِرُنَا مِنْ يَوْمِئِذٍ قَرِيحَتَهُ عَلَى ٱلْحِفْظِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَحْفَظُ إِلَىٰ آخِرِ عُمْرِهِ ، إِذْ كَانَتْ قَرِيحَتُهُ كَآلَةِ ٱلتَّصْوِيرِ : لَا تَتَنَبَّهُ لِشَيْءٍ إِلَّا عَلِقَتْهُ ، وَهَـٰذَا سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ضَعْفِ خَيَالِهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ رَدَّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ فِي ٱللُّغَةِ مَا تَنَاهَىٰ فِيهِ إِلَى ٱلْغَايَةِ .

وَٱتَّفَقَ لِذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ أَنْ طُبِعَتْ « لُزُومِيَّاتُ ٱلْمَعَرِّيِّ » فِي مِصْرَ ، فَتَنَاوَلَهَا حافظٌ وَٱسْتَظْهَرَ أَكْثَرَهَا ، فَكَانَتْ بَاعِثَ مَيْلِهِ وَنَزْعَتِهِ إِلَى ٱلشِّعْرِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ ، وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ حافظٍ وَبَيْنَ ٱلْمَعَرِّيِّ فِي ٱلْمَوْهِبَةِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ هُوَ ٱلَّذِي نَفَذَ بِٱلْمَعَرِّيِّ إِلَىٰ أَسْرَارٍ كَثِيرَةٍ وَوَقَفَ بِحافظٍ عِنْدَ ٱلظَّاهِرِ وَمَا حَوْلَهُ ، يَطِيرُ هُنَاكَ وَيَقَعُ .

وَقَدْ كَانَ صَاحِبُنَا ضَعِيفًا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ ، فَٱسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ أَسْرَارٌ وَٱسْتَغْلَقَتْ أُخْرَىٰ مِنْ أَسْرَارِ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَٱلْجَمَالِ وَٱلْحُسْنِ فِي ٱلْخَلِيقَةِ ، وَٱلْجَلَالِ وَٱلْإِبْدَاعِ فِي ٱلْكَوْنِ ، وَٱلْإِقْرَارِ وَٱلشَّكِّ فِي كُلِّ ذَٰلِكَ ، وَقَدْ بَلَغَ ٱلْمَعَرِّيُّ مِنْ هَـٰذَا مَبْلَغًا لَا بَأْسَ بِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُصَفَّ كَمَا تُصَفَّى ٱلْأَشْيَاءُ فِي عَيْنٍ مُبْصِرَةٍ ، فَخَبَطَ وَخَلَّطَ ، وَوَضَعَ مِنْ أَغْرَاضِ نَفْسِهِ ٱلْمَرِيضَةِ عَلَى ٱلصَّحِيحِ وَٱلْمَرِيضِ جَمِيعًا . وَتَابَعَهُ حافظٌ فِي طَرِيقَةٍ أُخْرَىٰ سَنُشِيرُ إِلَيْهَا بَعْدُ .

وَفُتِنَ شَاعِرُنَا بِمَا قَرَأَ فِي « ٱلْوَسِيلَةِ » مِنْ شِعْرِ ٱلْبَارُودِيِّ ، فَأَصْبَحَ مِنْ يَوْمِئِذٍ تِلْمِيذَهُ ، وَسَارَ عَلَىٰ نَهْجِهِ فِي قُوَّةِ ٱللَّفْظِ وَجَزَالَةِ ٱلسَّبْكِ وَمَتَانَةِ ٱلصَّنْعَةِ وَجَوْدَةِ ٱلتَّأْلِيفِ عَلَىٰ نَغَمِ ٱلْأَلْفَاظِ وَأَجْرَاسِ ٱلْحُرُوفِ ، وَلَـٰكِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَأْوَ ٱلْبَارُودِيِّ فِي ذَٰلِكَ ، لِأَنَّ هَـٰذَا جَمَعَ مِنْ دَوَاوِينِ ٱلشُّعَرَاءِ وَكُتُبِ ٱلْأَدَبِ مَا لَمْ يَتَّفِقْ لِغَيْرِهِ فِي عَصْرِهِ ، وَأَدْخَلَ فِي شِعْرِهِ أَحْسَنَ مَا صَنَعَتِ ٱلدُّنْيَا فِي أَلْفِ سَنَةٍ مِنْ تَارِيخِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ؛ وَلِذَا ٱنْتَقَلَ عَنْهُ حافظٌ إِلَىٰ طَرِيقَةِ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ فِي ٱلصَّنِيعِ وَلَزِمَهَا إِلَىٰ آخِرِ مُدَّتِهِ .

وَٱبْتَدَأَ يُعَالِجُ ٱلشِّعْرَ فِي ٱلسُّودَانِ يَنْظِمُ فِي جِنْسٍ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنْ وَصْفِ ٱلْهَمِّ ٱلْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، إِذْ كَانَ يَتِيمًا فَقِيرًا مُشَرَّدًا ، وَيَرَى نَفْسَهُ شَاعِرًا تَصُدُّهُ ٱلْحَيَاةُ عَنْ مَنْزِلَةِ ٱلشَّاعِرِ وَعَنْ أَمْكِنَةِ ٱلشِّعْرِ ، كَٱلَّذِي غُصِبَ مِيرَاثُهُ مِنْ عَرْشٍ وَمُلْكٍ ، وَنُفِيَ إِلَىٰ غَيْرِ أَرْضِهِ ، وَوُضِعَتْ رُوحُهُ بِإِزَاءِ رُوحِ ٱلْفَقْرِ ، وَقِيلَ لَهَا : عَدُوٌّ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدٌّ .

ثُمَّ جَاءَ مِصْرَ وَٱتَّصَلَ بِٱلْإِمَامِ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدُهْ ، وَٱسْتَقَالَ مِنَ ٱلْجَيْشِ وَفَرَغَ لِلْأَدَبِ ، فَبَدَأَ مِنْ ثَمَّ تَكْوِينُهُ ٱلْأَدَبِيُّ ٱلْمُنْدَمِجُ ٱلْمُحْكَمُ ، أَمَّا قَبْلَ ذَٰلِكَ إِلَىٰ سَنَةِ ١٩٠١ ٱلَّتِي طُبِعَ فِيهَا ٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ مِنْ دِيوَانِهِ ، فَكَانَ شِعْرُهُ قَلِيلًا ظَاهِرَ ٱلتَّكَلُّفِ ، وَأَكْثَرُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ مُضْطَرِبَةٍ لَمْ تَسْتَحْكِمْ ، وَفِكْرٍ لَمْ يَنْضَجْ ، وَمَوْهِبَةٍ فِي ٱلتَّوْلِيدِ ٱلشِّعْرِيِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلاسْتِقْلَالِ أَمَدٌ قَرِيبٌ .

وَدَرَسَ فِي مَدْرَسَةِ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدُهْ مِنْ سَنَةِ ١٨٩٩ إِلَىٰ سَنَةِ ١٩٠٥ ، وَهَـٰذَا ٱلْإِمَامُ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ كَانَ مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهِ رَجُلًا فَذًّا ، وَكَأَنَّهُ نَبِيٌّ تَأَخَّرَ عَنْ زَمَنِهِ ، فَأُعْطِيَ ٱلشَّرِيعَةَ وَلَـٰكِنْ فِي عَزِيمَتِهِ ، وَوُهِبَ ٱلْوَحْيَ وَلَـٰكِنْ فِي عَقْلِهِ ، وَٱتَّصَلَ بِٱلسِّرِّ ٱلْقُدْسِيِّ وَلَـٰكِنْ مِنْ قَلْبِهِ ، وَلَوْلَا هُوَ وَلَوْلَا أَنَّهُ بِهَـٰذِهِ ٱلْخَصَائِصِ لَكَانَ حَافِظٌ شَاعِرًا مِنَ ٱلطَّبَقَةِ ٱلثَّانِيَةِ ، فَإِنَّهُ مِنَ ٱلشَّيْخِ وَحْدَهُ كَانَتْ لَهُ هَـٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي جَعَلَتْهُ يُصِيبُ ٱلْإِلْهَامَ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ يَعْرِفُهُ ، وَكَانَ لَهُ مِنْ أَثَرِهَا هَـٰذَا ٱلشِّعْرُ ٱلْمَتِينُ فِي وَصْفِ ٱلْعُظَمَاءِ وَٱلْعَظَائِمِ وَهُوَ أَحْسَنُ شِعْرِهِ .

وَلَمْ يَجِدْ حَافِظٌ مِنْ قَوْمِهِ مَا يَجْعَلُهُ لِسَانَهُمْ حَتَّىٰ تُنْطِقَهُ بِٱلْوَحْيِ نَفْسِيَّتُهُمُ ٱلتَّارِيخِيَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ، وَلَا تَوَلَّاهُ مَلِكٌ أَوْ أَمِيرٌ يَرْغَبُ فِي أَدَبِهِ رَغْبَةَ أَدِيبٍ مَلِكٍ ، أَوْ أَدِيبٍ أَمِيرٍ ، لِيُظْهِرَ مِنْهُ عَبْقَرِيَّةً جَدِيدَةً فِي ٱلتَّارِيخِ ، وَلَا عَرَفَ ٱلْحُبَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ لِلشَّاعِرِ مِنْ سِحْرِ ٱلْحَبِيبِ مَا يَجْمَعُ ٱلنَّفْسِيَّةَ ٱلتَّارِيخِيَّةَ وَٱلْمَلَكِيَّةَ مَعًا وَيَزِيدُ عَلَيْهِمَا ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلَّتِي لَمْ تَتَّفِقْ لِحَافِظٍ ، هِيَ ٱلَّتِي لَا يَنْبُغُ ٱلشَّاعِرُ نُبُوغًا يُفْرِدُهُ وَيُمَيِّزُهُ إِلَّا بِوَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ بِٱثْنَيْنِ أَوْ بِهَا كُلِّهَا ، غَيْرَ أَنَّ « حَافِظ » وَجَدَ فِي ٱلْإِمَامِ مَا هُوَ أَسْمَىٰ مِنْ كُلِّ هَـٰؤُلَاءِ فِي ٱلنَّفْسِ وَٱلْجَاذِبِيَّةِ ، وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ ذَوْقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلْبَلَاغَةِ مَا لَمْ يَعْرِفْ شَاعِرٌ فِي مَلِكٍ وَلَا أَمِيرٍ ؛ وَقَدْ حَضَرَ دُرُوسَهُ فِي ٱلْمَنْطِقِ وَ« أَسْرَارِ ٱلْبَلَاغَةِ » وَ« دَلَائِلِ ٱلْإِعْجَازِ » ، وَخَرَجَ مِنْهَا بِذَوْقِهِ ٱلدَّقِيقِ وَأُسْلُوبِهِ ٱلْمُتَمَكِّنِ ، وَحَضَرَ مَجَالِسَهُ وَخَرَجَ مِنْهَا بِمَوَاضِيعِهِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ وَأَغْرَاضِهِ ٱلْوَثَّابَةِ ، وَحَضَرَ نَظَرَاتِ عَيْنَيْهِ وَخَرَجَ مِنْهَا بِرُوحَانِيَّةٍ قَوِيَّةٍ هِيَ ٱلَّتِي تَتَضَرَّمُ فِي شِعْرِهِ إِلَىٰ ٱلْأَبَدِ ؛ فَحَافِظٌ إِحْدَىٰ حَسَنَاتِ ٱلشَّيْخِ عَلَىٰ ٱلْعَالَمِ ٱلْعَرَبِيِّ ، وَهُوَ خُطَّةٌ مِنْ خُطَطِهِ فِي عَمَلِهِ لِلْإِصْلَاحِ ٱلشَّرْقِيِّ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَٱلنَّهْضَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ٱلْوَطَنِيَّةِ وَإِحْيَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا ؛ وَإِذَا ذُكِرَتْ حَسَنَاتُ ٱلشَّيْخِ أَوْ عُدَّتْ لِلتَّارِيخِ ، وَجَبَ أَنْ يُقَالَ : أَصْلَحَ وَفَعَلَ وَفَعَلَ وَفَسَّرَ ٱلْقُرْآنَ وَأَنْشَأَ « حَافِظ إِبْرَاهِيم » . . .

وَمَضَىٰ شَاعِرُنَا مُوَجَّهًا بِفِكْرَةِ ٱلْإِمَامِ وَرُوحِهِ ، وَٱسْتَمَرَّ فِي ذَٰلِكَ بَعْدَ مَوْتِ ٱلشَّيْخِ كَمَا يَسْتَمِرُّ ٱلنَّهْرُ إِذَا ٱحْتَفَرَ مَجْرَاهُ : لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْهُ مَا دَامَ يَجْرِي إِلَىٰ مَقَارِّهِ .

* * *

وَكَانَ حَافِظٌ فِي بَدِيعِهِ وَصِنَاعَتِهِ عَلَىٰ مَذْهَبِ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ كَمَا قُلْنَا ، وَهُوَ مِثْلُهُ إِبْطَاءً فِي عَمَلِ ٱلشِّعْرِ وَتَلَوُّمًا عَلَىٰ حَوْكِهِ ، وَٱنْفِرَادًا بِكُلِّ لَفْظَةٍ مِنْهُ ، وَتَقْلِيبًا لِلنَّظَرِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلِمَةِ وَٱلْكَلِمَةِ ، وَٱعْتِبَارِ كُلِّ بَيْتٍ كَٱلْعَرُوسِ : لَهَا مَعْرِضٌ وَحِلْيَةٌ وَزِينَةٌ ، فَإِذَا عَمِلَ شِعْرًا ٱنْبَثَّتْ خَوَاطِرُهُ فِي كُلِّ وَجْهٍ ، وَذَهَبَ وَرَاءَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي ، وَتَرَكَ هَاجِسَهُ (ٱلْعَقْلَ ٱلْبَاطِنِيَّ)(١) يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِيمَا ٱلْتَوَىٰ عَلَيْهِ أَوِ ٱسْتَعْصَبَ ، وَهُوَ وَاثِقٌ أَنَّهُ سَيَنْقَادُ وَيَتَسَهَّلُ بِقُوَّةٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ ٱلْآنَ فَسَتَكُونُ فِيهِ ؛ ثُمَّ يَنْظِمُ مَا يَتَسَمَّحُ إِنْ جَاءَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ أَوْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، فَلَا يَتَّبِعُ فِيهَا نَسَقًا بِعَيْنِهِ . وَإِنَّمَا ٱلْقَصِيدَةُ عِنْدَهُ كُلُّ مَا سَيَجْتَمِعُ مِنْ بَعْدُ ، وَتَتَهَيَّأُ أَجْزَاؤُهُ مُتَّسِقَةً وَمُبَعْثَرَةً كَمَا يَجِيءُ بِهَا ٱلْإِلْهَامُ وَأَسْبَابُ ٱلاتِّفَاقِ ، فَٱلْقَصِيدَةُ أَوَّلًا فِي أَبْيَاتِهَا ، ثُمَّ تَكُونُ أَبْيَاتُهَا فِيهَا ، أَيْ : ثُمَّ تُرَتَّبُ ٱلْأَبْيَاتُ وَتُنَزَّلُ فِي مَنَازِلِهَا ، وَلَا يَنْظِمُ إِلَّا مُتَغَنِّيًا ، يَرُوضُ ٱلشِّعْرَ بِذَٰلِكَ ، لِأَنَّ ٱلنَّفْسَ تَتَفَتَّحُ لِلْمُوسِيقَىٰ فَتَسْمَحُ وَتَنْقَادُ ، وَهُوَ يَتَّبِعُ فِي ذَٰلِكَ طَرِيقَةً مَعْرُوفَةً ذَكَرَهَا ٱبْنُ حِجَّةَ ٱلْحَمَوِيُّ فِي كِتَابِهِ « خِزَانَةُ ٱلْأَدَبِ » ، وَهِيَ مِنْ وَصِيَّةِ أَبِي تَمَّامٍ لِلْبُحْتُرِيِّ ، وَكَانَ ٱلْمُتَنَبِّي يَعْمَلُ عَلَيْهَا ؛ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَإِنَّ حَافِظْ يَرْتَهِنُ فِكْرَهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي يَنْظِمُهَا وَيَتَوَفَّرُ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ أَسْبَابِهَا ، لَا كَمَا يَفْرُغُ ٱلشَّاعِرُ لِلشِّعْرِ ، وَلَـٰكِنْ كَمَا يَتَوَفَّرُ ٱلْمُؤَلِّفُ ٱلْعَظِيمُ عَلَىٰ كِتَابٍ يُؤَلِّفُهُ ؛ وَهُوَ كَذَٰلِكَ يُبْطِئُ فِي نَثْرِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُبْطِئُ فِي ٱلشِّعْرِ ،

(١) { هَـٰكَذَا سَمَّاهُ ٱلْمُؤَلِّفُ هُنَا ، وَقَدْ سَمَّاهُ فِي غَيْرِ هَـٰذَا ٱلْمَوْضِعِ : « ٱلْوَاعِيَةُ ٱلْبَاطِنَةُ » } .

دَلَّنِي بِنَفْسِهِ رَحِمَهُ ٱللهُ عَلَىٰ صَفْحَةٍ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي مِنْ تَرْجَمَةِ « ٱلْبُؤَسَاءِ » وَقَالَ : إِنَّهُ تَرْجَمَهَا فِي خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا[1] .

وَحَضَرْتُهُ مَرَّةً يُتَرْجِمُ أَسْطُرًا مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ (فِي قَهْوَةِ ٱلشِّيشَةِ) يَخُطُّهَا فِي دَفْتَرٍ صَغِيرٍ دُونَ حَجْمِ ٱلْكَفِّ ، فَٱجْتَمَعَتْ لَهُ ثَلَاثَةُ أَسْطُرٍ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ ، وَهَـٰذَا لَا يَعِيبُهُ مَا دَامَ يُرِيدُ قِسْطَ ٱلْفَنِّ ، وَمَا دَامَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخْرِجَ ٱلْكَلِمَاتِ مِنْ عَالَمِهَا إِلَىٰ عَالَمِهِ هُوَ ٱلْمُتَمَوِّجِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْعِبَارَاتِ يُمَثِّلُ ٱلْكَوَاكِبَ فِي ٱلِاسْتِوَاءِ وَٱلْجَاذِبِيَّةِ وَٱلشُّعَاعِ وَٱلرَّوْنَقِ وَٱلْجَمَالِ .

وَيَرَىٰ مَعَ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ يَكُونَ سَبْكُ شِعْرِهِ سَبْكَ ٱلْبَدَوِيِّ ٱلْمَطْبُوعِ : جَزْلًا سَهْلًا مُشْرِقًا مُمْتَلِئًا مُتَعَادِلَ ٱلْأَجْزَاءِ وَٱلتَّقَاسِيمِ ، يَرِنُّ رَنِينًا كَأَنَّمَا قَذَفَتْ بِهِ سَلِيقَةُ أَعْرَابِيٍّ فَصِيحٍ ، تَحْتَ ضَوْءِ كَوَاكِبِ ٱلْبَادِيَةِ ، عَلَىٰ بَرْدِ ٱلرَّمْلِ ، فِي نَسَمَاتِ ٱللَّيْلِ ، حِينَ تَمْتَلِئُ تِلْكَ ٱلنَّفْسُ ٱلْبَدَوِيَّةُ بِحَنِينِ ٱلْحُبِّ ، أَوْ شَوْقِ ٱلْجَمَالِ ، أَوْ عَظَمَةِ ٱلْقُوَّةِ ؛ وَهَـٰذَا هُوَ ٱلْأَصْلُ ٱلَّذِي أَتْبَعُهُ ، وَقَفَنِي عَلَيْهِ هُوَ بِنَفْسِهِ فِي سَنَةِ ١٩٠٢ ، وَقَرَّظَنِي بِهِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ دِيوَانِي فَقَالَ : [من الخفيف]

أَنْـــتَ وَٱللهِ كَـــاتِـــبٌ حَضَـــرِيٌّ   إِنْ عَـــدَدْنَـــاكَ شَـــاعِـــرًا بَـــدَوِيَّـــا

وَلَوْ أَنَّكَ أَجْرَيْتَ شِعْرَ حَافِظٍ فِي أَبْلَغِ مَا قَالَهُ ٱلْمَطْبُوعُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ وَشُعَرَاءِ ٱلْقَرْنِ ٱلْأَوَّلِ ، لَٱلْتَأَمَ بِهِ وَزَادَ عَلَيْهِ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَىٰ ؛ وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ فِي شِعْرِهِ كَلِمَةً يَنْبُو بِهَا مَكَانُهَا ، إِلَّا أَلْفَاظًا قَلِيلَةً كَانَ يَسْتَكْرِهُهَا ، يَحْسَبُ أَنَّهُ يَسْتَطْرِفُ مِنْهَا وَيَرَىٰ فِي غَرَابَتِهَا شَيْئًا جَدِيدًا ؛ وَهَـٰذَا مِنْ خَطَإِ رَأْيِهِ فِي ٱلْأُسْلُوبِ ، لِأَنَّهُ مَعَ بَلَاغَتِهِ كَانَ يَنْقُصُهُ أَنْ يَكُونَ فَيْلَسُوفًا فِي ٱلْبَلَاغَةِ ؛ وَأَنَا أَرَىٰ أَنَّهُ لَوْ تَمَّتْ لَهُ ٱلْمَوْهِبَةُ ٱلْفَلْسَفِيَّةُ لَمَا جَارَاهُ شَاعِرٌ آخَرُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْكَمَالَ عَزِيزٌ فِي ٱلْبَشَرِيَّةِ ؛ وَقَدْ عَرَفْتُ رَأْيَهُ فِي ٱلْأُسْلُوبِ فِي سَنَةِ ١٩٠٦ ، إِذْ نَشَرَتْ لَهُ مَجَلَّةُ « ٱلْأَقْلَامِ » ٱلَّتِي كَانَ يُصْدِرُهَا صَاحِبُنَا ٱلْأَدِيبُ جورج طنوس كَلِمَاتٍ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُضَمِّنَهَا كِتَابَهُ « لَيَالِي سُطَيحٍ » ، أَظْهَرَ فِيهَا رَأْيَهُ فِي ٱلشُّعَرَاءِ ، فَقَالَ فِي إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي :

(١) لَمَّا أُهْدِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْجُزْءُ كُنَّا قَبْلَ ٱلظُّهْرِ ، فَلَمْ يَدَعْنِي حَتَّىٰ قَرَأْتُهُ كُلَّهُ مَعَهُ إِلَى ٱلْعَصْرِ ، وَكَتَبْتُ عَنْهُ فِي « ٱلْمُقَطَّمِ » بَعْدَ ذَلِكَ .

يَقُولُ ٱلشِّعْرَ لِنَفْسِهِ لَا لِلنَّاسِ . وَفِي شَوْقِي : أَرَقُّ ٱلشُّعَرَاءِ طَبْعًا وَأَسْمَاهُمْ خَيَالًا . وَفِي مُطْرَانَ : أَسْرَعُهُمْ بَدِيهَةً وَأَقْدَرُهُمُ ٱبْتِكَارًا . وَقَالَ فِيَّ ـ وَلَمْ يَكُنْ مَضَىٰ عَلَيَّ إِلَّا سِتُّ سِنِينَ فِي طَلَبِ ٱلْأَدَبِ ـ : مِكْثَارٌ رَاقِي ٱلْخَيَالِ بَعِيدُ ٱلشَّوْطِ فِي مَيَادِينِ ٱلْأَدَبِ ، غَيْرُ نَاضِجِ ٱلْأُسْلُوبِ . فَلَمَّا ٱجْتَمَعْتُ بِهِ فَاتَحْتُهُ فِي ذَلِكَ وَسَأَلْتُهُ رَأْيَهُ فِي ٱلْأُسْلُوبِ ٱلنَّاضِجِ ، فَلَمْ أَرَ عِنْدَهُ طَائِلًا . وَكُلُّ مَا قَالَهُ فِي ذَلِكَ : إِنَّ ٱلشَّيْخَ عَبْدَ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيَّ قَرَّرَ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ فِي ٱللَّفْظِ وَلَا فِي ٱلْمَعْنَىٰ ، وَلَـٰكِنَّهَا فِي ٱلْأُسْلُوبِ . وَعَبْدُ ٱلْقَاهِرِ لَمْ يَقُلْ هَـٰذَا وَلَا قَالَهُ غَيْرُهُ ، فَإِنَّ ٱلْأُسْلُوبَ عِنْدَهُ « طَرِيقَةٌ مَخْصُوصَةٌ فِي نَسْقِ ٱلْأَلْفَاظِ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ لِتَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلنَّفْسِ وَتَنْزِيلِهَا » ، « وَأَنَّ ٱلْمَنْزِلَةَ مِنْ حَيِّزِ ٱلْمَعَانِي دُونَ ٱلْأَلْفَاظِ ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ لَكَ حَيْثُ تَسْمَعُ بِأُذُنِكَ ، بَلْ حَيْثُ تَنْظُرُ بِقَلْبِكَ وَتَسْتَعِينُ بِفِكْرِكَ » .

وَقَدْ قَرَّرْتُ لَهُ أَنَّ لِلْأَلْفَاظِ مَا يُشْبِهُ ٱلْأَلْوَانَ ، فَلَيْسَتْ كُلُّهَا زَرْقَاءَ وَلَا صَفْرَاءَ وَلَا حَمْرَاءَ ، وَرُبَّ لَفْظَةٍ رَقِيقَةٍ تَقَعُ ضَعِيفَةً فِي مَوْضِعٍ فَيَكُونُ ضَعْفُهَا فِي مَوْضِعِهَا ذَاكَ هُوَ كُلُّ بَلَاغَتِهَا وَقُوَّتِهَا ، كَفَتْرَةِ ٱلسُّكُوتِ بَيْنَ أَنْغَامِ ٱلْمُوسِيقَىٰ : هِيَ فِي نَفْسِهَا صَمْتٌ لَا قِيمَةَ لَهُ ، وَلَـٰكِنَّهَا فِي مَوْضِعِهَا بَيْنَ ٱلْأَنْغَامِ نَغَمٌ آخَرُ ذُو تَأْثِيرٍ بِسُكُونِهِ لَا بِرَنِينِهِ ؛ وَهَـٰذَا مِنْ رُوحِ ٱلْفَنِّ فِي ٱلْأُسْلُوبِ .

وَأَدْرَكَ شَاعِرَنَا مِنْ يَوْمِئِذٍ مَا سَمَّيْتُهُ « قُوَّةَ ٱلضَّعْفِ » ، وَلَعَلَّ هَـٰذَا هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي أَنَّ طَبْعَهُ رَجَعَ يَعْدِلُ بِهِ إِلَى ٱلتَّسْهِيلِ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَتَقَعُ فِي شِعْرِهِ أَبْيَاتٌ مُتَهَافِتَةٌ فَيَأْتِي بِهَا وَلَا يُنْكِرُهَا ؛ وَلَقِيَنِي مَرَّةً فَأَنْشَدَنِي قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ [من المديد] :

أَنَـــا لَـــمْ أُرْزَقْ مَحَبَّتَهَـــا   إِنَّمَـــا لِلْعَبْـــدِ مَـــا رُزِقَـــا

وَجَعَلَ يُعَجِّبُنِي مِنْ بَلَاغَةِ قَوْلِهِ (لَمْ أُرْزَقْ) وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ ضَعِيفَةٌ مُبْتَذَلَةٌ تَجْرِي فِي مَنْطِقِ كُلِّ عَامِّيٍّ ، قُلْتُ : وَلَـٰكِنَّ (مَحَبَّتَهَا) جَعَلَهَا كَمَحَبَّتِهَا . . . . . .

* * *

وَضَعْفُ ٱلْمَوْهِبَةِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ فِي حَافِظٍ عَوَّضَهُ نَاحِيَةً أُخْرَىٰ مِنْ أَقْوَى ٱلْقُوَّةِ فِي ٱلشِّعْرِ ، وَهِيَ ٱهْتِدَاؤُهُ إِلَىٰ حَقِيقَةِ ٱلْغَرَضِ ٱلَّذِي يَنْظِمُ فِيهِ وَتَرْكُهُ ٱلْحَوَاشِيَ وَٱلزِّيَادَاتِ ، وَٱنْصِرَافُ

قُوَاهُ إِلَىٰ دِقَّةِ ٱلْوَصْفِ حِينَ يَصِفُ ، وَتَعْوِيلُهُ عَلَىٰ إِحْسَاسِهِ أَكْثَرَ مِنْ تَعْوِيلِهِ عَلَىٰ فِكْرِهِ ؛ فَزَادَ ذَٰلِكَ فِي رَوْنَقِ شِعْرِهِ وَمَائِهِ ، وَنَحَا بِهِ مَنْحَىٰ ٱلْمَطْبُوعِينَ ، فَخَرَجَ يَتَدَفَّقُ سَلَاسَةً وَحَلَاوَةً مُمْتَلِئًا مِنْ صَوَابِ ٱلْمَعْنَىٰ وَبَلَاغَةِ ٱلْأَدَاءِ وَقُوَّةِ ٱلتَّأْثِيرِ ؛ وَبِهَـٰذَا نَبَغَ فِي ٱلرِّثَاءِ وَوَصْفِ ٱلْفَجَائِعِ نُبُوغًا ٱنْفَرَدَ بِهِ ، حَتَّىٰ لَأَحْسَبُ أَنَّ هُنَاكَ رُوحًا يَمُدُّهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَوَاقِفِ ، وَأَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ تَتَبَرَّجُ لَهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلْعَظَائِمِ خَاصَّةً لِيَرَىٰ مِنْهَا مَا لَا يَرَاهُ غَيْرُهُ ؛ وَهُوَ يَتَّحِدُ بِٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِي يَرْثِيهِ فَيُجِيدُ فِيمَنْ يَعْرِفُهُ إِجَادَةً مُنْقَطِعَةَ ٱلنَّظِيرِ ، تَتَبَيَّنُ ٱلْفَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شِعْرِهِ فِيمَنْ لَا يَعْرِفُهُ تِلْكَ ٱلْمَعْرِفَةَ ؛ وَأَحْسَبُهُ يَسْأَلُ رُوحَ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِي يَصِفُهُ أَوْ يَرْثِيهِ : أَيْنَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي فِيهِ حَقِيقَتُكَ ؟ وَأَيْنَ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي فِيهَا مَعْنَاكَ ؟ .

وَٱلْفَلْسَفَةُ ٱلشِّعْرِيَّةُ كُلُّهَا أَنْ يَحُلَّ فِي ٱلشَّاعِرِ ٱلْمُلْهَمِ ذَٰلِكَ ٱلسِّرُّ ٱلْجَمِيلُ ٱلْجَاذِبُ وَٱلْمُنْجَذِبُ مَعًا ، ٱلْمُسْتَقِرُّ وَٱلْمُتَحَوِّلُ جَمِيعًا ، ٱلْبَاطِنُ وَٱلظَّاهِرُ فِي وَقْتٍ ؛ فَيَكْتُبُهُ ٱلشَّاعِرُ مَا لَا يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ ، فَيَقِفُ عَلَىٰ ٱلْجَمَالِ وَٱلْحُسْنِ وَٱلرِّقَّةِ ، وَيُلْهِمُ ٱلْحِكْمَةَ وَٱلْبَصِيرَةَ ، وَيَتَنَاوَلُ ٱلْأَغْرَاضَ بِٱلتَّحْلِيلِ وَٱلتَّرْكِيبِ ، وَيُؤْتَىٰ ٱلتَّعْبِيرَ عَنْ كُلِّ ذَٰلِكَ فِي طَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ هِيَ أُسْلُوبُهُ ، وَهَـٰذَا لَمْ يَتَّفِقْ عَلَىٰ أَتَمِّهِ وَأَحْسَنِهِ فِي حَافِظٍ ، فَقَصَّرَ بِهِ فِي تَوْلِيدِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ ، وَنَزَلَ بِهِ فِي ٱلْغَزَلِ وَوَصْفِ ٱلْجَمَالِ ؛ بَيْدَ أَنَّهُ ٱتَّفَقَ لَهُ مِثْلُ هَـٰذَا ٱلْجَلَالِ بِعَيْنِهِ فِي (ٱلْجَانِبِ ٱلْمُتَأَلِّمِ مِنْ شِعْرِهِ) ، أَيْ : ٱلرِّثَاءِ وَٱلشَّكْوَىٰ وَوَصْفِ ٱلْفَجِيعَةِ ، وَلَوْ ذَهَبْتَ تَسْتَعْرِضُ ٱلْمَرَاثِيَ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ ، وَمَثَّلْتَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رِثَاءِ حَافِظٍ لِلْعُظَمَاءِ ٱلَّذِينَ خَالَطَهُمْ ، كَٱلْأُسْتَاذِ ٱلْإِمَامِ ، وَٱلْبَارُودِيِّ ، وَمُصْطَفَىٰ كَامِلٍ وَثَرْوَتَ ، لَرَاعَكَ أَنَّكَ وَاجِدٌ لِلشُّعَرَاءِ مَا هُوَ أَسْمَىٰ مِنْ مَعَانِيهِ وَأَقْوَىٰ مِنْ خَيَالِهِ ، وَلَـٰكِنَّكَ لَا تَجِدُ ٱلْبَتَّةَ مَا هُوَ أَفْخَرُ وَأَدَقُّ مِمَّا جَاءَ بِهِ فِي هَـٰذَا ٱلْبَابِ كَأَنَّهُ مُتَفَرِّدٌ فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ بِهَـٰذِهِ ٱلْخَاصَّةِ .

وَهَـٰذَا ٱلْمَعَرِّيُّ يَقُولُ [من الوافر] :

وَلَوْلَا قَوْلُكَ ٱلْخَلَّاقُ رَبِّي   لَكَانَ لَنَا بِطَلْعَتِكَ ٱفْتِتَانُ

وَيَقُولُ فِي شِعْرٍ آخَرَ [من المنسرح] :

أَسْهَبَ فِي وَصْفِهِ عُلَاكَ لَنَا   حَتَّىٰ خَشِينَا ٱلنُّفُوسَ تَعْبُدُهَا

وَهَـٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ تَرَاهُمَا صُعْلُوكَيْنِ إِذَا قِسْتَهُمَا بِقَوْلِ حَافِظٍ فِي رِثَاءِ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُه [من الطويل] :

فَلَا تَنْصِبُوا لِلنَّاسِ تِمْثَالَ « عَبْدِهِ »   وَإِنْ كَانَ ذِكْرَىٰ حِكْمَةٍ وَثَبَاتِ
فَإِنِّي لَأَخْشَىٰ أَنْ يَضِلُّوا فَيُومِئُوا   إِلَىٰ نُورِ هَـٰذَا ٱلْوَجْهِ بِٱلسَّجَدَاتِ

مَعَ أَنَّ مَعْنَىٰ حَافِظٍ مَأْخُوذٌ مِنْهُمَا ، وَلَـٰكِنِ ٱنْظُرْ كَيْفَ جَاءَ بِهِ ؟

وَيَقُولُ ٱلْمَعَرِّيُّ فِي رِثَاءِ أَبِيهِ [من الطويل] :

وَلَوْ حَفَرُوا فِي دُرَّةٍ مَا رَضِيتُهَا   لِجِسْمِكَ إِبْقَاءً عَلَيْكَ مِنَ ٱلدَّفْنِ

وَيَقُولُ فِي رِثَاءِ غَيْرِهِ [من الخفيف] :

وَاحْبُوَاهُ ٱلْأَكْفَانَ مِنْ وَرَقِ ٱلْمُصْـ   ـحَفِ كِبْرًا عَنْ أَنْفُسِ ٱلْأَبْرَارِ

وَهَـٰذَانِ أَيْضًا كَٱلصَّعَالِيكِ عِنْدَ قَوْلِ حَافِظٍ فِي ٱلْبَارُودِيِّ [من البسيط] :

لَوْ أَنْصَفُوا أَوْدَعُوهُ جَوْفَ لُؤْلُؤَةٍ   مِنْ كَنْزِ حِكْمَتِهِ لَا جَوْفَ أُخْدُودِ
وَكَفَّنُوهُ بِدُرْجٍ مِنْ صَحِيفَتِهِ   أَوْ وَاضِحٍ مِنْ قَمِيصِ ٱلصُّبْحِ مَقْدُودِ

مَعَ أَنَّ « حَافِظ » أَلَمَّ بِقَوْلِ ٱلْمَعَرِّيِّ . وَمِنْ بَدِيعِ مَا ٱتَّفَقَ لَهُ فِي قَصِيدَةِ (ٱلْأُمَّتَانِ تَتَصَافَحَانِ) قَوْلُهُ يَصِفُ ٱلسُّورِيِّينَ [من البسيط] :

رَادُوا ٱلْمَنَاهِلَ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَوْ وَجَدُوا   إِلَىٰ ٱلْمَجَرَّةِ رَكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا
أَوْ قِيلَ فِي ٱلشَّمْسِ لِلرَّاجِينَ مُنْتَجَعٌ   مَدُّوا لَهَا سَبَبًا فِي ٱلْجَوِّ وَٱنْتَدَبُوا

فَٱقْرَأْ هَـٰذَيْنِ وَٱقْرَأْ بَعْدَهُمَا قَوْلَ ٱلْمُتَنَبِّي فِي سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ [من الطويل] :

وَصُولٌ إِلَىٰ ٱلْمُسْتَصْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ   فَلَوْ كَانَ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ مَاءً لَأَوْرَدَا

فَإِنَّكَ تَجِدُ بَيْتَ ٱلْمُتَنَبِّي صُعْلُوكًا عَلَىٰ بَيْتَيْ حَافِظٍ ، مَعَ أَنَّهُ ٱلْمُبْتَدِعُ ٱلسَّابِقُ .

وَأَعْجَبُ مَا عَجِبْتُ لَهُ هَـٰذَا ٱلْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ صَاحِبِنَا فِي مَقْطُوعَةٍ يُخَاطِبُ بِهَا ٱلْأَمْرِيكَانَ ، نَشَرَهَا فِي « ٱلْمُقْتَطَفِ » مِنْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ أَوْ نَحْوِهَا ، قَالَ [من الخفيف] :

وَتَخِذْتُمْ مَوْجَ ٱلْأَثِيرِ بَرِيدًا   حِينَ خِلْتُمْ أَنَّ ٱلْبُرُوقَ كُسَالَىٰ

وَٱتَّفَقَ يَوْمَئِذٍ أَنْ كُنْتُ جَالِسًا فِيْ زِيَارَةِ ٱلصَّدِيْقِ ٱلْأُسْتَاذِ فُؤَاد صَرُّوف « مُحَرِّرِ ٱلْمُقْتَطَفِ » ، فَجَاءَ حَافِظٌ ، فَلَمْ يَكَدْ يُصَافِحُنِيْ حَتَّىٰ قَالَ : كَيْفَ تَرَىٰ هَـٰذَا ٱلْبَيْتَ : وَتَخِذْتُمْ مَوْجَ ٱلْأَثِيْرِ بَرِيْدًا . . . إلخ ؟ فَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ ٱلَّذِيْ يَهْوَىٰ ، وَهَنَّأْتُهُ بِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، وَأَظْهَرْتُ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ ٱلْإِعْجَابِ ، وَلَـٰكِنِّيْ أَضْمَرْتُ عَجَبِيْ مِنْ حُسْنِ مَا ٱتَّفَقَ لَهُ ؛ فَإِنَّ ٱلْجَمَالَ ٱلشِّعْرِيَّ فِيْ ٱلْبَيْتِ إِنَّمَا هُوَ فِيْ ٱسْتِعَارَةِ ٱلْكَسَلِ لِلْبُرُوْقِ ، وَهَـٰذَا بِعَيْنِهِ مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ نُبَاتَةَ ٱلسَّعْدِيِّ فِيْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ [من البسيط] :

وَمَا تَمَهَّلَ يَوْمًا فِيْ نَدًى وَرَدًى إِلَّا قَضَيْتُ لِلَمْحِ ٱلْبَرْقِ بِٱلْكَسَلِ

غَيْرَ أَنَّ « حَافِظ » نَقَلَ ٱلْمَعْنَىٰ إِلَىٰ حَقِّهِ ، وَمَكَّنَ لَهُ أَحْسَنَ تَمْكِيْنٍ فِيْ صَدْرِ كَلَامِهِ ، وَأَتَمَّ جَمَالَهُ فِيْ قَوْلِهِ : (حِيْنَ خِلْتُمْ) فَٱقْتَطَعَ ٱلْمَعْنَىٰ وَٱنْفَرَدَ بِهِ ، وَعَادَ مَعْنَىٰ ٱلسَّعْدِيِّ كَٱلصُّعْلُوْكِ عَلَىٰ بَابِ بَيْتِهِ ، وَكَانَتْ هَـٰذِهِ ٱلْمُقَابَلَةُ فِيْ « ٱلْمُقْتَطَفِ » آخِرَ عَهْدِيْ بِحَافِظٍ . فَلَمْ أَرَهُ مِنْ بَعْدِهَا ، رَحِمَهُ ٱللهُ ! .

وَمَا مَرَّ بِكَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشَّاعِرِ فِيْ غَيْرِ ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ دِيْوَانِهِ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَفْحَلَ وَتَخَرَّجَ فِيْ مَدْرَسَةِ ٱلْإِمَامِ ، أَمَّا فِيْ ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ فَلَهُ هُوَ صَعَالِيْكُ . . .

كَقَوْلِهِ فِيْ ٱلْخَمْرِ [من الخفيف] :

خَمْرَةٌ قِيْلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوْهَا مِنْ خُدُوْدِ ٱلْمِلَاحِ فِيْ يَوْمِ عُرْسِ

فَهَـٰذَا ٱلْبَيْتُ صُعْلُوْكٌ عِنْدَ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْجَهْمِ [من الطويل] :

مُشَعْشَعَةٌ مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَدَارَهَا

وَقَوْلُ حَافِظٍ (عَصَرُوْهَا مِنْ خُدُوْدِ ٱلْمِلَاحِ) كَلَامُ مَنْ لَمْ يَنْضَجْ فِيْ ٱلْبَيَانِ وَلَا ٱلذَّوْقِ ، لَا يَكَادُ يُتَوَهَّمُ مَعَهُ إِلَّا أَنَّ فِيْ خُدُوْدِ ٱلْمِلَاحِ (خُرَّاجَاتٍ) عُصِرَتْ . . . وَعَلَىٰ ضِدِّ هَـٰذَا قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْجَهْمِ (تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ) فَهِيَ كَلِمَةٌ أَكْثَرُ نُعُوْمَةً مِنْ ذَلِكَ ٱلْخَدِّ وَأَجْمَلُ نَضْرَةً .

وَقَوْلُ حَافِظٍ فِيْ مَدْحِ ٱلْخِدِيْوِ [من البسيط] :

يَا مَنْ تَنَافَسُ فِيْ أَوْصَافِهِ كَلِمِيْ تَنَافُسَ ٱلْعُرْبِ ٱلْأَمْجَادِ فِيْ ٱلنَّسَبِ

فَهُوَ صُعْلُوْكٌ عَلَىٰ بَيْتِ أَبِيْ تَمَّام [من البسيط] :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيْهِ إِذْ سَهِرْتُ لَهُ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ قَوَافِيْهِ سَتَقْتَتِلُ

وَلَا نُطِيْلُ ٱلِاسْتِقْصَاءَ ، فَإِنَّمَا نُرِيْدُ ٱلتَّمْثِيْلَ حَسْبُ .

وَكَانَ ٱلشَّاعِرُ أَوَّلَ نَشْأَتِهِ يَأْخُذُ فِيْ طَرِيْقَةِ ٱلْمَعَرِّيِّ ٱلَّذِيْ عَمِيَ عَنِ ٱلطَّبِيْعَةِ فَجَعَلَ يَخْلُقُهَا مِنْ فِكْرِهِ وَمَحْفُوْظِهِ بِمُبَالَغَاتٍ كَاذِبَةٍ يُغْرِقُ فِيْهَا يَحْسَبُ أَنَّهُ بِذَلِكَ يُعَظِّمُ ٱلْحَقَائِقَ فَتَخْرُجُ لَهُ ٱلْأَخِيْلَةَ ٱلْكَبِيْرَةَ ، وَمَا يَدْرِيْ أَنَّهُ بِهَـٰذَا ٱلْغُلُوِّ لَا يَجِيْءُ إِلَّا بِٱلْأَبَاطِيْلِ ٱلْكَبِيْرَةِ . . . وَلَـٰكِنَّ « حَافِظ » فِيْ مِزَاجِهِ وَتَرْكِيْبِهِ وَنَشْأَتِهِ كَانَ رَجُلًا مَبْنِيًّا عَلَىٰ ٱلْوُضُوْحِ وَٱلْقَصْدِ ؛ فَلَمْ يُفْلِحْ فِيْ طَرِيْقَةِ ٱلْمَعَرِّيِّ ، وَوُضُوْحُهُ كَذَلِكَ بَاعَدَهُ مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ وَإِبْهَامِهَا ، وَمِنَ ٱلطَّبِيْعَةِ وَأَلْغَازِهَا ، وَمِنَ ٱلْغَزَلِ وَوَسَاوِسِهِ ، وَهُوَ ٱلَّذِيْ أَدَّاهُ إِلَىٰ ٱلشَّغَفِ بِٱلْحَقِيْقَةِ وَٱسْتِخْلَاصِهَا فِيْ كُلِّ أَغْرَاضِهِ ٱلَّتِيْ أَجَادَ فِيْهَا ، وَمِنْ ثَمَّ خَلَا شِعْرُهُ أَوْ كَأَنَّهُ خَلَا . . . . . مِنْ أَوْصَافِ ٱلطَّبِيْعَةِ فِيْ جَمَالِهَا بِلُغَةِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُتَأَمِّلِ ، وَمِنْ أَوْصَافِ ٱلْجَمَالِ فِيْ سِحْرِهِ بِلُغَةِ ٱلْقَلْبِ ٱلْعَاشِقِ .

* * *

وَأَنْتَ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلشَّاعِرَ يُجِيْدُ فِيْ ٱلْغَزَلِ وَٱلنَّسَبِ مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ يُحْسِنُ ٱلصَّنْعَةَ وَيُجِيْدُ ٱلْأُسْلُوْبَ ، فَيَكُوْنُ غَرَضٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ سَبِيْلًا إِلَىٰ غَرَضٍ ، وَفَنٌّ عَوْنًا عَلَىٰ فَنٍّ ، وَتَكُوْنُ رِقَّةُ ٱلْأَلْفَاظِ وَهَلْهَلَةُ ٱلنَّسْجِ ، وَقَلْبِيْ ، وَكَبِدِيْ ، وَيَا لَيْلَةُ وَيَا قَمَرًا وَيَا غَزَالًا . . . وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ ـ غَزَلًا وَنَسِيْبًا ، كَلَّا ثُمَّ كَلَّا ، وَٱلثَّالِثَةُ كَلَّا أَيْضًا . . .

إِنَّ ٱلْغَزَلَ وَأَوْصَافَ ٱلْجَمَالِ مَوْهِبَةٌ فِيْ ٱلشَّاعِرِ أَوِ ٱلْكَاتِبِ تُسَخَّرُ لَهَا قُوًى هِيَ أَشْبَهُ فِيْ مُعْجِزَاتِهَا بِمَا سُخِّرَ لِسُلَيْمَانَ مِنْ قُوَىٰ ٱلْجِنِّ وَٱلرِّيْحِ ، غَيْرَ أَنَّهَا قُوَىٰ ٱلْآلَامِ وَٱللَّذَّاتِ وَوَسَاوِسَ ، تِلْكَ عَظَمَةٌ فِيْ بَعْضِ ٱلنُّفُوْسِ ٱلشَّاعِرَةِ كَعَظَمَةِ ٱلْمُلُوْكِ وَٱلْأَبْطَالِ ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَكْمُلُ إِلَّا خَائِبَةً أَوْ مَغْلُوْبَةً ، فَإِذَا ٱنْتَصَرَتْ سَقَطَتْ ، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَارِيْخٍ وَحَوَادِثَ وَمِزَاجٍ عَصَبِيٍّ يُهَيَّأُ لَهَا بِرُوْحَانِيَّةٍ شَدِيْدَةِ ٱلْحِسِّ شَدِيْدَةِ ٱلْفَوْرَةِ ثَائِرَةٍ أَبَدًا لَا تَهْدَأُ إِلَّا عَلَىٰ تَوْلِيْدِ مَعْنًى بَدِيْعٍ فِيْ جَمَالِ مَنْ تُحِبُّهُ أَوْ كَجَمَالِهِ ، ثُمَّ إِذَا هَدَأَتْ بِذَلِكَ أَثَارَهَا أَنَّهَا هَدَأَتْ ، فَتَعُوْدُ إِلَىٰ ٱلتَّوْلِيْدِ ، فَلَا تَزَالُ تَبْتَدِعُ وَتَصِفُ كَأَنَّهَا آلَةُ تَعْبِيْرٍ تَدُوْرُ بِقَلْبٍ وَعَصَبٍ . هُنَاكَ قُوَّتَانِ :

إِحْدَاهُمَا تُؤْتِيْ ٱلْحُبَّ كَمَا يَصْلُحُ غَرَامًا وَعِشْقًا ، وَٱلأُخْرَىٰ فَوْقَ هَـٰذِهِ تُؤْتِيْ ٱلْحُبَّ كَمَا يَصْلُحُ فِكْرًا وَتَعْبِيْرًا ؛ وَٱلأُوْلَىٰ تَجْعَلُ صَاحِبَهَا عَاشِقًا يُحِبُّ وَيُدْرِكُ لَيْسَ غَيْرُ ، وَٱلثَّانِيَةُ تَجْعَلُهُ مُحِبًّا عَمَلُهُ أَنْ يَنْقُلَ مِنْ لُغَةِ مَا فِيْ نَفْسِهِ إِلَىٰ مَا حَوْلَهُ ، وَمِنْ لُغَةِ مَا حَوْلَهُ إِلَىٰ مَا فِيْ نَفْسِهِ ؛ فَهُوَ مُتَرْجِمُ ٱلنَّفْسِ إِلَىٰ ٱلطَّبِيْعَةِ ، وَمُتَرْجِمُ ٱلطَّبِيْعَةِ إِلَىٰ ٱلنَّفْسِ ؛ وَٱلَّذِيْ أَعْرِفُهُ أَنَّ « حَافِظ » لَمْ يُرْزَقْ لَا هَـٰذِهِ وَلَا تِلْكَ ، فَلَا طَبِيْعَةَ فِيْهِ لِلْغَزَلِ وَفَلْسَفَةِ ٱلْجَمَالِ ؛ ثُمَّ إِنَّ ٱلتَّارِيْخَ حَصَرَهُ فِيْ (ٱلشَّاعِرِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ) ٱلَّذِيْ ٱخْتَارَ أَنْ يَمْتَازَ بِهِ ، فَهُوَ فِيْ أَكْثَرِ شِعْرِهِ كَأَنْ لَيْسَ فِيْهِ شَخْصٌ ، بَلْ فِيْهِ شَعْبٌ مَأْسُوْرٌ غَفَلَ عَنِ ٱلْجَمَالِ وَعَنِ ٱلطَّبِيْعَةِ وَعَنِ ٱلنَّشْوَةِ بِهِمَا ؛ إِذْ يَعِيْشُ فِيْ مُعَانَاةِ ٱلْحُرِّيَّةِ لَا فِيْ ٱلتَّأَمُّلِ ٱلْجَمِيْلِ ، وَفِيْ أَسْبَابِ ٱلْقُوَّةِ لَا فِيْ أَسْبَابِ ٱلرِّقَّةِ ، وَيُرِيْدُ أَنْ يَعْمَلَ لِيُوْجِدَ حَقِيْقَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَ لِيُبْدِعَ خَيَالَهُ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ فِيْ دِيْوَانِ حَافِظ غَزَلٌ قَلِيْلٌ كَانَ كُلُّهُ مُتَابَعَةً وَتَقْلِيْدًا فِيْ فَنٍّ لَا يَحْسُنُ ٱلتَّقْلِيْدُ إِلَّا فِيْهِ خَاصَّةً ؛ عَمِلَ صَدْرًا لِقَصِيْدَةٍ مَدَحَ بِهَا ٱلْخُدَيْوِي مَطْلَعُهَا [من الكامل] :

كَـمْ تَحْـتَ أَذْيَـالِ ٱلظَّـلَامِ مُتَيَّـمُ دَامِـيْ ٱلْفُـؤَادِ وَلَيْلُـهُ لَا يُعْلَـمُ . . .

وَقَلَّدَ ٱبْنَ أَبِيْ رَبِيْعَةَ فِيْ حِكَايَةِ حُبٍّ لَفَّقَهَا تَلْفِيْقًا ظَاهِرًا ، ثُمَّ زَعَمَ أَنَّ ٱلْحَبِيْبَةَ قَالَتْ لَهُ فِيْ آخِرِهَا [من الكامل] :

فَـاذْهَبْ بِسِحْرِكَ قَدْ عَرَفْتُكَ وَٱقْتَصِدْ فِيْمَـا تُـزَيِّـنُ لِلْحِسَـانِ وَتُـوْهِـمُ

وَكَلِمَةُ صَاحِبَةِ ٱبْنِ أَبِيْ رَبِيْعَةَ [من مجزوء الوافر] :

أَهَـٰـذَا سِحْـرُكَ ٱلنِّسْـوَا نَ قَـدْ عَـرَّفْتَنِـيْ ٱلْخَبَـرَا

أَهَـٰذَا سِحْرُكَ ٱلنِّسْوَانَ . . . هَـٰذِهِ كَلِمَةٌ لَا تَخْرُجُ إِلَّا مِنْ فَمِ حَبِيْبَتِهِ آيَةً فِيْ ٱلظَّرْفِ ، وَفِيْهَا تَجَاهُلُهَا وَعِرْفَانُهَا وَٱبْتِسَامُهَا وَإِشْرَاقُ وَجْنَتَيْهَا ، وَأَكَادُ وَٱللهِ أَرَىٰ فِيْهَا تِلْكَ ٱلْجَمِيْلَةَ وَهِيَ تَدُقُّ بِيَدِهَا عَلَىٰ صَدْرِهَا دَقَّةَ ٱلاسْتِفْهَامِ ٱلْمُتَدَلِّلِ ٱلْمُتَظَاهِرِ بِٱلدَّهْشَةِ لِيَتَنَهَّدَ فِيْهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلْمُتَكَلِّمُ مَعًا ، أَمَّا قَوْلُ حَبِيْبَةِ حَافِظ ٱلْخَشَبِيَّةِ ، أَوِ ٱلْحَجَرِيَّةِ « اِذْهَبْ . . . قَدْ عَرَفْتُكَ وَٱقْتَصِدْ . . . » فَهَـٰذَا خَلِيْقٌ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ فَمِ قَاضٍ وَهُوَ يَنْصَحُ ٱلْمُتَّهَمَ بَعْدَ ٱلأَمْرِ بِٱلإِفْرَاجِ عَنْهُ . . . أَوْ مَأْمُوْرِ قِسْمٍ عِنْدَ ضَبْطِ ٱلْحَادِثَةِ !

أَكْثَرُ ظَنِّيْ أَنَّ رُوْحَ حَافِظ نَفْسِهِ هِيَ ٱلَّتِيْ أَوْحَتْ إِلَيَّ ٱلآنَ هَـٰذِهِ (ٱلنُّكْتَةَ) ، فَإِنَّهُ رَحِمَهُ ٱللهُ كَانَ آيَةً فِيْ هَـٰذَا ٱلْبَابِ ، وَلَهُ مِنَ ٱلنَّوَادِرِ مَحْفُوْظَةٌ وَمُخْتَرَعَةٌ مَا لَا يُلْحَقُ فِيْهِ ، وَلَوْ كَانَ كَاتِبًا عَلَىٰ قَدْرِ مَا كَانَ شَاعِرًا ، وَزَاوَلَ ٱلنَّقْدَ ، وَٱسْتَظْهَرَ لِلْكِتَابَةِ فِيْهِ بِتِلْكَ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْمُبْدِعَةِ فِيْ ٱلتَّنَدُّرِ وَٱلتَّهَكُّمِ ، مَعَ مَا أُوْتِيَ مِنَ ٱلْقُوَّةِ فِيْ ٱللُّغَةِ وَٱلْبَيَانِ ـ لَكَانَتِ ٱلنِّعْمَةُ قَدْ تَمَّتْ بِهِ عَلَىٰ ٱلأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ ، وَلَقُلْنَا فِيْ شِعْرِهِ وَكِتَابَتِهِ وَأَدَبِهِ مَا قَالَ هُوَ فِيْ ٱلأُسْتَاذِ ٱلإِمَامِ [من الطويل] :

فَأَطْلَعَتْ نُوْرًا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِ

وَمَا دُمْنَا قَدْ ذَكَرْنَا ٱلنَّقْدَ ، فَمِنَ ٱلْوَفَاءِ لِلتَّارِيْخِ ٱلأَدَبِيِّ أَنْ نَذْكُرَ مَذْهَبَ شَاعِرِنَا فِيْهِ : فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهُ إِلَّا ذَوْقُ ٱلْكَلَامِ وَإِدْرَاكُ ٱلنَّفْرَةِ وَٱلنَّبْوَةِ فِيْ ٱلْحَرْفِ ، وَٱلْغِلَظِ وَٱلْجَسَاْءَةِ فِيْ ٱللَّفْظِ ، وَٱلضَّعْفِ وَٱلتَّهَافُتِ فِيْ ٱلتَّرْكِيْبِ ، ثُمَّ مَا يَجِيْشُ فِيْ ٱلْخَاطِرِ ، أَوْ يَتَلَجْلَجُ فِيْ ٱلْفِكْرِ مِنْ ذَوْقِ ٱلْمَعْنَىٰ وَإِدْرَاكِ كُنْهِهِ وَٱلنَّفَاذِ إِلَىٰ آثَارِ ٱلنَّفْسِ ٱلْحَيَّةِ فِيْهِ ؛ فَكَأَنَّ ٱلنَّقْدَ هُوَ ٱلْحِسُّ بِٱلْكَلَامِ كَمَا تَلْمَسُ ٱلْحَارَّ وَٱلْبَارِدَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَوَصَفَ لِيْ مَرَّةً إِسْمَاعِيْلَ صَبْرِيْ بَاشَا وَأَرَادَ أَنْ يُبَالِغَ فِيْ دِقَّةِ تَمْيِيْزِهِ وَحُسْنِ بَصَرِهِ بِٱلشِّعْرِ وَإِدْرَاكِهِ دَقَائِقَ ٱلْمَعَانِيْ ، فَقَالَ : « ذَوَّاقٌ يَا مُصْطَفَىٰ » وَلَمْ يَزِدْ .

وَمَذْهَبُ ٱلْحِسِّ بِٱلْكَلَامِ هَـٰذَا وَإِنْ صَلَحَ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ بَعْضِ مَعَانِيْ ٱلنَّقْدِ ، فَلَا يَتَهَيَّأُ أَنْ يَكُوْنَ هُوَ ٱلنَّقْدَ بِمَعْنَاهُ ٱلْفَلْسَفِيِّ أَوِ ٱلأَدَبِيِّ ، وَهُوَ فِيْ جُمْلَةِ أَمْرِهِ كَقَوْلِكَ : حَسَنٌ حَسَنٌ ، وَرَدِيْءٌ رَدِيْءٌ ؛ أَمَّا كَيْفَ كَانَ حَسَنًا أَوْ رَدِيْئًا ، وَبِمَاذَا وَلِمَاذَا ؛ فَذَلِكَ مَا لَا سَبِيْلَ إِلَيْهِ مِنْ مَذْهَبِ (ذَوَّاقٍ) . . وَلَا وَسِيْلَةَ لَهُ إِلَّا ٱلْعِلْمُ ٱلْمُسْتَفِيْضُ ، وَٱلاطِّلَاعُ ٱلْوَاسِعُ ، وَٱلْحِسُّ ٱلْمُرْهَفُ ، وَٱلْقُدْرَةُ ٱلْمُتَمَكِّنَةُ ، مُضَافَةً كُلُّهَا إِلَىٰ ٱلأَدَبِ ٱلْبَارِعِ وَفَلْسَفَتِهِ ٱلدَّقِيْقَةِ ؛ وَلَا نَعْرِفُ لِحَافِظ كِتَابَةً فِيْ ٱلنَّقْدِ ٱلْبَتَّةَ ، وَقَدْ كَانَ حَاوَلَ شَيْئًا مِنْ هَـٰذَا فِيْ مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ : « لَيَالِيْ سُطَيْحٍ » ، فَتَنَاوَلَ بَعْضَ خُصُوْمِهِ بِكَلِمَاتٍ رَأَىٰ هُوَ أَنْ يَمْحُوَهَا بَعْدَ أَنْ طُبِعَتِ ٱلْكُرَّاسَةُ ٱلأُوْلَىٰ ، فَأَسْقَطَهَا وَأَعَادَ كِتَابَةَ ٱلْمُقَدِّمَةِ وَطَبَعَهَا مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَكَانَتْ عِنْدِيْ ٱلنُّسْخَةُ ٱلَّتِيْ مَحَاهَا ، وَهَـٰذَا مَا لَا أَظُنُّ أَحَدًا يَعْرِفُهُ ٱلآنَ ، رَحِمَ ٱللهُ شَاعِرًا كَانَ أَصْفَىٰ مِنَ ٱلْغَمَامِ ، وَكَانَ شِعْرُهُ كَأَنَّهُ ٱلْبَرْقُ وَٱلرَّعْدُ . . . .

كَلِمَاتٌ عَنْ حَافِظٍ(*)(١)(٢)

ذَهَبْتُ بِقَلْبِي إِلَىٰ كُلِّ مَكَانٍ ، فَوَجَدْتُ أَمْكِنَةَ ٱلْأَشْيَاءِ وَلَمْ أَجِدْ مَكَانَ قَلْبِي ؛ أَيُّهَا ٱلْقَلْبُ ٱلْمِسْكِيْنُ ، أَيْنَ أَذْهَبُ بِكَ ؟

هَـٰذَا مَا أَجَبْتُ بِهِ (حَافِظَ) حِيْنَ سَأَلَنِي مَرَّةً : مَا لَكَ لَا تَرْضَىٰ وَلَا تَهْدَأُ وَلَا تَسْتَقِرُّ ؟ وَكَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ هُوَ رَاضٍ مُسْتَقِرٌّ هَادِئٌ ، كَأَنَّمَا قَضَىٰ مِنَ ٱلْحَيَاةِ نَهْمَتَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ فِيْ نَفْسِهِ مَا تَقُوْلُ نَفْسُهُ لَيْتَ ذَلِكَ لِيْ ! وَكُنْتُ أَعْجَبُ لِهَـٰذَا ٱلْخُلُقِ فِيْهِ وَلَا أَدْرِيْ مَا تَعْلِيْلُهُ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ قَدْ خُلِقَ مَطْبُوْعًا بِطَابَعِ ٱلْيُتْمِ فَلَمْ يَعْرِفْ مُنْذُ أَدْرَكَ إِلَّا أَنَّهُ ٱبْنُ ٱلْقَدَرِ : تَأْتِيْهِ ٱلْأَفْرَاحُ وَٱلْأَحْزَانُ مِنْ يَدٍ وَاحِدَةٍ مُقَبِّلَةٍ كَمَا تَنَالُ ٱلصَّبِيَّ أَلْطَافُ أَبِيْهِ وَلَطَمَاتُ أَبِيْهِ . . . . . .

وَقَدْ قُلْتُ لَهُ مَرَّةً : كَأَنَّكَ يَا حَافِظُ تَنَامُ بِلَا أَحْلَامٍ ! فَضَحِكَ وَقَالَ : أَوْ كَأَنَّنِيْ أَحْلُمُ بِغَيْرِ نَوْمٍ . . .

وَلَقَدْ عَرَفْتُهُ مُنْذُ سَنَةِ ١٩٠٠ إِلَىٰ أَنْ لَحِقَ بِرَبِّهِ فِيْ سَنَةِ ١٩٣٢ ، فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ عَلَىٰ كُلِّ أَحْوَالِهِ إِلَّا كَٱلْيَتِيْمِ : مَحْكُوْمًا بِرُوْحِ ٱلْقَبْرِ ، وَفِيْ ٱلْقَبْرِ أَوَّلُهُ ؛ وَلَمَّا أَزْمَعَ ٱلسَّفَرَ إِلَىٰ ٱلْيُوْنَانِ قُلْتُ لَهُ : أَلَا تَخْشَىٰ أَنْ تَمُوْتَ هُنَاكَ فَتَمُوْتَ يُوْنَانِيًّا . . . فَقَالَ : أَوَ تَرَانِيْ لَمْ أَمُتْ بَعْدُ فِيْ مِصْرَ . . . ؟ إِنَّ ٱلَّذِيْ بَقِيَ هَيِّنٌ !

* * *

وَمِنْ عَجَائِبِ هَـٰذَا ٱلْيَتِيْمِ ٱلْحَزِيْنِ أَنَّهُ كَانَ قَوِيَّ ٱلْمَلَكَةِ فِيْ فَنِّ ٱلضَّحِكِ ، كَأَنَّ ٱلْقَدَرَ عَوَّضَهُ بِهِ لِيُوْجِدَهُ فِيْ ٱلنَّاسِ عَطْفَ ٱلْآبَاءِ وَمَحَبَّةَ ٱلْإِخْوَةِ . وَلَمْ يَخْلُ مَعَ فَقْرِهِ مِنْ ذَرِيْعَةٍ قَوِيَّةٍ

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٩ ، ٦ جمادى سنة ١٣٥٤ هـ = ٥ أغسطس/آب ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٢٤٣ ـ ١٢٤٧ .

(١) كَتَبَهَا فِيْ ٱلذِّكْرَىٰ ٱلثَّالِثَةِ لِوَفَاتِهِ . سَعِيد ٱلْعُرْيان .

(٢) لَمَّا تُوُفِّيَ حَافِظٌ رَحِمَهُ ٱللهُ كَتَبْنَا فَصْلًا طَوِيْلًا مِنْ أَدَبِهِ لِلْمُقْتَطَفِ ، فَلَمْ نَعْرِضْ فِيْ كَلِمَاتِنَا هَـٰذِهِ لِشَيْءٍ مِنْ أَدَبِ ٱلرَّجُلِ وَإِنَّمَا هِيَ ذِكْرَىٰ وَبَقَايَا مِنَ ٱلْأَيَّامِ .

إِلَىٰ ٱلْجَاهِ ، وَوَسِيْلَةٍ مُؤَكَّدَةٍ إِلَىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ ٱلْغِنَىٰ ؛ فَكَانَتْ أَسْبَابُهُ إِلَىٰ ٱلْأُسْتَاذِ ٱلْإِمَامِ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّدْ عَبْدُهْ ، ثُمَّ حِشْمَتْ بَاشَا ، ثُمَّ سَعْد بَاشَا زَغْلُوْل ، وَهَـٰذَا نِظَامٌ عَجِيْبٌ فِيْ زَمَنِ (حَافِظٍ) يُقَابِلُ ٱلاخْتِلَالَ ٱلْعَجِيْبَ فِيْ نَفْسِ حَافِظٍ ؛ فَٱلرَّجُلُ كَٱلسَّفِيْنَةِ ٱلْمُتَكَفِّئَةِ : تَمِيْلُ بِهَا مَوْجَةٌ وَتَعْدِلُهَا مَوْجَةٌ ، وَهِيَ بِهَـٰذِهِ وَبِهَـٰذِهِ تَمُرُّ وَتَسِيْرُ .

وَأُوْلَـٰئِكَ ٱلرُّؤَسَاءُ ٱلْعُظَمَاءُ ٱلَّذِيْنَ جَعَلَهُمُ ٱلْقَدَرُ نِظَامًا فِيْ زَمَنِ حَافِظٍ ، كَانُوْا مِنْ أَفْقَرِ ٱلنَّاسِ إِلَىٰ ٱلْفُكَاهَةِ وَٱلنَّادِرَةِ ، فَكَانَ لَهُمْ كَٱلثَّرْوَةِ فِيْ هَـٰذَا ٱلْبَابِ ، وَوَقَعَ إِصْلَاحًا فِيْ عَيْشِهِمْ وَكَانُوْا إِصْلَاحًا فِيْ عَيْشِهِ ؛ وَلَوْ أَنَّ ٱلْأَقْدَارَ تُشَبَّهُ بِٱلْمَدَارِسِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ، لَقُلْنَا : إِنَّ (حَافِظَ) تَخَرَّجَ مِنْهَا فِيْ مَدْرَسَةِ ٱلتِّجَارَةِ ٱلْعُلْيَا . . . فَهُوَ كَانَ أَبْرَعَ مَنْ يُتَاجِرُ بِٱلنَّادِرَةِ .

* * *

وَهَـٰذِهِ ٱلنَّوَادِرُ كَأَنَّهَا هِيَ أَيْضًا صَنَعَتْ (حَافِظَ) فِيْ شَكْلِ نَادِرَةٍ ؛ فَكَانَ فَقِيْرًا ، وَمَعَ هَـٰذَا كَانَ لِلْمَالِ عِنْدَهُ مُتَمِّمٌ ، هُوَ إِنْفَاقُهُ وَإِخْرَاجُهُ مِنْ يَدِهِ ؛ وَكَانَ يَتِيْمًا ، وَلَـٰكِنَّهُ دَائِمًا مُتَوَدِّدٌ ؛ وَكَانَ حَزِيْنًا ، وَلَـٰكِنَّهُ أَنِيْسُ ٱلطَّلْعَةِ ؛ وَكَانَ بَائِسًا ، وَلَـٰكِنَّهُ سَلِيْمُ ٱلصَّدْرِ ؛ وَكَانَ فِيْ ضِيْقٍ ، وَلَـٰكِنَّهُ وَاسِعُ ٱلْخُلُقِ ؛ وَتَمَامُ ٱلنَّادِرَةِ فِيْهِ أَنَّهُ كَانَ طَوَالَ عُمُرِهِ مُتَبَسِّطًا مُهْتَزًّا كَأَنَّ لَهُ زَمَنًا وَحْدَهُ غَيْرَ زَمَنِ ٱلنَّاسِ ، فَتَتَرَاكَمُ عَلَيْهِ ٱلْهُمُوْمُ وَهُوَ مُسْتَنِيْمٌ إِلَىٰ ٱلرَّاحَةِ ، وَيَعْتَرِيْهِ مِنَ ٱلْجُوْعِ مِثْلُ مَكْسَلَةِ ٱلشِّبَعِ ، وَيَسْتَرْسِلُ إِلَىٰ ٱلْبَطَالَةِ وَكَأَنَّهُ مُشَمِّرٌ لِلْجِدِّ ، وَيَسْتَمْكِنُ ٱلْحُزْنُ مِنْهُ فِيْ سَاعَةٍ فَيَتَهَدَّدُ حُزْنَهُ بِٱلسَّاعَةِ ٱلتَّالِيَةِ . . .

رَأَيْتُهُ فِيْ أَحَدِ أَيَّامِ بُؤْسِهِ ٱلْأُوْلَىٰ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ عَيْشُهُ ، وَكَانَ يَعُدُّ قُرُوْشًا فِيْ يَدِهِ ، فَقُلْتُ : مَا أَمْرُ هَـٰذِهِ ٱلْقُرُوْشِ ؟

قَالَ : كُنْتُ أُقَامِرُ ٱلسَّاعَةَ فَأَضَعْتُ ثَلَاثِيْنَ قِرْشًا وَلَمْ يَبْقَ لِيْ غَيْرُ هَـٰذِهِ ٱلْقُرُوْشِ ٱلْمَلْعُوْنَةِ ، فَهَلُمَّ نَتَعَشَّ . وَدَخَلَ إِلَىٰ مَطْعَمٍ كَانَ وَرَاءَ حَدِيْقَةِ ٱلْأَزْبَكِيَّةِ ، فَزَعَمْتُ لَهُ أَنِّيْ تَعَشَّيْتُ . . . فَأَكَلَ هُوَ وَدَفَعَ ثَمَنَ طَعَامِهِ ثَلَاثَةَ قُرُوْشٍ ؛ وَكُنْتُ أُطَالِعُ فِيْ وَجْهِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ ، فَمَا أَتَذَكَّرُهُ ٱلْآنَ إِلَّا كَمَا طَالَعْتُهُ بَعْدَ عِشْرِيْنَ سَنَةً مِنْ ذَلِكَ ٱلتَّارِيْخِ حِيْنَ دَعَانِيْ (حَافِظٌ) إِلَىٰ مَطْعَمِ بَارِ ٱللِّوَاءِ وَقَدْ فَاضَتْ أَنَامِلُهُ ذَهَبًا وَفِضَّةً : وَكَانَ رَحِمَهُ ٱللهُ قَدْ أَصْدَرَ ٱلْجُزْءَ ٱلثَّانِيْ مِنَ « ٱلْبُؤَسَاءِ » ، وَرَآنِيْ فِيْ ٱلْقَاهِرَةِ ، فَأَمْسَكَ بِيْ حَتَّىٰ قَرَأْتُ مَعَهُ ٱلْكِتَابَ كُلَّهُ فِيْمَا بَيْنَ ٱلظُّهْرِ

وَٱلْمَغْرِب ؛ وَرَكِبْنَا فِي ٱلْأَصِيلِ عَرَبَةً وَخَرَجْنَا نَتَنَزَّهُ ، أَيْ : خَرَجْنَا نَقْرَأُ . . .

* * *

وَكَانَ عَلَىٰ وَجْهِ (حَافِظٍ) لَوْنٌ مِنَ ٱلرِّضَىٰ لَا يَتَغَيَّرُ فِي بُؤْسٍ وَلَا نَعِيمٍ ، كَبَيَاضِ ٱلْأَبْيَضِ وَسَوَادِ ٱلْأَسْوَدِ ، وَهَـٰذَا مِنْ عَجَائِبِ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ فَنًّا مِنَ ٱلْفَوْضَىٰ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ حُلْمٌ شِعْرِيٌّ بَدَأَ مِنْ أَبَوَيْهِ ثُمَّ ٱنْقَطَعَ وَتُرِكَ لِتُتَمِّمَهُ ٱلطَّبِيعَةُ !

وَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ حَافِظٍ عَلَىٰ ٱعْتِبَارِ أَنَّهُ فَنُّ ٱلْفَوْضَىٰ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ رَآهُ جَمِيلًا جَمَالَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لَا جَمَالَ ٱلنَّاسِ ، فَفِيهِ مِنَ ٱلصَّحْرَاءِ وَٱلْجِبَالِ وَٱلصُّخُورِ وَٱلْغِيَاضِ وَٱلرِّيَاضِ وَٱلْبَرْقِ وَٱلرَّعْدِ وَأَشْبَاهِهَا ؛ وَكُنْتُ أَنَا أَرَاهُ بِهَـٰذِهِ ٱلْعَيْنِ فَأَسْتَجْمِلُهُ ، وَيَبْدُو لِي جَزْلًا مُطْهَمًا ، وَأَرَىٰ فِي شَكْلِهِ هَنْدَسَةً كَهَنْدَسَةِ ٱلْكَوْنِ : تُتَمِّمُ مَحَاسِنَهَا بِمَقَابِحِهَا . وَكَمْ قُلْتُ لَهُ : إِنَّكَ يَا حَافِظُ أَجْمَلُ مِنَ ٱلْقَفْرِ . . .

أَمَّا هُوَ فَكَانَ يَرَىٰ نَفْسَهُ دَمِيمًا شَنِيعَ ٱلْمِرْآةِ مُتَفَاوِتَ ٱلْخَلْقِ ، كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ مَغْلُوطٌ فِي تَرْكِيبِهِ . .

وَقَدْ سَأَلْتُهُ مَرَّةً : هَلْ أَحَبَّ ؟

فَقَالَ : ٱلنِّسَاءُ ٱثْنَتَانِ : فَإِمَّا جَمِيلَةٌ تَنْفِرُ مِنْ قُبْحِي ، وَإِمَّا دَمِيمَةٌ أَنْفِرُ مِنْ قُبْحِهَا !

وَلِهَـٰذَا لَمْ يُفْلِحْ فِي ٱلْغَزَلِ وَٱلنَّسِيبِ ، وَلَمْ يُحْسِنْ مِنْ هَـٰذَا ٱلْبَابِ شَيْئًا يُسَمَّىٰ شَيْئًا ؛ وَبَقِيَ شَاعِرًا غَيْرَ تَامٍّ ، فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ لِلشَّاعِرِ كَحَوَّاءَ لِآدَمَ : هِيَ وَحْدَهَا ٱلَّتِي تُعْطِيهِ بِحُبِّهَا عَالَمًا جَدِيدًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ ، وَكُلُّ سِرِّهَا أَنَّهَا تَتَخَطَّىٰ بِهِ ٱلسَّمَٰوَاتِ نَازِلًا . . .

* * *

وَتَهَدَّمَ حَافِظٌ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِهِ مِنْ أَثَرِ ٱلْمَرَضِ وَٱلشَّيْخُوخَةِ ، وَكَانَ آخِرُ ٱلْعَهْدِ بِهِ أَنْ جَاءَ إِلَىٰ إِدَارَةِ « ٱلْمُقْتَطَفِ » وَأَنَا هُنَاكَ ، فَلَمْ يَرَنِي حَتَّىٰ بَادَرَنِي بِقَوْلِهِ : مَاذَا تَرَىٰ فِي هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ مِنْ وَصْفِ ٱلْأَمْرِيكَانِ [من الخفيف] :

وَتَخِذْتُمْ مَوْجَ ٱلْأَثِيرِ بَرِيدًا حِينَ خِلْتُمْ أَنَّ ٱلْبُرُوقَ كُسَالَىٰ[١]

(١) هَـٰذَا ٱلْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ نَظَمَهَا حَافِظٌ يُخَاطِبُ فِيهَا ٱلْأَمْرِيكِيِّينَ ، وَقَدْ أَشَرْنَا فِي مَقَالِنَا فِي =

فَنَظَرْتُ إِلَىٰ وَجْهِهِ ٱلْمَعْرُوقِ ٱلْمُتَغَضِّنِ وَقُلْتُ لَهُ : لَوْ كَانَ فِيكَ مَوْضِعُ قُبْلَةٍ لَقَبَّلْتُكَ لِهَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ! فَضَحِكَ وَأَدَارَ لِي خَدَّهُ ؛ وَلَـٰكِنْ بَقِيَ خَدُّهُ بِلَا تَقْبِيلٍ . . .

* * *

وَشُهْرَةُ هَـٰذَا ٱلْأَدِيبِ ٱلْعَظِيمِ بِنَوَادِرِهِ وَمَحْفُوظَاتِهِ مِنْ هَـٰذَا ٱلْفَنِّ أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَتَقَصَّصُ ٱلنَّوَادِرَ وَٱلْفُكَاهَاتِ وَمُطَارَحَاتِ ٱلسَّمَرِ مِنْ مَظَانِّهَا فِي ٱلْكُتُبِ وَرِجَالِ ٱلْأَدَبِ وَأَهْلِ ٱلْمُجُونِ ، فَإِذَا قَصَّهَا عَلَىٰ مَنْ يُجَالِسُهُ زَادَ فِي أُسْلُوبِهَا أُسْلُوبَهُ هُوَ ، وَجَعَلَ يُقَلِّبُهَا وَيَتَصَرَّفُ فِيهَا وَيَبِينُ عَنْهَا أَحْسَنَ ٱلْإِبَانَةِ بِمَنْطِقِهِ وَوَجْهِهِ وَنَبَرَاتٍ فِي يَدِهِ .

وَهُوَ أَصْمَعِيُّ هَـٰذَا ٱلْبَابِ خَاصَّةً ، وَيَرْوِي مِنْهُ رِوَايَةً عَرِيضَةً ، فَإِذَا ٱسْتَهَلَّ سَحَّ بِٱلنَّوَادِرِ سَحًّا كَأَنَّهَا قَوَافِي قَصِيدَةٍ تَدْعُو ٱلْوَاحِدَةُ مِنْهَا أُخْتَهَا ٱلَّتِي بَعْدَهَا .

وَقَدْ أَذْكَرَتْنِي (ٱلْقَوَافِي) مَجْلِسًا حَضَرْتُهُ قَدِيمًا فِي سَنَةِ ١٩٠١ أَوْ ١٩٠٠ ، وَكَانَ « مِصْبَاحُ ٱلشَّرْقِ » قَدْ نَشَرَ قَصِيدَةً رَائِيَّةً لِٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ ، فَتَعَجَّبَ ٱلْمَرْحُومُ ٱلشَّيْخُ مُحَمَّدٌ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ بَسْطَةِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي قَوَافِيهِ ، فَقَالَ لَهُ (حَافِظٌ) : هَلُمَّ نَتَسَاجَلُ فِي هَـٰذَا ٱلْوَزْنِ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ أَحَدُنَا ، وَكَانَتِ ٱلْقَافِيَةُ مِنْ وَزْنِ : قَدَرَهَا ، أَحْمَرَهَا ، أَخْضَرَهَا . . . إِلَخْ ؛ وَجَعَلْتُ أَنَا أُحْصِي عَلَيْهِمَا ، فَلَمَّا ضَاقَ ٱلْكَلَامُ كَانَ ٱلشَّيْخُ ٱلْمَهْدِيُّ يُفَكِّرُ طَوِيلًا ثُمَّ يَنْطِقُ بِٱللَّفْظِ ، وَلَا يَكَادُ يَفْعَلُ حَتَّىٰ يَرْمِيَهُ حَافِظٌ عَلَىٰ ٱلْبَدِيهَةِ ، فَيَعُودُ ٱلرَّجُلُ إِلَىٰ ٱلْإِطْرَاقِ وَٱلتَّفْكِيرِ ، ثُمَّ ٱنْقَطَعَ أَخِيرًا وَبَقِيَ حَافِظٌ يَسْرُدُ لَهُ مِنْ حِفْظِهِ ٱلْغَرِيبَ .

أَمَّا فِي ٱلنَّوَادِرِ ، فَٱلْعَجِيبَةُ ٱلَّتِي ٱتَّفَقَتْ لَهُ فِي هَـٰذَا ٱلْبَابِ أَنَّهُ جَاءَ إِلَىٰ طَنْطَا فِي سَنَةِ ١٩١٢ وَمُدِيرُهَا يَوْمَئِذٍ ٱلْمَرْحُومُ « مُحَمَّد مُحِبُّ بَاشَا » وَكَانَ دَاهِيَةً ذَكِيًّا وَظَرِيفًا لَبِقًا ، وَكُنْتُ أُخَالِطُهُ وَأَتَّصِلُ بِهِ ، فَدَعَا (حَافِظ) إِلَىٰ ٱلْعَشَاءِ فِي دَارِهِ ؛ فَلَمَّا مُدَّتِ ٱلْأَيْدِي قَالَ ٱلْبَاشَا : لِي عَلَيْكَ شَرْطٌ يَا حَافِظُ . قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : كُلُّ لُقْمَةٍ بِنَادِرَةٍ !

فَتَهَلَّلَ حَافِظٌ وَقَالَ : نَعَمْ ، لَكَ عَلَيَّ ذَلِكَ . ثُمَّ أَخَذَ يَقُصُّ وَيَأْكُلُ ، وَٱلْعَشَاءُ حَافِلٌ ،

= « ٱلْمُقْتَطَفِ » إِلَىٰ أَنَّ مَعْنَاهُ مَسْرُوقٌ .

وَحَافِظٌ كَانَ نَهِمًا ، فَمَا ٱنْقَطَعَ وَلَا أَخَلَّ حَتَّىٰ وَفَّىٰ بِٱلشَّرْطِ . وَهَـٰذَا لَا يَمْنَعُ أَنَّ ٱلْبَاشَا كَانَ يَتَغَافَلُ وَيَتَغَاضَىٰ وَيَتَشَاغَلُ بِٱلضَّحِكِ ، فَيُسْرِعُ حَافِظٌ وَيُغَالِطُ بِفَمِهِ . . .

* * *

وَلَـٰكِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْمُضْحِكَاتِ أَضْحَكَتْ مِنْ (حَافِظٍ) مَرَّةً كَمَا أَضْحَكَتْ بِهِ ، فَلَمَّا كَانَ يُتَرْجِمُ (مكبث Macbeth) لِشِكِسْبِير Shakespeare ـ وَهِيَ كَأَعْمَالِهِ ٱلنَّاقِصَةِ دَائِمًا ـ دَعَوْهُ لِإِلْقَاءِ (مُحَاضَرَةٍ) فِي نَادِي ٱلْمَدَارِسِ ٱلْعُلْيَا ، وَٱلنَّادِي يَوْمَئِذٍ يَجْمَعُ خَيْرَ ٱلشَّبَابِ حَمِيَّةً وَعِلْمًا ، وَكَانَ صَاحِبَ ٱلسِّرِّ فِيهِ (ٱلسِّكْرِتِيرِ) زِينَةُ شَبَابِ ٱلْوَطَنِيَّةِ ٱلْمَرْحُومُ أَمِينُ بِكْ ٱلرَّافِعِيُّ ، فَقَامَ حَافِظٌ فَأَنْشَدَهُمْ بَعْضَ مَا تَرْجَمَهُ نَظْمًا عَنْ شِكِسْبِير Shakespeare ، مَثَّلَهُ تَمْثِيلًا أَفْرَغَ فِيهِ جُهْدَهُ ، فَأَطْرَبَ وَأَعْجَبَ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ (ٱلْمُحَاضَرَةَ) ، فَأَخَذَ يُلْقِي عَلَيْهِمْ مِنْ نَوَادِرِهِ ، وَبَدَأَ كَلَامَهُ بِهَـٰذِهِ ٱلنَّادِرَةِ : عُرِضَتْ عَلَىٰ ٱلْمُعْتَصِمِ جَارِيَةٌ يَشْتَرِيهَا ، فَسَأَلَهَا : أَنْتِ بِكْرٌ أَمْ ثَيِّبٌ ؟ فَقَالَتْ : كَثُرَتِ ٱلْفُتُوحُ عَلَىٰ عَهْدِ ٱلْمُعْتَصِمِ . . .

وَنَظَرَ حَافِظٌ إِلَىٰ وُجُوهِ ٱلْقَوْمِ فَأَنْكَرَهَا . . . وَبَقِيَتْ هَـٰذِهِ ٱلْوُجُوهُ إِلَىٰ آخِرِ ٱلْمُحَاضَرَةِ كَأَنَّهَا تَقُولُ لَهُ : إِنَّكَ لَمْ تُفْلِحْ !

وَلَقَدْ كَانَ هَـٰذَا مِنْ أَقْوَىٰ ٱلْأَسْبَابِ فِي تَنَبُّهِ (حَافِظٍ) إِلَىٰ مَا يَجِبُ لِلشَّبَابِ عَلَيْهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَاعِرَهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ ٱلْقَصَائِدِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ ٱلَّتِي كَسَبَهُمْ بِهَا مِنْ بَعْدُ ، وَنَادِرَةُ ٱلْمُعْتَصِمِ كَٱلْعَوْرَةِ ٱلْمَكْشُوفَةِ ، وَلَسْتُ أَدْرِي أَكَانَ حَافِظٌ يَعْرِفُ ٱلنَّادِرَةَ ٱلْبَدِيعَةَ ٱلْأُخْرَىٰ أَمْ لَا ؟ فَقَدْ عُرِضَتْ جَارِيَةٌ أَدِيبَةٌ ظَرِيفَةٌ عَلَىٰ ٱلرَّشِيدِ فَسَأَلَهَا : أَنْتِ بِكْرٌ أَمْ أَيْش ؟

فَقَالَتْ : أَنَا (أَمْ أَيْش) يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .

* * *

وَفَنُّ (ٱلشِّعْرِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ) ٱلَّذِي عُرِفَ بِهِ حَافِظٌ ، لَمْ يَكُنْ فَنَّهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَا كَانَ هُوَ قَدْ تَنَبَّهَ لَهُ أَوْ تَحَرَّاهُ فِي طَرِيقَتِهِ ، فَلَمَّا جَاءَتْ إِلَىٰ مِصْرَ ٱلْأَمْبَرَاطُورَةُ (أُوجِينِي Eugenie)[1] نَظَمَ

(١) أوجيني Eugenie (١٨٢٦ ـ ١٩٢٠ م) : اسمها كاملًا Eugenie Maria de montijo de Guzman : أمبرطورة فرنسة (١٨٥٣ ـ ١٨٧١ م) زوجة نابليون الثالث Napoleon III أمبراطور =

قَصِيدَتَهُ ٱلنُّونِيَّةَ ٱلَّتِي يَقُولُ فِيهَا [من الخفيف] :

فَـٱعْـذُرِيْنَـا عَلَـىٰ ٱلْقُصُـوْرِ ، كِـلَانَـا غَـيَّـرَتْـهُ طَـوَارِئُ ٱلْحَـدَثَـانِ

وَلَقِيتُهُ بَعْدَهَا ، فَسَأَلَنِي رَأْيِي فِي هَـٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ ، وَكَانَ بِهَا مُدِلًّا مُعْجَبًا ، شَأْنُهُ فِي كُلِّ شِعْرِهِ ؛ فَٱنْتَقَدْتُ مِنْهَا أَشْيَاءَ فِي أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا ، وَأَشَرْتُ إِلَىٰ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلَّتِي كَانَ يَحْسُنُ أَنْ تُخَاطَبَ بِهَا ٱلْأَمْبَرَاطُورَةُ ؛ فَكَأَنَّنِي أَغْضَبْتُهُ ؛ فَقَالَ : إِنَّ ٱلشَّيْخَ مُحَمَّدْ عَبْدُهْ ، وَسَعْدَ زَغْلُولَ ، وَقَاسِمَ أَمِينَ ـ أَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا ٱلنَّمَطَ هُوَ خَيْرُ ٱلشِّعْرِ ، وَقَالُوا لِي : إِذَا نَظَمْتَ فَٱنْظِمْ مِثْلَ هَـٰذَا « ٱلشِّعْرِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ » ؛ ثُمَّ كَأَنَّهُ تَنَبَّهَ إِلَىٰ أَنَّهَا طَرِيقَةٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَرِدَ بِهَا ، فَقَالَ : إِنَّ كُلَّ قَصَائِدِ شَوْقِي ٱلْآنَ غَزَلٌ وَمَدْحٌ ، وَلَا أَثَرَ فِيهَا لِهَـٰذَا ٱلشِّعْرِ ، عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ ٱلشِّعْرُ .

وَتَتَابَعَتْ قَصَائِدُهُ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةُ ، فَلَقِيَنِي بَعْدَهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ فَقَالَ لِي : إِنَّ ٱلشَّاعِرَ ٱلَّذِي لَا يَنْظِمُ فِي ٱلِاجْتِمَاعِيَّاتِ لَيْسَ عِنْدِي بِشَاعِرٍ . وَأَرَدْتُ أَنْ أَغِيظَهُ فَقُلْتُ لَهُ : وَمَا هِيَ ٱلِاجْتِمَاعِيَّاتُ إِلَّا جَعْلُ مَقَالَاتِ ٱلصُّحُفِ قَصَائِدَ ؟

فَٱلْأُسْتَاذُ ٱلْإِمَامُ وَسَعْد زَغْلُول وَقَاسِم أَمِين : أَحَدُ هَـٰؤُلَاءِ أَوْ جَمِيعُهُمْ أَصْلُ هَـٰذَا ٱلْمَذْهَبِ ٱلَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ حَافِظٌ ، وَهُوَ كَثِيرًا مَا كَانَ يَقْتَبِسُ مِنَ ٱلْأَفْكَارِ ٱلَّتِي تُعْرَضُ فِي مَجْلِسِ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّدْ عَبْدُهْ ، مِنْ حَدِيثِهِ أَوْ حَدِيثِ غَيْرِهِ ، فَيَبْنِي عَلَيْهَا أَوْ يُدْخِلُهَا فِي شِعْرِهِ ، وَهُوَ أَحْيَانًا رَدِيءُ ٱلْأَخْذِ جِدًّا حِينَ يَكُونُ ٱلْمَعْنَىٰ فَلْسَفِيًّا ؛ إِذْ كَانَتْ مَلَكَةُ ٱلْفَلْسَفَةِ فِيهِ كَٱلْمُعَطَّلَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلشَّاعِرِ مِنْ مَلَكَةِ ٱلْحُبِّ ، وَإِنَّمَا أَوَّلُهَا وَأَصْلُهَا دُخُولُ ٱلْمَرْأَةِ فِي عَالَمِ ٱلْكَلَامِ بِإِبْهَامِهَا وَثَرْثَرَتِهَا . . .

* * *

وَكُنْتُ أَوَّلَ عَهْدِي بِٱلشِّعْرِ نَظَمْتُ قَصِيدَةً مَدَحْتُ فِيهَا ٱلْأُسْتَاذَ ٱلْإِمَامَ وَأَنْفَذْتُهَا إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَابَلْتُ حَافِظَ بَعْدَهَا فَقَالَ لِي : إِنَّهُ هُوَ تَلَاهَا عَلَىٰ ٱلْإِمَامِ ، وَإِنَّهُ ٱسْتَحْسَنَهَا ؛ قُلْتُ : فَمَاذَا

= فرنسة بعد سقوط الأمبراطورية الثانية عام ١٨٧١ م ، أقامت مع زوجها في إنكلترة ، وبقيت هناك بعد وفاته سنة ١٨٧٣ م .

كَانَتْ كَلِمَتُهُ فِيهَا ؟ قَالَ : إِنَّهُ قَالَ لَا بَأْسَ بِهَا . . .

فَٱضْطَرَبَ شَيْطَانِي مِنَ ٱلْغَضَبِ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ ٱلشَّيْخَ لَيْسَ بِشَاعِرٍ ، فَلَيْسَ لِرَأْيِهِ فِي ٱلشِّعْرِ كَبِيرُ مَعْنًى ! قَالَ : وَيْحَكَ ! إِنَّ هَـٰذَا مَبْلَغُ ٱلاسْتِحْسَانِ عِنْدَهُ .

قُلْتُ : وَمَاذَا يَقُولُ لَكَ أَنْتَ حِينَ تُنْشِدُهُ ؟ قَالَ : أَعْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلًا . . . فَأَرْضَانِي وَٱللهِ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ حَافِظ (قَلِيلٌ) ، وَطَمِعْتُ مِنْ يَوْمَئِذٍ .

وَأَنَا أَرَىٰ أَنَّ « حَافِظَ إِبْرَاهِيم » إِنْ هُوَ إِلَّا دِيوَانُ « ٱلشَّيْخِ مُحَمَّدْ عَبْدُهْ » ، لَوْلَا أَنَّ هَـٰذَا هَـٰذَا ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ ذَلِكَ .

وَمِنْ أَثَرِ ٱلشَّيْخِ فِي حَافِظٍ أَنَّهُ كَانَ دَائِمًا فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ مَنْ يَسْمَعُهُ ، فَكَانَ إِذَا عَمِلَ أَبْيَاتًا رَكِبَ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا صَبْرِي فِي ٱلْقَصْرِ ٱلْعَيْنِيِّ ، وَطَافَ عَلَى ٱلْقَهَوَاتِ وَٱلْأَنْدِيَةِ يُسْمِعُ ٱلنَّاسَ بِٱلْقُوَّةِ . . . إِذْ كَانَتْ أُذُنُ ٱلْإِمَامِ هِيَ ٱلَّتِي رَبَّتِ ٱلْمَلَكَةَ فِيهِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا هَـٰذَا فِي مَقَالِنَا فِي « ٱلْمُقْتَطَف » .

وَكَانَ تَمَامُ ٱلشِّعْرِ ٱلْحَافِظِيِّ أَنْ يُنْشِدَهُ حَافِظٌ نَفْسُهُ ؛ وَمَا سَمِعْتُ فِي ٱلْإِنْشَادِ أَعْرَبَ عَرَبِيَّةً مِنَ ٱلْبَارُودِيِّ ، وَلَا أَعْذَبَ عُذُوبَةً مِنَ ٱلْكَاظِمِيِّ ، وَلَا أَفْخَمَ فَخَامَةً مِنْ حَافِظ ؛ رَحِمَهُمُ ٱللهُ جَمِيعًا .

وَكَانَ أَدِيبُنَا يُجِلُّ ٱلْبَارُودِيَّ إِجْلَالًا عَظِيمًا ، وَلَمَّا قَالَ فِي مَدْحِهِ [من الطويل] :

فَمُرْ كُلَّ مَعْنًى فَارِسِيٍّ بِطَاعَتِي   وَكُلَّ نَفُورٍ مِنْهُ أَنْ يَتَوَدَّدَا

قُلْتُ لَهُ : مَا مَعْنَىٰ هَـٰذَا ؟ وَكَيْفَ يَأْمُرُ ٱلْبَارُودِيُّ كُلَّ مَعْنًى فَارِسِيٍّ وَمَا هُوَ بِفَارِسِيٍّ ؟

قَالَ : إِنَّهُ يَعْرِفُ ٱلْفَارِسِيَّةَ ، وَقَدْ نَظَمَ فِيهَا ، وَعِنْدَهُ مَجْمُوعَةٌ جَمَعَ فِيهَا كُلَّ ٱلْمَعَانِي ٱلْفَارِسِيَّةِ ٱلْبَدِيعَةِ ٱلَّتِي وَقَفَ عَلَيْهَا ؛ قُلْتُ : فَكَانَ ٱلْوَجْهُ أَنْ تَقُولَ لَهُ : أَعِرْنِي ٱلْمَجْمُوعَةَ ٱلَّتِي عِنْدَكَ . . .

أَمَّا ٱلْكَاظِمِيُّ ، فَكَانَ حَافِظٌ يُجَافِيهِ وَيُبَاعِدُهُ ، حَتَّىٰ قَالَ لِي مَرَّةً وَقَدْ ذَكَّرْتُهُ بِهِ : « عَقَقْنَاهُ يَا مُصْطَفَىٰ ! » .

وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ فَرَحَ حَافِظٍ حِينَ أَعْلَمْتُهُ أَنَّ ٱلْكَاظِمِيَّ يَحْفَظُ قَصِيدَةً مِنْ قَصَائِدِهِ ،

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي سَنَةِ ١٩٠١ ـ عَلَىٰ مَا أَذْكُرُ ـ أَعْلَنُوا عَنْ جَوَائِزَ يَمْنَحُونَهَا مَنْ يُجِيدُ فِي مَدْحِ ٱلْخِدِيُو ، وَجَعَلُوا ٱلْحُكْمَ فِي ذَلِكَ إِلَى ٱلْبَارُودِيِّ وَصَبْرِي وَٱلْكَاظِمِيِّ ، ثُمَّ تَخَلَّىٰ ٱلْبَارُودِيُّ وَصَبْرِي ، وَحَكَمَ ٱلْكَاظِمِيُّ وَحْدَهُ ، فَنَالَ حَافِظٌ ٱلْمِيدَالِيَةَ ٱلذَّهَبِيَّةَ ، وَنَالَ مِثْلَهَا ٱلسَّيِّدُ تَوْفِيقٌ ٱلْبَكْرِيُّ .

وَلَمَّا زُرْتُ ٱلْكَاظِمِيَّ ، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ مُبْتَدِئًا فِي ٱلشِّعْرِ ، وَلَا أَزَالُ فِي ٱلْغَزْرَمَةِ(١) ، قَالَ : لِمَاذَا لَمْ تَدْخُلْ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمُبَارَاةِ ؟ قُلْتُ : وَأَيْنَ أَنَا فِي شَوْقِي وَحَافِظٍ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ ؟ فَقَالَ : « لِيهْ تِخَلِّي هِمَّتَكَ ضَعِيفَةً ؟ » ثُمَّ أَسْمَعَنِي قَصِيدَةَ حَافِظٍ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا ، فَنَقَلْتُ ذَلِكَ إِلَىٰ حَافِظٍ ، فَكَادَ يَطِيرُ عَنْ كُرْسِيِّهِ فِي ٱلْقَهْوَةِ .

* * *

وَكَانَ تَعَنُّتُ حَافِظٍ عَلَى ٱلْكَاظِمِيِّ لِأَنَّهُ غَيْرُ مِصْرِيٍّ ، فَفِي سَنَةِ ١٩٠٣ كَانَتْ تَصْدُرُ فِي ٱلْقَاهِرَةِ مَجَلَّةٌ ٱسْمُهَا « ٱلثُّرَيَّا » ، فَظَهَرَ فِي أَحَدِ أَعْدَادِهَا(٢) مَقَالٌ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ بِهَـٰذَا ٱلتَّوْقِيعِ (*) ، وَٱنْفَجَرَ هَـٰذَا ٱلْمَقَالُ ٱنْفِجَارَ ٱلْبُرْكَانِ ، وَقَامَ بِهِ ٱلشُّعَرَاءُ وَقَعَدُوا ، وَكَانَ لَهُ فِي ٱلْغَارَةِ عَلَيْهِمْ كَزَفِيفِ ٱلْجَيْشِ وَقَعْقَعَةِ ٱلسِّلَاحِ ، وَتَنَاوَلَتْهُ ٱلصُّحُفُ ٱلْيَوْمِيَّةُ ، وَٱسْتَمَرَّتْ رَجْفَتُهُ ٱلْأَدَبِيَّةُ نَحْوَ ٱلشَّهْرِ ، وَٱنْتَهَىٰ إِلَى ٱلْخِدِيُو ؛ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ ٱلْأُسْتَاذُ ٱلْإِمَامُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَٱجْتَمَعَ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَارِ أَسَاتِذَةِ ٱلْعَصْرِ ٱلسُّورِيِّينَ ، كَٱلْعَلَّامَةِ سُلَيْمَانَ ٱلْبُسْتَانِيِّ ، وَأَدِيبِ عَصْرِهِ ٱلشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْيَازِجِيِّ ، وَٱلْمُؤَرِّخِ ٱلْكَبِيرِ جُورْجِي زِيدَانَ ـ إِذْ كَانَ صَاحِبُ ٱلْمَجَلَّةِ سُورِيًّا ـ وَجَعَلُوا يُنْفِذُونَ إِلَىٰ صَاحِبِ ٱلْمَجَلَّةِ دَسِيسًا بَعْدَ دَسِيسٍ لِيَعْلَمُوا مَنْ هُوَ كَاتِبُ ٱلْمَقَالِ .

وَشَاعَ يَوْمَئِذٍ أَنِّي أَنَا ٱلْكَاتِبُ لَهُ ؛ وَكَانَ ٱلْكَاظِمِيُّ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلشُّعَرَاءِ فِيهِ ؛ فَغَضِبَ حَافِظٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَمَا كَادَ يَرَانِي فِي ٱلْقَاهِرَةِ حَتَّىٰ ٱبْتَدَرَنِي بِقَوْلِهِ : « وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ أَنْتَ كَاتِبُ ٱلْمَقَالِ ، وَذِمَّةُ ٱلْإِسْلَامِ أَنْتَ صَاحِبُهُ ! » .

(١) ٱلْغَزْرَمَةُ : أَوَّلُ قَوْلِ ٱلشِّعْرِ ، حِينَ يَكْثُرُ ٱلرَّدِيءُ فِيهِ . يُقَالُ : فُلَانٌ يُغَزْرِمُ .

(٢) { عَدَدُ يَنَايِرَ/كانون الأول سَنَةَ ١٩٠٥ ، وَٱنْظُرْ « شُعَرَاءُ عَصْرِهِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

ثُمَّ دَخَلْنَا إِلَىٰ « قَهْوَةِ ٱلشَّيْشَةِ » ، فَقَالَ فِيْ كَلَامِهِ : « إِنَّ ٱلَّذِيْ يُغِيظُنِيْ أَنْ يَأْتِيَ كَاتِبُ ٱلْمَقَالِ بِشَاعِرٍ مِنْ غَيْرِ مِصْرَ فَيَضَعَهُ عَلَىٰ رُؤُوسِنَا نَحْنُ ٱلْمِصْرِيِّيْنَ ! » .

فَقُلْتُ : « وَلَعَلَّ هَـٰذَا قَدْ غَاظَكَ بِقَدْرِ مَا سَرَّكَ أَلَّا يَكُوْنَ ٱلَّذِيْ عَلَىٰ رَأْسِكَ هُوَ شَوْقِيْ . . . » .

وَغَضِبَ ٱلسَّيِّدُ تَوْفِيْقٌ ٱلْبَكْرِيُّ غَضَبًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ، فَٱسْتَعَانَ بِٱلْمَرْحُوْمِ ٱلسَّيِّدِ مُصْطَفَىٰ ٱلْمَنْفَلُوْطِيِّ ٱسْتِعَانَةً ذَهَبِيَّةً . . . وَشَمَّرَ ٱلْمَنْفَلُوْطِيُّ فَكَتَبَ مَقَالًا فِيْ « مَجَلَّةِ سَرْكِيْس » يُعَارِضُ بِهِ مَقَالَ « ٱلثُّرَيَّا » ، وَجَعَلَ فِيْهِ ٱلْبَكْرِيَّ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلشُّعَرَاءِ . . وَمَدَحَهُ مَدْحًا يَرِنُّ رَنِيْنًا .

أَمَّا أَنَا فَتَنَاوَلَنِيْ بِمَا ٱسْتَطَاعَ مِنَ ٱلذَّمِّ ، وَجَرَّدَنِيْ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِيْ جَمِيْعًا ؛ وَعَدَّنِيْ فِيْ ٱلشُّعَرَاءِ لِيَقُوْلَ أَنِّيْ لَسْتُ بِشَاعِرٍ . . . فَكَانَ هَـٰذَا رَدَّ نَفْسِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ[1] .

وَتَعَلَّقَ مَقَالُ ٱلْمَنْفَلُوْطِيِّ عَلَىٰ ٱلْمَقَالِ ٱلْأَوَّلِ فَٱشْتَهَرَ بِهِ لَا بِٱلْمَنْفَلُوْطِيِّ ؛ وَغَضِبَ حَافِظٌ مَرَّةً ثَانِيَةً ، فَكَتَبَ إِلَيَّ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيْهِ تَعَسُّفَ هَـٰذَا ٱلْكَاتِبِ وَتَحَامُلَهُ ، وَيَقُوْلُ : قَدْ وَكَلْتُ إِلَيْكَ أَمْرَ تَأْدِيْبِهِ[2] .

فَكَتَبْتُ مَقَالًا فِيْ جَرِيْدَةِ « ٱلْمِنْبَرِ » ، وَكَانَ يُصْدِرُهَا ٱلْأُسْتَاذَانِ مُحَمَّدٌ مَسْعُوْدٌ وَحَافِظٌ عَوَضٌ ، وَوَضَعْتُ كَلِمَةَ ٱلْمَنْفَلُوْطِيِّ ٱلَّتِيْ ذَمَّنِيْ بِهَا فِيْ صَدْرِ مَقَالِيْ أُفَاخِرُ بِهَا . . . وَقُلْتُ : إِنِّيْ كَذَلِكَ ٱلْفَيْلَسُوْفِ ٱلَّذِيْ أَرَادُوْهُ أَنْ يَشْفَعَ إِلَىٰ مَلِكِهِ ، فَأَكَبَّ عَلَىٰ قَدَمِ ٱلْمَلِكِ حَتَّىٰ شَفَّعَهُ ؛ فَلَمَّا عَابُوْهُ بِأَنَّهُ أَذَلَّ حُرْمَةَ ٱلْفَلْسَفَةِ بِٱنْحِنَائِهِ عَلَىٰ قَدَمِ ٱلْمَلِكِ وَسُجُوْدِهِ لَهُ ، قَالَ : وَيْحَكُمْ ! فَكَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا كَانَ ٱلْمَلِكُ قَدْ جَعَلَ أُذُنَيْهِ فِيْ رِجْلَيْهِ . . .

* * *

(١) [نَشَرَ ٱلْمَرْحُومُ ٱلْمَنْفَلُوطِيُّ مَقَالَهُ هَذَا فِي ٱلطَّبْعَةِ ٱلْأُولَى مِنْ كِتَابِهِ « ٱلنَّظَرَات » بَعْدَ أَنْ هَذَّبَهُ ؛ ثُمَّ حَذَفَهُ مِنَ ٱلطَّبَعَاتِ ٱلْأُخْرَى ، لِأَنَّهُ هُوَ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلنَّائِحَةَ ٱلْمُسْتَأْجَرَةَ لا يُسَمَّى بُكَاؤُهَا بُكَاءً . . . .] { ٱنْظُرْ « فِي ٱلنَّقْدِ » مِنْ كِتَابِ « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

(٢) { « ٱلْمُقْتَطَف » نُوفَمْبَر/تشرين الآخر سَنَةَ ١٩٣٢ ، وَٱنْظُرْ « فِي ٱلنَّقْدِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

وَلَمْ يَكُنْ مَضَىٰ لِيْ فِيْ مُعَالَجَةِ ٱلشِّعْرِ غَيْرُ سَنَتَيْنِ حِيْنَ ظَهَرَ مَقَالُ « ٱلثُّرَيَّا » ، وَمَعَ ذَلِكَ أَصْبَحَ كُلُّ شَاعِرٍ يُرِيْدُ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيِيْ فِيْهِ ؛ فَمَرَرْتُ ذَاتَ يَوْمٍ (بِحَافِظٍ) وَهُوَ فِيْ جَمَاعَةٍ لَا أَعْرِفُهُمْ ، فَلَمَّا ٱطْمَأَنَّ بِيَ ٱلْمَجْلِسُ قَالَ حَافِظٌ : مَا رَأْيُكَ فِيْ شِعْرِ ٱلْيَازِجِيِّ ؟ فَأَجَبْتُهُ ، قَالَ : فَٱلْبُسْتَانِيِّ ؟ فَنَجِيْبٍ ٱلْحَدَّادِ ؟ فَفُلَانٍ ؟ فَفُلَانٍ ؟ فَدَاوُدَ عَمُّوْن ؟ قُلْتُ : هَـٰذَا لَمْ أَقْرَأْ لَهُ إِلَّا قَلِيْلًا لَا يَسُوْغُ مَعَهُ ٱلْحُكْمُ عَلَىٰ شِعْرِهِ . قَالَ : فَمَاذَا قَرَأْتَ لَهُ ؟ قُلْتُ : رَدَّهُ عَلَىٰ قَصِيْدَتِكَ إِلَيْهِ [من المتقارب] :

شَجَتْنَا مَطَالِعُ أَقْمَارِهَا

قَالَ : فَمَا رَأْيُكَ فِيْ قَصِيْدَتِهِ هَـٰذِهِ ؟ قُلْتُ : هِيَ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْوَسَطِ ٱلَّذِيْ لَا يَعْلُوْ وَلَا يَنْزِلُ .

فَمَا رَاعَنِيْ إِلَّا رَجُلٌ فِيْ ٱلْمَجْلِسِ يَقُوْلُ : أَنْصَفْتَ وَٱللهِ ! فَقَالَ حَافِظٌ : أُقَدِّمُ لَكَ دَاوُدَ بِكْ عَمُّوْن ! . . .

رَحِمَ ٱللهُ تِلْكَ ٱلْأَيَّامَ ! .

* * *

شَوْقِي (*)

هَـٰذَا هُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ مِصْرَ ٱخْتَارَتْهُ دُونَ أَهْلِهَا جَمِيعًا لِتَضَعَ فِيهِ رُوحَهَا ٱلْمُتَكَلِّمَ ، فَأَوْجَبَتْ لَهُ مَا لَمْ تُوجِبْ لِغَيْرِهِ ، وَأَعَانَتْهُ بِمَا لَمْ يَتَّفِقْ لِسِوَاهُ ، وَوَهَبَتْهُ مِنَ ٱلْقُدْرَةِ وَٱلتَّمْكِينِ وَأَسْبَابِ ٱلرِّيَاسَةِ وَخَصَائِصِهَا عَلَىٰ قَدْرِ أُمَّةٍ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَةً ، لَا عَلَىٰ قَدْرِ رَجُلٍ فِي نَفْسِهِ ؛ وَبِهِ وَحْدَهُ ٱسْتَطَاعَتْ مِصْرُ أَنْ تَقُولَ لِلتَّارِيخِ : شِعْرِي وَأَدَبِي ! .

شَوْقِي : هَـٰذَا هُوَ ٱلِاسْمُ ٱلَّذِي كَانَ فِي ٱلْأَدَبِ كَٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ؛ مَتَىٰ طَلَعَتْ فِي مَوْضِعٍ فَقَدْ طَلَعَتْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، وَمَتَىٰ ذُكِرَ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ ٱلْعَالَمِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱتَّسَعَ مَعْنَىٰ ٱسْمِهِ فَدَلَّ عَلَىٰ مِصْرَ كُلِّهَا كَأَنَّمَا قِيلَ : ٱلنِّيلُ أَوِ ٱلْهَرَمُ أَوِ ٱلْقَاهِرَةُ ؛ مُتَرَادِفَاتٍ لَا فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَلَـٰكِنْ فِي جَلَالِ ٱللُّغَةِ .

رَجُلٌ عَاشَ حَتَّىٰ تَمَّ ، وَذَلِكَ بُرْهَانُ ٱلتَّارِيخِ عَلَىٰ ٱصْطِفَائِهِ لِمِصْرَ ، وَدَلِيلُ ٱلْعَبْقَرِيَّةِ عَلَىٰ أَنَّ فِيهِ ٱلسِّرَّ ٱلْمُتَحَرِّكَ ٱلَّذِي لَا يَقِفُ وَلَا يَكِلُّ وَلَا يَقْطَعُ نِظَامَ عَمَلِهِ كَأَنَّ فِيهِ حَاسَّةَ نَخْلَةٍ فِي حَدِيقَةٍ . وَيَكْبُرُ شِعْرُهُ كُلَّمَا كَبِرَ ٱلزَّمَنُ ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ دَهْرِهِ وَلَمْ يَقَعْ دُونَ أَبْعَدِ غَايَاتِهِ ، وَكَأَنَّهُ مَعَ ٱلدَّهْرِ عَلَىٰ سِيَاقٍ وَاحِدٍ ، وَكَأَنَّ شِعْرَهُ تَارِيخٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُطَوِّرُ أَطْوَارَهُ فِي ٱلنُّمُوِّ فَلَمْ يَجْمُدْ وَلَمْ يَرْتَكِسْ ، وَبَقِيَ خَيَالُ صَاحِبِهِ إِلَىٰ آخِرِ عُمْرِهِ فِي تَدْبِيرِ ٱلسَّمَاءِ كَعَرَاضِ ٱلْغَمَامَةِ ، سَحَابُهُ كَثِيرُ ٱلْبَرْقِ مُمْتَلِئٌ مُمْطِرٌ يَنْصَبُّ مِنْ نَاحِيَةٍ وَيَمْتَلِئُ مِنْ نَاحِيَةٍ .

وَٱلنَّاسُ يُكْتَبُ عَلَيْهِمُ ٱلشَّبَابُ وَٱلْكُهُولَةُ وَٱلْهَرَمُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْأَدِيبَ ٱلْحَقَّ يُكْتَبُ عَلَيْهِ شَبَابٌ وَكُهُولَةٌ وَشَبَابٌ ؛ إِذْ كَانَتْ فِي قَلْبِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلْحَيَّةُ ٱلشَّاعِرَةُ مَا تَنْفَكُّ يَلِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا إِلَىٰ مَا لَا ٱنْقِطَاعَ لَهُ ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حَيَاةِ ٱلشَّاعِرِ ٱلَّتِي خُلِقَتْ فِي قَلْبِهِ ، وَلَـٰكِنَّهَا مِنْ حَيَاةِ ٱلْمَعَانِي فِي هَـٰذَا ٱلْقَلْبِ .

* * *

(*) « ٱلمقتطف » ، المجلد : ٨١ ، نوفمبر/تشرين الآخر ١٩٣٢ م ، الصفحات : ٣٨٥ ـ ٣٩٧ .
{ وَٱنْظُرْ « في النقد » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

أُقَرِّرُ هَـٰذَا فِي شَوْقِي رَحِمَهُ ٱللهُ ، وَأَنَا مِنْ أَعْرَفِ ٱلنَّاسِ بِعُيُوبِهِ وَأَمَاكِنِ ٱلْغَمِيزَةِ فِي أَدَبِهِ وَشِعْرِهِ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ ٱنْفَلَتَ مِنْ تَارِيخِ ٱلْأَدَبِ لِمِصْرَ وَحْدَهَا كَٱنْفِلَاتِ ٱلْمَطْرَةِ مِنْ سَحَابِهَا ٱلْمُتَسَايِرِ فِي ٱلْجَوِّ ، فَأَصْبَحَتْ مِصْرُ بِهِ سَيِّدَةَ ٱلْعَالَمِ ٱلْعَرَبِيِّ فِي ٱلشِّعْرِ ، وَهِيَ لَمْ تُذْكَرْ قَدِيمًا فِي ٱلْأَدَبِ إِلَّا بِٱلنُّكْتَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَصِنَاعَاتٍ بَدِيعِيَّةٍ مُلَفَّقَةٍ ، وَلَمْ يَسْتَفِضْ لَهَا ذِكْرٌ بِنَابِغَةٍ وَلَا عَبْقَرِيٍّ ، وَكَانَتْ كَٱلْمُسْتَجْدِيَةِ مِنْ تَارِيخِ ٱلْحَوَاضِرِ فِي ٱلْعَالَمِ ، حَتَّىٰ إِنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ ٱلْمُلَقَّبَ بِوَلِيِّ ٱلدَّوْلَةِ صَاحِبَ دِيوَانِ ٱلْإِنْشَاءِ فِي مِصْرَ لِلظَّاهِرِ بْنِ ٱلْمُسْتَنْصِرِ (وَقَدْ تُوُفِّيَ سَنَةَ ٤٣١هـ) ، وَكَانَ رِزْقُهُ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ فِي ٱلسَّنَةِ غَيْرَ رُسُومٍ يَسْتَوْفِيهَا عَلَىٰ كُلِّ مَا يَكْتُبُهُ ـ سَلَّمَ لِرَسُولِ ٱلتُّجَّارِ إِلَىٰ مِصْرَ مِنْ بَغْدَادَ جُزْأَيْنِ مِنْ شِعْرِهِ وَرَسَائِلِهِ يَحْمِلُهُمَا إِلَىٰ بَغْدَادَ لِيَعْرِضَهُمَا عَلَىٰ ٱلشَّرِيفِ ٱلْمُرْتَضَىٰ وَغَيْرِهِ مِنْ أُدَبَائِهَا ، فَيَسْتَشِيرُهُمْ فِي تَخْلِيدِ هَـٰذَا ٱلْأَدَبِ ٱلْمِصْرِيِّ بِدَارِ ٱلْعِلْمِ إِنِ ٱسْتَجَادُوهُ وَٱرْتَضَوْهُ ، كَأَنَّ حِفْظَ دِيوَانٍ مِنْ شِعْرِ مِصْرَ وَنَثْرِهَا فِي مَكْتَبَةٍ بَغْدَادَ قَدِيمًا يُشْبِهُ فِي حَوَادِثِ دَهْرِنَا ٱسْتِقْلَالَ مِصْرَ وَقَبُولَهَا فِي عُصْبَةِ ٱلْأُمَمِ . . .

وَهَـٰذَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْأَسْوَانِيُّ ، إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلْأَدَبِ فِي مِصْرَ (تُوُفِّيَ سَنَةَ ٥٦٢ هـ) وَكَانَ كَاتِبًا شَاعِرًا يَجْمَعُ إِلَىٰ عُلُومِ ٱلْأَدَبِ ٱلْفِقْهَ وَٱلْمَنْطِقَ وَٱلْهَنْدَسَةَ وَٱلطِّبَّ وَٱلْمُوسِيقَىٰ وَٱلْفَلَكَ ـ أَرَادَ أَنْ يُدَوِّنَ شِعْرَ ٱلْمِصْرِيِّينَ ، فَجَمَعَ مِنْ شِعْرِهِمْ (وَشِعْرِ مَنْ طَرَأَ عَلَيْهِمْ) أَرْبَعَ مُجَلَّدَاتٍ ، كَأَنَّ ٱلشِّعْرَ ٱلْمِصْرِيَّ وَحْدَهُ إِلَىٰ آخِرِ ٱلْقَرْنِ ٱلسَّادِسِ لِلْهِجْرَةِ ، فِي ٱلْعَهْدِ ٱلَّذِي لَمْ يَكُنْ ضَاعَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ ٱلْكُتُبِ وَٱلدَّوَاوِينِ لَا يَمْلَأُ أَرْبَعَ مُجَلَّدَاتٍ . . . عَلَىٰ ٱخْتِلَافِهِمْ فِي مِقْدَارِ ٱلْمُجَلَّدَةِ ، فَقَدْ تَكُونُ جُزْءًا لَطِيفَ ٱلْحَجْمِ ، وَٱلْأَسْوَانِيُّ نَفْسُهُ يَبْلُغُ دِيوَانُهُ نَحْوَ مِئَةِ وَرَقَةٍ .

وَأَخُوهُ ٱلْحَسَنُ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلْمُهَذَّبِ ٱلْأَسْوَانِيِّ (ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٦٥١) ، قَالَ ٱلْعِمَادُ ٱلْكَاتِبُ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمِصْرَ فِي زَمَنِهِ أَشْعَرُ مِنْهُ ، وَسَارَتْ لَهُ فِي ٱلنَّاسِ قَصِيدَةٌ سَمَّوْهَا « ٱلنَّوَّاحَةَ » وَصَفَ فِيهَا حَنِينَهُ إِلَىٰ أَخِيهِ وَقَدْ رَحَلَ إِلَىٰ مَكَّةَ وَطَالَتْ غَيْبَتُهُ بِهَا وَخِيفَ عَلَيْهِ ، فَٱلرَّجُلُ أَشْعَرُ أَهْلِ مِصْرَ فِي زَمَنِهِ ، وَحَادِثَةُ ٱلنَّوَّاحَةِ تَجْعَلُهُ فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ أَشْعَرَ مِنْ نَفْسِهِ ، عَلَىٰ أَنَّهُ مَعَ هَـٰذَا لَمْ يَقُلْ إِلَّا مِنْ هَـٰذَا [من الكامل] :

يَـا رَبْـعُ أَيْـنَ تَـرَىٰ ٱلْأَحِبَّـةَ يَمَّمُـوا   هَـلْ أَنْجَـدُوا مِـنْ بَعْـدِنَـا أَمْ أَتْهَمُـوا

رَحَلُوْا وَفِي ٱلْقَلْبِ ٱلْمُعَنَّىٰ بَعْدَهُمْ وَجْدٌ عَلَىٰ مَرِّ ٱلزَّمَانِ مُخَيِّمُ
وَتَعَوَّضَتْ بِٱلْأُنْسِ نَفْسِيْ وَحْشَةً لَا أَوْحَشَ ٱللهُ ٱلْمَنَازِلَ مِنْهُمُ . .

وَلَوْلَا ٱبْنُ ٱلْفَارِضِ وَٱلْبَهَاءُ زُهَيْرٌ وَٱبْنُ قَلَاقِسَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيُّ وَأَمْثَالُهُمْ ، وَكُلُّهُمْ أَصْحَابُ دَوَاوِيْنَ صَغِيْرَةٍ ، وَلَيْسَ فِيْ شِعْرِهِمْ إِلَّا طَابَعُ ٱلنِّيْلِ ، أَيْ : ٱلرِّقَّةُ وَٱلْحَلَاوَةُ ـ لَوْلَا هَـٰؤُلَاءِ فِيْ ٱلْمُتَقَدِّمِيْنَ لَأَجْدَبَ تَارِيْخُ ٱلشِّعْرِ فِيْ مِصْرَ ، وَلَوْلَا ٱلْبَارُوْدِيُّ وَصَبْرِيْ وَحَافِظٌ فِيْ ٱلْمُتَأَخِّرِيْنَ ، وَكُلُّهُمْ كَذَٰلِكَ أَصْحَابُ دَوَاوِيْنَ صَغِيْرَةٍ ، لَمَا ذُكِرَتْ مِصْرُ بِشِعْرِهَا فِيْ ٱلْعَالَمِ ٱلْعَرَبِيِّ ، عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ هَـٰؤُلَاءِ وَكُلَّ أُوْلَـٰئِكَ لَمْ يَسْتَطِيْعُوْا أَنْ يَضَعُوْا تَاجَ ٱلشِّعْرِ عَلَىٰ مَفْرِقِ مِصْرَ وَوَضَعَهُ شَوْقِيْ وَحْدَهُ !

وَٱلْعَجَبُ أَنَّ دَوَاوِيْنَ ٱلْمُجِيْدِيْنَ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْمِصْرِيِّيْنَ لَا تَكُوْنُ إِلَّا صَغِيْرَةً ، كَأَنَّ طَبِيْعَةَ ٱلنِّيْلِ تَأْخُذُ فِيْ ٱلْمَعَانِيْ كَأَخْذِهَا فِيْ ٱلْمَادَّةِ ، فَلَا فَيْضَ وَلَا خِصْبَ إِلَّا فِيْ وَقْتٍ بَعْدَ أَوْقَاتٍ ، وَفِيْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ كُلِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، وَمِنْ جَمَالِ ٱلْفَرَاشَةِ أَنْ تَكُوْنَ صَغِيْرَةً ، وَحَسْبُهَا عِنْدَ نَفْسِهَا أَنَّ أَجْنِحَتَهَا مُنَقَّطَةٌ بِٱلذَّهَبِ ، وَأَنَّهَا هِيَ نُكْتَةٌ مِنْ بَدِيْعِ ٱلطَّبِيْعَةِ !

عَلَىٰ أَنَّكَ وَاجِدٌ فِيْ تَارِيْخِ ٱلْأَدَبِ ٱلْمِصْرِيِّ عَجِيْبَةً مِنْ عَجَائِبِ ٱلدُّنْيَا لَا تُذْكَرُ مَعَهَا ٱلْإِلْيَاذَةُ وَلَا ٱلْإِنْيَادَةُ وَلَا ٱلشَّاهْنَامَه وَلَا غَيْرُهَا ، وَلَـٰكِنَّهَا عَجِيْبَةٌ مَلَأَتْهَا رُوْحُ ٱلصَّحْرَاءِ إِنْ كَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّوَاوِيْنُ ٱلصَّغِيْرَةُ مِنْ رُوْحِ ٱلنِّيْلِ ؛ وَهِيَ قَصِيْدَةٌ نَظَمَهَا أَبُوْ رَجَاءٍ ٱلْأَسْوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٣٣٥هـ ، وَكَانَ شَاعِرًا فَقِيْهًا أَدِيْبًا عَالِمًا كَمَا قَالُوْا ، وَزَعَمُوْا أَنَّهُ ٱقْتَصَّ فِيْ نَظْمِهِ أَخْبَارَ ٱلْعَالَمِ وَقِصَصَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، قَالُوْا : وَسُئِلَ قَبْلَ مَوْتِهِ كَمْ بَلَغَتْ قَصِيْدَتُكَ ؟ فَقَالَ : ثَلَاثِيْنَ وَمِئَةَ أَلْفِ بَيْتٍ . . . وَمَا أَشُكُّ أَنَّ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ وَقَعَ لَهُ تَارِيْخُ ٱلطَّبَرِيِّ وَكُتُبُ ٱلسِّيَرِ وَقِصَصُ ٱلْإِسْرَائِيْلِيَّاتِ فَنَظَمَهَا مُتُوْنًا مُتُوْنًا . . . وَأَفْنَىٰ عُمُرَهُ فِيْ ١٣٠ أَلْفِ بَيْتٍ حَوَّلَهَا ٱلتَّارِيْخُ إِلَىٰ خَبَرٍ مُهْمَلٍ فِيْ ثَلَاثَةِ أَسْطُرٍ[١] !

* * *

كُلُّ شَاعِرٍ مِصْرِيٍّ هُوَ عِنْدِيْ جُزْءٌ مِنْ جُزْءٍ ؛ وَلَـٰكِنَّ شَوْقِيْ جُزْءٌ مِنْ كُلٍّ ؛ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ

(١) { ٱنْظُرْ خَبَرَ (مِصْرَ ٱلشَّاعِرَةِ) « فِيْ ٱلنَّقْدِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

ٱلْجُزْءَيْنِ أَنَّ ٱلْأَخِيْرَ فِيْ قُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَتَمَكُّنِهِ وَٱتِّسَاعِ شِعْرِهِ جُزْءٌ عَظِيْمٌ كَأَنَّهُ بِنَفْسِهِ ٱلْكُلُّ ؛ وَلَمْ يَتْرُكْ شَاعِرٌ فِيْ مِصْرَ قَدِيْمًا وَحَدِيْثًا مَا تَرَكَ شَوْقِيْ ، وَقَدِ ٱجْتَمَعَ لَهُ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِسِوَاهُ ؛ وَذَلِكَ مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ ٱلْمُخْتَارُ لِبِلَادِهِ ، فَسَاوَىٰ ٱلْمُمْتَازِيْنَ مِنْ شُعَرَاءِ دَهْرِهِ ، وَٱرْتَفَعَ عَلَيْهِمْ بِأُمُوْرٍ كَثِيْرَةٍ هِيَ رِزْقُ تَارِيْخِهِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ ٱلْمُدَبِّرَةِ ٱلَّتِيْ لَا حِيْلَةَ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا لَا تُعْطِيْ ، أَوْ يَزِيْدَ مَا تَنْقُصُ ، أَوْ يَنْقُصَ مَا تَزِيْدُ ، وَقَدْ حَاوَلُوْا إِسْقَاطَ شَوْقِيْ مِرَارًا فَأَرَاهُمْ غُبَارَهُ وَمَضَىٰ مُتَقَدِّمًا ، وَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ مِنْهُمْ لِيَغْسِلَ عَيْنَيْهِ . . . وَيَرَىٰ بِهِمَا أَنَّ « شَوْقِيْ » مِنَ ٱلنَّفْسِ ٱلْمِصْرِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَجْدِ ٱلْمَكْتُوْبِ لَهَا فِيْ ٱلتَّارِيْخِ بِحَرْبٍ وَنَصْرٍ ، وَمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ شَاعِرٍ وَشِعْرِهِ .

وُلِدَ شَاعِرُنَا سَنَةَ ١٨٦٨ فِيْ نِعْمَةِ ٱلْخِدْيُو إِسْمَاعِيْلَ بَاشَا ، وَنَثَرَ لَهُ ٱلْخِدْيُو ٱلذَّهَبَ وَهُوَ رَضِيْعٌ فِيْ قِصَّةٍ ذَكَرَهَا شَوْقِيْ فِيْ مُقَدِّمَةِ دِيْوَانِهِ ٱلْقَدِيْمِ . ثُمَّ كَفِلَهُ ٱلْخِدْيُو تَوْفِيْقُ بَاشَا وَعَلَّمَهُ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ مِنْ سَعَةٍ ، وَأَنْزَلَ نَفْسَهُ مِنْهُ مَنْزِلَةَ أَبٍ غَنِيٍّ كَمَا يَقُوْلُ شَوْقِيْ فِيْ مُقَدِّمَتِهِ ، ثُمَّ تَوَلَّاهُ ٱلْخِدْيُو عَبَّاسُ بَاشَا وَجَعَلَهُ شَاعِرَهُ وَتَرَكَهُ يَقُوْلُ [من المقتضب] :

شَاعِرُ ٱلْعَزِيْزِ وَمَا بِٱلْقَلِيْلِ ذَا ٱللَّقَبُ

وَإِذَا أَنْتَ فَسَّرْتَ لَقَبَ شَاعِرِ ٱلْأَمِيْرِ هَـٰذَا بِٱلْأَمِيْرِ نَفْسِهِ فِيْ ذَلِكَ ٱلْعَهْدِ ، خَرَجَ لَكَ مِنَ ٱلتَّفْسِيْرِ : شَاعِرٌ مُرْهَفٌ مُعَانٌ بِأَسْبَابٍ كَثِيْرَةٍ ، لِيَكُوْنَ أَدَاةً سِيَاسِيَّةً فِيْ ٱلشَّعْبِ ٱلْمِصْرِيِّ ، تَعْمَلُ لِإِحْيَاءِ ٱلتَّارِيْخِ فِيْ ٱلنَّفْسِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ، وَتَبْصِيْرِهَا بِعَظَمَتِهَا ، وَإِقْحَامِهَا فِيْ مَعَارِكِ زَمَنِهَا ، وَتَهْيِئَتِهَا لِلْمُدَافَعَةِ ، وَتَصِلُ ٱلشِّعْرَ بِٱلسِّيَاسَةِ ٱلدِّيْنِيَّةِ ٱلَّتِيْ تَوَجَّهَتْ لَهَا ٱلْخِلَافَةُ يَوْمَئِذٍ لِتَضْرِبَ فِكْرَةَ أُوْرُوْبَّة فِيْ تَقْسِيْمِ ٱلدَّوْلَةِ بِفِكْرَةِ ٱلْجَامِعَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ ؛ وَلَا يَخْرُجُ لَكَ شَوْقِيْ مِنْ هَـٰذَا ٱلتَّفْسِيْرِ عَلَىٰ أَنَّهُ رَجُلٌ فِيْ قَدْرِ نَفْسِهِ ، بَلْ فِيْ قَدْرِ أَمِيْرِهِ ذَلِكَ ؛ وَكَانَ مُمْتَلِئًا شَبَابًا يَغْلِيْ غَلَيَانًا ، وَمُعَدًّا يَوْمَئِذٍ لِمَطَامِحَ بَعِيْدَةٍ مُلَفَّفَةٍ حَشْوُهَا ٱلدِّيْنَامِيْتُ ٱلسِّيَاسِيُّ . . .

كُنْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ أُكَلِّمُ صَدِيْقِيَ ٱلْكَاتِبَ ٱلْعَمِيْقَ فَرَح أَنْطُون صَاحِب « ٱلْجَامِعَةِ » وَكَانَ مُعْجَبًا بِشَوْقِيْ إِعْجَابًا شَدِيْدًا ، فَقَالَ لِيْ : إِنَّ شَوْقِيْ ٱلْآنَ فِيْ أُفُقِ ٱلْمُلُوْكِ لَا فِيْ أُفُقِ ٱلشُّعَرَاءِ ! قُلْتُ : كَأَنَّكَ نَفَيْتَهُ مِنَ ٱلْمُلُوْكِ وَٱلشُّعَرَاءِ مَعًا ؛ إِذْ لَوْ خَرَجَ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا ، وَلَوْ نَفَذَ إِلَىٰ أُوْلَـٰئِكَ لَمْ يُعَدَّ شَيْئًا ؛ إِنَّمَا ٱلرَّجُلُ فِيْ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمُلْتَوِيَةِ ٱلَّتِيْ تَصِلُهُ

بِٱلأَمِيْرِ ، وَهُوَ مَرَّةً كَوَزِيْرِ ٱلْحَرْبِيَّةِ وَمَرَّةً كَوَزِيْرِ ٱلْمَعَارِفِ .

وَهَـٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةُ ٱلَّتِيْ ٱرْتَاضَ بِهَا شَوْقِيْ وَلَابَسَهَا مِنْ أَوَّلِ عَهْدِهِ ، وَٱتَّجَهَ شِعْرُهُ فِيْ مَذَاهِبِهَا ، مِنَ ٱلْوَطَنِيَّةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ، إِلَىٰ ٱلنَّزْعَةِ ٱلْفِرْعَوْنِيَّةِ إِلَىٰ ٱلْجَامِعَةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ ، فَكَانَتْ بِهَـٰذَا سَبَبَ نُبُوْغِهِ وَمَادَّةَ مَجْدِهِ ٱلشِّعْرِيِّ ـ هِيَ بِعَيْنِهَا مَادَّةُ نَقَائِصِهِ ؛ فَلَقَدِ ٱبْتَلَتْهُ بِحُبِّ نَفْسِهِ وَحُبِّ ٱلثَّنَاءِ عَلَيْهَا ، وَتَسْخِيْرِ ٱلنَّاسِ فِيْ ذَلِكَ بِمَا وَسِعَتْهُ قُوَّتُهُ ، إِلَىٰ غَيْرَةٍ أَشَدَّ مِنْ غَيْرَةِ ٱلْحَسْنَاءِ تَقْشَعِرُّ كُلُّ شَعْرَةٍ مِنْهَا إِذْ جَاءَهَا ٱلْحُسْنُ بِثَانِيَةٍ ، وَهِيَ غَيْرَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مَذْمُوْمَةً فِيْ صِلَتِهِ بِٱلأُدَبَاءِ ٱلَّذِيْنَ لَذَّعُوْهُ بِٱلْجَمْرِ . . . وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهَا مَمْدُوْحَةٌ فِيْ مَوْضُوْعِهَا مِنْ طَبِيْعَتِهِ هُوَ ؛ إِذْ جَعَلَتْهُ كَٱلْجَوَادِ ٱلْعَتِيْقِ ٱلْكَرِيْمِ يُنَافِسُ حَتَّىٰ ظِلَّهُ ، فَعَارَضَ ٱلْمُتَقَدِّمِيْنَ بِشِعْرِهِ كَأَنَّهُمْ مَعَهُ ، وَنَافَسَ ٱلْمُعَاصِرِيْنَ لِيَجْعَلَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَيْسُوْا مَعَهُ ، وَنَافَسَ ذَاتَهُ أَيْضًا لِيَجْعَلَ شَوْقِيْ أَشْعَرَ مِنْ شَوْقِيْ ؛ وَعِنْدِيْ أَنَّ كُلَّ مَا فِيْ هَـٰذَا ٱلرَّجُلِ مِنَ ٱلْمُتَنَاقِضَاتِ فَمَرْجِعُهُ إِلَىٰ آثَارِ تِلْكَ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمُلْتَوِيَةِ ٱلَّتِيْ رُدَّتْ بِطَبِيْعَةِ ٱلْقُوَّةِ عَنْ وُجُوْهِهَا ٱلصَّرِيْحَةِ ، فَجَعَلَتْ تَضْطَرِبُ فِيْ وُجُوْهٍ مِنَ ٱلْحِيَلِ وَٱلأَسْبَابِ مُدْبِرَةً مُقْبِلَةً ، مُتَهَدِّيَةً فِيْ كُلِّ مَجَاهِلِهَا بِإِبْرَةٍ مِغْنَاطِيْسِيَّةٍ عَجِيْبَةٍ لَا يُشْبِهُهَا فِيْ ٱلطَّبِيْعَةِ إِلَّا أَنْفُ ٱلثَّعْلَبِ ٱلْمُتَّجِهِ دَائِمًا إِلَىٰ رَائِحَةِ ٱلدَّجَاجِ . . .

وَمُؤَرِّخُ ٱلأَدَبِ ٱلَّذِيْ يُرِيْدُ أَنْ يَكْتُبَ عَنْ شَوْقِيْ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا إِنْ هُوَ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرَ ٱلْعَظِيْمَ كَانَ هَدِيَّةَ ٱلْخِدِيوِي تَوْفِيْقٍ وَٱلْخِدِيوِي عَبَّاسٍ لِمِصْرَ ، كَٱلدِّلْتَا بَيْنَ فَرْعَيِ ٱلنِّيْلِ ؛ وَمَا أَصَابَهُ ٱلْمُتَنَبِّيُّ مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ مِمَّا ٱبْتَعَثَ قَرِيْحَتَهُ وَرَاشَ أَجْنِحَتَهُ ٱلسَّمَاوِيَّةَ وَأَضْفَىٰ رِيْشَهَا وَٱنْتَزَىٰ بِهَا عَلَىٰ ٱلْغَايَاتِ ٱلْبَعِيْدَةِ فِيْ تَارِيْخِ ٱلأَدَبِ ـ أَصَابَ شَوْقِيْ فِيْ سُمُوِّ ٱلْخِدِيوِي عَبَّاسٍ أَكْثَرَ مِنْهُ ، فَكَانَ حَقِيْقًا أَنْ يُسَاوِيَ ٱلْمُتَنَبِّيَ أَوْ يَتَقَدَّمَهُ ، وَلَـٰكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ مَنْزِلَتَهُ ، لِأَنَّ ٱلْخِدِيوِي لَمْ يَكُنْ كَسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِيْ مَعْرِفَتِهِ بِٱلأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ وَرَغْبَتِهِ فِيْهِ . وَسِرُّ ٱلْمُتَنَبِّيِّ كَانَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ : فِيْ جِهَازِهِ ٱلْعَصَبِيِّ ٱلْعَجِيْبِ ٱلَّذِيْ لَا يَقِلُّ فِيْ رَأْيِيْ عَمَّا فِيْ دِمَاغِ شِكِسْبِيْر Shakespeare ، وَفِيْ مَمْدُوْحِهِ ٱلأَدِيْبِ ٱلْمَلِكِ ٱلَّذِيْ يَنْزِلُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْجِهَازِ مَنْزِلَةَ ٱلْمُهَنْدِسِ ٱلْكَهْرَبَائِيِّ مِنْ آلَةٍ عَظِيْمَةٍ يُدِيْرُهَا بِعِلْمٍ وَيَقُوْمُ عَلَيْهَا بِتَدْبِيْرٍ وَيَحُوْطُهَا بِعِنَايَةٍ ، ثُمَّ فِيْ أُفُقِ عَصْرِهِ ٱلْمُتَأَلِّقِ بِنُجُوْمِ ٱلأَدَبِ ٱلَّتِيْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَظْهَرَ بَيْنَهَا إِلَّا مَا هُوَ فِيْ قَدْرِهَا ؛ وَلَا

يَتَمَيَّزُ فِيْهَا إِلَّا مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا ، وَلَا يَتْرُكُهَا كَٱلْمُنْطَفِئَةِ إِلَّا شَمْسٌ كَشَمْسِ ٱلْمُتَنَبِّي تَتَفَجَّرُ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا بِمُعْجِزَاتِهَا ٱلنُّوْرَانِيَّةِ .

وَلَقَدْ وَٱللهِ كَانَ هَـٰذَا ٱلْمُتَنَبِّي كَأَنَّهُ يُوَزِّعُ ٱلشَّرَفَ عَلَىٰ ٱلْمُلُوْكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ ؛ وَهَلْ أَدَلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ أَبَا إِسْحَاقَ ٱلصَّابِئَ شَيْخَ ٱلْكُتَّابِ فِيْ عَصْرِهِ يُرَاسِلُهُ أَنْ يَمْدَحَهُ بِقَصِيْدَتَيْنِ وَيُعْطِيَهُ خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِ ٱلْمُتَنَبِّي : مَا رَأَيْتُ بِٱلْعِرَاقِ مَنْ يَسْتَحِقُّ ٱلْمَدْحَ غَيْرَكَ ، وَلَـٰكِنِّيْ إِنْ مَدَحْتُكَ تَنَكَّرَ لَكَ ٱلْوَزِيْرُ (يَعْنِيْ ٱلْمُهَلَّبِيَّ) لِأَنِّيْ لَمْ أَمْدَحْهُ ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تُبَالِيْ هَـٰذَا ٱلْحَالَ فَأَنَا أُجِيْبُكَ وَلَا أُرِيْدُ مِنْكَ مَالًا وَلَا مِنْ شِعْرِيْ عِوَضًا ! فَأَيْنَ فِيْ دَهْرِنَا مَنْ تُشْعِرُهُ عِزَّةُ ٱلأَدَبِ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلشُّعُوْرِ لِيَأْتِيَ بِٱلشِّعْرِ مِنْ نَفْسٍ مُسْتَيْقِنَةٍ أَنَّ ٱلدُّنْيَا فِيْ ٱنْتِظَارِ كَلِمَتِهَا ؟

عَلَىٰ أَنَّ « شَوْقِيْ » لَمْ يَكُنْ يَنْقُصُهُ بِٱعْتِبَارِ زَمَنِهِ إِلَّا (ٱلْجُمْهُوْرُ ٱلشِّعْرِيُّ) ، وَكُلُّ بَلَاءِ ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ أَنَّهُ لَا يَجِدُ هَـٰذَا ٱلْجُمْهُوْرَ ، فَٱلشَّاعِرُ بِذَلِكَ مُنْصَرِفٌ إِلَىٰ مَعَانٍ فَرْدِيَّةٍ مِنْ مَمْدُوْحٍ عَظِيْمٍ أَوْ حَبِيْبٍ عَظِيْمٍ أَوْ سُقُوْطٍ عَظِيْمٍ . . . حَتَّىٰ ٱلطَّبِيْعَةُ تَظْهَرُ فِيْ ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ كَأَنَّهَا قِطَعٌ مَبْتُوْرَةٌ مِنَ ٱلْكَوْنِ دَاخِلَةٌ فِيْ ٱلْحُدُوْدِ لَابِسَةٌ ٱلثِّيَابَ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ يَنْبُغُ ٱلشَّاعِرُ وَلَيْسَ فِيْهِ مِنَ ٱلإِحْسَاسِ إِلَّا قَدْرُ نَفْسِهِ لَا قَدْرُ جُمْهُوْرِهِ ، وَإِلَّا مِلْءُ حَاجَاتِهِ لَا مِلْءُ ٱلطَّبِيْعَةِ ؛ فَلَا جَرَمَ يَقَعُ بَعِيْدًا عَنِ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلشَّامِلِ ٱلْمُتَّصِلِ بِٱلْمَجْهُوْلِ ، وَيَسْقُطُ بِشِعْرِهِ عَلَىٰ صُوَرٍ فَرْدِيَّةٍ ضَيِّقَةِ ٱلْحُدُوْدِ ، فَلَا نَجِدُ فِيْ طَبْعِهِ قُوَّةَ ٱلإِحَاطَةِ وَٱلتَّبَسُّطِ وَٱلشُّمُوْلِ وَٱلتَّدْقِيْقِ ، وَلَا تُؤَاتِيْهِ طَبِيْعَتُهُ أَنْ يَسْتَوْعِبَ كُلَّ صُوْرَةٍ شِعْرِيَّةٍ بِخَصَائِصِهَا ، فَإِذَا هُوَ عَلَىٰ ٱلْخَاطِرِ ٱلْعَارِضِ يَأْخُذُ مِنْ عَفْوِهِ وَلَا يُحْسِنُ أَنْ يُوْغِلَ فِيْهِ ، وَإِذَا هُوَ عَلَىٰ نَزَوَاتٍ ضَعِيْفَةٍ مِنَ ٱلتَّفْكِيْرِ لَا يَطُوْلُ لَهَا بَحْثُهُ وَلَا يَتَقَدَّمُ فِيْهَا نَظَرُهُ ، وَإِذَا نَفْسُهُ تَمُرُّ عَلَىٰ ٱلْكَوْنِ مَرًّا سَرِيْعًا ، وَإِذَا شِعْرُهُ مُقَطَّعٌ قِطَعًا ، وَإِذَا آلَامُهُ وَأَفْرَاحُهُ أَوْصَافٌ لَا شُعُوْرٌ ، وَكَلِمَاتٌ لَا حَقَائِقُ ، وَظِلٌّ طَامِسٌ مُلْقًى عَلَىٰ ٱلأَرْضِ إِذَا قَابَلْتَهُ بِتَفَاصِيْلِ ٱلْجِسْمِ ٱلْحَيِّ ٱلسَّائِرِ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ .

وَٱجْتَمَعَ لِشَوْقِيْ فِيْ مِيْرَاثِ دَمِهِ وَمَجَارِيْ أَعْرَاقِهِ عُنْصُرٌ عَرَبِيٌّ ، وَآخَرُ تُرْكِيٌّ ، وَثَالِثٌ يُوْنَانِيٌّ ، وَرَابِعُ شَرْكَسِيٌّ ؛ وَهَـٰذِهِ كَثْرَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ لَا يَأْتِيْ مِنْهَا شَاعِرٌ إِلَّا كَانَ خَلِيْقًا أَنْ يَكُوْنَ دَوْلَةً مِنْ دُوَلِ ٱلشِّعْرِ ، وَإِلَىٰ هَـٰذَا وُلِدَ شَاعِرُنَا بِٱخْتِلَالِهِ ٱلْعَصَبِيِّ فِيْ عَيْنَيْهِ ، كَأَنَّ هَـٰذَا دَلِيْلٌ طَبِيْعِيٌّ عَلَىٰ أَنَّ وَرَاءَهُمَا عَيْنَيْنِ لِلْمَعَانِيْ تُزَاحِمَانِ عَيْنَيْ ٱلْبَصَرِ ؛ وَمَا لَمْ يَكُنِ ٱلتَّرْكِيْبُ

ٱلْعَصَبِيُّ فِي ٱلشَّاعِرِ مُهَيَّأً لِلنُّبُوغِ ؛ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ مِنْ تَقَاسِيمِ ٱلدُّنْيَا فِي غَيْرِ ٱلشِّعْرِ ، وَلَيْسَ فِي ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا فِي ٱلصِّنَاعَةِ قُوَّةٌ تَجْعَلُ حَنْجَرَةَ ٱلْبُلْبُلِ فِي غَيْرِ ٱلْبُلْبُلِ ؛ وَمَعَ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ فَقَدْ أُعِينَ شَوْقِي عَلَى ٱلشِّعْرِ بِفَرَاغِهِ لَهُ أَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، غَيْرَ مُشْتَرَكِ ٱلْعَمَلِ ، وَلَا مُنْقَسِمِ ٱلْخَاطِرِ ، عَلَى سَعَةٍ فِي ٱلرِّزْقِ وَبَسْطَةٍ فِي ٱلْجَاهِ وَعُلُوٍّ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ دَوَاوِينُ ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ وَٱلْأُورُبِّيِّ وَٱلتُّرْكِيِّ وَٱلْفَارِسِيِّ ؛ وَإِنْ تَنْسَ فَلَا تَنْسَ أَنَّ شَاعِرَنَا هَـٰذَا خُصَّ بِنَشَاطِ ٱلْحَيَاةِ ، وَهُوَ رُوحُ ٱلشِّعْرِ لَا رُوحَ لِلشِّعْرِ بِدُونِهِ ، فَسَافَرَ وَرَحَلَ وَتَقَلَّبَ فِي ٱلْأَرْضِ وَخَالَطَ ٱلشُّعُوبَ وَٱسْتَعْرَضَ ٱلطَّبِيعَةَ يَتَخَلَّلُهَا بِبَصَرِهِ مَا بَيْنَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْآسِتَانَةِ ، وَظَهِيرُهُ عَلَى ذَلِكَ مَالُهُ وَفَرَاغُهُ ؛ وَإِنَّمَا قُوَّةُ ٱلشِّعْرِ فِي مَسَاقِطِ ٱلْجَوِّ ، فَفِي كُلِّ جَوٍّ جَدِيدٍ رُوحٌ لِلشَّاعِرِ جَدِيدَةٌ ؛ وَٱلطَّبِيعَةُ كَٱلنَّاسِ : هِيَ فِي مَكَانٍ بَيْضَاءُ وَفِي مَكَانٍ سَوْدَاءُ ، وَهِيَ فِي مَوْضِعٍ نَائِمَةٌ تَحْلُمُ وَفِي مَوْضِعٍ قَائِمَةٌ تَعْمَلُ ، وَفِي بَلَدٍ هِيَ كَٱلْأُنْثَى ٱلْجَمِيلَةِ ، وَفِي بَلَدٍ هِيَ كَٱلرَّجُلِ ٱلْمُصَارِعِ ، وَلَنْ يَجْتَمِعَ لَكَ رُوحُ ٱلْجِهَازِ ٱلْعَصَبِيِّ عَلَى أَقْوَاهُ وَأَشَدِّهِ إِلَّا إِذَا أَطْعَمْتَهُ مَعَ صُنُوفِ ٱلْأَطْعِمَةِ ٱللَّذِيذَةِ ٱلْمُفِيدَةِ ، أَلْوَانَ ٱلْهَوَاءِ ٱللَّذِيذِ ٱلْمُفِيدِ .

وَعِنْدِي أَنَّهُ لَا أَمَلَ أَنْ يَنْشَأَ لِمِصْرَ شَاعِرٌ عَظِيمٌ فِي طَبَقَةِ ٱلْفُحُولِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْعَالَمِ ، إِلَّا إِذَا أُعِيدَ تَارِيخُ شَوْقِي مُهَذَّبًا مُنَقَّحًا فِي رَجُلٍ وَهَبَهُ ٱللهُ مَوَاهِبَهُ ثُمَّ تَهَبُهُ ٱلْحُكُومَةُ ٱلْمِصْرِيَّةُ مَوَاهِبَهَا .

* * *

وَٱلْكِتَابُ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي رَاضَ خَيَالَ شَوْقِي وَصَقَلَ طَبْعَهُ وَصَحَّحَ نَشْأَتَهُ ٱلْأَدَبِيَّةَ ، هُوَ بِعَيْنِهِ ٱلَّذِي كَانَتْ مِنْهُ بَصِيرَةُ حَافِظٍ وَذَكَرْنَاهُ فِي مَقَالِنَا عَنْهُ ، أَيْ : كِتَابُ « ٱلْوَسِيلَةِ ٱلْأَدَبِيَّةِ » لِلْمَرْصَفِيِّ ؛ وَلَيْسَ ٱلسِّرُّ فِي هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ مَا فِيهِ مِنْ فُنُونِ ٱلْبَلَاغَةِ وَمُخْتَارَاتِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْكِتَابَةِ ؛ فَهَـٰذَا كُلُّهُ كَانَ فِي مِصْرَ قَدِيمًا وَلَمْ يُغْنِ شَيْئًا وَلَمْ يُخْرِجْ لَهَا شَاعِرًا كَشَوْقِي ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلسِّرَّ مَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شِعْرِ ٱلْبَارُودِيِّ لِأَنَّهُ مُعَاصِرٌ ؛ وَٱلْمُعَاصَرَةُ ٱقْتِدَاءٌ وَمُتَابَعَةٌ عَلَى صَوَابٍ إِنْ كَانَ ٱلصَّوَابُ ، وَعَلَى خَطَإٍ إِنْ كَانَ ٱلْخَطَأُ ؛ وَقَدْ تَصَرَّمَتِ ٱلْقُرُونُ ٱلْكَثِيرَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَنَاقَلُونَ دِيوَانَ ٱلْمُتَنَبِّي وَغَيْرِهِ ؛ ثُمَّ لَا يُجِيزُونَ إِلَّا بِشِعْرِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلتَّكَلُّفِ : وَلَا يُخْلِدُ ٱلْجِيلُ مِنْهُمْ إِلَّا لِمَا رَأَى فِي عَصْرِهِ ؛ وَلَا يَسْتَفْتِحُ غَيْرَ ٱلْبَابِ ٱلَّذِي فُتِحَ لَهُ ، إِلَى أَنْ

كَانَ ٱلْبَارُودِيُّ وَكَانَ جَاهِلًا بِفُنُونِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَعُلُومِ ٱلْبَلَاغَةِ ، لَا يُحْسِنُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَجَهْلُهُ هَـٰذَا هُوَ كُلُّ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي حَوَّلَ ٱلشِّعْرَ مِنْ بَعْدُ ، فَيَا لَهَا عَجِيبَةً مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ! وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ ٱلنَّاسِ لَيْسَتْ إِلَّا خُضُوعًا لِقَوَانِينَ نَافِذَةٍ عَلَى ٱلنَّاسِ . وَأَكَبَّ ٱلْبَارُودِيُّ عَلَى مَا أَطَاقَهُ ؛ وَهُوَ ٱلْحِفْظُ مِنْ شِعْرِ ٱلْفُحُولِ ، إِذْ لَا يَحْتَاجُ ٱلْحِفْظُ إِلَى غَيْرِ ٱلْقِرَاءَةِ ، ثُمَّ ٱلْمُعَانَاةُ وَٱلْمُزَاوَلَةُ ، وَكَانَتْ فِيهِ سَلِيقَةٌ ؛ فَخَرَجَتْ مَخْرَجَ مِثْلِهَا فِي شُعَرَاءِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلْحِفْظِ وَٱلرِّوَايَةِ ، وَجَاءَتْ بِذَلِكَ ٱلشِّعْرِ ٱلْجَزْلِ ٱلَّذِي نَقَلَهُ ٱلْمَرْصَفِيُّ بِإِلْهَامٍ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى لِيُخْرِجَ بِهِ لِلْعَرَبِيَّةِ حَافِظ وَشَوْقِي وَغَيْرَهُمَا ، فَكُلُّ مَا فِي ٱلْكِتَابِ أَنَّهُ يَنْقُلُ رُوحَ ٱلْمُعَاصَرَةِ إِلَى رُوحِ ٱلْأَدِيبِ ٱلنَّاشِئِ ؛ فَتَبْعَثُهُ هَـٰذِهِ ٱلرُّوحُ عَلَى ٱلتَّمْيِيزِ وَصِحَّةِ ٱلِاقْتِدَاءِ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى مَيْزَةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَإِذَا هُوَ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلَّتِي تَنْتَهِي بِهِ إِلَى مَا فِي قُوَّةِ نَفْسِهِ مَا دَامَ فِيهِ ذَكَاءٌ وَطَبْعٌ . وَبِهَـٰذَا ٱبْتَدَأَ شَوْقِي وَحَافِظٌ مِنْ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، وَٱنْتَهَى كِلَاهُمَا إِلَى طَرِيقَةٍ غَيْرِ طَرِيقَةِ ٱلْآخَرِ ، وَٱلطَّرِيقَتَانِ مَعًا غَيْرُ طَرِيقَةِ ٱلْبَارُودِيِّ .

تَحَوَّلَ شَوْقِي بِهَـٰذَا ٱلشِّعْرِ لَا إِلَى طَرِيقَةِ ٱلْبَارُودِيِّ ، فَإِنَّهُ لَا يُطِيقُهَا وَلَا تَتَهَيَّأُ فِي أَسْبَابِهِ ، وَخَاصَّةً فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ ، وَكَأَنَّ لُغَةَ ٱلْبَارُودِيِّ فِيهَا مِنْ لَقَبِهِ ، أَيْ : فِيهَا ٱلْبَارُودُ . . . وَلَـٰكِنْ تَحَوَّلَ نَابِغَتُنَا كَانَ عَنْ طَرِيقَةِ مُعَاصِرِيهِ مِنْ أَمْثَالِ ٱللَّيْثِيِّ وَأَبِي ٱلنَّصْرِ وَغَيْرِهِمَا ، فَتَرَكَ ٱلْأَحْيَاءَ وَٱنْطَلَقَ وَرَاءَ ٱلْمَوْتَى فِي دَوَاوِينِهِمُ ٱلَّتِي كَانَ مِنْ سَعَادَتِهِ أَنْ طُبِعَ ٱلْكَثِيرُ مِنْهَا فِي ذَلِكَ ٱلْعَهْدِ : كَٱلْمُتَنَبِّي وَأَبِي تَمَّامٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱلْمَعَرِّيِّ ، ثُمَّ أَهْلِ ٱلرِّقَّةِ أَصْحَابِ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْغَرَامِيَّةِ : كَٱبْنِ ٱلْأَحْنَفِ وَٱلْبَهَاءِ زُهَيْرٍ وَٱلشَّابِّ ٱلظَّرِيفِ وَٱلتَّلَّعْفَرِيِّ وَٱلْحَاجِرِيِّ ، ثُمَّ مَشَاهِيرِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ : كَٱبْنِ ٱلنَّحَّاسِ وَٱلْأَمِيرِ مَنْجَكٍ وَٱلشَّرْقَاوِيِّ ، وَقَدْ حَاوَلَ شَوْقِي فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ هَـٰذَا كُلِّهِ ، فَظَهَرَ فِي شِعْرِهِ تَقْلِيدُهُ وَعَمَلُهُ فِي مُحَاوَلَةِ ٱلِابْتِكَارِ وَٱلْإِبْدَاعِ وَإِحْكَامِ ٱلتَّوْلِيدِ مَعَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَتَكَلُّفِ ٱلْغَزَلِ بِٱلطَّبْعِ ٱلْمُتَدَفِّقِ لَا بِٱلْحُبِّ ٱلصَّحِيحِ .

وَأَنَا حِينَ أَكْتُبُ عَنْ شَاعِرٍ لَا يَكُونُ أَكْبَرُ هَمِّي إِلَّا ٱلْبَحْثَ فِي طَرِيقَةِ ٱبْتِدَاعِهِ لِمَعَانِيهِ ، وَكَيْفَ أَلَمَّ وَكَيْفَ لَحَظَ وَكَيْفَ كَانَ ٱلْمَعْنَى مُنَبِّهَةً لَهُ ، وَهَلْ أَبْدَعَ أَمْ قَلَّدَ ، وَهَلْ هُوَ شَعَرَ بِٱلْمَعْنَى شُعُورًا فَخَالَطَ نَفْسَهُ وَجَاءَ مِنْهَا ، أَمْ نَقَلَهُ نَقْلًا فَجَاءَ مِنَ ٱلْكُتُبِ ، وَهَلْ يَتَّسِعُ فِي

ٱلْفِكْرَةِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ لِمَعَانِيْهِ ، وَيُدَقِّقُ ٱلنَّظْرَةَ فِيْ أَسْرَارِ ٱلأَشْيَاءِ وَيُحْسِنُ أَنْ يَسْتَشِفَّ هَـٰذِهِ ٱلْغُيُوْمَ ٱلَّتِيْ يَسْبَحُ فِيْهَا ٱلْمَجْهُوْلُ ٱلشِّعْرِيُّ وَيَتَّصِلُ بِهَا وَيَسْتَصْحِبُ ٱلنَّاسَ مِنْ وَحْيِهَا ، أَمْ فِكْرُهُ ٱسْتِرْسَالٌ وَتَرْجِيْمٌ فِيْ ٱلْخَيَالِ وَأَخْذٌ لِلْمَوْجُوْدِ كَمَا هُوَ مَوْجُوْدٌ فِيْ ٱلْوَاقِعِ ؟ وَبِٱلْجُمْلَةِ هَلْ هُوَ ذَاتِيَّةٌ تَمُرُّ فِيْهَا مَخْلُوْقَاتُ مَعَانِيْهِ لِتُخْلَقَ فَتَكُوْنَ لَهَا مَعَ ٱلْحَيَاةِ فِيْ نَفْسِهَا حَيَاةٌ مِنْ نَفْسِهِ ، أَمْ هُوَ تَبَعِيَّةٌ كَٱلسِّمْسَارِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ : يَكُوْنُ بَيْنَهُمَا وَلَيْسَ مِنْهُمَا وَلَا مِنْ أَحَدِهِمَا ؟ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةِ مِنَ ٱلْبَحْثِ تَارِيْخُ مَوْهِبَةِ ٱلشَّاعِرِ ، وَلَا يُؤَدِّيْكَ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلتَّارِيْخِ إِلَّا ذَلِكَ ٱلْمَذْهَبُ إِلَيْهِ إِنْ أَطَقْتَهُ ، أَمَّا تَارِيْخُ ٱلشَّاعِرِ نَفْسِهِ فَمَا أَسْهَلَهُ ، إِذْ هُوَ صُوْرَةُ أَيَّامِهِ وَصِلَتُهُ بِعَصْرِهِ وَلَيْسَ فِيْ تَأْرِيْخِ مَا كَانَ إِلَّا نَقْلُهُ كَمَا كَانَ .

إِذَا عَرَضْنَا شَوْقِيْ بِتِلْكَ ٱلطَّرِيْقَةِ رَأَيْنَاهُ نَابِغَةً مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ ، فَفِيْهِ تِلْكَ ٱلْمَوْهِبَةُ ٱلَّتِيْ أُسَمِّيْهَا حَاسَّةَ ٱلْجَوِّ ، إِذْ يَتَلَمَّحُ بِهَا ٱلنَّوَابِغُ مَعَانِيَ مَا وَرَاءَ ٱلْمَنْظُوْرِ ، وَيَسْتَنْزِلُوْنَ بِهَا مِنْ كُلِّ مَعْنًى مَعْنًى غَيْرَهُ .

ٱنْظُرْ أَبْيَاتَهُ ٱلَّتِيْ نَظَمَهَا فِيْ أَوَّلِ شَبَابِهِ وَسِنُّهُ يَوْمَئِذٍ ٢٣ سَنَةً عَلَىٰ مَا أَظُنُّ ، وَهِيَ مِنْ شِعْرِهِ ٱلسَّائِرِ [من الخفيف] :

خَدَعُوْهَا بِقَوْلِهِمْ حَسْنَاءُ   وَٱلْغَوَانِيْ يَغُرُّهُنَّ ٱلثَّنَاءُ
مَا تُرَاهَا تَنَاسَتِ ٱسْمِيَ لَمَّا   كَثُرَتْ فِيْ غَرَامِهَا ٱلأَسْمَاءُ
إِنْ رَأَتْنِيْ تَمِيْلُ عَنِّيْ كَأَنْ لَمْ   تَكُ بَيْنِيْ وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ
نَظْرَةٌ فَٱبْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ   فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

دَعْ غَلْطَتَهُ فِيْ قَوْلِهِ (تَمِيْلُ عَنِّيْ)(١) فَإِنَّ صَوَابَهَا تَمِلْ ؛ إِذْ هِيَ جَوَابُ إِنْ ٱلشَّرْطِيَّةِ ؛ وَلَـٰكِنْ كَيْفَ ٱسْتَخْرَجَ مَعَانِيَهُ ؛ وَأَنَا كُنْتُ دَائِمًا وَمَا أَزَالُ مُعْجَبًا بِٱلْبَيْتَيْنِ ٱلثَّانِيْ وَٱلرَّابِعِ ، لَا إِكْبَارًا لِمَعْنَاهُمَا ، فَهُمَا لَا شَيْءَ عِنْدِيْ ، وَلَـٰكِنْ إِعْجَابًا بِمَوْهِبَةِ شَوْقِيْ فِيْ ٱلتَّوْلِيْدِ ، فَإِنَّهُ أَخَذَ ٱلْبَيْتَ ٱلثَّانِيْ مِنْ قَوْلِ أَبِيْ تَمَّامٍ [من الوافر] :

أَتَيْتُ فُؤَادَهَا أَشْكُوْ إِلَيْهِ   فَلَمْ أَخْلُصْ إِلَيْهِ مِنَ ٱلزِّحَامِ

---

(١) { ٱنْظُرِ ٱلْمُسَاجَلَاتِ بَيْنَ ٱلرَّافِعِيِّ وَٱلْعَقَّادِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْقَوْلَةِ بِٱلْمُقْتَطَفِ } .

فَمَرَّ ٱلْمَعْنَىٰ فِيْ ذِهْنِ شَوْقِيْ كَمَا يَمُرُّ ٱلْهَوَاءُ فِيْ رَوْضَةٍ ، وَجَاءَ نَسِيْمًا يَتَرَقْرَقُ بَعْدَ مَا كَانَ كَٱلرِّيْحِ ٱلسَّافِيَةِ بِتُرَابِهَا ، لِأَنَّ ٱلزِّحَامَ فِيْ بَيْتِ أَبِيْ تَمَّامٍ حَقِيْقٌ بِسُوْقٍ قَائِمَةٍ لِلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ ، لَا بِقَلْبِ ٱمْرَأَةٍ يُحِبُّهَا ، بَلْ هُوَ يَجْعَلُ قَلْبَ ٱلْمَرْأَةِ شَيْئًا غَرِيْبًا كَأَنَّهُ لَيْسَ عُضْوًا فِيْ جِسْمِهَا ، بَلْ غُرْفَةً فِيْ بَيْتِهَا . . . وَقَدْ سَبَقَ شَاعِرُنَا أَبَا تَمَّامٍ بِمَرَاحِلَ فِيْ إِبْدَاعِهِ وَذَوْقِهِ وَرِقَّتِهِ .

وَٱلْبَيْتُ ٱلرَّابِعُ مِنْ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ ٱلظَّرِيْفِ [من البسيط] :

قِفْ وَٱسْتَمِعْ سِيْرَةَ ٱلصَّبِّ ٱلَّذِيْ قَتَلُوْا   فَمَاتَ فِيْ حُبِّهِمْ لَمْ يَبْلُغِ ٱلْغَرَضَا
رَأَىٰ فَحَبَّ فَسَامَ ٱلْوَصْلَ فَٱمْتَنَعُوْا   فَرَامَ صَبْرًا فَأَعْيَا نَيْلُهُ فَقَضَىٰ

وَهَـٰذِهِ « فَاءَاتٌ » تَجُرُّ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ وَنَعُوْذُ بِٱللهِ مِنْهَا . . . وَمِمَّا كُنْتُ أَعِيْبُهُ عَلَىٰ شَوْقِيْ ضَعْفُهُ فِيْ فُنُوْنِ ٱلأَدَبِ ، فَإِنَّ ٱلْمُوَيْلِحِيَّ ٱلْكَاتِبَ ٱلشَّهِيْرَ ٱنْتَقَدَ فِيْ جَرِيْدَةِ مِصْبَاحِ ٱلشَّرْقِ أَبْيَاتَ (خَدَعُوْهَا) عِنْدَ ظُهُوْرِ « ٱلشَّوْقِيَّاتِ » فِيْ سَنَةِ ١٨٩٩ ، فَٱرْتَاعَ شَوْقِيْ ، وَتَحَمَّلَ عَلَيْهِ لِيُمْسِكَ عَنِ ٱلنَّقْدِ ، مَعَ أَنَّ كَلَامَ ٱلْمُوَيْلِحِيِّ لَا يُسْقِطُ ذُبَابَةً مِنِ ٱرْتِفَاعِ نِصْفِ مِتْرٍ . . . وَمِنْ مُصِيْبَةِ ٱلأَدَبِ عِنْدَنَا ، بَلْ مِنْ أَكْبَرِ أَسْرَارِ ضَعْفِهِ أَنَّ شُعَرَاءَنَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِٱلنَّقْدِ ، وَأَنَّهُمْ يَفِرُّوْنَ مِنْهُ فِرَارًا وَيَعْمَلُوْنَ عَلَىٰ تَفَادِيْهِ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُحْسِنُوْنَ غَيْرَ ٱلشِّعْرِ ؛ فَلَا ٱلْبَارُوْدِيُّ وَلَا صَبْرِيْ وَلَا حَافِظٌ وَلَا شَوْقِيْ كَانَ يُحْسِنُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ يَكْتُبَ فَصْلًا فِيْ ٱلنَّقْدِ ٱلأَدَبِيِّ ، أَوْ يُحَقِّقَ مَسْأَلَةً فِيْ تَارِيْخِ ٱلأَدَبِ .

وَمِنْ مَعَانِيْ شَوْقِيْ ٱلسَّائِرَةِ [من الخفيف] :

لَكَ نُصْحِيْ وَمَا عَلَيْكَ جِدَالِيْ   آفَةَ ٱلنُّصْحِ أَنْ يَكُوْنَ جِدَالَا

وَكَرَّرَهُ فِيْ قَصِيْدَةٍ أُخْرَىٰ فَقَالَ [من الخفيف] :

آفَةُ ٱلنُّصْحِ أَنْ يَكُوْنَ جِدَالًا   وَأَذَىٰ ٱلنُّصْحِ أَنْ يَكُوْنَ جِهَارَا

وَٱلْبَيْتَانِ مِنْ شِعْرِ صِبَاهُ أَيْضًا ، وَهُمَا مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّوْمِيِّ [من الطويل] :

وَفِيْ ٱلنُّصْحِ خَيْرٌ مِنْ نَصِيْحٍ مُوَادِعٍ   وَلَا خَيْرَ فِيْهِ مِنْ نَصِيْحٍ مُوَاثِبِ

فَصَحَّحَ شَوْقِيْ ٱلْمَعْنَىٰ وَأَبْدَلَ ٱلْمُوَاثَبَةَ بِٱلْجَدَلِ ، وَذَلِكَ هُوَ ٱلَّذِيْ عَجَزَ عَنْهُ ٱبْنُ ٱلرُّوْمِيِّ ؛ وَمِنْ بَرَاعَتِهِ فِيْ قَصِيْدَتِهِ « صَدَىٰ ٱلْحَرْبِ » يَصِفُ هَزِيْمَةَ ٱلْيُوْنَانِ [من الطويل] :

يَكَــادُوْنَ مِــنْ ذُعْــرٍ تَفِــرُّ دِيَــارُهُــمْ   وَتَنْجُــو ٱلــرَّوَاسِــيْ لَــوْ حَــوَاهُــنَّ مَشْعَــبُ
يَكَــادُ ٱلثَّــرَىٰ مِــنْ تَحْتِهِــمْ يَلِــجُ ٱلثَّــرَىٰ   وَيَقْضِــمُ بَعْــضُ ٱلأَرْضِ بَعْضًــا وَيَقْضِــبُ

وَهَـٰذَا خَيَالٌ بَدِيعٌ فِي ٱلْغَايَةِ ، جَعَلَ هَزِيْمَتَهُمْ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ هَوْلِ ٱلتُّرْكِ ، بَلْ مِنْ هَوْلِ ٱلْقِيَامَةِ ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُوَلَّدٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ كَرَمِ مَمْدُوْحِهِ أَبِي دُلَفٍ [من الطويل] :

تَكَــادُ مَغَــانِيْــهِ تَهَــشُّ عِــرَاصُهَــا   فَتَــرْكَــبُ مِــنْ شَــوْقٍ إِلَــىٰ كُــلِّ رَاكِــبِ

فَقَاسَ شَاعِرُنَا عَلَىٰ ذَلِكَ ؛ وَإِذَا كَادَتِ ٱلدَّارُ تَرْكَبُ إِلَىٰ ٱلرَّاكِبِ إِلَيْهَا مِنْ فَرَحِهَا ، فَهِيَ تَكَادُ تَفِرُّ مَعَ ٱلْمُنْهَزِمِ مِنْ ذُعْرِهَا ، وَلَـٰكِنَّ شَوْقِي بَنَىٰ فَأَحْكَمَ وَسَمَا عَلَىٰ أَبِي تَمَّامٍ بِٱلزِّيَادَةِ ٱلَّتِي جَاءَ بِهَا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي .

وَمِنْ أَحْسَنِ شِعْرِهِ فِي ٱلْغَزَلِ [من الكامل] :

حَــوَتِ ٱلْجَمَــالَ فَلَــوْ ذَهَبْــتَ تَــزِيْــدُهَــا   فِــي ٱلْــوَهْــمِ حُسْنًــا مَــا ٱسْتَطَعْــتَ مَــزِيْــدَا

وَهُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ [من الخفيف] :

ذَاتُ حُسْــنٍ لَــوِ ٱسْتَــزَادَتْ مِــنَ ٱلْحُسْـ   ــنِ إِلَيْهَــا لَمَــا أَصَــابَــتْ مَــزِيْــدَا

غَيْرَ أَنَّ شَوْقِي قَالَ : لَوْ ذَهَبْتَ تَزِيْدُهَا فِي ٱلْوَهْمِ . . . وَٱلشَّاعِرُ قَالَ : لَوِ ٱسْتَزَادَتْ هِيَ ؛ فَلَوْ خَلَا بَيْتُ شَوْقِي مِنْ كَلِمَةِ (فِي ٱلْوَهْمِ) لَمَا كَانَ شَيْئًا ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ حَقَّقَتْ فِيْهِ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي تَقُوْمُ عَلَيْهِ كُلُّ فَلْسَفَةِ ٱلْجَمَالِ ؛ فَإِنَّ جَمَالَ ٱلْحَبِيْبِ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ فِي وَهْمِ مُحِبِّهِ ؛ فَٱلزِّيَادَةُ تَكُوْنُ مِنَ ٱلْوَهْمِ ، وَهُوَ بِطَبِيْعَتِهِ لَا يَنْتَهِي ، فَإِذَا لَمْ تَبْقَ فِيْهِ زِيَادَةٌ فِي ٱلْحُسْنِ فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ حُسْنٌ : وَقَدْ بَسَطْنَا هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِي صُوَرٍ كَثِيْرَةٍ فِي كُتُبِنَا « رَسَائِلُ ٱلأَحْزَانِ » وَ« ٱلسَّحَابُ ٱلأَحْمَرُ » ، وَ« أَوْرَاقُ ٱلْوَرْدِ » فَٱنْظُرْهُ فِيْهَا .

وَمِمَّا يُتَمِّمُ ذَلِكَ ٱلْبَيْتَ قَوْلُ شَوْقِي فِي قَصِيْدَةِ ٱلنَّفْسِ [من الكامل] :

يَــا دُمْيَــةً لَا يُسْتَــزَادُ جَمَــالُهَــا   زِيْــدِيْــهِ حُسْــنَ ٱلْمُحْسِــنِ ٱلْمُتَبَــرِّعِ

وَهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ يَقَعُ مِنْ نَفْسِي مَوْقِعًا وَلَهُ مِنْ إِعْجَابِي مَحَلٌّ ؛ فَهَـٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ ٱلَّتِي فِيْهِ

كَزِيَادَةِ ٱلْعُمْرِ لَوْ أَمْكَنَتْ ، وَهِيَ فِي مَوْضِعِهَا كَمَا يَنْقَطِعُ ٱلْخَطُّ ثُمَّ يَتَّصِلُ ، وَكَمَا يَسْتَحِيْلُ ٱلأَمَلُ ثُمَّ يَتَّفِقُ وَيَسْهُلُ ؛ وَقَدْ عَلِمْتَ مَأْخَذَ ٱلشَّطْرِ ٱلأَوَّلِ ، أَمَّا ٱلثَّانِي فَهُوَ مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّوْمِيِّ [من السريع] :

يَــا حَسَــنَ ٱلْــوَجْــهِ لَقَــدْ شِنْتَــهُ   فَــأَضْــمُــمْ إِلَــىٰ حُسْنِــكَ إِحْسَــانَــا

وَفِي ٱلْقَصِيْدَةِ ٱلَّتِي رَثَىٰ بِهَا ثَرْوَتْ بَاشَا ، وَهِيَ مِنْ أَحْسَنِ شِعْرِهِ ، تَجِدُ مِنْ أَبْيَاتِهَا هَـٰذَا ٱلْبَيْتَ ٱلنَّادِرَ [من البسيط] :

وَقَــدْ يَمُــوْتُ كَثِيْــرٌ لَا تُحِسُّهُمُــوْ   كَــأَنَّهُــمْ مِــنْ هَــوَانِ ٱلْخَطْــبِ مَــا وُجِــدُوْا

وَشَوْقِي يُعَارِضُ بِهَـٰذِهِ ٱلْقَصِيْدَةِ أَبَا خَالِدِ بْنَ مُحَمَّدٍ ٱلْمُهَلَّبِيَّ فِي دَالِيَّتِهِ ٱلَّتِي رَثَىٰ بِهَا ٱلْمُتَوَكِّلَ ، وَكَانَ ٱلْمُهَلَّبِيُّ حَاضِرًا قَتْلَهُ هُوَ وَٱلْبُحْتُرِيُّ ، فَرَثَاهُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِقَصِيْدَةٍ ، قَالُوْا : إِنَّهَا مِنْ أَجْوَدِ مَا قِيْلَ فِي مَعْنَاهَا ؛ وَبَيْتُ شَوْقِي مَأْخُوْذٌ مِنْ قَوْلِ ٱلْمُهَلَّبِيِّ [من البسيط] :

إِنَّــا فَقَــدْنَــاكَ حَتَّــىٰ لَا ٱصْطِبَــارَ لَنَــا   وَمَــاتَ قَبْلَــكَ أَقْــوَامٌ فَمَــا فُقِــدُوْا

أَيْ : لَمْ يَحُسَّ مَوْتَهُمْ أَحَدٌ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبَيْتَ غَيْرُ مُسْتَقِيْمٍ ، لِأَنَّ ٱلَّذِي لَا يَمُوْتُ فَلَا يُفْقَدُ هُوَ ٱلْخَالِدُ ٱلَّذِي كَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ ؛ فَٱسْتَخْرَجَ شَوْقِي ٱلْمَعْنَىٰ ٱلصَّحِيْحَ وَجَعَلَ ٱلْعَدَمَ ٱلَّذِي هُوَ آخِرُ ٱلْوُجُوْدِ فِي ٱلنَّاسِ ، أَوَّلَ ٱلْوُجُوْدِ وَوَسَطَهُ وَآخِرَهُ فِي هَـٰؤُلَاءِ ٱلَّذِيْنَ هَانُوْا عَلَىٰ ٱلْحَيَاةِ ، فَوُجِدُوْا وَمَاتُوْا وَمَا وُجِدُوْا .

* * *

وَإِلَىٰ مَا عَلِمْتَ مِنْ قُوَّةِ هَـٰذِهِ ٱلشَّاعِرِيَّةِ ، وَدِقَّتِهَا فِيْمَا تَتَأَتَّىٰ لَهُ ، وَمَجِيْئِهَا بِٱلْمَعَانِي ٱلنَّادِرَةِ مُسْتَخْرَجَةً ٱسْتِخْرَاجَ ٱلذَّهَبِ ؛ مَصْقُوْلَةً صَقْلَ ٱلْجَوْهَرِ ، مُعَدَّلَةً بِٱلْفِكْرِ ، مَوْزُوْنَةً بِٱلْمَنْطِقِ ـ تَجِدُ لَهَا تَهَافُتًا كَتَهَافُتِ ٱلضُّعَفَاءِ ، وَغِرَّةً كَغِرَّةِ ٱلأَحْدَاثِ ؛ حَتَّىٰ لَتَحْسَبُ أَنَّ طُفُوْلَةَ شَوْقِي كَثِيْرًا مَا تَنْبَعِثُ فِي شِعْرِهِ لَاعِبَةً هَازِلَةً ، أَوْ كَأَنَّ لِلرَّجُلِ شَخْصِيَّتَيْنِ كَمَا يَقُوْلُ ٱلأَطِبَّاءُ ، فَهُمَا تَتَعَاوَرَانِ شِعْرَهُ كَمَالًا وَنَقْصًا ، وَعُلُوًّا وَنُزُوْلًا ، أَوْ قُلْ هِيَ ٱلْعَرَبِيَّةُ وَٱلْيُوْنَانِيَّةُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَفْسِهِ ، وَٱلتُّرْكِيَّةُ وَٱلشَّرْكَسِيَّةُ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ ؛ لِتِلْكَ ٱلِابْتِكَارُ وَٱلْبَلَاغَةُ وَٱلْمَنْطِقُ ، وَلِهَـٰذِهِ ٱلتَّهْوِيْلُ وَٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْخَلْطُ ؛ وَشَوْقِي هُوَ بِهِمَا جَمِيْعًا ؛ تَفْتِنُهُ ٱلْقَوِيَّةُ

مِنْهُمَا فَيُعْجَبُ بِهَا إِعْجَابَ ٱلْقُوَّةِ ، وَتَخْدَعُهُ ٱلضَّعِيفَةُ فَيُعْجَبُ بِهَا إِعْجَابَ ٱلرِّقَّةِ ؛ كَمَا أُعْجِبَ بِبَيْتِهِ ٱلَّذِي قَالَهُ فِي ٱلْحَنِينِ إِلَىٰ ٱلْوَطَنِ مِنْ قَصِيدَتِهِ ٱلْأَنْدَلُسِيَّةِ ٱلشَّهِيرَةِ [من الخفيف] :

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِٱلْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعَتْنِي إِلَيْهِ فِي ٱلْخُلْدِ نَفْسِي

وَهَـٰذَا ٱلْبَيْتُ مِمَّا يَتَمَثَّلُ بِهِ ٱلشُّبَّانُ وَكُتَّابُ ٱلصَّحَافَةِ ، وَلَمْ يَفْطَنْ أَحَدٌ إِلَىٰ فَسَادِهِ وَسَخَافَةِ مَعْنَاهُ ؛ فَإِنَّ ٱلْخُلْدَ لَا يَكُونُ خُلْدًا إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ ٱلْفَانِي مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَطَبَائِعِهِ ٱلْأَرْضِيَّةِ ، وَبَعْدَ أَنْ لَا تَكُونَ أَرْضٌ وَلَا وَطَنٌ وَلَا حَنِينٌ وَلَا عَصَبِيَّةٌ ؛ فَكَأَنَّ شَوْقِي يَقُولُ : لَوْ شُغِلْتُ عَنِ ٱلْوَطَنِ حِينَ لَا أَرْضٌ وَلَا وَطَنٌ وَلَا دُوَلٌ وَلَا أُمَمٌ وَلَا حَنِينٌ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ ـ فَإِنِّي عَلَىٰ ذَٰلِكَ أَحِنُّ إِلَىٰ ٱلْوَطَنِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي نَفْسِي وَلَا فِي نَفْسِهِ . . . وَهَـٰذَا كُلُّهُ لَغْوٌ . . . وَٱلْمَعْنَىٰ بَعْدُ مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ [من الطويل] :

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ ٱلرِّجَالِ إِلَيْهِمُو مَآرِبُ قَضَّاهَا ٱلشَّبَابُ هُنَالِكَا
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُو عُهُودَ ٱلصِّبَىٰ فِيهَا فَحَنُّوا لِذَٰلِكَا

وَمُنَازَعَةُ ٱلنَّفْسِ هِيَ ٱلْحَنِينُ ، وَمَعْنَىٰ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِفَلْسَفَةِ ٱلْوَطَنِيَّةِ فِي زَمَانِنَا .

وَإِنَّ فِي شَوْقِي عَيْبَيْنِ يَذْهَبَانِ بِكَثِيرٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ : أَحَدُهُمَا ٱلْمُبَالَغَاتُ ٱلتُّرْكِيَّةُ وَٱلْفَارِسِيَّةُ مِمَّا تَنْزِعُهُ إِلَيْهِ تُرْكِيَّتُهُ وَلَا مُبَالَغَةَ فِي ٱلدُّنْيَا تُقَارِبُهَا ، كَقَوْلِ بَعْضِ شُعَرَائِهِمْ أَنَّ ٱلنَّمْلَةَ بِزَفْرَتِهَا جَفَّفَتِ ٱلْأَبْحُرَ ٱلسَّبْعَةَ . . . وَهُوَ إِغْرَاقٌ سَخِيفٌ لَا يَأْتِي بِخَيَالٍ عَجِيبٍ كَمَا يَتَوَهَّمُونَ ، بَلْ يَأْتِي بِهَذَيَانٍ عَجِيبٍ ؛ وَإِذَا كَانَ ٱلصِّدْقُ يَأْنَفُ مِنَ ٱلْكَذِبِ ، فَإِنَّ ٱلْكَذِبَ نَفْسَهُ يَأْنَفُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْإِغْرَاقِ ؛ وَمِنْ هَـٰذِهِ ٱلتُّرْكِيَّةِ فِي شَوْقِي إِضَافَةٌ وَهْمِيَّةٌ ، هِيَ مِنْ تِلْكَ ٱلْمُبَالَغَاتِ كَذَيْلِ ٱلْحِمَارِ مِنَ ٱلْحِمَارِ : قِطْعَةٌ فِيهِ وَدَلِيلٌ عَلَيْهِ وَآخِرٌ لِأَوَّلِهِ وَلَا مَحَلَّ لَهَا فِي ذَوْقِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ؛ كَقَوْلِهِ [من مجزوء الكامل] :

(عِيسَىٰ ٱلشُّعُورِ) إِذَا مَشَىٰ رَدَّ ٱلشُّعُوبَ إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ

وَقَوْلُهُ فِي سَعْدٍ بَاشَا فِي حَادِثَةِ ٱلِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِ [من المتقارب] :

وَلَوْ زُلْتَ غُيِّبَ (عَمْرُو ٱلْأُمُورِ) وَأَخْلَىٰ ٱلْمَنَابِرَ سَحْبَانُهَا

وَيَدْخُلُ فِي جِنَايَاتِ هَـٰذِهِ ٱلتُّرْكِيَّةِ عَلَىٰ شِعْرِهِ تَكْرَارُهُ ٱلْأَسْمَاءَ ٱلْمُقَدَّسَةَ وَٱلْأَعْلَامَ ٱلتَّارِيخِيَّةَ : كَيُوشَعَ وَعِيسَىٰ وَمُوسَىٰ وَخَالِدٍ وَبَدْرٍ وَسِينَاءَ وَحَاتِمٍ وَكَعْبٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا هُوَ شَائِعٌ فِي نَظْمِهِ وَلَا تَجِدُهُ أَكْثَرَ مَا تَجِدُهُ إِلَّا ثَقِيلًا مَمْلُولًا ؛ وَلِهَـٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ عِنْدَنَا فَلْسَفَةٌ لَا مَحَلَّ لَهَا ٱلْآنَ ، فَهِيَ أَحْيَانًا تَكُونُ ٱلسِّحْرَ كُلَّهُ وَٱلْبَلَاغَةَ كُلَّهَا ، عَلَىٰ شَرْطِ أَنْ يَكُونَ ٱلْقَلْبُ هُوَ ٱلَّذِي وَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا ، وَأَنْ لَا يَضَعَهَا إِلَّا عَلَىٰ هَيْئَةٍ قَلْبِيَّةٍ ، فَيَكُونُ كَأَنَّهُ وَضَعَ نَفْسَهُ فِي ٱلشِّعْرِ لِيَخْفِقَ خَفَقَانَهُ ٱلْحَيَّ فِي بِضْعَةِ أَلْفَاظٍ ، وَهَـٰذَا مَا لَمْ يُحْسِنْهُ شَوْقِي ـ وَٱلْعَيْبُ ٱلثَّانِي أَنَّ أَلْفَاظَ شَاعِرِنَا لَا يَثْبُتُ أَكْثَرُهَا عَلَىٰ ٱلنَّقْدِ ؛ لِضَعْفِهِ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْبَيَانِيَّةِ ، ثُمَّ لِضَعْفِ ٱلْمَوْهِبَةِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ فِيهِ وَٱعْتِبَارِهِ ٱلتَّهْوِيلَ شِعْرًا وَٱلْمُبَالَغَةَ بَلَاغَةً وَإِنْ فَسَدَتْ بِهِمَا ٱلْبَلَاغَةُ وَٱلشِّعْرُ ؛ ٱنْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَتِهِ ٱلشَّهِيرَةِ ٢٨ فِبْرَايِرْ/ شباط [من البسيط] :

قَالُوا ٱلْحِمَايَةُ زَالَتْ قُلْتُ لَا عَجَبَ قَدْ كَانَ بَاطِلُهَا فِيكُمْ هُوَ ٱلْعَجَبَا
رَأْسُ ٱلْحِمَايَةِ مَقْطُوعٌ فَلَا عَدِمَتْ كِنَانَةُ ٱللهِ حَزْمًا يَقْطَعُ ٱلذَّنَبَا

قُلْنَا : فَإِذَا قُطِعَ (رَأْسُ ٱلْحِمَايَةِ) وَبَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مَا ؛ ذَنَبٌ أَوْ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ ، فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَقِيَّةَ فِي لُغَةِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلَّتِي تَنْقُدُ ٱلْأَلْفَاظَ وَحُرُوفَهَا وَنُقَطَ حُرُوفِهَا . . لَنْ تَكُونَ ذَنَبًا وَلَا يَدًا وَلَا رِجْلًا ، بَلْ هِيَ (رَأْسُ ٱلْحِمَايَةِ) بِعَيْنِهِ . . . عَلَىٰ أَنَّ شَوْقِي إِنَّمَا عَكَسَ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ [من البسيط] :

لَا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ ٱلْأَفْعَىٰ وَتُرْسِلَهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَأَتْبِعْ رَأْسَهَا ٱلذَّنَبَا

وَهَـٰذَا كَلَامٌ عَلَىٰ سِيَاقِهِ مِنَ ٱلْعَقْلِ ، فَمَا غَنَاءُ قَطْعِ ذَنَبِ ٱلْأَفْعَىٰ إِذَا بَقِيَ رَأْسُهَا ، وَإِنَّمَا ٱلْأَفْعَىٰ كُلُّهَا هِيَ هَـٰذَا ٱلرَّأْسُ .

وَلَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ دَرْسِ شَوْقِي فِي دِيوَانِهِ أَمْرٌ عَجِبْتُ لَهُ ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْخُذُ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱلْمَعَرِّيِّ وَٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمْ ؛ فَرُبَّمَا سَاوَاهُمْ وَرُبَّمَا زَادَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ إِلَىٰ ٱلْمُتَنَبِّي وَقَعَ فِي ٱلْبَحْرِ وَأَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ، لِأَنَّهُ نَشَأَ عَلَىٰ رَهْبَةٍ مِنْهُ كَمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ عِبَارَتُهُ فِي مُقَدِّمَةِ دِيوَانِهِ ٱلْأَوَّلِ ، وَقَدْ وَصَفَ خَيْلَ ٱلتُّرْكِ فِي قَصِيدَةِ أَنْقَرَةَ بِقَوْلِهِ [من البسيط] :

وَٱلصَّبْرُ فِيهَا وَفِي فُرْسَانِهَا خُلُقٌ تَوَارَثُوهُ أَبًا فِي ٱلرَّوْعِ بَعْدَ أَبِ

كَمَا وُلِدْتُمْ عَلَىٰ أَعْرَافِهَا وُلِدَتْ   فِيْ سَاحَةِ ٱلْحَرْبِ لَا فِيْ بَاحَةِ ٱلرَّحَبِ

وَشِعْرُهُ هَـٰذَا كَأَنَّهُ يَرْتَعِدُ أَمَامَ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّيِّ [من الكامل] :

أَقْبَلْتَهَا غُرَرَ ٱلْجِيَادِ كَأَنَّمَا   أَيْدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبَهَاتِهَا
ٱلثَّابِتِيْنَ فُرُوْسَةً كَجُلُوْدِهَا   فِي ظَهْرِهَا ، وَٱلطَّعْنُ فِيْ لَبَّاتِهَا
فَكَأَنَّهَا نُتِجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ   وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوْا عَلَىٰ صَهَوَاتِهَا

فَٱنْظُرْ أَيْنَ صِنَاعَةٌ مِنْ صِنَاعَةٍ وَأَيْنَ شِعْرٌ مِنْ شِعْرٍ ؟

وَقَالَ فِيْ (صَدَىٰ ٱلْحَرْبِ) يَصِفُ مَدَافِعَ ٱلدَّرْدَنِيْلِ [من الطويل] :

قَذَائِفُ تَخْشَىٰ مُهْجَةُ ٱلشَّمْسِ كُلَّمَا   عَلَتْ مُصْعِدَاتٍ أَنَّهَا لَا تُصَوَّبُ
إِذَا هَبَّ حَامِيْهَا عَلَىٰ ٱلسُّفْنِ ٱنْثَنَتْ   وَغَانِمُهَا ٱلنَّاجِي فَكَيْفَ ٱلْمُخَيَّبُ

وَهَـٰذَا ٱلاسْتِفْهَامُ (فَكَيْفَ ٱلْمُخَيَّبُ) ٱسْتِفْهَامٌ مُضْحِكٌ ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ ٱلنَّاجِي غَانِمًا فَٱلْمُخَيَّبُ خَاسِرٌ بِلَا سُؤَالٍ وَلَا فَلْسَفَةٍ ؛ وَٱلْكَلِمَةُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فِي هَـٰذَا كُلِّهِ هِيَ قَوْلُهُ (وَغَانِمُهَا ٱلنَّاجِيْ) ، وَهِيَ كَٱلْهَارِبَةِ تَتَوَارَىٰ خَوْفًا مِنْ بَيْتِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ [من المنسرح] :

أَغَرُّ أَعْدَاؤُهُ إِذَا سَلِمُوْا   بِٱلْهَرَبِ ٱسْتَكْبَرُوْا ٱلَّذِي فَعَلُوْا

فَهَـٰذَا هُوَ ٱلشِّعْرُ لَا ذَاكَ ؛ عَلَىٰ أَنِّيْ أَشْهَدُ أَنَّ فِي قَصِيْدَةِ (صَدَىٰ ٱلْحَرْبِ) أَبْيَاتًا هِيَ مِنْ أَسْمَىٰ ٱلشِّعْرِ ، وَكَأَنَّ شَوْقِيْ رَحِمَهُ ٱللهُ كَانَ يَنْظِمُ هَـٰذِهِ ٱلْقَصِيْدَةَ مِنْ إِيْمَانِهِ وَمِنْ دَمِهِ وَمِنْ كُلِّ مَطَامِعِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ، يَبْتَغِي بِهَا ٱلشُّهْرَةَ ٱلْخَالِدَةَ فِي ٱلنَّاسِ ، وَٱلْمَنْزِلَةَ ٱلسَّامِيَةَ عِنْدَ ٱلْخِدِيْوِي ، وَنَبَاهَةَ ٱلشَّأْنِ عِنْدَ ٱلْخَلِيْفَةِ ، وَٱلثَّوَابَ عِنْدَ ٱللهِ تَعَالَىٰ ؛ وَلَوْ هُوَ فِيْ أَثْنَاءِ عَمَلِهَا أَسْقَطَ نِصْفَهَا أَوْ أَكْثَرَ لَجَاءَتْ فَرِيْدَةً فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْحِرْصَ كَانَ يَغْتَرُّهُ ، وَكَانَ طُوْلَ عُمْرِهِ مَفْتُوْنًا بِشِعْرِهِ ، فَجَاءَ فِيْ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ بِٱلطَّمِّ وَٱلرَّمِّ كَمَا يَقُوْلُوْنَ ؛ وَلَهُ كَثِيْرٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلرَّذْلِ ٱلسَّاقِطِ بِضَعْفِهِ وَتَهَافُتِهِ ؛ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلتُّرْكِيَّةُ ٱلْفَارِسِيَّةُ وَضَعْفُهُ ٱلْبَيَانِيُّ ، لَمَا رَضِيَ أَنْ يَكُوْنَ ذَلِكَ فِيْ شِعْرِهِ ؛ وَلَيْتَ شِعْرِي ؛ كَيْفَ غَابَ عَنْ مِثْلِهِ أَنَّ ٱلتَّهْوِيْلَ وَٱلإِغْرَاقَ وَٱلإِحَالَةَ مِمَّا يُهَجِّنُ ٱلشِّعْرَ وَيَذْهَبُ بِأَثَرِهِ فِي ٱلنَّفْسِ وَيُحِيْلُهُ إِلَىٰ صِنَاعَةٍ هِيَ شَرٌّ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْبَدِيْعِيَّةِ ، لِأَنَّ هَـٰذِهِ تَكُوْنُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ، وَٱلْأَلْفَاظُ تَحْتَمِلُ ٱلْعَبَثَ ٱلْبَدِيْعِيَّ ، وَيَخْرُجُ بِهَا

ٱلْأَمْرُ إِلَىٰ أَنْ تَكُوْنَ ضَرْبًا مِنَ ٱلرِّيَاضَةِ كَمُعَانَاةِ بَعْضِ ٱلْمَسَائِلِ فِي ٱلْجَبْرِ وَٱلْهَنْدَسَةِ تَرْكِيْبًا وَحَلًّا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمَعَانِي لَا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ ، إِذْ هِيَ تَفْكِيْرٌ لَا يَلْتَوِيْ إِلَّا فَسَدَ ، وَٱلْمَعَانِيْ ٱلَّتِيْ يَأْتِيْ بِهَا ٱلشَّاعِرُ يَجِبُ أَنْ تَكُوْنَ فِيْهَا مَزِيَّةٌ بِخَاصَّتِهَا مِنَ ٱلْجَمَالِ وَٱلْبَيَانِ ، وَأَنْ تَكُوْنَ أَخْيِلَتُهَا هِيَ ٱلْحَقَائِقَ ٱلَّتِيْ أَوَّلُ مَوَاضِعِهَا فَوْقَ حَقَائِقِ ٱلْبَشَرِ .

{ وَهُنَاكَ ضَرْبٌ آخَرُ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ يَجِيْءُ مِنْ سُقُوْطِ ٱلْخَيَالِ ، لِأَنَّ فِي ٱلْأَسْفَلِ مُبَالَغَةً كَمَا فِي ٱلْأَعْلَىٰ ، وَإِنْ كَانَتْ مُبَالَغَةُ ٱلْأَسْفَلِ زِيَادَةً فِي ٱلسُّخْرِيَةِ مِنْهُ وَٱلْهُزْءِ بِهِ ، وَهَـٰذِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ تَأْتِيْ مِنْ جَمْعِ أَشْتَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَإِدْمَاجِهَا كُلِّهَا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ ، كَهَـٰذَا ٱلَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَدْمُجَ ٱلطَّبِيْعَةَ كُلَّهَا فِي حَبِيْبَتِهِ ، فَزَعَمَ أَنَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَنَسِيَ أَنَّ كُلَّ قَبِيْحٍ وَكُلَّ بَغِيْضٍ هُوَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . . .(١) } .

إِنَّ ٱلْخَيَالَ ٱلشِّعْرِيَّ يُزِيْغُ بِٱلْحَقِيْقَةِ فِيْ مَنْطِقِ ٱلشَّاعِرِ لَا لِيَقْلِبَهَا عَنْ وَضْعِهَا وَيَجِيْءَ بِهَا مَمْسُوْخَةً مُشَوَّهَةً ، وَلَـٰكِنْ لِيَعْتَدِلَ بِهَا فِي أَفْهَامِ ٱلنَّاسِ وَيَجْعَلَهَا تَامَّةً فِيْ تَأْثِيْرِهَا ، وَتِلْكَ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ، إِذْ كَانَتْ فِيْهِ قُوَّةٌ فَوْقَ ٱلْقُوَّةِ عَمَلُهَا أَنْ تَزِيْدَ ٱلْمَوْجُوْدَ وُجُوْدًا بِوُضُوْحِهِ مَرَّةً وَبِغُمُوْضِهِ أُخْرَىٰ .

وَلِعُلَمَاءِ ٱلأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ كَلِمَةٌ مَا أَرَاهُمْ فَهِمُوْهَا عَلَىٰ حَقِّهَا وَلَا نَفَذُوْا إِلَىٰ سِرِّهَا ، قَالُوْا : أَعْذَبُ ٱلشِّعْرِ أَكْذَبُهُ ! يَعْنُوْنَ : أَنَّ قِوَامَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْخَيَالُ وَلَا يَنْفُذُوْنَ إِلَىٰ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، وَمَا وَرَاءَهُ إِلَّا ٱلْحَقِيْقَةُ رَائِعَةً بِصِدْقِهَا وَجَلَالِهَا . وَفَلْسَفَةُ ذَلِكَ أَنَّ ٱلطَّبِيْعَةَ كُلَّهَا كَذِبٌ عَلَى ٱلْحَوَاسِّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّ أَبْصَارَنَا وَأَسْمَاعَنَا وَحَوَاسَّنَا هِيَ عَمَلٌ شِعْرِيٌّ فِي ٱلْحَقِيْقَةِ ، إِذْ تَنْقُلُ ٱلشَّيْءَ عَلَىٰ غَيْرِ مَا هُوَ فِيْ نَفْسِهِ لِيَكُوْنَ شَيْئًا فِيْ نُفُوْسِنَا ، فَيُؤَثِّرَ فِيْهَا أَثَرَهُ جَمَالًا وَقُبْحًا وَمَا بَيْنَهُمَا . وَمَا هِيَ خَمْرَةُ ٱلشِّعْرِ مَثَلًا ؟ هِيَ رُضَابُ ٱلْحَبِيْبَةِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْعَاشِقَ لَوْ رَأَىٰ هَـٰذَا ٱلرُّضَابَ تَحْتَ ٱلْمُجْهِرِ لَرَأَىٰ . . . لَرَأَىٰ مُسْتَنْقَعًا صَغِيْرًا . . . وَلَوْ كَانَ هَـٰذَا ٱلْمُجْهِرُ أَضْعَافَ ٱلْأَضْعَافِ مِمَّا يُجْهَرُ بِهِ لَرَأَيْتَ ذَلِكَ ٱلرُّضَابَ يَعُجُّ عَجِيْجًا بِٱلْهَوَامِّ

(١) { يَعْنِيْ قَوْلَ ٱلْعَقَّادِ فِيْ « وَحْيِ ٱلْأَرْبَعِيْنَ » [من الرمل] :
فِيْكِ مِنِّيْ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَمِنْ   كُلِّ مَوْجُوْدٍ وَمَوْعُوْدٍ تُؤَامْ }

وَٱلْحَشَرَاتِ ٱلَّتِي لَا تَخْفَىٰ بِنَفْسِهَا ، وَلَـٰكِنْ أَخْفَاهَا ٱلتَّدْبِيرُ ٱلإِلَـٰهِيُّ بِأَنْ جَعَلَ رُتْبَتَهَا فِي ٱلْوُجُوْدِ وَرَاءَ ٱلنَّظَرِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، رَحْمَةً مِنَ ٱللهِ بِٱلنَّاسِ ، فَأَعْذَبُ ٱلشِّعْرِ مَا عَمِلَ فِي تَجْمِيلِ ٱلطَّبِيْعَةِ كَمَا تَعْمَلُ ٱلْحَوَاسُّ ٱلْحَيَّةُ بِسِرِّ ٱلْحَيَاةِ ، وَلِهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ كَانَ ٱلشُّعَرَاءُ ٱلنَّوَابِغُ فِيْ كُلِّ مُجْتَمَعٍ هُمْ كَٱلْحَوَاسِّ لِهَـٰذَا ٱلْمُجْتَمَعِ .

وَمِنْ سَخِيْفِ ٱلإِغْرَاقِ فِي شِعْرِ شَوْقِي قَوْلُهُ فِيْ رِثَاءِ مُصْطَفَىٰ بَاشَا كَامِل ، وَهِيَ أَبْيَاتٌ يَظُنُّ هُوَ أَنَّهُ أَوْقَعَ كَلَامَهُ فِيْهَا مَوْقِعًا بَدِيْعًا مِنَ ٱلإِغْرَابِ [من الكامل] :

فَلَـوْ أَنَّ أَوْطَـانًا تُصَـوَّرُ هَيْكَـلًا   دَفَنُـوكَ بَيْـنَ جَـوَانِـحِ ٱلأَوْطَـانِ
أَوْ كَـانَ يُحْمَـلُ فِـي ٱلْجَـوَارِحِ مَيِّـتٌ   حَمَلُـوكَ فِـيْ ٱلأَسْمَـاعِ وَٱلأَجْفَـانِ
أَوْ كَـانَ لِلـذِّكْـرِ ٱلْحَكِيْـمِ بَقِيَّـةٌ   لَـمْ تَـأْتِ بَعْـدُ - رُثِيْـتَ فِـيْ ٱلْقُـرْآنِ

فَهَـٰذِهِ فُرُوضٌ فَوْقَ ٱلْمُسْتَحِيْلِ بِأَرْبَعِ دَرَجَاتٍ . . وَتَصَوَّرْ أَنْتَ مَيْتًا يُحْمَلُ فِي ٱلْجَوَارِحِ فَيَتَرَمَّمُ فِيْهَا وَيَبْلَىٰ . . وَمَا زَالَ ٱلشَّاعِرُ فِيْ أَبْيَاتِهِ يَخْرُجُ مِنْ طَامَّةٍ إِلَىٰ طَامَّةٍ ، حَتَّىٰ قَالَ : رُثِيتَ فِي ٱلْقُرْآنِ ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنَا إِعْرَابَ (لَوْ) فِي هَـٰذِهِ ٱلأَبْيَاتِ لَقُلْتُ : إِنَّهَا حَرْفُ نَقْصٍ وَتَلْفِيْقٍ وَعَجْزٍ . . . وَكَيْفَ يُسَوَّغُ فِي ٱلْفَرْضِ أَنْ تَكُوْنَ لِلْقُرْآنِ بَقِيَّةٌ لَمْ تَنْزِلْ ، وَٱللهُ تَعَالَىٰ يَقُوْلُ فِيْهِ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [٥ سورة المائدة/ الآية : ٣] وَٱلأَمْرُ أَمْرُ دِيْنٍ قَدْ تَمَّ ، وَكِتَابٌ مُقَدَّسٌ خُتِمَ ، وَنُبُوَّةٌ ٱنْقَضَتْ ؛ وَٱلشَّاعِرُ مَاضٍ فِيْ غَفْلَتِهِ لَمْ يَتَنَبَّهْ لِشَيْءٍ وَلَمْ يَدْرِ أَنَّهُ يَفْرِضُ فَرْضًا يَهْدِمُ ٱلإِسْلَامَ كُلَّهُ ، بَلْ حَسِبَ أَنَّهُ جَاءَ بِخَيَالٍ وَبَلَاغَةٍ فَارِسِيَّةٍ ، وَشَوْقِي فِي ٱلْحَقِيْقَةِ كَامِلٌ كَنَاقِصٍ ، وَإِنَّ مِنْ مُعْجِزَاتِ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُوْنَ نَاقِصًا هَـٰذَا ٱلنَّقْصَ كُلَّهُ وَيَكْمُلَ .

وَفِي « ٱلشَّوْقِيَّاتِ » صَفَحَاتٌ تَكَادُ تُغَرِّدُ تَغْرِيْدًا ، وَفِيْهَا صَفَحَاتٌ أُخْرَىٰ تَنِقُّ نَقِيْقَ ٱلضَّفَادِعِ ؛ وَفِيْ هَـٰذَا ٱلدِّيْوَانِ عُيُوْبٌ لَا نُرِيْدُ أَنْ نَقْتَصَّهَا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ كِتَابٍ بِرَأْسِهِ إِذَا ذَهَبْنَا نَأْتِي بِهَا وَنَشْرَحُ ٱلْعِلَّةَ فِيْهَا وَنُخْرِجُ ٱلشَّوَاهِدَ عَلَيْهَا ، وَلَـٰكِنْ مِنْ عُيُوْبِهِ فِي ٱلتَّكْرَارِ أَنَّ لَهُ بَيْتًا يَدُوْرُ فِي قَصَائِدِهِ دَوَرَانَ ٱلْحِمَارِ فِي ٱلسَّاقِيَةِ ، وَهُوَ هَـٰذَا ٱلْبَيْتُ [من البسيط] :

وَإِنَّمَـا ٱلأُمَـمُ ٱلأَخْـلَاقُ مَـا بَقِيَـتْ   فَـإِنْ هُمُـوْ ذَهَبَـتْ أَخْـلَاقُهُـمْ ذَهَبُـوْا

بَلْ هَـٰذَا ٱلْبَيْتُ [من البسيط] :

وَإِنَّمَـا ٱلأُمَـمُ ٱلأَخْـلَاقُ مَـا بَقِيَـتْ   فَـإِنْ تَـوَلَّـتْ مَضَـوْا عَلَـىٰ آثَـارِهَـا قُـدُمَـا

بَلْ هُوَ هَـٰذَا [من الطويل] :

كَـذَا ٱلنَّـاسُ بِـٱلأَخْـلَاقِ يَبْقَـىٰ صَـلَاحُهُـمْ   وَيَـذْهَـبُ عَنْهُـمْ أَمْـرُهُـمْ حِيْـنَ تَـذْهَـبُ

بَلْ هُوَ هَـٰذَا ٱلْبَيْتُ [من البسيط] :

وَلَا ٱلْمَصَـائِـبُ إِذْ يُـرْمَـىٰ ٱلـرِّجَـالُ بِهَـا   بِقَـاتِـلَاتٍ إِذَا ٱلأَخْـلَاقُ لَـمْ تُصَـبِ

وَقَدْ تَكَرَّرَ (فِيْمَا قَرَأْتُهُ مِنْ دِيْوَانِهِ) ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً فَعَادَ ٱلْمَعْنَىٰ كَطَيْلَسَانِ ٱبْنِ حَرْبٍ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّاعِرُ يَرْقَعُهُ ثُمَّ يَرْقَعُهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ ٱلطَّيْلَسَانُ وَبَقِيَتِ ٱلرُّقَعُ . وَٱلْبَيْتُ ٱلأَوَّلُ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّادِرِ ، وَلَـٰكِنْ أَفْسَدَهُ فِي ٱلْبَاقِي سُوْءُ مَلَكَةِ ٱلْحِرْصِ فِي شَوْقِي ، أَوْ ضَعْفُ ٱلْحِسِّ ٱلْبَيَانِيِّ ، أَوِ ٱبْتِذَالُهُ ٱلشِّعْرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ وَهْنُ فِكْرَتِهِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ مِنْ جَوَانِبَ كَثِيْرَةٍ ؛ وَهَـٰذِهِ ٱلأَرْبَعَةُ هِيَ ٱلأَبْوَابُ ٱلَّتِي يَقْتَحِمُ مِنْهَا ٱلنَّقْدُ عَلَىٰ شِعْرِ صَاحِبِنَا ، وَلَوْ هُوَ كَانَ قَدْ حَصَّنَهَا بِأَضْدَادِهَا لَكَانَ شَاعِرَ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِنَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ ، وَلَكَانَ عَسَىٰ أَنْ يَنْقُلَ ٱلشِّعْرَ إِلَىٰ طَوْرٍ جَدِيْدٍ فِي ٱلتَّارِيْخِ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱلْفَوْضَىٰ وَقَعَتْ فِي شَوْقِي مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ ؛ فَأُرْسِلَ إِلَىٰ أُوْرُبَّةَ لِدَرْسِ ٱلْحُقُوْقِ ، وَكَانَ ٱلْوَجْهُ أَنْ يُرْسَلَ لِدَرْسِ ٱلآدَابِ وَٱلْفَلْسَفَةِ ؛ وَغَامَرَ فِي سِيَاسَةِ ٱلأَرْضِ ، وَكَانَ ٱلْحَقُّ أَنْ يَشْتَغِلَ بِسِيَاسَةِ ٱلسَّمَاءِ وَتَهَالَكَ فِي مَادَّةِ ٱلدُّنْيَا ، وَكَانَ ٱلصَّوَابُ أَنْ يَتَهَالَكَ فِي مَعَانِيْهَا .

إِنَّ ٱلْفَوْضَىٰ ذَاهِبَةٌ بِنَا مَذَاهِبَهَا فِي ٱلأَدَبِ وَٱلشِّعْرِ ، فَكُلُّ شَاعِرٍ عِنْدَنَا كَمُؤَلِّفٍ يَضَعُ رِوَايَةً ثُمَّ يُمَثِّلُهَا وَحْدَهُ وَعَلَيْهِ أَنْ يُمَثِّلَهَا وَحْدَهُ ، فَهُوَ يَخْرُجُ عَلَى ٱلنَّظَّارَةِ فِي ثِيَابِ ٱلْمَلِكِ ، فَيُلْقِي كَلَامًا مَلَكِيًّا . ثُمَّ يَنْفَتِلُ فَيَجِيْءُ فِي ثَوْبِ ٱلْقَائِدِ فَيُلْقِي كَلَامًا حَرْبِيًّا ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ فَيَعُوْدُ فِي هَيْئَةِ ٱلتَّاجِرِ فَيُلْقِي كَلَامًا سُوْقِيًّا ، ثُمَّ يَرُوْغُ فَيَرْجِعُ فِي مَبَاذِلِ ٱلْخَادِمِ ثُمَّ . . . ثُمَّ . . . ثُمَّ يَتَوَارَىٰ فَيَظْهَرُ فِي جِلْدَةِ بَرْبَرِيٍّ . . . وَهَـٰذِهِ ٱلْفَوْضَىٰ ٱلَّتِي أَهْمَلَتْهَا ٱلْحُكُوْمَةُ وَأَهْمَلَهَا ٱلأُمَرَاءُ وَٱلْكُبَرَاءُ هِيَ حَقِيْقَةٌ مُؤْلِمَةٌ ، وَلَـٰكِنْ هِيَ حَقِيْقَةٌ !

* * *

وَشَوْقِي عَلَىٰ كُلِّ هَـٰذَا هُوَ شَوْقِي : أَوَّلُ مَنِ ٱحْتَفَىٰ بِتَارِيخِ مِصْرَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ، وَأَوَّلُ مَنْ تَوَسَّعَ فِي نَظْمِ ٱلرِّوَايَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَوَضَعَ مِنْهَا سِتَّ رِوَايَاتٍ ، وَهُوَ صَاحِبُ ٱلآيَاتِ ٱلْبَدِيعَةِ فِي ٱلْوَصْفِ ، وَهَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةُ هِيَ أَقْوَىٰ نَوَاحِيهِ ، وَلَقَدْ أَلْهَمَتْنِي قِرَاءَةُ ٱلْبَارِعِ مِنْ شِعْرِهِ فِي أَغْرَاضِهِ وَفُنُونِهِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ أَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يُنْعِمُ عَلَىٰ ٱلآدَابِ ٱلْجَمِيلَةِ بِأَفْرَادٍ مُمْتَازِينَ فِي جَمَالِ أَرْوَاحِهِمْ وَقُوَّتِهَا ، تَجِدُ ٱلآدَابُ لَذَّتَهَا فِيهِمْ وَسُمُوَّهَا بِهِمْ ، كَأَنَّ ٱلأَمْرَ قِيَاسٌ عَلَىٰ مَا يَقَعُ مِنْ عِشْقِ ٱلنَّاسِ لِبَعْضِ ٱلْمَعَانِي ، فَيَكُونُ فِي ٱلْمَعَانِي مَا يَعْشَقُ بَعْضَ ٱلنَّاسِ ، وَمَتَىٰ بَلَغَ عِشْقُ ٱلْمَعْنَىٰ لإِنْسَانٍ مَبْلَغَ ٱلاخْتِصَاصِ وَٱلْوَجْدِ ظَهَرَ ٱلْفَنُّ أَبْدَعَ مَا يُرَىٰ ، كَأَنَّ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلأَدَبِيَّ يَتَجَمَّلُ وَيَتَحَبَّبُ لِيَسْتَمِيلَ هَـٰذَا ٱلإِنْسَانَ ٱلْحَاكِمَ عَلَيْهِ حُكْمَ ٱلْحُبِّ .

فَيَا مِصْرُ ! لَقَدْ مَاتَ شَاعِرُكِ ٱلَّذِي كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَخْرُجَ بِٱلْجِيلِ ٱلْحَاضِرِ إِلَىٰ ٱلزَّمَنِ ٱلَّذِي لَمْ يَأْتِ بَعْدُ ، فَإِذَا جَاءَ هَـٰذَا ٱلزَّمَنُ ٱلزَّاخِرُ بِفُنُونِهِ وَآدَابِهِ ٱلْعَالِيَةِ ، وَذَكَرْتِ مَجْدَ شِعْرِكِ ٱلْمَاضِي ، فَلْيَقُلْ أَسَاتِذَتُكِ يَوْمَئِذٍ : كَانَ هَـٰذَا ٱلْمَاضِي شَاعِرًا ٱسْمُهُ شَوْقِي !

بَعْدَ شَوْقِي (*)(١)

كَانَ يَتَوَجَّهُ ٱلظَّنُّ عَلَىٰ شَوْقِي رَحِمَهُ ٱللهُ ، فَيَزْعُمُ ٱلزَّاعِمُ أَنَّ شَوْقِي هُوَ يُحْيِي شِعْرَهُ ، وَهُوَ يَرْفَعُ مِنْهُ ، وَهُوَ يُشِيعُ حَوْلَهُ قُوَّةَ ٱلْجَذْبِ مِنْ مِغْنَاطِيسِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْمَكَانَةِ ، وَأَنَّ ٱلرَّجُلَ مَا أَوْفَىٰ عَلَىٰ ٱلشُّعَرَاءِ جَمِيعًا لأَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ ، بَلْ لأَنَّهُ أَغْنَاهُمْ ؛ وَلَا مِنْ أَنَّهُ أَقْوَاهُمْ قُوَّةً ، بَلْ لأَنَّهُ أَقْوَاهُمْ حِيلَةً ؛ وَأَنَّ ٱلشَّاعِرَ لَوْ جَاءَ يَوْمُهُ لَبَطَلَ ٱلسِّحْرُ وَٱلسَّاحِرُ ، فَتَرْجِعُ ٱلْعَصَا وَهِيَ عَصًا بَعْدَ أَنِ ٱنْقَلَبَتْ حَيَّةً ، وَيَؤُوْلُ هَـٰذَا ٱلشِّعْرُ إِلَىٰ حَقِيقَتِهِ ، وَتَتَّسِمُ ٱلْحَقِيقَةُ بِسِمَتِهَا ؛ كَأَنَّ

(*) « الرسالة » العدد : ١٢١ ، ٣٠ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٧٢٣ ـ ١٧٢٥ .

(١) لَمَّا تُوُفِّيَ شَوْقِي كَتَبْنَا لِشَيْخِ مَجَلَّاتِنَا « ٱلْمُقْتَطَف » فَصْلًا طَوِيلًا عَنْهُ وَعَنْ شِعْرِهِ وَمَنْزِلَةِ شِعْرِهِ ، فَلَمْ نَعْرِضْ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ هُنَا .

شَوْقِي كَانَ يَعْمَلُ لِشِعْرِهِ بِقُوَّةِ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ لَا بِقُوَّةِ رَجُلٍ مِنَ ٱلنَّاسِ .

فَقَدْ ذَهَبَ ٱلرَّجُلُ إِلَىٰ رَبِّهِ ، وَخَلَا مَكَانُهُ ، وَبَطَلَتْ كُلُّ وَسَائِلِهِ وَنَامَ عَنْ شِعْرِهِ نَوْمَةَ ٱلأَبَدِيَّةِ ، وَتَرَكَهُ لِمَا فِيهِ يَحْفَظُهُ أَوْ يُضَيِّعُهُ إِنْ كَانَ فِيهِ حَقٌّ مِنَ ٱلشِّعْرِ أَوْ بَاطِلٌ ، وَأَصْبَحَ ٱلشَّاعِرُ هُوَ وَمَالُهُ وَجَاهُهُ وَشِعْرُهُ فِي حُكْمِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلَّتِي يَقُولُهَا ٱلزَّمَنُ ، وَلَمْ تَعُدْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ فِي حُكْمِهِ ؛ فَهَلْ أَثْبَتَهُ ٱلزَّمَنُ أَوْ نَفَاهُ ، وَهَلْ سَلِمَ لَهُ أَوْ كَابَرَهُ ؛ وَهَلْ رَدَّهُ فِي أَغْمَارِ ٱلشُّعَرَاءِ أَوْ جَعَلَ ٱلشُّعَرَاءَ بَعْدَهُ أَدِلَّةً مِنْ أَدِلَّتِهِ ؟

* * *

أَوَّلُ مَا ظَهَرَ لِي أَنَّ ٱلزَّمَنَ بَعْدَ شَوْقِي أَصْبَحَ أَقْوَىٰ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ وَأَصْدَقَ فِي ٱلشَّهَادَةِ لَهُ ، كَمَا تَكُونُ ٱلظُّلْمَةُ بَعْدَ غِيَابِ ٱلْقَمَرِ شَرْحًا طَوِيلًا لِمَعْنَىٰ ذَلِكَ ٱلضِّيَاءِ ، وَإِنْ سَطَعَتْ فِيهَا ٱلْكَوَاكِبُ وَتَوَقَّدَ مِنْهَا شَيْءٌ وَتَلأْلأَ شَيْءٌ ، فَقَدْ دَلَّ ٱلزَّمَنُ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ ٱلشَّأْنَ لَمْ يَكُنْ لِشَاعِرٍ كَٱلشُّعَرَاءِ ، يُقَالُ فِي وَصْفِهِ : إِنَّهُ مُفْتَنٌّ مُجِيدٌ مُبْدِعٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ لِلَّذِي يُقَالُ فِيهِ : إِنَّهُ صَوْتُ بِلَادِهِ وَصَيْحَةُ قَوْمِهِ .

كَانَتْ تَحْدُثُ ٱلْحَادِثَةُ ، أَوْ يَتَخَالَجُ ٱلنَّاسَ مَعْنًىٰ مِنَ ٱلْهَمِّ ٱلَّذِي يَعُمُّهُمْ ، أَوْ يَسْتَطِيرُهُمْ فَرَحٌ مِنْ أَفْرَاحِ ٱلْوَطَنِ ، أَوْ يَزُولُ عَظِيمٌ مِنَ ٱلْعُظَمَاءِ فَيَزِيدُ صَفْحَةً فِي ٱلتَّارِيخِ ، أَوْ يَنْشَأُ كَوْنٌ صَغِيرٌ مِنْ أَكْوَانِ ٱلْحَضَارَةِ فِي ٱلشَّرْقِ كَبَنْكِ مِصْرَ ، أَوْ تَرْتَجُّ زَلْزَلَةٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ أَيْنَمَا ٱرْتَجَّتْ ، فَإِذَا كُلُّ ذَلِكَ قَدْ وَقَعَ فِي ٱلدُّنْيَا بِهَيْئَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا فِي ذِهْنِ شَوْقِي ، فَيُرْسِلُ قَصِيدَتَهُ ٱلشَّرُودَ ٱلسَّائِرَةَ دَاوِيَةً مُجَلْجِلَةً ، فَلَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي مِصْرَ حَتَّىٰ تَلْتَقِيَ حَوْلَهَا ٱلأَفْكَارُ فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْعَرَبِيِّ كُلِّهِ ، فَتَكُونُ شِعْرًا مِنْ أَسْرَىٰ ٱلشِّعْرِ وَأَحْسَنِهِ ، ثُمَّ تُجَاوِزُهَا ، فَإِذَا هِيَ صِلَةٌ مِنْ أَقْوَىٰ ٱلصِّلَاتِ ٱلذِّهْنِيَّةِ بَيْنَ أُدَبَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَأَوْثَقِهَا ، ثُمَّ تُجَاوِزُهَا ، فَإِذَا هِيَ عَاطِفَةٌ تَجْمَعُ ٱلْقُلُوبَ عَلَىٰ مَعْنَاهَا ، ثُمَّ تَسْمُو فَوْقَ هَـٰذَا كُلِّهِ ، فَإِذَا هِيَ مِنْ هَـٰذَا كُلِّهِ زَعَامَةُ مِصْرَ عَلَىٰ ٱلشَّعْبِ ٱلْعَرَبِيِّ .

وَٱلْيَوْمَ يَقَعُ مِثْلُ ذَلِكَ فَتَتَطَايَرُ بَعْضُ ٱلْفَقَاقِيعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ مِنْ هُنَا ، وَثَمَّ مُلَوَّنَةً مُنْتَفِخَةً مَاضِيَةً عَلَىٰ قَانُونِ ٱلْفَقَاقِيعِ فِي ٱلطَّبِيعَةِ : مِنْ أَنَّ لَحْظَةَ وُجُودِهَا هِيَ لَحْظَةُ فَنَائِهَا ، وَأَنَّ ظُهُورَهَا يَكُونُ لِتَظْهَرَ فَقَطْ لَا لِتَنْفَعَ .

وَلَسْتُ أُمَارِي فِي أَنَّ بَيْنَنَا شُعَرَاءَ قَلِيلِينَ يُجِيدُونَ ٱلشِّعْرَ ، وَلَهُمْ فِكْرٌ وَبَيَانٌ وَمَذْهَبٌ وَطَرِيقَةٌ ، وَلَـٰكِنْ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ ٱلْحَوَادِثَ لَمْ تَخْتَرْهُ كَمَا ٱخْتَارَتْ شَوْقِي ، وَأَنَّهُ فِي ٱلْحَيَاةِ كَٱلْوَاقِفِ عَلَىٰ بَابِ دِيوَانٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يُعْهَدَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَخْرُجَ لَهُ ٱلتَّقْلِيدُ ، فَهُوَ يَنْتَظِرُ وَسَيَنْتَظِرُ .

وَهَـٰذَا عَجِيبٌ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ سِحْرٌ مِنْ سِحْرِ ٱلزَّمَنِ حِينَ تَفْصِلُ ٱلدُّنْيَا بَيْنَ ٱلْعَبْقَرِيِّ ٱلْفَذِّ وَبَيْنَ مَنْ يُشْبِهُونَهُ أَوْ يُنَافِسُونَهُ بِضُرُوبٍ خَفِيَّةٍ مِنَ ٱلصَّرْفَةِ وَٱلْعَوَائِقِ ، لَا هِيَ كُلُّهَا مِنْ قُوَّةِ ٱلْعَبْقَرِيِّ ، وَلَا هِيَ كُلُّهَا مِنْ عَجْزِ ٱلْآخَرِينَ .

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنَّ (شَوْقِي) كَانَ فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْعَرَبِيِّ كَأَنَّهُ عَمَلٌ تَارِيخِيٌّ مُتَمَيِّزٌ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ ، غَيْرَ أَنَّهُ مُسَمًّى بِٱسْمِ رَجُلٍ ؛ وَكَانَ عَلَىٰ ٱلْحَقِيقَةِ لَا عَلَىٰ ٱلْمَجَازِ ـ كَأَنَّ فِيهِ شَيْئًا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلرُّوحِ ٱلتَّارِيخِيَّةِ ٱلْمُتَغَلِّبَةِ ٱلَّتِي تَخْلُدُ بِأَسْمَاءِ ٱلْآثَارِ ٱلْفَنِّيَّةِ وَتُكْسِبُهَا ٱلْعَظَمَةَ فِي ٱلْوُجُودَيْنِ : مِنْ مَحَلِّهَا وَمِنْ نَفْسِ ٱلْإِنْسَانِ .

وَأَعْجَبُ مِنْ هَـٰذَا وَذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَرَ شِعْرًا عَرَبِيًّا يَحْسُنُ فِي وَصْفِ ٱلْآثَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ مَا يَحْسُنُ فِي وَصْفِهَا شِعْرُ شَوْقِي ، حَتَّىٰ لَأَسْأَلُ نَفْسِي : هَلْ تَخْتَارُ بَعْضُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَظِيمَةِ وَصْفَهَا وَمُفَسِّرَ عَظَمَتِهَا ، كَمَا تَخْتَارُ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْجَمِيلَةُ عَاشِقَهَا وَمُسْتَجْلِيَ حُسْنِهَا ؟ .

* * *

وَمَا بَانَ شَوْقِي عَلَىٰ غَيْرِهِ إِلَّا بِأَنَّهُ رَجُلٌ أُفْرِغَ فِي رَأْسِهِ ٱلذِّهْنُ ٱلشِّعْرِيُّ ٱلْكَبِيرُ ، فَكَانَ فِي رَأْسِهِ مَصْنَعٌ عُمَّالُهُ ٱلْأَعْصَابُ ، وَمَادَّتُهُ ٱلْمَعَانِي ، وَمُهَنْدِسُهُ ٱلْإِلْهَامُ ؛ وَٱلدُّنْيَا تُرْسِلُ إِلَيْهِ وَتَأْخُذُ مِنْهُ ؛ وَعَلَامَةُ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ شَاعِرٍ عَظِيمٍ أَنْ تَضَعَ دُنْيَاهُ عَلَىٰ ٱسْمِهِ شَهَادَتَهَا لَهُ ، وَلِهَـٰذَا مَا يَكُونُ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَأَنَّ ٱسْمَهُ فِي وَزْنِ ٱسْمِ مَمْلَكَةٍ ، فَإِذَا قُلْتَ : شِكْسْبِيرُ Shakespeare وَإِنْكِلْتِرَة ؛ فَهُمَا فِي ٱلْعَظَمَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ مِنْ وَزْنٍ وَاحِدٍ ، وَكَذَلِكَ ٱلْمُتَنَبِّي وَٱلْعَالَمُ ٱلْعَرَبِيُّ ، وَكَذَلِكَ شَوْقِي وَمِصْرُ .

قَالُوا : كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ يُنَقِّحُ ٱلشِّعْرَ ، وَكَانَ جَرِيرٌ يَخْشُبُ (أَيْ : يُرْسِلُ شِعْرَهُ كَمَا يَجِيءُ ، فَلَا يَتَنَوَّقُ فِيهِ وَلَا يُنَقِّحُهُ) ؛ وَكَانَ خَشْبُ جَرِيرٍ خَيْرًا مِنْ تَنْقِيحِ ٱلْفَرَزْدَقِ ، وَلَمْ يَتَنَبَّهْ

أَحَدٌ إِلَىٰ ٱلسِّرِّ فِي ذَلِكَ ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا ٱلسِّرُّ ٱلَّذِي كَانَ فِي شَوْقِي بِعَيْنِهِ ، سِرُّ ٱلِامْتِلَاءِ ٱلرُّوحِيِّ قَدْ أُمِدَّ بِٱلطَّبْعِ ، وَأُعِينَ بِٱلذَّوْقِ ، وَأُوتِيَ ٱلْقُوَّةَ أَنْ يَتَحَوَّلَ بِآثَارِهِ فِي ٱلْكَلَامِ ؛ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنْهُ فَهُوَ مِنْهُ : يَجِيءُ دَائِمًا قَرِيبًا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِهِ ، وَلَا يَكَادُ يَنْفُذُ إِلَىٰ شُعُورٍ إِلَّا ٱتَّحَدَ بِهِ .

وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ ٱلْوَاعِظُ ٱلْبَلِيغُ(١) إِذَا تَكَلَّمَ فِي مَجْلِسِهِ نَشَرَ حَوْلَهُ جَوًّا مِنْ رُوحِهِ ، فَيَجْعَلُ كُلَّ مَا حَوْلَهُ يَتَمَوَّجُ بِأَمْوَاجٍ نَفْسِيَّةٍ ؛ فَكَانَ كَلَامُهُ يَعْصِفُ بِٱلنَّاسِ عَصْفَ ٱلْهَوَاءِ بِٱلْبَحْرِ ، يَقُومُ بِهِ وَيَقْعُدُ ، وَكَانَ مِنَ ٱلْوُعَّاظِ مَنْ يُقَلِّدُهُ وَيَحْكِيهِ وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ بِذَلِكَ يَعْرِضُ ٱلْغَلْطَةَ عَلَىٰ رَدِّهَا وَصَوَابِهَا ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ جَالَسَهُ وَجَالَسَهُمْ : مَا سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ ذَرٍّ يَتَكَلَّمُ إِلَّا ذَكَرْتُ ٱلنَّفْخَ فِي ٱلصُّورِ ؛ وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَحْكِيهِ إِلَّا تَمَنَّيْتُ أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ . . .

فَٱلْفَرْقُ رُوحَانِيٌّ طَبِيعِيٌّ كَمَا تَرَىٰ ، لَا عَمَلَ فِيهِ لِأَحَدٍ وَلَا لِصَاحِبِهِ ، وَهُوَ يُشْبِهُ ٱلْفَرْقَ بَيْنَ عَاصِفَةٍ مِنَ ٱلْهَوَاءِ وَبَيْنَ نَسِيمٍ مِنَ ٱلرِّيحِ يُرْسَلَانِ عَلَىٰ جِهَتَيْنِ فِي ٱلْبَحْرِ . فَفِي نَاحِيَةٍ يَلْتَجُّ ٱلْمَاءُ وَيَثِبُ وَيَتَضَرَّبُ وَيَقْصِفُ قَصْفَ ٱلرَّعْدِ ، وَفِي ٱلْأُخْرَىٰ يَتَرَجْرَجُ وَيَتَزَحَّفُ وَيَقْشَعِرُّ وَيَهْمِسُ كَوَسْوَاسِ ٱلْحُلِيِّ .

وَٱلشَّأْنُ كُلُّ ٱلشَّأْنِ لِلْكَمِّيَّةِ ٱلْوِجْدَانِيَّةِ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلشَّاعِرَةِ أَوِ ٱلْمُمْتَازَةِ ؛ فَهِيَ ٱلَّتِي تُعَيِّنُ لِهَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ عَمَلَهَا عَلَىٰ وَجْهٍ مَا ، وَتُهَيِّئُهَا لِمَا يُرَادُ مِنْهَا بِقَدْرٍ مَا ، وَتُقِيمُهَا عَلَىٰ دَأْبِهَا إِلَىٰ زَمَنٍ مَا ، وَتَخُصُّهَا بِخَصَائِصِهَا لِغَرَضٍ مَا ، وَإِذَا أَنْتَ حَقَّقْتَ لَمْ تَجِدِ ٱلْفُرُوقَ بَيْنَ ٱلنَّوَابِغِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، إِلَّا فُرُوقًا فِي هَـٰذِهِ ٱلْكَمِّيَّةِ ذَاتِهَا مِقْدَارًا مِنْ مِقْدَارٍ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ أَصْغَرُ ٱلْعُلَمَاءِ أَعْظَمَ مِنْ أَكْبَرِ ٱلشُّعَرَاءِ ، فَقَدْ يَكُونُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْعَظِيمُ كَأَنَّهُ تِلْمِيذٌ فِي ٱلْعِلْمِ ، ثُمَّ يَكُونُ ٱلْعِلْمُ كَأَنَّهُ تِلْمِيذٌ لِقَلْبِ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرِ وَعَوَاطِفِهِ ؛ وَلَئِنْ عَجَزَ ٱلنَّقْدُ ٱلْعِلْمِيُّ أَنْ يَنَالَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ ٱلْعَبْقَرِيِّ ، لَقَدِيمًا عَجَزَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ .

وَقَدْ كَانَ فِيمَنْ حَاوَلُوا إِسْقَاطَ شَوْقِي مَنْ هُوَ أَوْسَعُ مِنْهُ ٱطِّلَاعًا عَلَىٰ آدَابِ ٱلْأُمَمِ ، وَأَبْصَرُ بِأَغْرَاضِ ٱلشِّعْرِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ حَاسِدًا شَانِئًا قَدْ ثَقَبَ فِي قَلْبِهِ ٱلْحِقْدُ ،

(١) هُوَ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ ٱلْهَمَدَانِيُّ ٱلْكُوفِيُّ ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ١٥٦ لِلْهِجْرَةِ ، وَكَانَ مِنْ أَبْلَغِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ .

وَٱلْحَاسِدُ ٱلْمُبْغِضُ هُوَ فِي ٱتِّسَاعِ ٱلْكَلَامِ وَطُغْيَانِ ٱلْعِبَارَةِ أَخُو ٱلْمُحِبِّ ٱلْعَاشِقِ ، فَكِلَاهُمَا يَدُورُ ٱلدَّمُ فِي كَبِدِهِ مَعَانِيَ وَوَسَاوِسَ ، وَكِلَاهُمَا يَجْرِي كَلَامُهُ عَلَىٰ أَصْلٍ مِمَّا فِي سَرِيرَتِهِ ، فَلَا تَجِدُ أَحَدَهُمَا إِلَّا عَالِيًا عَالِيًا بِمَنْ يُحِبُّ ، وَلَا تَجِدُ ٱلآخَرَ إِلَّا نَازِلًا نَازِلًا بِمَنْ يُبْغِضُ ، وَكَانَ هَـٰذَا ٱلنَّاقِدُ شَاعِرًا ، فَٱنْضَافَ شِعْرُهُ إِلَىٰ حَسَدِهِ إِلَىٰ بُغْضِهِ ، إِلَىٰ ذَكَائِهِ ، إِلَىٰ ٱطِّلَاعِهِ ، إِلَىٰ جُهْدِهِ ، إِلَىٰ طُولِ ٱلْوَقْتِ وَتَرَاخِي ٱلزَّمَنِ ، وَهَـٰذِهِ كُلُّهَا مُفَرْقَعَاتٌ نَفْسِيَّةٌ . بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ كَٱلْبَارُودِ ، إِلَىٰ ٱلدِّينَامِيتِ ، إِلَىٰ ٱلْمِيلِينِيتِ ، وَلَـٰكِنَّ شَوْقِي كَانَ فِي مُرْتَقًى لَمْ يَبْلُغْهُ ٱلنَّاقِدُ ، فَٱنْقَلَبَ جُهْدُ هَـٰذَا عَجْزًا ، وَأَصْبَحَ ٱلْبَارُودُ وَٱلتُّرَابُ فِي يَدِهِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ . . (١) .

* * *

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا عَجِبْتُ لَهُ مِنْ أَمْرِ هَـٰذَا ٱلنَّاقِدِ ، أَنِّي رَأَيْتُهُ يُقَرِّرُ لِلنَّاسِ صَوَابَ ٱلْحَقِيقَةِ بِزَعْمِهِ ، فَإِذَا هُوَ يُقَرِّرُ غَلَطَهُ وَجَهْلَهُ وَتَعَسُّفَهُ ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُ عَنْ شَوْقِي يَكُونُ كَٱلَّذِي يَرَى ٱلْمَاءَ ٱلْعَذْبَ وَعَمَلَهُ فِي إِنْبَاتِ ٱلرَّوْضِ وَتَوْشِيَتِهِ وَتَلْوِينِهِ ، فَيَذْهَبُ يَعِيبُهُ لِلنَّاسِ بِأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ ٱلْبِنْزِينَ . . . ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلسَّيَّارَاتِ وَٱلطَّيَّارَاتِ !

تَنَاوَلَ شَوْقِي بَعْدَ مَوْتِهِ فَجَرَّدَهُ مِنَ ٱلشَّخْصِيَّةِ ، أَيْ مِنْ حَاسَّةِ ٱلشِّعْرِ ، وَمِنْ إِدْرَاكِ ٱلسِّرِّ ٱلَّذِي لَا يُخْلَقُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْحَقُّ إِلَّا لِإِدْرَاكِهِ وَٱلْكَشْفِ عَنْ حَقَائِقِهِ ، وَكَانَ فِيمَا ٱسْتَدَلَّ بِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ شَوْقِي لَا يُحْسِنُ وَصْفَ ٱلرَّبِيعِ بِمِثْلِ مَا وَصَفَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فِي قَوْلِهِ [من الكامل] :

تَجِدُ ٱلْوُحُوشُ بِهِ كِفَايَتَهَا ... وَٱلطَّيْرُ فِيهِ عَتِيدَةُ ٱلطُّعَمِ
فَظِبَاؤُهُ تُضْحِي بِمُنْتَطَحٍ ... وَحَمَامُهُ يُضْحِي بِمُخْتَصَمِ

وَزَعَمَ أَنَّ ٱبْنَ ٱلرُّومِيِّ قَدْ وُلِدَ بِحَاسَّةٍ لَمْ يُولَدْ بِهَا شَوْقِي ، وَلِهَـٰذِهِ ٱلْحَاسَّةِ ٱنْدَمَجَ فِي ٱلطَّبِيعَةِ فَأَدْرَكَ سِرَّ ٱلرَّبِيعِ ، وَأَنَّهُ غَلَيَانُ ٱلْحَيَاةِ فِي ٱلْأَحْيَاءِ ، فَٱلظِّبَاءُ تَنْتَطِحُ مِنَ ٱلأَشَرِ . . . إِلخ إِلخ ، وَبَنَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ نَاطِحَةَ سَحَابٍ . . . لَا نَاطِحَةَ ظِبَاءٍ(٢) .

(١) { أَحْسَبُهُ يَعْنِي ٱلْعَقَّادَ } .

(٢) لَا يَحْضُرُنِي كَلَامُ ٱلْكَاتِبِ بِنَصِّهِ ، وَلَـٰكِنْ ، هَـٰذَا بَعْضُ مَعْنَاهُ ؛ وَكُلُّهُ تَهْوِيلٌ .

أَمَّا شَوْقِي ٱلشَّاعِرُ ٱلضَّعِيفُ ٱلْعَاجِزُ ٱلَّذِي لَمْ يُولَدْ بِمِثْلِ تِلْكَ ٱلْحَاسَّةِ ، فَلَوْ أَنَّهُ شَهِدَ أَلْفَ رَبِيعٍ لَمَا أَحَسَّ هَـٰذَا ٱلْإِحْسَاسَ ، وَلَا ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَجِيءَ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقَوْلِ ٱلْمُعْجِزِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ هَـٰذَا ٱلنَّاقِدِ جَهْلٌ فِي جَهْلٍ فِي جَهْلٍ وَأَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ بِأَبَاطِيلَ ، فَٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ لِصٌّ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ ، فَلَمْ يُحِسَّ شَيْئًا وَلَا ٱبْتَدَعَ وَلَا ٱخْتَرَعَ .

قَالَ ٱلْجَاحِظُ : يُقَالُ فِي ٱلْخِصْبِ (أَيْ : ٱلرَّبِيعِ) : نَفَشَتِ ٱلْعَنْزُ لِأُخْتِهَا ، وَخَلَّفَتْ أَرْضًا تَظَالَمُ مِعْزَاهَا (أَيْ : تَتَظَالَمُ) ، قَالَ : لِأَنَّهَا تَنْفُشُ شَعْرَهَا وَتَنْصِبُ رَوْقَيْهَا فِي أَحَدِ شِقَّيْهَا فَتَنْطَحُ أُخْتَهَا ، وَإِنَّمَا ذَاكَ مِنَ ٱلأَشَرِ ، (أَيْ : حِينَ سَمِنَتْ وَأَخْصَبَتْ وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا) .

فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ ٱبْنَ ٱلرُّومِيِّ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ سَرَقَ ٱلْمَعْنَىٰ وَٱللَّفْظَ جَمِيعًا ، ثُمَّ جَاءَ لِلْقَافِيَةِ بِهَـٰذِهِ ٱلزِّيَادَةِ ٱلسَّخِيفَةِ ٱلَّتِي قَاسَ فِيهَا ٱلْحَمَامَ عَلَىٰ ٱلظِّبَاءِ وَٱلْمِعْزَىٰ . . . فَٱسْتَكْرَهَ ٱلْحَمَامَ عَلَىٰ أَنْ يَخْتَصِمَ فِي زَمَنٍ بِعَيْنِهِ وَهُوَ يَخْتَصِمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَإِنَّمَا شَرْطُ ٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلسَّرِقَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَىٰ ٱلْمَعْنَىٰ فَتَجْعَلَهُ كَٱلْمُنْفَرِدِ بِنَفْسِهِ أَوْ كَٱلْمُخْتَرَعِ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كَانَ لِلطَّبِيعَةِ مِئَةُ صُورَةٍ فِي ٱلْخَيَالِ ٱلشِّعْرِيِّ ، ثُمَّ قَدَّمَ شَوْقِي لِلنَّاسِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ مِنْهَا ، لَقَالَ ذَلِكَ ٱلنَّاقِدُ ٱلْمُتَعَنِّتُ : لَا ، إِلَّا ٱلصُّورَةَ ٱلَّتِي لَمْ يُقَدِّمْهَا . . .

* * *

وَكَانَ شِعْرُ شَوْقِي فِي جَزَالَتِهِ وَسَلَاسَتِهِ كَأَنَّمَا يَحْمِلُ ٱلْعَصَا لِبَعْضِ ٱلشُّعَرَاءِ ، يَرُدُّهُمْ بِهَا عَنِ ٱلسَّفْسَفَةِ وَٱلتَّخْلِيطِ وَٱلِاضْطِرَابِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلتَّرْكِيبِ ، فَكَثُرَ ٱلِاخْتِلَالُ فِي ٱلنَّاشِئِينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَجَاؤُوا بِٱلْكَلَامِ ٱلْمُخَلَّطِ ٱلَّذِي تَبْعَثُ عَلَيْهِ رَخَاوَةُ ٱلطَّبْعِ وَضَعْفُ ٱلسَّلِيقَةِ ، فَتَرَاهُ مَكْشُوفًا سَهْلًا ، وَلَـٰكِنَّ سُهُولَتَهُ أَقْبَحُ فِي ٱلذَّوْقِ مِنْ جَفْوَةِ ٱلْأَعْرَابِ عَلَىٰ كَلَامِهِمُ ٱلْوَحْشِيِّ ٱلْمَتْرُوكِ .

وَٱلآفَةُ أَنَّ أَصْحَابَ هَـٰذَا ٱلْمَذْهَبِ يَفْرِضُونَ مَذْهَبَهُمْ فَرْضًا عَلَىٰ ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلنَّاسِ : دَعُوا ٱللُّغَةَ وَخُذُونَا نَحْنُ ! وَلَيْسَ فِي أَذْهَانِهِمْ إِلَّا مَا ٱخْتَلَطَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَقْلِيدِ ٱلأَدَبِ ٱلْأُورُبِّيِّ ، فَكُلٌّ مِنْهُمْ عَابِدُ ٱلْحَيَاةِ ، مُنْدَمِجٌ فِي وَحْدَةِ ٱلْكَوْنِ ، يَأْخُذُ ٱلطَّبِيعَةَ مِنْ يَدِ ٱللهِ ، وَيُجَارِي ٱللَّا نِهَايَةَ ، وَيَفْنَىٰ فِي ٱللَّذَّةِ ، وَيُعَانِقُ ٱلْفَضَاءَ ، وَيُغَنِّي عَلَىٰ قِيثَارَتِهِ لِلنُّجُومِ ؛ وَبِٱلِاخْتِصَارِ : فَكُلٌّ مِنْهُمْ مَجْنُونٌ لُغَوِيٌّ . . .

وَأَنَا فَلَسْتُ أَرَىٰ أَكْثَرَ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ إِلَّا كَٱلْجِيَفِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ ٱلْجِيفَةَ لَا تُعَدُّ كَذَٰلِكَ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلْأَعْظَمِ ، بَلْ هِيَ فِيهِ عَمَلٌ تَحْلِيلِيٌّ عِلْمِيٌّ دَقِيقٌ ؛ لَقَدْ صَدَقُوا ؛ وَلَـٰكِنْ هَلْ يَكْذِبُ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ ٱلْجِيفَةَ هِيَ فَسَادٌ وَنَتَنٌ وَقَذَرٌ فِي ٱعْتِبَارِ وُجُودِنَا ٱلشَّخْصِيِّ : وُجُودِ ٱلنَّظَرِ وَٱلشَّمِّ ، وَٱلِانْقِبَاضِ وَٱلِانْبِسَاطِ ، وَسَلَامَةِ ٱلذَّوْقِ وَفَسَادِ ٱلذَّوْقِ ! .

* * *

وَكَانَ حَاسِدُو شَوْقِي يَحْسَبُونَ أَنَّهُ إِذَا أُزِيحَ مِنْ طَرِيقِهِمْ ظَهَرَ تَقَدُّمُهُمْ ؛ فَلَمَّا أُزِيحَ مِنَ ٱلطَّرِيقِ ظَهَرَ تَأَخُّرُهُمْ . . . وَهَـٰذِهِ وَحْدَهَا مِنْ عَجَائِبِهِ رَحِمَهُ ٱللهُ ! .

وَقَدْ كَانَ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرُ ٱلْعَظِيمُ هِبَةَ ثَلَاثَةِ مُلُوكٍ لِلشَّعْبِ ، فَهَيْهَاتَ يَنْبُغُ مِثْلُهُ إِلَّا إِذَا عَمِلَ ٱلشَّعْبُ فِي خِدْمَةِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْأَدَبِ عَمَلَ ثَلَاثَةِ مُلُوكٍ . . . وَهَيْهَاتَ !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

* * *

ٱلشِّعْرُ ٱلْعَرَبِيُّ
فِي خَمْسِينَ سَنَةً(*)

وَإِذَا ٱعْتَبَرْتَ ٱلشِّعْرَ ٱلْعَرَبِيَّ قَبْلَ خَمْسِينَ سَنَةً خَلَتْ (أَيْ : قَبْلَ إِنْشَاءِ « ٱلْمُقْتَطَفِ ») وَتَأَمَّلْتَ حِلْيَتَهُ وَمَعْرِضَهُ ، وَنَظَرْتَ فِي مِنْهَاجِهِ وَطَرِيقَتِهِ ، وَتَصَفَّحْتَ مَعَانِيَهُ وَأَغْرَاضَهُ ـ لَمْ تَرَ مِنْهُ إِلَّا شَبِيهًا بِمَا تَرَاهُ مِنْ بَقَايَا ٱلْوَرَقِ ٱلْأَخْضَرِ فِي شَجَرَةٍ تَفِلُّ عَلَيْهَا ٱلظِّلُّ فَهُوَ جَامِدٌ مُسْتَوْخِمٌ ، وَحُمَّ فِي ظِلِّهَا شُعَاعُ ٱلشَّمْسِ فَهُوَ بَارِدٌ يَرْتَعِدُ ، فَٱلْحَيَاةُ فِيهَا ضَعِيفَةٌ مُتَهَالِكَةٌ ، لَا هِيَ تَمُوتُ كَٱلْمَوْتِ وَلَا هِيَ تَحْيَا كَٱلْحَيَاةِ ، وَمَا ثَمَّ إِلَّا مَاءٌ نَاشِفٌ وَرَوْنَقٌ عَلِيلٌ وَمَنْظَرٌ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ٱلْوَاهِنَةِ كَأَنَّهُ جِسْمُ ٱلرَّبِيعِ ٱلْمُعْتَلِّ بَدَتْ عُرُوقُهُ وَعِظَامُهُ .

كَانَ ذَلِكَ ٱلشِّعْرُ فَاسِدَ ٱلسَّبْكِ ، مُتَخَلِّفَ ٱلْمَنْزِلَةِ ، قَلِيلَ ٱلطَّلَاوَةِ ، بَيْنَ مَدِيحٍ قَدْ أُعِيدَ كُلُّ مَعْنًى مِنْ مَعَانِيهِ فِي تَارِيخِ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ بِمَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُوَكَّلُونَ بِإِحْصَاءِ ٱلْكَذِبِ ، وَبَيْنَ هِجَاءٍ سَاقِطٍ هُوَ بَعْضُ ٱلْمَوَادِّ ٱلَّتِي تَشْتَعِلُ بِهَا نَارُ ٱللهِ يَوْمَ تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْئِدَةِ ، وَبَيْنَ غَزَلٍ مَسْرُوقٍ مِنَ ٱلْقُلُوبِ ٱلَّتِي كَانَتْ تُحِبُّ وَتَعْشَقُ ، وَبَيْنَ وَصْفٍ لَا عَيْبَ لِمَوْصُوفِهِ سِوَاهُ ، وَشَكْوَىٰ مِنَ ٱلدَّهْرِ يَشْكُو ٱلدَّهْرُ مِنْهَا ، وَتَحَزُّنٍ وَيَأْسٍ وَنَدْبٍ تَجْعَلُ دِيوَانَ ٱلشَّاعِرِ كَمَا سَمَّىٰ أَحَدُ ظُرَفَاءِ ٱلْقَرْنِ ٱلثَّانِي عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ دِيوَانَ أَحَدِ أَصْحَابِهِ « بِٱلْمُلْطِمَةِ . . . » وَرِثَاءٍ كَقِرَاءَةِ ٱلْقُرَّاءِ فِي جَنَازَاتِ ٱلْمَوْتَىٰ ، لَا فِيهَا عِظَةُ ٱلسُّكُوتِ وَلَا فَائِدَةُ ٱلنُّطْقِ ، وَتَغْمُرُ كُلَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ بَيِّنَةُ ٱلتَّعَسُّفِ ، ضَعِيفَةُ ٱلتَّقْلِيدِ ، لَا تَرَى ٱلْمُتَأَخِّرَ فِيهَا مَعَ ٱلْمُتَقَدِّمِ إِلَّا قَرِيبًا مِمَّا يَكُونُ عَمَلُ ٱللِّصِّ فِي أَخْذِ ٱلْمَالِ ، مِنْ عَمَلِ صَاحِبِ ٱلْمَالِ فِي جَمْعِهِ ؛ وَٱلْعَجِيبُ أَنَّكَ إِذَا ٱعْتَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ مِنَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعَاشِرِ لِلْهِجْرَةِ إِلَى ٱلْقَرْنِ ٱلثَّالِثَ عَشَرَ (ٱلسَّادِسَ عَشَرَ لِلْمِيلَادِ إِلَى ٱلتَّاسِعَ عَشَرَ) رَأَيْتَهُ نَازِلًا مِنْ عَصْرٍ إِلَىٰ عَصْرٍ بِتَدْرِيجٍ مِنَ ٱلضَّعِيفِ إِلَى ٱلْأَضْعَفِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ بِقُوَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ كَقُوَّةِ ٱلْجَذْبِ ، كُلَّمَا هَبَطَتْ شَيْئًا أَسْرَعَتْ شَيْئًا إِلَىٰ أَنْ تَلْصَقَ بِٱلْأَرْضِ ، وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّي هَـٰذِهِ ٱلْعُصُورَ بِٱلْعُصُورِ

(*) « ٱلمقتطف » يناير/ كانون الآخر سنة ١٩٢٦ م .

ٱلْمُظْلِمَةِ ، وَلَمْ يَتَنَبَّهْ أَحَدٌ إِلَىٰ أَنَّ فِي ٱلْأَدَبِ نَامُوسًا كَنَامُوسِ رَدِّ ٱلْفِعْلِ ، يُخْرِجُ أَضْعَفَ ٱلضَّعْفِ مِنْ أَقْوَى ٱلْقُوَّةِ ، وَأَنَّ ٱنْحِطَاطَ ٱلشِّعْرِ فِي تِلْكَ ٱلْعُصُورِ ـ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صِنَاعَةً بَدِيعِيَّةً ـ إِنَّمَا سَبَبُهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلْعَجِيبَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ لِلشِّعْرِ مُنْذُ ٱلْقَرْنِ ٱلسَّادِسِ إِلَى ٱلْعَاشِرِ ، بَعْدَ أَنْ نَشَأَ ٱلْقَاضِي ٱلْفَاضِلُ ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٥٩٦هـ (١١٩٩م) ، وَكَانَ رَجُلًا مِنَ ٱلرِّجَالِ ٱلَّذِينَ يَخْلُقُونَ حُدُودًا لِلْحَوَادِثِ تَبْدَأُ مِنْهَا أَزْمِنَةٌ وَتَنْتَهِي عِنْدَهَا أَزْمِنَةٌ ، فَفُتِنَ ٱلنَّاسُ بِأَدَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ ، وَصَرَفَ ٱلشِّعْرَ وَٱلْكِتَابَةَ إِلَىٰ أَسَالِيبِ ٱلنُّكْتَةِ ٱلْبَدِيعَةِ ، وَظَهَرَتْ مِنْ بَعْدِهِ عِصَابَتُهُ ٱلَّتِي يُسَمُّونَهَا ٱلْعِصَابَةَ ٱلْفَاضِلِيَّةَ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا إِمَامٌ فِي ٱلْأَدَبِ وَعُلُومِهِ ، فَكَانَ فِي مِصْرَ ٱلْقَاضِي ٱبْنُ سَنَاءِ ٱلْمُلْكِ ، وَسِرَاجُ ٱلدِّينِ ٱلْوَرَّاقُ ، وَأَبُو ٱلْحُسَيْنِ ٱلْجَزَّارُ ، وَأَضْرَابُهُمْ ؛ وَكَانَ فِي ٱلشَّامِ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْأَنْصَارِيُّ ، وَٱلْأَمِيرُ مُجِيرُ ٱلدِّينِ بْنُ تَمِيمٍ ، وَبَدْرُ ٱلدِّينِ يُوسُفُ بْنُ لُؤْلُؤٍ ٱلذَّهَبِيُّ ، وَأَمْثَالُهُمْ ؛ فَهَٰذِهِ ٱلْعِصَابَةُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَابِلُ فِي تَارِيخِ ٱلْأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ عِصَابَةَ ٱلْبَدِيعِ ٱلْأُولَىٰ : كَمُسْلِمٍ ، وَأَبِي تَمَّامٍ ، وَٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ ، وَغَيْرِهِمْ ؛ وَكِلْتَا ٱلْفِئَتَيْنِ ٱسْتَبَدَّتْ بِٱلشِّعْرِ وَصَرَّفَتْهُ زَمَنًا ، وَأَحْدَثَتْ فِيهِ ٱنْقِلَابًا تَارِيخِيًّا مُتَمَيِّزًا ، بَيْدَ أَنَّ ٱلْعِصَابَةَ ٱلْفَاضِلِيَّةَ بَلَغَتْ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ مَبْلَغًا لَا مَطْمَعَ فِي مِثْلِهِ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهَا ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا كَلِمَةً فِي ٱللُّغَةِ يَجْرِي فِيهَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ إِلَّا جَاوَزُوا بِهَا وَصَنَعُوا فِيهَا صَنْعَةً ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَأْخُذُ مِنْ بَعْضٍ وَيَزِيدُ عَلَيْهِ ، إِلَىٰ آخِرِ ٱلْمِئَةِ ٱلثَّامِنَةِ ، فَلَمْ يَتْرُكُوا بَابًا لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ إِلَّا بَابَ ٱلسَّرِقَةِ بِأَسَالِيبِهَا ٱلْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْأَدَبِ .

وَلِهَٰذَا لَا تَكَادُ تَجِدُ شِعْرًا عَرَبِيًّا بَعْدَ ٱلْقَرْنِ ٱلتَّاسِعِ إِلَىٰ أَوَّلِ ٱلنَّهْضَةِ ٱلْحَدِيثَةِ إِلَّا رَأَيْتَهُ صُوَرًا مَمْسُوخَةً مِمَّا قَبْلَهُ ، وَكُلُّ شُعَرَاءِ هَٰذِهِ ٱلْقُرُونِ لَيْسُوا مِمَّنْ وَرَاءَهُمْ إِلَّا كَٱلظِّلِّ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ : لَا وُجُودَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَهُوَ مَمْسُوخٌ أَبَدًا إِلَّا فِي ٱلنُّدْرَةِ حِينَ يَسْطَعُ فِي مِرْآةٍ صَافِيَةٍ ، وَمَتَىٰ كَانَ ٱلشُّعَرَاءُ لَا يَنْشَؤُونَ إِلَّا عَلَىٰ فُنُونِ ٱلْبَلَاغَةِ وَصِنَاعَاتِهَا ، وَكَانَتْ هَٰذِهِ كُلُّهَا قَدْ فَرَغَ مِنْهَا ٱلْمُتَقَدِّمُونَ ، فَمَا ثَمَّ جَدِيدٌ فِي ٱلْأَدَبِ وَٱلْفَنِّ إِلَّا وِلَادَةُ ٱلشُّعَرَاءِ وَمَوْتُهُمْ ، وَإِلَّا تَغَيُّرُ تَوَارِيخِ ٱلسِّنِينَ . . . وَهَٰذَا إِذَا لَمْ نَعُدَّ مِنَ ٱلْأَدَبِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلْمُسْتَحْدَثَةَ ٱلَّتِي ٱبْتَدَعَهَا ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِمَّا سَنُشِيرُ إِلَىٰ بَعْضِهِ ، كَٱلتَّارِيخِ ٱلشِّعْرِيِّ وَغَيْرِهِ .

* * *

إِنَّ ٱلْفِكْرَ ٱلْإِنْسَانِيَّ لَا يُسَيِّرُ ٱلتَّارِيخَ ، وَلَا يُقَدِّرُ قَدَرًا فِيهِ ، وَلَا يَنْقُلُهُ مِنْ رَسْمٍ إِلَىٰ رَسْمٍ ، لِأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ كَمَا خُلِقَ مُصْلِحًا خُلِقَ مُفْسِدًا وَكَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوجِدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفْنِيَ ، وَكَمَا تَطَّرِدُ بِهِ سَبِيلٌ تَلْتَوِي بِهِ سَبِيلٌ أُخْرَىٰ ، وَمَا أَشْبَهَ هَٰذَا ٱلْفِكْرَ فِي رَوْعَتِهِ بِقِطَارِ ٱلْحَدِيدِ : يَطِيرُ كَٱلْعَاصِفَةِ وَيَحْمِلُ كَٱلْجَبَلِ وَيُدْهِشُ كَٱلْمُعْجِزَةِ وَهُوَ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ لَا شَيْءَ لَوْلَا ٱلْقَضِيبَانِ ٱلْمُمْتَدَّانِ فِي سَبِيلِهِ ، يَحْرِفَانِهِ كَيْفَ ٱنْحَرَفَا ، وَيُسَيِّرَانِ بِهِ أَيْنَ ٱرْتَمَيَا ، وَيَقِفَانِ بِهِ حَيْثُ ٱنْتَهَيَا ، ثُمَّ هُوَ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَلِبُ لِأَوْهَىٰ ٱخْتِلَالٍ يَقَعُ فِيهِمَا .

لَا جَرَمَ كَانَتِ ٱلْعُصُورُ مَرْسُومَةً مُعَيَّنَةَ ٱلنَّمَطِ ذَاهِبَةً إِلَىٰ ٱلْكَمَالِ أَوْ مُنْحَدِرَةً إِلَىٰ ٱلنَّقْصِ ، حَسَبَ ٱلْغَايَاتِ ٱلْمَحْتُومَةِ ٱلَّتِي يَسِيرُ بِهَا ٱلْفِكْرُ فِي طَرِيقِ ٱلْقَدَرِ ٱلَّذِي يَقُودُهُ .

فَهَٰذِهِ عُلُومُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي أَحْدَثَتْ فَنًّا طَرِيفًا فِي ٱلْأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ ، وَأَنْشَأَتِ ٱلذَّوْقَ ٱلْأَدَبِيَّ نَشْأَتَهُ ٱلرَّابِعَةَ فِي تَارِيخِ هَٰذِهِ ٱللُّغَةِ ، بَعْدَ ٱلذَّوْقِ ٱلْجَاهِلِيِّ وَٱلْمُحْدَثِ وَٱلْمُوَلَّدِ ـ هِيَ بِعَيْنِهَا ٱلَّتِي أَضْعَفَتِ ٱلْأَدَبَ وَأَفْسَدَتِ ٱلذَّوْقَ وَأَصَارَتْهُ إِلَىٰ رَأْيِنَا فِي شِعْرِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ، كَأَنَّمَا ٱنْقَلَبَتْ عَلَيْهِمْ عُلُومًا مِنَ ٱلْجَهْلِ ، حَتَّىٰ صَارَ ٱلنَّمَطُ ٱلْعَالِي مِنَ ٱلشِّعْرِ كَأَنَّهُ لَا قِيمَةَ لَهُ ، إِذْ لَا رَغْبَةَ فِيهِ ، وَلَا حَفْلَ بِهِ ؛ لِمُبَايَنَتِهِ لِمَا أَلِفُوا وَخُلُوِّهِ مِنَ ٱلنُّكْتَةِ وَٱلصِّنَاعَةِ ، وَحَتَّىٰ كَانَ فِي أَهْلِ ٱلْأَدَبِ وَمُدَرِّسِيهِ مَنْ لَا يَعْرِفُ دِيوَانَ ٱلْمُتَنَبِّي .

وَلَا يَصِفُ لَكَ مَعْنَى ٱلشِّعْرِ فِي رَأْيِ أُدَبَاءِ ذَلِكَ ٱلْعَهْدِ كَقَوْلِ ٱلشَّيْخِ نَاصِيفِ ٱلْيَازِجِيِّ ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ١٨٧١ :

مَلَلْتُ مِنَ ٱلْقَرِيضِ وَقُلْتُ يَكْفِي   لِأَمْرٍ شَابَ قُوَّتَهُ بِضَعْفِ
أُحَاوِلُ نُكْتَةً فِي كُلِّ بَيْتٍ   وَذَلِكَ قَدْ تَقَصَّرَ عَنْهُ كَفِّي
أَجَلُّ ٱلشِّعْرِ مَا فِي ٱلْبَيْتِ مِنْهُ   غَرَابَةُ نُكْتَةٍ أَوْ نَوْعُ لُطْفِ

يُرِيدُ ٱلنُّكْتَةَ ٱلْبَلَاغِيَّةَ وَأَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ ، وَذَلِكَ مَا قَصُرَتْ عَنْهُ كَفُّهُ وَكَفُّ غَيْرِهِ ، لِأَنَّهُ شَيْءٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ ، حَتَّىٰ لَا يَأْتِيَ ٱلْمُتَأَخِّرُ بِمِثَالٍ فِيهِ إِلَّا وَجَدْتَهُ بِعَيْنِهِ لِمَنْ تَقَدَّمُوهُ عَلَىٰ صُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ يَنْظُرُ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَمَا يَأْتِي ٱخْتِلَافُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْحِذْقِ فِي إِخْفَاءِ ٱلسَّرِقَةِ بِٱلزِّيَادَةِ وَٱلنَّقْصِ ، وَٱلْإِلْمَامِ وَٱلْمُلَاحَظَةِ وَٱلتَّعْرِيضِ وَٱلتَّصْرِيحِ ، وَغَيْرِهَا مِمَّا يَعْرِفُهُ أَئِمَّةُ ٱلصِّنَاعَةِ ،

وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَيْهِ بِأَقْوَىٰ أَسْبَابِهِ إِلَّا مَنْ رُزِقَ ٱلْقُوَّةَ عَلَىٰ ٱلتَّوْلِيْدِ وَٱلاخْتِرَاعِ .

إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ ٱلسِّرَّ فِيْ سُقُوْطِ ٱلشِّعْرِ وَٱضْطِرَابِهِ وَسَفْسَفَتِهِ ، لَمْ تَرَ غَرِيْبًا مَا هُوَ غَرِيْبٌ فِيْ نَفْسِهِ ، مِنْ أَنَّ بَدْءَ ٱلنَّهْضَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْحَدِيْثَةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيْ يُصَحِّحُ ٱلرَّأْيَ ، وَلَا ٱلاطِّلَاعَ ٱلَّذِيْ يُؤْتِيْ ٱلْفِكْرَ ، وَلَا ٱلْحَضَارَةَ ٱلَّتِيْ تُهَذِّبُ ٱلشُّعُوْرَ ، وَلَا نِظَامَ ٱلْحُكْمِ ٱلَّذِيْ يُحْدِثُ ٱلأَخْلَاقَ ، وَإِنَّمَا كَانَ ضَرْبًا مِنَ ٱلْجَهْلِ وَقَفَ حَدًّا مَنِيْعًا بَيْنَ زَمَنِ فُنُوْنِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَيْنَ زَمَانِنَا ، وَكَانَ كَٱلسَّاحِلِ لِذَلِكَ ٱلْمَوْجِ ٱلْمُتَدَفِّعِ ٱلَّذِيْ يَتَضَرَّبُ عَلَىٰ مَدِّ ثَمَانِ مِئَةِ سَنَةٍ مِنَ ٱلْقَرْنِ ٱلسَّادِسِ إِلَىٰ ٱلرَّابِعَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ ، وَلِلهِ أَسْرَارٌ عَجِيْبَةٌ فِيْ تَقْلِيْبِ ٱلأُمُوْرِ وَخَلْقِ ٱلأَحْدَاثِ وَدَفْعِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْفِكْرِيَّةِ مِنْ نَمَطٍ إِلَىٰ نَمَطٍ ، وَإِخْرَاجِ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُبْتَدِعِ مِنْ هَيْئَةٍ إِلَىٰ هَيْئَةٍ ، وَجَعْلِ بَعْضِ ٱلنُّفُوْسِ كَٱلْيَنَابِيْعِ لِلتَّيَّارِ ٱلإِنْسَانِيِّ فِيْ عَصْرٍ وَاحِدٍ أَوْ عُصُوْرٍ مُتَعَاقِبَةٍ ، وَإِقَامَةِ بَعْضِ ٱلأَشْخَاصِ حُدُوْدًا عَلَىٰ ٱلأَزْمِنَةِ وَٱلتَّوَارِيْخِ ، فَكَانَ ٱلَّذِيْ أَحْدَثَ ٱلانْقِلَابَ ٱلرَّابِعَ فِيْ تَارِيْخِ ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ ، وَأَنْشَأَ ٱلذَّوْقَ نَشْأَتَهُ ٱلْخَامِسَةَ هُوَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْفَحْلُ مَحْمُوْدُ بَاشَا ٱلْبَارُوْدِيُّ ، ٱلَّذِيْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا ٱلْبَتَّةَ مِنْ عُلُوْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ أَوْ فُنُوْنِ ٱلْبَلَاغَةِ ؛ وَإِنَّمَا سَمَتْ بِهِ ٱلْهِمَّةُ لِأَنَّهُ حَادِثَةٌ مُرْسَلَةٌ لِلْقَلْبِ وَٱلتَّغَيُّرِ ، فَأَبْعَدَهُ ٱللهُ مِنْ تِلْكَ ٱلْعُلُوْمِ ، وَأَخْرَجَهُ لَنَا مِنْ دَوَاوِيْنِ ٱلْعَرَبِ ، كَمَا نَشَأَ مِثْلُ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ وَٱلْجَاحِظِ مِنْ فُصَحَاءِ ٱلأَعْرَابِ ؛ وَيَسَّرَ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ مَا لَمْ يَتَّفِقْ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ مِمَّا لَا مَحَلَّ لِبَسْطِهِ هُنَا ، وَلَا تَكَادُ تَجِدُ شِعْرَ أَدِيْبٍ مُتَأَخِّرٍ يَسْتَقِيْمُ لَهُ أَنْ يُذْكَرَ فِيْ شِعْرِ كُلِّ عَصْرٍ مِنْ لَدُنِ زَمَنِنَا إِلَىٰ صَدْرِ ٱلإِسْلَامِ ثُمَّ لَا تَنْحَطُّ مَرْتَبَتُهُ - غَيْرَ كَلَامِ ٱلْبَارُوْدِيِّ هَـٰذَا ؛ وَهُوَ وَحْدَهُ ٱلَّذِيْ يُقَابِلُ ٱلْقَاضِيْ ٱلْفَاضِلَ فِيْ أَدْوَارِ ٱلتَّارِيْخِ ٱلأَدَبِيِّ ، عَلَىٰ بُعْدِ مَا بَيْنَهُمَا ؛ لِأَنَّ شِعْرَهُ هُوَ ٱلَّذِيْ نَسَخَ آيَةَ ٱلصِّنَاعَةِ ، وَدَارَ فِيْ أَلْسِنَةِ ٱلرُّوَاةِ ، وَكَانَ ٱلْمَثَلَ ٱلْمُحْتَذَىٰ فِيْ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْجَزَالَةِ وَدِقَّةِ ٱلتَّصْوِيْرِ وَتَصْحِيْحِ ٱللُّغَةِ ؛ وَلَمْ يَشَأِ ٱللهُ أَنْ يَسْبِقَهُ إِلَىٰ ذَلِكَ أَحَدٌ ؛ لِأَنَّ ٱلنَّهْضَةَ ٱلاجْتِمَاعِيَّةَ فِيْ هَـٰذَا ٱلشَّرْقِ ٱلْعَرَبِيِّ كَانَتْ فِيْ عِلْمِ ٱللهِ مَرْهُوْنَةً بِأَوْقَاتِهَا وَأَسْبَابِهَا ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَسَبَقَهُ شَاعِرُ ٱلْقَرْنِ ٱلْحَادِيْ عَشَرَ ٱلأَمِيْرُ مَنْجَكْ ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ١٠٨٠هـ (١٦٦٩م) ؛ فَقَدِ ٱتَّفَقَتْ لِهَـٰذَا ٱلأَمِيْرِ نَشْأَةٌ كَنَشْأَةِ ٱلْبَارُوْدِيِّ ، فَكَانَ كَثِيْرَ ٱلْحِفْظِ مِنْ دَوَاوِيْنِ ٱلْعُصُوْرِ ٱلأُوْلَىٰ ، وَكَانَ يُقَلِّدُ أَبَا فِرَاسٍ ٱلْحَمْدَانِيَّ وَيَحْتَذِيْ عَلَىٰ مِثَالِهِ ، وَلَـٰكِنَّ عَصْرَهُ كَانَ فِيْ ٱلْعُصُوْرِ ٱلْهَالِكَةِ ، فَخَرَجَ ٱلشَّاعِرُ ضَعِيْفًا كَمَا يَخْرُجُ كُلُّ

شَيْءٍ فِيْ غَيْرِ وَقْتِهِ وَلِغَيْرِ تَمَامِهِ وَبِغَيْرِ وَسَائِلِهِ ٱلطَّبِيْعِيَّةِ .

وَنَشَأَتِ ٱلْعِصَابَةُ ٱلْبَارُوْدِيَّةُ وَفِيْهَا إِسْمَاعِيْلُ صَبْرِيْ وَشَوْقِيْ وَحَافِظٌ وَمُطْرَانٌ وَغَيْرُهُمْ ، وَأَدْرَكُوْا مَا لَمْ يُدْرِكْهُ ٱلْبَارُوْدِيُّ وَجَاؤُوْا بِمَا لَمْ يَجِئْ بِهِ ، وَٱتَّصَلَ ٱلشِّعْرُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَسَارَتْ بِهِ ٱلصُّحُفُ ، وَتَنَاقَلَتْهُ ٱلأَفْوَاهُ ، وَأُنْسِيَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَفُنُوْنِهَا بِٱلنَّشْأَةِ ٱلْمَدْرَسِيَّةِ ٱلْحَدِيْثَةِ ٱلَّتِيْ جَعَلَتْ مِنْ تَرْكِ ٱلْبَلَاغَةِ بَلَاغَةً ، لِأَنَّهَا صَادَفَتْ أَوَائِلَ ٱلانْقِلَابِ لَيْسَ غَيْرُ ، وَبِذَلِكَ بَطَلَ فِيْ مِصْرَ عَصْرُ أَبِيْ ٱلنَّصْرِ وَٱللَّيْثِيِّ وَٱلسَّاعَاتِيِّ وَٱلنَّدِيْمِ وَطَبَقَتِهِمْ ، وَفِيْ ٱلشَّامِ عَصْرُ ٱلْيَازِجِيِّ وَٱلْكَسْتِيِّ وَٱلأُنْسِيِّ وَٱلأَحْدَبِ وَأَضْرَابِهِمْ ، وَفِيْ ٱلْعِرَاقِ عَهْدُ ٱلْفَارُوْقِيِّ وَٱلْمَوْصِلِيِّ وَٱلْبَزَّازِ وَٱلتَّمِيْمِيِّ وَسِوَاهُمْ ، وَٱسْتَقَلَّ ٱلشِّعْرُ عَرَبِيًّا عَصْرِيًّا وَخَرَجَ كَمَا يَخْرُجُ ٱلْفِكْرُ ٱلْمُخْتَرَعُ مَاضِيًا فِيْ سَبِيْلٍ غَيْرِ مَحْدُوْدٍ .

* * *

لَا رَيْبَ فِيْ أَنَّ ٱلطُّرُقَ ٱلَّتِيْ تُتَّبَعُ فِيْ تَرْبِيَةِ ٱلأُمَّةِ وَتَكْوِيْنِ رُوْحِهَا ٱلْعَالَمِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ لَهَا أَثَرٌ بَيِّنٌ فِيْ شِعْرِ شُعَرَائِهَا ، فَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ فِكْرٌ يَنْبِضُ وَعَاطِفَةٌ تَخْتَلِجُ ، وَمَا أَرَىٰ ٱلشَّاعِرَ ٱلْحَقَّ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا كَٱلزَّهْرَةِ ٱلصَّغِيْرَةِ فِيْ شَجَرَتِهَا : إِنْ لَمْ تَكُنْ خُلَاصَةُ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلْقُوَّةِ ، فَهِيَ خُلَاصَةُ مَا فِيْ ٱلشَّجَرَةِ مِنْ مَعْنَىٰ ٱلْجَمَالِ وَلَوْنِهِ وَمَلْمَسِهِ ، وَلَا تَعْدَمُ مَعَ هَـٰذِهِ ٱلصِّفَةِ أَنْ تَكُوْنَ وَحْدَهَا ٱلْكَوْكَبَ ٱلسَّاطِعَ فِيْ هَـٰذَا ٱلأُفُقِ ٱلأَخْضَرِ كُلِّهِ . وَلَقَدِ ٱطَّرَدَتِ ٱلنَّهْضَةُ مُنْذُ خَمْسِيْنَ سَنَةً أَوْ حَوْلَهَا ، فِيْ ٱلأَدَبِ وَٱلْعِلْمِ ، وَفِيْ ٱلْفِكْرِ وَٱلْفَنِّ وَٱلصِّنَاعَةِ ، وَٱسْتَوَىٰ لَنَا مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يَتَّفِقْ لِهَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ فِيْ عَصْرٍ مِنْ عُصُوْرِهَا ، حَتَّىٰ بَلَغْنَا مِنْ ذَلِكَ أَنْ صِرْنَا كَأَنَّمَا فَتَحْنَا أَرْضًا مِنْ أُوْرُبَّة وَتَغَلَّبْنَا عَلَيْهَا ، أَوْ أَنْشَأْنَا أُوْرُوبَّة عَرَبِيَّةً وَمَا نَزَالُ نَعْمُرُهَا وَنَنْقُلُ إِلَيْهَا ٱلْعُلُوْمَ وَٱلْفُنُوْنَ وَٱلآدَابَ ، وَنَسْتَخْرِجُ لَهَا ٱلأَمْثِلَةَ وَٱلأَسَالِيْبَ ؛ غَيْرَ أَنَّ ٱلشِّعْرَ ٱلْعَرَبِيَّ مَعَ هَـٰذَا كُلِّهِ لَمْ يُوَفَّ قِسْطَهُ وَلَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَهُ فِيْ مُجَارَاةِ هَـٰذِهِ ٱلنَّهْضَةِ قُوَّةَ ٱبْتِكَارٍ وَسَلَامَةَ ٱخْتِرَاعٍ وَحُسْنَ تَنَوُّعٍ ، لِسَبَبَيْنِ : ٱلأَوَّلُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ كَمَا كَانَ مُنْذُ فَسَدَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ : شِعْرَ فِئَةٍ لَا شِعْرَ أُمَّةٍ ، فَهُوَ يُوْضَعُ لِلْخَاصَّةِ لَا لِلشَّعْبِ ، وَيَدُوْرُ مَعَ ٱلأَغْرَاضِ وَٱلْحَاجَاتِ لَا مَعَ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلأَذْوَاقِ ، وَذَلِكَ لَوْ تَأَمَّلْتَ هُوَ مِنْ بَعْضِ ٱلأَسْرَارِ فِيْ سُمُوِّ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ وَقُوَّةِ إِحْكَامِهِ وَإِبْدَاعِ تَنْسِيْقِهِ وَجَمَالِ تَوْشِيْحِهِ ، مُنْذُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ إِلَىٰ ٱلْقَرْنِ ٱلْخَامِسِ ، ثُمَّ

ٱنحِطاطِهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَدَلِّيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّىٰ بَلَغَ ٱلدَّرْكَ ٱلأَسْفَلَ مِنَ ٱلْعُصُورِ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ ، إِذْ كَانَتِ ٱلْفِئَةُ ٱلَّتِي يُوضَعُ لَهَا وَيَصِفُ أَهْوَاءَهَا وَأَغْرَاضَهَا وَتَتَقَبَّلُهُ وَتُثِيبُ عَلَيْهِ وَتُحْسِنُ وَزْنَهُ وَنَقْدَهُ ، هِيَ فِي ٱلنَّاحِيَتَيْنِ كَمَا تَرَىٰ مِنْ طَرَفَيِ ٱلْمِنْظَارِ ٱلَّذِي يُقَرِّبُ ٱلْبَعِيدَ ، فَهِيَ بِٱلنَّظَرِ فِي أَوَّلِهِ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ مُتَرَامِيَةٌ إِلَىٰ ٱلْجِهَاتِ ، وَبِٱلنَّظَرِ فِي آخِرِهِ ضَئِيلَةٌ مَمْسُوخَةٌ لَا تَكَادُ تُعْرَفُ . وَمَا أَقْضِي ٱلْعَجَبَ مِنْ غَفْلَةِ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ فِي هَـٰذَا ٱلزَّمَنِ إِذْ يُنَاهِضُونَ ٱلْعَرَبِيَّةَ وَيَزْرُونَ عَلَىٰ ٱلْفَصَاحَةِ وَيَعْمَلُونَ عَلَىٰ ٱنْكِمَاشِ سَوَادِهَا وَتَقْلِيلِ أَهْلِهَا ، وَمَا يَدْرُونَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يُسْقِطُونَ ٱلشِّعْرَ قَبْلَ ٱلْكِتَابَةِ عَلَىٰ خَطَإٍ أَوْ عَمْدٍ وَقَلَّمَا تَجِدُ وَاحِدًا مِنْ هَـٰؤُلَاءِ يُحْسِنُ مُعَالَجَةَ ٱلشِّعْرِ ، فَإِنْ أَصَبْتَ لَهُ شِعْرًا وَجَدْتَهُ لَا غَنَاءَ فِيهِ أَوْ فِي أَكْثَرِهِ ، وَأَيْنَ وَضَعْتَ يَدَكَ مِنْهُ لَمْ تُخْطِئْ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ مَثَلٍ مِمَّا يُمَثَّلُ بِهِ لِعَيْبٍ مِنْ عُيُوبِ ٱلْبَلَاغَةِ .

وَهَـٰذِهِ ٱلنَّهْضَةُ ٱلَّتِي نَحْنُ فِي صَدَدِ ٱلْكَلَامِ عَنْهَا أَوْسَعُ مَدًى وَأَوْفَرُ أَسْبَابًا مِنْ تِلْكَ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ ، بِمَا دَخَلَهَا مِنْ أَدَبِ كُلِّ أُمَّةٍ ، وَمَا ٱتَّصَلَ بِهَا مِنْ أَسَالِيبِ ٱلْفِكْرِ ، وَلَـٰكِنْ أَيْنَ رِجَالُ ٱلْفَصَاحَةِ ٱلْمُتَمَكِّنُونَ مِنْهَا ، ٱلْمُتَعَصِّبُونَ لَهَا ، ٱلْعَامِلُونَ عَلَىٰ بَثِّهَا فِي ٱلْأَلْسِنَةِ ، مَعَ أَنَّ عَصْرَهُمْ أَوْسَعُ مِنْ عَصْرِ ٱلرُّوَاةِ ، بِكَثْرَةِ مَا أَخْرَجَتِ ٱلْمَطَابِعُ مِنْ أُمَّهَاتِ ٱلْكُتُبِ وَٱلدَّوَاوِينِ ، حَتَّىٰ أَغْنَتْ كُلُّ مَطْبَعَةٍ أَدَبِيَّةٍ عَنْ رَاوِيَةٍ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلرُّوَاةِ .

وَٱلسَّبَبُ ٱلثَّانِي ٱلَّذِي مِنْ أَجْلِهِ لَا يَزَالُ ٱلشِّعْرُ مُتَخَلِّفًا عَنْ مَنْزِلَتِهِ ٱلْوَاجِبَةِ لَهُ ـ سُقُوطُ فَنِّ ٱلنَّقْدِ ٱلْأَدَبِيِّ فِي هَـٰذِهِ ٱلنَّهْضَةِ ، فَإِنَّ مِنْ أَقْوَىٰ ٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي سَمَتْ بِٱلشِّعْرِ فِيمَا بَعْدَ ٱلْقَرْنِ ٱلثَّانِي وَجَعَلَتْ أَهْلَهُ يُبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهِ وَتَهْذِيبِهِ ، كَثْرَةُ ٱلنُّقَّادِ وَٱلْحُفَّاظِ ، وَتَتَبُّعُهُمْ عَلَىٰ ٱلشُّعَرَاءِ ، وَٱعْتِبَارُ أَقْوَالِهِمْ ، وَتَدْوِينُ ٱلْكُتُبِ فِي نَقْدِهِمْ ، كَٱلَّذِي كَانَ فِي دُرُوسِ ٱلْعُلَمَاءِ وَحَلَقَاتِ ٱلرِّوَايَةِ وَمَجَالِسِ ٱلْأَدَبِ ، وَكَٱلَّذِي صَنَّفَهُ مُهَلْهِلُ بْنُ يَمُوتَ فِي نَقْدِ أَبِي نُوَاسٍ وَأَحْمَدَ بْنِ طَاهِرٍ ، وَٱبْنُ عَمَّارٍ فِي أَبِي تَمَّامٍ ، وَبِشْرُ بْنُ تَمِيمٍ فِي ٱلْبُحْتُرِيِّ ، وَٱلْآمِدِيُّ فِي « ٱلْمُوَازَنَةِ » ، وَٱلْحَاتِمِيُّ فِي رِسَالَتِهِ ، وَٱلْجُرْجَانِيُّ فِي « ٱلْوَسَاطَةِ » ، وَمَا لَا يُحْصَىٰ مِنْ مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْكُتُبِ وَٱلرَّسَائِلِ ؛ وَأَنْتَ مِنَ ٱلنَّقْدِ فِي هَـٰذِهِ ٱلنَّهْضَةِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ : صَدِيقٌ هُوَ ٱلصَّدِيقُ ، أَوْ عَدُوٌّ هُوَ ٱلْعَدُوُّ . . . فَإِنِ ٱبْتَغَيْتَ لَهُمَا ثَالِثًا فَكَاتِبٌ لَا تَتَعَادَلُ وَسَائِلُ ٱلنَّقْدِ فِيهِ فَلَا خَيْرَ فِي كَلَامِهِ؛ أَمَّا ٱلنَّاقِدُ ٱلَّذِي ٱسْتَعْرَضَ عِلْمَ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَآدَابَهَا، وَكَانَ شَاعِرًا كَاتِبًا، قَوِيَّ

ٱلْعَارِضَةِ ، دَقِيقَ ٱلْحِسِّ ، ثَاقِبَ ٱلذِّهْنِ ، مُسْتَوِيَ ٱلرَّأْيِ ، بَصِيرًا بِمَذَاهِبِ ٱلْأَدَبِ ، مُتَمَكِّنًا مِنْ فَلْسَفَةِ ٱلنَّقْدِ ، مُبْرِزًا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ـ فَهَـٰذَا ٱلْخَيَالُ يُذَكِّرُنِي كَلِمَةً قُلْتُهَا يَوْمًا لِلْبَارُودِيِّ ، إِذْ قُلْتُ لَهُ : إِنَّ ٱلشَّاعِرَ لَا يَكُونُ لِسَانَ زَمَنِهِ حَتَّىٰ يُوجَدَ مَعَهُ ٱلنَّاقِدُ ٱلَّذِي هُوَ عَقْلُ زَمَنِهِ ؛ فَقَالَ : وَمَنْ نَاقِدُ ٱلشِّعْرِ فِي رَأْيِكَ ؟ قُلْتُ : ٱلْكَاتِبُ وَهُوَ شَاعِرٌ ، وَٱلْأَدِيبُ وَهُوَ فَيْلَسُوفٌ ، وَٱلْمُصْلِحُ وَهُوَ مُوَفَّقٌ ؛ فَكَأَنَّمَا هَوَّلْتُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ قَالَ رَحِمَهُ ٱللهُ : « فَيْنَ دَا كُلُّهُ ؟ » قُلْتُ : فَلَعَلَّهُ لَا يُنْشِئُ لَنَا هَـٰذَا ٱلْعَقْلَ ٱلْمُلْتَهِبَ إِلَّا ٱلْعَصْرُ ٱلَّذِي يُوجِدُ لَنَا أُسْطُولًا كَأُسْطُولِ إِنْكِلْتِرَةَ .

* * *

وَعَلَىٰ مَا نَزَلَ بِٱلشِّعْرِ ٱلْعَصْرِيِّ مِنْ هَـٰذَيْنِ ٱلسَّبَبَيْنِ فَقَدِ ٱسْتَقَلَّتْ طَرِيقَتُهُ وَظَهَرَ فِيهَا أَثَرُ ٱلتَّحَوُّلِ ٱلْعِلْمِيِّ وَٱلِانْقِلَابِ ٱلْفِكْرِيِّ ، وَعَدَلَ بِهِ أَهْلُهُ إِلَىٰ صُوَرِ ٱلْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي أَكْثَرِهِ صُوَرًا مِنَ ٱللُّغَةِ ، وَأَضَافُوا بِهِ مَادَّةً حَسَنَةً إِلَىٰ مَجْمُوعَةِ ٱلْأَفْكَارِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، وَنَوَّعُوا مِنْهُ أَنْوَاعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ كَٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ، وَٱتَّسَعَتْ فِيهِ دَائِرَةُ ٱلْخَيَالِ بِمَا نَقَلُوا إِلَيْهِ مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَرْجَمَةِ مِنْ لُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَهُوَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ أَوْسَعُ مِنْ شِعْرِ كُلِّ عَصْرٍ فِي تَارِيخِ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ ؛ إِذْ كَانَ ٱلْأَوَّلُونَ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنَ ٱلْيُونَانِيَّةِ وَٱلْفَارِسِيَّةِ ، ثُمَّ أَخَذَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ قَلِيلًا مِنَ ٱلتُّرْكِيَّةِ ؛ أَمَّا فِي ٱلْعَهْدِ ٱلْأَخِيرِ فَيَكَادُ ٱلْعَقْلُ ٱلْإِنْسَانِيُّ كُلُّهُ يَكُونُ مَادَّةَ ٱلشَّاعِرِ ٱلْعَرَبِيِّ ، لَوْلَا ضَعْفُ أَكْثَرِ ٱلْمُحْدَثِينَ مِنَ ٱلنَّشْءِ ٱلْجَدِيدِ فِي ٱلْبَيَانِ وَأَسَالِيبِهِ وَبُعْدُهُمْ مِنْ ذَوْقِ ٱللُّغَةِ وَٱعْتِيَاصِ مَرَامِهَا عَلَيْهِمْ ، حَتَّىٰ حَسِبُوا أَنَّ ٱلشِّعْرَ مَعْنًى وَفِكْرٌ ، وَأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ أَدَّىٰ ٱلْمَعْنَىٰ فَهُوَ كَلَامٌ ، وَلَا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱللُّغَةِ وَصِنَاعَتِهَا ، وَٱلْبَيَانِ وَحَقِيقَتِهِ ؛ وَحَتَّىٰ صِرْنَا وَٱللهِ مِنْ بَعْضِ ٱلْغَثَاثَةِ وَٱلرَّكَاكَةِ وَٱلِاخْتِلَالِ فِي شَرٍّ مِنْ تَوَعُّرِ نَظْمِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَجَفَاءِ أَلْفَاظِهِ وَكَزَازَةِ مَعَانِيهِ ؛ وَهَلْ ثَمَّ فَرْقٌ بَيْنَ أَنْ تَنْفِرَ ٱلنَّفْسُ مِنَ ٱلشِّعْرِ لِأَنَّهُ وَعْرُ ٱلْأَلْفَاظِ عَسِرُ ٱلِاسْتِخْرَاجِ شَدِيدُ ٱلتَّعَسُّفِ ، وَبَيْنَ أَنْ تَمُجَّهُ لِأَنَّهُ سَاقِطُ ٱللَّفْظِ مُتَسَوِّلُ ٱلْمَعْنَىٰ مُضْطَرِبُ ٱلسِّيَاقِ ؟ ثُمَّ تَرَاهُمْ يُجْرُونَ ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ عَلَىٰ ٱخْتِلَافِ أَغْرَاضِهِ نَمَطًا وَاحِدًا مِنْ تَسْهِيلِ ٱللَّفْظِ وَنُزُولِهِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةَ لَا تَنَوُّعَ فِي أَلْفَاظِهَا وَأَجْرَاسِ أَلْفَاظِهَا ، مَعَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلتَّنَوُّعَ مِنْ أَحْسَنِ مَحَاسِنِهَا وَأَخَصِّ خَصَائِصِهَا دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ ، كَمَا أَنَّ كُلَّ تَنَوُّعٍ هُوَ مِنْ أَبْدَعِ أَسْبَابِ ٱلْجَمَالِ

وَٱلْقُوَّةِ فِيْ كُلِّ فَنٍّ ؛ وَلَا يَدْرِي أَصْحَابُنَا أَنَّ كُلَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ عَبَثٌ فِيْ عَبَثٍ إِذَا هُمْ لَمْ يُعْطُوْا ٱلشِّعْرَ حَقَّهُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱللُّغَةِ ؛ وَهَـٰذَا شَاعِرُ ٱلْفُرْسِ ٱلشَّهِيْرُ « مُصْلِحُ ٱلدِّيْنِ ٱلسَّعْدِيُّ ٱلشِّيْرَازِيُّ » إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلْبَلَاغَةِ فِيْ قَوْمِهِ ، لَا يَدْفَعُ مَكَانَهُ وَشِعْرُهُ مَثَلٌ مِنْ أَسْمَىٰ ٱلْأَمْثِلَةِ فِيْ جَمَالِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلرُّوْحِيِّ ، وَلَيْسَ فِيْ ٱلنَّاسِ إِلَّا مَنْ يُسَلِّمُ لَهُ هَـٰذَا ٱلْمَحَلَّ مِنَ ٱلنُّبُوْغِ ، وَهُوَ مَعَ ذَٰلِكَ حِيْنَ نَظَمَ ٱلشِّعْرَ لَمْ تَنْفَعْهُ نَافِعَةٌ مِنْ حِكْمَةٍ أَوْ خَيَالٍ أَوْ فِكْرٍ ، وَذَهَبَ فِيْ ٱلتَّعَسُّفِ كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَحَمَلَ عَلَىٰ كَلَامِهِ مِنَ ٱلْعُيُوْبِ مَا لَمْ يَسْلَمْ مَعَهُ إِلَّا صِحَّةُ ٱلْوَزْنِ ، كَقَوْلِهِ فِيْ وَصْفِ نَكْبَةِ بَغْدَادَ وَتَخْرِيْبِهَا [من الطويل] :

فَقَدْ ثَكِلَتْ أُمُّ ٱلْقُرَىٰ وَلِكَعْبَةٍ ... مَدَامِعُ فِيْ ٱلْمِيْزَابِ تَسْكُبُ فِيْ ٱلْحِجْرِ
عَلَىٰ جُدُرِ ٱلْمُسْتَنْصِرِيَّةِ نُدْبَةٌ ... عَلَىٰ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرَّاسِخِيْنَ ذَوِيْ ٱلْحِجْرِ
نَوَائِبُ دَهْرٍ لَيْتَنِيْ مِتُّ قَبْلَهَا ... وَلَمْ أَرَ عُدْوَانَ ٱلسَّفِيْهِ عَلَىٰ ٱلْحِبْرِ
مَحَابِرُ تَبْكِيْ بَعْدَهُمْ بِسَوَادِهَا ... وَبَعْضُ قُلُوْبِ ٱلنَّاسِ تَأْلَفُ بِٱلْغَدْرِ
لَحَىٰ ٱللهُ مَنْ تُسْدِيْ إِلَيْهِ بِنِعْمَةٍ ... وَعِنْدَ هُجُوْمِ ٱلْيَأْسِ أَحْلَكَ مِنْ حِبْرِ

فَٱنْظُرْ أَيَّ شِعْرٍ هَـٰذَا فِيْ ٱلرَّكَاكَةِ وَٱلْهَذَيَانِ وَٱلسُّخْفِ ، وَفِيْ خُمُوْدِ ٱلْفِكْرِ وَضَعْفِ ٱلرُّوْحِ وَذَهَابِ ٱلرَّوْنَقِ ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ هَوَىٰ بِهِ ٱلسَّعْدِيُّ مِنْ مَكَانَتِهِ ٱلَّتِيْ بَوَّأَهُ إِيَّاهَا أَدَبُهُ ٱلْعَالِيْ ، وَكَيْفَ سَقَطَ إِلَىٰ حَيْثُ تَرَىٰ ، مَعَ أَنَّهُ فِيْ مِحْرَابِ ٱلْفِكْرِ إِمَامٌ وَرَاءَهُ صُفُوْفٌ مِنْ عُصُوْرِ ٱلْبَلَاغَةِ .

وَمِنْ هَـٰهُنَا نَشَأَ فِيْ أَيَّامِنَا مَا يُسَمُّوْنَهُ « ٱلشِّعْرَ ٱلْمَنْثُوْرَ » ، وَهِيَ تَسْمِيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ جَهْلِ وَاضِعِهَا وَمَنْ يَرْضَاهَا لِنَفْسِهِ ، فَلَيْسَ يَضِيْقُ ٱلنَّثْرُ بِٱلْمَعَانِيْ ٱلشِّعْرِيَّةِ ، وَلَا هُوَ قَدْ خَلَا مِنْهَا فِيْ تَارِيْخِ ٱلْأَدَبِ ، وَلَـٰكِنَّ سِرَّ هَـٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةِ أَنَّ ٱلشِّعْرَ ٱلْعَرَبِيَّ صِنَاعَةٌ مُوْسِيْقِيَّةٌ دَقِيْقَةٌ يَظْهَرُ فِيْهَا ٱلاخْتِلَالُ لِأَوْهَىٰ عِلَّةٍ وَلِأَيْسَرِ سَبَبٍ ، وَلَا يُوَفَّقُ إِلَىٰ سَبْكِ ٱلْمَعَانِيْ فِيْهَا إِلَّا مَنْ أَمَدَّهُ ٱللهُ بِأَصَحِّ طَبْعٍ وَأَسْلَمِ ذَوْقٍ وَأَفْصَحِ بَيَانٍ ، فَمِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ لَا يَحْتَمِلُ شَيْئًا مِنْ سُخْفِ ٱللَّفْظِ أَوْ فَسَادِ ٱلْعِبَارَةِ أَوْ ضَعْفِ ٱلتَّأْلِيْفِ ، وَلَا تَسْتَوِيْ فِيْهِ أَسْمَىٰ ٱلْمَعَانِيْ مَعَ شَيْءٍ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْعِلَلِ وَأَشْبَاهِهَا ، وَتَرَاهُ يُلْقِيْ بِمِثْلِ (ٱلسَّعْدِيِّ) مِنَ ٱلْفَلَكِ ٱلْأَعْلَىٰ إِلَىٰ ٱلْحَضِيْضِ ، لَا يُقِيْمُ لَهُ وَزْنًا وَلَا يَرْعَىٰ لَهُ مَحَلًّا وَلَا يَقْبَلُ فِيْهِ عُذْرًا وَلَا رُخْصَةً ، غَيْرَ أَنَّ ٱلنَّثْرَ يَحْتَمِلُ كُلَّ أُسْلُوْبٍ ، وَمَا

مِنْ صُوْرَةٍ فِيْهِ إِلَّا وَدُوْنَهَا صُوْرَةٌ إِلَىٰ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ ٱلْعَامِّيِّ ٱلسَّاقِطِ وَٱلسُّوْقِيِّ ٱلْبَارِدِ ، وَمَنْ شَأْنُهُ أَنْ يَنْبَسِطَ وَيَنْقَبِضَ عَلَىٰ مَا شِئْتَ مِنْهُ ، وَمَا يَتَّفِقُ فِيْهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ ٱلشِّعْرِيِّ فَإِنَّمَا هُوَ ٱلَّذِيْ كَانَ يَتَّفِقُ فِيْ صَوْتِ ٱلْمُطْرِبِ حِيْنَ يَتَكَلَّمُ لَا حِيْنَ يُغَنِّيْ ، فَمَنْ قَالَ : « ٱلشِّعْرُ ٱلْمَنْثُوْرُ » فَٱعْلَمْ أَنَّ مَعْنَاهُ عَجْزُ ٱلْكَاتِبِ عَنِ ٱلشِّعْرِ مِنْ نَاحِيَةٍ وَٱدِّعَاؤُهُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ .

* * *

وَٱلَّذِيْ أَرَاهُ جَدِيْدًا فِيْ ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ مِما أَبْدَعَتْهُ هَـٰذِهِ ٱلنَّهْضَةُ أَشْيَاءَ :

أَوَّلًا : هَـٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْقَصَصِيُّ ٱلَّذِيْ تُوْضَعُ فِيْهِ ٱلْقَصَائِدُ ٱلطِّوَالُ ، فَإِنَّ ٱلْآدَابَ ٱلْعَرَبِيَّةَ خَالِيَةٌ مِنْهُ ، وَكَانَ ٱلْعَرَبُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِذَا ذَكَرُوْا ٱلْقِصَّةَ أَلَمُّوْا بِهَا ٱقْتِضَابًا وَجَاؤُوْا بِهَا فِيْ جُمْلَةِ ٱلسِّيَاقِ عَلَىٰ أَنَّهَا مَثَلٌ مَضْرُوْبٌ أَوْ حِكْمَةٌ مُرْسَلَةٌ أَوْ بُرْهَانٌ قَائِمٌ أَوِ ٱحْتِجَاجٌ أَوْ تَعْلِيْلٌ وَمَا جَرَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَجْرَىٰ مِمَّا لَا تَرِدُ فِيْهِ ٱلْقِصَّةُ لِذَاتِهَا وَلَا لِتَفْصِيْلِ حَوَادِثِهَا ؛ وَهُوَ كَثِيْرٌ فِيْ شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيِّيْنَ وَٱلْإِسْلَامِيِّيْنَ ، وَٱلْجَيِّدُ مِنْهُ قَلِيْلٌ حَتَّىٰ فِيْ شِعْرِ ٱلْفُحُوْلِ ، فَإِنَّ طَبِيْعَةَ ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ تَأْبَاهُ ، وَٱلَّذِيْنَ جَاؤُوْا بِهِ مِنَ ٱلْعَصْرِيِّيْنَ لَا يُجِيْدُوْنَ مِنْهُ إِلَّا قِطَعًا تُعْرَضُ فِيْ ٱلْقَصِيْدَةِ وَأَبْيَاتًا تَتَّفِقُ فِيْ بَعْضِ مَعَانِيْهَا وَأَغْرَاضِهَا مِمَّا يَجْرِيْ عَلَىٰ أَصْلِهِ فِيْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ طَالَ أَوْ قَصُرَ ، وَٱلسَّبَبُ فِيْ ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِصَّةَ إِنَّمَا يَتِمُّ تَمَامُهَا بِٱلتَّبَسُّطِ فِيْ سَرْدِهَا وَسِيَاقَةِ حَوَادِثِهَا وَتَسْمِيَةِ أَشْخَاصِهَا وَذِكْرِ أَوْصَافِهِمْ وَحِكَايَةِ أَفْعَالِهِمْ وَمَا يُدَاخِلُ ذَٰلِكَ أَوْ يَتَّصِلُ بِهِ ، وَإِنَّمَا بُنِيَ ٱلشِّعْرُ ٱلْعَرَبِيُّ فِيْ أَوْزَانِهِ وَقَوَافِيْهِ عَلَىٰ ٱلتَّأْثِيْرِ لَا عَلَىٰ ٱلسَّرْدِ ، وَعَلَىٰ ٱلشُّعُوْرِ لَا عَلَىٰ ٱلْحِكَايَةِ ، وَلَا يُرِيْدُوْنَ مِنْهُ حَدِيْثَ ٱللِّسَانِ وَلَـٰكِنْ حَدِيْثَ ٱلنَّفْسِ ، فَهُوَ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ عِنْدَهُمْ صِنَاعَةٌ رُوْحِيَّةٌ يَصْنَعُوْنَ بِهَا مَقَادِيْرَ مِنَ ٱلطَّرَبِ وَٱلاهْتِزَازِ وَٱلْفَرَحِ وَٱلْحُزْنِ وَٱلْغَضَبِ وَٱلْحَمِيَّةِ وَٱلْفَخْرِ وَٱلاسْتِطَالَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ ٱلْمَعَانِيْ ٱلَّتِيْ هِيَ بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ ٱلانْفِعَالِ وَٱلنَّزْعَةِ ، فَلَا جَرَمَ كَانَ سَبِيْلُهُمْ إِلَىٰ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلتَّحْدِيْدَ لَا ٱلْإِطْلَاقَ ، وَضَبْطَ ٱلْمَقَادِيْرِ لَا ٱلْإِسْرَافَ ، إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِ هَـٰذِهِ ٱلْأُمُوْرِ فِيْ طَبِيْعَةِ ٱلنَّفْسِ أَنَّ مَا زَادَ مِنْهَا عَنْ مِقْدَارِهِ تَحَوَّلَ وَٱنْقَلَبَ فِيْ تَأْثِيْرِهَا ، وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلسَّبَبُ أَيْضًا فِيْ أَنَّ هَـٰذَا ٱلشِّعْرَ مَا لَمْ يَكُنْ قَائِمًا عَلَىٰ ٱخْتِيَارِ ٱللَّفْظِ وَصَنْعَةِ ٱلْعِبَارَةِ وَتَصْفِيَتِهَا وَتَهْذِيْبِهَا وَٱخْتِيَارِ ٱلْوَزْنِ لِلْمَعْنَىٰ وَإِرَادَةِ ٱلْفِكْرِ عَلَىٰ مَايَلْفِتُ ٱلنَّفْسَ مِنْ ضُرُوْبِ ٱلْمَجَازِ وَٱلِاسْتِعَارَةِ وَنَحْوِهَا ـ سَقَطٌ وَرَكَّ بِمِقْدَارِ مَا يَنْقُصُهُ مِنْ ذَٰلِكَ ، وَلَيْسَ

ٱلشَّأْنُ فِيْ إِطَالَةِ ٱلْقَصِيْدِ ، فَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ نَظَمَ رَوِيًّا وَاحِدًا فِيْ أَرْبَعَةِ آلَافِ بَيْتٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَظَمَ تَفْسِيْرَ ٱلْقُرْآنِ كُلِّهِ ؛ وَلَـٰكِنَّ عَيْبَ مِثْلِ هَـٰذَا فِيْ ٱلشِّعْرِ فِيْ ٱلْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ شِعْرٌ . . . وَمَا أَخْمَلَ ٱبْنَ ٱلرُّوْمِيِّ عَلَىٰ جَلَالَةِ مَحَلِّهِ إِلَّا طُوْلُ قَصَائِدِهِ وَسِيَاقُهُ ٱلْكَلَامَ فِيْهَا مَعَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا يُشْبِهُ أُسْلُوْبَ ٱلْحِكَايَةِ وَخُرُوْجُهَا مَخْرَجَ ٱلْمَقَالَةِ يَتَحَدَّثُ بِهَا ، فَلَمْ تَحْيَ لَهُ إِلَّا مُقَطَّعَاتٌ وَأَبْيَاتٌ وَمَاتَ سَائِرُ شِعْرِهِ وَهُوَ حَيٌّ وَمَيْتٌ عَلَىٰ ٱلسَّوَاءِ ، حَتَّىٰ قَالَ فِيْهِ صَاحِبُ « ٱلْوَسَاطَةِ » : « وَنَحْنُ نَسْتَقْرِئُ ٱلْقَصِيْدَةَ مِنْ شِعْرِهِ وَهِيَ تُنَاهِزُ ٱلْمِئَةَ أَوْ تُرْبِي أَوْ تَضْعُفُ ، فَلَا نَعْثُرُ فِيْهَا إِلَّا بِٱلْبَيْتِ ٱلَّذِيْ يَرُوْقُ أَوِ ٱلْبَيْتَيْنِ ، ثُمَّ قَدْ تَنْسَلِخُ قَصَائِدُ مِنْهُ وَهِيَ وَاقِفَةٌ تَحْتَ ظِلِّهَا ، جَارِيَةٌ تَحْتَ رَسْلِهَا ، لَا يَحْصُلُ مِنْهَا ٱلسَّامِعُ إِلَّا عَلَىٰ عَدَدِ ٱلْقَوَافِيْ . . »

وَٱلْعَجِيْبُ أَنَّ بَعْضَ ٱلْكُتَّابِ فِيْ عَصْرِنَا مِمَّنْ لَا تَحْقِيْقَ لَهُمْ فِيْ مِثْلِ هَـٰذِهِ ٱلْمَسَائِلِ ، يَعُدُّوْنَ أَحْسَنَ مَحَاسِنِ ٱبْنِ ٱلرُّوْمِيِّ مَا هُوَ أَقْبَحُ عُيُوْبِهِ ، وَقَاتَلَ ٱللهُ صِنَاعَةَ ٱلْكِتَابَةِ ، فَكَمَا أَنَّهَا لِمَلْءِ ٱلْفَرَاغِ هِيَ كَذَلِكَ لِإِفْرَاغِ ٱلْمَلْآنِ . . .[1]

ثَانِيًا : صِيَاغَةُ بَعْضِ ٱلشِّعْرِ عَلَىٰ أَصْلٍ مِنْ أُصُوْلِ ٱلتَّفْكِيْرِ فِيْ ٱلإِنْكِلِيْزِيَّةِ أَوِ ٱلْفِرَنْسِيَّةِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ لُغَاتِ ٱلأُمَمِ ، فَيَخْرُجُ ٱلشِّعْرُ عَرَبِيًّا ، وَأُسْلُوْبُهُ فِيْ تَأْدِيَةِ ٱلْمَعْنَىٰ أَجْنَبِيٌّ ، وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِيْ هَـٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنْ أَمْرِيْكَة ، وَأَنَا أُعْجَبُ بِكَثِيْرٍ مِنْهُ لِمَا فِيْهِ مِنَ ٱلْغَرَابَةِ وَٱلْحُسْنِ .

وَمَا زَالَتْ أَجْنَاسُ ٱلأُمَمِ يَضِيْقُ بَعْضُهَا بِأَشْيَاءَ وَيَتَّسِعُ بَعْضُهَا بِأَشْيَاءَ ، فَلَسْنَا مُقَيَّدِيْنَ بِٱلْفِكْرِ ٱلْعَرَبِيِّ وَلَا بِطَرِيْقَتِهِ ، وَعَلَيْنَا أَنْ نُضِيْفَ إِلَىٰ مَحَاسِنِ لُغَتِنَا مَحَاسِنَ ٱللُّغَاتِ ٱلأُخْرَىٰ ، وَلَـٰكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ نُفْسِدَهَا أَوْ نَحِيْفَ عَلَيْهَا أَوْ نَبِيْعَهَا بَيْعَ ٱلْوَكْسِ ؛ وَمَتَىٰ كَانَ هَـٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلشِّعْرِ رَصِيْنًا مُحْكَمًا جَيِّدَ ٱلسَّبْكِ رَشِيْقَ ٱلْمَعْرِضِ ؛ كَانَ فِيْ ٱلنِّهَايَةِ مِنَ ٱلرِّقَّةِ وَٱلإِبْدَاعِ ، وَلَمْ يَأْتِ ٱلتَّجْدِيْدُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ إِلَّا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ ، كَٱلَّذِيْ تَرَاهُ فِيْمَا أَخَذَ عَبْدُ ٱلْحَمِيْدِ وَٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ مِنْ نَمَطِ ٱلأَدَاءِ فِيْ ٱللُّغَةِ ٱلْفَارِسِيَّةِ .

ثَالِثًا : ٱلانْصِرَافُ عَنْ إِفْسَادِ ٱلشِّعْرِ بِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيْحِ وَٱلرِّثَاءِ ، وَذَلِكَ بِتَأْثِيْرِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلشَّخْصِيَّةِ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ ؛ وَٱلْمَدْحُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَابًا مِنَ ٱلتَّارِيْخِ ٱلصَّحِيْحِ لَمْ يَدُلَّ عَلَىٰ سُمُوِّ

(١) { ٱنْظُرْ دِرَاسَةَ ٱلْعَقَّادِ لِابْنِ ٱلرُّوْمِيِّ } .

نَفْسِ ٱلْمَمْدُوْحِ ، بَلْ عَلَىٰ سُقُوْطِ نَفْسِ ٱلْمَادِحِ ؛ وَتَرَاهُ مَدْحًا حِيْنَ يُتْلَىٰ عَلَىٰ سَامِعِهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ ذَمٌّ حِيْنَ يُعْزَىٰ إِلَىٰ قَائِلِهِ ! وَمَا ٱبْتُلِيَتْ لُغَةٌ مِنْ لُغَاتِ ٱلدُّنْيَا بِٱلْمَدِيْحِ وَٱلرِّثَاءِ وَٱلْهِجَاءِ مَا ٱبْتُلِيَتْ هَـٰذِهِ ٱلْعَرَبِيَّةُ ؛ وَلِذَلِكَ أَسْبَابٌ لَا مَحَلَّ لِتَفْصِيْلِهَا .

رَابِعًا : ٱلإِكْثَارُ مِنَ ٱلْوَصْفِ وَٱلإِبْدَاعُ فِيْ بَعْضِ مَنَاحِيْهِ وَٱلتَّفَنُّنُ فِيْ بَعْضِ أَغْرَاضِهِ ٱلْحَدِيْثَةِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَسْمَىٰ ضُرُوْبِ ٱلشِّعْرِ ، لَا تَتَّفِقُ ٱلإِجَادَةُ فِيْهِ وَٱلإِكْثَارُ مِنْهُ إِلَّا إِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ حَيًّا ، وَكَانَتْ نَزْعَةُ ٱلْعَصْرِ إِلَيْهِ قَوِيَّةً ، وَكَانَ ٱلنَّظَرُ فِيْهِ صَحِيْحًا ؛ وَلَمَّا وَصَفَ ٱلشَّيْخُ أَحْمَدُ ٱلْكُرْدِيُّ (مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْقَرْنِ ٱلثَّانِيَ عَشَرَ) ٱلسَّفِيْنَةَ وَٱسْتَهَلَّ بِهَـٰذَا ٱلْوَصْفِ مَدْحَ ٱلْوَزِيْرِ رَاغِب بَاشَا ، عَدُّوْا ذَلِكَ حَادِثَةً مِنْ حَوَادِثِ ٱلأَدَبِ فِيْ عَصْرِهِ ، فَتَأَمَّلْ !

خَامِسًا : إِهْمَالُ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلْبَدِيْعِيَّةِ ٱلَّتِيْ يُبْنَىٰ عَلَيْهَا ٱلشِّعْرُ ، فَيُنْظَمُ ٱلْبَيْتُ لِيَكُوْنَ جِنَاسًا أَوْ طِبَاقًا أَوِ ٱسْتِخْدَامًا أَوْ تَوْرِيَةً . . . إِلَخْ ، أَوْ ضَرْبًا آخَرَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْعَدَدِ وَٱلْحِسَابِ ، كَٱلتَّارِيْخِ ٱلشِّعْرِيِّ بِأَنْوَاعِهِ ؛ أَوْ صِنَاعَةِ ٱلْحَرْفِ كَٱلْمَقْلُوْبِ وَٱلْمُهْمَلِ وَغَيْرِهِمَا ؛ أَوْ صِنَاعَةِ ٱلْفِكْرِ ، كَٱللُّغْزِ وَٱلْمُعَمَّىٰ ؛ أَوْ صِنَاعَةِ ٱلْوَضْعِ ، كَٱلتَّشْجِيْرِ وَٱلتَّطْرِيْزِ ؛ إِلَىٰ مَا يَلْتَحِقُ بِهَـٰذَا ٱلْبَابِ ٱلَّذِيْ ذَهَبَ أَهْلُهُ فَلَا يَتَيَسَّرُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْ يُجَارِيَهُمْ فِيْهِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ فِيْ كُلِّ ذَلِكَ عَجَائِبُ ٱسْتَقْصَيْنَاهَا بِٱلتَّدْوِيْنِ فِيْ مَوْضِعِهَا مِنْ « تَارِيْخِ آدَابِ ٱلْعَرَبِ »[1] ، بَيْدَ أَنَّ إِهْمَالَ صِنَاعَةِ ٱلْبَدِيْعِ شَيْءٌ وَإِهْمَالَ فَنِّ ٱلْبَدِيْعِ نَفْسِهِ شَيْءٌ آخَرُ ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ مَا نَرَاهُ فِيْ بَعْضِ ٱلشِّعْرِ ٱلْحَدِيْثِ وَ« ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنْثُوْرِ » مِنَ ٱلإِغْرَاقِ ٱلسَّخِيْفِ ٱلَّذِيْ لَا يَقُوْمُ عَلَىٰ أَصْلٍ مِنَ ٱلتَّعَدِّيْ فِيْ ضُرُوْبِ ٱلاسْتِعَارَةِ ، وَٱلْبُعْدِ فِيْ ٱلْمَجَازِ ، وَٱلإِحَالَةِ فِيْ ٱلْوَضْعِ ، وَنَحْوِهَا مِمَّا يَرْجِعُ إِلَىٰ ٱلْجَهْلِ بِطَبِيْعَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ، وَمِمَّا لَا نَعُدُّهُ إِلَّا ضَرْبًا مِنَ ٱلْفَسَادِ يَلْتَحِقُ بِمَا كَانَ فِيْ ٱلْعُصُوْرِ ٱلْمَاضِيَةِ وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ ٱلضِّدِّ مِنْهُ .

سَادِسًا : ٱلنَّظْمُ فِيْ ٱلشُّؤُوْنِ ٱلْوَطَنِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ، مِمَّا يَجْعَلُ ٱلشِّعْرَ مُحِيْطًا بِرُوْحِ ٱلْعَصْرِ وَفِكْرِهِ وَخَيَالِهِ ، وَهُوَ بَابٌ لَا يَنْهَضُ بِهِ إِلَّا أَفْرَادٌ قَلَائِلُ ، وَلَا يَزَالُ ضَعِيْفًا لَمْ يَسْتَحْكِمْ ، وَقَدْ قَالُوْا : إِنَّ لِلْقَاضِيْ ٱلْفَاضِلِ ٱثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ فِيْ مَدْحِ ٱلْوَطَنِ وَٱلْحَنِيْنِ إِلَيْهِ ، وَلَـٰكِنْ لَا أَحْسَبُ أَنَّ فِيْهَا مِئَةً مِنْ نَحْوِ مَا يُنْظَمُ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ ، مِمَّا أَدَّىٰ بِٱلشِّعْرِ إِلَىٰ

(١) { ٱنْظُرِ ٱلْجُزْءَ ٱلثَّالِثَ مِنْ (تَارِيْخِ آدَابِ ٱلْعَرَبِ) لِلرَّافِعِيِّ } .

أَنْ يَدْخُلَ فِيْ بَابِ ٱلسِّيَاسَةِ وَيُعَدَّ مِنْ وَسَائِلِهَا ، وَفِيْ طُرُقِ ٱلتَّرْبِيَةِ وَيُعَدَّ مِنْ أَسْبَابِهَا .

سَابِعًا : ٱسْتِخْرَاجُ بَعْضِ أَوْزَانٍ جَدِيْدَةٍ مِنَ ٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلتُّرْكِيَّةِ ، وَهُوَ قَلِيْلٌ ، جَاءَ بِهِ شَوْقِيْ فِيْ قَصِيْدَتَيْنِ وَلَمْ يُتَابِعْهُ أَحَدٌ ، لِإِفْرَاطِ ذَٰلِكَ ٱلْوَزْنِ فِيْ ٱلْخِفَّةِ حَتَّىٰ رَجَعَ إِلَىٰ ٱلثِّقَلِ . . . ثُمَّ نَظْمُ بَعْضِ ٱلشِّعْرِ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِفَةٍ قَرِيْبَةِ ٱلتَّنَاسُقِ عَلَىٰ قَاعِدَةِ ٱلْمُوَشَّحِ ، وَلَٰكِنَّهُ شِعْرٌ لَا تَوْشِيْحٌ ، كَمَا يَنْظِمُ بَعْضُ شُعَرَاءِ أَمْرِيكَة وَسُورِيَة ، وَلَمْ يَحْدُثْ مِثْلُ ذَٰلِكَ فِيْ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّ ٱلْقَصِيْدَةَ كَانَتْ تُنْظَمُ مِنْ بَحْرٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهُ وَزْنٌ آخَرُ ، وَلَا نَعْرِفُ فِيْ تَارِيْخِ ٱلْأَدَبِ قَصِيْدَةً تَتَأَلَّفُ مِنْ وَزْنَيْنِ إِلَّا ٱلَّذِيْ قَالُوْا : إِنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَبْدِ ٱلصَّمَدِ ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٩٨٤هـ (١٥٧٦م) قَدِ ٱخْتَرَعَهُ وَنَظَمَ فِيْهِ أَبْيَاتَهُ ٱلَّتِيْ مَطْلَعُهَا [من الخفيف] :

فَـاحَ عُـرْفُ ٱلصَّبَـا وَصَـاحَ ٱلـدِّيْـكُ وَٱنْثَنَـىٰ ٱلْبَـانُ يَشْتَكِـيْ ٱلتَّحْـرِيْـكُ
قُـمْ بِنَـا نَخْتَلِـيْ مُشَعْشَعَـةً تَـاهَ مِـنْ وَصْفِـهِ بِهَـا ٱلنَّسِّيْـكُ

وَعَارَضَهَا وَلَدُهُ ٱلْإِمَامُ ٱلشَّهِيْرُ بَهَاءُ ٱلدِّيْنِ ٱلْعَامِلِيُّ صَاحِبُ « ٱلْكَشْكُوْلِ » بِأَبْيَاتٍ قَالُوْا : إِنَّهَا سَارَتْ فِيْ عَصْرِهِ مَسِيْرَ ٱلْمَثَلِ ، وَنَسَجَ عَلَيْهَا شُعَرَاءُ ذَٰلِكَ ٱلْعَصْرِ كَٱلنَّابُلُسِيِّ وَغَيْرِهِ ، وَمَطْلَعُهَا [من الخفيف] :

يَـا نَـدِيْمِـيْ بِمُهْجَتِـيْ أَفْـدِيْـكْ قُـمْ وَهَـاتِ ٱلْكُـؤُوْسَ مِـنْ هَـاتِيْـكْ
خَمْـرَةٌ إِنْ ضَلَلْـتَ سَـاحَتَهَـا فَسَنَـا نُـوْرِ كَـأْسِهَـا يَهْـدِيْـكْ

عَلَىٰ أَنَّ هَٰذَا ٱلْوَزْنَ بِشَطْرَيْهِ مُسْتَخْرَجٌ مِنَ ٱلْخَفِيْفِ ، فَلَيْسَ بِٱخْتِرَاعٍ كَمَا زَعَمُوْا ، وَإِنَّمَا هُوَ ٱبْتِدَاعٌ فِيْ ٱلتَّأْلِيْفِ ٱلشِّعْرِيِّ ، وَقَدِ ٱجْتَزَأْنَا بِمَا مَرَّتِ ٱلْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كُلُّ مَا تَغَيَّرَ بِهِ ٱلرَّسْمُ فِيْ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ، وَتَرَكْنَا ٱلْأَمْثِلَةَ تَفَادِيًا مِنَ ٱلْإِطَالَةِ .

* * *

وَبَعْدُ ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلْبَشَرِيَّةَ فِيْ حَاجَةٍ أَبَدًا مَعَ دِيْنِهَا ٱلرُّوْحِيِّ إِلَىٰ دِيْنٍ إِنْسَانِيٍّ يَقُوْمُ فِيْهَا عَلَىٰ ٱلشُّعُوْرِ وَٱلرَّغْبَةِ وَٱلتَّأْثِيْرِ ، فَيُفَسِّرُ لَهَا حَقَائِقَ ٱلْحَيَاةِ ، وَيَكُوْنُ وَسِيْلَةً مِنْ وَسَائِلِ تَغْيِيْرِهَا ، لِيَجْعَلَهَا أَلْطَفَ مِمَّا هِيَ فِيْ ٱللُّطْفِ ، وَأَرَقَّ مِمَّا تَكُوْنُ فِيْ ٱلرِّقَّةِ ، وَأَبْدَعَ مِمَّا تَتَّفِقُ فِيْ ٱلْإِبْدَاعِ ؛ ذَٰلِكَ ٱلَّذِيْ يَصِلُ بِظُهُوْرِهِ وَإِبْهَامِهِ بَيْنَ ٱلْوَاضِحِ وَٱلْغَامِضِ ، وَٱلْخَالِدِ وَٱلْفَانِيْ ، ذَٰلِكَ ٱلَّذِيْ لَا يَجْمُلُ ٱلْجَمَالُ إِلَّا بِهِ ، وَلَا تَسْكُنُ ٱلنَّفْسُ إِلَّا إِلَيْهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلشِّعْرُ!

صَرُّوْفُ ٱللُّغَوِيُّ (*)

كَانَ شَيْخُنَا هَٰذَا رَجُلًا حَصِيْفًا ، جَيِّدَ ٱلْمَنْزَعَةِ ، حَسَنَ ٱلرَّأْيِ ، مُمَكَّنًا لَهُ فِيْمَا كَانَ يَعْتَرِضُهُ مِنْ مَسَائِلِ ٱللُّغَةِ ، قَوِيًّا عَلَىٰ ٱلْأَحْوَالِ ٱلَّتِيْ تَجْرِيْ لَهُ مِنْ أَوْضَاعِهَا فِيْمَا يُعَانِيْهِ مِنَ ٱلنَّقْلِ وَيُزَاوِلُهُ مِنَ ٱلتَّرْجَمَةِ عَلَىٰ ٱخْتِلَافِ مَنَاحِيْهَا وَكَثْرَةِ فُنُوْنِهَا ؛ وَعَلَىٰ أَنَّهَا لَا تَزَالُ كُلَّ يَوْمٍ تَنْبَعِثُ مِنْ عِلْمٍ وَتَحْتَفِلُ مِنْ رَأْيٍ وَتَمُدُّ مَدَّ ٱلسَّيْلِ كَأَنَّهَا دُنْيَا عَقْلِيَّةٌ لَا يَبْرَحُ عَقْلُ ٱلْإِنْسَانِ دَائِبًا يُحَلِّقُ فِيْهَا وَيَبْنِيْهَا مِنْ مَعَانِيْ ٱلْكَوْنِ وَأَسْرَارِهِ ، فَلَا ٱلْكَوْنُ يَنْفَدُ لِتَتِمَّ ، وَلَا هِيَ تَتِمُّ قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ ٱلْكَوْنُ .

وَثَبَتَ شَيْخُنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ عُمْرَ دَوْلَةٍ مِنَ ٱلدُّوَلِ فِيْ خَمْسِيْنَ سَنَةً وَنَيِّفٍ ، يَضْرِبُ قَلَمَهُ فِيْ ٱلسَّهْلِ وَٱلصَّعْبِ ، وَفِيْ ٱلْمُمْكِنِ وَٱلْمُمْتَنِعِ ؛ وَإِنَّهُ لَيَمُرُّ فِيْ كُلِّ ذَٰلِكَ مَرًّا لَا يَنْثَنِيْ ، وَيَحْذُو حَذْوًا لَا يَخْتَلِفُ ، كَأَنَّ ٱلصَّعْبَ عِنْدَهُ نَسْقُ ٱلسَّهْلِ ، وَٱلْمُمْتَنِعُ صَوْغُ ٱلْمُمْكِنِ ؛ فَلَوْ قُلْتُ : إِنَّهُ بُنِيَ فِيْ أَصْلِ خَلْقِهِ وَتَرْكِيْبِهِ عَلَىٰ أَنْ يَكُوْنَ قُوَّةً مِنْ قُوَىٰ ٱلتَّحْوِيْلِ لِتَحْقِيْقِ ٱلْمُشَابَهَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ بَيْنَ ٱلشَّرْقِ وَٱلْغَرْبِ لَمَا أَبْعَدْتُ ، وَلَوْ زَعَمْتُ أَنَّ ذَٰلِكَ ٱلْقَلَمَ ٱلْحَيَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِرْقًا فِيْ جِسْمِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ لَكَانَ عَسَىٰ . . .

وَٱنْتَهَىٰ شَيْخُنَا فِيْ ٱلْعَهْدِ ٱلْأَخِيْرِ إِلَىٰ أَنْ صَارَ يُعَدُّ وَحْدَهُ حُجَّةَ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِيْ دَهْرٍ مِنْ دُهُوْرِهَا ٱلْعَاتِيَةِ ، لَا فِيْ ٱلْأُصُوْلِ وَٱلْأَقْيِسَةِ وَٱلشَّوَاذِّ وَمَا يَكُوْنُ مِنْ جِهَةِ ٱلْحِفْظِ وَٱلضَّبْطِ وَٱلْإِتْقَانِ ، بَلْ فِيْمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَٰلِكَ وَأَرَدُّ بِٱلْمَنْفَعَةِ عَلَىٰ ٱللُّغَةِ وَتَارِيْخِهَا وَقَوْمِهَا ، بَلْ فِيْمَا لَا تَنْتَهِيْ إِلَيْهِ مَطْمَعَةُ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَائِهَا وَكُتَّابِهَا وَأُدَبَائِهَا ؛ إِذْ وَقَعَ ٱلْإِجْمَاعُ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱنْفَرَدَ فِيْ إِقَامَةِ ٱلدَّلِيْلِ ٱلْعَمَلِيِّ عَلَىٰ سَعَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَتَصَرُّفِهَا وَحُسْنِ ٱنْقِيَادِهِ وَكِفَايَتِهَا ، وَأَنَّهَا تُوَاتِيْ كُلَّ ذِيْ فَنٍّ عَلَىٰ فَنِّهِ ، وَتَمَادُّ كُلَّ عَصْرٍ بِمَادَّتِهِ ؛ وَأَنَّهَا مِنْ دِقَّةِ ٱلتَّرْكِيْبِ وَمُطَاوَعَتِهِ مَعَ تَمَامِ ٱلْآلَاتِ وَٱلْأَدَوَاتِ بِحَيْثُ يَنْزِلُ مِنْهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ بِجُهْدِهِ وَعَمَلِهِ مَنْزِلَةَ ٱلْجَمَاعَاتِ ٱلْكَثِيْرَةِ فِيْ

(*) { هُوَ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلدُّكْتُوْرُ يَعْقُوْبُ صَرُّوْفُ صَاحِبُ « ٱلْمُقْتَطَفِ » ، وَقَدْ نُشِرَ هَٰذَا ٱلْمَقَالُ فِيْ « ٱلْمُقْتَطَفِ » شَهْرِ يَنَايِرَ/ كانون الآخر سَنَةَ ١٩٢٨م ، الصفحات : ٢٣ ـ ٣٠ } .

ٱللُّغَاتِ ٱلأُخْرَىٰ ، كَأَنَّهَا آخِرُ مَا ٱنْتَهَتْ إِلَيْهِ ٱلْحَضَارَةُ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ ٱلْحَضَارَةُ .

وَلَا يَذْهَبَنَّ عَنْكَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ رَجُلٍ حَافِظٍ وَٱلْكِتَابُ أَحْفَظُ مِنْهُ ، وَهُوَ مِنَ ٱلْكِتَابِ خَرَجَ وَإِلَى ٱلْكِتَابِ يَرْجِعُ ؛ وَبَيْنَ رَجُلٍ يَكُوْنُ تَرْجُمَانًا مِنْ تَرَاجِمَةِ ٱلْعَقْلِ ٱلإِنْسَانِيِّ ٱلْمَعْنِيِّ بِتَأْوِيلِ ٱلْكَوْنِ وَتَفْسِيرِهِ ، وَٱلطَّائِرِ بِٱلأَلْفَاظِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ أَجْنِحَةِ ٱلْعُلُوْمِ وَٱلْفُنُوْنِ وَٱلْمُخْتَرَعَاتِ وَٱلْمَعَانِي ؛ فَإِنَّ ذَاكَ يَنْقُلُ عَنِ ٱلْوَاضِعِ ثُمَّ لَا يَتَعَدَّىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةَ وَلَا يَتَجَاوَزُ مُتُوْنَ ٱلأَلْفَاظِ ، وَأَمَّا هَـٰذَا فَلَا يَزَالُ يَضْطَرِبُ مَعَ ٱلأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا يُجَاذِبُهَا وَيُدَافِعُهَا ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَضَعُ يَدَهُ فِي ٱلنَّسِيجِ ٱللُّغَوِيِّ يُسَدِّي وَيُلْحِمُ ، فَهُوَ مَدْفُوعٌ إِلَى ٱلْمَسَالِكِ ٱلدَّقِيقَةِ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْوَضْعِ وَطُرُقِهِ ، وَأَسَالِيبِ ٱلأَخْذِ وَٱلانْتِزَاعِ ؛ وَهُوَ مُقَيَّدٌ أَبَدًا بِخَاصِّ ٱلْمَعْنَىٰ وَخَاصِّ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلتَّعْيِينِ وَٱلتَّحْدِيدِ ، لَا يَجِدُ فُسْحَةً مِنْ ضِيقَيْنِ ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هَـٰذَا فِي مَنْزِلَةِ ٱلْوَاضِعِ فَهُوَ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ بَعْدَهُ وَلَا رَيْبَ .

إِنَّمَا ٱللُّغَوِيُّ ٱلأَكْبَرُ عِنْدِي هُوَ هَـٰذَا ٱلْكَوْنُ ، وَمَا ٱلْعَالِمُ بِٱللُّغَةِ وَفُنُوْنِهَا إِلَّا وَسِيلَةٌ لِتَهْذِيبِ ٱلطَّرِيقَةِ تَهْذِيبًا عَقْلِيًّا ، فَيَجِبُ مِنْ ثَمَّ أَنْ يَكُوْنَ لِلُّغَوِيِّ رَأْيٌ وَعِلْمٌ وَذَكَاءٌ وَبَصَرٌ ، وَيَجِبُ أَنْ يُطَابِقَ ٱلنَّوَامِيسَ ، فَلَا يَتَعَادَىٰ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا لِأَنَّهُ وَسِيلَةُ إِنْطَاقِهَا لَيْسَ غَيْرُ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَرَى ٱلدُّكْتُوْر صَرُّوْف فِي ٱلْغَايَةِ ، فَقَدْ كَانَ يَنْزِعُ فِي مَذْهَبِهِ ٱللُّغَوِيِّ مَنَازِعَ عِلْمِيَّةً دَقِيقَةً تُوْزَنُ وَتُقَاسُ وَتُخْتَبَرُ ، فِي حِينٍ لَا تَزِيْغُ وَلَا تَهِنُ وَلَا تَخْتَلُّ ، وَتَرَاهَا تَنْطَلِقُ وَهِيَ مُقَيَّدَةٌ ؛ وَتَتَقَيَّدُ وَهِيَ مُطْلَقَةٌ ، إِذْ كَانَ لَا يَعْتَدُّ ٱللُّغَةَ عَرَبِيَّةً لِلْعَرَبِ ، بَلْ عَرَبِيَّةً لِلْحَيَاةِ ؛ وَمَا تَهْدِمُهُ وَتَبْنِيهِ وَتُحْدِثُهُ وَتَنْسَخُهُ ، فَهِيَ عَلَىٰ أُصُوْلِهَا فِيمَنْ قَبْلَنَا ، وَلَـٰكِنَّ فُرُوْعَهَا فِينَا نَحْنُ وَفِيمَنْ يَلِينَا وَفِيمَنْ بَعْدَ هَـٰؤُلَاءِ ، فَلَنَا أَنْ نَتَوَلَّاهَا عَلَىٰ تِلْكَ ٱلأُصُوْلِ وَعَلَىٰ مَا يُشْبِهُهَا فِي ٱلطَّرِيقَةِ حِينَ تَنْتَقِلُ ٱلْحَالُ وَيَتَغَيَّرُ ٱلرَّسْمُ ، لِعِلَّةٍ إِنْ وَجَبَتْ ، وَلِقِيَاسٍ إِنْ جَازَ . وَٱلدُّكْتُوْرُ بِهَـٰذَا ٱلاعْتِبَارِ يَشْتَدُّ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِٱلْقَوَاعِدِ وَٱلضَّوَابِطِ وَلَا يَتَرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَكُوْنُ كَأَقْوَامٍ يَرَوْنَ ٱلْفُرُوْعَ مِنَ ٱلْجُذُوْعِ قَدْ خَرَجَتْ ، فَيَحْسَبُوْنَ ٱلثَّمَرَاتِ سَبِيلَهَا مِنَ ٱلْجُذُوْعِ أَيْضًا . . . وَإِنْ لَمْ تَجِىءْ مِنْهَا فَسَتَجِيءُ مِنْهَا .

عَرَضَ لِي يَوْمًا أَحَدُ هَـٰؤُلَاءِ ٱللُّغَوِيِّينَ فَٱنْتَقَدَ فِي « ٱلْمُقْطَم » قَصِيدَةً مِنَ ٱلْقَصَائِدِ ٱلَّتِي رَفَعْتُهَا إِلَىٰ جَلَالَةِ ٱلْمَلِكِ فُؤَادٍ ، وَتَمَحَّلَ فِي نَقْدِهِ وَدَلَّلَ بِبَعْضِ مَا نَقَلَهُ مِنْ كُتُبِ ٱللُّغَةِ ،

فَكَانَ فِيمَا تَكَلَّمَ فِيهِ لَفْظَا (ٱلأَزَاهِرُ وَٱلْوُرُوْدُ) ، فَقَالَ : إِنَّهُمَا لَيْسَا مِنَ ٱللُّغَةِ وَلَمْ يَجْرِيَا فِي كُتُبِهَا ؛ وَكَانَ مِنْ رَدِّي عَلَيْهِ أَنْ قُلْتُ لَهُ : إِنَّ ٱلْعَرَبَ جَمَعُوْا ٱلْجَمَلَ سِتَّةَ جُمُوْعٍ ، وَجَمَعُوْا ٱلنَّاقَةَ سَبْعَةً لِأَنَّهَا أَكْرَمُ عَلَيْهِمْ مِنْهُ ، وَأَنَّ لِكُلِّ حَيَاةٍ صُوَرَهَا ٱلدَّائِرَةَ فِي أَلْفَاظِهَا ، فَٱلزَّهْرُ وَٱلْوَرْدُ عِنْدَ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱلْمُحْدَثِيْنَ أَكْرَمُ مِنَ ٱلْجَمَلِ وَٱلنَّاقَةِ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ ، أَوْ هَـٰذَانِ كَهَـٰذَيْنِ ، ثُمَّ هُمَا مِنْ خَاصِّ ٱلأَلْفَاظِ ٱلْمُوَلَّدَةِ ، فَلَنَا أَنْ نَجْمَعَهُمَا عَلَىٰ كُلِّ صُوَرِ ٱلْجَمْعِ ٱلَّتِي يُسَوِّغُهَا ٱلْقِيَاسُ ، لِأَنَّ هَـٰهُنَا ٱلْعِلَّةَ ٱلْمُوْجِبَةَ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعَ ٱلْعَرَبِ فِيهِمَا ؛ فَمِنَ ٱلصَّحِيحِ أَنْ نَقُوْلَ : زُهُوْرٌ ؛ وَأَزْهَارٌ ، وَأَزَاهِرُ وَأَزَاهِيرُ . . . إلخ ؛ فَلَمَّا لَقِيتُ ٱلدُّكْتُوْرَ بَعْدَ نَشْرِ هَـٰذَا ٱلرَّدِّ هَنَّأَنِي بِهِ ، ثُمَّ قَالَ فِيمَا قَالَ : يَحْسَبُوْنَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ هُمُ ٱلْجَمَلُ وَٱلنَّاقَةُ وَلَيْسَ غَيْرَ مَا ٱسْتَجْمَلَ وَمَا ٱسْتَنْوَقَ . . . أَمَّا هَـٰذَا ٱلدَّهْرُ ٱلطَّوِيلُ ٱلْعَرِيضُ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْئًا ، وَهُمْ يَسْتَطِيعُوْنَ أَنْ يُنْكِرُوْا عَلَى ٱلْمُوَلَّدِينَ أَلْفَ كَلِمَةٍ ، وَلَـٰكِنْ هَلْ فِي ٱسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يُنْكِرُوْا عَلَى ٱلتَّارِيخِ أَلْفَ سَنَةٍ ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ ٱلأَصْلَ ٱلَّذِي قَرَّرَهُ أَبُو عَلِيٍّ ٱلْفَارِسِيُّ فِي ٱلْعَرَبِيِّ ٱلصَّحِيحِ نَفْسِهِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا يَجُوْزُ فِي ٱلْقِيَاسِ يَجِبُ أَنْ يَخْرُجَ بِهِ سَمَاعٌ ، فَإِذَا أَخَذَ إِنْسَانٌ عَلَىٰ طَرِيقَةِ ٱلْعَرَبِ وَأَمَّ مَذْهَبَهُمْ فَلَا يُسْأَلُ مَا دَلِيلُهُ وَمَا سَمَاعُهُ وَمَا رِوَايَتُهُ ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، حَتَّىٰ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : لَوْ شَاءَ شَاعِرٌ أَوْ مُتَّسِعٌ أَنْ يَبْنِيَ بِإِلْحَاقِ اللامِ(١) ٱسْمًا وَفِعْلًا وَصِفَةً لَجَازَ لَهُ . وَلَكَانَ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ، وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِكَ : خَرْجَجَ أَكْثَرُ مِنْ دَخْلَلٍ ، وَضَرْبَبَ زَيْدٌ عَمْرًا ، وَمَرَرْتُ بِرَجُلٍ ضَرْبَبٍ ، وَكَرْمَمٍ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ . قَالَ تِلْمِيذُهُ ٱبْنُ جِنِّيٍّ : فَقُلْتُ لَهُ : أَتَرْتَجِلُ ٱللُّغَةَ ٱرْتِجَالًا ؟ قَالَ : لَيْسَ بِٱرْتِجَالٍ ، لَـٰكِنَّهُ مَقِيسٌ عَلَىٰ كَلَامِهِمْ ، فَهُوَ إِذًا مِنْ كَلَامِهِمْ .

وَسَأَلَنِي مَرَّةً عَنْ وَجْهِ ٱلْخِلَافِ بَيْنَ مَا يُسَمُّوْنَهُ ٱلْقَدِيمَ وَٱلْجَدِيدَ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ ٱلْخِلَافَ لَيْسَ عَلَىٰ جَدِيدٍ وَلَا قَدِيمٍ ، وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ ضَعْفٍ وَقُوَّةٍ ، فَإِنَّ قَوْمًا يَكْتُبُوْنَ وَيَنْظِمُوْنَ وَلَـٰكِنْ لَمْ تُقَسَّمِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا يُطِيقُوْنَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَتَّسِعُ ٱلصَّحِيحُ لِآرَائِهِمْ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلأَدَبِ ، وَقَدْ أَرَادُوْا أَنْ يَسَعُوْا كُلَّ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ ضَاقُوْا ، وَيُطَاوِلُوْهُ مِنْ حَيْثُ تَقَاصَرُوْا ، وَيَنَالُوْهُ مِنْ حَيْثُ عَجَزُوْا ، فَظَنُّوْا بِٱلأَمْرِ مَا يَظُنُّ إِنْسَانٌ يَمْشِي عَلَى ٱلأَرْضِ

(١) زِيَادَةُ حَرْفٍ مِنْ جِنْسِ لَامِ ٱلْكَلِمَةِ وَإِلْحَاقُهُ بِهَا .

وَيعرفُ أَنَّهَا تَدُوْرُ ، فَيُؤَوِّلُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ هُوَ يُدِيْرُ ٱلأَرْضَ عَلَىٰ مِحْوَرِهَا بِحَرَكَةِ قَدَمَيْهِ . . . نَحْنُ نَقُوْلُ : أُسْلُوْبٌ رَكِيْكٌ ؛ فَيَقُوْلُوْنَ : لَا بَلْ جَدِيْدٌ ؛ وَنَقُوْلُ : لُغَةٌ سَقِيْمَةٌ ؛ فَيَقُوْلُوْنَ : بَلْ عَصْرِيَّةٌ ؛ وَنَقُوْلُ : وَجْهٌ مِنَ ٱلْخَطَإِ ؛ فَيَقُوْلُوْنَ : بَلْ نَوْعٌ مِنَ ٱلصَّوَابِ ؛ وَهَلُمَّ جَرًّا وَسَحْبًا . . . ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : أَفَتَجِدُ أَنْتَ ٱلرَّكَاكَةَ وَٱللَّحْنَ وَٱلْخَطَأَ وَٱلْغَثَاثَةَ وَإِنَّ وَأَخَوَاتِهَا بَابًا جَدِيْدًا أَوْ أَمْرًا مُبْتَدَعًا أَوْ شَيْئًا يَحْتَاجُ إِلَىٰ ٱسْمِهِ ٱلْعَرَبِيِّ ؟ قَالَ : لَا ! وَأَنَا مَعَكَ فِيْ هَـٰذَا ، وَطَرِيْقَتِيْ فِيْ « ٱلْمُقْتَطَفِ » أَنَّ ٱللُّغَةَ فِيْ قَوَاعِدِهَا عَرَبِيَّةٌ ، وَلَـٰكِنْ مِنْ قَوَاعِدِهَا أَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا ، فَنَحْنُ نَكْتُبُ كِتَابَةً صَحِيْحَةً ، وَنُرِيْدُ بِهَا أَنْ تَرْفَعَ ٱلْعَامَّةَ وَلَا تَنْزِلَ بِٱلْخَاصَّةِ ، فَتَخْدِمَ ٱلْعَرَبِيَّةَ مِنَ ٱلْجِهَتَيْنِ .

ثُمَّ نَشَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيْ عَدَدِ شَهْرِ مَايُوْ/ أيار سَنَةَ ١٩٢٧ مَقَالًا جَعَلَ عُنْوَانَهُ : « أُسْلُوْبُنَا فِيْ ٱلتَّرْجَمَةِ وَٱلتَّعْرِيْبِ » وَٱبْتَدَأَهُ بِهَـٰذِهِ ٱلْعِبَارَةِ : « ٱللُّغَةُ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٍ ، وَشَأْنُ مَنْ يُحَاوِلُ مَنْعَهَا مِنَ ٱلنُّمُوِّ شَأْنُ ٱلصِّيْنِيِّيْنَ ٱلَّذِيْنَ يَرْبِطُوْنَ أَقْدَامَ بَنَاتِهِمْ لِكَيْ لَا تَنْمُوْا وَتَبْلُغَ حَدَّهَا ٱلطَّبِيْعِيَّ ، وَلَـٰكِنْ إِذَا كَانَ ٱلنُّمُوُّ مُشَوَّهًا فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْيِيْدِهِ وَتَهْذِيْبِهِ » وَكُلُّ مَا نَقُوْلُهُ نَحْنُ هُوَ ٱلتَّقْيِيْدُ وَٱلتَّهْذِيْبُ وَٱتِّقَاءُ ٱلشَّوْهَةِ أَنْ تُلِمَّ بِٱللُّغَةِ وَأَسَالِيْبِهَا ، فَتَتَرَادَفَ عَلَىٰ مَحَاسِنِهَا بِمَعَايِبِهَا ، وَتَطْمِسَ مَفَاتِنَهَا بِمَقَابِحِهَا ؛ فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْمَعَايِبَ وَٱلْمَقَابِحَ إِذَا هِيَ ٱسْتَجْمَعَتْ وَٱنْسَاغَتْ فِيْ لُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ لَبِسَتْهَا بِأَشْكَالِهَا فَلَا تَزَالُ تُنْكِرُ مِنْهَا حَتَّىٰ لَا تُبْقِيَ لَهَا وَصْفًا يُعْرَفُ ، وَٱلْحُسْنُ وَحْدَهُ هُوَ ٱلَّذِيْ يُحَدُّ بِٱلأَوْصَافِ وَٱلتَّعَارِيْفِ ، وَهُوَ ٱلَّذِيْ يُدَقِّقُ فِيْهِ وَيُبَالَغُ فِيْ قِيَاسِهِ وَتَقْدِيْرِهِ ، فَإِنْ وَقَعَ فِيْهِ ٱلْفُضُوْلُ ، وَٱخْتَلَطَتِ ٱلْحُدُوْدُ ، وَضَعُفَتِ ٱلْمُلَاءَمَةُ ، وَجَرَىٰ ٱلْوَصْفُ نَاقِصًا وَزَائِدًا ، فَقَدْ خَرَجَ إِلَىٰ ٱلْقُبْحِ ، وَإِنْ خَرَجَ إِلَىٰ ٱلْقُبْحِ لَمْ يَعُدِ ٱلنَّاسُ يَحُدُّوْنَ لَهُ حَدًّا أَوْ يَعْبَؤُوْنَ لَهُ بِقَاعِدَةٍ ، وَوَجَدُوْا فِيْهِ كُلَّ ٱلأَوْصَافِ ٱلْجَمِيْلَةِ مَقْلُوْبَةً مُنْكَرَةً ، لِأَنَّهُ هُوَ جَمَالٌ مَقْلُوْبٌ ؛ (فَتَقْيِيْدُ ٱلتَّشْوِيهِ وَتَهْذِيْبُهُ) كَلِمَتَانِ فِيْهِمَا ٱلْكَلَامُ كُلُّهُ ، أَوْ هُمَا ٱلْمِصْرَاعَانِ لِهَـٰذَا ٱلْبَابِ ؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كُنَّا نَعُدُّ ٱلدُّكْتُوْرَ مِنْ حُجَّتِنَا عَلَىٰ أَصْحَابِ ٱلْجَدِيْدِ ، لِأَنَّهُ أَوْسَعُهُمْ إِحَاطَةً وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا وَأَمَدُّهُمْ عَمَلًا ، ثُمَّ لَنْ يُدَانِيَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا إِذَا جَمَعَ لِنَفْسِهِ عُمْرَيْنِ ، وَهَلْ فِيْ ٱلْجَدِيْدِ رَجُلٌ ذُوْ عُمْرَيْنِ . . . ؟

قُلْنَا : إِنَّ ٱلشَّيْخَ كَانَ فِيْ ٱلْمَنْزِلَةِ ٱلَّتِيْ تَلِيْ مَنْزِلَةَ ٱلْوَاضِعِ ، وَقَدْ دَفَعَتْهُ ٱلْعُلُوْمُ إِلَىٰ ذَلِكَ

دَفْعًا . لِأَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِخَاصِّ ٱلْمَعْنَىٰ فِيْ كُلِّ مَا يُتَرْجِمُ أَوْ يُعَرِّبُ ، ثُمَّ بِٱلْخَصَائِصِ ٱلْعِلْمِيَّةِ ٱلدَّقِيْقَةِ ٱلَّتِيْ لَا تَحْتَمِلُ فِيْ أَدَائِهَا مَا تَحْتَمِلُ ٱلْمَعَانِيْ ٱلأَدَبِيَّةُ ؛ وَقَدْ تَصَدَّرَ لِلْكِتَابَةِ وَٱلتَّرْجَمَةِ مُنْذُ شَبَابِ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ ، وَمُنْذُ بَدَأَ ٱلنَّاسُ يَقْرَؤُوْنَ ٱلْعُلُوْمَ ٱلْحَادِثَةَ فِيْ ٱلشَّرْقِ ؛ فَلَا جَرَمَ لَمْ يَكُنْ لُغَوِيًّا كَأَبِيْ عَمْرٍو وَأَبِيْ زَيْدٍ وَٱلْخَلِيْلِ وَٱلأَصْمَعِيِّ وَأَبِيْ حَاتِمٍ وَأَبِيْ عُبَيْدَةَ وَأَضْرَابِهِمْ مِمَّنْ يَحْمِلُوْنَ عَنِ ٱلْعَرَبِ وَيُؤَدُّوْنَ مَا حَمَلُوْهُ ، وَلَا كَانَ لُغَوِيًّا فِيْ طَرِيْقَةِ سِيْبَوَيْهِ وَٱلْكِسَائِيِّ وَٱلزَّجَّاجِ وَٱلأَخْفَشِ وَٱلْيَزِيْدِيِّ وَأَشْبَاهِهِمْ مِمَّنْ يَنْظُرُوْنَ فِيْ ٱللُّغَةِ وَعِلَلِهَا وَأَقْيِسَتِهَا وَشَوَاذِّهَا ؛ وَلَـٰكِنَّهُ لُغَوِيٌّ فِيْمَا يَعْمُرُ بَيْنَ ٱلشَّرْقِ وَٱلْغَرْبِ ، يَحْمِلُ بِلِسَانٍ وَيُؤَدِّي بِلِسَانِ غَيْرِهِ ، وَيُوَافِقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِيْ ٱلْجَدِيْدَةِ وَٱلأَلْفَاظِ ٱلْقَدِيْمَةِ ، وَيُشَابِكُ بَيْنَ خُيُوْطِ ٱلتَّارِيْخِ فِيْ هَـٰذِهِ وَهَـٰذِهِ ، وَيَأْخُذُ ٱللُّغَةَ لِلِاسْتِعْمَالِ لَا لِلْحِفْظِ ، وَلِلتَّعْلِيْمِ لَا لِلتَّدْوِيْنِ ، وَلِلْمَنْفَعَةِ لَا لِلْمُبَاهَاةِ ، وَلِلْفَائِدَةِ لَا لِلتَّنَبُّلِ ؛ وَيُتَرْجِمُ وَإِنَّ فِيْ خَيَالِهِ ٱلْعَالَمَ ٱلْوَاسِعَ ٱلَّذِيْ يَنْقُلُ عَنْهُ بِعُلَمَائِهِ وَأُدَبَائِهِ وَكُتُبِهِ وَمَجَلَّاتِهِ وَمُصْطَلَحَاتِهِ ، وَيَكْتُبُ وَإِنَّ لَهُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ ٱلدَّقِيْقَةَ ٱلَّتِيْ كَوَّنَتْهَا ٱلْعُلُوْمُ ٱلرِّيَاضِيَّةُ وَٱلطَّبِيْعِيَّةُ وَٱلْفَلْسَفِيَّةُ وَغَيْرُهَا ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَبْتَدِعَ وَأَنْ تَكُوْنَ لَهُ طَرِيْقَةٌ يُوَافِقُ فِيْهَا وَيُخَالِفُ ، وَقَدْ بَسَطَ هُوَ ٱلْقَوَاعِدَ ٱلَّتِيْ أَخَذَ بِهَا وَجَرَىٰ عَلَيْهَا ، فَكَتَبَ فِيْهَا مَقَالًا فِيْ مُقْتَطَفِ شَهْرِ يُوْلِيُوْ/ تموز لِسَنَةِ ١٩٠٦ ، وَأَعَادَ نَشْرَهُ فِيْ عَدَدِ شَهْرِ مَايُوْ/ أيار لِسَنَةِ ١٩٢٧ ، وَهُوَ يُوَافِقُ فِيْهِ أَكْثَرَ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَخَاصَّةً ٱلإِمَامَ ٱلْجَاحِظَ ، مَعَ أَنَّ قَاعِدَةَ ٱلْجَاحِظِ لَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ مَعْرُوْفَةً ، وَلَـٰكِنْ كِلَا ٱلشَّيْخَيْنِ حَصِيْفُ ٱلرَّأْيِ تَامُّ ٱلأَدَاةِ فِيْ عَمَلِهِ ، قَوِيُّ ٱلْحِسْبَةِ وَٱلتَّدْبِيْرِ فِيْمَا يَأْخُذُ وَمَا يَدَعُ ؛ وَخُلَاصَةُ رَأْيِ ٱلدُّكْتُوْرِ أَنَّهُ يَنْظُرُ فِيْ ٱلْكَلِمَةِ ٱلأَعْجَمِيَّةِ ، فَإِنْ أَصَابَ لَهَا مُرَادِفًا فِيْ ٱلْعَرَبِيَّةِ يُحَدِّدُهَا وَيَفِيْ بِهَا فَذَاكَ ، وَإِلَّا أَمَرَّهَا فِيْ كِتَابَتِهِ وَهُوَ مُقَيَّدٌ بِفَائِدَةِ ٱلْقَارِئِ وَمَا هُوَ أَخَفُّ عَلَىٰ قَارِئِهِ فِيْ ٱلْمَؤُوْنَةِ وَأَبْيَنُ لَهُ فِيْ ٱلدَّلَالَةِ ، فَإِنْ كَانَتِ ٱللَّفْظَةُ ٱلأَعْجَمِيَّةُ أَوْفَىٰ وَأَشْبَعَ فِيْ ٱلِاسْتِعْمَالِ عَدَلَ إِلَيْهَا ، قَالَ : وَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْبَيَانِ أَنَّنَا ٱلْتَزَمْنَا أَنْ نُجَارِيَ ٱلْعُلَمَاءَ فِيْ ٱلْمُصْطَلَحَاتِ ٱلْعِلْمِيَّةِ ٱلَّتِيْ تَفْقِدُ دِلَالَتَهَا بِتَعْرِيْبِهَا : كَٱلْحَامِضِ ٱلْكَبْرِيْتُوْسِ وَٱلْكَبْرِيْتِيْكِ . . . إِلَخْ ، فَإِنَّ لِكُلٍّ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمُلْحَقَاتِ وَٱلزَّوَائِدِ ٱلَّتِيْ فِيْهَا مَعْنًى خَاصًّا يَدُلُّ عَلَىٰ تَرْكِيْبِ ٱلْحَامِضِ ٱلْمُرَادِ كَمَا يَعْلَمُ دَارِسُوْ ٱلْكِيْمِيَاءِ . قَالَ : فَمَنْ يُسَمِّي

ٱلْحَامِضَ ٱلْكَبْرِيْتِيْكَ بِٱلْحَامِضِ ٱلْكِبْرِيْتِيِّ كَمَنْ يُسَمِّي ٱلْفَرَسَ حِمَارًا لِأَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا رَأْسًا وَذَنَبًا . . .

وَٱلْجَاحِظُ يَقُوْلُ فِيْ مِثْلِ ذَلِكَ : إِنَّ رَأْيِيْ فِيْ هَـٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنْ هَـٰذَا ٱللَّفْظِ أَنْ أَكُوْنَ مَا دُمْتُ فِيْ ٱلْمَعَانِيْ ٱلَّتِيْ هِيَ عِبَارَتُهَا وَٱلْمَادَّةُ فِيْهَا عَلَىٰ أَنْ أَلْفِظَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْعَتِيْدِ ٱلْمَوْجُوْدِ (يَعْنِيْ : ٱللَّفْظَ ٱلْعِلْمِيَّ ٱلاصْطِلَاحِيَّ) وَأَدَعَ ٱلتَّكَلُّفَ لِمَا عَسَىٰ أَلَّا يَسْلُسَ وَلَا يَسْهُلَ إِلَّا بَعْدَ ٱلرِّيَاضَةِ ٱلطَّوِيْلَةِ . . . وَلِكُلِّ صِنَاعَةٍ أَلْفَاظٌ قَدْ جُعِلَتْ لِأَهْلِهَا بَعْدَ ٱمْتِحَانِ سِوَاهَا ، فَلَمْ تَلْزَقْ بِصِنَاعَتِهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَعَانِيْ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ مُشَاكَلَاتٌ .

فَأَنْتَ تَرَىٰ ٱلْجَاحِظَ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْأَعْجَمِيَّةِ وَٱلْعَامِّيَّةِ كَمَا هِيَ مَا دَامَتِ ٱلْمَعَانِيْ قَائِمَةً ، وَقَاعِدَتُهُ هِيَ ٱلْأَخَفُّ وَٱلْأَدَلُّ وَٱلْأَفْهَمُ وَٱلْأَشْيَعُ ، وَهَـٰذَا بِعَيْنِهِ يَقُوْلُ ٱلدُّكْتُوْرُ فِيْهِ : « يُشْتَرَطُ فِيْ حُسْنِ ٱلتَّعْبِيْرِ أَنْ يُؤَدِّيَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْمُرَادَ إِلَىٰ ذِهْنِ ٱلسَّامِعِ بِأَقَلِّ مَا يَكُوْنُ مِنَ ٱلْوَقْتِ وَٱلْكُلْفَةِ وَٱلْإِسْرَافِ فِيْ ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ » .

وَقَدْ كَلَّمَنِيْ بَعْضُهُمْ فِيْ خَطَأِ ٱلدُّكْتُوْرِ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْأَعْجَمِيَّةِ وَإِقْحَامِهَا فِيْ كِتَابَتِهِ ، وَأَنَّهُ يَجْنَحُ إِلَىٰ ذَلِكَ بِأَوْهَىٰ سَبَبٍ ، وَلَا أَرَاهُ خَطَأً ، بَلْ أَنَا أَرُدُّ ذَلِكَ إِلَىٰ مَا بَيَّنْتُهُ آنِفًا مِنْ أَمْرِ ٱلنَّاقِلِ وَٱلْوَاضِعِ وَلَا يُعْجِزُنَا أَنْ نَجِدَ لِصَنِيْعِ ٱلدُّكْتُوْرِ نَصًّا يَقُوْمُ بِهِ وَيَنْهَضُ بِحُجَّتِهِ ، فَقَدْ قَالَ أَبُوْ عَلِيٍّ ٱلْفَارِسِيُّ : إِنَّ ٱلْعَرَبَ إِذَا ٱشْتَقَّتْ مِنَ ٱلْأَعْجَمِيِّ خَلَطَتْ فِيْهِ ، فَإِذَا كَانَ هَـٰذَا فِيْ ٱلاشْتِقَاقِ وَهُوَ لَا يَكُوْنُ إِلَّا مِنْ أَصْلٍ ، فَكَيْفَ بِٱلتَّعْرِيْبِ ؟ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا خَلْطَ وَلَا ٱضْطِرَابَ وَإِنَّمَا هُوَ سَبِيْلُ ٱلْوَضْعِ وَحِكْمَةُ ٱلدِّلَالَةِ وَأَنَّ ٱللُّغَةَ هَـٰكَذَا تَجِيْءُ ؛ ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ ٱلنَّحْوِيُّ يَقُوْلُ : لِمَاذَا وَلِأَنَّ . . .

وَقَدْ أَعْجَبَنِيْ حُسْنُ تَقْسِيْمِ ٱلدُّكْتُوْرِ لِقَوَاعِدِهِ ٱلَّتِيْ بَسَطَهَا فِيْ مَقَالِهِ ٱلْمُسْتَفِيْضِ ، حَتَّىٰ إِنِّيْ لَأَرَاهُ بَابًا جَدِيْدًا فِيْ ٱلتَّقْسِيْمِ ٱلْمَعْرُوْفِ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱللُّغَةِ لِابْتِذَالِ ٱلْأَلْفَاظِ وَغَرَابَتِهَا ، إِذْ لَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا غَرِيْبٌ وَمُبْتَذَلٌ وَلَا بَيْنَنَا عَرَبٌ وَمُحْدَثُوْنَ .

بَيْدَ أَنَّ مِنْ تِلْكَ ٱلْقَوَاعِدِ أَنَّ ٱلْأُسْتَاذَ يَتَرَخَّصُ فِيْ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْعَامِّيَّةِ وَهُوَ يَجِدُ فَصِيْحَهَا ، وَيَقُوْلُ فِيْ ذَلِكَ : « إِذَا أَسْمَعْتُ ٱلْفَلَّاحَ ٱلْمِصْرِيَّ كَلِمَةَ (بِذَارٍ) مَرَّةً فِيْ ٱلْأُسْبُوْعِ أَوْ فِيْ ٱلشَّهْرِ ، سَمِعَ كَلِمَةَ (تَقَاوِي) مِئَةَ مَرَّةٍ وَأَلْفَ مَرَّةٍ ، فَرَأَيْنَا أَنَّ مُحَاوَلَةَ تَغْيِيْرِ لُغَةِ ٱلْعَامَّةِ فِيْ

هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ وَأَمْثَالِهَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْعَبَثِ وَإِضَاعَةٌ لِلْوَقْتِ وَتَضْيِيْعٌ لِلْفَائِدَةِ ، فَجَارَيْنَاهُمْ فِيْمَا نَكْتُبُهُ لَهُمْ » . وَهَـٰذَا مَا كُنْتُ أُجَادِلُهُ فِيْهِ وَلَا أُسَلِّمُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ أَغْفَلَ أَصْلًا ٱجْتِمَاعِيًّا عَظِيْمًا ، فَإِنَّ عَامَّتَنَا غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ مِنَ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْفُصْحَىٰ ، وَلَا يَزَالُ فِيْهِمْ مِيْرَاثُهَا مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيْثِ وَكَلَامِ ٱلْعُلَمَاءِ فِيْ أُمُوْرِ دِيْنِهِمْ ، وَهَـٰذِهِ هِيَ وَسَائِلُ مَزْجِهِمْ بِٱلْفَصِيْحِ وَرَدِّهِمْ إِلَيْهِ ، وَلَا تَزَالُ هَـٰذِهِ ٱلْوَسَائِلُ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُهُ ٱلنَّوَامِيْسُ ٱلْمَحْتُوْمَةُ ، وَلَوْلَاهَا لَمَا بَقِيَ لِلْفُصْحَىٰ بَقِيَّةٌ بَعْدُ .

وَقَدْ كَانَ جَاءَ إِلَىٰ مِصْرَ مِنْ بِضْعِ سِنِيْنَ رَجُلٌ مِنْ أَمْرِيْكَة هُوَ مِنْ تَلَامِيْذِ ٱلدُّكْتُوْرِ ٱلْقُدَمَاءِ ، فَنَزَحَ إِلَىٰ ذَلِكَ ٱلْبَرِّ ، فَٱتَّجَرَ فَأَثْرَىٰ ، وَفَشَتْ لَهُ نِعْمَةٌ عَظِيْمَةٌ ، وَلَمَّا لَقِيْتُهُ لَقِيْتُ فِيْ يَدِهِ صَحِيْفَةً وَضَعَ فِيْهَا مَسَائِلَ فِيْ ٱللُّغَةِ وَٱلنَّحْوِ ، وَكَانَ أَعَدَّهَا لِيَسْأَلَ عَنْهَا ، وَفِيْ أَوَّلِهَا هَـٰذَا ٱلسُّؤَالُ : لِمَاذَا يُقَالُ : فَصُحَ ٱلرَّجُلُ فَصَاحَةً فَهُوَ فَصِيْحٌ . ثُمَّ يَقُوْلُ : شَعَرَ شِعْرًا فَهُوَ شَاعِرٌ ؟ أَلَمْ يَكُنِ ٱلْقِيَاسُ أَنْ يُقَالَ : شَعُرَ شَعَارَةً فَهُوَ شَعِيْرٌ . وَٱلْفَصَاحَةُ وَٱلشِّعْرُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ؟

وَهَـٰذَا ٱلسُّؤَالُ وَإِنْ كَانَ فِيْ ظَاهِرِ ٱلرَّأْيِ لَغْوًا وَعَبَثًا ، وَلَـٰكِنَّهُ دَقِيْقٌ فِيْ تَارِيْخِ ٱللُّغَةِ وَأَقْيِسَتِهَا ، وَلَا مَحَلَّ لِبَسْطِ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيْ هَـٰذَا ٱلْمَوْضِعِ ، غَيْرَ أَنِّيْ أَنْهَيْتُ ٱلْخَبَرَ لِلدُّكْتُوْرِ صَرُّوْفٍ وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ صَاحِبَكَ هَـٰذَا يَضَعُ قَوَاعِدَ ٱللُّغَةِ فِيْ ٱلْمِيْزَانِ ٱلَّذِيْ فِيْ حَانُوْتِهِ . . . وَأَنْتَ كَذَلِكَ تُعَالِجُ بَعْضَ ٱلْأَلْفَاظِ أَحْيَانًا بِبَعْضِ ٱلْغَازَاتِ وَٱلْحَوَامِضِ .

قُلْتُ هَـٰذَا لِأَنِّيْ لَمْ أُسَلِّمْ لَهُ قَطُّ فِيْمَا كَانَ يَرَاهُ فِيْ مِثْلِ ٱلْبِذَارِ وَٱلتَّقَاوِي ، عَلَىٰ أَنَّهُ قَيَّدَ ٱلْكَلَامَ بِقَوْلِهِ : (فِيْمَا نَكْتُبُهُ لَهُمْ) وَهَـٰذَا ٱحْتِرَاسٌ يُدَافِعُ عَنْهُ بِقُوَّةٍ كَمَا تَرَىٰ .

وَلَا يَمْتَرِيْ أَحَدٌ فِيْ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلنَّهْضَةَ ٱللُّغَوِيَّةَ ٱلَّتِيْ أَدْرَكْنَاهَا وَعَمِلْنَا فِيْهَا لَمْ تَكُنْ سِوَىٰ نُمُوٍّ طَبِيْعِيٍّ لِعَمَلِ رِجَالٍ أَفْذَاذٍ نَظُنُّ ٱلدُّكْتُوْرَ صَرُّوْف فِيْ طَلِيْعَتِهِمْ ، لِأَنَّهُ كَانَ أَطْوَلَهُمْ جِهَادًا وَأَكْثَرَهُمْ عَمَلًا وَأَظْهَرَهُمْ أَثَرًا ، وَكَانَ « ٱلْمُقْتَطَفُ » يَجِيْءُ لَهَا كُلَّ شَهْرٍ كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ زَمَنِيَّةٌ مُسَلَّطَةٌ بِنَامُوْسٍ كَنَامُوْسِ ٱلنُّشُوْءِ ، حَتَّىٰ لَأَلَمَّ هَـٰذَا ٱلْمُقْتَطَفُ أَنْ يَكُوْنَ عَصْرٌ مِنَ ٱلْعُصُوْرِ قَدْ خَرَجَ فِيْ شَكْلِ ٱلْكِتَابَةِ . وَلَقَدْ كَاشَفَنِيْ ٱلدُّكْتُوْرُ فِيْ آخِرِ أَيَّامِهِ أَنَّهُ كَانَ يَوَدُّ لَوْ خَتَمَ عَمَلَهُ بِوَضْعِ مُعْجَمٍ فِيْ ٱللُّغَةِ يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ فِيْهِ : إِنَّهُ مُعْجَمُ ٱلشَّعْبِ ، وَفَصَّلَ لِيْ طَرِيْقَتَهُ ، إِذْ

كُنْتُ أُكَلِّمُهُ فِي كِتَابٍ لُغَوِيٍّ ٱفْتَتَحْتُ ٱلْعَمَلَ فِيهِ مِنْ زَمَنٍ وَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنْ أَمْرِهِ خَبَرًا[1] فَقَالَ لِي: خُذْ بَيْنَ طَرِيقَتِي وَطَرِيقَتِكَ، وَٱمْضِ أَنْتَ فِي هَـٰذَا ٱلْعَمَلِ؛ فَإِنِّي لَوْ وَجَدْتُ فَرَاغًا لَمَا عَدَلْتُ بِهَـٰذَا ٱلْأَثَرِ شَيْئًا، وَمَا كُلُّ سَهْلٍ هُوَ سَهْلٌ.

عَلَىٰ أَنَّ شَيْخَنَا هَـٰذَا لَوْ قَدْ كَانَ تَفَرَّغَ لِلُّغَةِ وَتَوَفَّرَ عَلَيْهَا وَٱجْتَمَعَ لَهَا بِذَٰلِكَ ٱلْعُمُرِ وَتِلْكَ ٱلْعُلُومِ وَٱلْأَدَوَاتِ، لَكَانَ فِيهَا بِأُمَّةٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاخِ ٱلْمَاضِينَ مِنْ لَدُنْ أَبِي عَمْرِو ٱبْنِ ٱلْعَلَاءِ إِلَىٰ ٱلدُّكْتُورِ يَعْقُوب صَرُّوف، وَلَـٰكِنْ لَعَلَّ ٱلدَّهْرَ أَضْيَقُ مِنْ أَنْ يَتَّسِعَ أَوْ هُوَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَضِيقَ.. لِإِمَامٍ آخَرَ كَأَبِي عَلِيٍّ ٱلْفَارِسِيِّ يَفْرُغُ سَبْعِينَ سَنَةً لِفَرْعٍ وَاحِدٍ مِنْ عُلُومِ ٱللُّغَةِ هُوَ عِلْمُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاشْتِقَاقِ وَٱلْعِلَلِ ٱلصَّرْفِيَّةِ، وَيَجْعَلُهُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ عَلَىٰ مَا قَالَ تِلْمِيذُهُ ٱبْنُ جِنِّيٍّ: «لَا يَعْتَاقُهُ عَنْهُ وَلَدٌ، وَلَا يُعَارِضُهُ فِيهِ مَتْجَرٌ، وَلَا يَسُومُ بِهِ مَطْلَبًا، وَلَا يَخْدِمُ بِهِ رَئِيسًا، فَكَأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ مَخْلُوقًا لَهُ».

وَكَانَتْ لِلدُّكْتُورِ طَرِيقَةٌ جَرِيئَةٌ فِي رَدِّ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْعَرَبِيَّةِ إِلَىٰ أُصُولِهَا وَٱلرُّجُوعِ بِهَا إِلَىٰ أَسْبَابِ أَخْذِهَا وَٱشْتِقَاقِهَا وَتَصَارِيفِهَا مِنْ لُغَةٍ إِلَىٰ لُغَةٍ، وَأَعَانَهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ثُقُوبُ فِكْرِهِ وَسَعَةُ عِلْمِهِ وَدِقَّةُ تَمْيِيزِهِ وَمَيْلُهُ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ فِي تَحْقِيقِ نَامُوسِ ٱلنُّشُوءِ وَتَبَيُّنِ آثَارِهِ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمَخْلُوقَاتِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ ٱلْمُسَمَّاةِ بِٱلْأَلْفَاظِ، وَكَانَ مُعْجَبًا بِكُلِّ مَا جَاءَهُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْبَابِ وَلَوْ كَانَ مِنْ خَطَإٍ؛ لِأَنَّهُ إِلَىٰ ٱلرَّأْيِ يَقْصِدُ، وَلِلطَّرِيقَةِ يُمَكِّنُ، وَمَعَ ٱلْخَاطِرِ يَجْرِي.

وَهَـٰذَا بَابٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ ٱلتَّسَمُّحِ وَٱلتَّسَاهُلِ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهُ، وَلَا تَتَّفِقُ ٱلْحِيطَةُ فِيهِ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَتَلَوَّحَ شَيْءٌ مِنْهُ وَيَسْنَحَ شَيْءٌ وَتَتَلَامَحَ عِلَّةٌ وَيَعْرِضَ سَبَبٌ؛ ثُمَّ هُوَ فِي ٱلدُّكْتُورِ مِنْ بَعْضِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَىٰ ٱسْتِحْكَامِ مَلَكَةِ ٱلْوَضْعِ فِيهِ، وَنُزُوعِهِ إِلَىٰ أَنْ يَقْتَاسَ بِقِيَاسِهِ وَيَسْتَخْرِجَ مِنْ عِلَلِهِ؛ وَقَدْ تَرَاهُ يَبْعُدُ فِي ذَٰلِكَ فَيَنْصِبُ لَكَ ٱلدَّلِيلَ مِنْ وَرَاءِ بِضْعَةِ ٱلْآفِ سَنَةٍ، وَأَنَا ٱلسَّاعَةَ أُعَانِتُ ذَاكِرَتِي وَأُدِيرُهَا مِنْ هَـٰهُنَا وَهَـٰهُنَا لِأَجِدَ كَلِمَةً قَالَ لِي مَرَّةً فِي تَارِيخِهَا: إِنَّ ٱلْعَرَبَ أَخَذُوهَا عَنِ ٱلْيُونَانِ حِينَ كَانَتْ مَكَّةُ نَفْسُهَا جَارِيَةً فِي حُكْمِهِمْ؛ وَلَـٰكِنِّي أُنْسِيتُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ، إِذْ لَمْ أَرْتَبِطْهَا، إِذْ كُنْتُ لَا أَرَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَذْهَبَ وَلَا أُحْسِنُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ

(١) { أَحْسَبُهُ يَعْنِي ٱلْمُعْجَمَ ٱلَّذِي كَانَ يُعَاوِنُ فِيهِ صَدِيقَهُ ٱلْمَرْحُومَ أَحْمَد زَكِي بَاشَا، وَٱنْظُرْ: «مَقَالَاتٌ مَنْحُولَةٌ» مِنْ كِتَابِنَا «حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ» }.

قَوْلًا، وَأَعُدُّ كُلَّ مَا يُقَالُ فِيهِ مِنْ بَابِ تَلْفِيقِ ٱلْأَدِلَّةِ، كَأَنَّهُ ذَنْبُ ذَٰلِكَ ٱلْأَعْرَابِيِّ ٱلَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ فِي ٱلنَّاسِ مِنْهُ مِثْلَ غَرَائِزِ ٱلْغَنَمِ.. فَيَقُولُ «إِلَّا تَرَهُ تَظُنَّهُ».

وَٱلدُّكْتُورُ صَرُّوف رَجُلٌ مَالِيٌّ فِي ٱلْمَالِ وَفِي ٱللُّغَةِ جَمِيعًا، فَمَذْهَبُهُ ٱلْقَصْدُ فِي ٱلدَّلَالَةِ وَٱلْقَصْدُ فِي ٱلْوَقْتِ وَٱلْقَصْدُ فِي ٱلْقُوَّةِ؛ وَقَدْ صَرَفَتْهُ ثَلَاثَتُهَا عَنِ ٱلشِّعْرِ وَعَمَّا كَانَ فِي حُكْمِهِ مِنْ تَحْبِيرِ ٱلنَّثْرِ وَتَوْشِيَتِهِ، عَلَىٰ أَنَّهُ يُحْسِنُهُمَا لَوْ أَرَادَ وَلَوْ سَخَتْ نَفْسُهُ بِٱلْوَقْتِ يُنْفِقُهُ وَلَا يَتَعَرَّفُ قَدْرَ مَا مَضَىٰ مِنْهُ فِي هَـٰذِهِ ٱلسَّاعَاتِ، بَلْ فِي سَاعَةِ ٱلْكَوْنِ ٱلْكُبْرَىٰ ٱلَّتِي يَتَعَاقَبُ فِيهَا عَقْرَبَا ٱلنَّهَارِ وَٱللَّيْلِ، كَمَا كَانَ يُنْفِقُ ٱلْبَارُودِيُّ يَوْمًا فِي بَيْتٍ أَوْ بَيْتَيْنِ.

وَكَانَ شَيْخُنَا فِي آخِرِ مَجَالِسِي مَعَهُ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِشَهْرٍ أَوْ نَحْوِهِ؛ أَطْلَعَنِي عَلَىٰ كُلِّ مَا نَشَرَهُ فِي مُجَلَّدَاتِ «ٱلْمُقْتَطَفِ» مِنْ شِعْرِهِ، فَأُعْجِبْتُ بِأَشْيَاءَ مِنْهُ، وَأَشَرْتُ عَلَىٰ صَدِيقِنَا ٱلْأُسْتَاذِ فُؤَاد صَرُّوف أَنْ يُعِيدَ نَشْرَ قَصِيدَةِ ٱلرَّقَّاشِ ٱلَّتِي تَرْجَمَهَا ٱلدُّكْتُورُ عَنِ ٱلْإِنْكِلِيزِيَّةِ فِي نَسَقٍ سَلِسٍ مُوَشَّحِ ٱلْقَوَافِي، وَٱلَّتِي يَقُولُ فِيهَا يَصِفُ مَخَازِيَ ٱلْمَدَنِيَّةِ [من المتقارب]:

مَخَازٍ تَوَالَتْ فَصَالَتْ وَصَارَتْ ... عَلَىٰ ٱللَّحْمِ دُودًا وَفِي ٱلْعَظْمِ سُوسَا

وَسَأَلَنِي ٱلدُّكْتُورُ بَعْدَ أَنْ فَرَغْتُ مِنْ شِعْرِهِ، فِي أَيِّ طَبَقَةٍ تَعُدُّنِي مِنْ شُعَرَائِهِمْ؟ فَفَكَّرْتُ قَلِيلًا ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: فِي طَبَقَةِ ٱلدُّكْتُورِ صَرُّوف! فَضَحِكَ لَهَا كَثِيرًا.

وَكَانَتْ لَهُ آرَاءٌ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ غَيَّرَ بَعْضَهَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ، وَمِمَّا قَالَهُ لِي مَرَّةً: إِنَّ ٱلَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَخْلُدَ ذِكْرُهُ فِي هَـٰذَا ٱلشَّرْقِ فَلَا يُنْسَىٰ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْمَعَ فِي هَـٰذَا إِلَّا إِذَا بَنَىٰ هَرَمًا كَهَرَمِ ٱلْجِيزَةِ! وَهِيَ كَلِمَةٌ فَلْسَفِيَّةٌ كَبِيرَةٌ تَنْطَوِي عَلَىٰ شَرْحٍ طَوِيلٍ يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُهُ.

وَقَدْ كَادَتْ قَاعِدَةُ ٱلْقَصْدِ ٱلَّتِي أَوْمَأْتُ إِلَيْهَا تَنْتَهِي بِهِ فِي آخِرِ مُدَّتِهِ إِلَىٰ ٱلْقَوْلِ بِإِسْقَاطِ ٱلْإِعْرَابِ بَتَّةً، وَأَظُنُّ ذَٰلِكَ خَاطِرًا سَنَحَ لَهُ فَأَخَذَ بِأَوَّلِهِ وَتَرَكَ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَعْقَابِهِ، فَزُرْتُهُ مَرَّةً فِي شَهْرِ يَنَايِرَ/ كانون الآخر لِسَنَةِ ١٩٢٧، وَكَانَ يُصَحِّحُ تَسْوِيدَةَ جَوَابٍ كَتَبَهُ عَنْ سُؤَالٍ وَرَدَ عَلَيْهِ فِي هَلْ يُمْكِنُ ٱلرُّجُوعُ إِلَىٰ ٱللُّغَةِ ٱلْفُصْحَىٰ فِي ٱلْقِرَاءَةِ وَٱلتَّكَلُّمِ، وَمَا ٱلْفَائِدَةُ مِنْ ذَٰلِكَ؟ فَلَمَّا أَمَرَّ ٱلْجَوَابَ عَلَىٰ نَظَرِهِ دَفَعَهُ إِلَيَّ فَقَرَأْتُهُ، فَإِذَا هُوَ يَرَىٰ أَنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبِنَاءِ يَتَهَوَّرُ فِيهَا وَقْتٌ مَا؛ قَالَ: فَإِذَا قَضَيْنَا عَلَىٰ أَبْنَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ أَلَّا يَتَكَلَّمُوا إِلَّا

كَلامًا مُعْرَبًا نَكُوْنُ قَدْ أَضَعْنَا عَلَيْهِمْ ثُلُثَ ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِيْ يَقْضُوْنَهُ فِيْ ٱلتَّكَلُّمِ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ تُجْنَىٰ .

وَلَقَدْ جَادَلْتُهُ فِيْ ذَلِكَ وَلَجَجْتُ فِيْ ٱلْخِلَافِ مَعَهُ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ هَـٰذِهِ قَاعِدَةٌ مَالِيَّةٌ ، ثُمَّ إِنَّكَ أَغْفَلْتَ أَمْرَ ٱلْعَادَةِ وَمَا تُيَسِّرُهُ ، وَفِيْ ٱلْكَلَامِ إِيْجَازٌ يَقُوْمُ مَعَ ٱلإِعْرَابِ هَـٰذَا ٱلْمَقَامَ حِيْنَ لَا يَكُوْنُ مِنَ ٱلإِيْجَازِ بُدٌّ ، وَفِيْ ٱللَّهَجَاتِ ٱلْعَامِّيَّةِ مِنَ ٱلْحَشْوِ وَمَطِّ ٱلصَّوْتِ وَفَسَادِ ٱلتَّرْكِيْبِ مَا يَذْهَبُ بِأَكْثَرَ مِنْ ثُلُثِ ٱلْوَقْتِ ؛ فَأَحْسَبُهُ ٱقْتَنَعَ وَإِنْ كُنْتَ رَأَيْتَهُ لَمْ يَقْتَنِعْ .

وَإِنَّهُ لَيَحْضُرُنِيْ بَعْدَ هَـٰذَا كَلَامٌ كَثِيْرٌ فِيْ فَضَائِلِ ٱلدُّكْتُوْرِ وَآدَابِهِ وَشَمَائِلِ نَفْسِهِ ٱلزَّكِيَّةِ وَمَنْزِعِهِ فِيْ ٱلأَخْلَاقِ ٱلطَّيِّبَةِ ٱلْكَرِيْمَةِ ، وَلَوْ ذَهَبْتُ أُفَصِّلُ لَخَرَجْتُ إِلَىٰ ٱلإِفَاضَةِ فِيْ فُنُوْنٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَلَـٰكِنِّيْ أَجْتَزِئُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ يَظْهَرُ لِيْ دَائِمًا كَأَنَّهُ فِيْ ظِلٍّ مِنْ مَحَبَّةِ ٱللهِ .

مصطفى صادق الرافعي

* * *

ٱلشَّيْخُ ٱلْخُضَرِيُّ (*)

تَحَوَّلَ ٱلْكَاتِبُ إِلَىٰ كِتَابٍ ، وَرَجَعَ ٱلْمُفَكِّرُ إِلَىٰ فِكْرِهِ ، وَأَصْبَحَ مَنْ كَانَ يُدَارِسُ ٱلنَّاسَ فَإِذَا هُوَ دَرْسٌ يُذْكَرُ أَوْ يُنْسَىٰ ، وَتَنَاوَلَ ٱلتَّارِيْخُ عَالِمًا مِنْ عُلَمَائِهِ ، فَجَعَلَهُ نَبَأً مِنْ أَنْبَائِهِ ، وَكَانَ يَبْنِيْهِ فَوَضَعَهُ فِيْ بِنَائِهِ ، وَقِيْلَ : مَاتَ ٱلشَّيْخُ ٱلْخُضَرِيُّ !

آهِ لَوْ يَرْجِعُ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ مِنْ طَرِيْقِ ٱلْمَوْتِ ٱلَّتِيْ أَوَّلُهَا هَـٰذِهِ ٱلنُّقْطَةُ ٱلصَّغِيْرَةُ ٱلْمُسَمَّاةُ بِٱلْكُرَةِ ٱلأَرْضِيَّةِ ، وَآخِرُهَا حَيْثُ تَجِدُ كَلِمَةَ « ٱلآخِرَةِ » بِلَا مَعْنًىٰ لَا مَحْدُوْدٍ وَلَا مَظْنُوْنٍ ! وَآهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ عَنِ ٱلْمَيْتِ كَأَنَّهُ حَيٌّ بَيْنَنَا ، وَنَحْنُ كَثِيْرًا مَا نَتَكَلَّمُ عَنِ ٱلْحَيِّ كَأَنَّهُ مَاتَ مِنْ زَمَنٍ ! إِنِّيْ لأَكْتُبُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ وَكَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَىٰ وَجْهِ أَبِيْ رَحِمَهُ ٱللهُ ، وَأَشْهَدُ ذَلِكَ ٱلسَّمْتَ ٱلْعَجِيْبَ ، وَذَلِكَ ٱلْوَقَارَ ٱلَّذِيْ يَغْمُرُ ٱلنَّفْسَ هَيْبَةً وَجَلَالًا ، وَأَسْتَرْوِحُ ذَلِكَ ٱلْحُبَّ ٱلَّذِيْ هُوَ أَحَدُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثِ ٱلْمُنْتَهِيَةِ مِنَ ٱلأَرْضِ إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ ، وَمِنَ ٱلْمَخْلُوْقِ إِلَىٰ ٱلْخَالِقِ ، وَٱلْمُبْتَدِئَةِ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَىٰ ٱلأَرْضِ ، وَمِنَ ٱلْخَالِقِ إِلَىٰ ٱلْمَخْلُوْقِ : طَرِيْقُ ٱلأُمِّ ، وَطَرِيْقُ ٱلأَبِ ، وَطَرِيْقُ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ؛ أَكْتُبُ وَكَأَنَّ يَدًا مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَادَّةِ تَمْسَحُ عَلَىٰ قَلْبِيْ فَأَجِدُ ثَقْلَةً وَفَتْرَةً ، وَأَسْتَشْعِرُ حَنِيْنًا وَشَوْقًا ، وَأُحِسُّ هَـٰذَا ٱلْقَلْبَ يُنَازِعُنِيْ إِلَىٰ قَوْمٍ ذَهَبُوْا بِلَا رَجْعَةٍ ، وَفَارَقُوْا بِلَا وَدَاعٍ ، وَغَابُوْا عَنَّا بِلَا خَبَرٍ ؛ دَخَلُوْا إِلَىٰ أَنْفُسِنَا وَلَا تَحْوِيْهِمْ ، وَخَرَجُوْا مِنْهَا وَلَا تَخْلُوْا مِنْهُمْ ، فَمَا دَخَلُوْا وَلَا خَرَجُوْا ، وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْحَيْرَةُ ٱلَّتِيْ يَتْرُكُهَا ٱلْمَيْتُ ٱلْعَزِيْزُ لِلْحَيِّ ٱلْمُتَفَجِّعِ كَيْمَا يَعْرِفَ بِأَمْوَاتِهِ مَا هُوَ ٱلْمَوْتُ !

* * *

كُنَّا مُنْذُ بِضْعٍ وَثَلَاثِيْنَ سَنَةً فِيْ مَدِيْنَةِ ٱلْمَنْصُوْرَةِ ، وَكَانَ أَبِيْ يَوْمَئِذٍ كَبِيْرَ قُضَاةِ ٱلشَّرْعِ فِيْ ذَلِكَ ٱلإِقْلِيْمِ ، فَإِنِّيْ لأَلْعَبُ ذَاتَ يَوْمٍ فِيْ بَهْوِ دَارِنَا إِذْ طُرِقَ ٱلْبَابُ ، فَذَهَبْتُ أَفْتَحُ فَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ ٱلْعِمَامَةِ(١) ، وَلَمْ أُمَيِّزْ مِنْ هَيْأَتِهِ أَهُوَ طَالِبُ عِلْمٍ أَوْ هُوَ عَالِمٌ ؟ فَكَانَ حَدَثًا

(*) « ٱلْمُقْتَطَفُ » : مَايُوْ/ أَيَّارِ سَنَةَ ١٩٢٧م .

(١) كِنَايَةٌ عَنِ ٱلْحَدَاثَةِ وَأَنَّهُ شَيْخٌ بِٱلْمَنْظَرِ لَا بِٱلسِّنِّ .

لَـٰكِنَّهُ يَتَّسِمُ بِسِمَةِ ٱلْجِدِّ ؛ وَرَأَيْتُهُ لَا تَمُوْجُ بِهِ ٱلْجُبَّةُ كَٱلْعُلَمَاءِ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَمُجُّهُ كَٱلطَّلَبَةِ ؛ وَكَانَ فِيْ يَدِهِ مُجَلَّدٌ ضَخْمٌ لَوْ نَطَقَ لَقَالَ لَهُ : دَعْنِيْ لِمَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ ؛ فَمَا قَدَّرْتُهُ يَزِنُ عِشْرِيْنَ مُجَلَّدًا مِنْ مِثْلِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً كَأَنِّيْ لَا أَزَالُ أَرَاهَا فِيْ عَيْنِهِ إِلَىٰ ٱلسَّاعَةِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ : أَيْنَ ٱلشَّيْخُ ؟ يَعْنِيْ ٱلْوَالِدَ ـ قُلْتُ : خَرَجَ آنِفًا ؛ قَالَ : فَٱدْفَعْ إِلَيْهِ هَـٰذَا ٱلْكِتَابَ ، وَقُلْ لَهُ جَاءَ بِهِ ٱلْخُضَرِيُّ .

ثُمَّ أَغْلَقْتُ ٱلْبَابَ ، وَٱنْتَحَيْتُ جَانِبًا ، وَفَتَحْتُ ٱلْمُجَلَّدَ ، فَإِذَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ « ٱلتَّفْسِيْرِ ٱلْكَبِيْرِ » لِلْفَخْرِ ٱلرَّازِيِّ ، كَانَ قَدِ ٱسْتَعَارَهُ مِنْ مَكْتَبَتِنَا ؛ وَعَرَفْتُ ٱلشَّيْخَ مِنْ يَوْمِئِذٍ ؛ وَكَانَ أُسْتَاذًا لِلْعَرَبِيَّةِ فِيْ مَدْرَسَةِ ٱلصَّنَائِعِ ، يَضَعُ كِتَابَ ٱلنَّحْوِ وَٱلصَّرْفِ مَعَ ٱلْمِطْرَقَةِ وَٱلْمِنْشَارِ وَٱلْقَدُوْمِ ، فَيَذْهَبُ شَيْءٌ فِيْ شَيْءٍ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا ، وَقَلَّمَا كُنَّا نَذْكُرُهُ فِيْ مَدْرَسَتِنَا ، إِذْ كَانَ لَنَا شَيْخٌ فَحْلٌ ثِقَةٌ مِنْ رِجَالِ ٱلْأَزْهَرِ ؛ غَيْرَ أَنَّ ٱلْخُضَرِيَّ كَانَ لَهُ مَوْضِعٌ فِيْ كُلِّ مَجْلِسٍ ؛ وَكَانَ يُدَاخِلُ قَوْمًا مِنَ ٱلْخَاصَّةِ يُعْنَوْنَ بِٱلْمَسَائِلِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَفَلْسَفَتِهَا وَتَقْرِيْبِهَا مِنَ ٱلْعَامَّةِ وَٱلدَّهْمَاءِ ، وَبِإِشَارَةٍ مِنْ بَعْضِ هَـٰؤُلَاءِ وَضَعَ أَوَّلَ كُتُبِهِ : « نُوْرُ ٱلْيَقِيْنِ فِيْ سِيْرَةِ سَيِّدِ ٱلْمُرْسَلِيْنَ » ؛ وَيَكَادُ هَـٰذَا ٱلِاسْمُ يَدُلُّ عَلَىٰ وَزْنِ ٱلْأُسْتَاذِ فِيْ أَوَّلِ عَهْدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ وَرَاءَ ٱلسَّجْعَةِ ٱلْآتِيَةِ مِنَ ٱلْقُرُوْنِ ٱلْأَخِيْرَةِ لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ وَجْهٍ وَلَمْ يُعْرَفْ بِمَذْهَبٍ .

* * *

إِنَّ ٱلَّذِيْ يُرِيْدُ أَنْ يَقُوْلَ قَوْلًا صَحِيْحًا فِيْ هَـٰذَا ٱلْفَقِيْهِ ٱلْعَالِمِ ٱلْمُؤَرِّخِ ٱلْأَدِيْبِ ٱلْمُرَبِّيْ ، يَجِبُ أَنْ يَرْجِعَ بِتَيَّارِهِ إِلَىٰ مَنْبَعِهِ لِيَعْرِفَ مَبْلَغَ ٱنْبِعَاثِهِ وَقُوَّةَ جَرْيَتِهِ وَمَدَّ عُبَابِهِ ، فَمَا كَانَ ٱلْخُضَرِيُّ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَدَارِ ذَلِكَ ٱلنَّجْمِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلْعَظِيْمِ ٱلَّذِيْ أَهْدَتْهُ ٱلسَّمَاءُ إِلَىٰ ٱلْأَرْضِ وَسُمِّيَ فِيْ أَسْمَائِهَا « مُحَمَّدْ عَبْدُهْ » لَقَدْ أَخْرَجَتْهُ دَارُ ٱلْعُلُوْمِ كَمَا أَخْرَجَتِ ٱلْكَثِيْرِيْنَ ، وَلَـٰكِنَّ دَارَ عُلُوْمِهِ ٱلْكُبْرَىٰ كَانَتْ أَخْلَاقَ ٱلْأُسْتَاذِ ٱلْإِمَامِ وَشَمَائِلَهُ وَآرَاءَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهِمَّةَ نَفْسِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ يَكُوْنُ هُوَ ٱلْوَاحِدَ ٱلَّذِيْ يَبْدَأُ مِنْهُ ٱلْعَدَدُ فِيْ كُلِّ عَصْرٍ ، وَأَنْتَ فَكَيْفَ تَأَمَّلْتَ ٱلْخُضَرِيَّ فَٱعْلَمْ أَنَّكَ بِإِزَاءِ مَعْنًىٰ مِنْ مَعَانِيْ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّد عَبْدُه ، عَلَىٰ فَرْقِ مَا بَيْنَ ٱلنَّفْسَيْنِ ، بَلْ أَنْتَ مِنَ ٱلْخُضَرِيِّ كَأَنَّكَ تَرَىٰ ٱلشَّيْخَ سَارِيًا فِيْ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ ٱلزَّمَنِ .

كَانَ يَحْضُرُ دُرُوْسَ ٱلشَّيْخِ ، وَيَخْتَلِفُ إِلَىٰ نَادِيْهِ ، وَيُنَاقِلُهُ بَعْضَ ٱلرَّأْيِ ، وَيُعَارِضُ مَعَهُ

بَعْضَ ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِيْ كَانَ يُرْجِعُ إِلَىٰ ٱلشَّيْخِ فِيْ تَصْحِيْحِهَا أَوِ ٱلْإِشْرَافِ عَلَىٰ طَبْعِهَا ، فَنَفَذَ ٱلشَّيْخُ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَوَجَدَ ٱلسَّبِيْلَ إِلَىٰ ٱلِاسْتِقْرَارِ فِيْهَا ، فَهُوَ مِنْ بَعْدُ حَرِيْصٌ عَلَىٰ وَقْتِهِ ، مُجِدٌّ فِيْ عَمَلِهِ ، دَائِبٌ عَلَىٰ طَرِيْقِهِ ، آخِذٌ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلْفَاضِلَةِ ، مُصْلِحٌ مُرَبٍّ غَيُوْرٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِيْ سَمْتٍ وَهَيْبَةٍ ، وَجَزَالَةِ رَأْيٍ ، وَشَرَفِ هِمَّةٍ ، وَإِخْلَاصٍ حَقَّ ٱلْإِخْلَاصِ ؛ وَمَا أَرَىٰ فَوْضَىٰ عَصْرِنَا هَـٰذَا وَٱنْحِطَاطَهُ وَإِسْفَافَهُ وَسَخَافَةَ قَوْلِهِمْ : جَدِيْدٌ وَقَدِيْمٌ ، وَجَرِيْءٌ وَرَجْعِيٌّ ، وَحُرٌّ وَجَامِدٌ ـ إِلَّا مِنْ خَلَاءِ ٱلْعَصْرِ وَفَرَاغِهِ مِنَ ٱلنَّفْسِ ٱلْكَبِيْرَةِ ، وَحَاجَتِهِ إِلَىٰ إِمَامٍ عَظِيْمٍ ، وَمَتَىٰ أَصْبَحْنَا نَضْرِبُ فِيْ دَائِرَةٍ لَا مَرْكَزَ لَهَا ، فَهِيَ ٱلْمُرَبَّعُ وَهِيَ ٱلْمُسْتَطِيْلُ وَهِيَ كُلُّ شَكْلٍ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ ٱلدَّائِرَةُ ، وَٱلَّذِيْنَ رَأَوْا طَاغُوْرَ ٱلشَّاعِرَ ٱلْهِنْدِيَّ ٱلْمُتَصَوِّفَ حِيْنَ نَزَلَ بِمِصْرَ ، وَرَأَوْا سِحْرَهُ وَتَحْوِيْلَهُ كُلَّ جَدِيْدٍ مُدَّةَ أَيَّامٍ إِلَىٰ قَدِيْمٍ ، وَإِخْرَاسَهُ هَـٰذِهِ ٱلْأَلْسِنَةَ عَنْ نَقْدِهِ وَمُعَارَضَتِهِ ، وَعَنْ مُعَانَدَةِ ٱلْحَقِّ ، طَيْشًا وَنَزَقًا وَضَلَالًا وَتَجْدِيْدًا . . يَسْتَطِيْعُوْنَ أَنْ يُدْرِكُوْا مَا أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ ؛ وَيَتَبَيَّنُوْا ٱلسِّرَّ فِيْمَا نَحْنُ فِيْهِ ، وَيَتَمَثَّلُوْا مَا كَانَ لِلشَّيْخِ مُحَمَّد عَبْدُه فِيْ عَصْرِهِ بَلْ فِيْ خَلْقِ عَصْرِهِ .

* * *

وَٱنْتَهَىٰ ٱلْخُضَرِيُّ إِلَىٰ مَدْرَسَةِ ٱلْقَضَاءِ ٱلشَّرْعِيِّ ، فَأَلَّفَ كِتَابَهُ فِيْ ٱلْأُصُوْلِ ، ٱخْتَصَرَ فِيْهِ وَهَذَّبَ وَقَارَبَ ، فَهُوَ كِتَابٌ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعِلْمِ لَا كِتَابُ هَـٰذَا ٱلْعِلْمِ ، وَأَسَاتِذَةُ ٱلْأُصُوْلِ قَوْمٌ آخَرُوْنَ ، وَلَوْ أَنْتَ مِنْهُمْ مِثْلُ ٱلشَّيْخِ ٱلرَّافِعِيِّ ٱلْكَبِيْرِ لَرَأَيْتَ ٱلْبَحْرَ ٱلَّذِيْ يَذْهَبُ فِيْ سَاحِلِهِ نِصْفُ طُوْلِ ٱلْأَرْضِ ، وَقَدْ بَعَثَ ٱلْخُضَرِيُّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً يَوْمَئِذٍ كَانَ مِنْهَا صَدِيْقُنَا ٱلْمَرْحُوْمُ حِفْنِيْ نَاصِفٌ ، وَٱلشَّيْخُ ٱلْمَهْدِيُّ ، وَغَيْرُهُمَا ؛ ٱجْتَمَعُوْا عَلَىٰ إِبْدَاعِ نَهْضَةٍ فِيْ ٱلتَّأْلِيْفِ ، فَذَهَبَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ بِحِصَّةِ ٱلْأَدَبِ ، وَفَرَغَ ٱلْخُضَرِيُّ لِلْأُصُوْلِ ، أَخْبَرَنِيْ بِذَلِكَ حِفْنِيْ بِكْ رَحِمَهُ ٱللهُ ؛ ثُمَّ لَمَّا ٱخْتَارَ ٱلْقَائِمُوْنَ عَلَىٰ ٱلْجَامِعَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ٱلْقَدِيْمَةِ صَدِيْقَنَا ٱلْعَلَّامَةَ ٱلْمُؤَرِّخَ جُوْرْجِي زَيْدَانْ لِدَرْسِ ٱلتَّارِيْخِ ٱلْإِسْلَامِيِّ فِيْهَا ، طَارَ ٱلْخَبَرُ فِيْ ٱلْأُمَّةِ بِأَنَّهُمُ ٱخْتَارُوْا ٱلْقُنْبُلَةَ . . . وَشَعَرَ ٱلنَّاسُ بِمَعْنَىٰ ٱلْهَدْمِ قَبْلَ أَنْ يَتَهَدَّمَ شَيْءٌ ، فَٱضْطُرَّتِ ٱلْجَامِعَةُ إِلَىٰ أَنْ تُنَحِّيَهُ ، وَعَهِدَتْ فِيْ ٱلدَّرْسِ إِلَىٰ ٱلْأُسْتَاذِ ٱلْخُضَرِيِّ ، فَأَلْقَىٰ دُرُوْسَهُ ٱلَّتِيْ جَمَعَهَا فِيْ كِتَابِهِ « تَارِيْخُ ٱلْأُمَمِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ » وَقَالَ فِيْ مُقَدِّمَةِ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ : « أَرْجُوْ أَنْ أَكُوْنَ قَدْ وُفِّقْتُ

لِتَذْلِيلِ صُعُوبَةٍ كُبْرَىٰ ، وَهِيَ صُعُوبَةُ ٱسْتِفَادَةِ ٱلتَّارِيخِ ٱلْعَرَبِيِّ مِنْ كُتُبِهِ » نَقُولُ : وَعَلَىٰ أَنَّ ٱلشَّيْخَ أَحْسَنَ فِي كِتَابِهِ ، وَجَاءَ بِمَادَّةٍ غَزِيرَةٍ مِنْ فِكْرِهِ وَرَأْيِهِ ، وَبَسَطَ وَٱخْتَصَرَ ، وَبَاعَدَ وَقَرَّبَ ، فَإِنَّ كَلِمَتَهُ هَـٰذِهِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ أَكْبَرَ مِنَ ٱلتَّارِيخِ أَوْ أَكْبَرَ مِنْ كِتَابِهِ .

وَرَدَّ فِي ٱلسَّنَةِ ٱلْمَاضِيَةِ عَلَىٰ كِتَابِ « ٱلشِّعْرِ ٱلْجَاهِلِيِّ » لِلدُّكْتُورِ طَـٰه حُسَيْن ، وَكَانَ رَدُّهُ خِطَابًا أَرَادَ أَنْ يُحَاضِرَ بِهِ طَلَبَةَ ٱلْجَامِعَةِ ، لِأَنَّهُ أُسْتَاذُ أُسْتَاذِهِمْ ، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ جَعْلَ أُسْتَاذِهِمْ هَـٰذَا تِلْمِيذًا مَعَهُمْ ، وَأَبَتْ عَلَيْهِ ٱلْجَامِعَةُ مَا أَرَادَ ، وَلَعَلَّهَا فَطِنَتْ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْغَرَضِ ؛ وَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي شَرَعْتُ فِي طَبْعِ رَدِّي عَلَىٰ ٱلدُّكْتُورِ طَـٰه[1] كَلَّمَنِي فِي ٱسْتِلْحَاقِ مَقَالِهِ وَجَعْلِهِ ذَيْلًا فِي ٱلْكِتَابِ . وَقَدَّرْنَاهُ يَوْمَئِذٍ فِي نَحْوِ خَمْسِينَ صَفْحَةً أَوْ دُونَهَا ، وَقَدْ سَأَلْتُهُ أَنْ يَنْفِيَ مِنْهُ مَا كَانَ فِي مَقَادِيرِ ٱلرَّصَاصِ وَيَقْتَصِرَ عَلَىٰ مَا هُوَ فِي وَزْنِ ٱلْقَنَابِلِ ، فَقَالَ : « كُلُّهُ قَنَابِلُ ! » ثُمَّ ٱتَّسَعَ كِتَابِي وَجَاوَزَ مِقْدَارُهُ إِلَى ٱلضِّعْفِ ، فَوَسَّعَ هُوَ رَدَّهُ وَزَادَ فِيهِ وَطَبَعَهُ فِي قَرِيبٍ مِنْ ضِعْفِهِ عَلَىٰ حِدَةٍ .

دَعْ كِتَابَهُ ٱلْمَشْهُورَ « مُهَذَّبُ ٱلْأَغَانِي » ، فَهَـٰذَا لَا يُقَالُ : إِنَّ ٱلشَّيْخَ أَلَّفَهُ ، بَلْ أَلَّفَتْهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ؛ وَأَظُنُّ كُلَّ ذَلِكَ لَا يُذْكَرُ فِي جَنْبِ ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي كَانَ يَعْمَلُ فِيهِ أَخِيرًا ، وَهُوَ كِتَابُ « ٱلْأَدَبِ ٱلْمِصْرِيِّ » ، أَخْبَرَنِي أَنَّهُ فِي جُزْأَيْنِ ، وَدَعَانِي إِلَىٰ دَارِهِ لِأَرَىٰ « ٱلْمَكْتَبَةَ ٱلْخُضَرِيَّةَ » ؛ وَلِأَطَّلِعَ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ ؛ فَوَعَدْتُهُ وَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ، وَقَدْ حَدَّثَنِي أَنَّهُ مَعْنِيٌّ أَشَدَّ ٱلْعِنَايَةِ بِٱسْتِجْمَاعِ ٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي يَمْتَازُ بِهَا ٱلْأَدَبُ ٱلْمِصْرِيُّ عَنِ ٱلْأَدَبِ ٱلْحِجَازِيِّ وَٱلشَّامِيِّ وَٱلْعِرَاقِيِّ وَٱلْأَنْدَلُسِيِّ ، وَأَنَّهُ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ أَشْيَاءَ مُتَمَيِّزَةً مُنْذُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلطُّولُونِيَّةِ ، يَحِقُّ لِمِصْرَ أَنْ تَقُولَ فِيهَا : هَـٰذَا أَدَبِي ؛ وَكَانَ يَكْتُمُ خَبَرَ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِنَّ صَدِيقَنَا ٱلْأُسْتَاذَ حَافِظ بِك عَوَض صَاحِبَ جَرِيدَةِ « كَوْكَبِ ٱلشَّرْقِ » ، ٱقْتَرَحَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ فَصْلًا فِي ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمِصْرِيِّينَ وَأَدَبِهِمْ يَعْقِدُهُ لِكِتَابِ حَفْلَةِ تَكْرِيمِ شَوْقِي بِك ، ثُمَّ لَقِيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ ٱلشَّيْخُ : إِنَّ ٱلْبَحْثَ سَائِرٌ عَلَىٰ أَحْسَنِ وُجُوهِهِ ! .

* * *

كَانَ ٱلْخُضَرِيُّ يَفْرَحُ لِلِقَائِي وَيَهَشُّ لِي ، وَكُنْتُ أَتَبَيَّنُ فِي وَجْهِهِ أَشِعَّةَ رُوحِهِ ٱلصَّافِيَةِ ،

(١) « ٱلْمَعْرَكَةُ تَحْتَ رَايَةِ ٱلْقُرْآنِ » .

وَلَعَلَّهُ كَانَ يَرَىٰ بِي فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ ٱلشَّيْخَ ٱلَّذِي أَعْطَانِي ٱلْمُجَلَّدَ ، كَمَا كُنْتُ أَرَىٰ بِهِ فِي نَفْسِي ذَلِكَ ٱلتِّلْمِيذَ ٱلَّذِي أَخَذَ ٱلْمُجَلَّدَ مِنْهُ ! عَلَىٰ أَنَّ مَرْجِعَ ذَلِكَ فِي ٱلْحَقِّ إِلَىٰ سَعَةِ صَدْرِهِ ، وَفُسْحَةِ رَأْيِهِ ، وَبَسْطَةِ ذِرَاعِهِ ، وَسُمُوِّ أَدَبِهِ وَإِنْصَافِهِ ؛ فَلَا يَحْقِدُ وَلَا يَحْسُدُ ، وَلَا يَتَجَاوَزُ قَدْرَهُ ، وَلَا يَنْزِلُ بِأَحَدٍ عَنْ قَدْرِهِ ، وَلَا يَدَّعِي مَا لَا يُحْسِنُ ؛ وَقَدْ عَرَفَ قُرَّاءُ « ٱلْمُقْتَطَفِ » مَثَلًا مِنْ أَخْلَاقِهِ هَـٰذِهِ أَوْ أَكْثَرَهَا حِينَ ٱنْتَقَدَهُ صَدِيقُنَا ٱلْأُسْتَاذُ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ بْنُ مَحْمُودٍ ، وَتَنَاوَلَ ٱلْجُزْءَ ٱلْأَوَّلَ مِنْ كِتَابِهِ « مُهَذَّبُ ٱلْأَغَانِي » ، وَرَاحَ يَتَقَلْقَلُ لَهُ كَجُلْمُودِ صَخْرَةٍ . . . فَوَسِعَهُ ٱلشَّيْخُ وَعُنِيَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ فِي « ٱلْمُقْتَطَفِ » ، وَنَعَتَهُ بِٱلْأُسْتَاذِ ٱلْجِهْبِذِ وَٱنْتَصَفَ مِنْهُ وَأَنْصَفَهُ مَعًا . وَلَقَدِ ٱقْتَرَحْتُ عَلَيْهِ مَرَّةً أَنْ يَضَعَ كِتَابًا فِي حِكْمَةِ ٱلتَّشْرِيعِ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَفَلْسَفَتِهِ فَقَالَ لِي : « مُشْ قَدُّهْ » يَعْنِي أَنَّ ٱلْعَمَلَ أَكْبَرُ مِنْهُ ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا نَبَّهَهُ إِلَىٰ وَضْعِ كِتَابِهِ فِي « تَارِيخِ ٱلتَّشْرِيعِ ٱلْإِسْلَامِيِّ » .

وَلَمَّا أَصْدَرْتُ ٱلْجُزْءَ ٱلْأَوَّلَ مِنْ « تَارِيخِ آدَابِ ٱلْعَرَبِ » فِي سَنَةِ ١٩١١ ، لَمْ أُهْدِهِ إِلَىٰ ٱلشَّيْخِ ، فَٱشْتَرَاهُ وَقَرَأَهُ ، ثُمَّ لَقِيتُهُ وَسَأَلْتُهُ رَأْيَهُ فِيهِ ، فَقَالَ : (جِدًّا كُوَيِّس) فَكَانَ تَقْدِيمُ (جِدًّا) تَقْرِيظًا ، وَ(كُوَيِّس) تَقْرِيظًا آخَرَ ؛ وَهُوَ يَقُولُ هَـٰذَا عَلَىٰ حِينِ كَانَ بَعْضُ إِخْوَانِهِ ٱلشُّيُوخِ يَكَادُ يَمُوتُ غَمًّا بِهَـٰذَا ٱلْكِتَابِ وَمَا كُتِبَ عَنْهُ ، وَعَلَىٰ حِينِ كَلَّمَنِي بَعْضُهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي تَرْكِ هَـٰذَا ٱلْعَمَلِ وَنَفْضِ يَدِي مِنْهُ ، لِأَنَّهُ ـ زَعَمَ ـ عَمَلٌ شَاقٌّ بِلَا فَائِدَةٍ . . .

وَقَدْ زُرْتُ ٱلْأُسْتَاذَ ٱلْخُضَرِيَّ فِي وِزَارَةِ ٱلْمَعَارِفِ فِي ٱلسَّنَةِ ٱلْمَاضِيَةِ ؛ فَبَعْدَ أَنْ جَلَسْتُ إِلَىٰ جَانِبِهِ نَهَضَ مَرَّةً ثَانِيَةً وَجَعَلَ يُثَبِّتُنِي بِقُوَّةٍ فِي ٱلْكُرْسِيِّ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَطْمَئِنَّ بَعْدُ إِلَىٰ أَنِّي جَلَسْتُ ، ثُمَّ فَاضَ بِكَلَامٍ كَثِيرٍ ؛ فَكَانَ فِيمَا قَالَ : « أَنَا ٱلْآنَ أَعِيشُ فِي غَيْرِ زَمَنِي ! » وَكَأَنَّمَا كَانَ يَنْعَىٰ إِلَيَّ نَفْسَهُ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي وَلَا أَدْرِي ؛ وَقَالَ لِي : إِنَّهُ يَجْلِسُ إِلَىٰ مَكْتَبِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سِتَّ سَاعَاتٍ يَقْرَأُ أَوْ يُؤَلِّفُ أَوْ يَنْسَخُ ؛ لِأَنَّ كُلَّ كُتُبِهِ ٱلْمَخْطُوطَةِ هُوَ نَاقِلُهَا وَنَاسِخُهَا وَمُصَحِّحُهَا ، وَأَنَّهُ يَتْلُو كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ ، قَالَ : وَلَا يَعْتَرِيهِ ٱلْبَرْدُ وَلَا مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِهِ ، لِمَا ٱعْتَادَ مِنْ رِيَاضَةِ صَدْرِهِ بِهَـٰذِهِ ٱلتِّلَاوَةِ ؛ وَقَالَ : إِنَّ كُلَّ مَا هُوَ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَرَكَةِ ٱلْقُرْآنِ .

* * *

وَلْنُمْسِكْ عِنْدَ هَـٰذَا ٱلْحَدِّ ، فَإِنَّ لِلذِّكْرَىٰ غَمْزًا عَلَى ٱلْقَلْبِ ؛ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ ٱللهُ عَالِمًا كَٱلْكُتَّابِ ، وَكَاتِبًا كَٱلْعُلَمَاءِ ؛ فَهُوَ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ وَأُولَـٰئِكَ يَلُفُّ ٱلطَّبَقَتَيْنِ ، وَهُوَ وَحْدَهُ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ ؛ وَبِذَلِكَ تَمَيَّزَ وَظَهَرَ ، فَإِنَّهُ فِيْ إِحْدَىٰ ٱلْجِهَتَيْنِ عَقْلٌ جَرِيْءٌ تَمُدُّهُ رِوَايَةٌ وَاسِعَةٌ فِيْ عُلُوْمٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَتَرَاهُ يَبْعَثُ مِنْ عَقْلِهِ ٱلْحَيَاةَ إِلَىٰ ٱلْمَاضِيْ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لَمْ يَمْضِ ، وَهُوَ فِيْ ٱلْجِهَةِ ٱلْأُخْرَىٰ عِلْمٌ مُسْتَفِيْضٌ لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدِّ ٱلصَّحِيْفَةِ أَوِ ٱلْكِتَابِ ، بَلْ لَا يَزَالُ يَلْتَمِسُ لَهُ عَقْلًا يُخْرِجُهُ وَيَتَصَرَّفُ بِهِ ، حَتَّىٰ يَكْبُرَ عَنْ أَنْ يَكُوْنَ قَدِيْمًا بَحْتًا فَيَنْتَظِمُ ٱلْحَاضِرَ إِلَىٰ مَاضِيْهِ وَيُطْلِقُهُمَا إِطْلَاقًا وَاحِدًا . لَمْ يَكُنِ ٱلشَّيْخُ جَدِيْدًا إِلَّا بِٱلْقَدِيْمِ ، وَلَا قَدِيْمًا إِلَّا بِٱلْجَدِيْدِ ؛ فَإِنَّنَا لَا نَعْرِفُ قَدِيْمًا مَحْضًا وَلَا جَدِيْدًا صِرْفًا ، وَلَا نُقِيْمُ وَزْنَ أَحَدِهِمَا إِلَّا بِوَزْنٍ مِنَ ٱلْآخَرِ إِذَا أَرَدْنَا بِهِمَا سُنَّةَ ٱلْحَيَاةِ ؛ وَأَنْتَ لَنْ تَجِدَ حَيًّا مُنْقَطِعًا مِمَّا وَرَاءَهُ ، بَلْ أَنْتَ تَرَىٰ ٱلطَّبِيْعَةَ قَيَّدَتْ كُلَّ حَيٍّ جَدِيْدٍ إِلَىٰ أَصْلَيْنِ مِنَ ٱلْقَدِيْمِ لَا أَصْلٍ وَاحِدٍ ، هُمَا أَبَوَاهُ ، فَمِنْهُمَا يَأْتِيْ وَمِنْهُمَا يَسْتَمِدُّ ، وَهُمَا أَبَدًا فِيْهِ وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ حِدَةٍ ؛ وَبَعْدُ : فَلَوْ جَارَيْتَ ٱلسَّخَافَةَ ٱلْعَصْرِيَّةَ ٱلْمَشْهُوْرَةَ لَقُلْتَ : إِنَّ ٱلْمَذْهَبَ ٱلْقَدِيْمَ . . . قَدِ ٱنْهَدَّ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهِ ، وَنَقَصَ قِنْطَارُ كُتُبٍ مِنْ مِيْزَانِهِ ؛ وَلَـٰكِنَّ هَـٰذِهِ ٱلسَّخَافَةَ فِيْ رَأْيِيْ كَمَا تَرَىٰ مِنْ جَمَاعَةٍ ٱئْتَلَوْا أَنْ يُطْفِؤُوْا نَجْمًا فِيْ ٱلسَّمَاءِ لِأَنَّهُ قَدِيْمٌ ، فَٱتَّفَقُوْا عَلَىٰ ذَلِكَ وَأَجْمَعُوْهُ بَيْنَهُمْ وَفَرَغُوْا مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُوْنَ كَيْفَ يُهَيِّؤُوْنَ ٱلْعَرَبَاتِ وَٱلْمِضَخَّاتِ ٱلَّتِيْ تَحْمِلُ إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ بِضْعَةَ أَبْحُرٍ لِيَصُبُّوْهَا عَلَىٰ ٱلنَّجْمِ . . .

* * *

رَأْيٌ جَدِيْدٌ
فِيْ كُتُبِ ٱلْأَدَبِ [ٱلْعَرَبِيِّ] ٱلْقَدِيْمَةِ(*)

« أَدَبُ ٱلْكَاتِبِ » لِابْنِ قُتَيْبَةَ مِنَ ٱلدَّوَاوِيْنِ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلَّتِيْ قَالَ ٱبْنُ خَلْدُوْنَ فِيْهَا مِنْ كَلَامِهِ عَلَىٰ حَدِّ عِلْمِ ٱلْأَدَبِ : وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوْخِنَا فِيْ مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيْمِ أَنَّ أُصُوْلَ هَـٰذَا ٱلْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِيْنَ : وَهِيَ « أَدَبُ ٱلْكَاتِبِ » لِابْنِ قُتَيْبَةَ ، وَكِتَابُ « ٱلْكَامِلِ » لِلْمُبَرِّدِ ، وَكِتَابُ « ٱلْبَيَانِ وَٱلتَّبْيِيْنِ » لِلْجَاحِظِ ، وَكِتَابُ « ٱلنَّوَادِرِ » لِأَبِيْ عَلِيٍّ ٱلْقَالِيِّ ٱلْبَغْدَادِيِّ ؛ وَمَا سِوَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوْعٌ عَنْهَا » .

وَقَدْ يَظُنُّ أُدَبَاءُ عَصْرِنَا أَنَّ كَلِمَةَ ٱبْنِ خَلْدُوْنِ هَـٰذِهِ كَانَتْ تَصْلُحُ لِزَمَنِهِ وَقَوْمِهِ ، وَأَنَّهَا تَتَوَجَّهُ عَلَىٰ طَرِيْقَةِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِيْ طَبَقَةٍ بَعْدَ طَبَقَةٍ إِلَىٰ أُصُوْلِ هَـٰذِهِ ٱلسِّلْسِلَةِ ٱلَّتِيْ يَقُوْلُوْنَ فِيْهَا : حَدَّثَنَا فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ إِلَىٰ ٱلْأَصْمَعِيِّ أَوْ أَبِيْ عُبَيْدَةَ أَوْ أَبِيْ عَمْرِو ٱبْنِ ٱلْعَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ شُيُوْخِ ٱلرِّوَايَةِ وَنَقَلَةِ ٱللُّغَةِ ، وَلَـٰكِنَّهَا لَا تَسْتَقِيْمُ فِيْ آدَابِنَا وَلَا تُعَدُّ مِنْ آلَاتِنَا وَلَا تَقَعُ مِنْ مَعَارِفِنَا ؛ بَلْ يَكَادُ يَذْهَبُ مَنْ يَتَغَرَّرُ مِنْهُمْ بِٱلْآرَاءِ ٱلْأُوْرُبِّيَّةِ ٱلَّتِيْ يُسَمِّيْهَا عِلْمَهُ . . . وَمَنْ يَسْتَرْسِلُ إِلَىٰ ٱلتَّقْلِيْدِ ، ٱلَّذِيْ يُسَمِّيْهِ مَذْهَبَهُ . . . إِلَىٰ أَنَّ تِلْكَ ٱلْكُتُبَ وَمَا جَرَىٰ فِيْ طَرِيْقَتِهَا هِيَ أَمْوَاتٌ مِنَ ٱلْكُتُبِ ، وَهِيَ قُبُوْرٌ مِنَ ٱلْأَوْرَاقِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مِنَ ٱلْإِهْمَالِ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَهَا وَبَيْنَنَا مِنَ ٱلزَّمَنِ ، وَأَنَّ بَعْثَ ٱلْكِتَابِ مِنْهَا وَإِحْيَاءَهُ يُوْشِكُ أَنْ يَكُوْنَ كَبَعْثِ ٱلْمَوْتَىٰ : عَلَامَةً عَلَىٰ خَرَابِ ٱلدُّنْيَا . . .

فَأَمَّا أَنْ يَكُوْنَ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَىٰ خَرَابِ ٱلدُّنْيَا ، فَهُوَ صَحِيْحٌ إِذَا كَانَتِ ٱلدُّنْيَا هِيَ مُحَرِّرَ جَرِيْدَةٍ . . . مِنْ أَمْثَالِ أَصْحَابِنَا هَـٰؤُلَاءِ ، وَأَمَّا تِلْكَ ٱلْكُتُبُ فَأَنَا أَحْسَبُهَا لَمْ تُوْضَعْ إِلَّا لِزَمَنِنَا هَـٰذَا وَلِأُدَبَائِهِ وَكُتَّابِهِ خَاصَّةً ، وَكَأَنَّ ٱلْقَدَرَ هُوَ أَثْبَتَ ذَلِكَ ٱلْقَوْلَ فِيْ مُقَدِّمَةِ ٱبْنِ خَلْدُوْنٍ لِيَنْتَهِيَ بِنَصِّهِ إِلَيْنَا ، فَنَسْتَخْرِجَ مِنْهُ مَا يُقِيْمُنَا عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقَةِ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلَّذِيْ وَقَعَ أُدَبَاؤُهُ

(*) كُتِبَتْ مُقَدِّمَةً لِشَرْحِ ٱلْجَوَالِيْقِيِّ عَلَىٰ « أَدَبِ ٱلْكَاتِبِ » لِابْنِ قُتَيْبَةَ . [نُشِرَتْ فِي « ٱلْمُقْتَطَفِ » عدد يوليو/تموز ١٩٣١ ، الصفحات : ١٢ ـ ١٦] .

فِيْ مُتَّسَعٍ طَوِيْلٍ مِنْ فُنُوْنِ ٱلأَدَبِ ، وَمُضْطَرَبٍ عَرِيْضٍ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْكِتَابَةِ وَأُفُقٍ لَا تَسْتَقِرُّ حُدُوْدُهُ مِنَ ٱلْعُلُوْمِ وَٱلْفَلْسَفَةِ . . . فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْمَادَّةَ ٱلْحَافِلَةَ مِنَ ٱلْمَعَانِيْ تُحْيِيْ آدَابَ ٱلأُمَمِ فِيْ أُوْرُبَّةَ وَأَمْرِيْكَة ، وَلَـٰكِنَّهَا تَكَادُ تَطْمِسُ آدَابَنَا وَتَمْحَقُنَا مَحْقًا تَذْهَبُ فِيْهِ خَصَائِصُنَا وَمُقَوِّمَاتُنَا ، وَتُحِيْلُنَا عَنْ أَوْضَاعِنَا ٱلتَّارِيْخِيَّةِ ، وَتُفْسِدُ عُقُوْلَنَا وَنَزَعَاتِنَا ، وَتَرْمِيْ بِنَا مَرَامِيَهَا بَيْنَ كُلِّ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ ، حَتَّىٰ كَأَنْ لَيْسَتْ مِنَّا أُمَّةٌ فِيْ حَيِّزِهَا ٱلإِنْسَانِيِّ ٱلْمَحْدُوْدِ مِنْ نَاحِيَةٍ بِٱلتَّارِيْخِ وَمِنْ نَاحِيَةٍ بِٱلصِّفَاتِ وَمِنْ نَاحِيَةٍ بِٱلْعُلُوْمِ وَمِنْ نَاحِيَةٍ بِٱلآدَابِ ، وَمِنْ ذَلِكَ ٱبْتُلِيَ أَكْثَرُ كُتَّابِنَا بِٱلِانْحِرَافِ عَنِ ٱلأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ أَوِ ٱلْعَصَبِيَّةِ عَلَيْهِ أَوِ ٱلزِّرَايَةِ لَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحْسَبُهُ قَدْ رُمِيَ فِيْ عَقْلِهِ لِهَوَسِهِ وَحَمَاقَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَأَنَّهُ فِيْ حِقْدِهِ سُلِخَ قَلْبُهُ ، وَمِنْهُمُ ٱلْمُقَلِّدُ لَا يَدْرِيْ أَعَلَىٰ قَصْدٍ هُوَ أَمْ جَوْرٍ ؟ وَمِنْهُمُ ٱلْحَائِرُ يَذْهَبُ فِيْ مَذْهَبٍ وَيَجِيْءُ مِنْ مَذْهَبٍ وَلَا يَتَّجِهُ لِقَصْدٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مِنْهُمْ وَكَفَىٰ . . .

وَقَلَّمَا تَنَبَّهَ أَحَدٌ إِلَىٰ ٱلسَّبَبِ فِيْ هَـٰذَا؛ وَٱلسَّبَبُ فِيْ حَقَارَتِهِ وَضَعْفِهِ «كَٱلْمِكْرُوْبِ»(١): بِذْرَةٌ طَامِسَةٌ لَا شَأْنَ لَهَا ، وَلَـٰكِنْ مَتَىٰ تَنْبُتْ ، تُنْبِتْ أَوْجَاعًا وَآلَامًا وَمَوْتًا وَأَحْزَانًا وَمَصَائِبَ شَتَّىٰ .

ٱلسَّبَبُ أَنَّ أُوْلَـٰئِكَ ٱلأُدَبَاءَ كُلَّهُمْ ثُمَّ مَنْ يَتَشَيَّعُ لَهُمْ أَوْ يَأْخُذُ بِرَأْيِهِمْ ، لَيْسَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ تُرَىٰ فِيْ أَسَاسِهِ ٱلأَدَبِيِّ تِلْكَ ٱلأُصُوْلُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ٱلْمَحْضَةُ ٱلْقَائِمَةُ عَلَىٰ دِرَاسَةِ ٱللُّغَةِ وَجَمْعِهَا وَتَصْنِيْفِهَا وَبَيَانِ عِلَلِهَا وَتَصَارِيْفِهَا وَمَطَارِحِ ٱللِّسَانِ فِيْهَا ، وَٱلْمُتَأَدِّيَةُ بِذَلِكَ إِلَىٰ تَمْكِيْنِ ٱلأَدِيْبِ ٱلنَّاشِئِ مِنْ أَسْرَارِ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ وَتَطْوِيْعِهَا لَهُ ، فَيَكُوْنُ قَيِّمًا بِهَا وَتَكُوْنُ هِيَ مُسْتَجِيْبَةً لِقَلَمِهِ جَارِيَةً فِيْ طَبِيْعَتِهِ مُسَدَّدَةً فِيْ تَصَرُّفِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا نَشَأَ بِهَا وَٱسْتَحْكَمَ فِيْهَا أَحْسَنَ ٱلْعَمَلَ لَهَا وَزَادَ فِيْ مَادَّتِهَا وَأَخَذَ لَهَا مِنْ غَيْرِهَا وَكَانَ خَلِيْقًا أَنْ يَمُدَّ فِيْهَا وَيُحْسِنَ ٱلْمُلَاءَمَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلآدَابِ ٱلأُخْرَىٰ وَيَجْعَلَ ذَلِكَ نَسْجًا وَاحِدًا وَبَيَانًا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ ، فَيَنْمُوْ ٱلأَدَبُ ٱلْعَرَبِيُّ فِيْ صَنِيْعِهِ كَمَا تَنْمُوْ ٱلشَّجَرَةُ ٱلْحَيَّةُ : تَأْخُذُ مِنْ كُلِّ مَا حَوْلَهَا لِعُنْصُرِهَا وَطَبِيْعَتِهَا وَلَيْسَ إِلَّا عُنْصُرُهَا وَطَبِيْعَتُهَا حَسْبُ .

(١) [ٱلْمِكْرُوْب Microbe : ٱلْجُرْثُوْمَةُ ، كَائِنٌ دَقِيْقٌ حَيٌّ]

إِنَّ « أَدَبَ ٱلْكَاتِبِ » وَشَرْحَهُ هَـٰذَا لِلإِمَامِ ٱلْجَوَالِيْقِيِّ(١) وَمَا صُنِّفَ مِنْ بَابِهِمَا عَلَىٰ طَرِيْقَةِ ٱلْجَمْعِ مِنَ ٱللُّغَةِ وَٱلْخَبَرِ وَشِعْرِ ٱلشَّوَاهِدِ وَٱلاسْتِقْصَاءِ فِيْ ذَلِكَ وَٱلتَّبَسُّطِ فِيْ ٱلْوُجُوْهِ وَٱلْعِلَلِ ٱلنَّحْوِيَّةِ وَٱلصَّرْفِيَّةِ وَٱلإِمْعَانِ فِيْ ٱلتَّحْقِيْقِ ، كُلُّ ذَلِكَ عَمَلٌ يَنْبَغِيْ أَنْ يُعْرَفَ عَلَىٰ حَقِّهِ فِيْ زَمَنِنَا هَـٰذَا ، فَهُوَ لَيْسَ أَدَبًا كَمَا يُفْهَمُ مِنَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلْفَلْسَفِيِّ لِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ، بَلْ هُوَ أَبْعَدُ ٱلأَشْيَاءِ عَنْ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ فِيْ كِتَابٍ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْكُتُبِ إِلَّا ٱلتَّأْلِيْفَ ٱلَّذِيْ بَيْنَ يَدَيْكَ ، أَمَّا ٱلْمُؤَلِّفُ فَلَا تَجِدُهُ وَلَا تَعْرِفُهُ مِنْهَا إِلَّا كَٱلْكَلِمَةِ ٱلْمَحْبُوْسَةِ فِيْ قَاعِدَةٍ . . . وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيْهِ رُوْحُ إِنْسَانٍ بَلْ رُوْحُ مَادَّةٍ مُصْمَتَةٍ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْشَأْ لِيَعْمَلَ فِيْ عَصْرِهِ بَلْ لِيَعْمَلَ عَصْرُهُ فِيْهِ ، وَكَأَنْ لَيْسَ فِيْ ٱلْكِتَابِ جِهَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ مُتَعَيِّنَةٌ ، فَثَمَّ تَأْلِيْفٌ وَلَـٰكِنْ أَيْنَ ٱلْمُؤَلِّفُ ؟ وَهَـٰذَا كِتَابُ ٱبْنِ قُتَيْبَةَ وَلَـٰكِنْ أَيْنَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ فِيْهِ ؟

وَمَا أَخْطَأَ ٱلْمُتَقَدِّمُوْنَ فِيْ تَسْمِيَتِهِمْ هَـٰذِهِ ٱلْكُتُبَ أَدَبًا ؛ فَذَلِكَ هُوَ رَسْمُ ٱلأَدَبِ فِيْ عَصْرِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلرَّسْمَ قَدِ ٱنْتَقَلَ فِيْ عَصْرِنَا نَحْنُ ، فَإِنَّا نَحْنُ ٱلْمُخْطِئُوْنَ ٱلْيَوْمَ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةِ ، كَمَا لَوْ ذَهَبْنَا نُسَمِّيْ ٱلْجَمَلَ فِيْ ٱلْبَادِيَةِ : ٱلإِكْسِبْرِيْس(٢) Expres ، وَٱلْهَوْدَجَ : عَرَبَةَ بُوْلْمَانْ(٣) Pullman .

مِنْ هَـٰذَا ٱلْخَطَإِ فِيْ ٱلتَّسْمِيَةِ ظَهَرَ ٱلأَدَبُ ٱلْعَرَبِيُّ لِقِصَارِ ٱلنَّظَرِ كَأَنَّهُ تَكْرَارُ عَصْرٍ وَاحِدٍ عَلَىٰ ٱمْتِدَادِ ٱلزَّمَنِ ، فَإِنْ زَادَ ٱلْمُتَأَخِّرُ لَمْ يَأْخُذْ إِلَّا مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِ ، وَصَارَتْ هَـٰذِهِ ٱلْكُتُبُ كَأَنَّهَا فِيْ جُمْلَتِهَا قَانُوْنٌ مِنْ قَوَانِيْنِ ٱلْجِنْسِيَّةِ نَافِذٌ عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ ، لَا يَنْبَغِيْ لِعَصْرٍ يَأْتِيْ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مِنْ جِنْسِ ٱلْقَرْنِ ٱلأَوَّلِ .

هَـٰذِهِ ٱلْكُتُبُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ كَٱلْخَلِّ : يُسَمَّىٰ لَكَ عَسَلًا ثُمَّ تَذُوْقُهُ فَلَا يَجِيْءُ عَلَيْهِ عِنْدَكَ

(١) ٱلْجَوَالِيْقُ : جَمْعٌ شَاذٌّ لِجُوَالِقَ ، وَقَدْ نُسِبَ هَـٰذَا ٱلإِمَامُ إِلَىٰ عَمَلِ ٱلْجَوَالِقِ وَبَيْعِهَا ؛ وَهَـٰذَا ٱلْجَمْعُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاحِدِهِ إِلَّا ٱلْحَرَكَةُ ، فَٱلْمُفْرَدُ جُوَالِقُ (بِضَمِّ ٱلْجِيْمِ) وَٱلْجَمْعُ بِٱلْفَتْحِ ؛ وَمِثْلُهُ أَلْفَاظٌ أَحْصَوْهَا : كَحُلَاحِلٍ ، وَعُدَامِلٍ ، وَخُنَازِمٍ ، وَغَيْرِهَا .

(٢) الإكسبريس Expres : السريع ، والمقصود عادة من هذا اللفظ : القطار السريع . بسّام .

(٣) عربة بولمان نسبة إلى الصناعي الأميركي George Mortimer Pullman (١٨٣١ ـ ١٨٩٧) وهو الذي صمم أول عربة للمنامة في القطارات ، ويطلق اسمه على عربات الرفاهية من منامة واستقبال وطعام . بسّام .

إِلَّا ٱلاسْمُ ٱلَّذِيْ زُوِّرَ لَهُ ، أَمَّا هُوَ فَكَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ وَفِيْ فَائِدَتِهِ وَفِيْ طَبِيْعَتِهِ وَفِيْ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، لَا يَنْقُصُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَتَغَيَّرُ .

ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلَّتِيْ يُعَيِّنُهَا ٱلْوَضْعُ ٱلصَّحِيْحُ أَنَّ تِلْكَ ٱلْمُؤَلَّفَاتِ إِنَّمَا وُضِعَتْ لِتَكُوْنَ أَدَبًا ، لَا مِنْ مَعْنَىٰ أَدَبِ ٱلْفِكْرِ وَفَنِّهِ وَجَمَالِهِ وَفَلْسَفَتِهِ ، بَلْ مِنْ مَعْنَىٰ أَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَتَثْقِيْفِهَا وَتَرْبِيَتِهَا وَإِقَامَتِهَا ، فَهِيَ كُتُبُ تَرْبِيَةٍ لُغَوِيَّةٍ قَائِمَةٍ عَلَىٰ أُصُوْلٍ مُحْكَمَةٍ فِيْ هَـٰذَا ٱلْبَابِ ، حَتَّىٰ مَا يَقْرَؤُهَا أَعْجَمِيٌّ إِلَّا خَرَجَ مِنْهَا عَرَبِيًّا أَوْ فِيْ هَوَىٰ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْمَيْلِ إِلَيْهَا ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بُنِيَتْ عَلَىٰ أَوْضَاعٍ تَجْعَلُ ٱلْقَارِئَ ٱلْمُتَبَصِّرَ كَأَنَّمَا يُصَاحِبُ مِنَ ٱلْكُتَّابِ أَعْرَابِيًّا فَصِيْحًا يَسْأَلُهُ ، فَيُجِيْبُهُ وَيَسْتَهْدِيْهِ فَيُرْشِدُهُ ، وَيُخَرِّجُهُ ٱلْكِتَابُ تَصَفُّحًا وَقِرَاءَةً كَمَا تُخَرِّجُهُ ٱلْبَادِيَةُ سَمَاعًا وَتَلْقِيْنًا ، وَٱلْقَارِئُ فِيْ كُلِّ ذَلِكَ مُسْتَدْرَجٌ إِلَىٰ ٱلتَّعْرِيْبِ فِيْ مَدْرَجَةٍ مُدَرَّجَةٍ مِنْ هَوَىٰ ٱلنَّفْسِ وَمَحَبَّتِهَا ، فَتَصْنَعُ بِهِ تِلْكَ ٱلْفُصُوْلُ فِيْمَا دُبِّرَتْ لَهُ مِثْلَمَا تَصْنَعُ كُتُبُ ٱلتَّرْبِيَةِ فِيْ تَكْوِيْنِ ٱلْخُلُقِ بِٱلأَسَالِيْبِ ٱلَّتِيْ أُدِيْرَتْ عَلَيْهَا وَٱلشَّوَاهِدِ ٱلَّتِيْ وُضِعَتْ لَهَا وَٱلْمَعَالِمِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ٱلَّتِيْ فُصِّلَتْ فِيْهَا .

وَمِنْ ثُمَّ جَاءَتْ هَـٰذِهِ ٱلْكُتُبُ ٱلْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا عَلَىٰ نَسَقٍ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفُ فِيْ ٱلْجُمْلَةِ ، فَهِيَ أَخْبَارٌ وَأَشْعَارٌ وَلُغَةٌ وَعَرَبِيَّةٌ وَجَمْعٌ وَتَحْقِيْقٌ وَتَمْحِيْصٌ ، وَإِنَّمَا تَتَفَاوَتُ بِٱلزِّيَادَةِ وَٱلنَّقْصِ وَٱلاخْتِصَارِ وَٱلتَّبَسُّطِ وَٱلتَّخْفِيْفِ وَٱلتَّثْقِيْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِيْ ٱلْمَوْضُوْعِ لَا فِيْ ٱلْوَضْعِ ، حَتَّىٰ لَيُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ هَـٰذِهِ كُتُبٌ جُغْرَافِيَّةٌ لِلُّغَةِ وَأَلْفَاظِهَا وَأَخْبَارِهَا ، إِذْ كَانَتْ مِثْلَ كُتُبِ ٱلْجُغْرَافِيَّةِ : مُتَطَابِقَةً كُلُّهَا عَلَىٰ وَصْفِ طَبِيْعَةٍ ثَابِتَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ مَعَالِمُهَا وَلَا يَخْلُقُ غَيْرَهَا إِلَّا ٱلْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

وَإِذَا تَدَبَّرْتَ هَـٰذَا ٱلَّذِيْ بَيَّنَّاهُ لَمْ تُعْجَبْ كَمَا يَعْجَبُ ٱلْمُتَطَفِّلُوْنَ عَلَىٰ ٱلأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ وَٱلْمُتَخَبِّطُوْنَ فِيْهِ مِنْ أَنْ يَرَوْا إِيْمَانَ ٱلْمُؤَلِّفِيْنَ مُتَّصِلًا بِكُتُبِهِمْ ظَاهِرَ ٱلأَثَرِ فِيْهَا ، وَأَنَّهُمْ جَمِيْعًا يُقَرِّرُوْنَ أَنَّمَا يُرِيْدُوْنَ بِهَا ٱلْمَنْزِلَةَ عِنْدَ ٱللهِ فِيْ ٱلْعَمَلِ لِحِيَاطَةِ هَـٰذَا ٱللِّسَانِ ٱلَّذِيْ نَزَلَ بِهِ ٱلْقُرْآنُ ٱلْكَرِيْمُ وَتَأْدِيَتِهِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْكُتُبِ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ كَمَا تُؤَدَّىٰ ٱلأَمَانَةُ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، حَتَّىٰ لَوْلَا ٱلْقُرْآنُ لَمَا وُضِعَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ٱلْبَتَّةَ .

وَأَنَا أَتَلَمَّحُ دَائِمًا ٱلْعَامِلَ ٱلإِلَـٰهِيَّ فِيْ كُلِّ أَطْوَارِ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ ، وَأَرَاهُ يُدِيْرُهَا عَلَىٰ حِفْظِ ٱلْقُرْآنِ ٱلَّذِيْ هُوَ مُعْجِزَتُهَا ٱلْكُبْرَىٰ ، وَأَرَىٰ مِنْ أَثَرِهِ مَجِيْءَ تِلْكَ ٱلْكُتُبِ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلْوَضْعِ ، وَتَسْخِيْرُ تِلْكَ ٱلْعُقُوْلِ ٱلْوَاسِعَةِ مِنَ ٱلرُّوَاةِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُفَّاظِ جِيْلًا بَعْدَ جِيْلٍ فِيْ ٱلْجَمْعِ وَٱلشَّرْحِ وَٱلتَّعْلِيْقِ بِغَيْرِ ٱبْتِكَارٍ وَلَا وَضْعٍ وَلَا فَلْسَفَةٍ وَلَا زَيْغٍ عَنْ تِلْكَ ٱلْحُدُوْدِ ٱلْمَرْسُوْمَةِ ٱلَّتِيْ أَوْمَأْنَا إِلَىٰ حِكْمَتِهَا ، فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ فِيْهِمْ مُجَدِّدُوْنَ مِنْ طِرَازِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ ٱلتَّخْلِيْطِ ، ثُمَّ تُرِكَ لَهُمْ هَـٰذَا ٱلشَّأْنُ يَتَوَلَّوْنَهُ كَمَا نَرَىٰ بِٱلنَّظَرِ ٱلْقَصِيْرِ وَٱلرَّأْيِ ٱلْمُعَانِدِ وَٱلْهَوَىٰ ٱلْمُنْحَرِفِ وَٱلْكِبْرِيَاءِ ٱلْمُصَمِّمَةِ وَٱلْقَوْلِ عَلَىٰ ٱلْهَاجِسِ وَٱلْعِلْمِ عَلَىٰ ٱلتَّوَهُّمِ وَمُجَادَلَةِ ٱلأُسْتَاذِ حَيْصَ لِلأُسْتَاذِ بَيْصَ . . . إِذَنْ لَضَرَبَ بَعْضُهُمْ وَجْهَ بَعْضٍ ، وَجَاءَتْ كُتُبُهُمْ مُتَدَابِرَةً ، وَمُسِخَ ٱلتَّارِيْخُ وَضَاعَتِ ٱلْعَرَبِيَّةُ وَفَسَدَ ذَلِكَ ٱلشَّأْنُ كُلُّهُ ، فَلَمْ يَتَّسِقْ مِنْهُ شَيْءٌ .

وَمِمَّا تَرُدُّهُ عَلَىٰ قَارِئِهَا تِلْكَ ٱلْكُتُبُ فِيْ تَرْبِيَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، أَنَّهَا تُمَكِّنُ فِيْهِ لِلصَّبْرِ وَٱلْمُعَانَاةِ وَٱلتَّحْقِيْقِ وَٱلتَّوَرُّكِ فِيْ ٱلْبَحْثِ وَٱلتَّدْقِيْقِ فِيْ ٱلتَّصَفُّحِ ، وَهِيَ ٱلصِّفَاتُ ٱلَّتِيْ فَقَدَهَا أُدَبَاءُ هَـٰذَا ٱلزَّمَنِ ، فَأَصْبَحُوْا لَا يَتَثَبَّتُوْنَ وَلَا يَتَحَقَّقُوْنَ ، وَطَالَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْظُرُوْا فِيْ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، وَثَقُلَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَبْطِنُوْا كُتُبَهَا ؛ وَلَوْ قَدْ تَرَبَّوْا فِيْ تِلْكَ ٱلأَسْفَارِ وَبِذَلِكَ ٱلأُسْلُوْبِ ٱلْعَرَبِيِّ لَتَمَّتِ ٱلْمُلَاءَمَةُ بَيْنَ ٱللُّغَةِ فِيْ قُوَّتِهَا وَجَزَالَتِهَا وَبَيْنَ مَا عَسَىٰ أَنْ يُنْكِرَهُ مِنْهُمْ ذَوْقُهُمْ فِيْ ضَعْفِهِ وَعَامِّيَّتِهِ وَكَانُوْا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا .

وَذَلِكَ بِعَيْنِهِ هُوَ ٱلسِّرُّ فِيْ أَنَّ مَنْ لَا يَقْرَؤُوْنَ تِلْكَ ٱلْكُتُبَ أَوَّلَ نَشْأَتِهِمْ ، لَا تَرَاهُمْ يَكْتُبُوْنَ إِلَّا بِأُسْلُوْبٍ مُنْحَطٍّ ، وَلَا يَجِيْؤُوْنَ إِلَّا بِكَلَامٍ سَقِيْمٍ غَثٍّ ، وَلَا يَرَوْنَ فِيْ ٱلأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ إِلَّا آرَاءً مُلْتَوِيَةً ؛ ثُمَّ هُمْ لَا يَسْتَطِيْعُوْنَ أَنْ يُقِيْمُوْا عَلَىٰ دَرْسِ كِتَابٍ عَرَبِيٍّ ، فَيُسَاهِلُوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَيَحْكُمُوْنَ عَلَىٰ ٱللُّغَةِ وَٱلأَدَبِ بِمَا يَشْعُرُوْنَ بِهِ فِيْ حَالَتِهِمْ تِلْكَ ، وَيَتَوَرَّطُوْنَ فِيْ أَقْوَالٍ مُضْحِكَةٍ ، وَيَنْسَوْنَ أَنَّهُ لَا يَجُوْزُ ٱلْقَطْعُ عَلَىٰ ٱلشَّيْءِ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلشُّعُوْرِ مَا دَامَ ٱلشُّعُوْرُ يَخْتَلِفُ فِيْ ٱلنَّاسِ بِٱخْتِلَافِ أَسْبَابِهِ وَعَوَارِضِهِ ، وَلَا مِنْ نَاحِيَةٍ يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ ٱلْخَطَأُ فِيْهَا ؛ وَهُمْ أَبَدًا فِيْ إِحْدَىٰ ٱلنَّاحِيَتَيْنِ أَوْ فِيْ كِلْتَيْهِمَا .

* * *

وَهَـٰذَا شَرْحُ ٱلْجَوَالِيْقِيِّ مِنْ أَمْتَعِ ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِيْ أَشَرْنَا إِلَيْهَا ، وَصَاحِبُهُ هُوَ ٱلإِمَامُ أَبُوْ مَنْصُوْرٍ مَوْهُوْبُ ٱلْجَوَالِيْقِيُّ ٱلْمَوْلُوْدُ فِيْ سَنَةِ ٤٦٥ لِلْهِجْرَةِ ، وَٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٥٤٠ ؛ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيْذِ ٱلإِمَامِ ٱلشَّيْخِ أَبِيْ زَكَرِيَّا ٱلْخَطِيْبِ ٱلتَّبْرِيْزِيِّ ؛ أَوَّلُ مَنْ دَرَّسَ ٱلأَدَبَ فِيْ ٱلْمَدْرَسَةِ ٱلنِّظَامِيَّةِ

بِبَغْدَادَ[١] ، وَقَرَأَ الْجَوَالِيقِيُّ عَلَىٰ شَيْخِهِ هَـٰذَا سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، اسْتَوْفَىٰ فِيهَا عُلُومَ الْأَدَبِ مِنَ اللُّغَةِ وَالشِّعْرِ وَالْخَبَرِ وَالْعَرَبِيَّةِ بِفُنُونِهَا ، ثُمَّ خَلَفَ شَيْخَهُ عَلَىٰ تَدْرِيسِ الْأَدَبِ فِي النِّظَامِيَّةِ بَعْدَ عَلِيِّ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْمَعْرُوفِ بِالْفَصِيحِيِّ[٢] .

وَمَا نَشُكُّ أَنَّ هَـٰذَا الشَّرْحَ هُوَ بَعْضُ دُرُوسِهِ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ ، فَأَنْتَ مِنْ هَـٰذَا الْكِتَابِ كَأَنَّكَ بِإِزَاءِ كُرْسِيِّ التَّدْرِيسِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، تَسْمَعُ مِنْ رَجُلٍ انْتَهَتْ إِلَيْهِ إِمَامَةُ اللُّغَةِ فِي عَصْرِهِ ، فَهُوَ مُدَقِّقٌ مُحِيطٌ مُبَالِغٌ فِي الاسْتِقْصَاءِ ، لَا يَنِدُّ عَنْهُ شَيْءٌ مِمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الشَّرْحِ ، مَعْنِيٌّ بِالتَّصْرِيفِ وَوُجُوهِهِ مِمَّا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ مِنْ أَثَرِ الْإِمَامِ ابْنِ جِنِّي فَيْلَسُوفِ هَـٰذَا الْعِلْمِ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، فَإِنَّ بَيْنَ الْجَوَالِيقِيِّ وَبَيْنَهُ شَيْخَيْنِ كَمَا تَعْرِفُ مِنْ إِسْنَادِهِ فِي هَـٰذَا الشَّرْحِ .

وَقَدْ قَالُوا : إِنَّ أَبَا مَنْصُورٍ فِي اللُّغَةِ أَمْثَلُ مِنْهُ فِي النَّحْوِ ، عَلَىٰ إِمَامَتِهِ فِيهِمَا مَعًا ؛ إِذْ كَانَ يَذْهَبُ فِي بَعْضِ عِلَلِ النَّحْوِ إِلَىٰ آرَاءٍ شَاذَّةٍ يَنْفَرِدُ بِهَا ، وَقَدْ سَاقَ مِنْهَا عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ الْأَنْبَارِيُّ مَثَلَيْنِ فِي كِتَابِهِ « نُزْهَةُ الْأَلِبَّاءِ » ، وَلَـٰكِنَّ هَـٰذَا الشُّذُوذَ نَفْسَهُ دَلِيلٌ عَلَىٰ اسْتِقْلَالِ الْفِكْرِ وَسَعَتِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَكُونَ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ أَئِمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ[٣] وَهُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ رَجُلٌ ثِقَةٌ صَدُوقٌ كَثِيرُ الضَّبْطِ عَجِيبٌ فِي التَّحَرِّي وَالتَّدْقِيقِ ؛ حَتَّىٰ كَانَ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ فِي طِبَاعِهِ أَنِ اعْتَادَ التَّفْكِيرَ وَطُولَ الصَّمْتِ ، فَلَا يَقُولُ قَوْلًا إِلَّا بَعْدَ تَدَبُّرٍ وَفِكْرٍ طَوِيلٍ ، فَإِنْ لَمْ يَهْتَدِ إِلَىٰ شَيْءٍ قَالَ : لَا أَدْرِي ؛ وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُسْأَلُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا يُجِيبُ إِلَّا بَعْدَ أَيَّامٍ .

---

(١) أَنْشَأَهَا نِظَامُ الْمُلْكِ وَزِيرُ مَلِكْ شَاه السَّلْجُوقِيِّ الْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٤٨٥هـ .

(٢) لُقِّبَ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ إِعَادَتِهِ كِتَابَ « الْفَصِيحِ فِي اللُّغَةِ » .

(٣) قَالَ يَاقُوتُ فِي تَرْجَمَةِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ مِنْ « مُعْجَمِ الْأُدَبَاءِ » : قَرَأْتُ بِخَطِّ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْخَشَّابِ : كَانَ شَيْخُنَا (يَعْنِي : الْجَوَالِيقِيَّ) قَلَّمَا يَتَبَذَّلُ عِنْدَهُ مُمَارِسٌ لِلصِّنَاعَةِ النَّحْوِيَّةِ وَلَوْ طَالَ فِيهَا بَاعُهُ ، مَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ عِلْمِ الرِّوَايَةِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ ضُرُوبِهَا ، وَلَا سِيَّمَا رِوَايَةُ الْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْرِفَتِهَا مِنْ لُغَةٍ وَقِصَّةٍ ؛ وَلِهَـٰذَا كَانَ مُقَدِّمًا لِأَبِي سَعِيدٍ السِّيرَافِيِّ عَلَىٰ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ رَحِمَهُمَا اللهُ وَيَقُولُ : أَبُو سَعِيدٍ أَرْوَىٰ مِنْ أَبِي عَلِيٍّ ، وَأَكْثَرُ تَحَقُّقًا مِنْهُ بِالرِّوَايَةِ وَأَثْرَىٰ مِنْهُ فِيهَا .

وَكَانَ وَرِعًا قَوِيَّ الْإِيمَانِ ، انْتَهَىٰ بِهِ إِيمَانُهُ وَعِلْمُهُ وَتَقْوَاهُ إِلَىٰ أَنْ صَارَ أُسْتَاذَ الْخَلِيفَةِ الْمُقْتَفِي لِأَمْرِ اللهِ ، فَاخْتَصَّ بِإِمَامَتِهِ فِي الصَّلَوَاتِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْمُقْتَفِي شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ ، وَانْتَفَعَ بِذَلِكَ وَبَانَ أَثَرُهُ فِي تَوْقِيعَاتِهِ كَمَا قَالُوا .

وَالَّذِي يَتَأَمَّلُ هَـٰذَا الشَّرْحَ فَضْلَ تَأَمُّلٍ يَرَىٰ صَاحِبَهُ كَأَنَّمَا خَلَقَهُ اللهُ رَجُلَ إِحْصَاءٍ فِي اللُّغَةِ ، لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِمَّا عَرَفَ إِلَىٰ زَمَنِهِ ؛ وَهُوَ وَلَا رَيْبَ يَجْرِي فِي الطَّرِيقَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي نَهَجَهَا ابْنُ جِنِّي وَشَيْخُهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ ؛ وَمِنْ أَثَرِ هَـٰذِهِ الطَّرِيقَةِ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَتَحَجَّرُ وَلَا يَمْنَعُ الْقِيَاسَ فِي اللُّغَةِ ، وَيُلْحِقُ مَا وَضَعَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ بِمَا سُمِعَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَيَرْوِي ذَلِكَ جَمِيعَهُ وَيَحْفَظُهُ وَيُلْقِيهِ عَلَىٰ طَلَبَتِهِ ، وَمِنْ أَمْتَعِ مَا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ فِي شَرْحِهِ ، قَوْلُهُ فِي صَفْحَةِ ٢٣٥ ، وَهُوَ بَابٌ لَمْ يَسْتَوْفِهِ غَيْرُهُ وَلَا تَجِدُهُ إِلَّا فِي كِتَابِهِ ، وَهَـٰذِهِ عِبَارَتُهُ :

قَوْلُهُمْ : يَدِي مِنْ ذَلِكَ فَعِلَةٌ : الْمَسْمُوعُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَلْفَاظٌ قَلِيلَةٌ ، وَقَدْ قَاسَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ فَقَالُوا : يَدِي مِنَ الْإِهَالَةِ سَنِخَةٌ ، وَمِنَ الْبَيْضِ زَهِمَةٌ ، وَمِنَ التُّرَابِ تَرِبَةٌ ، وَمِنَ التِّينِ وَالْعِنَبِ وَالْفَوَاكِهِ كَتِنَةٌ وَكَمِدَةٌ وَلَزِجَةٌ ، وَمِنَ الْعُشْبِ كَتِنَةٌ أَيْضًا ، وَمِنَ الْجُبْنِ نَسِمَةٌ ، وَمِنَ الْجِصِّ شَهِرَةٌ ، وَمِنَ الْحَدِيدِ وَالشَّبَّةِ وَالصُّفْرِ وَالرَّصَاصِ سَهِكَةٌ وَصَدِئَةٌ أَيْضًا ، وَمِنَ الْحَمْأَةِ رَدِغَةٌ وَرَزِغَةٌ ، وَمِنَ الْخِضَابِ رَدِعَةٌ ، وَمِنَ الْحِنْطَةِ وَالْعَجِينِ وَالْخُبْزِ نَسِغَةٌ ، وَمِنَ الْخَلِّ وَالنَّبِيذِ خَمِطَةٌ ، وَمِنَ الدِّبْسِ وَالْعَسَلِ دَبِقَةٌ وَلَزِقَةٌ أَيْضًا ، وَمِنَ الدَّمِ شَحِطَةٌ وَشَرِقَةٌ ، وَمِنَ الدُّهْنِ زَنِخَةٌ ، وَمِنَ الرَّيَاحِينِ ذَكِيَّةٌ ، وَمِنَ الزَّهْرِ زَهِرَةٌ ، وَمِنَ الزَّيْتِ قَنِمَةٌ ، وَمِنَ السَّمَكِ سَهِكَةٌ وَصَمِرَةٌ ، وَمِنَ السَّمْنِ دَسِمَةٌ وَنَسِمَةٌ وَنَمِسَةٌ ، وَمِنَ الشَّهْدِ وَالطِّينِ لَثِقَةٌ ، وَمِنَ الْعِطْرِ عَطِرَةٌ ، وَمِنَ الْغَالِيَةِ عَبِقَةٌ ، وَمِنَ الْغِسْلَةِ وَالْقَذَرِ وَحِرَةٌ ، وَمِنَ الْفِرْصَادِ قَنِئَةٌ ، وَمِنَ اللَّبَنِ وَضِرَةٌ ، وَمِنَ اللَّحْمِ وَالْمَرَقِ غَمِرَةٌ ، وَمِنَ الْمَاءِ بَلِلَةٌ وَسَبِرَةٌ ، وَمِنَ الْمِسْكِ ذَفِرَةٌ وَعَبِقَةٌ ، وَمِنَ النَّتْنِ قَنِمَةٌ ، وَمِنَ النِّفْطِ جَعِدَةٌ . انْتَهَىٰ .

فَالْمَسْمُوعُ مِنْ هَـٰذِهِ الْأَلْفَاظِ عَنِ الْعَرَبِ لَا يَتَجَاوَزُ سَبْعًا فِيمَا تَرَىٰ ، وَالْبَاقِي كُلُّهُ أَجْرَاهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ وَأَهْلُ الْأَدَبِ عَلَىٰ الْقِيَاسِ ، فَأَبْدَعَ الْقِيَاسُ مِنْهَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ كَلِمَةً ؛ وَلَوْ تَدَبَّرْتَ كَيْفِيَّةَ اسْتِخْرَاجِهَا وَرَجَعْتَ إِلَىٰ الْأُصُولِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْهَا لَأَيْقَنْتَ أَنَّ هَـٰذِهِ الْعَرَبِيَّةَ

هِيَ أَوْسَعُ ٱللُّغَاتِ كَافَّةً ، وَأَنَّهَا مِنْ أَهْلِهَا كَٱلنُّبُوَّةِ ٱلْخَالِدَةِ فِي دِيْنِهَا ٱلْقَوِيِّ : تَنْتَظِرُ كُلَّ جِيْلٍ يَأْتِيْ كَمَا وَدَّعَتْ كُلَّ جِيْلٍ غَبَرَ لِأَنَّهَا ٱلإِنْسَانِيَّةُ ، لِهَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ .

إِنَّ ظُهُوْرَ مِثْلِ هَـٰذَا ٱلشَّرْحِ كَٱلتَّوْبِيْخِ لِأَكْثَرِ كُتَّابِ هَـٰذَا ٱلزَّمَنِ أَنِ ٱقْرَؤُوْا وَٱدْرُسُوْا وَخُصُّوْا لُغَتَكُمْ بِشَطْرٍ مِنْ عِنَايَتِكُمْ ؛ وَتَرَبَّوْا لَهَا بِتَرْبِيَتِهَا فِيْ مَدَارِسِكُمْ وَمَعَاهِدِكُمْ ، وَٱصْبِرُوْا عَلَىٰ مُعَانَاتِهَا صَبْرَ ٱلْمُحِبِّ عَلَىٰ حَبِيْبَتِهِ ، فَإِنْ ضَعُفْتُمْ فَصَبْرَ ٱلْبَارِّ عَلَىٰ مَنْ يَلْزَمُهُ حَقُّهُ ؛ فَإِنْ ضَعُفْتُمْ عَنْ هَـٰذَا فَصَبْرَ ٱلْمُتَكَلِّفِ ٱلْمُتَجَمِّلِ عَلَىٰ ٱلأَقَلِّ . . .

* * *

أَمِيْرُ ٱلشِّعْرِ فِيْ ٱلْعَصْرِ ٱلْقَدِيْمِ (*)(١)

ٱلْوَجْهُ فِيْ إِفْرَادِ شَاعِرٍ أَوْ كَاتِبٍ مِنَ ٱلْمَاضِيْنَ بِٱلتَّأْلِيْفِ ، أَنْ تَصْنَعَ كَأَنَّكَ تُعِيْدُهُ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا فِيْ كِتَابٍ وَكَانَ إِنْسَانًا ، وَتُرْجِعُهُ دَرْسًا وَكَانَ عُمْرًا ، وَتَرُدُّهُ حِكَايَةً وَكَانَ عَمَلًا ، وَتَنْقُلُهُ بِزَمَنِهِ إِلَىٰ زَمَنِكَ ، وَتَعْرِضُهُ بِقَوْمِهِ عَلَىٰ قَوْمِكَ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ ٱللهُ خِلْقَةَ إِيْجَادٍ يَخْلُقُهُ ٱلعَقْلُ خِلْقَةَ تَفْكِيْرٍ .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَقَصَّىٰ ٱلْمُؤَلِّفُ فِيْ ٱلْجَمْعِ مِنْ آثَارِ ٱلْمُتَرْجَمِ وَأَخْبَارِهِ ، وَأَنْ يَحْمِلَ فِيْ ذَلِكَ مِنَ ٱلْعَنَتِ مَا يَحْمِلُهُ لَوْ هُوَ كَانَ يَجْرِيْ وَرَاءَ مَلَكَيْ مَنْ يُتَرْجِمُهُ لِقِرَاءَةِ كِتَابِ أَعْمَالِهِ كِتَابَهُ فِيْ يَدَيْهِمَا . . . وَلَا بُدَّ أَنْ يُبَالِغَ فِيْ ٱلتَّمْحِيْصِ وَٱلْمُقَابَلَةِ ، وَيُدَقِّقَ فِيْ ٱلاسْتِنْبَاطِ وَٱلاسْتِخْرَاجِ ، وَيُضِيْفَ إِلَىٰ عَامَّةِ مَا وَجَدَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْخَبَرِ خَاصَّةً مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلرَّأْيِ وَٱلْفِكْرِ ، وَيَعْمَلَ عَلَىٰ أَنْ يُنَقِّحَ مَا ٱنْتَهَىٰ إِلَيْهِ ٱلْمَاضِيْ فِيْ أَدَبِهِ وَعِلْمِهِ بِمَا بَلَغَ إِلَيْهِ ٱلْحَاضِرُ فِيْ فَنِّهِ وَفَلْسَفَتِهِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ عَمَلِ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُتَجَدِّدِ أَبَدًا وَٱلْمُتَرَادِفِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ بِمَذَاهِبِهِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ، يُشْبِهُ عَمَلَ ٱلدَّهْرِ ٱلْمُتَجَدِّدِ أَبَدًا وَٱلْمُتَرَادِفِ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلأَرْضِ ، كُلُّ نَهَارٍ أَوْ لَيْلٍ هُوَ آخِرٌ وَهُوَ أَوَّلٌ ، وَكَذَلِكَ ٱلْعُقُوْلُ كُلُّهَا آخِرٌ مِنْ نَاحِيَةٍ وَأَوَّلٌ مِنْ نَاحِيَةٍ .

وَٱلتَّجْدِيْدُ فِيْ ٱلأَدَبِ إِنَّمَا يَكُوْنُ مِنْ طَرِيْقَتَيْنِ : فَأَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِبْدَاعُ ٱلأَدِيْبِ ٱلْحَيِّ فِيْ آثَارِ تَفْكِيْرِهِ بِمَا يَخْلُقُ مِنَ ٱلصُّوَرِ ٱلْجَدِيْدَةِ فِيْ ٱللُّغَةِ وَٱلْبَيَانِ ، وَأَمَّا ٱلأُخْرَىٰ فَإِبْدَاعُ ٱلْحَيِّ فِيْ آثَارِ ٱلْمَيْتِ بِمَا يَتَنَاوَلُهَا بِهِ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلنَّقْدِ ٱلْمُسْتَحْدَثَةِ ، وَأَسَالِيْبِ ٱلْفَنِّ ٱلْجَدِيْدَةِ ؛ وَفِيْ ٱلإِبْدَاعِ

(*) « ٱلْمُقْتَطَفُ » نوفمبر/تشرين الآخر ، ١٩٣٠ م ، الصفحات : ٤١٨ ـ ٤٢٠ .

(١) وَضَعَ ٱلأَدِيْبُ مُحَمَّدْ صَالِحْ سَمَكْ رِسَالَةً قَيِّمَةً فِيْ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « أَمِيْرِ ٱلشِّعْرِ فِيْ ٱلْعَصْرِ ٱلْقَدِيْمِ » تَقَعُ فِيْ نَحْوِ مِئَتَيْنِ وَخَمْسِيْنَ صَفْحَةً . سَلَكَ فِيْهَا مَسْلَكًا طَرِيْفًا ، وَحَلَّاهَا بِمُقَدِّمَةٍ بَلِيْغَةٍ لِلأُسْتَاذِ ٱلْجَلِيْلِ مُصْطَفَىٰ صَادِقْ ٱلرَّافِعِيِّ ، فَخَصَّ ٱلْمُؤَلِّفُ ٱلْمُقْتَطَفَ بِنَشْرِ ٱلْمُقَدِّمَةِ وَبَعْضَ أَبْحَاثِ ٱلرِّسَالَةِ فِيْهَا طِبْقًا لِرَغْبَتِنَا .

ٱلْأَوَّلِ إِيْجَادُ مَا لَمْ يُوْجَدْ ، وَفِيْ ٱلثَّانِيْ إِتْمَامُ مَا لَمْ يَتِمَّ ؛ فَلَا جَرَمَ كَانَتْ فِيْهِمَا مَعًا حَقِيْقَةُ ٱلتَّجْدِيْدِ بِكُلِّ مَعَانِيْهَا ، وَلَا تَجْدِيْدَ إِلَّا مِنْ ثَمَّةَ ، فَلَا جَدِيْدَ إِلَّا مَعَ ٱلْقَدِيْمِ .

وَإِذَا تَبَيَّنْتَ هَـٰذَا وَحَقَّقْتَهُ أَدْرَكْتَ لِمَاذَا يَتَخَبَّطُ مُنْتَحِلُوْ ٱلْجَدِيْدِ بَيْنَنَا وَأَكْثَرُهُمْ يَدَّعِيْهِ سِفَاهًا وَيَتَقَلَّدُهُ زُوْرًا ، وَجُمْلَةُ عَمَلِهِمْ كَوَضْعِ ٱلزِّنْجِيِّ ٱلذَّرُوْرَ ٱلْأَبْيَضَ (ٱلْبُوْدْرَةَ) Poudre عَلَىٰ وَجْهِهِ ، ثُمَّ يَذْهَبُ يَدَّعِيْ أَنَّهُ خَرَجَ أَبْيَضَ مِنْ أُمِّهِ لَا مِنَ ٱلْعُلْبَةِ . . . فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَصْنَعُ رِسَالَةً فِيْ شَاعِرٍ وَهُوَ لَا يَفْهَمُ ٱلشِّعْرَ وَلَا يُحْسِنُ تَفْسِيْرَهُ وَلَا يَجِدُهُ فِيْ طَبْعِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْرُسُ ٱلْكَاتِبَ ٱلْبَلِيْغَ وَقَدْ بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَأَسْرَارِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجَدِّدُ فِيْ تَارِيْخِ ٱلْأَدَبِ وَلَـٰكِنْ بِٱلتَّكَذُّبِ عَلَيْهِ وَٱلتَّقَحُّمِ فِيْهِ وَٱلذَّهَابِ فِيْ مَذْهَبِ ٱلْمُخَالَفَةِ ، يَضْرِبُ وَجْهَ ٱلْمُقْبِلِ حَتَّىٰ يَجِيْءَ مُدْبِرًا ، وَوَجْهَ ٱلْمُدْبِرِ حَتَّىٰ يَعُوْدَ مُقْبِلًا ، فَإِذَا لِكُلِّ طَرِيْقٍ جَدِيْدٌ ، وَيَنْسَىٰ أَنَّ جَدِيْدَهُ بِٱلصَّنْعَةِ لَا بِٱلطَّبِيْعَةِ ، وَبِٱلزُّوْرِ لَا بِٱلْحَقِّ .

أَلَا إِنَّ كُلَّ مَنْ شَاءَ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَطِبَّ لِكُلِّ مَرِيْضٍ ، لَا يُكَلِّفُهُ ذَلِكَ إِلَّا قَوْلًا يَقُوْلُهُ وَتَلْفِيْقًا يُدَبِّرُهُ ؛ وَلَـٰكِنْ أَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ وَصَفَ دَوَاءً ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَشْفِيَ بِهِ ؟ .

وَبَعْدُ ؛ فَقَدْ قَرَأْتُ رِسَالَةَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ ٱلَّتِيْ وَضَعَهَا ٱلْأَدِيْبُ ٱلسَّيِّدُ مُحَمَّدْ صَالِحْ سَمَك ، فَرَأَيْتُ كَاتِبَهَا ـ مَعَ أَنَّهُ نَاشِئٌ بَعْدُ ـ قَدْ أَدْرَكَ حَقِيْقَةَ ٱلْفَنِّ فِيْ هَـٰذَا ٱلْوَضْعِ مِنْ تَجْدِيْدِ ٱلْأَدَبِ ، فَٱسْتَقَامَ عَلَىٰ طَرِيْقَةٍ غَيْرِ مُلْتَوِيَةٍ ، وَمَضَىٰ فِيْ ٱلْمَنْهَجِ ٱلسَّدِيْدِ ، وَلَمْ يَدَعِ ٱلتَّثَبُّتَ وَإِنْعَامَ ٱلنَّظَرِ وَتَقْلِيْبَ ٱلْفِكْرِ وَتَحْصِيْنَ ٱلرَّأْيِ ، وَلَا قَصَّرَ فِيْ ٱلتَّحْصِيْلِ وَٱلِاطِّلَاعِ وَٱلِاسْتِقْصَاءِ ، وَلَا أَرَاهُ قَدْ فَاتَهُ إِلَّا مَا لَا بُدَّ أَنْ يَفُوْتَ غَيْرَهُ مِمَّا ذَهَبَ فِيْ إِهْمَالِ ٱلرُّوَاةِ ٱلْمُتَقَدِّمِيْنَ وَأَصْبَحَ ٱلْكَلَامُ فِيْهِ مِنْ بَعْدِهِمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَحُكْمًا بِٱلظَّنِّ .

فَإِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ فِيْ رَأْيِيْ إِنَّمَا هُوَ عَقْلٌ بَيَانِيٌّ كَبِيْرٌ مِنَ ٱلْعُقُوْلِ ٱلْمُفْرَدَةِ ٱلَّتِيْ خَلَقَتْ خَلْقَهَا فِيْ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ ، فَوَضَعَ فِيْ بَيَانِهَا أَوْضَاعًا كَانَ هُوَ مُبْتَدِعَهَا وَٱلسَّابِقَ إِلَيْهَا ، وَنَهَجَ لِمَنْ بَعْدَهُ طَرِيْقَتَهَا فِيْ ٱلِاحْتِذَاءِ عَلَيْهَا وَٱلزِّيَادَةِ فِيْهَا وَٱلتَّوْلِيْدِ مِنْهَا ، وَتِلْكَ هِيَ مَنْقَبَتُهُ ٱلَّتِيْ ٱنْفَرَدَ بِهَا وَٱلَّتِيْ هِيَ سِرُّ خُلُوْدِهِ فِيْ كُلِّ عَصْرٍ إِلَىٰ دَهْرِنَا هَـٰذَا وَإِلَىٰ مَا بَقِيَتِ ٱللُّغَةُ ، فَهُوَ أَصْلٌ مِنَ ٱلْأُصُوْلِ فِيْ أَبْوَابٍ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ كَٱلتَّشْبِيْهِ وَٱلِاسْتِعَارَةِ وَغَيْرِهِمَا ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ مَصْنَعٌ مِنْ مَصَانِعِ ٱللُّغَةِ لَا رَجُلٌ مِنْ رِجَالِهَا ، وَكَمَا يُقَالُ فِيْ زَمَنِنَا فِيْ أُمَمِ ٱلصِّنَاعَةِ : سَيَّارَةُ فُوْرْدِ Ford ،

وَسَيَّارَةُ فِيَات Fiat ؛ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالُ مِثْلُ ذَلِكَ فِيْ بَعْضِ أَنْوَاعِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ : ٱسْتِعَارَةُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ ، وَتَشْبِيْهُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ .

وَلَـٰكِنَّ تَحْقِيْقَ هَـٰذَا ٱلْبَابِ وَإِحْصَاءَ مَا ٱنْفَرَدَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ وَتَأْرِيْخَ كَلِمَاتِهِ ٱلْبَيَانِيَّةِ مِمَّا لَا يَسْتَطِيْعُهُ بَاحِثٌ ، وَلَيْسَ لَنَا فِيْهِ إِلَّا ٱلْوُقُوْفُ عِنْدَ مَا جَاءَ بِهِ ٱلنَّصُّ .

وَلَقَدْ نَبَّهْنَا فِيْ « إِعْجَازِ ٱلْقُرْآنِ » إِلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا ، إِذْ نَعْتَقِدُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا جَاءَ فِيْ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيْمِ كَانَ جَدِيْدًا فِيْ ٱللُّغَةِ ، لَمْ يُوْضَعْ مِنْ قَبْلِهِ ذَلِكَ ٱلْوَضْعُ ، وَلَمْ يَجْرِ فِيْ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْعَرَبِ كَمَا أَجْرَاهُ ، فَهُوَ يَصُبُّ ٱللُّغَةَ صَبًّا فِيْ أَوْضَاعِهِ لِأَهْلِهَا لَا فِيْ أَوْضَاعِ أَهْلِهَا ، وَبِذَلِكَ يُحَقِّقُ مِنْ نَحْوِ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةِ سَنَةٍ مَا لَا نَظُنُّ فَلْسَفَةَ ٱلْفَنِّ قَدْ بَلَغَتْ إِلَيْهِ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ ، إِذْ حَقِيْقَةُ ٱلْفَنِّ عَلَىٰ مَا نَرَىٰ أَنْ تَكُوْنَ ٱلْأَشْيَاءُ كَأَنَّهَا نَاقِصَةٌ فِيْ ذَاتِ أَنْفُسِهَا لَيْسَ فِيْ تَرْكِيْبِهَا إِلَّا ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِيْ بُنِيَتْ عَلَيْهَا ، فَإِذَا تَنَاوَلَهَا ٱلصَّنِعُ ٱلْحَاذِقُ ٱلْمُلْهَمُ أَضَافَ إِلَيْهَا مِنْ تَعْبِيْرِهِ مَا يُشْعِرُكَ أَنَّهُ خَلَقَ فِيْهَا ٱلْجَمَالَ ٱلْعَقْلِيَّ ، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ فِيْ ٱلْخِلْقَةِ نَاقِصَةً حَتَّىٰ أَتَمَّهَا .

وَهَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِيْ بَيَّنَّاهُ هُوَ ٱلَّذِيْ كَانَ يَحُوْمُ عَلَيْهِ ٱلرُّوَاةُ وَٱلْعُلَمَاءُ بِٱلشِّعْرِ قَدِيْمًا ، يُحِسُّوْنَهُ وَلَا يَجِدُوْنَ بَيَانَهُ وَتَأْوِيْلَهُ ، فَنَرَىٰ ٱلْأَصْمَعِيَّ مَثَلًا يَقُوْلُ فِيْ شِعْرِ لَبِيْدٍ : إِنَّهُ طَيْلَسَانٌ طَبَرِيٌّ . أَيْ : مُحْكَمٌ مَتِيْنٌ وَلَـٰكِنْ لَا رَوْنَقَ لَهُ ؛ أَيْ : فِيْهِ ٱلْقُوَّةُ وَلَيْسَ فِيْهِ ٱلْجَمَالُ ؛ أَيْ : فِيْهِ ٱلتَّرْكِيْبُ وَلَيْسَ فِيْهِ ٱلْفَنُّ .

وَٱلْعَقْلُ ٱلْبَيَانِيُّ كَمَا قُلْنَا فِيْ غَيْرِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ، هُوَ ثَرْوَةُ ٱللُّغَةِ ، وَبِهِ وَبِأَمْثَالِهِ تَعَامَلَ ٱلتَّارِيْخُ ، وَهُوَ ٱلَّذِيْ يُحَقِّقُ فِيْهَا فَنَّ أَلْفَاظِهَا وَصُوَرِهَا ، فَهُوَ بِذَلِكَ ٱمْتِدَادُهَا ٱلزَّمَنِيُّ وَٱنْتِقَالُهَا ٱلتَّارِيْخِيُّ وَتَخَلُّقُهَا مَعَ أَهْلِهَا إِنْسَانِيَّةً بَعْدَ إِنْسَانِيَّةٍ فِيْ زَمَنٍ بَعْدَ زَمَنٍ ، وَلَا تَجْدِيْدَ وَلَا تَطَوُّرَ إِلَّا فِيْ هَـٰذَا ٱلتَّخَلُّقِ مَتَىٰ جَاءَ مِنْ أَهْلِهِ وَٱلْجَدِيْرِيْنَ بِهِ ، وَهُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْمَخْلُوْقُ لِلتَّفْسِيْرِ وَٱلتَّوْلِيْدِ وَتَلَقِّيْ ٱلْوَحْيِ وَأَدَائِهِ وَٱعْتِصَارِ ٱلْمَعْنَىٰ مِنْ كُلِّ مَادَّةٍ وَإِدَارَةِ ٱلْأُسْلُوْبِ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ ٱلْمَعَانِيْ وَٱلْآرَاءِ فَيَنْقُلُهَا مِنْ خِلْقَتِهَا وَصِيَغِهَا ٱلْعَالَمِيَّةِ إِلَىٰ خَلْقِ إِنْسَانٍ بِعَيْنِهِ ، هُوَ هَـٰذَا ٱلْعَبْقَرِيُّ ٱلَّذِيْ رُزِقَ ٱلْبَيَانَ .

وَلِلسَّبَبِ ٱلَّذِيْ أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ بَقِيَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ كَٱلْمِيْزَانِ ٱلْمَنْصُوْبِ فِيْ ٱلشِّعْرِ ٱلْعَرَبِيِّ يَبِيْنُ بِهِ ٱلنَّاقِصَ وَٱلْوَافِيَ ، قَالَ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ فِيْ كِتَابِهِ « ٱلإِعْجَازُ » : وَقَدْ تَرَىٰ ٱلْأُدَبَاءَ أَوَّلًا يُوَازِنُوْنَ

بِشِعْرِهِ (يُرِيدُ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ) فُلَانًا وَفُلَانًا ، وَيَضُمُّونَ أَشْعَارَهُمْ إِلَىٰ شِعْرِهِ ، حَتَّىٰ رُبَّمَا وَازَنُوا بَيْنَ شِعْرِ مَنْ لَقِينَاهُ (تُوُفِّيَ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ سَنَةَ ٤٠٣ لِلْهِجْرَةِ) وَبَيْنَ شِعْرِهِ فِي أَشْيَاءَ لَطِيفَةٍ وَأُمُورٍ بَدِيعَةٍ ، وَرُبَّمَا فَضَّلُوهُمْ عَلَيْهِ أَوْ سَوَّوْا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، أَوْ قَرَّبُوا مَوْضِعَ تَقَدُّمِهِ عَلَيْهِمْ وَبُرُوزِهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . ٱنْتَهَىٰ .

وَمَعْنَىٰ كَلَامِهِ أَنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ أَصْلٌ فِي ٱلْبَلَاغَةِ ، قَدْ مَاتَ وَلَا يَزَالُ يُخْلَقُ ، وَتَطَوَّرَتِ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَزَالُ يَجِيءُ مَعَهَا ، وَبَلَغَ ٱلشِّعْرُ ٱلْعَرَبِيُّ غَايَتَهُ وَلَا تَزَالُ عَرَبِيَّتُهُ عِنْدَ ٱلْغَايَةِ .

وَعَرَضَ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ فِي كِتَابِهِ طَوِيلَةَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ[1] ، فَٱنْتَقَدَ مِنْهَا أَبْيَاتًا كَثِيرَةً ، لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ أَجْوَدَ شِعْرٍ وَأَبْدَعَهُ وَأَفْصَحَهُ وَمَا أَجْمَعُوا عَلَىٰ تَقَدُّمِهِ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْبَيَانِ ، هُوَ قَبِيلٌ آخَرُ غَيْرُ نَظْمِ ٱلْقُرْآنِ ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ آفَاتِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَنَقْصِهَا وَعَوَارِهَا ؛ فَرَكِبَ فِي ذَلِكَ رَأْسَهُ وَرِجْلَيْهِ مَعًا . . فَأَصَابَ وَأَخْطَأَ ، وَتَعَسَّفَ وَتَهَدَّىٰ ، وَأَنْصَفَ وَتَحَامَلَ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِمَكَانَةِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱبْتِكَارِهِ ٱلْبَيَانِيِّ ٱلَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يُدْفَعَ عَنْهُ ؛ وَلَمَّا ٱنْتَقَدَ قَوْلَهُ [من الطويل] :

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا ... تَمَتَّعْتُ فِي لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ

قَالَ : « فَقَدْ قَالُوا : عَنَىٰ بِذَلِكَ أَنَّهَا كَبَيْضَةِ خِدْرٍ فِي صَفَائِهَا وَرِقَّتِهَا ، وَهَٰذِهِ كَلِمَةٌ حَسَنَةٌ وَلَٰكِنْ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهَا بَلْ هِيَ دَائِرَةٌ فِي أَفْوَاهِ ٱلْعَرَبِ » أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ كَانَ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ يَسْمَعُ مِنْ أَفْوَاهِ ٱلْعَرَبِ فِي عَصْرِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ (وَبَيْضَةُ خِدْرٍ) ؟

عَلَىٰ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ عَنِ ٱلْحَبِيبَةِ (بَيْضَةُ ٱلْخِدْرِ) مِنْ أَبْدَعِ ٱلْكَلَامِ وَأَحْسَنِ مَا يُؤْتَىٰ ٱلْعَقْلُ ٱلشِّعْرِيُّ ، وَلَوْ قَالَهَا ٱلْيَوْمَ شَاعِرٌ فِي لُنْدُنَ London أَوْ بَارِيسَ Paris بِٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي أَرَادَهُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ ـ لَا بِمَا فَسَّرَهَا بِهِ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ ـ لَاسْتُبْدِعَتْ مِنْ قَائِلِهَا وَلَأَصْبَحَتْ مَعَ ٱلْقُبْلَةِ عَلَىٰ كُلِّ فَمٍ جَمِيلٍ ؛ بَلْ هُمْ يَمُرُّونَ فِي بَعْضِ بَيَانِهِمْ مِنْ طَرِيقِ هَٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ؛ فَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يَتَلَاقَىٰ فِيهِ ٱلْحَبِيبَانِ (بِٱلْعُشِّ) وَمَا يُتَّخَذُ ٱلْعُشُّ إِلَّا لِلْبَيْضَةِ إِنَّمَا عَنَىٰ ٱلشَّاعِرُ ٱلْعَظِيمُ أَنَّ حَبِيبَتَهُ

(١) أَيْ : مُعَلَّقَتَهُ ، وَهَٰذِهِ ٱلْقَصَائِدُ ٱلَّتِي تُسَمَّىٰ ٱلْمُعَلَّقَاتِ لَمْ تُكْتَبْ وَلَمْ تُعَلَّقْ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ فِي « تَارِيخِ آدَابِ ٱلْعَرَبِ » . { قُلْتُ : ٱنْظُرِ ٱلْجُزْءَ ٱلثَّالِثَ } .

فِي نُعُومَتِهَا وَتَرَفِهَا وَلِينِ مَا حَوْلَهَا ، ثُمَّ فِي مَسِّهَا وَحَرَارَةِ ٱلشَّبَابِ فِيهَا ، ثُمَّ فِي رِقَّتِهَا وَصَفَاءِ لَوْنِهَا وَبَرِيقِهَا ، ثُمَّ فِي قِيَامِ أَهْلِهَا وَذَوِيهَا عَلَيْهَا وَلُزُومِهِمْ إِيَّاهَا ، ثُمَّ فِي حَذَرِهِمْ وَسَهَرِهِمْ ، ثُمَّ فِي ٱنْصِرَافِهِمْ بِجُمْلَةِ ٱلْحَيَاةِ إِلَىٰ شَأْنِهَا وَبِجُمْلَةِ ٱلْقُوَّةِ إِلَىٰ حِيَاطَتِهَا وَٱلْمُحَامَاةِ عَنْهَا ـ هِيَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَمِنْ نَفْسِهَا كَبَيْضَةِ ٱلْجَارِحِ فِي عُشِّهِ ، إِلَّا أَنَّهَا بَيْضَةُ خِدْرٍ ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ [من الطويل] :

تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعْشَرًا ... عَلَيَّ حِرَاصًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي

فَتِلْكَ بَعْضُ مَعَانِي ٱلْكَلِمَةِ وَهِيَ كَمَا تَرَىٰ ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفَسَّرَ ٱلْبَيَانُ . .

* * *

ٱلْبُؤَسَاءُ(*)

تَرْجَمَ حَافِظٌ هَـٰذَا ٱلْجُزْءَ ٱلثَّانِيَ مِنَ ٱلْبُؤَسَاءِ فَطَوَىٰ بِهِ ٱلْأَوَّلَ ، وَكَانُوْا يَحْسَبُوْنَ ٱلْأَوَّلَ قَدْ عَقِمَتْ بِمِثْلِهِ ٱلْبَلَاغَةُ فَلَا ثَانِيَ لَهُ . وَبَيْنَ ٱلْجُزْأَيْنِ زَمَنٌ لَوِ ٱتَّسَعَ بِهِ أَدِيْبٌ فِيْ قِرَاءَةِ كُتُبِ ٱلْأَدَبِ لَاسْتَوْعَبَهَا كُلَّهَا ، فَكَأَنَّ ٱرْتِفَاعَ ٱلسِّنِّ بِحَافِظٍ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ جَعَلَ مِنْهُ فِيْ قُوَّةِ ٱلْأَدَبِ حَافِظَيْنِ يُتَرْجِمَانِ مَعًا .

وَمَا ٱلْبُؤَسَاءُ فِيْ تَرْجَمَتِهِ إِلَّا فِكْرُ فَيْلَسُوْفٍ تَعَلَّقَ فِيْ قَلَمِ شَاعِرٍ فَٱنْعَطَفَتْ عَلَيْهِ حَوَاشِي ٱلْبَيَانِ مِنْ كُلِّ نَوَاحِيْهِ ، وَجَاءَ مَا تَدْرِيْ أَشِعْرًا مِنَ ٱلنَّثْرِ أَمْ نَثْرًا مِنَ ٱلشِّعْرِ ! ؟ وَخَرَجَتْ بِهِ ٱلْكِتَابَةُ فِيْ لَوْنٍ مِنَ ٱلصَّفَاءِ وَٱلْإِشْرَاقِ كَأَنَّمَا تَنْحَلُّ عَلَيْهِ أَشِعَّةُ ٱلضُّحَىٰ .

تَرْجَمَ حَافِظٌ فَوَضَعَ ٱللُّغَةَ بَيْنَ فِكْرِهِ وَلِسَانِهِ ، وَوَقَفَ تَحْتَ سَحَابَةٍ مِنَ ٱلسُّحُبِ ٱلَّتِيْ خَفَقَ عَلَيْهَا جَنَاحُ جِبْرِيْلَ ، فَمَا تَخْلُوْ كِتَابَةٌ مِنْ ظِلٍّ يَتَنَفَّسُ عَلَيْكَ بِرَائِحَةِ ٱلْإِعْجَازِ وَتَرَاهُ يَتَحَدَّرُ مَعَ ٱلْكَلَامِ وَيَتَنَاوَلُ مِنْهُ وَيَدَعُ ، فَمَا نَزَعَ بِهِ ٱلْكَلَامُ مَنْزِعًا إِلَّا وَجَدَهُ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ وَأَصَابَهُ حَيْثُ أَصَابَهُ كَٱلتَّيَّارِ جُمْلَةً وَاحِدَةً تَلِفَ أَوَّلَ ٱلنَّهْرِ وَآخِرَهُ عَلَىٰ مَدِّ مَا يَجْرِيْ ؛ فَهُوَ حَيْثُ كَانَ فِيْ ٱلسَّهْلِ وَفِيْ ٱلصَّعْبِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَسْتَسِرُّ فِيْ مَوْضِعٍ وَيَسْتَعْلِنُ فِيْ مَوْضِعٍ ، وَيَجِيْشُ وَيَهْدِرُ وَيَتَرَامَىٰ فِيْ ٱلْعُمْقِ فَيَدْوِيْ دَوِيًّا .

وَمِنْ هُنَا يَحْسَبُهُ بَعْضُهُمْ يَجْنَحُ إِلَىٰ مَا يُسْتَجْفَىٰ مِنَ ٱلْكَلَامِ ، وَإِلَىٰ ٱسْتِكْرَاهِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلتَّكَلُّفِ لِبَعْضِهَا ؛ وَإِنَّمَا ذَاكَ وَضْعٌ مِنْ أَوْضَاعِ ٱللُّغَةِ وَمَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْبَلَاغَةِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَشْتَدَّ ٱلْقَوْلُ وَيَلِيْنَ ، وَأَنْ يَكُوْنَ فِيْ أَجْرَاسِ ٱلْحُرُوْفِ مَا فِيْ نَغَمِ ٱلْإِيْقَاعِ ؛ وَمَا أَشْبَهَ هَنْدَسَةَ ٱلْبَيَانِ بِهَنْدَسَةِ ٱلطَّبِيْعَةِ ٱلَّتِيْ تَغْمِزُ ٱلنَّهْرَ وَتَرْمِيْ بِٱلْبَحْرِ وَتَقْذِفُ بِٱلْجَبَلِ ٱلْأَشَمِّ ، وَمَا ٱلْجَبَلُ لَوْ حَقَّقْتَ فِيْ وُجُوْهِ ٱلتَّنَاسُبِ ٱلطَّبِيْعِيِّ إِلَّا بَحْرٌ قَدْ تَحَجَّرَ فَٱنْتَثَرَتْ أَمْوَاجُهُ مِنْ صُخُوْرِهِ ، وَكِلَا ٱثْنَيْهِمَا عَلَىٰ مَا بَيْنَ ٱلصَّلَابَةِ وَٱللِّيْنِ تَعْبِيْرٌ فِيْ أَسَالِيْبِ

(*) { كَتَبَهَا عَنِ ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِيْ مِنَ ٱلْبُؤَسَاءِ ؛ وَٱنْظُرْ مَقَالَيِ ٱلْمُؤَلِّفِ عَنْ حَافِظٍ فِيْ هَـٰذَا ٱلْجُزْءِ } .

ٱلْقُوَّةِ عَنِ ٱلْقُوَّةِ ، وَتَوْضِيْحٌ لِأَقْوَىٰ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَظْهَرَ ، بِأَقْوَىٰ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْفَىٰ .

يُخْطِئُ ٱلضِّعَافُ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وَبِخَاصَّةٍ فِيْ أَيَّامِنَا هَـٰذِهِ . . . إِذَا حَسِبُوْا ٱلْفَصَاحَةَ ٱلْعَرَبِيَّةَ قَبِيْلًا وَاحِدًا مِنَ ٱللَّفْظِ ٱلْمَأْنُوْسِ ، وَلَقَدْ تَجِدُ بَعْضَ هَـٰؤُلَاءِ ٱلضُّعَفَاءِ وَإِنَّهُ لَيَرَىٰ فِيْ ٱلْكَلَامِ ٱلْجَزْلِ ٱلْمُتَفَصِّحِ مَا يَرَىٰ فِيْ جَمْجَمَةِ ٱلْأَعَاجِمِ إِذَا نَطَقُوْا فَلَمْ يَبِينُوا ، وَإِنَّمَا هِيَ ٱلْعَرَبِيَّةُ ، وَإِنَّمَا فَصَاحَتُهَا فِيْ مَجْمُوْعِ مَا يَطَّرِدُ بِهِ ٱلْقَوْلُ وَٱلْفَصَاحَةُ فِيْ جُمْلَتِهَا وَتَفْصِيْلِهَا وَإِحْكَامِ ٱلتَّنَاسُبِ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِيْ وَٱلْغَرَضِ ٱلَّذِيْ يَتَّجِهُ إِلَيْهِ كِلَاهُمَا ، فَمَتَىٰ فُصِّلَ ٱلْكَلَامُ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَجْهِ وَأُحْكِمَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةِ ، رَأَيْتَ جَمَالَهُ وَاضِحًا بَيِّنًا فِيْ كُلِّ لَفْظٍ تَقُوْمُ بِهِ ٱلْعِبَارَةُ ، مِنَ ٱلنَّسْجِ ٱلْمُهَلْهَلِ ٱلرَّقِيْقِ ، إِلَىٰ ٱلْحَبْكِ ٱلْمُحْكَمِ ٱلدَّقِيْقِ ، إِلَىٰ ٱلْأُسْلُوْبِ ٱلْمُنْدَمِجِ ٱلْمُوَثَّقِ ٱلَّذِيْ يُسْرَدُ فِيْ قُوَّةِ ٱلْحَدِيْدِ ، إِذْ يَكُوْنُ كُلُّ حَرْفٍ لِمَوْضِعِهِ ، وَيَكُوْنُ كُلُّ مَوْضِعٍ لِحَرْفِهِ ، وَيَكُوْنُ كُلُّ ذَلِكَ بِمِقْدَارٍ لَا يُسْرِفُ ، وَقِيَاسٍ لَا يُخْطِئُ ، وَوَزْنٍ لَا يَخْتَلِفُ ، وَهَـٰذِهِ هِيَ طَبِيْعَةُ ٱلْفَصَاحَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ دُوْنَ سَائِرِ ٱللُّغَاتِ ، وَبِهَا أَمْكَنَ ٱلْإِعْجَازُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ وَلَمْ يُمْكِنْ فِيْ سِوَاهَا .

وَمُتَرْجِمُ ٱلْبُؤَسَاءِ أَحَدُ ٱلْأَفْرَادِ ٱلْمَعْدُوْدِيْنَ ٱلَّذِيْنَ أَحْكَمُوْا هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةَ وَنَفَذُوْا إِلَىٰ أَسْرَارِهَا ، فَفِيْ كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابَتِهِ مَوْضِعُ رَوْعَةٍ ، حَتَّىٰ مَا تَدْرِيْ أَيَكْتُبُ أَمْ يَصُوْغُ أَوْ يُصَوِّرُ ؟ وَكَأَنَّهُ لَا يُنْقَلُ مِنْ لِسَانٍ إِلَىٰ لِسَانٍ بَلْ مِنْ فِكْرٍ إِلَىٰ فِكْرٍ ، فَتَرَىٰ أَكْثَرَ جُمَلِهِ كَأَنَّهَا تُضِيْءُ فِيْهَا ٱلْمَصَابِيْحُ .

وَمِنَ ٱلْخَوَاصِّ ٱلَّتِيْ ٱنْفَرَدَ بِهَا حَافِظٌ أَنَّهُ ظَاهِرٌ فِيْ صَنْعَةِ أَلْفَاظِهِ ظُهُوْرَ هِيْغُوْ Hugo فِيْ صَنْعَةِ مَعَانِيْهِ، إِذْ لَا تَجِدُ غَيْرَهُ مِنَ ٱلْمُتَرْجِمِيْنَ يَتَّسِعُ لِهَـٰذَا ٱلْأُسْلُوْبِ أَوْ يُطِيْقُهُ، وَأَكْثَرُ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُتَرْجَمَةِ إِلَىٰ ٱلْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا تَطْمِسُ عَلَىٰ ٱسْمِ ٱلْمُتَرْجِمِ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ عَنِ ٱسْمِ ٱلْمُؤَلِّفِ ، فَلَا يَحْيَا ٱلْمَيْتُ إِلَّا بِمَوْتِ ٱلْحَيِّ ، وَهُمْ فِيْ أَكْثَرِ مَا يَصْنَعُوْنَ لَا يَعْدُوْنَ أَنْ يُصَحِّحُوْا ٱلْعَامِّيَّةَ أَوْ يُفَصِّحُوْا بِهَا قَلِيْلًا ، فَيَسْتَوِيْ فِيْ صَنْعَةِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يَكُوْنَ نَاقِلَ ٱلْكِتَابِ هَـٰذَا أَوْ ذَاكَ أَوْ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ سَوَاسِيَةٌ ، وَلَا تُؤْتِيْكَ كُتُبُهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يُؤْتِيْكَ ٱلِاسْمُ ٱلْمُعَلَّقُ عَلَىٰ مُسَمَّاهُ .

غَيْرَ أَنَّكَ فِيْ ٱلْبُؤَسَاءِ تَرَىٰ مَعَ ٱلتَّرْجَمَةِ صَنْعَةً غَيْرَ ٱلتَّرْجَمَةِ ، وَكَأَنَّمَا أَلَّفَ هِيْجُوْ هَـٰذَا ٱلْكِتَابَ مَرَّةً وَأَلَّفَهُ حَافِظٌ مَرَّتَيْنِ ، إِذْ يَنْقُلُ عَنِ ٱلْفَرَنْسِيَّةِ ، ثُمَّ يَفْتَنُّ فِيْ ٱلتَّعْبِيْرِ عَمَّا يَنْقُلُ ، ثُمَّ

يُحكِمُ ٱلصَّنْعَةَ فِيمَا يَفْتَنُّ ، ثُمَّ يُبَالِغُ فِيمَا يُحكِمُ ، فَأَنْتَ مِنْ كِتَابِهِ فِيْ لُغَةِ ٱلتَّرْجَمَةِ ، ثُمَّ فِيْ بَيَانِ ٱللُّغَةِ ، ثُمَّ فِيْ قُوَّةِ ٱلْبَيَانِ ؛ وَبِهَـٰذَا خَرَجَ ٱلْكِتَابُ وَإِنَّ مُتَرْجِمَهُ لَأَحَقُّ بِهِ فِيْ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِنْ مُؤَلِّفِهِ ، وَجَاءَ وَمَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْسَىٰ أَنَّهُ لِحَافِظ دُوْنَ سِوَاهُ .

وَتِلْكَ طَرِيقَةٌ فِيْ ٱلْكِتَابَةِ لَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلأَدَبِ ٱلْغَزِيْرِ ، وَٱلذَّوْقِ ٱلنَّاضِجِ ، وَٱلْبَيَانِ ٱلْمَطْبُوْعِ ؛ ثُمَّ بِٱلصَّبْرِ عَلَىٰ مُطَاوَلَةِ ٱلتَّعَبِ وَمُعَانَاةِ ٱلْكَدِّ فِيْ تَخَيُّرِ ٱللَّفْظِ وَتَجْوِيْدِ ٱلأُسْلُوْبِ وَتَصْفِيَةِ ٱلْعِبَارَةِ ، فَلَقَدْ يُنْفِقُ ٱلْكَاتِبُ وَقْتًا فِيْ عُمْرِ ٱللَّيْلِ لِيَخْرُجَ مِنْ آخِرِهِ سَطْرًا فِيْ نُوْرِ ٱلْفَجْرِ ، وَبِهَـٰذَا ٱلصَّنِيعِ جَاءَتْ صَفَحَاتُ ٱلْبُؤَسَاءِ عَلَىٰ قِلَّتِهَا كَشَبَابِ ٱلْهَوَىٰ : لِكُلِّ يَوْمٍ مِنْهُ فَجْرُهُ وَشَمْسُهُ ، وَلِكُلِّ لَيْلَةٍ قَمَرُهَا وَنُجُوْمُهَا .

* * *

وَٱلَّذِي نَغْتَمِزُهُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلتَّرْجَمَةِ أَنَّ ٱلضَّجَرَ يَسْتَبِدُّ أَحْيَانًا بِصَاحِبِنَا فَيَسْتَكْرِهُهُ عَلَىٰ غَيْرِ طَبْعِهِ ، وَيَرُدُّهُ إِلَىٰ غَيْرِ مَأْلُوْفِهِ ، وَمِنْ ثَمَّ يَضْطَرِبُ ذَوْقُهُ وَسَلِيقَتُهُ أَوْ يَذْهَبُ بِهِ عَنْهُمَا ، فَيَعْدِلُ بِٱلْمَعْنَىٰ عَنْ لَفْظِهِ ٱلْمَعْرُوْفِ ٱلَّذِيْ ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلأُدَبَاءُ فِيْهِ كَٱسْتِعْمَالِهِ : قَارِنْ بَيْنَ كَذَا وَكَذَا ، وَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُوْنَ مِثْلَ بَيْنَهُمَا ، أَوْ يُخِلُّ بِوَزْنِ ٱلْكَلِمَةِ فِيْ مِيزَانِ ٱلذَّوْقِ ، فَتَرَىٰ ٱلْعِبَارَةَ ٱلْيَابِسَةَ فِيْ ٱلْجُمْلَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ٱلَّتِيْ تَرِفُّ ، وَذَلِكَ مَا لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ أَثَرُ ٱلضَّعْفِ ٱلإِنْسَانِيِّ فِيمَنِ ٱرْتَهَنُوْا أَنْفُسَهُمْ بِمُلَابَسَةِ ٱلْقُوَّةِ ٱلْعُلْيَا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ .

وَلَمْ يَتَنَزَّهْ عَنْهُ كِتَابٌ إِلَّا ذَلِكَ ٱلْكِتَابَ ٱلْعَزِيْزَ ٱلَّذِيْ ٱهْتَزَّتْ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ .

* * *

ٱلْمَلَّاحُ ٱلتَّائِهُ(*)

إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ عَنْ شِعْرٍ قَرَأْتُهُ ، كَانَ مِنْ دَأْبِيْ أَنْ أَقْرَأَهُ مُتَثَبِّتًا أَتَصَفَّحُ عَلَيْهِ فِيْ ٱلْحَرْفِ وَٱلْكَلِمَةِ ، إِلَىٰ ٱلْبَيْتِ وَٱلْقَصِيْدَةِ ، إِلَىٰ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱلنَّهْجِ ، إِلَىٰ مَا وَرَاءَ ٱلْكَلَامِ مِنْ بَوَاعِثِ ٱلنَّفْسِ ٱلشَّاعِرَةِ ، وَدَوَافِعِ ٱلْحَيَاةِ فِيْهَا ، وَعَنْ أَيِّ أَحْوَالِ هَـٰذِهِ ٱلنَّفْسِ يَصْدُرُ هَـٰذَا ٱلشِّعْرُ ، وَبِأَيِّهَا يَتَسَبَّبُ إِلَىٰ ٱلإِلْهَامِ ، وَفِيْ أَيِّهَا يَتَّصِلُ ٱلإِلْهَامُ بِهِ ، وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِمَعَانِيْهِ ، وَكَيْفَ يَسْتَرْسِلُ إِلَىٰ طَبْعِهِ ، وَمِنْ أَيْنَ ٱلْمَأْتَىٰ فِيْ رَدِيئِهِ وَسَقْطِهِ ، وَبِمَاذَا يَسْلُكُ إِلَىٰ تَجْوِيْدِهِ وَإِبْدَاعِهِ ؟

ثُمَّ كَيْفَ حِدَّةُ قَرِيحَتِهِ وَذَكَاءُ فِكْرِهِ وَٱلْمَلَكَةُ ٱلنَّفْسِيَّةُ ٱلْبَيَانِيَّةُ فِيْهِ ، وَهَلْ هِيَ جَبَّارَةٌ مُتَعَسِّفَةٌ تَمْلِكُ ٱلْبَيَانَ مِنْ حُدُوْدِ ٱللُّغَةِ فِيْ ٱللَّفْظِ إِلَىٰ حُدُوْدِ ٱلإِلْهَامِ فِيْ ٱلْمَعْنَىٰ ، مَلَكَةُ ٱسْتِقْلَالٍ تَنْفُذُ بِٱلأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ جَمِيْعًا ، أَوْ هِيَ ضَعِيفَةٌ رَخْوَةٌ لَيْسَ مَعَهَا إِلَّا ٱلاخْتِلَالُ وَٱلاضْطِرَابُ ، وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا مَا يَحْمِلُ ٱلضَّعِيفُ عَلَىٰ طَبْعِهِ ٱلْمَكْدُوْدِ كُلَّمَا عَنُفَ بِهِ سَقَطَ بِهِ ؟

أَتَبَيَّنُ كُلَّ هَـٰذَا فِيمَا أَقْرَأُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ، ثُمَّ أَزِيْدُ عَلَيْهِ ٱنْتِقَادَهُ بِمَا كُنْتُ أَصْنَعُهُ أَنَا لَوْ أَنِّيْ عَالَجْتُ هَـٰذَا ٱلْغَرَضَ أَوْ تَنَاوَلْتُ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، ثُمَّ أُضِيفُ إِلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا أَثْبَتُّهُ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلاهْتِزَازِ ٱلَّتِيْ يُحَدِّثُهَا ٱلشِّعْرُ فِيْ نَفْسِيْ ؛ فَإِنِّيْ لَأَطْرَبُ لِلشِّعْرِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْوَثِيْقِ أَنْوَاعًا مِنَ ٱلطَّرَبِ لَا نَوْعًا وَاحِدًا ، وَهِيَ تُشْبِهُ فِيْ ٱلتَّفَاوُتِ مَا بَيْنَ قَطْرَةِ ٱلنَّدَىٰ ٱلصَّافِيَةِ فِيْ وَرَقِ ٱلزَّنْبَقَةِ وَقَطْرَةِ ٱلشُّعَاعَةِ ٱلْمُتَأَلِّقَةِ فِيْ جَوْهَرِ ٱلْمَاسَةِ وَمَوْجَةِ ٱلنُّوْرِ ٱلْمُتَأَلِّهَةِ فِيْ كَوْكَبِ ٱلزُّهَرَةِ .

وَأَكْثَرُ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِيْ يُنْظَمُ فِيْ أَيَّامِنَا هَـٰذِهِ لَا يَتَّصِلُ بِنَفْسِيْ ، وَلَا يَخِفُّ عَلَىٰ طَبْعِيْ ، وَلَا أَرَاهُ يَقَعُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلصَّحِيْحِ إِلَّا مِنْ بُعْدٍ ، وَهُوَ مِنِّيْ أَنَا كَٱلرَّجُلِ يَمُرُّ بِيْ فِيْ ٱلطَّرِيْقِ لَا أَعْرِفُهُ : فَلَا يَنْظُرُ إِلَيَّ وَلَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَمَا أُبْصِرُ مِنْهُ رَجُلًا وَإِنْسَانِيَّةً وَحَيَاةً أَكْثَرَ مِمَّا أَرَاهُ ثَوْبًا وَحِذَاءً وَطَرْبُوْشًا ؛ وَٱلْعَجِيبُ أَنَّهُ كُلَّمَا ضَعُفَ ٱلشَّاعِرُ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ قَوِيَ عَلَىٰ مِقْدَارِ ذَلِكَ فِيْ ٱلاحْتِجَاجِ لِضَعْفِهِ ، وَأُلْهِمَ مِنَ ٱلشَّوَاهِدِ وَٱلْحُجَجِ مَا لَوْ أُلْهِمَ بِعَدَدِهِ مِنَ ٱلْمَعَانِيْ

(*) {دِيْوَانُ ٱلشَّاعِرِ ٱلْمُهَنْدِسِ عَلِيْ مَحْمُود طَـٰه . وَٱنْظُرْ «فِيْ ٱلنَّقْدِ» مِنْ كِتَابِنَا «حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ»} .

وَٱلْخَوَاطِرِ لَكَانَ عَسَىٰ . .

فَإِذَا نَافَرَتِ ٱلْمَعَانِيْ أَلْفَاظَهَا وَٱخْتَلَفَتِ ٱلْأَلْفَاظُ عَلَىٰ مَعَانِيْهَا قَالَ : إِنَّ هَـٰذَا فِيْ ٱلْفَنِّ . . هُوَ ٱلِاسْتِوَاءُ وَٱلِاطِّرَادُ وَٱلْمُلَاءَمَةُ وَقُوَّةُ ٱلْحَبْكِ ، وَإِذَا عَوِصَ وَخَانَهُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَىٰ جَمِيْعًا وَأَسَاءَ لِيَتَكَلَّفَ وَتَسَاقَطَ لِيَتَحَذْلَقَ وَجَاءَكَ بِشِعْرِهِ وَتَفْسِيْرِ شِعْرِهِ وَٱلطَّرِيْقَةِ لِفَهْمِ شِعْرِهِ قَالَ : إِنَّهُ أَعْلَىٰ مِنْ إِدْرَاكِ مُعَاصِرِيْهِ ، وَإِنَّ عَجْرَفَةَ مَعَانِيْهِ هَـٰذِهِ آتِيَةٌ مِنْ أَنَّ شِعْرَهُ مِنْ وَرَاءِ ٱللُّغَةِ ، مِنْ وَرَاءِ ٱلْحَالَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ، مِنْ وَرَاءِ ٱلْعَصْرِ ، مِنْ وَرَاءِ ٱلْغَيْبِ ؛ كَأَنَّ ٱلْمَوْجُوْدَ فِيْ ٱلدُّنْيَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ هُوَ ظِلُّ شَخْصِهِ لَا شَخْصُهُ ، وَٱلظِّلُّ بِطَبِيْعَتِهِ مَطْمُوْسٌ مُبْهَمٌ لَا يُبِيْنُ إِبَانَةَ ٱلشَّخْصِ . وَإِذَا أَهْلَكَ ٱلشَّاعِرُ ٱلِاسْتِعَارَةَ وَأَمْرَضَ ٱلتَّشْبِيْهَ وَخَنَقَ ٱلْمَجَازَ بِحَبْلٍ ـ قَالَ لَكَ : إِنَّهُ عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقَةِ ٱلْعَصْرِيَّةِ ، وَإِنَّمَا سَدَّدَ وَقَارَبَ وَأَصَابَ وَأَحْكَمَ . وَإِذَا سَمَّىٰ ٱلْمَقَالَةَ قَصِيْدَةً . . . وَخَلَطَ فِيْهَا خَلْطَهُ ، وَجَاءَ بِهَا فِيْ أَسْوَإِ مَعْرِضٍ وَأَقْبَحِهِ ، وَخَرَجَ إِلَىٰ مَا لَا يُطَاقُ مِنَ ٱلرَّكَاكَةِ وَٱلْغَثَاثَةِ ـ قَالَ لَكَ : هَـٰذِهِ هِيَ وَحْدَةُ ٱلْقَصِيْدَةِ ، فَهِيَ كُلٌّ وَاحِدٌ أُفْرِغَ إِفْرَاغَ ٱلْجِسْمِ ٱلْحَيِّ ، رَأْسُهُ لَا يَكُوْنُ إِلَّا فِيْ مَوْضِعِ رَأْسِهِ ، وَرِجْلَاهُ لَا تَكُوْنُ إِلَّا فِيْ مَوْضِعِ رِجْلَيْهِ . . .

تِلْكَ طَبَقَاتٌ مِنَ ٱلضَّعْفِ تَظَاهَرَتِ ٱلْحُجَجُ مِنْ أَصْحَابِهَا عَلَىٰ أَنَّهَا طَبَقَاتٌ مِنَ ٱلْقُوَّةِ ، غَيْرَ أَنَّ مِصْدَاقَ ٱلشَّهَادَةِ لِلْأَقْوِيَاءِ عِظَامُهُمُ ٱلْمَشْبُوْحَةُ ، وَعَضَلَاتُهُمُ ٱلْمَفْتُوْلَةُ ، وَقُلُوْبُهُمُ ٱلْجَرِيْئَةُ ، أَمَّا ٱلْأَلْسِنَةُ فَهِيَ شُهُوْدُ ٱلزُّوْرِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ خَاصَّةً .

* * *

هُنَاكَ مِيْزَانٌ لِلشَّاعِرِ ٱلصَّحِيْحِ وَلِلْآخَرِ ٱلْمُتَشَاعِرِ : فَٱلْأَوَّلُ تَأْخُذُ مِنْ طَرِيْقَتِهِ وَمَجْمُوْعِ شِعْرِهِ أَنَّهُ مَا نَظَمَ إِلَّا لِيُثْبِتَ أَنَّهُ قَدْ وَضَعَ شِعْرًا ، وَٱلثَّانِيْ تَأْخُذُ مِنْ شِعْرِهِ وَطَرِيْقَتِهِ أَنَّهُ إِنَّمَا نَظَمَ لِيُثْبِتَ أَنَّهُ قَرَأَ شِعْرًا . . . وَهَـٰذَا ٱلثَّانِيْ يُشْعِرُكَ بِضَعْفِهِ وَتَلْفِيْقِهِ أَنَّهُ يَخْدُمُ ٱلشِّعْرَ لِيَكُوْنَ شَاعِرًا ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْأَوَّلَ يُرِيْكَ بِقُوَّتِهِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ أَنَّ ٱلشِّعْرَ نَفْسَهُ يَخْدُمُهُ لِيَكُوْنَ هُوَ شَاعِرُهُ .

أَمَّا فَرِيْقُ ٱلْمُتَشَاعِرِيْنَ فَلْيُمَثِّلْ لَهُ ٱلْقَارِئُ بِمَنْ شَاءَ وَهُوَ فِيْ سَعَةٍ . . . وَأَمَّا فَرِيْقُ ٱلشُّعَرَاءِ فَفِيْ أَوَائِلِ أَمْثِلَتِهِ عِنْدِيْ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُهَنْدِسُ عَلِي مَحْمُود طَـٰه . أَشْهَدُ أَنِّيْ أَكْتُبُ عَنْهُ ٱلْآنَ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْإِعْجَابِ ٱلَّذِيْ كَتَبْتُ بِهِ فِيْ « ٱلْمُقْتَطَفِ » عَنْ أَصْدِقَائِيْ ٱلْقُدَمَاءِ : مَحْمُوْدٌ بَاشَا ٱلْبَارُوْدِيِّ ، وَإِسْمَاعِيْلُ بَاشَا صَبْرِي ، وَحَافِظٌ ، وَشَوْقِي ، رَحِمَهُمُ ٱللهُ وَأَطَالَ بَقَاءَ

صَاحِبِنَا ؛ فَهَـٰذَا ٱلشَّابُّ ٱلْمُهَنْدِسُ أُوْتِيَ مِنْ هَنْدَسَةِ ٱلْبِنَاءِ قُوَّةَ ٱلتَّمْيِيْزِ وَدِقَّةَ ٱلْمُحَاسَبَةِ ، وَوُهِبَ مَلَكَةَ ٱلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْقُبْحِ فِيْ ٱلْأَشْكَالِ مِمَّا عَلَّمَتْهُ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَمَا عَلَّمَتْهُ مِنَ ٱلذَّوْقِ ، وَهَـٰذَا إِلَىٰ جَلَاءِ ٱلْفِطْنَةِ وَصِقَالِ ٱلطَّبْعِ وَتَمَوُّجِ ٱلْخَيَالِ وَٱنْفِسَاحِ ٱلذَّاكِرَةِ وَٱنْتِظَامِ ٱلْأَشْيَاءِ فِيْهَا ؛ وَبِهَـٰذَا كُلِّهِ ٱسْتَعَانَ فِيْ شِعْرِهِ وَقَدْ خُلِقَ مُهَنْدِسًا شَاعِرًا ، وَمَعْنَىٰ هَـٰذَا أَنَّهُ خُلِقَ شَاعِرًا مُهَنْدِسًا ؛ وَكَأَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يُقَدِّرْ لِهَـٰذَا ٱلشَّاعِرِ ٱلْكَرِيْمِ تَعَلُّمَ ٱلْهَنْدَسَةِ وَمُزَاوَلَتَهَا وَٱلْمَهَارَةَ فِيْهَا إِلَّا لِمَا سَبَقَ فِيْ عِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَنْبُغُ نُبُوْغَهُ لِلْعَرَبِيَّةِ فِيْ زَمَنِ ٱلْفَوْضَىٰ وَعَهْدِ ٱلتَّقَلْقُلِ ، وَحِيْنَ فَسَادِ ٱلطَّرِيْقَةِ وَتَخَلُّفِ ٱلْأَذْوَاقِ وَتَرَاجُعِ ٱلطَّبْعِ وَوُقُوْعِ ٱلْغَلَطِ فِيْ هَـٰذَا ٱلْمَنْطِقِ لِانْعِكَاسِ ٱلْقَضِيَّةِ ، فَيَكُوْنُ ٱلْبُرْهَانُ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا شَاعِرٌ وَذَاكَ نَابِغَةٌ وَذَلِكَ عَبْقَرِيٌّ ـ هُوَ عَيْنُهُ ٱلْبُرْهَانَ عَلَىٰ أَنْ لَا شِعْرَ وَلَا نُبُوْغَ وَلَا عَبْقَرِيَّةَ ؛ وَهَـٰذِهِ فَوْضَىٰ تَحْتَاجُ فِيْ تَنْظِيْمِهَا إِلَىٰ (مَصْلَحَةِ تَنْظِيْمٍ) بِٱلْهَنْدَسَةِ وَآلَاتِهَا وَٱلرِّيَاضَةِ وَأُصُوْلِهَا وَٱلْأَشْكَالِ وَٱلرُّسُوْمِ وَفُنُوْنِهَا ، فَجَاءَ شَاعِرُنَا هَـٰذَا وَفِيْهِ ٱلطِّبُّ لِمَا وَصَفْنَا ؛ فَهُوَ يَنْظِمُ شِعْرَهُ بِقَرِيْحَةٍ بَيَانِيَّةٍ هَنْدَسِيَّةٍ ، أَسَاسُهَا ٱلِاتِّزَانُ وَٱلضَّبْطُ ، وَصَوَابُ ٱلْحُسْبَةِ فِيْمَا يُقَدِّرُ لِلْمَعْنَىٰ ، وَإِبْدَاعُ ٱلشَّكْلِ فِيْمَا يُنْشِئُ مِنَ ٱللَّفْظِ ، وَأَلَّا يُتْرَكَ ٱلْبِنَاءُ ٱلشِّعْرِيُّ قَائِمًا لِيَقَعَ إِذْ يَكُوْنُ وَاهِنًا فِيْ أَسَاسِهِ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ ، بَلْ لِيَثْبُتَ ، إِذْ يَكُوْنُ أَسَاسُهُ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ فِيْ رُسُوْخٍ وَعَلَىٰ قَدْرٍ .

وَدِيْوَانُ « ٱلْمَلَّاحِ ٱلتَّائِهِ » ٱلَّذِيْ أَخْرَجَهُ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرُ لَا يَنْزِلُ بِصَاحِبِهِ مِنْ شِعْرِ ٱلْعَصْرِ دُوْنَ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِيْ أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَقْرَأَهُ وَتَعْتَبِرَ مَا فِيْهِ بِشِعْرِ ٱلْآخَرِيْنَ حَتَّىٰ تَجِدَ ٱلشَّاعِرَ ٱلْمُهَنْدِسَ كَأَنَّهُ قَادِمٌ لِلْعَصْرِ مُحَمَّلًا بِذِهْنِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَآلَاتِهِ وَمَقَايِيْسِهِ لِيُصْلِحَ مَا فَسَدَ ، وَيُقِيْمَ مَا تَدَاعَىٰ ، وَيُرَمِّمَ مَا تَخَرَّبَ ، وَيَهْدِمَ وَيَبْنِيَ .

* * *

دِيْوَانُ ٱلشَّاعِرِ ٱلْحَقِّ هُوَ إِثْبَاتُ شَخْصِيَّتِهِ بِبَرَاهِيْنَ مِنْ رُوْحِهِ ؛ وَهَا هُنَا فِيْ « ٱلْمَلَّاحِ ٱلتَّائِهِ » رُوْحٌ قَوِيَّةٌ فَلْسَفِيَّةٌ بَيَانِيَّةٌ ، تُؤْتِيْكَ ٱلشِّعْرَ ٱلْجَيِّدَ ٱلَّذِيْ تَقْرَؤُهُ بِٱلْقَلْبِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلذَّوْقِ ، وَتَرَاهُ كِفَاءَ أَغْرَاضِهِ ٱلَّتِيْ يَنْظِمُ فِيْهَا ؛ فَهُوَ مُكْثِرٌ حِيْنَ يَكُوْنُ ٱلْإِكْثَارُ شِعْرًا ، مُقِلٌّ حِيْنَ يَكُوْنُ ٱلشِّعْرُ هُوَ ٱلْإِقْلَالَ ؛ ثُمَّ هُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ مَتِيْنٌ رَصِيْنٌ ، بَارِعُ ٱلْخَيَالِ ، وَاسِعُ ٱلْإِحَاطَةِ ، تَرَاهُ كَٱلدَّائِرَةِ : يَصْعَدُ بِكَ مُحِيْطُهَا وَيَهْبِطُ لَا مِنْ أَنَّهُ نَازِلٌ أَوْ عَالٍ ، وَلَـٰكِنْ مِنْ

أَنَّهُ مُلْتَفٌّ مُنْدَمِجٌ ، مَوْزُونٌ مُقَدَّرٌ ، وُضِعَ وَضْعَهُ ذَلِكَ لِيَطُوحَ بِكَ .

هُوَ شِعْرٌ تَعْرِفُ فِيهِ فَنِّيَّةَ ٱلْحَيَاةِ ، وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ مَنْ لَا يَنْقُلُ لَكَ عَنِ ٱلْحَيَاةِ نَقْلًا فَنِّيًّا شِعْرِيًّا ، فَتَرَى ٱلشَّيْءَ فِي ٱلطَّبِيعَةِ كَأَنَّهُ مَوْجُودٌ بِظَاهِرِهِ فَقَطْ ، وَتَرَاهُ فِي ٱلشِّعْرِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ مَعًا ، وَلَيْسَ بِشِعْرٍ مَا إِذَا قَرَأْتَهُ ، وَٱسْتَرْسَلْتَ إِلَيْهِ ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَجْهًا مِنْ وُجُوهِ ٱلْفَهْمِ وَٱلتَّصْوِيرِ لِلْحَيَاةِ وَٱلطَّبِيعَةِ فِي نَفْسٍ مُمْتَازَةٍ مُدْرِكَةٍ مُصَوِّرَةٍ .

وَلِهَٰذَا فَلَيْسَ مِنَ ٱلشَّرْطِ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ عَصْرُ ٱلشَّاعِرِ وَبِيئَتُهُ فِي شِعْرِهِ ، وَإِنَّمَا ٱلشَّرْطُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ نَفْسُهُ ٱلشَّاعِرَةُ عَلَىٰ طَرِيقَتِهَا فِي ٱلْفَهْمِ وَٱلتَّصْوِيرِ ، وَأَنْتَ تُثْبِتُ هَٰذِهِ ٱلنَّفْسَ بِهَٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَنَّ لَهَا أَنْ تَقُولَ كَلِمَتَهَا ٱلْجَدِيدَةَ ، وَأَنَّهَا مُخَوَّلَةٌ لَهَا ٱلْحَقَّ فِي أَنْ تَقُولَهَا ، إِذْ هِيَ لِلْعُقُولِ وَٱلْأَرْوَاحِ أُخْتُ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْقَدِيمَةِ : كَلِمَةِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلَّتِي جَاءَتْ بِهَا ٱلنُّبُوَّةُ مِنْ قَبْلُ .

وَلَيْسَ فِي شِعْرِ عَلِي طَه مِنْ عَصْرِيَّاتِنَا غَيْرُ ٱلْقَلِيلِ ، وَلَٰكِنَّ ٱلْعَجِيبَ أَنَّهُ لَا يَنْظِمُ فِي هَٰذَا ٱلْقَلِيلِ إِلَّا حِينَ يَخْرُجُ ٱلْمَعْنَىٰ مِنْ عَصْرِهِ وَيَلْتَحِقُ بِٱلتَّارِيخِ ، كَرِثَاءِ شَوْقِي وَحَافِظ ، وَعَدْلِي بَاشَا ، وَفَوْزِي ٱلْمَعْلُوفِ ، وَٱلطَّيَّارَيْنِ : دُوس وَحَجَّاج ، وَٱلْمَلِكِ ٱلْعَظِيمِ فَيْصَل ؛ فَإِنْ يَكُنْ هَٰذَا ٱلتَّدْبِيرُ عَنْ قَصْدٍ وَإِرَادَةٍ فَهُوَ عَجِيبٌ ، وَإِنْ كَانَ ٱتِّفَاقًا وَمُصَادَفَةً فَهُوَ أَعْجَبُ ؛ عَلَىٰ أَنَّهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَرْمِي إِلَىٰ تَمْجِيدِ ٱلْفَنِّ وَٱلْبُطُولَةِ فِي مَظَاهِرِهَا ، مُتَكَلِّمَةً ، وَسِيَاسِيَّةً ، وَمُغَامِرَةً ، وَمَالِكَةً .

أَمَّا سَائِرُ أَغْرَاضِهِ فَإِنْسَانِيَّةٌ عَامَّةٌ ، تَتَغَنَّى ٱلنَّفْسُ فِي بَعْضِهَا ؛ وَتَمْرَحُ فِي بَعْضِهَا ، وَتَصَلَّى فِي بَعْضِهَا ، وَلَيْسَ فِيهَا طَيْشٌ وَلَا فُجُورٌ وَلَا زَنْدَقَةٌ إِلَّا . . . ظِلَالًا مِنَ ٱلْحَيْرَةِ أَوِ ٱلشَّكِّ ، كَتِلْكَ ٱلَّتِي فِي قَصِيدَةِ « ٱللهُ وَٱلشَّاعِرُ » ، وَأَظُنُّهُ يُتَابِعُ فِيهَا ٱلْمَعَرِّيَّ ، وَلَسْتُ أَدْرِي كَمْ يَنْخَدِعُ ٱلنَّاسُ بِٱلْمَعَرِّيِّ هَٰذَا ، وَهُوَ فِي رَأْيِي شَاعِرٌ عَظِيمٌ غَيْرَ أَنَّ لَهُ بِضَاعَةً مِنَ ٱلتَّلْفِيقِ تَعْدِلُ مَا تُخْرِجُهُ « لَانْكَشِير Lancashire »[1] مِنْ بَضَائِعِهَا إِلَىٰ أَسْوَاقِ ٱلدُّنْيَا .

(١) لانكشير Lancashire : مقاطعة تقع في غرب إنكلترة على البحر الإيرلندي ، اشتهرت منذ القرن السابع عشر كمركز لصناعة النسيج . بسّام .

وَمِمَّا يُعْجِبُنِي فِي شِعْرِ عَلِي طَه أَنَّهُ فِي مَنَاحِي فَلْسَفَتِهِ وَجِهَاتِ تَفْكِيرِهِ يُوَافِقُ رَأْيِيَ ٱلَّذِي أَرَاهُ دَائِمًا ، وَهُوَ أَنَّ ثَوْرَةَ ٱلرُّوحِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَمَعْرَكَتَهَا ٱلْكُبْرَىٰ مَعَ ٱلْوُجُودِ - لَيْسَتَا فِي ظَاهِرِ ٱلثَّوْرَةِ وَلَا فِي ٱلْعِرَاكِ مَعَ ٱللهِ كَمَا صَنَعَ ٱلْمَعَرِّيُّ وَأَضْرَابُهُ فِي طَيْشِهِمْ وَحَمَاقَتِهِمْ ، وَلَٰكِنَّهُمَا فِي ٱلْهُدُوءِ ٱلشِّعْرِيِّ لِلرُّوحِ ٱلْمُتَأَمِّلَةِ ، ذَلِكَ ٱلْهُدُوءِ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلطَّبِيعَةَ نَفْسَهَا تَبْتَسِمُ بِكَلَامِ ٱلشَّاعِرِ كَمَا تَبْتَسِمُ بِأَزْهَارِهَا وَنُجُومِهَا ، وَيَجْعَلُ ٱلشَّاعِرَ أَدَاةً طَبِيعِيَّةً مُتَّخَذَةً لِكَشْفِ ٱلْحِكْمَةِ وَتَغْطِيَتِهَا مَعًا ، فَإِنَّ ٱلْعَجِيبَ ٱلَّذِي أَعْجَبُ مِنْهُ فِي ٱلتَّدْبِيرِ ٱلْإِلَٰهِيِّ لِلنُّفُوسِ ٱلْحَسَّاسَةِ - أَنَّ زَخْرَفَةَ ٱلشِّعْرِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ فِي ٱلْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ ضَرْبٌ مِنْ زُخْرُفِ ٱلطَّبِيعَةِ حِينَ تَبْتَدِعُ ٱلشَّكْلَ ٱلْجَمِيلَ لِتُتَمِّمَ أَغْرَاضَهَا مِنْ وَرَائِهِ ؛ وَلَوْ ثَارَتِ ٱلْأَزْهَارُ - مَثَلًا - عَلَى ٱلْوُجُودِ وَخَالِقِهِ ثَوْرَةَ أُولَٰئِكَ ٱلشُّعَرَاءِ لَمَا صَنَعَتْ شَيْئًا غَيْرَ إِفْسَادِ حِكْمَتِهَا هِيَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَٰذِهِ ٱلْحِكْمَةِ مِنَ ٱلْمَصَالِحِ وَٱلْمَنَافِعِ ، وَلَنْ تَنْتَصِرَ إِلَّا بِبَقَائِهَا أَزْهَارًا ، فَذَلِكَ حَرْبُهَا وَسِلْمُهَا مَعًا .

* * *

وَأُسْلُوبُ شَاعِرِنَا أُسْلُوبٌ جَزْلٌ ، أَوْ إِلَى ٱلْجَزَالَةِ ، تَبْدُو ٱللُّغَةُ فِيهِ وَعَلَيْهَا لَوْنٌ خَاصٌّ مِنْ أَلْوَانِ ٱلنَّفْسِ ٱلْجَمِيلَةِ يَزْهُو زُهُوَّهُ فَيَكْثُرُ مِنْهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَأْثِيرُهَا وَجَمَالُهَا ، وَهَٰذِهِ هِيَ لُغَةُ ٱلشِّعْرِ بِخَاصَّتِهِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ نُنَبِّهَ هُنَا إِلَىٰ مَعْنًى غَرِيبٍ ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ بَعْضَ ٱلنَّظَّامِينَ يُحْسِنُونَ مِنَ ٱللُّغَةِ وَفُنُونِ ٱلْأَدَبِ . فَإِذَا نَظَمُوا وَخَلَا نَظْمُهُمْ مِنْ رُوحِ ٱلشِّعْرِ - ظَهَرَتِ ٱلْأَلْفَاظُ فِي أَوْزَانِهِمْ وَكَأَنَّهَا فَقَدَتْ شَيْئًا مِنْ قِيمَتِهَا : كَأَنَّ مَوْضِعَهَا فِي هَٰذَا ٱلنَّظْمِ غَيْرُ مَوْضِعِهَا فِي ٱللُّغَةِ ، وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱللَّفْظُ وَلَا تَغَيَّرَ ، وَلَٰكِنَّ مَوْضِعَهُ ثَمَّ هُوَ ٱلَّذِي أَعْلَنَ إِفْلَاسَهُ ، إِذْ أَقَامَهُ مَقَامَ ٱلَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَ ثُمَّ هُوَ إِذَا وَقَفَ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَعْتَذِرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَا يُعْطِيهِ . . . فَهَٰذَا كَانَ رَجُلًا مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَكَانَ فِي سِتْرٍ وَعَافِيَةٍ ، فَلَمَّا وَقَفَ مَوْقِفَهُ ٱنْقَلَبَ مُدَلِّسًا كَاذِبًا مُدَّعِيًا ، فَٱخْتَلَفَتْ بِهِ ٱلْحَالُ وَهُوَ هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ .

وَمَا ٱلْأُسْلُوبُ ٱلْبَيَانِيُّ إِلَّا وَسِيلَةٌ فَنِّيَّةٌ لِمُضَاعَفَةِ ٱلتَّعْبِيرِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَٰذَا مَا يُعْطِيهِ كَانَ وَسِيلَةً فَنِّيَّةً أُخْرَىٰ لِمُضَاعَفَةِ ٱلْخَيْبَةِ ، وَهَٰذَا مَا تُحِسُّهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِ ٱلنَّظَّامِينَ أَوِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْمَيِّتَةِ ، وَنُحِسُّهُ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْمَيِّتِ ٱلَّذِي لَا يَزَالُ يُنْشَرُ بَيْنَنَا .

وَعَلِي طَه إِذَا حَرَصَ عَلَىٰ أُسْلُوبِهِ وَبَالَغَ فِي إِتْقَانِهِ وَٱسْتَمَرَّ يُجْرِيهِ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِ ٱلْجَيِّدَةِ

مُتَقَدِّمًا فِيهَا ، مُتَعَمِّقًا فِيْ أَسْرَارِ ٱلأَلْفَاظِ وَمَا وَرَاءَ ٱلأَلْفَاظِ ، وَهِيَ تِلْكَ ٱلرَّوْعَةُ ٱلْبَيَانِيَّةُ ٱلَّتِي تَكُوْنُ وَرَاءَ ٱلتَّعْبِيرِ وَلَيْسَ لَهَا ٱسْمٌ فِيْ ٱلتَّعْبِيرِ ، مُعْتَبِرًا ٱللُّغَةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ ـ كَمَا هِيَ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ ـ تَآلِيْفًا مُوْسِيقِيًّا لَا تَآلِيْفًا لُغَوِيًّا . . فَإِنَّهُ ، وَلَا رَيْبَ ، سَيَجِدُ مِنْ إِسْفَافِ طَبْعِهِ ٱلْقَوِيِّ ، وَعَوْنِ فِكْرِهِ ٱلْمَشْبُوْبِ ، وَإِلْهَامِ قَرِيْحَتِهِ ٱلْمُوَلِّدَةِ ـ مَا يَجْمَعُ لَهُ ٱلنُّبُوْغَ مِنْ أَطْرَافِهِ ، بِحَيْثُ يَعُدُّهُ ٱلْوُجُوْدُ مِنْ كِبَارِ مُصَوِّرِيْهِ ، وَتَتَّخِذُهُ ٱلْحَيَاةُ مِنْ بُلَغَاءِ ٱلْمُعَبِّرِيْنَ عَنْهَا فِيْ ٱلْعَرَبِيَّةِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَنْظِمُهُ ٱلْعَرَبِيَّةُ فِيْ سِمْطِ جَوَاهِرِهَا ٱلتَّارِيْخِيَّةِ ٱلثَّمِيْنَةِ ، وَيَصِلُهُ ٱلسِّلْكُ بِشَوْقِي وَحَافِظِ وَٱلْبَارُوْدِيِّ وَصَبْرِي ، إِلَىٰ ٱلْمُتَنَبِّيِّ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱبْنِ ٱلرُّوْمِيِّ وَأَبِيْ تَمَّامٍ ، إِلَىٰ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكَ ، إِلَىٰ ٱلْجَوْهَرَةِ ٱلْكُبْرَىٰ ٱلْمُسَمَّاةِ جَبَلَ ٱلنُّوْرِ ٱلْبَيَانِيِّ ، إِلَىٰ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ .

وَلَيْسَ هَـٰذَا بِبَعِيْدٍ عَلَىٰ مَنْ يَقُوْلُ فِيْ صِفَةِ ٱلْقَلْبِ [من الكامل] :

يَا قَلْبُ عِنْدَكَ أَيُّ أَسْرَارِ ... مَا زِلْنَ فِيْ نَشْرٍ وَفِيْ طَيِّ
يَا ثَوْرَةً مَشْبُوْبَةَ ٱلنَّارِ ... أَفْلَقْتِ جِسْمَ ٱلْكَائِنِ ٱلْحَيِّ
حَمَّلْتَهُ ٱلْعِبْءَ ٱلَّذِيْ فَرِقَتْ ... مِنْهُ ٱلْجِبَالُ وَأَشْفَقَتْ رَهَبَا
وَأَثَرْتَ مِنْهُ ٱلرُّوْحَ فَٱنْطَلَقَتْ ... تَحْسُوْ ٱلْحَمِيْمَ وَتَأْكُلُ ٱللَّهَبَا
وَعَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنْ إِبَائِكَ فِيْ ... أَسْرِ ٱلْجَمَالِ وَرِبْقَةِ ٱلْحُبِّ
وَتَلَفُّتِ ٱلْمُتَكَبِّرِ ٱلصَّلِفِ ... عَنْ ذِلَّةِ ٱلْمَقْهُوْرِ فِيْ ٱلْحَرْبِ
وَوَهِمْتَ نَارًا ذَاتَ إِيْمَاضِ ... فَبَسَطْتَ كَفَّكَ نَحْوَهَا فَزِعَا
مَرَّتْ بِعَيْنِكَ لَمْحَةُ ٱلْمَاضِيْ ... فَوَثَبْتَ تُمْسِكُ بَارِقًا لَمَعَا
وَٱلأَرْضُ ضَاقَ فَضَاؤُهَا ٱلرَّحْبُ ... وَخَلَتْ فَلَا أَهْلٌ وَلَا سَكَنُ
حَالَ ٱلْهَوَىٰ وَتَفَرَّقَ ٱلصَّحْبُ ... وَبَقِيْتَ وَحْدَكَ أَنْتَ وَٱلزَّمَنُ

وَلَوْ ذَهَبْنَا نَخْتَارُ مِنْ هَـٰذَا ٱلدِّيْوَانِ لَاخْتَرْنَا أَكْثَرَهُ ، فَقَصَائِدُهُ وَمَقَاطِيْعُهُ تَتَعَاقَبُ وَلَـٰكِنْ تَعَاقُبَ ٱلشَّمْسِ عَلَىٰ أَيَّامِهَا ؛ تَظْهَرُ جَدِيْدَةَ ٱلْجَمَالِ فِيْ كُلِّ صَبَاحٍ ، لِأَنَّ وَرَاءَ ٱلصَّبَاحِ مَادَّةَ ٱلْفَجْرِ ، وَكَذَٰلِكَ تَأْتِيْ ٱلْقَصَائِدُ مِنْ نَفْسِ شَاعِرِهَا .

« ٱلْمُقْتَطَفُ » وَٱلْمُتَنَبِّيُّ(*)(١)

« ٱلْمُقْتَطَفُ » شَيْخُ مَجَلَّاتِنَا ؛ كُلُّهُنَّ أَوْلَادُهُ وَأَحْفَادُهُ ؛ وَهُوَ كَٱلْجَدِّ ٱلأَكْبَرِ : زَمَنٌ يَجْتَمِعُ ، وَتَارِيْخٌ يَتَرَاكَمُ ، وَٱنْفِرَادٌ لَا يُلْحَقُ ، وَعِلْمٌ يَزِيْدُ عَلَىٰ ٱلْعِلْمِ بِأَنَّهُ فِيْ ٱلذَّاتِ ٱلَّتِيْ تَفْرِضُ إِجْلَالَهَا فَرْضًا ، وَتَجِبُ لَهَا ٱلْحُرْمَةُ وُجُوْبًا وَيَتَضَاعَفُ مِنْهَا الاسْتِحْقَاقُ فَيَتَضَاعَفُ لَهَا ٱلْحَقُّ .

وَهَلِ ٱلْجَدُّ إِلَّا أُبُوَّةٌ فِيْهَا أُبُوَّةٌ أُخْرَىٰ ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا عَرْشٌ حَيٌّ دَرَجَاتُهُ ٱلْجِيْلُ تَحْتَ ٱلْجِيْلِ ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا ٱمْتِدَادٌ مَسَافَاتُهُ ٱلْعَصْرُ فَوْقَ ٱلْعَصْرِ ؟

وَ« ٱلْمُقْتَطَفُ » يَكْبُرُ وَلَا يَهْرَمُ ، وَيَتَقَدَّمُ فِيْ ٱلزَّمَنِ تَقَدُّمَ ٱلْمُخْتَرَعَاتِ مَاضِيَةً بِٱلنَّوَامِيْسِ إِلَىٰ ٱلنَّوَامِيْسِ ، مُقَيَّدَةً بِٱلْمَبْدَإِ إِلَىٰ ٱلْغَايَةِ ؛ { وَهُوَ كَٱلْعَقْلِ ٱلْمُنْفَرِدِ بِعَبْقَرِيَّتِهِ : وَاجِبُهُ ٱلأَوَّلُ أَنْ يَكُوْنَ دَائِمًا ٱلأَوَّلَ ؛ } فَلَقَدْ أُنْشِئَ هَـٰذَا « ٱلْمُقْتَطَفُ » وَمَا فِيْ ٱلْمَجَلَّاتِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مَا يُغْنِيْ عَنْهُ ، { ثُمَّ طَوَىٰ فِيْ ٱلدَّهْرِ سَبْعَةً وَثَمَانِيْنَ مُجَلَّدًا أَقَامَهَا سَبْعَةً وَثَمَانِيْنَ دَلِيْلًا عَلَىٰ أَنْ لَيْسَ مَا يُغْنِيْ عَنْهُ ؛ } ثُمَّ أَسَفَّتِ ٱلدُّنْيَا حَوْلَهُ بِأَخْلَاقِهَا وَطِبَاعِهَا ، وَتَحَوَّلَتْ مَجَلَّاتٌ كَثِيْرَةٌ إِلَىٰ مِثْلِ ٱلرَّاقِصَاتِ وَٱلْمُغَنِّيَاتِ وَٱلْمُمَثِّلَاتِ . . . وَبَقِيَ هُوَ عَلَىٰ وَفَائِهِ لِمَبْدَئِهِ ٱلْعِلْمِيِّ وَٱلسُّمُوُّ فِيْهِ وَٱلسُّمُوُّ بِهِ ، كَأَنَّمَا أُخِذَ عَلَيْهِ فِيْ ٱلْعِلْمِ وَٱلأَدَبِ مِيْثَاقٌ كَمِيْثَاقِ ٱلنَّبِيِّيْنَ فِيْ ٱلدِّيْنِ وَٱلْفَضِيْلَةِ ؛ فَبَيْنَ يَدَيْهِ ٱلْوَاجِبُ لَا ٱلْغَرَضُ ، وَهَمُّهُ ٱلإِبْدَاعُ بِقُوَىٰ ٱلْعَقْلِ لَا ٱلاحْتِيَالُ بِهَا ، وَهَـٰذِهِ ٱلْحَقِيْقَةُ ٱلثَّابِتَةُ فِيْ ٱلدُّنْيَا لَا ٱلأَحْلَامُ ٱلْمُتَقَلِّبَةُ بِهَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ، وَطَرِيْقُهُ فِيْ كُلِّ ذَٰلِكَ طَرِيْقُ ٱلْفَيْلَسُوْفِ ، مِنْ هُدُوْءِ نَفْسِهِ لَا مِنْ أَحْوَالِ ٱلدَّهْرِ ، فَهُوَ مَاضٍ عَلَىٰ ٱلْيَقِيْنِ ، نَافِذٌ إِلَىٰ ٱلثِّقَةِ ، مُتَنَقِّلٌ فِيْ مَنْزِلَةٍ مَنْزِلَةٍ مِنْ يَقِيْنِهِ إِلَىٰ ثِقَتِهِ ، وَمِنْ ثِقَتِهِ إِلَىٰ يَقِيْنِهِ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٣٢ ، ١٨ شوال سنة ١٣٥٤ هـ = ١٣ يناير/كانون الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحة : ٨٠ .

(١) كِتَابُ « ٱلْمُتَنَبِّيْ » لِلصَّدِيْقِ مَحْمُوْد مُحَمَّد شَاكِر .

وَقَدْ بَدَأَ « ٱلْمُقْتَطَفُ » مُجَلَّدَهُ ٱلثَّامِنَ وَٱلثَّمَانِينَ بِعَدَدٍ ضَخْمٍ أَفْرَدَهُ لِلْمُتَنَبِّي(١) . وَلَئِنْ كَانَتِ ٱلْأَنْدِيَةُ وَٱلْمَجَلَّاتُ قَدِ ٱحْتَفَلَتْ بِهَـٰذَا ٱلشَّاعِرِ ٱلْعَظِيمِ ، فَمَا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّ رُوحَ ٱلشَّاعِرِ ٱلْعَظِيمِ قَدِ ٱحْتَفَلَتْ بِهَـٰذَا ٱلْعَدَدِ مِنَ « ٱلْمُقْتَطَفِ » .

وَلَسْتُ أَغْلُو إِذَا قُلْتُ : إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلرُّوحَ ٱلْمُتَكَبِّرَةَ قَدْ أَظْهَرَتْ كِبْرِيَاءَهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ ، فَٱعْتَزَلَتِ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وَٱلْأُدَبَاءِ ، وَلَزِمَتْ صَدِيقَنَا ٱلْمُتَوَاضِعَ ٱلْأُسْتَاذَ مَحْمُود شَاكِر مُدَّةَ كِتَابَتِهِ هَـٰذَا ٱلْبَحْثَ ٱلنَّفِيسَ ٱلَّذِي أَخْرَجَهُ « ٱلْمُقْتَطَفُ » فِي زُهَاءِ سِتِّينَ وَمِئَةِ صَفْحَةٍ ، تَدُلُّهُ فِي تَفْكِيرِهِ ، وَتُوحِي إِلَيْهِ فِي ٱسْتِنْبَاطِهِ ، وَتُنَبِّهُهُ فِي شُعُورِهِ ، وَتُبَصِّرُهُ أَشْيَاءَ كَانَتْ خَافِيَةً وَكَانَ ٱلصِّدْقُ فِيهَا ، لِيَرُدَّ بِهَا عَلَىٰ أَشْيَاءَ كَانَتْ مَعْرُوفَةً وَكَانَ فِيهَا ٱلْكَذِبُ ؛ ثُمَّ تُعِينُهُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ يَكْتُبَ ٱلْحَيَاةَ ٱلَّتِي جَاءَتْ مِنْ تِلْكَ ٱلنَّفْسِ ذَاتِهَا ، لَا ٱلْحَيَاةَ ٱلَّتِي جَاءَتْ مِنْ نُفُوسِ أَعْدَائِهَا وَحُسَّادِهَا .

وَلَقَدْ كَانَ أَوَّلُ مَا خَطَرَ لِي بَعْدَ أَنْ أَمْضَيْتُ فِي قِرَاءَةِ هَـٰذَا ٱلْعَدَدِ ـ أَنَّ ٱلْمُؤَلِّفَ جَاءَ بِمَا يَصِحُّ ٱلْقَوْلُ فِيهِ : إِنَّهُ كَتَبَ تَارِيخَ ٱلْمُتَنَبِّي وَلَمْ يَنْقُلْهُ ؛ ثُمَّ لَمْ أَكَدْ أُمْعِنُ فِي ٱلْقِرَاءَةِ حَتَّىٰ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ قَدْ وَضَعَ لِشِعْرِ ٱلْمُتَنَبِّي بَعْدَ تَفْسِيرِ ٱلشُّرَّاحِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ تَفْسِيرًا جَدِيدًا مِنَ ٱلْمُتَنَبِّي نَفْسِهِ ؛ وَمَا ٱلْكَلِمَةُ ٱلْجَدِيدَةُ فِي تَارِيخِ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرِ ٱلْغَامِضِ إِلَّا ٱلْكَلِمَةُ ٱلَّتِي نَشَرَهَا « ٱلْمُقْتَطَفُ » ٱلْيَوْمَ .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْمُتَنَبِّيَ لَا يَفْرُغُ وَلَا يَنْتَهِي ؛ فَإِنَّ ٱلْإِعْجَابَ بِشِعْرِهِ لَا يَنْتَهِي وَلَا يَفْرُغُ ؛ وَقَدْ كَانَ نَفْسًا عَظِيمَةً خَلَقَهَا ٱللهُ كَمَا أَرَادَ ، وَخَلَقَ لَهَا مَادَّتَهَا ٱلْعَظِيمَةَ عَلَىٰ غَيْرِ مَا أَرَادَتْ ، فَكَأَنَّمَا جَعَلَهَا بِذَلِكَ زَمَنًا يَمْتَدُّ فِي ٱلزَّمَنِ .

وَكَانَ ٱلرَّجُلُ مَطْوِيًّا عَلَىٰ سِرٍّ أَلْقَى ٱلْغُمُوضَ فِيهِ مِنْ أَوَّلِ تَارِيخِهِ ، وَهُوَ سِرُّ نَفْسِهِ ، وَسِرُّ شِعْرِهِ ، وَسِرُّ قُوَّتِهِ ؛ وَبِهَـٰذَا ٱلسِّرِّ كَانَ ٱلْمُتَنَبِّي كَٱلْمَلِكِ ٱلْمَغْصُوبِ ٱلَّذِي يَرَى ٱلتَّاجَ وَٱلسَّيْفَ يَنْتَظِرَانِ رَأْسَهُ جَمِيعًا ، فَهُوَ يَتَّقِي ٱلسَّيْفَ بِٱلْحَذَرِ وَٱلتَّلَفُّفِ وَٱلْغُمُوضِ ، وَيَطْلُبُ ٱلتَّاجَ بِٱلْكِتْمَانِ وَٱلْحِيلَةِ وَٱلْأَمَلِ .

(١) { يَنَايِرُ/ كانون الآخر سَنَةَ ١٩٣٦م } .

وَمِنْ هَـٰذَا ٱلسِّرِّ بَدَأَ كَاتِبُ « ٱلْمُقْتَطَفِ » ، فَجَاءَ بَحْثُهُ يَتَحَدَّرُ فِي نَسَقٍ عَجِيبٍ ، مُتَسَلْسِلًا بِٱلتَّارِيخِ كَأَنَّهُ وِلَادَةٌ وَنُمُوٌّ وَشَبَابٌ : وَعَرَضَ بَيْنَ ذَلِكَ شِعْرَ أَبِي ٱلطَّيِّبِ عَرْضًا خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ هَـٰذَا ٱلشِّعْرَ قَدْ قِيلَ مَرَّةً أُخْرَىٰ مِنْ فَمِ شَاعِرِهِ عَلَىٰ حَوَادِثِ نَفْسِهِ وَأَحْوَالِهَا ، وَبِذَلِكَ ٱنْكَشَفَ ٱلسِّرُّ ٱلَّذِي كَانَ مَادَّةَ ٱلتَّهْوِيلِ فِي ذَلِكَ ٱلشِّعْرِ ٱلْفَخْمِ ، إِذْ كَانَتْ فِي وَاعِيَةِ ٱلرَّجُلِ دَوْلَةٌ أَضْخَمُ ، دَوْلَةٌ عَجَزَ عَنْ خَلْقِهَا وَإِيجَادِهَا فَخَلَقَهَا شِعْرًا أَضْخَمَ شِعْرٍ ، وَجَاءَتْ مُبَالَغَاتُهُ كَأَنَّهَا أَكَاذِيبُ آمَالِهِ ٱلْبَعِيدَةِ مُتَحَقِّقَةً فِي صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ ٱلْإِمْكَانِ ٱللُّغَوِيِّ .

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا كَشَفَهُ مِنْ أَسْرَارِ ٱلْمُتَنَبِّي سِرُّ حُبِّهِ ، فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ خَوْلَةَ أُخْتَ ٱلْأَمِيرِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَكَتَبَ فِي ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ صَفْحَةً كَبِيرَةً ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تُرْضِهِ فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يُؤَمِّلُ أَنْ يَكْتُبَ هَـٰذَا ٱلْفَصْلَ فِي خَمْسِينَ وَجْهًا مِنَ « ٱلْمُقْتَطَفِ » ؛ وَهَـٰذَا ٱلْبَابُ مِنْ غَرَائِبِ هَـٰذَا ٱلْبَحْثِ ، فَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْمَكْتُوبَةِ (أَيِ : ٱلتَّارِيخِ) يَعْلَمُ هَـٰذَا ٱلسِّرَّ أَوْ يَظُنُّهُ ، وَٱلْأَدِلَّةُ ٱلَّتِي جَاءَ بِهَا ٱلْمُؤَلِّفُ تَقِفُ ٱلْبَاحِثَ ٱلْمُدَقِّقَ بَيْنَ ٱلْإِثْبَاتِ وَٱلنَّفْيِ ؛ وَمَتَىٰ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلْمَرْءُ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا فِي خَبَرٍ جَدِيدٍ يَكْشِفُهُ ٱلْبَاحِثُ وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهِ غَيْرُهُ ، فَهَـٰذَا حَسْبُكَ إِعْجَابًا يُذْكَرُ وَهَـٰذَا حَسْبُهُ فَوْزًا يُعَدُّ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنْتُ أَنَا فِي مَكَانِ ٱلْمُتَنَبِّي مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ لَقُلْتُ : إِنَّ ٱلْمُؤَلِّفَ قَدْ صَدَقَ . . . فَهُنَاكَ مَوْضِعٌ لَا بُدَّ أَنْ يُبْحَثَ فِيهِ ٱلْقَلْبُ ٱلشَّاعِرُ ٱلَّذِي وَضَعَتْ فِيهِ ٱلدُّنْيَا حِكْمَتَهَا ، وَطَوَتْ فِيهِ ٱلْقُوَّةُ سِرَّهَا ، وَبَثَّ فِيهِ ٱلْجَمَالُ وَحْيَهُ ، وَأَصْغَرُ هَـٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْمَمَالِكِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْحَبِيبَةَ أَكْبَرُ مِنْهَا كُلِّهَا . . .

مصطفى صادق الرافعي

* * *

مُحَمَّدٌ(*)(١)

عَمَلُ ٱلْأُسْتَاذِ تَوْفِيقِ ٱلْحَكِيمِ فِيْ تَصْنِيْفِ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِعَمَلِ « كرِيسْتُوف كُولُمْبُس Christophe Columbus » فِيْ ٱلْكَشْفِ عَنْ أَمْرِيكَة وَإِظْهَارِهَا مِنَ ٱلدُّنْيَا لِلدُّنْيَا : لَمْ يَخْلُقْ وُجُوْدَهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَوْجَدَهَا فِيْ ٱلتَّارِيْخِ ٱلْبَشَرِيِّ ، وَذَهَبَ إِلَيْهَا : فَقِيْلَ : جَاءَ بِهَا إِلَىٰ ٱلْعَالَمِ ، وَكَانَتْ مُعْجِزَتُهُ أَنَّهُ رَآهَا بِٱلْعَيْنِ ٱلَّتِيْ فِيْ عَقْلِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ٱلصَّبْرَ وَٱلْمُعَانَاةَ وَٱلْحِذْقَ وَٱلْعِلْمَ حَتَّىٰ ٱنْتَهَىٰ إِلَيْهَا حَقِيقَةً مَاثِلَةً .

قَرَأَ ٱلْأُسْتَاذُ كُتُبَ ٱلسِّيْرَةِ وَمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ كُتُبِ ٱلتَّارِيْخِ وَٱلطَّبقَاتِ وَٱلْحَدِيْثِ وَٱلشَّمَائِلِ ، بِقَرِيْحَةٍ غَيْرِ قَرِيْحَةِ ٱلْمُؤَرِّخِ ، وَفِكْرَةٍ غَيْرِ فِكْرَةِ ٱلْفَقِيْهِ ، وَطَرِيْقَةٍ غَيْرِ طَرِيْقَةِ ٱلْمُحَدِّثِ ، وَخَيَالٍ غَيْرِ خَيَالِ ٱلْقَاصِّ ، وَعَقْلٍ غَيْرِ عَقْلِ ٱلزَّنْدَقَةِ ، وَطَبِيْعَةٍ غَيْرِ طَبِيْعَةِ ٱلرَّأْيِ ، وَقَصْدٍ غَيْرِ قَصْدِ ٱلْجَدَلِ ، فَخَلَصَ لَهُ ٱلْفَنُّ ٱلْجَمِيْلُ ٱلَّذِيْ فِيْهَا ، إِذْ قَرَأَهَا بِقَرِيْحَتِهِ ٱلْفَنِّيَّةِ ٱلْمَشْبُوْبَةِ ، وَأَمَرَّهَا عَلَىٰ إِحْسَاسِهِ ٱلشَّاعِرِ ٱلْمُتَوَثِّبِ ، وَٱسْتَلَّهَا مِنَ ٱلتَّارِيْخِ بِهَـٰذِهِ ٱلْقَرِيْحَةِ وَهَـٰذَا ٱلْإِحْسَاسِ كَمَا هِيَ فِيْ طَبِيْعَتِهَا ٱلسَّامِيَةِ مُتَّجِهَةً إِلَىٰ غَرَضِهَا ٱلْإِلَـٰهِيِّ مُحَقِّقَةً عَجَائِبَهَا ٱلرُّوْحَانِيَّةَ ٱلْمُعْجِزَةَ .

وَقَدْ أَمَدَّتْهُ ٱلسِّيْرَةُ بِكُلِّ مَا أَرَادَ ، وَتَطَاوَعَتْ لَهُ عَلَىٰ مَا ٱشْتَهَىٰ ، وَلَانَتْ فِيْ يَدِهِ كَمَا يَلِيْنُ ٱلذَّهَبُ فِيْ يَدِ صَائِغِهِ ، فَجَاءَ بِهَا مِنْ جَوْهَرِهَا وَطَبِيْعَتِهَا لَيْسَ لَهُ فِيْهَا خَيَالٌ وَلَا رَأْيٌ وَلَا تَعْبِيْرٌ ، وَجَاءَتْ مَعَ ذَلِكَ فِيْ تَصْنِيْفِهِ حَافِلَةً بِأَبْدَعِ ٱلْخَيَالِ ، وَأَسْمَىٰ ٱلرَّأْيِ ، وَأَبْلَغِ ٱلْعِبَارَةِ ، إِذْ أَدْرَكَ بِنَظْرَتِهِ ٱلْفَنِّيَّةِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالَ ٱلنَّفْسِيَّةَ ٱلْبَلِيْغَةَ . فَنَظَمَهَا عَلَىٰ قَانُوْنِهَا فِيْ ٱلْحَيَاةِ ، وَجَمَعَ حَوَادِثَهَا ٱلْمُدَوَّنَةَ فَصَوَّرَهَا فِيْ هَيْئَةِ وُقُوْعِهَا كَمَا وَقَعَتْ ، وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْقِصَصَ ٱلْمُرْسَلَةَ فَأَدَارَهَا حِوَارًا كَمَا جَاءَتْ فِيْ أَلْسِنَةِ أَهْلِهَا ، وَبِهَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةِ أَعَادَ ٱلتَّارِيْخَ حَيًّا

(*) « الرسالة » العدد : ١٣٦ ، ١٧ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٠ فبراير/ شباط ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحة : ٢٣٩ .

(١) كِتَابُ تَوْفِيْقِ ٱلْحَكِيْمِ .

يَتَكَلَّمُ ، وَفِيْهِ ٱلْفِكْرَةُ وَمَلَائِكَتُهَا وَشَيَاطِيْنُهَا ، وَكَشَفَ ذَلِكَ ٱلْجَمَالَ ٱلرُّوْحَانِيَّ فَكَانَ هُوَ ٱلْفَنَّ ، وَجَلَا تِلْكَ ٱلنُّفُوْسَ ٱلْعَالِيَةَ فَكَانَتْ هِيَ ٱلْفَلْسَفَةَ ؛ وَأَبْقَىٰ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْبَلَاغَةِ فَكَانَتْ هِيَ ٱلْبَيَانَ . كَانَتِ ٱلسِّيْرَةُ كَٱللُّؤْلُؤَةِ فِيْ ٱلصَّدَفَةِ ، فَٱسْتَخْرَجَهَا فَجَعَلَهَا ٱللُّؤْلُؤَةَ وَحْدَهَا .

* * *

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْكِتَابَ يَفْرِضُ نَفْسَهُ بِهَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةِ ٱلْفَنِّيَّةِ ٱلْبَدِيْعَةِ ، فَلَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ لَا ضَرُوْرَةَ لِوُجُوْدِهِ ، إِذْ هُوَ ٱلضَّرُوْرِيُّ مِنَ ٱلسِّيْرَةِ فِيْ زَمَنِنَا هَـٰذَا ؛ وَلَا يُغْتَمَزُ فِيْهِ أَنَّهُ تَحْرِيْفٌ وَتَزْوِيْرٌ وَتَلْفِيْقٌ ، إِذْ لَيْسَ فِيْهِ حَرْفٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يُرَدُّ بِأَنَّهُ آرَاءٌ يُخْطِئُ ٱلْمُخْطِئُ مِنْهَا وَيُصِيْبُ ٱلْمُصِيْبُ ، إِذْ هُوَ عَلَىٰ نَصِّ ٱلتَّارِيْخِ كَمَا حَفِظَتْهُ ٱلْأَسَانِيْدُ ، وَلَا يُرْمَىٰ بِٱلْغَثَاثَةِ وَٱلرَّكَاكَةِ وَضَعْفِ ٱلنَّسَقِ ، إِذْ هُوَ فَصَاحَةُ ٱلْعَرَبِ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْخُلَّصِ كَمَا رُوِيَتْ بِأَلْفَاظِهَا ، فَقَدْ حَصَّنَهُ ٱلْمُؤَلِّفُ تَحْصِيْنًا لَا يُقْتَحَمُ ، وَكَانَ فِيْ عَمَلِهِ مُخْلِصًا أَتَمَّ ٱلْإِخْلَاصِ ، أَمِيْنًا بِأَوْفَىٰ ٱلْأَمَانَةِ ، دَقِيْقًا كُلَّ ٱلدِّقَّةِ ، حَذِرًا بِغَايَةِ ٱلْحَذَرِ .

وَمِنْ فَوَائِدِ هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيْقَةِ أَنَّهَا هَيَّأَتِ ٱلسِّيْرَةَ لِلتَّرْجَمَةِ إِلَىٰ ٱللُّغَاتِ ٱلْأُخْرَىٰ فِيْ شَكْلٍ مِنْ أَحْسَنِ أَشْكَالِهَا يُرْغِمُ هَـٰذَا ٱلزَّمَنَ عَلَىٰ أَنْ يَقْرَأَ بِٱلْإِعْجَابِ تِلْكَ ٱلْحِكَايَةَ ٱلْمُنْفَرِدَةَ فِيْ ٱلتَّارِيْخِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ؛ كَمَا أَنَّهَا قَرَّبَتْ وَسَهَّلَتْ فَجَعَلَتِ ٱلسِّيْرَةَ فِيْ نَصِّهَا ٱلْعَرَبِيِّ كِتَابًا مَدْرَسِيًّا بَلِيْغًا بَلَاغَةَ ٱلْقَلْبِ وَٱللِّسَانِ ، مُرَبِّيًا لِلرُّوْحِ ، مُرْهِفًا لِلذَّوْقِ . مُصَحِّحًا لِلْمَلَكَةِ ٱلْبَيَانِيَّةِ .

وَحَسْبُ ٱلْمُؤَلِّفِ أَنْ يُقَالَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ فِيْ تَارِيْخِ ٱلْأَدَبِ ٱلْعَرَبِيِّ : إِنَّ ٱبْنَ هِشَامٍ كَانَ أَوَّلَ مَنْ هَذَّبَ ٱلسِّيْرَةَ تَهْذِيْبًا تَارِيْخِيًّا عَلَىٰ نَظْمِ ٱلتَّارِيْخِ ، وَإِنَّ تَوْفِيْقَ ٱلْحَكِيْمِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ هَذَّبَهَا تَهْذِيْبًا فَنِّيًّا عَلَىٰ نَسَقِ ٱلْفَنِّ . . .

مصطفى صادق الرافعي

* * *

دِيْوَانُ ٱلْأَعْشَابِ(*)(١)

أَبُوْ ٱلْوَفَا شَاعِرٌ مِلْءُ نَفْسِهِ ، مَا فِيْ ذَلِكَ شَكٌّ ؛ مَذْهَبُهُ ٱلْجَمَالُ فِيْ ٱلْمَعْنَىٰ ، يُبْدِعُهُ كَأَنَّمَا يُزْهِرُ بِهِ ، وَٱلْجَمَالُ فِيْ ٱلصُّوْرَةِ يُخْرِجُهَا مِنْ بَيَانِهِ كَمَا تَخْرُجُ ٱلْغُصُوْنُ وَٱلْأَوْرَاقُ مِنْ شَجَرَتِهَا ، وَلَهُ طَبْعٌ وَفِيْهِ رِقَّةٌ ، وَهُوَ يَجْرِيْ مِنَ ٱلْبَيَانِ عَلَىٰ عِرْقٍ ، وَسَلِيْقَتُهُ تَجْعَلُهُ أَلْزَمَ لِعَمُوْدِ ٱلشِّعْرِ وَأَقْرَبَ إِلَىٰ حَقِيْقَتِهِ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيُعَدُّ أَحَدَ ٱلَّذِيْنَ يَعْتَصِمُ ٱلشِّعْرُ ٱلْعَرَبِيُّ بِهِمْ ، وَهُمْ قَلِيْلٌ فِيْ زَمَنِنَا ، فَإِنَّ ٱلشِّعْرَ مُنْحَدِرٌ فِيْ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ إِلَىٰ ٱلْعَامِّيَّةِ فِيْ نَسَقِهِ وَمَعَانِيْهِ ، كَمَا ٱنْحَدَرَ ٱلتَّمْثِيْلُ ، وَكَمَا ٱنْحَدَرَتْ أَسَالِيْبُ ٱلْكِتَابَةِ فِيْ بَعْضِ ٱلصُّحُفِ وَٱلْمَجَلَّاتِ .

وَلِلْعَامِّيَّةِ وُجُوْهٌ كَثِيْرَةٌ تَنْقَلِبُ فِيْهَا ٱلْحَيَاةُ ، وَمَرْجِعُهَا إِلَىٰ رُوْحِ ٱلْإِبَاحَةِ ٱلَّذِيْ فَشَا بَيْنَنَا ، وَنَشَأَ عَلَيْهِ ٱلنَّشْءُ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلَّتِيْ تَعْمَلُ فِيْ ٱلشَّرْقِ غَيْرَ عَمَلِهَا فِيْ ٱلْغَرْبِ ، فَهِيَ هُنَاكَ رُخَصٌ وَعَزَائِمُ ، وَهِيَ هُنَا تَسَمُّحٌ وَتَرَخُّصٌ ، فِيْ ظِلٍّ ضَعِيْفٍ مِنَ ٱلْعَزِيْمَةِ . وَإِهْمَالُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْجَمِيْلَةِ كَمَا هِيَ فِيْ قَوَانِيْنِهَا لَيْسَ إِلَّا مَظْهَرًا لِتِلْكَ ٱلرُّوْحِ تُقَابِلُهُ ٱلْمَظَاهِرُ ٱلْأُخْرَىٰ ، مِنْ إِهْمَالِ ٱلْخُلُقِ ، وَسُقُوْطِ ٱلْفَضِيْلَةِ ، وَتَخَنُّثِ ٱلرُّجُوْلَةِ ، وَزَيْغِ ٱلْأُنُوْثَةِ ، وَفَسَادِ ٱلْعَقِيْدَةِ ، وَٱضْطِرَابِ ٱلسِّيَاسَةِ ، إِلَىٰ مَا يَجْرِيْ هَـٰذَا ٱلْمَجْرَىٰ مِمَّا هُوَ فِيْ بَلَاغَةِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْمُبَيَّنَةِ كَٱلْمَرْذُوْلِ وَٱلْمُطْرَحِ وَٱلسَّفْسَافِ فِيْ بَلَاغَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَصِيْحِ ؛ كُلُّ ذَلِكَ فِيْ مَوَاضِعِهِ تَحَلُّلٌ مِنَ ٱلْقُيُوْدِ وَإِبَاحَةٌ وَتَسَمُّحٌ وَتَرَخُّصٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ عَامِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَكُلُّ ذَلِكَ

(*) « الرسالة » العدد : ٤٦ ، ٨ صفر سنة ١٣٥٣ هـ = ٢١ مايو/ أيار ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٨٧٨ ـ ٨٨٠ .

[وَجَاء فِي مُقَدَّمَةِ هَذَا ٱلْمَقَالِ عَلَى لِسَانِ ٱلْأُسْتَاذِ سَعِيد ٱلْعُرْيَانِ : فِي إِحْدَىٰ زِيَارَاتِي لِلأُسْتَاذِ مُصْطَفَىٰ صَادِقِ ٱلرَّافِعِيِّ، رَأَيْتُ عَلَى مَكْتَبِهِ «دِيوَانَ ٱلأَعْشَابِ» ٱلَّذِي أَخْرَجَهُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمَعْرُوفُ ٱلأُسْتَاذُ مَحْمُودُ أَبُو ٱلوَفَا، فَأَكْبَرْتُ أَنْ أَجِدَ هَذَا ٱلدِّيوَانَ حَيْثُ وَجَدْتُهُ، وَلكِنَّ ٱلأُسْتَاذَ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ صَاحِبِهِ، ثُمَّ قَالَ : هَلُمَّ نَقْرَؤُهُ مَعًا ؛ وَبَعْدَ أَنِ ٱسْتَوْفَيْنَاهُ ، نَقَلْتُ عَنْهُ هَذَا ٱلْحَدِيثَ لِلرِّسَالَةِ ٱلْغَرَّاءِ ، قَالَ :] .

(١) { لِلشَّاعِرِ ٱلْمُجِيْدِ مَحْمُوْدُ أَبُوْ ٱلْوَفَا ، وَهَـٰذَا ٱلْمَقَالُ كَانَ حَدِيْثًا مَعَ بَعْضِ ٱلْأَصْدِقَاءِ عَنِ ٱلدِّيْوَانِ ، وَنُشِرَ فِيْ ٱلرِّسَالَةِ ٱلْغَرَّاءِ ؛ قُلْتُ : وَٱنْظُرْ « عَمَلَهُ فِيْ ٱلرِّسَالَةِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

لَحْنٌ فِيْ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخُلُقِ وَٱلْفَضِيْلَةِ وَٱلرُّجُوْلَةِ وَٱلْأُنُوْثَةِ وَٱلْعَقِيْدَةِ وَٱلسِّيَاسَةِ .

وَٱلشِّعْرُ ٱلْيَوْمَ أَكْثَرُهُ (شِعْرُ ٱلنَّشْرِ) فِيْ ٱلْجَرَائِدِ ، عَلَىٰ طَبِيْعَةِ ٱلْجَرَائِدِ لَا عَلَىٰ طَبِيْعَةِ ٱلشِّعْرِ ، وَهَـٰذِهِ إِبَاحَةٌ صَحَافِيَّةٌ غَمَرَتِ ٱلصُّحُفَ ، وَأَخْضَعَتْ أَذْوَاقَ كُتَّابِهَا لِقَوَانِيْنِ ٱلتِّجَارَةِ ، فَإِنَّهُمْ لَيَنْشُرُوْنَ بَعْضَ ٱلْقَصَائِدِ كَمَا تُنْشَرُ (ٱلْإِعْلَانَاتُ) ، لَا يَكُوْنُ ٱلْحُكْمُ فِيْ هَـٰذِهِ وَلَا هَـٰذِهِ لِبَيَانٍ أَوْ تَمْيِيْزٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ ، بَلْ عَلَىٰ قَدْرِ ٱلثَّمَنِ أَوْ مَا فِيْهِ مَعْنَىٰ ٱلثَّمَنِ !

وَمِنْ مَادِّيَّةِ هَـٰذَا ٱلْعَصْرِ وَطُغْيَانِ ٱلْعَامِّيَّةِ عَلَيْهِ ، أَنَّنَا نَرَىٰ فِيْ صَدْرِ بَعْضِ ٱلْجَرَائِدِ أَحْيَانًا شِعْرًا لَا يَكُوْنُ فِيْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا فِيْ طَبَقَاتِ ٱلنَّظْمِ أَضْعَفَ وَلَا أَبْرَدَ مِنْهُ وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ فَسَادِ ٱلذَّوْقِ ٱلشِّعْرِيِّ ، وَلَـٰكِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلْأَصْلِ ٱلَّذِيْ أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ يُعَدُّ كَلَامًا صَالِحًا لِلنَّشْرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَالِحاً لِلشِّعْرِ .

وَهَـٰكَذَا أَصْبَحَتِ ٱلْعَامِّيَّةُ فِيْ تَمَكُّنِهَا تَجْعَلُ مِنَ ٱلْغَفْلَةِ حِذْقًا تِجَارِيًّا ، وَمِنَ ٱلسُّقُوْطِ عُلُوًّا فَلْسَفِيًّا ، وَمِنَ ٱلرَّكَاكَةِ بَلَاغَةً صَحَفِيَّةً ، وَمَتَىٰ تَغَيَّرَ مَعْنَىٰ ٱلْحِذْقِ ، وَدَاخَلَتْهُ ٱلْإِبَاحَةُ ، وَوَقَعَ فِيْهِ ٱلتَّأْوِيْلُ ، وَأُحِيْطَ بِٱلتَّمْوِيْهِ وَٱلشُّبَهِ ـ فَٱلرِّيْبَةُ حِيْنَئِذٍ أُخْتُ ٱلثِّقَةِ ، وَٱلْعَجْزُ بَابٌ مِنَ ٱلِاسْتِطَاعَةِ ، وَٱلضَّعْفُ مَعْنًىٰ مِنَ ٱلتَّمْكِيْنِ ، وَكُلُّ مَا لَا يَقُوْمُ فِيْهِ عُذْرٌ صَحِيْحٌ كَانَ هُوَ بِطَبِيْعَةِ ٱلتَّلْفِيْقِ عُذْرَ نَفْسِهِ .

وَأَكْثَرُ مَا تَنْشُرُهُ ٱلصُّحُفُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ فِيْ رَأْيِيْ صِنَاعَةُ ٱحْتِطَابٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ . . . وَقَدْ بَطَلَ ٱلتَّعَبُ ، إِلَّا تَعَبَ ٱلتَّقَشُّشِ وَٱلْحَمْلِ ، فَلَمْ تَعُدْ هُنَاكَ صِنَاعَةٌ نَفْسِيَّةٌ فِيْ وَشْيِ ٱلْكَلَامِ ، وَلَا طَبْعٌ مُوْسِيْقِيٌّ فِيْ نَظْمِ ٱللُّغَةِ ، وَلَا طَرِيْقَةٌ فِكْرِيَّةٌ فِيْ سَبْكِ ٱلْمَعَانِيْ ؛ وَبِهَـٰذِهِ ٱلْعَامِّيَّةِ ٱلثَّقِيْلَةِ أَخَذَ ٱلشِّعْرُ يَزُوْلُ عَنْ نَهْجِهِ ، وَيَضِلُّ عَنْ سَبِيْلِهِ ، وَوَقَعَ فِيْهِ ٱلتَّوَعُّرُ ٱلسَّهْلُ . . . وَٱلِاسْتِكْرَاهُ ٱلْمَحْبُوْبُ . . . وَصِرْنَا إِلَىٰ ضَرْبٍ حَدِيْثٍ مِنَ ٱلْوَحْشِيَّةِ ، هُوَ ٱلطَّرَفُ ٱلْمُقَابِلُ لِلشِّعْرِ ٱلْوَحْشِيِّ فِيْ أَيَّامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ؛ فَمَا دَامَ ٱلْكَلَامُ غَرِيْبًا ، وَٱلنَّظْمُ قَلِقًا ، وَٱلْمَأْتَىٰ بَعِيْدًا ، وَٱلْمَعْنَىٰ مُسْتَهْلَكًا ، وَٱلنَّسْجُ لَا يَسْتَوِيْ ، وَٱلطَّرِيْقَةُ لَا تَتَشَابَهُ ـ فَذَلِكَ كُلُّهُ مَسْخٌ وَتَشْوِيْهٌ فِيْ ٱلْجُمْلَةِ ، وَإِنِ ٱخْتَلَفَتِ ٱلْأَسْبَابُ فِيْ ٱلتَّفْصِيْلِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَسْخُ جَاهِلِيًّا بِٱلْغَرِيْبِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ، وَٱلنَّافِرِ مِنَ ٱللُّغَاتِ ، وَٱلْوَحْشِيِّ مِنَ ٱلْمَعَانِيْ ؛ وَكَانَ عَصْرِيًّا بِٱلرَّكِيْكِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ، وَٱلنَّازِلِ مِنَ ٱلتَّعْبِيْرِ ، وَٱلْهَجِيْنِ مِنَ ٱلْأَسَالِيْبِ ، وَٱلسَّخِيْفِ مِنَ ٱلْمَعَانِيْ ؛ ثُمَّ

بِٱلسَّقْطِ وَٱلْخَلْطِ وَٱلِاضْطِرَابِ وَٱلتَّعْقِيدِ ـ فَهَلْ بَعْضُ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ بَعْضِهِ ؟ وَهَلْ هُوَ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْجَمِيلِ إِلَّا كَسَلْخِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلَّذِي مَسَخَهُ ٱللهُ فَسَلَخَهُ مِنْ مَعَانٍ كَانَ بِهَا إِنْسَانًا ، لِيَضَعَهُ فِي مَعَانٍ يَصِيرُ بِهَا قِرْدًا أَوْ خِنْزِيرًا لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا ظَاهِرُ ٱلشَّبَهِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا بَقِيَّةُ ٱلْأَصْلِ ؟

فَٱلْقِرْدِيَّةُ ٱلشِّعْرِيَّةُ ، وَٱلْخِنْزِيرِيَّةُ ٱلشِّعْرِيَّةُ ، مُتَحَقِّقَتَانِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُنْشَرُ بَيْنَنَا ؛ وَلَـٰكِنَّ أَصْحَابَ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ لَا يَرَوْنَهُمَا إِلَّا كَمَالًا فِي تَطَوُّرِ ٱلْفَنِّ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْفَلْسَفَةِ ، وَأَنْتَ مَتَىٰ ذَهَبْتَ تَحْتَجُّ لِزَيْغِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَتَدْفَعُ عَنْ ضَعْفِهِ بِحُجَّةِ ٱلْعِلْمِ ، وَتَعْتَلُّ لِتَصْحِيحِ فَسَادِهِ بِٱلْفَنِّ ـ فَذَلِكَ عَيْنُهُ هُوَ دَلِيلُنَا نَحْنُ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا ٱلشِّعْرَ قِرْدِيٌّ خِنْزِيرِيٌّ ، لَمْ يَسْتَوْفِ تَرْكِيبَهُ ، وَلَمْ يَأْتِ عَلَىٰ طَبْعِهِ ، وَلَمْ يَخْرُجْ فِي صُورَتِهِ ؛ وَمَا يَكُونُ ٱلدَّلِيلُ عَلَىٰ ٱلشِّعْرِ مِنْ رَأْيِ نَاظِمِهِ وَٱفْتِتَانِهِ بِهِ وَدِفَاعِهِ عَنْهُ ، وَلَـٰكِنْ مِنْ إِحْسَاسِ قَارِئِهِ وَٱهْتِزَازِهِ لَهُ وَتَأَثُّرِهِ بِهِ .

* * *

وَٱلشَّاعِرُ أَبُو ٱلْوَفَا جَيِّدُ ٱلطَّرِيقَةِ ، حَسَنُ ٱلسَّبْكِ ، يَقُولُ عَلَىٰ فِكْرٍ وَقَرِيحَةٍ ، وَيَرْجِعُ إِلَىٰ طَبْعٍ وَسَلِيقَةٍ ، وَلَـٰكِنَّ نَفْسَهُ قَلِقَةٌ فِي مَوْضِعِهِ ٱلشِّعْرِيِّ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ؛ وَفِي رَأْيِي أَنَّ ٱلشَّاعِرَ لَا يَتِمُّ بِأَدَبِهِ وَمَوَاهِبِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ تَمَامُهُ بِمَوْضِعِ نَفْسِهِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي تَضَعُهُ ٱلْحَيَاةُ فِيهِ ؛ وَٱلْكَلَامُ يَطُولُ فِي صِفَةِ هَـٰذَا ٱلْمَوْضِعِ ، وَلَـٰكِنَّهُ فِي ٱلْجُمْلَةِ كَمَنْبِتِ ٱلزَّهْرَةِ : لَا تَزْكُو زَكَاءَهَا ، وَلَا تَبْلُغُ مَبْلَغَهَا إِلَّا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي يَصِلُ عَنَاصِرَهَا بِعَنَاصِرِ ٱلْحَيَاةِ وَافِيَةً تَامَّةً ، فَلَا يَقْطَعُهَا عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَرُدُّ شَيْئًا عَنْهَا ؛ إِذْ هِيَ بِمَا فِي تَرْكِيبِهَا وَتَهْيِئَتِهَا إِنَّمَا تَتِمُّ بِمَوْضِعِهَا ذَاكَ لِتَهْيِئَتِهِ وَتَرْكِيبِهِ ، فَإِنْ كَانَتِ ٱلزَّهْرَةُ عَلَىٰ مَا وَصَفْنَا ، وَإِلَّا فَمَا بُدَّ مِنْ مَرَضِ ٱللَّوْنِ ، وَهَرَمِ ٱلْعِطْرِ ، وَهُزَالِ ٱلنَّضْرَةِ ، وَسَقَمِ ٱلْجَمَالِ .

وَلَوْلَا أَنَّ ٱلْحِكْمَةَ وَفَتِ ٱلْأُسْتَاذَ أَبَا ٱلْوَفَا قِسْطَهُ مِنَ ٱلْأَلَمِ ، وَوَهَبَتْهُ نَفْسًا مُتَأَلِّمَةً حَصَرَتْهَا فِي أَسْبَابِ أَلَمِهَا حَصْرًا لَا مَفَرَّ مِنْهُ ـ لَفَقَدَتْ زَهْرَتُهُ عُنْصُرَ تَلْوِينِهَا ، وَلَخَرَجَ شِعْرُهُ نَظْمًا حَائِلًا مُضْطَرِبًا مُنْقَطِعَ ٱلْأَسْبَابِ مِنَ ٱلْوَحْيِ ؛ غَيْرَ أَنَّ جِهَةَ ٱلْأَلَمِ فِيهِ هِيَ جِهَةُ ٱلسَّمَاءِ إِلَيْهِ ؛ وَلَوْ هُوَ تَكَافَأَتْ جِهَاتُهُ ٱلْمَعْنَوِيَّةُ ٱلْأُخْرَىٰ ، وَأُعْطِيَتْ كُلُّ جِهَةٍ حَقَّهَا ، وَتَخَلَّصَتْ مِمَّا يُلَابِسُهَا ؛ لَارْتَفَعَ مِنْ مَرْتَبَةِ ٱلْأَلَمِ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ ٱلشُّعُورِ بِٱلْغَامِضِ وَٱلْمُبْهَمِ ، وَلَكَانَ عَقْلًا مِنَ

ٱلْعُقُولِ ٱلْكَبِيرَةِ ٱلْمُوَلِّدَةِ ٱلَّتِي يَحْيَا فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ حَيَاةً شِعْرِيَّةً ذَاتَ حِسٍّ .

وَلَـٰكِنْ مَا دَامَتِ ٱلْحَيَاةُ قَدْ وُزِنَتْ لَهُ بِمِقْدَارٍ ، وَطَفَّفَتْ مَعَ ذَلِكَ وَبَخَسَتْ ، فَقَدْ كَانَ يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَقْصُرَ شِعْرَهُ عَلَىٰ أَبْوَابِ ٱلزَّفْرَةِ وَٱلدَّمْعَةِ وَٱللَّهْفَةِ ، لَا يَعْدُوهَا ، وَلَا يُزَاوِلُ مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأُخْرَىٰ مَا ضَعُفَتْ أَدَاتُهُ مَعَهُ أَنْ تَتَصَرَّفَ ، أَوِ ٱنْقَطَعَتْ وَسِيلَتُهُ إِلَيْهِ أَنْ تَبْلُغَ ، وَيَظْهَرُ لِي أَنَّ أَبَا ٱلْوَفَا يَحْذُو عَلَىٰ حَذْوِ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا صَبْرِي ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ تُفْتَحْ لَهُ عَلَىٰ ٱلْكَوْنِ إِلَّا نَافِذَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ صَبْرِي أَقْبَلَ عَلَىٰ نَافِذَتِهِ وَنَظَرَ مَا وَسِعَهُ ٱلنَّظَرُ ، أَمَّا أَبُو ٱلْوَفَا فَيُحَاوِلُ أَنْ يَنْقُبَ فِي ٱلْحَائِطِ لِيَجْعَلَهُمَا نَافِذَتَيْنِ . . .

أَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلشِّعْرِ أَنْ تَنْزِلَ ٱلْحِيرَةُ ٱلْفَلْسَفِيَّةُ عَنْ مَنْزِلَتِهَا بَيْنَ ٱلْيَقِينِ وَٱلْعَقْلِ ، أَوِ ٱلْمَشْهُودِ وَٱلْمُحْتَجِبِ ، أَوِ ٱلْوَاقِعِ وَٱلسَّبَبِ ، أَوِ ٱلرَّسْمِ وَٱلْمَعْنَىٰ ـ فَتَنْقَلِبُ حِيرَةً مَعَاشِيَّةً تَسِمُ ٱلْأَشْكَالَ وَٱلْمَعَانِيَ بِسِمَتِهَا ٱلْمَادِّيَّةِ ٱلتُّرَابِيَّةِ ، وَتَقَعُ فِي ٱلشِّعْرِ فَتُقْحِمُ بَيْنَ شِعْرِ ٱلْقَلْبِ ٱلْعَاشِقِ ، وَشِعْرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُتَأَمِّلِ ـ شِعْرَ ٱلْمَعِدَةِ ٱلْجَائِعَةِ ، وَتَضَعُ بَيْنَ أَشْوَاقِ ٱلْكَوْنِ شَوْقَهَا هِيَ إِلَىٰ ٱلطَّعَامِ وَٱلثِّيَابِ وَٱلْمَالِ . . . .

عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ ٱلْأَمْثَلُ فِي ٱلتَّدْبِيرِ ، وَٱلْأَقْرَبُ إِلَىٰ طَرِيقَةِ ٱلنَّفْسِ ٱلشَّاعِرَةِ أَنْ يَصْرِفَ أَبُو ٱلْوَفَا هَـٰذَا ٱلشُّعُورَ ٱلْمَادِّيَّ ٱلَّذِي يَتَلَذَّعُ بِهِ ، فَيُحَوِّلَهُ فَيَجْعَلَهُ بَابًا مِنْ حِكْمَةِ ٱلسُّخْرِ ٱلشِّعْرِيِّ بِٱلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا وَحَوَادِثِهَا ، كَمَا صَرَّفَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ مِنْ قَبْلُ فَأَخْطَأَ فِي تَحْوِيلِهِ ، فَجَعَلَهُ مَرَّةً بَابًا مِنَ ٱلْمَدْحِ وَٱلنِّفَاقِ ، وَمَرَّةً بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ وَٱلْإِقْذَاعِ .

وَلَوْ بَذَلَ ٱلشَّاعِرُ أَبُو ٱلْوَفَا مَجْهُودَهُ فِي ذَلِكَ ، وَٱتَّهَمَ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ حَاكَمَهَا ، وَنَصَّ لَهَا ٱلْقَانُونَ ، وَأَجْلَسَ ٱلْقَاضِيَ ، وَٱفْتَتَحَ ٱلْمَجْلِسَ ، وَرَفَعَهَا قَضِيَّةً قَضِيَّةً ، ثُمَّ أَخَذَهَا حُكْمًا حُكْمًا ، تَارَةً فِي نَادِرَةٍ بَعْدَ نَادِرَةٍ ، وَمَرَّةً فِي حِكْمَةٍ إِلَىٰ حِكْمَةٍ ، وَآوِنَةً فِي سُخْرِيَةٍ مَعَ سُخْرِيَةٍ ـ إِذَنْ لَاهْتَدَىٰ هَـٰذَا ٱلْمُتَأَلِّمُ ٱلرَّقِيقُ إِلَىٰ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ مِنْ سِرِّ ٱلْمَوْهِبَةِ ٱلَّتِي فِي نَفْسِهِ ، فَأَخْرَجَ مَكْنُونَ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْقَوِيَّةِ مِنْهَا ، فَكَانَ وَلَا رَيْبَ شَاعِرَ وَقْتِهِ فِي هَـٰذَا ٱلْبَابِ ، وَإِمَامَ عَصْرِهِ فِي هَـٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ .

عَلَىٰ أَنَّ فِي صَفَحَاتِ دِيوَانِهِ أَشْيَاءَ قَلِيلَةً تُومِئُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ ، وَلَـٰكِنَّهَا مَبْثُوثَةٌ فِي تَضَاعِيفِ شِعْرِهِ ، وَٱلْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ وَجْهُهُ فِي تَضَاعِيفِهَا ، وَإِنَّهُ لَيَأْتِي بِأَسْمَىٰ ٱلْكَلَامِ

وَأَبْدَعِهِ ، حِينَ يَعْمَدُ إِلَىٰ ذَلِكَ ٱلْأَصْلِ ٱلَّذِي نَبَّهْنَا إِلَيْهِ ، فَيَصْرِفُ لَهْفَةَ نَفْسِهِ إِلَىٰ بَعْضِ وُجُوهِهَا ٱلشِّعْرِيَّةِ ، كَقَوْلِهِ فِي « حُلْمِ ٱلْعَذَارَىٰ » وَهِيَ مِنْ بَدَائِعِهِ وَمَحَاسِنِ شِعْرِهِ [من مجزوء الرمل] :

هَا هُمَا عَيْنَاكِ تُغْرِيـ ـنِي عَلَىٰ شَتَّىٰ ٱلظُّنُونْ
فِيهِمَا بَحْرٌ وَمَوْ جٌ وَسُهُولٌ وَحُزُونْ
وَوُضُوحٌ وَغُمُوضٌ وَٱضْطِرَابٌ وَسُكُونْ
وَمَعَانٍ بَيِّنَاتٌ وَمَعَانٍ لَا تَبِينْ
وَتَهَاوِيلُ فُنُونٍ مِنْ رَشَادٍ وَجُنُونْ
وَأَشِعَّاتٌ حَيَارَىٰ مِنْ مُنًى أَوْ مِنْ حَنِينْ
لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ سِرٍّ خَلْفَ هَاتِيكَ ٱلْجُفُونْ
آهِ إِنَّ ٱلسِّرَّ أَنْبَا عَنْهُ ذَانِ ٱلطَّائِرَانْ
حِينَمَا مَالَا عَلَىٰ غُصْـ ـنَيْهِمَا يَعْتَنِقَانْ . . .

فَهَٰذِهِ أَبْيَاتٌ فِي شِعْرِ ٱلْجَمَالِ كَٱلْمِحْرَابِ مِلْؤُهُ عَابِدُهُ . . .

* * *

ٱلنَّجَاحُ وَكِتَابُ سِرِّ ٱلنَّجَاحِ (*)

مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَا عَقْلٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا أَوْدَعَ فِي تَرْكِيبِهِ شَيْئَيْنِ كَٱلْمُقَدِّمَةِ وَٱلنَّتِيجَةِ ، وَأَعْطَاهُ بِهِمَا ٱلْقُدْرَةَ عَلَىٰ ٱلْوَسِيلَةِ وَٱلْغَايَةِ ؛ لِيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ [راجع ٨ سورة الأنفال/ الآية : ٤٢] ؛ فَفِي تَرْكِيبِ ٱلْإِنْسَانِ قُوَّةُ ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱلنَّجَاحِ وَأَنْ يَتَأَتَّىٰ إِلَىٰ سِرِّهِ أَوْ يَبْلُغَ مِنْهُ أَوْ يُقَارِبَهُ ، وَفِي هَٰذَا ٱلتَّرْكِيبِ عَيْنِهِ مَا يَهْتِكُ بِهِ هَٰذَا ٱلْحِجَابَ وَيُفْضِي مِنْهُ إِلَىٰ هَٰذَا ٱلسِّرِّ وَيَجْمَعُ بِكَ عَلَيْهِ ، وَمَا أُنْكِرُ أَنَّ ٱلنَّجَاحَ قَدَرٌ مِنَ ٱلْأَقْدَارِ ، وَلَٰكِنَّهُ قَدَرٌ ذُو رَائِحَةٍ قَوِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِهِ يَسْتَرْوِحُهَا مَنْ تَحْتَ ٱلسَّمَاءِ وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي ٱلسَّمَاءِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْأَرْضِ أَمَدٌ وَدَهْرٌ وَأَسْبَابٌ وَأَقْدَارٌ كَثِيرَةٌ ؛ وَلَوْلَا أَنَّ هَٰذِهِ ٱلْخَاصِّيَّةَ فِيهِ وَفِي ٱلْإِنْسَانِ مِنْهُ لَمَا تَوَفَّرَتْ رَغْبَةٌ فِي عَمَلٍ وَلَا صَحَّ نَشَاطٌ فِي ٱلرَّغْبَةِ وَلَا تَوَجَّهَ عَزْمٌ إِلَىٰ ٱلنَّشَاطِ وَلَا تَوَثَّقَتْ عُقْدَةٌ عَلَىٰ ٱلْعَزْمِ .

غَيْرَ أَنَّ فِي ٱلْإِنْسَانِ كَذَلِكَ مَا يُفْسِدُ هَٰذِهِ ٱلْخَاصِّيَّةَ أَوْ يُضْعِفُهَا أَوْ يُعَطِّلُهَا تَعْطِيلًا ، فَإِذَا هِيَ تُضِلُّ وَلَا تَهْدِي وَكَانَتْ تَهْدِي وَلَا تُضِلُّ ، وَإِذَا هِيَ زَائِغَةٌ عَنِ ٱلْحَقِّ مُلْتَوِيَةٌ عَنِ ٱلْقَصْدِ ، وَكَانَتْ هِيَ ٱلسَّبِيلَ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ وَهِيَ ٱلدَّلِيلَ عَلَىٰ ٱلْقَصْدِ ، وَمَا يَنَالُ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ : ٱلْعَجْزُ ، وَضَعْفُ ٱلْهِمَّةِ ، وَٱضْطِرَابُ ٱلرَّأْيِ .

فَأَمَّا ٱلْعَجْزُ فَمَنْزِلَةٌ تَجْعَلُ ٱلْإِنْسَانَ كَٱلنَّبَاتِ يَرْتَفِعُ عَنِ ٱلْأَرْضِ بِعُودِهِ وَلَٰكِنَّهُ غَائِرٌ فِيهَا بِأُصُولِ حَيَاتِهِ ، وَأَمَّا ضَعْفُ ٱلْهِمَّةِ فَمَنْزِلَةُ ٱلْحَيَوَانِ ٱلَّذِي لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يُوجَدَ كَيْفَمَا وُجِدَ وَحَيْثُمَا جَاءَ مَوْضِعُهُ مِنَ ٱلْوُجُودِ ، إِذْ هُوَ يُولَدُ وَيَكْدَحُ وَيَكُدُّ لِيَكُونَ لَحْمًا وَعَظْمًا وَصُوفًا وَوَبَرًا وَشَعْرًا وَأَثَاثًا وَمَتَاعًا ، وَكَأَنَّهُ ضَرْبٌ آخَرُ مِنَ ٱلنَّبَاتِ إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ .

وَأَمَّا ٱضْطِرَابُ ٱلرَّأْيِ فَمَنْزِلَةٌ بَيْنَ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ تَرْجِعُ إِلَىٰ هَٰذِهِ مَرَّةً وَإِلَىٰ هَٰذِهِ مَرَّةً ، وَتَقَعُ مِنْ كِلْتَيْهِمَا مَوْقِعَهَا ، وَٱلْعَجْزُ وَضَعْفُ ٱلْهِمَّةِ وَٱضْطِرَابُ ٱلرَّأْيِ فِي لُغَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَانٍ ثَلَاثَةٌ لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ ٱلْخَيْبَةُ ، وَمَا أَسْرَارُ ٱلنَّجَاحِ إِلَّا ٱلثَّلَاثَةُ ٱلَّتِي تُقَابِلُهَا وَهِيَ ٱلْقُوَّةُ وَٱلْعَزِيمَةُ وَٱلثَّبَاتُ .

(*) ٱلْمُقْتَطَفُ : مَايُو/ أَيَار سَنَةَ ١٩٢٣ .

وَلَـٰكِنْ فِي هَـٰذَا ٱلإِنْسَانِ طُفُولَةٌ وَشَبَابًا ، وَهُمَا حَالَتَانِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا ، وَهُمَا مِنَ ٱلضَّعْفِ وَٱلنَّزَقِ بِطَبِيعَتِهِمَا ، وَفِيهِمَا يَتَثَاقَلُ ٱلإِنْسَانُ إِلَىٰ أَغْرَاضِهِ ، وَيَرْتَدُّ عَنْ صِعَابِهَا ، وَيَنْخَذِلُ دُونَ غَايَاتِهَا ؛ وَلَيْسَ يَأْتِي لِلطِّفْلِ أَنْ يُدْرِكَ ٱلرَّجُلَ فِي مَعَانِيهِ وَلَا لِلشَّابِّ أَنْ يَبْلُغَ ٱلْحَكِيمَ فِي كَمَالِهِ ؛ فَكَأَنَّ هَـٰذَيْنِ لَيْسَ لَهُمَا أَمَلٌ فِي أَسْبَابِ ٱلنَّجَاحِ ، وَكَأَنَّ كِلَيْهِمَا لَا يُحْسِنُ أَنْ يَطْوِيَ فُؤَادَهُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَلَا أَنْ يَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ ، غَيْرَ أَنَّ حِكْمَةَ ٱللهِ وَرَحْمَتَهُ أَنَّهُ أَرْصَدَ مِنْ نَوَامِيسِهِ ٱلْقَوِيَّةِ لِضَعْفِ ٱلطُّفُولَةِ وَنَزَقِ ٱلشَّبَابِ مَا هُوَ سِنَادٌ يَمْنَعُ ، وَمَوْئِلٌ يَعْصِمُ ، وَقُوَّةٌ تُصْلِحُ ؛ وَهُوَ نَامُوسُ ٱلْقُدْوَةِ ٱلَّذِي يَتَمَثَّلُ فِي ٱلأَبِ وَٱلأُمِّ وَٱلصَّاحِبِ وَٱلْعَشِيرِ وَٱلْمُعَلِّمِ وَٱلْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ ٱللهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ يَبُثُّ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يُوَجِّهُهُمْ دَائِمًا إِلَى ٱلاعْتِقَادِ وَيَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ وَيُبَصِّرُهُمْ بِهِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّ ٱلْحَيَاةَ كُلَّهَا إِنَّمَا هِيَ مُمَارَسَةٌ لِفَضِيلَةِ ٱلإِيمَانِ بِهِ مِنْ حَيْثُ يَدْرِي ٱلإِنْسَانُ أَوْ لَا يَدْرِي .

وَكِتَابُ « سِرِّ ٱلنَّجَاحِ » ٱلَّذِي تَرْجَمَهُ أُسْتَاذُنَا ٱلْعَلَّامَةُ ٱلدُّكْتُورُ يَعْقُوبُ صَرُّوف فِي سَنَةِ ١٨٨٠ ، وَظَهَرَتْ طَبْعَتُهُ ٱلرَّابِعَةُ فِي هَـٰذِهِ ٱلأَيَّامِ ، هُوَ وَٱللهِ فِي بَابِ ٱلْقُدْوَةِ نَامُوسٌ عَلَىٰ حِدَةٍ ، وَمَا رَأَيْتُ كِتَابًا تَلَاءَمَ نَسْجُهُ وَٱسْتَوَتْ أَجْزَاؤُهُ وَوُضِعَ آخِرُهُ عَلَىٰ أَوَّلِهِ وَٱنْصَبَّ كُلُّهُ إِلَى ٱلْغَرَضِ ٱلَّذِي كُتِبَ فِيهِ وَجَاءَ مُقَطَّعًا وَاحِدًا فِي مَعْنَاهُ وَفَائِدَتِهِ ـ كَهَـٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي يُعَلِّمُ ٱلضَّعِيفَ كَيْفَ يَقْوَىٰ ، وَٱلْعَاجِزَ كَيْفَ يَعْتَمِدُ ، وَٱلْمُضْطَرِبَ كَيْفَ يَثْبُتُ ، وَٱلْمَحْزُونَ كَيْفَ يَأْمُلُ ، وَٱلْيَائِسَ كَيْفَ يَثِقُ ، وَٱلْمُنْهَزِمَ فِي ٱلْحَيَاةِ كَيْفَ يُقْبِلُ ، وَٱلسَّاقِطَ كَيْفَ يَنْتَهِضُ ؛ وَيُعَلِّمُكَ مَعَ ذَلِكَ كَيْفَ تُرِيحُ ٱلْكَدَّ بِٱلْكَدِّ ، وَكَيْفَ تُسْقِطُ ٱلتَّعَبَ بِٱلتَّعَبِ ، وَكَيْفَ تَمْضِي عَزِيمَتَكَ وَتَعْتَقِدُهَا وَتَضْرِبُ كُرَةَ ٱلأَرْضِ بِقَدَمَيْكَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَلِكًا وَلَا قَائِدًا وَلَا فَاتِحًا ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ صَمِيمِ ٱلسُّوقَةِ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ فَقْرِكَ وَرَاءَ عَتَبَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لَا أَقُولُ : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْكِتَابَ عِلْمٌ ، فَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْقَوْلَ يَسْقُطُ بِهِ دُونَ مَنْزِلَتِهِ وَلَا يَعْدُو فِي وَصْفِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ مَجْمُوعًا مِنَ ٱلْوَرَقِ ٱلصَّقِيلِ عَلَىٰ طَبْعٍ جَيِّدٍ ، مَعَ أَنَّهُ مَجْمُوعٌ مِنَ ٱلأَرْوَاحِ وَٱلْعَزَائِمِ وَأَعْصَابِ ٱلْقُلُوبِ ؛ وَلَـٰكِنِّي أَقُولُ فِي وَصْفِهِ ٱلْعِلْمِيِّ : إِنَّ ٱلْمَدَارِسَ تُخَرِّجُ مِنَ ٱلْكُتُبِ تَلَامِيذَ . . . وَهَـٰذَا ٱلْكِتَابُ يُخَرِّجُ مِنَ ٱلتَّلَامِيذِ رِجَالًا أَقْوِيَاءَ أَشِدَّاءَ مَعْصُوبِينَ عَصِيبَ جُذُوعِ ٱلشَّجَرِ ٱلْعَاتِي ، مِنْ قُوَّةِ ٱلنَّفْسِ وَصَلَابَتِهَا وَصِحَّةِ ٱلْعَزِيمَةِ وَمَضَائِهَا ، وَتَصْمِيمِ ٱلرَّأْيِ وَنَفَاذِهِ ؛

وَمِمَّا يُعْطِي مِنْ قُوَّةِ ٱلصَّبْرِ وَٱلثَّبَاتِ وَمُطَاوَلَةِ ٱلتَّعَبِ إِلَىٰ أَبْعَدِ حُدُودِ ٱلطَّاقَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ .

وَمَا تَقْرَؤُهُ حَقَّ قِرَاءَتِهِ وَتَسْتَوْفِيهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ مِنَ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلإِمْعَانِ إِلَّا خَرَجْتَ مِنْهُ وَقَدْ وَضَعَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنْ نَفْسِكَ كَائِنًا مَنْ كُنْتَ وَكَيْفَ كُنْتَ ، فَإِنْ تَكُنْ طِفْلًا خَرَجْتَ رَجُلًا ، وَإِنْ كُنْتَ رَجُلًا خَرَجْتَ حَكِيمًا ، وَإِنْ كُنْتَ حَكِيمًا ٱسْتَحْدَثَ فِي نَفْسِكَ مَا يَجْعَلُكَ بِٱلْحِكْمَةِ فَوْقَ ٱلدُّنْيَا وَكُنْتَ بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا .

قَالَ ٱلأُسْتَاذُ ٱلْمُتَرْجِمُ فِي مُقَدِّمَتِهِ : « أَشْهَدُ لِأَبْنَاءِ وَطَنِي أَنَّنِي لَمْ أَنْتَفِعْ بِكِتَابٍ قَدْرَ مَا ٱنْتَفَعْتُ بِهَـٰذَا ٱلْكِتَابِ » . وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْكَلِمَةُ ٱلَّتِي لَا يَقُولُ غَيْرُهَا مَنْ يَقْرَأُ « سِرَّ ٱلنَّجَاحِ » ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا : إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ فِي وَضْعٍ مِنْ فَائِدَةِ ٱلنَّفْسِ وَمَا يُرْهِفُ حَدَّهَا وَيَبْتَعِثُ مَلَكَاتِهَا وَيَسْتَنْهِضُ قُوَاهَا وَيَسْتَنْفِدُ وَسَائِلَهَا عَلَىٰ مَا يُشْبِهُ ٱلْقَوَاعِدَ ٱلَّتِي لَا تُؤَدِّي إِلَّا إِلَىٰ نَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَيْنَ ٱعْتَبَرْتَهَا ، كَـ : ٱثْنَانِ وَٱثْنَانِ أَرْبَعَةٌ ، وَثَلَاثَةٌ وَوَاحِدٌ أَرْبَعَةٌ ، وَأَرْبَعَةٌ وَحَدَاتٍ أَرْبَعَةٌ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

تِلْكَ شَهَادَةُ ٱلْمُتَرْجِمِ ، أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ لَقَدْ عَرَفْتُ مُنْذُ زَمَنٍ طَالِبًا فِي ٱلأَزْهَرِ ، فَلَمَّا تَعَرَّفَ إِلَيَّ جَعَلَ يَشْكُو وَيَتَبَرَّمُ وَيَنْفُضُ لِي نَفْسَهُ وَيَقُولُ : ٱلأَزْهَرُ وَعُلُومُهُ وَفُنُونُهُ وَمَسَائِلُهُ وَمَشَاكِلُهُ ، وَٱلْمُتُونُ وَمَا فِيهَا ، وَٱلشُّرُوحُ وَمَا إِلَيْهَا ، وَٱلْحَوَاشِي وَمَا يُرَدُّ وَيُعْتَرَضُ وَيُجَابُ بِهِ وَيُقَالُ فِيهِ ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ بِسَاعَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ ، وَكُلُّ سَطْرٍ بِيَوْمٍ ، وَكُلُّ جُزْءٍ بِسَنَةٍ ، وَتَرَكْتُ وَرَائِي كَذَا وَكَذَا فِدَّانًا وَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ كَذَا وَكَذَا عِلْمًا ، فَلَا حَصَّدْتُ مِنْ هَـٰذِهِ وَلَا مِنْ تِلْكَ ! قُلْتُ : وَمَا يُمْسِكُكَ وَٱلْبَابُ مَفْتُوحٌ وَلَا يَسْأَلُكَ ٱلأَزْهَرُ إِلَىٰ أَيْنَ وَلَا تَسْأَلُكَ ٱلدُّنْيَا إِذَا خَرَجْتَ إِلَيْهَا مِنْ أَيْنَ ؟ قَالَ : وَٱللهِ مَا رَبَطَنِي إِلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلأَعْمِدَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً كَامِلَةً عَلَىٰ يَأْسٍ وَمَضَضٍ إِلَّا كِتَابُ « سِرِّ ٱلنَّجَاحِ » ، وَمَا أَمْضَيْتُ نِيَّتِي مَرَّةً عَلَىٰ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ ٱلْعَيْشِ إِلَّا رَأَيْتُ هَـٰذَا ٱلْكِتَابَ قَدْ ضَرَبَ وَجْهَ هَـٰذِهِ ٱلنِّيَّةِ فَرَدَّهَا إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَكَانِ وَأَلْقَاهَا فِي هَـٰذَا ٱلْمُسْتَقَرِّ ؛ وَمَا هَمَمْتُ بِتَرْكِ ٱلأَزْهَرِ إِلَّا ٱنْتَصَبَ فِي وَجْهِي كُلُّ ٱلأَبْطَالِ ٱلَّذِينَ قَرَأْتُ أَخْبَارَهُمْ فِيهِ وَأَمْسَكُونِي ؛ لَا مِنْ يَدِي وَلَا مِنْ رِجْلِي وَلَـٰكِنْ مِنِ ٱعْتِقَادِي وَإِيمَانِي وَأَمَلِي !

قُلْتُ : فَوَٱللهِ لَا يَدَعُكَ حَتَّىٰ تَنْجَحَ ؛ وَمَا رَبَطَ ٱللهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِهَـٰذَا ٱلْكِتَابِ وَثَبَّتَ فُؤَادَكَ بِٱلْيَقِينِ ٱلَّذِي فِيهِ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ لَكَ ٱلْخَيْرَ كُلَّهُ .

* * *

أَبُو تَمَّامٍ ٱلشَّاعِرُ

تَحْقِيقُ مُدَّةِ إِقَامَتِهِ بِمِصْرَ(*)

لَمْ يَبْقَ بُدٌّ مِنْ أَنْ نَبْلُغَ بِٱلْكَلَامِ فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ إِلَىٰ مَقْطَعِ ٱلْحَقِّ فِيهِ ، وَأَنْ نَنْفُذَ بِتَحْقِيقِهِ إِلَىٰ خَاصَّتِهِ ، وَنَنْتَهِيَ مِنْ خَاصَّتِهِ إِلَىٰ بُرْهَانِهِ ، فَإِنَّ عُلَمَاءَ ٱلْأَدَبِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَلْقَوْا خَبَرَ أَبِي تَمَّامٍ كَلَامًا مُرْسَلًا يَجْرِي فِي ٱلرِّوَايَةِ عَلَىٰ طُرُقِهَا ٱلْمُخْتَلِفَةِ ، لَا عَلَىٰ ٱلتَّارِيخِ فِي وَجْهِهِ ٱلْمُتَعَيِّنِ ، وَيُؤْخَذُ عَلَىٰ أَنَّهُ خَبَرٌ كَٱلْأَخْبَارِ إِنْ صَدَقَ فَقَدْ صَدَقَ وَإِنْ كَذَبَ فَهُوَ عَلَىٰ مَا يَجِيءُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يَعْنِيهِمْ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِلَّا شِعْرُهُ ، يَحْمِلُونَهُ عَنْهُ أَوْ يَأْخُذُونَهُ مِنْ رُوَاتِهِ أَوْ يَجِدُونَهُ فِي دِيوَانِهِ ؛ أَمَّا أَخْبَارُ ٱلشَّاعِرِ فَهِيَ لَا تَتَّصِلُ بِٱلْكِتَابِ وَلَا بِٱلسُّنَّةِ ، فَتَجْتَمِعُ لَهُمْ كَمَا تَجْتَمِعُ ، وَيَتَنَاوَلُونَهَا كَمَا ٱتَّفَقَتْ بِمَا دَخَلَهَا مِنَ ٱلْكَذِبِ وَٱلتَّزَيُّدِ وَٱلتَّلْفِيقِ ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِمَّا يُظَاهِرُ بَعْضُهُ بَعْضًا أَوْ يَنْقُضُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَٱلْمُحَقِّقُ مِنْهُمْ مَنْ يَرْوِي ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ مَعًا لِيَخْرُجَ مِنَ ٱلتَّبِعَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَبِعَةٍ فِي أَحَدِ ٱلنَّقِيضَيْنِ ، وَلِيَبْرَأَ بِصِدْقِ أَحَدِهِمَا مِنْ كَذِبِ أَحَدِهِمَا ، كَمَا صَنَعَ ٱبْنُ خَلِّكَانَ فِي سِيَاقِهِ خَبَرَ أَبِي تَمَّامٍ وَهَـٰذَا نَصُّ عِبَارَتِهِ :

كَانَتْ وِلَادَةُ أَبِي تَمَّامٍ . . . بِجَاسِمٍ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ بَيْنَ دِمَشْقَ وَطَبَرِيَّةَ ، وَنَشَأَ بِمِصْرَ ، قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَسْقِي ٱلْمَاءَ بِٱلْجَرَّةِ فِي جَامِعِ مِصْرَ ، وَقِيلَ : كَانَ يَخْدُمُ حَائِكًا يَعْمَلُ عِنْدَهُ بِدِمَشْقَ ، وَكَانَ أَبُوهُ خَمَّارًا بِهَا .

وَٱلَّذِينَ يَعْرِفُونَ طُرُقَ ٱلرِّوَايَةِ وَمُصْطَلَحَاتِهَا يُدْرِكُونَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْعِبَارَةِ أَنَّ ٱبْنَ خَلِّكَانَ يَنْتَفِي مِنْ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ تَبِعَةُ أَحَدِ ٱلْخَبَرَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا ، فَإِنَّ ٱلرَّاوِيَةَ مَتَىٰ ٱفْتَتَحَ ٱلْخَبَرَ (بِقِيلَ

(*) {لَمَّا أَنْشَأَ ٱلْمُؤَلِّفُ مَقَالَهُ عَنْ شَوْقِي (رَحِمَهُ ٱللهُ) غَضِبَ مَنْ غَضِبَ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ يَقْصِدُ ٱلْغَضَّ مِنْ مَكَانَةِ (مِصْرَ ٱلشَّاعِرَةِ) ، وَرَمَاهُ مَنْ رَمَاهُ فِي وَطَنِيَّتِهِ ، وَحَاوَلَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَأْيَهُ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْمِصْرِيِّ بِتَعْدَادِ شُعَرَاءِ مِصْرَ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، وَٱسْتَتْبَعَ شَيْءٌ شَيْئًا ، فَجَاءَ ذِكْرُ أَبِي تَمَّامٍ وَمَا قَالُوا عَنْ إِقَامَتِهِ فِي مِصْرَ ؛ فَأَنْشَأَ ٱلْمُؤَلِّفُ هَـٰذَا ٱلْمَقَالَ ، وَٱنْظُرْ «فِي ٱلنَّقْدِ» مِنْ كِتَابِنَا «حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ»} .

أَوْ يُقَالُ) فَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْخَبَرَ غَيْرُ مَقْطُوعٍ بِهِ ، إِذْ تُسَمَّىٰ هَـٰذِهِ ٱلصِّيغَةُ عِنْدَهُمْ صِيغَةَ ٱلتَّمْرِيضِ ، فَهِيَ لَا تُفِيدُ ٱلصِّحَّةَ وَلَا ٱلْجَزْمَ بِهَا ، وَظَاهِرٌ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَشَأَ بِمِصْرَ وَبِدِمَشْقَ فِي وَقْتٍ مَعًا .

وَٱبْنُ خَلِّكَانَ قَدْ وَقَفَ عَلَىٰ ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي عَمِلَهُ ٱلصُّولِيُّ فِي أَخْبَارِ أَبِي تَمَّامٍ وَنَقَلَ عَنْهُ ، وَهُوَ ٱلْمَرْجِعُ فِي هَـٰذَا ٱلْبَابِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا ٱلْكِتَابُ قَدْ خَلَا مِنْ تَحْقِيقِ هَـٰذِهِ ٱلرِّوَايَةِ ، بَلْ نَحْنُ نُرَجِّحُ أَنَّهُ قَدْ خَلَا مِنْهَا بَتَّةً ، فَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ نَشْأَةَ أَبِي تَمَّامٍ كَانَتْ بِمِصْرَ ، لِأَنَّ صَاحِبَ ٱلْأَغَانِي أَغْفَلَهَا وَلَمْ يُشِرْ إِلَيْهَا بِحَرْفٍ ، مَعَ أَنَّهُ يَنْقُلُ عَنِ ٱلصُّولِيِّ نَفْسِهِ ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ : (أَخْبَرَنِي ٱلصُّولِيُّ) ؛ وَكَذَلِكَ أَهْمَلَهَا صَاحِبُ « مُرُوجِ ٱلذَّهَبِ » ، وَهُوَ يَنْقُلُ أَيْضًا عَنِ ٱلصُّولِيِّ ، وَهَـٰذَا يُثْبِتُ لَنَا أَنَّ ٱلْخَبَرَ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا يَوْمَئِذٍ ، وَإِلَّا فَمَا هُوَ ٱلتَّارِيخُ عِنْدَ أَبِي ٱلْفَرَجِ وَٱلْمَسْعُودِيِّ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ هَـٰذَا ؟

وَلَـٰكِنْ ذُكِرَتِ ٱلرِّوَايَةُ فِي كِتَابِ ٱلْأَنْبَارِيِّ « طَبَقَاتُ ٱلْأُدَبَاءِ » ، وَٱقْتَصَرَ نَاقِلُهَا عَلَىٰ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ نَشَأَ بِمِصْرَ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَسْقِي ٱلْمَاءَ بِهَا ، وَلَمْ يَذْكُرْ رِوَايَةَ عَمَلِهِ بِدِمَشْقَ ، وَٱلْأَنْبَارِيُّ مُتَأَخِّرٌ تُوُفِّيَ سَنَةَ ٥٧٧ ، فَهُوَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي تَمَّامٍ بِثَلَاثَةِ قُرُونٍ وَنِصْفٍ ، فَلَا قِيمَةَ لِرِوَايَتِهِ ، وَشَأْنُهُ شَأْنُ غَيْرِهِ مِنَ ٱلنَّاقِلِينَ ، وَنَحْنُ نَرَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلرِّوَايَةَ قَدْ صُنِعَتْ فِي مِصْرَ نَفْسِهَا لِلْغَضِّ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ وَٱلزِّرَايَةِ عَلَيْهِ ، وَبَقِيَتْ مَرْوِيَّةً فِيهَا ، ثُمَّ حُمِلَتْ كَمَا تُحْمَلُ كُلُّ رِوَايَةٍ لِذَاتِهَا لَا لِتَحْقِيقِهَا ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ مُوَجَّهَةً عَلَىٰ ٱلْحَقِّ أَمْ مَعْدُولًا بِهَا عَنْهُ ؛ وَلَا أَوْضَعَ فِي ٱلْمِهْنَةِ مِنْ سِقَايَةِ ٱلْمَاءِ فِي ٱلْجَامِعِ بِٱلْجَرَّةِ ، وَلَعَمْرِي مَا ذُكِرَتِ (ٱلْجَرَّةُ) هُنَا عَبَثًا ، وَٱلْغُلُوُّ فِي ٱلتَّحْقِيرِ هُوَ بِعَيْنِهِ ٱلدَّلِيلُ عَلَىٰ ٱلْكَذِبِ ، فَهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ كَأَثَرِ ٱلْمُجْرِمِ فِي جَرِيمَتِهِ . . .

وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّا نُقَرِّرُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرَ ٱلْعَظِيمَ لَمْ يَنْشَأْ بِمِصْرَ ، وَأَنَّهُ وُلِدَ وَتَأَدَّبَ فِي ٱلشَّامِ ، ثُمَّ قَدِمَ إِلَىٰ مِصْرَ شَاعِرًا نَاشِئًا يَتَكَسَّبُ بِأَدَبِهِ كَمَا قَدِمَ عَلَيْهَا غَيْرُهُ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ إِلَىٰ مِصْرَ إِلَّا فِي وِلَايَةِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ ٱلْأَدِيبِ ٱلشَّاعِرِ ٱلْقَائِدِ ٱلْعَظِيمِ ، وَقَدْ جُعِلَتْ لَهُ وِلَايَةُ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱلْجَزِيرَةِ فِي سَنَةِ ٢١٠ أَوْ ٢١١ عَلَىٰ خِلَافٍ بَيْنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ ، وَكَانَتْ سِنُّ أَبِي تَمَّامٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ ٢١ و٢٣ سَنَةً ؛ وَقَدْ كَانَ ٱبْنُ طَاهِرٍ مِغْنَاطِيسًا لِلشُّعَرَاءِ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَنْزِلُهُ ، حَتَّىٰ قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ وَقَدْ عَزَمَ عَلَىٰ ٱلْهِجْرَةِ إِلَىٰ مِصْرَ

[من الطويل] :

يَقُولُ رِجَالٌ إِنَّ مِصْرَ بَعِيدَةٌ ... وَمَا بَعُدَتْ مِصْرُ وَفِيهَا ٱبْنُ طَاهِرِ
وَأَبْعَدُ مِنْ مِصْرَ رِجَالٌ نَرَاهُمُ ... بِحَضْرَتِنَا مَعْرُوفُهُمْ غَيْرُ ظَاهِرِ
عَنِ ٱلْخَيْرِ مَوْتَىٰ مَا تُبَالِي أَزُرْتَهُمْ ... عَلَىٰ طَمَعٍ أَمْ زُرْتَ أَهْلَ ٱلْمَقَابِرِ

وَقَدْ قَصَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ إِلَىٰ مِصْرَ ، كَمَا قَصَدَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ خُرَاسَانَ فِي سَنَةِ ٢٢٠ ، وَهِيَ ٱلسَّنَةُ ٱلَّتِي وَضَعَ فِيهَا أَبُو تَمَّامٍ أَوْ فِي ٱلَّتِي تَلِيهَا كِتَابَ « ٱلْحَمَاسَةِ » كَمَا حَقَّقْنَاهُ ، وَلَا مَحَلَّ لِذِكْرِهِ هُنَا .

وَنَحْنُ نَسُوقُ أَدِلَّتَنَا عَلَىٰ صِحَّةِ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ فِي نَفْيِ أَنْ يَكُونَ أَبُو تَمَّامٍ قَدْ نَشَأَ بِمِصْرَ أَوْ جَاءَهَا طِفْلًا ، أَوْ تَكُونَ مِنْهَا طَبِيعَتُهُ فِي ٱلشِّعْرِ ، أَوْ يَكُونَ لَهَا أَثَرٌ فِي عَبْقَرِيَّتِهِ :

١ ـ ٱلْمُجْمَعُ عَلَيْهِ بِلَا خِلَافٍ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ وُلِدَ فِي ٱلشَّامِ ، وَمَا دَامَ كَذَا لَقَدْ قَالَتِ ٱلطَّبِيعَةُ كَلِمَتَهَا فِي أَصْلِ نُبُوغِهِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ ، فَإِنَّ ٱلْأَدِيبَ يُولَدُ وَلَا يُصْنَعُ كَمَا يَقُولُ ٱلْإِنْكِلِيزُ ؛ وَكُلُّ ٱلْعُلَمَاءِ يَعْرِفُونَهُ بِٱلطَّائِيِّ ! وَلَا يَطْعَنُ فِي نَسَبِهِ إِلَّا مَنْ لَا يُحَقِّقُ ، وَهُوَ نَفْسُهُ يُبَاهِي بِطَائِيَّتِهِ ، وَذَلِكَ كَٱلشَّرْحِ عَلَىٰ كَلِمَةِ ٱلطَّبِيعَةِ فِي أَسْبَابِ نُبُوغِهِ ٱلْوِرَاثِيَّةِ ؛ وَقَدْ تَنَقَّلَ ٱلرَّجُلُ بَيْنَ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَأَرْمِينِيَّةَ وَغَيْرِهَا ، فَمَا بَلَدٌ أَوْلَىٰ مِنْ بَلَدٍ بِأَنْ يَكُونَ مَثَارَ عَبْقَرِيَّتِهِ .

٢ ـ إِنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا يَتَكَسَّبُ مِنْ شِعْرِهِ ، يَمْدَحُ مَنْ يَهْتَزُّ لَهُ أَوْ يُعْطِي عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَمْدَحْ أَبُو تَمَّامٍ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ؛ فَإِنْ كَانَ مَدَحَ فِيهَا عَبْدَ ٱللهِ بْنَ طَاهِرٍ فَإِنَّمَا إِلَيْهِ قَصَدَ وَإِلَيْهِ جَاءَ ؛ وَٱبْنُ طَاهِرٍ لَيْسَ مِصْرِيًّا ، وَقَدْ جَاءَ إِلَىٰ مِصْرَ وَرَجَعَ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَحُولَ عَلَيْهِ ٱلْحَوْلُ ، فَلَوْ أَنَّ نَشْأَةَ هَـٰذَا ٱلشَّاعِرِ كَانَتْ بِمِصْرَ وَتَأَدُّبُهُ كَانَ فِيهَا لَأَصَبْنَا لَهُ مَدْحًا كَثِيرًا فِي أَعْيَانِهَا وَعُلَمَائِهَا ؛ إِذْ هُوَ مَتَىٰ قَالَ ٱلشِّعْرَ لَا يَتَكَسَّبُ إِلَّا مِنْهُ ؛ وَفِي دِيوَانِ ٱلشَّاعِرِ هِجَاءٌ لِٱبْنِ ٱلْجَلُودِيِّ نَظَمَهُ فِي مِصْرَ ، وَلَـٰكِنَّ ٱبْنَ ٱلْجَلُودِيِّ لَيْسَ مِصْرِيًّا ، بَلْ هُوَ قَائِدٌ مِنْ قُوَّادِ ٱلْمَأْمُونِ ، وَلَّاهُ مُحَارَبَةَ ٱلزُّطِّ سَنَةَ ٢٠٥ ؛ ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ مِصْرَ ، ثُمَّ وُلِّيَ عَلَيْهَا فِي سَنَةِ ٢١٤ ؛ فَكُلُّ ٱلْمِصْرِيَّةِ فِي شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ هِيَ فِي هِجَائِهِ لِلشَّاعِرِ ٱلْمِصْرِيِّ يُوسُفَ ٱلسَّرَّاجِ ، وَلَعَلَّهَا فِي بَعْضِ مَقَاطِيعَ أُخْرَىٰ مِنَ ٱلْغَزَلِ أَوِ ٱلْوَصْفِ .

٣ ـ وُلِدَ أَبُو تَمَّامٍ فِي سَنَةِ ١٨٨ أَوْ ١٩٠ ، وَمِنَ ٱلثَّابِتِ أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ فِي سَنَةِ ٢١٤ حِينَ نَظَمَ قَصِيدَتَهُ ٱلدَّالِيَّةَ وَٱلنُّونِيَّةَ فِي رِثَاءِ عُمَيْرِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ ـ وَعُمَيْرٌ هَـٰذَا لَيْسَ مِصْرِيًّا ، بَلْ هُوَ مِنْ خُرَاسَانَ ، وَكَانَ بِمِصْرَ عَامِلًا لِأَبِي إِسْحَاقَ ٱلْمُعْتَصِمِ ٱبْنِ ٱلرَّشِيدِ ـ فَلَوْ كَانَ أَبُو تَمَّامٍ قَدْ جَاءَ إِلَىٰ مِصْرَ طِفْلًا كَمَا يُقَالُ لَكَانَتْ مُدَّةُ قَوْلِهِ ٱلشِّعْرَ فِيهَا لَا تَقِلُّ عَنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ ، مَعَ أَنَّ كُلَّ مَا نَظَمَهُ وَهُوَ فِيهَا لَا يَبْلُغُ عَشْرَ قَصَائِدَ ؛ وَهَـٰذَا دِيوَانُهُ بَيْنَ أَيْدِينَا وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ ٱلْمَرْجِعُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَىٰ صَاحِبِهِ .

٤ ـ رَوَىٰ ٱلْمَرْزُبَانِيُّ فِي « ٱلْمُوَشَّحِ » عَنِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ خَالِدٍ ٱلْبَرْمَكِيِّ قَالَ : أَوَّلُ مَا نَبَغَ (أَيْ : قَالَ ٱلشِّعْرَ) أَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ أَتَانِي بِدِمَشْقَ يَمْدَحُ مُحَمَّدَ بْنَ ٱلْجَهْمِ فَكَلَّمْتُهُ فِيهِ فَأَذِنَ لَهُ ؛ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَنْشَدَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ لَهُ بِدَرَاهِمَ يَسِيرَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ عَاشَ هَـٰذَا لَيَخْرُجَنَّ شَاعِرًا .

فَهَـٰذَا نَصٌّ عَلَىٰ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا فِي ٱبْتِدَاءِ ٱلشِّعْرِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ خَرَجَ شَاعِرًا بَعْدُ وَكَانَ شِعْرُهُ مِنَ ٱلطَّبَقَةِ ٱلَّتِي يُثَابُ عَلَيْهَا (بِدَرَاهِمَ يَسِيرَةٍ) . وَأَبُو تَمَّامٍ بَعْدَ ذَلِكَ هُوَ نَفْسُهُ ٱلَّذِي نَثَرَ عَلَيْهِ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ طَاهِرٍ أَلْفَ دِينَارٍ فَتَرَفَّعَ أَنْ يُمْسِكَهَا وَتَرَكَ ٱلْخَدَمَ يَنْتَهِبُونَهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَغَيُّرِ ٱبْنِ طَاهِرٍ عَلَيْهِ .

٥ ـ نَقَلَ ٱبْنُ خَلِّكَانَ فِي تَرْجَمَةِ دِيكِ ٱلْجِنِّ ٱلشَّاعِرِ ٱلْحِمْصِيِّ ٱلْمَشْهُورِ ، عَنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزُّبَيْدِيِّ ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ دِيكِ ٱلْجِنِّ (يَعْنِي بِحِمْصَ) فَدَخَلَ عَلَيْهِ حَدَثٌ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا عَمِلَهُ ، فَأَخْرَجَ دِيكُ ٱلْجِنِّ مِنْ تَحْتِ مُصَلَّاهُ دَرْجًا كَبِيرًا فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ شِعْرِهِ ، فَسَلَّمَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ : يَا فَتَىٰ ! تَكَسَّبْ بِهَـٰذَا وَٱسْتَعِنْ بِهِ عَلَىٰ قَوْلِكَ . فَلَمَّا خَرَجَ سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : هَـٰذَا فَتًى مِنْ أَهْلِ جَاسِمٍ ، يَذْكُرُ أَنَّهُ مِنْ طَيِّئٍ ، يُكْنَىٰ أَبَا تَمَّامٍ ، وَٱسْمُهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ ، وَفِيهِ أَدَبٌ وَذَكَاءٌ وَلَهُ قَرِيحَةٌ وَطَبْعٌ . فَهَـٰذَا نَصٌّ آخَرُ عَلَىٰ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ كَانَ يَوْمَئِذٍ حَدَثًا ـ أَيْ : غُلَامًا ـ وَكَانَ لَا يَزَالُ يَطْلُبُ ٱلْأَدَبَ ، وَقَدْ أَعَانَهُ أُسْتَاذُهُ بِنُسَخٍ مِنْ قَصَائِدِهِ يَتَخَرَّجُ بِهَا وَيَحْذُو عَلَيْهَا ؛ فَهُوَ قَدْ نَشَأَ فِي ٱلشَّامِ وَتَأَدَّبَ فِيهَا .

٦ ـ نَظَمَ أَبُو تَمَّامٍ قَصِيدَتَهُ ٱللَّامِيَّةَ [من الطويل] :

أَصِبْ بِحُمَيَّا كَأْسِهَا مَقْتَلَ ٱلْعَذْلِ

يَصِفُ تَقْتِيرَ ٱلرِّزْقِ عَلَيْهِ بِمِصْرَ وَخَيْبَةَ أَمَلِهِ ٱلَّذِي أَمَّلَهُ مِنَ ٱلْمَالِ ، وَفِي هَـٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ يَحِنُّ إِلَىٰ ٱلشَّامِ وَيَسْتَسْقِي لَهَا وَيَذْكُرُ أَرْضَ ٱلْبِقَاعَيْنِ وَقُرَىٰ ٱلْجَوْلَانِ ٱلَّتِي نَشَأَ فِيهَا ، وَلَا يَحِنُّ ٱلشَّاعِرُ لِأَرْضٍ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهَا حُبُّهُ أَوْ شَبَابُهُ وَأَدَبُهُ ، أَمَّا ٱلطُّفُولَةُ فَمَنْسِيَّةٌ بِآثَارِهَا ، إِذْ لَا آثَارَ لَهَا فِي ٱلنَّفْسِ مَتَىٰ شَبَّ ٱلْمَرْءُ إِلَّا بَعِيدًا بَعِيدًا ، وَإِنَّمَا ٱلْحَنِينُ لِمَا تَتَعَلَّقُ بِهِ ٱلْغَرِيزَةُ ٱلْمُمَيِّزَةُ .

٧ ـ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ يُخَاطِبُ أَحْبَابَهُ [من الطويل] :

عَدَتْنِي عَنْكُمْ مُكْرَهًا غُرْبَةُ ٱلنَّوَىٰ   لَهَا وَطَرٌ فِي أَنْ تُمِرَّ وَلَا تُحْلِي

وَٱلنَّوَىٰ فِي لُغَةِ ٱلشَّاعِرِ هِيَ رِحْلَتُهُ لِلتَّكَسُّبِ بِشِعْرِهِ ؛ وَلَمَّا رَجَعَ عَوْفُ بْنُ مُحَلِّمٍ ٱلشَّيْبَانِيُّ إِلَىٰ وَطَنِهِ بَعْدَ وِفَادَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ فِي خُرَاسَانَ ؛ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ : رَجَعْتُ مِنْ عِنْدِ عَبْدِ ٱللهِ بِٱلْغِنَىٰ (وَٱلرَّاحَةِ مِنَ ٱلنَّوَىٰ) ؛ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ فِي قَصِيدَتِهِ تِلْكَ [من الطويل] :

نَأَيْتُ فَلَا مَالًا حَوَيْتُ وَلَمْ أُقِمْ   فَأُمْتِعَ ، إِذْ فُجِعْتُ بِٱلْمَالِ وَٱلْأَهْلِ

يَعْنِي : أَنَّهُ ٱغْتَرَبَ مُكْرَهًا يَطْلُبُ ٱلْكَسْبَ لَا غَيْرُ ، وَلَا كَسْبَ لِلشَّاعِرِ إِلَّا مِنْ شِعْرِهِ ؛ فَهُوَ بِنَصِّ كَلَامِهِ مِنْ نَفْسِهِ قَدِمَ إِلَىٰ مِصْرَ شَاعِرًا يَتَكَسَّبُ وَيَتَعَرَّضُ لِلْغِنَىٰ كَمَا يَصْنَعُ غَيْرُهُ .

٨ ـ فِي هَـٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ يُقَدِّمُ لَنَا أَبُو تَمَّامٍ رَحِمَهُ ٱللهُ دَلِيلًا يَأْكُلُ ٱلْأَدِلَّةَ ، كَأَنَّمَا أُلْهِمَ مِنْ وَحْيِ ٱلْغَيْبِ أَنَّنَا سَنَحْتَاجُ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلدَّلِيلِ يَوْمًا لِنَدْفَعَ بِهِ عَنْهُ ؛ فَهُوَ يَحِنُّ إِلَىٰ حَبِيبٍ لَهُ فِي ٱلشَّامِ وَيَقُولُ : إِنَّ غُرْبَةَ ٱلنَّوَىٰ ٱلَّتِي وَصَفَهَا [من الطويل] :

أَتَتْ بَعْدَ هَجْرٍ مِنْ حَبِيبٍ فَحَرَّكَتْ   صَبَابَةَ مَا أَبْقَىٰ ٱلصُّدُودُ مِنَ ٱلْوَصْلِ
أَخَمْسَةُ أَحْوَالٍ مَضَتْ لِمَغِيبِهِ ؟   وَشَهْرَانِ بَلْ يَوْمَانِ ثُكْلٌ مِنَ ٱلثُّكْلِ

يَعْنِي : إِنَّهُ قَالَ هَـٰذَا ٱلشِّعْرَ وَقَدْ مَضَىٰ عَلَىٰ إِقَامَتِهِ فِي مِصْرَ خَمْسُ سَنَوَاتٍ ، وَكَانَ قَدْ جَاءَ مِنَ ٱلشَّامِ عَاشِقًا ذَلِكَ ٱلْعِشْقَ ٱلَّذِي فِيهِ (ٱلصُّدُودُ وَٱلْوَصْلُ) ، وَٱلطِّفْلُ لَا يُحِبُّ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْحُبِّ وَلَا يَحِنُّ ذَلِكَ ٱلْحَنِينَ ؛ فَإِذَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ قَدِمَ إِلَىٰ مِصْرَ فِي سَنَةِ ٢١٠ كَمَا رَجَّحْنَاهُ ، وَسِنُّهُ بَيْنَ ٢١ و٢٣ سَنَةً ، فَيَكُونُ قَدْ نَظَمَ هَـٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ فِي سَنَةِ ٢١٥ وَعُمْرُهُ

يَوْمَئِذٍ بَيْنَ ٢٦ و٢٨ سَنَةً ؛ فَلَوْ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ جَاءَ مِنَ ٱلشَّامِ طِفْلًا صَغِيرًا فَكَيْفَ لِلطِّفْلِ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلشِّعْرِ بَعْدَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ ؟ وَمَا هَجْرُ ٱلْحَبِيبِ وَ« صَبَابَةَ مَا أَبْقَىٰ ٱلصُّدُودُ مِنَ ٱلْوَصْلِ » ؟ .

٩ ـ مَدَحَ شَاعِرُنَا مُحَمَّدَ بْنَ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيَّ بِقَصِيدَةٍ نُونِيَّةٍ يَذْكُرُ فِيهَا تَنَقُّلَهُ فِي ٱلْبِلَادِ ، فَقَالَ مِنْهَا [من البسيط] :

بِٱلشَّامِ أَهْلِي ، وَبَغْدَادُ ٱلْهَوَىٰ ، وَأَنَا   بِٱلرَّقْمَتَيْنِ ، وَبِٱلْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
وَمَا أَظُنُّ ٱلنَّوَىٰ تَرْضَىٰ بِمَا صَنَعَتْ   حَتَّىٰ تُشَافِهَ بِي أَقْصَىٰ خُرَاسَانِ !

فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّهُ جَعَلَ أَهْلَهُ بِٱلشَّامِ ، وَجَعَلَ أَصْدِقَاءَهُ بِمِصْرَ ، فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ قَدْ نَشَأَ بِهَا لَجَعَلَ بِهَا أَهْلَهُ ، إِذْ لَا يَنْشَأُ إِلَّا مَعَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي دَلِيلٌ مِنْهُ هُوَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِمِصْرَ مُقِيمًا وَلَا مُتَوَطِّنًا ، بَلْ مُتَنَقِّلًا كَمَا نَزَلَ بِغَيْرِهَا .

١٠ ـ تَقُولُ كُتُبُ ٱلْأَدَبِ فِي مَدَارِسِ ٱلْحُكُومَةِ : إِنَّ أَبَا تَمَّامٍ نُقِلَ إِلَىٰ مِصْرَ صَغِيرًا فَنَشَأَ بِهَا (وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ ذَلِكَ) ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ مَقَرِّ ٱلْخِلَافَةِ فَمَدَحَ ٱلْمُعْتَصِمَ وَهَـٰذَا غَيْرُ صَحِيحٍ ، فَإِنَّ أَبَا تَمَّامٍ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا ٱلْمَأْمُونُ فِي سَنَةِ ٢١٦ حِينَ جَاءَهَا وَقَتَلَ بِهَا عَبْدُوسَ ٱلْفِهْرِيَّ ، فَلَوْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَوْمَئِذٍ لَمَدَحَ ٱلْمَأْمُونَ وَذَكَرَ هَـٰذِهِ ٱلْوَاقِعَةَ ، وَٱلْمُعْتَصِمُ وَلِيَ ٱلْخِلَافَةَ سَنَةَ ٢١٨ وَدِيوَانُ أَبِي تَمَّامٍ يُثْبِتُ أَنَّهُ فِي سَنَةِ ٢١٧ كَانَ بِٱلْعِرَاقِ ، وَقَدْ مَدَحَ ٱلْمَأْمُونَ بِقَصِيدَتِهِ ٱلْمِيمِيَّةِ ، وَذَكَرَ فِي مَدْحِهِ وَقْعَةَ ٱلرُّومِ ، وَهَـٰذِهِ كَانَتْ فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ .

يَخْلُصُ مِنْ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ وُلِدَ فِي ٱلشَّامِ وَتَأَدَّبَ فِيهَا ، وَقَدِمَ إِلَىٰ مِصْرَ كَبِيرًا يَتَكَسَّبُ بِٱلشِّعْرِ ، فَأَقَامَ بِهَا بَيْنَ خَمْسِ سِنِينَ وَسِتٍّ ، وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَيْشًا بِهَا بَعْدَ قَتْلِ عُمَيْرِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ ٱلَّذِي قُتِلَ فِي سَنَةِ ٢١٤ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَعِيشُ فِي كَنَفِهِ ، وَقَدْ صَرَّحَ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلنُّونِيَّةِ ٱلَّتِي رَثَاهُ بِهَا أَنَّهُ يَأْمُلُ مِنْ بَعْدِهِ فِي ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ .

فَقُدُومُ ٱلشَّاعِرِ إِلَىٰ مِصْرَ كَانَ فِي سَنَةِ ٢١٠ أَوْ حَوَالَيْهَا ، وَخُرُوجُهُ مِنْهَا كَانَ فِي سَنَةِ ٢١٥ أَوْ حَوَالَيْهَا ، وَٱللهُ أَعْلَمُ .

* * *

ٱلْقَدِيمُ وَٱلْجَدِيدُ (*)

أَقُولُ لِلأُسْتَاذِ ٱلْفَاضِلِ ٱلدُّكْتُورِ طَـٰهَ حُسَيْنٍ « فِيْ رِفْقٍ وَلِيْنٍ » وَفِيْ عَجَلَةٍ أَيْضًا ، إِنِّيْ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلأَيَّامِ ضَنِيْنٌ بِمَا أَمْلِكُ مِنْ وَقْتِيْ أَشَدَّ ٱلضَّنِّ ، أَحْسَبُ ٱلسَّمَاءَ تَنْفَجِرُ مِنْ يَوْمِيْ فِيْ سَاعَةٍ كَٱلْفَجْرِ ، فَلَا يَصْرِفُنِيْ عَنْ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ وَلَا يَصْرِفُهَا عَنِّيْ شَيْءٌ ، إِذْ بَيْنَ يَدَيَّ كِتَابٌ فِيْ ٱلرَّسَائِلِ أَعْمَلُ فِيْهِ وَأَسْتَعِيْنُ ٱللهَ عَلَىٰ ٱلْفَرَاغِ مِنْهُ فِيْ وَقْتٍ مُعَيَّنٍ ، وَقَدْ أَظَلَّ أَوْ كَادَ ، فَلَا يَرَيَنَّ ٱلأُسْتَاذُ أَنِّيْ أَسْتَطِيْرُ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ كَٱلطَّيْرَةِ ٱلأُوْلَىٰ ، فَإِنَّ جَنَاحَيَّ فِيْ فَضَاءٍ آخَرَ ، وَإِنَّ هَـٰذَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِيْ أُعَالِجُهُ لَا يُجَشِّمُنِيْ عَرَقًا مِنَ ٱلْقِرْبَةِ كَمَا قَالُوْا قَدِيمًا ، بَلْ لَعَلَّهُ فِيْ ٱلْمِهِ أَشْبَهُ « بِعَمَلِيَّةِ » تَشْرِيْحٍ فِيْ ٱلْقَلْبِ ، وَسَتَذْهَبُ ٱلدَّقَائِقُ ٱلَّتِيْ أَكْتُبُ فِيْهَا هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ مَأْسُوْفًا عَلَيْهَا ، لِأَنَّهَا ذَاهِبَةٌ بِصَفْحَتَيْنِ مِنْ كِتَابِيْ . .

وَأَمَّا بَعْدُ ؛ فَلَا أَرَىٰ مِنَ ٱلإِنْصَافِ أَنْ يَعْمِدَ ٱلدُّكْتُوْرُ إِلَىٰ جُمَلٍ يَقْتَضِبُهُنَّ مِنْ مَقَالِيْ فِيْ مَجَلَّةِ ٱلْهِلَالِ ثُمَّ يَهْدِفُهَا لِلرَّدِّ ، وَكَانَ عَسَىٰ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهَا شَيْءٌ مِمَّا قَبْلَهَا أَوْ مَا بَعْدَهَا أَوْ يَشُدُّ مِنْهَا بَعْضَ جِهَاتِهَا أَوْ يَأْتِيَ بِهَا فِيْ سِيَاقٍ يُبَيِّنُ عَنْ مَعْنَاهَا .

وَزَعَمَ ٱلأُسْتَاذُ أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِيْ هَـٰذِهِ ٱلْجُمْلَةَ « وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلذَّوْقَ ٱلأَدَبِيَّ فِيْ شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ فَهْمُهُ ، وَأَنَّ ٱلْحُكْمَ عَلَىٰ شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ أَثَرُ ٱلذَّوْقِ فِيْهِ ، وَأَنَّ ٱلنَّقْدَ إِنَّمَا هُوَ ٱلذَّوْقُ وَٱلْفَهْمُ جَمِيْعًا . . » ثُمَّ دَارَ بِهَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ دَوْرَةَ ٱلْعَاصِفَةِ وَجَعَلَهَا مَسْأَلَةً كَمَسْأَلَةِ ٱلدَّوْرِ وَٱلتَّسَلْسُلِ ٱلْمَشْهُوْرَةِ ، بَلْ جَعَلَهَا مِنْ قَبِيْلِ « قِصَّةٍ وَقَضِيَّةٍ » . . . فَتَرَاهُ يَقُوْلُ : ذَوْقٌ هُوَ ٱلْفَهْمُ ، وَفَهْمٌ هُوَ ٱلذَّوْقُ ، وَفَهْمٌ لَيْسَ بِٱلذَّوْقِ ، وَذَوْقٌ لَيْسَ بِٱلْفَهْمِ ، وَهَلُمَّ صَاعِدًا وَنَازِلًا ؛ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا بِٱلْمُوْسِيْقَىٰ فَقَالَ : « مَا نَظُنُّ أَنَّ ٱلَّذِيْنَ يَذُوْقُوْنَ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ

(*) { نَشَرَهَا حِيْنَ ٱلْمَعْرَكَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلدُّكْتُوْرِ طَـٰهَ حُسَيْنٍ (بِكْ) حَوْلَ كِتَابَيْهِ : « رَسَائِلُ ٱلأَحْزَانِ » ، وَ« ٱلسَّحَابُ ٱلأَحْمَرُ » ؛ وَلِلدُّكْتُوْرِ طَـٰهَ فِيْهِمَا وَفِيْ أُسْلُوْبِهِمَا رَأْيٌ .
وَٱنْظُرْ كِتَابَيْ : « ٱلْمَعْرَكَةُ تَحْتَ رَايَةِ ٱلْقُرْآنِ » ، وَ« حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } . سَعِيد ٱلْعُرْيَان .

وَيَطْرَبُوْنَ لَهَا يَفْهَمُوْنَهَا جَمِيْعًا » . وَأَنَا أُفَسِّرُ كَلَامِيْ بِهَـٰذَا ٱلْمَثَلِ نَفْسِهِ ، أَقْتَصِرُ عَلَيْهِ وَلَا أَعْدُوْهُ .

نَأْتِيْ ٱلآنَ بِأُسْتَاذٍ قَدْ بَرَعَ فِيْ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ وَخَالَطَتْ أَعْصَابَهُ وَلَحْمَهُ وَدَمَهُ ، وَنَدْفَعُ إِلَيْهِ قِطْعَةً مُلَحَّنَةً وَنَقُوْلُ لَهُ : ٱسْمَعْ وَٱفْهَمْ وَٱحْكُمْ وَٱنْتَقِدْ ؛ يَسْمَعُهَا مَرَّةً بِعَقْلِهِ أَوْ لِعَقْلِهِ يَتَبَيَّنُ مَا يَكُوْنُ فِيْهَا صَوَابًا وَمَا يَكُوْنُ خَطَأً ، ثُمَّ مَا يَعْلُوْ عَنِ ٱلصَّوَابِ مِنَ ٱلإِجَادَةِ وَٱلإِتْقَانِ ، وَمَا يَنْحَطُّ عَنِ ٱلْخَطَإِ مِنَ ٱلإِسَاءَةِ وَٱلتَّخْلِيْطِ ؛ فَهَـٰذَا هُوَ ٱلْفَهْمُ .

وَيَسْمَعُهَا مَرَّةً ثَانِيَةً بِحِسِّهِ أَوْ لِحِسِّهِ ، فَيَرَىٰ أَثَرَ مَا فَهِمَ ، وَيُدِيْرُهَا فِيْ ذَوْقِهِ لِيَعْرِفَ كَيْفَ مَوْقِعُهَا مِنَ ٱلْغَرَضِ ٱلَّذِيْ وُضِعَتْ لَهُ ، فَإِنَّهَا لَمْ تُوْضَعْ لِتَكُوْنَ أَصْوَاتًا ، بَلْ لِتَخْلُقَ مِنَ ٱلأَصْوَاتِ شَيْئًا ، فَهَـٰذَا هُوَ ٱلذَّوْقُ ، وَهُوَ كَمَا تَرَاهُ بَعْدَ ٱلْفَهْمِ وَنَاشِئٌ عَنْهُ .

وَمِثْلُ ٱلأُسْتَاذِ طَـٰهَ حُسَيْنٍ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ أَنَّ مَنْ يَقُوْلُ : إِنَّ ٱلذَّوْقَ فِيْ شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ فَهْمُهُ ، أَوْ إِنَّمَا هُوَ عَنْ فَهْمِهِ ، أَوْ إِنَّمَا يَنْشَأُ عَنْ فَهْمِهِ ، فَٱلْعِبَارَةُ فِيْ بَابِ ٱلْمَجَازِ وَاحِدَةٌ لَا تَخْتَلِفُ .

ثُمَّ إِنَّ أُسْتَاذَ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ وَقَدْ سَمِعَ ٱلْقِطْعَةَ مَرَّتَيْنِ ، أَوْ مَرَّةً كَمَرَّتَيْنِ ، إِنْ بَلَغَ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ فِيْ كُلِّ أُذُنٍ وَاحِدَةٍ أُذُنَانِ ، يَسْتَفْتِيْ ذَوْقَهُ ٱلْفَنِّيَّ وَيَحْكُمُ لِلْقِطْعَةِ أَمْ عَلَيْهَا ، فَهَـٰذَا هُوَ أَثَرُ ٱلذَّوْقِ .

ٱلآنَ قَدْ حَكَمَ ٱلأُسْتَاذُ وَٱنْتَقَدَ وَجَزَمَ بِرَأْيِهِ ، فَنَدَبَ لَهُ فُلَانٌ يَقُوْلُ : أَخْطَأْتَ وَأَسَأْتَ وَجَهِلْتَ وَغَفَلْتَ ، أَوْ تَعَصَّبْتَ وَحَطَطْتَ فِيْ هَوَىٰ صَاحِبِ ٱللَّحْنِ ؛ فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ هَـٰذَا ٱلْخِلَافُ وَكَيْفَ وَقَعَ هَـٰذَا ٱلْقَوْلُ ؟ بَلْ كَيْفَ سَاغَ لِلثَّانِيْ أَنْ يُجَهِّلَ ٱلأَوَّلَ وَيَرَىٰ غَيْرَ رَأْيِهِ وَيَحْكُمَ غَيْرَ حُكْمِهِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ قَدْ فَهِمَ غَيْرَ فَهْمِهِ فَأَنْشَأَ لَهُ ٱلْفَهْمُ ذَوْقًا وَأَحْدَثَ لَهُ ٱلذَّوْقُ حُكْمًا وَجَاءَتْ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ تِلْكَ ٱلنَّتِيْجَةُ ٱلَّتِيْ نُسَمِّيْهَا ٱلنَّقْدَ ، وَمَا هِيَ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ إِلَّا ٱلذَّوْقُ وَٱلْفَهْمُ جَمِيْعًا ؛ فَٱلَّذِيْنَ يَذُوْقُوْنَ ٱلْمُوْسِيْقَىٰ وَيَطْرَبُوْنَ لَهَا وَلَا يَفْهَمُوْنَهَا فَقَدْ فَهِمُوْهَا عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا ٱسْتَقَرَّ فِيْ نُفُوْسِهِمْ مِنْ أَسَالِيْبِ ٱلتَّطْرِيْبِ وَمَا فِيْهِمْ مِنَ ٱلْمُطَاوَعَةِ لِهَـٰذِهِ ٱلْعَاطِفَةِ ؛ أَوَلَا تَرَاهُمْ يَقُوْلُوْنَ فِيْ أَمْثَالِ هَـٰؤُلَاءِ : إِنَّ لَهُمْ آذَانًا مُوْسِيْقِيَّةً ؟ فَهَـٰذِهِ ٱلأُذُنُ هِيَ

ٱلْفَهْمُ بِعَيْنِهِ ، لِأَنَّهَا حَاسَّةٌ ٱجْتَمَعَتْ مِنْ مِرَانٍ طَوِيلٍ ، وَقَدْ تَقُومُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ جَهْلِهِ بِٱلْمُوسِيقَىٰ مَقَامَ عِلْمٍ بِرَأْسِهِ .

وَيَقُولُ ٱلْأُسْتَاذُ طَٰهَ إِنَّهُ قَدْ يَقْرَأُ كَلَامِي وَيَفْهَمُهُ وَلَا يَذُوقُهُ ، وَلَٰكِنَّ عَدَمَ ٱلذَّوْقِ هُنَا هُوَ ٱلذَّوْقُ ؛ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا مَعْنَىٰ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي [من الوافر] :

« وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ . . . »[1]

وَلَوْ كَانَ ٱلْأُسْتَاذُ وَأَمْثَالُهُ هُمْ فِي هَٰذَا ٱلْقِيَاسِ ٱلْمِتْرَ وَٱلْكِيلُو مِتْر ، لَوَجَبَ أَلَّا أَجِدَ مَنْ يَذُوقُ كَلَامِي وَيُعْجَبُ بِهِ وَيُغَالِي فِيهِ وَيَكُونُ ذَنْبًا مِنْ ذُنُوبِي عِنْدَ ٱللهِ بِإِسْرَافِهِ فِي ٱلْمُغَالَاةِ ، وَأَنَا وَاجِدٌ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِثْلِ ٱلْأُسْتَاذِ طَٰهَ عَشَرَةً وَمِئَةً مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَوْ خَرَجَ هُوَ إِلَى ٱلْعَالَمِ لَرَأَىٰ وَسَمِعَ ، وَفِيهِمْ مَنْ هُمْ أَعْلَىٰ مِنْهُ كَعْبًا وَأَمَدُّ عُنُقًا وَأَضْخَمُ هَامَةً وَأَبْدَعُ بَدِيعًا وَأَبْلَغُ وَأَزْكَىٰ وَأَعْلَمُ إِلَىٰ عَدَدٍ مِنْ هَٰذِهِ ٱلْوَاوَاتِ .

وَعَجِبْتُ لِلدُّكْتُورِ يُرِيدُ أَنْ لَا يَفْهَمَ مِنْ عِبَارَتِي كَمَا يَقُولُ إِلَّا أَنَّ « ٱلذَّوْقَ هُوَ نَفْسُ ٱلْفَهْمِ ، فَٱللَّفْظَانِ يَدُلَّانِ عَلَىٰ مَعْنًى وَاحِدٍ ، وَإِذَنْ وَإِذَنْ وَإِذَنْ . . . » .

فَهَلْ يَرَىٰ إِذَا قُلْتُ لَهُ : رَأَيْتُ ٱلْقَمَرَ وَفُلَانَةَ لَيْلَةَ كَذَا ، فَكَانَتْ إِنَّمَا هِيَ ٱلْقَمَرَ ـ أَنِّي أَقْصِدُ بِهِمَا مَعْنًى وَاحِدًا؛ فَيَقُولُ لَهَا : « وَإِذَنْ » فَلَيْسَا شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، وَإِذَنْ فَكَيْفَ صَارَ لَهَا وَجْهٌ فِي ٱلسَّمَاءِ وَوَجْهٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَبَقِيَتْ مَعَ ذَٰلِكَ ٱمْرَأَةً مِنَ ٱلْإِنْسِ ؛ وَإِذَنْ فَهَٰذَا كَلَامٌ لَا يُفْهَمُ . . .

قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ « لَوْ » تَفْتَحُ عَمَلَ ٱلشَّيْطَانِ ، يُرِيدُ أَنَّهَا أَدَاةُ ٱلتَّمَنِّي ، وَٱلْمَذْهَبُ ٱلْجَدِيدُ سَيَضُمُّ « إِذَنْ » إِلَىٰ « لَوْ » ، ثُمَّ مَا هِيَ ٱلْكَلِمَةُ ٱلثَّالِثَةُ يَا تُرَىٰ ؟

أَنَا مَعَ إِعْجَابِي بِٱلدُّكْتُورِ ٱلْفَاضِلِ أَرَىٰ أَنَّهُ مُسْتَهْتِرٌ بِأَشْيَاءَ ، وَأَنَّ مِنْ خُلُقِهِ أَنَّ مَا لَا يَرْضَىٰ عَنْهُ وَمَا لَا يَفْهَمُهُ « لَيْسَا شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ » . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْفَهْمِ بُدٌّ قَالَ : إِنَّهُ لَا يَقْتَنِعُ ، فَإِذَا ضَايَقْتَهُ وَضَيَّقْتَ عَلَيْهِ لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا يَقُولُ ٱلنُّحَاةُ فِي « أَيٍّ » ٱلَّتِي حَيَّرَهُمْ

(١) كامل البيت هو :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ   يَجِدْ مُرًّا بِهِ ٱلْمَاءَ ٱلزُّلَالَا

إِعْرَابُهَا وَبِنَاؤُهَا ، أَيْ : كَذَا خُلِقَتْ . . .

وَأَنَا وَأَمْثَالِي إِنَّمَا نَحْرِصُ أَشَدَّ ٱلْحِرْصِ عَلَىٰ هَٰذِهِ ٱللُّغَةِ لِأَنَّهَا أَسَاسُ ٱلْأُمَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ ، فَلَا نَرْضَىٰ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَٰذَا ٱلْأَسَاسُ ثَابِتًا مَتِينًا لَا يُزَعْزِعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَثْلِمُهُ شَيْءٌ وَلَا يُضْعِفُهُ شَيْءٌ . وَٱلدُّكْتُورُ وَأَمْثَالُهُ لَا يُبَالُونَ أَنْ تَكُونَ هَٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ كَبُيُوتِ أَمْرِيكَةَ ٱلْمُتَحَرِّكَةِ . .

لَسْتُ أُنْكِرُ ٱلتَّجْدِيدَ ، بَلْ لَعَلَّ ٱلدُّكْتُورَ يَذْكُرُ مُنَاقَشَتِي إِيَّاهُ فِي (ٱلْجَرِيدَةِ) وَإِصْرَارَهُ يَوْمَئِذٍ أَنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُدْخِلَ فِي ٱللُّغَةِ كَلِمَةً ، وَأَنَّ قَوْلَ ٱلنَّاسِ تَنَزَّهَ وَمُتَنَزَّهٌ وَنُزْهَةٌ . . . إِلَخ كُلَّهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَامِّيِّ ، وَتَعَلُّقَهُ بِنَصِّ ٱبْنِ سِيدَهْ فِي ذَٰلِكَ ، وَٱسْتِخْرَاجِي لَهُ نَصَّ ٱبْنِ قُتَيْبَةَ وَكَلَامًا كَثِيرًا مِنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْعُلَمَاءِ ، ثُمَّ قَوْلَهُ : أَحْسَنْتَ ! وَلَٰكِنْ لَوْ جِئْتَنِي بِٱللَّفْظَةِ فِي كَلَامِ ٱلْمُبَرِّدِ وَٱلْجَاحِظِ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ مَا ٱقْتَنَعْتُ .

إِنَّمَا أُنْكِرُ شَيْئًا وَاحِدًا وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : مَذْهَبٌ قَدِيمٌ وَمَذْهَبٌ جَدِيدٌ ؛ فَقَدْ وَسَّعَ ٱللهُ عَلَى ٱلنَّاسِ فِيمَا عَلِمُوا وَفِيمَا جَهِلُوا ، وَلَٰكِنَّ أَصْحَابَنَا يُرِيدُونَ أَلَّا نَكْتُبَ إِلَّا نَمَطًا بِعَيْنِهِ ، وَلَا نَذْهَبَ إِلَّا مَذْهَبًا بِعَيْنِهِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْجَدِيدُ ؛ فَأَيُّهُمَا خَيْرٌ لَنَا وَلَهُمْ وَلِلَّذِينَ سَيُخْرِجُونَ تَارِيخَهُمْ مِنْ قُبُورِنَا : أَنْ نَعْتَدَّ ٱللُّغَةَ وَٱلْأَدَبَ كُلَّ مَا ٱجْتَمَعَ مِنْ قَدِيمٍ وَجَدِيدٍ وَنُحْكِمَ هَٰذِهِ ٱللُّغَةَ وَنَحْفَظَهَا وَنَدْفَعَ عَنْهَا وَنَجْعَلَ تَجْدِيدَهَا كَتَجَدُّدِ ٱلْحَسْنَاءِ فِي أَثْوَابِهَا وَفِي أَلْوَانِهَا دُونَ تَشْوِيهٍ وَلَا مَسْخٍ وَلَا مَسِّ ٱلْجِسْمِ ٱلْجَمِيلِ ، أَمْ نَقُولُ : هَٰذِهِ ٱلشَّفَةُ وَهَٰذَا ٱلْأَنْفُ ، وَهَٰذَا ٱلْمَوْضِعُ ٱلْمُمْتَلِئُ ٱلْخَدْلُ ، وَهَٰذَا ٱلْمَوْضِعُ ٱلْهَضِيمُ ٱلنَّاحِلُ ، وَتَعَالَ يَا دُكْتُورُ هَاتِ ٱلْمِبْضَعَ وَٱلْمِشْرَطَ وَٱلْمِقَصَّ وَٱلْمِنْشَارَ وَٱلْإِبْرَةَ وَٱلْخَيْطَ وَإِذَنْ . . . . . . ؟

لَقَدْ أَذْكُرُ أَنِّي رَأَيْتُ فِي بَعْضِ مَقَالَاتِ ٱلْأُسْتَاذِ طَٰهَ حُسَيْنٍ أَوْ فِي بَعْضِ مَا يُقَرِّظُ بِهِ ٱلْكُتُبَ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ ٱلْقَدِيمَ قَدْ أَثْبَتَ دَائِمًا أَنَّهُ أَقْوَىٰ وَأَمْتَنُ وَأَصَحُّ ؛ فَهَلْ رَحَلَ عَنْ هَٰذَا ٱلرَّأْيِ أَمْ ظَهَرَ لَهُ فِي ٱلْجَدِيدِ مَا هُوَ أَقْوَىٰ وَأَمْتَنُ وَأَصَحُّ ؟ ثُمَّ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي مَا هُوَ هَٰذَا ٱلْجَدِيدُ ؟ أَهُوَ ذَاكَ ٱلْخَيَالُ ٱلشَّارِدُ ٱلْمَجْنُونُ ، أَمْ تِلْكَ ٱلشَّهَوَاتُ ٱلْمُتَوَثِّبَةُ ٱلْمُتَلَهِّفَةُ ، أَمْ ذَٰلِكَ ٱلْأُسْلُوبُ ٱلْفَجُّ ٱلْمُسْتَوْخِمُ ، أَمِ ٱلْعَامِّيَّةُ ٱلسَّقِيمَةُ ٱلْمَلْحُونَةُ ؛ أَمْ هُوَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ بَيْنَ رَغْبَةٍ فِي ٱلنُّبُوغِ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ ٱلْأَدَاةُ وَتَسْتَحْكِمَ ٱلطَّرِيقَةُ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ فَرِيقٍ مِنَ ٱلْكُتَّابِ ، فَيَخْتَصِرُونَ ٱلطَّرِيقَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْجَدِيدُ ـ وَبَيْنَ رَغْبَةٍ فِي ٱلتَّعَصُّبِ لِلْآدَابِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ كَمَا

هُوَ شَأْنُ فَرِيقٍ آخَرَ - وَبَيْنَ رَغْبَةٍ فِي ٱلْحَطِّ مِنْ قِيمَةِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ وَرَمْيِهِمْ بِٱلْجَهْلِ وَٱلسُّخْفِ وَأَنَّهُ لَا قِيمَةَ لِمَا يَجِيئُونَ بِهِ ، كُلُّ ذَلِكَ فِي تَعْبِيرٍ عِلْمِيٍّ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ نَظَرِيَّةً عِلْمِيَّةً . . . وَقَبْلَهُمْ قَالَهَا ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [٨ سورة الأنفال/ الآية : ٣١] ، فَقَدْ شَاؤُوا فَلَمْ يَقُولُوا ؛ وَلَوْ أَنَّ ٱلْمَذْهَبَ ٱلْجَدِيدَ فَسَّرَ ٱلْقُرْآنَ يَوْمًا . . لَقَالَ فِي مَعْنَى أَسَاطِيرِ ٱلْأَوَّلِينَ : إِنَّهُمْ أَرَادُوا بِهَا ٱلْمَذْهَبَ ٱلْقَدِيمَ . . .

وَيَقُولُ ٱلدُّكْتُورُ طَهَ : إِنَّ هُنَاكَ قَوْمًا يَنْصُرُونَ ٱلْمَذْهَبَ ٱلْجَدِيدَ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ ٱللُّغَاتِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ وَآدَابِهَا حَظٌّ ، وَحَظُّهُمْ مِنَ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا مَوْفُورٌ ؛ ثُمَّ طَلَبَ رَأْيِي فِي هَٰؤُلَاءِ وَمَا أَصْلُ مَذْهَبِهِمُ ٱلْجَدِيدِ ؟ فَأَقُولُ : إِنِّي أَعْرِفُ بَعْضَهُمْ ، وَأَعْرِفُ أَنَّ أَدْمِغَتَهُمْ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ إِلَّا جُلُودُ بَعْضِ ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِلَّا مَتْنٌ وَشَرْحٌ وَحَاشِيَةٌ : جِلْدٌ مَلْفُوفٌ عَلَى وَرَقٍ ، وَوَرَقٌ يَنْطَوِي عَلَى قَوَاعِدَ مَحْفُوظَةٍ وَهُمْ أَفْقَرُ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلرَّأْيِ ، وَهَٰذِهِ عِلَّةُ حُبِّهِمْ لِلْأَسَالِيبِ ٱلْجَدِيدَةِ ٱلْقَائِمَةِ عَلَى ٱلتَّرْجَمَةِ وَنَقْلِ ٱلْآرَاءِ مِنَ ٱلْغَرْبِ إِلَى ٱلشَّرْقِ ، وَبِٱلْمَعْنَى ٱلصَّرِيحِ ٱلْمَكْشُوفِ : مِنَ ٱلْأَدْمِغَةِ ٱلْمَمْلُوءَةِ إِلَى ٱلْأَدْمِغَةِ ٱلْفَارِغَةِ ، وَفِيهِمْ بَعْضُ أَذْكِيَاءَ وَلَٰكِنْ ذَكَاؤُهُمْ فِي حَوَاسِّهِمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَٰذَا فَلْيَقُولُوا هُمْ لِمَاذَا ؟

وَلَوْ أَنَّكَ سَأَلْتَ ٱلْعَنْكَبُوتَ : مَا هِيَ ٱلظَّبْيَةُ ٱلْحَوْرَاءُ ٱلْعَيْنَاءُ ٱلَّتِي تَطْمَعِينَ فِيهَا وَتَنْصِبِينَ لَهَا كُلَّ هَٰذِهِ ٱلْأَشْرَاكِ وَٱلْحَبَائِلِ ؟ لَقَالَتْ لَكَ : مَهْلًا حَتَّى تَقَعَ فَتَرَاهَا ! فَإِذَا وَقَعَتْ رَأَيْتَهَا ثَمَّةَ وَرَأَيْتَهَا ذُبَابَةً . . .

وَلَٰكِنْ مَاذَا يَقُولُ ٱلدُّكْتُورُ فِي ٱلْأُسْتَاذِ ٱلْإِمَامِ ٱلْكَبِيرِ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ ؟ أَكَانَ يَدْعُو إِلَى مَذْهَبٍ جَدِيدٍ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْأَدَبِ وَيَفْتَتِنُ بِٱلرِّوَايَاتِ ٱلْغَرَامِيَّةِ وَبِأُسْلُوبِ « إِمِيلْ زُولَا Emile Zola » فِي رِوَايَتِهِ ٱلْمَعْرُوفَةِ وَيَمْتَثِلُ رِوَايَةَ (الاجرسون) ؟

إِنْ كَانَ ٱلنَّاسُ عِنْدَ ٱلدُّكْتُورِ مِنْ بَعْضِ ٱلْحُجَجِ ، فَإِنَّ ٱلشَّيْخَ وَحْدَهُ بِأُمَّةٍ كَامِلَةٍ مِمَّنْ يَعْنِيهِمْ .

وَأَخْتِمُ هَٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ بِٱلشُّكْرِ لِلْأُسْتَاذِ طَهَ حُسَيْنٍ وَٱلثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِنِّي مُسْتَرْسِلٌ فِي عَمَلِي ، وَهَٰذَا عُذْرِي إِلَيْهِ .

ٱلْمَرْأَةُ وَٱلْمِيرَاثُ

قَرَأْتُ فِي « ٱلْمُقَطَّمِ » كَلِمَةَ ٱلْكَاتِبِ ٱلْمَعْرُوفِ سَلَامَة مُوسَى فِيمَا يَزْعُمُهُ إِجَابَاتٍ مُخْتَصَرَةً عَنِ ٱعْتِرَاضَاتٍ تَهَافَتَ بِهَا رَأْيُهُ فِي ٱلدَّعْوَةِ إِلَى مُسَاوَاةِ ٱلْمَرْأَةِ بِٱلرَّجُلِ فِي ٱلْمِيرَاثِ ، وَهُوَ يَنْصَحُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنَاقِشَهُ أَنْ يَقْرَأَ نَصَّ مُحَاضَرَتِهِ فِي « ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْأُسْبُوعِيَّةِ » .

وَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى نَصِّ ٱلْمُحَاضَرَةِ فَإِذَا ٱلْكَاتِبُ هُوَ هُوَ فِي ضَعْفِ تَفْكِيرِهِ وَسُوءِ تَقْلِيدِهِ ، يَكَادُ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ ٱلرَّأْيِ ٱلصَّحِيحِ ٱلثَّابِتِ فِي نَفْسِهِ لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى حِكْمَتِهِ ٱلْبَاعِثَةِ عَلَيْهِ ، وَبَيْنَ ٱلرَّأْيِ ٱلْمُتَغَيِّرِ فِي كُلِّ نَفْسٍ بِحَسَبِهَا لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى مَنْزِعٍ أَوْ غَفْلَةٍ أَوْ مَرَضٍ فِي ٱلنَّفْسِ .

تَرَى ٱلْكَاتِبَ لَا يَدْعُو إِلَّا إِلَى تَقْلِيدِ أُورُبَّةَ ، وَتَكَادُ عِبَارَاتُهُ فِي ذَلِكَ لَا تُحْصَى ، وَيَقُولُ : « إِنَّ ٱلْمُصْلِحَ ٱلْمُثْمِرَ عِنْدَنَا هُوَ مُقَلِّدٌ لِأُورُبَّةَ لَا غِشَّ فِي تَقْلِيدِهِ » فَلَيْسَ إِلَّا أُورُبَّةَ وَتَقْلِيدَهَا ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي أُورُبَّةَ قُرْآنٌ وَلَا إِسْلَامٌ فَٱلْإِصْلَاحُ ٱلْمُثْمِرُ عِنْدَ ٱلْكَاتِبِ أَلَّا يَبْقَى مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ . . .

« مُقَلِّدٌ أُورُبَّةَ لَا غِشَّ فِي تَقْلِيدِهِ » وَمَا هُوَ ٱلْغِشُّ فِي ٱلتَّقْلِيدِ ؟ هُوَ أَنْ تَسْتَعْمِلَ رَأْيَكَ وَفِكْرَكَ فَتَدَعَ وَتَأْخُذَ عَلَى بَيِّنَةٍ فِي ٱلْحَالَيْنِ ، وَأَنْ تَأْبَى أَنْ تَحْمِلَ عَلَى طَبِيعَتِكَ ٱلشَّرْقِيَّةِ مَا لَا تَصْلُحُ عَلَيْهِ وَلَا تَقُومُ بِهِ ، وَإِذَا ٱنْقَلَبَتْ أُورُبَّةُ شُيُوعِيَّةً أَوْ إِبَاحِيَّةً وَجَبَ أَلَّا نَغُشَّ فِي ٱلتَّقْلِيدِ . . . وَإِذَا كَانَتِ ٱلشَّمْسُ لَا تَطْلُعُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ فِي بَعْضِ جِهَاتِ أُورُبَّةَ وَتَطْلُعُ فِي مِصْرَ كُلَّ يَوْمٍ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمِصْرِيُّ أَعْمَى سِتَّةَ أَشْهُرٍ . . .

وَٱلظَّاهِرُ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ يَقُولُ بِٱلتَّقْلِيدِ لِأَنَّهُ طَبِيعِيٌّ فِيهِ . . . وَرَأْيُهُ فِي ٱلْمِيرَاثِ إِنَّمَا هُوَ تَرْجَمَةٌ . . . لِعَمَلِ مُصْطَفَى كَمَال ؛ وَإِنْ كَانَ مُصْطَفَى كَمَال قَدْ أَصْلَحَ ٱلتُّرْكَ فِي سَنَوَاتٍ كَمَا يَقُولُونَ فَبُرْهَانُ ٱلتَّارِيخِ لَا يَخْضَعُ لِلْمِشْنَقَةِ وَلَا لِمَحَاكِمِ الاسْتِقْلَالِ وَلَا يَأْتِي إِلَّا فِي وَقْتِهِ ٱلَّذِي سَيَأْتِي فِيهِ ، وَسَيَرَى ٱلنَّاسُ يَوْمَئِذٍ مَا يَكُونُ وَهْمًا مِمَّا يَكُونُ حَقِيقَةً .

وَيَرُدُّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى رَأْيِ ٱلْأُسْتَاذِ ٱلْأَخْلَاقِيِّ رَئِيسِ تَحْرِيرِ « ٱلْمُقَطَّمِ » فِي خَشْيَتِهِ أَنْ

يَقْتَصِرَ ٱلإِصْلَاحُ عَلَىٰ ٱلْقُشُوْرِ دُوْنَ ٱللُّبَابِ ، فَيَقُوْلُ : إِنَّهُ «مُعْتَقِدٌ أَنَّ ٱلأُمَّةَ ٱلَّتِيْ تَشْرَعُ فِيْ ٱتِّخَاذِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلْحَدِيْثَةِ يَجِبُ أَنْ تَبْدَأَ بِٱلْقُشُوْرِ . . . لِأَنَّهَا أَسْهَلُ عَلَيْهَا مِنَ ٱللُّبَابِ ، بَلْ هِيَ لَا تَسْتَطِيْعُ غَيْرَ ذَٰلِكَ» . أَكَذَٰلِكَ بَدَأَتِ ٱلْيَابَانُ ؟ وَهَلْ كُلُّ ٱلطِّبَاعِ كَطَبِيْعَةِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ ، تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَعْتَلِفَ قُشُوْرَ ٱلْمَدَنِيَّةِ . . . وَتَنْصَرِفَ إِلَىٰ مَدَاقِّهَا وَسَفَاسِفِهَا ؟ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ حَضْرَتَهُ لَا يَفْهَمُ ٱلدِّيْنَ ٱلإِسْلَامِيَّ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، فَهُوَ يُقِرُّنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ ، وَهُوَ بِذَٰلِكَ يُقِرُّنَا عَلَىٰ أَنَّهُ مُتَطَفِّلٌ فِيْ ٱقْتِرَاحِهِ ؛ وَإِنَّ ٱلَّذِيْ يَقْرَأُ فِيْ مُحَاضَرَتِهِ قَوْلَهُ : «إِنَّ ٱلطَّبَقَةَ ٱلْغَنِيَّةَ فِيْ ٱلأُمَّةِ هِيَ ٱلَّتِيْ تُقَرِّرُ دِيَانَةَ ٱلأُمَّةِ . . .» يَسْتَيْقِنُ أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ دِيْنًا مِنَ ٱلأَدْيَانِ ، وَأَنَّهُ قَصِيْرُ ٱلنَّظَرِ فِيْ أُمُوْرِ ٱلاجْتِمَاعِ وَأَبْوَابِ ٱلسِّيَاسَةِ ؛ وَأَنَّ يَمِيْنَهُ وَشِمَالَهُ وَأَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ إِنْ هِيَ إِلَّا جِهَاتُ ٱلزِّمَامِ ٱلَّذِيْ يَنْقَادُ فِيْهِ : فَلَا شَخْصِيَّةَ لَهُ ، وَإِنَّمَا يُتَابِعُ وَيَنْقَادُ لِلآرَاءِ ٱلَّتِيْ يُتَرْجِمُ مِنْهَا بِلَا نَقْدٍ وَلَا تَمْيِيْزٍ .

إِنَّ مِيْرَاثَ ٱلْبِنْتِ فِيْ ٱلشَّرِيْعَةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ لَمْ يُقْصَدْ لِذَاتِهِ ، بَلْ هُوَ مُرَتَّبٌ عَلَىٰ نِظَامِ ٱلزَّوْجِ فِيْهَا ، وَهُوَ كَعَمَلِيَّةِ ٱلطَّرْحِ بَعْدَ عَمَلِيَّةِ ٱلْجَمْعِ لِإِخْرَاجِ نَتِيْجَةٍ صَحِيْحَةٍ مِنَ ٱلْعَمَلَيْنِ مَعًا . فَإِذَا وَجَبَ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ نَاحِيَةٍ وَجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تَدَعَ مِنْ نَاحِيَةٍ تُقَابِلُهَا ، وَهَـٰذَا ٱلدِّيْنُ يَقُوْمُ فِيْ أَسَاسِهِ عَلَىٰ تَرْبِيَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ عَالِيَةٍ يُنْشِئُ بِهَا طِبَاعًا وَيُعَدِّلُ بِهَا طِبَاعًا أُخْرَىٰ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِيْ مَقَالِنَا ٱلْمَنْشُوْرِ فِيْ «مُقْتَطَفِ» هَـٰذَا ٱلشَّهْرِ ، فَهُوَ يَرْبَأُ بِٱلرَّجُلِ أَنْ يَطْمَعَ فِيْ مَالِ ٱلْمَرْأَةِ أَوْ يَكُوْنَ عَالَةً عَلَيْهَا ؛ فَمِنْ ثَمَّ أَوْجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُمْهِرَهَا وَأَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ أَوْلَادِهَا ، وَأَنْ يَدَعَ لَهَا رَأْيَهَا وَعَمَلَهَا فِيْ أَمْوَالِهَا ، لَا تُحَدُّ إِرَادَتُهَا بِعَمَلِهِ وَلَا بِأَطْمَاعِهِ وَلَا بِأَهْوَائِهِ ؛ وَكُلُّ ذَٰلِكَ لَا يُقْصَدُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَنْشَأَ ٱلرَّجُلُ عَامِلًا كَاسِبًا مُعْتَمِدًا عَلَىٰ نَفْسِهِ مُشَارِكًا فِيْ مُحِيْطِهِ ٱلَّذِيْ يَعِيْشُ فِيْهِ قَوِيًّا فِيْ أَمَانَتِهِ ، مُنَزَّهًا فِيْ مَطَامِعِهِ ، مُتَهَيِّئًا لِمَعَالِيْ ٱلأُمُوْرِ ؛ فَإِنَّ ٱلأَخْلَاقَ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ يَدْعُوْ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَيُعِيْنُ شَيْءٌ مِنْهَا عَلَىٰ شَيْءٍ يُمَاثِلُهُ ، وَيَدْفَعُ قَوِيُّهَا ضَعِيْفَهَا ، وَيَأْنَفُ عَالِيْهَا مِنْ سَافِلِهَا ؛ وَقَدْ قُلْنَا مِرَارًا إِنَّهُ لَا يَجُوْزُ لِمُتَكَلِّمٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِيْ حِكْمَةِ ٱلدِّيْنِ ٱلإِسْلَامِيِّ إِلَّا إِذَا كَانَ قَوِيَّ ٱلْخُلُقِ ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَكُوْنُ ٱلشَّيْءُ فِيْ طَبْعِهِ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا فَهْمَ جَدَلٍ لَا فَهْمَ ٱقْتِنَاعٍ .

لِلْمَرْأَةِ حَقٌّ وَاجِبٌ فِيْ مَالِ زَوْجِهَا ، وَلَيْسَ لِلرَّجُلِ مِثْلُ هَـٰذَا ٱلْحَقِّ فِيْ مَالِ زَوْجِهِ ،

وَٱلإِسْلَامُ يَحُثُّ عَلَىٰ ٱلزَّوَاجِ ، بَلْ يَفْرِضُهُ ، فَهُوَ بِهَـٰذَا يُضِيْفُ إِلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ رَجُلًا وَيُعْطِيْهَا حَقًّا جَدِيْدًا ، فَإِنْ هِيَ سَاوَتْ أَخَاهَا فِيْ ٱلْمِيْرَاثِ مَعَ هَـٰذِهِ ٱلْمِيْزَةِ ٱلَّتِيْ ٱنْفَرَدَتْ بِهَا ٱنْعَدَمَتِ ٱلْمُسَاوَاةُ فِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ ، فَتَزِيْدُ وَيَنْقُصُ ؛ إِذْ لَهَا حَقُّ ٱلْمِيْرَاثِ وَحَقُّ ٱلنَّفَقَةِ وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا مِثْلُ حَقِّهَا فِيْ ٱلْمِيْرَاثِ إِذَا تَسَاوَيَا .

فَإِنْ قُلْتَ كَمَا يَقُوْلُ سَلَامَةُ مُوْسَىٰ : إِنَّ فِيْ ٱلْحَقِّ أَنْ تُنْفِقَ ٱلْمَرْأَةُ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ وَأَنْ تَدْفَعَ لَهُ ٱلْمَهْرَ ثُمَّ تُسَاوِيَهُ فِيْ ٱلْمِيْرَاثِ ، قُلْنَا : إِذَا تَقَرَّرَ هَـٰذَا وَأَصْبَحَ أَصْلًا يُعْمَلُ عَلَيْهِ بَطَلَ زَوَاجُ كُلِّ ٱلْفَقِيْرَاتِ ، وَهُنَّ سَوَادُ ٱلنِّسْوَةِ ، إِذْ لَا يَمْلِكْنَ مَا يُمْهِرُوْنَ بِهِ وَلَا مَا يُنْفِقْنَ مِنْهُ ؛ وَهَـٰذَا مَا يَتَحَامَاهُ ٱلإِسْلَامُ ، لِأَنَّ فِيْهِ فَسَادَ ٱلاجْتِمَاعِ وَضَيَاعَ ٱلْجِنْسَيْنِ جَمِيْعًا ، وَهُوَ مُفْضٍ بِطَبِيْعَتِهِ ٱلْقَاهِرَةِ إِلَىٰ جَعْلِ ٱلزَّوَاجِ لِلسَّاعَةِ وَٱلْيَوْمِ وَلِلْوَقْتِ ٱلْمَحْدُوْدِ . . . وَلِإِيْجَادِ لُقَطَاءِ ٱلشَّوَارِعِ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُوْنَ ٱلزَّوَاجُ لِلْعُمْرِ وَلِلْوَاجِبِ وَلِتَرْبِيَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَىٰ ٱحْتِمَالِ ٱلْمَسْؤُوْلِيَّةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ بِإِيْجَادِ ٱلأُسْرَةِ وَإِنْشَائِهَا وَٱلْقِيَامِ عَلَيْهَا وَٱلسَّعْيِ فِيْ مَصَالِحِهَا .

مِنْ هُنَا وَجَبَ أَنْ يَنْعَكِسَ ٱلْقِيَاسُ إِذَا أُرِيْدَ أَنْ تَسْتَقِيْمَ ٱلنَّتِيْجَةُ ٱلاجْتِمَاعِيَّةُ ٱلَّتِيْ هِيَ فِيْ ٱلْغَايَةِ لَا مِنْ حَقِّ ٱلرَّجُلِ وَلَا مِنْ حَقِّ ٱلْمَرْأَةِ بَلْ مِنْ حَقِّ ٱلأُمَّةِ ؛ وَمَا نِسَاءُ ٱلشَّوَارِعِ وَنِسَاءُ ٱلْمَعَامِلِ فِيْ أُوْرُبَّةَ إِلَّا مِنْ نَتَائِجِ ذَٰلِكَ ٱلنِّظَامِ ٱلَّذِيْ جَاءَ مَقْلُوْبًا ، فَهُنَّ غَلَطَاتُ ٱلْبُيُوْتِ ٱلْمُتَخَرِّبَةِ وَٱلْمَسْؤُوْلِيَّةِ ٱلْمُتَهَدِّمَةِ ، وَهُنَّ ٱلْوَاجِبَاتُ ٱلَّتِيْ أَلْقَاهَا ٱلرِّجَالُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَوَقَعَتْ حَيْثُ وَقَعَتْ !

وَإِذَا ٱنْزَاحَتْ مَسْؤُوْلِيَّةُ ٱلْمَرْأَةِ عَنِ ٱلرَّجُلِ ٱنْزَاحَتْ عَنْهُ مَسْؤُوْلِيَّةُ ٱلنَّسْلِ ، فَأَصْبَحَ لِنَفْسِهِ لَا لِأُمَّتِهِ ؛ وَلَوْ عَمَّ هَـٰذَا لَمُسِخَ ٱلاجْتِمَاعُ وَأَسْرَعَ فِيْهِ ٱلْهَرَمُ وَأَتَىٰ عَلَيْهِ ٱلضَّعْفُ ، وَأَصْبَحَتِ ٱلْحُكُوْمَاتُ هِيَ ٱلَّتِيْ تَسْتَوْلِدُ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقَةِ ٱلَّتِيْ تَسْتَنْتِجُ بِهَا ٱلْبَهَائِمَ وَقَدْ بَدَأَ بَعْضُ كُتَّابِ أُوْرُبَّةَ يَدْعُوْنَ حُكُوْمَاتِهِمْ إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلَّذِيْ ٱبْتُلُوْا بِهِ وَلَا يَدْرُوْنَ سَبَبَهُ ، وَمَا سَبَبُهُ إِلَّا مَا بَيَّنَّا آنِفًا .

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ حِكْمَةً سَامِيَةً ، وَهِيَ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ لَا تَدَعُ نِصْفَ حَقِّهَا فِيْ ٱلْمِيْرَاثِ لِأَخِيْهَا يَفْضُلُهَا بِهِ ـ بَعْدَ ٱلأَصْلِ ٱلَّذِيْ نَبَّهْنَا إِلَيْهِ ـ إِلَّا لِتُعِيْنَ بِهَـٰذَا ٱلْعَمَلِ فِيْ ٱلْبِنَاءِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ ؛ إِذْ تَتْرُكُ مَا تَتْرُكُهُ عَلَىٰ أَنَّهُ لِامْرَأَةٍ أُخْرَىٰ ، هِيَ زَوْجُ أَخِيْهَا ؛ فَتَكُوْنُ قَدْ أَعَانَتْ أَخَاهَا عَلَىٰ ٱلْقِيَامِ

بِوَاجِبِهِ لِلأُمَّةِ ، وَأَسْدَتْ لِلأُمَّةِ عَمَلًا آخَرَ أَسْمَىٰ مِنْهُ بِتَيْسِيرِ زَوَاجِ ٱمْرَأَةٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ .

فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ مَسْأَلَةَ ٱلْمِيرَاثِ هَـٰذِهِ مُتَغَلْغِلَةٌ فِي مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ لَا مُنْفَرِدَةٌ بِنَفْسِهَا ، وَأَنَّهَا أَحْكَمُ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا أُرِيدَ بِٱلرَّجُلِ رَجُلَ أُمَّتِهِ وَبِٱلْمَرْأَةِ ٱمْرَأَةَ أُمَّتِهَا ، فَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ رَجُلُ نَفْسِهِ وَٱمْرَأَةُ نَفْسِهَا ، وَتَقَرَّرَ أَنَّ ٱلاجْتِمَاعَ فِي نَفْسِهِ حَمَاقَةٌ ، وَأَنَّ ٱلْحُكُومَةَ خُرَافَةٌ ، وَأَنَّ ٱلأُمَّةَ ضَلَالَةٌ ، فَحِينَئِذٍ لَا تَنْقَلِبُ آيَةُ ٱلْمِيرَاثِ وَحْدَهَا بَلْ تَنْقَلِبُ ٱلْحَقِيقَةُ .

وَمِمَّا نَعْجَبُ لَهُ أَنَّ سَلَامَةَ مُوسَىٰ يَتَكَلَّمُ فِي مُحَاضَرَتِهِ كَأَنَّ كُلَّ ٱلْوَالِدِينَ ذَوُو مَالٍ وَعَقَارٍ ، فَنِصْفُ ٱلأُمَّةِ عَلَىٰ هَـٰذَا مَحْرُومٌ نِصْفَ حَقِّهِ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّ ٱلسَّوَادَ ٱلأَعْظَمَ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَتْرُكُ مَا يُورَثُ ، لَا عَلَىٰ ٱلرُّبْعِ وَلَا عَلَىٰ ٱلنِّصْفِ ؛ وَأَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَمُوتُونَ عَنْ مِيرَاثٍ لَا يَحْيَا مِيرَاثُهُمْ إِلَّا أَيَّامًا مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ يَذْهَبُ فِي ٱلدُّيُونِ ، إِذْ لَا تَرِكَةَ مَعَ دَيْنٍ ، وَكَثِيرُونَ لَا يُسْمِنُ مِيرَاثُهُمْ وَلَا يُغْنِي ، فَلَمْ تَبْقَ إِلَّا فِئَاتٌ مُعَيَّنَةٌ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ لَا يَجُوزُ أَنْ تَنْقَلِبَ مِنْ أَجْلِهَا تِلْكَ ٱلْحِكْمَةُ ٱلاجْتِمَاعِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ مِنْ حَظِّ ٱلأُمَّةِ كُلِّهَا لِقِيَامِ بَعْضِ ٱلأَخْلَاقِ عَلَيْهَا كَمَا بَسَطْنَاهُ .

وَمِمَّا تَشْمَئِزُّ لَهُ ٱلنُّفُوسُ ٱلْكَرِيمَةُ قَوْلُ ٱلْمُتَرْجِمِ فِي مُحَاضَرَتِهِ : فَلَوْ كَانَتِ ٱلْفَتَيَاتُ يَرِثْنَ مِثْلَ إِخْوَتِهِنَّ ٱلذُّكُورِ ، لَكَانَ (فِي تَزَوُّجِهِنَّ) إِغْرَاءٌ لِلشُّبَّانِ عَلَىٰ ٱلزَّوَاجِ . . .

إِنَّ ٱلدِّينَ ٱلإِسْلَامِيَّ لَا يَعْرِفُ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلإِسْفَافِ فِي ٱلْخُلُقِ وَلَا يُقِرُّهُ ، بَلْ هُوَ يَهْدِمُهُ هَدْمًا وَيُوجِبُ عَلَىٰ كُلِّ رَجُلٍ أَنْ يَحْمِلَ قِسْطَهُ مِنَ ٱلْمَسْؤُولِيَّةِ مَا دَامَ مُطِيقًا إِنْ كَرِهَ أَوْ رَضِيَ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ تِلْكَ ٱلْكَلِمَةَ وَحْدَهَا مِنْ كَاتِبِهَا لَهِيَ أَدَلُّ مِنَ ٱسْمِ ٱلْمَحَلِّ عَلَىٰ بِضَاعَةِ ٱلْمَحَلِّ . . .

* * *

كَلِمَةٌ مُؤْمِنَةٌ
فِي رَدِّ كَلِمَةٍ كَافِرَةٍ(*)

تَلَقَّيْتُ كِتَابًا هَـٰذِهِ نُسْخَتُهُ :

أَكْتُبُ إِلَيْكَ مُتَعَجِّلًا بَعْدَ أَنْ قَرَأْتُ « كَلِمَةً كَافِرَةً » فِي « كَوْكَبِ ٱلشَّرْقِ » ٱلصَّادِرِ مَسَاءَ ٱلْجُمُعَةِ ٢٧ مِنْ أُكْتُوبَرَ/تِشْرِينَ ٱلأَوَّلِ [١٩٢٣م] ، كَتَبَهَا مُتَصَدِّرٌ(١) مِنْ نَوْعِ قَوْلِهِمْ : حَبَّذَا ٱلإِمَارَةُ وَلَوْ عَلَىٰ ٱلْحِجَارَةِ . . . وَسَمَّىٰ نَفْسَهُ « ٱلسَّيِّدَ » فَإِنْ صَدَقَ فِيمَا كَتَبَ صَدَقَ فِي هَـٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةِ .

طَعَنَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَكَفَرَ بِفَصَاحَتِهِ : وَفَضَّلَ عَلَىٰ آيَةٍ مِنْ كَلَامِ ٱللهِ جُمْلَةً مِنْ أَوْضَاعِ ٱلْعَرَبِ ، فَعَقَدَ فَصْلَهُ بِعُنْوَانِ « ٱلْعَثَرَاتِ » عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلتَّفْضِيلِ ، كَأَنَّ ٱلآيَةَ عَثْرَةٌ مِنْ عَثَرَاتِ ٱلْكُتَّابِ يُصَحِّحُهَا وَيَقُولُ فِيهَا قَوْلَهُ فِي غَلَطِ ٱلْجَرَائِدِ وَٱلنَّاشِئِينَ فِي ٱلْكِتَابَةِ ، وَبَرْقَعَ وَجْهَهُ وَجَبُنَ أَنْ يَسْتَعْلِنَ ، فَأَعْلَنَ بِزَنْدَقَتِهِ أَنَّهُ حَدِيثٌ فِي ٱلضَّلَالَةِ .

غَلَىٰ ٱلدَّمُ فِي رَأْسِي حِينَ رَأَيْتُ ٱلْكَاتِبَ يَلِجُّ فِي تَفْضِيلِ قَوْلِ ٱلْعَرَبِ : « ٱلْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ » عَلَىٰ قَوْلِ ٱللهِ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ ٱلْحَكِيمِ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ١٧٩] ، فَذَكَرْتُ هَـٰذِهِ ٱلآيَةَ ٱلْقَائِلَةَ : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ [٦ سورة الأنعام/الآية : ١٢١] وَهَـٰذِهِ ٱلآيَةَ : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [٦ سورة الأنعام/الآية : ١١٢] ثُمَّ هَمَمْتُ بِٱلْكِتَابَةِ فَٱعْتَرَضَنِي ذِكْرُكَ ، فَأَلْقَيْتُ ٱلْقَلَمَ لِأَتَنَاوَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَكْتُبَ بِهِ إِلَيْكَ .

فَفِي عُنُقِكَ أَمَانَةُ ٱلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا لَتَكْتُبَنَّ فِي ٱلرَّدِّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْكَافِرَةِ لِإِظْهَارِ وَجْهِ ٱلإِعْجَازِ فِي ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ، وَأَيْنَ يَكُونُ مَوْقِعُ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْهَا ، فَإِنَّ هَـٰذِهِ زَنْدَقَةٌ

(*) { « ٱلْبَلَاغُ » نُوفَمْبَر/تشرين ٱلآخر سَنَةَ ١٩٢٣ ، وَٱنْظُرْ « فَتْرَةَ جِمَامٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ ٱلرَّافِعِيِّ » } .

(١) [هُوَ ٱلسَّيِّدُ حَسَنُ ٱلْقَايَاتِيُّ] .

إِنْ تُرِكَتْ تَأْخُذُ مَأْخَذَهَا فِي ٱلنَّاسِ جَعَلَتِ ٱلْبَرَّ فَاجِرًا ، وَزَادَتِ ٱلْفَاجِرَ فُجُورًا ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [٨ سورة الأنفال/ الآية : ٢٥] .

وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَكَ . أَقُولُهَا مُخْلِصًا ، يُمْلِيهَا عَلَيَّ ٱلْحَقُّ ٱلَّذِي أَعْلَمُ إِيمَانَكَ بِهِ وَتَفَانِيَكَ فِي إِقْرَارِهِ وَٱلْمُدَافَعَةِ عَنْهُ وَٱلذَّوْدِ عَنْ آيَاتِهِ ، ثُمَّ أَعْلَمُ أَنَّكَ مَلْجَأٌ يَعْتَصِمُ بِهِ ٱلْمُؤْمِنُونَ حِينَ تُنَاوِشُهُمْ ذِئَابُ ٱلزَّنْدَقَةِ ٱلأَدَبِيَّةِ ٱلَّتِي جَعَلَتْ هَمَّهَا أَنْ تَلِغَ وُلُوغَهَا فِي ٱلْبَيَانِ ٱلْقُرْآنِيِّ .

وَلَسْتُ أَزِيدُكَ ، فَإِنَّ مَوْقِفِي هَـٰذَا مَوْقِفُ ٱلْمُطَالِبِ بِحَقِّهِ وَحَقِّ أَصْحَابِهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَذْكُرُ حَدِيثَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ : « مَنْ سُئِلَ عِلْمًا عَلِمَهُ فَكَتَمَهُ جَاءَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ! » [الترمذي، رقم: ٢٦٤٩؛ أبو داود، رقم: ٣٦٥٨؛ ابن ماجه، رقم : ٢٦١؛ «مسند أحمد»، رقم: ٧٥١٧، ٧٨٨٣، ٧٩٨٨، ٨٣٢٨، ٨٤٢٤، ١٠٠٤٨، ١٠١٠٩، ١٠٢١٩] أَوْ كَمَا قَالَ .

وَٱلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ .

م . م . ش .

[محمود محمد شاكر]

* * *

قَرَأْتُ هَـٰذَا ٱلْكِتَابَ فَٱقْشَعَرَّ جِسْمِي لِوَعِيدِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، وَجَعَلْتُ أُرَدِّدُ ٱلْحَدِيثَ ٱلشَّرِيفَ أَسْتَكْثِرُ مِنْهُ وَأَمْلأُ نَفْسِي بِمَعَانِيهِ ، وَإِنَّهُ لَيَكْثُرُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، فَإِذَا هُوَ أَبْلَغُ تَهَكُّمٍ بِٱلْعُلَمَاءِ ٱلْمُتَجَاهِلِينَ ، وَٱلْجُهَلَاءِ ٱلْمُتَعَالِمِينَ ؛ وَإِذَا هُوَ يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهِ أَنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلَّذِي يَكْتُمُ عِلْمَهُ ٱلنَّافِعَ عَنِ ٱلنَّاسِ يَجِيءُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مُلْجَمًا ، وَيُؤْخَذُ مِنْ بَاطِنِهِ أَنَّ ٱلْجَاهِلَ ٱلَّذِي يَبُثُّ جَهْلَهُ ٱلضَّارَّ فِي ٱلنَّاسِ يَجِيءُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مُلْجَمًا مُبَرْذَعًا . . . أَيْ : فَهَـٰذَا وَهَـٰذَا كِلَاهُمَا مِنْ حَمِيرِ جَهَنَّمَ !

وَٱلْتَمَسْتُ عَدَدَ « ٱلْكَوْكَبِ » ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْمَقَالُ وَقَرَأْتُهُ ، وَلَمْ أَكُنْ أُصَدِّقُ أَنَّ فِي ٱلْعَالَمِ أَدِيبًا مُمَيِّزًا يَضَعُ نَفْسَهُ هَـٰذَا ٱلْمَوْضِعَ مِنَ ٱلتَّصَفُّحِ عَلَىٰ كَلَامِ ٱللهِ وَأَسَاءَ ٱلأَدَبَ فِي وَضْعِ آيَةٍ مِنْهُ بَيْنَ عَثَرَاتِ ٱلْكِتَابِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسْمُوَ لِتَفْضِيلِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ عَلَىٰ ٱلآيَةِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَلِجَّ فِي هَـٰذَا ٱلتَّفْضِيلِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَهَوَّسَ فِي هَـٰذِهِ ٱللَّجَاجَةِ ؛ وَلَـٰكِنْ هَـٰذَا قَدْ كَانَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ !

وَلَعَمْرِي وَعَمْرُ أَبِيكَ أَيُّهَا ٱلْقَارِئُ ، لَوْ أَنَّ كَاتِبًا ذَهَبَ فَأَكَلَ فَخَلَطَ فَتَضَلَّعَ فَنَامَ فَٱسْتَثْقَلَ فَحَلُمَ . . . أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ فِي تَفْضِيلِ كَلِمَةِ ٱلْعَرَبِ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلآيَةِ ، وَٱجْتَهَدَ جُهْدَهُ وَهُوَ نَائِمٌ ذَاهِبُ ٱلْوَعْيِ فَلَمْ يَأْلُ تَخْرِيفًا وَٱسْتِطَالَةً ، وَأَخَذَ عَقْلُهُ ٱلْبَاطِنُ يَكْنُسُ دِمَاغَهُ وَيُخْرِجُ مِنْهُ (ٱلزِّبَالَةَ ٱلْعَقْلِيَّةَ) لِيُلْقِيَهَا فِي طَرِيقِ ٱلنِّسْيَانِ أَوْ فِي طَرِيقِ ٱلشَّيْطَانِ ـ لَمَا جَاءَ فِي شَأْوِهِ بِأَسْخَفَ وَلَا أَبْرَدَ مِنْ مَقَالَةِ « ٱلسَّيِّدِ » ، فَسَوَاءٌ أَوَقَعَ هَـٰذَا ٱلتَّفْضِيلُ مِنْ جِهَةِ ٱلْهَذَيَانِ وَٱلتَّخْرِيفِ كَمَا فَعَلَ كَاتِبُ ٱلنَّوْمِ ، أَمْ وَقَعَ مِنْ جِهَةِ ٱلْخَلْطِ وَٱلْخَبْطِ كَمَا فَعَلَ كَاتِبُ « ٱلْكَوْكَبِ » ـ فَهَـٰذَا مِنْ هَـٰذَا ، طِبَاقُ سَخَافَةٍ بِسَخَافَةٍ .

نَعَمْ ، إِنَّ مَقَالَةَ « ٱلْكَوْكَبِ » أَفْضَلُ مِنْ مَقَالَةِ ٱلْكَاتِبِ ٱلْحَالِمِ . . . وَلَـٰكِنْ قَلِيلُ ٱلزَّيْتِ فِي ٱلزُّجَاجَةِ ٱلَّتِي أُهْدِيَتْ لِجُحَا لَا يُعَدُّ زَيْتًا مَا دَامَ هَـٰذَا ٱلْقَلِيلُ يَطْفُو عَلَىٰ مِلْءِ ٱلزُّجَاجَةِ مِنْ . . . مِنَ ٱلْبَوْلِ !

وَلَقَدْ تَنَبَّأَ ٱلْقَاضِي ٱلْبَاقِلَّانِيُّ قَبْلَ مِئَاتِ ٱلسِّنِينَ بِمَقَالَةِ « ٱلْكَوْكَبِ » هَـٰذِهِ فَأَسْفَلَهَا ٱلرَّدَّ بِقَوْلِهِ :

« فَإِنِ ٱشْتَبَهَ عَلَىٰ مُتَأَدِّبٍ أَوْ مُتَشَاعِرٍ أَوْ نَاشِئٍ أَوْ مُرْمِدٍ فَصَاحَةُ ٱلْقُرْآنِ وَمَوْقِعُ بَلَاغَتِهِ وَعَجِيبُ بَرَاعَتِهِ فَمَا عَلَيْكَ مِنْهُ ، إِنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ عَجْزِهِ ، وَيَبِينُ عَنْ جَهْلِهِ ، وَيُصَرِّحُ بِسَخَافَةِ فَهْمِهِ وَرَكَاكَةِ عَقْلِهِ » مَا عَلَيْنَا . .

يَقُولُ كَاتِبُ « ٱلْكَوْكَبِ » بِٱلنَّصِّ :

قَالَتِ ٱلْعَرَبُ قَدِيماً فِي مَعْنَىٰ ٱلْقِصَاصِ : (ٱلْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ) ، ثُمَّ أَقْبَلَ ٱلْقُرْآنُ ٱلْكَرِيمُ عَلَىٰ آثَارِ ٱلْعَرَبِ (هَـٰكَذَا) فَقَالَ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ مِنْ أَسَاطِينِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يَعْقِدُوا ٱلْمُوَازَنَةَ بَيْنَ مَقَالَةِ ٱلْعَرَبِ هَـٰذِهِ وَبَيْنَ ٱلآيَةِ ٱلْحَكِيمَةِ أَيَّتُهُمَا أَشْبَهُ بِٱلْفَصَاحَةِ ؟ (هَـٰكَذَا) ، ثُمَّ يَخْلُصُونَ مِنْهَا إِلَىٰ تَقْدِيمِ ٱلآيَةِ وَٱلْبَيَانِ ٱلْقُرْآنِيِّ . . ثُمَّ قَالَ : مَنْ رَأْيِ كَاتِبِ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ تَقْدِيمُ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ عَلَىٰ ٱلآيَةِ ٱلْغَرَّاءِ ، (ٱللَّهُمَّ غَفْرًا) عَلَىٰ ثَلَجِ ٱلصَّدْرِ بِإِعْجَازِ ٱلْقُرْآنِ (كَلِمَةٌ لِلْوِقَايَةِ مِنَ ٱلنِّيَابَةِ . وَإِلَّا فَمَاذَا بَقِيَ مِنَ ٱلإِعْجَازِ وَقَدْ عَجَزَتِ ٱلآيَةُ؟ زِهْ زِهْ يَا رَجُلُ . . .) .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ فِيمَا تُقَدَّمُ بِهِ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ عَلَىٰ ٱلآيَةِ ٱلْحَكِيْمَةِ (ٱللَّهُمَّ غَفْرًا) مَزَايَا ثَلَاثًا : أُوْلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَزَايَا ٱلثَّلَاثُ ، هَـٰذَا ٱلإِيجَازُ ٱلسَّاحِرُ فِيْهَا ؛ ذَلِكَ أَنَّ « ٱلْقَتْلَ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ » ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ لَا أَكْثَرُ ، أَمَّا ٱلآيَةُ فَإِنَّهَا سَبْعُ كَلِمَاتٍ (كَذَا) وَعَلَىٰ تِلْكَ فَهِيَ أَقْدَمُ عَهْدًا وَأَسْبَقُ مِيْلَادًا مِنْ آيَةِ ٱلتَّنْزِيْلِ (تَأَمَّلْ) حَاشَا كَلَامُ ٱللهِ ٱلْقَدِيْمُ ، وَٱلإِيجَازُ مِيزَةٌ أَيَّةُ مِيزَةٍ . ٱلْمِيزَةُ ٱلثَّانِيَةُ لِلْكَلِمَةِ : الاسْتِقْلَالُ ٱلْكِتَابِيُّ وَفَقْدُ ٱلتَّعَاقُدِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شَيْءٍ آخَرَ سَابِقٍ عَلَيْهَا ، حَتَّىٰ إِنَّ ٱلْمُتَمَثِّلَ بِهَا ٱلْمُسْتَشْهِدَ يَبْتَدِئُ بِهَا حَدِيْثًا مُسْتَتِمًّا وَيَخْتَتِمُهُ فِيْ غَيْرِ مَزِيْدٍ وَلَا فَضْلٍ ، فَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَعِيْنُ بِغَيْرِهَا ؛ أَمَّا ٱلآيَةُ فَإِنَّهَا مَنْسُوْقَةٌ مَعَ مَا قَبْلَهَا بِٱلْوَاوِ ، فَهِيَ مُتَعَاقِدَةٌ مُتَرَابِطَةٌ مَعَهُ ، لَا يَتَمَثَّلُ بِهَا ٱلْمُتَمَثِّلُ حَتَّىٰ يَسْتَعِيْنَ بِشَيْءٍ سِوَاهَا ، وَلَيْسَ ٱلَّذِيْ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ غَيْرِهِ فَلَا يَسْتَقِلُّ كَٱلَّذِيْ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَيَسْتَقِلُّ . ٱلْمِيزَةُ ٱلثَّالِثَةُ : أَنَّ ٱلْكَلِمَةَ لَيْسَتْ مُتَّصِلَةً فِيْ آخِرَتِهَا بِفَضْلٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ تُغْنِيْ عَنْهُ ، عَلَىٰ حِيْنِ تَتَّصِلُ ٱلآيَةُ بِمَا تُغْنِيْ عَنْهُ مِنَ ٱلْقَوْلِ . وَيُعْتَدُّ كَٱلْفَضْلِ ، وَهُوَ كَلِمَتَا ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وَ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية: ١٧٩] ، وَإِنْ كَانَ لَا زِيَادَةَ فِيْ ٱلْقُرْآنِ وَلَا فُضُوْلَ .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مُدَرِّسًا جَاءَهُ بِٱلْفَصْلِ ٱلَّذِيْ عَقَدَهُ ٱلإِمَامُ ٱلسُّيُوْطِيُّ فِيْ كِتَابِهِ « ٱلإِتْقَانِ » لِتَفْضِيْلِ ٱلآيَةِ عَلَىٰ ٱلْكَلِمَةِ وَفِيْهِ قَرَابَةُ خَمْسَةٍ وَعِشْرِيْنَ حُجَّةً ، قَالَ : إِنَّهَا ٱنْحَطَّتْ بَعْدَ أَنْ رَمَاهَا بِنَظَرِهِ ٱلْعَالِيْ إِلَىٰ أَرْبَعٍ « أَمَّا ٱلْبَاقِيَاتُ فَمِنْ نَسْجِ ٱلانْتِحَالِ وَٱلتَّزَيُّدِ » قَالَ : وَأُوْلَاهَا : إِنَّ ٱلآيَةَ أَوْجَزُ لَفْظًا ، وَٱلْكَاتِبُ يَرَىٰ ٱلآيَةَ « سَبْعَ كَلِمَاتٍ فِيْ تَحْدِيْدٍ وَدِقَّةٍ » قَالَ : « إِذًا لَقَدْ بَطَلَتْ حُجَّةُ ٱلإِيجَازِ فِيْ ٱلآيَةِ » (ٱللَّهُمَّ غَفْرًا) . قَالَ : وَٱلثَّانِيَةُ : « إِنَّ فِيْ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ تَكْرَارًا لِكَلِمَةِ ٱلْقَتْلِ سَلِمَتِ ٱلآيَةُ مِنْهُ » وَرَدَّ ٱلْكَاتِبُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلتَّكْرَارَ « يَتَحَلَّلُ طَلَاوَةً وَيَقْطُرُ رِقَّةً (قَالَ) : وَهَـٰذَا فَمِيْ فِيْهِ طَعْمُ ٱلْعَسَلِ » (قُلْنَا : وَعَلَيْهِ ٱلذُّبَابُ يَا سَيِّدَنَا . . .) . وَٱلثَّالِثَةُ : أَنَّ فِيْ ٱلآيَةِ ذِكْرًا لِلْقِصَاصِ بِلَفْظِهِ عَلَىٰ حِيْنِ لَا تَذْكُرُ ٱلْكَلِمَةُ إِلَّا ٱلْقَتْلَ وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ كُلُّ قَتْلٍ قِصَاصًا ، وَدَفَعَ ٱلْكَاتِبُ هَـٰذَا بِأَنَّ ٱلْكَلِمَةَ ٱنْطَوَتْ عَلَىٰ قَتْلَيْنِ أَحَدُهُمَا يَنْفِيْ صَاحِبَهُ فَذَاكَ هُوَ ٱلْقِصَاصُ ، قَالَ : « إِذَنْ فَٱلْكَلِمَةُ وَٱلآيَةُ فِيْ قَصْدِ ٱلْقِصَاصِ يَلْتَقِيَانِ فَرَسَيْ رِهَانٍ » . وَٱلرَّابِعَةُ : إِنَّ ٱلْقِصَاصَ فِيْ ٱلآيَةِ أَعَمُّ يَشْمَلُ ٱلْقَتْلَ وَغَيْرَهُ ، وَأَقَرَّ ٱلْكَاتِبُ أَنَّ لِلآيَةِ فَضْلًا عَلَىٰ ٱلْكَلِمَةِ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْكَلِمَةَ حِكْمَةٌ لَا شَرِيْعَةٌ ، وَهِيَ مِنْ قَضَاءِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَلَيْسَ عَلَيْهَا أَنْ تُبَيِّنَ مَا لَمْ يَعْرِفْهُ ٱلْعَرَبُ وَلَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ ، قَالَ : « إِذَنْ فَلَيْسَتِ ٱلْكَلِمَةُ مُقَصِّرَةً عَنْ بَيَانٍ ، مُتَبَلِّدَةً عَنْ إِحْسَانٍ » .

* * *

هَـٰذَا كُلُّ مَقَالِهِ بِحُرُوْفِهِ بَعْدَ تَخْلِيْصِهِ مِنَ ٱلرَّكَاكَةِ وَٱلْحَشْوِ وَمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ ، وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ ٱللهَ وَنَسْتَعِيْنُهُ وَنَقُوْلُ قَوْلَنَا ، وَلَـٰكِنَّا نُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ مَسْأَلَةً ، فَمِنْ أَيْنَ لِلْكَاتِبِ أَنَّ كَلِمَةَ « ٱلْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ » مِمَّا صَحَّتْ نِسْبَتُهُ إِلَىٰ عَرَبِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَيْفَ لَهُ أَنْ يُثْبِتَ إِسْنَادَهَا إِلَيْهِمْ وَأَنْ يُوَثِّقَ هَـٰذَا ٱلإِسْنَادَ حَتَّىٰ يَسْتَقِيْمَ قَوْلُهُ إِنَّ ٱلْقُرْآنَ أَقْبَلَ عَلَىٰ آثَارِ ٱلْعَرَبِ . . . ؟

أَنَا أُقَرِّرُ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ مُوَلَّدَةٌ وُضِعَتْ بَعْدَ نُزُوْلِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيْمِ وَأُخِذَتْ مِنَ ٱلآيَةِ ، وَٱلتَّوْلِيْدُ بَيِّنٌ فِيْهَا ، وَأَثَرُ ٱلصَّنْعَةِ ظَاهِرٌ عَلَيْهَا ، فَعَلَىٰ ٱلْكَاتِبِ أَنْ يَدْفَعَ هَـٰذَا بِمَا يُثْبِتُ أَنَّهَا مِمَّا صَحَّ نَقْلُهُ عَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَقَدْ جَاءَ أَبُوْ تَمَّامٍ بِأَبْدَعَ وَأَبْلَغَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ فِيْ قَوْلِهِ [من الكامل] :

وَأَخَافُكُمْ كَيْ تُغْمِدُوْا أَسْيَافَكُمْ إِنَّ ٱلدَّمَ ٱلْمُغْبَرَّ يَحْرُسُهُ ٱلدَّمُ

(ٱلدَّمُ يَحْرُسُهُ ٱلدَّمُ) هَـٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ وَهَـٰذِهِ هِيَ ٱلْبَلَاغَةُ لَا تِلْكَ ، وَمَعَ هَـٰذَا فَكَلِمَةُ ٱلشَّاعِرِ مُوَلَّدَةٌ مِنَ ٱلآيَةِ ، يَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْبَيْتُ كُلُّهُ ، وَكَأَنَّ أَبَا تَمَّامٍ لَمْ يَكُنْ سَمِعَ قَوْلَهُمْ : « ٱلْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ » وَأَنَا مُسْتَيْقِنٌ أَنَّ ٱلْكَلِمَةَ لَمْ تَكُنْ وُضِعَتْ إِلَىٰ يَوْمِئِذٍ[1] .

وَلَوْ أَنَّ مُتَمَثِّلًا أَرَادَ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ أَبِيْ تَمَّامٍ فَٱنْتَزَعَ مِنْهُ هَـٰذَا ٱلْمَثَلَ : « ٱلدَّمُ يَحْرُسُهُ ٱلدَّمُ » أَيَكُوْنُ حَتْمًا مِنَ ٱلْحَتْمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ : كَلَّا يَا هَـٰذَا ! فَإِنَّ ٱلْبَيْتَ سَبْعُ كَلِمَاتٍ ، فَلَا يَصِحُّ ٱنْتِزَاعُ ٱلْمَثَلِ مِنْهُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ قِرَاءَةِ ٱلْبَيْتِ بِمِصْرَاعَيْهِ كَمَا يَقُوْلُ كَاتِبُ « ٱلْكَوْكَبِ » فِيْ ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيْمَةِ لِيَزْعُمَ أَنَّهَا لَا تُقَابِلُ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْعَرَبِيَّةَ فِيْ ٱلإِيجَازِ ؟

إِنَّ ٱلَّذِيْ فِيْ مَعَانِيْ ٱلآيَةِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ مِمَّا يَنْظُرُ إِلَىٰ مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ : « ٱلْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ »

(١) سَنُثْبِتُ هَـٰذَا بَعْدُ فِيْ تَعْلِيْقِيْ عَلَىٰ هَـٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ .

كَلِمَتَانِ لَيْسَ غَيْرُ ، وَهُمَا « ٱلْقِصَاصُ ، حَيَاةٌ » ؛ وَٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَمَاثِلَةِ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي هَـٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ دُونَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ أَوْ تَعَلَّقَ بِهَا مِمَّا يَصِلُ ٱلْمَعْنَى بِغَيْرِهِ أَوْ يَصِلُ غَيْرَهُ بِهِ ؛ إِذِ ٱلْمُوَازَنَةُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي صِنَاعَةِ تَرْكِيبِهِمَا . وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ بَاقِيَ ٱلْآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ لَغْوٌ وَحَشْوٌ ، فَهُوَ حَمِيلَةٌ عَلَى ٱلْكَلِمَتَيْنِ : ٱلْقِصَاصُ حَيَاةٌ ، يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهَا وَلَـٰكِنَّهُ غُصَّ بِهَا ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا يَلِجُّ فِي أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي ٱلتَّمْثِيلِ ، أَيْ : لَا بُدَّ فِي ٱلْمُقَابَلَةِ ، مِنْ رَدِّ ٱلْآيَةِ بِأَلْفَاظِهَا جَمِيعًا ؟

فَإِذَا قِيلَ : إِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَغَيَّرَ ٱلْإِعْرَابُ فِي ٱلْآيَةِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَثَلُ مُنْتَزَعًا مِنْهَا عَلَى ٱلتِّلَاوَةِ ، قُلْنَا : فَإِنَّ مَا يُقَابِلُ ٱلْكَلِمَةَ مِنْهَا حِينَئِذٍ هُوَ هَـٰذَا : ﴿ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية: ١٧٩] وَجُمْلَتُهَا ٱثْنَا عَشَرَ حَرْفًا ، مَعَ أَنَّ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْعَرَبِيَّةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ فَٱلْإِيجَازُ عِنْدَ ٱلْمُقَابَلَةِ هُوَ فِي ٱلْآيَةِ دُونَ ٱلْكَلِمَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] فَلَوْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ مِنْ أُولِي ٱلْأَلْبَابِ لَفَهِمَهَا وَعَرَفَ مَوْقِعَهَا وَحِكْمَتَهَا ، وَأَنَّ إِعْجَازَ ٱلْآيَةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا ، إِذْ أُرِيدَ أَنْ تَكُونَ مُعْجِزَةً زَمَنِيَّةً كَمَا سَنُشِيرُ إِلَيْهِ ، وَلَـٰكِنْ أَنَّى لَهُ وَهُوَ مِنَ ٱلْفَنِّ ٱلْبَيَانِيِّ عَلَى هَـٰذَا ٱلْبُعْدِ ٱلسَّحِيقِ ، لَا يَعْلَمُ أَنَّ آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ كَٱلزَّمَنِ فِي نَسَقِهَا : مَا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ يُظْهِرُهُ إِلَّا وَمِنْ وَرَائِهِ سِرٌّ يُحَقِّقُهُ .

ثُمَّ إِنَّ ٱلْإِيجَازَ فِي ٱلْكَلِمَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ لَيْسَ مِنَ « ٱلْإِيجَازِ ٱلسَّاحِرِ » كَمَا يَصِفُهُ ٱلْكَاتِبُ ، بَلْ هُوَ عِنْدَنَا مِنَ ٱلْإِيجَازِ ٱلسَّاقِطِ ؛ وَلَيْسَ مِنْ قَبِيلِ إِيجَازِ ٱلْآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُشْبِهَهُ ، إِذْ لَا بُدَّ فِي فَهْمِ صِيغَةِ ٱلتَّفْضِيلِ مِنْ تَقْدِيرِ ٱلْمُفَضَّلِ عَلَيْهِ ، فَيَكُونُ ٱلْمَعْنَى : « ٱلْقَتْلُ أَكْثَرُ نَفْيًا لِلْقَتْلِ مِنْ كَذَا » ، فَمَا هُوَ هَـٰذَا « ٱلْكَذَا » أَيُّهَا ٱلْكَاتِبُ ٱلْمُتَعَثِّرُ ؟ .

أَلَيْسَ تَصَوُّرُ مَعْنَى ٱلْعِبَارَةِ وَإِحْضَارُهُ فِي ٱلذِّهْنِ قَدْ أَسْقَطَهَا وَنَزَلَ بِهَا إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوقِيِّ ٱلْمُبْتَذَلِ وَأَوْقَعَ فِيهَا ٱلِاخْتِلَالَ ؟ وَهَلْ كَانَتْ إِلَّا صِنَاعَةً شِعْرِيَّةً خَيَالِيَّةً مُلَفَّقَةً كَمَا أَوْمَأْنَا إِلَى ذَٰلِكَ آنِفًا ، حَتَّى إِذَا أَجْرَيْتَهَا عَلَى مَنْهَجِهَا مِنَ ٱلْعَرَبِيَّةِ رَأَيْتَهَا فِي طَرِيقَةِ هَـٰذَا ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْأَمْرِيكَانِيِّ كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : « ٱلْفَرَحُ أَعْظَمُ مِنَ ٱلتَّرَحِ » ، « ٱلْحَيَاةُ هِيَ ٱلَّتِي تُعْطِي لِلْحَيَاةِ » . . . ؟

بِهَـٰذَا ٱلرَّدِّ ٱلْمُوجَزِ بَطَلَتِ ٱلْمِيزَاتُ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي زَعَمَهَا ٱلْكَاتِبُ لِتِلْكَ ٱلْكَلِمَةِ ، وَإِنَّ ٱلْكَلِمَةَ نَفْسَهَا لَتَبْرَأُ إِلَى ٱللهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهَا عَلَى ٱلْآيَةِ مِيزَةٌ وَاحِدَةٌ فَضْلًا عَنْ ثَلَاثٍ .

وَلْنَفْرِضْ « فَرْضًا » أَنَّ ٱلْكَلِمَةَ وَثِيقَةُ ٱلْإِسْنَادِ إِلَى عَرَبِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّهَا فِي بَيَانِهِمْ ، فَمَا ٱلَّذِي فِيهَا ؟

١ ـ إِنَّهَا تُشْبِهُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ لَكَ : إِنْ قَتَلْتَ خَصْمَكَ لَمْ يَقْتُلْكَ . وَهَلْ هَـٰذَا إِلَّا هَـٰذَا ؟ وَهَلْ هُوَ إِلَّا بَلَاغَةٌ مِنَ ٱلْهَذَيَانِ ؟

٢ ـ إِنَّهَا تُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ لُغَةَ قَاطِعِ طَرِيقٍ عَارِمٍ يَتَوَثَّبُ عَلَى ٱلْحَلَالِ وَٱلْحَرَامِ ، لَا يَخْرُجُ لِشَأْنِهِ إِلَّا مُقَرِّرًا فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ إِمَّا قَاتِلٌ أَوْ مَقْتُولٌ ، وَلِذَٰلِكَ تَكَرَّرَ فِيهَا ٱلْقَتْلُ عَلَى طَرَفَيْهَا ، فَهُوَ مِنْ أَشْنَعِ ٱلتَّكْرَارِ وَأَفْظَعِهِ .

٣ ـ إِنَّ فِيهَا ٱلْجَهْلَ وَٱلظُّلْمَ وَٱلْهَمَجِيَّةَ ، إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِ ٱلْعَرَبِ أَلَّا تُسَلِّمَ ٱلْقَبِيلَةُ ٱلْعَزِيزَةُ قَاتِلًا مِنْهَا ، بَلْ تَحْمِيهِ وَتَمْنَعُهُ ، فَتَنْقَلِبُ ٱلْقَبِيلَةُ كُلُّهَا قَاتِلَةً بِهَـٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَا يَنْفِي عَارَ ٱلْقَتْلِ عَنْ قَبِيلَةِ ٱلْمَقْتُولِ إِلَّا ٱلْحَرْبُ وَٱلِاسْتِئْصَالُ قَتْلًا قَتْلًا وَأَكْلُ ٱلْحَيَاةِ لِلْحَيَاةِ ، فَهَـٰذَا مِنْ مَعَانِي ٱلْكَلِمَةِ ، أَيْ : ٱلْقَتْلُ أَنْفَى لِعَارِ ٱلْقَتْلِ ، فَلَا قِصَاصَ وَلَا قَضَاءَ كَمَا يَزْعُمُ ٱلْكَاتِبُ .

٤ ـ إِنَّ ٱلْقَتْلَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُخَصَّصَ بِمَعْنَى ٱلْقِصَاصِ إِلَّا إِذَا خَصَّصَتْهُ ٱلْآيَةُ فَيَجِيءُ مُقْتَرِنًا بِهَا ، فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهَا فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَى ، وَهِيَ تُلْبِسُهُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ كَمَا تَرَى ، وَلَنْ يَدْخُلَهُ ٱلْعَقْلُ إِلَّا مِنْ مَعَانِيهَا ؛ وَهَـٰذَا وَحْدَهُ إِعْجَازٌ فِي ٱلْآيَةِ وَعَجْزٌ مِنَ ٱلْكَلِمَةِ .

* * *

وَقَبْلَ أَنْ نُبَيِّنَ وُجُوهَ ٱلْإِعْجَازِ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ وَنَسْتَخْرِجَ أَسْرَارَهَا ، نَقُولُ لِهَـٰذَا ٱلطُّفَيْلِيِّ : إِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنِ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يُطَيِّرَ فِي ٱلْجَوِّ وَرَقَةً فِي قَصَبَةٍ فِي خَيْطٍ ـ جَازَ لَهُ أَنْ يَقُولَ فِي تَفْضِيلِ وَرَقَتِهِ عَلَى مِنْطَادِ زِبْلِين Ferdinand Von Zeppelin : وَأَنَّ فِيمَا تَتَقَدَّمُ بِهِ عَلَى ٱلْمِنْطَادِ ٱلْكَرِيمِ مِيزَاتٍ ثَلَاثًا : ٱلذَّيْلُ ، وَٱلْوَرَقُ ٱلْمُلَوَّنُ ، وَٱلْخَيْطُ . . . يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] .

١ ـ بَدَأَ ٱلْآيَةَ بِقَوْلِهِ ﴿ وَلَكُمْ ﴾ وَهَـٰذَا قَيْدٌ يَجْعَلُ هَـٰذِهِ ٱلْآيَةَ خَاصَّةً بِٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْمُؤْمِنَةِ

ٱلَّتِي تَطْلُبُ كَمَالَهَا فِي ٱلْإِيمَانِ ، وَتَلْتَمِسُ فِي كَمَالِهَا نِظَامَ ٱلنَّفْسِ ، وَتُقَرِّرُ نِظَامَ ٱلنَّفْسِ بِنِظَامِ ٱلْحَيَاةِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَـٰذَا مُتَحَقِّقًا فِي ٱلنَّاسِ فَلَا حَيَاةَ فِي ٱلْقِصَاصِ ، بَلْ تَصْلُحُ حِينَئِذٍ كَلِمَةُ ٱلْهَمَجِيَّةِ : ٱلْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ ، أَيْ : ٱقْتُلُوا أَعْدَاءَكُمْ وَلَا تَدَعُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَهَـٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُبْقِيكُمْ أَحْيَاءً وَيَنْفِي عَنْكُمُ ٱلْقَتْلَ ؛ فَٱلْآيَةُ ٱلْكَرِيمَةُ بِدِلَالَةِ كَلِمَتِهَا ٱلْأُولَىٰ مُوَجَّهَةٌ إِلَىٰ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْعَالِيَةِ ، لِتُوَجِّهَ هَـٰذِهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ فِي بَعْضِ مَعَانِيهَا إِلَىٰ حَقِيقَةٍ مِنْ حَقَائِقِ ٱلْحَيَاةِ .

٢ ـ قَالَ ﴿ فِي ٱلْقِصَاصِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] وَلَمْ يَقُلْ : فِي ٱلْقَتْلِ ؛ فَقَيَّدَهُ بِهَـٰذِهِ ٱلصِّيغَةِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ جَزَاءٌ وَمُؤَاخَذَةٌ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ ٱلْمُبَادَأَةُ بِٱلْعُدْوَانِ ، وَلَا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مَا يُخْرِجُ عَنْ قَدْرِ ٱلْمُجَازَاةِ قَلَّ أَوْ كَثُرَ .

٣ ـ تُفِيدُ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ ﴿ ٱلْقِصَاصِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] بِصِيغَتِهَا (صِيغَةِ ٱلْمُفَاعَلَةِ) مَا يُشْعِرُ بِوُجُوبِ ٱلتَّحْقِيقِ وَتَمْكِينِ ٱلْقَاتِلِ مِنَ ٱلْمُنَازَعَةِ وَٱلدِّفَاعِ ، وَأَلَّا يَكُونَ قِصَاصٌ إِلَّا بِٱسْتِحْقَاقٍ وَعَدْلٍ ، وَلِذَا لَمْ يَأْتِ بِٱلْكَلِمَةِ مِنِ ٱقْتَصَّ مَعَ أَنَّهَا أَكْثَرُ ٱسْتِعْمَالًا ، لِأَنَّ ٱلِاقْتِصَاصَ شَرِيعَةُ ٱلْفَرْدِ ، وَٱلْقِصَاصَ شَرِيعَةُ ٱلْمُجْتَمَعِ .

٤ ـ مِنْ إِعْجَازِ لَفْظَةِ ﴿ ٱلْقِصَاصِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] هَـٰذِهِ أَنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ سَمَّىٰ بِهَا قَتْلَ ٱلْقَاتِلِ ، فَلَمْ يُسَمِّهِ قَتْلًا كَمَا فَعَلَتِ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ، لِأَنَّ أَحَدَ ٱلْقَتْلَيْنِ هُوَ جَرِيمَةٌ وَٱعْتِدَاءٌ ، فَنَزَّهَ سُبْحَانَهُ ٱلْعَدْلَ ٱلشَّرْعِيَّ حَتَّىٰ شَبَهَهُ بِلَفْظِ ٱلْجَرِيمَةِ ، وَهَـٰذَا مُنْتَهَىٰ ٱلسُّمُوِّ ٱلْأَدَبِيِّ فِي ٱلتَّعْبِيرِ .

٥ ـ وَمِنْ إِعْجَازِ هَـٰذِهِ ٱللَّفْظَةِ أَنَّهَا بِٱخْتِيَارِهَا دُونَ كَلِمَةِ ٱلْقَتْلِ تُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّهُ سَيَأْتِي فِي عُصُورِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْعَالِمَةِ ٱلْمُتَحَضِّرَةِ عَصْرٌ لَا يُرَىٰ فِيهِ قَتْلُ ٱلْقَاتِلِ بِجِنَايَةٍ إِلَّا شَرًّا مِنْ قَتْلِ ٱلْمَقْتُولِ ، لِأَنَّ ٱلْمَقْتُولَ يَهْلِكُ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، عَلَىٰ حِينِ أَنَّ أَخْذَ ٱلْقَاتِلِ لِقَتْلِهِ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا نِيَّةُ قَتْلِهِ ، فَعَبَّرَتِ ٱلْآيَةُ بِٱللَّفْظَةِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَـٰذَا ٱلْعَصْرَ ٱلْقَانُونِيَّ ٱلْفَلْسَفِيَّ ، وَجَاءَتْ بِٱلْكَلِمَةِ ٱلَّتِي لَنْ تَجِدَ فِي هَـٰذِهِ ٱللُّغَةِ مَا يُجْزِئُ عَنْهَا فِي ٱلِاتِّسَاعِ لِكُلِّ مَا يُرَادُ بِهَا مِنْ فَلْسَفَةِ ٱلْعُقُوبَةِ .

٦ ـ وَمِنْ إِعْجَازِ ٱللَّفْظَةِ أَنَّهَا كَذَلِكَ تَحْمِلُ كُلَّ ضُرُوبِ ٱلْقِصَاصِ مِنَ ٱلْقَتْلِ فَمَا دُونَهُ ، وَعَجِيبٌ أَنْ تَكُونَ بِهَـٰذَا ٱلْإِطْلَاقِ مَعَ تَقْيِيدِهَا بِٱلْقُيُودِ ٱلَّتِي مَرَّتْ بِكَ ، فَهِيَ بِذَلِكَ لُغَةُ شَرِيعَةٍ إِلَـٰهِيَّةٍ عَلَىٰ ٱلْحَقِيقَةِ ، فِي حِينِ أَنَّ كَلِمَةَ ٱلْقَتْلِ فِي ٱلْمَثَلِ ٱلْعَرَبِيِّ تَنْطَلِقُ فِي صَرَاحَةٍ أَنَّهَا لُغَةُ

ٱلْغَرِيزَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ بِأَقْبَحِ مَعَانِيهَا ، وَلِذَلِكَ كَانَ تَكْرَارُهَا فِي ٱلْمَثَلِ كَتَكْرَارِ ٱلْغَلْطَةِ ، فَٱلْآيَةُ بِلَفْظَةِ (ٱلْقِصَاصِ) تَضَعُكَ أَمَامَ ٱلْأُلُوهِيَّةِ بِعَدْلِهَا وَكَمَالِهَا ، وَٱلْمَثَلُ بِلَفْظَةِ (ٱلْقَتْلِ) يَضَعُكَ أَمَامَ ٱلْبَشَرِيَّةِ بِنَقْصِهَا وَظُلْمِهَا .

٧ ـ وَلَا تَنْسَ أَنَّ ٱلتَّعْبِيرَ بِٱلْقِصَاصِ تَعْبِيرٌ يَدَعُ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ مَحَلَّهَا إِذَا هِيَ تَخَلَّصَتْ مِنْ وَحْشِيَّتِهَا ٱلْأُولَىٰ وَجَاهِلِيَّتِهَا ٱلْقَدِيمَةِ ، فَيَشْمَلُ ٱلْقِصَاصُ أَخْذَ ٱلدِّيَةِ وَٱلْعَفْوَ وَغَيْرَهُمَا ، أَمَّا ٱلْمَثَلُ فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا حَالَةٌ وَاحِدَةٌ بِعَيْنِهَا كَأَنَّهُ وَحْشٌ لَيْسَ مِنْ طَبْعِهِ إِلَّا أَنْ يَفْتَرِسَ .

٨ ـ جَاءَتْ لَفْظَةُ ٱلْقِصَاصِ مُعَرَّفَةً بِأَدَاةِ ٱلتَّعْرِيفِ ، لِتَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِقُيُودِهِ ٱلْكَثِيرَةِ ؛ إِذْ هُوَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ قُوَّةٌ مِنْ قُوَىٰ ٱلتَّدْبِيرِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، فَلَا تَصْلُحُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ بِغَيْرِ تَقْيِيدِهَا .

٩ ـ جَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ حَيَوٰةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] مُنَوَّنَةً ، لِتَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰهُنَا لَيْسَتْ حَيَاةً بِعَيْنِهَا مُقَيَّدَةً بِإِصْلَاحٍ مُعَيَّنٍ ، فَقَدْ يَكُونُ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ ٱجْتِمَاعِيَّةٌ ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ حَيَاةٌ سِيَاسِيَّةٌ ، وَقَدْ تَكُونُ ٱلْحَيَاةُ أَدَبِيَّةً ، وَقَدْ تُعَظَّمُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ عَنْ أَنْ تَكُونَ حَيَاةً .

١٠ ـ إِنَّ لَفْظَ ﴿ حَيَوٰةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ أَعَمُّ مِنَ ٱلتَّعْبِيرِ (بِنَفْيِ ٱلْقَتْلِ) لِأَنَّ نَفْيَ ٱلْقَتْلِ إِنَّمَا هُوَ حَيَاةٌ وَاحِدَةٌ ، أَيْ : تَرْكُ ٱلرُّوحِ فِي ٱلْجِسْمِ ، فَلَا يَحْتَمِلُ شَيْئًا مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّامِيَةِ ، وَلَيْسَ فِيهِ غَيْرُ هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلطَّبِيعِيِّ ٱلسَّاذَجِ ، وَتَعْبِيرُ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ عَنِ ٱلْحَيَاةِ (بِنَفْيِ ٱلْقَتْلِ) تَعْبِيرٌ غَلِيظٌ عَامِّيٌّ يَدُلُّ عَلَىٰ جَهْلٍ مُطْبِقٍ لَا مَحَلَّ فِيهِ لِعِلْمٍ وَلَا تَفْكِيرٍ ، كَٱلَّذِي يَقُولُ لَكَ : إِنَّ ٱلْحَرَارَةَ هِيَ نَفْيُ ٱلْبُرُودَةِ .

١١ ـ جَعْلُ نَتِيجَةِ ٱلْقَتْلِ حَيَاةً تَعْبِيرٌ مِنْ أَعْجَبِ مَا فِي ٱلشِّعْرِ يَسْمُو إِلَىٰ ٱلْغَايَةِ مِنَ ٱلْخَيَالِ ، وَلَـٰكِنَّ أَعْجَبَ مَا فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ خَيَالًا ، بَلْ يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ تَعْبِيرٍ عِلْمِيٍّ يَسْمُو إِلَىٰ ٱلْغَايَةِ مِنَ ٱلدِّقَّةِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ بِلِسَانِ ٱلْعِلْمِ : فِي نَوْعٍ مِنْ سَلْبِ ٱلْحَيَاةِ نَوْعٌ مِنْ إِيجَابِ ٱلْحَيَاةِ .

١٢ ـ فَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا تَقَدَّمَ وَأَنْعَمْتَ فِيهِ تَحَقَّقْتَ أَنَّ ٱلْآيَةَ ٱلْكَرِيمَةَ لَا يَتِمُّ إِعْجَازُهَا إِلَّا بِمَا تَمَّتْ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ يَـٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] فَهَـٰذَا نِدَاءٌ عَجِيبٌ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ يَفْهَمُهُ ، إِذْ هُوَ مُوَجَّهٌ لِلْعَرَبِ فِي ظَاهِرِهِ عَلَىٰ قَدْرِ مَا بَلَغُوا مِنْ مَعَانِي ٱللُّبِّ ، وَلَـٰكِنَّهُ فِي حَقِيقَتِهِ مُوَجَّهٌ لِإِقَامَةِ ٱلْبُرْهَانِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلْقَانُونِ وَٱلِاجْتِمَاعِ ، هُمْ

هَـٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ يَرَوْنَ إِجْرَامَ ٱلْمُجْرِمِ شُذُوذًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْعَصَبِيِّ ، أَوْ وِرَاثَةً مَحْتُومَةً ، أَوْ حَالَةً نَفْسِيَّةً قَاهِرَةً ، إِلَىٰ مَا يَجْرِي هَـٰذَا ٱلْمَجْرَىٰ ؛ فَمِنْ ثَمَّ يَرَوْنَ أَنْ لَا عِقَابَ عَلَىٰ جَرِيمَةٍ لِأَنَّ ٱلْمُجْرِمَ عِنْدَهُمْ مَرِيضٌ لَهُ حُكْمُ ٱلْمَرْضَىٰ ؛ وَهَـٰذِهِ فَلْسَفَةٌ تَحْتَمِلُهَا ٱلْأَدْمِغَةُ وَٱلْكُتُبُ ، وَهِيَ تُحَوِّلُ ٱلْقَلْبَ إِلَىٰ مَصْلَحَةِ ٱلْفَرْدِ وَتَصْرِفُهُ عَنْ مَصْلَحَةِ ٱلْمُجْتَمَعِ ، فَنَبَّهَهُمُ ٱللهُ إِلَىٰ أَلْبَابِهِمْ دُونَ عُقُولِهِمْ ، كَأَنَّهُ يُقَرِّرُ لَهُمْ أَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْعِلْمِ لَيْسَتْ بِٱلْعَقْلِ وَٱلرَّأْيِ ، بَلْ هِيَ قَبْلَ ذَٰلِكَ بِٱللُّبِّ وَٱلْبَصِيرَةِ ، وَفَلْسَفَةُ ٱللُّبِّ هَـٰذِهِ هِيَ آخِرُ مَا ٱنْتَهَتْ إِلَيْهِ فَلْسَفَةُ ٱلدُّنْيَا .

١٣ ـ وَٱنْتَهَتِ ٱلْآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مِنْ لُغَةِ كُلِّ زَمَنٍ ، وَمَعْنَاهَا فِي زَمَنِنَا نَحْنُ ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] : إِنَّهُ بُرْهَانُ ٱلْحَيَاةِ فِي حِكْمَةِ ٱلْقِصَاصِ تَسُوقُهُ لَكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ عَلَىٰ ٱلْحَيَاةِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ عَاقِبَةَ خِلَافِهِ ، فَٱجْعَلُوا وُجْهَتَكُمْ إِلَىٰ وِقَايَةِ ٱلْمُجْتَمَعِ لَا إِلَىٰ وِقَايَةِ ٱلْفَرْدِ .

* * *

وَبَعْدُ ؛ فَإِذَا كَانَ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ـ مَا رَأَيْتَ ـ ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَجْهًا مِنْ وُجُوهِ ٱلْبَيَانِ ٱلْمُعْجِزِ ، فَمَعْنَىٰ ذَٰلِكَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ أَنَّهَا أَسْقَطَتِ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْعَرَبِيَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً .

ٱلْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ
لَيْسَتْ مُتَرْجَمَةً

بَعْدَ أَنْ نُشِرَتْ مَقَالَةُ « ٱلْكَلِمَةِ ٱلْمُؤْمِنَةِ » فِي « ٱلْبَلَاغِ » ، كَتَبَ أَدِيبُ فِلَسْطِينَ ٱلْأُسْتَاذُ إِسْعَافُ ٱلنَّشَاشِيبِيُّ : إِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ مُتَرْجَمَةٌ عَنِ ٱلْفَارِسِيَّةِ ، وَقَدْ نَقَلَهَا ٱلثَّعَالِبِيُّ فِي كِتَابِهِ « ٱلْإِيجَازُ وَٱلْإِعْجَازُ » ، فَنَشَرْنَا فِي « ٱلْبَلَاغِ » هَـٰذَا ٱلتَّعْلِيقَ :

قَالَ ٱلْأُسْتَاذُ ٱلْكَبِيرُ مُحَمَّدُ إِسْعَافُ ٱلنَّشَاشِيبِيُّ فِي كَلِمَتِهِ لِلْبَلَاغِ : إِنَّ عِبَارَةَ « ٱلْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ » لَيْسَتْ بِعَرَبِيَّةٍ وَلَا مُوَلَّدَةٍ ، بَلْ هِيَ مُتَرْجَمَةٌ ؛ أَيْ فَهِيَ مَطْمُوسَةُ ٱلْوَجْهِ مِنْ كَوْنِهَا أَعْجَمِيَّةً وَقَعَ ٱلْخَطَأُ فِي نَقْلِهَا إِلَىٰ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَكَانَتْ غَلْطَةً مِنْ جِهَتَيْنِ .

وَإِنَّهُ لَيَسُرُّنِي أَنْ تَكُونَ فَوْقَ ذَٰلِكَ زِنْجِيَّةً نُقِلَتْ إِلَىٰ ٱلْمَالْطِيَّةِ ثُمَّ تُرْجِمَتْ إِلَىٰ ٱلْعَرَبِيَّةِ ،

فَتَكُونُ غَلْطَةً مِنْ أَرْبَعِ جِهَاتٍ ، لَا مِنْ جِهَتَيْنِ فَقَطْ . . وَلَـٰكِنَّ هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ لَمْ يُشِرْ إِلَىٰ أَصْلِهَا غَيْرُ ٱلثَّعَالِبِيِّ ، وَهُوَ مَعَ ذَٰلِكَ لَمْ يَقْطَعْ فِيهَا بِرَأْيٍ ، بَلْ أَشَارَ إِلَىٰ تَرْجَمَتِهَا فِي صِيغَةٍ مِنْ صِيَغِ ٱلتَّمْرِيضِ ٱلْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ ٱلرُّوَاةِ فَقَالَ : « يُحْكَىٰ أَنَّ فِيمَا تُرْجِمَ عَنْ أَرْدَشِيرَ . . . » وَ(يُحْكَىٰ) هَـٰذِهِ لَيْسَتْ نَصًّا فِي بَابِ ٱلرِّوَايَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ هَـٰذَا ٱلْإِمَامُ ٱتَّقَىٰ ٱللهَ فَٱبْتَعَدَ بِٱلْكَلِمَةِ وَطَوَّحَ بِهَا إِلَىٰ مَا وَرَاءَ بِلَادِ ٱلْعَرَبِ، أَوْ تَكُونُ ٱلْكَلِمَةُ أُلْقِيَتْ إِلَيْهِ عَلَىٰ أَنَّهَا مُشْتَبَهٌ فِي نِسْبَتِهَا ، وَلَوْ كَانَتِ ٱلْعِبَارَةُ مُتَرْجَمَةً لَتَنَاقَلَهَا ٱلْأَئِمَّةُ مَعْزُوَّةً إِلَىٰ قَائِلِهَا أَوْ لُغَتِهَا ٱلَّتِي قِيلَتْ فِيهَا .

وَلَقَدْ ذَكَرَهَا ٱلْعَسْكَرِيُّ فِي كِتَابِهِ « ٱلصِّنَاعَتَيْنِ » عَلَىٰ أَنَّهَا (مِنْ قَوْلِهِمْ) أَيْ : ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ ، وَنَقَلَهَا ٱلرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ : إِنَّ لِلْعَرَبِ فِي هَـٰذَا ٱلْمَعْنَىٰ كَلِمَاتٍ ، مِنْهَا « قَتْلُ ٱلْبَعْضِ إِحْيَاءٌ لِلْجَمِيعِ » وَأَحْسَنُهَا : « ٱلْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ » وَكَذَٰلِكَ جَاءَ بِهَا ٱبْنُ ٱلْأَثِيرِ فِي كِتَابِ « ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ » وَلَمْ يَعْزُهَا ، وَقَالَ مُفَسِّرُ ٱلْأَنْدَلُسِ أَبُو حَيَّانَ فِي تَفْسِيرِهِ : إِنَّهَا تُرْوَىٰ بِرِوَايَةٍ أُخْرَىٰ وَهِيَ : « ٱلْقَتْلُ أَوْقَىٰ لِلْقَتْلِ » ، وَكُلُّ ذَٰلِكَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ خَبَرَ ٱلتَّرْجَمَةِ قَدِ ٱنْفَرَدَ بِهِ ٱلثَّعَالِبِيُّ .

وَلَا يَقُومُ ٱلدَّلِيلُ عَلَىٰ تَرْجَمَتِهَا إِلَّا بِظُهُورِ أَصْلِهَا ٱلْفَارِسِيِّ ، فَإِنْ كَانَ عِلْمُ ذَٰلِكَ عِنْدَ أَحَدٍ فَلْيَتَفَضَّلْ بِهِ مَشْكُورًا مَأْجُورًا .

تَنْبِيهٌ : نَشَرْنَا هَـٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ وَمَضَتْ بَعْدَهَا سَنَوَاتٌ وَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عَلَىٰ أَنَّ لِلْعِبَارَةِ أَصْلًا فَارِسِيًّا ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا رَيْبٌ أَنَّهَا مِنْ صَنِيعِ بَعْضِ ٱلزَّنَادِقَةِ ، وَقَدْ وَلَّدَهَا مِنَ ٱلْآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ لِيُجْرِيَهَا فِي مَجْرَىٰ ٱلْمُعَارَضَةِ ، وَقَدْ كَتَبَ ٱلْأُسْتَاذُ ٱلْكَبِيرُ عَبْدُ ٱلْقَادِرِ حَمْزَةَ صَاحِبُ جَرِيدَةِ « ٱلْبَلَاغِ » أَنَّ تِلْكَ ٱلْعِبَارَةَ حِكْمَةٌ مِصْرِيَّةٌ قَدِيمَةٌ ، وَلَا نَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا ، فَإِنَّ بَعْضَ ٱلْحِكَمِ مِمَّا تَتَوَارَدُ عَلَيْهِ ٱلْعُقُولُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ ٱلنَّابِغَةُ ، إِذْ كَانَتِ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلْبَشَرِيَّةُ كَأَنَّهَا تُمْلِيهِ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِبَارَةَ لَيْسَتْ فِي كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْقَدِيمَةِ وَلَا ٱلْحَدِيثَةِ ، وَٱلْأَلْفَاظُ ٱلْمِصْرِيَّةُ غَيْرُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا تَوَارُدُ ٱلْخَوَاطِرِ ، وَٱللهُ أَعْلَمُ .

القتلُ أنفى للقتلِ
ليست جاهليّة

وبعد كلمتنا تلك عن الترجمة نشر أديبٌ في «البلاغ» أنّ الكلمة جاهليّة، فتعقّبناه بهذا التعليق:

أثبت الأستاذ عبد العزيز الأزهريّ فيما نشره «البلاغ» أنّ هذه الكلمة عربيّة في دعواه، واحتجّ لذلك بحجج، أقواها زعمُه: إنّها وردت بين ثنايا عهد القضاء الّذي بعث به سيّدنا عمر إلى أبي موسى الأشعريّ، ولا ندري أين وجد الكاتب كلمة «القتل» فضلًا عن «القتل أنفى للقتل» - في ذلك العهد المشهور المحفوظ، وقد رواه الجاحظ في «البيان والتبيين»، وجاء به المبرّد في «الكامل»، ونقله ابن قتيبة في «عيون الأخبار»، وأورده ابن عبد ربّه في «العقد الفريد»، وساقه القاضي الباقلّانيّ في «الإعجاز»؛ وفي كلّ هذه الروايات الموثّقة لم تأتِ الكلمة في قول عمر، بل لا محلّ لها في سياقه، وإنّما جاء قوله: «فإن أحضر بيّنةً أخذتَ له بحقّه وإلّا وجّهت عليه القضاء، فإنّ ذلك أنفى للشكّ».

أمّا سائر حجج الكاتب فلا وزن لها في باب الرواية التاريخيّة، وقد أصبح عاليها سافلها كما رأيت.

والّذي أنا واثق منه أنّ الكلمة لم تُعرف في العربيّة إلى أواخر القرن الثالث من الهجرة، وهذا الإمام الجاحظ يقول في موضع من كتابه «البيان والتبيين» في شرح قول عليّ كرّم الله وجهه: «بقيّة السيف أنمى عددًا وأكثر ولدًا» ما نصّه: «وجد الناس ذلك بالعيان للّذي صار إليه ولده من نهك السيف وكثرة الذرء وكرم النجل؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية: ١٧٩] وقال بعض الحكماء: قتل البعض إحياء للجميع.

ولم يزد الجاحظ على هذا، ولو كانت الكلمة معروفة يومئذٍ لما فاتته كما هو صنيعه في كتبه[1]، خصوصًا وهي أوجز وأعذب ممّا نسبه لبعض الحكماء؛ وهذه العبارة الأخيرة

(1) أورد الجاحظ الآية الكريمة في الجزء الثاني من كتابه (الحيوان) صفحة ٣١، ثمّ قال: إلى هذا=

(قتل البعض...) هي الّتي زعم الرازيّ في تفسيره أنّها للعرب... فلا عبرة في هذا الباب بكلام المفسّرين ولا المتأخّرين من علماء البلاغة، وإنّما الشأن للتحقيق التاريخيّ.

ونصّ الجاحظ في كتاب «حجج النبوّة» على أنّ قومًا منهم ابن أبي العوجاء، وإسحاق بن طالوت، والنعمان بن المنذر «وأشباههم من الأرجاس الّذين استبدلوا بالعزّ ذُلًّا، وبالإيمان كفرًا، وبالسعادة شقوة، وبالحجّة شبهة، كانوا يصنعون الآثار، ويولّدون الأخبار، ويبثّونها في الأمصار، ويطعنون بها على القرآن»؛ فهذا عندنا من ذاك.

وإن لم ينهض الدليل القاطع على أنّ الكلمة مترجمة عن الفارسيّة بظهور أصلها في تلك اللغة ورجوعه إلى ما قبل الإسلام، فهي ولا ريب ممّا وُضع على طريقة ابن الراونديّ الزنديق الملحد الّذي كان في منتصف القرن الثالث وألّف في الطعن على القرآن وقال في كتابه «الزمرّدة»: إنّا نجد في كلام أكثم بن صيفيّ شيئًا أحسن من ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ [١٠٨ سورة الكوثر] فكأنّ واضع الكلمة يقول على هذه الطريقة: «إنّا نجد في كلام العرب شيئًا أبلغ من ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية: ١٧٩]».

وهؤلاء المتطرّفون على القرآن الكريم إنّما يريدون بما يصنعونه من مثل هذه الكلمة أن يوجدوا للعامّة وأشباههم من الأحداث والأغرار وأهل الزيغ والضعفاء في العلم - سبيلًا إلى القول في نقض الإعجاز، ومساغًا إلى التهمة، في أنّ القرآن تنزيل؛ والخطأ في مثل هذا يتجاوز معنى الخطأ في البيان إلى معنى الكفر في الدين، وذلك ما يرمون إليه؛ وهذه بعينها هي طريقة المبشّرين اليوم؛ فكأنّ إبليس من عهد أولئك الزنادقة إلى عهد المبشّرين لم يستطع أن يتغيّر؛ ولا أن يكون ... أن يكون مجدّدًا ...

* * *

تمّ الجزء الثالث من: «وحي القلم»

وبه تمّ الكتاب

= المعنى رجع قول الحكيم الأوّل: قتل البعض إحياء للجميع. وهذا إلى ما تقدّم هو نصّ على أنّ الجاحظ لم يسمع هذه الكلمة ولم يعرفها، وقد توفّي الجاحظ سنة ٢٥٥ للهجرة، وألّف كتابه «الحيوان» في آخر عمره وهو مفلوج، فلم تكن الكلمة معروفة إلى ذلك العهد، لا في الرواية ولا في الترجمة، مع انتهاء زمن الرواية واستبحار الترجمة عن الفارسيّة.

الفهارس

الفهرس الألفبائي

الصفحة

إبليس يُعَلِّم (٣) ٥٤٩
أبو تمام الشاعر، تحقيق مدة إقامته بمصر ١١٣٢
أبو حنيفة ولكن بغير فقه ٩٥٢
اجتلاء العيد ٢٨
أجنحة المدافع المصرية ٦٣٠
الأجنبية ٢٥٧
أحاديث الباشا : (٤) الأخلاق المحاربة ٦٤٦
أحاديث الباشا : (٢) البك والباشا ٦٣٨
أحاديث الباشا : (١٣) الجمهور ٦٨٢
أحاديث الباشا : (١٢) حماسة الشعب ٦٧٨
أحاديث الباشا : (٥) خضع يخضع ٦٥٠
أحاديث الباشا : (٣) ساكنو الثياب ٦٤٢
أحاديث الباشا : (١٠) سر القبعة ٦٧١
أحاديث الباشا : (١١) سعد زغلول ٦٧٥
أحاديث الباشا : (١) الطماطم السياسي ٦٣٤
أحاديث الباشا : (٦) فلتعصب ٦٥٤
أحاديث الباشا : (٩) اللسان المرقع ٦٦٧
أحاديث الباشا : (٨) المعجم السياسي ٦٦٣
أحاديث الباشا : (٧) وزن الماضي ٦٥٩
احذري « قصيدة مترجمة عن الملك » ٢٧٣
أحلام في الشارع ٨٠
أحلام في القصر ٨٨
الأدب والأديب ٩٥٨
أرملة حكومة ٢٢٤
استنوق الجمل ٢١٧

الصفحة

الأسد ٧٨٣
الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام ٣٧٥
أمراء للبيع ٧٩٠
أمير الشعر في العصر القديم ١١٠٥
الانتحار (١) ٤٥٩
الانتحار (٢) ٤٦٨
الانتحار (٣) ٤٧٧
الانتحار (٤) ٤٨٥
الانتحار (٥) ٤٩٣
الانتحار (٦) تتمة ٥٠٢
انتصار الحب ٨٩٨
الإنسانية العليا ٤٠٩
أيها البحر ٤٤
أيها المسلمون ! ٦١٢
بعد شوقي ١٠٦٢
بنت الباشا ٩٤
بنته الصغيرة (١) ٢٤٠
بنته الصغيرة (٢) ٢٤٧
البؤساء ١١١٠
البيان ١٣
بين خروفين ٦٠
تاريخ يتكلم ٥٨١
تجديد الإسلام، رسالة الأزهر في القرن العشرين ٧٧٦
تربية لؤلؤية ٢٠١

الصفحة

ثبات الأخلاق ٤٤٤
الجمال البائس (١) ٢٨٠
الجمال البائس (٢) ٢٨٦
الجمال البائس (٣) ٢٩٤
الجمال البائس (٤) ٣٠٢
الجمال البائس (٥) ٣٠٩
حافظ إبراهيم ١٠١٩
حديث قطين ٥٣
حقيقة المسلم ٣٨٢
درس من النبوة ٤٣٠
دعابة إبليس ٥٦٢
دموع من رسائل الطائشة ١٨٥
الدينار والدرهم (٤) ٥٥٦
ديوان الأعشاب ١١٢٤
ذيل القصة وفلسفة المال ـ ٢ ـ ١٢٨
رأي جديد في كتب الأدب العربي القديمة ١٠٩٧
الربيع ٣٦
رؤية في السماء ٢٣٢
الزاهدان (٢) ٥٤٢
زوجة إمام (١) ١٣٨
زوجة إمام « بقية الخبر » (٢) ١٤٧
س.ا.ع ٢٠٩
سر النبوغ في الأدب ٩٦٨
السطر الأخير من القصة ٨٢٤
السمكة (١) ٥٣٣
سمو الحب ١٠٦
السمو الروحي الأعظم، والجمال الفني في البلاغة النبوية ٧٤٣
سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم (١) ٤١٧
سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم (٢) ٤٢٣
شعر صبري ١٠٠٧

الموضوع ..... الصفحة

الشعر العربي في خمسين سنة ١٠٦٩
شهر للثورة . . . ، فلسفة الصيام ٤٣٧
شوقي ١٠٤٤
الشيخ الخضري ١٠٩١
الشيطان ٥٧٠
شيطان وشيطانة ٩٠٧
شيطاني وشيطان طاغور ٩٩٧
صدر الكتاب : البيان ١٣
صروف اللغوي ١٠٨١
صعاليك الصحافة (١) ٩٢٩
صعاليك الصحافة (٢) ٩٣٤
صعاليك الصحافة (٣) ٩٣٩
صعاليك الصحافة (٤) تتمة ٩٤٦
الطائشة (١) ١٦٦
الطائشة (٢) ١٧٦
الطفولتان ٧١
عاصفة القدر ٨٣٢
العجوزان (١) ٧٩٨
العجوزان (٢) ٨٠٤
العجوزان (٣) ٨١٠
العجوزان (٤) تتمة ٨١٦
عربة اللقطاء ٣١٩
عرش الورد ٤٠
عروس تُزَفّ إلى قبرها ٥١٦
فاتح الجو المصري ٦٢٦
فلسفة الطائشة ١٩١
فلسفة القصة ٣٩٤و١٠٠٣
فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها ١٠٠٣
فوق الآدمية، الإسراء والمعراج، ٤٠١
في الربيع الأزرق، خواطر مرسلة ٤٨
في اللهب ولا تحترق ٣٣٥
في محنة فلسطين : أيها المسلمون ٦١٢

	الصفحة
فيلسوف وفلاسفة	٩٩٣
قبح جميل	١٥٦
القتل أنفى للقتل ليست جاهلية	١١٥٨
القتل أنفى للقتل ليست مترجمة	١١٥٦
القديم والجديد	١١٣٨
قرآن الفجر	٧٦٦
قصة أب	٥٢٦
قصة الأيدي المتوضئة	٦١٦
قصة زواج، ذيل القصة وفلسفة المال ـ ٢ ـ	١٢٨
قصة زواج وفلسفة المهر ـ ١ ـ	١١٧
قصيدة مترجمة عن الشيطان: لحوم البحر	٢٦٧
قصيدة مترجمة عن الملك: احذري!	٢٧٣
القلب المسكين (١)	٨٤٣
القلب المسكين (٢)	٨٤٩
القلب المسكين (٣)	٨٥٤
القلب المسكين (٤)	٨٦٠
القلب المسكين (٥)	٨٦٥
القلب المسكين (٦)	٨٧٠
القلب المسكين (٧)	٨٧٦
القلب المسكين (٨)	٨٨١
القلب المسكين (٩) تتمة	٨٩١
قلت لنفسي... وقالت لي	٤٥١
قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر	٩٠٢
كفر ذبابة	٥٩٣
كلمات عن حافظ	١٠٣٤
كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة	١١٤٧
لا تجني الصحافة على الأدب، ولكن على فنيته	٩٢١
لحوم البحر «قصيدة مترجمة عن الشيطان»	٢٦٧

	الصفحة
اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال	٧٧٠
الله أكبر	٣٢٨
لو	٦٠٦
المجنون (١)	٦٨٧
المجنون (٢)	٦٩٤
المجنون (٣)	٧٠٣
المجنون (٤)	٧١١
المجنون (٥)	٧٢١
المجنون (٦) تتمة	٧٣٠
محمد: لتوفيق الحكيم	١١٢٢
المرأة والميراث	١١٤٣
المشكلة (١)	٣٤٢
المشكلة (٢)	٣٥٠
المشكلة (٣)	٣٥٧
المشكلة (٤)	٣٦٥
المعنى السياسي في العيد	٣٣
المقتطف والمتنبي	١١١٩
الملاح التائه	١١١٣
موت أم	٥٢١
النجاح وكتاب سر النجاح	١١٢٩
نجوى التمثال	٦٢٣
نقد الشعر وفلسفته	٩٨١
نهضة الأقطار العربية	٩١٥
وحي القبور	٥١١
وحي الهجرة في نفسي	٣٨٨
ورقة ورد	١٠١
يا شباب العرب!	٦٠٢
اليمامتان	١٦

الفهرس الموضوعي

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
كلمة الناشر	٥
دعوة الأستاذ الإمام	١٠
صدر الكتاب: البيان	١٣
اليمامتان	١٦
اجتلاء العيد	٢٨
المعنى السياسي في العيد	٣٣
الربيع	٣٦
عرش الورد	٤٠
أيها البحر	٤٤
في الربيع الأزرق، خواطر مرسلة	٤٨
حديث قِطّين	٥٣
بين خروفين	٦٠
الطفولتان	٧١
أحلام في الشارع	٨٠
أحلام في قصر	٨٨
بنت الباشا	٩٤
ورقة ورد	١٠١
سمو الحب	١٠٦
قصة زواج وفلسفة المهر ـ ١ ـ	١١٧
قصة زواج، ذيل القصة وفلسفة المال ـ ٢ ـ	١٢٨
زوجة إمام ـ ١ ـ	١٣٨
زوجة إمام «بقية الخبر» ـ ٢ ـ	١٤٧
قبح جميل	١٥٦
الطائشة ـ ١ ـ	١٦٦
الطائشة ـ ٢ ـ	١٧٦

الموضوع	الصفحة
دموع من رسائل الطائشة	١٨٥
فلسفة الطائشة	١٩١
تربية لؤلؤية	٢٠١
س. أ. ع	٢٠٩
استنوق الجمل	٢١٧
أرملة حكومة	٢٢٤
رؤيا في السماء	٢٣٢
بنته الصغيرة ـ ١ ـ	٢٤٠
بنته الصغيرة ـ ٢ ـ	٢٤٧
الأجنبية	٢٥٧
لحوم البحر «قصيدة مترجمة عن الشيطان»	٢٦٧
احذري «قصيدة مترجمة عن الملك»	٢٧٣
الجمال البائس ـ ١ ـ	٢٨٠
الجمال البائس ـ ٢ ـ	٢٨٦
الجمال البائس ـ ٣ ـ	٢٩٤
الجمال البائس ـ ٤ ـ	٣٠٢
الجمال البائس ـ ٥ ـ	٣٠٩
عربة اللقطاء	٣١٩
الله أكبر	٣٢٨
في اللهب ولا تحترق	٣٣٥
المشكلة ـ ١ ـ	٣٤٢
المشكلة ـ ٢ ـ	٣٥٠
المشكلة ـ ٣ ـ	٣٥٧
المشكلة ـ ٤ ـ	٣٦٥

* * *

فهرس الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة
الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام	٣٧٥
حقيقةُ المسلم	٣٨٢
وحي الهجرة في نفسي	٣٨٨
فلسفة قصة	٣٩٤
فوق الآدمية ، الإسراءُ والمعراج	٤٠١
الإنسانية العليا	٤٠٩
سموُّ الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم (١)	٤١٧
سموُّ الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم (٢)	٤٢٣
درسٌ من النبوّة	٤٣٠
شهر للثورة . . . ، فلسفة الصيام	٤٣٧
ثباتُ الأخلاق	٤٤٤
قلت لنفسي . . . وقالت لي	٤٥١
الانتحار (١)	٤٥٩
الانتحار (٢)	٤٦٨
الانتحار (٣)	٤٧٧
الانتحار (٤)	٤٨٥
الانتحار (٥)	٤٩٣
الانتحار (٦) تتمة	٥٠٢
وحي القبور	٥١١
عروسٌ تزَفّ إلى قبرها	٥١٦
موت أمّ	٥٢١
قصة أب	٥٢٦
السَّمكة (١)	٥٣٣
الزاهدان (٢)	٥٤٢
إبليس يعلم (٣)	٥٤٩
الدينار والدرهم (٤)	٥٥٦
دعابةُ إبليس	٥٦٢
الشيطان	٥٧٠

الموضوع	الصفحة
تاريخ يتكلم	٥٨١
كُفر الذبابة	٥٩٣
يا شباب العرب !	٦٠٢
لو . . . !	٦٠٦
في محنة فلسطين : أيها المسلمون !	٦١٢
قصة الأيدي المتوضئة	٦١٦
نجوى التمثال	٦٢٣
فاتح الجو المصري	٦٢٦
أجنحة المدافع المصرية	٦٣٠
أحاديث الباشا : ١ـ الطماطم السياسي	٦٣٤
أحاديث الباشا : ٢ـ البك والباشا	٦٣٨
أحاديث الباشا : ٣ـ ساكنو الثياب	٦٤٢
أحاديث الباشا : ٤ـ الأخلاق المحاربة	٦٤٦
أحاديث الباشا : ٥ـ خضع يخضع	٦٥٠
أحاديث الباشا : ٦ـ فلنتعصبْ	٦٥٤
أحاديث الباشا : ٧ـ وزن الماضي	٦٥٩
أحاديث الباشا : ٨ـ المعجم السياسي	٦٦٣
أحاديث الباشا : ٩ـ اللسان المرقَّع	٦٦٧
أحاديث الباشا : ١٠ـ سرُّ القبعة	٦٧١
أحاديث الباشا : ١١ـ سعد زغلول	٦٧٥
أحاديث الباشا : ١٢ـ حماسة الشعب	٦٧٨
أحاديث الباشا : ١٣ـ الجمهور	٦٨٢
المجنون (١)	٦٨٧
المجنون (٢)	٦٩٤
المجنون (٣)	٧٠٣
المجنون (٤)	٧١١
المجنون (٥)	٧٢١
المجنون (٦) تتمة	٧٣٠

* * *

فهرس موضوعات الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة
السُّموُّ الرُّوحيُّ الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية	٧٤٣
قرآن الفجر	٧٦٦
اللُّغة والدِّين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال	٧٧٠
تجديد الإسلام، رسالة الأزهر في القرن العشرين	٧٧٦
الأسد	٧٨٣
أمراء للبيع	٧٩٠
العجوزان ـ ١ ـ	٧٩٨
العجوزان ـ ٢ ـ	٨٠٤
العجوزان ـ ٣ ـ	٨١٠
العجوزان ـ ٤ ـ تتمّة ـ	٨١٦
السَّطر الأخير من القصَّة	٨٢٤
عاصفة القدر	٨٣٢
القلب المسكين ـ ١ ـ	٨٤٣
القلب المسكين ـ ٢ ـ	٨٤٩
القلب المسكين ـ ٣ ـ	٨٥٤
القلب المسكين ـ ٤ ـ	٨٦٠
القلب المسكين ـ ٥ ـ	٨٦٥
القلب المسكين ـ ٦ ـ	٨٧٠
القلب المسكين ـ ٧ ـ	٨٧٦
القلب المسكين ـ ٨ ـ	٨٨١
القلب المسكين ـ ٩ ـ تتمّة ـ	٨٩١
انتصار الحب	٨٩٨
قنبلة بالبارود لا بالماء المقطَّر	٩٠٢
شيطان وشيطانة	٩٠٧
نهضة الأقطار العربيّة	٩١٥
لا تجني الصحافة على الأدب، ولكن على فنيته	٩٢١
صعاليك الصَّحافة ـ ١ ـ	٩٢٩

الموضوع	الصفحة
صعاليك الصَّحافة ـ ٢ ـ	٩٣٤
صعاليك الصَّحافة ـ ٣ ـ	٩٣٩
صعاليك الصَّحافة ـ ٤ ـ تتمّة ـ	٩٤٦
أبو حنيفة ولكن بغير فقه	٩٥٢
الأدب والأديب	٩٥٨
سرُّ النُّبوغ في الأدب	٩٦٨
نقد الشِّعر وفلسفته	٩٨١
فيلسوف وفلاسفة	٩٩٣
شيطاني وشيطان طاغور	٩٩٧
فلسفة القصَّة، ولماذا لا أكتب فيها	١٠٠٣
شعر صبري	١٠٠٧
حافظ إبراهيم	١٠١٩
كلمات عن حافظ	١٠٣٤
شوقي	١٠٤٤
بعد شوقي	١٠٦٢
الشعر العربي في خمسين سنة	١٠٦٩
صَرُّوف اللُّغويُّ	١٠٨١
الشَّيخ الخضري	١٠٩١
رأيٌ جديدٌ في كتب الأدب العربي القديمة	١٠٩٧
أمير الشِّعر في العصر القديم	١١٠٥
البؤساء	١١١٠
الملاح التائه	١١١٣
المقتطف والمتنبّي	١١١٩
محمد : لتوفيق الحكيم	١١٢٢
ديوان الأعشاب	١١٢٤
النَّجاح وكتاب « سرُّ النَّجاح »	١١٢٩
أبو تمّام الشَّاعر، تحقيق مدة إقامته بمصر	١١٣٢
القديم والجديد	١١٣٨
المرأة والميراث	١١٤٣
كلمةٌ مؤمنةٌ في ردِّ كلمةٍ كافرةٍ	١١٤٧
القتل أنفى للقتل : ليست مترجمة	١١٥٦
القتل أنفى للقتل : ليست جاهليَّةً	١١٥٨